الموسوعة الشاملة

في تاريخ الحروب الصليبية

المجلد الرابع



تأليف وتحقيق وترجمة

د. سهيل زكار

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٣)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء السادس عشر

دمشق

١٩٩٥ ـ ١٤١٦هـ

مــــؤرخـــو القـــرن الســـابـــع

من

١ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب

٢ـ بغية الطلب في تاريخ حلب

للصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن

أبي جرادة ـ ابن العديم

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبين لنا بشكل واضح من خلال مواد المجلدات المتقدمة مدى اهمية حلب ، مع عظمة الادوار التي شغلتها هذه المدينة العريقة ، ولقد رأينا هذه المدينة تنجب عددا كبيرا من المؤرخين الذين اهتموا بالتاريخ الاسلامي العام ، او بالتاريخ المحلي مع التركيزعلى احداث الحروب الصليبية ، ومثلما حدث في دمشق حين وصلت الكتابة التاريخية ذروتها مع ابن عساكر في كتابة العملاق» تاريخ دمشق» فإن الكتابة التاريخية وصلت الى الذروة في حلب بعد جيل واحد من ابن عساكر ، وذلك على يدي الصاحب كمال الدين ابن العديم ، ونحن وان عددنا ابن العديم بشكل غير مباشر من تلاميذ ابن عساكر ، انه بتقديري اعظم مؤرخ انجبته بلاد الشام على الاطلاق ، وابن العديم هو الصاحب كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله... ابن أبي جرادة ولد في مدينة حلب في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة للهجرة وعندما بلغ السابعة من عمره حمل الى المكتب للدراسة ، وهناك ظهرت استعدادأته مما بشر بنبوغه المبكر ، وقد كان نحيف البنية لذلك عني به ابوه عناية كبيرة ، فحدب على رعاية صحته ، وسهر على تربيته وتعليمه ، ونظرا لمنزلة والده ولما تمتعت به اسرته من مكانة نال ابن العديم حظه وافيا من معارف عصره الدينية والدنيوية ،ويروى بأن اباه حضه على اتقان قواعد الخط ، ذلك انه ــ اي الاب ــ كان رديء الخط ، فأراد ان يجنب ابنه هذه الخلة ، ونجح في هذا المجال نجاحا كبيرا للغاية ، وقد وصف ياقوت اتقان ابن العديم لقواعد الخط العربي بقوله:« واما خطه في التجويد والتحرير والضبط والتقيد فسواد ابن مقلة ، وبدر ذو كمال عند علي إبن هلال» ، ويؤكد شهادة ياقوت هذه المجلدات العشرة من كتاب

بغية الطلب التي وصلتنا بخط ابن العديم ، حيث نرى واحدا من المع النساخ في تاريخ العربية واكثرهم ضبطا وبراعة وامانة ويقظة ودراية.

وفي باب العناية في انشاء ابنه وتثقيفه صحب احمد بن هبة الله ولده عمر في رحلاته واسفاره ، حيث زار دمشق اكثر من مرة كما زار بيت المقدس ورحل الى العراق والحجاز.

وعندما بلغ سن الشباب وجد ابن العديم السبل امامه كلها مفتوحة لمستقبل لامع ، وكان لمواهبه وثقافته واسرته الفضل الاكبر في تحقيق نجاحاته ، وهنا يحسن التوقف قليلا للتعرف الى اسرة ابن العديم ، وذلك قبل متابعة الحديث عن مراحل حياته:

يعرف الجد الاعلى الصاحب كمال الدين باسم ابن ابي جرادة ، وكان صاحبا لامير المؤمنين علي بن ابي طالب ، ينتسب الى ربيعة من عقيل احدى كبريات قبائل عامر بن صعصعة العدنانية ، وكان يقطن مدينة البصرة ، وفي هذه المدينة عاش اولاد آل ابي جرادة واحفادهم ، وفي مطلع القرن الثالث للهجرة قدم احد افراد اسرة ابي جرادة الى الشام في تجارة وكان اسمه موسى بن عيسى وحدث آنئذ ان الم بالبصرة طاعون ، لهذا قرر موسى البقاء في الشام ، واستوطن مدينة حلب ، وفي هذه المدينة التي كانت عاصمة شمال بلاد الشام ، ومفتاح الطريق الى العراق وبلاد المشرق الاسلامي مع اسية الصغرى والأراضي البيزنطية ، فيها خلف موسى بن عيسى اسرة نمت مع الايام عددا ومكانة وثروة وشهرة ، وتملكت هذه الاسرة الاملاك ، كما ساهمت في جميع ميادين الحياة في حلب من سياسة وعلم وقضاء وادارة وتجارة وغير ذلك ، وبهذا غدت اسرة آل ابي جرادة من ابرز اسر حلب ، وظلت هكذا حتى حل بحلب الدمار على ايدي جيوش هولاكو ، كما ظلت محتفظة باسمها ذاته طوال تاريخها ، انما في القرن الأخير من حياتها كسبت اسما اضافيا ، اخذ رويدا

يهم في الاستعمال اكثر من الاسم الأصيل ، لكنه لم يلغه وكان الاسم الجديد هو « العديم» ، ونحن لانملك تعليلا لسبب هذه التسمية ، فقد قال ياقوت:« سألته أولا لم سميتم ببني العديم؟ فقال: سألت جماعة من اهلي عن ذاك فلم يعرفوه وقال: هو اسم محدث لم يكن ابائي القدماء يعرفون بهذا».

ودانت اسرة ابن ابي جرادة بالتشيع حسب مذهب الامامية ، وظلت هكذا حتى بدأ التشيع بالانحسار في حلب ، وذلك منذ النصف الثاني للقرن الخامس الحادي عشر ، هذا وان كنا لانعرف بالتحديد تاريخ اخذ هذه الاسرة بمذاهب السنة امكننا ان نقدر ذلك ، بحكم سقوط سلطة الشيعة في حلب مع عصر السلطان السلجوقي الب ارسلان(وهو امر بحثته بالتفصيل في مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية) ونظرا لعلاقات اسرة آل ابي جرادة الخاصة مع سلطات حلب ، لابد ان الحال اقتضى المسايرة والتحول الى السنة ، ولربما حسب المذهب الحنفي.

وفي عودة نحو سيرة الصاحب كمال الدين نجده يحدثنا بأن والده خطب له وزوجه مرتين ، فقد اخفق في الزواج الأول ، لذلك طلق زوجته وتزوج ثانية بابنة الشيخ الاجل بهاء الدين ابي القاسم عبد المجيد بن الحسن بن عبد الله ــ المعروف بالعجمي ، وكان شيخ اصحاب الشافعي ومن اعظم اهل حلب منزلة وقدرا وثروة ومكانة سياسية ودينية واجتماعية ، ومن زواجه الثاني رزق الصاحب كمال الدين اولاده ، ولم يمت والده حتى كان ابنه احمد طفلا يدب على الأرض ، ويمكننا التعرف الى هذا الابن من خلال استعراضنا لكتاب بغية الطلب حيث سمع الكتاب على ابيه وقام بعد وفاة والده باستدراك بعض المواد التي حالت المنية بين والده وبين تدوينها في كتابه ، فمن المقرر ان ابن العديم مات دون ان يقوم باعادة النظر في مؤلفه « بغية الطلب» ولم يقم بتبييضه، والذي وصلنا هو مسودة الكتاب ، انما نظرا لبراعة المؤلف وحسن طريقته وجودة خطه ، نرى ان مكانة الكتاب واهميته هي هي ، ذلك ان اهمية الكتاب نابعة مما

حواه من مواد تاريخية نهلها ابن العديم من وثائق ومصنفات غيبهـا الزمن عنا ، فابن العديم كان مصنفا ممتازا ولم يكن « مـؤرخا» حسب مصطلحات ايامنا هذه ، فهو قد جمع في كتابه المواد الاخبارية ونسقها ، لكنه لم يحاول تعليلها ومعالجتها كما يفعل الباحث في التاريخ في جامعات ايامنا هذه...

ومنذ ان بلغ الصاحب كمال الدين سن الشباب اخذ يشارك في الحياة السياسية والعلمية لمدينة حلب ، فقد كان يحضر مجلس الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين ـ صاحب حلب ـ فيكرمه ويقربه ويقبل عليه اكثر من اقباله على غيره على الرغم من صغر سنه ، وفي ذي الحجـة
سنة ست عشرة وستمائة ولي ابن العديم اول عمل رسمي لقد ولي التدريس في مدرسة شاذبخت وكانت من اجل مدارس حلب وارقاها ، كل« هذا وحلب اعمر ما كانت بالعلماء والمشايخ ، والفضلاء الرواسخ ، الاانه رؤي اهلا لذلك دون غيره ، وتصدر ، والقى الدرس بجنان قوي ، ولسان لوذعي ، فأبهر العالم واعجب الناس» ويبدو انه تولى بعد هذه المدرسة التدريس بالمدرسة الحلاوية ، التي كانت اجل مدارس حلب ، وهي مدرسة مازالت قائمة حتى الآن ، تعلو واحدا من جدرانها لوحة حجرية كتبها ابن العديم بخطه.

ومع مرور الأيام علت مكانة ابن العديم ، فسفر عن ملوك حلب الى ملوك الدول المجاورة في بلاد الشام والجزيرة وآسية الصغرى ، والى سلاطين القاهرة وخلفاء بغداد ، وكانت خزائن كتب ووثائق كل بلد زارها تحت تصرفه ، فنهل منها ما لم ينهله سواه ، واودع جل ذلك في كتابه بغية الطلب ، ومن هذه الزاوية يمكن ان نرى اهمية هذا الكتاب ، ومن ناحية اخرى يمكننا ان نرى المدى الذي وصلت اليه خزائن المشرق العربي قبيل وقوع الطامة الكبرى على يد المغول بسنوات.

وفي كل مكان زاره ابن العديم كان يلاقي الحفاوة من رجال السلطة ، وكان في الوقت نفسه يلتقي بالعلماء وشيوخ العصر فيأخذ عنهم ، ولقد اودع ما أخذه عن علماء عصره ، وماراه من احداث او شارك به ، اودعه في كتابه بغية الطلب ، حتى غدا هذا الكتاب اشبه بمنجم للمعلومات لاينضب معينه.

وظل نجم ابن العديم يصعد في سماء السياسة في حلب وسواها حتى وصل الى مرتبة الوزير ، ولكن مشاغل السياسة والحياة العامة لم توقف العمل الفكري ولم تعطله ، وهكذا صنف ابن العديم عددا كبيرا من الكتب ، غلب على معظمها سمة التاريخ ، ولعل اشهر كتبه« كتاب زبدة الحلبمن تاريخ حلب» و« كتلب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن ابي العلاء المعري» وكتابه بغية الطلب الذي اشرنا اليه حتى الآن كثيرا ، وقد طبع كتاب زبدة الحلب في اجزاء ثلاثة في دمشق ، واعدت الآن تحقيق اكثر من نصفه ، واعمل الآن على تحقيه كله. اما كتاب الانصاف فقد طبعت قطعة منه للمرة الأولى بحلب ثم اعيد طبعها في القاهرة ، واقول قطعة ذلك ان الكتاب لم يصلنا كاملا بشكل مباشر.

وعندما قلت بشكل مباشر اردت ان اقول بسأن الكتاب وصلنا بشكل غير مباشر ، فقد روي لي منذ سنوات ان واحدا من احفاد ابن العديم ممن عاش بعد جده في القاهرة ، صنف كتابا حول القاضي الفاضل دعاه باسم« سوق الفاضل في ترجمة القاضي الفاضل» ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة ، وقيل لي إن في ثنايا الكتاب ورد في احدى رسائل القاضي الفاضل بيت شعر من شعر المعري ، واراد حفيد ابن العديم ان يعرف بالمعري ، فقال: قال جدي في كتابه الانصاف والتحري . واثبت نص الكتاب بكماله ، ويوجد هذا الكتاب مصورا على شريط في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة سابقا ، ومضيت الى المدينة المنورة للتأكد من هذا الخبر ،

فتيقنت من عدم دقته وأن حفيد ابن العديم نقل قليلا من كتاب جده الانصاف والتحري.

ويعود سبب انتقال ابن العديم الى القاهرة ، الى تعرض مدينة حلب الى الدمار سنة ٦٥٧ هـ على يد جيوش هولاكو ، وكان ابن العديم غادر مدينته الى دمشق ، ثم منها الى غزة فالقاهرة ، ويبدو انه عاد بعد عين جالوت الى دمشق ، وربما اراد التوجه الى حلب ، او توجه اليها فعلا ليعاين الدمار الذي لحقها ، وفي اثناء ذلك عرض عليه هولاكو منصب قاضي حلب ، فرفض ، وعاد الى القاهرة ، حيث امضى بقية حياته ، وقد وافته منيته في مصر في العشرين من جمادى الاولى سنة ستمائة وستين للهجرة .

وكنت في عام ١٩٨٨ قد حققت الموجود من كتاب بغية الطلب ونشرته بدمشق وقد انتزعت من هذا الكتاب جميع المواد الواردة خلال التراجم ولها علاقة بموضوع الحروب الصليبية ، وبالوقت نفسه اعدت تحقيق ما يزيد على النصف الأخير من كتاب زبدة الحلب ، وهذا الكتاب يختلف عن كتاب بغية الطلب ، فهو اشبه بكتاب الحوليات ، ويماثل كتاب تاريخ دمشق لابن القلانسي ، ولايمكن عده ملخصا لكتاب بغية الطلب ، وكان المرحوم الدكتور سامي الدهان قد حقق هذا الكتاب ونشره في اجزاء ثلاثة ، وبذل الدكتور الدهان جهودا طيبة في تحقيق الكتاب لكنه اخفق في عدة اماكن في قراءة النص بشكل صحيح ، الى حد ان« عين الجر »جاءت عنده « عبر الجسر» يضاف الى هذا قام رحمه الله باقحام عناوين كثيرة جدا في متن نص الكتاب ، ويمكن وصف هذا بالتزييف ، واعتمدت في عملي على المخطوطة نفسها التي اعتمدها الدكتور دهان ، بل اكثر من ذلك على المصورة نفسها ، لأن مصورات مكتبته رحمه الله بيعت في دمشق فشريت بعضها ، وأقوم الآن بتحقيق الكتاب كله وسيخرج ـ ان شاء الله ـ في جزئين فقط والله الموفق .

ولمواد ابن العديم في بغية الطلب وزبدة

الحلب مكانة سامية ، لهذا سلف وترجم بعضها الى الفرنسية والانكليزية ، ولابد الآن من اعادة النظر بهذه الترجمات بعد اعادة ضبط النصوص الاصلية.

الله جل وعلا اسأله التوفيق وله الحمد والشكر والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى اله وصحبه اجميعين.

دمشق ١٥ / ٥ / ١٩٩٥

سهيل زكار

من زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم

وأما (١) سليمان بن قطلمش فانه حاصر حلب مدة ، ثم ترددت الرسل الى اهل حلب في التسليم ، فاستقرت الحال بينهم على موادعة مدة .

وسير سليمان بن قطلمش قطعة من عسكره لاتباع العرب الذين كانوا مع شرف الدولة ، فهربوا ، ولحقهم شدة عظيمة من دخول البرية في حزيران .

وتوجه سليمان الى معرة النعمان وكفرطاب ، وتسلمها ، ثم سار الى شيزر ، فقاتلها وقرر أمرها على مال يحمل اليه ، وأخذ لطمين ، وشحنها بالرجال ، وعدل اصحابه بالشام عما عرف من سيرة العرب . (٢)

وجرت بالمعرة اسباب وصل لاجلها حسن بن طاهر وزير سليمان ، في النصف من جمادى الاولى ، يطلب اصحابه فثارت فتنة بالبلد ، واخرجوه منه فخرج لوقته ، واصبح قاتل البلد ، وقتل جماعة من أهله في الحرب ، وأمن الناحية الغربية ، وأمن الباقي (منها وجعل) (٣) على أهل البلد عشرة الاف دينار .

وأما بلاد شرف الدولة فملكها (بعده أخوه) (٣) ابراهيم ، ماخلا حلب ، وكاتب من بحلب في تسليمها اليه فلم (يرده الخبر) (٣) .

وأما الشريف حسن الحتيتي فانه كان متقدم الاحداث ورئيسهم ، فعمر لنفسه في صفر من سنة ثمان وسبعين قلعة الشريف المنسوبة اليه ، وبنى عليها سورا دائرا ، وفصل بينها وبين المدينة بسور وخندق خوفا على نفسه ان يسلمه أهل حلب ، وكانوا يبغضونه ، ويكرهون ولايته عليهم .

واتفق الشريف وسالم بن مالك صاحب القلعة الكبيرة على أن

كاتبا السلطان ملك شاه يبذلان له تسليم حلب اليه ، ويحثانه على الوصول أو وصول نجدة تدفع سليمان بن قطلمش .

وعمر سليمان بن قطلمش قلعة قنسرين وتحول اليها وتزوج منيعة بنت محمود بن صالح زوجة مسلم بن قريش .

ونزل على حلب وطال انتظار الشريف حسن لنجدة تصله من السلطان ، فاجتمع بمبارك بن شبل أمير بني كلاب ، واتفقا على أن سار مبارك بن شبل الى تاج الدول تتش يستدعيه الى حلب ليتسلمها .

وعرفه ما استقر بينه وبين الشريف الحتيتي عن تسليمه حلب ، ورغبة الكافة في مملكته ، ففرح بذلك وجمع العسكر ، وخرج من دمشق في المحرم من سنة تسع وسبعين وأربعمائة إلى حلب ، فحصر حصن سليمان بن قطلمش في قنسرين .

ووصل إلى تاج الدولة جماعة من بني كلاب ، ورحل إلى الناعورة وعول على مراسلة الشريف حسن فان سلم اليه تفلت والا عاد لحربه ، فبادر سليمان وهو نازل في عسكره على حلب ، وعارضه في طريقه على عين سيلم (٤) ، وتراءى العسكران ، فدبر ارتق عسكر تاج الدولة احسن تدبير ، والتقوا فانهزم عسكر سليمان .

وقتل سليمان ، وأسر وزيره الحسن بن طاهر وخلق من عسكره في يوم الاربعاء الثامن عشر من صفر ، فأطلق تاج الدولة الوزير ومن أسر ، وغنم عسكره والعرب الذين معه جميع ماكان في العسكر .

واختلف في قتل سليمان ، فقيل : عارضه فارس من فرسان تاج الدولة فرماه في صدغه بسهم فقتله .

وقيل : بأنه لما يئس من النصرة نزل عن فرسه ، وقتل نفسه بسكين خفه ، وقيل : ان المصامدة تتبعت اسلاب القتلى فظفروا بدرع مرصع بالياقوت والعقيان النفيس .

ونمى الخبر الى تاج الدولة ، فأحضره فقال « هذا يشبه سلب الملوك » ، وسار الى الموضع واذا به مختلط بدمه فقال :« يشبه أن يكون هذا » . وقد كان قال لهم :« لاتبيذوه لي حتى اريكموه من بين القتلى » ، فقيل له :« ومن أين علمت ذلك ؟» فقال :« قدمه تشبه قدمي وأقدام بني سلجوق تتشابه ».

ثم قال بلسانه :« ظلمناكم ، وابعدناكم ونقتلكم !» ثم مسح عينيه واغتم لقتله ، وترحم عليه ، واحضر أكفانا نفيسة فكفنه ، وصلى عليه ، وحمله الى حلب فدفنه الى جانب مسلم بن قريش قبل ان ينقل مسلم الى سر من رأى ، وقيل : دفن معه في قبر واحد .

ولما جرى ماجرى من قتل سليمان وسار تاج الدولة الى حلب عدل الشريف حسن الحتيتي عما كان اتفق عليه مع مبارك بن شبل ، وامتنع من تسليم حلب الى تاج الدولة ، واحتج بأن كتب ملك شاه وصلته بتجهيز العساكر اليه .

فأقطع تاج الدولة بلد حلب وأعمالها لعسكره الا ماكان لبعض العرب الذين وفدوا عليه ، فانه أقره في أيديهم ، ثم رحل الى مرج دابق (٥) وأقام أياما .

ثم عاد ونازل حلب ، فعمد رجل من تجار حلب يعرف بابن البرعوني الحلبي ، وراسل تاج الدولة في تسليم حلب اليه ، ورفع بعض اصحابه بحبال الى بعض ابراج السور ، وساعده قوم من الاحداث ونادوا بشعار تاج الدولة في ذلك الموضع ، وتسامع الناس فنادوا بشعاره في البلد جميعه ، وذلك في ليلة السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة .

فانهزم هبة الله ابو الشريف حسن من قلعة ابنه الى القلعة الكبيرة الى سالم بن مالك ، (٦) وبقي الشريف حسن في قلعته المجددة ، ومعه فيها رجال من احداث حلب ، فخافوا على اهلهم بحلب ، فخرجوا منها وبقي الشريف حسن في قلعته في نفر قليل ، فطلب الأمان فأمنه تاج الدولة بوساطة ظهير الدين أرتق .

وخرج الى أرتق وصار عنده بماله واهله ، وسلم القلعة الى تاج الدولة تتش ، وسيره ارتق الى بيت المقدس بماله فأقام به .

وعصى سالم بن مالك بالقلعة الكبيرة ، وكان شرف الدولة بن قريش لما ولاه فيها أوصاه أن لايسلمها الا الى السلطان ملكشاه ، فالتزم بوصيته ، وامتنع ان يسلمها الى تتش .

وأقام تتش بمدينة حلب الى اليوم السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر ، واحسن الى اهلها ، وخلع على أحداثها ، فوصله الخبر أن السلطان ملك شاه وصلت عساكره الى نهر الجوز (٧) قاصدين مدينة حلب ، فسار تاج الدولة الى دمشق ، وترك بعض أصحابه بقلعة الشريف ومعه عدة في اليوم المذكور ، ومعه قوم من بياض حلب ، فأقام نائبه اياما يسيرة ، ثم سار ولحقه في دمشق .

ووصلت عساكر ملك شاه حلب مع بسرسق واياز وبوزان وغيرهم ، ونزل بعضهم إلى بلد الروم ، وامتدوا فيما بينها وبين أنطاكية ، ووصل بعضهم إلى حلب ، وسارع أهل حلب وسالم بن مالك ومبارك بن شبل الى طاعة الواصل وخدمته .

ثم إن السلطان وصل بعدهم الى الرها فسلمها اليه الفلاردوس (٨) وأسلم على يده ، وسار منها الى قلعة دوسر ــ وهي المعروفة بجعبر ــ فتسلمها في طريقه من جعبر بن سابق القشيري ، وقتله لما بلغه عنه من الفساد وقطع الطريق .

وسار حتى وصل حلب في الثالث والعشرين من شعبان من سـنة تسع وتسعين وأربعمائة .

وتسلم حلب وقلعتها وسائر قلاع الشام ، وعوض سالم بن مالك عن قلعة حلب بقلعة دوسر ، واقطعه معها الرقة وعدة ضياع .

وتوجه السلطان الى انطاكية فتسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قطلمش ، ورتب بأنطاكية بغي سيان بن الب في عسـكر واستخدم حسن بـن طـاهر في ديوانهـا ، وتـم الى السويدية (٩) وصلى على البحر ، وحمد الله على ماانعم عليه ممـا تملكه من بحر المشرق الى بحر المغرب .

وعاد الى حلب ، ورتـب بهـا الأمير قسـيم الدولة آق سنقر (١٠) ومعه عسكر ، واستخدم بها تاج الرؤساء بن الخلال في جمع الأموال .

ووصل اليه الشريف حسن الحتيتي وهو بحلب يلتمس العودة الى حلب ، ويذكر خدمته وماجرى عليه ، فتظلم منه أهـل حلب فلم يأذن له السلطان فيما التمسه .

وكان هذا السلطان من أعظم الناس هيبة وأكثر الملوك عدلا حتى أن أحدا لايقول : ان احدا مـن ذلك العـالم العـظيم مـن عسكره ـ وحزره أربعمائة ألف ـ اخـذ لاحـد مـن الرعايا قسرا وظلما مايساوي درهما واحدا ، حتى أن البـازيار الذي له اقتنص طائرين من الدجاج من الاثارب (١١) طعما للبزاة في الطريق ، فعلم بذلك فعظم عليه حين رآه وهدده حتى أعادهما الى صاحبها بعد عودة من أنطاكية .

وخرج هذا السلطان الى ضياع معرة النعمان يتصـيد ، وبـات بضيعة بينها وبين المعرة ثلاثة فـراسخ ، فـابتاع منهـا أصـحابه

ما احتاجوه بأوفى ثمن ، ووضع السلطان في هذه السنة المكوس من جميع بلاده ، ولم يبق من يستخرج مكسا في مملكته .

وأقام السلطان بحلب الى ان عيد بها عيد الفطر ، وعاد مذكفئا الى الجزيرة ، وقد قرر ولاية حلب ، وولى بقلعتها نوحا التركي ، وبلغه عصيان تكش (١٢) بترمذ فسار السلطان ، وقطع مابين حلب ونيسابور في عشرة أيام ، وعاد مذكفئا الى الجزيرة وقد قرر ولاية حلب لقسيم الدولة اق سنقر التركي في سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وجعل معه أربعة الاف فارس ومكنه فيها .

وقيل انه مملوك للكشاه ، وقيل انه لصيق وان اسم ابيه آل ترغان ، وولى على جمع المال بحلب في الديوان تاج الرؤساء ابا منصور بن الخلال الرحبي ، وقال شاعر حلبي فيه وفي الوزير ابن النحاس :

قد زنجر العيش على الناس

مابين « خلال » و « نحاس »

فأحسن قسيم الدولة في حلب السيرة وأجمل السياسة وأقام الهيبة ، وأفنى قطاع الطريق ، وتتبع الذعار في كل موضع فاستأصل شأفتهم .

وعمرت حلب في أيامه بسبب ذلك لورود التجار والجلابين اليها من كل مكان .

وحكى لي والدي ــ رحمه الله ــ : أنه استأصل أرباب الفساد الى حد بلغ به أن نادى في قرى حلب وضياعها ان لايغلق احد بابه ، وأن يتركوا الاتهم التي للحرث في البقاع في الليل والنهار .

فخرج متصيدا فمر على فلاح وقد فرغ من عمله ، وأخذ آلة

الحرث معه الى منزله ، فانفرد من عسكره وقال له :« الم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لايرفع أحد من أهل القرى شيئا من آلة الحرث ؟ » فقال:« بلى والله ـ حفظ الله قسيم الدولة ـ والله لقد أمنا في أيامه من كل ذاعر ومفسد ، ومارفعت هذا خوفا عليها ممن يأخذها ، وإنما ههنا دويبة يقال لها ابن آوى إذا تركنا هذه العدة ههنا جاءت واكلت هذه الجلود التي عليها ».

فلما عاد قسيم الدولة أمر بالصيادين وبثهم في اقطار بلد حلب لصيد بنات آوى حتى افنوها من ضواحي حلب ، وكان ذلك سببا لقلتها في بلد حلب الى يومنا هذا ، دون غيرها من البلاد .

وفي ايام قسيم الدولة جدد عمارة منارة حلب الموجودة في زماننا هذا ، وجددت في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة .

وجرى خلف بين اهل لطمين (١٣) وبين نصر بن علي بن منقذ في سنة احدى وثمانين ، فخرج أق سنقر الى شيزر ، وقاتلها ، وقتل من أهلها مائة وثلاثين رجلا ، وعاد الى حلب بعد أن نهب ربضها ، واستقرت الموادعة بينه وبين نصر صاحب شيزر .

وكان أق سنقر قد تزوج خساتون داية السلطان ملك شاه (١٤) ، وكانت جالسة معه في بعض الأيام في داره بحلب ، وفي يده سكين فأومأ بها اليها على سبيل المداعبة والمزاج ، فوقعت في قلبها للقضاء المحتوم غير متعمد لها ، فماتت وحزن عليها حزنا شديدا ، وتأسف لفقدها ، وحملها في تابوت لتدفن في مقابر لها بالشرق ، وخرج من حلب لتوديع تابوتها في مستهل جمادى الآخرة .

وتسلم أق سنقر حصن برزويه (١٥) ، في شعبان سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، من الارمن ـ وهو آخر ماكان قد بقي في أيدي الكفار من أعمال انطاكية ـ وأقام في يده تسعة أشهر ، وهدمه في ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانين .

وكتب ولاة الشام الى السلطان ملك شاه يشكون مايلاقونه من خلف بن ملاعب بحمص من قطع الطريق واخافة السبيل ، فكتب الى قسيم الدولة وتاج الدولة ويغي سيان وبوزان صاحب الرها ، فساروا في عساكرهم ، فحاصروها وضايقوها ففتحوها ، وأعطاها السلطان تاج الدولة تتش .

ونزل قسيم الدولة على افامية ، فأخذها من خلف بن ملاعب وسلمها إلى نصر بن منقذ .

ثم إن السلطان أمر بحمل ابن ملاعب في قفص حديد الى اصبهان ، فحبسه الى أن مات ملك شاه ، وتوجه إلى مصر وعاد إلى الشام ، واحتال حتى ملك افامية بالحيلة بعد ذلك .

ولما فتحت حمص تسلمها قسيم الدولة الى أن ورد عليه أمر السلطان بتسليمها الى تتش (١٦) .

ومات السلطان ملك شاه ببغداد في الليلة السادسة عشر من شوال سنة خمس وثمانين واربعمائة ، وكان أق سنقر قد خرج من حلب وافدا عليه ، فلما بلغه الخبر عاد الى حلب ، وخطب لابنه محمود مدة يسيرة ، ثم انه خطب بعد ذلك لتاج الدولة تتش — على مايذكر — (١٧) .

ولما عاد الى حلب قبض على شبل بن جامع أمير بني كلاب وعلى ولده مبارك ، واعتقلهما بالقلعة ، وراسل تاج الدولة قسيم الدولة ويغي سيان وبوزان وجذبهم الى طاعته ، والكون في جملته ليسيروا معه الى بلاد اخيه ليفتحها ، ويأخذ المملكة فأجابوه الى ذلك ، وخطبوا له في أعمالهم .

فسار في أول سنة ست وثمانين ، وسار إليه قسيم الدولة ويغي سيان وبوزان ، ووثق به أق سنقر ، وفتح تاج الدولة الرحبة ونصيبين ، فجمع ابراهيم بن قريش وتأهب للقاء تاج الدولة .

والتقى العسكران على دارا (١٨) ، وعاد كل فريق الى موضعه ، فركب الأمير قسيم الدولة في خلق من العسكر ، وحمل حتى توسط عسكر ابراهيم فلم يثبت العرب ، وتبعه بساقي العسكر ، فقتل منهم مايقارب عشرة آلاف .

وأسر ابراهيم بن قريش وعمه مقبل وغيرهم ، فقتلهم تاج الدولة صبرا وسبيت الحرم ، وقتل جماعة من نساء العرب نفوسهن .

وأمر تاج الدولة بعد ذلك بجمع الأسرى ووهبهم من محمد بن شرف الدولة ــ وكان قد صار في جملته قبل الحرب ــ وأقطعه نصيبين (١٩) .

وعظمت هيبة تاج الدولة بعد هذه الوقعة ، وراسلته زوجة أخيه تحثه على الوصول ، واستقر الحال على أن تتزوجه ، فسار عند ذلك بعد أن تسلم من ابن جهير آمد وجزيرة ابن عمر ، حتى وصل الى تبريز ، ففسخ عنه قسيم الدولة آق سنقر صاحب حلب وعماد الدولة بوزان وسارا الى بر كيارق ليكونا في خدمته ــ وكان بالقرب من الري (٢٠) ــ

وكان سبب نفار قسيم الدولة وبوزان تقريب تاج الدولة يغي سيان وميله اليه ، وقيل : لانه لم يولهما شيئا من البلاد التي افتتحها ، فرجع تاج الدولة الى ديار بكر ، وشحنها بالرجال ، وسار منها الى سروج فأخذها وولى فيها بعض ثقاته .

ووصله الخبر بوصول آق سنقر وبوزان الى باب السلطان بر كيارق ، واكرامه لهما ، وانهما وجدا خاله مستوليا على أمره ، فقتلاه وبعض الامراء .

فانبسطت يد بر كيارق ، واستقامت أحواله ، وخاطبه آق سنقر وبوزان ان يسير معهما إلى بلادهما حلب والرها وحران ، لئلا

يجري عليهما حادث من تاج الدولة عند عودته ، وضمنا له أن يكونا بينه وبين تاج الدولة ، فسار معهما الى الرحبة ، وعقد بينهما وبين علي بن شرف الدولة حلفا .

وسار علي بن قريش ، ومعه جماعة من بني عقيل وقطعه من عسكر السلطان بـر كيارق مع قسيم الدولة ، فـأوصلوه الى حلب ، فدخلها في شوال من سنة ست وثمانين واربعمائة .

وسار بـوزان الى بـلاده ، وعاد مـن كان معهمـا الى السلطان ، وأما تتش فانه قطع الفرات وتوجه الى انطاكية ، وأقام بها مع يغي سيان مدة ، فغلت بها الأسعار ، فسار الى دمشـق في ذي القعدة من هذه السنة .

وكان وثاب بن محمود مع نفر يسير مـن بني كلاب ، فـأنفذ اق سنقر بعد مسير تتش الى دمشـق مـن أحـرق حصـن أسفونا (٢١) وحصن القبة ، وقبض اقطاع وثاب .

وفي سنة سبع وثمانين ، قبض على الوزير أبي نصر محمـد بـن الحسن بن النحاس بسعاية المجن بركات الفـوعي بـه إلى قسيم الدولة ، ولم يزل به إلى أن أمره بخنقه ، وهو معتقل عنده ، فخنقه في هذه السنة .

وفي شهر ربيع الاول من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، خرج تاج الدولة تتش من دمشق ، ومعه خلق عظيم من العـرب ، ولقيه يغـي سيان بعسكر انطاكية بالقرب من حماة وأقاموا هناك أياما ، وزوج ولده الملك رضوان من ابنة يغي سيان ، وسيره عائدا إلى دمشق .

وسار تـاج الدولة بعسـاكره فنزل تلمنس (٢٢) ، وأقـام بهـا اياما ، فوصله الخبر بوصول كربـوقا صـاحب الموصـل وبـوزان صاحب الرها ، ويوسف بـن أبـق صـاحب الرحبـة ، في الفين

وخمسمائة فارس الى حلب ، لنجدة أق سنقر ، فعدل تاج الدولة إلى الحانوته ، ورحل الى الناعورة ، وعول على قصد الوادي (٢٣) وأن يسير منه الى أعمال انطاكية ، وأخذ العسكر دواب الذقرة و(أحرق) بعض زرعها .

فخرج أق سنقر ومن وصله من النجدة وجماعة كثيرة مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل من بني كلاب - وكان قد اطلقهما من الاعتقال في هذه السنة - ومحمد بن زائدة في جماعته وجماعة من أحداث حلب والديلم والخراسانية ، وعدة عسكره تزيد عن ستة آلاف فارس وراجل ، في أحسن أهبة وأكمل عدة .

وقصد عسكر الملك تاج الدولة ، يوم السبت تاسع جمادى الأولى من السنة ، والتقوا على « سبعين » (٢٥) ، وكان أول من قطع السواقي التي كانت بين العسكرين وبرز للحرب أق سنقر ، ورتب مصاف عسكره .

وبقي عسكر بوزان وكربوقا لم يتمكن من قطع السواقي ، فيختلطون بالعسكر ، ولم يستنصح أق سنقر العرب الذين معه ، وخاف ميلهم الى تاج الدولة ، وكان عسكر تاج الدولة في مثل هذه العدة من العرب والرجالة ، وكان الترك معه في قلة لان أصحابة وخواصه كانوا متفرقين في البلاد التي افتتحها .

وحمل عسكر تاج الدولة على عسكر أق سنقر فلم يثبت لحظة واحدة ، وانهزمت العرب وبوزان وكربوقا نحو حلب فدخلاها ، واستأمن يوسف بن أبق الى تاج الدولة .

واسر أق سنقر وجماعة من خواصه ووزيره ابو القاسم بن بديع ، وأحضر بين يدي تاج الدولة اسيرا ، فقتله صبرا ، وقال له تاج الدولة :« لو ظفرت بي ماكنت صنعت ؟» قال :« كنت أقتلك » فقال له :« فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم علي » فقتله .

وحكى وثاب بن محمود قال :« جلس تاج الدولة ، وطلب قسيم الدولة ، فأحضر مكشوف الرأس ، مكتوفا ، فقام تاج الدولة ، وكلمه كلاما كثيرا ، فلم يرد عليه جوابا ، فضربه بيده أطار رأسه ».

وحمل رأسه الى حلب وإلى دمشق ، ودفن جسده في القبة التي على سطح جبل قرنبيا (٢٦) ، غربي المشهد الذي ابتناه بقرنبيا ، ثم نقله ابنه زنكي لما فتح حلب إلى مدرسة الزجاجين (٢٧) ، ووقف شامر ـ قرية من بلد حلب ـ على من يقرأ على قبره .

واختار قسيم الدولة وقتا للخروج الى اللقاء ، وهو وقت قران زحل المريخ في برج الاسد ـ وهو طالع بيت السلطان بحلب ـ وكان موقتا بالظفر ، فخرج وامرهم أن يلحقوه بالحبال لكتافهم بها ، وكان تاج الدولة قد عزم على ماذكرناه ، ولم يكن مؤثرا لقاءه ، فنصره الله تعالى كما شاء وأراد ، ولامعقب لحكمه ، ولاتأثير لشيء في ملكوته .

وأسر شبل بن جامع أمير بني كلاب فوهبه تاج الدولة لابن أخيه وثاب بن محمود .

وعول بوزان وكربوقا على الاعتصام بحلب ، وانتظار النجدة من بر كيارق ، لان كتاب الطائر وصل الى حلب يخبر بوصول النجدة الى الموصل ، وقرروا مع الأحداث ذلك .

فوصل تاج الدولة بعسكره الى حلب ، وتحير أهلها فيما يفعلونه ، فبادر قوم من الأحداث ممن لايعرف ولايذكر ففتحوا باب انطاكية .

ودخل وثاب بن محمود في مقدمة أصحاب تاج الدولة الى حلب ، وسكن البلد ، فنزل الوالي بقلعة الشريف ، وسلمها الى تاج الدولة فدخلها ، وبات بها ، فراسله نوح والي القلعة

الكبيرة ، وسلمها اليه بعد ان توثق منه ، وطلع تاج الدولة اليهـا في الحادي عشر من جمادى الأولى من السنة • (٢٨)

وقبض تاج الدولة على بوزان فضرب رقبته صبرا ، وأخذ كربوقا واعتقله بحمص ، واقطع الشام لعسكره ، واقطع معـرة النعمـان واللاذقية ليغي سيان ، ورتب أبا القاسم بن بديع وزيرا بحلب .

واقام ثلاثة أيام ثم توجه فقطع الفرات ، وتسلم حران ، وسـار الى الرها فتسلمها ، وقيل : بأن واليهـا امتنع مـن تسـليمها الا بعلامة من بوزان ، وأن بوزان كان محبوسا بحلب ، فأنفذ اليه مـن قطع رأسه ورماهم به ، فسلموا الرها اليه ، وتسلم ديار بكر .

وسار الى ميافارقين فقتل بني جهير بعد أن قطع رؤوس أولادهم وعلقها في رقابهم .

وعدل عن الموصل ، وسار للقاء زوجـة أخيه خـاتون الجـلالية لاتمام ماكان استقر بينهما فماتت في الطريق .

وتوجه تاج الدولة الى الري ، فوصله خلق كثير مـن التـركمان وعساكر أخيه ، وملك كل بلدة مـر بهـا ، وخـطب له على منابـر الاسلام : الشام والفرات ، وبغداد .

وعند وصوله الى همذان كتب الى ولده الملك رضوان يستدعيه من دمشق فتوجه إليه ومعه بقية من تخلف من أصحابه بالشام .

ودخل تاج الدولة الري وملكها في المحـرم سـنة ثمـان وثمـانين وأربعمائة ، وخرج بركيارق من أصـبهان ، والتقـوا على خمسـة فراسخ من الري في يوم الأحد السابع عشر مـن صـفر ، فـانهزم عسكر تاج الدولة تتش ، واستبيح ونهـب ، وقتـل ذلك اليوم تـاج الدولة وخواصه في الحرب .

وقتل تاج الدولة بعض أصحاب قسيم الدولة بعد أن اصطنعه وقربه ، ضربه بنشابة في ترقوته اليسرى فوقع ، وقطع رأسه وطيف به العسكر ، ثم حمل الى بغداد فطيف به ، وتفرق من سلم منهم إلى مواضعهم .

ووصل الخبر الى ولده الملك رضوان ، وهو نازل على الفرات بعانة (٢٩) متوجها الى والده ، فقلق وخاف من وصول من يطلبه فحط خيمه في الحال (٣٠) .

ورحل مجدا حتى وصل حلب في جماعة من غلمانه وحاشيته ، وترك باقي عسكره من ورائه ، فسلم وزير أبيه أبو القاسم بن بديع إليه المدينة والقلعة ، وصعد إليها ، وأخذوا الأهبة لمن يقصدها .

ووصل إليه إلى حلب من الفل أخوه أبو نصر دقاق (٣١) وجناح الدولة حسين ، فاستولى جناح (٣٢) الدولة على تدبير ملك الملك رضوان ، وكان تاج قد جعله مدبرا له ، وهو أتابكه في حياته ، وجعل دقاق مع أتابك ظهير الدين .

ولما افتتح ديار بكر سلمها الى ظهير الدين ، وشمس الملوك دقاق معه ، ولم يزل بها الى أن سار الى الري فسارا معه .

وعاد دقاق الى حلب فأقام بها مدة يسيرة ، وراسله الأمير ساوتكين الخادم ـ وكان نائب تاج الدولة بدمشق في حفظ القلعة والبلد ـ وقرر لدقاق مملكة دمشق سرا ، وخاف من أخيه رضوان ، فخرج من حلب وهرب الى دمشق من غير أن يعلم به أحد ، وجد في السير ، وتبعه رضوان ، وأنفذ خلفه عدة من الخيل ففاتهم ، فدخل دمشق فسارع ساوتكين الى طاعته ، وصارت دمشق وبلادها بحكمه .

وقتل رضوان أخويه أبا طالب وبهرام ابني تتش (٣٤) ، وكان اتابك طغتكين معتقلا عند السلطان بركيارق ، وقبض في الوقعة فطلبوا منه كربوقا والجماعة الذين معه ، وكانوا في يد رضوان فاتفق رايهم أن يسيروا عضب الدولة ابق بن عبد الرزاق الى رضوان لاستخلاص كربوقا .

وكان ابق ايضا من جملة من قبض عليه من الجماعة الذين كانوا مع تتش فخاطبوا السلطان في اطلاقه وتسييره فأجابهم الى ذلك ، وسيره إلى حلب ، فلما وصله أكرمه رضوان واطلق كربوقا في شعبان وسيره مكرما .

فأطلق بركيارق اتابك طغتكين (٣٥) وجميع من كان في اعتقاله من خواص تاج الدولة ، ووصل دمشق فابتهج دقاق بوصوله وقويت نفسه ، وألقى تدبير أموره اليه ، فقام فيها احسن قيام .

فاستأذن عضب الدولة الملك رضوان في الوصول اليه فأذن له ، وقرر معه قرب العودة الى حلب وترك اقطاعه بحلب على حاله ، فوصل دمشق واختار المقام بها ، وكتب الى اصحابه بعزاز يأمرهم بتسليمها الى رضوان فسلموها .

ولما وصلت هذه الاخبار وثب أهل افامية على حصنها فأخذوه من الاتراك ، وقتلوا بعضهم ، وكان تاج الدولة قد أخذه من ابن منقذ ، وسار جماعة من أهلها الى مصر يستدعون واليا من قبلهم لميلهم (٣٦) الى الاسماعيلية ونفورهم من الترك .

ووصل خلف بن ملاعب في سنة تسع وثمانين وأربعمائة وتسلمها ، وعاد الى الفساد وقطع الطريق ، وقتل خلقا من افامية .

وأما الملك رضوان فانه خرج في سنة ثمان وثمانين من حلب ، ومعه جناح الدولة حسين ، ووصله يغي سيان ويوسف بن

أبق من انطاكية بعسكرهما ، وتوجهوا الى الرها ، ومعهم رهـائن أهلها ليتسلمها الملك رضوان من المقيمين فيها من أصحاب والده .

فلما نزلوا الرها أراد يغي سيان ويوسف ان يقبضا جناح الدولة ويتفردا بتدبير رضوان ، فهرب منهما ، وقطع الفرات ، ووصل حلب وتبعه رضوان ، فدخل حلب ، وهرب رهائن الرها من العسكر ودخلوا ، وعاد يغي سيان ويوسف بن أبق ، وقد استوحش رضوان منهما .

وكتب رضوان الى سكمان (٣٧) واقطاعه سروج (٣٨) يستدعيه الى حلب لمعونته ، فسار وقطع الفرات فلقيه يوسف بن أبق في عدة وافرة فخافه سكمان ، فأظهر موافقته وصار معه .

وخاف جناح الدولة من اجتماعهم ، وكان عقيب وصول رضوان من الرها قد سير جماعة من عسكر حلب الى معرة النعمان مع عضب الدولة لاخذها من يغي سيان .

وكاتب وثاب بن محمود فوصل ببني كلاب لمساعدته على أخذ المعرة ، فأخرجوا ابن يغي سيان وأصحابه منها ، وتسلموها .

وعاد عضب الدولة ووثاب ، فلما وصلا حلب حدث ماذكرناه من أمر سكمان ويوسف بن أبق ، فخرج جناح الدولة بالعسكر فلقيه يوسف بالقرب من مرج دابق فهرب يوسف ونهبوا عسكره ، وأعانهم على ذلك سكمان ، ودخل يوسف انطاكية ، وعاد جناح الدولة وسكمان ووثاب وأبق الى حلب .

وأقطع الملك رضوان معرة النعمان سكمان بن أرتق وأعمالها ، ثم سار رضوان وسكمان لقصد دمشق وانتزاعها من أخيه دقاق ، وترك جناح الدولة بحلب .

فلما نزلا دمشق ، وصل اليهما أن دقاق قبض على نجم الدين ايلغازي بن ارتق ، واعتقله لتهمة وقعت به ، فعاد الملك رضوان الى حلب ، وسار سكمان الى بيت المقدس وتسلمها من نواب أخيه واقام بها .

وراسل يوسف بن أبق الملك رضوان واستأذنه في الوصول الى خدمته فأذن له ، ووصل حلب وسكنها .

ثم خاف رضوان وحسين منه فتقدما الى بركات بن فارس رئيس حلب المعروف بالمجن (٣٩) بقتله ، فهجم عليه وأصحابه فقتلوه ونهبوا داره وأخذوا راسه ، وسيروه الى بزاعا ومنبج ، فتسلموها من أصحابه ، وقبضوا على إقطاع أخيه وأصحابهما ، وهربوا من حلب ، وكان الملك قد توهم منه الارتداد عن الاسلام .

ثم ان رضوان وجناح الدولة خرجا في سنة تسع وثمانين الى تل باشر ، وشيح الدير (٤٠) ، وفتحاها بالسيف من أصحاب يغي سيان ، واغارا على أعمال انطاكية ، وعادا الى حلب ، وسارا في أول شهر رمضان منها الى دمشق .

فسار يغي سيان منجدا لدقاق فضعفت نفس رضوان ولم يتمكن من العود ، فسار الى بيت المقدس ، فتبعه دقاق وطغتكين ويغي سيان وأقاموا متحابسين مدة .

وأشرف عسكر رضوان على التلف فانفصل عنه جناح الدولة ، وهرب على طريق البرية الى حلب ، وتبعه الملك رضوان بعد مدة وحصلا بجميع العساكر بحلب .

وعاد دقاق وطغتكين الى دمشق ويغي سيان الى أنطاكية ، وعاد سكمان بن أرتق من القدس على البرية حتى وصل حلب على البرية في المحرم من سنة تسعين واربعمائة .

واجتمع بجناح الدولة واتفقا على قصد بلاد يغي سيان فخرج دقاق وطغتكين ، فوصلا حماه وعاث العسكر في بلدها ووصلهما يغي سيان ، وساروا الى كفر طاب في الثاني من ربيع الأول ، فقاتلوها ، ونهبوها ، وقرروا على أهلها مالا .

وهرب أصحاب سكمان من المعرة فتسلمها يغي سيان وقرر عليها مالا ، وتنقل العسكر في الجزر (٤١) وغيرها من أعمال حلب ، فاستنجد رضوان بسليمان بن ايلغازي صاحب سميساط (٤٢) فوصل بعسكر كثير الى حلب .

وجمع رضوان من قدر عليه من الترك والعرب وأحداث حلب ، ونزل عسكر دقاق بقنسرين .

ونزل عسكر حلب بحاضر قنسرين فاتفق الامر على أن يجتمعوا على نهر قويق ويتحدثوا ، فاجتمعوا وتحدثوا ، والنهر بينهم ، فلم يتفق الصلح ، فقال يغي سيان لسكمان : « هؤلاء الملوك يقتتلون على ملكهم ، أنت يابياع اللبن دخولك معهم لاي صفة ؟» قال :« غدا تبصر ايش أنا ».

فأصبحوا والتقوا يوم الاثنين خامس شهر ربيع الآخر من سنة تسعين واربعمائة فأبلى سكمان بلاء حسنا .

ولم تزل الحرب بينهم الى آخر النهار ، فانهزم يغي سيان الى انطاكية ، ودقاق وطغتكين الى دمشق ، واسر في الحرب اصباوه (٤٣) ، فاعتقل بحلب ثم أطلق ، فهرب الى دمشق ولم يقتل من العسكر الا القليل .

وقتل الفلاحون في الطريق وقت الهزيمة من الأرمن الذين كانوا مع يغي سيان جماعة كثيرة ، وتغيرت نية الملك رضوان على جناح الدولة حسين فهرب من حلب الى حمص ، وخرج من حلب ليلا ومعه زوجته ام الملك رضوان واقام بحمص لأنها كانت في يده وحصنها .

ووصل يغي سيان الى حلب عقيب ذلك ، وخدم رضوان ، ودبـر أمره ، وتزوج رضوان ابنة يغي سيان خاتون جيجك (٤٤) .

وعول رضوان على قصد جناح الدولة بحمص ، وقصد دقاق بدمشق ، ووصله رسول الأفضل (٤٥) من مصر يدعوه الى طاعة المستعلي واقامة الدعوة له ، وعلى يده هدية سنية من مصر ، ووعده بأن يمده بالعساكر والاموال .

فتقدم بالدعوة للمصريين على سائر منابر الشام التي في يده ، ودعا الخطيب أبو تراب حيدرة بن أبي اسامة ، بحلب المستعلي ثم للأفضل ثم لرضوان ، في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من هذه السنة .

وكان قد ولى الخطابة أبا تراب وعزل جد أبي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة عن القضاء والخطابة بحلب ، لان توليته كانت على قاعدة أبيه من بغداد في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وكان أبوه القاضي أبو الفضل هبة الله قد مات في هذه السنة المذكورة ، وهو على القضاء والامامة بحلب .

وولى رضوان قضاء حلب في سنة تسعين القاضي فضل الله الزوزني العجمي الحنفي ، وسيره رسولا الى مصر ، وناب عنه في القضاء حال غيبته أبو الفضل احمد بن أبي اسامة الحلبي ، ودامت الدعوة بحلب الى رجب من سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقيل : لم تدم أكثر من أربع جمع (٤٦) .

وأعادها رضوان للامام المستظهر ثم للسلطان بركيارق ثم لنفسه ، ولم يصح له مما التمسه من المصريين شيء .

وأعاد القضاء والخطابة الى جد أبي أبي غانم على قاعدته الاولى ، في سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، حين قتل

الزوزني ، وكان خرج من بين يدي رضوان ، فقتل في بعض الدروب ، وكان ازرى على الباطنية وعلى معتقدهم فقيل انهم قتلوه .

ولما سار رضوان ويغي سيان وصلا الى شيزر متوجهين الى حمص لقصد حمص (٤٧) فتواصلت الأخبار بوصول خلق من الفرنج قاصدين أنطاكية ، فقال يغي سيان : « عودنا الى أنطاكية ولقاء الفرنج أولى » ، وقال سكمان :« مسيرنا الى ديار بكر وأخذها من المتغلبين عليها ونتقوى بها ، وأنزل أهلي بها ونعود الى حمص أولى » واختلفوا .

فسار الملك رضوان نحو حلب جفلا وكان معه وزيره أبو النجم بن بديع أخو وزير أبيه تتش أبي القاسم ، وكان قد ولاه وزارته حين ملك حلب ، فاتهماه أنه هو الذي يفسد حال رضوان ، فطلع الى حصن شيزر ، وأقام به عند ابن منقذ خشية من يغي سيان وسكمان ، فلما سارا عن شيزر سار الى حلب ولحق بالملك رضوان بها .

ولما عاد رضوان مغاضبا ليغي سيان وسكمان عاد (٤٨) والامراء من شيزر الى أنطاكية ، وبلغهم نزول الفرنج البلانة (٤٩) ونهبها .

ولما دخل يغي سيان أنطاكية اخرج ولديه شمس الدولة ومحمدا ، فسار أحدهما الى دقاق وطغتكين يستنجدهما ، وبث كتبه الى جناح الدولة ووثاب بن محمود وبني كلاب ، وسار محمد ابنه الى التركمان وكربوقا وأمراء الشرق وملوكه ، وسارت كتبه الى جميع أمراء المسلمين .

وفي ثامن شهر رمضان ، وصل من قبرس الى ميناء اللاذقية اثنتان وعشرون قطعة في البحر ، فهجموه واخذوا منه جميع ماكان

التجـــار ، ونهبـــوا اللاذقية وعادوا ، ووصـــلت الفـــرنج الى الشام ، واعتبروا عســكرهم فـكانوا ثـلاثمائة ألف وعشرين ألف انسان ، لأنهم وصلوا من جهة الشمال .

وفي اليوم الثاني مـــن شـــوال نزلت عســـاكر الفـــرنج على بغراس (٥١) وأغاروا على أعمال أنطاكية ، فعند ذلك عصى مـــن كان في الحصون والمعـــاقل المجـــاورة لأنطـــاكية ، وقتلوا مـــن كان بها ، وهرب من هرب منها .

وفعل أهل ارتـــاح (٥٢) مثـــل ذلك وا ســـتدعوا المدد مـــن الفرنج ، وهذا كله اقبح سيرة يغي سيان وظلمه في بلاده .

ونزل الفرنج على أنطاكية لليلتين بقيتا من شوال من سنة تسعين وأربعمائة .

وخرج في المحرم من سنة أحدى وتسعين وأربعمائة نحو ثـلاثين الفا من الفرنج الى أعمال المسلمين ببلد حلب ، فـأفسدوا ونهبـوا وقتلوا من وجدوا .

وكان قد وصل الملك دقاق وأتابك ومعهمـا جناح الدولة ، ونزلوا أرض شيزر ، ومعهم ابن يغي سـيان وهـم سـائرون لانجـاد أبيه ، فبلغهم خبر هذه السرية ، فسـاروا إليهـا بقـطعة مـن العسكر ، فلقوهم في أرض البارة (٥٢) فقتلوا منهم جماعة .

وعاد الفـرنج الى الروج (٥٣) ، وعرجـوا منه الى معـــرة مصرين (٥٤) ، فقتلوا من وجدوا وكسروا منبـرها ، وحين عاد العسكر الدمشقي من البارة فارقهم ابن يغي سيان ووصل الى حلب يستنجد بالملك رضوان ، فأخذ عسكر حلب وسكمان ، ودخل بهما الى أنطاكية فلقيهم من الفرنج دون عدتهم ، فانهزم عسكر المسلمين الى حارم (٥٥) وذلك في آخر صفر ، وتبعهم عسكر الفـرنج الى حارم فانهزموا الى حلب ، وغلب أهل حارم من الارمن عليها .

وفي شهر ربيع الأول من السنة وصل خلق من الأرمن الى تل قباسين بناحية الوادي فقتلوا من فيه ، وخرج المسلمون الذين بالوادي وجماعة من الاتراك تبعوهم وقتلوا منهم جماعة ، والتجأ الباقون الى بعض الحصون الخربة ، فأدركهم عسكر حلب فقاتلهم يومين ، وأخذوهم فقتلوا بعضهم ، وحمل الباقي أسرى الى حلب فقتلوا ، وكانوا يزيدون عن ألف وخمسمائة .

ولما نزل الفرنج - لعنهم الله - بأنطاكية جعلوا بينهم وبين البلد خندقا لأجل غارات عسكر انطاكية عليهم وكثرة الظفر بهم ، ولايكاد يخرج عسكر أنطاكية ويعود الا ظافرا .

وجعل يغي سيان الناس على البعد والقرب ، وكان حسن التدبير في سياسة العسكر .

وجمع كربوقا صاحب الموصل عسكرا عظيما ، وقطع به الفرات ، ووصل دقاق وطغتكين وجناح الدولة ، ووصل سكمان بن أرتق ، وفارق رضوان وسار مع دقاق .

ووصل وثاب بن محمود ومعه جماعة من العرب ووصلوا تل منس وقاتلوها لأنه بلغهم أنهم كاتبوا الفرنج وأطمعوهم في الشام ، وقرر عليهم دقاق مالا أخذ بعضه ورهائن على الباقي ، وسيرهم الى دمشق .

وسار دقاق بالعساكر الى مرج دابق ، واجتمع بكربوقا فيه في آخر جمادى الآخرة ، ورحلوا منه نحو أنطاكية .

فلما كان ليلة الخميس أول ليلة من رجب واطأ رجل يعرف بالزراد من أهل انطاكية وغلمان له على برج كانوا يتولون حفظه ، وذلك أن يغي سيان كان قد صادر هذا الزراد وأخذ ماله وغلته ، فحمله الحنق على أن كاتب بيمند وقال له : « أنا في البرج

الفلاني ، وأنا أسلم اليك انطاكية إن امنتني وأعطيتني كذا وكذا » فبذل له ماطلب ، وكتم أمره عن باقي الفرنج .

وكان بعسكر الفرنج تسعة قوامص مقدمين عليهم كندفري ، وأخوه القمص ، وبيمند ، وابن أخته طنكريد وصنجيل وبغدوين وغيرهم ، فجمعهم بيمند وقال لهم :« هذه أنطاكية إن فتحناها لمن تكون ؟» فاختلفوا ، وكل طلبها لنفسه ، فقال :« الصواب أن يحاصرها كل رجل منا جمعة ، فمن فتحت في جمعته فهي له » فرضوا بذلك .

فلما كانت نوبته دلى لهم الزراد - لعنه الله - حبلا ، فطلعوا من السور ، وتكاثروا ورفع بعضهم بعضا وجاءوا الى الحراس فقتلوهم ، وتسلمه بيمند بن الانبرت (٥٦) .

وطلع الفرنج في سحرة هذه الليلة الى البلد وصاح الصائح من ناحية الجبل ، فتوهم يغي سيان ان القلعة قد اخذت فخرج من البلد في جماعة منهزمين فلم يسلم منهم أحد .

ولما حصل بالقرب من أرمناز ومعه خادم من غلمانه وقع عن ظهر فرسه ، فحمله الخادم الذي كان معه ، واركبه ، فلم يثبت على ظهر الفرس ، وعاد فسقط ، وأدركه الارمن فهرب الخادم عنه ، وقتله الارمن وحملوا رأسه الى الفرنج .

واستشهد في ذلك اليوم بأنطاكية مايفوت الاحصاء ويجاوز العدد ، ونهبت الأموال والآلات والسلاح ، وسبي من كان بأنطاكية ، ووصل هذا الخبر الى عم وإنب (٥٧) ، فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الأرمن .

وبلغ الخبر الى دقاق وكربوقا ومن كان معهما ، فرحلوا الى ارتاح ، وسار بعضهم الى جسر الحديد (٥٨) وقتلوا من كان فيه

من الفرنج ، وتوجهوا نحو أنطاكية ، فعرفوا ان قلعتها باقية في ايدي المسلمين ، فأعلموا العساكر الاسلامية بذلك ، فوصلوا الى انطاكية سحرة يوم الثلاثاء سادس رجب ، فانهزم من كان بظاهر البلد من الفرنج إليها .

ونزل المسلمون بظاهرها مما يلي الجبل ، ودخلوا البلد من ناحية القلعة ، وقاتلوا الفرنج في جبل المدينة ، وأشرف الفرنج على التلف فبنوا سورا على بعض الجبل يمنع المسلمين من النزول اليهم ، وأقاموا أياما وعدم القوت عندهم .

واحتوى كربوقا على كثير مما كان في قلعة انطاكية ، وولى فيها احمد بن مروان ، وترادفت رسل الملك رضوان في اثناء ذلك الى كربوقا ، فتوهم دقاق من ذلك ، وخاف جناح الدولة من اصحاب يوسف بن أبق وأخيه .

وجرت بين الاتراك والعرب الذين مع وثاب منافرة عادوا لأجلها ، وتفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته .

وتخيل بعض الامراء من بعض ثم اجتمع رأيهم على التحول الى المنازلة في السهل بظاهر انطاكية ، فنزلوا باب البحر ، وجعل المسلمون بينهم وبين البلد خندقا .

وأكل الفرنج بأنطاكية الميتات والدوات ، فخرجوا من أنطاكية يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر رجب .

فأشار وثاب بن محمود أن يمنعوا من الخروج ، وأشار بعض الامراء أن لايمكنوا من الخروج بأجمعهم ويقتلوا أولا فأولا ، فلم يعرج المسلمون على شيء من ذلك لأنهم ايقنوا بالظفر بالفرنج ، وخرجوا بأجمعهم في خلق عظيم .

وعاث التركمان في العسكر فانهزم ، وتوهم الفرنج أن ذلك مكيدة

فتوقفوا عن تبعهم ، فكان ذلك سببا لسلامة من أراد الله سلامته ، ولم يبق غير كربوقا ومعه اكثر عسكره ، فأحرق سرادقه وخيامه وانهزم نحو حلب .

وقتل من المطوعة والغلمان والسوقة خلق كثير ، ولم يقتل مذكور ، ونهب من المسلمين من الآلات والخيام والكراع والغلات مالا يحصى ، ومن انقطع من العسكر نهبه الأرمن (٥٩) .

وعاد الفرنج الى قلعة انطاكية ، وبها أحمد بن مروان ، فراسله الفرنج وأمنوه ، ومن كان معه ، وسلمها اليهم يوم الأحد الثاني من شعبان من السنة ، وانزلوه في دار بأنطاكية ، وأطلقوا أصحابه وسيروا معهم من يوصلهم الى أعمال حلب ، فخرج الأرمن فأخذوا بعضهم وقتلوا بعضهم ، ولم يسلم منهم الا القليل .

ولما وصل كربوقا الى حلب خرج اليه الملك رضوان ، وحمل له خياما وغيرها ، ورحل عنها ، وعاد عسكر دمشق اليها وتقدمت العساكر .

وبعد أيام من هذه الوقعة خرج جماعة من الفرنج في شعبان ، وزحفوا مع أهل تلمنس وجميع نصارى بلد المعرة على المعرة وقاتلوها ، فوصلت قطعة من عسكر حلب اليهم ، فالتقوا بين تل منس والمعرة ، فانهزم الفرنج وبقي الرجالة منهم ، فقتل منهم زائدا عن ألف رجل، وحملت رؤوسهم الى معرة النعمان .

وفي هذه السنة ـ وهي سنة احدى وتسعين ـ في جمادى الأولى عزل الملك رضوان وزيره أبا النجم هبة الله بن محمد بن بديع ، وولى وزارته أبا الفضل هبة الله بن عبد القاهر بن الموصول ، وكان أبو الفضل حسن السيرة جوادا كثير المعروف والصدقات ، ووافق ذلك شدة الغلاء ، والجوع بحلب ، حتى أكلوا الميتات ، فأخرج غلة كثيرة ، وتصدق بها على الناس .

وقيل : انه كان يخرج في كل سنة صدقة وبرا ثلاثة الاف مكوك غلة سوى مايطلقه لمن يسأله معونته من الوفود والضيوف ، وغير مايطلقه من العين والورق وغير ماكان يعتمد من افتكاك الاسرى من المسلمين .

وفيها قتل الملك رضوان رئيس حلب بركات بن فارس الفوعي المعروف بالمجن ، وكان هذا المجن أولا من جملة اللصوص الشطار وقطاع الطريق الذعار فاستتابه قسيم الدولة أق سنقر ، وولاه رئاسة حلب لشهامته وكفايته ومعرفته بالمفسدين ، وكان في حال اللصوصية يصلي العشاء الآخرة بالفوعة (٦٠) ، ويسري الى حلب ويسرق منها شيئا ويخرج ، ويصلي الفجر بالفوعة فاذا اتهم بالسرقة أحضر من يشهد له أنه صلى العشاء بالفوعة والصبح فيبرئونه .

واستمر على رئاسة حلب في أيام قسيم الدولة وأيام تاج الدولة وبعده في أيام رضوان ، وامتدت يده وحكم على القضاة والوزراء ومن دونهم ، وهو الذي قتل الوزير أبا نصر بن النحاس في أيام قسيم الدولة .

وبلغني أنه حنق عليه بسبب حصر أراد شراءها فاشتراها المجن ، فشق على أبي نصر ، فسيرها المجن اليه ، فردها عليه أبو نصر ، وتكلم في حقه بكلام قبيح فحنق بسببها على ابن النحاس ، فاعتقله بعد ذلك عنده وخنقه .

وكان كثير السعاية في قتل النفوس وسفك الدماء وأخذ الاموال وارتكاب الظلم ، فعصى على الملك رضوان ، ثم ضعف واختفى بعد أن حصر رضوان في قلعة حلب في سنة تسعين وأربعمائة .

فأمر رضوان مناديا نادى بالقلعة بأن الملك قد ولى رئاسة حلب صاعد بن بديع فانقلب الاحداث عنه لبغضهم إياه ، ومضوا الى

صاعد فاختفى المجن ، ثم ظهر عليه فعجل الله المكافأة له على قبيح فعله .

وسلط عليه الملك رضوان فسجنه في ذي القعدة من سنة تسعين وعذبه عذابا شديدا بأنواع شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله .

فمما عذبه به أنه أحمى الطست حتى صار كالنار ، ووضعه على رأسه ، ونفخ في دبره بكير الحداد ، وثقبت كعابه ، وضرب فيها الرزز والحلق .

ولما وضع النجار المثقب على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقب ، فلطمه المجن وقال :« ويلك لاتعرف أحضر خشبة ، وضعها على الكعب » فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المثقب ونزل ، وثقب الكعب .

فلما فرغ قيل له :« كيف تجد طعم الحديد ؟ » فقال :« قولوا الحديد كيف يجد طعمي » ولم يقر المجن مع هذا كله بدرهم واحد ، ولم يحصل الملك رضوان من ماله الا ما أقر به غلام أو جارية ، وذلك شيء يسير ، واستغنى جماعة من أهل حلب من ماله .

ولما طال الامر على رضوان أشير عليه بقتله ، فأخرج الى ظاهر باب الفرج من نحو الشرق ، ومعه ابنان له شابان مقتبلا الشباب ، فقتلا قبله ، وهو ينظر اليهما ولايتكلم .

ثم قتل بعد ذلك في سنة احدى وتسعين ، وسلمت رئاسة حلب الى صاعد بن بديع ، ولما قدم المجن للقتل صاح بصوت عال :« يامعشر أهل حلب ، من كان لي عنده مال ، فهو في حل منه ».

وكان ابن بديع من أولاد الديلم الذين كانوا في أيام سيف الدولة ، وولد أبوه بحلب .

وفي سنة احدى وتسعين وأربعمــائة عصى عمــر والي عزاز على الملك رضـــوان فخـــرج عســـكر حلب وحصره ، فـــاستنجد بالفرنج ، فوصل صنجيل بعسكر كبير ، فعاد عسـكر حلب فنهـب صنجيل ماقدر عليه وعاد الى انطـــاكية ، واخـــذ ابـــن عمـــر رهينة ، فمات عنده، فوقع الملك رضوان على عمر الى ان اخذه مـن تل هراق (٦١) فسلم اليه عزاز وأقام عنده بحلب مدة ، ثم قتله .

وخرج صنجيل في ذي الحجة ، وحصر البارة فقـل الماء فـأخذها بالأمان ، وغدر بأهلها ، وعاقب الرجـال والنسـاء ، واسـتصفى أموالهم وسبى بعضا وقتل بعضا ، ثم خرج بقية الفرنج من انطاكية والأرمن الذي في طاعتهم والنصارى ، وانضموا اليه ، ووصلوا الى معرة النعمان الليلتين بقيتا من ذي الحجة في مائة ألف .

وحصروا معرة النعمـان في ســنة اثنتين وتســعين، وقــطعوا الأشجار ، واستغاث أهلها بالملك رضوان وجناح الدولة فلم ينجدهم أحد .

وعمل الفرنج برجا من خشب يحكم على الســور وزحفــوا الى البلد ، وقاتلوه من جميع نواحيه حتى لصق البرج بالسور فـكشفوه واسندوا السلالم الى السور وثبت الناس في الحرب من الفجـر الى صلاة المغرب ، وقتل على الســور وتحتــه خلق كثير ، ودخلوا البلد بعد المغرب ليلة الاحد الرابــع والعشرين مــن محــرم ســنة اثنتين وتسعين وأربعمائة .

ودخل عسكر الفرنج جميعه الى البلد ، وانهزم بعض الناس الى دور حصينة ، وطلبوا الأمان من الفرنج فأمنوهم ، وقطعوا على كل دار قطيعة ، واقتسموا الدور ، وهجموها ونامــوا فيهــا ، وجعلوا يهدئون الناس حتى أصبح الصبح ، فاخترطوا ســيوفهم ، ومـالوا على الناس ، وقتلوا منهم خلقا ، وسبوا النساءوالصبيان .

وقتل فيها اكثر من عشرين الف رجل وامرأة وصبي ، ولم يسلم إلا القليل ممن كان في شيزر وغيرها من بني سليمان وبني ابي حصين وغيرهم ، وقتلوا تحت العقوبة جمعا كثيرا ، فاستخرجوا ذخائر الناس ، ومنعوا الناس من الماء ، وباعوه منهم فهلك اكثر الناس من العطش ، وملكوها ثلاثة وثلاثين يوما بعد الهجمة ، ولم يبقوا ذخيرة بها الا استخرجوها .

وهدموا سور البلد واحرقوا مساجده ودوره وكسروا المنابر (٦٢) وعاد بيمند الى انطاكية وقمص الرها اليها ، وفي هذه السنة فتحوا بيت المقدس وفعلوا فيها كما فعلوا بالمعرة (٦٣) .

وفي سنة ثلاث وتسعين ، وصل مبارك بن شبل أمير بني كلاب في جمع كثير من العرب فخالف الملك رضوان ، ورعوا زرع المعرة ، وكفر طاب ، وحماة ، وشيزر والجسر وغير ذلك .

وخلت البلاد ، ووقع الغلاء في بلد حلب ، ولم يزرع شيء في بلدها ، وسلط الله الوباء على العرب ، فمات شبل ومبارك ولده ، واضمحلت دولة العرب .

وتوجه الملك رضوان في سلخ رجب من هذه السنة الى الأثارب واقام عليها أياما ، وتوجه الى « كلا » في الخامس والعشرين من شعبان لاخراج الفرنج منها ، ومن كان في الجزر وزردنا وسرمين من الفرنج والتقوا فانهزم رضوان ، واستبيح عسكره ، وقتل خلق كثير واسر قريب من خمسمائة نفس وفيهم بعض الأمراء (٦٤) .

وعاد الفرنج الى الجزر واخذوا برج كفرطاب (٦٥) وبرج الحاضر ، وصار لهم من كفرطاب الى الحاضر ، ومن حلب غربا سوى تل منس فان اصحاب جناح الدولة كانوا بها .

وسار رضوان عقيب هذه النكبة الى حمص مستنجدا بجناح الدولة فأجابه ، وعاد الى حلب ومعه جناح الدولة ، وقد عاد الفرنج

الى انطاكية ، فأقام جناح الدولة بظاهر حلب أياما ، فلم يلتفت رضوان فعاد عنه الى حمص .

وتجمع الفرنج بالجزر وسرمين واعمال حلب وجمعوا العدد والغلال لحصار حلب ، وعولوا على حصارها في سنة خمس وتسعين ، وقيل قبلها .

ووصل بيمند وطنكريد الى قرب حلب فنزلوا المشرفة ـ من الجانب القبلي على نهر قويق ـ لما بلغهم من ضعف رضوان وتمزيق عسكره ، وعزموا أن يبنوا مشهد الجف ، ومشهد الدكة ، ومشهد قرنبيا حصونا ، وان يقيموا على حلب ويستغلوا بلدها .

فأقاموا في تدبير ذلك يوما أو يومين فبلغه خروج انوشتكين الدانشمند ، وأنه قد نازل بعض معاقل الفرنج ، وهي ملطية فعادوا للدفع عنها .

فخرج الدانشمند فلقي بيمند وجمعا من الفرنج بأرض مرعش فأسره ، وقتل عسكره ، ولم يفلت منهم أحد ، فخيب الله ظن الفرنج ، وهربوا من أعمال حلب ، وتركوا جميع ما كانوا أعدوه ، فخرج رضوان واخذ الغلال التي جمعوها ، ونزل سرمين .

وسار جناح الدولة الى أسفونا وبه جماعة من الفرنج فهجمه وقتل جميع من فيه ، وسار الى سرمين فكبس عسكر الملك رضوان ونهبه ، وانهزم رضوان وأكثر عسكره وأسر الوزير أبا الفضل بن الموصول وجماعة وحملهم الى حمص .

وطلب الحكيم المنجم الباطني فلم يظفر به ، وكان هذا الحكيم قد افسد مابينه وبين رضوان واستمال رضوان الى الباطنية جدا ، وظهر مذهبهم في حلب ، وشايعهم رضوان وحفظ

جانبهم ، وصار لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزائدة ، وصارت لهم دار الدعوة بحلب في أيامه ، وكاتبه الملوك في أمرهم ، فلم يلتفت ولم يرجع عنهم ، فوصل هذا الحكيم حلب سالما في جملة من سلم في هذه الوقعة .

واستغل جناح الدولة سرمين ومعرة النعمان وكفر طاب وحماة ، وفدى الوزير ابن الموصول نفسه من جناح الدولة بأربعة آلاف دينار وفدى اصحاب الملك نفوسهم ايضا بمال حملوه اليه .

ولم يبق في أيدي المسلمين في سنة خمس وتسعين إلا حصن بسرفوث (٦٦) - من عمل بني عليم -

وتسلم دقاق الرحبة في سنة ست وتسعين واربعمائة ، وكان المقيم بها زوج أمنة بنت قيماز (٦٧) ، وكان قيماز من اصحاب كربوقا فمات ، وكانت الرحبة له ، وكان جناح الدولة قد خرج اليها فوجد الأمر قد فات ، فعاد ونزل النقرة وخرج اليه رضوان الى النقرة واصطلحا ، وأخذه معه الى ظاهر حلب ، وضرب له خياما ، وأقام في ضيافته عشرة أيام ، ولم يصف قلب احد منهما لصاحبه .

وسار جناح الدولة الى حمص فسير الحكيم المنجم الباطني ثلاثة أعجام من الباطنية فاغتالوه ، وقد نزل يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رجب ، لصلاة الجمعة فقتلوه ، وقتلوا بعض اصحابه وقتلوا ، وقيل :« ان ذلك كان بأمر رضوان ورضاه .

وبقي المنجم الباطني بعده أربعة وعشرين يوما ومات ، وقام بعده بأمر الدعوة الباطنية بحلب رفيقه أبو طاهر الصائغ العجمي .

ووصل صنجيل الفرنجي ونزل حمص بعد قتل جناح الدولة بثلاثة أيام ، فسيرت زوجته خاتون أم الملك رضوان تستدعيه لتسلم اليه

حمص ويدفع الفرنج ، فكره المقدمون ذلك ، وخافوا منه اسوء رأيه فيهم ، وسيروا الى نواب دقاق الى دمشق ، وكان دقاق بالرحبة فسار ايتكين الحلبي من دمشق ودخلها وطلع القلعة .

ووصل رضوان الى القبة (٦٨) فبلغه الخبر وعاد ورحل صنجيل عنها بعد أن قرر عليهم مالا ، ووصل دقاق فتسلم حمص وأحسن الى اهلها ونقل أهل جناح الدولة وأولاده الى دمشق ، وسلم حمص الى طغتكين .

وسار والي عزاز وأغار على الجومة ـ وهي من عمل انطاكية ـ فخرج عسكر انطاكية وعسكر الرها فنزلوا المسلمية (٦٩) وقتلوا بعض اهلها، وقطعوا على عدة مواضع قطائع أخذوها ، وأقاموا ببلد حلب أياما ، وراسلوا الملك رضوان .

واستقر الحال على سبعة الاف دينار وعشرة رؤوس من الخيل ، ويطلقون الأسرى ماخلا من أسروه على المسلمية من الامراء ، وذلك في سنة ست وتسعين .

ثم خرج الفرنج من تل باشر ، وأغاروا على بلد حلب الشمالي والشرقي ، وأحرقوه ، وتكرر ذلك منهم ، ونزلوا على حصن بسرفوث ، وفتحوه بالأمان ، ووصلوا الى كفرلاثا (٧٠) فكبسهم بنو عليم فانهزموا الى بسرفوث .

ووقع بين الفرنج وبين سكمان وجكرمش وقعة عظيمة استظهر فيها المسلمون ، وهلك الفرنج ، وأسر القمص ، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة (٧١) .

وكان الملك رضوان قد سار إلي الفرات ينتظر ما يكون من خبر الفرنج ، فلما وصله الخبر انفذ إلي الجزر وغيره من أعمال حلب التي في أيدي الفرنج ، فأمرهم بالقبض على من عندهم من

الفرنج ، فوثب أهل الفوعة وسرمين ، ومعرة مصرين وغيرها ففعلوا ذلك .

وطلب بعض الفرنج الامان من رضوان فأمنهم من القتل ، وحملهم أسرى ، ولم يبق بأيدي الفرنج غير الجبل و « هاب » (٧٢) ، وحصون المعرة ، وكفر طاب ، وصوران (٧٣) .

فوصل شمس الخواص وفتح صوران ، فهرب من كان بلطمين وكفر طاب وبلد المعرة والبارة الى انطاكية ، وسلموها الى رضوان واصحابه ما خلا « هاب » .

واسترجع رضوان بالس والفايا ممن كان بهما من أصحاب جناح الدولة وجرى بحماة خلف ، وخافوا من شمس الخواص ، فكاتبوا رضوان ، وسلموها اليه وسلمية ، فأمنت أعمال حلب وتراجع اهلها اليها وقوي جأش رضوان .

واتصلت غارات عسكر حلب الى بلد أنطاكية ، وعرف بيمند ضعفه عن حفظ البلد ، وأنه لم يفلت من وقعة سكمان الا في نفر قليل ، وخاف من المسلمين فصار الى بلاده في البحر يستنجد بمن يخرج بهم الى البلاد ، واستخلف ابن أخته طنكريد يدبر أمر انطاكية والرها (٧٥) .

ومات الملك دقاق سنة سبع وتسعين في رمضان ، وأوصى بالملك لولد له صغير اسمه تتش (٧٦) ، وجعل التدبير الى اتابك طغتكين ، فتوجه الملك رضوان نحو دمشق ، وحاصرها ، وقرر له الخطبة والسكة ، فلم تستتب أموره وعاد الى حلب .

ثم إنه خرج في شهر رجب من سنة ثمان وتسعين ، وجمع خلقا كثيرا ، وعزم على قصد طرابلس معونة لفخر الملك بن عمار على الفرنج النازلين عليه .

وكان الأرمن الذين في حصن أرتاح قد سلموه الى الملك رضوان لجور الافرنج ، فخرج طنكريد من انطاكية لاستعادة أرتاح ، وخرج جميع من في أعماله من الفرنج معه ، ونزل عليها ، فتوجه نحوه رضوان في عساكره وجموعه وجميع من أمكنه من عمل حلب والأحداث .

فلما تقاربا نشبت الحرب بين الفريقين فثبت راجل المسلمين وانهزمت الخيل ، ووقع القتل في الرجالة فلم يسلم منهم الا من كتب الله سلامته ، ووصل الفل الى حلب ، وقتل من المسلمين مقدار ثلاثة الاف مابين فارس وراجل ، وهرب من بأرتاح من المسلمين .

وقصد الفرنج بلد حلب فأجفل أهله ، ونهب من نهب وسبي من سبي ، وذلك في الثالث من شعبان .

واضطربت أحوال بلد حلب من ليلون الى شيزر ، وتبدل الخوف بعد الأمن والسكون ، وهرب أهل الجزر وليلون الى حلب ، فأدركهم خيل الفرنج فسبوا أكثرهم ، وقتلوا جماعة .

وكانت هذه النكبة على أعمال حلب أعظم من النكبة الاولى على كلا .

ونزل طنكريد على تل أعذى — من عمل ليلون — وأخذه وأخذ بقية الحصون التي في عمل حلب .

ولم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية الا حماة ومن الغربية الا الأثارب ، والشرقية والشمالية في يده ، وهي غير آمنة .

وسير أبو طاهر الصائغ الباطني جماعة من الباطنية من أهل سرمين الى خلف بن ملاعب بتدبير رجل يعرف بابن القنج السرميني ، من دعاة الاسماعيلية ، فقتلوه ووافقهم جماعة من أهل

افامية ، ونقبوا سور الحصن ، ودخلوا منه ، وطلع بعضهم الى القلعة فأحس بهم ، فخرج فطعنه أحدهم بخشت (٧٧) فرمى بنفسه ، فطعن أخرى فمات ، ونادوا بشعار الملك رضوان .

ووصل ابو طاهر الصائغ الى الحصن عقيب ذلك واقام به ، وسار طنكريد الى أفامية ، فقطع عليها مالا أخذه ، وعاد فوصله مصبح بن خلف بن ملاعب وبعض اصحابه ، فأطمعوه في افامية ، فعاد ونزلها ، وحاصرها فتسلمها في الثالث عشر من محرم من سنة خمسمائة بالأمان .

وقتل ابن القنج السرميني بالعقوبة ، ولم يف لابي طاهر الصائغ بالأمان ، وحمله معه اسيرا فاشترى نفسه بمال ، ودخل حلب .

وفي سنة احدى وخمسمائة ، عصى ختلغ بقلعة عزاز ، واستقر ان يسلمها الى طنكريد ، ويعوضه عنها موضعا غيرها ، فسار رضوان اليها فتسلم عزاز منه .

وبلغ رضوان ، في سنة احدى وخمسمائة ، ماذكر به من مشايعة الباطنية ، وأنه لعن بذلك في مجلس السلطان محمد بن ملكشاه ، فأمر أبا الغنائم ابن أخي ابن القنج الباطني الذي عمل في قتل ابن ملاعب مادبر الخروج من حلب فيمن معه ، فانسل وخرج بجماعة من اصحابه بعد ان قتل افراد منهم .

وفي سنة احدى – وقيل : اثنتين – وخمسمائة اجتمع جاولي سقاوة وجوسلين الفرنجي ، على حرب طنكريد صاحب انطاكية ، واستنجد طنكريد بالملك رضوان ، فأمده بعسكر حلب والتقوا ، فقتل من الفرنج جماعة .

ووصل الى جاولي من أخبره أن الفرنج يريدون الاجتماع عليه فمال على أصحابه من الفرنج وقتل فيهم ، وهرب بعد أن قتلهم عن آخرهم وهلك جميع رجالة طنكريد واكثر خيله .

وعاد الى أنطاكية وعاد عسكر حلب إلى رضوان ، فتسلم بالس من أصحاب جاولي ، وخرج بيمند من بلاده ومعه خلق عظيم ، ثم عاد وتوفي سنة أربع وخمسمائة ، وكفي المسلمون شره .

وفي سنة ثلاث وخمسمائة ، كاتب السلطان الأمير سكمان القطبي صاحب أرمينية ومودود صاحب الموصل ، يأمرهما بالمسير الى جهاد الفرنج ، فجمعا وسارا ، ووصل اليهما نجم الدين ايلغازي بن أرتق في خلق كثير من التركمان ، فرحلوا الى الرها فنزلوا عليها وأحدقوا بها في شوال من هذه السنة .

فاتفق الفرنج كلهم ، وأزالوا ماكان بينهم من الشحناء ، وكان المسلمون في جمع عظيم ، فتصاف طنكريد وبغدوين وابن صنجيل بعد النفار ، وقصدوا انجاد من بها من الفرنج ، واحجموا عن العبور الى الجانب الجزري لكثرة من به من عساكر المسلمين .

فاندفع المسلمون عن الرها الى حران ليعبر الفرنج ويتمكنوا منهم ، ووصلهم عسكر دمشق .

فحين عبر الفرنج وبلغهم خبر المسلمين عادوا ناكصين على الأعقاب الى شاطيء الفرات ، فنهض المسلمون في اثرهم ، وادركتهم خيول الاسلام ، وقد عبر الأجلاد منهم ، فغنم المسلمون جل سوادهم واكثر اثقالهم ، واستباحوهم قتلا واسرا وتغريقا في الماء ،وأقام المسلمون بازائهم على الفرات .

ولما عرف الملك رضوان هزيمة الفرنج عن الرها خرج ليتسلم أعمال حلب التي كانت في أيدي الفرنج ، وقاتل ماامتنع عليه منها ، وأغار على بلد انطاكية وغنم منها مايجل قدره ، وكان بينه وبينهم مهادنة نقضها .

وكاتب الفرنج رضوان يوهنون رأيه في نقض الهدنة ، فلما تحقق سلامة طنكريد وعوده رجع الى حلب .

وعاد الفرنج من الفرات فقصدوا بلد حلب من شرقيها، فقتلوا من وجدوا ، وسبوا أهل النقرة ، واخذوا ماقدروا عليه من المواشي .

وهـــرب الناس نحـــو بـــالس ، وعاد طنكريد ، فنزل على الاثارب (٧٨) ، وطيب قلوب الفلاحين من المسلمين ، وأمنهم ونصب على الاثارب المناجيق وكبشا عظيما ينطـح بـه شرفـات الاســوار فيلقيها ، فخرب اسوارها وكان يسمع نطحه مـن مسـيرة نصــف فرسخ .

وبــذل رضــوان لطنكريد في الموضــع عشرين الف دينار على أن يرحل فامتنع ، وقـال :« قـد خسرت ثـلاثين الف دينار ، فـــان دفعتموها الي وأطلقتــم كل عبـد بحلب منذ ملكت انطــاكية فـأنا أرحل » فاستعظم ذلك واتكل على الحوادث .

وكان الذي بقي في القلعة مقدار مائة دينار ، واخذها الخازن على وسطه ، وهرب الى الفرنج ، وهرب جماعة أخر من المسلمين اليهم فكتبوا الى الملك رضوان كتابا على جناح طائر يخبرونه بما تجدد من قوة الحصار وقلة النفقة وقتل الرجال ، وأرسلوا الطائر فسـقط في عسكر الفرنج ، فرماه أحدهم بنشابة فقتله .

وحمل الكتاب الى طنكريد ، ففرح وقويت نفسه ، وبذل رضــوان المال المطلوب له على ان يكون اقســاطا ويضــع عليه رهـــائن فلم يفعل ، ويئس من في الاثارب من نجدة تصــل اليهــم فسـلموها الى طنكريد في جمادى الآخرة منها ، وأمن أهلها وخرجوا منها .

ثم صــالح رضــوان على عشرين الف دينار وعشرة رؤوس مــن الخيل ، وقبضها وعاد الى انطاكية .

ثم عاد وخرج الى الاثارب ، وقـد ادركت الغلة ، وضــعفت حلب بأخذ الاثارب ضعفا عظيما، وطلب من حلب المقاطعة التـي قــررها على حلب واسرى من الارمن كان رضوان أخذهم وقت اغارتــه على

بلد انطاكية ، والفرنج على الفرات ، فأعادهم اليه ، وطلب بعض خيل الملك رضوان فأعطاه ، وطلب حرم الفلاحين المسلمين من الاثارب ، وكانوا وقت نزول طنكريد على الاثارب حصلوا بحرمهم في حلب فأخرجهن اليه .

وضاق الامر بأهل حلب ، ومضى بعضهم الى بغداد واستغاثوا في ايام الجمع ، ومنعوا الخطباء من الخطبة مستصرخين بالعساكر الاسلامية على الفرنج .

وقلت المغلات في بلد حلب ، فباع الملك رضوان في يوم واحد ستين خربة من بلد حلب لأهلها بالثمن البخس ، وطلب بذلك استمالتهم ، وان يلتزموا بالمقام بها بسبب أملاكهم ، وهي ستون خربة معروفة في دواوين حلب الى يومنا هذا ، غير ماباعه في غير ذلك اليوم من الاملاك (٧٩) .

ولذلك يقال أن بيع الملك من أصح أملاك الحلبيين لأن المصلحة في بيعها كانت ظاهرة لاحتياج بيت المال الى ثمنها ، ولعمارة حلب ببقاء أهلها فيها بسبب أملاكهم .

ولما استصرخ الحلبيون العساكر الاسلامية ببغداد وكسروا المنابر ، جهز السلطان العساكر للذب عنهم ، فكان أول من وصل مودود صاحب الموصل بعسكره الى شبختان ، ففتح تل قراد (٨٠) وعدة حصون .

ووصل احمديل الكردي في عسكر ضخم وسكمان القطبي ، وعبروا الى الشام فنزلوا تل باشر ، وحصروها حتى اشرفت على الأخذ ، وكان طنكريد قد اخذ حصن بكسرائيل (٨١) ، وتوجه مغيرا على بلد شيزر ونازلها .

وشرع في عمارة تل ابن معشر (٨٢) وضرب اللبن وحفر الجباب ليودع بها الغلة ، فلما بلغه نزول عساكر السلطان محمد على تل

باشر رحل عنها وأما العساكر الاسلامية النازلة على تل باشر فان سكمان مات عليها - وقيل : بعد الرحيل عنها - واشرف المسلمون على اخذها فتطارح جوسلين الفرنجي صاحبها على أحمد يل الكردي وحمل اليه مالا ، وطلب منه رحيل العسكر عنه فأجابه الى ذلك .

وكتب الملك رضوان الى مودود وأحمديل وغيرهما :« انني قد تلفت واريد الخروج من حلب ، فبادروا الى الرحيل » فحسن لهم احمديل الرحيل عنها بعد ان اشرفوا على أخذها ، ورحلوا الى حلب ، فأغلق رضوان أبواب حلب في وجههم ، واخذ الى القلعة رهائن عنده من اهلها لئلا يسلموها .

ورتب قوما من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفظ السور ومنع الحلبيين من الصعود اليه ، وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة .

واقام الناس ثلاث ليال ، مايجدون شيئا يقتاتون به ، فكثرت اللصوص من الضعفاء ، وخاف الأعيان على أنفسهم .

وساء تدبير الملك رضوان فأطلق العوام السنتهم بالسب له وتعييبه ، وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد ، وترك الركوب بينهم .

وضبر (٨٣) انسان من السور فأمر به فضربت عنقه ، ونزع رجل ثوبه ورماه الى آخر فأمر به فألقي من السور الى اسفل ، فعاث العسكر فيما بقي سالما ببلد حلب بعد نهب الفرنج له وسبيهم أهله .

وبث رضوان الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر فيأخذونه ، فرحلوا الى معرة النعمان في آخر صفر من سنة خمس

وخمسمائة ، واقاموا عليها أياما ووجدوا حولها ماملأ صدورهم مما يحتاجون اليه من الغلات وماعجزوا عن حمله .

وكان اتابك طغتكين قد حصل معهم ، فراسل رضوان بعضهم حتى أفسد مابينه وبينهم ، فظهر لأتابك منهم الوحشة ، فصار في جملة مودود صاحب الموصل ، وثبت له مودود ووفى له .

وحمل لهم اتابك هدايا وتحفا من متاع مصر ، وعرض عليهم المسير الى طرابلس والمعونة لهم بالأموال ، فلم يعرجوا وسار أحمديل وبرسق بن برسق وعسكر سكمان نحو الفرات ، وبقي مودود مع أتابك ، فرحلا من المعرة الى العاصي فنزلا على الجلالي .

فنزل الفرنج أفامية : بغدوين وطنكريد وابن صنجيل وساروا لقصد المسلمين فخرج أبو العساكر بن منقذ من شيزر بعسكره وأهله واجتمعوا بمودود وأتابك وساروا اليهم .

ونزلوا قبلي شيزر والفرنج شمالي تل ابن معشر ، ودارت خيول المسلمين حولهم ومنعوهم الماء ، والأتراك حول الشرائع بالقسي تمنعهم الورد ، فأصبحوا هاربين سائرين ، يحمي بعضهم بعضا .

ووصل الى حلب في هذه السنة في شهر ربيع الأول من سنة خمس وخمسمائة ، رجل فقيه تاجر كبير يقال له ابو حرب عيسى بن محمد الخجندي ، ومعه خمسمائة جمل عليها اصناف التجارات ، وكان شديدا على الباطنية انفق اموالا جليلة على من يقاتلهم ، وكان قد صحبه من خراسان باطني يقال له أحمد بن نصر الرازي وكان أخوه قد قتله رجال الخجندي .

فدخل أحمد الى حلب ، (٨٤) ومضى الى ابي طاهر الصائغ العجمي رئيس الباطنية بحلب ، وكان متمكنا من رضوان ، فصعد

الى رضوان ، وأطمعه في مال الفقيه أبي حرب ، وأراه أنه بريء من التهمة في بابه ، إذ هو معروف بعداوة الباطنية .

فطمع رضوان في ماله وطار فرحا ، وبعث غلمانه يتوكلون به ، وسير ابو طاهر الباطني معه جماعة من أصحابه ، فبينا أبو حرب الخجندي في غلمان له يستعرض احماله وحوله جماعة من مماليكه وخدمه اذ هجم عليه أحمد بن نصر الرازي في جماعة من اصحاب أبي طاهر الباطني ، فقال لغلمانه :« أليس هذا رفيقنا ؟» فقالوا :« هو هو » فوقعوا عليه فقتلوه .

وقتل الجماعة الذين معه من أصحاب ابي طاهر الباطني العجمي بأسرهم ، ثم قال ابو حرب :« الغياث بالله من هذا الباطني الغادر ، أمنا المخاوف وراءنا الى أن جئنا الى الأمنة ، فبعث علينا من يقتلنا »

فاخبر رضوان بذلك فأبلس ، وصار السنة والشيعة الى هذا الرجل ، وأظهروا انكار ماتم عليه ، وعبث أحداثهم بجماعة من احداث الباطنية فقتلوهم ، ولم يتجاسر رضوان على انكار ذلك .

وكاتب الفقيه أبو حرب اتابك طغتكين وغيره من ملوك الاسلام فتوافت رسلهم الى رضوان ينكرون عليه ، فانكر وحلف أنه لم يكن له في هذا الرجل نية .

وخرج الرجل عن حلب مع الرسل فعاد الى بلده، ومكث الناس يتحدثون بما جرى على الرجل ونقص في أعين الناس ، فتوثبوا على الباطنية من ذلك اليوم .

ثم ان رضوان حين ضعف أمره بحلب رأى أن يستميل طغتكين اتابك اليه ويستصلحه ، فاستدعاه الى حلب عندما أراد أن ينزل طذكريد على قلعة عزاز ، وبذل له رضوان مقاطعة حلب عشرين الف

دينار وخيلا وغير ذلك ، فامتنع طنكريد من ذلك ، فوصل طغتكين أتابك ، وتعاهدا على مساعدة كل منهما لصاحبه بالمال والرجال .

واستقر الامر على أن أقام طغتكين الدعوة والسكة لرضوان بدمشق ، فلم يظهر منه بعد ذلك الوفاء بما تعاهدا عليه .

ومات طنكريد في سنة ست وخمسمائة ، واستخلف ابن اخته روجار وأدى اليه رضوان ماكان يأخذه منه طنكريد وهو عشرة الاف دينار .

ووصل مودود الى الشام ، واتفق مع طغتكين على الجهاد ، وطلب نجدة من الملك رضوان فتأخرت الى أن اتفق للمسلمين وقعة استظهروا فيها على الفرنج ، ووصل عقيبها نجدة للمسلمين من رضوان ، دون المائة فارس وخالف فيما كان قرره ووعد به ، فأنكر أتابك ذلك ، وتقدم بابطال الدعوة والسكة باسم رضوان من دمشق في أول ربيع الأول من سنة سبع وخمسمائة .

وكان رضوان يحب المال ، ولاتسمح نفسه باخراجه حتى كان أمراؤه وكتابه ينبزونه بأبي حبة ، وهو الذي أفسد أحواله وأضعف أمره .

ومرض رضوان بحلب مرضا حادا وتوفي في الثامن والعشرين من جمادي الآخرة سنة سبع وخمسمائة ، ودفن بمشهد الملك ، فاضطرب أمر حلب لوفاته وتأسف اصحابه لفقده ، وقيل : انه خلف في خزانته من العين والآلات والعروض والاواني مايبلغ مقداره ستمائة ألف دينار .

وملك حلب بعده ابنه الب ارسلان ، ويعرف بالأخرس ، وعمره ست عشرة سنة، وأمه بنت يغي سيان صاحب انطاكية ، وكان في كلامه حبسة وتمتمة فلذلك عرف بالاخرس ، وكان متهورا قليل

العقل ، ووضع عن أهل حلب ماكان والده جدده عليهم من الرسوم والمكوس .

وقبض على أخوته ملك شاه ومبارك ، وكان مبارك من جارية وملك شاه من أمه ، فقتلهما ، وكذلك فعل أبوه رضوان بأخويه ، فانظر الى هذه المقابلة العجيبة ، وقبض جماعة من خواص والده فقتل بعضهم واخذ أموال الآخرين .

وكان المتولي لتدبير أموره خادم لأبيه يقال له لؤلؤ اليايا ، وهو الذي أنشأ خانكاه البلاط بحلب (٨٥) وكان قبل وصوله الى رضوان خادما لتاج الرؤساء بن الخلال ، فدبر اسوأ تدبير مع سوء تدبيره في نفسه .

وكان أمر الباطنية قد قوي بحلب في أيام أبيه ، وتابعهم خلق كثير على مذهبهم طلبا لجاههم ، وصار كل من أراد أن يحمي نفسه من قتل أو ضيم التجأ إليهم .

وكان حسام الدين بن دملاج وقت وفاة رضوان بحلب ، فصاروا معه ، وصار ابراهيم العجمي الداعي من نوابه في حفظ القليعة بظاهر بالس .

فكتب السلطان محمد بن ملك شاه الى الب ارسلان وقال له :« كان والدك يخالفني في الباطنية وأنت ولدي فأحب أن تقتلهم ».

وشرع الرئيس ابن بديع متقدم الأحداث في الحديث مع الب أرسلان في أمرهم ، وقرر الأمر معه على الايقاع بهم ، والذكاية فيهم ، فساعده على ذلك .

فقبض على أبي طاهر الصائغ وقتله ، وقتل اسماعيل الداعي وأخا الحكيم المنجم والأعيان من أهل هذا المذهب بحلب ، وقبض على زهاء مائتي نفس منهم .

وحبس بعضهم واستصفى أموالهم ، وشفع في بعضهم فمنهم من أطلق ومنهم من رمى من أعلى القلعة ، ومنهـم مـن قتـل ، وأفلت جماعة منهم فتفرقوا في البلاد ، وهرب ابراهيم الداعي من القليعـة الى شيزر ، وخرج حسام الدولة بن دملاج عند القبض عليهم فمـات في الرقة .

وطلب الفرنج من ألب أرسلان المقاطعة التي لهم بحلب ، فدفعها اليهم من ماله ، ولم يكلف احدا من اهل حلب شيئا منها .

ثم ان ألب أرسلان رأى أن المملكة تحتاج الى من يدبرها أحسـن تدبير ، وأشار خدمه واصحابه عليه بأن كاتب أتابك طغتـكين أمير دمشق ، ورغب في استعطافه ، وسـأله الوصـول اليه ليدبـر حلب والعسكر ، وينظـر في مصـالح دولتـه ، فـأجابه الى ذلك ، ورأى موافقته لكونه صبيا لايخافه الكفار ولارأي له ، فدعا له على منبـر دمشق بعد الدعوة للسلطان وضربت السكة باسمه ، وذلك في شـهر رمضان .

وأوجبت الصـورة أن خـرج ألب أرسـلان بنفسـه في خواصه ، وقصد أتابك الى دمشق ليجتمع معه ، ويؤكد الأمـر بينه وبينه ، فلقيه أتابك على مرحلتين ، وأكرمه ووصل معه وأنزله بقلعة دمشق .

وبالغ في اكرامه وخدمته والوقوف على رأسه ، وحمل اليه دست ذهب وطيرا مرصعا وعدة قطع ثمينة ، وعدة من الخيل، وأكرم من كان في صحبته (٨٦)

وأقام بدمشق اياما وسار في أول شوال عائدا الى حلب ، ومعـه اتابك وعسكره ، فأقام عنده اياما واستخلص كمشتكين البعلبـكي مقدم عسكره ، وكان قد أشار عليه بعض اصحابه بقبضه ، وقبض جماعة من أعيان عسـكره وقبض الوزير أبـي الفضـل بـن

الموصول ، ففعل ذلك ، فاستوهب أتابك منه كمشتكين فوهبه إياه .

وقبض على رئيس حلب صاعد بن بديع ، وكان وجيها عند أبيه رضوان ، فصادره بعد التضييق عليه حتى ضرب نفسه في السجن بسكين ليقتل نفسه ، ثم اطلقه بعد ان قرر عليه مالا ، وأخرجه وأهله من حلب ، فتوجه الى مالك بن سالم الى قلعة جعبر .

وسلم رئاسة حلب الى ابراهيم الفراتي ، فتمكن ولقب ونوه باسمه ، واليه تنسب عرصة ابن الفراتي بالقرب من باب العراق بحلب ، ثم رأى أتابك من سوء السيرة وفساد التدبير مع التقصير في حقه والاعراض عن مشورته ماأنكره ، فعاد من حلب الى دمشق ، وخرجت معه أم الملك رضوان هربا منه .

وساءت سيرة الب أرسلان ، وانهمك في المعاصي واغتصاب الحرم والقتل ، وبلغنا (٨٧) أنه خرج يوما الى عين المباركة متنزها ، وأخذ معه أربعين جارية ، ونصب خيمة ، ووطئهن كلهن .

واستولى لؤلؤ اليايا على الأمر ، فصادر جماعة من المتصرفين وأعاد الوزارة الى أبي الفضل بن الموصول ، وجمع الب ارسلان جماعة من الامراء ، وأدخلهم الى موضع بالقلعة شبيه بالسرداب لينظروه ، فلما دخلوا اليه قال لهم :« ايش تقولون في من يضرب رقابكم كلكم ههنا ؟» فقالوا :« نحن مماليكك وبحكمك » واخذوا ذلك منه بطريق المزاح ، وتضرعوا له حتى أخرجهم .

وكان فيهم مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر،فلما نزل سار عن حلب،وتركها خوفا على نفسه .

وخاف منه لؤلؤ اليايا فقتله بفراشه بالمركز بقلعة حلب، في شهر

ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسمائة ، وساعده على ذلك قراجا التركي وغيره .

ولزم لؤلؤ اليايا قلعة حلب وشمس الخواص في العسكر ، ونصب لؤلؤ أخا له صغيرا عمره ست سنين ، واسمه سلطان شاه بن رضوان ، وتولى لؤلؤ تدبير مملكته ، وجرى على قاعدته في سوء التدبير .

وكاتب لؤلؤ ومقدمو حلب أتابك طغتكين وغيره يستدعونهم الى حلب لدفع الفرنج عنها ، فلم يجب أحد منهم الى ذلك .

ومن العجائب أن يخطب الملوك لحلب فلا يوجد من يرغب فيها ، ولايمكنه ذب الفرنج عنها ، وكان السبب في ذلك ان المقدمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ماهم فيه .

وقل الربيع ببلد حلب لاستيلاء الفرنج على أكثر بلدها والخوف على باقيه وقلت الاموال واحتيج اليها لصرفها الى الجند ، فباع لؤلؤ قرى كثيرة من بلد حلب ، وكان المتولي بيعها القاضي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة قاضي حلب ، ولؤلؤ يتولى صرف اثمانها في مصالح القلعة والجند والبلد .

وقبض لؤلؤ على الوزير أبي الفضل بن الموصول ، واستأصل ماله ، وسار الى القلعة فأقام عند مالك بن سالم ، واستوزر أبا الرجاء بن السرطان الرحبي مدة، ثم صادره وضربه وطلب أبا الفضل بن الموصول فأعاده الى الوزارة بحلب .

وجاءت زلزلة عظيمة ليلة الأحد ثامن وعشرين من جمادى الآخرة من سنة ثمان بحلب وحران وأنطاكية ومرعش والثغور الشامية ، وسقط برج باب انطاكية الشمالي وبعض دور العقبة وقتلت جماعة .

وخربت قلعة عزاز ، وهـرب واليهـا الى حلب ، وكان بينه وبين لؤلؤ مواحشة ، فحين وصل الى حلب قتله وانفذ اليها من تـداركها بالعمارة والترميم ، وخرب شيء يسير في قلعة حلب ، وخرب أكثـر قلعة الاثارب وزردنا .

وقيل : ان مؤذن مسجد عزاز كان حارسا بالقلعة فحـرس ونام على برج المسجد بالقلعة ، فلمـا جـاءت الزلزلة القتـه على كتـف الخندق وهو نائم لم يعلم بها ، فـاجتاز بـه جمـاعة فـظنوه ميتا ، فأخذوا عنه اللحاف فانتبه وسألهم فأخبروه بما جرى .

وصار شمس الخواص مقـدم عسـكر حلب ، ومتـولي اقـطاع الجند ، وكانت سـيرته اذ ذاك صـالحة ، وكان لؤلؤ في أول أمـره مقيما بقلعة حلب لاينزل منها ويدبر الأمور ، فـكتب الى السـلطان على سبيل المغالطة يبذل له تسـليم حلب والخـزائن التـي خلفهـا رضوان وولده ألب أرسلان ، ويطلب انفاذ العساكر اليه .

فوصل برسق بن برسق مقدم الجيوش ومنكوبرس (٨٨) وغيرهـم من أمراء السلطان في سـنة تسـع وخمسـمائة ، فتغيرت نية لؤلؤ الخادم عما كان كتب به الى السلطان ، وكتب الى اتـابك طغتـكين يستصرخه ويسـتنجده ، ووعده تسـليم حلب اليه ، وأن يعـوضه طغتكين من أعمال دمشق ، فبادر الى ذلك (٨٩) .

ووصل حلب ، والعساكر السلطانية ببالس متـوجهين الى حلب فرحلوا منها الى المعرة ، ووصلهم الخبر ان ذلك اليوم وصل اتـابك الى حلب فأعرضوا عن حلب ، وساروا الى حماة فتسلموها .

وتسلموا رفنيه (٩٠) مـن أولاد علي كرد ، وسـلموها الى خير خان بن قراجا ، فخاف طغتكين من عسـاكر السـلطان أن يقصـد دمشق ، فأخذ عسكر حلب ، وشـمس الخـواص وايلغـازي بـن أرتق ، واستنجد بصاحب انطاكية روجار وغيره مـن ملوك الفـرنج ونزلوا أجمعين افامية .

ونزلت العساكر السلطانية أرض شيزر ، وجعل أتابك يريث الفرنج عن اللقاء خوفا من الفرنج أن يكسروا العساكر السلطانية فيأخذوا الشام جميعه ، أو يذكسروا فتستولي العساكر السلطانية على مافي يده .

وخاف الفرنج وضاقت صدور أمراء عسكر السلطان من المصابرة ، فرحلوا ونزلوا حصن الأكراد وأشرف على الأخذ ، فاتفق اتابك والفرنج على عود كل قوم الى بلادهم ، ففعلوا ذلك .

وتوجه أتابك الى دمشق ، وعاد عسكر حلب وشمس الخواص الى حلب ، فقبض عليه لؤلؤ الخادم واعتقله فعادت عساكر السلطان حينئذ عن حصن الأكراد ، وساروا الى كفرطاب ، وحصروا حصنا كان الفرنج عمروه بجامعها وأحكموه ، فأخذوا وقتلوا من فيه ، ورحلوا الى معرة النعمان .

وأمن الترك وانتشروا في أعمال المعرة واشتغلوا بالشرب والنهب ووقع التحاسد فيما بينهم ، ووصل رسول من بزاعا من جهة شمس الخواص يستدعيهم لتسليم بزاعا ، ويقول ان شمس الخواص مقبوض عليه عند لؤلؤ الخادم ، ولؤلؤ يكشف اخبار العساكر ويطالع بها الفرنج . ورحل برسق وجامدار صاحب الرحبة نحو دانيث(٩١) يطلبون حلب ، فنزل جامدار في بعض الضياع .

ووصل برسق بالعسكر الى دانيث بكرة الثلاثاء العشرين من شهر ربيع الآخر ، والفرنج يعرفون أخبارهم ساعة فساعة ، فوصلهم الفرنج ، وقصدوا العسكر من ناحية جبل السماق ، والعسكر على الحال التي ذكرناها من الانتشار والتفرق ، فلم يكن لهم بالفرنج طاقة ، فانهزموا من دانيث الى تل السلطان .(٩٢)

واستتر قوم في الضياع من العسكر فنهبهم الفلاحون واطلقوهم ، وغنم أهل الضياع مما طرحوه وقت هزيمتهم ما يفوت الاحصاء ، وأخذ الكفار من هذا ما يفوت الوصف ، وغنموا من الكراع والسلاح والخيام والدواب وأصناف الآلات والأمتعة ما لا يحصى ، ولم يقتل مقدم ولا مذكور .

وقتل من المسلمين نحو خمسمائة وأسر نحوها واجتمع العسكر على تل السلطان ، ورحلوا الى الذقرة مخذولين مختلفين ، ونزلوا الذقرة ، وكان أوبنا (٩٣) قد طلع أصحابه الى حصن بزاعا ، وكان قد تقدم العسكر اليها ، فلما بلغهم ذلك نزلوا ووصلوا الى العسكر .

وتوجهت العساكر الى السلطان والى بلادهم ، ووصل طغتكين من دمشق فتسلم رفنية (٩٤) ممن كانوا بها ، وأطلق لؤلؤ شمس الخواص من الاعتقال ، وسلم اليه ما كان أقطعه من بزاعا وغيرها ، فوصل الى طغتكين فرد عليه رفنيه ، وعاد الى دمشق واستصحبه معه .

وأما لؤلؤ الخادم فانه صار بعد ملازمة القلعة ينزل منها في الأحيان ويركب ، فاتفق أنه خرج في سنة عشر وخمسمائة بعسكر حلب والكتاب الى بالس ، وهو في صورة متصيد ، فلما وصل الى تحت قلعة نادر قتله الجند (٩٥).

واختلف في خروجه ، فقيل: انه كان حمل مالا الى قلعة دوسر ، وأودعه عند ابن مالك فيها ، وأراد ارتجاعه منه والعود الى حلب ، وكان السلطان قد اقطع حلب والرحبة أق سنقر البرسقي (٩٦) ، فواطأ جماعة من أصحابه على أن أظهروا مفارقته ، وخدموا لؤلؤا وصاروا من خواصه ، وواطأهم على قتل لؤلؤ ، وأمل أنهم اذا قتلوه تصح له اقطاع حلب فقتلوه .

وسار بعضهم الى الرحبة فأعلمه ، فأسرع أق سنقر البرسقي

المسير الى حلب من الرحبة ، وانضاف بعض عسكره الى بقية القوم الذين قتلوه ، وطمعوا في أخذ حلب لأنفسهم ، وساروا اليها فسبقهم ياروقتاش الخادم - أحد خدم الملك رضوان - ودخل حلب .

وقيل : إن لؤلؤا كان قد خاف فأخذ أمواله ، وخرج طالبا بلاد الشرق للنجاة بأمواله ، فلما وصل الى قلعة نادر قال سنقر الجكرمشي :«تتركونه يقتل تاج الدولة ويأخذ الأموال ويمضي!» وصاح بالتركية: «أرنب أرنب » فضربوه بالسهام فقتلوه .

ولما خرج عن حلب اقامت القلعة في يد أمنة خاتون بنت رضوان يومين الى أن وصل ياروقتاش الخادممبادرا فدخل حلب ونزل بالقصر ، وأخرج بعض عسكر حلب ، وأوقع بالذين قتلوا لؤلؤا ، وارتجع ما كان أخذوه من عسكر حلب وانهزم بعض من كان في النوبة فالتقوا اق سنقر في بالس في أول محرم سنة احدى عشرة وخمسمائة .

ولم يتسهل للبرسقي ما أمل ، وراسل أهل حلب ومن بها في التسليم اليه فلم يجيبوه الى ذلك .

وكاتب ياروقتاش الخادم نجم الدين ايلغازي بن ارتق ليصل من ماردين ويدفع أق سنقر ، وكاتب روجار صاحب انطاكية أيضا فوصل إلى بلد حلب ، وأخذ ماقدر عليه من أعمال الشرقية ، فحينئذ أيس البرسقي من حلب ، وانصرف من أرض بالس الى حمص فأكرمه خيرخان صاحبها ، وسار معه الى طغتيكين الى دمشق فأكرمه ، ووعده بانجاده على حلب .

وهادن ياروقتاش صاحب انطاكية روجار ، وحمل اليه مالا وسلم اليه حصن القبة ، ورتب مسير القوافل من حلب الى القبلة عليه ، وأن يؤخذ المكس منهم له .

ثم إن ياروقتاش طلع الى قلعة حلب ، وعزم على أن يعمل حيلة يوقعها بالمقدمين ويملكها مثل لؤلؤ ، فقبض عليه مقدمو القلعة بأمر بنات رضوان بعد تمام شهر من ولايته ، وأخرجوه من حلب وولوا في القلعة خادما من خدم رضوان .

ورد أمر سلطان شاه وتقدمه العسكر وتدبير الأمور الى عارض الجيش العميد أبي المعالي المحسن بن الملحي ، فدبر الأمور وساسها ، وضعفت حلب وقل ارتفاعها وخربت أعمالها .

ووصل ايلغازي بن ارتق الى حلب فأنزلوه في قلعة الشريف ، ومنعوه من القلعة الكبيرة ، واستولى على تدبير الامور وتربية سلطان شاه في سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وسلموا اليه بالس والقليعة .

وقبض على أبي المعالي بن الملحي ، وقصر ارتفاع حلب عما يحتاج إليه إيلغازي والتركمان الذين معه ، ولم ينتظم له حال ، واستوحش من اهل حلب وجندها فخرج عنها الى ماردين ، وبقيت بالس والقليعة في يده ، واخرج ابن الملحي من الاعتقال وأعيد الى تدبير الامور .

وأفسد الجند الذين ببالس في أعمال حلب فاستدعوا الفرنج ، وخرج بعض عسكر حلب ومعهم قطعة من الفرنج وحصروها ، فوصل ايلغازي في جمع من التركمان اليها ، فعاد عسكر حلب والفرنج عن بالس وباعها لابن مالك ، وعاد الى ماردين ، وبقي تمرتاش ولده رهينة في حلب .

ووصل في هذه السنة اتابك طغتيكن وآق سنقر البرسقي الى حلب ، وراسل اهلها في تسليمها فامتنعوا من إجابته ، وقالوا: «ما نريد احدا من الشرق» وأنفذوا واستدعوا الفرنج من انطاكية لدفعه عنهم ، فعاد آق سنقر الى الرحبة وأتابك الى دمشق .

واشتد الغلاء بأنطاكية وحلب ، لأن الزرع عرق ولحقه هواء عند ادراكه أتلفه ، وهرب الفلاحون للخوف ، واستدعى أهل حلب ابن قراجا من حمص ، فرتب الأمور بها ، وحصنها ، وسار الى حلب ، ونزل في القصر خوفا من ايلغازي لما كان بينهما (٩٨).

وخرج اتابك الى حمص ، ونهب اعمالها وشعثها ، وأقام عليها مدة ، وعاد الى دمشق لحركة الفرنج ، وخرجت قافلة من حلب الى دمشق فيها تجار وغيرهم ، وحملوا ذخائرهم وأموالهم لما قد أشرف عليه أهل حلب ، فلما وصلوا الى القبة نزل الفرنج اليهم ، وأخذوا منهم المكس ، ثم عادوا وقبضوهم وما معهم بأسرهم ، ورفعوهم الى القبة ، وحملوا الرجال والنساء بعد ذلك إلى إفامية ، ومعرة النعمان ، وحبسوهم ليقروا عليهم مالا .

فراسلهم أبو المعالي بن الملحي ورغبهم في البقاء على الهدنة وأن لا ينقضوا العهد ، وحمل الى صاحب انطاكية مالا وهدية ، فرد عليهم الأحمال والأثقال وغير ذلك ، ولم يعدم منه شيء .

وقوي طمع الفرنج في حلب لعدم النجد وضعفها ، وغدروا ونقضوا الهدنة ، واغاروا على بلد حلب ، وأخذوا مالا لا يحصيه الا الله ، فراسل أهل حلب أتابك طغتكين ، فوعدهم بالانجاد ، فكسره جوسلين وعساكر الفرنج ، وراسلوا صاحب الموصل وكان أمره مضطربا بعد عوده من بغداد .

ونزل الفرنج بعد عودهم من كسرة أتابك على عزاز ، وضايقوها ، وأشرفت على الأخذ ، وانقطعت قلوب أهل حلب اذ لم يكن بقي لحلب معونة إلا من عزاز وبلدها ، وبقية بلد حلب في أيدي الفرنج ، والشرقي خراب مجدب ، والقوت في حلب قليل جدا ، ومكوك الحنطة بدينار ، وكان إذ ذاك لا يبلغ نصف مكوك بمكوك حلب الآن ، وماسوى ذلك مناسب له .

ويئس أهل حلب من نجدة تصلهم من أحد من الملوك ، فاتفق

رايهم على أن سيروا الأعيان والمقدمين الى ايلغازي بن ارتق ، واستدعوه ليدفع الفرنج عنهم وظنوا انه يصل في عسكر يفرج به عنهم ، وضمنوا له مالا يقسطونه. على حلب يصرفه الى العساكر .

فوصل في جند يسير والمدبر لحلب جماعة من الخدم ، والقاضي أبو الفضل بن الخشاب هو المرجوع إليه في حفظ المدينة والنظر في مصالحها ، فامتنع عليه البلد ، واختلفت الآراء في دخوله ، فعاد فلحقه القاضي أبو الفضل بن الخشاب وجماعة من المقدمين ، وتلطفوا به ولم يزالوا به حتى رجع .

ووصل الى حلب ، ودخلها ، وتسلم القلعة ، وأخرج منها سائر الجند وأصحاب رضوان وانزل سلطان شاه بن رضوان وبنات رضوان في دار من دور حلب .

وقبض على جماعة ممن كان يتعلق بالخدم ويخدمهم ، واخذ منهم ما كان صار اليهم من مال رضوان ومال الخدم الذين استولوا على حلب بعده .

وراسل الفرنج في مال يحمله عن عزاز ليرحلوا ، فلم يلتفتوا لقوة اطماعهم في أمر الاسلام ، وكان ايلغازي يعجز بحلب عن قوت الدواب ، وحلب على حد التلف .

فلما عرف من بعزاز ذلك ويئسوا من دفع الفرنج سلموها الى الفرنج ، وراسلهم من بحلب في صلح يستأذنونه معهم ، فأجابوا الى ذلك لطفا من الله بهم ، على أن يسلموا الى الفرنج تل هراق ويؤدون القطيعة المستقرة على حلب عن أربعة أشهر ، وهي الف دينار ، ويكون لهم من حلب شمالا وغربا .

وزرعوا اعمال عزاز وقووا فلاحها وعادوا إلى انطاكية وصار يدخل الى حلب ما يتبلغون به من القوت .

وسار إيلغازي الى الشرق ليجمع العساكر ويعود بها الى حلب ، فسار اليه أتابك طغتيكن ، والتقاه بقلعة دوسر ، ووافقه على ذلك ، وسارت الرسل الى ملوك الشرق والتركمان يستنجدونهم .

وكان ابن بديع رئيس حلب عند ابن مالك بقلعة دوسر ، فنزل الى ايلغازي ليطلب منه العود الى حلب ، فلما صار عند الزورق ليقطع الماء الى العسكر وثب عليه اثنان من الباطنية فضرباه عدة سكاكين ، ووقع ولداه عليهما فقتلاهما ، وقتل ابن بديع واحد ولديه وجرح الآخر ، وحمل الى القلعة فوثب آخر من الباطنية وقتله ، وحمل الباطني ليقتل فرمى بنفسه في الماء وغرق .

وتوجه ايلغازي الى ماردين ومعه أتابك ، وراسلا من بعد وقرب من عساكر المسلمين والتركمان ، فجمعا عسكرا عظيما ، وتوجه ايلغازي في عسكر يزيد عن أربعين الفا في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وقطع الفرات من عبر بدايا وسنجة (٩٩).

وامتدت عساكره في أرض تل باشر وتل خالد وما يقاربهما ، يقتل وينهب ويأسر ، وغنموا كل ماقدروا عليه ، ووصل من رسل حلب من يستحثه على الوصول لتواصل غارات الفرنج من جهة الاثارب وأيأس اهلها من انفسهم ، فسار الى مرج دابق ثم الى المسلمية ، ثم الى قنسرين في أواخر صفر من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة .

وسارت سراياه في أعمال الروج والفرنج يقتلون ويأسرون ، وأخذوا حصن قسطون في الروج ، وجمع سرجال صاحب انطاكية الفرنج والارمن وغيرهم ، وخرج الى جسر الحديد ، ثم رحلوا ونزلوا بالبلاط بين جبلين ، ممايلي درب سرمدا ، شمالي الاثارب ، وذلك في يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الاول .

وضجر الأمراء من طول المقام ، وايلغازي ينتظر أتابك طغتكين ليصل اليه ويتفقا على ما يفعلانه ، فاجتمعوا وحثوا ايلغازي على مناجزة العدو فجدد ايل غازي الأيمان على الامراء والمقدمين أن يناصحوا في حربهم ، ويصابروا في قتال العدو ، وانهم لا يذكلون ويبذلون مهجهم في الجهاد ، فحلفوا على ذلك بنفوس طيبة .

وسار المسلمون جرايد ، وخلفوا الخيام بقنسرين ، وذلك في يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الأول ، فباتوا قريبا من الفرنج وقد شرعوا في عمارة حصن مطل على تل عفرين والفرنج يتوهمون ان المسلمين ينازلوا الاثارب أو زردنا ، فما شعروا عند الصبح الا ورايات المسلمين قد أقبلت ، وأحاطوا بهم من كل جانب .

وأقبل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يحرض الناس على القتال ، وهو راكب على حجر وبيده رمح ، فرآه بعض العسكر فازدراه وقال :« إنما جئنا من بلادنا تبعا لهذا المعمم ! » فأقبل على الناس ، وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم ، واسترهف هممهم بين الصفين ، فأبكى الناس وعظم في أعينهم .

ودار طغان ارسلان بن دملاج من ورائهم ونزل في خيامهم ، وقتل من فيها ونهبها ، وألقى الله النصر على المسلمين ، وصار من انهزم من الفرنج وقصد الخيام قتل .

وحمل الترك بأسرهم حملة واحدة من جميع الجهات صدقوهم فيها ، وكانت السهام كالجراد ، ولكثرة ما وقع في الخيل والسواد من السهام عادت منهزمة وغلبت فرسانها ، وطحنت الرجالة والاتباع والغلمان بالسهام ، وأخذوهم بأسرهم أسرى .

وقتل سرجال في الحرب ، وفقد من المسلمين عشرون نفرا منهم سليمان بن مبارك بن شبل ، وسلم من الفرنج مقدار عشرين نفرا لا غير ، وانهزم جماعة من أعيانهم .

وقتل في المعركة مايقارب خمس عشر الفا مـن الفـرنج ، وكانت الوقعة يوم السبت وقـت الظهـــر ، فـــوصل البشــير إلى حلب بالنصر ، والمصاف قائم ، والناس يصلون صــلاة الظهـر بجـامع حلب ، سمعو اصيحة عظيمة بذلك من نحو الغرب ، ولم يصل احـد من العسكر إلى نحو صلاة العصر .

واحرق اهل القرى القتلى من الفرنج ، فـوجد في رمـاد فـارس واحد اربعون نصـــل نشـــاب ، ونزل ايلغـــازي في خيمـــة سرجال ، وحمل اليه المسلمون ما غنموه ، فلم يأخذ منهم الا سلاحا يهديه لملوك الاسلام ، ورد عليهم ما حملوه بأسره .

ولما حضر الأسرى بين يدي ايلغـازي ، كان فيهـم رجـل عظيم الخلقة مشتهرا بـالقوة ، واسره رجـــل ضــــعيف قصـــير قليل السلاح ، فلما حضر بين يدي ايلغـــازي قـــال له التـركمان : «أمـا تستحي يأسرك مثل هذ الضعيف وعليك مثل هذا الحـديد؟» فقـال: «والله ما اخذني هذا ، ولا هو مولاي وإنما اخذني رجل عظيم أعظم مني وأقوى ، وسلمني الى هذا ، وكان عليه ثـوب اخضر وتحتـه فرس اخضر».(١٠١).

وتفرقت عساكر المسلمين في بلد انطـاكية والســويدية وغيرهمـا يقتلون ويأسرون وينهبون ، وكانت البلاد مطمئنة لم يبلغهم خبر هذه الوقعة ، فأخذ المسلمون من السـبي والغنائم والدواب مـا يفـوت الاحصاء ، ولم يبق أحد من الترك الا امتلأ صـدره ويداه بـالغنائم والسبي .

ولقي بعض السرايا بغدوين الرويس وابن صـنجيل في خيلهمـا بالقرب من جبلة ، وقـــد تـــوجها لنصرة سرجـــال صـــاحب أنطاكية ، فأوقع بهم التـرك ، وقتلوا جمـاعة وغنمـوا مـــا قدروا عليه ، وانهزم بغدوين وابن صنجيل ، وتعلقوا بالحبال .

ورحل ايغازي الى ارتـــاح ،وبـــادر بغـــدوين فـــدخل

انطاكية ، و سلمت اليه اختـه زوجـة سرجـال خـزائنه وامواله ، وقبض على اموال القتلى ودورهم ، واخذها وزوج نساء القتلى بمن بقي ، وأثبت الخيل ، وجمـع وحشـد واسـتولى على انطاكية ، ولو سبقه ايلغازي الى انطاكية لما امتنعت عليه .

ووصل اتابك إلى نجم الدين أرتاح ، فعاد ونزل الأثارب ، وهجم الربض ونهبه ، وقتل من قدر عليه ، وخرج احداث من حلب ونهبوا حصنها فطلبوا الأمان فأمنهم بعد ان اسـتأخذت ، وسـيرهم الى مأمنهم .

ورحل منهـا الى زردنا وكانوا قـد حصـنوها واحـكموا عمارتها ، وقاتلها فطلبوا الأمان فأمنهم ، وسـيرهم الى انطـاكية فلقيهم بعض التـركمان ، فنهبـوهم وقتلوا بعضـهم ومضـوا الى أهلهم .

وكان صاحب زردنا لما بلغه منازلتها ، حمل بغدوين والفرنج على الخروج لاستنقاذها ، وقد عرفوا تفرق التركمان بالغنائم وعودهـم إلى أهليهم ، وأن إيلغازي في عدة قليلة ، فبلغه ذلك فجد في قتـالها حتى اخذها – كما ذكرناه – ورتب اصحابه بها ، وتوجه بمن بقي معه واستصحب معه عسكر اتابك وطغان أرسلان بن دملاج جـرايد الى دانيث بعد ان رد الأثقال والخيام إلى قنسرين .

ووصل إلى دانيث في يومه ، فوجد الفرنج قد نزلوهـا يوم فتحـه زردنا في مائتي خيمة وراجـل كثير ، وقيل إنهـم كانوا يزيدون على أربعمائة فارس سـوى الرجـالة ، وذلك في رابـع جمـادي الأولى ، والتقوا فحمل صاحب زردنا وأكثر خيل الفرنج على عسكر دمشـق وحمص وبعض التـركمان ، فـكشفوهم وانهـزموا بين ايديهم ، وسار ليتدارك أمر زردنا ويكبس الأثقـال والخيام فعـرف أخذها وتسيير الأثقال الى قنسرين فعاد .

وحمل بقية المسلمين على بغـدوين ومـن كان معـه ، فقتلوهـم

ورودهم على أعقابهم ، فحينئذ حمل ايلغازي وطغتكين وطغان ارسلان فيمن بقي من الخواص على الفرنج ، فكسروهم وقتلوا أكثر الرجالة وبعض الخيالة ، وتبعوهم إلى أن دخلوا الى حصن هاب ، وغنموا أكثر ما كان معهم .

وعاد نجم الدين وطغتيكن وطغان أرسلان الى دانيث ، فوجدوا صاحب زردنا والفرنج قد عادوا بعد أن هزموا من كان بين ايديهم من المسلمين ومعرفة اخذ المسلمين زردنا ، فلقوهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة ، وانهزم الباقون الى هاب ، وعاد الترك بالظفر والغنيمة .

وحين بلغ من بقنسرين مع الأثقال هزيمة من كان مقابلة صاحب زردنا رحلوا الى حلب ، وانزعج اهل حلب غاية الانزعاج فوصلهم البشير بعد ساعتين بما بدل غمهم سرورا وهمهم حبورا .

وكان البشير من الفرنج قد مضى الى بلادهم واخبر بكسرة صاحب زردنا للمسلمين ، فزينوا بلادهم ، وأظهروا فيها الجذل والمسرة فوصل ابن صنجيل من الكسرة بعد ذلك ، فانقلب سرورهم حزنا وراحتهم تعبا وعناء .

وكان صاحب زردنا ،وهو القومص الابرص واسمه رونارد (١٠٣) ، قد

سقط عن فرسه ، فأدركه قوم من أهل جبل السماق من اهل مريمين ، فقبضوه وحملوه الى ايلغازي بظاهر حلب ، فأنفذه الى أتابك طغتكين ، فقتله صبرا .

ثم دخل الى ايلغازي بظاهر حلب ، وأحضر الأسرى فأفرد أصحاب القلاع والمقدمين وابن بيمند صاحب انطاكية ورسول ملك الروم ونفرا يسيرا ممن كان معه مال فأخذه واطلقهم ، وبقي من الأسرى نيف وثلاثون رجلا بذلوا من المال ما رغب عنه ، فقتلهم بأسرهم . وتوجه من حلب الى ماردين في جمادى الاولى من سنة

ثلاث عشرة وخمسمائة ، ليجمع من التركمان من يعـود بـه الى بلد حلب ، وكانت حلب ضعيفة عن مقامه فيها ، فخرج الفـرنج الى بلد المعرة ، فسبوا جماعة ، وأدركهم جماعة من الترك فرجعوا .(١٠٤)

ثم خرج بغدوين من انطاكية في عســكره ونزل على زور ، غربـي الباره ـ وهو حصن كان لابن منقـذ وسـلمه اليهـم ـ ولما جـرت الوقعة الاولى على البلاط عاد واخذه ، فقاتله بغدوين ، وأخـذه في جمادى الاولى ، وأطلق من كان فيه .

ورحل الى كفر روما(١٠٥) فأخذ حصنها بـالسيف ، وقتـل جميع من كان فيه ، ووصلوا الى كفر طاب ، وقـد احـرق ابـن منقـــذ حصنها ، وأخذ رجاله منه خوفا منهم ، فرمموه ، ورتبوا رجـالهم فيه ، وساروا الى سرمين ومعره مصرين فتسلموها بالأمان ، ثـم نزلوا زردنا ، ورحلوا عنها الى انطاكية .

ومع هذا فغـــارات عســـكر حلب متـــواصلة على مــــايقرب منهم ، وتعود بالظفر والغنيمة .

ووصل جوسلين الى بغدوين خاله وقت أخذه سرمين ، فـأقطعه الرها وتل باشر ، وسـيره اليهمـا ، فـأسرى الى وادي بـــطنان دفعتين ، والى ما يلي الفرات من جهة الشام ، وقتـل وسـبى مـا يقارب ألف نفس ، وأغار جوسلين على منبج والنقره وأعمـال حلب الشرقية ، وأخذ كل مـــا وجـــده مـــن دواب ، وأسر رجـــــالا ونساء ، وأسرى الى الراوندون يتبع طـائفة مــن التـركمان كانت قطعت الفرات ، فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة .

وفي صفر من سنة أربع عشره وخمسمائة ، وقعت مشـاحنة بين والي الاثارب بلاق بن اسحاق صـاحب نجـم الدين ايلغـازي وبين الفرنج ، فأسرى ومعه جماعة من عسكر حلب الى انطاكية ، فلقيهم عسكر انطاكية فكسرهم ، وعاد فتبعـه الفـرنج والتقـوا مــــا بين ترمانين (١٠٧) وتل اعذى ، من فرضة ليلون .

ووصل في هذه السنة ايلغازي بجمع كثير من التركمان ، وقطع الفرات في الخامس والعشرين من صفر ، وتوجه الى تل باشر ، وأقام أياما ولم يقاتلها ، ورحل الى عزاز يريد اخذها ، ولم يمكن أحدا من التركمان من تشعيث ضياعها ، ورحل الى انطاكية وأقام عليها يوما واحدا ، وأقام في أعمال الروم أياما يسيره .

ثم خرج الى قنسرين فتشوشت قلوب التركمان لانهم املوا من الغنائم مثل السنة الخالية ، ولم يقاتل بهم حصنا ، ولا غنموا شيئا ، وباع الأسرى الذين اسرهم في الوقعة الأولى ، فعادوا الى بلادهم ، وبالغوا في التشفي من المسلمين والقتل والسبي

وجرى من نجم الدين اساءة الى بعض التركمان على شيء أذكره عليهم ، فبالغ في هوانهم وحلق لحى بعضهم ، وقطع اعصابهم ، فتفرق عسكره وبقي نفر يسير متفرقين في اعمال حلب .

فطمع الفرنج وخرجوا الى دانيث ، فوصل طغتيكن وعسكر دمشق ، واجتمعوا مع إيلغازي في عسكر يقاوم الفرنج ، فساروا الى الفرنج ، وهم في الف فارس وراجل كثير ، فدار الترك حولهم فلم يخرج منهم احد ، وكرهوا ان يعودوا على اعقابهم فتكون هزيمة ، فساروا نحو معرة مصرين لا ينفرد منهم فارس ولا راجل .

وأشرف الترك على أخذهم ، ومن خرج منهم قتل ، ومن وقفت دابته تركها واخذت ، ولا يقدرون على الماء وهم على حالة الهلاك ، وإيلغازي وطغتكين يردان الناس بالعصا ، فنزلوا بقرب معرة مصرين ، وعاد الترك عنهم الى حلب ، وعادوا الى أنطاكية .(١٠٨)

وصالحهم ايلغازي الى آخر سنة أربع عشرة ، على أن لهم المعرة وكفر طاب والجبل والبارة ، وضياعا من جبل السماق برسم هاب ، وضياعا من ليلون برسم تل اعذى ، وضياعا من بلد عزاز برسم عزاز .

وسار نجم الدين ايلغازي الى ماردين ليجمع العساكر ، وهدم ايلغازي زردنا في شهر ربيع الأول ، وكان أهل حلب قد شكوا اليه تجديد رسوم جددت عليهم في ايام رضوان ، لم تجر بها عادة في دولة العرب ولا دولة المصريين ولا في ايام أق سنقر ، فأمر بكشف مقدارها ، فأخبر انها مبلغ اثني عشر الف دينار في كل سنة ، فرسم بحذفها ، ووقع لهم بذلك ، وكتب لوحا بذلك ، وسمره على باب الجامع وذلك في هذه السنة .

وخرج الفرنج فقبضوا على الفلاحين الذين تحت ايديهم في هذه الأعمال من المسلمين وعاقبوهم وصادروهم ، وأخذوا منهم من الاموال والغلات ما تقووا به ، وكانت الضياع التي في أيدي المسلمين قد عمرت ، واطمأنوا بالصلح ، فغدر اللعين جوسلين ، وخرج فأغار على النقرة والأحص ، واحتج بأنه أسر له والي منبج أسير ، وأنه كاتب في ذلك فلم ينصف ، وذلك في شوال ، وقتل وسبى وأحرق كل ما في النقرة والاحص ، ونزل الوادي وعاث فيه .

ثم سار الى تل باشر ، ثم عاد وحشد وخرج وعمل كفعله الاول ، وأخذ في غارته الاولى المشايخ والعجائز والضعفاء ، فنزع عنهم ثيابهم وتركهم في البرد عراة ، فهلكوا بأجمعهم .

فأنفذ والي حلب الى بغدوين في ذلك ، وقال: «إن نجم الدين لم يترك هذه البلاد خالية من العساكر الا ثقة بالصلح» فقال: «مالي على جوسلين يد». وتتابعت من جوسلين غارات متعددة .

ثم خرج الفرنج من انطاكية عقيب ذلك ، وأغاروا على بلد شيزر وأخذوا مالا يحصى ، وأسروا جمعا ، وطلبوا المقاطعة التي جرت عادتهم قبل الوقعة بأخذها ، فبذل لهم ابن منقذ ذلك على أن يردوا ما أخذوه ، فلم يجيبوه الى ذلك ، فجعل لهم مالا حمله ، وصالحهم الى آخر السنة .

وهرب ملك العرب دبيس بن صدقة الأسدي من المسترشد والسلطان محمود ، فوصل الى قلعة جعبر ، فأكرمه نجم الدولة مالك ، واضافه ، ثم سار الى ايلغازي الى ماردين ، وتزوج ابنته فاشتد به وأجاره ، ووصل معه الأموال العظيمة والنعمة الوافرة ، وحمل اليه ايلغازي ما يفوت الاحصاء .

فاشتغل ايلغازي بدبيس عن العبور الى الشام فخرب بلد حلب ، واستولى الفرنج على معظمه ، واغار جوسلين الى صفين(١٠٩) . وسبى العرب والتركمان ، ونزل بزاعا وقاتلها ، واحرق بعض جدارها ، وصونع على شيء ودخل بلده .

ثم هجم الفرنج ، في صفر من سنة خمس عشرة وخمسمائة الأثارب ، وقتلوا جماعة وأحرقوها وأسروا من لم يعتصم بالقلعة .

ثم إنهم في ربيع الآخر من السنة ، نزلوا ذواز (١١٠) وزحفوا الى الأثارب ثانية ، واحرقوا الدور والغلة ، وسار بغدوين ، وأغار على حلب ، واخذ الناس والدواب من حاضر حلب ومن الفنادق ، وأخذ ما يجل قدره من الماشية ، وأسر نحو من خمسين اسيرا ، وصاح الصائح فخرج نفر يسير من العسكر فظفروا بالفرنج وخلصوا المواشي ، وعاد الفرنج الى أعمالهم .

وكان النائب بحلب شمس الدولة سليمان بن نجم الدين ايلغازي ، وكان ايلغازي قد ولى رئاسة حلب ، في سنة أربع عشرة في رجب ، مكي بن قرناص الحموي ، وجعله بين يديه ، فكتب الى ولده وذوابه يأمرهم بصلح الفرنج على مايريدون ، فصالحوهم على سرمين والجزر وليلون وأعمال الشمال على أنها للفرنج ، وما حول حلب للفرنج منه النصف ، حتى أنهم ناصفوهم في رحى الغربية(١١١) وعلى أن يهدم تل هراق بحيث يبقى للفئتين فيه حكم ، وطلبوا الأثارب فأجاب ايلغازي الى ذلك ، فامتنع من كان فيها من التسليم فبقيت في ايدي المسلمين .

وكان الذي تولى الصلح جوسلين وجفري ، وكان بغدوين في القدس ، فلما وصل رضي بذلك ، وشرع في عمارة دير خراب قديم ، بالقرب من سرمدا (١١٢) . وحصنه ثم أطلقه لصاحب الاثارب سيرالان دمسخين .

وأمر أيلغازي ولده باخراب قلعة الشريف المجددة بحلب واخراج من كان فيها من جند رضوان ، فأخرجهم شمس الدولة وابن قرناص بعذر الاغارة على أعمال الفرنج ، وأغلقت أبواب حلب في وجوههم ، وتولى الرئيس مكي بن قرناص خرابها في جمادى الآخرة .

واستنجد الملك طغرل بايلغازي بن أرتق على الكرج وملكهم داود ، فسار اليه في عالم عظيم ومعه دبيس بن صدقة ، فكسرهم المسلمون ، ودخلوا وراءهم في الدرب ، فكر الكرج عليهم في الدرب ، فانهزم المسلمون وتبعهم الكرج قتلا وأسرا ، ونهب لدبيس ما مقداره ثلاثمائة الف دينار ، ووصل مع نجم الدين ايلغازي الى ماردين سالما (١١٣)

وأنفذ ايلغازي الى ابنه سليمان بحلب يلتمس منه اشياء فقبح ذلك عنده ، وقيل له اشياء أوجبت عصيانه على والده ، فعصى واخرج الملوك سلطان شاه وابراهيم وغيرهما من حلب ، فمضوا الى قلعة جعبر ، ومد يده في مصادرة أهل حلب وظلمهم والفساد .

وقيل: إن دبيس بن صدقة لما سار مع ايلغازي الى الكرج سأل ايلغازي في الطريق ان يهب له حلب وأن يحمل اليه دبيس مائة ألف دينار يجمع بها التركمان ويعاضده حتى يفتح أنطاكية ، فأجابه ايلغازي الى ذلك ، وأخذ يده على ذلك .

فلما وقعت كسرة الكرج بدا له من ذلك ، فأنفذ الى ولده سليمان ، وكان خفيفا ، وقال له:« اظهر انك قد عصيت علي حتى يبطل ما بيني وبين دبيس». فحمله الجهل على أن عصى ونابذ

أباه ، ووافقه مكي بن قرناص والحاجب ناصر ، وهو شحنة حلب وغيرهما .

وقبض سليمان حجاب أبيه فصفعهم وحلق لحالهم ، ومد يده الى أموال الناس وظلمهم ، فطمع الفرنج وقربهم سليمان ، فنزلوا زردنا وعمروها لابن صاحبها كليام بن ابرص .

ثم سار الفرنج الى باب حلب ، فكبسوا في طريقهم حاضر طيء وغيرها ، فخرج اليهم الحاجب ناصر والعسكر فكسروهم وقتلوا منهم جماعة .

وخرج بغدوين في جمادى الآخرة ، فنازل خناصرة ، وأخذها وخربها ، وحمل باب حصنها الى انطاكية ، ونزل برج سينا ففعل به كذلك ، وكذلك فعل بغيرهما من حصون الذقرة والأحص ، وسبى وأحرق ونهب .

وعاد فنزل صلدع ـ على نهر قويق ـ وخرج اليه اتزر بن ترك طالبا منه الصلح مع سليمان ، فقال: «على شرط أن يعطيني سليمان الأثارب حتى أحفظه ، وأنا أذب عنه وأقاتل دونه» ، فقال له: «ما يجوز أن نسلم ثغرا من ثغور حلب في بدو مملكته ، بل التمس غير هذا مما يمكن ليوافقك عليه » فقال له:«الأثارب لا يقدر صاحب حلب على حفظها ، فاني قد عمرت عليه الحصون بما دارت ، وأنا أعلمكم أنها اليوم تشبه فرسا لفارس قد عطبت يداها ، وللفارس هري (١١٤) شعير ، يعلفها رجاء أن تبرأ ويكسب عليها ، فنفد هري الشعير ، وعطبت الفرس ، وفاته الكسب » ثم رحل نحوها ، فحصرها ثلاثة أيام ، واتصل به ما أوجب رحيله الى أنطاكية .

ولما بلغ ايلغازي اصرار ولده على العصيان ضاقت عليه الارض ، وأعمل في الوصول إليه وأخذ حلب منه ، فكاتبه أقوام وعرفوه أن ما بحلب من يدفعه عنها ، فسار حتى وصل الى قلعة

جعبر فضعفت نفس ابنه سليمان عن العصيان على أبيه ، فأنفذ اليه من استحلفه على الصفح عنه والاحسان اليه وإلى من حسن له العصيان مثل ابن قرناص وناصر الحاجب ، وأكد الأيمان على ذلك .

ودخل حلب في أول شهر رمضان فخرج الناس للقائه ، ودخل الى القصر ، وأحسن الى أهل حلب ، وسامحهم بشيء من المكوس ، وصرف الشحنة الذي كان يؤذي الناس في البلد .

وقبض على الرئيس مكي بن قرناص وعلى أهله ، وشق لسانه وكحله وأخذ ما وجد له ، وسلم أخاه الى من يعذبه ويستصفي ماله .

وكحل ناصر الحاجب ،فعني به من تولى أمره فسلمت احدى عينيه ، وعرقب طاهر بن الزائر ، وكان من أعوان الرئيس مكي .

وأعاد الملوك أولاد رضوان من قلعة جعبر الى حلب ، وخطب بنت الملك رضوان ، وتزوج بها ، ودخل بها بحلب ، وولى رئاسة حلب سلمان بن عبد الرزاق العجلاني البالسي ، وولى ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار نيابته في حلب ، وصالح الفرنج مدة سنة كاملة ، وأعطاهم من الضياع ما كان في ايديهم أيام مملكتهم الاثارب وزردنا .

وسار في محرم من سنة ست عشرة وخمسمائة الى الشرق ليجمع العساكر ، فمات وزيره بحلب أبو الفضل بن الموصول في صفر وولي الوزارة ابو الرجاء بن السرطان .

وعبر ايلغازي وبلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر الفرات ــ وكان بلك غازي ابن اخيه بهرام بن ارتق ، واستدعاه من اعمال الروم وبيده عدة قلاع بالقرب من ملطية ــ وصحبتهما عدة

من التركمان دون ما جرت عادته باستصحابه ، فعزل ابا الرجاء ابن السرطان عن الوزارة ، وقبض عليه لسعاية سعي به اليه عليه .

ونزل ايلغازي زردنا ، نزل عليها في العشرين من جمادى الأولى ، وحصرها أياما وأخذ حوشها ، وكان صاحبها قد سمع حين عبر ايلغازي الفرات انه ينزلها ، فجمع اصحابه واستحلفهم على المصابرة من وقت نزولهم عليها مدة خمسة عشر يوما و حلف هو لهم على ان ينجدهم ، ومضى على أن يستجيش ، فان جازت هذه المدة ولم يصلهم فانه يبتاع دماءهم بكل ما يملكه ، وقال لهم: «والله لكم علي من الشاهدين ، لئن لم يخلصكم الا اسلامي ان قبله اسلمت على يديه لخلاصكم».

وخرج حتى وصل الى بغدوين صاحب انطاكية ، وهو بأكناف طرابلس في حكومة بينه وبين صاحبها ، فأخبره بعبور ايلغازي وبما بلغه من قصده زردنا ، فقال: «مذ حلفنا له وحلف لنا ما نكثنا و حفظنا بلده في غيبته ونحن شيوخ ، وما أظنه يغدر ، بل ربما قصد طرابلس أو قصدني في القدس ، لانني ما صالحته الا على انطاكية واعمالها ، بل يجب ان تعود الى أفامية وكفرطاب وتكشف ما يتجدد». فعاد وكشف الأمر .

وسير الى بغدوين فأعلمه بنزوله على زردنا ، فصالح صاحب طرابلس ، وشرط عليه الوصول اليه ، ووصل أنطاكية ، واستدعى جوسلين ، ونصب المسلمون مجانيق أربعة على زردنا ، وأخذوا الفصيل الاول ، فوصل الفرنج بعد أربعة عشر يوما من منازلة المسلمين لها ، فنزلوا تحت الدير .

وبلغ الخبر ايلغازي ، فترك ، زردنا وتوجه نحوهم ، فنزل ذواز ، وطلب ان يخرج الفرنج من المضيق الى السعة فلم يخرجوا ، فرحل الى تل السلطان ، وأتابك طغتيكن في صحبته ، فخرج الفرنج فنزلوا على ذواز وهجموا ربض الاثارب وأحرقوا البيدر والجدار .

ودخل صاحبها يوسف ميرخان قلعتهـا ، ونزلوا أبين ، ورحلوا منها فنزلوا دانيث ، واقاموا عليها فلم يصـلهم أحـد ، فعادوا الى بلادهم ، فعاد ايلغازي فنزل زردنا ، وهجم الحوش الثاني ، وقتل جماعة من الفرنج .

فعاد الفـرنج ونزلوا تحـت الدير ، فـرحل ايلغـازي الى ذواز ، وأقام ثلاثة ايام يزاحـف الفـرنج وهـم لا يخـرجون الى الصحراء ، فاتفق أن أكل ايلغازي لحم قـديد كثيرا وجـوزا أخضر وبطيخا وفواكه ، فانتفخ جوفه وضـاق نفسـه ، واشـتد بـه الأمر ، فرحل الى حلب ، وتزايد بـه المرض ، فسـار طغتيكن الى دمشق وبلك غازي الى بلاده .

ودخل ايلغازي ليتـداوى بحلب ، فنزل القصر ، ولم يخلص مـن علته ، وخرج عسكر حلب في ألف فارس الى نبـل (١١٥) مـن عمـل عزاز ، ومعهم أمراء منهم دولت بن قتلمش ، فنهبوا وعادوا ، فوقع عليهـم عند حـربل (١١٦) كليام في أربعين فـارسا ، فـانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة .

وفي شهر رجب من هذه السنة ظفر بلك غازي بـالعين جـوسلين وابن خالته قلران (١١٧) بالقرب من سروج ، فأسرهما وأسر ابن اخت طنكريد ، وقد كان أسره في وقعة لياون ، واشترى نفسه بـألف دينار وأسر ستين فارسا .

وطلب من جوسلين وقلران أن يسلما ما بأيديهما من المعـاقل فلم يفعلا ، وقالا: «نحن والبلاد كالجمال والحدج ، متى عقر بعير حول رحله الى آخر ، والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا ».فأخذهما ومضى الى بلده .

ووصل الفرنج بعد ذلك من تل باشر في شـعبان ، وكبسـوا تـل قباسين (١١٨) ، فخرج النائب بيزاعا مع أهلهـا فـالتقوا ، وانهـزم المسلمون وقتل منهم تسعون رجلا .

وأما ايلغازي فأقام أياما ، وصلح من مرضه ، وسار الى ماردين ، ثم خرج منها يريد ميافارقين ، فاشتد مرضه في الطريق ، وتوفي بالقرب من ميافارقين بقرية يقال لها «عجولين» ، في أول شهر من رمضان من سنة ست عشرة وخمسمائة .

وملك ابنة سليمان ميافارقين ، وابنه تمرتاش ماردين ، وابن اخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق حلب ، ولما سمع صاحب انطاكية بوفاته حشد عسكره وجماعة من الأرمن ، ونزل وادي بزاعا ، وعاث فيه وأفسد ما قدر عليه ، وحمل اليه أهل «الباب» من الوادي مالا وخدموه .

فرحل الى بالس وقاتلها بالمنجنيقات ، وقرروا على بالس مع ابن مالك مالا يحمل اليه ، فأسرف في الطلب وكان ببالس جماعة من التركمان ومن خيل حلب ، فخرج اهلها والخيل التي عندهم واقتتلوا ، فقتل من الفرنج جماعة من المقدمين ، وظفر المسلمون أحسن ظفر .

فرحل بغدوين الى الوادي وقد وصل (سليمان بن) ايلغازي فحصر البيرة (١١٩) . وتسلم حصنها على أن يؤمن أهلها على انفسهم فأخذهم وسار بهم إلى أنطاكية ، وتتابعت غارات الفرنج حول حلب الى آخر سنة ست عشرة وخمسمائة .

وولى بدر الدولة سليمان الوزارة بحلب أبا الرجاء سعد الله بن هبة الله بن السرطان ، في صفر ، بعد ما قبض عليه ايلغازي – كما تقدم ذكره – وجدد بدر الدولة المدرسة التي بالزجاجين بحلب ، المعروفة ببني العجمي (١٢٠) . باشارة ابي طالب بن العجمي . وذكر لي انه عزم على ان يقفها على الفرق الأربع ، ونقل آلتها من كنيسة داثرة كانت بالطحانين بحلب .

وفي العاشر من شهر صفر من سنة سبع عشرة

وخمسمائة ، استقر الصلح بين بدر الدولة صاحب حلب وبين بغدوين صاحب انطاكية ، على ان يسلم بدر الدولة اليه قلعة الاثارب فتسلموها ، وصارت لصاحبها أولا سير الان دمسخين ، وبقيت في يده الى أن مات ، وكانت في يد الحاجب جبريل بن بـرق ، فعـزله بدر الدولة عنها شحنكية حلب .

وفي يوم الاربعاء تاسع عشر صفر ، سار بغدوين صاحب انطاكية ليقاتل نور الدولة بلك بن بهرام بن أرتق ، وكان محاصرا قلعة كركر(١٢٦) ، فالتقيا على موضع اسمه «اورش» بالقرب من قنطرة سنجة ، فكسره نور الدولة بلك ، وأسره ، وقتل معظم عسكره ومقدميه ونهب (خيمه) ، وفتح (كركر) بعد جمعة ، وكان في دون عدة الفرنج ، وجعل بغدوين في خرتبرت (١٢٢) مع جوسلين وقلران .

ثم إن نور الدولة بلك عبر الفرات ونزل على حلب وضايقها ، ونزل من قبليها ، ثم انتقل الى بانقوسا (١٢٣) وأقام اياما ، ورحل الى ارض النيرب ، وجبرين (١٢٤) ، وأمر بحرق الغلة وأخذ الدواب .

ومضى قطعة من عسكره الى حدادين(١٢٥) ، فأخذ أحدهم عنزا ، فرماه بعض فلاحي الضيعة بسهم فقتله فحصرت مغارتها وأخذت بعد ان امتنع اهلها من التسليم ، فدخنوا على المغارة فاختنق بها مائة وخمسون .

وخنق في مغارة تل عبود وتعجين جماعة وسبوا نساء عقر بوز وأولادها وباعوا بعضهم واستعبدوا بعضا، وأخذ لاهل حلب جشير خيل ثلاثمائة رأس ، وكان حريق الزرع من رهقات بلك وكان سببا للغلاء العظيم .

وفي صباح يوم الثلاثاء ، غرة جمادى الاولى من سنة سبع عشرة

وخمسمائة ، تسلم مدينة حلب سلمها اليه مقلد بن سقويق بـالامان ومفرج بن الفضل ، ونودي بشعار بلك من عدة جهات ، وكسر بـاب انطاكية ، وأخربت ثلمة من غربي باب اليهود .

وفي يوم الجمعة رابع الشهر تسلم القلعة وجلس بها بعـدما نزل بدر الدولة منها بيوم ، وقرر حالها ، وأخـرج سـلطان شـاه بـن رضوان ، وسيره الى حران ، وكان قد فتحها في شهر ربيع الآخـر خوفا منه .

ثم انه سار الى البـارة وهـجمهـا ، وأسر الاسـقف الذي بهـا وقيده ، ووكل به (١٢٨) ، ورحل الى كفرطاب فغفل الموكل به فهـرب الى كفرطاب ، فعزم على قتال حصنها واسترجاع الاسـقف في يوم الثلاثاء الثاني عشر من جمادى الآخرة .

فوصله من أخبره ان بغدوين الرويس وجـوسلين وقلران وابـن اخت طنكريد وابن اخت بغدوين وغيرهـم مـن الاسرى الذين كانوا مسجونين بجب خرتبرت عاملوا قوما مـن اهـل حصـن خـرتبرت فأطلقوهـم ، ووثبوا على الحصن فملكوه ، وأخذوا كل مـا كان لذور الدولة فيه وكان جملة عظيمة ، فقال جوسلين : «كنا قد اشرفنا على الهلاك والآن فقد خلصنا ، والصواب ان نمضي ونحمـل مـا قـدرنا عليه». فما سمحت نفس بغدوين بتـرك الحصـن والخروج منه . (١٢٩).

فاتفق رأيهم على خروج جوسلين ، وحلفوه على انه لا يغير ثيابه ولا يأكل لحما ولا يشرب الا وقـت القـربان الى أن يجمـع جمـوع الفرنجة ويصل بهم الى خرتبرت ويخلصهم .

وأما بلك فإنه سار حتى نزل على خرتبرت ففتحه بالسيف في ثالث وعشرين من رجب ، وقتل كل من كان به من اصحابه الذين كفـروا نعمته ومن كان فيه من الفرنج ، ولم يسـتبق سـوى بغـدوين الملك وقلران وابن اخت بغدوين ، وسيرهـم الى حران وحبسهم بها .

وأما جوسلين فمضى الى القدس ، واستنجد بالفرنج ، ووصلوا تل باشر ، فسمعوا خبر فتح خرتبرت بالسيف فسار الى الوادي وقاتل بزاعا واحرق بعض جدارها ثم احرق الباب وقطع شجره ، وأحرق ما سواه من الوادي .

ثم نزل حيلان (١٣٠) ثم حلب من ناحية «مشهد الجف» من الشمال ،وخرب المشاهد والبساتين ، وكسر الناس عند «مشهد طرود » بالقرب من بستان النقرة ، وقتل وسبى مقدار عشرين نفرا .

ثم رحل ونزل الجانب الغربي في البقعة السوداء ، وخرب مشاهد الجانب القبلي وبساتينه ، ونبش الضريح الذي بـ«مشهد الدكة» (١٣١) فلم يجد فيه شيئا فألقى فيه النار ، والحلبيون في كل يوم يقاتلونه أشد قتال ، ويخسر معهم في كل حركة .

ثم رحل يوم الثلاثاء مستهل شهر رمضان ، ونزل السعدي (١٣٢) ، وقطع شجره ، وافترقوا منه وسار كل الى بلده ، ووجد في المسافة في منازلهم التي نزلوها نيف وأربعون حصانا موتى ،ونبش الناس منهم موتى جماعة .

فأمر القاضي ابن الخشاب بموافقة من مقدمي حلب ان تهدم محاريب الكنائس التي للنصارى بحلب ، وأن يعمل لها محاريب الى جهة القبلة وتغير أبوابها ، وتتخذ مساجد : ففعل ذلك بكنيستهم العظمى ، وسمي مسجد السراجين (١٣٣): وهو مدرسة الحلاويين الآن . وكنيسة الحدادين : وهي مدرسة الحدادين (١٣٤) الآن ، وكنيسة بدرب الحراف : وهي مكان مدرسة ابن المقدم (١٣٥) .ولم يترك للنصارى بحلب سوى كنيستين لا غير ، وهي الآن باقية .

هذا كله ودور الدولة بلك غائب عن مدينة حلب في بلاده .

ثم إن جوسلين خرج في تاسع عشر شهر رمضان الى الوادي والنقرة والأحص ، وأخذ ما يزيد عن خمسمائة فرس كانت في العزيب

(١٣٦) ، حتى لم يبق بحلب من الخيالة خمسون فارسا لهم خيل ، وأخذ من الدواب البقر والغنم والجمال مالا يحصى ، وقتل وسبى وخرب ما امكنه وعاد الى تل باشر .

وخرج سير الان في عسكر انطاكية من الاثارب حتى وصل الحاذوته(١٣٧) وحلفا ، وأخذ ما كان بقي من خيل حلب في العزيب في الجانب القبلي ، وذلك مقدار ثلاثمائة فرس ، وأخذ قافلة كانت واصلة من شيزر بغلة .

ثم عبر جوسلين من الفرات الى شبختان واغار على تركمان وأكراد ، فأخذ من الغنم والخيل ما يزيد على عشرة آلاف وسبى وقتل ، ومن سلم له فرس من عسكر حلب يخرجون مع الحرامية ولا يقطعون الغارات على بلادهم ، ويحضرون الاسارى مرة بعد أخرى .

ثم أغار جوسلين على الجبول ، وما حولها ، واخذ دواب كثيرة وتوجه الى دير حافر ، فخنق اهلها بالدخان في المغاير ، وفتح المقابر ، وسلب الموتى أكفانهم .

وفي يوم الاربعاء سادس عشرين من ذي القعدة ، عبر بلك الى الشام وقبض على نائب بهرام داعي الباطنية بحلب ، وامر باخراجهم من حلب فباعوا اموالهم ورحالهم وخرجوا منها. ثم إن الأمير نور الدولة بلك جمع العساكر ، ووصله اتابك طغتكين بعسكر دمشق وعسكر آق سنقر البرسقي ، وعبروا حتى نزلوا على عزاز ، وضايقوها بالحصار ، واخذوا عليها نقوبا الى أن سهل امرها ، فتجمع الفرنج وقصدوا ترحيل المسلمين عنها فالتقى الجيشان ، وهزم المسلمون ، وتفرقوا بعد قتل من قتل واسر من أسر .

وعمر بلك حصن الناعورة بالنقرة وحصن المغارة - على شط

الفرات ـ وتزوج بالخاتون فرخندة خاتون بنت رضوان ، وعرس بها في ثالث وعشرين ذي الحجة من سنة سبع عشرة وخمسمائة .

وفي المحرم من سنة ثماني عشرة وخمسمائة ، تنكر بلك على رئيس حلب سلمان العجلاني وجعل عليها رجلا من اهل حران اسمه محمد بن سعدان ، ويعرف بابن سعدانة ، وكثر الأمن من الذعار وقطاع الطريق عند قدوم بلك حلب ، وأقام الهيبة العظيمة ، وتقدم بفتح ابواب حلب ليلا ونهارا ، وحسم مادة ارباب الفساد . وقال للحارس : «إن عدت سمعتك تصيح ضربت عنقك!».

ونقل بغدوين ومن كان معه من حبس حران ، فحبسه في قلعة حلب .

وتوجه في شهر صفر فرقة من اصحابه الأتراك الى ناحية عزاز ، فوقع بينهم وبين الفرنج وقعة عند مشحلا ، وظفر بهم الاتراك ، وقتلوا منهم اربعين رجلا من الخيالة والرجالة واخذوا اسلابهم ، ووصل الباقون عزاز وما فيهم الا من جرح جراحا عدة .

وانقطع المطر في كانونين ونصف شباط ، ثم تدارك فأخصب الزرع واستغل الناس ، وكان بحلب غلاء شديد .

وفي صفر من سنة ثماني عشرة وخمسمائة ، تنكر نور الدولة بلك على حسان بن كمشتكين صاحب منبج لشيء بلغه عنه ، فأنفذ قطعة من عسكره مع ابن عمه تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق ، وتقدم اليهم ان يمروا على منبج ، ويطلبوا من حسان ان يخرج معهم للاغارة على تل باشر فاذا خرج قبضوه ، ففعلوا ذلك ، ودخلوا منبج ، وعصى عليهم الحصن ودخله عيسى أخو حسان .

وسير حسان فحبس في حصن بالو (١٢٩) بعد ان عوقب وعري ، وسحب على الشوك فلم يسلمها اخوه .

وكتب عيسى الى جوسلين:« إن وصلتني وكشفت عني عسكر بلك سلمت اليك منبج ».وقيل : انه نادى بشعار جوسلين بمنبج ، فمضى الى بيت المقدس وطرابلس وجميع بلاد الفرنج ، وحشد ما يزيد على عشرةآلاف فارس وراجل ،ووصل نحو منبج ليرحل بلك عن منبج .

فسار اليه بلك لما قرب من منبج ، والتقيا يوم الاثنين ثامن عشر شهر ربيع الأول ، واقتتل العسكران ، وانهزم الفرنج ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون الى آخر النهار .

وحمل فيهم بلك ذلك اليوم خمسين حملة يفتك فيهم ويخرج سالما ، ويضرب بالسيوف ويطعن بالرماح ولايكلم ، وعاد الى الظفر بالفرنج .

واصبح يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الاول قتل كل اسير اسره في الوقعة ، ثم زحف نحو الحصن ليختار موضعا ينصب فيه المنجنيق ، وعليه بيضة وبيده ترس .

وكان قد عزم على أن يستخلف ابن عمه تمرتاش بن ايلغازي على حصار منبج ، ويطلع منجدا لاهل صور ، فان الفرنج كانوا في مضايقتها (١٤٠) . وفي تلك المضايقة اخذوها ،فبينا كان بلك قائما يأمر وينهى اذ جاءه سهم من الحصن ، وقيل: انه كان من يد عيسى ، فوقع في ترقوته اليسرى فانتزعه وبصق عليه ، وقال: «هذا قتل المسلمين كلهم » ومات لوقته .

وقيل: بقي ساعات وقضى نحبه ـ رحمه الله ـ وحمل الى حلب ، ودفن بها قبلي مقام ابراهيم ـ عليه السلام ـ

ووصل حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي الى حلب يوم الاربعاء العشرين من شهر ربيع الاول ، ودخل القلعة ونصب علمه ، ونادى الناس بشعاره .

وسار سليمان بن ايلغازي من ميافارقين الى خرتبرت وحصون بلك ، وهي نيف وخمسون موضعا فتسلمها .

وسار داود بن سكمان ، فاخذ حصن بالو وأطلق حسان بن كمشتكين فعاد الى منبج .

فأما تمرتاش فانه لما ملك حلب ألهاه الصبى واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك ، ففسدت الأحوال ، وضعف أمر المسلمين بذلك ، واستوزر ابا محمد بن الموصول ، ثم عزله وصادره في رجب من سنة ثماني عشرة واستوزر ابا الرجاء بن السرطان ، وولى الرئاسة بحلب فضائل بن صاعد بن بديع .

وسير الى حران فحمل منها سلطان شاه بن رضوان ، وكان بلك اسكنه بها ، فاعتقله في دار بقلعة ماردين وكان فيها طاقة فتدلى منها بحبل وهرب الى دارا ، ثم رحل منها الى حصن كيفا (١٤٣) الى داود بن سكمان .

وفي العشر الاواخر من ربيع الأول سار نائب جوسلين من الرها وأغار على ناحية شبختان ونهبها فسار اليها نائب تمرتاش عمر الخاص وكان نائبه وربيب أبيه ايلغازي وركب خلفه في ثلاثمائة فارس فلحقه على مرج اكساس ، فقاتله وهزمه وقتله ، وقتل اكثر من كان معه من الفرنج ، وعاد غانما ، وأنفذ رؤوسهم وما غنمه الى تمرتاش الى حلب .

وولاه تمرتاش شحنكية حلب وهو المدفون في القبة التي مقابل باب مشهد ابراهيم ـ عليه السلام ـ واسمه مكتوب على جهاتها الأربع .

وولى قلعة حلب رجلا يقال له عبد الكريم .

وفي غرة جمادى الاولى من هذه السنة استقر الأمر بين الملك بغدوين صاحب انطاكية ـ وكان في سجن بلك بحلب ـ وبين

تمرتاش بن ايلغازي على تسليم الاثارب وزردنا والجزر وكفر طاب وعلى تسليم عزاز وثمانين الف دينار وقدم منها عشرين الف دينار .

وحلف على ذلك وعلى ان يخرج دبيس بن صدقة (١٤٣) من الناس ، وكان قد وصل دبيس منهزما من المسترشد بعد ان كسره المسترشد ، وقتل خلقا من عسكره فترك بلاده ، وحمل ما قدر عليه من العين والعروض على ظهور المطايا ، ووفد على ابن سالم بن مالك بن بدران الى قلعة دوسر ، واستجار به فأجاره ، وغاضب المسترشد والسلطان محمودا في امره .

وكاتب دبيس قوما من اهل حلب ، وأنفذ لهم جملة دنانير ، وسامهم تسليمها اليه ، وكشف ذلك رئيسها فضائل بن صاعد بن بديع ، فأطلع على ذلك تمرتاش بن ايلغازي ، فأخذهم وعذبهم وشنق بعضهم ، وصادر بعضا ، وأحرق بعضا .

وكان المتوسط حديث بغدوين مع تمرتاش الامير أبو العساكر سلطان بن منقذ ، وسير أولاده وأولاد اخوته رهنا عن بغدوين الى حلب .

وفكت قيود بغدوين وأحضر الى مجلس تمرتاش ، وتواكلا وتشاربا وخلع عليه قباء ملكيا وقلنسوة ذهب وخفافا ورانا (١٤٤) . وأعيد عليه الحصان الذي كان اخذه منه بلك يوم اسره ، فركبه وسار الى شيزر يوم الأربعاء رابع جمادى ، فبقي عند ابي العساكر حتى أحضر جماعة رهنا على الوفاء بما شرطه لتمرتاش وهم : ابنته ، وابن جوسلين ، وغيرهما من اولاد الفرنج ، وعدتهم اثنا عشر نفرا ، وحمل العشرين الف دينار التي عجلها .

وقبض صاحب شيزر الرهائن ، واطلق بغدوين من سجن شيزر ، في يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب ، فخرج ـ لعنه الله ـ وغدر بتمرتاش وأنفذ اليه يقول : «البطريرك الذي لا يمكن

خلافه سألني عما بذلت ، وماالذي استقر ، فحين سمع حديث عزاز وتسليم حصنها مني ابى ، وامرني بالدفع عنها وقال :إن خطيئتك تلزمني ، ولا اقدر على خلافه ».فترددت الرسل بينهما فلم يستقر على قاعدة .

وخالط دبيس جوسلين وبغدوين ، وصافاهم وصافوه بوساطة الامير مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر ، واتفق دبيس والفرنج على قواعد تعاهدوا عليها منها ان تكون حلب لدبيس والاموال والارواح للفرنج مع مواضع من بلد حلب تكون الفرنج ، وتقدم دبيس الى مرج دابق فخرج اليه حسام الدين تمرتاش فكسره .

وسار تمرتاش من حلب عندما علم بغدر الفرنج به الى ماردين ، في الخامس والعشرين من شهر رجب ، ليستنجد بأخيه سليمان بن ايلغازي وبجمع العساكر ، وبقي بذومنقذ رهائن بقلعة حلب عند تمرتاش ، وأولاد الفرنج رهائن عند أبي العساكر بن منقذ بشيزر .

والرسل مع هذا تتردد بين تمرتاش وبغدوين الى أن عادت الرسل في ثامن عشر شعبان مخبرة بنقض الهدنة ، ويخرج بغدوين الى ارتاح قاصدا النزول على حلب .

ورحل بغدوين من أرتاح حتى نزل على نهر قويق وافسد كل ما كان عليه ، ثم رحل فنزل على حلب ، في يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان ، وهو السادس من تشرين الأول .

وخرج دبيس وجوسلين من تل باشر ، وقصدا ناحية الوادي ، وأفسدا القطن والدخن ، وسائر ما كان به وقوم ذلك بمائة الف دينار ، ورحلا ونزلا مع بغدوين على حلب ، ووصل اليهم الملك سلطان شاه بن رضوان .

ونزل بغدوين مقدم الفرنج من الجانب الغربي من حلب في الحلبة ، ونزل جوسلين على طريق عزاز وما يجاوره يمنة ويسرة .ونزل دبيس وسلطان شاه بن رضوان مما يلي جوسلين من الشرق ، وفي صحبة دبيس عيسى بن سالم بن مالك.

ونزل يغي سيان بن عبد الجبار بن ارتق صاحب بالس مما يلي دبيس من الشرق ، وكانت عدة الخيم ثلاثمائة: الفرنج مائتا خيمة ، والمسلمين مائة خيمة .

وأقاموا على حلب يزاحفونها ، وقطعوا الشجر وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين ، وأخذوا توابيتهم الى الخيم ، وجعلوها أوعية لطعامهم ، وسلبوا الاكفان وعمدوا الى من كان من الموتى لم تتقطع أوصاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين .

وجعلوا يقولون : «هذا نبيكم محمدا» وآخر يقول: هذا عليكم وأخذوا مصحفا من بعض المشاهد بظاهر حلب وقالوا : «يا مسلم ابصر كتابكم» وثقبه الفرنجي بيده ، وشده بخيطين ، وعمله ثفرا (١٤٥) لبرذونه ، فظل البرذون يروث عليه ، وكلما ابصر الروث على المصحف صفق بيديه وضحك عجبا وزهوا .

واقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه الى المسلمين ،والمسلمون يفعلون بمن يأسرونه من الفرنج كذلك .

وربما شنق المسلمون بعضهم ويخرج الغزاة من باب العراق ، ويسرقونهم من المخيم ، ويقطعون عليهم الطرق ، ويقتلون ويأسرون .ويصيح المسلمون على دبيس من الأسوار : «دبيس ، يا نحيس»! والرسل تتردد بينهم في الصلح ، ولا يستتب الى ان ضاق الأمر بالمسلمين جدا .

وكان بحلب بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار والحاجب عمر

الخاص ، ومعهما مقدار خمسمائة فارس ، والذي يتولى تـدبيرها وهو في مقام الرئاسة القاضي ابو الفضل بن الخشاب ، وتولى حفظ المكان وبذل المال والغلال .

فاتفقوا على ان سيروا جد أبي قاضي القاضي أبا غانم محمد بـن هبة الله بن أبي جرادة ونقيب الاشراف وابـا عبـد الله بـن الجلي فخرجوا ليلا ، ومضوا إلى تمرتاش إلى ماردين مسـتصرخين اليه ومستغيثين به فوجدوه وقد مات اخوه سليمان بن ايلغازي صـاحب ميافارقين في شهر رمضـان ، وسـار تمـرتاش الى بـلاده ليملكها ، واشتغل بملك تلك البلاد عن حلب .

وكانت الرسل متـرددة بينه وبين اق سـنقر البـرسقي صـاحب الموصل في اتفاق الكلمـة على قصـد الفـرنج وكشـفهم عن حلب ، فاشتغل بهذا الامر عن هذا التقرير ، والحلبيون عنده يمنيهم ويمطلهم .

ولما خرج الحلبيون من حلب بلغ الفرنج ذلك فسيروا خلفهـم مـن يلحقهم ، فلم يدركهم واصبحوا في صـباح تلك الليلة وصـاحوا الى اهل حلب : «أين قاضيكم؟ وأين شريفكم؟» فأسقط في ايديهم الى ان وصل منهم كتاب بخبر سلامتهم .

وبقي الحلبيون عند تمرتاش يحثونه على التوجه الى حلب ، وهـو يعدهم ولا يفعـل ، وهـم يقـولون له: «نريد منك ان تصـل بنفسك ، والحلبيون يكفونك أمرهم ».

فضاق الامر بالحلبيين الى حد أكلوا فيه الكلاب والميتات ، وقلت الاقوات ونفد ما عندهم، وفشا المرض فيهم ، فكان المرضى يئنون لشدة المرض ، فاذا ضرب البوق لزحف الفرنج قـام المرضى كأنمـا أنشطوا من عقال ، وزحفوا الى الفرنج وردوهـم الى خيامهم ، ثـم يعودون إلى مضاجعهم .

فكتب جدي أبو الفضل هبة الله بن القاضي ابي غانم كتابا الى والده يخبره بما آل امر حلب اليه من الجوع ، وأكل الميتات ، والمرض فوقع كتابه في يد تمرتاش فغضب وقال: «انظروا الى هؤلاء يتجلدون علي ، ويقولون اذا وصلت فأهل حلب يكفونك أمرهم ، ويغررون بي حتى في أصل قلة ، وقد بلغ بهم الضعف الى هذه الحالة ».

ثم أمر بالتوكيل والتضييق عليهم فشرعوا في اعمال الحيلة والهرب الى آق سنقر البرسقي ، يستصرخوا به فاحتالوا على الموكلين بهم ، حتى ناموا وخرجوا هاربين ، فأصبحوا بدارا (١٤٦) وساروا حتى اتوا الموصل ، فوجدوا البرسقي مريضا مدنفا ، والناس قد منعوا من الدخول عليه الا الأطباء ، والفروج يدقق له لشدة الضعف ، ووصل الى دبيس من أخبره بذلك ، فضرب البشارة في عسكره ، وارتفع عنده التكبير والتهليل ، ونادى بعض أصحابه أهل حلب : قد مات من أملتم نصره ، فكادت انفس الحلبيين تزهق .

واستؤذن للحلبيين على البرسقي فأذن لهم ، فدخلوا اليه ، واستغاثوا به ، وذكروا له ما أهل حلب فيه من الضر ، فأكرمهم ـ رحمه الله ـ وقال لهم: « ترون ما انا فيه الآن من المرض ، ولكن قد جعلت لله علي نذرا ان عافاني من مرضي هذا لابذلن جهدي في امركم ، والذب عن بلدكم ، وقتال اعدائكم ».

قال القاضي ابو غانم قاضي حلب : فما مضى ثلاثة ايام بعد ذلك حتى فارقته الحمى ، فأخرج خيمته ، ونادى في العساكر بالتأهب للجهاد الى حلب .

وبقي اياما وعمل العسكر اشغاله وخرج ـ رحمه الله ـ في عسكر قوي ، فوصل الى الرحبة ، وكاتب اتابك طغتكين صاحب دمشق وصمصام الدين خيرخان بن قراجا صاحب حمص .

ورحل الى بالس ، وسار منهـا الى حلب فـوصلها يوم الخميس اثمان بقين من ذي الحجة من سنة ثماني عشرة .

ولما قرب من حلب رحل دبيس ناشرا اعلامه البيض الى الفـرنج عند قربه من حلب ، وتحولوا الى جبـل جـوشن كلهـم ، وخـرج الحلبيون الى خيامهم فنهبوها ونالوا منها ما أرادوا .

وخرج أهل حلب والتقوا قسيم الدولة عند وصوله ، وسار نحـو الفرنج فانهزموا بين يديه من جبل جوشن وهو يسير وراءهـم على مهل حتى ابعدوا عن البلد .

فأرسل الشـالشية (١٤٣) ، وأمـرهم ان يردوا العسـكر فجعـل القاضي ابن الخشاب يقول له: «يامولانا لو سـاق العسـكر خلفهـم أخذناهم ، فأنهم منهزمون والعسكر محيطة بهم». فقال له: «يا قاضي تعلم ان في بلدكم ما يقوم بـكم وبعسـكري لو قـدر علينا - والعياذ بالله - كسرة؟» فقال: «لا». فقـال: «مـا يؤمننا ان يرجعـوا علينا ويكسرونا ، ويهلك المسلمون ، ولكن قد كفى الله شرهم وندخل الى البلد ونقويه وننظر في مصالحه ، ونجمع لهم انشـاء الله ، ونخـرج اليهم بعد ذلك». (١٤٨)

ورجع ودخل البلد وتسـلم قلعتهـا ، ونظـر في مصـالح البلد وقواه ، وأزال الظلم والمكوس وعدل فيهم عدلا شاملا وأحسن اليهم احسانا كاملا .

وكتب لأهل حلب تـوقيعا بـاطلاق المظـالم والمكوس ، نسـخته موجودة ، بعدما كان الحلبيون منوا به من الظلم والمصادرة من عبـد الكريم والي القلعة ، وعمر الخاص والي البلد ، وتسـليطهما الجند والاتراك على مصادرة الناس بحيث انهم استصفوا أموال جمـاعة من الاكابر والصدور وغيرهم في حالة الحصار .

واما الفرنج فإنهم توجهوا الى الاثارب ودخلوا انطاكية .

وشرع الناس في الزرع ببلد حلب في الثامن عشر من شباط وجعلوا يبلون الغلة بالماء ، ويزرعونها فنبتت وتداركت عليها الأمطار فأخصبت ، وجاءت الغلة من أجود الغلال وأزكاها

وأطلق البرسقي بني منقذ من الاعتقال بقلعة حلب ، ورحل الى تل السلطان في سنة تسع عشرة وخمسمائة ، في أواخر المحرم ، وأقام به ثلاثة ايام ، ورحل الى ان وصل الى شيزر في سابع صفر ، وتسلم أولاد الفرنج من ابن منقذ ، وباعهم بثمانين الف دينار حملت إليه .

وأقام بأرض حماة أياما حتى وصل اليه اتابك طغتيكن ، فرحل في عساكره التي لا تحد كثرة ، ونزل كفرطاب فسلمت اليه يوم الجمعة ثالث شهر ربيع الآخر ، وسلمها الى صمصام الدين خيرخان بن قراجا ، وكان قد وصل اليه من حمص والتقاه بتل السلطان .

وسار الى عزاز وقاتلها ، ونقبت قلعتها فقصدهم الفرنج ، فالتقوا سادس عشر ربيع الآخر ، وكسر البرسقي كسرة عظيمة ، واستشهد جماعة من المسلمين من السوقة والعامة ، ولم يقتل من الامراء والمقدمين أحد .

ووصل أق سنقر البرسقي سالما الى حلب ، واقام على قنسرين اياما ، وتفرقت العساكر الى بلادهم ، ووصل امير حاجب صارم الدين بابك بن طلماس ، فولاه البرسقي حلب وبلدها ، وعزل عنها سوتكين واليا كان ولاه .

ووقعت الهدنة بين البرسقي والفرنج على أن يناصفهم في جبل السماق وغيره مما كان بأيدي الفرنج ، وسار البرسقي الى الموصل فلم يزل الفرنج يعالون الشحن والمقطعين بالمحال في مغل ما وقعت الهدنة عليه الى العشرين من شعبان من السنة .

وسار بغدوين الى بيت المقدس والرسول خلفه يعلمه بأن الفرنج لا يمكنون احدا من رفع شيء من الصيافي ، وأخذ بعض متصرفي المسلمين بعض الارتفاع من بعض الاماكن والهدنة على حالها ، فتجمع الفرنج ونزلوا رفنية .

وخرج شمس الخواص صاحبها طالبا أق سنقر البرسقي مستصرخا به ، وسلمها اليه ولده المستخلف فيها في آخر صفر من سنة عشرين وخمسمائة ، وقصدوا بلد حمص فشعثوه .

فجمع البرسقي العساكر وحشد ، وسار نحو الشام لحربهم حتى وصل الرقة في أواخر شهر ربيع الآخر ، وسار الى أن نزل بالنقرة على الناعورة في الشهر المذكور وأقام به اياما والفرنج يراسلونه ، فراسله جوسلين على أن تكون الضياع ما بين عزاز وحلب مناصفة وأن يكون الحرب بينهما على غير ذلك ، فاستقر هذا الأمر .

وكان بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار وشهريار بك ابن عمه ، قد توجها مع جماعة من التركمان الى المعرة فأوقعوا بعسكر الفرنج ، وقتل المسلمون منهم مائة وخمسين ، وأسروا جفري بلنك ، صاحب بسرفوث ، من جبل بني عليم ، وأودع في سجن حلب .

وكان قد سير البرسقي ولده عز الدين مسعودا منجدا لصاحب حمص ، فاندفع الفرنج عنها فعاد عز الدين الى والده ، فتركه بحلب ، وعزل بابك عن ولايتها وولاها كافور الخادم الى أن ينظر فيمن يوليه إياها ولاية مستقلة .

ورحل قسيم الدولة الى الاثارب في الثامن من جمادي الآخرة من سنة عشرين ، وسير بابك بن طلماس في جماعة من العسكر والنقابين الى حصن الدير المجدد فوق سرمدا ففتحه سلما .

وقتل من الخيالة بعد ذلك خمسون فارسا ، ونهب العساكر الغلال والفلاحين في سائر البلد الذي وصلت الغارات اليه ، ورفعوا الغلة جميعها الى حلب ، وزحفوا الى قلعة الأثارب ، وخربوا الحوشين ، ولم يتيسر فتحها .

ووصل بغدوين من القدس في جموع الفرنج ، ووصل اليه جوسلين ، ونزلوا عم(١٤٩) وأرتاح ، وسيروا الى البرسقي : «ترحل عن هذا الموضع ، ونتفق على ما كنا عليه في العام الخالي ، ونعيد رفنيه عليك » ،فتجنب الحرب ، وخشي أن يتم على المسلمين ما تم على عزاز فصالحهم الى أن فرج الخناق عن الاثارب ، وخرج صاحبها بماله ورجاله .

فغدر الفرنج وقالوا: «ما نصالح الا على ان تكون الاماكن التي ناصفنا فيها في العام الماضي لنا دون المسلمين ». فامتنع من ذلك وأقام على حلب اياما والرسل تتردد بينهم ، فلما لم تتفق حال عاد أق سنقر ، ونزل قنسرين ، ورحل الى سرمين ، وامتدت العساكر الى الفوعة ودانيث .

ونزل الفرنج على حوض معرة مصرين ، فأقاموا كذلك الى نصف رجب ، ونفدت أزواد الفرنج ، فعادوا الى بلادهم ، ثم عاد البرسقي وفي صحبته اتابك طغتيكن ، وكان وصل اليه وهو على قنسرين فدخلوا من العسكر ونزلوا باب حلب .

ومرض اتابك فعملت له المحفات ، وأوصى الى البرسقي ، وتوجه الى دمشق ، وسلم البرسقي حلب وتدبيرها الى ولده عز الدين مسعود ، فدخل حلب ، وأجمل السيرة وتحلى بفعل الخير .

وسار أبوه الى الموصل ، فدخلها في ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة ، وقصد الجامع بها ليصلي فيه يوم الجمعة تاسع ذي القعدة ، وقصد المنبر ، فلما قرب منه وثب عليه ثمانية نفر في زي الزهاد ، فاخترطوا خناجر وقصدوه وعليه درع من

الحديد ، وحوله جمع عظيم وهو محتفظ منهم ، فسبقوا أصحابه اليه ، فضربوه حتى أثخنوه وحمل جريحا فمات من يومه .

وقتل من كان وثب عليه من الباطنية غير شاب واحد كان من كفر ناصح ـ ضيعة من عمل عزاز ـ فإنه سلم ، وكان له ام عجوز فلما سمعت بقتل البرسقي وقتل من وثب عليه وكانت قد علمت ان ابنها معهم فرحت واكتحلت وجلست مسرورة فوصلها ابنها بعد أيام سالما فأحزنها ذلك ، وجزت شعرها وسودت وجهها .

وقيل:إن البرسقي قتل بيده منهم ثلاثة ، وكان البرسقي ـ رحمه الله ـ قد رأى تلك الليلة في منامه عدة من الكلاب ثاروا به فقتل بعضها ، ونال منه الباقون اذى شديدا ، فقص رؤياه على اصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام ، فقال: «لا اترك الجمعة لشيء أبدا » ، وكان من عادته ان يحضر الجمعة مع العامة ـ رحمه الله ـ وكان وزير البرسقي المؤيد بن عبد الخالق وكان قدم معه حلب حين قدمها .

وملك عز الدين مسعود حلب عند ورود الخبر عليه بقتل أبيه في سنة عشرين ، واستوزر المؤيد وزير أبيه وولى فيها من قبله الأمير تومان .

وسار من حلب في سنة احدى وعشرين وخمسمائة الى السلطان محمود وهو ببغداد ، فسأله ان ينعم عليه ببلاد أبيه ، فكتب له منشورا بذلك ، فوصل الى الموصل وملكها ، ثم نزل الى الرحبة قاصدا الى الشام ، وكان يظن ان قاتل ابيه قوم من أهل حماة ، فأضمر للشام وأهله شرا عظيما .

ورجع عما كان عليه من الافعال المحمودة والاقبال على مجاهدة الفرنج ، وبلغ طغتيكن عنه انه يقصده ، فتأهب له فلما نزل بظاهر الرحبة امتنع واليها من تسليمها ، فحاصرها اياما فسلمها الوالي اليه ، ونزل فوجده قد مات فجأة ، وقيل: سقي سما فمات .

وندم الوالي على تسليم الرحبة ، وكان قد وصلت قطعة من العسكر لتقوية حلب ، فمنعهم تومان من الدخول اليها ، فوقع الشر بينه وبين رئيس حلب فضائل بن بديع ، وداخلهم الى حلب .

فوصل الى حلب ختلغ ابه (١٥١) السلطاني غلام السلطان محمود ، ومعه توقيع مسعود بن البرسقي بحلب ، كتبه قبل وصوله الى الرحبة فلم يقبله تومان والي حلب فعاد ختلغ ابه الى الرحبة ، - وقد جرى فيها ما ذكرناه من موت مسعود .

فعاد ختلغ ابه على فوره الى حلب فتسلمها من يد تومان ، آخر جمادى الآخرة ، وصعد الى قلعتها بطالع اختاره له المنجمون ، فأخذه الطمع في أموال الناس وصادر جماعة من أهل حلب ، واتهمهم بودائع المجن الفوعي ، رئيس حلب المقتول في أيام رضوان .

وقبض على شرف الدين أبي طالب بن العجمي وعمه ابي عبد الله ، واعتقلهما بحلب ، وثقب كعاب أبي طالب وصادره ، فعاد فعله القبيح عليه بالبوار ، وضل رأي منجمه في ذلك الاختيار .

وقام أهل حلب عليه فحصروه ، وقدموا عليه بدر الدولة سليمان ابن عبد الجبار ، ونادى أهل حلب بشعار بدر الدولة ، وساعده على ذلك رئيس حلب فضائل بن صاعد بن بديع ، وقبض على أصحاب ختلغ ابه ، وذلك في الثاني من شوال .

وقصد حلب في تلك الحال ملك أنطاكية وجوسلين فصانعوه على مال حتى رحل (١٥٢) ، وضايقوا القلعة واحرقوا القصر ، ودخل اليهم الى المدينة الملك ابراهيم بن رضوان ، ووصل اليهم حسان صاحب منبج ، وصاحب بزاعا ، ودام الحصار الى النصف من ذي الحجة .

وكان أتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر ، قد ملك

الموصل بتواقيع السلطان محمود ، فسير اليه شهاب الدين مالك صاحب قلعة جعبر ، واعلمه بأحوال حلب وحصارها ، فسير أتابك اليها عسكرا مع الأمير سنقر دراز والامير الحاجب صلاح الدين حسن (١٥٣)

ودخل الامير صلاح الدين فأصلح الحال ، ووفق بينهما على أن استدعيا اتابك زنكي من الموصل ، فتوجه بالجيوش الى حلب ، وقيل:إن بدر الدولة وختلغ سارا اليه .

وقيل:إن ختلغ ابه لم يزل بالقلعة حتى وصل اتابك فنزل اليه ، وصعد اتابك الى القلعة ، يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة ، من سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، وارتاد موضعا ينقل اباه قسيم الدولة اليه ويدفنه به ، وكان مدفونا بالقبة التي على جبل قرنبيا ، فعرض عليه بدر الدولة نقل ابيه الى المدرسة التي انشأها بالزجاجين .

وقيل:إن ابا طالب بن العجمي طلب منه ذلك ، فنقله ورفعه في الليل من سور حلب ، ودفنه في البيت الشمالي من المدرسة(١٥٤)، واتخذه تربة لمن يموت من اولاده ، ووقف على المقرئين على تربة والده القرية المعروفة بشامر (١٥٥) .

وأما الملك ابراهيم بن رضوان فانه هرب منه الى نصيبين ، وكانت في اقطاعه الى ان مات .

واما ختلغ ابه فانه سلمه الى فضائل بن بديع فكحله (١٥٦) بداره ، ثم قتله اتابك بعد ذلك .

وقيل: إن بدر الدولة هرب منه عند ذلك ، وهرب فضائل بن بديع الى قلعة ابن مالك خوفا من اتابك .

وولى اتابك رئاسة حلب الرئيس صفي الدين أبا الحسن علي بن عبد الرزاق العجلاني البالسي ، فسلك اجمل طريقة مع الناس .

وخرج اتابك من حلب ، وسار حتى نزل ارض حماة ، فوصله صمصام الدين خيرخان بن قراجا ، وتأكدت بينهما مودة لم تحمد عاقبتها ، فيما نذكره بعد ـ وكذلك وصله سونج ابن تاج الملوك .

ثم سار اتابك (١٥٧) بعد ذلك ، فوطىء بساط السلطان ، في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، وعاد بالتواقيع السلطانية بملك الغرب كله ، ودخل الموصل ثم فتح قلعة السن ، وتوجه الى حلب ، ورعى عسكره زرع الرها .

وعبر أتابك الفرات الى حلب بتوقيع السلطان محمود ، وقد كان السلطان آثر ان تكون البلاد لدبيس ، فقبح المسترشد ذلك ، وكاتب السلطان وقال له فيما قال:ان هذا أعان الفرنج على المسلمين وكثر سواد الكفار ، فبطل هذا التدبير.

واستقر ملك اتابك بالموصل ، والجزيرة ، والرحبة ، وحلب ، والتوقيع له بجميع البلاد الشامية وغيرها .

وتزوج أتابك خاتون بنت الملك رضوان ، وبنى بها في دير الزبيب (١٥٩) ، وكانت معه الى ان فتح الخزانة بحلب ، واعتبر ما فيها ، فرأى الكبر (١٦٠) الذي كان على ابيه آق سنقر ، حين قتله تتش جدها ، وهو ملوث بالدم ، فهجرها من ذلك اليوم .
وقيل :إنه هدم المشهد الذي على قبر رضوان ، عند ذلك .

ودام اتابك مهاجرا لها الى ان دخلت على القاضي أبي غانم قاضي حلب ، وشكت حالها ، فصعد اليه وكان جبارا الا انه ينقاد الى الحق ، وإذا خوف بالله خاف ،فخرج ليركب ، فلما ركب ذكر له القاضي ما ذكرته خاتون ، فساق دابته اتابك ، ولم يرد عليه جوابا ، فجذب القاضي أبو غانم بلجام دابته ، فوقفت ، وقال له :

«يا مولانا ، هذا الشرع لا ينبغي العدول عنه » ، فقال له أتابك : «اشهد علي انها طالق» ، فأرسل الجام وقال : «أما الساعة فنعم»!.

واستوحش الأمير سوار بن ايتكين من تاج الملوك بوري صاحب دمشق ، وكان في خدمته ، فورد الى حلب الى خدمة أتابك ، في سنة اربع وعشرين ، فأكرمه وشرفه ، وخلع عليه ، وأجرى له الاقطاعات الكثيرة ، وأعطاه ولاية حلب واعمالها ، واعتمد عليه في قتال الفرنج ، وكان له بصيرة بالحرب وتدبير الأمور ، وله وقعات كثيرة مع الفرنج ومواقف مشهورة ابسان فيها عن شجاعة واقدام ، وصار له بسببها الهيبة في قلوب الكفار الأغتام .

وعزم اتابك في السنة على الجهاد ، وكتب الى تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق ، يلتمس منه المساعدة ، فأجابه الى ذلك وتحالفا على الصفاء .

وكتب تاج الملوك الى ولده بهاء الدين سونج بحماة ، يأمره بالخروج بعسكره ، وجهز اليه من دمشق خمسمائة فارس ، وجماعة من الامراء مقدمهم شمس الخواص ، فخرجوا حتى وصلوا الى مخيم اتابك على حلب ، فأكرمهم وتلقاهم ، وأقاموا عنده ثلاثا ، ثم أظهروا الغارة ، على عزاز ، وركبوا وعطفوا على سونج ، وغدر به وبأصحابه ، ونهب خيامهم وأثقالهم وكراعهم ، وهرب بعضهم ، وقبض على سونج والباقين ، وحملهم الى حلب ، واعتقلهم فيها .

وسار من يومه الى حماة فأخذها يوم السبت ثامن شوال ، وأقام بها اياما ، وطلبها خير خان بن قراجا صاحب حمص ، وبذل عليها مالا ، فسلمها اليه بكرة الجمعة رابع عشر شوال ، وضربت بوقاته عليها ، وخطب له الخطيب على المنبر ، فلما كان وقت العصر من ذلك اليوم قبض عليه ونهب خيامه وجميع ما فيها .

وسار فنزل حمص ، فقاتلها أربعين يوما لم يظفر فيها بطائل غير الربض ، وكان يربط خير خان على غراير التبن ، ويعاقبه ويعذبه انواع العذاب ، وانتقم الله منه ببعض ظلمه في الدنيا ، وهو كان يحرض اتابك على الغدر بسونج ، فكافأه الله .
وهجم الشتاء فعاد اتابك الى حلب في ذي الحجة .

وملكت أنطاكية زوجة البيمند بنت بغدوين ، وحالفت جماعة من الفرنج على قتال أبيها ، ووقع بين الفرنج شر .(١٦٢) وهجم المسلمون ربض الأثارب ، وربض معرة مصرين ، فوصل بغدوين من البيت المقدس ، وأغار على انطاكية واخذ قوما من أصحاب ابنته ، فقطع أيديهم وأرجلهم .

وفتح قوم من السرجندية (١٦٣) باب انطاكية ، فدخلها في سنة خمس وعشرين ، فطرحت ابنته نفسها عليه ، فصفح عن ذنبها ، وأخذ انطاكية ، ووهبها جبلة واللاذقية ، وعاد الى القدس .

وتوجه اتابك الى الموصل في سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، واستصحب معه سونج بن تاج الملوك ، وبعض المقدمين من عسكر دمشق ، وترك الباقين بحلب ، وترددت المراسلات في اطلاقهم ، فلم يفعل ، والتمس عنهم خمسين الف دينار اجاب تاج الملوك الى تحصيلها وحملها .

ووقع في هذه السنة وقعة بين جوسلين وسوار ، بناحية حلب الشمالية ، فكانت الغلبة لجوسلين ، وقتل من المسلمين جماعة ، وخرج سوار بعد ذلك فهجم ربض الاثارب ونهبه .

ووصل دبيس في هذه السنة منهزما من المسترشد ، وكان قد كسره عسكر المسترشد في هذه السنة ، فانهزم وخفي خبره عن كل أحد ، فظهر بعد مدة انه وصل الى قلعة جعبر ، وأودع ابن السلطان

عند مالك صاحبها ، وسار الى جوسلين ، واستند الى الفرنج فلم ير ما يعجبه .

وكاتب تمرتاش ثم خاف من غدره ، وأن يفادي به خيرخان ، فسار الى بلد دمشق ، فنزل ضالا على مكتوم بن حسان .

وقيل: كان سائرا الى صاحبة صرخد ليتزوجها ، فضل في الطريق ، ولم يكن معه دليل عارف بالمناهل .

وقيل: كان قاصدا حلة مرى ، فهلك اكثر اصحابه .

وحصل في حلة حسان كالمنقطع الوحيد في نفر يسير من اصحابه ، فأنهض تاج الدولة بوري العسكر اليه حينما سمع به ، فأسره ، ووصلوا به الى دمشق ، لست خلون من شعبان سنة خمس وعشرين ، (١٦٤) وأنزله في دار بقلعة دمشق ، وأكرمه واضافه ، وحمل اليه من الملبوس والمفروش ما يليق به ، واعتقله اعتقال كرامة .وكاتب المسترشد في أمره ، فرد عليه الجواب بالاحتياط عليه الى ان يصل من يحمله الى بغداد .

فلما عرف اتابك زنكي ذلك ، انفذ رسوله الى تاج الملوك يطلب تسليم دبيس اليه ، وأن يطلق له الخمسين الف دينار المقررة عن ولده سونج وبقية العسكر ، فأجاب الى ذلك ، وتقرر الشرط عليه .

ووصل اتابك زنكي الى قريب قارا بسونج والمعتقلين ، وتوجه أصحاب تاج الملوك بدبيس فتسلمه زنكي ، وحمله في محفة مقيدا ، وسلم سونج بن تاج الملوك وجماعته الى اصحابه .

وكان يظن دبيس ان اتابك زنكي يهلكه ، فلما وصل إلى حلب أطلقه وأكرمه ، وانزله بحلب في دار لاجين ، واعطاه مائة الف دينار ، وخلع عليه خلعا فاخرة .

وكان عرض لدبيس في طريقه وهو مكبل بالحديد شاعر امتدحه بأبيات ، ولم يكن معه ما يجيزه ، فكتب له في رقعة هذين البيتين ، ودفعهما اليه :

الجود فعلي ولكن ليس لي مال
وكيف يصنع من بالفرض يحتال
فهاك خطي الى أيام ميسرتي
دينا علي فلي في الغيب امال

فجاءه الشاعر بحلب ، وقد خرج مسيرا في ميدان الحصا ، فقال له : «ياأمير لي عليك دين » فقال: «والله ما اعرف لاحد علي دينا » فقال: «بلى ، وشاهده مذك » ، وأخرج له خطه ، فلما وقف عليه قال: «أي والله دين وأي دين!» وأمره ان يأتي اليه اذا نزل ، فأتاه فأعطاه الف دينار والخلعة التي خلعها اتابك زنكي عليه ، وكانت جبة اطلس وعمامة شرب .

وحصل دبيس بعد ذلك عند السلطان مسعود ، في سنة تسع وعشرين ، حتى كسر مسعود المسترشد وأسره على باب مراغة .

وسير السلطان إلى اتابك زنكي يستدعيه ، وعزم على الفتك به ، وأطلع دبيس على ذلك ، فكتب الى اتابك يعلمه ويحذره من المجيء ، فامتنع ، وكان السلطان قد سير دبيسا الى الحلة ، واطلع بعد ذلك على فعل دبيس ، فرده ، وحذره الناس فلم يفعل فوصل ، فلما وصل الى الخينة قام السلطان عن السرير . وقال: «هذا جزاء من يخون مولاه » وضرب رأسه فأطاره ، فبلغ ذلك زنكي فقال: «فديناه بالمال وفدانا بالروح».

ووصل سديد الدولة بن الانباري كاتب الانشاء للمسترشد الى تاج الملوك ، في أواخر ذي القعدة لتسليم دبيس الى من يحمله الى بغداد ، فوجد الامر قد فات ، فعاد فصادفته خيل اتابك زنكي

بناحية الرحبة فأوقعوا به ، وقبضوه ، ونهبوا ما كان معه حتى نهبوا القافلة التي كانت معه ، وقتل بعض غلمانه ، ولقي شدة عظيمة من الاعتقال الى ان اطلق ، وعاد الى بغداد .

وفي سنة ست وعشرين وخمسمائة ، فتح الملك كليام رام حمدان ، وسار اتابك ودبيس الى بغداد ، مباينين المسترشد ، وعزما على ان يهجما بغداد ، فبذل لهما الحلة ، وان يدخل نائبهما بغداد ، فأبيا فخرج اليهما المسترشد بنفسه ، والتقوا في شعبان على عقر قوب فكسرهما ، وعاد أتابك زنكي إلى الموصل ، وسار دبيس الى السلطان سنجر

ووقع بين الفرنج في هذه السنة فتن ، وقتل بعضهم بعضا ، وقتل صاحب زردنا ، ونزل التركمان على بلد المعرة وكفرطاب ، وقسموا المغلات ، فاجتمع الفرنج وهزموهم عن البلد ، وفتحوا حصن قبة ابن ملاعب ، وأسروا منه بنت سالم بن مالك وحريم ابن ملاعب .

وأوقع الأمير سيف الدين سوار بفرنج تل باشر ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، ووثب قوم من أهل الجبل على حصن القدموس ، فأخذوه وسلموه الى سيف الملك بن عمرون ، فاشتراه ابوالفتح الداعي الباطني منه .

ووصل صاحب القدس الى انطاكية ، وجمع وخرج الى ذواز ، وسار الى قنسرين في جموع الفرنج ، والتقوا بعسكر حلب وسوار ، في سنة ثمان وعشرين في ربيع الاول ، فكسروا المسلمين ، وقتلوا أبا القاسم التركماني ، وكان شجاعا ، وقتلوا القاضي ابا يعلى بن الخشاب ، وغيرهما .

وتحول الفرنج الى النقرة فصابحهم سوار والعسكر ، فأوقعوا بسرية منهم ، فقتلوهم وعادوا برؤوسهم وأسرى منهم ، فسر الناس بذلك بعد مساءتهم بالأمس .

وأغارت خيل الرها من الفرنج ببلد الشمال ، وهي عابرة الى عساكر الفرنج ،فأوقع بهم سوار وحسان صاحب منبج وقتلوهم بأسرهم وحملوا الرؤوس والاسرى الى حلب (١٦٩) .

وفتح شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك حماة من يد نائب صلاح الدين ، وكان قد عزم على ذلك فتحصن واليها ، فانتهى ذلك الى شمس الملوك ، فخرج في العشر الاواخر من شهر رمضان ، وعزم على قصدها والناس بها غافلون .

وهجم يوم العيد على من فيها وزحف في الحال فتحصنوا منه ، فعاد في ذلك اليوم ، وقد نكا اصحابه في اهلها ، ثم زحف عليها زحفا قويا ، فانهزموا بين يديه ، وهجم البلد فطلبوا الامان فأمنهم ، وحلفه والي القلعة على أشياء اقترحها ، واجابه اليها وسلمها اليه ، فسلمها الى شمس الخواص

وحصر المسترشد الموصل ، وثارت الحروب بين السلاطين ، فبلغ المسترشد ما أزعجه ، فعاد عنها ، فوصل حسام الدين تمرتاش الى خدمة اتابك زنكي ، فسار معه الى لقاء داود بن سكمان بن أرتق ، فكسره أتابك بباب آمد ، وانهزم داود وأسر ولده ، وقتل جماعة من أصحابه ، وذلك في يوم الجمعة سلخ جمادى الآخرة .

ونزل على آمد وحصرها ، وقطع شجرها ، فصانعه صاحبها بمال ، فرحل عنها الى قلعة الصور ففتحها ، وفتح البارعية ، وجبل جور ، وذا القرنين ووهب ذلك كله لحسام الدين تمرتاش ، وفتح طنزة فاستبقاها لنفسه (١٧١).
وتزوج اتابك صاحبة خلاط ابنة سقمان القطبي .

واستولى اتابك على العقر (١٧٢) وشوش (١٧٣) وغير ذلك من قلاع الاكراد ، وأغار في هذه السنة سوار على الجزر وحصن زردنا ، وأوقع بالفرنج على حارم ، وشحن على بلد المعرتين ، وعاد بالغنائم الى حلب .

واستوزر زنكي في هذه السنة ضياء الدين ابا سعد الكفرتوثي ، وكان مشهورا بحسن الطريقة والكفاية وحب الخير والمذهب الحميد . وقدم معه الى حلب . وعزم على قصد دمشق ومضايقها .

وذكر العظيمي في تاريخه : «انه حصرها في هذه السنة مدة ، (١٧٤) ثم رحل الى حلب ، ثم شرق الى الموصل».
والصحيح: أنه حصرها في سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وذلك ان صاحبها شمس الملوك ابا الفتح اسماعيل بن بوري ، انهمك في المعاصي والقبائح ، وبالغ في الظلم ، وأعرض عن مصالح الدين والنظر في أمور المسلمين ، بعد اهتمامه أولا بذلك .

واستخدم بين يديه رجلا كرديا – يعرف ببدران الكافر – جاءه من بلد حمص ، وكان قليل الدين متنوعا في أبواب الظلم ، ليس في قلبه لاحد رحمة ، فسلطه على ظلم المسلمين ومصادرة المتصرفين بأنواع قبيحة من الظلم ، وظهر منه بخل عظيم وسمت نفسه الى تناول الدنايا وغير ذلك من الافعال الذميمة .

وعزم على مصادرة كتابه وحجابه وامرائه ، فخاف منه اصحابه ، واستشعروا منه ، ووقعت الوحشة بينهم .

وعرف عزم اتابك زنكي على قصد دمشق ، وأنه متى وصلها سلمت اليه ، فكاتب اتابك زنكي وحثه على سرعة الوصول اليها ليسلمها اليه طوعا ، وشرط عليه ان يمكنه من الانتقام من كل من يكرهه من المقدمين والأمراء والأعيان ، وكرر المكاتبة اليه في ذلك ، وقال: «إن اهملت هذا الامر استدعيت الفرنج وسلمت دمشق اليهم ، وكان اثم المسلمين في عنقك ».

وشرع في نقل أمواله وأحواله الى صرخد ، فظهر هذا الامر لأصحابه ، فأشفقوا من الهلاك واعلموا والدته زمرد خاتون

بذلك ، فقلقت له ، وحسنوا لهـا قتله ، وتمليك اخيه شـهاب الدين محمود ، فرجح ذلك في نظرها ، وعزمـت عليه ، فـانتظرت وقـت خلوته من غلمانه وسلاحيته ، وادخلت عليه من أصحابها من قتله .

وأخرجته فألقي في ناحية من الدار ليشاهده غلمـانه واصـحابه فسروا بذلك ، وذلك في يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وقيل: إنه اتهم يوسف بن فيروز حاجب أبيه بوالدته ، فهرب منه الى تدمر ، فأراد قتل امه ، فبلغهـا الخبـر فقتلتـه خـوفا منه ، وأجلست والدته مكانه أخاه شهاب الدين محمود بـن بـوري (١٧٥) ، وحلف الناس له. وتوجه اتابك زنكي من الموصل مجـدا ليتسلم دمشق من شمس الملوك ، فوصل الى الرقة وقال: «ا شـتهي ان ادخل الحمام». فأحضر صلاح الدين مسيب بـن مـالك صـاحب الرقة ، وقال له: «اتابك يشتهي دخول الحمام ، وهـذه خمسـمائة دينار تسـلمها واعمـل له بهـا دعوة» فلم يشـك في ذلك ، ودخلوها ، فلما حصلوا بها أخـذوها منه ، وذلك في العشرين من شهر ربيع الآخر . وبلغه ما جرى بـدمشق ، فلم يقـطع طمعـه فيها ، وسار فنزل العبيدية (١٧٦) ، وراسل أهل دمشـق ، فلم يجيبوه الى مطلوبه ، وردوا عليه جوابا خشنا ، يتضمن ان الكلمـة قد اتفقت على حفظ الدولة والذب عنها ، فلم يحفل بذلك .

وسار الى حماة فخرج اليه شمس الخواص بعـد ان تـوثق منه بالايمان ، ورحل الى دمشق ، وسار اليهـا ، فنزل على دمشـق في عسكر عظيم ، وزحف عليهـا مـرارا متعـددة ، فلم يظفـر فيها بطائل ، واشتد الغلاء في العسكر ، وعدموا القوت ، وقفز جمـاعة من العسكر الى دمشق ، ووقعت المراسلة في حديث الصـلح ، وكان قد وصل مع أتابك بعض أولاد السلطان فطلب ان يخرج شهاب الدين محمود لوطء بساط ولد السلطان ، فلم يفعل .

واتفق الامر على خروج اخيه تاج الملوك بهرام شاه ، واتفق عند ذلك وصول بشر بن كريم بن بشر رسولا من المسترشد الى زنكي بخلع هيئت له ، وتقدم اليه بالرحيل عن دمشق والوصول الى العراق ، ليوليه امره وتدبيره ، وان يخطب للسلطان الب أرسلان داود بن محمود المقيم بالموصل – وكان قد وصل هاربا بين يدي عمه السلطان مسعود – فأكرمه أتابك .

فدخل الرسول وبهاء الدين بن الشهرزوري إلى دمشق ، وقررا هذه القاعدة واخمدا الفتنة ، واكدا الايمان ، وخطب يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الأولى بجامع دمشق بحضورهما على القاعدة التي وصل فيه الرسول (١٧٧) .

وعاد أتابك من دمشق ، فلما وصل حماة قبض على شمس الخواص صاحبها ، وانكر عليه أمرا ظهر منه ، وشكا أهلها من ذوابه فتسلمها منه ، وأطلقه فهرب ، ورد حماة إلى صلاح الدين ورحل من حماة .

وسار إلى بلد حلب ، فنزل على الأثارب ، ففتحها أول رجب ثم فتح زردنا ، ثم تل أعذى ، ثم فتح معرة النعمان ، ومن على أهلها بأملاكهم ، ثم فتح كفر طاب ، ونزل على شيزر فخرج إليه أبو المغيث ابن منقذ نائبا عن أبيه ، ثم نزل ببارين (١٧٨) وأظهر أنه يحاصرها ، ثم سار ، وأهل حمص غارون ، فشن عليهم الغارة ، واستاق كل ما كان في بلدها ونهبهم .

ووصل ابن الفنش الفرنجي من بيت المقدس وخرج في جموع الفرنج ، فنزل قنسرين ، فسار إليهم اتابك فأحسن التدبير ، ومازال بالمسلمين حولهم حتى عادوا إلى بلادهم .

وسار زنكي إلى حمص فأحرق زرعها ، وقاتلها في العشر الاواخر من شوال ، ثم سار إلى الموصل في ذي القعدة من هذه السنة .

وسار منها في المحرم من سنة ثلاثين وخمسمائة إلى بغداد ، ومعه داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه الواصل إليه إلى الموصل ، فأنزله في دار السلطنة ببغداد ، وأتابك في الجانب الغربي ، والخليفة إذ ذاك الراشد بعد قتل المسترشد .

فوصل السلطان مسعود إلى بغداد فحصرهم بها فوقع الوباء في عسكره ، فسار إلى أرض واسط ليعبر إلى الجانب الغربي ، فاغتنم أتابك غيبته ، وسار إلى الموصل ، وسار داود إلى مراغة .

وبلغ الخبر السلطان مسعود فعاد ، فهرب الراشد ، ولحق أتابك بالموصل . ودخل مسعود بغداد ، فبايع محمد المقتفي ، وخطب له ببغداد وأعمال السلطان ، وبقيت الخطبة بالشام والموصل على حالها إلى أن اتفق أتابك زنكي والسلطان مسعود واصطلحا ، وخطب بالشام والموصل للمقتفي ولمسعود . وفارق الراشد إذ ذاك زنكي ، وسار عن الموصل إلى خراسان في سنة إحدى وثلاثين(١٧٩) .

وسار سيف الدين سوار في سنة ثلاثين وخمسمائة في جمع من التركمان يبلغ ثلاثة آلاف إلى بلد اللاذقية ، وأغار على الفرنج على غرة وقلة احتراز ، فعادوا ومعهم ما يزيد على سبعة آلاف أسير ، ما بين رجل وامرأة وصبي وصبية ومائة ألف رأس من البقر والغنم والخيل والحمير والذي نهبوه — على ما ذكر — مائة قرية وامتلأت حلب من الأسارى والدواب ، واستغنى المسلمون بما حصل لهم من الغنائم .

ووصل أتابك زنكي من الموصل إلى حلب ، في رابع وعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين ، وسير صلاح الدين في مقدمته ، فنزل حمص ، وسار أتابك إلى حماة ، وعيد عيد الفطر في الطريق ، وأخذ من حلب معه خمسمائة راجل لحصار حمص .

ورحل أتابك من حماة إلى حمص في شوال وبها أنر(١٨٠) من قبل صاحب دمشق ، فحصرها مدة .

وخرج الفرنج نجدة لحمص وغيلة لزنكي ، فرحل عن حمص والقيهم تحت قلعة بارين ، فكسرتهم طلائع زنكي مع سوار ، فأفنوا عامتهم قتلا وأسرا ، وقتل أكثر من ألفين من الفرنج ، ونجا القليل منهم ، فدخل إلى بارين مع ملكهم كندياجور(١٨١) صاحب القدس ، وأقام الحصار على بارين بعشر مجانيق ليلا ونهارا ، ثم تقرر الصلح في العشر الأواخر من ذي القعدة على التسليم بعد خراب القلعة .

وخلع على الملك وأطلق ، وخرج الفرنج منها ، وتسلمها زنكي ، وعاد إلى حلب .

واستقر الصلح بين أتابك وصاحب دمشق ، وتزوج أتابك خاتون بنت جناح الدولة حسين ، على يد الامام برهان الدين البلخي ، ودخل عليها بحلب في هذه السنة .

ووصل في هذه السنة ملك الروم كالياني(١٨٢) من القسطنطينية في جموعه ، ووصل إلى أنطاكية فخالفه الفرنج – لطفا من الله تعالى – وأقام إلى أن وصلته مراكبه البحرية بالاثقال والميرة والمال ، فاعتمد لاون بن روبال(١٨٣) صاحب الثغور في حقه فتحا عظيما .

وتخوف أهل حلب منه فشرعوا في تحصينها وحفر خنادقها ، فعاد إلى بلاد لاون فافتتحها جميعها ، فدخل إليه لاون متطارحا ، فقال : « أنت بين الفرنج والاتراك لايصلح لك المقام » ، فسيره إلى القسطنطينية ، وأقام في عين زربة وأذنة والثغور ، مدة الشتاء .

وكان في عوده عن أنطاكية إلى ناحية بغراس(١٨٤) في الثاني والعشرين من ذي الحجة من سنة إحدى وثلاثين ، أنفذ رسوله إلى

زنكي ، وظفر سوار بسرية وافرة العدد من عسكره ، فقتل وأسر ودخل بهم إلى حلب .

ووصل الرسول إلى زنكي ، وهو متوجه إلى القبلة فرده ومعه هدية إلى ملك الروم : فهود وبزاة وصقور ، على يد الحاجب حسن ، فعاد إليه ومعه رسول منه وأخبره بأنه يحاصر بلاد لاون ، فسار إلى حماة ، ورحل إلى حمص فقاتلها .

ثم سار في نصف المحرم من سنة اثنتين وثلاثين فنزل بعلبك وأخذ منها مالا ، وسار إلى ناحية البقاع فملك حصن المجدل(١٨٥) من أيدي الدمشقيين ، ودخل في طاعته ابراهيم بن طرغت والي بانياس .

وشتى أتابك زنكي بأرض دمشق ، وورد عليه رسول الخليفة المقتفي والسلطان مسعود بالتشريف ، ثم رحل أتابك عن دمشق في شهر ربيع الآخر ، وعاد إلى حماة ، ثم رحل عنها إلى حمص ، فخيم عليها ، وجرد من حلب رجالا لحصارها ، وجمع عليها جموعا كثيرة ، وهجم المدينة ، وكسر أهلها ونال منهم منالا عظيما .

ونقض الفرنج الهدنة التي كانت بينهم وبين زنكي على حلب ، وأظهروا العناد ، وقبضوا على التجار بأنطاكية والسفار من أهل حلب ، في جمادى الاولى من السنة ، بعد إحسانه إليهم واصطناعه لمقدميهم ، حين أظفره الله بهم ، وانضافوا إلى ملك الروم كالياني .

وظهر ملك الروم بغتة من طريق مدينة البلاط ، يوم الخميس الكبير من صومهم ونزل يوم الاحد يوم عيد النصارى ، وهو الحادي والعشرون من شهر رجب ، على حصن بزاعا .

وانتشرت الخيل بغتة فلطف الله بالمسلمين ، فرأوا رجلا من كافر ترك(١٨٦) ومعه جماعة منهم ، قد تاهوا عن عسكر الروم ، وأظهروا أنهم مستأمنة وأنذروا من بحلب بالروم .

فتحرز الناس وتحفظوا ، وكاتبوا أتابك زنكي بذلك ، فوصله الخبر وهو على حمص ، فسير في الحال الامير سيف الدين سوار والرجالة الحلبيين وخمسمائة فارس ، في أربعة من الأمراء الاصفهسلارية(١٨٧) منهم زين الدين علي كوجك ، فقويت قلوب اهل حلب بهم ، ووصلوا في سابع وعشرين من رجب .

واما الروم فإنهم حصروا حصن بزاعا ، وقاتلوه سبعة أيام ، فضعفت قلوب المسلمين ، وكان الحصن في يد امرأة فسلموه إلى الروم بالأمان ، بعد أن توثقوا منهم بالعهود والأيمان ، فغدروا بهم ، وأسروا من بزاعا ستة آلاف مسلم أو يزيدون ؛ وأقام الملك بالوادي يدخن على مغاير الباب عشرة أيام ، فهلكوا بالدخان .

ثم رحل فنزل يوم الاربعاء الخامس من شعبان ، بأرض الناعورة ، ثم رحل يوم الخميس سادس شعبان ، ومعه ريمند صاحب أنطاكية وابن جوسلين ، فنزل على حلب ونصب خيمته من قبليها على نهر قويق ، وأرض السعدي ، وقاتل حلب يوم الثلاثاء من ناحية برج الغنم(١٨٨) ، وخرج إليهم احداث حلب ، فقاتلوهم وظهروا عليهم ، وقتل من الروم مقدم كبير ، ورجعوا إلى خيمهم خائبين .

ورحل يوم الاربعاء ثامن شعبان مقتبلا إلى صلدي(١٨٩) فخاف من بقلعة الاثارب من الجند المسلمين ، فهربوا منها يوم الخميس تاسع شعبان ، وطرحوا النار في خزائنهم .

وعرف الروم ذلك فخفت منهم سرية وجماعة من الفرنج ، ومعهم سبي بزاعا والوادي ، فملكوا القلعة ، والجأوا السبي إلى خنادقها وأحواشها ، فهرب جماعة منهم إلى حلب ، واعلموا الامير سيف الدين سوار بن ايتكين بذلك ، وأن الروم انعزلوا عنها .

فنهض إليهم سوار في لمة من العسكر ، فصابحهم وقد انتشروا

بعد طلوع الشمس ، فوقع عليهم واستخلص السبي جميعه إلا اليسير منهم ، وأركب الضعفاء منهم خلف الخيالة حتى أنه أخذ بنفسه جماعة من الصبيان ، وأركبهم بين يديه ومن خلفه ، ووصل بهم إلى حلب ، ولم يبق من السبي إلا القليل ، ووصل بهم إلى حلب في يوم السبت الحادي عشر من شعبان ، فسر أهل حماة ثم رحل إلى سلمية ، ورحل ملك الروم إلى بلد معرة النعمان ، ورحل عنها يوم الاثنين ثالث عشر شعبان إلى جهة شيزر ، ونزلوا كفر طاب ورموها بالمجانيق ، فسلمها أهلها في نصف شعبان .

وهرب أهل الجسر(١٩٠) ، وتركوه خاليا فوصله الروم ، وجلسوا فيه ورحلوا عنه إلى شيزر ، يوم الخميس سادس عشر شعبان ، فوصلوها في مائة ألف راكب ومائة ألف راجل ، ومعهم من الكراع والسلاح مالا يحصيه إلا الله ، فنزلوا الرابية المشرفة على بلدة شيزر ، وأقاموا يومهم ويوم الجمعة إلى آخر النهار .

وركبوا وهجموا البلد ، فقاتلهم الناس وجرح أبو المرهف نصر ابن منقذ ، ومات في رمضان من جرحه ذلك .

ثم انهزم الروم ، وخرجوا ، ونزل صاحب انطاكية في مسجد سمون ، وجوسلين في المصلى ، وركب الملك يوم السبت ، وطلع إلى الجبل المقابل لقلعة شيزر المعروف بجريجس ، ونصب على القلعة ثمانية عشر منجنيقا وأربع لعب تمنع الناس من الماء .

ودام القتال عشرة أيام ، ولقي أهل شيزر بلاء عظيما ، ثم اقتصروا في القتال على المجانيق ، وأقاموا إلى يوم السبت تاسع شهر رمضان .

وبلغهم أن قرا أرسلان بن داود بن سكمان بن أرتق عبر الفرات في جموع عظيمة تزيد عن خمسين ألفا من التركمان وغيرهم ، فأحرقوا آلات الحصار ، ورحلوا عن شيزر ، وتركوا مجانيق عظاما

رفعها أتابك إلى قلعة حلب بعد رحيلهم ، وساروا بعد أن هجموا ربض شيزر دفعات عدة ، ويخرجهم المسلمون منها . (١٩١) .

فوصل صلاح الدين من حماة يوم السبت تاسع الشهر ، وبلغه أن الفرنج هربوا من كفر طاب فسار إليها ، وملكها ، ووصل أتابك يوم الاحد عاشر الشهر، وسار إلى الجسر يوم الاثنين ، فوجد الفرنج قد هربوا منه نصف الليل ونزل أهله من « أبسي قبيس »(١٩٢) ، فمنعوهم ودخل الروم مضيق افامية إلى أنطاكية ، وطلبها من الفرنج فلم يعطوه إياها ، فرحل عنها إلى بلاده ، وسير أتابك خلفهم سرية من العسكر تتخطفهم . هذا كله وأتابك لم يستحضر قرا أرسلان بن داود ، ولم يجتمع به ، بل بعث إليه يأمره بالعود إلى أبيه ، وأنه مستغن عنه وانحاز عنهم فنزل أرض حمص ، وكتب إلى شهاب الدين محمود بن بوري يطلبها .

وترددت الرسل بينهم على أن يسلم إلى أتابك حمص ، ويعوض أنر واليها ببارين ، واللكمة(١٩٣) والحصن الشرقي ، وأن يتزوج أتابك أمه زمرد خاتون بنت جاولي ، ويتزوج محمود ابنة أتابك ، ويسلم أتابك حمص ، ويسلم الدمشقيون المواضع المذكورة .

وسارت زمرد خاتون من دارها إلى عسكر زنكي ، مع أصحابه المندوبين لايصالها إليه في أواخر شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين ، وقد اجتمع عنده رسول الخليفة المقتفي ، والبسة التشريف الواصل إليه ، ورسول السلطان ، ورسول مصر ، والروم ، ودمشق .

ورحل أتابك عن حمص ، وسار إلى حلب ، ثم خرج منها إلى بزاعا وفتحها بالسيف ، يوم الثلاثاء تاسع عشر محرم من سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، وقتل كل من كان بها على قبر شرف الدولة مسلم بن قريش ، وكان ضرب عليها بسهم في عينه فمات .

وعاد منها إلى حلب ، وسار إلى الاثارب ، ففتحها ، في ثالث صفر .

وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر ، حدثت زلزلة شديدة ثم اتبعتها أخرى ، وتواصلت الزلازل ، فهرب الناس من حلب إلى ظاهر البلد وخرجت الاحجار من الحيطان إلى الطريق ، وسمع الناس دويا عظيما ، وانقلبت الاشارب فهلك فيها ستمائة من المسلمين ، وسلم الوالي ومعه نفر يسير ، وهلك أكثر البلاد من شيح ، وتل عمار(١٩٤) ، وتل خالد ، وزردنا (١٩٥) ، وشوهدت الأرض تموج ، والاحجار عليها تضطرب كالحنطة في الغربال .

وانهدم في حلب دور كثيرة ، وتشعث السور ، واضطربت جدران القلعة ، وسار أتابك مشرقا فنزل القلعة فأخذها ، وسار منها إلى القلعة(١٩٦) ، ثم إلى الموصل .

وتواترت الزلازل إلى شوال ، وقيل : إن عدتها كانت ثمانين زلزلة .

وكان في سنة اثنتين وثلاثين قد عول أتابك على قبض أملاك الحلبيين التي استحدثوها من أيام رضوان إلى آخر أيام إيلغازي ، ثم قرر عليهم عشرة الاف دينار ، فأدوا من ذلك ألف دينار ، وجاءت هذه الزلازل ، فهرب أتابك من القلعة إلى ميدانها حافيا ، واطلق القطيعة .

وفي هذه السنة ، نهض سوار إلى الفرنج فغنم من بلادهم ، ولحقوه فاستخلصوا ما غنم ، وانهزم المسلمون فغنم الفرنج ، واخذوا منهم ألفا ومائتي فارس ، وأسروا صاحب الكهف ابن عمرون ، وكان قد سلمها إلى الباطنية(١٩٧) .

وفي شهر رمضان منها ، استحكم الفساد بين أتابك وتمرتاش ، فنزل أتابك زنكي دارا(١٩٨) ، وحصرها وافتتحها في شوال ، وأخذ رأس عين(١٩٩) وجبل جور(٢٠٠) وذا القرنين(٢٠١) ، ومات سوتكين الكرجي بحران ، فأنفذ أتابك زنكي وأخذها .

وقتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك على فراشه ، ليلة الجمعة الثالثة والعشرين من شوال من السنة ، قتله البغش ويوسف الخادم ، وفراش ، وكان قد قربهم واصطفاهم(٢٠٢) .

وسير أنر إلى محمد أخيه صاحب بعلبك ، فأجلسه في منصب اخيه واخرج اخاه بهرام شاه فمضى إلى حلب وشرق إلى أتابك زنكي .

وعلمت والدته زمرد خاتون ، فارسلت إلى زوجها زنكي ، وهو بالموصل تستدعيه لطلب الثأر بولدها ، وتحثه على الوصول ، فأقبل وفي مقدمته الامير الحاجب صلاح الدين ، فسار إلى حماة .

ووصل زنكي حتى عبر الفرات ، ونزل بالناعورة ، ودخل حلب ، ورحل الى حماة في سابع ذي الحجة ، ورحل إلى حمص ، ثم إلى بعلبك ، فحصرها أول محرم من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، وضربها بالمجانيق الى أن فتحها يوم الاثنين رابع عشر صفر .

وفتح القلعة يوم الخميس خامس وعشرين منه ، وأقام بها إلى منتصف شهر ربيع الآخر ، وكان قد حلف لأهل القلعة بالأيمان المغلظة والمصحف والطلاق ، فلما نزلوا غدر بهم ، وسلخ واليها ، وشنق الباقين ، وكانوا سبعة وثلاثين رجلا ، وغدر بالنساء ، وأخذهم .

وسار في نصف ربيع الآخر إلى دمشق لمضايقتها ، فنزل على داريا ، وزحف إلى البلد ، وراسل محمد بن بوري في تسليمها ، وأخذ بعلبك وحمص ، وما يقترح معهما عوضا عنها ، وأراد إجابته إلى ذلك فمنعه أصحابه ، وخوفوه الغدر به ، فمات محمد بن بوري ، في ثامن شعبان ، ونصب ولده عضب الدولة أبق مكانه .

وكاتب أنر الفرنج في نجدته ، وتسليم بانياس من ابراهيم بن طرغت إليهم ، فتجمعوا لذلك ، فرحل أتابك عن دمشق ، في خامس

شهر رمضان ، للقاء الفرنج إن قربوا منه إلى ناحية بصرى وصرخد من حوران ، وأقام مدة ، ثم عاد إلى الغوطة فنزل عذراء ، وأحـرق عدة ضياع من الغوطة .

ووصل الفرنج فنزلوا بالميدان ، فرحل أتـابك إلى ناحية حمص . وأسر ريمند صاحب أنطاكية ابراهيم بن طرغت صاحب بـانياس ، وقتله ، ونزل معين الدين أنر عليها فحصرها وتسلمها ، وسلمها إلى الفرنج ، وعادت خاتون إلى حلب في العشرين من ربيع الاول .

وعاد أتابك إلى حلب في الرابع والعشرين مـن جمـادى الأولى ، واستقر الحال بين زنكي وأبق على أن خطب لزنكي بدمشق .

ومات قاضي حلب أبو غانم محمد بن أبـي جـرادة في شـهر ربيع الآخر من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، فولى أتـابك قضـاء حلب ولده أبا الفضل هبة الله بن محمد بن أبي جرادة ، ولما استحضره وولاه القضاء قال له : « هذا الامر قد نزعته مـن عنقـي ، وقلدتـك إياه ، فينبغي أن تتقي الله وأن تساوي بين الخصمين ، هـكذا » ، وجمع بين أصابعه .

وكثر عيث التركمان وفسـادهم ، وامتـدت أيديهـم إلى بـلاد الفرنج ، فارسلوا رسولا إلى أتـابك يشـكونهم ، فعـاد الرسـول متنصلا ، فلقيه قوم من التركمان فقتلوه ، فأغار الفرنج على حلب ، فأخذوا من العرب والتركمان مالا يحصى .

وعاد اتابك في سنة ست وثلاثين على الحلبيين بالقطيعة التي كان قررها على الاملاك ، وأرسل اليهم علي الفوتي العجمي ، فعسـف الناس في استخراج القطيعة ، واخرق بهـم ، ومـات ابـن شـقارة بحلب ، وصارت املاكه إلى بيت المال فرد على الناس ما كان وظف على أملاكه من القطيعة واخذه منهم .

واغار الفرنج في سنة ست وثلاثين وخمسـمائة على بلد سرمين ،

واخربوا ونهبوا ، ثم تحولوا إلى جبل السماق ، وكذلك فعلوا بـكفر طاب ، وتفرقوا فأغار علم الدين بن سيف الدين سوار مع التركمان إلى باب انطاكية ، وعادوا بالغنائم والوسيق العظيم .

وأغار لجة التركي وكان قد نزح عن دمشق إلى خدمة زنكي على بلد الفرنج ، في جمادى ، فساق وسبى وقتل ، وذكر أن عدة المقتلوين سبعمائة رجل .

واتفق في هذه السنة خلف شديد بين أتابك زنكي وقـرا ارسـلان ابن داود بن سكمان بناحية بهمرد(٢٠٣) ، فالتقيا فكسره أتابك ، وفتح بهمرد ، وعاد الى الجزيرة ، ثم إلى الموصل فشتى بها .

وفي هذه السنة تقرر الصلح بين اتابك والارتقية ووصل أولادهـم إلى الخدمة ثم عادوا .

وفي خامس شعبان مات وزير أتابك ضياء الدين بـن الكفـرتوثي ووزر موضعه أبا الرضا بن صدقة ، ثم عزله في سنة ثمان وثلاثين .

ونهض سوار في شهر رمضـان الى بلد أنطـاكية ، وعند الجسر جمع عظيم وخيم مضروبة من الفـرنج ، فخـاض التركمان إليهـم العـاصي ، وكسروا الجميع هناك ، وقتلوا كل مـن كان بـالخيم ، ونهبـوا وسـبوا ، وعادوا الى حلب بـالوسيق العـظيم ، والأسرى والرؤوس .

وفتح أتابك قلعة آشب المشهورة بـالحصانة(٢٠٤) ، في ثـالث وعشرين من شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين .

وخرج ملك انطاكية إلى وادي بزاعا ، فخرج سوار فردهم إلى بلد الشمال واجتمع سوار وجـوسلين بين العسـكرين فـاتفق الصـلح بينهما .

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، فتح أتابك قلعة انيرون(٢٠٥) ، وبعدها قلعة حيزان(٢٠٦) ، ومما كان أيضا بيد الفرنج جملين ، والموزر(٢٠٧) ، وتل موزن(٢٠٨) ، وغيرهما .

وخرج عسكر حلب فظفروا بفرقة كبيرة من التجار والأجناد وغيرهم خرجت من انطاكية تريد بلاد الفرنج ، ومعها مال كثير ودواب ومتاع ، فأوقعوا بهم ، وقتلوا جميع الخيالة من الفرنج الخارجين لحمايتهم ، واخذوا ما كان معهم ، وعادوا إلى حلب ، وذلك في جمادى الأولى من السنة .

وفي يوم الاربعاء خامس وعشرين من ذي القعدة ، وقعت خيل تركمان نهضت من بلد حلب ، فأوقعت بخيل خارجة من باسوطا(٢٠٩) فقتلوهم ، واسروا صاحب باسوطا وجاءوا به إلى حلب ، فسلموه إلى سوار فقيده .

وعزل أتابك وزيره جلال الدين أبا الرضا بالموصل ، واستوزر أبا الغنائم حبشي بن محمد الحلي .

وكان أتابك زنكي لايزال يفكر في فتح الرها ، ونفسه في كل حين تطالبه بذلك ، الى أن عرف أن جوسلين صاحبها قد خرج منها في معظم عسكره ، في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، لامر اقتضاه ؛ فسارع أتابك إلى النزول عليها في عسكر عظيم ؛ وكاتب التركمان بالوصول إليه ، فوصل خلق عظيم .

واحاط المسلمون بها من كل الجهات ، وحالوا بينها وبين من يدخل إليها بميرة أو غيرها ، ونصب عليها المجانيق ؛ وشرع الحلبيون فنقبوا عدة مواضع عرفوا أمرها إلى أن وصلوا تحت أساس أبراج السور ، فعلقوه بالاخشاب ، واستأذنوا أتابك في إطلاق النار فيه ، فدخل إلى النقب نفسه وشاهده ثم أذن لهم ، فألقوا النار فيه ، فوقع السور في الحال(٢١٠) .

وهجم المسلمون البلد ، وملكوه بالسيف يوم السبت سادس عشر جمادى الآخرة ، وشرعوا في النهب والقتل والأسر والسبي ، حتى امتلأت أيديهم من الغنائم ، ثم أمر أتابك برفع السيف عن أهلها ، ومنع السبي ، ورده من أيدي المسلمين ، وأوصى بأهلها خيرا ، وشرع في عمارة ما انهدم منها وترميمه .

وكان جمال الدين أبو المعالي فضل الله بن ماهان رئيس حران هو الذي يحث أتابك في جميع الأوقات على أخذها ، ويسهل عليه أمرها ، فوجد على عضادة محرابها مكتوب :

أصبحت صفرا من « بني الأصفر »
اختال بالأعلام والمنبر
دان من المعروف حال به
ناء عن الفحشاء والمنكر
مطهر الرحب على أنني
لولا « جمال الدين » لم أطهر

فبلغ ذلك رئيس حران ، فقال : « امحوا جمال الدين ، واكتبوا عماد الدين » ، فبلغ ذلك زنكي ، فقال : « صدق الشاعر لولاك ما طمعنا فيها » ، وأمر عماله بتخفيف الوطأة عليهم في الخراج ، وأن يأخذوه على قدر مغلاتها(٢١١) .

ثم رحل إلى سروج ففتحها ، وهرب الفرنج منها ، ثم رحل فنزل على البيرة ، في هذه السنة فحاصرها في هذه السنة .

وجاءه الخبر من الموصل أن نصير الدين جقر نائبه بالموصل قتل ، فخاف عليها ، وترك البيرة بعد أن قارب أخذها ، (٢١٢) وسار حتى دخل الموصل ، وأخذ فرخانشاه بن السلطان الذي قتل جقر ، وعزم على تملك الموصل ، فقتله بدم جقر ، وولى الموصل مكانه الأمير زين الدين علي كوجك .

ثم شرع زنكي في الجمع والاحتشاد ، والاستكثار من عمل المجانيق ، وآلة الحرب ، في أوائل سنة أربعين وخمسمائة ؛ ويظهر الناس أن ذلك لقصد الجهاد ، وبعض الناس يقول : إنه لقصد دمشق ومنازلتها ، وكان ببعلبك مجانيق فحملت إلى حمص ، في شعبان من هذه السنة .

وقيل : إن عزمه انثنى عن الجهاد في هذه السنة ، وأن جماعة من الأرمن بالرها عاملوا عليها ، وأرادوا الايقاع بمن كان فيها من المسلمين واطلع على حالهم ؛ وتوجه أتابك من الموصل نحوها ، وقوبل من عزم على الفساد بالقتل والصلب .

وسار ونزل على قلعة جعبر بالمرج الشرقي تحت القلعة ، يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة ، فأقام عليها إلى ليلة الأحد سادس شهر ربيع الآخر نصف الليل من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، فقتله يرنقش الخادم ؛ كان تهدده في النهار ، فخاف منه فقتله في الليل في فراشه .

وقيل : إنه شرب ونام ، فانتبه فوجد يرنقش الخادم وجماعة من غلمانه يشربون فضل شرابه ، فتوعدهم ، ونام فأجمعوا على قتله ، وجاء يرنقش إلى تحت القلعة ، فنادى أهل القلعة : « شيلوني فقد قتلت أتابك » .

فقالوا له : « اذهب إلى لعنة الله ، فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله(٢١٣) » .

وقد كان أتابك ضايق القلعة ، فقل الماء فيها جدا ، والرسل من صاحبها علي بن مالك تتردد بينه وبين أتابك ، فبذل علي بن مالك له ثلاثين ألف دينار ليرحل عنها ، فأجابه إلى ذلك .

ونزل الرسول ، وقد جمع الذهب حتى قلع الحلق من آذان أخواته ، وأحضر الرسول ، وقال لبعض خواصه : « امض بفرسه

وقـربه إلى قـدر اليخني فإن شرب منه فـأعلمني » . ففعـل ذلك ، فشرب الفرس مرقة اليخني ، فعلم أن الماء قد قل عندهـم ، فغـالط الرسول ودافعه ، ولم يجبه إلى ملتمسـه ، فـأسقط في يد علي بـن مالك .

وكان في القلعة عنده بقرة وحش ، وقد أجهدها العطش ، فصعدت في درجة المئذنة حتى علت عليها ، ورفعـت رأسـها إلى السـماء ، وصاحت صيحة عظيمة ، فأرسل الله سحابة ظللت القلعة ، وأمطروا حتى رووا ، فتقدم حسان البعلبكي صاحب منبج إلى تحت القلعـة ، ونادى علي بن مالك ، وقال له : « ياأمير علي ، ايش بقي يخلصـك من أتابك » فقال له : « ياعاقل ، يخلصني الذي خلصك مـن حبس بلك » .

يعني حين قتـل بلك على منبـج وخلص حسـان ، فصـدق فأله ــ وكان ماذكره ــ .

وأخبرني والدي ــ رحمه الله ــ أن حارس أتابك كان يحرسه في الليلة التي قتل فيها بهذين البيتين .

ياراقد الليل مسرورا بأوله ،
إن الحوادث قد يطرقن أسحارا !
لاتأمنن بليل طاب أوله
فرب آخر ليل أجج النارا !

وكان أتابك جبـارا عظيمـا ذا هيبـة وسـطوة ، وقيل : إن الشاووش(٢١٤) كان يصيح خارج باب العراق ، وهـو نازل مـن القلعة ، وكان إذا ركب مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخـافة أن يدوس العسكر شيئا من الزرع ، ولايجسر من هيبتـه أن يدوس عرقا منه ، ولايمشي فرسه فيه ، ولايجسر أحدا من أجناده أن يأخذ لفلاح علاقة تبن إلا بثمنها أو بخط من الديوان إلى رئيس القـرية ؛ وإن تعدى أحد صلبه .

وكان يقول : « ما يتفق أن يكون أكثر من ظالم واحد » ـ يعني نفسه ـ فعمرت البلاد في أيامه بعد خرابها وأمنت بعد خوفها ، وكان لايبقي على مفسد ، وأوصى ولاته وعماله بأهل حران ، ونهى عن الكلف والسخر والتثقيل على الرعية ، وهذا ما حكاه أهل حران عنه .

وأما فلاحو حلب فإنهم يذكرون عنه ضد ذلك(٢١٥) .

وكانت الأسعار في السنة التي توفي فيها رخية جدا ، الحنطة ست مكايك بدينار ؛ والشعير اثنا عشر مكوكا بدينار ؛ والعدس أربع مكايك بدينار ؛ والجلبان خمسة مكايك بدينار ؛ والقطن ستون رطلا بدينار ؛ والدينار هو الذي جعله أتابك دينار الغلة ؛ وقدره خمسون قرطيسا برسا(٢١٦) وذلك لقلة العالم .

ولما قتل افترقت عساكره فأخذ عسكر حلب ولده نور الدين أبا القاسم محمود بن زنكي ، وطلبوا حلب فملكوه إياها ، وأخذ نور الدين خاتمه من إصبعه قبل مسيره إلى حلب ، وسار أجناد الموصل بسيف الدين غازي إلى الموصل وملكها .

وبقي أتابك وحده ، فخرج أهل الرافقة فغسلوه بقحف جرة ، ودفنوه على باب مشهد علي ـ عليه السلام ـ في جوار الشهداء من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وبنى بنوه عليه قبة ، فهي باقية إلى الآن(٢١٧) .

وملك الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر حلب ، عند ذلك في شهر ربيع الآخر يوم الثلاثاء عاشر الشهر ، سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

ووصل إليه صلاح الدين الياغيسياني يدبر أموره ويقوم بحفظ دولته ، فحينئذ راسل جوسلين الفرنجي أهل الرها وعامتهم من الارمن ، وحملهم على العصيان وتسليم البلد ، فأجابوه إلى ذلك ، وواعدهم يوما يصل إليهم فيه .

وسار إليها فملك البلد ، وامتنعت القلعة فقاتلها ، فبلغ الخبر إلى ذور الدين محمود بن زنكي ، وهو بحلب ، فسار إليها في عسكره ، فخرج جوسلين هاربا إلى بلده .

ودخلها نور الدين فنهبها وسبى أهلها ، وخلت منهم ، فلم يبق بها منهم إلا القليل(٢١٨) .

وارسل نور الدين من سبيها جارية في جملة ما أهداه إلى زين الدين علي كوجك ، نائب أبيه بالموصل ، فلما رآها دخل إليها ، وخرج من عندها وقد اغتسل ، وقال لمن عنده : « تعلمون ما جرى لي يومنا هذا ؟» قالوا : «لا » ، قال : « لما فتحنا الرها مع الشهيد وقع بيدي من النهب جارية رائقة أعجبني حسنها ومال قلبي إليها ، فلم يكن بأسرع من أن أمر الشهيد فنودي برد السبي والمال المنهوب ، وكان مهيبا مخوفا ، فرددتها وقلبي متعلق بها ، فلما كان الآن جاءتني هدية نور الدين وفيها عدة جوار منهن تلك الجارية ، فوطئتها خوفا أن يقع مثل تلك الدفعة » .

وشرع نور الدين ـ رحمه الله ـ في صرف همته إلى الجهاد ، فدخل في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، إلى بلد الفرنج ؛ ففتح أرتاح بالسيف ، ونهبها وفتح حصن مابولة ، وبسرفوث ، وكفرلاثا وهاب(٢١٩) .

وكان الفرنج بعد قتل والده قد طمعوا وظنوا أنهم يستردون ماأخذه ، فلما رأوا من نور الدين الجد في أول أمره ، علموا بعد ما أملوه .

وخرج ملك الألمان ونزل على دمشق ، في سنة ثلاث وأربعين خمسمائة ، وسار لنجدتها سيف الدين غازي من الموصل ، وذور الدين محمود ، فوصلا إلى حمص .

وتوجه نور الدين إلى بعلبك ، واجتمع بمعين الدين أنر بها ،

ورحل ملك الالمان عن دمشق ، وكان صحبته ولد الفنش ؛ وكان جده قد أخذ طرابلس من المسلمين ، فأخذ ولد الفنش هذا حصن العريمة من الفرنج ، وعزم على اخذ طرابلس من القمص ، فأرسل القمص إلى نور الدين إلى بعلبك يقول له في قصد حصن العريمة واخذه من ولد الفنش .

فسار نور الدين ومعين الدين أنر معه ، وسيرا إلى سيف الدين غازي إلى حمص ، يستنجدانه فأمدهما بعسكر كثير مع الدبيسي صاحب الجزيرة ، فنازلوا الحصن ، وحصروه وبه ولد الفنش .

فزحف المسلمون إليه مرارا ، ونقب النقابون السور فطلب من به من الفرنج الامان ، فملكه المسلمون ، واخذوا كل من به من فارس وراجل ، وصبي ، وامرأة ، وفيهم ابن الفنش ، وأخربوا الحصن ، وعادوا إلى حمص(٢٢٠) .

ثم عاد سيف الدين غازي إلى الموصل .

وتجمع الفرنج ليقصدوا أعمال حلب ، فخرج إليهم نور الدين بعسكره والتقاهم بيغرى(٢٢١) ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم الفرنج ، وأسر منهم جماعة وقتل خلق ، ولم ينج إلا القليل .

وفي هذه الوقعة يقول الشيخ أبو عبد القيسراني من قصيدة :

وكيف لاننثني على عيشنا ال
ـمحمود والسلطان « محمود ! »
وصارم الاسلام لا ينثني
إلا وشلو الكفر مقدود
مكارم لم تك موجودة
إلا و « نور الدين » موجود(٢٢٢)

وشرع نور الدين في تجديد المدارس والرباطات بحلب ، وجلب أهل العلم والفقهاء إليها ، فجدد المدرسة المعروفة بالحلاويين ، في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ؛ واستدعى برهان الدين أبا الحسن

علي بن الحسن البلخي الحنفي وولاه تدريسها ، فغير الأذان بحلب ، ومنع المؤذنين من قولهم : « حي على خير العمل » وجلس تحت المنارة ومعه الفقهاء ، وقال لهم : « من لم يؤذن الأذان المشروع فالقوه من المنارة على رأسه » . فأذنوا الاذان المشروع ، واستمر الأمر من ذلك اليوم .

وجدد المدرسة العصرونية على منهب الشافعي ، وولاها شرف الدين بن أبي عصرون (٢٢٣) ، ومدرسة النفري ، وولاها القطب النيسابوري(٢٢٤) ، ومسجد الغضائري وقف عليه وقفا ، وولاه الشيخ شعيب(٢٢٥) ، وصار يعرف به .

وبقي برهان الدين البلخي بحلب مدرسا بالحلاوية إلى أن أخرجه مجد الدين بن الداية ، لوحشة وقعت بينهما ، ووليها علاء الدين عبد الرحمن بن محمود الغزنوي ، ومات ووليها ابنه محمود ، ثم وليها الرضي صاحب المحيط ، ثم وليها علاء الدين الكاساني(٢٢٦) .

وتوفي سيف الدين غازي بن زنكي بالموصل في سنة أربع وأربعين وترك ولدا صغيرا ، فرباه عمه نور الدين ، وعطف عليه .

واتفق الوزير جمال الدين وزين الدين علي على أن ملكوا قطب الدين مودود بن زنكي الموصل ، وكان نور الدين أكبر منه ، وكاتبه جماعة من الأمراء وطلبوه .

وفيمن كاتبه المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد ، وكان بسنجار ، فكتب إليه يستدعيه ليتسلم سنجار .

فسار جريدة في سبعين فارسا من أمراء دولته فوصل سنجار مجدا ، ونزل بظاهر البلد ، وأرسل الى المقدم يعلمه بوصوله ، فرآه الرسول وقد سار إلى الموصل ، وترك ولده شمس الدين محمدا بالقلعة ، فسير من لحق أباه في الطريق ، وأعلمه بوصول نور

الدين ، فعاد إلى سنجار ، وسلمها إليه ، وأرسل إلى قرا أرسلان صاحب الحصن(٢٢٧) يستدعيه لمودة كانت بينهما ، فوصل إليه .

ولما سمع قطب الدين والوزير جمال الدين ، وزين الدين بالموصل ، جمعوا العساكر ، وعزموا على قصد سنجار وساروا إلى تل أعفر(٢٢٨) ، فأشار الوزير جمال الدين بمداراته ، وقال : « إننا نحن قد عظمنا محله عند السلطان ، وجعلنا محلنا دونه ، وهو فيعظمنا عند الفرنج ، ويظهر أنه تبع لنا ، ويقول : إن كنتم كما نحب وإلا سلمت البلاد إلى صاحب الموصل ، وحينئذ يفعل بكم ويصنع ، فإن هزمناه طمع فينا السلطان ويقول : إن الذي كانوا يعظمونه ، ويخوفوننا به أضعف منهم ، وقد هزموه ، وإن هو هزمنا طمع فيه الفرنج ، ويقولون : إن الذي كان يحتمي بهم أضعف منه ، وبالجملة فهو ابن أتابك الكبير » ؛ وأشار بالصلح .

وسار إلى نور الدين بنفسه ، فوفق بينهما على أن يسلم سنجار إلى قطب الدين ، ويتسلم الرحبة ، ويستقل نور الدين بالشام جميعه ، وقطب الدين بالجزيرة ما خلا الرها ، فإنها لنور الدين(٢٢٩) .

وعاد نور الدين إلى الشام ، وأخذ ما كان قد ادخره أبوه أتابك من الخزائن ، وكانت كثيرة جدا .

فغزا نور الدين محمود بن زنكي بلد الفرنج من ناحية أنطاكية ، وقصد حصن حارم وهو للفرنج ، فحصره ، وخرب ربضه ، ونهب سواده ، ثم رحل إلى حصن إنب(٢٣٠) فحصره أيضا .

فاجتمع الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وحارم ، وتلك الأعمال ، وساروا إلى نور الدين ليرحلوه عن إنب ، فلقيهم يوم الاربعاء حادي وعشرين من صفر ، سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وأقتتلوا قتالا عظيما ، وباشر نور الدين القتال ذلك اليوم ، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة ، وقتل منهم جمع كثير ، وأسر مثله .

وكان ممن قتل ذلك اليوم البرنس صاحب أنطاكية ، وكان من عظماء الفرنج وأقويائهم . ويحكى عنه أنه كان يأخذ الركاب الحديد بيده ، فيطبقه بيده الواحدة ؛ وأنه مر يوما وهو راكب حصانا قويا تحت قنطرة فيها حلقة أو شيء مما يتعلق به ، فتعلق بيديه وضم فخذيه على الحصان فمنعه الحركة .

فلما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند ، وتزوجت أمه ببابرنس آخر ، ليدبر البلد إلى أن يكبر ابنها(٢٣١) ، وأقام معها بأنطاكية ، فغزاهم نور الدين غزوة ثانية ، فاجتمعوا ولقوه فهزمهم ، وقتل منهم خلقا وأسر كذلك ، وأسر البرنس الثاني زوج أم بيمند ، واستقل بيمند بأنطاكية .

وفي ذلك يقول الشيخ أبو عبد الله القيسراني من قصيدة أولها :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب
صافحت يا« بن عماد الدين » ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب
أغرت سيوفك بالأفرنج راجفة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب(٢٣٢)

وقال ابن منير في ذلك :

صدم الصليب على صلابة عوده ،
فتفرقت أيدي سبا خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة
بالروح ، مما قد جنت غدراته

تمشي القناة برأسه وهو الذي
نظمت مدار النير قناة(٢٣٣)

وسار نور الدين محمود إلى افامية ، في سنة خمس واربعين ، فالتجأ الفرنج إلى حصنها فقاتله ، واجتمع الفرنج وساروا إليه ليرحلوه عنه ، فوجدوه قد ملكه وملأه من الرجال والذخائر ، فسار في طلبهم ، فعدلوا عن طريقه ، ودخلوا بلادهم .

وجمع نور الدين العساكر وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي ليملكها وكان جوسلين من أشجع الفرنج واسدهم رأيا ، فجمع الفرنج وأكثر ، وسار إلى نور الدين والتقيا ، فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر .

وكان سلاحدار نور الدين ممن أسر ، فأخذ جوسلين سلاحه ، فسيره إلى الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية ، وقال : « هذا سلاح زوج ابنتك » . فعظم ذلك على نور الدين ، وهجر الراحة إلى أن يأخذ بثاره ، وجعل يفكر في حيلة يحتال بها على جوسلين ، وعلم أنه إن قصده احتمى في حصونه .

فأحضر أمراء التركمان ، وبذل لهم الرغائب إن ظفروا بجوسلين ، فجعلوا عليه العيون ، فخرج إلى الصيد فظفر به طائفة من التركمان ، فصانعهم على مال يؤديه إليهم ، فأجابوه إلى إطلاقه إذا أحضر المال ، وأرسل في إحضاره .

فمضى بعض التركمان إلى مجد الدين أبي بكر بن الداية ، وكان ابن داية نور الدين ، واستنابه في حلب ، وسلم أمورها إليه ، فأحسن الولاية فيها والتدبير ، فأعلم ذلك التركماني ابن الداية بصورة الحال ، فسير مجد الدين معه عسكرا ، فكبسوا أولئك التركمان ، وأخذوا جوسلين أسيرا ، واحضروه إلى ابن الداية ، في محرم هذه السنة(٢٣٤) .

فسار نور الدين عند ذلك إلى قلاع جـوسلين ، ففتـح عزاز بعـد الحصـار ، في ثـامن عشر ربيع الاول ، سـنة خمس واربعين وخمسمائة ، وفتح تل باشر ، وتل خالد ؛ وفتـح عين تـاب(٢٣٥) سنة خمسـين ، وفتـح قـورس(٢٣٦) والراوندان(٢٣٧) ، وبـرج الرصاص ، وحصن البيرة وكفرسود(٢٣٩) ، ومرعش(٢٤٠) ونهر الجوز.

وتجمع الفرنج وساروا إليه وهو ببـلاد جـوسلين ليمنعـوه عن فتحها ، في سنة سبع واربعين وخمسمائة ، فلما قـربوا منه رجـع إليهم ، ولقيهم عند دلوك ، فاقتتلوا فانهزم الفـرنج ، وقتـل منهـم وأسر كثير ، وعاد إلى دلوك ففتحها(٢٤١) .

وأما تل باشر فإنه تسلمها منهم بعد فتحـه دمشـق ، لانهـم لما علموا أنه فتح دمشق ، وأنه يقصدهم ولا طاقة لهـم بـه راسـلوه ، وبذلوا له تسليمها إليه ، فسير إليهم الأمير حسان صـاحب منبـج لقربها من منبج فتسلمها منهم ، وحصنها .

وكان فتحه دمشق في صفر سنة تسع وأربعين وخمسـمائة ، لان الفرنج أخذوا عسقلان من المصريين في سنة ثمان وأربعين ، ولم يكن له طريق إلى إزعاجهـم عنهـا لاعتـراض دمشـق بينه وبين عسقلان (٢٤٢) .

وطمع الفرنج في دمشق ، وجعلوا عليها قطيعة يأخذونها منهـم في كل سنة ، فخاف نور الدين أن يملكها الفرنج ، فـاحتال في أخـذها لعلمه أن أخذها بالقهر يصعب لانه متـى نازلهـا راسـل صـاحبها الفرنج مستنجدا بهـم ، وأعانوه خـوفا مـن نور الدين أن يملكهـا فيقوى بها عليهم .

فراسل مجير الدين أبق بن محمد بن بوري صاحبها ، واسـتماله وهاداه ، واظهر له المودة حتى وثق بـه ، فـكان يقـول له في بعض

الأوقات : « إن فلانا قد كاتبني في تسليم دمشق » - يعني بعض أمراء مجير الدين - فكان يبعد ذلك عنه ، ويأخذ اقطاعه ، فلما لم يبق عنده أحد من الأمراء قدم أميرا يقال له عطاء بن حفاظ الخادم ، وكان شجاعا وفوض إليه أمور دولته ، فكان نور الدين لايتمكن من أخذ دمشق منه ، فقبض عليه مجير الدين وقتله .

فسار نور الدين حينئذ إلى دمشق ، وكان قد كاتب أهلها واستمالهم ، وكان الناس يميلون إليه ، لما هو عليه من العدل والديانة والاحسان ، فوعدوه بالتسليم إليه .

فلما حصر دمشق أرسل مجير الدين إلى الفرنج يبذل لهم الاموال وتسليم قلعة بعلبك إليهم ، لينجدوه ويرحلوا نور الدين عنه ، فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم لذلك .

فتسلم نور الدين دمشق ، وخرج الفرنج وقد قضي الامر فعادوا خائبين ، وسلمها إليه أهلها من باب شرقي ، والتجأ مجير الدين إلى القلعة ، فراسله وبذل له عوضا عنها حمص ، وغيرها ؛ فسلمها إليه وسار إلى حمص ، ثم إنه راسل أهل دمشق ، فعلم نور الدين ، فخاف منه ، فأخذ منه حمص ، وعوضه ببالس ، فلم يرض بذلك ، وسار إلى بغداد فمات بها .

وسار نور الدين إلى حارم ، وهي لبيمند صاحب انطاكية ، وحصرها في سنة إحدى وخمسين ، وضيق على أهلها ، فتجمع الفرنج وعزموا على قصده فأرسل والي حارم إلى الفرنج ، وقال : « لاتلتقوه فإنه إن هزمكم أخذ حارم وغيرها ، ونحن في قوة والرأي مطاولته » ، فأرسلوا إلى نور الدين ، وصالحوه على أن يعطوه نصف أعمال حارم ورجع نور الدين إلى حلب .

ووقعت الزلازل في شهر رجب في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، بالشام ، فخربت حماة ، وشيزر ، وكفر طاب ، وأفامية ، ومعرة النعمان ، وحمص ، وحصن الشميميس(٢٤٢) ،

عند سلمية ، وغير ذلك من بلاد الفرنج . وتهدمت أسوار هذه البلاد فجمع نور الدين العساكر ، وخاف على البلاد من الفرنج ، وشرع في عمارتها حتى أمن عليها .

واما شيزر ، فانقلبت القلعة على صاحبها وأهله ، فهلكوا كلهم ، وكان قد ختن ولدا له وعمل وليمة ، وأحضر أهله في داره ، وكان له فرس يحبه ولايكاد يفارقه ، وإذا كان في مجلس أقيم ذلك الفرس على بابه ، فكان ذلك اليوم على الباب ، فجاءت الزلزلة فقام الناس ليخرجوا من الدار فخرج واحد من الباب فرمحه ذلك الفرس فقتله ، فامتنع الناس من الخروج فسقطت الدار عليهم فهلكوا .

وبادر نور الدين ، ووصل إلى شيزر ، وقد هلك تاج الدولة بن منقذ وأولاده ، ولم يسلم منهم إلا الخاتون اخت شمس الملوك زوجة تاج الدولة ، ونبشت من تحت الردم سالمة ، فتسلم القلعة وعمر أسوارها ودورها ، وكان نور الدين قد سأل أخت شمس الملوك عن المال وهددها ، فذكرت له أن الدار سقطت عليها وعليهم ، ونبشت هي دونهم ، ولاتعلم بشيء ، وإن كان لهم شيء فهو تحت الردم .

وكان شرف الدولة اسماعيل غائبا ، فلما حضر وعاين قلعة شيزر ، ورأى زوجة أخيه في ذلك الذل بعد العز ، عمل قصيدة أولها :

ليس الصباح من المساء بأمثل
فاقول لليل الطويل الا انجلي

قال فيها :

يا « تاج دولة هاشم » بل ياأبا الت
ـيجان بل ياقصد كل مؤمل
لو عاينت عيناك « قلعة شيزر »
والستر دون نسائها لم يسبل

لرأيت حصنا هائل المرأى غدا
متهلهلا مثل النقا المتهيل
لايهتدي فيه السعاة لمسلك
فكأنما تسري بقاع مهول

ذكر فيها زوجة أخيه ، فقال :

نزلت على رغم الزمان ولو حوت
يمناك قائم سيفها لم تنزل
فتبدلت عن كبرها بتواضع
وتعوضت عن عزها بتذلل(٢٤٤)

وأقامت الزلازل تتردد في البلاد سبع سنين ، وهلك فيها خلق كثير .

وفي هذه السنة أبطل الملك العادل نور الدين ، وهو بشيزر ، مظالم ومكوسا ببلاده كلها مقدارها مائة وخمسون ألف دينار .

ثم إن نور الدين تلطف الحال مع ضحاك البقاعي ، وراسله ، وهو ببعلبك ، وكان قد عصى فيها بعد فتح دمشق ، ولم ير أن يحصره بها لقربه من الفرنج ، فسلمها إلى نور الدين في هذه السنة (٢٤٥) .

وجرت وقعة بين نور الدين وبين الفرنج بين طبرية وبانياس ، فكسرهم نور الدين كسرة عظيمة في جمادى الأولى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة(٢٤٦) .

ثم عاد نور الدين إلى حلب ، فمرض بها في سنة أربع وخمسين ؛ مرضا شديدا ، بقلعتها ، وأشفى على الموت ، وكان بحلب أخوه الأصغر نصرة الدين أمير أميران محمد بن زنكي وأرجف بموت نور الدين ؛ فجمع أمير أميران الناس ، واستمال الحلبيين ، وملك

المدينة دون القلعة ، وأذن للشيعة أن يزيدوا في الأذان : « حي على خير العمل ، محمد وعلي خير البشر » ، على عادتهم من قبل ، فمالوا إليه لذلك .

وثارت فتنة بين السنة والشيعة ، ونهب الشيعة مدرسة ابن عصرون وغيرها من آدر السنة ، وكان أسد الدين شيركوه بحمص ، فبلغه ذلك فسار إلى دمشق ليغلب عليها ، وكان بها أخوه نجم الدين أيوب فأنكر عليه ذلك ، وقال : « أهلكتنا والمصلحة أن تعود إلى حلب ، فان كان نور الدين حيا خدمته في هذا الوقت ، وإن كان مات فأنا في دمشق ، وتفعل ما تريد » .

فعاد مجدا إلى حلب ، فوجد نور الدين وقد ترجح إلى الصلاح ، فأجلسه في طيارة مشرفة إلى المدينة ، بحيث يراه الناس كلهم ، وهو مصفر الوجه من المرض ، ونادوا إلى الناس : « هذا سلطانكم » . فقال بعضهم : « ما هذا نور الدين ، بل هو فلان » — يعنون رجلا كان يشبهه وقد طلى وجهه بصفرة ، ليخدعوا الناس بذلك — .

ولما تحقق أمير أميران عافية أخيه خرج من الدار التي كان بها تحت القلعة ، وبيده ترس يحميه من النشاب ، وكان الناس قد تفرقوا عنه ، فسار إلى حران ، فملكها .

وسير نور الدين إلى قاضي حلب ، جدي أبي الفضل هبة الله بن أبي جرادة ، وكان يلي بها القضاء والخطابة والامامة ، وقال له : « تمضي إلى الجامع ، وتصلي بالناس ، ويعاد الاذان إلى ما كان عليه » .

فنزل جدي ، وجلس بشمالية الجامع تحت المنارة ، واستدعى المؤذنين ، وأمرهم بالأذان المشروع على رأي أبي حنيفة ، فخافوا ، فقال لهم : « ها أنا أسفل منكم ولي أسوة بكم » .

فصعد المؤذنون وشرعوا في الأذان ، فاجتمع تحت المنارة من

عوام الشيعة وغوغائهم خلق كثير ؛ فقام القاضي إليهم ، وقال : « يا أصحابنا ، وفقكم الله ، من كان على طهارة فليدخل وليصل ، ومن كان محدثا فليجدد وضوءه ويصلي ، فان المولى نور الدين – بحمد الله – في عافية ، وقد تقدم بما يفعل ، فانصرفوا راشدين .»

فانصرفوا وقالوا : « ايش نقول لقاضينا » ! ونزل المؤذنون وصلى بالناس ، وسكنت الفتن .

فلما عوفي نور الدين قصد حران ، فهرب نصرة الدين امير اميران ، وترك أولاده بالقلعة بحران فتسلمها ، وأخرجهم منها ، وسلمها إلى زين الدين علي كوجك ، نائب أخيه ، قطب الدين .

ثم سار إلى الرقة وبها أولاد أميرك الجاندار ، وقد مات أبوهم ، فشفع إليه بعض الأمراء في إبقائها عليهم ، فغضب ، وقال : « هلا شفعتم في أولاد أخي لما أخذت منهم حران ، وكانت الشفاعة فيهم من أحب الأشياء إلي » ، وأخذها منهم .

وخرج مجد الدين بن الداية من حلب إلى الغزاة ، في شهر رجب من سنة خمس وخمسين ، فلقي جوسلين بن جوسلين ، فكسره ، وأخذه أسيرا ، ودخل به إلى قلعة حلب .

ثم إن الفرنج أغاروا على بلد عين تاب ، فأخذوا التركمان ، ونهبوا أغنامهم ، وعادوا يريدون أنطاكية ، فخرج إليهم مجد الدين ، ولقيهم بالجومة(٢٤٧) ، وكسرهم ، وقتل منهم خلقا عظيما ، وأسر البرنس الثاني وخلقا معه ، ودخل بهم إلى حلب في مستهل ذي الحجة من سنة ست وخمسين وخمسمائة .

وفي سنة سبع ، ولى نور الدين كمال الدين أبا الفضل محمد بن الشهر زوري قضاء ممالكه كلها ؛ وأمر القضاة ببلاده أن يكتبوا في الكتب بالنيابة عنه ، وكان قد حلف له على ذلك وعاهده عليه ، وكان

ذلك بدمشق في السنة المذكورة ، فامتنع زكي الدين قاضي دمشق ، فعزل ؛ وكتب إلى جدي أبي الفضل بحلب ، فامتنع أيضا .

ووصل نور الدين ومعه مجد الدين بن الداية ، واستدعاه نور الدين إلى القلعة ، وقال :« كنا قد عاهدنا كمال الدين ، وحلفنا له على هذا الأمر ، وما أنت إلا نائبي ، وله اسم قضاء البلاد لا غير » فامتنع وقال : « لا أذوب عن مكانين » . فولى قضاء حلب محيي الدين أبا حامد بن كمال الدين ، وأبا المفاخر عبد الغفور بن لقمان الكردي ؛ وذلك بإشارة مجد الدين لوحشة كانت بينه وبين جدي .

ثم إن نور الدين جمع العساكر بحلب ، في سنة سبع ، وسار إلى حارم ، وقاتلها ، فجمع الفرنج جموعهم ، وساروا إليه . فطلب منهم المصاف فلم يجيبوه ، وتلطفوا معه حتى عاد إلى حلب .

ثم جمع العساكر في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، ودخل إلى بلاد الفرنج ، ونزل في البقيعة تحت حصن الأكراد محاصرا له ، وعازما على أن يقصد طرابلس .

فاجتمع الفرنج ، وخرج معهم الدوقس الرومي ، وكان قد خرج في جمع كثير من الروم ، واتفق رأيهم على كبسة المسلمين نهارا ، فإنهم يكونون آمنين ، فركبوا لوقتهم ولم يتوقفوا ، وساروا مجدين إلى أن قربوا من يزك(٢٤٨) المسلمين ، فلم يكن لهم بهم طاقة ، وأرسلوا إلى نور الدين يعرفونه الحال ، فرهقهم الفرنج بالحملة عليهم فلم يثبت المسلمون وعادوا منهزمين إلى نور الدين والفرنج في ظهورهم ، فوصلوا جميعا إلى عسكر نور الدين ، ولم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح ، حتى خالطهم الفرنج ، فقتلوا ، وأسروا ، قتلا عظيما وأسرا كبيرا .

وكان الدوقس أشدهم على المسلمين ، فلم يبق أصحابه على أحد ، وقصدوا خيمة نور الدين ، وقد ركب فيها فرسة ، فنجا بنفسه ؛ ولسرعته ركب الفرس والشبحة في رجله ، فنزل انسان

كردي ، وفداه بنفسه ، فقطع الشبجة ونجا نور الدين ، وقتل الكردي ، فأحسن إلى مخافيه ، ووقف عليهم الوقوف(٢٤٩) .

ووصل نور الدين إلى بحيرة قدس(٢٥٠) ، وبينه وبين المعركة نحو أربعة فراسخ ؛ وتلاحق به من سلم من العسكر ، فقال له بعضهم : « المصلحة أن نسير ، ، فان الفرنج ربما طمعوا وجاؤوا إلينا ، ونحن على هذه الحال » ؛ فوبخه وأسكته ، وقال :« إذا كان معي ألف فارس التقيتهم ، ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثاري وثأر الاسلام » .

وأرسل إلى حلب ودمشق ، وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل ، فأعطى الناس عوضا عما أخذ منهم بقولهم ، وأصبح عسكره كأن لم يهزم ولم ينكب ، وكل من قتل أعطى أولاده اقطاعه .

ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرجه قال له بعض صحابة السوء : « إن لك في بلادك إدرارات وصلات ووقوفا كثيرة على الفقهاء والفقراء ، والقراء ، والصوفية وغيرهم ؛ فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح » ، فغضب من ذلك وقال : « والله إنني لا أرجو النصر إلا بدعاء أولئك ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لاتخطىء ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال ، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم ! »وقيل : إن برهان الدين البلخي قال لنور الدين : « أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور ، كلا والله .»

فلما سمع نور الدين كلامه عاهد الله على التوبة ، ونزع عنه ثيابه تلك التي كان يلبسها ، والتزم بلبس الخشن ؛ وبطل جميع ما كان بقي في بلاده من الاعشار والمكوس والضرائب ؛ ومنع من ارتكاب الفواحش ، وكتب إلى البلاد إلى زهادها وعبادها يذكر لهم ما نال

المسلمين من القتل والأسر ، ويستمد منهم الدعاء ، وان يحثوا المسلمين على الغزاة ؛ وكاتب الملوك الاسلامية يطلب منهم النجد والاستعداد ، وامتنع من النوم على الوطيء وعن جميع الشهوات .

وراسله الفرنج في طلب الصلح فامتنع ، فبينا هو في الاستعداد للجهاد إذ ورد عليه في شهر ربيع الاول ، من سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، شاور وزير العاضد بمصر إلى دمشق ، ملتجئا إليه ، ومستجيرا به على ضرغام ، وكان قد نازعه في الوزارة وغلب عليها .

وطلب منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه ، ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر ، ويكون نائبه مقيما بعساكره في مصر ، ويتصرف بأمر نور الدين واختياره ، فبقي مترددا بين أن يفعل ذلك وبين أن يجعل جل قصده إلى الفرنج ، ثم قوي عزمه وسير أسد الدين شيركوه بن شادي ، في عسكر معه ، في جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين ، وتقدم إلى أسد الدين أن يعيد شاور إلى منصبه .

وسار نور الدين إلى طرف بلاد الفرنج مما يلي دمشق ، بما بقي من العساكر ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين وشاور في طريقهما ، فاشتغل الفرنج بحفظ بلادهم من نور الدين عن التعرض لهما ، ووصل أسد الدين وشاور إلى بلبيس ، فخرج إليهم ناصر الدين اخو ضرغام بعسكر المصريين ، ولقيهم فانهزم وعاد إلى القاهرة .

ووصل أسد الدين إلى القاهرة ، فنزل عليها في آخر جمادى الآخرة ، فخرج ضرغام فقتل ، وقتل أخوه ، وخلع على شاور وأعيد إلى الوزارة .

وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ، فغدر شاور ، وعاد عما كان قرره مع نور الدين ، وأمر أسد الدين بالعود إلى الشام فامتنع ،

وطلب ما كان استقر فلم يجبه إليه ، فأرسل أسد الدين نوابه فتسلموا بلبيس ، وحكم على البلاد الشرقية .

فأرسل شاور إلى الفرنج ، واستنجد بهم ، وخوفهم من نور الدين إن ملك مصر ، فسارعوا إلى تلبيته ، وطمعوا في ملك الديار المصرية ، وساروا إلى بلبيس ، وسار نور الدين إلى طرف بلادهم ليمنعهم عن المسير ، فلم يلتفتوا ، وتركوا في بلادهم من يحفظها .

وسار ملك القدس في الباقين إلى بلبيس ، واستعان بجمع كثير كانوا خرجوا إلى زيارة القدس ؛ وأقام أسد الدين ببلبيس ، وحصره الفرنج ، والعسكر المصري ثلاثة أشهر وهو يغاديهم القتال ويراوحهم ، فلم يظفروا منه بطائل ، مع أن سور بلبيس قصير ، وهو من طين(٢٥١) .

فعند ذلك خرج نور الدين لقصد بلاد الفرنج ، الى حلب وجمع العساكر ، وارسل الى اخيه قطب الدين صاحب الموصل ، وإلى فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وإلى نجم الدين ألبي صاحب ماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف واستنجد بهم .

فسار قطب الدين ومقدم عسكره زين الدين علي كوجك ، وسير صاحب ماردين عسكره ؛ وأما صاحب الحصن فقال له خواصه وندماؤه : « على أي شيء عزمت ؟» فقال : « على القعود ، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يلقي نفسه ومن معه في المهالك » .

فلما جاء الغد أمر العسكر أن يتجهز للغزاة فسألوه عما صدفه عن رأيه ، فقال : « إن نور الدين إن لم أنجده خرجت بلادي عن يدي ، فانه قد كاتب زهادها والمنقطعين عن الدنيا يستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة ، وقد قعد كل واحد منهم ومعه أتباعه وأصحابه ، وهم يقرؤون كتب نور الدين ،

ويبكون ،فأخاف أن يجتمعوا على لعنتي والدعاء علي » . ثم تجهز وسار بنفسه .

ولما اجتمعت العساكر خرج نور الدين الى حارم ، وحصرها ، ونصب المجانيق عليها ، وزحف إليها ، فخرج البرنس بيمند ، والقمص صاحب طرابلس ، وابن جوسلين والدوك مقدم كبير من الروم .

وابن لاون ملك الارمن ، وجمعوا جميع من بقي من الفرنج بالساحل ، وقصدوا نور الدين .

فرحل إلى أرتاح ليتمكن منهم إن طلبوه « ويبتعدوا » عن البلاد إن لقوه ؛ وسير اثقاله إلى تيزين(٢٥٢) ، فساروا فنزلوا على الصفيف(٢٥٣) ، ثم عادوا إلى حارم ، فتبعهم نور الدين على تعبئة الحرب ، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال فحمل الفرنج على ميمنة المسلمين ، وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن ، فانهزم المسلمون حتى وصلوا إلى جدارهم ؛ ونور الدين واقف بازائهم على تل هناك يتضرع إلى الله ، وهو مكشوف الرأس .

وبقي راجل الفرنج فوق عم ، مما يلي حارم بالصفيف ، فعطف عليهم زين الدين علي كوجك ، في عسكر الموصل ؛ وكان نور الدين قد جعله كمينا في طرف العمق ، وآجام القصب ؛ فقتلهم عن أخرهم .

ورجعت الخيالة من الفرنج خوفا على الراجل أن يتبعوا المسلمين ، فيقع المسلمون عليهم ، فوجدوا الأمر على ما قدروه ، فرأوا الرجالة منهم قتلى وأسرى ، واتبعهم نور الدين مع من إنهزم من المسلمين ، فأحاطوا بهم من جميع الجهات ، فاشتد الحرب ، وكثر القتل في الفرنج ، فوقعت عليهم الغلبة .

وعدل المسلمون إلى الأسر ، فأسروا صاحب انطاكية ، وصاحب

طرابلس ، والدوك مقدم الروم ، وابن جوسلين ، ولم يسلم إلا مليح ابـن لاون ؛ قيل إن الياروقية أفـرجوا له حتـى هـرب ، لأنه كان خالهم ، وكان عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف .

وسار إلى حارم فملكها في شهر رمضان من السنة ، وبث سراياه في أعمال أنطاكية ، فنهبوها وأسروا أهلها ، وباع البـرنس بمـال عظيم وأسرى من المسلمين(٢٥٤) .

ثم سار في هذه السنة إلى دمشق ، بعد أن أذن لعسـكر الموصـل وديار بكر بالعود إلى بلادهم ، ثم خـرج إلى بـانياس ، فحصرهـا وقاتلها ، وكان معه أخوه نصرة الدين أمير أميران ـ وكان قد رضي عنه وسامحه ـ وهو على حارم ، بعد أن دخل إلى الفرنج ، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه ، فقال له : « لو كشف لك عن الأجـر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى » ، وجد في حصارها وفتحها ، وملأ القلعة بالذخائر والرجال ، وشاطر الفرنج في أعمال طبرية ، وقرروا له على ما سوى ذلك مالا في كل سنة .

ووصل خبر فتـح حـارم وبـانياس إلى الفـرنج النازلين على بلبيس ، فأرادوا العود إلى بلادهم ، فراسلوا أسد الدين في الصـلح رجاء أن يلحقوا بانياس ، فاتفق الحـال معهـم على أن يعـود إلى الشام ، ويسلم ما بيده من أعمال مصر إلى أهلهـا ، ولم يكن عنده علم بما جرى لنور الدين بـالشام ، وكانت الذخـائر قـد قلت عنده ببلبيس .

وخرج من الديار المصرية إلى الشـام ، وجـاء الفـرنج ليدركوا بانياس ، فوجدوا الأمر قـد فـات ، وكشـف أسـد الدين الديار المصرية ، واستصغر أمر من بها .

ودخلت سنة إحدى وستين وخمسـمائة ، فسـار نور الدين إلى المنيطرة(٢٥٥) ، جـريدة في قلة مـن العسـكر ، على غفلة مـن الفرنج ، وحصر حصنها ، وأخذه عنوة ، وقتل من به ، وسبى وغنم

غنيمة كثيرة ، وأيس الفرنج من استرجاعه بعد أن تجمعوا له وتفرقوا .

وتحدث أسد الدين مع نور الدين ، في عوده إلى الديار المصرية ، فلما رأى جده سيره إليها في ألفي فارس من خيار العسكر ، في سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

فسار على البر ، وترك بلاد الفرنج على يمينه ، فوصل الديار المصرية ، وعبر النيل إلى الجانب الغربي عند أطفيح(٢٥٦) ، وحكم على البلاد الغربية ، ونزل بالجيزة مقابل مصر ، فأقام نيفا وخمسين يوما .

فأرسل شاور واستنجد بالفرنج ، فسار أسد الدين إلى الصعيد ، وبلغ إلى موضع يعرف بالبابين(٢٥٧) ؛ وسارت العساكر المصرية والفرنجية خلفه ؛ فوصلوا إليه وهو على تعبئة وقد جعل أثقاله في القلب ليتكثر بها ؛ وجعل ابن أخيه صلاح الدين في القلب ، وأوصاهم متى حملوا عليه أن يندفع بين أيديهم قليلا ، فإذا عادوا فارجعوا في أعقابهم .

واختار من يثق بشجاعته ، ووقف بهم في الميمنة ، فحمل الفرنج على القلب ، فاندفع بين أيديهم غير مفرقين ، فحمل أسد الدين بمن معه على من بقي منهم ، فهزمهم ووضع السيف فيهم ، وأكثر القتل والأسر ، وعاد الذين حملوا على القلب فوجدوا أصحابهم قد مضوا قتلا وأسرا فانهزموا .

وسار أسد الدين إلى الاسكندرية ، ففتحها باتفاق من أهلها واستناب بها صلاح الدين ، وعاد إلى الصعيد ، وجبى أمواله .

وتجمع الفرنج والمصريون ، وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية ، فصبروا على الحصار إلى أن عاد أسد الدين ، فوقع الصلح على أن بذلوا لأسد الدين خمسين ألف دينار ، سوى ما أخذ من البلاد ، وأن

الفرنج لايقيمون في البلاد ، فاصطلحوا على ذلك ، وعاد إلى الشام ؛ وتسلم المصريون الاسكندرية(٢٥٨) .

وأما نور الدين فإنه جمع العساكر في هذه السنة ، ودخل من حمص إلى بلاد الفرنج ، فنازل عرقة ، ونهب بلدهما ، وخرب بلادهم ، وفتح صافيتا والعريمة ، وعاد إلى حمص ، وخرج إلى بانياس ، وخرج إلى هونين(٢٥٩) ، فانهزم الفرنج عنه وأحرقوه ، فوصل إليه نور الدين من الغد ، فخرب سوره وعاد .

وكان حسان صاحب منبج قد مات ، وأقطع نور الدين منبج ولده غازي بن حسان ، فعصى عليه في هذه السنة ، فسير إليه عسكرا ، وأخذوها منه فأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان ، وهو الذي ابتنى المدرسة الحنفية بمنبج .

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، نزل شهاب الدين مالك بن علي بن مالك صاحب قلعة جعبر ليتصيد ، فأخذه بنو كلاب أسيرا وحملوه إلى نور الدين في رجب ، فاعتقله وأحسن إليه ، ورغبه في الاقطاع فلم يجبه ، فعدل إلى الشدة والحذف .

ثم سير إليها عسكرا فلم يقدر على فتحها ، فعدل إلى اللين مع صاحبها ، إلى أن اتفق الحال على أن عوضه عنها بسروج وبزاعا والملوحة(٢٦٠) ، وسلم إليه القلعة في سنة أربع وستين ، وقيل لمالك : « أيما أحب إليك سروج أو القلعة ؟» فقال : « هذه أكثر مالا ، وأما العز ففارقناه بالقلعة » .

وفي هذه السنة أطلق نور الدين في بلاده بعض ما كان قد بقي من المظالم والمؤن .

ثم إن الفرنج طمعوا في الديار المصرية فصعدوا إليها في سنة أربع وستين وخمسمائة ، وأخذوا بلبيس وساروا إلى القاهرة فقاتلوها ؛ وسير العاضد يستغيث إلى نور الدين ، وسير شعور نسائه في

الكتب ، فوصله الرسول وهو بحلب ، وبذل له ثلث بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين مقيما عندهم .

وكتبوا إلى أسد الدين بمثل ذلك ، فوصل إلى نور الدين إلى حلب من حمص ، وقد عزم على الايفاد إليه ، فأمره بالتجهيز إلى مصر ، وأعطاه مائتي الف دينار سوى الثياب والسلاح والدواب ، وحكمه في العسكر والخزائن فاختار الفي فارس ، وأخذ المال وجمع ستة الاف فارس ، وسار هو ونور الدين إلى دمشق فوصلها سلخ صفر ، ورحل إلى رأس الماء (٢٦١) .

واضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الامراء منهم : عز الدين جورديك ، وغرس الدين قلج ، وشرف الدين برغش ، وعين الدولة بن ياروق ، وقطب الدين ينال بن حسان ، وصلاح الدين ابن أخيه .

وسار أسد الدين ، فلما قارب مصر رحل عنها الفرنج إلى بلادهم ، ووصل أسد الدين إلى القاهرة سابع جمادى الآخرة ، ودخل إليها واجتمع بالعاضد ، وخلع عليه وعاد إلى خيامه ، وفي نفس شاور منه ما فيها ، ولايتجاسر على إظهاره .

وكان شاور يخرج في الاحيان إلى أسد الدين يجتمع به ، فخرج في بعض الأيام على عادته فلم يجده في الخيام ، وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعي - رضي الله عنه - فلقيه صلاح الدين ، وجورديك ، في جمع من العسكر وخدموه ، وأعلموه أن أسد الدين قد مضى للزيارة فقال : « نمضي إليه » فساروا جميعا ، فساوره صلاح الدين وجورديك ، وألقياه إلى الأرض ، فهرب عنه أصحابه وأخذ أسيرا .

وأرسلوا إلى أسد الدين فحضر في الحال ، وجاءه التوقيع في الحال بالوزارة على يد خادم خاص ، ويقول : « لابد من رأسه » ، جريا على عادتهم في وزرائهم أن الذي يقوى على الآخر يقتله ، فقتل وأنفذ رأسه إلى العاضد (٢٦٢) .

وأنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة ، فسار ودخل القصر ، وترتب وزيرا في سابع عشر شهر ربيع الآخر ، ودام آمرا ناهيا إلى أن عرض له خوانيق ، فمات في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة(٢٦٣) .

وفوض الأمر بعده إلى ابن أخيه ، وكان جماعة من الامراء ، الذين كانوا مع أسد الدين قد تطاولوا إلى الوزارة ، منهم : عين الدولة بن ياروق ، وسيف الدولة المشطوب ، وشهاب الدين محمود الحارمي — خال السلطان صلاح الدين — وقطب الدين ينال بن حسان .

فأرسل العاضد إلى صلاح الدين ، وأحضره عنده ، وولاه الوزارة بعد عمه ، وخلع عليه ، ولقبه بالملك الناصر ، فاستتبت أحواله ، وبذل المال ، وتاب عن شرب الخمر ، وأخذ في الجد والتشمير في أموره كلها ، وكان الفقيه عيسى الهكاري معه ، فميل الامراء الذين كانوا قد طمعوا بالوزارة إلى الانقياد إليه ، فأجابوا سوى عين الدولة بن ياروق ، فإنه امتنع ، وعاد إلى نور الدين إلى الشام .

فاستمر الملك الناصر بالديار المصرية وزيرا ، وهو نائب عن نور الدين ، وكان إذا كتب إليه كتابا يكتب : « الأمير الاسفهسلار ، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا » . وتكتب العلامة على رأس الكتاب ، ويذكر اسمه .

وسير الملك الناصر ، وطلب أباه نجم الدين وأهله ، فسيرهم نور الدين إليه مع عسكر ، واجتمع معهم من التجار خلق عظيم ، وذلك في سنة خمس وستين .

وخاف نور الدين عليهم من الفرنج ، فسار في عساكره إلى الكرك فحصره ونصب عليه المجانيق ، فتجمع الفرنج ، وساروا إليه وتقدمهم ابن الهنفري ، وابن الدقيق(٢٦٤) ، فرحل نور الدين

نحوهما قبل أن تلحقهما بقية عساكر الفرنج فرجعا خوفا منه واجتمعا ببقية الفرنج .

وسلك نور الدين وسط بلادهم ، فنهب وأحرق ما في طريقه إلى أن وصل إلى بلاد الاسلام ، فنزل على عشترا (٢٦٥) على عزم الغزاة ، فأتاه خبر الزلازل الحادثة بالشام ، فإنها خربت حلب خرابا شنيعا ، وخرج أهلها إلى ظاهرها .

وتواترت الزلازل بها أياما متعددة ، وكانت في ثاني عشر شوال من السنة يوم الاثنين طلوع الشمس ، وهلك من الناس ما يزيد على خمسة آلاف نفر ذكر وأنثى ، وكان قد احترق جامع حلب وما يجاوره من الأسواق قبل ذلك في سنة أربع وستين وخمسمائة ، فاهتم نور الدين في عمارته وإعادته والأسواق التي تليه إلى ما كانت عليه ، وقيل : إن الاسماعيلية أحرقوه .

وبلغه أيضا وفاة مجد الدين ابن دايته ، أخيه من الرضاعة بحلب ، في شهر رمضان سنة خمس وستين وخمسمائة ، فتوجه نور الدين إلى حلب ، فوجد أسوارها وأسواقها قد تهدمت .

ونزل على ظاهر حلب حتى أحكم عمارة جميع أسوارها ، وبنى الفصيل الدائر على البلد ، وهو سور ثان .

ورمم نوابه ما خرب من الحصون والقلاع مثل بعلبك ، وحمص وحماة ، وبارين ، وغيرها .

وخرج نور الدين إلى تل باشر ، فوصله الخبر بوفاة أخيه قطب الدين بالموصل في ذي الحجة ، وكان أوصى بالملك لابنه الاكبر عماد الدين زنكي ، وكان طوع عمه نور الدين لكثرة مقامه عنده ، ولأنه زوج ابنته .

ثم إن فخر الدين عبد المسيح وخاتون ابنة تمرتاش بن إيلغازي

زوجة قطب الدين ، وهي والدة سيف الدين غازي بن قطب الدين اتفقا على صرف قطب الدين عن وصيته لابنه عماد الدين إلى سيف الدين غازي .

فرحل عماد الدين إلى عمه نور الدين مستنصرا به ليعينه على أخذ الملك له ؛ فسار نور الدين في سنة ست وستين وخمسمائة ، وعبر الفرات عند قلعة جعبر في مستهل المحرم ، وقصد الرقة فحصرها وأخذها ؛ ثم سار في الخابور ، فملكه جميعه ، وملك نصيبين ، وأقام بها يجمع العساكر ، وكانت أكثر عساكره في الشام في مقابلة الفرنج .

فلما إجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها ، ونصب عليها المجانيق ، وفتحها فسلمها إلى عماد الدين زنكي ابن أخيه ؛ وجاءته كتب الأمراء بالموصل يبذلون له الطاعة ، ويحثونه على الوصول إليهم ، فسار إلى الموصل .

وكان سيف الدين غازي وعبد المسيح قد سيرا عز الدين مسعود ابن قطب الدين إلى أتابك شمس الدين إيلدكز صاحب أذربيجان وأصبهان ، يستنجدانه على نور الدين ، فأرسل إيلدكز إليه رسولا ينهاه عن التعرض للموصل فقال نور الدين : « قل لصاحبك أنا أصلح لأولاد أخي منك ، فلا تدخل بيننا ؛ وعند الفراغ من إصلاح بلادهم يكون لي معك الحديث على باب همذان ، فانك قد ملكت هذه المملكة العظيمة ، وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ؛ وقد بليت أنا ولي مثل ربع بلادك بالفرنج ، فأخذت معظم بلادهم ، وأسرت ملوكهم » .

وأقام على الموصل فعزم من بها من الامراء على مجاهرة عبد المسيح بالعصيان ، وتسليم البلد إلى نور الدين ، فعلم بذلك فأرسل إلى نور الدين في تسليم البلد على أن يقره بيد سيف الدين ؛ وطلب

الأمان لنفسه وعلى أن يمضي صحبته إلى الشام ، ويقطعه ما يرضيه فتسلم البلد ، وأبقى فيه سيف الدين غازي .
وعاد إلى حلب فدخلها في شعبان من هذه السنة .

وكتب إلى الملك الناصر صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة المستضيئية العباسية ، فامتنع واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليه ، وكان يؤثر أن لايقطع الخطبة للمصريين في ذلك الوقت ، خوفا من نور الدين أن يدخل إلى الديار المصرية فيأخذها منه ، وإذا كان العاضد معه امتنع وأهل مصر معه ، فلم يقبل عذره نور الدين ، وألح عليه .

وكان العاضد مريضا فخطب للمستضيء في الديار المصرية ، وتوفي العاضد ، ولم يعلم بقطع الخطبة ، وقيل : إنه علم قبل موته ؛ وكان ذلك في سنة سبع وستين وخمسمائة .

وفي هذه السنة تتبع نور الدين رسوم المظالم والمؤن في جميع البلاد التي بيده ، فأزالها وعفى رسومها ومحا آثار المذكرات والفواحش ، بعدما كان أطلق من ذلك في تواريخ متقدمة ، وكان مبلغ ما أطلقه أولا وثانيا خمسمائة ألف وستة وثمانين ألفا وأربعمائة وستين دينارا .

وكان رأى وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني في المنام كأنه يغسل ثياب نور الدين ، ففسر ذلك عليه ، ففكر في ذلك ولم يرد عليه جوابا ، فخجل وزيره وبقي أياما واستدعاه ، وقال : « تعال ياخالد ، اغسل ثيابي » ؛ وأمره فكتب توقيعا بازالة ما ذكرناه .

وسار الملك الناصر من مصر غازيا ، فنازل حصن الشوبك وحصره ، فطلبوا الامان واستمهلوه عشرة أيام ، فلما سمع نور الدين بذلك سار عن دمشق ، فدخل بلاد الفرنج من الجهة الاخرى ، فقيل للملك الناصر : « إن دخل نور الدين من جانب وأنت من هذا الجانب ملك بلاد الفرنج ، فلا يبقى لك معه بديار مصر مقام ، وإن

جاء وانت هـهنا فلا بد لك من الاجتماع به ويبقى هـو المتحـكم فيك بما شاء ؛ والمصلحة الرجوع إلى مصر » .

فـرحل عن الشـوبك إلى مصر ، وكتـب إلى نور الدين يعتـذر باختلال أمور الديار المصرية وأن شيعتها عزموا على الوثوب بهـا ، فلم يقبل نور الدين عذره ، وتغير عليه وعزم على الدخول إلى الديار المصرية .

فسمع الملك الناصر ، فجمع أباه نجم الدين وخاله شهاب الدين ، وتقي الدين عمر ، وغيرهم من الامراء ، وأعلمهم ما بلغه من حـركة نور الدين واستشارهم ، فلم يجبه أحد ، فقام تقي الدين ، وقـال : « إذا جاءنا قاتلناه » ووافقه غيره من أهله ، فشـتمهم نجـم الدين أيوب والد الملك الناصر ، وأقعد تقـي الدين ، وقـال للملك الناصر : « أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين خالك ، ونحن أكثـر محبـة لك مـن جميع من ترى ؛ ووالله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمـكننا إلا أن نقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقـك بـالسيف لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا ، فما ظنك بغيرنا ، وكل من نراه عندك ، فهو كذلك ، وهذه البلاد لنور الدين ونحن مماليكه ونوابه فيها ، فان أراد عزلك سمعنا وأطعنا ، والرأي أن تكتب كتابا مع نجاب وتقـول له : بلغني أنك تريد الحركة لأجل البـلاد ، ولاحـاجة إلى ذلك بـل يرسل المولى نجـابا يضـع في رقبتـي منديلا ، ويأخـذني إليك » . وتفرقوا .

فلما خلا نجم الدين أيوب بـالملك الناصر قـال له : « كيف فعلت مثل هـذا ؟ أمـا تعلم أن نور الدين إذا سـمع عزمنا على منعـه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه إليه ، وحينئذ لانقوى به ، وأما إذا بلغه طاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا ؛ والاقـدار بيد الله ؛ ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقـاتلته عليهـا حتـى أمنعـه أو أقتل » ، ففعل ما أشار بـه عليه والده ، فتـرك نور الدين قصـده ، واشتغل بغيره .

وخرج نور الدين بالعساكر ، ففتح حصن عرقة ، وصافيتا ، وعريمة(٢٦٧) ، ونهب وخرب بلاد الفرنج ثم هادنهم .

ثم إن الفرنج ساروا إلى بلد حوران في سنة ثمان وستين الغارة ، فسار نور الدين إليهم ، فنزل عشترا ، وسير عسكره إلى أعمال طبرية ، فغنموا غنائم عظيمة ، وعادوا .

وكان نور الدين قد استخدم مليح بن لاون ، ملك الارمن ، واقطعه اقطاعا من بلاد الاسلام ، وحضر معه حروبا متعددة فأنجده في هذه السنة بطائفة من عسكره ، فدخل مليح إلى اذنة وطرسوس والمصيصة ، وفتحها من يد ملك الروم ، وأرسل إلى نور الدين كثيرا من غنائمهم وثلاثين أسيرا من أعيانهم(٢٦٨) .

وقصد قلج ارسلان ذا النون بن الدانشمند صاحب ملطية وسيواس(٢٦٩) ، واخذ بلاده ، واخرجه عنها طريدا ، فاستجار بنور الدين ، ووصل إليه فأكرمه ، وسير إلى قلج أرسلان يشفع إليه في إعادة بلاده إليه ، فلم يفعل ؛ فسار نور الدين إليه في هذه السنة فابتدأ بكيسوم(٢٧٠) ، وبهسني (٢٧١) ، ومرعش ، ومرزبان (٢٧٢) ، ومايليها ، وكان ملكه مرعش ، في أوائل ذي القعدة ، والباقي بعدها .

وسير طائفة من عسكره إلى سيواس ، فملكها ؛ وراسله قلج أرسلان في الصلح ، واتاه من أخبار الفرنج ما أزعجه فصالحه ، وأعطى سيواس ذا النون ، وجعل معه قطعة من عسكره ؛ وشرط على قلج أرسلان إنجاده بعساكره إلى الغزاة .

واتفق نور الدين وصلاح الدين على أن يصل كل واحد منهما من جهته ، وتواعدا على يوم معلوم على أن يتفقا على قتال الفرنج ، وأيهما سبق أقام للآخر منتظرا ، إلى أن يقدم عليه ، فسبق صلاح الدين ووصل إلى الكرك وحصره .

وسار نور الدين فوصل إلى الرقيم(٢٧٣) - وبينه وبين الكرك مرحلتان - فخاف صلاح الدين ، واتفق رأيه ورأي أهله على العود إلى مصر لعلمهم بأنهما متى اجتمعا كان نور الدين قادرا على أخذ مصر منه .

فعاد إلى مصر ، وأرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر ، وأنه بلغه أنه مريض ، ويخاف أن يحدث به حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم ، ولم يكن مريضا ، وأرسل مع الفقيه عيسى من التحف والهدايا ما يجل عن الوصف ، فجاء إليه فأعلمه برسالة صلاح الدين ، فعظم ذلك عليه ولم يظهر التأثر بذلك ، وقال : « حفظ مصر أهم عندنا » .

واتفق أن صلاح الدين وصل إلى مصر فوجد أباه قد سقط عن الفرس ، وبقي أياما ومات ، وهو غائب عنه ، في السابع والعشرين من ذي الحجة من سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وخاف صلاح الدين من نور الدين أن يدخل مصر فيأخذها منهم ، فشرع في تحصيل مملكة أخرى لتكون عدة له بحيث أن نور الدين إن غلبه إلى الديار المصرية سار هو وأهله إليها وأقاموا بها .

فسير أخاه الأكبر تورا نشاه بإذن نور الدين له في ذلك ، وسيره قاصدا عبد النبي بن مهدي ، وكان دعا إلى نفسه ، وقطع خطبة بني العباس ، فمضى إليها ، وفتح زبيد وعدن ومعظم بلاد اليمن(٢٧٤) .

وصلاح الدين على ما كان عليه من الطاعة في الظاهر لنور الدين إلى أن اتفق أن مرض نور الدين بعلة الخوانيق بدمشق ، وتوفي بها يوم الأربعاء حادي عشر شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة ، وكان قد شرع في التأهب للدخول إلى الديار المصرية وختن ولده الملك

الصالح اسماعيل بدمشق ، في خامس شوال ، واخرج صدقات كثيرة وكسوات للأيتام الذين ختنهم معه .

واتسع ملكه بحيث خطب له بالحرمين الشريفين وبلاد اليمن التي افتتحها شمس الملوك ، وانعمر بلد حلب في زمـــانه لعـــدله وحســـن سيرته حتى لم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا وفيهـــا ســـكان ولهـــا مغل .

وصار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن أكثــر مـــن المدينة ، مثل الحاضر السليماني ، وخـــارج بـــاب الاربعين ، وغير ذلك مـــن الأبواب جميعها .

وارتفعت الأسعار مع كثرة المغلات لكثــرة العـــالم ، حتـــى كانت الأسعار في السنة التي مات فيها بعد ذلك الرخص في الســـنة التـــي مات فيها والده : الحنطة مكوك ونصف بدينار ، والشعير مـــكوكان ونصف بدينار ، والعدس مكوك ومصع بـــدينار ، والجلبـــان كذلك ، والقطن ستة أرطال جوز بدينار .
والله تعالى يرحمه

وقام الملك الصالح بالملك بعـــده(٢٧٥) ، وكان عمـــره إحـــدى عشرة سنة ، وحلف له الامـــراء بـــدمشق . وخـــطب له الملك الناصر صلاح الدين بمصر ، وأرسل إليه رسولا يعزيه ، ومعه دنانير مصرية عليها اسمه ، ويعلمه أنه في طاعته ، وأن الخطبة أقيمت له بمصر .

وأما حلب فـــكان الوالي بقلعتهـــا جمـــال الدين شـــاذبخت (٢٧٦)ـ الخـــادم الهندي ، عتيق نور الدين ـ وهـــو الذي بنى المدرسة لأصحاب أبي حنيفة بحلب ، وقبر بهـــا ـ، فـــوصله كتـــاب الطير بوفاة نور الدين ؛ فأمر في الحال بضرب الدبـــادب(٢٧٧) ، والكوســـات ، والبـــوقات ؛ وأحضر المقـــــدمين والاعيان بحلب ، والفقهاء والامراء ، وقال :

« قد وصل كتاب الطائر ، يخبر أن مولانا الملك العادل قد ختن ولده ؛ وولاه العهد بعده ، ومشى بين يديه » ،

فأظهروا السرور بذلك ، وحمدوا الله تعالى ، فقال لهم : « تحلفون لولده الملك الصالح ، كما أمر الملك العادل بأن حلب له ، وأن طاعتكم له وخدمتكم ، كما كانت لأبيه » . فحلف الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، في ذلك اليوم ، ولم يترك أحدا منهم يزول من مكانه .

ثم قام إلى مجلس آخر ، ولبس ثياب الحداد ، وخرج إليهم وقال : « يحسن الله عزاءكم في الملك العادل ، فان الله قد نقله إلى جنات النعيم » .

وتوجه المؤيد ابن العميد ، وعثمان زردك ، وهمام الدين الى حلب ، لاثبات ما في الخزائن بحلب ، وختمها بخاتم الملك الصالح .

وكان وزير الملك العادل نور الدين : موفق الدين خالد بن محمد ابن نصر بن القيسراني ، رسولا عنه بمصر .

فاتفق رأي الجماعة على أن ولوا وزارة الملك الصالح : شهاب الدين أبا صالح عبد الرحيم بن أبي طالب بن العجمي ، وكان عدلا على خزائن نور الدين .

وكان شمس الدين علي(٢٧٨) ، ابن داية نور الدين ، أخو مجد الدين لأمه ، من أكبر الأمراء النورية ، وأمر حلب راجع إليه وإلى إخوته في أيام نور الدين ، وكان بحلب عند موت نور الدين ، وسابق الدين عثمان وبدر الدين حسن أخواه ؛ فتولى شمس الدين علي تدبير حلب ، وصعد إلى القلعة ، وحصل بها مع شاذبخت ، والأمير بدر الدين حسن متولي الشحنكية بالمدينة .

وكان نور الدين قد سير إلى الموصل وغيرها من البلاد يستدعي العساكر ، بحجة الغزاة ؛ ومقصوده الطلوع إلى مصر ، فسار سيف

الدين غازي بعسكر الموصل ، وعلى مقدمته سعد الدين كمشتكين الخادم ، وكان قد جعله نور الدين واليا من قبله بالموصل ، فلما كانوا ببعض الطريق ، وصلتهم الاخبار بموت نور الدين هرب سعد الدين كمشتكين إلى حلب جريدة .

وأما سيف الدين فإنه أخذ بلاد الجزيرة جميعها ، سوى قلعة جعبر ؛ فأرسل شمس الدين علي بن الداية يطلب الملك الصالح إلى حلب ، ليمنع سيف الدين ابن عمه من البلاد الجزرية ، فلم يمكنه الامراء الذين معه بدمشق من الانتقال إلى حلب خوفا أن يغلبهم عليه شمس الدين علي .

وكان شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم قد صار متولي تدبيره بدمشق ، وكمال الدين بن الشهرزوري وجماعة من الامراء معه ، وكان قد أشار كمال الدين على الامراء بمشاورة الملك الناصر فيما يفعلونه ، لئلا يجعل ذلك حجة عليهم ، فخافوا منه ولم يفعلوا .

وخرج الفرنج ، وحصروا قلعة بانياس فراسلهم ابن المقدم ، وبذل لهم مالا ، وخوفهم بالاستنجاد بصلاح الدين وسيف الدين ، فعادوا . وبلغ ذلك كله الملك الناصر صلاح الدين ؛ فأرسل صلاح الدين إلى الملك الصالح ، وعتب عليه حيث لم يعلمه بما تجدد من سيف الدين في أخذ الجزيرة ليحضر ويكفه ، وأنكر صلح الفرنج ، وبذل المال لهم ، وبذل من نفسه قصد الفرنج ، وكفهم عن التطاول إلى شيء من بلاد الملك الصالح .

وكتب إلى كمال الدين وابن المقدم ، والامراء ، وقال : « لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي ، أو يثق به مثلي لسلم إليه مصر ، ولو لم يعجل عليه الموت لعهد إلي بتربية ولده ، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأكافي إنعام أبيه ، وأجازي كلا منكم على فعله .» .

وكثر خوف شمس الدين علي بن الداية من سيف الدين غازي ، وأن يعبر الفرات إلى حلب فيملكها ، فأرسل سعد الدين كمشتكين إلى دمشق ، ليحضر الملك الصالح ، فلما قارب دمشق سير إليه شمس الدين بن المقدم عسكرا ، فنهبوه ؛ وعاد منهزما إلى حلب ، فأخلف عليه شمس الدين علي بن الداية ، عوضا عما أخذ منه .

ثم إن الأمراء بدمشق ، اتفقوا على إرسال الملك الصالح إلى ابن الداية بحلب ، لأنها أم البلاد ، فأنفذوا إليه يطلبون إرسال سعد الدين ليأخذ الملك الصالح ، فوصل إليهم سعد الدين كمشتكين ، واتفقوا على أن يكون شمس الدين علي أتابكا للملك الصالح ، وحلف شمس الدين وجمال الدين شاذبخت للأمراء على اقطاعهم ، ونفذت النسخة مع سابق الدين عثمان إلى دمشق .

وسار الملك الصالح وأمه مع سعد الدين كمشتكين والأمراء الذين أقطاعهم بحلب ، ولما وصلوا ما بين حماة وحلب وصل من جمال الدين شاذبخت من خوف الأمراء من بني الداية ، فقبضوا « سابق الدين عثمان » ، بقنسرين ؛ وكتموا الحال ؛ ووصلوا إلى باب حلب ، فخرج بدر الدين حسن ، فقبضوه ، ودخلوا من « باب الميدان » وقد عمل به الخوان ، فلم يلتفتوا إليه ؛ وبادروا بالملك الصالح ، وصعدوا به إلى القلعة .

وكان « بشمس الدين علي » نقرس ، فحمل في محفه ، وحضر بين يدي الملك الصالح ، فزندوا يديه ، وقيدوا أخويه ، وجعلوا الجميع في المطمورة (٢٧٩) ، بالمركز .

وكان شاذبخت قد احتاط ، واستخدم جماعة من الأجناد ، فصار في مقدار خمسمائة راجل ، و « شمس الدين » في مقدار مائة ، وأمر اسباسلار (٢٨٠) باب القلعة ابا بكر بن مقبل : أن يمنع من يصعد إلى القلعة من أصحابه وأصحاب إخوته ، ما خلا سابق الدين وبدر الدين ، فكانا يصعدان ، ومع كل واحد

منهما غلام واحد ؛ ووكل بباب شمس الدين ثلاثين رجلا كل ليلة ، فعتب على شاذبخت فقال له : « أنا أبعث الرجال إليك ، ليقوموا في الخدمة » ، وكان يوكل بالاجناد الذين خالفوه حفظة يمنعون من يدخل منهم أو يخرج ، وكان هذا حال القلعة ، في غيبة الملك الصالح .

وأما حال المدينة فان السنة من أهل البلد مالوا إلى « المجدية » ، لتعصبهم للسنة على الشيعة ، وجمعهم بدر الدين حسن شحنة حلب ، واستحلفهم في الليل ، وكان فيهم بنو العجمي ، والشيخ أبو يعلى بن أمين الدولة ، وبنو قاضي بالس – على ما ذكر – وطلب القاضي أبا الفضل بن الخشاب وبني الطرسوسي ، فأبوا أن يحضروا .

وكان أهل حلب من الشيعة ، يتوالون أبا الفضل بن الخشاب ، ويقدمونه عليهم ، فوافقوه على حفظ البلد للملك الصالح ، وعلى مخالفة بني الداية ، فسير بدر الدين حسن إلى ابن الخشاب ، وقال له : « إن جماعة عندي قذفوك ، وتحدثوا بأنك تطعن في الدولة ، وانك تريد أن تملك حلب » .

وكان بدر الدين وأخواه أرادوا أن تقع الفتنة بحلب بين السنة والشيعة ، ليستقيم أمرهم ، فثار الغوغاء من الشيعة ونهبوا دار قطب الدين بن العجمي بالقرب من الزجاجين ، ودار أبي يعلى بن أمين الدولة ، بالجرن الأصفر (٢٨١) . وكان فيها أموال الأيتام ، وانتقل ابن العجمي بعد ذلك إلى البلاط ، وابن أمين الدولة إلى تحت القلعة بالقرب من « مسجد السيدة » (٢٨٢) .

وقتل في ذلك اليوم في « مدرسة الزجاجين » الشيخ أبو العباس المغربي ، وكان مقرئا محدثا .

وثارت الفتنة بين الطائفتين ؛ وطلب الفقراء دور الاغنياء فنهبت دار أبي جعفر بن المنذر بالعقبة (٢٨٣) ، فجمع بدر الدين حسن

جماعة من الاجناد ومن أهل البلد السنة ومن العسكر ، والبسهم السلاح ، وصعد إلى شاذبخت ، وقال له : « إن أبا الفضل بن الخشاب يريد أن يملك البلد وقد مال إليه الشيعة وبعض السنة ، فتعينني بنقابيين وزراقين حتى أقبض عليه ، وأعتقله ، إلى أن يحضر الملك الصالح » .

فأمر الاجناد بلبس السلاح والخروج معه ، وصار بهم إلى « تل فيروز »(٢٨٤) - وهو موضع سوق الصاغة الآن - وكان إذ ذاك تلا .

وأخذوا القلايج والابواب ، وسدوا الدروب ، وزحفوا من الطرق والاسطحة ، إلى دار ابن الخشاب ، ووقع قتال شديد ، وقتل بين الفريقين جماعة كثيرة ، وانتهى إلى الدار ، فأحرقها ونهبها ، ونهب أدر جماعة من المجاورين له .

وانهزم القاضي أبو الفضل ، واختفى في دار فخرا وابن كياعميد بالقرب من حمام شراحيل (٢٨٥) ، فأقام بها إلى أن وصل الملك الصالح في المحرم ، من سنة سبعين وخمسمائة ، وصعد إلى القلعة ، وقبض على بني الداية - كما ذكرنا - وصار الأمر والتدبير إلى سعد الدين كمشتكين الخادم ، وهو الذي بني الخانكاه (٢٨٦) المنسوبة إليه بحلب ، في جوارنا ، وهي كانت دار « أبي الطيب المتنبي » ، بحلب .

وكان شمس الدين علي قد عزم على أن الملك الصالح إذا قدم أخذه بمفرده ، وصعد به إلى القلعة ، ولايمكن أحدا من الأمراء من الصعود ، ويطردهم ، ويستقل بالامور .

فسير « شاذبخت » من أسر ذلك إلى الامراء الذين كانوا في صحبة « الملك الصالح » ، فاتفق رأيهم في قنسرين على قبض أولاد الداية ، وتحالفوا على أن قدموا كمشتكين ، فلما رحلوا من قنسرين ، بدأوا بسابق الدين ، وكان قد وجه إلى دمشق في تقرير

الأمور ، فقبضوه ، وحفظوا الطريق لئلا يصل إلى حلب من يخبر اخويه ، إلى أن صعدوا إلى القلعة – كما ذكرنا – .

وأما أبو الفضل بن الخشاب ، فان « الملك الصالح » أمنه ، وسير له خاتما ، وركب إلى القلعة ، ومعه خلق كثير من أهل حلب ، وعوامها ، يمشون في خدمته ، وأكد أمره ، وقرر على أن يقتل ، فلما دخل إلى القلعة ، ووصل قدام الفرن بالقلعة ، ضربه علي أخو عز الدين جورديك فرماه . وجاء بعض أجناد القلعة فاحتز رأسه ، وجعلوه على باب القلعة .

ثم رفع على رمح إلى برج بالقلعة ، يقال له « برج الزيت » ؛ وتفرق أصحابه من تحت القلعة ، عند ذلك .

واستولى على دولة «الملك الصالح» أمير لالا المجاهد ياقوت وهو الحاكم عليه ، وهو الذي رباه ، وجمال الدين شاذبخت الهندي وهو والي القلعة والحاكم بها ، وسعد الدين كمشتكين مقدم العساكر ومتولي اقطاعهم ، وشهاب الدين أبو صالح بن العجمي ، وزير الملك الصالح ، فخاف ، وولوا رئاسة حلب الريس صفي الدين طارق بن الطريرة ، وعزلوا ابا محمد الحكم ، وكان يتولى الرئاسة في ايام نور الدين .

فخاف ابن المقدم والامراء ، الذين بدمشق ، أن يستقر أمر كمشتكين بحلب ، فيأخذ الملك الصالح ، ويسير الى دمشق ، ويفعل كما فعل بأولاد الداية ، فكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل ، ليصل اليهم ، ويسلموا اليه دمشق ، فخاف ان تكون مكيدة منهم ، فامتنع من ذلك ، وراسل سعد الدين كمشتكين والملك الصالح ، وصالحهما على الجزيرة ، وابقائها في يده .

فخاف الامراء ، بدمشق من اتفاق « سيف الدولة » «الملك الصالح» عليهم ، فكاتبوا «الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب» ، واستدعوه من مصر ليملكوه عليهم ، فسار من مصر في

سبعمائة فارس ، والفرنج في طريقه ، فلم يبال بهم ، فخرج اليه صاحب بصرى - وكان ممن كاتبه .

ولما وصل الى دمشق خرج كل من كان بها من العسكر ، والتقوه ودخل البلد ، ونزل في دار ابيه المعروفة بدار «العقيقي» (٢٨٧) ، وعصى عليه في القلعة خادم اسمه «ريحان» ، فأعلمه أنه انما جاء في خدمة «الملك الصالح» ، فسلم اليه القلعة ، وصعد «الملك الناصر» اليها ، وأخذ ما فيها من الاموال ، فاستعان به ، وتزوج «خاتون بنت معين الدين» ، وكانت زوجة «نور الدين» ، واستخلف اخاه طغتكين سيف الاسلام .

وسار الى حمص وحماه ، وهما في اقطاع «فخر الدين مسعود بن الزعفراني» . وكان ظالما ، فسار منها بعد موت «نور الدين» فملك «الملك الناصر» في حادي عشر جمادى الاولى ، من سنة سبعين ، مدينة حمص وبقيت القلعة ، وكان الولاة في القلاع من جهة نور الدين ، فترك في البلد من يحفظه ، ويمنع من في القلعة من النزول .

وسار الى حماة ، فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة ، وكان بالقلعة عز الدين جورديك ، فأرسل اليه ، وقال له: «اني في طاعة الملك الصالح ، والخطبة له في البلاد التي في يدي على حالها ، والمقصود اتفاق الكلمة على طاعة الملك الصالح ، وأن نستعيد البلاد الجزرية ونحفظ بلاده » فاستحلفه جورديك على ذلك ، وسيره الى حلب في اجتماع الكلمة ، وفي اطلاق شمس الدين علي وأخويه من السجن ، وكان اقطاعهم قد قبض من ذوابهم ولم يبق في ايديهم غير شيزر ، «وقلعة جعبر» .

واستخلف جورديك بقلعة «حماة» اخاه ليحفظها ، فلما وصل جورديك قبض عليه كمشتكين ، وسجنه ، فعلم اخوه بذلك ، فسلم قلعة حماة الى الملك الناصر .

وسار الملك الناصر الى حلب ، فوصلها في ثالث جمادى الآخرة من سنة سبعين ، وحصرها فركب الملك الصالح ، وهو صبي عمره اثنتا عشرة سنة ، وجمع أهل حلب ، وقال لهم: «أنا يتيمكم ، وقد عرفتم احسان أبي إليكم ، وقد جاء هذا الظالم ينتزع ملكي» ، وقال أقوالا كثيرة ، وبكى فأبكى الناس وبذلوا انفسهم وأموالهم له ، واتفقوا على القتال دونه ، والذب عنه .

فجعل الحلبيون يخرجون ويقاتلون الملك الناصر عند «جبل جوشن» فلا يقدر ان يتقرب الى البلد ، وأرسل سعد الدين كمشتكين الى «سنان» مقدم الاسماعيلية ، وبذل له اموالا كثيرة ليقتل الملك الناصر ، فقفزوا عليه ، فحماه الله منهم وقتلوا(٢٨٨).

وبقي محاصرا حلب الى سلخ جمادى الآخرة ، وكان كمشتكين قد أرسل إلى سيف الدين غازي يستنجده ، وكان « ريمند »صاحب طرابلس الذي أسره نور الدين ، قد اطلقه كمشتكين بمائة ألف وخمسين الفا صورية ، في هذه السنة ، وصار موضع «مري» ملك الفرنج (٢٨٩) ، فأرسل من بحلب اليه يطلبون منه ان يقصد بعض البلاد التي بيد الملك الناصر ، ليرحل عنهم ، فسار الى حمص نازلها ، فرحل الملك الناصر عن حلب ، مستهل شهر رجب . فلما نزل «الرستن» رحل الفرنج عن حمص ، ووصل الملك الناصر اليها ، وحصر قلعتها الى ان تسلمها .

وسار الى بعلبك ، فتسلمها وقلعتها ، في رابع شهر رمضان ، من سنة سبعين وخمسمائة .

وأما سيف الدين غازي فانه جمع عساكره ، وكاتب اخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار ، لينزل اليه بعساكره ليجتمعا على نصرة الملك الصالح ، فامتنع ، وكان الملك الناصر قد كاتبه ، وأطمعه في ملك الموصل ، لأنه الكبير من أولاد أبيه ، فمضى سيف الدين الى «سنجار» محاصرا لها ، وسير عسكرا كثيرا الى حلب مع أخيه عز الدين مسعود ، مع أكبر أمرائه « زلفندار » ،

فوصل عز الدين الى حلب ، واجتمعت عساكر حلب معه ، وساروا الى حماة ، فقاتلوها .

فأرسل الملك الناصر ، وبذل لهم تسليم حمص وحماة ، وأن يقر بيده دمشق ، وأن يكون فيها نائبا عن الملك الصالح ، فلم يجيبوه الى ذلك ، وقالوا : «لابد من تسليم جميع ما اخذه من الشام ، وعوده الى مصر ».

فسار الملك الناصر الى عز الدين ، وزلفندار ، فالتقوا في تاسع عشر شهر رمضان ، على قرون حماة (٢٩٠) ، فانهزم عسكر الموصل ، وثبت عز الدين بعد الهزيمة ، فقال الملك الناصر: «اما ان يكون هذا أشجع الناس ، أو أنه لا يعرف الحرب». وأمر اصحابه فحملوا عليه حتى ازالوه عن موقفه ، وتمت الهزيمة وتبعهم الملك الناصر ، وغنموا غنائم كثيرة ، وأسر جماعة كثيرة فأطلقهم .

ونزل الملك الناصر على حلب ، محاصرا لها ، وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح ، وأزال اسمه عن السكة في بلاده ، فلما طال الامر عليهم راسلوه في الصلح ، على ان يكون له مابيده من بلاد الشام ، ولهم مابأيديهم ، وأخذ المعرة، وكفرطاب ، وانتظم الحال بينهم على ذلك .

ورحل عن حلب ، في العشر الاول من شوال ، الى حماة ، فوصلته خلع الخليفة بها مع رسوله ، ووصل خبر الكسرة الى سيف الدين ، وهو محاصر سنجار ، فصالح «عماد الدين » على مابيده ورحل الى الموصل ، وشرع في جمع العساكر .

وسار الملك الناصر من حماة الى «بارين» ، وفيها نائب عز الدين ابن الزعفراني ، ولم يبق بيده غيرها ، فحصرها الى أن سلمها واليها اليه بالأمان ، فعاد الى حماة ، وأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي ، وأقطع حمص ناصر الدين محمد ابن عمه اسد الدين ، وعاد الى دمشق .



وخرج سيف الدين غازي صاحب الموصل ، في سنة احدى وسبعين وخمسمائة . وسار الى «نصيبين» ، واستنجد صاحب «حصن كيفا» وصاحب «ماردين» ، فاجتمع معه عسكر كثير بلغت عدتهم ستة آلاف فارس ، وأقام بنصيبين حتى خرج الشتاء ، فضجرت العساكر وفنيت نفقاتهم .(٢٩١)

ثم سار الى حلب ، فعبر بـ «البيرة» وخيم على جانب الفرات الشامي ، وراسل كمشتكين والملك الصالح ، لتستقر قاعدة يصل عليها اليهم ، ووصل كمشتكين اليه ، وجرت مراجعات كثيرة ، عزم فيها على العود مرارا ، حتى استقر اجتماعه بالملك الصالح ، وسمحوا به ، فسار ووصل الى حلب .

وخرج الملك الصالح للقائه بنفسه ، فالتقاه قريب «القلعة» واعتنقه ، وضمه اليه ، وبكى ، ثم امره بالعود الى القلعة فعاد ، وسار هو فنزل «بعين المباركة»(٢٩٢)، وأقام بها مدة ، وعسكر حلب تخرج الى خدمته في كل يوم ، وصعد الى قلعة حلب جريدة ، وأكل فيها شيئا ، ونزل ، وسار منها الى «تل السلطان» ،(٢٩٣) ومعه عسكر حلب ، مضافا الى العساكر الواصلة معه .

وخرج رجل ادعى أنه المنتظر ، وادعى النبوة « بجبل ليلون » ، واستغوى اهل تلك الناحية ، وأظهر لهم زخارف ، ومحالا ، وقال لهم: «اذا جاء العسكر اليكم ، فسوف ارميهم بكف من تراب فأهلكهم».وأغاروا على «تركمان» «بجبل سمعان» وكان مقيما باتباعه «بكفرند» ، فخرج «طمان» من العسكر ، وسعد الدين كمشتكين بجماعة من العسكر ، ووصلوا اليهم ، فجعل اتباعه يصيحون : «وعدك يا مولانا»! والسيف يعمل فيهم ، فألقى التراب ، فزحف اليه العسكر ، وقتل الرجال وسبى النساء ، والتجأ جماعة الى المغاير ، فماتوا ، ثم عاد العسكر الى «تل السلطان» ، بعد ان قتل وصلب .(٢٩٥)

وكان الملك الناصر بدمشق في قل من العسكر ، لأنه كان قد سيرها الى مصر ، وأنفذ اليها يستدعيها ، فلو عاجله سيف الدين ابلغ منه غرضا ، لكنه تأخر ، فوصل عسكر مصر الى الملك الناصر .

فسار من دمشق الى ناحية حلب ، ليلقى سيف الدين ، فالتقاه «بتل السلطان» ، وكان «سيف الدين» قد سبقه الى تل السلطان ، فوصل الملك الناصر العصر ، وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا ، فألقوا نفوسهم الى الارض ليس فيهم حركة .

فأشير على سيف الدين بلقائهم في تلك الحالة ، فقال زلفندار: «ما بنا حاجة الى القتال في هذه الساعة ، وغدا بكرة نأخذهم كلهم» ، فترك القتال الى الغد ، فلما أصبحوا اصطفوا للقتال ، فجعل «زلفندار» الأعلام في وهدة من الارض ، لايراها الا من هو قريب منه فلما التقى الفريقان ، ظن أكثر الناس ان سيف الدين قد انهزم ، لأنهم لم يروا الأعلام ، فانهزموا بعد ان كان مظفر الدين بن زين الدين - وهو في الميمنة - قد كسر ميسرة الملك الناصر ، وولوا الأدبار ، وأسر منهم جماعة فأطلقهم الملك الناصر ، منهم : فخر الدين عبد المسيح ، وأمسك عن تتبع العسكر ، فلم يقتل غير رجل واحد ، وذلك في يوم الخميس العاشر من شوال ، سنة احدى وسبعين وخمسمائة .

ونزل الملك الناصر وعسكره ، في بقية ذلك اليوم في خيم القوم ، واستولوا على جميع ما فيها ، وفرق الاصطبلات والخزائن ، ووهب خيمة سيف الدين عز الدين فروخشاه ، ووصل سيف الدين الى حلب ، وترك أخاه عز الدين في جماعة من العسكر ، وعبر الفرات ، وسار الى الموصل .

ووصل الملك الناصر الى حلب ، يوم الاحد ثالث عشر شوال ، فأقام عليها أربعة أيام ، ورحل عنها ، يوم الجمعة ثامن

عشر شوال فنزل بزاعا (٢٩٦) فحصرها ، وتسلمها يوم الاثنين العشرين من شوال ، ورحل فنزل منبج ، فحصرها ، في التاسع والعشرين من شوال ، وبها قطب الدين ينال بن حسان ، وكان شديد العداوة للملك الناصر ، وكان قد حذق عليه لذلك ، فملك المدينة ، ونقبت القلعة ، فحصره بها ، ونقبها النقابون ، وملكها عنوة ، وأخذ كل ما كان فيها ، وأخذ صاحبها أسيرا ، ثم اطلقه ، فسار الى الموصل ، فأقطعه سيف الدين «الرقة».

ورحل الملك الناصر الى «عزاز» فنازلها ثالث ذي القعدة وحصرها ونصب عليها المنجنيقات .

وجلس يوما في خيمة بعض امرائه ، ويقال له «جاولي» مقدم الاسدية ، فوثب عليه باطني ، فجرحه بسكين في رأسه ، فرد المغفر عنه ، وأمسك الملك الناصر يدي الباطني بيديه ، الا أنه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية ، بل يضرب ضربا ضعيفا ، فبقي الباطني يضربه بالسكين في رقبته ، وكان عليه كزاغند (٢٩٧) ، فكانت الضربات تقع في زيقه ، والزرد يمنعها من الوصول . وجاء «سيف الدين يازكج» فأمسك السكين ، فجرحه الباطني ، ولم يطلقها من يده الى ان قتل. وجاء باطنيان آخران فقتلا .

وركب الملك الناصر الى خيمته ، ولازم حصار عزاز ، حتى تسلمها بعد قتال شديد ، في بكرة الأربعاء ، ثاني عشر ذي الحجة . ورحل عنها إلى « مرج دابق » .

ثم سار فنزل حلب ، يوم الجمعة ، منتصف ذي الحجة ، وحصرها ، وبها جماعة من العسكر ، ومنع اهل البلد الملك الناصر من التقرب الى البلد ، وكانوا يخرجون الى خيم العسكر فيقاتلوه ، واذا مسك واحد منهم شرحت قدماه ، فيمتنع من المشي ، ولا يكفون عن القتال ، وقام في نصرته السنة والشيعة من الحلبيين ، وأعطى الشيعة «الشرقية» في المسجد الجامع ، فكانوا يجتمعون بها للصلاة .

واتفق ان الحلبيين اجتمعوا تحت القلعة ، شاكين في السلاح ، يستأذنون الملك الصالح في الخروج الى قتال العسكر ، فدخل رسول من الملك الناصر ، يقال له «سعد الدين ابو حامد العجمي الكاتب» ، فصاح عوام الحلبيين: «ما نصالح يا رسول ، رح ، ودع عنك الفضول» . ورجموه بالحجارة ، فخرج ، واتبعوه الى قريب من الخيام .

ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح بين الملك الصالح ، وسيف الدين صاحب الموصل ، وصاحب الحصن ، وصاحب ماردين ، وبين الملك الناصر ، وتحالفوا ، واستقرت على ان يكونوا كلهم عونا على الناكث الغادر ، واستقر الصلح ، ورحل الملك الناصر ، في السادس عشر من محرم ، سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ولما تقرر الصلح ، أخرج الملك الصالح الى الملك الناصر اخته بنت نور الدين ، وكانت طفلة صغيرة ، فأكرمها ، وحمل لها شيئا كثيرا ، وقال لها: «ماتريدين؟» قالت: «اريد قلعة عزاز» ــ وكانوا قد علموها ذلك ــ فسلمها إليهم .

ورحل الى بلد «الاسماعيلية» (٢٩٨) ، وحصرهم ، ثم صالحهم بوساطة خاله محمود بن تكش ، وسار بعساكره الى مصر ، وكان في شروط الصلح ان يطلق عز الدين جورديك ، وشمس الدين علي بن الداية ، وأخواه ، سابق الدين ، وبدر الدين ، فسار أولاد الداية الى الملك الناصر ، فأكرمهم ، وأنعم عليهم ، وأما جورديك ، فأقام في خدمة الملك الصالح ، وعلم الجماعة براءته مما ظنوا به .

وعصى غرس الدين قلج في «تل خالد »(٢٩٩) لانه نسب اليه امر أوجب وحشته ، فحصل فيها بماله ، وحصنها ، فخرج اليه سعد الدين كمشتكين بالعسكر ، ومعه «طمان» ، فحصره مدة ، فسير واستشفع بالملك الناصر ، فشفع فيه الى الملك

الناصر ، فقبل الشفاعة وامنه ، فخرج بماله وأهله ، وحاشيته ، ومضى الى منبج ، فنزل بها عند «الدويل» ، وكان الملك الناصر قد اقطعه اياها ، وكان ذلك في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

وفي هذه السنة ، أظهر اهل «جبل السماق» الفسق والفجور ، وتسموا بالصفاة ، واختلط النساء والرجال في مجالس الشرب ، ولا يمتنع احدهم من اخته ولا بنته ، ولبس النساء ثياب الرجال ، واعلن بعضهم بأن «سنانا» ربه ، فسير الملك الصالح اليهم عسكر حلب ، فهربوا من«الجبل» وتحصنوا في رؤوس الجبال ، فأرسل «سنان» ، وسأل فيهم ، وأنكر حالتهم ، وكانوا قد نسبوا ذلك إليه ، وانهم فعلوا ذلك بأمره ، فأشار سعد الدين بقبول شفاعته فيهم ، وعاد العسكر عنهم (٣٠٠).

وشرع «سنان» في تتبع المقدمين منهم ، فأهلكهم ، وكان في «الباب» منهم جماعة فثار بهم «البنوية» (٣٠١) من اهل ذلك البلد ، وقاتلوهم من التركمان ، فانهزموا واختبئوا في المغاير ، فنهبوا دورهم ، وعروا نساءهم ، ودخلوا عليهم في المغاير ، وقتلوا من امكنهم قتله .

ثم ان الاسماعيليةقفزوا على الوزيرشهاب الدين أبي صالح بن العجمي ، يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأول ، من سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وكان السبب في ذلك أن أبا صالح كان يواطىء المجاهد «اللالا» وجمال الدين شاذبخت ، على سعد الدين كمشتكين ، ويحاولون حطه عن مرتبته، فعلم كمشتكين ذلك ، فكتب كتابا الى «سنان» مقدم الاسماعيلية «بالحصون» ، على لسان الملك الصالح ، يلتمس منه قتل أبي صالح ، واللالا ، وشاذبخت ، وكان قد احضر الكتاب إلى الملك الصالح ، وهو خارج الى الصيد ، وطلب خطه ، وهو أبيض ، لم يكتب فيه شيء أصلا ، وقال له: «المولى خارج ويحتاج ان يكتب كتابا في امر كذا وكذا ، فيكتب المولى علامته». فكتب ثقة بأن الأمر كما ذكر .

فكتب كمشتكين الى «سنان» بالامر الذي أراده ، وسيره إليه ، فلم يشك «سنان» في أن الأمر وقع من الملك الصالح ، ليستقل بأموره وملكه ، فندب جماعة لقتل المذكورين ، فوثبوا على شهاب الدين أبي صالح عندما خرج من باب الجامع الشرقي (٣٠٢) ، بالقرب من«خانكاه القصر» (٣٠٣) ، وتعلق بذيل «بغلتاقه» (٣٠٤) ، ليضربه بالسكين ، فرفس اللالا الفرس ، وخرج من «البغلتاق» ، فنجا ، وأحاط الناس بالجماعة الذين قفزوا عليه ، وفيهم اثنان كانا يترددان الى «ركابدار» (٣٠٥) اللالا ، فقتل احدهما وصلب ، وصلب الركابدار ايضا ، وكتب على صدره : «هذا جزاء من يؤوي الملحدة».

وأما الآخر ، فصعدوا به الى القلعة ، فضرب ضربا عنيفا ، وثقب كعبه ، ليقرر على السبب الذي اوجب وثوبهم ، فقال الملك الصالح : «انت تبعث كتبك الى مولانا سنان بقتل من امرنا بقتله ، ثم تنكر فعل ذلك؟» فقال: «ما أمرت بشيء» . وكتب إلى «سنان» يعتب عليه فيما فعل بأبي صالح واللالا ، فقال: «انا ما فعلت شيئا الا بأمرك وخطك» . وسير اليه كتابا فيه علامته بقتل الثلاثة المذكورين ، فعلم أن ذلك كان مكيدة من كمشتكين .

وكان الاسماعيلية قد اجتهدوا في قتل شاذبخت ، فلم يقدروا على الوثوب عليه ، لشدة احترازه في القلعة ، فعند ذلك وجد اعداء كمشتكين طريقا للطعن عليه ، وقالوا: «انما اراد قتل هؤلاء ليستقل بملكك ، ويفعل فيه ما لايقدر ان يفعله معهم ، وانه قد استصغرك ، واحتقر امرك».

وكانت حارم لسعد الدين كمشتكين ، أقطعه إياها الملك الصالح ، حين أخذها من بدر الدين حسن ، فأنهي الى الملك الصالح أن سعد الدين يريد أن يسلمها إلى الفرنج ، لان أصله فرنجي ، وانه قد قرر معهم ان يبيعها عليهم بمال وافر ، والدليل على صدق ذلك أنه اطلق البرنس «ارناط» فقطع الطريق

بالكرك ، وسير أمواله من حلب وغيبها ، وكتب اليه رجل من الفرنج يقال له : الفارس «بدران» بشيء من ذلك ، وبعث بعدة كتب من سعد الدين الى الفرنج ، تشهد بما أنهاه ، ولعله وضع ذلك كله عليه ، حتى نالوا غرضهم منه .

فقبض الملك الصالح على سعد الدين ، في التاسع من شهر ربيع الأول ، من سنة ثلاث وسبعين ، وكان قد جاء يطلب دستورا إلى حارم ، وطلب تسليمها منه ، فامتنع فحمل اليها تحت «الحوطة» ، وجيء به إلى تحت قلعتها ، وعذب ، فاستدعى بعض من يثق اليه من المستحفظين بالقلعة ، وأسر إليهما (٣٠٦) أنهم لا يسلمونها ، ولو قطع ، ثم قال لهما جهرا ، «بعلامة كذا وكذا ، سلموا » فصعد الى القلعة ، واظهر من فيها العصيان والمقاتلة ، فعذب عذابا شديدا ، وعلق برجليه ، وسقط بالخل ، والكلس ، والدخان ، وعصر ، وأصحابه يشاهدونه ، ولايجيبون إلى التسليم .

وخرج الفرنج من «انطاكية» ، يطلبون «حارم» ، فتقدم الملك الصالح بخنق كمشتكين ، فخنق بوتر ، وأصحابه يشاهدونه ولا يسلمون ، وكسروا يديه وعنقه ، ورموه الى خندق «حارم» ، فحين علم الفرنج ذلك ساروا الى شيزر .

ودخل الملك الصالح الى حلب ، وخلف العسكر بأرض «عم» (٣٠٧) «وجاشر» ، حول حارم ، يمنعونها من الفرنج ، ويباكرونها كل يوم لطلب التسليم ، ومقدم العسكر «طمان بن غازي» — وكان من أكبر الأمراء .

وعاد الفرنج الى حماة فحصروها ، ولم يظفروا بطائل ، وطمعوا في حارم ، لعصيان أصحاب كمشتكين بها ، وظنوا ان الملك الصالح صبي ، وعسكره قليل ، والملك الناصر بمصر ، فلا ينجدهم الا بعد ان يأخذوا «حارم» ، فنزلوا عليها ، ومعهم كند كبير من

الفرنج ، كان قد خرج من البحر الى الساحل ، يقال له كند كبير «فلنط لماني» (٣٠٨) ، ومعهم البرنس ، وابن لاون ، والقومص صاحب طرابلس ، فندم من «بحارم» ، حيث لم يسلموها الى الملك الصالح .

وحصرها الفرنج ، وضايقوها بالمجانيق والسلالم ، فصاح من فيها : «صلاح الدين يا منصور»! فأحضروا خيمة ، كانوا اخذوها من خيم الملك الناصر في كسرة «الرملة» في هذه السنة (٣٠٩) ، واخبروهم بالكسرة ليضعفوا عزيمتهم ، وعسكر حلب بازائهم من «عم» الى تيزين (٣١٠).

ودخلت سنة اربع وسبعين: والفرنج مجدون على قتال «حارم» ، ونقبوا في تل القلعة ، من جهة القبلة نقبا ، ومن جهة الشمال آخر ، فانهد السور على من تحته ، وهو موضع البغلة ، التي جددها السلطان الملك الظاهر - قدس الله روحه .

وامتنع القتال من تلك الناحية ، خوفا من وقوع شيء آخر فأخرج المسلمون رجلا من عندهم الى «طمان » ، يطلب الأمان من الملك الصالح والنجدة ، فسير الى الملك الصالح ، واعلمه .

فانتخب الملك الصالح رجالا اجلادا من الحلبيين ، أعطاهم مالا جزيلا ، وقال لهم: «اريد منكم ان تدخلوا قلعة حارم » ، فجاؤوا ، والفرنج محدقون بها ، في الليل ، فسلكوا خيامهم مفرقين ، حتى جاوزوها ، وصاحوا بالتكبير والتهليل ، وصعدوا القلعة ، وصار فيها شوكة من المقاتلة ، بعد ان كان قتل من المسلمين بها رجال عدة ، والمسلمون - أعني عسكر حلب - اذ ذاك حول الفرنج جرايد ، وأثقالهم «بدير سمعان » ، وهم يتحفظون من يمكنهم أخذه من الفرنج ويحفظون اطراف البلد .

وسار العسكر عند ذاك الى «دير أطمة» (٣١١) ، وصادفوا

الفرنج في وطاة «اطمة» فحملوا عليهم ، فانهزموا وقتل من الفرنج ، واسر جماعة ، فدام حصار الفرنج اربعة أشهر ، وأرسل الملك الصالح اليهم ، وقال : «إن الملك الناصر واصل الى الشام ، وربما يسلم من بحارم اليه قلعتها ، ويضحي في جواركم» ، وبذل لهم مالا بمقدار ما انفقوا مدة حصارهم لها ، وانتظم الصلح ، ورحلوا .

وخرج الملك الصالح ، فنزل على «حارم» ، فسلمها إليه أصحاب كمشتكين ، وصفح عن جرمهم ، وولى فيها «سرخك» جمدار (٣١٢) أبيه نور الدين ، ودخل حلب وطالب نواب كمشتكين بماله ، واعتقل ابن التنبي وزيره ، فأحضر بعض المال ، وعذب حتى احضره ، ثم هرب من الاعتقال .

وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، سعى جماعة بالقاضي محيي الدين ابي حامد بن الشهرزوري ، قاضي حلب وقدحوا فيه عند جمال الدين شاذبخت ، وأوهموه انه يميل الى الملك الصالح ، ووضعوا على لسانه أشعارا نسبوها إليه ، فأوجب ذلك استيحاشه ، وتوجه الى الموصل ، وعرض القضاء على عمي «ابي غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة» فامتنع ، فقلد والدي القضاء بحلب واعمالها ، وبقي على قضائها الى ان مات الملك الصالح وفي دولة عز الدين وعماد الدين ومدة من دولة السلطان الملك الناصر .

وقبض الملك الصالح قرية للاسماعيلية تعرف بحجيرا من ضياع نقرة بني اسد ، فكتب «سنان» الى الملك الصالح كتبا عدة في اطلاقهم ، فلم يطلقها ، فأرسل جماعة من الرجال معهم النفط والنار ، فعمدوا الى الدكان التي في رأس «الزجاجين» من الشرق في القرنة ، فألقوا فيها النار .

فنهض نائب رئيس البلد بمن معه في المربعة ، والجماعة المرتبون

لحراسة الأسواق ، وأخذوا السقائين ليطفئوا الحريق ، فأتى الاسماعيلية من أسطحة الاسواق ، والقوا النار والنفط في الأسواق ، فاحترق سوق البز الكبير وسوق العطارين ، وسوق مجد الدين ، المعد للبز ، وسوق الخليع ، وسوق الشراشين - وهو الآن يعرف بالكتانيين - وسوق السراجين ، والسوق الذي غربي الجامع ، جميعه ، الى أن انتهى الحريق الى المدرسة الحلاوية (٣١٣) .

واحترق للتجار والسوقية ، من القماش والآلات شيء كثير ، وافتقر كثير منهم بسبب ذلك ، ولم يظفروا من الاسماعيلية بأحد ، وذلك في سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

ومات سيف الدين غازي ، صاحب الموصل ، ووليها اخوه عز الدين مسعود ، وذلك في سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وكان الملك الصالح في هاتين السنتين رخي البال ، مستقرا في مملكته ، سالكا في الاحسان الى اهل حلب طريق أبيه عفيف اليد والفرج واللسان . فقدر الله تعالى ان حضر اجله ، وله نحو من تسع عشرة سنة ، (٣١٤) فمرض بالقولنج ، واشتد مرضه .

فدخل اليه طبيبه «ابن سكرة اليهودي» ، وقال له سرا : «يا مولانا شفاؤك في الخمر ، فان رأيت ان تأذن لي في حمله في كمي ، بحيث لا يطلع اللالا ، ولا شاذبخت ، ولا أحد من خلق الله علي ذلك » ، فقال: «يا حكيم ، كنت والله أظنك عاقلا ، ونبينا صلى الله عليه وسلم - يقول: إن الله لم يجعل شفاء امتي فيما حرم عليها. (٣١٥) وما يؤمنني ان أموت عقيب شربها - فألقى الله ، والخمر في بطني ، والله لو قال لي ملك من الملائكة : إن شفاؤك في الخمر لم استعملته ».

حكى لي ذلك والدي عن ابن سكرة الطبيب .

ولم أيس من نفسه احضر الامراء والمستحفظين ، وأوصاهم

بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي ، واستحلفهم على ذلك ، فقال له بعضهم: «إن عماد الدين ابن عمك ايضا ، وهو زوج اختك ، وكان والدك يحبه ويؤثره ، وهو تولى تربيته ، وليس له غير سنجار ، فلو اعطيته البلد لكان أصلح ، وعز الدين له من البلاد من الفرات الى همذان ، ولا حاجة له الى بلدك » ، فقال له: «إن هذا لم يغب عني ، ولكن قد علمتم ان صلاح الدين ، قد تغلب على البلاد الشامية ، سوى ما بيدي ، ومتى سلمت حلب الى عماد الدين يعجز عن حفظها ، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام ، وأن سلمتها الى عز الدين امكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده ». فاستحسنوا هذا القول منه ، وعجبوا من حسن رأيه مع شدة مرضه ، وصغر سنه .

ثم مات يوم الجمعة خامس وعشرين شهر رجب ، من سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، ودفن بقلعة حلب ، الى أن ابتنت والدته «الخانكاه» تجاه القلعة ، ونقل اليها في ايام ، فسير الأمراء (٣١٦) .جورديك ، والبصيري ، ويزغش ، وجمال الدين شاذبخت ، الذوريون ، مع جماعة المماليك الذورية ، الى «عز الدين» ، يستدعونه ، وجددوا الايمان فيما بينهم له .

وأما علم الدين سليمان بن جندر ، وحسام الدين طمان بن غازي ، وأهل الحاضر ، فانهم راسلوا «عماد الدين» صاحب سنجار ، وكتموا أمرهم ، و«شاذبخت» هو الوالي بالقلعة ، والحافظ لخزانتها ، والمدبر للامور مع «الذورية» ، فسير الى علم الدين سليمان ، وحسام الدين طمان ، وطلب منهما الموافقة في اليمين لعز الدين ، فماطلا ، ودافعا ، فلما تأخر وصول «عماد الدين» عليهما ، وافقا على اليمين لعز الدين .

ولما وصل رسول الامير الى عز الدين ، سار هو ومجد الدين قايماز الى الفرات ، فنزل على «البيرة» ، ووصل شهاب الدين ــ أخو عمادالدين ــ مختفيا ، واجتمع بطمان وابن

جندر ، وأعلمهما ان «عماد الدين» في بعض الطريق ، فأخبروه بأخذ اليمين عليهم ، وأن تربصه بالحركة احوجهم الى ذلك ، فعاد اليه أخوه وعرفه ، فعاد الى بلاده .

وأما «عز الدين» ، فحين وصل الى «البيرة» أرسل الى الأمراء الذين بحلب ، واستدعاهم اليه . فخرجوا والتقوه «بالبيرة» ، وساروا معه الى حلب ، ودخلها في العشرين من شعبان ، واستقبله مقدموها ورؤساؤها ، وصعد الى القلعة .

وكان «تقي الدين عمر» - ابن أخي الملك الناصر - بمنبج ، فعزم على ان يحول بين «عز الدين» وحلب ، حين وصل الى «البيرة» لأنه وصل جريدة ، وتخلف عنهم الغلمان والحشد ، ثم انه تثاقل هو وأصحابه عن ذلك .

ولما وصل «عز الدين» الى حلب ، سار تقي الدين من منبج الى حماة ، وثار اهل حماة ، ونادوا بشعار «عز الدين» ، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصدها ، وقصد دمشق ، وأطمعوه فيها وفي غيرها من الشام ، وأعلموه محبة اهل الشام لأهل بيته .

وكان «الملك الناصر» بالديار المصرية ، فلم يفعل ، وقال : «بيننا يمين ، ولا نغدر به» ، ولما بلغ «الملك الناصر» اخذ عز الدين حلب قال: «خرجت حلب عن أيدينا ، ولم يبق لنا فيها طمع».

وأقام عز الدين بحلب ، فسير إليه أخوه «عماد الدين زنكي بن مودود» ، وقال: «كيف تختص انت ببلاد عمي وابنه وبأمواله ، دوني ، وهذا أمر لا صبر لي عنه» وطلب منه تسليم حلب إليه ، وأن يأخذ منه «سنجار» عوضا عنها .

فامتنع «عز الدين» ، ولم يجبه الى ما أراد ، فأرسل اليه وهدده بأن يسلم «سنجار» الى «الملك الناصر» فيضايق الموصل بها ، فأشار عليه طائفة من الامراء ، بأخذ «سنجار» منها واعطائه

حلب ، وكا أشد الناس في ذلك «مجاهد الدين» ، وهو الذي كان يتولى تدبيره ، وكان أمراء حلب لا يلتفتون الى «مجاهد الدين» ، ولا يسلكون معه ما يسلكه عسكر الموصل ، فلذلك ميل «عز الدين» الى ذلك .

وشرع «عز الدين» في الميل الى الامراء ، الذين حلفوا له أولا ، والاعراض عن الذين مالوا الى اخيه «عماد الدين» ، وأحسن الى اهل حلب ، وخلع عليهم ، وأجراهم على عادتهم في أيام عمه «نور الدين ، وابنه «الملك الصالح» ، وأبقى قاضيها والدي ، وخطيبها عمي ، ورئيسها «صفي الدين طارق بن الطريرة» على ولاياتهم ، وولى بقلعة حلب «شهاب الدين اسحق بن أميرك» الجاندار (٣١٨) صاحب الرقة ، وابقى «شهاب» «شاذبخت» في القلعة ناظرا معه ، وولى مدينة حلب والديوان مظفر الدين بن زين الدين .

وكان الصلح قد انفسخ ، بموت الملك الصالح ، بين الفرنج والمسلمين ، وكانت «شيح الحديد» (٣١٩) مناصفة بين المسلمين والفرنج ، فأضافها عسكر حلب ، قبل وصول عز الدين الى «الدربساك» (٣٢٠) ، واختصوا بها دون الفرنج ، وحضر اهلها الى طمان ، فأعطاهم الامان .

فلما وصل «عز الدين» سير العساكر الى ناحية «حارم» ، وحاولوا نهب «العمق» ، فانحاز اهله كله الى «شيح» لعلمهم بأن «طمانا» أمنهم ، فأراد عساكر الموصل ان ينهبوها ، فقال لهم: «ان شيح لحلب ، وانهم في اماني» . فلم يلتفتوا الى قوله ، وسار واليها ليلا ، فسبقهم الى «المخاض» ، ووقف في وجوههم يردهم ، فقتل منهم جماعة ، ثم تكاثروا وعبروا ، فسبقهم طمان الى «شيح» ، وأمرهم ان يجعلوا النساء في المغاير ودربها .

فوصل عسكر الموصل ، فرأوا ذلك ، فعزموا على القتال ، فصاح طمان: «اذا كنتم تخفرون ذمتي ، فأنا أرحل الى الفرنج» .وسار في اصحابه الى ان قرب من «يغرا» ، فوصله من اخبره بأنهم عادوا عنها ، ولم ينالوا منها طائلا ، وخافوا من ملامة عز الدين ، فعاد «طمان» ، ونزل كل منهم في خيامه «بحارم» .

وكاتب المواصلة «عز الدين» يطعنون على «طمان» ، وانه وافق اهل «شيح» في العصيان ، وأراد اللحاق بالفرنج ، فأحضر «طمان» والمواصلة ، وتقابلوا بين يديه ، فقال عز الدين : «الحق مع حسام الدين ، ولا يجوز نقض العهد لواحد من المسلمين ». وكان ذلك في شهر رمضان من السنة .

وبقيت المواحشة بين امراء حلب والمواصلة ، والحلبيون لا يرون التغاضي لمجاهد الدين ومجاهد الدين يحاول ان يكونوا معه كأمراء الموصل ، والأمراء الحلبيون يمنون عليه ، بأنهم اختاروه لهذاالأمر ، ويطلبون منه الزيادة ، ويختلق المواصلة عليهم الاكاذيب .

فهرب الأمير علم الدين سليمان بن جندر ، قاصدا «الملك الناصر» الى مصر ، فقالوا لعز الدين: «ان طمانا سيهرب بعده ، فأمر عز الدين مظفر الدين بن زين الدين ، وبني الغراف ، والجراحي وغيرهم ان يمدوا من «السعدي» الى «المباركة» في طريقه ، وان يقف جماعة حول دار «طمان» ـ وكان يسكن خارج المدينة ـ فلما لم يجر من «طمان» شيء من ذلك ، جاؤوا إليه نصف الليل ، وطلبوه ، فخرج اليهم ، فوجد ابن زين الدين وبني الغراف ، فسألهم عما يريدون ، فقالوا: «انه انهي الى عز الدين بأنك تريد الهرب ، وقد أمرنا بأن نعوقك» فقال: «والله ما لهذا صحة ، ولو اردت المسير عن حلب لمضيت ، لا على وجه الخفية ، ولا أخاف من أحد» .

فجعلوا لهم طريقا آخر الى نيل غرضهم ، وأصبحوا ، وعز الدين منتظر ما يكون ، فقالوا له: «كان قد عزم على الهرب ، فلما علم أن الطريق قد أخذ عليه ، وأن الدار قد أحيط بها أخر ذلك الى وقت ينتهز فيه الفرصة ، والمصلحة قبضة قبل هربه». فأمرهم بأن يقبضوه محترما ، ويحضروه اليه .

فجاءوه ليلا ، من أعلى الدار وأسفلها ، وازعجوه ، وكان نائما ، فخرج الى الباب ، فوجد مظفر الدين بن زين الدين مع بني الفراف فقالوا: « إن المولى عز الدين قد امرنا بالقبض عليك». فقال لهم : «السمع والطاعة ، فشأنكم وما امرتم به» ، فاركبوه ، وحملوه ، والرجال محيطة به ، وفتحوا بالليل باب القلعة ، واعتقلوه بها غير مضيق عليه .

واحضره «عز الدين» ، ووذسه ، وقال: لم أفعل ما فعلت إلا لشدة رغبتي فيك ، وافتقاري الى مثلك » ، فعرفه ما ينطوي عليه ، وان ما نقل عنه لم يخطر بباله . فقال: «إن وقيعة اعدائك فيك ، لم تزدك عندي الا حظوة ».

وبقي معتقلا في القلعة اسبوعا ، ثم خلع عليه ، وأطلقه وزاد في اقطاعه «الاخترين» (٣٢٠) .

وأقام «عز الدين» حتى انقضت مدة الشتاء ، ثم تزوج ام الملك الصالح ، في خامس شوال من السنة ، ثم سيرها الى الموصل ، واستولى على جميع الخزائن التي كانت لنور الدين وولده بقلعة حلب ، وما كان فيها من السلاح ، والزرد ، والقسي ، والخوذ ، والبركسطوانات (٣٢١) ، والنشاب ، والآلات ، ولم يترك فيها إلا شيئا يسيرا من السلاح العتيق ، وسير ذلك كله إلى «الرقة».

وترك في قلعة حلب ولده نور الدين محمودا طفلا صغيرا ، ورد

أمره الى الوالي بالقلعة : شهاب الدين اسحق ، وسلم البلد والعسكر الى مظفر الدين بن زين الدين ، وسار الى الرقة ، سادس عشر شوال ، فأقام بها فصل الربيع .

وراسل اخاه «عماد الدين» ، في المقايضة «بسنجار» ، ليتوفر على حفظ بلاده ، ويضم بعضها الى بعض ، ولعلمه انه يحتاج الى الاقامة بالشام ، لتعلق اطماع «الملك الناصر» بحلب ، وقدم عليه أخوه . واستقرت المقايضة على ذلك ، وتحالفا على ان تكون حلب وأعمالها لعماد الدين و«سنجار» وأعمالها لعز الدين ، وأن كل واحد منهما ينجد صاحبه ، وأن يكون «طمان» مع عماد الدين ، فسير «طمان» ، وصعد الى قلعة حلب ، وكان معهم علامة من عز الدين ، فتسلمها ، وسير عز الدين من تسلم سنجار .

وفي حال طلوع «طمان» ، ونقل الوالي متاعه ، طمع « مظفر الدين بن زين الدين» بأن يملك القلعة ، ووافقه جماعة من الحلبيين كانوا بقربه ، في الدار المعروفة بشمس الدين علي بن الداية وجماعة من الاجناد ، ولبس هو زردية ، تحت قبائه ، وألبس جماعة من اصحابه الزرد تحت الثياب ، ومع كل واحد منهم سيف ، وأرسل الى شهاب الدين ، وقال له: إنه وصلني كتاب من اتابك عز الدين ، وأمرني أن أطلع في جماعة اليك ، فأمره بالصعود .

وكان «جمال الدين شاذبخت» ، في حوش القلعة الشرقي ، الذي هدمه الملك العادل ــ وكان بين الجسرين اللذين جددهما السلطان الملك الظاهر ــ رحمه الله ــ وعمل مكان ذلك الحوش بغلة (٣٢٢) ــ فرأى الجند مجتمعين تحت القلعة ، فسير «شاذبخت» ، وأحضر بوابا كان للقلعة ، يقال له «علي بن منيعة» وكان جلدا يقظا ، وأمره بالاحتراز .

فلما ان أراد أن يدخل من باب القلعة ، تقدم إليه ، وقال له: «لا تدخل إلا أنت وحدك» .وكان في ركابه جماعة فمنعوهم ، فلم يتم له ما أراد .

وعاد ابـــن زين الدين الى داره ، وقيل إن ابـــن مقبـــــــل الاسبسلار ، قال له: «أنت تصـعد الى القلعـة ، فمـا هـذا الزرد عليك ؟» فعاد ، وجعل يعتذر عما شاع في الناس من فعله .

وكتب شهاب الدين الوالي وجمال الدين شـاذبخت الى عز الدين كتابا بخط « حسين بن يلدك» ، إمام «المقام» . واخذ تحته خـطوط الاجناد ، والنقيب والاسباسلار ، فلم يمكن «عز الدين» مكاشفته في ذلك ، لقرب «الملك الناصر» من البلاد .

وبعـث «مـظفر الدين» الى «عز الدين» يعتـذر ، ويقـول: «إن الاسماعيلية أوعدوني القتـل ، ومـا أمـكنني الا الاحتـزار بالسلاح ، أنا ومن معي ، وأذكر الحفظة بالقلعة ذلك علي ، ولم يكن ذلك لأمر غير ما ذكرته». فلم يقابله على ذلك .

وأمـا «طمـان» ، فإنه قبض على الجمـــاعة الذين كانوا معه ، وحبسهم في القلعة ، واطلع على ماكانوا اضمروه ، وأطلقهم في اليوم الثاني ، وستر هذا الأمر .

ثم وصل قطب الدين ابن عمـاد الدين الى حلب ، ثـم ورد أبـوه «عماد الدين» ، فوصل بأهله ، وماله ، وأجناده ، وزوجته بنت نور الدين ، ووصل على البـرية مـن جهـة «الأحص» (٣٢٣) والتقـاه الأكابر مـن الحلبيين ، وصـعد الى قلعـة حلب ، في ثـالث عشر المحرم ، من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وقيل في مستهله .

وولى القلعة «عبـــد الصـــــمد بـــن الحـــكاك الموصلي» ، والعسكر ، والخزائن ، والنظر في احـوال القلعـة الى مجـاهد الدين بـــزغش ، وأنزل «شـــاذبخت» مـــن القلعة ، والقضاء ، والخطابة ، والرئاسة ، على ما كان عليه ، في أيام أخيه وابن عمه .

وولى الوزارة « بهاء الدين أبا الفتـح نصر بـن محمـد بـن

القيسراني » ، اخـــا «مـــوفق الدين خـــــالد » ــ وزير نور الدين ــ واســتمر الشــيعة في أيامـــــه ، وأيام اخيه ، على قاعدتهم ، التي أقرهم عليها «الملك الصالح » ، من اقامة شـعارهم بالشرقية ، بالمسجد الجامع .

وأبقي «سرخك» في حارم على ما كان عليه . وحكم «شاذبخت» في عزاز وقلعتها ــ وهــو وكيل عن ابنة نور الدين التــي اطاقهــا الملك الناصر لها ــ وصالح الفرنج .

وجرى في الاحسان الى اهل حلب ، على قاعدة عمه وابــن عمــه واخيه ، ولما بلغ الملك الناصر حديث حلب وأخذ عماد الدين إياهــا ، قـــال :«أخـــذنا والله حلب» ، فقيل له: «كيف قلت في عز الدين لما أخذها : خرجت حلب عن ايدينا ، وقلت: حين اخذها عمـاد الدين : اخذنا حلب؟» فقال: «لأن عز الدين ملك صاحب رجال ومال ، وعماد الدين ، لا مال ولا رجال »!

وخرج «الملك الناصر» ، من مصر في خـامس المحـرم مــن هــذه السنة ، وخرج الناس يودعونه ، ويسيرون معــه ويتـأسفون على فـراقه ، وكان معـــه معلم لبعض أولاده ، فـــالتفت الى بعض الحاضرين ، وانشد :

تمتع من شميم عرار «نجد»
فما بعد العشية من عرار

فانقبض السلطان ، وتطير ، فقدر انه لم يعد الى مصر ، الى أن مات ، مع طول مدته ، واتساع ملكه في غيرها .

وسار على «أيلة» واغار على بلاد الفـرنج في طـريقه ، ووصــل دمشق في صفر ، ثم خرج منهـا الى ناحية «الغـور» ، فـأغار على ناحية «طبرية» و«بيسـان» ، وعاد الى دمشـق ، ثـم خـــرج الى «بيروت» ، ونازلها ، واجتمع الفرنج فـرحلوه عنهـا ، فـدخل الى

دمشق ، وبلغه ان المواصلة كاتبوا الفرنج على قتاله ، فجعل ذلك حجة عليهم .

وسار حتى نزل على حلب ، في ثامن عشر من جمادى الاولى ، سنة ثماني وسبعين وخمسمائة . ونزل على «عين أشمونيث» (٣٢٤) ، وامتد عسكره حولها شرقا ، واقام ثلاثة أيام ، فقال له عماد الدين : «امض الى سنجار ، وخذها وادفعها إلي ، وأنا اعطيك حلب» .

وكان «عماد الدين» قد ندم على مقايضة أخيه بحلب وسنجار ، حيث وصل ووجد خزائنها صفرا من المال ، وقلعتها خالية من العدد والسلاح والآلات ، وأنه يجاور مثل «الملك الناصر» فيها .

فعند ذلك سار «الملك الناصر» الى جسر «البيرة» ، وكان صاحبها «شهاب الدين بن أرتق» قد صار في طاعته ، فعبر اليه مظفر الدين ابن زين الدين الى الناحية الشامية ، وحران إذ ذاك في يده ، كان اقطعه اياها عز الدين صاحب الموصل ، وحصلت بينه وبينه وحشة من الوقت الذي عزم فيه على أخذ قلعة حلب ، فكانت رسله تتردد الى «الملك الناصر» تطمعه في البلاد ، وتحثه على الوصول .

وعاد ابن زين الدين معه حتى عبر الفرات في جسر «البيرة» ، وكان «عز الدين» قد وصل بعساكر الموصل الى «دارا» (٣٢٥) ليمنع «الملك الناصر» من حلب ، فلما عبر الفرات عاد الى الموصل ، وعبر «الملك الناصر» ، فأخذ «الرها» من ابن الزعفراني ، وسلمها الى ابن زين الدين ، وأخذ الرقة من ابن حسان ، ودفعها الى ابن الزعفراني ، وكاتب ملوك الشرق ، فأطاعوه ، وقصد «نصيبين» فأخذها .

وسار الى الموصل ، وفيها عسكر قوي ، فقوتل قتالا شديدا ، ولم يظفر منها بطائل ، فرحل عنها الى «سنجار» فأنفذ

«مجاهد الدين» اليها عسكرا ، فمنعه «الملك الناصر» من الوصول ، وحاصر «سنجار» ، فسلمها اليه امير تلك الناحية ، وصارت «الباشورة» (٣٢٦) معه ، فضعفت نفس واليها «أمير أميران» أخي عز الدين ، فسلمها بالامان ، في ثاني شهر رمضان من السنة ، وقرر «الملك الناصر» أمورها ، وعاد الى حران .

ولما قصد «الملك الناصر» البلاد الشرقية ، رأى عماد الدين ان يخرب المعاقل المطيفة ببلد حلب ، فشن الغارات على شاطىء الفرات ، وهدم حصن بالس ، وحصر قليعة نادر (٣٢٧) ففتحها ، ثم هدمها بعد ذلك ، وأغار على قرى الشط ، فأخربها واستاق مواشيها ، وأحرق جسر «قلعة نجم» (٣٢٩) ، وعبر الفرات فأغار على « سروج »(٣٣٤)

ثم عاد الى حلب ، ثم خرج وهدم «حصن الكرزين» (٣٣١) وخرب حصن «بزاعا» وقلعة «عزاز» ، في جمادى الآخرة ، وخرب حصن «كفرلاثا» (٣٣٢) بعد اخذه من صاحبه بكمش ، وكان قد استأمن الى «الملك الناصر» ، وضاق الحال عليه ، فشرع في قطع جامكية اجناد من القلعة ، وقتر على نفسه في النفقات .

وأما «الملك الناصر» ، فرحل من «حران» فنزل «بحرزم (٣٣٣) تحت قلة «ماردين» . فلم ير له فيها طمعا ، فسار الى «آمد» ، في ذي الحجة ، وكان قد وعد «نور الدين محمد بن قرا أرسلان » بأخذها من ابن نيسان(٣٣٤) ، وتسليمها اليه ، وحلف له على ذلك ، فتسلمها في العشر الاول ، من المحرم من سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، وكان فيها من المال شيء عظيم ، فسلم ذلك كله مع البلد الى نور الدين ، وقيل له في أخذ الأموال وتسلم البلد فقال : «ماكنت لاعطيه الأصل وابخل بالفرع ».

ثم إن الملك الناصر عبر الى الشام ، فمر «بتل خالد»

فحصرها . فسلمها اهلها بالامان في المحرم . ثم سار منها الى عين تاب ، وبها «ناصر الدين محمد» أخو «الشيخ اسماعيل الخزندار» ، فدخل في طاعته ، فأبقاها عليه .

ولما علم «عماد الدين» ذلك ، وتحقق قصده لحلب ، أخذ رهائن الحلبيين ، واصعد جماعة من أولادهم وأقاربهم ، خوفا من تسليم البلد ، وقسم الابراج والأبواب على جماعة من الأمراء ، وكان الأمراء «الياروقية» بها في شوكتهم .

وجاء الملك الناصر ، ونزل على حلب في السادس والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة . وامتد عسكره من «بابلى» الى النهر ممتدا الى «باسلين» (٣٣٥) ، ونزل هو على «الخناقية» (٣٣٦) ، وقاتل عسكر حلب قتالا عظيما ، في ذلك اليوم ، وأسر «حسام الدين محمود بن الختلو» ، بالقرب من «باذقوسا» (٣٣٧) ، وهو الذي تولى شحنكية حلب ، فيما بعد .

وهجم تاج الملوك بوري بن ايوب ، اخو «الملك الناصر» ، على عسكر حلب ، فضرب بذشاب زندبورك (٣٣٨) فأصاب ركبته ، فوقع في الأكحل ، فبقي أياما ، ومات بعد فتح حلب ، ودفن بتربة «شهاب الدين الحارمي» ، «بالمقام» (٣٣٩) ، ثم نقل الى دمشق .

وجد الملك الناصر ، بسبب أخيه على محاصرة حلب أياما ، فاجتمع إليه (٣٤٠)الاجناد من العسكر والرجال ، وطلبوا منه قرارهم فمطلهم ، فقالوا : « قد ذهبت اخبارنا (٣٤١) ونحتاج لغلاء الاسعار الى مال الا بد منه» ، وشح بماله ، فقال لهم: «انتم تعلمون حالي ، وقلة مالي ، وأنني تسلمت حلب صفرا من الاموال ، وضياعها في اقطاعكم». فقال له بعضهم: «من يريد حلب يحتاج الى أن يخرج الاموال ولو باع حلي نسائه ، فأحضر أواني من الذهب والفضة ، وغيرها ؛ وباع ذلك ، وأنفقه فيهم .

وكان الحلبيون يخرجون على جاري عادتهم ، ويقاتلون أشد قتال بغير جامكية (٣٤٢) ، ولا قرار ، نخوة على البلد ، ومحبة لملكهم ، فافكر عماد الدين ، ورأى أنه لا قبل له بالملك الناصر ، وأن ماله ينفد ، ولايفيده شيئا ، فخلا ليلة بطمان ، وقال له:

«ما عندك في أمرنا؟ هذا الملك الناصر ، قد نزل محاصرا لنا ، وهو ملك قوي ، ذو مال ، والظاهر أنه يطيل الحصار ، وتعلم انني اخذت حلب خالية من الخزائن ، والجند فيطالبونني وليس لي من المال ما يكفيني لمصابرته ، ولا أدري عاقبة هذا الامر الى ما ينتهي

فأحس طمان عند ذلك بما قد حصل في نفسه ، فقال له : «أنا اذكر لك ما عندي ، على شريطة الكتمان والاحتياط بالمواثيق والايمان ، على أن لا يطلع احد على مايدور بيننا ، فإن هؤلاء الامراء ان اطلعوا على شيء مما نحن فيه افسدوه ، وانعكس الغرض» ، فتحالفا على كتمان ذلك ، فقال له طمان: «أرى من الرأي في حلب ان تسلمها الى الملك الناصر ، بجاهها ، وحرمتها ، قبل أن تنتهك حرمتها ، ويضعف امرها ، وتفنى الاموال ، وتضجر الرجال ، ويستغل بلدها فيتقوى هو وعسكره به ، ونحن لا نزداد الا ضعفا ، والآن فنحن عندنا قوة ، ونأخذ منه ما نريد من الاموال والبلاد ، ونستريح من الاجناد والحاحهم في الطلب ، ثم قد اصبح ملكا عظيما ، وهو صاحب مصر ، وأكثر الشام ، وملوك الشرق قد اطاعوه ومعظم الجزيرة في يده . فقال له: «والله هذا الذي قلته كله رأيي ، وهو الذي وقع لي فاخرج إليه ، وتحدث معه على ان يعطيني: الخابور ، وسنجار ، وأي شيء قدرت على ان تزداده فافعل ، واطلب الرقة لنفسك

ثم ان طمان كتم ذلك الامر ، وباكر القتال ، وأظهر أن بداره واصطبله (بالحاضر) خشبا عظيما ، وأنه يريد نقضها كيلا يحرقها العسكر ، فكان يبيت كل ليلة في داره ،خارج المدينة .

ويجتمع بالسلطان الملك الناصر ، خاليا ، ويرتب معه ، ويجيء الى عماد الدين ويقرر الحال معه ، وينزل ، ويصعد الى القلعة من «برج المذشار» — وكان عند باب الجبل الآن متصلا بالمذشار — الى أن قرر مع الملك الناصر : ان يأخذ حلب وعملها ، ولا يأخذ معها شيئا من أموالها ، وذخائرها ، وجميع ما فيها من الآلات والسلاح ، وأن يعطي عماد الدين عوضا عنها : سنجار ، والخابور ونصيبين ، وسروج ، وأن يكون لطمان الرقة (٣٤٣) ، ويكون مع عماد الدين .

وشرط عليه ان تكون الخطابة والقضاء للحنفية (٣٤٤) بحلب ، في بني العديم ، على ما هي عليه ، كما كان في دولة الملك الصالح ، وان لا ينقل الى الشافعية .

هذا كله يتقرر ، والقتال في كل يوم بين العسكرين على حاله ، وليس عند الطائفتين علم بما يجري ، ويخرج من الحلبيين في كل يوم عشرة آلاف مقاتل او أكثر ، يقاتلون أشد قتال .

ولم يعلم أحد من الامراء ولا من أهل البلد ، حتى صعدت أعلام «الملك الناصر» على القلعة ، بعد أن توثق كل واحد من الملكين من صاحبه بالايمان ، فأسقط في أيدي أهل حلب والامراء من «الياروقية» ، وغيرهم ، وخاف «الياروقية» على اخبازهم ، والحلبيون على أنفسهم ، لما تكرر منهم من قتال «الملك الناصر» ، مرة بعد اخرى ، في أيام الملك الصالح .

وصرح العوام بسبه ، وحمل رجل من الحلبيين يقال له «سيف بن المؤذن» إجانة الغسال ، وصار بها الى تحت الطيارة (٣٤٥)، بالقلعة ، وعماد الدين جالس بها يشير اليه ان يغسل فيها كالمخانيث ، ونادى اليه : «يا عماد الدين ، نحن كنا نقاتل بلا جامكية ولا جراية ، فما حملك على أن فعلت ما فعلت؟»

وقيل: إن بعضهم رماه بالذشاب ، فوقع في وسط

الطيارة ، وعمـــل عوام حلب اشـــعارا عامية ، كانوا يغنون بها ، ويدقون على طبيلاتهم بها ، منها:

أحباب قلبي لا تلوموني
هذا «عماد الدين» مجنون
قايض بسنجار لقلعة حلب
وزاده المولى نصيبين
ودق آخر على طبله ، وقال مشيرا الى «عماد الدين»:
وبعت «بسنجار» قلعة حلب
عدمتك من بايع مشتري
خريت على حلب خرية
نسخت بها خرية «الأشعري»(٣٤٦)

وصـعد اليه «صـفي الدين» ـ رئيس البلد ـ ووبخـه على مـا فعل ، وهو في قلعة حلب لم يخرج منها بعد ، فقـال له عمـاد الدين: فما مات ، فاستهزأ به (٣٤٧) .

وأنفذ عسـكر حلب وأهلهـا ، الى السـلطان الملك الناصر : عز الدين جـورديك ، وزين الدين بلك ، فـاستحلفوه للعسـكر ولأهـل البلد ، في سابع عشر صفر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وخرجت العساكر ومقدمو حلب اليه الى «الميدان الأخضر» (٣٤٨) وخلع عليهم ، وطيب قلوبهم .

ولما استقر أمر الصـلح ، حضر الملك الناصر صـلاح الدين عند أخيه تاج الملوك ، «بالخناقية» يعـوده وقـال له: «هـذه حلب ، قـد أخذناها ، وهي لك» فقال: «لو كان وأنا حي ، والله ، لقد أخـذتها غالية حيث تفقد مثلي» .فبكى الملك الناصر والحاضرون .

واقام «عمـاد الدين» بـالقلعة ، يقضي اشـغاله ، وينقـل اقمشـته ، وخـزائنه ، والسـلطان الملك الناصر مقيم « بـالميدان

الاخضر » ، الى يوم الخميس ثالث وعشرين من صفر ، فنزل «عماد الدين» من القلعة ورتب فيها «طمان» مقيما بها ، الى ان يتسلم نواب «عماد الدين» ما اعتاض به عن حلب ، واستنابه في بيع جميع ما كان في قلعة حلب ، حتى باع الاغلاق والخوابي ، واشترى الملك الناصر منها شيئا كثيرا .

ونزل عماد الدين ، في ذلك اليوم الى السلطان الملك الناصر وعمل له السلطان وليمة واحتفل وقدم «لعماد الدين» اشياء فاخرة من الخيل والعدد ، والمتاع الفاخر ، وهم في ذلك إذ جاءه بعض أصحابه وأسر اليه بموت أخيه «تاج الملوك» ، فلم يظهر جزعا ولا هلعا ، وكتم ذلك عن عماد الدين ، الى ان انقضى المجلس ، وأمرهم بتجهيزه .

فلما انقضى أمر الدعوة ، وعلم عماد الدين بعد ذلك عزاه عن اخيه ، وسار السلطان الملك الناصر معه مشيعا في ذلك اليوم ، فسار حتى نزل «مرج قراحصار»(٣٤٩) فنزل به ، والسلطان في خيمته الى ان وصل «عماد الدين» رسل أصحابه يخبرونه بأنهم تسلموا «سنجار» ، والمواضع التي تقررت له معها ، فرفعت اعلام الملك الناصر ، عند ذلك على القلعة ، وصعد اليها في يوم الاثنين السابع والعشرين ، من صفر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وامتنع سرخك ، والي «حارم» ، من تسليمها الى السلطان الملك الناصر ، فبذل له ما يحب من الاقطاع ، فاشتط في الطلب ، وراسل الفرنج ، ليستنجد بهم ، فسمع بعض الأجناد ، بقلعة حارم ذلك ، فخافوا ان يسلمها الى الفرنج ، فوثبوا عليه ، وحبسوه ، وأرسلوا الى السلطان ، يعلمونه بذلك ، ويطلبون منه الأمان والانعام ، فأجابهم الى ذلك وتسلمها .

وأقر عين تاب بيد صاحبها ، وسلم «تل خالد» الى «بدر الدين دلدرم» صاحب «تل باشر» ، وكان من كبار الياروقية ، واقطع

«عزاز» الأمير علم الدين سليمان بن جندر . وولى الملك الناصر قلعة حلب سيف الدين يازكج الاسدي ، وولى شحنكية حلب حسام الدين تميرك بن يونس ، وولى ديوان حلب ناصح الدين بن العميد الدمشقي ، وأبقى الرئيس «صفي الدين طارق بن أبي غانم بن الطريرة» ، في منصبه على حاله ، وزاد اقطاعه .

وكان الفقيه «عيسى» كثير التعصب ، فما زال به ، حتى نقل الخطابة عن الحنفية الى الشافعية ، وعزل عنها عمي «ابو المعالي» . ووليها «أبو البركات سعيد بن هاشم» ، وفعل في القضاء كذلك ، فسير إلى القاضي محي الدين محمد بن زكي الدين علي إلى دمشق ، بسفارة «القاضي الفاضل» ، فأحضر إلى حلب وولي قضاءها ، وعزل «والدي» عن القضاء ، وامتدحه محيي الدين بن الزكي ، بقصيدة بائية ، قال فيها :

وفتحكم «حلبا» بالسيف في صفر
مبشر بفتوح «القدس» في رجب

فاتفق من أحسن الاتفاقات ، وأعجبها ، فتح القدس في شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

وأقام محيي الدين في القضاء بحلب مدة ، ثم استناب القاضي زين الدين أبا البيان نبأ بن البانياسي في قضاء حلب ، وسار الى بلده دمشق .

ثم إن السلطان «الملك الناصر» أقام بحلب ، ورحل منها في الثاني والعشرين من ربيع الآخر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة . وجعل فيها ولده الملك «الظاهر غازي» ـ وكان صبيا ـ وجعل تدبير أمره الى سيف الدين يازكج .

وسار الى دمشق ، ثم خرج الى الغزاة في جمادى الآخرة ، وسار الى «بيسان» ، وقد هرب أهلها ، فخربها ، وجرد

قطعة من العسكر ، فخربوا «الناصرة» والفولة»(٣٥٠) ، وما حولهما من الضياع .

وجاء الفرنج فنزلوا «عين الجالوت» ، ودار المسلمون بهم ، وبثوا السرايا في ديارهم ، للغارة والنهب ، ووقع جورديك ، وجاولي الأسدي ، وجماعة من النورية على عسكر «الكرك» و «الشوبك» ، سائرين في نجدة الفرنج ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، واسروا مائة نفر ، وعادوا .

وجرى للمسلمين مع الفرنج وقعات ، ولم يتجاسروا على الخروج للمصاف ، وعاد السلطان «الى الطور»(٣٥١) في سابع عشر جمادى الآخرة . فنزل تحت «الجبل» ، مترقبا رحيلهم ، ليجد فرصة ، فأصبحوا ، ورحلوا راجعين على اعقابهم . ورحل نحوهم ، وناوشهم العسكر الاسلامي ، فلم يخرجوا اليهم ، والمسلمون حولهم ، حتى نزلوا «الفولة» راجعين ، وفرغت أزواد المسلمين ، فعادوا الى دمشق ، ودخل السلطان دمشق ، في رابع وعشرين من جمادى الآخرة .

ثم عزم على غزو «الكرك» ، فخرج اليها في رجب ، وكتب الى اخيه «الملك العادل» ، وأمره ان يلتقيه الى الكرك ، وسار السلطان الى الكرك ، وحاصرها ، ونهب اعمالها ، وهجم ربضها ، في رابع شعبان ، وهدم سورها بالمنجنيقات ، وأعجزه طم خندقها ، ووصلت الفرنج لنجدتها فلما اجتمعوا «بالجليل» ، رحل عنها ، ونزل بازائها (٣٥٢)

ووصل أخوه « الملك العادل » ، من مصر ، وعقد لابن اخيه ، «تقي الدين عمر» ، على ولايتها ، فسار اليها في نصف شعبان.

وعاد السلطان الملك الناصر الى دمشق ، والملك العادل أخوه معه ، فعقد له على ولاية حلب ، وسار اليها في ثاني وعشرين من

شهر رمضان ، وخرج السلطان الملك الظاهر منها ومعه «يازكج» ، فوصل الى والده في شوال .

ويقال إن «الملك العادل» دفع الى السلطان ، لاجل حلب ، ثلاثمائة الف دينار مصرية ، وقيل دون ذلك ، وكان السلطان محتاجا اليها لاجل الغزاة ، فلذلك سلم اليه حلب ، وأخذها من ولده .

ولما دخلها «الملك العادل» ، ولى بقلعتها صارم الدين بزغش ، وولى الديوان والاقطاع والجند ، واستهداء الاموال ، وشحنكية البلد : «شجاع الدين محمد بن بزغش البصراوي» ، واستكتب الصنيعة ابن النحال - وكان نصرانيا - فأسلم على يديه ، وولى وقوف الجامع فخر الدين أحمد ابن عبد الله بن القصري ، وأمره بتجديد المساجد الداثرة بحلب ، والقيام بمصالحها ، وتوفير أوقافها عليها ، وأن لا يتعرض لوقف المسجد الجامع ، بل يوفر وقفه على مصالحه ، ولا يرفع الى «الزردخاناه» (٣٥٣)إلا ما فضل عن ذلك كله ، وجدد في أيامه مساجد متعددة كانت قد تهدمت.

ووقع في أيامه وقعة بين الحنفية والشافعية ، وصار بينهم جراح ، فصنع لهم الملك العادل دعوة في الميدان الاخضر ، وأصلح بين الفريقين ، وخلع على الاكابر من الفقهاء والمدرسين ، وهدم الحوش القبلي الشرقي الذي كان للقلعة ، وهو ما بين الجسرين تحت المركز ، ورأى ان يسفحه فسفحه السلطان الملك الظاهر بعده ، وكتب عليه اسمه بالسواد الى أن غاب في أيام ابنه الملك العزيز فجدد ، وزالت الكتابة ، وبقي بعضها .

ووصل رسول الخليفة شيخ الشيوخ «صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل» ، الى السلطان «الملك الناصر» ، في الاصلاح بينه وبين عز الدين - صاحب الموصل - وورد معه من الموصل القاضي محيي

الدين أبو حامد بن الشهرزوري ، الذي كان قاضي حلب ثم تولى قضاء الموصل ، والقاضي بهاء الدين أبو المحاسن بن شداد ، الذي صار قاضي عسكر السلطان «الملك الظاهر» ، وولي قضاء حلب في أيام ابنه الملك الظاهر ، ولم يتفق الصلح بينهما (٣٥٤)

وحضرني حكاية جرت لشيخ الشيوخ مع «محيي الدين» ، في هذه السفرة ، وذلك ان شيخ الشيوخ كان قد وصل الى السلطان «الملك الناصر» ، وهو محاصر الموصل ، ليصلح بينه وبين عز الدين ، في المحاصرة الأولى ، فلم يتفق الصلح ، واتهم أهل الموصل شيخ الشيوخ بالميل مع «الملك الناصر» ، فعمل محيي الدين فيه ابياتا منها:

بعثت رسولا أم بعثت محرضا
على القتل تستجلي القتال وتستحلي؟

وقال فيها مخاطبا للامام الناصر:

فلا تغترر منه بفضل تنمس
فما هكذا كان «الجنيد» ولا «الشبلي»(٣٥٥)

فبلغت الأبيات شيخ الشيوخ.

فلما اجتمعا في هذه السفرة وتباسطا ، قال له شيخ الشيوخ: «كيف تلك الابيات التي عملتها في؟» فغالطه عنها ، فأقسم عليه بالله ان ينشده اياها ، فذكرها له ، حتى أنشده البيت الذي ذكرناه أولا ، فقال: «والله لقد ظلمتني ، وإنني والله ، اجتهدت في الاصلاح فما اتفق» فأنشده تمامها ، حتى بلغ الى قوله: «فما هكذا كان الجنيد ولا الشبلي» فقال : » والله لقد صدقت ، فما هكذا كان الجنيد ولا الشبلي ، أدور على أبواب الملوك من باب هذا الى باب هذا ».

ثم إن الرسل ساروا عن غير زبدة ، وتوجه الملك العادل من حلب في ذي الحجة ، وعيد عند أخيه بدمشق ، ثم عاد الى حلب .

واهتم السلطان الملك الناصر ، في سنة ثمانين وخمسمائة ، لغزاة «الكرك» ، فوصل اليه «نور الدين بن قرا أرسلان» ، واجتاز بحلب ، فأكرمه «الملك العادل» ، وأطلعه الى قلعتها في صفر ، ثم رحل معه الى دمشق ، فخرج السلطان ، والتقاه على عين الجر(٣٥٦) ، « بالبقاع» ، ثم تقدم الى دمشق وتجرد وتأهب للغزاة ، وخرج الى «الكرك» ، واستحضر العساكر المصرية ، فوصل تقي الدين ابن اخيه ، ومعه بيت الملك العادل ، وخزائنه ، فسيرهم الى حلب .

ونازل الكرك ، وأحدقت العساكر بها ، وهجموا الربض ، وبينه وبين القلعة خندق وهما جميعا على سطح جبل ، وسدوا أكثر الخندق ، وقاربوا فتح الحصن ، وكانت للبرنس (أرناط) ، فكاتب من فيها الفرنج ، فوصلوا في جموعهم الى موضع يعرف «بالواله»(٣٥٧) ، فسير «الملك الناصر» الأثقال ، ورحل بعد أن هدم الحصن بالمنجنيقات .

ورحل عنها في جمادى الآخرة ، وأمر بعض العسكر فدخلوا الى بلاد الفرنج ، فهجموا نابلس ، ونهبوها ، وخربوها ، واستنقذوا منها اسرى من المسلمين ، وفعلوا في «سبسطية»(٣٥٨)و «جينين»(٣٥٩) مثل ذلك ، وعادوا ودخلوا دمشق مع السلطان .

ووصل اليه «شيخ الشيوخ» بالخلع ، من الخليفة الناصر ، له ولأخيه «الملك العادل» ، ولابن عمه ناصر الدين (٣٦٠) ، فلبسوها ، ثم خلع السلطان ، بعد ايام خلعته الواردة من الخليفة على نور الدين بن قرا أرسلان .

وورد اليه رسول مظفر الدين بن زين الدين ، يخبره ان عسكر

الموصل ، وعسكر قـزل نزلوا على اربـل ، وأنهـم نهبـوا وأخربوا ، وأنه انتصر عليهم ، ويشير عليه بقصد الموصل ، ويقوي طمعه ، وبذل له اذا سار اليها خمسين الف دينار ، فعند ذلك هادن الفرنج مدة .

ورحل من دمشق في ذي القعدة من سنة ثمانين ، فوصل حلب وأقـام بها الى أن خرجت السنة .

وسار منها الى حران والتقاه مظفر الدين بالبيرة ، في المحرم سنة احدى وثمانين ، وعاد معه الى حران ، وطـالبه بمـا بـذل له مـن المال ، فأنكر ، فقبض عليه ، ووكل به .

ثم أخذ منه مدينتي حران والرها ، وأقام في الاعتقـال الى مسـتهل شهر ربيع الاول ثم أطلقه خوفا مـن انحـرا ف الناس عنه ، لأنهـم علموا انه الذي ملكه البلاد الجـزرية ، واعاد عليه حـران ، ووعده باعادة الرها ، اذا عاد من سفرته ، فأعادهما عليه .

وسار الملك الناصر الى الموصـل ، فـوصل بلد (٣٦١) ، فنزلت اليه والدة عز الدين ، ومعها ابنة نور الدين ، وغيرها من نساء بني اتابك ، يطلبن منه المصالحة ، والموافقة ، فـردهن خـائبات ، ظنا منه أن عز الدين أرسلهن عجزا عن حفظ الموصل ، واعتذر بـأعذار ندم عليها بعد ذلك .

ورحل حتى صار بينه وبين الموصل مقدار فرسخ فكان يجري القتال بين العسكريين ، وبذل اهـل الموصـل نفـوسهم في القتـال لرده النساء ، وندم السلطان على ردهن ، وافتتح تل عفـر ، فـأعطاها عماد الدين صاحب سنجار .

واقام على حصار الموصل شهرين ، ثم رحل وجاءه الخبـر بمـوت شاه ارمن ، وكاتبه جماعة من أهل خلاط ، فترك الموصل طمعـا في خلاط ، فاصطلح أهل خلاط مع البهلوان صاحب اذربيجان ، فنزل

السلطان على ميافارقين ، وكان صاحبها قطب الدين ايلغازي بـن البي بن تمرتاش ، وملك بعده حسام الدين يولق أرسـلان ، وهـو طفل ، فطمع في أخذها ، ونازلها ، فتسـلمها مـن واليهـا ، وزوج بعض بنيه ببنت الخاتون بنت قرا أرسلان ، ثم عاد الى الموصل عند ايا سه من خلاط ، فوصل الى كفرزمار (٣٦٢) ، فسار عائدا الى حران ، واتبعه عز الدين بالقاضي بهاء الدين بن شداد ، وبهاء الدين الربيب ، رسولين اليه في موافقته على الخطبة والسكة ، وأن يكون معه عسكر مـن جهتـه ، وان يسـلم اليه شـهرزور(٣٦٣) وأعمالها ، وماوراء الزاب .

واشتد مرض السلطان بحران في شوال ، وأيس منه ، وأرجـف بموته ، ووصل اليه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها ، واستدعى المقدمين من الأمراء من البلاد ، فـوصلوا اليه . وعزم الملك العـادل على استحلاف الناس لنفسه.

وسار ناصر الدين صاحب حمص طمعـا في ملك الشـام ، وقيل انه اجتاز بحلب ، ففرق على أحداثها مالا ، وسار إلى حمص ، وجرى من تقي الدين بمصر حركات من يريد أن يستبد بالملك .

وتمـاثل السـلطان ، وبلغـه ذلك كله ، وأركب ، فـرآه الناس ، وفرحوا ، وابتنى دارا ظـاهر حـران فجلس فيهـا حين عوفي ، فسـميت دار العـافية . ولما عوفي رد على مـظفر الدين الرها ، وأعطاه سنجقا ، وأحضر رسولي الموصـل ، وحلف لهمـا على ماتقرر في يوم عرفة .

وبلغه موت ابن عمه ناصر الدين ، صاحب حمص ، ورحـل عن حران الى حلب ، وصعد قلعتها يوم الاحد ، رابع عشر محرم سـنة اثنتين وثمانين وخمسمائة . وأقام بها أربعة ايام ، ثـم رحـل الى دمشق ، فلقيه «أسد الدين شيركوه» ، ابن صاحب حمص ، فأعطاه حمص ، وسار الى دمشق .

وسير الى «الملك العادل» ، وطلبه اليه الى دمشق ، فخــرج مــن حلب جريدة ، ليلة السبت الرابع والعشرين ، من شــهر ربيع الأول من سنة اثنتين . فـــوصل اليه الى دمشـــق ، وجـــرت بينهمـــا أحـــاديث ، ومـــراجعات اســـتقرت على أن الملك العـــادل يطلع الى مصر ، ومعه الملك العزيز ، ويكون أتابكه ، ويســلم حلب الى الملك «الظاهر غازي» ، وينزل الأفضل الى دمشق من مصر ، وينزل تقي الدين ايضا منها .

وكان الذي حمله على إخراج الملك العادل مــن حلب ان علم الدين سليمان بن جندر كان بينه وبين الملك الناصر صحبة قــديمة ، قبــل الملك ، ومعاشرة ، وانبســاط ، وكان الملك العــادل وهـــو بحلب لا يوفيه ما يجب له ، ويقدم عليه غيره .

فلما عوفي الملك الناصر سايره يوما «سليمان» ، وجــرى حــديث مرضه ، وكان قد أوصى لكل واحد من أولاده بشيء من البلاد ، فقال له «سليمان بن جندر»: «بأي رأي كنت تظن أن وصــيتك تمضي كأنك كنت خارجا الى الصيد ، وتعود فلا يخــالفونك ، أمـــا تســتحي أن يكون الطائر أهدى منك الى المصلحة؟». قال: «وكيف ذلك؟» ــ وهـــو يضحك ــ . قال:

«اذا أراد الطائر ان يعمــل عشـــا لفـــراخه ، قصــــد أعالي الشجرة ، ليحمـــي فـــراخه ، وأنت ســـلمت الحصــــون الى أهلك ، وجعلت أولادك على الأرض ،

هذه حلب ، وهـــي ام البـــلاد بيد أخيك ، وحمـــاة بيد تقـــي الدين ، وحمص بيد ابن أسد الدين ، وابنك الأفضل مع تقــي الدين بمصر يخرجه متى شاء ، وابنك الآخر مع أخيك في خيمته يفعل به ما أراد». فقال له: «صدقت ، وأكتم هذا الأمر».

ثم اخذ حلب من أخيه ، وأعطاها ابنه «الملك الظاهر» ، وأعطـى

الملك العادل بعد ذلك حران ، والرها وميافارقين ، ليخرجه من الشام ، ويتوفر الشام على أولاده .

فكان ما كان ، وأخرج «تقي الدين» من مصر ، فشق عليه ذلك وامتنع من القدوم ، ثم خاف ، فقدم عليه .

وسير الملك العادل «الصنيعة» لاحضار أهله من حلب وسار «الملك الظاهر» - قدس الله روحه - الى حلب ، وسير في خدمته «شجاع الدين عيسى بن بلاشوا» (٣٦٤) ، وولاه قلعة حلب ، وأوصاه بتربية الملك الظاهر ، وأخيه الملك الزاهر ، وحسام الدين بشارة ، صاحب بانياس - وولاه المدينة ، وجعل الديوان بينهما .

وجعل قرار «الملك الظاهر» في السنة ثمانية وأربعين ألف دينار بيضاء ، في كل شهر أربعة آلاف دينار . وكل يوم قباء وكمه (٣٦٥) ، وعليق دوابه من الأهراء ، وخبزه من الأهراء ، واستمرت هذه الوظيفة ، الى سنة ست وثمانين الى رجب .

فورد كتاب الملك الناصر الى ولده الملك الظاهر ، يأمره بأن يأمر وينهى ، وأن يقطع الاقطاعات ، وأن البلد بلده ، وكان القاضي الزبداني يكتب له ، فلم يعجبه ، فانصرف على حال غير محمودة .

وعلى ذكر «علم الدين سليمان بن جندر» ، تذكرت حكاية مستملحة عنه ، فأثبتها :

أخبرني الزكي احمد بن مسعود الموصلي المقرىء ، قال: كنت أؤم بعلم الدين سليمان بن جندر ، فاتفق أن خرجت معه الى حارم ، في سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، وجلست معه تحت شجرة هناك ، فقال: كنت ومجد الدين أبو بكر بن الداية والملك الناصر صلاح الدين ، تحت هذه الشجرة ، ونور الدين إذ ذاك يحاصر حارم ، وهي في أيدي الفرنج فقال مجد الدين : كنت اتمنى أن نور

الدين يفتح حارم ، ويعطيني إياها ، فقال صلاح الدين: أتمنى على الله مصر ، ثم قالا لي: تمن أنت شيئا ، فقلت: إذا كان مجد الدين صاحب حارم وصلاح الدين صاحب مصر ، ما أضيع بينهما ، فقالا: لا بد من أن تتمنى شيئا ، فقلت: إذا كان ولابد من ذلك فأريد «عم».

فقدر الله نور الدين كسر الفرنج ، وفتح حارم ، وأعطاها مجد الدين ، وأعطاني «عم». فقال صلاح الدين: أخذت أنا مصر والله ، فإننا كنا ثلاثة ، وتمنى «مجد الدين» حارم ، وأخذها ، وتمني علم الدين «عم» وأخذها .وقد بقيت امنيتي. فقدر الله تعالى: أن فتح أسد الدين مصر ، ثم آل الأمر إلى أن ملكها صلاح الدين وهذا من أغرب الاتفاقات .

وزوج السلطان الملك الناصر ولده «الملك الظاهر» ، في هذه السنة ، بابنة أخيه «غازية خاتون» بنت «الملك العادل». ودخل بها يوم الاربعاء سادس وعشرين من شهر رمضان. ثم إن السلطان عزم على قصد «الكرك» مرة أخرى فبرز من دمشق ، في النصف من محرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وسير الى حلب يستدعي عسكرها ، فاعتاق عليه ، لاشتغاله بالفرنج بأرض «أنطاكية» ، وبلاد «ابن لاون» ، وذلك أنه كان قد مات ، وأوصى لابن اخيه بالملك .

وكان الملك المظفر تقي الدين بحماة ، فسير اليه السلطان ، وأمره بالدخول الى بلاد العدو ، فوصل الى حلب في سابع عشري محرم ، ونزل في دار «عفيف الدين بن زريق» (٣٦٦) ، وأقام بها الى أن صالحهم ، في العشر الاواخر من شهر ربيع الأول ، ثم سار حتى لحق السلطان ، وأما السلطان فانه سار الى رأس الماء (٣٦٧) واجتمعت اليه العساكر الاسلامية من الموصل ، والشرق ، ومصر ، والشام ، «بعشترا» ، بعد ان أتته الأخبار أن البرنس «أرناط» يريد الخروج على الحاج ، فأقام قريبا

من « الكرك» مشــغلا خــاطره ، ليلزم مــكانه الى أن وصــل الحاج ، وتقــدم الى الكرك ، وبـث سراياه ، فنهبـوا بلدهـا وبلد «الشوبك» ، وخربوه .

وارسل الى ولده الملك الافضل ، فأخذ قطعة من العسكر ، فدخل الى بلد عكا ، فأخربوا ونهبوا ، وخـرج اليهـم جمـع مـن الداوية والاسبتارية ، فظفروا بهـم ، وقتــل منهــم جمــاعة ، وأسر الباقون ، وقتل مقدم الاسبتار .

وعاد الســلطان الى العســكر ، وعرض العســكر قلبــا وجناحين ، وميمنة وميسرة ، وجاليشية وساقة ، وعرف كلا منهم موضعه ، وسار على تعبئة ، فنزل بالاقحوانة (٣٦٨) بالقرب من طبــرية ، وكان القمص صــاحبها(٣٦٩) قــد انتمــى الى السلطان ، لخلف جرى بينه وبين الفــرنج . فــأرسل الفــرنج اليه البطرك والقسوس والرهبــان ، وتهــدده بفســخ نكاح زوجتــه ، وتحريمه ، فاعتذر ، وتنصل ، ورجع عن السلطان اليهـم ، ثـم ساروا كلهم بجموعهم الى «صفورية» (٣٧٠).

فــرحل الســلطان ، يوم الخميس لســبع بقين مــن ربيع الآخر ، وخلف طبرية وراء ظهــره ، وصــعد جبلهــا ، وتقــدم الى الفرنج ، فلم يخرجوا مــن خيمهــم ، فنزل ، وأمــر العســكر بالنزول ، فلما جنه الليل ، جعل في مقابلة الفرنج من يمنعهـم مـن القتال ، ونزل الى طبرية جريدة ، وقاتلها ، وأخذها في ساعة مـن نهار ، ونهبوا المدينة وأحرقوها .

فلما سمع الفرنج بذلك ، تقدموا إلى عساكر المسـلمين ، فعـاد السلطان الى عسكره ، والتقـى الفــريقان ، وجــرى بينهمــا قتال ، وفرق بينهما الليل . وطمع المسلمون فيهم ، وباتوا يحــرض بعضهم بضعا .

فلما كان صباح السبت لخمس بقين من الشهر ، طلب كل من الفريقين موضعه ، وعلم المسلمون أن «الاردن» من ورائهم ، وبلاد القوم بين أيديهم ، فحملت العساكر الاسلامية من الجوانب ، وحمل القلب ، وصاحوا صيحة واحدة ، فهرب القمص في أوائل الأمر نحو «صور» ، وتبعه جماعة من المسلمين ، فنجا وحده ، فلم يزل سقيما حتى مات في رجب .

وأحاط المسلمون بالباقين من كل جانب ، فانهزمت منهم طائفة ، فتبعها المسلمون فلم ينج منهم أحد . واعتصمت الطائفة الاخرى بتل حطين – وحطين : قرية عندها قبر شعيب عليه السلام – فضايقهم المسلمون على التل ، واوقدوا النيران حولهم ، فقتلهم العطش ، وضاق الأمر بهم حتى استسلموا للأسر ، فأسر مقدموهم وهم : الملك كي ، والبرنس أرناط صاحب الكرك واخو الملك ، وابن الهنفري ، وأولاد الست (٣٧٢) ، وصاحب جبيل ، ومقدم الداوية ، ومقدم للاسبتار ، وأمم لايقع عليها الاحصاء ، حتى كان الرجل المسلم يقتاد منهم عشرين فرنجيا ، في حلقهم حبل .

وأسروا من المصاف ، ومن بلاد الفرنج أكثر من ثلاثين الفا من الفرنج ، ما بين رجل ، وامرأة ، وصبي . وقتل من المقدمين وغيرهم خلق لا يحصى ، ولم يجر على الفرنج منذ خرجوا الى الساحل مثل هذه الوقعة .

وكان من جملة الغنيمة في يوم المصاف صليب الصلبوت ، وهو قطعة خشب مغلفة بالذهب ، مرصعة بالجوهر ، يزعمون أن ربهم صلب عليها ، وضربت في يديه المسامير ، أحضروه معهم المصاف تبركا به ، ورفعوه على رمح عال .

فأما مقدم الداوية والاسبتار ، فاختار السلطان قتلهم فقتلوا ، وأما الملك «كي» ، فإنه أكرمه ، وجلس له في دهليز الخيمة ، واستحضره ، وأحضر معه « البرنس أرناط » ، وناول

الملك «كي» شربة من جلاب بثلج ، فشرب منهـا ، وكان على أشـد حال من العطش ، ثم ناول الملك بعضها «ابـرنس ارناط» ، فقـال السلطان الترجمان: «   أنت الذي سقيته ، والا ما سـقيته أنا ». وأراد بذلك عادة العرب ان الأسير إذا أكل أو شرب ممن اسره أمن .

وكان السلطان قـد نذر مـرتين إن أظفـره الله بـه أن يقتله : إحداهما لما أراد المسـير الى مـكة والمدينة ، وبعثـرة قبـر النبي – صلى الله عليه وسلم .

والمرة الأخرى ان السلطان كان قد هادنه ، وتحـالفا على أمـن القوافل المترددة من الشـام الى مصر ، فـاجتاز بـه قـافلة عظيمة ، غزيرة الاموال ، كثيرة الرجـال ، ومعهـا جمـاعة مـن الاجناد ، فغدر بهم الملعون ، واخذهم وأموالهم وقال لهم: «قـولوا لمحمـد يجـيء وينصركم» فبلغ ذلك السـلطان وسـير اليه ، وهدده ، ولامه ، وطلب منه ردها فلم يجـب ، فنذر أن يقتله متى ظفر به .

فالتفت السلطان الى «ارناط» ، وواقفه على ماقال ، وقـال له: «ها أنا أنتصر لمحمد». ثم عرض عليه الاسلام ، فلم يفعـل . فسـل السيف ، وضربه به ، فحل كتفه ، وتمـم عليه مـن حضر ، وأخـذ ورمي على باب الخيمة .

فلمـا رآه الملك على تلك الصـورة لم يشـك في أنه يثني به ، فاستحضره ، وطيب قلبه ، وقال: «لم تجـر عادة الملوك أنهـم يقتلون الملوك ، ولكن هذا طغى ، وتجاوز حده فجرى ما جرى».

ثم إن السلطان أصبح يوم الاحد ، الخـامس والعشرين ، فنزل على «طبرية» ، وتسلم قلعتها بالأمان من صاحبتها ، ثم رحل منهـا يوم الثـلاثاء الى «عكا» ، فنزل عليهـا يوم الاربعـاء سـلخ الشـهر ، وقـاتلها يوم الخميس مسـتهل جمـادى

الاولى ، فأخذها ، واستنفذ منها أربعة آلاف أسير من المسلمين ، وأخذ جميع ما فيها ، وتفرق العسكر .

وفتح بعدها : قيسارية ونابلس ، وحيفا ، وصفورية ، والناصرة ، والشقيف ، والفولة ، فأخذوها ، واستولوا على سكانها ، وأموالها .

ورحل السلطان من عكا الى «تبنين» ، وقاتلها وفتحها يوم الاحد ثامن عشر جمادى الاولى ، ثم رحل منها الى «صيدا» فتسلمهايوم الاربعاء العشرين منه ، ثم سار الى «بيروت» ، ففتحها في التاسع والعشرين منه ، ثم سلمت «جبيل» إلى أصحابه وهو على بيروت .

ثم سار الى «عسقلان» ونازلها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة ، وتسلمها يوم السبت سلخ جمادى الآخرة ، بعد أن تسلم في طريقه مواضع «كالرملة» «ويبنا» و«الداروم». واقام على عسقلان ، وتسلم أصحابه غزة ، وبيت جبرين ، والنطرون ، وبيت لحم ، ومسجد الخليل عليه السلام .

وسار الى بيت «المقدس» ، فنزل عليه يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين ، فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة ، وكان عليه من المقاتلة ما يزيد على ستين الفا غير النساء والصبيان ، ثم انتقل الى الجانب الشمالي ، يوم الجمعة العشرين من شهر رجب ونصب عليه المنجنيقات ، وضايقه بالزحف ، والقتال ، وكثرة الرماة ، حتى أخذ النقب في السور ، مما يلي «وادي جهنم» ، في قرنة شمالية .

ولما رأوا ذلك وعلموا أن لا ناصر لهم ، وأن جميع البلاد التي افتتحها السلطان صار من بقي من اهلها الى «القدس» ، خرج عند ذلك اليه ابن بارزان (٣٧٤) ، ملقيا بيده ، ومتوسطا لأمر قومه ، حتى استقر مع السلطان خروج الفرنج عنها بأموالهم

وعيالهم ، وأن يؤدوا عن كل رجل منهم عشرة دنانير ، وعن كل امرأة خمسة دنانير ، وعن كل طفل لم يبلغ الحلم دينارين ، ومن عجز عن ذلك استرق ، فبلغ الحاصل من ذلك عن من خرج منهم مائتين وستين الف دينار صورية ، واسترق بعد ذلك منهم نحو ستة عشر الفا .

وكان السلطان قد رتب في كل باب أميرا أمينا لاخذ ما استقر عليهم ، فخانوا ، ولم يؤدوا الامانة ، فانه كان فيه ، على التحقيق ، العدة التي ذكرناها ، وأطلق «ابن بارزان» ثمانية عشر الف رجل من الفقراء ، وزن عنهم ثلاثين الف دينار .

وتسلم القدس في يوم الجمعة السابع والعشرين ، من شهر رجب ، وأقيمت صلاة الجمعة فيه ، في الجمعة التي تلي هذه ، وهي رابع شعبان .

وخطب بالناس محيي الدين بن زكي الدين - وهو يومئذ قاضي حلب - وأزيلت الصلبان من قبة الصخرة ، ومحراب داود ، وأزيل ما كان بالمسجد الأقصى من حوانيت الخمارين ، وهدمت كنائسهم والمعابد ، وبنيت المحاريب والمساجد .

وأقام السلطان على «القدس» ، ثم رحل عنه ، في الخامس والعشرين من شعبان ، فنزل على صور بعد ان قدم عليه ولده «الملك الظاهر» ، من حلب في ثامن عشر شهر رمضان ، قبل وصوله اليها .

وكان نزوله على «صور» في ثاني عشرين من شهر رمضان ، وضايقها ، وقاتلها ، واستدعى اسطول مصر ، فكانت منه غرة في بعض الليالي ، وظنوا انه ليس في البحر من يخافونه ، فما راعهم الا ومراكب الفرنج من «صور» قد كبستهم ، واخذوا منهم جماعة ، وقتلوا جماعة ، فانكسر نشاط

السلطان ، ورحل عنها في ثاني ذي القعدة ، وأعطى العساكر دستورا ، وساروا الى بلادهم (٣٧٥) .

وأقام هو بعكا ، الى أن دخلت سنة اربع وثمانين وخمسمائة ، وكان من «بهونين» (٣٧٦) قد ارسلوا الى السلطان ، وهو «بصور» ، فأمنهم ، وسير من تسلمها ، وسار السلطان فنزل على حصن «كوكب» (٣٧٧) في أوائل المحرم من السنة ، وكان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من دخول قوة ، فأخذ الفرنج غرتهم ليلا ، وكبسوهم بعفر بلا (٣٤٨) وقتلوا مقدمهم «سيف الدين» أخا «الجاولي» فسار السلطان ، ونزل عليها بمن كان قد بقي من خواصه بعكا ، وكان ولده «الملك الظاهر» قد عاد عنه الى حلب ، وعاد أخوه «الملك العادل» الى مصر ، فحصره ، ثم رأى أنه حصن منيع ، فرحل عنه وجعل عليه قايماز النجمي محاصرا .

وسار إلى دمشق ، ثم سار من دمشق في النصف من ربيع الأول الى حمص ، فنزل على بحيرة «قدس» (٣٧٩) ، ووصل اليه «عماد الدين زنكي» صاحب سنجار ، وتلاحقت به العساكر ، واجتمعت عنده ، فنزل على تل قبالة «حصن الأكراد» ، في مستهل ربيع الآخر ، وسير إلى الملك الظاهر إلى حلب والى «الملك المظفر» ، بأن يجتمعا وينزلا «بتيزين» قبالة «أنطاكية» لحفظ ذلك الجانب ، فسارا حتى نزلا «تيزين» في شهر ربيع الآخر وتواصلت اليه العساكر في هذه المنزلة .

ثم رحل يوم الجمعة رابع جمادى الاولى ، على تعبئة لقاء العدو ، ودخل الى بلاد العدو ، وأغار على «صافيتا» و«العريمة» وغير ذلك من ولاياتهم ، ووصل الى «أنطرطوس»(٣٨٠) في سادس جمادى الأولى فوقف قبالتها ، ونظر إليها ، وسير من رد الميمنة ، وأمرها بالنزول على جانب البحر ، وأمر الميسرة بالنزول على البحر ، من الجانب الآخر ، ونزل في موضعه ، واحدقت

العساكر بها من البحر الى البحر ، وزحف عليها ، فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور ، وأخذها بالسيف ، وغنم العسكر جميع ما بها ، وخرب سور البلد .

وسار الى حلب ، فوصل اليه ولده «الملك الظاهر» في اثناء الطريق ، بالعساكر التي كانت «بتيزين» . ووصل الى «جبلة» في ثامن عشر يوم الجمعة ، فما استتم نزول العسكر حتى تسلم البلد ، سلمها اليه قاضيها واهلها ، وكانوا مسلمين تحت يد الفرنج ، فعملوا عليها وسلموها وبقيت القلعة ممتنعة ، وقاتل القلعة ، فسلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر .

وسار عنها الى «اللاذقية» ، فنزل عليها يوم الخميس رابع عشري جمادى الاولى ، ولها قلعتان ، فقاتلها ، وأخذ البلد ، وغنموا منه غنيمة ، وفرق الليل بين الناس ، وأصبح المسلمون يوم السبت ، واجتهدوا في قتال القلعتين ، ونقبوا في السور مقدار ستين ذراعا ، فأيقن الفرنج بالعطب ، فطلبوا الأمان ، يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الاولى ، وسلموها يوم السبت .

ورحل عن اللاذقية ، يوم الأحد ، فنزل على صهيون (٣٨١) ونزل عليها يوم الثلاثاء تاسع عشري جمادى الأولى ، واستدار العسكر حولها ، واشتد القتال عليها من جميع الجوانب .

فضربها منجنيق ولده «الملك الظاهر» ، حتى هدم قطعة من سورها تمكن الصاعد الصعود منها ، وزحف عليها السلطان بكرة الجمعة ، ثاني جمادى الآخرة ، فما كان الا ساعة حتى ارتقى المسلمون على أسوار الربض ، فهجموه ، فانضم اهله الى القلعة ، فقاتلهم المسلمون فصاحوا الأمان ، وسلموها على صلح القدس .

وأقام السلطان بها حتى تسلم عدة قلاع ، «كالعيد» و«قلعة

الجماهريين» و«حصن بلاطنس» . ثم رحل ونزل على بكاس (٣٨٢) وهي قلعة حصينة ، من أعمال حلب على جانب العاصي ، ولها نهـر يخرج من تحتها ، يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة على شـاطىء «العاصي» وصعد السلطان جريدة الى القلعة ، وهي على جبل مـطل على العاصي ، فأحدق بها من كل جـانب وقـاتلها قتـالا شـديدا بالمنجنيقات والزحف ، وفتحها يوم الجمعة تاسع جمـادى الآخـرة عنوة ، وأسر من كان بقي فيها ، وغنم جميع ما كان فيهـا . وكان لها قلعة تسمى «الشغر» قريبا منها يعبر من احداهما الى الأخـرى بجسر ، فضربها بالمنجنيقات الى أن طلبوا الامـان ، ثـم سـلمها اهلها بعد ثلاثة أيام ، يوم الجمعة سادس عشر الشهر .

ثم عاد السلطان الى الثقل ، وسير ولده الملك الظـاهر الى قلعـة تسمى «سرمانية» يوم السبت ، فقاتلها قتالا شديدا ، وتسلمها يوم الجمعة ثالث عشري الشهر المذكور .

واتفق له هذه الفتوحات المتتابعة كلهـا في ايام الجمـع ، وكذلك القدس يوم الجمعة .

ثم سار السلطان جريدة الى «حصن برزية» وهو الذي يضرب به المثل في الحصانة ، ويحيط به أودية من سـائر جـوانبه ، وعلوهـا خمسمائة ذراع ونيف وسبعون ذراعا ، فتـأمله وقـوى عزمـه على حصاره ، واستدعى الثقل وبقية العسكر ، يوم السبت رابع عشري جمادى الآخرة . فنزل الثقل تحت الجبل .

وفي بكرة الأحد صـعد السـلطان جـريدة ، مـع المقاتلة ، والمنجنيقـات ، والات الحصـار الى الجبـل ، فـأحدق بالقلعة ، وركب المنجنيقات عليها فقاتلها ليلا ونهـار ، ثـم قسـم العسكر على ثلاثة أقسام ، يوم الثلاثاء ، ورتـب كل قسـم يقـاتل شطرا من النهار ، بحيث لا يفتر القتال عليها .

وحضرت نوبة السلطان ، فتسلمها بنفسه ، وركب ، وصـاح في

الناس ، فحملوا حملة الرجل الواحد ، وطلعوا الى الأسوار ، وهجموها عنوة ، ونهبوا جميع ما فيها ، واسروا من كان فيها ، وعاد السلطان الى الثقل ، واحضر صاحبها ومعه من اهله سبعة عشر نفرا ، ففرق له السلطان ، وأطلقه مع جماعته ، وأنفذهم الى صاحب «انطاكية» ، استمالة له ، فانهم كانوا من اهله (٣٨٣).

ثم سار السلطان حتى نزل على «درب ساك »، يوم الجمعة ثامن شهر رجب من السنة ، فقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات ، واخذ النقب تحت برج منها ، فوقع ، وحماه الفرنج بالرجال ، ووقفوا فيه يحمونه عن كل من يروم الصعود فيه ، وجعلوا كلما قتل منهم واحدا اقاموا غيره مقامه ، عوضا عن السور .

ثم طلبوا الامان على ان ينزلوا بأنفسهم وثيابهم لا غير ، بعد مراجعتهم أنطاكية ، وتسلمها السلطان ، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رجب ، وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر .

وسار عنها بكرة السبت ، ثالث عشري الشهر ، ونزل في مرج «بغراس» ، وأحدق بعض العسكر «ببغراس» ، وأقام يزكا (٣٨٤) على باب انطاكية بحيث لا يشذ عنه من يخرج منها ، وقاتل البلد مقاتلة شديدة ، حتى طلبوا الامان ، وشرطوا استئذان انطاكية ، وتسلمها في ثاني شعبان من السنة (٣٨٥)

وفي ذلك اليوم عاد الى الخيم ، وراسله اهل «انطاكية» في طلب الصلح فصالحهم ، لشدة ضجر العسكر ، وقلق عماد الدين — صاحب سنجار — لطلب العود إلى بلاده ، واستقر الصلح بينه وبين صاحب أنطاكية على أنطاكية لا غير ، دون غيرها من بلاد الفرنج ، على أن يطلقوا جميع أسرى المسلمين الذين عندهم ، وأن يكون ذلك إلى سبعة اشهر ، فإن جاءهم من ينصرهم والا سلموا البلد الى السلطان .

وطلبه ولده «الملك الظاهر» ان يتوجه معه الى حلب ، فسار معه اليها ، ودخلها في حادي عشر شعبان ، واقام بقلعتها ثلاثة أيام في ضيافة «الملك الظاهر» ، وانعم «الملك الظاهر» على جماعة كثيرة من عسكره ، فأشفق السلطان عليه ، وسار من حلب في رابع عشر شعبان ، فوصل دمشق قبل دخول شهر رمضان .

فسار في أوائل شهر رمضان حتى نزل «صفد» ، ونصب عليها المناجيق ، وداومها بالقتال حتى تسلمها بالامان في رابع عشر شوال ، وكان أصحابه الذين جعلهم على حصار «الكرك» لازموا الحصار هذه المدة العظيمة ، وصابرهم من بها من الفرنج ، حتى فنيت أزوادهم وذخائرهم ، وأكلوا دوابهم ، فراسلوا أخا السلطان « الملك العادل » ـ وكان قريبا منهم ، منازلا بعض القلاع ـ فطلبوا منه الأمان فأمنهم ، وتسلمها ، وتسلم ايضا «الشوبك» ، وغيرها من القلاع التي تجاورها .

ثم سار السلطان من «صفد» الى «كوكب» (٣٨٦) ، فنزل على سطح الجبل ، وأحدق العسكر بالقلعة ، وضايقها بالقتال ، حتى تمكن النقب من سورها ، فطلب أهلها الأمان فتسلمها في النصف من ذي القعدة (٣٨٧).

وسار بعد ذلك بمدة الى «بيت المقدس» فدخله يوم الجمعة ثامن ذي الحجة ، وسار الى «عسقلان» مودعا اخاه «الملك العادل» وكان متوجها الى مصر ، فأخذ من أخيه عسقلان ، وأعطاه «الكرك».

وتوجه لتفقد البلاد الساحلية ـ ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة ـ وهو بعكا .وتوجه الى دمشق فدخلها مستهل صفر .

ثم توجه في الثالث من شهر ربيع الاول ، الى «مرج فلوس» (٣٨٨) محاصرا «اشقيف أرنون» (٣٨٩) ورحل من «مرج فلوس» فأتى «مرج عيون» ـ وهو قريب من شقيف أرنون ـ في سابع عشر ربيع الاول .

وضاق على الفرنج المجال ، وقلت أزوادهم . فنزل «أرناط» صاحب الشقيف اليه ـ وكان عظيما فيهم ذا رأي ودهاء . فأظهر الطاعة والمودة للسلطان ، ووعده بتسليم المكان وقال: «أريد ان تمهلني حتى أخلص اولادي وأهلي من الفرنج ، وأسلم إليك الحصن ، وتعطيني موضعا أسكن فيه بدمشق ، واقطاعا تقوم بي وبأهلي وتمكنني الآن من الاقامة بالشقيف ، حتى أخلص أولاد».
فأجابه السلطان إلى ذلك ، وجعل يتردد إلى خدمته .

وكانت الهدنة بين انطاكية وبينه قد قرب وقتها ، وخاطره مشغول بذلك ، وقد سير الى تقي الدين ان يجمع من يقارب تلك الناحية من العساكر ، ويكون بازاء انطاكية .

وبلغه أيضا أن الفرنج قد تجمعوا «بصور» في جموع عظيمة ، وكان الامر قد استقر مع «أرناط» أن يسلم إليه «الشقيف» ، فاعتذر بأولاده وأهله ، وأن «المركيس» لم يمكنهم من المجيء اليه ، وطلب التأخير مدة أخرى ، فعلم السلطان مكره ، فأخذه وحبسه ، فأجاب الى التسليم ، فسير مع جماعة من العسكر الى تحت «الشقيف» ، فأمرهم بالتسليم ، فامتنعوا ، وطلب قسيسا حدثه بلسانه وعاد بما قال اليهم ، فاشتدوا في المنع .

فعلم حينئذ أن ذلك كان تأكيدا مع القسيس ، فأعادوه الى السلطان ، وسيره الى «بانياس» ، وتقدم الى «الشقيف» فحصره ، وضيق عليه ، وجعل عليه من يحفظه ، الى أن سلمها ، من بها بعد ان عذب صاحبها أشد العذاب ، واشترطوا اطلاق صاحبها ، في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الاول من سنة ست وثمانين(٣٩٠) .

وأما بقية الفرنج ، فان ملكهم كان وعده السلطان أنه متى سلم «عسقلان» أطلقه ، فاتفق أنه اطلقه «بأنطرطوس» ، حين فتح تلك الناحية ، واشترط عليه أن لا يشهر في وجهه سيفا أبدا فنكث .

واتفق مع « المركيس » صاحب « صور » وعسكرا مع جموع الفرنج على باب « صور » . واتفق بينهم وبين المسلمين حروب وغارات ، كانت النكاية فيها سجالا بين الفريقين ، بحيث تحاجز الفريقان في آخر تلك الايام ، من جمادى الآخرة من هذه السنة .

وسار الفرنج إلى حصار « عكا » ، فنزلوا عليها في يوم الاربعاء ثامن شهر رجب . وسار السلطان فنزل عليهم بظاهر « عكا » ، ومنعهم من الاحاطة بسورها ، فكان نازلا على قطعة منها تلي الشمال ، ومعه الباب الشمالي من « عكا » مفتوحا ، والمسلمون يدخلون اليها ويخرجون ، والفرنج على الجانب الجنوبي ، وقد أغلق في وجوههم الباب المعروف بباب « عين البقر » ، وكان الفرنج يقومون بمحاربة المسلمين ، من جانب المدينة ومن جانب العسكر .

وجرت بينهم وبين الفرنج وقعات متعددة ، من أعظمها خرج الفرنج واصطفوا على تعبئة القتال ، والملك في القلب وبين يديه الانجيل ، فوقف المسلمون ايضا على تعبئة ، وتحركت ميسرة الفرنج على ميمنة المسلمين ، وفيها الملك المظفر ، فتراجع عنهم ، وامده السلطان بأطلاب عدة من القلب ، فخف القلب ، وعادت ميسرة الفرنج فطمعت فيه فحملوا على القلب فانكسر ، وانكسر معه معظم الميمنة ، وبلغت هزيمتهم الى « الاقحوانه » ومنهم من دخل دمشق .

ووصل الفرنج إلى خيم السلطان ، فقتلوا ذلك اليوم « أبا علي الحسين بن عبد الله بن رواحة » . وكان قد مدح النبي صلى الله عليه وسلم ــ ووقف بازاء قبره ، وأنشد قصيدته ، وقال : « يارسول الله إن لكل شاعر جائزة وقرى ، وإني أطلب جائزتي الشهادة ، فاستجاب الله دعاءه » .

وقتل ذلك اليوم مكبس السلطان وطشت داره(٣٩١) ، وثبتت ميسرة المسلمين ، وصاح« السلطان » فيمن بقي من المسلمين : « يال الاسلام » ، وعادت ميسرة الفرنج إلى عسكره ، فتكاثر

الناس وراءهم ، وحملوا عليهم ، فانهزموا ، وتبعهم المسلمون ، فقتلوا منهم زهاء سبعة الاف ، ولم يقتل من المسلمين غير مائة وخمسين نفرا .

ثم إن الحرب اتصلت بينهم ليلا ونهارا ، وكثر القتل بينهم ، وأقبل الشتاء ، فلقي المسلمون منه شدة .

وحضروا إلى السلطان ؛ وأشاروا عليه بالرحيل عن « عكا » إلى « الخروبة »(٣٩٢) ، لينفسح ما بين العسكرين . وكان ذلك للضجر من تلك المواقفة ، وملازمة القتال ، حتى أوهم السلطان (وقالوا له :)(٣٩٣) « إنك قد ضيقت على الفرنج مجال الهرب ، وحلت بينهم وبين صور ، وطرابلس ، ولو أفرجت لهم عن الطريق لما وقفوا بين يديك » فرحل السلطان إلى « الخروبة » .

فأصبح الفرنج وقد انبسطوا على عكا ، واحاطوا بها من سائر جهاتها ، واتصل ما بينهم وبين « صور » ، وجاءت مراكبهم منها ، فحصرت « عكا » من جانب البحر ، وضعفت قلوب المسلمين بعكا ، وعادوا يقتاتون من الحواصل المذخورة ، بعد أن كان من المير المجلوبة .

وتوفر الفرنج على قتال أهل « عكا » بعد أن كانوا مشغولين بالعسكر ، وشرع الفرنج في إدارة خندق على عساكرهم ، كاستدارتهم بعكا ، وجعلوه شكلا هلاليا : طرفاه متصلان بالبحر ، وأقاموا عليه سورا مما يليهم ، وشرفوه بالجذويات والطوارق(٣٩٤) ، والتراس .

واتصلت الامداد إليهم من البحر ، بالاقوات والرجال والاسلحة ، حتى كان ينقل إليهم البقول الرطبة ، والخضروات من جزيرة « قبرس » فتصبح عندهم في اليوم الثاني .

وسير السلطان إلى الخليفة ، وإلى ملوك الاسلام يستنفر

ويستصرخ ، واتصلت الاخبار بوصول ملك الالمان إلى « القسطنطينية » في ستمائة الف رجل ، منهم ثلاثمائة الف مقاتل ، وثلاثمائة الف سوقة وأتباع وضياع .

وحكي انه كان في عسكره خمسة وعشرون الف عجلة تنقل الأسلحة والعلوفات ، فاسقط في أيدي المسلمين ، واستولى اليأس عليهم ، وتعلقت آمالهم انه ربما مانعه من في طريقه من « الأوج » (٣٩٥) ومن قلج ارسلان (٣٩٦) ، فلم يتفق شيء من ذلك ، بل سار ، وقطع البلاد ، حتى وصل إلى المصيصة .

وارسل الله عليهم وباء عظيما وحرا عظيما ، ومجاعة أحوجتهم إلى نحر دوابهم ، وذبح البقر الذي يجر العجل ، فكان يموت في كل يوم الوف من الرجال ، ويسابقون الموتان إلى ما معهم من الدواب الحاملة للأثقال ، حتى وصلوا إلى « انطاكية » ولم يبق منهم إلا دون العشر .

وكان في جملة من مات منهم ملكهم الذي غزا الشام ، في سنة أربع واربعين ، وحاصر دمشق ، مات غريقا في نهر « بطرسوس » يقال له « الفاتر » ، نزل ، وسبح فيه فغرق ، وقيل بأنه سبح فيه وكان الماء باردآ ، فمرض ومات ، وأخذ وسلق في خل ، وجمعت عظامه ليدفن في البيت المقدس .

واوصى بالملك لابنه مكانه ، واتفقت الكلمة عليه ، فمرض « بالتينات » (٣٩٧) ، وأقام بها ، وسير « كند أكرا » على عسكره ، ووصل إلى « أنطاكية » ، فمات ذلك « الكند » بها .

وخرج البرنس إلى الملك ، واستدعاه إلى أنطاكية طمعا في أنه يموت ويأخذ ماله ، وكان قد فرق عسكره ثلاث فرق لكثرته ، فالفرقة الاولى : اجتازت تحت « بغراس » مع الكند المذكور ، فوقع عليه عسكر حلب فأخذ منهم مائتي رجل ، ووقع أيضا على جمع عظيم

خرجوا العلوفة ، فقتلوا منهم جماعة كثيرة ، وأسروا زهاء خمسمائة نفر .

ولما وصل ملك الالمان إلى انطاكية اخذها من صاحبها ، وأودع فيها خزائنه ، وسار منها يوم الاربعاء خامس وعشرين من شهر رجب ، سنة ست وثمانين وخمسمائة ، متوجها إلى عكا ، وفشا فيهم الوباء حتى لم يسلم من كل عشرة واحد ، ولم يخرجوا من « انطاكية » حتى ملؤوها قبورا .

ووصل الملك الى « طرابلس » ، في نحو الفي فارس ، لو صادفهم مائة من المسلمين لاخذوهم ، ووصلوا الى « عكا » رجالة ضعفاء ، لايدفعون ، ومات ابن ملك الالمان على « عكا » في ذي الحجة من سنة ست (٣٩٨) .

ووصل إلى المسلمين « بعكا » الاسطول المصري في خمسين شينيا غنم في طريقه إليها بطس ومراكب فرنجيه ، أسر رجالها وغنم اموالها ، وجرى له مصادمات مع مراكب الفرنج المحاصرة لعكا ، كانت الغلبة فيها للمسلمين ، فدخلوا إلى عكا ،وتماسكت بما دخل فيها من الأقوات والسلاح ، وكان دخولها في يوم الاثنين رابع عشر شعبان ، من سنة ست وثمانين.

وفي هذا الشهر ، جهز الفرنج بطسامتعددة ، لمحاصرة « برج الذبان » ـ وهوعلى باب ميناء عكا ـ فجعلوا على صواري البطس برجا ، وملؤوه حطبا ونفطا ، على أنهم يسيرون بالبطس ، فاذا قاربت « برج الذبان » ولاصقته ،أحرقوا البرج ، الذي على الصاري ، وألصقوه ببرج الذبان ، ليلقوه على سطحه ، ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذونه .

وجعلوا في البطسة وقودا كثيرا ، ليلقوه في البرج اذا اشتعلت النار فيه . وعبؤوا بطسا ملؤوها حطبا ، على أنهم يدفعونها لتدخل بين بطس المسلمين ، ثم يلهبونها لتحرق بطس المسلمين .

وجعلوا في بطسه ثالثة مقاتلة ، تحت قبو ، بحيث لايصل إليهم نشاب ، ويكونون تحت القبو ، ويقدمون البطسة إلى البرج ، فاوقدوا النار ، وضربوا النفط ، فانعكس الهواء عليهم ، فاحترقت البطسة ، وهلك من فيها ، واحترقت البطسة الثانية ، وأخذها المسلمون ، وانقلبت الثالثة التي فيها القبو بمن فيها .(٣٩٩) .

وفي هذه السنة ، في ربيع الاول ، أحرق المسلمون ما كان صنعه الفرنج من آلات الحرب والزحف إليهم ، وهي أبرجة عظيمة المقدار ، يزحف بها على عجل ، وفيها المقاتلة ، والجروخ ، والمجانيق ، فعمد لها رجل دمشقي يعرف « بعلي بن النحاس » ، فرماها من السور ، بقدور نفط متتابعة ، وصار فيها ريح غريبة ، كانت سببا لاحراق تلك الآلات وما فيها ومن فيها .

واشتد حصار الفرنج على عكا ، ومل من بها من الأجناد المقام ، ووصل إليهم من مصر مراكب فيها غلة ، فاتلفوها بالاضاعة وبالتغريق ، تبرما بالمقام .

وفي ربيع الاول ، وصلت من بلاد الفرنج مراكب كثيرة ، فيها الوف من مقاتلة الفرنج من أكبرهم ملكان : يعرف أحدهما بملك « الفرنسيس » والآخر بملك « انكتير » ، فاشتدت وطأتهما على عكا ، وعظمت نكايتهما ، في سورها ، وقل ما بها من الميرة والسلاح .

فأمر السلطان بأن أوسق مركب عظيم من « بيروت » ، واستكثر فيه من السلاح والاقوات والمقاتلة ، واظهر عليه زي الفرنج وشعارهم ، وأخذ قوم من أسارى الفرنج الذين في قبضة المسلمين ، فتركوا على ظاهر المركب ، وأنزل معهم في المركب جماعة من المسلمين ممن يعرف لغة الفرنج ، وتزيوا بزي الفرنج ، وحلقوا شعورهم ، وأخذوا معهم خنازير ، ورفعوا على قلع المركب صليبا .

وأوهموا الفرنج أنهم واصلون إليهم نجدة من بلادهم ، واقلعوا

داخلين إلى مرسى « عكا » ، مسلمين على الفرنج بلغتهم ، مبشرين لهم بأن وراءهم من المدد ، من تشتد به منتهم ، وتعز به نصرتهم ، فلم يرتب المحاصرون بذلك ، وأفرجوا لهم عن المرسى (٤٠٠) .

فدخلوا إلى « عكا » ، وأوصلوا إلى المسلمين بها ، ما كان معهم من الميرة والسلاح والرجال ، وتمت هذه الحيلة ، وكانت من الفرص التي لاينبغي أن تعاود فركن المسلمون إليها ، وطمعوا في أخرى مثلها ، فجهزوا مركبا عظيما من « بيروت » أيضا ، وأودعوه مثل ما كان قبله من الآلات والسلاح والأقوات بما مبلغ قيمته خمسة آلاف دينار ، وجعل فيه سبعمائة من مقاتلة المسلمين .

وكان خبرهم قد وصل إلى الفرنج ، فأخذوا عليهم الارصاد ، فمكثوا أياما يلججون في البحر ، ويقاربون عكا ، فلا يجدون في الدخول مطمعا ، حتى صادفتهم مراكب « الانكيتر » في حال قدومه من بلاده ، في إحدى وعشرين مركبا فقاتلوا ذلك المركب الاسلامي يومين ، وثبت لهم مع قلته ، فغرق المسلمون من مراكب الفرنج ثلاثة .

ولما رأوا أنهم قد يئسوا من النجاة ، وأن الفرنج إن ظفروا بالمركب حصل لهم به قوة عظيمة ، وحصلوا في الاسر والذلة ، عمد رجل حلبي حجار من أهل « باب الاربعين »(٤٠١) ، يقال له « يعقوب » وكان مقدم الجماعة إلى سفل المركب وأخذ قطاعته ، وخسف المركب ، ودخل فيه الماء ، وغرق ، ولم يظفر الكفار منه بشيء ، سوى رجلين تخطفهما الفرنج من رأس الماء ، واحتملوهما في مراكبهم ، فأخبرا بهذه الكائنة .

ولما وصل هذا الخبر إلى « عكا » قطع قلوب من بها ، وأسقط في أيديهم ، وهرب جماعة من الامراء منها ، فألقوا أنفسهم في شخاتير صغار ، فأضعف ذلك قلوب من بقي بها ، وعظمت النكاية في سور المدينة ، وفشلوا ، وكاتبوا السلطان ، فأذن لهم في مصالحة الفرنج عن أنفسهم بالبلد .

فصالحوا الفرنج على تسليم البلد ، وجميع ما فيه من الآلات ، والعدد والأسلحة ، والمراكب ، وغير ذلك ، وعلى مائتي ألف دينار وألف وخمسمائة أسير ، مجاهيل الأحوال ، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم ، وصليب الصلبوت ، على أن يخرجوا سالمين بأنفسهم ، وذراريهم ، وأموالهم ، وقماشهم ، وضمنوا « المركيس » عشرة آلاف دينار ، لأنه كان الواسطة ، ولأصحابه أربعة آلاف .

وحلف الفرنج لهم على ذلك ، وتسلموا « عكا » ، في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ونكثوا ذلك العهد ، وأسروا كل من كان بها من المسلمين ، وفرقوا بينهم ، واستصفوا أموالهم ، وسلبوهم ثيابهم وأسلحتهم ، ثم قتلوا منهم ألفين ومائتين صبرا ، على دم واحد ، في يوم واحد ، حيث توهموا فيهم أنهم فقراء ، ليس لهم مفاد ، وأسروا من رجوا منه أن يفتدى بمال ، أو يكون من السلطان على بال .(٤٠٢) .

وأقاموا بعكا نحو أربعين يوما ، و« الملك الناصر » على حصارهم ، ثم خرجوا منها متوجهين إلى « عسقلان » ، فسار في عراضهم ، ليمنعهم أن يخرجوا من ساحل البحر ، فساروا من عكا إلى « يافا » ، وهي مسيرة يوم واحد ، في شهر كامل ، لمضايقة السلطان لهم ، وجرى بينهم وبين المسلمين مناضلة ومطاردة ، فلما أشفق السلطان من أخذهم « عسقلان » سبق إليها فهدمها ، وأخرج أهلها منها ، في شهر رمضان من سنة سبع .

فأقام الفرنج « بيافا » ، وانتقل السلطان إلى « الرملة » ، وشرع الفرنج في بناء « يافا » وتحصينها ، ثم ساروا عنها ، فنزلوا بعسقلان ، وشرعوا في عمارتها ، ثم ساروا إلى « الداروم » ، فحصروها ثلاث مرات ، وأخذوها في المرة الثالثة بالأمان .

وعاد السلطان ، في ثالث ذي الحجة ، بالعساكر الى البيت

المقدس ، وعمره ، وحصنه ، ووعر طريقه ، وعمق خندقه ، وجعل « الملك العادل » ، بازاء الفرنج « بالرملة » .

وتوفي الملك المظفر تقي الدين ، « على مناز كرد » ، وهو محاصر لها ، بعد أن جرى له مصاف مع بكتمر صاحب « خلاط » ، وكسرة تقي الدين .

ودخلت سنة ثمان وثمانين ، والسلطان بالبيت المقدس ، والملك العادل في الرملة ، وقد صار بيد الفرنج مما كان بيد المسلمين من الفتوح ، ما بين عكا و « الداروم » ، ولم يمكنهم مفارقة الساحل ، خوفا من أن يحول المسلمون بينهم وبين مراكبهم ، فتنقطع مادتهم .

وعصى فيها الملك المنصور ابن تقي الدين على السلطان بميافارقين ، وحيني (٤٠٣) ، وحران ، والرها ، وسميساط ، والموزر ، فسير إليه ابنه الملك الأفضل واقطعه تلك البلاد الشرقية ، فسار إلى حلب ومعه أخوه « الملك الظافر » ، ووصلا إلى حلب . فأرسل السلطان أخاه « الملك العادل » ، جريدة ، في عشرين فارسا من مماليكه ، وأمره أن يرد « الملك الأفضل » ، ويطيب قلب « الملك المنصور » ، ويعطيه ما يريد ، فوصل « الملك العادل » ، واجتمع بالملك المنصور ، وقرر أمره .

ثم أن السلطان جرت له أحوال مع الفرنج ، ووقعات ومراسلات ، يطول الكتاب بتعدادها ، إلى أن انتظم الصلح بينه وبين الفرنج ، في حادي وعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين ، لمدة ثلاث سنين وخمسة أشهر ، على أن سلموا إلى المسلمين « عسقلان » ، و« غزة » ، و « الداروم » . واقتصروا من البلاد الساحلية على ما بين « صور » و « يافا » بعد أن فتح السلطان « يافا » ، وبقي القلعة .

واتفق ملوك الجزائر من الفرنج على تمليك الساحل رجلا منهم

يعرف « بالكند هري » ، وزوجوه بنت ملكهم القديم ، التي قد استقر عندهم ان يجعلوها على كل مرة من ملكوه (٤٠٤) .

وسار السلطان من القدس إلى بيروت في شوال ، ووصل إلى خدمته صاحب أنطاكية « الابرنس » وولده « قومص طرابلس » ؛ وخلع عليهما ، وجدد بينه وبينهما الهدنة والعقد .

وفي سادس عشري ذي القعدة ، دخل إلى دمشق ، بعد مدة تقارب أربع سنين ، وكان « الملك الظاهر » قد ودعه من « القدس » ، ورحل إلى حلب في شهر رمضان ، وأخبرني القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم : أنه ودعه ، ثم سير إليه ، واستأننه في مراجعته في أشياء فأدخله عليه ـ وكنت حاضرا ـ ثم قال للملك الظاهر : « أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير : وامرك بما أمرك الله به ،فانه سبب نجاتك ، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها ، فان الدم لاينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية ، والنظر في أحوالهم ، فأنت أميني وأمين الله عليهم ، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء ، وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس ، ولاتحقد على أحد ، فان الموت لا يبقي على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس ، فانه لايغفر إلا برضاهم ؛ وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه ، فانه كريم »

وفي شهر ذي القعدة ، سلم إلى « الملك المنصور » ما كان لأبيه بالشام ، وهو « منبج ، وحماة ، وسلمية ، ومعرة النعمان » وانقضت سنة ثمان وثمانين .

والهدنة مع الفرنج مستمرة ، و« الملك الناصر » بدمشق ، « والملك الظاهر » بحلب ، والملك العزيز بمصر ، والملك الافضل ، وهو أكبر ولد السلطان ، معه بدمشق .

فمرض السلطان ، في اليوم الخامس عشر ، من صفر بحمى حادة ، واختلط ذهنه في السابع ، وحبس كلامه ، وانجذبت مادة

المرض إلى دماغه ، وتـوفي ـ رحمـه الله ـ في الثـالث عشر مـن مرضه ، في وقت الفجر ، من يوم الأربعاء ، السابع والعشرين مـن صفر ، من سنة تسع وثمانين وخمسمائة .

وليس في خزانته من المال يوم وفاته سوى دينار واحد صـوري ، وسبعة وأربعين درهما نقرة (٤٠٥) ، ودعوتـه على المنابـر مـن أقصى حضرمـوت في الجنوب إلى أوائل بـلاد « أرانية »(٤٠٦) في الشمال عرضا ، ومن طرابلس الغـرب إلى بـاب همـذان طـولا . ونقودها من الدراهم والدنانير مضروبة باسمه ، وعساكرها مطيعة لأمره ، سائرة تحت لوائه . ومـن جملة ملكه ديار مصر ، والشـام جميعه ، والجزيرة وديار بكر ، واليمن .

تلك المكارم لاقعبان من لبن
شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وكان وزيره القاضي الفاضل« عبد الرحيم بن علي البيساني » ، صاحب البلاغة في الكتابة .

واستقر ملك ابنه السلطان « الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر يوسف بن أيوب » لحلب ، والبيرة ، وكفر طاب ، وعزاز ، وحارم ، وشيزر ، وبارين ، وتل بـاشر . واسـتقل بملك حلب ، وأنعـم على رعيته ، واستمال قلوبهم بالاحسان ، وعمل بوصية أبيه في الافعـال الحسان ، وشارك أهل حلب في سرورهم والحـزن ، وقلد أعناقهـم أطواق الانعام والمنن ، وجالس الكبير منهم والصـغير ، واسـتمال الجليل والحقير .

وكان ـ رحمه الله ـ مع طلاقة وجهه ، من أعظم الملوك هيبـة ، وأشدهم سطوة ، وأسدهم رأيا ، وأكثرهم عطاء ، وكانت الوفود في كل عام تزدحم ببابه من الشعراء ، والقراء ، والفقراء ، وغيرهـم . وكان يوسعهم فضلا وإنعاما ، ويوليهم مبرة وإكراما .

ولم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد « سيف الدولة بن حمدان » ما اجتمع ببابه ـ رحمه الله ـ وزاد على « سيف الدولة » في الحباء ، والفضل والعطاء .

وخرج صاحب ، الموصل « عز الدين » ، باتفاق « عماد الدين » وصاحب ماردين . لاستنقاذ حران والرها ، من يد « الملك العادل » ، في شهر ربيع الآخر من هذه السنة ؛ ونزل بدنيسر .

ونزل « الملك العادل » بحران ، واستنجد بعساكر « الملك الظاهر » و« الملك الافضل » ، فسير الملك الظاهر عسكره ومقدمه الملك المنصور ابن تقي الدين ، ونزل الملك العادل على سروج فافتتحها . ومرض عز الدين ، وعاد الى الموصل عن غير لقاء .

ثم نزل الملك العادل على الرقة ، فأخذها ، وأعطاها ابن أخيه « الملك الظافر » . وسار بالعساكر الى نصيبين ، وأقطع الخابور وبلد القنا ، ثم اصطلحوا في شهر شعبان .

وكان الياروقية ومقدمهم « دلدرم » صاحب « تل باشر » ، قد تكبروا وتحامقوا على الملك الظاهر ، وقصروا في خدمته ، في حياة أبيه . وكانوا يعظمون « بدر الدين دلدرم » ، ويركبون كلهم في خدمته حتى كأنه السلطان ، وكان بايديهم من الاقطاع خير ضياع « جبل السماق » ، وغيرها ؛ وملك الملك الظاهر حلب ، فسلكوا معه من الحماقة ، ما كانوا يسلكونه من قبل ، فاعتقل مقدمهم « دلدرم » في قلعة حلب ، وقيده ، وأخرج الباقين عن حلب ، وقبض اقطاعهم وطلب من « دلدرم » تسليم « تل باشر » فامتنع ، وذلك في سنة تسعين وخمسمائة .

واتفق أن وقع خلف بين الافضل والملك العزيز ، بسبب اميرين من الناصرية ، احدهما ميمون القصري ، والآخر سنقر الكبير ، وكان بايديهما عدة من القلاع ، فاستشعرا من الملك الافضل أن يقبضهما ، فسارا الى مصر ، وكاشفا « الافضل » بالعصيان .

وطلبا من العزيز الكون في خدمته على أن يذب عما في ايديهما ، فاقطع الملك الافضل بلادهما ، واقطعهما الملك العزيز نابلس ـ وكانت مقطعة مع ابن المشطوب ـ فامتنع من تسليمها اليهما ، وسار الى الملك الافضل فوقع الشر بينهما بسبب ذلك .

ونزل الملك العزيز الى دمشق ، في جمادى الآخرة ، واقطع بلدها ، فسير الملك الافضل الى عمه ، واعلمه بذلك ، فسار « الملك العادل » من بلاده شرقي الفرات جريدة ، واجتمع بالملك الظاهر غازي بحلب ، واصعده الى قلعة حلب ، وانزله في الدار ، التي فيها ابنة الملك العادل « غازية خاتون » ، زوجة السلطان الملك الظاهر . وطلب من الملك الظاهر موافقته على المسير الى نصرة الملك الافضل ، واصلاح ما في قلوب الملكين من المضاغنة ، فوافقه على ذلك . ثم قال له الملك العادل : « انا ضيفك ، ولا بد للضيف من قرى واطلب ان تكون ضيافتي منك دلدرم » . فأجابه الى ذلك وأطلقه .

وكان « العلم بن ماهان » في خدمة السلطان « الملك الظاهر » في محل الوزارة ، فأشار عليه بقبض عمه الملك العادل ، فامتنع : وقال : « هذا عمي ، ومحله محل الوالد » . ونزل الملك « بدلدرم » من القلعة فمضى في يومه الى « تل باشر » .

وصعد الملك العادل والملك الظاهر الى نصرة الملك الأفضل ، بعد ان سلم الملك الافضل الى الملك الظاهر جبلة ، واللاذقية ، وبلاطنس واعمال ذلك كله ، لينصره على أخيه . واجتمع الملك العادل ، والملك الظاهر بالملك الأفضل ، وتأخر الملك العزيز عن دمشق .

وجرت بين الملوك الثلاثة مراسلات افضت الى الاتفاق والصلح ، على ان تكون بلاد الملك الافضل بحالها ، وما كان بيد « ميمون » و « سنقر » ، على حاله ، ويكونان في خدمة « الملك العزيز » . ووقعت الايمان والعهود على ذلك ، في شعبان من سنة تسعين وخمسمائة .

وعاد « الملك العزيز » الى مصر ، و « الملك الظاهر » الى حلب ، والملك العادل الى الشرق .

وفي سنة إحدى وتسعين اتصل القاضي « بهاء الدين أبو المحاسن ، يوسف بن رافع بن تميم » بخدمة « الملك الظاهر » . وقدم اليه الى حلب ، وولاه قضاء حلب ووقوفها ، وعزل عن قضائها « زين الدين ابا البيان بنا » نائب « محيي الدين ابن الزكي » ، وحل عنده بهاء الدين في رتبة الوزارة والمشورة .

ثم إن « الملك الافضل » استشعر من أخيه « الملك العزيز » ان ينزل الى دمشق ، ويحاصرها ، في سنة احدى وتسعين ، كما فعل في السنة الخالية ، فسار الى « قلعة جعبر » واجتمع بعمه « الملك العادل » . بها ، وفاوضه في الوصول اليه الى دمشق ، لينصره على الملك العزيز ان وصل الى دمشق ، اما بصلح أو بغيره ، فوافقه على ذلك .

وتوجه الملك العادل الى دمشق ، ثم عدل الملك الافضل الى حلب ، الى اخيه الملك الظاهر ، ووصل اليه الى حلب ، وفاوضه في انجاده على الملك العزيز ، فلم يجد عنده نية صادقة في الحركة معه الى دمشق ، واشترط عليه شرائط من جملتها أن صاحب « حماه » الملك المنصور محمد بن تقي الدين ، وعز الدين بن المقدم صاحب « بارين » و « بدر الدين دلدرم بن ياروق » ، صاحب « تل باشر » ، كانوا كلهم في طاعته ، ومضافين اليه ، وبلادهم من جملة بلاد الملك الظاهر ، وأنهم كانوا من جملة اصحابه ، فانحرفوا عنه ، وانضافوا الى عمه الملك العادل .

وكان الملك العادل قد شفع إليه في دلدرم ، وأطلقه لأجله ، وضمن له عنه الطاعة والقيام بما يجب ، فانضاف الى عمه .

وطلب « الملك الظاهر » أن الملك العادل يقوم له ، بما جرى بينه وبينه من الشرط ، وأن لايعرض لاتباعه المذكورين .

وسار الملك الأفضل الى دمشق ، على أن يقرر مع عمه ما التمسه الملك الظاهر . فلم يتفق للملك الظاهر شيء مما التمسه . فعاد بالكلية

عنهما ، وأرسل الى الملك العزيز ، يحضه ، ويحرضه على قصدهما لأن الملك الافضل مال الى الملك العادل ، والقى اموره كلها اليه .

ووصلت رسل الملك العزيز الى الملك الظاهر ، بموافقته معه ، ومعاضدته . وحلف له الملك الظاهر ، في شهر رجب من السنة .

ونزل الملك العزيز ، من مصر ، في شهر رمضان ؛ والاسدية والاكراد مخامرون عليه ، والملك العادل والملك الافضل ، قد كاتباهم ، فمالوا إليهما لتقدمة الملك العزيز الناصرية عليهم .

وخرج الملك الظاهر ، فنزل بقنسرين ، وعيد بها عيد الفطر ، وعيد الملك العزيز « بالفوار » ، وعزم الملك العزيز على الرحيل الى دمشق ، والنزول عليها ، ورحل أبو الهيجاء السمين والمهرانية ، والأسدية في رابع شوال . وساروا الى دمشق .

ورحل الملك الظاهر من « قنسرين » الى « قراحصار » ، قاصدا حصار منبج ـ وهي في يد الملك المنصور صاحب حماه ـ فلما وصل الملك الظاهر الى « بزاعا » ، وصله الخبر بأن العسكر خامر على الملك العزيز ، وأنه رجع عن دمشق ؛ وسار الملك الافضل خلفه الى مصر ، فعاد الملك الظاهر الى « قراحصار » حتى انسلخ شوال ، ودخل حلب .

ووصله الخبر بأن الملك العادل والافضل ، سارا خلف الملك العزيز الى مصر ، ونزلا على « بلبيس » ، ودخل الملك العزيز الى مصر ، واستقر امره بها ، وعلم الملك العادل بأنه لايتمشى امرهما مع الملك العزيز ، فكتب الى القاضي الفاضل ، وطلب الاجتماع به ، فألزمه الملك العزيز بالخروج إليه ، فاجتمع به ، واصلح حاله مع الملك العزيز ، وشرط عليه أن يعفو عن الأسدية . وقال الملك الأفضل : « أنا كان مقصودي الاصلاح بينكم ، وأن لا يقع على دولتكم خلل ، وقد حصل ذلك » .

وتحالفوا ، وعاد الملك الافضل ، ومعه ابو الهيجاء السمين ، وبقي الملك العادل مع الملك العزيز بمصر ، ووافقه ، فانحرف الملك الظاهر عن الملك العزيز بذلك السبب ، ومال إلى الملك الأفضل .

وكان الملك العادل قد احتوى على الملك العزيز ، واوقع في نفسه أن السلطنة تكون له في بلاد الاسلام ، والخطبة والسكة ، وكان يبلغه عن الملك الأفضل كلمات توجب الحنق عليه ، فاتفق مع الملك العزيز على أن ينزلا جميعا إلى الشام ، لتقرير هذه القاعدة في ج يع بلاد الشام .

فسير الملك الظاهر أخاه الملك الزاهر داود ، والقاضي بهاء الدين قاضي حلب ، وسابق الدين عثمان ، صاحب شيزر ، في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة الى الملك العزيز ، لتسكين الفتنة ، والرجوع الى ما فيه صلاح النية والموافقة بين الأهل .

فوصلوا والملك العادل ، والملك العزيز ، قد خرجا مبرزين إلى « البركة » في ربيع الاول من السنة ، وأعادوا الرسل بغير زبدة ، فعرفوا الملك الافضل في اجتيازهم عليه ، بما عزم الملك العزيز ، والملك العادل عليه ، من اقامة الخطبة والسكة للملك العزيز ، وتعجب من نقضهما الهدنة معه .

ولما وصلوا الى حلب ، راسل الملك الظاهر ، أخاه الافضل ، في تجديد الصلح بينهما ، وتحالفا على المعاضدة والمناصرة . ووصل الى الملك الظاهر من الأمراء : علم الدين قيصر الناصري ، أمير جاندار أبيه الملك الناصر ، فأقطعه اللاذقية ، واخذها من ابن السلار . وسير العلم بن ماهان ، ليعتبر ما في قلعتها ويسلمها الى قيصر ، ويجعل الاجناد فيها على حالهم ، ويحلفهم للسلطان الملك الظاهر .

وكان العلم بن ماهان ، اذ ذاك عند الملك الظاهر في محل الوزارة فلما وصل اليها ، ودخل قلعتها طمع باللاذقية ، وحدثته نفسه

بالعصيان ، واستحلف الاجناد لنفسه ، وخالفه بعضهم ، وامتنعوا ، وكتبوا الى « الملك الظاهر » ، وقبضوا على ابن ماهان فسارع الملك الظاهر ، وخرج الى اللاذقية ، وصعد الى القلعة ، وأحضر ابن ماهان ، وقطع يده ، وقلع عينه ، وقتل غلاما من خواصه ، وقطع لسان البدر بن ماهان قرابته واذنيه ، وسلخ العامل النصراني الذي كان بها .

واحتوى على جميع ما كان لابن ماهان ، وفرقه ، ودخل الى حلب وهو معه ، فأركبه حمارا مقلوبا ، وعلى رأسه خف امرأة ، ويده معلقة في عنقه . وطيف به على تلك الحال ، ولطم بالدرة ، ثم صعدوا به الى القلعة ، فالتقاه « ابن منيفة » بوابها ، وقال له : « اريد حقي منك » . وأخذ نعله من رجله ، ولطمه به لطما كثيرا . وحبس في القلعة .

وتحدث بعض الناس أن الملك الظاهر أراد أن يرجع عن اقطاع قيصر اللاذقية ، فكتب الى ابن ماهان يأمره بالعصيان ، ثم التزم بما فعل ، ولم يظهر صحة ذلك .

ولما دخل السلطان الملك الظاهر من اللاذقية ، سير عسكرا من عسكر حلب ، نجدة لأخيه الملك الأفضل ، ووصل الملك العزيز والملك العادل ، فنزلا على دمشق ، وحصراها ، وتسلمها الملك العزيز بمخامرة ، أوجبت دخول الملك العادل من « باب توما » ، والملك العزيز من باب « الفرج » .

وخرج الملك الافضل من القلعة ، وعوض عن دمشق بصرخد ، فسار اليها ، ووصل « الملك الظافر » إلى أخيه « الملك الظاهر » إلى حلب ، فأكرمه ، واحتفل به ، وذلك في شعبان من سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

وشرع « الملك الظاهر » في حفر الخنادق بحلب وتحصينها ، وسير

القاضي بهاء الدين ، وغرس الدين قلج ، الى الملك العزيز ، يطلب موافقته ، وكان قد رحل الى مصر ، وابقى الملك العادل بدمشق .

وخرج « الملك الظاهر » الى « مرج دابق » ، وأقام بها وأظهر ان صاحب « مرعش » عاث في بلد « رعبان » ، وسير يقدمه عسكره الى « عين تاب » ، فخاف صاحبها حسام الدين بن ناصر الدين ، وحفظ القلعة . ونزل العسكر في الربض مظهرين أن صاحب مرعش سير الى « الملك الظاهر » واعتذر ، وانقاد الى طاعته ، وحلف له .

«فرحل السلطان الى «الراوندان»، وأقام بها ثلاثة أيام، ورحل الى « عزاز » ليلا ، وهي في ايدي نواب الأمير « سيف بن علم الدين علي بن سليمان بن جندر » ، وكان مريضا بحلب ، فأراد السلطان ان يصعد الى القلعة من شدة المطر ، فمنعه من في القلعة أن يطلع إلا باذن « سيف الدين » ، فسار الى « دربساك » وبها « ركن الدين الياس » ابن عم « سيف الدين » ، فقبض عليه .

وعاد الى حلب مغضبا ، ودخل الى دار سيف الدين بنفسه ، واخذه في محفة ، وسيره الى « عزاز » ليسلمها ، ووكل به « حسام الدين عثمان بن طمان » ، فوصل معه اليها وسلمها الى نواب السلطان « الملك الظاهر » ، وعادوا به الى حلب .

ولما جرى على سيف الدين ذلك ، وكانت « دربساك » معه ، وفيها ماله ونوابه ، وبها جماعة من أسرى الفرنج ، فأعملوا الحيلة ، وكسروا القيود ، وفتحوا خزانة السلاح ، ولبسوا العدد ، وقاموا في القلعة ، فاحتمى الوالي في القلعة مع جماعة من الأجناد ، والقتال عليهم . فعلم الملك الظاهر ، بذلك ، فخرج مجدا في السير حتى وصل « درب ساك » ، فوجد الوالي قد انتصر على الاسرى ، وقتلهم .

وعاد السلطان الى « حارم » ، ثم دخل الى حلب ، فأقام حتى

تقضت سنة اثنتين وتسعين . ووصله القاضي « وقلج » بجواب الملك العزيز ، بانتظام الصلح بينه وبينه .

ورحل الملك العادل الى بلاده الشرقية ، ووصل ابنه « الملك الكامل محمد » الى حلب ، زائرا ابن عمه الملك الظاهر ، وكان قد طلبه من ابيه ليزوره ، فالتقاه الملك الظاهر ، وأحسن ضيافته ثم سار الى أبيه .

وعصى « سربك » « برعبان » على الملك الظاهر ، وقد كانت في يده ، عوضه بها عن « حارم » وكان من مماليك أبيه الشجعان ، فأظهر الملك الظاهر أنه يخرج الى الغزاة ، وخرج الى « قنسرين » ، ثم عطف من غير أن يعلم أحد حتى وصل الى « رعبسان » ، فنزل عليها ، وأقام أياما لا يقاتلها ، في شهر رمضان ، من سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

واستغل بلدها ، فلبس « سربك » سلاحه ، وركب ، وحوله جماعة ، قد لبسوا ، وفتح باب القلعة ، ونزل الى السلطان ، والتمس منه العفو فعفا عنه . ورد « رعبان » إليه وسار ، الى حلب ، فأقام بها الى اول ذي الحجة من سنة ثلاث وتسعين .

وكان الملك العادل قد سار الى « الغور » لحركة الفرنج ، واستصحب معه نجدة من الملك الظاهر ، فوصلت رسله الى السلطان الملك الظاهر ، يخبره ان الفرنج قد عزموا على قصد جبلة واللاذقية فخرج الملك الظاهر الى « الاثارب » ، وسير الحجارين والزراقين ، لهدم حصني جبلة واللاذقية . وسار « المبارز اقجا » لهدم « جبلة » فهدموا سورها ودورها ، وأجلى أهلها منها .

وسار غرس الدين قلج ، وابن طمان ، لهدم اللاذقية ، فنقبوا القلعة ، وعلقوها ، ورفعوا ذخائرها ، وهدموا المدينة ، وذهب أهلها ، وبقي العسكر منتظرا وصول العدو ، ليلقوا النار في الاخشاب المحشوة في الانقاب ، فلم يصل احد منهم .

وجاء البرنس في البحر تحت « المرقب » ، وطلب غرس الدين وابن طمان فوصلا اليه ، وكلماه على جانب البحر ، فأشار عليهما بأن لاتهدم اللاذقية ، واخبرهما ان الفرنج فتحوا « صيدا » و « بيروت » ، وعادوا الى « صور » .

فسيرا واعلما السلطان وهو « بريحا » (١) فأمر ببناء ما استهدم منها ، وسار الى « حارم » ، فوصلها في محرم سنة أربع وتسعين . واقام بها مدة ، ثم رحل الى اللاذقية ، فعمرها وعمر ضياعها ، وتوجه الى حلب .

وتوفي غرس الدين قلج ، فعصى أولاده بالقلاع التي كانت بيده ، وهي : « دركوش » ، و « الشغر » ، و « بكاس » ، و « شقيف الروج » ، وامتنعوا من تسليمها الى الملك الظاهر ، فخرج اليها ، ونازلها ، واخذ عليها النقوب ، واستنزلهم منها ، وصفح عن جرمهم ، وأجرى لهم المعيشة السنية ، وتقدم عنده منهم : سيف الدين علي بن قلج .

ودخلت سنة خمس وتسعين

ومات الملك العزيز بمصر ، واختلف أمراؤها ، فمال الاسدية الى الافضل ، والناصرية الى الملك العادل .

وانقاد الناصرية على نيات غير موافقة ، واستدعوا الملك الافضل ، فسار من « صرخد » الى مصر ودخلها ، وتلقاه اخوته على مرحلتين منها ، واستوثقوا منه بالايمان ، على ان يكون كافلا للملك المنصور « محمد بن الملك العزيز » ومربيا له .

وخرج الجحاف ، وجهاركس ، الى « ميمون » الى القدس ، فقيد « الملك الافضل » أخاه « الملك المؤيد » وجماعة من الامراء كاتبوا « الملك العادل » ، وأرسل الملك الظاهر وزيره نظام الدين ابا المؤيد محمد بن الحسين ، الى أخيه الملك الافضل ، مهنئا له بولاية مصر ، فأقام عنده مدة ، والرسل تتردد اليه من « الملك الظاهر » في الاتفاق على الملك .

وكان الملك العادل ، اذ ذاك محاصرا « ماردين » ، وقد أشرف على اخذها ، فسار الملك الافضل الى دمشق ، وخرج الملك الظاهر الى « حارم » ، لغدر وقع من الفرنج بناحية « العمق » أغاروا على التركمان ، في تلك الناحية . وسير بعض العسكر الى « خناصره » ليقطع الطريق على الملك العادل إن توجه الى دمشق .

وصالح الملك الظاهر الفرنج ورحل الى « مرج قراحصار » في سلخ رجب من سنة خمس وتسعين .

وسار الملك العادل حتى بلغ الى « تدمر » ، وسار في البرية الى دمشق ، ونزل الملك الافضل على دمشق ، في نصف شعبان من السنة ، ونزل بعض عسكره في « الميدان » ، وهجم بعض العسكر

المدينة بمخامرة من أهلها ، ونادوا بشعار الملك الافضل ، وكان مجد الدين ـ أخو الفقيه عيسى ـ هو الذي دخل منها حتى بلغ السوق ، وشربوا الفقاع ، فخرج الملك العادل ، من القلعة ، واخرجهم من البلد .

وخامر بعض العسكر على « الملك الافضل » ودخلوا في الليل الى دمشق ، فاختل الامر عند ذلك ، وتأخر الملك الافضل الى « جسر الخشب » .

وسار الملك الظاهر الى حماه ، فالتقى سيف الدين طغرل الظاهري قطعة من عسكر حماة سائرة الى منبج فظفر بها « طغرل » وأسر رجالها ، وأحضرهم الى الملك الظاهر ، فأطلقهم بعدتهم ودوابهم .

ولما وصل الملك الظاهر الى « حماة » منعه عسكرها من العبور على الجسر فعبر قهرا ، ونزل عليها ، وقاتلها ، فهادنه الملك المنصور صاحبها ، وأخرج اليه تقدمة سنية ، وسير عسكره في خدمته ، فاقطعه الملك الظاهر « بارين » وكانت في يد ابن المقدم ، فخرج صاحب « حماة » اليها محاصرا لها .

وسير الملك الظاهر الى « الموصل » رسولا يأمر صاحبها بانجاد « ماردين » وترحيل الملك الكامل والملك العادل عنها ، ووصل الملك الظاهر الى دمشق ، واجتمع بالملك الافضل في منزلته ، وخيموا بأرض « داريا » ، ثم إنهم زحفوا على المدينة ، وقاتلوها .

وبلغ الملك الظاهر ان « جهاركس » و« سامة » و« سرا سنقر » وغيرهم ، قد عزموا على الدخول الى دمشق ، نجدة للملك العادل ، فسير الملك الظاهر عسكرا مقدمه « سيف الدين بن علم الدين » ، ليمنعوهم من الدخول ، فاختلفوا في الطريق ، ودخل المذكورون الى الملك العادل ، فاشتد بهم ازره ، ولم يكن ينصح في القتال ، وقت الحصار غير العسكر الحلبي ، فأما المصري فأكثره منافق .

ووصل المواصلة الى « ماردين » ؛ ورحلوا الملك الكامل عنها ، ونهبوا ما كان لعسكره بها ، فضربت البشائر خارج دمشق في العسكر .

وسير الملك « الظاهر » عسكرا ، مقدمه « سيف الدين » المذكور الى الشرق ليجتمعوا مع المواصلة ، ويحصروا بلاد الملك العادل بالشرق ، واقطع سيف الدين « سروج » وكان الأمر قد استقر مع المواصلة ، أن يرد إليهم سروج والرقة . فلما علموا بأن السلطان أقطع سيف الدين « سروج » انحرفوا عنه ، وعادوا ، وخرج عسكر الرها ، فوقعوا على سيف الدين فانهزم عن سروج .

وفتح الملك المنصور صاحب حماة « بارين » في ذي القعدة من ابن المقدم ، وعوضه عنها بمنبج ، بعد ذلك ، على ما سنذكره فيما بعد .

ووصلت رسل الشرق الى الملك الظاهر – وهو على دمشق – واتفقوا على ان يكون لصاحب الموصل حران ، والرها ، والرقة ، وسروج ، وأن يكونوا يدا واحدة على من خالفهم ، وتحالفوا على ذلك ، في ذي الحجة من سنة خمس وتسعين وخمسمائة .

ودخلت سنة ست وتسعين

والحصار على دمشق على حاله ، واكثر الأجناد يحملون الأزواد في الليل ، ويبيعونه على اهل البلد ، فأخرج الملك العادل خزائنه جميعها ، ثم اقترض من التجار جملة كبيرة ، وأمر بعمل الروايا والقرب ، للصعود الى مصر ، واستدعى ابنه الملك الكامل من البلاد الشرقية ، فجمع وحشد .

وسير الملك الظاهر الى سيف الدين بن علم الدين ، والى الملك المنصور صاحب حماة ، فاجتمعوا على « سلمية » ليمنعوا الملك الكامل من العبور ، فعبر في جيش عظيم ، لم يكن لهما به طاقة ، فانحازوا الى « حماة » ، وساق سيف الدين بن علم الدين ، وأعلم السلطان الملك الظاهر بذلك .

ووصل الملك الكامل الى دمشق ، فرحل الملك الظاهر ، والملك الافضل ، الى « مرج الصفر » ، ثم الى « رأس الماء » .

ورحل الملك الظاهر ، واخفى نفسه جريدة الى ناحية « صرخد » ومعه الملك المجاهد صاحب حمص ، وسار الى طرف « السماوة » ، وخرجوا الى « تدمر » . وسار الملك الظاهر الى حلب ، ووصل بعده بغال الثقل ، دون الجمال على البرية ، حتى وصلوا الى « القريتين » ، ولحقهم الملك الكامل « بالقريتين » ، وهو مسرع الى الشرق ، ووقع عسكر حلب على قطعة من أصحابه ، فظفروا بهم .

فلما وصل الملك الكامل ، وقد دخل ثقل السلطان الى « القريتين » ، سير الى مقدم عسكر حلب « علم الدين قيصر الناصري » ، واستدعاه ، وقال له : « ما بيننا وبينكم الا الخير ، وما جئنا لنتبعكم ، فردوا علينا ما أخذتم لنا » . ففعل ذلك ، وسار

الملك الكامل الى الشرق ، ووصلت البغال الى حلب ، في تـاسع عشر شهر ربيع الاول .

وأما الملك الافضل ، فانه تـوجه مـن « رأس الماء » الى مصر ، وتوجه ثقل الملك الظاهر وخزانته معه الى مصر ، وخرج الملك العادل من دمشق ، وسار خلفه الى مصر ، فدخلها ، وهرب الملك الافضـل الى « صرخد » .

واستولى الملك العادل على الديار المصرية ، في صـورة الكافـل ، والمربي ، للملك المنصور محمد بن العـزيز ، وسـير خـزانة « الملك الظاهر » ، وبقية ثقله جميعـه إليه ؛ وخفر اصحابه حتى وصلوا الى حلب ، في نصف جمادى الاولى ، والسـلطان « بتـل السـلطان » ، فدخل الى حلب .

ووصلته رسل الملك العادل تطلب منه الموافقـة ، فلم يجبهـم الى ذلك ، وخرج الى « بكاس » و « حـارم » فمـرض . ودخـل حلب ، واشتد مرضه ، وطلب اليه الى القلعـة الزهـاد الذين كانوا بحلب ، مثل ابي الحسن الفاسي ، وعمي ابـي غانم ، وعبـد الرحمـن ابـن الاستاذ ، وسألهم الدعاء ، وتبرك بهم ، وازال مظالم كثيرة . ثم أبل من مرضه ذلك ، في ذي الحجة من سنة ست وتسعين .

وانفصل عنه صاحب حمص وصاحب حماه ، وصارا مـع عمـه الملك العادل ، وعوض صاحب حماة عز الدين بن المقـدم بمنبـج عن « بارين » ، باشارة الملك العادل . ومات ابن المقدم بأفامية ، وصار فيها أخ له صغير .

واستقل الملك العادل بملك مصر ، وقطع الخـطبة والسـكة للملك المنصور بن العزيز ، واختلف جندها ، فمنهـم مـن مـال الى تمليك الملك العادل ، وأقام في خدمته ، ومنهم من كان يريد ابـن العـزيز ، فانفصل منهم جهاركس ، والجحاف ، وغيرهما ، فانهم انفصـلوا عن مصر ، واتفقوا مع الملك الافضل .

فوصل الملك الافضل الى أخيه السلطان الملك الظاهر الى حلب ، في عاشر جمادي الأولى من سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، ووصل معه الجحاف ، واخبراه أن جهاركس « بالغور » ، مع العسكر ، واتفقوا على محاصرة دمشق .

وسير الملك الظاهر الى الموصل يطلب نجدة تصله ، وبرز مع أخيه الافضل ، وقصدا منبج ، ففتحها الملك الظاهر ، وقبض على ابن المقدم وحبسه ، وأقطعها الجحاف ، بعد أن خرب حصنها .

وكان ابن فاخر سعد الدين مسعود بقلعة نجم ، نائبا عن ابن المقدم ، واخته معه ، فسلمها الى « الملك الظاهر » ، وعوضه « بمائز » — قرية من بلد عزاز — وسلمها الملك الظاهر الى الافضل .

وسار الى أفامية ، ومعه ابن المقدم ، فعاقبه تحتها ليسلموا اليه ، فلم يسلموا ، فسيره ، وحبسه ، بحلب ، وأقام بكفر طاب ، واستولى على بلدها ، ونزل بمعرة النعمان ، ونهب بلدها ، وأخذ ما فيها لبيت المال ، وسار الى حماه ، ونزل عليها ، في شعبان ، وقاتلها الى ان صالحه الملك المنصور صاحبها ، ووزن له ثلاثين ألف دينار ، ووافقه .

وسار الى حمص ، فصالح الملك المجاهد صاحبها ، ووافقه ، وسار الى دمشق فنازلها ، واستدعى « جهاركس » و « قراجا » من الغور فدافعا عن الوصول ، فسار السلطان الملك الظاهر اليهما بنفسه ، ولاطفهما حتى رحلا معه ، بعد ان أعطى الملك الافضل قراجا « صرخد » ، وأخرج امه وعياله منها ، ونزلوا على دمشق وعزموا على قتالها ، ففند جهاركس عن ذلك ، وكان قد صار في الباقين مع الملك العادل ، وقال : « المصلحة أننا نلقى الملك العادل ، فاذا كسرناه تم لنا ما نريد » .

وكان الملك العادل قد نزل من مصر الى « الكرك » ، ثم توجه الى نابلس ، فلما راى جهاركس جد الملك الظاهر على حصار دمشق ، هرب من العسكر الى الملك العادل الى نابلس ، وهرب قراجا الى صرخد ، وعصى بها وتركا خيامهما على حالها وبركهما ، فأنهب السلطان الملك الظاهر ذلك جميعه ، ثم زحف بالعساكر على دمشق ، وقاتلوها قتالا شديدا ، وأحرقوا « العقيبة » ونهبوا الخانات .

وراسل الملك العادل صاحب الموصل ، فاتفق معه ، ورجع عن الملك الظاهر ، بعد ان وصل الى « رأس عين »(٢) .

وسار الملك « الفائز بن العادل » من البلاد الشرقية ، طالبا تشعيث بلاد السلطان الملك الظاهر ، وشغل خاطره عن حصار دمشق ، فسير الملك الظاهر « المبارز أقجا » ــ وكان من أكبر أمراء حلب ــ ومعه بعض العسكر ، فنزل على « بالس » ونهبها ، وسار الى « منبج » فنزلها ، فوصل الملك « الفائز » إليها ، فانهزم بمن كان معه من العسكر الى « بزاعا » ، ودخلها الفائز »وبنى قلعتها وحصنها ، وسار منها طالبا عسكر حلب الى « بزاعا » فاندفعوا بين يديه الى حلب ، وأقام على بزاعا اياما ، وجفل بلد حلب خوفا منه ، وهرب فلاحوه .

ورحل الى أبيه إلى نابلس ، فسير الملك العادل نجدة تدخل الى دمشق ، فبلغ حديثها الملك الظاهر ، وقد أحدقت العساكر بدمشق ، فكمن لهم كمينا ، فوقعوا عليهم ، وقتلوا منهم جمعا كثيرا ، وانهزم بعضهم ، ولم يدخل إلى المدينة الا القليل . ونكث صاحب حماة ، وخرج الى ناحية « الروج » ، وأغار عليه ، ونهب رستاق « شيزر » .

وسار عسكر حلب الى منبج ، فلم يجد فيها مطمعا ، واستدعاهم الملك الظافر ، فمضوا اليه الى دمشق ، وطال الحصار ، وضجر العسكر ، وهرب شقير ، والجحاف ، بعد استيلاء الفائز على منبج ، وكانت خبز الجحاف .

ووقع الخلف بين الملك الافضل والملك الظاهر على دمشق ، فالملك الظاهر يريدها لنفسه ، لانه أخرج الخزائن ، وبذل الأموال ، وحصرها بعسكره ، والملك الأفضل يريدها لنفسه لأنها بلده ، وانه أخرج « صرخد » من يده بسببها . وحصل بينهما منافرة أوجبت رحيل الملك الظاهر ، ومعه ميمون القصري ، وسرا سنقر ، وأيبك فطيس ، والبكي الفارس ، والقبيسي .

ورحل الملك الافضل فنزل حمص ، عند صاحبها الملك المجاهد ، وزوج ابنه « الملك المنصور إبراهيم » بابنة الملك الأفضل .

وسار الملك الظاهر الى حماة ، فأغار عليها ، وشعث بلدها ، وصانع صاحبها الملك المنصور ، على مال اخذه منه وسار الى منبج ، وعزم على ان يهجمها بالسيف ، ويقتل جميع من بها ، لانهم قاموا مع الملك « الفائز » فشفع اليه الأمراء في ان يسلموها طائعين ، ويعفو عنهم ، فتسلمها ، وأقطعها ابن المشطوب ، في المحرم من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

ثم دخل الى حلب ، واقطع ميمون القصري عزاز ، وشيح ، وبلد الحوار ، واقطع ايبك فطيس اقطاعا أرضاه ، وعاد عنه سرا سنقر ، وتسلم السلطان أفامية من ابن المقدم وعوضه عنها « بالراوندان » .

وتوفي وزير السلطان الملك الظاهر « جمال الدين أبو غالب عبد الواحد بن الحصين البغدادي » في شعبان سنة سبع وتسعين ، وكان في خدمة أبيه الملك الناصر ، فانتقل بعد موته الى حلب ، ووزر له ، وصار وزيره بعده نظام الدين ابو المؤيد محمد بن الحسين .

ووصل الملك العادل الى دمشق ، فتوجه اليه الملك المجاهد صاحب حمص ، ومعه الملك الافضل ، وترفق اليه ، فأعطى الملك الافضل « شختان » و « جملين » و « المورزر » و« قلعة السن » و« سميساط » وسار اليها الملك الافضل ، ونزل الملك العادل الى حماة ، وراسل الملك الظاهر ، حتى استقر الصلح بينه وبينه ، على

أن خطب له الملك الظاهر بحلب ، وضرب السكة باسمه مع اسمه ، في شهر جمادى الآخرة ، من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

وصعد الرسول شمس الدين بن التنبي الى المنبر ، وقت اقامة الدعوة له ، يوم الجمعة ، وذشر ذهبا كثيرا على الناس . وبلغ الملك الظاهر ، عن ابن المشطوب ، أنه كان قد عزم على المخامرة ، فسير الى « منبج » العسكر ، وأخذها منه ، وعفا عنه ، وهدم قلعتها وسورها ، فمضى ابن المشطوب الى الشرق .

وجمع الملك الظاهر العرب في دابق ، لأخذ العداد منهم ، وخاف ابن المقدم منه ، فهرب الى « الراوندان » ، ليعصي بها ، فسار الملك الظاهر خلفه ، ولم يمهله ، فلم يبت في قلعتها غير ليلة واحدة ، ومضى الى « بدر الدين دلدرم » ، بتل باشر ، منهزما من السلطان . فوصل السلطان اليها ، ونزل عليها محاصرا لها ، فسلمها من كان بها اليه ، وحاز جميع ما كان فيها من الذخائر والاموال ، ورتب امورها .

وسار منها الى منبج ، وسير نجدة للملك الكامل ابن عمه العادل ، وكان نازلا على « ماردين » ، لأن صاحبها صار مع ركن الدين بن قلج رسلان ، ونزل السلطان في « بدايا » ، واتفق الامر بينه وبين [صاحب] « ماردين » وابن الملك على الصلح ، فعاد الى حلب بعد ان توجه الى « البيرة » .

وخرج من البحر جمع كبير من الفرنج ، في سنة تسع وتسعين وخمسمائة . ووصلت طائفة منهم الى جهة « انطاكية » ، مجتازة على اللاذقية في البر ، وكان مقطع اللاذقية اذ ذاك ، سيف الدين بن علم الدين ، وعبروا في ارض اللاذقية ، على كره من المسلمين ، وفي عزمهم إن رأوا لهم طمعا في اللاذقية يأخذوها .

فخرج سيف الدين بعسكره ، والتقوا ، ونصره الله عليهم ،

واسر ملوكهم ومقدميهم - وكان ملكهم أعور - وقتل منهــم جمعــا كثيرا ، ووصل الاسرى ، والرؤوس ، والخيل ، والاسلاح ، الى حلب وكانت غنيمة عظيمة .

وعصى الملك الافضل على عمه الملك العادل ، في البــلاد التــي كان اعطاه إياها ، فسير ، واستعاد منه شبختان ، وجملين ، والموزر ، وسروج ، والسن ، وسار الملك الظاهر الى « قلعة نجم » ، فأخذها من الملك الافضل خــوفا أن يســتولي عليهــا عمـــه ، وكان « الملك الظاهر » قد سلمها الى الأفضــل ، فــوصلت أم الملك الافضـــل الى حلب ، تسأل الملك الظاهر ، سؤال عمه فيه ، وفي رد البلاد عليه ، فسير معها الى دمشق « سيف الدين بن علم الدين » في ذلك فلم يجب الى ترك شيء من البلاد عليه ، سوى « سميساط » . وشرط عليه أن لاتكون له حركة بعد ذلك .

ودخلت سنة ستمائة

ووصلت الاخبار بحركة الفرنج الى « جبلة » و « اللاذقية » ، فسير السلطان اليها العساكر ، وأمرهم بخراب « جبلة » و « اللاذقية » فلم يكن للفرنج حركة ، وخربت قلعة « اللاذقية » و « العتيقة » ، ـ وكانت من جهة الشمال ـ وذلك بعد ان اخذت اللاذقية من ابن جندر ـ سيف الدين بن علم الدين .

وولد للسلطان « الملك الظاهر » ولده ، الملك « الصالح احمد » في صفر ، وسر به سرورا عظيما ، وزين البلد والقلعة ، ولبس العسكر في أجمل هيئة وزي . ولبس السلطان ، ولعب العسكر معه في ميدان « باب الصغير » .

وفي محرم سنة احدى وستمائة ، هجم ملك الارمن « ابن لاون » ـ وهو من ولد « بردس الفقاس » ، الذي كان في زمن سيف الدولة [صاحب] انطاكية ـ فسير الملك الظاهر عسكرا من حلب ، لنجدة البرنس صاحبها ، فلما وصلوا الى « العاصي » ، ضعف أمر ابن « لاون » عندهم ، وقاموا عليه ، واخرجوه منها ، وقتلوا جماعة كبيرة من أصحابه ، فعاد عسكر حلب اليها ، ففسخ « ابن لاون » الهدنة ، وأغار على بلد العمق ،واستاق مواشيها وشرع في عمارة حصن داثر في الجبل ، بالقرب من « دربساك » ، ليضيق به عليها .

وارسل الى السلطان ، وسأله أن يخلي بينه وبين « انطاكية » . وأن يعيد جميع ما اخذه من « العمق » فأجابه الى ذلك ، وهادنه على هذا الامر . ونزل على « انطاكية » ، وخرب رستاقها ، ووقع فيها غلاء عظيم ، فكان الملك الظاهر يمد أهل « انطاكية » بالغلال ، حتى قويت .

ودخلت سنة اثنتين وستمائة

فجرد « ابــن لاون » في جمــادى الاولى ، في الليل ، عســكرا في ليلة الميلاد ، وجاء على غفلة الى ربض « دربساك » ، فلم يذكروا وقــود النار في ليلة الميلاد ، فقاتلهم أهل الربض ومن بــه مــن الأجناد ، في بيوت الربض ، فلم يظفروا منهم بطائل ، وطلع الفجر ، فانتشروا في ارض « العمق » ، ونهبوا من كان فيه من التــركمان ، ودامــوا الى ضحوة ذلك النهار ، ورجعوا .

وابتدرت عساكر تلك الناحية من المسلمين فلم يدركوهم ، ودخــل الارمن الى « جبــل اللكام » ، فجــاءهم في الليل ثلج عظيم ، وهلك معهم من الخيل والمواشي ، فــكانوا يســلخون الشــاء ويلبســـون جلودها ، اشدة البرد ، فسير الملك الظاهر عسكرا من عســكر حلب يقدمه « ميمون القصري » ، ومعــه « أيبك فــطيس » ، فنزلوا على « حارم » ، وقطعة من العسكر مع ابن طمان « بدربساك » ، وسيف الدين بن علم الدين نازل بعسكره على « تيزين » — وكانت جارية في اقطاعه — وفي اكثــر الايام تجــري وقعــات بين العســكر المقيم « بدربساك » ، وبين عسكر ابن لاون « ببغراس » .

وخرج السلطان الى « مرج دابق » ، في شعبان من هذه الســنة ، للدخول الى بلد « لاون » ، وجمع العساكر ، وسير اليه عمه « الملك العادل » ، وغيره من ملوك الاسلام النجد ، فأقام « بدابق » الى ان انسلخ شهر الصيام .

فسار «ابن لاون» من «التينات» ، جــاء على غير طــريق اليزك في الليل ، فأصبح في « العمــق» غائرا على غرة مــن العســكر ، وكبس العسكر الذي كان مع ميمــون ، حتــى حصــلوا معهــم في الخيام ، وقابلوهم على غير أهبة فقاتلهم المسلمون ، فقتل منهم جماعة ، ولم يلبث إلا قليلا ، عاد وساق سيف الدين مــن « تيزين» ، فــوجده قــد رجع .

وبلغ الخبر إلى السلطان ، وهو « بدابق» ، فسار بالجيوش التي معه فنزل « بالعمق» ، واجتمع من العساكر والتركمان مالايحد كثرة ، فسير «ابن لاون» يبذل الطاعة ، وأن يهدم الحصن الذي بناه بقرب «دربساك» .

فأعرض عنه ، ورد فلاحي« العمق» ، وعمر ضياعه ، وكمل استغلال ذلك البلد ، والرسل تتردد في اصلاح الحال ، إلى أن استقرت القاعدة : على أن يهدم «لاون »الحصن الذي بناه ، ويرد جميع ماأخذ في الغارة ، ويرد جميع أسارى المسلمين الذين في يده ، وأن لايعرض « لانطاكية» . وقرر الصلح الى ثماني سنين ، وخرب الحصن ، ورد ما استقر الأمر عليه .

ودخل السلطان حلب ، في سنة ثلاث وستمائة ، وامر جماعة من مماليكه واصحابه . وعاث الفرنج على بلد « حماة » ، في سنة خمس وستمائة ، فسير الملك الظاهر من حلب ، نجدة من عسكره .

ونزل الملك العادل على « قدس » ، وغارت خيله على طرابلس ، وخربوا حصونها ، وشتى « بحماة » الى ان انقضى فصل الربيع .

وعاد الى دمشق ، وعاد ابنه « الاشرف » ، الى بلاده ، من خدمة ابيه ، فعبر في حلب ، فالتقاه الملك « الظاهر » ، واحتفل به ، وانزله في داره بقلعة حلب ، وقدم له تحفا جليلة من السلاح ، والخيل ، والذهب ، والجوهر ، والمماليك ،والجواري ، والثياب ، بما قيمته خمسون ألف دينار ، وودعه بعد سبعة أيام الى قراحصار ، وعاد الى حلب .

وقصد كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد « ابن لاون » ، وطلب نجدة من السلطان الملك الظاهر ، فأرسل إليه عسكرا مقدمه سيف الدين ابن علم الدين ، وفي صحبته ايبك فطيس ، فاجتمعوا بمرعش ،ونزلوا على برتوس (٣) في سنة خمس وستمائة ، فافتتحوها ، وافتتحوا حصونا عدة من بلد ابن لاون .

فراسل « لاون » الملك العادل ، والتجأ اليه ، فأرسل الملك العادل الى كيخسرو وإلى الملك الظاهر ، فابتدر كيخسرو ، وصالح « ابن لاون » على ان يرد حصن « بغراس » إلى « الداوية » ، وأن لايعرض لأنطاكية ، وأن يرد ماله الذي تركه عنده ، في حياة أخيه ركن الدين .

وكان قد خاف من أخيه ، فقدم حلب ، وأقام عند الملك الظاهر مدة ، وخاف الملك الظاهر من أخيه ركن الدين ، وأن يتغير قلبه عليه بسببه ، وأنه ربما يطلبه منه ، فلا يمكنه تسليمه إليه ، فأعرض عنه . فدخل إلى « ابن لاون» ، ثم خاف منه ، الهدنة . ودفع إليه جميع الأسرى من المسلمين ، الذين كانوا في بلاده ، وأن لايعرض لبلاد السلطان الملك الظاهر . ووصلت نجدة حلب إلى حلب .

وخرج العادل من دمشق ، في سنة ست وستمائة ، وطلب من الملك الظاهر نجدة ، تكون معه إلى الشرق ، ليمضي الى خلاط ، لدفع « الكرج » عنها ، فسير إليه نجدة ، وعبر « الفرات » .

فلما وصل الى « رأس عين » ، رحل « الكرج » عن خلاط ، ووصل اليه صاحب « آمد » ، فسار في العسكر الى « سنجار » ، واقطع بلد الخابور ، ونصيبين .

ونزل على « سنجار » محاصرا لها ،وشفع اليه مظفر الدين بن زين الدين ، في صاحب سنجار ، فلم يقبل شفاعته . وقال : « لايجوز لي في الشرع ، تمكين هؤلاء من أخذ أموال بيت المال في الفساد ، وترك خدمة الأجناد ، في مصلحة الجهاد » ، وضايق سنجار ، وقاتلها في شهر جمادى الآخرة .

وقام نور الدين بن عز الدين ـ صاحب الموصل ـ في نصرة ابن عمه صاحبها ، واتفق مع « مظفر الدين » ، وتحالفا ، وافسدا جماعة من عسكر « الملك العادل » ، وراسلا « الملك الظاهر » ، على ان يجعلاه السلطان ، ويخطبوا له ، ويضربوا السكة باسمه .

وجعل « الملك الظاهر » يداري الجهتين ، والرسل تتواتر اليه من البلدان ، وهو في الظاهر في طاعة عمه ، وعسكره معه ، وفي الباطن في النظر في حفظ سنجار ، ومداخلة المواصلة ، وهو يظهر لعمه أنه متمسك بيمينه له ، الى ان ارسل أخاه « الملك المؤيد » ، ووزيره « نظام الدين الكاتب » الى عمه ، معلما له أن رسول الموصل ، ومظفر الدين ، وصلا يطلبان منه الشفاعة اليه ، في اطلاق سنجار ، وتقرير الأمر على حالة يراها .

وتوسط الحال عند قدومه ، على ان شفع فيهم الملك الظاهر ، واطلق لهم « سنجار » ، واستنزلهم عن « الخابور » و« نصيبين » .

وعاد « الملك المؤيد » ، من حضرة عمه بالبر الوافر ، فلما وصل « رأس عين » ، دخل إليها في ليلة باردة كثيرة الثلج . فنزل في دار فيها منزل مجصص ، فستر بابه ، وسد ما فيه من المنافس ، واوقد فيه نار في منقل ، وعنده ثلاثة من أصحابه ، فاختنق ، وواحد من أصحابه ، وحمل الى « حلب » ميتا في شعبان ، من سنة ست وستمائة ، وجرى على الملك الظاهر منه ما لايوصف من الحزن والاسف .

ووصل الملك العادل الى « حران » ، وخافه صاحب الموصل والجزيرة ، فراسل الملك الظاهر ، وطلب منه أن يخلي بينه وبين ملوك الشرق ، وأن يحتكم في مايطلبه منه ، وراسله صاحب الموصل وصاحب اربل ، وصاحب الجزيرة ، يعتضدون به وهولا يؤيسهم ، فخرج السلطان الى « حيلان » بعسكره ، ثم رحل الى «السموقة» وراسل عمه في مهادنتهم ، وتطييب قلوبهم ، وهو مخيم على « السموقة » على نهر قويق ـ وطلب منه أن تكون كلمة المسلمين كلهم متفقة .

وكذلك تدخل في الصلح ملك الروم ، وأن يقصدوا الفرنج

بجملتهم ، فان الفرنج في نية التحرك ، وخامر جماعة من عسكر الملك العادل ، ووصل ابن كهدان الى السلطان الملك الظاهر ، فأكرمه ، فتخاذل عسكر الملك العادل ، فاتفق الحال بينهم على الصلح ، ودخول ملوك الاسلام فيه .

وتمت المصاهرة بين « الملك العادل » و « الملك الظاهر » ، على ابنته الخاتون الجليلة « ضيفة خاتون » ـ بنت الملك العادل ـ وشرع السلطان في عمل « قناة حلب » وفرقها على الأمراء والخواص . وحرر عيونها وكاس طريقها جميعه ، حتى كثر الماء بحلب . وقسم الماء في جميع محال حلب . وابتنى القساطل في المحال . ووقف عليها وقفا لاصلاحها ، وذلك في سنة سبع وستمائة .

وتوفي وزير السلطان الملك الظاهر « نظام الدين محمد بن الحسين » بحلب ، بعلة الدوسنطاريا ، في صفر سنة سبع وستمائة .

وكان ـ رحمه الله ـ وزيرا صالحا ، مشفقا ناصحا ، واسطة خير عند السلطان ، لايشير عليه إلا بما فيه مصلحة رعيته ، والاحسان اليهم . وقام بعده بكتابة الانشاء والاسرار « شرف الدين أبو منصور ابن الحصين » ، و « شمس الدين بن ابي يعلى » كان مستوفي الدواوين . فلما مات ابو منصور بن الحصين استقل بالوزارة ، وأضيف اليه ديوان الانشاء مع الاستيفاء .

وعمر السلطان باب قلعة حلب ، والدكاره ، واوسع خندقها وعمل « البغلة » من الحجارة الهرقلية ، وعمق الخندق ، الى أن نبع الماء في سنة ثمان وستمائة .

وخرجت من مصر ، في هذه السنة ، الملكة الخاتون ، « ضيفة خاتون » بنت الملك العادل الى حلب ، مع « شمس الدين بن التنبي » . والتقاها الملك الظاهر بالقاضي بهاء الدين من دمشق ، ثم

بالعساكر الحلبية بعد ذلك « بتل السلطان » ، واحتفل في اللقاء . وبالغ في العطاء ، ووصلت الى حلب في النصف من المحرم ، من سنة تسع وستمائة .

وملك ابن التنبي قرية من قرى حلب ، من ضياع « الأرتيق »(٤) يقال لها تلع ، وأعطاه عطاء وافرا ، وحظيت عنده حظوة ، لم يسمع بمثلها .

ووقعت النار في مقام ابراهيم ـ عليه السلام ـ وهو الذي فيه المنبر ، ليلة الميلاد ، وكان فيه من الخيم والالات والسلاح ما لا يوصف ، فاحترق الجميع ، ولم يسلم غير الجرن الذي فيه رأس يحيى بن زكريا ـ عليه السلام ـ واحترقت السقوف والابواب ، فجدده السلطان الملك الظاهر ، في اقرب مدة أحسن مما كان .

وتوفي شرف الدين عبد الله بن الحصين كاتب السلطان ، واستقل شمس الدين عبد الباقي بن ابي يعلى بالوزارة ، في سنة تسع وستمائة .

وشرع الملك الظاهر في هدم « باب اليهود » وحفر خندقه وتوسعته ، وبناه بناء حسنا ، وغيره عن صورته التي كان عليها ، وبنى عليه برجين عظيمين ، وسماه « باب النصر » . وأتم بناءه ، في سنة عشر وستمائة .

وولد للسلطان الملك الظاهر ولده الملك العزيز ، من ابنة عمه الخاتون « ضيفة خاتون » ، في يوم الخميس خامس ذي الحجة من سنة عشر وستمائة ، فضربت البشائر ، وزينت مدينة حلب ، وعقدت القباب .

وفي اليوم السابع عشر ، من ميلاده ، ختن السلطان أخاه الملك الصالح ، واحتفل بختانه ، ونصب الزورق ، من قلعة حلب إلى المدينة ، ونزل فيه الرجال ، وعملوا من الآلات والتماثيل التي

ركبوها ، حالة النزول اذواعا ، وطهر أولاد الاكابر من أهل المدينة ، وشرفهم ، وخلع عليهم .

ودخلت سنة احدى عشرة وستمائة

فجدد السلطان الملك الظاهر « باشورة » حلب ، من «باب الجنان » الى « برج الثعابين » ، وبنى لها سورا قويا ظاهرا عن السور العتيق ، فيه ابرجة كالقلاع ، وعزم على ان يفتتح بالقرب من « برج الثعابين » بابا للمدينة ، ويسميه « باب الفراديس » ، وكان يباشر الاشراف على العمارة بنفسه .

وامر في هذه السنة بتجديد ربض الظاهرية ، خارج « باب قنسرين » ، فيما بينه وبين النهر ، فنسب إليه ، لذلك ، وخربت « الياروقية » ، وانتقل معظم اهلها إليه .

ووثب الاسماعيلية على ابن الابرنس ، « بكنيسة انطرسوس » ، فقتلوه ، فجمع البرنس جموع الفرنج ، ونزل على حصونهم ، وقتل وسبى ، وحصر « حصن الخوابي » فكتبوا الى السلطان ، يستغيثون به ، ويستنجدونه ، فاستخدم السلطان مائتي راجل . وسير جماعة من عسكر حلب ، يحفظونه ، ليدخلوا الى « حصن الخوابي » ، ويمنعوا الفرنج من الاستيلاء عليه .

وجرد عسكرا من حلب ، مع سيف الدين بن علم الدين ليشغل الفرنج من جهة « اللاذقية » ليتمكن الرجالة من الدخول الى الحصن ، فلما سمع الفرنج بذلك ، كمنوا كمينا للرجالة والخيالة ، الذين يحفظونهم ، فأسروا الرجالة ، وقتلوهم ، وقبضوا ثلاثين من الخيالة ، وذلك في حادي عشر شهر رجب .

فعند ذلك خرج الملك المعظم بن العادل ، من دمشق ، بعسكره ، ودخل غائرا في بلد « طرابلس ، فلم يترك في بلدها قرية الا نهبها ، وخربها ، واستاق الغنائم والاسرى ، فرحلوا عن « الخوابي » ، وأطلقوا الاسرى الذين اسروهم من أصحاب السلطان الملك

الظاهر ، وراسلوه ، معتذرين ، متلطفين ، وافترقوا عن غير زبدة حصلت لهم .

وتمت الباشورة ، والباب والابدرجة ، في سنة اثنتي عشر وستمائة . ولم يتم فتح الباب . وسده طغرل الأتابك ، لما مات الملك الظاهر ، الى أن فتحه السلطان الملك الناصر – أعز الله نصره – على ما نذكره ، في سنة اثنتين واربعين وستمائة .

ودخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

ووقعت المراسلة بين السلطان الملك الظاهر ، وبين السلطان « كيكاوس بن كيخسرو » ، واتفقا على أن يمضي السلطان الى خدمته ، ويتفق معه خوفا من عمه ، فأجابه « كيكاوس » الى ذلك ، وخرج بنفسه الى أطراف البلاد .

وندم السلطان على ما كان منه ورأى ان حفظ بيته أولى ، وأن اتفاقه مع عمه أجمل ، فسير القاضي بهاء الدين ـ قاضي حلب ـ الى عمه الى مصر برسالة ، تتضمن الموافقة : أنه قد جعل ابنه الملك العزيز محمدا ، ابن ابنة الملك العادل ، ولي عهده . وطلب من الملك العادل أن يحلف له على ذلك .

فسار الى مصر فرتب السلطان خيل البريد ، تطالعه بما يتجدد من أخبار عمه ، لينظر في أمره ، فان وقع منه ما يستشعر منه ، خرج بنفسه الى « كيكاوس » ، وهو مع هذا كله في همة تجهيز الجيوش ، والاستعداد للخروج الى « كيكاوس » ، والاجتماع معه على قصد بلد ابن « لاون » أولا ، وكان « ابن لاون » قد ملك أنطاكية ، وضاق ذرع السلطان بمجاورته ، ولعلمه بانتمائه الى عمه .

فوصلت الاخبار من « القاضي » من مصر ، ان الملك العادل أجاب الملك الظاهر إلى كل ما اقترحه ، وسارع الى تحصيل أغراضه ، ولم يتوقف في أمر من الامور .

وجعل كيكاوس يحث السلطان على الخروج ، ويذكر أنه ينتظره ، ونشب السلطان به وضاق صدره ، وبقي مفكرا في أن عمه قد وافقه ، ولايرى الرجوع عنه الى ملك الروم ، فيفسد ما بينه وبين عمه ، ويغض من قدره بالخروج اليه ، ويفكر في حاله مع ملك الروم ، وفي كونه وعده

بالخروج اليـــه والاجتماع به اذا خـرج ، وأنه إن رجـع عن ذلك فسد ما بينه وبين ملك الروم ، والعسكر قد برز ، وهو مهتـم في ذلك الامر . وطلب الاعتذار الى ملك الروم بوجه يجمل ، فالشدة فـكره ، وضيق صدره ، هجم عليه مرض حاد في جمـادى الآخـرة في سـنة ثلاث عشرة وستمائة . واعتـرته أمـراض شـتى ومـا شيرا (٥) واشتد به الحال ، وجمع مقدمي البلد وامـراءه ، واسـتحلفهم لابنه الملك العزيز محمد ، ثم من بعده لابنه الملك الصالح احمد ، ثـم مـن بعده لابن أخيه ، وزوج ابنته : الملك المنصور محمد بن الملك العزيز . وجعل الامير سيف الدين بن علم الدين مقدم العسكر ؛ وشهاب الدين طغرل الخادم والي القلعـة ، ومتـولي الخـزانة ، وتـربية أولاده ، والنظر في مصالح الدار والنساء .

وانزل « بدر الدين ايدمر » والي قلعة حلب منها ، واقـطعه زيادة على ما كان في يده من الاقطاع « قلعة نجم » ، بذخائرها وعددهـا ، و « زردنا » ، مع تسع ضياع أخر من أمهات الضياع . وحلف إخوة السلطان على ذلك .

واستشعر السلطان مـن أخيه الملك الظـافر « خضر » ـ وكان مقيما « بالباروقية » ـ فأقطعه « كفرسود » ، وتقدم اليه بـالتوجه اليها ، فسار اليها ، فسبقه الملك « الزاهر » ، فـاستولى عليهـا ، وعلى « البيرة » و « حروص » و « المرزبان » و « نهر الجـوز » و « الكرزين » و « العمق » .

ومات الســلطان الملك الظــاهر ـ رحمـه الله ـ بقلعـــة حلب ، في الخامس والعشرين ، من جمادى الآخـرة مـن سـنة ثـلاث عشرة وستمائة ، وكتم خبر موته ذلك اليوم ، حتى دفن في الحجـرة ، الى جانب الدار الكبير ، التي انشأها بقلعة حلب .

ثم أركب في اليوم الثاني مـن مـوته ولداه: الملك العـزيز ، والملك الصالح ، وانزلا بالثياب السود الى أسفل جسر القلعـة ، وصـعد اكابر البلد اليهما .

وأصيب أهل حلب بمصيبة فتت في أعضادهم ، وكان له ــ رحمه الله ــ في كل دار بها مأتم وعزاء ، وفي كل قلية(٦) نكبة وبلاء :

والناس مأتمهم عليه واحد   في كل دار أنة وزفير .

ووصل « القاضي بهاء الدين » من الرسالة ، في اليوم الثالث ، والوزير ابن ابي يعلى ، قد استولى على التدبير ، وحكم على الصغير والكبير ، فصعد الى القلعة ، واجتمع « بشهاب الدين طغرل » ، وصرفه عن اضافة الامور الى الوزير .

وقرر أن الامراء يجتمعون ، ويتشاورون فيما يدبرونه ، وأن لايخرج الامر عن رأي « شهاب الدين » أيضا ، فاجتمعوا « بدار العدل » ، واتفقت آراؤهم على أن يكون « الملك المنصور بن العزيز » ، أتابك العسكر ، وأمر الاقطاع اليه ، وامر المناصب الدينية يكون راجعا الى « شهاب الدين طغرل » ؛ وحلفوه على ذلك ، وركب ، والأمراء كلهم في خدمته .

ونزل الملك العزيز ، والملك الصالح ، وجلسا في دار العدل ، والملك العزيز في منصب ابيه ، واخوه الى جانبه ، والملك المنصور ، الى جانبهما ثم اضطربت الحال ، ولم يرض إخوة « الملك الظاهر » ، بولاية المنصور .

ووصل في اثناء ذلك رسول الملك الرومي كيكاوس ــ وكان مخيما بالقرب من البلاد ينتظر وصول السلطان « الملك الظاهر » اليه ــ فسير رسولا معزيا ، ومشيرا بالموافقة معه ، وأن يكون « الملك الافضل » أتابك العسكر ، فإنه عم الملك العزيز ، وهو أولى بتربيته وحفظ ملكه .

ومال الامراء المصريون مثل : « مبارز الدين يوسف بن خطلخ » ، و « مبارز الدين سنقر الحلبي » ، و « ابن أبي ذكرى الكردي » ، وغيرهم ، الى هذا الرأي ، وقالوا : « إن هذا ملك

كبير ، ولا ينتظم حفظ الملك الا به ، واذا صار أمر حلب راجعا اليه كان قادرا على أخذ ثأره من عمه ، وأخذ الملك به » .

ورأى القاضي « بهاء الدين » ، وسيف الدين بن علم الدين ، وسيف الدين بن قلج ، وغيرهما ، غير ذلك ، وقالوا : « إن هذا اذا فعل ، كان الملك العزيز على خطر من الجانبين ، لأن الملك العادل ملك عظيم ، وصاحب الديار المصرية ، فاذا قبلنا ذلك خرج من أيدينا ، فان كانت الغلبة له انتزع الملك من أيدينا وإن كانت عليه فلا نأمن ان الملك الافضل ، يتغلب على ابن اخيه وينتزع الملك منه ، ويستقل به ، كما فعل الملك العادل بابن العزيز ، والملك العادل قد حلف للملك الظاهر ، ولابنه الملك العزيز من بعده ، وهو ابن ابنته ، وابنته بقلعة حلب ونحن نطالبه بالوفاء بالعهد ، وهو يذب عن حلب كما يذب عن غيرها من ممالكه ، وأمور الخزائن هي راجعة الى شهاب الدين طغرل ، وهو متولي القلعة ، والرأي أن يقع الاتفاق عليه ، فان المال عنده بالقلعة ، وهو فيها ينتصف ممن خالفه ، وقد وقع اعتماد الملك الظاهر عليه » .

فاتفق رأيهم كلهم عليه ، وعملت نسخة يمين ، حلف بها جماعة الأمراء والمقدمين من أهل البلد ، على الموالاة ، والطاعة للملك العزيز ، ثم من بعده لأخيه الملك الصالح ، وعلى الموالاة لاتابكه « شهاب الدين طغرل » وانقاد الجميع له طائعين ومكرهين .

وأبعد الوزير ابن ابي يعلى ، وصرف ، واستقر الامر على ذلك ، في أواخر شعبان ، من السنة .

وسار ابن ابي يعلى عن حلب ، في شهر رمضان من السنة واستقل طغرل بترتيب البلاد والقلاع وتفريق الاموال والاقطاع ، ولا يخرج في ذلك كله ، عن رأي القاضي بهاء الدين ، وسيف الدين بن علم الدين ، وسيف الدين بن قلج .

واقطع علم الدين قيصر « دربساك » ، وابن أمير التركمان ، « اللاذقية » ، وسير علم الدين الى الملك الزاهر ، اولا ، يعاتبه على استيلائه على البلاد ، فاعتقله ، وقال : « أنا احق بذلك ، فانني كنت ولي العهد لأخي ، وقد حلف لي الناس » . وطمع بملك حلب ، ثم انقاد الى الطاعة والخطبة ، وشرط أن تبقى البلاد ، التي استولى عليها بيده ، فأجيب الى ذلك .

ولما استقر أمر الاتابكية لشهاب الدين طغرل ، كره ذلك جماعة من المماليك الظاهرية ، فعمد « عز الدين ايبك الجمدار » الظاهري ، واستضاف اليه جماعة من المماليك الظاهرية ، والأجناد . وكاتب « الاسد اقطغان » - وكان والي حارم - واتفق معه على أن يأتي إليه ، الى « حارم » بالجماعة الذين وافقهم ، ويفتح له القلعة فاذا حصلوا بها انضم اليهم جماعة غيرهم ، وكان لهم شأن حينئذ .

وكان العسكر المقيم « بحارم » قد أصعد الى القلعة ، ورتب بها ، وفيهم « المبارز أيوب بن المبارز أقجا » ، فأحسوا باختلال أمر « الأسد » الوالي ، وانكروا عليه اشياء فاستيقظوا لانفسهم ، واتفقوا على حفظ القلعة ، والاحتياط عليها .

وسار ايبك الجمدار الى حارم ، ووقف تحت القلعة ، ورام الصعود اليها ، فمنعه الاجناد والأمراء ، الذين في القلعة من ذلك ، ولم يمكنوا الوالي من التحرك فيها بحركة ، واحتاطوا عليه فسار ايبك الى « دربساك » ، وطمع أن يتم له فيها حيلة أيضا ، فلم يستتب له ذلك ، وعصى « الطنبغا » بقلعة بهسنى ، وانضاف الى ملك الروم « كيكاوس » . وانتظم الأمر بعد ذلك ، وسكنت الفتنة ، في أواخر شوال من السنة .

ونزل « الملك العادل » من مصر الى الشام ، وارسل الى « اتابك » بما يطيب نفسه ، وسير خلعة للملك العزيز ، وسنجقا ، وحلف له على ما أوجب السكون والثقة .

- ٧٣٣٠ -

واتفق خروج الفـرنج مـن البحـر ، وتجمعـوا في أرض عكا ، واغـاروا على « الغور » ، واندفـع « الملك العـادل » بين ايديهـم الى « عجلون » ، ثم الى « حوران » ، ثم نازل الفرنج « الطور » ، وزحفوا عليه ، فكانت النصرة للمسلمين ، وقتل منهم جمـع كثير ، وانهزموا عنها ، وهدمها الملك العادل .

وسار الفرنج الى « دمياط » ، ونزلوا عليهـا ، وبينهـا وبينهـم « النيل » والملك « الكامل » في مقابلتهم ، واستدعى الملك « العادل » ابنه « الملك الاشرف » ، فسار في عسـكره الى « حمص » ، ودخـل بلاد الفـرنج ، ليشـغلهم عن محـاصرة « دمياط » فـدخل الى « صافيتا » ، فخربوا ربضها ، ونهبوا رستاقها ، وهدموا ما حولها من الحصـون ، ودخلوا الى ربض « حصـن الاكراد » ، فنهبـوه ، وحاصروا القلعة ، حتى أشرفت على الاخذ ، والملك العـادل مقيم في « عالقين » .

ودخلت سنة خمس عشرة وستمائة

وتحرك ملك الروم « كيكاوس » ، ومعه « الملك الافضل » ، طالبا أن يملك حلب ، ويطمع « الافضل » أن يأخذها له ، ليرغب الامراء في تمليكه عليهم ، وكاتب جماعة من الأمراء ، وكتب لهم التواقيع ، ومن جملة من كاتبه « علم الدين قيصر » . وكتب له توقيعا « بأبلستان » . واغتنما شغل قلب « الملك العادل » بالفرنج ، ووافقهما الملك الصالح - صاحب آمد - وكان « كيكاوس » ، يريد الملك لنفسه ، ويجعل « الافضل » ذريعة للتوصل اليه ، وكاتبه أمراء حلب الذين كانوا يميلون الى « الافضل » . فجمع العساكر ، واحتشد ، واستصحب المناجيق ، وسار في شهر ربيع الاول ، فنزل رعبان وحصرها ، وفتحها .

فسير « الاتابك شهاب الدين » « زين الدين ابن الاستاذ » رسولا الى « الملك العادل » ، يستصرخه على « الرومي » ، و « الافضل » . فكتب الى ولده « الملك الاشرف » ، يأمره بالرحيل الى انجاد حلب بالعساكر ، وسير اليه خزانة ، وجعل « الملك المجاهد » - صاحب حمص - في مقابلة الفرنج .

وسار « الملك الاشرف » ، حتى نزل حلب « بالميدان الاخضر » ، وخرج الأمراء الى خدمته واستحلفهم ، وخلع عليهم ، وأتاه « مانع » أمير العرب بجموعه المتوافرة ، وعاث العرب في بلد حلب ، و « الملك الاشرف » يداريهم لحاجته اليهم .

وسار علم الدين قيصر الى ملك الروم من « دربساك » وجاهر بالعصيان ، ونزل « نجم الدين الطنبغا » اليه من « بهسنى » .

وتسلم الرومي « المرزبان » ، وسار الى « تل باشر » وهي في يد ولد « بدر الدين دلدرم » ، فنازلها ، وحصرها ، وفتحها . ولم يعط الملك الافضل شيئا من البلاد التي افتتحها فتحقق « الملك الافضل » فساد

نيته ، وسار الى منبج ، ففتحها بتسلم اهلها ، وكان قد صار في جملته رجل يقال له « الصارم المنبجي » ، وله اتباع بمنبج فتولى له أمر « منبج » وشرع في ترميم سورها ، واصلاحه .

وسار « الملك الاشرف » نحوه من حلب الى « وادي بزاعا » على عزم لقائه ، وجماعة من الامراء المخامرين في صحبته ، فنزل في وادي بزاعا ، وسير « الرومي » ألف فارس ، هم نخبة عسكره ومقدمهم « سوباشي سيواس » ، فوصلوا الى « تل قباسين » فوقع عليهم العرب واحتووا عليهم ، وعلى سوادهم .

وركب « الملك الاشرف » ، فوصل اليهم ، وقد استباحوهم قتلا واسرا ، وسيروا الاسرى الى حلب ، ودخلوا بهم والبشائر تضرب بين ايديهم ، واودعوا السجن .

ولما سمع « كيكاوس » ذلك ، سار عن منبج هاربا ، ورحل « الملك الأشرف » من منزلته ، واتبعه يتخطف أطراف عسكره ، حتى وصل الى « تل باشر » ، فنزل عليها ، وحاصرها حتى افتتحها ، وسلمها الى ذواب الملك العزيز ، وقال : « هذه كانت ، اولا ، للملك الظاهر – رحمه الله – وكان يؤثر ارتجاعها اليه ، وأنا اردها الى ولده » . وذلك في جمادى الاولى ، من سنة خمس عشرة وستمائة . ثم انه ملكها للاتابك شهاب الدين طغرل ، في سنة ثمان عشرة وستمائة ، بجميع قراها . ثم سار « الملك الأشرف » الى « رعبان » و « تل خالد » فافتتحهما وافتتح « برج الرصاص » ، واعطى الجميع « الملك العزيز » . وأقطعت « رعبان » لسيف الدين ابن قلج . وعاد منكفئا الى حلب ، ونزل على « بانقوسا » . وكان الخبر قد ورد بموت « الملك العادل » – رحمه الله – وكان مرض على « عالقين » ، فرحل الى دمشق ، فمات في الطريق ، في جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة . فكتب الاتابك شهاب الدين بذلك الى الامراء ، و« الملك الاشرف » قد قارب « مدينة حلب » ، فأعلموه بذلك ، فجلس في خيمته للعزاء وخرج اكابر البلد والأمراء الى

خدمته ، وأنشد الشعراء مراثي الملك العادل ، وتكلم الوعاظ بين يديه .

ولما انفصل العزاء ، سير « الاتابك شهاب الدين » الى « الملك الأشرف » ، وتحدث معه في أن يكون هو السلطان موضع أبيه ، وأن يخطب له في البلاد ، وتضرب السكة باسمه ، وأن تكون العساكر الحلبية في خدمته . فقال : « لا والله لا أغير قاعدة قررها أبي ، بل يكون السلطان أخي « الملك الكامل » ، ويكون قائما مقام أبي » ، فاتفق الحال بين « اتابك » وبينه ، برأي القاضي « بهاء الدين » ، وسيف الدين بن علم الدين ، وسيف الدين بن قلج ، على أن خطب بحلب وأعمالها « الملك الكامل » وبعده الملك الأشرف ، ثم الملك العزيز وضرب اسم « الملك الكامل » والملك العزيز ، على السكة . وجعل امر الأجناد والاقطاع في

عسكر حلب الى « الملك الأشرف » ، وخليت له دار « الملك الظافر » « بالياروقية » ، فنزل فيها ، ورتب له برسم المعونة ، من اعمال حلب « سرمين » و« بزاعا » و « الجبول » ، ووصلت اليه رسل البلاد ، من جميع الجهات ، ومالوا اليه ، وصاروا اتباعا له ، وأمر ونهى ببلد حلب ، في الأجناد والاقطاع لاغير ، وتردد أكابر الحلبيين إلى خدمته ، وخلع عليهم ، وانقضى فصل الشتاء .

ودخلت سنة ست عشرة وستمائة

فأقطع الاقطاع لاجناد حلب ، ورتب أمور أمرائها ، ولا يفعل شيئا من ذلك إلا بمراجعة « الاتابك شهاب الدين » ، وبدا من الأمراء المصريين تحرك في أمره ، وكرهوا أمره ونهيه في حلب ، وخافوا من استيلائه عليها ، وانتقامه منهم لميلهم الى « الملك الأفضل » . وبلغه عنهم أشياء عزموا عليها ، وهو ثابت لذلك كله .

ووصلته رسل أخيه « الملك الكامل » ، يطلب منه النجدة الى « دمياط» . وكان « ابن المشطوب » قد أراد الوثوب عليه وتمليك « الفائز » أخيه ، فأخرجه من الديار المصرية ، بعد ان رحل من منزلته ، التي كان بها في قبالة الفرنج ، وعبور الفرنج اليها ، ونهب الخيم ومنازلة « دمياط » وقطعهم المادة عنها ، فاتفق رأي « الملك الاشرف » على تسيير الأمراء ، الذين كانوا يضمرون له الغدر ، فسيرهم نجدة الى أخيه ، وهم المبارزان : « ابن خطلخ » و « سنقر » الحلبيان ، وابن كهدان ، وغيرهم ، وخاف ابن خطلخ منه ، فاستحلفه على أن لايؤذيه ، فحلف له ، وسيرهم الى أخيه « الملك الكامل » ، فأقاموا عنده بالكلية .

وتوفي نور الدين ـ صاحب الموصل ـ في هذه السنة . وترك ابنا صغيرا قام « بدر الدين لؤلؤ » ، مملوك جده بتربيته . وخطب للكامل والاشرف .

وقام زنكي بن عز الدين ، فأخذ « العمادية » ـ وهي قلعة حصينة فيها أموال الموصل ـ بمواطأة من اجنادها ، وعزم على أخذ الموصل ، وقال : « أنا أولى بكفالة ابن أخي » . وساعده « مظفر الدين » صاحب « إربل » على ذلك ، فسير لؤلؤ رسولا الى « الملك الاشرف » إلى حلب ، يطلب إنجاده ، فسير اليه عز الدين ايبك الأشرفي .

وكان عماد الدين بن سيف الدين علي المشطوب ، لما نفي من الديار المصرية ، قد وصل الى « حماة » ، واقام عند صاحبها ، وكاتب « الملك الافضل » ، وجمع جموعا كثيرة من الاكراد ، وارباب الفساد ، وساعده الملك المنصور - صاحب حماه - بالمال والرجال على ذلك وعزم على أن يمضي ، بمن جمعه من العساكر الى الافضل ، وأن يقوم معه ويساعده صاحب حماه ، وسلطان الروم . ثم سار ابن المشطوب ، بغتة ، وخاض بلد حلب ، وكان الزمن زمن الربيع ، وخيول الأجناد متفرقة في الربيع ، فوصل الى « قنسرين » وذفذ منها الى « تل أعرن » (٧) وبلغ « الساجور » ، واستاق في طريقه ما وجد من الخيل ، وغيره .

وبلغ خبره الى الملك الاشرف ، فأركب من كان بحضرته من العساكر ، خلفه ، وكان فيهم ابن عماد الدين صاحب « قرقيسيا » ، فلحقوه على « الساجور » ، وفي صحبته « نجم الدين بن أبي عصرون » ، فقبضوا عليه واتوا به الى « الملك الأشرف » ، فعفا عنه و« عن ابن أبي عصرون » ، واقطع ابن المشطوب « راس عين » واقام عنده مخيما « بالياروقية » ، إلى أن دخل شعبان ، من السنة المذكورة . وسار « الملك الاشرف » الى بلاده الشرقية ، لاصلاح أمر الموصل ، وكان صاحب اربل وزنكي ، قد كسرا « لؤلؤ» و « أيبك الاشرفي » ، على الموصل . فنزل الملك على حران ، وفي صحبته عسكر حلب .

ومات « كيكاوس » ، ملك الروم ، وملك بعده اخوه كيقباذ ، فراسل الملك الاشرف ، واتفق معه . وخربت القدس في أوائل هذه السنة . وخرج الى الفرنج المنازلين « دمياط » نجدة من البحر ، ووقع الوباء في اهل « دمياط » ، وضعفوا عن حفظها ، فهجمها الفرنج على غفلة من اهلها ، في عاشر شهر رمضان ، والملك الكامل ، مرابط حولها بالعساكر ، وابتنى مدينة سماها « المنصورة » ، وأقام فيها في مقابلة الفرنج .

ودخلت سنة سبع عشرة وستمائة

والملك الأشرف في « حران » ، و« ابن المشطوب » في اقطاعه « رأس عين » ، وقد داخل صاحب « ماردين » ، وقرر الأمر معه على العصيان على « الملك الاشرف » ، وجمع جماعة من الاكراد ، فنمى الخبر الى الملك الأشرف ، وخاف ابن المشطوب ، فسار الى سنجار ، فاعترضه والي « نصيبين » ، من جهة الملك الأشرف ، وقاتله فهزمه ، واستباح عسكره ، وسار الى سنجار ، فأجاره قطب الدين صاحبها . وأرسل « الملك الاشرف » اليه ، في طلبه ، فلم يجبه الى ذلك ، فسار الملك الاشرف نحوه ، فترك « سنجار » ، ومضى الى « تلعفر » ، فعصى بها ، فوصل اليه « ابن صبره » وعسكر الموصل . ووصل « الملك الاشرف » الى « سنجار » ، وفتحها ، وعوض صاحبها « بالرقة » عنها ، وفتح لؤلؤ « تلعفر » ، وسلمها الى « الملك الاشرف » ، واستجار « ابن المشطوب » بلؤلؤ ، فأجاره على حكم الملك الاشرف ، فيه ، وسلمه الى الملك الأشرف ، فقيده ، وسجنه بسنجار . وسار الملك الأشرف الى الموصل ، ومعه عسكر حلب ، فأقام مخيما على ظاهرها ، حتى اصلح أمرها مع صاحب « اربل » ، وهادنه .

ووصل الملك « الفائز » ، من الديار المصرية ، مستصرخا ، وطالبا للنجد ، ووصل الى حلب ، وانزل « بالميدان الأخضر » ، وسار الى الموصل ، الى اخيه « الملك الأشرف » ، فأقام عنده ، بظاهر الموصل ، شهرا ومات . وانفصل الملك الأشرف عن الموصل ، بعد اصلاح أمورها ، وشتى « بسنجار » ، وقبض على « حسام الدين بن خشترين — وكان أميرا من أمراء حلب — لغدر بلغه عنه ، وقيده ، وسيره ، وابن المشطوب الى قلعة « حران » ، فحبسهما فيها الى أن ماتا . وقبض على ابن عماد الدين — صاحب « قرقيسيا » — ، واخذها ، « وعانة » والبلاد التي كانت معه من يده ، وقدم حران ، فوصل اليه أخوه « الملك المعظم » في محرم سنة

ثمان عشرة من دمشق ، فوافقه على الصعود الى الديار المصرية ، لازاحة الفرنج عنها ، فجهز العساكر واستدعى عسكر حلب وعبر الفرات ، والتقى بعسكر حلب .

وسار الى دمياط ، مع أخيه « الملك المعظم » ، وخرج الفرنج عن « دمياط » ، ونزلوا في مقابلة المسلمين ، فأرسلوا الماء عليهم ، فمنعهم من العود الى « دمياط» ، ولم يبق لهم طريق اليها ، وزحف المسلمون عليهم ، واستداروا حولهم ، فطلبوا الامان وتسليم « دمياط » فتسلمها المسلمون في العشرين من شهر رجب سنة ثمان عشرة وستمائة .

وكان الملك المنصور – صاحب حماه – قد توفي في ذي القعدة ، سنة سبع عشرة وستمائة . وكان ابنه الكبير « الملك المظهر » ، في نجدة خاله بدمياط ، فاستولى ابنه الملك الناصر ، على حماة ، وسير الى الاتابك شهاب الدين ، يطلب الاعتضاد به ، والسفارة بينه وبين خاله « الملك الاشرف » ، على أن ينتمي اليه ، ويخطب له ، على أن يمنع عنه من يقصده ، وروسل في ذلك ، فأجاب ، وحلف له على ذلك . ونزل « الملك الاشرف » من الديار المصرية ، ووصل الى بلاده ، وسير كتابا الى الاتابك شهاب الدين ، يتضمن أنه : لما وقع الاتفاق في الابتداء ، وعرض علي « الجبول » و « بزاعا » و« سرمين » ، أجبت الى ذلك ، ليعلم المخالف والعدو ، أن البلاد قد صارت واحدة ، والكلمة متفقة ، والآن فقد تحقق الناس كلهم ذلك ، وأوثر الآن التقدم الى نواب المولى « الملك العزيز » في قبضها ، واجرائها على العادة ، وصرفها في مصالح بلاده فأجبت الى ذلك ورفع « الملك الاشرف » أيدي نوابه عنها .

وفي سنة تسع عشرة وستمائة

توجه « الملك الصـالح » ابـن « الملك الظـاهر »الى « الشـغر » و « بكاس » وأضـيف اليه» الروج » و « معـرة مصرين » . ورتـب جماعة من الحجاب والمماليك في خدمته ، وذلك في جمادى الأولى .

وفي ذي الحجة ـ من سنة تسـع عشرة وسـتمائة ـ خـرج الملك الناصر صاحب حماه الى الصيد ، فبلغ ذلك « الملك المعظم عيسى » ، صاحب دمشق ، فخرج مجدا من دمشق ، ليسبق ، صـاحبها اليهـا فيملكها ، فانتهى الخبر الى « الناصر » ، فسـبق اليهـا . ووصـل الملك المعظم الى حماة ، فوجد الملك الناصر قد وصلها ، وفـاته مـا أراد فسار الى « معرة النعمان » ، واحتوى على مغلاتها ، وسير أتابك شهاب الدين إليه ، تقدمة مع مظفر الدين بـن جـرديك ، الى المعرة ، فقبلها ، واعتذر بأنه إنما جاء لكتـاب وصـله مـن « الملك الكامل » ، يأمره أن يقبض على خادم هرب منه ، وأنه خرج خلفـه ليدركه ، فلما قرب من « حماة » ، بدا من صاحبها من الامتهـان ، وعدم النزل والاقامة ما لا يليق . وتجنى عليه ذنوبا لا أصـل لهـا ، والملك الكامل ، والملك الأشرف ، حينئذ بمصر .

ودخلت سنة عشرين وستمائة

فرحل « الملك المعظم » الى « سلمية » ، بعد أن رتب « بالمعرة » واليا ، ورتب « لسلمية » واليا من قبله ، وعزم على حصار « حماة » ، واستعد صاحبها للحصار ، ووكل الملك المعظم العرب ، لقطع الميرة عن حماة ، ومنع من يقصدها من الأجناد للانجاد ، وحول طريق القافلة على سلمية .

وارجف الناس بأن حسام الدين ابن أمير تركمان ، قد وافق الملك المعظم ، وأنه قد صاهر صاحب « صهيون » ، وكان سيف الدين ابن قلج ، هو الذي أشار بترتيبه في اللاذقية وضمنه ، فسار اليه ، فلم يمتنع من تسليمها ولم يكن لما ذكر عنه صحة ، فترك سيف الدين ابن قلج بها أخاه عماد الدين ، واستصحب حسام الدين ، معه الى حلب ، فأقام الى ان زال الاستشعار من جهة « الملك المعظم » ، وردت إليه .

ووصل حسام الدين الحاجب علي ـ نائب الملك الأشرف في بلاده الى حلب ـ واجتمع بأتابك شهاب الدين ، وأعلمه أن الملك الأشرف ، كتب اليه أن يرحل الى « الملك المعظم » ، ويرحله عن بلاد « الناصر » ، ويعلم « أتابك » أن هذا الذي وقع ، لم يكن بعلم « الملك الكامل » ، ولا « الملك الأشرف » ، وانهما لا يوافقانه على ذلك ، وسار الحاجب اليه في هذا المعنى .

ووصل « الناصح أبو المعالي الفارسي » ـ احد أمراء حلب ـ برسالة « الملك الكامل » من مصر ، وكان قد صعد اليها الى خدمته « الملك الأشرف » ، وكان هو الحاجب بين يديه إذ ذاك ، والامور كلها راجعة اليه ، فقال له الناصح : « الملك الكامل يأمر المولى بالرحيل ، وترك الخلاف » ، فأجاب الى ذلك ، وقرر الصلح بين صاحب حماه وبينه ، ورحل الى دمشق ، وعاد الناصح الى مصر .

ونقل السلطان الملك الظاهر ، من الحجرة التي دفن بها بالقلعة ، الى القبة ، بالمدرسة التي ابتناها له اتابك ، ودفنه بها في أول شعبان من سنة عشرين وستمائة .

ونزل الملك الأشرف من مصر ، ووصل الى حلب في شوال من سنة عشرين ، والتقاه « الملك العزيز » ، ونزل في خيمته ، قبلي « المقام » وشرقيه ، بالقرب من « قرنبيا » ، وكان قد صحبه خلعه للملك العزيز من « الملك الكامل » وسنجق ، وخرج « الملك العزيز » وأهل البلد ، في خدمته ، بعد ذلك ودخل الناس الى الخيمة ، في خدمة السلطان الملك العزيز ، ومد « الملك الأشرف » السماط ، في ذلك اليوم للناس ، فلما أكلوا ، وخرج الناس من الخيمة احضر « الخلع الكاملية » ، وأفاضها على الملك العزيز . ووقف قائما في خدمته . ثم أحضر المركوب فأركبه . وحمل الغاشية بين يديه ، حتى خرج من الخيمة ، وركب الى القلعة .

وأقام « الملك الأشرف » ، مقدار عشرة أيام ، واتفق رأيه مع الامراء على اخراب قلعة « اللاذقية » فسار العسكر اليها ، وخربوها في هذه السنة .

وتوجه الملك الأشرف الى حران ، وعصى الملك المظفر « شهاب الدين غازي » أخوه ، عليه باخلاط » وكان أخوه « الملك المعظم » ، هو الذي حمله على ذلك ، وحسنه له ، لاجل ما سبق من « الملك الاشرف » ، في نصرة صاحب حماه . فاستدعى « الملك الاشرف » عسكرا من حلب ، فسار اليه عسكر قوي فيهم : سيف الدين بن قلج ، وعلم الدين قيصر ، وحسام الدين بلدق ، في سنة احدى وعشرين وستمائة ، وسار الى « اخلاط » ، واتفق « مظفر الدين » ـ صاحب اربل ـ والملك المعظم صاحب دمشق ، على أن يخرج هذا الى جهة « الموصل » ، وهذا الى جهة « حمص » ، ليشغلا « الملك الأشرف » عن اخلاط ، فسير « الملك الاشرف » ، وطلب طائفة من عسكر حلب ليقيم بسنجار ، خوفا من أن يغتالها

صاحب « أربل » . وخرج « الملك المعظم » ، وأغار على بلد حمص ، وبارين ، ووصل الى « بحيرة قدس » وعاد .

ووصل الملك الأشرف الى « اخلاط » ، فخرج أخوه وقاتله ، فهزمه الى « اخلاط » ، وفتحها اهلها للملك الاشرف . واحتمى الملك « المظفر » بالقلعة ، حتى عفا عنه أخوه الملك الاشرف ، وخرج اليه ، وابقى عليه « ميافارقين » . وعاد عسكر حلب والملك الاشرف ، في رمضان ، وشتى الملك الاشرف بسنجار .

وانهدم في هذه السنة من سور قلعة حلب الابراج التي تلي « باب الجبل » ، من حد المركز وهي عشرة أبراج ، وتساقطت مع ابدانها ، في سلخ ذي القعدة . ووافق ذلك شدة البرد في الاربعينات ، فاهتم « أتابك شهاب الدين » بعمارتها ، وتحصيل آلاتها ، من غير أن يستعين فيها بمعاونة أحد ، ولازمها بنفسه ، حتى أتمها في سنة اثنتين وعشرين وستمائة .

ومات الملك الافضل ، « بسميساط » ، في هذه السنة في صفر ، وحمل الى حلب ، فدفن في التربة ، التي دفن فيها أمه قبلي « المقام » .

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

ووصل « محيي الدين ابو المظفر ابن الجوزي » ، الى حلب بخلعة من « الامام الظاهر » ، الى « الملك العزيز » ، وكان قد تولى الخلافة ، في سنة اثنتين وعشرين ، بعد موت ابيه « الامام الناصر » ، فألبسها السلطان « الملك العزيز » ، وركب بها ، وكانت خلعة سنية ، واسعة الكم ، سوداء ، بعمامة سوداء ، وهي منهبة ، والثوب بالزركش . وكان قد احضر الى « الملك الاشرف » خلعة ، البسه اياها ، وسار بخلعة اخرى الى « الملك المعظم » ، وخلعة اخرى ، الى « الملك الكامل » .

وكاتب « الملك المعظم » خوارزمشاه ، واطمعه في بلاده أخيه « الملك الاشرف » ، ونزل الملك المعظم من دمشق ، ونازل حمص ، وكان سير جماعة من الاعراب ، فنهبوا قراها ؛ ووصل « مانع » ، في جموع العرب لانجاد حمص ، من جهة الملك الاشرف ، فانتهبوا قرى « المعرة » و « حماة » ، وقسموا البيادر ، ولم يؤدوا عدادا (٨) ، في هذه السنة ، لاحد .

ولما وصل « الملك المعظم » الى حمص ، اندفع « مانع » وعرب حلب ، والجزيرة ، الى قنسرين ، ثم نزلوا قراحصار ، ثم تركوا اظعانهم ، بمرج دابق ، وساروا جريدة الى نحو حمص ، فتواقع « مانع » وعرب دمشق ، وقعات ، وجرد عسكر من حلب الى حمص ، فوصلوا اليها ، قبل ان ينازلها الملك المعظم ، فحين وصلوها اتفق وصول عسكر دمشق فاقتتلوا ، ثم دخلوا الى مدينة حمص .

وكان « الملك الاشرف » ، على « الرقة » فجاءه الخبر بحركة « كيقباذ » وخروجه الى بلاد صاحب « آمد » ، وأخذه « حصن منصور » ، و « الكختا » (٩) ، فسير « الملك الاشرف » نجدة

الى آمد ، فـالتقاهم جيش « الرومـي » ، وهـزمهم ، فعـاد الملك الاشرف الى « حران » وخرج من بقي من عسكر حلب الى حـاضر « قنسرين » لانجاد صاحب حمص .

ووقع الفناء في عسكر « الملك المعظم » ومـاتت دوابهـم ، وكثـر المرض في رجالهم ، فرحل عن حمص ، في شهر رمضان من السـنة وسار « الملك الأشرف » ، عند ذلك بنفسـه الى دمشـق ، واجتمـع باخيه « الملك المعظم » قطعا لمادة شرّه ، وزينت دمشق لقـدوم الملك الأشرف ، وعقدت بها القباب ، وأظهر الملك المعظم السرور بقدومه ، وحـــــكمه في مــــــاله ، وبـــــــــاطنه ليس كظاهره ، ورسله تتـردد إلى « خـوارزمشاه » في البـاطن ، وجاءته خلعة من « خوارزمشاه » فلبسها .

وكانا لما انقضى شهر رمضـان ، قـد خـرجا عن دمشـق ، إلى «المرج» ، وورد عليهما رسولا حلب : القاضي زين الدين ابن الاستاذ نائب القاضي بهاء ، ومظفر الدين بـن جـورديك ، يطلبـان تجـديد الايمان « للملك العزيز » ، و«أتابك » .

فوجد « الملك الاشرف » ، وقد أصبح مع « الملك المعظم » ، بمنزلة التبع له ، ويطلب مداراته بكل طريق ، وهو لايتجاسر أن ينفرد بهما في حديث ، دون الملك المعظم ، « الملك المعـظم » يشـترط شروطـا كثيرة ، والمراجعات بينهمـا وبين أتـابك إلى حلب مسـتمرة مـدة شهرين .

إلى أن وردت الاخبار بنزول « خـوارزمشاه» على « اخـلاط» ، ومحـاصرتها ، وفيهـا « الحـاجب علي » ـ نائب الملك الاشرف ـ فهجم بعض عسكره اخلاط ، وقام من بها مـن اهلهـا وجندهـا ، واخرجوهم منها ، كرها .

فوافق الملك الاشرف اخاه ، على ماطلبه منه ، واستدعى رسولي حلب ، وحلفا لهما ، ورحل خوارزمشاه عن « خلاط » .

وشتى الملك المعظم ، والملك الاشرف « بالغور » ، واضحى « الملك الاشرف » كالاسير في يدي أخيه « الملك المعظم » ، لايتجاسر على أن يخالفه في أمر من الأمور ، وهو يتلون معه ، وكلما أجابه « الملك الاشرف » إلى قضية ، رجع عنها إلى غيرها ، وأقام عنده ، إلى ان دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة .

وانقطعت مراسلة الملك الاشرف إلى حلب ، لكثرة عيون أخيه عليه ، وكونه لايأمن من جهته من امر يكرهه ، لانه اصبح في قبضته .

واتفق وصولي من الحج ، في صفر من هذه السنة ، فاستدعاني « الملك الاشرف » ، وحملني رسالة إلى أتابك شهاب الدين ، مضمونها ماقد وقع فيه مع أخيه .

« وانه يتلون معه ، تلون الحرباء ، ولايثبت على أمر من الامور ، وإن اخر ماقد وقع بيني وبينه ، أنه التمس مني أن يحلف له اتابك على مساعدته ومعاضدته ، وأن لايوافق الملك الكامل عليه ، وانه متى قصده الملك الكامل ، كان عونا له على الملك الكامل » .

فلما ابلغت « أتابك » ماقال ، امتنع من الموافقة على ذلك ، وقال : « أنا حلفني الملك الاشرف للملك الكامل ، وفي جملة يمينه : أنني لأهادن أحدا من الملوك على قضية إلا بأمره ، فاذا أراد هذا مني فليأتني بأمر من الملك الكامل ، حتى أساعده على ذلك » .

وحين رأى « الملك الاشرف » وقوعه في انشوطة أخيه ، وأن لامخلص له إلا بما يريده ، ساعده على كل ماطلبه منه ، واستحلفه على الملك الكامل ، وصاحبي حماة وحمص ، فاطمأن الملك المعظم إلى ذلك ، ومكن الملك الاشرف من الرحيل ، فسار إلى « الرقة » ، في جمادى الآخرة من السنة .

فرجع « الملك الأشرف » عن جميع ما قرره مع أخيه ، تأول في أيمانه التي حلفها ، بأنه كان مكرها عليها ، وأنه علم لا ينجيه من يدي أخيه إلا موافقته فيما طلب ، وندم « الملك المعظم » على تمكينه من الانفصال عنه ، وسير العربان إلى بلد حمص وحماة ، فعاثوا فيهما ، ونهبوا .

وخرج عسكر الانبرور – ملك الفرنج – إلى عكا ، في جموع عظيمة ، فطمع صاحب حماة ، وصاحب حمص في « الملك المعظم » حينئذ وأرسلا إليه يطلبان العوض عما أخذه من بلادهما ، فلاطف حينئذ ، أخاه « الملك الأشرف » ، وأرسل إليه يطلب موافقته ، فعذفه على أفعاله التي عامله بها ، وقرعه على ما اعتمد في حقه وحق أهله . ومرض « الملك المعظم » بدمشق ومات سلخ ذي القعدة .

وفي هذه السنة ، سلمت عين تاب ، والراوندان ، والزوب ، الى « الملك الصالح » ابن الملك الظاهر ، وأخذ منه « الشغر» و« بكاس» ، وما كان في يده معها .

ودخل الحاجب ، في هذه السنة ، وجمع من قدر عليه من العساكر ، إلى بلد أذربيجان ، وافتتح « خوي » ، و« سلماس» ، وأخذ زوجة أزبك – وكانت في خوي – وهي التي سلمت خوي إليه ، وكانت قد تزوجت بخوارزمشاه .

وخرج الملك الكامل من مصر حين سمع بموت أخيه . وسير الملك الناصر ، إلى عمه الملك الأشرف ، يعتضد به ، ويستمسك بذيله ، مع ابن موسك . فوصل إليه إلى سنجار ، وطلبه ليأتي الى دمشق ، فسار إليه إلى دمشق .

ونزل « الملك الكامل » ، فخيم بتل العجول في مقابلة الفرنج ، وسير الملك الأشرف إليه ، « سيف الدين بن قلج » يطلب منه ابقاء دمشق على ابن أخيه ، ويقول له : « إننا كلنا في طاعتك ، ولم نخرج عن موافقتك » . فخاطبه بما أطمع الملك الأشرف في دمشق .

وأما الملك العزيز ، فانه في هذه السنة ، جلس في « دار العدل » في منصب أبيه ، ورفعت إليه الشكاوى ، فأجاب عنها ، وأمر ونهى ، وكان يحضر عنده الفقهاء ، في ليالي الجمع ليلا ، ويتكلمون في المسألة بين يديه .

وحضر عيد الفطر ، فخلع على كافة الأمراء ومقدمي البلد ، وأرباب المناصب ، وعمل عيدا عظيما ، احتفل فيه ، ولم يعمل بحلب عيد منذ مات « الملك الظاهر » ، قبل هذه السنة .

ووصل « الانبرور » إلى عكا ، وخيم الملك الكامل « بالعوجا » . وتوجه الملك الأشرف ، إليه من دمشق ، فجدد الأيمان فيما بينهما ، وسارت النجدة من حلب ، في آخر سنة ست وعشرين وستمائة ، فنزلت في « الغور» .

وصالح«الملك الكامل» الفرنج على أن أعطاهم مدينة«القدس» – سوى الصخرة والمسجد الاقصى – وليس لهم في ظاهرها حكم وأعطاهم « بيت لحم » ، وضياعا في طريقهم إلى القدس ، من عكا .

وعاد الملك الأشرف ، واجتمع بعسكر حلب ، وبالملك الناصر ابن الملك المعظم ، فقال له :« إنني قد اجتهدت في أمرك بالملك الكامل ، فلم يرجع عن قصد دمشق ، وكان آخر ماانتهى اليه أن قال : يعطى الملك الناصر البلاد الشرقية ، وتأخذ أنت دمشق .

فعلم الملك الناصر ، أنهما قد توافقا على أخذ دمشق ، وكان أيبك المعظمي معه ، فأشار عليه بالرحيل الى دمشق ، فقوض خيامه ، وسار ، ولم يمكن الملك الأشرف منعه ، ومضى إلى دمشق ، وشرع في تحصينها ، فسار الملك الأشرف بجيوش حلب ، ونزل على دمشق ، وقطع عنها الماء ، فخرج عسكر دمشق ، وقاتلوا أشد

القتال ، حتى أعادوا الماء اليها ، ووصل الملك الكامـل ، في جمـادى الأولى ، بالعساكر المصرية ، وخيموا جميعا على دمشق .

وسار القاضي بهاء الدين ، وفي صحبته أكابر حلب وعدولهـا إلى دمشق ، لعقد المصاهرة بين « الملك العـزيز » و« الملك الكامـل » .
ووصل إلى ظاهر دمشق من ناحية « ضمير » ،

وخرج الملك الكامـل مـن المخيم ، والتقـاه ، وأنزله في المخيم ، بالقرب من «مشهد القدم» . وأحضره إلى خيمته ، وقدم ماكان وصل على يده ، للملك الكامل . ثم نقله بعد ذلك الى جوسق الملك العـزيز « بالمزة » .

وكان يتردد إليه « الملك الكامـل » ، في بعض الأوقـات ، إلى أن اتفق الامر ، على أن حمل الذهـب الواصـل ، لتقـدمة المهـر ، والجواري ، والخدم ، والدراهم ، والمتاع . وعقد العقـد بحضـور الملك الأشرف ، في «مسـجد خـاتون» ،
وتولى عقد النكاح «عماد الدين ابن شيخ الشيوخ» عن الملك الكامل ، لابنته« فاطمة خـاتون» ،على صـداق مبلغـه خمسـون الف دينار وقبل القاضي « بهاء الدين » العقد عن الملك العزيز ، وذلك في سحرة يوم الأحد سادس عشر شهر رجب . وخلع « الملك الكامـل » على القاضي ، وعلى جميع أصحابه ، وعلى الحاجي بشر أمير لالا الملك العزيز ، بعد أن فتحت دمشق . وعاد القاضي ومـن في صـحبته إلى حلب .

واستقر أن يأخذ الملك الكامـل مـن الملك الاشرف ، عوضـا عن دمشق : حران ، والرها ، والرقة ، وسروج ، ورأس عين ، وسـار الملك الأشرف إلى بعلبـك ، فحصرهـا إلى أن أخـذها مـن صاحبها .

وسار العسكر الى حماة ، بأمر الملك الكامل ، فحصرها ليسلمها صاحبها إلى الملك « المظفر ابن الملك المنصور » ، فنزل إليه صاحبها

الملك الناصر – وكان نازلا بمجمع المروج – فحبسه عنده الى أن سلمها إلى أخيه ، وأعطاه « بارين » . وسار الملك الكامل إلى الرقة .

ونزل خوارزمشاه على « أخلاط » ، ووافقه ابن زين الدين ، في الباطن ، وصاحب آمد في الظاهر ، وخطب له ، وضاق الأمر بأهل « اخلاط » ، فطلبوا الأمان فلم يجبهم إلى ذلك ، وافتتحها في ثامن وعشرين من جمادى الأولى ، من سنة سبع وعشرين وستمائة ، ووضع السيف في أهلها ، وسبى النساء والصبيان .

وفي ثامن جمادى الاولى ، ولد للسلطان « الملك العزيز» ، مولود من جارية ، وسماه باسم أبيه ، ولقبه بلقبه « الملك الظاهر غازي » ، وزين المدينة ، وعقد القباب ، ولبس العسكر في أتم زينة وهيئة ، وعمل الزورق من القلعة الى المدينة ؛ ونزل الناس فيه ، وانقطعت بكرة برجل منهم ، فوقع في سفح القلعة ، فمات ، فبطل الملك العزيز الزورق .

وولد له ايضا في هذه السنة ، ولد آخر لقبه « بالملك العادل » . وولد له ايضا في هذه السنة ، « السلطان الملك الناصر » وهو الذي أوصي له بالملك ، بعد أن مات الولدان المتقدمان .

واتفق الملك الكامل ، والملك الاشرف ، وملك الروم كيقباذ ، على خوارزمشاه وطلب الملك الاشرف نجدة من حلب ، فسير الملك العزيز وأتابك ، عسكرا يقدمه « عز الدين بن مجلي » ، فدخل الملك الاشرف ، واجتمع بملك الروم ؛ وسار إلى ناحية « أرزنكان » ؛ واصطفت العساكر للقتال ، فكسر الخوارزمي في التاسع والعشرين من شهر رمضان ، وهبت ريح عاصفة في وجه عساكره ، وانهزموا ، وصادفوا شقيفا ، في طريقهم ، فوقع فيه أكثر الخوارزمية فهلكوا ، وصار « الملك الاشرف » إلى « اخلاط » ، فاستعادها ، وهادن الخوارزمي .

ودخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

وكان للفرنج حركة ، وخرج عسكر حلب مع بدر الدين بن الوالي ، وأغاروا على ناحية « المرقب » ، ونهبوا حصن بانياس ، وخربوه ، وسيروا أسرى إلى حلب ، ثم تواقع المسلمون والفرنج وقعة أخرى ، قتل من الفريقين فيها جماعة ، وكان الربح فيها المسلمين ، وسيرت العساكر من حلب في النصف من شهر ربيع الآخر .

واحتبس الغيث في حلب ، وارتفعت الاسعار فيها ، وخرج الناس ، واستسقوا على « بانقوسا » ، فجاء مطر يسير ، بعد ذلك ، وانحطت الأسعار قليلا .

واستقرت الهدنة بين عسكر حلب والداوية ، والاسبتار ، في العشرين من شعبان من السنة.

واستقل السلطان الملك العزيز بملكه ، في هذه السنة ، وتسلم خزائنه من«أتابك شهاب الدين» ، ورتب الولاة في القلاع ، واستحلف الأجناد لنفسه ! وخرج بنفسه ، ودار القلاع والحصون ، وركب أتابك شهاب الدين ، في نصف شهر رمضان ، من هذه السنة ، ونزل من القلعة ، وركب الناس في خدمته ، ولم ينزل منها ، منذ توفي الملك الظاهر ، إلا هذه المرة ثم عاد إلى القلعة ، وكان يركب منها في الأحايين ، إلى أن دخل السلطان « الملك العزيز» بابنة الملك الكامل ، وبقي «أتابك» مدة في القلعة ، ثم نزل منها ، وسكن في داره ، التي كانت تعرف بصاحب عين تاب ، تجاه باب القلعة .

واستوزر الملك العزيز ، في هذه السنة ، خطيب القلعة وابن خطيبها « زين الدين عبد المحسن بن محمد بن حرب » ، ومال اليه بجملته .

وسير الملك العزيز القاضي بهاء الدين ، في هذه السنة في شوال ، إلى مصر ، لاحضار زوجته بنت الملك الكامل ، فأقام بمصر مدة ، إلى أن قدم في صحبتها والدها « الملك الكامل » ، إلى دمشق ، وسيرها من دمشق صحبته ، وأصحبها من جماعته : فخر الدين البانياسي ، والشريف قاضي العسكر ، وخرج وزيره ، وأعيان دولته ، فالتقوها من حماة ، وأكابر أهل حلب أيضا ، والتقتها والدة السلطان عمتها من « جباب التركمان » ، والتقاها بقية العساكر ، « بتل السلطان » ، والتقاها أخو السلطان « الملك الصالح» ، في عسكره ، وتجمله ، وعادت العساكر في تجملها ، واصطفت أطلابا طلبا بعد طلب ، في«الوضيحي» . وخرج السلطان الى«الوضيحي » .

ودخل مع زوجته ، ليلا الى القلعة المنصورة ، في شهر رمضان ، من سنة تسع وعشرين وستمائة .

وكانت العامة بحلب ، قد ثاروا على محتسبها « مجد الدين بن العجمي » ، لأن السعر كان مرتفعا ، وقد بلغ الرطل من الخبز إلى عشرة قراطيس ، ثم انحط السعر كان في تقاديم الغلة ، الى أن بيع الرطل بخمسة ونصف ، فركب نائب المحتسب وسعره ، وهموا بقتل نائبه ، وخربوا الدكة ، ومضوا إلى دار المحتسب ، لينهبوها ، فنزل والي البلد ، والأمير « علم الدين قيصر» ، وسكنوا الفتنة ، بعد أن صعد جماعة إلى السلطان ، واستغاثوا على المحتسب ، فظفروا بأخيه نائب الحشر « الكمال بن العجمي » ، فرجموه بالحجارة ، فانهزم ، واختفى في بعض دروب حلب ، ثم هرب إلى المسجد الجامع ، فهموا به مرة ثانية ، في الجامع ، فحماه مقدم الأحداث ، وكان ذلك ، في يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ، من سنة تسع وعشرين وستمائة .

وداوم « الملك العزيز» الخروج إلى الصيد ، ورمي البندق بنواحي « العمق» وغيرها ، وحسن له جماعة من أصحابه ، أن يسير إلى قلعة « تل باشر» ، ويستولي عليها ، وينزعها من نواب أتابكه

« شهاب الدين طغرل » ، وأن يبقي عليه رستاقها ، وأن لايكون شيء من القلاع إلا بيده ، فنمى الخبر إلى « أتابك » ، فسير إلى الوالي ، وأمره أن لايعارضه في القلعة ، وان يسلمها اليه ، وكان له بها خزانة ، فاستدعاها ، وخرج السلطان إلى « عزاز » ، وكانت في يد والدة أخت « الملك الصالح » ، وأولادها بني « الطنبغا » ، عوضهم بها « أتابك » عن « بهسني » ، بعد قتل الرومي كيكاوس الطنبغا ، فصعد إلى قلعتها ، وولى بها واليا من قبله ، وأبقى عليهم ماكان في ايديهم من بلدها.

ثم سار السلطان من «عزاز» إلى «تل باشر» ، وصعد إلى القلعة ، وولى فيها واليا من جهته ، وانتزعها من ايدي ذواب اتابكه . وبلغه أخذ الخزانة ، من « تل باشر » ، فسير من اعترض أصحاب « اتابك » في الطريق ، فأخذ الخزانة منهم ، وكان يظن أن بها مالا طائلا ، فلم يجد الامر كما ذكر ، فأعادها على اتابك ، فامتنع من أخذها ، وقال : « أنا ما ادخرت المال إلا لك » ثم دخل السلطان إلى حلب ، وكان ذلك كله ، في شهر رمضان ، من سنة تسع وعشرين وستمائة .

ثم إن السلطان«الملك العزيز» ، خرج في خرجاته ، لرمي البندق الى «حارم» ، وتوجه منها الى « دركوش » ثم إلى «أفامية» ، في سنة ثلاثين وستمائة ، فلم يحتفل به صاحب « شيزر » شهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين.

وأنفذ إليه إقامة يسيرة - وهي شيء من الشعير على حمير ، سخرها من بلد شيزر - فشق عليه ذلك . فلما دخل حلب استدعى « سيف الدين علي بن قلج الظاهري » ، وسيره إلى الملك الكامل ، ليستأذنه في حصار « شيزر » ، وأخذها ، وكانت مضافة إلى حلب ، وإنما خاف أن يلقي صاحبها نفسه على « الملك الكامل » ، فيشفع إليه في أمره ، فلايتم له مايريد ، فصعد « سيف الدين » إلى دمشق ، وقرر مع الملك الكامل ، الامر على مايختاره « الملك العزيز» ؛ وسير

إلى السلطان الملك العزيز ، وأعلمه بذلك ، فأخرج العسكر ، والزردخاناه » ، ونزل العسكر على « شيزر » ، واحتاط الديوان ، على مافي رستاق « شيزر » من المغلات .

ووصل « سيف الدين بن قلج » من دمشق ، وخرج السلطان بنفسه ، فنصب عليها المناجيق ، من جهة الجبل ، وترك المنجنيق المغربي ، قبالة بابها ، وسير إلى صاحبها ، وقال له : « والله لئن قتل واحد من أصحابي ، لا شنقنك بدله » . فتقدم إلى الجرخية بالقلعة ، أن لايرمي أحد بسهم ، وتبلد ، واسقط في يده .

وأرسل « الملك الكامل » إلى السلطان نجابين ، ومعهما خمسة الاف دينار مصرية ، ليستخدم بها رجالة ، يستعين بهم على حصار « شيزر» .

وقدم اليه الى شيزر « الملك المظفر محمود » -صاحب حماه- وأرسل اليه صاحب شيزر ، يبذل له تسليمها ، على أن يبقي عليه أمواله ، التي بها ، ويحلف له على أملاكه ، بحلب ، فأجابه إلى ذلك

ونزل من شيزر إلى خدمة السلطان ، وسلمها اليه ، ووفى له السلطان بما اشترطه ، وصعد السلطان الى القلعة ، واقام أياما بشيزر ، ثم دخل إلى مدينة حلب .

ومرض أتابك « شهاب الدين طغرل بن عبد الله » في أواخر هذه السنة ، ودام مرضه ، إلى أن مات ، ليلة الاثنين الحادية عشرة ، من محرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة وحضر السلطان الملك العزيز، ومحمد ابن الملك الظاهر ، جنازته ، صبيحة الليلة المذكورة . ومشى خلف جنازته ، من داره إلى أن صلي عليه خارج « باب الأربعين » ودفن بتربته ، التي أنشأها «بتل قيقان » ، ووقفها مدرسة على أصحاب الامام أبي حنيفة - رضي الله عنه - وبكى السلطان عليه بكاء عظيما ، وحضر عزاءه ، يومين بعد موته ، بالمدرسة التي أنشأها« أتابك » وجعل فيها تربة السلطان الملك الظاهر - رحمهم الله - وفي هذه السنة :

وهي سنة احدى وثلاثين

نزل الملك الكامل ، من مصر ، واتفق مع أخيه الملك الأشرف ، على قصد بلاد السلطان « كيقباذ بن كيخسرو » ، للوحشة التي تجددت بينهم ، بسبب استيلاء كيقباذ على بلاد « أخلاط » ، وانتزاعها من أيدي نواب « الملك الأشرف » ، وسارا من دمشق ، وخرج معهما الملك المجاهد ، صاحب حمص ، والملك المظفر ، صاحب حماة ، ووصل معهم الملك الناصر ، صاحب الكرك ، ووصلوا إلى « منبج » باذن السلطان « الملك العزيز » .

وسير الملك العزيز إليه الى « منبج » الاقامة العظيمة ، والزردخاناه ،

وعسكره ، ومقدمه عمه « الملك المعظم » ، وساروا من ناحية « تل باشر » ، فنزل إليه « الملك الزاهر داود بن الملك الناصر » . وقدم إليه صاحب «سميساط » « الملك المفضل موسى » ، وصاحب « عين تاب » «الملك الصالح بن الملك الظاهر» ، والملك المظفر شهاب الدين ابن الملك العادل، والملك الحافظ ، أخوه ، وغيرهم ، من الملوك ، حتى اجتمع في عسكره ستة عشر أميرا .

وسير ملك الروم إلى « الملك العزيز » ، وقال له : «أنا راض منك بأن تمده بالأجناد والأموال ، على أن لاتنزل إليه أبدا . وأعفاه الملك الكامل ، من مثل ذلك ، ورضي كل واحد من الملكين بفعله .

وسار الملك الكامل في جيوشه ، في أوائل سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، إلى أن نزل على « نهر الأزرق » ، في طرف بلاد الروم ، وجاء عسكر حتى نزل قبلي زلي ـ بينها وبين الدربند ـ والسلطان معهم ، وصعد الرجالة الى فم « الدربند » ، بالقرب من ذور كفال ، وبنوا عليه سورا ، وقاتلوا منه ، ومنعوا من يطلع إليه ، وقلت الأقوات على العسكر الشامي .

فرجع « الملك الكامل » ، وخرج إلى طرف بلد « بهسني » ، ونزل على بحيرة أنزنيت ، ووصــل إليه صــاحب خــرتبرت ، ودخــل في طاعته ، وأشار عليه بــالدخول مــن جهتــه ، فســـار إلى ناحية « خرتبرت » .

ووقعت طائفة من عسكر الروم ، على طــائفة مــن عســكر الملك الكامل ، وفيهم الملك المظفر – صــاحب حمــاة – وشــمس الدين صواب،فكسر العسكر الكاملي، واعتصم من نجا منهم«بخرتبرت»،
فحــاصرهم ملك الروم إلى أن نزلوا بــالأمان ، وأطلقهــــم ، واستولى « كيقباذ» على « خرتبرت » ، وعفا عن صاحبها ، وعوضه عنها بأقطاع في بلاده .

ومرض « الملك الزاهر » في العسكر ،فحمل مريضا إلى«البيرة»،
وقوي مــرضه ، وطمــع بعض بعض اولاده بملكهــا ، وشرع في تحصـــينها وتقــويتها ، وبلغ « الملك الزاهــر » ذلك ، فســـير إلى السلطان « الملك العزيز» ، واستدعاه إليه ، وأصــعده إلى القلعــة ، وأوصى اليه بالقلاع التــي في يده ، والخــزائن وعين لأولاده شــيئا من ماله ، « بالبيرة» ، والسلطان بها عنده ، في أوائل صــفر ، مــن سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

وأقام السلطان بها يرتب أحوالها ، وأقام فيها واليا مــن قبله ، فاتفق وفاة القاضي بهاء الدين بحلب ، في يوم الأربعاء الرابــع عشر من صفر ، من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

وطلب « الكمال ابن العجمي»قضاء حلب ، وكاتب السلطان في ذلك فلم يجبه إلى ذلك . وسار السلطان من « البيرة» إلى « حارم» ، فخرج ابن العجمي إليه ، إلى « حارم» ، فمنعه الدخول إليه ، وبذل له في قضاء حلب ســتين ألف درهــم ، وأن يحمــل في كل ســـنة ، للسلطان ، من فواضل أوقــاف الصــدقة ، ومــن كتــابة الشروط ، خمسين ألف درهم ، فلم يصغ السلطان إلى شيء مــن ذلك ، وكتــب

إلى القاضي زين الدين ، كتابا يأمره بأن يحكم بين الناس ، على جاري عادته ، إلى أن يدخل الى المدينة ، فلما دخل السلطان اجتهد « ابن العجمي» في قبول مابذله ، وبذل شيئا كثيرا غير ذلك ، لخواص السلطان ، وحسنوا للسلطان قبول مابذله ، وإجابته الى ماسأله ، فجرى على مذهب أبيه وجده في الاحسان ، ولم يبع منصب النبي - صلى الله عليه وسلم - بالاثمان ، ونظر في مصلحة الرعية ، وأرضى الله ونبيه ، وقلد القضاء بمدينة حلب وأعمالها ، في يوم الجمعة ، الرابع عشر ، من شهر ربيع الاول من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، القاضي زين الدين أبا محمد عبد الله ابن عبد الرحمن بن علوان - المعروف بابن الاستاذ - وكان نائب القاضي بهاء الدين في الحكم .

وأما الملك الكامل ، فانه عاد في تلك الجيوش العظيمة ، ولم يحظ بطائل ، ودخل فصل الشتاء ، وحال بين الفريقين ، وعاد كل إلى بلاده ، ولما خرج فصل الشتاء ، خرج « علاء الدين كيقباذ» الى الجزيرة ، والرها ، والرقة ، وسبى عسكره أهل البلاد كما يسبى الكفار ، وذلك في ذي الحجة ، من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، وسار « الملك الكامل» نحوها ، فاندفع ملك الروم ، فعاد « الملك الكامل» ، واستولى على البلاد ، وخرب قلعة الرها وبلدها ، وسير إليه السلطان العسكر إلى الشرق ، والزردخاناه ، وذلك في الجماديين ، سنة ثلاث وثلاثين وستمائة .

ودام « الملك العزيز» ، في ملكه بحلب ، وسمت همته إلى معالي الامور ، ومال إلى رعيته ، وأحسن إليهم الى أن دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة ،

فغضب على وزيره « زين الدين بن حرب » ، وألزمه داره بقلعة حلب ، وولى الديوان مكانه ، الوزير « جمال الدين الاكرم أبا الحسن علي بن يوسف القفطي الشيباني » .

وخرج في أواخر شهر صفر إلى « الذقرة » ، ثم توجه منها إلى «

حارم » ، وحضر في الملقه (١٠) ، لرمي البندق ، واحتـاج الى أن اغتسل بماء بارد ، فحم ، ودخل إلى حلب ، فالتقاه الناس ، وهــو موعوك ، ودامت به الحمى ، الى أن قوي مرضه ، واستحلف الناس لولده الملك « الناصر صـلاح الدين يوسـف بـن الملك العــزيز » . وسيرني إلى أخيه « الملك الصالح » إلى عين تـاب ، يسـتحلفه له ، ولابنه « الملك الناصر » ، وعدت ، وقد مات ، في شـهر ربيع الأول ، من سنة أربع وثلاثين وستمائة .

وتولى تدبير دولته الأميران : شـمس الدين لؤلؤ الأميني ، وعز الدين عمر بـن محلي ووزير الدولة القـاضي « جمـال الدين الأكرم» و«جمال الدولة اقبال الخاتوني » ، يحضر بينهم في المشورة .

واذا اتفق رأيهم على شيء ، دخل جمال الدولة إقبال الخاتوني ، إلى جدة السلطان « الملك الناصر » ، والدة « الملك العـزيز » ، وعرفهـا مااتفق راي الجماعة عليه ، فتـأذن لهـم في فعله ، والعـلامات على التواقيع ، والمكاتبات إلى السـتر العـالي الخـاتوني ، والدة الملك العزيز . فاتفق رأيهم ، على أن سيروا القاضي زين الدين – قـاضي حلب – والأمير بدر الدين بـدر بـن أبـي الهيجـاء ، إلى مصر ، رسولين الى « الملك الكامل » ، ليحلفاه « للملك الناصر » ، ويتوثقا من جهته ، واسـتصحبا معهمـا كزاغند السـلطان الملك العـزيز ، ورديته، وخوذته ، ومركوبه .

فلما وصلا إليه ، أظهر الالم والحزن لموته ، وقصر في إكرامهمـا وعطائهما ، وحلف للملك الناصر ، على الوجه الذي اقتـرح عليه ، وخاطب الرسولين بما يشيران به ، عنه ، من تقدمه « الملك الصـالح ابن الملك الظاهر » ، على العسكر ، وأن تكون تـربية «الملك الناصر » إليه ، فلم ير الجماعة ذلك .

واتفق بعد ذلك بمدة ، أن سير الملك الكامل خلعـة للملك الناصر ، بغير مركوب ، وسير عدة خلع لأمراء الدولة ، وسير مع رسول مفرد

خلعة « الملك الصالح » ، على أن يجيء اليه إلى « عين تاب » ، فاستشعر أرباب الدولة التدبير من ذلك ، وحصل عند جدة السلطان وحشة من ذلك . واتفق رأيهم ، على أن لبس السلطان خلعته ، ولم يخلع على أحد من الأمراء شيء ، مما سيره لهم ، وردوا الرسول الوارد إلى الملك الصالح بخلعته ، ولم يمكنوه من الوصول إليه ، واستوحشوا من جهة « الملك الكامل » .

وكان « الملك الاشرف » ، قد تتابعت من أخيه ، « الملك الكامل » أفعال أوجبت ضيق صدره ، وكان يغض على نفسه ، ويحتملها ، فمنها انه أخذ بلاده الشرقية ، حين أعطاه دمشق ، وأخذ من مضافات دمشق ، مواضع متعددة .

واتفق أن « كيقباذ » ملك الروم ، أخذ « خلاط » ، فضاق ما في يد « الملك الاشرف » جدا ، وكان ينزل إليه في كل سنة إلى دمشق ، في عبوره إلى الشرق ، فيقيم بدمشق مدة ، فيحتاج « الملك الاشرف » ، في ضيافته إلى جملة .

وقبض على أملاكه التي كانت له بحران ، والرقة ، وسروج ، والرها ، ورأس عين ، وعلى جميع تمليكاته التي ملكها بتلك الناحية ، وفتح آمد ، وهو في صحبته ، فلم يطلق له من بلادها شيئا ، وخذله في انتزاع « خلاط » من يد « الرومي » ، فاتفق هو ، والملك المجاهد – صاحب حمص – والملك المظفر – صاحب حماة – وعزموا على الخروج عليه ، وعين لكل واحد منهم شيء من بلاده ، وأرسل إلى الملكة « الخاتون » والامراء بحلب ، وطلبوا موافقتهم على ذلك ، وخوفوهم من جهته ، وذكروا ماتمتد أطماعه إليه فوافقوهم . وتحالفوا عليه ، وسيروا رسلا من جهتهم إلى ملك الروم « كيقباذ » يطلبون منه مثل ذلك . فوصلوا إليه ومات « كيقباذ » ، قبل اجتماعهم به فذكروا رسالتهم لابنه « كيخسرو » ، فحلف لهم على ذلك .

واتفقوا كلهم على أن أرسلوا رسلا من جهتهم ، إلى « الملك

الكامل » ، الى مصر ، ومعهم رسول من حلب ، وقالوا له : « إننا قد اتفقنا كلنا ، ونطلب منك أنك لاتعود تخرج من مصر ، ولاتنزل إلى الشام » ، فقال لهم : « مبارك أنتم قد اتفقتم ، فما تطلبون من يميني ، احلفوا انتم أيضا لي : أن لاتقصدوا بلادي ، ولاتتعرضوا لشيء مما في يدي وأنا أوافقكم على ما تطلبون » . ونزل رسوله ، ومرض « الملك الأشرف » ، واشتغل بمرضه ، وطال الى أن مات ـ على مانذكره ـ .

ومما تجدد في حلب ، في سنة أربع وثلاثين وستمائة : أن « شهاب» الدين»«صاحب شيزر» ، و«كمال الدين عمر بن العجمي» ، اتفقا ، على أن سيرا من جهتهما رجلا ، يقال له « العز ابن الأطفاني » إلى دمشق إلى « الملك الأشرف » ، وحدثاه في أن يقصد حلب ، وانهما يساعدانه بأموالهما ، وأوهمه صاحب « شيزر » أن معظم الأمراء بحلب ، يوافقونه على ذلك ، وأوهمه ابن العجمي أن اقاربه ، وجماعة كبيرة من الحلبيين ، يتابعونه ، ويشايعونه ويوافقونه ، على ذلك ، واشترط على « الملك الأشرف » ، أن يوليه قضاء حلب .

فمضى رسولهما إلى « الملك الأشرف » ، واجتمع ببعض خواصه ، وذكر له الأمر الذي جاء فيه ، فلم يحضره اليه ، وأجابهما بأنه : « لاتتصور أن يبدو مني غدر ، ولا قبيح في حق أحد ذرية الملك الظاهر » ، وأخبرني « فلك الدين بن المسيري » أنه هو الذي كان المتكلم بين « الملك الأشرف » ، وبين رسولهما .

ونمي هذا الخبر إلى الملكة ، والأمراء ، فسيروا من يوقف الرسول واتفق وصوله إلى حلب » فقبض في « باب العراق » ، وأصعد إلى القلعة ، وسئل عن ذلك ، فأخبرهم بالحديث على فصه ، فحبس الرسول ، وحلقت لحيته ، وسير إلى « دربساك » ، وحبس بها ، وأصعد « ابن العجمي » ، وصاحب شيزر ، واعتقلا بالقعلة ، وأخذت أموال صاحب شيزر جميعها ، ولم يتعرض لأموال ابن

العجمي ، تطييبا لقلوب أهله . وداما في الاعتقال ، من جمادى ، من سنة أربع وثلاثين الى ان مات الملك الكامل ، في سنة خمس وثلاثين وستمائة وأطلقا .

ومما حدث أيضا ، في سنة أربع وثلاثين ، أن أميرا من التركمان ، يقال له « قنغر» جمع إليه جمعا من التركمان ، بعد موت « الملك العزيز» ، وعاث في أطراف بلاد حلب ، من ناحية « قورس » ، وغيرها ، ونهب ضياعا متعددة ، وكان يغاز (١١) ، ويدخل الى بلد الروم ، فخرج اليه عسكر من حلب ، فكسر ذلك العسكر ، ونهبه .

وتخوف أمراء حلب ، أن يكون ذلك بأمر « ملك الروم » ، فسيروا رسولا إلى ملك الروم ، في معناه ، فأنكر ذلك ، وأمر برد ماأخذه ، من بلد حلب ، فرد بعضه ، واذكف عن العيث والفساد .

وبذل « ملك الروم » من نفسه الموافقة ، والنصرة « للملك الناصر» وكف من يقصد بلاده بأذى ، فسير له تقدمه سنية ، من حلب على يد « شرف الدين بن أمير جاندار » ، فأكرم الرسول إكراما كثيرا ، وسيرا إليه رسول في الباطن ، وهو أوحد الدين – قاضي خلاط – فاستحلفه على الموالاة « للملك الناصر » ، والذب عن بلاده ودفع من يقصدها .

واتفق أيضا ، في هذه السنة ، تحرك الداوية ، من « بغراس » ، وأغاروا في بلد « العمق » ، واستاقوا أغناما التركمان ، ومواشي لغيرهم كثيرة . فخرج « الملك المعظم بن الملك الناصر » يقدم عسكر حلب ، ونزلوا على « بغراس » وحصروها مدة ، حتى نقروا مواضع من سورها ، ونفد مافيها من الذخائر ، وأشرفت على الأخذ ، فسير البرنس – صاحب أنطاكية – وشفع فيهم ، بعد أن كان مغاضبا لهم ، فرأوا المصلحة في إجابته الى ذلك ، وعقدوا الهدنة مع الداوية ، على « بغراس » ورحلوا عنها ، ولو أقاموا عليها يومين أخرين ، لما استطاع من فيها الصبر على المدافعة

وسار العسكر عن « بغراس » ، بعد أن أخربوها ، وبلدها ، خرابا شنيعا ، ونزل العسكر الاسلامي بالقرب من « دربساك » ، فجمع « الداوية » جموعهم ، واستنجدوا بصاحب « جبيل » وغيره ، من الفرنج ، وجمعوا راجلا كثيرا ، وساروا من جهة حجر «شغلان » إلى « دربساك » ، ظنا منهم أن يكبسوا الربض ، على غرة من أهله ، وأن ينالوا منه غرضا ، فاستعد لهم من بالربض من الأجناد ، ونزل جماعة من أجناد القلعة ، وقاتلوهم في الربض ، قتالا شديدا ، وحموه منهم ، واشتغلوا بقتالهم ، إلى أن وصل الخبر إلى عسكر حلب ، فركبوا ، ووصلوا إليهم ، وقد تعب الفرنج ، وكلت خيولهم ، فوقعوا عليهم ، فانهزم الفرنج هزيمة شنيعة ، وقتل منهم خلق عظيم ، واستولى المسلمون على فارسهم وراجلهم ، وكان فيهم جماعة من المقدمين واختبأ منهم جماعة من الخيالة ، وغيرهم ، خلف الأشجار في الجبل ، فأخذوا ، ولم ينج منهم إلا القليل ، ودخلوا بالرؤوس والأسرى إلى حلب ، وكان يوما مشهودا وحبسوا في القلعة ، ثم أنزلوا الى الخندق . وفتت هذه الوقعة في أعضاد « الداوية » ، بالساحل ، ولم ينتعشوا بعدها ، وكانوا قد استطالوا على المسلمين والفرنج .

ومات في هذه السنة « علاء الدين كيقباذ» ــ ملك الروم ــ « بقيصرية» ، في أوائل شوال ، من سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وسيرت رسولا إلى ابنه « غياث الدين كيخسرو » ، القائم في الملك بعده ، بالتعزية ، وتجديد الأيمان عليه ، على القاعدة التي كانت مع أبيه ، فحلفته على ذلك ، في ذي القعدة .

وكان قد قبض على « قيرخان » ــ مقدم الخوارزمية ــ فهرب من بقي منهم ، من بلاد الروم ، ونهبوا في طريقهم ما قدروا عليه ، وعبروا الفرات ، واستمالهم الملك الصالح بن الملك الكامل ، وأقطعهم مواضع في الجزيرة .

وتوفي « الملك الأشرف » بدمشق ، لأربع خلون من المحرم ، من

سنة خمس وثلاثين وستمائة . وأوصى بها لأخيه « الملك الصالح اسماعيل » ، وجدد الأيمان مع الجماعة ، الذين كانوا وافقوا أخاه « الملك الأشرف » .

فخرج « الملك الكامل » من مصر ، وقصد دمشق ، وسير من حلب نجدة الى دمشق وكذلك سير « الملك المجاهد » ولده « المنصور » اليها ، ونزل « الملك الكامل » على دمشق ، وحصرها مدة ، فرجع « الملك المظفر » ـ صاحب حماة ـ عن موافقة الجماعة وداخل الملك الكامل ، وأطلعه على جميع الأحوال ، ووقع بينه وبين صاحب حمص اختلاف ، وطلب من صاحب حمص « سلمية» ، لتجري الموافقة على ماكان عليه .

فسيرت من حلب ، ومعي الأمير « علاء الدين طيغا الظاهري » ، ليوفق بين صاحب حمص وصاحب حماة ، فأبى كل واحد منهما ، أن يجيب صاحبه إلى مايريد . وكان مطلوب صاحب حماة أن يعطيه صاحب حمص « سلمية » والقلعة التي جددها « الملك المجاهد » المعروفة « بشميميس »(١٢) . فقال « الملك المجاهد » : «هذه ثمينة لي ، وقد حلف لي على كل مابيدي » ، وأبى أن يجيبه إلى ذلك .

فعدنا إلى «حماة » ، وذكرنا لصاحبها مقالة « الملك المجاهد » ، وأن في مايحاوله نقضا للعهد ، فقال : هو قد نقض عهدي ، واستفسد جماعةمن عسكري »، وعدد له ذنوبا لا أصل لها ، وقال :« لابد من قصده ، وإذا نزل الملك الكامل على حمص ، نزلت معه عليها وفعلت مايصل إليه جهدي . ولكن حلب ، أبذل نفسي ومالي دون الوصول إلى قرية منها ، ولاأرجع عن اليمين التي حلفت بها للستر العالي ، والملك الناصر » .

فقلت : « فالمولى يعلم ماجرى بيننا وبين صاحب حمص ، من الأيمان ، ومانقض منها عهدا ، وإذا وصل عسكر من حلب لنجدته ، فكيف يفعل المولى » ؟ فتلجلج ، وقال :« أنا أقاتله ، ومن

قاتلني قاتلته » . فكتبنا بذلك إلى حلب ، فجاء الأمر بالتوجه إلى حلب ، فسرنا في الحال من غير توديع ، حتى وصلنا العبادي ليلة الاثنين ، مستهل جمادى الأولى ، من سنة خمس وثلاثين وستمائة ، فلحقنا «المهماندار»(١٣) بالخلع والتسفير ، فلم نقبل منه شيئا ، ووصلنا إلى حلب يوم الثلاثاء ، فتحقق أنه قد داخل « الملك الكامل » ، وأنه يطالعه بالمتجددات جميعها .

وأما دمشق ، فإن « الملك الكامل » ، لازم حصارها ، حتى صالحه « الملك الصالح» ، على أن أبقى له بعلبك ، وبصرى ، وأخذ منه دمشق ، في تاسع عشر جمادى الأولى ، من السنة ، ولم يتعرض لنجدة حلب ، وحمص بسوء ، وخرجوا من دمشق الى مستقرهم .

ووصل « الناصح » ، وعسكر حلب ، الى حلب ، واستدعى « الملك المعظم » ، وأقارب السلطان والأمراء ، وحلفوا للسلطان « الملك الناصر» و« الخاتون الملكة » ، على طبقاتهم ، ثم حلف بعد ذلك أكابر البلد ، ورؤساؤها . ثم حلف الأجناد والعامة ، واستعد الناس للحصار بالذخائر ، والأقوات ، والحطب وما يجري مجراه ، ونقلت أحجار المناجيق إلى أبواب البلد ، واستخدم جماعة من الخوارزمية ، وغيرهم .

ووصل « قنغر التركماني » ، فاستخدم بحلب ، وقدم على التركمان . وقفز جماعة من العسكر الكاملي الى حلب ، فاستخدموا ، وتتابعت الرسل إلى « ملك الروم » ، لطلب نجدة ، تصل إلى حلب ، من جهته ، فسير نجدة من أجود عساكره ، وعرض عليهم أن يسير غيرها ، فاكتفوا بمن سيره .

وسير ملك الروم رسولا إلى « الملك الكامل » ، يخاطبه في الامتناع عن قصد حلب ، فأمر بالتبريز من دمشق ، لقصد حلب ، وأخرج الخيم والأعلام ، فمرض ، ومات بدمشق ، في قلعتها ، في حادي وعشرين ، شهر رجب ، من سنة خمس وثلاثين وستمائة ، ووصل خبر موته ، فعمل له العزاء بحلب ، وحضره السلطان « الملك

الناصر » ، يومين ، وأمر العسكر في الحال ، بالخروج إلى معرة النعمان ، فخرج ، نازل معرة النعمان ، مع « الملك المعظم » ، ووصل رسول الملك المظفر » - صاحب حماة - يتلطف الحال ، فلم يلتفت إليه ، ولم يستحضر . وسيرت المجانيق ، ونصبت على قلعة المعرة .

ووصل في أثناء ذلك ، رسول من السلطان « غياث الدين كيخسرو » يطلب الوصلة الى « الخاتون » ، بأن تزوجه بنت السلطان » الملك العزيز » ، أخت السلطان « الملك الناصر »، وأن يزوج السلطان الملك الناصر ، أخت السلطان « غياث الدين » ، واستقر الأمر على ذلك ، واجتمع الناس في دار السلطان ، بالقلعة ، وعقد عقد السلطان« غياث الدين » على الست » غازية خاتون » . وتوليت عقد النكاح ، على مذهب الامام ابي حنيفة - رضي الله عنه - لصغر الزوجة ، على خمسين الف دينار ، وقبل النكاح ، عن السلطان « غياث الدين» الرسول الواصل من جهته ، « عز الدين » - قاضي دوقات (١٤) - حينئذ - ونثر الذهب ، عند الفراغ من العقد .

ووصل ، عند ذلك ، الخبر بفتح « معرة النعمان» ، في تلك الساعة ، على جناح طائر - وضربت البشائر للأمرين ، وذلك في تاسع شعبان (١٥) من سنة خمس وثلاثين وستمائة .

وسار العسكر فنازل « حماة» ، وابتنى صاحبها سورا من اللبن على حاضرها ، من جهة القبلة ، ونهب عسكر حلب بلد « حماة» ورستاقها .

ووصل رسول من الملك « الصالح بن الملك الكامل » ، يشفع في صاحب حماة ، فلم يجب إلى سؤاله فيه ، واعتذر إليه بما بدا منه ، وطلب الرسول ، عن صاحبه ، الموافقة والمعاضدة ، وأن يسفروا في الصلح ، بينه وبين « ملك الروم » ، فأجيب جوابا ، لم يحصل منه على طائل .

ووردت الرسل من مصر ، من الملك العادل ، والملك الكامل ، يطلبون منه الموافقة ، بينه وبين صاحب حلب ، وأن يجروا منه ، على عادة أبيه ، في الصلح ، وإقامة الدعوة له بحلب ، فلم يجب الى شيء من ذلك ، ورجعت الرسل بغير طائل .

وفي هذه السنة ، قبض على « قنغر التركماني» ، وحبس بقلعة حلب ، ونهبت خيمه ودوابه .

وسمع السلطان كيخسرو بوصولي ، وكان في عزم « كيخسرو » التوجه إلى ناحية « قونية » ، فتعوق بسببي ، وسير بولقا إلى « أقجا» دربند ، قبل وصولي « ابلستان » يستحثني على الوصول ، ويعرفني تعويقه بسببي ، ثم سير بولقا آخر ، فوصل إلى تحت « سمندو» يستحثني على الوصول .

فاسرعت السير ، حتي وصلت إلى « قيصرية » ، والسلطان في « الكيقبانية » ، فاستدعاني إليه ، ولم أنزل « بقيصرية » ، واجتمعت به ، عند وصولي ، يوم الثلاثاء ، سادس عشر شوال ، من سنة خمس وثلاثين وستمائة ، ووقعت الاجابة إلى عقد العقد ، ووكل السلطان « كمال الدين كاميار » ، على عقد العقد معي ، على أخته « ملكة خاتون بنت كيقباذ» . ودخلنا في تلك الساعة إلى « قيصرية» ، واحضر قاضي البلدة ، والشهود ، وعقدت العقد مع « كاميار » ، على خمسين ألف دينار سلطانية ، مثل صداق « كيخسرو» ، الذين كتب عليه لأخت السلطان « الملك الناصر » .

واظهر في ذلك اليوم من التجمل ، وآلات الذهب ، والفضة ، مالا يمكن وصفه . ونثرت الدنانير الواصلة ، صحبتي ، وكانت ألف دينار ، ونثر في دار السلطان من الذهب ، والدراهم ، والثياب ، والسكر ، شيء كثير . وضربت البشائر في دار السلطان ، واظهر من السرور والفرح ، مالايوصف .

وسيرت ، في الحال ، بعض أصحابي إلى حلب ، مبشرا بذلك

كله ، فضربت البشائر بحلب ، وأفيضت الخلع على المبشر ، وعدت إلى حلب ، فدخلتها يوم الخميس ، تاسع ذي العقدة ، والتقاني السلطان « الملك الناصر » - أعز الله نصره - يوم وصولي .

هذا كله ، والعسكر الحلبي محاصر « حماة » . وكان قبل هذا العقد ، سير السلطان « كيخسرو » الأمير « قمر الدين » الخادم - ويعرف بملك الارمن - رسولا إلى حلب ، وعلى يده توقيع من السلطان « الملك الناصر » ، بالرها ، وسروج . واتفق الأمر معه ، على أن خطب له الملك « المظفر شهاب الدين غازي » - ابن الملك العادل - وأقطعه حران ، وأقطع « الملك المنصور» - صاحب ماردين - سنجار ، ونصيبين ، و« الملك المجاهد » - صاحب حمص - عانة ، وغربا من بلد الخابور ، وكانت هذه البلاد في يد « الملك الصالح بن الملك الكامل » . واتفق الأمر ، على أن يأخذ السلطان « كيخسرو » آمد ، وسميساط ، وأعمالها .

وكان « الخوارزمية » ، قد خرجوا على « الملك الكامل » ، واستولوا على البلاد ، وهرب « الملك الصالح » منهم . فأنعم على الرسول الواصل إلى حلب ، وأعطي عطاء وافرا ، وقبل التوقيع منه .

ولم تر الملكة « الخاتون » مضايقة ابن أخيها في البلاد ، ولم تتعرض لشيء منها . وبلغه ذلك فسير إليها ، وعرض عليها تلك البلاد ، وغيرها ، وقال :« البلاد كلها بحكمك ، وإن شئت إرسال نائب يتسلم هذه البلاد ، وغيرها ، فأرسليه لأسلم إليه ماتأمرين بتسليمه » . فشكرته ، وطيبت قلبه .

واتفق بعد ذلك مع « الخوارزمية » . وأقطعهم : حران ، والرها ، وغيرهما ، بعد أن كانوا اتفقوا مع « الملك المنصور » - صاحب ماردين - وقصدوا بلاد « الملك الصالح أيوب » ، وأغاروا عليها ، ونزلوا على حران ، وأجفل أهلها .

وخاف « الملك الصالح » ، فاختفى ، ثم ظهر « بسنجار » ؛ وحصره « بدر الدين لؤلؤ » - صاحب الموصل - وكان قد ترك ولده الملك « المغيث» « بقلعة حران » ، فخاف من الخوارزمية ، وسار مختفيا نحو « قلعة جعبر » ، فطلبوه ، ونهبوه ومن معه ، وأفلت في شرذمة من أصحابه ، ووصل إلى «منبج» مستجيرا بعمته . فسير إليه من حلب ، ورد عن الوصول إليها بوجه لطيف ، وقيل له : « نخاف أن يطلبك منا سلطان الروم ، ولايمكننا منعك منه » ، فعاد إلى حران ، ووصله كتاب أبيه بأمره بموافقة « الخوارزمية » والوصول إليه بهم لدفع « لؤلؤ » ، ففعل ذلك ؛ وسار «بالخوارزمية»، طالبين عسكر الموصل ، فانهزموا وأفرجوا عن سنجار ، وأدركهم الخوارزمية فقتلوا منهم ونهبوا أثقالهم ، وقوي الملك الصالح بهم

ووصل عسكر « الروم » إلى آمد ، ونازلها ، وأخذ بعض قلاعها ، وتوجه عسكر « الخوارزمية » ، إلى جهتهم ، فرحلوا عن آمد . ولم ينالوا منها زبدة .

ووصل رسول « السلطان كيخسرو » عز الدين - قاضي دوقات - إلى حلب في هذه السنة ، وتحدث في إقامة الدعوة « للسلطان كيخسرو» ، وضرب السكة باسمه . وكان الأمراء والعسكر محاصرين « حماة » ، فتوقفت الملكة في ذلك ، وأشير عليها بموافقته على ماطلب ، فأجابت وخطب له في يوم الجمعة «....» (١٦) من سنة خمس وثلاثين وستمائة ، على منبر حلب .

وحضر في ذلك اليوم ، الامير « جمال الدولة إقبال » ، وصعد الرسول الى المنبر ، ونثر الدنانير عند إقامة الدعوة ، ونثر « جمال الدولة » دنانير ودراهم ، وخلع على الدعاء، وأظهر من السرور ، والاحتفال في ذلك اليوم ، شيء عظيم ، في مقابلة ماأظهر «بقيصرية » من الاحتفال يوم عقد الملك الناصر .

وطال الحصار على « حماة » ، ولم تكن « الملكة الخاتون » تـؤثر أخذها من ابن أختها ، وانما ارادت التضييق عليه ، لينزل عن طلب « معرة النعمـان » . وضـجر العسـكر ، فـاستدعي إلى حلب المحروسة ، فوصل اليها في « ....»(١٧) مـن سـنة ست وثـلاثين وستمائة .

وكان الملك « الجواد يونس بن مودود بـن الملك العـادل » ، بعـد موت « الملك الكامـل » ، قـد اسـتولى على « دمشـق » ، وعلى الخزائن ، التي كانت في صحبة « الملك الكامل» ؛ واظهـر الطـاعة « للملك العادل» وأرسل إلى حلب، رسـولا يطلب منهـم معـاضدته ، وانتماءه ، فلم يصـغوا إلى قـوله ، وامتنعـوا أن يدخلوا بينه وبين الملك العادل .

وخاف من « الملك العادل» ، فـراسل الملك « الصـالح أيوب ابـن الملك الكامل » ، واتفقا على أن يسلم إلى « الملك الصالح » دمشـق ، ويعوضه عنها « بـالرقة » « سـنجار » و « عانة » ، فسـار « الملك الصالح » من الشرق، و« الخـوارزمية » في صـحبته ، في جمـادى الأولى . وتقدم الملك الصالح إلى دمشـق ، وتسـلمها مـن « الملك الجواد» ، في جمادى الآخرة من سنة ست وثـلاثين ، وأرسـل إلى عمته الى حلب ، يعرفها بذلك ، ويبـذل مـن نفسـه الموافقـة على ماتريده ، ويطلب المساعدة له ، والمعاضدة على أخذ مصر ، فأجابته بأنها : « لاتدخل بينه وبين أخيه ، وانكما ولداأخي » ، ولم تجبه إلى ماا قترح .

وسار « الملك الجواد » إلى « الرقة» ، فأخرجه « الخـوارزمية » منها ، وسار إلى « سنجار » ، فأقام بها مدة ، وخرج إلى « عانة »، فسار بدر الدين لؤلؤ إلى سنجار ،بعملية كانت له فيها ، فـاستولى عليها ، في شهر ربيع الأول ، من سنة سبع وثلاثين .

وأما الملك الصالح ، فإنه صـعد إلى «نابلس» ، واقـام بهـا ،

وكاتب الامراء المصريين ، وعثر الملك على قضيتهم ، فقبض الذين كاتبوه ، ولم يتفق للملك الصالح ماأراد .

وساق عمه « الملك الصالح اسماعيل » ، من بعلبك ، « والملك المجاهد» — صاحب حمص — منها ، ودخلا « دمشق » ، وملكها « الملك الصالح » ، وحصر القلعة يوما أو يومين ، وفتحها ، وذلك في شهر ربيع الاول ، من سنة سبع وثلاثين وستمائة . وقبض على « الملك المغيث» بن الملك الصالح ، وسجنه « بقلعة دمشق » .

وسمع الملك الصالح بن الكامل بذلك ، فتوجه نحو دمشق ، حتى وصل إلى « العقبة ، فلم يجد معه من عسكره من ينصحه ، فعاد إلى «نابلس» ، فسير «الملك الناصر» — صاحب الكرك — وقبض عليه ، وحمله مقيدا الى «الكرك» وسجنه بها .

وتجددت الوحشة بين « الملك الناصر » ، وبين « الملك الصالح » عمه ، بسبب استيلائه على دمشق . واتفق الملك العادل وعمه الملك الصالح ، فاستوحش « الملك الناصر » من الملك العادل لذلك ، حتى آل الامر به إلى أن أخرج الملك الصالح بن الكامل من سجن « الكرك» ، وخرج معه ، وكاتب الامراء بمصر ، فقبضوا على « الملك العادل» « ببلبيس » ، في ليلة الجمعة ، الثامن من ذي القعدة ، من سنة سبع وثلاثين وستمائة ، ووصل الملك الصالح أيوب ، فدخل « القاهرة ، بكرة الأحد الرابع والعشرين من الشهر المذكور .

وكنت إذ ذاك بالقاهرة ، رسولا الى « الملك العادل» ، أهنئه بكسر عسكره الافرنج على « غزة» ، وأطلب أن يسير عماته بنات « الملك العادل » ، معي إلى أختهن « الملكة » إلى حلب ، فاستحضرني « الملك الصالح أيوب » ، يوم الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة ، وقال لي : « تقبل الأرض بين يدي الستر العالي ، وتعرفها أنني مملوكها ، وانها عندي في محل « الملك الكامل» ، وأنا أعرض نفسي لخدمتها ، وامتثال أمرها فيما تأمر به » ، وحملني مثل هذا القول إلى « السلطان الملك الناصر » .

ونزلت من مصر ، فاجتمعت بالملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل ، في رابع محرم سنة ثمان وثلاثين ، وحملني رسالة الى « الملكة الخاتون» ، يطلب منها معاضدته ، ومساعدته ، على « الملك الصالح » - صاحب مصر - إن قصده ، فلم تجبه إلى ذلك في ذلك الوقت .

وكان « الخوارزمية » ، في سنة سبع وثلاثين ، قد وضعوا أيديهم على « أوشين » - من بلد البيرة - وطمعوا في أطراف بلد«البيرة»، واستولوا على على قلعة « حران » ، حين كان « الملك الصالح » محبوسا « بالكرك » ، وامتدت أطماعهم إلى البلاد المجاورة لهم ، وكثر تثقيلهم على الملك « الحافظ أرسلان بن الملك العادل » ، بناحية « قلعة جعبر » ، وهو يداريهم ، ويبذل لهم الأموال ؛ وأطماعهم تشتد .

واتفق أنه فلج ، وخاف من ولده ، فأرسل إلى أخته « الملكة » بحلب يطلب منها أن تقايضه « بقلعة جعبر» و« بالس » إلى شيء تعمل له ، بمقدار « قلعة جعبر » «بالس » . فاتفق الامر على أن تعويضه « بعزاز » ، ومواضع تعمل بمقدار ذلك . وسير من حلب من تسلم « قلعة جعبر» ، في صفر من سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

ووصل « الملك الحافظ » إلى حلب ، في هذا الشهر ، وصعد في المحفة إلى القلعة ، واجتمع بأخته«الملكة» ، وأنزل في الدار المعروفة «بصاحب عين تاب» - تحت القلعة - وسلمت إلى نوابه «قلعة عزاز» .

فخرج الخوارزمية ، عند ذلك ، وأغاروا على بلد « قلعة جعبر » ، ووصلوا إلى « بالس » ، فأغاروا عليها ، ونهبوها ، ولم يسلم منها إلا من كان خرج عنها إلى حلب وإلى منبج .

وفي هذا الشهر ، توفي القاضي « جمال الدين ابو عبد الله ، محمد ابن عبد الرحمن بن علوان » - قاضي حلب - وولي قضاءها بعده

نائبه ابن أخيه « كمال الدين أبو العباس ، أحمد ابن القاضي زين الدين أبي محمد » .

وخرج عسكر حلب إلى جهة « الخوارزمية » ، ومقدمهم « الملك المعظم تورانشاه» بن الملك الناصر ، فنزلوا « بالنقرة » ، ورحلوا منها إلى « منبج » ، وأقاموا بها مدة .

وتجمع « الخوارزمية » في حران ، والحلبيون غير محتفلين بأمرهم ، وعسكر حلب بعضه في نجدة « ملك الروم» في مقابلة « التتار » ، وبعضهم في « قلعة جعبر » ، وبعضهم مفرقون في القلاع ، مثل « شيزر » ، « وحارم » ، وغيرهما .

وسار الخوارزمية ، بجملتهم ، في جمع عظيم ، ومعهم « الملك الجواد بن مودود بن الملك الحافظ ، و« الملك الصالح» بن الملك المجاهد ـ صاحب حمص ـ وكان جمعهم يزيد على اثني عشر الفا ، وانضم اليهم الامير « علي حديثة » في جموعه من العرب ، وكان استوحش من أهل حلب ، لتقريبهم الأحلاف .

وعبروا بجملتهم من « جسر الرقة» ، وساروا ، حتى وصلوا نهر « بوجبار» ، وسمع بهم من بمنبج ، من عسكر حلب ، فرحلوا من منبج ، ونزلوا في وادي « بزاعا » ، وأصبح كل واحد من الفريقين ، يطلب صاحبه ، وعسكر حلب لايزيدون عن ألف وخمسمائة فارس .

وتعبأ كل فريق لقتال صاحبه . وأقبل الخوارزمية ـ ومقدمهم « بركة خان » ـ ومعه « صاروخان » ، « بردى خان » و«كشلوخان» وغيرهم ، من أمرائهم ، والملك الجواد ، وابن الملك الحافظ ، وابن صاحب حمص ، وعسكر « ماردين» نجدة معهم وعبروا « نهر الذهب » . والتقى الفريقان ، على البيرة» ـ قرية بالوادي ـ في يوم الخميس رابع عشر ، من شهر ربيع الآخر ، من سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، فصدمهم عسكر حلب على قلته ، صدمة ، تزحزحوا لها ، وتكاثر الخوارزمية عليهم .

وجاء « علي بن حديثة» ، وخرج من بين البساتين ، وجـاء مـن وراء عسكر حلب ، ووقع في الغلمان ، و« الركابدارية » ، واحـاطوا بهم ، من جميع الجهات ، وانهزموا وهم مطبقون عليهم ، وجعلوا طريقهم على « رصيف الملكة» ، الذي يأخذ من « بزاعا» إلى حلب ، حتى خرجوا فيما بين « ربانا » ، و«تلفيتا» . والخوارزمية في آثارهم يقتلون ، ويأسرون ، ونزلوا من جهـة « الاعرابية » ، و« فرفارين» وهم في آثارهم ، فقبضوا على « الملك المعـظم » ، بعـد أن ثبـت في المعركة ، وجرح جـراحات مثخنة ، وعلى أخيه « نصرة الدين » ، وقبضوا على عامة الامراء ، ولم يسلم من العسكر إلا القليل . وقتل في المعركة « الملك الصالح» بن الملك الافضل ، وابـن الملك الزاهـر ، وجماعة كثيرة . واستولوا على ثقل العسكر ، ونهب الأحـلاف مـن العرب أكثر ثقل العسـكر ، وكانوا أشـد ضررا على العسـكر ، في انتهاب أموالهم من أعدائهم . ونزل « الخوارزمية » حـول « حيلان»

وامتدوا على النهر ، إلى « فافين » ، وقطعوا على جمـاعة مـن العسكر أموالا أخذوها منهم ، وابتاعوا بها أنفسهم ، وشربـوا تلك الليلة ، وقتلوا جماعة من الاسرى صبرا ، فخاف الباقون ، وقطعوا أموالا على أنفسهم ، ووزنوها فمنهم من خلص ، ومنهم من أخـذوا منه المال ، وغدروا به ، ولم يطلقوه .

واختبط بلد حلب ، وتقدم إلى مقدمي البلدة بحفظ الاسـوار ، والابواب ، وجفل أهل « الحاضر » ، ومـن كان خـارج المدينة إلى المدينة ، بما قدروا على نقله من أمتعتهم ، وبقي في البلد الاميران : « شـمس الدين لؤلؤ» ، و «عز الدين ابـن مجلي » ، في جمـاعة ، لاتبلغ مائتي فـارس يركبـون ، ويخـرجون إلى ظـاهر المدينة ، يتعرفون أخبارهم .

وبثوا سراياهم ، في أعمال حلب يشنون الغـارة فيهـا ، فبلغـت خيلهم إلى بلد «عزاز» ، و«تل باشر» و «برج الرصـاص» ، و«جبـل سمعان» ، و« بلد الحوار» وطرف العمق ، وجاؤوا أهل هذه النواحي على غفلة ، فلم يستطيعوا أن يهربوا بين أيديهم ، ومن أجفل منهـم لحقوه ، فأخذوا من المواشي ، والامتعـة ، والحـرم ، والصـبيان ، مالايحد ولايوصف ، وارتكبوا من الفاحشة مـع المسـلمين ، مـالم يفعله أحد من الكفار ، إلا ماسمع عن القرامطة .

ثم رحلوا إلى « منبج» ، وقد استعصم أهلها بـالسور ، ودربـوا المواضع التي لا سور لها ، فهجمـوها بـالسيف ، في يوم الخميس الحادي والعشرين ، من شهر ربيع الآخر ، من سنة ثمان وثلاثين ، وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا ، وخربوا دورها ، ونبشوها ، فعثـروا فيها على أموال عظيمة ، وسبوا أولادهم ونساءهم ؛ وجـاهروا الله تعالى بـالمعاصي في حـرمهم ، والتجأ لمة مـن النسـاء إلى « المسجدالجامع» ، فدخلوا عليهن ، وفحشـوا ببعضـهن في المسـجد الجامع ، وكان الواحد منهم يأخـذ المرأة ، وعلى صـدرها ولدهـا الرضيع ، فيأخذه منها ، ويضرب به الارض ، ويأخذها ، ويمضي .

ووصل الخبر بكسرة عسكر حلب إلى حمص إلى « الملك المنصور ابراهيم بن الملك المجاهد» ، وقد عزم على الدخول إلى بلد « الفرنج » الغارة ، وعنده من عسكره وعسكر دمشق مقدار ألف فارس ، فساق بمن معه من العسـكر . ووصـل إلى حلب في يوم السـبت الثـالث والعشرين ، من شهر ربيع الآخر . وخرج السـلطان وأهـل البلد ، والتقوه إلى « السعدي» ، ونزل « الهـزاز » ، ثـم أخليت له في ذلك اليوم دار « علم الدين قيصر الظاهري» . بمصـلى العيد العتيق — خارج « بابا الرابية» — فأقام بها ، واستقر الأمـر معـه على أن يستقدم العساكر ، وتجمع ، ووقع التـوثق منه ، وله ، بـالايمان والعهود .

وسيرت رسولا إلى الملك « الصالح اسماعيل بن الملك العادل » لتحليفه ، فسرت ، ووصلت إلى دمشق ، وحلفته في جمادى الآخرة من السنة ، وطلبت منه نجدة من عسكره ، زيادة على من كان منهم بحلب ، فسير نجدة أخرى ، وأطلق الأسرى « الداوية » ، الذين كانوا بحلب استكفاء لشرهم .

وحين سمع « الخوارزمية» تجمع العساكر بحلب ، عادوا من أقطاعاتهم ، وتجمعوا « بحران » ، وعزموا على العبور إلى جهة حلب ، ومعاجلتهم قبل أن يكثر جمعهم ، وظنوا أنهم يبادرون إلى صلحهم

وكان «علي بن حديثة» ، قد انفصل عن « الخوارزمية » وظاهر ابن غنام ، قد خدم بحلب ، وأمر على سائر العرب ، وزوجته « الملكة الخاتون» بعض جواريها ، وأقطعته أقطاعا ترضيه .

فسار « الخوارزمية » ، من « حران » ، في يوم الاثنين سادس عشر شهر رجب ، من سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وتتابعوا في الرحيل ، ووصلوا إلى « الرقة» ، وعبروا « الفرات » ، وبلغ خبرهم إلى حلب ، فبرز« الملك المنصور» خيمته ، وضربها شرقي حلب ، على أرض « النيرب» و«جبرين» وخرجت العساكر ، بخيمها حوله . ووصل « الخوارزمية»

ووصل «الخوارزمية » الى « الفايا» ثم إلى « دير حافر» ثم الى « الجبول» ، وامتدوا في أرض « الذقرة» . وأقام « الملك المنصور » ، والعسكر معه ، في الخيم ، ويزك الخوارزمية في « تل عرن» ، ويزك الملك المنصور على « بوشلا» ، والعربان يناوشون « الخوارزمية » .

وعاث الخوارزمية في البلد ، وأحرقوا الأبواب التي في القرى ، وأخذوا ما قدروا عليه ، وكان الفساد في هذه المرة ، أقل من المرة الاولى . وكان البلد قد أجفل ، فلم ينتهبوا إلا ما عجز أهله عن حمله ، وتأخر لقاء العسكر الخوارزمية ، لأنهم لم يتكملوا العدة ،

ورحل الخـوارزمية ، فنزلوا بقـرب « الصـافية » ، ومضـوا إلى « سرمين » ، ونهبوها ، ودخلوا « دار الدعوة» ، وكان قد اجتمع فيها أمتعة كثيرة للناس ، ظنا منهم أنهم لايجسرون على قربانها ، خوفا من « الاسماعيلية » ، فدخلوها قهرا ، ونهبوا جميع ماكان فيهـا ، ورحلوا الى « معرة النعمان» ، ونزل العسكر مـع « الملك المنصور» على « تل السلطان» ثم رحلوا الى « الحيار ».

ورحـل « الخـوارزمية » إلى « كفـرطاب » ، وجفـل البلد بين ايديهم ، واحرقوا « كفـرطاب » ، وسـاروا إلى « شـيزر» ، وتحيز اهلها إلى المدينة التي تحت القلعة ، فهجمـوا الربض ، واحتمـت المدينة التي تحت القلعة يوما ، ثم هجموها في اليوم الثاني ، ونهبوا ماامكنهم نهبه .

وارسل عليهم اهل القلعة الجـروح ، والحجـارة ، فقتلوا منهـم جماعة وافرة ، وبلغهم استعداد عسكر حلب ، للقائهم ، وأنهم قـد وقفوا بينهم وبين بـلادهم ، للقـائهم : فـطلبوا ناحية «حمـاة » ، وجاوزوها إلى جهة القبلة .

فسـارت العسـاكر الحلبية ، لقصـدهم ، فقصـدوا ناحية « سلمية» ، ثم توجهوا إلى ناحية « الرصافة» ، وبلغ خبـرهم عسـكر حلب ، فركبوا ، وطلبوا مقاطعتهم ، ووقع جمع من العـرب بهـم ، بقرب « الرصافة » ، وقد تعبت خيولهم ، وضعفت لقـوة السـير ، وقلة الزاد والعلف ، فألقوا أثقالهم كلها ، والغنائم التي كانت معهم من البلاد ، وأرسلوا خلقا ممن كانوا أسروه من بلد حلب ، وشيزر وكفر طاب وساروا ، طالبي « الرقة » مجدين في السير ، واشـتغل العرب ، ومن كان معهم من الجند ، بنهـب مـا القـوه ، ووصـل « الخوارزمية إلى الفـرات ، مقـابل « الرقـة » ـ غربـي البليل وشماليه ـ بكرة الاثنين خامس شعبان .

واما الملك المنصور وعسكر حلب ، فإنهم وصلوا إلى « صفين » ،

وساقوا سوقا قويا ، ليسبقوا الخوارزمية إلى الماء ، ويحولوا بينهم وبين العبور إلى « الرقة ، فوصلوا بعد وصول الخوارزمية بساعة ، فوجدوا الخوارزمية قد احتموا في « بستان البليل » ، وأخذوا منها الأبواب ، وجعلوها ستائر عليهم ، وحفروا خندقا عليهم ، فقاتلوهم إلى بعد العشاء ، واخذوا من الأغنام ، التي لهم ، شيئا كثيرا ، ولم يكن عندهم علوفة لدوابهم ، ولازاد لأنفسهم ، فعادوا في الليل الى منزلتهم « بصفين » ، ونام جماعة من الرجالة في « البليل » ، فوقع عليهم « الخوارزمية » فقتلوهم ؛ وعبر الخوارزمية إلى « الرقة» ، وقد هلكت دوابهم إلا القليل ، واكثرهم رجالة ؛ وسروا إلى « حران » ، وأحضروا لهم دواب ركبوها ، وتوجهوا إلى « حران » .

وأراد « الملك المنصور » العبور من جسر « قلعة جعبر » ، فلم يمكنه لقلة العلوفة ، فسار بالعساكر إلى « البيرة » ، وعبر من عبرها بالعسكر والجموع . وسار حتى نزل مابين « سروج » و « الرها» .

ووصل الخوارزمية ليكبسوا اليزك ، فعلموا بهم ، وتاهوا في الليل ، وركب العسكر ، فعادوا والعسكر في آثارهم ، الى « سروج» ، ولم ينالوا زبدة ، ووصلوا إلى « حران ، وجمعوا جمعا كثيرا ، حتى اخذوا عوام « حران» ، والزموهم بالخروج معهم ، ليكثروا بهم السواد ، ووصلوا إلى قرب « الرها » إلى جبل يقال له « جلهمان» واجتمعوا عليه ، ورتبوا عسكرهم ، وكثروا سوادهم بالجمال ، وعملوا رايات من القصب ، على الجمال ليلقوا الرعب في قلوب العسكر ، بتكثير السواد .

وركب العسكر من منزلته ، بعد أن وصل رسول ، من عسكر « الروم » ، يخبر بوصوله في النجدة ، بعد حط الخيم للرحيل ، فلم يتوقفوا وساروا ، إلى أن وصلوا إلى « الخوارزمية » ، يوم الأربعاء الحادي والعشرين ، من شهر رمضان ، سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، والتقوا ، وكسر « الخوارزمية » ، واستبيح عسكرهم ،

وهربوا ، والعساكر في آثارهم ، إلى أن حال الليل بينهم وبينهم ، فعاد العسكر ، ووصل الخوارزمية إلى « حران » ، وأخذوا نساءهم ، وهربوا ، ورتبوا في قلعة « حران » واليا من جهة « بركة خان » ، وساروا ، ووصل « الملك المنصور » والعساكر إليها ، فوكل بالقلعة من يحصرها ، وساروا خلف الخوارزمية إلى « الخابور» ، والخوارزمية منهزمون ، وألقوا أثقالهم ، وبعض أولادهم ، ونزلوا في طريقهم على « الفرات »، فجاءهم السيل في الليل ، فأغرق منهم جمعا كثيرا ، ودخلوا الى بلد « عانة » واحتموا فيه لأنه بلد الخليفة .

وزينت مدينة حلب اياما لهذه البشرى. وضربت البشائر ، ووصلت أعلامهم وأسراؤهم ، إلى حلب . واعتصمت القلعة « بحران » اياما ، ثم سلمت إلى الحلبيين ، واخرج من كان بها من الامراء ، من أمراء حلب وأقارب السلطان ،

وبادر « بدر الدين لؤلؤ» إلى « نصيبين» ، وإلى «دارا» فاستولى عليهما ، واستخلص من « دارا» عم السلطان الملك « المعظم تورانشاه» ، واستدعاه إلى الموصل ، وقدم له مراكب ، وثيابا ، وتحفا ، كثيرة ، وسيره إلى العسكر ، واستولى العسكر الحلبي ، على « حران » ، « وسروج» ، و«الرها» ، و«رأس عين» ، و«جملتين» و «الموزر » و« الرقة» ، وأعمال ذلك ، واستولى « الملك المنصور» على بلد « الخابور» و« قرقيسيا » .

واستولى نواب « صاحب الروم » على «السويداء» ، بعد استيلاء عسكر حلب عليها ، لكونها من أعمال « آمد» . ووصل نجدة ملك الروم ، بعد الكسرة ، فسيرت اليهم الخلع ، والنفقات ، وساروا إلى « آمد» ، والتقوا بعساكر الروم ، وحاصروها إلى أن اتفقوا مع صاحبها ولد « الملك الصالح» على أن أبقوا بيده « حصن كيفا »وأعماله ، وسلم اليهم « آمد» . وأقام « الخوارزمية » ببلاد الخليفة ، إلى أن دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة .

وخرجوا إلى ناحية «الموصل» ، واتفقوا مع صاحبها ، إلى أن أظهر إليهم المسألة ، وسلم اليهم « نصيبين » ، واتفقوا مع الملك « المظفر شهاب الدين غازي» بن الملك العادل - صاحب ميافارقين - وسير إلى حلب ، وأعلمهم بذلك ، وطلب موافقته ، واليمين له ، على أنه إن قصده « سلطان الروم» دافعوا عنه ، وكان قد استشعر من جهته ، فلم يوافقه الحلبيون على ذلك ، ووصل اليه « الخوارزمية » واتفقوا على قصد « آمد» ، فبرزت العساكر من حلب ، ومقدمها الملك « المعظم تورانشاه» ، وخرجت إلى « حران » في صفر ، من سنة تسع وثلاثين ، وساروا بأجمعهم إلى آمد ، ودفعوا الخوارزمية عنها ، ورحلوا عنها الى « ميافارقين» ، فأغاروا على رستاقها ، ونهبوا بلدها ، واعتصم الخوارزمية بحاضرها ، خارج البلد .

ووصلت العساكر واقامت قريبا من « ميافارقين» ، وجرت لهم معهم وقعات ، إلى أن تهادنوا ، على أن يقطع ملك « الروم» الخوارزمية ، ما كان اقطاعا لهم في بلاده ، وأنهم يكونون مقيمين في أطراف بلاده ، وعلى أن الملكة « الخاتون» بحلب ، تعطي اخاها الملك المظفر ، ماتختاره ، من غير اشتراط عليها ، وعلى أن يكونوا و« شهاب الدين غازي » سلما ، لم هو داخل في هدنتهم - وكان صاحب ماردين قد حالف الملك الناصر - ، ورجع العسكر الحلبي ، فلم ينتظم من الأمر الذي قرروه شيء ، ووصل رسل الملك « المظفر» ، ورسل « الخوارزمية . وعادوا عن غير اتفاق . وأطلق أسرى « الخوارزمية » من حلب .

وخرج الملك المظفر والخوارزمية ، ووصلوا الى بلد « الموصل » . وعاد صاحب « ماردين » الى موافقتهم ، ونزلوا على « الموصل ، ونهبوا رستاقها ، واستاقوا مواسيها ، ثم توجهوا الى ناحية « الخابور » .

واتفق الأمر على أن ورد « الملك المنصور » - صاحب حمص -

إلى حلب . وخرج السلطان « الملك الناصر » ، وأكابر المدينة ، والتقوه إلى « الوضيحي » . ووصل إلى ظاهر حلب ، في « .... » (١٨) ، ونزل بدار « علم الدين قيصر » ، وجمع العساكر ، وتوجه إلى بلاد « الجزيرة » .

ووصل « الملك المظفر » و « الخوارزمية » ـ بعد أن عبر « الملك المنصور » الفرات ـ إلى « رأس عين » ، واعتصم أهلها ، مع العسكر الذي كان بها ، وكان معهم جماعة ، من الرماة ، والجرخية ، من الفرنج ، فأمنوا أهلها ، ودخلوها ، وأخذوا من كان بها من العسكر . ورحل « الملك المنصور » والعسكر من « الفرات » الى « حران » ، فعاد الملك المظفر والخوارزمية إلى « ميارفارقين » ، وأطلقوا من كان بها ، في صحبتهم ، من العسكر الذين أخذوهم من « رأس عين » ، ثم توجه « الملك المنصور » والعسكر إلى آمد ، واجتمعوا بمن كان بها من عسكر الروم ، وأقاموا ينتظرون وصول عساكر « الروم » ، مع الدهليز ، لمنازلة « ميافارقين » .

وتوفي « الملك الحافظ أرسلان شاه » ، ابن الملك العادل ، بقلعة « عزاز » ، ونقل تابوته إلى مدينة حلب . وخرج السلطان « الملك الناصر » ، وأعيان البلد ، وصلوا عليه ، ودفن في « الفردوس » ، في المكان الذي أنشأته أخته « الملكة الخاتون » . وتسلم نواب « الملك الناصر » قلعة « عزاز » ، من نوابه من غير ممانعة ، وذلك كله ، في ذي الحجة ، من سنة تسع وثلاثين وستمائة .

واتفق أن خرج « التتار إلى « أرزن الروم » ، واشتغل « الروم » بهم ، وأغاروا إلى بلد « خرتبرت » ، وخاف « الملك المنصور » والعسكر ، من إقامتهم في تلك البلاد ، وأنهم لايأمنون من كبسة تأتي من جهة « التتار » ، فعادوا إلى « رأس عين » ، فخرج « الملك المظفر » ، « الخوارزمية » ، إلى « نصيبين » ، فخرج « الملك المنصور » إلى « الجرجب » ، وساروا إلى جهتهم . فوصلهم الخبر أنهم قد

نزلوا « الخابور» ، فساروا إلى جهتهم ، ونزلوا « المجدل» ، وكان قد انضاف إلى « الخوارزمية » جمع عظيم ، من « التركمان » ، يقدمهم أمير يقال له « ابن دودي» ، حتى بلغ من أمره أنه قال للملك المظفر : أنا أكسرهم بالجوابنة الذين معي » . وكان عدتهم سبعين ألف « جوبان» غير الخيالة من التركمان .

ورحل « الملك المظفر» ، حتى نزل قريبا من « المجد » ، فعلم به « الملك المنصور » ، فأشار الأمير « شمس لؤلؤ الأميني » بمبادرتهم ، والرحيل اليهم في تلك الساعة ، فرحلوا ، ووافوهم ، وقد نزلوا ، في يوم الخميس ، الثالث والعشرين ، من صفر ، من سنة أربعين وستمائة ، فركبوا ، والتقى الصفان ، فما هو إلا أن التقوا ، وولى « الملك المظفر» منهزما ، « والخوارزمية » ، وحالت الخيم بينهم وبينهم ، فسلموا ، وقتل منهم جماعة ، ووقع العسكر في الخيم ، والخركاهات ، ، وبها الأقمشة والنساء ، فنهبوا جميع ما في العسكر ، وأخذوا النساء وجميع ماكان معهن من الأموال ، والحلي ، والذهب ، ولم يفلت من النساء أحد .

ونزل « الملك المنصور» ، في خيمة « الملك المظفر» ، واستولى على خزانته ، وعلى جميع ماكان في وطاقه ، وغنم العسكر من الخيل ، والبغال ، والجمال ، والالآت ، والأغنام ، مالايحصى ، وبلغت الأغنام المنهوبة إلى « الموصل » و«حلب» و«حماة» و«حمص» ، بحيث بيع الرأس من الغنم في العسكر ، بأبخس الأثمان ، وضربت البشائر بحلب ، وزينت أياما سبعة ، وتوجه « الملك المنصور » ، والعساكر إلى حلب ، وخرج السلطان « الملك الناصر » إلى « قلعة جعبر» . وتوجه إلى « منبج » للقائهم ، واجتمع بهم ، فوصلوا إلى حلب ، يوم الأربعاء مستهل جمادى الأولى ، من سنة أربعين وستمائة .

وطلع « الخاتون الملكة» قرحة في مراق البطن ، وازداد ورمها ، وحدث لها حمى بسببها ، وسار « الملك المنصور » ليلة الجمعة ثالث

الشهر . وتوجه في صحبته نجدة من حلب ، لتقصد بلاد الفرنج بناحية« طرابلس » ، وقوي مرض « الملكة الخاتون» ، إلى أن توفيت الى رحمة الله تعالى ، ليلة الجمعة الحادية عشرة ، من جمادى الأولى ، من سنة أربعين وستمائة . ودفنت في الحجرة بالقلعة ، تجاه الصفة ، التي دفن فيها ولدها الملك العزيز - رحمهما الله -

وكان مولدها بقلعة حلب ، حين كانت في ولاية أبيها « الملك العادل» ، إما في سنة إحدى أو اثنتين وثمانين وخمسمائة ، وبلغني أنه كان عنده ضيف ، فلما أخبر بولادتها ، سماها « ضيفة» لذلك . وأمر السلطان « الملك الناصر» في ملكه ، ونهى باشارة وزيره « جمال الدين الأكرم» والأمير « جمال الدولة اقبال الخاتوني » .

وعلم السلطان في التواقيع ، وأشهد عليه بتمليك الأمير « جمال الدولة» نصف الملوحة ، والحصة الجارية ، في ملك بيت المال « بالناعورة» . وأقر على نفسه بالبلوغ ، وملك الوزير الحصة ، التي بأيدي نواب بيت المال « تقيل » ورحاها ، وجعل يجلس في « دار العدل» ، في كل يوم اثنين وخميس ، بعد الركوب ، وترفع إليه المظالم ، وخلع على أمرائه وكبراء البلد ، وأقطع الأمير « جمال الدولة »«عزاز» وقلعتها وما كان في يد « الملك الحافظ» بن الملك العادل ، وجميع ما كان من الحواصل ، في الأماكن المذكورة ، وذلك في الحادي والعشرين ، من جمادى الاولى من سنة أربعين وستمائة .

وعاثت « الخوارزمية »و « التركمان» على بلاد « الجزيرة» ، فخرج عسكر حلب ، ومقدمهم الأمير « جمال الدولة» في جمادى الآخرة ، وساروا ، واجتمعوا في « راس عين» . فتجمع الخوارزمية ، وانضووا إلى صاحب « ماردين » ، واحتموا بالجبل ،

فوصل عسكر حلب ، ونزلوا مقابلتهم ، تحت الجبل ، وخندقوا حولهم ، وجرت لهم معهم وقعات ، وتضرر عسكر حلب ، بالمقام ، لقلة العلوفة ، إلى أن ورد « نائب المملكة بالروم» وهو « الأمير شمس الدين الأصبهاني» إلى « شهاب الدين غازي » - والى

صاحب ماردين — والخوارزمية ، واصلح بينهم على أن يعطى صاحب « ماردين» «رأس عين» . وأرضى « ملك الروم » الخوارزمية « بخرتبرت » ، وشيء من البلاد ، والملك المظفر غازي « بخلاط» ،

وتوجهت العساكر ، — و« النائب الاصبهاني» ، في جملتها — وخرج السلطان « الملك الناصر» ، وتلقاهم إلى « منبج» ، ودخل « النائب» إلى حلب ، يوم السبت التاسع عشر من شوال .

ودخل السلطان والعسكر ، يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شوال ،وورد مع«النائب» أموال عظيمة ، لتستخدم بها العساكر القاء « التتار» ، ويطلب نجدة من البلاد عليهم ، فسير من حلب نجدة ، ومقدمها « الناصح الفارسي» ، في ذي الحجة ، من سنة أربعين وستمائة ، فالتقاهم السلطان « غياث الدين » ، «بسيواس» أحسن لقاء ، وأعطاهم عطاء سنيا ، وفوض تدبير العسكر إلى « الناصح أبي المعالي الفارسي» ، وفرح أهل « بلاد الروم» وقويت قلوبهم بنجدة حلب .

وسار « السلطان من « سيواس» إلى «أقشهر»(١٩) ، ووصله الخبر بوصول « التتار »، فسير بعض أمرائه ، وعسكر حلب ، ليكشفوهم . فوصلوا إليهم ، ونشب القتال بينهم ، ووقعت بينهم حملات ، فانهزم «التتار» ، بين أيديهم ، ثم تكاثروا ، وحملوا عليهم ، فانكسر عسكر «الروم» وثبت الحلبيون ، وجرى بينهم كرات ، وخرج عليهم كمينان ، من اليمين واليسار فأحدقوا بهم ، فلم يسلم منهم إلا من حمل ، وخرج من بينهم ، وذلك ، في يوم الخميس ، الثالث عشر من المحرم ، سنة إحدى وأربعين وستمائة .

وانهزم ملك « الروم» في الليل ، ليلة الجمعة ، وأجفل أهل بلاد الروم ، إلى حلب وأعمالها ، وعاث « التركمان» في أطراف الروم ، ونهبوا من خرج إلى الشام . (٢٠)

تراجم من كتاب

بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم

أحمديل الكردي

أحمديل بن إبراهيم ، صاحب مراغة(١) ، قيل كان اقطاعه في كل سنة أربعمائة ألف دينار ، وجنده خمسة آلاف فارس .

سيره السلطان محمد بن ملكشاه إلى الشام مع سكمان القطبي ، ومودود بن التورتكين صاحب الموصل ، ومودود مقدم العساكر ، في سنة خمس وخمسمائة ، في عسكر لقتال الفرنج ، واجتازوا على بالس ، ومضوا بالعساكر ، وافتتحوا حصونا كثيرة ، وقصدوا حلب ، فغلقت أبواب المدينة في وجوههم .

ومرض سكمان بن التورتكين ، وعاد فمات ببالس ، ثم تفرقوا بعد ذلك ، وعاد أحمديل إلى بغداد .

وفي المحرم من سنة عشر وخمسمائة كان أحمديل في مجلس السلطان محمد ، فجاءه رجل ومعه قصة يشكو فيها الظلم وهو ينتحب ، وسأله أن يوصل قصته الى السلطان فتناولها منه فضربه بسكين كانت معدة ، فوثب عليه الأمير مودود فتركه تحته ، فجاء آخر فضرب مودودا ، وجاء ثالث فتممه .

وهذا ممدود(٢) ليس بابن التورتكين ، لأن ذلك قتل بدمشق في سنة ست وخمسمائة على ما نذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى ...(١٦٨ – و) .

اسماعيل بن بوري بن طغتكين

أبو الفتح ، الملقب شمس الملوك بن تاج الملوك ، صاحب دمشق ، وليها بعد أبيه ، تاج الملوك بوري في سنة ست وعشرين وخمسمائة ، واستعاد بانياس(٣) من أيدي الفرنج بعد أن استولوا عليها ، ونازل حماة وشيزر في سنة سبع وعشرين ، وكان شجاعا ظالما .

وقرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين في تاريخه : سنة سبع وعشرين وخمسمائة : نازل اسماعيل بن تاج الملوك ، الملقب بشمس الملوك حماة وشيزر .

وقرأت بخطه أيضا فيه قال في حوادث سنة تسع وعشرين : وفيها قتل شمس الملوك اسماعيل بن بوري ، قتلته أمه زمرد خاتون ، وأجلست شهاب الدين محمودا .

وقرأت أيضا بخط مرهف بن أسامة بن منقذ مثل ذلك .

أنبأنا أبو البركات الحسن بن محمد زين الامناء قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن قال : اسماعيل بن بوري بن طغتكين ، أبو الفتح المعروف بشمس الملوك ، ولي إمرة دمشق بعد قتل أبيه بوري المعروف بتاج الملوك في العشر الأخير من رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وكان شهما مقداما مهيبا ، استرد بانياس من أيدي الكفار في يومين ، وكانت قد سلمها إليهم الاسماعيلية ، وأسعر (٤) بلاد الكفار بالغارات ، ثم مد يده إلى أخذ الاموال ، وعزم على مصادرة المتصرفين والعمال .

ولم يزل أميرا على دمشق حتى كتب إلى قسيم الدولة زنكي بن آق سنقر يستدعيه ليسلم إليه دمشق ، فخافته أمه زمرد فرتبت له من قتله في قلعة دمشق في شهر ربيع الآخر (٧٠ ـ و) من سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، ونصبت أخاه محمود بن بوري مكانه(٥) .

اسماعيل بن محمود بن زنكي بن آق سنقر

أبو الفتح الملك الصالح ، نور الدين بن الملك العادل نور الدين بن قسيم الدولة الشهيد بن قسيم الدولة التركي ، ملك حلب بعد موت أبيه في سنة تسع وستين وخمسمائة ، وهو إذ ذاك صبي لم يبلغ الحلم ، وكان بدمشق مع والده .

فختنه في هذه السنة ، وسر بختانه ، وأخرج صدقات كثيرة وكسوات للايتام ، ختن منهم جماعة وزين البلد ، وأظهر سرورا كثيرا ، وتوفي بعد ختانه بأيام في يوم الاربعاء حادي عشر شوال ، فحلف أهل دمشق لولده الملك الصالح ، ووصل كتاب على جناح طائر الى حلب الى شاذبخت الخادم والي قلعة حلب بوفاة نور الدين ، فأمر في الحال بضرب الكوسات والدبادب والبوقات ، وكتم موته ، واحضر المقدمين والاعيان والفقهاء والامراء ، وقال : هذا كتاب الطائر قد وصل يذكر فيه أن مولانا الملك العادل قد ختن ولده ، وولاه العهد بعده ، ومشى بين يديه ، فسروا بذلك ، وحمدوا الله سبحانه عليه ، ثم قال لهم : تحلفون لولده الملك الصالح كما أمر بأن حلب له ، وأن طاعتكم له وخدمتكم كما كانت لأبيه ، فاستحلف الناس على ذلك على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم في ذلك اليوم ، ولم يترك احدا منهم يزول من مكانه ، ثم قام شاذبخت الى مجلس آخر (١٨٨ ـ ط) ولبس الحداد ، وخرج اليهم وقال : يحسن عزاءكم في الملك العادل ، فإن الله سبحانه نقله الى جنات النعيم ، فأظهروا الحزن والكآبة والاسف والبكاء ، واستقر الملك الملك الصالح .

وتوجه المؤيد ابن العميد ، وعثمان زردك ، وهمام الدين الى حلب يوم الثلاثاء رابع والعشرين من شوال لاثبات ما في خزائن حلب وختمها بخاتم الملك الصالح رحمه الله .

وكان شمس الدين علي بن محمد ابن داية نور الدين بقلعة حلب مع شاذبخت وكان قد حدث نفسه بأمور ، واختلفت كلمة الامراء ، وتجهز الملك الناصر صلاح الدين من مصر للخروج الى الشام وطلب أن يكون هو الذي يتولى أمر الملك الصالح وتدبير ملكه وترتيبه ، ووقعت الفتنة بين السنة والشيعة بحلب ، ونهب الشيعة دار قطب الدين بن العجمي ، ودار بهاء الدين ابايعلى بن أمين الدولة ، ونزل أجناد القلعة من القلعة ، وأمرهم ابن الداية أن يزحفوا الى دار أبي الفضل بن الخشاب فزحفوا اليها ونهبوها ، فاختفى ابن الخشاب .

واقتضى الحال أن الاتفاق وقع على وصول الملك الصالح من دمشق الى حلب فسار فوصل ظاهر حلب في اليوم الثاني من المحرم سنة سبعين وخمسمائة ومعه سابق الدين عثمان بن الداية . فخرج بدر الدين حسن للقائه ، فقبض على سابق الدين ، وصعد الملك الصالح الى القلعة ، وظهر القاضي أبو الفضل بن الخشاب ، وركب في جمع عظيم الى القلعة ، وصعد إليها والحلبيون من اتباعه تحت القلعة ، فقتل في القلعة (١٨٩ ــ و) وتفرق من كان تحت القلعة منهم وقبض على شمس الدين علي ، وبدر الدين حسن ابني الداية ، وأودعا السجن مع أخيهم سابق الدين .

ووصل الملك الناصر من مصر الى دمشق ، فدخلها سلخ شهر ربيع الاخر وسار الى حمص وفتحها في جمادى الاولى ، فنزل الملك الصالح الى المدينة وقال لاهلها : أنا ولدكم ، وذكرهم بحقوق والده واستعان بهم على دفع الملك الناصر ، فبكى الحلبيون ودعوا له . ووعدوه من أنفسهم بكل ما يؤثره وبلغ سيف الدين غازي بن مودود ابن زنكي صاحب الموصل ماجرى ، فسير أخاه عز الدين مسعودا الى لقاء الملك الناصر ، فرحل عن حلب في مستهل شهر رجب ، وعاد الى حماه ووصل عز الدين الى حلب وأخذ من كان بها من العسكر ، وخرج الى لقاء الملك الناصر ، وتصاف العسكران عند قرون(٦) حماه في تاسع عشر شهر رمضان ، فكسر عز الدين ، وسار الملك

الناصر عقيب الكسرة ونزل على حلب ، فصولح على أن أخذ المعـرة وكفر طاب ، واخذ بارين(٧) .

وكان سـيف الدين غازي محـاصرا لأخيه عمـاد الدين زنكي ، فصالحه وسار عبر الفرات ، وراسل الملك الصـالح ، وسـعد الدين كمشتكين ، وخرج كمشتكين إليه واستقر اجتماع الملك الصالح به ، فوصل حلب وخرج الملك الصالح الى لقـائه فـالتقاه قـريب القلعـة واعتنقه وضمه إليه وبكى ، ثم أمره بـالعود الى القلعـة ، فعـاد . وسار سيف الدين ونزل بعين المباركة(٨) ، وعسـكر حلب يخـرج (١٨٩ ـ ظ) الى خدمته في كل يوم ، وصعد سيف الدين الى قلعـة حلب جريدة ، ثم رحل الى تل السلطان(٩) ومعـه عسـكر كثيف ، وطلب الملك الناصر عسكر مصر ، وسار نحوهم والتقى العسكران في بكرة الخميس العاشر من شوال سنة إحدى وسبعين وخمسـمائة ، فانكسر سيف الدين غازي ، وعاد الى حلب فأخذ منها خزانته وسار الى بلاده ، وسار الملك الناصر فتسلم منبج ، ونزل على قلعـة عزاز ففتحها ، وسـار الى حلب فنزل عليهـا في السـادس عشر مـن ذي القعدة فأقام عليها مدة ، وبذل الحلبيون جهدهم في القتال والمحاماة عن الملك الصالح .

وحكى لي والدي انهم كانوا يقاتلون عسـكر الملك الناصر حتـى يصلوا المخيم ، وانهم قبضوا على جماعة ، فكانوا يشرحون اسافل اقدامهم ليمنعهم ذلك عن المشيء ، فلا يردهم ذلك عن القتال ، فلما لم ينل من حلب ماأراد صالحهم ، وسار عنها فـأخرجوا إليه ابنة نور الدين اخت الملك الصالح ، وهي صغيرة . فقال لها : ما تشـتهين ؟ فقـــــــــالت : أريد أن تعيد الينا عزاز فـــــــــــوهبها إياها ، وكان التدبير بحلب الى والدته ، والى شـاذبخت الخـادم ، وأمير لالا ، وخالد بن القيسراني .

ثم إن الملك الصالح رحمه الله مرض بالقولنج في تاسع شهر رجب من سنة سبع وسبعين ، فأخبرني قاضي القضاة أبو المحاسن يوسف

ابن رافع بن تميم قال : في ثالث وعشرين من رجب أغلق باب القلعة لشدة مرضه ، واستدعي الامراء ، وأخذ واحد ، واحد واستحلفوا لعز الدين مسعود صاحب الموصل .

قال : وفي خامس وعشرين منه توفي رحمه الله ، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس . (١٩٠ - و) وكان الملك الصالح رحمه الله قد ربي أحسن تربية ، وكان دينا عفيفا ورعا ، كريما محبوبا الى قلوب الرعية لعدله وحسن طريقته ولين جانبه لهم .

قال لي والدي رحمه الله : إن اليوم الذي مات فيه انقلبت المدينة بالبكاء والضجيج ، ولم ير الا باك عليه ، مصاب به .

قال لي : ودفن بقلعة حلب ، ولم يزل قبره بها الى أن ملك الملك الناصر حلب وتسلم قلعتها فحول قبره الى الخانكاه التي أنشأتها والدته تحت القلعة(١٠) .

قال لي : ولما حول ، ظهر من الناس من البكاء والتأسف كيوم مات ، قال : ووجد من قبره عند نبشه شبيه برائحة المسك ، رحمه الله . وحكى لي ذلك أيضا غير والدي .

وكان رحمه الله على صغر سنه كثير الاتباع للسنة ، والنظر في العواقب ، وأخبرني والدي قال : حكى لي العفيف بن سكرة اليهودي الطبيب ، وكان يتولى معالجة الملك الصالح في مرضه الذي مات فيه ، وكان به قولنج ، قال : قلت له يوما : يامولانا والله شفاؤك في قدح من خمر ، وأنا احمله اليك سرا ، ولاتعلم به والدتك ، ولا اللالا ، ولا شاذبخت ، فقال لي : ياحكيم كنت أظنك عاقلا . نبينا صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها » وتقول لي انت هذا ، وما يؤمنني أن أشربه وأموت والقى الله تعالى ، وهو في جوفي ، والله لو جاءني جبريل وقال لي : شفاؤك فيه لما شربته ، وتوفي وله نحو من ثمانية عشر سنة .

سمعت شيخنا مـوفق الدين يعيش بـن علي بـن يعيش قـال : أخبرني(١٩٠ ـ ظ) الامير حسـام الدين محمـود بـن الختلو ، شحنة حلب ، قال : لما عزل محيي الدين بن الشهر زوري عن قضاء حلب وتوجه الى الموصـل جـاء الي الفقيه عالي الغـزنوي ، وكان يدرس بمدرسة الحدادين(١١) الى داري ، وكانت تحـت القلعـة ، فقال لي : قد تـوجه محيي الدين ابـن الشـهر زوري الى الموصـل ويحتاجون قاضيا ، فتأخذ لي قضاء حلب ، قال : فصعدت الى الملك الصالح وقلت له: هذا عالي الغزنوي فقيه جيد ، والمصـلحة أن يوليه المولى قضاء حلب ، فالتفت الي وقال : بالله وبحياتي هو سـألك في هذا ؟ فقلت له : أي والله هو جاء وسألني في ذلك ، فقال : والله مـا وقع في خاطري أن أولي قضاء حلب أحدا غيره ، ولكن حيث سأل هو الولاية والله لا وليته إياه

قرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن الحصين في تاريخه في هذه السنة ـ يعني سنة سبع وسبعين وخمسمائة ـ مات الملك الصـالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي صـاحب حلب ، وبلغني أن وفاته كانت في شهر رجب عن تسع عشرة سنة ، وكانت وفاته بقلعـة حلب .

وقرأت بخط عبد الرزاق بن أحمد الاطرابلسي الشاعر ، أن وفـاة الملك الصالح كانت في العشر الاخر من رجب من سنة سبع وسـبعين وخمسمائة .

آق سنقر بن عبد الله البرسقي

وقيل اسمه سنقر ، وكان مملوك الامير برسق مملوك السلطان ، فترقت به الحال إلى أن ولاه السلطان محمد بن محمد الموصل وولاه شحنكية بغداد ، وتقدمة عسكرها في أيام المسترشد ثم عزل عن شحنكية بغداد في سنة ثمان عشرة وخمس مائة ، فوصل الى الموصل ، واستدعاه الحلبيون الى حلب وقد حصرهم الفرنج وضاق بهم الأمر فوصل إليهم في سنة ثمان عشرة وخمس مائة ، ورحل الفرنج عنها وملك حلب وأحسن إلى اهلها ، وعدل فيهم ، وأزال المكوس والمظالم ، ووقع الي نسخة التوقيع الذي كتبه لأهل حلب بإزالة المكوس والضرائب وتعفية آثار الظلم والجور ، وكان رحمه الله على ما يحكى حسن الاحوال ، كثير الخير ، جميل النية ، كثير الصلاة والتهجد والعبادة والصوم ، وكان لايستعين في وضوءه بأحد ، وقتل رحمه الله شهيدا وهو صائم .

وكان من حديثه في ملك حلب واستيلائه عليها : أن بلك بن بهرام ابن ارتق لما قتل بمنبج ملك ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق حلب ، فباع تمرتاش بغدوين ملك الفرنج وكان أسيرا في يد بلك ، فباعه نفسه ، وهادنه وأطلقه ومات شمس الدولة إيلغازي صاحب ماردين فتوجه تمرتاش إليها واشتغل بملك ماردين وبلاد أخيه ، فلما علم بغدوين بذلك غدر بالهدنة واتفق هو ودبيس بن صدقه ، وابراهيم بن الملك رضوان بن تتش على أن نازلوا حلب ، واتفقوا على أن تكون البلاد للمسلمين وأن حلب لابراهيم بن الملك رضوان لأنها كانت لأبيه ، وأن تكون الاموال للفرنج ، وطال حصار حلب واشرفت على الاستيلاء عليها ، وبلغ بهم الضر إلى حالة عظيمة حتى اكلوا الميتات والجيف ، ووقع فيهم المرض ، فحكى لي والدي انهم كانوا في وقت الحصار مطرحين من المرض في أزقة البلد ، فإذا زحف الفرنج وضرب بوق الفزع قاموا كأنما نشطوا من عقال

وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثـم يعـود كل واحـد مـن المرضى الى فراشه ، ومازالوا في هذه الشدة إلى أن أعانهم الله بقسيم الدولة آق سنقر البرسقي ، فأخلص النية لله في نصرتهم ، ووصل الى حلب في ذي الحجة من سنة ثمان عشرة وخمس مائة ، وأغاث أهلها ورحـل العدو عنها ، وكانت رغبات الملوك فيها إذ ذاك قليلة ، لمجاورة الفرنج لها وخراب بلدها وقلة ريعه ، واحتياج من يكون مستوليا عليها إلى الخزائن والاموال والنفقة في الجند .

فاخبرني والدي أبو الحسن أحمد وعمي أبو غانم محمد ، وحديث أحدهما ربما يزيد على الاخر ، قالا : سمعنا ـ جدك يعنيان أباهما أبا الفضل هبة الله ـ يقـول : لما اشـتد الحصـار على حلب، وقلت الاقوات بها وضاق الامر بهم ، اتفق رأيهـم على أن يسـيروا أبـي القاضي أبا غانم قاضي حلب والشريف زهرة وابن الجلي الى حسـام الدين تمرتاش الى ماردين وكان هو المسـتولي على حلب وهـي في أيدي نوابه ، وقد تركها ومضى الى ماردين واشتغل بملك تلك البـلاد عن حلب ، قال : فاتفقوا على ذلك وأخرجوا أبـي والشريف وابـن الجلي ليلا من البلد ، فلما أصبح الصباح صـاح الفـرنج الى اهـل البلد : أين قاضيكم وأين شريفـكم ؟ قـال : فـانقطعت ظهـورنا وتشوشت قلوبنا ، وايقنا بأنهم ظفروا بهم ، فوصلنا منهـم كتـاب يخبر أنهم قد وصلوا إلى مكان أمن عليهم بالوصول ، فـطابت قلوب أهل حلب لذلك .

قال عمي ووالدي : فسمعنا والدنا يقول : سمعت أبي أبـا غانم يقول : لما وصلنا إلى مـاردين ودخلنا على حسـام الدين تمـرتاش وذكرنا له ما حل بأهل حلب وما هم فيه من ضيق الحصار والصـبر وعدنا بالنصر وأنه يتوجه وهو يدافعنا مـن يوم الى يوم وكان آخـر كلامه أن قال : خلوهم إذا أخذوا حلب عدت وأخذتها فقلنا في انفسنا ما هذا إلا فرصه ، وقلنا له : لاتفعـل ولاتسـلم المسـلمين الى عدو الدين ، فقال : وكيف أقدر على لقـائهم في هـذا الوقـت ؟ فقـال له

القاضي أبو غانم : وأيش هم حتى لاتقدر عليهم ونحن أهل البلد إذا وصلت إلينا نكفيك أمرهم .

قال القاضي أبو الفضل : فكتبت كتابا من حلب إلى والدي أبي غانم أخبره فيه بما حل بأهل حلب من الضر ، وأنه قد آل الامر بهم الى اكل القطاط(٢٧٤ ـ و) والكلاب والميتة فوقع الكتاب في يد تمرتاش وشق عليه وغضب وقال : انظروا الى جلد هؤلاء الفعلة الصنعة قد بلغ بهم الامر الى هذه الحالة ، وهم يكتمون ذلك ويتجلدون ويغرونني ويقولون : إذا وصلت إلينا نكفك أمرهم .

قال القاضي أبو غانم : فأمر تمرتاش بأن يوكل علينا ، فوكل بنا من يحفظنا خوفا أن ننفصل عنه الى غيره ، فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل ، وأن نمضي الى البرسقي ونستصرخ به ونستنجده ، فتحدثنا مع من يهربنا وكان للمنزل الذي كنا فيه باب يصر صريرا عظيما اذا فتح أو أغلق ، فأمرنا بعض أصحابنا أن يطرح في صائر الباب زيتا ويعالجه لنفتحه عند الحاجة ولا يعلم الجماعة الموكلون بنا إذا فتحناه بما نحن فيه ، وواعدنا الغلمان إذا جن الليل أن يسرجوا الدواب ويأتونا بها ، ونخرج خفية في جوف الليل ونركب ونمضي .

قال : وكان الزمان شتاء ، والثلج كثيرا على الارض ، قال القاضي أبو غانم : فلما نام الموكلون بنا جاء الغلمان بأسرهم الا غلامي ياقوت وأخبر غلمان رفاقي أن قيد الدابة تعسر عليه فتحه وامتنع كسره ، فضاقت صدورنا لذلك ، وقلت لأصحابي : قوموا أنتم وانتهزوا الفرصة ولاتنتظروني ، فقاموا وركبوا والدليل معهم يدلهم على الطريق ، ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نحن فيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكرا لايأخذني نوم حتى كان وقت السحر فجاءني ياقوت غلامي بالدابة وقال (٢٧٤ ـ ظ): الساعة انكسر القيد ، قال : فقمت وركبت لاأعرف الطريق ومشيت في الثلج أطلب الجهة التي أقصدها ، قال : فما طلع الصبح إلا وأنا وأصحابي

الذين سبقوني في مكان واحد وقد ساروا من أول الليل وسرت من آخره ، وكانوا قد ضلوا عن الطريق ، فنزلنا جميعا وصلينا الصبح وركبنا وحثثنا دوابنا وأعملنا السير حتى وصلنا الموصل ، فوجدنا البرسقي مريضا قد أشفي وهو يسقى أمراق الفراريج المدقوقة ، فأعلم بمجيئنا ، فاذن لنا ، فدخلنا عليه ووجدناه مريضا مدنفا ، فشكونا اليه وطلبنا منه أن يغث المسلمين ، وذكرنا له ما حل بهم من الحصار والضيق وقلة الاقوات ، وما آل إليه أمرهم ، فقال : كيف لي بالوصول الى ذلك ، وأنا على ما ترون ؟ فقلنا له : يجعل المولى في نيته وعزمه إن خلصه الله من هذا المرض أن ينصر المسلمين ، فقال : أي والله ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم اني أشهدك على أنني ان عوفيت من مرضي هذا لأنصرنهم ، قال : فما استتم ثلاثة أيام حتى فارقته الحمى واغتذى ، ونادى في عسكره للغزاة ، وبرز خيمته وخرجت عساكره وعملوا أشغالهم ، وتوجه بهم حتى اتي حلب فلما قاربها وأشرفت عساكره من المرتب رحل الفرنج ، ونزلوا على جبل جوشن وتأخروا عن المدينة ، وساق الى ان قارب المدينة وخرج اهلها الى لقائه فقصد نحو الفرنج وأهل البلد مع عسكره ، فانهزم الفرنج من يديه ، وهو يسير وراءهم على مهل حتى (٢٧٥ - و) أبعدوا عن البلد ، فأرسل الشاليشية وأمرهم برد العسكر .

قال : فجعل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يقول له : يامولانا ، لو ساق المولى خلفهم أخذناهم بأسرهم فإنهم منهزمون ، فقال له : ياقاضي كن عاقلا أتعلم أن في بلدكم ما يقوم بكم وبعسكري ، لو قدر والعياذ بالله علينا كسرة من العدو ؟ فقال : لا ، فقال : فما يؤمنا أن يكسرونا وندخل البلد ويقووا علينا ولاندفع أنفسنا ، والله تعالى قد دفع شرهم فنرجع إلى البلد ونقويه ، ونرتب أحواله وبعد ذلك نستعد لهم ويكون ما يقدره الله تعالى ونرجو إن شاء الله تعالى أننا نلقاهم ونكسرهم ، قال : ودخل البلد ورتب الأحوال وجلب الغلال وأمن الناس واستقروا .

قال : وكان ذلك في آذار فجعل الناس يأخذون الحنطة والشعير ويبلونها بالماء ويزرعونها فاستغل الناس في تلك السنة مغلا صالحا . هذا معنى ما حدثني به والدي وعمي .

ونقلت من خط عبد المنعم بن الحسن بن اللعيبة الحلبي : دخلت سنة تسع عشرة وخمس مائة ووصلت العساكر من الشرق ، ومقدمها آق سنقر البرسقي ، وكان الافرنج نزلوا على حلب في شهر رمضان سنة ثمان عشرة وخمس مائة ، وحاصروها وضيقوا على أهلها ومضى القاضي ابن العديم والاشراف ، وقوم من مقدمي أهلها مستصرخين لانه ما كان بقي من أخذها شيء ، فوصل البرسقي (٢٧٥ ـ ظ) معهم في محرم سنة تسع عشرة وخمسمائة ، ونزل بالس وكانت رسله مذ وصل الرحبة متواترة إلى حمص ودمشق يستدعي مالكها ، وسار الامير صمصام الدين عن حمص في أول ربيع الاول ، فلقي الأمير قسيم الدولة البرسقي بتل سلطان بعد انفصاله عن حلب ، وانهزم الافرنج عنها ، وكان سرى إليهم من بالس ، ووصل إلى حلب وخرج أهل حلب ونهبوا من خيام الافرنج مقدار المائة خيمة ، من على جبل جوشن ، وما بقي من هلاكهم شيء ، لكن الله أمسك أيدي الترك عنهم بمشيئته .

قرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن الحصين في تاريخه في حوادث سنة ثمان عشرة وستمائة(١٢) : وفي ثاني عشري ذي حجتها دخل البرسقي الى حلب ، وفي غده رحل الفرنج عن حلب .
قلت : وبعد أن أقام البرسقي بحلب ورتب احوالها ترك ولده بها وعاد إلى الموصل فقتله الاسماعيلية بها على ما نذكره .

قال لي شيخنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري : كان آق سنقر البرسقي خيرا ، عادلا ، لين الاخلاق حسن العشرة مع أصحابه .

قال لي : أخبرني أبي محمد بن عبد الكريم : حكى بعض الغلمان

الذين يخدمون البرسقي ، قال : كان يصلي البرسقي كل ليلة صلاة كثيرة وكان يتوضأ هو بنفسه ولا يستعين بأحد ، قال : فرأيته في بعض ليالي الشتاء بالموصل وقد قام من فراشه وعليه فرجية وبر صغيرة ، وبيده(٢٧٦ - و) ابريق نحاس ، وقد قصد دجلة ليأخذ ماء يتوضأ به ، قال : فلما رأيته قمت إليه لآخذ الابريق من يده فمنعني ، وقال : يامسكين ارجع الى مكانك فإنه برد ، فاجتهدت به لآخذ الابريق من يده ، فلم يفعل ، ولم يزل حتى ردني إلى مكاني ، ثم توضأ ووقف يصلي ، قال : وذكر لي من أحواله الحسنة أشياء يطول ذكرها .

سمعت شيخنا الصاحب قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ، يقول : كان البرسقي دينا عادلا قال : ومما يؤثر عنه أنه قال يوما لقاضي الموصل أظنه المرتضى بن الشهرزوري : أريد أن تساوي بين الرفيع والوضيع في مجلس الحكم ، وأن لايختص أولو الهيئات والمراتب بزيادة احترام في مجلس الحكم ، فقال له القاضي : وكيف لي بذلك ؟ فقال : ما لهذا طريق إلا أن ترتاد خصما يخاصمني في قضية ويدعوني الى مجلس الحكم ، وأحضر إليك وتلتزم معي ما تلتزمه مع خصمي ، وسوف أرسل إليك خصما لاتشك في أنه خصم لي ، ويدعي علي بدعوى فادعني حينئذ الى مجلس الحكم لاحضر إليك ، وجاء إلى زوجته الخاتون ابنة السلطان محمود - فيما أظن - وقال لها وكلي وكيلا يطالبني بصداقك فوكلت وكيلا ، ومضى الوكيل إلى مجلس الحكم وقال : لي خصومة مع قسيم الدولة البرسقي وأطلب حضوره إلى مجلس الحكم ، فسير القاضي إليه ودعاه فأجاب وحضر مجلس (٢٧٦ - ظ) الحكم ، فلم يقم له القاضي ، وساوى بينه وبين خصمه في ترك القيام والاحترام ، وادعى عليه الوكيل واثبت الوكالة ، واعترف البرسقي بالصداق ، فأمره القاضي بدفعه إليه فأخذه ، وقام إلى خزانته ودفع إليه الصداق ، ثم أنه أمر القاضي أن يتخذ مسمارا على باب داره يختم عليه بشمعة وعلى المسمار منقوش أجب داعي الله ، وأنه من كان له خصم حضر ، وختم

بشمعة على ذلك المسمار ويمضي بالشمعة المختومة الى خصمه كائنا من كان ، ولايجسر أحد على التخلف عن مجلس الحكم .

قرأت بخط الحافظ أبي الطاهر السلفي : وسنقر البرسقي ولي العراق سنين ، وبلغ مبلغا عظيما ، ثم ولي ديار مضر ودار ملكه الموصل ، ثم حلب ، وكثيرا من مدن الشام ، وجاهد الافرنج ، ثم قتله بعض الملاحدة ، لعنهم الله ، وكان سيفا عليهم ، قلما يرى في جيشه مثله ، رحمه الله ورضي عنه ، رأيته بالعراق في حال ولايته ، وبالشام قبل أن وليها .

قال لي عز الدين أبو الحسن بن الاثير : في سنة عشرين وخمسمائة ، وقتل آق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة ، قتله باطنية ، وكان رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به ، فقتل بعضها ونال منه الباقون أذى شديدا ، فقص رؤياه على أصحابه فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام ، فقال : لاأترك الجمعة لشيء أبدا وكان يشهدها في الجامع مع العامة فحضر الجامع على عادته ، فثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس فقتل بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله .

قرأت بخط أبي الفوارس حمدان بن عبد الرحيم في تاريخه الذي جمعه ، ووقع إلي منه أوراق نقلت منها في حوادث سنة عشرين وخمسمائة أن البرسقي سلم حلب وتدبيرها الى ولده الأمير عز الدين مسعود فدخل (٢٧٧ - و) حلب ، وأجمل السيرة وتحلى بفعل الخير ، وسار أبوه إلى الموصل والجزيرتين ، و ما هو جار من مملكته حتى دخل شهر ذي القعدة من السنة ، فلما كان يوم الجمعة تاسع الشهر قصد الجامع بالموصل ليصلي جماعة ، ويسمع الخاطب كما جرت عادته في أكثر الجمع ، فدخل الجامع وقصد المنبر فلما قرب منه وثب عليه ثمانية نفر في زي الزهاد فاخترطوا خناجر وقصدوه وسبقوا الحفظة الذين حوله فضربوه حتى أثخنوه وجرحوا قوما من حفظته وقتل الحفظة منهم قوما وقبضوا قوما وحمل

البرسقي بآخر رمقه الى بيته ، وهرب كل من في الجامع ، وبطلت صلاة الجمعة ومات الرجل من يومه وقتل أصحابه من بقي في أيديهم من الباطنية ، ولم يفلت منهم سوى شاب كان من كفر ناصح ، ضيعة من عمل عزاز من شمالي حلب .

قال حمدان فيما نقلته من خطه : وحدثني رجل منها : أنه كان له والدة عجوز لما سمعت بفتكة البرسقي ، وكانت تعرف أن ولدها من جملة من ندب لقتله فرحت واكتحلت ، وجلست مسرورة كأنه عندها يوم عيد ، وبعد أيام وصلها سالما ، فأحزنها ذلك ، وقامت جزت شعرها وسودت وجهها (٢٧٩ ـ ظ).

ألب أرسلان بن رضوان بن تتش

ألب ارسلان ، ويسمى محمد أيضا ، بن رضوان بن تتش بن ألب أرسلان بن جغري بك بن سلجوق بن تقاق ، أبو شجاع ، الملقب تاج الدولة ، الاخرس ، وألب ارسلان الذي قدمنا ذكره جد أبيه .

ملك حلب حين مات أبوه رضوان وهو صبي ، وتولى تدبير أمره خادم أبيض كان من خدم أبيه اسمه لؤلؤ(٢٨٨ ـ ظ) ويعرف باليايا ، فلم تتم له سنة حتى قتله غلمانه بالمركز من قلعة حلب ، ووافقهم على ذلك لؤلؤ اليايا .

وكان ألثغ لايحسن الكلام فدعي بالاخرس لذلك ، وكان مهورا قليل العقل ، سفاكا للدم منهمكا في المعاصي .

سمعت والدي رحمه الله يقول : جمع تاج الدولة الاخرس بن رضوان جماعة من الامراء والاجناد ، وأدخلهم إلى موضع بالقلعة شبيه بالسرداب أو المصنع لينظروه ، فلما حصلوا كلهم فيه قال لهم : ايش تقولون فيمن يضرب رقابكم كلكم ها هنا ، فتضرعوا إليه ، وأيقنوا بالقتل ، وقالوا : يامولانا نحن مماليكك وبحكمك ، وخضعوا له حتى أخرجهم ، ثم إنهم خافوا على أنفسهم منه فأجمعوا على قتله فقتلوه .

وقال لي الامير بدران بن جناح الدولة حسين بن مالك بن سالم : كان جدي مالك من جملة الامراء الذين فعل بهم ذلك ، فلما نزل من القلعة سار عن حلب إلى قلعة جعبر ، وترك المقام بحلب خوفا على نفسه .

قال : ومضى أكثر الامراء من حلب من خدمته إلى أن قتل ، عمل عليه لؤلؤ الخادم مملوك أبيه مع جماعة من الأمراء ، فقتلوه .

قال : ثم إن لؤلؤ خاف فأخذ الاموال من قلعة حلب ، وسار طالبا بلاد الشرق ، فلما وصل الى دير حافر ، قال سنقر الجكرمشي : تتركونه يقتل تاج الدولة ، ويأخذ الاموال ، ويمضي ! فصاح بالتركية – يعني – الأرنب الارنب ، فضربوه بالسهام فقتلوه .

قال : ولما هرب لؤلؤ (٢٨٩ – و) أقامت القلعة في يد آمنة خاتون بنت رضوان يومين فلما قتل لؤلؤ ، ملكوا سلطان شاه بن رضوان ، هكذا قال لي ، ولؤلؤ ، هو الذي نصب سلطان شاه بعد قتل أخيه ، وبقي سنة وثمانية أشهر يدير دولته .

وقرات في كتاب عنوان السير تأليف محمد بن عبد الملك الهمذاني قال : وولي بعده – يعني رضوان – أبو شجاع محمد بن رضوان ، وكان لايحسن أن يتكلم ، واستولى على حلب وله من العمر تسع عشرة سنة ، وقتل خلقا من أصحاب أبيه ، فاغتاله خادم كان خصيصا به اسمه لؤلؤ في رجب سنة ثمان وخمسمائة ، وكان ملكه بحلب سنة واحدة .

قال لي بدران بن حسين بن مالك : بلغني أن تاج الدولة الأخرس خرج يوما إلى عين المباركة ، ونصب بها خيمة ، وأخذ معه أربعين جارية ، ووطئهن كلهن في ذلك اليوم .

انبانا أبو نصر محمد بن هبة الله بن محمد القاضي قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي قال : ألب أرسلان بن رضوان بن تتش بن ألب أرسلان التركي ولي إمرة حلب بعد موت أبيه رضوان في جمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة وهو صبي عمره ست عشر سنة ، وتولي تدبير أمره خادم لأبيه اسمه لؤلؤ ، ورفع عن أهل حلب بعض ما كان جدد عليهم من الكلف ، وقتل أخويه ملك شاه وميريجا(١٣) ، وقتل جماعة من الباطنية ، وكانت

دعوتهم قد ظهرت في حلب أيام أبيه ، ثم كاتب (٢٨٩ ــ ظ) طغتكين أمير دمشق ، ورغب في استعطافه ، فأجابه طغتكين إلى ذلك ، ودعا له على منبر دمشق في شهر رمضان من هذه السنة ، ثم قدم ألب أرسلان في هذا الشهر دمشق ، وتلقاه طغتكين وأهل دمشق في أحسن زي ، وأنزله في قلعة دمشق ، وبالغ في إكرامه ، فأقام بها أياما ، ثم عاد إلى حلب في أول شوال ، وصحبه طغتكين ، فلما وصل حلب لم ير طغتكين ما يحب ففارقه وعاد إلى دمشق .

وساءت سيرة ألب أرسلان بحلب وانهمك في المعاصي واغتصاب الحرم وخافه لؤلؤ اليايا ، فقتله بقلعة حلب في الثامن من شهر ربيع الاخر من سنة ثمان وخمسمائة ، ونصب اخا له طفلا عمره ست سنين ، وبقي لؤلؤ بحلب إلى أن قتل في آخر سنة عشر وخمسمائة(١٤) .

قرأت في مدرج ، وقع إلي بخط العضد مرهف بن أسامة بن منقذ فيه تعاليق من الحوادث في السنين قال : وفيها ــ يعني سنة ثمان وخمسمائة ــ قتل الاخرس ابن الملك رضوان في يوم الاثنين خامس شهر ربيع الآخر .

قلت : ومن العجب العجيب الذي فيه عبرة لكل أريب أن رضوان لما ملك حلب قتل أخوين كانا له ، فقوبل في عقبه ، فلما ولي ألب أرسلان قتل أخويه ابني رضوان .

نقلت من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، وأنبأنا به أبو اليمن الكندي عنه ، قال : سنة سبع وخمسمائة ، فيها : مات الملك رضوان بحلب ، وجلس موضعه ولده تاج الملوك ألب أرسلان ، وصار أتابكه لؤلؤ الخادم ، وقتلوا من الخدم والخواص جمعا حتى استقام أمرهم ، وقبض على أخوته ، وفيها قتل تاج الدولة بن الملك رضوان أخوته ملك شاه وابراهيم صبيين أحسن الناس صورا ، وقتل خادم أبيه التونتاش المجني ، وقتل الفتكين الحاجب وخافه الناس ، فألب عليه خادمه أتابكه لؤلؤ من قتله .

ثم قال : سنة ثمان وخمسمائة ، فيهـا : قتـل تـاج الدولة الب أرسلان بن رضوان صاحب حلب بداره في قلعة حلب بتدبير أتـابكه لؤلؤ ، واجلسوا موضعه أخاه الملك سلطان شاه بن رضوان(١٥) .

كذا قال العظيمي : « ملك شاه وابراهيم » ، وهـو وهـم وإنما هـو ميريجا ، وأما ابراهيم فإنه آخر من بقي من ولد رضوان ، ولم يبـق من ذرية رضوان إلا عقبه إلى يومنا هذا .(٢٩٠ ـ و) .

ألب أرسلان بن محمود

ابن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن جغري بك التركي كان هو وأخوه فرخشاه المعروف بالخفاجي في كفالة زنكي بن آق سنقر ، وكان فرخشاه بالموصل ، وكان أبوهما السلطان محمود قد كتب لزنكي توقيعا بالشام ، فاتفق أن فرخشاه بلغ وأدرك وتأسد ، وكانت زوجة زنكي السكمانية تربيه ففهدته ، وحدثته نفسه بالملك ، وكان نصر الدين جقر نائب زنكي بالموصل ، وكان ظالما ، فركب في بعض الايام ، ودخل الى دار الملك للتسليم عليه فقتل في الدهليز ، واركبوا الملك ، ودخل القلعة فقتل بها ، وكان اخوه ألب أرسلان معتقلا بسنجار فسار زنكي الى الموصل وأخرج ألب أرسلان من معتقله بسنجار وعطف عليه وأوهمه انه كان في حبس أخيه فرخشاه وعاد زنكي الى حلب واستصحب معه ألب ارسلان ، ثم جاء الى حصار قلعة جعبر وألب أرسلان معه ، وحصرها الى ان قتل بها على ما هو مشروح في ترجمته وافترقت عساكره ، فمضى نور الدين محمود بن زنكي الى حلب ، واستمال جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الملك ألب أرسلان ، واطمعه في المملكة .

وكاتب زين الدين علي كوجك على أن يستدعي (١٠٥ ـ ظ) سيف الدين غازي بن زنكي ، وكان في خدمة السلطان مسعود بأمر والده زنكي ليأمن غائلة السلطان ومكائده ، فاتفق وصول الخبر اليه وهو بشهر زور(١٦) فدخل الموصل ، ثم دخل جمال الدين والعسكر ، وبقي الملك ألب أرسلان منفردا فاستوحش ، وطلب صوب الجزيرة ، فسيروا في طلبه من داهنه وأظهر له الطاعة والعبودية عن غازي ، وأنه اذا فارقه زالت عنه سمة الاتابكية ، فلا تشمت به أعداءه ، وأنه سيأخذ البلاد باسمك ، فأجابهم ودخل الموصل في ابهة جميلة واستقبال ونثار ، ودخل الدار فخنقوه ،

- ٧٤٠٤ -

واتفق غازي مــع نواب أبيه : زين الدين وجمــال الدين والدبيسي ، وكان ذلك في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

حسان بن كمشتكين التركي

صاحب منبج وأعمالها ، كان أميرا مذكورا شجاعا ، له صدقة ومعروف ، وابتنى بمنبج مدرسة وقفها على أصحاب الامام (١٣٠ ـ ظ) أبي حنيفة رضي الله عنه ، ووقف عليها أوقافا حسنة ، وكان قد بلغ بلك بن بهرام بن أرتق عنه كلام أوجب تغيره عليه ، فسير ابن عمه تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق بقطعة من عسكره ، وأمره بالمرور بمنبج والتقدم الى حسان بالمسير معهم الى تل(١٧) باشر ، فاذا خرج قبضوه فتوجه تمرتاش اليه في صفر من سنة ثمان عشر وخمسمائة ، وفعل ما أمره به ، وقبض على حسان ، ودخلوا منبج ، وعصى عليه الحصن فلم يسلم إليه ، وسيره الى (١٨) خرتبرت ، وحبسه في جب ، ودام على حصر منبج ، ووصل بلك بنفسه ، فضربه سهم من الحصن فقتله ، وأخرج حسان من الجب وعاد الى منبج ، ودام في ولايتها الى ان توفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وقد ذكرنا قصة حسان مع بلك مستقصاة في ترجمة بلك من هذا الكتاب .

قرات بخط مرهف بن أسامة بن منقذ في مدرج علق فيه شيئا من التاريخ ، قال : فيها قبض بلك على حسان البعلبكي ، ونزل على قلعة منبج ، وكان فيها عيسى أخو حسان ، وعذب حسان أنواع العذاب ليسلم اليه منبج ، فلم يفعل أخوه عيسى وانفذ الى جوسلين واطمعه بتسليم منبج اليه ، فجمع جمعا كثيرا ، وجاء فنصر الله بلكا عليه ، فكسره ، وعاد الى حصار منبج فأصابه سهم في ترقوته فمات ، وكان قد جعل سجن حسان في قلعة(١٩) بالو ، فلما قتل بلك نزل ابن عمه داود بن سكمان على بالو فأخذها وافرج عن حسان ، وقيل ان ذلك كان في ربيع الاول (٢٠)

جناح الدولة حسين

حسين ، ويلقب باقي الدولة ، كان تاج الدولة تتش ألب أرسلان قد ولاه حلب ومكنه فيها ، واستولى عليها حين قتل تاج الدولة ، فلما بلغ خبر قتله رضوان بن تتش ، وكان متوجها إلى أبيه عاد إلى حلب ، فسلمها إليه ، وتسلمها رضوان منه ، ومن وزير أبيه أبي القاسم بن بديع في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

انبانا أبو نصر القاضي قال : أخبرنا أبو القاسم علي بن الحسن قال : كان بدمشق ، يعني رضوان بن تتش عند توجه أبيه إلى ناحية الري ، فكتب إليه يستدعيه ، فخرج إليه ، فلما كان بالانبار بلغه قتله ، فرجع الى حلب فتسلمها من الوزير أبي القاسم وكان المستولي على أمرها باقي الدولة (١٩٧ - ظ) حسين في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

هكذا ذكر الحافظ الدمشقي(٢١) ، وهو حسين جناح الدولة صاحب حمص اتابك رضوان بن تتش ومدبره ، كان تاج الدولة تتش حين قتل قسيم الدولة آق سنقر وتسلم البلاد ، سلم حمص إلى جناح الدولة حسين ، وجعله اتابك(٢٢) عسكر ولده رضوان ، فلما قتل تاج الدولة تتش كان حسين يدبر أمر رضوان وهو صبي بحلب ، فاستشعر جناح الدولة حسين من رضوان فهرب وانفصل عنه ومضى إلى حمص ومعه زوجته أم الملك رضوان ، وعند هربه في الليل كسر باب العراق وخرج منه ، وبعد وصوله إلى حمص كبس عسكر رضوان على سرمين ، وأسر أرباب دولته وديوانه ووزيره أبا الفضل ابن الموصول ، ومات صاحب الرحبة زوج آمنة بنت قمار ، فخرج جناح الدولة إليها ليأخذها ، فوجد دقاق قد سبقه إليها في سنة ست وتسعين ، فعاد منها ، ونزل نقرة بني أسد ، وخرج إليه رضوان إلى النقرة ، واصطلحا وأخذه معه الى ظاهر حلب ، وضرب له خياما ،

واقام في ضيافته عشرة ايام ، ولم يصدف قلب أحد منهما لصاحبه ، وسار جناح الدولة حسين الى حمص واقام بها إلى أن نزل يوما لصلاة الجمعة فهجم عليه جماعة من الاسماعيلية فقتلوه ، وكان ذلك بتدبير أبي طاهر الصائغ رئيس الاسماعيلية ، تقربا إلى الملك رضوان ، لما كان قد تجدد بينه وبينه من الوحشة ، وكان حسين رجلا شجاعا باسلا ذا رأي سديد وفيه دين وخير .

انبأنا أبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي عن الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ قال : وتسلم قسيم الدولة آق سنقر مدينة حمص – يعني من خلف بن ملاعب وقلعتها ، فلما قتل قسيم الدولة ، قتله تاج الدولة ، وتسلم البلاد ، سلم حمص الى جناح الدولة حسين ، وهو أتابك عسكر ولده الملك رضوان ، فلما قتل تاج الدولة بالري استشعر جناح الدولة حسين من الملك رضوان ، وانفصل عنه ، ووصل إلى حمص فنزل من القلعة إلى الجامع يوم الجمعة للصلاة ، فلما وصل مصلاه أتاه ثلاثة نفر من عجم (٢٩٧ – ظ) الباطنية في زي الصوفية يستميحونه ، فوعدهم ، فهجموا عليه بسكاكينهم ، فقتلوه رحمه الله ، وقتلوا معه قوما من أصحابه ، وقتلوا وقتل نفر كانوا في الجامع ، من الصوفية العجم بالتهمة وهم أبرياء ، وذلك يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب سنة ست وتسعين وأربعمائة ، واختبط البلد ، وخافوا من الافرنج ، فراسلوا شمس الملوك(٢٣) ، يلتمسون منه إنفاذ من يتسلم حمص وقلعتها قبل أن يخرج إليها ويتسلمها من الافرنج من تمتد أطماعهم ، فتوجه شمس الملوك إليها ، وتسلمها ، وأحسن إلى أولاد جناح الدولة ، وسار بهم إلى دمشق ، فأقر عليهم إقطاع أبيهم .

قرأت في تاريخ أبي المغيث منقذ بن مرشد بن منقذ ، وفيها ، يعني سنة ست وتسعين وأربعمائة وثب قوم من الباطنية على جناح الدولة حسين فقتلوه وذلك يوم الجمعة ثامن وعشرين رجب ، وكان ذلك من

تدبير أبي طاهر الصائغ ، وخدمة الملك رضوان ، واستولى بعده قراجا على حمص .

قرأت في مدرج وقع إلي بالقاهرة بخط العضد مرهف بن أسامة ابن مرشد بن منقذ يتضمن ذكر واقعات ذكرها على وجه الاختصار ، قال : سنة ست وتسعين - يعني وأربعمائة - فيها قتل جناح الدولة بحمص في يوم الجمعة .

قلت : وكان قتله في الثاني والعشرين من شهر رجب بتدبير الحكيم أبي الفتح المنجم الباطني ، ورفيقه أبي طاهر ، وقيل كان ذلك بأمر رضوان ورضاه ، وبقي المنجم الباطني بعده أربعة وعشرين يوما ومات .

أنبأنا أبو اليمن الكندي عن أبي عبد الله العظيمي ، ونقلته من خطه قال : سنة ست وتسعين وأربعمائة فيها قتل الباطنية جناح الدولة بحمص في الجامع يوم الجمعة ، ستة نفر(٢٤) ، أحدهم يعرف من أهل سرمين .

وفيها مات الحكيم العجمي الباطني بحلب (١٩٨ - و) .

حمدان بن عبد الرحيم بن حمدان بن علي

ابن خلف بن هلال بن نعمان بن داود ، أبو الفوارس بن أبي الموفق التميمي الاثاربي ، ثم الحلبي ، من ولد حاجب بن زرارة التميمي . أصله من قرية من قرى حلب يقال لها معراثا الاثارب ، وكانت جارية في ملكه ومن أولاده انتقلت الى ملاكها الآن ، ثم انتقل هو وأبوه الى الاثارب فسكناها ، وكان أكثر مقامه بالجزر (٢٥) يتردد في الدولتين الاسلامية والفرنجية ، وولي في الجزر أعمالا الديوان في دولة أتابك زنكي بن آق سنقر .

وحكى لي الصدر بهاء الدين أبو محمد الحسن بن ابراهيم بن الخشاب انه لما كان الجزر في أيدي الفرنج ولوا حمدان بن عبد الرحيم فيه أعمالا وصادروه بعد ذلك .

وحكى لي حمدان بن عبد الرحيم بن سعيد بن عبد الرحيم أن عم أبيه حمدان بن عبد الرحيم تولى ديوان معرة النعمان في بعض السنين ، ووهبه صاحب الاثارب الفرنجي قرية تعرف بمعربونية من ناحية معرة مصرين ودامت في يده بعد أخذ المسلمين البلاد من أيدي الفرنج ، وسنذكر سبب تمليك القرية إياه في أثناء هذه الترجمة ، ومازالت معربونية في أيدي أهله الى زمننا .

قلت : وسكن حمدان حلب وسير رسولا الى الفرنج ، وسير الى مصر إلى الآمر الفاطمي ، وسير أيضا إلى دمشق رسولا الى طغتكين أتابك ، ودخل بغداد .

وكان هذا حمدان بن عبد الرحيم خليعا ، كثير الانهماك في الشرب في قرى الجزر ونواحيها (٢٧٦ ـ و) والديرة والمنتزهات في جبل سمعان والجبل الأعلى ، وكان قد شذا(٢٦) طرفا من الادب

واطلع على التواريخ وأيام العرب وحصل قطعة صالحة من معرفة النجوم والطب ، وصنف كتابا في اخبار بني تميم وايامهم جمع فيه فوائد كثيرة وأشعارا حسنة وضمنه ذكر مآثرهم وأخبارهم ووقائعهم وأشعارهم ، وانتسب فيه الى بني تميم، ووسمه بالمصباح ووضع كتابا في تاريخ حلب من سنة تسعين وأربعمائة ضمنه أخبار الفرنج وأيامهم وخروجهم الى الشام من السنة المذكورة وما بعدها وسماه « المفوف »(٢٧) ، وله شعر حسن لطيف الالفاظ عذب المجاجة ، وربما يقع فيه ألفاظ ملحونة ، وقع الى ديوان شعره بخطه وقد سقط منه شيء ، وكان مولده في حدود الستين والاربعمائة .

وقرا الأدب على الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي جرادة ، وروى عن أبي نصر بن الخيشي وعن أبيه عبد الرحيم ، روى عنه أبو عبد الله محمد بن الحسن الملحي ، وابن أخيه عبد الرحيم بن سعيد بن عبد الرحيم وسعيد ابن اخت نعمان رئيس معرة النعمان .

أخبرنا أبو الحسن محمد بن احمد بن علي القرطبي بدمشق ، قال : اخبرنا أبو محمد القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله ، قال : حدثنا أبو عبد الله محمد بن الحسن بن أحمد الملحي لفظا قال : حمدان بن عبد الرحيم الطبيب الاثاربي (٢٧٦ ـ ظ) وصل الى دمشق رسولا الى أتابك طغتكين ، وكان رجلا وسيما متشبثا بـأهداب الادب في طلب العلم ، كثير الدؤوب ، كريم النفس ، له بجميع من يمر به من الادباء صحبة وانس ، إجتاز به في بعض السنين الامير مهند الدولة أبو نصر الخيشي ، فأنزله بداره في الاثارب وأقام عنده أشهرا فأنشدني ما عمله الخيشي وقد وافى هلال شهر رمضان .

اله من قمر رآني معرضا
عنه واعراضي حذار وشاته

طلع الهلال فقمت أعمل حيله
في قبلة تجني جنا وجناته
فمضى وقال تصد عن قمر الهوى
لترى الهلال أرقأ إلى درجاته
فأنا وحق هواك أبعد مرتقى
منه وتأثيري كتأثيراته
أنا كامل أبدا وذلك ناقص
فاعزم بوصفي جاهدا وصفاته(٢٨)

قرأت في بعض تعليقاتي من الفوائد أن حمدان مضى الى بغداد في سنة أربعين وخمسمائة وعمل بها وأظنني نقلتهما من خطه :

ان بغداد لمن أبصرها ورآ
ها طرفة بين البلاد
فتأملها تراها عجبا نعم
بيض على قوم سواد

لو قال : تجدها ، كان أجود .

سمعت بعض بني عبد الرحيم يقول لي : إن حمدان كان سير من حلب رسولا الى مصر في أيام الآمر بن المستعلي ، وكان من عادة الرسل أنهم يجتمعون بالآمر ويجلسون بين يديه فلم يستحضر(٢٧٧ ـ و) حمدان لأنه نقل اليه انه حشيشي(٢٩) فكتب اليه أبيات يطلب الحضور وتنصل مما قرف به عنده ، فأذن له الامر فلما مثل بين يديه ارتجل وقال :

سلام ورضوان وروح ورحمة
على الامر الطهر الذكي المناسب
إمام إذا جاد الحجاب لنابه
أثرنا ثرى أقدامه بالحواجب

أخبرنا أبو الفوارس حمدان بن عبد الرحيم بن سعيد بن عبد الرحيم قال : حدثني والدي عبد الرحيم بن سعيد قال : حدثني والدي عبد الرحيم بن سعيد قال : كان عمي الرئيس أبو الفوارس حمدان قد قرأ على الشيخ أبي الحسن بن أبي جرادة النحو واللغة وعلم الهندسة والنجوم وغير ذلك ، واتفق له أن خرج الى معرا ثا الاثارب ، وهي ملكه وكانت في يد الفرنج اذا ذاك فمرض صاحب الاثارب سير مذويل ، وهو ابن أخت صاحب انطاكية ، فدخل اليه وعالجه حتى برأ ، فلما أبل من مرضه سير سير مذويل الى حمدان وقال له :تمن ، فطلب منه قرية ، فأعطاه معربونية ، فسكن فيها مدة ثلاثين سنة وعمرها واتخذها منزلا ، فأرسل اليه الشيخ أبو الحسن ابن أبي جراده يعتبه على مقامه تحت أيدي الفرنج ويلومه على ذلك فكتب اليه :

وقائل عائب إذ رأى شغفي بقرية
ليس سكناها من الشرف
ماذا دعاك الى هذا فقلت له
صروف دهر وصرف الدهر غير خفي
بخل الوفي وإعراض الرضي وتقـ
ـصير الصفي وظلم الشرف الحنفي
فإن أقمت بها فالمسك موطنه
في جلدة ومقر الدر في الصدف(٢٧٧ - ظ)

قال : فهجرته زوجته بنت المعمم وامتنعت من الخروج إليه الى القرية ، فكتب الى ابن أخيه المنتجب أبي سالم بن أبي الحسن بن عبد الرحيم :

ياأبا سالم سلمت على مـ
ـر الليالي وزادك الله قدرا
وأرتني فيك الأماني وفي صنـ
ـويك ما أبرق الغمام ودرا

خذ حديثي واعرفه لا تعدم
حرفا حرفا وسطرا سطرا
أنا شيخ هم وقد أكل الدهـ
ـر شبابي واعتضت باليسير عمرا
ساكن في خرابة بين قوم
دأبهم كلهم حراث الصحرا
لا أراهم ولا يروني إلا
مثل غمر الأجباب بالجفن مرا
واذا ما جلست فيهم فما أسـ
ـمع منهم إلا كلاما هجرا
قاس زرعي وخاس قطني
وقد أعنب ثوري ومشفني قد تفرا

هذه ألفاظ يستعملها الفلاحون فيما بينهم
ثم أنتم كنتم جواري وسما
ري فبنتم لسوء حظي طرا
والتي كانت القرينة من خمسين
عاما أبدت فراقا وهجرا
تركتني ادور في الدار كالحيـ
ـران وحدي أكابد العيش ضرا
أكنس الدار أضرم النار أجلو
القدر اطهي أدق للقدر بزرا
واقتراحي عليك أيدك اللـ
ـه بفخر منه وزادك فخرا (٢٧٨ ــ و)
أن تقضي حوائجي قبل أقضي
وتداري مأربي قبل أدرا
وإذا أنت نمت عنها وما أعددت
الخطب قبل يسرك يسرا
هات قل لي فمن لها غيركم عو
نا حلا الدهر في فمي أو أمرا

فاشتروا لي وصيفة أو غلاما
أو فردوا قرينة العمر قسرا
وكأني بكم وانتم تقولو
ن ترى عمنا يحاول أمرا
بعد عمرين عاد يهوى التصابي
ويرجي لبقله له أن يطرا
ذهب الاطيبان هيهات أن
يشمخ مهرا من كان برذون كسرا

وكانت هذه القرية معربونية حين وهبه إياها صاحب الاثارب في أواخر سنة احدى وعشرين وخمسمائة داثرة موحشة الصوى ، فنزلها واحضر إليها أهله وعمر بها دارا واحضر اليها فلاحين وأكرة ، وعمر غامرها وزرعه واستغله .

وسير إلي الصدر أبو محمد الحسن بن ابراهيم بن الخشاب كراريس من شعر حمدان بن عبد الرحيم بخطه فقرأت فيها أبياتا كتبها بعد خروجه من معربونية الى جيرانه بها وهي :

اسكان عرشين القصور عليكم
سلامي ما هبت صبا وقبول
الا هل إلى حث المطايا إليكم
وشم خزامي حربنوش سبيل
وهل غفلات العيش في دير
مرقس تعود وظل اللهو فيه ظليل
إذا ذكرت لذاتها النفس عندكم
تلاقى عليها زفرة وعويل (٢٧٨ ـ ظ)
بلاد بها أمسى الهوى غير أنني
أميل مع الاقدار حيث تميل

- ٧٤١٥ -

أنشدنا أبو الفوارس حمدان بن عبد الرحيم بن سعيد بن عبد الرحيم قال : أنشدني والدي أبو الموفق عبد الرحيم بن سعيد قال : أنشدني عمي حمدان بن عبد الرحيم لنفسه :

دير عمان ودير سابان هجـ
ـن غرامي وزدن أشجاني
إذا تذكرت فيهما زمنا
قضيته في عرام ريعاني
يالهف نفسي مما أكابده
إن لاح برق من دير حشيان
وإن بدت نفحة من الجانب
الغربي فاضت غروب أجفاني
وما سمعت الحمام في فنن
إلا وخلت الحمام فاجاني
ما اعتضت مذ غبت بدلا حاشى
وكلا ما الغدر من شاني
كيف ساوي أرضا نعمت بها
أم كيف أنسى أهلي واخواني(٣٠)
لاجلاق(٣١) رقن لي معالمها
ولا أطبتني أنهار بطنان
ولا ازدهتني في منبج فرص
راقت لغيري من آل حمدان

يعني أبا فراس بن حمدان وكان يتشوق منازله بمنبج في شعره :

اكن زماني بالجزر أذكرني
طيب زماني به فأبكاني
ياحبذا الجزر كم نعمت به
بين جنان ذوات أفنان

بين جنان قطوفها ذلك
والظل واف وطلعها دان(٢٧٩ ــ و)

قلت : وهذان الديران دير عمان ودير سابان هما خربان وفيهما بناء عجيب وصور مشرقة ، وبينهما قرية تعرف بترمانين(٣٢) من قرى جبل سمعان،أحد الديرين من قبلي القرية والاخر من شماليها ، وقد ذكر الخالديان : ابو بكر وابو عثمان ، وابو الحسن الشمشاطي في كتابي الديرة دير رمانين فقالوا : ويقال له دير سابان ، وذكروا قصة جرت فيه لعمر بن الخطاب رضي اله عنه في الجاهلية سنذكرها في ترجمة عمر رضي الله عنه ان شاء الله تعالى ، وقد غير اسم القرية لطول الزمان ودير سابان ودير عمان باللسان السرياني ومعنى دير عمان باللسان السرياني : دير الجماعة ، ودير سابان معناه دير الشيخ ، فعربا فقيل : سابان وعمان .

أخبرني أبو الفوارس بن أبي الموفق بن سعيد الحلبي قال : أخبرني سعيد بن أخت نعمان رئيس المعرة بقلعة حلب قال : قدم الرئيس حمدان بن عبد الرحيم معرة النعمان فجلس هو والرئيس نعمان رئيس المعرة خالي ، وجماعة من أهل المعرة على مجلس لهو وشرب بمعرة النعمان ، وكان عندهم مغنية تدعى ست النظر ، فافترقوا بعد هزيع من الليل وقام حمدان بن عبد الرحيم سكران وفرش له فراش بقبة الامير أبي الفتح بن أبي حصينة(٣٣) بمعرة النعمان ، وكانت قبة عالية ، ونام وقام ليقضي حاجة وهو في سكره ، فسقط من أعلى القبة الى الدار فعلم به الرئيس نعمان وأصحابه فبادروا اليه وحملوه ، وأقسم نعمان على أصحابه أن لايعلموه ، (٢٧٩ ــ ظ) بما جرى ، ووضعوه على فراشه وسكنوه ساعة ، ثم أرسلوا خلف ست النظر المغنية واحضروها فجلست عند رأسه وغنت فهب من رقدته وجلس واستطاب وقته ، فسألوه أن ينظم في ذلك شيئا فعمل :

أيا صاح قد صاح ديك الصباح
وهبت تغنيك ست النظر
بلفظ هو السحر سحر الحلال
ووجه حوى الحسن مثل القمر
وتشدوك قم وتنبه لها
وباكر صبوحك قبل البكر
افق كم تنام وهات المدام
ورقرق لنا الجام وقيت شر
اما تنظر الفجر خلف الظلام
محثا وأعلامه قد نشر
وقد سامحتك صروف الزمان
وكفت أكف القضاء والقدر
فما العذر في ترك شرب المدام
ونهب الاباريق كرا وفر
فحث الشمول بخفق الطبول
ونفخ الزنامي وقرع الوتر
فما رونق الدهر باق عليك
فخذ ما صفا واجتنب ما كدر

قال سعيد : فبقي حمدان مدة لايعلم بما جرى الى أن خطر لي أن قلت له : ما تقول يامولاي فيمن سقط من هـذا المكان الى أسـفل ؟ فقال : ما يجمع الله به شملا ، فقلت : أما تذكر ليلة « أيا صاح قـد صاح ديك الصباح » ؟ فقال : ما جرى ؟ فقصصـت عليه القصـة ، فقال : لهذا تؤلمني أعضائي من ذلك اليوم ، ثم ألقى نفسـه مـريضا فبقي على الفراش مطروحا شهرين(٢٨٠ ـ و) .

أخبرني حمدان بن عبد الرحيم بن سعيد بـن عبـد الرحيم أن عم أبيه حمدان بن عبد الرحيم توفي سـنة اثنتين وأربعين وخمسـمائة وقد جاوز الثمانين .

وبعد ذلك بأيام يسيرة وصـل الى حلب غلام السـلطان محمـود واسمه ختلغ أبه بتوقيع عز الدين مسعود بحلب ، وصـحبته عمـدة الدين

وبعد ذلك بأيام يسيرة وصل إلى حلب غلام السلطان محمود واسمه ختلغ أبه بتوقيع عز الدين مسـعود بحلب ، وصـحبته عمـدة الدين سنقر الطويل صاحب حران المعروف بـدراز ، وسـلم التـوقيع الى تومان بتسليم الموضع الى خلطابا ، فلم يقبل واحتـج بعـلامة بينه وبين عز الدين لم يتضمنها التوقيع واعترف بالخط حسـب ، وكانت العـلامة بينهمـا صـورة غزال ، لأن عز الدين كان أحسـن الناس نقوشا وتصاوير ، وكان من الذكاء على أمر عظيم ، وطال الامر على خطلبا ، وأشـاروا عليه بـالعودة فعـاد ، وكان عز الدين محـاصر الرحبة وفيها قراقش الأمير حسين ، رجل فارسي الأصل ، فاستأمن ونزل ، ونزل الموضع غيره : فمات عز الدين ، فوصل في خمسة أيام فوجد مسعودا قد مات ، وهـو مطروح على قطعة بسـاط والعسـكر مشغولون عن دفنه قد نهب بعضهم بعضا ، فعاد خـطلبا الى حلب في ثلاثة أيام ، وعرف الناس بموته ، فأدخله ابـن بـديع المدينة إلى (١٣٣ ـ و) واستنزلوا تومان من القلعـة عندما صـح عنده وفـاة صاحبه فصانعهم على ألف دينار ، وسلم القلعة ، وملكهـا خـطلبا واسـ ـــــــــــــــــــــــــــــــتحلفه الحلبيون ،

واستوثقوا منه ، وطلع المركز بتاريخ الخميس لست بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة والقمـر في الجـوزاء على قـران المريخ ، ولما صعد وبقي أياما ظهر أنه من أهـل الشر والظلم ، فتشـوشت قلوب الرعية وحمله قوم من أهل السوء على الطمع فتغير وبـدل مـا حلف عليه ، وصار يختم على تركة مـن يمـوت ، ويرفـع مـاله إليه ، ولايكشف هل له وارث أم لا ، وصح هـذا عند الأمير بـدر الدولة ، والرئيس فضائل بن بديع ، وأنه قد عول على قبضـهما ، فتحـالفا عليه ، واتفق معهما أحداث (٣٦) حلب ، فقاموا عليه ليلة الثـلاثاء ثاني شوال ليلا ، والقمر في القوس في ست درج على تسديس زحل ،

ختلغ أبه

ويقال قتلغ أبه ، وهو اسم تركي ، ويعرب فيقال : خطلبا ، وهو من مماليك السلطان محمود بن ملكشاه ، ملك حلب سنة إحدى وعشرين وخمسمائة سلمها إليه بتوقيع الى نائبه مسعود بن أق سنقر البرسقي فأقام بها ستة أشهر ومد يده في ظلم الرعية ، واجتياح أموالهم والطمع فيها ، واتهم أبا طالب عبد الرحمن بن العجمي بأن المجن بركات الفوعي أودعه وديعة ، وسجنه وسجن عمه أبا عبد الله بن العجمي ، وضيق على أبي طالب وعذبه وثقب كعبه ، وكان بدر الدولة بديع رئيس حلب معه ، واتفقوا على أن حصروا ختلغ أبه ، وقبضوا على أصحابه ووصل إليهم الى حلب إبراهيم بن الملك رضوان بن تتش ، وكان بدر الدولة زوج أخت ابراهيم ، فكانا يجبيان دخل حلب بينهما ، وطال الحصار بختلغ أبه الى نصف ذي الحجة ، واتفق الامر بينهم على أن استدعوا أتابك زنكي ، فوصل وتسلم حلب وأخذ ختلغ أبه وكحله (٣٤) ، وانتقم الله منه لأهل حلب .

قرأت بخط أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن نزار التنوخي المعروف بابن العظيمي الحلبي في كتابه « الموصل على الأصل الموصل » وهو التذكرة من سير الاسلام ، واخبرنا بذلك أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي ـ إجازة ـ (١٣٢ ـ ظ) قال : أجاز لنا أبو عبد الله بن العظيمي ، وقال : سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، ولما شرق عز الدين مسعود البرسقي ولى بحلب والقلعة الامير تومان ، فلما استقامت أموره بالشرق نفذ سرية مع أمراء منهم : ينال ، وسنقر دراز وغيره ، فلما وصلوا الى حلب لم يدخل تومان في الطاعة ، فخالفه رئيس حلب فضائل بن بديع وادخلهم الى حلب وانزلهم قلعة الشريف(٣٥) ، ووقع بين الوالي واهل حلب .

وكان غلمان خطلبا وحجابه وأصحابه في قلة ، وكلهم يشربون في البلد لانه عشية عيد الفطر عند أصدقائهم ومعارفهم ، فقبضهم الحلبيون وملأوا بهم الحبوس والمساجد ، ودار ابن الاقريطشي ، وقيدوهم وأصبحوا معتقلين ، وزحف الناس كافة إلى باب القلعة ، وحصروا القلعة ، فقاتلهم النهار أجمع ، ولما كان الليل نزل أحرق القصر الذي لم يكن في البلاد مثله ، وأتلف فيه من السقوف والابواب والاخشاب والرخام ، ودار الذهب حتى تواقع بعضه على (١٣٣ ـ ظ) بعض ، وهجم الناس صبيحة تلك الليلة فنهبوا منه كلما قدروا عليه ، وقتل من الناس جماعة ، ووصل إلى باب حلب الاميران حسان بن كمشتكين البعلبكي واخوه حسن صاحبا منبج وبزاعة بتاريخ السبت سابع شوال ، وساماه الخروج معهما فأبى ذلك على أن يسلم حلب إلى بياض البلد وابن مالك ويتسكع ، فلما أبى طال الحصار .

وصل بعد ذلك جوسلين(٣٨) الى باب حلب في مائتي فارس ونزل بابلا (٣٨) وتقدم الى باذقوسا(٣٩) ، ونفذ رسوله الى حلب بتاريخ الأحد ثامن شوال ، وطلب خدمة فصانعوه ودفعوه .

وفي اخر شوال وصل الملك إبراهيم بن رضوان ، فأدخلوه إلى حلب ، فأكرموه ونادوا بشعاره ، وخرج صاحب أنطاكية البيمند ونزل صلدع(٤٠) بتاريخ الاربعاء حادي عشر شوال ، والمراسلة تعمل ، وركبوا بكرة ذلك اليوم ، وضايقوا حلب ، وركب الملك إبراهيم بن رضوان ، وبدر الدولة ، ونفر الحلبيون والرئيس ابن بديع في خلق عظيم وتراسلوا ، فاستوت الهدنة ، ووقعت الايمان على المدة المعلومة ، وحمل إليه ما اقترحه يوم الخميس ثاني عشر شوال ، بعد أن أشرف الناس على الخطر العظيم ، ودخل رسول الافرنج قبض من حلب الف دينار ، وقرر الفا اخرى وعاد إلى أنطاكية ، وصار كلما غاب من الحلبيين رجل قد قتل أو صلب ، وطال الامر على خطلبا ، وحفروا خندقا حول القلعة ، فكلما خرج منها رجل أو دخل إليها أخذ إلى نصف ذي الحجة وصل

(١٣٤ ـ و) الامير سنقر دراز والامير حسن قـراقش وجمـاعة أمراء في عسكر قوي إلى باب حلب ، واتفق الامر على أن يسير بـدر الدولةوخطلبا الى باب الموصل الى المولى الاصفهسلار (٤١) الملك عماد الدين قسـيم الدولة زنكي ابـن قسـيم الدولة آق سـنقر إلى الموصـــــــــــــــل ، فلمـــــــــــــــن ولى عاد

الى منصبه ، فأقام بحلب الامير حسن قراقش ، والرئيس فضـائل ابن بديع ، فأصلح عماد الدين بينهما ، ولم يوقع لاحد منهما ، وطمع بملك البلد وسير سرية إلى حلب مع الأمير الحـاجب صـلاح الدين العمادي ، فوصل إلى حلب ، وأطلع إلى القلعة واليا من قبله ، ورتب الأمور ، وجرت على يده على السداد .

وقال ابن العظيمي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، في جمـادى الآخرة ، وصل قسيم الدولة أبـو سـعيد زنكي إلى حلب ، وملكهـا وصعد القلعة ، وبات بها ، وعاد إلى نقـرة بني أسـد وقبض على خطلبا وحمله إلى حلب وسلمه إلى عدوه ابن بديع فكحلوه بـداره في النصف من رجب(٤٢) .

خلف بن ملاعب

خلف بن ملاعب الأشهبي الملقب سيف الدولة ، كان كريما شجاعا ، جبارا ظالما ، يقطع الطريق ، ويخيف السبيل ، وإليه تنسب قبة ابن ملاعب ، وهي حصن دثر في طرف بلد حلب ، بينها وبين سلمية ، وكان في يده حمص وافامية ، فكتب الولاة بالشام إلى السلطان ملك شاه ، وشكو إليه خلف بن ملاعب ، فكتب إلى أخيه تاج الدولة تتش صاحب دمشق ، وإلى قسيم الدولة آق سنقر صاحب حلب ، وإلى (٢٢٠ ـ ظ) بزان صاحب الرها ، وإلى يغي سغان صاحب أنطاكية ، يأمرهم بمحاصرته ، وانتزاع معاقله من يده وحمله إليه .

فاجتمعوا عليه وهو بحمص ، وسبقهم بزان فلم يمكنه من الخروج من حمص ، فافتتحوا حمص ، وسيروا خلف بن ملاعب في قفص حديد إلى السلطان ملك شاه ، فأطلق حمص لأخيه تتش ، وحبس ابن ملاعب ، وبقي في حبسه إلى أن أطلقته خاتون امرأة السلطان ملك شاه .

فمضى إلى مصر ، إلى الأفضل أمير الجيوش جماعة من أهل أفامية في سنة تسع وثمانين ، وقيل سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وكان ولائهم فيها (له) ، والتمسوا منه واليا يكون عليهم ، ووقع اقتراحهم على ابن ملاعب .

فوصل في ذي القعدة من إحدى السنتين ، ودخل أفامية وملكها ، وتجددت وحشة بينه وبين ابن منقذ ، أظنه أبا المرهف نصر بن علي ابن منقذ ، وكان قسيم الدولة آق سنقر حين فتح أفامية جعله بها ، واتصلت غارات ابن ملاعب على شيزر ، وكفر طاب ، والجسر ،

وزحف ابن منقذ إليه ومعه خلق ورجالة ، فظفر بهم ابن ملاعب ، وكان في نفر يسير ، فقتل جماعة وأسر جماعة ، وباعهم أنفسهم ، واستقرت الحال بينهم بعد ذلك .

قرأت في تاريخ أبي المغيث منقذ بن مرشد بن علي بن منقذ الذي ذيل به تاريخ أبي غالب همام بن المهذب المعري ، قال : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة فيها : كتب ولاة الشام إلى السلطان ملك شاه يشكون ما يلقونه من خلف بن ملاعب (٢٢١ - و) بحمص من قطع الطريق ، وإخافة السبيل ، فأمر السلطان أن يسير بزان فنزل قريبا من حمص فكتمه ما يريد حتى بلغ منه غرضا ، ودخل إليه رسوله ، فقال : عاش لك ملاعب ، ثم حصر بزان المدينة ، واجتمع عليها كل من في الشام فافتتحت وكل من الأمراء المذكورين طلبها ، فكتبوا جميعا إلى السلطان فأنعم بها على أخيه تاج الدولة ، وأمر السلطان بحمل خلف بن ملاعب في قفص من حديد إلى قلعة أصبهان ، فحمل وحبس بها حتى مات السلطان .

وقال : سنة أربع وثمانين فيها : نزل قسيم الدولة آق سنقر على أفامية وملكها ، وسلمها إلى عمي عز الدولة أبي المرهف نصر بن سديد الملك ، وذلك في شعبان .

أنبأنا أبو محمد بن عبد الله الأسدي قال : كتب إلينا أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ قال : كانت حمص في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة لسيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبي ، فنزل على سلمية ، وأخذ الشريف إبراهيم الهاشمي فرماه في المنجنيق إلى برج سلمية ، وأخذ قوما من بني عمه مأسورين ، فمضى من بقي منهم ، واستغاثوا عليه بالخليفة والسلطان ملك شاه فخرج أمر السلطان إلى أمراء الشام : تاج الدولة تتش صاحب دمشق ، وقسيم الدولة صاحب حلب ، وبزان بن ألب صاحب الرها ، ويغي سغان صاحب أنطاكية ، بالنزول على حمص والقبض على سيف الدولة خلف بن ملاعب (٢٢١ - ظ) وتسييره إليه ، فنزلوا على

حمص وحاصروه ، وأخذوه إلى السلطان فأقام سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، فأطلقته خاتون امرأة السلطان ، وتسلم قسيم الدولة آق سنقر مدينة حمص وقلعتها ، فلما قتل قسيم الدولة : قتله تاج الدولة ، وتسلم البلاد ، وسلم حمص إلى جناح الدولة حسين .

أنبأنا أبو اليمن زيد بن الحسن قال : كتب إلينا أبو عبد الله محمد بن علي العظيمي وقال : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، وفيها سار الأمير قسيم الدولة ، وبزان وغسيان وتاج الدولة ، ونزلوا على حمص وفتحوها من يد ابن ملاعب ، وحملوا ابن ملاعب في قفص حديد إلى عند السلطان فلما هلك السلطان خلص ابن ملاعب وصعد إلى مصر ، وعاد منها تسلم قلعة أفامية وأقام بها سبع عشر سنة وقتل .

وقال : سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، فيها : تسلم الأمير قسيم الدولة قلعة أفامية من يد ابن ملاعب ، وترك فيها بعض بني منقذ ، وعاد إلى حلب في العاشر من رجب(٤٣) .

قلت هكذا ذكر العظيمي ونقلته من خطه في كتاب في التاريخ جمعه وسماه المؤصل على الأصل المؤصل ، قال : « وعاد منها ، يعني من مصر ، تسلم قلعة أفامية سبعة عشر سنة » ، وهذا وهم ، فإن قتل ابن ملاعب ظنه تسع وتسعين وعوده من مصر فيها ، وإن كان أراد ولايته الأولى ، فالكلام غير مستقيم لأنه أخبر (٢٢٢ - و) أنه تسلم قلعة أفامية وأقام بها سبع عشر سنة وقتل ، وقد خرجت عن يده في سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وقتل سنة تسع وتسعين ، فبقيت خارجة عن يده قبل قتله أربع سنين وثلاثة أشهر ، وكانت أفامية في يد ابن ملاعب مع حمص في أيام أبي المكارم مسلم بن قريش ، فإنني قرأت في كتاب العظيمي بخطه قال : سنة خمس وسبعين وأربعمائة ، وفيها في صفر حاصر شرف الدولة ابن ملاعب(٤٤) .

قرات في تاريخ أبي المغيث منقذ بن مرشد الذي نيل به تاريخ ابن المهذب قال : في سنة ثمان وثمانين واربعمائة ، وفيها ، طلع قوم من اهل افامية إلى الافضل يسألونه أن يولي عليهم سيف الدولة خلف ابن ملاعب، فنهاهم وقال : لاتفعلوا وحذرهم من فسقه ، فقالوا : نحن نجعل عيالاتنا لنا ليلة وله ليلة ، فسيره معهم ووصل أفامية ليلة الاربعاء الثاني والعشرين من ذي القعدة ....

قرأت بخط عمر بن محمد العليمي المعروف بابن حوائج كش الحافظ ، واخبرنا به إجازة عنه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن النسابة ، وذكر العظيمي أنه نقله من خط ابن زريق ، يعني أبا الحسن يحيى بن علي بن محمد بن عبد اللطيف بن زريق وكان عالما بالتأريخ ، قال : وقدم إلى أفامية ، يعني خلف بن ملاعب ، من مصر سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، لأن أهل أفامية ، مضوا إلى مصر (٢٢٢ ـ ظ) يلتمسون واليا يكون عليهم ، ووقع اقتراحهم عليه ، فوصل في يوم الأربعاء الثامن من ذي القعدة ودخلها وملكها .

قال : ثم قتل في السادس والعشرين من جمادى الاولى سنة تسع وتسعين ، قتلته جماعة وصلوا من حلب من أصحاب أبي طاهر الصائغ القائم بمذهب الباطنية ، بعد موت المنجم المعروف بالحكيم بحلب ، وكانوا من أهل سرمين ، وقاموا فيها بموافقة رجل داع كان بأفامية يقال له ابن القنج أصله من سرمين ، وأقام بأفامية يحكم بين أهلها ، وقرر ذلك مع أهلها ، وأحضر هؤلاء ، ونقب أهلها نقبا في سورها حتى قارب الوصول ، فلما وصل هؤلاء لقيهم ابن ملاعب ، فأهدوا له فرسا وبغلة كانوا أخذوها من أفرنج لقوهم في الطريق ، فأعلموه انهم جاءوا بنية الغزو إلى بلد الروم ، وباتوا بظاهر الحصن إلى الليل ، وأدخلوه من ذلك النقب ، ورتبوا بعضهم على دور أولاده لئلا يخرجوا ينجدونه ، وصعدوا ، فخرج إليهم فطعن في بطنه ، فرمى بنفسه من القلة يريد دار بعض أولاده ، فطعن أخرى ، ومات بعد ساعة ، وحين صاح الصائح على القلة ، ونادى

بشعار رضوان بن تاج الدولة ، ترامى أولاده وخاصته من السور ، فبعضهم قتل ، وأخذ أكثرهم فيما بين أفامية وشيزر ، وقتلوا ، وسلم الله مصبح ، ووصل إلى شيزر وأقام عند ابن منقذ مدة ، وأطلقه .

ودخل طغتكين إلى أفامية عقيب هذا الحادث طمعا في الحصن ومعه أخ لهذا ابن القنج من سرمين (٢٢٣ - و) كان مأسورا ، فقرروا له شيئا ، وعاد عنها ، فوصل بعض أولاد ابن ملاعب الذين كانوا بدمشق ، والذي كان بشيزر فذكروا لطغتكين قلة القوت بها ، فعاد في رمضان فنزل عليها ، فأقام إلى آخر السنة ، وفتحها في الثالث عشر من محرم سنة خمسمائة ، وأسر ابن القنج والصايغ ، وعاقب ابن القنج وقتله ، وأطلق بعض أهل أفامية .

أنبأنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي الفنكي ، قال : أخبرنا مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني في كتابه أن قوما من أهل أفامية من الاسماعيلية عملوا على مالكها وتحيلوا عليه بأن جاء منهم ستة نفر وقد حصلوا حصانا وبغلة وعددا أفرنجية وتراسا وأردية ، وخرجوا من بلد حلب إلى أفامية بتلك العدة والدواب ، وقالوا لسيف الدولة خلف بن ملاعب - وكان رجلا كريما شجاعا - جئنا قاصدين خدمتك ، فلقينا فارسا من الافرنج ، فقتلناه ، وجئنا إليك بحصانه وبغلته وعدته ، فأكرمهم وأنزلهم في حصن أفامية ، في دار مجاورة السور ، فنقبوا السور ، وواعدوا الفاميين إلى ليلة الأحد الرابع والشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، فطلع الفاميون من ذلك النقب ، فقتلوا خلف بن ملاعب ، وملكوا حصن أفامية .

قرأت بخط العضد أبي الفوارس مرهف بن أسامة بن مرشد بن منقذ : سنة تسع وتسعين وأربعمائة (٢٢٣ - ظ) فيها قفز أهل أفامية مع القاضي ابن القنج على سيف الدولة خلف بن ملاعب وقتلوه ، وقتلوا أولاده في الرابع والعشرين من جمادى الأولى .

-٧٤٢٧-

نقلت من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي في تاريخه ، وأنبأنا به أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي ، والمؤيد بن محمد الطوسي وغيرهما عنه قال : سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وفيها : عمل الباطنية على قلعة افامية ، وقتلوا ابن ملاعب بها غيلة ، وملكوا القلعة ، فعاجلهم الفرنج ونزلوا عليهم ، وحصروهم بها إلى أن أخذوها(٤٥) .

دبيس بن صدقة

ابن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد بن مرثد بن زنجي بن ريان بن عدني بن عذور وقيل ريان عذور بن عدي بن جلد بن حي بن عمرو بن أبي المظفار مالك بن عوف بن معاوية بن كسر بن ناشرة بن سعد بن سواءة بن مالك بن سعد بن ثعلبة بن ذودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، الأمير أبو الأغر بن الأمير سند الدولة علي الأسدي صاحب الحلة المزيدية ، هكذا ذكر نسبه أبو السعادات محمد بن عبد الرحمن فيما أخبرنا به أبو العباس أحمد بن عبد الله بن علوان الأسدي - إجازه عنه - ذكره في شرح المقامات .

وذكر الأبيوردي أنه أبو الأغر دبيس ملك العرب بن سيف الدولة صدقه بن منصور بهاء الدولة بن دبيس نور الدولة بن علي الأمير بن مزيد الأمير بن مرشد الأمير بن الريان بن عدني بن خالد بن مالك بن حي بن عبادة بن مالك بن عوف بن معاوية بن كسر بن ناشرة بن نصر بن سواء بن مالك بن ثعلبة بن ذودان بن أسد معاوية بن كسر ابن ناشرة بن نصر بن سواء بن مالك بن ثعلبة بن ذودان بن اسد ابن خزيمة ، قدم حلب ونزل على ظاهرها في نصف شعبان سنة ثمان عشرة وخمسمائة وحاصرها مع ابراهيم بن الملك رضوان ومع الملك بغدوين الرويس الفرنجي فطال حصارهم لها ، واجتمع عليها ثلاث رايات لهؤلاء الملوك الثلاث الى أن تداركها الله (٣٠٦ - و) بأق سنقر البرسقي فوصل الى حلب ورحلوا (٤٦) عنها وقدم دبيس مرة ثانية الى حلب حين أسر بنواحي صرخد أسره ابن طغتكين فباعه على زنكي بن آق سنقر صاحب حلب بخمسين ألف دينار(٤٧) وخاف من زنكي فلما وصل إلى حلب أطلقه وأكرمه واحترمه وأنزله في دار لاجين بحلب وأعطاه مائة الف دينار وخلع عليه خلعا سنية .

فأما منازلة دبيس حلب فكان سببها أن دبيسا نهب بلد بغداد في سنة أربع عشرة وخمسمائة وسار بنفسه إلى بغداد وضرب خيمته بازاء دار الخليفة المسترشد ، وأظهر ما في نفسه منه وتهدد المسترشد ، وذكر له أنه طيف برأس أبيه صدقه ، فأنفذ المسترشد إليه شيخ الشيوخ اسماعيل برسالة ضمن فيها أن يصلح بينه وبين السلطان محمود فكف عن الأذى ، وسار إلى الحلة في رجب ووصل السلطان محمود إلى بغداد ، فأنفذ دبيس زوجته بنت عميد الدولة بن جهير ومعها أموال عظيمة وهدايا سنية ، وسأل العفو فأجابه السلطان إلى ذلك على قاعدة لم يرض بها ، ولم يجب إليها ، ثم أنه نهب جشير(٤٨)السلطان ، فسار السلطان الى الحلة لمحاربته فأرسل دبيس نساءه وأمواله على البطائح ، وسار إلى إيلغازي بن أرتق والتجأ إليه وأقام إلى سنة خمس عشرة وخمسمائة ووصل السلطان الى الحلة ولم ير بها أحدا ، فعاد وعاد دبيس من مستقره عند إيلغازي إلى الحلة ودخلها وملكها . وسير دبيس إلى المسترشد والسلطان يعتذر إليهما فلم يقبلا عذره ، وسيرا عسكرا عظيما إليه ، ففارق الحلة وقصد الأزيز(٤٩) ، فوصل العسكر الحلة ، وحفظوا الطريق على دبيس فسير الى مقدم العسكر ، برنقش يستعطفه وشرط أن ينفذ أخاه منصورا على سبيل الرهن ويدخل في الطاعة (٣٠٦ ـ ظ) فأجابه ، وعاد بالعسكر في سنة ست عشرة ، وكان دبيس قد تزوج بنت ايلغازي بماردين حين كان بها ، وحملها إلى الحلة فسير المسترشد إلى ايلغازي يأمره بفسخ نكاح ابنته من دبيس ، وذكر أنه كان لها زوج من السلجوقية ، وقد دخل بها فقبض عليه السلطان واعتقله ، وكان الرسول إلى إيلغازي القاضي الهيتي فعرفه أن النكاح فاسد فأجاب بجواب أرضاه ، وأما دبيس فكاتب المسترشد يستميله ، فعلم أن ذلك خديعة وكان السلطان ببغداد فحثه المسترشد على قتال دبيس فسير إليه جيشا فأحرق دار أبيه بالحلة ، وخرج منها إلى النيل فأخذ ما فيها من الميرة ، ودخل الازيز فدخل العسكر الحلة ، فرأوها خالية فقصدوه إلى الأزيز وحصروه . فسير أخاه منصور إلى خدمة السلطان ، وخرج بعسكره ووقف بإزاء العسكر وتحالف العسكران ، وعاد عسكر بغداد ومعهم منصور ، ثم

إن دبيس واقع آق سنقر البرسقي على الفرات وتبعه إلى بغداد ، وسأل المسترشد الأمان وأن يكون على الطاعة بشرط القبض على الوزير أبي علي بن صدقة ، فقبض عليه ، وسمع السلطان محمود بالوقعة مع البرسقي فقبض على منصور وولده وحبسهما ببعض القلاع فجز دبيس شعره ولبس السواد ، وأذى الرعية ، ونهب البلاد وأغار على كل ما كان للمسترشد فأمر المسترشد العسكر بالخروج ، وخرج بنفسه وعبأ البرسقي عسكر بغداد ، ووقف المسترشد وراءه وبين يديه الدعاة والمقرئون وبين يدي دبيس الاماء والمخانيث بالدفوف والملاهي(٣٠٧ ـ و) فحمل العسكر الدبيسي على عسكر الخليفة

فكشفه مرتين ، فحمل زنكي بن آق سنقر فهزم عسكر دبيس وأسر أميرين من عسكره ، وانهزم دبيس بعسكره وألقوا أنفسهم في الماء ، وكان ما نذكره ، ودخل المسترشد ظافرا يوم عاشوراء ، وطلب دبيس غزيه والمنتفق(٥٠) واتفق معهم ، وتوجه إلى البصرة فدخلها وقتل أميرها ، ثم خاف فخرج عنها وسار على البرية وحمل ما قدر عليه من أمواله ، ووفد على مالك بن سالم بن مالك بقلعة جعبر فاستجار به فأجاره وقبله ، وأغضب المسترشد والسلطان ، ثم إن دبيسا صادق جوسلين وبغدوين الفرنجيين ، وصافاهما بوساطة مالك له معهما ، واتفق مع الفرنج على حصار حلب

وكاتب قوما من أهل حلب وأنفذ لهم جملة دنانير ، وسامهم تسليمها إليه فكشف ذلك رئيسهما أبو الفضائل بن بديع ، فأطلع عليه تمرتاش بن إيلغازي صاحب حلب ، فأخذهم وعذبهم كل عذاب أمكنه ، وشنق بعضهم وصادر بعضا وأحرق بعضا ، وطمع دبيس بحلب لغيبة تمرتاش بماردين واشتغاله بمملكتها بعد أن خرج تمرتاش من حلب في الخامس والعشرين من رجب سنة ثمان عشرة وخمسمائة وأخرج بغدوين من السجن وقرر عليه ثمانين ألف دينار وأن يسلم قلعة عزاز إليه وحلفه على ذلك ، ورهن جماعة من الفرنج إثني عشر نفسا أحدهم ابن الجوسلين ، وعجل من المال عشرين ألف دينار ، فلما أن خرج غدر ونكث وعزم على قصد حلب

وحصارها ورحل إلى نهر قويق وافسد كلما عليه ، وضـايق حلب ، وكان دبيس قد مضى إلى تل باشر إلى الجوسلين ، فبـرزا مـن تـل باشر وقصدا ناحية الوادي وافسدا ما فيه بما قيمته (٣٠٧ ـ ظ) مائة الف دينار .

واخبرني والدي رحمه الله عن أبيه أن دبيس بـن صـدقة عاهـد الفرنج على أنهم يحاصرون حلب وتكون الأنفس والأمـوال للفـرنج والبلاد لدبيس .

قال لي والدي عن أبيه : ولما طال الحصار بهـم وقلت أزوادهـم وقع فيهم المرض فـكان يمـر المار في الأسـواق فيجـد المرضى على الدكاكين ، فإذا قارب الفرنج والعسكر البلد للقتال ووقـع الصـائح قام المرضى مع شدة مرضهم وقاتلوا أشد قتال وردوا العدو .

قال لي والدي : وبلغني أن عوام حلب كانوا يصـعدون أسـوار المدينة عند حصار دبيس ويضربـون بـطبل صـغير ويصـيحون : يادبيس يانحيس .

وتوجه جد أبي القاضي ابـو غانم والشريف النقيب وابـن الجلي يستغيثون إلى تمرتاش فما أغاثهم ، فهربوا إلى الموصل من ماردين وحضروا عند البرسقي وطلبوا معونتهم فـأجابهم ووصـل إلى حلب ورحلهم عنها ، وقد ذكرنا ذلك في ترجمة البرسقي . ثـم إن دبيسـا مضى إلى سنجر السلطان فسلمه سنجر إلى السلطان محمود في سنة ثلاث وعشرين ، وأوصاه فأخذه صحبته فأخذ دبيس ولده في السـنة المذكورة حين مرض السلطان محمـود وسـار إلى العـراق ، وكان مجاهد الدين قد أقطع الحلة مضافة إلى شحنكية بغداد ، فلما سمع بهروز نائبه بحركة دبيس هـرب عن الحلة فـدخلها دبيس في شـهر رمضان وقصد عسكر المسترشد ، وسار محمود إلى العـراق وقـد عوفي لاجل قتال دبيس ففارق دبيس العـراق وقصـد البصرة ومعـه جمع كثير فـاستولى على البصرة فـأنفذ (٣٠٨ ـ و) السـلطان محمود إليه عسكرا ففارق البصرة وطلب البرية ووصل بعـد ذلك إلى

الشام خوفا من أن يسلموه إلى المسترشد فوصل إلى أرض سرمين هاربا على نجائب في نفر يسير ، فالتجأ إلى الفرنج فأكرموه وانقلب إلى عزاز ، واجتمع بجوسلين وكان صديقه فأكرمه ودفعه عند هربه إلى قلعة ابن مالك ، وسيرت صاحبة قلعة صلخد بعد فقد زوجها إلى الامير دبيس تطلبه لتتزوجه فسار نحو حلة مرى بن ربيعة ، ثم إنها تزوجت أمين الدولة صاحب بصرى ، وسار دبيس للامر الذي طلبته ، فوجد الأمر بخلاف ذلك فنزل بحلة أخي مرى ، وكان بدمشق عند تاج الملوك فوصل إليه رسول نائبه بالحلة يخبره بدبيس ، وكانت الحلة نازلة بموضع اسمه قصم ، فسأله تاج الملوك فأعلمه ، فقال : تخرج إليه الساعة وتشغله عن المسير بحجة الضيافة ، فخرج إليه وشغله بالضيافة ، ووصل عسكر دمشق فقبضوه وكل من معه ، فسير زنكي وطلبه ، فسير إليه إلى حلب .

وقرأت بخط الوزير جمال الدين عبد الواحد بن مسعود بن الحصين وأنبأنا به - إجازة عنه أبو عبد الله محمد بن محمود بن النجار - قال : في سنة أربع وعشرين وخمسمائة وجد دبيس بن صدقة ضالا بحلة حسان بن مكتوم بأعمال صرخد ، فأسره ابن طغتدكين صاحب دمشق وباعه على زنكي بن آق سنقر صاحب حلب بخمسين ألف دينار ، وكان زنكي عدوه فما شك دبيس أنه ابتاعه لهلاكه فلما حصل دبيس في قبضة زنكي أكرمه (٣٠٨ - ظ) وخوله وأطلقه وروسل زنكي من دار الخلافة بتسليم دبيس فقبض على الرسول وهو سديد الدولة محمد بن عبد الكريم الانباري كاتب الانشاء .

وقيل بأن زنكي اشتراه بمائة ألف دينار ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

اخبرنا ابو اليمن الكندي - إجازة - عن الاستاذ محمد بن علي العظيمي ، ونقلته من خط العظيمي قال : وفي هذه السنة يعني سنة أربع وخمسمائة اظهر العصيان دبيس بن صدقة الاسدي ملك العرب على الخليفة المسترشد بالله ببغداد ، وعلى السلطان محمود ، فسار

إليه محمود وكسره ونهب الحلة ، وهرب دبيس إلى الشام فأجاره شهاب الدين بن مالك بالدوسريه(٥١) وأكرمه وسيره إلى نجم الدين بن أرتق إلى ماردين ، فأكرمه وصارت بينهما زيجة واعاده إلى الحلة .

وقال : وفي جمادى الأولى – يعني – من سنة خمس عشرة كانت كسرة المسلمين ببلاد الكرج ، وذلك أن داود ملك الكرج كان قد ظهر على الملك طغرل من الدروب فاستنجد بنجم الدين بن أرتق وجموع التركمان وصحبتهم دبيس بن صدقة بن مزيد فانكفت الكرج في الدروب الضيقة وتبعهم خلق من المسلمين فأخذ الكرج عليهم الدروب ورضخوهم بالصخر فانكسروا .

وقال العظيمي : وفي يوم الاربعاء سادس عشر من جمادى الآخرة – يعني – من سنة ثماني عشرة وخمسمائةعبر الامير دبيس بن صدقة بن مزيد من قلعة منبج ونزل بظاهر منبج وكان له عمل في حلب ومكاتبه فانكشفت على يد فضائل (٣٠٩ – و) بن صاعد بن بديع ، وقتل بعض القوم ، ونفي بعضا وكان بها التمرتاش حسام الدين بن نجم الدين إيلغازي بن أرتق .

قال : وفي يوم الجمعة سابع عشر رجب كان خلاص البغدوين – يعني ملك الفرنج من شيزر ، وكان استقر عليه ثمانون الف دينار وقلعة عزاز ، وحلف على ذلك ، ورهن جماعة من الفرنج اثني عشر نفسا أحدهم ابن اجوسلين ، وعجل من المال عشرين الف دينار فما هو الا ان خرج حتى غدر ونكث ونفذ يعتذر إلى الأمير حسام الدين بن نجم الدين بأن البطريرك لم يوافقه على تسليم عزاز ، وأن خطيئة اليمين تلزمه وترددت الرسل بينهم إلى يوم الاحد ثامن عشر شعبان ، وعادت بنقض الهدنة ، وخرج الملك إلى أرتاح وعزمه على حلب ، فخرج التمرتاش من حلب بتاريخ الخامس والعشرين من رجب نحو ماردين ووعد بجمع العساكر ، ورحل بغدوين من أرتاح إلى نهر قويق وأفسد كلما عليه ، وضايق حلب

واجتمع على باب حلب ثلاثة الوية : لواء الملك ابراهيم بن رضوان ، ولواء الامير دبيس بن صدقه ، ولواء الملك بغدوين ، وكان الجوسلين ودبيس قد برزا من تل باشر ، وقصدوا ناحية الوادي ، وأفسدوا كلما فيه ما قيمته مائة الف دينار ، ثم نزلا على باب حلب ، وكان نزولهم على حلب على مضي ساعة وكسر من نهار يوم الاثنين سادس عشر من شعبان ، والطالع من العقرب عشر درج والمريخ في الطالع في درجة واحدة ، وقبل نزولهم بساعتين عند اتساع الفجر انفتح من السماء من نحو المشرق باب من نور (٣٠٩ - ظ) ودام حتى هال الناس ولما كان في اليوم الثاني في ذلك الوقت عاد انفتح ذلك الباب ، ولكن كان أضيق من الاول ، وخرج من شيء كاللسان ، ينعطف ويتطوق ، ونزل الفرنج غربي البلد ، وغربي قويق ومعهم علي بن سالم بن مالك ، وصاحب بالس أخو بدر الدولة فقطعوا الشجر ، وأخربوا المشاهد الظاهرة ، وكان عدد الخيم ثلاثمائة خيمة مائة للمسلمين ، ونبش الفرنج القبور وأخرجوا الموتى باكفانهم ، وعمدوا إلى من كان طريا فشدوا الحبال في أرجلهم وسحبوهم مقابل المسلمين (٥٢) .

أخبرني القاضي عز الدين أبو علي حسن بن محمد بن اسماعيل القيلوي قال : حدثني والدي قال : أخبرني الشيخ أبو سعد بن النعماني قال : كان المسترشد قد جمع أرباب دولته وسيرهم في الصلح بينه وبين دبيس ، واتفق ان ابن أبي العودي الشاعر دخل على دبيس في ذلك اليوم وكنت حاضرا المجلس فأنشده قصيدة أولها :

« جدك ياتاج الملوك قد علا » حتى بلغ إلى قوله :

دونك صفين فهذي قد أتت
آل زياد والحقوق تقتضى

قال : فتغيرت وجوه الجماعة أصحاب المسترشد ، وتغير وجه دبيس وأمر بصفعه فصفع وأخرج من بين يديه وحبس وأمر

بالجماعة فأنزلوا في الدور ، وأكرموا غاية الاكرام ، وحمل إليهم كلما يحتاجون إليه ، فلما أتى الليل أخرجه من الحبس خلوة وقال له : ويحك أنا قد اجتهدت حتى ينتظم الصلح بيني وبين (٣١٠ ـ و) الخليفة وقد أرسل أرباب دولته لاتمام هذا الامر فجئت أنت وقلت ما قلت لتفسد الحال فأنشده :

هم زرعوا العداوة لا لجرم
فدونك واصطلمهم بالحصاد
ولاترهب قعاقعهم فليست
قعاقعهم سوى لبس السواد
إذا لي تشف في الدنيا غليلا
فتنخره إلى يوم المعاد

فقال : أنشدني بقية القصيدة فأنشده :

فهذه ياذا الفخار دول
ينزعها الله إلى حيث يشا
فانتهز العزيمة قبل فوتها
وناد بالثأر فقد آن الندا
ولاتكن في النائبات هلعا
ولا جبانا ذرعا يخشى الوغى
إما يقال أدرك العز الذي
ما مثله أو خانه صرف الردى
فالداء لو يحسمه صاحبه
إذا بدا أغناء عن شرب الدوا
فهل ترى السلطان إلا رجلا
يدركه الموت ويرديه البلا
لحم وعظم ودم مركب
في صورة كبعض أبناء الورى

تنته العرقة(٥٣) او تؤله
في قرصها البقة شاء أو ابى
لايستطيع مع حمى سلطانه
دفع الأذى عنه إذا حم القضا
فهو وإن عز حمى سلطانه
يخشى المنايا في الصباح والمسا

قال : فـأمر له بمـائة دينار وصرفـه في تلك الليلة إلى بلدة النيل وجرت بين (٣١٠ ـ ظ) دبيس والرسل أربـاب دولة المسـترشد مقاولات واحتجوا بمراجعة الخليفة في ذلك ومضـوا ولم تقض لهـم حاجة .

وخرج المسترشد بعد ذلك لقتال دبيس في سنة ست عشرة ، ولم ينتظم بينه وبين دبيس صلح ، وخرج دبيس بـأصحابه إلى لقـائه ، فنزل على شط النيل تحت مطير أباذ ، وأتاه الخليفـة مـن جـانب البرية وأقام المصاف، فكانت الكسرة على أصحاب دبيس ، وما نجا منهـم إلا القليل ، وقتـل البعض وغرق البـاقون في الماء ، ونجـا بحشاشة نفسه ، ووصل إلى فوق مطير أباذ إلى قرية يقال لها قرية أم الأمين ، وكانت أم الأمين المذكورة فـوق سـطح مـن أسـطحة القرية ، فقالت له حين رأته : دبير جئت ؟ فقال لها : ويلك دبير مـن لم يجيء ، أين المخاض ؟ فقالت : هاهنا فخاض وعبر ووقف يشـق خفه حتى نزل منه الماء ، وقـد تبعـه ممـاليك المسـترشد إلى ذلك الموضع ، فسألوا العجوز فضيعتهم عنه إلى موضع آخر فلم يقدروا عليه ، وانحدر إلى أن لحق بالعرب والتف بهم ، وظهر بالبصرة بعد سنة فدخلها وهرب أمير البصرة ، ودخل دار الامارة وحكم وقـال : أتدرون من نصحني والله ما نصحني غير ابن العودي الشاعر فإني لو قبلت منه ذلك اليوم وقتلت الذين سيرهـم المسترشد للصلح لبقـي المسترشد مدة حتى يحصل رجالا مثل أولئك يعتضد بهم ، ولما رجـع دبيس إلى العراق ملك العجـوز أم الأمين القـرية وهـي تعـــرف (٣١١ ـ و) الآن بها .

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الشريف الهاشمي قال : أخبرنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني قال : دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي أبو الأغر من ملوك العرب ، وكان فاضلا مهيبا كريم الأخلاق ، ولعل ما أنجبت عرب البادية بعده بمثله ، وقد ترامت به الأسفار إلى أكناف الأمصار ، وتقلبت به الأحوال إلى ارتكاب الأهوال ، ورد بلاد خراسان ، وجال في أطرافها مدة في ظل السلطان سنجر بن ملكشاه ، وكانت خاتمة أمره أن فتك به في قصر السلطان ، وختم به شرف بيته .

قلت : هذا قول أبي سعد السمعاني ، ولعله رحمه الله لم يبلغه خبر دبيس واتفاقه مع الفرنج على حصار حلب ، وبذله أموال المسلمين وأنفسهم لأعداء الدين على ما ذكرناه وبيناه ، ولو بلغه هذا الفعل المستهجن القبيح الذي لايصدر عن من خلص إيمانه ، وإن جرى بلفظ الشهادة لسانه ، ولايقع إلا من سخيف الرأي سيء التدبير ، لما قال : ولعل ما أنجبت عرب البادية بعده بمثله ، وقال : وختم به شرف بيته ، هذا مع علم دبيس أن البغدوين ملك الفرنج كان مأسورا في حبس بلك بن أرتق ، وأن تمرتاش أطلقه من الأسر وهادنه على أن لايخرج عليه فغدر بالهدنة مع تمرتاش والمسلمين ، ولم يف له بما استقر معه في اليمين ، ولعل البغدوين لو تسلط على حلب لما وفى لدبيس بما كان قرره معه من ملك المدينة ، ولعمري لقد محا دبيس شرف أبيه صدقه ، ومكارمه المحققة ومآثر آبائه(٥٤) (٣١١ ـ ظ) وأجداده المذكورون ومناقبهم المشهورة المسطورة بهذه الفعلة الدنيئة التي فعلها والقصة الشنعاء التي سطرها المؤرخ ، ونقلها ، ومن قبيح فعله خروجه على الامام المسترشد وجمع العرب لمحاربته ومطاولته مع قيامه بأعباء الخلافة ومساجلته .

ومن قبيح أفعاله وعدم وفائه ما أخبرنا به شيخنا افتخار الدين أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي قال : أخبرنا الامام أبو

سعد عبد الكريم بن محمد المروزي قال : كتبت من « كتاب سر السرور »(٥٥) لأبي العلاء محمد بن محمود النيسابوري قاضي غزنه قال : لما قام المسترشد بأعباء الخلافة واستتب أمره خالفه أبو الحسن علي بن أحمد الملقب بالذخيرة ، أخو المسترشد بالله وانحدر إلى واسط ثم اتصل بدبيس بن صدقة ، ولم تطل الأيام حتى خاس بعهده وأخفر ذمته على ما قيل ، ومكن أخاه من ربقته فعند ذلك كتب إليه :

أأشمت أعدائي وأذهبت قوتي
وهضت(٥٦) جناحا أنبتته يد الفخر
وما أنت عندي بالملوم وإنما
لي الذنب هذا سوء حظي من الدهر

فأين فعله هذا من فعل الأمير أبي العز مالك بن سالم بن مالك العقيلي صاحب قلعة جعبر معه وقد وفد عليه دبيس هذا منهزما من المسترشد إلى قلعة جعبر ، فأجاره منه ، فكاتبه المسترشد في معناه ليسلمه إليه فمنعه منه ولم يخفر ذمته .

وسمعت الأمير شرف الدولة بدران بن حسين بن مالك (٣١٢ ــ و) يقول : سمعت أبي يقول نقل إلى دبيس وهو عند أبي بقلعة جعبر أن أبي يريد أن يسلمه إلى المسترشد وانه قد كاتبه في معناه لتسليمه إليه ، قال فجلسا يوما ، فبكى دبيس ، فقال له أبي : أيها الأخ ما يبكيك ؟ فقال : بلغني كذا وكذا ، قال : فأمر غلامه فأحضر له خريطة فيها كتب المسترشد إليه وأحضر إليه نسخ الكتب التي كتبها في جوابه ، وهو يقول : أنا والله لا أسلمه أبدا ، فطاب قلب دبيس عند ذلك وأطمأن .

وقد ذكر الفقيه معدان بن كثير البالسي فعل مالك بن سالم في قصيدة مدحه بها قرأتها بخط الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله ابن أبي جرادة . أخبرنا بها شيخنا أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي إجازة عن أبي الحسن المذكور قال : أنشدني الفقيه الأديب

أبو المجد معدان بن كثير في الامير أبي العز مالك بن سالم بن مــالك يذكر وفود الأمير ملك العرب دبيس بن صدقة بن مزيد عليه أولها :

سلخت بالغيل آجال
الليوث الغيل تغتال

قال فيها :

ودبيس حين مال به
دهره والدهر ميال
واشمأز الناس قاطبة
منه أجواد وبخال
غير قيل أروع ندس(٥٦)
لم يرعه القيل والقال
بل تفداه وقال له :
ادن ولينعم لك البال
ثم لما أن تكنفه
واسع الارجاء محلال
أهل بالعز فاء له
منه اكرام واجلال
وحباه بالصفا أخ
حافظ للود وصال
فلأدنى ما تكنفه
رغبة في وده المال
وإذا نفس الفتى بذلت
سهلت خيل وآبال
فترى عوف وأخوتها
بالذي أوليت جهال
ولقد نبئت أنهم
شكروا والقوم قفال

وتألى(٥٨) من بني أسد
أسد غلب وأشبال
إنه ما أن يزال لهم
أبدا بالشكر إهلال
ولنعم الفاعلون هم
ما علمناهم لما قالوا

وأخبرني الأمير بدران بن جناح الدولة حسين بن مالك قال : حكى لي والدي قال : لما قدم دبيس على والدي إلى قلعة جعبر منهزما من المسترشد أجازه وأقام عنده فكاتبه المسترشد في تسييره إليه فمنعه منه . قال : وقدم مع دبيس أربعمائة ألف دينار عينا ومثلها جواهر ، ومثلها عروض وأنفق في حاشية والدي حتى بيع الدينار بثلاثين قرطيسا(٥٩) . قال : فقال له والدي : ياأيها الملك أرخصت علينا الذهب .

قلت : وقد كان دبيس مع ما ذكر من أفعاله المستقبحة على غاية من الجود ، وله خلال محمودة مستملحة فمن ذلك ما أخبرني (٣١٣ ـ و) به بدران بن حسين بن مالك قال : لما قبض على دبيس بنواحي دمشق وقيد وسير إلى أتابك زنكي إلى حلب ، وكان اشتراه بمائة ألف دينار جاءه بعض الشعراء وامتدحه في طريقه وهو مقبوض عليه مكبل ، ولم يكن معه شيء فكتب له في رقعة هذين البيتين ودفعهما إليه وهما :

الجود فعلي ولكن ليس لي مال
فكيف يفعل من بالفرض يحتال
خذ هاك خطي إلى أيام ميسرتي
دينا علي فلي في الغيب آمال

قال : فلما قدم حلب على أتابك زنكي أكرمه واحترمه وأنزله دار لاجين بحلب وأعطاه مائة ألف دينار وخلع عليه خلعا سنية فخرج

دبيس ذات يوم إلى ميدان الحصا يسير فعرض له ذلك الشاعر وقال له : يا أمير لي عليك دين ، فقال : والله مــا أعرف لأحــد علي دينا فقال : بلى وشاهده منك وأخرج له خطه ، فلما وقف عليه قال : أي والله دين وأي دين ، وأمره أن يأتي إليه اذا نزل فجاءه فأعطاه ألف دينار والخلعة التـي خلعهـا عليه أتـابك زنكي وكانت جبـة أطلس وعمامة شرب .

أخبرني أبو علي الحسن بن محمد بن اسماعيل النيلي قال : أسر دبيس بناحية الشام فافتداه أتـابك الشـهيد بمـال جــزيل ، ولما حصل دبيس عند السلطان مسعود كتب السلطان يســتدعي أتـابك الشهيد ليفتك به ، واطلع دبيس على شيء من ذلك فـكتب كتـابا إلى أتابك يحذره فيه من المجيء إليه فامتنع من ذلك فعلم بـه الســلطان مسعود فكان ذلك سبب قتل دبيس . (٣١٣ ــ ظ) .

قال لي أبو علي النيلي : وأخبرني بعض احفاد أتـابك الشـهيد قال : كان جدي يقول : فديناه بالمال وفدانا بالروح .

أخبرنا الشريف افتخار الدين أبو هاشم عبد المطلب بن الفضــل الهاشمي قال : أخبرنا أبو سعيد السمعاني قال : ذكر صديقنا أبــو العلاء محمد بن محمــود النيســابوري قــاضي غزنة في « كتــاب سر السرور » قال : حدثني من صحب ملك العرب أبـا الأغر دبيس بــن صدقة بن منصور بن دبيس الأسدي أن هجيراه كان إنشــاد هــذين البيتين :

إن الليالي للأنام مناهل
تطوى وتبسط بينها الاعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة
وطوالهن مع السرور قصار

انبأنا أبو محمد عبد الرحمن وأبو العباس احمد ابنا عبد الله بن علوان الأسديان قالا : أخبرنا أبو سعيد محمد بن عبد الرحمن بــن

محمد الفنجديهي : في كتابه قال : سمعت بعض الفضلاء ببغداد يقول : لما سمع الأمير دبيس أن الرئيس أبا محمد الحريري ذكره في مقاماته وأورد فيها بعض صفاته يعني قوله : « خيل لي أن القرني أويس أو الأمير دبيس »(٦٠) ، نفذ إليه من الخلع السنية والجوائز الهنية بما عجز عنه الوصف وكل عنه الطرف واقتضاه علو همته وسمو قدرته .

أخبرنا أبو هاشم بن أبي المعالي الحلبي قال : أخبرنا عبد الكريم بن أبي بكر المروزي قال : قرأت ببلخ في « كتاب وشاح دمية القصر » كتب الملك بدران بن صدقة إلى أخوانه منهم الملك دبيس : (٣١٤ - و) .

الا قل لمنصور وقل لمسيب
وقل لدبيس انني لغريب
هنيئا لكم ماء الفرات وطيبه
إذا لم يكن لي في الفرات نصيب

فأجابه دبيس :

ألا قل لبدران الذي حن نازعا
إلى أرضه والحر ليس يخيب
تمتع بأيام السرور فإنما
عذار الأماني بالهموم يشيب
ولله في تلك الحوادث حكمة
وللارض من كأس الكرام نصيب

ومما وقع إلي من شعر دبيس بن صدقة ما قرأته بخط عمر بن الربيب في مجموع :

الا إن أخواني الذين عهدتهم
أفاعي رمال لاتقصر في لسعي

ظننت بهم خيرا فلما بلوتهم
حللت بواد منهم غير ذي ذرع

سمعت بعض الأدباء من أهل الموصل يحكي أن أبا الفوارس الحيص بيص خرج من بغداد سرا إلى الحلة، وامتدح دبيس بن صدقة وعاد وقد أجازه بألف دينار فبلغ المسترشد ذلك، وعلم الحيص بيص فخاف على نفسه فابتدى وعمل هذين البيتين:

وما دبيس إلا كجيفة ميت
والضرورات الجائتني إليه
ومن اضطر غير باغ ولا عاد
فلا اثم في الكتاب عليه

فبلغت المسترشد فسير له خمسين دينارا وزاد في معلومه وقبل عذره.

أنبأنا أبو العباس أحمد بن عبد الله بن علوان عن أبي سعيد محمد بن عبد الرحمن (٣١٤ - ظ) بن محمد البندهي قال: قتل الأمير دبيس بن صدقه بن مزيد في سنة ثلاثين أو في سنة تسع وعشرين وخمسمائة قتله السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه لأمور أنكرها وأسباب امتعض لها نسبت إليه، وكان دبيس قد عصى على الامام المسترشد بالله أمير المؤمنين أبي منصور الفضل بن المستظهر بالله، وسعى في إراقة دمه، وجمع العسكر وحشد وقصد بغداد في عسكر عظيم، وعاث في أطرافها وأفسد في أكنافها فخرج الامام المسترشد بالله أمير المؤمنين من دار الخلافة، واجتمعت إليه الاجناد وظهر إليه وحمل عليه فهزم دبيسا وعسكره وتم إلى الحلة المزيدية وذلك في المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة، وانهزم دبيس من العراق في خواص أصحابه وغلمانه خوفا من الخليفة وهرب نحو الشام.

قرأت في تاريخ أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي بخطه في حوادث سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وأنبأنا به عنه المؤيد بن محمد النيسابوري وغيره قال : تواقع على مراغة السلطان مسعود والمسترشد بالله ، فانكسر المسترشد وأسر فوثب عليه قوم بالسكاكين فقتلوه واضطرب العسكر فأوجب التدبير أن قتل دبيس بن صدقة بحضرة السلطان مسعود(٦١) .

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي قال : أخبرنا أبو سعد السمعاني قال : قرأت بخط الامام أبي نصر محمد بن محمد السره مرد الشجاعي على جلد كتاب السنن (٣١٥ - و) لأبي داوود : قتل دبيس بالمراغة(٦٢) يوم الاربعاء الرابع عشر من ذي الحجة سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

نقلت من تاريخ جمعه الرئيس أبو علي الحسن بن علي بن الفضل الداري ، وقع إلي بماردين ، قال في حوادث سنة تسع وعشرين وخمسمائة : وفيها قتل دبيس بن صدقة في ذي الحجة حدثني فراش كان يقال له حسن التمري ، قال : كان الأمير المذكور قد استشعر الأمر الرديء من قبل السلطان وكان في تلك الليلة تقدم إلى خواصه أن ارحلوا فرحلوا وتركوا الخيام بآلاتها ، وسار(٦٣) مقدر ثلاث فراسخ ، فرده القدر الذي لابد منه ، وقال لصحبه : قد ضجرت من الشتات في أقطار الجهات وما قضاه الله فقد أمضاه ، وعاد ولم يشعر به غير من كان معه ، فلما أصبح ركب مع السلطان على عادته ، ونزل السلطان في النوبتيه والامراء معه على العادة المألوفة وحضر الطعام فأكلوا وأخذ الناس في الانصراف ، وكان السلطان قد دخل إلى خركاه في جانب النوبتية فأراد الأمير دبيس الانصراف ، فتقدم إليه رجل معمم بزي الكتاب وقال له : السلطان يقول لك قد ورد علينا كتب ونشتهي تسمعها ، فجلس واستدعى مني خلالا ، وجعل يتخلل والكاتب بين يديه فرأيت تركيا قد خرج من الخركاه وبيده صمصامة مجردة فمشى حتى صار على رأس الأمير فلم يلتفت

إليه ، وعاد دخل الخركاه وليس في الذوبتية جالس غيره والكاتب بين يديه (٣١٥ ـ ظ) ثم عاد الغلام التركي خرج حتى حاذى الأمير وضربه على رقبته فرأيت رأسه معلقا بجلدة رقبته ، فهربت من ساعتي وكان بباب خوي(٦٤) ، وحمل بعد ذلك ودفن بالمشهد بماردين.قلت : شاهدت المشهد المدفون به دبيس ، وهو من غربي مدينة ماردين وقبليها داخل البلد بنته بنت إيلغازي بن أرتق زوج دبيس ونقلته من خوي فدفنته به .

رضوان بن تتش

رضوان بن تتش بن ألب أرسلان بن جغري بك بن سلجوق بن دقاق أبو المظفر التركي السلجوقي ولد سنة خمس وسبعين وأربعمائة ، نشأ في دمشق في حجر أبيه ، وكانت أمه أم ولد ، فزوجها أبوه من جناح الدولة حسين ، وجعله أبوه أتابكا له ومربيا ، ولما توجه أبوه تتش لمحاربة بركيارق ووصل إلى همذان كتب إلى ولده رضوان في دمشق ، وكان قد تركه بها ، يستدعيه إليه من دمشق ، وأمره أن يحضر معه من تخلف بالشام من العسكر ، فامتثل أمر أبيه ، وخرج من دمشق بالعسكر متوجها إلى أبيه ، ووصل إلى عانة وقيل إلى الانبار ، فبلغه مقتل أبيه تتش ، فحط خيمته وسار مجدا عائدا ، فوصل إلى حلب وتسلمها من وزير أبيه أبي القاسم بن بديع في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وتولى حسين زوج أمه تدبير ملكه .

ووصل أخوه دقاق إلى حلب ، ومضى سرا من رضوان إلى دمشق فملكها وقدم يغي سغان ، ويوسف بن آبق بعسكرهما من انطاكية إلى خدمة رضوان ، وسارا (٨٩ ـ و) معه إلى الرها ليستلمها من نواب والده ، فأرادا القبض على حسين لينفردا بتدبير رضوان ، فبلغ حسين ذلك ، فهرب إلى حلب ، وتبعه رضوان إليها واستوحش رضوان منهما ، فرجعا إلى انطاكية .

وسار رضوان إلى دمشق ليأخذها من أخيه دقاق ، ونزل جناح الدولة حسين بحلب ، وسار معه سكمان بن أرتق ، فلما وصل رضوان إلى دمشق اعتقل دقاق نجم الدين إيلغازي بن أرتق ولم يستتب لرضوان أمر دمشق ، فرجع إلى حلب ، وتوجه سكمان الى البيت المقدس ، وتسلمه من نواب أخيه إيلغازي .



ووصل يوسف بن آبق إلى رضوان حلب وسكنها فخاف منه رضوان وحسين فتقدما إلى المجن الفوعي(٦٦) فهجم عليه فقتله .

وخرج رضوان وحسين فتسلما تل باشر ، وشيح الدير من نواب يغي سغان ، وأغارا على بلد انطاكية ، ثم توجها إلى دمشق وسار يغي سغان إليها منجدا دقاق ، فضعفت نفس رضوان عن دمشق ، فسار إلى البيت المقدس فتبعه دقاق وطغتكين ويغي سغان ، وأشرف عسكر رضوان على التلف فهرب حسين على البرية إلى حلب ، ووصل دقاق وطغتكين إلى ناحية حلب ، واستنجد رضوان بسليمان ابن إيلغازي صاحب سميساط ، فوصل إلى حلب بعسكر كبير واجتمع العسكران على نهر قويق ، وتحاربا ، فهرب دقاق وطغتكين إلى دمشق ويغي سغان إلى أنطاكية .

وتغيرت نية رضوان على حسين فهرب من حلب إلى حمص ، ومعه زوجته أم رضوان .

ثم تجدد بعد ذلك خروج الفرنج (٨٩ - ظ) إلى انطاكية ، ووصل يغي سغان إلى الملك رضوان إلى حلب إلى خدمة رضوان ، وتزوج رضوان بابنته خاتون جيجك ، ونزل الفرنج على أنطاكية ، وشنوا الغارات على بلد حلب ، ووصل ابن يغي سغان إلى حلب مستنجدا على الفرنج ، فسير رضوان معه عسكر حلب وسكمان ، فلقيهم من الفرنج دون عدتهم ، فانهزم المسلمون إلى حارم ، وغلب أهل حارم من الأرمن عليها ، وعاد سكمان بن أرتق مفارقا رضوان ، وصار مع دقاق .

واستولى الفرنج على أنطاكية ، وضعف أمر رضوان ، واستمال الباطنية وظهر منهم بحلب ، وشايعهم رضوان ، واتخذوا دار دعوة بحلب ، وكاتبه ملوك الاسلام في أمرهم ، فلم يلتفت ، ولم يرجع عنهم ، ودام على مشايعتهم .

وقوي الفرنج عليه فباع من أملاك بيت المال عدة مواضع

الحلبيين ، وقصد بذلك استمالتهم ، وأن يتعلقوا بحلب بسبب أملاكهم فيها حتى أنه باع في ساعة واحدة ستين خربة من مزارع حلب لجماعة من أهلها وكتب بها كتاب واحد ، يذكر حدود كل خربة ومشتريها وثمنها ، وكان الكتاب عندي في جملة الكتب التي كانت لوالدي رحمه الله .

وكان الملك رضوان بخيلا شحيحا يحب المال ، ولاتسمح نفسه باخراجه ، حتى أن أمراءه وكتابه كانوا ينبزونه بأبي حبه ، وذلك هو الذي أضعف أمره ، وأفسد حاله مع الفرنج والباطنية ، وجدد في حلب مكوسا وضرائب لم تكن ، ومع هذا كله كان فيه لطف ومحاسنة (٩٠ - و) للحلبيين حتى بلغني أنه مر يوما راكبا ليخرج من باب العراق ، فلما وصل إلى المرمى ، وهو داخل السور بالقرب من باب العراق ، سمع امرأة تنادي اخرى يازليخا تعالي أبصري الملك ، فأمسك فرسه ووقف ساعة ، ثم نظر فلم ير أحدا ، فقال : أين هي زليخا ، قولوا لها تأتي تبصرنا أو نمشي ، وهذا من أبلغ اللطافة من ملك مثله .

وحدثني والدي قال : أخبرني أبي قال : وقع بين والدي أبي غانم وبين القاضي أبي الفضل بن الخشاب مشاجرة في التخم الذي بين قرية والدي أقدار وبين قرية ابن الخشاب عيطين ، وآل الأمر إلى مواحشة وغلظة ، فبلغ الملك رضوان فقال : أنا أخرج بنفسي وأقف معكما على التخم ، فخرجا مع الملك ووقف معهما ، وقال لأحدهما : إلى أين تدعي ؟ فقال : إلى ها هنا ، وقال للآخر : إلى أين تدعي ؟ فقال : إلى ها هنا ، فقال لكل واحد منهما : أريد أن تهب لي نصف ما تدعي على صاحبك ، فأجاباه جميعا إلى ذلك وأصلح بينهما على أن نزل كل واحد عن نصف المدعي به ، وجعل بينهما تخما إتفقا عليه ، ورجع إلى المدينة ، وهذا أيضا من المآثر التي ينبغي أن تكتب وتسطر وتنقل في التواريخ وتذكر .

قرات بخط الشريف ادريس بن الحسن الادريسي الاسكندراني ، قال الشيخ أبو الحسن بن الموصول ، وأملانيه بدار الشريف أمين

الدين أبي طالب أحمد بن محمد النقيب الحسيني الاسحاقي من تعليق لبعض (٩٠ ـ ظ) أسلافه ، قال : وفي شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسمائة وصل إلى حلب رجل كبير فقيه تاجر يقال له أبو حرب عيسى بن زيد بن محمد الخجندي ومعه خمسمائة جمل عليها أحمال أصناف التجارات ، وكان شديدا على الاسماعيلية مسعدا لمن يقصدهم ، مبالغا في بابهم ، أنفق في المجاهدين لهم بسببهم أموالا جليلة ، فقام في غلمان له يستعرض أحماله وحوله جماعة من مماليكه وخدمه ، وكان قد أصحب من خراسان باطنيا يقال له أحمد بن نصر الرازي ، وكان أخوه قتله رجال هذا الخجندي ، فدخل إلى حلب ، واستدل على أبي الفتح الصايغ رئيس الملاحدة بها ، وكان متمكنا من رضوان ، فصعد إلى الملك رضوان ، وعرفه ما جرى بينهم وبين الفقيه أبي حرب ، وأطمعه في ماله ، وأراه أنه بريء من التهمة في بابه إذ كان معروفا بعداوة الملاحدة ، فطمع رضوان وانتهز الفرصة فيه ، وطار فرحا ، فبعث بغلمان له يتوكاون به .

فبرز إلى أبي حرب عيس الفقيه أحمد بن نصر الرازي

وهجم عليه ، فقال لغلمانه وأصحابه : أليس هذا رفيقنا ؟ فقالوا : هو هو ، فوقعوا عليه فقتلوه ، وهجم جماعة من أصحاب أبي الفتح الباطني الحلبي على أبي حرب فقتلوا عن آخرهم ، ثم قال أبو حرب : الغياث بالله من هذا الباطني الغادر ، أمنا المخاوف وراءنا وجئنا إلى (٩١ ـ و) الامنة ، فبعث علينا من يقتلنا ، فرجعوا إلى رضوان ، فأخبروه بما قال ، فأبلس ، وصار السنة والشيعة إلى هذا الرجل ، وأظهروا إنكار ماتم عليه ، وعبث أحداثهم بجماعة من أحداث الباطنية فقتلوهم ، وأنهي ذلك إلى الملك رضوان فلم يتجاسر على انكاره ، وأقام الرجل بحلب ، وكاتب ظهير الدين (٦٧) وغيره من ملوك الشام فتوافت رسلهم عند رضوان بكتبهم يذكرون عليه ماجاء في بابه ، فأنكر وحلف أنه لم يكن له في هذا الرجل نية ، وخرج الرجل عن حلب مع الرسل ، فخيروه في التوجه نحو الرقة ، وعاد

الى بلده ، ومكث الناس يتحدوث بما جرى على الرجـل ، ونقص في أعين الناس ، فتوثبوا على الباطنية من ذلك اليوم .

أنبأنا زيد بن الحسن عن أبي عبد الله محمد بن علي العظيمـي في حوادث سنة إحدى وخمسمائة قال : وفي هذه السنة بلغ فخـر الملوك رضوان ما ذكر به عن مشـايعة البـاطنية واصـطناعهم ، وحفـظ جانبهم ، وأنه لعن بذلك في مجلس السلطان ، فلما بلغه الخبر أمـر أبا الغنائم بن أخي أبي الفتح البـاطني بالخروج عن حلب فيمـن معه ، فانسل القوم بعد أن تخـطف جـانبهم ، وقتـل منهـم أفرادا (٦٨) .

قلت ولما ملك رضوان حلب قتل أخوين له كانا من أبيه ، فلما مات رضوان وملك ابنه الب أرسلان قتل أخوين له كانا من أحسن الناس صورة فأنظر (٩١ ـ ظ) إلى هذه المؤاخذة العجيبة .

أنبأنا المؤيد بن محمد علي الطوسي عن أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي قال : وفيها ـ يعني سـنة تسـعين وأربعمـائة ـ عصى المجن الموفق على الملك رضوان ، وتعصب معه الحلبيون ثم تخـاذلوا عنه ، واختفـى ، فقبض عليه الملك رضـوان ، وعلى ذويه وبنيه ، واستصفى أمواله في ذي القعدة وعذبهم بأنواع العذاب ، ثم قتله بعد ذلك ، وقتلهم حوله .

قال : وفيها وصل رسـول مصر إلى الملك رضـوان ، يعني مـن المستعلي ، بالتشريف والخلع ، وخطب للمصريين شـهرا ، ثـم عاد عن ذلك(٦٩) .

وقال : سنة ثلاث وتسعين ، وفيها كسرت الافرنج للملك رضوان على موضع يقال له كلا ، وكان المسـلمون في خلق وكان الافـرنج في مائة فـارس ، فقتلوا خلقـا مـن الناس ، وأسروا خلقـا ، وكانت الكسرة يوم الجمعة خامس شعبان(٧٠) .

وقال : سنة ثمان وتسعين وأربعمائة . فيها كسر الفرنج الملك رضوان على عين تسيلو من أرض أرتاح . وكان سبب ذلك حصن أرتاح ، خرجوا إليه ليأخذوه . وجمع الملك رضوان الخلق العظيم ، وخرج لنجدة الحصن ، ومعه من الرجالة الخلق العظيم ، وكان المصاف يوم الخميس ، فانهزمت الخيل ، وأسلموا الرجالة ، فقتل منهم الخلق العظيم ، وفقد من الحلبيين جماعة كثيرة غزاة رحمهم الله ، وانهزم أكثر من به(٧١) .

قلت : وبلغني أنه قتل من المسلمين مقدار ثلاثة آلاف ما بين فارس وراجل ، وهرب (٩٢ - و) من بأرتاح من المسلمين ، وقصد الفرنج بلد حلب ، فأجفل أهله ، ونهب من نهب ، وسبي من سبي ، واضطربت أحوال بلد حلب من جبل ليلون إلى شيزر ، وتبدل الخوف بعد الأمن والسكون وهرب أهل الجزر وليلون إلى حلب ، فأدركتهم خيل الفرنج فسبوا أكثرهم وقتلوا جماعة ، وكانت هذه النكبة على أعمال حلب أعظم من النكبة الاولى على كلا ، ونزل طنكريد الفرنجي على تل أعذى من عمل ليلون وأخذه ، وأخذ بقية الحصون التي في عمل حلب ، ولم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية إلا حماه ، وليس في يده من الاعمال الغربية شيء ، وبقي في يده الأعمال الشرقية والشمالية وهي غير آمنة .

وضاق الامر بأهل حلب ، ومضى بعضهم إلى بغداد واستغاثوا في أيام الجمع ، ومنعوا الخطباء مستصرخين بالعساكر الاسلامية على الفرنج ، وكسروا بعض المنابر ، فجهز السلطان محمد بن ملكشاه مودود صاحب الموصل وأحمديل الكردي ، وسكمان القطبي في عساكر عظيمة ضخمة ، ومات سكمان قبل وصوله إلى حلب ، ووصلت العساكر إلى حلب ، فأغلق رضوان أبواب حلب في وجوههم ، وأخذ إلى القلعة رهائن عنده من أهلها لئلا يسلموها ، ورتب قوما من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفظ السور ، ومنع الحلبيين من الصعود إليه ، وضبر(٧٢) انسان من السور(٩٢ - ظ) فأمر به فضرب عنقه ، ونزع رجل ثوبه ورماه

إلى أخر ، فأمر به فألقي من السور إلى أسفل ، وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة .

وأقام الناس ثلاث ليال لايجدون مايقتاتونه ، وكثرت اللصوص ، وخاف الأعيان على أنفسهم ، وساء تدبير الملك رضوان . فأطلق العوام ألسنتهم بسبه وتعييبه وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد ، وعاث العسكر فيما بقي سالما ببلد حلب بعد نهب الفرنج له ، ورحل العسكر إلى معرة النعمان بعد استيلاء الفرنج عليها في أخر صفر من سنة خمس وخمسمائة وأقاموا عليها ، وقدم عليهم أتابك طغتكين ، فراسل رضوان بعضهم حتى أفسد ما بينهم ، وظهر لأتابك طغتكين منهم الوحشية ، فصار في جملة ممدود(٧٣) ، وثبت له ممدود ، ووفى له ، وحمل لهم أتابك هدايا وتحفا ، وعرض عليهم المسير إلى طرابلس والمعونة لهم بالأموال ، فلم يعرجوا ، وسار أحمديل وبرسق بن برسق ، وعسكر سكمان إلى الفرات ، وبقي مودود مع أتابك ، فرحلا من المعرة إلى العاصي ، فنزلا على الجلالي ، ونزل الفرنج أفامية : بغدوين ، وطنكريد ، وابن صنجيل ، وساروا لقصد المسلمين ، فخرج أبو العساكر سلطان بن منقذ من شيزر (٩٣ ـ و) بأهله وعسكره ، واجتمعوا بمودود وأتابك ، وساروا إلى الفرنج ، ودارت خيول المسلمين حولهم ومنعوهم الماء ، والأتراك حول الشرائع بالقسي تمنعهم الورد فأصبحوا هاربين سائرين يحمي بعضهم بعضا .

ونزل طنكريد على قلعة عزاز وبذل له رضوان مقطعة عن حلب ، عشرين الف دينار وخيلا وغير ذلك ، فامتنع طنكريد من ذلك ، ورأى رضوان أن يستميل طغتكين اتابك إليه ، فاستدعاه إلى حلب ، فوصل إليه وتعاهدا على مساعدة كل منهما لصاحبه بالمال والرجال ، واستقر الامر على أن أقام طغتكين الدعوة والسكة لرضوان بدمشق ، فلم يظهر من رضوان الوفاء بما تعاهدا عليه ، ووصل مودود إلى الشام ، واتفق مع طغتكين على الجهاد ، وطلب نجدة من الملك رضوان ، فتأخرت إلى أن اتفق للمسلمين وقعة

استظهر فيها الفرنج ، ووصل عقبيها نجدة للمسلمين من رضوان دون المائة فارس ، وخالف فيما كان قرره ووعد به ، فأنكر أتابك ذلك وتقدم بابطال الدعوة والسكة باسم رضوان من دمشق في أول شهر ربيع الأول من سنة سبع وخمسمائة .

أنبأنا سليمان بن الفضل بن سليمان قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن قال : رضوان بن تتش بن ألب أرسلان بن جغري بك بن سلجوق بن تقاق التركي كان بدمشق (٩٣ ـ ظ) عند توجه أبيه إلى ناحية الري ، فكتب إليه يستدعيه ، فخرج إليه ،فلما كان بالأنبار بلغه قتله ، فرجع إلى حلب فتسلمها من الوزير أبي القاسم ، وكان المستولي على أمرها جناح الدولة حسين في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، ثم قدم دمشق بعد موت أخيه دقاق ، فحاصرها وقرر له الخطبة والسكة ، فلم تستتب أموره وعاد إلى حلب ، وأقام بها ، وجرت منه أمور غير محمودة في قتال الفرنج ، وظهر منه الميل إلى الباطنية ، واستعان بهم بحلب ، ثم استدعى طغتكين أتابك إلى حلب ولاطفه ، وأراد استصلاحه ، وقرر بينهما أمورا وأقام له طغتكين الدعوة والسكة بدمشق ، فلم يظهر منه الوفاء بما وعد ، فأبطلت دعوته .

وكان لما ملك حلب قد قتل أخويه أبا طالب وبهرام ابني تتش ، ومات في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة (٧٤) .

أنبأنا أبو اليمن الكندي عن أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، ونقلته من خطه ، قال : سنة سبع وخمسمائة ، فيها مات الملك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب بحلب . وفيها قتل تاج الدولة ابن الملك رضوان أخويه ملك شاه وابراهيم صبيين أحسن الناس صورا (٧٥) .

كذا وجدته ، وابراهيم بقي زمانا ، ورأيت ولده بحلب ، واظنه مبارك والله أعلم .

وقرأت في كتاب تاريخ وقع(٩٤ - و) إلي بماردين جمعه الرئيس أبو علي الحسن بن علي بن الفضل الداري ، وشاهدته بخطه ، وقال : وفيها ، يعني سنة ثمان وخمسمائة مات الملك رضوان بن تتش بحلب ، وتولى ولده الأخرس .

وقرأت في بعض ما علقته من الفوائد ، مرض رضوان بحلب مرضا حادا ، وتوفي في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة ودفن بمشهد الملك ، فاضطرب أمر حلب لوفاته ، وتأسف أصحابه لفقده ، وقيل إنه خلف في خزانته من العين ، والآلات ، والعروض ، والاواني ما يبلغ مقداره ستمائة الف دينار .

قرات في كتاب عنوان السير تأليف محمد بن عبد الملك الهمذاني قال : وملكها ، يعني حلب بعده - يعني بعد قتل أبيه تتش - في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ابو المظفر رضوان بن تتش تسع عشرة سنة وشهورا ، وتوفي في سحرة يوم الاربعاء أخر يوم من جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة ، وعمره اثنتان وثلاثون سنة ، وخلف عينا وعروضا تقارب ألف ألف دينار .

زنكي بن آق سنقر

أبو المظفر التركي ، وقيل آق سنقر بن الترغال من قبيلة سـاب يو ، وقيل أن آق سنقر كان مملوكا للسلطان ملك شاه وقد ذكرنا ذلك في ترجمته ، ويعرف زنكي بأتابك بـن قسـيم الدولة ، لأنه كان عنده ولدان السلطان محمود بالموصل يربيهما وكان مـولده بحلب في أيام ولاية أبيه في سنة ثمانين وأربعمائة ، وربي بها ، وكان في أول أمره مضافا إلى آق سنقر البرسقي ، والبرسقي شـحنة بغـداد ، وولاه البصرة ، فلما عزل البرسقي عن شحنكية بغداد فارق البصرة وقصد السلطان محمود بن محمد بن ملكشـاه ، فـأكرمه وأقـطعه البصرة وأعاده إليها في سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، وكان ختلغ أبـه بحلب وأساء السيرة مع أهليها ، فحصروه ، وبالمدينة بدر الدولة سـليمان ابن عبد الجبار بن أرتق ، فأجمع راي ختلغ أبـه وسـليمان على أن سارا إلى أتابك زنكي ويحكماه فيما يفعل ، فلم يوقع لواحد منهمـا بحلب ، وتوجه إليها فقدمها ، وكان له أتراب بحلب مـن الحلبيين ، وقد تربى بينهم ، فكانوا يميلون إليه لذلك فسلموا إلى نائبه حلب في شهر رمضان سنة إحـدى وعشرين وخمسـمائة ، وتـوجه إليهـا فتسلمها في سنة إثنتي وعشرين وخمسـمائة ، في جمـادى الآخـرة وتوجه بعد ذلك إلى السلطان محمود ، وعاد في سنة ثـلاث وعشرين ومعه توقيع مجدد لولاية الجزيرتين والشام وحلب والشـط ، وملك حمص وحماه وبعلبك والرقة ودارا وحـران ورأس عين ، واشـتغل بمحاربة الفرنج ، ففتح من أيديهم معرة النعمان وكفر طاب وبـارين والأثارب وزردنا وتل اعذا وبـزاعا وسروج والرهـا ، وكان له أثـر عظيم في نصرة الاسلام ، وكف عادية الفرنج ومهـد لمن بعـده فتـح البلاد بعد أن كان الفرنج قد ضـايقوا مـدينة حلب واسـتولوا على حصونها ، وأخذوا المناصفة من المسلمين إلى بابها ، فـأغاثهم الله بزنكي وبولده من بعده ، وكان زنكي ملكا عظيما وشـجاعا جبـارا كثير العظمة والتجبر ، وهو مع ذلك يراعي أحـوال الشرع وينقـاد

إليه ، ويكرم أهل العلم ، وبلغني أنه كان إذا قيل له : أما تخاف الله خاف من ذلك ، وتصاغر في نفسه ، فأظهر الله تعالى سره المحمود في ولده محمود .

أنبأنا أبو اليمن الكندي عن الاستاذ أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي - ونقلته من خط العظيمي - قال في حوادث سنة إحدى وعشرين وخمسمائة قال ، بعد ذكر حصار الحلبيين وبدر الدولة بن أرتق وإبراهيم بن الملك رضوان ختلغ أبه غلام السلطان محمود : وطال الأمر على ختلغ أبه وحفروا خندقا حول القلعة ، فكلما خرج منها رجل أو دخل إليها أخذ ، إلى نصف ذي الحجة وصل الأمير سنقر دراز ، والأمير حذش قراقش وجماعة أمراء في عسكر قوي إلى باب حلب واتفق الامر على أن يسير بدر الدولة وختلغ ابه إلى باب الموصل إلى عماد الدين قسيم الدولة بن قسيم الدولة زنكي بن آق سنقر ، والرئيس ابن بديع ، فأصلح عماد الدين بينهما ، ولم يوقع لاحد منهما وطمع بملك البلد وسير سرية إلى حلب مع الأمير الحاجب صلاح الدين العمادي ، فوصل إلى حلب ، واطلع إلى القلعة واليا من قبله ، ورتب الأمور ، وجرت على يده على السداد ، وهو الذي تولى إنزاله وإليه إطمأن .

وقال العظيمي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة : في جمادى الآخرة منها وصل الأمير عماد الدين قسيم الدولة أبو سعيد زنكي بن آق سنقر قسيم الدولة إلى حلب وملكها ، وصعد القلعة ، وبات بها وعاد إلى نقرة بني أسد ، وقبض على ختلغ أبه ، وحمله إلى حلب وسلمه إلى عدوه ابن بديع ، فكحلوه بداره في النصف من رجب .

وقال العظيمي : وفي جمادى الآخرة - يعني - من سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة عاد الأمير عماد الدين قسيم الدولة زنكي من عند السلطان إلى الموصل ومعه طغراء بتجديد الجزيرتين والشام وحلب والشط وما اتصل بذلك بعدما خرج عن يده بالدركاه مائة وعشرون ألف دينار .

قال : وفي مستهل رجب ـ يعني ـ من سنة أربع وعشرين ، وصل عماد الدين زنكي بن آق سنقر إلى أكناف الفرات وفتح قلعة السن ، وسير سرية تقدمت مع الثقل إلى باب حلب ، ونهضت الخيل أغارت على بلد عزاز ، وعاثوا في بلد جوسلين مقابلة له على قديم قبيحه في غيبة الأمير قسيم الدولة ، ثم عبر الأمير قسيم الدولة بتاريخ الأحد ثامن عشرين رجب ، فخيم بظاهر حلب ، وتكررت الرسل في الصلح ، فاصطلحوا مدة سنة ، وكان الأمير قد رعى زرع الرها في طريقه ، وظفر بالتركمان أيضا وكسرهم .

قال : وفي هذه المدة تزوج أتابك قسيم الدولة بخاتون بنت الملك رضوان ، ودخل بها ليلة الاثنين في عشرين من شعبان .

قال : وفي يوم الاثنين عاشر شوال تسلم أتابك عماد الدين حماه ، وقبض على خير خان صاحب حمص ، وأنهب عسكره وخف إلى حمص ، فنزل ربضها ، وطلب من أولاد خير خان التسليم ، فامتنعوا وشبت الحرب بينهم وشنع على الأمير أطسيس بن ترك فقتلوه ، ورمي برأسه ، ونقبوا القلعة فبطل النقب ونصبت المجانيق فبطلت ، وطال الشرح ، فهجم الشتاء ، فعاد العسكر إلى حلب ثاني ذي الحجة .

وقال فيها ـ يعني ـ سنة خمس وعشرين وخمسمائة في المحرم ، وسار أتابك عماد الدين مشرقا يوم الخميس عشرية ، وكان السلطان محمود شتى ببغداد ، فلما كان في ثالث عشر ربيع الآخر شرق نحو أصبهان وبلغه أن أخاه باين بالعداوة ، فرد أمر العراق إلى عماد الدين قسيم الدولة زنكي مضافا إلى ما كان في يده من الجزيرة والشام ، كذا كله ودبيس مقيم بفم البرية يتواعد بغداد بالخراب ، وبلغ أتابك عماد الدين وفاة السلطان محمود بن تبر ، وهو على القريتين ، فسار نحو الموصل ليلة الخميس سادس عشر شوال ومعه دبيس ، وكان لهذا السلطان عند الأمير ولدان أحدهما الذي كانت أمه عند سنقر البرسقي وماتت اسمه ألب أرسلان أبو

طالب ، والآخر الذي كان عند دبيس فبعث عماد الدين يسوم المسترشد أن يخطب لأبي طالب ولد السلطان ، فاعتذر المسترشد إليه بأنه صبي ، وأن المنقول رسم لولده داوود وهو بأصبهان ، وقد وصلت رسل البلاد كلها تقول : اخطب لداوود فنحن له طائعون وأنا منتظر جواب كتاب سنجر عم القوم ، وكان أتابك عماد الدين قد أخذ خبر عودة ابن الأنباري رسول الخليفة من دمشق ، كان المسترشد دفنه في معنى دبيس إلى تاج الملوك فوجده قد صار إلى عماد الدين ، فعاد وكانت في صحبته قافلة عظيمة فيها أموال ، فبعث عماد الدين إليه سرية القبض عليه ، فقبضوا عليه ونهبوا القافلة في كياد الخليفة وفك القيود عن دبيس وخلع عليه ، وحمل له من المال والجوهر والخيل والعدد مالا حد عليه ، وخرج من الدار التي كان يشرب فيها وسلمها إليه بآلاتها وكل ما فيها .

قلت : وبعد ذلك وصل داوود بن محمود بن محمد بن ملكشاه إلى زنكي فأخذه وسار به إلى بغداد وأنزله في دار السلطنة ببغداد ، وزنكي في الجانب الغربي والخليفة إذ ذاك الراشد بعد قتل المسترشد ، فوصل السلطان مسعود إلى بغداد فحصرهم بها فوقع الوباء في عسكره ، فسار إلى أرض واسط ليعبر إلى الجانب الغربي ، فاغتنم زنكي غيبته ، وسار إلى الموصل وسار داوود إلى مراغة ، وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود ، فعاد فهرب الراشد ولحق أتابك زنكي بالموصل ، ودخل مسعود بغداد ، فبايع محمدا المقتفي ، وخطب له ببغداد وأعمال السلطان وبقيت الخطبة بالشام والموصل على حالها إلى أن اتفق زنكي والسلطان مسعود واصطلحا ، وخطب بالشام والموصل للمقتفي ولمسعود ، وفارق الراشد إذ ذاك زنكي وسار عن الموصل إلى خراسان ، وذلك في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة .

قرأت بخط القاضي علاء الدين أبي محمد الحسن بن إبراهيم بن الخشاب في تاريخ مختصر عمله أبو شجاع محمد بن علي بن شعيب الفرضي البغدادي المعروف بابن الدهان ، وذكر : أنه نقله من خطه ،

قال في حوادث سنة إحدى وعشرين : واتفق الأمر على أن يسير بدر الدولة وخطليا إلى باب الموصل إلى عماد الدين زنكي ، فلما ولي عاد إلى منصبه وأقام بحلب الامير قراقش والرئيس فضائل بن بديع ، فأصلح عماد الدين بينهما ، ولم يوقع لأحد منهما ، وسير سرية إلى حلب صحبة الحاجب صلاح الدين العمادي ، فوصل إلى حلب وطلع إلى القلعة ، وأقام فيها واليا من جانبه .

وقال : وفي هذه السنة - يعني - سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة دخل عماد الدين زنكي بن آق سنقر إلى حلب في يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة والطالع السنبلة أربع عشرة درجة ، وطالعه الاصلي الميزان ، كذا حكى لي البرهان ، وقبض على خطليا وسلمه إلى ابن بديع فكحله في منتصف رجب سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، قال : وانحاز قاضي القضاة الزينبي إلى الموصل في ولاية الراشد والآن عاد وسمع البينة في خلع الراشد وانضاف إلى الراشد لما أصعد إلى الموصل أبو الفتوح الواعظ الاسفرائيني وجلال الدين بن صدقة الذي كان وزيره ، وقوام الدين ابن صدقة وأكابر بيت صدقه ، وحصل الجماعة عند زنكي بالموصل ، ولما اتفقت الكلمة على المقتفي لأمر الله وعلى السلطان مسعود استشعر الراشد من زنكي ، وطلب منه أن يعبر إلى الجانب الغربي ليمضي إلى همذان ، فمشى بين يديه إلى أن حصل في الشبارة وعبر وتخلف عند زنكي جلال الدولة ابن صدقة وجماعة من بيته ، وسمعت قوام الدين ابن صدقة يحكي أن الراشد لما حصل على شاطيء دجلة بالموصل يريد العبور وزنكي بين يديه ، قال لأبي الرضا بن صدقة : أريد أقتل زنكي ، فقال أبو الرضا لابن عمه قوام الدين قل لزنكي يسرع خطوه بحيث يبعد عن الراشد ففعل ، وعرف زنكي ذلك لأبي الرضا ، فاستوزره ، ومضى الراشد الى أصفهان وصحبته أبو الفتوح الاسفرائيني وأقام عليها الى أن قتل .

وقال :في خامس عشر جمادى الآخرة - يعني - سنة تسع وثلاثين

وخمسمائة ، فتح زنكي الرها ، كان نازلا على آمد فكتب إليه رئيس حران يخبره أن صاحب الرها قد تـوجه إلى الشـام ، فـأغذ زنكي السير حتى نزل على الرها ، وحال بينها وبين صاحبها ، وحاصرها أشد الحصار ، وفتحها بالسيف فغنم المسلمون منها .

قرأت في تاريخ أبي المحاسن بن سلامة بـن الحـراني لحـران ، دفعه إلي الخطيب سيف الدين أبو محمد عبد الغني ابن شيخنا فخر الدين أبي عبد اله محمد بن الخضر بن تيمية ، وذكر لي أنه نقله من خط شيخه المؤلف أبي المحاسن ، قال : وفي سـنة تسـع وثـلاثين وخمسمائة نزل ـ يعني ـ أتابك زنكي على الرها وفيها الأفـرنج ، فحصرها واخذها بـالسيف يوم السـبت السـادس عشر جمـادى الاخرة ، وكانت أيام الشتاء والبرد قال الشاعر :

إذا كانت جمادى في جمادى
فذاك القر والبرد الشديد

ولما فتحها أوصى بأهلها خيرا ولم يسـب اهلهـا ، وذوى عمـارتها ووجدوا على عضادة المحراب مكتوبا :

اصبحت صفرا من بني الاصفر
اختال بالاعلام والمنبر

دان من المعروف حال به
ناء عن الفحشاء والمنكر

مظهر الرحب على انني
لولا جمال الدين لم أطهر

فبلغ ذلك رئيس حران جمال الدين فضل الله أبا المعالي فقـال : امحوا جمال الدين واكتبوا عماد الدين ، فبلغ ذلك أتابك عماد الدين

فقال : صدق الشاعر اولاك ما طمعنا فيها ، وأمر عماله إذا جاءت جائحة في الغلة أن يأخذوا الخراج على قدرها فكانوا يأخذون خراجا ، وتارة نصف خراج ، وتارة ثلث خراج ، وتارة ربع خراج ، وتارة لايأخذون شيئا إذا محلت البلاد ، وقسم الماء الذي لحران ثلاث أقسام : قسما للسلطان ، وقسما للشتايات وقسما لآبار حران ولخندق القلعة ، فلما اخذ الرها نزل على البيرة ، وفيها الافرنج وذلك في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وجاءه الخبر من الموصل أن نصير الدين نائبه بالموصل قتل ، فخاف عليها وسار حتى دخل الموصل وأخذ فرخانشاه ابن السلطان الذي قتل نصير الدين جقر بن يعقوب فقتله بدم نصير الدين .

سمعت شيخنا قاضي القضاة أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قاضي حلب رحمه الله يقول : كان عندنا بالموصل رجل يقال له موسى يؤذن بالمدرسة ، وكان أشقر شكله شكل الأرمن ، وكان جهوري الصوت ، وكان له قرية ملكه إياها أتابك زنكي ، فسألته عن السبب في تمليكه القرية ، فقال : إني كنت مع أتابك لما نزل محاصرا للرها ، فنزلت إلى السوق واشتريت لباسا من لباس الأرمن ، وتزييت في زيهم ، ووصلت إلى البلد لأنظره وأكشف حاله ، فجئت إلى الجامع فدخلته ورأيت المنارة ، فقلت في نفسي أصعد إلى المنارة وأؤذن وحتى يجري ما جرى ، فصعدت وناديت : الله أكبر الله أكبر ، وأذنت والكفار على الأسوار ، فوقع الصياح في البلد أن المسلمين قد هجموا البلد من الجهة الأخرى ، فترك الكفار القتال ونزلوا عن السور فصعد المسلمون وهجموا المدينة ، فأعطاني أتابك هذه القرية لذلك .

قرأت في تاريخ حران جمع أبي المحاسن بن سلامة الحراني ، قال : حدثني أبي رحمه الله قال : كان أتابك زنكي قسيم الدولة آق سنقر رحمه الله إذا ركب مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخافة أن يدوس العسكر شيئا من الزرع ، ولايجسر أحد من هيبته يدوس عرقا من الزرع ولا يمشي فرسه فيه ، ولا يقدر احد من

الاجناد يأخذ لفلاح علاقة تبن إلا بثمنها أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية ، وإن تعدى أحد عليه صلبه عليها ، وكان إذا بلغه عن جندي أنه تعدى على فلاح قطع خبزه وطرده ، حتى عمر البلاد بعد خرابها وأحسن الى اهل مملكته ، وكان لايبقي على مفسد وأوصى ولاته بأهل حران وعماله ، ونهى عن الكلف والمغارم والسخر والتثقيل على الرعية وأقام الحدود في بلاده رضي الله عنه ، هذا ما حكاه أبو المحاسن عنه

وسمعت من جماعة من فلاحي حلب أنه كان عليهم منه جور وظلم في أيام ولايته ، وأكثر ما كان عنه من الظلم ما يلزم الناس به من جمع الرجالة للقتال والحصار ، فإن كان ذلك في جهاد الكفار ، فقد كان يجب عليهم ذلك ، وله الزامهم به ، وبلغني أنه كان لايتجاسر أحد من رعيته كائنا من كان أن يظلم أحدا من خلق الله ، ويقول : لايتفق ظالمان يعني نفسه وغيره .

وبلغني ان أتابك زنكي تزوج بنت الملك رضوان وبني بها في دير الزبيب خارج مدينة حلب ، وكان إذ ذاك فيه بقايا عمارة ودامت معه بحلب إلى أن دخل يوما إلى الخزانة بحلب ليعتبر ما فيها ، فرأى الكير الذي كان على أبيه آق سنقر حين أسره تاج الدولة تتش وقتله بين يديه صبرا ، وهو ملوث بالدم فقيل له : هذا كير أبيك الذي قتل فيه ، فانزعج لذلك وأخذه بيده ، ودخل على زوجته بنت الملك رضوان ، وألقى الكير بين يديها وهو مضمخ بالدم وقال لها : أما هذا فعل من لا رحمه الله ، يعني جدها تاج الدولة تتش ، ثم هجرها من ذلك اليوم ، وانقطع عن الدخول إليها ، ودام على ذلك .

فحدثني عمي أبو غانم عن أبيه أبي الفضل قال : كان أتابك زنكي متزوجا بنت الملك رضوان فهجرها ، وبقي مهاجرا لها مدة من الزمان ، فجاءت إلى والدي القاضي أبي غانم وهو قاضي إذ ذاك وقالت له : أيها القاضي قد جئتك متمسكة بنبيك ، ومستجيرة بالشريعة المطهرة ، فإني مع أتابك لا أعلم حالي معه ، أمطلقة أم

معلقة ، وأنا مهجورة من مدة طويلة ، فوعدها الاجتماع به في ذلك ، ثم صعد إليه إلى القلعة ولقيه ، وهو راكب على الباب فقال له : يامولاي ، قد جاءت إلي خاتون وذكرت لي كذا وكذا قال : فساق أتابك فرسه ولم يجب بشيء ، قال : فأمسك والدي لجام الدابة ومنعه من المسير ، وقال : يامولاي هذه الشريعة المطهرة لاينبغي الخروج عنها ، فقال أتابك : اشهد على أنها طالق ، قال فأرسل والدي حينئذ لجام الدابة من يده ، وقال : أما الساعة فنعم .

وسمعت عمي أبا غانم يقول : قال لي والدي أبو الفضل : لما مات أبي القاضي أبو غانم ولاني أتابك زنكي القضاء بعده على أهل حلب وأعمالها وأحضرني مجلسه ، وقال لي : ياقاضي هذا أمر قد نزعته من عنقي وقلدتك إياه فانظر كيف تكون واتق الله ساوي بين الخصمين هكذا ، وجمع بين سبابته ووسطاه ، ولاتمل على أحد الخصمين ولاتحاب أحدا ومن امتنع عليك فها أنا من ورائك .

اخبرني أبو محمد عبد اللطيف بن محمد بن أبي الكرم بن المعلى السنجاري قال : أخبرني أبي قال : كان بالموصل رجل من أهل الصلاح يذكر المنكر أين رآه ، فإن رأى خمرا أراقه أو رأى جنكا أو عودا كسره ، فيضرب على ذلك ، فيجلس في بيته ويداوي أثر الضرب ، ثم يخرج ، فإن رأى منكرا أنكره على عادته ، فيضرب ضربا عنيفا ، فيجلس في البيت على العادة ويداوي نفسه إلى أن يبرىء ويخرج ويذكر على عادته ، فاتفق يوما من الايام أن خرج فنظر إلى دجلة ، وزنكي بن آق سنقر راكب في شبارة وعنده مغنية تغني ، وهو يشرب ، وعنده جماعة فنزع ذلك الرجل ثيابه وسبح وجاء إلى الشبارة التي فيها زنكي ، فعلق يده فيها ليصعد ، فقال بعض من مع زنكي : أأضرب يده بالسيف ؟ فقال : لا اتركه ، فتعلق وصعد فجلس فأشار ذلك الشخص إلى زنكي أأضربه ؟ فقال : لا اتركه فقعد في الشبارة وأخذ الجنك وقطع أوتاره ، ثم اخذ الاقداح وصبها في دجلة وغسلها بالماء وتركها في الشبارة ، وألقى جميع ما ثم من الخمر في الماء ، وغسل الآنية وتركها ، ثم مد يده إلى إزار

المغنية فأخذه وسترها به ، ثم ألقى بنفسه في دجلة وسبح وعبر ، ولم يكلمه زنكي كلمة ، وأما زنكي فإنه لما سبح ذلك الرجل وعبر قال : نرجع وندخل إلى دورنا فليس لنا في هذا اليوم اشتغال بما كنا فيه وأمر الملاحين فأتوا بالشبارة إلى داره فنزل فيها .

قال : وأما الرجل الذي كان يذكر ، فكان بعد ذلك إذا انكر المنكر لايتجاسر أحد على ضربه ، وإذا رأوه مقبلا ليذكر عليهم انهزموا منه ، واختفوا من طريقه ، ولما مات غلقت أسواق الموصل لحضور جنازته رحمه الله .

أنبأنا أبو المحاسن سليمان بن الفضل بن سليمان قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي قال : زنكي بن أق سنقر أبو المظفر التركي المعروف بابن قسيم الدولة ، دخل دمشق في صحبة الأمير ممدود صاحب الموصل ، الذي قتل بدمشق ، وكان من خواصه ، ثم ترقت به الحال إلى أن ملك الموصل وحلب وحماة وحمص ، وحصر دمشق ثم استقرت الحال على أن يخطب له على منبرها ، وملك بعلبك وغيرها من بلاد الشام والجزيرة ، واسترجع عدة من حصون الفرنج وبلادهم ، مثل : المعرة وكفر طاب وتل بارين وفتح مدينة الرها ، وكان له أثر حسن في مقاومة متملك الروم لما حصر شيزر ، وأسر عدة من أبطال العدو ، وكان شهما صارما قتل وهو محاصر لقلعة ابن مالك في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة بالرقة رحمه الله .

قرأت في تاريخ أبي شجاع محمد بن علي بن الدهان الفرضي في حوادث سنة إحدى وأربعين وخمسمائة قال : وفي هذه السنة قتل عماد الدين زنكي ليلة الأحد سادس شهر ربيع الآخر على قلعة جعبر قتله خادم له اسمه يرنقش ، وانهزم إلى قلعة جعبر .

قلت : وفي تعليقي من الفوائد أن أتابك زنكي سار من الرها ، ونزل على قلعة جعبر بالمرج الشرقي تحت القلعة يوم الثلاثاء ثالث

ذي الحجة من سنة أربعين وخمسمائة فأقام عليهـا إلى ليلة الأحـد سادس شهر ربيع الآخر نصـف الليل مـن سـنة إحـدى وأربعين وخمسمائة ، فقتله يرنقش الخادم ، كان تهدده في النهار فخاف منه فقتله في الليل في فراشه وقيل إنه شرب ونام فـانتبه فـوجد يرنقش الخادم وجماعة من غلمانه يشربون فضل شرابـه ، فتـوعدهم ونام فأجمعوا على قتله ، فقتله يرنقش المذكور .

سمعت والدي رحمه الله يقول : أن حارس أتابك كان يحرسه في الليلة التي قتل فيها بهذين البيتين :

يارا قد الليل مسرورا بأوله
إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
لاتأمنن بليل طاب أوله
فرب آخر ليل أجج النارا

قرأته في تاريخ حران تأليف أبي المحاسن بن سـلامة الحـراني قال : فلما كان في سنة أربعين وخمسـمائة نزل - يعني - أتـابك زنكي على قلعة جعبر بالمرج الشرقي تحت القلعة يوم الثلاثاء ثـالث ذي الحجة ، فأقام عليها إلى ليلة الأحد سادس ربيع الآخـر نصـف الليل من سنة أربعين وخمسمائة ، فقتله يرنقش الخادم كان تهـدده في النهار فخاف منه فقتله في الليل في فراشه ، وجاء إلى تحت القلعة فنادى أهل القلعة شيلوني ، فقد قتلت السلطان فقالوا له : إذهـب إلى لعنة الله قد قتلت المسلمين كلهم بقتله ، وافترقت العساكر فأخذ اولاد الداية نور الدين محمود الملك العـادل بـن عمـاد الدين زنكي وطلبوا حلب والشام فملكها ، وسار اجناد بسـيف الدين غازي إلى الموصل وأعمالها فملكها وملك الجزيرة ، وبقي عمـاد الدين أتـابك زنكي وحده فخرج إليه أهل الرافقة فغسلوه بقحف جرة ودفنوه على باب مشهد الامام علي عليه السلام في جوار الشهداء من الصحابة ، وبنى بنوه عليه قبة فهي باقية إلى الآن .

كذا قال أبو المحاسن ، وإنما دفن أولا داخل مشهد علي رضي الله عنه قريبا من الباب ، ثم نقل من ذلك الموضع إلى جوار الشهداء لما نذكره بعد هذا ، وبنى عليه ولده نور الدين محمود حائطا يقصر عن القامة ولم يبن عليه قبة .

أخبرني الأمير بدران بن جناح الدولة حسين بن مالك بن سالم ابن مالك العقيلي قال لما طال حصار أتابك زنكي لعمي علي بن مالك على قلعة جعبر تقدم حسان البعلبكي صاحب منبج إلى عمي ، وقال له : من تحت القلعة ياأمير على ايش بقي يخلصك من أتابك ؟ فقال له يا عاقل يخلصني الذي خلصك من جب خرتبرت ، فذبح أتابك في تلك الليلة ، وكان حسان قد قبض عليه بلك بن بهرام بن أرتق ، وطلب منه أن يسلم إليه منبج فلم يفعل ، فسيره إلى خرتبرت وحبسه في جب بها وحاصر منبج ، فجاءه سهم فقتله عليها ، وخلص حسان وعاد الى منبج .

وقال لي بدران : ومن عجيب ما اتفق في حصار القلعة ما حكاه لي جماعة من عندنا وشيوخ أصحابنا أن أتابك زنكي لما قصد القلعة وحاصرها ، وبها عمي علي أقام مضايقا لها حتى عدموا الماء فبذل عمي ثلاثين ألف دينار ليرحل عنها فأجابه إلى ذلك ، ونزل رسول عمي إليه وقد جمع الذهب حتى قلع الحلق من آذان عماتي على ما حكى لي المشايخ .

قال : فلما نزل الرسول إليه قال لبعض خواصه امض بفرسه وقدمه إلى قدر اليخني فإن شرب منه فأعلمني ، قال : فمضى به إلى قدر اليخني وجعل مرقة اليخني بين يديه فشربها الفرس ، فأخبره بذلك ، فقال إن الماء عندهم قليل جدا ، فقال للرسول : ارجع اليهم فلا سبيل إلى الصلح إلا على القلعة ، فقال له الرسول : لاتفعل ، فقال : قد فعلت وأنتم فما بقي عندكم ماء يكفيكم ، قال : فصعد الرسول إلى القلعة وأخبر عمي بذلك فأسقط في يده ، قال : وكان في القلعة بقرة وحش ، وقد أجهدها العطش فصعدت درجة المئذنة حتى

علت عليها ورفعت رأسها إلى السماء وصاحت صيحة عظيمة مـلأت الوادي ، قال : فأرسل الله سبحانه سحابة ظللت القلعـة وامـطروا حتى رووا ، ولما كان عشية ذلك اليوم باتوا تلك الليلة فقتل أتـابك في جوف الليل ، وفرج الله عنهم .

قلت : وكان القاضي أبو مسلم قاضي الرقة هـو الذي خرج مـن الرقة مع جماعة من أهلهـا ، وتـولى تجهيز زنكي ونقله إلى الرقـة ودفنه ، فكان ثوابه من نور الدين محمـود بـن زنكي أن وقـف عليه وعلى ذريته من بعده قرية عامرة ببلدة حلب .

أخبرني شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن أبـي مسـلم قاضي الرقة ، بالرقة ، قال : كان أتابك زنكي حين قتـل وحمـل إلى الرقة قد دفن في مشهد علي بن أبي طالب عليه السلام داخـل البـاب عن يمين الداخـل والمكان معـروف وأرانيه حين حـكى لي هـــذه الحكاية ، قال : وكان بـالمشهد قيم أعجمـي يقـال له ببنار ، وكان رجلا صالحا فاتفق ليلة النصف مـن شـعبان أن رأى في المنام كأنه خرج من البلد وجاء إلى المشهد فرأيت ثـلاثة رجـال ، فقلت : مـن أنتم ؟ فقال أحدهم : أنا علي بن أبـي طـالب وهـــذان الحســـن والحسين ، ثم سألني عن القبر فقلت هذا قبر سلطان عظيم ، فقـال لي : مه السلطان العظيم هـو الله ، فقلت هـذا قبـر أتـابك زنكي الشهيد ، فقال لي : تمضي إلى ولده محمود وتقول له : نحـن جعلنا هذا المكان معبدا لم نجعله مدفنا ، فقل له : ينقله من هاهنا ، قال : ثم مشـوا إلى المكان الذي يقـال فيه الكف ، ودعوا ثـم قـال لي : ياببنار أنت ما تقول له ، نحن نقول له قال : فأصبح ببنار ودخل إلى جدي القاضي موفق الدين أبي مسلم فحكى له ما رأى وعنده جماعة ، فأخذ جدي وكتب كتابا إلى نور الدين محمـود يخبـره فيه بصـورة المنام قال : فلم يصل إليه الكتاب حتى سير نور الدين محمود كتـابا إلى القاضي أبي مسلم يقول له : إني رأيت ليلة نصف شـعبان علي ابن أبي طالب وولديه الحسن والحسين عليهم السلام ، وقـالوا لي : تنقل أباك من المشهد فنحن جعلناه معبدا لم نجعله مدفنا وقد سيرت

إليك أربعة آلاف قراطيس ، تبني له تـربة مثـل تـرب الفقــراء والمساكين لامثل ترب الملوك والسلاطين وتنقله إليها ، قال : فبنى له حظيرة مختصرة بالقرب من باب المشـهد ، ونقله إليهـا ، ورأيتهـا بالرقة وهي قصيرة البنيان .

سمعت قاضي القضاة أبا المحاسن يوسـف بـن رافـع بـن تميم يقول : قد رؤي أتابك زنكي بعد موته في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي بفتحي الرها .

زنكي بن مودود بن آق سنقر

أبو سعيد الملقب عماد الدين صاحب سنجار وهو حفيد المقدم ذكره .
ويلقب الملك العادل .

وكان عادلا يميل الى الدين واهله ، وكان أخوه عز الدين مسعود ابن مودود بعد موت الملك الصالح ابن عمه قد ملك حلب فسير إليه عماد الدين زنكي وقال :

كيف تختص انت ببلاد عمي وابنه وامواله ، وأنا لا أصبر على ذلك وطلب منه حلب ، ويدفع إليه سنجار عوضا عنها ، فأجابه إلى ذلك ، وأخذ جميع ما كان بحلب من الأموال والذخائر ، واتفقا على تسليم حلب إلى زنكي وتسليم سنجار إلى عز الدين ، فسير عماد الدين زنكي ولده قطب الدين الى حلب فتسلمها ، ثم ورد بعده بأهله وأمواله وزوجته بنت عمه نور الدين وأجناده ، ووصل إلى حلب على البرية من جهة الاحص والتقاه أكابر الحلبيين ، وصعد إلى قلعة حلب في ثالث عشر المحرم من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وقيل في مستهله ، ووصل الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب إلى حلب ونزل عليها ثلاثة أيام ، فقال له زنكي : مر إلى سنجار وافتحها وادفعها إلي أدفع اليك حلب فرحل الملك الناصر عن حلب ومضى الى الموصل ، ثم رحل (٢١٦ - و) عنها إلى سنجار وفتحها في ثاني عشر شعبان من السنة وعاد عنها وعزم على منازلة حلب ، وبلغ عماد الدين زنكي ذلك فخرب عزاز وحصن بزاعا وحصن بالس ، وحصن كفر لاثا بعد اخذه من بكمش ، واخذ رهائن الحلبيين خوفا من تسليم البلد ، ونزل الملك الناصر على حلب وقت الضحى من يوم السبت لاربع بقين من المحرم من سنة تسع وسبعين وخمسمائة وأقام عليها شهرا يجد في القتال ، فرأى عماد الدين

زنكي أنه لا طاقة له به وان أخاه عز الدين قد جعلها خالية من الأموال والذخائر ، فأحضر اليه الأمير طمان واتفق معه على أن يخرج في السر ليلا ، ويتحدث في تقرير الامر بينهما على تسليم حلب وأعمالها إلى الملك الناصر وأن يعوضه عنها بسنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج ، وأن تكون بصرى لطمان ، ويكون في خدمة زنكي ، وكتم ذلك عن الحلبيين والاجناد ، وكان يخرج الى اصطبله وداره بالحاضر ويظهر انه يخرج لحفظ أخشابه بهما ، ويجتمع بالسلطان إلى أن قرر ما قرره ، ولم يشعر أحد من الجانبين إلا وأعلامه قد رفعت على قلعة حلب ، واستقر الأمر على إجراء الأمراء وأعيان المدينة على عادتهم في معايشهم وأملاكهم ، وكان الحلبيون يجدون في قتال عسكر الملك ويخرج منهم في كل يوم عشرة آلاف مقاتل أو أكثر يجدون في القتال ، فخافوا على انفسهم لما تكررمنهم في قتال الملك الناصر مرة بعد أخرى في أيام الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وفي ايام عماد الدين (٢١٦ ظ) زنكي وصرخ العوام بسببه ، ونزل عماد الدين من قلعة حلب يوم الخميس ثالث وعشرين من صفر من سنة تسع وسبعين وخمسمائة ورتب فيها طمان إلى أن يتسلم نواب عماد الدين ما اعتاض به عن حلب واستنابه في بيع جميع ما كان في قلعة حلب حتى باع الاغلاق والخوابي ، واشترى الملك الناصر منها شيئا كثيرا ونزل عماد الدين في ذلك اليوم إلى السلطان الملك الناصر ،وعمل الملك له وليمةواحتفل ، وقدم لعماد الدين أشياء فاخرة من الخيل والعدد والمتاع الفاخر ، وسار عماد الدين نحو بلاده حتى نزل مرج قراحصار ، وسار الملك الناصر وشيعه ورجع .

سمعت عمي أبا المعالي عبد الصمد بن هبة الله بن أبي جرادة قال : نقل عز الدين صاحب الموصل من حلب حين ملكها جميع ما في قلعة حلب من الذخائر والسلاح والاموال إلى الرقة ، وصانع عماد الدين على أن يأخذ منه سنجار وأعطاه حلب ، فقدم عماد الدين إلى حلب مجدا في السير على البرية .

قال لي عمي : فخــرجت أنا ووالدك والتقيناه وقــدم مــن ناحية الاحص ، ودخل حلب وأقام بها فلم يجـد في قلعتهـا مــن الذخــائر والأموال إلا القليل ، فبلغ الملك الناصر فقــال : أخــذنا والله حلب ، وكان لما بلغه تسلم عز الدين حلب قال : خــرجت حلب مــن أيدينا ، فقيل له : كيف ؟ قلت في عز الدين لما أخــــذها خـــــرجت حلب عن ايدينا ، وقلت في عماد الدين أخذنا حلب ، فقــال : لأن عز الدين ملك صاحب رجال ومال (٢١٧ ــ و) وعماد الدين لارجــال ولامــال ، وجاء الملك الناصر ونازل حلب فقال له عماد الدين امض الى سنجار وخذها وأنا أدفع إليك حلب وتعطيني ســنجار ، فــرحل عنهــا الملك الناصر بعساكره ونازل سنجار وفتحهــا ، وعاد الملك الناصر ونزل على حلب وبها الأمراء الياروقية في قوتهم وعدتهم ، فســعى الأمير طمان بين عماد الدين والملك الناصر وصالحه على أن يعطيه سنجار ويأخذ حلب ، ولم يعلم أحد من الامراء واهــل البلد إلا واعلام الملك الناصر على قلعة حلب ، فشق عليهم ذلك وجرى على الياروقية أمــر عظيم وخافوا على أخبازهم ، وكذلك على أهل البلد لأن الملك الناصر كان قد حاصرها في أيام الملك الصالح ورأى من قتــالهم ونصــحهم مالم يشاهده مــن غيرهــم ، وصــعد الرئيس(٧٦) بحلب مقــدم الاحداث إلى عماد الدين ووبخه على ذلك ، فقال له وهو في القلعــة : لم نخرج منها بعد فما فــات شيء فــاستهزأ بــه الرئيس وجمــع له الحلبيون الأجناد إجانات الغسالين إلى تحت القلعةيشيرون بــذلك الى أنه يغسل فيها كالمخانيث ، وعمل عوام حلب فيه شعرا ملحــونا من نظم العامة الجهال ، وكانوا يغنون بها ويدقون على طبــل لهــم منها :

ياحباب قلبي لاتلوموني هذا عماد الدين مجنون
قايض بسنجار لقلعة حلب وزانه المولى نصيبين
(٢١٧ ــ ظ)

قال : وضرب أخر من العوام السفلة على طبله وقال مشــيرا الى عماد الدين :

وبعت بسنجار قلعة حلب عدمتك من بايع مشتري
خربت على حلب خربة نسخت بها خربة الا شعري

وقرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن الحصين - فيما كتبه بخطه - عن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي في دستوره الذي جعله تاريخا للماجريات في كل يوم بعضه بخط الفاضل وبعضه بخط ابن الحصين قال:يوم الجمعة سابع عشر صفر- يعني - من سنة تسع وسبعين وخمسمائة في ليلة خرج الحسام طمان ، واجتمع بالسلطان وتقرر الامر في تسليم حلب إلى السلطان وقلعتها ، وأخذ العوض عنها سنجار ، ونصيبين ، والخابور والرقة ، وسروج وعقد المصافاة مع العماد على المساعدة في الغزو بعسكر سروج والرقة متى استدعوا للجهاد ، وأن يساعد بنفسه وباقي رجاله متى خف ركابه لذلك ، وأن يتابع السلطان في حالتي سلمه وحربه ، ويخلص في طاعته في بعده وقربه ، وحررت من الجانبين نسخة يمين يستحلف باحديهما العماد ويحلف هو بالأخرى .

وقال : خرج في آخر نهار هذا اليوم حسام الدين طمان وجورديك وجماعة من أمراء الياروقية ، وحضروا خدمة السلطان الملك الناصر ، ولخصوا من نسخة اليمن فصولا مختصرة استوفوا أقسام الحلف بها على السلطان ، وباتوا تلك الليلة بالمعسكر التقوي(٧٧) خوفا من تشغيب (٢١٨ - و) العوام .

وقال : يوم السبت ثامن عشر صفر خرج الامراء الحلبيون من الياروقية والمماليك النورية وحضروا خدمة السلطان ، وجاء أعيان المدينة وبياضها ، وشملهم انعام السلطان في رد الأملاك على أربابها واقرار الاجناد على معائشهم واقطاعاتهم واجراء الرعايا على عوائدهم .

وقال - يعني في هذا اليوم - اعلن أهل حلب بسب عماد الدين زنكي بن مودود ، وذمه وتسخيف رأيه ، ووصف ذله وجبنه فيما

اعتمده من السلم والتسليم حتى حملوا الى باب القلعة مغزلا وقطنا وأجانة ، يعنون انك شأنك شأن النساء من الغزل والغسل .

وقال : يوم الاحد تاسع عشر صفر خرج في أوله الأمراء الحلبيون إلى الخدمة بأسرهم ، وساروا في الخدمة الى الميدان الاخضر وفتحت أبواب حلب بأسرها وجلس أهلها في معايشهم .

وقال : - يعني في هذا اليوم - أنعم السلطان على ابنة نور الدين محمود بن زنكي زوجة عماد الدين زنكي بن مودود باقطاع من أعمال حلب وعبرته في كل سنة عشرون ألف دينار .

وقال : يوم الخميس ثالث عشري صفر خرج عماد الدين زنكي بن مودود من قلعة حلب وركب السلطان فتلقاه واعتنقا راكبين ، وتسايرا ، فلما قاربا مخيم السلطان تقدم عماد الدين أمامه فترجل عن فرسه قريب اطناب الدهليز حيث ينزل الأمراء في خدمة السلطان ، فأمسك السلطان رأس فرسه حتى دخل عماد الدين الى دهليز سرادقه(٢١٨ - ظ) ثم سار السلطان فنزل حيث جرت عادته ، ودخل وفرش تحت قدمي عماد الدين عدة ثياب أطلس ، ودخل السلطان فجلسا معا ، وجلس الامراء الحلبيون كلهم على مراتبهم ومد الخوان ، ولم يزل السلطان يبسط العماد ويؤانسه ويشغل الوقت بالأخبار المصرية والغزوات وغيرها ، والعماد ملازم الصمت والتثاقل حتى حضر سليمان بن جندر بحكم التحجب عن السلطان ، وخدم عماد الدين وقدم بين يديه ما حمل من الخزانة الناصرية في عشرين بوقجة : مائة ثوب وسكين بنصاب ناب ، وأصناف الثياب أطلس ورومي ، وخوارزمي وأنطالي وخطاي ، وسقلاطون ، وعتابي ، وغير ذلك ، وقدم له الملك العزيز عثمان تسعة أثواب خونجي ومشجر وآمدي وسكين ومنديل ، وقدم له الملك الظاهر غازي مثل ذلك ، وقدم له من اصطبل السلطان عشرة أرس (٧٨) خيلا عرابا ، وخمس حجور ، وخمسة أحصنة ، وقدم له الملك العزيز عثمان ثلاثة أحصنة ، والملك الظاهر مثل ذلك ،

ونهض عماد الدين وخدم وانفصل ، وسار على حاله الى منزل يعرف بقراحصار وهو على نحو فرسخين من حلب في جهة المشرق ، ويقال قراحصا .

أخبرنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قال : رحل عز الدين - يعني - مسعود بن مودود من قلعة حلب في سادس عشر شوال - يعني من سنة سبع وسبعين وخمسمائة طالبا الرقة وسار حتى أتى الرقة (٢١٩ - و) ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهما واستقر مقايضه حلب بسنجار ، وحلف عز الدين لأخيه عماد الدين على ذلك في حادي عشرين شوال ، وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب ، ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار .

وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين إلى قلعة حلب .

وقال : وسار - يعني - السلطان الملك الناصر طالبا حلب ، فنزل عليها في سادس عشرين محرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة . وكان أول نزوله بالميدان الاخضر ، وسير المقاتلة يقاتلون ويباسطون عسكر حلب ببانقوسا ، وباب الجنان غدوة وعشية ، ولما نزل على حلب استدعى العساكر من الجوانب ، واجتمع خلق عظيم ، وقاتلها قتالا شديدا ، وتحقق عماد الدين أنه ليس له به قبل ، وكان قد ضرس من إفراخ (٧٩) الامراء عليه وجبهم ، فأشار إلى حسام الدين طمان رحمه الله أن يسفر له مع السلطان قدس الله روحه في اعانة بلاده وتسليم حلب إليه .

واستقرت القاعدة ، ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتى تم الامر وانحكمت القاعدة واستفاض ذلك ، واستعلم العسكر منه ذلك فأعلمهم . وأذن لهم في تدبير أنفسهم ، فأنفذوا عنهم وعن الرعية جورديك النوري وبيلك الياروقي فقعدوا عنه الى الليل ، واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد ، وذلك في سابع عشر صفر سنة تسع وسبعين ، وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان

(٢١٩ ـ ظ) الاخضر ومقـدموا حلب ، وخلع عليهـم ، وطيب قلوبهم ، وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي أشـغاله وينقـل أقمشـته وخزائنه ، والسلطان مقيم بالميدان الأخضر الى يوم الخميس ثـالث عشر صفر ، وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين الى خدمته وسـير معـه بالميدان الاخضر وتقرر بينهما قواعد ، وأنزله عنده في الخيمة وقـدم له تقدمة سنية وخيلا جميلة ، وخلع على جماعة من أصحابه ، وسار عماد الدين من يومه الى قـراحصا سـائرا الى سـنجار ، فـأقام السلطان بالمخيم بعـد مسـير عمـاد الدين الى يوم الاثنين سـابع وعشرين صفر ، ثم في ذلك اليوم صعد قدس الله روحـه قلعـة حلب مسرورا منصورا (٨٠) .

أنشدت لزنكي بن مودود صاحب سنجار دوبيت :

السكر صار كاسدا من شفتيه
والبدر تراه ساجدا بين يديه
والحسن عليه كل شيء وافر
إلا فمه فانه ضاق عليه

توفي عماد الدين زنكي بن مودود بسنجار ، ودفن بالمدرسة التـي أنشأها ظاهر مدينة سنجار رحمه الله .

سمعت تاج الدين محمـد بـن خير الله الذنيعـي الفقيه الحنفـي بسنجار يقول لي : رأيت عمـاد الدين زنكي بـن مـودود بـن زنكي صاحب سنجار في النوم وهو في هيئة حسنة وثياب جميلة وهو راكب خارج سنجار نحو القبلة فقلت له إلى أين ؟ فقال : الى الغزاة .

قال لي ابـن خير الله : وكان له غزوات متعـددة (٢٢٠ ـ و) رحمه الله ، وكان قد جمع الغبار الذي صـار على درعه في غزواتـه وادخرها لتجعل في أكفانه ، فجعلت في أكفانه حين مات رحمه الله .

قال : وكان كثير الخير والمعروف ، وبنى بسنجار مدرسة ، هـو

-٧٤٧٦-

مدفون بها وبيمارستانا ، وبنى بنصيبين مـــدرسة لأصـــحاب أبـــي حنيفة ، ووقف على ذلك وقوفا كثيرة (٢٢٠ ـ ظ) .

حواشي زبدة الحلب

١ ـ شكل مصرع مسلم بن قريش ـ كما رأينا ـ نقطة تحول في تاريخ حلب ، ولذلك بدأت بالحوادث التي تلته لارتباطها بالمقدمات المباشرة لعصر الحروب الصليبية .
٢ ـ أي القبائل البدوية العربية ، وكانت حلب محكومة من قبل المرداسيين الكلابيين ثم بعدهم من قبل العقيليين .
٣ ـ زيادة اقتضاها السياق .
٤ ـ بينها وبين حلب ثلاثة أميال . معجم البلدان .
٥ ـ دابق قرية قرب حلب من أعمال عزاز بينها وبين حلب أربعة فراسخ ، وعندها مرج معشب نزه كان ينزله بنو مروان ، وبه قبر سليمان بن عبد الملك . معجم البلدان .
٦ ـ أنظر ترجمة سالم في بغية الطلب ص ٤١٥٧ ـ ٤١٥٩ . وكنت قد نشرتها في ملاحق كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٤٠٥ ـ ٤٠٧ .
٧ ـ نهر الجوز جزء من نهر الفرات كان يعبر منه نحو الغرب . انظر بغية الطلب ص ١٩٧٤ .
٨ ـ هو فيلاريتوس براخاموس ، كان بالاصل أرمنيا من قادة الامبراطور رومانوس دايجينس . انظر كتاب ، الرها المدينة المباركة ، ترجمة عربية ، ط ، حلب ١٩٨٨ ص ٢٧٢ .
٩ ـ ميناء مدينة انطاكية على شاطىء البحر المتوسط .
١٠ ـ انظر ترجمته المنتزعة من بغية الطلب في ملاحق مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٦٩ ـ ٢٧٧ .
١١ ـ الاثارب قلعة معروفة بين حلب وانطاكية ، تبعد عن حلب ثلاثة فراسخ . معجم البلدان .
١٢ ـ هو أخو السلطان ملكشاه : انظر حول عصيانه الكامل لابن الاثير ـ ط القاهرة مطبعة الاستقامة ج ٨ ص ١٣٦ .
١٣ ـ تتبع قرية لطمين ناحية معرزة في محافظة حماه ، وتبعد عن حماه مسافة ٣٦كم .
١٤ ـ في ترجمة آق سنقر ـ مدخل ص ٢٦٩ . « نابه السلطان ادريس بن طغان شاه ، وحظي عند السلطان ملكشاه » .
١٥ ـ حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق . معجم البلدان .
١٦ ـ الخلاف بن ملاعب في موسوعتنا اكثر من ترجمة مفيدة المعلومات في كتاب مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٨٠ ـ ٣٨٥ .
١٧ ـ انظر تفاصيل هذا الموضوع في كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٢١ ، ٢٢٨ .
١٨ ـ دارا بلد في لحف جبل بين نصيبين وماردين . معجم البلدان .
١٩ ـ لمزيد من التفاصيل ، انظر مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .
٢٠ ـ الري الآن ضاحية لمدينة طهران .
٢١ ـ قرب معرة النعمان.معجم البلدان .
٢٢ ـ تتبع تلمنس الآن منطقة معرة النعمان في محافظة ادلب السورية وتبعد عن المعرة مسافة ٦ كم وعن ادلب ٤٥ كم .
٢٣ ـ وادي بزاعا . انظر مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٧٢ .
٢٤ ـ اضيف ما بين الحاصرتين من ترجمة آق سنقر.مدخل ص ٢٧٢ .
٢٥ ـ سبعين قرية قريبة من حلب.معجم البلدان .
٢٦ ـ مشهد قائم بين حلب وقرية النيرب . الآثار الاسلامية في حلب لاسعد طلس . ط . دمشق

١٩٥٦ ص ٢٤١ .
٢٧ ـ انظر حولها الآثار الاسلامية ص ٩٠ ـ ٩١ ذلك انها درست .
٢٨ ـ ٤٨٧ هـ ١٠٩٤ م

٢٩ ـ عانة بلد مشهور على الفرات بين الرقة وهيت يعد في اعمال الجزيرة . معجم البلدان
٣٠ ـ لرضوان ترجمة مطولة في كتاب بغية الطلب كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي ـ مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٨٧ ـ ٣٩٦ .
٣١ ـ لدقاق ترجمة في تاريخ ابن عساكر ، انظر في كتاب المدخل ص ٣٨٦ .
٣٢ ـ لجناح الدولة حسين ترجمة في بغية الطلب كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي المدخل ص ٣٧٦ ـ ٣٧٩ .
٣٣ ـ اضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق من تاريخ دمشق لابن القلانسي ـ ط . دمشق ١٩٨٣ ـ ص ٢١٣
٣٤ ـ انظر لمزيد من التفاصيل ترجمة رضوان ـ المدخل ص ٣٩١ ، ٣٩٥
٣٥ ـ لطفتكين ترجمة قصيرة في تاريخ ابن عساكر ، نشرتها في ملاحق المدخل
٣٦ ـ أضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق ـ انظر ترجمة خلف بن ملاعب
٣٧ ـ سكمان بن أرتق . انظر المدخل ص ٣٨٨ ـ ومن المفيد مقارنة ما جاء هنا بما جاء في الترجمة لوجود بعض التعارض
٣٨ ـ سروج بلدة قريبة من حران من ديار مضر، معجم البلدان
٣٩ ـ المجن الفوعي ، مقدم احداث حلب . انظر المدخل ص ٣٨٨ ـ ٣٩٢
٤٠ ـ انظر بغية الطلب ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ ـ ٤٧٤ .
٤١ ـ الجزر كورة من كور حلب وقعت بينها وبين انطاكية . معجم البلدان .
٤٢ ـ سميساط مدينة على شاطىء الفرات ، هي الآن في تركيا . معجم البلدان ـ الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ص ٨٠١.
٤٣ ـ من أمراء التركمان وقادة جيوشهم وهو عند ابن الاثير في الكامل : ٨ / ٢٢٨ « اصبهبذ صباوو »
٤٤ ـ انظر المدخل ص ٣٨٨
٤٥ ـ الافضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش المتحكم بالخلافة الفاطمية . انظر المدخل ص ٣٩٢ .
٤٦ ـ انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢١٧ .
٤٧ ـ في تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢١٧ « لمعاودة النزول على دمشق » وهو الاقوم
٤٨ ـ الضمير يعود هنا الى يغي سيان . انظر ابن القلانسي ص ٢١٨ .
٤٩ ـ انظر ابن القلانسي ص ٢١٨ .
٥٠ ـ بغراس مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية اربعة فراسخ على يمين القاصد الى انطاكية من حلب . معجم البلدان .
٥١ ـ ارتاح اسم حصن منيع كان من العواصم من اعمال حلب . معجم البلدان .
٥٢ ـ بلدة في منطقة اريحا محافظة ادلب السورية كان بها حصن ، مازالت خرائبها شاهدة على عظمة ماضيها . انظر معجم البلدان وانظر الخبر ايضا عند ابن القلانسي ص ٢١٩ .
٥٣ ـ الروج من كور حلب المشهورة في غربيها . معجم البلدان .
٥٤ ـ معرة مصرين من قرى محافظة ادلب وتتبع اداريا لها وتبعد عن ادلب مسافة ١٠ كم .
٥٥ ـ حارم الآن من مناطق محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٥٢ كم
٥٦ ـ معلومات ابن العديم هنا على درجة عالية من الدقة ، والانبرت هو الامبراطور ، اراد به والد بوهموند جويسكارد النورمندي ، وهناك خلاف حول اصل وشخصية الزراد انظر وقارن وليم الصوري ـ تاريخ الحروب الصليبية ترجمتي ـ ط. بيروت ١٩٩٠ ص ٢٧٩ ـ ٣٣٢ .

٥٧ - انب حصن من اعمال عزاز من نواحي حلب . وعم قرية غناء بين حلب وانطاكية . معجم البلدان .

٥٨ - انظر وليم الصوري ص ٣٣٣ - ٣٣٦ ، وجسر الحديد كان مقاما على العاصي انظر خريطة انطاكية ص ١٢٤ من وليم الصوري .

٥٩ - انظر يوميات صاحب اعمال الفرنجة في كتابي الحروب الصليبية - ط . دمشق ١٩٨٤ ص ٢٣٩ - ٢٦١ . وليم الصوري ص ٣٣٧ - ٣٦٤ .

٦٠ - الفوعة الآن من قرى محافظة ادلب وتبعد عنها مسافة ١٣ كم .

٦١ - انظر حوله الأعلاق الخطيرة لابن شداد قسم حلب - ط . دمشق ١٩٩١ ج٢ ص ٩٤ .

٦٢ - انظر الحروب الصليبية ص ٢٦٨ - ٢٧١

٦٣ - انظر الحروب الصليبية ص ٢٧٨ - ٢٨٢ .

٦٤ - انظر المدخل ص ٣٩٢ .

٦٥ - تبعد خرائب كفر طاب عن خان شيخون - الى الغرب منها - قرابة ٣كم .

٦٦ - انظر الأعلاق الخطيرة - قسم حلب - ج٢ ص ١٣٨

٦٧ - انظر ابن القلانسي ص ٢٢٩ .

٦٨ - قبة ابن ملاعب ، وهي حصن دثر في طرف بلد حلب ، بينها وبين سلمية .

٦٩ - المسلمية من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافه ١٥كم .

٧٠ - بلدة من نواحي حلب بينهما يوم واحد . معجم البلدان .

٧١ - لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلانسي ص ٢٣٢

٧٢ - هاب قلعة عظيمة من العواصم . معجم البلدان .

٧٣ - ماتزال تحمل هذا الاسم تبعد عن حماه مسافة ١٨ كم الى الشمال منها .

٧٤ - اسمها الآن مسكنة تبعد عن حلب مسافة ٩٠كم والفايا كورة بين منبج وحلب . معجم البلدان

٧٥ - انطاكية نعم اما الرها فكانت دويلة قائمة بذاتها لها حاكمها .

٧٦ - انظر ترجمة دقاق منتزعة من تاريخ دمشق لابن عساكر .

٧٧ - الخشت من انواع النبل أو الخناجر .

٧٨ - الأثارب من قرى محافظة حلب - منطقة جبل سمعان .

٧٩ - املاك بيت المال . المدخل ص ٣٨٩ .

٨٠ - تل قراد حصن في بلاد الارمن قرب شبختان . معجم البلدان .

٨١ - غير اسمه الآن الى بني قحطان ، كان يقع امام جبلة . معجم البلدان .

٨٢ - هو العشارنة في محافظة حماه في منطقة الغاب .

٨٣ - اي قفز .

٨٤ - في ترجمة رضوان - المدخل ص ٣٩٠ : « واستدل على ابي الفتح الصائغ رئيس الملاحدة بها » .

٨٥ - بقاياها في سوق الصابون بحلب . انظر الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ص ٢٥١ - ٢٥٣ .

٨٦ - انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٠٢ - ٣٠٣, ترجمة الب أرسلان المنتزعة من بغية الطلب في ملاحق الجزء الاول من المدخل .

٨٧ - الذي أبلغ ابن العديم هذا هو بدران بن حسين بن مالك بن سالم العقيلي : المدخل ص ٢٩٥ .

٨٨ - كذا بالاصل وجاء في الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٢٧١ : برسق بن برسق صاحب همذان ومعه الأمير جيوش بك والأمير كنتغدي » .

٨٩ - لم يذكر ابن القلانسي هذا الخبر لكن أكده ابن الأثيرج ٨ ص ٢٧١, مع المزيد من التفاصيل الهامة .

٩٠ ـ ماتزال بقايا رفنيه قائمة قرب بلدة بعرين « بـارين » على الطـريق الذي يصـل مصـياف بحمص ، هذا وما أورده كل من ابن القـلانسي ص ٣٠٦ وابـن الأثير ج ٨ ص ٢٧٢ بشـأن رفنية يخالف رواية ابن العديم هذه واوضح ابن الاثير ان الذي استولى عليه عسكر السلطان ثـم آل الى خير خان هو مدينة حماه ، وهو الصحيح .
٩١ ـ دانيث بلد من أعمال حلب بين حلب وكفر طاب . معجم البلدان .
٩٢ ـ تل السلطان موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشـق ، وفيه خـان ومنزل للقـوافل وهـو المعروف بالفنيدق . معجم البلدان . وتبعد تل السلطان عن ادلب ٤٧ كم .
٩٣ ـ كذا وعند ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٢ « جيوش » .
٩٤ ـ يتوافق هذا مع ماأورده ابن القلانسي ص ٣٠٦ وابن الأثير ص ٢٧٢ .
٩٥ ـ في ترجمة الب ارسلان بن تتش روى ابن العديم « فلما وصل الى دير حـافر » واورد ابـن الاثير ج ٨ ص انه قتل سنة ٥١١ هـ واعطى المزيد من التفاصيل ، ومن أجل قلعة نادرة وهي قرب بالس انظر الاعلاق الخطيرة قسم حلب . ج ٢ ص ٢٥ هذا ودير حافر مـركز ناحية تـابعة لمنطقة الباب في محافظة حلب ويبعد عن حلب مسافة ٥٠ كم .
٩٦ ـ للبرسقي ترجمة جيدة في بغية الطلب ص ١٩٦٣ ـ ١٩٧٠ .
٩٧ ـ ياروقتاش هو شمس الخواص المتقدم ذكره انظر ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٩ .
٩٨ ـ كان خير خان قد أسر ايلغازي سنة ثمان وخمسـمائة وذلك اثناء نزوله على حمص . انظـر ابن القلانسي ص ٣٠٥ .
٩٩ ـ سنجة نهر يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مضر ، وعلى هذا النهر قنطـرة عظيمة . معجم البلدان .
١٠٠ ـ الحجر : الأنثى من الخيل . القاموس .
١٠١ ـ أي ان أسره كان من الملائكة .
١٠٢ ـ ريذوماسيور . انظر حوله وليم الصوري ج ١ ص ٥٨٢ .
١٠٣ ـ مريمين من قرى منطقة جسر الشغور محافظة ادلب وتبعد عن ادلب ٨٥ كم .
١٠٤ قارن وليم الصوري ج١ ص ٥٧٩ ـ ٥٨٢ .
١٠٥ كفر روما قرية من قرى معرة النعمان . معجم البلدان .
١٠٦ الراوندان قلعة حصينة من نواحي حلب . معجم البلدان .
١٠٧ ـ ترمانين الآن احدى قرى منطقة حارم محافظة ادلب وتبعد ادلب مسافة ٧٦كم .
١٠٨ ـ مزج ابن العديم هنا كما فعل قبله ابن القـلانسي ص ٣٢٠ ، وابـن الأثير ج ٨ ص ٢٩٤ ، الروايات حول معركة دانيث لسنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م التـي انتصر فيهـا الفرنج حسب رواية وليم الصوري ج١ ص ٥٨٣ ـ ٥٨٥ .
١٠٩ ـ تتوافق هذه الرواية مع ما أورده باختصار ابن القلانسي ص ٣٢٣ ، لكن ابن الاثير تحـدث في ج٨ من ص ٢٨٩ عن نشاط جوسلين في منطقة طبرية ، وصـفين هي منطقة ابـي هـريرة قـرب الرقة حاليا .
١١٠ ـ قرية كبيرة في جبل السماق من بلد حلب . معجم البلدان .
١١ ـ لعلها كانت قرب باب الجنان .
١١٢ ـ سرمدا قرية تابعة لمنطقة حارم في محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٦٤كم .
١١٣ ـ أوسع التفاصيل حول هذه الواقعة في نص ابن الازرق الفارقي .
١١٤ ـ الهري بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان ، القاموس .
١١٥ ـ نبل من قرى أعزاز في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٢٢ كم
١١٦ ـ حريل من قرى منطقة اعزاز في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٢٠كم .
١١٧ ـ أو في التفاصيل حول هذا الموضوع في نص السرياني المجهول .

١١٨ ـ تل قباسين من قرى العواصم من اعمال حلب . معجم البلدان .
١١٩ ـ البيرة بلدة في تركية الان ـ اسمها بيرة جيك ـ على الفرات قرب سميساط الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ج٣ ص ٧٦٩ .
١٢٠ ـ تسمى الآن بجامع ابي ذر في محلة الجبيلة . الاثار الاسلامية والتاريخية في حلب ص ١٩٢ .
١٢١ ـ كركر أو جرجر : حصن وبلدة قرب ملطية بين سميساط وحصن زياد (خرتبرت) غربي الفرات تولاها الخراب . اللؤلؤ المنثور ص ٥١٨ .
١٢٢ ـ ويعرف ايضا باسم حصن زياد بأرض أرمينية بين آمد وملطية . اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٦ ومن اجل الاسرى انظروليم الصوري ص ٥٩٠ ـ ٥٩١ . مع نص السرياني المجهول .
١٢٣ ـ باذقوسا : جبل في ظاهر حلب من جهة الشمال . معجم البلدان .
١٢٤ ـ جبرين : قرية على باب حلب . معجم البلدان .
١٢٥ ـ حدادين من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ١٦ كم .
١٢٦ ـ عقر بوز من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٣٦ .
١٢٧ ـ الجشير : المواشي على اذواعها .
١٢٨ ـ قارن واستقد من السرياني المجهول .
١٢٩ ـ مع نص السرياني المجهول انظر وليم الصوري ص ٥٩١ ـ ٥٩٥ .
١٣٠ ـ حيلان قرية قرب حلب تخرج منها عين فوارة كثيرة الماء سيقت الى حلب . معجم البلدان .
١٣١ ـ اسمه الآن الشيخ محسن . الآثار الاسلامية ص ٥٦ ـ ٥٨ .
١٣٢ ـ انظر الاعلاق الخطيرة . قسم حلب ج ١ ص ٢٧١ ـ ٣٩٩ .
١٣٣ ـ هو الآن المدرسة الحلوية . الآثار الاسلامية ص ٥٩ ـ ٦٢ .
١٣٤ ـ انظر الآثار الاسلامية ص ٢٥٢ .
١٣٥ ـ هي في محلة الجلوم . انظر الآثار الاسلامية ص ٦٧ ـ ٦٨ .
١٣٦ ـ العزيب من الابل والشاء التي تعزب عن اهلها في المرعى ، وإبل عزيب لاتروح على الحي . القاموس .
١٣٧ ـ الحاذوتة الآن اسمها تل الحواصيد ، وتبعد عن حلب مسافة ٦٠كم .
١٣٨ ـ مشحلا : قرية من نواحي اعزاز من اعمال حلب . معجم البلدان .
١٣٩ ـ بالو : قلعة حصينة وبلدة من نواحي أرمينية بين أرزق الروم وخلاط . معجم البلدان .
١٤٠ ـ انظر ابن القلانسي ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .
١٤١ ـ اسمه الآن مقام الصالحين . الآثار الاسلامية ص ٥٢ ـ ٥٣ .
١٤٢ ـ بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٧
١٤٣ ـ لدبيس ترجمة مفيدة في بغية الطلب ص ٣٤٧٨ ـ ٣٤٩٣ .
١٤٤ ـ مايشد حول الساق .
١٤٥ ـ الثفر : الجلدة التي توضع تحت الذيل ويربط بها حلس الدابة .
١٤٦ ـ مدينة الآن بتركية هي في لحف جبل بين نصيبين وماردين . معجم البلدان .
١٤٧ ـ حملة شارات وأعلام كانوا يقومون بوظيفة مراقبة أمن الجيوش ونظامه .
١٤٨ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ترجمة آق سنقر البرسقي في بغية الطلب ص ١٩٦٣ ـ ١٩٧٠ .
١٤٩ ـ عم : قرية غناء ذات عيون جارية واشجار متدانية بين حلب وانطاكية ـ معجم البلدان .
١٥٠ ـ ماتزال كفر ناصح تحمل الاسم نفسه وهي في منطقة جبل سمعان ـ محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٣٣ كم . انظر بغية الطلب ص ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠ حيث المزيد من التفاصيل .
١٥١ ـ له ترجمة مفيدة في بغية الطلب انظرها فيما تقدم .
١٥٢ ـ انظر بغية الطلب ص ٣٢١٨ .
١٥٣ ـ كذا بالاصل وهذه الرواية مشوشة صوابها مارواه ابن العديم نفسه في بغية الطلب ص

٣٢١٨ ـ ٣٢١٩ : « نصف ذي الحجة وصل الأمير سنقر دراز والامير حسن قراقش وجماعة امراء في عسكر قوي الى باب حلب واتفق الامر على ان يسير بدر الدولة وخطلبا الى باب الموصل الى الدولى الاصفهسلار الملك عماد الدين قسيم الدولة زنكي بن قسيم الدولة اق سنقر الى الموصل فلعن ولى عاد الى منصبه ، واقام بحلب الامير حسن قراقش والرئيس فضائل بن بديع ، واصلح عماد الدين بينهما ، ولم يوقع لاحد منهما ، وطمع بملك حلب وسير سرية الى حلب مع الامير الحاجب صلاح الدين العمادي ، فوصل الى حلب ، واطلع الى القلعة واليا من قبله ورتب الامور » .

١٥٤ ـ انظر الآثار الاسلامية ص ٩٠ ـ ٩١ .
١٥٥ ـ تبعد شامر عن مدينة حلب مسافة ١٢ كم وهي من قرى منطقة جبل سمعان .
١٥٦ ـ التكحيل هنا : امرار ميل محمي على الجفنين حتى يلتصقا .
١٥٧ ـ لزنكي ترجمة جيدة في بغية الطلب ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥٧ .
اعيد نشرها في هذه الموسوعة .
١٥٨ ـ السن مدينة على دجلة فوق تكريت عند مصب الزاب الاسفل . معجم البلدان .
١٥٩ ـ خارج مدينة حلب . بغية الطلب ص ٣٨٥٢ .
١٦٠ ـ الكبر قباء محشو يتخذ الحرب . المعرب للجواليقي ص ٢٥٢ .
١٦١ ـ انظر تاريخ ابن القلانسي ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ (حوادث سنة ٥٢٤ هـ)
١٦٢ ـ انظر وليم الصوري ص ٦٥٨ ـ ٦٦٠ .
١٦٣ ـ غالبا ماكان اسر جنلنية من المشاة ذوي التسليح الثقيل وممن كانت الكنيسة تتولى الانفاق عليهم .
١٦٤ ـ مرى بن ربيعة ، وحسان بن مكتوم . انظر بغية الطلب من ٣٤٨١ ـ ٣٤٨٢ . تاريخ ابن القلانسي ص ٣٦٦ .
١٦٥ ـ انظر بغية الطلب ص ٣٤٨٢ .
١٦٦ ـ مراغة بلدة مشهورة عظيمة هي اعظم بلاد اذربيجان واشهرها . معجم البلدان .
١٦٧ ـ رام حمدان من قرى ناحية معرتمصرين محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ١٥كم .
١٦٨ ـ عقرقوف قرية من نواحي دجيل ، بينها وبين بغداد اربعة فراسخ .
١٦٩ ـ انظر ابن القلانسي ص ٣٧٤ (حوادث سنة ٥٢هـ) مع الحواشي .
١٧٠ ـ صلاح الدين اليغيسياني ، من اكبر شخصيات دولة زنكي .
١٧١ ـ أتى ابن الأزرق الفارقي على ذكر تفاصيل هذه الحوادث ، انظر نصه المتقدم مع التعريف بالاماكن الجغرافية
١٧٢ ـ عقر الحميدية قلعة حصينة كانت للاكراد ببلاد الموصل.الاعلاق الخطيرة قسم الجزيرة ـ ص ٨١١ .
١٧٣ ـ عند ابن الأزرق « تل شيخ » ووافقت رواية ابن العديم هنا رواية ابن الاثير ج٨ ص ٣٤٣ .
١٧٤ ـ أي سنة ٥٢٨ هـ ، انظر تاريخ حلب العظيمي ـ ط . دمشق ١٩٨٥ ص ٣٨٦ ، وارخ لها ابن القلانسي ص ٢٩٠ ـ ٢٩٢ بين حوادث السنة التالية ٥٢٩ هـ .
١٧٥ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلانسي ص ٣٨٧ ـ ٣٩٠ وانظر ترجمته المنتزعة من تاريخ ابن عساكر .
١٧٦ ـ في ابن القلانسي ص ٣٩١ « وخيم بأرض عذراء الى ارض القصير » ١٧٧ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلانسي ص ٣٩٢ .
١٧٨ ـ تعرف الآن باسم بعرين وهي من قرى منطقة مصياف في محافظة حماه وتبعد عن حماه مسافة ٤٢كم .
١٧٩ ـ عاصر ابن الازرق الفارقي هذه الاحداث ومواده على درجة عالية من الاهمية ، انظرها في موسوعتنا هذه .

١٨٠ ـ المعلومات لدى ابن القلانسي اوسع ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨ ، وسيكون لمعين الدين انر دور السيادة في دمشق حتى وفاته فبعد وفاته بقليل سقطت ـ كما سنرى ـ لنور الدين محمود بن زنكي . انظر تاريخ ابن القلانسي ص ٤١٥ .

١٨١ ـ هو فولك أوف انجو . انظر تاريخ وليم الصوري ص ٦٨٦ ـ ٦٨٩ .

١٨٢ ـ هو يوحنا بن الكسيوس كومنين . انظر تاريخ وليم الصوري ص ٦٨٤ ـ ٦٨٦ .

١٨٣ ـ ملك دولة أرمينية في كليكية .

١٨٤ ـ وصف ابن العديم كل من عين زربة والمصيصة وبغراس ومدن الثغور الأخرى في كتابه بغية الطلب ص ١٥١ ـ ١٧٢ .

١٨٥ ـ في تقويم البلدان ص ٢٣٠ وبالقرب من عين الجر ضيعة تعرف بالمجدل وهي على الطريق الآخذ من بعلبك على وادي التيم هنا ، وتعني كلمة مجدل : حصن .

١٨٦ ـ استخدمت بيزنطة أعداد كبيرة من العناصر التركية الوثنية بمثابة مرتزقة في جيوشها .

١٨٧ ـ القادة الكبار .

١٨٨ ـ كان هذا البرج من أشد ابراج سور حلب مناعة .

١٧٩ ـ قرية قريبة من حلب على نهر قويق . زبدة الحلب ـ ط . دمشق ١٩٥١ ج١ ص ٢٦٤ .

١٩٠ ـ جسر شيزر وكان عليه موقع حصين غير بعيد عن شيزر نفسها .

١٩١ ـ لمزيد من المعلومات انظر ابن القلانسي ص ١٤٥ ـ ٤١٨ .

وليم الصوري ص ٦٩٥ ـ ٦٩٧ .

١٩٢ ـ ماتزال قلعة ابي قبيس قائمة . وتبعد عن مدينة حماه مسافة ٥٤كم .

١٩٣ ـ الاكمة : حصن بالساحل قرب عرقة . معجم البلدان .

١٩٤ ـ تل عمار في منطقة اعزاز محافظة حلب ويبعد عن حلب مسافة ٣٣كم .

١٩٥ ـ زردنا في جوار مدينة ادلب وتبعد عنها مسافة ٢٠ كم .

١٩٦ ـ عند العظيمي في تاريخ حلب ص ٣٩٤ « وفتح دارا وراس العين » .

١٩٧ ـ الكهف احدى قلاع الدعوة في جبال بهراء .

١٩٨ ـ دارا مدينة بين نصيبين وماردين . معجم البلدان .

١٩٩ ـ رأس العين احدى المدن السورية على نهر الخابور مقابل الحدود التركية .

٢٠٠ ـ جبل جور واحد من حصون ديار بكر قريب من ارمينية . الاعلاق الخطيرة قسم الجزيرة ـ ج٢ ص ٧٧٦ .

٢٠١ ـ حصن ذي القرنين حصن يقع تحته رأس دجلة شمالي ميافارقين . الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ج٢ ص ٧٨٣ .

٢٠٢ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلانسي ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ مرآة الزمان ج١ ص ١٧١ .

٢٠٣ ـ احدى قلاع ديار بكر . الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ج٢ ص ٨٢٠ .

٢٠٤ ـ هدم عماد الدين هذه القلعة وعمر مكانها واحدة جديدة حملت اسمه « العمادية » معجم البلدان .

٢٠٥ ـ من قلاع ديار بكر .

٢٠٦ ـ بلدة من ديار بكر قرب اسعرد . معجم البلدان .

٢٠٧ ـ هما في اقليم نصيبين .

٢٠٨ ـ بلد بين ماردين واثرها اسمها اليوم ويران شهر . اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٥ .

٢٠٩ ـ باسوطا الآن في منطقة عفرين محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٦٩كم .

٢١٠ ـ كان النقابون يفتحون ثغرة باسفل السور تملأ أثناء العمل بالخشب ثم تحرق الاخشاب فينهار السور .

٢١١ ـ لمزيد من المعلومات انظر بغية الطلب ٣٨٥٠ ـ ٣٨٥١ .

وانظر ما جاء عند المؤرخ السرياني المجهول .
٢١٢ ـ لمزيد من التفاصيل انظر الباهر ص ٧٠ ـ ٧٢ .
٢١٣ ـ عزا وليم الصوري ص ٧٤٢ مقتل زنكي الى مؤامرة دبرها صاحب قلعة جعبر .
٢١٤ ـ يكتب ايضا ، الجاووش ، وهو المنادي الذي يتولى استنفار العساكر لتخرج الى القتـال ، وقرأنا في النوادر السلطانية لابن شداد ، فركب السلطان وصاح الجاووش فركب العسكر » .
٢١٥ ـ كانوا يذكرون ، انه كان عليهم منه جور وظلم في ايام ولايته ، وأكثر ما كان يذكر عنه مـن الظلم مايلزم الناس به من جمع الرجالة للقتال والحصار ، بغية الطلب : ٢٨٥٢ .
٢١٦ ـ من أنواع النقود النحاسية قد يوازي كل ١٣ منها درهما فضيا .
٢١٧ ـ انظر بغية الطلب ص ٣٨٥٥ ـ ٣٨٥٧ . وزالت معالم القبة الآن ، وكانت قـرب مـايعرف الآن بباب بغداد ، ودلت بعض الحفريات الاثرية على مكان القبر .
٢١٨ ـ أوفى التفاصيل حول هذه الواقعة عند المؤرخ السرياني المجهول .
٢١٩ ـ انظر الاعلاق الخطيرة . قسم حلب ـ ج٢ ص ٤٢٥ .
٢٢٠ ـ الحديث هنا عن حصار دمشق للمرة الثانية الآن من قبل مايعرف بالحملة الثـانية ، مـع ماتلته من أحداث انظر وليم الصوري ص ٧٧٩ ـ ٧٩١ .
٢٢١ ـ من عمل حارم ناحية العمق ، ولعلها المعروفة الآن بـاسم يغله في محـافظة ادلب ـ ناحية كفر تخاريم .
٢٢٢ ـ انظر القصيدة بأكملها في الروضتين لأبي شامة في موسوعتنا هذه .
٢٢٣ ـ انظر حولها الآثار الاسلامية ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨ .
٢٢٤ ـ انظر حولها الاعلاق الخطيرة قسم حلب ـ ج١ ص ٢٤٨ ـ ٢٥١ .
٢٢٥ ـ اسمه الآن جامع التوته ، انظر حوله الآثار الاسلامية ص ٦٣ ـ ٦٤ .
٢٢٦ ـ تحدث ابن شداد عن هذه المدرسة وترجم للذين درسوا فيها . الاعلاق الخطيرة قسـم حلب ـ ج١ ص ٢٦٤ ـ ٢٧١ .
٢٢٧ ـ حصن كيفا ، وهو قلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجـزيرة ابـن عمـر . الاعلاق الخطيرة قسم الجزيرة ـ ج٢ ص ٧٨٤ .
٢٢٨ ـ ويقال له تل يعفر وتلعفر ، بلدة بالعراق غربي الموصل على طريق سنجار الاعلاق الخطيرة قسم الجزيرة ـ ج٢ ص ٧٧٣ .
٢٢٩ ـ انظر الروضتين ج١ ص ٦٧ ـ ٦٨ .
٢٣٠ ـ قال ياقوت ، انب حصن من اعمال عزاز من نواحي حلب له ذكر، وفي ايامنا هذه انب قرية تتبع ناحية محمبل ـ منطقة اريحا ، محافظة ادلب ، وتبعد عنها بقرابة كيلو متـر واحـد تـل انب الاثري ، ويشرف هذا التل على كل من وادي الغاب وسهل الروج ، المعجم الجغرافي للقطر العـربي السوري .
٢٣١ ـ انظر وليم الصوري من ٧٨٩ ـ ٧٩٣ ، ٨٠٤ ، ٨١٤ .
٢٣٢ ـ انظر القصيدة كاملة في الروضتين ج ١ ص ٥٨ ـ ٥٩ .
٢٣٣ ـ انظر القصيدة بأكملها في الروضتين ج١ ص ٦٠ ـ ٦٢ .
٢٣٤ ـ انظر وليم الصوري ص ٧٩٣ ـ ٧٩٤ .
٢٣٥ ـ انظر حولها بغية الطلب ص ٤٢٣ .
٢٣٦ ـ انظر حولها الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ٢ ص ٤٣٨ ـ ٤٤١ .
٢٣٧ ـ انظر حولها بغية الطلب ص ٣٢٤
٢٣٨ ـ انظر الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج٢ ص٩٨ ـ٩٩ .
٢٣٩ ـ ويعرف ايضا باسم كفر سوت ، قرب بهسنا . معجم البلدان .
٢٤٠ ـ من اجل مرعش انظر بغية الطلب ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨ .
٢٤١ ـ من اجل ملوك ، انظر الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج٢ ص ٤٣٥ ـ ٤٣٧ .

٢٤٢ ـ انظر وليم الصوري ص ٨٠٨ ـ ٨١٤ .
٢٤٣ ـ بقايا هذا الحصن على مقربة من سلمية على الطريق الواصلة بمدينة حماه .
٢٤٤ ـ انظر بغية الطلب ص ١٦٤٠ ـ ١٦٤٢ .
٢٤٥ ـ انظر تاريخ ابن القلانسي ص ٥٠٩ .
٤٤٦ ـ انظر وليم الصوري ص ٨٩٠ ـ٨٩٢ .
٢٤٧ ـ الجومة : من نواحي حلب . معجم البلدان .
٢٤٨ ـ اليزك : الحرس المتقدم او الطلائع .
٢٤٩ ـ انظر وليم الصوري ص ٨٨٧ ـ ٨٨٨ .
٢٥٠ ـ بحيرة قدس هي بحيرة قطينة حاليا قرب حمص .
٢٥١ ـ انظر وليم الصوري ب٨٩٤ ـ ٩٢٢ .
٢٥٢ ـ تيزين من نواحي حلب ، كانت تعد من اعمال قنسرين . معجم البلدان .
٢٥٣ ـ في الروضتين نقلا عن العماد الاصفهاني « نزلوا على عم » الروضتين ج١ ص١٣٣ ، هذا ويوجد الآن في منطقة حارم قرية اسمها صفصافة .
٢٥٤ ـ انظر وقارن الروضتين ج١ ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .
٢٥٥ ـ حصن الشام قرب طرابلس . معجم البلدان .
٢٥٦ ـ بلد بالصعيد الادنى من ارض مصر ، على شاطيء النيل في شرقيه معجم البلدان .
٢٥٧ ـ على عشرة أميال من المنية . وليم الصوري ص ٩١١ ـ ٩١٣ مع وصف المعركة بتفاصيل مفيدة جدا .
٢٥٨ ـ انظر وليم الصوري ص ٩١٣ ـ ٩٢٢ .
٢٥٩ ـ هونين حصن بجبل عاملة في جنوب لبنان الحالي انظر معجم البلدان .
٢٦٠ ـ الملوحة قرية كبيرة في قرى حلب .
٢٦١ ـ نبع السرياقي في حوران الذي تشرب منه بلدة الشيخ مسكين .
٢٦٢ ـ انظر لمزيد من التفاصيل وليم الصوري ص ٩٢٨ ـ ٩٣٦ .
٢٦٣ ـ توفي نتيجة نهمه وتخليطة بالطعام،انظر ماذكره ابن الأزرق الفارقي
٢٦٤ ـ في الروضتين ج١ ص ١٨٣ : « وساروا اليه وان ابن الهنفري وفيليب بن الرفيق وهما فارسا الفرنج في وقتهما في المقدمة اليه » .
٢٦٥ ـ على مقربة من بلدة نوى في حوران سورية .
٢٦٦ ـ انظر وليم الصوري ص ٩٤٨ ـ ٩٥٣ .
٢٦٧ ـ قلعة قريبة من منطقة صافيتا .
٢٦٨ ـ انظر وليم الصوري ص ٩٦٢ ـ ٩٦٣ .
٢٦٩ ـ هي الآن مركز ولاية في تركية وتبعد عن انقرة مسافة ٢٢كم .
٢٧٠ ـ انظر حولها الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج٢ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ .
٢٧١ ـ انظر حولها بغية الطلب ص ٣٢٦ .
٢٧٢ ـ انظر حولها بغية الطلب ص ٣٢٥ .
٢٧٣ ـ قال ياقوت في معجمه « وبقرب البلقاء من اطراف الشام موضع يقال له الرقيم ، يزعم بعضهم أن به اهل الكهف » والمعنى بهذا منطقة البتراء بالاردن .
٢٧٤ ـ خير مصدر حول موضوع التوسع الايوبي في اليمن هو كتاب « السمط الغالي الثمن في اخبار الملوك من الغز باليمن » لمحمد بن حاتم اليامي ـ ط . بيروت ١٩٧٤ .
٢٧٥ ـ الصالح اسماعيل ترجمة مفيدة في بغية الطلب ص ١٨٢٢ ـ ١٨٢٦ .
٢٧٦ ـ يعرف موقعها الآن باسم جامع الشيخ معروف . الآثار الاسلامية ص ٧٢ ـ ٧٣ .
٢٧٧ ـ أي الطبول . القاموس .
٢٧٨ ـ في بغية الطلب ص١٨٢٣ : « وكان شمس الدين علي بن محمد ابن داية نور الدين بقلعة

حلب مع شاذبخت ، وكان قد حدث نفسه بأمور ، واختلفت كلمة الامراء ، وتجهز الملك الناصر صلاح الدين من مصر للخروج الى الشام ، وطلب ان يكون هو الذي يتولى أمر الملك الصالح وتدبير ملكه » .

٢٧٩ ـ كشف حديثاً عن سجن كان تحت الارض في قلعة حلب عثر به على مايزيد عن عشرين من الهياكل العظيمة .

٢٨٠ ـ الضابط المسؤول عن حراسة باب القلعة .

٢٨١ ـ انظر الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج١ ص حيث يستخلص ان الجرن الاصفر كان من أحياء حلب .

٢٨٢ ـ مسجد السيدة علوية بنت وثاب زوجة ثمال بن صالح وأم محمود بن نصر مدفونة فيه الاعلاق الخطيرة قسم ـ حلب ج١ ص ١٨١ .

٢٨٣ ـ انظر الآثار الاسلامية ص ٥٤ ـ ٥٥ .

٢٨٤ ـ انظر الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج١ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧ .

٢٨٥ ـ لم يرد اسم هذه الدار او الحمام في الاعلاق الخطيرة .

٢٨٦ ـ انظرها في الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج١ ص ٢٣٤ .

٢٨٧ ـ المكان الذي يقوم فيه الآن بناء المكتبة الظاهرية بدمشق .

٢٨٨ ـ منذ ذلك الحين اقيم لصلاح برج خشبي كان لايفارقه خوفا من الاغتيال .

٢٨٩ ـ وصل الى مرتبة الوصاية على بلدوين بن عموري . وليم الصوري ص ٩٧٦ ـ ٩٧٧ .

٢٩٠ ـ جبلا زين العابدين وكفراع شمالي حماه .

٢٩١ ـ انظر ماكتبه ابن الازرق الفارقي .

٢٩٢ ـ من منتزهات حلب المشهورة . انظر تاريخ حلب لابن الشحنة ـ ط .طوكيو ١٩٩٠ ص ١٣٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ .

٢٩٣ ـ انظر تاريخ ابن الشحنة ص ١٣٢ .

٢٩٤ ـ جبل ليلون جبل مطل على حلب بينها وبين انطاكية . معجم البلدان .

٢٩٥ ـ ذكر ابو شامة في الروضتين ج ١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ نقلا عن ابن ابي طي ان هذا الرجل اصله من المغرب ظهر أولا في قرية مشغرا في غوطة دمشق ثم هرب الى بلد حلب ، وكان ذلك سنة ٥٧٠ هـ ، واعتقد ان افرند تصحيف لكفر نجد ، وكانت ـ كما قال ياقوت ـ قرية كبيرة من اعمال حلب في جبل السماق ، كما ذكرها ابن العديم في بغية الطلب ص ٤٧٧ وكفر نجد الآن من قرى منطقة اريحا في محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ١٧ كم .

٢٩٦ ـ بزاعا بلدة من اعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب .

٢٩٧ ـ من أنواع الدروع السابغة .

٢٩٨ ـ مصياف غربي مدينة حماه .

٢٩٩ ـ تل خالد من الحصون التي كان نور الدين قد انتزعها من جوسلين . انظر تاريخ ابن الشحنة ص ٧٧١ ، ٢١٤ .

٣٠٠ ـ لعل لهذا علاقة بالقيامة التي اعلنت من قبل في قهستان بوساطة امام ألموت . انظر كتاب الدعوة الاسماعيلية الجديدة ـ ط . بيروت ١٩٧٠ ص ٩٠٠٨ .

٣٠١ ـ افضل المعلومات حول هذا الحدث لدى ابن الازرق وكذلك مرآة الزمان

٣٠٢ ـ اي الجامع الاموي بحلب .

٣٠٣ ـ على مقربة من باب القلعة الصغير من جانب خندقها . الاعلاق ـ قسم حلب ج ١ ص ٧١ .

٣٠٤ ـ البغلطاق رداء بلا اكمام يلبس فوق الثياب . انظر معجم مفصل في اسماء الالبسة عند العرب.اينهارت دوزي ـ ط امستردام ١٨٤٥ ص ٨١ ـ ٨٤ .

٣٠٥ ـ المسؤول عن حفظ مراكب الملك .

٣٠٦ ـ لعل عدد من استدعاه ممن كان يثق به كان اثنين .

٣٠٧ ـ عم قرية غناء بين حلب وانطاكية.معجم البلدان .
٣٠٨ ـ فلنط لماني كونت فلا ندرز . انظر وليم الصوري ص ١٠٠٥ ـ ١٠٠٧ .
٣٠٩ ـ انظر وليم الصوري ص ١٠٠٢ ـ ١٠٠٥
٣١٠ ـ تيزين قرية كبيرة من نواحي حلب كانت تعد من اعمال قنسرين . معجم البلدان .
٣١١ ـ اطمة الآن من قرى منطقة حارم في محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٨٩كم .
٣١٢ ـ الجمدار المسؤول عن ثياب الحاكم .
٣١٣ ـ ذكر ابن شداد بعض اسواق حلب في كتابه الاعلاق ، كما ذكر بعضها ابن الشحنة ، واهتم بها طلس في كتابه الآثار الاسلامية ، راجع الفهارس .
٣١٤ ـ في بغية الطلب ص ١٨٣٦ « له نحو من ثمانية عشر سنة » .
٣١٥ ـ انظره في موسوعة اطراف الحديث النبوي ـ اعداد محمد السعيد بسيوني ـ ط . بيروت ١٩٨٩ ج٣ ص ١٨٢ .
٣١٦ ـ في مجلة الفرافرة تحت القلعة . انظر الآثار الاسلامية ص ٢٢١ .
٣١٧ ـ الجاندار : حافظ السلاح .
٣١٨ ـ شيح الحديد قرية كبيرة في طرف العمق . بغية الطلب ص ٤٧٤ .
٣١٩ ـ حصن الدربساك قريب من بغراس . بغية الطلب ص ١٥١ .
٣٢٠ ـ الاخترين مركز ناحية تابعة لقضاء عزاز في محافظة حلب ، وتبعد عن حلب مسافة ٤٥ كم .
٣٢١ ـ البركسطوانات : دروع الفرسان او الحيوانات في الحرب .
٣٢٢ ـ البغلة دعامة تبنى للجدار الواهي وتحشي الاساس لتقية من السقوط . موسوعة حلب المقارنة للاسدي ط. حلب ـ مطبعة جامعة حلب .
٣٢٣ ـ كانت الاحص كورة كبيرة من كور حلب قصبتها خناصره . معجم البلدان ، هذا وذكر ابن العديم في ترجمته لزنكي ـ بغية الطلب ص ٣٨٥٧ ـ ٣٨٦٤ ـ وصف دخوله الى حلب عن عمه ووالده .
٣٢٤ ـ تعرف ايضا باسم الشمول ، ذكرها ابن الشحنة ص ٢٤٥ بين منتزهات حلب .
٣٢٥ ـ دارا مدينة في لحف جبل بين ماردين ونصيبين ذات بساتين ومياه جارية . الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ص ٧٩٢ .
٣٢٦ ـ باشورة كل قلعة مدخلها .
٣٢٧ ـ على مقربة من بالس انظر الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ٢ ص ٢٥ .
٣٢٨ ـ في بغية الطلب ص ٣٨٥٨ : « فخرب عزاز وحصن بزاعا وحصن بالس وحصن كفرلاثا » .
٣٢٩ ـ قلعة مطلة على الفرات قرب جسر منبج.الاعلاق ـ قسم الجزيرة ص ٨٢٦ .
٣٣٠ . سروج بلدة قريبة من حران من ديار مضر . معجم البلدان .
٣٣١ ـ في منطقة منبج قرية اسمها « كرسان » فلعلها الموقع المقصود .
٣٣٢ ـ كفر لاثة من قرى منطقة اريحا في محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٢٠ كم .
٣٣٣ ـ بليدة بين ماردين ودنيسر من اعمال الجزيرة . معجم البلدان .
٣٣٤ ـ انظر ماذكره ابن الازرق الفارقي .
٣٣٥ ـ بابلي وياسلين من منتزهات حلب . انظر الاعلاق ـ قسم حلب ـ ج١ ص ٣٦٧ ، ٣٧١ .
٣٣٦ ـ من منتزهات حلب ، ابن الشحنة ص ٢٤٦ .
٣٣٧ ـ عد ابن الشحنة ص ٢٣٧ بانقوسا بين حارات حلب خارج الاسوار .
٣٣٨ ـ من انواع الذشاب المرم بواسطة النوابض ، ومعروف ان الأسلحة تطورت كثيرا في هذه الفترة .
٣٣٩ ـ مقام ابراهيم الخليل داخل القلعة .
٣٤٠ ـ الضمير يعود هنا الى زنكي ، فقد طالبه الجند بالرواتب المقدرة لهم مع التعويضات .
٣٤١ ـ الخبز الراتب .

٣٤٢ ـ أي بدون نفقات ومرتبات .
٣٢٣ ـ في بغية الطلب ص ٣٨٥٨ « وان يعوضه عنها بسنجار ونصيبين والخابور والرقـة وسروج وأن تكون بصرى لطمان ، ويكون في خدمة زنكي » .
٣٤٤ ـ كان صلاح الدين شافعيا .
٣٤٥ ـ امتداد مسقوف لقاعة مشرفة على الشارع يطل منه الحاكم فيرى مايجري بالخارج دون ان يرى وهو بالوقت نفسه متمتع بالحماية .
٣٤٦ ـ لعله اراد أبا موسى الاشعري وماراج بين الناس عن موقفه في التحكيم .
٣٤٧ ـ عبارة بغية الطلب ص ٣٨٦٠ أقوم وأوضح قوله :« وويخه على ذلك ، فقال وهو بالقلعة : لم نخرج منها بعد ، فماقات شيء ، فاستهزأ به » .
٣٤٨ ـ خارج أسوار المدينة . الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج١ ص ٦٦ ، ٣٩٦ .
٣٤٩ ـ على نحو فرسخين من حلب في جهة المشرق . بغية الطلب ص ٣٨٦٢ .
٣٥٠ ـ القولة قرية في قضاء الناصرة . معجم بلدان فلسطين لمحمـد شراب ط . دمشـق ١٩٨٧ . وانظر ايضا وليم الصوري ص ١٠٦١ ـ ١٠٦٢ .
٣٥١ ـ ويسمى ايضا جبل طابور ، يقع شرقي الناصرة . معجم بلدان فلسطين .
٣٥٢ ـ انظر وليم الصوري ص ١٠٦٥ ـ ١٠٦٧ ـ ١٠٦٩ ـ ١٠٧١ .
٣٥٣ ـ الزردخاناه : مستودع حفظ الاسلحة ، ويبدو من النص انه كان يحفظ به ما فضل من دخل الاوقاف .
٣٥٤ ـ مكث ابن شداد لدى صلاح الدين وهو الذي الف حوله كتاب المحاسن اليوسفية .
٣٥٥ ـ من أشهر أئمة الصوفية .
٣٥٦ ـ هي عنجر الحالية في لبنان على مقربة من الحـدود السـورية اللبنانية الحـالية قبـل بلدة شتورا .
٣٥٧ ـ لم يرد ذكرها هذا الموقع في المعاجم العامة او المتخصصـة بفلسطين ، ويسـتفاد مـن وليم الصوري ص ١٠٧٠ ، انه كان على أطراف البحر الميت .
٣٥٨ ـ سبسطية قرية في الشمال الغربي من مدينة نابلس على بعد مسافة ١٥ كم منهـا . معجـم بلدان فلسطين .
٣٥٩ ـ تمثل مدينة جينين (جنين) الراس الجنوبي للمثلث المتكون من مرج بني عامـر . معجـم بلدان فلسطين .
٣٦٠ ـ ابن اسد الدين شيركوه ، وكان اقطاعه حمص .
٣٦١ ـ مدينة قديمة فوق الموصل على دجلة بينهما سبعة فراسخ . الاعلاق ـ قسـم الجـزيرة ص ٧٦٨ .
٣٦٢ ـ كفر زمار : قرية من قرى الموصل . معجم البلدان .
٣٦٣ ـ شهرزور : كورة واسعة في الجبال بين اربل وهمذان. معجم البلدان .
٣٦٤ ـ في مفرج الكروب ج٢ ص ١٧٩ « عيسى بن بلاشو » .
٣٦٥ ـ كذا بالاصل ولعلها تصحيف « كمر » اي قباء ونطاق .
٣٦٦ ـ تحولت الى مدرسة عرفت بالمدرسة الصلاحية في محلة سويقة علي بالاثـار الاسـلامية ص ٢٢٨
٣٦٧ ـ سلف ان ذكرت أن راس الماء يعرف الآن باسم نبع السريا ومنه تشرب بلدة الشيخ مسكين في حوران .

٣٦٨ ـ بوادي الاردن قرب عقبة الفيق . معجم البلدان .
٣٦٩ ـ كانت طبرية لزوجة القمص ـ الكونت ـ ريموند الثالث صاحب طرابلس .
٣٧٠ ـ على بعد ٧ كم غرب مدينة الناصرة . معجم بلدان فلسطين .

٣٧١ ـ صحف بالاصل الى « جفري » .
٣٧٢ ـ صاحبة طبريا .
٣٧٣ ـ كانت يبنا من القطاعيات الفرنجة الهامة ، وهي تبعد ٧كم عن البحر وكانت قبل عام ١٩٤٨ محطة قطار بين فلسطين ومصر . معجم بلدان فلسطين .
٣٧٤ ـ انظر كتابي حطين ـ ط . دمشق ١٩٨٤ ص ١٦٧
٣٧٥ ـ انظر كتابي حطين ص ١٧٠ ـ ١٧١ .
٣٧٦ ـ هونين الآن في جنوب لبنان .
٣٧٧ ـ كوكب قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية حصينة رصينة . معجم البلدان .
٣٧٨ ـ سلف ان نقلنا عن ياقوت ان عفر بلا : بلد بغور الاردن قرب بيسان وطبرية .
٣٧٩ ـ هي بحيرة قطينة الحالية .
٣٨٠ ـ هي مدينة طرطوس الحالية .
٣٨١ ـ غير اسمها برغم صحته بالعربية الى قلعة صلاح الدين ، فصهيون اسم مشتق من الصهوة وصهوة الجبل أعلاه .
٣٨٢ ـ انظر النوادر السلطانية لابن شداد ـ ط . القاهرة ١٩٠٣ ص ٦٠ ـ ٦١
٣٨٣ ـ من الواضح أن مصدر ابن العديم هو ابن شداد ، لأنه كان من شيوخه ـ انظر النوادر السلطانية ص ٦١ ـ ٦٢
٣٨٤ ـ اليزك : الطلائع .
٣٨٥ ـ انظر النوادر السلطانية ص ٦٢ ـ ٦٣ .
٣٨٦ ـ تعرف ايضا باسم كوكب الهوا وهي قرية الى الشمال من بيسان . معجم بلدان فلسطين .
٣٨٧ ـ انظر المحاسن اليوسفية ص ٦٣ ـ ٦٥ .
٣٨٨ ـ في المحاسن اليوسفية ص ٦٥ : مرج برغوث .
٣٨٩ ـ ماتزال بقاياها قائمة في جنوب لبنان .
٣٩٠ ـ انظر المحاسن اليوسفية ص ٦٥ ـ ٦٦ .
٣٩١ ـ الطشت دار المسؤول عن غسيل أواني السلطان وثيابه واحيانا حمامة ووضوئه .
٣٩٢ ـ الخروبة حصن كان على مقربة من عكا . معجم بلدان فلسطين .
٣٩٣ ـ زيادة اقتضاها السياق .
٣٩٤ ـ من انواع ستائر الحماية والدفاع .
٣٩٥ ـ الأوج سكان المناطق الثغرية المتقدمة .
٣٩٦ ـ تبعا لابن شداد المحاسن اليوسفية ص ٨٧ كان قلج ارسلان على وفاق ضمني مع ملك الالمان .
٣٩٧ ـ التينات : حصن على شاطىء البحر بين بياس والمصيصة . بغية الطلب ص ٢٢٣ .
٣٩٨ ـ انظر المحاسن اليوسفية ص ٨٧ ـ ٩٤ .
٣٩٩ ـ انظر المحاسن اليوسفية ص ١٠٠ ـ ١٠١ .
٤٠٠ ـ انظر المحاسن اليوسفية ص ٩٧ .
٤٠١ ـ انظر حوله بغية الطلب ص ٥٥ ـ ٥٦ .
٤٠٢ ـ انظر كتابي حطين ص ١٧٨ ـ ١٨٠ .
٤٠٣ ـ بلدة في ديار بكر يقال لها حاني ايضا الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ص ٧٨٨ .
٤٠٤ ـ انظر كتابي حطين ص ١٨٢ ـ ١٨٤ .
٤٠٥ ـ أي من الفضة .
٤٠٦ ـ اران اقليم مشهور بين اذربيجان وأرمينية . معجم البلدان .

حواشي القسم الثاني من زبدة الحلب

(١) ارجح انه قصد هنا اريحا جبل السماق ، لا اريحا فلسطين ، وتتبع بلدة أريحا الآن محافظة ادلب ، وتبعد عنها مسافة ١٣ كم وعن المعرة ٢٠ كم ، و٦٠ كم عن جسر الشغور (الشغر) .
(٢) راس العين بلدة في الجزيرة السورية تتبع محافظة الحسكة ، وتبعد عن الحسكة / ٨٤ / كم ، وهي الى الشمال الغربي منها .
(٣) كذا بالاصل ، وفي مفرج الكروب ، غرقوس ، فلعلها تصحيف ، عربسوس ، أي ، افسوس ، .
(٤) الارتيق من كور حلب قرب عزاز . بغية الطلب لابن العديم – تحقيقي – ط . دمشق ١٩٨٨ ج ١ ص ٤٣٧ .
(٥) مرض تظهر اثاره على الوجه والجلد .
(٦) تصغير قلة ، وهي أعلى مكان في القلعة ، أو أنها تصحيف ، قبيلة ، .
(٧) كان يعرف ايضا باسم تل عرن ، وهو مايزال يحمل الاسم نفسه ، وهو قرية في جبل الاحص تتبع منطقة السفيرة – محافظة حلب ، وتبعد القرية ٥ كم عن السفيرة ، يتوسطها تل كبير ، هو تل عرن . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .
(٨) ضريبة على رؤوس المواشي عرفتها بلاد الشام حتى وقت قريب .
(٩) حصن على اربعين ميلا من ملطية ، في الجنوب الشرقي منها .
(١٠) كذا بالاصل ، ولعله اراد ، الملقى ، أو انها تصحيف ، الحلقة ، .
(١١) كذا بالاصل ولعلها ، يغزو ، .
(١٢) ماتزال تحمل الاسم نفسه قرب سلمية ، يراها على يمينه الخارج من سلمية الى حماه .
(١٣) أي ما يماثل مدير المراسم .
(١٤) هي توقات عند ياقوت ، بلدة بين قونية وسيواس .
(١٥) قراءة ترجيحية ، بسبب طمس مطلع السطر .
(١٦) فراغ بالاصل .
(١٧) فراغ بالاصل .
(١٨) فراغ بالاصل .
(١٩) على مقربة من قونية .
(٢٠) جاء في نهاية هذه الصفحة من مخطوطة باريس : يقول كاتبها : كتبت هذه النسخة من خط مؤلفها المولى الصاحب كمال الدين ابي حفص عمر بن احمد بن عبد الله بن أبي جرادة الحلبي ، رحمه الله تعالى ، ورضي عنه ، وهذا اخر ما وجدته بخطه .
وذلك لاحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الاخر سنة ست وسبعين وستمائة ، أحسن الله ختامها ، والحمد لله ، وصلاته على نبيه محمد وسلم .

حواشي تراجم بغية الطلب

(١) قال عنها ياقوت في معجمه : بلدة مشهورة عظيمة ، اعظم واشهر بلاد اذربيجان .
(٢) كذا في الاصل . هذا ولم يصلنا حرف ، الميم ، من بغية الطلب .
(٣) بانياس الجولان انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ـ تحقيقي: ٣٧٢ ـ ٣٧٩ .
(٤) أسعر الحرب : اوقدها . القاموس .
(٥) تاريخ ابن عساكر : ٢ / ٤١٥ و .
(٦) جبلان صغيران الى الشمال من حماه اسمهما ، جبل زين العابدين وجبل كفراع ، .
(٧) تحمل بقاياها الان اسم بعرين . وقامت على مقربة من رفنية . وكانت ذات مكانة كبيرة في هذه الفترة . وهي تابعة الان اداريا لمنطقة مصياف . وتبعد عن بلد مصياف ١٧ كم وعن حماه ٤٢كم .
(٨) خارج حلب . انظر الجزء الاول ص ٢٤٧ .
(٩) موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق . وفيه خان ومنزل للقوافل وهو المعروف بالفنيدق . معجم البلدان .
(١٠) في محلة الفرافرة . انظر الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب : ٣٢١ .
(١١) محلة الفرافرة . انظر الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب : ٢٥٣ ٢٥٤ . ٢٦٧ .
(١٢) كذا بالاصل ، وهو وهم صوابه ، خمسمائة ، .
(١٣) لقد سبق لابن العديم ان أورد هذه الاسماء . سلطان شاه ، وابراهيم ، ومبارك ، انظر ترجمة رضوان السابقة .
(١٤) ابن عساكر الظاهرية ، ٣٣٦٨ ، ٣ / ٤١ ـ ظ ، وقد نقل ابن العديم كل ما اورده ابن عساكر في ترجمة الب ارسلان اللهم الاكلمة ببالس ، حيث قتل اليايا . (١٥) انظر العظيمي : ٣٨١ ـ ٣٨٢ .
(١٦) كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان . معجم البلدان .
(١٧) قلعة حصينة في شمال حلب ، بينها وبين حلب يومان . معجم البلدان .
(١٨) خرتبرت او خربوط أو حصن زياد ، في اقصى ديار بكر . بينه وبين ملطية مسيرة يومين ، معجم البلدان .
(١٩) قلعة حصينة وبلدة من نواحي ارمينية بين ارزن الروم وخلاط . معجم البلدان .
(٢٠) من سنة ٥١٧هـ . لمزيد من التفاصيل انظر كتابي الحروب الصليبية ٢ / ٥٩٦ ـ ٥٩٨ ، ٧٦٤ .
(٢١) لم اعثر على ترجمة لرضوان بن تتش في تاريخ دمشق لابن عساكر ، مخطوطة الظاهرية ، المجلد السادس رقم ٣٤٥٠ .
(٢٢) كان من عادة امراء السلاجقة تطليق بعض زوجاتهم لاسباب دينية وسياسية ، وعندما كانت احدى الزوجات تطلق كان ينعم بها على احد رجالات الدولة لتوثيق صلته بالاسرة الحاكمة ، ثم ليقوم بتربية ابن الامير او السلطان من هذه المطلقة ، وصار زوج الجديد يعرف باسم اتابك . وكلمة اتابك هي كلمة مركبة من اتا ومعناها اب او عم وبك التي تعني أمير او مقدم او ما يعادل ذلك من القاب الزعامة ، لقد كان هذا هو اصل منصب الاتابك الذي تطور فيما بعد تطورا كبيرا حيث كسب صفاتا كثيرة جديدة .
(٢٣) دقاق بن تتش صاحب دمشق . انظر ترجمته المنشورة ضمن هذا الكتاب .

(٢٤) انظر نص العظيمي .
(٢٥) كورة من كور حلب وقعت بينها وبين انطاكية . معجم البلدان .
(٢٦) اي علم وفهم – القاموس .
(٢٧) لم يصلنا ايا من كتب حمدان .
(٢٨) تاريخ دمشق لابن عساكر : ٥ / ١٤٤ – ظ .
(٢٩) اي من اتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة التي اسسها حسن الصباح وكنت معادية للفاطميين المستعلية في القاهرة تمارس ضدهم وضد سواهم الاغتيال السياسي الطقوسي . انظر حولهم كتاب الدعوة الاسماعيلية الجديدة الذي ترجمته الى العربية ط . بيروت ١٩٧١ .
(٣٠) كتب ابن العديم في الهامش « في نسخة أوطاني » .
(٣١) كتب ابن العديم في الهامش « في نسخة لاحلب » .
(٣٢) ماتزال تحمل هذا الاسم نفسه وتتبع الآن محافظة ادلب – منطقة حارم وتبعد عن ادلب مسافة / ٧٦ / كم .
(٣٣) الشاعر المشهور ، سلفت ترجمته في المجلدة السابقة فيمن اسمه الحسن .
(٣٤) التكحيل هنا امرار ميل محمى على الجفنين حتى يلتصقا .
(٣٥) بناها الشريف العتيقي مقدم احداث حلب جنوب القلعة الكبيرة . انظر كتابي امارة حلب – ط . دمشق ١٩٨٨ ص ١٧٨ – ١٧٩ .
(٣٦) منظمة شعبية بلدية أشبه بأنواع الميليشيات ، انظر كتابي امارة حلب : ٢١٦ – ٢٢٠ .
(٣٧) صاحب تل باشر .
(٣٨) قرية كبيرة ظاهر حلب ، معجم البلدان .
(٣٩) قرية في احواز حلب .
(٤٠) من قرى اطراف مدينة حلب .
(٤١) لفظة فارسية تعني القائد الكبير ، او الاعلى .
(٤٢) تاريخ العظيمي : ٣٧٧ – ٣٨١ باختصار شديد .
(٤٣) انظر العظيمي : ٣٦٨ .
(٤٤) انظر العظيمي : ٣٦٤ .
(٤٥) انظر العظيمي : ٤٩٩ .
(٤٦) مربنا المزيد من التفاصيل في ترجمة البرسقي .
(٤٧) لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي تحقيقي ط . دمشق ١٤٠٣ : ٣٦٦ – ٣٦٧ .
(٤٨) مواشي ودواب وقطعان السلطان .
(٤٩) لم اقف على تعريف لهذا الموضع .
(٥٠) في جنوب العراق من قبائل عقيل بالاحمل .
(٥١) كان اسم قلعة جعبر قديما « دوسر » وذلك قبل ان يستولي عليها في القرن الخامس هـ جعبر بن سابق القشيري الذي منحها اسمه .
(٥٢) انظر تاريخ العظيمي : ٣٧٠ – ٣٧٤ . ولمزيد من التفاصيل انظر تاريخ وليم الصوري ترجمتي – ط . بيروت ١٩٨٩ ج ٢ ص ٦٢٧ – ٦٢١ .
(٥٣) اي يخيفه تعرضه للتعرق .
(٥٤) هذا موقف رائع قلما نجده عند مؤرخ آخر .
(٥٥) لم استطع الوقوف عليه .
(٥٦) كتب ابن العديم في الهامش : أظنه واوهنت .
(٥٧) الرجل السريع الاستماع للصوت الخفي ، والفهم . القاموس .

(٥٨) الال : العهد والحلف والجار والقرابة . القاموس .
(٥٩) ضرب من الفلوس يتفاوت صرفها بالنسبة للدينار بين لن ولخر .
(٦٠)مقامات الحريري ـ ط . القاهرة ـ محمد علي صبيح واولاده ـ المقامة التاسعة والثلاثون ـ العمانية ص ٤٣٥ .
(٦١)تاريخ العظيمي :٣٨٧ .
(٦٢) اعظم واشهر بلاد اذربيجان . معجم البلدان .
(٦٣) اي مقدار .
(٦٤) بلد مشهور من أعمال اذربيجان حصن كثير الخير والفواكه . معجم البلدان .
(٦٥) مقدم احداث حلب .
(٦٦) طغتكين أتابك دمشق .
(٦٧) ليس في كتاب تاريخ العظيمي الموجود ، ولعله مما أورده العظيمي في تاريخه الكبير الذي يعتبر بحكم المفقود .
(٦٨) انظر العظيمي . ٣٧٢ .
(٦٩) انظر العظيمي : ٣٧٤ .
(٧٠ (انظر العظيمي : ٣٧٧ .
(٧١) اي قفز .
(٧٢) كذا في الاصل والصحيح هو مودود ، على أنه يرد كذلك في بعض المصادر .
(٧٣) لم اقف لرضوان على ترجمة في تاريخ ابن عساكر ، مخطوطة الظاهرية ، المجلد السادس رقم ٣٤٥٠
(٧٤) انظر العظيمي : ٣٩١ ـ ٣٩٢ .
(٧٥) عرفت حلب وغيرها من مدن الشام ولاسيما دمشق منصب رئيس المدينة منذ القرن الخامس او قبيل ذلك . وغالبا ما كان مقدم الاحداث هو الشاغل لهذا المنصب ، وهذا ما مكنه من شغل دور فعال ومؤثر .
(٧٦) نسبة الى تقي الدين عمر الذي سيكون صاحب حماه ومؤسس حكم الاسرة الايوبية فيها .
(٧٧) كذا بالاصل ، بدلا من رؤوس ، ونسبت الأقمشة المهداة الى مصدر صنعها .
(٧٨) الاضراس : اشتداد الزمان,والافراخ : الافزاع ـ القاموس .
(٧٩) انظر سيرة صلاح الدين لابن شداد ـ ط . القاهرة ١٩٠٣ ص ٣٩ .

٧٤٩٥ ـ

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٤)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٠ - ١٤١٦هـ

الجزء السابع عشر

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

لابي شامة

الجزء الأول

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمت الاشارة اكثر من مرة الى كتاب الروضتين وذيله لأبي شامة، شهاب الدين عبد الرحمن ابن اسماعيل المقدسي [٥٩٩ ـ ٦٦٥هـ / ١٢٠٢ـ ١٢٦٧م] على انه أوفى مصدر عربي تحدث باسهاب عن أحداث الحروب الصليبية ، فهو قد نهل مادة جزئية الآساسيين من مصادر الذين تقدموه، واحسن النهل والاختيار واستوفى الروايات ، وأبدى رأيه في ترجيح بعضها على بعض أحيانا ، أما في الذيل فهو المصدر ، وهو شاهد عيان معاصر لكل ما سجله، وهنا تجلت أصالته وتفوقه على غيره من المؤرخين، وبذلك بات مصدر الجميع الذين جاءوا من بعده..

لقد أكثر أبو شامة من الاشارة الى نفسه واسرته واحواله في الذيل كما ترجم لنفسه، لهذا لن أعرف بهذه التوطئة به وبحياته.

لاشك أن أبا شامة مؤرخ عملاق، كان صاحب أحاسيس مرهفة، ولكم يتمنى المرء لو دفعه فضوله التاريخي وحبه للمعرفة نحو التوغل الى صفوف الفرنجة لوصف أصولهم ودوافعهم ونظمهم وما جبلوا عليه من عادات وتقاليد.

لعله لم يفعل ذلك لأنه كان يؤرخ لدولتين مسلمتين وليس لأعدائهما لكن أو ليس من شروط التغلب على العدو معرفته بالعمق من جميع الجوانب ؟ ومع صحة هذه المسلمة يبدو أن المسلمين جميعا حتى رجال السلطة منهم اهتموا برصد حركات العدو الصليبي عسكريا وسياسيا ،

ولم يـأبهوا بها رسا وراء ذلـك، كـان همهم تحريـر الأرض مـن هذا العـدو وردعه ، وكـف عاديته والخلاص منـه ،فقد ظـل الفرنجة طـوال قرنين في نظر المسلمين كفارا وأعداء، ومعرفة هذا كافيـة، ولئن اهتم الفرنج بتاريخ المسلمين وأحـوالهم ، فانهم فعلـوا ذلك لكـونهم غزاة أرادوا العيـش على الأرض التي انتزعوهـا ، وسعوا الى تدبر وسائل الحياة في أوسـاط عدوانية من كل جـانب ، كما استهدفوا حيـازة المزيد من الأرض ، فعدوانيـة وليم الصـوري جعلته أول المستعـربين إن لم نقـل المستشرقين ، لكن العـرب لم يكـونـوا عـدوانيين ،يضـاف الى هذا ان المؤرخ العـربي ظـل على قـاعـدة الأوائل يؤرخ للملوك والـدول ، ويكتب لا لنشر المعرفة بين النـاس ، بل تلبية لطلب أحـد رجال السلطة، وظل رجال السلطة جنـدا أحاسيسهم الحضاريـة فقيرة ، وفهمهم للثقـافة العربيـة سطحي جدا، فـزين الـدين صاحـب إربل وسواها عنـدما جاءه حيص بيـص ليمدحه ، قال لـه لن أفهم عليـك شيئا مما ستقـوله ، لكن أعـرف أنك تحتـاج عوني ، فأمـر له بمبلغ مـن المال، وصلاح الـدين أمر ببيـع خزانـة الكتب العظيمـة التي وجـدهـا في قصور الفـاطميين بـالقـاهـرة ، لكنـه احتفظ بـا لمجـوهـرات والذخائر لنفسه ولآله.

الانتصارات في حطين وسواها جعلت من بعـض رجال الجند والمرتزقة والعبيـد أبطـالا ، لكن لا بـد مـن التمييـز بين البطل العسكـري وبطـل اشـادة الحضارة العـربية، والحفـاظ عليهـا، ولابد مـن التذكير أن رجـال الفكر سـايروا مشاعـر الحكام وماشـوا رغباتهم ، ودونـوا ماكان يـرضيهم ويفقهوه، فهم هنا كانوا على دين ملوكهم .

بفضل التفـوق الحضاري العـربي جاء النصر في حطين ، وحين بـدد خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين ثمار حطين السياسية والعسكرية ، ظل التفوق الحضاري يهيء الفرصة لمتابعة التحرير وطرد الغزاة وهذا ما كان ، وعليه يتـوجب على الباحث في تـاريخ الحروب الصليبية وتاريـخ الاسلام

بشكل عام ألا تصمه قعقعة الحديد ، عن سماع أصوات بناة الحضارة ، وألا يعمي غبار المعارك ناظرية عن رؤية عمق المؤثرات الحضارية وألا تدفعه عاطفة النصر العسكري الى عدم التوازن في تقرير حقائق الأمور

هذه والحق اشكالية كبرى تحتاج الى البحث المعمق ، ولعله يكفي هنا اثارتها فالسؤال يشكل نصف المعرفة، والشك هو الطريق نحو اليقين والايمان.

أنا على دراية أن رجال السلطة الأيوبية بنوا المدارس ، لكن جل هذه المدارس جاءت بمثابة ترب لهم، وكانت دينية ضيقة المجالات ، تعتمد على دراسة نصوص مكررة لهذا جاء نتاج رجالها إما اختصارات أو شروح، وكادت جوانب الابداع أن تختفي ، ذلك أن الحضارة العربية جاءت وليدة لحلقات العلماء، ومقارعة الحجة بالحجة في أجواء من الحرية والالتزام الخلقي، لكن المدرسة لم توفر هذه الشروط ، بل جعلت من العمل العلمي عملا دينيا ضيقا متوارثا ، وتوافق هذا مع تنامي عقلية التصوف الطقوسية ، فالتصوف الان لم يعد اعمال زهد وتفكر ، بل حلقات ذكر وسماع وطعام ، وعيش رغيد داخل الزاوية بدون عمل منتج.

انها المرة الأولى التي يطبع بها كتاب الروضتين مع ذيله بشكل علمي محقق ، وقد اعتمدت في عملي على مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس ، وهي فيما اعلمه أفضل مخطوطات هذا الكتاب ، وكان أبو شامة قد قسم الروضتين الى جزئين ، لكن لكبر حجم كل جزء أعدت النظر بالتقسيم فجعلته ثلاثة أجزاء ، يغطي الأول منها أخبار الأحداث حتى وفاة أسد الدين شيركوه وتسلم صلاح الدين لوزارة القاهرة ، ويروى الثاني أخبار نشاطات صلاح الدين حتى تمكنه من الانفراد بالسلطة في الشام ومصر

وبعض أجزاء الجزيرة ، ويتحدث الثالث عن بقية اللأحداث حتى بعيد وفاته.

ان بعض مصادر الروضتين قد توفر لنا ، وما توفر أقدمت على نشره داخل موسوعتنا ، لكن هناك مصادر كثيرة هامة عاد اليها أبو شامة تعد بحكم المفقود لا سيما ما كتبه ابن أبي طي الحلبي مع العديد من الوثائق الهامة.

من الله ارجو التوفيق والعون وله خالص الحمد والشكر والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ٢٥ / ٢ / ١٤١٦هـ - ٢٣ / ٧ / ١٩٩٥ م

سهيل زكار

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

تأليف الشيخ الرحلة المحدث المفنن فريد عصره ووحيد دهره

شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي

الشافعي

تغمده الله برحمته وغفرانه

وما توفيقي إلا بالله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال،وبكرمه وجوده تدرك الآمال،وعلى وفق مشيئته تتصرف الأفعال،وبارادته تتغير الأحوال،وإليه المصير والمرجع والمآل،سبحانه هو الباقي بلازوال،المنزه عن الحلول والانتقال،(عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)[1]،ذو العرش والمعارج والطول والاكرام والجلال،نحمده على ماأسبغ من الانعام والافضال، ومن به من الاحسان والنوال، حمداً لاتوازيه الجبال،مل ء السموات والأرض وعلى كل حال،ونصلي على رسوله ونبيه،وخيرته من خلقه

وصفيه،وخليلـه ووليه،وحبيبه المفضـال،سيدناأبي القـاسم محمد بـن عبد اللـه ذي الشرف البـاذخ،والفضـل الشـامـخ،والعلـم الـراسـخ،والجمال والكمال،صلى الله عليه وعلى الملائكـة المقربين،والأنبياء المرسلين،وعترتهم الطيبين،ما أفل كـوكب وطلع هلال،وعلى آل محمـد وصحبه خير صحب وأكـرم آل،وعلى تـابعيهم بـاحسـان وجميـع الأوليـاء والأبدال،وعفـا عـن المقصريـن مـن أمتـه أولي الكسـل والملال،وحشرنـا في زمـرتـه،متمسكين بشريعتـه،مقتديـن بسنتـه،متعظين بما ضرب مـن الأمثال، مـزدحمين تحت لوائه، في جملة أولياته(يوم لابيع فيه ولا خلال).[٢]

أما بعـد:فإنـه بعد أن صرفـت جل عمـري،ومعظم فكـري،في اقتباس الفـوائد الشرعيـة،واقتنـاص الفـرائد الادبيـة،عـنّ لي أن أصرف إلى علـم التـاريـخ بعضه،فـأحـوز بـذلك سنـة العلـم وفـرضه،اقتـداء بسيرة مـن مضـى،من كـل عالم مـرتضى،فقـل إمام مـن الأئمة إلاّويحكـي عنه مـن أخبار من سلف فـوائد جمة،منهم إمامنا أبو عبد اللـه الشافعي رضي الله عنه ،قـال مصعـب الـزبيري:مـارأيت أحـداً أعلـم بـأيـام النـاس مـن الشـافعي،ويـروي عنه أنـه اقـام على تعلم أيـام الناس والأدب عشريـن سنة،وقال:ماأردت بذلك الاستعانة على الفقه.

قلت:وذلك عظيـم الفائدة،جليل العائدة،وفي كتاب الله وسنـة رسوله صلى الله عليـه وسلم من أخبـار الأمـم السالفـة،وأنباء القرون الخالفـة،ما فيـه عبر لذوي البصـائر،واستعداد لــ(يوم تبلى السرائر)[٣]،قـال الله عـز وجل وهو أصـدق القائلين:(وكلا نقص عليـك من أنباء الرسـل مانثبت بـه فـؤادك وجـاءك في هــذه الحق ومـوعظـة وذكـرى للمـؤمنين) [٤] وقال:سبحـانه وتعـالى:(ولقد جـاءهم من الأنبـاء ما فيـه مزدجـر• حكمة بالغة فما تغن النذر)[٥]،وحدث النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أم ذرع[٦]وغيره مما جـرى في الجاهلية، والأيام الاسرائيلية، وحكـى عجائب مـا رآه ليلـة أسري بـه وعـرج، وقـال: «حـدثـوا عـن بنـي اسرائيـل ولا

حرج»(٧)،وفي صحيح مسلـم عن سماك بـن حرب «قـال:قلت لجابـر بن سمرة أكنت تجالس رسول الله صلى اللّه عليه وسلم؟قال:نعم كثيرا،كان لايقـوم مــن مصلاه الـذي صلى فيـه الصبــح والغـداة حتــى تطلـع الشمـس،فإذا طلعـت قام وكـانوا يتحـدثـون،فيأخـذون في أمر الجاهليـة فيضحكون ويتبسم»(٨)،وفي سنن أبي داود عـن عبد اللّه بـن عمر رضي اللّـه عنهما قال:«كـان نبـي اللّه صلى اللـه عليه وسلـم يحدثنـا عن بنـي اسرائيل حتى نصبح ما يقوم الا الى عظم صلاة»(٩)

قلت :ولم يزل الصحـابة والتابعون فمـن بعدهم يتفاوضـون في حديث مـن مضـى،ويتذاكـرون مـا سبقهـم مـن الأخبار وانقضـى،ويستنشـدون الاشعار،ويتطلبـون الآثار والاخبـار،وذلك بيّن مـن أفعالهم،لمن اطلـع على أحــوالهم،وهـم الســادة القـدوة،فلنـا بهم أسـوة،فـاعتنيـت بـذلـك وتصفحته،وبحثـت عنه مدة وتطلبته،فـوقفت والحمد للّـه على جملة كبيرة مـن أحـوال المتقـدمين والمتـأخريـن،مـن الأنبيـاء والمرسلين،والصحـابـة والتابعين،والخلفـاء والسلاطين،والفقهـاء والمحدثين،والأوليـاء والصالحين، والشعراء والنحويين،وأصناف الخلق البـاقين،ورأيت أن المطلع على أخبار المتقـدمين،كـأنـه قـد عـاصرهم أجمعين،وأنـه عنـدمـا يفكـر في أحـوالهم ويـذكرهـم،كأنـه كان مشـاهدهـم ومحاضرهم،فهـو قائم لـه مقام طـول الحياة،وان كان متعجل الوفاة٠

قال نعيم بن حماد:كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته،فقيل له:ألا تستـوحش؟فقـال:كيف أستوحـش وأنا مـع النبي صلى اللّـه عليه وسلم وأصحابـه،وفي رواية قال:قيل لابـن المبارك:ياأبا عبـد الرحمن تكثر القعود في البيـت وحدك؟فقال:أنـا وحدي،أنـا مع النبي صلى اللّـه عليه وسلم وأصحابـه،يعني النظر في الحديث٠وفي رواية أخرى:وأنـا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان٠

قلت:وقد أنشدت لبعض الفضلاء:

كتـــــاب اطــــالعــــه مـــؤنــــس
أحـــــب إلي مـــــــن الآنســـــــة
وأدرســـــــه فيرينــــــي القـــــرو
ن حضــــوراً وأعظمهـــــم دارســــه

وقد اختار الله سبحانه لنا أن نكون آخر الأمم،وأطلعنا على أنباء من تقدم لنتعظ بما جرى على القرون الخاليه،وتعيها أذن واعيه،(فهل ترى لهم من باقيه)(١٠)ولنقتدي بمن تقدمنا من الأنبياء،والائمة الصلحاء،ونرجو بتوفيق الله عز وجل أن نجتمع بمن يدخل الجنة منهم،ونذاكرهم بما نقل إلينا عنهم،وذلك على رغم أنف من عدم الادب،ولم يكن له في هذا العلم أرب،بل أقام على غيه وأكب،والمرء مع من أحب٠

هذا وإن الجاهل بعلم التاريخ راكب ظهر عمياء،خابط خبط عشواء،ينسب إلى من تقدم أخبار من تأخر،ويعكس ذلك ولايتدبر،وإن رد عليه وهمه لايتأثر،وإن ذكر فلجهله لايتذكر،لايفرق بين صحابي وتابعي،وحنفي ومالكي وشافعي،ولابين خليفة وأمير،وسلطان ووزير،ولايعرف من سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم أكثر من أنه نبي مرسل،فكيف له بمعرفة أصحابه وذلك الصدر الأول ،الذين بذكرهم ترتاح النفوس،ويذهب البؤس٠

ولقد رأيت مجلسا،جمع فيه ثلاثة عشر مدرساً،وفيهم قاضي قضاة ذلك الزمان،وغيره من الأعيان،فجرى بينهم وأنا أسمع ذكر من تحرم عليه الصدقة،وهم ذوو القربى المذكورون في القرآن،فقال:جميعهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب،وعدلوا بأجمعهم في ذلك عما يجب،فتعجبت من جهلهم حيث لم يفرقوا بين عبد المطلب والمطلب،ولم يهتدوا إلى أن المطلب هو عم عبد المطلب،وأن عبد المطلب هو ابن هاشم،فما أحقهم بلوم كل لائم،إذ هذا أصل من أصول الشريعة قد أهملوه،وباب من

أبواب العلم جهلوه،ولزم من قولهم إخراج بني المطلب من هذه الفضيلة،فابتغيت إلى الله تعالى الوسيلة،وأنفت لنفسي من ذلك المقام،فأخذتهابعلم أخبار الأنام،وتصحيح نسبتها،وايضاح محجتها،فإن كثيراً ممن يحفظ شيئاً من الوقائع يفوته معرفة نسبتها إلى أربابها،وإن نسبها خلط فيها وصرفها عن أصحابها،وهو باب واسع غزير الفوائد،صعب المصادر والموارد،زلت فيه قدم كثير من نقلة الأخبار،ورواة الآثار.

ثم أردت أن أجمع من هذا العلم كتابا يكون حاوياً لما حصلته،وأتقن فيه ما خبرته،فعمدت إلى أكبر كتاب وضع في هذا الفن على طريقة المحدثين،وهو تاريخ مدينة دمشق،حماها الله عز وجل، الذي صنفه الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن العساكري رحمه الله،وهو ثمانمائة جزء في ثمانين مجلدا فاختصرته وهذبته[11]وزدته فوائد من كتب أخر جليلة وأتقنته،ووقف عليه العلماء،وسمعه الشيوخ والفضلاء.

ومرّبي فيه من الملوك المتأخرين،ترجمة الملك العادل نور الدين،فأطربني ما رأيت من آثاره،وسمعت من أخباره،مع تأخر زمانه،وتغير خلانه،ثم وقفت بعدذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين فوجدتهما في المتأخرين،كالعمرين رضي الله عنهما في المتقدمين،فإن كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد،واجتهد في اعزاز دين الله أي اجتهاد،وهما ملكا بلدتنا،وسلطانا خطتنا،خصنا الله تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما،فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف،يتضمن التقريظ لهما والتعريف،فلعله يقف عليه من الملوك،من يسلك في ولايته ذلك السلوك،فلا يبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين،وذكرى منه سبحانه(فإن الذكرى تنفع المؤمنين)[12]فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين،ومن حذا حذوهم من

الأئمة السابقين،ويقولون:نحن في الزمن الأخير،وما لأولئك من نظير،فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو في عصرهم،من بعض ملوك دهرهم،فلن يعجز عن التشبيه بهما أحد،إن وفق اللّه الكريم وسدد،وأخذت ذلك من قول أبي صالح شعيب بن حرب المدائني رحمه اللّه،وكان أحد السادة الاكابر في الحفظ والدين،قال:إني لأحسب يجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من اللّه على هذا الخلق،يقال لهم إن لم تدركوا نبيكم فقد رأيتم سفيان ألا اقتديتم به،وهكذا أقول:هذان الملكان حجة على المتأخرين،من الملوك والسلاطين،فللّه درّهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة،وجميل السريرة،وهما حنفي وشافعي،شفى اللّه بهما كل عيّ،وظهرت بهما من خالقهما العناية،فتقاربا حتى في العمر ومدّة الولاية،وهذه نكتة قلّ من تفطن لهاونبه عليها،ولطيفة هداني اللّه بتوفيقه إليها،وذلك أن نور الدين رحمه اللّه ولد سنة احدى عشرة وخمسمائة،وتوفي سنة تسع وستين،وولد صلاح الدين رحمه اللّه سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وتوفي سنة تسع وثمانين[١٣]،فكان نور الدين أسنّ من صلاح الدين بسنة واحدة وبعض أخرى،وكلاهما لم يستكمل ستين سنة،فانظر كيف اتفق أن بين وفاتيهما عشرين سنة وبين مولديهما إحدى وعشرين سنة وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين،وملكها صلاح الدين سنة سبعين،فبقيت دمشق في المملكة النورية عشرين سنة،وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة سنة،تمحى فيها السيئة وتكتب الحسنة،وهذا من عجيب ما اتفق في العمر ومدة الولاية ببلدة معينة لملكين متعاقبين مع قرب الشبه بينهما في سيرتيهما،والفضل للمتقدم،فكانت زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله،والارشاد إلى عظم محله،فإنه أصل ذلك الخير كله،مهد الأمور بعدله وجهاده،وهيبته في جميع بلاده مع شدة الفتق،واتساع الخرق،وفتح من البلاد،ما استعين به على مداومة الجهاد،فهان على من بعده على الحقيقة،سلوك تلك الطريقة،لكن صلاح الدين أكثر

جهاداً،وأعـم بلاداً،صبر وصـابر،ورابـط وثابـر،وذخر اللـه له مـن الفتوح أنفسـه،وهـو فتـح الأرض المقـدسـة،فرضي اللـه عنهما فما أحقهما بقـول الشاعر:

كـــم تـــرك الأول لـــلآخـــر
وألبـــس اللّـــه هـــاتيـك العظـــام وإن
بلين الثـــرى عفـــواً وغفـــرانـــا
سقـــى ثـــرى أودعـــوه رحمة مـــلأت
مثـــوى قبـــورهـــم روحـــاً وريحانـــا

وقـد سبقنـي إلى تـدويـن مـآثرهما جماعـة مـن العلماء،والأكـابر الفضلاء،فـذكر الحافـظ الثقة أبو القـاسم علي بـن الحسن الـدمشقي في تـاريخه ترجمة حسنـة لنور الـدين محمـود بن زنكـي رحمه اللّه،ولأجلـه تمم ذلك الكتاب وذكـر اسمه في خطبته،وذكر الرئيس أبـو يعلى حمزة بن أسد التميمـي في مذيـل التاريـخ الدمشقـي قطعـة صالحة مـن أوائل الدولـة النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة،وصنف الشيخ الفـاضل عزالدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكـريم الجزري،عرف بابن الأثير مجلدة في الأيـام الأتابكيـة،كلهـا وما جـرى فيهـا وفيه شيء مـن أخبـار الدولـة الصلاحية لتعلـق إحدى الدولتين بالأخـرى،لكونها متفرعة عنهـا،وصنف القاضي بهاء الدين أبـو المحاسن يوسف بن رافـع بن تميم الموصلي،عرف بابـن شدّاد،قاضي حلـب مجلدة في الأيام الصـلاحية،وساق مـاتيسر فيها مـن الفتـوح،واستفتـح كتـابـه بشرح منـاقـب صـلاح الـديـن رحمه اللّـه تعالى،وصنف الإمام العـالم عماد الدين الكاتب،أبو حامـد محمد بن محمد ابن حـامد الأصفهاني كتـابين كلاهما مسجـوع متقن بالألفـاظ الفصيحة والمعاني الصحيحـة،أحدهما الفتح القـدسي اقتصر فيه على فتـوح صلاح الـديـن وسيرتـه،فاستفتحـه بسنـة ثـلاث وثمانين وخمسمائة،والثـاني البرق الشامـي ذكر فيه الوقـائع والحوادث من الغزوات والفتوحـات وغيرهما مما وقـع من سنـة وروده دمشق وهـي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة إلى وفـاة

صلاح الدين،وهي سنة تسع وثمانين،فاشتمل على قطعة كبيرة من أواخر أخبار الدولة النورية،إلا أن العماد في كتابه طويل النفس في السجع والوصف يمل الناظر فيه،ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه،فحذفت تلك الاسجاع إلا قليلا منها استحسنتها في مواضعها،ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع نحو ماستراه من أخبار فتح البيت المقدس شرفه اللّه تعالى،وانتزعت المقصود من الأخبار من بين تلك الرسائل الطوال والاسجاع المفضية إلى الملال،وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام، واخترت من تلك الاشعار الكثيرة قليلا مما يتعلق بالقصص وشرح الحال،وما فيه من نكتة غريبة وفائدة لطيفة،ووقفت على مجلدات من الرسائل الفاضلية، وعلى جملة من الأشعار العمادية،مماذكره في ديوانه دون دقة من كتب أخرى من دواوين وغيرها،فالتقطت منها أشياء مما يتعلق بالدولتين أو بإحديهما،وما حدث في مدتيهما من وفاة خليفة أو وزير،أو أمير كبير،أو ذي قدر خطير،وغير ذلك،فجاء مجموعاً لطيفاً،وكتاباً ظريفاً،يصلح لمطالعة الملوك والأكابر،من ذوي المآثر والمفاخر،وسميته كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ولّله در حبيب بن أوس حيث يقول:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام[١٤]

فصل

أما الدولة النورية فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود ابن عماد الدين أتابك،وهو أبو سعيد زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي،ويلقب زنكي أيضا بلقب والده قسيم الدولة،ويقال لنور الدين ابن القسيم،وسنتكلم على أخبار اسلافه عند بسط أوصافه،وقدّمت من إجمال أحواله ما يستدل به على أفعاله،ذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه أنه ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة،وأن جدّه آق سنقر ولي حلب وغيرها

من بلاد الشام،ونشأ أبوه زنكي بالعراق ثم ولي ديار الموصل والبلاد الشامية، وظهرت كفايته في مقابلة العدو عند نزوله على شيزر،حتى رجع خائبا، وفتح الرها والمعرّة وكفر طاب وغيرهما من الحصون الشامية،واستنقذها من أيدي الكفار،فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمسمائة،ثم قصد نور الدين حلب فملكها،وخرج غازيا في أعمال تل باشر،فافتتح حصونا كثيرة من جملتها قلعة عزاز ومرعش وتل خالد،وكسر ابرنس أنطاكية وقتله وثلاثة آلاف أفرنجي معه، وأظهر بحلب السنة وغير البدعة التي كانت لهم في التأذين،وقمع بها الرافضة وبنى بها المدارس ،ووقف الأوقاف،وأظهر العدل،وحاصر دمشق مرتين،وفتحها في الثالثة،فضبط أمورها،وحصن سورها،وبنى بها المدارس والمساجد وأصلح طرقها،ووسع أسواقها،ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها،وعاقب على شرب الخمر،واستنقذ من العدو ثغر بانياس،والمنيطرة وغيرها .

وكان في الحرب ثابت القدم وحسن الرمي،صليب الضرب يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل اللّه تعالى أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير ،ووقف رحمه الله وقوفا على المرضى ومعلمي الخط والقرآن،وساكني الحرمين،وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج،وأمر باكمال سور المدينة واستخراج العين التي بأحد ،وبنى الربط والجسور والخانات ،وجدّد كثيرا من قنى السبيل ،وكذا صنع في غير دمشق من البلاد التي ملكها،ووقف كتبا كثيرة،وحصل في أسره جماعة من أمراء الفرنج،وكسر الروم والفرنج على حارم ،وكان عدّتهم ثلاثين ألفا،ثم فتح حارم،وأخذ أكثر قرى أنطاكية،ثم فتح الديار المصرية،وكان العدو قد أشرف على أخذها،ثم أظهر بها السنة وانقمعت البدعة،وكان حسن الخط،كثير المطالعة للكتب الدينية،متبعا للآثار النبوية،مواظبا على الصلوات في الجماعات عاكفاً على تلاوة القرآن،

حريصا على فعل الخير،عفيف البطن والفرج،مقتصداً في الانفاق،متحريا في المطاعم والملابس،لم يسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره،وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها،أو ارشاد إلى سنة يتبعها.

وقال أبو الحسن بن الأثير :قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه إلى يومنا هذا،فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين،ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه،قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره،وجهاد يتجهز له،ومظلمة يزيلها،وعبادة يقوم بها،وإحسان يوليه،وإنعام يسديه،ونحن نذكر ما يعلم به محله في أمر دنياه وأخراه،فلو كان في أمة لافتخرت به،فكيف ببيت واحد.

أما زهده وعبادته وعلمه،فإنه كان مع سعة ملكه،وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لايأكل ولايلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة،ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين،أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك، فأخذ ما أفتوه بحله،ولم يتعده إلى غيره ألبتة،ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة،ومنع من شرب الخمر،وبيعها في جميع بلاده،ومن إدخالها إلى بلد ما،وكان يحد شاربها الحد الشرعي، كل الناس عنده فيه سواء.

حدثني صديق لنا في دمشق،كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين ووزيرها قال:كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به وتقوم في خدمته لاتقدم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال،أو في مطالعة كتاب أتاه،ويجيب عنها، وكان يصلي فيطيل الصلاة،وله أوراد في النهار فإذا جاء الليل وصلى العشاء

ونام يستيقظ نصف الليل،ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة فيظهر الركوب،ويشتغل بمهام الدولة.

قال:وإنها قلت عليها النفقة،ولم يكفها ما كان قرّره لها فأرسلتني إليه اطلب منه زيادة في وظيفتها،فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه،ثم قال:من أين أعطيها أما يكفيها مالها،والّله لاأخوض نار جهنم في هواها إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال لي،فبئس الظن،إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ومعدة لفتق إن كان من عدو الاسلام وأنا خازنهم عليها،فلا أخونهم فيها.

ثم قال:لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها إياها فلتأخذها،قال:وكان يحصل منها قدر قليل.

قال ابن الأثير:وكان رحمه الله لايفعل فعلا إلا بنية حسنة،كان بالجزيرة رجل من الرجال الصالحين كثير العبادة والورع شديد الانقطاع عن الناس،وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله،ويعتقد فيه اعتقادا حسناً فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة،فكتب إليه يقول:ماكنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية،فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول:والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر،وإنما نحن في ثغر،العدو قريب منا،وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب،ولايمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهاراً شتاء وصيفا إذ لابد من الراحة للجند،ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لاقدرة لها على ادمان السير في الطلب،ولامعرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب،فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة.

قال ابن الاثير:فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير،الذي يقل في

أصحـاب الزوايـا المنقطعين إلى العبـادة مثلـه،فإن مـن يجيء إلى اللعـب يفعله بنية صالحة،حتى يصير من أعظـم العبادات،وأكبر القربات يقل في العالم مثلـه،وفيه دليل على أنه لايفعـل شيئا إلا بنية صالحة،وهـذه أفعال العلماء الصالحين العالمين•

و حكـي لي عنه أنـه حمل إليه مـن مصر عمامـة من القصـب الرفيـع مذهبة،فلـم يحضرها عنده،فوصفت لـه،فلم يلتفت إليها،وبينـاهم معه في حديثها وإذا قد جاءه رجل صوفي،فـأمر بها له فقيل له:إنها لاتصلح لهذا الرجـل،ولو أعطـي غيرها كـان أنفع له،فقـال:أعطوهـا له فـإني أرجو أن أعوض عنهـا في الآخرة،فسلمت إليـه فسار بها إلى بغداد فبـاعها بستمائة دينار أميري أو سبعمائة دينار•

قلت :قـرأت في حاشيـة هذا المكـان من كتـاب ابن الاثير بخـط ابن المعطى إياها قال:أعطاها لشيخ الصـوفية عماد الدين أبي الفتح بن حموية بغير طلب ولا رغبة،فبعثها إلى همذان فبيعت بألف دينار•

قـال ابن الاثير:وحكـى لنا الامير بهاء الـدين علي بـن السكري،وكـان خصيصا بخـدمة نـور الديـن، قد صحبه مـن الصبا وأنـس به،ولـه معه انبساط، قال:كنت معه يومـا في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا،فكلما سرنا تقدمنـا الظل، فلما عدنا صار ظلنـا وراء ظهورنا،فأجرى فـرسه،وهو يلتفــت وراءه وقـــال لي:أتــدري لأي شيء أجــري فـــرسي وألتفــت ورائي؟قلــت:لا،قـال:قــد شبهـت مـا نحـن فيـه بـالــدنيـا،تهرب ممـن يطلبها،وتطلب من يهرب منها•

قلــت:رضي الله عـن ملك يفكـر في مثل هـذا،وقد أنشـدت بيتين في هذا المعنى:

مثـــــل الـــــرزق الـــــذي تطلبـــــه
مثـــل الظـــل الـــذي يمشي معـــك

أنـــــت لاتـــــدركـــــه متبعـــــا
فـــــإذاوليـــــت عنـــــه تبعـــــك

قـال ابن الاثير:وكـان ـ يعنـي نور الـدين رحمه اللـه ـ يصلي كثيراً مـن الليل، ويدعو ويستغفر،ويقرأ ولايزال كذلك إلى أن يركب

جمع الشجـــــاعـــــة والخشـــــوع
مـــا أحســـن المحـــراب في المحـــراب

قـال: وكـان عـارفـا بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه[١٥]،ليس عنـده تعصب بـل الانصاف سجيتـه في كل شيء ،وسمـع الحديث وأسمعه طلبا للأجر،وعلى الحقيقـة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنـة العدل والانصـاف،وترك المحـرمات مـن المأكل والمشرب والملبس، وغير ذلك فـإنهم كانـوا قبل ذلـك كالجاهليـة،همة أحدهـم بطنه وفـرجه لايعرف معـروفاً،ولاينكـر منكراً حتـى جاء الله بـدولته،فـوقف مـع أوامر الشرع ونواهيه،وألزم بـذلك اتباعه وذويه،فاقتـدى به غيره منهم واستحبوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه،ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة•

قال :فـإن قال قائل: كيـف يوصف بـالزهـد من له الممالـك الفسيحة وتجبـى إليـه الأمـوال الكثيرة،فليـذكـر نبـي اللـه سليمان بـن داود عليهما السـلام،مع ملكـه،وهو سيـد الزاهـدين في زمـانه،ونبينـا صلى الله عليـه وسلم قـد حكم على حضر مـوت واليمن والحجاز وجميـع جزيـرة العرب من حدود الشام إلى العراق،وهو على الحقيقة سيد الزاهدين•

قال:وإنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد عنها[١٦]

قال:وأما عدله فانه كان أحسن الملوك سيرة،وأعدلهم حكما،فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولامكسا ولاعشراً بل اطلقها رحمه الله

جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعها،والموصل وأعمالها،وديار مصر وغيرها مما حكم عليه،وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً،وهذا لم تتسع له نفس غيره،وكان يتحرى العدل،وينصف المظلوم من الظالم،كائنا من كان،والقوي والضعيف عنده في الحق سواء،وكان يسمع شكوى المظلوم،ويتولى كشف حاله بنفسه،ولايكل ذلك إلى حاجب ولا أمير،فلا جرم سار ذكره في شرق الأرض وغربها٠

قال:ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول: نحن سخر لها نمضي أوامرها،فمن اتباعه أحكامها أنه كان يلعب بدمشق بالكرة،فرأى انساناً يحدث آخر ويومي بيده إليه،فأرسل إليه يسأله عن حاله،فقال: لي مع الملك العادل حكومة،وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني ،فعاد إليه ولم يتجاسر أن يعرفه ما قال ذلك الرجل،وعاد يكتمه،فلم يقبل منه غير الحق،فذكر له قوله فألقى الجوكان من يده،وخرج من الميدان وسار إلى القاضي وهو حينئذ كمال الدين بن الشهرزوري، وأرسل إلى القاضي يقول له:إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري،فلما حضر ساوى خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر:هل ثبت له عندي حق؟قالوا :لا،فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه،وهو له دوني وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي،وإنما حضرت معه لئلا يظن أني ظلمته،فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له٠

قال ابن الاثير:وهذا غاية العدل والانصاف،بل غاية الاحسان،وهي درجة وراء العدل،فرحم اللّه هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة للحق الواقفة معه٠

قلت:وهذا مستكثر من ملك متأخر،بعد فساد الأزمنة،وتفرّق الكلمة،وإلاّ فقد انقاد إلى المضي إلى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر،وعلي رضي الله عنهما،ثم حكي نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور،وقد نقلنا ذلك كله في التاريخ الكبير،وفيه عن عبد الله بن طاهر قريب من هذا،لكنه أحضر الحاكم عنده ولم يمض إليه،وقد بلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى استدعي مرة أخرى بحلب إلى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه،فدخل حاجبه عليه متعجباً وأعلمه أن رسول الحاكم بالباب،فأنكر عليه تعجبه، وقام رحمه الله مسرعا ووجد في أثناء طريقه ما منعه من العبور من حفر جب بعض الحشوس واستخراج ما فيه،فوكل من ثم وكيلاً وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل،ورجع •

قال ابن الاثير:ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الاعصار على الظنة والتهمة،بل يطلب الشهود على المتهم،فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ،فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته،مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة،والأخذ بالظنة، وأمنت بلاده مع سعتها،وقل المفسدون ببركة العدل،واتباع الشرع المطهر•

قال:وحكى لي من أثق به أنه دخل يوما إلى خزانة المال،فرأى فيها مالاً أنكره،فسأل عنه،فقيل:إن القاضي كمال الدين أرسله،وهو من جهة كذا،فقال:إن هذا المال ليس لنا،ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء،وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه،فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين،فرده إلى الخزانة،وقال:إذا سأل الملك العادل عنه،فقولوا له عني:إنه له،فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب،وقال: ألم أقل لكم يعاد هذا المال إلى أصحابه؟فذكروا له قول كمال الدين :فرده إليه وقال للرسول :قل لكمال الدين :أنت تقدر على

حمل هذا المال،وأما أنـا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله،والمخـاصمة عليه بين يدي الله تعالى،يعاد قولاً واحداً٠

قال:ومن عـدله أيضا بعد موتـه،وهو من أعجب ما يحكـى،أن انسانا كان بـدمشق غريبـاًاستوطنها وأقام بها لما رأى مـن عدل نور الـدين رحمه الله،فلما تـوفي تعدى بعض الأجنـاد على هذا الـرجل فشكاه فلـم ينصف فنزل مـن القلعة وهو يستغيث ويبكـي،وقد شق ثـوبه،وهو يقول: يـانور الدين لـو رأيتنا وما نحن فيـه من الظلم لرحمتنـا أين عدلك،وقصـد تربة نور الـدين ومعـه من الخلـق مالا يحصـى،وكلهم يبكـي ويصيح،فـوصل الخبر إلى صـلاح الديـن فقيـل له:احفـظ البلد والـرعيـة وإلا خرج عـن يدك،فـأرسل إلى ذلـك الرجل وهـو عند تـربة نور الـدين يبكـي والناس معـه،وطيب قلبـه ووهبـه شيئا وأنصفـه،فبكى أشـد مـن الأول،فقال لـه صلاح الدين:لم تبكـي؟قال:أبكي على سلطان عدل فينا بعـد موته،فقال صلاح الدين :هذا هو الحق،وكلما ترى فينا من العدل فمنه تعلمناه٠

قلت:ومـن عدلـه أنه بنى دار العـدل،قال ابن الأثير:كـان نور الـدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف وسماها دار العـدل،وكان سبب بنائها أنـه لما طـال مقـامـه بـدمشـق وأقـام بها أمـراؤه،وفيهـم أسـد الـديـن شيركوه،وهو أكبر أمير معه،وقـد عظم شأنه وعلا مكانه حتـى صار كأنه شريك في الملك،واقتنوا الاملاك فأكثروا،وتعـدّى كل واحد منهم على من يجاوره في قـريـة أو غيرها،فكثـرت الشكـاوى إلى كمال الـدين فـأنصـف بعضهم من بعض،ولم يقدم على الانصاف مـن أسد الدين شيركوه،فأنهى الحال إلى نور الدين فأمر حينئذ ببنـاء دار العدل ، فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نـوابه جميعهم وقال لهم: اعلمـوا إن نور الدين مـا أمر ببناء هـذه الـدار إلا بسببـي وحـدي،وإلا فمـن هـو الـذي يمتنـع على كمال الـديـن،ووالـلـه لئـن أحضرت إلى دار العــدل بسبـب أحــدكـم لأصلبنه،فامضوا إلى كـل من بينكم وبينه منازعة في ملـك فافصلوا الحال معه،وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي، فقالوا له:

إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب،فقال:خروج أملاكي من يدي أسهل علي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم،أو يساوي بيني وبين أحاد العامة في الحكومة،فخرج أصحابه من عنده،وفعلوا ما أمرهم وأرضوا خصماءهم،وأشهدوا عليهم،فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات،وكان يجلس في الاسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء وبقي كذلك مدّة فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين،فقال نور الدين لكمال الدين:ما أرى أحدا يشكو من شيركوه،فعرّفه الحال،فسجد شكراً لله تعالى، وقال الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا.

قال ابن الاثير:فانظر إلى المعدلة ما أحسنها،وإلى هذه الهيبة ما أعظمها،وإلى هذه السياسة ما أسدها.هذا مع أنه كان لايريق دما ولايبالغ في عقوبة،وإنما كان يفعل هذا صدقه في عدله وحسن نيته.

قال: وأما شجاعته وحسن رأيه،فقد كانت النهاية إليه فيها فإنه أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا،وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم،وبه كان يضرب المثل في ذلك.

سمعت جمعاً كثيراً من الناس،لاأحصيهم يقولون:إنهم لم يروا على ظهر فرس أحسن منه كأنما خلق عليه لايتحرك ولايتزلزل،وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها،لم ير جوكانه يعلو على رأسه،وكان ربما ضرب الكرة ويجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان،وكانت يده لاترى والجوكان فيها بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب،وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشين وباشر القتال بنفسه،وكان يقول طالما تعرّضت للشهادة فلم أدركها،سمعه يوما الامام قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك:فقال له:بالله لاتخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فإنك

عمادهم،ولئـن أصبت والعياذ بـالله في معـركة لايبقى مـن المسلمين أحد إلاأخذه السيـف،وأخذت البلاد،فقـال:ياقطب الـدين ومن محمـود حتى يقال لـه هذا، قبلي من حفـظ البلاد والاسـلام ذلك الله الـذي لا اله الا هو.

قـال:وكـان رحمه اللـه يكثـر أعمال الحيـل والمكـر والخداع مـع الفرنج،خذلهم اللـه تعالى،وأكثر ما ملكه من بلادهم بـه،ومن جيد الرأي ما سلكـه مع مليح بن ليـون ملك الأرمن،صـاحب الدروب،فإنـه مازال يخدعـه ويستميله حتـى جعله في خـدمته سفـراًوحضراً ،وكان يقـاتل بـه الافـرنـج،وكـان يقـول:إنما حملني على استمالتـه أن بـلاده حصينـة وعـرة المسالـك،وقلاعـه منيعة،وليـس لنا إليهـا طريـق،وهو يخرج منهـا إذا أراد فينال من بلاد الإسلام،فإذا طلب انحجـر فيها فلا يقدر عليه،فلما رأيت الحال هكذا بذلت لـه شيئا من الاقطاع على سبيل التأليـف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا،وساعدنا على الفرنج.

قـال:وحيـث تـوفي نـور الـديـن رحمه اللـه،وسلـك غيره غير هـذا الطـريـق،ملـك المتـولي الأرمـن بعـد مليـح كثيراً مـن بـلاد الاسـلام وحصونهم،وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لايمكن رقعه.

قال:ومـن أحسن الآراء مـا كان يفعله مـع أجناده،فـإنه كـان إذا توفي أحـدهـم وخلـف ولـداًأقـر الاقطـاع عليـه،فـإن كـان الـولـد كبيراًاستبدّبنفسه،وإن كان صغيراًرتب معـه رجلاً عـاقلاً يثق إليـه فيتولى أمره إلى أن يكبر،فكان الأجنـاد يقولـون:هذه أمـلاكنا يـرثها الـولد عـن الوالد،فنحـن نقاتل عليها،وكان سببا عظيما مـن الأسباب الموجبة للصبر في المشـاهـد والحروب،وكـان أيضـا يثبـت أسماء أجنـاد كـل أمير في ديوانه،وسلاحهم خوفاً مـن حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هـو مقرر عليه من العدد،ويقول نحـن كل وقت في

النفير فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد،دخل الوهن على الإسلام.

قال:ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال:وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ما خافه عيانا.

قال:وأما فعله في بلاد الاسلام من المصالح مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم،من ذلك انه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها:حلب وحماه، وحمص،ودمشق،وبارين، وشيزر ومنبج،وغيرها من القلاع والحصون وحصنها وأحكم بناءها،وأخرج عليها من الأموال مالا تسمح به النفوس،وبنى أيضا المدارس بحلب وحماه ودمشق وغيرها للشافعية والحنفية،وبنى الجوامع في جميع البلاد،فجامعه في الموصل اليه النهاية في الحسن والاتقان،ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوّض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملاء رحمه الله،وهو رجل من الصالحين فقيل له:إن هذا لايصلح لمثل هذا العمل،فقال:إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتاب أعلم أنه يظلم في بعض الاوقات ولايفي الجامع بظلم رجل مسلم،وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لايظلم،فإذا ظلم كان الاثم عليه لا علي.قال:وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم،وبنى أيضا بمدينة حماه جامعا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها،وجدّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم إما بزلزلة أو غيرها،وبنى البيمارستانات في البلاد،ومن اعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق،فإنه عظيم كثير الخرج جدا،بلغني أنه لم يجعله وقفا على الفقراء حسب بل على كافة المسلمين من غني وفقير.

قلت:وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعراًبذلك،وإنما هذا كلام مشاع على ألسنة العامة لنفع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء

للفقراء فيه،والله المستعان،وانما صرح بأن ما يعز وجوده من الأدوية الكبار وغيرها،لايمنع منه من احتاج إليه، من الأغنياء والفقراء ،فخص ذلك بذلك،فلا ينبغي أن يتعدّى إلى غيره،لاسيما وقد صرح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين،وقال بعد ذلك:من جاء إليه مستوصفا لمرضه أعطي،والله أعلم.

وبلغني في أصل بنائه نادرة وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكابر ملوك الفرنج،خذلهم الله تعالى فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيماً،فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم اطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين،ومال نور الدين إلى الفداء بعد ما استخار الله تعالى،فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه، وتسلم المال ،فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات،وبلغ نور الدين خبره،فأعلم أصحابه،فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع لهم الحسنتين وهما الفداء وموت ذلك اللعين،فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان،ومنع المال الأمراء ،لأنه لم يكن عن ارادتهم كان.

قال ابن الاثير:وبنى أيضا الخانات في الطرق،فأمن الناس، وحفظت أموالهم وباتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر،وبنى أيضا الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج،وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي،فإذا رأوا من العدو أحدا أرسلو ا الطيور فأخذ الناس حذرهم،واحتاطوا لأنفسهم،فلم يبلغ العدو منهم غرضا،وكان هذا من ألطف الفكر،وأكثرها نفعا.

قال:وبنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية،ووقف عليها الوقوف الكثيرة،وأدرّ عليهم الإدرارات الصالحة،وكان يحضر مشايخهم عنده ويقربهم ويدنيهم ويبسطهم ويتواضع لهم،فإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه،ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته،ويقبل عليه

بحديثه،وكذلك كان أيضا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام،ويجمعهم عند البحث والنظر،فقصدوه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه،وكان أمراءه يحسدونهم على ذلك وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم،وإذا نقلوا عن إنسان عيبا يقول: ومن المعصوم،وإنما الكامل من تعد ذنوبه.

قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي،وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في اكرامه والاحسان إليه،فحسده ذلك الأمير فنال منه يوماً عند نور الدين،فقال له:ياهذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها،وهي العلم والدين،وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ماذكرت،وليست لكم حسنة تغفرها،ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك،وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم،أفلا أحمل سيئة هذا إن صحت مع وجود حسنته،على أنني والله لاأصدقك فيما تقول ،وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدّبنك فكف عنه.

قال ابن الاثير:هذا والله هو الاحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب.

وبنى بدمشق أيضا دار الحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة فهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمناه.وبنى أيضا في كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة،وبنى أيضا مساجد كثيرة،ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن .قال،وهذا فعل لم يسبق إليه،بلغني من عارف بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا،وهو سنة ثمان وستمائة،كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها غير ملك صحيح

شرعي ظاهراً وباطناً،فإنه وقف ما انتقل إليه ووزن ثمنه،أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه

قال:وأما هيبته ووقاره فإليه النهاية فيهما،ولقد كان كما قيل شديداً في غير عنف،رقيقاً في غير ضعف،واجتمع له ما لم يجتمع لغيره،فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده إلى غاية لامزيد عليها،وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير،ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف،وأما من عداه كأسد الدين شيركوه،ومجد الدين بن الداية وغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياما إلى أن يأمرهم بالقعود،وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه،ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه،وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول: إن هؤلاء لهم في بيت المال حق فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا،وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، مجلس حلم وحياء لاتؤبن فيه الحرم[١٧]، وهكذا كان مجلسه لايذكر فيه إلاّ العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو لايتعدى هذا، بلغني أن الحافظ ابن عساكر الدمشقي رضي الله عنه، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللغط وسوء الادب من الجلوس فيه مالاحد عليه، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الإختلاف من المتحدثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مدّة لايحضر المجلس الصلاحي، وتكرر من صلاح الدين الطلب له، فحضر فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه، فقال:نزهت نفسي عن مجلسك فإنني رأيته كبعض مجالس السوقة، لايستمع فيه إلى قائل ولايرد جواب متكلم، وقد كنا بالامس نحضر مجلس نور الدين ، فكنا كما قيل كأنما على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة

والوقار،فإذا تكلم أنصتنـا، وإذا تكلمنا استمع لنا،فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنـه لايكون منهم ماجرت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قـال ابـن الاثير:فهكـذا كـانـت أحوالـه جميعهـا رحمه اللـه مضبـوطـة محفـوظـة،وأمـا حفـظ أصـول الـديـانـات فـإنـه كـان مـراعيـا لها لايهملهـا،ولايمكن أحـداً من النـاس مـن اظهار مـا يخالف الحق،ومتـى أقـدم مقـدم على ذلك أدبـه بما ينـاسـب بـدعتـه،وكان يبـالـغ في ذلـك ويقول:نحن نحفـظ الطرق من لص وقاطع طـريق والأذى الحاصل منهما قريب،أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل.

قال:وحكي أن إنسانا بدمشق يعرف بيـوسف بن آدم،كان يظهر الزهد والنسك،وقـد كثر اتبـاعه أظهر شيئـا من التشبيه،فبلـغ خبره نور الـدين فـأحضره وأركبـه حماراً وأمر بصفعـه،فطيـف بـه في البلد جميعهـا،ونـودي عليه:هذا جزاء من أظهر في الدين البدع،ثم نفاه من دمشق،فقصد حرّان وأقام بها إلى أن مات.قال:ويسوق الله القصار الاعمار إلى البلاد الوخمة.

قلت:وذكر العماد الكـاتب في أوّل كتابه البرق الشامي أنـه قدم دمشق في شعبان سنـة اثنتين وستين وخمسمائة في دولة الملك العـادل نور الـدين محمود بـن زنكي،وأخذ في وصفـه بكلامه المسجـوع فقال:كان ملـك بلاد الشام ومالكها،والذي بيده ممالكها،الملـك العادل نور الدين،أعف الملوك وأتقاهم،وأثقبهم رأيا وانقاهم،وأعـدلهم.وأعبدهـم . وأزهدهم. وأجهدهـم. وأظهـرهم. وأطهـرهم. وأقـواهـم .وأقـدرهم.وأصلحهـم عملا. وأنجعهـم أملا. وأرجحهـم رأيا. وأوضحهـم رأيا[١٨]. وأصدقهـم قولا. وأقصـدهم طولا. وكـان عصره فاضلاً ونصره واصلاً. وحكمـه عادلاً. وفضله شـاملاً. وزمانـه طيباً. وإحسانـه صيبا. والقلوب بمهـابته ومحبته ممتلئـة. والنفوس بعاطفته وعارفته ممتلية وأوامره ممتثلـه. وجدّه منزه عن الهزل. ونوّابه في أمن العزل. ودولته مأمـولة مأمونة. وروضته مصـوبة مصونة. والرياسـة كاملة. والسياسـة شاملـة. والزيـادة زائدة. والسعادة مسـاعدة. والعيشـة ناضرة.

والشيعة نـاصرة. والانصاف صاف. والاسعـاف عاف. وأزر الديـن قوي. وظمأ الاسلام روي، وزند النجـح وري. والشرع مشروع. والحكم مسموع. والعدل مولى. والظلـم معزول. والتوحيد منصـور. والشرك مخذول. وللتقى شروق. وما للفسوق سوق. وهو الذي أعـاد رونق الاسلام إلى بلاد الشام. وقد غلـب الكفر، وبلـغ الضر. فاستفتـح معاقلهـا. واستخلص عقـائلها وأشاع بها شعـار الشرع في جميع الحل والعقد. والابرام والنقـض. والبسط والقبض. والوضع والـرفع. وكانت للفرنج في أيـام غيره على بلاد الاسلام بالشـام قطائع. فقطعها وعفـى رسومهـا ومنعها. ونصره الله عليهـم مرارا حتى أسر ملـوكهم. وبدّد سلوكهـم. وصان الثغور منهم. وحماهـا عنهم. وأحيا معـالم الدين الـدوارس. وبنى لـلأئمة المدارس. وأنشأ الخانقـاهات للصوفية. وكثرها في كـل بلد وكثر وقوفها. وقرّر معروفها. وأدنـى للوافدين من جنـي جنانه قطوفهـا .وأجدّ الأسوار والخنادق. وأنمـى المرافق. وحمى الحقـائق. وأمر في الطـرقـات ببنـاء الربـط والخانـات. فضـافت ضيـوف الفضـائل. وفاضـت فيـوض الأفاضـل. وهـو الذي فتـح مصر وأعمالها. وأنشأ دولتها ورجالها[١٩].

ثم ذكر العماد في أثناء حوادث سنة تسـع وستين وهي السنة التي توفي فيها نور الدين قال:

وفي هـذه السنـة أكثر نـور الـديـن مـن الأوقاف والصـدقـات،وعمارة المساجـد المهجورة،وتعفيـة آثار الآثام، واسقـاط كل مـا يدخـل في شبهة الحرام،فما أبقى سوى الجزية والخراج، وما يحصـل من قسمه الغلات على قويم المنهاج.

قال: وأمـرني بكتب مناشير لجميـع أهل البـلاد،فكتب أكثر مـن ألف منشـور وحسبنـا ما تصـدق بـه على الفقـراء في تلك الأشهـر، فـزاد على ثلاثين ألـف دينار،وكانت عـادته في الصدقـةأنه يحضر جماعة من أمـاثل

البلـد من كـل محلـة ويسألهم عمـن يعـرفون في جـوارهـم من أهـل الحاجـة، ثـم يصرف إليهـم صدقاتهم، وكان له برسم نفقة الخاص في كـل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس يصرفها في كسوتـه ونفقته وحوائجه المهمة، حتى أجرة خياطـة وجامكية طبـاخه، ويستفضل منه مـا يتصدق به في آخـر الشهر، وأما مـا كان يهدى إليه مـن هدايا الملـوك وغيرهـم فإنـه كان لايتصرف في شيء منـه لاقليـل ولا كثير، بـل إذا اجتمـع يخرجـه إلى مجلـس القـاضي ويحصل ثمنه، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة ، وتقدم باحصاء مافي محال دمشق فـأناف على مـائة مسجد، فـأمر بعمارة ذلـك كله، وعين لـه وقـوفاً. قـال: ولـو اشتغلت بـذكـر وقوفـه وصـدقاتـه في كـل بلد لطـال الكتاب، ولم أبلغ إلى أمـد، ومشاهدة أبنيته الدالة على خلـوص نيته يغني عـن خبرهـا بـالعيـان، ويكفـي أسـوار البلـدان عـن الـربـط والمدارس على اختـلاف المذاهـب، واختلاف المواهـب وفي شرح طوله طـول، وعمله لله مبرور مقبول.

وواظـب على عقد مجالـس الـوعـاظ،ونصب الكـراسي لهم في القلعـة لـلانـذار والاتعـاظ، وأكبرهـم الفقيـه قطب الـديـن النيسـابـوري، وهـو مشغوف ببركـة أنفاسـه، واغتنام كـلامه واقتبـاسه، ووفـد من بغـداد ابن الشيـخ أبي النجيب الأكبر، فبسـط له في كـل أسبوع منبر وشـاقه وعظـه، وراقه معناه ولفظه، وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شوروه (٢٠) وما أيمن تلك الايام وأبرك تلك الشتوه.

وقال: ولما اسقط نور الدين الجهات المحظورة، والشبه المحذورة، عزل الشحن، وصرف عـن الرعية بصرفهم المحـن، وقال للقاضي كمال الـدين ابن الشهر زوري: انظر أنت ذلـك واحمل أمور الناس فيها على الشريعة، قال: ولم يكن لمال المواريـث الحشرية حاصل، ولا لديوانـه طائل، فجعل نور الديـن ثلث ما يحصل فيه لكمال الـدين الحاكم، فوفره نـوّابه وكثروه، وما كان نور الدين يحاسب القـاضي على شيء من الوقوف، ويقول أنا قد

قلدتـه على ان يتصرف بالمعروف، وما فضـل من مصارفهـا وشروط واقفها يأمـره بصرفه في بناء الأسـوار، وحفظ الثغور. وكانـت دولته نافـذة الأوامر، منتظمة الأمور.

قلت : وحكى الشيـخ أبو البركات الحسن بـن محمد بن هبة اللـه أنه حضر مع عمـه الحافظ أبي القـاسـم، رحمه الله، مجلـس نور الـدين لسماع شيء من الحديث. فمـرّ في أثناء الحديث أن النبي صلى اللـه عليه وسلم خرج متقلـداً سيفاً فـاستفاد نـور الدين أمـراً لم يكن يعـرفه، وقـال: كان رسول اللـه صلى الله عليـه وسلم يتقلـد السيف، يشير إلى التعجـب من عادة الجنـد، إذ هم على خلاف ذلـك لأنهم ير بطونـه بأوساطهـم، قال: فلما كان مـن الغد مـررنا تحت القلعـة والناس مجتمعـون ينتظرون ركـوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه معهم ، فخـرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلـد للسيف، وجميـع عسكره كـذلك، فـرحمة الله على هـذا الملك الذي لم يفرط في الاقتـداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بمثـل هذه الحالة، لما بلغته رجـع بنفسه، ورد جنـده عن عوائدهـم اتباعـا لما بلغه عـن نبيه صلى الله عليـه وسلم، فما الظن بغير ذلـك من السنـن، ولقد بلغنـي أنه أمر باسقـاط ألقابه في الدعاء له على المنـابر، ورأى له وزيره موفـق الدين خالـد بن القيسراني الشاعر في منـامه أنه يغسـل ثيابه، وقص ذلـك عليه ففكر ساعـة ثم أمره بكتابـة اسقاط المكوس، وقال: هـذا تفسير منامك، وكـان في تهجـده يقـول: ارحـم العشار المكـاس، وبعـد أن أبطـل ذلـك استجعل من الناس في حـل، وقال: والله ماأخرجناهـا إلاّ في جهاد عدوّ الاسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم٠

وعلى الجملـة كان نـور الديـن رحمه الله فـرداً في زمانـه من بين سـائر الملوك، ولـو لم يكن إلا استماعه للمـوعظة وانقيـاده لها وان اشتملت على ألفاظ، قد أغلظ له فيها٠

قرأت في تاريخ إربل لشرف الدين بن المستوفي رحمه الله، قال: المنتجب الواعظ، هو أبو عثمان المنتجب بن أبي محمد بن البحتري الواسطي ورد إربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم، وسافر إلى نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر إلى الشام لسبب الغزاة، وأنفذ له نور الدين جملة من مال فلم يقبلها، ثم ردها عليه، أنشدني له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدة عملها في نور الدين وحلف أنه سمعها من لفظه:

مثـــــــــل وقوفك أيها المغرور

يـــوم القيـــامـــة والسماء تمور

إن قيـل نـور الـديـن رحـت مسلما

فـاحـذر بـأن تبقـى ومـالـك نـور

أنهيـت عـن شرب الخمـور وأنـت مـن

كـأس المظـالم طـافـح مخمـور

عطلـت كـاسـات المدام تعففـا

وعليـك كـاسـات الحرام تـدور

مـاذا تقـول إذا نقلـت إلى البلى

فـردا وجـاءك منكـر ونكير

وتعلقـت فيـك الخصـوم وأنـت في

يـوم الحسـاب مسحـب مجرور

وتفـرقـت عنـك الجنـود وأنـت في

ضيـق اللحـود مـوسـد مقبـور

ووددت أنـك مـا وليـت ولايـة

يـومـاً ولا قـال الانـام أمير

وبقيـت بعـد العـز رهـن حفيرة

في عـالم الموتـى وأنـت حقير

وحشرت عـريـانـا حـزينـا بـاكيـا

قلقـا ومـالـك في الانـام مجير

أرضيت أن تحيى وقلبك دارس
عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه
أبدا وأنت مبعد مهجور
مهد لنفسك حجة تنجو بها
يوم المعاد لعلك المعذور (٢١)

قلت: ولعل هذه الابيات من أقوى الأسباب المحركة للسلطان في إبطال المظالم، والخلاص من تلك المآثم رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه،ووفق من رام الاقتداء به.

ونقلت من خط الصاحب العالم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد ابن هبة الله بن أبي جرادة في كتاب تاريخ حلب الذي صنفه، وسمعت من لفظه أن نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب، فلما حاصر أبوه قلعة جعبر وقتل عليها قصد حلب وصعد قلعتها وملكها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وأحسن إلى الرعية وثبت العدل ورفع الجور، وأبطل البدع واشتغل بالغزو وفتح قلاعا كثيرة من عمل حلب، كانت بيد الفرنج، وحدّث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له منهم : أبو عبد الله بن رفاعة بن عزيز السعدي المصري.

روى عنه جماعة من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد، وأبي البركات الحسن، وأبي المنصور عبد الرحمن بني أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعي.

قال: ووقفت على رقعة بخط الوزير خالد بن محمد بن نصر بن صغير القيسراني كتبها إلى نور الدين وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور،فنقلت جميع ما فيها من خطيها، قال: وكان رحمه الله كتب رقعة يطلب من ابن القيسراني أن يكتب له صورة ما يدعى له به

على المنابر حتى لايقول الخطيب ما ليس فيه، ويصونه عن الكذب، وعن ما هو مخالف لحاله ونسخة الورقة بخط خالد:

أعلى الله قدر المولى في الدارين،وبلغه أماله في نفسه وذريته،وختم له بالخير في العاجلة والآجلة بمنه وجوده وفضله وحمده،وقف المملوك على الرقعة وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله تعالى بأن يرضى عنه، وعن والديه وأن يسهل له السلوك إلى رضاه، والقرب منه والفوز عنده، إنه على كل شيء قدير ،وقد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الاشرف، زاده الله شرفاً، وهو أن يذكر الخطيب على المنبر إذا أراد الدعاء للمولى:«اللهم اصلح عبدك الفقير إلى رحمتك،الخاضع لهيبتك،المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر، ناصر أمير المؤمنين» فان هذا جميعه لايدخله كذب ولازيادة،والرأي أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى. فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ما هذا صورته:مقصودي أن لايكذب على المنبر أنا بخلاف كل ما يقال، أفرح بها لاأعمل قلة عقل عظيم. الذي كتب جيد أكتب به نسخ حتى نسيره إلى جميع البلاد،وكتب في آخر الرقعة ثم يبدأ بالدعاء: اللهم أره الحق، اللهم أسعده، اللهم أنصره، اللهم وفقه، من هذا الجنس

قال: وحدثني والدي قال: استدعانا نور الدين أنا وعمك أبو غانم، وشرف الدين بن أبي عصرون إلى الميدان الأول،وأشهدنا عليه بوقف حوانيت على سور حمص،فلما شهدنا عليه التفت إلينا وقال:بالّله انظروا أي شيء عملتموه من أبواب البر والخير دلونا عليه، وأشركونا في الثواب، فقال شرف الدين بن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئا من أبواب البر إلاّ وقد فعله،ولم يترك لأحد من بعده فعل خير إلاّ وقد سبقه إليه.

وقال:قال لي والدي:دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجر موسر

فمات بها وخلف بها ولداً صغيراً ومالاً كثيراً، فكتب بعض من بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات ها هنا رجل تاجر موسر وخلف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين، وحسن له أن يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصغير يرضى منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة، فكتب على رقعته: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمره الله، وأما الساعي فلعنه الله[٢٢].

قال: وبلغتني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضا، وحدثني الحاج عمر بن سنقر عتيق شاذبخت النوري قال: سمعت الطواشي شاذبخت الخادم يحكي لنا قال: كنت يوماً أنا وسنقرجا واقفين على رأس نور الدين، وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً، وجعل ينكت بأصبعه في الأرض،فتعجبنا من فكره وقلنا: ترى في أي شيء يفكر في عائلته أو في وفاء دينه، فكأنه فطن بنا، فرفع رأسه وقال: ما تقولان؟ فقلنا:ما قلنا شيئا، فقال: بحياتي قولا لي، فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر، وقلنا يفكر في عائلته أو في نفسه، فقال: والله إنني أفكر في وال وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك فبالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام لاتريان قصة ترفع إليّ أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وأرفعاها إليّ.

وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قال: كان نور الدين ينفذ كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملاء شيئا يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه، وكان إذا قدم الموصل لايأكل إلاّ من طعام الشيخ عمر الملاء.

قال: وكان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة

الموصـل أن لايعمل شيئـا إلاّ بالشرع إذا أمـره القـاضي به، وأن لايعمـل القاضي والنواب كلهم شيئا إلاّ بأمر الشيخ عمر الملاء.

قال: فكـان لايعمل بالسيـاسة، وبطلت الشحنكيـة في أكابر الـدولة، وقـالوا لكمشتكين: قـد كثر الـذعـار وأرباب الفسـاد، ولايجيء من هـذا شيء إلا بالقتـل والصلب، فلو كتبـت إلى نور الـدين وقلت لـه في ذلك، فقـال لهم: أنا لاأكتـب إليه في هـذا المعنى ولا أجسر على ذلـك فقولـوا للشيخ عمـر يكتب إليـه، فحضروا عنده وذكروا لـه ذلك، فكتـب إلى نور الدين وقال له: إن الذعار والمفسـدين وقطاع الطرق قد كثروا، ويحتاج إلى نوع سيـاسة فمثل هـذا لايجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخـذ مال انسان في البرية من يجيء يشهد له؟ قال : فقلـب نور الدين كتابه وكتب على ظهره:إن الّلـه تعالى خلـق الخلق وهـو أعلم بمصلحتهـم، وشرع لهم شريعـة وهو أعلـم بما يصلحهم، وإن مصلحتهـم تحصل فيما شرعـه على وجه الكمال فيها ، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه اللـه تعالى. قال: فجمع الشيخ عمر الملاء أهل الموصـل وأقرأهـم الكتاب، وقـال انظروا في كتـاب الزاهـد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وسمعت صقـر بن يحيى بن صقـر المعدّل يقول: سمعت مقلـداًيعني الـدولعي يقـول: لما مـات الحافـظ المرادي وكنا جماعـة الفقهـاء قسمين : العرب والأكـراد، فمنا مـن مال إلى المذهـب، وأردنـا أن نستدعـي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وكان بالموصـل، ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف وأراد أن يستدعي قطب النيسابـوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدّس ثم عـاد إلى بلاد العجم، فوقـع بيننا كلام بسبب ذلـك، ووقعت فتنة بين الفقهـاء، فسمع نور الـدين بذلك فـاستدعى جماعـة الفقهاء إلى القلعة بحلـب، وخرج إليهـم مجد الديـن، يعني ابـن الدايـة عن لسـانه، وقال لهم: نحن مـا أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحـض البدع من

هذه البلـدة، واظهار الدين، وهـذا الذي جرى بينكم لا يحسـن ولايليق، وقد قال المولى نور الدين: نحن نـرضي الطائفتين، ونستدعي شرف الدين ابـن أبي عصرون، وقطب الـدين النيسـابـوري فاستـدعاهما جميعـا، وولى مدرسة ابن أبي عصرون لشرف الدين، ومدرسة النفري[٢٣] لقطب الدين.

قال: وعلقـت أيضا من خط فقيـه كان معيدا بـالنظامية يقال لـه أبو الفتـح بنجة بـن أبي الحسـن بن بنجـة الاشتري، وكـان ممن ورد دمشـق، وجمع لنـور الديـن سيرة مختصرة قال: كـان نـور الديـن يقعد في الأسبوع أربعة أيـام أو خمسة أيـام في دار العدل للنظـر في أمور الـرعية، وكشـف الظلامة لايطلب بذلك درهما ولا دينـارا أو زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلـك ابتغاء مرضـاة الله، وطلبا للثواب والـزلفى في الآخرة، ويـأمر بحضور العلماء والفقهاء ويـأمر بازالة الحاجب والبواب حتـى يصل إليه الضعيف والقـوي والفقير والغني، ويكلمهم بـأحسن الكـلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لايطمـع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال، ويحضر في مجلسة العجوز الضعيفة التي لاتقدر على الوصـول إلى خصمها، ولا المكـالمة معه فيأمـر بمساواتـه لها، فتغلب خصمها طمعـاً في عدلـه، ويعجز الخصـم عن دفعهـا خوفـا من عـدله، فيظهر الحق عنـده فيجري الله تعـالى على لسانه مـا هو موافـق الشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكـل عليه من الأمور الغـامضة، فلا يجري في مجلسه الا محض الشريعة.

قال: وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالـح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهـم، وأما فكره ففـي اظهار شعار الإسـلام، وتأسيس قـاعدة الديـن من بنـاء المدارس والربـط والمساجـد حتى أن بـلاد الشام كـانت خـاليـة مـن العلـم وأهلـه، وفي زمـانـه صـارت مقـرّا للعلماء والفقهـاء والصوفية، لصرف همته إلى بناء المدارس والربـط، وترتيب أمورهم والناس آمنون على أمـوالهم وأنفسهم، ولـو لم يكن من هـذه الخصال إلاّ مـا علم

منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، وإذا تحدّث بشيء وقف عليه، ولايخالف قوله ولايرجع عن لفظه ومنطقه لكفى، ولايجري في مجلسه الفسق والفجور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم، كما يجري في مجالس سائر الملوك، ولايطمع في أخذ أموال الناس ولايرضى بأن يأخذ أحد من أموال الشريعة شيئا بغير حق.

قال:وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها،بتمائم شرائطها، وأركانها وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة، حكاية عن الكفار أنهم يقولون : ابن القسيم له مع الله سر ، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو، فالله سبحانه وتعالى يستجيب له دعاءه، ويعطيه سؤله، وما يردّ يده خائبة، فيظفر علينا ،قال: فهذا كلام الكفار في حقه.

قال: وحدثنا الشيخ داود المقدّسي خادم قبر شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، قال: حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان وخمسين، فقام رجل وادّعى على الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، قال: وأنا مطالب بذلك، فقال نور الدين: أنا ما أعلم ذلك فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أرد إليك ما يخصني فإني ماورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة، فقلت في نفسي: هذا هو العدل.

قال: وحضر رجل زاهد فيه سمة الخير معروف بالصلاح والسداد، فسألت عنه، فقالوا: أخو الشيخ أبي البيان، وكان قد أودع عند أخيه أبي

البيان وديعة، وقد توفي فادعى المودع على هـذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة، وطالبـه بالـردّ عليه، فـانكر هـذا الرجـل علمه بـالوديعـة، فأوجـب عليه القاضي كمال الـدين حكم الشرع أن يحلف أنـه لاعلم له بهذه الـوديعة، فحلـف على ذلك فجعـل المودع يشنـع عليه ويقـول انـه حلـف كاذبـا، ويتكلم في عرضه، ويقول في حقـه من التنمس وغيره، فحضر عند الملك العادل شـاكياً منه وذاكـراً سيرته وطريقتـه، ومن الذي يقـدر أن يقول في حقي هذا، ويتعرّض بالتماسه من الملك العادل التقدّم باحضاره والانكار عليه فيما يقول في حقه، فلما فرغ من الكـلام، ورمى ما كان في جعبته من دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصله التماس الانكار عليه، فقال الملك العادل: أليـس إن الله تعـالى يقول في كتـابه:(وإذا خـاطبهم الجاهلـون قالوا سـلاما (٢٤))فاذا كـان يجهل عليك ويقـول في حقك بالجهـل مالا يجوز، فيجب عليـك أن لاتعمل معه مثـل معاملتـه فتكون مثله، فكـأنك قابلت الاساءة بـالاساءة، ومن حقك أن تقابل الاسـاءة بالاحسان، فقلت في نفسي: الحق ما قال الملك العادل إما قـرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه أو أجراه اللّه على لسانه وأنطقه به.

قال: وحضر جماعـة من التجار وشكوا أن القـراطيس كان ستـون منها بدينار فصار سبعة وستون بدينـار، وتزيد وتنقص فيخسرون، فسأل الملك العـادل عن كيفيـة الحال فـذكـروا أن عقد المعـاملـة على اسـم الدينـار، ولايرى الـدينار في الـوسط، وإنما يعـدون القراطيـس بالسعـر تارة ستين بدينـار، وتارة سبعة وستين بـدينار، وأشـار كل واحد مـن الحاضرين على نور الـدين أن يضرب الدينار بـاسمه، وتكون المعـاملة بالدنـانير الملكية، وتبطـل القراطيـس بالكليـة، فسكت سـاعـة وقال: إذا ضربـت الدينـار وابطلت المعاملـة بالقراطيس فكأني خـربت بيوت الرعية، فـإن كل واحد من السوقـة عنده عشرة آلاف، وعشرون ألف قرطـاس أي شيء يعمل به، فيكون سبباً لخراب بيته.

قال: فأي شفقة تكون أعظم وأكثر من هذا على الرعية.

قال: وحضر صبي وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف، فسأل عن حاله فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف، وليس له قدرة على الأجرة وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، فسأل الملك العادل: كم أجرة السنة؟ فقالوا: مائة وخمسون قرطاسا، وذكروا سيرته وطريقته وفقره، فرقّ له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وتقدم بذلك وباخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح، حتى كأن الانعام كان في حقه.

أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب الهاشمي قال: كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكردري قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يدعى سويداً يحضر الخصوم إلى مجلس الحكم، فحضر بعض التجار وادّعى أن له على نور الدين دعوى، فقال الكردري لسويد المذكور: امض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم، وعرّفه أنه حضر شخص يطلب حضوره، وكان نور الدين في الميدان فجاء سويد إلى باب الميدان فخرج اسماعيل الخزندار فوجده، فتقدّم سويد إليه وقال: سيرني تاج الدين، يعني القاضي، وذكر أنه حضر تاجروذكر أن له دعوى على المولى نور الدين، وقد أنفذني تاج الدين وقال لي: كذا وكذا، فضحك اسماعيل الخزندار، ودخل على نور الدين ضاحكاً وقال له مستهزئا: يقوم المولى، فقال: إلى أين؟ فقال: حضر سويد غلام تاج الدين الكردري، وقال إن تاج الدين أرسله يطلب المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على اسماعيل استهزاءه، وقال: تستهزىء بطلبي إلى مجلس الحكم، وقال نور الدين: يحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة، قال الله تعالى: (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله

ليحكم بينهم أن يقولـوا سمعنا وأطعنا)(٢٥) ثم نهض وركب حتـى دخل باب المدينـة، فاستدعى سـويداً وقال لـه: امض إلى القاضي تاج الـدين وسلم عليه وقـل له: إني جئت إلى ها هنا امتثـالا لأمر الشرع، واحتاج في الحضور إلى مجلسة إلى سلوك هذه الأزقـة وفيها الاطيان وهذا وكيلي يسمع الدعوى، وإن توجهت عليّ يمين أحضر إن شـاء الله تعالى، قال: فحضر الوكيـل وسمع الدعـوى، وتوجهت اليمين فقـال الكردري: قد تـوجهت اليمين فليحضر، فلما بلـغ نـور الديـن ذلـك وعلـم أنـه لامندوحـة عـن حضـور مجلسه لليمين، استدعى ذلك التـاجر وأصلـح الأمر فيما بينـه ، وأرضاه.

وسمعت قـاضي القضاة بهاء الـدين يقـول: حكى لي السلطـان الملك الناصر صـلاح الديـن قال: أرسلني الملـك العادل نـور الديـن إلى عمي أسد الدين شيركـوه ، وكان لايفعل شيئا إلاّ بمشورته، فقـال: امض وقل لأسد الـدين: قـد خطر في بـالي أن أبطل هـذه الضمانات بـأسرها والمؤن والمكوس، وخذ رأيه في ذلك، قال:فجئـت إليه وأنهيت ما قال لي، فقال: امض وقل له: يامولانا إذا فعلت ذلـك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات مـن أين تعطيهم، وتحتـاج إليهم للغـزاة، وخروج العساكـر؟ قال السلطـان صلاح الـدين: فقلـت لعمي : هـذا أمـر قد ألهمـه الله إيـاه، فساعده عليه فصاح فيّ وقال: امض إليه، وقل له ما أقول لك.

قال: فعدت إلى نور الدين فأنهيت إليـه ما قال عمي، فقال امض إليه وقـل له إذا كنـا نغـزو من هـذه الجهات نتركهـا ونقعـد ولانخرج، قـال: فعدت إلى عمي وقلت مـا قال، فقال : قل له إن تركـوك نقعد فجيد هو، فراجعته في أن لايثبطه عـن ذلك، فصاح فيّ وقال: امض إليه وقـل له ما أقول لـك، فجئت إليـه وقلت له ذلـك، فترك ذلك مـدة، ثـم أمضـى ما كان عزم عليه.

قال لي صقر بن يحيى: بلغني أن موفق الدين خالداً رأى في النوم كأن نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقص منامه على نور الدين فتمعر وجه نور الدين، فخجل موفق الدين وبقي أياما على غاية من الخجل، فاستدعاه يوما نور الدين، وقال: قد آن لك أن تغسل ثيابي أقعد وأكتب باطلاق المؤن والمكوس والأعشار، واكتب للمسلمين إني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، واثبت عليكم ما أثبته الله عليكم، قال: فكتب موفق الدين توقيعا.

سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه يقول: سمعت أبي يقول لما كسر نور الدين، يعني كسرة البقيعة، تكلم البرهان البلخي فقال: اتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور، كلا، وكلاماً مع هذا ، فلما سمعه نور الدين قام ونزع عنه ثيابه تلك وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الأفرنج.

سمعت صديقنا شمس الدين اسماعيل بن سود كين بن عبد الله النوري، وكان أبوه أحد مماليك نور الدين، فاعتقه، يقول: سمعت والدي يقول: كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس في الليل مسحا ويقوم يصلي فيه قطعة من الليل، قال: وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع، ويقول: ارحم العشار المكاس.

قال لي قاضي القضاة بهاء الدين: سير نور الدين إلى بغداد كتابا يعلم الخليفة بما أطلق وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ أن يستجعلوا من التجار ومن جميع المسلمين له في حل مما كان قد وصل إليه، يعني من أموالهم، فتقدم بذلك، وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك.

حدّثني رضي الديـن أبو سالم عبد المنعم بن منـذر أن نور الدين حين خرج لأخـذ شيزر ، خرج أبـو غانم بـن منذر صحبته، فـأمره نور الـدين بكتـابـة منشـور بـاطـلاق المظالم بحلـب . ودمشـق. وحمص. وحـران. وسنجار. والـرحبة. وعزاز. وتـلّ باشر ، وعداد العـرب، فكتب عنه تـوقيعا نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقـرّب به إلى الّله سبحانـه وتعالى صافحا، وأطلقـه مسامحا لمن علم ضعفه من الـرعايا رعاهم الّله ،لضعفهم عن عمارة مـاأخربته أيدي الكفار أبادهم الّله عند إستيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بالمسلمين المثاغـرين، ولطفاً بالضعفاء المرابطين الذيـن خصهم الّله سبحـانـه بفضيلـة الجهـاد، واستمحنهم بمجـاورة أهـل العنـاد اختبـاراً لصبرهـم وإعظـامـا لأجـرهم،فصبروا احتسـابـا، وأجـزل الّلـه لهم أجـرا وثـوابا،(إنما يـوفى الصابـرون أجـرهم بغير حسـاب)[٢٦]وأعاد عليهـم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفـاء الّله عليهم بها من الفتوح العمرية، وأقرّهـا في الدولـة الاسلاميـة، بعد مـا طرأ عليهـا من الظلمـة المتقدّمين، واسترجعه بسيفـه من الكفرة الملاعين، فطمـس عنهم بذلـك معالم الجور، وهدم أركان التعدّي، وأقـرّ الحق مقرة لقوله تعالى:(من جـاء بالحسنة فله عشر أمثالها)[٢٧](والّله يضاعـف لمن يشاء[٢٨]) ثم لما أعـانه الّله بعـونه وأيده بنصره وقمـع به عاديـة الكفر وأظهـر بهمته شعائر الاسـلام وأظفره بالفئة الطاغيـة، وأمكنه من ملوكها الباغيـة، فجعلهم بين قتيل غير مقاد، وهارب ممنـوع الرقـاد ، وآخرين مقـرنين في الاصفاد، هذا عطـاؤنا فـامنن أوأمسك بغير حسـاب، (وان لـه عندنا لزلفـى وحسن مآب[٢٩]) علم أن الدنيا فانية، فـاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكـه الزائل بأن قدّمه أمامه وجعله ذخراً للمعاد، فـالتقوى مادّة دارة إذا انقطعت المواد، وجادّة واضحة حين يلتبـس الجواد (يوم لاتملك نفس لنفـس شيئا والامر يـومئذ

لله[٣٠])فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه، وحرّمها على متطاول إليها ومتهافت عليها، تجنبا لإثمها،واكتساباً لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه إتباعا لكتاب اللّه، وسنة نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار، جهة ذلك : حلب خمسون ألف دينار، عزاز عن مكس جدّدته الفرنج خذلهم اللّه على المسافرين عشرة آلاف دينار. تلّ باشر أحد وعشرين ألف دينار. المعرّة ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة لما استنجد به أهلها واستصرخ من فيها خوفا على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدّو، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل سنة، وهو رسم يسمونه الفيئة عشرون ألف دينار، حمص ستة وعشرين ألف دينار. حرّان خمسة آلاف دينار. سنجار ألف . الرحبة عشرة آلاف دينار. عداد العرب عشرة آلاف دينار. وما وقفه وتصدّق به وأجراه في سبل الخيرات، ووجوه البرّ والصدقات تقدير ثمنه مائتا ألف دينار، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار، من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرّسيها وفقهائها، وما وقفه على دور الصوفية والربط والجسور، والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار، وما وقفه على السبل في طريق الحجاز، وما وقفه على فكاك الأسرى وتعليم الأيتام ومقرّ الغرباء وفقراء المسلمين، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين، هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور حرسها اللّه تعالى من أملاكهم التي تقدم ذكرها، فإنه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه، جعل ذلك ذريعة عند اللّه وتقرّباً إليه، مضافا إلى ما أنفقه في الغزاة والجهاد ، واستئصال شأفة أهل الكفر والعناد، من خزائنه المعمورة، وأمواله الموروثة المذخورةطلبا لما عند اللّه (واللّه عنده حسن الثواب)[٣١] فالواجب على كل إمام عدل وسلطان قادر أن يمدّه ويودّه، ويشدّ عضده، ويقوّي عزمه، وينفذ حكمه، وعلى كل مسلم أن يواصله بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار.

كتبه خادم دولته، وغذيّ نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان ابن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي، غفر اللّه له ورحمه ورضي عنه، إلى كل من يصل إليه من أئمة الدين، وفقهاء المسلمين، وأصحاب الزوايا المتعبدين وكافة التجار والمسافرين، أحسن اللّه توفيقهم، وسدّد إلى أغراض الخير توفيقهم ، ليشعروا بذلك من حضرهم من التجار والمتردّدين إليهم من السفار، ليعرفوا قدر ما أنعم اللّه به عليهوعليهم ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، ويمدّوه بأدعيتهم، ويبرئوا ذمّته مما سبق من أخذ مؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلاّ في خدمة وجه برّ، وتجهيز جيش، ومعونة مجاهد، وردع كافر ومعاند، فهم شركاؤه في الثواب.

قال لي رضي الدين أبو سالم بن المنذر: فلما وقف نور الدين على قوله: ويبرىء ذمّته مما سبق، استحسن ذلك كثيراً، ووعده باقطاع حسن، واتفق موته بعد ذلك(٣٢).

قلت: ونقلت من خط الشيخ الأمين أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الخضر بن الحسين بن عبدان الأزدي الدمشقي: وقف المولى نور الدين بستان الميدان سوى الغيضة التي من قبليه بعد عمارته واصلاح ما يحتاج إليه على تطييب المساجد التي يأتي ذكرها وهي: جامع دمشق المحروسة، جامع قلعة دمشق، مدرسة الحنفية التي جدّدها نور الدين، مسجد ابن عطية داخل باب الجابية، مسجد ابن لبيد بالفسقار، مسجد سوق الرماحين، المسجد المعلق بسوق الصاغة، مسجد دار البطيخ المعلق، مسجد العباسي بسوق الأحد، مسجد نور الدين بجوار بيعة اليهود، جامع الصالحيين بجبل قاسيون، يبتاع بذلك عود وطيب، ويفرّق على هذه الأماكن: النصف للجامع بدمشق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً: جزآن للمدرسة، وتسعة أجزاء للتسعة المساجد الباقية لكل مسجد جزءاً واحداً،تطيب هذه الأماكن في الأوقات

الشريفة، ومواسـم الاجتماعات وليالي شهر رمضان والأعياد، وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والاثنين.

ونقلـت من خطـه أيضا أن نـور الـدين رحمه اللّـه حضر عنده بقلعـة دمشـق يـوم الخميـس تـاسـع عشر صفـر سنـة أربـع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بـن محمد بن يحيى القرشي والفقهاء : الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، والخطيب عـز الدين أبو البركات بن عبد، والإمـام عز الديـن أبو القاسـم علي بن الماسح الشـافعيون، وشرف الدين أبو القـاسم عبد الوهاب بن عيسـى المالكي، وشرف الإسلام نجم الدين عبد الوهاب الحنبلي، ورضي الدين أبـو غالب عبد المنعم بن محمد ابن أسد التميمي، رئيس دمشق، ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبي المضاء متولي الوزارة بدمشق، والأعيان مـن شهود العدالة بدمشق، وهم : عبد الصمـد بن تميـم، وعبد الـواحد بـن هلال، والصـائن أبو الحسـن، وغيرهـم فسـألهم نور الـديـن عـن المضـاف إلى أوقاف المسجـد الجامـع بدمشق مـن المصالح التي ليسـت وقفاً عليه، وأن يظهر كّـل واحد منهم ما يعلمـه من ذلك ليعمل بـه،ويقع الاعتماد عليه، وقـال لهم: ليس يجوز لأحد منكـم أن يعلم من ذلـك شيئا إلا ويذكره، ولاينكـر شيئا مما يقـوله غيره إلا وينكره، والساكـت منكم مصدّق للناطق، ومصوّب لقـوله،وليس العمل إلاّ على مـا تتفقون عليـه، وتشهدون به، وعلى هـذا كان الصحـابة رضوان الله عليهـم يجتمعون ويتشاورون في مصالـح المسلمين، فكل من الحاضرين شكره على ما قصده، وأثنى عليه، ودعـا له بالبقاء، ثم أمر نور الديـن متولي أوقـاف الجامع والمسـاجد والبيمارستـان وقني السبيـل، وما يجري مـع ذلك أن يقـرأ عليـه بمحضر من المذكـوريـن ضريبة الأوقـاف مـوضعا مـوضعاً ليفـرد ما يعلمـون أنـه للمصالـح دون الوقـف، فافتتـح بالسـوق المستجدّ تحت المأذنـة الغربية بجـوار البيمارستان، فقـال الصائن وابن تميـم وابن هلال: هـذا السوق بكمالـه لمصالح المسلمين، وليـس من

وقف الجامع لأنه أحدث في طريق المسلمين، وقد صرف في الجامع من أجوره أو في مما غرم على عمارته من وقفه، فصدّقهم الحاضرون على ما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة، ثم عين للمصالح أيضا ما في زيادة الجامع القبلية، وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشامي من العضائد والحوانيت والحجر التي طباقها وطباق الطريق بحضرتها، وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع، والفرن المستجدّ بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت الخواصين في الصف الغربي، واثنا عشر حانوتا متلاصقات في الصف الشرقي تعرف بالمعتصميات، ونصف حانوت والفرجة المستجدّة بحضرة دار الوكالة إلى سوق علي،وعدتها ثلاثة عشر حانوتا ومصطبة، وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق علي ملصق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفسقار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفقاعي، وحوانيت اللبادين والتي بحضرة الفوارة وتحت اللبادين، وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب درب التمارين، وحانوت بقنطرة الشماعين في الصف الشامي بحضرة البياطرة، وقطعة بجوار المأمونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد، وهي خمس عشرة عضادة وستة أسهم من طاحونة السقيفة، وذلك كله بعضه ميراث عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضه اشتري بمال الوقف والمصالح، وبعضه أخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم، ولم يكن له مال، وبعضه أحدث في الطريق.

قال: فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكر، وأن منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح، قال نور الدين: إن أهم المصالح سدّ ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق، والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم، فصوّبوا ما أشار اليه وشكروه، ثم سألهم عن فواضل الاوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين،

فأفتى شرف الدين عبد الوهاب المالكي بجواز ذلك، ومنهم من روّى في مهلة النظر، وقال الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون الشافعي: لايجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين لجهة إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدّ من ذلك فليس طريقة إلا أن يقترضه من إليه الأمر في بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح، ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافقه الائمة الحاضرون معه على ذلك، ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق، وعلى بناء الكلاسة من شام الجامع ، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع ، وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامي من الجامع وسائر العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا، وهل كان إلا مبلغا للأمر العالي في عمل ذلك؟ فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولاشيء منه إلا باذني وأنا أمرت به وبفتح المشهدين من غربي الجامع المعمور اللذين كانا مخزنين، وكتب مبلغا عني ومؤديا أمري.

قلت:وقد رأيت المحضر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس وهو مشتمل على فوائد حسنة، وتأكيد لما نقل من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشرع، وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين، وصورة ما كتبه المالكي المفتي:«حضرت المجلس المذكور، عمره الله وزينه بالعدل أبداً ما عاش صاحبه، وشهدت على ماتضمنه من المشورة المباركة، ومانسب إلى الجماعة من الشهادة بالمواضع المشهورة كما نسب إليهم وقد أخل بذكر دار الحجارة، وقد ذكروها في المصالح المشهورة، ومانسب إليّ من الفتوى، فقد كنت قيدته بالحاجة وفراغ بيت المال أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهماتهم الدينية. كتبه عبد الوهاب بن عيسى بن محمد المالكي».

فصل

وقد مدح نور الدين رحمه الله تعالى بأشعار كثيرة، وأوصافه فوق ما مدح به، وكان في أوّل دولته شاعرا زمانهما أبو عبد اللّه محمد بن نصر بن صغير، وأبو الحسن أحمد بن منير، ولهما فيه أشعار فائقة ستأتي جملة منها في مواضعها وقد رأيت أن أقدم منها شيئا هنا.

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني: كتبت إلى نور الدين سلام اللّه وحنانه، ورأفته وامتنانه، وروحه وريحانه، على من عصم بعزه العواصم، وخصم بحجته الدهر المخاصم، وألجم بهيبته العائب والواصم، الذي انتضى في سبيل اللّه سيوف الجهاد، وارتضى بعز سلطانه شعار العباد والزهاد، واهتدى إلى طاعة اللّه وليس غير اللّه من هاد، ومن أصبحت أطراف البلاد أوساطاً لمملكته، ومعاقل الكفار في عقال ملكته، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته، ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النصر، وممالك الإسلام متوجة بتيجان الفخر، وصعاب الأمور منقادة إليه بأزمة القهر، ومن رأى الحكم دارسة ، فبنى مدارسها، والهمم يابسة فسقى منابتها ومغارسها، والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها فوارسها، ومن عمر ربع السنن بعدما عفا، وأنقذ من الفتن من كان منها على شفا، ومن نشر أعلام الفضل، وأنشر بعد الوفاة أيام العدل، ومن أنار بوجهه الإيمان، وأخذ الناس به من الزمان توقيع الأمان:

ذو الجهادين من عدوّ ونفس
فهو طول الحياة في هيجاء

فهو المالك الذي ألزم الناس
سلوك المحجة البيضاء

قد فضحت الملوك بالعدل لما
سرت في الناس سيرة الخلفاء

قاسما ما ملكت في الناس حتى
لقسمت التقى على الاتقياء

شيـــــم الصــــــالحين في جتر الترك
وكـــم مـــن سكينـــة في قبـــاء
أنــت حينــا تقــاس بــالاســد الــورد
وحينـــا تعـــد مـــن الأوليـــاء
صــاغــك اللــه مــن صميــم المعــالي
حيـــث لا نسبـــة ســـوى الالاء
وكـــان القبـــاء منـــك لما ضــمّ
مـــن الطهـــر مسجـــد بقبـــاء
أنـــت إلا تكـــن نبيـــا فما فـــاتـــك
إلا أخـــلاق الأنبيـــاء
رأفـــة في شهـــامـــة وعفـــاف
في اقتـــدار وسطـــوة في حيـــاء
وجمال ممنطـــق بجـــلال
وكمال متـــوّج ببهـــاء
و إذا مـــا الملـــوك خـــافـــت سهـــام الـــذ
ذم زرّت عليـــك درع الثنـــاء
اعجـــب النـــاس منـــك إنـــك في الحر
ب شهـــاب الكتيبـــة الشهبـــاء
وكـــان السيـــوف مـــن عـــزمـــك الما
ضي أفـــادت مـــا عنـــدهـــا مـــن مضـــاء
ولعمـــري لـــو استطـــاع فـــداك ال
قـــوم بـــالامهـــات والآبـــاء(٣٣)

وله فيه شعر
للّـــه عـــزمـــك أي سيـــف وغـــى
طبعـــت مضـــاربـــه على القهـــر
مـــا زفـــت الحرب العـــوان بـــه
الا انجلـــت عـــن معقـــل بكـــر

هل وجه نور الدين غير سنى
صدع الدجى عن خجلة البدر

ملك مهابته طليعته
أبداً أمام جيوشه تسري

كم فل كيدهم بصاعقة
شغلت قلوبهم عن الكفر

تركت حصونهم سجونهم
فالقوم قبل الأسر في أسر

عصم العواصم فهي ضاحكة
تجلو الظبى ثغراً على ثغر

فإذا سرايا خيله قفلت
نهضت سرايا الخوف والذعر

ورمى القلاع بمثل جندلها
حتى استكان الصخر بالصخر

ياسائلي عن نهج سيرته
هل غير مفرق هامه الفجر

عال حقيق من تأمله
أن يحيي العمرين بالذكر

وشهامة في الله خالصة
عقدت عليه تمائم الأجر

وندى يد ما ضرّ واردها
أن لا يبيت مجاور البحر

هذا المخيم في ذرى حلب
وثناؤه أبداً على ظهر

وله فيه وقد وصف داره:

دار تغار الشمس في أفق
من حسنها والشمس مغيار

يــــزأر فيهـــا ضيغـــم مـــالــــه
غير سيـــوف الهنـــد أظفـــار

تمسي وتضحـــي وهـــو جـــار لها
واللّــه ذو العـــرش لـــه جـــار

لسيفـــه البـــاتـــر مـــن دهـــره الـــ
ـــجائر مـــا يهوى ومـــا يختـــار

قـــد مـــلأ الأسفـــار مـــن ذكـــره
نشر لـــــه في الأرض إسفـــار

حديث يضـــوع الجو مـــن طيبـــه
كـــأنما راويـــــه عطـــار

إن خطـــرة في قلبـــه خطـــرت
أجـــابها مـــاض وخطـــار

وإن دعـــا داعيـــه يـــوم الـــوغـــى
سيـــوفـــه لبتـــه أقـــدار

وإنما صـــارمـــه مـــرســـل
لـــه مـــن التـــأييـــد أنصـــار

يـــا ملـــك الـــدنيـــا ولكنهـــا
دنيـــا لها في الـــديـــن آثـــار

ويـــاجـــوّادا مـــالا لآئه
غير قضـــاء الحمـــد مضمار

وله فيه أيضا:

تـــدارك ملـــة العـــربي ذبـــا
إلى أن عـــده منـــه معـــدّ

وحـــل ذرى العـــواصـــم وهـــي نهبـــى
فـــأجلى الشرك حتـــى ليـــس ضـــد

ثنـــى يـــده عـــن الـــدنيـــا عفـــافـــا
ومـــال بها عـــن الأمـــوال زهـــد

رأى حـــط المكـــوس عـــن الـــرعـــايـــا
فـــأهـــدر قبـــل مـــا أنشـــاه بعـــد
ومـــــــد لها رواق العــــــدل شرعـــــا
وقـــد طـــوى الـــرواق ومـــن يمـــد
وبـــات وعنـــد بـــاب العـــرش منهـــا
لـــدولتـــه دعـــاء لا يـــردّ

ولـه فيه:
ملـــك أشبـــه الملايـــك فضـــلا
وشبيـــه بها المـــلك الأمـــر جنـــده .

عـــم إحســـانـــه فـــأصبـــح يتلى
شكـــره في الـــورى ويـــدرس حمده
فسقـــى اللّـــه ذكـــره أينما حـــل
ولا فـــاتـــه مـــن النصر رفـــده

ولـه فيه:
ضحكـــت تبـــاشير الصبـــاح كـــأنها
قسمات نـــور الـــديـــن خير النـــاس
المشتري العقبـــى بـــأنفـــس قيمـــة
والبـــائع الـــدنيـــا بغير مكـــاس
وسرى دعـــاء الخلـــق يحرس نفســـه
إن الـــدعـــاء يعـــد في الحرّاس
راض الخطـــوب الصـــم بعـــد جماحهـــا
وألان مـــن قلـــب الـــزمـــان القـــاسي
وأعـــاد نـــور الحق في مشكـــاتـــه
وأقـــام وزن الحق بـــالقسطـــاس

واختار مجد الدين سائس ملكه
فحمى السياسية منه طود راسي
فهو الخبير بكل داء معضل
يأسو جراح زماننا ويواسي
وأذل سلطان النفاق بعزة
خضعت لها الأساد في الأخياس
وعرته أقران الخطوب فصدها
ألوى يمارسها أشد مراس
ولو أن فيض النيل فائض نيله
لم تفتقر مصر إلى مقياس
سكنت شعب الدهر بعد تخمط (٣٤)
وألنت من عطفيه بعد شماس
وفتحت باب الحظ بعد رتاجه
وأذنت للإطماع بعد اليأس
حتى منحت الخلق كل مسرة
فالناس في عرس من الأعراس

وله فيه:
سام الشآم ويالها من صفقة
لولاه ما عنت على يد سائم
ولشمرت عنها الثغور وأصبحت
فيها العواصم وهي غير عواصم
تلك التي جمحت على من راضها
ودعوت فانقادت بغير شكائم

وإذا سعادتك اجتبت في دولة
قام الزمان لها مقام الخادم
حصن بلادك هيبة لا رهبة
فالدرع من عدد الشجاع الحازم

هيهات يطمع في محلك طامع
طال البناء على يمين الهادم

كلفت همتك السمو فحلقت
فكأنها هي دعوة في ظالم

وأظن أن الناس لما لم يروا
عدلا كعدلك ارجفوا بالقائم

وله فيه:

قلت بقول الله لا اخائفا
مع حكم القرآن حكم القران

لا اراقب النجم ولا سائلا
ما فعل السعدان والنيران

بل غرت للاسلام حتى لقد
دان له من بالطواغيت دان

رعت نواميس نواقيسها
بحلبة الأذان وقت الأذان

تمحو تصاوير الدمى عن يد
تبني المحاريب خلال المجان

هذا وكم أنشأت من منبر
فارسه فارس سحر البيان

من نال بالاخلاص ما نلته
كان من الله مكين المكان

يا شائها بالشام صوب الحيا
ودانيا من كل قاص ودان

هذي سجوف الملك مرفوعة
عن ملك أخباره كالعيان

أوضح سبل العدل مفتنة
فللبرايا بالدعاء افتتان

ألغى حقوقاً كلها باطل
إلى مآل حط مال الضمان

عطفاً ورفقاً بالرعايا وان
أصبح تأديب ملوك الزمان

كم بين من نام على نشوة
وساهر في صهوة من حصان

في كل يوم يثتني سيفه
ببلدة بكر وأخرى عوان

وقرأت في ديوان أحمد بن منير الطرابلسي من قصائد يمدح بها نور الدين رحمه الله تعالى:

يا محيي العدل ويا منشره
من بين أطباق البلى وقد همد

وركن الاسلام الذي وطده
طال وأرسى العز فيه ووطد

وشارع المعروف إذ لا سفه
يجنح للقول ولا تسمح يد

محوت ما أثبته الجور مضى
عليه إخلاد الليالي مخلد

من كل مكاس يظل قاعداً
لما يسوء المسلمين بالرصد

كانت لأرجاس اليهود دولة
أزالها منك المصور ذو اللبد

الملك العادل لفظ طابق الـ
ـمعنى وفي الوصف معار مسترد

خير النعوت ما جرى الوصف على
صفحته جري النسيم في الومد

عـــدل جنيــت اليــــوم حلـــو ريعـــه
وســـوف يجنـــى لـــك أحلى منـــه غـــد

لازال لـــــلاســــلام منـــك عـــدة
تقيــــم منـــه كـــــل زيــــغ وأود

النـــــاس أنـــــت والملـــوك شرط
تعـــدّليثـــا ويعـــــدّون نقـــد

مثلـــك لا يسخـــو بـــه زمـــانــــه
ومثـــل مـــا أوتيـــت لم يـــؤت أحـــد

وله فيه

أيـــا نـــور ديـــن خبـــا نـــوره
ومـــذ شـــاع عـــدلـــك فيـــه اتقـــد

رآك الصليـــب صليـــب القنـــاة
أمين العثـــــار متين العمـــــد

تهمّ فتسلبـــــه مـــــا اقتنـــى
وتـــدني (٣٥) فتثكلـــه مـــا احتشـــد

زبنتهـــم أمـــس عـــن صرخـــد
ففضـــوا كـــأن نعـــامـــا شرد

ويـــوم العـــريمـــة أقبلتهـــم
عـــرامـــا يثعلـــب منـــه الأســـد

جنبـــت مليكهـــم في الصفـــاد
وعفـــوك عنـــه أعـــم الصفـــد

وقبـــل أزرتهم في الــــرهـــا
مـــوازق مـــزقـــن جـــرد الجرد

بقيـــت تـــرقـــع خـــرق الـــزمـــا
ن قيـــامـــا لابنـــائه إن قعـــد

تثقـــف مـــن زيغـــه مـــا التـــوى
وتصلـــح مـــن طبعـــه مـــا فســـد

وله فيه:

أيـا ملـك الـدنيـا الحلاحـل والـذي
لـــه الأرض دار والبريـــة أعبـــد
وليســت بـدعـوى لا يقــوم دليلهـا
ولكنـــه الحق الــذي ليـس يجحـد
أخـو الغـزوات كـالعقـود تنـاسقـت
تحل بـأجيـاد الجيـاد وتعقـد
لســان بـذكـر اللّــه يكسـو نهاره
بهاء وجفـن في الـدجـى ليس يـرقـد
وبـذل وعـدل أغـرقـا وتـألقـا
فـلا الـورد مثمـود ولا البـاب مـوصـد
مـرام سمائي وحـزم مسـدّد
ورأي شهـابيّ وعـزم مـؤيـد

وله فيه:
أبـدا تنكـب عـن ضـلال سـادرا
بثقـوب زنـدك أو تـدل على هـدى
سـدت الكهـول مـن الملـوك مـراهقـا
وشـأوت شيبهـم البـوازل أمـرد
إن شيـدوا صرحـا أنـاف منـاره
أو يسجـدوا للكـاس جـدّد مسجـدا
وإذا استهـزتهم فـلا يـد معبـد
هـزتـه مـوعظـة فعـرّف معبـدا
قسما بشـام الشـام منـك مهنـدا
أرضـاه مشهـورا وراع مقلـدا
وتمسـك الاسـلام منـك بعـروة
اللّـه أبـرم حبلهـا فـاستصحـدا

أشفى فكنت شفاءه من حادث
غاداه عارضه مردى بالردا
كنت الصباح لليله الماجي
والغوث كف لظاه حين توقدا
لله يوم أطلعتك به النوى
يجتاب من مهج الأصافر مجسدا
نشوان غنتك الظبى مفلولة
وأمال عطفك الوشيج مقصدا
في معرك ما قام بأسك دونه
إلا أقام المشركين وأقعد
ولكم مكرّ قمت فيه معلما
أرضى الإله والمسيح وأحمدا
يوم العريمة والخطيم وحارم وشـ
ـعاب باسوطا وهاب وصرخدا
لا يعدم الاشراك جدّك أنه
ما سلّ فيهم حاكما إلا اعتدى
أهمدتهم من بعد ما ملأوا الملا
زجلا فهل كانت سيوفك مرقدا

طلعت نجوم الحق من آفاقها
وأعادها كرّ العصور كما بدا
وهوى الصليب وحربه وتبختر الا
سلام من بعد التأفف أغيدا
سبق المجلي للخطي فرفعه
نسق فتم وقد رفعت بالابتدا

وله فيه:
محمود المربى على اسلافه
إن زاد في حسب الحسيب نجار

تقفـــو طـــريـــق الصـــالحين مســـابقـــا
لهم وتطلــــــع خلفــــــك الأبـــــرار
. نفـــس السيـــادة زهـــد مثلـــك في الـــذي
فيــــه تفـــانـــــت يعـــرب ونـــزار
ومتـــى ادّعـــى مـــا تـــدعيـــه محكـــم
أوهـــى معـــاقـــد دينـــه دينـــار
للّـــه مـــا ظفـــرت بـــه منـــك المنـــى
وتكنفـــت مـــن ركنـــك الاستـــار
وسقـــى الغمام ثـــرى أبيـــك فـــانـــه
أزكـــى ثـــرى قطـــرت عليـــه قطـــار
شهـــدت نضـــارة عـــودك الغـــض الجنـــى
أن الـــذي استخلصـــت منـــه نضـــار
أمـــا نهارك فهـــو ليـــل مجاهـــد
والليـــل مـــن طـــول القيـــام نهار
فلـــذلـــك النصر العـــزيـــز أدلـــة
أنـــى اتجهـــت وللفتـــوح أمـــار

وله أيضا فيه رحمه الله تعالى:

رأينـــا الملـــوك وقـــد ســـاجلـــو
ك تمنـــوا امنـــونـــا وغـــرّوا غـــرورا
أبـــى لـــك أن يـــدركـــوه أب
يـــزيـــر فينسي الأســـود الـــزئيرا
وجـــد إذا جـــدّ يـــوم الـــرهـــا
ن أبقـــى لتـــاليـــه جـــداً عثـــورا
تصـــب عصـــاك على مـــن عصـــاك
يـــومـــا عبـــوســـا بها قمطـــريـــرا
لقـــد ألبـــس الشـــام هـــذا الإبـــاء
لبـــوســـا مـــن الامـــن لينـــا وثيرا

تــــداركـــــت أرمـــــاقــــه والقلـــو
ب نـــــوافـــــر أن يستجــــنّ الصـــــدورا

أقمــت جثـاثــا (٣٧) وكــانـت جثـا
وشــــدّت قصـــــورا وكـــــانـــت قبــــورا

وكـــــم لــــك مـــــن غضبــــة للهـــدى
تميــــــت الهوى وتجب الـــــذكـــــورا

إذا قطـــب اليــــأس كــــانـــت ردى
وإن ضحــــك العفـــو عــــادت نشــــورا

كملــــت فـــــوقيـــــت عين الكمال
تبيــــد السنين وتفنـــــي العصـــــورا

وجـــــادلنــــا بــــك رب بــــرا
ك للكفـــر نـــــارا وللــــديــــن نــــورا

إذا مـــــا خـــــدمــــت فمـــولى كــــريما
وأمــــا عبـــــدت فعبـــــداً شكـــــورا

امــــام المحــــاريـــب بـــرّا حصــــورا
وتحت الحروب هـــــزبـــــرا هصـــــورا

تبــــارك مــــن شـــــاد هــــذي الخلال
في ظلــــه الملـــك طـــــودا وقـــــورا

وألـــــف في معقــــد التــــاج منـــــ
ـــــك سطـــــواً سعيراً وعفــــوا نميرا

وله فيه:

عقــــل الحق ألســــن المدعينــــا
أنـــــت خير الملــــوك دنيـــا ودينـــا

وأســـــد الانـــــام قـــــولا وأفعـــــا
لاً ونفســــــاً ونيــــــة ويقينـــــا

أنـــــت أسنــــاهــــم أبـــا وإبـــاء
وأمــــر أحيـــا وأمـــــرع حينـــــا

بســــط الــــرزق في البسيطـــة كفـــاك
فكلتـــا يـــديـــك تلفـــى يمينـــا
فيـــد تحســـم النـــوائب عنـــا
ويـــد تقســـم الـــرغـــائب فينـــا
أيها البحـــر لـــو تســـاجلـــك الأبحـــر
عـــامـــت في ســـاحليـــك سفينـــا
ولكـــان المحيـــط منهـــا محاطـــا
مثـــل نـــون الهجـــاء أو خيـــل نـــونـــا
مشرعـــا مترعـــا ومنـــا مهنـــا
وربـــاعـــا فيحـــا وكفـــا البـــونـــا
ومحيـــا طلقـــا ومـــالا طليقـــا
وابتهـــاجـــا قصـــداً وحبـــلا متينـــا
بين ذب يميـــت عـــاديـــة الشر
ك وهـــب يحيـــي بـــه المسلمـــونـــا
تتسنـــى مـــن الفتـــوح ألـــوفـــا
أنـــت أعلى مـــن أن تعـــدّ المئينـــا
كلما اجتبـــت ثـــوب نصر عـــزيـــز
مـــن مـــرام أقبلـــت فتحـــا مبينـــا

صرف اللّـــه عنـــك صرف الـــزمـــان
أنـــت علمـــت صرفـــه أن يهونـــا
يـــابـــن مـــن طبـــق البسيطـــة آثـــا
راً وعـــلّ لمنـــابـــذيـــه الاجـــونـــا[٣٨]
وغـــدت حصنـــه على شرح هـــذا الـــد
يـــن مـــن شكـــة الأعـــادي حصـــونـــا
كـــم تعـــالى صهيلهـــا في ربـــى الشـــا
م فـــأعلى خلـــف الخليـــج الـــرنيينـــا
كـــان صنـــو الـــرشيـــد أبقـــاك للحكـــ
ـــمة والبـــأس بعـــده المأمـــونـــا

سمع الله فيك دعوة سكن
أوطنوا من حماك حصناً حصينا
غرّقتهم مدى الخطوب فأحييـ
ـت رفاتاً من التراب دفينا
البسوا عدلك المديح فاختا
لوا بنات في وشيه وبنينا
سهرت عينك الكلوء وناموا
تحت أكناف رعيها آمنينا

قلت:فهذا أنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه مع أنهما ماتا في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة قبل أن يفتح نور الدين دمشق، وبقي نور الدين حياً بعدهما إحدى وعشرين سنة يترقى كل عام في إزدياد من جهاد واجتهاد، ولو كانا أدركا ذلك لأتيا في وصفه بعجائب المدائح ، مع أنه قد تولى ذلك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما. ولأبي المجد المسلم بن الخضر ابن قسيم الحموي من قصيدة فيه:

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه
كالرمح دل على القساوة لينه
ووراء يقظته أناة مجرّب
للّه سطوة بأسه وسكونه
هذا الذي في الله صح جهاده
هذا الذي باللّه صح يقينه
هذا الذي بخل الزمان بمثله
وا لمشمخر إلى العلى عرنينه
ملك الورى ملك أغرّ متوّج
لا غدره يخشى ولا تلوينه
إن حلّ فالشرف التليد أنيسه
أو سار فالظفر الطريف قرينه
فالدهر خاذل من أراد عناده
أبداً وجبار السماء معينه

ملــك إذا تليــت مــآثــر قــومــه
كبــد اللطيــم وهجــن النــوار

مــلأ الفــرنجــة جــور سيفــك فيهــم
فلهــم على سيــف المحيــط جــوار

يــومــا يــزيــرك جــوف عــرقــة معلما
جــوف لــه خلــف الــدروب أوار

وتجر في الأردن فضلــــة ذيلــــه
نقــع بــأكنــاف الأرنــط مثــار

إمــا تبيــح حــريــم أنطــاكيــة
أو يفجــأ الــداروم منــك دمــار

عفــى جهــادك رســم كــل مخوفــة
وصفــت بصفــوة عــدلــك الاكــدار

ومحا المظــالم منــك نظــرة راحــم
للّــه في خطــراتــه أسرار

غضبــان لــلاسـلام مــال عمــوده
فلنــوره ممــا عــراه نــوار

وجــذمــت كــل يــد تســور على يــد
فــاحلــت ذاك الســور وهــو ســوار

لم يبــق مــاكــس مسلــم شلقــا[36] ولا
ســاع لمظلمــة ولا عشــار

همدوا كما همدت ثمــود وقــادهــم
بخســارهــم ممــا أتــوه قــذار

العــار في الــدنيــا شقــوا بلبــاســه
ولبــاسهــم يــوم الحســاب النــار

كــم سيرة أحييتهــا عمــريــة
رفعــت لها في الخافقين منــار

ونــوافــل صيرتهــنّ لــوازمــا
بــأقلهــا تستعبــد الأحــرار

والـدين يشهد أنـه لمعـزه
والشرك يعلـم أنـه لمهينـه
مـازال يقسم أن يبـدّد شمله
واللّـه يكـره أن تمين يمينه
فتح الرهـا بالأمس فانفتحت له
أبواب ملك لا يزال مصونه

وممادح نور الدين رحمه الله كثيرة، وذكر الحافظ أبو القاسم أنه كان قليل الابتهاج بالشعر، ومات حادي عشر شوّال سنة تسع وستين وخمسمائة، ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل إلى قبته بمدرسته بجوار الخواصين.

قلت :وقد جرّب استجابة الدعاء عند قبره، وهذا ذكر طرف من مناقبه جملة ، ونحن بعد ذلك نأتي بأخباره وأخبار سلفه مفصلة مرتبة وما جرى في زمانهم على سبيل الاختصار إن شاء اللّه تعالى

فصل

أصل البيت الأتابكي هو قسيم الدولة آق سنقر جدّ نور الدين، فنذكره وما تم في أيامه، ثم نذكر ولده زنكي وما تم في أيامه، ثم نذكر ولده محمود بن زنكي، ثم نذكر ما بعده، وهي الدولةالصلاحية الايوبية، وما تم في أيامها فنقول:

كان آق سنقر تركيا من أصحاب السلطان ركن الدين ملكشاه بن ألب أرسلان ، وهو عم دقاق بن تتش بن ألب أرسلان الذي كان سلطان دمشق، وقبره بقبة الطواويس بها، بنته والمشهد والدته، وكان السلطان ملكشاه من جملة الملوك السلجوقية المتغلبين على البلاد بعد بني بويه بالعراق، فكان قسيم الدولة من أصحابه وأترابه وممن ربي معه في

صغره، واستمرّ في صحبته إلى حين كبره،فلما أفضت السلطنة بعد أبيه إليه جعله من أعيان أمرائه، وأخص أوليائه، واعتمد عليه في مهماته، وزاد قدره علوّاً إلى أن صار يتقيه مثل نظام الملك الوزير، مع تحكمه على السلطان، وتمكنه من المملكة، فأشار نظام الملك على السلطان أن يولي آق سنقر مدينة حلب وأعمالها، وأراد بذلك أن يبعده عن خدمة السلطان، ويتخذ عنده يداً بذلك.

قال ابن الاثير: ومن الدليل على علوّ مرتبته، تلقبه قسيم الدولة، وكانت الألقاب حينئذ مصونة لاتعطى إلا لمستحقيها. وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة سير السلطان ملكشاه الوزير فخر الدولة بن جهير، وكان زوج ابنة نظام الملك إلى الموصل، وسير معه جيشاً عظيماً، وجعل المقدّم على الجيش قسيم الدولة آق سنقر فسار نحو الموصل، ولقيهم في الطريق الأمير أرتق التركماني جدّ ملوك الحصن وماردين فإستصحبوه معهم، فحصروا الموصل ، وحاربوا من بها وتسلموها، وسار صاحبها إلى السلطان فردّها عليه وكانت يومئذ لأحد أمراء بني عقيل، وهو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي، وكان ملكه من السندية بالعراق على نهر عيسى إلى منبج وما بينهما من البلاد الفراتية: كهيت والأنبار وغيرها، وملك الموصل وديار بكر والجزيرة بأسرها، وملك مدينة حلب، وكان عادلاً حسن السيرة، عظيم السياسة واتفق ان وقع بينه وبين صاحب أنطاكية خلاف، وذلك أن أنطاكية كان الروم قد استولوا عليها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ولم يزالوا بها إلى هذه السنة، ففتحها سليمان بن قتلمش، وهو جدّ الملك غياث الدين كيخسرو، صاحب قونية وغيرها، وكان لشرف الدولة صاحب حلب على صاحب أنطاكية الرومي جزية يأخذها كل سنة، فانقطعت عنه بسبب أخذ سليمان البلاد، فأرسل شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الروم وتهدّده، فقال: أنا في طاعتك وهذا الفتح بسعادتك، والخطبة والسكة لك ، ولست بكافر حتى أعطيك ما كنت تأخذه من الروم ،فلج شرف الدولة

في طلب المال، فالتقيا فقتل شرف الدولة وانهزم عسكره، وسار سليمان إلى حلب فحصرها، وسار إليها من دمشق تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان أخو السلطان ملكشاه، فالتقى عسكر تتش وسليمان، فقتل سليمان وانهزم عسكره، وملك تتش مدينة حلب دون القلعة، فأرسل أهل القلعة إلى ملكشاه ليسلموها إليه، وهو يومئذ بالرها، وكان سبب مسيره إليها أن ابن عطير النميري قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار، وسلمها اليهم فدخلوها وأخربوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها، فسار ملكشاه إليها في هذه السنة، فحصرها وفتحها وأقطعها الأمير بزان، فلما أتاه رسل أهل القلعة بحلب بالتسليم، سار إليهم فلما بلغ مسيره إلى أخيه تاج الدولة رحل عن حلب إلى دمشق، ووصل السلطان إلى حلب وبالقلعة سالم بن مالك بن بدران العقيلي وهو ابن عم شرف الدولة ، فسلمها إلى السلطان بعد قتال وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جعبر، وكان قد ملكها في هذه السفرة، من صاحبها جعبر القشيري، وكان شيخاً كبيراً أعمى، فبقيت بيد سالم وأولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين كما سيأتي، فلما ملك السلطان حلب أرسل إليه الأمير نصر بن علي بن المقلد بن منقذ الكناني صاحب شيزر، ودخل في طاعته وسلم إليه اللاذقية وفامية وكفر طاب.

ثم إن نظام الملك أشار على السلطان بتسليم قلعة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سنقر، فأقطعه الجميع، وبقيت بيده إلى أن قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة، كما سيأتي، وأقطع السلطان مدينة أنطاكية الأميرياغي سغان، ولما استقر قسيم الدولة في الشام ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده، ثم إن السلطان استدعاه إلى العراق، فقدم إليه في تجمل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعظم محله عنده، ثم أمره بالعود إلى حلب ، فعاد إليها، فلما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشاً إلى تكريت، فملكها وفي سنة احدى وثمانين قصد قسيم

الـدولة شيـزر فنهبهـا، وعاد إلى حلـب، وفي سنـة ثلاث وثمانين اجتمـع قسيم الدولة وبـزان وحصروا مدينة حمص فملكوها، ومضى ابـن ملاعب إلى مصر، وفي سنـة أربع وثمانين ملـك قسيـم الدولـة حصـن فـامية مـن الشام، وملك الرحبة.

فصل

وفي عاشر رمضان سنـة خمس وثمانين قتل الوزير نظام الـدين أبو علي الحسن بـن علي بن اسحـاق، قتله صبـي ديلمي بعـد الافطار وقـد تفرّق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس، وحمل في محفة لنقرس كان به إلى خيمة الحرم، فلقيه صبـي ديلمي مستغيثاً به فقرّبه منه ليسمـع شكواه فقتلـه، وقتل الصبـي أيضا فعـدمت الـدنيا واحـدها الذي لم تر مثله، وكان تلك الليلة قـد حكى له بعض الصالحين أنه رأى النبـي صلى الله وسلـم في المنـام ، كـأنه أتـاه وأخـذه مـن محفته فتبعـه، فاستبشر نظـام الديـن بذلك وأظهـر السرور به، وقـال: هذا أبغـي وإياه أطلب ، وكـان قد بلـغ من الـدنيا مبلغـا عظيما لم ينله غيره، وكـان عالما فقيهـا دينـا خيراً متواضعـا عـادلا، يحب أهـل الـدين ويكـرمهـم ويجزل صلاتهم، وكان أقـرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء، وكان ينـاظرهم في المحافل ويبحث عن غوامض المسائل لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مدّة، وأما صدقـاته ووقوفه فلا حد عليها، ومـدارسه في العالم مشهورة، لم تخل بلد مـن شيء منها حتـى جزيـرة ابن عمـر التي هـي في زاوية مـن الأرض لايؤبـه لها بنى فيهـا مدرسة كبيرة حسنـة، وهي التـي تعرف الآن بمـدرسـة رضي الديـن، وأعمالـه الحسنـة وصنـائعـه الجميلة مـذكـورة في التواريخ لم يسبقه مـن كان قبله ولا أدركه من كان بعـده، وكان من جملة عبـاداته أنـه لم يحدث إلا تـوضأ ولاتـوضـأ إلا صلى ، وكـان يقرأ القـرآن حفظاً ، ويحافـظ على أوقات الصلـوات محافظة لايتقدمـه فيها المتفـرّغون للعبـادة حتى أنـه كـان إذا غفـل المؤذن أمره بـالأذان، واذا سمـع الأذان

أمسك عن كل مـا هو فيه، واشتغل باجابته، ثم بـالصلاة، وكان قد وزر للسلطان عضد الدولة ألب أرسـلان، والدملكشاه قبل أن يلي السلطنة في حياة عمـه السلطان طغـر لبك أوّل الملوك السلجـوقية ببغـداد، فلما توفى طغر لبك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه ألب أرسلان، وقام المقام الذي تعجـز عنه الجيوش الكثيرة، واستقرّت السلطنة لـه وبقي معه إلى أن توفي، ثم وزر بعـده لولده السلطان ملكشاه إلى أن قتـل، وكان قد تحكـم عليه،إلى حـد لايقدر السلطـان على خلافـه، لكثرة ممـاليكه ومحبـة العساكـر له والأمراء، وميـل العامة والخاصة إليـه، لحسن سيرته وعـدله، وهذا كلام أبي الحسن بن الأثير.

وقرأت في كتـاب المعارف المتـاخرة، ويسمـى عنوان السير لمحمـد بن عبد الملك بن ابراهيم الهمذاني قال: وزر نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بـن اسحـاق الطـوسي للسلطـان ألـب أرسـلان، ولـولـده السلطـان ملكشاه أربعاً وثلاثين سنة، وقتل بالقرب من نهاوند وعمره ست وسبعون سنة وعشرة أشهـر وتسعة عشر يومـا، اغتاله أحد البـاطنية، وقد فـرغ من فطوره، قـال: وقيل إن السلطان ملكشـاه ولف عليـه من قتله لأنـه سئم طـول عمره، ومـات بعده بشهـر وخمسة أيـام، وقد تقـدّم نظام الملـك في الدنيـا التقدم العظيـم، وأفضل على الخلـق الافضال الكثير، وعـم الناس بمعروفه، وبنى المدارس لأصحاب الشافعـي ووقف عليهم الوقوف ،وزاد في الحلم والدين على من تقدّمه مـن الوزراء،ولم يبلغ أحد منهم منزلته في جميع أمـوره، وعبر جيحون فـوقع على العـامل بـأنطاكيـة، بما يصرف على الملاحين، وملـك مـن الغلمان الأتـراك ألـوفـا، وكـان جمهـور العسـاكـر وشجعانهم وفتاكهم من مماليكه.

قلت: وأنشد أبـو سعد السمعاني في ذيل تاريخ بغـداد فقال: أنشدني عمي الإمـام أبو القـاسم أحمد بـن منصور السمعـاني غير مرة مـن لفظه لـلأميرشبل الدولة يعني مقاتل بن عطية بن مقاتل بن عطية البكري:

كــان الــوزيــر نظــام الملــك لــؤلــؤة ثمينـــة صــاغهــا الــرحمن مـــن شرف
عـــزت ولم تعـــرف الأيـــام قيمتهـــا فـــردّهـــا غيرة منــــه إلى الصـــدف

فصل

عاش السلطان ملكشاه بعد نظام الملك خمسة وثلاثون يوماً ،ومات في منتصف شوال سنة خمس وثمانين وعمره ثمانية وثلاثون عاماً ونصف العام، وكانت مملكته قد اتسعت اتساعاً عظيماً، وخطب له من حدود الصين إلى الداروم من أرض الشام، وأطاعه اليمن والحجاز، وكان يأخذ الخراج من ملك القسطنطينية، وأطاعه صاحب طراز، واسبيجاب وكاشغر وبلا سغون وغيرها من الممالك البعيدة، وملك سمر قند، وجميع ماوراء النهر، ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان إليه، فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار في طلبه، ولم يزل حتى ظفر به، وأحسن إليه واستصحبه معه إلى أصفهان، وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر الكثير، منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة، وحفر من الآبار، وبنى مدرسة عند قبر الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة، وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر مما يلي الكوفة بمكان يعرف بالسبعي، وبنى مثلها بسمرقند أيضا، قيل إنه خرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العذيب وبلغ السبعية بقرب الواقصة، وبنى هناك منارة ترك في أثنائها قرون الظبى وحوافر الحمر الوحشية التى اصطادها في طريقه، وبعد موته تنازع ابناه بركياروق ومحمد، ودامت الحروب بينهما نحو إثنتي عشرة سنة إلى أن توفى بركياروق، واستقرّت السلطنة لمحمد، وفي مدّة تلك الحروب ظهرت الفرنج بالساحل، وملكوا انطاكية أوّلا، ثم غيرها من البلاد.

وكان السلطان قد اقطع أخاه تاج الدولة تتش مدينة دمشق وأعمالها وماجاورها، كطبرية والبيت المقدس، فلما توفي ملكشاه طمع تاج الدولة في السلطنة، فسار إلى حلب وبها قسيم الدولة فصالحه وراسل بوزان صاحب حران، وياغي سغان صاحب أنطاكية فساروا معه نحو الرحبة ونصيبين فأخذهما، وراسل صاحب الموصل إبراهيم بن قريش بن بدران يأمره بالخطبة له وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد فامتنع، فالتقيا فهزم صاحب الموصل وقتل، وأخذت بلاده، وسار إلى ميافارقين، فملكها وسائر ديار بكر، ثم سار إلى أذربيجان، فالتقى هو وابن أخيه بركياروق بن ملكشاه، فانتقل قسيم الدولة وبوزان إلى بركياروق،فرجع تاج الدولة إلى الشام،ورجعا إلى بلادهما بأمر بركياروق ليمنعا تاج الدولة عن البلاد إن قصدها، فجمع تاج الدولة العساكر، وسار عن دمشق نحو حلب فاجتمع قسيم الدولة وبوزان، وأمدّهما السلطان ركن الدين بركياروق بالأمير كربوقا، وهو الذي صار فيها بعد صاحب الموصل، فالتقوا بالقرب من تل السلطان بينه وبين حلب نحو من ستة فراسخ، فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيراً فقتله تاج الدولة صبراً ودخل بُزان وكربوقا حلب فحصرهما تاج الدولة حتى فتحها، وأخذهما أسيرين، وأرسل إلى حران والرها وكانتا لبزان فامتنع من بها من التسليم، فقتل بزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين، وأما كربوقا فإنه سجنه بحمص، فلم يزل إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة.

قال ابن الاثير: وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين عدل عام، ورخص شامل، وأمن واسع، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ،فأمنت الطريق وتحدث الر كبان بحسن سيرته.

وفي المحرم من سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي الخليفة المقتدى بأمر الله فجأة، وهو أبو القاسم عبد الله بن الأمير محمد بن القائم بأمر الله، وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة أشهر ، وأمه تركية، وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد، ويلقب محمد بن القائم والد المقتدى بالله الذخيرة، مات في حياة أبيه، فلم يل الخلافة.

ذكر أخبار زنكي

والد نور الدين رحمهما الله تعالى على سبيل الاختصار، في فصول إلى حين وفاته، ثم نذكر أخبار نور الدين على ترتيب السنين.

لما قتل قسيم الدولة آق سنقر لم يخلف من الأولاد غير واحد، وهو عماد الدين زنكي والد نور الدين، وكان حينئذ صبياً له من العمر نحو عشر سنين، فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه، وفيهم زين الدين علي، وهو صبي أيضا، ثم إن الأمير كربوقا خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتوجه إلى حران وقد اجتمع معه عسكر صالح فملكها، ثم سار إلى نصيبين فملكها ثم إلى الموصل فملكها وأزال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي، وسار نحو ماردين فملكها وعظم شأنه، وهو في طاعة ركن الدولة بركياروق، فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سنقر وأمرهم باحضار عماد الدين زنكي، وقال: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته فأحضروه عنده، فأقطعهم الاقطاعات السنية، وجمعهم على عماد الدين زنكي واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها، فلم يزالوا معه، فتوجه بهم إلى آمد وصاحبها من أمراء التركمان، فاستنجد بمعين الدين

سقمان بن أرتق جد صاحب الحصن، فكسرهم قوام الدولة كربوقا، وهو أوّل مصاف حضره زنكي بعد قتل والده، ولم يزل كربوقا إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وملك بعده موسى التركماني، فلم تطل مدته وقتل، وملك الموصل شمس الدولة جكرمش وهو أيضا من مماليك السلطان ملكشاه، فأخذ زنكي فقربه وأحبه، واتخذه ولداً لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمسمائة، فلا جرم أن زنكي رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كوري، فأكرمه وقدمه وأقطعه اقطاعا كثيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذه صهراً.

ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولي سقاوه، فاتصل به عماد الدين زنكي، وقد كبر وظهرت عليه أمارات السعادة والشهامة، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد، وكان جاولي قد عبر إلى الشام ليملكه من الملك فخر الدين رضوان، فأرسل السلطان إلى الموصل الأمير مودود، وأقطعه إياها سنة اثنتين وخمسمائة، فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه زنكي وغيره من الأمراء، فلما استقر مودود بالموصل واتصل به زنكي أكرمه وشهد معه حروبه، فسار مودود إلى الغزاة بالشام ففتح في طريقه قلاعاً لهم من شبختان كانت للفرنج، وقتل من كان بها منهم، ثم سار إلى الرها فحصرها، ولم يفتحها، فرحل وعبر الفرات فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوماً، ثم سار إلى معرة النعمان فحصرها، ثم حضر عنده أتابك طغتكين صاحب دمشق فسارا إلى طبرية وحاصروها وقاتلوها قتالاً شديداً ، وظهر من أتابك زنكي شجاعة لم يسمع بمثلها، منها أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه، وهو يظن أنهم يتبعونه فتخلفوا عنه، وتقدّم وحده وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج ، فدخلوا البلد، ووصل رمحه إلى الباب فأثر فيه، وقاتلهم عليه وبقي ينتظر وصول من كان معه، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً، فعجب الناس من إقدامه أوّلا، ومن سلامته آخرا، ثم التقى

الجمعان فهزم الفرنج لعنهم الله ووصلوا الى مضيق دون طبرية، فاجتمعوا به وجاءتهم نجدة فأذن الأمير مودود للعسكر في الرجوع إلى بلادهم، والاجتماع إليه في الربيع، فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها فخرج يوما يصلي الجمعة فلما صلاها وخرج من صحن الجامع ويده بيد طغتكين وثب عليه انسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات، وكان صائما فحمل إلى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل، وقال : لا لقيت الله إلا صائما فإنني ميت لا محالة سواء أفطرت أو صمت ، وتوفي في بقية يومه رحمه الله، فقيل إن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه، وقيل بل خافه طغتكين، فوضع عليه من يقتله، وكان خيراً عادلاً حسن السيرة.

قال ابن الاثير: حدثني والدي رحمه الله قال: كتب ملك الفرنج إلى طغتكين:«إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها ».فلما قتل الأمير مودود أقطع السلطان بلاد الموصل وغيرها للامير جيوش بك، وسير معه ولده الملك مسعود إلى الموصل، ثم أنه جهز آق سنقر البرسقي في العساكر وسيره إلى قتال الفرنج ، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسيرمعه، فساروا وفيهم عماد الدين زنكي، وكان يعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي، فسار البرسقي إلى الرها في خمسة عشر ألف فارس فحصرها، وقتل من بها من الفرنج والأرمن ، وضاقت الميرة عن العسكر، فرحل إلى سميساط وهي أيضا للفرنج فأخرب بلدها وبلد سروج، وعاد إلى بلد شبختان فأخرب ما فيه من الفرنج، وأبلى زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسنا، ثم عادت العساكر تتحدث بما فعله، وعاد البرسقي إلى بغداد وأقام زنكي بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وقد علا قدره وظهر اسمه.

فصل

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، ولـد الملك العادل نور الـدين محمود ابن زنكـي رحمه الله، وفيها غـرقت سنجار مـن سيل المطر، وهلـك منها خلق كثير، ومن أعجـب ما يحكى أن السيل حمل مهداً فيـه طفل ، فتعلق المهد في شجرة، ونقص الماء فسلم ذلك الطفـل، وغرق غيره من الماهرين بالسباحة.

وفيها أيضا زلزلت إربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة.

وفيها في الرابـع والعشرين من ذي الحجة توفي السلطان غيـاث الدين محمد بـن ملكشاه، وعمـره سبع وثلاثـون سنة وأربعـة أشهر وستـة أيام ، وأول ما خطـب له ببغـداد في ذي الحجة سنـة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقطعت خطبته عـدة مرار، ولقي من المشاق والأخطار مـا لم يلقه أحد إلى أن توفي أخـوه بركياروق، فحينئذ استقـرت له السلطنة وصفت لـه ودانت البلاد، وأصحاب الاطـراف لطاعته، وكان اجتماع الناس عليـه بعد موت أخيه اثنتـي عشرة سنة وستـة أشهر، وكـان عادلاً حسـن السيرة شجاعـا، وأطلق المكـوس والضرائب في جميع البـلاد، ومن عـدله أنـه اشترى عدة مماليك من التجـار وأمر أن يوفى الثمن من عامل خورستـان، فأوصل إليه البعض، ومطل البـاقي، فحضر التاجر مجلس الحكم وأخـذ غلام الحاكم ووقف بطـريق السلطان، واستغـاث إليه، فأمر مـن يستعلم حالـه، فعاد الحاجب وأعلم السلطـان حاله، فعظم عليه وضـاق صدره وأمر في الحال أن يحضر عامل خوزستان، ويلزم بمال التاجـر، ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكـم، وكان يقـول كثيرا: لقد نـدمت على تـركي حضـور مجلس الحكم ، ولو فعلته لاقتدى بي غيري ولم يمتنع أحد عن اداء الحق.

قال ابن الاثير: وهذه الفضيلـة ذخرها اللّه تعالى للبيت الأتـابكي ،فإن

الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه، وقد تقدم ذلك

ولما علـم الأمراء وغيرهـم من خلـق السلطـان محبة العـدل وأداء الحق وكراهية الظلم ومعاقبة من يفعله اقتدوا به، فأمن الناس وظهر العدل.

وولي بعد السلطـان محمد ابنـه محمود وعمره يـومئذ أربـع عشرة سنة، فقام بـالسلطنة ، وجـرى بينه وبين عمه سنجـر حرب إنهزم فيهـا محمود، وعاد إلى عمه بغير عهـد، فأكرمه وأقطعـه من البلاد إلى حدّ خـراسان إلى الـداروم بـأقصى الشـام، ومـن المـمالـك همذان وأصفهان، وبلـد الجبـال جميعه، وبلاد كـرمان، وفارس، وخوزستان، والعـراق وأذربيجان، وأرمينية، وديار بكـر، وبلاد الموصـل والجزيرة، وديـار مضر، وديار ربيعـه، والشام، وبلد الروم، الذي بيد قليج أرسلان، وما بين هذه الممالك من البلاد.

قال ابن الاثير : ورأيت منشوره بذلك

وفي سـادس عشر ربيع الآخـر سنة اثنتـي عشرة وخمسمائة توفي الإمـام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله، وكان عمره إحدى وأربعين سنـة وستة أشهر وستة أيام، وخـلافته أربع وعشرون سنـة وثلاثـة أشهر وأحـد عشر يومـاً، ومضى في أيـامه ثـلاثة سـلاطين، خطب لهم ببغداد من السلجـوقية وهم: أخو ملكشاه تاج الـدولة تتش ، وركـن الدولـة بـركياروق بـن ملكشـاه، وأخـوه غياث الـديـن محمد بـن ملكشاه، وكـان المستظهر رحمه الله كـريم الاخلاق لين الجانـب، مشكور المسـاعي، يحب العلـم والعلماء، وصنفـت لـه من التصـانيـف الكثيرة في الفقـه والأصول وغيرهما، وكـان يسارع إلى أعمال البر والمثـوبات، حسـن الخط، جيد التـوقيعات، ولما توفي صلى عليه ولـده المسترشد باللـه، ودفن في حجرة كان يألفها.

وفي أيامه توفي جماعة من العلماء، ففي شعبان سنة ثمان وثمانين وأربعمائة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المظفر الشامي، وفي ذي . القعدة منها توفي القاضي عبد السلام بن محمد القزويني المعتزلي مصنف «حدائق ذات بهجة في تفسير القرآن»يزيد على ثلاثمائة مجلد.

قال ابن الاثير:رأيت منه تفسير الفاتحة في مجلد كبير، وفي ذي الحجة توفي الإمام أبو نصر الحميدي مصنف الجمع بين الصحيحين، وفي شوال سنة إحدى وتسعين توفي الكامل نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي، وله نحو تسعين سنة، وفي سنة اثنتين وخمسين ومائة توفي أبو زكريا التبريزي اللغوي . وفي ذي الحجة منها توفي أبو الفوارس الحسين بن علي ابن الخازن صاحب الخط المشهور، وفي سنة خمس وخمسمائة، توفي الإمام أبو حامد الغزالي، وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الإمام أبو بكر محمد بن الشاشي الفقيه، رحمهم الله أجمعين.

فصل

لما ولي السلطان محمود السلطنة أقرّ أخاه مسعودا على الموصل، مع أتابكة جيوش بك فبقي مطيعا لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة، فحسن له الخروج عن طاعته، وطلب السلطنة، فأظهر العصيان، وخطب للملك مسعود بالسلطنة، وكان زنكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه، ويحذرهم عاقبة العصيان، فلم ينفع، فالتقى الأخوان في عسكريهما فهزم عسكر مسعود وأسر جماعة من الأمراء والأعيان منهم الاستاذ أبو اسماعيل الحسين بن أسماعيل الطغرائي وزير مسعود فقتله السلطان محمود، وقال قا، صح عندي فساد اعتقاده ودينه، وكان قد جاوز ستين سنة، وكان حسن الكتابة جيد الشعر.

قلت: وقيل إنه قتل سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة أو ثماني عشرة

وخمسمائة، وقيل إن الذي قتله هو السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه، ذكر ذلك كله أبو سعد السمعاني في تاريخه، وسماه الحسين بن علي بن عبد الصمد الديلمي، وأنشد له أشعاراً حسانا منها:

إذا ما لم تكن ملكا مطاعا
فكن عبدا لمالكه مطيعا

وإن لم تملك الدنيا جميعا
كما تهواه فاتركها جميعا

هما سيان من ملك ونسك
ينيلان الفتى الشرف الرفيعا

ومن يقنع من الدنيا بشيء
سوى هذين يحيى بها وضيعا

ثم استأمن من مسعود وأتابكه جيوش بك، فأمنهما السلطان، وأخذ الموصل منهم فأقطعها آق سنقر البرسقي مع أعمالها كالجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرهما في صفر سنة خمس عشرة وسيره اليها، وأمره بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند اشارته، ففعل البرسقي ذلك وزاد عليه لمكان زنكي من العقل والشجاعة، وتقدّم والده في الايام الركنية، وكانت سيرة ملكشاه عندهم كالشريعة المتبعة، فأعظم الناس عندهم أكثرهم اتباعا لسيرته.

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة أقطع أتابك زنكي مدينة واسط وشحنكية البصرة، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد، فازداد شأنه عظما وهاب الأمير دبيس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة ناحيته،وجرت بينه وبين البرسقي حروب ومواقعات، وهمّ دبيس بقصد بغداد فسار البرسقي إليه، وتبعه الخليفة المسترشد بالله بنفسه فانهزم عسكر دبيس وقتل منهم وأسر خلق كثير، وكان لعماد الدين زنكي أثر حسن في هذه الواقعة أيضا بين يدي الخليفة، وذلك في أوّل المحرّم سنة سبع عشرة.

وأما دبيس فإنه لما انهزم لحق بالملك طغرل بن السلطان محمد، وصار معه في خواص أصحابه، وكان عاصيا على أخيه السلطان محمود، وأمر السلطان محمد للبرسقي أن يرجع إلى الموصل فعاد واستدعى زنكي من البصرة ليسير معه إلى الموصل ، فقال زنكي لأصحابه : قد ضجرنا مما نحن فيه، كل يوم قد ملك البلاد أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته، ثم تارة بالعراق وتارة بالموصل، وتارة بالجزيرة، وتارة بالشام، فسار من البصرة إلى السلطان محمود، فأقام عنده، وكان يقف إلى جانب تخت السلطان عن يمينه لايتقدم عليه أحد، وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله، وبقي لولده من بعده.

ثم اتى السلطان الخبر أن العرب اجتمعت ونهبت البصرة، فأمر زنكي بالمسير إليها وأقطعه إياها لما بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي، وقت اختلاف العساكر والحروب، ففعل ذلك فعظم عند السلطان وزاد محله، وكان قد جرى بين يرنقش الزكوي شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد باللّه نفرة، فتهدّده المسترشد، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة شاكيا من المسترشد، وحذر السلطان جانبه وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازما على منعه من العراق، فسار السلطان إلى بغداد، وجرى بينه وبين المسترشد حروب ووقائع، ثم اصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه، وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر ربيع الآخر ونظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية بغداد والعراق، يؤمن معه من الخليفة، ويضبط الأمور فولى ذلك زنكي مضافا إلى ما بيده من الإقطاع ، وسار السلطان عن بغداد.

وفي سنة عشرين وخمسمائة قتل آق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد صلاة يوم الجمعة، ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس ، فقتل بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه اللّه، وكان عادلا لين الاخلاق حسن العشرة، وكان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة، لايستعين في وضوئه

بـأحد، فقـرّر السلطان ولـده عـز الديـن مسعـود على ما كـان لأبيه مـن الأعمال، وهـي الموصـل وديار الجزيـرة وحلـب وحماه وجـزيرة ابـن عمـر وغيرها، وكان شـابا عاقلا فضبط البـلاد، فلم تطل أيامه وتـوفي ســـنة إحـدى وعشريـن، وولي الأمـر بعده أخـوه الصغير، وقـام بتـدبير دولتيهما الأمير جاولي، وهـو مملوك تـركي مـن مماليـك أبيهما، فجرت الأمـور على أحسن نظام.

فصل

في ولاية زنكي الموصل وغيرها من البلاد التي كانت بيد البرسقي

وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين ، وسبب ذلك أن عز الدين البرسقي لما توفي وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير، وتولى أمره جاولي أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرّ البلاد عليه، وكان المراسل بذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين محمد الياغيساني، فحضرا ببغداد ليخاطبا السلطان في ذلك ، وكانا يخافان جاولي ولايرضيان بطاعته، والتصرف بحكمه، وكان بين صلاح الدين وبين نصير الدين جقر مصاهرة، فأشار عليهما أن يطلبا البلاد لعماد الدين زنكي، ففعلا وقالا للوزير: قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج على أكثرها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم، وكان البرسقي يكف بعض عاديتهم، فمذ قتل إزداد طمعهم، وهذا ولده طفل صغير، ولابد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها، وقد أنهينا الحال إليكم لئلا يجري خلل أو وهن على الاسلام والمسلمين فنحصل نحن بالاثم من الله تعالى واللوم من السلطان، فأنهى الوزير إلى السلطان، فأعجبه وقال: من تريان يصلح لهذه البلاد؟ فذكروا جماعة فيهم عماد الدين زنكي وعظما محله أكثر من غيره، فأجاب السلطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفايته، فولي البلاد جميعا وكتب منشوره بها.

وسار من بغداد إلى البوازيج ليملكها ويتقوّى بها ويجعلها ظهره إن منعه جاولي عن البلاد، فلما استولى عليها سار عنها إلى الموصل فخرج جاولي إلى لقائه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فسيره إلى الرحبة وأعمالها، وأقام هو بالموصل يصلح أمورها،و يقرّر قواعدها، فولى نصير الدين

دزدارية قلعة الموصل، وفوّض إليه أمر الـولاية جميعها،وجعل الدزدارية في البلاد جميعها لـه، وجعل الصلاح محمد اليـاغيساني أمير حاجب الـدولة، وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بـلاده جميعها، وما يفتحه من البلاد، ووفى لهم بها وعدهـم، وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكرمهم عليه، وأكثرهم انبساطـا معه، وقربا منه، ورتب الأمـور على أحسن نظام وأحكم قاعدة.

وكـانت الفـرنج قـد اتسعت بـلادهـم، وكثرت أجنـادهم، وعظمـت هيبتهم، وزادت صـولتهم، وامتـدت إلى بلاد المسلمين أيـديهم، وضعف أهلهـا عـن كـف عـاديهم، وتتابعـت غـزواتهم، وسـامـوا المسلمين سـوء العـذاب، واستطار في البـلاد شرر شرّهـم، وامتدّت مملكتهـم مـن ناحيـة مـاردين وشبختـان إلى عـريـش مصر لم يتخلله مـن ولايـة المسلمين غير حلـب وحماه وحمص ودمشق، وكـانت سرايـاهـم من ديـار بكر إلى آمـد، ومـن ديار الجزيـرة إلى نصيبين ورأس عين، وأما أهـل الرقـة وحرّان فقـد كانـوا معهـم في ذلّ وهـوان، وانقطعت الطـرق إلى دمشق إلاّ على الـرحبة والبر، ثم زاد الأمر، وعظـم الشر حتى جعلوا على أهل كل بلـد جاورهم خراجـاً وأتاوة يأخـذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهـم، ثم لم يقنعوا بـذلك حتـى أرسلوا إلى مـدينة دمشـق واستعرضـوا الرقيـق ممن أخـذ من الـروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطـانهم، فمن اختـار المقـام تـركوه، ومـن آثـر العـود إلى أهله أخـذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً.

وأمـا أهل حلـب فإن الفـرنج أخـذوا منها منـاصفة أعمالها، حتـى في الرحا التي على باب الجنان، وبينهـا وبين المدينة عشرون خطوة، وأما باقي بلاد الشام، فكان حال أهلها أشدّ من حال أهل هـذين البلدين، فلما نظر الله سبحـانه وتعـالى إلى بلاد المسلمين، ولاهـا عماد الديـن زنكي، فغـزا الفرنـج في عقر ديارهم، وأخـذ للموحديـن منهم بثارهم، واستنقـذ منهم

حصونـا ومعاقل، وسيأتـي تفصيل ذلك، ومـا فتحه من البلاد الاسـلامية هو وابنه من بعده، إن شاء الّله تعالى.

فصل

ثم شرع زنكـي رحمه الله في أخذ البـلاد، فافتتح جـزيرة ابن عمـر، ثم مدينة إربل في رمضان سنة اثنتين وعشريـن، ثم عاد إلى الموصل وسار في جمادى الاولى سنـة ثـلاث وعشريـن إلى سنجـار، فتسلمهـا وسير منهـا الشحن إلى الخابـور فملكه، ثـم قصد الـرحبة، فملكـت قسراً، ثم افتتـح نصيبين، وسار إلى حـران، وكانت الـرها وسروج وغيرهما من ديـار الجزيرة للفرنـج لعنهم الله، وأهـل حران معهم في ضيـق عظيم، فراسلـوا زنكي بالطاعة، واستحثـوا على الوصول إليهم ففعل، وهادن الفـرنج مدة يسيرة يعلـم أنه يفـرغ فيها مـن الاستيلاء على مـا بقي لـه من البـلاد الشاميـة، والجزرية، وكـان أهـم الاشيـاء عنده عبـور الفرات، وملـك مدينـة حلب، وغيرها مـن البلاد الشاميـة، فلما عبر الفرات ملـك مدينة منبـج وحصن بزاعة، وحاصر حلـب، ثم فتحت له، فرتب أمـورها، وسار عنها إلى حماه فملكهـا، وقبـض على صـاحـب حمص وحـاصرهـا، وذلـك سنـة ثـلاث وعشرين.

وفي سنة أربـع وعشرين اتفق صـاحب آمد مـع صاحب حصـن كيفا وغيرهم مـن الملوك، وجمعـوا عساكـر نحو عشريـن ألفا، وقصـدوا زنكي فلقيهم فهزمهم، وملك سرجة ودارا، ثـم صمم على الجهاد، فنازل حصن الأثارب، وكـان أضر شيء على أهل حلـب، فجمع الفـرنج جمعـا عظيماً، فهـزمهم وقتلهـم مقتلـة عظيمة، بقيـت عظـام القتلى بتلك الأرض مـدّة طويلـة ، ثم رجع إلى الحصـن فملكه عنوة فـأخربه، ومحا أثـره، وأزال من تلك الأرض ضرره، ثم رحل إلى حصن حارم، فـأنفذ من لم يحضر المعركة من الفـرنج، ومن نجـا منها يسألـون الصلح، ويبـذلون له المنـاصفة على

ولاية حارم، فأجابهم إلى ذلك، لأن عسكره كان قد كثرت فيهم الجراحات والقتل، فأراد أن يستريحوا، فهادنهم، وعاد عنهم، وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن، وحلول النصر، وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك.

وفيها استولى زنكي على مدينة حماه وما فيها، وكان فيها بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بوري، فأخذ رجاله، ثم طلب في إطلاقهم خمسين ألف دينار، فاتفق حضور دبيس بن صدقة بن مزيد أمير العراق بدمشق منهزماً، فطلبه زنكي وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه .ذكر ذلك الرئيس أبو يعلى.

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفي السلطان محمود بهمذان، وكان عمره نحو ثمان وعشرين سنة، وكانت ولايته ما يقارب أربع عشرة سنة، وكان حليما كريماً عاقلاً كثير الاحتمال، وطلب السلطنة بعده ولده داود ابن محمود، وأخواه مسعود وسلجوق شاه ابنا محمد، وعمهما سنجر بن ملكشاه، ومعه طغرل بن السلطان محمد، فجرت بينهم حروب، واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر بن ملكشاه، ومعه طغرل بن السلطان، وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همذان، وأصفهان والري، وسائر بلاد الجبل.

وفي سنة سبع وعشرين سار الخليفة المسترشد بنفسه إلى الموصل في ثلاثين ألف فارس، فحصرها ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى بغداد، ولم يبلغ غرضا.

وفي سنة تسع وعشرين استولى زنكي على سائر قلاع الحميدية وولاياتهم منها قلعة العقر، وقلعة شوش، وحاصر مدينة آمد، ثم مدينة دمشق، وفيها توفيت والدته بالموصل.

وفي المحرم سنة تسع وعشرين توفي السلطان طغرل بن محمد بن

ملكشاه، فخرج السلطان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد في عسكرين عظيمين عاشر رمضان، فهزم عسكر الخليفة، وقبض عليه وعلى خواصه، وأنفذ السلطان شحنة إلى بغداد، فقبض جميع أملاك الخليفة، وهجم جماعة من الباطنية على المسترشد، وهو في الخيمة فقتلوه، وكتب السلطان إلى شحنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبي جعفر المنصور ابن المسترشد، فبايعه في السادس والعشرين من ذي القعدة، ولقب بالراشد، وكان عمر المسترشد ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وكانت خلافته سبع عشر سنة وسبعة أشهر، وكان شهما شجاعا مقداما فصيحاً، وتمكن في خلافته تمكنا عظيما لم يره أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلى خلافته، إلاّ أن يكون المعتضد والمكتفي، لأن المماليك كانوا قديما يخلعون الخلفاء، ويحكمون عليهم، ولم يزالوا كذلك إلى ملك الديلم واستيلائهم على العراق، فزالت هيبة الخلافة بالمرّة إلى انقراض دولة الديلم، فلما ملك السلجوقية جدّدوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها، إلاّ أن الحكم والشحن بالعراق كان إلى السلطان، وكذلك العهد أو ضمان البلاد، لم يكن للخلفاء إلاّ إقطاع يأخذون دخله، وأما المسترشد فانه استبدّ بالعراق بعد السلطان محمود،ولم يكن للسلطان محمود معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة ، واجتمعت عليه العساكر، وقاد الجيوش وباشر بالحرب.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة سار الراشد إلى الموصل بصحبة زنكي ملتجئاً إليه، وذلك أن جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود، فأجابهم إلى ذلك، وظهر منه تنقل في الأحوال، وتلوّن في الآراء، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه، وخافه الباقون، وتقدّم السلطان مسعود، وحصر بغداد، وإستظهر عليها، فخرج الراشد ملتجئاً إلى زنكي، فسار به إلى الموصل، ودخل مسعود بغداد، وأمر بخلع الراشد ومبايعة عمة أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، ففعل ذلك ولقب

المقتفي لأمر اللّه، وأما الراشد فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك يأمره بإخراجه عن بلده، فسار إلى أذربيجان، ثم إلى همذان، فاجتمع إليه ملوك وعساكر كثيرة، وسار السلطان إليهم فتصافوا فانهزم الراشد، وقصد أصبهان فقتله الباطنية بها في السابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، ودفن بأصبهان.

وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضا تزوج زنكي بالخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك اسماعيل وأخوته بني تاج الملوك بوري ابن طغتكين أتابك، وهي أخت الملك دُقاق، وإليها ينسب مسجد خاتون الذي هو مدرسة لأصحاب أبى حنيفة بأعلى الشرف القبلي بأرض دمشق، بأرض صنعاء، وتسلم قلعة حمص.

فصل

في جهاد زنكي للفرنج

كان في سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق عظيم لايحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، فقصد الشام فخافه الناس خوفا عظيماً، وكان زنكي مشغولاً بما تقدم ذكره، ولايمكنه مفارقة الموصل، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها، وهي على مرحلة من حلب، وفتحها عنوة، وقتل المقاتلة وسبى الذرّية في شعبان، ثم سار عنها إلى شيزر، وهي حصن منيع على مرحلة من مدينة حلب، فحصرها منتصف شعبان ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقا، وأرسل صاحبها أبو العساكر سلطان بن منقذ إلى زنكي يستنجده، فنزل على حماه، فكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب، ثم يعود آخر النهار، وكان الروم والفرنج قد

نزلوا على شرقي شيزر، فأرسل إليهم زنكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال فأخرجوا عنها حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوّة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيبا لهم، فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره، فقال لهم الملك: أتظنون أن معه من العساكر ماترون، وله البلاد الكثيرة، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم، وكان أتابك زنكي مع هذا يراسل فرنج الشام، ويحذرهم ملك الروم، ويعلمهم إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، وكان يراسل ملك الروم يتهدّده ويوهمه أن الفرنج معه فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق، وآلات الحصار بحالها، فسار زنكي خلفهم وظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر، فغنم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ورفعه إلى قلعة حلب، وكفى اللّه المؤمنين القتال، وكان المسلمون بالشام قد اشتدّ خوفهم، وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر، لايبقى لمسلم معهم مقاما لاسيما مدينة حماه لقربها، ولما يسر اللّه تعالى هذا الفتح مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا، منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموي له قصيدة قد ذكرتها في ترجمته في التاريخ أوّلها:

بعزمك أيها الملك العظيم
تذلّ لك الصعاب وتستقيم

ألم تر أن كلب الروم لما
تبين أنك الملك الرحيم

فجاء يطبق الفلوات خيلا
كأن الجحفل الليل البهيم

وقد نزل الزمان على رضاه
فكان لخطبه الخطب الجسيم

فحين رميته بك في خميس
تيقن أن ذلك لا يدوم
وابصر في المفاضة منك جيشا
فاحزن لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور
توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى
وليس سوى الحمام له حميم
يؤمل أن تجود بها عليه
وأنت بها وبالدنيا كريم
أيلتمس الفرنج لديك عفوا
وأنت بقطع دابرها زعيم
وكم جرعتها غصص المنايا
بيوم فيه يكتهل الفطيم
ولما ان طلبتهم تمنى الـ
ـمنية جوسلينهم اللئيم
أقام يطوّف الافاق حينا
وأنت على معاقله مقيم
فسار وما يعادله مليك
وعاد وما يعادله سقيم
إذا خطرت سيوفك في نفوس
فأول ما يفارقها الجسوم

وله من قصيدة مدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي التوتان صاحب حماة.

وما جاء كلب الروم الا ليحتوي
حماة وهل يسطو على الأسد الكلب
أراد بها أن يملك الشام عنوة
وقد غلبت عنه الضراغمة الغلب

ومــاذمّ فيهــا العيــش حتــى صــدمنــه
فمال جنــــاح الجيــــش وانكسر القلـــب

فــــولى وأطــــراف الـــرمــــاح كـــأنها
نجـــوم عليـــه بـــا لمنيـــة تنصـــب

ولابن منير قصيدة في مـدح أتابك زنكي رحمه الله سيأتي بعضها عند ذكر فتحه مدينة الرها إن شاء اللّه تعالى، ومنها:

ومــا يــوم كلــب الـروم إلا أخـــو الـــذي
أزحـــت بـه مــا في الجنــاجــن (٣٩) مـن نبــل

اتـــاك بمثـــل الـــروم حشـــدا وإنـــه
ليفضــل اضعـــافــا كثيرا عـــن الـــرمـــل

فقـــاتلتـــه بـــاللّـــه ثـــم بعـــزمـــة
تصـــك قلـــوب العـــاشقين بها يسلي

تـــوهـــم أن الشـــام مـــرعـــى ومـــادرى
بـــأنـك أمضـــى منــه في الشزر والسحـــل (٤٠)

فطـــــــــار وخير المغنمين ذمـــــــــاؤه
إذا ارادعنــــــه مغنـــم المال والأهـــــل

قـال ابن الاثير: ومـن عجائب مـا يحكـى في هذه الحادثـة أن الخبر لما وصل بقصـد الروم شيزر، قـام الأمير مرشد بـن علي أخو صاحبهـا، وهو ينسخ مصحفا، فرفعه بيده، وقال: اللهـم بحق من أنزلته عليه إن قضيت بمجيء الروم فاقبضني إليك فتوفي بعد أيام ونزل الروم بعد وفاته.

ولما عاد الروم إلى بلادهـم نزل أتابك إلى حصن عرقـه، وهو من أعمال طـرابلس فحصره وفتحـه عنـوة ونهب ما فيـه، وأسر من بـه مـن الفرنـج وأخـربه، وعـاد سـالما غـانما، وفيها ملـك قلعـة دارا مـن حسام الـديـن تمرتـاش، وفيها توفي بهاء الـديـن علي بـن القـاسم الشهـر زوري قـاضي

الممالـك الأتابكيـة، وكان أعظـم الناس منـزلـة عنده، وفيهـا ولد صـلاح الدين يوسف بن أيوب بتكريت.

فصل

في فتح شهر زور وبعلبك وحصار دمشق

قال ابن الأثير:كانت شهر زور وأعمالها ومـا يجاورها من البلاد والجبال في يد قفجـق بن أرسـلان تاش التركماني، وكـان ملكها نـافذ الحكـم على قاصي التركمان ودانيهـم، يرون طاعته فـرضاً حتماً، فتحامى الملـوك قصد ولايته، ولم يتعـرّضوا لها لحصانتهـا، فعظم شـأنه وازداد جمعه، فلما كـانت سنة أربـع وثلاثين بلـغ الشهيد أتابـك عنه مـا اقتضى أن يقصـد بلاده، فهزم عسكـره وملك بلاد شهـر زور وغيرها، فـاضافها إلى بـلاده وأصلح أحـوال أهلهـا وخفف عنهـم مـا كـانـوا يلقـونه مـن التركمان، وعـاد إلى الموصل عـازماً على المسير إلى الشـام، فإنـه كان لايـرى المقام بـل لايزال ظاعنـا إما لـردّ عدوّ يقصـده، وإما لقصد بـلاد عدوّ وإمـا لغزو الفـرنج وسدّ الثغـور، وكانت ميـاثـر السروج آثر عنده من وثير المهـاد، والسهر في حراسـة المملكة أحب إليـه من عرض الـوساد، وأصوات السـلاح ألذ في سمعه من الغناء، لايجد لذلك كله عناء.

وفي هـذه السنة وهـي سنـة أربع وثـلاثين ولـد تقي الـديـن عمر بـن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي

وفيها سـار الشهيد في جنوده بعد ملـك شهر زور إلى مـدينة دمشـق فحصرهـا، وصاحبهـا حينئذ جمال الـديـن محمد بـن بوري بـن طغتكين، وكـان محكومـا عليـه، والغالـب على أمـره معين الديـن أنـر مملوك جـدّه

طغتكين، وكان أتـابك قد أمـر كمال الديـن أبا الفضل بـن الشهر زوري بمكاتبـة جماعة من مقـدّمي أحداثهـا وزناطرتها واستمالتهـم واطماعهم في الرغائب والصلات، ففعل ذلك فأجـابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد وخرجـوا متفرقين إلى كمال الديـن ، وجدّد عليهم العهـود وتواعدوا يـوماً يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا لـه الباب ويسلموا البلد إليه، فأعلم كمال الدين الشهيد أتـابك بذلك فقال: لاأرى هذا رأيـا فإن البلد ضيق الطـرق والشوارع، ومتـى دخل العسكـر إليـه لايتمكنون مـن القتال فيـه لضيقه، وربما كثـر المقاتلون لنا فنعجـز عن مقاومتهم لأنهم يقـاتلون على الأرض والسطـوحـات، وإذا دخلنـا البلـد اضطـررنـا إلى التفـرّق لضيـق المسالك فيطمع فينا أهله، وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره.

ومن العجب أن محمـد بن بوري صاحب دمشق تـوفي وأتابك يحصره، فضبـط أنـر الأمور وسـاس البلـد فلـم يتغير بـالناس حـال، وأرسـل إلى بعلبك فأحضر ولـده مجير الدين آبق بـن محمد بن بوري ورتبـه في الملك مكان أبيـه فمشى الحال بتمكين معين الـدين أنـر وحسن تـدبيره، وهذا مجير الدين آبق هو الذي منه أخذ نـور الدين محمود بن زنكي دمشق كما سيأتي، ولما دخل مجير الدين دمشق أقطع بعلبك معين الدين أنر، فأرسل إليها نـائبه وتسلمهـا، فلما علم الشهيـد ذلك سـار إلى بعلبك وحصرهـا عدّة شهور فملكها عنـوة، وترك بها نجم الدين أيوب والـد صلاح الدين دزداراً، وعـزم على العود عنهـا إلى دمشق فجـاءتـه رسل صـاحبها ببـذل الطاعة والخطبة، فأجابه إلى ذلك، وعـاد عن قصد دمشق، وقد خطب له فيها،وصار أصحابها في طاعته وتحت حكمه.

قال يحيـى بن أبي طي الحلبـي: واتفق أن الأمـراء لما نزلوا مـن بعلبك أفسدوا ذخائرها فقبض عليهم أتابـك زنكي وقتل بعضهم وصلبهم وكان ولىّ قتلهم صـلاح الدين محمد بـن أيوب الياغيساني، فحكـى أنه أحضر إليه في جملـة الأمراء شيخ مليح الشيبـة ومعه ولد لـه أمرد كأنه فلقـة قمر،

فقال الشيخ لصلاح الـدين: سألتك بحياة المولى أتابـك ألا صلبتني قبل ولـدي لئلا أراه يعـالج سكـرات الموت، وكان نجـم الديـن أيوب واقفـاً فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاح الديـن في إطلاقه، فقال ما أفعل خوفاً من المولى أتابـك، فذهب نجم الديـن إلى أتابك وسألـه في الشيخ وولده وقص عليه ما قـاله، فأذن باطلاقه وإطلاق من بقـي من الجماعة، ووهبه نصف بعلبـك، وقيل إن نجـم الدين قـد ورد على أتابـك وهو قـد ملك بعلبك فسألـه في الأمراء فأطلقهم لـه وولاه بعلبك وكتب له ثلثهـا ملكاً، واستقر فيهـا هو وأهله، ولم يـزل بها إلى أيام نور الـدين محمود بـن زنكي فأخـرجه منها على ما سنـذكره، ثم إن أتـابك بعد ملكه بعلبـك سار إلى دمشـق فنـزل البقاع، فـوردت هـديـة صـاحـب دمشق، ويطلـب العـود ويعطيه خمسين ألف دينار، ويعطيه حمص، فأشـار نجم الدين على زنكي بقبول ذلـك وقال: هذا مـال كثير، وقد حصـل بلا تعب، وبلـد كبير بلا عنـاء، ودمشـق بلـد عظيـم وقـد ألـف أهلـه هــذا البيـت وتمرّنـوا على سياستهـم، وقد بلغتهم الأحـوال التي جرت ببعلبـك، فامتنع زنكـي عن قبول ما أشار به ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه.

فصل

ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين إلى بلاد الفرنج، فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه، فلقيهم بالقرب من حصن بارين، وهو للفرنج ، فصبرالفريقان صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهرير(٤١)، ونصر الله المسلمين، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم، فدخلوا حصن بارين،وفيهم ملك القدس لأنه كان قرب حصونهم، وأسلموا عدّتهم وعتادهم، وكثر فيهم الجراح، ثم سار الشهيد إلى حصن بارين فحصره حصراً شديداً فراسلوه في طلب الأمان ليسلموا ويسلموا الحصن فأبى إلاّ أخذهم قهراً، فبلغه أن من بالساحل من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم وينهون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر عليهم، فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل، ومن بالحصن لايعلمون بشيء من ذلك لقوّة الحصر عليهم، فأعادوا مراسلته في طلب الأمان، فأجابهم وتسلم الحصن وساروا فلقيتهم أمداد النصرانية، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن فلاموهم وقالوا: عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين فحلفوا لهم: إنا لم نعلم بوصولكم، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا وإلى الآن، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا فحقنا دماءنا بتسليم الحصن.

قال ابن الاثير: وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين، فإن أهله كانوا قد أخربوا ما بين حماه وحلب من البلاد ونهبوها، وتقطعت السبل، فأزال اللّه تعالى بالشهيد رحمه اللّه هذا الضرر العظيم.

وفي مدّة مقامه على حصن بارين سير جنده إلى المعرة وكفر طاب، وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها وهي بلاد عظيمة.

قلت: وقد قال القيسراني يذكر هزيمة الفرنج، ويمدح زنكي قصيدة أولها:

حذار منا وأنى ينفع الحذر
وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر

وأين ينجو ملوك الشرك من ملك
من خيله النصر لا بل جنده القدر

سلوا سيوفا كأغماد السيوف بها
صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهروا

حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم
في مأزق من سناه يبرق البصر

ولوا تضيق لهم ذرعا مسالكهم
والموت لا ملجأ منه ولا وزر

وفي المسافة من دون النجاة لهم
طول وإن كان في أقطارها قصر

وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا
يخاف والكفر لا عين ولا أثر

فلا تخف بعدها الافرنج قاطبة
فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر

إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حربوا
أو طاردوا طردوا أو حاصروا حصروا

وطالما استفحل الخطب البهيم بهم
حتى أتى ملك آراؤه غرر

والسيف مفترع أبكار أنفسهم
ومن هنالك قيل الصارم الذكر

لا فارقت ظل محيي العدل لامعة
كالصبح تطوي من الاعداء ما نشروا

ولا انثنى النصر عن أنصار دولته
بحيث كان وإن كانوا به نصروا

حتى تعود ثغور الشام ضاحكة
كأنها حلّ في أكنافهم عمر

وقال ابن منير

فدتك الملوك وأيامها
ودام لنقضك ابرامها
وزلت لعيشك أقدامها
وزال لبطشك إقدامها
ولو لم تسلم إليك القلو
ب هواها لما صح إسلامها
أيا محيي العدل لما نعا
ه أيامى البرايا وأيتامها
ومستنقذ الدين من أمّة
أزال المحاريب أصنامها
دلفت لها تقتفيك الاسو
د والبيض والسمر آجامها
جزرت جزيرتها بالسيو
ف حتى تشاءمها شامها
وصارت عواري أكتافه
متى شئت أرخص مستامها

قال ابن الاثير: ولما وصل الروم والفرنج إلى الشام ورأوا الامر قد فات أرادوا جبر مصيبتهم بمنازلة بعض بلاد المسلمين، فنازلوا حلب وحصروها، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم لأنهم كانوا في جمع عظيم، فانحاز عنهم ونزل قريبا منهم يمنع عنهم الميرة، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدوّ فيها والاغارة عليها، وأرسل القاضي كمال الدين بن الشهر زوري إلى السلطان مسعود ينهي إليه الحال بأمر البلاد وكثرة العدوّ، ويطلب منه النجدة وإرسال العساكر، فقال له كمال

الـدين: أخـاف أن تخرج البلاد مـن أيدينـا ويجعل السلطـان هذا حجـة وينفـذ العساكـر، فإذا تـوسطوا البـلاد ملكـوها، فقـال الشهيد: إن هـذا العدوّ قد طمـع فيّ وإن أخذ حلب لم يبق بالشام اسـلام، وعلى كل حال فـالمسلمـون أولى بها مـن الكفار، قـال: فلما وصلـت إلى بغـداد وأدّيـت الرسـالة وعدني السلطـان بانفاذ العساكـر، ثم أهمل ذلك ولم يتحـرك فيه بشيء وكتب الشهيـد إليّ متصله يحثني على المبادرة بـانفاذ العساكـر، وأنا أخاطب فلا أزاد على الوعد.

قـال: فلما رأيـت عدم اهتمام السلطـان بهذا الامـر العظيـم، أحضرت فلانـا(وهو فقيـه كان ينوب عنـه في القضاء) فقلت: خـذ هذه الـدنانير وفـرقها في جماعـة مـن أوباش بغـداد والأعاجـم، وإذا كـان يوم الجمعـة وصعـد الخطيـب المنبر بجامـع القصر قـامـوا وأنـت معهم، واستغـاثـوا بصـوت واحـد:«وا اسـلامـاه» « وا دين محمـداه» ويخرجـون مـن الجامـع ويقصـدون دار السلطنة مستغيثين، ثـم وضعت انسـانـاً آخـر يفعل مثـل ذلك في جـامع السلطان ، فلما كانـت الجمعة وصعد الخطيـب المنبر، قام ذلك الفقيـه وشق ثـوبه، وألقـى عمامته عـن رأسه وصـاح، وتبعه أولئـك النفـر بالصيـاح والبكاء فلـم يبق بـالجامـع إلا من قـام يبكي، وبطلـت الجمعـة وسار النـاس كلهـم إلى دار السلطان وقـد فعـل أولئـك الذيـن بالجامع مثلهم، فاجتمع أهل بغـداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثـون، وخرج الأمر عن الضبـط وخاف السلطان في داره، وقـال: ما الخبر؟فقيـل لـه: إن الناس قـد ثـاروا حيـث لم ترسـل العسـاكـر إلى الغـزاة ، فقال: أحضروا ابـن الشهـرزوري، قـال: فحضرت عنـده وأنا خـائف منـه لأنني قـد عزمـت على صـدقه وقـول الحق، فلما دخلت عليه قال: ياقاضي ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفا من الفتنة والشر، ولاشك ان السلطـان ما يعلم كم بينه وبين العدو وإنما بينكم نحـو اسبوع، ولئن أخـذوا حلب، انحدروا إليـك في الفرات، وفي البرّ وليس بينكم بلـد يمنعهم عن بغداد، وعظمت الأمـر عليه حتى

جعلته كأنه ينظر اليهم، فقال: اردد هؤلاء العامة عنا، وخذ من العساكر ماشئت وسر بهم والأمداد تلحقك، قال: فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم فأخبرتهم وعرّفتهم الحال، وأمرتهم بالعود، فعادوا وتفرّقوا وانتخبت من عسكره عشرة آلاف فارس، وكتبت إلى الشهيد أعرّفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير وأجدّد استئذانه في ذلك، فأمرني بتسييرهم والحث على ذلك، فعبرت العساكر الجانب الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة واذا قد وصل نجاب من الشهيد يخبر بأنّ الروم والفرنج قد رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضا، ويأمرني بترك استصحاب العساكر، فلما خوطب السلطان في ذلك أصرّ على انفاذ العساكر إلى الجهاد، وقصد بلاد الفرنج وأخذها، وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها،فلم أزل أتوصل مع الوزير وأكابرالدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشهيد.

قال ابن الاثير: فانظروا إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس- يعني كمال الدين - رحم الله الشهيد، فلقد كان ذا همة عالية ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل يرغبهم ويخطبهم من البلاد ويوفر لهم العطاء.

حكى لي والدي قال: قيل للشهيد: إن هذا كمال الدين يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار، فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي، إن كمال الدين يقلّ له هذا القدر، وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فان شغلا واحد يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار، وكان كما قال رحمه الله تعالى.

فصل

قال: وفي سنة سبع وثلاثين سار الشهيد إلى بلد الهكارية، وكان بيد الأكراد، وقد أكثروا في البلاد الفساد، إلا أن نصير الدين جقر نائب السلطان الشهيد بالموصل كان قد ملك كثيراً من بلادهم، فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعباني وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها، فملكها وأخربها، وأمر ببناء قلعة العمادية عوضا عنها، وكانت هذه العمادية حصنا كبيراً عظيماً فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره، فلما ملك أتابك الشهيد البلاد التي لهم قال: إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا بحول اللّه لاأعجز عنه، فأمر ببنائه وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمر فبنى الحصن وسماه « القلعة العمادية» نسبة إلى لقبه عماد الدين.

وفي هذه السنة خطب لأتابك بآمد، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والانتماء إلى خدمته ، والخطبة له فأجابه إلى ذلك، وفيها ملك الشهيد مدينة عانة

وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها في شوال، وقصد دمشق فشتى بها، وفي سنة ثمان وثلاثين عزم السلطان مسعود على قصد الموصل بعسكره، وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة فتردّدت الرسل بينهما حتى استقرّت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها الشهيد إلى السلطان، وطلب أن يحضر الشهيد في خدمته فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج، فعذره وشرط عليه فتح الرها، وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له : إن ملك البلاد لايقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين،فإنها قد وليها قبله مثل جاولي سقاوة، ومودود وجيوش بك والبرسقي وغيرهم من الأكابر، وكان السلاطين يمدّونهم بالعساكر الكثيرة، ولايقدرون على حفظها، ولايزال

الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلـد إلى أن وليها أتابك ، فلم يمدّه أحد من السـلاطين بفارس واحد ولابمال، ومع هـذا فقد فتح من بـلاد العدّو عدّة حصـون وولايات وهـزمهم غير مرة واستضعفهـم، وعز الاسـلام به، ومن الأسباب المانعـة له أيضا أن الشهيد كان لايـزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خـدمة السلطان مسعود بأمر والـده، وكان السلطان يحبه ويقرّبه ويعتمد عليـه ويثق به، فأرسل إليه الشهيد يـأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل، وأرسل إلى نائبـه بالموصل يأمره أن يمنعه مـن دخول الموصل ومن المسير إليه أيضاً ففعـل ذلك، وقال له: ترسل إلى والـدك تستأذنه في الـذي تفعله، فـأرسـل إليه فعـاد الجواب: إننـي لاأريدك مهما السلطـان ساخط عليـك، فألزمه بالعـود إليه، فعاد ومعه رسـول إلى السلطان يقول له: إننـي لما بلغني أن ولدي فـارق الخدمة بغير أذن لم اجتمع بـه ورددته إلى بـابـك، فحـلّ هـذا عنـد السلطـان محلاً كبيراً، وأجـاب إلى مـا أراد الشهيد، ولما استقرّ المال حمل منـه نحو عشرين ألف دينـار، ثم إن الأمور تقلبـت، وعاد أصحـاب الأطـراف خرجـوا على السلطـان ، فاحتـاج إلى مداراة الشهيد، وأطلق له الباقي، إستمالة له.

وفي هذه السنـة سار الشهيد إلى ديـاربكر ففتـح عدّة بلاد منهـا طنزة وأسعـرد، وملك مـدينـة المعدن الـذي يعمل منـه النحـاس من أرمينيـة، ومدينة حيزان، وأخـذ من أعمال ماردين عدّة مواضـع ورتب أمور الجميع وملك مدينة حاني، وحاصر آمد، وأرسـل عسكراً إلى مدينة عانة، فملكها له، وقد تقدّم ذكرها في السنة قبلها.

فصل

في فتح الشهيد الرها

في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وكانت لجوسلين وهو عاتي الفرنج وشيطانهم والمقدّم على رجالهم وفرسانهم، وكانت مدّة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام، وهذه الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدّس، ثم أنطاكية، ثم رومية، ثم قسطنطينية والرها، وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شرّ عظيم، وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات على طريق شبختان عدّة حصون : كسروج والبيرة، وجملين، والموزر، وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر، وماردين ورأس عين والرقة، وأما حرّان فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صبحوها بالغارة، فلما رأى الشهيد الحال هكذا أنف منهم وعلم أنه لاينال منها غرضا مادام جوسلين بها، فأخذ في إعمال الحيل والخداع لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع، فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الاسلام كحاني وجبل جور وآمد، فكان يقاتل من بها قتالا فيه ابقاء وهو « يسر حسوا في ارتغاء(٤٢)» فهو يخطبها، وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده، فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظنّ أنه لافراغ له إليه، وأنه لايمكنه الإقدام عليه، ففارق الرها إلى بلاده الشامية، ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرها، ثم وصف ابن الأثير الجيش وأنشد:

بجيش جاش بالفرسان حتى
ظننت البر بحراً من سلاح

والسنـــة مـــن العـــذبـــات حمر
تخاطبنـــا بـــأفـــواه الـــريـــاح
وأروع جيشـــه ليـــل بهيـــم
وغـــرّتـــه عمـــود للصبـــاح
صفـــوح عنـــد قـــدرتـــه ولكـــن
قليـــل الصفـــح مـــا بين الصفـــاح
وكـــان ثبـــاتـــه للقلـــب قلبـــا
وهيبتـــه جنـــاحـــا للجنـــاح

وألح الشهيد في حصارها فملكها عنوة فاستباحها ، ونكس صلبانها، وأباد قسوسها ورهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها، وملأ الناس أيديهم من النهب والسبي، ثم إنه دخل البلد فراقه، فأنف لمثله من الخراب، فأمر بإعادة ما أخذ من أثاث ومال وسبي ورجال وجوار وأطفال، فردّوا عن آخرهم لم يفقد منهم إلاّ الشاذ والنادر، فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً، ثم رتب البلد وأصلح من شأنه، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا، كسروج وغيرها، وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشرهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين، وكان فتحاً عظيما طار في الآفاق ذكره وطاب بها نشره وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء.

قال ابن الاثير: حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد اللّه بن علي بن مهران الفقيه الشافعي، وكان من العلماء العاملين والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها، وله الكرامات الظاهرة، ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يومه ذلك، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور عنده من الارتياح ما لم يروه أبدا، فلما قعد معهم قال: حدّثني بعض إخواني أن أتابك زنكي قد فتح مدينة الرها، وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا، ثم قال: ما يضرّك يازنكي ما فعلت بعد اليوم، يردد هذا القول مراراً، فضبطوا ذلك اليوم، فكان يوم الفتح،ثم إن

نفراً من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا له: منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح، وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا.

قال: وحكى لي بعض العلماء بالأخبار والأنساب، وهو أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرهاسير ملك الفرنج هذا جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعس، وهو شبيه النائم، فأيقظه الملك وقال: يافقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرتهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرها، فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لاتضحكوا فوالله ما قال عن غير علم، واشتدّ هذا على الملك فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدّة هذا الوهن رخاء ذلك الخبر لعلوّ منزلة الرها عند النصرانية.

قال وحكى لي أيضا غير واحد ممن أثق إليهم أن رجلا من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الّله بك؟ فقال: غفر لي، قلت: بماذا؟ قال: بفتح الرها.

قلت: وهنأه القيسراني عند فتح الرها بقصيدة أوّلها

هو السيف لايغنيك إلا جلاده
وهل طوق الاملاك إلاّ نجاده

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا
سناها وإن فات العيون اتقاده

سمت قبة الاسلام فخراً بطوله
ولم يك يسمو الدين لولا عماده

وزاد قسيم الدين ابن قسيمها
عن الله ما لا يستطاع زياده

ليهن بني الايمان أمن ترفعت
رواسية عزاً واطمأن مهاده

وفتح حديث في السماع حديثه
شهي إلى يوم المعاد معاده

أراح قلوباً طرن عن وكناتها
عليها قوافي كل صدر فؤاده

لقد كان في فتح الرهاء دلالة
على غير ما عند العلوج اعتقاده

يرجون ميلاد ابن مريم نصرة
ولم يغن عند القوم عنه ولاده

مدينة أفك منذ خمسين حجة
يفلّ حديد الهند عنها حداده

تفوت مدى الأبصار حتى لو أنها
ترقت إليه خان طرفا سواده

وجامحة عز الملوك قيادها
إلى أن ثناها من يعز قياده

فأوسعها حرّ القراع مؤيد
بصير بتمرين الألد لداده

كأنّ سنا لمع الأسنة حوله
سرار ولكن في يديه زناده

فأضرمها نارين حرب وخدعة
فما راع إلا سورها وانهداده

فصدّت صدود البكر عند افتضاضها
وهيهات كان السيف حتماً نفاده

فيا ظفراً عم البلاد صلاحه
بمن كان قد عم البلاد فساده

فـــلا مطلـــق الا وشـــدّ وثـــاقـــه
ولا مــــوثـــــق إلّا وحــــل صفـــاده

ولا منبر إلاّ تـــــرنـــــح عـــــوده
ولا مصحـــــف إلاّ أنـــــار مـــــداده

فـان يثكـل الابـرنـز[٤٢] فيهـا حيـاتـه
و إلأفقـــل للنجـــم كيـــف سهـــاده

وبـــاتـــت سرايـــا القمـــص تقمـــص دونها
كما يتنـــزاعـــن حـــريـــق حـــراده

إلى أيـــن يـــا أسر الضـــلالـــة بعـــدهـــا
لقـــد ذلّ غـــاويكـــم وعـــز رشـــاده

رويـــدكـــم لا مـــانـــع مـــن مظفـــر
يعـــانـــد أسبـــاب القضـــاء عنـــاده

مصيـــب سهـــام الـــرأي لـــو أن عـــزمـــه
رمـــى ســـد ذي القـــرنين أصمـــى ســـداده

وقـــل للمـــلوك الكفـــر تسلـــم بعـــدهـــا
ممـــالكهـــا إن البـــلاد بـــلاده

كـــذا عـــن طـــريـــق الصبـــح فلينتـــه الـــدجـــى
فيـــا طـــالما غـــال الظـــلام امتـــداده

ومـــن كـــان امـــلاك السمـــوات جنـــده
فـــأيـــة أرض لم تـــرضهـــا جيـــاده

وللّـــه عـــزم مـــاء سيحـــان ورده
وروضـــة قسطنطينيـــة مستراده

وله من قصيدة هنأ بها القاضي كمال الدين بن الشهر زوري أوّلها:

هـــي الجنـــة المأوى فهـــل مـــن خـــاطـــب..

يقول فيها:

إن الصفـــائح يـــوم صـــافحـــت الـــرهـــا
عطفـــت عليهـــا كـــل أشـــوس نـــاكـــب

فتح الفتوح مبشراً بتمامه
كالفجر في صدر النهار الآيب

لله أية وقفة بدرية
نصرت صحائبها بأيمن صاحب

ظفر كمال الدين كنت لقاحه
كم ناهض بالحرب غير محارب

وأمدكم جيش الملائك نصرة
بكتائب محشوثة بكتائب

جنبوا الدبور وقد تمم ريح الصبا
جند النبوة هل لها من غالب

أترى الرها الورهاء يوم تمنعت
ظنت وجوب السور سورة لاعب

لا أين يا أسرى المهالك بعدها
إن الدروب على الطريق اللاحب

أفغركم والثار رهن دمائكم
ما كان من اطراق لحظ الطالب

وإذا رأيت الليث يجمع نفسه
دون الفريسة فهو عين الواثب

وقال ابن منير:

صفات مجدك لفظ جل معناه
فلا استرد الذي اعطاكه الله

يا صارماً بيمين الله قائمه
وفي أعالي أعادي الله حداه

أصبحت دون ملوك الأرض منفردا
بلا شبيه إذا الأملاك أشباه

فداك من حاولت مسعاك همته
جهلا وقصر عن مسعاك مسعاه

قــل لــلاعــادي ألا مــوتــوا بــه كمــد
فــاللّــه خيبكــم واللّــه أعطــاه

ملــك تنــام عــن الفحشــاء همتــه
تقــى وتسهــر للمعــروف عينــاه

مــازال يمســك والأيــام تخدمــه
فيما ابتــلاه وتــدني مــا تــوخــاه

حتــى تعــالــت عــن الشعــرى مشــاعــره
قــدرا وجــاوزت الجوزاء نعــلاه

وقــد روى النــاس أخبــار الكــرام مضــوا
وأيــن ممــا رووه مــا رأينــاه

أيــن الخلاف عــن فتــح أتيــح لــه
مظلــل أفــق الــدنيــا جنــاحــاه

على المنــابــر مــن أنبــائه أرج
مقطــوبــة بفتيــت المســك ريــاه

فتــح أعــاد على الاســلام بهجتــه
فــافتر مبسمــه واهتــز عطفــاه

يهدي بمعتصــم بــاللــه فتكتــه
حــديثهــا انســخ الماضي وأنســاه

إن الــرهــا غير عمــوريــة وكــذا
مــن رامهــا ليــس مغــزاه كمغــزاه

أخــت الكــواكــب عــزا مــا بغــى أحــد
مــن الملــوك لها وقما (٤٤) فــواتــاه

حتــى دلفــت لها بــالعــزم يشحــذه
رأي يبيــت فــويــق النجــم مسراه

مشمــرا وبنــو الاســلام في شغــل
عــن بــدء غــرس لهم أثمار عقبــاه

يــا محيــي العــدل إذ قــامــت نــوادبــه
وعــامــر الجود لما امّــح مغنــاه

يـــا نعمــة اللّـــه يستصفــى المزيـــد بها
للشــاكـــريـــن ويستقنــى صفـــا يـــاه

أبقـــاك للـــديـــن والـــدنيـــا تحوطهما
مـــن لم يتـــوّجـــك هـــذا التـــاج إلاّ هـــو

ولابن منير من قصيدة تقدّم بعضها:

أيـــا ملكـــا ألقـــى على الشرك ككـــلا
أنـــاخ على آمـــاتـــه كلكـــل الثكـــل

جمعـــت إلى فتـــح الـــرهـــا ســدّ بـــابـــه
بجمعـــك بين النهـــب والاسر والقتـــل

هـــو الفتـــح أنســـى كـــل فتـــح حـــديثـــه
وتـــوج مسطـــور الـــروايـــة والنقـــل

فضضـــت بـــه نقـــش الخواتـــم بعـــده
جـزيـت جـزاء الصـدق عـن خـاتـم الـرسـل

تجرّدت لـــلاســـلام دون ملـــوكـــه
تبثـــك أسبـــاب المذلـــة والخذل

أخـــو الحرب غـــذتـــه القـــراع مفطما
يشـــوب بـــاقـــدام الفتـــى حنكـــة الكهـــل

وله من قصيدة أخرى:

بعماد الـــديـــن أضحـــت عـــروة الـــديـــ
ـــن معصـــوبـــاً بها الفتـــح المبين

واستـــزادت بقسيـــم الـــدولـــة القســـ
ـــم مـــن ادحـــاض كيـــد المارقين

ملـــك اسهـــر عينـــا لم يـــزل
همهـــا تشريـــد همّ الـــراقـــديـــن

لاخلـــت مـــن كحـــل النصر فقـــد
فقـــأت غيضـــا عيـــون الحاســـديـــن

كـــل يـــوم مـــر مـــن أيـــامـــه
فهـــو عيـــد عـــائد للمسلمين
لـــو جـــرى الانصـــاف في أوصـــافـــه
كـــان أولاهـــا أمير المؤمنين
مـــا روى الـــراوون بـــل مـــا سطـــروا
مثـــل مـــا خطـــت لـــه أيـــدي السنين
إذا نـــاخ الشرك في أكنـــافـــه
بمثـــي ألـــف تـــلاهـــا بمئين
وقعـــة طـــاحـــت بكلـــب الـــروم مـــن
قطعـــة البين إلى قطعـــة الـــوتين
إن حمت مصر فقـــد قـــام لها
واضـــح البرهـــان إن الصين صين
والـــرهـــا الـــولم تكـــن إلا الـــرهـــا
لكفـــت حسماً لشـــك الممتريـــن
هـــم قسطنطين أن يفـــرعهـــا
ومضـــى لم يحو منهـــا قســـطـــطين
ولكـــم مـــن ملـــك حـــاولها
فتحـــلا الحين وسما في الجبين
هـــي أخـــت النجـــم إلا أنها
منـــه كـــالنجـــم لـــرأي المبصريـــن
زارهـــا يـــزأر في أســـد وغـــى
تبـــدل الأســـد مـــن الـــزأر الأنين
صـــولجوا بـــالبيـــض بضرب نثـــ
ـــر الهام في ســـاحـــاتها نثـــر الكـــريـــن (٤٥)
يـــا الهاهمة ثغـــر أضحكـــت
مـــن بنـــي القلـــف ثغـــور الشـــامتين
بـــرنســـت رأس بـــرنـــس ذلـــة
بعـــد مـــا جـــاســـت حـــوايـــا جـــوسلين

سروج مـــــذ وعـــــت أسراجـــه
فـــرقـــت جماعهــــا عنهـــا عضين
تلـــك أقفـــال رمـــاهـــا اللّـــه مـــن
عـــزمـــــه الماضي بخير الفـــاتحين
شـــام منــــه الشـــام بـــرقـــا ودقـــه
مـــؤمـــــن الخوف مخيــــف الآمنين
كـــم كنيـــس كنســـت قـــدرامهـــا
منـــه بعـــد الـــروح في ظـــل السفين
دنـــت الآجـــال مـــن آجـــالها
فـــأحلتهـــا القطـــا بعـــد القطين
ومنـــــار يجتلي صلبـــــانـــــه
بين بيـــض تتبـــارى في البريـــن
قـــرعتـــه البيـــض حتـــى بـــدّلـــت
قـــرعـــة النـــاقـــوس تثـــويـــب الأذيـــن
بـــالقسيميـــات مقســـوم لها الـــ
ـــدهر في علـــــك لجين أو لحين
سبـــل بها حـــرّان كـــم حـــرّى سقـــت
بـــردا مـــن يـــوم ردت مـــارديـــن
شمطـــت أمـــس شميشـــاط بها
نظـــم جيـــش منهـــج للنـــاظـــريـــن
وغـــدا يلقـــي على القـــدس لها
كلكـــل يـــدرسهـــا درس الـــدريـــن
همة تمسي وتضحـــي عـــزمـــة
ليـــس حصـــن إن نحتـــه بحصين
قـــل لقـــوم غـــرّهـــم امهـــالـــه
ستـــذوقـــون شـــذاه بعـــد حين
إنـــه الموت الـــذي يـــدرك مـــن
فـــرّ منـــه فشجـــا اللغـــافلين

وهـو يحيي ممسكـا عـروتـه
إنها حبـل لمن تـاب متين
مـن يطـع ينـج ومـن يعـص يكـن
مـن غـداة عبرة لـلآخـرين
بـك يـا شمـس المعـالي ردّت الـ
ـروح في الميتين مـن دنيـا ودين
أقسـم الجدّ بـأن تبقـى لكـي
تملـك الأرض يمينـا لا يمين
وتفيـض العـدل في أقطـارهـا
منسيـا مـؤلم عسـف الجائريـن
لا تـزل دارك كيـف انقلـبـت
كعبـة محفـوفـة بـالطـائفين
كـل يـوم يتحلى جيـدهـا
مـن نظيـم المدح بـالـدرّ الثمين
كلما أخلـص فيهـا دعـوة
لـك قـالـت ألسـن الخلـق آمين

فصل

لما فرغ الشهيد مـن أخذ الرها وإصلاح حالها والاستيـلاء على ماوراءها من البلاد والولايات، سار إلى قلعة البيرة، وهي حصن حصين مطل على الفـرات، وهو لجوسلين أيضـا فحصره وضـايقه فـأتـاه الخبر بقتـل نائبـه بالموصل والبلاد الشرقيـة نصير الدين جقر بن يعقوب، فرحـل عنها خوفا من أن يحدث بعده في البـلاد فتق يحتاج إلى المسير إليها، فلما رحـل عنها سير اليها حسـام الديـن تمرتاش بـن إيلغازي صـاحب مـاردين عسكـراً فسلمها الفرنج إليهم خوفا من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها.

وكان قتل النصير في ذي القعـدة سنة تسع وثلاثين ، وسببـه أن الملك ألـب أرسـلان المعـروف بـالخفاجي ولـد السلطـان مسعـود، وأصحـاب

الأطراف يرون أن البلاد التي بيده للملك ألب أرسلان وأنه نائبه فيها، وكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب عن رسالة فإنما يقول: قال الملك: كذا وكذا، وكان ينتظر وفاة الملك مسعود، ليجمع العساكر باسمه ويخرج الأموال ويطلب السلطنة فعاجلته المنية قبل ذلك، وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة، وبها نصير الدين، وهو ينزل إليه كل يوم يخدمه ويقف عنده ساعة، ثم يعود ،فحسن المفسدون للملك قتله وقالوا له: إنك إن قتله ملكت الموصل وغيرها، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ولايجتمع معه فارسان عليك، فوقع هذا في نفسه، وظنه صحيحاً، فلما دخل نصير الدين إليه على عادته وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه وألقوا رأسه إلى أصحابه ظنا منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرّقوا ويملك الملك البلاد، وكان الأمر بخلاف ما ظنوا، فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء، وكان من جملة من حضر القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري أخو كمال الدين، فدخل إلى السلطان وخدعه حتى أصعده إلى القلعة وهو يحسن له الصعود إليها،وحينئذ يستقرّ له ملك البلد، فلما صعد القلعة سجنوه بها وقتل الغلمان الذين قتلوا النصير، وأرسلوا إلى أتابك يعرّفونه الحال فسكن جأشه، واطمأن قلبه وأرسل زين الدين علي ابن بكتكين والياً على قلعة الموصل، وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه فسلك بالناس غيرالطريق التي سلكها النصير وسهل الأمر فاطمأن الناس، وأمنوا وازدادت البلاد معه عمارة، ولما رأى الشهيد صلاح أمر الموصل سار إلى حلب فجهز منها جيشا إلى قلعة شيزر، وبينها وبين حماه نحو أربعة فراسخ فحصرها.

قلت : كذا وقع في كتاب ابن الاثير، وقد وهم من قوله ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، فالخفاجي غير ألب أرسلان على ماذكره العماد

الكاتب في كتاب السلجوقية، فإنه قال: كان مع زنكي ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أحدهما يسمى ألب أرسلان، وهو في معقل من معاقل سنجار، والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الخفاجي وهو بالموصل، وكان هذا الملك مسلما إلى الأمير دبيس بن صدقة، فانتزعه منه زنكي في حرب جرت، فكانت زوجة زنكي خاتون السكمانية تربيه حتى بلغ، وكان النصير يقبض عنانه ويبسط فيه لسانه ويقول: إن عقل وإلاّ عقلته، وإن ثقل طبعه وإلاّ ثقلته، فدبر في قتله مع أصحابه فقطعوه في دهليز داره لما دخل للسلام على الملك، ثم أصعد القاضي تاج الدين الملك إلى القلعة فلم ير له أثر والتقط مماليكه.

ثم عطف زنكي على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجه من معقله، وعنى بتفاصيل أمره وجمله وضرب له نوبتيه ونوبا، ورتب له في حالتي ركوبه وجلوسه رتباً، وأغرى بتولي إكرامه وتوخيه وغرضه خفاء ماجرى من هلاك أخيه، ثم ذكر قصة موت زنكي على قلعة جعبر كما سيأتي(٤٦)

وفي سنة أربعين وخمسمائة أرسل أتابك إلى زين الدين علي يأمره بارسال عسكر إلى حصن فنك يحصره ،فسير خلقاً كثيراً من الفرسان والرجالة فأقاموا عليه يحصرونه إلى أن أتاهم الخبر بقتل الشهيد أتابك، وهذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر، وهو للأكراد البشنوية، وله معهم مدة طويلة يقولون نحو ثلاثمائة سنة ،وهو من أمنع الحصون مطل على دجلة وله سرب إلى عين ماء لايمكن أن يحال بين أهله وبينها.

قلت : وفي هذه السنة أنشد ابن منير بالرقة عماد الدين زنكي يهينه بالعافية من مرض عرض له في يده ورجله قصيدة أوّلها:

يـــــابـــــدر لاأفـــــل ولامحاق
ولايـــــرم مشرقـــــك الاشراق

بــالــديــن والــدنيــا الــذي يشكــو وهــل
يهتــــز فـــــرع لم يقمــــه ســــاق

لـــن تـــورق القضـــب ويجري مــاؤهــا
إلاّ إذا مـــــا التـــــاثـــت الأعـــــراق

إنّ الـــرعـــايـــا مـــا سلمــت في حمى
للمخطـــب عـــن طـــروقــه إطـــراق

غـــرســـت بـــالعـــدل لهم خمائلا
تـــرتـــع في حـــديقهـــا الأحـــداق

يـــا هضبـــة الـــديـــن التـــي عـــاذ بها
فعـــاد لا بغتـــا ولا ارهـــاق

لـــو لم تحطـــه راحـــلا وقـــافـــلا
أصبـــح لا شـــام ولا عـــراق

عماد ديـــن مـــذ أقـــام زيغـــه
حيـــي ومـــات الشرك والنفـــاق

يـــا محيـــي العـــدل الـــذي في ظلـــه
تسر بلـــت زينتهـــا الآفـــاق

يفـــديـــك مـــن لان مهـــاد جبينـــه
لما نبـــا بجنبـــك الاقـــلاق

مـــن يشـــأ سيفـــك أنبطـــت لـــه الـــ
ـــعذب ومـــاء عيشـــه زعـــاق

تجرّع الســـم ولـــو لم تحمـــه
بحـــده لعـــزه الـــدريـــاق

ملـــوك أطـــراف حمى أطـــرافهـــا
عـــزمـــك هـــذا الـــلاحـــق السبـــاق

لـــو لم تـــرق مـــاء كـــرى العين لما
ســـاغـــت بـــأفـــواههـــم الاريـــاق

شققـــت مـــن دونهم مـــرج الـــردا
وشـــق أكبـــادهـــم الشقـــاق

أقسم لو كلفتهم أن يسمعوا
حديث أيامك ما أطاقوا

لما اشتكيت دبّ في أهوائهم
توجس للسمع واستراق

تطاولوا لا عدمت أمالهم
قصراولا جانبها الاخفاق

توهموها غشقا ثم انجلت
والصفو من مشربهم غساق

لئن ألمّ ألم بقدم
خد السها لنعلها طراق

أو كان مدّ يده إلى يد
يجري بها الآجال والأرزاق

فالنصل يعلى صدأ وتحته
حد الحسام وسنا رقراق

رمى الصليب بصليب الرأي عن
زوراء أوهى نزعها الاغراق

ونوم من خلف الخليج سهر
والعيش في فرنجة سياق

ماتوا فلا همس ولا اشارة
خوف هموس زاره ارهاق

لاسلبت منك الليالي ماكست
ولا عرت جدّتك الاخلاق

فصل

في وفاة زنكي رحمه الله

قال ابن الأثير: كانت قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلي لما ملك قسيم الدولة مدينة حلب، فلم تزل

بيده ويد أولاده إلى سنة احدى وأربعين، فسار الشهيد إليها فحصرها وحصر فنك لئلا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره، وإن قل، للحزم الذي كان عنده والاحتياط، وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع خمس ليال، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، ولم يشعر أصحابه بقتله، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله فبادر أصحابه إليه فأدركه أوائلهم وبه رمق، ثم ختم الله له بالشهادة أعماله:

لاقى الحمام ولم أكن مستيقنا
أنّ الحمام سيبتلى بحمام

فأضحى وقد خانه الأمل وأدركه الأجل، وتخلى عنه العبيد والخول، فأي نجم للاسلام أفل، وأيّ ناصر للايمان رحل، وأي بحر ندى نضب، وأي بدر مكارم غاب، وأي أسد افترس، ولم ينجه قلة[٤٧] حصن ولا صهوة فرس، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أدبها في حفظه وحراسته، فأتاه مبيد الأمم ومفنيها في الحدث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهورا، وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا، رهين جدث لاينفعه إلا ما قدم، فطويت صفحة عمله، فهو موثوق في صورة مستسلم، ثم دفن بصفين عند أصحاب عليّ أمير المؤمنين رضي الله عنه.[٤٨]

قلت: وذكر العماد الكاتب في كتاب السلجوقية قال: قصد زنكي حصار قلعة جعبر ، فنازلها وكان إذا نام ينام حوله عدّة من خدّامه الصباح، وهو يحبهم ويحبوهم ولكنهم مع الوفاء منه يجفوهم، وهم أبناء الفحول القروم من الترك والروم، وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرداه، وأقصاه، واستبقى ولده عنده وأخصاه. فنام ليلة موته وهو سكران فشرع الخدّام في اللعب فزجرهم وزبرهم وتوعدهم، فخافوا من سطوته،

فلما نام ركبه كبيرهم واسمه يرنقش فذبحه، وخرج ومعه خاتمه، فركب فرس النوبة موهما أنه يمضي في مهم، وهو لايرتاب به لانه خاص زنكي، فأتى الخادم أهل القلعة فأخبرهم،وذكر الحديث(٤٩)

قلت: ثم نقل إلى الرقة فدفن بها، وقبره الآن فيها.

قال ابن الاثير: وكان حسن الصورة، مليح العينين، قد وخطه الشيب، طويلا وليس الطويل البائن، وخلف من الاولاد سيف الدين غازيا وهو الذي ولي بعده، ونور الدين محموداً الملك العادل، وقطب الدين مودوداً، وهو أبو الملوك بالموصل، ونصرة الدين أمير أميران، وبنتا فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والأناث، ونور الدين من الذكور، ولم يبق الملك إلا في عقب قطب الدين، ولقد أنجب رحمه الله، فان أولاده الملوك لم يكن مثلهم».

قلت: ومن عجيب ما حكي أنه لما اشتدّ حصاره قلعة جعبر جاء في الليل ابن حسان المنبجي، ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابه فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد وقد نزل عليك بعساكر الدنيا، وأنت بلا وزير ولا معين، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وآخذ لك من المولى أتابك مكاناً عوض هذا المكان، وإن لم تفعل فأي شيء تنتظر؟ فقال له صاحب القلعة : أنتظر الذي انتظر أبوك، وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشدّ حصار، ونصب عليه عدّة مجانيق ، وقال يوما لحسان وقد أحرقه بحجارة المنجنيق أي شيء تنتظر أما تسلم الحصن ؟ فقال له حسان: انتظر سهما من سهام الله، فلما كان في الغد بينا بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم غرب وقع في لبته فخر ميتاً، ولم يكن من جسده شيء ظاهر إلا ذلك المكان لأنه كان قد لبس الدرع، ولم يزرّها على صدره، فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه، وفي تلك الليلة قتل أتابك،

فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغـريبة ، ذكر ذلك يحيى بن أبي طيّ في كتاب السيرة الصلاحية.

فصل

في بعض سيرة الشهيد أتابك زنكي

وكانـت من أحســن سير الملوك، وكانـت رعيته في أمـن شامـل يعجز القوي عن التعدّي على الضعيف.

قال ابـن الاثير: حدثنـي والدي قـال: قدم الشهيـد إلينا بجـزيرة ابـن عمر في بعض السنين، وكـان زمن الشتاء فنزل بالقلعـة، ونزل العسكر في الخيام وكان في جملـة أمرائه الأمير عز الديـن أبو بكر الدبيسي، وهـو من أكابـر أمرائه ومـن ذوي الرأي عنـده، فدخـل الدبيسي البلـد ونزل بـدار إنسان يهودي وأخرجـه منها، فاستغاث اليهودي إلى الشهيـد، وهو راكب فسأل عن حالـه فأخبر به، وكان الشهيد واقفاً والـدبيسي إلى جانبه ليس فـوقه أحـد فلما سمـع أتابـك الخبر نظـر إلى الـدبيسي نظر مغضـب، ولم يكلمه كلمـة واحدة فتـأخر القهقـرى ودخل البلـد وأخرج خيـامه وأمـر بنصبهـا خارج البلـد، ولم تكن الأرض تحتمـل وضع الخيـام عليها لكثـرة الوحـل والطين، قال: فلقـد رأيت الفـرّاشين وهم ينقلـون الطين لينصبوا خيمتـه فلما رأوا كثرتـه جعلوا على الأرض تبنـا ليقيموهـا، ونصبوا الخيـام وخرج إليها من ساعته.

قال: وكان ينهى أصحابه عن اقتنـاء الأملاك ويقول مهما كانت البلاد لنـا فأي حـاجـة لكـم إلى الأملاك، فـان الاقطـاعـات تغني عنهـا، وإن خـرجت البـلاد عن أيـدينـا فإن الأمـلاك تـذهب معهـا، ومتى صـارت

الأمـلاك لأصحاب السلطـان ظلموا الـرعيـة وتعدّوا عليهـم وغصبوهـم أمـلاكهم، ثـم ذكر مـا تجدّد في أيامـه من عمارة البـلاد لاسيما بالموصـل، وذلك لحسـن سيرته، فكـان يقصده النـاس ويتخذون بـلاده دار إقامـة، وهو الـذي أمر ببنـاء دار المملكة بـالموصل، ولم يكـن بها للسلطان غير الدار المعروفة بـدار الملك مقابل الميدان، ثم رفع سورهـا، وعمق خندقها، وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب.

قال: وكـانت الموصل أقل بـلاد اللّه فاكهـة، وكان الذي يبيع الفـواكه يكون عنـده مقراض يقص به العنـب لقلته إذا أراد أن يزنـه، فلما عمرت البلاد عملت البساتين بظاهر الموصل وفي ولايتها.

قال: ومـن أحسن آرائه أنه كـان شديد العناية بأخبار الاطـراف، وما يجري لأصحـابها حتى في خلـواتهم، لاسيما دركاه السلطـان، وكان يغـرم على ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره مـن حرب وسلم وهزل وجـد وغير ذلك، فكان يصـل إليه كل يوم مـن عيونه عدّة قـاصدين، وكان مـع اشتغاله بالأمـور الكبار من أمـور الـدولـة لايهمـل الاطـلاع على الصغير، وكـان يقـول :إذا لم يعـرف الصغير ليمنع صار كبيرا.

وكـان لايمكن رسـول ملـك يعبر في بـلاده بغير أمره، وإذا استـأذنـه رسول في العبـور في بلاده أذن له وأرسـل إليه من يسيره، ولايتركـه يجتمع بأحـد من الـرعية ولاغيرهم، فكـان الرسول يـدخل بـلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحوالها شيئا.

وكـان يتعهد أصحـابه ويمتحنهـم : سلـم يومـا خشكنانكـة(٥٠)إلى طشت دار لـه، وقال: احفظ هـذه فبقي نحـو سنة لايفارق الخشكنـانكة خـوفاً أن يطلبهـا منـه، فلما كان بعـد ذلـك قال لـه: أيـن الخشكنانكـة،

فأخرجها في منـديل وقدّمها بين يديه، فاستحسن ذلـك منه وقال: مثلك ينبغي أن يكـون مستحفظا لحصن، وأمر لـه بدزداريه قلعة كـواشي، فبقي فيها إلى أن قتل أتابك، وكان لايمكن أحداً مـن خدمه من مفارقة بلاده، ويقـول: إن البـلاد كبستان عليـه سيـاج فمـن هو خـارج السيـاج يهاب الدخول، فإذا خـرج منها من يدلّ على عورتها ويطمع العـدوّ فيها زالت الهيبة، وتطرّق الخصوم إليها.

قال: ومن صائب رأيه وجيده أن سير طـائفة من التركمان الايوانية مع الأمير اليارق إلى الشـام ، وأسكنهم بولاية حلـب، وأمرهم بجهاد الفـرنج وملكهـم كلما استنقذوه مـن البلاد التـي للفـرنج وجعلـه ملكالهم، فكانـوا يغادون الفرنج القتال ويراوحـونهم، وأخذوا كثيرا من السواد، وسدّوا ذلك الثغر العظيم، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستمائة.

قـال: ومـن آرائه أنـه لما اجتمـع لـه الأمـوال الكثيرة أودع بعضهـا بالموصل، وبعضها بسنجار، وبعضهـا بحلب، وقال: إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بينـي وبينه استعنت على سدّ الخرق بالمال في غيره .

قال: وأمـا شجاعتـه وإقدامه فـإليه النهايـة فيهما، وبه كـانت تضرب الأمثـال، ويكفـي في معـرفـة ذلـك جملـة أن ولايتـه أحـدق بها الأعـداء والمنـازعـون مـن كـل جـانـب: الخليفـة المسترشـد والسلطـان مسعـود وأصحـاب أرمينيـة وأعمالها، بيـت سكمان وركن الـدولـة داود صـاحـب حصـن كيفا، وابـن عمـه صاحـب ماردين، ثـم الفرنـج، ثـم صاحـب دمشـق، وكـان ينتصف منهـم ، ويغـزو كـلا منهم في عقـر داره، ويفتـح بلادهم ماعـدا السلطان مسعود فإنه كان لايباشر قصـده، بل كان يحمل أصحـاب الأطراف على الخروج عليـه، فإذا فعلـوا عاد السلطـان محتاجـاً

إليـه، وطلب منـه أن يجمعهم على طـاعته، فيصير كـالحاكم على الجميـع وكل يداريه ويخضع له ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده.

قـال: وأمّـا غيرته فكـانـت شـديـدة، ولاسيما على نساء الأجنـاد فـإن التعرّض إليهن كـان من الذنوب التـي لايغفرها، وكان يقـول: إن جندي لايفـارقوني في أسفـاري، وقلمايقيمون عنـدأهلهـم، فإن نحـن لم نمنع مـن التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن.

قلت:وفي صحيح مسلـم من حديث أبي سعيد الخدري وذكـر حديث رجم النبـي صلى الله عليـه وسلم ماعـزا، قال: ثـم قام رسـول الله صلى الله عليـه وسلم خطيباً قال:« أو كلما انطلقنـا في سبيل الله خلـف رجل في عيالنـا له نبيـب كنبيب التيـس على أن لا اؤتى بـرجل فعـل ذلك إلا نكلت به»(٥١).

قال ابـن الاثير: وكان قد أقـام بقلعة الجزيـرة دزداراً اسمه نور الـدين حسن البربطـي، وكان من خوّاصـه وأقرب الناس إليه، وكـان غير مرضي السيرة، فبلغـه عنـه أنه يتعـرّض للحـرم، فـأمـر حـاجبه صـلاح الـديـن الياغيساني أن يسير مجدّا ويدخل الجزيرة فـإذا دخلها أخذ البربطي وقطع عينيه عقـوبة لنظـره بهما إلى الحريم ثـم يصلبه، فسـار الصلاح مجداً فلـم يشعر البربطـي إلاّ وقد وصل إلى البلـد فخرج إلى لقـائه، فأكرمـه ودخل معه البلد وقال: المولى أتـابك يسلـم عليك ، ويريد أن يعلي قـدرك ويرفع منزلتـك ويسلم إليـك قلعة حلب ويـوليك جميع البـلاد الشامية لتكون هناك مثل نصير الـدين، فتجهز وتحدّر مالـك في الماء إلى الموصل، وتسير إلى خدمته، ففـرح ذلك المسكين، فلم يترك له قليـلاً ولاكثيراً إلا نقله إلى السفن ليحـدرها إلى الموصـل في دجلة، فحين فرغ مـن جميع ذلـك أخذه الصلاح وأمضى فيـه ما أمربه، وأخذ جميـع ما له فلم يتجـاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله.

قال: وإما صدقاته، فقد كان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهراً ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به، وركب يوما فعثرت به دابته، فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته، وودّع أهله عازماً على الهرب، فقالت له زوجته: ماذنبك؟ وما حملك على هذا الهرب؟ فذكر لها الحال فقالت له: إنّ نصير الدين له بك عناية فاذكر له قصتك وافعل ما يأمرك به، فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلك، فلم تزل زوجته تراجعه وتقوّي عزمه فعرّف النصير حاله فضحك منه، وقال له: خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه فهي التي أراد ، فقال: اللّه اللّه في دمي ونفسي، فقال: لابأس عليك فإنه ماأراد غير هذه الصرّة فحملها إليه، فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم فأمره أن يتصدّق به، فلما فرغ من الصدقة قصد النصير وشكره وقال: من أين علمت أنه أراد الصرة ؟ فقال له: إنه يتصدّق في هذا اليوم بمثل هذا القدر يرسل إليّ من يأخذه من الليل وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض، وأرسلك إليّ فعلمت أنه ذكر الصدقة.

قال : وحكي لي من شدّة هيبته ما هو أشد من هذا، قال والدي: خرج يوما الشهيد من القلعة بالجزيرة من باب السر خلوه، وملاح له نائم فأيقظه بعض الجاندارية، وقال له: اقعد فحين رأى الشهيد سقط إلى الارض فحرّكوه فوجدوه ميتاً.

قال: وكان الشهيد قليل التلوّن والتنقل بطيء الملل والتغير شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل إلاّ بذنب يوجب التغير، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولا هم الذين بقوا أخيرا من سلم منهم من الموت، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له، وكان الانسان إذا قدم عسكره لم يكن غريبا إن كان جنديا اشتمل

عليه الاجناد وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالما قصد القضاة بني الشهرزوري فيحسنون إليه ويؤنسون غربته، فيعود كأنه أهل، وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العالية والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف.

قلت: وما أحسن ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة:

في ذرا ملك هو الدهـ
ـر عطاء واستلابا
من له كف تبذ الغيـ
ـث سحا وانسكابا
فاتسح في وجه كل
أمّة للنصر بابا
ترجف الدنيا إذا حر
ك للسير الركابا
وتخر المشمخرّا
ت اختلالا واضطرابا
وترى الاعداء من
هيبته تأوي الشعابا
وإذا ما لفحتهم نا
ره صاروا كبابا
يا عماد الدين لازلـ
ـت على الدين سحابا
جاء علام من دونه
سيفك إن ريع حجابا
فالبس النعماء في الأمـ
ـن الذي طبت وطابا
وأصف عيشا إنّ أعـ
ـداءك قد صاروا ترابا

وقال العماد الكاتب: استولى زنكي على الشام من سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتل في سنة إحدى وأربعين ،وهو الذي فتح الرها عنوة، واحتل بها من السعادة ذروة، فتسنى بفتح الرها للمسلمين جوس بلاد جوسلين وعاد جميعها إلى الاسلام في عهد ولد زنكي نور الدين، وصارت عقود الفرنج، من ذلك الحين تنفسخ وأمورها تنتسخ، ومعاقلها تفرع، وعقائلها تفترع.

وقال الرئيس أبو يعلى التميمي: كانت الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت والمسالك، قد اختلت بعد الهيبة المشهورة والامنة المشكورة، وانطلقت أيدى التركمان والحرامية في فساد الأطراف، والعيث في سائر النواحي والأكناف، ونظمت في صفة هذه الحال أبيات من قصيدة:

كذاك عماد الدين زنكي تنافرت
سعادته عنه وخرت دعائمه

وكم بيت مال من نضار وجوهر
وأنواع ديباج حوتها خاتمه

وأضحت بأعلى كل حصن مصونة
يحامي عليها جنده وخوادمه

ومن صافنات الخيل كل مطهم
يروع الأعادي حليه وبراجمه

فلو رامت الكتاب وصف شياتها
بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه

وكم معقل قد رامه بسيوفه
وشامخ حصن لم تفته غنائمه

وكانت ولاة الأرض فيها الأمره
وقد أمنتهم كتبه وخواتمه

وأمن من في كل قطر لهيبة
يراع بها أعرابه وأعاجمه

وظـالم قـوم حين يـذكـر عـدلـه
فقـد زال عنهـم ظلمـه وخصـائمـه
وأصبـح سلطـان البـلاد بسيفـه
وليـس لـه فيهـا نظير يـزاحمه
وزاد على الامـلاك بـأسـا وسطـوة
ولم يبـق في الأمـلاك ملـك يقـاومـه
فلما تنـاهـى ملكـه وجـلالـه
وراعـت ولاة الارض منـه لـوائمـه
أتـاه قضـاء لا تـردّ سهـامـه
فلـم تنجـه أمـوالـه ومغـانمـه
وأدركـه للحين فيهـا حمامـه
وحـامـت عليـه بـا لمنـون حـوائمـه
وأضحـى على ظهـر الفـراش مجدّلا
صريعـا تـولى ذبحـه فيـه خـادمـه
وقـد كـان في الجيـش اللهـام مبيتـه
ومـن حـولـه أبطـالـه وصـوارمـه
وسمـر العـوالي حـولـه بـأكفهـم
تـذود الـردى عنـه وقـد نـام نـائمـه
ومـن دون هـذا عصبـة قـد تـرتبـت
بـأسهمهـا يـردى مـن الطير حـائمـه
وكـم رام في الأيـام راحـة سرّه
وهمتـه تعلـو وتقـوى شكـائمـه
وكـم مسلـك للسفـر آمـن سبلـه
ومسرح حـيّ لـن تـراع سـوائمـه
وكـم ثغـر اسـلام حـواه بسيفـه
مـن الـروم لما أدركتـه مـراحمه
فمـن ذا الـذي يـأتي بهيبـة مثلـه
وينفـذ في أقصـى البـلاد مـراسمـه

فلـــو رقيـــت في كـــل مصر بـــذكـــره
أراقمــــه ذلـــت هنـــاك أراقمـــــه

فمـن ذا الـذي ينجـو مـن الـدهـر سـا لما
إذا مـــا أتـــاه الأمـــر واللّـــه حـــاتمه

ومـــن رام صفـــواً في الحيـــاة فما يـــرى
لـــه صفـــو عيـــش والحمام يحاومــــه

فـــإيـــاك لا تغبـــط مليكـــاً بملكــــه
ودعــه فـإنّ الـدهـر لا شـك قـاصمـه

وقـــل للـــذي يبنـــي الحصـــون لحفظـــه
رويـــدك مـــا تبنـــي فـدهـــرك هـــادمـــه

وفي مثـــل هــــذا عبرة ومـــواعـــظ
بها يتنـــاســـى المرء مـــا هـــو عـــازمـــه

قـال: وفي ثامـن عشر جمادى الآخرة مـن السنة وصـل الخادم يرنقـش القاتـل لعماد الدين زنكـي وانفصل مـن قلعة جعبر لخوف صاحبهـا من طلبه، فـوصل دمشق ميقنـا أنه قد أمـن بها، ومدلاً بما فعله وظنـاً منه أن الحال على ما توهمه فقبـض عليه، وأنفذ إلى حلب في صحبة من حفظه وأوصله، فأقام بها أياما، ثم حمل إلى الموصل وذكر أنه قتل بها .

قلـت : وللحكيم أبي الحكـم المغـربي قصيـدة في مرثيـه الشهيـد عماد الدين زنكي رحمه الله منها:

عين لا تـــدخـــري المدامـــع وابكـــي
واستهلي دمـــا على فقـــد زنكـــي

لم يهب شخصـــه الـــردى بعـــد أن كـــا
نـــت لـــه هيبـــة على كـــل تـــركـــي

خير ملـــــك ذي هيبـــــة وبهاء
وعظيـــم بين الانـــام بـــزرك(٥٢)

يهب المال والجيـــــاد لمن يمـــــ
ـــمه مـــادحـــا بغير تلكـــي

إن دارا تمدّنا بالرزايا
هي عندي أحق دار بترك
فاسكبوا فوق قبره ماء ورد
وانضحوه بزعفران ومسك
أيّ فتك جرى له في الأعادي
بعد ما استفتح الرها أيّ فتك
كل خطب أتت به نوب الدهـ
ـر يسير في جنب مصرع زنكي
بعد ما كاد أن تدين له الرو
م ويحوي البلاد من غير شك

فصل
فيما جرى بعد قتل زنكي من تفرّق أصحابه وتملك ولديه غازي ومحمود

قال الرئيس أبو يعلى : توجه الملك ولد السلطان المقيم كان معه فيمن صحبه، وانضم إليه إلى ناحية الموصل ، ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين أتابك، وامتنع عليهم الوالي بالموصل على كوجك أياما إلى حين تقرّرت الحال بينهم، ثم فتح الباب ودخل ولده واستقام له الأمر ، وانتصب منصبه، وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين.- يعني- محمد بن أيوب الباغيساني في تلك الحال إلى ناحية حلب ومعهما الأمير نور الدين محمود بن زنكي، وحصل بها وشرع في جمع العساكر، وإنفاق المال فيها، واستقام له الأمر وسكنت الدهماء.

وفصل عنه الأمير صلاح الدين ، وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمر يدبر عليه.

وقال الحافظ أبو القاسم : لما راهق نور الدين لزم خدمة والده إلى أن انتهت مدّته على قلعة جعبر.و سير في صبيحة الأحد الملك ألب أرسلان ابن السلطان مسعود إلى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه، وقال لهم: إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى الموصل فهي له وأنتم في خدمته، وإن تأخر فأنا أقرّر أمور الشام وأتوجه إليكم، ثم قصد حلب ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر ورتب النواب في القلعة والمدينة.

قال ابن أبي طي الحلبي: لما اتصل قتل أتابك بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين، وقال له: إعلم أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل، وعوّل على تقديم أخيك سيف الدين

وقصـده إلى الموصل وقـد انضوى اليـه جلّ العسكـر، وقد أنفـذ إليّ جمال الديـن وأرادني على اللحاق به فلـم أعرج عليه وقـد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلهـا كرسي ملكـك، وتجتمع في خـدمتك عسـاكر الشـام، وأنا أعلم أنّ الأمـر يصير جميعه إليـك لأن ملك الشـام يحصل بحلـب، ومن ملك حلب استظهـر على بلاد الشرق، فركب وأمـر أن ينادي في الليل في عساكر الشام بالاجتماع فاجتمعوا، وسـاروا في خدمة نور الدين إلى حلب ودخلوهـا سابع ربيع الأوّل، ولما دخلـوا حلب جاء أسد الـدين إلى تحت القلعة ونـادى واليها، وأصعد نـور الدين إليها وقـرّر أمره ومشىّ أحـواله، فكان نـور الديـن يرى له ذلـك، وأسد الـدين يمن بـأنه كـان السبب في توليته.

وقال ابـن الأثير: لما قتل أتابك الشهيـد ركب الملك ألب أرسـلان ابن السلطان مسعـود، وكان مع الشهيد واجتمعـت العساكر عليه وخـدموه، فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصـلاح يقول له المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنـا ونسلك طريقا نبقـي به الملك في أولاد صاحبنـا،ونعمر بيته جزاء لإحسانـه إلينا، فإن الملك قد طمع في البـلاد، واجتمعت عليه العسـاكر، وحلـف كـل واحد منهما لصـاحبـه، فـركب الجمال إلى الملـك فخدمه وضمن لـه فتح البلاد وأطمعه فيها ومعه الصـلاح وقالا له: إن أتابـك كان نائباً عنـك في البلاد وباسمـك كنا نطيعه، فقبل قـولهما وظنه حقا، وقـرّ بهما طمعا أن يكـونا عونـاً له على تحصيـل غرضـه، وأرسلا إلى زين الديـن بالموصل يعرّفـانه قتل الشهيد، ويـأمرانه بالإرسـال إلى سيف الديـن غازي وهـو ولد عماد الديـن زنكي الأكبر وإحضـاره إلى الموصل، وكان بشهر زور وهي إقطاعه من أبيه، ففعـل زين الدين ذلك، وكان نور الدين محمـود بن الشهيد قد سـار لما قتل والده إلى حلب فملكهـا وذلك باشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك.

وقال الجمال للملك: إنّ مـن الرأي أن تسير الصلاح إلى مملوكـك نور

الدين بحلب يدبر أمره، وكانت حماه إقطاع الصلاح فأمره ، فسار وبقي الجمال وحده مع الملك فأخذه وقصد الرقة، فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنساء، وأراد أن يعطي الأمراء شيئا فمنعه خوفا من أن تميل قلوبهم إليه، وقاد لهم الاقطاع الجزيل والنعم الوافرة، وشرع الجمال يستميل العسكر ويحلف الأمراء لسيف الدين بن أتابك الشهيد واحداً بعد واحد،وكل من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هاربا من الملك، وأقام بالملك في الرقة عدّة أيام، ثم سار به نحو سنجار، وكان سيف الدين غازي قد دخل الموصل واستقرّ بها، فقوي حينئذ جنان جمال الدين ، ووصل هو والملك إلى سنجار،فأرسل إلى دزدارها وقال لهم لاتسلم البلد ولا تمكن أحداً من دخوله، ولكن أرسل إلى الملك وقل له إنا تبع الموصل فمتى دخلت الموصل سلمت إليك ففعل الدزدار ذلك، فقال الجمال للملك: المصلحة أننا نسير إلى الموصل فإن مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة، فحينئذ نقبض عليه ونتسلم البلاد، فساروا عن سنجار وكثر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك فبقي في قلة من العسكر، فساروا إلى مدينة بلد، وعبر الملك دجلة من هناك، فلما عبرها دخل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الدبيسي إلى الملك في عسكر وهو في نفر يسير فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به.

واستقر أمر سيف الدين وأقر زين الدين على ما كان عليه من ولاية الموصل ، وجعل الجمال وزيره، وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين فحلف له وأقره على البلاد وأرسل له الخلع، وكان هذا سيف الدين قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه سفرا وحضرا وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويبسطه، فلما خوطب في اليمين وتقرير البلاد له لم يتوقف.

قال ابن الاثير:فانظروا إلى جمال الدين وحسن عهده وكمال مروءته

ورعايته لحقوق مخدومه، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس ، ولقد قلل من قال : الناس ألف منهم كواحد، وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين.

قال: ولما استقر سيف الدين في الملك أطاعه جميع البلاد ماعدا ما كأن بديار بكر كالمعدن وحيزان وأسعرد، وغير ذلك فان المجاورين لها تغلبوا عليها.

قال: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقرير أمر البلاد، عبر إلى الشام لينظر في تلك النواحي ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يراسله ويستميله فكلما طلب نور الدين شيئا أجابه إليه استمالة لقلبه، واستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفي ومع كل واحد خمسمائة فارس فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه فترجل له وقبل الأرض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا، وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لم امتنعت من المجيء إليّ أكنت تخافني على نفسك والله ما خطر ببالي ما تكره، فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيش وبمن اعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إليّ، فاطمأن نور الدين وسكن روعه، وعاد إلى حلب فتجهز وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده، وقال لاغرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده

قلت: ومن قصيدة لابن منير في نور الدين:

أيا خير الملوك أبا وجدّا
وأنفعهم حيا الغليل صاد

علوا وغلوا وقال الناس فيهم
شواردَ من ثناء أو أحاد

وما اقتسموا ولا عمدوا بناهم
بمنصبك القسيمي العمادي

وهل حلب سوى نفس شعاع
تقسمها التمادي والتعادي

نفى ابن عماد الدين عنها الـ
شكاة فأصبحت ذات العماد

تبختر في كساء عدل وبذل
مدبجة التهائم والنجاد

وفي محرابها داود منه
يهذب حكمة آيات صاد

تجاوزت النجوم فأين تبغي
ترق فلا خلوت من ازدياد

- ٧٦٣٠ -

فصل
فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والأفرنج المخذولين

قال ابن طي:في سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية البيمند، فخرج في يومه بعساكر أنطاكيةوقسم عسكره قسمين قسماً أنفذه إلى جهة حماه، وقسما أغار به على جهة حلب، وعاث في بلادها، وكان الناس آمنين، فقتل وسبى عالما عظيما وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها، ووصل الخبر إلى حلب فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجدّ في السير ففاته الفرنج، وأدرك جماعة من الرجالة يسوقون الأسرى فقتلهم واستنقذ كثيراً مما كانت الفرنج أخذته، وسار مجنبا عن طريق الفرنج إلى أن شن الغارة على بلد ارتاح، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه ، وعاد إلى حلب مظفراً.

وقال ابن الاثير : لما قتل الشهيد سار مجير الدين صاحب دمشق في عسكر إلى بعلبك ،وحاصرهم وبها نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين، فسلمها إليه وأخذ منه مالاً وملكه قرايا من أعمال دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق وأقام بها.

وقال ابن أبي طي: اشتدّ صاحب دمشق في القتال، وصبر نجم الدين أيوب أحسن صبر ،فاتفق أن الماء لما شاء الله من حصن بعلبك غار حتى لم يبق منه شيء، فصار أهل القلعة يستمدّون من البلد، فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة، فاشتدّ الأمر فطلبوا الامان والمصالحة، فاستحلف صاحب دمشق نجم الدين وأقر له الثلث الذي كان أتابك قد جعله له فيها وأقره فيها، ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يفسد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده،

ومال نور الـدين إلى مجد الدين أبي بكـر بن الدايه حتـى ولاه جميع أموره وجميع مملكته، فشق ذلك على أسد الدين.

قال الـرئيس أبـو يعلى: لما اتصل خبر موت زنكـي بمعين الديـن أنر شرع في التأهـب والاستعداد لقصـد بعلبك، وانتهاز الفـرصة فيهـا بآلات الحرب والمنجنيقات، فنزل عليها وضايقهـا ولم يمض إلا أيام قلائل حتى قل الماء فيهـا قلة دعتهم إلى النـزول على حكمه، وكان الـوالي بها ذا حزم وعقل ومعـرفة بـالأمور ، فـاشترط ما قـام له بـه من اقطـاع وغيره، وسلم البلاد والقلعـة إليه، ووفى له بما قـرر الأمر عليه، وتسلـم ما فيه مـن غلة وآلـة في أيام مـن جمادى الأولى مـن السنة، وراسـل معين الـدين الـوالي بحمـص وتقررت بينـه وبينه مهـادنة ومـوادعة تعـودان بصلاح الأحـوال وعمارة الأعمال، ووقعت مراسلـة فيما بينه وبين صلاح الديـن بحماه وتقرر بينهما مثل ذلـك، ثم انكفأ بعـد ذلك إلى البلد عقيـب فراغه مـن بعلبك وترتيب من رتبه لحفظها والاقامة فيها.

قـال: ووردت الأخبـار في أيـام مـن جمادى الآخـرة مـن السنـة بـأن جوسلين جمع الأفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة من النصـارى المقيمين فيها فـدخلها واستـولى عليها وقتـل من فيهـا من المسلمين، فنهض نور الدين صاحـب حلب في عسكره ومن انضاف إليه مـن التركمان وغيرهـم،في زهـاء عشرة الآف فـارس ووقفـت الـدواب في الطرقات من شدّة السير، ووافوا البلد وقـد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه فهجموا عليهم، ووقـع السيف فيهم، وقتل من أرمن الـرها والنصارى من قتـل ، وانهزم إلى برج يقال له بـرج الماء فحصل فيه ابـن جولسين في تقدير عشرين فارسا من وجوه أصحابه، وأحدق بهم المسلمون وشرعوا في النقـب عليهم حتى تعـرقب البرج فـانهزم ابـن جـولسين في الخفية مـن أصحابه وأخذ الباقون، ومحق بالسيف كـل من ظفر به من نصارى الرها، واستخلـص من كـان فيه أسيرا مـن المسلمين ونهب منها شيء كثير مـن

المال والاثـاث والسبـي، وانكفـأ المسلمـون بـالغنـائم إلى حلـب وسـائر الأطراف.

وقـال ابن الاثير: لما قتـل زنكـي كان جـوسلين الفـرنجـي الذي كـان صاحـب الرها في ولايته غـرب الفرات في تل بـاشر وما جاورها، فـراسل أهل الـرها، وكـان عامتهم مـن الأرمن ،وواعـدهم يومـاً يصل إليهـم فيه فأجـابوه إلى ذلك، فسار في عسكـره إليها وملكها، وامتنعت عليـه القلعة بمن فيهـا من المسلمين فقاتلهـم وجدّ في قتـالهم،فبلغ الخبر نور الـدين، وهـو يومئـذ بحلـب فسـار إليها بعسكـره، فهـرب جـوسلين ودخل نـور الديـن مدينة الـرها ونهبها وسبى أهلها.وفي هذه الـدفعة نهبت وخـربت وخلت مـن أهلها، ولم يبـق منهم بها إلاّ القليـل، ووصل خبر الفـرنج إلى سيف الـدين غازي بـالموصل، فجهز العسـاكر إلى الـرها، فوصلـت وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين.

قـال: ومن عجيـب ما جـرى أن نور الـديـن أرسل مـن غنائمهـا إلى الأمراء، وأرسـل إلى زين الـدين عليٍ جملـة من الجواري فحملـن إلى داره، ودخل لينظر اليهـنّ ، فخرج وقد اغتسل، وهو يضحك فسئـل عن ذلك فقال: لما فتحنـا الرها مـع الشهيدكان في جملـة ما غنمـت جارية مـالت نفسي إليها، فعـزمت على أن أبيـت معها، فسمعـت منادي الشهيـد وهو يأمـر باعـادة السبي والغنـائم، وكان مهيبـاً مخوفا، فلـم أجسر على اتيانها وأطلقتها، فلما كـان الآن أرسل إليّ نـور الدين سهمـي من الغنيمـة، وفيه تلك الجارية فوطئتها خوفاً من العود.

قلت: للقيسراني قصيدة يمدح بها جمال الديـن وزير الموصل ذكر فيها فتح الرها أوّلها:

أمـــاآن أن يـــــزهـــــق البـــــاطـــــل
وأن يتجـــــــــز العـــــــدّة الماطـــــــــل

إلى كـــم يغـــب ملـــوك الضـــلال
سيـــف بـــاعنـــاقهـــاكـــافـــل
فـــلا تحفلـــن بصـــوت الـــذئا
ب وقـــد زأر الاســـد البـــاســـل
وهـــل يمنـــع الـــديـــن الافتـــى
يصـــول انتقـــامـــا فيستـــاصـــل
أبـــا جعفـــر أشرقـــت دولـــة
أضـــاء لها بـــدرك الكـــامـــل
فـــامـــا انصبـــت لـــرفـــع اسمهـــا
فـــانكما الفعـــل والفـــاعـــل
ليهنـــك مـــا افـــرج النصر عنـــ
ـــه ومـــا نـــالـــه الملك العـــادل
فقـــل للحقـــاق الطـــريـــق الطـــريـــ
ـــق فقـــد دلـــف المقـــرم البـــازل
وجـــاهـــد في اللـــه حـــق الجهـــا
د محتســـب بـــالعلى قـــافـــل
وهـــل يمنـــع الســـور مـــن طـــالـــع
يشـــايعـــه القـــدر النـــازل
فـــان يـــك فتـــح الـــرهـــا لجة
فســـا حلهـــا القـــدس والســـاحـــل
فهـــل علمـــت علـــم تلـــك الـــديـــا
ر أن المقيـــــم بها راحــــل
أرى القمـــص يـــأمـــل فـــوت الـــرمـــا
ح ولا بـــــد أن يضرب الشـــــائل
يقـــوي معـــاقلـــه جـــاهـــدا
وهـــل عـــاقـــل بعـــدهـــا عـــاقـــل
وكيـــف بضبـــط بـــواقـــي الجهـــا
ت لمن فـــات حسبتـــه الحاصـــل

ولابن منير من قصيدة في نور الدين:

ملـــك مـــا أذل بـــالفتـــح أرضـــا
قطـ إلا أعـــزهـــا اغـــلاقـــه

والـــوهـــا في الـــرهـــا أزجـــى إليهـــا
عـــارضـــا شيـــب الـــدجـــى ابـــراقـــه

جـــــأرت جـــــأرة إليـــــه فحلّ
عطـــلا مـــن اعنـــاقهـــا اعنـــاقـــه

تلـــك بكـــر الفتـــوح فـــالشـــام منهـــا
شـــامـــه والعـــراق بعـــد عـــراقـــه

أيـــن كـــان الملـــوك عـــن وجههـــا الطلـــ
ـــق يـــرينـــا اضـــاءة اطـــلاقـــه

سنـــة سنهـــا أبـــوه بكلـــب الـــرو
م لما أظلـــــه ارهـــــاقـــــه

خـــافقـــا قلبـــه إلى أمـــل عـــا
جلـــه دون نيلـــه إخفـــاقـــه

قسمـــت رايـــة المواضي القسيميـــ
ـــات وابتـــز مـــن لهاه عـــراقـــه

وكـــذا أنـــت يـــابنـــه مـــا عـــدا مـــن
خلقـــه فيـــك خصلـــه خـــلاقـــه

وكفـــى البحـــر أنـــه ابـــن سحـــاب
مـــاونـــى سحـــه ولا اصعـــاقـــه

لم يمـــت مـــن ســـددت ثلمتـــه يـــا
مـــن على الـــديـــن كظـــه اشفـــاقـــه

كلما طـــن ذكـــرهـــا منـــه في السمـــ
ـــع تكـــافى النـــافقـــاء نفـــاقـــه

وجهـــاد عـــن حـــوزة الـــديـــن لم يـــأ
ل لـــه ركضـــه ولا انفـــاقـــه

وله فيه من قصيدة أخرى:

بنـــور الـــديـــن روض كـــل محل
مـــن الـــدنيـــا وجـــدّ كـــل بـــال
أقـــام على ثنيـــة كـــل خـــوف
سهـــادا بـــات يكـــلأ كـــل كـــال
وصـــوّب عـــدلـــه في كـــل أوب
فعـــوّض عـــاطـــلا منـــه بحـــال
ينكـــس رأيـــه رأي المحـــامـــي
ويقتـــل خـــوفـــه قبـــل القتـــال
لقـــد أحصـــدت لـــلاســـلام عـــزا
يفـــوت سنـــامـــه يـــدكـــل قـــال
وأصبحـــت العـــواصـــم ملحفـــات
عصـــامـــا غير منتكـــث الحبـــال

فصل

وقفت على توقيع كتب في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة مصر يومئذ وهو الملقب بالحافظ وعليه علامته ونصه:

الحمد للّه رب العالمين

إلى القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين البيساني، وهو والد القاضي الفاضل، وكان يومئذ متولي القضاء والحكم بمدينة عسقلان.

قد انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قوما من أهل ثغر عسقلان حماه اللّه قد صاروا يؤدون توقيعات بقبول أقوالهم من غير تزكية من شهوده المعروفين بالتزكية لهم، مع كونهم غيرمستوجبين لشهادة، ولامستحقين لسماع القول، فأنكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم، وخرج عالي أمره بأن لايسمع قول شاهد، ولايتقدّم لخطابة ولا لصلاة بالناس ولا لتلاوة في

موضع شريف إلاّ من زكاه أعيان شهود الثغر المحروس، وهم فلان وفلان وعدّ ثمانية أنفس :عبد الساتر بن عبد الرحمن، عبد العزيز بن مفضل، علي بن قريش، أحمد بن حسن، أحمد بن علي، عبد الرحمن بن محسن، أسامة بن عبد الصمد، علي بن عبد الله.

قلت : وهذا أحسن ما يؤرخ عن إمام تلك الدولة المباينة للشريعة على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال الرئيس أبويعلى: وفي شوال من سنة إحدى وأربعين ترددت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أنر إلى أن استقرت الحال بينهما على أجمل صفة وأحسن قضية، وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال، وشرع في تحصيل الجهاز، وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة إلى حلب في صحبتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواص الأصحاب في النصف من ذي القعدة.

قال: وتوجه معين الدين إلى ناحية صرخد وبصرى بالخيل والرجل وآلات الحرب، ونزل على صرخد وبها المعروف بألتونتاش غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكي الذي كان واليها أولا.

قلت: هو الذي تنسب إليه المدرسة الامينية قبلي الجامع بدمشق، قال: وكانت نفس التونتاش قد حدثته لجهله أنه يقاوم من يكون مستوليا على دمشق، وأن الأفرنج يعينونه على مراده، وكان قد خرج من حصن صرخد إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم، وتقرير أحوال الفساد معهم فحال معين الدين بينه وبين العود إلى أحد الحصنين، وراسل نور الدين في انجاده على الكفرة، فأجابه وكان مبرزاً بظاهر حلب في عسكره فثنى إليه

الأعنة وأجدّ المسير، فوصل إلى دمشق في التاسع والعشرين من ذي الحجة، فأقام أياما يسيرة .

ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فتوجه نور الدين نحو صرخد، ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعدته ووفور عدته، واجتمع العسكران، وأرسل من بصرخد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياما، وتسلم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الأفرنج لترحيلهم، وقضى الله تعالى وصول من أخبر بتجمع الفرنج واحتشادهم ونهوضهم في فارسهم وراجلهم مجدين السير إلى ناحية بصرى، وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها، فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بصرى فسبقوا الفرنج إليها فحالوا بينهم وبينها، ووقعت العين على العين فانهزم الكفار وولوا الأدبار، وتسلم معين الدين بصرى، وعاد إلى صرخد فتسلمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السابع والعشرين من المحرم.

وفي هذا الوقت وصل ألتونتاش الذي خرج من صرخد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان ولاتقرير واستئذان توهما منه أنه يكرم ويصطنع بعد الاساءة القبيحة والارتداد عن الاسلام، فاعتقل في الحال وطالبه أخوه خطلخ بما جناه عليه من سمل عينيه، وعقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص فسمل كما سمل أخاه وأطلق إلى دار له بدمشق فأقام بها.

قلت :وقد ذكر ابن منير وقعة بصرى هذه وغيرها من الوقعات التي يأتي ذكرها في قصيدة قد تقدم بعضها منها:

أي شأن أدركت يا نور دين الـ ـله أعيى على الملوك لحاقه

نطق الحاسدون بالعجز عن ملـ
ـك محلى بالنيرات نطاقه
غض أبصارهم لحاق جواد
ليس إلا إلى المعالي سباقه
سل بصيراً كم أعتقت يوم بصرى
من أسارى الموت الزؤام عتاقه
كم عرام على العريمة شبت
ضاق منه على الصليب خناقه
ولكم هبوة بهاب واختيـ
ـها لها صكت الأسارى ربـاقه
بسط الذل فوق بسطة باسو
طا ولكن طواه عنه ارتفاقه

وفي هذه السنة ولد ببعلبك الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وقيل في سنة فتح زنكي الرها.

قال أبويعلى : وفي ليلة الجمعة الثالث من ربيع الأوّل توفي الفقيه شيخ الاسلام أبو الفتح نصر اللّه بن محمد بن عبد القوي المصيصي بدمشق، كان بقية الائمة الفقهاء المفتين على مذهب الامام الشافعي، ولم يخلف بعده مثله.

وقال : وفي جمادى الآخرة تقرّرت ولاية حصن صرخد للأمير مجاهد الدين بزان بن مامين على مبلغ من المال والغلة، وشروط وأيمان دخل فيها وقام بها، واستبشر أهل تلك الناحية لما هو عليه من حب الخير والصلاح والتدين والعفاف.

قال: وفي الحادي والعشرين من شوّال وهو مستهل نيسان أظلم الجوّ ونزل غيث ساكن، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاماً شديداً بحيث كان ذلك كالغدوة بين العشائين، وبقيت السماء في عين

الناظريـن إليها كصفرة الورس، وكذلـك الجبال وأشجار الغوطـة وكل ما ينظـر إليه مـن حيـوان وجماد ونبـات، ثم جـاء في أثـر ذلـك من الـرعـد القاصف والبرق الخاطف والهدّات المزعجة والرجفـات المفزعة ماارتاع لها الشيـب والشبان فكيـف الـولدان والنسـوان، وقلقـت لـذلك الخيـول في مرابطها، وبقـي الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخـرة، ثم سكن بقدرة اللّـه تعالى، وأصبـح على الأرض والاشجار وسـائر النبات غبـار في رقة الهواء بين البياض والغبرة.

قال ابن الاثير: وفي سنة اثنتين وأربعين فتح نور الـدين أرتاح بالسيف وحصن بـارة وبصرفوث وكفر لاثـا، وكان الفـرنج قد طمعـوا وظنوا أنهم بعـد قتل الشهيـد يستردّون ما أخـذ منهم، فلما رأوا مـن نور الـدين هـذا الجدّ علموا أنّ ما أمّلوه بعيد.

فصل

في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم اللّه عنها

قال الـرئيس أبـو يعلى: وفي هذه السنة تـواصلت الاخبـار من نـاحية القسطنطينية وبـلاد الفرنـج والروم وما والاهـا بظهور ملـوك الافرنـج من بـلادهـم منهـم:الألمان والفنـش وجماعة مـن كبـارهـم في العـدد الـذي لايحصر لقصد بـلاد الاسلام بعـد أن نادوا في سـائر بلادهـم ومعاقلهـم: النفير النفير إليها والإسراع نحوهـا، وخلوا بلادهم وأعمالهم خاليـة شاغرة من حماتها والحفظـة لها، ثم استصحبـوا من ذخائرهـم وأموالهم وعـددهم الشيء الكثير الـذي لايحصى بحيث يقال إن عـدّتهم ألـف ألـف مـن الرجـالة والفرسان، ويقـال أكثر من ذلك، وغلبـوا على أعمال قسطنطينية واحتـاج ملكهـا إلى الـدخـول في مـداراتهم ومسـالمتهـم والنـزول على أحكـامهـم، وحين شـاع خبرهـم وأشتهـر أمـرهـم شرعـت ولاة الأعمال

المصاقبة لهم والأطراف الاسلامية القريبة منهم في التأهب للمدافعة لهم والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم لكي يمنعوهم من العبور والنفوذ إلى بلاد الاسلام، وواصلوا شنّ الغارات على أطرافهم واستحرّ القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العدد الكثير، وحلّ بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر إذا وجدوه ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض، ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة إثنتين وأربعين بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج، ويقال أنه بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع ، وصل تقدير ثلاثمائة ألف، وقصدوا البيت المقدس، وقضوا حجهم وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك وبقي الألمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه، واختلفت الآراء بينهم فيما كانوا يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية إلى أن استقرت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين فاستعد لحربهم فجاؤوا في تقدير خمسين ألفا ،ودنوا من البلاد ثم قصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها فصادفوا الماء مقطوعا ،فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربهم من الماء ، وزحفوا إلى البلاد بخيلهم ورجلهم ووقف المسلمون بازائهم في يوم السبت سادس ربيع الأوّل، ونشبت الحرب بين الفريقين واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفتاك وأحداث البلد والمطوّعة والغزاة الجمّ الغفير، واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين وخيموا

فيها، وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديما وحديثا منه ،واستشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه الله قريب الربوة على الماء لوقوفه في وجوههم وترك الرجوع عنهم اتبع أوامر الله تعالى في كتابه الكريم، وقال: بعنا واشترى، وكذلك عبد الرحمن الحلحولي الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى.

فصل

قلت: وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن ملك الالمان الفرنجي لما وصل الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الأفرنج، وقصد دمشق فخرج عسكرها وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي المالكي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي رحمها اللّه، وكانا من خيار المسلمين، فلما قاربوهم قال الفقيه عبد الرحمن: أما هؤلاء الروم؟ قال : بلى قال: فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم اللّه فتقدّما فقاتلا حتى قتلا في مكان واحد رحمها اللّه تعالى.

ثم قال أبو يعلى: وشرعوا في قطع الأشجار والتحصن بها وهدّوا الفطائر، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال قد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور وباكروا الظهور إليهم في غد ذلك اليوم وهو الأحد، وزحفوا إليهم ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره، بحيث لايني في جهادهم ولايثني عن ذيادهم، ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم حتى تتهيأ الفرصة لهم إلى أن مالت الشمس إلى الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة، وعاد كل منهم

إلى مكانه وبات الجند بإزائهم، وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم.

وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وجعلت خيل التركمان تتواصل ورجالة الأطراف تتابع، وباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم، وزال عنهم روعهم وثبتوا بازائهم وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ بحيث تقع في مخيمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل، ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدّة وتضاعفت العدّة، وانفصل كل فريق إلى مستقره في هذا اليوم وباكروهم من غد يوم الثلاثاء،وأحاطوا بهم في مخيمهم، ، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقا بالنشاب وحذفا بالاحجار، وقد احجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد، وظنّ أنهم يعملون مكيدة أو يدبرون حيلة ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفاً من المهاجمة، إلى أن يجدوا لحملتهم مجالا وليس يدنو منهم أحد إلاّ صرع برشقة أو طعنة، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضياع وجعلوا يقصدونهم في المسالك ،وقد أمنوا فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عليها ، وحصل من رؤوسهم العدد الكثير، وتواترت إليهم أخبار العساكر الاسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستئصال شأفتهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التي حصلوا فيها غير الرحيل، فرحلوا سحر يوم الأربعاء التالي مفلولين.

وحين عرف المسلمون ذلك برزوا إليهم في بكرة هذا اليوم وسارعوا في آثارهم بالسهام بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير، ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم مالا عدد له ولاحصر يلحقه بحيث لها أراييح من جيفهم تكاد

تصرع الطيور في الجوّ وكانوا قد أحرقوا الربوة والقبة الممدودية في تلك الليلة، واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم ، وأكثروا من الشكر له تعالى على ما أولاهم من إجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدّة فللّه الحمد على ذلك والشكر.

واتفق عقيب هذه الرحمة اجتماع معين الدين مع نور الدين عند قربة من دمشق للانجاد لها.

وقال ابن الاثير: خرج ملك الالمان من بلاد الافرنج في جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الفرنج إلى بلاد الشام ، فاتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ، ولايشك ملك الالمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعسكره.

قال: وهذا النوع من الفرنج هو أكثرهم عددا وأوسعهم بلاداً وملكهم أكثر عددا وعددا، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلا، فلما حاصروا دمشق، وبها صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن بوري بن طغتكين، وليس له من الأمر شيء، وإنما كان الأمر إلى مملوك جدّه طغتكين، وهو معين الدين أنر، فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر، وكان عاقلا دينا خيراً أحسن السيرة، فجمع العسكر وحفظ البلد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأوّل، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم، وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دوناس المغربي الفندلاوي شيخ المالكية بدمشق، وكان شيخا كبيرا زاهدا عابدا خرج راجلاً، فرأى معين الدين فقصده وسلم عليه، وقال له: ياشيخ أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوة على القتال، قال: قد بعت واشترى فلا نقيله ولا نستقيله، يعني قول الله تعالى:(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)(٥٣)الآية وتقدّم فقاتل حتى قتل رحمه الله عند النيرب شهيداً.

وقوي أمر الفرنـج وتقدموا فنزلوا بالميـدان الأخضر، وضعف أهل البلد عن ردّهم عنه، وكـان معين الدين قد أرسل إلى سيف الـدين يستغيث به ويستنجده ويسأله القـدوم عليه ويعلمه شدّة الأمر، فجمع سيـف الدين عساكره وسـار مجداً إلى مدينة حمص،وأرسل إلى معين الدين يقـول له: قد حضرت ومعـي كل مـن يطيق حمل السـلاح مـن بلادي، فـإنْ أنا جئـت إليك ولقينـا الفرنج وليسـت دمشق بيد نـوابي وأصحابي وكانـت الهزيمة والعياذ بالله علينا لايسلم منا أحد لبعـد بلادنا عنا، وحينئذ تملك الفرنج دمشق وغيرهـا، فإن أردتم أن ألقـاهم وأقاتلهـم فتسلم البلد إلى مـن أثق إليه، وأنا أحلف لك إن كانت النصرة لنـا على الفرنج أنني لاآخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقـدار ما يـرحل العدوّ عنهـا، وأعود إلى بـلادي ،فماطله معين الديـن لينظر ما يكـون من الفرنـج، فأرسل سيـفـالدينإلى الفـرنج الغرباء يتهـدّدهم ويعلمهم أنه علي قصدهم إن لم يـرحلوا ، وأرسل معين الديـن إليهم أيضا يقول لهم: قـد حضر ملك الشرق ومعه من العسـاكر مالا طـاقة لكـم به، فـإن أنتم رحلتـم عنا والاسلمـت البلد إليـه وحينئذ لاتطمعون في السـلامة منـه، وأرسل إلى فـرنج الشـام يخوفهم مـن أولئك الفرنـج الخارجين إلى بلادهـم ويقول لهم: أنتم بين أمـرين مـذمومين إن ملك هـؤلاء الفرنج الغـرباء في دمشق لايبقـون عليكم مـا بأيديكـم من البـلاد، وإن سلمت أنـا دمشق إلى سيـف الديـن فأنتـم تعلمون أنكـم لاتقدرون على منعه من البيت المقدس، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلـوا ملك الالمان عـن دمشـق، فأجـابوه إلى ذلـك وعلمـوا صدقـه واجتمعوا بملـك الالمان وخوفوه مـن سيف الدين وكثـرة عساكره وتتـابع أمداده وأنه ربما ملك دمشق، فلا يبقى لهم معـه مقام بالساحل، فأجابهم إلى الـرحيل عـن دمشق فـرحل ورحـل فرنـج الساحـل وتسلموا حصـن بانياس مـن معين الدين وبقي معهـم حتى فتحه نور الـدين محمود رحمه الله، كما سنذكره.

فصل

قلت: وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله في تاريخه أن الفقيه الفندلاوي رؤي في المنام فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن (على سرر متقابلين)(٥٤) وقبره الآن يزار بمقابر باب الصغير من ناحية حائط المصلى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله، وأما عبد الرحمن الحلحولي فقبره في بستان الشعباني في جهة شرقه، وهو المسجد المحاذي لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت، وكان مقامه في حياته في ذلك المكان رحمه الله، وقرأت قصيدة في شعر أبي الحكم الاندلسي شرح فيها هذه القصة منها:

بشطي نهر داريا
أمور ما يواتينا
وأقوام رأوا سفك الـ
دماء في جلق دينا
أتانا ماتتا ألف
عديداً أو يزيدونا
فبعضهم من أندلس
وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور
ومن صيدا وتبنينا
إذا أبصرتهم أبصر
ت أقواماً مجانينا
وجازوا المرج والتعديـ
ـل أيضاً والميادينا
تخالهم وقد ركبوا
فطائرها جرادينا (٥٥)
وبين خيامهم ضموا الـ
خنازير والقرابينا

ورايـــــــــات وصلبـــــــــانـــــــــا
على مسجـــــــد خـــــــاتـــــــونـــــــا

وقلنـــــــا إذ رأينـــــــاهـــــــم
لعـــــــل اللّـــــــه يكفينـــــــا

سهاهم معين قـــــــد
أعـــــــان الخلـــــــق والـــــــدينـــــــا

وفتيـــــــان تخالهم
لـــــــدى الهيجـــــــاء شيـــــــاطينـــــــا

فـــــــولـــــــوا يطلبـــــــون المر
ج مـــــــن شرقـــــــي جسرينـــــــا

ولكـــــــن غـــــــادروا اليـــــــأ
س تحت التراب مـــــــدفـــــــونـــــــا

وشيخـــــــا فنـــــــدلاويـــــــا
فقيهـــــــا يعضـــــــد الـــــــدينـــــــا

وفتيـــــــانـــــــا تفـــــــانـــــــوا مـــــــن
دمشـــــــق نحـــــــو سبعينـــــــا

ومنهـــــــم مـــــــائتـــــــا علـــــــج
وخيـــــــل نحـــــــو تسعينـــــــا

وبـــــــاقيهـــــــم إلى الآ
ن مـــــــن القتـــــــل يفـــــــرّونـــــــا

وللعرقلة حسان في مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج أولها:

عـــــــرّج على نجـــــــد لعلـــــــك منجـــــــدي
بنسيمهـــــــا وبـــــــذكـــــــر سعـــــــدى مسعـــــــدي

يقول فيها:

مـــــــن قـــــــاتـــــــل الافـــــــرنـــــــج دينـــــــا غيره
والخيـــــــل مثـــــــل السيـــــــل عنـــــــد المشهـــــــد

ردّ الامان بكل ندب باسل
ومن الجياد بكل نهد أجرد
ومن السيوف بكل عضب أبيض
زمن العجاج بكل نقع أسود
حتى لوى الاسلام تحت لوائه
وغدا بحمده من شريعة أحمد

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني قصيدة في مدح تاج الملوك بوري جدّ مجير الدين، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين أوّل القصيدة:

الحق مبتهج والسيف مبتسم
ومال اعداء مجير الدين مقتسم
قدت الجياد وحصنت البلاد وأمّـ
ـنت العباد فأنت الحل والحرام
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها
معاقد الحزم في أوساطها الحزم
حتى إذا ما أحاط المشركون بنا
كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا إلا من الاقبال في عدد
يؤود حاسبه والاعياء والسأم
أجريت بحرا من الماذي معتكرا
أمواجه بأواسي اليأس تلتطم
وسست جندك والرحمن يكلؤه
سياسة ما يعفي أثرها ندم
وقفت في الجيش والاعلام خافقة
بالنصر كل قناة فوقها علم
يحوطك الله صونا عن عيونهم
والله يعصم من بالله معتصم

حتـــى إذا بـــدت الآراء ضـــاحكـــة
وأقبلـــت أوجـــه الاقبـــال تبتســـم
اتبعـــت جـــنّ سرايـــاهـــم مضمـــرة
فيهـــا نجـــوم إذا جـــدّ الـــوغـــى رجموا
والنصر دان وخيـــل اللـــه مقبلـــة
تـــرجـــو الشهـــادة في الهيجـــاء تغتنـــم
صـــاب الغمام عليهـــم والسهـــام معـــا
فما دروا أيما الهطـــالـــة الـــديـــم
سروا الينتهبـــوا الاعمار فـــانتهبـــوا
قتـــلا ويغتنمـــوا الامـــوال فـــاغتنمـــوا
وأقبلـــت خيلنـــا تـــردى بخيلهـــم
مجنـــوبـــة وعلى أرمـــاحنـــا القمـــم
وأدبـــر الملـــك الطـــاغـــي يـــزعـــزعـــه
حـــرّ الاسنـــة وهـــو البـــارد الشيـــم
وافـــوا دمشـــق فظنـــوا انها جـــدة
ففـــارقـــوهـــا وفي أيـــديهم العـــدم
وأيقنـــوا مـــع ضيـــاء الصبـــح أنهم
إن لم يـــزولـــوا سراعـــا زالـــت الخيـــم
فغـــادروا أكثـــر القـــربـــا ن وانجلفـــوا
وخلفـــوا أكبر الصبيـــان وانهزمـــوا
مستسلمين لأيـــدي المسلمين وقـــد
أغـــرى الفنـــا بتمادي خطفهـــم نهم
لا يملـــك الجســـم دمعـــا عـــن مقـــاتلـــه
كـــأنـــه حين يغشـــاه الـــردى صنـــم
وحـــاولـــوا المسجـــد الأدنـــى فما عبرت
عـــن مسجـــد القـــدم الأقصـــى لهم قـــدم

فصل

قال ابن الأثير: لما رحل الفرنج عن دمشق سار معين الدين أنر إلى بعلبك، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله أن يحضر عنده، فاجتمعا فوصل إليهما كتاب القمص صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج، وكان سبب ذلك أن الفنش صاحب صقلية خرج مع ملك الالمان إلى الشام وتغلب على العريمة وأخذها من القمص، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا، وجدّ هذا الذي ملك العريمة هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب، فلما استولى هذا على العريمة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده، فسارا إليه مجدّين فصبحاه، وكتبا إلى سيف الدين يستنجدانه، ويطلبان منه المدد فأمدّهما فحصروا الحصن وبه ابن الفنش، ونقبوا السور فأذعن الفرنج واستسلموا وألقوابأيديهم فملك المسلمون الحصن، وأخذوا كل من به من رجل وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفنش وأخربوا الحصن ، وعادوا إلى سيف الدين، وافتتح نور الدين أيضا باسوطا وهاب.

وقال الرئيس أبو يعلى: قتل أكثر من كان فيه، يعني في حصن العريمة، وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه ونهب ما فيه من العدد والخيول والأثاث وعاد عسكر سيف الدين إلى مخيمه بحمص ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولد الملك وأمه ومن أسر معهما، وانكفأ معين الدين إلى دمشق.

قال: ووردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجه في عسكره إلى ناحية الاعمال الأفرنجية وقصد أفامية وظفر بعدّة من الحصون والمعاقل الأفرنجية وبعدّة وافرة من الأفرنج، وأن صاحب أنطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه

فنال من عسكره وأثقاله وكراعه ما أوجبته الاقدار النازلة، وانهزم بنفسه وعسكره وعاد إلى حلب سالما في عسكره لم يفقد منه إلاّ النفر اليسير بعد قتل جماعة وافرة من الافرنج، وأقام بحلب أياما بحيث جدّد ما ذهب له من اليزك، وما يحتاج إليه من آلات العسكر، وعاد إلى منزله وقيل لم يعد.

وذكر ابن أبي طي أن أسد الدين لما كان في نفسه على نور الدين من تقديم ابن الداية عليه لم ينصح يومئذ وهي وقعة يغرا، ومرّ به نو الدين فقال له: ما هذا الوقوف والغفلة في مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا ؟فقال: ياخوند ايش ننفع نحن إنما ينفع مجد الدين أبو بكر فهو صاحب الأمر، فاستدرك نور الدين ذلك وطيب قلب أسد الدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقه، وأصلح بينهما.

قال: وقتل في هذه الكسرة شاهنشاه بن أيوب أخو الملك الناصر، وقيل في كسرة البقيعة.

قلت: وهو والد عز الدين فرخشاه وتقي الدين عمر والست عذرا المنسوب إليها العذراوية داخل باب النصر بدمشق، وقبره الآن بالتربة النجمية جوار المدرسة الحسامية بمقبرة العوينة ظاهر دمشق رحمهم اللّه.

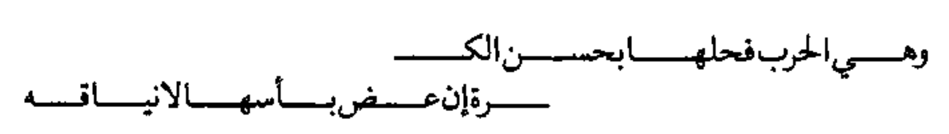
قلت: ولابن منير من قصيدة تقدّمت اعتذارا عما جرى في هذه الغزاة قال:

لم يشنه من ماء يغرا إن فرّ إلا
شابات ذاد عنها انذلاقه

كان فيها الليث العرين حمى الأ
شبال منه غضبان كالنار ماقه

وشبيه النبي يوم حنين
إذ تلافا أدواءهم درياقه

- ٧٦٥١ -



وهـــي الحرب فحلهـــا بحســـن الكـــ
ـــرة إن عـــض بـــأسهـــا الانيـــاقـــه

فصل

وقال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وأربعين أيضا سار نور الدين إلى بصرى وقد اجتمع بها الفرنج في قضهم وقضيضهم وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام، فالتقى بهم هنالك واقتتلوا اشدّ قتال، ثم أنزل الله نصرة على المسلمين، وانهزم الفرنج وكانوا بين قتيل وأسير.

وفي هذه الوقعة يقول القيسراني من قصيدة أولها:

ونيرات الملك وهاجة
وطالع الدولة مسعود

وصارم الاسلام لا ينثني
إلاّ وشلو الكفر مقدود

مناقب لم تك موجودة
إلاّ ونور الدين موجود

مظفر في درعه ضيغم
عليه تاج الملك معقود

نال المعالي ما حاكها
فهو سليمان وداود

ترتشف الأفواه أسيافه
إن رضاب العز مورود

وكم له من وقعة يومها
عند ملوك الشرك مشهود

والقوم إما مرهق صرعة
أو موثق بالقدّ مشدود

حتى إذا عادوا إلى مثلها
قالت لهم هيبته عودوا

طالب بثار ضمنته الظبى
فكل ما يضمن مردود

والكـرّ والفـرّ سجـال الـوغـى
فطـارد طـورا ومطـرود
وإنها الافـرنـج مـن بغيهـا
عـادوا وقـد عـاد لها هـود
قـد حصحص الحق فما جـاحـد
في قلبـه بـأسـك مجحـود
فكـل مصر بـك مستفتـح
وكـل ثغـر بـك مسـدود

وقال أيضا قصيدة في نور الدين: وأنشده إياها بظاهر حلب، وقد كسر الفرنج على يغرا،وهزمهم إلى حصن حارم، وقد كانت الفرنج هزمت المسلمين أوّلا بهذا الموضع أوّلها:

تفـي بضمانها البيـض الحداد
وتقضي دينهـا السمـر الصعـاد
وتـدرك ثـارهـا مـن كـل بـاغ
فـوارس مـن عـزائمهـا الجلاد
ويغشـى حـومـة الهيجـا همام
يشـدّ بضبعـه السبـع الشـداد
أظنـوا أن نـار الحرب تخبـو
ونـور الـديـن في يـده الـزنـاد
وجنـد كـالصقـور على صقـور
إذا انقضـوا على الابطـال صـادوا
إذا اخفـوا مكيـدتهم أخـافـوا
وإن أبـدوا عـداوتهم أبـادوا
ونصرة دولـة حـاميـت عنهـا
وهـل يخشـى وأنـت لها عماد
وإن تتلى القـوافي مـا تلتـه
بـإنـب مـا يـوتبهـا اسنـاد



جـرت بـالنصر أقـلام العـوالي
وليـس سـوى النجيـع لها مـداد
وطـالـت أروس الأعـلاج خصبـا
فنـادى السيـف قـد وقـع الحصـاد
أحطـت بهم فكـان القتـل صبرا
ولا طعـن هنـاك ولا طـراد
ولـلابـرنـس فـوق الـرمـح رأس
تـوسـد والسنـان لـه وسـاد
تـرجـل للسـلام ففـرسـوه
وليـس سـوى القنـاة لـه جـواد
غضيـض المقلتين ولا نعـاس
وغـايـرهـا وليـس بـه سهـاد
فسر واستـوعـب الـدنيـا فتـوحـا
فـلا هضـب هنـاك ولا وهـاد
وزر بينـي الـوغـى مثـوى حبيـب (٥٦)
فما عـن بـاب مسلمـه ذيـاد
ولا في بـاب فـارس غير ثكلى
بفـارسهـا يضيء بها الحداد
لأنطـاكيـة يحمـي ذراهـا
وقـد دانـت لسطـوتـك البـلاد
واذعنـت المالـك واستجـابـت
ملبيـة لـدعـوتـك العبـاد

قلت: ووقعة إنبّ هذه كـانت عظيمة، وقـد أكثر كذلـك الشعراء لها وسيأتي ذكرها قريبا إن شاء الله تعالى.

فصل

قال أبو يعلى التميمي: وفي رجب من هـذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأن صاحبها نور الدين ابن أتابك أمر بابطال حي على خير العمل في أواخر تأذين الغداة، والتظاهر بسب الصحابة، وانكر ذلك إنكارا شديداً، وساعده على ذلك جماعة من أهل السنة بحلب، وعظم هذا الأمر على الاسماعيلية وأهل التشيع وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة.

قلت:وأنشده ابن منير في رمضان:

فداك من صام ومن أفطرا
ومن سعى سعيك أو قصرا

وما الورى أهلا فتفدى بهم
وهل يوازي عرض جوهرا

عدل تساوى تحت أكنافه
مطافل العين واسد الشرى

يا نور دين الله كم حادث
دجى وأسفرت له فانسرى

وكم حمى للشرك لا يهتدي الـ
ـوهم له غادرته مجزرا

يا ملك العصر الذي صدره
افسح من أقطارها مصدرا

وابن الذي طاول أفلاكها
فلم يجد من فوقه مظهرا

مناقب تكسر كسرى كما
تقصر عن إدراكها قيصرا

مـــا عـــام في أوصـــافهـــا شـــاعـــر
إلاّ رأى أوصـــافهـــا أشعـــرا

للّـــه أصـــل أنـــت فـــرع لـــه
مـــا أطيـــب المجتنـــى ومـــا أطهـــرا

مـــا حلـــب البيضـــاء مـــذ صنتهـــا
إلاّ حـــرام مثـــل أمّ القـــرى

شيـــدت في معمـــور أرجـــائهـــا
لكـــل بـــاغـــي عمـــره مشعـــرا

فـــأصبـــح الشـــادي إذا ثـــوّب الـــ
ـــداعي لـــه هلـــل أو كبرا

لا عـــدم الاســـلام مـــن كفـــه
كهـــف لمن أرهـــق أو أحصرا

كـــأنها ســـاحتـــه جنـــة
أجـــرت بها راحتـــه كـــوثـــرا

تصرّم الشهـــر الـــذي كنـــت في
أوقـــاتـــه مـــن قـــدره أشهـــرا

جهـــاد ليـــل في نهار غـــزا
إذ كنـــت فيـــه الأصبر الأشكـــرا

أصـــدق مـــا يـــرشفـــه ســـامـــع
مـــا هـــز مـــن أوصـــافـــك المنبرا

أبقـــاك للـــدنيـــا وللـــديـــن مـــن
خـــلاك في ليلهما نيرا

حتـــى تـــرى عيســـى مـــن القـــدس قـــد
نجـــا إلى سيفـــك مستنصرا

قال أبو يعلى: وفي رجب أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم في الجامع المعمور بدمشق على جري العادة والرسم، فبدأ من إختلافهم في أحوالهم وأغراضهم والخوض في قضايا لا حاجة لها من المذاهب ما أوجب

صرفهم عن هذه الحال، وإبطال الوعظ لما يتوجه معه من الفساد،وطمع سفهاء الأوغاد وذلك في آخر شعبان منها.

قال: وكثر فساد الفرنج المقيمين بصور وعكا والثغور الساحلية في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق، فأغار معين الدين على أعمالهم وخيم في ناحية من حوران بالعسكر، وكاتب العرب واستدعى جماعة وافرة من التركمان، وأطلق أيديهم في نهبهم والفتك بهم، فلم يزل على النكاية فيهم، والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة.

ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فجدّدت المهادنة في المحرّم مدّة سنتين، وأنفذ نور الدين إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكية قد جمع أفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد برز في عسكره إلى ظاهر حلب للقائه والحاجة ماسة إلى معاضدته، فندب معين الدين مجاهد الدين بُزان بن مامين في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمصير إلى جهته، وبذل المجهود في طاعته ومناصحته، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حوران.

قال: وفي صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الّله تعالى، وله الحمد على حشد الفرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلاّ من أخبر ببوارهم، وتعجيل دمارهم، وذلك أن نور الدين اجتمع له من العساكر ستة آلاف فارس مقاتلة سوى الاتباع والسواد، فنهض بهم إلى الفرنج في الموضع المعروف بإنّب وهم في نحو أربعمائة فارس وألف راجل، فقتلوهم وغنموهم ووجد اللعين البرنس مقدّمهم صريعاً بين حماته وأبطاله، فعرف وقطع رأسه، وحمل إلى نور الدين ، وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية، وشدّة البأس وقوة الحيل، وعظم الخلقة، مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة والتناهي في الشر، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر.

ثم نزل نور الدين في العسكر على باب انطاكية، وقد خلت من حماتها والذابين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة عددهم وحصانة بلدهم، وتردّدت المراسلات بينه وبينهم في طلب التسليم إليه وإيمانهم وصيانة أموالهم، فوقع الاحتجاج منهم بأن هذا الأمر لايمكنهم الدخول فيه إلاّ بعد انقطاع أمالهم من الناصر لهم والمعين على من يقصدهم، وحملوا ما أمكنهم من التحف والمال، ثم استمهلوا فأمهلوا، ثم رتب نور الدين

بعض العسكر للاقامة عليها، والمنع لمن يصل إليها، ونهض في بقية العسكر إلى ناحية أفامية، وقد كان رتب الأمير صلاح الدين في فريق وافر من العسكر لمنازلتها ومضايقتها، فالتمسوا الأمان فأومنوا على أنفسهم وسلموا البلد في ثامن عشر ربيع الأوّل، وانكفأ نور الدين في عسكره إلى ناحية أنطاكية وقد إنتهى الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد من بها ، فاقتضت الحال مهادنة من في أنطاكية وموادعتهم، وتقرير أن يكون ماقرب من الأعمال الحلبية له، وما قرب من أنطاكية لهم، ورحل عنهم إلى جهة غيرهم بحيث كان قد ملك في هذه النوبة مما حول انطاكية من الحصون والقلاع والمقالع، وغيرها من المغانم الجمة، وفصل عنه الامير مجاهد الدين بزان في العسكر الدمشقي وقد كان له في هذه الوقعة ولمن في جملته البلاء المشهور والذكر المشكور، لما هو موصوف به من الشهامة والبسالة وإصابة الرأي والمعرفة بمواقف الحروب.

وقال ابن أبي طي: حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله وقتل البرنس صاحب أنطاكية وجماعة من وجوه عسكره، ولم يقتل من المسلمين من يقوم به، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى، وكان لأسد الدين في هذه الحرب اليد البيضاء، ومدحه بها بعض الشعراء الحلبيين بقصيدة يقول فيها:

إذا كان آل فرنج أدركوا فلجا ... في يوم يغراونا والوامنية الظفر

ففي الخطيم خطمت الكفر منصلتا ... أبا المظفر بالصمصامة الذكر

نالوا بيغرا نهابا وانتبهت لنا ... على الخطيم نفوس المعشر الأشر

واستقودوا الخيل عريا واستقدت لنا ... قوامص الكفر في ذل وفي صغر

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير، وعدّة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئا.

وفي هذه السنة عظم أمر أسد الدين

وقال ابن الأثير: سار نور الدين إلى حصن حارم، وهو للفرنج فحصره وخرّب ربضه ونهب سواده ثم رحل عنه إلى حصن إنب فحصره، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إنب فلم يرحل بل لقيهم وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس، وإنجلت الحرب عن هزيمة الفرنج، وقتل المسلمون منهم خلقا كثيرا، وفيمن قتل البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتيا من عتاة الفرنج وذوي التقدّم فيهم والملك، ولما قتل البرنس خلف ابناصغير وهو بيمند فبقي مع أمّه بأنطاكية ، فتزوجت أمه ببرنس آخر وأقام معها بأنطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند، ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى وهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أمّ بيمند، فلما أسره تملك بيمند أيضا أنطاكية بلد أبيه وتمكن منه، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح ، وقتل البرنس، فممن قال فيه القيسراني الشاعر من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية أوّلها:

هذي العزائم لا ما تدعي القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الاشعار والخطب

صـــافحـــت يـــابـــن عـماد الـــديـــن ذروتها
بـــراحـــة للمســـاعـــي دونها تعـــب
مـــازال جـــدّك يبنـــي كـــل شـــاهقـــة
حتـــى إبتنـــى قبـــة أوتـــادهـــا الشهـــب
للّـــه عـــزمـــك مـــا أمضـــى وهمك مـــا
أفضـــى اتســاعـــا بها ضـــاقـــت بـــه الحقـــب
يـــاســـاهـــد الطـــرف والأجفـــان هـــاجعـــة
وثـــابـــت القلـــب والأحشـــاء تضطـــرب
أغـــرت سيـــوفـــك بـــالافـــرنـــج راجفـــة
فـــؤاد روميـــة الكبرى لها يجب
ضربـــت كبشهـــم منهـــا بقـــاصمـــة
أودى بها الصلـــب وانحطـــت بها الصلـــب
قـــل للطغـــاة وإن صمـــت مســـامعـــا
قـــولا لصـــم القنـــا في ذكـــره أرب
مـــا يـــوم إنـــب والأيـــام دائلـــة
مـــن يـــوم يغـــرا بعيـــد لا ولا كثـــب
أغـــرّكـــم خـــدعـــة الآمـــال ظنكـــم
كـــم أسلـــم الجهـــل ظنـــا غـــرّه الكـــذب
غضبـــت للـــديـــن حتـــى لم يفتـــك رضـــى
وكـــان ديـــن الهدى مـــرضـــاتـــه الغضـــب
طهـــرت أرض الأعـــادي مـــن دمـــائهـــم
طهـــارة كـــل سيـــف عنـــدهـــا جنـــب
حتـــى استطـــار شرار الـــزنـــد قـــادحـــة
فـــالحرب تضرم والآجـــال تحتطـــب
والخيـــل مـــن تحت قتـــلاهـــا تقـــرلها
قـــوائم خـــانهنّ الـــركـــض والخبـــب
والنقـــع فـــوق صقـــال البيـــض منعقـــد
كما استقـــل دخـــان تحتـــه لهب

السيـــف هـــام على هـــام بمعــركــة
لا البيـــض ذو ذمّـــة فيهـــا ولا اليلـــب
والنبـــل كـــالـــوبـــل هطـــال وليس لـــه
ســوى القسي وأيـــد فـــوقهـــا سحـــب
وللظبـــى ظفـــر حلـــو مـــذاقتـــه
كـــأنما الضرب فيما بينهـــم ضرب
ولـــلأسنـــة عما في صـــدورهـــم
مصـــادر أقلـــوب تلـــك أم قلـــب
خـــانـــوا فخـــانـــت رمـــاح الطعـــن أيـــديهم
فـــاستسلمـــوا وهـــي لا نبـــع ولا غـــرب
كـــذاك مـــن لم يـــوق اللّـــه مهجتـــه
لاقـــى العـــدى والقنـــا في كفـــه قصـــب
كـــانـــت سيـــوفهـــم أوحـــى حتـــوفهـــم
يـــارب حـــائنـــه منجـــاتها العطـــب
حتـــى الطـــوارق كـــانـــت مـــن طـــوارقهـــم
ثـــارت عليهـــم بها مـــن تحتهـــا النـــوب
أجســـادهـــم في ثيـــاب مـــن دمـــائهـــم
مسلـــوبـــة وكـــأنّ القـــوم مـــا سلبـــوا
أبنـــاء ملحمـــة لـــو أنها ذكـــرت
فيما مضـــى نسيـــت أيـــامهـــا العـــرب
مـــن كـــان يغـــزو بـــلاد الشرك مكتسبـــا
مـــن الملـــوك فنـــور الـــديـــن محتســـب
ذو غـــرّة مـــا سمـــت والليـــل معتكـــر
إلا تمزق عـــن شمـــس الضحـــى الحجـــب
أفعـــالـــه كـــاسمـــه في كـــل حـــادثـــة
ووجهـــه نـــائب عـــن وصفـــه اللقـــب
في كـــل يـــوم لفكـــري مـــن وقـــائعـــه
شغـــل فكـــل مـــديحي فيـــه مقتضـــب

مــن بـاتــت الاســد أسرى في ســلاسلــه
هــل يــأسر الغلــب إلاّ مــن لــه الغلــب
فملكــوا سلــب الابــرنــس قــاتلــه
وهـــل لــه غير أنطـــاكيـــة سلـــب
مــن للشقــي بها لاقـــت فـــوارســه
وإن يســـائرهـــا مـــن تحتـــه قتـــب
عجبــت للصعــدة السمـــراء مثمــرة
بـــرأســـه إن أثمار القنـــا عجـــب
سما عليهـــا سمـــوّ الماء أرهقـــه
أنبـــوبـــة في صعـــود أصلهـــا صبـــب
مـا فـــارقـت عـذبـات التـاج مفـرقــه
إلاّ وهــــي منـــه لا تـــاج ولا عـــذب
إذا القنـــاة ابتغـــت في رأســـه نفقـــا
بـــدا الثعلبهـــا مــن نحــره سرب
كنـــا نعـــدّ حمى أطـــرافنـــا ظفـــرا
فملكتـــك الظبـــى مـــا ليـــس نحتسـب
عمـت فتـــوحـك بـالعــدوى معـاقلهـا
كـــان تسليـــم هـــذا عنـــد ذا جـــرب
لم يبـــق منهـــم ســـوى بيـــض بـــلا رمـــق
كما التـــوى بعـــد رأس الحيـــة الـــذنـــب
فـــانهض إلى المسجـــد الأقصـــى بـــذي لجب
يـــوليـك أقصـــى المنى فـالقـدس مـرتقـب
وائذن لموجـــك في تطهير ســـاحلـــه
فـــانما أنـــت بحـــر لجه لجب
يـــا مـــن أعـــاد ثغـــور الشـــام ضـــاحكـــة
مـــن الظبـــي عـــن ثغـــور زانها الشنـــب
مـــازلـــت تلحـــق عـــاصيهـــا بطـــائعهـــا
حتـــى أقمـــت وأنطـــاكيـــة حلـــب

حللت من عقلها أيدي معاقلها
فاستجفلت وإلى مشاقك الهرب

وأيقنت أنها تتلو مراكزها
وكيف يثبت بيت ما له طنب

أجريت من ثغر الاعناق أنفسها
جري الجفون امتراها بارح حصب

وما ركزت القنا إلاّ ومنك على
جسر الحديد هزبر غيله اشب

فاسعد بما نلته من كل صالحة
يأوي إلى جنة المأوى لها حسب

إن لا تكن أحد الابدال في فلك الـ
ـتقوى فلا تتمارى أنك القطب

فلو تناسب أملاك السماء بها
لكان بينكما من عفة نسب

هذا وهل كان في الاسلام مكرمة
إلا شهدت وعباد الهوى غيب

وله فيه من قصيدة أخرى:

ألا للّه درّك أي درّ
صريح جاء بالكرم الصريح

وعسكرك الذي استولى مشيحا
على ما بين فاميه وشيح

ووقعتك التي بنت العوالي
صوادر عن قتيل أو جريح

بإنب يوم أبرزت المذاكي
من النقع الغزالة في مسوح

غداة كأنما العاصي احمرارا
من الدم عبرة الجفن القريح

وقد وافاك بالابرنس حتف
أتيح له من القدر المتيح

قتلت أشحهم بالنفس إذ لا
يجود بنفسه غير الشحيح

ملأت بهم ضرائحهم فأمسوا
وليس سوى القشاعم من ضريح

وعدت إلى ذرا حلب حميدا
سمو البدر من بعد الجنوح

فإن جليت بغرتك الليالي
فكم لسناك من زمن مليح

رويدك تسكن الهيجا فواقا
بحيث تريح من تعب المريح

فأنت وإن أرحت الخيل وقتا
فهمك غيرهم المستريح

قال أحمد بن منير يمدحه، ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه، وحمل رأسه إلى حلب، وأنشده أيضا إياها بجسر الحديد:

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته
وعلا الهدى وتبلجت قسماته

وانتاش دين محمد محموده
من بعد ما غُلّت دما عبراته

ردّت على الاسلام عصر شبابه
وثباته من دونه وثباته

أرسى قواعده ومدّ عماده
صعدا وشيد سوره سوراته

وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا
اصلاته وصلاته وصلاته

لما تواكل حربه وتخاذلت
أنصاره وتقاصرت خطواته

رفعت لنور الدين نار عزيمة
رجعت لها عن طبعها ظلماته
ملك مجالس لهوه شداته
ومشوقه بين الصفوف شذاته
تغري بحشحشة اليراع بنانه
إن لذ حشحشة الكؤوس لداته
ويروقه ثغر العدى قان دما
لا الثغر يعبق في لماه لثاته
فصبوحه خمر الطلى وغبوقه
نطف النفوس تدرّها انشواته
فتح تعممت السماء بفخره
وهفت على أغصانها عذباته
سبغت على الاسلام بيض حجوله
واختال في أوضاحها جبهاته
وانهل فوق الابطحين غمامه
وسرت إلى سكينها نفحاته
للّه بلجة ليلة محصت به
واليوم ذبح وشيه ساعاته
حط القوامص فيه بعد قماصها
ضرب يصلصل في الطلى صعقاته
نبذوا السلاح لضيغم عاداته
فرس الفوارس والقنا غاياته
لمجرب عمريه غضباته
للّه معتصميه غزواته
تحيا الضيق صفاده اسراؤه
وتفيض ماء شؤونها نغماته
بين الجبال خواضعا أعناقها
كالذود نابت عن براه حداته

نشرت على حلب عقود بنودهم
حل الربيع تناسقت زهراته
روض جناه لها مكرر جياده
واستوأرت حمالة حملاته
متساندين على الرحال كما انثنى
شرب أمالت هامه قهواته
لم تنبت الأجسام قبل رماحه
شجراً فروع أصوله ثمراته
فليحمد الاسلام ما جدحت له
شربات غرس هذه مخباته
وسقى صداذاك الحيا صوب الحيا
خير الثرى ما كنت أنت نباته
نصب السرير ومال عنه ومهدت
لمقر منصبك السرى سراته
ما ضرّ هذا البدر وهو محلق
إن الكواكب في الذرى ضراته
في كل يوم تستطيل قناته
فوق السماء وتعتلي درجاته
وترى كشمس في الضحى آثاره
مجداً وألسنة الزمان رواته
أين الأولى ملأوا الطروس زخارفا
عن نزف بحر هذه قطراته
عذقوا بأعناق العواطل ماله
من جوهر فأتتهم فذاته
لو فصلوا اسمطا ببعض فتوحه
سخرت بها افتعلوا الهم فعلاته
تمسي قنا نيه بنات قيونه
فوق القوانس والقنا قيناته

صلتبان من دون الملوك تغرها
حركاته وتنيمها يقظاته
فغدت بهم عن خطوه هماتهم
وسمت به عن قطوهم هماته
سكنوا مسجفة الحجال وأسكنت
زحل الرجال مع السها عزماته
لو لاح للطائي غرة فتحه
باءت بحمل تأوه باآته
أوهب للطبري طيب نسيمه
لاحتش من تاريخه حشواته
صدم الصليب على صلابة عوده
فتفرقت أيدى سبا أخشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة
بالروح مقر ما خبت عذراته
فانقاد في خطم المنية أنفه
يوم الخطيم واقصرت نزواته
ومضى يسؤنب تحت إنسب همة
أمست زوافر غيها زفراته
أسد تبوأ كالغرنف فجاآته
فتبوأت طرف السنان شواته
دون النجوم مغمضا ولطالما
اغضت وقد كرت لها لحظاته
فجلوته تبكي الاصادق تحته
بدم إذا ضحكت له شماته
تمشي القناة برأسه وهو الذي
نظمت مدار النيرين قناته
لو عانق العيوق يوم رفعته
لاراك شاهد خفضه اخباته

مـــا انقــــادقبلـــك أنفـــه لخزامـــه
كــــلا ولا همســـت لها هـــدراتـــه
طيـــان خلـــف السرح طـــال زئيره
نطقـــت سطـــاك لــه فطـــال صماتــه
لما بـــدا مســـود رأيـــك فـــوقــه
مبيـــض نصرك نكســـت رايـــاتـــه
ورأى سيـــوفـــك كـــالصـــوالـــج طـــاوحـت
مثـــل الكـــريـــن فقلصـــت كـــراتـــه
ولى وقـــد شربـــت ظبـــاك كماتـــه
تحت العجـــاج وأسلمتـــه حماتـــه
تـــرك الكنـــائس والكنـــاس لنـــاهـــب
بـــالبيـــض نهب مـــاحـــواه عفـــاتـــه
لغـــلاب أروع لا يميـــت عـــداتـــه
داء المطـــال ولا تعيـــش عـــداتـــه
للـــوحـــش ملقـــى بـــالعـــرا يقتـــاتـــه
مـــاكـــان قبـــل بصيـــده يقتـــاتـــه
اليـــوم ملكـــك القـــراع قـــلاعـــه
متسنها مـــا استشرفـــت شرفـــاتـــه
وغـــدا تحل لـــك الحلائل اسهـــم
متـــوزعـــات بينهـــن بنـــاتـــه
اوطـــأت أطـــراف السنـــابـــك هـــامـــه
فتقـــاذفـــت بعنيفهـــا قـــذفـــاتـــه
لازال هـــذا الملـــك يشمـــخ شـــأنـــه
أبـــدا ويلفـــت في الحضيـــض وشـــاتـــه
مـــا أخطـــأتـــك يـــد الـــزمـــان فـــدونـــه
مـــن شـــاء فلتسرع إليـــه هنـــاتـــه
أنـــت الـــذي تحلى الحيـــاة حيـــاتـــه
وتهب أرواح القصيـــد هبـــاتـــه

فصل

قال ابن الاثير: وفيها سار نور الدين إلى حصن فامية، وهو للفرنج أيضا، وبينه وبين مدينة حماه مائة مرحلة، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها، وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبوها، فأهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار، فسار نو الدين إليه وحصره وضيق عليه ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادهم وساروا نحو ه ليزحزحوه عنها فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه، فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم فحين رأوا جدّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذه ومدحه الشعراء وأكثر وا.منهم أبو الحسن أحمد بن منير حيث قال:

اسنى الممالك ما اطلت منارها
وجعلت مرهفة الشفار دثارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها
رؤوف تكنف عدله أقطارها
من عام سام الخافقين وحامها
مننا وزاده هوى فخص نزارها
مضربة طبعت مضاربه وإن
عدّته ذروة فارس اسوارها
آل الرعية وهي تجهل آلها
وتعاف نطفتها وتكره دارها
فأقرّ ضجعتها وأنبت نيها
وأساغ جرعتها واثبت زارها
ملك أبوه سماها فسما بها
وأجارها فعلت سهيلا جارها

نهج السبيـــل لـــه فـــأوضــــع خلفـــه
وشـــدالـــه يمـــن العلى فـــانـــارهـــا
أنشرت يـــــامحمـــــود ملـــــة أحمد
مـــن بعـــد مـــا شمـــل البلى اصحـــارهـــا
إن جـــانـــأت عـــدل السنـــان قـــوامهـــا
أو نـــانـــأت كـــان الحســـام جبـــارهـــا
عقلـــت مـع العصـــم العـــواصـــم مـذ غـــدت
هـــذي العـــزائم أسرهـــا وإســـارهـــا
وتكلفـــت لـــك ضمـــر انضيتهـــا
في صـــونها أن تستردّ ضمارهـــا
كـــلأت هـــواملهـــا وردّ مطـــارهـــا
مـــا أريشتـــه وثقفـــت آطـــارهـــا
كـــم حـــاولـــت مـــن كفتيهـــا غـــرّة
غلـــب الأســـود فقلمـــت أظفـــارهـــا
أنـــى وحـــامـــي سرحهـــا مـــن لـــو سمـــت
للفلـــك بسطتـــه أحـــال مـــدارهـــا
في كـــل يـــوم مـــن فتـــوحـــك ســـورة
للـــديـــن يحمـــل سفـــره أسفـــارهـــا
ومطيلـــة قصر المنـــابـــر إن غـــدا الـــ
ــــخطباء تنثـــر فـــوقهـــا تقصـــارهـــا
همم تحجلـــت الملـــوك وراءهـــا
بـــدم العثـــار ومـــا اقتفـــت آثـــارهـــا
وعـــزائم تستـــوثر الآســـاد عـــن
نهش الفـــرائس إن أحـــس أوارهـــا
أبـــدا تقصر طـــول مشرفـــة الـــذرى
بـــا لمشرفيـــة أو تطيـــل قصـــارهـــا
فغـــزت أفـــاميـــة فما فهمتـــه
كـــوبـــار أجنـــاهـــا الاران بـــوارهـــا

أرهفــــت رائك فـــــوق رائك تحتهـــا
فحططـــت مـــن شغفـــاتها أعفـــارهـــا

أدركـــت ثـــارك في البغـــاة وكنـــت يـــا
مختـــار أمّـــة أحمد مختـــارهـــا

عـــاريـــة الـــزمـــن المغير سماها
منـــك المغيرة فـــاستردّ معـــارهـــا

زأر الهزبـــر فقيـــدت عـــانـــاتها
عصر الضـــلال وأسلمـــت أعيـــارهـــا

ضـــاءت نجـــومـــك فـــوقهـــا ولـــربما
بـــاتـــت تنـــافثهـــا النجـــوم سرارهـــا

أمســـت مـــع الشعـــرى العبـــور وأصبحـــت
شعـــراء تستقلي الفحـــول شـــوارهـــا

ولكـــم فـــرعـــت بمقـــربـــاتـــك مثلهـــا
تلعـــا وقلـــدت الكماة عـــذارهـــا

حتـــى إذا اشتملتـــك أشرق ســـورهـــا
عـــزا وحـــلاهـــا سنـــاك ســـوارهـــا

خـــرّ الصليـــب وقـــد علـــت نغماتها
واستـــوبلـــت صلـــواتـــه تكـــرارهـــا

لما وعـــاهـــا سمـــع انطـــاكيـــة
سرت الـــوقـــار وكشفـــت أستـــارهـــا

فـــاليـــوم أضحـــت تستـــذمّ مجيرهـــا
مـــن جـــوره وغـــدت تـــذمّ جـــوارهـــا

علمـــت بـــأن ستـــذوق جـــرعـــة أختهـــا
إن زرّ أطـــواق القبـــاء وزارهـــا

مـــاض إذا قـــرع الـــركـــاب لبلـــدة
ألقـــت لـــه قبـــل القـــراع ازارهـــا

و إذا مجانقـــه ركعـــن لصعبـــة الـــ
ـــملقاة أسجـــد كـــالجديـــر جـــدارهـــا

ملأ البلاد مواهباً ومهابة
حتى استرقت آية أحرارها

يذكي العيون إذا أقام لعينها
أبداً ويفضي بالظبى أبكارها

أو ما إلى رمم الندى فأعاشها
وهما السابقة المنى فأزارها

نبويّ تشبيه الفتوح كأنها
أنصاره رجعت له أنصارها

أحيا الصرح سلامها سلمانها
وأمات تحت عمارها أعمارها

إن سار سار وقد تقدّم جيشه
رجف يقصع في اللهى ذعارها

أو حلّ حلّ حبا القروم بهيبة
سلب البدور وبدارها أبدارها

وإذا الملوك تنافسوا درج العلى
أربى بنفس أفرعته خيارها

ونهى إذا هيضت تدلّ لجبرها
وسطى تذل إذا عنت جبارها

تهدى لمحمود السجايا كاسمه
لولز فاعلة بها لأبرارها

الفاعل الفعلات ينظم في الدجى
بين النجوم حسودها اسمارها

ساع سعى والسابقات وراءه
عنقاً فعصفر منتهاه عثارها

كالمضرجي إذا يصرصر رائباً
خرس البغاث وهاجرت أوكارها

عرفت لنور الدين نور وقائع
يغشى إذا اكتحلت به أبصارها

مشهورة سطعت وقد حاولتها الـ
أقدار عجزا أن تشق غبارها
للّه وجهك والوجوه كأنها
حطت بها أوقار هبت قارها
والبيض تخنس في الصدور صدورها
هبرا وتكتحل الشفور شفارها
والخيل تدلج تحت أرشية القنا
جذب المواتح غاورت أبارها
فبقيت تستجلي الفتوح عرائسا
متمليا صدر العلى وصدارها
في دولة للنصر فوق لوائها
زبر تنمق في الطلى أسطارها
فالدين مرماة رفعت بها الصوى
وحديقة ضمنت يداك ابارها

وله فيه من قصيدة أخرى:

خنس الثعالب حين زمجر مصحر
ملأ البلاد هماهما وزئيرا
تركوا مشاجرة الرماح لحاذق
جعلت مخافته القصور قبورا
لربيب حرب لم تزل فعلاته
كالراء يلزم لفظها التكريرا
أسد إذا ما عاد من ظفر بمفـ
ـترس أحدّ لمثله اظفورا
يتناذر الأعداء منه سطوة
ملأ الزمان تغيظا وزفيرا
عرفوا النور الدين وقع وقائع
وفى بها الاسلام أمس نذورا

أبـــدا يظــــافـــرك القضـــــاء على الــــذي
تبغــــي فترجــــع ظــــافــــرا منصـــورا
قــوّضــت فـــانتقــع الظهـــائر ظلمــة
وقفلـــت فـــاشتعـــل الـديـــاجـر نـــورا
وعلى العـــواصـــم مـــن دفـــاعــك عـــاصـــم
ينشــــي الــــرشيـــد وينشر المنصـــورا

فصل

في وفاة معين الدين أنر بدمشق وما كان من الرئيس ابن الصوفي في هذه السنة

قـال أبـو يعلى التميمي: فصـل معين الـديـن من عسـكره بحـوران ووصـل إلى دمشق في أواخـر ربيع الآخـر لأمـر أوجب ذلـك ودعا إليـه وأمعن في الأكل ، فلحقـه عقيب ذلك انطلاق تمادى بـه، وحمله اجتهاده فيما يدبره على العـود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هـذه الصفة من الانطلاق، وقد زاد به وضعفت قوته وتولد معه مـرض في الكبد، فأوجب الحال عـوده إلى دمشق، في محفـة لمداواته فوصـل، وقضـى نحبه في ليلـة الثالـث والعشرين من ربيـع الآخر، ودفن في إيـوان الدار الأتابكيـة التي كان يسكنها، ثم نقل بعد ذلك إلى المدرسة التي عمرها.

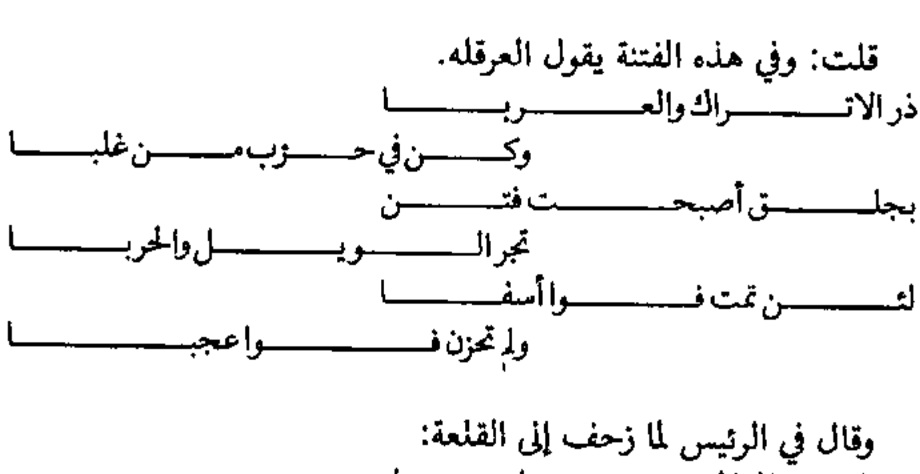
قلـت: قبره في قبـة بمقـابـر العـوينـة شمالي دار البطيـخ الآن واسمـه مكتوب على بابها فلعله نقـل من ثم إليها، وفيه يقول الأمير مـؤيد الدولة أسامـة بن منقذ وكتب بها إليـه من مصر لما لقي الفـرنج في أرض بصرى وصرخد مع نور الدين، وقد تقدم ذلك كتب إليه قصيدة يقول فيها:

كــــــل يـــــــوم فتــــــح مبين ونصر
واعتـــــلاء على الاعـــــادي وقهـــــر

صدق النعت فيك أنت معين الـ
ـدين إن النعوت فال وزجر
أنت سيف الاسلام حقا فلا كل
غراريك أيها السيف دهر
لم تزل تضمر الجهاد مسرا
ثم أعلنت حين أمكن جهر
كل ذخر الملوك يفنى وذخرا
ك هما الباقيان أجر وشكر (٥٧)

قال: وفي يوم الجمعة تاسع رجب قرىء المنشور المنشأ عن مجير الدين بعد الصلاة على المنبر بابطال الفيئة المستخرجة من الرعية وإزالة حكمها وتعفية رسمها وإبطال دار الضرب، فكثر دعاء الناس له وشكرهم، قال: واستوحش الرئيس مؤيد الدولة من مجير الدين استيحاشا أوجب جمع من أمكنه من سفهاء الأحداث والغوغاء وحملة السلاح من الجهلة العوام وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حيدرة للاحتماء بهم من مكروه يتم عليهما، وذلك في ثالث عشر رجب، ووقعت المراسلات من مجير الدين بما يسكنهما ويطيب أنفسهما، فما وثقا بذلك وجدا في الجمع والاحتشاد من العوام وبعض الاجناد ، وأثارا الفتنة فقصدوا باب السجن وكسروا غلاقه وإطلقوا من فيه، واستنفروا جماعة من أهل الشاغور وغيرهم وقصدوا الباب الشرقي وفعلوا مثل ذلك، وحصلوا في جمع كثير، وامتلأت بهم الأزقة والدروب، فحين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا في القلعة بالسلاح الشاكي، وأخرج ما في خزانته من السلاح والعدد وفرقت على العسكر، وعزموا على الزحف على جميع الأوباش والايقاع بهم والنكاية فيهم، فسأل جماعة من المقدمين التمهل في هذا الأمر وترك العجلة بحيث تحقن الدماء ويسلم البلد من النهب والحريق، وألحوا عليه إلى أن أجاب سؤالهم، ووقعت المراسلة والتلطف في إصلاح ذات البين، فاشترط الرئيس وأخوه شروطا أجيبا إلى بعضها،

وأعرض عن بعض بحيث يكون ملازما لداره، ويكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الديوان، ولايركب إلى القلعة إلا مستدعى إليها، وتقررت الحال على ذلك وسكنت الدهماء، ثم حدث بعد هذا التغيير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد وجمع الجمع الكثير من الاجناد والمقدّمين والرعاع والفلاحين، واتفقوا على الزحف إلى القلعة، وحصر من بها وطلب من عين عليه من الأعداء الأعيان في أواخر رجب، ونشبت الحرب بين الفريقين وجرح وقتل بينهم نفر يسير، وعاد كل فريق منهم إلى مكانه ووافق ذلك هروب السلار زين الدين اسماعيل الشحنة وأخيه إلى ناحية بعلبك، ولم تزل الفتنة ثائرةوالمحاربة متصلة إلى أن اقتضت الصورة إبعاد من التمس ابعاده من خواص مجير الدين، وسكنت الفتنة وأطلقت أيدى النهابة في دار السلار زين الدين وأخيه وأصحابهما ،وعمهما النهب والاخراب، ودعت الضرورة إلى تطييب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما وإعادة الرئيس إلى الوزارة والرياسة بحيث لايكون له في ذلك معترض ولا مشارك.



قلت: وفي هذه الفتنة يقول العرقله.

ذر الاتـــراك والعـــربـــا
وكـــن في حـــزب مــن غلبـــا

بجلـــق أصبحـــت فتـــن
تجر الـــويـــل والحربـــا

لئـــن تمت فـــوا أسفـــا
ولم تحزن فـــوا عجبـــا

وقال في الرئيس لما زحف إلى القلعة:

زد علـــوا في المجـــد يـــا بـــن علي
هكـــذا مـــن أراد أن يتعـــالى

وغـــدت جلـــق تنـــاديـــك عجبـــا
هكـــذا هكـــذا والا فـــلا لا

لـــن تبــــالي مـــن بعــــد هـــــابعـــدو
إنما ذاك كـــــان قطعــــــافـــــزالا
قــد حــوى الــديــن يــا مــؤيــده منــــ
ـــك هــــزبـــرا أو ديمـــة وهــــلالا
جئتهـــا في الظـــلام خيــــلا ورجـــلا
وحميـــت النفـــوس والامــــوالا
قــــد بلغــــت المراد مــــن كــــل ضــــد
وكفــــى اللّــــه المؤمنين القتــــالا

قـال أبـو يعلى التميمـي: وفيهـا ورد الخبر مـن نـاحيـة مصر بـوفـاة المستخلف بها الملقب بالحافظ واسمه عبد المجيد بن الآمر بن المستنصر في خـامس جمادى الآخرة ، وولي الأمـر بعد ولـده الأصغـر أبو منصـور اسماعيل ، ولقب بالظافر، وولي الـوزارة أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال المغربي.

فصل

في وفاة سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل

وهو أخو نور الدين الأكبر.

قال ابـن الاثير:كان أتـابك الشهيـد، يعني زنكـي، ملك دارا وبقيـت بيده إلى أن قتل، فأخذها صاحب ماردين، ثم سار إليها سيف الدين بن الشهيد في سنـة أربع وأربعين فحـاصرها وملكهـا واستولى على كثير مـن بلد مـاردين بسببهـا، ثم حصر ماردين عازما على أن يـدخل ديـار بكر، ويستعيد مـا أخذ مـن البلاد بعـد قتل والـده، فتفرق العسكـر في بلدهـا ينهبون ويخربون، فقال صاحب ماردين: كنـا نشكو من أتابك وأين أيامه فلقد كـانت أعيـاداً قد حصرنـا غير مرة فلـم يتعدّ هـو وعسكره حـاصل

السلطان، ولا أخذوا كفا من التبن بغير ثمن:

ربَّ دهـــــــر بكيـــــــت منـــــــه فلما
صرت في غيره بكيـــــــت عليـــــــه

ثم إنـه راسل سيف الديـن وصالحه على ما أراد وزوجه ابنتـه الخاتون، ورحـل سيف الـدين عـن ماردين وعاد إلى الموصـل، وجهزت الخاتـون وسيرت إليه فوصلت إلى الموصل وهو مـريض فتوفي ولم يدخل بها، وذلك في أواخر جمادى الآخرة، وكـان عمره نحو أربعين سنة، وكـان من أحسن الناس صورة، ودفـن بالمدرسة التي أنشـأها بباطن الموصـل، وخلف ولدا ذكر أخذه نـور الدين محمود عمـه فرباه فأحسـن تربيته وزوّجه ابنـة عمه قطب الدين مـودود، فلم تطل أيامه وأدركه أجله في عنفـوان شبابه فتوفي وانقرض عقـب سيف الـدين، وكـان كريما شجـاعاً ذا عـزم وحزم، وهـو أوّل من حمل على رأسه سنجـق من أصحاب الأطراف فإنـه لم يكن فيهم مـن يفعله لأجـل السلاطين السلجـوقيـة، وهو أوّل مـن أمر عسكـره أن لايركـب أحدهـم إلا والسيف في وسطه، فلما أمـر هو بـذلك إقتـدى به غيره من أصحـاب الأطراف، وبنـى بالموصـل المدرسة الأتـابكية العتيقـة وهي مـن أحسن المدارس وأوسعها، وجعلهـا وقفا على الفقهاء الشـافعية والحنفيـة نصفين، وبنى ربـاط الصوفيـة بالموصـل أيضـا، وهـو الربـاط المجاور لبـاب المشرعة ووقف عليهما الـوقوف الكثيرة، وكان كـريما قصده شهاب الـدين حيص بيـص وامتدحه بقصيدتـه المشهورة وهي مـن جيد شعره فـأجازه عنها ألـف دينار أميري سوى الاقامـة والتعهد مدّة مقـامه وسوى الخلع والثياب.

قلت أوّل تلك القصيدة:

إلى م يـــــراك المجـــــد في زي شـــــاعـــــر

يقول في آخرها:

أتـابـك إن سميـت في المهـد غـازيـا
فسـابقـة معـدودة في البشـائر
وفيـت بها والـدين قـد مـال روقـه
وصـدّقتهـا والكفـر بـادي الشعـائر

وعزى أبو الحسين أحمد بن منير نور الدين بأخيه بقصيدة تقدّم بعضها أوّلها:
هـو الجدّ بـز التمام البـدورا

يقول فيها:
سـوى كـل مـا جنـت الحادثـا
ت مـا كنـت ظـلا علينـا قـريـرا
أسـا ن وأحسـن كـنّ الهلال
ومـلأننـا منـك بـدرا منيرا
إذا ثبـج البحـر أخطـأته
فـلا غـرو أن ينتشفـن الغـديـرا
وأصغـر بفقـدا ننـا الـذاهبـ
ـين مـا عشـت نـا تيـك ملكـا كبيرا
ومـا أغمـد الـدهـر ذاك الحسـا
م مـا سـلّ حـداك عضبـا بتـورا
قسيـم عـلاك ونعـم القسـ
ـيم أخ شـاف نـزرا وأعطـى كثيرا
وكـان نظيرك غـار الـزمـا
ن مـن أن يـرى لـك فيـه نظيرا
فـدتـك نفـوس بـك استـوطنـت
مـن الأمـن نـورا وقـد كـنّ بـورا
وغيرك يمهـد بسـط العـزا
ء ويـولي المسلمين سمعـا وقـورا

ومـــا نقـــص الـــدهـــر اعـــدادكـــم
إذا شـــف قطـــرا وأبقـــى بحـــورا

ولـــو أنصـــف المجـــد مـــوتـــاكـــم
لخط لهم في السماء القـــــــــــــورا

حيـــاتـــك أحيـــت رميـــم الـــرجـــا
وأمطـــت مـــن الجود ظهـــرا ظهيرا

بقيـــــت معـــزا مـــن الهالكـــــ
ـــين تـــوقـــى الـــردى تـــوفي الاجـــورا

وللقيسراني قصيدة منها

مـــا أطـــرق الجو حتـــى أشرق الافـــق
إن أغمـــد السيـــف فـــالصمصـــام يـــأتلـــق

دون الاســـى منـــك نـــور الـــديـــن في حلـــب
مملـــك ينجلي عـــن وجهـــه الغســـق

هـــو الشقيـــق الشفيـــق الغيـــب حين ثـــوى
أراق مـــاء الكـــرى مـــن جفنـــك الارق

تلقـــى الاســـى مـــن لبـــاس الصبر في جنـــن
حصينـــة تحتهـــا الاحشـــاء تحترق

ومـــدّة الاجـــل المحتـــوم إن خفيـــت
فـــإن أيـــامنـــا مـــن دونها طـــرق

وإنما نحـــــن في مضمار حلبتهـــــا
خيـــل إلى غـــايـــة الاعمار تستبـــق

شـــأو إذا ابتـــدر الاقـــوام غـــايتـــه
كـــان المؤخـــر فيهـــا مـــن لـــه السبـــق

إن كـــان صنـــوك هـــذا قـــد ثـــوى وذوى
ففـــي مغـــارســـك الاثمار والـــورق

أو أصبحـــت بعـــده الاهـــواء نـــافـــرة
أيـــدي سبـــا فعلى عليـــاك نتفـــق

- ٧٦٨٢ -

ماغاب من غاب عن آفاق مطلعه
الا ليفتر عن أنوارك الافق
مادام شمسك فينا غير آفلة
فالدين منتظم والملك متسق

فصل

قال ابن الاثير: لما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل، فاتفقت كلمة جمال الدين وزين الدين على توليته وتمليكه طلبا للسلامة منه، فإنه كان لين الجانب حسن الأخلاق كثير الحلم كريم الطباع، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا له ونزل بدار المملكة،وحلف له الأمراء والأجناد واستقر في الملك، وأطاعه جميع ما كان لأخيه سيف الدين ، لأن المرجع كان في جميع المملكة إلى جمال الدين وزين الدين، ولما ملك واستقرّ في الملك تزوّج امرأة أخيه الذي مات ولم يدخل بها، الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين، فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده على ما سنذكره، ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد غير أولادها.

قال: وكانت هذه الخاتون يحل لها ان تضع خمارها عند خمسة عشر ملكا من آبائها وأجدادها وأخوتها، وبني أخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد أولادها، ثم ذكرهم ابن الاثير في كتابه وسماهم، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوج عمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه، وكان لها أن تضع خمارها عند ثلاثة عشر خليفة وهم من معاوية إلى آخر خلفاء بني أمية سوى آخرهم وهو مروان بن محمد فإنه ابن عم لها ليس بمحرم والباقون محارم لها، وما تم له ذلك إلاّ بعد ذكره أن أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فمعاوية جدّ أمها، ويزيد جدّها لأمها، ومعاوية ابن يزيد خالها، ومروان جدّها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليد وسليمان وهشام ويزيد أخوتها، وعمر بن عبد العزيز زوجها،

والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد، أولاد أخوتها، وهؤلاء كلهم خلفاء، وعدتهم ثلاثة عشر.

قلت: وهذا كله مبني على أصل فيه خلل، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، بل أمها امرأة مخزومية، على ما بيناه في ترجمتها في تاريخ دمشق، ولكن الصواب في ذلك أن يقال كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء، وهم: مروان ابن الحكم ونسله سوى، مروان بن محمد، وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن العزيز ومروان بن محمد،بقي اثنا عشر خليفة كلهم محارم لها : معاوية جدّها، ويزيد أبوها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها، ويزيد ابن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها، ولو أضيف إلى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة كالأخوة والأعمام والأخوال وبني الاخوة لتضاعف العدد، كخالد بن يزيد بن معاوية أخي عاتكة، وعبد العزيز بن مروان عم فاطمة، ومسلمة وعبد الله ابني عبد الملك، وغيرهم، وذلك ظاهر لمن عرف أنساب بني أمية، وماذكر ابن الاثير من أمر حسام الدين، فست الشام بنت أيوب أكثر منها محارم من الملوك يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكا من أخوتها الأربعة : المعظم، وصلاح الدين، والعادل،وسيف الاسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب تقي الدين وذرّيته أصحاب حماه، وفرخشاه وابنه الأمجد صاحب بعلبك.

فصل

قال ابن الاثير: ولما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية، كان

أخوه نور الدين بحلب، وهو أكبر من قطب الدين، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم منهم المقـدّم والد شمس الدين بن المقـدّم، وهو حينئذ دز دار سنجار، فسـار نور الديـن جريدة في سبعين فارسـا مُن أكابـر دولته منهـم أسد الـديـن شيركوه، ومجد الـديـن أبو بكـر بـن الدايـة وغيرهما، فوصلوا إلى ماكسين في ستـة أنفس في يوم شديد المطر، وعليهـم اللبابيد، فلم يعرفهـم الذين بالبـاب، وأرسلو إلى الشحنة وأخبروه بوصـول نفر من الأجناد كأنهم تـركهان، فلم يستتم القاصد كـلامه حتى وصل نـور الدين فحين رآه الشحنة قبـل يده وخرج عن الـدار فنزلها نور الديـن حتى لحق به أصحـابه، وسـار مجداً إلى سنجار فـوصلها وليـس معه إلاّ نفـر يسير، فنزل بظاهـر البلد وألقى نفسه على مخفورة صغيرة من شـدّة تعبه، وأرسل إلى المقدّم بـالقلعة يعرفه وصـوله، وكان المقـدّم قد استدعي مـن الموصل لأن خبره مع نور الـدين بلغ من بها فأرسلـوا إليه، فوقف عـدّة أيام فلم يصل نـور الديـن، فسار إلى الموصل، وتـرك ابنه شمـس الديـن بسنجار، وقال له: أنا أتاخـر في الطريق فإن وصل نور الدين فـأرسل من يعلمني، فلما فارق سنجار وصل نور الدين، فلما علم شمـس الدين بوصوله أرسل قاصـدا إلى أبيه بـالخبر وأنهى الحال إلى نور الـدين فخـاف فوات الأمـر، ووصل القاصد الـذي سيره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتـل يعفر، فعاد إلى سنجار وسلمها إلى نـور الدين، وكاتـب فخر الدين قـرا أرسلان بن داود صاحـب الحصن يستنجده، وبذل لـه قلعة الهيثم فسار إليـه بجنده، فلما سمع قطـب الدين الخبر جمع عسـاكره وسـار عن الموصل، نحـو سنجار ومعه الجمال والزين ونـزلوا بتل يعفر، وأرسلوا إلى نور الـدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ما ليس له، وتهددوه بقصـده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختيارا، فـأعاد الجواب: إنني أنا الاكبروأنا أحق أن أدبـر أمر أخي منكم، وما جئت إلاّ لما تتـابعت كتب الأمراء يذكرون كـراهيتهم لولايتكم عليهم - يعني الجمال والزين- فخفـت أن يحملهـم الغيظ والأنفة على أن يخرجوا البلاد مـن أيدينا، فأما تهدّدكم إيـاي بالقتال فأنا مـا أقاتلكم إلاّ

بجندكم وكان قد هرب إليه جماعة من أجنادهم، فخافوا أن يلقوه لئلا يخامر عليهم باقي العسكر، ودخل الأمراء في الصلح وأشار به جمال الدين الوزير، وقال: نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ويهددهم بنا، فإن كاشفناه وحاربناه، فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان، وإن ظفرنا به طمع فينا الفرنج، ولنا بالشام حمص، وقد وصار له عندنا سنجار، فهذه أنفع لنا من تلك، وتلك أنفع له من هذه والرأي أن نسلم إليه حمص ونأخذ سنجار وهو في ثغر بازاء الفرنج ويتعين مساعدته، فاتفق الجماعة على هذا الرأي وسار جمال الدين إلى نور الدين وأبرم معه الأمر وتسلم حمص وسلم سنجار إلى أخيه، وعاد نور الدين وأخذ ما كان بسنجار من المال، ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها لزين الدين لأن حمص كانت لأخيه ينال ، وهو مقيم بها، واتفقت كلمتهم واتحدت آراؤهم، وكل واحد منهما لايصدر إلاّ عن أمر أخيه، وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده، فقال له الجمال:أنت عندك من الكفاية ما يستغني به عن وزير ومشير وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك لأنّ عدوّك كافر فالناس يدفعونه ديانة، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم، وإذا كنت عند أخيك فالنفع إليك عائد وأريد من بلادك مثل مالي من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي، فأجابه إلى ذلك فقال له جمال الدين: أنت عليك خرج كثير لأجل الكفار فيجب مساعدتك وأنا اقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة، فأمر له بها، فكان نائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم.

قلت :وقرأت في ديوان القيسراني وقال في نور الدين عند قدومه وقد استولى على سنجار وأعمال الرحبة والفرات، وذلك في منتصف ذي القعدة سنة أربعين وخمسمائة:

هــــذا الـــــذي ولـــدت لـــــه الافكـــــار
وتمخضــــــت فـــــألا بــــــه الاشعـــــــار
وجـــــرت لـــــه خيـــل النهــــى في حلبـــة
وردت وصفـــــــــو ضميرهــــــــا المضمار
واتــــت بـــــه نـــــذر القـــوافي بـــرهـــة
إن القــــــوافي وحيهـــــــا انــــــــذار
حكمـــت لسيفـــك بـــا لمما لـــك عنـــوة
حكـــــما لعمـــــري مــــا عليــــه غبــــار
يــــا أيها الملـــــك المطيـــــل نجـــاده
بــــــرّ يــــــديــــــن بهديــــه الابـــــرار
يـــا بـــن السيــــوف وهـــل فخـــرت بنسبـــة
إلاّ سما بــــــك للمجـــــــدود فخــــــار
فـــــارقــــت دار الملـــــك غير مفـــــارق
لـــــك مـــــن عــــــلاك بكـــــل أرض دار
في عسكـــــر تخفـــــي كــــــواكــــب ليلـــه
نقعـــــا فيطلعهـــــا القنـــــا الخطـــــار
جـــــرّار أذيـــــال العجـــــاج وراءه
وأمـــــامــــــه بـــــل جحفـــــل جـــرّار
تـــدنـــــي لـــــك الغـــــايـــــات أكبر همة
نــــــوريـــــة همم الملـــــوك كبـــــار
حتـــــى مـــــلأت الخافقين مهــــــابــــــة
دانــــت لعظــــم نظــــامهـــا الاقطـــار
وملكــــت سنجــــارا ومـــــا مــــن بلــــدة
إلاّ تمنــــــــت أنها سنجــــــــــار
وبسطــــت بـــــا الأمـــــوال كفـــا طـــالما
طـــــالــــت بها الآمـــــال وهـــــي قصـــار
وجـــرت بـــــأمـــــداد الجيـــــاد شعــــابها
جـــري السيـــول ومــــا ســـواك قــــرار

وثنى الفرات إلى يديك عنانه
والبحر ما اتصلت به الانهار
وملكت رحبة مالك فتبرجت
منها العينك كاعب معطار
جاءتك في حلل الربيع وحليها
قبل الربيع شقائق وبهار
نثرت عليك هوى القلوب محبة
وتودّ لو أنّ النجوم نثار
فأقمت كالشمس إن نأت
عن أفقها فلها به أقمار
من كان نور الدين ثم أجنّة
ليل السرى حفت به الانوار
تدعو البلاد إليك ألسنة الظبى
فيجيبك الانجاد والاغوار
حتى عمدت الدين يابن عماده
بقنا أسنتها عليه منار
وقفلت من أسفار جدّك قادما
كالصبح نمّ بثغره الاسفار
يغشى البصائر نور وجهك بعدما اعـ
ـتركت على قسما ته الأبصار
حتى عمرت بكل قلب صدره
حيث الصدور من القلوب قفار
إن تمس في حلب رياحك غضة
فلها بأنطاكية إعصار
وغدت جيادك بالشآم مقيمة
ولها بأطراف الدروب مغار
همم سبقت بها إلى مهج العدى
صرف الردى ومسيره إحضار

وأرى صباح القمص كان خديعة
فطغى وجاو رليس ثم وجار
سأل الصنيعة غير محقوق بها
والخير يهدم ما بنى الختار
حتى إذا ما غبت أقدم عاثثا
اقدام من لم يدن منه قرار
أمضى السلاح على عدوّك بغيه
بالغدر يطعن في الوغى الغدّار
فاحسم عناد ذوي العناد بجحفل
كالليل فيه من الصفيح بهار
جند على جرد أمام صدورها
صدر عليه من اليقين صدار
قد بايع الاخلاص بيعة نصره
ولكل هادي أمّة أنصار
ملك له من عدله ووفائه
جيش به تستفتح الامصار
وإذا الملوك تثاقلت عن غاية
وأرادها خفت به الاقدار
وإذا انتضته إلى الثغور عزيمة
قامت مقام جنوده الاخبار

ولابن منير من قصيدة فيه:
ترنح معطف الزوراء لما
دعاك لزور سنجار لمام
وزلزلت الصعيد وراء مصر
غداة علتك في قطنا الخيام
رجاء هزتيك وتلك خوف
ولو قد شئت ضمهما قرام

بعيشـــك يـــا مبيــد الخيــل ركضـــا
حمام هـــــنّ تحتـــك أم حمام

وقـال ابن منير أيضـا يهنئه بتسلـم قلعة حمص مـن ينال، وأنشـده في القلعة قصيدة أوّلها:

ارحهـــا فهـــي أزلام المعـــالي
لهنّ إلى الـــوغـــى تـــوق المغـــالي

أمـــا ومقيلهـــن بكـــل نقـــع
يقـــوّض بـــالهدى عمـــر الضـــلال

وأي سيـــوفـــك الحمـــر الحواشي
منـــزلـــة متـــى دعيـــت نـــزال

مـــواض إن سللـــن سللـــن جـــزمـــا
نفـــاه مـــن الطلى لفـــظ اعتـــلال

لقـــد غلـــب الصليـــب بحـــر حـــرب
يشيـــب أوارهـــا لمم الليـــالي

وشمـــت لنصر هـــذا الـــديـــن بـــأســاً
يحرّم منـــه كـــل حمى حـــلال

وقـــايـــع أتـــرعـــت في كـــل فـــج
وقـــايـــع جـــوّهـــا دامـــي العـــزال

ومنها:

تســـائل حمص عـــن منسي ديـــن
تقـــاضـــاه لـــك الحجـــج الخوالي

فـــواتـــت وهـــي أخـــت النجـــم بعـــدا
ووعـــدا صيـــغ مـــن مطـــل مطـــال

تشـــامـــخ أنفهـــا عـــزاً وشـــدّت
على أن لا تنـــال يـــدا ينـــال

فمازالــــت رقــــاك تجدّ نقضــــا
لما تثنيــــه مــــن مــــرر الحبــــال
إلى أن أطلــــق الحسنــــاء كــــرهــــا
وآل إلى مــــلاوحــــة المآلي
يصــــد الــــوجــــه عــــن شما القــــت
يــــد الاشــــم ذي بــــاع طــــوال
شغلــــت بها يمينــــك والمواضي
تكفــــل أن مصرا للشمال
إذا فتــــح القتــــال عليــــك أرضــــا
أبــــاحــــك أختهــــا لا عــــن قتــــال

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: اتصل الخبر بنور الدين بافساد الفرنج في الأعمال الحورانية بالنهب والسبي، فعزم على التأهب لقصدهم وكتب إلى من بدمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد، ويستدعي المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه مع مقدّم يعول عليه، وقد كانوا عاهدوا الفرنج على أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين، فاحتج عليه وغولط، فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يبوس، وبعض العساكر بيعفور، فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبره ولم يعلموا أين قصده، وقد كانوا راسلوا الافرنج بخبره وقرّروا معهم الانجاد عليه، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عسقلان لعمارة غزة، ووصلت أوائلهم إلى بانياس وعرف نور الدين خبرهم، فلم يحفل بهم وقال: لاأنحرف عن جهادهم، وهو مع ذلك كاف أيدي أصحابه عن العيث والافساد في الضياع ،وأمر باحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم، والدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها، وسائر البلاد وأطرافها، وكان الغيث قد انحبس عن حوران والمرج والغوطة، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمحل واشتداد الأمر، فلما وصل نور الدين إلى بعلبك اتفق نزول

المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجـة، وأقام إلى مثله فروى الآكام والوهاد، وجرت الأوديـة وزادت الأنهاروامتلأت برك حوران ودارت أرحيتهـا، وعاد ما صـوح من الزرع والنبـات طرياً ، وحشـد الناس بالـدعاء لنور الـدين وقالـوا: هذا ببركته وحسن معـدلته وسيرته، ثم رحـل من منزله بـالأعوج ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العسـاكر في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجيرالـدين والرئيس وقال: إنني مـا قصدت بنزول هذا المنـزل طلبا لمحاربتكم ولا منـازلتكم وإنما دعاني إلى هذا الأمـر كثرة شكاية المسلمين مـن أهل حوران والعربان بأن الفـلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج، وعدم الناصر لهم ولايسعني مع ما أعطـاني اللّـه ، ولـه الحمـد، مـن الاقتـدار على نصرة المسلمين وجهـاد المشركين وكثرة المال والرجـال أن أقعد عنهم ولا انتصر لهم، مع معـرفتي بعجـزكـم عــن حفـظ أعمالكـم والـذب والتقصير الـذي دعـاكـم إلى الاستصراخ بـالأفـرنـج على محاربتي، وبـذلكـم لهم أمـوال الضعفـاء والمساكين مـن الرعية ظلما لهم وتعـديا عليهـم، وهذا لا يرضي اللّـه تعالى ولا أحد من المسلمين، ولا بـدّ من المعونة مـن ألف فارس مزاحـي العلة تجرّد مع من يوثق بشجاعته من المقدّمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة.

قال: فكان الجواب عـن هذه الرسالة : ليس بيننـا وبينك إلاّ السيف، وسيوافينا مـن الافرنج ما يعيننـا على دفعك إن قصدتنا ونـزلت إلينا، فلما عاد الـرسول بهذا الجواب ووقـف عليه، أكثر التعجـب منه والانكـار له، وعزم على الزحـف إلى البلد ومحاربته في غد ذلـك اليوم، فأرسل اللّـه من الامطار وتداركها ودوامها ما منعه من ذلك.

ودخلت سنة خمس وأربعين

ففي مستهل المحرّم تقرّر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق والسبب في ذلك أن نور الدين اشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها بعد ما اتصل به من أخبار دعته إلى ذلك، واتفق أنه بذل لهم الطاعة، واقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان، وكذا السكة، ووقعت الايمان على ذلك، وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة كاملة بالطوق، وأعاده مكرما محترما، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرم، ثم استدعى الرئيس الى المخيم، وخلع عليه خلعة كاملة أيضاً وأعاده الى البلد، وخرج اليه جماعة من الأجناد والخواص الى المخيم واختلطوا به، ووصل من استماحه من الطلاب والقراء والضعفاء بحيث ما خاب قاصده، ولا أكدى سائله، ورحل عن مخيمه عائداً الى حلب بعد احكام ما قرر، وتكميل ما دبر

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

لك اللّه إن حاربت فالنصر والفتح
وإن شئت صلحا عدّ من حزمك الصلح

وهل أنت إلاّ السيف في كل حالة
فطوراً له حد وطوراً له صفح

سقيت السردينيات حتى رددتها
ترنح من سكر فخل القنا تصحو

وما كان كف العزم إلاّ اشارة
إلى الحزم لو لم يغضب السيف والرمح

وقد علم الاعداء مذ بت جانحا
إلى السلم ما تنوي بذاك وما تنحو

إذا مـا دمشـق ملكتـك عنـانها
تيقـن مـن في إيليـا أنـه الـذبـح
متـى التـف نقـع الجحفلين على الهدى
فـلا مهمـة يحوي الضـلال ولا سفـح
إذا سـار نـور الـديـن في الجيـش عـازمـا
فقـولا لليـل الافـك قـد طلـع الصبـح
تـركـت قلـوب الشرك تشكـو جـراحهـا
فـلا زالـت الشكـوى ولا انـدمـل الجرح
صبرت فكـان الصبر غير مغبـة
فسيـق إليـك الملـك يسعـى بـه النجـح
كـأنّ القنـا تجلـو لـه وجـه أمـره
ولـو أمهلـت بلقيـس مـا غـرّهـا الصرح
بـدولتـك الغـرّاء أصبـح ضـدّهـا
بهيا ولـولا الحسـن مـا عـرف القبـح
وكـم مـن قـريـح القلـب لـو بـات واردا
مـوارد هـذا العـدل مـا مسـه قـرح
سخـابـك هـذا الـدهـر جـودا على الـورى
على أنـه مـا زال في طبعـه شـح
وقـد كـان يمحـو رسـم كـل فضيلـة
ونحـن نـراه اليـوم يثبـت مـا يمحـو
بـك ابتهـج الالبـاب وانتهـج الحجـى
وأثمـرت الآداب واطـردا المدح
ولاذت بـك التقـوى، وعـاذت بـك العلى
ودانـت لـك الـدنيـا وعـز بـك السرح
فـلا قلـب الا قـد تملكتـه هـوى
ولا صـدر إلاّ قـد جـلاه لـك النصـح
ومـا الجود في الامـلاك إلاّ تجارة
فمـن فـاتـه حمد الـورى فـاتـه الـربـح

ولم اختصر مــــا قلــــت إلاّ لأنني
اعبر عما لا يقــــوم بـــه الشرح

فصل

في فتح عزاز

قال أبو يعلى: وورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب أعزاز وأصحابه، وحصلوا في قبضة الاسر في قلعة حلب، فسر هذا الفتح كافة الناس، وتوجه نور الدين في عسكره إلى أعزاز، ونزل عليها وضايقها، وواظب قتالها إلى أن سهل اللّه تعالى ملكها بالأمان ، وهي على غاية من المنعة والحصانة والرفعة، فلما تسلمها رتب فيها من ثقاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسروراً عائدا إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأوّل.

قلت:وذكر ابن منير فتح عزاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدة أوّلها:

فــدتـك القلــوب بــألبـابها
وســاح الملــوك بــأربـابها

كتــائب تــرمــي جنــود الصليـ
ـب منهــا بتقطيــع أصــلابها

إذا مــا انثنــت مــن قــراع الكما
ة كســت وفــدهــا وشي أســلابها

تبرنــس منهــا البرنــس الثيـا
ب وحلتــه مــن وقــع احــلابها

عشيــة غصــت على إنــب
نفــوس النصــارى بغصــابها

وقــام لأحمد محمــودهــا
بجــذع مــوازن أحــزابها

تجلى لها حيــــــــدري المصــــــاع
أغلـــــب مـــــود بغــــــلابها
مــــــورث أركــــاسهـــــا مـــــن أب
أكـــــــول الفـــــــــوارس شرابها
همام إذا أعصـــــوصبـــــت نبـــــوة
دهــــاهـــــا بها شـــــم أعصـــــابها
مضـــــى وجنـــى لـــك حلـــو الشهـــا
دمـــــا تمطـــــق مـــــن صـــــابها
وأوصــــى بها لـــك مـــن بعـــدمـــا
تجرّع ممقـــــــــــر أو صـــــــابها
واقســـــم جـــــدّك أن لا يليـــــــ
ـــــق بغيرك ملبـــــس أثـــــوابها
صبحـــــت دمشـــق بمشـــق الجيـــاد
زبـــور الـــوغـــى بين أحـــدابها
واصلـــت رأيـــك قبـــل الحســـا
م مخمـــــــد جمرة أجـــــــلابها
فـــأعطتـــك مـــا لم تنلـــه يــــد
وفـــازت رقـــاك بــــأصحـــابها
وأنــــت تصرف فضــــل الـــزمـــا
م مـــــن حمص تـــأخير ركـــابها
تخوّنها الجور فــــاستـــدركـــت
بعـــدلـــك أغبـــار ظبظـــابها
وفــاجـــأت قـــورس بـــالشـــائلات
تمج القنـــاســـم اذنـــابها
فما رمـــت حتـــى رمـــت بيضهـــا
إليـــك أزمـــــة ضرابها
وعـــزت عـــزاز فـــاذللتهـــا
بمجـــرى مضيـــق لاسهـــابها

ـــاشمـــخ مـــن أنفهـــا منكبـــا
وأكثـــر مـــن عـــدّ طـــورابها
دلفـــت لعيطـــا أم النجـــو
م في الأمـــر ايطـــاء أتـــرابها
وعـــذرا مـــذ عمـــرت مـــا اهتـــدت
ظنـــون الليـــالي لاحـــزابها
تفـــرعتهـــا بفـــروع الـــوشـــ
ـــيج مثمـــرة هـــام أوشـــابها
وعـــوج إذا انبضـــت اغمضـــت
ذكـــاء لارســـال نشـــابها
ومحدودبـــات تطير الخطـــوب
مـــلافـــظ ألســـن خطـــابها
تصـــوّب عقبـــان ريـــب المنـــون
متـــى بنتهـــا بـــاعقـــابها
ومـــا ركعـــت حـــول شـــم المضـــا
ب الاسجـــدن لانصـــابها
فـــلاذت بمعتصـــم بـــالكتـــا
ب وهـــوب الممالـــك ســـلابها
بمعتصمـــي الـــذرى والهدى
هموس السّرى غير هيـــابها
محلى المحـــل بـــوصـــف الفتـــو
ح ووصـــف التهـــاني وأربـــابها
وتعجـــز مـــداحـــه أن يحيـــ
ـــط بـــآدابـــه فلـــك آدابهـــا
بـــدائع لـــورددهـــرمـــ
ـــين بنـــات حبيـــب بـــاحبـــابها
وأيـــن ابـــن أوس وآيـــاتـــه
مـــن الـــلاء أودت بحســـابها

مـــــن الــــلاء عـــــاد عتيـــــق لها
وردّ عليهـــــا ابـــــن خطـــــابها

فـــأيـــامــه مـــن حبـــور تكـــا
د يطير بها فـــــرط إعجـــــابها

لـــك الفضـــل إن راسلتـــك الجيـــا
د وقـــامـــت أدلـــة أنجـــابها

إذا أغتسقـــت هـــمم الجائريـــن
أتيـــت السيـــادة مـــن بـــابها

أبـــوك أبـــوهـــا وأنـــت ابنهـــا
العـــريـــق ودميـــه محرابها

أقـــول لمـــؤجـــره بـــالغـــرو
ر تمطـــت هـــواهـــا فـــأهـــوى بها

حـــذار فعنـــد ابتســـام الغيـــو
ث تخشـــى صـــواعـــق الهابها

ولا تخدعـــوابـــافترار الليـــو
ث فـــالنـــار في بـــرد أنيـــابها

وبقي أطول من هذا:

فصل

في صفة أسر جوسلين

قال ابـن الأثير: سار نـور الديـن إلى بلاد جـوسلين وهي القـلاع التي شمالي حلب، منهـا: تل بـاشر، وعين تاب، وعـزاز، وغيرها مـن الحصون، فجمع جـوسلين الفرنج فـارسهم وراجلهم ولقوا نـور الدين وكـان بينهم حرب شديـدة انجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنـج، وأخذ جوسلين سلاح دار كـان لنور الديـن أسيراً، وأخذ ما معـه من السلاح فـأنفذه إلى

السلطـان مسعود بـن قليج أرسـلان السلجوقـي صاحـب قونيـة واقصرا وغيرهما مـن تلك الأعمال، وكـان نور الـدين قـد تزوج ابنتـه وأرسل مـع السلاح إليـه يقول: قـد انفذت لـك بسلاح صهـرك وسيأتيـك بعد هـذا غيره، فعظمت الحادثة على نور الديـن وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم إن هـو جمع العساكـر الاسـلامية لقصـده جمع جـوسلين الفـرنج وحـذر وامتنع ، فـأحضر نور الديـن جماعة مـن التركمان وبذل لهم الرغـائب من الاقطاع والأموال إن هـم ظفـروا بجوسلين إما قتلا وإمـا أسراً، فاتفق أن جـوسلين خرج في عسكـره وأغار على طـائفة مـن التركمان فنهب وسبـى فـاستحسـن مـن السبـي امـرأة منهم خـلا معهـا تحت شجـرة فعـاجلـه التركمان، فركـب فرسه ليقـاتلهم فأخذوه أسيراً فصـانعهم على مال بـذله لهم، فرغبـوا فيه وأجـابوه إلى ذلـك وأخفوا أمره عـن نور الـدين، فـأرسل جـوسلين في إحضـار المال فـأتـى بعض التركمان إلى نـائب نـور الـديـن بحلـب فأعلمـه الحال، فسير معه عسكـرا أخـذوا جوسلين مـن التركمان قهراً وكـان نور الديـن حينئذ بحمص، وكـان أسره من أعظم الفتـوحات على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتيا من شياطين الفرنج، شديد العداوة للمسلمين وكـان هـو يتقـدّم على الفـرنـج في حـروبهم لما يعلمـون مـن شجاعتـه وجودة رأيـه وشدّة عـداوته للملـة الاسلاميـة وقسوة قلبـه على أهلها، وأصيبـت النصرانية كـافة بأسره، وعظمـت المصيبة عليهـم بفقده وخلت بـلادهم من حاميهـا، وثغورهـم مـن حافظها، وسهل أمـرهم على المسلمين بعـده، وكـان كثير الغـدر والمكـر لايقـف على يمين ولا يفـي بعهد، طالما صالحه نـور الدين وهادنه ،فإذا أمن جانبـه بالعهود والمواثيق نكـث وغـدر، فلقيـه غـدره وحاق بـه مكـره (ولايحيـق المكـر السيء إلاّ بأهله)(٥٨)فلما أسر تيسر فتـح كثير من بـلادهم وقـلاعهم، فمنهـا عين تاب و،عزاز وقـورس ،والراوندان ،وحصن البـارة، وتل خـالد،وكفـر لاثا وكفر سـود ،وحصن سرفـوت بجبل بنـي عليم ،ودلـوك ،ومرعـش ،ونهر الجوز، وبرج الرصاص.

قال: وكان نور الدين رحمه الله إذا فتح حصنا لايرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدّد للفرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء.

وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا منهم القيسراني، قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنس وأسر جوسلين وأخذ بلاده:

دعا ما ادعى من غره النهي والأمر
فما الملك إلا ما حباك به القهر
ومن ثنت الدنيا إليه عنانها
تصرف فيما شاء عن أذنه الدهر
ومن راهن الاقدار في صهوة العلى
فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر
إذا الجدّ أمسى دون غايته المنى
فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثر
ولم لا يلي أسنى الممالك مالك
زعيم بجيش من طلائعه النصر
ليهن دمشقا أن كرسي ملكها
حبي منك صدرا ضاق عن همه الصدر
وأنك نور الدين مذ زرت أرضها
سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
خطبت فلم يحجبك عنها وليها
وخطب العلى بـ. السيف ما دونه ستر
جلاها لك الاقبال حورية السنا
عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب أكنت من هواك محبة
نمت فانتمت جهرا وسر الهوى جهر
فسقت اليها الأمن والعدل نحلة
فأمست ولا اسر تخاف ولا إصر

فـــان صـــافحـــت يمنـــاك مـــن بعـــد هجـــرهـــا
فـــاحلى التـــلاقـــي مـــا تقـــدمـــه هجـــر
وهـــل هـــي الا كـــالحصـــان تمنعـــت
دلالا وان عـــز الحيـــا وغـــلا المهـــر
ولكـــن إذا مـــا قستهـــا بصـــداقهـــا
فليـــس لـــه قـــدر وليـــس لها قـــدر
هـــي الثغـــر أمســـى بـــالكـــراديـــس عـــابثـــا
وأصبـــح عـــن بـــاب الفـــراديـــس يفتر
على انها لـــو لم تجيـــك إنـــابـــة
لارهقهـــا مـــن بـــأســـك الخوف والـــذعـــر
فـــامـــا وقفـــت الخيـــل نـــاقعـــة الصـــدى
على بـــردا مـــن فـــوقهـــا الـــورق النضر
فمـــن بعـــد مـــا أوردتها حـــومـــة الـــوغـــى
وأصـــدرتها والبيـــض مـــن علـــق حمر
وجللتهـــا نقعـــا أضـــاع شيـــاتها
فـــلا شهبهـــا شهـــب ولا شقـــرهـــا شقـــر
على النهـــر لما كـــاثـــر القصـــب القنـــا
مكـــاثـــرة في كـــل نحـــر لها نحـــر
وقـــد شرقـــت أجـــرافـــه بـــدم العـــدى
إلى ان جـــرى العـــاصي وضحضـــاحـــه غمـــر
صـــدعتهـــم صـــدع الـــزجـــاجـــة لا يـــد
لجابـــرهـــا مـــا كـــل كسر لـــه جبر
فـــلا ينتحـــل مـــن بعـــدهـــا الفخـــر دائل
فمـــن بـــارز الابـــرنـــز كـــان لـــه الفخـــر
ومـــن بـــز انطـــاكيـــة مـــن مليكهـــا
أطـــاعتـــه ألحاظ المؤللـــة الخزر
أخـــو الليـــث لـــولا غـــدره نـــزعـــت بـــه
إلى الـــذئب إن الـــذئب شيمتـــه الغـــدر

أتـى رأسـه ركضـا وغـودر شلـوه
وليـس سـوى عـافي النسـور لـه قبر
وقـد كـان في استبقـائه لـك منـة
هـي الفتـك لـو لم تغضـب البيـض والسمـر

كما أهـدت الاقـدار للقمـص اسره
وأسعـد قـرن مـن حـواه لـك الاسر
طغـى وبغـى عـدوا على غلـوائه
فـأوبقـه الكفـران عـدواه والكفـر
والقـت بـأيـديها إليـك حصـونـه
ولـو لم تجب طـوعـا الجاء بها القسر
وأمسـت عـزاز كـاسمهـا بـك عـزة
تشـق على النسريـن لـو أنها الـوكـر
فسر وامـلأ الـدنيـا ضيـاء وبهجـة
فبـالافـق الـداجـى إلى ذا السنـا فقـر
كـأنـي بهذا العـزم لافـل حـده
وأقصـاه بـالأقصـى وقـد قضي الامـر
وقـد أصبـح البيـت المقـدس طـاهـرا
وليـس سـوى جـاري الـدمـاء لـه طهـر
وقـد أدت البيـض الحداد فـروضهـا
فـلا عهـدة في عنـق سيـف ولا نـذر
وصلـت بمعـراج النبـي صـوارم
مسـاجـدهـا شفـع وسـاجـد هـاوتـر
وإن يتيمـم سـاحـل البحـر مـالكـا
فـلا عجـب أن يملـك السـاحـل البحـر
سللـت سيـوفـا أثكلـت كـل بلـدة
بصـاحبهـا حتـى تخوّفـك البـدر
إذا سـار نـور الـديـن في عـزمـاتـه
فقـولا لليـل الافـك قـد طلـع الفجـر

ولـــو لم يسر في عسكـــر مـــن جنـــوده
لكـــان لـــه مـــن نفســـه عسكـــر مجر

مليـــك سمـــت شـــم المنـــابـــر بـــاسمـــه
كما زهيـــت تيهـــا بـــه الأنجـــم الـــزهـــر

فيـــا كعبـــة مـــا زال في عـــرصـــاتها
مـــواســـم حـــج لا يـــروّعهـــا النفـــر

خلعـــت على الايـــام مـــن حلـــل العلى
مـــلابـــس مـــن أعـــلامهـــا الحمـــد والشكـــر

وتـــوّجـــت ثغـــر الشـــأم منـــك جـــلالـــة
تمنـــت لها بغـــداد لـــو أنها الثغـــر

فـــلا تفتخـــر مصر علينـــا بنيلهـــا
فيمنـــاك نيـــل كـــل مصر بها مصر

رددت الجهـــاد الصعـــب سهـــلا سبيلـــه
ويـــا طـــالما أمســـى ومسلكـــه وعـــر

وأطمعـــت في الافـــرنـــج مـــن كـــان بـــأســـه
يخوّف أن يعتـــاده منهـــم فكـــر

وأقحمـــت جـــرد الخيـــل أعلى حصـــونها
ولـــولاك لم يهجـــم على كـــافـــر كفـــر

ومـــن يـــدعـــي في قتلـــك الشرك شركـــة
إذا لم يكـــن عنـــد القـــوافي لـــه ذكـــر

هـــي القـــانتـــات الحافظـــات فـــروجهـــا
فشـــاهـــدهـــا عـــدل ورائقهـــا سحـــر

ولـــو لم يكـــن في فضلهـــا وكمالها
ســـوى أنها مـــن بعـــد عمـــر الفتـــى عمـــر

وله من قصيدة يصف فيها وقائعه أوّلها:

أمـــا وخيـــال زار ممـــن أحبـــه
لقـــد هـــاج مـــن ذكـــراه مـــا لا أغبـــه

إذا ما صبا قلب المحب إلى الصبا
ذكرت نسيما بالثغور مهبه
فيا نفحات الشأم رفقا بمهجة
يحامي عليها مدنف القلب صبه
فلا تسألن الصب أين فؤاده
فإن فؤاد المرء مع من يحبه
وفي شعب الاكوار من هو عالم
غداة استطار البرق من طار لبه
يشيم ثغور المزن تهمي كأنها
سنا بشر نور الدين تنهل سحبه
إذا ما سما في مبهم الخطب وجهه
تمزق عن بدر الدجنة حجبه
تولد بين الغيث والليث والتقى
منافسة أي الثلاثة تربه
يعد مضاء في الظبى لا وضربه
بها قلل الاعداء ما السيف ضربه
مكين الحجى أرضى الزمان بنفسه
إلى الآن حتى لان وانقاد صعبه
حمى قبة الاسلام بالخيل فاغتدت
وأوتادها جرد الطعان وقبه
فكم هبوة أوقعن بالكفر تحتها
فما انقشعت الا وللبذل جنبه
كيوم الرها الورهاء والهام يانع
ملئ برعي الهند وأنى خصبه
وشهباء هاجتها وغى صرخدية
ثناها وليل الحرب ينقض شهبه
وعارم يوما بالعريمة فاغتدت
كوادي ثمود إذ رغا فيه سقبه

وعاصي على العاصي بأرعن خاطب
دم الأفك حتى أنكح النصل خطبه
بأنّب لما أكسب المال واشتى
بصاحب أنطاكية وهو كسبه
غداة هوى شطرين للسيف رأسه
وللرّمح حتى توّج الرأس قلبه
على حين للخطّيّ فيه عوامل
يعاقبه خفض الحسام ونصبه
وقائع محمودية النصر لم تزل
غريبا بها عن موطن السيف غربه
يقوم مقام الجيش فيها وعيده
وتفعل افعال الكتائب كتبه
وحين انتضته عزمة من قرابه
مضى وهو نصل والممالك قربه
إلى أن دعته ربها كل بلدة
فليس من الأمصار ما لا يربه
ولما ترى بالقمص عجب هوى به
على أم رأس البغي والغدر عجبه
فأصبح في الحجلين ينكر خطوه
بعيد على الرجلين في السعي قربه
تعاقبه البشرى بأخذ حصونه
فيا عانيا ضرب البشائر ضربه
تناجي عزاز باسمه تلّ باشر
فيلعنه لعن الصريح وسبه
فان يكن المقهور من ثل عرشه
فهذا عمود الكفر قد طاح طنبه
فقل للملوك الخافقين نصيحة
كذا عن طريق الليث يزأر غلبه

وخلـــوا عـــن الافـــاق فـــالشرق شرقــــه
بحكـــم الـــردينيـــات والغـــرب غـــربـــه
ولا يعصـــم بـــالـــدرب طـــاغ على القنـــا
فـــإن القنـــا في ثغـــرة النحـــر دربـــه
رحيـــب فضـــاء الحلـــم عـــن ذات قـــدره
إذا ضـــاق مـــن صـــدر المملـــك رحبـــه
عفـــوّ عـــن الجاني يكـــاد الـــذي جنـــى
بكـــرّبـــه شـــوقـــا إلى العفو ذنبـــه
أمتخـــذ الاخـــلاص للّـــه جنـــة
ومـــن يعتصـــم بـــاللّـــه فـــاللّـــه حسبـــه
أبـــوك استردّ الشـــأم بـــالسيـــف عنـــوة
وللـــروم بـــأس طـــا الماغـــال خطبـــه
إذا ذب عـــن أضغـــاث دنيـــاه مـــالـــك
فـــانـــت الـــذي عـــن حـــوزة الـــديـــن ذبـــه
رأيـــت اتبـــاع الحق خير مغبـــة
فـــأفـــرجـــت عـــن رأي يسرك غبـــه
وأوضحـــت مـــا بين الفـــريقين سنـــة
بها عـــرف المربـــوب مـــن هـــو ربـــه
وبينـــت نـــور الـــديـــن مـــا كـــان يبتغـــي
دليـــلا بـــأن اللّـــه مـــن أنـــت حـــزبـــه

وقال ابن منير يمدح نور الدين بظاهر حمص:
هيهـــات يعصـــم مـــن أردت حـــذار
أنـــى ومـــن أوهـــاقـــك الاقـــدار

ومنها:
طلعـــت عليـــك بجـــوسلين ذريعـــة
لاسحـــل انشـــاهـــا ولا امـــرار

وسعـــادة مـــازلـــت تمري خلفهـــا
فيشـــف وهـــو النـــاتـــق المدرار
فـــارتـــك مـــا يجنـــي الـــوفيّ وفـــاؤه
وأرتـــه كيـــف تحين الغـــدّار
عـــود أمـــرّ على ابـــارك طلعـــه
فـــاحيـــل ذاك البر وهـــو بـــوار
مـــازلـــت تنعـــم وهو يكفر عـــاتيـــا
واللـــه يهدم مـــا بنـــى الكفـــار
حتـــى أتـــاح لقـــومـــه مـــاجـــرّه
لثمـــود مـــن عقـــر الفصيـــل قـــذار
اسرى فـــأصبـــح في بـــرائـــن اسره
لازال يـــدمـــي ظفـــره الاظفـــار
يهب التـــلاد مـــن البـــلاد ومـــا حـــوت
إن السماحـــة للبحـــار بحـــار
يقظـــان يخشـــى اللّـــه في خلـــواتـــه
لا مترف لاه ولا جبـــار
نصـــب المراقـــب للعـــواقـــب نـــاظـــرا
فيهـــا الـــذلـــك تـــربـــأ الابـــرار
لا كـــالـــذيـــن تعجلـــوا حســـواتها
وتغلســـوهـــا بعـــد وهـــي خســـار
درجـــوا وأدرج في ملـــف رفـــاتهم
ســـوءى تســـاء لـــذكـــرهـــا الآثـــار
والمرء مـــن يطـــوي فينشر طيـــه
مـــا أودعتـــه صـــدورهـــا الاخيـــار
قـــل لـــلأولى نـــامـــوا على نـــامـــاتـــه
مـــاكـــل هبـــة بـــارح اعصـــار
لا تـــأمنـــوا في اللّـــه بطشـــة ثـــائر
للّـــه مـــل ء سريـــره اسرار

صـــاف إذا كـــدر المعـــادن عـــادل
إن حـــاف حكـــام الملـــوك وجـــاروا.
أعلى أبـــوه لـــه النجـــاد وشيـــد في
صهـــواتها مـــا ابتنـــاه منـــار
محمـــود المحمـــود آثـــارا إذا
نظمـــت على جيـــد الـــدجـــى الاسمار
دانـــت لـــه الايـــام صـــاغـــرة كما
دانـــت لـــه ظلـــه الامصـــار

له من أخرى أوّلها:

مـــا الملـــك الا مـــا حـــواك نجـــاده

يقول فيها:

وتـــديـــن حســـده لمحكـــم آيـــة
والفضـــل مـــا شهـــدت بـــه حســـاده
شمـــس إذا مـــا الحرب زر جيـــوبها
حـــل المعـــاقـــد كـــرّه وطـــراده
ألـــوى ألـــدّ حمى الشريعـــة جهـــده
وأذل نـــاصيـــة الضـــلال جهـــاده
صعـــق البرنـــس وقـــد تـــلالأ بـــرقـــه
واطـــار ســـاكـــن جـــأشـــه ارعـــاده
ولى وقـــد سلـــت فسلـــت ضغنـــه
زبـــر تلقـــى فـــودهـــن فـــؤاده
مستلثما مستسلما لاعـــــدّه
ردّ المنـــى عنـــه ولا استعـــداده
وبجوسلين احتثهـــن فـــاصبحـــت
نهبـــى لهن بـــلاده وتـــلاده
جـــاءت بـــه بعـــد الشماس عـــوابـــس
قـــود يلين لعنفهـــنّ قيـــاده

بـه تصيد لك السعود وقلما
ينجو بخير من أردت مصاده

دانى لـه قيناه أدهم كلما
غناه طار شها ته عوّاده

سلبت عزاز عزاءه وبقورس
محجوبة فرشت لـه اقتاده

ويتل خال الديوم تل جبينها
خلط الثرى بجبينه اخلاده

وغدا يباشر تل باشر قلبه
باحرّ ما حمل القلوب عداده

منت أمانيه بشائرك التي
عادت لهن مآثما أعياده

وحبوت ملكك من نظيم ثغوره
حليا تتايه تحته أجياده

لايخدعنك فانها اصلاح من
يخشى انتشاط خناقه افساده

أنزله حيث قضت لـه غدراته
واحله طغيانه وعناده

في حيث لا يأوي لـه سبحانه
حنقا ويكشط جلده جلاده

وئن هدمت بني الضلال بهدمه
وعدت عبادك عنوة عباده

فتكت بـه آيات من لمحمد
ولدينه ابداؤه وعواده

او انشط البلد الحرام تواءمت
تثني عليه تلاعه ووهاده

ولو ان منبره أطاق تكلما
نطقت بباهر فضله اعواده

نام الخليفة واستطال لذبه
عن سدتيه واستطير رقاده

رجعت لك العز القديم سيوفه
ما زان رونق مائها اغماده

من بعد ما نعق الصليب لحزبه
ورأيت زرع الملك حان حصاده

انسى تميل الحادثات رواقه
بهبوبها وابن العماد عماده

فصل

قال ابن الاثير : لما سار نور الدين إلى قلاع جوسلين ملك بعضا، وأبقى بعضاً ، فاجتمعت الفرنج فالتقوا مع نور الدين بدلوك فهزمهم واستولى على دلوك وغيرها، ففيها يقول أحمد بن منير قصيدة منها:

هي الخيل خير عتاد الكريم
يحضر للهم احضارها

ضغمت فأدررت أفواهها
وسرت فقلمت أظفارها

الام ولم تبق مما غزو
ت قلوبا تكابد إذ عارها

أما في مفصل آي القرا
ع أن تضع الحرب أوزارها

عسى إن يُحم لهذا الحما
م أن يتوكر أوكارها

وما يوم من غلته واحد
فتودعه اللسن أشعارها

وأين المقاول مما فعلت
ولو شفع الفطراء كثارها

فكـــم اجلبـــت خلفـــك الجافخـــا
ت(٥٩) فصلصل فخرك فخارها

أعـــدت بعصرك هـــذا الانيـــ
ـــق فتـــوح · النبـــي واعصـــارهـــا

وكـــان مهـــا جـــرهـــا تـــابعيـــ
ـــك وانصـــار رأيـــك انصـــارهـــا

فجـــدّدت اســـلام سلمانها
وعمـــر جـــدك عمارهـــا

ومـــا يـــوم إنـــب الاكتيـــ
ـــك بـــل طـــال بـــالبـــوع اشبـــارهـــا

وأيـــامـــك الغـــر مـــن بعـــده
يعيـــد إلى الطـــي اغـــرارهـــا

ولماهبيـــت ببصرى سمكـــت
بـــاهبـــاء خيلـــك أبصـــارهـــا

ويـــوم على الجون جـــون السرا
ة عـــز فسعطهـــا عـــارهـــا

صـــدمـــت عـــريمتهـــا صـــدمـــة
أذابـــت مـــع الماء أحجـــارهـــا

وفي تبـــل بـــاشر بـــاشرتهم
بـــزحـــف تســـور أســـوارهـــا

وإن دالكتهـــم دلـــوك فقـــد
شـــدّدت فصـــدقـــت أخبـــارهـــا

وشـــب التـــدامـــر حتـــى طلعـــت
عليهـــا فـــولتـــك أدبـــارهـــا

مشـــاهـــد مشهـــورة نمنمـــت
على صفحـــة الـــدهـــر اسطـــارهـــا

يلـــذ الاغـــاني تـــرجيعهـــا
ويستسفـــر السفـــر أسفـــارهـــا

بنيت لوفد المنى كعبة
تجير المعلق استارها
وملكت الاراضي مغبرة
تكاد تحدّث أخبارها
فمازلت تدجن حتى محو
ت دجاها وشعشعت أنوارها
وصلت فأعززت مسكينها
وصلت فأذللت أبسارها
وصغت حلى من علا أحكمت
على عنق الدهر أزرارها

قال أبو يعلى : في رجب وردت الاخبار من ناحية نور الدين بظفره بعسكر الأفرنج النازلين بازائه قريبا من تل باشر، وعظيم النكاية فيهم والفتك بهم، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وسبيهم، واستولى على حصن خالد الذي كان مضايقه ومنازله.

قال : وفي أيام من محرم وصل جماعة من حجاج العراق وخراسان : المأخوذين في طريق الحج عند عودهم بجماعة من كفار العربان، وحكوا مصيبة ما نزل مثلها بأحد في السنين الخالية، ويكون أبشع منها، وذكر أنه كان في هذا الحاج من وجوه خراسان وأعيانها وفقهائها وعلمائها وقضاتها وخواتين أمراء العساكر السلطانية والحرم العدد الكثير، والاموال الجمةوالأمتعة الوافرة فأخذ جميع ذلك وقتل الأكثر، وسلم الاقل، وهتكت النساء وسلبن وهلك من هلك بالجوع والعطش، فضاقت الصدور لهذه النازلة فكسي العاري منهم وأطلق لهم ما استعانوا به على عودهم إلى أوطانهم من أصحاب المروءة بدمشق(ذلك تقدير العزيز العليم)[٦٠].

- ٧٧١٢ -

فصل

قـال: وكان مجاهـد الديـن بزان قـد تـوجه إلى حصنـه صرخد ليتفقـد أحـواله، فعـرضـت نفرة بين مجير الـديـن والرئيـس بسعـايات أصحـاب الاغراض والفساد، واقتضت الحال استدعـاء مجاهد الدين لاصلاح الحال فوصل وتم ذلـك بوساطته على شرط ابعاد الحاجب يـوسف صاحب مجير الديـن عن البلد مـع أصحابه، و تـوجهوا ولم يتعرض لشيء مـن أموالهم وقصد بعلبك فأكرمه واليها.

قـال: ووردت الأخبـار من مصر بـالخلـف المستمـر بين وزيرهـا ابـن مصال وبين الأمير المظفر ابن السلار، ووقـوع الحرب وسفك الـدماء إلى أن أسفـرت الحال عن قتـل ابـن مصال الـوزيـر وانتصـاب ابن السـلار موضعه في الوزارة.

قال: وفيهـا في سابع عشر رجب تـوفي القاضي بهاء الدين عبـد الملك ابن الفقيه عبد الـوهاب الحنبلي، وكان إماما فاضلا منـاظرا مستقلا مفتيا على مذهـب الامامين أحمد وأبي حنيفـة بحكم مـا كان عليـه عند إقـامته بخراسان لطلب العلم والتقدّم، وكـان يعرف اللسان الفارسي مع العربي، وهو حسـن الحديث في الجدّ والهزل، وكان لـه يوم مشهود ودفـن في جوار أبيه وجدّه في مقابر الشهداء.

قال: وتوفي عقيـب وفاته القاضي النقيـب فخر الدولة أبـو الحسين بن أبى الجنّ ، وتفجع الناس لخيريته وشرف بيته.

- ٧٧١٣ -

ودخلت سنة ست وأربعين

ففيها حاصر نور الدين دمشق لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم، ومدحه ابن منير بقصيدة يحرضه فيها عليهم، وكتبها إليه من حماه وهو محاصر دمشق، وقد تخلف عن الخدمة لمرض عرض له منها:

الخليفة اللّه الذي ضمنت له
تصديق واصفه سراة المنبر
لا المستطيل بمصر ظل قصوره
والمستطال إليه شقة صرصر
يا نور دين اللّه وابن عماده
والكوثر بن الكوثر بن الكوثر
صفر بحد السيف دار أشائب
عقلوا جيادك عن بنات الاصفر
هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا
نارا تحش بهم غدا في المحشر
اذكوا بجلق حرها واستسعرت
لفحاتها بين الصفا والمشعر
شردتهم من خلفهم مستنجدا
ما ظاهر الكفار من لم يكفر
لا تعف بل سق الهدى نفس الذي ادّ
رع الضلال على أغر مشهر
قلده ما اهدى علي لمرحب
فلقد تهكم في الخداع الخيبري
ما الغش ممن أمه نصرانة
لم تختتن كالغش من متنصر
اذكت لنا هذي العزائم لاخبت
ما غار من سنن الملوك الغبر

اثقـــــاب اراء المعـــــز وخفـــــق را
يــــات العـــــزيـــــز ويقظـــة المستنصر
شمـــر فقـــــد مـــدّت إليـــك رقـــابها
لا يـــدرك الغــــايـــــات غير مشمـــــر
أولســـت مـــن مـــلأ البسيطـــة عـــدلـــه
واجتـــب بـــا لمعـــروف أنـــف المنكـــــر
حـــدب الاب البر الكبير ورأفـــة الـــــ
ـــأم الحفيـــة بـــاليتيـــم الاصغـــــر
يـــا هضبـــة الاســـلام مـــن يعصـــم بها
يـــؤمـــن ومـــن يتـــول عنهـــا يكفـــــر
كـــانـــوا على صلـــب الصليـــب سرادقـــا
انبـــت بنيتـــه بكـــل مـــذكـــــر
آثـــارهـــم نجـــس اذا المسجـــد الـــــ
ـــأقصى فصـــن مـــادنســـوه وطهـــــر
جـــار الخليـــل ومـــن بغـــزة هـــاشـــم
بلهـــامـــك المتـــدمشـــق المتمصر
بعـــرمـــرم صلمـــت وعـــاوعـــه عـــرى
اسماع جيحـــــون وسيـــف البربـــــر
يفتر عـــن ملـــك الملـــوك منحـــل الـــــ
ـــأنـــواء بـــل سعـــد السعـــود الأكبر
عـــن طـــاعـــن الفـــرســـان غير مكـــذب
ومتمـــم الاحســـــان غير مكـــــدر
بـــدر الجحـــافـــل والمحـــافـــل فـــارس الأ
ســـاد في غـــاب الـــوشيـــج الاسمـــــر
ملـــك تســـاوى النـــاس في أوصـــافـــه
عـــذر المقـــلّ وبـــان عجـــز المكثـــر
يـــا أيها الملـــك المنـــادي جـــوده
في ســـائر الآفـــاق هـــل مـــن معسر

إن القصـــائد أصبحـــت أبكـــارهــــا
في ظــل ملكـك غـــاليـــات الأمهـــر
إن كنـــت أحييـــت ابـــن حمدان لها
فــأنــا الـــذي غبرت في وجـــه السري
ولأنـــت أكـــرم مـــن أنـــاس نــوّهـــوا
بــاســم ابــن أوس واستخصــوا البحتري
ذلــت لـــدولتـك الــرقـــاب ولا تــزل
ان تغــز تغنــم أو تقـــاتـــل تظفـــر

وكتب إليه من حماه أيضا وهو محاصر دمشق قصيدة ينال فيها من صاحبها يقول:

أبـــوك أب لـــو كـــان للنـــاس كلهـــم
أبـــا ورضـــوا وطء النجـــوم لفنـــدوا
ومـــا مـــات حتـــى ســـد ثلمـــة ملكـــه
بـــك اللّـــه تـــرمـــي مـــا رمـــاه فتصرد
صدمـــت ابـن ذي اللغديـن فـانحـل عقـده
وكـــالسلـــك قـــد أمســـى يحل ويعقـــد
يقلـــب خلـــف السجـــف عينـا سخينـــة
ويبكـــي بـــأخـــرى ذات شتر ويسهـــد
ولا غـــرو قـــد أبقـــى أبـــوه وجـــده
لـــه كـــل يـــوم ثـــوب عجـــز يجدّد
فيـــا راكبـــا أمـــا عـــرضـــت فبلغـــن
بيـــوتـــا على جيرون بـــالـــذل تعمـــد
وقـــل لمبيـــد الـــديـــن وهـــو مجيره
بـــزعـــم لـــه وجـــه الحقيقـــة أربـــد
حملـــت الصليـــب بـــاغيـــا ونبـــذتـــه
وثغـــرك مطـــووس يبـــاب وأدرد
وحـــاربـــت حـــزب اللّـــه واللّـــه نـــاصر
لنـــاصره وديـــن أحمد أحمد

تنصرت حينـــا والبــــلاء مـــوكـــل
ولا بـــد مـــن يـــوم بـــه تتهـــوّد

وأقســـم مـــا ذاق اليهـــود بـــايليـــا
ومـــوضعهـــا مـــن بختنصر أســـود

كبعـــض الـــذي جـــرّعتـــه فسرطتـــه(٦١)
وأيـــد فيـــه مـــن عماك المؤيـــد

ولا يتـــه عـــزل اليـــك مـــوجـــه
وتصحيفـــه قتـــل عليـــك مـــؤيـــد

رمـــاك ببـــاقـــلا دمشـــق فلـــم تكـــن
ســـوى بقلـــة حمقـــاء بـــالحمـــق تحصـــد

وجـــالـــدت جـــلادا وأنـــت مـــؤنـــث
تـــذكـــرت والجلاد أدهـــى وأجلـــد

تطـــاولـــت لأنفـــس تسمـــى ولا أب
وراءك زحفـــا إنما أنـــت مقعـــد

امسعـــاة نـــور الـــديـــن تبغـــي ودونها الـــ
ـــأسنة تبر والعـــوامـــل تعضـــد

بمحمـــود المحمـــود سيفـــا وســـاعـــدا
حملـــت لقـــد نـــاجتـــك صما مـــؤيـــد

وهـــل يستـــوي ســـارتـــأســـد طـــاويـــا
ونشـــوان يعلـــو معصما ويـــؤيـــد

تنصرت أمـــا بـــل تمجســـت والـــداً
وعما فعـــرق الكفـــر فيـــك مـــردّد

تخذت بنـــي الصـــوفي أسرا وأسرة
لكـــي يصلحـــوا مـــا في يـــديـــك فـــأفســـدوا

لعمـــري لنعـــم العبـــد أنـــت تجيعـــه الـــ
ـــموالي وتـــوليـــه هـــوانـــا فيحمـــد

إليكـــم بنـــي العـــلات عـــن متشـــاوس
لـــه الشـــأم مـــرفـــا والعـــراق مـــرفـــد

مـــا مصر إلاّ بعـــض امصـــاره التـــي
إلى أمـــره تسعـــــى قياء وتحفـــــد
انيبـــوا إليـــه فهـــو أرحـــم قـــادر
لـه الصفـح ديـن واقبلـوا النُصـح ترشـدوا
ولا تـــرشفـــوا نفـــس المؤيـــد إنـــه
عـــن الخير يـــروي أو إلى المين يسنـــد
وفـــرّوا إلى مـــولاكـــم والـــذي لـــه
عليكـــم أيـــادو سمهـــا اليـــس يجحـــد
ولا تكفـــــروه إنما أنتـــــم لـــــه
ومنـــه ويـــوم عنـــد حـــوران يشهـــد
غـــداة على الجولان جـــول وللظبـــى
رعـــود فـــريـــص الموت منهـــن يـــرعـــذ
ولما اكفهـــرّ اليـــوم واربـــدّ وجهـــه
وعـــوّز مـــرهـــون وفـــر مـــزبـــد
وأيقـــن مـــن بين السـديـــر وجـاســم
بـــان الحرار الســـود بـــا الجرد تجرد
ردتهم على بصرى وصرخـــــدّ خيلـــــه
وقـــد أبصرت بصرى رداهـــا وصرخـــد
وطـــاروا تهز المرهفـــات طـــلاهـــم
كما انصـــاع مـــن اســد نعـــام مشرد
وليلـــة ألقـــى الشريـــك بـــا لمرج بـــركـــه
ومـــازج نيران الـــوغـــى تتـــوقـــد
رمـــى وأخـــوه مغـــرب الشمـــس دونكـــم
بمشرقهـــا غضبـــان يعـــدو ويسئـــد
فمـــذ وردت مـــاء الارنـــط مغـــذة
أثـــارت بثـــور اغلـــة ليـــس تبرد
أيـا سيـف شـامتـه يـدا الملك صـارمـا
فيمهمـــد إذ يسري ويسري فيهمـــد

دمشـــق دمشـــق إنّما القـــدس سرحـــة
ومـــركـــزهـــا صرح عليهـــا ممـــرد
حموهـــا الكـــي يحمـــوا وقـــد بلـــغ المدى
بهم أجـــل حتـــم وعمـــر محدّد
متـــى انـــاراء طـــائر الفتـــح صـــادحـــا
يـــرفـــرف في أرجـــائهـــا ويغـــرد

وله من قصيدة أخرى:
نـــذرك بـــالغـــوطتين قـــد ضمنـــت
ربـــوتها ربعـــه ومقـــراهـــا
أطلـــع لها الشمـــس مـــن جبينـــك لم
تـــرج ســـواهـــا في النـــوم جفنـــاهـــا
فـــالخيـــل صـــور إلى تســـاهـــم سهميـــ
ـــها وملهـــى في بيـــت لهيـــاهـــا
دولـــة مـــن دانـــت البـــلاد لـــه
وعمهـــا ظلـــه فـــأغنـــاهـــا
لابســـواهـــا تليـــق بهجتهـــا
ولا ســـواه تبغـــي رعـــايـــاهـــا

قال أبـو يعلى: وفي عاشر المحـرم نزلت أوائل عسكـر نور الـدين على أرض عذرا من عمل دمشق وما والاها ، وفي الغـد قصد فريق وافر منهم ناحية السهـم والنيرب وكمنوا عند الجبل لعسكر دمشـق، فلما خرج منها إليهم أسرع النـذير إليهم فحذرهـم وقد ظهر الكمين فانهزمـوا إلى البلد، وفي الغـد نزل نـور الـدين بعسكـره على عيون فـاسريـابين عذرا ودومـة، وامتـدوا إلى تلك الجهـات ونـزلـوا من الغـد في أراضي حجيرا وراويـة في الخلـق الكثير والجم الغفير، وانبسطـت أيـدى المفسـديـن مـن العسكـر الدمشقي والأوباش من أهل العيث والفساد في زروع الناس فحصدوها، وفي الثمار فأفنـوها بلا مـانع ولادافـع ، وتحرك السعر وانقطعت السـابلة،

ووقع التأهب للحصار ووافت رسل نور الدين إلى ولاة البلد يقول: أنا ما أوثر إلاّ صلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد فذلك المراد، فلَم يعد الجواب إليه بما يرضاه فنزل في أرض مسجد القدم وما والاه من الشرق والغرب وبلغ منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبلي البلد.

قلت: هو الذي يسمى في زماننا بمقبرة المعتمد بين مسجد القدم ومسجد فلوس.قال: وهذا منزل ما نزله أحد من مقدمي العساكر فيما سلف من السنين، وأهمل الزحف إلى البلد اشفاقا من قتل النفوس ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق، فضاقت صدور أهل الصلاح وزاد انكارهم لمثل هذه الاحوال المنكرة، والمناوشات في كل يوم متصلة من غير مزاحفة ولا محاربة، فلم يزل ذلك إلى ثالث عشر صفر فرحل العسكر النوري من هذه المنزلة، ونزل في أراضي فذايا وحلقبلتين والخامسين المصاقبة للبلد، وما عرف في قديم الزمان من أقدم على الدنو منها، ثم رحل في العشرين من صفر إلى ناحية داريا لتواصل الإرجاف بقرب عساكر الافرنج من البلد لقوّة عزمه على لقائهم، وصار العسكر النوري في عدد لايحصى، وفي كل يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائف التركمان، ونور الدين مع هذه الحال لايأذن لأحد من عسكره في التسرع والظهور، ولايعودون إلاّ خاسرين مغلولين ، وأقام على هذه الصورة، ثم رحل إلى ناحية الأعوج لقرب عسكر الافرنج وعزمهم على قصده، واقتضى رأيه الرحيل إلى جهة الزبداني استجرارا لهم وأفرق من عسكره فريقا يناهز أربعين ألف فارس مع جماعة من المقدّمين ليكونوا في أعمال حوران مع العرب لقصد الأفرنج ولقائهم وترقباً لوصولهم وخروج العسكر الدمشقي إليهم واجتماعهم بهم، ثم يقاطع عليهم، واتفق أن عسكر الفرنج رحل عقيب رحيله إلى الأعوج، ونزل به في ثالث ربيع الأوّل ودخل منهم خلق كثير

إلى البلد لقضاء حوائجهم، وخرج مجير الدين ومؤيد الدين في خواصهما وجماعة وافرة من الرعية واجتمعوا بملكهم وخواصه وما صادفا عنده شيئا مما هجس في النفوس من كثرة ولا قوّة ، وتقرّر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال أعماله ، ثم رحل عسكر الافرنج إلى رأس الماء ، ولم يتهيأ خروج العسكر الدمشقي إليهم لعجزهم واختلافهم، وقصد من كان بحوران من العسكر النوري ومن انضاف إليهم من العرب في خلق كثير ناحية الافرنج للايقاع بهم والنكاية فيهم، والتجأ عسكر الأفرنج إلى لجاة حوران للاعتصام بها، ونمى الخبر إلى نور الدين فرحل ونزل على عين الجر من البقاع عائدا إلى دمشق، وطالبا قصد الفرنج والعسكر الدمشقي، وكان الافرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقي قد قصدوا بصرى لمضايقتها ومحاربتها، فلم يتهيأ ذلك لهم وظهر إليهم سرخاك واليها في رجاله، وعادوا عنها خاسرين، وانكفأ عسكر الافرنج إلى أعماله، وراسلوا مجير الدين ومؤيد الدين يلتمسون باقي القطيعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق، وقالوا: لولا نحن ندفعه مارحل عنكم.

قال أبو يعلى: وفي هذه الايام ورد الخبر بوصول الأسطول المصري إلى ثغور الساحل في غاية من القوة وكثرة من العدّة، وذكر أن عدّة مراكبة سبعون مركبا حربية مشحنة بالرجال، ولم يخرج مثله في السنين الخالية، وقد انفق عليه فيما حكي وقرب ثلاثمائة ألف دينار.وقرب من يافا من ثغور الفرنج فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به،واستولوا على عدّة وافرة من مراكب الروم والأفرنج ، ثم قصدوا ثغر عكا ففعلوا فيه مثل ذلك، وحصل في أيديهم عدّة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية، وقتلوا من حجاجهم وغيرهم خلقاً عظيماً، وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس، وفعلوا في الكل مثل ذلك، ووعد نور الدين بمسيره إلى ناحية الاسطول المذكور لإعانته على تدويخ الفرنجية، فاتفق اشتغاله بأمر دمشق وعوده

إليهـا لمضايقتهـا، وحـدث نفسه بملكهـا لعلمـه بضعفهـا وميل الأجنـاد والرعية إليه، واشارتهم لولايته وعدله.

قال: وذكـر أن نور الديـن أمر بعـرض عسكره فبلغ كمال ثـلاثين ألفا مقاتلة ، ثـم رحل ونزل بالدلهمية مـن عمل البقاع، ثم نزل بـأرض كوكبا غربي داريا ثم نزل بأرض داريـاإلى جسر الخشب، ونودي في البلد بخروج الاجناد والأحداث إليه، فلم يظهر منهم إلاّ اليسير ممن كان يخرج أوّلا، ثم تقدّم ونزل القطيعـة وما والاها ودنا منهـا بحيث قرب من البلـد، ووقعت المنـاوشة بين الفـريقين من غيرزحـف ولا شـدّ في محاربة تحرجـا من قتـل المسلمين، وقـال: لاحاجـة إلى قتل المسلمين بـأيدي بعضهـم بعضا وأنـا أوفرهم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين.

قـال: وورد الخبر إلى نور الـديـن بتسلم نـائبـه الامير حسان المنبجـي مدينة تـل باشر بالأمان في الخامس والعشرين مـن ربيع الأوّل، وورد مع المبشر جماعة مـن أعيان تل باشر لتقـرير الأحوال وتـرددت المراسلات في عقد الصلـح مع أهل دمشـق على شروط واقتراحات ، وتردد فيهـا الفقيه برهان الـدين على البلخي والأمير أسد الـدين شيركوه وأخوه نجـم الدين أيـوب، وتقـارب الأمـر في ذلـك إلى أن استقـرّ الحال على قبـول الشروط المقترحـة، ووقعت الايمان مـن الجهتين على ذلـك والـرضى بـه في عـاشر ربيع الآخـرة، ثم رحـل نور الـدين من الغـد طالبـاً ناحيـة بصرى للنزول عليها، والتمـس من دمشـق ما تدعـو إليه الحاجـة من آلات الحرب لأن واليها سرخاك كـان قد شاع عصيانه وخـلافه ومال إلى الأفرنـج فاعتضد بهم، فأنكر نور الدين ذلك عليه وأنهض إليه فريقا وافراً من عسكره.

قلت: ولابـن منير في نو ر الـدين يذكـر وقعة الجولان وغيرهـا قصيدة أوّلها :

مـــــابـــــرقـــــت بيضــــك في غمامهـــــا
إلا وغيـــث الـــــديـــــن لابتســـامهـــا

يقول فيها:

محمـــودا لمحمـــود جـــداً وجـــداً
أرخـص جلـد الارض حكـم عـامهـا

ملـك أزل الـروم عـن صلبـانها
دفـاعـه وكـب مـن أصنـامهـا

جـال على الجولان أمـس جـولـة
صفـرت الأدحـيّ مـن نعـامهـا

والجون قـد جـرعهـا أجـونـه
وفـل مشحـوذا مـن اعتـزامهـا

وشـدّ في القـدّ لـه مليكهـا
قـود عتـود القـوط في شبـامهـا

وفي الـرهـا صـابـت لـه سحـابـة
صـاروا جفـاء خـف في التطـامهـا

وهـب في هـاب لـه عـواصـف
تجهمتهـا الهف مـن جهـامهـا

وكفـر لاثـالاث في جبينهـا
لثـم ظبـى أتـت على لثـامهـا

وقـايـع يـرفـض تحت وقعهـا
نظـم الثـريـا في فضـا مصـامهـا

فسـاعـة البيـض إذا عـدّدهـا
سـوط عـذاب صـب في أيـامهـا

واعجبـا العصـب الشرك التـي
لم يعصـب الـرشـد على أحـلامهـا

حكمـة استـواؤهـا في غيهـا
في نقـض مـا أحصـد مـن ابـرامهـا

مظفـر السـرايـات والـرأي إذا الـ
ـحرب مشـت تعثـر في خطـامهـا

عـدّت بـه حـدّ العـلاء همم
هـن النجـوم أو نـواصي هـامهـا

جلــت لــه الــدنيــا على زبــرجهــا(٦٢)
عفـــوا فلـــم يلـــو على حطـــامهـــا

رأتـــه وهـــو الليـــث يـــدمـــي ظفـــره
انفـــذ في المشكـــل مـــن حكـــامهـــا

فتـــوّجتـــه العـــز في مـــرتبـــة
تمنطـــق الجوزاء في نظـــامهـــا

غضبـــان لـــلاســـلام لا يغيظـــه اســـ
ـــتسلامها للقسر مـــن إســـلامهـــا

خـــط على مثـــل أب طـــاعـــت لـــه الـــ
ـــآفاق واستشرف لاغتشـــامهـــا

تصرف الـــدنيـــا على إيثـــاره
عـــراقهـــا مستردفـــا بشـــامهـــا

لـــو لم يكـــن دون منـــى فـــات المنـــى
واقعـــد الفـــائز مـــن قـــوّامهـــا

وامتـــك مـــاء مكـــة رواضـــع
يقصر بـــاع الـــدهـــر عـــن فطـــامهـــا

وصـــار كـــالجمـــر الجمار وخـــلا
مـــن أهلـــه الأشرف مـــن مقـــامهـــا

ودونها لا ازلـــت تـــرقـــى في حمى
مـــن مـــؤلم الارداء أو لمامهـــا

تلبـــس بيـــت اللّـــه وشـــي يمـــن
يقـــرأ آيـــاتـــك مـــن أعـــلامهـــا

فـــإنها الـــديـــن رحـــى قطبتهـــا
وبـــازل مكنـــت مـــن زمـــامهـــا

امـــت بنـــا الآمـــال منـــك كعبـــة
سلـــم الليـــالي آيـــة استســـلامهـــا

وارشفتنـــا بـــك ثغـــر نعمـــة
لا نســـأل اللّـــه ســـوى دوامهـــا

وقال أيضا يمدحه:

بجـــــدك اصحـــــب الجد الحزون
واطلـــع فجـــره الفتـــح المبين

وفي كنفيـــك ســولمت الليـــالي
وفــارق طبعـــه الـــزمـــن الخؤون

ومنـــك تعلـــم القطـــع المواضـــي
وقـــد زبنـــت بها الحرب الـــزبـــون

وأنـــت السيـــف لم تمســـه نـــار
ولا شحـــذت مضـــاربـــه القيـــون

تـــرقـــرق فـــوق صفحتـــه الامـــاني
ويقطـــر مـــن غـــراريـــه المنـــون

وقبلـــك مـــا سمعـــت بـــذي فقـــار
يثير الفقـــر كـــان ولا يكـــون

ولا غيـــث سماوتـــه سريـــر
ولا ليـــث وســـادتـــه عـــريـــن

ولا قمـــر لـــه الهيجـــاء هـــال
ولا تـــاج لـــه الـــدنيـــا جبين

جبلـــت نـــدى وعفـــواً وانتقـــامـــا
ومـــاء كـــل مجبـــول وطين

وملكـــك عمـــر الأقطـــار قطـــرا
فـــأمـــرعـــت الأواعـــث والحزون

تـــلا لأتحتـــه غـــرر الليـــالي
إذ الايـــام عنـــد ســـواك جـــون

وأنـــت أقمـــت للجـــدوى منـــارا
يبين لشـــائميـــه ولا يبين

وعنـــدك مشرب النعمـــى زلال
إذا عبقـــت مشـــاربها الأجـــون

تحكـــم في عطـــائك كـــل عـــاط
وقـــد شيـــدت مـــن المنـــع الحصـــون

لقـــد أشعـــرت ديـــن اللّـــه عـــزا
تتيـــه لـــه المشـــاعـــر والحجـــون
وقـــام بنصره والنـــاس فـــوضـــى
قـــويّ منـــــك في الجلى أمين
رجعـــت ملـــوكهـــم وهـــم خيـــوف
أسير في صفـــــادك أو كنـــــون
فبرنســـت البرنـــس لقـــاع خســـف
وجـــرّع مـــرّ جـــوســـك جـــوسلين
إذا مـــا الفعـــل عـــلّ تـــلاه حـــذف
يتـــاح لمنتهـــــاه أو سكـــــون
غنـــوا حتـــى غـــزوتهم فغنـــى الصـــ
ـــدى في أرضهـــم حـــف القطين
وكـــم عبر الصليـــب بهم صليبـــا
فـــردّتـــه قنـــاك وفيـــه لين
ومـــا خطـــرت بـــدار الشرك إلاّ
هـــوى النـــاقـــوس وارتفـــع الاذيـــن
مـــلأت عظـــام ساحهـــم عظـــامـــا
فكـــل مـــلا لقـــوك بـــه جـــريـــن
بـــإنـــب والقنـــا تجري نجيعـــا
كـــأن عيـــون أكعبهـــا عيـــون
وبين حـــرار صرخـــد ذبـــن حـــرّا
لـــه في كـــل حبحبـــة كمين
وفين مـــن العـــريمـــة في عـــرام
لـــه في جـــونها الأقصـــى وجـــون
وكـــم حـــرم لحارم غـــادرتـــه
ودارتـــه لمنسفهـــــادريـــــن
وفي شعـــراء قـــورس صغـــن شعـــرا
تـــدار على غـــراريـــه اللجـــون

وقــــــائع صرن في صنعـــــــاء طيرا
يـــــوقعهـــــا على عـــــدن عـــــدون

نماك أب إذا عـــــدّ انتســـــابــــا
تـــراقـــى مصعـــدا والنـــاس دون

شما لاكـــــان أمـــــلاك البرايـــــا
وقـــد قيســـوابـــــه وهـــو اليمين

قضـــى وقضـــاؤه في الأرض حتـــم
فطـــاعـــة أهلهـــا لبنيـــه ديـــن

لهذا اليـــوم تنتخـــب القـــوافي
ويـــذخـــر نفســـه الـــدر المصـــون

ونحـــن أحـــق منـــك بـــأن نهنـــى
إذا قـــرّت بـــرؤيتـــك العيـــون

سلمـــت لنـــافـــإنـــا كـــل صعـــب
نـــوازيـــه بـــأن تبقـــى يهون

تـــرابطنـــا بعقـــوتـــك التهـــاني
ويغبطنـــا بـــدولتـــك القـــرون

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال أبو يعلى: وورد الخبر من ناحية ديار مصر بأن أهل دمياط حدث فيهم فناء ما عهد مثله فى حديث ولا قديم بحيث أحصي المفقود منهم في سنة خمس وأربعين فبلغ سبعة آلاف شخص، وفي سنة ست وأربعين مثلهم، فصار الجميع أربعة عشر ألفاً، وخلت دور كثيرة من أهلها، وبقيت مغلقة لاساكن فيها ولا طالب لها.

وفيها في ثاني جمادى الآخرة توفي القاضي السديد الخطيب أبو الحسين ابن أبى الحديد خطيب دمشق، وكان خطيبا بليغا صيتا عفيفاً، ولم يكن

له من يقوم مقامه في منصبه سوى أبي الحسن الفضل ولد ولده، وهو حدث السن، فنصب مكانه ، وخطب وصلى بالناس واستمرّ الأمر له ومضى فيه.

قال: ووردت الحكايات بحدوث زلزلة وافت الليلة الثالثة عشرة من جمادى الآخرة ، اهتزت الأرض لها ثلاث رجفات في أعمال بصرى وحوران وما ولاها من سائر الجهات، وهدمت عدّة وافرة من حيطان المنازل ببصرى وغيرها، ثم سكنت بقدرة من حركها سبحانه وتعالى.

قال: وفي ثاني عشر رجب توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصه، ووصل إليها ودخل نور الدين صاحبها، فأكرمه وبالغ في الجميل في حقه وقرّر معه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق، ورجع إلى دمشق مسروراً في سادس شعبان.

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

وفت لك الدنيا بميعادها
بأذلة افلاذ أكبادها

وأوفدت غرّ سلاطينها
عليك في همة انجادها

تبغي سناء أقصدت قصده
طائعة طاعة أجنادها

خاضعة تعتدّ أعمارها
يوم التلاقي يوم ميلادها

شامت دمشق بك برق العلى
فأرسلت أصدق روّادها

رأتك نور الدين نار الهدى
قد أشرق الأفق بايقادها

فيممت منك حيا مزنة
بيض الايادي وردروّادها

فـــاســـأل مجير الـــديـــن عـــن خبرة
أوردهـــا محمـــود إيـــرادهـــا

تبـــوّأت مـــن عـــزهـــا قبـــة
سمـــر القنـــا أطنـــاب أوتـــادهـــا

تنـــافـــس النـــاس على دولـــة
فـــت بها أعين حســـادهـــا

يغـــدو المعـــادي كـــالموالي لها
فـــوالها إن شئـــت أوعـــادهـــا

يـــا ملكـــا يـــزهـــى بـــأسمائه
منـــابـــر تسمـــو بـــأعـــوادهـــا

وتـــأخـــذ الاسماع أوصـــافـــه
عـــن جمع الـــدنيـــا وأعيـــادهـــا

كـــم للمعـــالي فيـــك مـــن رغبـــة
تفنـــى الأمـــاني دون تعـــدادهـــا

لـــك المســـاعـــي الغـــر يـــا جـــامعـــا
مـــن طـــرفيهـــا بين أضـــدادهـــا

يغنـــي الـــورى أفـــرس فـــرســـانها
وفي التقـــى أزهـــد زهـــادهـــا

فـــانـــت نسكـــا غيـــث أبـــدالها
وأنـــت فتكـــا ليـــث آســـادهـــا

في أمّـــة أنـــت حمى دينهـــا
حينـــا وحينـــا شمـــس عبـــادهـــا

يطـــوى بـــك العمـــر إلى غـــايـــة
حسبـــك تقـــوى اللّـــه مـــن زادهـــا

هـــذا وكـــم مـــن سنـــة بـــدعـــة
أعـــدمتهـــا مـــن بعـــد إيجادهـــا

مـــآثـــر لـــو عـــدمـــت راويـــا
تكفـــل النظـــم بـــاسنـــادهـــا

قال أبو يعلى: وفي أواخر شعبان أغار بعض التركمان على ظاهر بانياس، فخرج إليهم واليها من الأفرنج في أصحابه، وظهر التركمان عليهم فقتلوا وأسروا.

وفي رمضان قصد بعض الفرنج ناحية من البقاع وأغاروا، فأنهض إليهم والي بعلبك رجاله فلحقوهم وقد أرسل الله عليهم من الثلوج المتداركة ما ثبطهم، فاستخلصوا منهم الغنيمة.

قلت: والي بعلبك هذا هو نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف.

قال ابن أبي طي: في سنة ست وأربعين أغار التركمان على بانياس فخرج أهل بانياس من الفرنج استنقذوا ما أخذوه، فعاد التركمان عليهم فكسروهم، واتصل ذلك بصاحب دمشق فأغضبه فعل التركمان لمكان الهدنة المنعقدة بينه وبين الفرنج، فأنفذ عسكراً إلى التركمان استعاد منهم ماأخذوه، واتصل خبر التركمان بالفرنج فجيشوا وخرجوا في جيش عظيم وشنوا الغارة على البقاع، والناس غافلون، فامتلأت أيديهم من الغنائم والأسارى، واتصل خبر غارة الفرنج بنجم الدين أيوب، وهو في بعلبك وعنده جماعة من عسكر دمشق وأصحابه، فقدّم عليهم ولده شمس الدولة ، فخرج وأوقع بالفرنج، واتفق أنه كان قد أصاب الفرنج ثلج عظيم، فهلك أكثرهم، وجاء شمس الدولة وهم متورطون فقتل فيهم مقتلة عظيمة، وخلص من كان عند الفرنج من الأسارى.

قال: وفي هذه السنة فارق صلاح الدين والده وصار إلى خدمة عمه أسد الدين بحلب، فقدّمه بين يدي نور الدين فقبله وأقطعه إقطاعا حسنا.

قال أبو يعلى: وفي ثاني شوال ، وهو الثاني من شباط وافت قبيل

الظهـر زلـزلة اهتـزت لها الأرض ثـلاث هـزات هـائلة، وتحركـت الـدور والجدران ثم سكنت.

قلـت: وفي هذه السنـة في غرّة جمادى الأولى كتـب أحمد بن منير مـن حماه إلى نور الـدين قصيدة يهينه بوصول الخلع إليـه من بغداد مـن عند الخليفة ، على يـد الشيخ شرف الـدين بـن أبي عصرون، ويصف الفـرس الأصفر الاسود القوائم والمعارف والسيف العربي أوّلها:

لعـلائك التـأييـد والتـأميـل
وللملك التـأبيـد والتكميـل

أبـداً تهم وتقتفـي فتنـال مـا
عـز الـورى إدراكـه وتنيـل

إمـا كتـاب يستقـل بـه الكتـا
ئب أو رسـول للنجـاح رسيـل

لـك مـن أبي سعـد زعيـم سعـادة
فمـن تفـاءل فيـك ليـس يفيـل[٦٣]

نعـم الحسـام جلـوتـه وبلـوتـه
يـرضيـك حين يصـل ثـم يصـول

سهـم تعـوّد في الكنـانـة عـودة
ويقصر المطلـوب وهـو طـويـل

سـدّدتـه فمضـى وقـرطـس صـادرا
كـالنجـم لا وهـل ولا تهليـل

فثنـا القلـوب إلى ولائك حـوّل
منـه بما يجنـى رضـاك كفيـل

وأقـام ينشر في العـراق ودجلـة
آيـا أتـاً أوّلها لمصر النيـل

وكسـاك مـن رأي الخليفـة جبـة
لا النقـص يـوهيهـا ولا التقليـل

كنـت الشريـف أفضـت في تشريفـه
مـاء عليـه مـن سنـاك دليـل

أليـــوســـف لما طلعــت مقـــرطقـــا
طمثـت حصـــان واستخــف أبيـــل

أم عـــن سليمان يفـــرج ضــــاحكــا
سجــف الـــرواق وضعضـــع الكيــول[٦٤]

وبملـــك في السرج أم ملـــك سطـــت
لبهـــائه عقـــل وتـــاه عقـــول

وبـــرزت في لبـــس الخلافـــة كـــالهلا
ل جـــلاه في حلـــل الـــدجـى التهليـــل

خلـــع خلعـــن على القلـــوب مسرة
ســدكـــاتها[٦٥] التعظيـم والتبجيـــل

نشـرت نضـــارا جـــامـــداً أعـــلامهـــا
وتكـــــادتجري رقـــة وتسيـــــل

لقضـــى لها ان لا عـــديـــل لفخـــرهـــا
ربّ بـــراك فما تـــلاك عـــديـــل

أنـــت المهنـــد منـــذ سلتـــه العلى
لم يخل مـــن مهـــج عليـــه تسيـــل

مـــذهـــز قـــائمـــه الامـــام تـــألقـــت
غـــرر شـــدخـــن لملكـــه وحجـــول

واليـــت دولتـــه فتهـــت بـــدولـــة
متكلـــل بصعيـــدهـــا الاكليـــل

ونصرتـــه فحـــلاك أبيـــض دونـــه
صرف الـــزمـــان إذا استكـــل كليـــل

قلـــدتـــه وكـــلا كما متلهـــذم
عضـــب فـــزان المغمـــد المسلـــول

وحبـــاركـــابـــك حين قـــرّ بـــزحفـــه الـــ
ـــقرآن واستخـــذى لـــه الانجيـــل

بـــأقـــبّ أصفـــر مشرف الهادي لـــه التـــ
حجيـــل لـــون واللها تحجيـــل

قسيم الدجى بين الغدائر والشوى
واعتام رونقه الاصيل أصيل
وتقاسم السراؤوه تحتك أنه
حيزوم مصرف عطفه جبريل
تختال في حبك الحليّ مخيلا
إن الشوامخ للبدور خيول
مرخى الذوائب كالعروس يزينه
طرف بأطراف الرماح كحيل
تتصاعق النعرات تحت لبانه
إن شبّ زفر واستجش صهيل
لم يجب مثلك مثله مهد ولم
يشلل على برق سواه شليل (٦٦)

وأنشده في هذه السنة أيضا بحمص قصيدة منها:
الدهر أنت ودارك الدنيا ومن
في العدّ بعده مؤمّل معدود
وأزمّة الاقدار طوع يديك والـ
ـأيام جندك والانام عبيد
فت الورى وعقدت ناصية المدى
بمذمر الشعرى فأين تريد
تال أباك فهل سليمان يرى
في الدست مهد ملكه داود
جلى وسدت مصليا الا يرفع الـ
ـمعدوم ما لم يشفع الموجود
لم يخترم جدّناك ولا أب
إن النباهة في الخليف خلود
شمخت منارك في اليفاع وأمّها
من لم يسد فأرته كيف يسود

وهبيت للاسلام وهو مصوّح
فاهتز هضاب ورق نجود
وفتأت جمرة صالية بصيلم
نصع الاجنة يومها المشهود
خطمتهم فوق الخطيم لوافح
نفس الارين لو أرهن برود(٦٧)
ورموا على الجولان منك بجولة
توئيدها نسر الضلال وئيد
ولحا عظامهم بعرقه عارق
مازلت تمخض جوّه فيجود
وشللت بالروج السروج وفوقها
زرع لمحصده الرماح حصيد
وعلى عزاز عنوا وثل عروشهم
ملك مقيد من عصاه مقيد
وبتل باشر باشروك فعافسوا
أهب الاساود حشوهن أسود
أودوا كما أودى بعادغيها
زعقوا كما استغوى الفصيل ثمود
إن آلموا عقرا فانك صالح
أو آلموا غدرا فانك هود
وزعتهم فبكل مهبط تلعة
خدّ به من وازع أخدود
وعصبتهم بعصائب مل ء الملا
شتى وإن خلّ البسالة عود
أثارها محمودة وآثارها
مشهودة وشعارها محمود
لبست من اسمك في الكريهة ملبسا
يبلي جديد الدهر وهو جديد

قصيرة الآجـــال طـــوّل بـــاعهــا
بـــوع يســـامـــى هـــامهـــا وقـــدود
مطـــرورة الأســـلاب مـــذ هـــزعتهـــا
تـــاه الهدى وتبختر التـــوحيـــد
أشرعتهـــا فعلى شريعـــة أحمد
ممـــا جنتـــه بـــوارق وعقـــود
ولكـــم نثـــرت نظيمهـــا في مـــوقـــف
تغـــريـــد صـــالى حـــره التغـــريـــد
يجلـــو سنـــاك ظـــلامـــه ويحل مـــا
عقـــدت قنـــاه لـــواؤك المعقـــود
في هبـــوة زحـــم السماء رواقهـــا
والارض تـــرجـــف تحتـــه وتميـــد
ضربـــت مخيمهـــا فكـــان كماتها
أوتـــاده القصـــوى وأنـــت عمـــود
في كـــل يـــوم مـــن فتـــوحـــك صـــادح
هـــزج الغنـــاء وطـــائر غـــرّيـــد
تهدي لعـــانـــة كـــاســـه فـــرغـــانـــة
وتسيـــغ زبـــدة مـــاشـــداه زبيـــد
فغـــرار سيفـــك لـــلاحـــابـــش محبـــس
ومثـــار نقعـــك للصعيـــد صعيـــد
لاتعـــدمـــن هـــذا المقلـــد أمّـــه
ملقـــى إليـــه لـــرعيهـــا الاقليـــد
الـــورد قـــر والمســـارح رحبـــة
والـــرفـــد مـــدّ والظـــلال مـــديـــد
والعيـــش أبلـــج مشرق القسمات والـــ
ـــأشجار غـــر والاصـــائل غيـــد
والملـــك ممـــدود الـــرواق منـــوّر الـــ
آفـــاق وضـــاء المنـــى محســـود

في دولـــة مــــذهـــب نشر ربيعهـــا
نشر الــــرفــــات وأثمــــر الجلمـــود

محمــــودة الآثـــــار محمــــوديـــــة
كـــل المواســـم عنـــدهـــا تعييـــد

وقـال يهنيه بليلـة الميلاد ويصـف النـازلين في الجبل مـن قلعة حلـب بقصيدة منها:

هنيـــت روزى ذراك صــــومـــك والــــ
ــــميلاد جـــاء والسعـــد في نســـق

فـــذاك انحلـــت فيـــه كـــل يـــد
وذاك أخملـــت فيـــه كـــل تقـــى

وجـــه كصـــدر الحســـام تصبـــولـــه الـــ
ــــعين وينقـــد القلـــب مـــن فـــرق

ومقلـــــة شـــــوقهـــا ليقظتهـــا
شـــوق لحســــادهــــا إلى الارق

ومـــرتقـــى تعجـــب السماء لـــه
إذا استطـــالـــت إليـــه كيـــف رقـــى

تـــوّجـــت شهبـــاءهـــا بمشرقـــه
مشرفـــــة شهبهــــا على الافـــق

جـــوّ تهادى منـــه كـــواكبـــه
طـــرفــــه طـــرف رجـــوم مسترق

فـــوارس تـــذهـــل الفـــوارس إن
تهافتـــت مـــن ارشـــاقهـــا الـــرشـــق

مــــن راكـــض في الهواء أهـــوى
ومـــن الفتـــح مجرّمـــن تحتـــه لبـــق

شـــاومـــن الخصر لـــو تحاولـــه الـــ
ــــخضر لـــزلـــت عـــن مـــوطـــىء زلـــق

يقـــول مـــن دينـــه الفـــروســـة مـــا
لاقــــك الاضرب مـــن الالـــق

بـــــــــدائع تغبـــــــــط السماء بها الأر
ض وتـــــذكـــي الاشفـــاق في الشفـــق
في دولـــــة جمعـــــت ايـــــالتهـــا
مـــــن بـــــدداالحســـــن كـــــل مفترق
تـــــذرّ أطـــــواقهـــــا على ملـــــك
مكتفـــــل رزق كـــــل مـــــرتـــــزق
محمـــــــــوداسها وميسها ونـــــــدى
واعتصـــــب الـــــدم كـــــل مسـرتفـــق
طبـــق طـــوفـــانـــه فلســـت تـــرى
إلاّ مغيثـــــا مشـــــف على غـــــرق
يـــابحـــر لاخلـــق يـــدعـــي شبهـــا
فـــات المدى مـــا حـــويـــت مـــن خلـــق
ملكـــــــك هـــــــذا الـــــــذي تملأه
صبـــاه يجري والـــدهـــر في طلـــق

- ٧٧٣٧ -

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

قال أبو يعلى: وورد الخبر في المحرم بنزول نور الدين على حصن انطرسوس في عسكره وافتتاحه له وقتل من كان فيه من الأفرنج، وطلب الباقون الأمان على النفوس فأجيبوا إلى ذلك، ورتب فيه الحفظة وعاد عنه، وملك عدّة من الحصون بالسبي والسيف والإخراب والإحراق والأمان.

قال: وورد أيضا ظفر رجال عسقلان بالأفرنج المجاورين لهم بغزة، بحيث هلك منهم العدد الكثير، وانهزم الباقون. قلت: وقرأت في ديوان ابن منير يمدح نور الدين ويهنيه بفتح انطرسوس ويحمور، وعوده عنهما فذكر قصيدة منها:

أبدا تبساشر وجه غزوك ضاحكا
وتؤوب منه مؤيدا منصورا

تدني لك الأمل البعيد سواهم
محقت اهلتها وكن بدورا

مثل السهام لو ابتغى ذو أربع
في الجوّ مطلبها الكن طيورا

نبذت علائقها بحمص واعلقت
سحراً بمعرق عرقه الأظفورا

وغدون صافيتا لاح شوارها
قد اتلعت عنقا اليك مشيرا

القلب أنت فإن تعامى عن هدى
عضو أهاب به فعاد بصيرا

عرفوا مكانك والظهيرة بينهم
يغري بياض أديمها الديجورا

أين الذبال من الغزالة أشرقت
وجها وطبقت البسيطة نورا

غضبـــان اقســـم لا يشيـــم حســـامـــه
والارض تحمـــــل في الكفـــــور كفـــورا
غســل العـــواصـــم أمـــس مـــن أدرانهم
واليـــــوم ردّبـــــه الســـــواحـــل بـــورا
لم يبـــــــــــق بين الحولتين وآمـــــــد
وتــــرا المضطغـــــن ولا مـــــوتـــــورا
اخلى ديـــــار الشرك مـــــن أوثـــــانها
حتـــى غـــدا ثـــالـــوثهـــن نكيرا
رفـــع القصـــور على نضـــائدهـــامهـــم
مـــن بعـــدمـــا جعـــل القصـــور قبـــورا
بشـــواحـــب الاليـــاط تقطـــو في الظـــلا
م قطــــاوتهوى في الصبـــــاح نشـــــورا
غـــادرت انطـــرســـوس كـــالطـــرس انمحـــى
رسما وحمر ردعهـــــــــا يحمـــــــــورا
وهـــي الـــزنـــاد لفتنـــة كـــانـــت على الـــ
ـــــــــاسلام أحكـــــــــم كسره اكسيرا
هتمـــت طـــرابلســـا فـــاصبـــح ثغـــرهـــا الـــ
ـــــبسام مـــــن عـــــز الثغـــــور ثغيرا
اقليـــــدهــــاكــــانــــت وقــــدانطيتـــه
واســـــأل بـــــه ممـــــن دهتـــــه خبيرا
إن الاولى امنـــــوا وقـــاعـــك بعـــدهـــا
غـــرّوا وقـــدركبـــوا الاغـــرّ غـــرورا
الـــق العصـــافيمـــن أطـــاع ومـــن عصـــى
منهـــــم ودمـــــر أرضهـــــم تـــــدميرا
لا يلههـــــم إن قـــــد مننـــــت وشنهـــــا
شعـــــواء تصلي الكـــــافـــــريـــــن سعيرا
بـــاكـــر بـــركـــزقنـــا تنســـف اسهـــا
والخيـــل صـــور كـــي تـــزيـــرك صـــورا

وتـريـك لامعـة التريـك بسـاحـة الـ
ـــأقصى مطهـــرة لها تطهيرا
أولسـت مـن قـوم إذا هـزوا القنـا
فتلـوا معـاصمهـم لها تسـويـرا
وإذا هـم خطبـوا اليراع عـزيـزة
سـاقـوا الشفـار على المهـار مهـورا
القـى قسيا هـم إليـك أزمـة الـ
ـملك المطـل على السهـا تـأثيرا
ضحكـت لـك الأيـام واكتـأب العـدا
قلقـا فجئـت مبشرا ونـذيـرا
لا ملـك الا ملـك محمـود الـذي
تخذ الكتـاب مظـاهـرا أو وزيـرا
تمشي وراء حـدوده أحكـامـه
تـأتمهـن فيحكـم التقـديـرا
يقظـان ينشر عـدلـه في دولـة
جـاءت لمطـوى السماح نشـورا
خلـف الخلائف قـائما عنهـم بما
عيـوابـه ألـوى الـدّ غيـورا
البر والمعصـوم والمهـدي والـ
ـمأمون والسفـاح والمنصـورا
بشروابـه فعهـودهـم وعهـادهـم
يمتحـن تحت لـوائه منشـورا

وأنشده بحلب في هذه السنة قصيدة أوّلها:

المجـد مـا ادّعـت ثـراك هضـابـه
وتثقفتـك شعـوبـه وشعـابـه
ملـك تكنـف ديـن أحمد كنـه
فـأضـاء نيره وصـاب شهـابـه

فالعدل حيث تصرفت احكامه
والأمن حيث تصرمت أسرابه
متهلل والموت في نبراته
يرجى ويرهب خوفه وعقابه
عقد اللواء وسار يقدمه وما
حلت عقود تميمها أترابه
أسد فرائسه الفوارس والظبا
أظفاره والسمهرية غابه
طبع الحديد فكان منه جنانه
وسنانه وإهابه وثيابه
ويهش إن كبت الوجوه كأنها
أعداؤه تحت الوغى احبابه
نشرت بمحمود شريعة أحمد
وأرى الصحابة ما احتذاه صحابه
ما غاب اصلع هاشم فيها ولا ال
فاروق باء بخطبه خطابه
أبناء قيلة قائمون بنصره
إن اجلبت من قاسط أحزابه
صبحوا بحلقة البرنس بحالق
حرش الضباب من القلوب ضبابه
ما زال يغلب من بغاه ضلاله
حتى اتيح من الهدى غلابه
ملقى بوحش الاصرمين تزيلت
آراؤه وتزايلت آلابه
دون الأرنط سخت به نجداته
ونجاده وقرابه وقرابه
سلبته درّة تاجه يد ضيغم
لم تنجه من بأسه اسلابه

واتتــــه تجلــــب جــــوسلين جنــــائب
هبــــت فقــــل إلى القتــــال هبــــابــــه

اسرتــــه لامنعــــت سراه وغــــره
بــــالقــــاع إن رام الــــورود سرابــــه

يمشي فتسمعــــه قعــــاقــــع قيــــده
هــــزجــــاً تقــــيء دمــــاً لــــه أنــــدابــــه

لاتــــل بــــاشره ولا كيســــونــــه
صــــدّت منــــى عنــــه ولا عنتــــابــــه

ضمنــــت شقــــاوتــــه سعــــادة صــــافــــح
غطــــى على أعنــــاتــــه اعتــــابــــه

مــــازال يغــــدر ثــــم يعــــذر قــــادرا
حتــــى أتــــاه بجــــامــــح أصحــــابــــه

قصر الأمــــاني إن يمــــلأ عصرك الــــ
ــــاسلام مضروبــــا عليــــه حجــــابــــه

مجر يجرّ إلى الغنــــائم قبــــه
وحمى يــــزار على الفتــــوح قبــــابــــه

وأنشده بحلب في شوال من هذه السنة قصيدة منها:

لقــــد أوطــــأت ديــــن اللّــــه عــــزا
أديــــم الشعــــريين لــــه رغــــام

دعــــاك وقــــد تنــــاوشــــت الــــرزايــــا
لــــه اهــــب يــــوزعهــــا العــــذام

فقمــــت بنصره والنــــاس فــــوضــــى
قيــــام ذم مــــا اقترفــــت فئــــام

جــــذبــــت بضبعــــه مــــن قعــــر يــــم
لــــه مــــن فــــوق مقسمــــه التطــــام

وملــــت على معــــاقلهــــم فخّــــرت
ولاء مثــــل مــــا انتقــــض النظــــام

بصرخد والخطيم وفي عزاز
وقائع هز مشهدها الانام
ولو لم يعترف ويشم لأمسى
وأصبح لاعراق ولا شآم
صبيت على الصليب صليب بأس
قواه تحت كلكله حطام
ويوم بالعريمة كان حتفا
على الاشراك أمقره العرام
لقوك كأنّ ما سلوه شيح
وما اعتقلوه من خور ثمام
وهاب وقورس ويكفر لاثا
ذممت وأنت للجليّ ذمام
صدمتهم بأرعن مرجحنّ
كأن مطاراً أنسره غمام
وأية ليلة لم تلف فيها
لهم طيفاً يروع به منام
بنور الدين أنشر كل عدل
تعفت في الثرى منه الرمام
وعاد الحق بعد كلال حدّ
حمى من أن تراع له سوام
تألق عدله وذكت سطاه
فلا حيف يخاف ولا اهتضام
بقاؤك خير ما يرجوه راج
وأنفع ما يبلّ به أوام

فصل

وفي هذه السنة ولد بحمص لنور الدين ابن سماه أحمد وهناه ابن منير في بعض قصائده، ثم توفي بدمشق وقبره خلف قبر معاوية رضي الله

عنه إذا دخل الحظيرة في مقابر الباب الصغير، وقصيدة ابن منير قد تقدّم بعضها في أوّل الكتاب ومنها في ذكر المولود:

تـــوالـــت الأعيــاد لازلـــت لها
تبلي ديـــابيـــج البقـــاء وتجد

الفطـــر والميـــلاد والمولـــود لـــو
قـــابلـــه بـــدر التمام لسجـــد

ثـــلاثـــة تعـــرب عـــن ثـــلاثـــة
لمثلهـــا يـــذكـــر حمدا مـــن حمد

فتـــح مبين وطـــلاب مـــدرك
ودولـــة مـــا تنتهـــي إلى أمـــد

وله من أخرى يقول:

وجئـــت بـــأحمد فمـــلأت حمدا
مـــوارد كـــان معـــذبها عـــذابـــا

تهلـــل وجـــه ملكـــك يـــوم أهـــدت
قـــوابلـــه لـــك الملـــك اللبـــابـــا

شبيهـــك لا يغـــادر منـــك شيئـــا
سنـــا وحيـــا وبـــذلا واستـــلابـــا

قسيـــم الحمـــد الا انّ حـــرفـــا
مـــن اسمـــك زاد للمعنـــى منـــابـــا

ألا للّـــه يـــوم فـــرّ عنـــه
وركـــب نـــص بـــالبشرى الـــركـــابـــا

قال أبو يعلى: في أواخر صفر توجه مجير الـدين في العسكر ومعه مؤيد الديـن الوزير إلى نـاحية حصـن بصرى ونزل عليه محاصرا لسرخـاك واليه لمخالفتـه وجوره، وأراد مجير الـدين المصير إلى حصن صرخـد لمشاهـدته، فاستأذن مجاهـد الدين واليه في ذلـك فقال له: هذا المكان بحكمك، وأنا

فيه وال من قبلك، وأنفذ إلى ولده سيف الدين محمد النائب فيه بإعداد ما يحتاج إليه ويلقى مجير الدين بها يجب له، فخرج في أصحابه ومعه المفاتيح وأخلى الحصن من الرجال ودخل إليه في خواصه وسرّ بذلك وتعجب من فعل مجاهد الدين وشكره على ذلك، وعاد إلى مخيمه على بصرى وحاربها عدّة أيام إلى أن استقرّ الصلح والدخول فيما أراد، وعاد إلى دمشق.

وفيها في شوّال توفي الأمير سعد الدولة أبو عبد الله محمد بن المحسن ابن الملحي، ودفن في مقابر الكهف، وكان فيه أدب وافر وكتابة حسنة ونظم جيد، وتقدّم والده في حلب في التدبير والسياسة وعرض الاجناد.

قال ابن الأثير: وفيها توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان، وعهد إلى ابن أخيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد، وخطب له ببلاد الجبل، وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاص بك بن بلنكري، فقام بأمر ملكشاه ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه إليه ليخطب له بالسلطنة، وكان غرض خاص بك أن يقبض عليه أيضا فيخلو وجهه من منازع من السلجوقية، وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه، فلما كاتب محمداً أجابه إلى الحضور عنده وسار إليه وهو بهمذان واجتمع به وخدمه خاص بك خدمة عظيمة، فلما كان الغد دخل عليه خاص بك فقتله محمد وألقى رأسه إلى أصحابه فتفرقوا واستقرّ محمد وثبتت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها، وكان قتل خاص بك سنة ثمان وأربعين، وبقي مطروحا حتى أكلته الكلاب، وكان ابتداء أمره أنه كان من بعض أولاد التركمان، فخدم السلطان، فمال إليه وقدّمه حتى فاق سائر الامراء واستولى على أكثر البلاد، وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من أتباعه لما كان يقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم.

وذكر الوزير يحيى بن هبيرة في كتاب الافصاح أنه لما تطاول على الخليفة المقتفي أصحاب مسعود وأساؤوا الأدب ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة اتفق الرأي على الدعاء على مسعود بن محمد شهراً، كما دعا رسول اللّه صلى اللّه وسلم على رعل وذكوان شهراً فابتدأ هو والخليفة سرا كل واحد في موضعه يدعو سحرا من ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمسمائة، واستمرّ الأمر على ذلك كل ليلة، فلما كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخرة كان موت مسعود على سريره لم يزد عن الشهر يوماً ولاينقص يوما، ووصل القصاد بذلك من همذان إلى بغداد في ستة أيام، فأزال اللّه يده ويد أتباعه عن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم فتبارك اللّه رب العلمين، مجيب دعوة الداعين.

قال: وكان الشيخ محمد بن يحيى يقول: لاأدل على وجود موجود أعظم من أن يدعى فيجيب.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

ففيها أخذت الفرنج خذلهم اللّه عسقلان، وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه اللّه سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى.

قال الرئيس أبو يعلى التميمي: وتواصلت الأخبار من ناحية نور الدين بقوّة عزمه على جمع العساكر والتركمان من سائر الأعمال والبلدان للغزو في احزاب الشرك والطغيان، ولنصرة أهل عسقلان على الأفرنج النازلين عليها وقد ضايقوها بالزحف إليها بالبرج المخذول، وهم في الجمع الكثير، واقتضت الحال توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين في جمهور عسكره للتعاضد على الجهاد في ثالث عشر محرّم ، واجتمع معه في ناحية الشمال وقد ملك نور الدين الحصن المعروف بافليس بالسيف، وهو في غاية المنعة والحصانة وقتل من كان فيه من الأفرنج والأرمن ، وحصل العسكر من المال والسبي الشيء الكثير، ونهضوا طالبين ثغر بانياس، ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حماته وتسهلت أسباب ملكته، وقد تواصلت استغاثة أهل عسقلان واستنصارهم بنور لدين فقضى اللّه تعالى بالخلف بينهم والقتل، وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل فأجفلوا عنها من غير طارق من الأفرنج طرقهم، ولاعسكر رهقهم، ونزلوا على المنزل المعروف بالأعوج وعزموا على معاودة النزول على بانياس وأخذها، ثم أحجموا عن ذلك من غير سبب ولا موجب وتفرّقوا وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها سالما في نفسه وجملته حادي عشر ربيع الأوّل، وعاد نور الدين إلى حمص ونزل بها في عسكره.

ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عسقلان، فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال، وظفروا بعدّة وافرة من مراكب الفرنج في

البحر، وهـم على حالهم في محاصرتها ومضايقتهـا والزحف بـالبرج إليهم، واستمرّ ذلك إلى أن تيسرت لهم أسباب الهجوم عليهـا من بعض جوانب سورهـا، فهدموه وهجموا البلـد وقتل من الفـريقين الخلق الكثير، وألجأت الضرورة والغلبة إلى طلب الأمان فأجيبوا إليه وخرج من أمكنه الخروج في البرّ والبحر إلى نـاحية مصر وغيرهـا، وقيل إن في هـذا الثغر المفتتـح من العدد الحربيـة والاموال والميرة والغلال مـا لايحصر فيذكر، ولما شـاع هذا الخبر في الأقطـار سـاء سماعه، وضـاقـت الصـدور وتضاعفـت الأفكـار بحدوث مثله، فسبحـان من لايردّ نافـذ قضائه، ولايدفع محتـوم أمره عند نفوذه ومضائه.

فصل

قال: وعـرض بين الرئيس ابـن الصوفي وبين أخويـه عز الدولـة وزين الدولة مشاحنات ومشاجـرات اقتضت المساعاة إلى مجير الدين في جمادى الأولى، فأنفذ مجير الديـن إلى الرئيس يستدعيه للاصـلاح بينهم في القلعة فامتنـع من ذلـك وجلس في داره، وهـمّ بالتحصـن عنه بـأحداث البلـد والغوغاء وآلت الحال إلى تمكن زين الدولـة منه بمعاونة مجير الدين عليه، وتقرّر بينهما إخراج الرئيس من البلـد وجماعة إلى حصن صرخد مع مجاهد الديـن بزان واليـه، بعد أن قـرر له بقـاء داره وبستانـه وما يخصـه ويخص أصحابـه، وتقلد أخوه زيـن الدولة مكـانه وأمر ونهى ونفـذ الاشغال على عـادتـه في العجـز والتقصير وسـوء الأفعـال، والتماس الـرشـا على أقـل الأعمال، ورأى مجير الدين عقيب ذلك التـوصل إلى بعلبك لتطييب نفس واليهـا عطاء الخادم واستصحـابـه معه إلى دمشـق لينـوب عنه في تـدبير الأمور، وعاد وهو معه واستشعر مجاهد الـدين بزان أن نية مجير الدين قد تغيرت فيه، فـاستوحـش من عـوده إلى البلد بغير يمين يحلـف له بها على أمانـه في نفسه، فـوعد بـالإجابـة ، فعاد إلى داره بـدمشق، ثـم هجس في خاطره من مجير الـدين وأصحابه ما أوحشه منهـم فدعاه ذلك إلى الخروج

من البلد سراً طالباً صرخد، فحين عرف خبره أنهض في طلبه وقص أثره فأدرك وقد قرب من صرخد، فقبض عليه وأعيد إلى القلعة بدمشق وأعتقل بها اعتقالاً جميلاً، ثم تجدّد من الرئيس الوزير حيدرة المقدم ذكره أشياء ظهرت عنه مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسيب من المعرفة بالسعي والفساد ما اقتضت الحال استدعاءه إلى القلعة على حين غفلة من القضاء النازل به لسوء أفعاله وقبح ظلمه وخبثه، ثم عدل به الجاندارية إلى الحمام بالقلعة مستهل ذي القعدة وضربت عنقه صبراً وأخرج رأسه ونصب على حافة الخندق، ثم طيف به والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه وتفننه في الفساد ومقاسمة اللصوص وقطاع الطريق على أموال الناس المستباحة بتقريره وتدبيره وحمايته، وكثر السرور بمصرعه، وابتهج به ثم زحفت العامة والغوغاء ومن كان من أعوانه على الفساد من أهل العيث إلى منازله وخزائنه ومخازن غلاته وأثاثه وذخائره فانتهبوا منها ما لا يحصى، وغلبوا أعوان السلطان وجنده عليها بالكثرة فلم يحصل للسلطان من ذلك إلاّ النزر اليسير، ورد أمر الرياسة والنظر في البلد إلى الرئيس رضي الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد بن علي التميمي في اليوم المقدم ذكره، فطاف في البلد مع أقاربه وأهله وسكنت الدهماء وبولغ في إخراب منازل الظالم، ونقل أخشابها.

قال: وكان عطاء الخادم قد استبد بتدبير الأمور ومدّ يده في الظلم، وأطلق لسانه بالهجو وأفرط في الاحتجاب، وقصر في قضاء الاشغال، فتقدم مجير الدين باعتقاله وتقييده والاستيلاء على ما في داره، ومطالبته بتسليم بعلبك وما فيها من مال وغلال، ثم ضربت عنقه ونهبت العوام والغوغاء بيوت أسبابه وأصحابه.

قال: وورد الخبر من ناحية مصر بأن العادل المعروف بابن السلار الذي كان رتبته قد علت ومنزلته في الوزارة قد تمكنت ، كان لزوجته ولد

يعرف بالأمير عباس قد قدّمه واعتمد عليه في الأعمال، ولعباس هذا ولد قدّمه الوزير وأنعم عليه وأذن له في الدخول بغير أذن إليه، فدخل عليه وهو نائم في فراشه فقطع رأسه، وحصل عباس في منصب العادل، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قلت: هو أبو الحسن علي بن السلار وزير خليفة مصر، وهو الذي بنى مدرسة الشافعية بالاسكندرية للحافظ أبي طاهر السلفي رحمه اللّه ، وكان قتله في سادس المحرّم بمواطأة من الخليفة الملقب بالظافر بن الحافظ.

وفيها في آخر شعبان توفي الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي البلخي رئيس الحنفية، ودفن في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الشهداء، وكان من التفقه على مذهبه ما هو مشهور شائع، مع الورع والدين والعفاف والتصوّف، وحفظ ناموس العلم والتودد إلى الناس على طريقة مرضية وسجية محمودة.

قال: وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الأديب أبي الحسن أحمد بن منير الشاعر في جمادى الآخرة، ووصل في ثاني عشر شعبان إلى دمشق الأديب الشاعر أبو عبد اللّه محمد بن نصر بن صغير القيسراني من حلب باستدعاء مجير الدين له، ومات بعد عشرة أيام في الثاني والعشرين من شعبان.

قلت: هما شاعرا الشام في وقتهما، وقد شبههما العماد الكاتب في كتاب الخريدة بالفرزدق وجرير، وكذلك كان اتفق موتهما في سنة واحدة ، ومات جرير بعد الفرزدق بقليل، وقد سبق من شعرهما في مدح نور الدين رحمه اللّه قصائد حسنة، وسيأتي غير ذلك في موضعه لغرض سنذكره، ومما قاله ابن منير من قصيدة له:

أيـــا سيفـــا أعـــز الـــديـــن منـــه الـــ
ـــــغرار العضــب والنــوم الغـــرار
مـــلأت جـــوانـــح الاقطـــار رجفـــا
كـــأن الأرض خـــامـــرهـــا دوار
عـــلاك حلى على الـــدنيـــا فتـــاج
بمفـــرقهـــا وفي يـــدهـــا ســـوار
أضـــاءت شمـــس عـــدلـــك في دجـــاهـــا
فكـــل زمـــان ســـاكنهـــا نهار
فتحـــرق مـــن عصـــاك وأنـــت مـــاء
وتغـــرق مـــن رجـــاك وأنـــت نـــار
الا للّـــه وجهـــك والمنـــايـــا
مكلحـــة وللبيـــض افترار
هتكـــت حجـــابـــه والنصر غيـــب
وللهبـــوات طـــيّ وانتشـــار
بطعـــن للقلـــوب بـــه انتظـــام
وضرب للـــرؤوس بـــه انتشـــار
تبـــادره كـــأن الموت غنـــم
ومـــا مـــن عـــادة البـــدر البـــدار
أنخـــت على الصليـــب مطـــا صليبـــا
بـــه مـــن صـــك مبركـــه هـــدار
بمشرفـــه المنـــاكـــب مقـــربـــات
لهن بمتـــن كـــل وغـــى حصـــار
جنين بـــإنـــب أنـــب العنـــاصي (٦٨)
وإضـــن وللقنـــا منهـــا ثمار
وفي هـــاب أبـــت بها فجـــاءت
كما أجلى مـــن الكســـم الصـــوار (٦٩)
وكـــم في فـــج حـــارم مـــن حـــريـــم
عفتـــه فـــلا جـــديـــر ولا جـــدار

وانطاكية استنت إليها
فاجفل خيطها وله عرار (٧٠)
وصبح في عزاز بها عزاز
فأمسى وهو وعث أو خبار (٧١)
يشق بها دجى الغمرات عسفا
جواد لا يشق له غبار

وله من أخرى:

وما يوم الفرنجة منك فذ
فتحصر عده خطط الحباب
أجاش الاربعاء لهم خميسا
بعيد الغور ملتطم العباب
وأحكم بالخطيم لهم خطاما
أمر بريمه مرّ الضراب
مشو متساندين إلى صليب
يبرقع هبوة الصنم الصلاب
تلفهم المنايا في الثنايا
وتفجأهم شعوب من الشعاب
أطاشت سهم كبشهم هناة
فكنت ذباب طائشة الذباب
حللت التاج عنه وحل تاجا
مكان العقد من عقد الكعاب
أناف على العقاب فكان أشهى
وأبهى منه في ظل العقاب
فأشرف وهو عن شرف معوق
وأصعد وهي غاية الانصباب
تكاشره الشوامت وهو مغض
ثناه منناه عن رجع الجواب

بعيـــداً مـــن قـــراع واقتراع
يـــؤوب لـــه إلى يـــوم المآب

وكـــم ســـوط بخيلـــك اقبلـــوه الصـــ
ـــدور فكـــان ســـوطـــاً مـــن عـــذاب

تـــركتهـــم بـــأرض الشـــام شـــامـــاً
لظفـــر تتقيـــه أولنـــاب

هتكـــت حجـــابهم والشمـــس وسنـــى
بشمـــس لا تـــوارى بـــالحجـــاب

بـــأبيـــض مـــن حبيـــك الهنـــد صـــاف
مصـــون المتـــن مبتـــذل الـــذبـــاب

لـــه سمـــة الشيـــوخ صفـــاء شيـــب
وفي خطـــواتـــه تـــرف الشبـــاب

الا يـــا نـــاظـــر الـــدنيـــا بعين
أرتـــه عـــلابها [٧٢] خـــدع السراب

تبطنهـــا فطلقهـــا ثـــلاثـــاً
على عـــز التملـــق والخلاب

فـــلا يـــأوي إلى رأي شعـــاع
ولا يثنـــى إلى أمـــل خـــراب

تـــرفـــع عـــن مجاورة الأمـــاني
وحلـــق عـــن محاضرة التصـــابي

صـــلاة اللّـــه كـــل درور شمـــس
على مثـــوى أبيـــك مـــن التراب

فقـــد ألقـــى إلى الاســـلام عضبـــاً
يطبـــق في النـــوائب غير نـــابي

تجيـــش لـــه رواس كـــالـــرواسي
تمدّ لها جفـــان كـــالجوابي

وله من أخرى:

مظفـــر العـــزم ممـــدود الـــرواق على
معـــالم الـــديـــن يـــر فيهـــا ويبنيهـــا
ردّ الكنـــائس كنســـا للهـــدى فخبـــت
نـــار الضـــلال ووارتها أثـــافيهـــا
وأورد العلـــم عـــدا مـــن ايـــالتـــه
فـــاستـــن وافتـــن عبـــا في صـــوافيهـــا
وبـــث للشرك اشراكـــا فما درجـــت
طـــريـــدة منـــه الا استـــوهقـــت فيهـــا
يـــا بـــدر مـــذ أشرقـــت في الـــدســـت غـــرتـــه
غيـــث الـــرعيـــة واخضلـــت مـــراعيهـــا
أقـــام أحمد مـــن محمـــودهـــا علما
بـــه استقـــام على البيضـــاء ســـاريها
محيـــي شريعتـــه مـــن بعـــد مـــا انهدمـــت
واستعجمـــت بعـــد إفصـــاح معـــانيهـــا
شـــابـــت مـــواهبـــه فيهـــا مهـــابتـــه
حتـــى استقـــرت على سمـــت ســـواريها

وله من أخرى:
عـــزت سيـــوفـــك فـــالعـــراق عـــراقهـــا
والشـــام غير مـــدافعـــات شـــامهـــا
إن أغمـــدت حـــل العـــزائم حلهـــا
أو جـــردت حـــرم الكـــرى احـــرامهـــا
شجنـــت (٧٣) عـــداك بها فـــلا اشراقهـــا
بمفـــازة منهـــا ولا إعتـــامهـــا
سريـــت فصبحهـــا بها يقظـــاتها
هـــدأت فمستهـــا بها أحـــلامهـــا
كـــا الماء إلا أن في رشفـــاتـــه
نـــاراً حشـــاشـــات النفـــوس ضرامهـــا

خفـــت على أيمانكــم أوزانها
يــوم الــوغــى واستثقلتها هـــامهــا
حتــى أحلــن الشـام شــامـا صرصرت
فيــه جنــادبها وصـــدّح هـــامهــا
ورحضـن أدران الجزيــرة بعـدمـا
غمــرت بها وهــداتها وآكــامهـا
شطــراً أبــرت ومثلــه أنظــرتــه
وقــع الخطــوب تكــرهــا أيــامهــا
بــالخابطــات الغــاب تــزأر أســده
والمجفلي الحي اللقــاح صيــامهــا
أورتها أجمات أنطـــاكيـــة
عنقــا وقــد شبــب الصــدا اجامهــا
تلقـــى المشــافــر في مــراشــف كلما
بــردت بها الأكبــاد زادهيــامهــا
فغــدت وقــد عــز السراح سراحهـا
وتــوزعــت في كنسهـا آرامهــا
ومشــى الضــلال القهقرى واستـأصل الـ
ـاذان مــن رجــع الاذان صــلامهــا
وغــدا يخللهـا الخليــل ســواحبــا
عــذبــا يمــرّ لها العــذاب غمامهــا
غضبــا لــديــن اللّــه حــص جناحــه
بغيــا وأدمــى صفحتيــه لــدامهــا
فــالآن رد النــور فيــه نــوره
وانجــاب مــن تلــك الهنــات ظــلامهــا
محمــودا المحمــودا قــدامــا إذا
خــام الكماة وزلــزلــت اقــدامهــا
الفــارج الكــرب العظــام تضــاجمت
أشــداقهــا وفــرى القلــوب ضغــامهــا(٧٤)

وله من أخرى:

أمـا الـرعـايـا فـإنهـا رشفـت
لـديـك نعمـى عـذبـا اثنـا يـاهـا
سلكـت نهج العـدل القـويـم بها
فـأحمدت دينهـا ودنيـاهـا
وكـم اميتـت خـوفـا فـامنهـا
منـا الـف الخوف خـوفـك اللّـه
للّـه أقطـارك التـي قطـرت
لها منـاهـا إلى منـايـاهـا
أنـب في إنـب فـوارسهـا
تـردي فتردي أولاك أخـراهـا
أشجـت لهاة البرنـس هبـوتها
وكـم عتـا عـاتيـا فـأشجـاهـا
وجـوسلين استسـاغ نطفتهـا
فـاحتلـب الـذل تحت مغـداهـا
ردّتـه صفـرا مـن كـل مـا ملكـت
يـداه أيـد مـا ضـل مسراهـا
جـويـس جـاستـك أوجـه لا رأت
بـؤسـا وجـاد الحيـا محيـاهـا
في سريـة لـو تكـون فـارسهـا
يـومئـذ مـا انبعثـت أشقـاهـا
لازال ظـل النعماء عـن ملـك
مـا الشمـس كفـؤالـه إذابـاهـا
واللّـه جـازيـه عـن مقيـدة
أعـزهـا اللّـه مـذ تـولاهـا
محمـودا المعتلي إلى فلـك
الحمـد وثيرا آلـه ولايـاهـا
أعطـاكـه جـدّك المتـوج بالجـ
ـدّ ونفـس للّـه مغـزاهـا
نفـس عـزوف عـن الخنـا طبعـت
نـزهـا اللّـه يـوم سـوّاهـا

أنــــت الـــــذي سلـــم الانــــام لـــــه
يمنــــــى طبــــــاق العلى ويسراهــــــا
وأنـــــت مــــولى المــــوك قـــاطبــــة
مـــن كــــل فنــــا خسرو وشـــاهنشـــاهــــا
والشهـــــــر هـــــــذا لا اقـــــــول أحمده
أوه بـــــديـــــل مـــــن قـــــولتــــي واهـــــا

وله من أخرى:

يـــــابــــن الـــــذي لم يـــال في نجــــدة الــــــ
ـــــــــــــإسلام ادلاجـــــــــــا وتهجيرا
تكنــــف الشــــام وقـــــد شـــــام بـــــر
ق الخوف انجـــــــادا وتغــــــويـــــرا
وكــــف كلــــب الــــروم مــــن بعــــد أن
انشبـــــه نـــــابـــــا واظفــــــورا
فــــــاهلـــــه رقــــك إن انصفـــــوا
رقـــــا بحـــــدّ السيـــــف مسطــــورا
بـــــدر هــــوى واستخلـــف الشمـــس في
دستـــــــك اشراقــــــا وتـــــأثيرا

وله من أخرى:

ملــــك كســــى الاســــلام مــــن ذبـــه
بـــــردا بتـــــدبيــــح الظبــــى معلما
مــــن أصبــــح الشــــام بـــه شـــامـــة
يقطـــــر مــــن قتــــل عــــداه دمــــا
لــــو لم يقــــم منصلتــــا دونـــــه
لم تلـــــق في أقطــــــارهــــــا مسلما

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماه واهتمامه بالعرس وعوده إلى حلب:

الـــدهـــر مـــارضتـــه بـــالجودوالبـــاس
مقســـــم بين اغـــــراس واعـــــراس
فتـــح تعـــافيـــه فتـــح ومطلـــب
دانـــي المنـــال وملـــك ثـــابـــت راسي
نصرا ببصرى وصفحـــا عـــن حماة لقـــد
أحسنـــت للـــداء حسما أيها الآسي
يـــابـــن الـــذي عنـــت الـــدنيـــا الـــدولتـــه
مـــن فـــاطمـــي اعـــزتـــه وعبـــاسي

وله فيه أيضا:

غـــدا الـــديـــن بـــاسمـــك ســـامـــي العلـــم
أمين العماد مكين القـــــــدم
لـــذلـــك لقبـــت نـــورا لـــه
وقـــد أغطـــش الظلـــم فيـــه الظلـــم
أضـــاءت بعـــدلـــك آفـــاقـــه
وفضـــت عـــرى الـــديـــن لما ادهـــم
ولم تمش رهـــوا النصر الـــرهـــا
ومثلـــك أدرك لما عـــزم
ويـــوم بســـوطـــا بسطـــت الحما
م على الهضـــب مـــن ركنهـــا فـــانهدم
وبصرى وصرخـــدلـــولم تثـــر
دراكـــا الكـــانـــارديفـــي ارم
ومـــذفـــض جيشـــك في الغوطتـــ
ـــين فـــض الصليـــب لـــه مـــا نظـــم
وفي كفـــر لاثـــاوهـــاب حللـــ
ـــت عقـــد البرنـــس ببيـــض خـــذم
معـــودة أنها لاتســـ
ـــلّ الامقمقمـــة للقمـــم

يـــــوم بسرفـــــود جــــرّعتهـــــم
أجــــاجـــاأغصهــــم واصطلـــــم

وفــــوق العـــــريمــــة غشــــاهـــم
عــــرام جيـــوشــــك سيــــل العـــرم

وأبــــــت بكلبهــــــم في الكبـــــو
ل مبـــاح الحريـــم مـــذال الحرم

وبــــــارتهم أذنـــــــت انها
ابـــــارتهم فليبــــؤ بـــــذم

بنـــوهـــا واعلـــوا ولم يعلمـــوا
بما خــط في اللـــوح منـــك القلـــم

وانــــك خــــارم مـــا أحكمـــو
ه ومـــن ديننــــا راقـــع مـــا انخـــرم

تــرفـــع مـــن بعـــد خفـــض هـــدى
وتخفــض مـــن بعـــد رفـــع صنـــم

سمكـــــت المدارس فـــوق النجـــو
م فكـــم منجـــم تحتهـــا قـــد نجـــم

وعــــاش الحنيفـــــي والشافـــــ
ـعي بما شــدّت منهـا وكـانــا رمـم

وإن لم تكــن هـــاشمـــي الأصـــو
ل فــــانـــك فـــرع الهزبـــر الهشـــم

ومـــن يـــدّعـــى في العلى مـــا ادّعيـــ
ـــت وأنـــت ابــن مـــن عـــز لما احتكـــم

واقســـم مـــا غـــاب ميـــت سقـــت
مغـــارســـه عين هـــذي الشيـــم

قلت: وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة ، ونفسه فيها طويل، ولم يبق بعد موت القيسراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي إلا ابن أسعد الموصلي،وسيأتي شيء من شعره إلى أن قدم العماد الكاتب للشام في سنة اثنتين وستين فتسلم هذا الأمر ،

وعبر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته بأحسن العبارات وأتمها نظماً ونثراً، وسيأتي كل ذلك في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

قال ابن الأثير: وفيها توفي صاحب ماردين حسام الدين تمرتاش ووليها بعده نجم الدين ألبي بن تمرتاش بن أرتق.

قلت: وقد مدحه القيسراني والعرقلة وغيرهما من الشعراء.

- ٧٧٦٠ -

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة

قال ابن الأثير: ففيها ملك نور الدين دمشق، وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد، وكان الذي حمل نور الدين على الجدّ في ملكها أن الفرنج ملكوا في السنة الخالية عسقلان، وهي مدينة فلسطين حسنا وحصانة، ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلهف ولايقدر على إزعاجهم عنها لأن دمشق في طريقه، وليس له على غيرها معبر لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط، وقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق.

واستضعفوا مجير الدين وتابعو الغارة على أعماله، وأكثروا الفتك بها والنهب والسبي، وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة ، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد، ثم أشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم الذين نهبوا من سائر بلاد النصرانية وخيروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه، ومن أحب وطنه سار إليه، وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان منهم كان يقال له مؤيد الدين ابن الصوفي، فلما كانت الأمور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدّو فلجأوا إلى الله تعالى ودعوه أن يكشف ما بهم من الخوف، فاستجاب لهم وأذن في خلاصهم مما هم فيه، على يد أحب عباده إليه وأحسنهم طريقة، وأمثلهم سيرة، وهو الملك العادل حقا، نور الدين محمود، فحسن له السعي في ملك البلدة وألقاه في روعه، فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم أنه إن رام ملكه بالقوّة والحصار تعذر عليه لأن صاحبه متى رأى شيئاً من ذلك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم.

قلت: وقد كان سبق له بذلك سوابق قد تقدّم ذكر شيء منها، ولذلك قال العرقلة يمدح أتابكه معين الدين أنر من قصيدة:

يظن صلاح الدين فرسان جلق
كفرسانه وما الاسد مثل الثعالب
رجال إذا قام الصليب تصلبت
رماحهم في كل ماش وراكب
غدا يطلع الشام الفرنج بفيلق
مسعودة أبطاله للمصائب
لها الليل نقع والأسنة أنجم
فما غير أبطال وغير جنائب

وصلاح الدين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور، فإن ذلك لم يكن حينئذ ملكا يقود الجيوش، وإنما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيساني صاحب حماه، أحد أصحاب زنكي وقد تقدّم ذكره مراراً، وكأنه كان في مقدمة الجيش النوري لما قصد دمشق في المرتين الأولين، أو في إحداهما، أو في زمن حصار زنكي لها، والله أعلم.

قال ابن الأثير: وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق، فكيف إذا أخذها وقوي بها وإنضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين فإن الدم كان عنده عظيما لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل، فلما رأى الحال هكذا عمد إلى إعمال الحيلة، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله، وواصله بالهدايا وأظهر له المودّة حتى وثق إليه، ثم صار يكاتبه في بعض الأوقات ويقول له: إن فلانا - ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين - قد كاتبني في المخامرة عليك فاحذره، فتارة يأخذ إقطاع أحدهم، وتارة يقبض عليه، فلما خلت دمشق من الأمراء قدم أميرا كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهما شجاعا، وفوّض إليه أمر دولته، وكان نور الدين لايتمكن من دمشق معه، فقبض عليه مجير الدين وقتله، فقال له عند قتله: إن الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلني فإنه سيظهر لك ما أقول، فلم يصغ إلى قوله وقتله.

قلت: وفي بعض قصائد ابن منير ما يدل على أن عطاء هذا كان له مع نور الدين في دمشق حديث فإنه قال:

ودمشـــق في دمشـــق رجـــال سلـــم
لحور نســـائهـــم منهـــم نســـاء
هـــي الفـــردوس أصبـــح هـــو عـــاف
مـــن العـــافي ومـــن خـــال خـــلاء
جنـــان تعـــرف الجنـــات فيهـــا
ولا رأي هنـــاك ولا رواء
لاسمـــح صعبهـــا ودنـــت قصـــاهـــا
وامكنـــك إقتيـــاد وامتطـــاء
ويـــا نعـــم العطـــاء عطـــاء رب
تـــوسطـــه فـــأنشطـــه عطـــاء
تفـــاءل بـــاسمـــه فـــالفـــال وعـــد
يكـــون على ظبـــاك بـــه الـــوفـــاء
هـــو السبـــب الـــذي شـــزرت قـــواه
وهـــذ بـــه لخدمتـــك الصفـــاء
وسيـــف إن تشمـــه تشـــم حســـامـــا
وإن يغمـــد فنـــار بـــل ذكـــاء
جنتـــه لـــك السعـــادة قطـــف رأي
لنقـــب الخادعيـــك بـــه هنـــاء

ويجوز أنه لم يكن لعطاء في ذلك حديث، وإنما هذه الأبيات أو ما في معناها كانت سبب قتله لما بلغ مجير الدين ذلك، وعطاء هذا هو الذي ينسب إليه مسجد عطا ء خارج الباب الشرقي بدمشق، وجوزة عطاء ببيت أبيات وهي أرض فيها أخشاب كبار من الجوز تربى أوتاراً لجامع دمشق، وهي وقف عليه، وقد مدحه العرقلة وغيره من الشعراء.

قال ابن الأثير: فلما قتل عطاء قوي طمع نور الدين في دمشق، فراسل أحداث البلد وزناطرته واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد، فسار

إليهم وحاصرهم عشرة أيام، فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه ، فإلى أن جمعوا وجاؤوا بلغهم أخذ نور الدين دمشق فعادوا بخفي حنين، وأما نور الدين فإنه لما حاصرهم وضيق عليهم ثار الأحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد من الباب الشرقي فدخله بالامان عاشر صفر، وحصر مجير الدين في القلعة وراسله وبذل له الاقطاع الكبير من جملته مدينة حمص فأجاب إلى تسليم القلعة وصار إلى حمص.

وقال ابن أبي طي: أنفذ نور الدين أسد الدين شيركوه رسولا إلى صاحب دمشق فخرج في تجمل عظيم ومعه ألف فارس، فعظم على مجير الدين ذلك وقال: ما هذه رسالة هذه مكيدة ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحد من أمراء دمشق، فاستوحش أسد الدين ونزل بمرج القصب وأغلظ لصاحب دمشق في المقال، وأنفذ إلى نور الدين يعرّفه بما جرى عليه، فسار نور الدين في عساكره وزحف إلى البلد من شرقيه، وكانت الحرب في عاشر صفر ، وتولى أسد الدين القتال وأبلى الجهد فكسر عساكر دمشق إلى الأسوار من قبلي البلد، ولم يكن أحد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب لأنّ نور الدين كان من شرقها وجل العسكر مقابله، ورأى من كان مع نور الدين من الجاندراية والحلبيين إلى خلوّ السور من المقاتلة فتسرعوا إلى السور وتعلقوا به وحصلوا في الحال على الأسوار، ويقال أن إمراة كانت على السور فدلت حبلا فصعدوا فيه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعد جماعة أخرى، ونصبوا علماً وصاحوا بشعار نور الدين ، فوقع على أهل البلد الخذلان وكسر باب البلد ودخلت الخيالة منه، وملك نور الدين دمشق، وكان لأسد الدين اليد الطولى في فتحها، فولاه نور الدين أمرها وردّ إليه جميع أحوالها، وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرحبة.

قال الرئيس أبو يعلى: في العشر الثاني من المحرم وصل الأمير أسد

الديـن شيركوه رسـولاً من نـور الديـن إلى ظاهـر دمشق، وخيـم بناحيـة القصـب مــن المرج في عسكـر ينـاهـز الألــف، فـأنكـر ذلــك، ووقـع الاستبحـاش منــه واهمال الخروج إليـه لتلقيـه والاختــلاط بـه، وتحرّرت المراسلات فيما اقتضته الحال ولم تسفرعن سـداد ولا نيل مراد، وغلا سعر الأقوات لانقطـاع الواصلين بالغلات، ووصـل نور الديـن في عسكره إلى شيركوه ثالث صفر وخيم بعيون الفـاسريا عند دومة، ورحل في الغد ونزل بيت الأبـار من الغـوطة ، وزحف إلى البلـد من شرقيـه، وزحف إليـه من عسكـره وأحـداثـه الخلـق الكثيرووقـع الطراد بينهـم، ثـم عـاد كـل مـن الفريقين إلى مكـانه، ثم زحف يـوما بعد يوم ، وتـأكد الزحف يـوم الأحد عاشر صفر، وظهر إليـهالعسكر الدمشقي فاندفع بين أيـديهم حتى قربوا من سور باب كيســان والدباغة من قبلي البلد وليـس على السور أحد من العسكريـة والبلديـة لسوء تـدبير صاحـب الأمر ، غير نفـر يسير لايؤبـه لهم، فتسرع بعض الـرجالة إلى الســور وعليه امـرأة يهودية، فأرسلـت إليه حبلا فصعـد فيه، وحصل على الســور ولم يشعر بـه أحد وتبعه مـن تبعه وأطلعـوا علما نصبوه على الســور وصاحـوا:نور الـدين يـامنصور، وامتنـع الاجناد والـرعية مـن الممانعة لما هـم عليه من المحبـة لنور الـدين وعـدله وحســن ذكره، وبـادر بعض قطـاعي الخشـب بفأسـه إلى الباب الشرقـي فكسر أغلاقـه، وفتحه فدخل منـه العسكر وسعوا في الطرقـات، ولم يقف أحد بين أيديهم، وفتح بـاب توما، أيضا ودخل الناس منـه، ثم دخل نور الديـن وخواصه ، وسرّ كـافة الناس من الأجنـاد والعسكرية لما هـم عليه من الجوع وغـلاء الاسعار والخوف مـن منازلـة الفرنـج الكفار،وكـان مجير الدين لما أحس بـالغلبة والقهر قد انهزم في خواصه إلى القلعـة وأنفذ إليه فـأومن على نفسـه ومـالـه، وخرج إلى نـور الـديـن فطيب نفسـه ووعـده الجميـل،ودخـل نور الـدين القلعـة في اليـوم المقدّم ذكـره وأمـر بالمنـاداة بالامان للرعيـة والمنع من انتهاب شيء من دورهم وتسرع قـوم من الرعاع والأوباش إلى سـوق علي وغيره فعاثـوا ونهبوا، وأنفـذ نور الـدين إلى أهـل

البلد بها طيب نفوسهم وأزال نفرتهم، وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدار الأتابكية دار جدّه، وأقام أياما، ثم تقدم إليه بالمسير إلى حمص في خواصه ومن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه بعد أن كتب له المنشور باقطاعه عدّة ضياع باعمال حمص برسمه ورسم جنده، وتوجه إلى حمص على القضية المقررة، ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرعية من القضاة والفقها والتجار وخوطبوا بما زاد في ايناسهم وسرور نفوسهم وحسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم فأكثروا الدعاء له والثناء عليه والشكر لله تعالى على ما أصارهم إليه، ثم تلا ذلك إبطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل وضمان الأنهار وأنشأ بذلك المنشور وقرى على المنبر بعد صلاة الجمعة، فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس برفع الدعاء إلى الله تعالى بدوام أيامه ونصرة أعلامه.

وقال ابن الاثير: لما استقل نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلاً عاماً.

قلت: قد تقدم ذكره في أوّل الكتاب، وسيأتي منه أشياء مفرّقة فيما بعد.

قال: وألقى الاسلام جرانه بدمشق، وثبتت أوتاده، وأيقن الكفار بالبوار، ووهنوا واستكانوا، وصار جميع ما بالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين، وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص، وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة، فانتهى الأمر إلى نور الدين فخاف أن يحدث ما يشق تلافيه، بل ربما تعذر لاسيما مع مجاورة الأفرنج، فأخذ حمص من مجير الدين وعوّضه عنها مدينة بالس، فلم يرضها، وسار عن الشام إلى العراق، فأقام ببغداد وابتنى دارا تجاور المدرسة النظامية وتوفي بها.

قال: ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج وعلموا أنه لايقعد عنهم وعن غزو بلادهم والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل كند وقمص

وتقرّبوا إليه، ثم إن من بتل باشر راسلوه وبذلوا له تسليمها إليه، فأرسل إلى الأمير حسان المنبجي وهو من أكابر أمراء نور الدين واقطاعه منبج فأمره أن يتسلمها منهم، فسار إليها وتسلمها وحصنها ورفع إليها ذخائر كثيرة.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وقد كان مجاهد الدين بزان أطلق يوم الفتح من الاعتقال وأعيد إلى داره، ووصل الرئيس مؤيد الدين المسيب إلى دمشق مع ولده النائب عنه في صرخد إلى داره معوّلا على لزومها وترك التعرّض لشيء من التصرفات والأعمال ، فبدا منه من الأسباب المعربة عن إضمار الفساد، والعدول إلى خلاف مناهج السداد والإرشاد ما كان داعيا إلى فساد النية فيه، وكان في إحدى رجليه فتح قد طال به ونسيه ، ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه وأسقط قوّته مع فهاق متصل وقلاع في فيه زائد، فقضى نحبه في رابع ربيع الأوّل ودفن في داره، واستبشر الناس بهلاكه والرحمة من سوء أفعاله.

قال: ووردت الأخبار بقتل خليفة مصر الملقب بالظافر بن الحافظ، وأقيم ولده عيسى مقامه وهو صغير يناهز ثلاث سنين، ولقبوه بالفائز ، وعباس الوزير، ثم ورد الخبر بأن الامير فارس الدين طلائع بن رزيك ، وهو من أكابر الأمراء المقدّمين الشجعان المذكورين لما انتهى إليه الخبر وهو غائب عن مصر قلق لذلك وامتعض وجمع واحتشد، وقصد العود إلى مصر، فلما عرف عباس بما جمع خاف الغلبة فتأهب للهرب في خواصه وأسبابه وحرمه وما تهيأ من ماله، وسار مغذاً فلما قرب من أعمال عسقلان وغزة خرج إليه جماعة من خيالة الأفرنج فاغتر بكثرة من معه، وقلة من قصده، فلما حملوا عليه فشل أصحابه وأعانوا عليه وانهزم أقبح هزيمة هو وابنه الصغير وأسر ابنه الكبير الذي قتل العادل بن السلار

مع ولده وحرمه وماله وكراعه، وحصلوا في أيدي الفرنج ومن هرب لقي من الجوع والعطش شدّة، ومات العدد الكثير من الناس والدواب ووصل في أثرهم فارس الدين فوضع السيف فيمن ظفر به، من أصحاب عباس، وانتصب في الوزارة، وتدبير الأمور موضعه، ووصل إلى دمشق منهم من ألجأه الهرب على أشنع صفة من العدم والعري في آخر ربيع الآخر .

قلت: وفي ذلك يقول عمارة اليمنى من قصيدة له:

لكم يا بني رزيك لازال ظلكم
مواطن سحب الموت فيها مواطر
سللتم على عباس بيض صوارم
قهرتم بها سلطانه وهو قاهر

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن نصر بن عباس لما قتل ابن السلار وتوزر أبوه عباس، كان نصر يعاشر الخليفة الظافر ويخالطه، وعباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم وضرب بعض الناس ببعض حتى يفنوهم، وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على أبيه ومواصلته بالعطايا الكثيرة، ففاتحني في ذلك فنهيته فاطلع والده على الأمر، فاستماله أبوه ولطف به وقرّر معه قتل الظافر، وكانا يخرجان متنكرين وهما تربان سنهما واحد فدعاه إلى داره ورتب من أصحابه معه في جانب الدار نفراً، ثم لما استقرّ به المجلس خرجوا عليه فقتلوه، وذلك سلخ محرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ورموه بجب الدار، وأصبح عباس جاء القصر، ضحوة نهار للسلام، وجلس في مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظافر ، فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى صاحب زمام القصر، وقال: ما لمولانا ما جلس للسلام، فتبلد الاستاذ في الجواب، فصاح عليه وقال: ما لك لاتجاوبني؟ قال: يامولاي مولانا ما ندري أين

هو، قال: مثل مولانا يضيع ارجع واكشف الحال، فمضى ورجع فقال: ما وجدنا مولانا، فقال: يبقى الناس بلا خليفة ادخل إلى الموالي أخوته يخرج منهم واحد لنبايعه، فمضى وعاد، وقال: الموالى يقولون لك: ما لنا في الأمر شيء والدنا عزله عنا، وجعله في الظافر والأمر لولده بعده، قال: أخرجوه حتى نبايعه وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول لأخوته أنتم قتلتموه ويقتلهم ، فخرج الظافر ولعل عمره خمس سنين يحمله الأستاذ، فأخذه عباس فحمله وبكى وبكى الناس، ثم دخل به إلى مجلس أبيه وهو حامله وفيه أولاد الحافظ.

قال ابن منقذ: ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر من ألف رجل من المصريين فما راعنا إلاّ قوم قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة فإذا السيوف تختلف على إنسان، فقلت لغلام لي أرمني: انظر من هذا المقتول، فمضى وعاد وقال: ما هؤلاء مسلمين هذا مولاي أبو الأمانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه، ثم إن واحداً شق بطنه يجذب مصارينه، ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفي رأسه ضربة سيف والدم يفور منها، وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر، ثم أدخلوهما خزانة في القصر فقتلوهما، وفي الخزانة ألف سيف مجرّد.

قال: وكان ذلك اليوم من أشدّ الايام التي جرت عليّ لأني رأيت من الفساد والبغي ما ينكره اللّه سبحانه، وجميع خلقه.

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في ديوانه قال: كان لعباس أربعمائة جمل تحمل أثقاله ومائتا جنيب، فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع عشر ربيع الأوّل سنة تسع وأربعين وخمسمائة وقد قام عليه أهل مصر وعسكريتها فارسهم وراجلهم، تقدّم بشدّ خيله وبغاله وجماله ليتحمل ويخرج، فلما صار الجميع على باب داره وقد ملأت ذلك الفضاء إلى

قصر السلطان إلى الإيوان، خرج غلام يقال له عنبر كان على أشغاله وغلمانه كلهم تحت يديه فقال للجمالين والخربندية والركابية:روحوا إلى بيوتكم وسيبوا الدواب، ففعلوا ذلك وانحاز هو إلى المصريين يقاتله معهم، وكان ما جرى من تهميل الدواب لطفا من الله تعالى به فإنها سدّت الطريق بينه وبين المصريين، ومنعتهم من الوصول إليه، وهم في خلق كثير، ونحن في قلة ما نبلغ خمسين رجلا، وغلمان عباس ومماليكه في ألف ومائتي غلام بالخيول الجياد والسلاح التام، وثمانمائة فارس من الأتراك خرجوا كلهم من باب النصر ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطابية فراراً من القتال، فشرع المصريون في نهب الخيل والجمال

والبغال ، فلما فتحوا طريقهم إليه خرج عباس من باب النصر وجاؤوا في أثره حتى أقفلوا الباب وعادوا إلى نهب دوره، وكان عباس قد أحضر من العرب نحوا من ثلاثة آلاف فارس يتقوّى بهم على المصريين، واستحلفهم ووهبهم هبات عظيمة فلما خرج من باب مصر غدروا به وقاتلوه أشدّ قتال ستة أيام يقاتلهم من الفجر إلى الليل، فإذا نزل أمهلوه إلى نصف الليل ثم يركبون ويهدّون خيلهم على جانب الناس، ويصيحون صيحة واحدة فتجفل الخيل وتقطع، ويخرج إليهم منها ما فيه منعة وقوة، فيأخذونه، فكان ذلك سبب هلاك خيله وتمكن الأفرنج منه واشتغاله عن سلوك طريق لايقصده الفرنج إليه.

قال: ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعة ضحى نهار إلى آخر يوم الخميس، ثم جاؤوا إليهوأخذوامنه حسباً على أموالهم وأنفسهم وبيوتهم ظنا منهم أن له عودة إليهم وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس، ويوم الأحد صبحهم الأفرنج، وقد هلك الناس من الجوع والعطش، وماتت خيلهم فقتلوا ابنه الأوسط وابنه الأكبر، وقتلوا خلقا كثيرا، وأخذوا نساء عباس وخزائنه، وأسروا أولاداً له صغاراً وانصرفوا.

قلت: عباس هذا هو عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن المعز بن باديس الحميري، ويلقب بالأفضل ركن الدين ويكنى بأبي الفضل، ورأيت علامته في الكتب أيام وزارته « الحمد لله وبه أثق» وفيه يقول أسامة بن منقذ:

لقد عم جود الأفضل السيد الورى
وأغنى غناء الغيث حيث يصوب(٧٥)

ومن أبيات لابن أبي أسعد فيه لما قتل الظافر:

وأنفق من انعامهم في هلاكهم
وأظهر ما قد كان عنه تنافق
ومد يداً قد طوّلوها إليهم
وحلت بأهل القصر منه البوائق
سقى ربه كاس المنايا وما انقضى
له الشهر إلا وهو للكأس ذائق

وكان عباس قد تخيل من أسامة عند خروجه من مصر، لما يعلمه بينه وبين الملك الصالح من المودّة والمصافاة فأحضره واستحلفه أنه لاينفصل عنه، ثم لم يقنعه ذلك حتى أنفذ من أستاذي داره من يدخل على حرمه إلى داره فأخذ أهله وأولاده فتركهم عند أهله وأولاده.

وقال: قد حملت ثقلهم عنك لهم أسوة بوالدة ناصر الدين ، يعني ولده ناصر الدين وبأخواه ، فلما خرجوا ونهبت دورهم ودوابهم عجز عن حمل من يخصه، فأعادهم أسامة من بلبيس، وأنفذ إلى الملك الصالح يقول له: قد أنفذت أهلي وأولادي إليك، وأنت ولي ما تراه فيهم، فأنزلهم في دار وأجرى عليهم الجاري الواسع وأحسن إليهم غاية الأحسان ، وكان يكاتبه في الرجوع إلى مصر وهو يلطف الأمر معه قصداً لخلاص أهله وأولاده، فلما عرف ذلك منه نسب إلى وحشة قلبه من القصور ونفوره من المصريين، فأنفذ إليه يقول له: تصل إلى مكة في الموسم

ويلقاك رسولي إليها يسلم إليك مدينـة أسوان، وأنفذ إليك أهلك وأمدك بالأموال وهـي كما علمت الثغر بيننا وبين السودان، وما يسـدّ ذلك الثغر مثلك وأكثـر من الوعـد وذكر رغبته في قـربه ورعايتـه وما بينه وبينـه من قديم الصحبـة، فاستأذن أسامة في ذلـك الملك العادل نور الـدين، وكان في خدمته فقـال: يافلان ما تسـاوي الحياة الشتات والرجـوع إلى الأخطار والبعـد عن الأوطـان، ومنعـه من ذلـك بإحسـانـه ووعده أن يستخلـص أهله، فكتب أسامة إلى الملك الصالح يعتذر ويسأله تسيير أهله وتردّدت بينهما مكـاتبات وأشعـار متصـلات إلى أن سيرهـم وهم نيـف وخمسـون نسمة في الاكرام والاحترام إلى آخر ولايته .

وذكر أن أهـل القصور والأمـراء أنكروا تسييرهـم وقالـوا: يكون أهلـه رهائن عندنا لنأمن ما يكون منـه، ووصله بعض أصحابه من دمشق وهو في العسكـر النـوري بحلـب فـأخبره أن من كـان لـه بمصر مـن الأهـل والأولاد والأصحاب وصلـوا، وأن المركب انكسرت بهم في سـاحل عكـا، ونهب الفرنـج كـل ما فيه ولم يصلوا إلى دمشق إلاّ بـأنفسهم، وأن متملك الافرنـج أعطاهـم خمسمائة دينار أصلحـوا منها حـالهم، وأكتروا ظهـراً إلى دمشق قال أسامة:

إلى اللّـه أشكـو فـرقـة دميـت لها
جفـوني واذكـت بـالهمـوم ضميري
تمادت إلى أن لاذت النفـس بـالمنـى
وطـارت بها الاشـواق كـل مطير
فلما قضـى اللّـه اللقـاء تعـرضـت
مسـاءة دهـري في طـريـق سروري (٧٦)

فصل

قال أبـو يعلى: وفي آخر ربيـع الأوّل وصل الأمير مجد الـدين أبـو بكر

محمد نـائب نور الدين في حلـب إلى دمشق عقيب عوده مـن الحج،وأقام أياما وعاد إلى منصبه في حلب وتدبير أعمالها.

قلت: مجد الـدين هذا هـو ابن الدايـة، وكان نور الـدين كثير الاعتماد عليه وعلى أخـوته وسيتكرر ذكرهـم في هذا الكتـاب، ومجد الديـن أكبر أخوته، وقد مدحه الشعراء قال القيسراني من بعض ما قاله فيه:

دعــوا مــا مضــى مـــن قبـل هـــذا المابعــد
فــأقســم لــولا المجــد مــا عــرف المجــد
كـــريـــم سمـــت أوصـــافـــه لعفـــاتـــه
قـــــرائن كــــــل اثنين بينهما عقــــــد
محيـــــاه والبشرى ويمنـــــاه والنـــــدى
ونجـــواه والـــدنيـــا وتقـــواه والـــزهـــد
ففـــي قـــربـــه الـــزلفـــى وفي وعـــده الغنـــى
وفي نيلـــه الحسنـــى وفي رأيـــه الـــرشـــد
إذا وجـــه نـــور الـــديـــن قـــابـــل مجده
فقـــل في كمال البـــدر قـــابلـــه السعـــد

وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم بن فليته، وولي الحرمين ابنه قـاسم بن هـاشم، وهو الذي أرسـل عمارة اليمني الفقيه الشـاعر إلى الديار المصرية، وسيأتي ذكره.

قال أبـو يعلى: وفي ثامن مـن جمادى الأولى ورد الخبر من نـاحية مصر أن عدة وافرة من مراكب الفرنـج من صقلية وصلت إلى مدينة تنيس على حين غفلـة من أهلهـا، فهجمت عليهـا وقتلـت وأسرت وسبت ونهبـت، وعادت بالغنـائم بعد ثلاثة أيام وتـركتها صفراً، وبعد ذلك عـاد من كان هرب منهـا في البحر بعد الحادثـة، ومن سلـم واختفى وضاقـت الصدور عند استماع هذا الخبر المكروه.

- ٧٧٧٣ -

قال: وفي شهر رمضـان ورد الخبر من ناحية حلب بوفـاة القاضي فخر الديـن أبي منصور محمـد بن عبـد الصمد بـن الطرسـوسي، وكان ذا همة ماضيـة ويقظة ومـروءة ظاهـرة، وفي داره وولده ومـن يلم بـه من غـريب ووافد، وقـد نفذ أمـره وتصرفه في أعمال حلب في الأيـام النوريـة، وأثر في الوقوف أثراً حسنا، توفر به ارتفاعها، ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال.

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

وفيها تسلم نور الدين بعلبك من واليها ضحاك، ذكر ابن الأثير أن ذلك كان في سنة اثنتين وخمسين، وقال: كان الضحاك البقاعي ينوب ببعلبك عن صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج، فلطف الحال معه إلى ذلك الوقت، فملكها واستولى عليها.

وقال ابن أبي طي: لما فتح نور الدين دمشق اتصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتب نور الدين في تسليم بعلبك فأنفذ إليه وتسلمها منه وألحقه بأصحابه.

قال: ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر أن مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة، وجعله في البلد، وولى القلعة رجلاً يقال له ضحاك، فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضحاكا وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعا وسيره إلى دمشق، فأقام فيها ورد نظر دمشق إليه، وولى ولده تور انشاه شحنكية دمشق، فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن توفي، فولى صلاح الدين شحنكية دمشق .

قلت: هذا وهم، تورانشاه هو الملك المعظم شمس الدولة الذي فتح اليمن في أيام أخيه صلاح الدين،فكيف يقول إنه مات قبل أن يلي صلاح الدين شحنكية دمشق، وأما كونه ولي الشحنكيةبدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب، وقد رأيت ما يؤكده ، قرأت في ديوان العرقلة وقال يهنيه بالشحنكية بدمشق، وهو في دار عمه أسد الدين شيركوه بن شاذي:

قلت لحسادك زيدوا في الحسد
قد سكن الدار وقد حاز البلد
لا تعجبوا إن حل دار عمه
أما تحل الشمس في برج الأسد

وقال في صلاح الدين لما ولي الشحنكية:

لصوص الشام تابوا من ذنوب
تكفرها العقوبة والصفاد
لئن كان الفساد لكم صلاحا
فمولاي الصلاح لكم فساد

وله فيه أيضا:

رويدكم يا لصوص الشـ
ـام إني لكم ناصح في مقالي
وإياكم وسمي النـ
ـبي يوسف رب الحجى والجمال
فذاك مقطع أيدي النسـ
ـاء وهذا مقطع أيدي الرجال

قال ابن ابى طي: وولي صلاح الدين شحنكية دمشق والديوان فأقام فيه أياما، ثم تركه وصار إلى حلب لأجل واقعة جرت بينه وبين صاحب الديوان أبي سالم بن همام ، فأنفذ نور الدين وأخذ ابن همام وحلق لحيته، وطيف به في دمشق.

قلت: وابن همام هذا هو الذي ذكره الشنباسي في قصيدته، وأشار إلى حلق لحيته بقوله:

كأبي سالم بن همام لما
قام للنصح عاد يمشي ملثم

ثم قال ابن أبي طي: واستخص نور الدين صلاح الدين وألحقه بخواصه، فكان لايفارقه في سفر ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعا في لعب الكرة، وكان نور الدين يحب لعب الكرة .

قال أبو يعلى: ونزل نور الدين بعسكره بالأعمال المختصة بالملك قليج

أرسلان بن الملك مسعود بن سليمان بن قتلمش ملك قونية وما والاها ، فملك عدّة من حصونها وقلاعها بالسيف والأمان، وكان الملك قليج أرسلان وأخواه ذو النون ودولات مشتغلين بمحاربة أولاد الدانشمند، ونصروا عليهم في وقعة كانت بأقصرا في شعبان، فلما عاد قليج أرسلان وعرف ما كان من نور الدين في بلاده عظم عليه هذا الأمر، واستبشعه مع ما بينهما من الموادعة والمهادنة والصهر، وراسله بالمكاتبة والانكار والوعيد والتهديد فأجابه نور الدين بحسن الاعتذار وجميل المقال، وبقي الأمر بينهما مستمراً على هذه الحال، وعاد نور الدين من حلب إلى دمشق.

قال: وولي الاسطول المصري مقدّم شديد البأس. بصير باشغال البحر، فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الفرنج، وألبسهم ثيابهم، ونهض بهم في عدّة من المراكب الاسطولية، وأقلع في البحر ليكشف الأماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرّف أحوالها، ثم قصد ميناء صور وقد ذكر له أن فيه شختورة رومية كبيرة فيها رجال كثير، ومال وافر، فهجم عليها وملكها، وقتل من فيها واستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم أحرقها وعاد منها في البحر فظفر بمراكب حجاج الفرنج، فقتل وأسر وانتهب وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى.

قلت : وفي هذه السنة ورد أمر الخليفة ببغداد، وهو المقتفي ، إلى أمير الحرمين قاسم بن هاشم يأمره أن يركب على باب الكعبة المكرّمة باب ساج جديدا، قد ألبس جميع خشبه فضة وطلي بذهب، وأن يأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه ويسير إليه خشب الباب القديم مجرّداً ليجعله تابوياً يدفن فيه عند موته. وذكر ذلك الفقيه عمارة الشاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيع له الفضة التي أخذها من الباب في اليمن، ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم فتوجهت إلى زبيد، وعدت من مكة في صفر سنة إحدى وخمسين، وحججت في الموسم منها فدفعت لأمير

- ٧٧٧٧ -

الحرمين ماله، وألزمني الترسل عنه إلى مصر، يعنـي مرة ثانية بسبب جناية جناها خدمه على حاج مصر والشام.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها حـاصر نور الدين قلعة حارم، وهـي حصن غربي حلب بـالقرب من أنطـاكية ، وضيق على أهلهـا وهي من أمنـع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين، فاجتمعت الفرنـج من قرب منها ومن بعد، وساروا نحـوه لمنعه، وكان بـالحصن شيطان من شيـاطين الفرنج يـرجعون إلى رأيه ،فـأرسل إليهـم يعرّفهم قـوّتهم وأنهم قادرون على حفـظ الحصن والذب عنه، بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاولة وتـرك اللقاء، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخـذ حارم وغيرها، وإن حفظتـم أنفسكـم منه أطقنـا الامتنـاع عليـه، ففعلـوا ما أشـار بـه عليهم، وراسلـوا نور الـدين في الصلح على أن يعطـوه حصة مـن حارم، فأبى أن يجيبهم إلاّ على مناصفة الولاية فأجابوه إلى ذلك فصالحهم وعاد.

وفي ذلـك يقول بعـض الشعراء مـن قصيدة وذكـر أبياتـا من قصيـدة لابن منير ، وقد سبـق أن ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين، فـأما أن يكون ابن منير قال هذا الشعر في غير هذه الغزاة، وإما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة، وقد قرأت في ديوان ابن منير، وقـال يمدحه ويهنيه بالعود من غزاة حارم:

مـــا فـــوق شـــأوك في العلى مـــزداد
فعـــلام يقلـــق عـــزمـــك الاجهـــاد
همم ضربـــــن على السماء سرادقـــا
فـــالشهـــب أطنـــاب لها وعماد
أنـــت الـــذي خطبـــت لـــه حســـاده
والفضـــل مـــا اعترفـــت بـــه الحســـاد
قـــام الـــدليـــل وسلـــم الخصـــم اليلنـــد
وانجلى لـــلآثـــر الاسنـــاد
زهـــرت لـــدولتـــك البـــلاد فـــروحهـــا
ارج المهـــب ودوحهـــا ميـــاد

أحيا ربيع العدل ميت ربوعها
فالبرض نسج والهشيم مراد
فالعيش إلا في جنابك ميتة
والنوم إلا في حماك سهاد
وإذا العدى زرعوا النفاق واحصدوا
كيدا فعزمك ناقض حصاد
بالمقربات كأن فوق متونها
جن الملا وكأنها أطواد
تدأى ومن وحي الكماة صفورها
فالزجر قيد والندى قياد
سحب إذا سحبت بأرض ذيلها
فالحزن سهل والهضاب وهاد
يهدي النواظر في دجنة نقعها
بندر بسرجك نير وقاد
ألبست دين محمد يا نوره
عزّاً له فوق السُّها إسناد
مازلت تسمكه بمياد القنا
حتى تثقف عوده المياد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه
عدد يراع به ولا استعداد
إن المنابر لو تطيق تكلما
حمدتك عن خطبائها الاعواد
ولئن حمت منك الأعادي مهلة
فلهم إلى المرعى الوبيّ معاد
ولكم لكم في أرضهم من مشهد
قامت به لظباكم الاشهاد

ملق بأطراف الفرنجة كلكلا
طرفاه ضرب صادق وجلاد

حاموا فلما عاينوا حوض الردى
حاموا برائش كيدهم أو كادوا

ورجا البرنس وقد تبرنس ذلة
حرما بحارم والمصاد مصاد

ضجت ثعالبه فأخرس جرسها
بيض تناسب في الحديد حداد

وسواعد ضربت بهنّ وبالقنا
من دون ملة أحمد الاسداد

يركزن في حلب ومن افنانها
تجني فواكه أمنها بغداد

يامن إذا عصفت زعازع بأسه
خمدت جحيم الشرك فهي رماد

عجبا لقوم حاولوك وحاولوا
عودا فواتاهم إليه مراد

ورأوا النصر فوقك خافقا
فأقام منهم في الضلوع فؤاد

من منكر أن ينسف السيل الربا
وأبوه ذاك العارض المدّاد

أو أن يعيد الشمس كاسفة السنا
نار لها ذاك الشهاب زناد

لاينفع الآباء ما سمكوا من الـ
ـعلياء حتى ترفع الأولاد

ملك يقيد خوفه ورجاؤه
ولقلما تتضافر الاضداد

وقال يهنيه بالنصر يوم حارم قصيدة أوّلها:
لملك ما تشاء من الدوام

يقول فيها:

حظيـــت مــــن المعـــالي بـــا المعـــاني
ولاذ النـــاس بعـــدك بـــالاســـامـــي
عـــزيـــز المنتمـــى عـــالي المراقـــي
بعيـــد المرتمى غـــالي المســـامـــي
فما أحـــد إلى العليـــاء يـــدلي
بمحتـــدك القسيمـــي القســـامـــي
أبـــوك المعتلي قمـــم الأعـــادي
إذا استعـــرت مـــذامـــرة القمام
زكـــا عـــرق العـــراق وقـــد تكنـــى
بـــه وأطـــال مـــن شمـــم الشـــآم
وجـــدك جـــدّ حتـــى قـــال قـــوم
على الفلـــك ابتنـــى عمـــد الخيـــام
فخـــرت ففـــت أبـــاء عظـــامـــا
إذا فخـــر المنـــافـــر بـــالعظـــام
وقفنـــا والنـــواظـــر مسجـــدات
وروح العـــــز ذاريّ الختـــــام
أســـاطـــر كـــالـــزبـــور مفصـــلات
كـــأنـــا مـــن صـــلاة في نظـــام
لـــدى ملـــك سجـــايـــاه سجـــال
تعـــاقـــب بين عفـــو وانتقـــام
كـــريـــم أكثـــرت يـــده أيـــادى الـــ
ـــعفاة وقللـــت عـــدد الكـــرام
فـــأهللنـــا الســـا الفتـــي هـــلال
وكفـــرنـــا الضـــاحكتـــي حســـام
ذهلنـــــا والسماط تخال سمطـــــا
وقـــد سجـــد المقـــاول للســـلام
هـــل الـــدســـت استقـــل بليـــث غـــاب
أم الفلـــك ارتـــدى بـــدر التمام

يطـــرب بـــه إلى العليـــاء نفـــس
غـــروب عـــن مـــلاء مـــة الملام
وخير سماعـــه ضرب مـــدام
إذا طـــرب الملـــوك إلى المدام
سقـــى اللّـــه العـــوامـــل مـــن جبـــان
شققـــن النقـــع عـــن نقـــع الاوام
فكـــم انتجـــت مـــن أمـــل عقيـــم
بها وحسمـــت مـــن داء عقـــام
بـــإنـــب والـــرعـــال كـــأن ثـــولا
تطـــاوح تحت عير مـــن أيـــام
مقـــام كنـــت قطـــب رحـــاه أرجـــى
مقـــام بين زمـــزم والمقـــام
رميتهـــم بـــأرعـــن مـــرجحـــنّ
ابـــارهـــم وكنـــت أبـــرّ رام
وقمـــت وقـــد تنـــاعـــس كـــل راع
وقـــام وقـــد تقـــاعـــس كـــل حـــام
فـــأيـــدي الخيـــل تـــذرع بحـــر لـــج
مـــن الـــدم مـــن يـــد التثخين طـــام
أحلـــت الـــديـــن فيـــه وكـــان هما
عـــزيـــز القـــوم معتـــدل القـــوام
وفي شجـــراء حـــارم شـــاجـــرتهم
ســـواهـــم كـــالسهـــام بكـــا السهـــام
نظـــائر حمـــت لهم حمامـــا
تطـــايـــر تحتـــه مثـــل الحمام
فلـــو قـــد مثـــل الاســـلام شخصـــا
لـــرشـــف مـــا وطئـــت مـــن الســـلام
فـــاكـــذب مـــدّعين هفـــوا وغـــرّوا
بـــأن الأرض تخلـــو مـــن همام

أولى لابصـــاركـــم هـــذا التعـــاشي
عـــن النـــور المبين بـــل التعـــامـــي

عـــن القمـــر الـــذي يجلـــوظـــلالـــ
ـــعواصم في ضيـــا الليـــل التهـــامـــي

هـــو المهـــدي لامـــن ضـــل فيـــه
كثير واستخـــف ســـوى هشـــام

وقـــائم عصرنـــا لامـــا تمنـــى
بـــه مـــن صـــوغ أضغـــاث المنـــام

بنـــور الـــديـــن أنشر كـــل حـــق
أطيـــل ثـــواؤه تحت الـــرجـــام

وطـــالـــت قبـــة الاســـلام حتى اســـ
ـــتوت بين الفـــوارس والنعـــام

تطـــابـــق لاسمـــه لفـــظ ومعنـــى
أحـــلاه الطبـــاق علـــى الأنـــام

جـــرى قـــدّامـــه ابـــن سبكتكين
وقبـــل الـــوبـــل هينمـــة الـــرهـــام

وكـــان مـــن النجـــوم بحيـــث تـــومـــى
إليـــه مـــن عنـــايـــات التكـــامـــي

وجئـــت فصـــار أشمـــخ مـــا بنـــاه
لما شيـــدت الطـــأمـــن رغـــام

أطـــاعـــك إذ أطعـــت اللّـــه جـــدّ
ركبـــت بـــه الـــزمـــان بـــلا زمـــام

ألا يـــا ربها اتفـــق الاســـامـــي
وفـــاضـــل بينهـــا درج التســـامـــي

جنـــى شرفـــا مـــن استغـــواه حتـــف
إليـــك وكـــم حيـــاة مـــن حمام

تـــرشفـــك الكماة وأنـــت مـــوت
كـــانـــك مـــن طعـــان في طعـــام

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: توجه نور الدين إلى ناحية حلب في بعض عسكره في الرابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج إليه بعيثهم في أعمال حلب وإفسادهم وصادفه في طريقه المبشر بظفر عسكره الحلبي بالافرنج المفسدين على حارم وقتل جماعة منهم وأسرهم، ووصل مع المبشر عدّة وافرة من رؤوس الأفرنج المذكورين وطيف بها في دمشق.

قال: وعاد نور الدين إلى دمشق في بعض أيام رمضان سالماً بعد تهذيب حلب وأعمالها وتفقد أحوالها، واستقرّت الموادعة بينه وبين ولد السلطان مسعود صاحب قونية وزال ماكان حدث بينهما، وفي شوال تقرّرت الموادعة والمهادنة بينه وبين ملك الأفرنج مدّة سنة كاملة، أوّلها شعبان وأن المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية، وكتبتا المواصفة بذلك بعد أن تأكيدها بالأيمان والمواثيق المشدّدة.

قال: وفي العشر الآخر من ذي الحجة غدر الفرنج ونقضوا ما كان استقر من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عدّة وافرة من الفرنج في البحر وقوّة شوكتهم بهم، ونهضوا إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس، وقد اجتمع فيها من جشارات الخيول العسكرية والرعية وعوامل فلاحي الضياع ومواشي الجلابين والعرب والفلاحين الشيء الكثير الذي لايحصى فيذكر للحاجة إلى الرعي بها، والسكون إلى الهدنة المستقرّة، ووقع للمندوبين وبحفظها تقصير فانتهزوا الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه، وأقفروا أهله منه مع من أسروه من التركمان وغيرهم وعادوا غانمين ظافرين أمنين، واللّه عادل في حكمه يتولى المكافأة لهم والادالة منهم، وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتي في حوادث السنة الآتية.

وفيها توفي القاضي أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن قادوس، كاتب الانشاء بالحضرة المصرية، وأصله من دمياط، ذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه، ومن شعره في رجل كان يكثر التكبير في آخر الصلاة.

وفاتر النية عنينها ... مع كثرة الرعدة والهمزه
مكبر سبعين في مرة ... كأنه صلى على حمزه

وله في وصف كتاب:

مداده في الطرس لما بدا ... قبله الصب ومن يزهد
كأنما قد حل فيه اللما ... أوذاب فيه الحجر الأسود

وبلغني أن القاضي الفاضل كان يعظمه كثيراً ويسميه ذا البلاغتين، وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه، وكان لايتمكن من اقتباس فوائده غالبا إلاّ في ركوبه من القصر إلى منزله بمصر، ومن منزله إلى القصر فيسايره الفاضل ويجاريه في فنون الكتابة والآداب والشعر.

قال: وفيها في يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأوّل من هذه السنة توفي الفقيه الزاهد أبو البيان نبأبن محمد المعروف بابن الحوراني، وكان حسن الطريقة مذ نشأ صبيا إلى أن قضى متدينا نقيا عفيفا سخيا محباً للعلم والأدب والمطالعة للغة العرب، وكان له عند خروج سريره لقبره في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الصحابة من الشهداء رضي الله عنهم يوم مشهود من كثرة المتأسفين له والمثنين عليه.

قلت: وفي هذه السنة والتي بعدها كثرت الزلازل بالشام.

قال أبو يعلى: في ليلة الثاني والعشرين من ربيع الأوّل وافت زلزلة هائلة، وجاءت قبلها وبعدها مثلها في النهار، وفي الليل ثم جاء بعد ذلك ثلاث دونهنّ بحيث أحصين ست مرات، وفي ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع الناس منها في أوّل النهار وآخره، وتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماه بانهدام مواضع كثيرة وانهدام برج من أبراج افامية، بهذه الزلازل المباركة، وذكر أن الذي أحصي عدده منها تقدير الأربعين، وما عرف مثل ذلك في السنين الماضية والأعصار الخالية، وفي التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار وبالليل ثانية في آخره، وفي أوّل شهر رمضان زلزلة مروعة وثانية وثالثة، وفي ثالث رمضان ثلاث زلازل، وأخرى وقت الظهر، وأخرى هائلة أيقظت النيام وروّعت القلوب انتصاف الليل ، وفي ليلة نصف رمضان زلزلة هائلة أعظم مما سبق، وعند الصباح أخرى، وفي الليلة التي تلتها زلزلتان أوّلها وآخرها، وفي اليوم الذي بعد يومها، وفي ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة، وفي ثاني شوّال زلزلة أعظم مما تقدّم، وفي سابعه وسادس عشره، ، وفي اليوم الذي جاء بعده أربع زلازل، وليلة الثاني والعشرين منه، ودفع الله تعالى عن دمشق وضواحيها ما خاف أهلها من توالي ذلك وتتابعه برأفته بهم ورحمته لهم، فله الحمد والشكر، لكن وردت الأخبار من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها وانهدام مساكنها، وأما شيزر فإن الكثير من مساكنها انهدم على سكانه بحيث قتل منهم العدد الكثير، وأما كفر طاب فهرب أهلها منها خوفاً على أرواحهم، وأمّا حماه فكانت كذلك، وأمّا باقي الأعمال الشامية فما عرف ما حدث فيها من هذه القدرة الباهرة ، والله أعلم.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلـزلة عظيمة، وتلاها أخرى وكذا في ليلة العشريـن واليوم بعدهـا، وتواصلت الأخبـار من الشام بعظيـم تأثير هذه الزلازل ، وفي ليلـة الخامس والعشرين من جمادى الأولى وافـت أربع زلازل، وضج الناس بـالتهليل والتسبيح والتقديـس، وفي ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان وترادفت الأخبـار من ناحية الشمال بأن هذه الزلازل أثـرت في حلـب تـأثيرا أزعـج أهلها وأقلقهـم وكـذا في حمص وهـدمـت مواضـع فيها، وفي حماه وكفر طاب وأفاميـة ، وهدمت مـا كان بنـي من مهدوم الزلازل، وحكـي أن تيماء أثرت فيها هذه الـزلازل تأثيرا مهولاً، وفي رابـع رجب نهاراً وافـت بـدمشـق زلزلـة عظيمـة لم يـر مثلها فيما تقـدّم، ودامـت رجفاتها حتـى خاف النـاس على أنفسهـم ومنازلهم وهـربوا مـن الـدور والسقائف وانـزعجوا وأثـرت في مـواضع كثيرة، ورمـت من فـص الجامع الشيء الكثير الذي يعجـز عن إعادته، ثـم وافت عقيبهـا زلزلة في الحال، ثـم سكنتـا بقدرة مـن حـركهـا، ثـم تبـع ذلك في أول ليلـة اليـوم المذكور زلـزلة، وفي وسطـه زلزلة، وفي آخـره زلزلة،وفي ليلـة الجمعة ثـامن رجب زلزلة مهـولة أزعجت الناس ، وتلاها في النصف منهـا ثانية، وعند انبلاج الصبـح ثالثة، وكـذلك في ليلـة السبت وليلة الأحـد وليلة الاثنين، وتتابعت بعـد ذلك بما يطول الشرح ، ووردت الاخبار مـن ناحية الشمال بما يسـوء سماعـه، ويرعـب النفـوس ذكـره بحيث انهدمـت حماه وقلعتهـا وسائر دورها ومنازلها على أهلها مـن الشيوخ والشبان والأطفال والنسوان، وهم العـدد الكبير والجم الغفير، بحيث لم يسلم منهـم إلاّ القليل اليسير، وأمّا شيزر فـان ربضها سلم الا ما كان خرب أوّلا، وأمّـا حصنها المشهور فإنـه انهدم على واليها تاج الـدولة بن أبي العساكـربن منقذومـن تبعه إلاّ اليسير ممن كان خارجـا، وأمّا حمص فانّ أهلها كانوا قـد قد اختلفوا منها إلى ظـاهرهـا فسلمـوا، وتلفـت مساكنهـم، وتلفـت قلعتهـا، وأمّا حلـب

فهدمت بعض دورها وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد، وكفر طاب وأفامية وما والاها ودنا منها وبعد عنها من الحصون والمعاقل إلى جبلة وجبيل ، وأتلفت سلمية وما اتصل بها إلى ناحية الرحبة وما جاورها،ولولم يدرك العباد والبلاد رحمة اللّه تعالى ولطفه لكان الخطب أفظع، وقد نظم في ذلك من قال:

روّعتنا زلازل حادثات
بقضاء قضاه رب السماء

هدمت حصن شيزر وحماة
أهلكت أهله بسوء القضاء

وبلادا كثيرة وحصونا
وثغورا موثقات البناء

وإذا مارنت عيون إليها
أجرت الدمع عندها بالدماء

وإذا ما قضي من اللّه أمر
سابق في عباده بالمضاء

حار قلب اللبيب فيه ومن كا
ن له فطنة وحسن ذكاء

وتراه مسبحا باكي العيـ
ـن مروعاً من سخطه وبلاء

جل ربي في ملكه وتعالى
عن مقال الجهال والسفهاء

قال: وأما أهل دمشق فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التاسع والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها وأجفلوا من منازلهم والأماكن المسقفة إلى الجامع والاماكن الخالية من البنيان خوفاً على أنفسهم، ووافت بعد ذلك أخرى ففتح البلد وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين والصحراء وأقاموا عدّة ليال وأيام على الخوف والجزع يسبحون ويهللون ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنهم.

قال: وفي الـرابع والعشريـن من رمضـان وافت دمشـق زلزلـة عظيمة روعت الناس وأزعجتهـم لما وقع في نفوسهم مما قد جـرى على بلاد الشام من تتابـع الزلازل فيها، ووافت الأخبار من نـاحية حلبٌ بأنّ هذه الـزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت مـن دورها وجدرانها العدد الكثير، وأنها كانت بحماه أعظم مما كانت في غيرها وأنها هدمـت ما كان عمر فيها من بيوت يلتجىء إليها وأنها دامت أيـاما كثيرة في كل يوم عدّة وافرة مـن الرجفات الهائلـة يتبعهـا صيحات مختلفـات تـوفي على أصـوات الـرعود القـاصفـة المزعجة، فسبحان من لـه الحكم والأمر، وتلا ذلك ردفات متـوالية أخف من غيرهنّ، فلما كانت ليلة السبت العاشر مـن شوال، وافت زلزلة هائلة بعـد صلاة العشـاء، الآخـرة، أزعجـت وأقلقت، وتـلاهـا في إثـرها، هـزة خفيفـة، وكذا في ليلـة العاشر مـن ذي القعدة وفي غـدها زلازل ، وليلـة الثالـث والعشرين والخامس والعشرين منـه أيضا زلازل نفـرالناس مـن هولها إلى الجوامع والأماكن المنكشفة، وضجوا بالتكبير والتهليل والتسبيح والـدعاء والتضرع إلى اللـه تعـالى، وفي يـوم الجمعة انسـلاخ ذي القعـدة وافت زلزلة رجفت لها الأرض، وانزعج لها الناس.

قال ابن الأثير: في سنـة اثنتين وخمسين كان بالشام زلزلـة شديدة ذات رجفات عظيمـة متتابعـة أخربـت البلاد وأهلكـت العباد، وكـان أشدهـا بمدينـة حماه وحصن شيزر فـإنهما خربا بـالمرّة، وكذا ما جـاورهما كحصن بارين والمعرّة، وغيرها من البلاد والقـرايا، وهلك تحت الهدم من الخلق ما لايحصه إلاّ اللّه تعالى، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع، ولولا أن اللّه منّ على المسلمين بنور الـدين جمع وحفـظ البلاد، وإلاّ كـان دخلها الأفـرنج بغير حصار ولا قتال.

وقال: ولقد بلغنـي من كثرة الهلكي أنّ بعـض المعلمين بحماه ذكر أنه فارق المكتـب لمهمّ فجاءت الـزلزلة فأخـربت الدور، وسقـط المكتب على

الصبيان جميعهم، قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب.

قلت: وقرأت في ديوان الأمير الفاضل مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ابن منقذ، وقال في الزلازل التي أهلكت كثيرا من أهل الشام وكان ابتداؤها في شهر الله رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وهلك بها من هلك من الخلق وكان نحوا من عشرة آلاف نسمة، قال وكتب هذا المكتوب والزلازل إلى الآن تتعاهد البلاد:

نمنا عن الموت والمعاد وأصبحنا نظن اليقين احلاما
فحركتنا هذي الزلازل أي تيقظوا كم ينام من ناما[٧٧]

وقال أيضا:

أيها الغافلون عن سكرة المو ت واذلا يسوغ في الحلق ريق
كم إلى كم هذا التشاغل والغفلة حار الساري وضل الطريق
إنما هزت الزلازل هذي الأرض بالغافلين كي يستفيقوا[٧٨]

وقال في الزلازل أيضا وقد سكن الناس بعد الدور النزهة في أكواخ عملوها بالأخشاب لئلا تهدّها الزلازل:

يا أرحم الراحمين أرحم عبادك من هذي الزلازل فهي الهلك والعطب
ماجت بهم أرضهم حتى كأنهم ركاب بحر من الانفاس يضطرب
فنصفهم هلكوا فيها ونصفهم لمصرع السلف الماضين يرتقب

تعوّضوا من مشيدات المنازل بالـ
ـأكواخ فهي قبور سقفها خشب

كأنها سفن قد أقبلت وهم
فيها فلا ملجأ منها ولا هرب(٧٩)

وقال: يرثي أهله الذين هلكوا بالزلازل بحصن شيزر قصيدة منها:

ما استدرج الموت قومي في هلاكهم
ولا تخرمهم مثنى ووحدانا

فكنت اصبر عنهم صبر محتسب
وأحمد الخطب فيهم عز أو هانا

واقتدي بالورى قبلي فكم فقدوا
أخا وكم فارقوا أهلا وجيرانا

لكن سقب المنايا وسط جمعهم
رغا فخروا على الاذقان اذعانا

وفاجأتهم من الأيام قارعة
سقتهم بكؤوس الموت ذيفانا

ماتوا جميعا كرجع الطرف وانقرضوا
هل ما ترى تارك الحين إنسانا

اعزز علي بهم من معشر صبروا
على الحفيظة إن ذو لوثة لانا

لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم
قلبا أجشمه صبرا وسلوانا

فلو رأوني لقالوا مات أسعدنا
وعاش للهم والاحزان اشقانا

لم يترك الموت منهم من يخبرني
عنهم فيوضح ما قالوه تبيانا

بادوا جميعا وما شادوا فواعجبا
للخطب أهلك عمارا وعمرانا

هــذي قصــورهــم أمســت قبــورهــم
كــذاك كــانــوا بها مــن قبــل سكــانــا

ويــح الـــزلازل أفنـــت معشري فـــإذا
ذكـــرتهم خلتنـــي في القـــوم سكـــرانـــا
لا ألتقـــى الـــدهـــر مـــن بعـــد الـــزلازل مـــا
حييـــت إلاّ كسير القلـــب حيرانـــا
أخنـــت على معشري الادنين فـــاصطلمـــت
منهـــم كهـــولا وشبـــانـــا وولـــدانـــا
لم يحمهـــم حصنهـــم منهـــا ولا رهبـــت
بـــأســـا تنـــاذرة الأقـــران أزمـــانـــا
إن اقفـــرت شيـــزر منهـــم فهـــم جعلـــوا
منيـــع أســـوارهـــا بيضـــا وخـــرصـــانـــا
هـــم حموهـــا فلـــو شـــاهـــدتهم وهـــم
بها لشـــاهـــدت آســـادا وخفـــانـــا
تـــراهـــم في الـــورى أســـد ويـــوم نـــدى
غيثـــا مغيثـــا وفي الظلماء رهبـــانـــا
بنـــو أبي وبنـــو عمـــي دمـــي دمهـــم
وإن أروني منـــاواة وشنـــآنـــا
يطيـــب النفـــس عنهـــم انهم رحلـــوا
وخلفـــوني على الاثـــار عجـــلانـــا(٨٠)

وكتب إليه الصالح بن رزيك قصيدة يعزيه عن أهله منها:

بـــأبـــى شخصـــك الـــذي لا يغيـــب
عـــن عيـــانـــى فهـــو البعيـــد القـــريـــب
يـــا أخـــلاي بـــالشـــام إن غبـــ
ـــتم فشـــوقـــي إليكـــم لا يغيـــب
غصبتنـــا الايـــام قـــربكـــم منـــ
ـــا ولا بـــد أن تـــردّ الغصـــوب

كـــــره الشـــــام أهلــــــه فهــــو محقــــو
ق بـــــأن لا يقيــــم فيــــه لبيـــــب

إن تجلـــت عنــه الحروب قليـــلا
خلفتهـــــا زلازل وخطــــوب
رقصــت أرضـــه عشيـــة غنـــى الــ
ــرعد في الجوّ والكـــريـــم طـــروب
وتثنـــت حيطـــانــــه إذا مـــالتـــ
ـــها شمال بـــزمـــرهـــا وجنـــوب
لا هبـــوب لنـــائم مــــن أمـــانيـــ
ـــه وللعــاصفـــات فيهـــا هبـــوب
وأرى البرق شـــامتـــا ضـــاحـــك الســـ
ـــن وللجـــوّ بـــالغمام قطـــوب
ذكــــروا أنـــه يـــذوب بـــه السحـــ
ـــب فما للصخـــور أيضـــا تـــذوب
أبـــذنـــب أصـــابها قـــدر اللـــ
ـــه فلـــلأرض كـــالأنـــام ذنـــوب
إن ظنـــي والظــن مثـــل سهـــام الـــ
ـــرمي منهـــا المخطـــى ومنهـــا المصيـــب
إن هـــذا الآن غـــدت ســـاحـــة القـــد
س ومـــا لـــلاســـلام فيهـــا نصيـــب
منـــزل الـــوحـــي قبـــل بعـــث رســـول اللـــ
ـــه فهـــو المحجـــوج والمحجـــوب
نـــزلـــت وسطـــه الخنـــازيـــر والخمـــ
ـــر وبـــارى النـــاقـــوس فيـــه الصليـــب
لـــو رآه المسيـــح لم يـــرض فعـــلا
ذكـــروا أنـــه لـــه منســـوب
لهف نفسي على ديـــار مـــن السكـــ
ـــان أقـــوت فليـــس فيهـــا مجيـــب

أن تخصيصكم نوائب ما زا
لت لكم دون من سواكم تنوب

أبعد الناس عن عبادة رب النـ
ـاس قوم إلههم مصلوب

فاحتسب ما أصاب قومك مجد
الدين واصبر فالحادثات ضروب

فكذاك القناة يكسر يوم الـ
ـروع منها صدر وتبقى الكعوب

وقرأت في ديوان العرقلة كان المولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عبيد غلام المولى، وكان عبيد هذا موصوفا بالثقل في بيت بمدينة حماه يوم الزلزلة فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذي هما فيه، فقال العرقلة:

قل لصلاح الدين رب الندى
بلغ عبيدا كل ما أمله

بثقله لما تصاحبتما
سلمك الله من الزلزلة

قرأت في بعض كتب أبي الحسين الرازي عن شيوخه أنه وقع بدمشق في ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين زلازل عظيمة، حكى عنها نحو مما مضى ذكره، وأكثر، نسأل الله تعالى تمام العافية.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: في ثالث عشر ربيع الأوّل توجه نور الدين إلى ناحية بعلبك لتفقد أحوالها، وتقرير أمر المستحفظين لها، وتواصلت الأخبار من ناحية حمص وحماه باغارة الفرنج الملاعين على تلك الأعمال،

وفي خامس عشر ربيع الأوّل ورد المبشر من العسكر المنصور برأس الماء بأن ناصر الدين أمير أميران لما انتهى إليه خبر الفرنج أنهم قد أنهضوا سرية وافرة العدد إلى ناحية بانياس لتقويتها، أسرع النهضة إليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجالة فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس، وقد خرج إليهم من كان فيها من حماتها فأوقع بهم، وقد كان كمن لهم في مواضع كمناء من شجعان الأتراك ، واندفع المسلمون بين أيديهم في أوّل المجال ، وظهر عليهم الكمناء فأنزل اللّه نصره على المسلمين، بحيث لم ينج منهم إلا القليل ، وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ما لايحد كثرة، ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الأفرنج ومسلمي جبل عاملة المضافين إليهم، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى والعدد إلى دمشق، وطيف بهم، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق، وكان يوما مشهوداً، وأنفذ نور الدين إلى بعلبك جماعة من أسرى المشركين، فأمر بضرب أعناقهم صبراً.

قال: وتبع هذا الفتح ورود البشرى الثانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان، وأنه قد ظفر من المشركين بسرية وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال فانهزمت ، وتخطف التركمان منهم من ظفروا به،

قال: ووصل أسد الدين إلى بعلبك في العسكر من مقدّمي التركمان وأبطالهم للجهاد، وهم في العدد الكثير والجم الغفير، واجتمعوا بنور الدين وتقرّرت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها، والابتداء بالنزول على بانياس، وقدم نور الدين دمشق في إخراج آلات الحروب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياما يسيرة ويتوجه، وأمر بالنداء بدمشق في الغزاة والمجاهدين، فتبعه من الأحداث والمطوّعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير، وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأوّل، وفي

سابع ربيع الآخر عقيب نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب، سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس يتضمن كتابه الاعلام بورود المبشر من معسكر أسد الدين بناحية هونين في التركمان والعرب، بأنّ الافرنج خذلهم الله تعالى أنهضوا سرّية من أعيان مقدّميهم وأبطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم لكبس المذكورين ظنا منهم بأنهم في قل، ولم يعلموا أنهم في ألوف، فلما دنوا منهم وثبوا إليهم كالليوث إلى فرائسها، فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب، ولم يبق منهم إلاّ اليسير، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعددهم من الخيول المنتخبة والطوارق والقنطاريات إلى دمشق، وطيف بهم فيه يوم الإثنين تالي اليوم المذكور.

قال: وتلا هذه الموهبة المتجدّدة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثاء تلو المذكور، يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهرا على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور عند تناهي النقب وإطلاق النار فيه وسقوط البرج المنقوب، وهجوم الرجال فيه وبذل السيف في قتل من فيه ونهب ما حواه، وانهزام من سلم إلى القلعة وانحصارهم بها، وأن أخذهم بمشيئة الله تعالى لايبطىء، والله يسهله ويعجله.

قال: واتفق بعد ذلك أن الفرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفري صاحب بانياس ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة بانياس، وقد أشرفوا على الهلاك وبادروا وبالغوا في السؤال لنور الدين الأمان ويسلمون ما في أيديهم من القلعة وماحوته لينجوا سالمين، فلم يجبهم إلى ما سألوه ورغبوافيه، فلما وصل ملك الأفرنج في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكرين النازل على بانياس لحصارها، والنازل على الطريق لمنع الواصل إليها، اقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها واستخلصوا من كان فيها،

وحين شاهدوا ماعم بانياس من إخراب سورها ومنازل سكانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى سقطت الاطيار بالكتب من المعسكر النوري تتضمن الاعلام بأنّ الملك العادل نور الدين أعز الله نصره لما عرف أنّ معسكر الكفرة الأفرنج على الملاحة بين طبرية وبانياس، نهض في عسكره المنصور، من الاتراك و العرب، وجدّ في السير فلما شارفهم وهم غارون وشاهدوا راياته قد اظلتهم بادروا بلبس السلاح والركوب، وافترقوا أربع فرق، وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل الملك العادل نور الدين فترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الأقدام، ودهمهم البوار والحمام، فأنزل اللّه نصره على المسلمين وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسرا، واستأصلت السيوف الرجالة ، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم لعنه اللّه فيهم، وقيل إنه في جملة القتلى، ولم يعرف له خبر، ولم يفقد من عسكر الاسلام سوى رجلين أحدهما من الأبطال المذكورين، وقتل عند حضور أجله إلى رحمة الله، والآخر غريب لايعرف، وكل منهما مضى شهيدا مثابا مأجورا رحمهما الله، وقتل أربعة من شجعان الكفرة، وامتلأت أيدي العساكر من خيولهم وعددهم وكراعهم وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة، وكان فتحا مبينا ونصراً عزيزاً، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق يوم الأحد تالي يوم الفتح، وقد رتبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ومعهما راية من راياتهم منشورة ، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عدّة، والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرس، وعليه الزردية والخوذة، وفي يده راية، والرجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لايحصى لهم من عدد:الشيوخ والشبان والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله تعالى ذكره كافة المسلمين من هذا النصر المبين وأكثروا شكر الله تعالى والدعاء لنور الدين المحامي

عنهم المرامي دونهم، والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنة ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى:

ما رأينا فيما تقدّم يوما
كامل الحسن غاية في البهاء

مثل يوم الفرنج حين علتهم
ذلة الاسر والبلا والفناء

وبرايَاتهم على العيس زفوا
بين ذلّ وحسرة وعناء

بعد عزلهم وهيبة ذكر
في مصاف الحروب والهيجاء

هكذا هكذا هلاك الأعادي
عند شنّ الاغارة الشعواء

شؤم أخذ الجشار كان وبالا
عمهم في صباحهم والمساء

نقضوا هدنة الصلاح بجهل
بعد تأكيدها بحسن الوفاء

فلقوا بغيهم بما كان منهم
من فساد بجهلهم واعتداء

لاحمى اللّه شملهم من شتات
بمواض تفوق حدّ المضاء

فجزاء الكفور قتل وأسر
وجزاء الشكور خير الجزاء

ولرب العباد حمد وشكر
دائم مع تواصل النعماء

قال: وشرع نور الدين في قصد أعمالهم لتملكها وتدويخها، والله المعين والموفق.

وقال ابن أبي طي: في سنة اثنتين وخمسين أغارت الفرنج على بلد حمص وحماة، وأفسدوا وأكثروا العيث، واتصل ذلك بنور الدين فأنهض إليهم عسكرا كثيفا فأوقع بهم وهزمهم إلى أرض بانياس، وخرج نور الدين حتى نزل على بانياس وحاصرها أشدّ حصار حتى افتتحها في الثامن والعشرين من ربيع الأوّل، وأخذ جميع ما كان للفرنج فيها، وأنفذ الغنيمة والأسارى مع أسد الدين إلى دمشق، وأنفذ معه مقدار ألف رأس، واتصل ذلك بالفرنج، فأنهضت إلى معارضة أسد الدين قطعة من خيالتها ، واتصل هذا بأسد الدين وقد دهمته الفرنج فلبس لأمته، وتقدّم في جماعة من مماليكه بين يدي العسكر، وأمر الرجال بلقاء الفرنج وناجزهم الحرب فلم يتماسكوا بين يديه ورجعوا على أدبارهم، وتبعهم مقدار فرسخين يقتل ويأسر، وغنم منهم غنيمة حسنة ، وعاد إلى أصحابه ظافراً، وتوجه في وجهته مؤيدا.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وفي الثاني عشر من جمادى الآخرة، تواصلت الأخبار بوصول ولد السلطان مسعود في خلق كثير للنزول على أنطاكية، وأوجبت الصورة تقرير المهادنة بين نور الدين وملك الأفرنج، وتكرّرت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشاجرات بحيث فسد الأمر، ولم يستقرّ على مصلحة، ووصل نور الدين إلى مقرّ عزه في بعض عسكره، وأقر باقيه ومقدّميه مع العرب بازاء أعمال المشركين.

قال: وفي ثالث رجب توجه نور الدين إلى ناحية حلب وأعمالها، لتجديد مشاهدتها، وإمعان النظر في حمايتها عندما عاث المشركون فيها، وقربت عساكر الملك ابن مسعود منها ثم قال بعد ذلك: قد تقدّم من ذكر نور الدين ونهوضه في عساكره من دمشق إلى بلاد الشأم عند إنتهاء الخبر إليه بتجمع أحزاب الفرنج خذلهم الله وقصدهم لها وطمعهم

بحكم ما حدث من الزلازل والرجفات المتتابعة لها، وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل في أعمالها وثغورها لحمايتها والذب عنها، وايناس من سلم من أهل حمص وشيزر وكفر طاب وحماه وغيرها، بحيث اجتمع إليه، العدد الكثير والجم الغفير من رجال المعاقل والأعمال والتركمان، وخيم بهم بازاء جمع الفرنج بالقرب من أنطاكية، وحصرهم بحيث لم يقدر فارس منهم على الإقدام على الفساد، فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حاد، فلما اشتد به وخاف منه على نفسه، استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران، وأسد الدين شيركوه، وأعيان الأمراء والمقدّمين وأوصى إليهم بما اقتضاه رأيه واستصوبه، وقرّر معهم كون أخيه نصرة الدين القائم في منصبه من بعده، والساد لثلمة فقده، لاشتهاره بالشهامة ، وشدّة البأس، ويكون مقيما بحلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، واستحلف الجماعة على هذه القاعدة، فلما تقرّرت اشتدّ به المرض فتوجه في محفة إلى حلب وحصل في قلعتها، وتوجه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها، من فساد الأفرنج، وتواصلت الأراجيف بنور الدين فقلقت النفوس، وازعجت القلوب فتفرّقت جموع المسلمين واضطربت الأعمال وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهجموها وحصلوا فيها، فقتلوا وأسروا ونهبوا، وتجمع من عدّة جهات خلق كثير من رجال الاسماعيلة وغيرهم وظهروا عليهم ، فقتلوا منهم وأخرجوهم من شيزر، واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب، فأغلق والي القلعة مجد الدين في وجهه الأبواب وعصى عليه، فثارت أحداث حلب وقالوا : هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه،فزحفوا في السلاح إلى باب البلد وكسروا أغلاقه، ودخل نصرة الدين في أصحابه، وحصل في البلد وقامت الأحداث على والي القلعة باللوم والانكار والوعيد واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جملتها إعادة رسمهم في التأذين بحي على خير العمل ، محمد وعلي خير البشر، فأجابهم إلى ما رغبوا فيه، وأحسن القول لهم والوعد ونزل في داره، وأنفذ والي القلعة إليه و إلى الحلبيين يقول: مولانا نور الدين حيّ في نفسه، وما

كان إلى ما فعل حاجة، فقيل: الذنب في ذلك للوالي، وصعد إلى القلعة من شاهد نور الدين حيا يفهم ما يقول وما يقال له، فأنكر ما جرى وقال: أنا أصفح للاحداث عن هذا الخطل ولا أؤاخذهم بالزلل، وما طلبوا إلاّ صلاح حال أخي وولي عهدي من بعدي، وشاعت الأخبار وانتشرت البشائر في الأقطار بعافيته، فأنست القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتزايدت العافية، وصرفت الهمم إلى مكاتبات المقدّمين بالعود إلى جهاد الملاعين، وكان نصرة الدين قد ولي مدينة حران وما أضيف إليها وتوجه نحوها، ولما تناصرت الأخبار بالبشائر إلى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزامه على استدعاء العساكر الاسلامية للجهاد سارع بالنهوض من دمشق إلى حلب ووصل إليها في خيله، فاجتمع بنور الدين، فأكرم لقياه وشكر مسعاه وشرعوا في حماية الأعمال من شرّ عصب الكفر والضلال.

قال: ونظمت هذه الأبيات في هذا المعنى:

لقد حسنت صفاتك يا زماني
وفزت بما رجوت من الأماني

فكم أصبحت مرتاعا لخوف
فبدلت المخافة بالأمان

وجاءتنا أراجيف بملك
عظيم الشأن مسعود الزمان

فروّعت القلوب من البرايا
وصار شجاعها مثل الجبان

وثارت فتنة تخشى أذاها
على الاسلام في قاص ودان

ووافى بعد ذاك بشير صدق
بعافية المليك مع التهاني

فولى الخوف منهدم المباني
وعاد الأمن معمور المغاني

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة كانت الزلزلة التي هدمت شيزر، فخرج نور الدين وأخذها من بني منقذ، وسلمها إلى مجد الدين بن الداية، وسار إلى سرمين، لأنه بلغه حركة الفرنج فاعترضه هناك مرض أشفى منه ، فأحضر شيركوه وأوصاه بالعساكر وأن يكون الأمر بعده لأخيه نصرة الدين أمير ميران، ، فسار أسد الدين إلى دمشق، وأقام بمرج الصفرخوفا أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها، ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين، فعاد إلى خدمته مهنئا بالعافية، وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب في مدّة مرض نور الدين، فلما أفاق نور الدين من مرضه سيره إلى حران، وجعل ولي عهده أخاه قطب الدين صاحب الموصل.

قال: وكان مجد الدين طمع في الملك لنفسه فتحزم لامره وتقرب إلى الناس، وجعل له أصحاب أخبار ، وشحن الطرقات والسبل بالرجال بتفتيش الخارجين من خلب وغيرها، والداخلين إليها.

قلت: ولابن منير تهنئة لنور الدين من مرض غير هذا:

يا شمس لا كسف ولا تكدار
ولا خلت من نورك الانوار
البدر منقوص وأنت كامل
لك السرايا وله السرار
برؤك للاسلام من أدوائه
بر وفي اعدائه بوار
ما أنت إلاّ السيف صد صدأ
عن متنه مضربه البتار
لو كان محمولا أذى عن منفس
لحملته دونك الابصار
ولو فدت أرض السماء ساقت الـ
ـملوك في فدائك الامصار

أنت غياث محلهم إن أجدبوا
وخيرهم إن ذكر الخيار
وفي سرير الملك منها ملك
للّه في سرائه اسرار
خير ملوك الأرض جداً وأبا
إن هز عطفي ماجد نجار
مد على الدين رواق دولة
تنازعت أسمارها السمار
علت بناياه وحلت في يده
فهي عليه السور والسوار
محمود المحمود عصر ملكه
فللحيا من مزنه اعتصار
يا نور دين أظلمت آفاقه
لولم تبلج هذه الاثار
للّه أيامك ما تخطه
يا لمسك من اسفارها الاسفار
سلمت للاسلام ترعى سرحه
إذا ونى رعاته وجاروا
شكوت فالدنيا على سكانها
قرارة جانبها القرار
كادت تموت الأرض من اشفاقها
لولا شفاء ردّها تمار
زرّت عليك الترك حبيب نسب
يحسدها بزيه نزار
لاعدمت منك الأماني ربها
معطى من الاقبال ما تختار
ما سمح الدهر بان تبقى لنا
فكل جرح مسنا جبار

- ٧٨٠٤ -

وله من قصيدة أخرى

لا نؤدي لأنعم اللّه شكرا
بك يا أعظم البرية قدرا
زور عشر وافى لاقلاع ذا
جعلا المناة الممناة عشرا
أم مغناك ضامنا أن أيا
مك تفني الأحقاب عصرا فعصرا
في محل له السماك سماك
وجدود لها المجرة مجرى
أيها العادل المظفر لاقـ
ـصت شبا الدهر من شباتك ظفرا
جعل اللّه ما استهل من الأشـ
ـهر ينهل في مغازيك نصرا
أبدا ينشر التهاني على سا
حتك الزهر في المواسم نشرا
أنت أسرى الملوك نفسا وقنسا(٨١)
وإلى أسرهم من الطيف اسرى
ملك عنده المشارب تستمـ
ـري واخلاف الجود تمرى فتفرى
فلك اللّه من مثمر بذر
يصطفي صالحا ويحصد أجرا
عش لملك أصبحت في الدست منه
فوق كسرى عدلا وشعبا وكسرا
تفطر الطيبات للفطر فطرا
وتعم الاعداء في النحر نحرا
يقتني من كساك أنفس ملبو
س ويقنيك منه أطول عمرا

أنــــت تملي ونحـــن ننظــــم مـــاتنـــــ
ـــــشره الغــــر مـــن مســـاعيـــك نثــــرا
صرف اللّـــــه عنـــك عين زمــــان
بـــك صـــارت بعـــد الاصـــابـــة عبرى
وتـــــوالـــــت لــــك الفتـــوح إلى أن
تملا الخافقين نهيـــــــا وأمـــــــرا
كلما انهجـــت مـــلابـــس نعمـــى
وتمليتهــــن جــــدّدت أخــــرى

وقال القيسراني من قصيدة:

أشرق البـــــدر يـــــا جبين الهلال
فجــــلاه لــــوجهـــك المتــــلالي
عـــن ليـــال حجبـــن عنـــا سنـــاهـــا
إنما غيبـــــة الهلال ليـــــالي
لم يكـــن مـــا ألم يـــا نجـــم شكـــوى
فتهنـــى لـــوافـــد الاقبـــال
لا ولا كــــان زائرا مـــن سقـــام
إنما كـــان طـــائفـــا مـــن خيـــال
وعكــــة أقلعـــت وأنـــت صحيـــح
ويصـــح النسيـــم بـــالاعتـــلال
أو مـــا هـــذه السماء سرار الـــــ
ـــبدر فيهـــا على طـــريـــق الكمال
نعمـــــة اللّـــــه لا يخص بها الخا
لـــق الا مـــن كـــان منـــه ببـــال
ولبـــاس مـــن المثـــوبـــة والغفـــ
ـــران ألبســـت صـــافي الاذيـــال
فهنيئـــا لـــك البقـــاء وإن كـــا
ن هنـــاء يخص فيـــه المعـــالي

والتقـــى والنـــدى ومعـــربـــة الخيـــ
ـــل وبيـــض الظبـــى وسمـــر العـــوالي

والخلال التــــــي إذا مــــــا تجلـــــت
صـــدرت منـــك عـــن كـــريـــم الخلال
إن وقتـــك النفـــوس مـــا تتـــوقـــى
فحقيـــــــق فـــــــدى الموالي الموالي
أو تحصنـــت في شعـــار مـــن التقـــ
ـــوى فما زلـــت منـــه في سربـــال
فشفـــى اللّـــه مـــن أجـــل دوائـ
ـــيه صريـــح الـــدعـــاء والابتهـــال
ملكـــا أبـــدل المخـــافـــة بـــالامـــ
ـــن وأضحـــى يعـــدّ في الابـــدال
وهـــو تـــاج الملـــوك فـــالملـــك العـــا
طـــل حـــال بـــه على كـــل حـــال
وإذا النيران غـــابـــا فنـــور الـــديـــ
ـــن شمـــس فجـــرتـــه الاصـــال
قـــد أرت وجهـــك العلى مـــا يـــريها
وهـــي مـــرآة صـــالـــح الأعمال
وقضـــى اللّـــه أن نجمـــك في الأنجـــ
ـــم ســـام وأن جـــدّك عـــال
كـــل يـــوم هـــذا المحيـــا محيـــى
بـــالتهـــاني على يـــد الاقبـــال

فصل

في ذكر حصن شيزر وولاية بني منقذ

قال ابن الأثير: وهو حصن قريب من حماه بينهما نحو من نصف نهار، وهـو من أمنـع القلاع وأحصنهـا على حجر عـال ، له طـريق منقـور في طرف الجبل، وقـد قطع الطريق في وسطه وجعل عليـه جسر من خشب، فـإذا قطع ذلـك الجسر تعـذر الصعود إليـه، وكـان لآل منقذ الكنـانيين يتوارثـونه من أيـام صالح بـن مرداس إلى أن انتهى الأمـر إلى الأمير أبي المرهف نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقـذ بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن علي، فبقـي به مدّة طويلة إلى أن مات بشيـزر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وكان شجـاعا كـريما صوامـا قوامـا، فلما حضره الموت استخلف أخاه الأمير أبـا سلامة مرشـد بن علي وهو والد أسـامة، فقال: واللّـه لا وليتها ولأخـرجـن من الـدنيـا كما دخلتها، وكـان عـالما بالقـرآن والأدب ، كثير الصلاح، فولاهـا أخاه أبا العساكر سلطـان بن علي، وكان أصغر منه فاصطحبا أجمل صحبة مدّة من الزمـان، فولد أبو سلامة مرشد عدّة أولاد ذكور فكبروا وسـادوا منهم: عز الدولة أبو الحسـن علي، ومؤيد الدولة أسـامة بن مرشـد وغيرهما، ولم يولد لأخيه سلطـان ولد ذكر إلى أن كبر فجـاءه أولاد ، فحسـد أخاه على ذلـك، فكـان كلما رأى صغـر أولاد أخيه وسيـادتهم ساءه ذلك وخـافهم على أولاده، وسعـى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على أخيـه، فكتب الأمير سلطان إلى أخيـه شعراً يعـاتبه على أشياء بلغته عنـه، فأجابه بأبيـات جيدة في معناها، وكلهـم كان أديبا شاعراً فمنها:

ظلـوم أبـت في الظلـم إلاّ تماديـا
وفي الصـدّ والهجـران إلاّ تنـاهيـا

شكـت هجـرنـا في ذاك والـذنـب ذنبهـا
فيـا عجبـا مـن ظـالم جـاء شـاكيـا

وطاوعت الواشين في وطالما
عصيت عذولاً في هواها وواشيا

ومال بها تيه الجمال إلى القلا
وهيهات أن أمسي لها الدهر قاليا

ولا ناسيا ما أودعت من عهودها
وإن هي أبدت جفوة وتناسيا

ولما أتاني من قريضك جوهر
جمعت المعالي فيه لي والمعانيا

وكنت هجرت الشعر حينا لأنه
تولى برغمي حين ولى شبابيا

وأين من الستين لفظ مفوف
إذا رمت أدنى القول منه عصانيا

وقلت أخي يرعى بني وأسرتي
ويحفظ عهدي فيهم وذماميا

ويجزيهم ما لم أكلفه فعله
لنفسي فقد أعددته من تراثيا

فما لك لما أن حنى الدهر صعدتي
وثلم مني صار ما كان ماضيا

تنكرت حتى صار برك قسوة
وقربك مني جفوة وتنائيا

فأصبحت صفر الكف مما رجوته
كذا اليأس قد عفى سبيل رجائيا

على أنني ما حلت عما عهدته
ولا غيرت هذي السنون وداديا

فلا غرو عند الحادثات فإنني
أراك يميني والأنام شماليا

تهن بها عذراء لو قرنت بها
نجوم سماء لم تعد دراريا

تحلت بــدر مـن صفـاتـك زانها
كما زان منظـوم الـلآلي الغـوانيـا
وعـش بـانيـا للجـود مـا كـان واهنـا
مشيـداً مـن الاحسـان مـا كـان واهيـا

قـال: وكان الأمـر فيه في حيـاة الأمير مرشـد، بعض الستر فلما مـات سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخـوه لأولاده ظهر المجن وباداهم بما يسوءهم ، وتمادت الأيـام بينهم إلى أن قوي عليهم، فأخرجهـم من شيزر، وكان أعظم الاسباب في إخراجهـم ما حدثت به عن مؤيد الـدولة أسامة ابن مرشد، قـال: كنت من الشجاعة والاقدام على مـا علمه الناس، فبينا أنا بشيـزر، وإذا قد أتاني إنسان أخبرني أن بـدحلة بغار بها أسد ضـاريا، فركبت فرسي وأخـذت سيفي وسرت إليـه لأقتله، ولم أعلـم أحداً مـن الناس لئلا أمنع من ذلك، فلما قربت مـن الأسد نزلت عن فرسي وربطته ومشيـت نحـوه، فلما رآني قصـدني، ووثب فضربتـه بـالسيـف على رأسـه فانفلق، ثـم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاه فـرسي وعدت إلى شيزر، ودخلت على والـدتي وألقيت الرأس بين يـديها وحدثتها الحال، فقـالت : يابنـي تجهز للخـروج من شيـزر، فواللّـه لايمكنك عمـك من المقـام ولا أحداً مـن أخوتـك وأنتم على هـذه الحال من الاقـدام والجرأة ، فلما كان الغد أمر عمي باخراجنا من عنده وألـزمنا به إلزاما لامهلة فيه، فتفرّقنا في البلاد، فقصدوا الملك العادل نور الديـن وشكوا إليه ما لقوا من عمهم ، فلـم يمكنه قصـده ولا الأخـذ بثأرهـم وإعـادتهم إلى أوطـانهم لاشتغالـه بجهاد الفـرنج ولخوفه مـن أن تسلم شيـزر إلى الفرنج، وبقـي في نفسه، وتوفي الأمير سلطـان وولي بعده أولاده، فبلـغ نور الـدين عنهـم مراسلـة الفـرنج، فـاشتدّ مـا في نفسه، وهـو ينتظر الفـرصة، فلما خـربت القلعـة بالـزلزلة ولم يسلم منهـا أحد كان بالحصـن، فبادر إليها وملكها وأضـافها إلى بلاده وعمـرها وأسـوارها وأعادهـا كأن لم تخرب، وكـذلك أيضـا فعل

بمدينة حماه وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ما كانت.

قلت: وسيأتي ذكر اسامة بن مرشد في أخبار سنة اثنتين وسبعين، وهي السنة التي قدم فيها دمشق من بلاد الشرق، وذلك أنه لما خرج من شيزر استوطن دمشق، ثم فارقها إلى الديار المصرية، وكتب إلى معين الدين أنر أتابك صاحب دمشق يعاتبه في أسباب المفارقة قصيدة أوّلها:

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مر يوما بفكري ما يريبهم
ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعت لهم عهدا ولا أطلعت
على ودائعهم في صدري التهم
فليت شعري بم استوجبت هجرهم
ملوا فصدّهم عن وصلي السأم
حفظت ما ضيعوا أغضيت حين جنوا
وفيت إذ غدروا واصلت إذ صرموا
حرمت ما كنت أرجو من ودادهم
ما الرزق إلا الذي يجري به القسم
وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما
تختار من زينة الدنيا لقلت هم
هم مجال الكرى من مقلتي ومن
قلبي محل المنى جاروا أو اجترموا
تبدّلوا بي ولا ابغي بهم بدلا
حسبي هم انصفوا في الحكم أو ظلموا
بلغ أميري معين الدين مألكة
من نازح الدار لكن ودّه أمم
وقل له أنت خير الترك فضلك الـ
ـحياء والدين والاقدام والكرم

هــــلاّ انفــــت حيــــاء أو محافظــــة
مــن فعــل مــا أنكــرتــه العــرب والعجــم
اسلمتنــــا وسيــــوف الهنــــد مغمــــدة
ولم يــــروّ سنــــان السمهــــري دم
وكنــت أحســـب مـــن والاك في حـــرم
لا يعتريــــه بــــه شيــــب ولا هــــرم
ومــا طُهان بــأولى مــن أســامــة بــالـــ
ـــوفاء لكـــن جـــرى بالكائن القلـــم
هبنــا جنينــا ذنــوبــاً لا يكفــرهــا
عــــذر فما ذا جنــــى الأطفــــال والحرم
القيتهــم في رضــى الأفــرنـــج متبعــا
رضــى عــدى يسخــط الــرحمن فعلهــم
جــرّبهم مثــل تجريبــي لتخبرهــم
فللــرجــال إذا مــا جــربــوا قيــم(٨٢)

وهي طـويلة، وطُهان المذكـور خادم تركـي كان لأتـابك ملـك الأمراء زنكي بن أق سنقر، هرب من خدمتـه إلى دمشق فطلبه ولج فيه، فاشتمل عليه معين الدين للجنسية وحماه، فلما لـج فيه سيره إلى العرب وقام له بما يحتاج إلى أن ردّه لخدمتـه بدمشق، وبقـي أسامة بمصر إلى أن خـرج منها مع عبـاس كما سبق ذكـره، وأسر الفر نـج أخاه نجـم الدولـة محمد بـن مرشد، وطلب من ابن عمه ناصر الـدين محمد بن سلطان صاحب شيزر الاعانـة في فكاكه، فلـم يفعل ، قال: وادّخـر الله سبحـانه أجر خـلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه اللّـه فوهبه فارساً من مقدمي الـداويـة يقال لـه المشطـوب، قـد بـذل الافـرنج فيـه عشرة آلاف دينـار فاستخلـص به أخاه مـن الأسر، وبلغ أسامـة أن القاضي كمال الديـن بن الشهزورري أنشد نور الدين:

ملــــك بنــــي منقــــذ تــــولى
وكــــان فــــوق السماك سمكــــه

فـــــاعتبروا وانظـــــروا وقـــــولـــــوا
سبحـــــان مـــــن لا يـــــزول ملكـــــه

والمعروف ملك بني برمك فغيره المنشد لما تمثل به في غرضه فأجازهما أسامة بهذه الأبيات:

وكـــــل ملـــــك إلى زوال
لا يعتري ذا اليقين شكـــــه
إن لم يـــــزل بـــــانتقـــــال حـــــال
أزال ذا الملـــــك عنـــــه هلكـــــه
واللّـــــه رب العبـــــاد بـــــاق
وهـــــالـــــك نـــــده وشركـــــه
فقـــــل لمن يظلـــــم البرايـــــا
غـــــرك امهـــــالـــــه وتـــــركـــــه
تنســـــى ذنـــــوبـــــا عليـــــك تحصـــــى
يحصرهـــــا نقـــــده وحكمـــــه
كـــــم نـــــاســـــك نسكـــــه ريـــــاء
أو بقـــــه في المعـــــاد نسكـــــه
فـــــاحـــــذر فما يختفـــــي عليـــــه
مـــــن عنـــــده صـــــدقـــــه وافكـــــه

وما أحسن ما قال أسامة في كبره:

مـــــع الثمانين عـــــاث الضعـــــف في جلـــــدي
وســـــاءني ضعـــــف رجلي واضطـــــراب يـــــدي
إذا كتبـــــت فخطـــــي خـــــط مضطـــــرب
كخـــــط مـــــرتعـــــش الكفين مـــــرتعـــــد
فـــــاعجـــــب لضعـــــف يـــــدي عـــــن حملهـــــا قلما
مـــــن بعـــــد حطـــــم القنـــــا في لبـــــة الأســـــد
وإن مشيـــــت وفي كفـــــي العصـــــا ثقلـــــت
رجلي كـــــأني أخـــــوض الـــــوحـــــل في الجلـــــد

فقـــل لمن يتمنـــى طـــول مــــدتــــه
هـــذي عـــواقـــب طـــول العمـــر والمدد(٨٣)

فصل

في بواقي حوادث سنة اثنتين وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: تناصرت الأخبار بظهور أمير المؤمنين المقتفي على عسكر السلطان المخالف لأمره ومن انضم إليه من عسكر الموصل وغيره بحيث قتل العدد الكثير، ورحلوا عن بغداد مفرقين مفلولين خاسرين بعد المضايقة والتناهي في المحاصرة والمصابرة.

قال: ووردت الأخبار في أوائل رجب بوفاة السلطان غياث الدين أبي الحارث سنجر بن أبي الفتح بن ألب أرسلان، سلطان خراسان، عقيب خلاصه من الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي حصل فيه، وكان يحب العدل والانصاف للرعايا وحسن السيرة ، جميل الفعل، وقد علت سنة وطال عمره، وكان قد ورد كتابه في أواخر صفر من هذه السنة إلى نور الدين بالتشوق إليه والإحماد لخلاله، وما ينتهي إليه من جميل أفعاله، وإعلامه ما منّ الله عليه به من خلاصه من الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي بلي به في أيدي الأعداء الكفرة من ملوك التركمان، ، بحيلة دبرها وسياسة أحكمها وقررها، بحيث عاد إلى منصبه من السلطنة المشهورة واجتماع العساكر المتفرقة عنه إليه.

قال: وفيها في شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الشيخ مخلص الدين أبى البركات عبد القاهر بن أبي جرادة الحلبي، وهو الأمين على خزائن مال نور الدين، وكان كاتبا بليغا حسن البلاغة نظما ونثرا مستحسن الفنون من التذهيب البديع وحسن الخط المحرر على الأصول القديمة المستظرفة، مع صفاء الذهن، وتوقد الفطنة والذكاء.

قال: وفي رابع عشر شوال ورد الخبر من ناحية بصرى بأن واليها فخر الدين سرخاك قتل غيلة بموافقة من أعيان خاصته، وكان فيه إفراط في التحرز واستعمال التيقظ، ولكن القضاء لايغالب ولايدافع.

قال: وفيها في أوائل ذي القعدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الأمير الملقب بصلاح الدين، وكان في أيام شبيبته قد حظي في خدمة عماد الدين زنكي وتقدم عنده بالمناصحة وسداد التدبير، وحسن السفارة، وصواب الرأي، ولما علت سنة ضعف عن ركوب الخيل وألجأته الضرورة إلى الحمل في المحفة لتقرير الأحوال، والنظر في الأعمال ولم ينقص من حسه وفهمه ما ينكر عليه إلى حين وفاته، وخلفه من بعده أولاده في منصبه وولايته.

قال: وورد إلى دمشق إمام من أئمة فقهاء بلخ في عنفوان شبابه وغضارة عوده، ما رأيت أفصح من لسانه ببلاغتيه العربية والفارسية، والإسراع في جوابه ببراعته، ولا أطيش منه قلما في كتابته أبو الحياة محمد ابن أبي القاسم بن عمر السلمي،ووعظ في جامع دمشق عدة أيام والناس يستحسنون وعظه ويستظرفون فنه وسلاطة لسانه وسرعة جوابه، وحدة خاطره، وصفاء حسه.

قال ابن الأثير: وفيها في ذي الحجة توفي الأمير عز الدين أبي بكر الدبيسي، صاحب جزيرة ابن عمر، وكان من أكابر الأمراء يأخذ نفسه مأخذ الملوك، وكان عاقلا حازما ذا رأي وكيد ومكر، وملك الجزيرة قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل أخو نور الدين.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

قال الرئيس أبو يعلى: في أوائل المحرم تناصرت الأخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشام، خذلهم اللّه تعالى بمضايقتهم لحصن حارم، ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق إلى أن ضعف، وملك بالسيف، وتزايد طمعهم في شن الغارات في الأعمال الشامية، وإطلاق الأيدي في العيث والفساد في معاقلها وضياعها، بحكم تفرق العساكر الاسلامية، والخلف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقابيل المرض العارض له، وللّه المشيئة التي لاتدافع، والأقضية التي لاتمانع.

قال: وفي صفر ورد الخبر والمبشر بنزول نور الدين من حلب للتوجه إلى دمشق ، واتفق للكفرة الملاعين تواتر الطمع في شن الغارات على أعمال حوران والاقليم، وإطلاق أيدي الفساد والعيث والإحراق والاخراب في الضياع، والنهب والسبي والأسر، وقصدوا داريا للنزول عليها في انسلاخ صفر، واحراق منازلها وجوامعها والتناهي في إخرابها ، وظهر إليهم العسكرية والأحداث، وهموا بقصدهم والاسراع إلى لقائهم وكفهم، فمنعوا من ذلك بعد أن قربوا منهم، وحين شاهد الكفار، خذلهم اللّه تعالى كثرة العدد الظاهر إليهم رحلوا في آخر النهار المذكور إلى ناحية الاقليم، ووصل نور الدين إلى دمشق، وحصل في قلعته سادس ربيع الأول سالماً في نفسه وجملته، ولقي بأحسن زي وترتيب وتجمل، واستبشر العالم بمقدمه المسعود وابتهجوا وبالغوا في شكر اللّه تعالى على سلامته وعافيته والدعاء له بدوام أيامه، وشرع في تدبير أمر الأجناد والتأهب للجهاد.

قال: وفي أوائل ربيع الأوّل ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها إلى غزة وعسقلان وأغاروا على أعمالها، وخرج إليهم من كان بها من الفرنج الملاعين، فأظهر اللّه تعالى المسلمين عليهم قتلا وأسراً

بحيث لم يفلت منهم إلاّ اليسير، وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين، وقيل إن مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب المشركين وهي مشحونة بالفرنج، فقتل وأسر منهم العدد الكثير، وحاز من أموالهم وعددهم وأثاثهم ما لايكاد يحصى، وعاد ظافرا غانما.

قلت : وأرسل إلى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ من مصر وزيرها الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك قصيدة، يشرح فيها حال هذه الغزاة، ويحرض فيها نور الدين على قتال المشركين، ويذكره بما منّ اللّه تعالى عليه به من العافية والسلامة من تلك المرضة المقدم ذكرها، وكان كثيرا ما يكاتبه طالباً منه إعلام نور الدين بالغزاة لحثه عليها وأول هذه القصيدة:

ألا هكذا في اللّه تمضي العزائم ... وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم

وتستنزل الأعداء من طول عزهم ... وليس سوى سمر الرماح سلالم

وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها ... ويوطى حماها والأنوف رواغم

ويوفي الكرام الناذرون بنذرهم ... وإن بذلت فيها النفوس الكرائم

نذرنا مسير الجيش في صفر فما ... مضى نصفه حتى انثنى وهو غانم

بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا ... مفاوز وخد العيس فيهن دائم

فما هاله بعد الديار ولا ثنى ... عزيمته جهد الظما والسمائم

يهجر والعصفور في قعر وكره ... ويسري إلى الأعداء والليل نائم

يبـــاري خيـــولا مـــا تـــزال كـــأنها
إذا مـــا هـــي انقضـت نســور قشـاعـم
يسير بها ضرغـــام في كـــل مـــارق
ومـــا يصحـب الضرغـــام إلاّ الضراغـــم
ورفقتـــه عين الـــزمـــان وحـــاتـــم
ويحيـــى وإن لاقـــى المنيـــة حـــاتـــم
وواجههـــم جمع الفـــرنـــج بجملـــة
تهون على الشجعـــان فيهـــا الهزائم
فلقـــوهـــم زرق الأسنـــة وانطـــووا
عليهـم فلـم يـرجـع مـن الكفـر نـاجـم
ومـــا زالـــت الحرب العـــوان أشـدّهـــا
إذا مـــا تـــلاقـــى العسكـــر المتضـــاجـم
يشبههـــم مـــن لاح جمعهـــم لـــه
بلجـــة بحـــر مـــوجهـــا متـــلاطـــم
وعـــادوا إلى ســـل السيـــوف فقطعـــت
رؤوس وحـــزت للفـــرنـــج غـــلاصـــم
فلـــم ينـــج منهـــم يـــوم ذاك مخبر
ولا قيـــل هـــذا وحـــده اليـــوم ســـالم
نقتلهـــم بـــالـــرأي طـــورا وتـــارة
تـــدوسهـــم منـــا المذاكـــي الصـــلادم
فقـــولـــوا النـــور الـــديـــن لا فـــل حـــدّه
ولا حكمـــت فيـــه الليـــالي الغـــواشـــم
تجهـــز إلى أرض العـــدوّ ولا تهن
وتظهـــر فتـــورا ان مضـــت منـــك حـــازم
فما مثلهـــا تبـــدي احتفـــا الأبـــه ولا
يعـــض عليهـــا للملـــوك الابـــاهـــم
فعنـــدك مـــن ألطـــاف ربـــك مـــا بـــه
علمنـــا يقينـــا أنـــه بـــك راحـــم

أعـــادك حيـــا بعـــد أن زعـــم الـــورى
بـــأنــك قـــد لاقيـت مـــا اللّـــه حـاتـــم
بـــوقـت أصـــاب الارض مـــا قـــد أصـــابها
وحلـــت بها تلـــك الـــدواهـــي العظـــائم
وخيـــم جيـــش الكفـــر في أرض شيـــزر
فسيقـــت سبـــايـــا واستحلـــت محارم
وقـــد كـــان تـــاريـــخ الشـــام وهلكـــه
ومـــن يحتـــويـــه أنـــه لـــك عـــادم
فقـــم واشكـــر اللّـــه الكـــريـــم بنهضـــه
إليهـــم فشكـــر اللّـــه للخلـــق لازم
فنحـــن على مـــا قـــد عهـــدت نـــروعهـــم
ونحلـــف جهـــدا أننـــا لا نســـالم
وغـــاراتنـــا اليســـت تفتر عنهـــم
وليـــس ينجـــي القـــوم منـــا الهزائم
فـــاسطـــولنـــا أضعـــاف مـــا كـــان ســـائرا
إليهـــم فـــلا حصـــن لهم منـــه عـــاصـــم
ونـــرجـــو بـــأن يجتـــاح بـــاقيهـــم بـــه
ونحوى الأســـارى منهـــم والغنـــائم

وكتب إليه أيضا:

يـــاسيـــدا يسمـــو بهمـــ
ـــته إلى الـــرتـــب العليـــه
فينـــال منهـــا حين يحر
م غيره أوفى مـــزيـــه
أنـــت الصـــديـــق وإن بعـــد
ت وصـــاحـــب الشيـــم الـــرضيـــه
ننبيـــك إن جيـــوشنـــا
فعلـــت فعـــال الجاهليـــة

ســــــــارت إلى الأعـــــــــداء مـــــــن
أبطـــــالها مـــــــائتـــــا سريـــــه
فتغير هـــــــــــذي بكـــــــــرة
وتعــــــاود الأخــــــرى عشيــــــه
فـــــالـــــويـــــل منهـــــا للفــــرنــــ
ـــــج فقـــــد لقــــوا جهـــــد البليـــــة
جـــــــاءت رؤوسهـــــــم تلـــــــو
ح على رؤوس السمهـــــــريـــــــة
وقـــــلائع قـــــد قسمـــــت
بين الجنـــــود على الســـــويـــــه
وخـــــلائق كثرت مـــــن الـــــ
ـــــلأسرى تقـــــاد إلى المنيـــــة
فـــــانهض فقـــــد أنبيـــــت مجـ
ـــــد الـــــديـــــن بـــــالحال الجليـــــه
وألم بنـــــور الـــــديـــــن واعـــــ
ـــــلمه بهاتيـــــك القضيـــــة
فهـــــو الـــــذي مـــــازال تخـ
ـــــلص منـــــه أفعـــــالا ونيـــــه
ويبيـــــد جمع الكفـــــر بـــــالــ
ـــــبيض الـــــرقـــــاق المشرفيـــــه
فعســـــاه ينهـــــض نهضـــــة
يفنـــــي بها تلـــــك البقيـــــة
إمـــــا النصرة دينـــــه
أو ملكـــــه أو للحميـــــه

وكتب إليه أيضا يقول:

أيها المنقـــــذي أنـــــت على البعـــــ
ـــــد صـــــديـــــق لنـــــا ونعـــــم الصـــــديـــــق



ليـــس فيها تـــأتيـــه مــــن بــــر أفعــــا
لـــك للطـــالـــب الحقـــوق عقـــوق

فلهـــذا نـــرى مـــواصلـــة الكتـــ
ـــب تبـــاعـــا إليـــك ممـــا يليـــق

ونـنـــاجيـــك بـــا لمهمات إذ أنـــ
ـــت بـــالقـــائهـــا إليـــك خليـــق

وأهـــم المهـــم أمـــر جهـــاد الـــ
ـــكفر فـــا سمع فعنـــدنـــا التحقيـــق

واصلتهـــم منـــا السرايـــا فـــأشجـــا
هـــم بكـــور منـــا لهم وطـــروق

وأبـــاحـــت ديـــارهـــم فـــأبـــاد الـــ
ـــقوم قتـــل مـــلازم وحـــريـــق

وانتظـــرنـــا بـــزحفنـــا بـــرء نـــور الـــديـــ
ـــن علما منـــا بـــأن سيفيـــق

وهـــو الآن في أمـــان مـــن اللّـــ
ـــه ومـــا يعتريـــه أمـــر يعـــوق

مـــا لهذا المهـــم مثلـــك مجد الـــديـــ
ـــن فـــانهض بـــه فـــأنـــت حقيـــق

قـــل لـــه لاعـــداه رأي ولا زا
ل لـــديـــه لكـــل خير طـــريـــق

أنـــت في حســـم داء طـــاغيـــة الكـــ
ـــفار ذاك المرجـــوّ والمرمـــوق

فـــاغتنـــم بـــالجهـــاد أجـــرك كـــي يلـــ
ـــقى رفيقـــاً الـــه ونعـــم الـــرفيـــق

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يـــا أمير الجيـــوش مـــازال لـــلاســـ
ـــلام والـــديـــن منـــك ركـــن وثيـــق

أسمعـــت دعـــوة الجهـــاد فلبـــا
هـــا مليـــك بـــا لمكـــرمـــات خليـــق

ملـــك عـــادل أنـــار بـــه الـــديـــ
ـــن فعـــم الاســـلام منـــه الشروق
مـــالـــه عـــن جهـــاده الكفـــر والعـــد
ل وفعـــل الخيرات شغـــل يعـــوق
هـــو مثـــل الحســـام صـــدر صقيـــل
لين مســـه وحـــدزليـــق
ذو أنـــاة يخالها الغـــراهما
لا وفيهـــا حتـــف الأعـــادي المحيـــق
فـــاسلها الـــلاســـلام كهفين مـــاطـــ
ـــرز ثـــوب الظـــلام بـــرق خفـــوق (٨٤)

وكتب إليه أيضا:

قـــل لابـــن منقـــذ الـــذي
قـــد حـــاز في الفضـــل الكمالا
فلـــذاك قـــد أضحـــى الأنـــا
م على مكـــارمـــه عيـــالا
كـــم قـــد بعثنـــا نحـــوك الـــ
ـــلأشعار مسرعـــة عجـــالا
وصـــددت عنهـــا حين را
مـــت مـــن محاسنـــك الـــوصـــالا
هـــلا بـــذلـــت لنـــا مقـــا
لا حين لم تبـــذل فعـــالا
مـــع أننـــا نـــوليـــك صبـــ
ـــرا في المودّة واحتمالا
ونبثـــك الأخبـــار إن
أضحـــت قصـــارا أو طـــوالا
ســـارت سرايـــانـــا القصـــ
ـــد الشـــام تعتســـف الـــرمـــالا
تـــزجـــي إلى الأعـــداء جـــر
د الخيـــل اتبـــاعـــاتـــوالا

تمضي خفـــــــافـــــــا للمغـــــــا
ر بها وتـــــأتينـــــا ثقـــــالا
حتـــــى لقـــــد رام الأعـــــا
دي مـــــن ديـــــارهـــــم ارتحالا
وعلى الـــــــــــــوعيرة معشر
لم يعهـــــدوا فيهـــــا القتـــــالا
لما نـــــأت عمـــــن يحـ
ـــــف بها يمينـــــا أو شمالا
نهضـــــت إليهـــــا خيلنـــــا
مـــــن مصر تحتمـــــل الـــــرجـــــالا
والبيـــــض لامعـــــة وبيـــــ
ـــــض الهنـــــد والأســـــل النهـــــالا
فغـــــدت كـــــأن لم يعهـــــدوا
في أرضهـــــا حيـــــا حـــــلالا
هـــــذا وفي تـــــل العجـــــو
ل مـــــلأن بـــــالقتلى التـــــلالا
إذ مـــــر مـــــري ليـــــس يلـــــ
ـــــوي نحـــــور رفقتـــــه اشتغـــــالا
واستـــــاق عسكـــــرنـــــا لـــــه
أهـــــلا يحبهـــــم ومـــــالا
وسريـــــة ابـــــن فـــــرنـــــج الطـــــا
ئي طـــــال بهم وصـــــالا
ســـــارت إلى أرض الخليـــــ
ـــــل فلـــــم تـــــدع فيهـــــا خـــــلالا
فلـــــو أن نـــــور الـــــديـــــن يجـ
ـــــعل فعلنـــــا فيهـــــم مثـــــالا
ويسير الاجنـــــاد جهـــــ
ـــــراً كـــــي ينـــــازلهم نـــــزالا
ووفى لنـــــا ولأهـــــل دولـــــ
ـــــته بما قـــــد كـــــان قـــــالا

لرأيت للافرنج طـ
ـراً في معاقلها اعتقالا
وتجهزوا للسير نحـ
ـو الغرب أو قصدوا الشمالا
وإذا أبى الا اطرا
حاً للنصيحة واعتزالا
عدنا بتسليم الأمو
ر لحكم خالقنا تعالى

فأجابه ابن منقذ بقصيدة منها:

يا أشرف الوزراء أخـ
ـلاقا وأكرمهم فعالا
نبهت عبدا طالما
نبهته قدرا وحالا
وعتبته فانلته
فخرا ومجدا الن ينالا
لكن ذاك العتب يشـ
ـعل في جوانبه اشتعالا
أسفا لجد حال عنـ
ـه إلى مساءته ومالا
أما السرايا حين تر
جع بعد خفتها ثقالا
فكذاك عادوفود با
بك مثقلين ثنا ومالا
ومسيرها في كل أر
ض تبتغي فيها المجالا
فكذاك فضلك مثل عد
لك في الدنا سارا وجالا
فاسلم لنا حتى نرى
لك في بني الدنيا مثالا

واشـــدديـــديـــك بـــودنـــو
رالـــديـــن والـــق بـــه الـــرجـــالا

فهـــو المحـــامـــي عـــن بـــلا
دالشـــام جمعـــا أن يـــذالا

ومبيد املاك الفرنـ
ـــج وجمعهـــم حـــالا فحـــالا

ملـــك يتيـــه الـــدهـــر والـــدنـــ
ـــيا بـــدولتـــه اختيـــالا

جمع الخلال الصـــــالحا
ت فلـــم يـــدع منهـــا خـــلالا

فـــإذا بـــدا للنـــاظـــريـــ
ـــن رأت عيـــونهم الكمالا

فبقيتها للمسلمـــ
ـــين حما وللـــدنيـــا جمالا (٨٥)

وكتب إليه الصالح من قصيدة تقدّم ذكرها في الزلازل:

ولعمـــري إن المنـــاصـــح في الـــديـــ
ـــن على اللّـــه أجـــره محســـوب

وجهـــاد العـــدّو بـــالفعـــل والقـــو
ل على كـــل مسلـــم مكتـــوب .

ولـــك الـــرتبـــة العليـــة في الامـــ
ـــرين مـــذ كنـــت إذ تشـــب الحروب

أنـــت فيهـــا الشجـــاع مـــالـــك في الطعـــ
ـــن ولا في الضراب يـــومـــا ضريـــب

وإذا مـــا قـــرضـــت فـــالشـــاعـــر المفـــ
ـــلق فيما يقـــولـــه والخطيـــب

وإذا مـــا أشرت فـــالحزم لا ينـــ
ـــكر إن التـــدبير منـــك مصيـــب

لـــــك رأي بقظـــان إن ضعـــف الــــرأ
ي على حـــاملي الصليـــب صليــــب
فــــانهض الآن مسرعــــا فبــــأمثــــا
لــــك مــــازال يـــــدرك المطلـــوب
ألــق منــا رســالــة عنــد نــور الــديـــ
ـــن مــا في القــائهــا مــا يــريــب
قــــل لـــــه دام ملكـــــه وعليـــــه
مــن لبــاس الاقبــال بــرد قشيــب
أيها العـــادل الـــذي هـــو للـــديـــ
ـــن شبـــاب وللحــروب شبيـــب
والـــذي لم يــزل قـــديما عـــن الاســـ
ـــلام بــالعـــزم منـــه تجلى الكــروب
وغــــدا منـــه للفـــرنـــج إذا لا
قـــوه يـــوم مـــن الـــزمـــان عصيــب
إن يــرم نـــزف حقـــدهـــم فــلا شطـــا
ن قنـــاه في كـــل قلــــب قليـــب
غيرنـــا مـــن يقـــول مـــا ليـــس يمضيـــ
ـــه بفعـــل وغيرك المكـــذوب
قـــد كتبنـــا إليـــك مـــا وضـــح الآ
ن بيا ذا عــــن الكتـــاب تجيـــب
قصـــدنـــا أن يكـــون منـــا ومنكـــم
أجــــل في مسيرنــــا مضروب
فلـــدينـــا مـــن العســـاكـــر مـــا ضـــا
ق بـــأدنـــاهـــم الفضـــاء الــرحيـــب
وعلينــــا أن يستهـــل على الشـــا
م مكـــان الغيـــوث مـــال صبيـــب
أوتـــراهـــا مثـــل العـــروس ثـــراهـــا
كلـــه مـــن دم العـــدا مخضـــوب

لطنين السيــــوف في فلـــق الصبـــ
ـــح على هـــام أهلهــــا تطـــريـــب
ولجمـــع الحشـــود مـــن كـــل حصـــن
سلــــب مهمــــــل لهم ونهوب
وبحـــول الالـــه ذاك ومـــن غـــا
لـــب ربي فـــانــــه مغلـــوب

وكتب إليه أيضا:

أيها الســائر المجــدّ إلى الشـــا
م تبـــاري ركـــابـــه والخيـــول
خـــذ على بلـــدة بها دار مجد الـــديـــ
ـــن لاريـــع ربعهـــا المأهـــول
وتعـــرف أخبـــاره واقـــرة منـــ
ـــا ســلامــا فيـــه العتـــاب يجول
قـل لـه أنـت نعـم ذخـر الصـديـق الـ
ـيوم لكنـك الصـديـق الملـول
مـا ظننـا بـأن حـالـك في القـر
ب ولا البعـــد بـــا الملال يحول
لا كتـاب ولا جـواب ولا قـو
ل بـــه لليقين منـــه حصـــول
غير أنـا نـواصـل الكتـب إذ قصـ
ـر منـك البر الكـريـم الـوصـول
ذاكـريـن الفتـح الـذي فتـح اللّـ
ـه علينـا فـالفضـل منـه جميـل
جـاءنـا بعـد مـا ذكـرنـاه في كتـ
ـب أتـاكـم بهن منـا رسـول
أن بعـض الاسطـول نـال مـن الأفـ
ـرنج مـا لا ينـالـه التـأميـل

سـار في قلـة ومـا زال بـاللّـ
ـه وصدق النيات تنمي القليل
ويقايا الاسطول ليس لـه بعـ
ـد إلى جانب الشآم وصول
فحوى من عكا وانطرسوس
عـدّة لم يحط بها التحصيل
جمع ديوية بهم كانت الافـ
ـرنج تسطو على الورى وتصول
قيد في وسطهم مقدّمهم يهـ
ـدى إلينا وجيده مغلول
بعد مثوى جماعة هلكوا بالـ
ـسيف منها الغريق والمغلول
هذه نعمة الالـه وتعديـ
ـد أيادي الالـه شيء يطول
أبلغن قولنا إلى الملك العـا
دل فهو المرجوّ والمأمول
قل لـه كم تماطل الدين في الكفـ
ـار فاحذر أن يغضب المطول
سر إلى القدس واحتسب ذاك في اللّـ
ـه فبالسير منك يشفى الغليل
وإذا ما أبطا مسيرك فاللّـ
ـه إذا حسبنا ونعم الوكيل

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يا أمير الجيوش يا أعدل الحـ
ـكام في فعله وفيما يقول
أنت حليت بالمكارم أهل الـ
ـعصر حتى تعرف المجهول

وقسمت الفرنج بالغزو شطريـ
ـن فهذا عان وهذا قتيل
بالغ العبد في النيابة والتحـ
ـريض وهو المفوّه المقبول
فرأى من عزيمة الغزو ما كا
دت له الأرض والجبال تميل
. وإذا عاقت المقادير فالله
ـه إذا حسبنا ونعم الوكيل(٨٦)

وكتب الصالح إليه جوابا قصيدته الطائية التي أوّلها:

هي البدر لكن الثريا لها قرط
ومن أنجم الجوزاء في نحرها سمط

ثم قال بعد وصف السيوف:

ذخرنا سطاها للفرنج لأنها
بهم دون أهل الأرض أجدر أن تسطو
وقد كاتبوا في الصلح لكن جوابهم
بحضرتنا ما ينبب الخط الا الخط
سطور خيول لا تغب ديارهم
لها بالمواضي والقنا الشكل والنقط
إذا أرسلت فرعا من النقع فاحما
أثيثا فأسنان الرماح لها مشط
رددنا به ابن الفنش عنا وإنما
يثبته في سرجه الشد والربط
فقولوا النور الدين ليس لجائف الـ
ـجراحات إلا الكي في الطب والبط(٨٧)
وحسم أصول الداء أولى بعاقل
لبيب إذا استولى على المدنف الخلط
فدع عنك ميلا للفرنج وهدنة
بها أبدا يحظى سواهم ولم يحظوا

تـــأمـــل فكـــم شرط شرطـــت عليهــــم
قـــديما وكـــم غـــدر بـــه نقـــض الشرط
وشمـــر فـــانـــا اقـــداعنـــا بكـــل مـــا
ســألـت وجهــزنـا الجيــوش ولـن يبطــو(٨٨)

قال العماد في كتاب الخريدة: الصالح أبـو الغارات طلائع بن رزيك سلطان مصر في زمـان الفائز، وأوّل زمـان العاضـد، ملك مصر، واستـولى على أمر صـاحب القصر، ونفـق في زمانه النظـم والنثر، وقـرب الفضلاء، واتخذهم جلسـاء، ورحل إليـه ذوو الرجـاء، وأفاض على الـداني والقاصي العطاء، وله قصـائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشـام يذكر فيها قيـامه بنصر الاسلام، ومـا يصدق أحـد أن ذلك شعـره لجودته، وإحكـام معاني حكمته، وأقسام معاني بلاغته، فيقال إن المهـذب ابن الزبير كان ينظم له وأن الجليس بـن الحباب كان يعينـه، وله ديـوان كبير وإحسان كثير، ولما جلس في دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة:

انظـــــــر إلى ذي الـــــــدار كــــــم
قـــد حـــل ســـاحتهـــا وزيـــر
ولكـــــم تبختر آمنـــــا
وســــــــط الصفـــــــوف بها أمير
ذهبـــوا فـــلا واللّـــــه مـــا
يبقـــــــــــــى الصغير ولا الكبير
ولمثـــــل مـــــا صـــــاروا إليـــــ
ــــه مـــن الفنـــاء غـــداً نصير (٨٩)

فصل

قال أبو يعلى: ورد الخبر في خامس عشر ربيـع الأوّل من ناحية حلب بحـدوث زلزلـة هائلـة روّعت أهلهـا وأزعجتهم، وزعـزعت مـواضع مـن

مساكنها، ثم سكنت بقدرة محركها سبحانه وتعالى، وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الأوّل وافت زلزلة في دمشق روعت واقلقت ثم سكنت.

وفي التاسع من ربيع الآخر برز نور الدين من دمشق إلى جسر الخشب في العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفر، وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جمعه من فرسان التركمان، أغار بهم على أعمال صيدا وما قرب منها، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها، وخرج إليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها، وقد كمنوا لهم، فغنموهم، وقتل أكثرهم، وأسر الباقون، وفيهم ولد المقدّم المتولي حصن حارم، وعادوا سالمين بالأسرى ورؤوس القتلى والغنيمة، ولم يصب منهم غير فارس واحد.

قال: وفي أوائل شهر تموز الموافق لأوّل جمادى الآخرة من السنة وافى البقاع مطر هطال بحيث حدث منه سيل أحمر، كما جرت به العادة في تنبوك الشتاء، ووصل إلى بردى، ووصل إلى دمشق، وكثر التعجب من أثار قدرة اللّه تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت.

قال: وفي الليلة الثالثة والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة، ثم أخرى في الليلة بعدها وقت صلاة الغداة ، وورد الخبر من العسكر المنصور بأن الفرنج تجمعوا وزحفوا إلى العسكر، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر والتقى الجمعان، واتفق أن عسكر الاسلام حصل فيه فشل لبعض المقدمين فاندفعوا وتفرقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتا في مكانه في عدّة يسيرة من شجعان غلمانه وأبطال خواصه في وجوه الفرنج، وأطلقوا فيهم السهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولوا منهزمين خوفا من كمين يظهر عليهم من عسكر الاسلام، ونجى اللّه وله الحمد نور الدين من بأسهم بمعونة اللّه تعالى،

وشدّة بـأسه وثبـات جاشه ومشهـور شجاعتـه، وعاد إلى مخيمـه سالماً في جماعته، ولام مـن كان السبب في انـدفاعـه بين يدى الفرنـج، وتفرق جمع الفـرنـج إلى أعمالهم، وراسـل ملكهـم لنـــور الـديـن في طلـب الصلـح والمهادنة، وحـرص على ذلك، وتردّدت بين الفريقين مـراسلات ولم يستقر بينهما حال، وعاد نور الدين إلى دمشق سالما.

قلت: وذكـر أبو الفتح بحـر بن أبـى الحسن بن بحـر الاشتري المعيد كان بالمدرسـة النظامية في سيرة مختصرة جمعها لنور الديـن وقد تقدّم شيء منها رحمهما اللّه قـال: وبلغنا أن نور الدين خرج إلى الجهـاد في سنة ست وخمسين وخمسمائة، فقضـى اللّـه بـانهزام عسكـر المسلمين وبقـي الملـك العادل مع شرذمـة قليلة وطائفة يسيرة واقفـا على تل يقال له تل حبيش، وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجالة المسلمين مع رجالة الكفار، فـوقف الملـك العادل بحـذائهم مـولياً وجهـه إلى قبلة الـدعاء، حـاضراً بجميع قلبه مناجيـاً ربه يقول: يارب العباد، أنا العبـد الضعيف ملكتني هـذه الولايـة، واعطيتني هـذه النيابـة، وعمرت بـلادك ونصحت عبـادك وأمـرتهم بما أمرتنـي به، ونهيتهـم عما نهيتني عنـه، فرفعـت المنكرات مـن بينهم، وأظهرت شعار دينك في بلادهـم، وقد إنهزم المسلمون وأنا لاأقدر على دفع هـؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيـك محمد صلى اللّه عليـه وسلم، ولا أملـك إلاّ نفسي هـذه وقـد سلمتهـا إليهم ذابـا عـن دينـك ونـاصراً لنبيـك، فاستجـاب الله دعـاءه وأوقع في قلـوبهم الرعـب وأرسل عليهـم الخذلان، فوقفوا مواضعهم ومـا جسروا على الاقدام عليه، وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكـر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكـر المسلين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد فـوقفوا وما قدموا عليه.

قال: ولولا أن ذلك إلهام من الله تعـالى لكانوا قد استأسروا المسلمين، وما كـان ينفلت واحـد من المسلمين، فـوقف عسكـر الكفار وبـرز اثنان

منهم يجولان بين الصفين يطلبان البراز من المسلمين، فأمر الملك العادل لخطلخ الزاهد مولى الشهيد بالخروج إليهما فخرج وجال بينهما ساعة وعمل حيلة وخدعة ورجع إلى قريب صف الكفار، وحمل على الآخر فقتله، ورجع إلى الصف.

قال: وحدثنا الشيخ داود المقدسي خادم قبر شعيب على نبينا وعليه السلام قال: كان أعطاني ملك القدس بغلة كنت راكبا عليها، يعني في ذلك اليوم واقفا مع الملك العادل، فلما وصل الكفار، وقربوا منا شمت البغلة رائحة خيل الكفار فصهلت تطلب خيلهم، فسمعوا صهيل بغلتي فقالوا: هذا داود راكب على البغلة مع نور الدين واقف، ولولا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشرذمة القليلة والطائفة اليسيرة، فتحقق ذلك في قلوبهم فوقفوا وما جسروا على الإقدام عليه.

قال فترجل كل من كان مع الملك العادل وتشفعوا إليه وباسوا الأرض بين يديه وقالوا: أيها الملك أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع، وفي هذا الاقليم فإن جرى والعياذ بالله وهن وضعف من استيلاء الكفار على المسلمين فمن الذي يقدر على تداركه؟ قال: وحلف هذ الشيخ داود أنهم أخذوا بعنان فرسه كرها ورحلوا من ذلك الموضع، وما كان في عزم الملك العادل أن يرحل من ذلك الموضع، فلما عرف الكفار ذلك وأنه ما كان عليهم حيلة ولا كمين ندموا على ذلك ندامة عظيمة ، قال: وكان قبل هذه الوقعة بسنة كسر الملك العادل الكفار وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم خلقا كثيراً، على ما حكي عن صلاح الدين صاحب حمص أنه قال: قد جاز التركمان علينا، فحصل في الجريدة ألف أسير مع التركمان، هذا ما جاز على بلد حمص وحده، وكان قد انفلت ملك القدس، ودخل إلى قلعته فلما جن عليه الليل خرج من القلعة ومضى.

فصل

قال أبـو يعلى: وفي رجب تجمـع قوم من السفهـاء العوام وعـزموا على التحريـض لنور الدين على إعـادة ما كان أبطـل وسامح به أهـل دمشق من رسـوم دار البطيخ، وعرصـة البقل والأنهار، وصانهم مـن اعنات شرار الضمان، وحـوالة الاجنـاد، وكرروا لسخـف عقولهم الخطـاب، وضمنـوا القيام بعشرة آلاف دينـار بيض، وكتبـوا بذلك حتـى أجيبوا إلى مـا راموا، وشرعوا في فرضها على أرباب الأملاك مـن المقدمين والأعيان والرعايا، فما اهتـدوا إلى صواب ولا نجـح لهم قصد في خطـاب ولا جواب، وعسفـوا الناس بجهلهم بحيـث تألموا وأكثروا الضجيج والاستغاثة إلى نـور الدين، فصرف همه إلى النظر في هذا الأمـر، فنتجت له السعادة وإيثـار العدل في الرعيـة لاعادة على مـا كان عليـه،فأمر في عـاشر رمضان بـاعادة الـرسوم المعتادة إلى مـا كانت عليـه من إمـاتتها، وتعفية أثـر ضمانها، وأضاف إلى ذلك تبرعاً مـن نفسه إبطال ضمان الهريسة والجبن واللبـن ، ورسم بكتب منشور يقـرأ على كافة الناس بـإبطال هذه الـرسوم جميعها وتعفية ذكـرها، فبالغ العالم عند ذلك في مواصلة الأدعية والثناء عليه والنشرلمحاسنة .

قـال: وفي الحادي والعشريـن مـن رمضـان وصـل الحاجـب محمـود المسترشدي مـن ناحية مصر بجواب مـا تحمله من المراسلات مـن الملك الصالح متولي أمـرها، ومعه رسول من مقدمي أمـرائها ، ومعه المال المنفذ برسـم الخزانة النوريـة، وأنواع الثياب المصرية، والجيـاد العربية، وكـانت فرقـة من الفرنج خـذلهم الله قد ضربـوا لهم في المعابر ، فأظفـر الله بهم فلم يفلـت منهم إلاّ القليل النزر، ثـم تلا ذلك ورود الخبر مـن العسكر المصري بظفرة بجملـة وافرة من الفرنـج تناهز أربعمائة فارس وتـزيد على ذلك في نـاحية العريـش من الكفـار بحيث استولى عليهـم القتل والأسر والسلب.

قال: وقد كانت الاخبار تناصرت من ناحية القسطنطينية في ذي الحجة ببروز ملك الروم منها في العدد الكثير لقصد الأعمال والمعاقل الاسلامية، ووصوله إلى مروج الديباج وتخييمه فيها، وبث سراياه للأغارة على أعمال أنطاكية وما والاها، وأن قوما من التركمان ظفروا بجماعة منهم، هذا بعد أن أفتتح من أعمال لاوين ملك الأرمن عدّة من حصونه ومعاقله، ولما عرف نور الدين هذا شرع في مكاتبة الولاة بالأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم، وبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم.

قال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد بن السلطان محمود فحصر بغداد، وبها الخليفة المقتفي لأمر اللّه ، ومعه وزيره عون الدين بن هبيرة، فكاتب أصحاب الأطراف فتحركوا ووصل الخبر إلى الملك محمد بأن أخاه ملك شاه قصد همذان ودخلها في عسكر كبير ونهب، وأخذ نساء الأمراء الذين معه واولادهم، فاختلط العسكر وتفرقوا.وعاد محمد نحو همذان وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر المنقطعين، وشعثوا دار السلطان.

قلت: وفي هذه السنة توفي أبو الوقت عبد الأوّل المحدّث المنفرد بعلو رواية كتاب الجامع الصحيح للبخاري، رحمه اللّه تعالى.

- ٧٨٣٥ -

ثم دخلت سنة أربع وخمسين

قال أبو يعلى: في أوّل يوم منها وافت زلزلة عظيمة ضحى نهاره، وتلاها ثنتان دونها، وكان قد عرض لنور الدين مرض تزايد به بحيث أضعف قوّته، ووقع الإرجاف به من حساد دولته والمفسدين من عوام رعيته، وارتاعت الرعايا وأعيان الأجناد، وضاقت صدور قطان الثغور والبلاد، خوفا عليه، وإشفاقا من سوء يصل إليه، لاسيما مع أخبار الروم والفرنج، ولما أحس من نفسه بالضعف تقدّم إلى خواص أصحابه وقال لهم: إنني قد عزمت على وصية إليكم بما وقع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين، إني مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين والظلمة الجائرين، وإن أخي نصرة الدين أعرف من أخلاقه وسوء أفعاله ما لاأرتضي معه بتوليته أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي قطب الدين مودود متولي الموصل، لما يرجع إليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقاد، فحلفوا له وانفذ رسله إلى أخيه باعلامه صورة الحال، ليكون لها مستعدا، ثم تفضل اللّه تعالى بابلاله من المرض وتزايد القوّة في النفس والحس، وجلس للدخول إليه والسلام عليه، وكان الأمير مجد الدين النائب في حلب قد رتب في الطرقات من يحفظ السالكين فيها، فظفر المقيم في منبج برجل حمال من أهل دمشق ومعه كتب، فأنفذ بها إلى مجد الدين متولي حلب، فلما وقف عليها أمر بصلب متحملها ، وأنفذها في الحال إلى نور الدين، فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبي القاسم متولي ديوانه، ومن عز الدين والي القلعة مملوكه، ومن محمد بن جفصري أحد حجابه إلى أخيه نصرة الدين أمير أميران صاحب حران بإعلامه بوقوع اليأس من أخيه، ويحضونه على المبادرة والاسراع إلى دمشق لتسلم إليه، فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على أربابها فاعترفوا بها فأمر باعتقالهم، وكان رابعهم سعد الدين عثمان، وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين، وورد في الحال كتاب صاحب قلعة جعبر يخبر بقطع نصرة

الدين الفراة مجداً إلى دمشق فانهض أسـد الدين في العسكر المنصور لردّه ومنعه مـن الوصـول، فاتصـل به خبر عوده إلى مقرّه عند معـرفته بعـافية أخيـه، فعاد أسـد الديـن إلى دمشق، ووصلـت رسل الملـك العادل مـن ناحية الموصل بجـواب ما تحملوه إلى أخيه قطب الدين، وفـارقوه وقد برز في عسكره متـوجها إلى نـاحية دمشـق، فلما فصل عـن الموصل اتصـل به خبر عافيته، فأقـام بحيث هو ، وأنفذ وزيره جمال الديـن أبا جعفر محمد ابن علي لكشف الحال، فوصل إلى دمشق يـوم السبت الثامن من صفر في أحسن زي وأبهى تجمل، وخرج إلى لقائه الخلق الكثير.

قـال: وهذ الـوزير قـد ألهمه اللّـه تعـالى من جميـل الأفعال وحميـد الخلال وكـرم النفـس، وإنفـاق أمـوالـه في أبـواب البر والصـدقـات والصـلات، ومستحسن الآثار في مـدينة الـرسول عليـه السلام، ومكـة ذات الحرم والبيت المعظـم شرفه الله تعـالى، ما قـد شاع ذكره وتضـاعف عليه حمده وشكره، واجتمـع مع نور الدين، وجرى بينهما مـن المفاوضات والتقريرات ما انتهى إلى عوده إلى جهته بعـد الاكرام له، وتوفيته حقه من الاحترام، وأصحبه بـرسم قطـب الديـن أخيه وخـواصه مـن الملاطفة مـا اقتضته الحال الحاضرة، وتوجه معه الأمير أسد الدين.

وقـال ابن أبي طـي: لما وصـل الوزيـر جمال الـديـن إلى حلب تلقـاه موكـب نور الـدين وفيـه وجوه الـدولة وكبراء المدينـة، وأنزل في دار ابـن الصوفي وأكـرم غايـة الإكرام، وأعيـد إلى صاحبه شـاكراً عـن نور الـدين وسير معه الأمير أسـد الدين شيركـوه رسولا إلى قطب الـدين بالشكـر له والثناء عليـه، وأنفذت معـه هدايـا سنية، فسـار وعاد إلى حلـب مكرمـا فوجد نور الـدين عازما على الخروج إلى دمشق لما بلغه مـن إفساد الفرنج في بلد حـوران ، فسار في صحـابته، ووصل نـور الديـن إلى دمشق فـأمر الناس بالتجهز لقتال الفرنج، ثم أنهض أسد الدين في قطعة من العسكر لـلاغارة على بلـد صيـدا ، فسـار وسار معـه أخـوه نجـم الديـن أيـوب

وأولاده، ولم يشعر الفرنج إلاّ وهو قد عـاث في بلد صيدا وقتل وأسر عالماً عظيماً، وغنم غنيمة جليلة ، وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب.

قلت: وهـذا هو ما تقـدم ذكره بعـد المرضة الأولى، وكأن ابـن أبي طي جعل المرضتين واحـدة بحلب، وأبو يعلى ذكـر أن الأولى بحلب والثـانية بدمشق، وهو أصح، والله أعلم

فصل

قال أبو يعلى: وكان قـد وصل من ملك الروم رسول مـن معسكره ومعه هدية أتحف بها الملك العادل من أثـواب ديباج وغير ذلك، وجميل خطاب وفعـال ، وقوبل بمثـل ذلـك، وحكي عـن ملـك الفرنـج خـذله اللّـه أن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقرّرت، والمهـادنة انعقدت، والله يرد بأس كل واحد منهما إلى نحره ، ويذيقه عاقبة غدره ومكره.

قـال ووردت أخبار مـن ناحـة ملك الـروم بـاعتزامـه على أنطاكيـة ، وقصد المعـاقل الاسلاميـة، فبادر نور الـدين بالتـوجه إلى البلاد الشـامية لايناس أهلها من استيحاشهم من شر الـروم والأفرنج خذلهم الله تعالى، فسار في العسكر صوب حمص وحماه وشيزر.

قال: وفي ثالث ربيع الأوّل وافت زلزلة هـائلة ما جت أربع موجات ، وأيقظت النيام، وأزعجت اليقظى، وخـاف كل ذي مسكن مضطرب على نفسه وعلى مسكنه.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى هبت ريح عاصفـة شديدة أقامت يومها وليلتها، فأتلفت أكثر الثمار صيفيهـا وشتويها، وأفسدت بعض الأشجار ، ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين أزعجت وأقلقت.

قال: وتجدّدت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم بعد تكرّر المراسلات والاقتراحات في التقريرات، وأجيب ملك الروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدّمي الأفرنج المقيمين في حبس نور الدين، فأنفذهم بأسرهم، وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاهيه،من الاتحاف بأثواب الديباج الفاخرة المختلفة الأجناس، الوافرة العدد، ومن الجوهر النفيس، وخيمة من الديباج لها قيمة وافرة، وما استحسن من الخيول الجبلية، ثم رحل عقيب ذلك في عساكره من منزله عائدا إلى بلاده مشكوراً محموداً، ولم يؤذ أحداً من المسلمين في العشر الأوسط من جمادى الأولى، فاطمانت القلوب بعد انزعاجها وقلقها.

قال: وورد بعد ذلك الخبر بأن نور الدين صنع لأخيه قطب الدين ولعسكره ولمن ورد معه من المقدّمين والولاة وأصحابهم، الواردين لجهاد الروم والأفرنج سماطاً عظيماً هائلا، تناهى فيه، وفرّق من الحصن العربية والخيول والبغال العدد الكثير، ومن الخلع من أنواع الديباج المختلفة وغيره، والتخوت الذهب الشيء الكثير الزائد على الكثرة، وكان يوماً مشهودا في الحسن والتجمل، واتفق أن جماعة من غرباء التركمان وجدوا من الناس غفلة باشتغالهم بالسماط وانتهابه، فغاروا على العرب من بني اسامة وغيرهم واستاقوا مواشيهم ، فلما ورد الخبر بذلك أنهض نور الدين في إثرهم فريقا وافرا من العسكر فأدركوهم، ثم إنهم استخلصوا منهم جميع ما أخذوه وأعيد إلى أربابه .

قال: وتقرّر الرأي النوري على التوجه إلى مدينة حران لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نصرة الدين حسبما رآه في ذلك من الصلاح، فرحل في عسكره أوّل جمادى الآخرة، فلما نزل عليها وأحاط بها وقعت المراسلات إلى أن تقرر الحال على أمان من بها، وسلمت في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وقررت أحوالها، وأحسن النظر في

أحوال أهلهـا، وسلمها لـلأمير زين الديـن على سبيل الإقطـاع ، وفوض إليه تدبير أمورها.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: في صفر توفي الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين أحد مقدمي أمراء الاكراد، وهو من ذوي الوجاهة في الدولة، موصوف بالشجاعة والبسالة والسماحة مواظب على بث الصلات والصدقات في المساكين والضعفاء والفقراء مع الزمان في كل عصر ينقضي وأوان، جميل المحيا حسن البشر في اللقاء، وحمل من داره بباب الفراديس إلى الجامع للصلاة عليه، ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه، فدفن فيها في اليوم، ولم يخل من باك عليه ومؤبن له ومتأسف على فقده لجميل أفعاله وحميد خلاله.

قلت: وله أوقاف على أبواب البرّ منها: المدرستان المنسوبتان إليه إحداهما التي دفن فيها، وهي لزيق باب الفراديس المجدّد، والأخرى قبالة باب دار سيف الغربي في صف مدرسة نور الدين رحمه الله، وله وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق وغير ذلك، وقد مدحه العرقلة وغيره.

قال أبو يعلى: وفي مستهل صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القرشي قاضي دمشق إلى الملك العادل نور الدين رقعة يسأله فيها الإعفاء من القضاء والاستبدال به، فأجاب سؤاله وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وهو المشهور بالتقدّم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام، وشروط استعمال الانصاف والعدل والنزاهة، وتجنب الهوى والظلم، واستقام له الأمر على ما يهواه ويؤثره ويرضاه على أن القضاء، من بعض أدواته، واستقرّ أن يكون النائب عنه عند اشتغاله ولده.

قلت: ولكمال الدين رحمه الله تعالى الصدقة الجارية بعده على الفقراء

كل جمعة، وإليه ينسب الشباك الكمالي بجامع دمشق من الغرب، وهو الذي حكمت فيه القضاة مدّة، ويصلون فيه الجمعة في زماننا.

وإلى هاهنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التميمي، فإنه أخر كتابه، وفي هذه السنة توفي رحمه الله.

قال ابن الأثير: وفيها توفي أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله بن المستظهر بأمر الله، ومولده سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرين، وبويع ولده أبو المظفر يوسف، ولقب بالمستنجد بالله، فأقرّ ابن هبيرة على وزارته،

قال: وفيها حج زين الدين علي، وأحسن إلى الناس في طريق مكة ، وأكثر الصدقات، فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالله ، فلما لبس الخلعة كانت طويلة وكان قصيرا جدا، فمدّ يده إلى كمرانه وأخرج ما شدّ به وسطه وقصر الجبة، فنظر المستنجد بالله إليه واستحسن ذلك منه، وقال لمن عنده: مثل هذا يكون الامير والجندي لامثلكم.

قلت: وفيها توفي المستخلف بمصر الملقب بالفائز بن الظافر بن الحافظ، وولي بعده ابن عمه العاضد بن يوسف بن الحافظ، وهو آخر خلفاء مصر، ووصل من الصالح بن رزيك كتاب إلى ابن منقذ أسامة بذلك، فكتب إليه.

هناء عن نعمى قل عن قدرها الشكر
وصبراً لرزء لا يقوم به الصبر
مضى الفائز الطهر الامام وقام بالـ
ـلإمامة فينا بعده العاضد الطهر
امام هدى للّه في نقل ذا إلى
كرامته وفي إقامة ذا سر

- ٧٨٤٢ -

فعـــش أبـــدا واسلـــم لهم يـــا كفيلهـــم
تـــدافـــع عنهـــم كـــل حـــادثـــة تعـــرو (٩٠)

-٧٨٤٣-

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

قال ابن أبي طي: في هذه السنة حج أسد الدين من الشام ، وخرج في تجمل عظيم وشارة رائعة واستصحب معه من الأزواد والكسى أشياء عظيمة ، ويقال إنه كان معه ألف نفس يجري عليهم الطعام والشراب، وحج على كوجك المعروف بزين الدين من العراق ، وحج ملهم أخو ضرغام وزير مصر، فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثير الخير، واستغنى بسببهم أهل الحجاز، وعاد أسد الدين سالماً وخرج نور الدين إلى لقائه وكان يوم وروده يوما عظيما

وقال أيضا: وفيها قتل الصالح بن رزيك بمصر، وكان سبب قتله أن عمة العاضد عملت على قتله وأنفذت الأموال إلى الأمراء، فبلغ ذلك الصالح فاستعاد الأموال واحتاط على عمة العاضد.

قال.وإنما كرهته عمة العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة، وحفظه للأموال، وقتل الصالح بسببها جماعة من الأمراء ونكبهم ، وتمكن من الدولة تمكنا حسناً، ثم إن عمة العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه، وبذلت لقوم من السودان مالاً جزيلا حتى أوقعوا به الفعل، جلسوا له في بيت في دهليز القصر مختفين فيه، فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر، ودخله وسلم على العاضد، وخرج من عنده فخرج عليه الجماعة، ووقعت الصيحة فعثر الصالح بأذياله فطعنه أحدهم بالسيف في ظاهر رقبته فقطع أحد عمودي الرقبة، وحمل إلى باب القصر، وأصيب ولده رزيك في كتفه،ولما حصل الصالح في داره أوصى ولده رزيك ومات بعد ساعة من ذلك اليوم.

قال العماد: وانكسفت شمس الفضائل ، ورخص سعر الشعر، وانخفض علم العلم، وضاق فضاء الفضل، وعم رزء ابن رزيك، وملك

صرف الدهر ذلك المليك، فلم تزل مصر بعده منجوسة الحظ منحوسة الجدّ، منكوسة الراية معكوسة الآية إلى أن ملكها يوسفها الثاني، وجعلها معان المعاني وأنشر رميمها، وعطر نسيمها، وتسلم قصرها والتزم خصرها(٩١).

قال زين الدين الواعظ: عمل فارس المسلمين أخو الصالح دعوة في شعبان من السنة التي قتل فيها، فعمل هذه الأبيات وسلمها إليّ:

انست بكم دهرا فلما ظعنتم اسـ ... ـتقرت بقلبي وحشة للتفرق

وأعجب شيء أنني يوم بينكم ... بقيت وقلبي بين جنبي ما بقي

أرى البعد ما بيني وبين أحبتي ... كبعد المدى ما بين غرب ومشرق

ألا جدّدي يا نفس وجداً وحسرة ... فهذا فراق بعده ليس نلتقي

قال: فلم يبق بعدها لهم اجتماع في مسرة، وقتل في شهر رمضان(٩٢).

قلت: ولعمارة اليمني ولغيره مدائح في الصالح ومراث جليلة، وقد أثنى عليه كثيرا في كتاب الوزراء المصرية، ولم يكن مجلس أنسه ينقطع إلاّ بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته.

قال: وكان مرتاضا قد شم أطراف المعارف، وتميز عن أجلاف الملوك، وكان شاعراً يحب الأدب وأهله، يكرم جليسه ويبسط أنيسه، ولكنه كان مفرط العصبية في مذهب الإمامية، وكان مرتاضاً حصيفا قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم.

قال: ودخلت عليه قبل أن يموت بثلاث ليال وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة:

نحن في غفلة ونوم وللمو
ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنينا
ليت شعري متى يكون الحمام

قال: ومن عجيب الاتفاق أني أنشدت ابنه مجد الاسلام في دار سعيد السعداء ليلة السادس عشر من شهر رمضان، أو السابع عشر قصيدة أقول فيها:

أبوك الذي تسطو الليالي بحدّه
وأنت يمين إن سطا وشمال
لرتبته العظمى وإن طال عمره
إليك مصير واجب ومآل
تخالسك اللحظ المصون ودونها
حجاب شريف لا انقضى وحجال

قال: فانتقل الملك بعد ثلاث إليه(٩٣)

قال: ومما رثيته به قولي:

أفي أهل ذا النادي عليم أسائله
فإني لما بي ذاهب اللب ذاهله
سمعت حديثا أحسد الصم عنده
ويذهل واعيه ويخرس قائله
فقد رابني من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوبا وما فيه كافله
وأني أرى فوق الوجوه كآبة
تدل على أن الوجوه ثواكله

دعـــوني فما هـــذا بـــوقـــت بكـــائه
سيـــأتيكـــم طـــل البكـــاء ووابلـــه

ولم لانبكيـــــه ونـنـــــدب فقـــده
وأولادنـــــا أيتـــامـــه وأراملـــه

فيـــاليـت شعـــري بعـــد حســـن فعـــالـــه
وقـــد غـــاب عنـــا مـــا بنـــا الـــدهـــر فـــاعلـــه

ايكـــرم مثـــوى ضيفكـــم وغـــريبكـــم
فيسكـــن أم تطـــوى ببين مـــراحلـــه

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه:

طمـــع المرء في الحيـــاة غـــرور
وطـــويـــل الآمـــال فيهـــا قصير

ومنها:

ولكـــم قـــدّر الفتـــى فـــأتتـــه
نـــوب لم يحط بها التقـــديـــر

ومنها:

فـــض ختـــم الحيـــاة عنـــك حمام
لا يـــراعـــي أذنـــا ولا يستشير

مـــا يخطـــى إلى جـــلالـــك اليـــوم إلا
قـــدر أمـــره علينـــا قـــديـــر

يـــا أمير الجيـــوش هـــل لـــك علـــم
أن حـــر الاســـى علينـــا أمير

إنّ قبراً حللتـــــه لغنـــــي
إن دهـــراً فـــارقتـــه لفقير

انطـــوى ذلـــك البســـاط وعهـــدي
وهـــو بـــالعلـــم والنـــدى مغمـــور

لا تظـــن الأيـــام أنـــك ميـــت
لم يمـــت مـــن ثنـــاؤه منشـــور

إن مضى كافل فهذا كفيل
أو وزير يغب فهذا وزير
دولة صالحية خلفتها
دولة عادلية لاتجور
ماشكونا كسر النوائب حتى
قيل في الحال كسركم مجبور
نصر الناصر العُلى بالعوالي
ولنعم المولى ونعم النصير

قال أيضا يرثيه ويذكر الظفر بقاتليه، ويصف نقل تابوته إلى مشهده بالقرافة، قصيدة طويلة منها:

قد كنت أشرق من ثماد مدامعي
أسفا فكيف وقد طمى التيار
عم الورى يوم الخميس وخصني
خطب بأنف الدهر منه صغار
ما أوحش الدنيا غدية فارقت
قطبا رحى الدنيا عليه تدار
خربت ربوع المكرمات لواحد
عمرت به الاجداث وهي قفار
نعش الجدود العاثرات مشيع
عشيت برؤية نعشه الابصار
نعش يود بنات نعش لو غدت
ونظامها أسفا عليه نثار
شخص الأنام إليه تحت جنازة
خفضت لرفعة قدرها الاقدار
سار الامام أمامها فعلمت أن
قد شيعتها الخمسة الأبرار
ومشى الملوك بها حفاة بعدما
حفت ملائكة بها أطهار

فكـــأنها تـــابــوت مــوســـى أودعــت
في جـــانبيــــه سكينـــة ووقـــار
لكنـــه مـــا ضـــم غير بقيـــة الاســـ
ـــلام وهـــو الصـــالـــح المختـــار
اقطنتـــــه دار الـــــوزارة ريثما
بنيـــت لنقلتـــه الكـــريمـــة دار
وتغـــايـــر الهرمـــان والحرمـــان في
تـــابـــوتـــه وعلى الكـــريـــم يغـــار
آثـــرت مصراً منـــه بـــالشرف الـــذي
حســدت قـــرافتهـــا لـــه الأمصـــار
وجعلتهـــا أمنـــابـــه ومثـــابـــة
تـــرجـــو مثـــابـــة قصـــدهـــا الـــزوّار
قـــد قلـــت إن نقلـــوه نقلـــة ظـــاعـــن
نـــزحـــت بـــه دار وشـــط مـــزار
مـــاكـــان إلاّ السيـــف جـــدّد غمـــده
بســـواه وهـــو الصـــارم البتـــار
والبـــدر فـــارق بـــرجـــه متبـــدّلا
بـــرجـــابـــه تتشعشـــع الأنـــوار
والغيـــث روّى بلـــدة ثـــم انتـــحى
أخـــرى فنـــوء سحـــابـــه مـــدرار
يـــامسبـــل الأستار دون جـــلالـــه
مـــاذا الـــذي رفعـــت لـــه الاستـــار
مـــالي أرى الـــزوّار بعـــد مهـــابـــة
فـــوضـــى ولا أذن ولا استئمار
غضـــب الالـــه على رجـــال أقـــدمـــوا
جهـــلاً عليـــك وآخـــريـــن أشـــاروا
لاتعجبـــا لقـــذار نـــاقـــة صـــالـــح
فلكـــل دهـــر نـــاقـــة وقـــذار

واخجلتا للبيض كيف تطاولت
سفهاً بأيدي السود وهي قصار
واحسرتا كيف انفردت لأعبد
وعبيدك السادات والأحرار
رصدوك في ضيق المجال بحيث لا ال
خطيّ متسع ولا الخطار
ما كان أقصر باعهم عن مثلها
لو كنت متروكاً وما تختار
ولقد ثبت ثبات مقتدر على
خذلانهم لو ساعد المقدار
وتعثرت أقدامهم بك هيبة
لو لم يكن لك بالذيول عثار
أحللت دار كرامة لا تنقضي
أبداً وحل بقاتليك بوار
ياليت عينك شاهدت أحوالهم
من بعدها ورأت إلى ما صاروا
وقع القصاص بهم وليسوا مقنعا
يرضي وأين من السماء غبار
ضاقت بهم سعة الفجاج وربما
نام العدوّ ولا ينام الثار
وتوهموا أن الفرار مطية
تنجي وأين من القضاء فرار
طاروا فمدّ أبو الشجاع لصيدهم
شرك الردى فكأنهم ما طاروا
فتهنّ بالأجر الجزيل وميتة
درجت عليها قبلك الأخيار
مات الوصي بها وحمزة عمه
وابن البتول وجعفر الطيار

نلــــت السعــــادة والشهــــادة والعلى
حيـــا وميتـــا إن ذا الفخـــار
ولقــــد أقــــر العين بعــــدك أروع
لــــولاه لم يــــك للعلى استقــــرار
النــــاصر الهادي الــــذي حسنــــاتــــه
عــــن سيئــــات زمــــاننــــا أعــــذار
ولما استقــــام لحفــــظ أمــــة أحمد
عمــــرت بــــه الأوطــــان والأوطــــار

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين العساكر، وسار إلى قلعة حارم وجصرها، وجدّ في قتالها، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من الفرسان الفرنج وشجعانهم ، واجتمع الفرنج من سائر البلاد وساروا نحوه ليرحلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه إلى ذلك وراسلوه وتلطفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده، وممن كان معه في هذه الغزاة الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي لامزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد شيرين وكان قد دخله العام الماضي سائرا إلى الحج، فلما دخله عامئذ كتب على حائطه:

لك الحمد يا مولاي كم لك منة
علي وفضل لايحيط به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلا
من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت اللّه ذي الركن والحجر
فأديت مفروضي وأسقطت ثقل ما
تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

قلت: أذكرني هذا ما كتبه أسامة أيضا بمدينة صور وقد دخل دار ابن عقيل فرآها وقد تهدمت وتغيرت زخرفتها فكتب على لوح من رخام هذه الأبيات:

احذر من الدنيا ولا
تغتر بالعمر القصير
وانظر إلى آثار من
صرعته منا بالغرور

-٧٨٥٢-

عمروا وشادوا ماترا ... ءمن المنازل والقصور
وتحولوا من بعد سكـ ... ـناها إلى سكنى القبور(٩٤)

قلت : قال ابن أبي عقيل هذا هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن أبي عقيل، صاحب صور، ويلقب عين الدولة ، مات سنة خمس وستين وأربعمائة، واستولى على صور ابنه النفيس. والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نـور الدين عساكره ودخل بـلاد الفرنج، فنزل بالبقيعـة تحت حصن الأكـراد، وهو للفرنـج عازمـا على دخول بـلادهـم، ومنـازلـة طرابلس، فبينما النـاس في بعـض الأيـام في خيامهــم في وسـط النهـار، لم يرعهــم إلاّ ظهور صلبـان الفرنـج من وراء الجبـل الذي عليـه الحصن، فكبسـوهم،فأراد المسلمـون دفعهم فلـم يطيقوا فانهزمـوا ووضع الفرنج السيف وأكثروا القتل والأسر، وقصـدوا خيمة الملك العادل، فخرج عن ظهر خيمتـه عجلا بغير قباء، فركب فـرساهناك للنوبة،ولسرعته ركبه وفي رجليه شبحـه فنزل إنسان من الأكراد فقطعهـا فنجا نور الدين، وقتل الكردي، فسأل نور الـدين عن مخلفي ذلك الكردي فـأحسن إليهم جزاء لفعله، وكان أكثـر القتلة في السوقة والغلمان، وسـار نور الدين إلى مـدينة حمص، وبينها وبين مكان الـواقعة أربعة فراسخ، وكان النـاس يظنون أنه لايقف دون حلـب، وكان رحمه اللّـه أشجع مـن ذلك وأقـوى عزمـا، ولما نـزل على بحيرة قدس اجتمـع إليه كـل من نجـا مـن المعركـة، فقال لـه بعض أصحابه : ليـس من الرأي أن نقيم هاهنا، فـإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينـا، ونحن على هذه الحال، فوبخـه وأسكته، وقال: إذا كان معـي ألف فـارس فلا أبالي بهم قلـوا أو كثروا، وواللّـه لاأستظل بجدار حتـى أخذ بثار الإسـلام وثأري، ثـم إنه أرسل إلى حلـب ودمشق وأحضر الأموال والـدواب والأسلحة والخيام وسـائر ما يحتاج إليـه الجند، فأكثر وفرق ذلك جميعه على من سلم، وأمـا من قتل فإنه أقر اقطاعه على أولاده، فإن لم يكـن له ولد فعلى بعض أهلـه، فعاد العسكر كأنـه لم يفقد منه أحد، وأمـا الفـرنج فإنهم كانوا عازمين على قصـد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البـلاد إليهم، فلما بلغهم مقـام نور الدين عنـدها قالـوا إنه لم يفعل هذا، إلاّ وعنده مـن القوّة أن يمنعنا، وكان نور الديـن رحمه اللّه قد أكثر الخرج إلى أن قسـم في يوم واحد مائتـي ألف دينار سوى غيرهـا من الدواب والخيـام والسلاح وغير ذلك، وتقـدم إلى ديوانـه أن يحضروا الجند

ويسألو كل واحد منهم عن الذي أخذ منه ، فكل من ذكر شيئا أعطوه عوضه فحضر بعض الجند وادّعى شيئا كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادّعاه ، لمعرفتهم بحالهم، فأرسلوا إلى نور الدين ينهون إليه القضية ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما إدّعاه، فأعاد الجواب لاتكدروا عطاءنا فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره، وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدارارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا، وقال: واللّه إني لأرجو بأولئك النصر، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لاتخطىء، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطىء وتصيب، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم ، فسكتوا.

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة ، فلم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه،وعادوا إلى بلادهم، وتفرقوا.

قلت: وفي هذه الحادثة تحت حصن الأكراد يقول أبو الفرج عبيد اللّه ابن سعد الموصلي نزيل حمص من جملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه اللّه أوّلها:

ظبى المواضي وأطراف القنا الذبل
ضوامن لك ما حازوه من نفل

وكافل لك كاف ما تحاوله
عمرو عزم وبأس غير منتقل

وما يعيبك ما حازوه من سلب
بالختل قد تؤسر الآساد بالحيل

وإنما أخلدوا جبنا إلى خدع
إذا لم يكن لهم بالجيش من قبل

واستيقظوا وأراد اللّه غفلتكم
لينفذ القدر المحتوم في الأزل

حتى أتوكم ولا الماذي من أمم
ولا الظبى كثب من مرهق عجل
قنا ألقى وقسيّ غير موترة
والخيل عازبة ترعى مع الهمل
ما يصنع الليث لا ناب ولا ظفر
بما حواليه من عفر ومن وعل
هلا وقد ركب الأسد الصقور وقد
سلوا الظبى تحت غابات من الاسل
وإن هم أضاعوا حزمهم ثقة
بجمعهم ولكم من واثق خجل

وبني الأصافر ما نلتم بمكركم
والمكر في كل إنسان أخو الفشل
وما رجعتم بأسرى خاب سعيكم
غير الأراذل والأتباع والسفل
سلبتم الجرد معراة بلا لجم
والسمر مركوزة والبيض في الخلل
هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها
مثال آخذها في الشكل والطول
أم سالب الرمح مركوزا كسالبه
والحرب دائرة من كف معتقل
جيش أصابتهم عين الكمال وما
يخلو من العين إلاّ غير مكتمل
لهم بيوم حنين أسوة وهم
خير الأنام وفيهم خاتم الرسل
سيقتضيكم بضرب عند أهونه
البيض كالبيض والأدراع كالحلل
ملك بعيد من الإدناس ذو كلف
بالصدق في القول والإخلاص في العمل

ومنها:

فـالسمر مـا أصبحت والشمس مـا أفلت
والسيف مـا فـل والأطـواد لم تـزل

وكـم تجلت بنـور الـديـن مـن ظلـم
وانجـاب مـا كـان لـلاضـلال مـن ظلـل

قـل للمـولين: كفـوا الطـرف مـن جبـن
عنـد اللقـاء وغضـوا الطـرف مـن خجـل

طلبتـم السهـل تبغـون النجـاة ولـو
لـذتـم بملككـم لـذتـم إلى الجبـل

أسلمتمـوه ووليتـم فـأسلمكـم
بثبتـة لـو بغـاهـا الطـود لم ينـل

فقـام فـرداً وقـد ولـت جحـافلـه
فكـان مـن نفسـه في جحفـل زجـل

في مشهـد لـو ليـوث الغيـل تشهـده
خـرّت لأذقـانها مـن شـدّة الـوهـل

وسـط العـدى وحـده ثبـت الجنـان وقـد
طـارت قلـوب على بعـد مـن الـوجـل

يعـود عنهـم رويـداً غير مكترث
بهم وقـد كـرّ فيهـم غير محتفـل

يـزداد قـدمـا إليهـم مـن تيقنـه
أن التـأخـر لا يحمـي مـن الأجـل

مـا كـان أقـربهم مـن أسر أبعـدكـم
لـو أنهم لـو يكـونـوا منـه في شغـل

ثبـاتـه في صـدور الخيـل أنقـذكـم
لا تحسبـوا وثبـات الضمـر الـذلـل

مـا كـل حين تصـاب الأسـد غـافلـة
ولا يصيـب الشـديـد البطـش ذو الشلـل

واللّـه عـونـك فيما أنـت مـزمعـه
كما أعـانـك في أيـامـك الأول

كـم قـد ملكـت لهم ملكـا بـلا عـوض
وحـزت مـن بلـد منهـا بـلا بـدل
وكـم سقيـت العـوالي مـن طلى ملـك
وكـم قـريـت العـوافي مـن قـرابطـل
لانكبـت سهمـك الأقـدار عـن غـرض
ولا ثنـت يـدك الأيـام عـن أمـل

قلـت: حـاول ابـن أسعـد في هـذه القصيـدة مـا حـاولـه المتنبـي في قولـه:(غيرى بأكثر هذا النـاس ينخدع) القصيـدة، فإن كـل واحد منهما اعتذر عن أصحـابه ومدحهم، وهم المنهـزمون، وقد أحسنا معـا عفا اللّه عنهما، وعبيد اللّه بـن أسعد هذا فقيه فاضـل وشاعر مفلق، كـان مدرساً بحمص يعرف بابن الدهان، ولـه ترجمة في تاريخ دمشق، وقد ذكره العماد الكاتب في خريـدته فأحسن ذكره وأكثر الثنـاء على علمه وشعره، وسيأتي ذكـره أيضا في هـذا الكتـاب في أخبـار سنة سبعين وسـت وسبعين وثمان وسبعين إن شاء الله تعالى.

وفي هـذه السنة ، أعنـي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة تـوفي عبد المؤمـن ابن علي خليفـة المهدي محمد بـن تومـرت ، صاحب المغـرب، وولي بعده ابنه يوسف.

- ٧٨٥٨ -

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ففيها سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى مصر المرّة الأولى، وهو من أكابر الأمراء الذين في الخدمة النورية، عازما على ملك الديار المصرية، واستضافتها إلى المملكة النورية، وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب، وهو أكبر ابناء شاذي من بلد دوين ، وهي بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلي الروم، وأصلهما من الأكراد الرّوادية، وهذا القبيل هو أشرف الأكراد، وقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروزا الخادم وهو شحنة العراق، فرأى في نجم الدين عقلاً ورأيا وحسن سيرة فجعله دزداراً بتكريت ، وهي له فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين ، فلما انهزم أتابك زنكي الشهيد والد نور الدين بالعراق من قراجة الساقي وهو أتابك داود بن السلطان محمود، وذلك زمن المسترشد بالله سنة ست وعشرين وخمسمائة، وصل إلى تكريت فخدمه نجم الدين أيوب، وأقام له السفن، فعبر دجلة وتبعه اصحابه، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم ،ثم إن أسد الدين قتل انسانا نصرانيا بتكريت لملاحاة جرت بينهما فأرسل مجاهد الدين اليه والى اخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت ، وقيل إن أيوب كان يحسن الرماية فرمى شخصا من مماليك بهروز بسهم فقتله، فخشي على نفسه، فتوجه نحو الشام وخدم مع زنكي، وقيل لما قتل أسد الدين شيركوه النصراني وكان عزيزا عند بهروز هرب إلى الموصل، والتحق أيوب به وسنوضح هذه القضية إن شاء اللّه تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمان وستين.

ثم إن أيوب وشيركوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن إليهما وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعا حسنا، وصارا من جملة جنده ، فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزداراً فيه، فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق نجم الدين ، فأرسل إلى سيف الدين غازي وقد قام بالملك بعد والده ينهي الحال إليه فلم يتفرغ لبعلبك، وضاق الأمر على

من بها، وخاف نجم الدين آن تؤخـذ عنوة ويناله أذى، فأرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعا ذكره، فأجيـب إلى ذلك وحلف له صاحب دمشق عليه، وسلـم القلعة ووفى له بما حلف عليـه من الإقطاع والتقـدّم، وصار عنده من أكابر الأمراء، واتصل أخوه أسـد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتـل الشهيد، وكان يخدمـه في أيام والده ، فقربـه نور الديـن وأقطعه ورأى منه في حروبه ومشـاهده آثاراً يعجز عنها غيره ، لشجاعتـه وجرأته، فزاده إقطـاعاً،وقربـاً حتى صار له حمص والـرحبةوغيرهما، وجعلـه مقدّم عسكره، فلما تعلقت الهمة النـورية، بملك دمشق أمر أسد الـدين فراسل أخـاه نجم الـدين وهـو بها في ذلك،فطلـب منه المسـاعدة على فتحهـا، فأجاب إلى مـايراد منه، وطلب هو وأسـد الدين من نور الـدين كثيرا من الاقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبـذل لهما ما طلبا منه، وحلف لهما عليه، ووفى لهما لما ملكها، وصارا عنده في أعلى المنـازل لاسيما نجم الدين فإن جميع الأمراء كـانوا لايقعدون عند نور الدين الا أن يأمـرهم أو أحدهم بذلـك إلا نجم الـدين، فـإنه كان إذا دخـل إليه قعـد من غير أن يـؤمر بذلك.

فلما كان سنـة تسع وخمسين عـزم نور الديـن على إرسال العسـاكر إلى مصر، ولم يـر لهذا الأمر الكبير أقـوم ولا أشجـع مـن أسد الـديـن، فسيره وكان سبب ذلك أن شاوربن مجير أبـا شجاع السعدي، وهو الملقب أمير الجيوش الذي يقول فيه عمارة من قصيدة:

ضجـــر الحديـــــد مـــن الحديــــد وشــــاور
في نصر آل محمــــــــــد لم يضجـــــــــر
حلـــف الـــزمــــان ليــــأتين بمثلـــه
حنثــــت يمينــــك يــــا زمــــان فكفــــر

وهو وزير الملقب بالعاضد لـدين الله آخر المستخلفين بمصر، كان قد وصل إلى دمشق في سنـة ثمان وخمسين سادس ربيع الأول إلى نور الـدين،

مستنجدا بـه، على من أخذ منه منصبـه قهراً، وكانت عـادة المصريين أنه إذا غلب شخـص صاحب المنصب، وعجـز صاحب المنصب عـن دفعه وعرفـوا عجزه وقعوا للقـاهر منهم، ورتبوه ومكنـوه، فإن قوتهم إنما كـانت تكون بعسكـر وزيرهم وهـو الملقب عندهـم بالسلطـان، وما كانـوا يرون المكاشفـة وأغراضهم مستقيمـة، وقواعـدهم مستقرة مـن أوّل زمانهم على هذا المثـال، وكان شارو قـد غلب على الوزارة وانتـزعها من بنـي رزيك، وقتل العادل بن الصـالح بن رزيك الذي وزر بعد أبيـه، واسمه رزيك، ويلقب بالناصر أيضا، وهو الذي استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم ابـن علي من الاسكنـدريـة واستخدمـه بحضرته وبين يـديـه في ديـوان الجيش على ما ذكره عمارة اليمني في كتـاب الوزراء المصرية، وقال: غرس منه للدولـة، بل للملة، شجرة مباركـة متزايدة النماء أصلها ثابـت وفرعها في السماء .

ثم خرج على شـاور نائب الباب، وهو أمير يقال له ضرغـام بن سوار، ويلقب بالمنصور، فجمع له جموعاكثيرة لم يكـن له بها قبل فغلبه وأخرجه، من القاهرة وقتـل ولده طيئا، واستولى على الوزارة، فرحـل شاور إلى الشام قاصداً خـدمة نور الديـن، مستصرخا به ومستنصرا، فأحسـن لقائه وأكرم مثواه، فطلـب منه إرسال العساكـر إلى مصر ليعود إليها، ويكون لـه فيها حصة ذكرهـا له، ويتصرف على أمره ونهيه، واختياره، ونور الـدين يقدّم في ذلك رجلاً ويـؤخر أخرى، تارة يحمله رعـاية قصد شاور وطلـب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنـج، وتارة يمنعه خطر الطريق، وكـون الفرنج فيه إلاّ أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مـع الخوف من الفرنج أيضا، ثم استخار اللـه تعالى وأمـر أسد الـدين بـالتجهز للمسير معـه قضاءاً لحق الوافـد المستصرخ، وحبسا للبلاد، وتطلعـا على أحوالها، وكان هـوى أسد الديـن في ذلك، وكـان عنده مـن الشجاعـة وقوّة النفـس مالا يبـالي معه بمخافة، فتجهز وسار مع شـاور في جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين. هكذا ذكر ابن الأثير والعماد الكاتب.

وقال القاضي ابن شداد: كان ذلك سنة ثمان وخمسين ، والقول في ذلك قولها، فقد بينا أن قدوم شاور إلى الشام كان في سنة ثمان وخمسين ، وإرسال نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين، .

قالوا: وأمر نور الدين أسد الدين بإعادة شاور إلى منصبه، والانتقام ممن ناوعه في الوزارة ، وساروا جميعا، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الاسلام مما يلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين، ووصل أسد الدين سالماً إلى مصر هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور في الوزارة وقتل وطيف برأسه، وعاد شاور وزيراً، وتمكن من منصبه، وكان عمارة قد مدح ضرغاما بقصيدة منها:

وأحق من وزر الخلافة من نشا
في حضرة الإكرام والإجلال
واختص بالخلفاء وانكشفت له
أسرارها بقرائن الأحوال
وتصرف الوزراء عن آرائه
كتصرف الأسماء بالافعال

قال عمارة: ولما جازوا برأسه على الخليج وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة قلت ارتجالا:

أرى حنك الوزارة صار سيفا
يجذ بحده صيد الرقاب
كأنك رائد البلوى وإلا
بشير بالمنية والمصاب

ولعمارة اليمني من قصيدة مدح بها شاور وذكر وزارتيه قوله:

فنصرت في الأولى بضرب زلزل الـ
أقدام وهي شديدة الإقدام

ونصرت في الأخـــرى بضرب صـــادق
أضحـــى يطير بـــه غـــراب الهام
أدركـــت ثـــارا وارتجعـــت وزارة
نـــزعـــا بسيفـــك مـــن يـــدي ضرغـــام

وكان ضرغـام أوّلا من أصحـاب شاور واتبـاعه، وقـد أشار إلى ذلـك عمارة في قوله من قصيدة له:

كـــانـــت وزارتـــك القـــديمـــة مشرعـــا
صفـــواً ولكـــن كـــدّرت غـــدرانها
غصبـــت رجـــال تـــاجـــه وسريـــره
مـــن بعـــد مـــاسجـــدت لـــه تيجـــانها

وله من قصيدة أخرى في شاور:

وزيـــر تمنتـــه الـــوزارة أوّلا
وثـــانيـــة عفـــواً بغير طـــلاب
فخـــانتـــه في الأولى بطـــانـــة ودّه
ورب حبيـــب في قميـــص حبـــاب
وجـــاءتـــه تبغـــي الصلـــح ثـــاني مـــرة
فلـــم يـــرض إلاّ بعـــد ضرب رقـــاب

ولم يغلب وزيـر لهم وعاد غير شاور، وكـان مدّة أخـذ الوزارة منه إلى أن عادت إليه تسعة أشهر سواء، وهـي مدّة الحمل نص عمارة على ذلك، وقال قتل ولده طـيءٌ يوم الجمعة الثـامن والعشريـن من رمضـان، وجاز رأسـه على رمـح تحت الطيقان والنسـاء يـولـولـن بالصراخ، وكـان فيهـن واحدة تحفظ قولي في الصالح:

أينســـى وفي العينين صـــورة وجهـــه الـــ
ـــكريم وعهـــد الانتقـــال قـــريـــب

فما زالت تكرره حتى رأت رأس ضرغام

٧٨٦٣

قال: وأدرك شاور ثأره في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، فيكون بينهما تسعة أشهر.

قال: وقلت في ذلك:

ونزعت ملكك من رجال نازعوا
فيه وكنت به أحق وأقعدا
جذبوا رداءك غاصبين فلم تزل
حتى كسوت القوم أردية الردى
وبردت قلبك من حرارة حرقة
أمرت نسيم الليل أن لا يبردا
تاريخ هذا النلته في مثله
يوما يوم عبرة لمن اهتدى
حملت به الأيام تسعة أشهر
حتى جعلن له جمادى مولدا

وله فيه أيضا:

لله درك مو تورا أقض به
دست وسرج وأجفان ومضطجع
ما غبت إلا يسيرا ثم لحت لنا
والثار مستدرك والملك مرتجع
قضية لم ينل منها ابن ذي يزن
إلا كما نلت والآثار تتبع

قال ابن الأثير: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور، وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضا، فأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام، فأنف أسد الدين من هذه الحال، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر، فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسل نوابه فتسلموا مدينة بلبيس، وحكم على البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم، ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر، وكان الفرنج قد

أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين، فهم خائفون، فلما أرسل شاور إليهم يستنجدهم، ويطلب منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته والمبادرة إلى نصرته، وطمعوا في ملك ديار مصر، وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، فتجهزوا وساروا، فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير، سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الأفرنج ليمتنعوا من المسير، فلم يمتنعوا لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشدّ من الخطر في مسيرهم، فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كبير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس، فاستعان بهم ملك الفرنج، فأعانوه وسار بعضهم معه وأقام بعض في البلاد يحفظها ، فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين، وقصد مدينة بلبيس وأقام بها هو وعسكره، وجعلها ظهراً يتحصن به، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر ، وقد امتنع أسد الدين بها وسوّرها من طين قصير جدّاً، وليس له خندق ولامعقل يحميها، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئا فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس، فحينئذ سقط في أيديهم وأرادوا العود إلى البلاد ليحفظوها ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها، فلم يدركوها إلاّ وقد ملكها على ما سيأتي بيانه إن شاء اللّه تعالى، وراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام، ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل.

قال ابن الأثير: فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس، قال: رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم وبيده لت من حديد يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون، قال: فأتاه فرنجي من

الفرنج الغرباء فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنج قد أحاطوا بك وبأصحابك فلا يبقى لك معهم بقية، فقال شيركوه: ياليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثله كنت والله أضع فيهم السيف فلا أقتل حتى أقتل رجالا، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني أبطالهم، فيملك بلادهم ويفني من بقي منهم، ووالله لو أطاعني هؤلاء، يعني أصحابه لخرجت إليكم أوّل يوم، لكنهم امتنعوا فصلب الفرنجي على وجهه وقال: كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم، ثم رجع عنه، وسار شيركوه إلى الشام، وعاد سالما.

وقال العماد الكاتب: وصل شاور إلى نور الدين ملتجئا فألفاه على عدوّه معديا مشكيا، وسير معه أسد الدين على قرار عينه، وأمر بينه، وبغية يدركها وخطة يملكها، ومحجة واضحة في الملك يسلكها فمضى معه ونصره، وأصفى له مشرعه، واسترد له موضعه، وأظهره بعلوه، وأظفره بعدوّه، فلما باد خصمه بدا وصمه، وغدر بعهده، وأخلف في وعده، وكان قد راسل الفرنج وهاداهم في حرب الاسلام، فوصلوا فتحصن شيركوه ومن معه بمدينة بلبيس، فحاصره شاور بجنود مصر، والفرنج، ثلاثة أشهر من مستهل رمضان إلى ذي الحجة، فبذلوا له قطيعة فانصرف عنهم، وعاد إلى الشام، وفي قلبه من شرّ شاور الإحن، وكيف تمت بغدره تلك المحن.

قلت: وقد أشار إلى ذلك عمارة في قوله في مدح شاور وذكر الأفرنج فقال:

وأنفذت من مصر عدوا بمثله
فللّه من ظفر فللت وناب
صدمت جموع الكفر والشام صدمة
أقمت بها للقوم سوق ضراب

قد جردت أجناد مصر عزائما
مضاربها في الصخر غير نوابي
تولوا عن الافرنج فادح ثقلها
ودارت رحاها منهم بهضاب
أقامت دروع الجند تسعين ليلة
ثيابا لهم ما بدلت بثياب
وهم بين مطروح هناك وطارح
وبين مصيب خصمه ومصاب

وقال القاضي ابن شداد: سار أسد الدين إلى مصر واستصحب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وجعله مقدّم عسكره، وصاحب رأيه، وكان لايفصل أمراً ولايقرّر حالا إلاّ بمشورته ورأيه، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة ، والفكرة الصحيحة، واقتران النصر بحركاته وسكناته، فساروا حتى وصلوا مصر، وشاور معهم، وكان لوصولهم إلى مصر وقع عظيم، وخافه أهل مصر، ونصر شاورا على خصمه، وأعاده إلى منصبه ومرتبته، وقرر قواعده، وشاهد البلاد وعرف أحوالها، وعلى أنها بلاد بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال، وكان ابتداء رحيله عنها، متوجهاً إلى الشام في السابع من ذي الحجة، فأقام بالشام مدبراً لأمره، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية، محدّثا بذلك نفسه، مقرراً لقواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين.

قلت: ولفعل شاور ما فعل مع أسد الدين وصفه الشعراء بالغدر، ووقعوا فيه قبل قتله وبعده على ما سنذكره، وبقي متخوفا من أسد الدين، فقال عرقلة الكلبي من جملة قصيدة له:
وهل همّ يوما شيركوه بجلق
إلى الصيد إلاّ ارتاع في مصر شاور
هو الملك المنصور والاسد الذي
شذا ذكره في الشرق والغرب سائر

وفيها في ذي الحجة احترقت جيرون بعد رجوع أسد الدين إلى دمشق، فقال العرقلة يمدحه ويذكر ذلك:

جـــار صرف الــــردى على جيرون
وسقـــى أهلهـــا كـــؤوس المنـــون
أصبحـــت جنـــة وامســـت جحيما
تتلظـــى بكـــل قلـــب حـــزيـــن
كيـــف لاتـــذرف الـــدمـــوع عليهـــا
وهـــي في الشـــام نـــزهـــة للعيـــون
حبـــذا حصنهـــا الحصين لقـــد كـــا
ن جمالا لكـــل حصـــن حصين
أي سيـــف سطـــا على دار سيـــف
وزبـــون أتـــى بحـــرب زبـــون
خلـــت نيرانها وكـــل ظـــلام
نـــار ليلى تلـــوح للمجنـــون
كـــم غنـــي اليمين أمســـى فقيرا
وفقير أمســـى غنـــي اليمين
كـــل حين لها حـــريـــق جـــديـــد
ليـــت شعـــري مـــاذا لها بعـــد حين
كـــل هـــذا البـــلاء عـــاقبـــة الفســـ
ـــق وشرب الخمـــور والتلحين
ولقـــد ردّهـــا بعـــزم وحـــزم
أســـد الـــديـــن غـــايـــة المسكين
وحمى الجامـــع المقـــدس والمشـــ
ـــهد مـــن جمرهـــا بماء معين
ملـــك فعلـــه بـــدلجة والبـــا
ب فعـــال الامـــام في صفين

فصل
في فتح حارم

قال العماد الكاتب: وفي تلك السنة ، يعني تسع وخمسين ، اغتنم نور الدين خلوّ الشام من الفرنج ،وقصدهم واجتمعوا على حارم، فضرب معهم المصاف فرزقه الله تعالى الانتقام منهم، فأسرهم وقتلهم، ووقع في الاسار برنس أنطاكية وقومص طرابلس، وابن لجوسلين، ودوك الروم، وذلك في رمضان(٩٥).

وقال في الخريدة: كانت نوبة البقعية نوبة عظيمة على المسلمين، وأفلت نور الدين في أقل من عشرة من عسكره، ثم كسر الفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم، وقتل في معركة واحدة منهم عشرين ألفا، وأسر من نجا، وأخذ القومص والابرنس والدوقس وجميع ملوكهم، وكان منحا عظيما وفتحا مبينا.

قال ابن الأثير: والسبب في هذا الفتح أن نور الدين لما عاد منهزما على ما سبق من غزوة ناحية حصن الأكراد، أقبل على الجدّ والاجتهاد والاستعداد للجهاد والأخذ بثأره وغزو العدوّ في عقر داره، وليرتق ذلك الفتق ويمحو سمة الوهن ويعيد رونق الملك، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن، ونجم الدين ألبي بماردين، وغيرهم من أصحاب الأطراف، أما قطب الدين أتابك فإنه جمع عساكره وسار مجدا وعلى مقدّمة عسكره زين الدين نائبه، وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصه: على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك، وكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة ، فقال له أولئك: ما

عدا مما بدا فارقناك بالأمس على حال، ونرى الآن ضدّها ؟ فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقا إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، واخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعون عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويلعنوني ويدعون عليّ، فلا بدّ من إجابة دعوته، ثم تجهز أيضا، وسار إلى نور الدين بنفسه، وأما نجم الدين ألبي فإنه سير عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فنزل عليها وحصرها وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالساحل لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا ومقدّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين ، وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها والدوك، وهو رئيس الروم ومقدّمها ، وجمعوا معهم من الراجل ما لايقع عليه الإحصاء قد ملأوا الارض وحجبوا بقسطلهم السماء، فحرض نور الدين أصحابه، وفرّق نفائس الأموال على شجعان الرجال، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح ، وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه، فساروا حتى نزلوا على عم، وهو في الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغم، ثم تيقنوا أنهم لاطاقة لهم بقتاله، ولاقدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير، وتبعهم نور الدين، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وبدأت الفرنج بالحملة ، وكانت على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين، ، فبدّدوا نظامهم وزلزلوا أقدامهم وولوا الأدبار، وتبعهم الفرنج، وكانت تلك الفرة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبروه ومكر بالعدو مكروه، وهو أن يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلا يلجؤون.

إليه، ويعـود المنهزمون في اثـارهم، وتأخذهـم سيوف الله مـن بين أيديهم ومن خلفهـم، فكان الأمر على مـا دبروا، فـإن الفرنج لما تبعـوا المنهزمين، عطف زين الـدين في عسكر الموصل على راجلهم، فأفنـاهم قتلا وأسراً، وعادت خيـالتهم ولم يمعنوا في الطلب خـوفاً على راجلهم، مـن العطب، فصادفـوا راجلهم على الصعيـد معفرين وبـدمائهـم مضرجين، فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قـد ضلوا، وخضعت رقـابهم وذلوا، فلما رجعـوا عطف المنهـزمـون أعنتهم وعـادوا، فبقـي العـدوّ في الـوسط، وقـد أحـدق بهم المسلمون من كل جانـب ، فحينئذ حمي الوطيس، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس ، وقاتلوا الفـرنج قتال من يرجو باقدامـه النجاة، وحاربوا حرب مـن أيس مـن الحياة، وانقضـت العساكـر الإسلاميـة، عليهم انقضـاض الصقور على بغاث الطيور، فمـزقوهم بدداً وجعلوهم قدداً فـألقى الفرنج بأيـديهم إلى الاسار، وعجـزوا عن الهزيمـة والفرار، وأكثـر المسلمون فيهـم القتـل، وزادت عـدة القتلى على عشرة آلاف، وأمـــا الاسرى فلـم يحصـوا كثرة، ويكفيك دليـلا على كثرتهم أن ملوكهم أسروا، وهـم الذيـن من قبل ذكروا.

وسار نور الـدين بعد الكسرة إلى حارم، فملكهـا في الحادي والعشرين مـن شهر رمضـان، وأشار أصحـابه عليـه بالمسير إلى أنطـاكية، ليملكهـا لخلوهـا ممن يحميها ويـدفع عنها، فلـم يفعل ، وقال: أمـا المدينة فأمـرها سهل وأمـا القلعة التـي لها فهي منيعـة، لاتؤخـذ إلاّ بعد طـول حصار، وإذا ضيقنـا عليهـم أرسلوا إلى صـاحـب القسطنطينيـة وسلموهـا إليـه، ومجاورة بيمنـد أحب إليّ مـن مجاورة ملـك الـروم،وبث سرايـاه في تلـك الاعمال والولايـات فنهبوا وسبـوا ، وأوغلوا في البلاد حتـى بلغوا الـلاذقية والسويدا وغير ذلك ، وعادوا سالمين.

ثم إن نور الديـن أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جـزيل أخذه منه وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم.

وقال الحافظ أبو القاسم: كسر نور الدين الروم والأرمن والفرنج على حارم، وكان عدّتهم ثلاثين ألفا.

قال: ووقع بيمند في أسره في نوبة حارم، وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد.

قلت: وبلغني أن نور الدين رحمه الله لما التقى الجمعان أو قبيله إنفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل ، ومرّغ وجهه وتضرّع وقال: يارب هؤلاء عبيدك، وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك فانصر أولياءك على أعدائك، ايش فضول محمود في الوسط،يشير إلى أنك يارب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر، وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك، ولاتنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر، وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن دمياط بعد نزولهم عليها، وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين، مع أن جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شيركوه، كما سبق، وهذا من عجيب ما وقع واتفق.

- ٧٨٧٢ -

فصل

في ذكر وزير الموصل جمال الدين الجواد الممدح ووفاته في هذه السنة رحمه الله

وقد ذكره العماد الكاتب في مواضع من مصنفاته، وأثنى عليه ثناء عظيما حسنا،فمما ذكرله في كتابه الموسوم بنصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الوزراء السلجوقية، أن قال: ذكر جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، كان والده من أصفهان يدعى الكامل علي، وهو صاحب الوزير شمس الملك بن نظام الملك، وكان أبوه أبو منصور فهادا في عهد السلطان ملكشاه بن الب أرسلان، وابنه الكامل أديب لبيب وزادت أيامه في السمو وأيامنه في النموّ، حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء وقد كان زوج بنتا له ببعض أولاد أخوال العزيز، يعني عم العماد الكاتب.

قال: فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله على ولده جمال الدين أبي جعفر محمد، وخرجه في الادب، ودرّجه في الرتب، فأوّل مارتبه في ديوان العرض السلطاني المحمودي، وغلب في تحليته ذكر الأبلج، فنعته الأتراك بالأبلج، واستقام في نجابته على المنهج، واتفق أنه لما تولى زنكي بن آق سنقر الشام تزوّج بامرأة الأمير كيدغدي وولدها خاص بك بن كيد غدي من أمراء الدولة وأبناء المملكة، وهو يسير معها فرتبه العزيز لخاصبك وزيرا، فسار في الصحبة وكان مقبل الوجاهة، مقبول الفكاهة، شهي الحشاشة، بهي البشاشة، فتوفرت منى زنكي على منادمته، وقصر صباحه ومساءه على مساهمته، وعوّل عليه آخر عمره في إشراق ديوانه، وزاد المال وزان الحال، بتمكينه ومكانه، فلم يظهر لجمال الدين في زمان زنكي جود، ولاعرف له موجود، فإنه كان يقتنع بأقواته، وتزجية أوقاته، ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي استبقاء لجاهه، واستعلاء به

على أشباهه، فمكنه زنكي من أصحاب ديوانه، فمنهم من استضرّ باساءته ومنهم من انتفع بإحسانه، ولما قتل زنكي صار للدولة الاتابكية ملاذا، وللبيت الأقسنقري معاذا، واستوزره الأمير غازي بن زنكي، وآزره علي كوجك على وزارته، وحلف له على مظاهرته ومظافرته، وجرى بين جمال الدين وبين زين الدين علي كوجك، وبين سيف الدين غازي، التعاقد على التعاضد، والتعاهد على التساعد، وتولى جمال الدين وزارة الموصل واستولى فعاش بنداه الجواد، وغشا إلى ناديه الوفود، وعادت به الموصل قبلة الإقبال، وكعبة الآمال، فأنارت مطالع سعوده، وسارت في الآفاق صنائع جوده، وعمر الحرمين الشريفين، وشمل بالبر أهلهما، وجمع بالأمن شملهما، و أجرى بحر السماح، ونادى حي على الفلاح، فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح، وأتوا إليه من كل فج عميق، وقصد من كل بلد سحيق، فقصده العظماء، ومدحه الشعراء، وممن وفد إليه أبو الفوارس سعد بن محمد الصفي المعروف بحيص بيص، قال: وأنشدني لنفسه فيه قصيدة أوّلها:

يا للصوارم والرماح الذبل
نصراً ومن أنجد تمالم يخذل

لوشتها ومشيئة بمشيئة
جادالزمان وبالعلى لم يبخل

فأقنى فخارك يا مجاشع واعلمي
أني لكم من همتي في جحفل

أنا فارس اليومين يوم مقالة
ووغى أصول بصارمي وبمقولي

ظلمت فضائلي المقاول مثل ما
ظلمت جمال الدين مأوى العيل

مدحوه كي يحووا مناقب نفسه
فطمت فسالت بالمدائح من عل

فأتيت ابذل ما استطعت ومن يرد
نقل الخضم إلى المزادة يخجل

شمس من الاحسان عم ضياؤها
بل آية جاءت بحجة مرسل
يعطي الجزيل لسائلي معروفه
ويجود بالنعمى إذا لم يسئل
وتزيده شوس الخطوب طلاقة
فيكون أبسم ما يرى في المعضل
ثقلت به الأعناق من منن الندى
فالهام مطرقة لذاك المثقل
فإذا تلاقى الناس كان حديثهم
عن كل جفن بالخجالة مسدل
أسراء معروف الوزير فكلهم
عاف تراه مطلقا كمكبل
من سمرقند إلى تهامة شاهد
فضل الجمال على الحيا المتهلل
السحب تمطر ما تظل وجوده
يسري ودار مقامه بالموصل
وتقرّ عين محمد بمحمد
محيي دريسي علمه والمنزل
معمار مرقده وحافظ دينه
ومعين أمته بجود مسبل
جعل المدينة مصر ربعا آهلا
نشوان يمرح بالنعيم المحصل
فكأنها بالخصب من قرباته
بلد على شط الفرات السلسل
فلو أنه في عصره نزلت له
في مدحه سور الكتاب المنزل
عبد أخ في ضيفه ووداده
لا يستحيل وسيد في المحفل

خرّق نياط قميصه ورداؤه
بعباب زخّار وهضبة يذبل

قال العماد: وكنت أنا في ذلك العهد متفقها في بغداد، واتفق حضوري بالموصل، سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فحضرت عند جمال الدين بالجامع في جمعتين، وتكلمت عنده مع الفقهاء في مسألتين، ومما مدحته به قصيدة أوّلها:

أظنهم وقد عزموا ارتحالا
ثنوا عنا جمالا لا جمالا
سروا والصبح مبيض الحواشي
فلما حال عهد الوصل حالا
هم اعتادوا الملال فكيف ملوا
وصالهم وما ملوا الملالا
أحادي عيسهم بالله رفقا
فإن السير أورثها الكلالا
وعج نحو الأراك بها فإني
أراه لاجتماع الشمل فالا
سقى صوب الحيا تلعات نجد
وحيا بالحمى تلك التلالا
أخلائي وهل في الناس خل
به أخلو من الأحزان بالا
لئن لم أشف صدري من حسودي
ولم أذق العدى داء عضالا
فلا أدركت من أدبي مرادا
ولا صادفت من حسبي منالا
ولا وخدت إليكم بي جمال
ولا واليت مولانا الجمالا
هو المغني إذا ما المرء أقوى
هو المنجي إذا ما الخطب هالا

وقائلة أفي الدنيا كريم
سواه فقلت: لا وأبي العلالا
أطلت على الورى كرماً وفخراً
كذلك من حوى هذين طالا
وخرت المجد عن كسب وارث
فيا صدر الورى خرت الكمالا
خصصت بكل منقبة وفضل
تعالى من حباك به تعالى

قلت: وقد أكثر الشعراء في مدحه منهم العرقلة له قصيدة منها:
يهوى تجنيه والصدور كما
يهوى المعالي محمد بن علي
جمال دين الإله خير فتى
للرزق أقلامه وللأجل
معطي القرى والقرى لقاصده
من غير منّ والخيل والخول
مثل فتوح الفاروق نائله
شرقاً وغرباً في السهل والجبل
من قال لم يحوذا ويسكن ذا
أصبح مما يقول في خجل
محمد خاتم الكرام كما
سميه كان خاتم الرسل

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدة:
كسى الحرمين لبسة عبد شمس
وهاشم غرّتي نسل الخليل
وللبلد الأمين أجدّ أمناً
تكنف مثله جدث الرسول

عشيتـــــم يـــــاولاة الأمـــــر عما
أتيـــح لـــه مـــن الأثـــر الجميـــل

وطـــار لها وأشفقتـــم فشـــدالـــ
ـــيدين على عـــرى المجـــد الأثيـــل

بيـــوت بـــالحجـــاز مقـــدّســـات
رمـــاهـــا الـــدهـــر بـــالخطـــب الجليـــل

وكـــان إذا الهنّ فصـــاب صـــونـــا
لمن آوتـــه مـــن ولـــد البتـــول

مـــآثـــر بـــاقيـــات يـــوم يجنـــى الـــ
ـــمقال ويجتنـــى طيـــب المقيـــل

وكـــم للمـــوصـــل الحدبـــاء ممـــا
تنيـــل يـــداه مـــن ريـــف ونيـــل

بـــرود الصفـــح ملتهـــب الحواشي
مهيـــب البطـــش فـــراس الـــدخـــول

ولأبي المجد قسيم الحموي فيه من قصيدة:

أغـــر يبصر منـــه النـــاس في رجـــل
والليـــث في بشر والبـــدر في غصـــن

سما بهمتـــه في المكـــرمـــات إلى
عليـــاء يقصر عنهـــا همة الـــزمـــن

يلقـــاك واضـــح ليـــل الفكـــر راجـــح نيـــ
ـــل الكـــف طـــاهـــر ذيـــل السر والعلـــن

مـــاضي العـــزيمـــة ميمـــون النقيبـــة ريـــ
ـــبال الكتيبـــة عين القـــائل اللسـن

إذا تكلـــم واستحليـــت غـــرتـــه
في محفـــل رحـــت حـــالي العين والأذن

كـــأن في الـــدســـت منـــه حين تنظـــره
شمـــس النهـــار وصـــوب العـــارض الهتـــن

قـال ابـن الاثير: وفيهـا في شعبـان من هـذه السنـة وهـي سنـة تسع

وخمسين وخمسمائة توفي الـوزير جمال الديـن محمد بن علي بـن أبي منصور الأصفهاني، كان قد خدم الشهيد فـولاه نصيبين، وظهرت كفايته فأضاف إليه الـرحبة، فأبـان عن كفايـة وعفة، وكـان من خواصـه، فجعله مشرف مملكته كلها، وحكمه تحكيما لامزيد عليه حتى كان وزير الشهيد والحاكم في بلاده ضيـاء الدين بـن الكفرتوثـي يحكي عـن جمال الدين قـال: كان يدخل إلى أتـابك قبلي، ويخرج بعدي،ولم يزل كذلـك إلى أن قتل الشهيد، ثم وزر لولـدي الشهيد سيف الديـن، ثم قطب الديـن، وكان بينه وبين زين الـدين علي كـوجك عهـود ومواثيـق على المصافـاة والاتفاق، وكـان أصحاب زيـن الديـن يكرهونـه، ويقعون فيـه عند زين الـدين فنهـاهم، وكانت الموصل في أيـامه ملجأ لكل ملهوف، ومأمنـا لكل خائف، فسعى به الحساد إلى قطب الـدين حتى أوغروا صدره عليه، وقالوا لـه: إنه يأخذ أموالك فيتصدّق بها، فلم يمكنه أن يغير عليه شيئا بسبب اتفاقه مع زين الدين، فوضع عليـه زين الدين من غيره عن مصافاتـه ومواخاته، فقبض عليه قطب الدين وأصحابه كـانوا يخافون جمال الدين، فلما قبض تبسطوا في الأمر والنهـي، على خلاف غـرض زين الديـن، فبقي جمال الـدين في الحبـس نحواً مـن سنة، ثـم مرض ومضـى لسبيله عظيـم القدر والخطـر، كريم الـورد والصدر، عديم النظير في سعة نفـس، لم يرو في كتب الأوّلين أن أحدا مـن الوزراء اتسعـت نفسه، ومروءتـه لما اتسعت لـه نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوّة، كامل المروّة.

قال ابن الأثير : حكى لي جماعة عن الشيـخ أبي القاسم الصوفي، وهو رجل من الصالحين، كان يتولى خدمـة جمال الدين في محبسه، قال: لم يزل الجمال مشغـولا بأمـر آخرتـه مدّة حبسـه، وكان يقـول: كنت أخشـى أن أنقل مـن الدست إلى القبر، قال: فلما مـرض قال لي بعض الأيام: يـا أبا القـاسم إذا جـاء طـائر أبيض إلى الـدار فعـرفنـي، فقلت في نفسي: قـد اختلط الرجـل، فلما كان الغداة أكثر السؤال عن ذلـك الطائر وإذا طائر أبيض لم ير مثلـه قد سقط، فقلت لـه: قد جاء الطائر، فـاستبشر، ثم قال،

جاء الحق، وأقبل على الشهادة، وذكر اللّه تعالى، وتوفي فلما توفي طار ذلك الطائر، قال: فعلمت أنه رأى شيئا في معناه، ودفن في الموصل نحو سنة، وكان قد قال للشيخ أبي القاسم: إن بيني وبين أسد الدين شيركوه عهداً من مات منا قبل صاحبه حمله الحيّ إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فدفنه بها في التربة التي عملها، فإن أنا مت فامض إليه وذكره، فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في هذا المعنى، فأعطاه مالاً صالحاً ليحمله به إلى مكة والمدينة، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل، وقدوم مدينة تكون في الطريق، وينادون في البلاد بالصلاة على فلان، ففعلوا ذلك فكان يصلى عليه في كل مدينة خلق كثير، فلما كان في الحلة اجتمع الناس للصلاة عليه، فإذا شاب قد ارتفع إلى موضع عال ونادى بأعلى صوته:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما ... سرى بره فوق الركاب ونائله

يمر على الوادي فتثني رماله ... عليه وفي النادي فتبكي أرامله

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم ، ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم،وحملوه إلى المدينةفصلوا عليه أيضا ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها، وبينه وبين قبر النبي صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ذ راعا.

قلت: كذا قال ابن الاثير، ولقد رأيت المكان، ولعله أراد الحائط الشرقي من مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، لانفس القبر الشريف زاده اللّه شرفا وصلى على ساكنه.

ثم قال: كان جمال الدين رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلا للمال، رحيما بالناس ومتعطفا عليهم عادلاً فيهم، فمن أعماله

الحسنة أنـه جدد بنـاء مسجد الخيـف بمنى، وغـرم عليه أمـوالا عظيمة، وبنى الحجر بجـانـب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثـم غير وبني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة، وزخـرف الكعبة بالذهـب والنقرة، فكل مـا فيها من ذلك فهو عمله إلى سنـة تسع وستمائة، ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفي لأمر الله هدية جليلـة حتى أذن فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى ابن هاشم خلعـاً سنية وهدية كثيرة حتى مكنه منـه، وعمر أيضا المسجد الـذي على جبل عـرفات، وعمـل الدرج الـذي يصعد فيهـا إليه، وكـان الناس يلقـون شدة في صعودهـم، وعمل بعـرفات مصانـع للماء، وأجرى الماء إليها مـن نعمان في طريق معمولـة تحت الجبل مبنية بالكلـس ، فغرم على ذلك مـالاً كثيراً، وكان يعطي أهـل نعمان كل سنة مـالا كثيرا ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحجاج بعـرفات، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة.

قال: ومـن أعظم الأعمال التي عملهـا نفعا أنـه بنى سورا على مـدينة النبـي صلى الله عليـه وسلم ، فـإنها كـانت بغير سـور ينهبها الأعـراب، وكان أهلهـا في ضنك وضر معهم، رأيت بـالمدينة إنسانـا يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا لـه ، فسألناه عن سبب ذلك فقال: يجب على كل مـن بالمدينـة أن يدعـو له، لأننـا كنا في ضر وضيـق ونكد عيش مـع العرب، لايتركـون لأحد منـا ما يـواريه ويشبـع جوعتـه، فبنى علينا سورا احتمينا به ممن يريدنا بسوء، فاستغنينا فكيف لاندعوله.

قال: وكـان الخطيب في المدينة يقول في خطبتـه: اللهم صن حـرم من صان حرم نبيـك بالسور محمد بـن علي بن أبي منصور، قال: فلـو لم يكن له إلاّ هذه المكرمـة لكفاه فخراً، فكيف وقد كانـت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها.

وسمعت عن متولي ديوان صدقـاته التي يخرجها على باب داره للفقراء

سوى الإدرارات والتعهدات قال: كان له كل يوم مائة دينار أميرية يتصدّق بها على باب داره.

قال: ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس، إلاّ أنه لم يفرغ لأنه قبض قبل فراغه، وبنى أيضا جسرا على نهر الباريا عند الجزيرة أيضا، وبنى الربط بالموصل وسنجار ونصيبين وغيرها، وقصده الناس من أقطار الأرض، ويكفيه أن صدر الدين الخجندي رئيس أصحاب الشافعي رضي اللّه عنه بأصبهان ، وابن الكافي قاضي قضاة همذان قصداه، فأخرج عليهما مالاً جزيلا وكذلك غيرهما من الصدور والعلماء ومشايخ الصوفية ، وصارت الموصل في أيامه مقصداً وملجأ، وكان أحب الاشياء إليه إخراج المال من الصدقات، وكان يضيق على نفسه وبيته ليتصدق.

حكى لي والدي قال: كنت يوما عنده وقد أحضر بين يديه قندز ليعمل على وبر ليلبسه بخمسة دنانير، فقال: هذا الثمن كثير اشتروا لي قندز بدينارين وتصدّقوا بثلاثة دنانير، قال: فراجعناه غير مرّة، فلم يفعل.

قال: وحكى لي من اثق إليه من العدول بالموصل: أن الأقوات تعذرت في بعض السنين بها، وغلت الأسعار، وكان بالموصل رجل من الصالحين يقال له الشيخ عمر الملاء فأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا وقال له:تخرج هذا على مستحقيه، وكلما فرغ أرسل إلي لأنفذ غيره، فلم يمض إلاّ أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين، فأنفذ له شيئا آخر ففني، ثم أرسل يطلب ما يخرجه فقال جمال الدين للرسول: واللّه ما عندي شيء ولكن خذ هذه المحافير التي في داري فبيعوها وتصدّقوا بثمنها إلى أن يأتيني شيء آخر فنرسله إلى الشيخ عمر، فبيعت المحافير وتصدقوا بثمنها، وعرّفوه ذلك فلم يكن عنده ما يرسله فأعطاه

ثيابه التي كـان يلبسها مع العمامة التي كانـت على رأسه، وأرسل الجميع وقال للـرسول: قـل للشيخ لايمتنع مـن الطلب فهـذه أيام مـواساة، فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدّق بثمنها.

قال: وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ بالموصل قـال: أحضرني الشيخ فقال لي: انطلق إلى مسجد الوزير وهـو بظاهر الموصل واقعـد هناك، فإذا أتاك شيء فـأحفظه إلى أن أحضر عندك ففعلت، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالا من النصـافي والخام، وإذا قد جـاء نائب جمال الـدين مـع الشيخ ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثيرة من الجمال فقال لي: تأخذ هـذه الأحمال وتسير إلى الرحبة فتـوصل هـذه الـرزمـة وهذا الكتـاب إلى متوليهـا فلان، فإذا احضر لـك فلانا العـربي ، فتوصـل إليه هذه الـرزمة وهذا الكتـاب وهكذا إلى المدينـة على ساكنهـا أفضل الصـلاة والسلام، توصـل إلى وكيلي فلان هـذه الأحمال وهذه الكسـوات والمال الذي عليـه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة، ثم يأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة ويسير إليها فيتصدق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى.

قـال: فسرنا كـذلك إلى وادي القـرى فرأينـا به نحـو مائة جمل تحمـل الطعام إلى المدينة وقـد منعهم خوف الطريق، فلما رأونا سـاروا معنا إليها فوصلنـاها والحنطـة بها كل صاعين بـدينار مصري، والصـاع خمسة عشر رطلاً بـالبغدادي، فلما رأوا الطعـام والمال اشتروا كل سبعـة آصع بـدينار، فانقلبت المدينة بالدعاء له، ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا.

قال: وحكى لي والدي قال: رأيت جمال الـدين وقد حضر عنده رجل فقيـه، قبل أن يصير وزيـراً فطلـب منـه شيئا وتـردّد إليـه عـدة أيام، ثـم انقطع فسأل عنه فقيل إنه سافر فشق ذلك عليه، ثم قال: هكذا ينصرف الأحرار عـن دور الكلاب ، وردّد ذلك غير مرة، ثـم سأل عنه.فقيـل إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين.

قال: ولو رمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت، وهي ظاهرة لاتحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها.

وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب الإعتبار فقال: اجتمعت بجمال الدين الموصلي سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وأنا متوجه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة، وعشرة ومؤانسة فعرض عليّ الدخول إلى داره في الموصل فامتنعت ونزلت بخيمتي على الشط فكان مدّة مقامي كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوى، وأتابك قد ركب إلى الميدان وينفذ إليّ يقول: أركب فأنا واقف أنتظرك، فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث، فوجدت يوما منه خلوة من أصحابي فقلت له: في نفسي شيء يتردّد من حيث اجتمعنا اشتهي أن أقوله لك وما يتفق لي خلوة، وقد خلونا الساعة، قال: قل ، قلت :أقول ما قاله الشريف الرضي:

ما ناصحتك خفايا الودّ من أحد
ما لم يصبك بمكروه من العذل
مودّتي لك تأبى أن تسامحني
بأن أراك على شيء من الزلل (٩٦)

وقد بسطت يدك في إنفاق المال في الصدقات ووجوه البرّ والمعروف، والسلاطين ما يحتملون إخراج المال، ولاتصبر نفوسهم عليه، ولو أن الانسان يخرجه من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه، فأطرق ساعة، وقال: جزاك اللّه خيراً لكن الأمر قد عبر عما تخافه،ففارقته وسرت إلى الحجاز وعدت من مكة على طريق الشام، ونكب جمال الدين ومات في الحبس.

قلت: ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشاتاني في هذا الوزير الجواد لما نكب:

ما حط قدرك من أوج العلى القدر
كلا ولا غيرت أفعالك الغير
أنت الذي عم أهل الأرض نائله
ولم ينل شأوه في سؤدد بشر
سارت صفاتك في الآفاق واتضحت
وصدّق السمع عنها ما رأى البصر
فاصبر لصرف زمان قد منيت به
فآخر الصبر يا طود النهى الظفر
فما ترى أحدا في الخلق يسلم من
صروف دهر له في أهله غير
سعوا بقصدك سرا واستتب لهم
ولو سعوا نحوه جهراً لما قدروا
لولا الأماني التي تحيي النفوس بها
لمت من لوعة في القلب تستعر

ومنها في ذكر الشيخ عمر الملاء:
وأصدق الناس في حفظ العهود إذا
ميزت بالفكر أحوال الورى عمر
الزاهد العابد البرّ التقي ومن
يزوره ويقوّي أزره الخضر

وقال العرقلة يرثي جمال الدين الوزير والصالح بن رزيك:
لا خير في الدنيا ولا أهلها
بعد جمال الدين والصالح
بحران لولا دمع باكيهما
ما كان ماء البحر بالمالح

قال ابن الأثير: قال والدي: كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيام الشهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها والمحاققة فيها ما

يـدل على تمكنه مـن الكفايـة ، فلما وصل الأمـر إلى الملك قطـب الديـن مودود بن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيـره حينئذ،وقد تمكن زين الدين علي بن بكتكين في الـدولة تمكنا عظيما ، وتقدم عنـد قطْب الديـن جماعة من أصحابه فكان جمال الدين مـع تمكنه وعلوّ محله يهمل بعض الأمور ، قال: فقلـت له يـوما:أيـن تلك الكفـاية التـي كنا نـراها منـك في الأيام الشهيـدية، مـا أرى الآن منها شيئـا؟ فقـال لي: والآن ما عنـدي كفايـة؟ فقلـت: ما هـذا العمل مـن ذلك بشيء، فقـال: أنت صبـي غرّ ليسـت الكفـاية عبـارة عـن فعـل واحد في كـل زمـان، إنما الكفـاية أن يسلـك الانسان في كـل زمان ما يناسبـه ، ذلك الوقـت كان لنا صاحـب متمكن قـوي العـزم لايتجـاسر أحـد على الاعتراض عليـــه، ولا يتلـوّن بـأقـوال أصحابـه، فحفظناه فكان مـا أفعله هو الكفـاية ، وأما الآن فلنـا سلطان غير متمكن ، وهو محكوم عليه، فهذا الذي أفعله هو الكفاية.

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

قال ابن الأثير : فيهـا فتح نور الدين قلعـة بانياس من الفـرنج، وكان قد سار إليها بعـد عوده من فتح حارم، وأذن لعسكرَ الموصـل وديار بكر بالعـود إلى بلادهم، وأظهر أنـه يريد طبرية، فجعـل من بقي من الفـرنج همهم حفظها وتقويتها، فسار نور الدين مجداً إلى بانياس، لعلمه بقلة من فيهـا من الحماة، المانعين عنهـا، ونازلها وضيـق عليها وقـاتلها، وكـان في جملة عسكره أخـوه نصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهـم أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لوكشـف لك عن الأجر الذي أعدّ لك لتمنيت أن تـذهب الأخـرى، وجدّ في حصارهـا، وسمع الفـرنج بـذلك، فجمعوا فلم تتكامـل عدّتهم حتى فتحه اللّه تعالى، على أن الفـرنج كانوا قـد ضعفوا بقتـل رجالهم بحـارم وأسرهم، فملـك القلعة ومـلأها ذخـائر وعـدّة ورجالا عـدّة، وعاد نـور الديـن إلى دمشـق وفي يده خـاتم بفـص ياقـوت من أحسن الجوهـر فسقط من يـده في شعراء بانيـاس وهي كثيرة الأشجار ملتفـة الأغصان، فلما أبعـد من المكـان الذي ضـاع فيه الفـص علم بـه فأعـاد بعض أصحـابه في طلبـه ودلهم على مكانـه، وقال: أظنـه هناك ضـاع، فعادوا إليه فوجـدوه، فقال بعض الشعراء الشـاميين وأظنه، أحمد بن منير من جملة قصيدة يمدحـه بها ويهنيه بهذه الغزاة وعود الفص الياقوت:

إن يمترِ الشكـــاك فيـــك فـــإنـــك الــــ — ـــمهدي مطفـــي جمرة الـــدجـــال
فلعـــودة الجبـــل الـــذي أضللتـــه — بـــالامـــس بين غيـــاطـــل وجبـــال
مسترجعـــا لـــك بـــالسعـــادة آيـــة — ردت مطـــال الفـــال غير مطـــال
لم يعطهـــا إلا سليمان وقـــد — نلـــت الـــوفـــاء بمـــوشـــك الاعجـــال

زجــرجــرى لسريــر ملكــك إنــه
كسريــره عــن كــل جــدر عــال
فلــو البحــار السبعــة استهــوينــه
وأمــرتهنّ قــذفنــه في الحال

قلت: هذه الابيات لابن منير بلاشك، ولكن في غير هذه الغزاة، فإن ابن منير قد سبق أنه توفي سنة ثمان وأربعين، وفتح بانياس كما تراه في سنة ستين، وقد قرأت في ديوان ابن منير وقال: يمدحه ، يعني نور الدين ويهنيه بالعود من غزاة وضياع فص ياقوت جبل من يده، لاشتغاله بالصيد، شراه ألف ومائة دينار، وفي نسخة : ووجد أن خاتم ضاع منه في الصيد قيمته ألف ومائة دينار، وأنشده إياها بقلعة حمص فذكر القصيدة أوّلها :(يوماك يوم ندى ويوم نزال)

يقول فيها:
أخــرســت شقشقــة الضــلال وقــدتــه
قــود الــذلــول أطــاع بعــد صيــال
ورميــت دار المشركين بصيلــم
القحــت فيهــا الحرب بعــد حيــال
وسعــرت بين تــريبهــم وتــرابهم
ذعــرا يشيــب نــواصي الاطفــال
فــوق الخطيــم وقــد خطمــت زعيمهــم
ضربــا ســوابقــه بغير تــوالي
ضربــا مــلأت فــرنجــة مــن جــرّه
رهبــا بــه سيــف الصقــالــب صــالي
وبفــج حــارم أحــرمــت لقــراعهــم
هيــم أحلــن النــوم غير حــلال
عجمــوا على جسر الحديــد حــديــدهــا
نبعــا يعــاذ مــه أديــر دصــال

زلــزلــت أرضهــم بــوقــع صــواعــق
أعطيننــا أمنــا مــن الــزلــزال
في مــأزق شمــرت ذيلــك تحتــه
والنصر فــوقــك مسبــل الاذيــال
في دولــة غــراء محمــوديــة
سحبــت رداء الحمــد غير مــذال
تنسي الفتــوح وتجتنــي
زهــر المقــال ببــاهــر الأفعــال
لبســت بنــور الــديــن نــور حــدائق
ثمــراتهن غــرائب الافضــال
ملــك تحجــب في السريــر بــزأرة
زرّت حــواشيهــا على ريــال
تنجــاب عــن ذي لبــدتين شــداتــه
في بــردتي بــدل مــن الأبــدال
رفــع الــرواق بــروق أنطــاكيــة
فــرمــى الخليــج بمــرهــق البلبــال
بــدر لأربــع عشرة أقتبــس السنــا
مــن خمس عشرة ســورة الأنفــال
فــوز المآل أخــاضــه مــاء الطلى
وســواه يقعــده احتيــاز المال
متقســم بين القسيمين العلى
عــن عــمّ عــم أو مخايــل خــال
لازلــت تطلــع مــن ثنــايــا جحفــل
يقفــو لــواءك كــاللــوى المنهــال
لــك أن تطــل على الكــواكــب راقيــا
ولحاســديــك بكــا على الأطــلال

وبما يناسب هذه السعادة في وجدان الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك والضياع ما بلغني أن موسى الهادي لما ولي الخلافة سأل عن خاتم عظيم

القيمة كان لأبيه المهدي، فبلغه أن أخاه الرشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع فألح عليه فيه فحنق الرشيد ومرّ على جسر بغداد فرماه في دجلة ، فلما مات الهادي وولي الرشيد الخلافة أتى إلى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه، ثم أمر الغطاسين أن يلتمسوه ففعلوا فاستخرجوا الخاتم الأوّل، فعدّ ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه.

قال ابن الأثير: ولما فتح نور الدين حصن بانياس كان ولد معين الدين أنر الذي سلم بانياس إلى الأفرنج قائما على رأسه فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان، فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برّد جلدة والدك من جهنم، وقد تقدم أنه كان صانع بها عن دمشق لما نزل الفرنج عليها.

وفيها توفي وزير بغداد عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، من بني ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن الحصن، وكان عالما دينا مدبراً، حنبلي المذهب وزر للمقتفي ثم للمستنجد بعده ، وله عدّة مصنفات منها الافصاح في شرح الأحاديث الصحاح، وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الأربعة والنحاة وغيرهم، ويجري بحضرتهم فوائد كثيرة، ثم توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث عشر جمادى الأوّل سنة ستين وخمسمائة، ورؤيت له منامات حسنة، ومدحه جماعة من الفضلاء، ومولده في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دجيل تعرف بالدور، وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق، وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره، ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: واجتهد أن تستر العصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في الاسلام، وأولى الأمور ستر العيوب.

- ٧٨٩٠ -

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

ففيها توفي فتح الدين بن أسد شيركوه، أخو ناصر الدين وقبره بالمقبرة النجمية إلى جانب قبر ابن عمه شاهنشاه بن أيوب في قبة فيها أربع قبور هما الأوسطان منها، وفي هذين الأخوين ناصر الدين وفتح الدين يقول العرقلة حسان:

للّه شبلا أسد خادر ... ما فيهما جبن ولا شح

ما أقبلا إلاّ وقال الورى ... قد جاء نصر اللّه والفتح

وفيها سار نور الدين أيضا إلى حصن المنيطرة، وهو للفرنج، ولم يحشد له ولاجمع عساكره إنما سار إليه على غرة من الفرنج، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا ، فانتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصرها، وجدّ في قتالها وأخذها عنوة وقهرا، وقتل من بها وسبى، وغنم غنيمة كثيرة لأمن من به فأخذتهم خيل الله (بغتة وهم لايشعرون[٩٧])، ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلاّ وقد ملكه، ولو علموا أنه جرد جريدة لأسرعوا ، وإنما ظنوا أن نورالدين في جمع كثير، فلما ملكه تفرّقوا وايسوا منه، وهذا قول ابن الأثير.

وذكر القاضي ابن شداد أن ذلك كان في سنة اثنتين وستين ، كما سيأتي والله أعلم.

وفيها توفي الجليس بن الحباب بمصر

قال العماد في الخريدة: القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن

الحسين بن الحباب الأغلبى السعدي التميمي، جليس صاحب مصر، وفضله مشهور، وشعره مأثور، وكان أوحد عصره في مصره نظما ونثرا وترسلا وشعرا، ومات بها في سنة إحدى وستين وقد أناف على السبعين، وأنشدني له الأمير نجم الدين بن مصال من قصيدة يقول فيها:

ومن عجب أن السيوف لديهم
تحيض دماء والسيوف ذكور
واعجب من ذا أنها في أكفهم
تأجج نارا والاكف بحور

قال: وأنشدني له الشريف ادريس الادريسي قصيدة سيرها إلى الصالح رزيك قبل وزارته يحرضه على إدراك ثأر الظافر، وكان عباس وزيرهم قتله وقتل أخوته يوسف وجبريل يقول فيها:

أصادفهم قولا وغيبا ومشهدا
نحوهم على عمد بفعل أعادي
فأين بنو رزيك عنها ونصرهم
وما لهم من منعة وذياد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم
ومصرعهم لم تكتحل برقاد
فمزق جموع المارقين فانها
بقايا زروع أذنت بحصاد

وله فيه من أخرى في هذه الحادثة:

ولما ترامى البربري بجهله
إلى فتكة ما رامها قط رائم
ركبت إليه متن عزمتك التي
بأمثالها تلقى الخطوب العظائم
أعدت إليهم ملكهم بعد ما لوى
به غاصب حق الامامة ظالم

وأنفذ إليه في المعنى يقول:

أعـــدت إلى جســـم الـــوزارة روحهـــا
وما كـــان يـــرجـى بعثهـــا ونشـــورهـــا
أقـــامـــت زمـــانـــا عنـــد غيرك طـــامثـــا
فهـــذا الأوان قـــرؤهـــا وطهـــورهـــا
مـــن العـــدل أن يحظـــى بها مستحقهـــا
ويخلعهـــا مـــردودة مستعيرهـــا
إذا ملـــك الحسنـــاء مـــن ليـــس كفـــؤهـــا
أشـــار عليـــه بـــالطـــلاق مشيرهـــا

وله يشكو طبيبا:

وأصـــل بليتـــي مـــن قـــد غـــزاني
مـــن السقـــم الملـــح بعسكـــريـــن
طبيـــب طبـــه كغـــراب بين
يفـــرق بين عـــافيتـــي وبينـــي
أتـــى الحمـــى وقـــد شـــاخـــت وبـــاخـــت
فـــردّ لها الشبـــاب بنسختين
ودبـــرهـــا بتـــدبير لطيـــف
حكـــاه عـــن سنـــان أو حنين
وكـــانـــت نـــوبـــة في كـــل يـــوم
فصيرهـــا بحـــذق نـــوبتين (٩٨)

قلت: الأبيات الرائية تمثل بها الجليس وهي لصردر قرأتها في ديـوانه، وهـي من قصيـدة يمدح بها وزيـر الخليفة ببغـداد فخر الـدولة أبـا نصر محمد بن محمد بن جهير ويهنيه بعوده إلى الوزارة وأوّل القصيدة:

لجاجـــة قلـــب مـــا يفيـــق غـــرورهـــا
وحـــاجـــة نفـــس ليـــس يقضـــى يسيرهـــا

وهي طويلة يقول في غزلها:

وقفنــــا صفــوفــــا في الــــديــــار كـــأنها
صحــــائف ملقــــاة ونحــــن سطــورهــــا
يقــــول خليلي والظبــــاء ســــوانــــح
أهــــذي التــــي تهوى فقلــــت نظيرهــــا
وقــــد قلتها لي ليــــس في الأرض جنــــة
أمــا هــذه فــوق الــركــائب حــورهــا
أراك الحمــــى قــــل لي بــــأي وسيلــــة
وصلــت إلى أن صــادفتــك ثغــورهــــا
ومــــالي بها علــــم فهــــل أنــــت عــــالم
أأفــــواههــــا أولى بها أم نحــــورهــــا
على رسلكــــم في الهجــــر إنــــا عصــــابــــة
إذا ظفــــرت في الحب عــــف ضميرهــــا

ويقول في مديحها:

فقــــل لليــــالي كيــــف شئــــت تقلبــــي
ففــي يــد عبــل الســاعــديــن أمــورهــا
أمــــاني في نفــــس الــــوزارة بلغــــت
بــــه كنهها حتــى استحقــت نــذورهــا
لــوت وجهها عــن كــل طــالــب متعــة
إلى خــاطــب حــل عليــه سفــورهــا
إذا مثــــل الأقــــوام دون عــــرينــــه
تســاوى بــه ذو طيشهــا ووقــورهــا
تكــــاد لما قــــد ألبســــت مــــن سكينــــة
تــــرف على تلــــك الــــرؤوس طيــــورهــا

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

ففيها عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخر، وقد كان بعد رجوعه من مصر لايزال يحدّث نفسه بقصدها ومعاودتها ، حريصا على الدخول إليها يتحدث به مع كل من يثق إليه، وكان مما يهيجه على العود زيادة حقده على شاور وما عمل معه، فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وفي ذلك يقول العرقلة :

أقول والأتراك قد أزمعت ... مصر إلى حرب الأعاريب

رب كما ملكتها يوسف الـ ... صدّيق من أولاد يعقوب

ملكها في عصرنا يوسف الـ ... صادق من أولاد أيوب

من لم يزل ضراب هام العدى ... حقا وضرّاب العراقيب

ثم أن أسد الدين جدّ في السير على البر، وترك بلاد الافرنج عن يمينه، فوصل إلى الديار المصرية، وقصد أطفيح، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة مقابل مصر، وتصرف في البلاد الغربية، وأقام بها أربعا وخمسين يوما، وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصعب والذلول، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجدّ والتشمير، وتارة يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النوري على الاسراع في المسير، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد، فبلغوا مكانا يعرف بالبابين، وسارت العساكر المصرية والفرنج من ورائهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، وكان قد أرسل إليهم

جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعـددهم وجدهم في طلبه، فعزم على قتالهم وبقـائهم، وأن تحكم السيوف بينـه وبينهم، إلا أنه خـاف من أصحـابـه أن تضعف نفـوسهـم في الثبـات في هذا المقـام الخطير الـذي عطبهـم فيه أقـرب من السـلامة لقلـة عـددهم وبعـدهم عـن بلادهـم، فاستشارهم فكلهم أشار عليـه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالـوا له:إن نحن إنهزمنا وهـو الذي لاشك فيه فـإلى أين نلتجي وبمن نحتمـي، وكل من في هـذه الديار من جنـدي وعامي وفـلاح عدو لنا ويودون لو شربـوا دماءنا، وحق لعسكر عدّتهم ألـف فارس قد بعدوا عن ديارهـم، وقل ناصرهم أن يـرتاع من لقاء عشرات ألـوف، مع أن كل البلاد عدو لهم، فلما قـالوا ذلك قام إنسـان من المماليك النوريـة يقال له شرف الديـن بزغـش، وكان مـن الشجاعـة بالمكـان المشهور، وقـال: من يخاف القتـل والجراح والأسر فلا يخدم الملـوك، بـل يكـون فلاحـا أو مـع النساء في بيتـه، والله لئـن عدتـم إلى الملك العـادل من غير غلبـة وبلاء تعذرون فيه ليأخـذن إقطاعاتكم، وليعودن عليكم بجميـع ما أخذتموه إلى يومنـا هذا ويقول لكـم: أتأخذون أمـوال المسلمين وتفرّون عن عـدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيهـا الكفار، قال أسد الدين: هذا رأيـي وبه أعمـل ووافقهما صلاح الديـن يوسف بـن أيوب، ثـم كثر الموافقون لهم على القتـال فاجتمعـت الكلمة على اللقـاء، فأقـام بمكانـه حتـى أدركه المصريـون والفرنـج وهـو على تعبية، وقـد جعل الأثقـال في القلـب يتكثـر بها، ولأنه لم يمكنـه أن يتركهـا بمكـان آخر فينهبهـا أهـل البلاد، ثم إنه جعل صلاح الديـن ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه: إن الفرنـج والمصريين يظنون أننـي في القلب فهـم يجعلون جمرتهم بـإزائه وحملتهـم عليـه، فـإذا حملـوا عليكـم فلا تصـدقـوهـم القتـال ولاتهلكـوا نفـوسكم وانـدفعوا بين أيـديهم،فإذا عـادوا عنكم فـارجعوا في أعقـابهم، واختـار مـن شجعـان أصحـابـه جمعـا يثـق إليهـم ويعـرف صبرهـم وشجاعتهـم، ووقف بهم في الميمنـة ، فلما تقابـل الطائفتـان فعل الفـرنج

ماذكره أسد الدبن، وحملوا على القلب ظنا منهم أنه فيه فقاتلهم من به قتالا يسيرا ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم، فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين فهزموهم، ووضع السيف فيهم ، فأثخن وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج من أثرالمنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعاً ليس بها منهم ديار، فانهزموا أيضا، وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل، ثم سار أسد الدين إلى ثغر الاسكندرية وجبى ما في طريقها من القرايا والسواد من الأموال، ووصل إلى الاسكندرية فتسلمها من غير قتال سلمها إليه أهلها، فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه، وعاد إلى الصعيد وتملكه وجبى أمواله وأقام به حتى صام رمضان، وأما المصريون والفرنج، فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قتل منهم واستكثروا وحشدوا وساروا إلى الاسكندرية وبها صلاح الدين في عسكر يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتدّ الحصار، وقل الطعام بالبلد فصبر أهلها على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسول المصريين والفرنج يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابهم إلى ذلك وشرط أن الفرنج لايقيمون بمصر ولايتسلمون منها قرية واحدة، وأن الاسكندرية تعاد إلى المصريين ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة وتسلم المصريون الاسكندرية في النصف من شوال، وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، ويكون أبوابها بيد فرسانهم، ليمتنع الملك العادل من إنفاذ عسكر إليهم ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار، وهذا كله يجري بين الفرنج وبين شاور، وأما العاضد صاحب مصر فليس إليه من الأمر شيء، ولايعلم بشيء من ذلك، قد

حكم عليه شاور وحجبه، وعاد الفرنج إلى بلادهم، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة، ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي وهو من أكابر أمراء الملك العادل، وهو خال صلاح الدين يوسف، ينهي محبته وولاءه ويسأله أن يأمر باصبلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته، ويجمع كلمة الاسلام، وبذل مالاً يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلاً فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى في أخبار سنة أربع وستين.

قال القاضي أبو المحاسن: ذكر عود أسد الدين إلى مصر في المرة الثانية وهي المعروفة بوقعة البابين.لم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك وداخله الخوف على البلاد من الأتراك، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد، وأنه لابد له من قصدها، فكاتب الفرنج وقرّر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكينا كليا ويعينونه على استئصال أعدائه، بحيث يستقر قدمه فيها، وبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين فاشتدّ خوفهما على مصر، أن يملكها الكفار فيستولون على البلاد كلها، فتجهز أسد الدين، وأنفذ نور الدين معه العسكر، وألزم صلاح الدين رحمه الله بالسير معه على كراهة منه لذلك،وذلك في أثناء ربيع الأول وكان وصولهم البلاد المصرية مقاربا لوصول الفرنج إليها، واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم، وجرى بينهم حروب كثيرة، ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن الديار المصرية ، وانفصل أسد الدين، وكان سبب عود الفرنج أن نور الدين قدّس الله روحه جرد العساكر إلى بلاد الأفرنج، وأخذ المنيطرة، وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم، وعادوا وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد، وعاينوه من الأهوال، وما عاد حتى صالح الفرنج

على أن ينصرفوا كلهم عن مصر، وعاد إلى الشام في بقية السنة، وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها، فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل، والقضاء يجره إلى شيء قد قدّر لغيره وهو لايشعر بذلك.

قال: وفي أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد مسير أسد الدين في رجب، وخرّب قلعة أكاف بالبرية، وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب الدين وزين الدين بحماة للغزاة ، وساروا إلى بلاد الفرنج ، فخربوا هونين في شوال منها، وفي ذي القعدة منها كان عود أسد الدين إلى مصر، وفيه مات قرا أرسلان بديار بكر.

فصل

وفي شعبان من هذه السنة قدم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني مصنف كتابي الفتح والبرق فأنزله قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن الشهرزوري بالمدرسة النورية الشافعية، عند حمام القصير بباب الفرج المنسوبة الى العماد وإنما نسبت إليه لأن نور الدين رحمه اللّه ولاه إياها في رجب سنة سبع وستين ، بعد الشيخ الفقيه ابن عبد، وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، ابني شاذي من تكريت بسبب أن عمه العزيز أحمد بن حامد اعتقله السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بقلعة تكريت ، ونجم الدين أيوب آنذاك واليها، فانتسجت المودّة بينهم من هناك، فلما سمع نجم الدين بوصوله بكر إلى منزله لتبجيله، وكان صلاح الدين وشيركوه حينئذ بمصر فمدح العماد نجم الدين أيوب بقصيدة أوّلها

يوم النوى ليس من عمري بمحسوب
ولا الفراق إلى عيشي بمنسوب

مـــا اخترت بعـــدك لكـــن الـــزمـــان أتـــى
كـــرهـــا بها ليـــس يـــا محبـــوب محبـــوبي
أرجـــو إيـــابي إليكـــم ظـــافـــرا عجـــلا
فقـــد ظفـــرت بنجـــم الـــديـــن أيـــوب
مـــوفـــق الـــرأي مـــاضي العـــزم مـــرتفـــع
على الأعـــاجـــم مجداً والأعـــاريـــب
أحبـــك اللّـــه إذ لازمـــت نجـــدتـــه
على جبين بتـــاج الملـــك معصـــوب
أخـــوك وابنـــك صـــدقـــا منهما اعتصما
بـــاللّـــه والنصر وعـــد غير مكـــذوب
هما همامـــان في يـــومـــي وغـــى وقـــرى
تعـــودا ضرب هـــام أو عـــراقيـــب
غـــدا يشبـــان في الكفـــار نـــار وغـــى
بلفحهـــا يصبـــح الشبـــان كـــالشيـــب
بملـــك مصر ونصر المؤمنين غـــدا
تحظـــى النفـــوس بتـــأنيـــس وتطييـــب
ويستقـــرّ بمصر يـــوســـف وبـــه
تقـــرّ بعـــد التنـــائي عين يعقـــوب
ويلتقـــي يـــوســـف فيهـــا بـــأخـــوتـــه
واللّـــه يجمعهـــم مـــن غير تثـــريـــب

وكان أنشده هذه القصيدة في آخر شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وتم ملكهم مصر بعد سنتين.

قال: فنظمت ما في الغيب تقديره.

قال: وكـان أسد الـدين قد جمع وسـار إلى مصر في الرمـل في النصف من ربيع الأوّل ووصـل في سادس ربيع الآخر إلى أطفيـح ، وعبر منها إلى الجانب الغربي، وأنـاخ بالجيزة محاذاة مصر فأقام عليها نيفـا وخمسين يوما

واستعان شاور بالفرنج ، ورتبوا لهم سوقا بالقاهرة، وعبروا بهم من البلاد الشرقية إلى الغرب، وعلم أسد الدين فسار أمامهم فالتقوا بموضع يعرف بالبابين فكسرهم أسد الدين وأصحابه وقتلوا من الفرنج وممن تبعهم من المصريين ألوفا، وحصل منهم في الاسار سبعون فارسا من بارونيتهم، فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا إلى الاسكندرية ، فوجدوا مساعدة أهلها فدخلوها، ثم قال أسد الدين: أنا لايمكنني أن أحصر نفسي فأخذ العسكر وسار به إلى بلاد الصعيد، فاستولى عليها وجبى خراجها، وأقام صلاح الدين بالاسكندرية، فسار إليه شاور والفرنج فحاصروه أربعة أشهر، وصدق أهل الاسكندرية القتال مع صلاح الدين، وقوي أسد الدين بقوص ، واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص، فسمع الفرنج أنه جاء يقصدهم فرحلوا عن الحصار، وكان شاور قد استمال جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين بالذهب، فلما راسلوه في المهادنة أجاب، وطلب منهم عوض ما غرمه ، فبذلوا له خمسين ألف دينار ، فخرجوا من الاسكندرية في النصف من شوال، ووصلوا إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة، وعادوا إلى الخدمة النورية، فاجتمع العماد بأسد الدين وأنشده هذه القصيدة:

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر
ونلت ما عجزت عن نيله القدر

من يهتدي للذي أنت اهتديت له
ومن له مثل ما أثرته أثر

أسرت أم بسراك الأرض قد طويت
فأنت اسكندر في السير أم خضر

أوردت خيل بأقصى النيل صادرة
من الفرات تقاضى وردها الصدر

تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها
إلا حديثك ما بين الورى سمر

فأنت من زانت الأيام سيرته
وزاد فوق الذي جاءت به السير

لــو في زمــان رســول اللّـــه كنــت أتــت
في هــــذه السيرة المحمـــودة الســـور
أصبحــت بـــالعــدل والاقـــدام منفــردا
فقـــل لنـــا أعليّ أنـــت أم عمـــر
اسكنــدر ذكـــروا أخبـــار حكمتـــه
ونحـــن فيـــك رأينـــا كـــل مـــا ذكـــروا
ورستـــم خبرونـــا عـــن شجـــاعتـــه
وصـــار فيـــك عيـــانـــا ذلـــك الخبر
أفخـــر فـــإن ملـــوك الأرض أذهلهـــم
مـــا قـــد فعلـــت فكـــل فيـــك مفتكـــر
سهـــرت إذ رقـــدوا بـــل هجـــت إذ سكنـــوا
وصلـــت إذ جبنـــوا بـــل طلـــت إذ قصروا
يستعظمـــون الـــذي ادركتـــه عجبـــاً
وذاك في جنـــب مـــا نـــرجـــوه محتقـــر
قضـــى القضـــاء بما نـــرجـــوه عـــن كثـــب
حتما ووافقـــك التـــوفيـــق والقـــدر
شكـــت خيـــولـــك إدمـــان السرى وشكـــت
مـــن فلهـــا البيـــض بـــل مـــن حطمهـــا السمـــر
يسرت فتـــح بـــلاد كـــان أيسرهـــا
لغير رأيـــك قفـــلا فتحـــه عسر
قـــرنـــت بـــالحزم منـــك العـــزم فـــاتسقـــت
مـــآرب لـــك عنهـــا أسفـــر السفـــر
ومـــن يكـــون بنـــور الـــديـــن مهتـــديـــا
في أمـــره كيـــف لا يقـــوى لـــه المرر
يـــسرى بـــرأيـــك مـــا في الملـــك يبرمـــه
فـــأنـــت منـــه بحيـــث السمـــع والبصر
لقـــد بغـــت فئـــة الأفـــرنـــج فـــانتصفـــت
منهـــا بـــاقـــدامـــك الهنـــديـــة البتر

غرست في أرض مصر من جسومهم
أشجار خط لها من هامهم ثمر
وسال بحر نجيع في مقام وغى
به الحديد غمام والدم المطر
انهرت منهم دماء بالصعيد جرى
منها إلى النيل في واديهم نهر
رأوا إليك عبور النيل إذ عدموا
نصرا فما عبروا حتى قد اعتبروا
تحت الصوارم هام المشركين كما
تحت الصوالج يوما خفت الاكر
أفنت سيوفك من لاقت فإن تركت
قوما فهم نفر من قبلها نفروا
لم ينج إلاّ الذي عافته من خبث
وحش الفلا وهو للمحذور منتظر
والساكنون القصور القاهرية قد
نادى القصور عليهم أنهم قهروا
وشاوروه في مكايدهم
فكاده الكيد لما خانه الحذر
كانوا من الرعب موتى في جلودهم
وحين أمنتهم من خوفهم نشروا
وإن من شيركوه الشرك منخزل
والكفر منخذل والدين منتصر
عوّل على فئة عند اللقاء وفت
وعدّ عن تركمان قبله غدروا
وكيف يخذل جيش أنت مالكه
والقائدان له التأييد والظفر
أجاب فيك إله الخلق دعوة من
يطيب بالليل من أنفاسه السحر

قال العماد: واتصلت بيني وبين صلاح الدين يوسف ابن أخيه مودّة، تمت لي بها على الزمان عدّة، ولم يزل يستهديني نظمي ونثري، ويشعرني أنه يميل إلى شعري ، فأوّل ما خدمته به هذه الكلمة:

كيف قلته بمقلته فتور
وأراها بلا فتور تجور

ومنها:

مستجيز جوري وإني منه
بابن أيوب يوسف مستجير

فضله في يد الزمان سوار
مثلها رأيه على الملك سور

كرم سابغ وجود عميم
وندى سائغ وفضل غزير

أنت من لم يزل يحنّ إليه
وهو في المهد سرجه والسرير

من دم الغادرين غادرت بالأمـ
ـس صعيد الصعيد وهو غدير

ولكل مما تطاولت فيهم
أمل قاصر وعمر قصير

لاذ بالنيل شاور مثل فرعو
ن فذل اللاجي وعز العبور

شاركا المشركين نعيا وقدما
شاركتها قريظة والنضير

والذي يدعي الامامة بالقا
هرة ارتاع أنه مقهور

وغدا الملك خائفا من سطاكم
ذا ارتعاد كأنه مقرور

وبنو الهنفري هانوا ففروا
ومن الاسد كل كلب فرور

إنما كـــــان للكـــــلاب عـــــواء
حيـــث مـــا كـــان لـــلأســـود زئير

وفليـــب عنـــد الفـــرار سليـــب
فهـــو بـــالـــرعـــب مطلـــق مـــأســـور

لم يبقـــوا ســـوى الأصـــاغـــر للسبـــ
ـــي فـــودوا لـــو أن الكبير صغير

وحميـــت الاسكنـــدريـــة عنهـــم
ورحـــى حـــربهم عليهـــم تـــدور

حـــاصروهـــا ومـــا الـــذي بـــان مـــن ذبـــ
ـــك عنهـــا وحفظهـــا محصـــور

كحصـــار الأحـــزاب طيبـــة قـــدمـــا
ونبـــي الهدى بها منصـــور

فـــاشكـــر اللّـــه حيـــث أولاك نصراً
فهـــو نعـــم المولى ونعـــم النصير

ولكـــم أرجـــف الأعـــادي فقلنـــا
مـــا لما تـــذكـــرونـــه تـــأثير

ورقبنـــا كـــالعيـــد عـــودك فـــاليـــو
م بـــه لـــلأنـــام عيـــد كبير

عـــاد مـــن مصر يـــوســـف وإلى يعـــ
ـــقوب بـــالتهنيـــات جـــاء البشير

فـــلأيـــوب مـــن إيـــاب صـــلاح الـــ
ـــدين يـــوم بـــه تـــوفى النـــذور

ولكـــم عـــودة إلى مصر بـــالنصـــ
ـــر على ذكـــرهـــا تمر العصـــور

فـــاستردّوا حـــق الإمـــامـــة ممـــن
خـــان فيهـــا فـــإنـــه مستعير

وافترعهـــا بكـــراً لها بمـــدى الـــدهـــ
ـــر رواح في مـــدحكـــم وبكـــور

أنـــا سيرت طـــالـــع العـــزم منـــي
وإلى قصـــــدك انتهـــــى التسيير
وأرى خـــاطـــري لمدحـــك إلـــف
إنما يـــــألـــــف الخطير الخطير

وهـي والتي قبلها طـويلتان جـداً، فانتظمت معـرفة العماد بصـلاح الدين، وكان لـه مساعدا عند نور الدين، وقرأت في ديـوان العرقلة، وقال يمدح أسد الديـن شيركوه، وقد أخذ الشقيف، ورحل طـالبا حصناً يقال له العراق:

رحلـــت مـــن الشقيـــف إلى العـــراق
بعـــزم كـــالمهنـــدة الـــرقـــاق
ونكســـت الأعـــادي منـــه قهـــراً
ومجدك في ذرى الجوزا بـــــاقـــــي
بجـــاشـــك لا بجيشـــك نلـــت هـــذا
وبـــالتـــوفيـــق لا بـــالإتفـــاق
فـــداؤك مـــن مضـــى بـــالحصـــن قبلي
إلى دار الخلـــود مـــن الـــرفـــاق
ومـــا نخشـــى على الإســـلام بـــؤســـا
إذا هلـــك الجميـــع وأنـــت بـــاقـــي
أشـــاوركـــم فشـــاوركـــل خـــب
وتنفـــق عنـــد مثلـــك بـــالنفـــاق
أتصبر إن أتتـــك بحـــار خيـــل
وقـــد مـــا مـــا صبرت على الســـواقـــي
متـــى رفعـــت لـــك الســـودان رأســـا
وقـــد خـــلاهـــم مثـــل الـــزقـــاق
وعيشـــك مـــالـــه مـــن مصر بـــد
ومـــن عنـــدي ثـــلاثـــاً بـــالطـــلاق
هـــو الأســـد الـــذي مـــازال حتـــى
بنـــا مجداً على الســـبـــع الطبـــاق

فصل

قال ابن الإثير : وفي هذه السنة أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين يطلب أن يعبر الفرات إليه بعساكره ، فتجهز وسار هو وزين الدين في العساكر الكثيرة فاجتمعوا بنور الدين على حمص، فدخل بالعساكر الإسلامية بلاد الفرنج، واجتاز على حصن الأكراد فأغاروا ونهبوا وأسروا، وقصدوا عرقة ونزلوا عليها وحصروها وحصروا جبلة وأخربوها، وتوجهت عساكر المسلمين يميناً وشمالاً تغير وتخرب البلاد، وفتح العريمة وصافيتا، وعاد إلى حمص فصام بها شهر رمضان، ثم سار إلى بانياس وقصد قلعة هونين، وهي للفرنج أيضاً من قلاعهم المنيعة، فانهزم الفرنج عنها وأحرقوها فقصدها نورالدين فوصلها من الغد، وخرب سورها جميعة وأراد الدخول إلى بيروت فتجدد في العسكر خلل أوجب التفرق، فعاد وسار قطب الدين إلى الموصل وأقطعه مدينة الرقة فأخذها في طريقه.

قال: وفي هذه السنة عصى الأمير غازي بن حسان المنبجي صاحب منبج على نور الدين، وهو كان أقطعه إياها، فأرسل إليه نور الدين عسكراً حصره بها وأخذها منه وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان وكان عاقلا خيراً حسن السيرة، فبقي بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة إثنتين وسبعين كما سيأتي.

وفيها توفي القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير، صاحب كتاب الجنان.

قال العماد في الخريدة: كان ذا علم غزير وفضل كثير، قتله شاور صبراً في سنة إثنتين وستين، ونسب إليه أنه شارك أسد الدين شيركوه في قصده، وأخوه المهذب أبو علي الحسن بن علي بن الزبير أشعر منه، وتوفي

قبله بسنة، لم يكن في زمانه أشعر منـه، وله شعر كثير منه قصيدة غراء في مدح الصالح بن رزيك، وذكر فيها نور الدين أولها:

أعلمـــــت حين تجاور الحيــــــان
أن القلـــــوب مــــواقــــد النيران

يــــا كــــاسر الأصنـــام قــم فـــانهض بنــا
حتــــى تصير مكسر الصلبــــــان

فـــالشــام ملكـــك قـــد ورثــت بـــلاده
عـــن قـــومـــك الماضين مـــن غســـان

وإذا شككـــــت بـــــأنها أوطــــانهم
قــــد مــــا فســـل عـــن حـــارث الجولان

أورمـــت أن تتلـــو محاســـن ذكـــرهـــم
فـــاسنـــد روايتهـــا إلى حســـان

مــا زلـــزلـــت أرض العـــدى بـــل ذاك مــا
بقلـــوب أهليهـــا مـــن الخفقـــان

وأقـــــول إن حصـــــونهم سجــــدت لما
أوتيـــت مـــن ملـــك ومـــن سلطـــان

ولقـــد بعثـــت إلى الفـــرنـــج كتـــائبــا
كـــالأســـد حين تصـــول في خفـــان

لبســـوا الـــدروع ولم يخل مـــن قبلهـــم
أن البحـــــار تحلّ في غـــــدران

عجلـــت في تـــل العجـــول قـــراهـــم
وهـــم لـــك الضيفـــان بـــالـــذيفـــان

وثللـــت في يـــوم العـــريـــش عـــروشهـــم
بشبـــا ضراب صـــادق وطعــــان

ألجأتهم للبحـــــــر لما أن جـــــرى
منـــه ومـــن دمهـــم معـــا بحـــران

ولقـــد أتـــى الاسطـــول حين غـــزا بيا
لم يـــأت في حين مـــن الاحيـــان

وأعــدّت رســل ابــن القسيــم إليــه في
شعبـــان كـــي يتـــلاءمَ الشعبـــان

والفــال يشهــد في اسمــه أن ســوف يغــ
ــــدو الشـــام وهـــو عليكما قسمان

وأراك مـــن بعـــد الشهيـــد أبـــالــه
وجعلتـــه مـــن أقـــرب الاخـــوان

وهـــو الـــذي مـــازال يفعـــل في العـــدى
مـــالم يكـــن ليعـــدّ في الامكـــان

قتـــل البرنـــس ومـــن عســـاه أعـــانـه
لماعســـا في البغـــي والعـــدوان

وأرى البريـــة حين عـــاد بـــرأســـه
مـــرّ الجنـــى يبـــدو على المرّان

وتعجبـــوا مـــن زرقـــة في طـــرفـــه
وكـــأن فـــوق الـــرمـــح نصـــلا ثـــاني

عجبـــا لجود يـــديـــه إذ يبنـــي العـــلا
والسيـــل يهدم ثـــابـــت الأركـــان

قلـــدت أعنـــاق البريـــة كلهـــا
مننـــا تحمـــل ثقلهـــا الثقـــلان

حتـى تسـاوى النـاس فيـك وأصبح الــ
ــقاضي بمنـزلـة القـريـب الـداني

وفي هذه السنة ذكر القاضي كمال الدين بن الشهـرزوري للسطان نور الدين رحمه الله حال العماد الكاتب، وعرّفـه به وعرض عليه قصيدة له في مدحه مطلعها:

ومنها :
لـــو حفظـــت يـــوم النـــوى عهـــودهـــا
مـــا مطلـــت بـــوصلكـــم وعـــودهـــا

وإنما يحمـــــد عيـــــش بلـــــدة
مـــالكهـــا بعـــدلـــه محمـــودهـــا

مؤيد أموره بعزمة
من السموات العلى تأييدها
آثاره حميدة وإنما
للمرء من آثاره حميدها
ان الورى بحبه وبغضه
يعرف من شقيها سعيدها
قد جاءكم نور من الله فمن
به اهتدى فإنه رشيدها
جلا ظلام الظلم نور الدين عن
أرض الشام فله تحميدها
إن الرعايا منه في رعاية
ونعمة مستوجب مزيدها
لنومها يسهر بل لأمنها
يخاف بل لخصبها بجودها
بالدين والملك له قيامه
والملوك عنهما قعودها
ودأبه ثلم ثغور الكفر لا
لثم ثغور نافع برودها
قد أسبغ الله لنا بعدله
ظلام أمن وارف مديدها
غدا ملوك الروم في أولته
وهم على رغمهم عبيدها
لما أبت هاماتهم سجودها
لله أضحى للظبى سجودها
إن فارقت سيوفه غمودها
فإن هاماتهم غمودها
كم مغلقات من حصون عزمه
مفتاحها وسيفه أقليدها

قد ودّت الفرنج لو فرّت نجت
منك ولكن روعها مبيدها
فهرتها حتى لودّ حيها
من ذلة لو أنه فقيدها
أمساتها رعبك في حصونها
كأنها حصونها لحودها
وإن مصر الملك تعنو بعدما
لسيفك الصعب عنا صعيدها
والملة الغراء خال بالها
عال سناها بك حال جيدها
مفترّة ثغورها ممنوعة
ثغورها محفوظة حدودها
وإن بغى جالوتها ضلالة
فأنت في إهلاكه داودها
يابن قسيم الدولة الملك الذي
خرّت له من الملوك صيدها
دع العدى بغيظها فإنها
يذيب أكباد العدى حقودها
يادولة نورية أمن الورى
وخصبها وجودها وجودها
ما مثل الدنيا لمن يجمعها
بالحرص إلاّ قزة ودودها
أين الذي يرفضها عن قدرة
فلا يشوب زهده زهيدها
فابق لنا يا ملكا بقاؤه
في كل عام للرعايا عيدها
في نعمة جديدة سعودها
ودولة سعيدة جدودها

- ٧٩١١ -

وهي طويلة، فرتبه نورالدين في ديوانه منشئا لاستقبال سنة ثلاث وستين.

قال: ووجدت على الأيام منه الإعزاز والتمكين .

قلت: وذلك بعد أن استعفى أبو البشر شاكر بن عبد الله من الخدمة في كتابة الانشا وقعد في بيته، كذا ذكر العماد في الخريدة، وقال : تولى ديوان الانشا بالشام سنين كثيرة وله مقاصد حسنة في الكتب وهو جيد السيرة جميل السريرة (٩٩) .

وفيها توفي الحافظ أبو سعد عبد الكريم محمد السمعاني المروزي رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فذكر العماد أن نور الدين رحل إلى حمص، ثم مضى إلى حماه ثم شتى بقلعة حلب ومعه الأسد والصلاح، ونزل العماد بمدرسة ابن العجمي وكتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد عثر فرسه في الميدان وهو يلعب بالكرة مع نور الدين رحمه الله تعالى:

لا تنكرن لسابح عثرت به
قدم وقد حمل الخضمّ الزاخرا
ألقى على السلطان طرفك طرفه
فهوى هنالك للسلام مبادرا
سبق الرياح بجريه وكففته
عنها فليس على خلافك قادرا
ضعفت قواه إذ تذكر أنه
في السرج منك يقل ليثا خادرا
ومتى تطيق الريح طودا شامخا
أو يستطيع البرق جونا ماطرا
فاعذر سقوط البرق عند مسيره
فالبرق يسقط حين يخطف سائرا
وأقل جوادك عثرة ندرت له
إن الجواد لمن يقيل العاثرا
وتوق من عين الحسود وشرّها
لا كان ناظرها يسوء نواظرا
وأسلم لنور الدين سلطان الورى
في الحادثات معاضدا ومؤازرا
فإذا صلاح الدين دام لأهله
لم يحذروا للدهر صرفا ضائرا

وجرت بين العماد وبين الإمام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون مكاتبات، كتب إليه العماد:

أيــــا شرف الــــديــــن إن الشتــــا
بكــــافــــاتــــه كــــف آفــــاقــــه
وكفــــك مــــن كــــرم كــــافهــــا
قــــد كفلــــت لي بكــــافــــاتــــه
وإنــــك مــــن عــــرفــــه شكــــرنــــا
غــــداعــــاجــــزا عــــن مكــــافــــاتــــه

قال: فكتب إلي شرف الدين في جوابها
إذا مــــا الشتــــاء وأمطــــاره
عــــن الخير حــــابســــة رادعــــه
فكــــافــــاتــــه ألســــت أعطيتهــــا
وحــــوشيــــت مــــن كــــافــــه الــــرابعــــة
وكــــف المهــــابــــة والاحتشــــا
م لكفــــي عــــن بــــره مــــانعــــة
وهمة كــــل كــــريــــم النجــــا
ريميســــور أحبــــابــــه قــــانعــــة
ونفسي في بســــط عــــذري إليــــ
ــــه جعلــــت الفــــداء لــــه طــــامعــــه
وشــــوقــــي إلى قــــربــــه زائد
ومعــــذرتي إن جفــــا واسعــــه

قال: فكتبت إليه في جوابها:
أيــــا مــــن لــــه همة في العلى
لــــذروتها أبــــدا فــــارعــــه
ومــــن كفــــه ديمــــة مــــا تــــزا
ل بــــالعــــرف هــــاميــــة هــــامعــــه
وللفضــــل في ســــوق أفضــــالــــه
بضــــائع نــــافقــــة نــــافعــــة
وهــــل كــــابــــن عصرون في عصرنــــا
إمــــام أدلتــــه قــــاطعــــة

فخير فـــوائده جمة
وبحـــر مـــوارده واسعـــة
أيـــا شرف الـــديـــن شرفتنـــي
بـــاهـــداء زائعـــة رائعـــة
أطعـــت أوامـــرك الســـاميـــا
ت ومـــا برحـــت همتـــي طـــائعـــة
أرى كـــل جـــارحـــة لي تـــ
ـــوّد لـــو أنها أذن ســـامعـــه
وأمـــا الشتـــاء وكـــافـــاتـــه
وكفـــك عـــن كـــافـــه الـــرابعـــة
فنفسي منـــزعـــة بـــالعفـــا
ف عنهـــا وفي غيرهـــا طـــامعـــه
ومـــا ذا تطيـــق إذا لم تكـــن
بميســـور سيـــدنـــا قـــانعـــه

وهي أكثر من هذا

قال: وكان ابن حسان صاحب منبج قد ساءت أفعاله، فبعث إليه نور الدين من حاصره وانتزعها منه، ثم توجه نور الدين إليها لتهذيب أحوالها ومدحه العماد بقصيدة منها يقول:

بشرى الممالـــك فتـــح قلعـــة منبـــج
فليهـــن هـــذا النصر كـــل متـــوج
أعطيـــت هـــذا الفتـــح مفتـــاحـــابـــه
في الملـــك يفتـــح كـــل بـــاب مـــرتـــج
وافى يبشر بـــالفتـــوح وراءه
فـــانهض إليهـــا بـــالجيـــوش وعـــرج
أبشر فبيـــت القـــدس يتلـــو منبجـــا
ولمنبج كسواه كـــالانمـــوذج

مـا أعجـزتـك الشهـب في أبـراجهـا
طلبـا فكيـف خـوارج في أبـرج
ولَقَـدْ مـن يعصيـك أحقـر أن يـرى
أثـر العبـوس بـوجهـك المتبلـج
لكـن تهذب مـن عصـاك سيـاسـة
في ضمنهـا تقـويـم كـل معـوج
فـانهد إلى البيـت المقـدّس غـازيـا
وعلى طـرابلـس ونـابلـس عـج
قـد سرت في الإسـلام أحسـن سيرة
مـأثـورة وسلكـت أوضـح منهـج
وجميـع مـا استقـريـت مـن سنـن الهدى
جـدّدت منـه كـل رسـم مبهـج

قال العماد: وسار نـور الدين من منبج إلى قلعـة نجم وعبر الفرات إلى الرها، وكان بها ينال صاحب منبج، وهـو سديد الرأي رشيد المنهج فنقله إليها مقطعـا وواليـاً، وأقـام نور الـدين بقلعـة الرهـا مدّة فمـدحه العماد بقصيدة وتحجب له صلاح الدين في عرضها وهي:
أدركـت مـن أمـر الـزمـان المشتهـى
وبلغـت مـن نيـل الأمـاني المنتهـى
وبقيـت في كنـف السـلامـة آمنـا
متكـرمـا بـالطبـع لا متكـرهـا
لا زلـت نـور الـديـن في فلـك الهدى
ذا غـرّة للعـالمين بها البهـا
يـا محيـي العـدل الـذي في ظلـه
مـن عـدلـه رعـت الأسـود مـع المهـا
محمـودا المحمـود مـن أيـامـه
لبهـائهـا ضحـك الـزمـان وقهقهـا
مـولى الـورى مـولى النـدى معلي الهدى
مـردي العـدى مسـدي الجدى معطي المهـا

آراؤه بصـــوابها مقـــرونـــة
وبمقتضـــاهـــا دائر فلـــك النهـــا
متلبـــس بحصـــافـــه وحصـــانـــه
متقـــدّس عـــن شـــوب مكـــر أو دهـــا
يـــا مـــن أطـــاع الله في خلـــواتـــه
متـــأوبـــا مـــن خـــوفـــه متـــأوهـــا
أبـــدا تقـــدّم في المعـــاش لـــوجهـــه
عمـــلا يبيـــض في المعـــاد الأوجهـــا
كـــل الأمـــور وهـــا وأمـــرك مبرم
مستحكـــم لا نقـــض فيـــه ولا وهـــا
مـــا صين عنـــك الصين لـــو حـــاولتهـــا
والمشرقـــان فكيـــف منبـــج والـــرهـــا
مـــا للملـــوك لـــدى ظهـــورك رونـــق
وإذا بـــدت شمـــس الضحـــى خفـــي السها
إن الملـــوك لهوا وإنـــك مـــن غـــدا
وبها لـــه والملـــك منـــه مـــالها
شرهـــت نفـــوسهـــم إلى دنيـــاهـــم
وأبـــى لنفســـك زهـــدهـــا أن تشرهـــا
مـــا نمـــت عـــن خير ولم يـــك نـــائها
مـــن لا يـــزال على الجميـــل منبهـــا
أخملـــت ذكـــر الجاهلين ولم تـــزل
ملكـــا يـــذكـــر العـــالمين منـــوّهـــا
ورأيـــت إرعـــاء الـــرعـــايـــا واجبـــا
تغنـــي فقيرا أو تجير مـــدلها
لـــرضـــاهـــم متحفظـــا ولحالهم
متفقـــدا ولـــدينهـــم متفقهـــا
وبها بـــه أمـــر الالـــه أمـــرتهم
مـــن طـــاعـــة ونهيتهـــم عما نهى

عـن رحمة لصغيرهـم لم تشتغـل
عـن رأفـة لكبيرهـم لـن تشـدهـا
بـاليـأس عنـدك أمـل لم يمتحـن
بـالـردّ دونـك سـائل لـن يجبهـا
أتعبـت نفسـك كـي تنـال رفـاهـة
مـن ليـس يتعـب لا يعيـش مـرفهـا
فقـت الملـوك سماحـة وحماسـة
حتـى عـد منـافيهـم لـك مشبهـا
ولـك الفخـار على الجميـع فـدونهم
أصبحـت عـن كـل العيـوب منـزهـا
وأراك تحلـم حين تصبـح سـاخطـا
ويكـاد غيرك سـاخطـا أن يسفهـا

قلت : رحـم الله العماد فقد نظم أوصـاف نور الـدين الجليلة بـأحسن لفظ وأرقـه، وهذا البيـت الأخير مؤكد لما نقلنـاه في أول الكتاب مـن قول الحافظ أبي القـاسم رحمه الله في وصـف نور الـدين رحمه الله أنـه لم يسمع منه كلمه فحـش في رضاه ولافي ضجره، وقل مـن الملوك من له حـظ من هذه الأوصاف الفاضلة، والنعوت الكاملة.

قـال العماد: ثم عـاد نور الـديـن إلى حلب في شهـر رجب، وضربـت خيمتـه في رأس الميدان الأخضر، قـال: وكان مـولعا بضرب الكـرة، وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع في الليلة المسفـره، ويركب صلاح الدين مبكـراً كل بكـره، وهو عـارف بآدابها في الخدمـة وشروطها المعتبره، قـال: وأقطعه في تلك السنـة ضيعتين، إحداهما من ضياع حلـب، والأخرى من ضياع كفر طاب، قال : وكتب إليه في طلب كنبوش:

أصبحـت بغلتـي تشكـي مـن العـر
ى وإسراجهـا بـلا كنبـوش
قلـت كفـي فخير يـوميـك عنـدي
أن تفـوزي بـالتبـن أو بـالحشيـش

وأفـــرحـــي ليلـــة الشعير كما يفـــر
ح قـــــوم بليلـــــة المأشــــوش
لـــــو تبصرت حـــالـتـــي لتصبر
ت فـــإيـــاك عنـــدهـــا أن تطيشي
أو مــــامـــات في الشتـــاء مـــن البر
د ومــن فـــرط جـــوعـــه اكـــديشي
فيقـــي واسكنـــي بجـــود صــلاح الـــد
يـــن غـــرس الملـــوك ملـــك الجيـــوش
فهـــو يجلـــوك للعيـــون بكنبـــو
ش جـــديـــد مستحســـن منقـــوش
كـــم عـــدو مـــن بـــأســـه في عثـــار
وولي بجــــــوده منعـــــوش
والموالي على الأسرة والأعــــــــــ
داء تحت الهوان فـــوق النعـــوش

قـال: وأقطع أسـد الديـن حمص وأعمالها، فسـار إليها فسـد ثغورهـا، وضبـط أمورهـا ، وحمى جمهـورها، وكـان نـور الـدين قـد جـدد سورهـا، وحصن دورهـا وبلي الفرنـج منه بالمغـاور ، والمراوغ ذي البأس الـدامغ، وسـأله نـور الـديـن في السلو عـن حـب مصر وقـال: قد تعبـت مـرتين واجتهـدت، ولم يحصل لـك مـا طلبـت، وقد أذعنـوا بـالطـاعه وشفعـوا السؤال بـالشفاعة وسمحـوا بكل مـا يدخل تحت الاستطـاعة [١٠] قلت وأنشد العماد أسد الدين في رجب من هذه السنة:

دمـــت في الملـــك آمـــراً ذا نفـــاذ
أســد الـــديـــن شيركـــوه بـــن شـــاذي
يـــاكـــريـــم عـــن كـــل شر بطيـــا
وإلى الخير دائم الأغـــــــــــذاذ
ومـــلاذ الإســـلام أنـــت فـــلا زلـــت
لأهـــــل الإســـــلام خير مـــــلاذ

في نفوس الكفار رعيك قد حل / بصدع الأكباد والأفلاذ
لم تدع بالظبى رؤوساً وأصنا / ماً من المشركين غير جذاذ
أنت من نازل الدعيين في مصـ / ـر لنصر الإمام في بغداذ
وبلاد الإسلام أنقذتها أنـ / ـت من الشرك أيما انقاذ

فصل
في وفاة زين الدين

قال ابن الأثير وغيره: في سنة ثلاث وستين سار زين الدين علي بن بكتكين نائب أتابك قطب الدين عن الموصل إلى إربل وسلم جميع ما كان ببلاده من البلاد والقلاع إلى قطب الدين ما عدا إربل، فإنها كانت له من أتابك زنكي رحمه الله تعالى، فمن ذلك سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية وقلاع الهكارية جميعها، وكان نائبه بتكريت الأمير تبر، فأرسل إليه ليسلمها فقال : إن المولى أتابك لايقيم بتكريت ولا بدّ له من نائب فيها، وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلي فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد، وأما شهرزور فكان بها الأمير بوزان فقال مثله أيضا، فأقرت بيده، فكان في طاعة قطب الدين، وسبب فراق زين الدين أنه أصابه عمى وصمم وأقام بإربل إلى أن توفي بها في ذي الحجة من هذه السنة، وكان قد استولى عليه الهرم، وضعفت قوته، وكان خيراً عادلاً حسن السيرة، جواداً محافظاً على حسن العهد، وأداء الأمانة قليل الغدر بل عديمه وكان إذا وعد بشيء لابدّ له من أن يفعله وإن كان فعله خطيراً ، وكان حاله من أعجب الأحوال بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة

الدهاء، بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنه نفق له فأمر له بفرس فأخذ ذلك الذنب أيضاً غيره من الأجناد فأحضره وذكر أنه نفق له دابةفأمر له بفرس، وتداول ذلك الذنب إثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرساً، فلما أحضره آخرهم قال لهم: أما تستحيون مني كما أستحي أنا منكم، قد أحضر هذا عندي إثنا عشر رجلاً وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم أتظنون أنني لاأعرفه، بلى والله وإنما أردت أن يصلكم عطائي بغير من ولا تكدير فلم تتركوني.

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

قال: وكان يعطي كثيراً ويخلع عظيماً، وكان له البلاد الكثيرة، فلم يخلف شيئاً بل أنفده جميعه في العطايا والإنعام على الناس، وكان يلبس الغليظ، ويشدّ على وسطه كل ما يحتاج إليه من سكين ودرفش ومطرقة ومسلة وخيوط ودسترك وغير ذلك، وكان أشجع الناس ميمون النقيبة لم تهزم له راية، وكان يقوم المقام الخطير فيسلم منه بحسن نيته، وكان تركيا أسمر اللون خفيف العارضين قصيراً جداً، وبنى مدارس وربطاً بالموصل وغيرها، وبلغني أنه مدحه الحيص بيص فلما أراد الإنشاد قال له : أنا لاأدري ماتقول لكن أعلم أنك تريد شيئاً، فأمر له بخمسمائة دينار وأعطاه فرساً وخلعاً وثياباً يكون مجموع ذلك ألف دينار، قال: ومكارمه كثيرة، ولما توفي بإربل كان الحاكم بها خادمه مجاهد الدين قايماز وهو المتولي لأمورها، وولي بعد زين الدين ولده مظفر الدين كوكبري مدّة، ثم فارقها بخلف كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز، وجرت أمور يطول ذكرها، ولما فارق زين الدين الموصل استناب أتابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح، فسلك غير طريق زين الدين، فكرهه الناس وذموه، فلم تطل أيامه وسيجيء ذكر عزله في أخبار سنة ست وستين إن شاء الله تعالى.

-٧٩٢١-

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ففي أوّلها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جعبر، وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي من آل عقيل من بني المسيب وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه، وقد تقدّم ذكر ذلك، وهي من أمنع الحصون وأحسنها مطلة على الفرات لايطمع فيها بحصار، وقد أعجز جماعة من الملوك أخذها منه، وقتل عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين، ثم اتفق أن خرج صاحبها منها يوما يتصيد، فصاده بنو كلاب فأخذوه أسيراً وأوثقوه وحملوه إلى نور الدين فتقربوا به إليه وذلك في رجب من سنة ثلاث وستين، فحبسه بحلب وأحسن إليه ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم إليه القلعة، فلم يفعل فعدل به نور الدين إلى الشدّة والعنف وتهدّده فلم يفعل أيضاً، فسير إليها عسكراً مقدمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني فحصرها مدّة، فلم يظفر منها بشيء، فأمدّهم بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية، وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيعه ووالي معاقله، فأقام عليها وطاف حواليها فلم ير له في فتحها مجالاً، ورأى أخذها بالحصر متعذراً محالاً، فسلك مع صاحبها طريق اللين وأشار عليه بأخذ العوض من نور الدين ولم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطى سروج وأعمالها والملاحة التي في عمل حلب والباب وبزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة، فأخذ جميع ماشرط مكرها في صورة مختار.

قال ابن الأثير: وهذا إقطاع عظيم جداً ، لكنه لاحظ فيه، وتسلم مجد الدين قلعة جعبر، وصعد إليها منتصف المحرم، ووصل كتابه إلى نورالدين بحلب، فسار إليها وصعد القلعة في العشرين من المحرم، ثم سلمها نور الدين إلى مجد الدين بن الداية، فولاها أخاه شمس الدين

علي، وكان هذا آخر أمر بني مالك، ولكل أمر آخر ولكل ولاية نهاية يؤتى الله الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء (١٠١)

قال ابن الأثير، بلغني أنه قيل لشهاب الدين أيما أحب إليك وأحسن مقاماً أسروج والشام أم القلعة؟قال: هذا أكثر مالاً، والعز بالقلعة فارقناه.

قال العماد: وأنشدت نور الدين بقلعة جعبر قصيدة أولها:

أسلم لبكر الفتوح مفترعا
ودم لملك البلاد منتزعا
فإن أولى الورى بها ملك
غدا بعبء الخطوب مضطلعا
إن ضاق أمر فغير همته
لكشف ضيق الأمور لن يسعا
يا محيي العدل بعد ميتته
ورافع الحق بعد ما اتضعا
ونور دين الهدى الذي قمع الـ
شرك وعفى الضلال والبدعا
أنت سليمان في العفاف وفي الـ
ـملك وتحكي بزهدك اليسعا
حزت النقا والحياء والكرم المحـ
ـض وحسن اليقين والورعا
أسقطت أقساطاً وجدت من المكـ
ـس بعدل والقاسط إرتدعا
ولم تدع في ابتغاء مصلحة الد
ين لنا باقياً ولن تدعا
وكل ما في الملوك مفترق
من المعالي لملكك اجتمعا
همتك الربط والمدارس تبنيـ
ـها ثواباً وتهدم البيعا

مـــــازلـــت ذا فطنـــــة مــــؤيـــــدة
على غيـــــــوب الأسرار مطلعـــــــا
بـبـــأســك البيــض والطلى اصطحبـت
بعـــد لـــك الـــذئب والطـــلا رتعـــا
كـــم صـــائد لم يقـــع لـــه قنـــص
في شرك وهـــــو فيـــــه قـــد وقعـــا
ومـــــالـــك حين رمـــــت قلعتـــــه
غـــدا مطيعـــا لــــلأمـــر متبعـــا
عنـــا خشـــوعـــا لـــرب مملكـــة
لغير رب السماء مـــــا خشعـــــا
كـــان مقيما منهـــا على الفلـــك الــــ
أعلى شهـــابـــا بنـــوره سطعـــا
لكنها الشهـــــب مـــــا تنير إذا
لاح عمـــود الصبـــاح فـــانصـــدعـــا
يـــدفعهـــا طـــائعـــا إليـــك وكـــم
عنهـــا إبـــاء بجهـــده دفعـــا
هـــي التـــي في علـــوهـــا زحـــل
كـــر على وردهـــا ومـــا كـــرعـــا
وهـــي التـــي قـــاربـــت عطـــارد في الــــ
ــأفق فـــلاحـــا والفـــرقـــديـــن معـــا
كـــان منهـــا السهـــا إذا استرق السمــــ
ــــع أتـــاهـــا في خفيـــة ودعـــا
هضبـــة عـــز لـــولاك مـــا ارتقيـــت
وطـــود ملـــك لـــولاك مـــا فـــرعـــا
مـــا قبلـــت في ارتقـــاء ذروتها
مـــن ملـــك لا رقـــى ولا جـــذعـــا
عـــزت على المالـــك الشهيـــد واعــــ
ــطتك قيـــاداً مـــا زال ممتنعـــا

للأب لو حل خطبها الغدا
محرما لابنه وما شرعا

لازلت محمود في أمورك محمو
دأبشوب الاقبال مدرعا

وفي سابع عشر صفر من هذه السنة توفي بهاء الدين عمر أخو مجد الدين بن الداية، وفيه وفي أخويه يقول العماد الكاتب من قصيدة:

أنتم لمحمود كآل محمد
متصادقي الأفعال والأسماء

يتلو أبا بكر على حسناته
عمر الممدح في سنا وسناء

ويليه عثمان المرجى للعلا
وعلي المأمول في اللأواء

وتقيل الحسن المجد مجدهم
فهم ذوو الإحسان والنعماء

فرعت لمجد الدين أخوته الذرى
دون الورى في المجد والعلياء

من سابق كرما وشمس سياده
شرفا وبدر دجنة وبهاء

سرج الهدى سحب الندى شهب النهى
أسد الحروب ضراغم الهيجاء

يريد سابق الدين عثمان، وشمس الدين علي، وبدر الدين حسن، وبهاء الدين عمر، ومجد الدين هو الأكبر، فهم خمسة رحمهم الله تعالى.

فصل

وفي هذه السنة فتحت الديار المصرية سار إليها أسد الدين مرة ثالثة، فهزم العدو، وقتل شاوراً وولي الوزارة مكانه، ثم مات فوليها صلاح الدين، وسبب ذلك أن الفرنج كانوا في النوبتين الأوليين اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شيركوه قد خبروا الديار المصرية واطلعوا على عوراتها، فطمعوا فيها، ونقضوا ما كان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد، فجمعوا وحشدوا وقالوا: ما بمصر من يصدنا، وإذا أردناها فمن يردنا، ثم قالوا: نور الدين في البلاد الشمالية والجهة الفراتية، وعسكر الشام متفرق كل منهم في بلده حافظاً لما في يده، ونحن ننهض إلى مصر ولا نطيل بها الحصر، فإنه ليس لها معقل، ولا لأهلها منا موئل، وإلى أن تجتمع عساكر الشام نكون قد حصلنا على المرام وقوينا بتملك الديار المصرية على سائر بلاد الإسلام، فتوجهوا إليها سائرين ونحوها ثائرين، وأظهروا أنهم على قصد حمص وشايعهم على قصد مصر جماعة من أهلها كابن الخياط وابن قرجلة وغيرهما من أعداء شاور، وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة، وإسكنوا فرسانهم أبواب البلدين والمفاتيح معهم على ما سبق ذكره، وتحكموا تحكماً كبيراً، فطمعوا في البلاد وأرسلوا إلى ملكهم مرى، ولم يكن ملك الفرنج مذخرجوا إلى الشام مثله شجاعة و مكراً ودهاء يستدعونه لتملك البلاد، وأعلموه خلوها من ممانع عنها، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبهم إلى المسير، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدّم وأشاروا عليه بالمسير إليها،والإستيلاء عليها، فقال لهم : الرأي عندي أن لانقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده وفلاحيه لايسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج

وإجلاؤهم من أرض الشام، فلم يصغوا إلى قوله وقالوا: إن مصر لامانع لها ولا حافظ وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها، وكانوا قد عرفوا البلاد، وانكشف لهم أمرها فأجابهم إلى ذلك على كره شديد، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام، وخاصة مدينة حمص، وتوجهوا من عسقلان في النصف من المحرم، ووصلوا أول يوم من صفر إلى بلبيس ونازلوها وحصروها فملكوها قهراً ونهبوها ، وسبوا أهلها، وأقاموا بها خمسة أيام، ثم أناخوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد، وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه، ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس ملكوا مصر والقاهرة سرعة، ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقضي الله أمراً كان مفعولا، وكان شاور أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفاً عليها من الفرنج . فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر ، ثم ضاق الحصار وخيف البوار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية فشرع في تمحل الحيل وأرسل إلى ملك الأفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة وأن هواه معه، وتخوفه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لايوافقونه على التسليم إليه، ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين، فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض، ويؤخر البعض، واستقرت القاعدة على ذلك، ورأى الفرنج أن البلاد امتنعت عليهم، وربما سلمت إلى نور الدين فأجابوا كارهين، وقالوا نأخذ المال نقوى به ونكثر من الرجال ثم نعود إلى البلاد بقوة لانبالي معها بنور الدين ولاغيره (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) (١٠٢) فعجل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً، وكان خليفة مصر العاضد

عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج، فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر، ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال، عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث البلاد من مصر، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده في عسكر، واقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين، هذا قول ابن الأثير.

وقال العماد: عجل شاور لملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخداعاً وإرغاما له واطماعاً، وواصل بكتبه إلى نور الدين مستصرخا مستنفراً، وبمانا ب الإسلام من الكفر مخبراً، ويقول إن لم تبادر ذهبت البلاد، وسير الكتب مسودة بمدادها كاسية لباس حدادها، وفي طيها ذوائب مجزوزة، وعصائب محزوزة، أظن أنها شعور أهل القصر، للإشعار بما عراهم من بلية الحصر، وأرسلها تباعاً، وأردف بها نجابين سراعاً، وأقام منتظراً، ودام متحيراً، وعامل الفرنج بالمطال ينقدهم في كل حين مالاً، ويطلب منهم إمهالاً ، ومازال يعطيهم ويستميلهم، حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله.

فصل
فيما فعله نور الدين

كان نور الدين لما أتاه الرسل أولا من العاضد قد أرسل إلى أسد الدين ليستدعيه من حمص، وهي اقطاعه، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته في هذا الأمر، فبقي مسلوب القرار، مغلوب الاصطبار لأنه كان قد

طمع في بلاد مصر، فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكفر، فساق في ليلة واحدة من حمص إلى حلب واجتمع بنور الدين ساعة وصوله، فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسره، وأمره بالتجهز إلى مصر، والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في العساكر والخزائن، فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، فكان في مدة حشده للتركمان سار نور الدين لتسلم قلعة جعبر، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الأمراء والمماليك منهم:مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين برغش ، وناصح الدين خمارتكين، وعين الدولة ابن الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وغيرهم، ورحلوا على قصد مصر مستنزلين من الله تعالى النصر، وذلك منتصف ربيع الأول، وخيم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء، وأقام ينتظر ورود المبشرات، فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين، وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان يعني صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجت مع عمي باختياري، قال: وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : (وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم)(١٠٣)

وقال ابن الأثير : أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه.

حكي لي عنه أنه قال: لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستحضرين أحضرني وأعلمني الحال، وقال تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه تأمره بالحضور وتحثه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير، قال: ففعلت، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادما في هذا المعنى، فقال له نور الدين:تجهز للمسير.فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولايبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره. قال: فالتفت إليّ عمي أسد الدين، وقال : تجهز يا يوسف. قال : فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق مالا أنساه أبداً. فقال عمي لنور الدين لابد من مسيره معي فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا استقيله، ثم انقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ، ولم يبق غير المسير فقال لي نور الدين:لابدّ من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه المضايقة، وقلة الدواب، وما احتاج إليه فأعطاني ما تجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت، وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفي أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه.

قلت: وحرضة أيضاً حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة مدحه بها قال:

وهل أخشى من الأنواء بخلاً
إذا ما يوسف بالمال جادا

فتى للدين لم يبرح صلاحاً
وللأعداء لم يبرح فسادا

لئـن أعطـاه نـور الـديـن حصنـا
فـإن الله يعطيـه البـلادا

إلى كـم ذا التـواني في دمشـق
وقـد جـاء تكـم مصر تهادى

عـروس بعلهـا أسـد هـزبـر
يصيد المعتـديـن ولـن يصادا

ألا يـا معشر الأجنـاد سيروا
وراء لـوائه تلقـوا رشـادا

فما كـل أمـرىء صلى مـع النـا
س مـأمـومـا كمـن صلى فـرادا

فلما سار صلاح الدين إلى مصر، عبر العرقلة على داره فوجدها مغلقة فقال:

عبرت على دار الصـلاح وقـد خلـت
مـن القمـر الـوضـاح والمنهـل العـذب

فـوالله لـولا سرعـة مثـل عـزمـه
لغـرقهـا طـرفي وأحـرقهـا قلبـي

ودار صلاح الدين هي التي وقفها رباطاً للصوفية بحارة قطامش، جوارقيسارية القصاع، وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله، فقضى الله ما قضى من رحيل الفرنج، وتملك صلاح الدين على ماسيأتي، وللأمير الفاضل أسامة بن منقذ في صلاح الدين من قصيدة أوّلها:

(سلم على مصر لاربع بذي سلم)

يقول فيها:

النـاصر الملـك الموفي بـذمتـه
ومـن نـدى كفـه يغني عـن الـديـم

ومـن إذا جـرد البيض الصـوارم في الـ
ـهيجاء أغمدهـا في البيـض والقمـم
ومـن حـوى الملكمـن بعـد الطـاعـة في أنـ
ـتـزاعـه بشبـا الهنـديـة الخذم
ورد طـاغيـة الأفـرنـج يحسـب مـا
رجـاه مـن ملـك مصر كـان في الحلـم
ولى وراحتـه صفـر وقـد ملئـت
بعـد الطماعـة مـن يـأس ومـن نـدم
يصعـدون على مـا فـاتهم نفسـا
لـو لا فـح البحـر أضحـى الموج كـالحمـم
وفي السـلامـة لـو لا جهلهـم ظفـر
لمن أراد نـزال الأسـد في الأجـم
وهـم أسـود الثـرى لكـن أذلهم
ملـك لـديـه الأسـود الغلـب كـالغنـم

وله من قصيدة أخرى:
أقمـت عمـود الـديـن حين أمـالـه
لطـاغـي الفـرنـج الغتـم طـاغـي بنـي سعـد
وجـاهـدت حـزب الكفـر حتـى رددتهم
خـزايـا عليهـم خيبـة الـذل والـردّ
أفـدت بها قـدمـت ملكـا مخلـدا
وذكـرا مـدى الأيـام يقـرن بـالحمـد
وذكـرك في الآفـاق يسري كـأنـه الـ
ـصباح لـه نشر الألـوّة والنـد

ولأبى الحسن بن الذروي فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مرّي:
ولكـم أشمـت الـروم أشـأم بـارق
أضحـت ميـاه نفـوسهـا مـن قطـره
وافـاك بحـر دروعهـا عـن مـدّه
ومضـى وقـد حكمـت ظبـاك بجـزره

ولقيت مـرّاً وطعـم حياتـه
حلـو فبـذّلـه القتـال بمـرّه
فـاعقـد إليـه الـرأي في عـذب القنـا
واحلـل بها عجـلاً معـاقـد كـره
واطـرده مـن وكـر الشـآم فـإنـه
قـد طـار منـك بخـافـق مـن ذعـره

فصل
في القبض على شاور وقتله

وصل أسد الدين القاهرة سابع ربيع الآخر، واجتمع بـالعاضد خليفة مصر فخلع عليه وأكرمه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد، ورأى هوى العاضد معهم من داخله، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين، ويسير معه ويعده ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلاغروراً)[١٠٤] ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل، وقال له : والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرّفن أسد الدين، فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل هذا لنقتلنّ جميعاً، فقال : صدقت ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلاّ أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه، فلما رأى العسكر النوري المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد

الدين بذلك فنهاهم فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله، فأنكر ذلك، واتفق أن أسد الدين سار بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، وقصد شاور عسكره على عادته للإجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العسكر فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه فسار وهما معه قليلاً، ثم ساوروه وألقوه عن فرسه، فهرب أصحابه، وأخذ أسيراً، ولم يمكنهم قتله بغير أذن أسد الدين فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه ، فعلم أسد الدين الحال، فعاد مسرعاً ولم يمكنه إلاّ إتمام ما عملوه، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور، ويحثه على قتله، وتابع الرسل بذلك، فقتل شاور في يومه، وهو سابع عشر ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فقصدها الناس ينهبونها، فتفرّقوا عنه ، هذا قول ابن الأثير.

وقال ابن شدّاد : أقام أسد الدين بها يتردّد إليه شاور في الأحيان، وكان وعدهم بمال في مقابلة ماخسروه من النفقة، فلم يوصل إليهم شيئاً وعلقت مخاليب الأسد في البلاد، وعلم أن الفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد، وأن تردّدهم إليها في كل وقت لايفيد، وأن شاوراً يلعب بهم تارة وبالأفرنج أخرى، وملاكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم، وعلموا أنه لاسبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور، فأجمعوا أمرهم على قبضه إذا خرج إليهم، وكانوا هم يتردّدون إلى خدمته دون أسد الدين، وهو يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به، وكان يركب على قاعدة وزارتهم بالطبل والبوق والعلم، فلم يتجاسر على قبضه منهم إلاّ السلطان نفسه، يعني صلاح الدين، وذلك أنه لما سار إليهم، تلقاه راكباً، وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه، ففرّوا ونهبهم العسكر، وقبض شاور وأنزل إلى خيمة مفردة، وفي

الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لابد من رأسه جريا على عادتهم في وزارتهم في تقرير قاعدة من قوي منهم على صاحبه، فحزت رقبته وأنفذوا رأسه إليهم.

قال العماد: ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الإيوان، وخلع عليه، ولقي الإحسان، وتردّد شاور إلى أسد الدين وتودّد، وتجدّد بينهما من الوداد ماتأكد، وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة والأطعمة الواسعة والحلاوات والميرة، فقال صلاح الدين:هذا أمر يطول ، ومسألة فرضها يعول، ومعنا هذا العسكر الثقيل وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل، ولا أمر لنا مع استيلاء شاور، لاسيما إذا راوغ وغادر، فأنفذ أسد الدين الفقيه عيسى إلى شاور يشير عليه بالاحتراس، وقال له: أخشى عليك من عندي من الناس، فلم يكترث بمقاله، وركب على سبيل انبساطه واسترساله، فاعترضه صلاح الدين في الأمراء النوريه، وهو راكب على عادته في هيئته الوزيرية، فبغته وشحته وقبضه وأثبته، ووكل به في خيمة ضربها له ، وحاول إمهاله فجاء من القصر من يطلب رأسه ويعجل من العمر يأسه، وجاء الرسول بعد الرسول وأبوا أ ن يرجعوا إلا بنجح السول، فحم حمامه، وحمل إلى القصر هامه.

قلت: وبلغني أن الذي حز رقبة شاور هو عز الدين جرديك، وكان صلاح الدين لما لقيه في أصحابه سار بجنبه وأراد إفراده عن العسكر، فالتمس منه المسابقة بفرسيهما، فأجابه ووافقهما في ذلك جرديك، وكان ذلك عن أمر قد تقرّر فحرّكوا خيلهم، فلما بعدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجرديك على شاور داخل الخيمة، وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عرقلة:

لقد فاز بالملك العقيم خليفة
له شيركوه العاضدي وزير

كـــان ابـــن شـــاذي والصـــلاح وسيفـــه
علـيّ لـــــــديــــــه شبر وشبير
هــو الأســد الضــاري الــذي جــل خطبــه
وشـــاور كلـــب للـــرجـــال عقـــور
بغـــى وطغـــى حتـــى لقـــد قـــال قـــائل
على مثلهـــا كـــان اللعين يـــدور
فـــلا رحـــم الـــرحمن تـــربـــة قبره
ولا زال فيهـــــامنكـــــــرونكير

وقال أيضاً:

إن أمير المؤمنين الـــــــــــذي
مصر حماه وعليّ أبـــــــــــوه
نـــص على شـــاور فـــرعـــونها
ونـــص مـــوســـاهـــا على شيركـــوه

وقـد وصـف الفقيـه الشـاعر أبـو حمزة عمارة اليمنـي في كتاب الـوزراء المصرية الـذي صنفه حال شـاور في وزارته الأولى، ثم قـال: وزارة شاور الثـانية:فيهـا تكشفت صفحـاته، وأحـرقـت لفحاتـه، وأغرقـت نفحاتـه، وغضـه الدهـر وعضـه وأوجعه الثكـل وأمضـه، وبان غمـره وثماده وجمره ورماده، ولم يجف من الانكاء لبده، ولا صفا من الاقذاء ورده، وما هو إلا أن تسلمها بالراحـة، وسلمت له الهموم عوضاً عـن الراحة، وفي أول ليلة دخـل القاهـرة ارتحل أسد الـدين طـالباً بلبيـس، فأقـام بها، ثم عـاد إلى القاهرة ، فكسر النـاس يوم التاج، وأسر أخوه صبـح ، وأصيب على باب القنطرة بحجـر كاد يموت منـه، وتعقب ذلـك بنقل القتال على القـاهرة حتى دخلـت من الثغرة، ثم تبـع هذا مجيء الفرنج وعمـل البرج وحصار بلبيس، ثـم تلا ذلك قيـام يحيى بن الخيـاط طالبـاً للوزارة، ثم تـلا ذلك نفـاق لواتـه ومـن ضامهـا مـن قيس، وخـروج أخيـه نجم وابنـه سليمان وجماعة من غلمانهم لحربهم، ثـم خروج ابنه الكامـل في بقية العسكر، وفي

أثناء هذه المدّة قبضه على الأثير ابن جلب راغب وقتله ، وأسر معالي بن فريج ثم قتله، واتصل إليه الخبر من قدوم أسد الدين إلى أطفيح بأم النوائب الكبر، ووافق مجيء الغزّ قدوم الفرنج ناصرين للدولة، وتوجهوا من مصر في البرّ الشرقي تابعين للغز، ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا إلى مصر واقترحوا من المال ما تنقطع دونه الآمال وخيموا على ساحل المقسم، وأظهروا رجوعهم إلى الشام ، فتجهز الكامل للمسير صحبة الأفرنج.

حدّثني القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني قال: أنا أذكر وقد خلونا في خيمة، وليس معنا أحد إنما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم، فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج، وعزم نجم على التغرب إلى سليم وما وراء ها ، وقال شاور: لكن لاأبرح أقاتل بمن صفا معي حتى أموت، فنحن في ذلك حتى وصل إلينا الداعي ابن عبد القوي وصنيعة الملك جوهر وعز، وقد التزموا المال، وتفرّع على هذا الأصل مقام الغزّ بالجيزة ونوبة البابين، وحصار الاسكندرية، وانصراف الغز راجعين والفرنج بعدهم، فما هو إلاّ أن توهم شاور أن الدهر قد نام وغفا، وصفح عن عادته معه وعفا، وإذا الأيام لاتخطب إلاّ زواله وفوته ، ولا تريد إلاّ إنتقاله وموته، فكان من قدوم الفرنج إلى بلبيس ، وقتل من فيها، وأسرهم بأسرهم ما أوجب حريق مصر، ومكاتبة الأجل نور الدين ابن القسيم، وإنجاده كلمة الإسلام بأسد الدين، ومن معه من المسلمين، الذين قلت فيهم ، وقد ربط الافرنج بالطريق عليهم:

أخذتم على الافرنج كل ثنية
وقلتم لأيدي الخيل مرّي على مرّي

لئن نصبوا في البرّ جسراً فإنكم
عبرتم ببحر من حديد على الجسر

قلت: وهذان البيتان من قصيدة ستأتي، ومرّي هو اسم ملك الأفرنج.

قال عمارة: فقضى قدوم الغز برحيل الفرنج عن الديار المصرية، ولم يلبث شاور أن مات قتيلا بعد قدوم الغز بثمانية عشر يوماً، وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له، قال: ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، وكانت وزارته تسعة أشهر مدّة حمل الجنين، ولا أتلف أموالهم مثل شاور، وشاور هو الذي أطمع الغزّ والأفرنج في الدولة حتى انتقلت عن أهلها، ولما عاد من حصار الاسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق، كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة، ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار.

وقال الحافظ أبو القاسم: لما خيف من شر شاور ومكره، لما عرف من غدره وختره، واتضح الأمر في ذلك واستبان، تمارض الأسد ليقتنص الثعلبان، فجاءه قاصداً لعيادته جاريا في خدمته على عادته، فوثب جرديك وبزغش موليا نور الدين فقتلا شاوراً، وأراحا العباد والبلاد من شرّه وما شاورا، وكان ذلك برأي صلاح الدين فإنه أوّل من تولى القبض عليه، ومدّيده الكريمة بالمكروه إليه، وصفا الأمر لأسد الدين، وملك وخلع عليه الخلع وحنك، واستولى أصحابه على البلاد، وجرت أموره على السداد، وظهر منه جميل السيرة، وظهرت كلمة السنة.

- ٧٩٣٨ -

فصل
في وزارة أسد الدين

وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر، أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر، وترتب وزيراً ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فنزلها، وهي التي كان بها شاور فمن قبله من الوزراء، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقرّ في الأمر، ولم يبق له فيه منازع ولا مناو، وولى الأعمال من يثق إليه، واستبدّ بالولاية فأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصلاح الدين مباشر للأمور مقرّر لها وزمام الأمر والنهي مفوّض إليه لمكان كفايته ودرايته، وحسن تأتيه وسياسته.

قال العماد: وكتب لأسد الدين منشور من القصر بسيط الشرح طويل الطي والنشر، كتب العاضد في طرّته بخطه ، ولاشك أنه باملاء كتابه: هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوّة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوّة، واتخذه للفوز سبيلا:﴿ و لا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ (١٠٥).

نسخة المنشور

من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد

الأجـل الملك المنصـور، سلطـان الجيـوش، ولي الأئمة، مجير الأمـة، أسـد الدين، كـافل قضاة المسلمين ، وهادي دعـاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العـاضد، عضـد الله بـه الديـن، وأمتـع بطول بقـائه أمير المؤمنين، وأدام قدرتـه وأعلى كلمته، سلام عليـك، فإنـه يحمد إليك الله الـذي لا إله إلاّ هو ، ويسأله أن يصلي على محمد خـاتم النبيين، وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما .

ثم ذكر باقي المنشور، وهو مشتمـل على كلام طويل، وحشو غير قليل على عادة الكتاب المتـأخرين، الذيـن تراهم بالألفـاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبريـن، والبلاغـة عكس ذلـك قال النبـي صلى الله عليه وسلـم «بعثت بجوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً».

ولما استقل أسد الدين بالوزارة، طلـب من القصر كاتب إنشاء فأرسل إليه بـالقاضي الفـاضل عبـد الرحيم ابـن البيساني، وكـان أبوه مـن أهل بيسان الشام، ثم ولي قضاء عسقلان، وخـرج الفاضل إلى الديار المصرية فولي كـاتباً بالاسكنـدرية على باب السـدرة، ثم إنه اتصـل بالكامـل بن شاور فـاستكتبه، وزاحـم به كتاب القصر فثقـل عليهم أمـره، فلما طلب أسد الـدين كاتباً أرسـل إليه، وظنّ رؤسـاء ديوان المكاتبات أن هـذا أمر لايتم، وأن أسد الـدين سيقتل كما قتل من كـان قبله، فأرسلوا بـالفاضل إليه، وقالوا: لعلـه يقتل معه فنتخلص من مزاحمته لنا ، فكـان من أمره ما كـان واستمرّ في الـدولـة ولم يزدد في كـل يـوم الا تقدّمـا بصـدقه ودينـه، وحسن رأيه رحمه الله .

وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنئة لأسد الدين أوّلها.

بـالجد أدركـت مـا ادركـت لا اللعـب
كـم راحـة جنيـت مـن دوحـة التعـب

يـا شيركـوه بـن شـاذي الملـك دعـوة مـن
نـادى فعـرّف خير ابـن بخير أب
جـرى الملـوك ومـا حـازوا بـركضهـم
مـن المدى في العلى مـا حـزت بـالخبـب
تمل مـن ملـك مصر رتبـة قصرت
عنهـا الملـوك فطـالـت سـائر الـرتـب
فتحـت مصر وأرجـو أن تصير بها
ميسرا فتـح بيـت القـدس عـن كثـب
قـد أمكنـت أسـد الـديـن الفـريسـة مـن
فتـح البـلاد فبـادر نحـوهـا وثـب
أنـت الـذي هـو فـرد مـن بسـالتـه
والـديـن مـن عـزمـه في جحفـل لجب
في حلـق ذي الشرك من عـدوى سطاك شجا
والقلـب في شجـن والنفـس في شجـب
زارت بنـي الأصفـر البيـض التـي لقيـت
حمر المنـايـا بها مـرفـوعـة الحجـب
وإنها نقـد مـن خلفهـا أسـد
أرى سـلامتهـا مـن أعجـب العجـب
لقـد رفعنـا إلى الـرحمن أيـدينـا
في شكـرنـا مـا بـه الاسـلام منـك حبـي
شكـا إليـك بنـو الاسـلام يتمهـم
فقمـت فيهـم مقـام الـوالـد الحدب
في كـل دار مـن الأفـرنـج نـادبـة
بها دهـاهـم فقـد بـاتـوا على نـدب
مـن شر شـاور انقـذت العبـاد فكـم
وكـم قضيـت لحزب الله مـن أرب
هـو الـذي أطمـع الأفـرنـج في بلـد الـ
إسلام حتـى سعـوا للقصـد والطلـب

وإن ذلــــك عنـــــد الله محتســـــب
في الحشر مــن أفضـل الطـاعـات والقــرب
أذلــــه الملـــــك المنصــــور منتصرا
لما دعــا الشرك هـــذا قـــد تعــــزز بي
ومـــا غضبــت لـــديــن الله منتميـــا
إلا لنيـــل رضــى الـــرحمن بـــالغضـــب
وأنــت مـــن وقعــت في الكفـــر هيبتــه
وفي ذويـــه وقـــوع النـــار في الحطـــب
وحين سرت إلى الكفـــار فـــانهزمـــوا
نصرت نصر رســـول الله بـــالــــرعـــب
يـــا محيـــي الأمـــة الهادي بـــدعـــوتـــه
للـــرشـــد كـــل غـــوي منهـــم وغبـــي
لما سعيـــت لـــوجـــه الله مـــرتقبـــا
ثـــوابـــه نلـــت عفـــواً كـــل مـــرتقـــب
أعـــدّت نقمـــة مصر نعمـــة فغـــدت
تقـــول كـــم نكـــست لله في النكـــب
أركبـــت رأس سنـــان رأس ظـــالمهـــا
عـــدلا وكنـــت لـــوزر غير مـــرتكـــب
ردّ الخلافـــة عبـــاسيـــة ودع الـــــــ
ـــــدعي فيهـــا يصـــادف شر منقلـــب
لا تقطعـــن ذنـــب الأفعـــى وتـــرسلهـــا
فـــالحزم عنـــدي قطـــع الـــرأس كـــالـــذنـــب

وقال العماد في الخريدة: أنشدني الحافظ أبو القاسم لنفسه وقد أعفى الملك العادل نور الدين قدّس الله روحه أهل دمشق من المطالبة بالخشب، فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر، فكتب إليه يهنيه

لما سمحـــت لأهـــل الشـــام بـــالخشـــب
عـــوضـــت مصر بما فيهـــا مـــن النشـــب

وإن بذلت لفتح القدس محتسبا
للأجر جوزيت أجراً غير محتسب
والأجر في ذلك عند الله مرتقب
فيما يثيب عليه خير مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه
خير من الفضة البيضاء والذهب

ولست تعذر في ترك الجهاد وقد
أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثلا
لما تريد فبادر فجأة النوب
فأحزم الناس من قوى عزيمته
حتى ينال بها العالي من الرتب
فالجدّ والجدّ مقرونان في قرن
والحزم في العزم والإدراك بالطلب
فطهر المسجد الأقصى وحوزته
من النجاسات والأشراك والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا
وفي القيامة تلقى خير منقلب(١٠٦)

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٥)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ ـ ١٤١٦هـ

الجزء الثامن عشر

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة

الجزء الثاني

- ٧٩٤٥ -

فصل

في وفاة أسد الدين شيركوه وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه

توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام.

قال ابن شدّاد : كان أسد الدين كثير الأكل، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق ، وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة، فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله رحمه الله، وفوّض الأمر بعده إلى صلاح الدين، واستقرت القواعد، واستتبت الأحوال على أحسن نظام، وبذل الأموال، وملك الرجال، وهانت عنده الدنيا، فملكها، وشكر نعمة الله عليه، فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الجدّ والاجتهاد، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدّا، إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته، ولقد سمعت منه رحمه الله يقول: لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي، وحين استتب له الأمر ؛ مازال يشن الغارات على الفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادهما. وغشي الناس من سحائب الأفضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام، هذا كله وهو وزير متابع للقوم، لكنه مقوّ مذهب السنة، غارس في البلاد أهل العلم والفقه والتصوّف والدين والناس يهرعون إليه من كل صوب ويغدون إليه من كل جانب، وهو رحمه الله لا يخيب قاصداً ولايعدم وافداً، ولما عرف نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين وذلك في رجب من هذه السنة.

وقال ابن الأثير: أما كيفية ولاية صلاح الدين فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدّم على العساكر، وولاية الوزارة. منهم: الأمير عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل، وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل، ومنهم سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، وجدّه كان صاحب قلاع الهكارية، ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين، فأمره الحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته بحكمه، ولا يجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج، ونور الدين، فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزم به، وأخذ كارها، إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل، فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب بالملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين، فأقام بها ، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه، فسعى عند سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لايصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك، وملكه لك، وقد استقام الأمر له فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه، فلايصل إليك ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلفه له، ثم عدل إلى قطب الدين، وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير الياروقي، وعلى كل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من

الأكراد فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك، ووعد وزاد في اقطاعه، فأطاع صلاح الدين أيضاً، وعدل إلى عين الدولة الياروقي وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا، فلم تنفعه رقاه، ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبداً، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليهم فراقه وقد فات الأمر (ليقضى الله أمراً كان مفعولاً)(١٠٧) وثبتت قدم صلاح الدين، ورسخ ملكه، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها، ولا يتصرّفون إلاّ عن أمره، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأسفهسلار، ويكتب علامته في الكتب تعظيما أن يكتب اسمه ولا يفرده في كتاب بل يكتب الأمير الأسفهسلار صلاح الدين، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا، واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه وطلب من العاضد شيئاً يخرجه فلم يمكنه منعه، فمال الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه، وضعف أمر العاضد، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه أخوته، فلم يجبه إلى ذلك وقال:أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد، ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر وفيهم أخوة صلاح الدين، منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وهو أكبر من صلاح الدين، فلما أراد أن يسير قال له : إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك، وأنت قاعد، فلا تسر فإنك تفسد البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر، وقائم فيها مقامي، وتخدمه بنفسك، كما تخدمني فسر إليه واشدد أزره، وساعده على ما هو بصدده، قال: أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى، فكان كما قال.

وقال العماد: لما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم، واختلطت أهواؤهم، وكاد الشمل لاينتظم ، والخلل لايلتئم فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين الرأي والراية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا:هذا قائم مقام عمه ونحن بحكمه، وألزموا صاحب القصر بتوليته، ونادت السعادة بتلبيته، وشرع في ترتيب الملك وتربيته، وفض ختوم الخزائن وأنض رسوم المزائن، وسلط الجود على الموجود، وبسط الوفور للوفود، وفرق ما جمعه أسد الدين في حياته وأنارت على منار العلى أناة آياته، ورأى أولياءه تحت الويته وراياته، وأحبوه وما زالت محبته غالبة على مهابته، وهو يبالغ في تقريبهم كأنهم ذوو قرابته، وما زاده الملك ترفعا، وما أفاده إلا تأصلا في السماح وتفرعاً، وضم من أمر المملكة ما كان منشوراً، وكتب له العاضد وصاحب القصر منشوراً، وهو بالمثال الكريم الفاضلي الذي هو السحر الحلال، والعذب الزلال، ثم أورده العماد، وهو شبيه بمنشور أسد الدين عمه. وجرى القلم فيه بما خط له القلم في الأزل من وصف جهاده وسلمه ففي ذلك المنشور:« والجهاد أنت رضيع دره وناشئة حجره، وظهور الخيل مواطنك، وظلال الخيام مساكنك ، وفي ظلمات قساطله تجلى محاسنك ، وفي أعقاب نوازله تتلى مناقبك، فشمر له عن ساق من القنا، وخض فيه بحراً من الظبا، وأحلل في عقد كلمة الله وثيقات الحبا، وأسل الوهاد بدم العدى، وأرفع برؤوسهم الربا، حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأيامك، وشهوداً لك يوم مقامك»، وفي طرته بالخط العاضدي، ولم يذكره العماد في كتابه:« هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عند الله سبحانه عليك ، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك، و لمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوه، ولمن تبقى من تبعته بنا أعظم سلوة (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوّا في

الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين)» (١٠٨) يعني بمن مضى أسد الدين وبمن بقي صلاح الدين

ثم قال العماد: وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت، وتبدّدت عقودها، وما انتظمت، ووصلت كتب صلاح الدين إلينا إلى الشام،بما تسنى له من المرام، ولمن يقصده بالاستدعاء والاستبطاء، ولمن تأخر عنه بالخلع والعطاء، وتردّدت الكتب الصلاحية بذكر الأشواق وشكوى الفراق، وشرح الاستيحاش، وبرح القلوب العطاش، فإن أصحابنا وإن ملكوا ونالوا مقاصدهم وأدركوا حصلوا بين أمة لايعرفونها، بل ينكرونها ولايألفونها، ورأوا وجوها هناك بهم عابسة، وأعينا للمكائد متيقظة، وعن الودّ ناعسة، فإن أجناد مصر كانوا في الدين مخالفين، وعلى عقيدتهم معاقدين مخالفين.

وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتاباً أوّله :

أيها الغائبون عني وإن كنـ
ـتم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني مذ فقدتكم لأراكم
بعيون الضمير عندي عيانا

فسألني المكتوب إليه أن أكتب جوابه فقلت:

أيها الظاعنون عني وقلبي
معهم لايفارق الأظعانا
ملكوا مصر مثل قلبي وفي هـ
ـذا وهاتيك أصبحوا سكانا
فاعدلوا فيهما فأنكم اليو
م ملكتم عليهما سلطانا
لاتروعوا بالهجر قلب محب
أورثته روعاته الخفقانا

حبــذا معهــد قضينــا بــه العيـــ
ــش فكنــا بــربعــه جيرانــا
إذ وجــدنــا مــن الحوادث أمنــا
وأخــذنــا مــن الخطــوب أمــانــا
ورتعنــا مــن المنــى في ريــاض
وسكنــا مــن المغــاني جنــانــا

وبعد: فإن وفود الهناء وأمداد الدعاء متواصلة على الولاء، صادرة عن محض الولاء إلى عالي جنابه المأنوس، ومنيع كنفه المحروس، فليهنه الظفران بالملك وبالعدوّ، وفرع هضبات المجد والعلو وكيف لايكون النصر مساوقاً لدين هو صلاحه، والتأييد مرافقاً لعزم هو نجاحه وفلاحه.

فالشام يغبط مصر أمد حللت بها
كما الفرات عليكم يحسد النيلا
نلتم من الملك عفواً ما الملوك به
عنوا اقديا ورامـ ـوه فلم ينالوه

قال العماد: ورثيت أسد الدين بقصيدة خدمت بها نور الدين، وعزيت بها أخاه نجم الدين منها:

تضعضع في هذا المصاب المباغت
من الدين لو لا نوره كل ثابت
فأيام نور الدين دامت منيرة
لنا خلفا من كل مود وفائت
فما بالنا نبدي التصامم غفلة
وداعي المنايا ناطق غير صامت
نؤمل في دار الفناء بقاءنا
ونرجو من الدنيا صداقة ماقت

ما الناس إلا كالغصون يد الردى
تقرب منها كل عود لناحت
لقد أبلغت رسل المنايا واسمعت
ولكنها لم تحظ منا بناصت

ومنها
فلهفي على تلك الشمائل إنها
لقد كرمت في الحسن عن نعت ناعت

وله من أخرى عزى بها أخاه نجم الدين أيوب، وولده ناصر الدين محمداً يقول:

ما بعد يومك للمعنى المدنف
غير العويل وحسرة المتأسف
ما أجرأ الحدثان كيف سطا على الـ
ـأسد المخوف سطا ولم يتخوف
من ذا رأى الأسد الهصور فريسة
أم أبصر الصبح المنير وقد خفي
من ثابت دون الكماة سواه إن
زلت بهم أقدامهم في الموقف
ما كان أسنى البدر لو لم يستتر
ما كان أبهى الشمس لو لم تكسف
أيام عمرك لم تزل مقسومة
لله بين تعبد وتعرف
متهجد العبادة أو تاليا
من آية أو ناظراً في مصحف
فجع الندى والبأس منك بحاتم
وبحيدر والحلم منك بأحنف
بالملك فزت وحزته عن قدرة
ومضيت عنه بسيرة المتعفف

ووصفت يا أسد الدين محمد
مدحاً بما ملك به لم يوصف
وقفوت آثار الشريعة كلها
وقد اهتدى من للشريعة يقتفي
أأنفت من دنياك حين عرفتها
فلويت وجه العارف المتنكف

ومنها :
يا ناصر الدين استعذ بتصبر
مدن إلى مرضاة رب مزلف
وتعز نجم الدين عنه مهنئاً
أبد الزمان بملك مصر ويوسف
لا نستطيع سوى الدعاء فكلنا
إلا بها في الوسع غير مكلف

ولعمارة اليمني في صلاح الدين مدائح منها قوله:
لك الحسب الباقي على عقب الدهر
بل الشرف الراقي إلى قمة النسر
كذا فليكن سعي الملوك إذا سعت
بها الهمم العليا إلى شرف الذكر
نهضتمّ بأعباء الوزارة نهضة
أقلتم بها الأقدام من زلة العثر
كشفتم عن الإقليم غمّه كما
كشفتم بأنوار الغنى ظلمه الفقر
حميتم من الأفرنج سرب خلافة
جريتم لها مجرى الأمان من الذعر
ولما استغاث ابن النبي بنصركم
ودائرة الأنصار أضيق من شبر

جلبتم إليه النصر أوسا وخزرجا
وما اشتقت الأنصار إلا من النصر
كتائب في جيرون منها أواخر
وأولها بالنيل من شاطىء مصر
طلعتم فأطلعتم كواكب نصرة
أضاءت وكان الدين ليلاً بلا فجر
وأبت إليكم يابن أيوب دولة
تراسلكم في كل يوم مع السفر
حمى الله فيكم عزمة أسدية
فككتم بها الاسلام من ربقه الأسر
أخذتم على الأفرنج كل ثنية
وقلتم لأيدى الخيل: مرّي على مرّي
لئن نصبوا في البر جسراً فإنكم
عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارعتم عليها مع العدى
ففزتم بها والصخر تقرع بالصخر
وأزعجه من مصر خوف يلزه
كما لز مهزوم من الليل بالفجر
وكم وقعة عذراء لما افتضضتها
بسيفك لم تترك لغيرك من عذر
وأيديكم بالبأس كاسرة العدى
ولكنها بالجود جابرة الكسر
أبوك الذي أضحى ذخيرة مجدكم
وأنت له خير النفائس والذخر
ومن كنت معروفاً له فاستفزه
بمثلك تيه فهو في أوسع العذر
فكيف أب أصبحت نار زناده
وإلا كنور البدر من سنة البدر

تــوقــره وســط النــدى كــرامــة
وتحمــل عنــه مــا يــؤود مــن الــوقــر
وتخلفــه حــربــا وسلما خــلافــة
تــؤلــف أضــدادا مــن الماء والجمــر
وكــم قمــت في بــأس وجــود ورتبــة
بما سره في الخطــب والــدســت والثغــر
ولــو أنطــق الله الجمادات لم تقــم
لنعمتكــم بــا لمستحــق مــن الشكــر
يــد لا يقــوم المسلمــون بشكــرهــا
لكــم آل أيــوب إلى آخــر الــدهــر
بكــم أمــن الــرحمن أعظــم يثــرب
وأمــن أركــان الثنيــة والحجــر
ولــو رجعت مصر إلى الكفر لانطوى
بساط الهدى مــن ســاحــة البر والبحــر
ولكــن شــددتــم أزره بــوزارة
غــدا الفظهــا يشتــق مــن شــدّة الأزر
فهنيتــم فتحــا أتقــدّم جلــه
وبشر أن الكــل يتلــو على الإثــر
ومــا بقيــت في الشرك إلاّ بقيــة
تتمتهــا في ذمــة البيــض والسمــر
وعنــد تمام الملــك أتــى مهنئــاً
وملتمساً أجر الكهانة والزجر
ولــو لا اعتقــادي أن مــدحــك قــربــة
أرجــي بها نيــل المثــوبــة والأجــر
لما قلت شعرا بعد اعفاء خاطري
ولي سنــوات منــذ تبــت عــن الشعــر
فــاوص بي الأيــام خيراً فــإنها
مصرفــة بــالنهــى منــك وبــالأمــر

وجـــائزتي تسهيـــل أذني عليكـــم
وملقـــاكـــم لي بـــالطـــلاقـــة والبشر

وقال أيضا من قصيدة :

يـــا شبيـــه الصـــديـــق عـــدلا وحسنـــا
وسميـــا حكـــاه معنـــى ومغنـــى
هـــذه مصر يـــوسـف حـــل فيهـــا
يـــوسـف مـــالكـــا ومـــا حـــل سجنـــا
أنـــت حـــرمـــت ان يثلـــث فيهـــا
بســـوى الله وحـــده أو يثنـــى
إنما الملك والوزارة جسم
أنـــت روح فيـــه وفي اللفـــظ معنـــى

وقال أيضا من قصيدة:

ملـــك صـــلاح الـــديـــن لا قـــوّضـــت
أطنـــابـــه ملـــك البقـــا والصـــلاح
سيرة عـــدل حسنـــت عنـــدنـــا
مـــا كـــان مـــن وجـــه الليـــالي القبـــاح
ســـافـــر في الـــدنيـــا وأقطـــارهـــا
ذكـــر غـــدا عنـــه جميـــلا وراح
قـــل لابـــن أيـــوب وكـــم نـــاصـــح
أنفـــع ممـــن هـــو شـــاكـــي الســـلاح
حـــارب على مثـــل نجـــوم السماء
فملـــك مصر مـــا عليـــه إصطـــلاح
قـــولا لمن في عـــزمـــه فترة
أرجـــع إلى الجدّ وخـــل المزاح
فـــالقـــدس قـــد أذن اغـــلاقـــه
على يـــدي يـــوســف بـــالانفتـــاح

وقال أيضا من قصيدة:

ونبت بمصر عن سميك يوسف
كما ناب عن سكب الحياء واكف سكب

حذوت على سجلي نداء وهديه
وإن كنت لا استجن حواك ولاجب

ووافقته في الصفح عن كل مذنب
فما منك تثريب وإن عظم الخطب

وللحكيم عبد المنعم الجلياني من قصيدة طويلة:

أبو المظفر مأوى كل مضطهد
بحكمه ونداه يضرب المثل

مهما يمل جائر أو عاث عمه
فعند عدل صلاح الدين يعتدل

أحيى به الله مصراً فهي ناشرة
وافتكها من عدوّ ما به قبل

كم للفرنج بها ورد ومنتجع
ونارهم حولها تذكو وتشتعل

فأطفأ الناصر المنصور جذوتهم
وأدبروا بقلوب شهمها وجل

ملك تقلد سلك الملك منتظما
وقال للمال هذا منك لي بدل

ففرق المال جمعا للقلوب به
وحسبه فيهم ادراك ماسألوا

إن الملوك الذين امتدّ أمرهم
لم يخزنوا المال بل مهما حووا بذلوا

كذا السياسة فالأجناد لو علموا
بخل المليك وجاءت شدّة خذلوا

فصل

وهذا الذي ذكرناه من قصة شاور، وماجرى بسببه في الديار المصرية إلى أن تمت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملا على زيادات وفوائد في كتاب ليحيى بن أبي طي الحلبي في السيرة الصلاحية، فأحببت ذكره مختصراً:

ذكر أن الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الديار المصرية لما قتل في رمضان سنة ست وخمسين بتدبير عمة العاضد عليه، أوصى عند موته ابنه رزيك بشاور وقال له: لاتزلزله من ولايته، فإنه أسلم لك، ويقال إنه أنشد أبياتا منها:

فإذا تبدد شمل عقدكما
لاتأمنا من شاور السعدي

وكان شاور متولي قوص والصعيد الأعلى، فلما دفن الصالح استوزر ابنه رزيك ولقب بالعادل، ولما استقرت أحواله أرسل إلى عمة العاضد فحدثها واجتمع إلى رزيك أولاد عمته، ومن جملتهم عز الدين حسام، وأشاروا عليه، بعزل شاور، فامتنع ثم ألحوا عليه فأجاب، وبلغ شاورا فجاهر بالعصيان، وجمع العربان، وأهل الصعيد وزحفوا إلى القاهرة، وخرج إليه جماعة من أمرائها كانوا كاتبوه، فخرج رزيك نصف الليل فضل الطريق وتاه فوقع عند أطفيح، وثم بيوت عرب فقبضوا عليه، وحمل إلى شاور، وقد دخل القاهرة وتسلمها، وأخرجت إليه خلع الوزارة، وتم أمره، ولما حصل رزيك عند شاوراً أكرمه وصلب الذي أتى به، ونادى عليه، هذا جزاء من لايرعى الجميل، وكان للصالح إليه إحسان، وتفرق آل رزيك في البلاد، ونجا حسام الذي كان سبب هلاك بني رزيك بأموال، وصار إلى حماه، فأقام بها واشترى القرى، ولم يزل بها إلى أن مات، وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار، فوفوا له

وردّوها عليه، ثم أراد تقي الدين أخذها منه، فقال : من العجب أن الفرنجي يفي لي بردّها، وتأخذها أنت مني، فكف عنه.

قال: وتمكن شاور، وكان له ثلاثة أولاد: طي والكامل وسليمان فتبسطوا على الناس وتعاظموا فمجتهم الأنفس، وكان ملهم وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك، فلما شاهدوا ميل الناس عن شاور بسبب أولاده أخذا في مراسلة رزيك بن الصالح وهو في السجن والعمل له في إعادته إلى الوزارة، واتصل ذلك بطي بن شاور، فدخل على أبيه، وقال له: أنت غافل وملهم وضرغام يفسدان أمرك، وقد شرعا في أمر رزيك، واستحلفا له جماعة من الأمراء ولا يمكن تلافي حالك إلاّ بقتل رزيك، فقال له شاور:إن الصالح أولاني جميلاً وبسببه حللت هذا المحل، فتركه ولده طي ودخل على رزيك فقتله في سجنه، وسمع شاور ذلك فقامت قيامته، ونمى الخبر إلى ضرغام وأخيه ملهم فثارا وأثارا من استحلفاه من الأمراء وزحفا بالعساكر إلى شاور، فانهزم وخرج من باب القاهرة وهرب إلى الشام، وأدرك ضرغام ولديه طيا وسليمان فقتلهما، وأسر الكامل فأخذه ملهم واعتقله عنده، وأراد ضرغام قتله فمنعه منه ملهم، وحفظ له جميلاً، كان قد فعله معه، واستقر أمر ضرغام في الوزارة، وخلع عليه ولقب بالملك المنصور، ولما استقر به الأمر بلغه أن جماعة من الأمراء حسدوه واستصغروه وكاتبوا شاوراً، وكان صار إلى الشام، فأخذ في إعمال الحيلة عليهم وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلا فقتلهم جميعا ولم يتعرض لأموالهم ولا لمنازلهم، وقيل إنه قتل منهم سبعين أميراً، ويقال إنه جعلهم في توابيت وكتب على كل تابوت اسم صاحبه، فكان ذلك أكبر الأسباب في هلاكه، وخروج دولة المصريين عن يد أصحابها لأنه أضعف عسكر مصر بقتل الأمراء، وأما شاور فإنه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصل إلى دمشق بعد تحققه قتل ولديه، ولما وصل إلى بصرى اتصل خبره بنور الدين فندب جماعة إلى تلقيه،

وأنزله في جوسق الميدان الأخضر وأحسن ضيافته وإكرامه، ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أحضر نور الدين ابن الصوفي وجماعة من وجوه الدمشقيين وقال لهم: اخرجوا إلى هذا الرجل وسلموا عليه وعرفوه أعذارنا في التقصير في حقه، وسلوه فيما قدم وما حاجته، فإن كان ورد علينا مختارا للإقامة أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه، ويقوم بأربابه وأوده، وتكون عونا له على زمانه، وإن كان ورد لغير ذلك فيفصح عن حاجته. فخرج الجماعة إليه بالرسالة، فشكر احسان نور الدين، وسكت عما وراء ذلك، فسأله القوم الجواب، فقال : إذا لم يبيت الرأي جاء فطيراً، فعاد القوم إلى نور الدين وعرفوه مادار بينهم وبينه، فأمرهم بالعود إليه من غد ذلك اليوم ففعلوا وطلبوا الجواب فسكت أيضا وأطال ثم قال: إن رأى نور الدين أطال الله بقاءه الاجتماع بي فله علوّ الرأي، فعرفوا نور الدين بمقالته فأجاب نور الدين أن يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الأخضر، وركب نور الدين من الغد في وجوه دولته وخواص مملكته في أحسن زي وأكمل شارة، فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان إلى آخره، ثم انفصلا من هناك، وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق، وأخذ من وقته ذلك في جمع العساكر، وأما ضرغام فإنه حين استقرّبه الأمر أنشأ كتابا إلى نور الدين على يد علم الملك بن النحاس، يظهر فيه الطاعة، ويعرّض بخذلان شاور، فأظهر نور الدين لعلم الملك القبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق، فلما كان بظاهر الكرك أخذه فليب بن الرقيق الفرنجي، وحصل على جميع ما كان معه، وانهزم علم الملك بنفسه وتوجه إلى الساحل، وسار إلى مصر.

وفي هذه الأيام أنفذ نور الدين واستحضر أسد الدين شيركوه من اقطاعه من الرحبة، وكان نور الدين قد تيمن بأسد الدين وتبرك بميمون

نقيبته لأنـه لم يرسله في أمـر إلا نجح، ولم يولجه في مضيـق إلا انفتح، ولما حضر أسد الديـن إلى دمشق، خلا به نـور الدين وتحدّث معه بـأشياء في أمر مصر، وأمره بالاستعداد، وكان نور الـدين قد أزاح علة العسكر الذي يريد تسييره إلى مصر، فخرج من يومه، وكان شاور قد أطمع نور الدين في أموال مصر ورغبـه في ملكها وأنه إذا ملكها كـان من قبله فيهـا، ولما بلغ شاورا استتباب أمر العسكـر سأل عن المقدّم عليه، فقيل لـه أسد الدين شيركوه، فلـم يطب له ذلـك، لأنه ظن أن التقـدّمة تكون لـه، فلما زوحم بهذا القود سقـط في يده وفـت في عضده، ولم يجد بـداً من المسير فخـرج واجتمع بـأسد الديـن، وسارا جميعا حتـى وصلوا أطراف البـلاد المصرية، ونـزلوا على تـل في الحوف قـريب مـن بلبيس يعـرف بتـل بسطة وضربـوا خيـامهـم هنـاك، ولما اتصـل بضرغـام خبر ورود شـاور وأسـد الـديـن بالعسـاكر الشـامية جمع أمراء مصر واستشـارهم، فـأشار شمـس الخلافة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتخرج جـريدة وتلقى العساكر الشامية بصدر وهـو على يومين مـن القاهرة، فـإنهم لايثبتون لكـونهم خرجـوا من البرية ضعفاء، ولمكان قلة الماء عليهم، لأن المسسافر إلى مصر يحمل الماء مـن إيلة مسيرة ثـلاثـة أيام، فلـم يروا ذلـك، واختـاروا أن يلقوهـم على بلبيـس ، فأمـر ضرغام الأمـراء بـالخروج فخرجـوا في أحسن زي وأكمـل عـدّة، والمقدّم عليهـم نـاصر الديـن ملهم أخـو ضرغـام، وجاؤوا حتـى أحاطوا بـالتل الذي كان أسـد الدين نازلاً عليـه، ولما عاين أسد الـدين كثرة العسـاكر، وأنهم قد ملكـوا عليهم الجهات، وسـدّوا منافذ الطـرقات قال لشاور: ما هـذا لقد أرهقتنا وغررتنا، وقلت إنـه ليس بمصر عساكر ، فجئنا في هـذه الشرذمة، فقـال له شاور: لا يهولنـك ما تشـاهد مـن كثرة الجمـوع فأكثـرهـا الحاكة والفـلاحـون الـذين يجمعهـم الطبـل، وتفرقهـم العصا، فما ظنك بهم إذا حمي الـوطيس، وكلبت الحرب، وأما الأمـراء فإن كتبهم عنـدي وعهودهم معي، وسترى ذلـك إذا لقيناهم، ثم قـال: أريد أن تأمر العساكـر بالاستعداد والركوب، ففعل ونهاهـم شاور عن القتال،

ووقف الفريقان مصطفين من غير حرب إلى أن حمي النهار والتهب الحديد على أجساد الرجال، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار، وخلعوا السلاح ونزلوا عن الخيول وجلسوا في الظل، فأمر شاور الناس بالحملة، فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزما، وتركوا خيمهم وأموالهم ليس بها حافظ فاحتوى عليها أصحاب أسد الدين، وأسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين ، ولم يمكن شاور من تقييدهم والاحتياط عليهم فهربوا، وساق أسد الدين وشاور في أثر الناس ونزلوا على القاهرة وقاتلوها أياما، وراسل شاور العاضد في اصلاح الحال، وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة ، فأذن له، وكان ضرغام صار إلى تحت القصر، وقال: أريد أمير المؤمنين يكلمني لأسأله عما أفعل، فلم يجبه أحد، فذهب على وجهه منهزما ، وخرج من باب زويلة، والعامة تلعنه وتصيح عليه فالتحقه رجل من أهل الشام ليقتله فقال له ضرغام: أوصلني إلى أسد الدين ولك مناك، فلم يقبل منه وحمل عليه فطعنه، فأرداه ونزل إليه واحتز رأسه وحمله إلى أسد الدين، وأعلمه بما جرى بينهما ، فصعب على أسد الدين وأوجعه ضرباً وأراد قتله، فشفع فيه شاور، ودخل شاور القاهرة وقتل ملهما أخا ضرغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار ملهم وكان معتقلا فيها، وخرج معه القاضي الفاضل وكان أيضا معتقلا فيها معه، واستقام أمر شاور في الوزارة، وأقام أسد الدين على المقس ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيم، وقد ضجر العسكر من الحر والغبار، فأرسل إليه شاور ثلاثين ألف دينار، وقال: ترحل الآن في أمن الله وفي دعته، فلما سمع أسد الدين ذلك أرسل إليه إن نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه إذا ملك شاور تكون مقيما عنده، ويكون لك ثلث مغل البلاد، والثلث الثاني لشاور وللعسكر، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه، فقال شاور: أنا ما قررت شيئاً مما تقول أنا طلبت نجدة من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا إلى

الشام، وقد سيرت إليكم نفقة فخذوها وانصرفوا وأنا انفصل مع نور الدين، فقال أسد الدين : أنا لايمكنني مخالفة نور الدين، ولا أقدر على الانصراف إلا بامضاء أمره، فأمر شاور باغلاق باب القاهرة، وأخذ في الاستعداد للحصار، واستعد أسد الدين أيضا، وسير صلاح الدين في قطعة من الجيش إلى بلبيس لجمع الغلال والاتبان والأحطاب، وما تدعو الحاجة إليه، ويكون جميع ذلك في بلبيس ذخيرة، وأخذ في قتال القاهرة، وكاتب شاور ملك الفرنج مرّي يستنجده ويقول له إن شيركوه طلع معي نجدة على ضرغام، فلما حصلوا في البلاد طمعوا فيها ومتى ملكوها مضافة إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيش ولا قرار، وضمن له في كل مرحلة يرحلها إلى ديار مصر ألف دينار، وقرر شيئاً لقضيم دوابهم وشيئاً لاسبتاريته، فخرج مريّ من عسقلان في جموعه إلى فاقوس في سبع وعشرين مرحلة ، وقبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار، ولما تحقق أسد الدين قرب الفرنج من القاهرة أجفل عنها إلى بلبيس، وانضاف إليه من أهلها الكنانية، وخرج شاور في عساكر مصر واجتمع بالفرنج، وجاء حتى خيم على بلبيس وأحاط بها محاصراً لأسد الدين يباكر الحرب ويراوحها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر، وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين، وكان اتصل بنور الدين وهو بدمشق خبر مسير الفرنج إلى ديار مصر وغدر شاور، فكاتب الأطراف بقدوم العساكر، فقدم عليه عساكر الشرق جميعها، واجتمعوا بأرض حلب فنزل بهم مجد الدين بن الداية، وكان نائب نور الدين بحلب إلى جهة حارم، ونزل على أرتاح، وخرج نور الدين من دمشق وشن الغارة على الساحل، وقتل وأسر عالما عظيما، ثم قصد جهة حلب، وجعل طريقه على حصن الأكراد، فلما حصل بأرضه شن الغارة فيها وغنم غنيمة عظيمة، ونزل في مرجه، فخرج إليه الفرنج الأخوة من حصن الأكراد وهجموا عسكره وقتلوا جماعة من المسلمين، وكان عسكر نور الدين غافلاً فلم يتماسك الناس، وساروا على وجوههم وسار نور الدين إلى أن اجتمع بعساكره

على أرتاح، وكـان أخوه نصرة الـدين مع الفـرنج ، فلما عـاين أعـلام نور الديـن لم يتماسك أن حمل بجميع أصحـابه قاصـداً أخاه نور الـدين، فلما قرب منـه نزل وقبل الأرض بين يـديه، فلـم يلتفت إليه، فتـم على وجهه، واصطف الناس للحـرب ، فحملت الفرنج فكسرت الميسرة ، ثـم عادت فوجـدت راجلها جميعـه قد قتـل، والخيل قـد اطبقت عليهـم فنزلـوا عن الخيول وألقـوا اسلحتهم وأذعنوا بـالأمان، فأخـذوا جميعا قبضاً بـالأيدي، وسار إلى حارم ففتحها، وأراد النزول على أنطاكيـة فلم يتمكن لشغل قلبه بمن في مصر من المسلمين، فـانحرف قاصداً لدمشق، ونـزل على بانياس فافتتحها، وأغار على بلد طبرية وجمع أعـلام الفرنج وشعافهم وجعلها في عيبة، وسلمها إلى نجـاب وقال له: أريد أن تعمل الحيلـة في الدخول إلى بلبيس وتخبر أسد الدين بها فتـح الله على المسلمين ، وتعطيه هذه الأعلام والشعاف، وتأمره بنشرها على أسوار بلبيس، فإن ذلك مما يفت في أعضاد الكفار، ويـدخل الوهـن عليهم، ففعـل ذلك ، فلما رأى الفرنـج الأعلام والشعـاف قلقوا لـذلـك وخـافوا على بـلادهـم، وسـألوا شـاور الإذن في الانفصال، فانزعـج شاور لذلك وخاف من عاقبـة الأمر، وسألهم التمهل أياما، وجمع أمراءه للمشـورة، فاشاروا عليه بمصالحة أسد الـدين، وتكفل له اتمام الصلح الأمير شمـس الخلافة، فأنفذه إليه فتم الصلـح على يديه على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى.

وحكي أن شـاور أرسل إلى أسد الديـن وهو محصوربيبلبيس يقـول له: إعلـم أنني أبقيـت عليك ولم أمكـن الفرنـج منـك لأنهم كانـوا قادريـن عليك، وإنما فعلـت ذلك لأمـرين: أحـدهما أني ما اختـار أن أكسر جاه المسلمين وأقوي الفـرنج عليهـم، والثاني أني خفـت أن الفرنـج إذا فتحوا بلبيس طمعوا فيها وقالوا: هذه لنا لأنا فتحنـاها بسيوفنا، وما من يوم كان يمضي إلا وأنـا أنفـذ إلى كبـار الفـرنـج الجملـة مـن المال ، وأسـألهم أن يكسروا همة الملك عن الزحف.

قال:وأقـام أسد الدين بظـاهر بلبيس ثـلاثة أيام، ورحلت الفـرنج إلى جهة الساحل، وسـار أسد الدين قاصداً الشـام وجعل مسيره على البرية، واتفـق أن البرنس أرنـاط صـاحب الكـرك والشوبـك تـأوّل ليمينه التـي حلفهـا لأسد الـديـن، وقال: أنـا حلفت أني مـا ألحق أسـد الديـن، ولا عسكـره في البر، وأنا أريـد أن الحقـه في البحـر، وصار في يـوم واحـد إلى عسقلان وخـرج منها إلى الكـرك والشوبـك، وجمع عسكره المقيـم هناك، وقعد مرتقبـا خروج أسد الديـن من البرية ليوقـع به ، وعلم أسد الـدين بمكيدة أرناط بالحدس والتخمين، فسلك طريقـاً من خلف المكان الذي كان فيـه أرناط، شق إلى الغور وخـرج من البلقاء، وسلمه الله تعـالى منه، ودخل دمشق فاجتمـع بنور الدين وأخبره بالأحوال وأعلمـه بضعف ديار مصر، ورغبه فيها وشـوّقه إلى ملكها، فرغـب فيها نور الديـن وأمره بتجنيد الأجناد، واستخدام الرجال.

وأما شـاور فإنه بعـد رحيل أسد الـدين والفـرنج إلى بلادهــم عاد إلى القاهرة، ولم يكن له همة إلا تتبع من علـم أن بينه وبين أسد الدين معرفة أو صحبة، وكـان استفسد جماعة من عسكـر أسد الدين منهـم خشترين الكردي وأقطعه شطنوف، وقتل شاور جماعة من أهل مصر، وشرّد آخرين.

ثم توجـه أسد الدين في ربيـع الأول سنة اثنتين وستين قاصداً للـديار المصرية، وكتـم أخباره فما راع شاوراً إلا ورود كتـاب مري ملك الفـرنج يعرفه فيه أن أسد الدين قد فصـل عن دمشق بعساكره قاصداً ديار مصر، فطلب شاور منـه إعادة النجدة، والمقرّر من المال يصل إليـه على ما كان يصل إليـه في العام الماضي، فسار مـري في عساكر الفـرنج إلى مصر على جانب البحر، وكـان أسد الدين سائراً في البر فسبقه الفـرنج، ونزلوا على ظاهر بلبيس، وخرج شاور بعساكر مصر، واجتمع بالملك وقعدوا جميعا في انتظار أسد الديـن، وعلم أسد الدين باجتماع الفـرنج بشاور على بلبيس،

فنكب عن طريقهم، وأم الجبل، وخرج على أطفيح وهي في الجنوب من مصر، وشن الغارة هناك، واتصل بشاور خبره فسار في عساكره والفرنج في صحبته يقفون أثره، واتصل بأسد الدين ذلك فاندفع بين أيديهم حتى بلغ شرونة من صعيد مصر، وتحيل في مراكب ركبها وعدّى إلى البر الغربي ، ولما استكمل تعديته أدرك شاور بعض ساقته ومنقطعي عسكريته فأوقع بهم، وأحضر شاور أيضا مراكب، وقطع النيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج، وسار أسد الدين إلى الجيزة وخيم بها مقدار خمسين يوماً، واستمال قوماً يقال لهم الأشراف الجعفريين والطلحيين والقرشيين، فأنفذ أسد الدين إلى شاور يقول له: أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه أنني لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبدا ولا أمكن أحداً من التعرض إليها ومن عارضك فيها كنت معك إلباً عليه، وما أؤمل منك إلا نصر الاسلام فقط، وهو أن هذا العدوّ قد حصل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة وخلاصه عسر، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه وننتهز فيه الفرصة التي قد أمكنت والغنيمة التي قد كتبت، فنستأصل شأفته ونخمد نائرته، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً ، فلما صار الرسول إلى شاور وأدّى الرسالة أمر به فقتل، وقال: ما هؤلاء الفرنج هؤلاء الفرج، ثم أعلم الفرنج بما أرسل إليه به أسد الدين وأعلمهم بما أجابه، وجدّد لهم أيمانا وثقوا بها، وبلغ ذلك أسد الدين فأكل يديه أسفاً على مخالفة شاور له في هذا الرأي، وقال: لعنه الله لو أطاعني لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج، ونزل شاور في اللوق والمقسم وأمر بعمل الجسر بين الجيزة والجزيرة، وأمر بالمراكب فشحنت بالرجال وأمرهم أن يبيتوا من خلف عسكر أسد الدين، ولما رأى أسد الدين ذلك كتب إلى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور لأجل إدخاله الفرنج إلى دار الاسلام وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم ،

فقاموا معه، وأمروا عليهم نجم الدين بن مصال، وهو ابن أحد وزراء المصريين، وكان لجأ إلى الاسكندرية مستخفياً فظهر في هذه الفتنه.

حدّثني الشريف الإدريسي نزيل حلب قال: كنت بالاسكندرية يومئذ، فكتب معي ابن مصال كتابا إلى أسد الدين وقال لي : قل له : إني أخبرك أن السلاح واصل إليك، وكان أنفذ لأسد الدين خزانة من السلاح، قال: فسبقتها بيومين وحضرت بين يدي أسد الدين وأعطيته الكتب وشافهته برسالة ابن مصال في معنى السلاح والآلات، ثم وصلت الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الفقيه ابن عوف.

قال: وبقينا على الجيزة يومين فوصل إلينا رسول ابن مدافع يخبر أسد الدين بقرب شاور منه، ويأمره بالنجاة ، فترك أسد الدين الخيام والمطابخ وما يثقل حمله وسار سيرا حثيثا حتى قارب دلجة، فأمر أسد الدين بنهبها فنهبت، ونزل الناس لتعشية الدواب ، فلم تستتم عليقها، حتى أمر أسد الدين بالرحيل، وأوقدت المشاعل ليلاً وسرنا فإذا الجاووش ينادي في الناس بالرجوع، وعاد أسد الدين إلى دلجة فنزل عليها، ونزل شاور على الأشمونين، وأمر أسد الدين الناس أن يقفوا على تعبية، فأصبحوا على ذلك والتقوا فقتل من أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة وانهزموا، وكان أسد الدين قد فرّق أصحابه فريقين: فريقاً معه، وفريقاً جعله مع صلاح الدين، وأنفذه ليأتي من خلف عسكر شاور فدخل الضعف من هذا الطريق، ثم إن أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا وعلموا أنه لا منجى لهم إلا الصبر فتحالفوا على الموت وحملوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم، فلم تزل الحرب قائمة إلى الليل، فولت عساكر الأفرنج والمصريين الأدبار، وكاد مري ملك الافرنج يؤسر، وصار شاور ومن سلم معه إلى منية ابن خصيب، وسارأسد الدين على الفيوم إلى الاسكندرية، فدخلها ونزل القصر، وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم، وكان فيها ابن الزبير متوليا ديوانها فحمل إلى أسد الدين

الأموال وقوّاه بالسلاح، وخاف أسد الدين أن يقصده شاور والفرنج فيحصروه ، فربما تأذى بالحصار فأمر صلاح الدين بالمقام بالاسكندرية، وترك عنده جماعة من العسكر ومن به مرض أو جراح أو ضعف، واستحلف له وجوه الاسكندرية وأوصاهم به، ورحل في أقوياء عسكره قاصداً إلى الصعيد، ونزل الفرنج وشاور على الاسكندرية وحاصروها مدّة ثلاثة أشهر بأشدّ القتال، وبذل أهلها في نصرة الملك الناصر أموالهم وأنفسهم، وقتل منهم جماعة عظيمة ولما صار أسد الدين بالصعيد حصل من تلك البلاد أموالا عظيمة، ولم يزل هناك حتى صام شهر رمضان، واتصل به اشتداد الأمر على الاسكندرية ، فرحل من قوص إلى جهتها واتبعه جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد، وبلغ ذلك شاورا فرحل هو والفرنج واضطر إلى الصلح، وضجرت الفرنج أيضا، فتوسط ملك الفرنج في ذلك فتقرر أمر الصلح على أن شاورا يحمل إلى أسد الدين جميع ما غرمه في هذه السفرة، ثم يعطي الفرنج ثلاثين ألف دينار، ويعود كل منهم إلى بلاده، وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء من أصحابه، فأنفذ له عدّة مراكب.

قال الادريسي: كنت في جملة من خرج في المراكب، فلما وصلنا إلى مينا عكا أخذنا واعتقلنا في معصرة القصب إلى أن وصل الملك مرّي، فأطلقنا فخرجنا إلى دمشق، وخرج صلاح الدين من الاسكندرية بعد أن استحلف شاوراً لأهلها بأن لا يتعرض لهم بسوء، واجتمع بعمه أسد الدين، ثم أنفذ شاور وقبض على ابن مصال وجماعة ممن أعان صلاح الدين وضيق عليهم وتتبع أهل الاسكندرية، واتصل ذلك بصلاح الدين فاجتمع بملك الفرنج وقال له: إن شاوراً نقض الأيمان، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه قبض على من لجأ إلينا فقال: ليس له ذلك وأنفذ إلى شاور وقال له : إن الإيمان جرت على أن لا تتعرض لأحد من أهل مصر ولا الاسكندرية، وألزمه يميناً أخرى في أن لا يتعرض لأحد ممن لجأ إلى

أسد الـدين أو صلاح الـدين، ولما شاهـد من التجأ إلى الأسـد والصلاح فسـاد تلك الأحـوال خـافوا مـن شـاور، فأخـذوا في الـرحيل إلى الشـام، واتصل ذلـك بشاور فخـرج بنفسه وجمع جميـع من عـزم على الرحلـة إلى الشام وحلـف لهم على الإحسان إليهم وحمايـة أنفسهم وأمـوالهم، فمنهم مـن سكن إلى ايمانـه، ومنهم مـن لم يسكن ورحـل، وألهم الله تعالى أسـد الديـن أن الفرنج ربما خطر لهم في مصر خـاطر فقصدتها، فراسـل الملك مرّي وقـال له: قـد سأل أهل مصر يمين الملـك أن لا يدخـل إليهم ولا يتعرض لهم، فامتنع الملك، ثم أجاب خـوفاً أن يتحقق أسد الدين وشاور أنـه ربما قصد ديـار مصر، فـربما اجتمعا عليـه فلـم يجد بداً مـن اليمين، فحلف وحلف أصحابه.

وخرج أسد الدين من مصر وفي قلبه الـداء الدوي منها لأنه شاهدها، وشاهـد مغلاتها، فـوجدهـا أمراً عظيماً، فأخـذ نور الـدين في تهويـن أمر مصر عليه وأقطعه حمص وأعمالها.

وحدثنـي أبي رحمه الله قال: حـدثني غير واحـد أن شاوراً كـاتب نـور الـدين في ذلـك وضمـن له أن يحمـل في كل سنـة عـن ديار مصر مـالاً مصانعـة، ولما بلغ شـاور أن نور الديـن صرف همة أسد الـدين عـن ذكر مصر والتعرض لها أنفـذ رسولاً بهديـة سنية وأصحبه كتـابا حسنـا أوله:« ورد كتـاب استدعـى شكري وحمدي واستخلـص من الصفـاء ما عنـدي واستفرغ في الثناء على مـرسله جهدي، فكأنما استملت معانيـه مما عندي، واشتملت على حقـائق قصدي، وسررت لـلإسلام وأهلـه، والديـن الذي وعد الله أن يظهر على الديـن كله، بأن يكون مثله ملكاً من ملـوكه يرجع إليـه في عقده وحلـه، وتشير الأصابـع ، وتعقد الخنـاصر على علو محلـه، والله يزيده بمكـانه تثبيتاً وقوة، ويحقق على يديـه مخايل النصر المرجوة، فما أسعد رأسـاً دل على نصرة الكلمة، ودعـا إلى سبيل الفئـة المسلمة، ووفـر

على مصالح الأمة قلوب رعاياها المنقسمة، وأنا متمم من هذا الأمر ما صدر مني وباق منه على ما نقل عني لا أتغير عن المصلحة فيه، ولا أعدل عما أظهره منه لما أخفيه، ولا استكثر كثيراً أصل إليه، وأتوصل به لما سبق للملك العادل من حقوق استوجب شكرها قولا وفعلا ونصرة كانت في هجير الخطوب برداً وظلاً، وأنعم لا تزال آياتها بألسن الحمد تتلى وتملى، ولعمري لقد علا بناؤها فخراً، وارتفع على الأملاك قدراً وذكرا، وجب أن يستتمها فلا يصل إلى مواردها الكدر، ويحوطها فلا تطرق إلى جوانبها الغير، ووراء هذه المكاتبة من اهتمامي ما لا يعوقه عائق إلا انتظام العقد على الأمور المألوفة، وتمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفة، مع أن قوله كيمينه، وكتابه كصفحه يمينه، والثقة به واقعة على كل حال، والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرق أسباب الاختلال».

قال: وفي سنة أربع وستين طمع مري ملك الفرنج في مصر، وعول على الدخول إليها والاستيلاء عليها وذلك لما انكشف له من عوارها، وظهر له من ضعف من بقي فيها، فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء الدولة والاسبتارية وتشاوروا فجرت بينهم في ذلك خطوب، ثم أجابوه إلى الخروج معه إلى الديار المصرية، فأحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لخيالته، وفرق قراها على أجناده، وكان لعنه الله لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها وتعرف له خبر ارتفاعها ، ثم سار حتى نزل الداروم فقامت قيامة شاور لما بلغه الخبر، وانتخب أميراً من أمرائه يقال له بدران وسيره إلى لقاء مرّي يسأله عن السبب في قصده، فاجتمع به وسأله فتلكأ عليه، ثم استلان جانبه وضمن له رضيخة على أن يورّي عنهم ولا يكشف لشاور حالهم، ويقال: إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمم على المصريين الحيلة ويعلم شاور أنه إنما قصد مصر للخدمة ، ففعل ذلك بدران، ولما

سمع ذلك شاور أشفق منه، وأحضر الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار وقال له: كأن بدران قد غشني ولم ينصحني، وأنا فواثق بك فأريد تخرج وتكشف لي حال الفرنج، فسار شمس الخلافة إلى مرّي، وكان بينهما مؤالفة، فلما دخل على الملك قال له : مرحبا بشمس الخلافة، فقال: مرحبا بالملك الغدّار، وإلا مالذي أقدمك إلينا؟ قال: اتصل بي أن الفقيه عيسى زوج أخت الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب وتزوج الكامل أخت صلاح الدين، فقلنا: هذا عمل علينا، فقال له شمس الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض للعهد، فقال له الملك : الصحيح أن قوما من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا على أرائنا وخرجوا طامعين في بلادكم فخفنا من ذلك، فخرّجنا لنتوسط الأمر بينكم وبينهم، فقال شمس الخلافة فأي شيء قد طلبوا؟ قال: ألفي ألف دينار، فقال: مكانكم حتى أصل إلى شاور أبلغه مقالكم وأعود بالجواب، فقال له ملك الفرنج: فنحن ننزل على بلبيس إلى أن تعود.

قال: وحكي أن ملك الفرنج لما وصل إلى الداروم، كتب إلى شاور يقول له : إني قد قصدت الخدمة على ما قررته لي من العطاء، في كل عام، فأجابه شاور إن الذي قررته لك إنما جعلته متى احتجت إليك، أو إذا قدم علي عدوّ، فأما مع خلو بالي من الأعداء فلا حاجة لي إليك، ولا لك عندي مقرر، فأجابه مري أن لابد من حضوري وأخذي المقرر، فعلم شاور أنه قد غدر بالعهد ونقض الأيمان، وأنه قد طمع في البلاد، فأخذ في تجنيد الأجناد ، وحشد العساكر إلى القاهرة، وأنفذ إلى بلبيس قطعة من الجيش وميرة وعدّة، ثم إن ملك الفرنج سار خلف رسول شاور لايلوي على قول حتى خيم على بلبيس في صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك بن النحاس، وابن الخياط يحيى، وابن قرجلة، وأرسل إلى طي بن شاور، وكان ببلبيس وقال له: أين ننزل؟ قال: على

أسنة الرماح، وقـال له: أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها، فـأرسل إليه مرّي نعم هي جبنـة، والقاهرة زبدة، ثـم قاتل بلبيس ليـلاً ونهاراً حتى افتتحها بالسيف وقتل من أهلها خلقاً عظيماً، وخـرب أكثرها، وأحرق جل أدورها ثـم أخـرج الاسـارى إلى ظاهـر البلـد وحشروا في مكـان واحـد وحمل في وسطهم برمحه، ففرقهـم فرقتين فأخذ الفرقة التي كانـت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفـرقة التي كانـت عن يساره لعسكـره، وقال لفرقته قـد أطلقتكم شكـرا لله تعالى على مـا أولاني من فتـح بـلاد مصر، فإني قـد ملكتها بـلا شـك، ووقـف إلى أن عـدّى أكثـرهم النيـل إلى جهـة منيـة حمل ، وأخـذ العسكر نصيبهـم من الأسـارى فاقتسمـوهـم، وبقـي أهل بلبيـس الذيـن أسروا أكثر مـن أربعين سنة في أسر الفـرنج، وهلـك أكثرهـم في أيديهم ، وأفلت منهـم اليسير لأن الملك الناصر رحمه الله لما ملك ديـار مصر وقف مغل بلبيس على كثرتـه على فكاك الأسرى منهـم، وسامـح أهل بلبيـس بخراجهم إلى آخر أيامه، ولما اتصل بشـاور ما جرى على أهل بلبيس من القتل والأسر، وأن الفـرنج شحنوهـا بالرجـال والعدد وجعلوهـا لهم ظهراً أشفق من ذلـك وطلب الأذن على العاضد، فلما اجتمع به بكـى بين يديه وقـال : اعلم أن البـلاد قد ملكـت علينا، ولم يبـق إلا أن تكتب إلى نـور الدين ، وتشرح له مـا جرى، وتطلب نصرته ومعونته، فكتـب جميع ذلك، وأرسل شاور طي تلك الكتب كتباً وسخم أعاليها بالمداد.

قال: وحدثني شمس الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار قال: إنما كتـب هذا الكتـاب برأى أبي شمـس الخلافة لأنـه لما رجع مـن عند مري لعنـه الله بعد أخذ بلبيس إجتمع بـالكامل بن شـاور، وقال له: عنـدي أمر لايمكنني أن أفضي بـه إليـك إلا بعد أن تحلـف لي أنـك لا تطلع أبـاك عليه، فلما حلـف له، قـال له : إن أبـاك قد وطـن نفسه على المصابرة، وآخر أمـره يسلم البلاد إلى الفرنج ولا يكاتب نـور الدين وهذا عين الفساد، فـاصعد أنت إلى العـاضد وألزمـه أن يكتب إلى نور الـدين

فليس لهذا الأمر غيره، فقصده الكامل، وكتب الكتاب، فلما وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً، وأنفذ أسد الدين، وكان ذلك من مناه وأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصلة، وبرسالة سرّية إلى العاضد، وأمره أن يستحلفه على أشياء عينها وأن يكتم ذلك من شاور.

وأما الفرنج فساروا إلى جهة مصر، وأمر شاور باحراق مصر، وانذر أهلها ، فخرج الناس منها على وجوههم وهجوا في بلاد مصر، وبلغ أجرة الجمل إلى القاهرة ثلاثين ديناراً، وترك الناس أكثر أموالهم فنهبت، وأحرقت مصر من تاسع صفر، وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً، ثم إن الفرنج لعنهم الله نزلوا في بركة الحبش، وانبثت خيولهم في الأطراف، وتخطفوا من ظفروا به، فأنفذ شاور شمس الخلافة إلى مري لعنه الله، فلما دخل عليه سأله أن يخرج معه إلى باب الخيمة ففعل، فأراه شمس الخلافة جهة مصر، وقال له: أترى دخانا في السماء، قال: نعم قال: هذا دخان مصر، ما أتيت إلا وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نفط وفرّقت فيها عشرة آلاف مشعل، وما بقي فيها ما يؤمل بقاؤه ونفعه، فخل الآن عنك مدافعتي ومخاتلتي وكوني كلما قلت لك أنزل في مكان تقدّمت إلى غيره ما بقي لك إلا أن تنزل بالقاهرة، فقال: هو كما تقول ولابدّ من نزولي القاهرة، ومعي فرنج من وراء البحر قد طمعوا في أخذها، ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام البرج تقع في خيمته، فقاتلوا البلد أياما، فلما تيقن شاور الضعف عدل إلى طريق المخادعة والمخاتلة والمغاررة والمدافعة إلى أن تصل عساكر الشام، فأنفذ شمس الخلافة إلى مرّي لعنه الله تعالى برسالة طويلة فتل بها في غاربه ودار من حواليه، وفي ضمنها أن هذا بلد عظيم، وفيه خلق كثير، ولا يمكن تسليمه البته، ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة،

والرأي أن تحقن دمـاء أصحابك ودماء أصحابي وتحصل شيئـاً أدفعه لك فيحصل لك عفـواً، فاستقرّت المصانعـة على أربع مائة ألف دينـار، وقيل ألفي ألف دينار يعجـل له منها مائة ألف دينار، فـأجاب مري إلى ذلك، وانعقدت الهدنـة، وحلف مري ورحل إلى بـركة الحبش، وحمل شـاور إليه مائة ألـف دينار، في عـدّة دفعات سـوّف فيها الأوقـات، ثـم أخـذ يمطله بالباقي انتظـاراً لقدوم العساكر، ويوهم أنه يجمـع لهم الأموال، فلم يشعر الفرنج إلا بهجوم عسكر الشام عليهـم فلما رأوهم رحلوا إلى بلبيس، ونزل أسد الـدين بالمقسـم، ثم رحل ملـك الفرنـج ونزل على فاقـوس ، وأتبعه أسد الديـن ونزل على بلبيس، وكان لما اتصـل بشاور وصول أسد الـدين إلى صدر أنفـذ شمس الخلافـة إلى ملك الفـرنج يستطلـق له منـه بعض المال ، فصار إليه واجتمع به وقال: قد قلّ علينا المال، فقال ملك الفرنج اطلب ماشئـت قال: اشتهى أن تهب لي النصف؟ قال: قـد فعلت، فقال شمس الخلافـة: ما بلغني أن ملكـا في مثل حالـك وقدرتك علينـا وهب مثل هذه الهبة لقوم هم في مثل حالنـا، فقال ملك الفرنج: أنا أعلم أنك رجل عـاقل ، وإن شـاوراً ملك وإنكما مـاسألتماني أن أهبكما هـذا المال العظيم إلا لأمر قد حـدث، فقال له: صدقت هذا أسد الـدين قد وصل إلى صدر نصرة لنا، وما بقي لك مقـام، وشاور يقول لك : أرى أن ترحل ونحن بـاقون على الهدنـة، فإنـه أوفق لـك ولنا، وإذا حصـل هذا الـرجل عندنا أرضيناه مـن هذا المال بشيء، وحملنا الباقي إليك متـى قدرنا، وإن نحن أخـرجنا في رضاهـم أكثر من هذا المال عـدنا عليك بما يبقـى علينا من المقـدار، فقال ملـك الفرنـج : أنا راض بـذلك، وإن بقـي علي شيء حملته إليكم، وعوّل على الـرحيل ، فقال له: بعد أن تطلق طـي بن شاور وجميع مـن في عسكرك من الأسارى ولا تـأخذ من بلبيس بعـد انصرافك شيئاً، فأجابه إلى جميع ذلك.

ولما رحلت الفرنـج عن القاهرة نـزل أسد الدين بـأرض يقال لها اللوق

وأخرج اليه شاور الإقامات الحسنة والخدم الكثيرة، ولما اجتمعا قال شاور لأسد الدين: قد رأيت من الرأي أن أخرج أنا وأنت وأن ندرك الفرنج ونوقع بهم؟ فقال أسد الدين: هذا كان رأيي والفرنج على البرّ الغربي ، وليس لهم وزر، وأما الآن فلا لأنهم على البرّ المتصل ببلادهم، ونحن فقد خرجنا من البرّ في أسوأ حال من الضعف والتعب وقد كفانا الله شرهم ونحن إلى الراحة والاستجمام أحوج

ولما نزل أسد الدين باللوق أرسل له العاضد هدية عظيمة وخلعا كثيرة، وأخرج إلى خدمته أكابر أصحابه، ثم إنه خرج إليه في الليل سراً متنكراً واجتمع به في خيمته، وأفضى إليه بأمور كثيرة، منها قتل شاور، ثم عاد إلى قصره، وكان شاور قد رأى ليلة نزل أسد الدين على القاهرة كأنه دخل دار الوزارة، فوجد على سرير ملكه رجلاً وبين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها بأقلامه، فسأل عنه فقيل هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما حصل أسد الدين بالديار المصرية، وانفصل عنها الفرنج أمنت البلاد وتراجع الناس إلى بيوتهم، وأخذوا في إصلاح ما شعثه الفرنج وأفسدوه، وتقاطر الناس إلى خدمة أسد الدين فتلقاهم بالرحب والسعة، وأحسن إليهم وأما شاور فإنه أخذ في التودد إلى أسد الدين والتقرب إلى قلبه بجميع ما وجد السبيل إليه، وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة، حتى استحوذ على قلبه ونوى تبقيته في ملكه، وصفا له قلبه، حتى أنفذ إليه سراً أحرس نفسك من عساكر الشام.

وأما عسكر الشام فإنهم لما رأوا طيب بلاد مصر، وكثرة خيرها، وسعة أموالها تاقت أنفسهم إلى الإقامة بها، واختاروا سكناها ورغبوا فيها رغبة عظيمة فقوي طمع أسد الدين في الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها، ثم علم أنه لايتم له ذلك وشاور باق فيها، فأخذ في أعمال الحيلة عليه، وكان العاضد قد تقدّم إليه بقتله فجمع أصحابه وشاورهم في أمر شاور،

وقال لهم: قد علمتم رغبتي في هذه البلاد، ومحبتي لها وحرصي عليها لاسيما وقد تحققت أن عند الفرنج منها ما عندي، وعلمت أنهم كشفوا عورتها، وعلموا مسالك رقعتها، وتيقن أني متى خرجت منها عادوا إليها واحتووا عليها وهي معظم دار الاسلام وحلوبة بيت ما لهم، وقد قوي عندي أن أثب عليها قبل وثوبهم وأملكها قبل مملكتهم، وأتخلص من شاور الذي يلعب بنا وبهم ويغرّنا ويغرّهم، ويضرب بيننا وبينهم، وقد ضيع أموال هذه البلاد في غير وجهها، وقوّى بها الفرنج علينا، وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبقهم، إلى هذه البلاد التي قد قل رجالها، وهلكت أبطالها، فتجلت الآراء بين الأمراء أنه لايتم لهم أمر إلاّ بعد القبض على شاور، وتفرقوا على ايقاع القبض به، وكان شاور يركب في الأبهة العظيمة، والجلالة الجسيمة، والعدّة الحسنة، والآلة الجميلة على عادتهم الأولى، وكان من جملة قواعدهم أن الوزير إذا ركب حمل في موكبه الطبل والبوق، وكان شاور قليل الركوب، فجعل الأمراء يترصدونه، ورأى أسد الدين قبل قبض شاور بليلة كأن شاوراً دخل إليه إلى داره، وناوله سيفه وعمامته، فتأوّله أسد الدين بالقبض عليه، وأخذ منصبه، ثم إن شاور ركب يوماً في أبهته وجلالته فلما عاينه الأمراء هابوه وأحجموا عنه، وكان يوماً عظيم الضباب وكان خروج شاور من باب القنطرة للسلام على أسد الدين، فتقدم صلاح الدين فسلم عليه ودخل في موكبه، ثم سايره، ثم مدّ يده إلى تلابيبه، وصاح عليه فرجله، ولما رأى ذلك عسكر الشام قويت عزماتهم ووقعوا في عسكر شاور، فنهبوا ما كان مع رجاله، وقتلوا منهم جماعة، وحمل الملك الناصر شاوراً راجلا إلى خيمة لطيفة وأراد قتله فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الدين، وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور، فأنفذ التوقيع إلى صلاح الدين فقتله في الحال وأنفذ رأسه إلى القصر، وبلغ الكامل بن شاور قتل أبيه فهرب إلى القصر.

وخلع العاضد على أسد الدين وقلده الوزارة، وأنفذ إليه طبق فضة

فيه رأس الكامل بن شاور ورؤوس أولاد أخـوته، ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين، أمر بقراءته على رؤوس الأشهـاد، وفرح به غايـة الفرح ، وأعيدت قراءتـه عليه عدّة دفعات استحسـانا لمعانيه، واستظـرافاً لما أودع من بديع الكلام فيه.

قال: ولما اتصـل بنور الـدين فتـح الديار المصريـة فرح بـذلك فـرحاً شديـداً، وواصل الحمـد والثناء على الله تعـالى إذ كان في زمنـه وعلى يده، وأمر بضرب البشـائر في جميع ولايته، وتـزيين جميع بلاده، وجلـس للهناء بذلك، وأنشده الشعـراء في فتحها عدّة أشعـار، غير أنه لما اتصـل به أن أسـد الديـن وزر للعاضـد واستبدّ بـالأمـر في ذلك الصقـع أمضه ذلـك وأقلقـه، وظهـرت في مخايل قسماتـه وفلتـات كلماتـه الكراهـة، وأخـذ في الفكرة في أمره وسهر له ليالي وأفضى بسره إلى مجد الدين بن الداية.

حـدّثني جماعـة عن شمـس الديـن علي بن الـداية أخـي مجد الديـن وحدّثنـي الموفق، محمود بـن النحاس الفقيه الحلبـي، وقد جرى ذكـر فتح مصر وأن نور الدين ابتهج به، فقـال: والله ما ابتهج به ، لقد كان ودّه أن لايفتح وأن لا يصير أسـد الدين وصـلاح الديـن إلى ما صارا إليـه، ولقد ظهرت الكـراهية منـه لذلـك في ألفاظـه ووجهه، ولقـد أعمل الحيلـة في إفساد أمر أسـد الدين وصلاح الـدين فما تهيأ له لاسيما يـوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر، فإنه أقـام ثلاثة أيام لايقدر أحد أن يراه، واهتم لذلك حتى قضى عليه الهم، ولـو لم يكن الفتح إليه منسوباً وعليه فضلـه محسـوبـاً لما صبر على مـا جـرى ولا أغضـى الملـك العـادل على القذى، ولقـد كاتـب العاضد عـدّة دفعات في أمـر الأسد والصـلاح فلم يحصل له فيهما النجـاح، وكثيراً ما يوجد في كتـب نور الدين إلى العـاضد التعريـض بانفـاذ أسد الديـن، ولو أمكنـه المجاهرة بـالقول لقـال، فمن بعض مكاتباتـه: « ولقد افتقر العبد إلى بعثته وأعوز عسكـره يمن نقيبته، واشتدّ حـزب الضلال على المسلمين لغيبته، لأنه مـا يزال يرمـي شياطين

الضـلال بشهـابـه الثـاقـب، ويصمـي مقـل الشرك بسهمـه النـافـذ الصائب».

قلت : لعل نـور الدين رحمه الله إنما أقلقه مـن ذلك كون أسد الـدين وزر للعاضد، فخـاف من ميله إلى القوم وإلى مذهبهـم، وأن يفسد جنده عليه بذلك السبب، هذا إن صح ما نقله ابن أبي طيّ والله أعلم.

قال: وكـان أسد الديـن لما ولي الوزارة لم يغير على أحد شيئـاً، وأجرى أصحاب مصر على قـواعدهـم وأمورهـم إلى أن انقضت أيـامه ، وفنيـت أعوامه، وكان قـرماً يحب أكل اللحم ويواظـب عليـه ليلاً ونهاراً، فتواترت عليه التخـم، واتصلت بـه مرضاتـه إلى أن ظهرت بحلقـه خوانيـق، كان فيها تلافه، ويقال إنه أكـل في ذلك اليوم مضيرة، ودخل الحمام فلما خرج منها أصابـه الخناق، قال: وكان شجاعاً بـارعاً قوياً جلداً في ذاتـه شديداً على الكفار، وطـأته عظيمـة، في ذات الله صولتـه عفيفاً دينـاً كثير الخير، وكـان يحب أهل الـدين والعلـم، كثير الإيثار حـدباً على أهلـه وأقاربـه، وكان فيه امساك، وخلف مـالا كثيراً، وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئاً كثيراً ، وخلف جماعة من الغلمان خمسمائة مملـوك وهم الأسدية، وهو كان مشيـد قواعد الـدولة الشاذيـة والمملكة النـاصرية، وكان ابتـداء أمره يخدم مع صاحـب تكريت على إقطاع مبلغـه تسعمائة دينار، وتنقل إلى أن ملك الديار المصرية، وعقد له العزاء، بالقاهرة ثلاثة أيام.

قلت: وإليـه تنسب المدرسـة الأسديـة بالشرف القبلي ظـاهر دمشـق، وهـي المطلـة على الميـدان الأخضر، وهي مـوقفـة على الطـائفتين الحنفيـة والشافعية والخانقاة الأسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين.

قال ابن أبي طـيّ: وساعة وفاتـه وقع الاختلاف فيمن يـولى الوزارة بين العسكر الشـامي، ومالـت الأسدية إلى صلاح الـدين، وفي تلك السـاعة

أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة، فأرشد من جماعة من الأمراء إلى شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، فأنفذ إليه وأحضره وخاطبه في تولي الوزارة، فامتنع من ذلك وأشار بولاية الملك الناصر، وكان الحارمي أوّلا قد رغب في الوزارة وتحدّث فيها وحصل ما يحتاجه، فلما رأى مزاحمة عين الدولة بن ياروق وغيره عليها، خاف أن يشتغل بطلبها فتفوته، وربما فاتت صلاح الدين فأشار به، لأنها إذا كانت في ابن أخته كانت في بيته، وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد، بموقع وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته وإقدامه على شاور في موكبه، وأنه قتله حين جاءه أمره ولم يتربص ولا توقف، فسارع إلى تقليده الوزارة، وما خرج شهاب الدين الحارمي من حضرة العاضد إلا وخلع الوزارة قد سبقت إلى الملك الناصر، وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنيسي بطرز ذهب، وثوب دبيقي بطرازي ذهب، وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب، وطيلسان دبيقي بطرازي دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار، لم يكن بالديار المصرية أسبق منها، وطوق تخت وسرفسار ذهب مجوهر، وفي رقبة الحجر مشدّة بيضاء، وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر وقصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهرة، وفي رأسها مشدّة بيضاء بأعلام ذهب، ومع الخلعة عدّة بقج، وعدّة من الخيل، وأشياء أخر، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض، وكان ذلك يوم الإثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، وقرىء المنشور بين يدي الملك الناصر يوم جلوسه في دار الوزارة، وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية، وكان يوما عظيماً، وخلع السلطان على جماعة الأمراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد، وعم الناس جميعهم بالهبات والصلات، ولما استقرت قدمه في الوزارة والرياسة قام في الرعية مقام من قام بالشريعة والسياسة، ونظم بحسن تدبيره من الدولة

بددها، وجرى في مناهج العدل على جددها، وجيعل إلى جوده وفضله، ونادى إلى رفده وبذله، وكاتب الأطراف بما صار إليه من السلطان، وسر قلوب الأصدقاء والأحباب بما حصل عليه من شريف الرتبة والمكان، واستدعى إلى حوزته الأصحاب والأهل وروى بسيح كرمه من بعد منه وقرب من أهل الفضل ، وتاب من الخمر، وعدل عن اللهو، وتيقظ للتدبير، وسها عن السهو، وتقمص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشرع المبين، وشمر عن ساق الجدّ والاجتهاد، وأفاض على الناس من كرمه وجود جوده شآبيب فضله النائب عن العهاد، وورد عليه القصاد والزوار، وأمر بنفائس الخطب وجواهر الأشعار.

حدّثني بعض الأمراء قال: أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر، وأحبه محبة عظيمة، وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه إلى القصر راكباً، فإذا حصل عند أقام معه في قصره اليوم والعشرة لايعلم أين مقره.

قال: ولما استولى الملك الناصر على الوزارة وما ل إليه العاضد وحكمه في ماله وبلاده، حسده من كان معه بالديار المصرية من الأمراء الشامية كابن ياروق وجرديك وجماعة من غلمان نور الدين، ثم إنهم فارقوه وصاروا إلى الشام.

وحدّثني أبي رحمه الله قال: حدّثني جماعة من أصحاب نور الدين أن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين، وما قد انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا أعظم ذلك وأكبره، وتأفف منه وأنكره، وقال : كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري، وكتب في ذلك عدّة كتب، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلا أنه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه ما فارق قبول رأيه وإشارته، وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه، وطلب منه حساب مصر، وما صار إليه، وكان كثيراً ما يقول: ملك ابن أيوب.

قلت: هذا كله مما تقتضيه الطباع البشرية والجبلة الآدمية، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك إلا من عصم الله ومن أنصف عذر، ومن عرف صبر، والذي انكره نور الدين إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده، بذلك من غير مشاورته، هذا مع أن ابن أبي طيّ متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به، فإن نور الدين رحمه الله كان قد أذل الشيعة بحلب، وأبطل مشاعرهم، وقوّى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طيّ من رؤوس الشيعة فنفاه من حلب، وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طي في كتابه مفرقا في مواضع، لهذا هو في الكتاب الذي له كبير الحمل على نور الدين رحمه الله، فلا يقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به، والله أعلم.

قال: ولما ملك الملك الناصر مصر إنتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين بن أسد الدين، وفرق عماله وأعطاه تل باشر، ثم أخذها منه، ولقد كان يتألم للملك الملك الناصر، ويقال أنه لما مرض قال: ما أخطأت إلا في انفاذي أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها، وما يحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب ، ثم التفت إلى أصحابه فقال: إذا أنا مت فصيروا بابني اسماعيل إلى حلب فإنه لايبقي عليه غيرها.

قال ابن أبي طيّ: ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضه، غير أنه يلقاها بصدر رحب، وخلق عذب، حدّثني أبي عن ابن قاضي الدهليز، وكان من خواص الملك الناصر، قال: جرى يوما بين يدي السلطان ذكر نور الدين، فأكثر الترحم عليه ثم قال: والله لقد صبرت منه على مثل حز المدى ووخز الإبر، وما قدر أحد من أصحابه أن يجد عليّ ما يعتده ذنباً، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعتدّها علي، فلم يقدر، ولقد كان يعتمد في

مخاطباتي ومراسلاتي على الأشياء التي لايصبر على مثلها لعلي اتضرر أو أتغير فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوما قط.

قلت: قد وقفت على كتاب بخط نور الدين رحمه الله يشكر فيه من صلاح الدين رحمه الله، وذلك ضدّ ما قاله ابن أبي طيّ، كتب نور الدين ذلك الكتاب إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون رحمه الله وهو بحلب ليوليه قضاء مصر صورته: « حسبي الله وكفى، وفق الله الشيخ الإمام شرف الدين لطاعته، وختم له بخير، غير خاف على الشيخ ما أنا عليه وفيه، وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين، وما يقربني إلى الله، والله وليّ التوفيق ، والمطلع على نيتي، وأنت تعلم نيتي كما قال عز من قائل: (ومن عنده علم الكتاب)(١٠٩) أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله تعالى دار إسلام بعدما كانت دار كفر ونفاق فلله المنة والحمد ألا إن المقدّم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل وبها النجاة، وأنت تعلم أن مصر واقليمها ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع وما تدخر الدموع إلاّ للشدائد، وأنا ما كنت أسخى ولا أشتهي مفارقتك، والآن فقد تعين عليك وعليّ أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت ، ولا أقدر أولي أمورها ولا أقلدها إلاّ لك حتى تبرأ ذمتي عند الله، فيجب عليك وفقك الله أن تشمر عن ساق الاجتهاد، وتتولى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقربك إلى الله ، وقد برئت ذمتي وأنت تجاوب الله ، فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي وفقه الله فيطيب قلبي، وتبرأ ذمتي، وقد كتبت هذا بخطي حتى لايبقى عليّ حجة، تصل أنت وولدك عندي، حتى أسيركم إلى مصر والسلام، بموافقة صاحبي واتفاق منه صلاح الدين، وفقه الله ، فأنا منه شاكر كثير كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه ففي بقاء الصالحين والاخيار صلاح عظيم، ومنفعة لأهل الإسلام، الله تعالى يكثر من الاخيار وأعوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً».

قال ابن أبي طيّ: وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم ما يستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابة سجل به من ديوان الإنشاء، وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يقرأ على المنابر، وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والعاملين لعدّة سنين متقدّمة آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف أردب غلة، فسامح في جميع ذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه عن المعاملين، وأنهي إليه ما يستأدى من الحجاج بالحجاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره، وعوّض عنه بعدّة ضياع، فأغاث أهل الحجاز بما أوسعهم من العين والغلة أشياء يطول شرحها.

قلت: وسيأتي كل ذلك في موضعه، ونسخة منشور إسقاط المكوس في أخبار سنة سبع وستين وذلك باشارة نور الدين رحمه الله وفي أيامه .

فصل

ذكر العماد في ديوانه قصيدة يمدح بها نور الدين ويهنيه بملك مصر، ولم يذكرها في كتاب البرق منها:

بملك مصر أهني مالك الأمم
فاسعد وأبشر بنصر الله عن أمم

أضحى بعدلك شمل الملك ملتئماً
وهل بعدلك شيء غير ملتئم

يا فاعل الخير عن طبع بلا كلف
ومولي العرف عن خلق بلا سأم

ورام قاتلهم ثغر الكفر تعجمه
لا لثم ثغر شتيت واضح شبم

لله درك نـــور الـــديـــن مـــن ملـــك
بـــالعـــزم مفتتـــح بـــالنصر مختتـــم
أثـــار عـــزمـــك في الإســـلام واضحـــة
وسرّه لـــــك بـــــاد غير مكتتـــم
بها مـــن العـــدل والاحســـان تنشره
تخاف ربـــك خـــوف المذنـــب الأثـــم
أوردت مصر خيـــول النصر عـــادمـــة
ثنـــي الأعنـــه اقـــداما على اللجـــم
فـــأقبلـــت في سحـــاب مـــن ذوابلهـــا
وقضبهـــا بـــدمـــاء الهام منسجـــم
تمكـــن الـــرعـــب في قلـــب العـــدوّ بها
تمكـــن النـــار بـــالاحـــراق في الفحـــم
سرت لتقطـــع مـــا للكفـــر مـــن سبـــب
واه وتـــوصـــل مـــا للـــديـــن مـــن رحـــم
مستسهـــلات وعـــور الطـــرق في طلـــب
العليـــا مقتحمات أصعـــب القحـــم
وعـــاجـــلات مـــن الافـــرنـــج غلهـــم
والقيـــد في مـــوضـــع الأطـــواق والخدم
لقـــد شفـــت غلـــة الإســـلام وانتقمـــت
مـــن العـــدوّ بحـــد الصـــارم الخذم
أعـــــانها الله في إطفـــــاء جمر أذى
مـــن شر شـــاور في الإســـلام مضطـــرم
وأصبحـــت بـــك مصر بعـــد خيفتهـــا
لـــلأمـــن والعـــز والإقبـــال كـــالحرم
والسنـــة اتسقـــت والبـــدعـــة أنمحقـــت
وعـــاودت دولـــة الاحســـان والكـــرم
ملـــوكهـــا الـــك صـــاروا أعبـــداً وغـــداً
بها عبيـــدك أمـــلاكـــاً ذوي حـــرم

أنبـت عنـك بهاقـومـا ينـوب بها
في البـأس عـن عنتر في الجود عـن هـرم
لله درّك نـور الـديـن مـن ملـك
عـدل لحفـظ أمـور الـديـن ملتـزم
كـانـت ولايـة مصر قبـل عـزتها
بكشـف دولتهـا الحماعلى وضـم
فـالنيـل ملتطـم جـار على خجـل
جـاراً لبحـر نـوال منـك ملتطـم
أغـز الفـرنـج فهـذا وقـت غـزوهـم
واحطـم جموعهـم بـالـذابـل الحطـم
وطهـر القـدس مـن رجـس الصليـب وثـب
على البغـاث وثـوب الاجـدل القطـم
فملـك مصر وملـك الشـام قـد نظما
في عقـد عـز مـن الاسـلام منتظـم
محمـودا الملـك الغـازي يسـوسهما
بـالفضـل والعـدل والافضـال والنعـم
بـالشكـر كـل لسـان نـاطـق أبـداً
محمـودا الملـك محمـود بكـل فـم
فـاشـك مصر واظهـر عـز سنتهـا
كـم تعتفـي وإلى كـم تشتكـي وكـم

ولعلم الدين الشاتاني في نور الدين رحمه الله
مـانـال شـاؤك في المعـالي سنجـر
كـلا ولا كسرى ولا اسكنـدر
يـا خير مـن ركـب الجيـاد وخـاض في
لجج المنـايـا والاسنـة تقطـر
هـل حـاز غيرك ملـك مصر وصـار مـن
اتبـاعـه مـن جـده المستنصر

والمستضيء بالله معتمد به
ويجده وبجده مستظهر
أوسد بالشام الثغور محاميا
للدين حتى عاد عنها قيصر
يبكي فيروي الأرض بحر دموعه
والجو من أنفاسه يتسعر
أو ما أبوك بسيفه فتح الرها
والأسد تقتنص الكماة وتزأر
هابت ملوك الأرض بأس كماتها
فتقاعدوا عن قصدها وتأخروا
ماضره طي المنية ذاته
وصفاته بين البرية تنشر
فلكم على كل الملوك مزية
لوقائع مشهورة لا تنكر
وإذا عددنا للأنام مناقبا
فعليك قبل الكل يثنى الخنصر
في الرأي قيس في السماحة حاتم
في النطق قس في البسالة حيدر
دانت لك الدنيا وأنت تعافها
وسواك في آماله يتعثر
من ذا يصون الصين عنك وأنت من
أسد الشرى منه تخاف وتحذر

قال العماد: وأنفذ صلاح الدين من مصر خلعاً لجماعة من الأعيان وأنفذ للعماد عمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى منها:

يا صلاح الدين الذي أصلح الفا
سد بالعدل من خطوب الزمان
أنت أجريت نيل مصر إلى الشا
م نوالا أم سال نيل ثاني

وعلى نيلهـــا الكفيـــك فضـــل
فهما بـــالنضـــار جـــاريتـــان
وصلـــت أعطيـــاؤك الغـــر غـــزرا
فتلقـــت آمـــال النـــابـــالتهـــاني
خلـــع راقـــت العيـــون وراعـــت
وعـــلا وصفهـــا عـــن الامكـــان
مـــذهبـــات كـــأنها خلـــع الرضـــ
ـــوان قـــد أهـــديـــت لاهـــل الجنـــان
مشرقـــات بطـــرزهـــا الـــذهبيـــا
ت الحســـان الـــرفيعـــة الأثمان
فـــالعمامـــات كـــالغمامـــات والطـــر
ز بـــروق كثيرة اللمعـــان
والموالي بها مـــن التيـــه والفخـــ
ـــر على الـــدهـــر ساحبـــو الأردان
كيـــف خـــص العمادبـــالأدون المخـــ
ـــلق مـــن عصبـــة الـــديـــوان
أخليـــق مـــن نسجـــه لـــك في المد
ح جـــديـــد بـــأمهـــن الخلقـــان
وكـــذا عـــادة الليـــالي تخص الـــ
ـــفاضل المستحـــق بـــالحرمـــان
لم تـــزل ســـائرات جـــودك بـــالشـــ
ـــام لـــديـــه غـــزيـــرة التهتـــان
فـــإذا لم تـــزده مصر كمالا
في المنـــى فـــاحمه مـــن النقصـــان

وكتب إلى فخر الدين أخي صلاح الدين قصيدة منها:
عبـــدك شمـــس الـــدولـــة المرتجا
منتظـــر تشريفـــك المذهبـــا

فـاعتـب صـلاح الـديـن لي حـالتـي
عسـاه بـالاصـلاح أن يعتبـا
غـرّقـه مـا تـم فـإني أرى
مـن فضلـه للفضـل أن يغضبـا
وكيـف يـرضـى ذاك بعـض الـرضـى
وبجده يـأبـاه كـل الابـا
وقـل لـه جـاءتـه ملبـوسـة
تخلفـت مـن تبـع في سبـا
عمامـة رقـت ورثـت فما
نشرتها الأوطـارت هبـا

قال : فوصل من صلاح الدين عمامة مذهبة وكتب يعتذر عن العمامة التي قبلها ، وكتب إلى سعد الدين كمشتكين كتاباً يقول فيه: استعير لسانه في الاعتذار إلى العماد فإني استقل لمرامه إرم ذات العماد، فكتب العماد:

أمـا العماد فقـد تضـاعـف شكـره
نعماك شكـر الـروض نعمـى الصيـب
لعمامـة ذهبيـة كغمامـة
يبـدو بها بـرق الطـراز المغـربي
مـا كـان أحسـن حـالـه لـو أنـه
شفعـت عمامتـه بثـوب مـذهـب

قال وكتب إليه:

أهنـي الملـك النـا
صر بـالملـك وبـالنصر
ومـا مهـد مـن بنيـا
ن ديـن الحق في مصر

ومـــا أســـداه مـــن بـــر
بـــلا عـــد ولا حصر
ومـــا أحيـــاه مـــن عـــدل
ومـــا خفـــف مـــن إصر
وأعـــلاء سنـــا ألسنـــ
ـــة في بحبـــوحـــة القصر
قـــد استـــولى على مصر
بحـــق يـــوســـف العصر
وأحيـــا سنـــة الاحســـا
ن في البـــدو وفي الحضر

وكتب إليه الأمير أسامة بن منقذ من قصيدة أوّلها يقول:

ديـــار الهوى حيـــا معـــالمك القطـــر
وجـــادك جـــود النـــاصر الغـــدق الهمـــر
بـــه رجعـــت في عنفـــوان شبـــابها
ونضرتها مـــن بعـــد مـــا هـــرمـــت مصر
وكـــم خـــاطـــب ردّتـــه لم يـــك كفـــؤهـــا
إلى أن أتـــاهـــا خـــاطـــب سيفـــه المهـــر
حماهـــا حمى الليـــث العـــريـــن وصـــانها
كما صـــان عينـــا مـــن مسلـــم القـــذى شفـــر
وكـــان بها بحـــر أجـــاج فـــأصبحـــت
ومـــن جـــوده العـــذب النمير بها بحـــر

وله فيه من أخرى:

فما أنـــت إلا الشمـــس لـــو لاك لم تـــزل
على مصر ظلماء الضـــلالـــة سرمـــدا
وكـــان بها طغيـــان فـــرعـــون لم يـــزل
كما كـــان لما أن طغـــى وتمرّدا
فبصرتهم بعـــد الغـــوايـــة والعمـــى
وأرشـــدتهم تحت الضـــلال إلى الهدى

وله فيه من أخرى

قـل للملـوك تـزحـزحـوا عـن ذروة الــ
ـــعلياء للملــك الهمام النــاصر
يعطــي الألــوف ويلتقيهــا باســا
طلــق المحيــا في القنــا المتشــاجــر

وقرأت في ديـوان العرقلة : وقال في المولى الملـك الناصر، وقد أنفـذ له من ديار مصر ذهبا ولغيره سلاما:

صـلاح الــديـن قـد أصلحـت دنيـا
شقــي لم يبـــت إلا حــريصـا
أتـى منـك السـلام لنـا عمـومـا
وجــودك جــاءني وحــدي خصـوصـا
فكنــت كيــوســف الصــديــق لما
تلقــى منــه يعقــوب القميصــا (١٢٠)

وكان العرقلة مـن جملة المتردّدين إلى صلاح الدين أيام كـونه بدمشق ، فلما صار إلى مصر وعـده أنه متى ملكها أعطـاه ألف دينار، فلما تـم أمره بمصر كتب إليه العرقلة قصيدة منها:

إليـك صـلاح الـديـن مـولاي أشتكـي
زمـــانـــا على الحر الكـــريـــم يجور
تـرى أبصر الألــف التـي كنـت واعـدي
بها في يــــدي قبـــــل الممات تصير
وهيهـــات والأفـــرنـــج بينـــي وبينكـــم
سيــــاج قتيــــل دونـــــه وأسير
ومــن عجــب الأيــام أنــك ذو غنــى
بمصر ومثلي بـــالشــــأم فقير (١١١)

وقال أيضا:

قـل للصـلاح معينـي عنـد اعسـاري
يـا ألـف مـولاي أيـن الألـف دينـار
أخشـى مـن الأسر إن حـاولـت أرضكـم
ومـا تفـي جنـة الفـردوس بـالنـار
فجـد بهـا عـ[illegible]ـديـات مسطـرة
مـن بعض مـا خلف الطـاغي أبـو الطـاري
حمراً كـأسيـا فكـم غبرا كخيلكـم
عتقـا ثقـالاً كـاعـدائي وأطماري (١١٢)

يعني بالطـاغي شـاوراً وله ابـن اسمـه الطاّري، وأنفـذ له مـن مصر عشرين دينار فقال:

يـا مـا الكـامـا بـرحـت كفـه
تجود بـالمال على كفـي
أفلـح بـالعشريـن مـن لم يـزل في
رأس عشريـن مـن الكهـف
يـا ألـف مـولاي ولكنهـا
محسـوبـة مـن جملـة الألـف (١١٣)

وذكـر العماد في الخريـدة أن العـرقلة قصـد صـلاح الـديـن إلى مصر، فأعطاه ذلك وأخذ له من أخـوته مثله، فعاد إلى دمشق وهو مسرور محبور، وكان ذلـك ختام حيـاته، ودنا أجـل وفاته، فمات بـدمشق في سنـة ست أوسبع وستين وخمسمائة .

قلت: وفي ديوانـه ما يدل على قدومه مصر، فإن فيـه: وقال وكتبها على حمام عمرها المولى الملك الناصر بديار مصر المحروسة:

يـا داخـل الحمام هنيتهـا
دائرة كـالفلـك الـدائر
تـأمـل الجنـة قـد زخـرفـت
وعمـرت للملـك النـاصر

- ٧٩٩١ -

كـــــأنها فيـــــــض أنــــــابيبهـــــــا
نــــــــداه للـــــــــوارد والصـــــــــادر

-٧٩٩٢-

فصل

في قتل المؤتمن بالخرقانية ووقعه السودان بين القصرين وغير ذلك

قال العماد: وشرع صلاح الدين في نقص اقطاع المصريين، فقطع منهم الدوائر من أجل من معه من العساكر، وكان بالقصر خصي يدعى بمؤتمن الخلافة، متحكم في القصر، فأجمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الأسدية، لأن صلاح الدين يخرج إلى الفرنج بمن معه فيؤخذ من بقي من أصحابه بالقاهرة، ويتبع من ورائهم فتكون عليهم الدائرة ، فكاتبوا الفرنج واتفق أن رجلاً من التركمان عبر بالبئر البيضاء فرأى مع إنسان ذي خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي فأنكرهما، فأخذهما وجاء بهما إلى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكاتبة للفرنج فيهما من أهل القصر يرجون بحركتهم حصول النصر، فأخذ الكتاب وقال: دلوني على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودي من الرهط فلما أحضروه ليسألوه ويعاقبوه على خطه ويقابلوه نطق بالشهادة قبل كلامه، ودخل في عصمة اسلامه، ثم اعترف بما جناه وشيده من الأمر وبناه، وأن الأمر به مؤتمن الخلافة وأنه بريء من هذه الآفه، فحسن لدى السلطان إسلامه، وثبت اعتصامه، وعرف استسلامه ورأى اخفاء هذا السر واكتتامه، واستشعر الخصي العصي وخشي أن يسبقه على شق العصا العصي، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد مسافة، وصلاح الدين عليه مغضب، وعنه مغض لا يأمر فيه ببسط ولا قبض إلى أن استرسل واستبسل، فظن أن ما نسله من الشر العقيم نصل، وكان له قصر في قرية يقال لها الخرقانية لخرقه ورقع ما يتسع عليه من خرقه، وهو بقرب قليوب فخلا فيه يوما للذته، ولم يدر أنه يوم ذلته وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته، فأنهض إليه صلاح الدين من أخذ

رأسه ونزع من جاء به لباسه، وذلك يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع، فورد موارده من رداه على أدون مشرع.

قال: ولما قتل غار السودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه واستباحوه واستحلوه، فحسبوا أن كل بيضاء شحمه وأن كل سواد فحمه، فثار أصحاب صلاح الدين إلى الهيجا ومقدّمهم الأمير أبو الهيجا، واتصلت الحرب بين القصرين وأحاطت بهم العسكرية من الجانبين، ودام الشر يومين حتى حس الأساحم بالجبن، وكلما لجؤوا إلى محلة أحرقوها عليهم وحووا ما حواليهم واخرجوا إلى الجيزة وأذلوا بالنفي عن منازلهم العزيزة، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فما خلص السودان بعدها من الشدّة، ولم يجدوا إلى الخلاص سبيلا، وأينما وقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا، وكانت لهم على باب زويلة محلة تسمى المنصورة، وكانت بهم المعمرة المعمورة، فأخلى بنيانها من القواعد، فأصبحت خاويه، ثم حرثها بعض الأمراء واتخذها بستانا، فهي الآن جنة لها ساقية.

قال: وكان قد وصل إلى صلاح الدين قبيل هذه النوبة أخوه الأكبر فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، أنفذه إليه نور الدين من دمشق يشد أزره بمصر لما سمع بحركة الفرنج وأهل القصر، فوصل القاهرة في ثالث ذي القعدة. قال: وباشر بنفسه وقعة السودان هذه، وكان له فيها أثر عظيم، ومن عجيب ما اتفق أن العاضد كان يتطلع من المنظرة يعاين الحرب بين القصرين ، فقيل إنه أمر من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ففعلوا، وقيل إن ذلك كان عن غير اختيار، فأمر شمس الدولة الزراقين باحراق منظرة العاضد فهم أحد الزراقين بذلك وإذا باب المنظرة قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة وقال: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول: دونكم العبيد الكلاب

أخرجوهم مـن بلادكم، وكانت العبيد مشتدّة الأنفس بأن العاضد راض بفعالهم، فلما سمعوا ذلك فت في أعضادهم فجبنوا وتخاذلوا وأدبروا.

وبما كتبه العماد على لسان غيره إلى صلاح الدين قصيدة منها

بـالملـك النـاصر استنـارت
في عصرنـا أوجـه الفضـائل

على مـن حقـه فـروض
شكـراً لماجـاد مـن نـوافـل

يـوسـف مصر الـذي إليـه
تشـدّ آمـال النـا الـرواحـل

أجـريـت نيلين في ثـراهـا
نيـل نجيـع ونيـل نـائل

ومـا نفيـت السـودان حتـى
أحكمـت البيـض في المقـاتـل

صيرت رحـب الفضـاء ضيقـا
عليهـم كفـة لحـائل

وكـل راء منهـم كـراء
وأرض مصر كـلام واصـل

وقـد خلـت منهـم المغـاني
وأقفـرت منهـم المنـازل

ومـا أصيبـوا إلا بطـل
فكيـف لـو أمطـروا بـوابـل

والسـود بـالبيـض قـد أبيحـوا
فهـي نـواز بهم نـوازل

مـؤتمن القـوم خـان حتـى
غـالتـه مـن شـدة غـوائل

عـاملكـم بـالخنـا فـأضحـى
ورأسـه فـوق رأس عـامـل

يـا مخجـل البحـر بـالأيـادي
قـد آن أن تفتـح السـواحـل

فقـــدّس القـــدس مـــن خبـــاث
أرجـــاس كفـــر غتـــم أراذل

قال العماد: ومما مدح به صلاح الدين في ذلك التاريخ تهنئة له با لملك، وتعزية بعمه:

أيـا يـوسـف الاحسـان والحسن خير مـن
حـوى الفضـل والافضـال والنهـى والأمـرا
ومـن للهـدى وجـه النجـاح بـرأيـه
تجلى وثغـر النصر مـن عـزمتـه افترا
حمى حـوزة الـديـن الحنيـف بحـوزه
مـن الخالـق الحسنى ومـن خلقـه الشكـرا
أبـــوه أبـــى إلأ العـــلا وعمـــه
بمعـروفـه عـم الـورى البـدو والحضرا
وطـال الملـوك شيركـوه بطـولـه
ومـا شـاركـوه في العـلا فحـوى الفخـرا
بنـو الأصفـر الافـرنـج لاقـوا ببيضـه
وسمـر عـواليـه منـايـاهـم حمرا
ومـا أبيـض يـوم النصر واخضر روضـه
مـن الخصـب حتـى أسـودّ بالنقـع واغبرا
رأى النصر في تقـوى الالـه وكـل مـن
تقـوى بتقـوى الله لا يعـدم النصرا
ولما رأى الـدنيـا بعين مـلالـة
أغـذ مـن الأولى مسيراً إلى الأخـرى
وقـام صـلاح الـديـن بـا لملك كـافـلا
وكيف ترى شمس الضحى تخلف البدرا
ولما صبـت مصر إلى عصر يـوسـف
أعـاد إليهـا الله يـوسـف والعصرا
فـأجـرى بها مـن راحتيـه بجـوده
بحـارا فسماهـا الـورى انمـلا عشرا

هزمتم جنود المشركين برعبكم
فلم يلبثوا خوفا ولم يمكثوا ذعرا
وفرقتم من حول مصر جموعهم
بكسر وعاد الكسر من أهلها جبرا
وآمنتم فيها الرعايا بعدلكم
وأطفأتم من شرشا ورها الجمرا
بسفك دم حطتم دماء كثيرة
وحزتم بها أبديتم الحمد والشكرا
وما يرتوي الاسلام حتى تغادروا
لكم من دماء الغادرين بها غدرا
فصبوا على الأفرنج سوط عذابها
بأن يقسموا ما بينها القتل والأسرا
ولا تهملوا البيت المقدّس واعزموا
على فتحه غازين وافترعوا البكرا
تديمون بالمعروف طيب ذكركم
وما الملك إلا أن تديموا الكم ذكرا
و إن الذي أثرى من المال مقتر
وان تفنه في كسب محمدة أثرى

قال : وكثرت كتب صلاح الدين إلى أصدقائه مبشرة بطيب أنبائه فمنها كتاب ضمنه هذا البيت:

ما كنت بالمنظور أقنع منكم
ولقد رضيت اليوم بالمسموع

فقلت في جوابه أبياتا منها هذه:

يا هل لسالف عيشتي بفنائكم
من عودة محمودة ورجوع
مذ غبتم عن ناظري ما أذنت
للقلب شمس مسرة بطلوع

كنت المشفع في المطالب عندكم
فغدوت أطلب طيفكم بشفيع
أصبحت أقنع بالسلام على النوى
ويقربكم كم بت غير قنوع

قال: ووصل أيضا منه كتاب ضمنه هذا البيت:
وانثر در الدمع من قبل أبيضا
وقد حال مذ بنتم فأصبح ياقوتا

فنظمت في جوابه أبياتا منها:
هنيئا لمصر حوز يوسف ملكها
بأمر من الرحمن قد كان موقوتا
وما كان فيها قتل يوسف شاورا
يماثل إلا قتل داود جالوتا
وقالت لقلبي أبشر اليوم بالمنى
فقد نلت ما أملت بل حزت ما شئتا

قال: وفي هذه السنة قتل العاضد بالقصر ابني شاور: الكامل ، وأخاه يعني الطاري، يوم الإثنين الرابع من جمادى الآخرة، وذلك أنه لما قتل شاور عاذوا في القصر فكأنما نزلوا في القبر فلو أنهم جاؤوا إلى أسد الدين سلموا وامتنعوا وعصموا، فإنه ساءه قتل شاور وإن كان أمن بقتله ما حاذر.

قلت: الكامل هو شجاع بن شاور، وكان له أخوان طي تقدّم ذكر قتل ضرغام له، والآخر الطاري.

قال الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي السرور الروحي في تاريخه:أخذ ابنا شاور شجاع الملقب بالكامل والطاري الملقب بالمعظم ، وأخوه الملقب بفارس المسلمين ، فقتلوا ودير برؤوسهم.

-٧٩٩٨-

قال: لما ولي صلاح الدين ساس الرعية، وأظهر لهم من العدل مالم يعلموه، فاجتمع أهل البلاد وكرهوه، فأوقع براجلهم وأخرجهم من القاهرة إخراجا عنيفاً، وأخرج بعد ذلك فارسهم، وشتت شملهم (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا)(١١٥) .

قال: ولما كانت سنة ست وستين رفع جميع المكوس صادرها وواردها، جليلها وحقيرها، وغزا بلاد الشام غزوتين.

قال ابن شداد: وفي المحرم من هذه السنة مات ياروق الذي تنسب إليه الياروقية، يعني المحلة التي بظاهر حلب.

قال غيره: وفيها احترق جامع حلب وأسواق البر، وأخذ نو الدين في عمارته آخر السنة.

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

ففي أول صفر منها نزل الفرنج خذلهم الله تعالى على دمياط من الديار المصرية.

قال ابن الأثير: كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك، فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية يستمدّونهم ويعرفونهم ما تجدّد من ملك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدس، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة، فأمدّوهم بالمال والرجال والسلاح، واعتمدوا على النزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديارمصر، فلما نزلوها حصروها وضيقوا على من بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل، وحشر فيها كل من عنده، وأمدّهم بالمال والسلاح والذخائر، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء، وخرجوا من طاعته، وصاروا من خلفه، والفرنج من أمامه، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسالا، كلما تجهزت طائفة رسلها، فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً، ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر، فدخل بلاد الافرنج فنهبها وأغار عليها واستباحها ، ووصلت الغارات إلى مالم تكن تبلغه لخلو البلاد عن ممانع، فلما رأى الأفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين بلادها ونهبها واخرابها، رجعوا خائبين، ولم يظفروا بشيء، وهذا موضع المثل:« ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين» ، فوصلوا إلى بلادهم فرأوها خاوية على عروشها، وكان مدّة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، وأخرج فيها صلاح الدين أموالا لا تحصى، حكي عنه أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إليّ مدّة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها.

قال القاضي ابن شدّاد: لما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم، وما تم من استقامة الأمر في الديار المصرية، علموا أن صلاح الدين يملك بلادهم، ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك، فاجتمع الفرنج والروم جميعا وحدّثوا نفوسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها، ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون إليه ، فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات والجروخ، وآلات الحصار وغير ذلك، ولما سمع الفرنج بالشام ذلك اشتدّ أمرهم، فسرقوا حصن عكار من المسلمين وأسروا صاحبها، وكان مملوكا لنور الدين يسمى خطلخ العلمدار، وذلك في ربيع الآخر منها.

وفي رجب منها توفي العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وكان صاحب بعلبك وتدمر، ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط، قصد شغاف قلوبهم فنزل على الكرك محاصراً لها في شعبان من هذه السنة، فقصده فرنج الساحل، فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقفوا له، ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية بحلب في رمضان، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره، فعاد يطلب الشام، فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي خربت كثيراً من البلاد، وكانت في ثاني عشر شوال من السنة المذكورة، وهو بعشترا، فسار يطلب حلب فبلغه موت أخيه قطب الدين بالموصل، وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحجة، وبلغه الخبر وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالباً بلاد الموصل.

ولما علم صلاح الدين شدّة قصد العدوّ دمياط أنفذ إلى البلد، وأودعه من الرجال والأبطال والفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمن معه عليه، ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات، وازعاج العدة عنهم إن نزل عليهم، وبالغ في العطايا والهبات ، وكان وزيراً متحكماً لايرد أمره في شيء، ثم نزل الفرنج عليها في التاريخ المذكور، واشتد

زحفهم إليها وقتالهم لها، وهو رحمه الله عليه يشن الغارات عليهم من خارج، والعسكر يقاتلهم من داخل، ونصر الله المسلمين يؤيدهم، وحسن قصده في نصرة دين الله يسعدهم وينجدهم حتى بان لهم الخسران، وظهر على الكفر الإيمان، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم، ويسلمون بنفوسهم، فرحلوا خائبين خاسرين، فحرقت مجانيقهم ونهبت آلاتهم، وقتل منهم خلق عظيم، وسلم البلد بحمد الله ومنه.

وقال العماد: أقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه، ومدار فلكه، ينهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العدد بعد العدد، يسهر ليله ولا يقيل نهاره، وقد أخلص لله سرّه وجهاره، ولاينام ولا ينيم، وعنده من ذلك المقعد المقيم، وسبق تقي الدين ابن أخي السلطان إلى دمياط فدخلها وكذا خاله شهاب الدين محمود فنزلها، واتصل الحصار، وتواصل الأنصار، ودب في الفرنج الفنا، وهب عليهم البلا، فرحلوا عنها في الحادي والعشرين من ربيع الأول بالذل الأكمل ، والصغار الأشمل.

وكان لما وصل الخبر إلى نور الدين بوصولهم واجتماعهم على دمياط ونزولهم اغتم واهتم، وأستعصب الملم، وأنهض من عنده عسكراً ثقيلا مقدّمه الأمير قطب الدين خسرو الهذباني، وكان مقداما مقدّماً وهماما معلما، وأمره أن يسير بالعسكر ويخوض بهم بحر العجاج الأكدر، فوصل في النصف من ربيع الأول قبل رحيل الفرنج باسبوع، فوقع روعه من الكفر في كل روع.

قلت: وبلغني من شدّة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لاستحيي من الله تعالى أن يراني

متبسما والمسلمون محاصرون بالفرنج، وبلغني أن إماما لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: أعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال: يا رسول الله ربما لا يصدّقني ، فإذكر لي علامة يعرفها، فقال: قل له: بعلامة ما سجدت على تل حارم، وقلت يارب انصر دينك، ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر، قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بغلس، ولا يزال يتركع فيه حتى يصلي الصبح، قال:فتعرضت له فسألني عن أمري فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة إلا أنني لم أذكر لفظه الكلب، فقال نور الدين: اذكر العلامة كلها وألح علي في ذلك، فقلتها، فبكى رحمه الله وصدّق الرؤيا ، فأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

فصل

أرسل نور الدين كتابا إلى العاضد صاحب القصر يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط، وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الأتراك في مصر خوفاً منهم ، والاقتصار على صلاح الدين والزامه وخواصه، فكتب إليه نور الدين يمدح الأتراك، ويعلمه أنه ما أرسلهم، واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك ، فإن الفرنج لايرهبون إلا منهم ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية وتحصلوا منها على الأمنية، فلعل الله ييسر فتح المسجد الأقصى، مضافاً إلى نعمه التي لاتحصى، قلت ولعمارة اليمنى من قصيدة:

من شاكر والله أعظم شاكر
ما كان من نعمى بني أيوب
طلب الهدى نصرأفقال وقد أتوا
حسبي فأنتم غاية المطلوب

حلـــوا إلى دميـــاط عنـــد حصـــارهـــا
عـــز القـــوي وذلـــة المغلـــوب
وجلـــوا عـــن الاسـلام فيهـــا كـــربـــة
لـــو لم يجلـــوهـــا أتـــت بكـــروب
فـــالنـــاس في أعمال مصر كلهـــا
عتقـــاؤهـــم مـــن نـــازح وقـــريـــب
إن لم تظـــن النـــاس قشرا فـــارغـــاً
وهـــم اللبـــاب فـــأنـــت غير لبيـــب

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة يقول:
ولا غـــرو أن عـــاد الفـــرنـــج هـــزيمـــة
ولـــو لم تعـــد لم يبـــق للشرك ســـاحـــل
فقـــد أيقنـــت أعـــداؤه أن حظهـــم
لـــديـــه رمـــاح اشرعـــت أو ســـلاســـل
ولما أتـــوا دميـــاط كـــالبحـــر طـــاميـــا
وليـــس لـــه مـــن كثـــرة القـــوم ســـاحـــل
يـــزيـــد عـــن الاحصـــاء والعـــد جمعهـــم
ألـــوف ألـــوف خيلهـــم والـــرواجـــل
رأوا دونهم أســـدا بـــأيـــديهم القنـــا
وبيضـــا رقـــاقـــا أحكمتهـــا الصيـــاقـــل
ودار وابها في البحـــر مـــن كـــل جـــانـــب
ومـــن دونها اســـد مـــن الموت حـــائل
رجـــا الكلـــب ملـــك الـــروم إذ ذاك فتحهـــا
فخـــاف فـــأما الملـــك والـــروم هـــابـــل
فعـــادوا على الأعقـــاب منهـــا هـــزيمـــة
كـــأنهم ذلا نعـــام جـــوافـــل
ومـــا أملـــوا أن يلحقـــوا ببـــلادهـــم
لتعصمهـــم ممـــا رأوه المعـــاقـــل

- ٨٠٤ -

قال العماد: وسألني كريم الملك أن أعمل له أبياتا في صلاح الدين تهنئة بالنصر في دمياط، فعملت قصيدة منها:

يـا يـوسـف الحسـن والاحسـان يـا ملكـا
بجـدّه صـاعـد أعـداؤه هبطـوا

حللـت مـن وسـط العليـاء في شرف
ومركـز الشمـس مـن أفـلاكها الـوسـط

هنيـت صـونـك دميـاط التـي اجتمعـت
لها الفـرنـج فما حلـوا ولا ربطـوا

مصر بيـوسفهـا أضحـت مشرفـة
وكـل أمـرلها بـالعـدل منضبـط

وحين وافى صـلاح الـديـن أصلحهـا
فللمصـالـح مـن أيـامـه نمـط

قال العماد: ومما سيرته إلى صلاح الدين قصيدة منها:

كـأن قلبـي وحـب مـالكهـا
مصر وفيهـا المليـك يـوسفهـا

هـذا بسلـب الفـؤاد يظلمنـي
وهـو بقتـل الاعـداء ينصفهـا

الملـك النـاصر الـذي أبـدا
بعـز سلطـانـه يشرّفهـا

قـام بـأحـوالها يـدبـرهـا
حسنـا وأثقـالها يخففهـا

بعـدلـه والصـلاح يعمـرهـا
وبـالنـدى والجميـل يكنفهـا

مـن دنـس الغـادريـن يـرحضهـا
ومـن خبـاث العـدى ينظفهـا

وإن مصرا بملـك يـوسفهـا
جنـة خلـد يـروق زخـرفهـا

وإنــــه في السماح حــــاتمهــــا
وإنــــه في الــــوقـــار أحنفهـــا
يــوســف مصر الــــذي مــلاحمهـــا
جـــاءت بـــأوصـــافـــه تعـــرفهـــا
كتــب التــــواريـــخ لا يـــزينهـــا
إلا بـــأيـــامـــه مصنفهـــا
وحطـــت دميـــاط إذ أحـــاط بها
مـــن بـــرجـــوم البـــلاء يقـــذفهـــا
لاقـــت غـــواة الفـــرنـــج خيبتهـــا
فـــزاد مـــن حسرة تـــأسفهـــا
أوردت قلـــب القلـــوب أرشيـــة
مـــن القنـــا اللـــدّ مـــاء تنـــزفهـــا
وليتهـــا سفكهـــا فعـــاملهـــا
عـــاملهـــا والسنـــان مشرفهـــا
يمضي لـــــك الله في قتـــالهم
عـــزيمـــة للجهـــاد تـــرهفهـــا

وله فيه من أخرى:
قـــد استقـــرت أمـــوري
فيـــه بحســـب اقتراحـــي
كما استقـــر صـــلاح الـــ
ـــدنيا بملـــك الصـــلاح
تنير شمـــس أياديـــ
ـــه في سماء السماح
وأمـــره مستفـــاد
مـــن القضـــاء المتـــاح

وأرسله نور الدين إلى خلاط ومتوليها حينئذ ظهير الدين سكمان المعروف بشاه أرمن قال: فلما كنت بهاردين كتبت إلى بعض المعارف:

قـــــدنـــــزلنـــــافي جـــــوارك
وطلبنـــــا قـــــرب دارك
وسرينـــــافي الـــــديـــــاجـــــي
فهـــــدانـــــاضـــــوءنـــــارك
فتـــــدارك أمـــــرنـــــا اليـــــو
م بطـــــول متـــــدارك
وتفـــــردبـــــاغتنـــــام الـــــ
ـــــشكر مـــــن غير مشـــــارك

قال العماد : وفي هـذه السنة خـرج نور الديـن إلى داريـا فـأعاد عمارة جامعها، وعمر مشهد أبي سليمان الداراني، وشتى بدمشق.

-٨٠٠٧-

فصل

في مسير نجم الدين أيوب إلى مصر بباقي أولاده وأهله

وقد وصف ذلك عمارة في قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين تقدّم بعضها يقول فيها:

صحت به مصر وكانت قبله
تشكو سقاما لم يعن بطبيب

عجبا المعجزة أتت في عصره
والدهر ولاد لكل عجيب

ردّ الاله به قضية يوسف
نسقا على ضرب من التقريب

جاءته أخوته ووالده إلى
مصر على التدريج والترتيب

فاسعد بأكرم قادم بدولة
قد ساعدتك رياحها بهبوب

قال العماد : لما دخل فصل النيروز وزاد استأذن الأمير نجم الدين أيوب نور الدين في قصد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته، وسبده ولبده، وخيم بظاهر البلد إلى أن بان وضوح جدده وسار في حفظ الله فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب، وقضى صاحب القصر العاضد من حق قدومه ما وجب وركب لاستقباله، وزاد اقبال البلاد باقباله، ولما عزم على الرحيل إلى مصر شرع في تفريق أملاكه وتوفير ماله في شركة على اشراكه، وما استصحب شيئاً من موجوده، وجعله نهبة لجوده.

قلت: ووقف رباطا داخل الدرب الذي بقرب العوينة بباب البريد.

ثم قال العماد: ولما نصب نجم الدين أيوب لقصد مصر مضاربه، وسحب للعلى على روض الرضى سحائبه، خرج نور الدين إلى رأس الماء بعسكره وخيامه، وأرهف للجد في الجهاد حد اعتزامه، ثم أقام بعد توديعه والوفاء بحق تشييعه إلى أن اجتمعت إليه عساكره، وحضر بادي جنده وحاضره، وعب بحره وماج زاخره، ثم توجهنا إلى بلاد الكرك مستهل شعبان، ونزلنا أياما بالبلقاء على عمان، وأقمنا على الكرك أربعة أيام نحاصرها، ونصبنا عليها منجنيقين فورد الخبر أن الفرنج قد تجمعوا ووصلوا إلى ماعين فقال نور الدين: نرى أن نعطف أعنتنا وبالله نستعين، فإنا إذا كسرناهم وقسرناهم، وقتلناهم وأسرناهم أدركنا المراد، وملكنا البلاد، فرحلنا إليهم فولوا مدبرين حين سمعوا برجوعنا ، وقالوا: رحيلهم عن الحصن قد حصل وهو مقصودنا وعاد نور الدين إلى حوران، فخيم بعشترا وصام رمضان.

وقال ابن الاثير: كان سبب حصر نور الدين الكرك أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سار عن دمشق إلى مصر، فسير نور الدين معه عسكراً فاجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودّة ما لا يعدّ، فخاف نور الدين عليهم فسار إلى الكرك ، فنزل عليه وحصره، وسار نجم الدين ومن معه سالمين ، ونصب نور الدين على الكرك المجانيق فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه، وأن ابن الهنفري وفليب بن الرقيق وهما فارسا الفرنج في وقتهما في المقدّمة إليه، فرحل نور الدين، رحمه الله تعالى نحوهما للقائهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقي الفرنج وكانا في مائتي فارس وألف تركبلي ومعهم من الراجل خلق كثير فلما قاربهما رجعا القهقرى إلى من وراءهم من الفرنج ، وقصد نور الدين وسط بلادهم ، ونهب ما كان على طريقه، ونزل بعشترا وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم، فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه.

وقال ابن شدّاد : أنفذ صلاح الدين في طلب والده ليكمل له السرور

القصة مشاكلة ماجرى للنبي يوسف الصديق عليه السلام، فوصل والده نجم الدين إليه، وسلك معه من الأدب ما كان عادته، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلاّ وأنت كفؤ له فلاينبغي أن تغير موقع السعادة ، فحكمه في الخزائن بأسرها، وكان رحمه الله كريما يطلق ولا يرد، ولم يزل صلاح الدين وزيراً محكماً إلى أن مات العاضد أبو محمد عبد الله وبه ختم أمر المصريين.

وقال ابن أبي طيّ الحلبي: أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير اقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الأمير نجم الدين وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك، وحمله رسالة منها: « وهذا أمر يجب المبادرة إليه ليحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت ، لاسيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته، وهو عنده من أهم أمنيته» وسار نجم الدين وأصحبه نور الدين هدية سنية للملك الناصر، وخرج العاضد لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح عند شجرة الإهليلج ، ولم يجر بذلك عادة لهم ، وكان من أعجب يوم شهده الناس، وخلع العاضد عليه، ولقبه الملك الأفضل وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا، وأظهر السلطان من برّه وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والأجر، وأفرد له داراً إلى جانب داره، وأقطعه الاسكندرية ودمياط والبحيرة، وأقطع شمس الدولة أخاه قوص وأسوان وعيذاب، وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي ألف وستة وستين ألف دينار، وسار شمس الدولة إلى قوص وولاها شمس الخلافة محمد بن مختار، وكان السلطان قبل اقطاعها شمس الدولة قد سير رسلان بن دغمش لجباية خراجها، فخرج عليه عباس بن شاذي في جماعة من الأعراب والعبيد في مرج بني هميم، فغنمه رسلان وعاد إلى القاهرة، وفي هذه السنة ليلة عيد الفطر رزق السلطان ولده الملك الأفضل نور الدين علي وفرح به فرحاً عظيماً، وخلع وأعطى وتصدّق بما بهر به العقول،

- ٨٠١٠ -

ومن قصيدة للحكيم عبد المنعم قد تقدّم بعضها:

في مشرق المجد نجم الدين مطلعه ... وكل أبنائه شهب فلا أفلوا

جاؤوا كيعقوب والأسباط إذ وردوا ... على العزيز من أرض الشام واشتملوا

لكن يوسف هذا جاء أخوته ... ولم يكن بينهم نزع ولا زلل

وملكوا أرض مصر في شبا ختته ... ومثلها الرجال مثلهم نزل

فصل

في ذكر الزلزلة الكبرى

قال ابن الاثير: وفي ثاني عشر شوال كانت زلزلة عظيمة لم يـر الناس مثلها، عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق وغيرها، إلا أن أشدّها وأعظمها كان بالشام فخربت بعلبك وحمص وحماه وشيزر وبعرين وغيرها، وتهدّمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العد والاحصاء، فلما أتى نور الدين خبرها سار إلى بعلبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرها، فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد بخراب أسوارها وخلوّها من أهلها، فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها، وسار إلى حمص، ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماه ثم إلى بارين، وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بارين، فانها مع قربها منهم لم يبق من سورها

شيء البتة، فجعل فيها طائفة صالحة مع العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلا ونهاراً، ثم أتى مدينة حلب، فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنها كانت قد أتت عليها، وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ، فكانوا لايقدرون يأوون إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفاً من الزلزلة فإنها عاودتهم غير مرة، وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج، فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها وعمر جميع البلاد وجوامعها وأخرج من الأموال مالا يقدّر قدره.

وأما بلاد الفرنج خذلهم الله تعالى فإنها أيضا فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا، وهم أيضا يخافون نور الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده من قصد الآخر.

قال العماد: وكانت قلاع الفرنج المجاورة لبعرين ولحصن الأكراد وصافيتا والعريمة وعرقا في بحر الزلازل غرقى لاسيما حصن الأكراد فإنه لم يبق له سور، وقد تم عليه فيه دحور وثبور، فشغلهم سوءهم عن سواه وكل اشتغل بما دهاه، وتواصلت الأخبار من جميع بلاد الشام بما أحدثته الزلزلة من الانهداد والانهدام.

قال: وما سكنت النفوس من رعبها وتسلت القلوب عن كربها الابإبادهم الكفار من أمرها، وعراهم من ضرّها، فلقد خصتهم بالأمض الأشق، وأخذتهم الرجفة بالحق ، فإنها وافقت يوم عيدهم وهم في الكنائس، فأضحوا للردى فرائس، شاخصة أبصارهم ينظرون(فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون)(١١٦)

ثم ذكر العماد قصيدة في مدح نور الدين ووصف الزلزلة مطلعها:

هـــل لعـــا في الهوى مـــن الأسر فـــادي
ولســـاري ليـــل الصبـــابـــة هـــادي
جنبـــونـــي خطـــب البعـــاد فسهـــل
كـــل خطـــب ســـوى النـــوى والبعـــاد
كـــت في غفلـــة مـــن البين حتـــى
صـــاح يـــوم الاثيـــل بـــالبين حـــادى
قـــد حللتـــم مـــن مهجتـــي في الســـويـــدا
ومـــن مقلتـــي محل الســـواد
وبخلتـــم مـــن الـــوصـــال بـــاسعـــا
في أمـــاكنتـــم مـــن الأجـــواد
وبعثتـــم نسيمكـــم يتـــلافـــا
ني فعـــاد النسيـــم مـــن عـــوّادي
سمتمـــوني تجلـــدا واشتيـــاقـــا
ومحال تجمـــع الاضـــداد
ابقـــاء بعـــد الاحبـــة يـــا قلـــ
ـــبي مـــا هـــذه شروط الـــوداد
ذاب قلبـــي وســـال في الـــدمـــع لما
دام مـــن نـــار وجـــده في اتقـــاد
مـــا الـــدمـــوع التـــي تحدرهـــا الاشـــ
ـــواق إلا فتـــائت الأكبـــاد
حبـــذا ســـاكنـــو فـــؤادي وعهـــدي
بهم يسكنـــون سفـــح الـــوادي
أتمنـــى بـــالشـــام أهلي ببغـــدا
د وأيـــن الشـــآم مـــن بغـــداد
مـــا اعتيـــاضي مـــن حبهـــم يعلـــم الله
تعـــالى إلا بحـــب الجهـــاد
واشتغـــالي بخـــدمـــة الملـــك العـــا
دل محمـــود الكـــريـــم الجواد

أنـــا منـــه على سريـــر سروري
راتـــع العيـــش في مـــراد مـــرادي
قيـــدتنـــي بـــالشـــام منـــه الايـــادي
والأيـــادي للحـــر كـــالأقيـــاد
قـــــدوردت البحر الخضم وخلفـ
ـــت ملـــوك الـــدنيـــا بـــه كـــالثماد
هـــو نعـــم الملاذ مـــن نـــائب الدهـــ
ـــر ونعـــم المعـــاذ عنـــد المعـــاد
جـــل زرء الفـــرنـــج فـــاستبـــدلـــوا منـــ
ـــــه بلبس الحديد لبس الحداد
فـــرّق الـــرعـــب منـــه في أنفـــس الكفـــ
ـــــار بين الأرواح والأجساد
سطـــوة زلـــزلـــت بسكـــانها الأر
ض وهـــدت قـــواعـــد الأطـــواد
أخـــذتهم بـــالحق رجعـــة بـــأس
تـــركتهـــم صرعـــى صروف الغـــوادي
خفضـــت مـــن قـــلاعهـــا كـــل عـــال
وأعـــادت تـــلاعهـــا كـــالـــوهـــاد
أنفـــذ الله حكمـــه فهـــو مـــاض
مظهـــر سر غيبـــه فهـــو بـــادي
آيـــة أثـــرت ذوي الشرك بالملـــ
ـــك وأهـــل التـــوحيـــد بـــالارشـــاد
والاعـــادي جـــرى عليهـــم مـــن التـــد
مير مـــا قـــد جـــرى على قـــوم عـــاد
أشركـــت في الهلاك بين الفريقيـــ
ـــن دعـــاة الاشراك والالحاد
ولقـــد حـــاربـــوا القضـــاء فـــأمضـــى
حكمـــه فيهـــم بغير جـــلاد

والإلـــه الـــرؤوف في الشـــام عنـــا
دافـــع لطفـــه بـــلاء البـــلاد

قال العماد ومنها معنى متبكر أبتدعته في الزلزلة وهو:
ويحق أصبيت الأرض لما
اشتكـــت مـــن مقـــام أهـــل الفســـاد
علمـــت أنها جننـــت فعـــراهـــا
حـــذراً مـــن سطـــاك شبـــه ارتعـــاد

قال العماد: وفي هذه السنـة عند وصولنا إلى حلب في الخدمـة النورية، كنت مقرظا للفضـائل الشهرزوريه، وكان الحاكم بها القاضي محيـي الدين أبو حـامد محمد ابـن قـــاضي قضـاة الشام كمال الديـن أبي الفضل محمد بن عبد الله بـن القاسم الشهرزوري ، وكان كمال الديـن قد علق به تنفيذ الأحكـام وإليه أمور الـديوان ، وهـو ذو المكانة والامكـان في بسط العـدل والاحسـان ومحيـي الـدين ولـده ينوب عنـه في القضـاء بحلـب وبلـدانها، وينظـر أيضـاً في أمـور ديـوانها، وبحماه وحمص مـن بنـي الشهرزوري قـاضيان وهما حاكمان متحكمان، وكان هـذا محيي الديـن من أهل الفضـل، وله نظـم ونثر وخطب وشعـر، وكانت معـرفتي بـه في أيام التفقـه ببغـداد في المدرسـة النظـامية منـذ سنـة خمس وثـلاثين، والمدرس شيخنا معين الـدين سعيـد ابن الـرزاز وكان مـذهب الشـافعي رضي الله تعالى عنه بعلمـه معلما مذهب الطراز، وكانـت الزلزلة بحلب قـد خربت دار محيـي الـديـن وسلبـت قراره، وغلبـت اصطبـاره، وخلبـت أفكـاره، فكتبت إليه قصيدة مطلعها:
لـو كـان مـن شكـوى الصبـابـة مشكيـا
لعـدا على عـــدوى الصبـابـــة معـديـــا
مـــات الـــرجـاء فـــإن أردت حيـاتـــه
ونشـــوره فـــارج الإمـــام المحييـــا

أقضى القضاة محمد بن محمد
من لست منه للفضائل محصيا
قاض به قضت المظالم نحبها
وغدا على آثارهن معفيا
يا كاشفاً للحق في أيامه
غرراً يدوم لها الزمان مغطيا
لم تنعش الشهباء عند عثارها
لو لم تجدك لطود حلمك مرسيا
رجفت لسطوتك التي أرسلتها
نحو الطغاة لحد عزمك ممهيا
وتظلمت من شرهم فتململت
عجل إجازتها عليها مبقيا
أنفت من الثقلاء فيها إذ رمت
أثقالها ورأتك منها ملجيا
حلب لها حلب المدامع مسيل
إن لاقت الخطب الفظيع المبكيا
وبعدل نور الدين عاود أفقها
من بعد غيم الغم جوا مصحيا
أضحى لبهجتها معيداً بعدما
ذهبت وللمعروف فيها مبديا
لأمورها متدبراً لشتاتها
متألفاً لصلاحها متوليا
فالشرع عاد بعدله مستظهرا
والحق عاد بظله مستذريا
والدهر لاذ بعفوه مستغفرا
مما جناه مطرقاً مستحييا

-٨٠١٦-

فصل

في غزو صاحب البيرة ووفاة صاحب الموصل

قال ابـن الأثير: كان شهاب الـدين محمد بـن الياس بن ايلغـازي بن أرتق صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكـره وهم مائتا فارس إلى الخدمة النورية، وهـو بعشترا، فلما وصل إلى اللبوة، وهي مـن أعمال بعلبك ركب متصيداً فصـادف ثلاثمائة فـارس من الفـرنج قـد ساروا للغـارة على بلاد الاسلام وذلك سابع عشر شوال فـوقع بعضهم على بعض، واقتتلوا وصبر الفريقـان لاسيما المسلمون لأن ألف فـارس منهم لاتصبر لحملـة ثلاثمائة فـارس مـن الفـرنـج، وكثـر القتلى بينهـم وانهزم الفـرنـج وعمهـم القتـل والأسرفـلم يفلت منهـم إلاّ من لايعتـد به (ولو تـواعد تـم لاختلفتم في الميعاد ولكـن ليقضى الله أمـراً كان مفعولاً)(١١٧) وسـار شهاب الـدين بـالأسرى ورؤوس القتلى إلى نور الـديـن فركـب هـو وعسكره إلى لقـائه، واستعـرض الأسرى ورؤوس القتلى فـرأى فيهـا رأس مقـدم الاسبتـاريـة صاحب حصـن الأكراد وكانت الفرنـج تعظمه لشجاعته ولدينـه عندهم ولأنـه شجـى في حلـوق المسلمين، وكـذلـك أيضـا رأى رأس غيره مـن مشهوري الفرنج فإزداد سرورا ولله الحمد.

قـال: وفيها في شـوال تـوفي الملـك قطب الـديـن مـودود بن زنكـي، صاحـب الموصل، وكان لما اشتـد مرضه أوصى بـالملك بعده لـولده عماد الـدين زنكـي بن مـودود، وهو أكبر أولاده وأعـزهم عليـه وأحبهم إليـه، وكان النائب عن قطـب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته فخـر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الـدين زنكي لأنه كان قد أكثـر المقام عند عمه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، وخـدمه وتزوج ابنته، وكان عزيزه وحبيبه، وكان نور الدين يبغض عبد المسيـح لظلم كان فيه ويذمه ويلوم أخاه قطب الدين على توليتـه لأموره، فخاف عبد المسيح أن يتصرف عماد

الديـن في أموره عـن أمر عمـه فيعزلـه ويبعده فـاتفق هـو والخاتون ابنـة حسام الدين تمرتـاش زوجة قطب الدين، فردّوه عـن هذا الرأي، فلما كان الغد أحضر الأمـراء واستحلفهم لـولده سيـف الديـن غازي، وتـوفي وقد جاوز عمره أربعين سنة، وكـان تام القامة كبير الوجه أسمر اللون واسع الجبهـة جهوري الصـوت، وكانـت ولايتـه إحدى وعشريـن سنة وخمسـة أشهـر ونصف، ولما تـوفي استقر سيـف الـدين غـازي في الملك ، ورحـل عماد الديـن إلى عمه نور الـدين شاكيـا ومستنصرا وكان عبد المسيـح هو يتولى أمور سيف الدين ويحكم في مملكتـه ، وليس لسيف الدين من الأمر إلاّ اسمه لأنه في عنفوان شبابه وعزة حداثته.

قال: وهـذه حادثة تحث على العدل، كـان من جملة أعمال جزيـرة ابن عمر قرية تسمى العقيمة مقابـل الجزيرة من الجانب الشرقي يفصل بينهما دجلة لها بسـاتين كثيرة بعضها تمسح أرضه ويـؤخذ على كل جريـب من الأرض التـي قد زرعـت شيء معلوم، وبعضهـا عليه خـراج ولا مسـاحـة عليه، وبعضهـا مطلق منهما، فـالممسوح منها لايحصـل لأصحابـه منه إلا القدر القـريب، وكان لنـابها عدّة بساتين فحكـى لي والدي قال: جـاءنا كتاب فخر الديـن عبد المسيح إلى الجزيرة، وأنا حينئذ أتـولى ديوانها يأمر بأن تجعل بسـاتين العقيمة كلها ممسوحة، فشق ذلـك علي لأجل أصحابها ففيهـا نـاس صالحون ولي بهم أنـس وهـم فقـراء، فـراجعته وقلـت لـه : لاتظـن أني أقول هـذا لأجل ملكـي لا والله، وإنما أريـد أن يدوم النـاس على الدعاء للمـولى قطب الدين، وأنـا أمسح ملكي جميعه، قـال : فأعاد الجواب بـأمر المسـاحة، ويقـول : تمسح أولا ملكـك ليقتدي بـك غيرك، ونحن نطلق لـك ما يكون عليه، فشرع النواب يمسحون، وكـان بالعقيمة رجلان صـالحان بيني وبينهما مـودّة اسم أحدهما يـوسف والآخـر عبادة، فحضرا عنـدي وتضررا مـن هـذه الحال وسـألاني المكـاتبـة في المعنـى، فأظهرت لهما كتـاب عبد المسيح جوابـاً عن كتابي فشكراني وقـالا: وأيضا

تعـود تراجعـه، فعاودت القـول فأصرّ على المسـاحة فعـرّفتهما الحال، فلما مضى عـدّة أيام عـدت يوما إلى داري وإذا هما قـد صادفـاني على الباب فقلت لنفسي:عجباً لهذين الشيخين قد رأيـا مراجعتي وهما يطلبـان مني مـالا أقدر عليـه، فقلـت لهما: والله إني لاستحيي منكما كلما جئتما في هـذا المعنى، وقد رأيتما الحال كيـف هو فقالا: صدقـت ولم نحضر إلاّ لنعرفك أن حاجتنـا قضيت، فظننـت أنهما قد أرسـلا إلى الموصل مـن يشفع لهما، فـدخلت إلى داري وأدخلتهما معـي وسألتهما عـن الحال كيـف هو ومـن الذي سعى لهما، فقالا:إن رجـلاً من الصالحين الأبدال شكونا إليـه حالنا، فقال: قد قضيت حاجة أهل العقيمة كلهـم، قال: فوقع عندي من هذا، ولكـن تـارة أصدّقهما لما أعلـم مـن صـلاح أحـوالهما، وتارة أعجـب مـن سلامة صـدورهما كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانـه واقعاً لاشك فيه، فلما كان بعد أيـام وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمـر فيه باطلاق مساحة العقيمة، واطـلاق كل مسجون وبالصدقة، فسألـت القاصد عن السبب فـأخبرنا أن قطب الـدين شديـد المرض قال: فأفكـرت في قولهما، وتعجبت منه ثم توفي بعد يومين من هذا.

قال: ورأيـت والدي إذا رأى أحـد الرجلين يبـالغ في إكـرامه ويحترمـه ويقضي أشغاله واتخذهما صديقين.

قال: وكان قطـب الدين من أحسـن الملوك وأعفهم عن أمـوال رعيته، محسنا إليهم، كثير الانعام عليهم، محبـوباً إلى صغيرهم وكبيرهم حليما عن المذنبين سريع الانفعال للخير، حـدّثني والدي قال: استدعاني يـوما وهو بالجزيـرة وكنت أتولى أعمالها فـلامني في بعـض الأمر فقلت: أخـاف من الاستقصاء لـو دعي على بعض هـؤلاء الملوك وأومأت إلى أولاده لكـانت شعرة منه تسـاوي الدنيا وما فيهـا، ولنا مواضع تحتمـل العمارة لو عمرت يتحصل منها أضعـاف هذا، فقال : جزاك الله خيراً لقـد نصحت وأدّيت

الأمانـة فاشرع في عمارة هذه الأماكـن، ففعلت وكبرت منزلتـي عنده، ولم يزل يثني عليّ.

قـال: وكان كثير الصبر والاحتمال مـن أصحابـه، لقد صبر مـن نوابـه زيـن الـدين، وجمال الـديـن وغيرهما على مـالم يصبر عليه سواه،، وكـان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين، كثير المساعدة والانجاد لـه بنفسه وعسكـره وأمـواله، حضر معـه المصـاف بحـارم وفتحها وفتـح بانياس، وكان يخطـب له في بلاده باختياره من غير خـوف، وكان إحسانه إلى أصحـابه متتـابعـاً من غير طلـب منهم ولا تعـريـض، وكان يبغـض الظلم وأهله ويعاقب من يفعله.

قال: وبـالله أقسم إذا فكرت في الملوك أولاد زنكـي سيف الديـن ونور الـدين وقطـب الديـن، وما جمع الله فيهـم من مكـارم الأخلاق ومحاسـن الأفعـال وحسن السيرة وعمارة البـلاد والرفـق بـالرعيـة إلى غير ذلك مـن الأسباب التي يحتاج الملك إليها أذكر قول الشاعر:

مـن تلـق منهـم تقـل لاقيـت سيـدهـم
مثـل النجـوم التـي يسري بها السـاري

قلت: وقرأت بخط الشيخ عمر الملاء رحمه الله في كتاب كتبه إلى بعض الصالحين، وسأله فيـه الدعاء لقطب الدين صاحـب الموصل وقال فيه:« يـا أخي لـو ذهبـت أشرح لك سيرتـه في بـلاده وعيـش رعيته في ولايتـه أطلـت وأضجـرت، غير أني أذكـر لـك مـا خصـه الله بـه مـن الأخـلاق الصالحة، هـو من أكثر النـاس رحمة، وأشدّهـم حياء وأعظمهم تـواضعاً وأقلهـم طمعاً، وأزهـدهـم في الظلم وأكثـرهـم صبراً، وأبعـدهم غضبـاً، وأسرعهـم رضا، وهـو من هـذه الأخلاق على حـدّ أحبه أنـا محبة لاأقـدر أصفها، وبيني وبينه إخاء ومزاورة يزورني وأزوره».

- ٨٠٢٠ -

فصل

قال ابن الاثير: ولما بلغ نور الدين وفـاة أخيه قطب الدين، وملك ولده سيف الديـن بعده واستيلاء عبد المسيح واستبداده بـالأمور، وحكمه على سيف الـدين أنف مـن ذلك، وكبر لديه وشـق عليه، وكان يبغـض عبد المسيح لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبـالغة في إقامة السياسة، وكان نـور الديـن رحمه الله لينـا رفيقـا عادلاً فقـال: أنـا أولى بتـدبير بني أخـي وملكهم، ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة جعبر أول المحرم.

-٨٠٢١-

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

وقصد الرقة فامتنع النائب بها شيئاً من الامتناع ثم سلمها على شيء اقترحه فاستولى نور الدين عليها وقرر أمورها وسار إلى الخابور فملكة جميعه ثم ملك نصيبين ، وأقام بها يجمع العساكر، فإنه كان قد سار جريدة، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن وديار بكر، واجتمعت عليه العساكر وقد ترك أكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم، فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق، وكان بها عسكر كبير من الموصل، فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه ، وأشاروا بترك سنجار فلم يقبل منهم وأقام حتى ملك سنجار، وسلمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زنكي ثم سار إلى الموصل فأتى مدينة بلد، وعبر دجلة في مخاضة عندها إلى الجانب الشرقي، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى، ودجلة بينه وبين الموصل.

قال: ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة ، وكان عبد المسيح قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين إلى أتابك صاحب بلاد الجبل وأذربيجان وأران وغيرها يستنجده، فأرسل ايلدكز رسولاً إلى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل، ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته وكان بسنجار فسار إلى الموصل، وقال للرسول : قل لصاحبك: أنا أرفق ببني أخي منك، فلاتدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ من اصلاحهم يكون الحديث معك على باب همذان، فإنك قد ملكت نصف بلاد الاسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد

الإسلام وإزالة الظلم عن المسلمين، فعاد الرسول بهذا الجواب.

وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال، وكان هوى كل من بالموصل من جندي وعامي معه لحسن سيرته وعدله، وكاتبه الأمراء يعلمونه أنهم على الوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد إليه، فلما علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد إليه وتقريره على سيف الدين، ويطلب الأمان واقطاعاً يكون له، فأجابه إلى ذلك وقال: لاسبيل إلى ابقائه بالموصل بل يكون عندي بالشام فإني لم آت لآخذ البلاد من أولادي إنما جئت لاخلص الناس منك وأتولى أنا تربية أولادي، فاستقرت القاعدة على ذلك وسلمت الموصل إليه فدخلها ثالث عشر جمادى الأولى، وسكن القلعة، وأقر سيف الدين غازي على الموصل، وولى بقلعتها خادماً يقال له سعد الدين كمشتكين، وجعله دزدارا فيها ، وقسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة، ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين، وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل، فبني وأقيمت الصلاة فيه سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً، وسار إلى الشام فقيل له:إنك تحب الموصل والمقام بها، وتراك أسرعت العود؟ فقال: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت، ويمنعني أيضاً أنني هاهنا لاأكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد، ثم أقطع نصيبين والخابور العساكر، وأقطع جزيرة ابن عمر سيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل، وعاد إلى الشام ومعه عبد المسيح ، فغير اسمه وسماه عبد الله ، وأقطعه اقطاعا كثيراً.

وقال العماد: استدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقة، وقال لي: قد آنست بك وأمنت إليك، وأنا غير مختار للفرقة، لكن المهم الذي عرض لايبلغ فيه غيرك الغرض فتمضي إلى الديوان العزيز جريدة وتؤدّي عني

رسالة سديدة سعيدة، وتنهي أني قصدت بيتي وبيت والدي ومغنى طريفي.وتالديّ وأنا كبيره ووارثه والذي له حديثه وحادثة، فامض وخذ لي أذنا فإني أعدّ كل جارحة لما أخاطب به أذنا، وأمثل ما يصلني من المثال لدفع كل مكروه ركنا.

وأمر ناصر الدين محمد بن شيركوه أن يسيرني إلى الرحبة في رجال مأموني الصحبة، وسرت منها على البرية غربي الفرات بخفير من بني خفاجه، فذكر أنه وصل وقضى الحاجة، ثم رجع من عند الخليفة المستنجد إلى نور الدين، وهو يحاصر سنجار فأخذها وسلمها إلى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي .

قال: ثم رحل على عزم الموصل وقصد بلد، واستوضح فيها الجدد، ودل هناك في دجلة على مخاضه، وكان ذا أخلاق وهم مرتاضه، فاستسهل من خوضها والعبور فيها ماظنّ مستصعباً، وسهل الله لنا ذلك ورأيناه أمراً عجباً، وجاء دليل تركماني قدامنا، وهو يقطع دجلة تارة طولاًوتارة عرضاً أمامنا، ونحن وراءه كخيط واحد لانميل يميناً ولايساراً ولا نجد لنا في سوى ذلك المجاز اختياراً، حتى عبرنا من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي برحالنا وأثقالنا وخيلنا وبغالنا وجمالنا، وأقمنا بقية ذلك اليوم حتى تم عبور القوم، ثم رحلنا ونزلنا على الموصل من شرقها، وخيمنا على تل توبه فاستعظم أهلها تلك النوبة، وما خطر ببالهم أنا نعبر بغير مراكب، وأنا نأخذ عليهم ذلك الجانب، فعرفوا أنهم محصورون مقهورون محسورون، وانقطعت عنهم السبل من الشرق، وتعذر عليهم الرقع لاتساع الخرق ، وبسط العطاء وكشف الغطاء وتكلم في الصلحة والمصالحة الوسطاء، ومدّ الجسر وقضي الأمر، وأنعم نور الدين على أولاد أخيه ومثلوا بناديه، وأقرّ سيف الدين غازيا على قاعدة أبيه، وألبسه التشريف الذي وصله من أمير المؤمنين المستضيء، ثم دخل قلعة الموصل وأقام بها سبعة عشر يوماً وجدّد مناشير أهل المناصب

وتوقيعات ذوي المراتب من القضاء والنقابة وغيرهما، وأمر باسقاط جميع المكوس والضرائب، وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس فمنه: « قد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال، فسحقا للسحت، ومحقا للحرام الحقيق بالمقت، وبعداً لما يبعد من رضى الرب، ويقصي من محل القرب، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه، وتوكلنا في جميع الأحوال عليه، وتقدّمنا باسقاط كل مكس وضريبه في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة، وإزالة كل جهة مشتبهة مشوبه، ومحو كل سنة سيئة شنيعة، ونفي كل مظلمة مظلمة فظيعة، وإحياء كل سنة حسنة، وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة، واطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظوره، خوفاً من عواقبها الرديئة المحذورة، فلا يبقى في جميع ولا يتنا جور جائر جارياً، ولا عمل لايكون به الله راضياً، ايثاراً للثواب الأجل على الحطام العاجل، وهذا حق لله قضيناه، وواجب علينا أدّيناه، بل هي سنة حسنة سنناها، ومحجة واضحة بيناها، وقاعدة محكمة مهدناها، وفائدة مغتنمة أفدناها ».

فصل

قال العماد: وكان بالموصل رجل صالح يعرف بعمر الملاء، سمي بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوت بها، وكل ما عليه من قميص ورداء وكسوة وكساء قد ملكه سواه واستعاره، فلا يملك ثوبه ولا إزاره، وكان له شيء فوهبه لأحد مريديه، وهو يتجر لنفسه فيه، فإذا جاءه ضيف قراه ذلك المريد، وكان ذا معرفة بأحكام القرآن والأحاديث النبوية، وكان العلماء والفقهاء والملوك والأمراء يزورونه في زاويته، ويتبركون بهمته، ويتيمنون ببركته، وله كل سنة دعوة يحتفل بها في أيام مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضره فيها صاحب الموصل،

ويحضر الشعراء وينشدون مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك المحفل، وكان نور الدين من أخص محبيه يستشيره في حضوره، ويكاتبه في مصالح أموره، وكانت بالموصل خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلاّ من ذهب عمره ولم يتم على مراده، فأشار الشيخ عمر على نور الدين بابتياعها ورفع بنيانها جامعاً تقام فيه الجمع والجماعات ، ففعل وأنفق فيه أموالاً كثيرة، ووقف عليه ضيعة من ضياع الموصل، ورتب فيه خطيباً ومدرّساً، وكان قد وصل في تلك السنة وافداً الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقاني الشافعي من أصحاب الإمام محمد بن يحيى، فسأله أن يكون مدرّساً في ذلك الجامع، وكتب له به منشوراً.

قال: وحضر مجاهد الدين قايماز صاحب إربل إلى الخدمة النورية بالموصل، وكان دخولهم إياها في بحبوحة الشتاء، فكتب العماد إلى بعض كبراء الموصل قصيدة منها:

ما يمنع الخادم من قصده الـ ... ـخدمة غير الطرق والوحل

كأنها من وصلكم مقطع ... ما يهتدى فيه إلى وصل

وكل معروف بها منكر ... كما تراه ضيق السبل

وكل من حل بها لا يرى ... في زمن الخصب سوى المحل

ومذ دخلناها حصلنا بها ... كرها على خرج بلا دخل

أصعب ما تلقاه من أهلها ... قول بلا أهل ولا سهل

وكنت أهواها ولكنني ... لقيت منها كل ما يسلي

وأنت من أصبح احسانه
حلية هذا الزمن العطل

قال: وعاد نور الدين إلى سنجار فأعاد عمارة أسوارها، ثم أتى حرّان وقد اقتطعها عن صاحب الموصل هي ونصيبين والخابور والمجدل، ووصل حلب في خامس رجب.

قال ابن شدّاد: دخل حلب في شعبان وزوّج صاحب الموصل ابنته.

قال العماد: وفوّض القضاء والحكم بنصيبين وسنجار والخابور إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، فولى بها نوابه وحكم فيها أصحابه.

وقال القاضي ابن شدّاد: لما صارت الموصل إلى سيف الدين بن أخي نور الدين، كان قد استولى عليه وتولى أمر البلد رجل يقال له عبد المسيح ، كان نصرانياً فأسلم، وقيل إنه كان باقياً على نصرانيته وله بيعة في داره وتتبع أرباب العلم والدين فشتتهم وأبعدهم، وآذى المسلمين، فبلغ نو الدين ذلك، وكتب له قصص في ذلك ، فسار ونزل على الموصل من جانب الشط، والشط بينه وبينها وقال: لاأقاتل هذه البلدة وأهتك حرمتها وهي لولدي، وراسل سيف الدين وقال له: أنا ليس مقصودي البلد وإنما مقصودي حفظ البلد لك، فإنه قد كتب إليّ في عبد المسيح كذا كذا ألف قصة بما يفعل مع المسلمين، وأنا مقصودي أزيل هذا النصراني عن ولاية المسلمين.

قال: وعبد المسيح يدير البلد ويدور فيه والأمر إليه، وبذل الصلح لنور الدين، فقال نور الدين أنا قد جئت ولا بدّ لي من دخول البلد فقال: نعم لاتدخل إلا من باب السرّ فقال نور الدين : ما أدخل إلا من باب السرّ فجرت بين نور الدين وبين ابن أخيه مراسلات إلى أن علم

أن نيته صالحة فصالحه في السر وركب عبد المسيح وخرج يدور بين السورين فجاءه بعض أصحابه وقال له: أنت نائم ودمك قد راح وأنت غافل، فقال: ما الخبر؟ فقال: سيف الدين قد صالح عمه وأنت في مقابلة نور الدين فجاء ودخل على سيف الدين وألقى شربوشه بين يديه وقال له: أنت قد صالحت عمك وقد عملت ما عملت في حفظ بلدك ومالي طاقة بمقابلة نور الدين، فالله الله في دمي فقال له: مالي طاقة بدفعه عنك ولكن عليك بالشيخ عمر الملاء، فقال: والله لو مضيت إليه لم يفتح لي لعلمه بما جرى مني في حق المسلمين، ولكن تسير أنت إليه فأنفذ لسيف الدين إليه واستحضره، وكان معتكفاً فقال له: ما الخبر؟ فقال سيف الدين لعبد المسيح: منك إليه ، فوقف بين يديه يبكي فالتفت إليه الشيخ عمر وقال: من يعادي الرجال يبكي مثل النساء فقال له: قد تمسكت بك وأطلب منك حقن دمي، فقال : أنت آمن على دمك فقال:على مالي، فقال : وعلى مالك، فقال: وعلى أهلي؟ فقال: وعلى أهلك، وكان شرف الدين بن أبي عصرون مع نور الدين حينئذ، فقال سيف الدين لعمر الملاء: تخرج تحلف نور الدين، فأحضر الفقهاء وعملوا نسخة يمين لنور الدين ونسخة يمين لعبد المسيح، فأخذهما عمر وخرج إلى نور الدين فقام نور الدين وخرج من خيمته والتقاه وأكرمه، فقال له عمر: الناس يعلمون حسن عقيدتك فيّ، وقد خرجت في كذا وكذا، وناوله النسخة التي تتعلق بسيف الدين فقرأها وناولها لابن أبي عصرون فقال: نسخة جيدة، فقال له الشيخ عمر الملاء: أي شيء تقول في هذه النسخة؟ فقال: جيدة، فقال إذا حلف بها على هذا الوجه أليس أنها تقع لازمة؟ فقال: بلى، فقال للحاضرين: اشهدوا على الشيخ بذلك يشير إلى أن نور الدين كان يجري منه أيمان في وقائع، وكان ابن أبي عصرون يفتيه بالخروج منها، فقيد عليه القول، فأجاب نور الدين إلى ذلك، فقال له: قد علم الناس حسن عقيدتك فيّ وأن قولي مسموع عندك وقد خرجت إليك ولابد لي من ضيافة، فقال : كيف لي بذلك وأنت لاتأكل طعامي

ولا تقبل مني شيئاً؟ فقال تحلف لي بهذه النسخة فوقف عليها وتغير وجهه، وقال: أنا ماجئت إلا في هذا لأخلص المسلمين منه، فقال الشيخ عمر: فما نطلب منك أن توليه على المسلمين، فقال: قد أمنته على نفسه، فقال: وعلى أهله، فقال: ومن أهله؟ فقال: نصارى، فقال: أمنتهم، فقال وعلى ماله، فقال: ومن أين لهذا الكلب مال هذا مملوك لنا، فقال: قد أعتق وماله له وهو اليوم كان صاحب الموصل، قال: قد أمنته على ماله، فحلف له على ذلك جميعاً واستقرّ الصلح، وخرج سيف الدين إلى خدمة نور الدين فوقف بين يديه فأكرمه نور الدين، وكان وصله خلعة أمير المؤمنين، فخلعها عليه، فدخل إلى الموصل بها وانتقل إلى جانب الشط الآخر ولم يدخل إلى الموصل إلى أن جاء مطر شديد جداً، فدخل من باب السر إليها، وأقام بها مدّة، ورتّب أمورها وولى فيها كمشتكين، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول له: جئت إلى بلدك وطاب لك المقام به، وتركت الجهاد، وقتال أعداء الدين، فاستيقظ من منامه، وسار سحرة ذلك اليوم، ولم يلبث ولم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه رحمه الله .

فصل

وصل الخبر بموت الإمام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي بالله ونور الدين مخيم بشرقي الموصل بتل توبه، وكانت وفاته يوم السبت تاسع ربيع الآخر وبويع ابنه المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن، وكان مولد المستنجد بالله مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وستة أيام ، وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس ، وهذا العدد له بحساب الجمل اللام والباء، وفيه يقول بعض الأدباء:

أصبحت لبني العباس كلهم
إن عددت بحساب الجمل الخلفا

وكان أسمر تام القامة، وطويل اللحية، وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية، كان عادلاً فيهم كثير الرفق بهم ، وأطلق من المكوس كثيراً ، ولم يترك بالعراق مكسا، وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس.

قال ابن الاثير: بلغني أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس ، ويكتب فيهم السعايات، فأطال حبسه، فحضر بعض أصحابه يشفع فيه وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال له: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار، وتحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه لأكف شره عن الناس.

وفي أيامه توفي شيخ الشيوخ اسماعيل بن أبي سعد، وصار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ، وذلك سنة إحدى وأربعين.

وفي سنة ثمان وأربعين توفي محمد بن نصر القيسراني، وأحمد بن منير الشاعران، وقد تقدّم ذلك. وفي سنة تسع وأربعين توفي الحكيم أبو الحكم الشاعر الأندلسي، وفي سنة إحدى وخمسين توفي الوأواء الشاعر الحلبي، وفي سنة ثلاث وستين توفي الشيخ أبو النجيب الصوفي الفقيه الواعظ.

قال العماد: وجاءنا رسل دار الخلافة مبشرين بخلافة المستضيء، واتفق ذلك يوم عبور دجلة، وركب يوم النزول على تل توبة في الأهبة السوداء واليد البيضاء، وذلك بمرأى ومنظر من أهل الموصل الحدباء، ثم أرسل الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون إلى بغداد نائباً عنه في خدمة الإمام، ومما نظمه العماد فيه:

قد أضاء الزمان بالمستضيء
وارث البرد وابن عم النبيّ
جاء بالحق والشريعة والعد
ل فيا مرحبا بهذا المجيّ
فهنيئا لأهل بغداد فازوا
بعد بؤس بكل عيش هنيّ
ومضيّ إن كان في الزمن المظـ
ـلم فالعود في الزمان المضيّ

وله من قصيدة أخرى:
لهفي على زمن الشباب فإنني
بسوى التأسف عنه لم أتعوض
نقضت عهود الغانيات وإنها
لولا نقاء شيبتي لم تنقض
يا حسن أيام الصبا وكأنها
أيام مولانا الإمام المستضي
ذو البهجة الزهراء يشرق نورها
والطلعة الغراء والوجه الوضي
قسم السعادة والشقاوة ربنا
في الخلق بين محبه والمبغض

ومنها:
فضل الخلائف والخلائق بالتقى
والفضل والافضال والخلق الرضي
فأنعم أمير المؤمنين بدولة
ما تنتهي وسعادة ما تنقضي

قال: ووصل نور الدين رحمه الله تعالى إلى دمشق، وأدّى فرض الصيام، وخرج بعد العيد إلى الخيام، وأخرج سرادقه إلى جسر الخشب،

وسرنا إلى عشترا، ثم ذكر العماد هنا سرية صاحب البيرة الأرتقي باللبوة، وقد مضت في أخبار سنة خمس وستين فثم ذكرها ابن الاثير.

فصل

فيما جرى بمصر في هذه السنة

قال العماد: كان بمصر حبس للشحن يعرف بدار المعونة فأعادها صلاح الدين مدرسة للشافعية في أول سنة ست وستين، وعمل في النصف من المحرم دار العزل، مدرسة للمالكية، وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها وذلك في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة، ثم خرج إلى الغزاة وأغار على الرملة وعسقلان، وهجم ربض غزة، ثم رجع إلى القاهرة ، ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله فأشفق عليها وأحب أن يجتمع بها شمله فخرج في النصف من ربيع الأول وكانت بإيلة قلعة في البحر قد حصنها أهل الكفر فعمر لها مراكب وحملها إلى ساحلها على الجمال وركبها الصناع هناك ، وشحنها بالرجال وفتح القلعة في العشر الأوّل من ربيع الآخر واستحلها واستباح بالقتل والأسر أهلها، وملأها بالعدد والعدد ، وحصنها بأهل الجلاد والجلد، واجتمع بأهله عليها، وسار بهم على سمت القاهرة ، ودخلوا في السادس والعشرين من جمادى الأولى إليها، وسار إلى الاسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ويرتب قواعدها، وهي أوّل دفعة سار إليها في أيام سلطانه، وعمّ أهلها بإحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها، وفي النصف من شعبان اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه، وهو ابن أخي صلاح الدين منازل العز بمصر وجعلها مدرسة للشافعية، واشترى الروضة وحمام الذهب وغيرهما من الأملاك ووقفها عليها، وفي النصف من جمادى الآخرة أغار

شمس الدولة أخو السلطان بالصعيد على العربان، ثم دخل القاهرة في عاشر شهر رمضان.

وفي الثالث والعشرين من جمادى الآخرة توفي القاضي الموفق أبو الحجاج يوسف بن الخلال، وكان من الأماثل الأفاضل، ولم يزل صاحب ديوان الإنشاء إلى أن كبر، وكان الأجل الفاضل يوصل إليه كل ما كان له، وقام به مدّة حياته يكرم عهده ويكفله، وقال في الخريدة: هو ناظر ديوان مصر وإنسان ناظره وجامع مفاخره وكان إليه الانشاء، وله قوّة على الترسل يكتب ما يشاء، عاش كثيراً وعطل في آخر عمره وأضرّ ولزم بيته إلى أن تعوّض منه القبر، ومن شعره:

يا أخا الغرّة حسب الدهر من عظة المغرور ما أصبح يبدي

تؤثر الدنيا فهل نلت بها لحظة تخلص من هم وكد (١١٨)

قلت: وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري في أوّل كتابه المسمى بالوشي المرقوم في حل المنظوم قال: حدّثني عبد الرحيم بن علي البيساني رحمه الله بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة قال: كان فن الكتابة بمصر في زمن بني عبيد غضاً طرياً، وكان لايخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكاناً وبياناً ، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطاناً، وكانّ من العادة أنّ كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشذا شيئاً من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة، ويتدرب ويرى ويسمع، قال: فأرسلني والدي وكان إذ ذاك قاضياً بثغر عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ، وهو أحد خلفائها، وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجلا يقال له ابن الخلال، فلما حضرت الديوان، ومثلت بين يديه، وعرفته من أنا وما طلبي رحب بي وسهل ثم قال: ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات، فقلت ليس عندي شيء سوى أني

أحفظ القرآن العزيز، وكتاب الحماسة، فقال: وفي هذا بلاغ، ثم أمرني بملازمته، فترددت إليه، وتدرّبت بين يديه، ثم أمرني بعد ذلك أن احل شعر الحماسة فحللته من أوّله إلى آخره، ثم أمرني أن أحله مرّة ثانية فحللته.

وقال ابن أبي طي: في هذه السنة شرع السلطان ـــ يعنى صلاح الدين ـــ في عمارة سور القاهرة لأنه كان قد تهدّم أكثره وصار طريقاً لايرد داخلاً ولا خارجاً، وولاه لقراقوش الخادم، وقبض على القصور وسلمها إليه ، وأمر بتغيير شعار الاسماعيلية، وقطع من الأذان حي على خير العمل، وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس.

وفيها طلب شمس الدولة من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة، وازداد على إقطاعه بوش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها.

قلت: وقد وقفت على كتاب فاضلي وصف فيه غزاة غزاها صلاح الدين رحمه الله في زمان وزارته، وكان الكتاب إلى مدينة قوص وأظن هذه الغزاة هي التي أشار إليها العماد في أثناء كلامه السابق أوّل الكتاب : (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم)(١١٩)

وفيه: « توجهنا من بركة الجب يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأوّل ووصلنا بتاريخ السابع والعشرين من الشهر المذكور والعساكر بالسهل والوعر منتظمه، والهمم على السهل والصعب مزدحمة، وجنود الله في الأرض المعلمه قد أيدتها جنود السماء المسومة، وصابحنا الدير يوم الأربعاء بقتال جعل كل من في حصن الدير راهبا ونصبنا عليه منجنيقاً لايزال بشهاب القذف ضارباً، فلما تعالى النهار ملكنا ربضه، وأطلقنا فيه النيران. ورملنا الرجال بالدم. وأرملنا النسوان ، وزحفنا إلى أبراجه وهي

أبراج قد استعدت للبلاء جلباباً، فجعلنا لكل واحد جورة مفردة وبابا، وسرحنا إليهم رسل المنايا من النشاب، وقصدنا أحد الأبراج والبيوت تؤتى في الحرب من غير الأبواب. وتقدّمت إليه نقابة الجلبية فباتت ليلتها تساوره وتراجعه بألسنة المعاول وتشاوره، وأسفر الصبح وقد أمكن تعليقه، وتيسر تحريقه، فأودعنا تلك العقود آلات الوقود ، فلم يكن إلاّ مقدار اشتعالها حتى خرّ صريعاً سريعاً، وعفر بين أيدينا سامعاً مطيعاً، وانتظمت الرجال على أحجاره، وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج وأنظاره، فحصلت في القبضة وعجز من كان فيها عن النهضة، واحتكم فيها العذاب بالسيف والنار، وضاق عليهم مجال النفس والقرار واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المنجنيق وتيسير السبيل للقتال وتخليص الطريق هذا والكسوب والنهوب قد امتارت منها العساكر وخرجت فيها مكنونات الذخائر، وأشبه اليوم يوم تبلى السرائر، وطهر الأرض منهم بالدم المائر ، فلما كان بكرة الجمعة وردتنا الأخبار بأن الملك قد زحف من غزة في فارسه وراجله ورامحه ونابله وحشود دياره وجنود أنصاره، فركبنا مستبشرين بزحفة، موقنين بحتفه. ولقيناه فأحطنا من بين يديه ومن خلفه. وناوشته الخيل الطراد ، وأحدقت به احداق الأغلال بالأجياد وانتظرت حملته التي كانت لها قبل ذلك اليوم موقع، وصدمته التي لها من رجال الحرب موضع، فملأ الله قلبه رعباً، وثنى صدقه كذباً، ولم يزل يخاتل، ولا يقاتل، ويواصل المسير ولا يطاول، والقتل في أعقابه، وأيدي السيوف وسواعد الرماح لاتني في عقابه حتى تحصل في الدير هو وخيله ورجله، ولم يبق له من ملك الشام إلا ما وطئته رجله. فناصبناه الحصار في ليلة السبت مستهل ربيع الآخر بالركوب إليه والوقوف عليه ، لعله يبرز ويبارز ويخرج ولا يحاجز. فخرست غماغمه واستذابت ضراغمه، فتركناه وراء ظهورنا، وجعلنا بلاده أمام صدورنا، فكنا في توليته مرضين الله سبحانه لامغضبين، وفي تركه وراء ظهورنا ومباعدته، من الله متقرّبين. وواجهنا غزة بعساكرنا

المنصورة، وأطفنا بها في أحسن صورة، وهي على ما علم من كونها بكراً لم تفترعها الحوادث. وحصانا لم يطمثها أمل طامث. هي معقل الديوية الذين هم جمرة الشرك، وداهية الأفك، وأتى الله ببنيانها من القواعد، وأنجز فيها من النصر صادق المواعد، ووردناها بأيمن الموارد، وفتحناها من عدّة جوانب،ووطئناها وإذا هي كأمس الذاهب، فألقت إلينا أفلاذ كبدها وذخيرة يدها، فمن بين مواش تخرب البلاد التي منها خرجت، وخيول مسوّمة كأنها لركوبنا أسرجت وألجمت، وحوامل أثقال وزوامل خففت عن عساكرنا وفرّجت، وميرة كثيرة تمكنت منها يد الأجناد وأفرجت، وأساري المسلمين فكوا من القيد والقد، وأنقذوا بلطف الله من سوء المكيدة وشدّة الجهد. فأما الرؤوس المقطوعة وأسارى الفرنج الذين أيديهم إلى أعناقهم مجموعة، فإن الفضاء الفضي تعصفر من دمائهم وتذهب، وجرى منها مابه اضطرم وقد الجحيم وتلهب، وفي الحال أمرنا بالنار أن تشتغل بها وتشتعل، وبالهدم أن ينقل عنها معاولة وينتقل، فهل ترى لهم من باقيه. أو تنظر إلا طلولاً على عروشها خاويه. وعراصاً من سكانها خالية. قد بقيت عبرة للعابر وذكرى للذاكر. وموعظة سارة للمسلم مرغمة للكافر، ثم عدنا بقية يوم السبت إلى الملك خذله الله راجين أن يحمله الثكل على الإقدام، ويخرجه حرّ النار إلى مقام الانتقام، فإذا شيطانه قد نصحه، وقتل أصحابه قد جرحه، فبتنا عليه والالسنة بفراره تعيره. واستتاره يقرّعه ويقرره. وأصبحنا يوم الأحد ثاني شهر ربيع الآخر والكسب قد أثقل المقاتلة ونصر الله قد بلغ الغاية المستأصلة، ورحلنا والسلامة لصغير عسكرنا وكبيره شامله. والعدوّ قد غزي في عقره وعقر، وأذل في دار ملكه وأحتقر ووصلنا إلى مستقرّ سلطاننا في يوم الإثنين الحادي عشر من الشهر المذكور فاستقبلنا من مولانا صلوات الله عليه تشريفه، واستقبال ركابه ومشافهتنا بمقبول دعائه الشريف ومجابه ما عظمت به النعم، وجلت ، وزالت به وعثاء الطريق وتجلت ، وجادتها سماء انعامة التي لم تزل تجودنا واستهلت.

قلت: ومن قصيدة لعمارة في مدح صلاح الدين أولها:

(فؤاد بنار الشوق والوجد محرق) يقول فيها:

لعـــل بنـــي أيـــوب إن علمـــوا بما
تظلمـــت منـــه أن يـــرقـــوا ويشفقـــوا

غـــزوا عقـــر دار المشركين بغـــزة
جهـاراً وطـرف الشرك خـزيـان مطـرق

وزاروا مصلى عسقـــلان بـــأرعـــن
يفيـــض إنـــاء البرّ منـــه ويفهـــق

وكـانـت على مـا شـاهـد النـاس قبلهـم
طـرائق مـــن شـوك القنـاليـس تطـرق

ومـا عصمتهـم منـك إلا معـاقـل
تـأنـوا على تحصينهـا وتـأنقـوا

جلبـت لهم مـن سـورة الحرب مـا التقـى
بـــوادره ســـور عليهـــم وخنـــدق

وأخـــربـت مـــن أعمالهم كـــل عـامـــر
يمـــرّ بـــه طيـــف الخيـــال فيفـــرق

أضفـــت إلى أجـــر الجهـــاد زيـــارة الــــ
ــــخليل فـــأبشر أنـــت غـــاز مـــوفـــق

وهيجـــت للبيـــت المقـــدّس لـــوعـــة
يطـــول بها منـــه إليـــك التشـــوّق

تنشـــق مـــن ملقـــاك أعظـــم نفحـــة
تطيـــب على قلـــب الهدى حين تنشـــق

وغـــزوك هـــذا سلـــم نحـــو فتحـــه
قـــريبـــاً وإلا رائد ومطـــرّق

هـــو البيـــت إن تفتحـــه والله فـــاعـــل
فما بعـــده بـــاب مـــن الشـــام مغلـــق

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

فاستفتحها صلاح الدين رحمه الله بـاقامة الخطبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العباس، وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر، وتوفي العـاضد يوم عاشـوراء بالقصر، وانقضت تلك الـدولة بانتهاء مادام لها من العصر.

وذكـر العماد أيضا في أخبـار سنة إثنتين وسبعين كما سيـأتى أن الـذي خطب بمصر لبنـي العباس أولاً هـو أبو عبد الله محمـد بن المحسـن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي، وذكر ذلك أيضا ابن الدبيثي في تاريخه، وقد أشار إليه القاضي الفاضل في كتاب له إلى وزير بغداد سيأتي ذكره.

قال ابـن الاثير : كان السبـب في ذلك أن صـلاح الديـن يوسـف بن أيوب لما ثبتت قـدمه في مصر وزال المخالفون له، وضعف أمـر العاضد، وهو الخليفة بها ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يـأمره بقطع الخطبة العاضدية، وإقامـة الخطبة العباسية، فـاعتذر صـلاح الـدين بـالخوف مـن وثوب أهـل مصر وامتنـاعهم مـن الإجـابة إلى ذلـك لميلهم إلى العلـويين فلم يصـغ نـور الديـن إلى قولـه، وأرسل إليه يلزمـه بذلك إلزاماً لا فسحة له فيه، واتفـق أن العاضد مرض وكان صـلاح الدين قـد عزم على قطع الخطبة لـه فاستشار الأمـراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية فمنهـم من أقدم على المساعدة وأشار بها، ومنهم من خـاف ذلك إلا أنه لم يمكنه إلا إمتثـال أمر نور الديـن، وكان قـد دخـل إلى مصر انسان أعجمـي يعـرف بالأمير العالم، وقـد رأيناه بالموصل كثيراً فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال: أنا أبتدي بها ، فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبـل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله ، فلـم ينكر ذلـك أحد عليه ، فلما كـان الجمعة الثـانية أمر صلاح

الـدين الخطبـاء بمصر والقـاهرة بقطـع خطبـة العاضـد وإقـامة الخطبـة للمستضيءبأمر الله، ففعلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر الـديار المصرية، وكان العـاضد قد اشتـد مرضه فلم يعلمـه آله وأصحـابه بـذلـك، وقالـوا إن سلـم فهو يعلـم وإن تـوفي فلا ينبغـي أن ننغض عليه هذه الأيام التي قد بقيـت من أجله، فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم.

قال: ولما تـوفي جلس صـلاح الديـن للعزاء واستـولى على قصره، وعلى جميع مـا فيه، وكان قد رتـب فيه قبل وفاة العـاضد بهاء الدين قـراقوش، وهو خصي لحفظه وجعله كـاستاذدار العاضد فحفظ ما فيـه حتى تسلمه صـلاح الديـن، ونقـل أهل العـاضد إلى مكـان منفـرد، ووكل بحفظهـم وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في الأيـوان في القصر وجعل عندهم من يحفظهـم، وأخرج مـن كـان بالقصر مـن العبيد والاماء فـاعتق البعـض ووهب البعـض واباع البعض، وأخلى القصر مـن أهله وسكانـه فسبحان من لايزول ملكه ولا يغيره مر الأيام وتعاقب الدهور.

قال: ولما أشتد مرض العـاضد أرسل يستدعي صلاح الـدين، فظن أن ذلك خديعة فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه.

قلت: أخبرني الأمير أبـو الفتوح بـن العاضد، وقـد اجتمعت بـه سنة ثمان وعشريـن وستمائة وهو محبـوس مقيد بقلعـة الجبل بمصر أن أبـاه في مرضـه استدعى صـلاح الديـن فحضر، قال: وأحضرنا يعنـي أولاده وهـم جماعـة صغار فـأوصـاه بنا فـالتـزم اكرامنـا واحترامنـا رحمه الله، وأما نـدم صلاح الدين فبلغنـي أنه كان على استعجاله بقطع خطبتـه وهو مريض،

وقال: لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعتها إلى أن يموت.

قال العماد: وجلس السلطان للعـزاء وأغرب في الحزن والبكـاء، وبلغ الغايـة في اجمال أمره والتـوديع لـه إلى قبره، ثم تسلـم القصر بما فيه مـن خزائنـه ودفائنه، وكان مـذ نافق مـؤتمن الخلافة وقتل صرف من هـو زمام القصر وعزل، ووكل بهاء الـدين قراقوش بـالقصر، وجعله زمامه واستنـابه مقـام نفسه، وأقـامه، فما دخـل إلى القصر شيء ولا خـرج إلاّ بمرأى منـه ومسمـع، ولا حصل أهـل القصر بعد ذلـك على صفو مشرع، فلما تـوفي العاضد بطلـت تلك القواعد، ووهـت المعاقد، وأمر السلطـان بالاحتياط على أهله وأولاده في مـوضع خـارج القصر، جعله بـرسمهم على الانفـراد، وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والأقوات والأزواد.

قلت: أخبرني أبو الفتوح أنه جعلهـم في دار برجوان في الحارة المنسوبة إليه بـالقاهرة، وهـي دار كبيرة واسعة، كان عيشهـم فيها طيبا، ثـم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها، وأبعدوا عنها.

قـال العماد: وهم إلى اليـوم في حفـظ قراقـوش واحتيـاطه واستظهـاره يكلؤهم ويحرسهـم بعين حزمه في ليله ونهاره، وجمع الباقين مـن عمومتهم وعترتهم من القصر في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان بكل إمكان ، وأبعـد عنهـم النسـاء لئـلا يتنـاسلـوا فيكثـروا، وهـم إلى الآن محصـورون محسورون لم يظهـروا، وقد نقص عـددهم وقلص مـددهم، ثم عـرض من بالقصر من الجواري والعبيـد، والعدة والعديد، والطريف والتليـد، فوجد أكثرهـن حرائر فأطلقهـنّ، وجمع الباقيـات فوهبهنّ وفـرقهنّ وأخلى دوره، وأغلـق قصـوره، وسلـط جـوده على الموجود، وأبطـل الـوزن والعـد عـن الموزون والمعدود، وأخذ كـل ما صلح له ولأهله وأمـرائه ولخواص مماليكه واوليائه من أخـائر الذخائر، وزواهر الجواهر، ونفـائس الملابس، ومحاسن العرائس، وقلائد الفرائد، والدرة اليتيمه، والياقـوتة العالية الغالية القيمه، والمصـوغات التبريـه، والمصنوعـات العنبريـة، والأواني الفضية والصـواني

الصينيه، والمنسوجات المغربية، والممزوجات الذهبية، والمحوكات النضارية، والكرائم واليتائم والعقود والتمائم والنقود والمنظوم والمنضود، والمحلول والمشدود، والمنعوت والمنحوت، والدر والياقوت ، والحلي والوشي، والعبير والحبير والوثير والنشير، والعيني واللجيني، والبسط والفرش، وما لا يعد احصاء، ولا يحد استقصاء، فوقع فيها الفناء، وكشف عنها الغطاء، وأسرف فيها العطاء، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق ولبيس وسحيق وبال وأسمال، ورخيص وغال، وكل منقول ومحمول، ومصوغ ومعمول، واستمر البيع فيها مدّة عشر سنين، وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين.

ونقلت من ديوان العماد بخطه قال: ولما وصل خبر موت العاضد الذي كان بمصر في القصر، موسوما بالأمر في ليلة عاشورا، سنة سبع وستين، بعد الخطبة بها للمستضيء بالله أمير المؤمنين، عملت هذه الأبيات فذكر قصيدة منها:

توفي العاضد الدعيّ فما | يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا | يوسفها في الأمور محتكما
وانطفأت جمرة الغواة وقد | باخ من الشرك كلما اضطرما
وصار شمل الصلاح ملتئما | بها وعقد السداد منتظما
لما غدا معلنا شعار بني الـ | ـعباس حقا والباطل اكتتما
وبات داعي التوحيد منتصرا | ومن دعاة الاشراك منتقما

وظـــل أهـــل الضــــلال في ظلـــل
داجية من غيابة وعمى
وارتبـــك الجاهلـــون في ظلــــم
لما أضـــاءت منـــابــــر العلما
وعـــادبـــا لمستضيء ممتهــــدا
بنــاء حــق قــد كــان منهــدمـــا
واعتلــت الـــدولــة التـــي اضطهـــدت
وانتصر الـــديـــن بعــــد مـــا اهتضما
واهتـــز عطـــف الاســـلام مـــن جـــذل
وافتر ثغــــــــــــر الإيمان وابتسما
واستبشرت أوجـــــه الهدى فـــرحـــا
فليقـــرع الكفـــر سنــــه نـــدمـــا
عـــاد حـــريـــم الاعـــداء منتهـــك الـــ
ـــحمى وفيء الطغـــــاة مقتسما
قصـــور أهــــل القصــــور أخـــربها
عـــامـــر بيـــت مـــن الكمال سما
أزعـــج بعـــد السكـــون ســـاكنهـــا
ومـــــات ذلا وأنفـــــه رغما

ومن كتاب فاضلي عن السلطان صلاح الدين إلى وزير بغداد، على يد الخطيب شمس الدين بن أبي المضا، في بعض السنين: « كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره، ودين الولاء مشروع، وعلم الجهاد مرفوع، وسؤدد السواد متبوع، وحكم السداد بين الأمة موضوع، وسبب الفساد مقطوع ممنوع، وقد توالت الفتوح غربا ويمنا وشاما، وصارت البلاد بل الدنيا والشهر بل الدهر حرما حراماً، فاضحى الدين واحداً بعد ما كان أديانا، والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها إلاّ صما وعميانا، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعه، والمذلة في شيع الضلال شائعه، ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا

أمرهم بينهم شيعا، وفرقوا أمر الأمـة وكان مجتمعا، وكذبوا بالنار، فعجلت لهم نار الحتوف، ونثرت أقلام الظبا حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف، ومـزقوا كـل ممزق، وأخـذ منهم كـل مخنق، وقطـع دابرهـم، ووعظ آينهـم غابرهـم، ورغمت أنوفهم ومنابـرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريداً وقتلا، وتمت كلمات ربك صدقـا وعدلا، وليس السيف عمن سواهـم من كفار الفرنـج بصائم، ولا الليـل عن سير إليهم بنـائم، ولا خفاء عـن المجلس الصاحبي أن مـن شد عقد خلافه وحـل عقد خلاف ، وقام بـدولة وقعد بأخرى قد عجـز عنها الأخلاف والأسلاف، فإنه مفتقـر إلى أن يشكر ما نصح وقلد مافتح ويبلغ ما اقترح ويقـدم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وإن نـزح، وتأتيـة التشريفات الشريفـة، وتتواصـل إليه أمـداد التقويـات الجليلة اللطيفة، وتلبى دعـوته بما أقام من دعوه، وتوصـل غزوته بما وصل من عـزوه، وترفـع دونه الحجـب المعترضة وتـرسل إليـه السحب المروضـه فكل ذلك تعود عـوائده وتبدو فوائده بالدولة التـي كشف وجهه لنصرها وجـرد سيفه لـرفع منـارها والقيـام بأمـرها، وقـد أتى البيـوت من أبـوابها وطلب النجعة مـن سحابها، ووعد آماله الواثقـة بجواب كتابها، وأنهض لايصال ملطفـاته، وتنجييز تشريفاتـه خطيب الخطباء بمصر، وهـو الذي اختـاره لصعود درجـة المنبر وقـام بالأمـر قيام مـن بـر. واستفتح بلبـاس السواد الأعظم الـذي جمع الله عليه السواد الأعظم أملاً أنـه يعود إليه بما يطوي الرجاء فضل عقبه، ويخلد الشرف في عقبه».

ولصـاحبنا مجد الـدين محمـد بن الظهير الإربلي مـن قصيدة في مـدح بعض ذرية السلطان رحمه الله تعالى:

مليـك مـن القـوم الـذيـن رمـاحهـم
دعـائم هـذا الـديـن في كـل مشهـد

هـم نصروا التـوحيـد نصراً مـؤزراً
بـه عـز في الآفـاق كـل مـوحـد

وهـم قهـروا غلـب الفـرنـج بـبـأسـهـم
فـدانـوا لهـم بـالـرغـم لا عـن ودد
وردوا إلى البيـت المقـدس نـوره
وقـد كـان في ليـل مـن الشرك أسـود
وهـم سهلـوا سبـل الحجيـج وآمنـوا
بها الـركـب خـوف الكـافـر المتشـدد
وقـد ركبـت فـرسـانـه بحـر إيلـة
يخوضـون في بحـر مـن الكيـد مـزبـد
وهـم رجعـوا مصراً إلى دعـوة الهدى
بعـزم ورأي في العظـائم محصـد
وهـم شيـدوا ركـن الخلافـة بـالـذي
أعـادوه مـن حـق طـريـف ومتلـد
وهـم شرفـوا قـدر المنـابـر بـاسمهـا
وذكـر منـوط بـالـرسـول محمـد
وهـم وهبـوا عـز الممالـك واكتفـوا
بسمـراء العـوالي والعـلاء المشيـد
فسل عـن ظبـاهـم يـوم حطين كـم قضـت
بمـرّ مـراد الله في كـل أصيـد
وضعـف حـديـث العـدل والبـأس والنـدى
إذا كـان عـن أيـامهـم غير مسنـد

وقال ابـن أبي طي الحلبي: قد قـدمنا ذكر مكـاتبة نور الديـن وإلحاحه على صلاح الـدين في إقامة الخطبـة بمصر للعباسيين، وأنه أنفذ إليـه أباه الأمير نجم الـدين أيـوب لأجل ذلك لما كتـب الخليفة المستنجـد إلى نور الدين في ذلـك، ولما ولى ابنه المستضيء أقبل أيضاً على مكاتبة نـو الدين فيه، وألح نور الدين على صلاح الدين في طلبه، وأفضـى به الأمر إلى أنه اتهم صـلاح الديـن وشنع عليـه بسببـه، وأكثر القـول في ذلك، ولما قـدم الأمير نجم الدين حداه على فعل ذلك، فـاعتذر إليه بأن أحواله لم تستقر

بعد وأموره مضطربة واعداؤه كثيرون، وأن المصريين لهم جماعة كبيرة متفرقة في بلاد مصر من السودان وغيرهم وأن هذا الأمر إن لم يؤخذ على التدريج وإلا فسدت أحواله، فلما أوقع السلطان الملك الناصر بالسودان والأرمن،ونكب أمراء المصريين وقطع أخبازهم، وترك أجناده في دورهم، ثم قطع اقطاع العاضد وقبض جميع ما كان بيده من البلاد، واستولى على القصور، ووكل بها وبمن فيها قراقوش الخادم، وخلت له بلاد مصر من معاند ومنابذ، ثم شرع وأبطل من الأذان «حي على خير العمل»، وأنكر على من يتسم بمذهبهم والانتساب إليهم، فلما رأى أموره مواتيه وأعداؤه قليلون،شرع حينئذ في الخطبة لبني العباس، ولما عول على ذلك أمر والده الأمير نجم الدين بالنزول إلى الجامع في جماعة من أصحابه، وأمراء دولته، وذلك في أول جمعة من السنة، وأمره أن يحضر الخطيب إليه ويأمره بما يختاره، وإنما فعل الملك الناصر ذلك، ووكل الأمر إلى غيره استظهار أو خوفاً من فادحة ربما طرأت أو عدو ربما ثار، فيكون هو معتذراً من ذلك، ولما حصل نجم الدين بالجامع أحضر الخطيب، وقال له: إن ذكرت هذا المقيم بالقصر ضربت عنقك، فقال: فلمن أخطب؟ قال: للمستضيء العباسي، فلما صعد المنبر وخطب ووصل إلى ذكر العاضد، لم يذكر أحداً لكنه دعا للائمة المهديين، وللسلطان الملك الناصر، ونزل فقيل له في ذلك فقال: ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته، ولا تقرر معي في ذلك شيء قبل الجمعة، وفي الجمعة الثانية أفعل إن شاء الله ما يجب فعله في تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك.

قال: وقيل إن العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة، قال: لمن خطب؟ قيل له: لم يخطب لأحد مسمى، قال: في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مسمى، واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية، قيل إنه أفكر واستولى عليه الفكر والهم حتى مات، وقيل إنه لما سمع أنه قطعت خطبته اهتم وقام ليدخل إلى داره فعثر وسقط، فأقام متعللا

خمسة أيام، ومات، وقيل أنه امتص فص خاتمه، وكان تحته سم فمات، ولما اتصل موته بالملك الناصر، قال : لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه يرفع اسمه من الخطبة، فحكي أن القاضي الفاضل قال للسلطان: لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت أشار إلى أن العاضد قتل نفسه، وكان موته يوم عاشوراء.

قال: وحكى ابن المارستاني في سيرة ابن هبيرة الوزير، قال: إن من عجيب ما جرى في أمر المصريين أن رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر، والأنور منهما مسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طول، ويهب أدنى نسيم فيحرّكها، وأثر حركتها وظلها في الأرض، وكان الرجل يتعجب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرأون بألحان وأصوات لم يسمع قط مثلها، وكأنه سأل بعض من حضر فقال: ما هذا فقالوا: قد استبدل الناس بامامهم قال: وكان الرجل استقبل القبلة، وهو يدعو الله أن يجعله إماما برّاً تقياً، واستيقظ الرجل وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير إذذاك ببغداد، فعبر المنام بأن الإمام الذي بمصر يستبدل به، وتكون الدعوة لبني العباس لمكان اللحية السوداء، وقوي هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين إلى مصر في أوّل مرة بأنه يظفر بمصر، وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده، وقيلت في ذلك الزمان أشعار في هذا، منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين بن محمد بن تركان، وكان حاجب ابن هبيرة قالها حين سمع تأويله المنام:

ليهنك يا مولى الانام بشارة
بها سيف دين الله بالحق مرهف
ضربت بها هام الاعادي بهمة
تقاصر عنها السمهريّ المثقف
بعثت إلى شرق البلاد وغربها
بعوثا من الآراء تحيي وتتلف

فقامت مقام السيف والسيف قاطر
وناب ت مناب الرمح والرمح يرعف
ملكت به أقصى المغارب عنوة
وكادت بمن فيها المشارق ترجف
ليهنك يا مولاي فتحا تتابعت
إليك به خوص الركائب توجف
أخذت به مصراً وقد حال دونها
من الشرك ناس في لهى الحق تقذف
وقد دنست منها المنابر عصبة
يعاف التقى والدين منهم ويأنف
فطهرها من كل شرك وبدعة
أغر غريرٌ بالمكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا
تتيه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو أن دانت ليوسف مصره
وكانت إلى عليائه تتشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف
وخلصها من عصبة الرفض يوسف

قال يحيى بن أبي طي: يريد بيوسف الأول يوسف الصديق النبي صلى الله عليه وسلم وبيوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذ، وقاله على سبيل الفأل ألا تراه قال بعد هذا البيت:

فشابهته خلقا وخلقا وعفة
وكل عن الرحمن في الأرض يخلف

وجرى الفأل في البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس، وهذا من عجيب الاتفاق.

قلت: وذكر ابن المارستاني في السيرة المذكورة، قال: وكان هذا المنام سبباً إلى أن كاتب الوزير ابن هبيرة نور الدين بن زنكي يحثه على التعرّض لمصر والبعث إليها، واتفق في أثناء ذلك نوبة شاور وزير صاحب القصر، وقدومه هارباً منه إلى نور الدين، فحرّك ذلك ما كان تخمر في نفسه مما كان كاتبه به ابن هبيرة، فاستطلع من شاور الأسباب التي يمكن بها الدخول على المصريين فشرحها وأوضحها، فسير إليها أسد الدين كما سبق ذكره.

قال: ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الاسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم وإذا وجد أحد من الأتراك مصرياً أخذ ثيابه وعظمت الأذية بذلك وجلى أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد، وفرح الناس بذلك وكتبت الكتب به إلى الاقطار، وتحدّث به السمار، ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن أبي عصرون، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمرّ بها يقول فيها: (أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الاسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه، وأوضح لنا منهاجه، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية، والاسكندرية ومصر والقاهرة وسائر الأطراف الدانية والقاصية، والبادية والحاضرة وانتهت إلى القريب والبعيد، وإلى قوص وأسوان بأقصى الصعيد، وهذا شرف لزماننا هذا وأهله نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله، وما برحت هممنا إلى مصر مصروفه، وعلى افتتاحها موقوفه، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضيه، والأقدار في الأزل بقضاء أراتنا ونجاز مواعدنا قاضيه حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها، وطالما مرت عليها الحقب الخوالي، وآبت دونها الأيام والليالي، وبقيت مائتين وثمانين (١٢٠) سنة ممنوة بدعوة المبطلين. مملوة بحزب الشياطين. سابغة

ظلالها للضلال مقفرة المحل إلا من المحال. مفتقرة إلى نصرة من الله يملكها. ونظرة ستدركها. رافعة يدها في أشكائها متظلمة إليه ليكفل بإعدائها على أعدائها، حتى أذن الله لغمتها بالإنفراج ولعلتها بالعلاج. وسببت قصد الفرنج لها وتوجههم إليها طمعا في الاستيلاء عليها، واجتمع داءان الكفر والبدعة، وكلاهما شديد الروعة، فملكنا الله تلك البلاد، ومكن لنا في الأرض وأقدرنا على ماكنا نؤمله في إزالة الالحاد والرفض، من اقامة الفرض، وتقدّمنا إلى من استنبناه أن يستفتح باب السعادة، ويستنجح باب مالنا من الارادة، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك. ويورد الأدعياء، ودعاة الإلحاد بها المهالك» وهو كتاب طويل اختصرت منه الغرض وهو هذا.

قال: وسار شهاب الدين بن أبي عصرون إلى جهة بغداد، ولم يترك مدينة إلاّ دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذكر حتى وصل إلى بغداد فخرج الموكب إلى تلقيه، وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده، معظمين لجليل موروده، ونثرت عليه دنانير الإنعام، وحبي بكل احسان وإكرام، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين كما سيأتى ذكره.

وقال العماد: كان صلاح الدين لايخرج عن أمر نور الدين ويعمل له عمل القوي الأمين، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين، وقد كان كاتبه نور الدين في شوّال سنة ست وستين بتغيير الخطبة، وتذليل أمورها الصعبة، وافتراع بكر هذه القضية وفرع الرتبة، وأيقن أن أمره متبوع، وقوله مسموع، وحكمه مشروع، ونطقت بذلك قبل التمام ألسن الخواص والعوام، فسير نور الدين شهاب الدين أبا المعالي المطهر ابن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه البشارة، وإشاعة ما تقدّم له بها من الإشاعة، وأمرني بانشاء بشارة عامة تقرأ في سائر بلاد الاسلام، وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الإمام في مدينة السلام، ثم ذكر نسخة الكتابين،

ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أوّلها:

قـــد خطبنـــا للمستضيء بمصر
نـــائب المصطفـــى إمـــام العصر
وخـــذلنـــا لنصرة العضـــد العـــ
ـــاضد والقـــاصر الـــذي بـــالقصر

أراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء، قال العماد في كتاب الخريدة: قصدت بالعضد والعاضد المجانسة، ونصرة وزير الخليفة كنصرته، ثم قال:

وأشعنـــا بها شعـــار بنـــي العبـــاس
فـــاستبشرت وجـــوه النصر
وتـــركنـــا الـــدعـــيّ يـــدعـــو ثبـــورا
وهـــو بـــالـــذل تحت حجـــر وحصر
وتبـــاهـــت منـــابـــر الـــديـــن بالخطـــ
ـــبة للهـــاشمـــيّ في أرض مصر
ولـــدينـــا تضـــاعفـــت نعـــم اللـــ
ـــه وجلـــت عـــن كـــل عـــدّ وحصر
فـــاغتـــدى الـــديـــن ثـــابـــت الـــركـــن في مصـــ
ـــر محوط الحمـــى مصـــون الثغـــر
واستنـــارت عـــزائم الملـــك العـــا
دل نـــور الـــديـــن الكـــريـــم الأغـــر
وبنـــو الأصفـــر القـــوامـــص منـــه
بـــوجـــوه مـــن المخـــافـــة صفـــر
عـــرف الحق أهـــل مصر وكـــانـــوا
قبلـــه بين منكـــر ومقـــرّ
قـــل لـــداعـــي الـــدعـــيّ حسبـــك فاللـــ
ـــه أقـــرّ الحقـــوق خير مقـــرّ

هـــو فتـــح بكـــر ودون البرايـــا
خصنـــا الله بـــافتراع البكـــر
وحصلنـا بـالحمـد والأجـر والنصـــ
ـــر وطيـب الثنـا وحسـن الـذكـر
ونشرنـــا أعــلامنـــا الســـود قهـــراً
للعــدى الـزرق بــالمنــايــا الحمــر
واستعـــدنـــا مـــن أدعيـــاء حقـــوقـــاً
يـــدعـــى بينهـــم لـــزيـــد وعمـــر
والـــذي يـــدعـــي الإمـــامـــة بـــالقـــاهـــر
ة انحـــط في حضيـــض القهـــر
خـــانـــه الـــدهـــر في منـــاه ولا يطـــ
ـــمع ذو اللـــب في وفـــاء الـــدهـــر
مـــا يقـــام الإمـــام إلا بحـــق
مـــا تحاز الحسنـــاء إلا بمهـــر
خلفـــاء الهدى سراة بنـــي العبـــ
ـــاس والطيبـــون أهـــل الطهـــر
بهم الـــديـــن ظـــافـــر مستقيـــم
ظـــاهـــر قـــوة قـــوي الظهـــر
كشمـــوس الضحـــى كمثـــل بـــدور الــ
ـــتم كـــالسحـــب كـــالنجـــوم الـــزهـــر
قـــد بلغنـــا بـــالصبر كـــل مـــراد
وبلـــوغ المراد عقبـــى الصبر
ليـــس مثـــري الـــرجـــال مـــن ملـــك المـا
ل ولكنها أخـــو اللـــب مثـــري
ولهذا لم ينتفـــع صـــاحـــب القصر
وقـــد شـــارف الـــدثـــور بـــدثـــر
دام نصر الهدى بملـــك بنـــي العبـــ
ـــاس حتـــى يقـــوم يـــوم الحشر

قال العماد في ديـوانه، ونقلته من خطـه قال: ووصل الخبر بـأن الخطبة قامت في الاسكندرية يوم الجمعة سـابع شهر رمضان، وفي مصر والقاهرة يوم الجمعـة ثامـن عشري شهر رمضان لمولانـا الإمام المستضيء بـأمر الله أمير المؤمنين، وإقامـة شعار بنـي العباس بها، فقلـت ونحن نـزول بجسر الخشـب من دمشـق في عاشر شـوال وكتبـت بها إلى بغداد، فـذكر هـذه القصيدة.

وقـال في البرق: ووصل مـن دار الخلافة في جـواب هذه البشـارة عماد الدين بن صنـدل، وهو من أكابر الخدم المقتفوية مـن ذوي الروية والهمة القويـة، وتولي استاذية الـدار العزيزة بعد عـزل كمال الدين عضد الـدين عنها، فـأكرم نـور الديـن بارسال مثلـه، إليه، وعـوّل في هذا الأمـر المهم عليه، وهو أكرم رسول ، وصل فأنجـح الأمل، وجاء بالتشريف الشريف لنور الدين مكمـلاً معظماً مجملاً بأهبته السوداء العراقيـة، وحلله الموشيه، وطوقه الثقيل، ولوائه الجليل، وعين يوم يحضر فيه الرسول، ونصوا على من يحضر في مجلس نـور الديـن ، واغفلوا ذكـر العماد، فطلبه نـور الديـن لما حضروا، وقام لقيام الـرسول له لما حضر، وقصد أن يعرفهم منـزلته عنده، وناوله الكتاب ليقـرأه، قال: فتناوله مني الموفق بـن القيسراني خالد، وكان عنده في مقام الوزير، وله انبساط زائد، فداريتـه وماماريته وتركته يقرأ وأنا أردّ عليـه وأرشـده في التـلاوة إلى مـالا يهتـدي إليـه حتـى أنهاه وأنـا على افتيـاته عليّ لا أنهاه، فـأعجب نـور الـدين صمتـي وسمتي، وأحمد منـي فضل التأني والتأتي واجتاب الأهبة، ولبس الفـرجية فوقها، وتقلد مع تقلد السيفين طوقهـا، وخرج وركب من داخـل القلعة وهو حال بما عليـه من الخلعـة، واللـواء منشـور، والنضـار منثـور، والمركبـان الشريفـان أحـدهما مركوبه، والآخر بحليته بجنوبه.

قـال: وسألـت عن معنـى تقليـده السيفين فقيل لي هما للشـام ومصر، وللجمع له بين البـلادين، وخرج إلى ظاهر دمشق حتـى انتهى إلى منتهى

الميدان الأخضر، ثم عاد شريف المفخر، جميل المنظر ، جليل المحضر، حميد المخبر، سعيد المورد والمصدر، لبيقا بالأعظمين السرير والمنبر، وكان وزن الطوق مع أكرته ألف دينار من الذهب الأحمر، وحملوا لصلاح الدين تشريفاً فاضلاً فائقاً رائعاً رائقاً لجماله وكماله لائقاً، لكن تشريف نور الدين أميز وأفضل وأجمل وأكمل، فسير تشريفه برمته إليه بمصر ليحظى به، وسير أيضاً بخلع من عنده يكرم بها أصحابه، ووصلت تلك الخلعة إليه ولبسها، وأنس من السعادة الدائمة بقبسها، وطاف بها في الحادي والعشرين من رجب، وهي أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية، يعني بعد استيلاء بني عبيد عليها.

قال: وكانت وصلت مع الرسل أعلام وبنود ورايات سود وأهب عباسية للخطباء في الديار المصرية، فسيرت إلى صلاح الدين، ففرقها على المساجد والجوامع والخطباء والقضاة والعلماء والحمد لله على ما أنعم وأولى ووهب وأعطى.

قال ابن أبي طي: ولما فرغ السلطان من أمر الخطبة، أمر بالقبض على القصور، وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك، فلم يوجد من المال كبير أمر لأن شاور كان قد ضيعه في إعطائه الفرنج في المرات التي قدّمنا ذكرها، ووجد فيها ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام، وكتب وجواهر، ومن عجيب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله شبر وكسر هو قطعة واحدة، وكان سمت حجمه مقدار الإبهام، ووجد فيه طبل للقولنج، ووجد فيه أبريق عظيم من الحجر المائع ، ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر، فأما قضيب الزمرد فإن السلطان أخذه وأحضر صانعاً ليقطعه فأبى الصانع قطعه فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع، وفرقه السلطان على نسائه، وأما طبل القولنج فإنه وقع إلى بعض الأكراد فلم يدر ما هو فكسره لأنه ضرب به فحبق ، وأما الابريق فانفذه السلطان إلى بغداد، واحتاط السلطان على أهل العاضد وأولاده في

موضع في خارج القصر، جعله برسمهم على الانفراد، وقرر لهم ما يكفيهم، وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى إنقراضهم، واستعرض من بالقصر من الجواري والعبيد والعدّة والعديد والطريف والتليد، فأطلق من كان منهم حراً وأعتق من رأى اعتاقه، ووهب من أراد هبته، وفرق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئاً كثيراً، وحصل هو على اليتيمات، وقطع البلخش والياقوت وقضيب الزمرد، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، فأقام البيع بالقصر مدّة عشر سنين.

قال: ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، ويقال إنها كانت تحتوي على ألفي ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة شيء كثير، وحصل للقاضي الفاضل قدر منها كبير، حيث شغف بحبها، وذلك أنه دخل إليها واعتبرها فكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة كانت هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرومات، ثم جمعها بعد ذلك، ومنها حصل ما حصل من الكتب، كذا أخبرني جماعة من المصريين، منهم الأمير شمس الخلافة موسى بن محمد، واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر، وأعطى السلطان القصر الشمالي للأمراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة، وهو قصر عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري، ونقل الملك العادل إلى مكان آخر منه، وأخذ باقي الأمراء مكان دور من كان ينتمي إليهم، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً أخرج منها صاحبها وسكنها، وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها، بعد أن كانوا قد احتوروا على البلاد، واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورا.

قال: وحكي أن الشريف الجليس، وهو رجل كان قريبا من العاضد، يجلس معه، ويحدّثه عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخي السلطان بعد القبض على القصور، وأخذ ما فيها وانقراض دولتهم، وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيراً، وأحضرها أيضاً جماعة من أكابر الأمراء فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف : حدّثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم؟ قال: نعم طلبني العاضد يوماً وجماعة من الندماء، فلما دخلنا عليه، وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم أقبية مثل أقبيتكم وقلانس كقلانسكم، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم، فقلنا له: يا أمير المؤمنين ما هذا الزي الذي ما رأيناه قط؟ فقال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا، ويأخذون أموالنا وذخائرنا.

قال العماد: وأخذت ذخائر القصر ففصلها، كما سبق، ثم قال: ومن جملتها الكتب فإني أخذت منها جملة في سنة إثنتين وسبعين، وكانت خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة مؤبدة من العهد القديم مخلده، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي واقتطعه التعدّي، وكانت كالميراث مع أمناء الايتام يتصرّف فيها بشره الانتهاب والالتهام، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام، وتقاسم الخواص بدور القصر وقصوره، وشرع كل من سكن في تخريب معمورة، وانتقل إليه الملك العادل سيف الدين لما ناب عن أخيه، واستمرت سكناه فيه، وخطب لإمامنا المستضيء في قوص وأسوان والصعيد والقاصي والداني والقريب والبعيد، وشاعت البشائر، وذاعت المفاخر، وسار بها البادي والحاضر، وتملك السلطان أملاك أشياعهم، وضرب الألواح على دورهم ورباعهم، ثم املكها أمراءه، وخص بها أولياءه، وباع أماكن، ووهب مساكن، وعفى الآثار القديمة، واستأنف السنن الكريمة.

وقال ابن الاثير : لما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره، اختار منه ما أراد، ووهب أهله وأمراءه، وباع منه كثيراً، وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة مالم يكن عند ملك من الملوك، قد جمع على طول السنين وممر الدهور، فمنه القضيب الزمرد، طوله نحو قبضة ونصف، والجبل الياقوت وغيرهما، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد.

فصل

ولما خطب بالديار المصرية لبني العباس، ومات العاضد، انقرضت تلك الدولة، وزالت عن الاسلام بمصر بانقراضها الذلة، واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه، وكلهم من قبل نور الدين رحمه الله، هم أمراؤه وخدمه وأصحابه، وفيهم يقول العرقله:

أصبح الملك بعد آل علي
مشرقا بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحسد الغرب للقو
م ومصر تزهو على بغداذ
ما حووها إلا بحزم وعزم
وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفرعون والعزيز ومن كا
ن بها كالخصيب والاستاذ (١٢١)

يعني بالاستاذ كافور الاخشيدي، وقوله بعد آل علي يعني بذلك بني عبيد المستخلفين بها، وأظهروا للناس أنهم شرفاء فاطميون فملكوا البلاد، وقهروا العباد، وقدد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلا ولانسبهم صحيحاً، بل المعروف أنهم بنو عبيد، وكان والد عبيد

هذا من نسـل القدّاح الملحد المجوسي، وقيل كان والـد عبيد هذا يهوديـاً مــن أهـل سليمة مـن بلاد الشام، وكـان حدّاداً و عبيـد هذا كـان اسمه سعيداً، فلما دخـل المغرب تسمـى بعبيد الله، وزعـم أنه علـوي فاطمـي، وادعى نسباً ليـس بصحيح لم يذكره أحـد من مصنفي الأنساب العلـوية بل ذكر جماعة من العلماء بـالنسب خلافه، وهو ما قدّمنا ذكـره، ثم ترقت به الحال إلى أن ملـك وتسمى بالمهدي، وبنـى المهدية بالمغـرب، ونسبت إليه، وكـان زنديقـا خبيثا عـدوّاً للاسـلام، متظاهـراً بالتشيـع، متستراً به، حريصاً على إزالة الملة الاسلاميـة، قتل من الفقهاء والمحدّثين والصالحين جماعة كثيرة، وكـان قصده اعـدامهم مـن الوجـود ليبقى العـالم كالبهـائم فيتمكـن مـن افساد عقـائدهـم وضـلالتهـم: (والله متـم نوره ولـو كـره الكـافـرون (١٢٢)) ونشأت ذريتـه على ذلـك منطـوين يجهـرون بـه إذا أمكنتهم الفـرصة، وإلاّ أسروه والـدعاة لهم منبثـون في البلاد يضلـون من أمكنهـم إضـلاله مـن العبـاد، وبقـي هـذا البلاء على الاسـلام مـن أول دولتهم إلى آخـرها، وذلك مـن ذي الحجة سنة تسـع وتسعين ومائتين إلى سنـة سبـع وستين وخمسمائة، وفي أيـامهـم كثـرت الـرافضـة، واستحكـم أمـرهم، ووضعـت المكـوس على النـاس، واقتدى بهم غيرهـم، وأفسـدت عقـائد طـوائف مـن أهـل الجبال السـاكنين بثغـور الشـام، كـالنصيريـة والـدرزية والحشيشيـة نوع منهـم، وتمكـن دعاتهم منهـم لضعف عقـولهم وجهلهم مـا لم يتمكنوا من غيرهـم، وأخذت الفرنـج أكثر البلاد بـالشام والجزيـرة إلى أن منّ الله على المسلمين بظهـور البيت الأتـابكـي، وتقدّمـه مثل صلاح الديـن، فاستردّوا البلاد وأزالوا هذه الدولـة عن أرقاب العباد، وكـانـوا أربعة عشر مستخلفـا، ثـلاثـة منهـم بـإفريقيـة وهـم الملقبـون: بالمهـدي، والقائم ، والمنصور، وأحد عشر بمصر وهـم الملقبون: بـالمعز، والعـزيـز ، والحاكـم، والظاهـر، والمستنصر، والمستعلي، والآمـر، والحافـظ، والظافر، والفـائز، والعاضد، يدّعـون الشرف ونسبتهم إلى مجوسي أو يهودي حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام، فصاروا يقولون الدولة الفاطمية والدولة

العلوية، وإنما هي الدولة المجوسية واليهودية الباطنية الملحدة، ومن قباحتهم أنهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر، ويكتبونه على جدران المساجد وغيرها، وخطب عبدهم جوهر الذي أخذ لهم الديار المصرية وبنى لهم القاهرة المعزية بنفسه خطبة طويلة قال فيها: «اللهم صل على عبدك ووليك ثمرة النبوّة وسليل العترة الهادية المهدية معد أبي تميم، الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الطاهرين وسلفه المنتجبين الأئمة الراشدين»، كذب عدوّ الله اللعين، فلا خير فيه ولا في سلفه أجمعين، ولافي ذريته الباقين، والعترة النبوية الطاهرة منهم بمعزل رحمة الله عليهم، وعلى مثالهم من الصدر الأول وقد بين نسبهم هذا وأوضح محالهم وما كانوا عليه من التمويه وعداوة الاسلام جماعة ممن سلف من الائمة والعلماء، وكل متورع منهم لايسميهم إلا بني عبيد الأدعياء، أي يدّعون من النسب بما ليس لهم، ورحمة الله على القاضي أبي بكر محمد بن الطيب فإنه كشف في أول كتابه المسمى بكشف أسرار الباطنية عن بطلان نسب هؤلاء إلى علي رضي الله عنه، وأن القدّاح الذي انتسبوا إليه، دعي من الأدعياء ممخرق كذاب، وهو أصل دعاة القرامطة لعنهم الله، وأما القاضي عبد الجبار البصري فإنه استقصى الكلام في أصولها، وبينها بيانا شافيا في آخر كتاب تثبيت النبوّة له، وقد نقلت كلامهما في ذلك وكلام غيرهما في مختصر تاريخ دمشق في ترجمة عبد الرحيم بن الياس ، وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس الناس، وهذان إمامان كبيران من أئمة أصول دين الاسلام، وأظهر عبد الجبار القاضي في كتابه بعض ما فعلوه من المنكرات والكفريات التي يقفّ الشعر عند استماعها، ولكن لابد من ذكر شيء من ذلك تنفيراً لمن لعله يعتقد إمامتهم، ويخفى عنه محالهم ولم يعلم قباحتهم ومكابرتهم، وليعذر من أزال دولتهم، وأمات بدعتهم، وقلل عدّتهم، وأفنى أمتهم، وأطفأ جمرتهم، ذكر عبد الجبار أن الملقب بالمهدي لعنه الله كان يتخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل، وكان يرسل إلى الفقهاء والعلماء فيذبحون في فرشهم،

وأرسل إلى الروم وسلطهم على المسلمين، وأكثر من الجور واستصفاء الأموال، وقتل الرجال ، وكان له دعاة يلون الناس على قدر طبقاتهم فيقولون لبعضهم: « هو المهدي ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجة الله على خلقه» ويقولون لآخرين: « هو رسول الله وحجة الله». ويقولون لأخرى: « هو الله الخالق الرازق» لاإله إلا الله وحده لاشريك له تبارك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيراً، ولما هلك قام ابنه المسمى بالقائم مقامه وزاد شره على شر أبيه أضعافا مضاعفة وجاهر بشتم الأنبياء فكان ينادي في أسواق المهدية وغيرها: « ألعنوا عائشة وبعلها، ألعنوا الغار وما حوى» اللهم صل على نبيك وأصحابه وأزواجه الطاهرين، وألعن هؤلاء الكفرة الفجرة الملحدين، وارحم من أزالهم، وكان سبب قلعهم، ومن جرى على يديه تفريق جمعهم، وأصلهم سعيرا، ولقهم ثبورا، واسكنهم النار جمعا، واجعلهم ممن قلت فيهم: (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا (١٢٣)).

رجعنا إلى الأصل،وبعث إلى أبي طاهر القرمطي المقيم بالبحرين وحثه على قتل المسلمين، واحراق المساجد والمصاحف، وقام بعده ابنه المسمى بالمنصور، فقتل أبا يزيد مخلداً، الذي خرج على أبيه ينكر عليه قبيح فعله المقدّم ذكره وسلخه وصلبه، واشتغل بأهل الجبال يقتلهم ويشرد منهم خوفاً من أن يثور عليه ثائر مثل أبي يزيد، وقام بعده ابنه الملقب بالمعز، فبث دعاته فكانوا يقولون هو المهدي الذي يملك الأرض، وهو الشمس التي تطلع من مغربها، وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الروم بلادهم، واحتجب عن الناس أياماً، ثم ظهر وأوهم أن الله رفعه إليه، وأنه كان غائباً في السماء، وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له، فامتلات قلوب العامة والجهال منه، وهذا أول خلفائهم بمصر، وهو الذي تنسب إليه القاهرة المعزية، واستدعى بفقيه الشام أبي بكر محمد بن أحمد بن سهل الرملي، ويعرف بابن

النابلسي فحمل إليه في قفص خشب، فأمر بسلخه، فسلخ حياً وحشى جلده تبنا وصلب رحمه الله تعالى.

قلت: وفي أيام الملقب بالحاكم منهم أمر بكتب سب الصحابة رضي الله عنهم على حيطان الجوامع، والقياسر والشوارع والطرقات، وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسب، ثم أمر بقلع ذلك، وأنا رأيته مقلوعاً في بعض أبواب دمشق في الأمكنة العليا منقوراً في الحجر، ودلني أول الكلام وآخره على ذلك، ثم جدّد ذلك الباب وأزيل الحجر، وفي أيامهم طوف بدمشق برجل مغربي نودي عليه: هذا جزاء من يحب أبابكر وعمر، ثم ضربت عنقه، وكان يجري في أيامهم من نحو هذا أشياء مثل : قطع لسان، أبي القاسم الواسطى أحد الصالحين، وكان أذن ببيت المقدس وقال في: أذانه حي على الفلاح، فأخذ وقطع لسانه، ذكر ذلك وما قبله من قتل المغربي وأبي بكر النابلسي الحافظ أبو القاسم في تاريخه، وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين إلاّ محنة من الله تعالى، ولهذا طالت مدّتهم مع قلة عدّتهم ، فإن عدّتهم عدّة خلفاء بني أمية أربعة عشر، وأولئك بقوا نيفا وتسعين سنة، وهؤلاء بقوا مائتي سنة وثمانيا وستين سنة، فالحمد لله على ما يسر من هلكهم، وإبادة ملكهم، ورضي الله عمن سعى في ذلك وأزالهم، ورحم من بيّن مخرقتهم وكذبهم ومحالهم، وقد كشف أيضا حالهم الامام أبو القاسم عبد الرحمن بن علي بن نصر الشاشي في كتاب « الرد على الباطنية » وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش في أيام نزار وما بعده، ووصل الأمر إلى أن وصف بعضهم ما كانوا فيه في قصيدة سماها الإيضاح عن دعوة القدّاح أوّلها:

حـــي على مصر إلى خلـــع الـــرســـن
فثـــم تعطيـــل فـــروض وسنـــن

وقال: لو وفق ملوك الاسلام لصرفوا أعنة الخيل إلى مصر لغزو

الباطنية الملاعين، فإنهم من شر أعداء دين الاسلام، وقد خرجت من حدّ المنافقين إلى حد المجاهرين لما ظهر في ممالك الاسلام من كفرها وفسادها وتعين على الكافه فرض جهادها، وضرر هؤلاء أشدّ على الاسلام وأهله من ضرر الكفار، إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية مع العلم بعظيم ضررها وفسادها في الأرض.

قلت: ثم إني لم يقنعني هذا من بيان أحوالهم، فأفردت كتابا لذلك سميته « كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد»، فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به فإني بتوفيق الله تعالى جمعت فيه ما ذكره هؤلاء الأئمة المصنفون وغيرهم، ووقفت على كتاب كبير صنفه الشريف الهاشمي رحمه الله، وكان في أيام الملقب بالعزيز ثاني خلفاء مصر فبين فيه أصولهم أتم بيان، وأوضح كيفية ظهورهم وغلبتهم على البلاد، وتتبع ذكر فضائحهم وما كان يصدر منهم من انواع الزندقة والفسق والمخرقة، فنقلت منه إلى ما كنت جمعته قطعة كبيرة وبالله التوفيق ، وما أحسن ما قال فيهم بعض من مدح بني أيوب بقصيدة منها:

ألستم مزيلي دولة الكفر من بني
عبيد بمصر إن هذا هو الفضل
زنادقة شيعية باطنية
مجوس وما في الصالحين لهم أصل
يسرون كفراً يظهرون تشيعا
ليستتروا شيئاً وعمهم الجهل

أما ما فعله هؤلاء من الانتساب إلى علي رضوان الله عليه، والتستر بالتشيع قد فعله جماعة من القرامطة، وصاحب الزنج الخارج بالبصرة وغيرهم من المفسدين في الأرض على ما عرف من سيرهم من وقف على أخبار الناس، وكلهم كذبة ، في ذلك، وإنما غرضهم التقرب إلى العوام

والجهال واستتباعهم لهم واستجلا بهم إلى دعوتهم بذلك البلاء، ويفعل الله ما يشاء، ولا يغتر بأبيات الشريف الرضي في ذلك، وقد حصل الجواب عنها في كتاب الكشف بوجوه حسنة، وبالله التوفيق، وقد صنف الشريف القائد [أخو محسن] الدمشقي رحمه الله كتاباً في أبطال، نسبهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفصل ذلك تفصيلا حسنا وأطنب في ذكر أخبار اخوانهم من القرامطة لعنهم الله تعالى.

فصل

في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة

قال ابن شدّاد: واستمرت القواعد على الاستقامة وصلاح الدين كلما استولى على خزانة مال وهبها، وكلما فتح له خزائن ملك انهبها، ولا يبقى لنفسه شيئاً ، وشرع في التأهب للغزاة، وقصد بلاد العدوّ وتعبية الأمر لذلك وتقرير قواعده، وأما نور الدين فإنه عزم على الغزاة، واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه، فوصل بالعساكر إلى خدمته، وكانت غزوة عرقة، فأخذها نور الدين، ومعه ابن أخيه في المحرم سنة سبع وستين.

وقال ابن أبي طي: جمع نور الدين عساكره، وخرج إلى عرقة ونازلها، وقاتلها أياما حتى فتحها، واحتوى على جميع ما فيها وغنم الناس غنيمة عظيمة.

قال ابن الاثير: خرجت مراكب من مصر إلى الشام، فأخذ الفرنج في اللاذقية مركبين منها مملوئين من الامتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه،

وراسل الفرنج في ذلك وأمرهم بإعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بأمور منها أن المركبين كانا قد دخلها ماء البحر لكسر فيهما، وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء، وكانوا كاذبين، فلم يقبل مغالطتهم، وكان رضي الله عنه لايهمل أمراً من أمور رعيته، فلم يردوا شيئاً، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة، وبث السرايا في بلادهم بعضهم نحو انطاكية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة وأخرب ربضه، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصني صافيتا وعريمة، فأخذهما عنوة، وكذلك غيرهما، ونهب وخرب وغنم المسلمون الكثير، وعادوا إليه وهو بعرقة، فسار في العساكر جميعها إلى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب، وأما الذين ساروا إلى انطاكية فإنهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبين، ويجدّد معهم الهدنة، فأجابهم، وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لايعطي الجزية حتى يلطم، فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن، فلما نهبت بلادهم وخرّبت أعادوها.

قال: وكان لوالدي في المركبين تجارة مع شخصين، فلما أعادوا إلى الناس أموالهم، لم يصل إلى كل إنسان إلا اليسير، وكان يحمل المتاع فكل من كان اسمه عليه أو على ثوب أخذه، وكان في الناس من يأخذ ما ليس له، وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة، وكان نصرانيا فلم يأخذ إلاّ ما عليه اسمه وعلامته، فذهب من ماله ومالنا شيء كثير بهذا السبب، وكان الذي حصل من مالنا أكثر من الذي حصل له، فلما عاد إلينا سلم الذي لنا إلى والدي، فامتنع من أخذه وقال: خذ أنت الجميع فإنك أحوج إليه وأنا في غنى عنه، فلم يفعل فقال: خذ النصف وأنا النصف واجتهد به والدي فلم يفعل، فلما كان بعض الأيام وإذا قد جاء الغلام معه عدّة من الأثواب السوسية وغيرها، وقال: هذا من قماشنا قد

حضر اليوم، وسبب حضوره أن إنساناً فقاعيا من أهل تبريز كان معنا في المركب، وقد أعادوا عليه ماله، فرأى هذه الأثواب واسمي عليها، فلم يسهل عليه أن يردّها ـ يعني عليهم ـ و سأل عني وقد قصدني وهي معي، وحضر عندي الساعة وسلمها إليّ، وقال: قد تركت طريقي لتبرأ ذمتي، فأخذنا نحن ما عليه اسمنا بعد الجهد، وطلب والدي الرجل وسأله أن يقيم عندنا ليسلم إليه مالاً يتجر فيه، فلم يفعل، وعاد إلى بلده، قال: وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان.

فصل

في عزم نور الدين على الدخول إلى مصر

قال العماد: وكان صلاح الدين واعده نور الدين أن يجتمعوا على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك فخرج من القاهرة في الثاني والعشرين من المحرّم بالعزم الأجزم والرأي الأحزم، فاتفق للاجتماع عائق، ولم يقدّر للإتفاق قدر موافق، فلقي في تلك السفرة شدّة وعدم خيلا وظهرا وعدّة، وعاد إلى القاهرة في النصف من ربيع الأول.

قال ابن الاثير: في سنة سبع وستين أيضاً جرى ما أوجب نفرة نو الدين من صلاح الدين، وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلاد الفرنج، والنزول على الكرك ومحاصرته ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم، فبرّز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرّم، وكتب إلى نور الدين يعرّفه أن رحيله لايتأخر، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو، فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازما على قصد الكرك، فوصل إليه وأقام ينتظر وصول صلاح

الديـن إليه، فأتـاه كتابـه يعتذر فيه عـن الوصول بـاختلال البـلاد، وأنه يخاف عليها مع البعد عنهـا، فعاد إليها فلم يقبل نور الـدين عذره، وكان سبـب تقاعـده أنّ أصحابـه وخـواصه خـوّفـوه من الاجتماع بنـور الديـن فحيث لم يمتثـل أمر نـور الدين شـق ذلك عليـه وعظم عنـده وعزم على الـدخول إلى مصر، وإخـراج صـلاح الديـن عنهـا، فبلغ الخبر إلى صـلاح الـدين، فجمـع أهلـه وفيهم والـده نجم الـديـن وخالـه شهـاب الديـن الحارمي، ومعهم سـائر الأمراء وأعلمهم ما بلغـه من عزم نور الـدين على قصده وأخذ مصر منـه واستشارهم، فلم يجبه أحد منهـم بشيء، فقام ابن أخيه تقـي الديـن عمر، وقـال: إذا جاءنا قـاتلناه وصـددناه عـن البلاد، ووافقـه غيره مـن أهلــه، فشتمهـم نجـم الـديـن أيــوب، وأنكـر ذلـك واستعظمـه، وكان ذا رأي ومكـر وكيد وعقـل وقـال لتقي الـدين: اقعـد وسبه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهـذا شهاب الدين خالك أتظنّ في هـؤلاء كلهم مـن يحبك ويـريد لـك الخير مثلنا؟ فقـال: لا، فقال نجـم الدين: والله لـو رأيت أنا وهذا خـالك نور الديـن لايمكننا إلا أن نترجل إليه ونقبـل الأرض بين يديـه، ولو أمـرنا بضرب عنقـك بالسيـف لفعلنا، فـإذا كنـا نحـن هكـذا كيـف يكون غيرنـا! وكـل مـن تـراه مـن الأمـراء والعساكر لو رأى نور الديـن وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النـزول وتقبيل الأرض بين يديـه، وهذه البـلاد له، وقد أقـامك فيها، فإن أراد عزلـك فأيّ حاجة به إلى المجيء يأمـرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خـدمته، ويولي بلاده من يـريد، وقال للجماعة كلهـم: قوموا عنا فنحـن مماليـك نور الديـن وعبيده ويفعـل بنا ما يـريده فتفـرّقوا على هذا، وكتـب أكثرهـم إلى نور الديـن بالخبر، ولما خلا نجـم الديـن أيوب بابنه صـلاح الدين قال لـه: أنت جاهل، قليـل المعرفة تجمع هـذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمـع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد، جعلـك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصـد، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً، وكـانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا

المجلس فسيكتبون إليه ويعـرّفونه قولي، وتكتب أنت إليـه وترسل في هذا المعنى وتقـول: أي حاجة إلى قصدي يجيء نجـاب يأخذني بحبـل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عـن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده والأيام تنـدرج، والله كل وقت في شـان، ففعل صلاح الـدين ما أشـار به والده، فلما رأى نـور الدين رحمه الله الأمر هكـذا عدل عن قصـده، وكان الأمر كما قال نجم الدين توفي نـور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

فصل

في الحمام

قـال ابن الاثير: وفي سنـة سبع وستين أمـر الملـك العادل نـور الديـن باتخاذ الحمام الهوادي، وهـي المناسيـب التي تطير مـن البلاد البعيـدة إلى أوكارهـا، فاتخذت في سـائر بلاده، وكـان سبب ذلـك أنه اتسعـت بلاده وطالـت مملكته فكانـت من حدّ النـوبة إلى باب همذان لايتخللهـا سوى بلاد الفـرنج، وكـان الفرنج لعنهـم الله ربما نازلـوا بعض الثغـور، فإلى أن يصله الخبر، ويسير إليهـم يكونـون قد بلغوا بعـض الغرض، فحينئـذ أمر بذلـك، وكتب به إلى سائر بـلاده وأجرى الجرايات لها ولمربيها فـوجد بها راحة كبيرة، كـانت الأخبار تـأتيه لوقتهـا لأنه كـان له في كل ثغـر رجال مـرتبون ومعهـم من حمام المدينـة التـي تجاورهـم، فـإذا رأوا أوسمعوا أمـراً كتبـوه لوقتـه وعلقـوه على الطائر، وسرحـوه إلى المدينـة التـي هو منهـا في ساعته، فتنقل الـرقعة من طائر إلى طائر آخر مـن البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نـور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليـه، فانحفظت الثغور بـذلك، حتـى أنّ طائفـة من الفـرنج نـازلوا ثغـراً له، فـأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجـاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة، وكبـس العدوّ، ففعلـوا ذلك فظفـروا والفرنـج قد أمنـوا لبعد نـور الديـن

عنهم، فرحم الله نور الدين ورضي عنه، فما كان أحسن نظره للرعايا وللبلاد.

وقال العماد: وكان نور الدين لايقيم في المدينة أيام الربيع والصيف محافظة على الثغر، وصونا من الحيف ليحمي البلاد من العدوّ بالسيف، وهو متشوّف إلى أخبار مصر وأحوالها وتحقيق اعتدالها بتمحيق اعتلالها، فرأى اتخاذ الحمام المناسيب وتدريجها على الطيران لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان، وتقدّم إليّ بكتب منشور لأربابها وإعزاز أصحابها، وهو حينئذ بظاهر دمشق مخيم بوادي اللوان، ونحن مستظهرون في ذلك الأوان، عادون على أهل العدوان، وذلك في سابع عشر ذي القعدة من السنة، ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام فقال: « هي برائد الانباء المخصوصات بفضيلة الالهام والايحاء، وهي فيوج الرسائل المأمونة الابطاء، والسابقات الهوج في الاهتداء، والحاملات ملطفات الأسرار في أقرب مدّة إلى أبعد غاية، والموصلات مهمات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية، والقاطعات في ساعتها إلى البلاد أجواز القفار والموامي والنافذات بنجح المرام بعود السهام إلى المرامي، وهي تطوي الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعه. وتنتهي إلى أقصى عنايات الطاعة بأتم استطاعه. وقد عم بها نفع المرابطين للغزاة والمجاهدين في سبيل الله في اهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالة على مكائدها ومكامنها طائرة بكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسرايا، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا، وإنها الميمونة المطار، مأمونة العثار، سالمة على الأخطار، مهدية في الأسفار، أمينة على الأسرار، سابقة إلى الأوكار، صادرة بالأوطار من الأقطار، سائرة إلى المؤمنين بنبأ الكفار»

قلت: وكل هذه أوصاف حسنة وعبارات مستحسنة، وقد بلغني عن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى أنه وصفها بألطف من هذه الأوصاف

وأخصر فقال: «الطيور ملائكة الملوك» يشير إلى أن نزولها على الملوك من جوّ الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء، مع فرط ما فيها من الأمانة لايتوهم من جهتها خيانة، فلقد أحسن فيما وصف، وأبدع فيما استنبط وأنصف، وهو بذلك أولى وأعرف، رحم الله الجميع.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قرأت نسخة سجل باسقاط المكوس بمصر، قرىء على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة سبع وستين وخمسمائة عن السلطان الملك الناصر في أيام نور الدين رحمه الله، فهو كان الآمر وذلك المباشر، يقول فيه: «أما بعد فإنا نحمد الله سبحانه على ما مكن لنا في الأرض، وحسنه عندنا من أداء كل نافلة وفرض، ونصبنا له من إزالة النصب عن عباده، واختارنا له من الجهاد في الله حق جهاده،وزهدنا فيه من متاع الدنيا القليل،وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النقير والفتيل، وأولانا من شجاعة السماحة فيوما نهب ما اشتملت عليه الدواوين، ويوماً نقطع ما سقاه النيل، فالبشائر في أيامنا تترى شفعا ووتراً، والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الأخرى، والمسامحات قد ملأت المسامع والمطامع، واسخطت الخيمة والصنايع، وأرضت المنبر والجامع، ولما تقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الديوانية بمصر والقاهرة أولى ما نقلناها من أن تكون لنا في الدنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة، وأن نتجرد منها لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونطهر منها مكاسبنا، ونصون عنها مطالبنا، ونكفي الرعية ضرّهم الذي يتوجه إليهم، ونضع عنهم أصرهم

والأغلال التي كانت عليهم، ونعيدها اليوم كأمس الذاهب، ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب، ولا قلم كاتب، فاستخرنا الله وعجلنا إليه لبرضى، ورأينا فرصة أجر لا تغض عليها بصائر الأبصار ولا يغضى وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر، وجميع التجار المترددين إليهما وإلى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها، فسيرد التاجر ويسفر ويغيب عن ماله ويحضر ويقارض ويتجر براً وبحراً، مركبا وظهراً، سراً وجهراً، لايحل ما شدّة، ولا يحاول ما عنده، ولا يكشف ما ستره، ولا يسأل عما أورده وأصدره، ولا يستوقف في طريقه، ولا يشرق بريقه، ولا يؤخذ منه طعمه، ولا يستباح له حرمه، والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مائة ألف دينار مسامحة لايشوبها تأويل ولا يتخوّنها تحويل ولا يعتريها زوال، ولا يعتورها انتقال، دائمة بدوام الكلمة، قائمة ما قام دين القيمة، من عارضها ردّت أحكامه، ومن ناقضها نقض ذمامه، ومن ازالها زلت قدمه، ومن أحالها حل دمه، ومن تعقبها خلدت اللعنة فيه وفي عقبه، ومن احتاط لدنياه فيها أحاط به الجحيم الذي هو من حطبه، فمن قرأه أو قرىء عليه من كافة ولاة الأمر من صاحب سيف وقلم، ومشارف أوناظر، فليمتثل ما مثل من الأمر، وليمضه على ممر الدهر، مرضيا لربه، ممضياً لما أمر به.

وفيها توفي الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبي المقري النحوي، وهو نزيل الموصل رحمه الله تعالى، وفيها ولد العزيز والظاهر ابنا صلاح الدين، والمنصور محمد بن تقي الدين، وفيها في ثالث شوال توفي أبو الفتوح نصر بن عبد الله الاسكندري المعروف بابن قلاقس الشاعر بعيذاب، ومولده بالاسكندرية رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فيكون عمره نحو من خمس وثلاثين سنة.

- ٨٠٦٩ -

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

ففيها توفي ملك النحاة الحسن بن صافي، وفيها ترتب العماد الكاتب مشرّفا بديوان نور الدين مضافاً إلى كتابة الانشاء، قال: وكان نور الدين ذكياً ألمعيا فطنا لوذعيا، لايشتبه عليه الأحوال، ولا يتهرج عليه الرجال، ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الإفضال.

قال: ولما عرض صلاح الدين بعد العاضد خزائنه، واستخرج دفائنه، سير منها عدّة من الأمتعة المستحسنة والآلات المثمنة، وقطع البلور واليشم والأواني التي لايتصور وجودها في الوهم، ومعها ثلاث قطع من البلخش أكبرها نيف وثلاثون مثقالاً، والثانية ثمانية عشر، والأخرى دونها، وقرن بها من اللآلئ مصونها ومكنونها، وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار، ووصلت من غرائب المصنوعات بها لايجتمع مثله في أعصار وأعمار، ومن الطيب والعطر ما لم يخطر ببال عطار، فشكر نور الدين همته، وذكر بالكرم شميته، ووصف فضيلته وفضل صفته، وقال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نسدّ به خلة الإقلال، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر، وبنا إلى الذهب فقر، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جدنا به قدر، وتمثل بقول أبي تمام

لم ينفق الذهب المربي بكثرته
على الحصا وبه فقر إلى الذهب

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السداد، ووفور الأعداد من الأجناد، وقد عم بالفرنج بلاء البلاد، فيجب أن يقع التعاقد على الامداد بالمعونة والأمداد، فاستنزره وما استغزره، واستقل المحمول في جنب ما حرره وتروّى فيما يدبره، وأفكر فيما يقدّمه من هذا المهم ويؤخره.

قال ابن أبي طي: لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقع، وجرد الموفق بن القيسراني وزيره إلى مصر، وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام

أخبارها وارتفاعهـا، وأين صرفت أموالها، فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنـة، وعظم على نور الدين أمر مصر وأخذه من استيـلاء صلاح الدين عليهـا المقيم المقعد، وأكثر في مـراسلته في حمل الأموال، حـدّثني أبي قـال: لم يخف حال نـور الديـن في كراهيـة الملك الناصر، ولقـد علم ذلك جميع الأجناد والأمـراء، وتحدّث به العوام، ولاسيما حين أنفذ هـذه الهدية واشتـدّ بعد ذلـك في مراسلتـه، وأنفذ ابـن القيسراني لكشف الأحوال، ولو طال عمره لم يكن له بدّ من دخول مصر.

قال العماد: وكـان نور الديـن مذ ملكـت مصر، وتوجه لـه فيها النصر، يؤثر أن يقـرر له فيها مال للحمل يستعين به على كلـف الجهاد، وتخفيف مالـه من الثقل، والأيـام تماطله، والأعوام تطـاوله، وهو ينتظـر أن صلاح الدين يبتدي من نفسه بما يريـده، وهو لايستدعي منه ولا يستزيده، فلما حمل من أخـائر الذخائر والمال الحاضر مـا حمله، وعرف مجملـه ومفصله، تقدّم إلى الموفـق خالد بن القيسراني أن يمضي ويطلـب، ويقتضي ويعمل أيضـا بالأعمال المصريـة جـزازه، ولا يبقـى في نفوس ديـوانـه مـن أمرهـا حزازه، وأرسل معه الهدايا والتحف السنـايا، وأقام العماد مقامه في ديوان الاستيفاء، فجمع بين الإشراف والاستيفاء، ومنصب الانشـاء، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قال العماد: وخـرج صلاح الـدين في النصف مـن شوال ومعـه الفيل

والحمارة العتابية، والـذخائر النفيسة التي كان انتخبهـا من خزائن القصر، وهي معـدودة من محاسن العصر، وقـد سبق ذكـر تسييرها إلى نور الـدين وقوبلت بـالاحسان والتحسين، ووصلت الحماره، وكثرت لها النظـارة، وأما الفيـل فـإنه وصـل الينـا في سنـة تسـع وستين ونحن بحلـب في الميـدان الأخضر، وأهداه نـور الدين إلى ابن أخيه سيـف الديـن غُازي صـاحب الموصل مـع شيء من تحفة الثياب والعـود والعنبر، ثم سيره سيف الـدين

إلى بغداد هديـة للخليفة مع ما سيره معه من التحـف اللطيفة، وسير نور الدين الحمارة العتابية إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا.

فصل

في جهاد السلطانين للفرنج في هذه السنة

قـال العماد: ونزل صـلاح الـدين على الكـرك والشـوبك وغيرهما مـن الحصون، فبرح بها وفرق عنها عـربها، وخرب عماراتها، وشتت على أعمالها سراياه بغاراتـه، ووصل منه كتاب بـالمثال الفاضلي:« سبب هـذه الخدمة إلى مـولانا الملـك العـادل أعز الله سلطـانـه، ومد أبـداً إحسـانه، ومكـن بالنصر إمكانه، وشيـد بالتأييد مكانة، ونصر أنصاره، وأعـان أعوانه، علم المملـوك بما يؤثـره المولى بأن يقصـد الكفار بما يقـص أجنحتهم، ويفلل أسلحتهم، ويقطع موادهـم، ويخرب بلادهـم، وأبر الاسباب المعينة على ما يرومـه من هـذه المصلحة أن لايبقى في بـلادهم أحـد من العـربان، وأن ينتقلوا من ذل الكفـر إلى عز الايمان، ومما اجتهد فيه غايـة الاجتهاد وعده من أعظـم أسباب الجهاد تـرحيل كثير مـن أنفارهـم، والحرص في تبـديل دارهـم إلى أن صـار العـدوّ اليــوم إذا نهض لايجد بين يـديـه دليـلاً، ولا يستطيع حيلة ولايهتدي سبيلاً.» ثم ذكر باقي الكتاب.

قـال ابن شـدّاد: وهذه أوّل غـزوة غـزاها صـلاح الـدين مـن الديـار المصرية، وإنما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لأنها كـانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع مـن يقصد الديار المصرية، وكان لايمكـن أن تصل قافلة حتى يخرج هـو بنفسه يعبرها بـلاد العدوّ، فأراد تـوسيع الطريـق وتسهيله لتتصل البـلاد بعضها ببعض وتسهل على السـابلة، فخرج قـاصداً لها في أثناء سنة ثمان وستين، فحـاصرها، وجرى بينه وبين الفرنـج وقعات، وعاد

عنها، ولم يظفر منها بشيء في تلك الدفعة وحصل ثواب القصد، وأما نور الدين فإنه فتح مرعش في ذي القعدة من هذه السنة، وأخذ بهسنى في ذي الحجة منها.

وقال العماد: حضرت عند الملك العادل نور الدين بدمشق في العشرين من صفر، ووجهه بنور البشر قد سفر، والحديث يجري في طيب دمشق وحسن آلائها، ورقة هوائها، وبهجة بهائها، وإزهار أرضها كزهر سمائها، وكل منا يمدحها وبحبه يمنحها، وكل منا يطربها، فقال نور الدين أنا حب الجهاد يسليني عنها، فما أرغب فيها، فارتجلت هذا المعنى في الحال فقلت:

ليس في الدنيا جميعا
بلدة مثل دمشق
ويسليني عنها
في سبيل الله عشقي
والتقى الأصل ومن
يتركها يشقى ويشقي
كم رشيق شاغل عنـ
ـه بسهم الغزو رشقي
وامتشاق البيض يغني
عنه بالأقلام مشقي

قال: وسألني نور الدين أن أعمل دوبتيات في معنى الجهاد على لسانه

فقلت:

للغزو نشاطي وإليه طربي
ما لي في العيش غيره من أرب
بالجد وبالجهاد نجح الطلب
والراحة مستودعة في التعب

وقلت أيضا:

لا راحة في العيش سوى أن أغز
وسيفي طربا إلى الطلى يهتز

في ذل ذوي الكفر يكون العز
والقدرة في غير جهاد عجز

وقلت أيضا:

أقسمت سوى الجهاد مالي أرب
والراحة في سواه عندي تعب
إلا بالجد لا ينال الطلب
والعيش بلا جد جهاد لعب

قال: واتفق خروج كلب الروم اللعين في جنود الشياطين بقصد الغارة على زرا من ناحية حوران وهم في جمع غلبت كثرته الخبر والعيان، ونزلوا في قرية تعرف بسمسكين (١٢٥) ، فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة إليهم ، وأقدم بعساكره عليهم، فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى الفوار ثم إلى السواد ثم نزلوا بالشلالة، ونزل نور الدين في عشترا، وقد سره ما جرى، فأنفذ سرّية إلى أعمال طبرية، واغتنم خلوّها، فأدلجت تلك الليلة وجمدت في شن الغارة غدوّها، فلما عادت لحقها الفرنج عند المخاضة، فوقف الشجعان، وثبت من ثبته الايمان، حتى عبرت السرّيه، وانفصلت تلك القضية، ورحل نور الدين من عشترا، فنزل بظاهر زرا، قال العماد:

وكنت راكبا في لقائهم مع الملك العادل، وهو يقول لي: كيف تصف ما جرى، فمدحته بقصيدة

عقدت بنصرك راية الايمان
وبدت لعصرك آية الاحسان

يـا غــالــب الغلــب الملوك وصــائد الـــ
ـــصيد الليــوث وفــارس الفــرســان
يــاســالــب التيجــان مــن أربــابها
حــزت الفخـــار على ذوي التيجـــان
محمـــود المحمـــود مـــا بين الـــورى
في كـــل اقليـــم بكـــل لســـان
يـــا واحـــداً في الفضـــل غير مشـــارك
أقسمـــت مـــالـــك في البسيطـــة ثـــاني
أحلى أمـــانيـــك الجهـــاد وإنـــه
لـــك مـــؤذن أبـــداً بكـــل أمـــان
كـــم بكـــر فتـــح أولـــدتـــه ظبـــاك مـــن
حـــرب لقمـــع المشركين عـــوان
كـــم وقعـــة لـــك بـــالفـــرنـــج حـــديثهـــا
قـــد ســـار في الآفـــاق والبلـــدان
قمصـــت قـــومصهـــم رداء مـــن ردى
وقـــرنـــت رأس بـــرنسهـــم بسنـــان
وملكـــت رق ملـــوكهـــم وتـــركتهـــم
بـــالـــذل في الأقيـــاد والأشجـــان
وجعلـــت في أعنـــاقهـــم أغـــلالهم
وسحبتهـــم هـــونـــاً على الأذقـــان
إذ في الســـوابـــغ تحطـــم السمـــر القنـــا
والبيـــض تخضـــب بـــالنجيـــع القـــاني
وعلى غنــــــاء المشرفيـــــة في الطلى
والهام رقــــص عـــــوالي المرّان

وكـــان بين النقـــع لمع حـــديـــدهـــا
نـــار تـــألـــق مـــن خـــلال دخـــان
في مـــازق وردالـــوريـــد مكفـــل
فيـــه بـــريّ الصـــارم الظمآن

غطى العجاج به نجوم سمائه
لتنوب عنها أنجم الخرصان
أو ما كفاهم ذاك حتى عاودوا
طرق الضلال ومركب الطغيان
يا خيبة الإفرنج حين تجمعوا
في حيرة وأتوا إلى حوران

ومنها:
وجلوت نور الدين ظلمة كفرهم
لما أتيت بواضح البرهان
وهزمتهم بالرأي قبل لقائهم
والرأي قبل شجاعة الشجعان
أصبحت للاسلام ركناً ثابتا
والكفر منك مضعضع الأركان
قوّضت أساس الضلال بعزمك الـ
ـماضي وشدت مباني الايمان
قال أين مثلك في الملوك مجاهد
لله في سرّ وفي اعلان
لم تلقهم ثقة بقوّة شوكة
لكن وثقت بنصرة الرحمن
ما زال عزمك مستقلا بالذي
لا يستقل بثقله الثقلان
وبلغت بالتأييد أقصى مبلغ
ما كان في وسع ولا إمكان
دانت لك الدنيا فقاصيها إذا
حققته لنفاذ أمرك داني
فمن العراق إلى الشام إلى ذرا
مصر إلى قوص إلى أسوان

لم تلـــه عـــن بـــاقـــي البـــلاد وإنما
الهاك فـــرض الغـــزو عـــن همذان

للـــروم والأفـــرنـــج منـــك مصـــائب
بـــالترك والأكـــراد والعـــربـــان

اذعنـــت لله المهيمـــن اذعنـــت
لـــك أوجـــه الامـــلاك بـــالاذعـــان

أنـــت الـــذي دون الملـــوك وجـــدتـــه
مـــلآن مـــن عـــرف ومـــن عـــرفـــان

في بـــأس عمـــرو وفي بســـالـــة حيـــدر
في نطـــق قـــس في تقـــى سلمان

سير لـــو أنّ الـــوحـــي ينـــزل أنـــزلـــت
في شـــأنها ســـور مـــن القـــرآن

فـــاسلـــم طـــويـــل العمـــر ممتـــدّ المدى
صـــافي الحيـــاة مخلـــد السلطـــان

وهـي قصيـدة طـويلـة وصـف فيهـا امـراءه الحاضريـن الجهـاد معـه ومدحهم.

فصل

في فتح بلاد النوبة

قال العماد: وفي جمادى الأولى غزا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين بلاد النوبة وأراهم سطاه المرهوبة، وفتح حصنا لهم يعرف بابريم، وكان لايريم، وهي بلاد عديمة الجدوى، عظيمة البلوى، ثم رجع بالسبي وعاد به إلى أسوان، وفرق على أصحابه في الغنائم السودان.

وقال ابن أبي طيّ الحلبي: وفيها اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة، وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين ملك بلاد مصر، وصاروا إلى أعمال الصعيد وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها وكان بها الأميركنز الدولة، فأنفذ يعلم الملك الناصر، وطلب منه نجدة، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكي، فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخربوا أرضها، فاتبعهم الشجاع والكنز فجرت حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم، ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعال العبيد، وتمكنهم من بلاد الصعيد، فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة فسار قاصد بلادهم وشحن مراكب كثيرة في البحر بالرجال والميرة، وأمرها بلحاقه إلى بلاد النوبة، وسار إليها ونزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغنم جميع ما كان فيها من المال والكراع والميرة، وخلص جماعة من الأسرى وأسر من وجده فيها، وهرب صاحبها، وكتب إلى السلطان بذلك، فأنشد السلطان أبو الحسن بن الذروي يهنيه بفتح ابريم قصيدة منها:

فقدّم العزم فذا مبتداه
يقصر عن ملك الأرض منتهاه

واسحب ذيول الجيش حتى ترى
أنجمه طالعة عن دجاه
سواك من ألقى عصاه بها
قناعة لما استقرّت نواه
عليك بالروم ودع صاحب التا
ج إذا شئت وتور انشاه
فقد غمدت ابريم في ملكه
تبرم أمرا فيه كبت العداه
لا بدّ للنوبة من نوبة
ترضي لسخط الكفر دين الإله
تظل من نوبة منسوبة
لعزمة كامنة في أناه
تكسو الغزاة القاطني أرضها
ما نسجت للحرب أيدي الغزاه
سود وتحمر الظبا حولها
كأعين الرمد بدت للأساه
أولا فسمر يحميها القنا
مثل دنان بزلتها السقاه
لله جيش منك لا ينثني
إلا بنصل دميت شفرتاه
ما بين عقبان ولكنها
خيل وفرسان كمثل البزاه
أساد حرب فوق أيديهم
أساور الطعن فهم كالحواه
تقلدوا الأنهار واستلأموا الـ
ـغدران فالنيران تجري مياه

قال: ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوص، وكان في صحبته أمير يقال له ابراهيم الكردي فطلب من شمس الدولة قلعة ابريم

فاقطعه إياها، وأنفذ معه جماعة من الأكراد البطالين، فلما حصلوا فيها تفرّقوا فرقا، وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة، حتى برّحوا بهم، واكتسبوا أموالاً كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم، واتفق أنهم عدوّا إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة دندان، فغرق أميرهم ابراهيم وجماعة من أصحابه، ورجع من بقي منهم إلى قلعة ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد النوبة إليها وملكوها، وأنفذ ملك النوبة رسولاً إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص، ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هدية عبد وجارية، فكتب له جواب كتابه وأعطاه زوجي نشاب وقال: مالك عندي جواب إلا هذا، وجهز معه رسولاً يعرف بمسعود الحلبي، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها، فسار الحلبي مع الرسول حتى وصل دنقلة وهي مدينة الملك، قال مسعود: فوجدت بلاداً ضيقة ليس لهم زرع إلا الذرة، وعندهم نخل صغار منه أدامهم، ووصف ملكهم بأوصاف منها أن قال: خرج علينا يوماً وهو عريان قد ركب فرسا عريا، وقد التف في ثوب أطلس، وهو أقرع ليس على رأسه شعر، قال: فأتيت فسلمت عليه، فضحك وتغاشى وأمر بي أن تكوى يدي، فكوى عليها هيئة صليب، وأمر لي بقدر خمسين رطلا من الدقيق، ثم صرفني، قال: وأما دنقلة فليس فيها عمارة إلاّ دار الملك فقط، وباقيها اخصاص.

-٨٠٨٠-

فصل

في وفاة نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وطرف من أخباره

قال العماد: وركب نجم الدين أيوب فشب به فرسه بالقاهرة عند باب النصر وسط المحجه، يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة، وحمل إلى منزله وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان كريما رحيما عطوفاً حليماً، وبابه مزدحم الوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود، وكان ولده صلاح الدين عنه غائباً، وفي بلاد الكرك والشوبك على الغزاة مواظباً، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية، ثم نقلا بعد سنتين إلى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام والإجلال والإعظام وعلى آله وصحبه وسلم.

قلت: وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل المقدّم ذكره، رحمهم الله.

قال القاضي ابن شدّاد: ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين، فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته، وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس رحمه الله، وكان شديد الركض ولعاً بلعب الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول ما يموت إلاّ من وقوعه عن ظهر الفرس.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه: صح من المصاب بالمولى الدارج غفر الله له ذنبه، وسقى بالرحمة تربه، ما عظمت به اللوعه، واشتدت الروعة، وتضاعفت لغيبتنا عن

مشهده الحسره، فاستنجدنا بالصبر فـأبى، وانحدرت العبره، فيا له فقيداً، فقد عليـه العزاء، وهانـت بعده الأرزاء، وانتثـر شمل البركة بفقـده فهي بعد الاجتماع أجزاء:

وتخطفتـــه يـــد الـــردى في غيبتـــي
هبنـــي حضرت فكنـــت مـــاذا أصنـــع

قال ابـن أبي طي الحلبـي: هو الأمير نجـم الدين أيوب بـن شاذي، ولايعرف في نسبه أكثر من والده شـاذي، وحدّثني أبي رحمه الله قال: كان تقي الدين عمر يزيد فيقول: شاذي بن مروان.

قلت: وسمعت أنا من يقول : شاذي بن مروان بن يعقوب.

قال ابـن أبي طي: وقد ادّعى ابـن سيف الاسلام لما ملـك اليمن أنهم من بني مـروان بن محمد الجعدي المعـروف بالحمار، يعني آخر خلفـاء بني أميـة، قال: وقـد نقبت عـن ذلك فـأجمع الجماعة مـن آل أيوب أن هـذا كذب، وأن جميـع آل أيوب لايعـرفون جداً فـوق شاذي، وكـذلك أخبرني السلطان الملك الناصر رحمه الله.

قلت: ودليل صحـة ذلك أني وقفت على كتاب وقف الـرباط النجمي بدمشق، ولم يزد فيـه على نجم الدين أبو سعيد أيـوب بن شاذي العادلي، وابن سيـف الاسلام هذا هو أبـو الفداء إسماعيل بن طغتكين بـن أيوب ابـن شاذي إبن أخـي السلطـان صـلاح الديـن، ملـك اليمـن بعد أبيـه، وتعاظـم إلى أن ولى نفسه الخلافـة، وادعى أنـه من بنـي أمية، وعـزم على اعـادة الخلافة مـن بني هـاشم إلى بنـي أمية، ولـه في ذلك أشعـار كثيرة، وتلقب بالإمـام الهادي بنور الله المعز لديـن الله أمير المؤمنين، ومدحه كثير من الشعراء بذلك، وزينواله فعله وما هو فيه، فمن شعره:

وإنـــي أنـــا الهادي الخليفـــة والـــذي
أدوس رقـــاب الغلـــب بـــالضمـــر الجرد

ولابــد مــن بغــداد أطــوي ربــوعهــا
وانشرهــــــــــا نشر السماسر للبرد
وانصــب أعـــلامــي على شرفــاتها
وأحيــي بها مـــا كـــان أسســه جــدّي
ويخطــب لي فيهـــا على كــل منبر
وأظهـــر ديــن الله في الغـــور والنجـــد

قال ابن أبي طي: وكـان نجم الدين أيوب عدلا مـرضياً، كثيراً الصلاة والصلات، غزير الصـدقات والخيرات، يحب العلماء ويميل إلى الفضلاء، وكان ممدحاً مـدحه العماد الكاتب بجملة قصائد، قال: وكـان مولد نجم الدين أيوب ببلـد شبختان ، كذا حكاه مؤيد الدين ابـن منقد، وحدّثني جماعة أن مولـد نجم الدين كـان بجبل جور، وربي في بلد الموصـل، ونشأ شجاعاً باسلاً، وخدم السلطان محمد بـن ملكشاه، فرأى منه أمانة وعقلاً وسـداداً وشهـامة فـولاه قلعـة تكـريـت، فقـام في ولايتها أحسـن قيـام، وضبطها أكـرم ضبط، وأجلى من أرضهـا المفسديـن وقطاع الطريـق وأهل العيث، حتـى عمرت أرضها وحسـن حال أهلها وأمنـت سبلها، فلما ولي السلطان مسعـود الملك أقطع قلعـة تكريـت لمجاهد الـدين بهروز الخادم شحنـة بغداد ومتـولي العـراق، وكان هـذا بهروز أميراً ينفـذ أمره في جميـع العـراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهـان، وكـانـت خيله خمسـة آلاف فارس، فأقـر الأمير نجم الدين في ولايـة تكريت، وأضاف إليـه النظر في جميع الـولاية المتاخمة لـه، وقرر أمـره عند السلطان مسعـود، وجعل بهروز قلعـة تكريـت خزانـة أموالـه وبيت عقـائله، وجعـل جميع ذلـك منوطـاً بالأمير نجـم الدين، ومعـذوقا بهمته، وكـان نجم الديـن عظيماً في أنفس الناس بالديـن والخير وحسن السياسة، وكان لايمر أحـد من أهل العلم والدين بـه إلاّ حمل إليه المال والضيافة الجليلـة، وكان لايسمع بأحـد من أهل الدين في مدينة إلاّ أنفذ إليه.

وقد ذكر العماد الكاتب في سيرة السلجوقية الأمير نجم الدين وقرظة وأثنى عليه، وذكر من دينه وعفته، ووفور أمانته، وكثرة خيره أشياء حسنه، وحكى قضية عمه العزيز حين حبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدركزيني، وأمره بقتله فأبى نجم الدين إلى أن قتله بهروز بنفسه بأمر الدركزيني، ثم إن السلطان مسعوداً حشد وخرج في أخذ السلطنة وطمع هو وأتابك زنكي بن آق سنقر في بغداد، وجرد عسكراً ضخماً، وسارا إلى تكريت طامعين في بغداد واتصل الخبر بقراجه الساقي وهو أتابك ابن السلطان محمود، فجرد ألف فارس للقاء زنكي، ثم اردفهم بعسكر ضخم فانهزم زنكي وقتل جماعة من أصحابه وجملة ممن كان في عسكره، ولجأ إلى سور تكريت وبه عدّة جراحات ، وعلم به الأمير نجم الدين وأخوه شيركوه فمتحاه(١٢٦) إلى القلعة بحبال وداويا جراحاته وخدماه أحسن خدمة وتقرباً إليه ، فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوماً، ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظهر فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظهر حتى أنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم معه من امتعته، فكان زنكي يرى لأيوب هذه اليد، ويعرف له هذه الصنيعة ويواصله بالهدايا والألطاف مدّة مقامه في تكريت، فلما انفصل عنها على ما سنذكره تلقاه زنكي بالرحب والسعة، واحترمه احتراماً عظيماً وأقطعه عدّة قطائع، وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة حتى ملك بذلك حبات قلوبهم، وكان أخوه شيركوه معه في القلعة، وكان شجاعاً باسلاً ينزل من القلعة ويصعد إليها في اسبابه وحاجاته، وكان نجم الدين لايفارق القلعة، ولا ينزل منها فاتفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه، ثم عاد إليها، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص، وكان رجلاً نصرانياً فاتفق في ذلك اليوم أن النصراني صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة، فعبث به بكلمة ممضة فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني، وصعد إلى القلعة، وكان مهيباً فلم يتجاسر أحد على معارضته في أمر النصراني، وأخذ النصراني

برجلـه فألقي مـن القلعة، وبلغ بهروز صـاحب قلعـة تكريت مـا جرى، وحضر عنـده من خـوّفه جـراءة أسد الـدين، وأنـه ذو عشيرة كبيرة، وأن أخاه نجم الديـن قد استحوذ على قلوب الرعايـا، وأنه ربما كان منهما أمر تخشى عاقبتـه ويصعب استدراكه، فكتـب إلى نجم الدين ينكـر عليه ما جرى مـن أخيه، ويـأمره بتسليم القلعـة إلى نائب سيره صحبـة الكتاب، فأجاب نجم الدين إلى ذلك بالسمـع والطاعة، وأنزل من القلعة جميع ما كان لـه بها من أهل ومـال، واجتمع هـو وأخوه أسد الـدين، وصمما على قصد عماد الـدين زنكـي بالموصل، وقيـل إن أسد الـدين كـان خرج إلى الموصل قبل نجم الدين، وأعظم أهل تكـريت خروج نجم الدين من بين أظهـرهم، ولم يبـق أحد إلا خـرج لتـوديعه، وأظهـر البكاء والأسـف على مفارقتـه، ولما اتصل بـاتابـك زنكي قـدومهما أفرحـه ذلك، وأمـر الموكب بلقائهما وأكـرمهما إكرامـاً عظيماً، وأقطعهما في بلد شهـرزور اقطاعـاً سنياً، وقيل إنه أقطـع أسد الدين بـالموزر، وجرى بين أسد الديـن وجمال الدين الوزير مودّة عظيمـة حتى حلف كل واحد منهما للآخر أنـه يقوم بأمره في حياته وبعد وفـاته، وتجرد جمال الدين في أمر أسد الديـن وأمر أخيه نجم الديـن، حتى قـربهما من قلـب أتابـك، وجعلهما عنده بـالمنزلـة العظيمة، وخرجـا معه إلى الشام وشهـدا معه حروب الكفـار، وقتال الفرنـج لعنهم الله، وكـان لأسد الـدين في تلـك الوقـائع اليد البيضـاء، والفعلة الغـراء، وحدثني أبي رحمه الله قال: حدّثني سعد الـدولة أبو الميامن المؤملي، وكان أحد أصحاب نجم الـدين أيوب، قال: وحدّثني أيضـاً بهذه الحكاية مجد الديـن بن داية الملك الصـالح، قال: حدّثنـي حسام الدين سنقـر غلام الأمير نجـم الديـن أبي طالـب، وكـان سنقر هـذا يخدم مع الأمير نجـم الدين أيوب بن شاذي، قال: كنت في صحابة الأمير نجم الدين لما أنفذه نور الـدين بن زنكي إلى ابنـه السلطان الملك الناصر إلى مصر مـن أجل قطع خطبة المصريين وإقـامة دعوة بني العبـاس في أوّل سنة سبع وستين وخمسمائة، واتفق أني كنـت حاضراً وقـد اجتمع السلطـان الملك النـاصر،

ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة، وقد قعدا على طراحة واحدة، والمجلس غاص بأرباب الدولتين، وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول، فبينا الناس كذلك إذ تقدّم كاتب نصراني كان في خدمة الأمير نجم الدين فقبل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر، ووالده نجم الدين، والتفت إلى نجم الدين فقال له: يا مولاي هذا تأويل مقالتي لك بالأمس حين ولد هذا السلطان، فضحك نجم الدين، وقال: صدقت والله ثم أخذ في حمد الله وشكره والثناء عليه، والتفت إلى الجماعة الذين حوله والقضاة والأمراء، وقال: لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة، وذلك أنني ليلة رزقت هذا الولد، يعني السلطان الملك الناصر، أمرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من أخي أسد الدين شيركوه رحمه الله، وقتله النصراني وكنت قد ألفت القلعة، وصارت لي كالوطن، فثقل عليّ الخروج منها والتحوّل عنها إلى غيرها، واغتممت للملك، وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته، فتشاءمت به وتطيرت لما جرى عليّ، ولم افرح به، ولم أستبشر، وخرجنا من القلعة وأنا على طيرتي به لا أكاد أذكره ولا أسميه، وكان هذا النصراني معي كاتباً، فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى مني أن آذن له في الكلام، فأذنت له فقال لي: يا مولاي قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي، وأي شيء له من الذنب، وبما استحق ذلك منك وهو لاينفع ولا يضر ولا يغني شيئاً ، وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله سبحانه وقدره، ثم ما يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت، جليل المقدار، فعطفني كلامه عليه، وها هو قد أوقفني على ما كان قاله، فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق، وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه، قلت ولعمارة في نجم الدين مدائح ومراث منها قوله:

ثغر الزمان بنجم الدين مبتسم
ووجهه بدوام العز متسم

يقول فيها:

أضحـى بـك النيـل محجـوجـاً ومعتمـراً
كـأنها حـل فيـه الحل والحرم
جـاءت بنـوك وشمـل الـديـن منتشر
فقـارعـواعنـه فهـو اليـوم منتظـم
ومـادرى أحـد مـن قبـل رؤيتهـم
أن الحظـوظ بلثـم الأرض تقتسـم
نـامـت عيـون الـورى في عـدل سيرتهم
كـأن يقظتنـا في عصرهـم حلـم
والنـاصر ابنـك كـاف كـل معضلـة
إذا الحوادث لم يكشـف لها غمـم
أعـز بـالبـأس والاحسـان حـوزتنـا
فلـم يلـم بنـا خـوف ولا عـدم
تبسـم الـدسـت مـن أيـوب عـن ملـك
تنحـط عـن قـدره الاقـدار والهمـم

وقال في مرثيته:

هـي الصـدمـة الأولى فمـن بـان صبره
على هـول ملقـاهـا تضـاعـف أجـره
أذم صبـاح الاربعـاء فـانـه
تبسـم عـن ثغـر المنيـة فجـره
أصـاب الهدى في نجمـه بمصيبـة
تـداعـى سماك الجوّ منهـا ونسره
فـلا تعـذلـونـا واعـذرونـا فمـن بكـى
على فقـد أيـوب فقـد بـان عـذره
أقـام بـأعمال الفـرات وخيلـه
يـراع بها نيـل العـزيـز ومصره
إلى أن رمـاهـا مـن أخيـه بضيغـم
فـرى نـابـه أهـل الصليـب وظفـره

فلما قضى نحبي حياة ودولة
بأمرك في إدراكها تم أمره
تعاقبتما مصراً تعاقب وابل
يبيت بقطر النيل ينهل قطره
نزلت بدار حلها فحللتها
فمغناك مغناه وقطرك قطره
وواخيته في البر حيا وميتا
فقبرك في دار القرار وقبره
وقد شخصت أهل البقيع إليكما
وإلا فسكان الحجون وحجره
هنيا الملك مات والعز عزه
وقدّرته فوق الرجال وقدره
وأدرك من طول الحياة مراده
وما طال إلا في رضى الله عمره
وأسعد خلق الله من مات بعدما
رأى في بني ابنائه ما يسره
شهيد تلقى ربه وهو صائم
فكان على أجر الشهادة فطره
مضى وهو راض عنك لم ترم صدره
لضيق ولا جاشت من الغيظ قدره
حمى حوزة الاسلام والدين بعده
ثمانية من أجلهم عز نصره
فكيف بخيس آل أيوب أسده
لقد بان خوف الدهر منه وذعره
رعى الله نجما تعرف الشمس إنه
أبوها ونور البدر منها وزهره
وأبقى المقام الناصري فإنه
لدولتكم كنز الرجاء وذخره

وقال أيضاً:

صفو الحياة وإن طال المدى كدر
وحادث الموت لا يبقي ولا يذر

وما يزال لسان الدهر ينذرنا
لو أثرت عندنا الآيات والنذر

فلا تقل غرّت الدنيا مطامعنا
فما مع الموت لا غش ولا كدر

كأس إذا ما الردى حيا الحياة بها
لم ينج من سكرها أنثى ولا ذكر

كم شامخ العز لاقى الذل من يدها
ما أضعف القدر إن ألوى به القدر

في كل جيل وعصر من وقائعها
شعواء يقطر منها الناب والظفر

أودى عليّ وعثمان بمخلبها
ولم يفتها أبو بكر ولا عمر

ومن أراد التأسي في مصيبته
فللورى برسول الله معتبر

نجم هوى من سماء الدين منكدراً
والنجم من أفقه يهوي وينكدر

منظومة أنجم الجوزاء من جزع
له وعقد الثريا منه منتثر

وكيف ينسى محياه الكريم ومن
نعماه في كل عيش صالح أثر

جسّدت من أسد الدين الشهيد لنا
حزناً به يتساوى الصبر والصبر

قد كان للدين والدنيا بعزمكما
ذكر يعبر عنه الصارم الذكر

إن فاح نشر كلام تمدحان به
مسكاً فعترة أيوب هي العطر

تخفــي ذبــال مصــابيــح إذا طلعــوا
صبحـاً وتنســي ملــوك الأرض إن ذكــروا
كـــأنما صــــور الله الكمال بهم
شخصـاً ويـوسـف منـه السمـع والبصر
لا شـوبـك منـه معصـوم ولا كـرك
ولا خليـل ولا قـــدس ولا زغــر
لم يــرتحل قــافــلاً إلاّ وســاكنهـا
إمــا مبــاح حماه أو دم هـــدر
مــامــات أيــوب إلاّ بعــد معجــزة
في المجــد لم يــؤتها مــن جنســه بشر
مضــى سعيــداً مــن الــدنيـا وليـس لـه
في رتبـــة أرب بـــاق ولا وطـــر
وطـــوّل الله منـــه بـــاع أربعـــة
منهـا النـدى والتقـى والملــك والعمـر
واشرف الملــك مــا امتــدت مســافتــه
في صحـــة أخــواهـــا العقــل والكبر
ومـــن سعـــادتــه أن مـــات لاســـأم
يشكـــوه منـــه معـــانيـــه ولا ضجـــر

فصل

قال: العماد وسار نور الدين قاصداً جانب الشمال لتسديد ما اختل هناك من الأحوال، فسار إلى بعلبك، ومنها إلى حمص، ثم حلب، وفعل في كل منها من المصالح ما وجب، وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الروم، ففتح مرعش في العشرين من ذي القعدة، ثم فتح بهسنى، واتبع في كل منهما الطريقة الحسنى، وكتب العماد إلى صديق له بدمشق، وكان سافر عنها مع نور الدين في أطيب فصولها وهو زمن المشمش:

كتــابي فــديتــك مــن مــرعــش
وخــوف نــوائبهــا مــرعشي
ومــا مــر في طــرفهــا مبصر
صحيــح النــواظــر إلا عشي
ومــا حــل في أرضهــا آمــن
مــن الضيــم والضر إلا خشي
تــرنحنــي نشــوات الغــرا
م كــأني مــن كــأســه منتشي
أسرّ وأعلــن بــرح الجوى
فقلبــي يسر ودمعــي يشي
بــذلــت مهجتــي رشــوة
فحــاكــم حبكــم مــرتشي
وكيــف يلــذ الكــرى مغــرم
بنــار الغــرام حشــاه حشي
بمــرعــش أبغــي وبلــوطهــا
مضــاهــاة جلــق والمشمــش

قال العماد في الخريدة: فسارت هذه القطعة ونمى حديثها إلى نور الدين، قال: فاستنشدنيها فأنشدته إياها، ونحن سائرون في واد كبير، مع بيتين بدهت بهما في الحال وهما:

وبــالملــك العــادل استــأنســت
نجــاحــا منــي كــل مستــوحــش
ومــا في الأنــام كــريــم ســوا
ه فــإن كنــت تنكــر ذا فتــش

قال ابن الاثير: وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين رحمه الله نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقي، وهي ملطية وسيواس وقونيه وأقصرا، عازما على حربه، وأخذ بلاده منه، وكان سبب ذلك أن ذا النون بن دانشمند،

صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من تلك البلاد قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً فريداً، فسار إلى نور الدين مستجيراً، وملتجئاً إلى ظله فأكرم نزله، وأحسن إليه، وحمل له ما يليق أن يحمل للملوك ووعده النصر والسعي في ردّ ملكه إليه، وكانت عادة نور الدين أنه لايقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة إما ليستعين بها على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم، كما فعل بدمشق ومصر، وغيرها، فلما قصده ذو النون راسل قليج أرسلان، وشفع إليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك فسار نور الدين نحوه فابتدأ بكيسون وبهسنى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها من الحصون، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها، وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من أطرافها التي تلي الشام إلى وسطها خوفاً وفرقاً، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأتاه من الفرنج ما أزعجه فأجابه إلى الصلح، وكان في جملة رسالة نور الدين إليه: «إنني أريد منك أموراً وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء: أحدها أن تجدّد إسلامك على يد رسولي حتى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام، فإني لا أعتقدك مؤمناً، وكان قليج أرسلان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة، والثاني إذا طلبت عسكرك للغزاة تسيره فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الاسلام، وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم، فأما أن تكون تنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج، وأما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع والجهد في جهادهم، والثالث أن تزوج ابنتك لسيف الدين غازي ولد أخي»، وذكر أموراً غيرها فلما سمع قليج أرسلان الرسالة، قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة علي بالزندقة، وقد أجبته إلى ما طلب أنا أجدّد اسلامي على يد رسوله، واستقر الصلح وعاد نور الدين وترك عسكره في سيواس مع فخر الدين عيد المسيح في خدمة ذي النون، فبقي العسكر بها إلى أن مات نور الدين، فرحل العسكر عنها وعاد قليج أرسلان ملكها.

قال العماد: وفيها وصل الفقيه الامام الكبير قطب الدين النيسابوري، وهو فقيه عصره، ونسيج وحده، فسر نور الدين به وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق، ثم أطلعه إلى دمشق فدرس بزاوية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدّسي رحمه الله، ونزل بمدرسة الجاروق، وشرع نور الدين في انشاء مدرسة كبيرة للشافعية لفضله، وأدركه الأجل دون إدراك عملها لأجله.

قلت: هي المدرسة العادلية الآن التي بناها بعده الملك العادل أبو بكر ابن آيوب أخو صلاح الدين وفيها تربته، وقد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين، ومن بعده منها، وهو موضع المسجد والمحراب الآن، ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة، وبناها هذا البناء المتقن المحكم الذي لانظير له في بنيان المدارس، وهي المأوى وبها المثوى، وفيها قدّر الله تعالى جمع هذا الكتاب، فلا أقفر ذلك المنزل ولا أقوى.

وبقي قطب الدين إلى أن توفي في الأيام الناصرية في سنة ثمان وسبعين، وقد وقف كتبه على طلبة العلم، ونقلت بعد بناء هذه المدرسة إليها فما فاتها ثمرته إذ فاتها مباشرته رحمه الله.

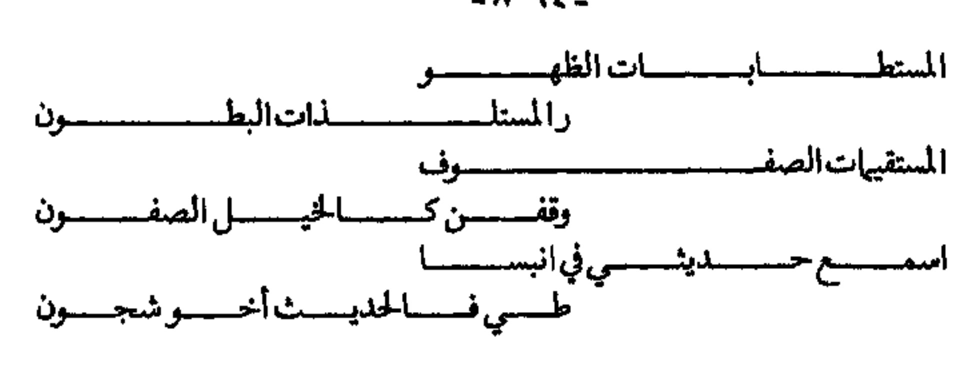
قال العماد: وكان وفد في سنة أربع وستين شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن محمد بن حمويه، فأقبل عليه نور الدين وأمرني بانشاء منشور له بمشيخة الصوفية، ورغبه في المقام بالاحسان إليه بالشام، ومن جملة ما أتحفه به عمامة بأعمدة ذهبية، كان قد أنفذها صلاح الدين من مصر، فبذل فيها ألف دينار بزنة ذهبها، فلم يجب من سامها إلى طلبها.

قلت: وقد سبق ذكر هذه العمامة في أخبار نور الدين أوّل الكتاب من كلام ابن الاثير وابن المعطى إياها وهو الشيخ تاج الدين عبد الله رحمهم الله.

-٨٠٩٣-

ثـم ذكر العماد نسخـة المنشور وفيـه: « فلينظر في ربـاط السمسياطـي، وقبة الطـواويس، وربـاط الطاحـونة وغيرهـا من ربـط الصوفيـة بدمشـق المعمورة وبعلبك، ثـم ذكر العماد أنه في آخر شعبان من هـذه السنة قبل الرحيـل من دمشق كان أهـدى إلى صديقه الفـاضل الأديب علم الـدين الحسن بن سعيد الشاتاني قطائف وكتب إليه:

مـــــاراقــــــدات في صحـــــون
مستـــــوطنـــــات في سكـــــون
أو كــــالعقــــائل في الخدو
ر قــــد اعتقلــــن على ديــــون
أو كــــالتمائم للصحــــا
ف ومــــا نسبــــن إلى جنــــون
صرعــــى ومــــا دامــــت لها
يــــومــــا رحــــى الحرب الــــزبــــون
يحيين بــــالتغــــريــــق بــــل
يسمــــن في ضيــــق السجــــون
نضــــدن بــــالترصيــــع في الــــ
ــــجامات كــــالــــدر المصــــون
وقــــد اشتملــــن مــــن اللطــــا
ئف والصفــــات على فنــــون
يجلي أمثــــال العــــرا
ئس بين أبكــــار وعيــــون
هــــنّ اللــــذيــــذات اللــــوا
تذ بــــالسهــــول مــــن الحزون
السكــــريــــات الغــــريــــ
ــــقات الغــــلائل والشــــؤون
للفــــن في أكفــــانهن
على المنــــى لا للمنــــون


- ٨٠٩٤ -

المستطـــابـــات الظهـــو
ر المستلـــذات البطـــون
المستقيات الصفـــوف
وقفـــن كـــالخيـــل الصفـــون
اسمـــع حـــديثـــي في انبســـا
طـــي فـــالحديـــث أخـــو شجـــون

وهي أكثر من هذا

فصل

قال العماد: قد سبق ذكر مليح بن لاون مقدّم بلاد الأرمن والتجائه إلى نور الدين وتطاوله بقوّته على الروم والأرمن، وكانت الدروب تحت أذنه والمصيصة وسيواس يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح بن لاون فكسرهم وقتل وأسر وساق لنور الدين من مقدّمي الروم ثلاثين أسيراً، فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضيء بأمر الله، ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة وما فتح من البلاد ويقول فيه: « وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظلام المدلهمّ على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى بكرمه يدني قطاف الفتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضي الامام»، وفي آخره «ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تيسر في هذه النوبة من افتتاح بعض بلاد النوبة، والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنابك الخيل الاسلامية في العصور الخالية، وكذلك استولت عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها، وتحكموا في محكم معاقلها ومصونها، حتى بلغوا إلى حدود المغرب، فظفروا من السؤال بعنقاء مغرب».

قلت: اتفق في هذه السنة وصول قراقوش غلام تقي الدين من الديار المصرية، مع طائفة من الترك، فانضم إليهم جماعة من العرب، فاستولى على طرابلس وكثير من بلاد إفريقية ما خلا المهدية وسفاقس وقفصة وتونس.

وفي آخر ذلك الكتاب: « ونسأل الله التوفيق لاستدناه قواصي المنى، وإقصاء عبدة الصليب الأنجاس من المسجد الأقصى، وأن يجعل فتح البيت المقدس مفتتح مراده، ومقتدح زناده، ومقترحه في جهاده، وأن يملكه الساحل بجميع بلاده» وسير العماد معه قصيدة منها:

بـــا المستضيء أبي محمــــد الحســــن
رجعـــت أمــــور المسلمين إلى السنــــن
في أرض مصر دعـــالـــه خطبـــاؤهـــا
وأتـــت لتخطـــب بكـــر خطبتـــه عــدن
فـــا المغـــرب الأقصـــى بـــذلـــك مشرق
وبنصر مصر محقـــق يمـــن اليمـــن
ورأى الالـــــه المستضيء لشرعــــــه
وعبـــــاده نعــــــم الأمين المؤتمن
سر النبـــوة كــــامـــن فيــــه ومـــن
فطـــر الامـــامـــة مشرق نـــور الفطـــن
تقـــوى أبي بكـــر ومـــن عمـــر الهدى
وحيـــاء عثمان وعلـــم أبي الحســـن
وبجـــده عـــرفـــت مقـــالـــة حيـــدر
لامـــن ددا أنـــاولا منـــي الـــددن
كـــم مـــن عـــدو ميـــت في جلـــده
رعبـــا وخـــوفـــاً فهـــو حـــي في كفـــن

ومنها في مدح نور الدين رحمه الله :
هـــل مثـــل محمـــود بـــن زنكـــي مخلـــص
متـــوحـــد يبغـــي رضـــاك بكـــل فـــن
ورع لـــــدى المحـــــراب أروع محرب
في حـــالتيـــه إن أقـــام وإن ظعـــن
يمسي ويصبـــــح في الجهـــــاد وغيره
يضحـــي رضيـــع سلافـــة وضجيـــع دن
وبعـــــزة الاســـــلام منتصراً حـــراً
وبـــذلـــــة الاشراك منتقما قمـــــن

قال ابن أبي طي: وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عصرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين، وخمسين ديناراً من

- ٨٠٩٧ -

دنانير النثار التي نثرت يوم دخل الشهـاب إلى بغداد بالبشارة بالخطبة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكـانت نـاحيتا درب هـارون وصريفين من أعمال العـراق لزنكـي والد نـور الدين قـديما من انعام أمير المؤمنين، فسـأل نور الـدين إحيـاء ذلك الـرسم في حقـه فأنعـم بهما الخليفـة عليه، ووجـه بهما مثالـه الشريف إليـه، وكان من مـراده أن يستوهـب ببغداد على شاطـىء دجلة أرضا يبنيها مدرسة للشافعية، ويقف عليهـا الناحيتين طلباً للأجر والذكر الباقـي على ممر الدهـر، فقيل له ما ثـم موضع يصلـح لهذا إلاّ درار التمر فعاقه أمر القدر عن قدرته على هذا الأمر.

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

ونور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها، ومليح بن لاون متملك الأرمن في خدمته، ووصل إلى خدمته أيضاً ضياء الدين مسعود ابن قفجاق صاحب ملطية، وكان في خدمته أيضاً الأمراء من المجدل فسرحهم بالعطاء الأجزل، والسمت الأجمل، وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم على الفراة فتقبله مستخلف الأرمن بالبراق، وحمل خمسين ألف دينار على سبيل الجزية مصانعة ببذل وصغار، وعاد إلى حلب، وقد أنجح في كل ما طلب، وأراد أن يسرع إلى دمشق فالتاث سره لالتياث سريته وحظلي بمرض القلب لمرض جسم حظيته، وجرت شكايته شكاية جاريته، فتصدّق عنها بألوف، والتزم لله في شنسائها بنذور ووقوف، ثم سيرها في محفة تحمل على يدي الرجال في خفة، وسارت على الطريق المهيع مع العسكر يحملها من الخدم والخواص المعشر بعد المعشر، فما تقرب إليه بمثل حملها والمشي معها، وتقدّم بحق لازم من بخدمته شيعها، وتأخر نور الدين جريدة مع عدّة من مماليكه وأمرائه المماحضين في ولايته، وتقدّم إليّ أن أسايره في طريقه وأحاوره وأحاضره في منازله وأسامره، وسرنا على طريق قبة ابن ملاعب والمشهد وسلميه، فجاءه الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران، فثنى إلى الجهاد العنان، وسمع الفرنج به فتفرّقوا وقلقوا بعدما كانوا أقلقوا، ودخلنا دمشق.

قلت: وفي جمادى الأولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الأتبان، ورأيت منشوره بذلك وعلامته عليه بخطه «الحمد لله » يقول فيه:« وبعد فانّ من سنتنا العادلة وسير أيامنا الزاهرة، وعواد دولتنا القاهرة إشاعة المعروف، وإغاثه الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنه الظالمون، من جائرات الرسوم، وما نزال نجدّد للرعية رسما من الاحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون من حياضه، ونستقرىء أعمال بلادنا المحروسة ونصفيها من الشبه والشوائب، ونلحق ما يعثر عليه من بواقي

رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب تقرّباً إلى الله تعالى الكافل لنا بسيوغ المواهب، وبلوغ المطالب، وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة، وضياع الغوطة، والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور، والعقيبة ومزارعها الجارية في الاملاك، وجميع ما يقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفرناه على أربابه، طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهرباً من انتقامه واليم عقابه، وسبيل الثواب إطلاق ذلك على الدوام، وتعفية آثاره، والاستعفاء من أوزاره، والاحتراز من التدنس بأوضاره وإبطال رسمه من الدواوين، لاستقبال سنة تسع وستين، وما بعدها على تعاقب الأيام والسنين».

فصل

في فتح اليمن

قال العماد: وفي رجب توجه تورانشاه أكبر أخوة صلاح الدين إلى اليمن، فملكها وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمني شاعر القصر، وكان كثير المدح لتورانشاه فتجهز وسار إلى مكة ثم إلى زبيد، فملكها وقبض على الخارجي بها، وأهلكه نائبه سيف الدين مبارك بن منقذ ومضى إلى عدن فأخذها، واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي، وفتح حصن تعز من القلاع، ففتح اقليماً، ومنح ملكاً عظيماً، وافترع بكراً، وشيع ذكرا.

وقال ابن شدّاد: ولما كان سنة تسع وستين، رأى صلاح الدين قوّة عسكره، وكثرة عدد أخوته، وقوّة بأسهم، وكان بلغه أن باليمن انساناً

استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه يسمى عبد النبي بن مهدي، ويزعم أنه ينشر ملكه إلى الأرض كلها واستتب أمره، فرأى أن يسير إليها أخاه الأكبر الملك المعظم تورانشاه، وكان كريماً أريحياً حسن الأخلاق، سمعت منه ـــ يعني من صلاح الدين رحمه الله ـــ الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه وترجيحه إياه على نفسه، فمضى إليها، وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها.

قلت: وكان أخو هذا الخارجي قد خرج باليمن قبله، ذكر عمارة اليمني في أول كتابه في وزراء مصر في أثناء كلام له قال: وكان جماعة من أماثل الناس، مثل بركات المقرىء وعلي بن محمد النيلي والفقيه أبي الحسن علي بن مهدي القائم الذي قام باليمن، وأزال دولة أهل زبيد وغيرهم قد سبقوني، يعني إلى صاحب عدن، فذكر كلاماً يتعلق به.

وقال العماد في الخريدة: علي بن مهدي ملك اليمن في زماننا هذا، وسفك الدماء وسبى المسلمين، وأقبل على شرب الخمر، وادّعى الملك والإمامة، ودعا إلى نفسه، وكان يحدّث نفسه بالمسير إلى مكة فمات سنة ستين، وتولى بعده أخوه، وله شعر حسن يدل على علوّ همته (١٢٧).

قال ابن أبي طي: كان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريماً جوّاداً، وكان إقطاعه بمصر لايقوم بفتوّته، ولاينهض بمروّته، وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد إلى مصر ومدح أصحابها ونفق عليهم، فلما زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة ومدحه، وكان إذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها، وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها.

قلت فمن جملة شعره في ذلك قوله من قصيدة أوّلها:

العلـــم مـــذ كـــان محتـــاج إلى العلـــم
وشفـــرة السيـــف تستغنـــي عـــن القلـــم
كـــم تترك البيـــض في الأجفـــان ظـــامئـــة
إلى الموارد في الأعنـــــاق والقمـــــم
أمـــامـــك الفتـــح مـــن شـــام ومـــن يمـــن
فـــلا تـــردّ رؤوس الخيـــل بـــاللجـــم
فعمـــك الملـــك المنصـــور ســـوّمهـــا
مـــن الفـــرات إلى مصر بـــلا ســـأم
فـــاخلـــق لنفســـك ملكـــاً لا تضـــاف بـــه
إلى ســـواك وأور النـــار في العلـــم
هـــذا ابـــن تـــومرت قـــد كـــانـــت بـــدايتـــه
كما يقـــول الـــورى لحماً على وضـــم
وقـــد تـــرقى إلى أن امسكـــت يـــده
مـــن الكـــواكـــب بـــالأنفـــاس والكظـــم
حـــاســـب ضميرك عـــن رأي أتـــاك وقـــل
نصيحـــة وردت مـــن غير متهـــم

وله من أخرى:
أفاتح أرض النيل وهي عظيمة
على كـــل راج فتحهـــا ومـــؤهـــل
متـــى تـــوقـــد النـــار التـــي أنـــت قـــادح
بغمـــدان مشبـــوبـــاً سنـــاهـــا بمنـــدل
وتفتـــح مـــا بين الحصين وابين
وصنعـــاء مـــن حصـــن حصين ومعقـــل
وتملـــك مـــن مخلاف طـــرق وجعفـــر
نقيضين مـــن حـــزن خصيـــب ومسهـــل
وتخلـــق ملكـــاً لا يحيـــل بفخـــره
على أحـــد إلا على عـــزمـــك العلي

وله من أخرى:

قـالـوا إلى اليمـن الميمـون رحلتـه
فقلـت مـا دونـه شيء سـوى السفـر
سير يسر بنـي الـدنيـا وطيـب ثنـا
وطـول عمـر كـذا يحكـى عـن الخضر
لا تـوقـدن لها النـار التـي خمدت
خفـض عليـك تنـل مـا شئـت بـالشرر
المال مـل ءيـد والقـوم ملـك يـد
ولا أطيـل وهـذا جملـة الخبر

قال ابن أبي طي: ووافق ذلك أنه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم بن غانم، وأطمعه في المعاونة لأن صاحب اليمن عبد النبي كان قد تحدّى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن، فأجابوه فتجهز، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له وأطلق له مغل قوص سنة، وزوّده فوق ما كان في نفسه، وأصحبه جماعة من الأمراء ومقدار ألف فارس خارجاً عمن سيره من حلقته، وسار في البر والبحر، في البر العساكر، وفي البحر الأسطول يحمل الأزواد والعدد والآلات، فوصل إلى مكة شرفها الله تعالى، فدخلها زائراً، ثم خرج متوجهاً منها إلى اليمن فوصل زبيد في أوائل شوّال، فنزل عليها ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني، وجميع الأشراف بنو سليمان في جمع جم، وعدد كبير، فهجم زبيد وتسلمها، واحتوى على ما فيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي أخي علي بن مهدي، ثم رحل إلى عدن، وفي صحبته ابن مهدي، ففتحها عنوة وولاها عز الدين الزنجيلي، ثم سار إلى المخلاف وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي كتعز وغيرها، وسار إلى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها، فأحرقت صنعاء فدخلها شمس الدولة فلم يجد بها إلاّ شيخا وامرأة عجوزاً، فأقام بها ثمانية أيام، ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة.

فرجع إلى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبي بن مهدي، وكان

شمس الدولة قد استناب بزبيد الأمير سيف الدولة المبارك ابن منقذ، وأمره بحمله، فلما بعد شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره فرأى المصلحة في قتله، فقتله ابن منقذ بزبيد، فلما بلغ شمس الدولة قتله استصوبه، ولما حصل شمس الدولة في زبيد انفذ إليه صاحب طمام (١٢٨) وصالحه هو وباقي الملوك على أداء المال، ثم تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها، وكتب بذلك إلى أخيه الملك الناصر، فأرسل إلى نور الدين يخبره بما أفاض الله عليه من الإحسان وخوّله من ملك الديار والبلدان، فأرسل نور الدين مهذب الدين أبا الحسن علي ابن عيسى النقاش بالبشارة بذلك إلى بغداد.

فصل

ذكر العماد هاهنا الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ، المستناب بزبيد ووصفه بأنه من الكفاة والكرماء، والدهاة ذوي الآراء، وهو فاضل من أهل بيت فضل، كتب العماد من شعره:

لما نزلت الدير قلت لصاحبي
قم فاخطب الصهباء من شماسه
فأتى وفي يمناه كأس خلتها
مقبوسة في الليل من نبراسه
وكأن ما في كأسه من خدّه
وكأن ما في خدّه من كاسه
وكأن لذة طعمها من ريقه
وأريجها الفياح من أنفاسه
لم أنس ليلة شربها بغنائه
إذ بات يجلوها على جلاسه
إذ قام يسقينا المدام وكلما
عاتبته ردّ الجواب براسه

قلت: ومدحه أبو الحسن بن الذروي المصري بقصيدة غراء ذالية، ما أظن أنه نظم على قافية الذال أرق منها لفظاً، وأدق معنى أوّلها:

لك الخير عرج بي على ربعهم فذي
ربوع يفوح المسك من عرفها الشذي

يقول فيها

مبارك عيس الوفد باب مبارك
وهل منقذ القصاد غير ابن منقذ

قال العماد: ثم سير نور الدين إلى بغداد بشارة بأمرين أحدهما فتح اليمن، والآخر كسر الروم مرة ثانية، ومقدّمهم الدوقس كلمان، وكان قديماً أسيراً عند نور الدين من نوبة حارم، وفداه بخمسة وخمسين ألف دينار وخمسمائة وخمسين ثوباً أطلسا، وسير معه أسرى من الروم، وذلك في شعبان هذه السنة، ومما تضمنه كتاب البشارة « ولم ينج من عشرة آلاف غير عشرة(حمر مستنفرة. فرّت من قسورة)»،وقبل ذلك بشهرين سيرت قصيدة للعماد في جمادى الآخرة على لسان نور الدين إلى بغداد أوّلها:

أطاع دمعي وصبري في الغرام عصي
والقلب جرع من كأس الهوى غصصا
وإن صفو حياتي ما يكدّره
إلا اشتياقي إلى أحبابي الخلصا
ما أطيب العيش بالأحباب لو وصلوا
وأسعد القلب من بلواه لو خلصا

ومنها:

من ذا الذي سار سيري في ولائكم
غداة قال العدى لاسير عند عصا

قــــدنـــال عبــــدك محمـــود بهاظفـــراً
مـــازال يـــرقبـــه مـــن قبـــل مـــرتبصـــا
مـــن خـــوف سطـــوتـــه إن العـــدوّ إذا
أم الثغـــور على أعقـــابـــه نكصـــا

وكلف نور الدين في هذه السنة بـافادة الألطاف، والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصدقـات، وتوفير النفقـات، وكسوة النسوة والأيـامى في أيـامها، وإغناء فقـراء الرعيـة وانجادهـا بعد إعـدامها، وصـون الأيتام والأرامـل ببذله، وعـون الضعفاء وتقوية المقـوين بعدله، ثـم ذكر ما قدّمنـا ذكره في أوّل الكتاب من مناقب نور الدين وأفعاله الكريمة.

قال العماد: وفي يـوم الاثنين رابع شهـر رمضان ركـب نور الـدين على العادة، وجلسنا نحن في ديـوانه حافلين في إيوانه لبسط عدلـه وإحسانه، وتنفيذ أوامر سلطـانه، فجاءني من أخبرني أن نور الديـن نزل إلى المدرسة التي أتولاها، وبسط سجادته في قبلتها لسنة الضحى وصلاها، فقمت في الحال، ومضيـت على الاستعجـال، فلقيتـه في الدهليـز خـارجـاً في أجـر العيادة نـاجحاً، ولنهج السعادة نـاهجاً، فلما رآني توقف، ولقـولي تشوّف، فقلت له: إن الموضع قـد تشرف، أما ترى أنه من أيام الزلـزلة قد تشعث، فلما رأى حاله تلبث، وقال: نعيـده إلى العمارة، ونكسوه حلل النضارة، ثم حملت لـه وجوه سكـر وشيئاً مـن ثياب وطيـب وعنبر، وكتبت معهـا هذه الأبيات:

عنـــــــد سليمان على قــــــدره
هـــديـــة النملـــة مقبـــولـــه
ويصغـــر المملـــوك عـــن نملـــة
عنـــدك والـــرحمة مـــأمـــولـــه
رقـــي لمولانـــا وملكـــي لـــه
وذمتـــي بـــالشكـــر مشغـــولـــة

وكيـــف يقضي الحق ذو منـــة
ضعيفـة بـالعجـز معلـولـة
وإنما شيمـة مـولى الـورى
طـاهـرة بـالخير مجبـولـة

قال: وكان رأى قبلة المدرسة غير مفصصة، وبالترخيم والتذهيب والتهذيب غير مخصصة، فأنفذ لي لعمارتها فصوصا مذهبة وذهباً، ثم حم مقدور حمامه، وعاق القدر عن اتمامه، ودفعت إلى الموصل، فرأيته في المنام وهو يجاريني في الكلام، ويقول ما يعود إلى المدرسة معناه، وقال: الصلاة الصلاة، فعرفت أنه أشار إلى المحراب، وأنه للآن على هيئة الخراب، فكتبت إلى الفقيه الذي كان عنده الذهب أن يشرع في عمارته، ودخلت دمشق يوم فراغ الصانع منه.

فصل

قال ابن أبي طيّ: وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق بن القيسراني إلى الديار المصرية، واجتمع بالسلطان الملك الناصر، وأنهى إليه رسالة نور الدين وطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من المغل، فصعب على السلطان، وأراد شق العصا لو لا ما ناب إليه من السكينة والعقل فأمر بعمل الحساب، وعرضه على ابن القيسراني وأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم وتعيين جامكياتهم ورواتب نفقاتهم، فلما حصل عنده جميع ذلك أرسل معه هدية إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى.

قال: وقفت على برنامج شرحها بخط الموفق بن القيسراني، وهي خمس ختمات، إحداها ختمة ثلاثون جزءاً مغشاة بأطلس أزرق، مضببة

بصفائح ذهب، وعليها أقفال ذهب مكتوبة بذهب يانس، وختمة بخط راشد مغشاة بديباج فستقي عشرة أجزاء، وختمة بخط ابن البواب مجلد واحد بقفل ذهب، وختمة بخط مهلهل جزء واحد وختمة بخط الحاكم البغدادي * ثلاثة أحجار بلخش: حجر وزنه إثنان وعشرون مثقالا، وحجر وزنه إثنا عشرة مثقالا، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف* ست قصبات زمرد قصبة وزنها ثلاثة عشرة مثقالاً وثلث وربع، وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وقصبة وزنها مثقالان ونصف، وقصبة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث* وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل* وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس* مائة عقد جوهر مختومة وزنها جميعها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا* خمسون قارورة دهن بلسان* عشرون قطعة بلور* أربعة عشر قطعة جزع، وذكر تفصيلها. إبريق يشم* طشت يشم* سقرق مينا مذهب* صحون صيني وزبادي وسكارج* أربعون قطعة عود طيب قطعتين كبار* كرتان وزن أحداهما ثلاثون رطلاً بالمصري، والأخرى أحد وعشرون رطلاً* مائة ثوب أطلس* أربعة وعشرون بيقاراً مذهبة* أربعة وعشرون ثوبا حريري* أربعة وعشرون ثوباً من الوشي حريرية بيض* حلة فلفلي مذهبة* حلة مرايش صفراء مذهبة، وذكر غير ذلك أنواعاً من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، وعدّة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئاً كثيراً من السلاح على اختلاف ضروبه، قال: وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين لأنهم اتصل بهم وفاته، فمنها ما أعيد، ومنها ما استهلك لأن الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعوا عليهم من نهبهم واستبدّوا بأكثرها، وقيل إنها وصلت جميعها إلى السلطان لأنه اتصل به خبر موت نور الدين، فأنفذ من ردّها.

قال: وحدّثني من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقداره.

-٨١٠٨-

وقال العماد: لما وصل إلى صلاح الدين رسول نور الدين، وهو الموفق خالد أطلعه على كل ما هو فيه، وأحصى له الطريف والتالد، وقال: هؤلاء الاجناد فاعرضهم واثبت أخبارهم، وما يضبط مثل هذا الاقليم إلا بالمال العظيم، ثم أنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها، وأنهم اعتادوا من السعة والدعة على نعمائها، وقد تصرفوا في مواضع لايمكن انتزاعها، ولا يسمحون بأن ينقص ارتفاعها، فالموارد مشفوهة، والشدائد مكروهه، والمقاصد بردعها مجبوهه، والهمم بها مشدوهة، وشرع في جمع مال يسيره، وبحمله بجهد يبذله، وبخطر يحتمله، وحصل لخالد منه ما لم يكن في خلده، وجاء مطرف غناه أضعاف متلده.

- ٥٦٩ -

فصل

في طلب عمارة الشاعر اليمني وأصحابه

قال العماد: واجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية المتعصبة المتصعبة المتشدّدة المتصلبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخفيه، واعتقدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيه، وعينوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتدبير وتبيتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل، وكان عمارة اليمني الشاعر عقيدهم، ودعا للدّعوة قريبهم وبعيدهم، وكانوا قد أودعوا سرّهم عند من أذاعه، واستحفظوا من أضاعه، وأدخلوا عدّة من أنصار الدولة الناصرية في جملتهم، وعرفوهم بجهلتهم، وكان الفقيه الواعظ زين الدين علي بن نجا يناجيهم فيما زين لهم من سوء أعمالهم، ويداخلهم في عزم خروجهم، مطلعاً على أحوالهم، وتقاسموا الدور والأملاك، وكادت آمالهم تدنو من الإدراك، فجاء زين الدين الواعظ وأطلع صلاح الدين على فسادهم وما سوّلوه من مراد مرادهم وطلب مالابن كامل الداعي من العقار والدور، وكل مما له من الموجود والمذخور، فبذل له السلطان كل ما طلبه، وأمره بمخالطتهم ورغبه، ثم أمر السلطان باحضار مقدّميهم، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم، وصلب يوم السبت ثاني شهر رمضان جماعة منهم بين القصرين منهم عمارة، وأفنى بعد ذلك من بقي منهم ومات بموتهم الخبر عنهم، وكان منهم داعي الدعاة ابن عبد القوي ، وكان عارفا بخبايا القصر وكنوزه، فباد ولم يسمح بابدائها، وبقيت تلك الخزائن مدفونة، وتلك الدفائن مخزونة، قد دفن دافنها، وخزن تحت الثرى خازنها، إلى أن يأذن الله في الوصول إليها والاطلاع عليها، وجمع من أموال هؤلاء ما يحمل إلى الشام للاستعانة به على حماية ثغور الاسلام.

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة اجتمع جماعة من دعاة المصريين

والعوام وتـآمروا فيها بينهم خفيـة، وبكوا على انقراض دولـة المصريين وما صـاروا اليه مـن الذل والفقـر، ثـم أجمعوا آراءهـم على أن يقيموا خليفـة ووزيـراً وتجمعوا هـم وجماعة عينـوهـم مـن الأمراء وغيرهـم، وأن يكاتبـوا الفـرنـج، وأن يثبوا بـالملـك النـاصر، وأدخلـوا معهـم في هذا الأمـر ابـن مصال، واعـدّوا جماعة مـن شيعة المصريين ليلة عينـوها وكـاتبوا الفـرنج بذلـك وقرروا معهـم الوصول إليهـم في ذلك الزمـان المقرر، فخـانهم ابن مصال فيما عاهـدهم عليه ونكث في اليمين وكفر عنهـا، وصار إلى الملك الناصر، وعرفه بجلية ما جرى، قـال: فأحضرهم واحداً واحداً وقررهم على هذه الحالـة، فأقـروا واعترفوا واعتذروا بكـونهم قطعت أرزاقهـم، وأخذت أموالهم، فـأحضر السلطان العلماء واستفتـاهم في أمرهـم، فأفتـوه بقتلهم وصلبهم ونفيهـم، فأمر بصلبهم، وقيـل إن الذي أذاع سرّهم زين الـدين علي الواعظ، وطلب جميع مالابن الـداعي من العقار والمال، فأعطاه جميع ذلك، وكـان الذيـن صلبوا منهم المفضـل بن كامـل القاضي، وابـن عبد القوي الـداعي والعوريـس، وكان قد تولى ديـوان النظر، ثم القضـاء بعد ذلك، وشبرمـا كاتـب السر، وعبـد الصمـد القشة أحـد أمـراء المصريين ونجاح الحمامـي، ورجل منجـم نصراني أرمني، كـان قال لهم: إن أمـرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليمني الشاعر.

قلت:وبلغني أن عمارة إنما كان تحريضـه لشمس الدولة على المسير إلى اليمن ليتم هذا الأمر لأن فيه تقليلاً لعسكر صلاح الدين، وإبعاداً لأخيه وناصريه عنه.

قال العماد في الخريدة: وقعت اتفاقات عجيبة من جملتها أنه نسب إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه له، يعنـي في القصيدة التي حرض فيها شمس الدولة على المسير إلى اليمن أوّلها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم

وقد تقدّم ذكرها وأما البيت فهو هذا

قد كان أوّل هذا الدين من رجل
سعى إلى أن دعوه سيد الأمم

قال العماد: ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله، وحرضوا السلطان على المثلة بمثله . (١٢٩)

قال: ولعمارة في مصلوب بمصر، يقال له طرخان، وكان خرج على الصالح بن رزيك، فظفر به الصالح وصلبه، وكان يستحسن أبيات عمارة فيه وهي:

أراد علو مرتبة وقدر
فأصبح فوق جذع وهو عال

ومدّ على صليب الجذع منه
يمين لا تطول على الشمال

ونكس رأسه لعتاب قلب
دعاه إلى الغواية والضلال

قال العماد: فكأنه وصف حاله وما آل إليه أمره.

وقال في البرق: ووصل من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين إلى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية،وهو بخط ابن قريش يعني المرتضى.

وقال ابن أبي طي: وقد كتب القاضي الفاضل إلى نور الدين كتاباً شرح فيه قضية المصلبين، فقال بعد مطلع الكتاب: « قصر هذه الخدمة على متجدّد سار للاسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في اظهاره على الدين كله، بعد أن كانت لها مقدّمات عظيمة، إلا أنها اسفرت عن النجح، وأوائل كالليلة البهيمة، إلا أنها انفرجت عن الصبح، فالاسلام ببركاته البادية، وفتكاته الماضية، قد عاد مستوطناً، بعد أن كان غريباً،

وضرب في البلاد بجرانه بعد أن كان كـالكفر يتم عليه تخيـلا عجيباً، إلا أن الله سبحانه اطلـع على أمرها من أوّله، وأظهر على سرهـا من مستقبله، والمملوك يـأخذ في ذكر الخبر، ويعـرض عن ذكر الأثـر، لم يزل يتوسـم من جند مصر ومـن أهل القصر بعـد ما أزال الله مـن بدعتهـم، ونقض مـن عرى دولتهم، وخفـض من مرفوع كلمتهـم، أنهم أعداء، وإن تعدّت بهم الأيـام، وأضداد وإن وقعـت عليهم كلمـة الاسلام، وكـان لايحتقر منهـم حقيراً، ولا يستبعد منهم شراً كبيراً، وعيونه لمقاصدهـم موكله، وخطراته في التحرز منهم مستعمله، لاتخلو سنة تمر، ولا شهـر يكر، من مكر يجتمعون عليه، وفساد يتسرعـون إليه، وحيلة يبرمونها، ومكيدة يتممـونها، وكان أكثر ما يتعللـون به ويستريحون إليه المكاتبـات المتواترة، والمراسلات المتقـاطره إلى الفرنـج، خذلهم الله التي يوسعـون لهم فيها سبل المطامـع، ويحملونهم فيها على العظائم والفظـائع، ويزينـون لهم الاقدام والقدوم، ويخلعون فيها ربقة الاسـلام خلع المرتـد المخصوم، ويـد الفرنـج بحمد الله قصيرة عـن إجـابتهم، إلا أنهم لايقطعـون حبـل طمعهـم على عادتهم، وكـان ملـك الفـرنـج كلما سـولـت لـه نفســه الاستـار في مـراسلتهـم، والتحيـل في مفاوضتهـم، سير جرج كـاتبه رسـولاً إلينا ظاهـراً وإليهم بـاطناً، عـارضاً علينـا الجميل الـذي ما قبلتـه قط أنفسنـا، وعـاقداً معهـم القبيح الـذي يشتمل عليـه في وقته علمنا، ولأهل القصر والمصريين في أثنـاء هذه المدد رسل تتردّد وكتـب إلى الفرنـج تتجدّد »، ثـم قال: « والمولى عـالم أن عادة أوليـائه المستفادة مـن أدبه أن لايبسطـوا عقابـا مـؤلما، ولا يعذبـوا عذابـا محكما، وإذا طـال لهم الاعتقال ولم ينجـع السـؤال أطلق سراحهـم وخلى سبيلهـم، ولا يزيـدهـم العفو إلا ضرارة، ولا الرقة عليهـم إلاّ قساوة، وعند وصول جـرج في هذه الدفعـة الأخيرة رسولاً إلينـا بزعمه، ورد إلينـا كتاب ممن لا نـرتاب بـه من قـومه يـذكرون أنـه رسول مخاتلـه لارسول بمجاملـه، وحامل بليـة لاحامل هدية، فـأوهمناه الاغفال عن التيقظ لكـل ما يصدر منه وإليـه فتوصـل مرة بالخروج ليـلاً ومرة بالـركوب إلى الكنيسـة وغيرها

نهاراً إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكتابهم، فدسسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم، ولما تكاثرت الأقوال، وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى، وقبضنا على جماعة مفسده، وطائفة من هذا الجنس متمرده، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسرائر المنافقة، فكلا أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقر طائعاً عند إحضاره، ومنهم من أقر بعد ضربه فانكشفت أمور أخرى كانت مكتومة، ونوب غير التي كانت عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة في المراد متفقة في الفساد».

ثم ذكر تفصيلاً حاصله أنهم عينوا خليفة ووزيراً مختلفين في ذلك، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد، وإن كان صغيراً، واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له، وأما بنورزيك، وأهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة.

ثم قال: وكانوا فيما تقدّم والمملوك على الكرك والشوبك بالعسكر قد كاتبوهم وقالوا لهم إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صدر أو إلى إيله ثارت حاشية القصر، وكافة الجند، وطائفة السودان وجموع الأرمن، وعامة الاسماعيلية، وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة.

ثم قال: ولما وصل جرج كتبوا إلى الملك الفرنجي إن العساكر متباعدة في نواحي اقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلاّ بعضهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور أنهض فلانا من عنده، وبقي في البلد وحده، ففعلنا ما تقدّم ذكره من الثورة.

ثـم قال: وفي أثنـاء هذه المدّة كـاتبوا سنـانـاً صاحـب الحشيشية بـأن الـدعوة واحـده، والكلمـة جامعـة، وأن مـا بين أهلها خـلاف إلا فيها لا يفترق به كلمه، ولا يجب به قعود عن نصره، واستـدعوا منه من يتمم على المملـوك غيلـه، أو يبيـت لـه مكيـدة وحيلـة، (والله مـن ورائهـم محيط) (١٣٠) وكان الرسـول إليهم عن المصريين خال ابن قـرجلة المقيم الآن، هو وابن أخته عند الفرنج.

ولما صـح الخبر وكـان حكـم الله أولى ما أخـذ بـه، وأدب الله أمضـى فيمن خـرج عن أدبـه، وتناصرت من أهـل العلم الفتـاوى، وتوالـت من أهل المشـورة بسبب تـأخير القتل فيهـم المراجعات والشكـاوى، قتل الله بسيف الشرع المطهـر جماعة من الغـواة الغلاة الدعـاة إلى النار، الحاملين لأثقالهم وأثقـال من أضلـوه من الفجـار، وشنقوا على أبـواب قصورهـم، وصلبوا على الجذوع المواجهـة لدورهـم، ووقع التتبـع لأتباعهـم، وشرّدت طائفة الاسماعيلية ونفـوا، ونودي بأن يرحل كافـة الأجناد وحاشية القصر، وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد، فأما مـن في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم، إلى أن ينكشف وجـه رأي يمضي فيهم، ولا رأي فوق رأي المولى، والله سبحانـه المستخار، وهو المستشار، وعنـده من أهل العلـم من تطيب النفس بتقليده، وتمضي الحدود بتحديـده، ورأى المملوك إخراجهم من القصر فـإنهم مهما بقوافيـه بقيت مـادة لا تحسم الأطماع عنهـا، فإنـه قبلـة للضلال منصـوبة، وبيعـه للبدع محجـوجة ـــ قـال المؤلف: لعلهـا محجوبة ـ ومما يطرف به المولى أن ثغر الاسكنـدرية على عموم مذهب السنة فيه أطلـع البحث أن فيه داعية خبيثـاً أمره، محتقراً شخصــه، عظيماً كفره، يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خمولـه في الديار المصرية قد فشت في الشام دعوته، وطبقت عقول أهـل مصر فتنته، وإن أرباب المعاش فيه يحملـون إليه جـزءاً مـن كسبهـم، والنسوان يبعثـن إليـه شطـراً وافياً مـن أموالهن، ووجدت في منزلـه بالاسكندرية، عند القبض لـه، والهجوم عليه

كتبا مجرّدة فيها خلع العذار، وصريح الكفر الذي ما عنه اعتذار، ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعرّ منه الجلود، وكان يدعي النسب إلى أهل القصر، وأنه خرج منه طفلاً صغيراً ونشأ على الضلاّلة كبيراً، وبالجملة فقد كفي الاسلام أمره، وحاق به مكره، وصرعه كفره.

قلت: وفي قصيدة عمارة هذه يقول العلامة تاج الدين الكندي رحمه الله ونقلته من خطه:

عمارة في الاسلام أبدى جناية
وبايع فيها بيعة وصليبا
وأمسى شريك الشرك في بغض أحمد
فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته
تجد منه عوداً في النفاق صليبا
صليب سيلقى غداما كان يسعى لأجله
ويسقى صديدا في لظى وصليبا

قلت: الصليب الأول صليب النصارى، والثاني بمعنى مصلوب، والثالث من الصلابة، والرابع ودك العظام، وقيل هو الصديد أي بسقي ما يسيل من أهل النار، نعوذ بالله منها.

وكان عمارة مستشعراً من الغُزّ، وهم أيضاً منه لأنه كان من أتباع الدولة المصرية، وممن انتفع بها، واختل أمره بعدها، فلم تصف القلوب بعضها لبعض، وصار يظهر في فلتات لسانه في نظمه ونثره ما يقتضي التحرز منه وابعاده، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فساداً في نيته، وإن مدحهم تكلف ذلك وصرّح وعرض فيه بما في ضميره، وقد قال في كتاب الوزراء المصرية: ذكر الله أيامهم بحمد لا يكل نشاطه، ولا يطوى بساطه، فقد وجدت فقدهم، وهنت بعدهم، وقال من قصيدة مدح بها نجم الدين أيوب:

وكـــان لي في ملـــوك النيـــل قبلكـــم
مكـــانـــة عـــرفتهـــا العـــرب والعجـــم
وكـــان بينـــي وبين القـــوم ملحمـــة
في حـــربها ألســـن الاديـــان تختصـــم
ومـــا تـــزال إلى داري عـــوار فهـــم
يسعـــى إليّ بها الإنعـــام والكـــرم
تـــركـــت قصـــدك لما قيـــل إنـــك لا
تجود إلا على مـــن مســـه العـــدم
ولســت بـــالـرجـل المجهـــول مـــوضعـــه
ولا لنـــزر مـــن الاحســـان أغتنـــم
ولا إلى صـــدقـــات المال أطلبهـــا
ولا عمـــى نـــال أعضـــائي ولا صمـــم
وإنما أنـــا ضيـــف للملـــوك ولي
دون الضيـــوف لســـان نـــاطـــق وفـــم

وقال من قصيدة مدح بها صلاح الدين رحمه الله:
قـــررت لي أبنـــاء رزيـــك رزقـــا
كـــان في عصرهـــم مستنـــا مهنـــا
وأتـــت بعـــدهـــم ملـــوك فسنـــوا
في مـــا كـــان صـــالـــح القـــوم سنـــا
ورعـــوني إمـــا اقتـــداء بماض
أو لمعنـــى فكلهـــم بي يعنـــى

وله فيه من أخرى
فقـد صـارت الـدنيـا إليكـم بـأسرهـا
فـــلا تشبعـــوا منهـــا ونحـــن جيـــاع
إذا لم تـــريـــدونـــا فكـــونـــوا كمـــن مضـــى
ففـــي النـــاس أخبـــار لهم وسماع

وليس على مرّ الفطام إقامة
فهل في ضروع المكرمات رضاع

وقال في قصيدة مدح بها تقي الدين:

هل تأذنون لمن أراد عتابكم
أم ليس في إعتابكم من مطمع

ضيعتم من حق ضيفكم الذي
ما زال قبل اليوم غير مضيع

وتغافل السلطان عني حين لم
أكشف قناع مذلة وتضرّع

ورجوت نفعك بالشفاعة عنده
فسمحت لي بشفاعة لم تنفع

و إذا نطاق الرزق ضاق مجاله
أمسى مجال النطق غير موسع

وقال أيضاً:

تيممت مصراً أطلب الجاه والغنى
فنلتهما في ظل عيش ممنع

وزرت ملوك النيل ارتاد نيلهم
فأحمد مرتادي وأخصب مربعي

وفزت بألف من عطية فائز
مواهبه للصنع لا للتصنع

وكم طرفتني من يد عاضدية
سرت بين يقظى من عيون وهجع

وجاد ابن رزيك من الجاه والغنى
بما زاد عن مرمى رجائي ومطمعي

وأوحى إلى سمعي ودائع شعره
فخبرته مني بأكرم مودع

وليست أيادي شاور بذميمة
ولا عهدها عندي بعهد مضيع
ملوك رعوا لي حرمة صار نبتها
هشيماً رعته النائبات ومارعي
مذاهبهم في الجود مذهب سنة
وإن خالفوني باعتقاد التشيع
فقل لصلاح الدين والعدل شأنه
من الحاكم المصغي إلي فأدّعي
أقمت لكم ضيفاً ثلاثة أشهر
أقول لصدري كلما ضاق وسع
وكم في ضيوف الباب ممن لسانه
إذا قطعوه لا يقوم بأصبعي
فيا راعي الاسلام كيف تركتنا
فريقي ضياع من عرايا وجوّع
دعوناك من قرب وبعد فهب لنا
جوابك فالباري يجيب إذا دعي

وقال أيضا:

أسفي على زمن الإمام العاضد
أسف العقيم على فراق الواحد
جالست من وزرائه وصحبت من
أمرائه أهل الثناء الخالد
لهفي على حجرات قصرك إذ خلت
يا ابن النبي من ازدحام الوافد
وعلى انفرادك من عساكرك الذي
كانوا كأمواج الخضم الراكد
قلدت مؤتمن الخلافة أمرهم
فكبا وقصر عن صلاح الفاسد

فعسى الليالي أن تردّ إليكم
ما عودتكم من جميل عوائد

وقال أيضا:

قست رأفة الدنيا فلا الدهر عاطف
عليّ ولا عبد الرحيم رحيم
عفا الله عن آرائه كل فترة
كلام العدى فيها عليّ كلوم
وسامحه في قطع رزق بفضله
وصلت إليه والزمان ذميم
ألا هل له عطف عليّ فإنني
فقير إلى ما اعتدت منه عديم

عبد الرحيم هو القاضي الفاضل رحمه الله، وبلغني أن عمارة لما مروا به ليصلب عبروا به على جهة دار الفاضل فطلب الاجتماع به، فقيل ليس إليه طريق فقال:

عبد الرحيم قد احتجب
إن الخلاص هو العجب

قال: وهذه القصيدة تحقق ما ذكر من الاجتماع على مكاتبة الفرنج، والخوض في فساد الدولة، بل الملة، وتوضح عذر السلطان في قتله، وقتل من شاركه في ذلك، وهي:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حلي الحسن بالعطل
سعيت في منهج الرأي العثور فمن
قدرت من عثرات البغي فاستقل
جدعت مارنك الأقنى فأنفك لا
ينفك ما بين نقص الشين والخجل

هـدمـت قـاعـدة المعـروف عـن عجـل
سقيـت مهـلا أمـا تمشي على مهـل
لهفـي ولهف بنـي الآمـال قـاطبـة
على فجيعتنـا في أكـرم الـدول
قـدمـت مصر فـأولتنـي خـلائفهـا
مـن المكـارم مـا أربـى على الأمـل
قـوم عـرفـت بهم كسـب الألـوف ومـن
كمالها أنها جـاءت ولم أسـل
وكنـت مـن وزراء الـدسـت حيث سما
رأس الحصـان تهاديـه على الكفـل
ونلـت مـن عظماء الجيـش تكـرمـة
وخلـة حـرسـت مـن عـارض الخلـل
يـا عـاذلي في هـوى أبنـاء فـاطمـة
لـك الملامـة إن قصرت في عـذلي
بـالله زر سـاحـة القصريـن وابـك معـي
عليهما لا على صفين والجمـل
وقـل لأهلهما والله مـا التحمـت
فيكـم قـروحـي ولا جـرحـي بمنـدمـل
مـاذا تـرى كـانـت الافـرنـج فـاعلـة
في نسـل آل أمير المؤمنين علي
هـل كـان في الأمـر شيء غير قسمـة مـا
ملكتـم بين حكـم السبـي والنفـل
وقـد حصلتـم عليهـا واسـم جـدّكـم
محمـد وأبيكـم غير منتقـل
مـررت بـالقصر والأركـان خـاليـة
مـن الـوفـود وكـانـت قبلـة القبـل
فملـت عنهـا بـوجهـي خـوف منتقـد
مـن الأعـادي ووجـه الـودّ لم يمـل

أسبلت من أسف دمعي غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكي على ما تراءت من مكارمكم
حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم
تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست
ورث منها جديد عنهم وبلي
وموسم كان في كسر الخليج لكم
يأتي تجملكم فيه على الجمل
وأوّل العام والعيدان كان لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والارض تهتز في عيد الغدير بما
تهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض من وشي ومن شية
مثل العرائس في حلي وفي حلل
ولا حملتم قرى الاضياف من سعة الـ
ـأطباق إلا على الأعناق والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين وللضيـ
ـف المقيم وللطاري من الرسل
وللجوامع من أحباسكم نعم
لمن تصدّر في علم وفي عمل
وربما عادت الدنيا لمعقلها
منكم واضحت بكم محلولة العقل

وقال العماد في الخريدة: أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل، كان داعي الدعاة بمصر للأدعياء، وقاضي القضاة لأولئك الأشقياء، يلقبونه بفخر الأمناء، وهو عندهم في المحلة العلياء، والمرتبة الشماء، والمنزلة التي في السماء، حتى انكدرت نجومهم، وتغيرت رسومهم، وأقيم قاعدهم، وعضد عاضدهم، وأخليت منهم مصرهم. وأجلي عنهم قصرهم، فحرك ابن كامل ناقص الذب عنهم والشدّ منهم، فأمال قوما على البيعة لبعض أولاد العاضد ليبلغوا به ما تخيلوه من المقاصد وسوّلوه من المكايد. فأثمرت بجثثهم الجذوع. وأقفرت من جسومهم الربوع. وأحكمت في لحومهم النسوع. وهذا أوّل من ضمه حبل الصلب. وأمه فاقره الصلب. وهذا صنع الله فيمن ألحد وكفر النعمة وجحد. وذلك غرة رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة، سمعت الملك الناصر صلاح الدين يذكره. وقد ذكروه عنده بالفضل والأدب. ونسبوا إليه هذين البيتين في غلام رفاء. وأنشدهما للملك الناصر وذكر أنه كان ينكرهما:

يا رافيا خرق كل ثوب … ويا رشا حبه اعتقادي

عسى بكف الوصال ترفو … ما مزق الهجر من فؤادي (١٣١)

فصل

في التعريف بحال عمارة ونسبه وشعره

قال العماد: وقد أوردت شعر عمارة ابن أبي الحسن اليمني في كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، ونقلت إلى هذا الكتاب ــ يعني كتاب البرق الشامي ــ لمعاً من ذلك فمن ذلك ما أنشدنيه نجم الدين أبو

محمد بن مصال:

لو أن قلبي يوم كاظمة معي
لملكته وكظمت غيظ الادمع

قال العماد: إنما أنشدني فيض الأدمع فرأيت غيظ الأدمع أليق بالكظم:

قلب كفاك من الصبابة أنه
لبى نداء الظاعنين ومادعي
ومن الظنون الفاسدات توهمي
بعد اليقين بقاءه في أضلعي
ما القلب أول غادر فألومه
هي شيمة الأيام مذ خلقت معي
ملك إذا قابلت بشر جبينه
فارقته والبشر فوق جبيني
وإذا لثمت يمينه وخرجت من
أبوابه لثم الملوك يميني

قال: وأنشدني له عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن أسامة بن منقذ يقول:

لي في هوى الرشاء العذري أعذار
لم يبق لي مذ أقر الدمع انكار
لي في القدود وفي لثم الخدود وفي
ضم النهود لبانات وأوطار
هذا اختياري فوافق أن رضيت به
أولا فدعني وما أهوى واختار
لمني جزافا وسامحني مصارفة
فالناس في درجات الحب أطوار
وخل عذلي ففي داري ودائرتي
من المهادرة قلبي لها دار

قلت:ويروي: «وخل غيري ففي أسري ودائرتي» والأبيات العينية من قصيدة في مدح تقي الدين، والنونية في مدح نجم الدين أيوب، والرائية في مدح شمس الدولة بن أيوب، وكان عمارة هذا عربيا فقيها أديباً، وله كتاب صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن، ثم بمصر، فذكر أنه أقام بزبيد ثلاث سنين يقرأ عليه مذهب الشافعي رضي الله عنه، قال: ولي في الفرائض مصنف يقرأ باليمن.وفي سنة تسع وثلاثين زارني والدي وخمسة من أخوتي إلى زبيد فأنشدته شيئاً من شعري فاستحسنه، ثم قال: تعلم والله أن الأدب لنعمة من نعم الله عليك فلا تكفرهابذم الناس، واستحلفني أن لا أهجو مسلما ببيت شعر، فحلفت له على ذلك ولطف الله بي فلم أهج أحداً ما عدا إنساناً هجاني بحضرة الملك الصالح ـ يعني ابن رزيك ـ ببيتي شعر، فاقسم الصالح علي أن أجيبه ففعلت متأولا قول الله عز وجل: (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) (١٣٢) وقوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)(١٣٣) قال: ولم يكن شيء غير هذا

وحججت مع الملكة أم فاتك ملك زبيد، وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع ما يتناوله من حاج اليمن براً وبحراً وبجميع خفارات الطريق، فذكر أنه حصل له وجاهة عندها فانتفع بها حتى أثرى وكثر ماله وجاهه، ثم طرأت أمور اقتضت أن هرب من اليمن وحج سنة تسع وأربعين وخمسمائة، قال: وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم ابن فليتة، وولي الحرمين ولده قاسم بن هاشم، فألزمني السفارة عنه، والرسالة منه إلى الدولة المصرية، فقدمتها في شهر ربيع الأول سنة خمسين، والخليفة بها يومئذ الفائزبن الظافر، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك، فلما حضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما

الحمد للعيس بعد العزم والهمم
حمداً يقوم بما أولت من النعم

لا أجحد الحق عندي للركاب يد
تمنت اللجم فيها رتبة الخطم

قربن بعد مزار العز من نظري
حتى رأيت إمام العصر من أمم

ورحن من كعبة البطحاء والحرم
وفداً إلى كعبة المعروف والكرم

فهل درى البيت أني بعد زورته
ما سرت من حرم إلا إلى حرم

حيث الخلافة مضروب سرادقها
بين النقيضين من عفو ومن نقم

وللإمامة أنوار مقدسة
تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم

وللنبوة آيات تنص لنا
على الخفيين من حكم ومن حكم

وللمكارم أعلام تعلمنا
مدح الجزيلين من بأس ومن كرم

وللعلى ألسن تثني محامدها
على الحميدين من فعل ومن شيم

وراية الشرف البذاخ ترفعها
يد الرفيعين من مجد ومن همم

أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً
فوز النجاة وأجر البر في القسم

لقد حمى الدين والدنيا وأهلها
وزيره الصالح الفراج للغمم

اللابس الفخر لم تنسج غلائله
إلا يد الصنعتين السيف والقلم

وجوده أوجد الأيام ما اقترحت
وجوده أعدم الشاكين للعدم

قد ملكته العوالي رق مملكة
تعير أنف الثريا غرة الشمم

أرى مقاما عظيم الشان أوهمني
في يقظتي أنها من جملة الحلم

يوم من العمر لم يخطر على أمل
ولا ترقبت إليه رغبة الهمم

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها
عقود مدح فما أرضى لكم كلمي

ترى الوزارة فيه وهي باذلة
عند الخلافة نصحا غير متهم

عواطف أعلمتنا أن بينهما
قرابة من جميل الرأي لا الرحم

خليفة ووزير مدّ عدلهما
ظلاً على مفرق الاسلام والأمم

زيادة النيل نقص عند فيضهما
فما عسى يتعاطى منة الديم

قال: وعهدي بالصالح وهو يستعيدها في حال النشيد مرارا والاستاذون والأمراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب، ثم أفيضت عليّ خلع من ثياب الخلافة مذهبة، ودفع إليّ الصالح خمسمائة دينار، وإذا بعض الاستاذين قد خرج لي من عند السيدة بنت الامام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى وحمل المال معي إلى منزلي، واطلقت لي من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد قبلي، وتهادتني أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم، واستحضرني الصالح للمجالسة، ونظمني في سلك أهل المؤانسة، وانثالت عليّ صلاته، وغمرني بره، ووجدت بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالي ابن الجباب، والموفق أبا الحجاج يوسف بن الخلال صاحب ديوان الانشاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير، وغيرهم، وما من هذه الحلبة أحد الا

ويضرب في الفضائل النفسانية، والرياسة الانسانية بأوفر نصيب، ومازلت أحذو على طرائقهم حتى نظموني في سلك فرائدهم وقلت:

ليالِيّ بالفسطاط من شاطىء مصر
سقى عهدك الماضي عهاد من القطر
ليال هي العمر السعيد وكل ما
مضى في سواها لا يعدّ من العمر
أفادتني الأقدار فيها مواليا
صفت بهم الأيام من كدر الغدر
تواصوا على أن لا ترد إرادتي
ولو سمتهم نثر الكواكب في حجري

وله في الصالح من قصيدة:

ولو لم يكن أدري بها جهل الورى
من الفضل لم تنفق لديه الفضائل
لئن كان منا قاب قوس فبيننا
فراسخ من إجلاله ومراحل

قال: وأنشدت الصالح، وهو بالقبو من دار الوزارة قصيدة منها:

دعوا كل برق شمتم غير بارق
يلوح على الفسطاط صادق بشره
وزوروا المقام الصالحي فكل من
على الأرض ينسى ذكره عند ذكره
ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى
فتجنوا على مجد المقام وفخره
ولكن سلوا منه العلى تظفروا بها
فكل امرء يرجى على قدر قدره

قال: ولما جلس شاور في دار الذهب، قام الشعراء والخطباء، ولفيف الناس إلاّ الأقل ينالون من بني رزيك، وضرغام نائب الباب، ويحيى بن

الخياط الاسفهسلار فأنشدته:

صحت بدولتك الأيام من سقم
وزال ما يشتكيه الدهر من ألم

ومنها:

زالت ليالي بني رزيك وانصرمت
والحمد والذم فيها غير منصرم

كأن صالحهم يوما وعادلهم
في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم

كنا نظن وبعض الظن مأثمة
بأن ذلك جمع غير منهزم

فمذ وقعت وقوع النسر خانهم
من كان مجتمعا في ذلك الرخم

ولم يكونوا عدوّا ذل جانبه
وإنما غرقوا في سيلك العرم

وما قصدت بتعظيمي عداك سوى
تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلم

ولو شكوت لياليهم محافظة
لعهدها لم يكن بالعهد من قدم

ولو فتحت فمي يوما بذمهم
لم يرض فضلك إلا أن يسدّ فمي

والله يأمر بالاحسان عارفة
منه وينهى عن الفحشاء في الكلم

قال: فشكرني شاور وأبناؤه على الوفاء لبني رزيك.

قلت: وشعر عمارة كثير حسن، وعندي في قوله: « الحمد للعيس» وإن كانت القصيدة فائقة، ثغرة عظيمة، فإنه أقام ذلك مقام قولنا: « الحمد

لله » ولا ينبغي أن يفعل ذلك مع غير الله عز وجل، فله الحمد، وله الشكر، فهذا اللفظ كالمتعين لجهة الربوبية المقدّسة، وعلى ذلك اطراد استعمال السلف والخلف رضي الله عنهم.

- ٨١٣٠ -

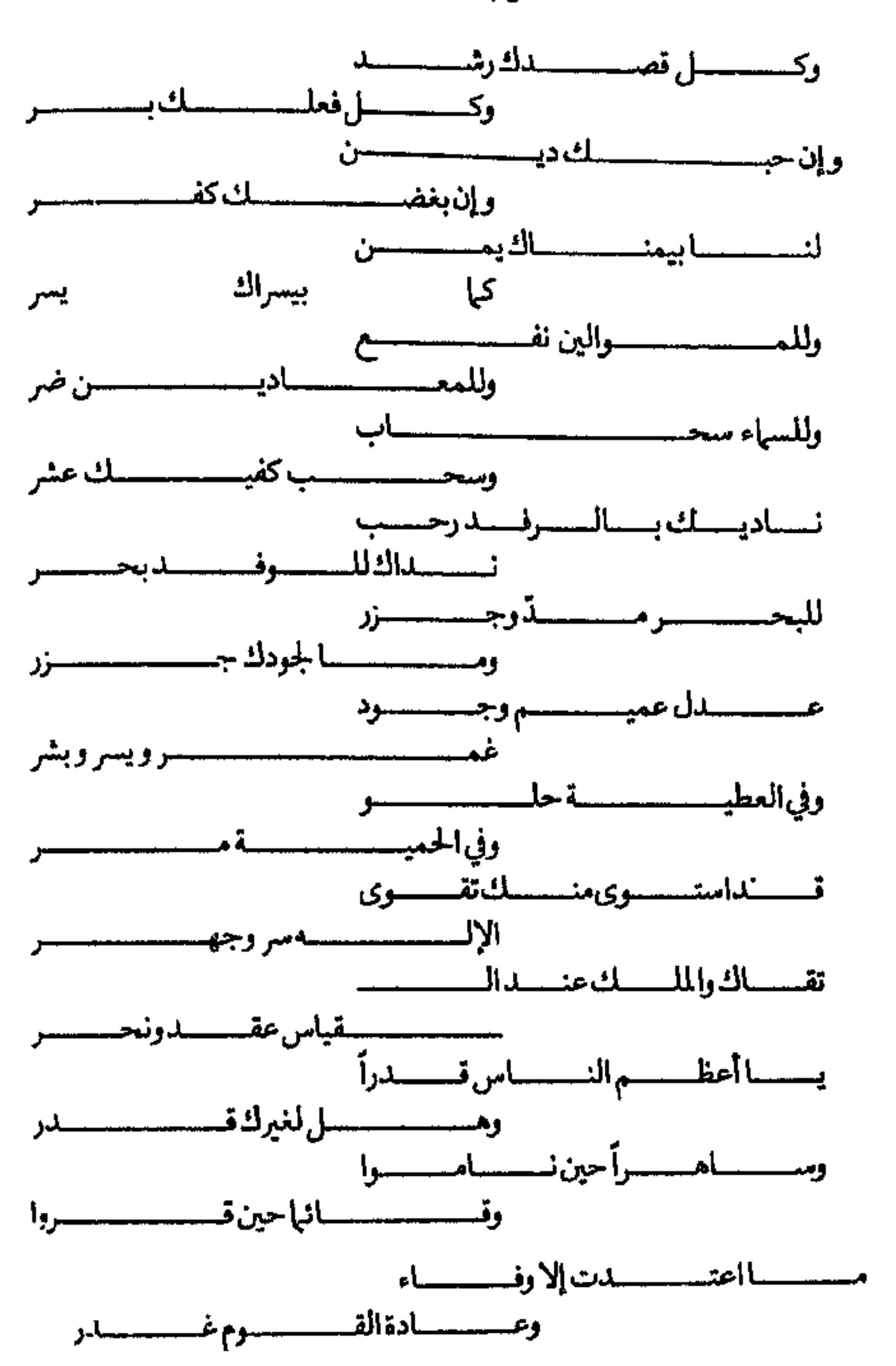
فصل

في وفاة نور الدين رحمه الله تعالى

قال العماد: وأمر نـور الدين بتطهير ولده الملك الصالـح اسماعيل يوم عيد الفطر واحتفلنا لهذا الأمر، وغدونا أيـاما، قال: ونظمت للهناء بالعيد والطهور قصيدة منها:

عيـــــدان فطـــــر وطهـــــر
فتـــح قـــريـــــب ونصر
كـــلاهما لـــك فيـــه
حقـــا هنــــاء وأجـــر
وفيهما بـــــالتهــــاني
رســـم لنـــا مستمـــر
طهـــارة طـــاب منهـــا
أصـــل وفـــرع وذكـــر
نجـــل على الطهـــر نـــام
زكـــا لـــه منـــك نجـــر
محمـــودا لملـــك العـــاد
ل الكـــريـــم الأغـــر
وبـــابنـــه الملـــك الصـــا
لـــح العيـــون تقـــر
مـــولى بـــه اشتـــدّ للديـــ
ـــن والشريعـــة ازر
نـــور تجلى عيـــانـــا
مـــادونـــه اليـــوم ستر

أضحـــت مســـاعيـــك غـــرا
كما أيـــاديـــك غـــزر



وكل قصدك رشد
وكل فعلك بر

وإن حبك دين
وإن بغضك كفر

لنا بيمناك يمن
كما بيسراك يسر

وللموالين نفع
وللمعادين ضر

وللسماء سحاب
وسحب كفيك عشر

نداك بالرفد رحب
نداك للوفد بحر

للبحر مدّ وجزر
وما لجودك جزر

عدل عميم وجود
غمر ويسر وبشر

وفي العطية حلو
وفي الحمية مر

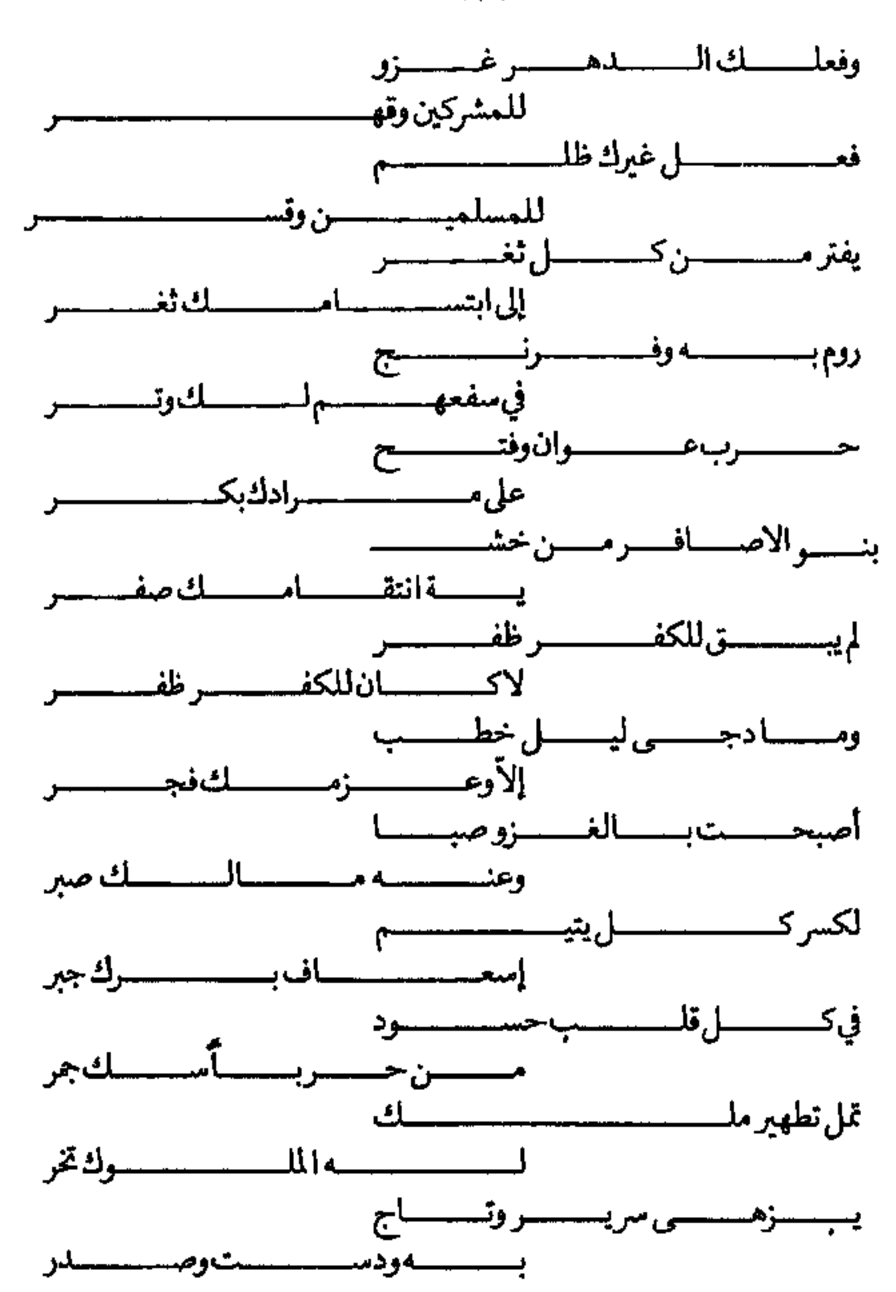
قد استوى منك تقوى
الإله سر وجهر

تقاك والملك عند الـ
ـقياس عقد ونحر

يا أعظم الناس قدراً
وهل لغيرك قدر

وساهراً حين ناموا
وقائماً حين قروا

ما اعتددت إلا وفاء
وعادة القوم غدر



وفعلك الدهر غزو
للمشركين وقهر

فعل غيرك ظلم
للمسلمين وقسر

يفتر من كل ثغر
إلى ابتسامك ثغر

روم به وفرنج
في سفعهم لك وتر

حرب عوان وفتح
على مرادك بكر

بنو الاصافر من خشـ
ـية انتقامك صفر

لم يبق للكفر ظفر
لا كان للكفر ظفر

وما دجى ليل خطب
إلاّ وعزمك فجر

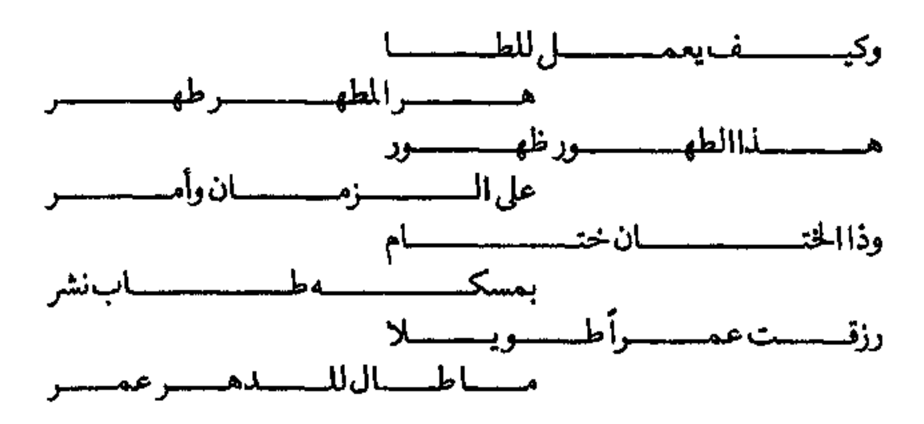
أصبحت بالغزو صبا
وعنه مالك صبر

لكسر كل يتيم
إسعاف برك جبر

في كل قلب حسود
من حر بأسك جمر

تمل تطهير ملك
له الملوك تخر

يزهى سرير وتاج
به ودست وصدر



وكيف يعمل للطا ... هر المطهر طهر

هذا الطهور ظهور ... على الزمان وأمر

وذا الختان ختام ... بمسكه طاب نشر

رزقت عمراً طويلا ... ما طال للدهر عمر

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرسم المعتاد، محفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الاعياد، ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق، وكان مسجد صلاته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر، وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفراش قاضي العسكر بعد أن صلى به وذكر، وعاد إلى القلعة طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب العطايا والإنعام على رسم الأتراك وأكابر الاملاك، ثم حضرنا على خوانه الخاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص، وما أوضح بشره، وأضوع نشره، وأضحك سنه، وأبرك يمنه، وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكر وركب، وجمل الموكب، وكان الفلك بنيره جار، والطود الثابت بمرور السحاب في وقار، وكأنه القمر في هالته، والقدر في جلالته، والبدر في دائرته سائرين بين سيارته، ودخل الميدان والعظماء يسايرونه، والفقهاء يحاورونه، وفيهم همام الدين مودود وهو في الأكابر معدود، وكان قديما في أوّل دولته والي حلب، وقد جرّب الدهر بحنكته ولأشطره حلب، فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغترّ بأيامه: هل نكون هاهنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل: هل نكون بعد شهر فانّ السنة بعيده فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السابق، فإنّ نور الدين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى

العام، ثم شرع نور الـدين في اللعب بالكرة مع خـواصه البرره، فاعترضه في حـاله أمير آخـر اسمه يـرنقـش، وقال لـه: بـاش فأحـدث له الغيـظ والاستيحاش، واغتاظ على خـلاف مذهبه الكريم، وخلقه الحليـم، فزجره وزبـره، ونهاه ونهره، وساق ودخـل القلعـة ونـزل واحتجب واعتـزل فبقـي اسبوعـا في منزلـه مشغولا بنـازله، مغلـوبا عـن عاجلـه، بحديـث أجله، والنـاس من الختـان لاهـون بأوطـارهم في الاوطـان، فهـذا يروح بجـوده، وذلك يجود بروحه، فما انتهت تلك الافـراح إلاّ بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصلاح.

قال: واتصل مـرض نور الدين، وأشـار عليه الأطباء بالفصـد فامتنع، وكان مهيبـا فما روجع وانتقل حـادي عشر شوال يـوم الأربعاء من مـربع الفنـاء إلى مـرتـع البقـاء، ولقـد كـان مـن أوليـاء الله المؤمنين، وعبـاده الصـالحين، وصار إلى جنـات عدن أعـدت للمتقين وكانـت له صفـة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعـة من الشمال، وكان جلوسه عليها في جميع الأحوال، فلما جـاءت سنة الزلزلـة بنى بازاء تلك الصفـة بيتاً من الأخشاب مأمـون الاضطراب، فهو يبيت فيه، ويصبح ويخلـو بعبادته ولا يبرح، فدفن في ذلك البيت الـذي اتخذه حمى من الحمام، وأذن بناؤه لبانيه بالإهدام، قال العماد وقلت في ذلك:

عجبـت مـن الموت كيـف أتـى
إلى ملـك في سجـايـا ملـك

كيـف ثـوى الفلـك المستـديـر
في الأرض والأرض وسـط الفلـك

وله فيه رحمهما الله تعالى

يـا ملكـا ايـامـه لم تـزل
لفضلـه فـاضلـة فـاخـرة

غـاضـت بحـار الجود مـذ غيبـت
أنملـك الفـائضـة الـزاخـره

ملكت دنياك وخلفتها
وسرت حتى تملك الآخره

قال ابن شدّاد: وكانت وفاة نور الدين رحمه الله بسبب خوانيق أعترته عجز الأطباء عن علاجها، ولقد حكى لي صلاح الدين قال: كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف يردّه إذا تحقق قصده، وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته رحمه الله ورضي عنه.

قال ابن الاثير: وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها بالشام لمنعه من الفرنج ليسير هو بعساكره إلى مصر، وكان المانع لصلاح الدين من الغزو الخوف من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه، ولا يؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لايرى إلاّ الجدّ في غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى اخلال صلاح الدين بالغزو، وعلم غرضه تجهز بالمسير إليه فأتاه أمر الله الذي لا يرد.

قلت: ولو علم نور الدين ماذا ذخر الله تعالى للاسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرّت عينه، فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه واتمها رحمهما الله تعالى.

قال: وحكى لي طبيب بدمشق يعرف بالرحبي وهو من حذاق الأطباء قال: استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء، فدخلنا عليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق، وقد تمكنت

الخوانيق منه، وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته، وكان يخلو فيه للتعبد في أكثر أوقاته، فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه، فلما دخلنا عليه، ورأينا ما به قلت: كان ينبغي أن لا يؤخر احضارنا إلى أن يشتدّ بك المرض إلى هذا الحدّ فالآن ينبغي أن تنتقل إلى مكان فسيح، فله أثر في هذا المرض، وشرعنا في علاجه فلم ينفع فيه الدواء، وعظم الداء، ومات عن قريب رضي الله عنه.

قال ابن الاثير: وكان أسمر طويل القامة ليس له لحية إلاّ في حنكه، وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة، حلو العينين، وكان قد اتسع ملكه جدّاً فملك الموصل وديار الجزيرة، وأطاعه أصحاب ديار بكر، وملك الشام والديار المصرية، واليمن وخطب له بالحرمين الشريفين: مكة والمدينة، وطبق الأرض ذكره لحسن سيرته وعدله، ولم يكن مثله إلا الشاذ النادر رحمة الله تعالى عليه.

قال الحافظ أبو القاسم بعدما ذكر أوصاف نور الدين الجليلة المتقدّمة مفرّقة ومجموعة في هذا الكتاب: هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والاقتفاء لسيرة من سلف منهم في حسن سمعتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم، حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه، حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث،ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثا، كما جاء في الحديث، فمن رآه شاهد من خلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيره، يحب الصالحين، ويواخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه فيهم، وإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوّج ذكرانهم بأناثهم ورزقهم، ومتى تكرّرت الشكاية إليه من أحد من ولاته، أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل، قابله باسقاط المنزلة

والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال تيسر لـه جميع ما يقصده من الأعمال، وسهـل على يديـه فتح الحصـون والقلاع، ومكـن له في البلـدان والبقاع.

ثم قال بعـد كلام كثير: ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيره، ومـدحه جماعة مـن الشعـراء فـأكثـروا، ولم يبلغـوا وصـف آلائه بـل قصروا، وهـو قليـل الابتهاج بـالشعر زيـادة في تواضعه لعلـوّ القدر، ومـولده على مـا ذكر لي كاتبـه أبو اليسر شاكـر بن عبد الله وقت طلـوع الشمس من يـوم الأحد سابع عشر شوّال سنة إحـدى عشرة وخمسمائة، وتوفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنـة تسع وستين وخمسمائة، ودفن بقلعة دمشـق، ثم نقل إلى تـربة تجاور مـدرسته التـي بنـاها لأصحـاب أبي حنيفة رضي الله عنـه جوار الخواصين في الشارع الغربي رحمه الله.

قلت وفي هذه المدرسة يقول العرقلة:

ومـدرسـة سيـدرس كـل شيء ... وتبقـى في حمى علـم ونسـك

تسـوّغ ذكـرهـا شرقـا وغـربـا ... بنـور الـديـن محمـود بـن زنكـي

يقـول وقـولـه حـق وصـدق ... بغير كنـايـة وبغير شـك

دمشـق في المدائن بيـت ملكـي ... وهـذي في المدارس بيـت ملكـي(١٣٤)

ولما اشتهر مـن قلة ابتهاجـه بالمدح لما علم مـن تزايد الشعـراء، وهي طريقة عمر بـن عبد العزيز زاهد الخلفاء قال يحيى بـن محمد الوهراني في مقامـة له وقد سئـل في بغداد عن نور الـدين: «هو سهـم للدولة سـديد وركـن للخلافـة شديـد، وأمير زاهد، وملـك مجاهد، تسـاعده الأفـلاك، وتعضده الجيوش والأمـلاك، غير أنه عرف بالمرعى الوبيـل لابن السبيل،

وبالمحل الجديب للشاعر الاديب فما يرزى ولا يعزى، ولا لشاعر عنده من نعمة تجزى (١٣٥) وإياه عنى أسامة بن منقد بقوله:

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا
له فكل على الخيرات منكمش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة
من المعاصي وفيها الجوع والعطش ١٣٦

قلت: رحمه الله ما كان يبذل أموال المسلمين إلاّ في الجهاد، وما يعود نفعه على العباد، وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيريز وهو من سادات التابعين بالشأم قال يعقوب بن سفيان الحافظ: حدّثنا ضمرة عن الشيباني قال: كان ابن الديلمي من أنصر الناس لأخوانه فذكر ابن محيريز في مجلسه، فقال رجل: كان بخيلا، فغضب ابن الديلمي وقال: كان جواداً حيث يحب الله، بخيلاً حيث تحبون (١٣٧)

وأما شعر ابن منقد فلا اعتبار به فهو القائل في ليلة الميلاد يمدح نور الدين رحمه الله:

في كل عام للبرية ليلة
فيها تشب النار بالايقاد

لكن لنور الدين من دون الورى
ناران نار قرى ونار جهاد

أبداً يصرّفها نداه وبأسه
فالعام جمع ليلة الميلاد

ملك له في كل جيد منة
أبهى من الأطواق في الاجياد

أعلى الملوك يداً وأمنعهم حمى
وأمدّهم كفاً بيذل تلاد

يعطي الجزيل من النوال تبرعاً
من غير مسألة ولا ميعاد

- ٨١٣٩ -

لازال في سعـــــــــد وملـــــــــك دائم
مـــا دامـــت الـــدنيـــا بغير نفـــاد (١٣٨)

وقد تقدّم من شعر ابن منير، وابن القيسراني، والعماد الكاتب وغيرهم من مـدح نور الدين بالكرم والجود مـا قليل منه يـرد قول الوهـراني وابن منقـذ، على أن ابن منقـذ قـد رددنا شعـره بشعـره كما تراه وإنما الشعـراء وأكثر النـاس كما قال الله تعالى في وصف قـوم: (فإن أعطوا منهـا رضوا وإن لم يعطوا منـه إذاهم يسخطـون)(١٣٩) وما كـل وقت ينفـق العطاء، ويفعل الله ما يشاء.

فصل

قال ابن الاثير: لما توفي نـور الدين جلس ابنه الملك الصـالح اسماعيل في الملـك، وحلـف لـه ولم يبلـغ الحلم، وحلـف لـه الأمـراء والمقـدّمـون بدمشـق، وأقام بها وأطـاعه النـاس في سائر بـلاد الشام وصـلاح الديـن بمصر، وخطـب له بها وضرب السكـة بـاسمه فيهـا، وتـولى تربيتـه الأمير شمس الدين محمد بن المقدّم.

قـال العماد: وأخـرجـوا يـوم وفـاة نور الـديـن ولـده الملـك الصـالـح اسماعيـل، وقـد أبـدى الحزن والعـويـل. رهـو مجزوز الـذوائب، مشقـوق الجيب، حـاسر حاف، مما فجأه وفجعـه من الريب، وأجسـوه في الإيوان الشمالي من الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تتش، فاستوحى كـل قلب حـزنه واستـوحـش، فوقـف النـاس يضطرمـون، ويضطربـون، ويتلهفون، ويلتهبـون، ولما كفن بحلـة الكرامـه، ودفن في روضـة بابها إلى باب رضوان من دار المقامه، وقضوا الجزع، وقـوّضوا الفزع، وغيبوا الدمعه، واحضروا الربعة، حضر القـاضي كمال الدين، وشمس الديـن بن المقدّم،

وجمال الدولة ريحان، وهو أكبر الخدم، والعدل أبو صالح بن العجمي أمين الأعمال ، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة، وعزائمهم متعاقده، وأن ابن المقدّم مقدّم العسكر وإليه المرجع والمصدر.

قال : وأنشأت في ذلك اليوم كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين ترجمته «اسماعيل بن محمود».

وفيه: « أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل، ندب الشام، بل الاسلام، حافظ ثغوره، وملاحظ أموره، ومقدام الجهاد، مقتني فضيلته، ومؤدّي فريضته، ومحيي سنته، وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره على أنه يعز أن يرى الزمان نظيره، وما هاهنا ما يشغل السر ويقسم الفكر إلاّ أمر الفرنج خذلهم الله، وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلاّ لمثل هذا الحادث الجلل، والصرف الكارث المذهل، فقد ادّخره لكفايات النوائب، وأعدّه لحسم أدواء المعضلات اللوازب، وأمله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده، ومكنه قوة لعضده، فما فقد رحمه الله إلاّ صورة، والمعنى باق والله تعالى حافظ لبيته واق، وهل غيره دام سموه من مؤازر، وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر، وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الأمر ما جمح، والأهم شغل الكفار عن هذه الديار بما كان عازما عليه من قصدهم، والنكاية فيهم على البدار، ويجري على العادة الحسنى في أحياء ذكر الوالد بتجديد ذكرنا راغبا في اغتنام ثنائنا وشكرنا».

قلت: وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين، فأرسل كتابا بالمثال الفاضلي فيه: « ورد خبر من جانب العدوّ اللعين عن المولى نور الدين أعاذنا الله فيه من سماع المكروه، ونور بعافيته القلوب والوجوه، فاشتدّ به الأمر، وضاق به الصدر، وانقصم بحادثه الظهر، وعز فيه التثبت، وأعوز

الصبر، فإن كان والعياذ بالله قد تم، وخصه الحكم الذي عم، فللحوادث تدخر النصال، وللأيام تصطنع الرجال، وما رتب الملوك ممالكها إلاّ لأولادها، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلاّ لتؤدي حقها يوم حصادها، فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي، فتبلغ الأعداء مرادها، وتعدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها، فكونوا يداً واحدة، وإعضاداً متساعدة، وقلوباً يجمعها ود، وسيوفا يضمها غمد، ولا تختلفوا فتنكلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل، فالعداة محدقة بكم من كل مكان، والكفر مجتمع على الإيمان، ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله، وقائم لا نسلمه، وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحققت بأن ولده القائم بالأمر، وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت، والطاعة في الغيبة والحضور أتيت وفعلت، وإلا فنحن لهذا الولد يد على من ناوأه، وسيف على من عاداه، وإن اسفر الخبر عن معافاه، فهو الغرض المطلوب، والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب».

قال العماد: وورد كتاب صلاح الدين بالمثال الفاضلي معزيا لابن نور الدين وفي آخره: « وأما العدوّ خذله الله فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليل لنهاره، وسيل لقراره إلى أن يزعجه من مجاثمه، ويستوقفه عن مواقف مغانمه، وذلك من أقل فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه، أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرّح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم، وأشبه يوم الخادم أمسه في الخدمة، ووفى ما لزمه من حقوق النعمة، وجمع كلمة الإسلام، عالما أن الجماعة رحمه ، والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح، ويصلح به وعلى يديه، ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه، ويجعل للاسلام واقية باقية عليه، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده، ومضاعفة ملكه ومزيده،

وييسر منال كل أمر صالح، وتقريب بعيده إن شاء الله تعالى.

ومن كتاب آخر: « الخادم مستمر على بدأته من الاستشراف لأوامرها، والتعرض لمراسمها، والرفع لكلمتها، والإيالة لعسكرها، والتحقق بخدمتها في بواطن الأحوال وظواهرها، والترقب لأن يؤمر فيمتثل، ويكلف فيحتمل، وأن يرمى به في نحر العدوّ فيتسدّد بجهده، ويوفي أيام الدولة العالية يوما يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده».

قال العماد: ولما توفي نور الدين اختل أمري، واعتل سري، وعلت حسادي، وبلغ مرادهم أضدادي، وكان الملك الصالح صغيراً فصار العدل ابن العجمي له وزيراً، وتصرّف المتحالفون في الخزانة والدولة كما أرادوا، وولوا وصرّفوا ونقصوا وزادوا، واقتصروا لي على الكتابة محروم الدعوة من الإجابة، ومما نظمته في مرثية نور الدين قصيدة منها:

لفقـــــد الملـــــك العــــــا
دل يبكـــــي الملـــــك والعـــــدل
وقــــــد أظلمــــــت الآفــــــا
ق لا شمـــــــس ولا ظـــــــل
ولما غــــاب نــــور الديـــــــ
ــــن عنـــا أظلـــم الحفـــل
وزال الخصـــــب والخيـــــــ
ــــر وزاد الشر والمحـــــل
ومــــــات البـــــأس والجو
د وعـــاش اليـــأس والبخـــل
وعـــــز النقـــــص لماهـــــا
ن أهـــل الفضـــل والفضـــل
وهـــل ينفـــق ذو العلـــــ
ـــم إذا مـــا نفـــق الجهـــل
ومـــا كـــان لنـــور الديـــــ
ــــن لـــولا نجلـــه مثـــل

فصل

قال العماد: واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر وقصدهم بانياس، ورجوا أن يتم لهم الأمر ثم ظهرت خيبتهم وبان اليأس، وذلك أن شمس الدين بن المقدّم خرج وراسل الفرنج، وخوّفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم، وأنه قد عزم على جهادهم، وتكلموا في الهدنة، وقطع مواد الحرب والفتنه، وحصلوا بقطيعة استعجلوها، وعدّة من أساراهم استطلقوها، وتمت المصالحة، وبلغ ذلك صلاح الدين فأنكره ولم يعجبه، وكتب إلى جماعة الأعيان كتباً دالة على التوبيخ والملام، ومن جملتها كتاب بالمثال الفاضلي إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، يخبره فيه أنه لما أتاه كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج تجهز وخرج وسار أربع مراحل ، « ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى، وسيدنا الشيخ أولى من أطلق لسانه الذي تغمد له السيوف، وتجرّد، وقام في سبيل الله قيام من يقطع عادية من تعدّى وتمرّد»، وفي آخره: « وكتب من المنزل بفاقوس، والفجر قد هم أن يشق ثوب الصباح، لولا أن الثريا تعرّضت تعرّض أثناء الوشاح، وهذه الليلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجة، بلغه الله فيه أمله، وقبل عمله بالغا أسنى المراد وأفضله».

وقال ابن الاثير : ولما توفي نور الدين قال الأمراء منهم شمس الدين ابن المقدّم، وحسام الدين الحسين بن عيسى الجرّاحي وغيرهما من أكابر الأمراء: قد علمتم أن صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوّابه، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله، ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح، ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح، فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا، قال: فلم يمض

غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يهنيه بالملك ويعزيه بأبيه، وأرسل دنانير مصرية، وعليها اسمه ويعرّفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لوالده، فلما سار سيف الدين غازي ابن عمه قطب الدين، وملك الديار الجزرية، ولم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء إلى صلاح الدين ولا أعلموه الحال، كتب إلى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته، ويمنعه، وكتب إلى الأمراء يقول: «إن الملك العادل لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته بي لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده، والقيام بخدمته سواي وأراكم قد تفرّدتم بخدمة مولاي وابن مولاي دوني، فسوف أصل إلى خدمته وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه واهمال أمر الملك الصالح ومصالحه، حتى أخذت بلاده».

فأقام الصالح بدمشق، ومعه جماعة من الأمراء لم يمكنوه من المسير إلى حلب لئلا يغلبهم عليه شمس الدين علي بن الداية، فإنه كان أكبر الأمراء النورية، وإنما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه، وكان هو وأخوته بحلب وأمرها إليهم وعسكرها معهم في حياة نور الدين وبعده، ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه، وأرسل إلى الأمراء يقول لهم: «إن سيف الدين قد ملك إلى الفرات، ولئن لم ترسلوا الملك الصالح إلى حلب حتى يجمع العساكر ويسترد ما أخذ منه وإلا عبر سيف الدين الفرات إلى حلب، ولا نقوى على منعه». فلم يرسلوه ولا مكنوه من قصد حلب.

قال: وكان نور الدين من قبل أن يمرض، قد أرسل إلى البلاد الشرقية

كالموصل وغيرها استدعى العساكر منها فسار سيف الدين، فلما كان ببعض الطريق أتاه الخبر بموت عمه نور الدين، فعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسل الشحن إلى الخابور، فاستولوا عليها، وسار هو إلى حران فحصرها عدّة أيام، ثم أخذها وملك الرها والرقة وسروج، واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر، فقال له فخر الدين عبد المسيح — وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين، وقصد سيف الدين ظناً منه أن سيف الدين يرعى له خدمته وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين على ما ذكرناه أوّلاً — فلم يجن ثمرة ما غرس، وكان عنده كبعض الأمراء: ليس بالشام من يمنعك، فاعبر الفرات وأملك البلاد، فأشار أمير آخر معه، وهو أكبر أمرائه: قد ملكت أكثر من والدك والمصلحة أن تعود، فرجع إلى الموصل.

فصل

قال ابن الأثير: قد سبق أن نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها دزداراً له وهو سعد الدين كمشتكين بعض خدمه الخصيان، فلما سار سيف الدين إلى الشام كان في مقدّمته على مرحلة، فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب وأرسل سيف الدين في أثره فلم يدرك، فنهب بركه ودوابه، وسار إلى حلب وتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية وأخوته، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح، فسار إلى دمشق فأخرج إليه ابن المقدّم عسكراً لينهبه، فعاد منهزما إلى حلب فأخلف عليه شمس الدين ابن الداية ما أخذ منه، وجهزه وسيره إلى دمشق، وعلى نفسها تجني براقش، فلما وصلها سعد الدين دخلها واجتمع بالملك الصالح والأمراء، وأعلمهم ما في قصد الملك الصالح إلى حلب من المصالح، فأجابوا إلى تسييره، فسار إليها فلما وصلها

وصعد إلى قلعتها قبض الخادم سعد الدين على شمس الدين بن الداية وأخوته، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب.

قال ابن الاثير: ولو لا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شيء، وكان أمر الله قدراً مقدوراً فاستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح، فخافه ابن المقدّم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، وكاتبوا سيف الدين ليسلموا إليه دمشق، فلم يفعل، وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق، فيمنع عنها ويقصده ابن عمه من وراء ظهره فلا يمكنه الثبات، فراسل الملك الصالح وصالحه على اقرار ما أخذ من يده، وبقي الملك الصالح بحلب، وسعد الدين بين يديه يدبر أمره، وتمكن منه تمكناً عظيماً يقارب الحجر عليه.

قال العماد: كان كمشتكين الخادم النائب بالموصل قد سمع بمرض نور الدين فأخفاه واستأذن في الوصول إلى الشام، فطلب سيف الدين غازي رضاه، وخرج وسار مرحلتين، وسمع النعي، فأغذّ السير والسعي، ونجا بماله وبحاله، وندم صاحب الموصل على الرضى بترحاله، وكانت عنده بوفاة عمه بشاره، وظهرت على صفحاته منها أماره، فإنه لم يزل من كمشتكين متشكياً، فإنه كان لجمر الأمر عليه مذكيا، وكان المرحوم قد أمر بإراقة الخمور، وإزالة المحظور، واسقاط المكوس، واعدام اقساط البوس، فنودي في الموصل يوم ورود الخبر بالفسحة في الشرب جهاراً ليلاً ونهاراً، وزال العرف وعاد النكر، وأنشد قول ابن هاني: « ولا تسقني سراً فقد أمكن الجهر».

وقيل أخذ المنادي على يده دنا وعليه قدح وزمر، وزعم أنه خرج بهذا أمر فلا حرج على من يغني ويشرب، وعادت الضرائب، وضربت العوائد، فأما كمشتكين فإنه وصل إلى حلب بعد أن جرى ما جرى،

وتمثل:« عنده الصباح يحمد القوم السرى»، واجتمع هناك بالأمير شمس الدين عليّ بن الداية وأخوته أخوه مجد الدين، وأظهر أنه لهم من المخلصين وكان مجد الدين أبو بكر أخو رضاع نور الدين، وقد تربى معه ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بعد والده ففوّض إلى مجد الدين جميع مقاصده من طريفه وتالده، وحكمه في الملك، ونظمه في السلك، فلا يحل ولا يعقد إلاّ برأيه، وكانت حصونه محصنة، وهو يسكن عنده في قلعة حلب، والحاضر عنده صباحا ومساء إذا طلب، وشيزر مع أخيه شمس الدين علي، وقلعة جعبر وتل باشر مع سابق الدين عثمان، وحارم مع بدر الدين حسن، وعين تاب وعزاز وغيرهما نوّابه فيها، وهو يصونها ويحميها، ولما توفي جرت أخوته في القرب والانبساط على عادته، وهم أعيان الدولة وأعضادها، وأبدال أرضها وأوتادها، وأمجادها وأجوادها، فلما توفي نور الدين لم يشكوا في أنهم يكفلون ولده ويربونه ويحبهم لأجل سابقتهم ويحبونه، فأقام شمس الدين علي وهو أكبرهم وأوجههم، ودخل

قلعة حلب وبها والياشاذبخت، وسكنها وأسر مصلحة الدولة وأعلنها، وعرف ما جرى بدمشق من الاجتماع واتفاق ذوي الأطماع، فكاتبهم وأمرهم بالوصول إليه في خدمة الملك الصالح، وانفذ أخاه سابق الدين عثمان وكان قليل الخبرة بعيداً من الدهاء، فاستقر الأمر على أن يحملوا الملك الصالح إليه، ويقدموا به عليه، وهو يتسلم ممالكه، ويكون أتابكه، ووصل كمشتكين إلى دمشق في تلك الأيام، فوافقهم على ما دبروه من المرام، وسار الصالح ومعه كمشتكين والعدل ابن العجمي واسماعيل الخازن، فبغتوا أخوة مجد الدين الثلاثة فقبضوهم واعتقلوهم، وجاء ابن الخشاب أبو الفضل مقدّم الشيعة فسفكوا دمه، وأقام شمس الدين ابن المقدّم بدمشق على عساكرها مقدّماً، وفي مصالحها محكماً، وجمال الدين ريحان والي القلعة والشحن من قبله والأمر إليه بتفصيله وجمله، والقاضي كمال الدين الشهرزوري الحاكم النافذ حكمه، الصائب سهمه، الثاقب نجمه، وكان مسير الملك الصالح من دمشق في الثالث

والعشرين من ذي الحجة، وغاظ صلاح الدين ما فعل بأخوة مجد الدين.

وقال ابن أبي طي الحلبي: لما مات نور الدين اجتمع أمراء دولته، واتفقوا على أن يكونوا في خدمة الملك الصالح بن نور الدين، وكان يومئذ صبياً، وأجمعوا على منابذة الملك الناصر، وقبض أصحابه الذي بالشام، ومصالحة الفرنج على يد ابن المقدّم شمس الدين مقدّم العساكر، وتم ذلك واستقر، وركب الملك الصالح بدمشق وخطب له، وكانت الفرنج قد تحركت إلى قصد دمشق، فخرج ابن المقدّم ونزل على بانياس في عساكر نور الدين، وراسل الفرنج في الهدنة فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين، فعجل حملها، وتم أمر الصلح، وعادت الفرنج إلى بلادها، وابن المقدّم إلى دمشق، واتصل خبر هذه الهدنة بالملك الناصر، وكان قد خرج من مصر أربع مراحل، فأعظم أمرها وأكبره، واستصغر أمر أهل الشام، وعلم ضعفهم، فراسل ابن المقدّم وغيره من الأمراء بانكار ذلك والتوبيخ عليه، وقال في كتابه إلى ابن أبي عصرون: « ورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين، وبقية بلاد المسلمين ما دخلت في العقد ولا انتظمت في سلك هذا القصد، والعدوّ لها واحد، وصرف مال الله الذي أعدّ لمغنم الطاعة ومصلحة الجماعه في هذه المعصية المغضبة لله ولرسوله ولصالحي الأمه، وكان مذخوراً لكشف الغمه، فصار عونا، وإن أسارى من طبرية وفرسانها كانت وطأتهم شديده وشوكتهم حديده، دفعوا في القطيعه، وجعلوا إلى السلم السبب والذريعه، فلما بلغنا هذا الخبر وقفنا به بين الورد والصدر، وإن أتممنا ظن بنا غير ما نريد، وإن قعدنا فالعدوّ من بقية الثغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد، وإن فرقنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد، فرأينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وأخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك، وأنه أمر ربما عجز فيه عن الاستدراك، وإن العدوّ طالب لا يغفل، وجاد لا ينكل، وليث لا يضيع الفرصه، مجدّ لايميل إلى الرخصه، فإن كانت الجماعة ساخطين فتظهر امارات السخط والتغيير ولا تمسك

في الأول فتعجز عن الأخير، لاسيما ونحن نغار لله ونغير، ونقصد للمسلمين ما نجمع به صلاح الرأي وصواب التدبير، وقد منعنا عساكرنا أن تفترق خوفاً أن يقصد العدوّ ناحية حارم بالمال الذي قويت به قوته، وثرت به ثروته، وانبسطت به خطوته فإنه ما دام يعلم أنا مجتمعون، وعلى طلبه مجمعون لايمكنه أن يزايل مراكزه، ولا يبادر مناهزه».

قال: وكان متولي قلعة حلب شاذبخت الخادم النوري، وكان شمس الدين علي أخو مجد الدين بن الداية إليه أمور الجيش والديوان، وإلى أخيه بدر الدين حسن الشحنكية، وكان بيده ويد أخوته جميع المعاقل التي حول حلب، فلما بلغ عليا موت نور الدين صعد إلى القلعة، وكان مقعداً ، واضطرب البلد، ثم سكنه ابن الخشاب فامتنع من الصعود إليهم، وتردّدت بينهم الرسالة وتحزب الناس بحلب أهل السنة مع بني الداية، والشيعة مع ابن الخشاب، وجرت أسباب اقتضت أن أنزل حسن بن الداية جماعة من القلعيين وأهل الحاضر، وزحفوا إلى دار ابن

الخشاب فملكوها ونهبوها واختفى ابن الخشاب، واتصلت هذه الأخبار بمن في دمشق فأخذوا الملك الصالح وساروا إلى حلب في الثالث والعشرين من ذي الحجة، وسار مع الملك الصالح سعد الدين كمشتكين وجرديك واسماعيل الخازن، وسابق الدين عثمان بن الداية، وقد وكلت الجماعة به، وهو لا يعلم، وساروا إلى حلب، وخرج الناس إلى لقائهم وكان حسن قد رتب في تلك الليلة جماعة من الحلبيين ليصبح ويصلبهم، فلما خرج إلى لقاء الملك الصالح ووقعت عينه عليه ترجل ليخدم هو وجماعة من أصحابه، فتقدّم جرديك وأخذ بيده وشتمه وجذبه فأركبه خلفه رديفا، وقبض سابق الدين أخوه في الحال، وتخطفت أصحابهم جميعهم، واحتيط عليهم وساروا مجدين حتى سبقوا الخبر إلى القلعة، وصعدوا إليها وقبضوا على شمس الدين علي بن الداية من فراشه وحمل إلى بين يدي الملك الصالح، فاستقبله أحد مماليك نور

الدين المعروف بالجفينة فركله برجله ركلة دحابها على وجهه، فانشقت جبهته، ثم صفدوا جميعا وحبسوا في جب القلعة، وقبضوا على جميع الأجناد الذين حلفوا لأولاد الداية، وأخرجوا جميعاً من القلعة.

قلت: وفي آخر هذه السنة توفي مرّي الفرنجي الملك الذي كان حاصر القاهرة، وأشرف على أخذ الديار المصرية، وفي كتاب فاضلي: « ورد كتاب من الداروم يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذي الحجة هلك مري ملك الفرنج لعنه الله، ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقاً، وأقدمه على نار (تلظى لايصلاها إلا الأشقى) (١٤٠)

-٨١٥١-

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

قال ابـن أبي طي: ففي أوّلها ضمن القطـب ابن العجمي أبو صـالح، وابن أمين الدولـة لجرديك إن قتل ابن الخشاب، ردّوا عليـه جميع ما نهب له في دار ابن أمين الدولة، فدخل على الملك الصالح، وتحدّث معه وأخذ خاتمه أمانـا لابن الخشاب، ونودي عليه فحضر وركـب إلى القلعة، فقتل وعلق رأسه على أحد أبراج القلعة .

وبقـي الملـك الصـالـح في قلعة حلـب، ومضـى العماد الكـاتـب إلى الموصل، قال:« وعـزمت على خدمة سيف الـدين صاحبها وقـد أخذ من بلاد الجزيرة إلى حدّ الفرات، ومضى إليه ابـن العجمي للاصلاح فأصلح بين ابني العم، وعلـق رهن أخوة مجد الدين في الاعتقـال، وضيقوا عليهم في القيـود والأغلال،وألـزموهـم بتسليم الحصـون، وتقديـم الرهـون إلى أن غصبوا دورهـم، وخربوا معمورهـم».

قال: وكـان الموفق خـالد بن القيسراني قـد وصل ونحـن بدمشـق من مصر، فلزم داره، ولم يدخـل مع القوم، فأمـا صلاح الدبن فـإنه اعتقد أن ولد نـور الديـن يتولاه بعده أخـوة مجد الدين، فلما جـرى ما جـرى ساءه ذلك وقـال: أنا أحق بـرعي العهود، والسعـي المحمود فإنـه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعه، وضـاقت المناهج المتسعه، وانفردت مصر عـن الشـام، وطمع أهـل الكفـر في بـلاد الاسلام، وكتـب إلى ابـن المقدّم ينكر ما أقدموا عليه مـن تفريق الكلمة، وكيف اجترءوا على أعضاد الدولـة وأركانها، بـل أهلها وأخـوانها، وإنه يلـزمه أمـرهم وأمـرها ويضره ضرهم وضرها، فكتب ابن المقدّم إليه يردعـه عن هذه العزيمه، ويقبح له استحسان هذه الشيمة ويقول له:«لايقال عنك إنك طمعت في بيت من غـرسك، وربـاك وأسسـك، وأصفـى مشربك، وأضفـى ملبسـك، وأجلى سكـونـك لملك مصر، وفي دستـه أجلسـك، فما يليـق بحالـك، ومحاسـن

أخلاقك وخلالك غير فضلك وأفضالك». فكتب إليه صلاح الدين بالانشاء الفاضلي « إنا لانؤثر للاسلام وأهله إلا ما جمع شملهم، وألف كلمتهم، وللبيت الأتابكي أعلاه الله إلا ما حفظ أصله وفرعه، ودفع ضره وجلب نفعه، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاء، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة، وبالجملة أنا في واد والظانون بنا ظن السوء في واد، ولنا من الصلاح مراد، ولمن يبعدنا عنه مراد، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قادح، ولمن ألقي السلاح إنك جارح».

فصل

قال العماد: ثم عزم السلطان على أن يسارع إلى تلافي الأمر فاعترضه أمران: أحدهما وصول اسطول صقلية إلى الاسكندرية وادراكه، والثاني نوبة الكنز ونفاقه وهلاكه، أما وصول الاسطول فكان يوم الأحد السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين، وانهزم في أول المحرم سنة سبعين، ثم ذكر كتاباً وصل من صلاح الدين إلى بعض الأمراء بالشام يشرح الحال، وحاصله أن أوّل الأسطول وصل وقت الظهر، ولم يزل متواصلاً متكاملاً إلى وقت العصر، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر لا على حين خفاء من الخبر، فأمر ذلك الأسطول كان قد اشتهر، وروع به ابن عبد المؤمن في البلاد المغربيه، وهدّد به في الجزائر الروميه صاحب قسطنطينيه، فشوهد في الثغر من وفور عدّته، وكثرة عدّته، وعظيم الهمة به، وفرط الاستكثار منه، ما ملأ البحر، واشتدّ به الأمر، فحمى أهل الثغر عليهم البر، ثم أشير عليهم أن يقربوا من السور فأمكن الأسطول النزول فاستنزلوا خيولهم من الطرائد، وراجلهم من المراكب، فكانت الخيل ألفاً وخمسمائة رأس، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل، ما بين فارس وراجل، وكانت عدّة الطرائد ستة وثلاثين طريدة تحمل

الخيـل، وكان معهـم مـائتـا شيني في كـل شينـى مـائة وخمسون راجـلاً، وكـانت عـدّة السفـن التي تحمـل آلات الحرب والحصـار من الأخشـاب الكبـار وغيرها سـت سفن، وكـانت عـدّة المراكب الحمالـة برسـم الأزواد والرجال أربعين مركبـاً، وفيها من الراجل المتفرق وغلمان الخيـالة، وصناع المراكب وأبراج الـزحف ودباباتـه والمنجنيقية مايتمم خمسين ألـف رجل، ولما تكاملوا نازلين على البر خارجين مـن البحر، حملوا على المسلمين حملة أوصلوهـم إلى السور، وفقد من أهل الثغـر في وقت الحملة ما يناهز سبعة أنفس، واستشهد محمود بـن البصار بسهم جرخ وجذفت مـراكب الفرنج داخلـة إلى الميناء، وكـان به مـراكب مقـاتله، ومـراكب مسـافره، فسبقهـم أصحابنا إليها فخسفوها وغرقوهـا وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منهـا، واتصل القتـال إلى المسـاء فضربوا خيـامهـم بـالبر، وكان عـدّتهم ثلاثمائة، فلما أصبحـوا زحفوا وضـايقوا وحاصروا ونصبـوا ثلاث دبـابات بكباشها وثـلاثة مجانيق كبار المقـادير، تضرب بحجارة سود استصحبـوها مـن صقلية، وتعجـب أصحابنـا مـن شدّة أثـرهـا وعظم حجـرها، وأمـا الدبابات فـإنها تشبه الأبراج في جفاء أخشابها وارتفاعهـا، وكثرة مقاتلتها واتساعها، وزحفـوا بها إلى أن قاربت السور، ولجوا في القتال عـامة النهار المذكور، وورد الخبر إلى منـزلة العسـاكر بفـاقوس يـوم الثلاثـاء ثالـث يوم نـزول العـدوّ على جنـاح الطـائر، فـاستنهضنـا العسـاكـر إلى الثغـريـن اسكندريـة ودمياط، احترازاً عليها واحتيـاطاً في أمرهـا وخوفاً مـن مخالفة العـدوّ إليها، واستمـرّ القتال وقـدّمت الـدبابـات وضربت المنجنيقـات، وزاحمت السـور إلى أن صارت منـه بمقدار أمـاج البحـر، وأهاج الـدور، فاتفق أصحـابنا على أن يفتحوا أبواباً قبـالتها من السور ويتركـوها معلقة بالقشـور، ثم فتحوا الأبواب وتكـاثر صالـح أهل الثغر من كـل الجهات فأحـرقوا الدبابـات المنصوبة، وصدّقـوا عندها من القتـال، وأنزل الله على المسلمين النصر، وعلى الكفار الخذلان والقهـر، واتصل القتـال إلى العصر من يوم الأربعـاء، وقد ظهر فشل الفرنج ورعبهـم، وقصرت عزائمهم وفتر

حربهم، وأحرقت آلات قتالهم، واستمر القتل والجراح في رجالهم، ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة، وأخذ ما به قوام الحياة، وهم على نية المباكرة، والعدوّ على نية الهرب والمبادرة، ثم كر المسلمون عليهم بغتة، وقد كاد يختلط الظلام فهاجموهم في الخيام، فتسلموها بما فيها وفتكوا في الرجالة أعظم فتك، وتسلموا الخيالة، ولم يسلم منهم إلاّ من نزع لبسه، ورمى في البحر نفسه، وتقحم أصحابنا في البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها فولت بقية المراكب هاربة، وجاءتها أحكام الله الغالبه، وبقي العدوّ بين قتل وغرق، وأسر وفرق، واحتمى ثلاثمائة فارس منهم في رأس تل، فأخذت خيولهم، ثم قتلوا وأسروا، وأخذ من المتاع والآلات والأسلحة ما لا يملك مثله، واقلع هذا الاسطول عن الثغر يوم الخميس.

وذكر ابن شدّاد أن نزول هذا العدوّ كان في شهر صفر، وكانوا ثلاثين ألفاً في ستمائة قطعة ما بين شيني وطراده وبطسة وغير ذلك .

فصل

وأما نوبة الكنز فقال ابن شدّاد: الكنز انسان مقدّم من المصريين كان قد انتزح إلى أسوان فأقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه، ويخيل لهم أنه يملك البلاد، ويعيد الدولة مصرية، وكان في قلوب القوم من المهاواة للمصريين ما تستصغر هذه الأفعال عنده، فاجتمع عليه خلق كثير، وجمع وافر من السودان، وقصد قوص وأعمالها، فانتهى خبره إلى صلاح الدين، فجرّد له عسكراً عظيماً شاكين في السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية، وخافوا على فوت ذلك منهم، وقدّم عليهم أخاه سيف الدين، وسار بهم حتى أتى القوم فلقيهم بمصاف

فكسرهـم،وقتل منهـم خلقـاً عظيماً، واستأصـل شـافتهم، وأخمد نـائرتهم، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين، واستقرّت قواعد الملك.

قـال العماد: وفي أوّل سنـة سبعين مستهلهـا قام المعـروف بـالكنـز في الصعيـد، وجمع مـن كـان في البـلاد من السـودان والعبيـد، وعـدا ودعـا القريـب والبعيد، وكـان عنده مـن الأمراء أخ لحسـام الديـن أبي الهيجاء السمين، ففتك به وبمن هناك مـن المنقطعين، فغارت حمية أخيه، وثارت للثأر، وساعده أخو السلطـان سيف الدين وعز الدين موسـك ابن خاله، وعـدّة من أمـرائه ورجـالـه، وجاؤوا إلى مـدينـة طـود، فاحتمـت عليهـم وامتنعـت، فأسرعـت البليـة إليها وبها وقعـت، وأتـى السيف على أهلهـا وباءت بعد عزهـا بذلها، ثم قصد الكنز وهو في طغيانـه وعدوانه، وسوءه وسودانـه، فسفك دمـه، وظهر بعـد ظهور وجـوده عدمـه، وارتقب دمـاء سوده، وهجم غابـه على أسوده، ولم يبق للدولة بعد كنزهـا كنز، وطل دمه ولم ينتطـح فيـه عنـز، وارتـدع المارقـون فما رقـوا بعـده سلـم نفـاق، والله لناصري دينه ناصر وواق.

وقال ابن أبي طي: واتفق أيضاً أن خرج بقـرية من قرى الصعيد يقال لها طـود رجـل يعـرف بعبـاس بن شـاذي، وثـار في بـلاد قـوص ونهبهـا وخربها، وأخذ أمـوال الناس، واتصل ذلك بـالملك العادل سيف الـدين أبي بكر بن أيوب، وكـان السلطان قد استنابه بمصر، فجمع لـه العساكر وأوقع بـه وبدّد شملـه، وفض جموعـه وقتله، ثـم قصد بعـده كنز الـدولة الوالي بـأسوان، وكان قصـد بلد طود، فقتل أكثـر عسكره وهرب فـأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

-٥٦١هـ-

فصل

في توجه صلاح الدين إلى دمشق، ودخوله إليها في يوم الاثنين آخر شهر ربيع الأول

قال العماد: لما خلا باله مما تقدّم ذكره تجهز لقصد الشام، فخرج إلى البركة مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بلبيس ثالث عشر ربيع الأوّل، وكانت رسل شمس الدين صاحب بصرى صديق ابن جاولي، وشمس الدين بن المقدّم عنده تستوري في الحث والبعث زنده، وتستقدمه وجنده، وسار على صدر وائله، ووصل السير بالسرى حتى أناخ على بصرى بصيرا بالعلى نصيرا للهدى، فاستقبله صاحب بصرى وشدّ أزره، وسدّد أمره، واستضاف إلى بصرى صرخد، وتفرد بالسبق إلى الخدمة وتوحد، وسار في الخدمة معه إلى الكسوة، وبكر صلاح الدين يوم الاثنين انسلاخ الشهر، وسار في موكب قوي بالعدد والعدد وحسب أن يمتنع عليه البلد، وأن الاطراف توثق، والأبواب تغلق، فأقبل وهو يسوق وإقباله يشوق، حتى دخل دمشق، وخرقها وكأن الله تعالى له خلقها، ودخل إلى دار العقيقي مسكن أبيه، وبقي جمال الدين ريحان الخادم في القلعة على تأبيه، فراسله حتى استمالـه، وأغزر له نواله، وتملك المدينة والقلعة، ونزل بالقلعة سيف الاسلام أخو السلطان صلاح الدين، وملك ابن المقدّم داره وكل ما حواليها، وبذل له طلبته التي أشار إليها ونص عليها، وأظهر أنه قد جاء لتربية الملك الصالح، وحفظ ماله من المصالح، وتدبير ملكه، فهو أحق بصيانة حقه، واجتمع به أعيانها، وخلص لولاية اسرارها واعلانها، وأصبح وهو سلطانها، وزاره القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري فوفاه حقه من الإحترام وأوفر له حظ التبجيل والاعظام، ونفذت الكتب بالأمثلة الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر.

وفي بعضها: «يوم وصولنا إلى بصرى وقبله وفدت وهاجرت وتزاحمت وتكاثرت وتوافت الأمراء والأجناد الأتراك والأكراد والعربان، وراجل الأعمال، وأعيان الرجال، وورد كتاب من دمشق بعد كتاب، وكل مخبر وذاكر، وهو غائب بكتابه حاضر، يذكر أن البلاد ممكنة القياد مذعنة إلى المراد، وأما الفرنج خذلهم الله فإنا في هذه السفرة المباركة نزلنا في بلادهم نزول المتحكم، وأقمنا بها إقامة الحاضر المتخيم، وعيونهم متناومة، وجزنا وأنوفهم راغمة، ووطئنا ورقابهم صغر، ومررنا وعيشهم مر، والله يزيدهم ذلاً، ويجعل عداوة الاسلام في صدورهم غلا، وفي أعناقهم غلاً».

وفي كتاب آخر: «وكان رحيلنا من بصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأوّل، وقد توجه صاحبها بين أيدينا قائماً بشروط الخدمة ولوازمها، ثم لقينا الأجل ناصر الدين ابن المولى أسد الدين رحمة الله عليه، وأدام نعمته، والأمير سعد الدين ابن أنر في يوم السبت السابع والعشرين، ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب، والأجناد الدمشقية إلينا متوافيه، والوجوه على أبوابنا مترامية، ولم يتأخر إلاّ من أبقى وجهه، وراقب صاحبه، ومن اعتقد بالقعود أنه قد نظر لنفسه في العاقبه، ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى، وعرض دون الدخول عدد من الرجال فدعستهم عساكرنا المنصورة وصدمتهم وعرفتهم كيف يكون اللقاء وعلمتهم، ودخلنا البلد واستقرت بنا دار والدنا رحمة الله عليه قريرة عيوننا مستقرا سكون الرعية وسكوننا، وأذعنا في أرجاء البلد النداء بإطابة النفوس، وإزالة المكوس، وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت، واليد المتعدّية قد امتدّت إلى أحوالهم وأجحفت، فشرعنا في امتثال أمر الشرع برفعها، وإعفاء الأمة منها بوضعها».

قال ابن الاثير: لما خاف من بدمشق من الأمراء أن يقصدهم كمشتكين والملك الصالح من حلب فيعاملهم بما عامل به بني الداية

راسلوا سيف الدين غازي ليسلموها إليه، فلم يجبهم فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدّم، ومن أشبه أباه فما ظلم، فلما أتته الرسل لم يتوقف وسار إلى الشام، فلما وصل دمشق سلمها إليه من بها من الأمراء، ودخلها واستقر بها، ولم يقطع خطبة الملك الصالح، وإنما أظهر أني إنما جئت لأخدمه واستردّ له بلاده التي أخذها ابن عمه، وجرت أمور آخرها أنه اصطلح هو وسيف الدين والملك الصالح على ما بيده.

وقال القاضي ابن شدّاد: لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين، وكون ولده طفلاً لاينهض بأعباء الملك، ولا يستقل بدفع عدوّ الله عن البلاد، تجهز للخروج إلى الشام، إذ هو أصل بلاد الاسلام، فتجهز بجمع كثير من العساكر، وخلف بالديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها، ونظم أمورها وسياستها، وخرج هو سائراً مع جمع من أهله وأقاربه، وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها، واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح، واختلت تدبيراتهم وخاف بعضهم من بعض، وقبض البعض على جماعة منهم، وكان ذلك سبب خوف الباقين ممن فعل ذلك، وسببا لتنفير قلوب الناس عن الصبي، فاقتضى الحال أن كاتب ابن المقدّم صلاح الدين، فوصل إلى البلاد مطالباً بالملك الصالح فيكون هو الذي يتولى أمره ويرب حاله، فدخل دمشق يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر، وكان أوّل دخوله إلى دار أبيه واجتمع الناس إليه، وفرحوا به، وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالا طائلاً، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين، وأظهروا الفرح به وصعد القلعة، واستقر قدمه في ملكها، فلم يلبث أن سار في طلب حلب، فنازل حمص، وأخذ مدينتها في جمادى الأولى ولم يشتغل بقلعتها، وسار حتى أتى حلب، ونازلها سلخ جمادى المذكور وهي الدفعة الأولى.

وقال ابن أبي طي: بلغ السلطان أن ابن المقدّم نقض عهد الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين صاحب الموصل

واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه، وقيل إن ابن المقدّم كاتب السلطان ودعاه إلى الخروج، وقيل إنما خرج إلى الشام خوفاً من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام، وشغل بعضهم ببعض، وبجواب ممض ورد من ابن المقدّم، ولما تيقن ابن المقدّم خروج السلطان إلى جهة دمشق أشفق من ذلك، واستدرك ما بدا منه، وتذلل له، ووعده تسليم دمشق إليه.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بقعتها، نشر علم العدل والإحسان، وعفى آثار الظلم والعدوان، وأبطل ما كان الولاة استجدّوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمون والضرائب المحرّمات.

قلت: وكان قد كتب إليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أوّلها:

تهنّ يا أطول الملوك يدا ... في بسط عدل وسطوة وندى

أجراً وذكراً من ذلك الشكر في الـ ... ـدنيا ومن ذلك الجنان غدا

لا تستقل الذي صنعت فقد ... قمت بفرض الجهاد مجتهدا

وجست أرض العدى وأفنيت من ... أبطالهم ما يجاوز العددا

وما رأينا غزا الفرنج من الـ ... ـملوك في عقر دارهم أحدا

فسر إلى الشام فالملائكة الـ ... ـأبرار تلقاك ملتقى حمدا

فهو فقير إليك يأمل أن ... تصلح بالعدل منه ما فسدا

والله يعطيك فيه عاقبة الـ
ـنصر كما في كتابه وعدا
فما حباك الورى وألهمك الـ
ـعدل وأعطاك ما ملكت سدى (١٤١)

ومدح وحيش الأسدي صلاح الدين عند أخذه دمشق بقصيدة أوّلها:

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا
فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد
أدنى فريسته الأيام أن وثبا
رأيت جلق ثغراً لا نظير له
فجئتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قلّ ناصرها
وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثل ما أحييت مصر فقد
أعدت من عدلها ما كان قد ذهبا
هذا الذي نصر الاسلام فاتضحت
سبيله وأهان الكفر والصلبا
ويوم شاور والايمان قد هزمت
جيوشه كان فيه الجحفل اللجبا
أبت له الضيم نفس مرة ويد
فعالة وفؤاد قط ما وجبا
يستكثر المدح يتلى في مكارمه
زهداً ويستصغر الدنيا إذا وهبا
ويوم دمياط والاسكندرية قد
أصارهم مثلا في الأرض قد ضربا
والشام لو لم يدارك أهله اندرست
آثاره وعفت آياته حقبا

- ٨١٦١ -

فصل

فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماه وحصار حلب

قال ابن أبي طي: لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك الناصر، وميل الناس إليه وإنعكافهم عليه، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته فحملوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا والرماح التي حويت بها قصور المصريين على أكتافنا، والرجال التي ردّت عنك تلك العساكر هي تردّك، وعما تصدّيت له تصدّك، وأنت فقد تعدّيت طورك، وتجاوزت حدّك، وأنت أحد غلمان نور الدين، وممن يجب عليه حفظه في ولده.

قال: ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان عليه رسولاً تلقاه بموكبه وبنفسه، وبالغ في إكرامه والاحسان إليه، ثم أحضره بعد ثالثة لسماع الرسالة منه، فلما فاه ابن حسان بتلك الشقاشق الباطلة، وقعقع بتلك التسويهات العاطلة، لم يعره السلطان رحمه الله طرفا ولا سمعا، ولا ردّ عليه خفضا ولا رفعا، بل ضرب عنه صفحا وتغاضيا، وترك جوابه احسانا وتجافيا، وجرى في ميدان أريحيته واستن في سنن مروّته، وخاطبه بكلام لطيف رقيق وقال له: يا هذا اعلم إنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الاسلام، وتهذيب الأمور وحياطة الجمهور، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين وكف عادية المعتدين، فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك ودون ما ترومه خرط القتاد، وفت الأكباد، وإيتام الأولاد، فلم يلتفت السلطان لمقاله، وتزايد في احتماله وأومى إلى رجاله باقامته من بين يديه بعد أن كاد يسطو عليه، ونادى في عساكره بالاستعداد لقصد الشام الأسفل، ورحل متوجهاً إلى حمص، فتسلم البلد وقاتل القلعة، ولم ير تضييع الزمان عليها، فوكل بها

من يحصرها ورحل إلى جهة حماه فلما وصل إلى الرستن، خرج صاحبها عز الدين جرديك، وأمر من فيها من العسكر بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع أمره، وسار جرديك حتى لقي السلطان واجتمع به بالرستن، وأقام عنده يوما وليله، وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سلم إليه حماه وسأله أن يكون السفير بينه وبين من بحلب، فأجابه السلطان إلى مراده، وسار إلى حلب، وبقي أخو جرديك بقلعة حماه.

قال: وسار جرديك إلى حلب وهو ظان أنه قد فعل شيئاً، وحصل عند من بحلب يدا، فاجتمع بالأمراء والملك الصالح وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر، فاتهمه الامراء بالمخامرة، وردّوا مشورته، وأشاروا بقبضه فامتنع الملك الصالح ولج سعد الدين كمشتكين في القبض عليه، فقبض وثقل بالحديد، وأخذ بالعذاب الشديد، وحمل إلى الجب الذي فيه أولاد الداية.

قال: ولما قدّم جرديك وشدّ في وسطه الحبل ودلي إلى الجب، وأحس به أولاد الداية قام إليه منه حسن وشتمه أقبح شتم وسبه ألأم سب، وحلف بالله إن أنزل إليهم ليقتلنه، فامتنعوا من تدليته، فأعلم سعد الدين كمشتكين فحضر إلى الجب وصاح على حسن وشتمه وتوعده، فسكن حسن وأمسك وأنزل جرديك الجب، فكان عند أولاد الداية، واسمعه حسن كل مكروه.

قال: وكتب أبي إلى حلب حين اتصل به قبض أولاد الداية وجرديك، وكانوا تعصبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب قصيدة منها:

بنو فلانة أعوان الضلالة قد
قضى بذلهم الأفلاك والقدر
واصبحوا بعد عز الملك في صفد
وقعر مظلمة يغشى لها البصر

وجـرد الـــدهـــر في جـــرديـــك عـــزمتـــه
والـــــدهــــــر لا ملجـــــأ منـــــــه ولا وزر

قال: ولم يـزل السلطان مقيما على الـرستن، ثم طـال عليه الأمـر فسار إلى جباب التركمان فلقيــه أحـد غلمان جـرديــك وأخبره بما جـرى على جرديك مـن الاعتقال والقهر، فرحـل السلطان من ساعتـه عائداً إلى حماه وطلب مـن أخي جـرديك تسليـم حماه إليه، وأخبره بما جـرى على أخيه، ففعل وصعـد السلطان إلى قلعة حماه واعتبر أحـوالها وولاها مبارز الـدين علي بن أبي الفـوارس، وذلك مستهـل جمادى الآخرة، وسـار السلطان إلى حلـب، ونزل على أنـف جبل جـوشن فوق مشهـد الـدكة ثـالث الشهـر، وامتدّت عساكـره إلى الخناقية وإلى السعدي، وكان مـن بحلب يظنون أن السلطان لا يقـدّم عليهم، فلـم يرعهـم إلا وعساكـره قد نـازلت حلـب، وخيمه تضرب على جبل جوشن، وأعلامـه قد نشرت فخافوا من الحلبيين أن يسلمـوا البلد كما فعـل أهـل دمشق، فـأرادوا تطييـب قلـوب العامة فأشير على ابـن نور الـدين أن يجمعهـم في الميدان ويقبـل عليهم بنفسـه ويخاطبهـم بنفسه: أنهم الوزر والملجأ، فـأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق، فـاجتمعوا حتى غص الميدان بالنـاس، فنزل الصالح من باب الـدرجة وصعد من الخندق، ووقـف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: يا أهـل حلب أنا ربيبكم ونـزيلكم واللاجيء إليكـم، كبيركم عندي بمنـزلة الأب، وشابكم عنـدي بمنزلة الأخ، وصغيركـم عندي يحل محل الولـد، قال: وخنقته العبرة وسبقتـه الدمعـه، وعلا نشيجه، فـافتتن النـاس، وصـاحـوا صيحـة واحدة، ورمـوا بعمائمهـم، وضجـوا بـالبكـاء والعـويل وقـالوا: نحـن عبيـدك وعبيد أبيـك، نقـاتل بين يـديك ونبـذل أموالنا وأنفسنـا لك، وأقبلوا على الدعـاء له والترحـم على أبيه، وكـانوا قد اشترطوا على الملـك الصالـح أنه يعيـد إليهم شرقيـة الجامع يصلـون فيها على قاعدتهم القديمه، وأن يجهـر بحـي على خير العمل والأذان والتذكير في الاسـواق وقـدّام الجنـائز بأسماء الأئمـة الاثنـي عشر، وأن يصلـوا على

أمواتهم خمس تكبيرات، وأن تكـون عقود الأنكحـة إلى الشريف الطـاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني، وأن تكون العصبيـة مرتفعة، والناموس وازع لمن أراد الفتنة وأشيـاء كثيرة اقترحوها، مما كـان قد أبطله نور الـدين رحمه الله، فأجيبوا إلى ذلك.

قال ابن أبي طـيّ: فأذن المؤذنون في منارة الجامـع وغيره بحي علي خير العمل، وصلى أبي في الشرقيـة مسبلاً، وصلى وجوه الحلبيين خلفـه، وذكروا في الأسـواق وقـدّام الجنـائز بـأسماء الأئمـة، وصلـوا على الأمـوات خمس تكبيرات، وأذن للشريـف في أن تكون عقـود الحلبيين من الإمـامية إليـه، وفعلوا جميع ما وقعت الايمان عليه.

فصل

قـال ابن أبي طـيّ: وكانـت هـذه السنة شـديدة البرد، كثيرة الثلـوج، عظيمة الأمطـار، هائجة الأهـوية، وكان السلطـان قد جعل أولاد الـداية علالة لـه وسبباً يقطع به ألسنـة من ينكر عليه الخروج إلى الشـام، وقصد الملك الصالح، ويقول: أنا إنما أتيـت لاستخلاص أولاد الداية، وإصلاح شأنهم، وأرسل السلطـان إلى حلب رسولا يعرّض بطلب الصلـح، فامتنع كمشتكين، فاشتـدّ حينئذ السلطـان في قتال البلد، وكـانت ليـالي الجماعة عند الملـك الصالـح لاتنقضي إلا بنصب الحبـائل للسلطان، والفكـرة في مخاتلته، وارسال المكروه إليـه، فأجمعوا آراءهم على مراسلة سنـان صاحب الحشيشية في ارصاد المتالف للسلطان، وإرســال من يفتك به، وضمنوا له على ذلـك أموالاً جمة وعـدة من القـرى، فأرسـل سنان جماعـة من فتـاك أصحابـه لاغتيال السلطان، فجاؤوا إلى جبـل جوشن واختلطوا بـالعسكر فعرفهـم صاحب أبـو قبيس، لأنه كان مشـاغراً لهم، فقال لهم: يـا ويلكم

كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا العسكر ومثلي فيه؟ فخافوا غائلته، فوثبوا عليه فقتلوه في موضعه، وجاء قوم للدفع عنه فجرّحوا بعضهم، وقتلوا البعض وبدر من الحشيشية أحدهم وبيده سكينة مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار فقتله ، وطلب الباقون فقتلوا بعد أن قتلوا جماعة.

قال: ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشية، كاتبوا قمص طرابلس وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحل السلطان عن حلب، وكان لعنه الله في أسر نور الدين منذ كسرة حارم، وكان قد بذل في نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين، فلما كان قبل موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن الزعفراني حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار، وفكاك ألف أسير، واتفق في أوّل هذه السنة موت ملك الفرنج صاحب القدس وطبرية وغيرهما، فتكفل هذا القمص بأمر ولده المجذوم، فعظم شأنه وزاد خطره، فأرسل إلى السلطان في أمر الحلبيين، وأخبره الرسول أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة، فقال السلطان لست ممن يرهب بتألب الفرنج، وها أنا سائر إليهم، ثم أنهد قطعة من جيشه وأمرهم بقصد انطاكيه فغنموا غنيمة حسنة وعادوا، فقصد القمص جهة حمص، فرحل السلطان من حلب إليها، فسمع الملعون فنكص راجعاً إلى بلاده وحصل الغرض من رحيل السلطان عن حلب ووصل إلى حمص، فتسلم القلعة ورتب فيها واليا من قبله.

قال: وفي فتح قلعة حمص يقول العماد الكاتب من قصيدة وستأتي:

إيـــاب ابـــن أيـــوب نحـــو الشـــآ
م على كـــل مـــا يـــرتجيـــه ظهـــور
بيـــوســـف مصر وأيـــامـــه
تقـــرّ العيـــون وتشفـــى الصـــدور

رأت منـــــك حمص لها كـــــافيـــــا
فــــواتـــاك منهـــا القـــوي العسير

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى زين الدين بن نجا الواعظ يقول في وصف قلعة حمص: «والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهد به من كونها نجماً في سحاب، وعقابا في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قلامه، عاقدة حبوة صالحها الدهر على أن لا يحلها بقرعه، عاهدة عصمة صافحها الزمن على أن لا يروعها بخلعه، فاكتنفت بها عقارب، منجنيقات لا تطبع طبع حمص في العقارب، وضربت حجارة بها الحجارة، فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب، فلم يكن غير ثالثة من الحدّ إلاّ وقد أثرت فيها جدر يا يضربها، ولم تصل السابع إلا والبحران منذر نقبها، واتسع الخرق على الراقع، وسقط سعدها عن الطالع إلى مولد هو إليها الطالع، وفتحت الأبراج فكانت أبوابا (وسيرت الجبال)بها (فكانت سرابا) (١٤٢) فهنالك بدت نقوب يرى قائم من دونها ما وراءها، وحشيت فيها النار فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى أخيه العادل: «قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية ما يزاحم سبعة آلاف فارس، وتكاثفت الجموع إلى الحدّ الذي يخرج عن العد، وبعد أن نرتب أحوال حمص حرسها الله، نتوجه إلى حماه، والله المعين على ما ننويه من الرشاد، وننظفه من طرق الجهاد».

وقال العماد: لما سمع المدبرون للملك الصالح بإقبال صلاح الدين المؤذن بإدبارهم، سقط في أيديهم، وراسلوا المواصلة، وكاتبوهم وأرسلوا إلى صلاح الدين بالاغلاظ والاحفاظ، وكان الواصل منهم قطب الدين ينال بن حسان، وقال له: هذه السيوف التي ملكتك مصر، وأشار إلى

سيفه، إليها تردّك، وعما تصدّيت له تصدّك، فحلم عنه السلطان، واحتمله وتغافل كرماً وأغفله، وخاطبه بما أبى أن يقبله، وذكر أنه وصل لترتيب الأمور وتهذيب الجمهور، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين، واستنقاذ أخوة مجد الدين، فقال له: أنت تريد الملك لنفسك، ونحن لا ننزع في قوسك، ولا نأنس بأنسك، ولا نرتاع لجرسك، ولا نبني على أسك، فارجع حيث جئت أو اجهد واصنع ما شئت، ولا تطمع فيما ليس فيه مطمع، ولا تطلع حيث ما لسعودك فيه مطلع، ونال من تقطيب القطب ينال كل ما أحال الحال، وأبلى البال، وأبدى له التبسم، وأخفى الاحتمال، ثم إنه استناب أخاه سيف الاسلام طغتكين بدمشق، وسار بالعسكر ونزل على حمص فأخذها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى، وامتنعت القلعة فأقام عليها من يحصرها، ورحل إلى حماه فأخذها مستهل جمادى الآخرة، ثم مضى ونزل على حلب فحصرها ثالث الشهر، فلما اشتدّ على الحلبيين الحصار، وأعوزهم الانتصار، استغاثوا بالاسماعيلية وعينوا لهم ضياعاً، وبذلوا لهم من البذول أنواعاً، فجاء منهم في يوم بارد شات من فتاكهم كل عات، فعرفهم الأمير ناصح الدين خمار تكين صاحب أبو قبيس، وكان مشاغرا للاسماعيلية، فقال لهم: لأي شيء جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم، فقتلوه وجاء من يدفع عنه فأثخنوه، وعدا أحدهم ليهجم على السلطان في مقامه، وقد شهر سكين انتقامه، وطغريل أمير جاندار واقف ثابت ساكن ساكت، حتى وصل إليه فشمل بالسيف رأسه، وما قتل الباقون حتى قتلوا عدة، ولاقى من لاقاهم شدّة، وعصم الله حشاشته في تلك النوبة من سكاكين الحشيشية، فأقام إلى مستهل رجب، ثم رحل إلى حمص بسبب أن الحلبيين كاتبوا قمص طرابلس، وقد كان في أسر نور الدين مذ كسرة حارم، وبقي في الأسر أكثر من عشر سنين، ثم فدا نفسه بمبلغ مائة ألف وخمسين ألف دينار، وفكاك ألف أسير، فتوجه في الافرنجية إلى حمص، فلما سمع بالسلطان رجع ناكصا على عقبيه مخوفاً مما يقع فيه ويتم عليه.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى العادل: « قد اعلمنا المجلس أن العدوّ خذله الله كان الحلبيون قد استنجدوا بصلبانهم، واستصالوا على الاسلام بعدوانهم، وأنه خرج إلى بلد حمص، فوردنا حماه، وأخذنا في ترتيب الأطلاب لطلبه ولقاه، فسار إلى حصن الأكراد متعلقا بجبله، متفحصاً بحيله، وهذا فتح تفتح له أبواب القلوب، وظفر وإن كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب، فإن العدوّ قد سقطت حشمته، وانحطت فيه همته، وولى ظهراً كان صدره يصونه، ونكس صليباً كانت ترفعه شياطينه».

وقال العماد في الخريدة: لما خيم السلطان بظاهر حمص قصده المهذب ابن أسعد بقصيدة أوّلها:

ما نام بعد البين يستحلي الكرى
إلا ليطرقه الخيال إذا سرى

كلف بقربكم فلما عاقه
بعد المدى سلك الطريق الأخصرا

ومودع أمر التفرّق دمعه
ونهته رقبة كاشح فتحيرا

ومنها في المديح:

تردي الكتائب كتبه فإذا غدت
لم يدر أنفذ أسطراً أم عسكرا

لم يحسن الأتراب فوق سطورها
إلا لأن الجيش يعقد عثيرا

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين: هذا الذي يقول: « والشعر ما زال عند الترك متروكا» فعجل جائزته لتكذيب قوله، وتصديق ظنه،

فشرفه وجمع لـه بين الخلعة والصنعة، وعنى الفاضل ما قاله في قصيدة في مدح الصالح بن رزيك التي أولها : « أما كفاك تلافي في تلافيكا».

يقول فيها

يا كعبة الجود إن الفقر أقعدني
ورقة الحال عن مفروض حجيكا

من ارتجي يا كريم الدهر ينعشني
جدواه إن خاب سعي في رجائيكا

أأمدح الترك أبغي الفضل عندهم
والشعر ما زال عند الترك متروكا

أم أمدح السوقة النوكى لرفدهم
واضيعتا إن تخطتني أياديكا

لاتتركني وما أملت في سفري
سواك اقفل نحو الأهل صعلوكا

قلت: وقد مضى ذكر ابن أسعد هذا في اخبار سنة ثمان وخمسين، وسيأتي من شعره أيضاً في أخبار سنة ست وسبعين وثمان وسبعين، وما أحسن ما خرج ابن الدهان من الغزل إلى مدح ابن رزيك في قوله من قصيدة أوّلها :

إذا لاح برق من جنابك لامع
أضاء لسواش ما تجن الاضالع

يقول فيها:

تمادى بنا في جاهلية نحلها
وقد قام بالمعروف في الناس شارع

وتحسب ليل الشح يمتدّ بعدما
بدا طالعا شمس السخاء طلايع (١٤٣)

-٨١٧٠-

فصل

ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي المضا إلى الديوان العزيز برسالة ضمنها القاضي الفاضل كتابا طويلاً رائقا فائقاً يشتمل على تعداد ما للسلطان من الأيادي من جهاد الافرنج في حياة نور الدين ثم فتح مصر واليمن وبلاد جمة من أطراف المغرب، وإقامه الخطبة العباسية بها يقول في أوّله للرسول : «فإذا قضى التسليم حق اللقاء، واستدعى الاخلاص جهد الدعاء، فليعد و ليعد حوادث ما كانت حديثاً يفترى، وجواري أمور إن قال فيها كثيراً فأكثر منه ما قد جرى، وليشرح صدراً، منها لعله يشرح منا صدرا، وليوضح الأحوال المستسرة فإن الله لا يعبد سرا.

ومن الغرائب أن تسير غرائب
في الأرض لم يعلم بها المأمول
كالعيس أقتل ما يكون لها الصدى
والماء فوق ظهورها محمول

فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا، وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا، وسوانا يستمير، ونلقى السهام بنحورنا، وغيرنا يعتمد التصوير، ونصافح الصفاح بصدورنا، وغيرنا يدّعي التصدير، ولابد أن نستردّ بضاعتنا بموقف العدل الذي تردّ به الغصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب، وما كان العائق إلاّ أنا كنا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمه يضاهي ابتداءنا بالخدمه، وانجابا للحق يشاكل انجابنا للسبق، وكان أوّل أمرنا أنا كنا في الشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفار متقدّمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا في أي مدينة فتحت أو معقل ملك أو عسكر للعدوّ كسر، أو مصاف للاسلام معه ضرب، فما يجهل أحد صنعنا، ولا يجحد عدوّنا أنا نصطلي الجمره، ونملك الكره، ونتقدّم الجماعه، ونرتب المقاتله، وندبر

التعبيه إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها، وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير، وبما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير، وإن النظام بها قد فسد، والإسلام بها قد ضعف عن إقامة كل من قام وقعد، والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطعهم بأموال كثيرة، لها مقادير خطيرة، وإن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعه فإنها مقموعه، وأحكام الشريعة وإن كانت مسماه فإنها متحاماه، وتلك البدع بها على ما يعلم، وتلك الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الاسلام ويحكم، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون الله وتعظم وتفخم، فتعالى الله عن شبه العباد، وويل لمن غرّه تقلب الذين كفروا في البلاد، فسمت همتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مقفلها، ونسترجع للاسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالته منها، فسرنا إليها في عساكر ضخمه، وجموع جمه، وبأموال انتهكت الموجود، وبلغت منا المجهود، أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا، وثمن أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا، فعرضت عوارض منعت، وتوجهت للمصريين رسل باستنجاد الفرنج قطعت (لكل أجل كتاب) (١٤٤)، ولكل أمل باب، وكان في تقدير الله أنا نملكها على الوجه الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن، فغدر الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عظم خطبها وخبطها، وعلم أن استئصال كلمة الاسلام محطها، فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان كما كاتبنا بالعساكر المجموعة والأمراء والأهل المعروفة إلى بلاد قد تمهد لنا بها أمران، وتقرّر لنا في القلوب ودّان: الأوّل ما علموه من ايثارنا للمذهب الأقوم، وإحياء الحق الأقدم، والآخر ما يرجونه من فك أسارهم، وإقالة عثارهم، ففعل الله ما هو أهله، وجاء الخبر إلى العدوّ فانقطع حبله، وضاقت به سبله، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها وبلادها وأقاليمها قد نفذت فيها أوامره، وخفقت عليها صلبانه، ونصبت بها أوثانه، وأيس من

أن يسترجع ما كان بأيديهم حاصلاً، وأن يستنقذ ما صار في ملكهم داخلاً، ووصلنا البلاد، وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير وأموالهم واسعه، وكلمتهم جامعه، وهم على حرب الاسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف، كلهم أغتام أعجام، إن هم إلاّ كالانعام لا يعرفون رباً إلاّ ساكن قصره، ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه، وامتثال أمره، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانيه، موضوعة عنهم الجزيه، كانت لهم شوكة وشكة، وحمة وحمية، ولهم حواش لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخله، وتصيب القلوب مخاتله، ومن بين كتاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل، وخدّام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل، ودولة قد كبر نملها الصغير، ولم يعرف غيرها الكبير، ومهابة تمنع ما يكنه الضمير، فكيف بخطوات التدبير، هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائره، وتحريف للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل، وكفر سمي بغير اسمه، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه، فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار، ونتحيفهم تحيف الليل والنهار، فعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، ولطيف توصل ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير، وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج دفعة إلى بلبيس ودفعة إلى دمياط، وفي كل دفعة منها وصلوا بالعدد المجهز، والحشد الأوفز، وخصوصاً في نوبة دمياط فإنهم نازلوها بحراً في ألف مركب مقاتل وحامل، وبراً في مائتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ويصابحونها القتال الذي يصليه الصليب، والقراع الذي ينادي به الموت من مكان قريب، ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر، ونصابر الضدّين المنافق والكافر حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسودان والأجناد

فأخرجناهم مـن القاهرة تارة بالأوامر المرهقة لهم وتارة بـالأمور الفاضحة منهم، وطوراً بالسيوف المجرده وبالنـار المحرقه، حتى بقي القصر ومن به من خـدم ومن ذرية قـد تفرّقت شيعـه، وتمزقت بـدعه، وخفتت دعـوته، وخفيت ضلالتـه، فهنالك تم لنا إقـامة الكلمة، والجهر بالخطبـة، والرفع للواء الأسـود الأعظم، وعاجـل الله الطاغيـة الأكبر بهلاكه وفنائه، وبـرأنا من عهـدة يمين كان إثم حنثهـا أيسر من إثم إبقـائه، لأنه عوجـل لفرط روعتـه، ووافـق هـلاك شخصـه هلاك دولتـه، ولما خـلا ذرعنـا، ورحـب وسعنا، نظـرنا في الغـزوات إلى بلاد الكفـار، فلم تخرج سنـة إلا عن سنـة أقيمت فيها بـراً وبحراً مركبا وظهراً إلى أن أوسعناهـم قتلاً وأسرا، وملكنا رقـابهم قهراً وقسراً، وفتحنـا لهم معاقـل ما خطـر أهل الاسـلام فيها مـذ أخـذت من أيـديهم، ولا أوجفـت عليها خيلهـم ولا ركـابهم مذ ملكهـا أعاديهم، فمنهـا ما حكمت فيـه يد الخراب، ومنها مـا استولت عليـه يد الاكتساب، ومنها قلعة بثغر ايلة، كان العدوّ قد بناها في بحر الهند، وهو المسلـوك منـه إلى الحرمين واليمن وغـزا سـاحـل الحرم فساء منـه خلقـاً، وخـرق الكفـر في هـذا الجانـب خـرقـاً، فكـادت القبلـة أن يستـولى على أصلها، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها، ومقام الخليل عليه السلام أن يقوم به من ناره غير برد وسلام، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتطـرّقه مـن لا يـدين بها جـاء بـه مـن الإسلام، فـأخـذت هذه القلعـة، وصارت معقلاً للجهاد وموئلا لسفار البلاد وغيرهم من عباد العباد.

ثم قـال: «وكان بـاليمن مـا علم مـن أمر ابـن مهدي الضـال الملحد المبدع المتمرد، ولـه آثار في الاسلام وثار طالبه النبي صلى الله عليه وسلم لأنه سبى الشرائف الصالحات، وباعهن بـالثمن البخس، واستباح منهن كل مـا لا يقر لمسلـم عليه نفـس، ودان ببدعـه، ودعا إلى قبر أبيـه وسماه كعبة، وأخـذ أموال الرعـايا المعصومـة وأجاحهـا، وأحل الفروج المحـرمة وأباحهـا، فانهضنا إليه أخـانا بعسكرنـا بعد أن تكلفنا له نفقـات واسعه، واسلحـة رائعـة، وسـار فـأخذنـاه ولله الحمـد، وأنجـز الله فيـه القصـد،

والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند ساميه، وإلى ما يفتض الاسلام عذرته متماديه، ولنا في الغرب أثر أغرب، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك، كما يكون المهلك دون المطلب، وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم قد أمر، وملكهم قد عمر، وجيوشهم لاتطاق، وأمرهم لا يشاق، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيرنا إليها عسكراً بعد عسكر، فرجع بنصر بعد نصر، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير: برقة، قفصه، قسطيليه، توزر، كل هذا تقام فيها الخطبة لمولانا الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين سلام الله عليه، ولا عهد للاسلام باقامتها وتنفذ فيها الاحكام بعلمها المنصور وعلامتها، وفي هذه السنة كان عندنا وقد شاهده وفود الامصار، ورموه بأسماع وأبصار مقداره سبعون راكباً كلهم يطلب لسلطان بلده تقليداً، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً، وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وألقيت إلينا مقاليدها، وسيرنا الخلع والمناشير والألويه بما فيها من الأوامر والأقضيه، فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام، والعزائم الشداد، فمنهم صاحب قسطنطينيه، وهو الطاغية الأكبر، والجالوت الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت ، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغلبت، جرت لنا معه غزوات بحريه، ومناقلات ظاهرة وسريه، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة نوبتين بكتابين كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح، وإلقاء السلاح، والانتقال من معاداة إلى مهاداه، ومن مفاضحة إلى مناصحه، حتى أنه انذر بصاحب صقلية وأساطيله التي تردّد ذكرها وعساكره التي لم يخف أمرها، ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغلبا وقسرا وهزما وكسرا، أراد أن يظهر قوّته المستقلة فعمر أسطولاً يستوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن خمس سنين تكثر عدّته وتنتخب عدّته، إلى أن وصل منها في السنة

الخالية إلى الاسكندرية أمر رائع وخطب هائل، وما أثقل ظهر البحر مثل حمله، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله، وما هو إلا إقليم بل أقاليم يقله، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لو لا أن الله خذله، ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنوية، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يكونون سفاراً يحتكمون على الاسلام في الأموال المجلوبه، وتقصر عنهم يد الاحكام المرهوبه، وما منهم إلاّ من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا باهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قرّرت معهم المواصله، وانتظمت معهم المسالمه، على ما نريد ويكرهون، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون،ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية، وكنا في تلك السنة على نية الغزاة والعساكر قد تجهزت والمضارب قد برّزت، ونزل الفرنج على بانياس وأشرفوا على احتيازها، ورأوها فرصة مدّوا يد انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل بالعدوّ أمرها، وعوجل بالهدنة الدمشقية التي لو لا مسيرنا ما انتظم حكمها، ثم عدنا إلى البلاد، وتوافت إلينا الاخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها، وتشتت الأمور وتقطعها، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمح إليه طالب، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتخوفون بها الأطراف الاسلاميه، ويضايقون بها البلاد الشاميه، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا، والمماليك إلاّ عماد الدين خلقوا للاطراف لا للصدور، وجعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور، قد مدّوا الأيدي والأعين والسيوف، وسارت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يداً، ويجعلهم لظهره سنداً، وعلمنا أن البيت المقدّس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه وأمر الكفر إن لم نجرّد العزم في قلعه وإلا نبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خروقه، وكانت الحجة لله قائمه، وهم القادرين بالقعود دائمة، وإنا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوّه ، وإذا جاورناه كانت المصلحة باديه، والمنفعة

جامعه، واليد قادره، والبلاد قريبه، والغزوة ممكنه، والميرة متسعه، والخيل مستريحه، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعده، وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتله، وأمور مختله، وأراء فاسده، وأمراء متحاسده، وأطماع غالبه، وعقول غائبه، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه فما نابه أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه، ويظهرون الوفاء في خدمته وهم عاملون بظلمه، والمراد الآن هو كل ما يقوّي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الالفه، ويضمن الرأفه، ويفتح بقية البلاد، وأن يطبق الاسم العباسي كل ما تطبقه العهاد، وهو تقليد جامع بمصر واليمن والمغرب والشام، وكلما تشتمل عليه الولاية النوريةوكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا تقليداً يضمن للنعمة تخليداً، وللدعوة تجديداً، مع ما ينعم به من السمات التي فيها الملك، وبالجملة فالشام لا تنتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدّس ليس له قرن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لايمل الشر حتى يملوا، وقرنا لا يزال محرم السيف حتى يحلوا، وإذا شدّ رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله ويد كل مؤمن تحت برده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى الديوان في تعداد ماله من الأيادي: « والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك التي دوّخها، وسنن الضلال التي نسخها، وعقود الالحاد التي فسخها، ومنابر الباطل التي رحضها، وحجج الزندقة التي دحضها فلله عليه المنة فيه إذ أهله لشرف مشهده، وما فعله إلا لوجهه، ويد الله كانت عون يده، وإلا فقد قضت الليالي والأيام على تلك الأمور، وما تحركت للفلك في قلعها نابضه، وغيرت الأحوال على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها رابضه، فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده منها أن يجتهد في أخرى مثلها في الكفار، وقد عاد الاسلام إلى وطنه، وصوّحت من الكفر خضراء دمنه».

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه اعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية يقول فيه: « حتى أتى الدنيا ابن بجدتها، فقضى من الأمر ما قضى، وأسخط من لله في سخطه رضا، وجعل وجه لابسي السواد مبيضا، فأدرك لهم بثأر نامت عنه الهمم ودوّخت عليه الأمم، وشفى الصدور، وجاء بالحق إلى من غرّه بالله الغرور واستبضع إلى الله تعالى تجارة لن تبور».

ومن كتاب آخر: « قد بورك للخادم في الطاعة التي لبس الأولياء شعارها، وأمضى في الاعداء شفارها، وجمع عليها الدين وكان أديانا، واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت ألوانا».

ومن كتاب آخر: « لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلاّ وعد كان العقد بينه وبين نور الدين رحمه الله في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام المملوك بعسكري بره وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره، فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما، وحدثت بعد الأمور أمور اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور، وتحكمت الآراء الفاسدة، وفورقت المحاج القاصده، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين، والكفار محمولة إليها جزي المسلمين، والأمراء الذين كانوا للاسلام قواعد، وكانت سيوفهم للنصر موارد، يشكون ضيق حلقات الإسار، وتطرّق الكفار بالبناء في الحدود الاسلامية، ولا خفاء أن الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الاقطار وسيروا الصليب، ومن كسى مذابحهم بقمامه، وهدّدوا طاغية كفرهم بأشراط القيامه، وأنفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صور من يصورونه ممن يسمونهم القدّيسين، وقالوا: إن وقعت أوقعت فيها لا يستدرك فارطه وإن كلا من صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية وملك الالمان وملوك ما وراء البحر وأصحاب الجزائر كالبندقية والبيشانية والجنوية وغيرهم قد تأهبوا بالعمائر البحرية، والاساطيل القوية،

وللاسلام بأمير المؤمنين أعز نـاصر لا سيما وهم ينصرون باطلاً وهو ينصر حقا، وهو يعبد خالقاً، وهم يعبدون خلقاً».

فصل

قال العماد: وكنت بالموصل فسئلت نظم مـرثية في نور الدين، فنظمت بعد عودي إلى دمشق في رجب:

الدين في ظلم لغيبة نوره
والدهر في غمم لفقد أميره

فليندب الاسلام حامي أهله
والشام حافظ ملكه وثغوره

ما أعظم المقدار في اخطاره
إذ كان هذا الخطب في مقدوره

ما أكثر المتأسفين لفقد من
قرّت نواظرهم بفقد نظيره

ما أغوص الانسان في نسيانه
أو ما كفاه الموت في تذكيره

من للمساجد والمدارس بانيا
لله طوعا عن خلوص ضميره

من ينصر الاسلام في غزواته
فلقد أصيب بركنه وظهيره

من للفرنج ومن لأسر ملوكها
من للهدى يبغي فكاك أسيره

من للخطوب مذللا لجماحها
من للزمان مسهلا لوعوره

من كاشف للمعضلات برأيه
من مشرق في الداجيات بنوره

من للكريم ومن لنعش عثاره
من لليتيم ومن لجبر كسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها
من للجهاد ومن لحفظ أموره
من للفتوح محاولاً أبكارها
يرواحه في غدوه وبكوره
من للعلى وعهودها من للندى
ووفوده من للحجى ووفوره
ما كنت أحسب نور دين محمد
يخبو وليل الشرك في ديجوره
أعزز عليّ بليث غاب للهدى
يخلو الشرا من زوره وزئيره
أعزز عليّ بأن أراه مغيباً
عن محفل متشرف بحضوره
لهفي على تلك الأنامل إنها
مذ غيبت غاض الندى ببحوره
ولقد أتى من كنت تجري رسمه
فضع العلامة منك في منشوره
ولقد أتى من كنت تكشف كربه
فارفع ظلامته بنصر عشيره
ولقد أتى من كنت تؤمن سربه
وقع له بالأمن من محذوره
ولقد أتى من كنت تؤثر قربه
فأدم له التقريب في تقريره
والجيش قد ركب الغداة لعرضه
فاركب لتبصره أوان عبوره
أنت الذي أحييت شرع محمد
وقضيت بعد وفاته بنشوره

كم قد أمرت بحفر خندق معقل
حتى سكنت اللحد في محفوره
كم قيصر للروم رمت بقسره
ارواء بيض الهند من تاموره
أوتيت فتح حصونه وملكت عقر
بلاده وسبيت أهل قصوره
أزهدت في دار الفناء وأهلها
ورغبت في الخلد المقيم وحوره
أو ما وعدت القدس أنك منجز
ميعاده في فتحه وطهوره
فمتى تجير القدس من دنس العدى
وتقدّس الرحمن في تطهيره
يا حاملين سريره مهلاً فمن
عجب نهوضكم بحمل ثبيره
يا عابرين بنعشه انشقتم
من صالح الأعمال نشر عبيره
نزلت ملائكة السماء لدفنه
مستجمعين على شفير حفيره
ومن الجفاء له مقامي بعده
هلا وفيت وسرت عند مسيره
حياك معتل الصبا بنسيمه
وسقاك منهل الحيا بدروره
ولبست رضوان المهيمن ساحبا
أذيال سندس خزه وحريره
وسكنت عليين في فردوسه
حلف المسرة ظافراً بأجوره

قال العماد: وجاء نجاب إلى الموصل وذكر أنه فارق صلاح الدين بقرب دمشق بالكسوة، وهو الآن يستكمل من ملك دمشق الخطوة،

- ٨١٨١ -

فهاجني الطرب لقصده لسابق معرفته وقديم ودّه، فقدمت دمشق على طريق البرية، والسلطان على حلب، وكان العماد في عقابيل ألم فلما شفي وعاد السلطان إلى حمص قصده فيها، وقد تسلم قلعتها في شعبان في الحادي والعشرين منه، وقال: وكنت نظمت قصيدة في الشوق إلى دمشق والتأسف عليها، ثم جعلت مدح السلطان مخلصها وهي طويلة أوّلها:

أجيران جيرون مالي مجير
سوى عطفكم فاعدلوا أو فجوروا

ومالي سوى طيفكم زائر
فلا تمنعوه إذا لم تزوروا

يعز عليّ بأن الفؤاد
لديكم أسير وعنكم أسير

وما كنت أعلم أني أعيـ
ـش بعد الأحبة إني صبور

وفت أدمعي غير أن الكرى
وقلبي وصبري كل غدور

إلى ناس بانا ناس لي صبوة
لها الوجد داع وذكرى مثير

يزيد اشتياقي وينمو كما
يزيد يزيد وثورا يثور

ومن بردى برد قلبي المشوق
فها أنا من حره مستجير

وبالمرج مرجو عيشي الذي
على ذكره العذب عيشي مرير

فقدتكم ففقدت الحياة
ويوم اللقاء يكون النشور

تطاول لسؤلي عند القصير
فعن نيله اليوم باعي قصير

وكن لي بريدا بباب البريد
فأنت بأخبار شوقي خبير

متـــى تجدّ الـــسري بـــالقـــريتين
خـــوامـــص أثـــر فيهـــا الهجير
ونحـــو الجليجـــل أزجـــي المطـــي
لقـــد جـــل هـــذا المرام الخطير
تـــراني أنيـــخ بـــأدنـــى ضمير
مطـــايا بـــراهـــا الـــوجـــا والضمـــور
وعنـــد القطيفـــة والمشتهـــاة
قطـــوف بها الـــلأمـــاني سفـــور
ومنهـــا بكـــوري نحـــو القصير
ومنيـــة عمـــري ذاك البكـــور
ويـــا طيـــب بشراي مـــن جلـــق
إذا جـــاءني بـــالنجـــاح البشير
ويستبشر الأصـــدقـــاء الكـــرام
هنـــالـــك بي وتـــوفى النـــذور
تـــرى بـــالسـلامـــة يـــومـــا يكـــون
ببـــاب الســـلامـــة منـــي عبـــور
وإن جـــوازي ببـــاب الصغير
لعمـــري مـــن العمـــر حـــظ كبير
ومـــا جنـــة الخلـــد إلا دمشـــق
وفي القلـــب شـــوق إليهـــا سعير
ميـــادينهـــا الخضر فيـــح الـــرحـــاب
وسلســـالها العـــذب صـــاف نمير
وجـــامعهـــا الـــرحـــب والقبـــة الـــ
ـــمنيفة والفلـــك المستـــديـــر
وفي قبـــة النسر لي ســـادة
بهم للمكـــارم أفـــق منير
وبـــاب الفـــراديـــس فـــردوسهـــا
وسكـــانها أحســـن النـــاس حـــور

والارزه فـــالسهـــم فـــالنيربـــان
فجنـــات مـــزتها فـــالكفـــور
كـــأن الجواســـق مـــأهـــولـــة
بـــروج تطالـــع منهـــا البـــدور
بنير بها تستبير الهمـــــــــوم
بـــربـــوتها يتربـــى السرور
ومـــا غـــرّ في الـــربـــوة العاشقـــ
ـــين بـالحسن إلا الـربيـب الغـريـر
وعنـــد المغـــارة يـــوم الخميـــس
أغـــار على القلـــب منـــي مغير
وعنـــد المنيـــع عين الحيـــاة
مـــدى الـــدهـــر نـــابغـــة مـــا تغـــور
بجسر ابـــن شـــواش ثـــم السكـــون
لنفسي بنفسي تلـــك الجســـور
ومـــا أنـــس لا أنـــس انـــس العبـــور
على جسر جسريـــن إني جســـور
وكـــم بـــت ألهو بقـــرب الحبيـــب
في بيـــت لهيـــا ونـــام الغيـــور
فـــأيـــن اغتبـــاطـــي بـــالغـــوطتين
وتلـــك الليـــالي وتلـــك العصـــور
وأشجـــار سطـــرا بـــدت كـــالسطـــو
ر نمقهـــن البليـــغ البصير
وأيـــن تـــأملـــت فلـــك يـــدور
وعين تفـــور وبحـــر يمـــور
وأيـــن نظـــرت نسيـــم يـــرق
وزهـــر يـــروق وروض نضير
إلام القســـاوة يـــا قـــاسيـــون
وبين الســـــنا يتجلى سنير

ومنــذ ثــوى نــور ديــن الالــه
لم يبــق للــديــن والشــام نــور
وللنــاس بــا لملــك النــاصر الــ
ــصلاح صــلاح ونصر وخير
هــو الشمــس أفــلاكــه في البــلاد
ومطلعــه سرجــه والسريــر
إذا مــا سطــا أو حبــى واحتبــى
فما الليــث مــا حــاتم مــا ثبير
بيــوســف مصر وأيــامــه
تقــر العيــون وتشفــى الصــدور
ملكــت فــاسجــح فما للبــلاد
ســواك مجير ومــولى نصير
وفي معصــم الملــك للعــز منــ
ــك سوار ومنك على الــديــن سور
لــك الله في كــل مــا تبتغيــ
ــه بحــق ظهير ونعــم الظهير
أمــا المفســدون بمصر عصــوك
وهــذي ديــارهــم اليــوم قــور
أمــا الادعيــاء بها إذ نشطــت
لابعــادهــم زال منــك الفتــور
ويــوم الفــرنــج إذا مــا القــوك
عبــوس بــرغمهــم قمطــريــر
نهوضــاً إلى القــدس يشفــي الغليــ
ــل بفتــح الفتــوح ومــا ذا عسير
ســل الله تسهيــل صعــب الخطــو
ب فهــو على كــل شيء قــديــر
إليــك هجــرت ملــوك الــزمــان
فما لــك والله فيهــم نظير

- ٥٨١ه -

وفجـــرك فيـــه القـــرى والقـــرآن
جميعـــاً وفجـــر الجميـــع الفجـــور
وأنـــت تـــريـــق دمـــاء الفـــرنـــج
وعنـــدهـــم لا تـــراق الخمـــور

فصل

في فتح بعلبك

قال العماد: ولما فرغ السلطان من حمص وحصنها سار إلى بعلبك فتسلمها في رابع شهر رمضان

قال ابن أبي طيء: وكان بها خادم يقال له يمن، فلما شاهد كثرة عساكر السلطان اضطرب في أمره وراسل من بحلب على جناح طائر، فلم يرجع إليه منهم خبر فطلب الأمان، وسلم بعلبك إلى السلطان.

قال العماد: وهنأته بأبيات منها :

بفتـــوح عصرك يفخـــر الاســـلام
وبنـــور نصرك تشرق الايـــام
وبفتـــح قلعـــة بعلبـــك تهذبـــت
هـــذي الممالـــك واستقـــام الشـــام
ويكـــى الحسود دمـــا وثغـــر الثغـــر مـــن
فـــرح بنصرك للهـــدى بســـام
فتـــح تسنـــى في الصيـــام كـــأننـــا
شكـــراً لما منـــح الإلـــه صيـــام
مـــن ذا رأى في الصـــوم عيـــد سعـــادة
حلـــت لنـــا والفطـــر فيـــه حـــرام

أسدى صلاح الدين والدنيا يدا
بنو الهاسوق الرجاء تقام

فتمل فتحك واقصد الفتح الذي
بحصوله لفتوحك الاتمام

دم للعلى حتى يدوم نظامها
واسلم يعز بنصرك الاسلام

قال: ولزمت خدمته أرحل برحيله، وأنزل بنزوله، وكنت ليلة عنده، وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن سديد الملك علي بن منقذ، وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله موقوف، وإلى استحسانه مصروف، وقد استحسن قصيدة له طائية لو عاش الطائيان لأقرا بفضلها، وإن خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها على أن الشعراء المحدّثين ما منهم إلاّ من نظم على رويها ووزنها، واستمد خصب خاطره من مزنها فمنهم المعري وابن أبي حصينة والأرجاني والصالح ابن رزيك، وقد أوردت جميعها في كتاب الخريدة ومطلع قصيدة المعري: (١٤٥)

«لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا»

فنظمت في السلطان ونحن على بعلبك بتاريخ انسلاخ شعبان قصيدة طائية منها:

عفا الله عنكم مالكم أيها الرهط
قسطتم ومن قلب المحب لكم قسط

شرطتم لنا حفظ الوداد وخنتم
خيانتكم ما هكذا الود والشرط

جعلتم فؤاد المستهام بكم لكم
محطاً فعنه ثقل همكم حطوا

ملكتم فأنكرتم قديم مودّتي
كأن لم يكن في البين معرفة قسط

فـدت مهجتـي مـن لا يـذم لمهجتـي
إذا حـاكمتـه وهـو في الحكـم مشتـط
ومـا كنـت أدري قبـل سطـوة طـرفـه
بـان ضعيفـا فـاتـرا مثلـه يسطـو
وأهيـف لـلاشفـاق مـن ضعـف خصره
يحل نطـاقـا للقلـوب بـه ربـط
يـلازم قلبـي في الهوى القبـض مثلما
يـلازم كـف النـاصر الملـك البسـط
مليـك حـوى الملـك العقيـم بضبطـه
كـريـم ومـا للمال في يـده ضبـط
إذا التثمـت أيـدي الملـوك فعنـده
مـدى الـدهـر إجـلالاً لـه تلثم البسـط
عنـالـك طـوعـاً نيـل مصر ودجلـة الـ
ـعراق ودان الغـرب والعجـم والقبـط
وللنيـل شـط ينتهـي سيبـه بـه
ونيلـك للـراجين نيـل ولا شـط
عـدوّك مثـل الشمـع في نـار حقـده
لـه عنـق اصـلاح فـاسـده القسـط

وهي ثمانية وثمانون بيتاً، ولسعادة الأعمى قصيدة طائية في السلطان سيأتي ذكرها.

قال العماد: ولما وصلت إلى السلطان ورغبت منه في الاحسان وجدته لأمري مغفلاً، ولشغلي مهملاً، ثم عرفت أن حسادي قالوا له: متى أعدت ديوان الكتابة إلى العماد وهو لا شك بمحل الوثوق والاعتماد، وهذا منصب الأجل الفاضل، وهو عنده في أجل المنازل، ربما ضاق صدره، وتشعث سره، فلما عرفت هذا المعنى، لجأت إلى الفضل الفاضلي لأنه به يعني، فقام بأمري، ونوّه بقدري وأراح سري وشدّ أزري.

-٨١٨٨-

فصل

فيما جرى للمواصلة والحلبيين مع السلطان في هذه السنة

قال ابن شدّاد: ولما أحسّ سيف الدين صاحب الموصل بما جرى، علم أن الرجل قد استفحل أمره، وعظم شأنه، وعلت كلمته، وخاف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد، واستقر قدمه في الملك وتعدّى الأمر إليه، فجهز عسكراً وافراً وجيشاً عظيماً، وقدّم عليهم أخاه عز الدين مسعوداً و ساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه وردّه عن البلاد، فوصل إلى حلب والسلطان بحمص، وإنضم إليه من كان بحلب من العسكر، وخرجوا في جمع عظيم، ولما عرف السلطان بمسيرهم سار حتى وافاهم بقرون حماه وراسلهم وراسلوه، واجتهد أن يصالحهم فما صالحوه، ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الأكبر والمقصود الأوفر، والقضاء يجر إلى أمور وهم بها لا يشعرون، وقام المصاف بين العسكرين، فقضى الله تعالى أن انكسروا بين يديه، وأسر جماعة منهم ومن عليهم وأطلقهم، وذلك عند قرون حماه في تاسع عشر شهر رمضان، ثم سار عقيب انكسارهم، ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية، وصالحوه على أن أخذ المعرة وكفر طاب وبارين.

قال العماد: لما تسلم السلطان قلعة بعلبك عاد إلى حمص، وقد وصل عز الدين مسعود أخو صاحب الموصل إلى حلب نجدة، ولما عرفوا أن السلطان مشغول بالحصون جاؤوا إلى حماه فحصروها وراسلوا في الصلح فقدم السلطان في خف من أصحابه وجاء كمشتكين وابن العجمي وغيرهما، وأجابهم السلطان إلى ما طلبوا وأن يردّ عليهم الحصون، وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصالح وله خاطباً، وعلى الانتماء إليه مواظباً، وأن يردّ كل ما أخذه من الخزانة، وأن يسلك فيه سبيل الأمانة، فلما رأوه مجيباً لكل ما يلتمس منه، وهو في عسكر خفيف قالوا: ما خيره

صحيح فشرعوا في الاشتطاط، فطلبوا الرحبة وأعمالها، فقال: هي لابن عمي ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكيف ألحق به في رضاكم المكروه فنفروا وجفلوا وأصبحوا على الرحيل إلى جانب العاصي قريباً من شيزر، وجمعوا العسكر، وأظهروا أنهم على المصاف، وعزم الانتصاف، فعبر السلطان إلى سفح قرون حماه خيامه، وركز على مقابلتهم أعلامه، ووصل العسكر المصري في عشرة من المقدّمين، منهم: فرخشاه وأخوه تقي الدين، والتقوا فهزمهم السلطان ونزل في منزلتهم.

قال العماد: ومما نظمت في هذه الوقعة في مدح ناصر الدين محمد بن شيركوه قصيدة، فقد كان له فيها غناء وبلاء حسن منها:

ولقد ألفت نفارها وهويتها
إذ ليس ينكر للظباء نفار

يا جارة للقلب جائرة دعي
ظلمي وإلا قلت جار الجار

قلبي كطرفك ما يفيق افاقة
سكران ما دارت عليه عقار

صب بصب الدمع محترق الحشا
خطرت ببال بلائه الاخطار

لم يخش من خطر الهوى حتى حمى
ذاك القوام شبيهه الخفار

يذري الدموع كأنهن عوارف
لابن الملك شيركوه غزار

من آل شاذي الشائدين بنا العلى
أركانهن لهادم وشفار

حسنت بهم للدولة الأيام والـ
أعمال والأحوال والآثار

قد حاز ملك الشام يوسف الذي
في مصر تغبط عصره الاعصار

نصر الهدى فتوطد الاسلام في
أيامه وتضعضع الكفار

ومنها :
لما لقيت جموعهم منظومة
صيرت ذاك النظم وهو نثار

ومنها:
في حالتي جود وبأس لم يزل
للتبر والأعداء منك تبار
تهب الألوف ولا تهاب ألوفهم
هان العدوّ عليك والدينار
لما جرى العاصي هنالك طائعا
بدمائهم فجرت به الأنهار
وتحطمت عند القرون قرونهم
بل كلت الأنياب والأظفار
عبروا المعرة مالكين معرة
والعار يملك تارة ويعار
أو ما كفاهم يوم حمص وكفهم
في بعلبك بمثلها الانذار

قال: وهنأت الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بقصيدة منها،
لا تفن من فرق الفراق الأدمعا
فهي الشهود على الغرام المدّعي
واستبق صبرك ما استطعت فإنه
عون لقلبك إن هما ثبتا معا

قلب أصابته العيون ولم يزل
من مسها بالها جسات مروّعا
ما باله قد صدّ عند صدودهم
عني ولما ودّعوني ودّعا
ومن التحير أنني أبصرته
في ظعنهم وسألت عنه الأضلعا
أصبحت إذ شيعتهم لثلاثة
صبري وغمضي والفؤاد مشيعا

ومنها:
أو ما اتقيتم حين رعتم سربه
فيه تقي الدين ذاك الأروعا
عمر بن شاهنشاه من هو عامر
أركان ملك الشام حين تضعضعا
خضع العدوّ وذل بعد تعزز
لكم وحق عدوّكم أن يخضعا
من معشر غر يرون جميع ما
لم يبذلوه في السماح مضيعا
في مصر واليمن اجتلينا منهم
في عصرنا تبعا أليوسف تبعا
الحاويان بملك مصر ومكة
والشام واليمن الحظايا الأربعا
لما عصى الأعداء بالعاصي جرى
بدمائهم طوعا سيولا دفعا

وقال ابن أبي طي: لما تسلم السلطان بعلبك، وأزاح عللها، عاد إلى حمص ونزل بها، فاتصل به ورود عز الدين مسعود أخي سيف الدين صاحب الموصل نجدة للملك الصالح، وكان سبب وروده أن جماعة من أمراء حلب لما كان السلطان نازلاً على حلب أجمعوا آراءهم، وكاتبوا

سيف الـدين وألـزموه نجـدة ابن عمـه، وأخبروه أن السلطان متـى ملك حلـب لم يكن لـه قصد إلا الموصـل، وأرسلوا بـذلك أمين الـدين هـاشما خطيب حلب، وقطب الدين ينال بـن حسان، وغرس الدين قليج، وكان سيف الـدين منازلاً لسنجـار، وفيها أخـوه عماد الدين زنكـي، وكان عماد الدين قـد أظهر الانتماء إلى السلطان فأنجده السلطان بقطعـة من جيشه فكسرهم ونهبهـم عماد الدين بهم وبعسكـره، فلما وصلت رسـالة الحلبيين إلى سيف الدين صـالح أخاه عماد الدين، وحشد عسكـره، وأنفذ يجيبهـم مع أخيـه عز الـدين مسعود، فـورد حلب بعـد رحيل السلطـان عنها إلى بعلبك، فاغتنـم الحلبيون بعد السلطان عنهـم، فاحتشدوا وخرجـوا جميعاً حتـى خيموا على حماه، وأخـذوا في حصارهـا، واتصل بـالسلطان ذلـك، فرحل من بعلبك إلى حمص ، وبلغ عز الـدين، فعاد عن حماه، ونزل قريباً من جباب التركمان إلى جهة العاصي إلى قريـب من شيزر، وراسل النائب بحماه علي بـن أبي الفـوارس يقـول لـه: إنما وصلـت في إصـلاح الحال، ووضـع أوزار القتال، وسـأله مكـاتبـة السلطان فيما يجمـع الكلمة،ويلـم شعب الفـرقه، فكتب ابـن أبي الفوارس بـذلك إلى السلطان، وحسـن له الصلح، وتلطف في ذلك غـاية التلطف، وقدم أبو صالـح ابن العجمي، وسعد الـدين كمشتكين لطلـب الصلح فـأجابهما السلطـان إلى ما أرادوا وتقـرر الأمر على أنـه يردّ إليهـم جميع الحصـون والبلاد، ويقنـع بدمشـق وحدهـا، ويكون نـائباً للملك الصـالح، فلما عـاين سعد الـدين اجـابة السلطان إلى الصلح والنـزول عن جميع الحصون التـي أخذها حمص وحماه وبعلبـك طمـع في جـانـب السلطـان وتجاوز الحدّ في الإقتراح، وطلـب الرحبـة وأعمالها فقال: هي لابـن عمي ولا سبيـل إلى أخذها، فقـام سعد الدين من بين يـديه نافراً، وكان ذلك برأي أبي صالـح ابن العجمي لأنه كان معـه فاجتهد السلطان بـه أن يرجع فلـم يفعل وخرج إلى عز الـدين مسعـود، وكان بعـد نـازلاً على حماه وحدّثـه مـا دار بينه وبين السلطـان، وهـون عليـه أبـو صـالـح أمر السلطـان، وأخبره بقلـة مـن معـه، وكـان

السلطان لما كوتب في أمر الصلح سار في خف من أصحابه فلما علموا بذلك طمعوا في جانبه، وعوّلوا على لقائه وانتهاز الفرصة في أمره، فكاتب باقي أصحابه واستعدّ لحربهم، وسار إلى أن نزل على قرون حماه، وأخذ في مدافعة الأيام، حتى يقدم عليه باقي عسكره، وراسلهم في التلطف للأحوال، فلم ينجع فيهم حال وكانوا في كل يوم يعزمون على لقائه وقتاله، فيبطل عزيمتهم بمراسلة يفتعلها تسويفاً للأوقات، وتقطيعا للزمان حتى يقدم عليه عسكره، وكانت هيبته قد ملأت صدور القوم، ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفرصة ونالوا منه الغرض.

قال: وفي يوم الأحد تاسع عشر رمضان التقوا، ولم يكن بعد قد وصل للسلطان من عسكره أحد، فتجمع أصحاب السلطان كردوسا واحداً وأخذوا يحملون يمنة ويسرة ويدافعون الأوقات رجاء أن يتصل بهم بعض العسكر، وضري عسكر حلب والعسكر الموصلي على أصحاب السلطان حين شاهدوا قلتهم واجتماعهم، وكاد أصحاب السلطان يولون الأدبار، فوصل تقي الدين عمر عند الحاجة إليه لتمام السعادة للسلطان، فإنه لو تأخر ساعة لانكسر عسكره، فوصل تقي الدين في عسكر مصر وجماعة من الأمراء وهم غير عالمين بالحرب وقيامها فلما رأوا الناس في الكر والضرب الهبر، حملوا جميعاً بعد أن افترقوا في الميمنة والميسرة فصدموا عسكر الموصل صدمة ضعضعتهم، وكان السلطان في هذه المدّة قد كاتب جماعة من عسكرهم واستفسدهم إليه وحمل إليهم الأموال وهذا هو الذي أبطأ بهم إلى أن وصلت عساكره وإلا فلو كان عسكر حلب نصح لم يقدر السلطان على الثبوت ساعة، فلما اشتدّ القتال لم ينصح الجماعة التي كاتبها السلطان، بل كانوا مثبطين مخوّفين لمن قرب منهم، ثم إنهم بعد ذلك انهزموا وتبعهم عسكر السلطان، واستباحوا أموالهم وخيامهم، وأمر السلطان أصحابه أن لا يوغلوا في طلبهم، ولا يقتلوا من رأوه منهزماً ولا يذففوا على جريح، ورحل حتى نزل في منزلتهم، ثم سار من وقته مجدا حتى نزل بمرج قرا حصار، ولم يزل هناك حتى عيد عيد

الفطر، فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة، وأن يقر الملك الصالح على ما في يده وما هو جار تحت حكمه من الشام الأسفل إلى بلد حماه، فلم يرض بذلك فجعلوا له مع حماه المعرّة وكفر طاب فرضي بذلك، وحلف على نسخة رأيتها وعليها خطه.

قال: وكان في جملة اليمين أنه متى قصد الملك الصالح عدوّ حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه، وأن لا يغير الدعاء له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وولاية أصحابه، وأن تكون السكة باسمه، ولما حلف السلطان والملك الصالح وأمراؤه، عاد السلطان قاصداً دمشق، فلما وصل إلى حماه وصلت إليه رسل الخليفة المستضيء ومعهم التشريفات الجليلة والاعلام السود، وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام، وفي هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلبي:

يا أيها الملك العزيز فضله ... لقد غدوت بالعلى مليا

كفى أمير المؤمنين شرفا ... أنك أصبحت له وليا

طارحك الودّ على شحط النوى ... فكنت ذاك الصادق الوفيا

أولاك من لباسه زخرفة ... لم يولها قبلك آدميا

ناسبت الروض سنا وبهجة ... حتى حكته رونقا وريا

قال: ورحل السلطان من حماه إلى بعرين، وكان فيها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني، وكان خرج إلى السلطان لما وصل إلى الشام، وتطارح عليه وخدمه، وظنّ أن السلطان يقدّمه على عساكره فلم يلتفت إليه، فترك السلطان وعاد إلى حصن بعرين فأغضب السلطان ذلك، وسار إليه وحاصره حتى تسلم حصنه.

وقال العماد: نـزل السلطان قـرا حصار بنيـة الحصار، فجـاءت رسلهم بالانقياد، وأجابوا إلى المراد، وقـالوا: اقنعوا بها أخذتموه إلى حماه ولا تشتموا بنا العـداه فاستـزدنا عليهم كفـر طاب والمعـرّة، واستوفينـا عليهم الأيمان المستقرّة، وسـألهم في المعتقلين أخوة مجد الدين، فـأجابوا وأفرجـوا عنهم، وتم الصلـح، وعم النجـح، ورحلنا ظـاهريـن ظافـرين، ونـزلنا حماه يـوم الاثنين ثـاني عشر شـوّال، وبها وصلـت إليـه رسـل الـديـوان العـزيـز بـالتشريفـات والتقليـد بها أراد مـن الولايـات، وأفـاضـوا على السلطـان وأقاربه الخلـع وخص ناصر الديـن محمد بن شيركوه بمـزيد تفضيل على أقارب السلطان، وكأنـه رعاية لحق والده أسد الديـن رحمه الله، ثم تسلم السلطـان حصـن بعـريـن، وكـان بيد الأمير فخـر الـديـن مسعـود ابـن الزعفـراني، وهو مـن أكابـر أمراء نـور الديـن ، وذلك في أواخـر شوّال، وأقطع مدينة حماه لابـن خاله وصهره الأمير شهاب الديـن محمود، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين

قـال العماد: وأذكـر أنـا عبرنـا نهر العاصي عـائديـن، وقـد انكسفـت الشمس وادلهم النهـار، وغلب على القلوب الاستشعـار وطاحـت الأنوار وخفيـت الرسوم وظهرت النجـوم، وجئنـا حمص، ثم بعلبـك ثم البقـاع، ووصلنا دمشق في ذي القعدة.

فصل

قال العماد: قد سبق ذكـر ما قرره حسادي في خاطر السلطـان، وقالوا: شغله المكاتبة وهي منصب الأجل الفـاضل، وهو يستنيب فيه من رآه من الأفاضـل، وهذا تصرّفـه برفـد جزيـل، ووجه جميـل، والسلطان مـع شدة رغبته، متـوقف، وإلى ظهـور وجه النجـاح في أمري متشـوّف، وكنت قـد أنست مدّة مقـامي بالعسكر بـذي المجد والمفخر ومورد الكـرم والمصدر الأمير نجم الدين بن مصال، وهـو ذو فضل وأفضال، وقبول واقبال، وله

من السلطان ومن الفاضل لجلالة قدره إجلال، وقد مال إلى فضله ونباهته ونبله، وكان أبوه قد وزر للحافظ في آخر عهده، متفرداً بسؤدده ومجده، وكان من أهل السنة والجماعة، والتقى والورع والعفاف والطاعة، وله يد عند السلطان في النوب التي قصدوا فيها مصر، وأجزل عنده الاحسان والبرّ لاسيما عند كونه بالاسكندرية محصوراً، وكان احسانه مشكوراً، واعتناؤه لحفظه مشهوراً، فلما ملك أحبه، واختار قربه، فلزمت له التودد وجعلته الوسيط بيني وبين الأجل الفاضل، واتخذته من الحجج والوسائل، ووقفت خاطري على تقاضيه نظماً ونثراً، ورسالة وشعراً، فمن ذلك ما كتبته إليه:

لعل نجم الدين ذا الفضل
يذكر الفاضل في شغلي

إن أجل الناس قدراً فتى
بفضله يتعب من أجلي

ومثله من يعتني بالعلى
ويستديم الحمد من مثلي

قال: وأوّل ما أهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص في شعبان منها:

عاينت طود سكينة ورأيت شمـ
ـس فضيلة ووردت بحر فواضل

ورأيت سحبان البلاغة ساحبا
ببيانه ذيل الفخار لوائل

أبصرت قساً في الفصاحة معجزا
فعرفت أني في فهاهة باقل

حلف الحصافة والفصاحة والسما
حة والحماسة والتقى والنائل

بحر من الفضل الغزير خضمه
طامي العباب وماله من ساحل

وجميع ما في الأرض سبعة أبحر
وبحوره تسمى بعشر أنامل

في كفه قلم يعجل جريه
ما كان من أجل ورزق آجل

يجري ولا جري الحسام إذا جرى
حداه بل جري القضاء النازل

نابت كتابته مناب كتيبة
كفلت بهزم كتائب وجحافل

فعدوّه في عدوه ووليه
في عدله أكرم بعاد عادل

ريان من ماء التقى صاد إلى
كسب المحامد وهي خير مناهل

يا واحد العصر الذي بذ الورى
فضلاً بغير مشابه ومشاكل

مالي وجاه الجاهلين فأغنني
عنهم كفيتهم وجد بالجاه لي

أرجوك معتنيا لدى السلطان بي
كرما فمثلك يعتني بأماثلي

قرّر لي الشغل المبجل مخليا
بالي من الهم المقيم الشاغل

قال: فدخل الفاضل إلى السلطان وعرّفه أنه فيّ راغب، وقال: أنا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة، وغداً تكاتبك ملوك الأعاجم، ولا تستغني في الملك عن عقد الملطفات، وحل التراجم، والعماد يفي بذلك، ولك اختاره وقد عرف في الدولة النورية مقداره، وأخذ لي خط السلطان بما قرره لي من شغلي، وقد عرف أن الأجل الفاضل قد أجل فضلي.

قال وخدمت أمير المؤمنين المستضيء بالله في ذي القعدة مع الرسل بهذه القصيدة:

- ٨١٩٨ -

أصح عقود الغانيات مريضها
وأفتك ألحاظ الحسان غضيضها

يقول في مديحها:
ومن عجب صلت لقبلة بأسهم
رؤوس أعاد من ظباهم محيضها

قال ابن أبي طي: وظهر في مشغرا قرية من قرى دمشق رجل ادّعى النبوّة، وكان من أهل المغرب، وأظهر من التخاييل والتمويهات ما فتن به الناس واتبعه عالم عظيم من الفلاحين وأهل السواد وعصى على أهل دمشق، ثم هرب من مشغرا في الليل وصار إلى بلد حلب، وعاد إلى افساد عقول الفلاحين بما يريهم من الشعبذة والتخاييل، وهوى امرأة وعلمها ذلك وادّعت أيضا النبوّة.

قال: وفيها توفي شهاب الدين الياس الارتقي، صاحب البيرة، وأوصى إلى الملك الناصر صلاح الدين بولده شهاب الدين محمد

- ٨١٩٩ -

ثم دخلت سنة احدى وسبعين

قال العماد: والسلطان نازل بمرج الصفر من دمشق، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم أموراً فالتزموها، وكان الشام ذلك العام جدبا، فأذن السلطان للعساكر المصرية في الرحيل إلى بلادهم، وإذا استغلوها خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل واعتمد على العماد فيما كان بصدده، وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل، وعلى الصيد، ومدحه العماد بقصيدة منها:

سواك لسهم العلى لن يريشاً ... فنسأل رب العلى أن تعيشا

من الناس بالبر صدت الكرا ... م وبالبأس في البر صدت الوحوشا

وكم سرت من مصر نحو العريـ ... ـش فهدّمت للمشركين العروشا

سراياك تبعث قدّامها ... من الرعب نحو الاعادي جيوشا

ويوم حماة تركت العدا ... ة كما طيرت بالفلا الريح ريشا

قال: ومدحت مستهل ربيع الأول تقي الدين بقصيدة موسومة، وكان قد فوّض إليه ولاية دمشق، ومنها بيتان ابتكرت المعنى فيهما، ولم أسبق إليهما وهما:

يفيد العاقل اليقظ التغابي ... ليدرك في الغنى حظ الغبيّ

ولم تصب السهام على اعتدال ... بها لولا اعوجاج في القسيّ

فقل للدهر يقصر عن عنادي ... أما هو يتقي بأس التقيّ

حلفـت بـتـرب مكـة والمصلى
وثـاوي تـرب طيبـه والغـريّ (١٤٦)
لأنتـم يـا بنـي أيـوب خير الـ
ـورى بعـد الامـام المستضيّ

قال: وفي أوّل هـذه السنة وصل إلى دمشق الجماعـة الذين خرجـوا من بغـداد لموافقـة قطـب الـديـن قايماز، فـأخـذوا لأنفسهـم بـالالتجـاء إلى السلطان والاحتراز، وكـان قايماز هـذا محكماً في الدولـة الاماميـة، من أوّل الأيام المستنجـدية، وقـوي في الأيام المستضيئيـة على وزير الخليفـة عضد الدين ابن رئيـس الرؤساء، وسامه أنواع البلاء، وأخافـه ورام اتلافه حتى استعاذ منـه برباط صدر الـدين شيـخ الشيوخ فسلـم به، ثـم إن قايماز خـالف الخليفـة، وشـق العصـى وعنّ لـه حصـار الـدار، فأمـر الخليفـة بالقبـض عليه، فلـم ينج لما احيط بـداره إلاّ بفتح بـاب في جداره، وانهزم فوصـل إلى الحله في أوائل ذي القعـدة سنة سبعين وهـو في موسـم الحج فجمع رجالـه وتوجه إلى الموصل وخانـه أخوانه وخذله أصحـابه فتوفي في بعـض قرى الموصـل، وتفـرّق أصحابـه في البـلاد، فمنهـم من رجـع إلى بغداد، ومنهـم من أتى الشام منهـم: حسام الـدين تمريـك، وعز الـدين اقبودي بن ازغـش، وكان صهر السلطان قديماً، وعنده كـريماً، فأقطعه في الـديار المصريـة، وكتب في حقـه إلى الديـوان شفـاعة في تخليـص مالـه، واستقامـة حالـه، وكان ذا خـزائن مملوّه، وخيـل مسومـه، فلم يكـن ذنبه عنـدهم في متـابعـة قايماز ممـا يقبل الصفـح، وكـان اقبودي زوج أخـت السلطان، والسلطان خال بنتـه، وهي زوجة عز الدين فـرخشاه ابن أخي السلطان.

قلت: وفي بعض الكتـب المحررة عن السلطان إلى وزير بغـداد بالمثال الفاضلي:« وما نحسب أنا مع الموالاة المتنـاصرة المستظهرة والمساعي التي كـانت لثـارات هذه الـدولة بـالغـة ولأعدائهـم دافعة، ولمنـازعيهم الأمـر

قاصمه، ولمجاذيبهم الحق واقمة، وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمه، وكوننا ما أعنا منهم بنجدة من رجال ولا بهادة من مال، ولا بإعانة بحال من الأحوال، يردّ سؤالنا من الدولة أعلاها الله في ذي قربى لا نستطيع دفعه، ولا يقبل أسباب النفع إذا أردنا نفعه، فالاجبار عندنا واسعه، والأعواض لدينا غير متعذره، والولايات التي نفوّضها إليه عن كفايته غير مستغنيّه، ولكنه ما باع بمكانه من الخدمة مكاناً، ولاآثر غير سلطانه سلطانا، وله إعذار لا بأس أن نعيره فيها لسانا وبيانا»، ثم ذكرها، ثم قال: «وهذا الأمير جزء منا فكيف يعدّ جزء منا عاصيا وبألسنتنا وسيوفنا يدعى الخلق إلى الطاعة، وكيف تخلو دار الخلافة من واحد من أهلنا ينوب عنا، وعن بقية الجماعة، فنحن في أنفسنا نشفع، وعن جاهنا ندفع، وفي مكاننا نسأل، وبحظنا الذي لا نسمح به للاسلام نبخل، وأنت أيها الأمير السائر ثالث رسول ندب في أمر هذا الأمير، والله وليّ التدبير».

وقال العماد في الخريدة: كنت جالساً بين يدي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق في دار العدل أنفذ ما يأمر به من الشغل، فحضر سعادة الأعمى من أهل حمص، وكان مملوكاً لبعض الدمشقيين مولداً و يكتب على قصائده سعيد بن عبد الله فوقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان سنة احدى وسبعين:

سلطانها الملك ابن أيوب الذي ... كفاه لا ينكف عن هطلانها
بمواهب لو لم أكن نوحاً لما ... نجيت يوم نداه من طوفانها
سمح يروح إلى الندى براحة ... قد أعشب المعروف بين بنانها
وفتى إذا زخرت بحار نواله ... غرقت بحار الأرض في خلجانها
تلك السيوف المرهفات بكفه ... أمضى على الأيام من حدثانها

ملك إذا جليت عرائس ملكه
رصعت فريد العدل في تيجانها
فأسلم صلاح الدين وابق لدولة
ذلت لدولتها ملوك زمانها
وانهض إلى فتح السواحل نهضة
قادت لك الأعداء بعد حرانها

وهي طويلة.

قال: وقام اليوم الذي يليه وقد جلس السلطان للعدل، فأنشده قصيدة منها:

هل بعد جلق إلا أن ترى حلبا
وقد تحلل منها مشكل عقد
وقد أتتك كما تختار طائعة
وقد عنا لك منها الحصن والبلد

قال: وكان سعادة سافر إلى مصر في أوّل مملكة الملك الناصر، فمدحه بقصيدة طائيه فأعطاه ألف دينار، فمنها يصف غارته على غزه، وعوده من ذلك الغزو بالعزه:

فتى مذ غزا بالخيل والرجل غزة
نأى عن نواحيها الرضى ودنا السخط
رماها بأسد ما لهنّ مرابض
ولا أجم إلاّ الذي تنبت الخط
وعاث ضواحيها ضحى بكتائب
من الترك لا نوب طعام ولا قبط

وله في السلطان قصائد (١٤٧) أخرى

قال: وقام البهاء السنجاري وأنشد الملك الناصر قصيدة في دار

العدل بدمشق سنة احدى وسبعين في شعبان منها:

يا ظبية الحرمين من مصر على الـ ... ـربيع السلام إذا تقوّض أو عفا

اصبو إلى عصر تقادم عهده ... فأزيد من وله عليه تلهفا

أحبابنا بالقصر لو قصرتم الـ ... ـهجران ما شمت الحسود ولا اشتفى

أشكو إلى الوادي فيحنو بانه ... من رقة الشكوى عليّ تعطفا

ومنها:

وجرى بي الأمل الطموح فأم بي ... سلطان أرض الله طرا يوسفا

الناهب الأرواح في طلب العلى ... والواهب الآجال في حسن الوفا (١٤٨)

فصل

فيما تجدد للمواصلة والحلبيين

قد سبق ذكر الصلح الذي جرى بين السلطان والحلبيين، فلما سمع به المواصلة عتبوا عليهم ووبخوهم ونسبوهم إلى العجلة في ذلك وسلوك غير طريق الحزم، فحملوهم على النقض والنكث، وأنفذوا من أخذ عليهم المواثيق، وتوجه ذلك الرسول منهم إلى دمشق ليأخذ للمواصلة من السلطان عهده، ويكشف أيضاً ما عنده، فلما خلا به، طالبه السلطان بنسخة الرأي، فغلط وأخرج من كمه نسخة يمين الحلبيين لهم وناولها إياه، فتأملها وأخفى سرّه وما أبداه، واطلع على ما اتفقوا عليه

وردهـا إليه، وقـال: لعلها قـد تبدلـت، فعرف الـرسول أنـه قد غلـط ولم يمكنه تلافي ما فرط وقال السلطان: كيف حلف الحلبيون للمواصلة ومن شرط ايمانهم أنهم لا يعتمدون أمراً إلا بمراجعتهـم لنا واستئذانهم، وعرف مـن ذلك اليـوم أن العهـد منقوض، والـوفاء مـرفـوض، وشاع الخبر عـن المواصلـة بالخروج في الـربيـع، فكتب السلطـان إلى أخيـه العادل، وهـو نائبه بمصر يعلمـه بذلك، ويأمره أن يـأمر العساكر بـالاستعداد للخروج في شعبان

قلت: وفي كتاب طويل فاضلي جليل إلى بغداد عن السلطان « يطالع بأن الحلبيين والموصليين لما وضعـوا السلاح وخفضوا الجناح اقتصرنـا بعد أن كانت البلاد في أيدينا على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارات إلى الكفر، وعرضنـا عليهم الأمانة فحملوهـا، والأيمان فبذلوها، وسـار رسولنا وحلـف صاحـب الموصل بمحضر مـن فقهـاء بلده وأمراء مشهده يمينـا جعل الله فيها حكما، وضيـق في نكثها المجال على من كـان حنيفاً مسلماً، وعاد رسـوله ليـسمـع منا اليمين، فلما حضر وأحضر نسختهـا أومى بيـده ليخرجها، فـأخرج نسخة يمين كانـت بين الموصليين والحلبيين، مضمونها الاتفاق على حـزبنا، والتـداعي إلى حـربنا، والتسـاعد على إزالـة خطبنا، والإستنفـار لمن هو على بعـدنا وقـربنـا، وقد حلـف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يمينا نقضـت الأولى، فرددنا اليمين إلى يمين الرسول، وقلنـا هـذه يمين عـن الايمان خارجـه، وأردت عمـراً وأراد الله خـارجـه، وانصرف الرسول عـن بابنا وقد نـزهنا الله أن يكون اسمه معـرّضاً للحنث العظيم، والنكث الذميم، وعلمنا أن النـاقد بصير، والأخذ قدير، والمواقف الشريفـة النبويـة أعلاهـا الله مستخـرجة الأوامـر إلى الموصلي إما بكتـاب مؤكـد بأن لا ينقـض عهد الله مـن بعد ميثـاقه، وإمـا أن تكون الفسحـة واقعة لنا في تضييق خناقة».

ثم ذكر أمـر الفرنج ثم قـال:« والمملوك بين عدوّ اسلام يشـاركونه في

هذا الاسـم لفظا ولا ينوون لما استحفظـوا حفظاً، وعدوّ كفـر فيما يجاورهم إلا بلاده ولا يقارعهـم إلا أجناده»، ثم طلب خروج الأمـر بخطاب جميع ملوك الاطراف « أن يكونوا للمملوك على المشركين أعوانا، وأن يمتثل أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في أن يكونـوا بنيانا، فيعضدوها إذا سعى، ويلبوه إذا دعـا، ولا يقعدوا عـن المعاضدة في فتـح البيت المقـدّس الذي طابت النفـوس عن ثاره، وطأطأت الرؤوس تحت عـاره، وصارت القلوب صخـرة لا ترق على صخـرتـه، والعزائم قـاصيـة عـن تطهير أقصاه مـن رجـس الشرك ومعـرّته، فـإن قعـدت بهم العـزائم وأخذتهم في الله لـومـة لائم، فـلا أقـل من أن لا يكـونـوا أعـوانـا عليـه، يلقنونـه عـن قصـده، حريصين على اتصال المكروه إليه»

قال ابـن شدّاد: لما وقعـت الوقعـة الأولى مع الحلبيين والمواصلـة، كان سيف الدين صاحب الموصل على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين يقصد أخذها منه ودخـوله في طاعته، وكان أخوه قـد أظهر الانتماء إلى السلطان صلاح الـدين، واعتصـم بذلك، واشتـدّ سيف الـدين في حصـار المكان وضربه بـالمنجنيق حتى استهـدم من سوره ثلـم كثيرة وأشرف على الأخذ، فبلغه وقـوع هذه الـواقعة فخاف أن يبلـغ ذلك أخـاه فيشدّ أمـره ويقوي جأشـه، فراسله في الصلح فصـالحه، ثم سار من وقتـه إلى نصيبين واهتم بجمـع العساكـر، والانفـاق فيها، وسـار حتـى أتـى الفرات وعبر بـالبيرة وخيم على جـانب الفـرات الشامي، وراسـل كمشتكين والملك الصـالح حتـى تستقرّ قـاعدة يصـل عليها إليهـم، فوصـل كمشتكين إليه وجـرت مراجعـات كبيرة عزم فيها على العـود مراراً حتـى استقرّ اجتماعه بـالملك الصـالح وسمحـوا بـه، وسار ووصـل حلب، وخـرج الصـالح إلى لقـائه بنفسه، فالتقـاه قريب القلعة، واعتنقه وضمـه إليه وبكى، ثم أمـره بالعود إلى القلعة، فعـاد إليها وسار هـو حتى نـزل بعين المباركة وأقـام بها مدّة، وعسكر حلـب يخرج إلى خدمته في كل يـوم، وصعد القلعة جريـدة وأكل فيها خبزاً، ونـزل وسار راحلاً إلى تل السلطان ومعـه جمع كبير وأهل ديار

بكر، والسلطان رحمه الله قد أنفذ في طلب العساكر من مصر، وهو يرقب وصولها، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدابيرهم وهم لا يشعرون أن التأخير تدمير، حتى وصل عسكر مصر فسار رحمه الله حتى أتى قرون حماه، فبلغهم أنه قد قارب عسكرهم فأخرجوا اليزك، ووجهوا من كشف الأخبار فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان ، وتفرق عسكره يسقي ، فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة، لكن صبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره، واجتمعوا وتعبوا تعبئة القتال، وأصبح القوم على مصاف، وذلك بكرة الخميس العاشر من شوّال، فالتقى العسكران وتصادما، وجرى قتال عظيم، وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين بن مظفر الدين، فإنه كان في ميمنة سيف الدين وحمل السلطان بنفسه فانكسر القوم، وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الأمراء، منهم الأمير فخر الدين عبد المسيح، فمنّ عليهم وأطلقهم، وعاد سيف الدين إلى حلب، فأخذ منها خزانته، وسار حتى عبر الفرات، وعاد إلى بلاده، وأمسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ونزل في بقية ذلك اليوم في خيم القوم فإنهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه، والمطابخ قد عملت، ففرق الاصطبلات ووهب الخزائن، وأعطى خيمة سيف الدين عز الدين فرخشاه.

وقال العماد: رحلنا في شهر رمضان من دمشق مستأنفين، فعبرنا العاصي لله طائعين، وإلى المسار مسارعين، فما عرجنا على بلد، ولا انتظرنا ما وراءنا من مدد، ونزلنا الغسولة، وجزنا حماه وخيمنا في مرج بوقبيس، وجاء الخبر أنهم في عشرين ألف فارس سوى سوادهم وماوراءهم من أمدادهم، وأنهم موعودون من الفرنج بالنجدة، وأنهم يزيدون في كل يوم قوّة وشدّة، وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ألف فارس، فرتب السلطان عسكره، وقوّى بقوّة قلبه قلبه، وأمدّ الله بحزب ملائكته حزبه

ولما وصل المواصلة إلى حلب أطلقوا من كان في الأسر من ملوك

الفرنج منهم أرناط ابرنس الكرك، وجوسلين خال الملك، وقرّروا معهم أن يدخلوا من مساعدتهم في الدرك، فلما عيدنا وصل إلى السلطان الخبر بوصولهم إلى تل السلطان، فعبرنا العاصي عند شيزر، ورتبنا العسكر وأعدنا الاثقال إلى حماه.

ثم وصف الوقعة إلى أن قال: وركب السلطان أكتافهم فشل مئيهم وآلافهم حتى أخرجهم من خيامهم وأشرقهم بمائهم، ووكل بسرادق سيف الدين غازي ومضاربه ابن أخيه فرخشاه، وركض وراءه حتى علم أنه تعدّاه، ووقع في الأسر جماعة من الأمراء المقدّمين، ثم منّ عليهم بالخلع بعد أن نقلهم إلى حماه، وأطلقهم ثم نزل في السرادق السيفي، فتسلمه بخزائنه ومحاسنه، واصطبلاته ومطابخه، ورواسي عزه ورواسخه، فبسط في جميع ذلك، أيدي الجود، وفرقها على الحضور والشهود، وأبقى منها نصيباً للرسل والوفود، ورأى في بيت الشراب، بل في السرادق الخاص طيوراً من القماري والبلابل والهزاز والببغا في الأقفاص، فاستدعى أحد الندماء مظفر الأقرع فآنسه وقال: خذ هذه الأقفاص، واطلب بها الخلاص، واذهب بها إلى سيف الدين فأوصلها إليه، وسلم منا عليه، وقل له: عد إلى اللعب بهذه الطيور، فهي سليمة لا توقعك في مثل هذا المحذور.

قال: ولما كسر القوم ولوا مدبرين إلى حلب، فلم يقف بعضهم على بعض، وظنوا أن العساكر وراءهم ركضاً وراء ركض، فتبعجت خيولهم، وتموّجت سيولهم، وما صدّقوا كيف يصلون إلى حلب ويغلقون أبوابها، ويسكنون اضطرابها، وأما سيف الدين فإنه ركض في يومه من تل السلطان إلى بزاعه، وجاوز في سوقه الاستطاعه، وفرق وفارق الجماعة

وفي كتاب ابن أبي طي ان ميسرة سيف الدين انكسرت، فتحرك إلى جانبها ليكون ردءا لها ومدداً فظنّ باقي العسكر أنه قد انهزم، فانهزموا

فحقق ما كان وهماً، فسار على وجهه لا يلوي على شيء، وتبعهم السلطان فهلك منهم جماعة قتلاً وغرقاً، وأسر جماعة كثيرة من وجوههم وأمرائهم، ثم رجع وأمر أصحابه برفع السيف عن الناس، وترك التعرض لمن وجد منهم بقتل أو نهب، وفرق ما وجد في خزائن سيف الدين، وسير جواريه وحظاياه إلى حلب وأرسل إليه بالأقفاص، وقال له: عد إلى اللعب بهذه الطيور فإنها الذمن مقاساة الحرب، ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والعيدان والجنوك والمغنيين والمغنيات.

قال: واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية، وأن السلطان أرى ذلك لعساكره، واستعاذ من هذه البلية، وكان أنفذ الأمراء الذين أسرهم إلى حماه، ثم ردّهم وخلع عليهم، وأرسلهم إلى حلب، وهنأ العماد للسلطان بقصيدة منها:

فالحمد لله الذي افضاله
حلو الجنى عالي السنا وضاحه
عاد العدوّ بظلمة من ظلمه
في ليل ويل قد خبا مصباحه
وجنا عليه جهله بوقوعه
في قبضة البازي فهيض جناحه

حمل السلاح إلى القتال وما درى
أن الذي يجني عليه سلاحه
أضحى يريد مواصليه صدوده
وغدا يجيد رثاءه مداحه
إن أفسد الدين الغلاة بحنثهم
فالناصر الملك الصلاح صلاحه
قد كان عزمك للإله مصمما
فيهم فلاح كما رأيت فلاحه

وكــأننــي بــالســـاحـــل الأقصــى وقــد
ســاحـــت بنحـــر دم الفـــرنجـــة ســاحـــه

فـــاعبر إلى القـــوم الفـــرات ليشربـــوا الـــ
ـــموت الأجـــاج فقـــد طمـــى طفـــاحـــه

لتفـــك مـــن أيـــديهم رهـــن الــــرهـــا
عجـــلا ويـــدرك ليلهـــا إصبـــاحـــه

وابغـــوا الحران الخلاص فكـــم بها
حـــرّان قلـــب نحـــوكـــم ملتـــاحـــه

نجـــوا البـــلاد مـــن البـــلاء بعـــد لكـــم
فـــالظلـــم بـــاد في الجميـــع صراحـــه

واستفتحـــوا مـــا كـــان مـــن مستغلـــق
فيهـــا فـــربكـــم لكـــم فتـــاحـــه

أنتـــم رجـــال الـــدهـــر بـــل فـــرســـانـــه
ولـــدى الحلـــوم الطـــائشـــات رجـــاحـــه

فتـــاكـــه نســـاكـــه ضراره
نفـــاعـــه منـــاعـــه منـــاحـــه

وأبـــو المظفـــر يـــوســـف مطعـــامـــه
مطعـــانـــه مقـــدامـــه جحجـــاحـــه

وإذا انتـــدى في محفـــل فحميـــه
وإذا غـــدا في جحفـــل فـــوقـــاحـــه

قال: وكـان لعز الـدين فرخشـاه في هذه الوقعـة يد بيضـاء وهو محب للفضل وأهلـه، باعث للخـواطر على مدحه ببـذله، فنظمت فيـه قصيدة منها:

نصر أنـــار لملككـــم بـــرهـــانـــه
وعـــلا لـــذلـــة شـــانئيكـــم شـــانـــه

مـــا أسعـــد الاســـلام وهـــو مظفـــر
وأبـــو المظفـــر يـــوســـف سلطـــانـــه

الملــك مــرفــوع لكــم مقــداره
والعــدل مــوضــوع بكــم ميــزانــه
والــدهــر لا يــأتي بغير مــرادكــم
فهــل القضــاء لأجلكــم جــريــانــه
وكــأنها لله في أحكــامــه
فلــك على إيثــاركــم دورانــه
فخــراً بنــي أيــوب إن فخــاركــم
بــذّ الملــوك الســابقين رهــانــه
يكفــي حســودكــم اعتقــالاهمه
فكــأنها أشجــانــه أشجــانــه
الــدين عــز الــديــن عــز بنصركــم
والكفــر ذل بعــونكــم أعــوانــه
قــد كــان جيشكــم كبحــر زاخــر
والــلابســون جــواشنــا حيتــانــه
فطما لهلكهــم عليهــم بحــركــم
بــأســا وغــرق فلككــم طــوفــانــه
فضــل الملــوك الأكــرمين بفضلــه
فعــلا زمــانهم البهيــج زمــانــه
في فضلــه في عــدلــه في حلمــه
صــدّيقــه فــاروقــه عثمانــه
هــو في السماح وفي اللقــاء عليــه
هــو في العفــاف وفي التقــى سلمانــه

مــن آل شــاذي الشــائديــن لمجــده
ببنيــه بيتــا عــاليــا بنيــانــه
بيــت مــن العليــاء ســام شــاهــق
يبنــي على كيــوانها أيــوانــه
يــا ســالــب التيجــان مــن أربــابها
ومــن الثنــاء مصــوغــة تيجــانــه

والحمد مال أنتم بذاله
والمال حمد أنتم خزانه

قال: ثم إن صاحب الموصل أسرع عودته، وواصل لذته، و الحلبيون أوثقوا الأسباب، وغلقوا الأبواب، وسقط في أيديهم حين أفرطوا في تعدّيهم، وتهيئوا للحصار، وخافوا من البوار، وتبلدّوا وتلدّدوا، وتجادلوا ثم تجلدوا، وقال ابن سعدان الحلبي من جملة قصيدة يهنيء بها السلطان بهذه الكسره:

وما شك قوم حين قمت عليهم
غداة التقى الجمعان أنك غالب
ولو لم تقد تلك المقانب لاغتدى
لنفسك في نفس العدّو مقانب

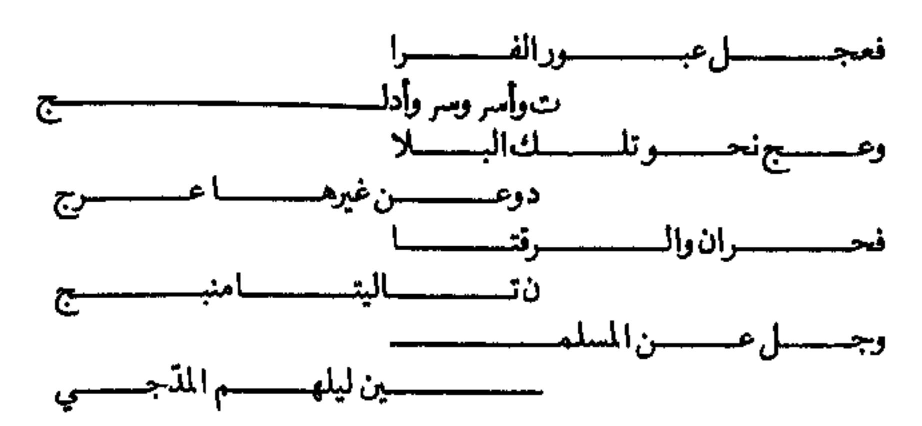
قال ابن أبي طي: وأما سيف الدين فإنه امتدّت به الهزيمة إلى بزاعة، فأقام بها حتى تلاحق به من سلم من أصحابه، ثم خرج منها حتى قطع الفرات، وصار إلى الموصل، وصار باقي عسكر حلب إلى حلب في سابع شوّال في أقبح حال وأسوئه، عراة حفاة فقراء يتلاومون على نقض الأيمان والعهود، وخاف أهل حلب من قصد السلطان لهم فأخذوا في الاستعداد للحصار، وجاء السلطان وخيم عليها أياما، ثم قال: الرأي أن نقصد ما حولها من الحصون والمعاقل والقلاع، فنفتحها فإنا إذا فعلنا ذلك ضعفت حلب، وهان أمرها فصوّبوا رأيه، فنزلوا على بزاعة فتسلمها بالأمان وولاها عز الدين خشترين الكردي.

فصل

في فتح جملة من البلاد حوالي حلب

قال العماد: ثم نزل السلطان على حصن بزاعة وتسلمه في الثاني والعشرين من شوّال، ثم فتح منبج في التاسع والعشرين منه، وكان فيها الأمير قطب الدين ينال بن حسان، والسلطان لا ينال به احسان، بل كان في جر عسكر الموصل إليه أقوى سبب، ولا يياذقه ولا يحفظ معه شرط أدب، ويواجهه بما يكره فسلم القلعة بما فيها، وقوّم ما كان سلمه ثلاثمائة ألف دينار منها عين ونقود ومصوغ ومطبوع ومصنوع ومنسوج وغلات، وسامه على أن يخدم فأبى وأنف وكبرت نفسه فتعب سره، وذهب ما جمعه، ومضى إلى صاحب الموصل فاقطعه الرقة، فبقي فيها إلى أن أخذها السلطان منه مرة ثانية في سنة ثمان وسبعين، قال العماد:

نزولك في منبج ... على الظفر المبهج
ونجحك في المرتجى ... وفتحك للمرتج
دليل على نجح ما ... تحاول أو ترتجي
أمورك فيما تروم واضحة المنهج
وشانيك دامي الشؤون منك شقي شجي
ومن كان في حصنه ... ومن قبل لم يخرج
يقال له ليس ذا ... بعشك قم فادرج
فرأيك يستنزل الـ ... ـنجوم من الأبرج


فعجل عبور الفرا ... ت وأسر وسر وأدلج
وعج نحو تلك البلا ... د وعن غيرها عرج
فحران والرقتا ... ن تاليتا منبج
وجل عن المسلمـ ... ين ليلهم المدّجي

قال ابن أبي طيّ : لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصن صعد إليه وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره، فكان في جملة أمواله، ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفي ألف دينار، فحان من السلطان التفاتة فرأى على الأكياس والآنية مكتوبا يوسف، فسأل عن هذا الاسم، فقيل له ولد يحبه ويؤثره اسمه يوسف كان يدّخر هذه الأموال له، فقال السلطان أنا يوسف، وقد أخذت ما خبيء لي فتعجب الناس من ذلك.

قال: ولما فرغ من منبج نزل على عزاز، ونصب عليها عدّة مجانيق، وجدّ في القتال، وبذل الأموال.

قال العماد: ثم نزل السلطان على حصن عزاز، وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجواز، وهو حصن منيع رفيع فحاصره ثمانية وثلاثين يوماً، وكان السلطان قد أشفق على هذا الحصن من موافقة الحلبيين للفرنج فإن الغيظ حملهم على مهادنة الفرنج واطلاق ملوكهم الذين تعب نور الدين رحمه الله في أسرهم، فرجى السلطان أن يحتاط على المعاقل ويصونها صون العقائل، فتسلمها حادي عشر ذي الحجة بعد مدّة حصارها المذكورة، وقال العماد قصيدة منها:

أعطاه رب العالمين دولة
عزة أهل الدين في اعزازها
حاز العلى ببأسه وجوده
وهو أحق الخلق باحتيازها
بجدّه أفنى كنوز أفني الـ
ـملوك في الجدّ على اكتنازها
مهلك أهل الشرك طراً رومها
أرمنها أفرنجها أبخازها
تفاخر الاسلام من سلطانه
تفاخر الفرس بأبرواوزها
تهن من فتح عزاز نصرة
أوقعت العداة في اهتزازها
واليوم ذلت حلب فإنها
كانت تنال العز من عزازها
وحلب تنفي كمشتكينها
كما انتفت بغداد من قيمازها
برزت في نصر الهدى بحجة
وضوح نهج الحق في ابرازها
كم حامل للرمح عاد مبديا
عجز عجوز الحي عن عكازها
ارفع حظوظي من حضيض نقصها
وعدّ عن همازها لمازها
والشعر لا بدّ له من باعث
كحاجة الخيل إلى مهمازها

قال: وأغار عسكر حلب على عسكرنا في مدّة مقامنا على عزاز فأخذوا على غرة وغفلة ما تعجلوه وعادوا، فركب أصحابنا في طلبهم فما أدركوا إلاّ فارسا واحداً، فأمر السلطان بقطع يده، بحكم جرده، فقلت للمأمور وذلك بمسمع من السلطان: تمهل ساعة لعله يقبل مني

شفاعه، ثم قلت: هذا لا يحل، وقدرك بل دينك عن هذا يجل، وما زلت أكرر عليه الحديث حتى تبسم، وعادت عاطفته ورحم وأمر بحبسه، وسرني سلامة نفسه، ودخل ناصر الدين بن أسد الدين وقال: ما هذا الفشل والونا وإن سكتم أنتم فما أسكت أنا، ودمدم وزمجر، وغضب وزأر، وقال: لم لا يقتل هذا الرجل، ولماذا اعتقل،فوعظه السلطان واستعطفه، وسكن غضبه وتعطفه، وتلا عليه (ولا تزر وازرة وزر أخرى) (١٤٩) وأطلق سراحه وتم في نجاته نجاحه.

فصل

في وثوب الحشيشية على السلطان مرة ثانية على عزاز وكانت الأولى على حلب

قال العماد: وفي حادي عشر ذي القعدة قفز الحشيشية على السلطان ليلة الأحد، وهو نازل على عزاز وكان للأمير جاولي الأسدي خيمة قريبة من المنجنيقات، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات وترتيب المهمات وحض الرجال والحث على القتال، وهو بار ببث أياديه، قار على الدهر بكف عواديه، والحشيشية في زي الاجناد وقوف والرجال عنده صفوف، إذ قفز واحد منهم فضرب رأسه بسكينة فعاقته صفائح الحديد المدفونة في لمته عن تمكينه ولفحت المدية خدّه فخدشته، فقوى السلطان قلبه، وحاش رأس الحشيشي إليه وجذبه، ووقع عليه وركبه، وأدركه سيف الدين يازكوج فأخذ حشاشة الحشيشي وبضعة وقطعه، وجاء آخر فاعترضه الأمير داود بن منكلان فمنعه، وجرحه الحشيشي في جنبه فمات بعد أيام، وجاء آخر فعانقه الأمير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت ابطيه، وبقيت يد الحشيشي من ورائه لا يتمكن من

الضرب، ولا يتأتى له كشف ما عراه من الكرب فنادى، اقتلوني معه فقد قتلني وأذهب قوّتي وأذهلني، فطعنه ناصر الدين بن شيركوه بسيفه، وخرج آخر من الخيمة منهزما، وعلى الفتك بمن يعارضه مقدما، فثار عليه أهل السوق فقطعوه، وأما السلطان فإنه ركب وجاء إلى سرادقه وقد خرعه الحادث، وفزعه الكارث، وصوته جهوري، وزئيره قسوري، ودم خده سائل، وعطف روعه مائل، وطوق كزاغنده بتلك الضربة مفكوك ونهج سلامته مسلوك، وكان سلا سلامته ، وأقام القوم قيامته ، ومن بعد ذلك رعب ورهب واحترز واحتجب، وضرب حول سرادقه على مثل خشب الخركاه تأزيرا، ووقفه تحجيرا، وجلس في بيت الخشب، وبرز للناس كالمحتجب وما صرف إلامن عرفه، ومن لم يعرفه صرفه،وإذا ركب وأبصر من لايعرفه في موكبه أبعده، ثم سأل عنه فإن كان مستشفعا أو مستسعدا أسعفه واسعده، ومن كتاب فاضلي الى العادل: « السلامة شاملة، والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصلة، ولم يتله من الحشيشي الملعون إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة، انقطعت لوقتها، واندملت لساعتها والركوب على رسمه ، والحصار لعزاز على حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدرا، ولا ما يشغل سراً».

وقال ابن أبي طي: لما فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج أيقن من بحلب بخروج ما في أيديهم من المعاقل والقلاع، فعادوا إلى عادتهم في نصب الحبائل للسلطان، فكاتبوا سنانا صاحب الحشيشية مرة ثانية ورغبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على انفاذ من يفتك بالسلطان، فأرسل لعنه الله جماعة من أصحابه فجاؤوا بزي الأجناد ودخلوا بين المقاتلة، وباشروا الحرب، وأبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلهم يجدون فرصة ينتهزونها، فبينما السلطان يوماً جالساً في خيمة جاولي، والحرب قائمة، والسلطان مشغول بالنظر إلى القتال إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه، وكان رحمه الله محترزاً خائفاً من الحشيشية لا ينزع الزردية عن بدنه، ولا صفائح الحديد عن

رأسه، فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئاً لمكان صفائح الحديد، وأحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فمدّ يده بالسكينة إلى خدّ السلطان فجرحه، وجرى الدم على وجهه فتتعتع السلطان لذلك، ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه ووضعه على الأرض وركبه لينحره، وكان من حول السلطان قد أدركهم دهشة أخذت بعقولهم وحضر في ذلك الوقت سيف الدين يازكوج، وقيل إنه كان حاضراً، فاخترط سيفه وضرب الحشيشي فقتله، وجاء آخر من الحشيشية أيضاً يقصد السلطان، فاعترضه الأمير منكلان الكردي وضربه بالسيف، وسبق الحشيشي إلى منكلان فجرحه في جبهته وقتله منكلان، ومات منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام، وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس فهجم على الباطني، ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من ضربه فصاح علي اقتلوه واقتلوني معه، فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه فطعن بطن الباطني بسيفه وما زال يخضخضه فيه حتى سقط ميتاً، ونجا ابن أبي الفوارس، وخرج آخر من الحشيشية منهزماً فلقيه الأمير شهاب الدين محمود خال السلطان، فتنكب الباطني عن طريق شهاب الدين، فقصده أصحابه وقطعوه بالسيوف، وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سرادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز، وضرب حول سرادقه برجاً من الخشب، كان يجلس فيه وينام، ولا يدخل عليه إلاّ من يعرفه، وبطلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السلطان، واضطرب العسكر، وخاف الناس بعضهم من بعض، فألجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر، وعاد إلى خيمته، وأخذ في قتال عزاز فقاتلها مدّة ثمانية وثلاثين يوماً حتى عجز من كان فيها، وسألوا الأمان فتسلمها حادي عشر ذي الحجة، وصعد إليها واصلح ما تهدّم منها، ثم أقطعها لابن أخيه تقي الدين عمر، وكانت عزاز أوّلاً للجفينة غلام نور الدين،

فلما ملك السلطان منبج أخـذها منه الملك الصالح وقـوّاها لعله يحفظها من الملك الناصر فلـم يبلغ ذلك، ولما فرغ السلطان من أمـر عزاز حقد على من بحلـب لما فعلوه من أمر الحشيشيـة، فسار حتى نـزل على حلب خامس عشر ذي الحجة، وضربت خيمتـه على رأس الياروقية فـوق جبل جـوشن وجبى أموالها، وأقطـع ضيـاعها، وضيـق على أهلها، ولم يفسـح لعسكره في مقـاتلتها، بـل كان يمنع أن يـدخل إليهـا شيء أو يخرج منها أحد، وكان سعد الـدين كمشتكين في حارم، وكانت اقطاعـه في يد نوابه، وكـان انتزعهـا من يـد أولاد الـداية بعـد أن عصـى نائبهـا، وكان سبـب خـروجه إليهـا أن السلطان لما نـزل على عـزاز خاف كمشتكين أن ينتقـل منها إلى حارم، فخرج إليها، فلما نـزل السلطان على حلب ندم كمشتكين على كونـه خارجـاً في حارم، وخـاف أن يجري بين السلطان وبين الأمـراء الحلبيين صلح فـلا يكون له فيه ذكـر ولا اسم، فراسل السلطـان يتلطف معـه الحال ويقـول : لـو فسـح لي في الدخـول إلى حلـب لسـارعـت في الخدمـة وأصلحت الأمـر على ما يـرومـه السلطان، وراسـل أيضاً الملـك الصالح والأمراء بحلب يقول لهم: قد حصلـت خارجاً، وقد بلغتني أمور ولا بـدّ من طلبـي مـن الملك النـاصر ليـأذن لي في الصيرورة إليكم فـإن الذي قـد حصل عنـدي لايمكنني الكـلام فيه، فـراسل الملـك الصالـح السلطان في الإذن له في الدخول إلى حلب، فـأذن له، وطلبوا الرهائن منه فأنفذ السلطان إليهم رهينة شمـس الدين بن أبي المضا الخطيب، والعماد كـاتب الانشـاء وأنفذوا مـن حلب إلى السلطـان رهينة نصرة الـدين بـن زنكي.

وحكـى العماد الكاتـب قـال: لما حصلنا داخـل حلـب أخـذنا بـرأي العـدل ابن العجمـي وجعلنـا في بيت، ومنـع منـا غلماننا، ولم يحضر لنـا طعام ولا مصباح، وبتنا في أنكد عيش، وفي تلك الليلة دخل كمشتكين إلى حلـب فلما أصبحـوا أحضرت أنـا وابن أبي المضـا إلى مجلـس الملـك الصالح، وكـان عنده ابن عمه عز الـدين مسعود بن مـودود، وجماعة من

أرباب الدولة، وكان صاحب الكلام العدل ابن العجمي، فأخذ يتحدّث بلثغته، ويترجم بلكنته، ويضرب صفحاً عني ويوهم الجماعة أني وأني

وما درى الغمر بأني امرؤ ... أميز التبر من الترب

قد عارك الأهوال حتى غدا ... بين الورى كالصارم العضب

قد راضه الدهر فلو أمه ... بخطبه ما ريع للخطب

قال: وعرضت نسخة اليمين علينا، وصرفنا، ولم يلتفت إلينا، فلما صارا إلى السلطان وأخبراه بما جرى في حقهما من الهوان، علم أن ذلك كان حيلة عليه حتى دخل كمشتكين إلى حلب، فأطلق نصرة الدين، وقاتل أهل حلب، ولم يزل منازلا لحلب إلى انسلاخ سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، ثم كان ما سيأتي ذكره.

فصل

في بواقي حوادث هذه السنة ودخول قراقوش إلى المغرب

قال العماد: وفي سابع شوّال وصل أخو السلطان شمس الدولة من اليمن إلى دمشق، وذكر ابن شداد أنه قدم في ذي الحجة.

قلت: ولما سمع السلطان بقدومه أرسل إليه بالمثال الفاضلي كتاباً أوّله: «أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا»، وقال في آخره: «ولقد أحسن عدنان المبشر إذ طلع علينا طلوع الفجر قبل شمسه، وغرس في القلوب ما يسرّنا ويسرّه حتى غرسه»

قال ابن أبي طيّ: كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد والشوق إلى أخيه الملك الناصر، وأن يرى ملوك الشام وغيرها، وأمر للعساكر بما أنعم الله به عليه من النعم والأموال.

قال: وحكى أنه لما تحدّث الناس بخروج شمس الدولة من اليمن كان باليمن رجل يقال له عباس، وكا صهر ياسر بن بلال الحبشي صاحب عدن، وكان بين عباس وياسر عداوة، فافتعل عباس كتاباً على لسان ياسر وزوّر عليه علامته إلى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه: إن شمس الدولة سائر إلى أخيه الملك الناصر إلى الشام، وسبب خروجه ضعفه عن اليمن، فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الأتاوة والرشوة يبق لكم، واحتال حتى وصل الكتاب إلى شمس الدولة، وكان نازلاً على حصن يعرف بالخضرا يحاصره، فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسراً وقال له: هذا خطك وعلامتك، قال:كأنه هو، قال: بأي شيء استحققت منك هذا، وقد قرّبت منزلتك، وأبقيت عليك بلادك، ورفعت بضبعك على أهل اقليمك، وأراه الكتاب، فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ما كتبه ولا يعرفه ولا أملاه لأحد، ولم يعلم خبره، فلم يصدّقه شمس الدولة، وأمر به فقتل بين يديه صبراً، فهاب شمس الدولة ملوك اليمن وحملوا إليه الأموال، وحلفوا له على الطاعة، ثم إن شمس الدولة خرج إلى تهامة وتوجه إلى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وعثمان بن علي الزنجيلي على عدن، وتوجه إلى حضرموت ففتحها واستناب عنه بها رجلا كرديا يسمى هارون وكان مقامه بشبام، واستمرّ الكردي بها مدّة، ثم إن صاحب حضرموت تحرّك وجمع فقتل وعاث هارون في تلك البلاد، واستقام أمره، وولى شمس الدولة ثغر تعز مملوكه ياقوت، وجعل إليه أمر الجند، وولى قلعة تعكر مملوكه قايباز.

قال: وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصلة

وكسرتهم، وكان شمس الـدولة هو سبب الظفـر، وأعطاه السلطان سرادق سيف الديـن صاحب الموصل بما كان فيه مـن الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق وأعمالها والشام، وأمره أن يكون في وجه الفرنج لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج كعادتهم.

قال: وفيهـا قتل صديـق بن جولة صـاحب بصرى وصرخد، قتلـه ابن أخيـه وملك بعـده بصرى وصرخد شهـوراً، فكاتبـه شمس الـدولة أخـو السلطان وحلـف له على مـا يريـده من اقطـاع، واقترح شمس الـدولة أن يكتب هـو ما يريـده ليحلف عليه، فـأنفذ من بصرى نسخـة يمين كتبها قاضي بصرى، وكان قليل المعرفة بـالفقه والتصرف في القول فلم يستقص فيها وجـوه التأويل، فلما استـوثق بها من شمس الـدولة وخرج إليـه تأوّل عليـه شمس الـدولـة في اليمين، وقبضه ثـم أقطعـه عشريـن ضيعة، ثـم أخذها منه بعد أن قتله.

قال: وفيهـا عصى الأمير غـرس الدين قليـج بتل خـالد بسبـب كلام جرى بينه وبين كمشتكين، فـأنفذ إليه من حلب عسكراً فحـاصروه أياماً وسلم الحصن وصلحت حاله.

قال: ولما ملك شمس الدولة اليمن سمـت نفس ابن أخيه تقي الدين إلى الملك، وجعل يرتاد مكاناً يحتـوي عليه، فأخبر أن قلعة أزبري هي فم درب المغرب، وكـانت خراباً فـأشير عليه بعمارتها، وقيل له: متـى عمرت وسكنها أجنـاد أقويـاء شجعان ملكت بـرقة، وإذا ملكت بـرقة ملـك ما وراءها، فأنفـذ مملوكه بهاء الدين قـراقوش، وقدّمه على جماعـة من أجناده ومماليكـه، فصـار إلى القلعـة المذكـورة، وشرعـوا في عمارتها، واجتمـع بقراقوش رجـل من المغرب فحدّثه عـن بلاد الجريد وفزان، وذكـر له كثرة خيرها، وغـزارة أموالها، وضعـف أهلها، ورغبـه في الدخـول إليها، فـأخذ جماعة مـن أصحابـه وسار في حـادي عشر المحرّم مـن هذه السنـة فكان

يكمن النهار ويسير الليل مدّة خمسة أيام وأشرف على مدينة أوجلة، فلقيه صاحبها وأكرمه واحترمه، وسأله المقام عنده ليعتضد به ويزوّجه بنته ويحفظ البلاد من العرب وله ثلث ارتفاعها، ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار، فأخذ عشرة آلاف لنفسه، وفرق على رجاله عشرين ألفاً، وكان إلى جانب أوجلة مدينة يقال لها الأزراقية، فبلغ أهلها صنيع قراقوش في أوجلة وأنه حرس غلالهم، فصاروا إليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيره وطيب هوائه، ورغبوه في المصير إليهم على أنهم يملكونه عليهم، فأجاب على ذلك واستخلف على أوجلة رجلا من أصحابه يقال له صباح، ومعه تسعة فوارس من أصحابه فحصل لقراقوش أموال كثيرة، واتفق أن صاحب أوجلة مات فقتل أهل أوجلة أصحاب قراقوش، فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل، وغنم أصحابه منها غنيمة عظيمة، واستولى على البلد، ثم إن أصحابه رغبوا في الرجوع إلى مصر وخشي قراقوش أن يقيم وحده، فرجع معهم، فلما حصل بمصر طاب له المقام، وثقل عليه العود، وزوّجه تقي الدين باحدى جواريه، وكان استناب بأوجلة وقال لأهلها: أنا أمضي إلى مصر لتجديد رجال وأعود إليكم.

قال ابن الاثير: وفيها في ربيع الآخر استوزر سيف الدين صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين الوزير رحمهما الله تعالى، وقد مكنه في ولايته، فظهرت منه كفاية لم يظنها الناس، وبدا منه معرفة بقواعد الدول وأوضاع الدواوين وتقرير الأمور، والاطلاع على دقائق الحسبانات والعلم بصناعة الكتابة الحسابية، والانشاء حيرت العقول، ووضع في كتابة الانشاء وضعا لم يعرفوه، وكان عمره حين ولي الوزارة خمسا وعشرين سنة، ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين، وشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمد، وكان قد زوّجه بنته، فأطلق وسار إليه وبقي بآمد يسيراً مريضاً، ثم فارقها وتوفي

بدنيسر سنة أربع وسبعين، وحمل إلى الموصل فدفن بها، ثم حمل منها في موسم الحج إلى المدينة ودفن عند والده، وكان من أحسن الناس صورة ومعنى، رحمه الله تعالى.

قال: ثم إن سيف الدين استناب دزداراً بقلعة الموصل الأمير مجاهد الدين قايماز في ذي الحجة سنة احدى وسبعين، وردّ إليه أزمة الأمور في الحل والعقد والرفع والخفض، وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها، ومعه فيها ولد صغير لزين الدين علي لقبه أيضا زين الدين، فكان البلد لولد زين الدين اسما لا معنى تحته، وهو لمجاهد الدين صورة ومعنى

قلت: وفيها في حادي عشر رجب توفي حافظ الشام أبو القاسم علي ابن الحسن بن عساكر، صاحب التاريخ الدمشقي رحمه الله تعالى، وحضر السلطان صلاح الدين جنازته، ودفن في مقابر باب الصغير.

وفيها قدم دمشق أبو الفتوح عبد السلام بن يوسف بن محمد بن مقلد الدمشقي الأصل، البغدادي المولد، التنوخي الجماهري الصوفي بن الصوفي، ذكره العماد في الخريدة، وقال: كان صديقي وجلس للوعظ، وحضر عنده صلاح الدين، وأحسن إليه، وعاد إلى بغداد، وذكر العماد من أشعاره مقطعات منها في الحقائق وأنشدها في مجلسه:

يا مالكاً مهجتي يا منتهى أملي ... يا حاضراً شاهداً في القلب والفكر
خلقتني من تراب أنت خالقه ... حتى إذا صرت تمثالاً من الصور
أجريت في قالبي روحاً منوّرة ... تمر فيه كجري الماء في الشجر
جمعت بين صفا روح منوّرة ... وهيكل صغته من معدن كدر

- ٨٢٢٤ -

إن غبت فيك فيا فخري ويا شرفي
وإن حضرت فيا سمعي ويا بصري
أو احتجبت فسري منك في وله
وإن خطرت فقلبي منك في خطر
تبدو فتمحو رسومي ثم تثبتها
وإن تغيبت عني عشت بالأثر

ثم دخلت سنة إثنتين وسبعين وخمسمائة

قال العماد: والسلطان مقيم بظاهر حلب، فعرف أهلها أن العقوبة أليمة، والعاقبة وخيمة، فدخلوا من باب التذلل، ولاذوا بالتوسل، وخاطبوا في التفضل، وطلبوا الصلح فأجابهم وعفا وعف، وكفى وكف، وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها، واستقرأ كل عثرة لهم وأقالها، وأراد له الاعزاز فردّ عليه عزاز.

وقال ابن شدّاد: أخرجوا إليه ابنة لنور الدين صغيرة، سألت منه عزاز، فوهبها إياها .

قال ابن أبي طي: لما تم الصلح وانعقدت الأيمان، عوّل الملك الصالح على مراسلة السلطان، وطلب عزاز منه، فأشار الأمراء عليه بانفاذ أخته، وكانت صغيرة فأخرجت إليه، فأكرمها السلطان إكراما عظيما، وقدّم لها أشياء كثيرة، وأطلق لها قلعة عزاز وجميع ما فيها من مال وسلاح وميرة، وغير ذلك.

وقال غيره: بعث الملك الصالح أخته الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين في الليل، فدخلت عليه، فقام قائماً وقبل الأرض وبكى على نور الدين، فسألت أن يردّ عليهم عزاز فقال: سمعاً وطاعة، فأعطاها إياها، وقدّم لها من الجواهر والتحف والمال شيئاً كثيراً، واتفق مع الملك الصالح أن له من حماه وما فتحه إلى مصر، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الداية.

قال العماد: وحلفوا له على كل ما شرطه، واعتذروا عن كل ما اسخطه، وكان الصلح عاماً لهم، وللمواصلة وأهل ديار بكر وكتبت في نسخة اليمين: أنه إذا غدر منهم واحد وخالف، ولم يف بها عليه حالف، كان الباقون عليه يداً واحدة، وعزيمة متعاقدة حتى يفيء إلى الوفاء

والوفاق، ويرجع إلى مرافقة الرفاق، فلما انتظم الصلح ذكر السلطان ثاره عند الاسماعيلية، وكيف قصدوه بتلك البلية، فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم فحصر حصنهم مصياث ونصب عليه المجانيق الكبار، وأوسعهم قتلا وأسراً وساق أنفارهم، وخرب ديارهم وهدم أعمارهم، وهتك أستارهم حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماه، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه، فرحل عنهم وقد انتقم منهم.

قال: وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع فخرج إليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدّم، وهو متولى بعلبك ومقطع أعمالها، ومدبر أحوالها، والمتحكم في أموالها، فقتل منهم وأسر أكثر من مائتي أسير، وأحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصياث، فجدّد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث.

قال ابن أبي طي: وهذا أكبر الدواعي في مصالحة السلطان لسنان، وخروجه من بلاد الاسماعيلية، لأن السلطان خاف أن تهيج الفرنج في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فربما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سنانا وعاد إلى دمشق.

قال العماد: وكان قد خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الفرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر في تلك المروج، ووقع من أصحابه عدّة في الاسار منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار، ووصل السلطان إلى حماه، وقد استكمل الظفر، واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر، وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر، وتعانق الأخوان في المخيم بالميدان، وتحدّثا في الحدثان، ورروعات الفراق، ولوعات الأشواق، وكان قد وصل إلى السلطان من أخيه هذا عند مفارقته بلاد اليمن كتاب ضمنه أبياتاً أظنها من شعر ابن المنجم

المصري أولها:

الشوق أولع بالقلوب وأوجع
فعلام أدفع منه ما لا يدفع

ومنها

وحملت من وجد الأحبة مفرداً
ما ليس تحمله الأحبة أجمع

لا يستقر بي النوى في موضع
الا تقاضاني الترحل موضع

فإلى صلاح الدين أشكو أنني
من بعده مضنى الجوانح موجع

جزعاً لبعد الدار منه ولم أكن
لولا هواه لبعد دار أجزع

فلأركبن إليه متن عزائمي
ويخب بي ركب الغرام ويوضع

حتى أشاهد منه أسعد طلعة
من أفقها صبح السعادة يطلع

قال العماد: فسألني السلطان أن أكتب له في جوابها على رويها ووزنها، فقلت: فذكر قصيدة منها:

مولاي شمس الدولة الملك الذي
شمس السيادة من سناه تطلع

مالي سواك من الحوادث ملجأ
مالي سواك من النوائب مفزع

ولأنت فخر الدين فخري في العلى
وملاذ آمالي وركني الأرفع

الا بخدمتك المجلة موقعي
والله ما للملك عندي موقع

وبغير قـــربـــك كلما أرجـــوه مـــن
درك المنـــى متعـــذر متمنـــع
للنصر إن أقبلـــت نحـــوي مقبـــل
واليمـــن إن أسرعـــت نحـــوي مسرع

قال: ثم سرنا إلى دمشق ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة وعزم إلى مصر السفر.

فصل

في ذكر جماعة من الاعيان تجدّد لهم ما اقتضى ذكره في هذه السنة

قال العماد: في السادس من المحرم توفي بدمشق القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري وعمره ثمانون سنة لأن مولده في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكان في الايام النورية بدمشق هو الحاكم المتحكم وصلاح الدين إذذاك يتولى الشحنكية بدمشق، وكمال الدين يعكس مقاصده بتوجيه الاحكام الشرعية، وربما كسر أغراضه، وأبدى عن قبوله إعراضه ويقصد في كل ما يعرض له اعتراضه، وكم صبر على جماحه بحلمه وراضه، إلى أن نقله الله سبحانه من نيابة الشحنكية إلى الملك، وصار كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة في السلك، وكان في قلبه منه ما فيه، وما فرمنه فات وقت تلافيه، فلما ملك دمشق أجراه على حكمه، ولم يؤاخذه بجرمه، واحترم نوابه وأكرم أصحابه وفتح للشرع بابه وخاطبه واستحسن جوابه، ولم يزل يستفتيه ويستهديه ويعرض على رأيه ما يعيده ويبديه، وكان ابن أخيه ضياء الدين ابن تاج الدين الشهرزوري قد هاجر إلى صلاح الدين بمصر في ريعان ملكه، وأذنت هجرته في درك

إرادته بادارة فلكه، وأنعم عليه هناك بجزيرة الذهب، ومن دار الملك بمصر بدار الذهب، ووفر حظه من الذهب، وملكه داراً بالقاهرة نفيسة جميله جلية جليله، ورتب له وظائف، وخصه بلطائف، ووصل مع صلاح الدين إلى الشام وأمره جار على النظام، ولما اشتدّ بكمال الدين المرض، وكاد يفارق جوهره العرض، أراد أن يبقى القضاء في ذويه، فوصى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الدين ابن أخيه علما منه بأن السلطان يمضي حكمه لأجل سوالفه، ويجعله عنده من عوائد عوارفه، ومات ولم يخلف مثله ومن شاهده شاهد العقل والفضل كله، باراً بالأبرار، مختاراً للاخيار، مكرماً للكرام، ماضياً في الأحكام، وقد قوّاه نور الدين رحمه الله وولده في أيامه، وسدّد مرامي مرامه، وهو الذي سن دار العدل لتنفذ أحكامه بحضرة السلطان، فلا يبقى عليه مغمز ولا ملمز لذوي الشنآن، وهو الذي تولى له بناء أسوار دمشق ومدارسها والبيمارستان، فاستمرت عادته واستقرت قاعدته في دولة السلطان، وتوفي ونحن بحلب محاصرون، وذكر العماد في الخريدة لابنه محيي الدين قصيدة في مرثيته منها

ألموا بسفحي قاسيون فسلموا
على جدث بادي السنا وترحموا
وبالرغم مني أن أناجيه بالمنى
واسأل مع بعد المدى من يسلم
لقد عدمت منك البرية والدا
أحسن من الأم الرؤوف وأرحم
ولا سيما أخوان صدق بجلق
هم في سماء المجد والجود أنجم
نشرت لواء العدل فوق رؤوسهم
فما كان فيهم من يُضام ويظلم
لقيت من الرحمن عفواً ورحمة
كما كنت تعفو ما حييت وترحم (١٥٠)

قال العماد: وجلس ابن أخيه ضياء الدين مكانه، وأحسن احسانه، وأبقى نواب عمه، وأنفذ أحكامه بنافذ حكمه، وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون قد هاجر من حلب إلى السلطان، وقد أنزله عنده بدمشق في ظل الاحسان، وهو شيخ مذهب الشافعي رضي الله عنه والأقوم بالفتيا، وأعرفهم بما تقتضيه الشريعة من أمر الدين والدنيا، والسلطان يؤثر أن يفوض إليه منصب القضاء ولا يرى عزل الضياء، فأفضى بسر مراده إلى الأجل الفاضل وكان الفقيه ضياء الدين عيسى يتعصب لشيخه، فاستشعر الضياء من العزل وأشير عليه بالاستعفاء ففعل فأعفي، وبقيت عليه الوكالة الشرعية عنه في بيع الاملاك.

قال العماد: وأوّل ما اشتريت منه بوكالة السلطان الأرض التي ببستان بقر الوحش التي بنيت فيها المواضع من الحمام والدور والاصطبل والخان، وكنت قد احتكرتها في الايام النورية، فملكتها في الأيام الصلاحية.

قلت: قد خربت هذه الاماكن في سنة ثلاث وأربعين وستمائة بسبب الحصار، واستمر خرابها، وعفت آثارها، وصارت طريقاً على حافة بردى وأنت خارج من جسر الصفي خارج باب الفرج ماراً إلى ناحية الميدان.

قال: فلما استعفى ضياء الدين ابن الشهرزوري من القضاء لم يبق في منصب القضاء إلا فقيه يعرف بالأوحد داود بن ابراهيم بن عمر بن بلال الشافعي، وكان ينوب عن كمال الدين في أمره فأمره السلطان أن يجري على رسمه ويتصرف في حكمه، وكان السلطان لإحياء القضاء في البيت الزكوي مؤثراً، ولذكر مناقبه مكثراً، وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وهو راج، وبطلب نجاز عدته مناج، ففوّض إليه القضاء والحكم والانفاذ والامضاء على أن يتولى محيي الدين أبو

المعالي محمد بن زكي الدين والأوحد قاضيين في دمشق يحكمان وهما عن نيابته يوردان ويصدران، وتوليتهما بتوقيع من السلطان، ولم يزل الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون متولياً للقضاء منفرداً بالحكم والامضاء سنة اثنتين وثلاث وسبعين في ولاية أخي السلطان الملك المعظم فخر الدين، فلما عدنا إلى الشام تكلم الناس في ذهاب نور بصره، وأنه لا يقوم في القضاء بورده وصدره، ففوّض السلطان القضاء بالإشارة الفاضلية إلى ابنه محيي الدين أبي حامد محمد، كأنه نائب أبيه، ولا يظهر للناس صرفه عما هو متوليه، واستمر القضاء له إلى انقضاء أشهر من سنة سبع وثمانين، ثم صرف واستقل به ابن زكي الدين، فأقام في مدّة ولايته للشرع القواعد والقوانين، وفوّض ديوان الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد والمشاهد إلى أخيه مجد الدين ابن الزكي فتولاه إلى أن انتقل من أعمال الوقوف إلى موقف اعتبار الأعمال، وتولاها بعده أخوه محيي الدين على الاستقلال إلى آخر عهد السلطان وبعده.

قلت: وفيها في صفر وقف السلطان قرية حزم باللوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه، أو يحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدّسي رحمه الله، وعلى من هو مدرسهم بهذا الموضع، من أصحاب الامام الشافعي رضي الله عنه، وجعل النظر لقطب الدين النسابورى رحمه الله، ورأيت كتاب الوقف بذلك على هذه الصورة، وعليه علامة السلطان رحمه الله « الحمد لله وبه توفيقي»

قال العماد: وفيها في ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر ونحن في طريق الوصول إلى دمشق توفي شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء بدمشق وهو أوّل خطيب بالديار المصرية للدولة العباسية، وكان يتولى الرسالة إلى الديوان العزيز، ويقصده الشعراء، ويحضره الكرماء فيكثر خلعهم وجوائزهم، ويبعث على مدحه غرائزهم، فحمل السلطان همه، وقرب

ولـده وجبر بتربيته يتمـه، ثم تعين ضيـاء الـدين ابـن الشهرزوري بعـده للرسـالة إلى الديوان، وصـارت منصباً له ينـافس عليه، واستتبت لـه هذه السفارة إلى آخـر العهد السلطاني، وذلك بعـد المضي إلى مصر والعود إلى الشام فإنه بعـد ذلك خاطب في هذا المرام، فأما في هذه السنـة فإنه كان في مسيرنا إلى مصر في الصحبه، وهو متودّد إليّ بصفاء المحبة.

وفيها في آخـر صفر تـزوّج السلطان بالخاتـون المنعوتـه عصمة الـدين بنت الأمير معين الـدين أنر، وكانـت في عصمة نور الـدين رحمه الله، فلما توفي أقـامت في منـزلها بقلعة دمشـق رفيعة القـدر مستقلة بـأمرهـا، كثيرة الصدقات، والأعمال الصـالحات، فأراد السلطان حفظ حرمتهـا وصيانتها وعصمتها، فـأحضر شرف الديـن ابن أبي عصرون وعدولـه وزوجه إيـاها بحضرتهم أخوهـا لأبيها الأمير سعد الديـن مسعود بن أنر، بـإذنها ودخل بها وبات عندها وقرن بسعده سعدها، وخرج بعد يومين إلى مصر.

وذكـر العماد بعد وفـاة ابن الشهـرزوري وابن أبي المضـاء الأمير مؤيـد الدولة أبـا الحارث أسامة بن مرشـد بن سديد الملـك أبي الحسن علي بن منقد وعـوده إلى الشام عنـد علمه بـوصول السلطـان، فقال: هـذا مؤيـد الدولة من الأمراء الفضلاء والكرماء الكبراء، والسادة القادة العظماء، وقد متعه الله بـالعمر وطـول البقاء، وهو مـن المعدوديـن من شجعـان الشام وفـرسـان الاسلام، ولم يـزل بنـو منقـد مـلاك شيـزر وقد جمعـوا السيـادة والمفخر، ولما تفرّد بـالمعقل منهم من تـولاه لم يرد أن يكون معه فيـه سواه، فخرجـوا منه في سنة أربع وعشريـن وخمسمائة وسكنوا دمشق وغيرهـا من البلاد، وكلهـم من الأجواد الأمجاد ومـا فيهم إلاّ ذو فضل وبذل، واحسان وعدل، وما منهم إلاّ مـن له نظم مطبوع، وشعر مصنوع ومـن له قصيدة، وله مقطـوع، وهذا مـؤيد الدولـة أعرقهم في الحسـب، وأعرفهـم بالأدب، وكـانت جـرت له نبـوة في أيام الـدمشقيين وسافـر إلى مصر وأقام هنـاك سنين في أيام المصريين، فتمـت نوبة قتـل المنعوت بـالظافر وقتـل عباس

وزيرهم أخوته وإقامة المنعوت بالفائز، وما ردف ذلك من المزاهز، فعاد مؤيد الدولة إلى الشام وسار إلى حصن كيفا وتوطن بها، ولما سمع بالملك الصلاحي جاء إلى دمشق وذلك في سنة سبعين وقال:

حمدت على طول عمري المشيبا
وإن كنت أكثرت فيه الذنوبا
لأني حييت إلى أن لقيت بعـ
ـد العدوّ صديقا حبيبا

قال: وكنت أسمع بفضله وأنا بأصبهان في أيام الشبيبه، وأنشدني له مجد العرب العامري بأصفهان في سنة خمس وأربعين هذين البيتين، وهما من مبتكرات معانيه في سنّ قلعها:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظريّ افترقنا فرقة الأبد

قال: فلما لقيته بدمشق في سنة سبعين أنشدنيها لنفسه، مع كثير من شعره المبتكر من جنسه.

قلت: ومن عجيب ما اتفق أني وجدت هذين البيتين مع بيتين آخرين، المجموع أربعة أبيات في ديوان أبي الحسين أحمد بن منير الاطرابلسي، ومات ابن منير سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، قرأت في ديوانه وقال في الضرس:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته
يسعى لنفعي وأجني ضره بيدي
أدنى إلى القلب من سمعي ومن بصري
ومن تلادي ومن مالي ومن ولدي
أخلو بشي من خال بوجنته
مداده زائد التقصير للمدد

ثم قال: « لم ألقـه مذ تصاحبنا «البيت، فالأشبـه أن ابن منير أخذهما، وزاد عليهما، ولهذا غير فيهما كلمات، وقـد وجدت هـذا البيـت الأوّل على صورة أخرى حسنة: « وصاحب نـاصح لي في معاملتي»، ويجوز أن يكون أسامـة أنشدهما متمثـلاً فنسبا إليـه لما كان مظنـة ذلك، ويجوز أن يكـون اتفاقا، والله اعلم.

قال العماد: وشـاهدت ولـده عضد الـدين أبـا الفوارس مـرهفاً، وهـو جليس صلاح الـدين وأنيسه، وقد كتـب ديوان شعر أبيه لصـلاح الدين وهـو لشغفه بـه يفضله على جميـع الـدواوين ولم يـزل هذا الأمير العضـد مرهـف مصاحباً له بمصر والشـام وإلى آخر عصره، وتـوطن بمصر، فلما جاء مؤيد الدولة أبوه أنزله أرحب منزل، وأورده أعذب منهل، وملكه من أعمال المعـرة ضيعـة زعـم أنها كـانت قـديماً تجري في أمـلاكـه، وأعطـاه بدمشق داراً وإدراراً، وإذا كـان بدمشق جالسـه وآنسه، وذاكره في الأدب ودارسـه، وكان ذا رأي وتجربـه وحنكة مهـذبة، فهـو يستشيره في نوائبـه، ويستنير برأيه في غياهبه، وإذا غاب عنه في غزواتـه كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاتـه، واستخرج رأيه في كشف مهماتـه، وحل مشكلاته، وبلـغ عمره ستا وتسعين سنة فـإن مولده سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وتـوفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

قلت: وقد تقدم مـن أخباره في قتل الأسد في شبيبته أيام كـونه بشيزر، وذكرت أيضا له ترجمة حسنة في تاريخ دمشق.

-٨٢٣٥-

فصل

في رجوع السلطان إلى مصر

خرج من دمشق يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأوّل

قال العماد: لما استتمت للسلطان بالشام أمور ممالكه، وأمن على مناهج أمره ومسالكه، أزمع إلى مصر الإياب، وقد أمحلت من بعده من جود جود السحاب، وتقدّمه الأمراء والملوك، وخرج بكرة الجمعة ونزل بمرج الصفر، ثم رحل عنه قبل العصر إلى قريب الصنمين، وخرجت معه وقلبي مروع إلى أهلي، فما نزلت منزلاً إلاّ نظمت أبياتاً فقلت يوم المسير وقد عبرت بالخياره:

أقول لركب بالخيارة نزل
أثيروا فما لي في المقام خيار

هم رحلوا عنك الغداة وما دروا
بأنهم قد خلفوك وساروا

حليف اشتياق لا يرى من يحبه
وفي القلب من نار الغرام أوار

أجيروا من البلوى فؤادي فعندكم
ذمام له يا سادتي وجوار

وقلت وقد نزلنا بالفقيع

رأيتني بالفقيع منفردا
أضيع من فقع قاعها الضائع

بعت بمصر دمشق عن غرر
مني فيا غبن صفقة البائع

صبري والقلب عاصيان وما
غير همومي وأدمعي طائعي

وقلت بالفوار:

تحدّر بالفوار دمعي على الفور
فقلت لجيراني أجيروا من الجور

وأصعب ما لاقيت أني قانع
من الطيف مذ بنتم بزور من الزور

وقلت بالزرقاء:

ولم أنس بالزرقاء يوم وداعنا
أناملُ تدمي حيرة للتندّم

أعدّتك يا زرقاء حمراء إنني
بكيتك حتى شيب ماؤك بالدم

تأخر قلبي عندهم متخلفا
وخالفتهم في عزمتي والتقدّم

فيا ليت شعري هل أعود إليهم
وهل ليت شعري نافع للمتيم

قال: وقلت وقد عبرنا على مسالك قريبة من قلعة الشوبك، وفيها تختطف الأفرنج القاصدين إلى مصر

طريق مصر ضيق المسلك
سالكه لاشك في مهلك

وحب مصر صار حبّ المن
أوقعه في شبك الشوبك

لكنها من دونها كعبة
محجوجة مبرورة المنسك

بها صلاح الدين يشكي الذي
إليه من أيامه يشتكي

قال: ونظمت في طريق مصر قصيدة مشتملة على ذكر المنازل بالترتيب، وإيراد البعيد منها والقريب، واتفق أن السلطان سير إلى مصر

الملك المظفر تقي الدين وكان لا يستدعي من شاديه إلا إنش
ناديه، ويطرب لسماعها ويعجب بإبداعها، وكان قد فارق أهله
كما فارقت بها أهلي، وجمع الله بهم بعد ذلك شملي، وهي هذه:

هجرتكم لا عن ملال ولا غدر
ولكن لمقدور أتيح من الأ

وأعلم أني مخطيء في فراقكم
وعذري في ذنبي وذنبي في ع

أرى نوب الدهر تحصى ولا أرى
أشدّ من الهجران في ثوب الد

بعيني إلى لقيا سواكم غشاوة
وسمعي عن نجوى سواكم لذو

وقلبي وصبري فارقاني لبعدكم
فلا صبر في قلبي ولا قلب في ص

وإني على العهد الذي تعهدونه
وسري لكم سري وجهري لكم جه

تجرعت صرف الهم من كاس شوقكم
وها أنا في صحوي نزيف من الس

وإن زمانا ليس يعمر موطني
بسكناكم فيه فليس من الع

وأقسم لو لم يقسم البين بيننا
جوى الهم ما أمسيت مقتسم الف

أسير لإلى مصر وقلبي أسيركم
ومن عجب أسري وقلبي في

أخلائي قد شط المزار فأرسلوا الـ
ـخيال وزوروا في الكرى واربحوا أج

تذكرت أحبابي بجلق بعدما
ترحلت والمشتاق يأنس بالذ

وناديت صبري مستغيثاً فلم يجب
فأسبلت دمعي للبكاء على ص

ولما قصدنا من دمشق غباغبا
وبتنا من الشوق الممض على الجمر
نزلنا برأس الماء عند وداعنا
موارد من ماء الدموع التي تجري
نزلنا بصحراء الفقيع وغودرت
فواقع من فيض المدامع في الغدر
ونهنهت بالفوار فيض مدامعي
ففاضت وباحت بالمكتم من سري
سرينا إلى الزرقاء منها ومن يصب
أواماً يسر حتى يرى الورد أو يسري
تذكرت حمام القصير وأهله
وقد جزت بالحمام في البلد القفر
وبالقريتين القريتين وأين من
مغاني الغواني منزل الأدم والعفر
وردنا من الزيتون حسمى وإيلة
ولم نسترح حتى صدرنا إلى صدر
غشينا الغواشي وهي يابسة الثرى
بعيدة عهد القطر بالعهد والقطر
وضن علينا بالندى ثمد الحصى
ومن يرتجي ريا من الثمد النزر
فقلت اشرحي بالخمس صدراً مطيتي
بصدر وإلا جادك النيل للعشر
رأينا بها عين المواساة أننا
إلى عين موسى نبذل الزاد للسفر
وما حسرت عيني على فيض عبرة
أكفكفها حتى عبرنا على الجسر
وملنا إلى أرض السدير وجنة
هنالك من طلح نضيد ومن سدر

وجبنا الفلا حتى أصبنا مباركا
على بركة الجب المبشر بالقصر
ولما بدا الفسطاط بشرت رفقتي
بمن يتلقى الوفد بالوفر والبشر
بكت أم عمرو من وشيك ترحلي
فيا خجلتي من أم عمرو ومن عمرو
تقول إلى مصر تصير تعجبا
وماذا الذي تبغي ومن لك في مصر
فقلت: ملاذي الناصر الملك الذي
حصلت بجدواه على الملك والنصر
فقالت أقم لا تعدم الخير عندنا
فقلت وهل تغني السواقي عن البحر
ثقي برجوع يضمن الله نجحه
ولا يقتضي أن نبدل العسر باليسر
عطيته قد ضاعفت منه الرجا
ونعمته قد أضعفت منة الشكر

قال: وكان الدخول إلى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الأوّل بالزي الأجمل، والعز الأكمل، وتلقى السلطان أخوه ونائبه الملك العادل سيف الدين إلى صدر، وعبر إلينا عند بحر القلزم الجسر وتلقانا حيز مصر ، ووصلت إلينا ثمراتها، وجليت علينا زهراتها، فظهر بنا نشاطها.

وزاد اغتباطها، ودخل السلطان داره، ووفق الله في جميع الأمور ايراده واصداره، وكانت قد صعبت عليّ مفارقة دمشق وأهلها لقلة الوثوق بأني أحصل بمثلها، فنظمت يوم خروجي منها أبياتاً إلى ناصر الدين محمد ابن شيركوه منها:

بمهجتي خنث العطـ
ـف مستلذ الدلال

يقـــــول لي بـــــــانكســـــار
ورقـــــــة واعتـــــــــلال
معـــــاتبـــــا بحـــــديـــــث
أصفـــــى مـــــن السلســـــال
مـــــامصر مثـــــل دمشـــــق
بعـــــت الهدى بـــــالضـــــلال
فقلـــــت عنـــــت أمـــــور
عجيبـــــــة الأشكـــــــال
أسير في طلـــــب الـــــــ
ــــــعز مثـــــل سير الهلال
لم يبلـــــغ البـــــدر لـــــو لا الـــــ
ــــــمسير أوج الكمال
وكيـــــف أتـــــرك شغلي
وإنـــــه رأس مـــــالي
صـــلاح حـــالي صـــلاح الــــ
ــــدين الغـــزيـــر النـــوال
مـــــالي أفـــــارق ملكـــــا
ملكتـــــه أمـــــالي
يـــا نـــاصر الـــديـــن قلبـــي
عليـــــه في بلبـــــال

ثم ذكر العماد المحسنين إليه بالقاهرة وسيدهم المولى الأجل الفاضل، وقد مدحه بقصيدة منها:

كيـــف لا يغتـــدي لي الـــدهـــر عبـــداً
وأنـــا عبـــد عبـــد عبـــد الـــرحيـــم
بـــدوام الأجـــل سيـــدنـــا الفـــا
ضـــل يـــا دولـــة الأفـــاضـــل دومـــي
إذ أراه ينـــوب عنـــي لـــدى المـــــ
ــــلك منـــاب الأرواح عنـــد الجســـوم

مــالــك الحل في الممالــك والعقـــ
ـــد وحكــم التحليــل والتحــريــم
معمــل للنفـــاذ في كـــل قطـــر
قلماً حـــاكماً على اقليـــم
يتلقـــى الملـــوك في كـــل أرض
كتبـــه القـــادمـــات بـــالتعظيـــم
نـــاحـــل الجسـم ذو خطـاب بـــه يصـ
ـــغر الـــدهـــر كـــل خطـــب جسيـم

ثم ذكر الأخويـن تقي الدين عمر، وعز الدين فـرخشاه، وهما ابنا أخي السلطان، وهـو شاهنشاه بـن أيوب، وهمام الـدين بزغـش الشنباشي والي القاهرة، ومدح فرخشاه بقصيدة حسنة منها:

شـــادن كـــالقضيـــب لـــدن المهـــزه
سلبـــت مقلتـــاه قلبـــي بغمـــزه
كلما رمـــت وصلـــه رام هجـــري
وإذا زدت ذلـــة زاد عـــزه
للصبـــا مـــن عـــذاره نســـج حســـن
رقـــم المســـك في الشقـــائق طـــرزه
وعـــزيـــز عليّ أن اصطبـــاري
فيـــه قـــد عـــزه الغـــرام وبـــزه
مـــا رأى مـــا رأيـــت مجنـــون ليلى
في هـــواه ولا كثير عـــزه
مـــا ذكـــرنـــا الفسطـــاط إلا أنسينـــا
مـــا رأينـــا بـــالنيربين والارزه
فمهـــا الجيـــزة الجوازي لها الميـــ
ـــزة حسنـــاً على ظبـــاء المزه
ونصيري عليـــه نـــائل عـــز الـــديـــن
ذي الفضـــل خلـــد الله عـــزه

ومنها

فــرّغ الكنــز مــن ذخــائر مــال
مــا النــامــن نفــائس الحمــد كنــزه
همة مستهـــامـــة بـــا لمعـــالي
للـــدنـــايـــا أبيـــة مشمئـــزه

قال العماد: وتوفرنا على الاجتماع في المغاني لاستماع الأغاني، والتنزه في الجزيرة والجيزه، والأماكن العزيزة، ومنازل العز والروضة، ودار الملك والنيل والمقياس ومرامي السفن ومجاري الفلك، والقصور بالقرافة، وربوع الضيافة، ورواية الاحاديث النبوية، والمباحثة في المسائل الفقهية، والمعاني الأدبية.

قال: واقترحنا على القاضي ضياء الدين ابن الشهروزوري أن يفرجنا في الاهرام، فقد شغفنا بأخبارها في الشام، فخرج بنا إليها ودار بنا حواليها ودرنا تلك البرابي والبراري والرمال والصحاري، وأحمدنا المقار والمقاري، وهالنا أبو الهول، وضاق في وصفه مجال القول، ورأينا العجائب، وروينا الغرائب، واستصغرنا في جنب الهرمين كل ما استعظمناه، وتداولنا الحديث في الهرم ومن بناه، فكل يأتي في وصفهما بما نقله لا بما عقله، واجتهدوا في الصعود إليه فلم يوجد من توقله، وحارت العقول في عقوده، وطارت الأفكار عن توهم حدوده، فياله من مولود للدهر قبل الطوفان، انقرضت القرون الخالية على آبائه وجدوده، وسمار الأخبار بذكر حديث أجداث عاده وثموده، ويدل إحكامه وعلوه على همة بانيه في بأسه وجوده، وأن في الأرض الهرمين، كما أن في السماء الفرقدين وهما كالطودين الراسخين، وكالجبلين الشامخين، قد فنيت الدهور، وهما باقيان، وتقاصرت القصور، وهما راقيان، وكأنهما لأم الأرض ثديان، وعلى ترائب التراب نهدان، ولسلطان العالم علمان، وإلى مراقي الأملاك سلمان، وهما لليل والنهار رقيبان، ولرضوى ولشمام نسيبان، ومن

زحل والمريخ قريبان، ولعوادي الخطوب خطيبان، ولثور الفلك روقان، ولشخص الكرة الترابية ساقان.

قلت: ثم ذكر العماد جماعة ممن كان يقيم الضيافة له ولمثله من الفضلاء والأعيان، فذكر منهم الناصح مؤدّب أولاد السلطان، وله دار مشرفة على النيل، وذكر منهم اللسان الصوفي البلخي، وكان له صحبة قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان، وله دار أيضاً على شاطىء النيل برسم ضيافة من نزل به، قال: ثم وقف السلطان داره على الصوفية من بعده وانتقل بعد سنين إلى النعيم وخلده.

فصل

في بيع الكتب وعمارة القلعة والمدرسة والبيمارستان

قال العماد: وكان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان، وخزائنها في القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف، مفهرسة بالمعروف، فقيل للأمير بهاء الدين قراقوش متولي القصر، والحال والعاقد للأمر: هذه الكتب قد عاث فيها العث، وتساوى سمينها والغث، ولا غنى عن تهويتها ونفضها وإخراجها من بيوت الخزانة إلى أرضها، وهو تركي لا خبرة له بالكتب، ولا دربة له بأسفار الأدب، وكان مقصود دلالي الكتب أن يوكسوها، ويخرموها ويعكسوها، فأخرجت وهي أكثر من مائة ألف من أماكنها، وغربت من مساكنها، وخربت أوكارها، وذهبت أنوارها، وشتت شملها، وبت حبلها، واختلط أدبيها بنجوميها وشرعيها بمنطقيها، وطبيها بهندسيها، وتواريخها بتفاسيرها، ومجاهيلها بمشاهيرها، وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الامصار ومصنفات الاخبار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلداً، إذا فقد منها جزؤ لا يخلف أبداً، فاختلطت واختبطت، فكان الدلال يخرج عشرة

عشرة من كل فن كتباً مبترة، فتسام بـالدون، وتباع بالهون، والدلال يعرف كل شدّة، وما فيها من عدّة، ويعلم أن عنـده من أجناسها وأنواعها، وقد شارك غيره في ابتياعها، حتى إذا لفق كتابـاً قد تقوّم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة.

قال: فلما رأيـت الأمر حضرت القصر، واشتريت كما اشتروا، ومـريت الأطباء كما مـروا، واستكثرت من المتاع المبتـاع، وحويت نفـائس الأنواع، ولما عـرف السلطان مـا ابتعته وكـان بمئين أنعم علي بها وأبـرأ ذمتي مـن ذهبها، ثـم وهب لي أيضـاً من خزانـة القصر ما عينـت عليه مـن كتبها، ودخلت عليه يـوماً وبين يديه مجلدات كثيرة، انتقيت لـه من القصر، وهو ينظر في بعضهـا، وبسط يـدي لقبضها، قال: وكنـت طلبت كتباً عينتها فقـال: وهـل في هــذه شيء منهـا؟ فقلـت: كلهـا ومـا استغنـي عنهـا، فأخرجتها من عنده بحمال، وكان هذا منه بالإضافة إلى سماحه أقل نوال.

قال:وكان السلطـان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكـل واحدة منهما سور لا يمنعهـا، فقال: إن أفـردت كل واحـدة بسور احتـاجت إلى جند مفـرد يحميها، وإني أرى أن أديـر عليهما سوراً واحـداً من الشـاطىء إلى الشاطىء ، وأمـر ببناء قلعة في الوسـط عند مسجد سعد الـدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهـر القاهرة ببرج في المقسم وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظـم، ووجدت في عهد السلطان بيتـاً رفعه النواب وتكمل فيه الحساب، ومبلغه وهـو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيـه من سـاحـل البحـر والقلعة بـالجبـل تسعـة وعشرون ألفاً وثـلاثمائة وذراعان، من ذلـك ما بين قلعة المقسم على شاطىء النيـل والبرج بالكوم الأحمر بساحـل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بـالمقسم إلى حائط القلعـة بالجبل بمسجـد سعد الـدولة ثمانية آلاف وثـلاثمائة واثنان وتسعون ذراعاً، ومـن جانب حائط القلعـة من جهة مسجد سعـد الدولة إلى البرج بـالكـوم الأحمر سبعـة آلاف ومـائتـا ذراع، ودائر القلعـة بجبـل

مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع، وذلك طول قوسه في أبدانه وأبراجه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع القاسمي بتولي الأمير شهاب الدين قراقوش الأسدي، وبنى القلعة على الجبل، وأعطاها حقها من إحكام العمل، وقطع الخندق وتعميقه، وحفر واديه وتضييق طريقه، وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئر ينزل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين، ولم يتأت له هذا كله في سنين متقاربة لولا أعانه ربه المعين، وتوفي السلطان وقد بقي من السور مواضع والعمارة فيه مستمرة،ووظائف نفقاتها مستدرة.

قال: وأمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية، ورتب قواعدها بفرط الألمعية، وتولاها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني، وهو الشيخ الصالح الفقيه الورع التقي النقي.

قال: وأمر باتخاذ دار في القصر بيمارستانا للمرضى، وأستغفر الله بذلك واسترضى، ووقف على البيمارستان والمدرسة وقوفاً، وقد أبطل منكراً وأشاع معروفاً، وأضرب عن ضرائب فمحاها، وهب إلى مواهب فأسداها، واهتم بفرائض ونوافل فأدّاها.

فصل

في خروج السلطان إلى الاسكندرية وغير ذلك من بواقي حوادث هذه السنة

قال العماد: ثم خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واستصحب ولديه الأفضل علياً والعزيز عثمان، وجعل طريقه على دمياط، ورأى في الحضور بالثغر المذكور ومشاهدته الاحتياط، وكان له بها سبي كثير جلبه الأسطول، فامتدّ بظاهر البلد يومين، ووهب لي منه جارية، ثم وصلنا إلى ثغر الاسكندرية، وتردّدنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي، وداومنا الحضور عنده واجتلينا من وجهه نور الايمان وسعده، وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان، واغتنمنا فرصة الزمان، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العمر، فهي آخر ما اجتمعنا به في ذلك الثغر، وشاهدنا ما استجدّه السلطان من السور الدائر، وما أبقاه من حسن الآثار والمآثر، وما انصرف حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول.

قال ابن أبي طيّ: ولما نوى السلطان المقام بالاسكندرية ليصوم فيها رأى أنه لا يخلي نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين، فرأى الاسطول وقد أخلقت سفنه وتغيرت آلاته، فأمر بتعمير الأسطول، وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الاسطول اليه وشحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً وديواناً مفرداً، وكتب إلى سائر البلاد يقول القول قول صاحب الأسطول، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الاسطول أن لا يبارح البحر، ويغزي إلى جزائر البحر.

قال العماد: وقلت في معنى تنقلي في البلاد:

يوماً بحيّ ويوماً في دمشق وبالـ — فسطاط يوماً ويوماً بالعراقين
كأن جسمي وقلبي الصب ما خلقا — إلا ليقتسما بالشوق والبين

وقلت يوم الخروج من القاهرة:

يا باخلاً عند الوداع بوقفة — لو سامني روحي بها لم أبخل
ما كان ضرك لو وقفت لسائل — ترك الفؤاد بدائه في المنزل
هلا وقفت لقلب من أحرقته — مقدار إطفاء الحريق المشعل
إن أسر مرتحلاً ففي أسر الهوى — قلبي لديك مقيداً لم يرحل
عذب العذاب لدى فؤادي المبتلى — إذ كنت أنت معذبي والمبتلي

وقلت وقد نزلنا بين منية غمر ومنية سمنود:

نزلت بأرض المنيتين ومنيتي — لقاؤكم الشافي ووصلكم المجدي
سأبلى ولا تبلى سريرة ودّكم — وتؤنسني إن مت في وحشة اللحد

قال: وعدنا من الاسكندرية في شهر رمضان، فصمنا بقية الشهر بالقاهرة، والسلطان متوفر في ليله ونهاره على نشر العدل وانشاره، وإفاضة الجود واغزاره، وسماع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأخباره، وإشاعه العلم والإعلان بأسراره وإبداء شعار الشرع وإظهاره وابقاء المعروف على قراره، وإفناء أعلام الباطل وإنكاره.

وقال: ومن مدائحي في السلطان ما أنشدته إياه سادس شوّال:

فـديتـك مـن ظـالم منصـف ... ونـاهيـك مـن بـاخـل مسرف

ومنها:

أيبلـغ دهـري قصـدي وقـد ... قصـدت بمصر ذرا يـوسـف

ويـوسـف مصر بغير التقـى ... وبـذل الصنـائع لم يـوصـف

فسر وافتـح القـدس واسفـك بـه ... دمـاء متـى تجرهـا ينظـف

وإهـد إلى الأسبتـار البتـا ... روهـدّ السقـوف على الأسقـف

وخلـص مـن الكفـر تلـك البـلا ... د يخلصلـك الله في الموقـف

وفيها وصل رسل المواصلة، وصاحبي الحصن وماردين إلى دمشق، فاستوثقوا بتحليف أخي السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب حصن كيفا في الأسر.

قال ابن أبي طي: وصل رسول الموصل القاضي عماد الدين بن كمال الدين بن الشهرزوري بهدية وقود، فخرج الموكب إلى لقائه، وأكرمه السلطان واحترمه، وقدم بعده رسول نور الدين قر ا أ رسلان، ورسول صاحب ماردين بهدايا، واجتمعوا في دمشق ، وخرجوا إلى السلطان بمصر، فاعترضهم الفرنج فأسر رسول صاحب الحصن ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان، فأطلقه وأحسن إليه.

قال: وفيها رجع قراقوش إلى أوجلة وتلك البلاد، فجمع أموالاً ورجع إلى مصر ثم أراد الرجوع فمنعه العادل ثم خلصه فرخشاه فرجع وفتح بلاد فزان باسرها.

قال العماد: ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لإرهاب العدوّ، وهو يركب للصيد والقنص والتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص، واقترح عليّ أن أمدح عز الدين فرخشاه بقصيدة موسومة ألزم فيها الشين قبل الهاء، فعملت ذلك في أواخر ذي الحجة فقلت:

مولاي عز الدين فرخشه
الدهر من برجك لا يخشه

ومنها:

تلقاه سمح الكف دفاقها
طلق المحيا كرما بشه
إن شئت فوتا بالردى فالقه
أوشئت فوزاً بالعلى فاغشه
يديم بالأيدي وبالأيد في
حزي لهاه والعدى بطشه
كم ملك عاداكم لم يبت
إلا جعلتم عرشه نعشه
خوّفتم الشرك فلا قمصه
أمنتم يوما ولا فنشه
أورثك السوددياين العلى
والدك السيد شاهنشه

وقال في الخريدة: كنا مخيمين بمرج فاقوس مصممين على الغزاة إلى غزة، وقد وصلت أساطيل ثغري دمياط والاسكندرية بسبي الكفار، وقد أوفت على ألف رأس عدّة من وصل في قيد الاسار، فحضر ابن رواحة منشداً مهنئاً بعيد النحر سنة اثنتين وسبعين ومعرضاً بها وهبه الملك الناصر من الإماء والعبيد قصيدة منها:

لقـــد خبر التجـــارب منـــه حـــزم
وقلـــب دهـــره ظهـــراً لبطـــن

فســـاق إلى الفـــرنـــج الخيـــل بـــراً
وأدركهـــم على بحـــر بسفـــن

وقـــد جلـــب الجواري بـــالجواري
يمـــدن بكـــل قـــدمـــر جحـــن

يـــزيـــدهـــم اجتماع الشمـــل بـــؤســـاً
فمـــريـــان يبـــوح على مـــرن

زهـــت اسكنـــدريـــة يـــوم سيقـــوا
ودميـــاط إلى المينـــا بغين

يـــرون خيـــالـــه كـــالطيـــف يسري
فلـــو هجعـــوا أتـــاهـــم بعـــدوهـــن

أبـــادهـــم تخوفـــه فـــأمســـى
منـــاهـــم لـــو تبيتهـــم بـــأمـــن

تملـــك حـــولهم شرقـــاً وغـــربـــاً
فصـــاروا الاقتنـــاص تحت رهـــن

أقـــام بـــآل أيـــوب ربـــاطـــا
رأت منـــه الفـــرنجـــة ضيـــق سجـــن

رجـــا أقصـــى الملـــوك السلـــم منهـــم
ولم يـــرجهـــده في البـــأس يغنـــي (١٥١)

وفيها أبطل السلطان المكس الذي كان بمكة على الحاج، وسيأتي ذكره في أخبار سنة أربع وسبعين.

قال ابن الاثير: وفي سنة اثنتين وسبعين شرع مجاهد الدين ـــ يعني ـــ قايماز دزدار قلعة الموصل في عمارة جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر، وهو من أحسن الجوامع، ثم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان، وكلاهما متجاوران، قال: وتوفي في شهر ربيع الأوّل من سنة خمس وتسعين بقلعة الموصل وهو متوليها، والحاكم في الدولة الأتابكية النورية،

وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحجة سنة احدى وسبعين، ثم قبض عليه سنة تسع و ثمانين وأعيد إلى ولايتها بعد الافراج عنه، وبقي إلى الآن، وكان أصله من أعمال شبختان، وأخذ منها وهو طفل، وكان عاقلاً خيراً ديناً فاضلا، تعلم الفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان يحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئاً كثيراً إلى غير ذلك من المعارف الحسنة، وكان يكثر الصوم، وله ورد يصليه كل ليلة، ويكثر الصدقة وبنى عدّة جوامع منها الذي بظاهر الموصل، وبنى عدّة خانقاهات منها التي بالموصل، ومدارس وقناطر على الأنهار إلى غير ذلك من المصالح، ومناقبه كثيرة.

قال العماد في الخريدة: تنزلنا ببركة الجب لقصد فرض الجهاد، وعرض الأجناد، فكتب الأسعد بن مماتي إليّ قصيدة في الملك الناصر، ويعرض بالشطرنج فإنه كان يشتغل به، وذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين:

يا كريم الخيم في الخيم
أهيف كالريم ذو شمم

عجبي للشمس إذا طلعت
منه في داج من الظلم

كيف لا تصمي لواحظه
ورماة الطرف في العجم

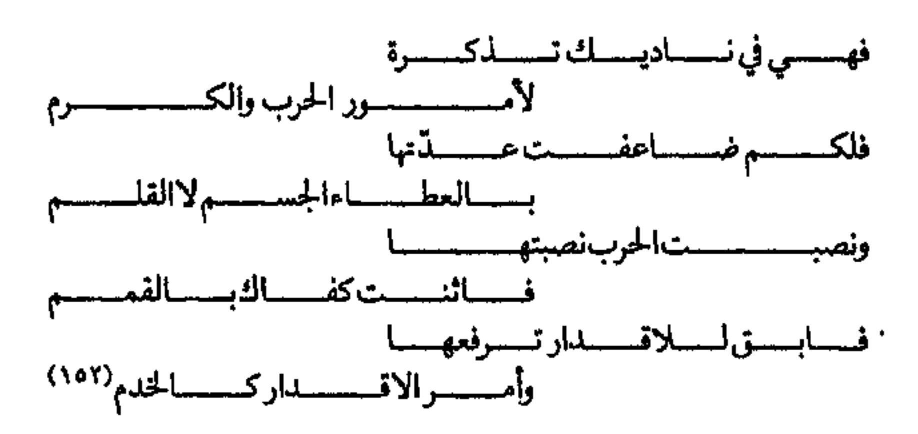
لا تصد قلب المحب لكم
لا يحل الصيد في الحرم

يا صلاح الدين يا ملكا
مذ براه الله للأمم

أضحت الكفار في نقم
وغدا الاسلام في نعم

إن يك الشطرنج مشغلة
لعليّ القدر والهمم

-٨٢٥٢-



فهي في ناديك تذكرة
لأمور الحرب والكرم
فلكم ضاعفت عدّتها
بالعطاء الجسم لا القلم
ونصبت الحرب نصبتها
فاثنت كفاك بالقمم
فابق للاقدار ترفعها
وأمر الاقدار كالخدم(١٥٢)

وفيها توفي بالاسكندرية القاضي الشريف أبو محمد عبد الله العثماني الديباجي، من ولد الديباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنهم، ويعرف بابن أبي الياس، من بيت القضاء والعلم، وكان واسع الباع في علم الأحاديث، كثير الرواية قيما بالأدب، متصرفاً في النظم والنثر إلا أنه مقل من النظم، أوحد عصره في علم الشروط وقوله المقبول على كل العدول، ذكر ذلك العماد رحمه الله في الخريدة.(١٥٣)

-٨٢٥٣-

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

والسلطان مخيم بمرج فاقوس، فنظم العماد في الأجل الفاضل قصيدة ميمية في منتصف المحرم، وخدمه بها هناك في المخيم أولها:

ريم هضيم يروم هضمي
من سقم عينيه عين سقمي
إن رمت باعاذلي صلاحي
فخلني والهوى وزعمي
لو مسك يذكي الغرام قل لي
أنت نصحي أم أنت خصمي
أيا زماني الغشوم أقصر
إنك لا تستطيع غشمي
عبد الرحيم أضحى
عوني على خطبك الملم
الفاضل الأفضل الأجـ
ـل المفضل الأشرف الأشم
غيث غياث وجود جود
وبحر علم وطود حلم
يراعه في اليمين منه
تستخرج الدرّ من خضم

قال وكان عندنا بالمخيم بالعباسة في المحرم علم الدين الشاتاني، وهو من أدباء الموصل وشعرائها، وفصحائها وظرفائها، وفد سنة اثنتين وسبعين إلى مصر وأهدى النظم والنثر، واصطنعه عز الدين فرخشاه، وأنزله في جواره، وجمع له من رفده ومن الأمراء ألف دينار، فمدح السلطان بالمخيم بكلمة مطلعها:

غدا النصر معقودا برايتك الصفرا
فسر وافتح الدنيا فأنت بها أحرى (١٥٤)

قلت: لم يذكر العماد من هذه القصيدة غير هذا البيت، وإنه لقائم مقام قصائد كثيرة، والشاتاني هو أبو علي الحسن بن سعيد، له ترجمة في تاريخ دمشق، وذكره العماد في الخريدة وذكر فيها من هذه القصيدة

يمينك فيها اليمن واليسر في اليسرى
فبشرى لمن يرجو الندى منهما بشرى

قال العماد: وكانت الاعلام السلطانية صفراء لا يفارق نشرها نصراً

قلت:وفيها يقول بعض الفضلاء:

وأسود خطب دونه الموت أحمر
أتت بالأيادي البيض أعلامه الصفر
فمذ ظهرت منصوبة جزمت بها
ظهور العدى من رفعها انخفض الكفر
واضحت تجوز الأرض شرقا ومغربا
ولله في إعلاء رتبته سرّ

وقال العماد: عاد السلطان إلى القاهرة، وأقام بها ثم اهتمت بالغزاة همته إلى غزة وعسقلان، فخرج يوم الجمعة ثالث جمادى الأولى بعد الصلاة، وخيم بظاهر بلبيس في خامسه بخميسه، ثم تقدّمنا منه إلى السدير، وخيمنا بالمبرز ثم نودي خذوا زاد عشرة أيام أخرى زيادة للاستظهار، ولإعواز ذلك عند توسط ديار الكفار.

قال العماد: فركبت إلى سوق العسكر للابتياع، وقد أخذ السعر في الارتفاع، فقلت لغلامي قد بدا لي وقد خطر الرجوع من الخطر ببالي، فاعرض للبيع أجمالي وأثقالي، وانتهز فرصة هذا السعر الغالي، وأنا صاحب قلم لا صاحب علم، وقد استشعرت نفسي في هذه الغزوة من عاقبة ندم، والمدى بعيد، والخطب شديد، وهذه نوبة السيوف لا نوبة الأقلام، وفي سلامتنا سلامة الاسلام، والواجب على كل منا أن يلزم

شغلـه، ولا يتعدّى حـدّه ولا يتجـاوز محله، لا سيما ونـواب الـديوان قـد استـأذنوا في العـودة، وأظهـروا قلة العـدّة، وأظهـرت سري للمولى الأجـل الفاضل، فسره ذلك اشفـاقا علي واحسانا إليّ، وكان السلطان أيضـاً يؤثر ايثـاري، ويختار اختيـاري فقال لي: أنـت معنـا أو عزمـت أن تدعنـا ولا تتبعنا؟ فقلت: الأمر للمولى، وما يختاره لي فهو أولى، فقال: تعـود وتدعو لنـا وتسأل الله أن يبلغنـا من النصر سؤلنا، وكنـت قد كتبـت أبياتـا إلى المخدوم الفاضل ونحن بالمبرز في العشرين من الشهر:

قيـل في مصر نـائل عـدد الرمـ ... ـل ووفـر كنيلهـا الموفـور
فـاغتررنـا بها وسرنـا إليهـا ... ووقعنـا كما تـرى في الغـرور
وحظينـا بـالـرمـل والسير فيـه ... ومنعنـا مـن نيلهـا الميسـور
وبـرزنـا إلى المبرز نشكـو ... سدرا مـن نـزولنـا بـالسـديـر
قيـل لي سر إلى الجهـاد ومـاذا ... بـالـغ في الجهـاد جهـد مسيري
ليـس يقـوى في الجيش جـأشي ولا قـو ... سي يـرى مـوتـوراً إلى مـوتـور
أنـا للكتـب لا الكتـائب إقـدا ... مـي وللمصحـف لا الصفـاح حضـوري
كـاد فضلي يضيـع لـو لا اهتمام الـ ... ـفاضل الفـائض النـدى بـأمـوري
فـأنـا منـه في مـلابـس جـاه ... رافـلاً منـه في حبير حبـوري
فهـو رقـى مـن الحضيـض حظـوظـي ... وسما بي إلى سريـر السرور

وقال: ومـا انقطعت عـن السلطان في غزواتـه إلا في هذه الغـزوة، وقد

عظم الله فيها من النبوة، وكانت غزوات السلطان بعدها مؤيدة، والسعادات فيها مجدّدة، وكنت لما فارقت القاهرة استوحشت وتشوّقت إلى أصدقائي وتشوّشت، وكتبت من المخيم ببلبيس إلى القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، وقد أقام بالقاهرة وكان صاحباً لي من الأيام النورية، واستشرته في التأخر عن السلطان، فكتب في الجواب: رافقه ولا تفارقه، فكرهت رأيه فكتبت إليه:

إذا رضيتم بمكروهي فذاك رضا
لا أبتغي غير ما تبغون لي غرضا

وإن رأيتم شفاء القلب في مرضي
فإنني مستطيب ذلك المرضا

أنتم أشرتم بتعذيبي فصرت له
متعذباً استلذ الهم والمضضا

أصبحت ممتعظاً من أجل أني لا
أرى صديقاً لما ألقاه ممتعضا

إن رمتم عوضاً بي في محبتكم
فحاش لله أن أبغي بكم عوضا

لله عيش تقضى عندكم ومضى
وكان مثل سحاب برقه ومضا

العيش دان جناه الغض عندكم
والقلب محترق مني بجمر غضا

ما كنت أعهد منكم ذا الجفاء ولا
حسبت أن ودادي عندكم رفضا

قد أظلم الأفق في عيني لغيبتكم
فإن أذنت لشخصي في الحضور أضا

ولست أول صب من أحبته
لما جفوا ما قضى أوطاره وقضى

مروا بما شئتم من محنة وأذى
فقد رأيت امتثال الأمر مفترضا

طوبى لكم مصر والدار التي قضيت
فيها المآرب والعيش الذي خفضا
بعيشكم إن خلوتم بانبساطكم
تذكروا ضجراً بالعيش منقبضا
رضيتم سفري عنكم واعهدكم
بسفرتي عنكم لا تظهرون رضا
هلا تكلفتم قولاً أسر به
هيهات جوهركم قد عادلي عرضا
تفضلوا واشرحوا صدري بقربكم
أو فاشرحوا لي ذا المعنى الذي غمضا

فكتب إلي في جوابها أبياتا منها:

لا تنسبوني إلى ايثار بعدكم
فلست أرضى إذا فارقتكم عوضا
ولي وداد تولى الصدق عقدته
فما تراه على الأيام منتقضا
يلقاك قلبي على سبل العتاب له
بصحة ليس يخشى بعدها مرضا
صرت كالدهر يجني أهله أسفا
ويلتقي من عتاب المذنب المضضا

قال: ثم ودعت وعدت ونهضوا وقعدت

فصل

في نوبة كسرة الرمله وكانت على المسلمين بالجملةوذلك يوم الجمعة غرة جمادى الآخرة أو ثانيه

ورحل السلطان بعساكره، فنزل على عسقلان يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى فسبى وسلب، وغنم وغلب، وأسر وقسر وكسب وكسر، وجمع هناك من كان معه من الأسارى، فضرب أعناقهم، وتفرق عسكره في الأعمال مغيرين ومبيدين، فلما رأوا أن الفرنج خامدون استرسلوا وانبسطوا، وتوسط السلطان البلاد، واستقبل يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة بالرملة راحلاً لقصد بعض المعاقل، فاعترضه نهر عليه تل الصافيه، فازدحمت على العبور أثقال العساكر المتوافيه، فما شعروا إلاّ بالفرنج طالبة بأطلابها، حازية باحزابها، ذابة بذئابها، عاوية بكلابها، وقد نفر نفيرهم وزفر زفيرهم، وسرايا المسلمين في الضياع مغيره، ولرحى الحرب عليهم في دورهم مديره، فوقف الملك المظفر تقي الدين وتلقاهم وباشرهم ببيضه وسمره، فاستشهد من أصحابه عدّة من الكرام، انتقلوا إلى نعيم دار المقام، وهلك من الفرنج أضعافها، وكان لتقي الدين ولد يقال له أحمد أوّل ماطر شاربه، فاستشهد بعدما أردى فارساً.

قال: وكان لتقي الدين أيضاً ولد آخر اسمه شاهنشاه وقع في أسر الفرنج، وذلك أن بعض مستأمني الفرنج بدمشق خدعه، وقال له تجيء إلى الملك وهو يعطيك الملك، وزوّر له كتابا فسكن إلى صدقه، وخرج معه فلما تفرد به شدّ وثاقه وغله وقيده وحمله إلى الداوية، وأخذ به مالاً، وجدّد عندهم حالاً وجمالاً، وبقي في الأسر أكثر من سبع سنين حتى فكه السلطان بمال كثير، وأطلق للداوية كل من كان لهم عنده من أسير، فغلظ القلب التقوي على ذلك الولد جر هلاك أخيه، ولما عاد من الغزوة زرناه للتعزية فيه، قال: ولو أن لتقي الدين رداء لأردى القوم، لكن

الناس تفرقوا وراء أثقالهم، ثم نجوا برحالهم وصوب العدوّ بجملتهم حملتهم على السلطان، فثبت ووقف على تقدمة من تخلف، وسمعته يوما يصف تلك النوبة، ويشكر من جماعته الصحبة، ويقول: رأيت فارساً يحث نحوي حصانه، وقد صوّب إلى نحري سنانه، فكاد يبلغني طعانه، ومعه آخران قد جعلا شأنهما شأنه، فرأيت ثلاثة من أصحابي خرج كل واحد إلى واحد منهم فبادروه وطعنوه، وقد تمكن من قربي فما مكنوه، وهم إبراهيم بن قنابر، وفضل الفيضي، وسويد بن غشم المصري، وكانوا فرسان العسكر، وشجعان المعشر، واتفق لسعادة السلطان أن هؤلاء الثلاثة رافقوه، وما فارقوه وقارعوا العدوّ دونه وضايقوه، فما زال السلطان يسير ويقف حتى لم يبق من ظن أنه يتخلف، ودخل الليل، وسلك الرمل، ولا ماء ولا دليل، ولا كثير من الزاد والعلف ولا قليل، وتعسفوا السلوك في تلك الرمال والأوعاث والأوعار، وبقوا أياما وليالي بغير ماء ولا زاد حتى وصلوا إلى الديار، وآذن ذلك بتلف الدواب وترجل الركاب ولغوب الأصحاب، وفقد كثير ممن لم يعرف له خبر ولم يظهر له أثر، وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير، ومن كان في صحبتهم فضل الطريق عنهم وكانوا سائرين إلى وراء، فأصبحوا بقرب الأعداء فأكمنو في مغاره وانتظروا من يدلهم من بلد الاسلام على عماره، فدل عليهم الفرنج من زعم أنه يدل بهم وسعى في أسرهم وعطبهم، فأسروا وما خلص الفقيه عيسى وأخوه إلا بعد سنين بستين أو سبعين ألف دينار، وفكاك جماعة من الكفار.

قال: وما اشتدّت هذه النوبة بكسره ولا عدم نصره، فإن النكاية في العدوّ وبلاده بلغت منتهاها وأدركت كل نفس مؤمنة مشتهاها، لكن الخروج من تلك البلاد شتت الشمل، وأوعر السهل، وسلك مع عدم الماء والدليل الرمل، وبما قدره الله تعالى من أسباب السلامة، والهداية إلى الاستقامة أن الأجل الفاضل استظهر في دخول بلاد الاعداء باستصحاب الكنانية والأدلاء وأنهم ما كانوا يفارقونه في الغداء والعشاء فلما وقعت

الواقعة خرج بدوابه وغلمانه وأصحابه وأدلائه وأثقاله، وبث أصحابه في تلك الرمال والوهاد والتلال، حتى أخذ خبر السلطان، وقصده وأوضح بأدلائه جدده، وفرّق ما كان معه من الأزواد على المنقطعين، وجمعهم في خدمة السلطان أجمعين، فسهل ذلك الوعر وأنس بعد الوحشة القفر، وجبر الكسر، وكان الناس في مبدأ توجه السلطان إلى الجهاد، ودخول الأجل الفاضل معه إلى البلاد، ربما تحدّثوا وقالوا: لو قعد وتخلف كان أولى به، فإن الحرب ليست من دأبه، ثم عرف أن السلامة والبركة والنجاة كانت في استصحابه، وجاء الخبر إلى القاهرة مع نجابين فخلع عليهم وأركبوا وأشيع بأن السلطان نصره الله، وأن الفرنج كسروا وغلبوا، فركبت لأسمع حديث النجابين، وكيف نصر الله المسلمين، وإذا هم يقولون :أبشروا فإن السلطان وأهله سالمون، وإنهم واصلون غانمون، فقلت لرفيقي: ما بشر بسلامة السلطان إلاّ وقد تمت كره، وما ثم سوى سلامته نصره، ولما قرب خرجنا لتلقيه، وشكرنا الله على ما يسرّه من ترقيه وتوقيه، ودخل القاهرة يوم الخميس منتصف الشهر، ونابت سلامته مناب الدهر، وسيرنا بها البشائر، وأنهضنا ببطاقاتها الطائر لإخراس ألسنة الأراجيف، وإبدال التأمين من التخويف، فقد كانت نوبتها هائلة، ووقعتها غائله.

قال القاضي ابن شدّاد: خرج السلطان يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرملة، وذلك في أوائل جمادى الأولى، وكان مقدّم الفرنج البرنس أرناط، وكان قد بيع بحلب فإنه كان أسيراً بها من زمن نور الدين رحمه الله، وجرى خلل في ذلك اليوم على المسلمين، ولقد حكى السلطان قدّس الله روحه صورة الكسرة في ذلك اليوم، وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبّوا تعبية الحرب فلما قارب العدوّ رأى بعض الجماعة تغيير الميمنة إلى جهة الميسرة، والميسرة إلى جهة القلب ليكون حال اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة، فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الفرنج، وقدّر الله كسرهم، فانكسروا كسرة عظيمة، ولم يكن

لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق، وتبدّدوا، وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى، وكان وهناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة، ولله الحمد.

قلت: وذلك بعد عشر سنين، فكسرة الرملة هذه كانت في سنة ثلاث وسبعين، وكسرة حطين كانت في سنة ثلاث وثمانين.

قال العماد الكاتب وحيث كانت للملك المظفر تقي الدين في هذه الغزوة اليد البيضاء أنشدته قصيدة منها:

سقى الله العراق وساكنيه
وحياه حيا الغيث الهتون

وجيراناً أمنت الجور منهم
وما فيهم سوى واف أمين

صفوا والدهر ذو كدر وقدماً
وفوا بالعهد في الزمن الخؤون

بنو أيوب زانوا الملك منهم
بحلية سؤدد وتقى ودين

ملوك أصبحوا خير البرايا
لخير رعية في خير دين

أسانيد السيادة عن علاهم
معنعنة مصححة المتون

بنو أيوب مثل قريش مجداً
وأنت لها كأنزعها البطين

أخفت الشرك حتى الذعر منهم
يرى قبل الولادة في الجنين

ويوم الرملة المرهوب بأساً
تركت الشرك منزعج القطين

وكنت لعسكر الاسلام كهفاً
أوى منه إلى حصن حصين

وقد عرف الفرنج سطاك لما
رأوا آثارها عين اليقين
وأنت ثبت دون الدين تحمي
حماه أوان ولى كل دين

قال: واهتم السلطان بعد ذلك بإفاضة الجود، وتفريق الموجود، وانتقاد الناس بالنقود، والسنايا الصادقة الوعود، وجبر الكسير، وفك الأسير، وتوفير العدد وتكثير المدد، وتعويض ما نفق من الدواب، فسلوا ما نابهم، ولم يأسوا على ما أصابهم.

قال ابن أبي طي: وقال ابن سعدان الحلبي يمدح السلطان: ويذكر ما فعله على عسقلان، ويهون عليه أمر هذه الكسرة من قصيدة:

قربت من عسقلان كل نائبة
باتت تقل بوكاف من الأسل
فاض النجيع عليها وهي ممحلة
فأصبحت مرتعاً للخيل والإبل
قل للفرنجية الخذلى رويدكم
بالثار أو تخرج الشعرى من الحمل
ترقبوها من الفوار طالعة
خوارق الأرض تمحو رونق الاصل
كأنني بنواصيهن يقدمها
كأس من الجود عريان من البخل
حسب العدا يا صلاح الدين حسبهم
أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتمس
مرت على أصبعيه لذة العسل

-٨٢٦٣-

فصل

في وفاة كمشتكين وخروج السلطان من مصر بسبب حركة الفرنج

قال العماد: وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبري الملك الصالح، واستولى على أمره العدل ابن العجمي، وكان سعد الدين كمشتكين الخادم مقدّم العسكر وأمير المعشر، وهو صاحب حصن حارم، وقد حسده أمثاله من الأمراء والخدّام، فسلموا لابن العجمي الاستبداد بتدبير الدولة، فقفز عليه الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة في جامع حلب فقتلوه، واستقل كمشتكين بالأمر، فتكلم فيه حساده وقالوا للملك الصالح: ما قتل وزيرك ومشيرك ابن العجمي إلاّ كمشتكين فهو الذي حسن ذلك للإسماعيلية، وقالوا له: أنت السلطان، وكيف يكون لغيرك حكم أو أمر، فمازالوا به حتى قبض عليه وطالبوه بتسليم قلعة حارم، وأوقعوا به لأجلها العظائم، فكتب إلى نوابه بها فنبوا وأبوا فحملوه ووقفوا به تحت القلعة، وخوفوه بالصرعة فلما طال أمره قصر عمره، واستبد الصغار بعده بالأمور الكبار، وامتنعت عليه قلعة حارم، وجرد إليها العزائم، ونزل عليه الفرنج ثم رحلوا بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح، واستنزل عنها أصحاب كمشتكين وولى بها مملوكاً لأبيه يقال له سرخك .

وقال ابن الاثير: سار الملك الصالح من حلب إلى حارم ومعه كمشتكين فعاقبه ليأمر من بها بالتسليم فلم يجب إلى ما طلب منه فعلق منكوسا ودخن تحت أذنه فمات وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها، ثم أنه أخذها بعد ذلك.

قال ابن شدّاد: أما الملك الصالح فإنه تخبط أمره، وقبض كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله، ولما سمع

الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخرة، وقاتل عسكر الملك الصالح العساكر الفرنجية، ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأواخر من شهر رمضان، ولما عرف الفرنج بذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم، ثم عاد الصالح إلى حلب، ولم يزل أصحابه على اختلاف يميل بعضهم إلى جانب السلطان قدّس الله روحه.

قال العماد: ووصل في هذه السنة إلى الساحل من البحر كند كبير يقال له اقلندس أكبر طواغيت الكفر، واعتقد خلو الشام من ناصري الاسلام، ومن جملة شروط هدنة الفرنج أنهم إذا وصل لهم ملك أو كبير مالهم في دفعة تدبير أنهم يعاونونه ولا يباينونه، ويحالفونه ولا يخالفونه، فإذا عاد عادت الهدنة كما كانت ، وهانت الشدّة ولا نت، وبحكم هذا الشرط حشدوا الحشود، وجندوا الجنود، ونزلوا على حماه في العشرين من جمادى الأولى، وصاحبها شهاب الدين محمود الحارمي مريض ونائب السلطان بدمشق يومئذ أخوه الأكبر تورانشاه، وهو والأمراء مشغولون بلذاتهم، وكان سيف الدين علي بن أحمد المشطوب بالقرب فدخلها وخرج للحرب، واجتمع إليها رجال الطعن والضرب، وجرت ضروب من الحروب، وكادت الفرنج تهجم البلد فأخرجوهم من الدروب، ونصر الله أهل الاسلام بعد حصارهم لهم أربعة أيام، فانهزم الملاعين، ونزلوا على حصن حارم كما تقدّم ذكره، فرحلهم عنه الملك الصالح بعد حصار أربعة أشهر.

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد: « خرج الكفار إلى البلاد الشامية فاسخين لعقد كان محكماً، غادرين غدراً صريحاً، مقدّرين أن يجهزوا على الشام لما كان بالجدب جريحاً، ونزلوا على ظاهر حماه يوم الاثنين الحادي والعشرين من جمادى الأولى، وزحفوا إليها في ثانيه، فخرج إليهم أصحابنا، وتضمن كتاب سيف الدين — يعني المشطوب — أن القتلى

من الفرنج تزيد على ألف رجل ما بين فارس وراجل، شفى الله منهم الصدور، ورزق عليهم النصر والظهور، ثم انصرفوا مجموعاً لهم بين تنكيس الصلب وتحطيم الأصلاب، مفرقة أحزابهم عن المدينة المحروسة، كما افترقت عن المدينة الشريفة النبوية الأحزاب» .

قال العماد: وتسامع الحلبيون بيوم رحيلنا من مصر، لقصد الشام، لنصرة الاسلام، وقالوا: أوّل ما يصل صلاح الدين نسلم حارم، فراسلوا الفرنج وقاربوهم، وأرغبوهم وأرهبوهم، وقالوا لهم: صلاح الدين واصل، ومالكم بعد حصوله عندكم حاصل، فرحل الفرنج بقطيعة من المال أخذوها، وعدّة من الأسارى خلصوها، ثم توفي خال السلطان شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي في جمادى الآخرة، وتوفي ولده تكش ابن خال السلطان قبله بثلاثة أيام، وذلك أوان وقعة الرملة، ولما سمع السلطان بنزول الفرنج على حارم رحل من البركة يوم عيد الفطر بعساكره، ووصل إيلة في عاشر الشهر، واستناب بمصر أخاه العادل، وأقام بها أيضاً القاضي الفاضل بنية الحج في السنة القابلة، ووصل السلطان إلى دمشق في الرابع والعشرين من شوّال، ومما نظمه العماد في التشوق إلى مصر قوله:

ساكني مصر هناكم طيبها
إن عيشي بعدكم لم يطب
لاعدمتم راحة من قربها
فأنا من بعدها في تعب
بعد العهد بأخباركم
فابعثوا أخباركم في الكتب
ليت مصراً عرفت أني وإن
غبت عنها فالهوى لم يغب

ومن ذلك قوله

تــــــذكــــــرت في جلـــــق داركـــــم
بمصر ويـــــا بعــــــد مــــــا بيننـــــــا
ومـــــا أتمنـــــى ســـــوى قــــربكــــم
وذلـــــــك والله كــــــــل المنـــــــى
لكـــــم بـــــالجنــــــان وطيــــب المقـــــا
م وحســــــن النعيـــــم بمصر الهنــــــا

ومن ذلك أيضا
يــــا ســــاكنـــي مصر قــــد فقتـــم بفضلكـــم
ذوي الفضــــائل مـــــن سكــــان أمصــــار
لله دركــــم مـــــن عصبـــــة كــــرمـــــت
ودر مصركـــــم الغنـــــــاء مــــــن دار

ومن ذلك أيضا
يــــــا حبــــــــذا مصر وبـــــــر
كتهــــــا وصـــــــدر والعـــــريـــــش
فهنـــــاك أمـــــلاكـــي الذيــــــــــ
ـــــــن سمـــت بعـــزهـــم العـــروش

قال: ووصل كتاب مـن الفاضل يذكر فيه أن العـدوّ خذله الله نهض، ووصـل إلى صدر، وقـاتل القلعـة ولم يتم لـه أمر، فصرف الله شره، وكفـى أمره، ووصل من الفـرنج مستأمن، وذكر أنهم يريـدون الغارة على فاقوس، فاستقلوا أنفسهـم، وعرجوا وذكر أنهم مضوا بنية تجديـد الحشد، ومعاودة القصد.

قال: وأما نوبـة العدوّ في الرملة، فقد كانت عثرة علينـا ظاهرها، وعلى الكفار باطنها، ولزمنا ما نسي من اسمهـا، ولزمهم ما بقي من عزمها، ولا دليل أدل على القـوة من المسير بعد شهريـن من تاريخ وقعتهـا إلى الشام

- ٨٢٦٧ -

نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة، والحشود الكبيرة، والحريم المستور، والمال العظيم الموفور.

قال العماد: ولما دخلنا دمشق وجدنا رسل دار الخلافة قد وصلوا بأسباب العاطفة والرأفة، وكان حينئذ صاحب المخزن ظهير الدين أبوبكر منصور بن نصر العطار، وهو من ذوي الأخطار، وله التحكم في الايراد والاصدار، وقد توفر على محبة السلطان، وتربية رجائه، وتلبية دعائه، ووصل كتابه ورسوله بكل ما سر السرائر ونوّر البصائر.

فصل

في ذكر أولاد السلطان

قال العماد: وفي هذه السنة ولد بمصر للسلطان ابنه أبو سليمان داود، وكتب الفاضل إلى السلطان يهنئه به ويقول: «إنه ولد لسبع بقين من ذي القعدة، وهذا الولد المبارك هو الموفي لاثني عشر ولداً بل لاثني عشر نجما متوقداً، فقد زاد الله في أنجمه على أنجم يوسف عليه السلام نجماً، ورآهم المولى يقظة، ورأى تلك الأنجم حلما، ورآهم ساجدين له، ورأينا الخلق له سجودا، وهو قادر سبحانه أن يزيد جدود المولى إلى أن يراهم أباء وجدوداً».

قال العماد: وكنت في بعض الليالي عند السلطان في آخر عهده، وجرى ذكر أولاده، واعتضاده بهم واعتداده، فقلت له: لو عرفت أيام مواليدهم في أعوامها لأنشأت رسالة على نظامها، فذكر لي ما أثبته على ترتيب أسنانهم:

— الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، ولد بمصر ليلة عيد الفطر عند العصر، سنة خمس وستين وخمسمائة.

— العزيز أبو الفتح عثمان، عماد الدين، ولد بمصر ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين.

— الظافر أبو العباس خضر مظفر الدين، ولد بمصر في خامس شعبان سنة ثمان وستين، وهو أخو الأفضل لأبويه

— الظاهر أبو منصور غازي غياث الدين، ولد بمصر منتصف رمضان سنة ثمان وستين.

— المعز أبـو يعقوب اسحـاق فتح الـدين، ولـد بمصر في ربيع الأوّل سنة سبعين.

— المؤيد أبـو الفتح مسعود نجم الـدين، ولد بدمشـق في ربيع الأوّل سنة إحدى وسبعين، وهو أخو العزيز لأبويه.

— الأعز أبو يـوسف يعقوب شرف الدين، ولـد بمصر في ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين، وهو أخو العزيز لأمه.

— الزاهر أبو سليمان داود مجير الديـن، ولد بمصر في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين، وهو أخو الظاهر لأمه.

—المفضل أبو موسى قطب الديـن، ثم نعت بالمظفر، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وهو أخو الأفضل لأمه.

—الأشرف أبـو عبد الله محمـد عزيـز الديـن، ولد بـالشام سنـة خمس وسبعين وخمسمائة.

— المحسن أبـو العباس أحمد ظهير الدين، ولـد بمصر في ربيع الأوّل سنة سبع وسبعين وهو لأم الأشرف.

— المعظم أبو منصور تورانشاه فخر الدين، ولد بمصر في ربيع الأوّل سنة سبع وسبعين.

قلت: ومـات سنة ثمان وخمسين، وهـي السنة التـي أخرب العـدوّ من التتار خذلهم الله تعالى مدينة حلب وغيرها والله أعلم.

— الجواد أبو سعيـد أيوب ركن الـدين، ولد في ربيـع الأوّل سنة ثمان وسبعين وهو لأم المعز.

— الغالب أبـو الفتح ملكشاه نصير الديـن، مولده بالشـام في رجب سنة ثمان وسبعين وهو لأم المعظم.

—المنصور أبـو بكر، وهو أيضـاً أخو المعظم لأبـويه، ولد بحـران بعد وفاة السلطان.

قلت: فهـذه خمسة عشر ولداً ذكـرهم العماد في هذا الموضـع، وقال في آخـر كتاب الفتـح القـدسي، على ما سنـذكـره في آخـر هذا الكتـاب أن السلطان، لما توفي خلف سبعة عشر ولداً وابنـة صغيرة، فقد فاته هنا ذكر اثنين وهما عماد الدين شـاذي لأم ولد، ونصرة الدين مـروان لأم ولد، وأما البنت فهي مـؤنسة خاتون تزوّجهـا الملك الكامل محمد على مـا سنذكره، وهو ابـن عمها المـلك العادل أبي بكر بـن أيوب، وللسلطـان غير هؤلاء الأولاد ممـن درج في حياتـه كـالملك المنصـور حسن وسيـأتي ذكـر وفاتـه والأمير أحمد وهو الذي رثاه العرقلة بقوله:

أي هـــــلال كسفـــــا
وأي غصـــــن قصفـــــا
كـــان سراجـــا قـــد طفـــى
على الـــورى ثـــم انطفـــا
لم يـــركـــب الخيـــل ولم
يقلـــدوه مـــرهفـــا
قـــل للنحـــاة ويحكـــم
أحمد لم قد صرفا
صبرا صـــلاح الـــديـــن يـــا
رب السماح والـــوفـــا(١٥٥)

قال العماد: وورد من الفـاضل كتاب تاريخه منتصـف ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين ، يذكـر فيه فصولا متعدّدة منها: للمـولى أولاد وقد صاروا رجالاً، ويجب أن يستجيد للقلاع رجـالاً، كما فعل السابقون أعماراً وأعمالاً،

وقيل القلاع أنوف من حلها شمخ بها «ما في الرجال على النساء أمين»
ومنها أبيات في ذكر السلام:

مملـــوك مــــولانـــا ومملـــوك ابنـــه
وأخيـــــه وابـــــن أخيـــــه والجيران

طـــي الكتـــاب إليـــه منـــه إجـابـــة
لســـلام مـــــولانـــــا ابنـــــه عثمان

والله قــــد ذكـــر الســـــلام وإنــــه
يجزي بـــاحســـن منـــه في القـــرآن

وغـــــريبـــــة قـــد جئـــت فيهـــا أولا
ومـــن اقتفـــاهـــا كـــان بعـــدي الثـــاني

فـــرســـــولي السلطـــان في أرســـالها
والنــــاس رسلهـــم إلى السلطـــــان

قلت: وقد وصف الفاضل الملك المؤيد في كتاب آخر فقال: «وقد تمطت به السنّ وامتدّت، وتأهبت السعادة لخطبته واعتدّت، ولا حظته العيون بالوقار، وطرفت دون جلالته وارتدّت».

وفي بعض كتب الفاضل عن السلطان إلى ولده الأفضل: «إعزازه لأهل الفضل دليل على فضله، وإن الأولى أن تكون كتب الأدب عند أهله، وما أبهجنا إذ جال في فضاء الفضائل، وخطب من أبكار المعالي كرائم العقائل، وآخى بين السيف والقلم، وصار في موكبه العلم والعلم».

ومن كتاب آخر في المعنى: «فلقد زادت هذه المنقبة في مناقبه، ونظمت عقود سؤدد في ترائبه».

فما تـــرجــــم الانســـان عـــن سر فضلـــه
بـــأفضـــل مـــن تقـــريبـــه لأولي الفضـــل

قال العماد: وخرج السلطان للصيد في ذي الحجة نحو قارا، فشكوت ضرسي، وعدمت أنسي، فرجعت مع عز الدين فرخشاه لحمى عرته فشكاً منها لا تزور إلاّ نهاراً جهاراً، ولا يفارق العرق بالضد من الحمى التي وصفها أبو الطيب المتنبي فنظمت فيه كلمة طويلة أولها:

يمينك دأبها بذل اليسار
وكفك صوبها بدر النضار

وإنك من ملوك الأرض طراً
بمنزلة اليمين من اليسار

وأنت البحر في بث العطايا
وأنت الطود في بادي الوقار

ومنها في وصف الحمى

وزائرة وليس بها حياء
فليس تزور إلا في النهار

ولو رهبت لدى الاقدام جوري
لما رغبت جهاراً في جواري

أتت والقلب في وهج اشتياق
ليظهر ما أواري من أواري

ولو عرفت لظى سطوات عزمي
لكانت من سطاي على حذار

تقيم فحين تبصر من أتاني
ثبات الطود تسرع في الفرار

تفارقني على غير اغتسال
فلم أحلل لزورتها إزاري

ومنها:

أيا شمس الملوك بقيت شمساً
تنير على المها لك والديار

ومنها:

أحماك استعارت لفح نار
لعزمك لم تزل ذات استعار

فصل

قال العماد: وفي العشر الأوّل من ذي القعدة قتل عضد الدين رئيس الرؤساء وزير الخليفة ببغداد على أيدي الملاحدة، وكان قد توجه إلى الحج، فوقف له في مضيق قَطُفْتا (١٥٦) غربي دجلة كهل في يده قصة يزعم إنه يريد رفعها إلى الوزير من يده إلى يده، فأومأ ليوصل قصته فانتهز فيه فرصته فقتله، وبدر كمال الدين أبو الفضل بن الوزير فقتل قاتل أبيه بسيفه، وكان مع ذلك الجاهل الملحد رفيقان له، فجرح أحدهما حاجب الباب ابن المعوج فمات، وجرح آخر ولد قاضي القضاة، وقطع الملاحدة وأحرقوا واستقل ظهير الدين أبوبكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار صاحب المخزن بالدولة، وكان للسلطان خدنا مصافيا.

قلت: وابن العطار هذا، هو المرجوم المسحوب بعد موته ببغداد كما سيأتي ذكره في آخر حوادث سنة خمس وسبعين.

قال ابن الاثير: وكنت حينئذ ببغداد عازماً على الحج، فعبر عضد الدين دجلة في شبارة، فلما ركب دابته والناس معه ما بين راكب وراجل تقدّم إليه بعض العامة ليدعو له، فمنعه أصحابه، فزجرهم وأمرهم أن لا يمنعوا أحداً عنه، فتقدّم إليه الباطنية فقتلوه بالجانب الغربي فتوفي بها.

قال العماد: ووردت مطالعة الفاضل إلى السلطان تتضمن التوجع لقتل الوزير عضد الدين وفيها: « (وماربك بظلام للعبيد (١٥٧)) فقد كان عفا الله عنه قتل ولدي الوزير ابن هبيرة، وأزهق أنفسهما وجماعة لا تحصى.

من ذا يسر بذنبه
والدهر لا يغتر به

وهذا البيت بيت ابن المسلمة عريق في القتل، وجده هو المقتول بيد البساسيري في وقت إخراج الخليفة القائم في أيام الملقب بالمستنصر بمصر، فهو من ذرّية لم تزل قاتلة مقتوله، وما زالت السيوف عليها ومنها مسلولة، فهم في هذه الحادثة المسمعة المصمة كما قال دريد:

أبى الموت إلا آل صمة (١٥٨)

والأبيات المولى يحفظها وهي في الحماسة، وقد ختمت له السعادة، بما ختمت به له الشهادة، لا سيما وهو خارج من بيته إلى بيت الله قال الله سبحانه: (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) (١٥٩)

إن المساءة قد تسر وربما
كان السرور بما كرهت جديرا
إن الوزير وزير آل محمد
أودى فمن يشناك كان وزيرا

وهذان البيتان قيلا في أبي سلمة الخلال أوّل وزير لبني العباس».

قلت: وبلغني أن الفاضل قال في ذلك:
وأحسن من نيل الوزارة للفتى
حياة تريه مصرع الوزراء

قال العماد: وكان ضياء الدين بن الشهرزوري قد سار في الرسالة إلى بغداد، وتوقف في الموصل لحادثة الوزير، ووافق وصوله إلى الموصل وفاة ابن عمه القاضي عماد الدين أحمد بن القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وكان شاباً، وجاء كتاب الفاضل يذكر ذلك وفيه:

- ٨٢٧٥ -

يـــــــدلي ابـــــــــن عشرون في لحده
والتسعـــــون صـــــاحبهـــــا راتـــــع

اغتبـط الولـد مـع نضارة الشبـاب المقتبـل، وعمر الـوالـد مع ذبـول المشيب المشتمـل، ليعلم أن الشيـب ليس بمسلـم، وأن الشباب الغـض ليس بمانع، وليكون العبد حذراً مـن بغتات الآجال في كل الأحوال، والله يطيل للمـولى العمر كما أطـال له في القدر، ويسمـع منه، ولا يسمـع فيه ويبقيه سنداً للدين الحنيفي فإن بقاءه يكفيه .

آخر الجزء الأول مـن الأصل المنقـول منه، الـذي هو بخـط المؤلف . ويتلوه في الجزء الثاني — إن شاء الله تعالى: ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة. والحمد لله وحده، وصلى الله على من لانبي بعده.

على يد العبد الضعيـف، المفتقر إلى رحمة ربه اللطيف، محمـد بن أحمد البودري المغربي الأزهري، لطف الله به وبالمسلمين أجمعين.

وذلك في غـرة ربيع الأول مـن شهور ألـف ومائة وعشرون مـن الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصـلاة والسلام. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

آخر الجزء الأول مـن الروضتين بـأخبار الـدولتين النوريـة والصلاحيـة لأبي شامة رحمه الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

ثم دخلت

سنة أربع وسبعين وخمسمائة

قال العماد: وكان شمس الدين بن المقدم من أكابر الأمراء وهو السابق إلى مكاتبة السلطان في تصويب رأيه في الوصول إلى الشام، وتدارك أمر الاسلام، وكان السلطان عند تسلم بعلبك أنعم بها عليه، ورد أمورها إليه، فأقام بها مستقرا ولأخلاف أعمالها مستدرا، ولما وصل السلطان في هذه النوبة إلى الشام، لم يحضر كما جرت العادة للخدمة والسلام، فإنه كان ينمي إليه أن الملك المعظم مجد الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب طلبها من أخيه، وأنه لايمكنه الرد فخاف من الحضور أن تتم الأمور، وروجع في ذلك مرارا سرا وجهارا والتزم له أن يعوض عنها، ماهو أوفى منها، فأبى إلا الاباء وشارف السلطان منه ومن أخيه الحياء وشمس الدولة لايقبل عذرا، ولايرى عما طلبه صبرا، ثم استأذن أخاه في التوجه إليها فأذن له، وتوجه عز الدين فرخشاه إلى حوران لحفظ الثغور، وسار السلطان إلى حمص، ونزل على العاصي عازما على الجهاد.

ووردت من الفاضل كتب من بعض فصولها: وأما سور القاهرة فعلى ماأمر به المولى شرع فيه، وظهر العمل وطلع البناء، وسلكت به الطريق المؤدية إلى الساحل بالمقسم، والله يعمر المولى إلى أن يراه نطاقا مستديرا على البلدين وسورا بل سوارا يكون به الاسلام محلى اليدين، محلاً الضدين، والأمير بهاء الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله، لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله، قليل التثقيل مع حمله لأعباء التدبير وأثقاله.

ومنها في حق نقل القضاء من شرف الدين بن أبي عصرون لما ذهب بصره إلى ولده: لن يخلو الأمر من قسمين، والله يختار للمولى خيرة الأقسام، ولاينسى له هذا التحرج الذي لايبلغه ملك من ملوك الاسلام إما ابقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشاورته وفتياه وبركته، ويتولى ولده النيابة ويشترط عليهما المجازاة لأول زله، وترك الإقالة لأول عثرة، فطالما بعث حب المنافسة الراجحة على إكتساب الأخلاق الصالحة، وأما أن يفوض الأمر إلى الإمام قطب الدين، فهو بقية المشايخ وصدر الأصحاب، ولايجوز أن يتقدم عليه في بلد إلا من هو أرفع طبقة في العلم منه.

ومنها في إقامة عذر التأخر عن الجهاد: وأما تأسف المولى على أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجدد العوائق التي لايوصل إلى آخر حبلها، فللمولى نية رشده، وأليس الله العالم بعبده، وهو سبحانه لايسأل الفاعل عن تمام فعله لأنه غير مقدور له، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى آخذا في أسباب الجهاد وتنظيف الطرق إلى المراد، فهو في طاعة قد امتن الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أمل في نجح موعدها، والثواب على قدر مشقته وإنما عظم الحج لأجل جهده وبعد شقته، ولو أن المولى فتح الفتوح العظام في أقل

الأيام، وفصل القضية بين أهل الاسلام وأعـداء الاسلام، لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت، وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت.

ومنهـا في ذكر أولاد السلطـان: وقبـل الإجـابة عـن الفصـول فنبشر بما جـرت العادة بـه لاقطـع الله تلـك العـادة مـن سلامـة وصحـة وعافيـة شملت مـوالينا وأولاده السـادة، أطاب اللـه الخبر إليهم عـن المولى، وإلى المولى عنهم، وعجل لقاءه لهم ولقـاءهم له، فإنهم من يلق منهـم، بل كل منهم ملك دسته برجه، وفارس مهده سرجـه، فهم بحمد الله بهجة الدنيا وزينتها، وريحانة الحياة وزهرتها، وإن فؤادا وسـع فراقهم لواسع، وإن قلبا قنع بـأخبارهم لقـانع، وإن طرفا نـام على البعد عنهم لهاجـع، وإن ملكا ملك تصبره عنهـم لحازم، وإن نعمة اللـه فيهم لنعمـة بها العيش نـاعم، أما يشتـاق جيد المولى أن يتطوق بـدررهم، أما تظمـى عينه إلى أن تتروى بنظرهم، أمـا يحن قلبه على قلبه، أما يلتقـط هذا الطائر بتقبيلهم مـاخرج من حبه، وللمولى أبقاه الله تعالى أن يقول:

ومـــا مثـــل هـــذا الشـــوق تحمـــل مضغـــة
ولكـــــن قلبـــــي في الهوى متقلـــــب

وفي أخرى: والملـوك الأولاد في كفالـة العافية لارفعـت عنهم كفـالتها، وعليهـم جلالـة السلطنـة لافارقتهـم جلالتهـا، وكـل من الموالي السـادة الأمراء الأولاد والقـادة كلهم جـوهر، وكلهـم المقدم، وليـس فيهم بحمـد الله من يـؤخر على ماعود الله من صحـة وسلامه، وكفاية ووقـاية، ولزوم المستقبل منهـم لمشهد الكتـاب، ولموقف الأمـاج(١) ومخائل الخفر فيهـم مـن تحت ليل الصبـا أنور دلالـة مـن ضوء السراج، واللـه تعالى يمـد في عمر المولى إلى أن يرى مـن ظهورهم مارأى جدهم رحمه اللـه في أهل بيته مـن البطن الـرابع، فـوارس الحرب الرائعـة، وملوك الاسـلام التي منهـم لـلاسم أكـاسرةوتبابعـة، ومافيهـم عند العـلا صغير، وصغير أبناء الكبـار

كبـار، نجوم الأرض،(وذريـة بعضهـا من بعـض)(٢) والخلـف الصالـح المحض،وهـم في الدنيا والآخرة فـرسان القوة والتقى في يـوم الحرب ويوم العرض.

ومنها في ذم مـاء دمشق ووخمهـا: عرف المملوك مـن الكتب الـواصلة التياث جسـم المولى الأمير عثمان، والحقير مما ينـال ذلك الجسـم الكريـم توقد في قلـوب الأولياء الأثر العظيم، وقليل قـذاة العين غير قليل، وماذا يقول في بلد لو صحت الحمية من مائة، لكانت مـن أكبر أسباب صحة المحتمى، وشفائه، فإنـه ماء يؤكل، وبقية المياه تشرب، ويجد وخـامته من ينصف ولايتعصب.

ومنهـا: وأما المأمـور بـه في معنى المنكـرات الظـاهـرة وإزالة أسبـابها، وإغلاق أبـوابها، وتحصين كل مبتـوتة مـن عصمه، وتطهير كـل موسـومة بوصمه، فـالله يثيب المولى ثواب من غضب ليرضيـه بغضبه، وحمل الخلق على منهاج شرعه وأدبه.

ثم أورد العماد فصولا كثيرة، وقال: إنما أوردت الفصـول الفاضلية لأن في كل فصل منها ذكر سيرة، وفوائد كثيرة.

فصل

قال العماد: ومن جملة ما أغفلته ذكر ماأسقطه السلطان من مكس مكة شرفها الله تعالى عن الحاج، وتعويض أميرها بجلاب غلة إليه في كل سنة، وتعيين ضياع موقوفة عليها بالأعمال المصرية.

كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤوس ماينسب إلى الضرائب والمكوس، فإذا دخل حاج حبس حتى يؤدي مكسه، ويفك بما يطلبونه منه نفسه، وإذا كان فقيرا لايملك، فهو يحبس ولايترك وتفوته الوقفة بعرفة ولايدرك، فقال السلطان: نريد أن نعوض أمير مكة عن هذا المكس بمال، ونغنيه عنه بنوال، وإن أعطيناه ضياعا استوعبها، ارتفاعا وانتفاعا، فلا يكون لأهل مكة فيها نصيب، فقرر معه أن يحمل إليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف أردب قمح إلى ساحل جده، فإن الأمير بها يحتاج إلى بيعها للإنتفاع بأثمانها، ويثق أهل الحرمين من الدولة بدوام إحسانها، وقرر أيضا حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين والفقراء، ومن هناك من الشرفاء، ووقف لها وقوفا، وخلد بها إلى قيام الساعة معروفا، فسقطت المكوس، واغتبطت النفوس، وزاد البشر وزال العبوس، واستمرت النعمى، وزال البؤس، وذلك في سنة اثنتين وسبعين.

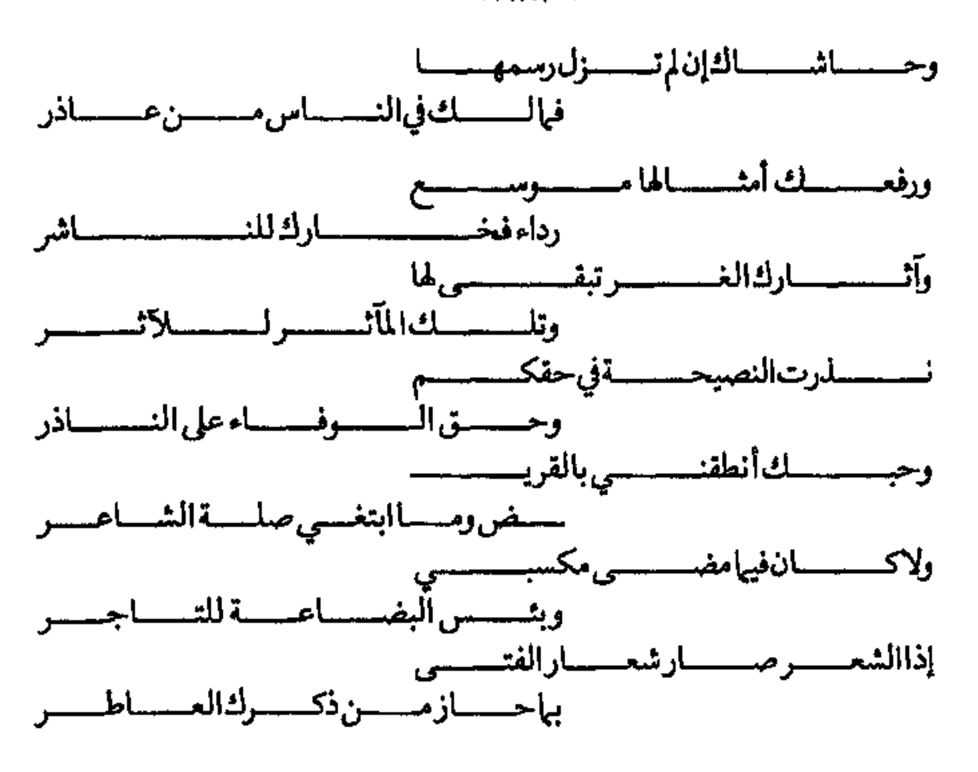
ومن كلام الفاضل في ذلك في بعض كتبه: من البشائر التي لاعهد لحاج ديار مصر بمثلها، ولاعهد لملك من ملوك الديار المصرية بالحصول على فخرها وأجرها، انقطاع المكاسين عن جدة، وعن بقية السواحل، ويكفي أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة مقيم بحجة الله في الحج، فقد كانت الفتيا على سقوطه مع وجود الحامل، وما أكثر ماأجرى الله للخلائق على يد المولى من الأرزاق، التي تفضل عن الاستحقاق، وماأولاه بأن يتوخى بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من إسعاف أهل الاقتدار، والمحروم من قدر فيهما على خير

فأضاع فرضيته، بترك البدار، وغير خاف عن مولانا همة الفرنج بالقدس برا وبحرا، ومركبا وظهرا، وسلما وحربا، وبعدا وقربا، وتوافيهم على حماسه، وهو أنف في وجه الاسلام، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح والأموال على مر الأيام،ومعاذ الله أن يستبصروا في الضلال، ونصرف نحن عن الحق، ويضيق بنا في التوسعة على أهله سعة المجال، والمملوك في مستهل رجب بمشيئة الله معول على السفر إلى الحجاز لقضاء الفريضة قولا وفعلا، والسائرون في هذه السنة بطمعة وقفة الجمعة، وبفسحة وضع المكس خلق لايحصى، والمولى شريك في أجرهم، فليهنه إن الملوك عمرت بيوتها فخربت، وإن المولى عمر بيت الله، فمن كرمه سبحانه أن يعمر بيت المولى، وماأشد خجل الملوك من النبي صلى الله عليه وسلم في التقصير في قوت جيرانه في هذه السنة، وماهكذا أوصى ابن اللمطي ولكن للغائب حجته.

قلت: وفي هذه المكرمة التي فعلها صلاح الدين رحمه الله بالحاج يقول الشيخ الفاضل أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الاندلسي، من قصيدة له يمدح بها صلاح الدين وستأتي فيما بعد، أخبرني بها ثقة نقلها من خطه:

رفعت مغارم مكس الحجا
زبانعامك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك البلا
دفهان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة
على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد
وكم لك بالغرب من شاكر

وكـم بـالـدعـاء لكـم كـل عـا
م بمكـة مـن معلـن جـاهـر
وقـد بقيـت حسبـة في فـلا
ن وتلـك الـذخيرة للـداخـر
يعنـف حجـاج بيـت الالـه
ويسطـو بهم سطـوة الجابـر
ويكشـف عما بـأيـديهم
ونـاهيـك مـن موقـف صـاغـر
وقـد وقفـوا بعـد مـا كشفـوا
كـأنهم في يـد الآسر
ويلـزمهـم حلفـا بـاطـلا
وعقبـى اليمين على الفـاخـر
وإن عـرضـت بينهـم حـرمـة
فليـس لها عنـه مـن سـاتـر
أليـس على حـرم المسلميـ
ـن بتلـك المشـاهـد مـن غـائر
ألا حـاضر نـافـع زجـره
فيـا ذلـة الشـاهـد الحاضر
ألا نـاصـح مبلـغ نصحـه
إلى الملـك النـاصر الظـافـر
ظلـوم تضمـن مـال الـزكـا
ة لقـد تعسـت صفقـة الخاسر
يسر الخيـانـة في بـاطـن
ويبـدي النصيحـة في الظـاهـر
فـأوقـع بـه حـادثـا إنـه
يقبـح أحـدوثـة الـذاكـر
فما للمنـاكير مـن زاجـر
سـواك وبـالعـرف مـن آمـر



وحاشاك إن لم تزل رسمها
فمالك في الناس من عاذر

ورفعك أمثالها موسع
رداء فخارك للناشر

وآثارك الغر تبقى لها
وتلك المآثر للآثر

نذرت النصيحة في حقكم
وحق الوفاء على الناذر

وحبك أنطقني بالقريض
وما ابتغي صلة الشاعر

ولاكان فيما مضى مكسبي
وبئس البضاعة للتاجر

إذا الشعر صار شعار الفتى
بما حاز من ذكرك العاطر

قال العماد: وفي المحرم من هذه السنة توفي الحكيم مهذب الدين أبو الحسن علي بن عيسى، المعروف بابن النقاش البغدادي بدمشق، وكان كنعته مهذبا، ومن الملوك لتفرده بفضله مقربا، وهو مبرز في فنه، حتى أن من شذا شيئا من الطب تنجح بأنه قرأ عليه، وتردد لاستفادته إليه، وقدراضته العلوم الرياضية، وأحكمت أخلاقه المعارف الحكمية

وفي الثاني عشر من جمادي الأولى توفي الأمير نجم الدين بن مصال بمصر، وجاءنا نعية ونحن بحمص، فجاوز اغتمام السلطان برزئه حده، وجلس في بيت الخشب مستوحشا وحده، وقال: لايخلف الدهر لي صديقا مثله بعده، وأجرى ماكان له جميعه لولده، وحفظ عهده، وكان لجماعة من الأعيان والشعراء والأماثل والأدباء بعنايته ووساطته من السلطان رزق أبقاه عليهم، كأنه عليه مستحق.

وفي العشر الأول من ربيع الآخر أغارت طائفة من الفرنج على بلد حماة، فخرج إليها متولي عسكر حماة الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب حصن بوقبيس فأسر المقدمين، وسفك بسيفه دم الباقين، وجاء إلى الخدمة السلطانية بظاهر حمص، وساق معه الأسارى، فأمر السلطان بضرب أعناقهم، وأن يتولى ذلك أهل التقى والدين من الحاضرين ، فتقدم إمامه الضياء الطبري وضرب عنق بعضهم، وتلاه الشيخ سليمان المغربي ثم الأمير ايطغان بن ياروق، واستدعى العماد وأمر بذلك، فلم يفعل وطلب أن يملكه السلطان منهم صغيرا فعوض عنه.

ثم رحل السلطان على طريق الزراعة إلى بعلبك فنازلها محاصرا من غير قتال، فطال أمرها ولم يسمح بها صاحبها، ودخل فصل الشتاء، فرحل السلطان عنها إلى دمشق، ووكل بها من يحصرها بالمنع من الخروج والدخول من غير قتال، وهم جماعة مع طغرل الجاندار، ودخل إلى دمشق في العشر الأواخر من رجب، وتمادى الأمر إلى أن رضي ابن المقدم بحصن بعرين وأعماله، وببلد كفر طاب وأعيان نواحي وقرى من بلد المعرة، وسلم بتسليم بعلبك من المضرة والمعرة، وكان الذي أخذه أكثر وأنفع مما خلاه، وماخطر له ولاترجاه ولاتمناه.

فصل

كالذي قبله في حوادث متفرقة

قال العماد: كتب النواب بدمشق إلى السلطان أن الأموال ضائعة، وأن الأطماع فيها رائعة، وأن في أرباب الصدقات أغنياء لايستحقونها، وما لهم رقبة من الله يتقونها، وإن أرباب العنايات استوعبوها وما استوجبوها، وإن المصلحة تقتضي أفراد جهات لما تسنح من مهمات، وكانت الصدقات مبلغ أحد عشر ألف دينار، فقال لي: اكتب عليها جميعها بالإمضاء، ولاتكدر على ذوي الآمال موارد العطاء، فقلت: أما أتلو عليك الأسماء؟ فقال: لابل نزهني عن هذه الأشياء، فبقيت تلك الرسوم دارة، والآمال بها سارة.

قال: وفي شعبان من هذه السنة توفي متولي المقياس بمصر، ففوض السلطان منصبه إلى أخيه، قال: وهذا المقياس موضع مبني من عهد خلفاء بني العباس، ليعرف زيادة الماء ونقصانه بالقياس، وهناك عمود في الماء مقسوم بالأذرع، والأذرع مقسومة بالأصابع في مسجد ينوب في الجزيرة عن الجامع، تصلى فيه الجماعات والجمع ويتولاه من العهد القديم متول من ولد أبي الرداد، ممن هو معروف بالنزاهة والعلم والسداد، وله راتب دار ورسم وقرار.

قلت: بلغني أن أبا الرداد هذا كان معلما من أهل الصدق والصلاح، رتبه جعفر المتوكل على الله في ولاية المقياس، وبقي من بعده على ولده.

وقرأت في تاريخ الغرباء الذين قدموا مصر لأبي سعيد بن يونس، قال: عبد الله بن عبد السلام بن الرداد العمي، بصري قدم مصر

وحدث بها، وكان قد جعل على قياسة النيل، توفي بمصر لسبع بقين من رجب سنة ست وستين ومائتين، وذكره أبو سعيد في أهل مصر أيضا، وقال فيه: ولد هو وأبوه بمصر.

قال ابن الأثير: وفي سنة أربع وسبعين وخمسمائة اشتد الغلاء وعم أكثر البلاد العراق ومصر وديار بكر، وديار الجزيرة، والشام وغير ذلك من البلاد، ودام إلى أن انقضى سنة خمس وسبعين، وخرج الناس في البلاد يستسقون فلم يسقوا، ثم إن الله تعالى رحم عباده، ولطف بهم، وأنزل الغيث، وأرخص الأسعار، ومن عجيب مارأيت تلك السنة أنني كنت في الجزيرة، فأقبل انسان تركماني قد أثر فيه الجوع، وكأنه قد أخرج من قبر، فبكى وشكا الجوع، فأرسلت من اشترى له خبزا فتأخر إحضاره لعدمه، وهو يبكي ويتمرغ على الأرض فتغيمت السماء وجاءت نقط مطر متفرقة، وضج الناس، ثم جاء الخبز فأكل التركماني، وأخذ الباقي معه ومشى، واشتد المطر، ودام من تلك الساعة، فرخصت الأسعار ووجدت الأقوات بعد أن كانت معدومة، ثم تعقب الغلاء وباء شديد كثير، وكان مرض الناس شيئا واحدا وهو برسام فمات فيه من كل بلد أمم لايحصون كثرة، ولقي الناس منه ماأعجزهم حمله، ثم إن الله تعالى رفعه في سنة ست وسبعين وخمسمائة، وقد ضعضع العالم.

-٨٢٨٧-

فصل

في عمالة حصن بيت الأحزان ووقعة الهنفري

قال العماد: وفي مدة مقام السلطان على بعلبك واشتغاله بأمرها، انتهز الفرنج الفرصة فبنوا حصنا على مخاضة بيت الأحزان، وبينه وبين دمشق مسافة يوم، وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم، وقيل للسلطان متى أحكم هذا الحصن، تحكم من الثغر الاسلامي الوهن، وغلق الرهن، فيقول إذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس، وجعلناه من الرسوم الأدراس، فكان الأمر بعد سنة على ماجرى لفظه من عدة حسنه، فلما انقضى أمر بعلبك وصل السلطان دمشق فأقام بها وأمر الحصن من همه، وقصد حصاره من عزمه، وكان العام مجدبا والجدب عاما، وقيل للسلطان ليس هذه سنة جهاد فإن استمنحوك السلامة فامنح، (وإن جنحوا للسلم فاجنح)(٣) فقال السلطان: إن الله أمر بالجهاد، وكفل بالرزق، فأمره واجب الامتثال، ووعده ضامن الصدق، فنأتي بما كلفنا لنفوز بما كفله، ومن أغفل أمره أغفله.

قال: ووصل في هذه السنة رسول دار الخلافة، وهو الخادم فاضل، وكان من أفضل الخدم، ندب بأفضل الخدم، وفرح السلطان به واستصحبه معه إلى الغزاة، ووقف به على الحصن الذي استجده الفرنج بالمشهد اليعقوبي، وتخطف من حوله من الفرنج جماعة، وأقام على أهل المعصية بجهاده الطاعة، وعاد وقد عرف مايعزم عليه من أمر فتحه.

قال: وفي مستهل ذي القعدة، كانت وقعة هنفري ومقتله،وذلك أن الأخبار تواترت بأن الفرنج قد تجمعوا في جمع عظيم، وأنهم عازمون على الخروج على المسلمين على غرة، فقدم السلطان ابن أخيه فرخشاه على عساكر دمشق، وأمره أن يخرج إلى الثغر ففعل، وأمره إن علم بخروجهم

أن ينفذ إلى السلطان يعلمه بـذلك، ولايلقاهم بل يتركهم حتى يتوسطوا البلاد، فلـم تشعر طلائع فـرخشاه إلا وقد خالطـوهم على غرة، فـوقعت الوقعة، فقتل صاحب الناصرة وجماعـة من مقدميهم، وطلب الملك فطرح حصانـه، وجرح فرسـانه، وجاء الهنفـري ليحميه، فـوقعت فيه جـراحات أحدهـا نشابـة وقعت في مـارنه فجـدعته ونفـذت إلى فيه ومـرت بضرسه فقلعتـه، وخرجـت من تحت فكـه، وقتلـت عدة مـن الـرجالـة والخيالـة، ورجعـت الفـرنج بخـزي عظيـم، ليس فيهـم إلا مجروح، وكل يـوم تـرد البشرى بموت مقدم من جراحة أصابته.

ووردت بطـاقة الطير في ذلـك اليـوم إلى دمشـق فخرج السلطـان فما وصـل إلى الكسـوة إلا ورؤوسهم وأسراؤهـم قـد جـيء بها، فرجـع مظفـرا منصـورا، وذلـت الفـرنـج بعدهـا، وانكسرت بمـوت الهنفـري،ثـم سـار السلطان إلى الحصن الـذي بنوه فأزعجهم وذعرهم، وعـاد على عزم العود إليه.

قال: ثم وجه السلطان أخاه الأكبر تـورانشاه من الشام إلى مصر بمن ضعـف من الأجنـاد لأجل محل البـلاد، فرتـب في بعلبك نـوابه، وودعه السلطان من مرج الصفر وذلك في أواخر ذي القعدة ، ومر على بصرى ، ومنهـا إلى الأزرق، ومنه إلى الجفـر إلى إيلة إلى صـدر، ووصـل معه خلـق كثير من التجار والرجال والنساء والأطفال.

فصل

قال العماد:وسافر الفاضل إلى الحج في هذه السنة، وركب البحر، فكتبت إليه كتابا فيه: طوبي للحجر والحجون من ذي الحجر والحجى، منيل الجدا ومنير الدجى، ولندي الكعبة من كعب الندى، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى، وللمقام الكريم من مقام الكريم، ومن حاطم فقار الفقر للحطيم، ومتى رئي هرم في الحرم وحاتم مائح زمزم ومتى ركب البحر البحر، وسلك البر البر لقد عاد قس إلى عكاظة، وعاد قيس بحفاظه، وياعجبا لكعبة يقصدها كعبة الفضل والأفضال، ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والإقبال.

قلت: ومدحه أبو الحسن بن الذروي عند عوده من الحج بقصيدة حسنة منها:

علم البحر أنك الخلق وافا
فأمسى حشاه يخفق رعبا
وغدا دره لديه حقيرا
اذ رأى الدر منك ينشأ سحبا
ولو احتاز قطره منك يا بحـ
ـر لأضحى أجاجه الملح عذبا
هائج لم يزل دعاؤك حتى
هون الله منه ما كان صعبا
ولقد نام اذ ركبت وللر
يح هبوب وحيث أرسيت هبا
حبذا ما صنعته من جياد
عاد جدب الحجاز منهن خصبا
رمت كتمانها فذاعت وهل يقـ
ـدر غيث يخفى عن الارض سكبا
قد رأت منك كعبة الله لما
جئتها حاتما وإن شئت كعبا

بـل رأى منـك بيتـه بيـت مجد أحـرم الجود حـولـه ثـم لبـى
وزهـت زمـزم بشربـك منهـا وعجيـب ان يظهـر الماء عجبـا
وتـوجهـت للمـدينـة عـن مكـة لما تشـاء وكـافيـك حسبـا
وأتيـت الشـأم تلـو فتـوح سـار شرقـا بـه الهنـاء وغـربـا
ان تكـن غبـت عنـه والله يبقيـك لامثـالـه فما غبـت قلبـا
سرت والـرأي فيـه منـك مقيـم وبعثـت الـدعـاء في الليـل كتبـا

وقد وقفت على الرقعة التي كتبها القاضي الفاضل رحمه الله بخطه إلى السلطان يلتمس منه الإذن في سفر الحج فأحببت نقلها هنا، وماكتب السلطان رحمه الله عليها، وماكتب بسببها إلى بعض نوابه، نقلت من خط الفاضل رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب المملوك هذه الرقعة بعد أن استخار الله سبحانه من مستهل رجب في أكثر لياليه وإلى آخر هذه الساعة وهو ينهي أنه قد شارف الأربعين ومايدري لعلها عقبة اللقاء، وفرض الله في الحج قد تعين، ووعد المولى به قد سبق عند إيلة، ومدة الغيبة قصيرة والنائب ينفذ مايحتاج إليه في السفر والحضر، والثقة به حاصلة في المرادين من الكاتب وهما: الكتمان والمعرفة، وحظ المولى في حجه ولله أضعاف حظه في مقامه لأنه إن كان ينفع بها في الدنيا فهو ينفع هناك في الآخرة، وإن لم يكن أهلا لأن يستجاب منه فالله أهل لأن يجيب في المولى والمملوك، فما ثقل قط في سؤال، وليس لأن المولى لايقضيها، ولكن لأنه يغنيه عن السؤال

فيها، وهذه حاجة الدنيا والآخرة وبعدها ينشد:

متى يأت هذا الموت لايلف حاجة
لنفسي الا قد قضيت قضاها

وما أراد المملوك أن يستشفع بمن يشارك المولى في الأجر، ومايريد إلا دستورا عن نفس طيبة ورضى ظاهر وباطن ولايريد خلاف الغرض، فما يفي له بقضاء المفترض، والله المعين برحمته.

الحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وسلامه

وعلى رأس الرقعة في سطر البسملة بخط السلطان رحمه الله ماصورته: على خيرة الله تعالى، ياليتني كنت معكم فأفوز فوزا عظيما.

نقلته من خطه، ونقلت من خط بعض الكتاب مانقله من خط السلطان رحمه الله إلى بعض النواب:

فصل من كتاب كريم بالخط العالي الناصري أعلاه الله ورد بتاريخ السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وخمسمائة.

وصلني كتاب القاضي الفاضل، وهو يذكر أنه مصمم على الحج، الله يجعله مبارك ميمون، ولكن لاأفسح له فيه إلا بعد ثنتين:واحدة أنه لايركب بحرا يسير من العسكر إلى إيلة، ومنها يتوجه ويقيم العسكر على إيلة ليلة وعلى إرم ليلة، ودون إرم ليلة، وقاطع إرم ليلة، فيكون هو قد بعد ومايبقى عليه خوف إن شاء الله تعالى، وثانية تأخذ يده وتحلفه برأسي أنه لايجاور، وثالثة تعطيه من مال الجوالي ثلاثة آلاف دينار، وتقول له لابد أن يخرج هذا عني لاعنك في المجاورين بمكة والمدينة وفي أهلها، هذا أمر لابد منه فإن الناس لابد لهم من الطلب، ولابد لك من العطاء و إن قال إن الشيء قليل فأنت تقرضني مثل هذا المبلغ من

مـالك، وتعطيـه إياه فـلابد وإلا فـلا إذن له في الـرواح إلى الحج إلا على هذه الشروط التي قد شرطتهـا، وأما مجيئه فيجيء إلى الشام فأنـا مابقي لي دار إلا هي حتى يقضي الله بيننا وبين الفرنج(وهو خير الحاكمين)(٤).

وكتب الفاضل إلى بعض مشايخ مكـة بعد رجوعه: سقى الله الحجاز، وحيا كعبته، وياطول ماترشقني سهـام الشوق الذي أصبح الذكر جعبته، آها على تلك المواقـف وتبا لمن رضي أن يكون مع الخوالف، فـرعيا ونعمى وحسنـة وحسنى لمجـاوري ذاك الحرم، ولعامـري ايـامه التـي هي الأيـام لأيام ذي سلـم، فيالهف الصـدور، وطول ظمأهـا إلى ورود ماء زمـزمها، وطوبى لمن استضـاء في مضال الظلم بعلمـه، ومهما نسيت فلا أنسـى برد الكبد بحر صيفها، وموسم الأنس بثلاث مناها وخيفها:

آهـــا عليهـــا اليـــال مـــا تـــركـــن لنـــا
إلا الأســـى وعـــلالات مـــن الحلـــم
عســـى الـــريـــاح إذا ســـارت مبلغـــة
تـــوفي فقـــد غـــدر الأحبـــاب بـــالـــذمـــم

ثـم قال: فـأمـا الطريـق المبـاركـة فقد جـرى فيهـا خطوب وشـؤون، وأحاديـث كلها شجـون، وكانـت العقبى إلى سـلامة، ولما قـاربنا الكـرك نهض العدو ،فلـم يمكن الرجعـة ولا التعريج جانبـا، ثم من اللـه تعالى بانجلاء النوبـة، ووصلنا إلى بلاد السلطان ولقينا ذلك الوجـه، فلا عدمنا بشره، وذلك الفضل فلا فـارقت أعيننا فجره، ووجدناه في الغـزاة جاهدا، وللعدو مجاهدا، وأوقاته مستغرقة وعزماته محققة.

- ٨٢٩٣ -

فصل

فيما فعل مع الفرنج في باقي هذه السنة وأول الأخرى ووقعة مرج عيون

قال ابن أبي طي: كانت الفرنج قد عمرت بيت الأحزان، وكان على المسلمين منه ضرر عظيم، فراسل السلطان الفرنج في هدمه فأجابوا إنه لاسبيل إلى هدمه إلا ان تعطينا ماغرمنا عليه، فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتنعوا فزادهم إلى أن بلغ مائة ألف دينار، وكان هذا الحصن للداوية، وكانوا يقوون من فيه بالأموال والنفقات لقطع الطرقات على قوافل المسلمين، فاشار تقي الدين على السلطان ببذل هذا المال لأجناد المسلمين ويخرج بهم إلى الحصن ويهدمه، ففعل ذلك كما سنذكره.

قال العماد: ولما ودع السلطان أخاه ورجع أغار في طريقه على بلاد الفرنج وقصد الحصن الذي بنوه ورجع بالأسرى والغنائم وخيم السلطان بمروج الشعراء، ثم انتقل إلى بانياس، وبلغت الخيم إلى حدود بلاد الكفرة، وأضرم عليهم لهب النيران المستعرة، وكان كل يوم يركب بحجة الصيد، وينزل على النهر، ويجرد فرسان الجلاد والقهر، ويسير قبائل العرب إلى بلد صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو، ومايبرح مكانه حتى يعودوا بجمالهم وأحمالها موثقة بأثقالها، حتى جف زرع الكفار.

قال: وفي هذه السنة اقتضى رأي الفرنج أن يرعبوا المسلمين في كل ناحية خوفا من اجتماعهم على جهة واحدة، فغدر ابرنس أنطاكية، وأغار على شيزر، وغدر القمص بطرابلس بجماعة من التركمان بعد الأمان، فرتب السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر في ثغر حماة ومعه شمس الدين

-٨٢٩٤-

ابن المقدم وسيف الدين علي المشطوب، ورتب ابن عمه ناصر الدين في ثغر حمص في مقابلة القمص، وكتب السلطان إلى أخيه العادل وهو نائبه بمصر أن ينتخب له من عسكر مصر ألفا وخمسمائة فارس يتقوى بهم مع عسكر الشام على العدو.

- ٨٢٩٥ -

ثم دخلت

سنة خمس وسبعين

والسلطان نازل على تل القاضي ببانياس، فأجمع رأيه مع بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكفار ديارهم ويستوعبوا مابقي في أيديهم من الغلات في يوم واحد ثم يرجعوا، فرحلوا صوب البقاع فنهضوا تلك الليلة وهي ليلة الأحد ثاني المحرم، فلما أصبح السلطان جاءه الخبر بأن الفرنج قد خرجت، فالتقاهم وأنزل الله نصره على المسلمين وأسر فرسانهم وشجعانهم، وانهزمت رجالتهم في أول اللقاء، فكان من جملة الأسرى مقدم الداوية، ومقدم الاسبتارية، وصاحب طبرية، وأخو صاحب جبيل، وابن القمصية، وابن بارزان صاحب الرملة، وصاحب جينين، وقسطلان يافا، وابن صاحب مرقية، وعدة كثيرة من خيالة القدس وعكا من البارونية وغيرهم من المقدمين الأكابر، مازاد على مائتين ونيف وسبعين سوى غيرهم، ثم قدمت الأسارى وهم يتهادون كأنهم سكارى.

قال العماد: وأنا جالس بقرب السلطان استعرضهم بقلمي، ومن ألطاف الله تعالى أنا وخواصه الحاضرين لم نزد على عشرين، والأسرى قد أنافوا على سبعين، وقد أنزل الله علينا السكينة، وخصهم بالذلة المستكينة، وطلع الصباح، ورفع المصباح، وقمنا وصلينا بالوضوء الذي صلينا به العشاء، ثم عرض الباقون من الأسرى، ثم نقلوا إلى دمشق فأما ابن بارزان فإنه بعد سنة بذل في نفسه مائة وخمسين ألف دينار صورية وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى من نوبة الرملة عندهم من المأسورين، فالتزم ادراكه وأن يؤدي من قطيعة المذكور القطيعة التي قرر بها فكاكه، وأما ابن القميصية فإنه استفكته أمه بخمسة وخمسين ألفا من الدنانير الصورية، وأما أود مقدم الداوية فإنه

انتقـل من سجنـه إلى سجين، فطلبت جيفتـه فـأخذ بـاطلاق أسير مـن مقدمـي المؤمنين، وطال أسر البـاقين فمنهم من هلـك وهو عـان ومنهم مـن خرج بقطيعـة وأمان، وهـذه هي وقعـة مرج عيـون، وكان العـدو في عشرة آلاف مقاتـل وانهزم ملكهم مجروحـا، وكان لعز الـدين فـرخشاه في هذه الوقعة بلاء حسن، حكى حسام الدين تميرك بن يونس وكان مع عز الدين قـال: كنا في أقل من ثـلاثين فارسا قد تقـدمنا العسكر، فشاهـدنا خيل الفرنج في ستمائة فارس واقفين على جبـل وبيننا وبينهم الماء، فأشار عز الدين بأن نعبر النهر إليهم، ففعلنا ولحقنا عسكر السلطان فهزمناهم، ومـن أحسن مـااتفق أن في اليـوم الذي كسرت فيـه الفرنـج بمرج عيـون ظفر الأسطول المصري ببطسـة كبيرة فاستولى عليها وعلى أخـرى وعاد إلى الثغـر مستصحبا ألـف رأس مـن السبـي، فما أقرب مـابين النصريـن في المصرين، ومـاأعـذب عذاب الفئتين وتجريعهما الأمرين الأمريـن، لقد عم النصر، وتساوى فيه البر والبحر.

ومما مدح به السلطـان في هذا الفتح مدحة سيرها مـن مصر إليه فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي العراقي الجويني أولها:

لـــــــــك رب السماء خير معين
وكفيـــــــــــــــل بما تحب ضمين

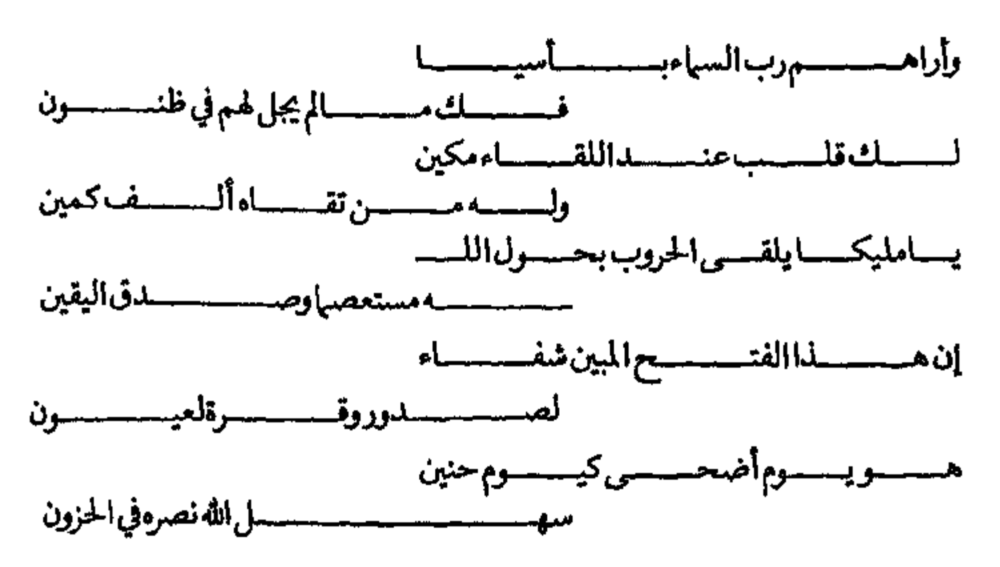
فلـــــه الحمـــــد أي نصر عــــــزيـــــز
قـــد حبـــانـــابـــه وفتـــح مبين

أدرك الثـــــأر حين نـــــازلـــــه المغـــــ
ـــوار حيـــف الكفـــار ليـــث العـــريـــن

المهـــام الغضنفـــر الملـــك النـــا
صر مـــولى الـــورى صـــلاح الـــديـــن

يـــامليكـــا أضحـــى الـــزمـــان يناجيـــ
ـــه بلفـــظ المذلـــل المسكين

قـــذفـــت أهلهـــا الحصـــون إلى بـــأ
ســك حتـــى عـــوضتهـــم بـــالسجـــون



وأراهم رب السماء بأسيا
فك ما لم يجل لهم في ظنون

لك قلب عند اللقاء مكين
وله من تقاه ألف كمين

يا مليكا يلقى الحروب بحول اللـ
ـه مستعصما وصدق اليقين

إن هذا الفتح المبين شفاء
لصدور وقرة لعيون

هو يوم أضحى كيوم حنين
سهل الله نصره في الحزون

قال العماد: وكان تقي الدين غائبا عن هذه الوقعة، واشتغل عنها بغيرها، وذلك أن سلطان الروم قليج أرسلان طلب حصن رعبان، وادعى أنه من بلاده، وإنما أخذه منه نور الدين رحمه الله على خلاف مراده، وأن الملك الصالح ولده قد أنعم به عليه، ورضي بعوده إليه، فلم يفعل السلطان وكان هذا الحصن مع ابن المقدم، فأرسل قليج أرسلان عسكرا مجمعا في عشرين ألفا لحصار الحصن فلقيهم تقي الدين، ومعه سيف الدين علي المشطوب في ألف مقاتل، فهزمهم.

قال: ولم يزل تقي الدين يدل بهذه النصرة، فإنه هزم بآحاد ألوفا، وأرغم بأعداد من الأعداء أنوفا.

وقال ابن أبي طي: واتصل بالسلطان أن قليج أرسلان قد طمع في أخذ رعبان وكيسون، فلما دخل دمشق وصله رسوله يطلبها منه، ويدعي أن نور الدين بن زنكي اغتصبها منه، وأن الملك الصالح قد أنعم عليه بها، فاغتاظ السلطان وزجر الرسول وتوعد صاحبه، فعاد الرسول وأخبر قليج أرسلانه فغضب وسير عسكرا إلى رعبان، فحاصرها وسمع السلطان، فندب تقي الدين عمر في ثمانمائة فارس، فسار فلما قارب

رعبان أخذ معـه جماعة من أصحابـه مقدار مائتي فـارس، وتقدم عسكره وسار حتى أشرف على عسكر قليج أرسلان ليـلا فرآهم قد سدوا الفضاء وهم قارون آمنون وادعون، فقال تقي الـدين لأصحابه: هؤلاء على ماترون من الطمأنينة والأمن والغفلة، وقد رأيـت أن نحمل الساعة فيهم بعد أن نتفرق في جوانب عسكـرهم ونصيح فيهم فإنهم لايثبتون لنـا، فأجابوه إلى ذلـك فأنفـذ واحدا مـن أصحابـه إلى بـاقي عسكـره وأمرهـم أن يتفرقـوا أطلابـا، وأن يجعل في كـل طلب قطعـة من الكـوسات والبـوقات، فـإذا سمعوا الضجة ضربوا بكوساتهم وبوقاتهم، وجدوا في السير حتى يلحقوا بـه، ففعلـوا مـا أمـرهـم، ثـم أنـه حمل في عسكـر قليـج أرسـلان، وصرخ أصحابه في جـوانبه، وكان عدة عسكـر قليج أرسلان ثلاثـة آلاف فارس، فلما سمعوا الضجة، وحس الكـوسات والبوقات وشدة وقع حـوافر الخيل وجلبة الرجال واصطكاك أجرام الحديد هـالهم ذلك، وظنوا أن قد فوجئوا بعالم عظيـم، فلم يكن لهم إلا أن جـالوا في كواثـب خيولهم عريـا وطلبوا النجاة، وأخـذتهم السيوف، فتركـوا خيامهم وأثقـالهم بحالها، وأكثـر تقي الديـن فيهم القتـل والأسر، وحصل على جميـع ماتـركوه، فلما أصبـح جمع المأسورين ومن عليهم بأموالهم وكراعهم وسرحهم إلى بلادهم.

قـال: وقيل إن الخبر بهذه الكسرة وصـل إلى السلطـان في اليوم الـذي كسر فيه السلطـان الفرنج على مرج عيـون، فتوافت البشارتـان إلى البلاد.

قال : مدح ابن التعاويذي السلطان الملـك الناصر بقصيدة أنفذها إليه من بغداد يذكر فيها وقعة مرج عيون يقول فيها:

كـــاد الأعـــادي أن يصيبـــك كيـــدهـــا
لـــو لم تكـــدك بـــرأيها المأفـــون
تخفـــي عـــدواتها وراء بشـــاشـــة
فتشـــف عـــن نظـــرلها مشفـــون

دفنت حبائل مكرها فرددتها
تدوي بغيظ صدورها المدفون
وعلمت ما أخفوا كأن قلوبهم
أفضت إليك بسرها المخزون
كمنوا وكم لك من كمين سعادة
في الغيب تظهر من وراء كمين
فهوت نجوم سعودهم وقضى لهم
بالنحس طائرهم بمرج عيون

قلت: هكذا أنشده، وهو حسن وقد كشفته في نسخة من ديوان ابن التعاويذي فوجدت آخر هذا البيت« طائر جدك الميمون» وأول القصيدة:

ان كان دينك في الصبابة ديني
فقف المطي برملتي يبرين

ثم قال بعد تمام الغزل:

ليت الضنين على المحب بوصله
لقن السماحة من صلاح الدين
ملك إذا علقت يد بذمامه
علقت بحبل في الحفاظ متين
قاد الجياد معاقلا وان اكتفى
بمعاقل من رأيه وحصون
سهرت جفون عداه خيفة ماجد
خلقت صوارمه بغير جفون
لو أن لليث الهزبر سطاه لم
يلجأ إلى غاب له وعرين
أضحت دمشق وقد حللت بجوها
مأوى الطريد وموئل المسكين

لــــك عفـــة في قـــدرة وتــــواضـــع
في عـــــــزة وشراســـــــة في لين

وأريتنـــا بجميـــل صنعـــك مـــا روى الـــ
ـــــراوون عـــن أمـــم خلـــت وقـــرون

قال ابـن أبي طي: نـزل السلطان على تـل القاضي ببـانياس على المرج الذي يعرف بمرج عيـون، وأنفذ في ثاني المحرم قطعة من عسكـره مع عز الدين فـرخشاه لشن الغارة على بـلاد الفرنج، فلما أصبح ركـب يستوكف أخبار فرخشاه فما هـو إلا أن خرج من الخيم حتى رأى أغنام بـانياس قد أقبلت من المراعي هاجة على وجوههـا من الغياض والأودية، فقال: هذه غـارة، فأمـر بلبس السـلاح والاستعداد للحـرب، فـوصل بعـض الرعـاة فـأخبر أن الفرنـج قد عبروا وصـاروا قريبـا منه على هيئـة المتغفلة، فسـار حتـى أشرف على الفرنـج، فـإذا هم في ألـف رمـح، فـأخذتهم السيـوف والـدبابيس حتى فـرشت الأرض منهـم، وألقـى جماعة منهـم سلاحهـم وسلموا أنفسهـم أسارى، ونجاملك الفرنـج هنفري هاربا، ويقال إنه وقع به فـرسه فحمله أحـد خيالته على ظهـره، ثم رجع السلطـان إلى معسكره وسيفه يقطر دما وجلس لاستعراض الأسارى فذكر نحو ماسبق.

وفي كتـاب الفاضـل إلى صـاحب لـه بمكة وقـد سبـق بعضه قـال:« وجـرت نوب منهـا قتل الهنفـري لعنه اللـه وتمام سبعين فارسـا من كبـار الخيالـة، وطرح ملك الفـرنج من على ظهـر دابته وتحاملـه بآخر رمـق مع بقية من نجـا من خيالته، ومنهـا نوبة وادي الحريق، وقـد جمع الله العدو فارسه وراجله، ومنهـا نصر الله الذي ماكان قبله للمـك من ملوك الأرض قتـل ابن بـارزان ومقدم الـداوية، وابـن صـاحب طبريـة، وأخو أسقـف صور، وصـاحب جبيـل، وأصحاب الحصون والقـلاع، ومقطعوا الأقـاليم والضيـاع، وحصل تحت اليـد الناصريـة أعلاهـا الله مـائة وستون كلهـم تثنـى عليهم الخنـاصر وتقطر بهم العسـاكـر، ومنها دخـول العساكـر إلى

-١٣٠٨-

عمل بيروت وصـور وغارتها على غرة من أهلهـا، وقطع شجرة مثمـرة من أصلها.

قال: وكـانت الأساطيـل المنصورة قـد تضاعفت عـدتها إلى أن بلغت ستين شينيا وعشريـن طريـدة، فسارت الشـواني خاصـة فدخلـت البلاد الرومية، ودوخت السواحـل الفرنجية، وأسرت ألف علج أحضرتهم أسرى في قيد الأسار، وقتلت الرفاق الكبار، وغنمـت من هذه الغزوة أقوام كانت أعينهم لاتعرف عين الدرهم ولاوجه الدينار».

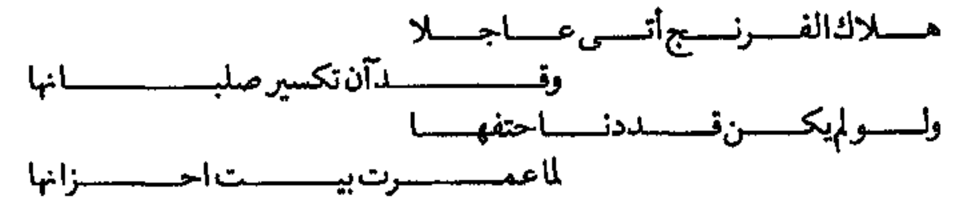
- ٨٣٠٢ -

فصل

في تخريب حصن بيت الأحزان وذلك في شهر ربيع الأول

قال العماد: جمع السلطان جموعا كثيرة من الخيالة والرجالة، فوصل إلى المخاضة يوم السبت تاسع عشر الشهر، والحصن مبني دونها من الغرب، فخيم منها بالقرب وضاق ذلك المرج عن العسكر، واحتاج إلى نصب ستائر لأجل المنجنيقات، فركب السلطان بكرة الأحد إلى ضياع صفد وكانت قلعة صفد يومئذ للداوية، وهو عش البلية، وأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها، فأخذ كل مااحتاج إليه، ورجع بعد الظهر وزحفوا إلى الحصن بعد العصر، فما أمسى المساء إلا وهم قد استولوا على الباشورة وانتقلوا بكليتهم إليها، وباتوا طول الليل يحرسون، وخافوا ان يفتح الفرنج الأبواب ويغيروا عليهم على غرة، وإذا بالفرنج قد أوقدوا خلف كل باب نارا ليأمنوا من المسلمين اغترارا، فاطمأن المسلمون وقالوا: مابقي إلا نقب البرج ففرقه السلطان على الأمراء، فأخذ فرخشاه الجانب القبلي، وأخذ السلطان الجانب الشمالي، وقصد ناصر الدين بن شيركوه بقربه نقبا، وكذلك تقي الدين، وكل كبير في الدولة جعل له قسما، وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه لكن ماانقضى يوم الأحد إلا وقد تم نقب السلطان، وعلق وحشي بالحطب ليلة الاثنين وحرق، وكان النقب في طول ثلاثين ذراعا في عرض ثلاثة أذرع، وكان عرض السور تسعة أذرع، فما تأثر بذلك، فاحتاج السلطان صبيحة يوم الاثنين إلى إطفاء النيران ليتم نقبه، وقال: من جاء بقربة ماء فله دينار، قال العماد: فرأيت الناس للقرب حاملين،ولأوعية الماء ناقلين، حتى أغرقوا تلك الثقوب، فخمدت فعاد نقابوها وقد بردت فخرقوه وعمقوه وفتحوه وفتقوه، وشقوا حجره وفلقوه، ثم حشوه وعلقوه واستظهروا فيه يوم الثلاثاء والأربعاء، ثم أحرقوه واشتد الحرص عليه لأن الخبر أتاهم بأن الفرنج قد اجتمعوا

بطبرية في جمع كثير ، فلما أصبح يـوم الخميس الرابع والعشريـن من ربيع الأول وتعالى النهار انقـض الجدار، وتباشره الأبرار، وكان الفرنـج قد جمعوا وراء ذلـك الواقـع حطبـا، فلما وقع الجدار دخلـت الـريـاح فردت النـار عليهم وأحـرقت بيوتهم وطـائفة منهم، فـاجتمعوا إلى الجانب البعيـد من النار وطلبوا الأمان، فلما خمدت النيران دخـل الناس وقتلوا وأسروا وغنموا مائة ألـف قطعة مـن الحديد مـن جميع أنـواع الأسلحة، وشيئـا كثيرا من الأقوات وغيرها، وجـيء بالأسارى إلى السلطان فمن كان مـرتدا أو راميا ضربت عنقه، وأكثر مـن أسر قتله في الطريق الغزاة المطوعـة، وكان عدة الأسارى نحـو سبعمائة، وخلص من الأسر أكثـر من مائة مسلـم، وسيرنا في الأسارى إلى دمشـق، وأقام السلطان في منـزلته حتى هـدوا الحصن إلى الأساس، وطـم جب ماء معين كانـوا حفروه في وسطه، ورمـى فيه القتلى، وكان عنـد السلطان رسـول القمص معافى وهـو يشاهـد بلية أهـل ملته، وقـد كـان السلطان بـذل لهم في هـدمـه ستين ألـف دينار فلـم يفعلـوا، فزادهـم حتـى بلغ مائة ألف فـأبوا، وكان مدة المقـام على الحصن في أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوما، وبعد ذلك سار السلطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت وغيرها فأغـار عليها وأرجف قلوبهم بوصولـه إليها، ورجع السلطان إلى دمشق يـوم الأربعاء ومرض جماعة من ذلـك الوباء لأن الحر كان شديـدا، وأنتنت جيف القتلى، وطول السـلطان المقام عليـه بعد فتحه لأجل تتميم هدمه، فتوفي أكثـر من عشرة أمراء، وعاد المشهد اليعقوبي كما كـان مزورا وبتكبير المسلمين وصـلاتهم معمورا، وهنـأ الشعراء السلطـان بفتـح هـذا الحصن فمـن ذلـك مـا أنشـده نشـو الدولـة أحمد بـن نقـادة الدمشقي من جملة مدائحه:



ولأبي الحسن علي بن محمد بن رستم الساعاتي الخراساني ثم الدمشقي من قصيدة أولها:

بجدك أعطاف القنا تتعطف
وطرف الأعادي دون مجدك يطرف
شهاب هدى في ظلمة الشك ثاقب
وسيف هدى في طاعة الله مرهف
وقفت على حصن المخاض وإنه
لموقف حق لا يوازيه موقف
فلم يبد وجه الارض بل حال دونه
رجال كآساد الشرى وهي تزحف
وجرداء سلهوب ودرع مضاعف
وابيض هندي ولدن مثقف
ومارجعت أعلامك الصفر ساعة
إلى أن غدت أكبادها السود ترجف
كبا من أعاليه صليب وبيعة
وشاد به دين حنيف ومصحف
صليبة عباد الصليب ومنزل النـ
ـنزال لقد غادرته وهو صفصف
أيسكن أوطان النبيين عصبة
تمين لدى أيمانها وهي تحلف
نصحتكم والدين في النصح واجب
ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

ومن قصيدة لسعادة الضرير الحمصي:

حللت فكنت الألمعي المسددا
وسرت فكنت الشمري المؤيدا
وقمت بأعباء الممالك ناهضا
فأقعدت أعداء ولم تخش مقعدا

تعـودت ضرب السيـف والطعـن بـالقنـا
وكـل امـرىء مغـرى بما قـد تعـودا

نصرت الهدى لما تخاذل حـزبـه
فناداك حـزب الله يـا نـاصر الهدى

غضبت لـديـن أنـت حقـا صـلاحـه
فـأرضيـت لما ان غضبـت محمـدا

فيـا يـوسـف الخير الـذي في يمينـه
مـن الخير مـا قـد غـار فينـا وأنجـدا

وصلـت لـذي سلـم وصلـت لـدى وغـى
ففقـت جميـع النـاس بـالبـأس والنـدى

وقـدت إلى الأعـداء جيش عـرمـرمـا
إذا أبـرقـت فيـه الصـوارم أرعـدا

فلـم تبـق للطغيـان شمـلا مجمعـا
ولـم تبـق لـلايمان شمـلا مبـددا

فنـاهيـك مـن جيـش نهضـت بعبئـه
فـأقعـدت لما ان انهضـت بـه العـدى

حملـت ذبـالا في ذوابـل سمـره
فلما دجـى ليـل العجـاج تـوقـدا

وزرت بـه الحصـن الـذي لـو تحصنـت
فـوارسـه بـالنجـم أوردتـه الـردى

قصمـت بـه صلـب الصليـب وزعتـه
وشهـدتـه لما غفـا فتشهـدا

هببـت إليـه هبـة يـوسفيـة
تعيـد هبـاء كـل مكـان جلمـدا

وفـض بما قـد فضـه مـن سهـامـه
نـواجـذ ثغـر الهنفـري وقـددا

قال: ومنهم الأمير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقي من أهل الحلة المزيدية، وكان حاضرا في نوبة ابن بارزان له من قصيدة

أولها:

هنيئا صلاح الدين بالفتح والنصر
ونيل الأماني الغر والفتكة البكر
وما حزت فيها من فخار ومن علا
وحسن ثنا يبقى إلى آخر الدهر
سموت لها بالمشرفية والقنا
سمو أبي لا ينام على وتر
وصلت بها حبل المفاخر مثلما
قطعت بها يوم الوغى دابر الكفر
سلكت بياض الصبح وهو صوارم
وخضت بها سواد الليل وهو دم يجري
وقد عرف الافرنج بأسك في الوغى
وجرعتهم منه أمر من الصبر
وظنوا ابناء الحصن صونا لملكهم
فأصبح بالشعراء منتهك الستر
فما قبضت منهم يد الغدر قطعت
أناملها إلا على صفقة الخسر
هي الفتكة الغراء لازلت قائما
بأمثالها في الدين في السر والجهر
وأصبح في أقصى خراسان ذكرها
وفي كل قلب منه جيش من الذعر
فلا ترض منهم بعدها بذل طاعة
فما خلقوا إلا على شيمة الغدر
وسروا ملك الأرض التي لو تركتها
لاغضت عيون المجد منها على أمر
فيا آل أيوب حويتم مناقبا
بأخمصها تعلو على الأنجم الزهر
إذا عد أرباب الفخار فأنتم
ذوو الفعلات الغر والنائل الغمر

وأنــت الــذي أصبحــت بــالبــأس والتقــى
وبــذل اللهــى عــالي السنــاعطــر الــذكــر

ومن كتـاب فاضلي إلى بغداد في وصف الحصن:« وقد عرض حـائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع وقطعت له عظـام الحجارة كل فص منهـا من سبعة أذرع إلى مـافوقها ومـادونها، وعدتها تـزيد على عشرين ألـف حجر لايستقر الحجر في مكانه، ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها، وفيها بين الحائطين حشـو مـن الحجـارة الصـم المرغـم بها أنـوف الجبـال الشم، وقـد جعلت سقيتـه بالكلـس الذي إذا أحـاطت قبضتـه بالحجـر مـازجه بمثـل جسمه، وصـاحبـه بأوثـق وأصلـب من جـرمه، وأوعـز إلى خصمه من الحديد بأن لايتعرض لهدمه».

ومنـه في وصـف النـار قال:« وبـات النـاس في ليلـة الجمعـة مطيفين بالحصـن والنار بـه مطيفة، وعليه مشتملـة، وعذبـات ألسنتها على تـاجه مسدلـه، ومن خلفه منسبلة، ونـارهم قد أطفأهـا الله بتلك النار الـواقدة، ومنعتهم قـد أذهبها اللـه بتلك الأبـرجة السـاجدة، وبنفسـج الظلماء قد استحال جلنـارا، والشفق قـد عم الليلة فلـم يختص آصـالا ولاأسحارا، ونفحـاتها حيمية(وقـودهـا النـاس والحجـارة)[٦] والمنـادي ينادي بلسـان مصـابها إياك أعنـي،فاسمعـي ياجـارة فولجت النـار موالـج يضيق منهـا الفكر ويعجـز عنها الأبر، ونقلت النبـأ من العين إلى الأثر، وقـال الكفر(إنها لإحدى الكبر)[المدثر٣٥] وخولف المثل إن السعادة لتلحظ الحجر،وأغنى ضـوءهـا لسان كـل أمعـة أن يسـأل هـذا وهـذا ماالخبر، وقـذفـت بشرر كالجمالات الصفـر، وزفرت بغيظ تعفر لـه خدود الجبال الصعـر، وتلحقها بـالكثب العفـر، وبـات الليل والنهـار يثلـه، وكلما أغمـده الخمود جعـل الوقـود يسله، إلى أن بدا الصبـاح كأنـه منها إمتار الأنـوار، وانشق الشرق ومن عصفرهـا صبغ الإزار، فحينئذ تقدم الخادم فاقتلع بيـده الأحجار من

أسها، ومحا حروف البنيان من طرسها، وتبعه الجيش ورفاقه، وكافة من اشتمل عليه نطاقة».

وفي كتاب آخر: « وكان مبنيا على تل، وفيه صهريج لما فتح المسلمون الحصن رموا فيه مايناهز ألف قتيل ودابة محرقة بالنار، فما سدت عرضته، ولاملأت حفرته، وكان فيه نحو ألف زردية، والمقاتلة ثمانون فارسا بغلمانهم، وخمسة عشر مقدما للرجال، مع كل مقدم خمسون رجلا، هذا إلى الصناع مابين بناء ومعمار وحداد ونجار وصيقل وسيوفي، وصناع أنواع الأسلحة، وكان به من أسرى المسلمين مايزيد على مائة رجل، نزعت القيود من أرجلهم، وجعلت في أرجل الفرنج، وكانت فيه أقوات لعدة سنين، وأنواع اللحوم الطيبة والخبيثة فيها بلاغ ومتاع إلى حين، ولما قوتل أول يوم هجم حوشه، وفيه جماعة من المقاتلة فضربت رقابهم، وأخذت دوابهم، وفي الحال علقت النقوب على خمس جهات، وحشيت بالنيران، وتأخر وقوع الجدران لفرط عرض البنيان، ولم تزل النار توقد، ثم تخرج ثم تشعل ثم تخمد، إلى أن تمكنت النقوب وحشيت بالأحطاب، وأطلقت فيها النيران في يوم الخميس، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت الأبرجة فهي يومئذ واهية، وملك المسلمون الحصن بما فيه ومن فيه، واشتعلت النيران في أرجائه ونواحيه، وكان الطاغية مقدم الحصن يشاهد ماحل ببنيانه، ومانزل من البلاء بأصحابه وأعوانه، ولما وصلت النار إلى جهته ألقى نفسه في خندق نار صابرا على حرها، ففي الحال نقلته هذه النار إلى تلك النار، ولما أخذ أسارى الفرنج وهم عدة تزيد على سبعمائة بعد المقتولين، ومايقصر عدتهم عن مثلها، توفرت الهمة على هدم هذا الحصن وتعفية أثره، وإزالة ضرره، فألحقت أعاليه بقواعده، وصار أثرا بعد عين في مشاهدة عين، هذا والفرنج مجتمعون في طبرية يشاهدون الأمر عيانا، وينظرون إلى الحصن وقد ملىء نيرانا، وارتفع دخانا، وسارت العساكر إلى أعمال صيدا وبيروت وصور، فانثنت مغيرة فاستنارت كل

غامضة، ووصلت إلى كل ذخيرة، وصارت بلاد الفرنج لايسكن فيها إلا قلعة أو مدينة، ولايقيم فيها إلا من نفسه لشدة الخوف معتقلة في نفسه أو مشحونة».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى وزير بغداد:« تأخر فلان لضرورات منها أمراض كانت قد عمت بها البلوى، وكثرت بها الشكوى، وكان أكثرها خاصا بالعائدين من العساكر من نوبة فتح الحصن، وكان خادما المجلس السامي ابن أخيه تقي الدين، وابن عمه ناصر الدين قد جهد ا، وأثخنا وبلغا حد اليأس وامتحنا، وكادا يسقطان من ضمير المنى، فمن الله تعالى بالشفاء، وهذه البشرى بفتح الحصن، وإن كانت شريفة مواقعها، عامة منافعها، فقد تجددت بعدها بشارة طلعت بشارة رائقة، وجاءت في مكان الرديف لأخرى لافرق بينهما إلا أن تلك سابقة، وهذه لاحقة، وذلك أن الاسطول المصري غزا غزوة ثانية غير الأولى، وتوجه عن السواحل الاسلامية مرة أخرى من الله فيها منة أخرى، وكانت عدته في هذه السنة قد أضعفت وقويت، واستفرغت فيها عزائم بالجهاد واستقصيت، واحتلت به الرجال الذين يعملون في البحر، ويفتكون في البر، ومن هو معروف من المغاربة بغزو بلاد الكفر، فسارت على سوار هي كنائن إلا أنها تمرق مروق السهام، ورواكد هي مدائن إلا أنها تمر مر السحاب غير الجهام، فلا أعجب منها تسمى غربانا وتنشر من ضلوعها أجنحة الحمام، وتسمى جواري وكم بشر بجريها من النصر بغلام، فطرقت في الأحد حادي عشر جمادى الأولى مينا عكا، وهي قسطنطينية الفرنج، ودار كفرهم أبدلها الله من الكفر اسلاما، وخلع عنها الشرك البالي وخلع عليها من التوحيد أعلاما، وكانت مفروسة فأصبحت مفترسة، وباتت جميع الفرنج محترسة، وغدت مترسة، فما هي إلا أن جذفت والجة على المينا، وفيه المراكب والبضائع فاستولت على عدة من المراكب تحطيما وتكسيرا، ونطاحا يقلقل، ولو كان ثبيرا ، وادخلت ساحل

الفرنـج بقتالها، وبـاشرت مثل الماء بنـزولها ونزالها، وهـذا مما لم يعهـد من الأسطـول الاسـلامـي مثلـه في سـالف الـدهـر، لافي حـالـة قـوة اسـلام ولاضعف كفـر، ومما سبيلـه أن تطرز السير الكريمـة بفخره كما طـرز الله الصحيفة الشريفـة بأجره، وقتـل على قلعة عكا ثلاثـة نفر بأليـم السهام، أبعد ماكانـوا وقفوا عنها، وآمن ماكانوا منهـا، فصرعتهم الأيدي والأفواه، وخروا سجـدا على الجباه، سجودا لايرفعـون منه الرؤوس، ولاينتقلـون منه إلى حالـة الجلوس، ولايرفـع فيما يرفع لهم مـن عمل، ولالهم فيه مـن قبلة ولالهم به من قبل، وأقامت المراكب يومين تقابلها، وتقاتلها وتناضلها.

-٨٣١١-

فصل
في باقي حوادث هذه السنة

منها حجة الفاضل الثانية،ووفاة الخليفة المستضيء بالله وغير ذلك، قال العماد: وفي العشر الأخير من شوال سنة خمس وسبعين خرج الفاضل من دمشق إلى الحج، ثم عاد إلى مصر من مكة.

قلت: وقفت على نسخة كتاب الفاضل إلى الصفي بن القابض، يصف له مالقي في طريقه إلى مصر، وركوب البحر، وكانت جماله ذهبت بمكة في خامس عشر ذي الحجة.قال:« خرجنا من مكة شرفها الله يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة، وفي هذه الأيام زاد تبسط المفسدين، وإسراف المسرفين، وظهر من هوان أمير الحاج العراقي، ومن ضعف نفسه وانخفاض جناحه، ماأطمع المفسد، وأخاف المصلح، ووصلنا إلى جدة يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة، وركبنا البحر في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه، وبتنا فيه ليلتي الأربعاء والخميس، ورمتنا الريح إلى جزيرة بالقرب من بلاد اليمن تسمى دبادب، وكانت إحدى الليلتين في البحر من ليالي البلاء، وبالله أقسم لقد شاب بعض رؤوس أصحابنا في تلك الليلة، وآيسوا من الأنفس، وتمنوا معاجلة الأمر وتقصير العذاب، وظنوا أنهم أحيط بهم وعاتبوا أنفسهم ثم احتجوا عليها بالأقدار التي لاحيلة فيها، وصبرنا إلى أن فرج الله سبحانه، ونزلنا البرية بحيث لاماء يشرب، ولاجمل يركب، وانفذنا إلى البجاة النازلين على ساحل البحر فأحضروا جمالا ضعيفة أجرتها أكثر من ثمنها وثمن ماتحمله، فركبناها ووصلنا إلى عيذاب بعد عشرة أيام، وقد هلكنا ضعفا وتعبا وجوعا وعطشا، لأن الخلق كانوا كثيرا، والزاد يسيرا، وركبنا البرية من عيذاب إلى أسوان، فكانت الهمة قاصرة في المزاد، فكانت البلوى عظيمة في العطش، فأما الحزون والوعور فهي تزيد على مافي برية الشام

بكونها طريقا بين جبلين، كالدرب المتضايق، والزقاق المتقارب، وحر الشمس شديد، وقريب الوعد بينهما بعيد، ولطف الله إلى أن وصلنا مصر في السابع عشر من صفر».

قلت: وللوجيه بن الذروي في الفاضل:

لك الله إما حجة أو وفادة
فمن مشهد يرضي الإله وموسم

ترى تارة بين الصوارم والقنا
وطورا ترى بين الحطيم وزمزم

وكم لك يا عبد الرحيم مآثر
لها في سماء الفخر إشراق أنجم

كأنك لم تخلق لغير عبادة
وإظهار فضل في الورى وتكرم

قال العماد: وفي هذه السنة طهر الملك العزيز أبو الفتح عثمان عماد الدين ابن السلطان، وكان أحب أولاده إليه وهو الذي قام بتدبير الملك بعده، وولد بمصر ثامن جمادي الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة، كما سبق ذكره ، وكان السلطان لما قدم الشام زاد شوقه إليه فاستقدمه، فقدم عليه عاشر رجب سنة إحدى وسبعين وأنشد العماد السلطان عند قدومه قصيدة منها.

يا أسدا يحمي عرين العلى
هنئت جمع الشمل بالشبل

عثمان ذي النورين بين الورى
من سؤدد سام ومن فضل

يحكيك أقداما وبأسا فما
أشبه هذا الفرع بالأصل

مخائل الرشد على بشره
شاهدة بالفضل والنبل

ملـــــك قضـــــى اولـــــه أنــــــه
على ملـــــــــــــــوك الأرض يستعلي
بـــــا الملـــــك النــــاصر سلطـــــاننــــا
طـــــالـــــت يـــــد الاحســـــان والعـــــدل

ثم لم يفارقه، واستصحبه إلى مصر في سنة اثنتين وسبعين، ثم عاد به معه إلى الشام في شوال سنة ثلاث وسبعين، واتخذ له معلما من مصر، وهو نجم الدين يوسف بن الحسين المجاور، فحصل من صحبته رزقا واسعا لاسيما في عام الطهور فإنه عم فيه السرور والحبور، وكان متولي الانفاق في الطهور صفي الدين بن القابض، لأنه كان متولي الخزانة والديوان، والأعمال بدمشق.

قال: وحج— يعني ابن القابض— سنة أربع وسبعين، وفيها حج الفاضل من مصر يعني حجته الأولى، وعاد إلى الشام ومعه ابن القابض.

قلت: فلما رجعا معا في حجة الفاضل الأولى إلى الشام، ثم انفرد الفاضل بالحج ثانيا من العام المقبل وهو سنة خمس وسبعين، وتم له في رجوعه ماتم كاتبه بالكتاب الذي سبق ذكره يصف له مالقي في رجوعه، وكانت حجة الفاضل الأولى من مصر، ورجع إلى الشام، وكانت الثانية من الشام ورجع إلى مصر.

وفي هذه السنة توفي الملك المنصور حسن ابن السلطان صلاح الدين، وقبره القبر القبلي من القبور الأربعة بالقبة التي فيها شاهنشاه بن أيوب بالمقبرة النجمية بالعوينة ظاهر دمشق.

قال العماد: وفيها خرجوا إلى بعلبك لتسليمها إلى عز الدين فرخشاه فسلكوا طريق الرواديف، وهي طريق شاقة، وفيها أغار عز الدين على

صفد ثامن عشر ذي القعدة، وكان قد جمع لهم من رجال بانياس وماحولها، ورجع غانما سالما.

قال: وفي مستهل ذي القعدة أو ثانيه توفي ببغداد الخليفة الإمام المستضيء بالله أمير المؤمنين ، واستحلف ولده الناصر لدين الله أبو العباس أحمد ، وكان رسول السلطان ضياء الدين بن الشهرزوري حاضرا فحضر وبايع وأخبر بجلية الحال، فبادر السلطان إلى الخطبة له في جميع البلاد ومضى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسماعيل من بغداد رسولا إلى بهلوان، وألزمه حتى خطب بهمذان وأصفهان، وعمت الدعوة الهادية في جميع بلاد خراسان، ثم لما رجع شيخ الشيوخ جاء إلينا رسولا في سنة ست وسبعين، وأخذه السلطان معه إلى مصر وحج منها وركب البحر كما سيأتي ذكره.

وللعماد في مدح الإمام الناصر قصائد منها قصيدة بائية مدحه بها سنة فتح القدس وسيأتي منها أبيات عند ذكر فتحه ومنها:

الدهر ينصرني ما دام ينسبني ... لخدمة الناصر المنصور نساب
بطاعة الناصر بن المستضيء أبي الـ ... ـعباس أحمد للأيام أصحاب

وقال محمد بن القادسي في تذييل تاريخ أبي الفرج بن الجوزي: مولد المستضيء ثالث عشري شعبان من سنة ست وثلاثين، وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وواحدا وعشرين يوما، بويع تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين، وكان كريما رحوما بارا بالرعية يعفو عن الجرائم الكبار، عادلا ظهر يوم مبايعته من رد المظالم والأملاك المقبوضة والإفراج عن المسجونين وإسقاط الضرائب والمكوس ماشاع واشتهر.

قال: وتقدم إلى شيخ الشيوخ عبد الرحيم وإلى عبد الرحمن بن الجوزي فصليا عليه، ثم بايع الناصر أخوه الأمير أبو منصور هاشم، ثم بنو أعمامه وخواصه ثم الولاة وأرباب المناصب والأعيان والوافدون للحج من بلاد خراسان وغيرهم، وكان والده المستضيء قد عهد إليه قبل وفاته بيوم واحد.

قلت: كذا نقلته من خطه، ولعله أراد باسبوع واحد فسبق به قلمه، فإن ابن الدبيثي ذكر أنه خطب للناصر بولاية العهد يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال.

ثم قال ابن القادسي: وفي سابع ذي القعدة قبض على صاحب المخزن ظهير الدين أبي بكر بن العطار، ووكل به وتتبع أصحابه ومن يتعلق به، وقتل النقيب مسعود الذي كان بين يديه، وكان أحد الأعوان بباب النوبي قد نزعت الرحمة من قلبه، فقطع قطعا وشد في رجله حبل، وسحبته العامة في الدروب، ثم أحرقوه بعد ذلك.

قال: وفي حادي عشره حمل ابن العطار ميتا، وعلم به العامة فرجموا تابوته بالآجر، فألقاه الحمالون وهربوا، فأخذه العامة وشدوا في رجله شريطا وسحب في جميع بغداد ومنافذها ودروبها ومحالها،وقطع لحمه قطعا.

قال: وتوجه شيخ الشيوخ أبو القاسم عبد الرحيم إلى البهلوان بن ايلدكز شحنة همذان لأجل الخطبة، فتوقف عن ذلك، فهاجت العامة عليه، ووثب أهل المذكور وخطبوا، وجاء كتاب شيخ الشيوخ إلى الديوان سطرها فلان، والحال في الجنوح كقصة نوح، من قرأ السورة عرف الصورة.

قال: وفي هذه السنة اشتد الغلاء، وكثر الوباء ببغداد وغيرها من

البلاد، وذكر أن رجلا بواسط ذبح بنتا له وأكلها، وآخر بقر بطن صبي وأخذ كبده وشواها وأكلها.

قال: وفي رابع عشر ربيع الآخر زلزلت الأرض بعد العتمة فوق بلاد إربل، فلما أصبح الناس عادت الزلزلة في الجبال فتصادمت، ووقع منها الحجارة وسقطت قلاع كثيرة، وهلكت قرى بمن فيها، وكان يكون بين الجمل والجمل عشرون ذراعا فتقذفهما الزلزلة فيتصادمان ويعودان إلى مكانهما.

قال ابن أبي طي: وفيها أحرق الاسماعيلية أسواق حلب وافتقر أهلها بذلك، وكانت إحدى الجوائح التي أصابت حلب وأهلها.

قال: وفيها خرج قراقوش التقوي إلى طرابلس المغرب، ففتح بلادا وصلى حروبا مع ابراهيم السلاحدار الذي دخل بلاد المغرب أيضا من أصحاب تقي الدين، لأن نفسه أطمعته أن يفعل فعل قراقوش في تملك البلاد، ثم أصلح بينهما.

-٨٣١٧-

فصل
ثم دخلت
سنة ست وسبعين

ففيها توفي الحافظ أبو طاهر السلفي رحمه الله بالاسكندرية،وقد زرت قبره بها داخل الباب الأخضر.

قال العماد: وفيها هادن السلطان صلاح الدين الفرنج، وتوجه إلى بلد الروم فأصلح بين نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق، صاحب حصن كيفا، وبين زوج ابنته السلطان عز الدين قليج أرسلان ابن مسعود بن قليج أرسلان، واجتمعوا على نهر يقال له كوك سو، وكثرت ثم الهدايا والدعوات والأفراح والهبات، وفيها دخل السلطان بلاد الأرمن لقمع ملكهم ابن لاون لأنه كان استمال قوما من التركمان حتى يرعوا في مراعي بلاده بالأمان ثم صبحهم بغدره، وحصلوا بأسرهم في أسره، فدخل السلطان بلاده وأذل أعوانه وأجناده، ونصر الله المسلمين بالرعب فأحرق من الخوف قلعة شامخة تعرف بالمناقير ، وبادر المسلمون إلى إخراج مافيها من الآلات والغلات فتقووا بها وتمموا هدمها إلى الأساس.

قال ابن أبي طي: ووجد المسلمون في أرضها صهريجا مملوءا آلات نحاس وفضة وذهب لها زمن طويل، قال: وبذل للسلطان جملة من المال وأنه يطلق من عنده من الأسارى، فلم يرض السلطان بها بذله فزاد في المال وأنه يشتري خمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويعتقهم، فأجاب السلطان وأخذ منهم رهينة على ذلك.

قال العماد: وأذعن الأرمني وذل، وأطلق مابيده من الأسارى، ورجع السلطان مؤيدا منصورا، ووصل إلى حماة في أواخر جمادى الآخرة، وكان

الجمال الواسطي أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب المقري شاهدا هذه الغزاة فنظم قصيدة في السلطان منها:

لقــــد جمل الله منـــــك الـــــورى
بـــــأوفى مليـــــك وفي هجـــــان

تهش إلى نغمات السيـــــــــو
ف في الهام لا نغمات القيـــــــان

أزرت ابــــــــــــن لاون لأواءه
فـــأضحـــى بـــه خبرا عـــن عيـــان

ودان مـــــن الـــــذل لا يـــــر عـــوي
حـــذارا مـــن الـــراعفـــات اللـــدان

فـــلا قـــدم عنـــده للثبـــا
ت وليـــس لـــه بسطـــاكـــم يـــدان

وأخلى إليكـــــم المنـــــاقير
وغـــادر للهـــدم تلـــك المبـــاني

وأرســـل بـــالاسراء العنـــا
ة يســـأل اطـــلاقـــه فهـــو عـــاني

رتقـــت بعـــزمـــك والمكـــرمـــا
ت فتـــوقـــا مـــن الأرتقـــي الهجـــان

ورعـــت ابـــن سلجـــوق في ملكـــه
فقعقـــع مـــن رعبـــه بـــالشنـــان

قال: ولما وصل السلطان إلى حمص وخيم بالعاصي أتاه الفقيه مهذب الدين عبيد الله بن أسعد الموصلي وأنشده، وله في السلطان مدائح منها قصيدة غراء مطلعها:

أمـــا وجفـــونـــك المرضـــى الصحـــاح
وسكـــرة مقلتيـــك وأنـــت صـــاحـــي

لقـــد اصبحـــت في العشـــاق فـــردا
كما اصبحـــت فـــردا في الملاح

يهز الغصن فوق نقى ويرنو
بحد ظبي ويبسم عن أقاح
وقد غرس القضيب على كثيب
فأثمر بالظلام وبالصباح
ومال مع الوشاة ولاعجيب
لغصن ان يميل مع الرياح
قطعنا الليل في عتب وشكوى
إلى أن قيل حي على الفلاح
ولاح الصبح يحكي في سناه
صلاح الدين يوسف ذا الصلاح
ولما ضاق حد عن مداه
لقيناه بآمال فساح
فمن هرم وكعب وابن سعدى
رعاء الشاء والنعم المراح
جواد بالبلاد وما حوته
إذا جادوا بألبان اللقاح
ليفد حياء وجهك كل وجه
إذا سئل الندى جهم وقاح
ملوك جلهم مغرى بظلم
ومشغول بلهو أو مزاح
إذا ما جالت الابطال ولى
ويقدم نحو جائلة الوشاح
وبون بين مالك بيت مال
ومالك رق املاك النواحي
هم جمعوا وقد فرقت لكن
جمعت به الرجال مع السلاح
وما خضع الفرنج لديك حتى
رأوا ما لا يطاق من الكفاح

ومـــاســـألـــوك عقـــد الصلـــح ودا
ولكـــــن خـــــوف معلمـــــة رداح
مـــلأت بـــلادهـــم سهـــلا وحـــزنـــا
اســـودا تحت غـــابـــات الـــرمـــاح

وقـال ابـن شـداد: لما عـاد السلطـان بعـد الكسرة— يعنـي كسرة الـرملة— إلى الـديـار المصرية، وأقـام بها ريثما لم النـاس شعثهم، وعلـم تخبط الشـام عزم على العـود إليه، وكان عـوده للغزاة فـوصله رسـل قليج أرسلان يلتمسون منـه الموافقة ويستغيث إليه من الأرمن، فـاحتمل نحو بلاد ابـن لاون لنصرة قليج أرسلان عليه ونـزل بقرا حصار، وأخـذ عسكر حلب في خـدمته لأنـه كان قـدا اشترط في الصلح ذلـك، واجتمعوا على نهر الأزرق بين بهسنـا وحصن منصـور وعبر منه إلى النهـر الأسود طـرف بلاد ابـن لاون، فأخذ منهـم حصنا وأخربه، وبـذلوا له أسـارى والتمسوا منـه الصلح، وعـاد عنهـم، ثم راسلـه قليـج أرسلان في صلـح الشرقيين بـأسرهـم، واستقـر الصلح في عـاشر جمادى الأولى سنـة سـت وسبعين، ودخل في الصلـح قليج أرسـلان والمواصلة وأهل ديـار بكر، وكـان ذلك على نهر سنجه، وهو نهر يرمي إلى الفرات، وسار السلطان نحو دمشق.

- ٨٣٢١ -

فصل
في وفاة صاحب الموصل

قال العماد: وفي أوائل هذه السنة توفي صاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي،صاحب الموصل، والسلطان مخيم على كوك سو من حدود بلاد الروم، وجلس مكانه أخوه عز الدين مسعود بن مودود، وجاء رسول مجاهد الدين قايباز، وهو الشيخ الفقيه فخر الدين أبو شجاع بن الدهان البغدادي إلى السلطان، وطلب منه أن يكون معه كما كان مع أخيه من إبقاء سروج والرها والرقة وحران والخابور ونصيبين في يده، فلم يفعل السلطان، وقد كانت له بإطلاق الخليفة، وإنما جعلها في يد سيف الدين غازي بالشفاعة على شرط أنه يقوي السلطان بالعساكر، فلما مات سيف الدين كتب السلطان إلى الخليفة الناصر يعلمه بذلك وإن هذه البلاد لم تزل تتقوى بها ثغور الشام، ففوضت إليه على ماأراد، وكان الكتاب إلى صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ من إنشاء العماد وفيه: « قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية للدار العزيزة النبوية، بما لم يختص به أحد، وامتدت اليد منها في اقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم يمتد إليه يد، وأزلنا من الأقاليم الثلاثة أدعيا، وخلفناهم للردا حيث دعوا بلسان الغواية خلفا، ولاخفاء إن مصر إقليم عظيم وبلد كريم بقيت مائتين وخمسين سنة مضيمة، وعانت كل هضيمة، وعاينت كل عظيمة، حتى أنقذها الله عز وجل بنا من عبيد بني عبيد، وأطلقها بمطلقات أعنتنا إليها من عناء كل قيد، وفيها شيعة القوم، وهم غير مأموني الشر إلى اليوم، وطوائف أقاليم الروم والفرنج من البر والبحر بها مطيفة، فمن حقها ان يتوفر عسكرها، فلو حصل والعياذ بالله بها فتق أعضل رتقه، واتسع على الراقع خرقه، واحتجنا في حفظ بلاد الشام، وثغور الاسلام إلى استصحاب العسكر المصري إليها، وله مدة خمس سنين في بيكارها، منتقما من كفارها، محتملا لمشاقها على غلاء اسعارها، وإنما أحوج إلى ذلك أن بلاد هذا الثغر قد

اقتطعت عنه، وعساكرها أخذت منه، وكانت في تولي نور الدين رحمه الله، ثم ذكرها كما سبق ففوضت إليه كما سيأتي.

وقال ابن الأثير: توفي سيف الدين يوم الأحد ثالث صفر سنة ست وسبعين، وكان مرضه السل، وطال به، قال: ومن العجائب أن الناس لما خرجوا يستسقوّن بالموصل سنة خمس وسبعين للغلاء الحادث في البلاد، خرج سيف الدين في موكبه فثار الناس وقصدوه مستغيثين به، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر، فأجابهم إلى ذلك، فدخلوا البلد، وقصدوا مساكن الخمارين وخربوا أبوابها ونهبوها، وأراقوا الخمور وكسروا الأواني، وعملوا مالا يحل، فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان، وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق، ولم يكن له في الذي فعله الناس من النهب فعل، إنما هو أراق الخمور، ولما رأى فعل العامة نهاهم فلم يسمعوا منه، فلما شكي أحضر بالقلعة، وضرب على رأسه فسقطت عمامته، فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل، وقال: والله لاغطيته حتى ينتقم الله ممن ظلمني، فلم يمض غير قليل حتى توفي الدزدار المباشر لأذاه، ثم تعقبه مرض سيف الدين، ودام مرضه إلى أن توفي، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهورا، وكان أحسن الناس صورة، تام القامة مليح الشمائل، أبيض اللون، مستدير اللحية، متوسط البدن بين السمين والدقيق، وكان عاقلا وقورا قليل الالتفات إذا ركب، وإذا جلس، عفيفا لم يذكر عنه شيء من الأسباب التي تنافي العفة، وكان غيورا شديد الغيرة لم يترك أحدا من الخدم يدخل دور نسائه إذا كبر إنما يدخل عليهن الخدم الصغار، وكان لايحب سفك الدماء ولاأخذ الأموال مع شح فيه.

قال: ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجرشاه، فخاف من ذلك لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد

تمكن بالشام وقويت شوكته، وامتنع أخـوه عز الدين من الإذعان والإجابة إلى ذلك، فأشار الأمراء الكبار ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل الملك بعده في أخيـه، لما هو عليـه من كبر السـن والشجـاعة والعقـل، وقوة النفـس وحسن سياسة الملك، وأن يعطي ابنيـه بعض البلاد، ويكون مرجعهما إلى عمهما عز الديـن ليبقي لهما ذلك، ففعل ذلك وحلـف الناس لأخيه، فلما تـوفي سيف الـدين كـان مجاهد الـديـن هو المدبـر للدولـه والنائب فيهـا والمرجع إلى قـوله ورأيـه، فركـب إلى الخدمة العـزية وعـزاة وركبه إلى دار المملكة ومشـى في ركابه راجـلا، فدخلها وجلس للعـزاء، وكانت الـرعية تخافه قبـل أن يملك لإقدامـه وجراءته وحدة كـانت فيه، وكـان لايلتفت إلى أخيه سيـف الدين إذا أراد أمـرا، فلما ولي تغيرت أخلاقه وصـار رفيقا بالرعية محسنا اليهم، قريبا منهم.

قـال ابـن شـداد: وفي عـاشر المحرم سنـة سـت وسبعين بلـغ الملـك الصالح بن نور الـدين عصيان غرس الدين قليج بتل خـالد فأخرج إليه العسكر، ثم بلغه وفاة ابن عمه صاحب الموصل ثالث صفر.

- ٨٣٢٤ -

فصل

في وفاة شمس الدولة بن أيوب أخي السلطان الأكبر

وقدوم رسل الديوان بالتفويض إلى السلطان فيما طلب

قال ابن أبي طي: كان السلطان قد أنفذ أخاه شمس الدولة إلى الاسكندرية، وجعل إليه ولايتها، فلما حصل بها لم توافقه، وكان يعتاده القولنج فهلك به ودفن بقصر الاسكندرية، وكان أحد الأجواد الكرماء الأفراد، شجاعا باسلا عظيم الهيبة، كبير النفس، واسع الصدر ممدحا فيه يقول ابن سعدان الحلبي من قصيدة:

هو الملك ان تسمع بكسرى وقيصر
فإنهما في الجود والبأس عبداه

وما حاتم ممن يقاس بمثله
فخذ ما رأيناه ودع ما رويناه

ولذ بذراه مستجيرا فإنه
يجيرك من جور الزمان وعدواه

فلا تتحمل للسحائب منة
إذا هطلت جودا سحائب جدواه

ويرسل كفيه بما اشتق منهما
فلليمن يمناه ولليسر يسراه

وقال العماد: وفيها في المحرم توفي بثغر الاسكندرية تورانشاه أخو صلاح الدين، ووصل الخبر بذلك إلى السلطان، وهو نازل بظاهر حمص، فحزن عليه حزنا شديدا ، وجعل يكثر إنشاد أبيات المراثي، وكان كتاب الحماسة من حفظه، وكان صلاح الدين لما ملك مصر أرسله إلى اليمن فملكها، ثم استتاب فيها وقدم الشام سنة إحدى وسبعين، فلما وصل تيماء جاء منه كتاب وفيه أبيات لشاعره ابن المنجم منها:

فهل لأخي بل مالكي علم إنني
إليه وإن طال التردد راجع
وأني بيوم واحد من لقائه
لملكي على عظم المزية بائع
ولم يبق إلا دون عشرين ليلة
وتجني المنى أبصارنا والمسامع
لدى ملك تعنو الملوك إذ بدا
وتخشع إعظاماً له وهو خاشع
كتبت وأشواقي إليك ببعضها
تعلمت النوح الحمام السواجع
وما الملك إلا راحة أنت زندها
تضم على الدنيا ونحن الأصابع

قلت: وقبر تورانشاه الآن بالتربة الحسامية بالعوينة ظاهر دمشق نقلته إليها أخته ست الشام بنت أيوب،وبنت القبر عليه، وعلى زوجها ناصر الدين محمد بن شيركوه، وهو ابن عمها وعلى قبرها وقبر ابنها حسام الدين عمر بن لاجين، وسيأتي ذكره وإليه تنسب التربة، فهي ثلاثة قبور القبلي لتورانشاه، والأوسط لابن شيركوه، والشامي لست الشام وابنها رحمهم الله(٧).

قال العماد: وفيها في رجب وصلت رسل الديوان العزيز الناصري، صدر الدين شيخ الشيوخ أبو القاسم عبد الرحيم، ومعه شهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشريف الجديد، فتلقيناهم بالتعظيم والتمجيد وركب السلطان للتلقي، وعلى صفحاته بشائر الترقي، فلما ترآى له الرسل الكرام، ووجب لهم الإجلال والإعظام، نزل وترجل وأبدى الخضوع وتوجل، ونزل الرسل إليه وسلموا عن أمير المؤمنين عليه، فتقبل الفرض وقبل الأرض، ثم ركبوا ودخلوا المدينة.

قال ابـن أبي طي: وكانـت هذه أول خلعة قـدمت من الإمـام الناصر، على الملك الناصر، وكانت ثوب أطلس أسود واسع الكم مذهـب، وبيقار أسود مـذهـب، وطيلسـان أسود مـذهـب، ومشـدة سوداء مـذهبة، وطـوق وتخت وسر فسـار وجواد كميـت من مـراكب الخليفـة عليه سرج أسـود، وسـلال أسود، وطـوق مجوهـر، وقصبة ذهـب وعلـم أسـود، وعدة خيـول وبقج، وركب السلطان بالخلعة وزينت له دمشق، وكان يوما عظيما.

قال العماد: وظفـر السلطان من صدر الـدين بصديق صـدوق، وكان قد عـزم على قصد الديـار المصرية، وسلوك طـريق ايلة والبريـة، فحسن لشيخ الشيوخ مصاحبته، ورغبة زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، فقال: قد عزمت في هـذه السنة على الحج فأصل معكم إلى القاهـرة بشرط إقامة يـومين ولاأدخلهـا وإنما أسكن بـالتربـة الشـافعية، وأسير منهـا إلى بحـر عيذاب فلعلي أدرك صوم رمضـان بمكة، فالتزم ابـن الشهروزوري، وأنشأ العماد كتابـا في الجواب إلى الديـوان وفيه:« وقـد توجـه الخادم إلى الديـار المصرية لتجديـد النظر فيها، ثم يستخير اللـه في الحج وأدائه، ويعود إلى مجاهدة أعدائه».

فصل

في رجوع السلطان إلى مصر مرة ثانية

قال العماد: ولما عـزم السلطان على الرحيل استنـاب بالشام ابـن أخيه عز الدين فرخشاه، وكان عزيـز المثل، غزير الفضل، وقال فيه العماد عند توديعه قصيدة منها:

أســـــــأل الله ذا العلى أن تعيـــــــــش
الـــــف عـــــام لنصره مستجيشـــــــا

ومنها:

مـــا أكـــــدي شيئـــا ســـوى فـــروة منـــــ
ــــك وأبغـــــي لسفـــــرتي اكــــديشـــــا
كيـــــف يخلـــــو مــــــن دفء ظهــــــر
ســـالـــك طـــرق إيلـــة والعــــريشـــا

ووقفت على ثلاثة كتب للفاضل عن الملك العادل إلى الـولاة باليمن، يعلمهـم أن ملوك الشرق قـد دخلوا في طـاعة السلطـان، وأنه عـازم على القـدوم إلى مصر،وصـوم رمضـان بها، والحج إلى بيـت اللـه الحرام منهـا، ويأمرهم بالاستكثار مما يحمل لأجله إلى مكة من المال والأزواد والخلع، مما تشتمل عليه تلـك الأعمال، ووقفت على كتابين آخريـن أحدهما إلى أمير مكة، والآخـر إلى أمير ينبع يعلمهما بـذلك ليتـأهبا لقـدومه،ووقفـت على كتاب سادس للفاضل إلى السلطان في ذلك يقول فيه:« جعل الله الملوك ذمة لسيفه، وشرد منام الأعداء منهم بطيفه، وأمن أهل الاسلام بعدله من جور الـدهر وحيفـه، وأشهده مـوقف الحج الأكبر، وزان بمحضره مشهـد خيفه، وجعل وفده الأكرم وضيف بيتـه في هذه السنة في وفده وضيفه» ثم هناه بما فتح الله عليه من محبة الجهـاد، وماأثره في بلاد الأرمن وغيرها من البلاد، ومـاتبع ذلـك من نية الحج بلغـه الله منه المراد، ودخـول السلطان

بلاد الأرمن كـان في هذه السنة، كما سبق، فلعله سنح لـه الحج مع شيخ الشيوخ، ثم حصل له مامنعه منه.

قـال العماد: ورحل السلطـان إلى مصر يوم الاثنين ثـامن عشر رجـب ومعه صـدر الديـن شيخ الشيوخ، فـأقام يومين كما ذكـر وتوجـه منها إلى مكة على البحر فأدرك الصوم.

قال العماد: ووصلنـا إلى القاهـرة على طريق إيلـة ثالـث عشر شعبان، واستقبلنا أهلهـا، ولقينا الأكـابر والأعيان، والملـك العادل أخـو السلطان حينئذ بها نـائبة، وتلقينـا مواكبه ومـواهبه، وخدمتـه بقصيدة ذكـرت فيها المنازل والمناهل من يوم الرحيل من دمشق إلى الوصول بالقاهرة منها:

قلبـــي طـــال ليلي بعـــدكـــم
أســى فمتــى ألقــى بــوجهكــم الفجــرا
فقـــدت حيـــاتي مـــذ فقـــدت لقـــاءكــم
فهــل لحيـــاتي منكـــم نشـــأة أخـــرى
أجيران جيرون المجير مـــن جـــارهـــم
مـــن الجور حـــوزوا في مشـــوقكـــم الأجـــر
محبكـــم قـــد خـــانـــه الصبر فـــاطلبــوا
محبـــا ســـواه عنكـــم يحســـن الصبرا
ومـــذ غبـــت عـــن مقـــرى قـــد نبـــا
سقـــى ورعـــى ربي مقـــري في مقـــرى
أحـــن إلى عـــذرا وعـــذري واضـــح
لأن الهوى العـــذري منـــي في عـــذرا
إذا القـــدر المحتـــوم مـــن جلـــق بنـــا
إلى مصر أسرى فـــالقلـــــوب بها أسرى
رحلنـــا فما بـــاحـــت بـــأسرارنـــا ســـوى
عبـــارة عين خـــوف يـــوم النـــوى عبرى
تـــركنـــا دمشقـــا والجنـــان وراءنـــا
وقـــد أمنـــا بـــالكســـوة الـــرفقـــة السفـــرا

وجئنا إلى المرج الذي طاب نشره
فلا زال من أحبابنا طيبا نشرا
رحلنا بمرج الصفر العيس غدوة
فسارت وحطت في محجتها ظهرا
وقد قطعت تبنا إلى الدير بعدها
وبعدهما غدر البشامية الغزرا
ورأس الحشا والقريتين وكلها
موارد فيها السحب قد غارت غدرا
وردنا من الزيتون حسمى وإيلة
وجزنا عقابا كان مسلكها وعرا
إلى قلة الراعي إلى نابع إلى
جراول فالنخل الذي لم يزل قفرا
إلى منزل في روضة الجمل اغتدت
به عيسنا في صدر شارحه صدرا
ودون حشا الماحتشا ركابنا
عيون لموسى لم يزل ماؤها مسرا
هناك تلقانا الوفود ببرهم
فسروا بنا نفسا وزادوا بنا بشرا
قطعنا إلى بحر الندى بحر قلزم
ومن قصده بحر الندى يقطع البحرا
عبرنا إلى من كاثر الرمل جوده
وجزنا إليه ذلك الرمل والجسرا
ولم يرونا ماء الثماد بعجرد
ولم يقتنع بالقل من يأمل الكثرا
وجبنا البويب والمصانع قبله
إلى بركة الجب التي قربت مصرا
إلى عزمه في المجد غير قصيرة
وكان قصارى أمرنا أن نرى القصرا

ولما نزلنا مصر في شهر طوبة
وردنا بكف العادل النيل في مسرى
غدا قاصرا عن قصره قصر قيصر
وإيوان كسرى عند إيوانه كسرا

قال العماد: وفي هذه السنة بمصر عربت كتاب كيمياء السعادة تصنيف الإمام أبي حامد الغزالي في مجلدين، وفزت من تعريبه وعلم مافيه بسعادتين، وذلك بأمر فاضلي لزمني امتثاله، وشملني في إتمامه إقباله.

قال: وفيها في خامس عشري شوال توفي صاحبي المعتمد ابراهيم بدمشق، وأنا بمصر.

قلت وهذا غير والي دمشق المعروف بالمبارز ابراهيم بن موسى، ويلقب أيضا بالمعتمد، ورثى العماد صاحبه بقصيدة منها:

أرى الحزن لا يجدي على من فقدته
ولو كان في حزني مزيد لزدته
تغيرت الأحوال بعدك كلها
فلست أرى الدنيا على ما عهدته
عقدت بك الايمان بالنجح واثقا
فحلت يد الأقدار ما قد عقدته
وكان اعتقادي أنك الدهر مسعدي
فخانتني الأيام فيما اعتقدته
أردت لك العمر الطويل فلم يكن
سوى ما أراد الله لا ما أردته
وداع دعاني باسمه ذاكرا له
فأطربني ذكر اسمه فاسعدته
فقدت أحب الناس عندي وخيرهم
فمن لائمي فيها إذا ما انشدته

-٨٣٣١-

قال: ورثيته ببيتين وذكرت العناصر الأربعة في بيت واحد منهما:

لهفي على من كان صبحي وجهه ... فعدمت حين عدمته أنواره

سكن التراب وغاض ماء حياته ... مذ أطفأت ريح المنية ناره

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة سافر قراقوش إلى قابس، فذكر محاصرته لجملة من القلاع، وقتله جماعة من البربر، ومما ذكره أنه أسر جماعة على حصن وأمر بقتلهم، وفيهم صبي أمرد، فبذل فيه أهل القلعة عشرة آلاف دينار على أن لايقتله فأبى فزاودوه إلى مائة ألف فأبى وقتله، فما استتم قتله حتى نزل شيخ من القلعة ومعه مفاتيحها وقدمها لقراقوش، فسأله عن الخبر فقال: هذا الصبي الذي قتلته ولدي، ولم يكن لي سواه ولأجله كنت أحفظ هذه القلعة، فلما قتلته علمت إن بقيت هذه القلعة في يدي ومت صارت إلى أولاد أخي وأنا أبغضهم فرده إلى القلعة وأخذ منه أموالا.

- ٨٣٣٢ -

ثم دخلت
سنة سبع وسبعين

قال العماد: والسلطان مقيم بالقاهرة وقد عين لسماع الأحاديث النبوية بقراءة الإمام تاج الدين البندهي المسعودي ميقاتا، وجمع به من أهل العلم والعلماء عنده أشتاتا، وورد كتاب عز الدين فرخشاه من الشام يذكر مامن الله به على الأنام من الإنعام بكثرة ولادة التوأم في ذلك العام، وجبر الله به ماكان قبله من الوباء، وتفاءلوا بالخصب بعد الجدب والغلاء.

قال: ودخلت الحمام الذي بناه زين الدين أبو الحسن علي بن نجاء الواعظ في داره، خارج باب زويلة بالقاهرة في ذي القعدة فقلت:

ما منزل من يرى ... فيه غير عار فعار
به تماط الأذايا ... وترحض الأوضار
والعيش فيه قرير ... والطيش فيه وقار
والسبت في كل يوم ... لمن يرى مختار
نار تطيب ألا أعجب ... لجنة هي نار

وله فيه:

ومنزل يدخله ... لشغله كل أحد
يوجد فيه السبت في ... كل خميس وأحد

-٨٣٣٣-

فصل

في ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين رحمهما الله وماتم في بلاده بعده وذلك بحلب

قال ابن شداد:وكان مرضه بالقولنج، وكان أول مرضه في تاسع رجب، وفي الثالث والعشرين منه أغلق باب قلعة حلب لشدة مرضه، واستدعي الأمراء واحدا واحدا واستحلفوا لعز الدين صاحب الموصل، وفي الخامس والعشرين منه توفي رحمه الله، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس.

وقال ابن أبي طي: كان سبب موته أن علم الدين سليمان بن جندر سقاه سما في عنقود عنب وهو في الصيد، وقيل الذي سقاه ياقوت الأسدي في شراب، وقيل إنه أطعمه خشكنانكة وهو في الصيد، قال: ودفن بالمقام الكبير الذي في القلعة، وحزن الناس له حزنا عظيما، وكان من أحسن الناس صورة وألبقهم أعطافا.

قلت: وبلغني أنه كان يقال إن موت الملك الصالح صغيرا كان من كرامات نور الدين رحمه الله، فإنه سأل الله تعالى أن لايعذب شيئا من أجزائه بالنار، وولده جزؤه فمات قبل أن يطول عمره على أحسن سيرة وحالة رحمهما الله.

قال ابن الأثير: ولم يبلغ عشرين سنة، ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر تداويا بها، فقال: لاأفعل حتى استفتي الفقهاء، وكان عنده علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي بمنزلة كبيرة ويعتقد فيه اعتقادا حسنا ويكرمه، فاستفتاه فأفتاه بجواز شربها، فقال له: ياعلاء

الدين إن كان الله سبحانه وتعالى قد قرب أجلي أيؤخره شرب الخمر؟ قال: لاوالله ، قال: والله لالقيت الله تعالى وقد استعملت ماحرمه علي.

قلت: يحتمل أنه ذكر له أن من العلماء من ذهب إلى جواز ذلك لا أنه كان يرى ذلك فإن مذهبه بخلافه، والله أعلم.

ثم قال ابن الأثير: فلما آيس من نفسه أحضر الأمراء كلهم وسائر الأجناد ، واستحلفهم لابن عمه أتابك عز الدين، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه، فقال له بعضهم: إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من همذان إلى الفرات، فلو أوصيت بحلب للمولى عماد الدين ابن عمك لكان أحسن، ثم هو تربية والدك، وزوج أختك، وهو أيضا عديم المثل في الشجاعة والعقل والتدبير وشرف الأعراق وطهارة الأخلاق والخلال التي تفرد بها، فقال: إن هذا لم يغب عني، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى مابيدي ومعي، فإن سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها من صلاح الدين فإن ملكها صلاح الدين فلا يبقى لأهلنا معه مقام، وإذا سلمتها إلى عز الدين أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله، فاستحسن الحاضرون قوله وعلموا صحته، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه، ومن أشبه أباه فما ظلم، فلما توفي أرسل دزدار حلب، وهو شاذبخت وسائر الأمراء إلى أتابك عز الدين يدعونه إلى حلب ليسلموها إليه، فورد الخبر ومجاهد الدين قايماز قد سار إلى ماردين لمهم عرض فلقي القاصدين عندها فأخبروه الخبر فسار إلى الفرات، وأرسل إلى أتابك عز الدين ويشير بتعجيل الحركة، وأقام على الفرات ينتظره، فسار أتابك مجداً فلما وصل إلى المنزلة التي بها مجاهد الدين أقام معه، وأرسل إلى حلب يستحضر الأمراء فحضروا كلهم عنده، وجددوا اليمين له، فسار حينئذ إلى حلب ودخلها وكان يومه مشهودا، ولما عبر الفرات كان تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين بمدينة منبج فسار عنها هاربا إلى

مدينة حماة، وثار أهل حماة ونادوا بشعار أتابك، وكان صلاح الدين بمصر، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق وأطمعوه فيها وفي غيرها من البلاد الشامية، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكي، فلم يفعل وقال: بيننا يمين فلا نغدر به، وأقام بحلب عدة شهور، ثم سار منها إلى الرقة فأقام بها وجاءه رسول أخيه عماد الدين يطلب أن يسلم إليه حلب، ويأخذ منه عوضها مدينة سنجار، فلم يجبه إلى ذلك ولج عماد الدين وقال: إن سلمتم إلي حلب، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين، فأشار حينئذ الجماعة بتسليمها اليه، وكان أكبرهم في ذلك مجاهد الدين قايماز فإنه لج في تسليمها إلى عماد الدين ، ولم يمكن أتابك عز الدين مخالفته لتمكنه في الدولة، وكثرة عساكره وبلاده، فوافقه وهو كاره، فسلم حلب إلى أخيه وتسلم سنجار، وعاد إلى الموصل، وكان صلاح الدين بمصر وقد آيس من العود إلى الشام، فلما بلغه ذلك برز عن القاهرة إلى الشام، فلما سمع أتابك عز الدين بوصول صلاح إلى الشام جمع عساكره وسار عن الموصل خوفا على حلب من صلاح الدين، فاتفق أن بعض الأمراء الأكابر مال إلى صلاح الدين وعبر الفرات إليه، فلما رأى أتابك ذلك لم يثق بعده إلى أحد من أمرائه، إذ كان ذلك الأمير أوثقهم في نفسه، فعاد إلى الموصل، وعبر صلاح الدين الفرات، وملك البلاد الجزرية، ونازل الموصل فلم يتمكن من النزول عليها، وعاد إلى حلب وحصرها فسلمها عماد الدين إليه وسبب ذلك أن عز الدين لما تسلم حلب لم يترك في خزائنها من السلاح والأموال شيئا إلا نقله إلى الموصل، وتسلمها عماد الدين وهي كما يقال بطن حمار، فهو كان السبب في تسليمها.

قال ابن شداد: ولما توفي الملك الصالح سارعوا إلى إعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك وبما جرى له من الوصية إليه، وتحليف الناس له، فسارع سائرا إلى حلب مبادرا خوفا من السلطان، فكان أول

قادم من أمرائه إلى حلب مظفر الدين بن زين الدين، وصاحب سروج، ووصل معهما، من حلف الأمراء له، وكان وصولهم في ثالث شعبان، وفي العشرين منه وصل عز الدين إلى حلب، وصعد القلعة واستولى على خزائنها وذخائرها، وتزوج أم الملك الصالح في خامس شوال من السنة المذكورة، ثم أقام عز الدين بقلعة حلب إلى سادس عشر شوال، وعلم أنه لايمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته إلى ملازمة الشام لأجل السلطان، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات ورأوا أنفسهم أنهم قد اختاروه، وضاق عطنه، وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايماز، وكان ضيق العطن لم يعتد مقاساة أمر الشام، فرحل من حلب طالب الرقة، وخلفه ولده ومظفر الدين بن زين الدين بها، فأتى الرقة ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهما، واستقر مقايضة حلب بسنجار، وحلف عز الدين لأخيه عماد الدين على ذلك في حادي عشري شوال، وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب، ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار، وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين قلعة حلب.

قلت: ووقفت على كتاب فاضلي عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه، وهو نائبه بدمشق:« وقفنا على كتابه، وعلمنا ماتجدد من الخبر مرض الملك الصالح واشتداد حاله، وانقطاع الداخل عليه» ثم أشار بتنفيذ عسكر إلى جهة أخيه تقي الدين على إظهار قاعدة النظر في القضية الحادثة بين ديار بكر وابن قرا أرسلان، والتوجه لفصلها، قال:« فيكون ظاهر حركة العسكر لهذا السبب المتقدم، وباطنها لهذا السبب المتأخر، وقد كوتب الولد تقي الدين ان يتوجه إلى منبج وتل باشر، وهي جمهور الطرق بل كلها وقد أوعزنا إلى تقي الدين بأن يكون حمام حماة في حلب، وحمام دمشق في حماة، وإلى الأجل ناصر الدين بأن يكون حمام دمشق في حمص، وحمام حمص في حلب، وولدنا عز الدين يؤمر بأن يكون حمام بصرى في دمشق، وقد بعثنا نجابين يكونون منيخين ببصرى، فإن تحققت الوفاة فنحن أسبق اليكم من الجواب قولا وفعلا، ووعدا ونجحا، فالعلة

مـزاحـه، والعسـاكـر مستريحه والظهر قـد استعـد والمصلحـة في الحركـة ظاهرة، وحجج انتقاد المنتقدين في هذه القضية ساقطة».

وقال العماد: كـان قصد السلطـان إصلاح حال الملك الصالـح، وأنه القائم مقام أبيه، فصده عنه مماليكه، فـأخذت بلاده بلجاجهم، ومرضت دولته لسـوء علاجهـم، فاقتنع بحلـب إلى أن توفي، ووصـل ابن عمـه عز الدين مسعـود صاحب الموصل إلى حلـب، فجمع ظاهره وبـاطنه، وأخذ خزائنه، واستخرج دفائنه، وأخلى كنائنـه، ثم عرف أنه لايستقر له بها أمر، فرغب أخاه عماد الدين زنكي صـاحب سنجار في تعويضهـا له بحلب، فمال إلى بذلـه ورغب، ولما سمع السلطان في مصر بـوفاة الملك الصـالح تحرك عزمـه وندم على النـزوح من الشام مـع قرب هـذا المرام، فكتب إلى ابن أخيـه تقي الـدين، وهـو يتولى لـه المعره وحماة، وكـان نائبـه بدمشـق للنهـوض، وكذلـك شحذ عـزائم نوابـه بالشـام بتجديـد المكاتبـات لهم وبعثهم على الاستعداد وحملهـم، وكان نائبه بـدمشق ابن أخيه عـز الدين فرخشـاه قد نهض في مقابلة الفـرنج بالكرك، فـإن الابرنس الكركـي كان يحدث نفسـه بقصـد تيماء في البريـة، فما زال فرخشـاه في مقـابلتـه حتـى نكـص اللعين على عقبيه ذليـلا، ولم يجد إلى مـاحدثتـه بـه نفسه سبيـلا، فعرف السلطـان اشتغاله بهذا المهـم، فكتب كتابـا يشرح الحال إلى بغداد باللفـظ العمادي يقول فيه:« وشـاع الخبر بغارة فـرنج أنطاكيـة على حارم وأتوا مـن السبي والنهب بـالعظائم، وشـاع أيضا أن عسكر حلـب أغار على الراوندان وهـي في عملنا، ورسولهم عند الفرنج يستنجـدهم ويغريهم بنا، وقد راسلـوا الحشيشية والمراد من الرسـالة غير خاف والعلم بـالمعتاد منه كـاف، وابن أخي غـائب في أقصى بلاد الفـرنج في أول بريـة الحجاز فـإن طاغيـة منهم جمع خيلـه ورجله، وحـدثته نفسـه الخبيثة بقصـد تيماء وهي دهليز المدينة على ساكنها السـلام، واغتنم كون البرية معشبة مخصبة في هـذا العام، والعجـب أن نحامـي عـن قبر النبي صلـوات الله عليـه وسلامه، مشتغلين بهمـه، والمذكور— يعني صاحـب الموصل— ينازع في

ولاية هي لنا ليأخذ بيد ظلمه، وكم بين من يحارب الكفر ويحمل إليهم قواصم الآجال، وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين ويحمل إليهم كرائم الأموال، هذا مع مانعد في الدولة الحنيفية والدولة الهادية العباسية من آثار لايعد مثلها أولا لأبي مسلم لأنه أقدم ثم خامر، ووالى ثم ولى، ولآخرا لطغرلبك فإنه نصر ونصب، ثم حجر وحجب، وقد عرف مافضلنا الله به عليهما في نصر الدولة، وقطع من كان ينازع الخلافة رداءها وتطهير المنابر من رجس الأعداء، ولم نفعل مافعلنا لأجل الدنيا غير أن التحدث بنعمة الله واجب، والتبجح بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق فيها على السجية غالب، ولاغنى عن بروز الأوامر الشريفة إلى المذكور بأن يلزم حده، ولايتجاوز حقه، فإن دخول الأيدي المختلفة عن الأعداء المتفقة شاغل، ويحتاج إلى مغرم ينفق فيه العمر بغير طائل، فإن الأعمار تمر مر السحاب، والفرص تمض ومض السراب، وبقاؤنا في هذه الدار القليل اللبث القصير المكث يؤثر أن نغتنمه في مجاهدة العدو الكافر الذي صار به البيت المقدس محلا للارجاس، ومضت عليه دهور وملوك لم يحصلوا مىن رجاء تطهيره إلا على الياس، وإن كان القوم قد بذلوا للدار العزيزة بذولا معارة، فقد أسلف الخادم خدمات ليست بعوار، فإنهم لو بذلوا بلادهم كلها ماوفت بفتح مصر التي رحل عنها أسامي الأدعياء الراكبة أعوادها، وأعاد إلى عينها بعد بياض عمائها، من نور الشعار العباسي سوادها، فإن اقتضت الأوامر الشريفة أن يوعز للمذكور في حلب بتقليد فالأولى أن يقلد الجميع فلا رغبة فيها لايؤمن معه شر الشريك، ولمالك الأمر الحكم في ممالك المماليك»، وكان في الكتاب أيضا مامعناه أن حلب من جملة البلاد التي اشتمل عليها تقليد أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله له، وإنما تركها في يد ابن نور الدين» لأجل أبيه، والآن فليرجع كل إلى حقه وليقنع برزقه».

ومن كتاب فاضلي:« فقد صرف وجهنا في هذا الوقت عن جهاد لو كنا بصدده، وعن فرض لو وصلنا يومه بغده، لكان الاسلام قد أعفى من

شركة الشرك، وانفك أهله من ربقة أهل الأفك، ولكانت الأسماء الشريفة قد قرعت منابر طالما عزلت الصلب خطباءها، ولكان الدين الخالص قد خلص إلى بلاد صار المشركون متوطنيها والمسلمون غرباءها».

وفي كتاب آخر له:« وقد علم الله أنا لهدنتهم كارهون، وفي مصلحة أهل الاسلام وفي مصالحهم راغبون، ولكنا بلينا بقوم كالفراش أو أخف عقولا، وكالانعام أو أضل سبيلا، إن بني معهم فعلى غير أساس، وإن عدد الغدر منهم فهو أكثر من الأنفاس».

وفي كتاب آخر:« والخادم والحمد لله يعدد سوابق في الاسلام والدولة العباسية لايعدها أولية أبي مسلم لأنه والى ثم وارى،ولا آخرية طغرلبك لأنه نصر ثم حجر، والخادم بحمد الله خلع من كان ينازع الخلافة رداءها، وأساغ الغصة التي ذخر الله للاساغة في سيفه ماءها، فرحل الأسماء الكاذبة الراكبة على المنابر، وأعز بتأييد ابراهيمي، فكسر الأصنام الباطنة بسيفه الظاهر لا الساتر، وفعل ومافعل للدنيا ولامعنى للاعتداد بما هو متوقع الجزاء عنه في اليوم الآخر» ومن كتاب آخر عند دخول صاحب الموصل حلب واستيلائه عليها، وكانت داخلة في تقليد السلطان السابق فقال:« دخل حلب مستوليا، وحصل بها معتديا وعقود الخلفاء لاتحل، والسيوف في أوجه أوليائهم لاتسل، وإنه إن فتح باب المنازعة، أدنى من ندامه، وأبعد من سلامه، وخرق مايعيى على الراقع، وجذب الرداء فلم تغن فيه إلا حيلة الخالع، وليس الاستيلاء بحجة في الولايات لطالبها، ولا الدخول إلى الدار بموجب ملك غاصبها، إلا أن تكون البلاد كالديار المصرية حين فتحها الخادم وأهله، حيث الجمعة مستريبه، والخلافة في غير أهلها غريبة، والعقائد لغير الحق مستجيبة، فتلك الولاية أولى من منحها من فتحها، وكان سلطانها من أدخل في كان شيطانها، وأما حلب فإن الكلمة فيها عالية، والمنابر فيها بالاسم الشريف حالية، فإنما تكون لمن قلدها لالمن توردها، ولمن بالحق تسلمها

لا لمن بالباطل تسنمها، ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلها الخادم ولم يشاور و لـولجها، ولم يناظر، ولكنـه أتى البيوت من أبـوابها، واستمطر القطار مـن سحابها» ،ثـم ذكر أن المواصلـة راسلوا الملاحـدة الحشيشية، واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، وواسطة بينهـم وبين الفرنج الكافرين، ووعدوهـم بقلاع من يـد الاسلام تقلـع، وضياع من في المسلمين تـوضع، وبدار دعـوة بحلب ينصـب فيها علم الضـلالة فيرفـع، وياللعجـب من الخصم يهدم دولة حتى، وهي تبنيه، ومن العبـد يبني ملكها بنفسه ومـاله وذويه، وهـي تراقـب أعلاه فيـه، ودعواه في رسـائلهم وغـوائلهم ليسـت بدعوى لايقوم شاهدها، ولاهي بشنـاعة لايهتدي قائدها، بل هذا رسولهم عند سنان صاحـب الملاحدة، ورسولهم عند القمص ملك الفـرنج، وهذه الكتب الـواصلة بذلـك قد سيرت ولاستيجاب الـولاية طرق، أمـا السبق إلى التقليد فللخـادم السبق، وأمـا العدالة والعـدل فلو وقـع الفرق لـوقع الحق، وأما بالآثار بالطاعة فله فيهـا مالولا معونة الخالق فيه لقصرت عنه أيـدي الخلـق، ومتـى استمـرت المشاركـة في الشـام أفضـت إلى ضعـف التـوحيـد وقـوة الاشراك، وتـرامـت إلى أخطـار يعجـز عنهـا خـواطـر الاستـدراك، وأحـوجـت قـابض الأعنـة إلى أن يعليهـا الجدد، ويـرسلهـا العراك، وطـريق الصـلاح والمصالحات الإيمان، والمشـار إليهم لايلتـزمون ربقتها، ولايوجبـون صفقتها، وكفى بالتجـريب ناهيا عـن الغره، ولايلدغ المؤمـن إلا مـره، وإذا اجتمعـت في الشـام أيد ثـلاث يـد عـاديـة، ويـد ملحدة، ويد كـافرة نهض الكفر بتثليثه، وقصرت عن الاسـلام يد مغيثه، ولم ينفع الخادم حينئذ تصحيح حسابه، وتصديـق حديثه، ومايريد الخادم إلا من تكون عليه يـد الله وهي الجماعة، ولايؤثر إلا مايتقـرب به إليه وهو الطاعة، ولايتوخى إلا ماتقوم به الحجة اليوم ويوم تقوم الساعة».

ومن كتاب آخـر:« قد أحاط العلم بما طـالع به أولا عند وفـاة ولد نور الدين رحمه الله أن التقليد الشريف المستضيء لما وصلـه بالبلاد، وكان قد فتح أكثرها قـلاعا وأمصارا، وحصـونا وديـارا، ولم يبق إلا قصبـة حلب،

وهو على أخذها عـدل ولد نور الدين عن القتـال إلى النوال، وعن النزال إلى الاستنزال، وقصـد القصد الذي ماأوجبـت المحافظة ان يتلقى بـالرد، فأقره على الـولاية فرعا لاأصلا، ونـائبا لامستقلا، وسلم إليـه البلاد ويده الغالبة لا المغلوبة، وسيوفه السالبة لا المسلوبة، ومشى الأمر معه مستقيما ومائلا، وجـائرا وعادلا، إلى أن قضى نحبه، ولقـي ربه فبدأ مـن المواصلة نقض الإيمان، والإبتـداء بالعدوان، والتعرض للبـلاد، والتصرف فيها بغير حجة يكون عليهـا الإعتماد، فطالع الديوان بالقضيـة، واستشهد بدلالات قـوانينه الجليـة في هذا التقليـد الذي تهادتـه المحـاضر، وأشاعتـه المنابـر، وسيرت إلى الشرق والغـرب نسخه، وغلـت الأيـدي التي تحدث أنفسهـا أنها تفسخه».

فصل

قال العماد: وتوجه السلطان بعد شهر رمضان إلى الاسكندرية على طريق البحيرة، وخيم عند السواري وشاهد الاسوار التي جددها والعمارات التي مهدها، وأمر بالإتمام والإهتمام، وقال السلطان:نغتنم حياة الشيخ الإمام أبي طاهر بن عوف، فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك رضي الله عنه بروايته عن الطرطوشي في العشر الأخير من شوال، وتم له ولأولاده ولنابه السماع، والوالي يومئذ بها فخر الدين قراجا.

قلت: ووجدت للقاضي الفاضل كتابا كتبه إلى السلطان يهنيه بهذا السماع يقول فيه:« أدام الله دولة المولى الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، محيي دولة أمير المؤمنين، وأسعده برحلته للعلم، وأثابه عليها، وأوصل ذخائر الخير إليه وأوصله إليها، وأوزع الخلق شكرا لنعمته فيه فإنها نعمة لاتوصل إلى شكرها إلا بايزاعه، وأودع قلبه نور اليقين، فإنه مستقر لايودع فيه إلا ماكان مستندا إلى إيداعه، ولله في الله رحلتاه، وفي سبيل الله يوماه، ومامنهما إلا أغر محجل، والحمد لله الذي جعله ذا يومين: يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه، ويوم يسفك دم الكافر تحت علمه، ففي الأول يطلب حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم فيجعل أثره عينا لاتستر، وفي الثاني يحفل لنصرة شريعة هداه على الضلال فيجعل عينه أثر لايظهر وقد استغرب الناس همم العلماء في رحلتهم لنقل الحديث وسماعه والموالاة في طلب ثقته وانتجاعه، وصنفوا في ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه والرفع من أقدار أهله، والتنويه، فقالوا: رحل فلان لسماع مسند فلان، وسار زيد إلى عمرو على بعد المكان، هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم وشغل به دهره، ووقف عليه فكره، فلا يتجاذب عنان همته الكبائر، فما القول في ملك خواطره كأبوابه مطروقة، وأمور خلق الله كأمر دينه به محذوقة، إذ هاجر إلى بقية الخير في أضيق أوقاته، وترك

للعلم أشد ضروراته، ووهب له أياما مع أنه في الغزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته، وما يحسب المملوك أن كاتب اليمين كتب قط لملك رحلة في طلب العلم إلا للرشيد هارون رحمة الله عليه، على أنه خلط زيارة نبوته بطلب، ورحل بولديه إلى مالك رحمة الله عليه لسماع هذا الموطأ الذي اتفقت الهمتان الرشيدية والناصرية على الرغبة في سماعه، والرحلة لانتجاعه، وقد كان الرشيد سام مالكا رحمه الله أن يجعل له ولولديه الأمين والمأمون مجلسا خاصا لاسماع مصنفه، فقال له مامعناه: إنها سنة ابن عمك صلى الله عليه وسلم، وغيرك من سترها، ومثلك من نشرها، فهذه رحلة ثانية في الزمان، وأولى في الإيمان، يكتبها الله للمولى بقلم كاتب اليمين، ويقوم فيها مقام الرشيد ويقوم عليه وعثمانه مقام ولديه المأمون والأمين، وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد على مالك رحمة الله عليه في خزانة الكتب المصرية، فإن كان قد حصل بالخزانة الناصرية، فهو بركة عظيمة، ومنقبة كريمة، وذخيرة قديمة، وإلا فليلتمس، وكذلك خط موسى بن جعفر في فتيا المأمون رحمهما الله كان أيضا فيها، وكلاهما يتبرك بمثله، ويعلم به فضل العلم لاخلا المولى أبقاه الله من فضله، وقف المملوك على مابشر به من صنع المولى وتوفيقه، وصحة مزاجه في طريقه، وانقطاع ماكان من دم، واستراوح القلب من كل هم، وقد استفتحت هذه الطريق بكل فال مباركة البكر والفال، مأثورة عن سيد البشر، فمن ذلك صحة جسمه فلتهنه الصحة، وفسحة قلبه دامت له الفسحة، وانقطاع الدم، وطريقة إلى الشام ينقطع بها الدم، ويتصل النصر له وينتظم السلم، وأخرى أنه رحل إلى الموطأ رحم الله مالكه، ويرحل فيما يطلب من الشام إلى الموطأ أسعد الله به ممالكه، والله تعالى يحقق الخير، ويصرف الضير، ويبارك لمولانا في المقام والسير إن شاء الله.

قلت: هكذا يقع في كتب الفاضل رحمه الله كثيرا، وهو أنه يختمها بالأدعية متصلة بقوله إن شاء الله، والتعليق بالمشيئة غير لائق بالأدعية،

-٨٣٤٤-

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم« لايقل أحدكم اللهم أغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، اللهم ارزقني إن شئت، ليعزم مسألته فإنه يفعل مايشاء لامكره له»[٨].

فصل

في أمور تتعلق بولاة اليمن في هذه السنة

قال العماد: كان الأمير مجد الدين سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ نائبا لشمس الدولة أخي السلطان بزبيد،وحصل له من أموالها الطريف والتليد، ثم ابتاع من السلطان الناحية المعروفة بالعدوية بمصر لما عاد إليها، وبقي أخوه حطان بزبيد واليا عليها، فصنع دعوة عظيمة بها ،ذكر العماد أنه حضرها هو وغيره من الفضلاء الأعيان، فبينما هم عنده في أسر حال إذ أحدق بهم الأمير بهاء الدين قراقوش فقبض على سيف الدولة، واعتقل بالقصر، وكان سببه أن أقارب السلطان وخواصه أكثروا عليه عنده أنه استوعب مال زبيد وأن له كنوز لاتبيد، وأشاروا عليه بقبضة وهو يدافع عنه إلى أن أكثروا، وقيل فيه إن لم تدركه فات، فأمر به فاعتقل فسمح للسلطان خاصة من النقد المصري بثمانين ألف دينار، ولم يظهر فيها بيع متاع ولااستدانه من تجار، وغرم لأخوي السلطان العادل وتاج الملوك ماحافظ به على نهج الكرم المسلوك، وخرج مشرفا مكرما، مصرفا محترما، وزاد السلطان في تكرمته،، وأنفذ إليه بما قبضه منه خط يده بأن المبلغ دين في ذمته، ثم باعه أملاكا بمصر بتقدير ثلاثين ألف دينار، وبذل له كل ماطلب عن ايثار واختيار، وزاد في إقطاعه، وبارك الله في أشيائه وأشياعه.

قال العماد: وكان هذا الأمير من رجاحة عقله، وحصافة فضله، ماسمعت منه شكوى، ولاحكاية في بلوى، وقتل أخوه حطان بزبيد وأخذ ماله، فلم يظهر منه للسلطان كراهه، وكل شيمته نزاهة ونباهة.

قال: وكان لما توفي الملك المعظم شمس الدولة أشفق السلطان من نوابه باليمن، وذكر مابين ولاتها من الإحن، ووصل الخبر بما يجري بين

الأمير عثمان بن الزنجيلي والي عدن، وبين الأمير حطان والي زبيد من الفتن، فندب إلى زبيد عدة من الأمراء لحفظ البلاد، وإصلاح الأمور التي يخشى عليها من الفساد، ومن جملتهم والي مصر صارم الدين خطلبا، وبقيت الولاية بها في غيبته يقوم بها نوابه ويرجع إلى رأي أهله وأصحابه، فشرعت زوجته في عمارة دار عظيمة سنية، وذكر العماد أنه حصل له ولغيره من الأعيان بها ضيافة جليلة اتفاقية.

وقال ابن أبي طي: كانت نفس سيف الاسلام طغتكين أخي السلطان تشرئب إلى اليمن، من حيث مات أخوه شمس الدولة، ويشتهي أن يصير إليها فأمر ابن سعدان الحلبي أن يعمل قصيدة يعرض فيها بإنفاذ سيف الاسلام إلى اليمن، فعمل القصيدة التي يقول فيها:

جردلها السيف الصقيل فتنة
فالسيف لا يذخر إلا للفتن

شد به أزر العلى فإنه
نعم فتى من شرع الجود وسن

القائل المسمع في مقاله
والصادق الندب الأمين المؤتمن

بادي الفؤاد كيفما سيرته
حن إلى دار الوغى ثمت أن

وفيها يقول:

يا بن الكرام النجباء والذي
تلقف العلياء فيها ولقن

لا تعد عيناك عن الملك فما
يخاطب العلياء إلا من ومن

قد فسد الملك وقد طال العدى
واقتسموا بعدك أموال اليمن

قال: فلما سمع السلطان هذه القصيدة أذن لسيف الاسلام في المسير إلى اليمن.

وقال العماد: وفي هذه السنة تقرر مع سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب أن يمضي إلى بلاد اليمن وزبيد وعدن، وأن يقطع بها الفتن، ويتولاها ويولي ويعزل، ويحسن ويعدل، فسار بعد مسيرنا إلى الشام، وجرت مملكته فيها على أحسن نظام، وذلك في سنة ثمان، ووصل إلى زبيد وحط حطان عن رتبته وأمنه وطمنه، ثم أذن له في الانفصال إلى الشام، فجمع حطان كل ماله من سبد ولبد، ومطرف ومتلد، ولجين وعسجد، وياقوت وزبرجد، وآلات وعدد، وحصن وحجور عراب، ومال اعتقده من اليمن بغير حساب، ثم أناخ جماله، ورحل عليها أحماله وقدم قدامه أثقاله، وظن أنه نجا وفاز، وركب الأوفاز، فرده إليه ليودعه ثم يشيعه ويركب معه، فلما دخل عليه اعتقله،وسير وراء مالهمن اقفله وإلى خزانته نقله، ثم انفذه إلى بعض معاقله فحبسه ثم قتله، وفيما ذكر للسلطان من خبر ذهبه وماله والذاهب مايعي بحصر تفاصيل جمله أنمل الحاسب، أن نيفا وسبعين غلافا من غلف الزرد كانت مملوءة بالذهب الأحمر المنقد، وقوم المأخوذ بقيمة ألف ألف دينار، وأما صاحب عدن الأمير عز الدين عثمان بن الزنجيلي، فإنه لما سمع بسيف الاسلام توجه إلى الشام.

قلت: ولهذا الأمير أوقاف وصدقات بمكة واليمن، ودمشق، فإليه تنسب المدرسة والرباط المتقابلان بباب العمرة بمكة، والمدرسة التي خارج باب توما بدمشق رحمه الله.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إليه: « البلاد لك فيها عدة سنين، وأنت فيها مؤتمن على مال الله فأده إلى من يجاهد به أعداء الله، ويقيم به كلمة الله، ويحفظ به البيضة ويذب به عن الملة، ويقاتل به أعداء القبلة،

- ٨٣٤٨ -

ويضرب بالأسداد بين الكفر والاسلام، وينصب وجهه بين الهجير والزمهرير عاما في إثر عام، ومانطلب منك الباطل الذي لايجوز لنا أن نطلبه، ولالك أن تدفعه، ولانريد إلا الحق الذي لايحل لنا أن نتركه، ولالك أن تمنعه».

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد:وفي هذه السنة وصل إلى السلطان من دمشق العلم خطيب المزة، وكان قد زور على السلطان مثالا يتضمن له منالا، ورفعه إلى عز الدين فرخشاه فما خفي تزويره عليه، وهم بالايقاع به، فقصد السلطان بمصر وأطلعه على حاله فما أكترث به، وقال تحقق مازورت وأمر أن يكتب له توقيع بضعف ذلك الإدرار.

قال: وكان له إمام يصلي به، وهو يكتب مثل خطه، فأطلق به أموالا وأصلح وأنجح بتزويره لأصدقائه أحوالا، ومايشك صاحب ديوان ولامتولي خزانة في أنه صحيح، فلما دام سنين انكشف، وشارف التلف، وجلس أخوة السلطان وأمراؤه عنده يغرونه به، فقلت له بالعجمية سرا تهبه للقرآن، فقال:نعم فنفس من خناقه، وأمر بإطلاقه وأبقى عليه خيره حين استبدل به غيره، وصار بعده للعادل إماما، وبقي شغله معه مستداما.

قال: وفيها غدر الفرنج ونقضوا عهدهم، واستولوا على تجار في البحروغيرهم،وسهل الله تعالى بطسة عظيمة من المراكب الفرنجية مقلعة من بلد لهم يقال له بوليه تحتوي على ألفين وخمسمائة نفس من رجال القوم وأبطالهم، فألقتهم الريح إلى ثغر دمياط فغرق منهم الشطر، وشمل الباقين الأسر، فحصل في الأسر منهم زهاء ألف وستمائة وست وسبعين نفسا، واتفق ذلك أمام الإهتمام بالمسير إلى الشام.

قال ابن أبي طي: وفيها ولد للسلطان الملك المعظم تورانشاه، والملك المحسن أحمد بينهما سبعة أيام، واتصل الفرح بهما أربعة عشر يوما.وفيها

سار قراقوش إلى إفريقية، فأوغل في بلادها وانتهب ماقدر عليه وحارب عسكر ابن عبد المؤمن بالقيروان، ثم بلغه أن ابراهيم السلاح دار احتوى على أهل قراقوش وبلده، فرجع إليه، فهرب ابراهيم وسار إلى خدمة ابن عبد المؤمن، وملك قراقوش ماكان بيد ابراهيم.

قال ابن القادسي: وفيها عشية الخميس ثامن شعبان توفي الإمام كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي السعادات الأنباري النحوي، وكان فقيها نحويا زاهدا عابدا، خشن العيش صبورا على الفقر، وكان يسرد الصوم ولايقبل من أحد شيئا، وكان يحضر في نوبة الصوفية بدار الخلافة المعظمة في الوقت، فينفذ إليه بالتشريف والذهب فيعيده ولايقبله، وكان يجتهد به الوزير ابن رئيس الرؤساء أن يقبل لولده شيئا، فما كان يفعل، وكان يفطر على الخبز الخشكار، ويبتاع برغيف أرزا وماشاء، وكان بابه مفتوحا لطالبي العلم يعلمهم لوجه الله تعالى، وكان إذا أحضر أحدهم في الصيف مروحة يتروح بها، فإذا خرج يقول له: خذ مروحتك معك، فيجتهد به ذلك أن يجعلها عنده إلى غد فما يفعل، وصنف تصانيف كثيرة، ودفن في تربة أبي اسحاق الشيرازي رضي الله عنه.

قلت: وفيها توفي بمصر الشاعر ابن الذروي، وهو أبو الحسن علي بن يحيى المصري، وسنه حول الأربعين، وقد تقدم من شعره في حج الفاضل، وفي مدح ابن منقذ وغيرهما ،ومن ظريف شعره قوله في أحدب:

يا أخي كيف غيرتنا الليالي
كيف حالت ما بيننا بالمحال
حاش لله أن أصافي خلا
فيراني في وده ذا اختلال
زعموا أنني أتيت بهجو
فيك نمقته بسم حلال

كـــذبـــوا إنها وصفـــت الـــذي حـــز
ت مـــن النبـــل والسنـــا والكمال
لا تظنـــن حـــدبـــة الظهـــر عيبـــا
فهـــي للحســـن مـــن صفـــات الهلال
وكـــــذاك القسي محدودبـــــات
وهـــي أنكـــى مـــن الظبـــا والعـــوالي
ودنـــاني القضـــاة وهـــي كما تعلـــ
ـــم كـــانـــت مـــوســـومـــة بـــالجمال
وإذا مـــاعـــلا السنـــام ففيـــه
لقـــــــــروم الجمال أي جمال
وأرى الإنحنـــــاء في منثر الـــــ
ـــكاسر يلقـــى ومخلـــب الـــريبـــال
وأبـــو الغصـــن أنـــت لا شـــك فيـــه
وهـــو رب القـــوام والاعتـــدال
قـــد تحليـــت بـــانحنـــاء فـــأنـــت الـــ
ـــراكع المستمـــر في كـــل حـــال
وتعجلـــــت حمل وزرك في الظهـــ
ـــر فـــأمنـــا في مـــوقـــف الأهـــوال
إن حمل الـــذنـــوب أهـــون في الدنـــ
ـــيا على انـــه مـــن الأثقـــال
كـــون الله حـــدبـــة فيـــك إن شئـــ
ـــت مـــن الفضـــل أو مـــن الأفضـــال
فـــأنـــت ربـــوة على طـــود حلـــم
منـــك أو مـــوجـــة ببحـــر نـــوال
مـــا رأتها النســـاء إلا تمنـــت
لـــو غـــدت حليـــة لكـــل الـــرجـــال
عـــدلى ودنـــا القـــديـــم ولا تصـــ
ـــغ لقيـــل مـــن الـــوشـــاة وقـــال

-٨٣٥٢-

فصل

في عود السلطان من الديار المصرية إلى الشام

قال العماد: وعدنا من الاسكندرية إلى القاهرة في ذي القعدة وشرع السلطان في الاستعداد لسفر الشام، فجمع العساكر والسلاح، واستصحب نصف العسكر، وأبقى النصف الآخر يحفظ ثغور مصر، وأمر قراقوش بإتمام الأسوار الدائرة على مصر والقاهرة.

قال: وكان السلطان عشية توديعه لأهل مصر جالسا في سرادقه، وكل ينشده بيتا في الوداع، فأخرج أحد مؤدبي أولاده رأسه وأنشد مظهرا له فضله، ورافعا به محله:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

فلما سمعه خمد نشاطه، وتبدل بالانقباض انبساطه، ونحن مابين مغضب ومغض، ينظر بعضنا إلى بعض، حتى اتصل العجب من مؤدب ترك الأدب، فكأنه نطق بما هو كائن في الغيب، فإنه ماعاد بعدها إلى الديار المصرية حتى اتصل بنجح المنى إلى المنية.

قال: ومن جملة تسمج المعلمين في القول ماحكاه لنا شيخنا أبو محمد ابن الخشاب قال: وصلت إلى تبريز فأحضرني يوما رئيسها في داره، وأجلس ولده ليقرأ بعض ماتلقنه علي، فقلت فرخ البط سابح، فقال معلمه وكان حاضرا: نعم وجرو الكلب نابح، فخجلت من خطأ خطابه، وإذابه على دأبه في سوء آدابه، ومقصوده أن يذكر قرينه ولايبالي بعينه قريرة أم سخينة، ودأب أدباء أولاد الملوك لاجترائهم على أعزة أولادهم الإجتراء على الآباء، ويحتمل مايصدر منهم لعزة الابناء، وإنما يصلح لمجالسة الملوك من يحتفظ في كلامه، ويتيقظ في منامه.

-٨٣٥٣-

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

قال العماد: ففي المحرم منها دخل السلطان من البركة قاصدا إلى الشام، ولم يعد بعدها إلى مصر حتى أدركه الحمام، وأخذ على طريق صدر وإيلة في المفاوز، فبات بالبويب، ثم كانت منازله على الجسر، ووادي موسى وحثا وصدر، وبعد خمس ليال وصل عقبة إيلة، وهناك سمع باجتماع الكفار بالكرك لقصد قطع الطريق، فاحترز بحفظ الأطراف، وجاز بحسمى، ثم عقبة شتار، ثم القريتين، وأغار في تلك الأيام على أطراف بلاد العدو، ثم تجرد السلطان في كماته وسلك بهم سمت الكرك إلى الحسى وأمر أخاه تاج الملوك بوري على الناس، وأمره بأن يسير بهم يمنة منه، ثم اجتمعوا بالسلطان بالأزرق بعد أسبوع، ووصل الخبر بظفر الملك المنصور عز الدين فرخشاه.

قال العماد: ويلقب أيضا معز الدين،بما غنمه أيضا من بلاد العدو، وذلك أن الفرنج لما سمعوا بمسير السلطان من مصر ومعه خلق من التجار اجتمعوا بالكرك للقرب من الطريق، لعلهم ينتهزون فرصة فيقتطفون من القافلة قطفه، فخرج فرخشاه من دمشق، واغتنم خلو ديارهم فأغار على بلاد طبرية وعكا وفتح دبورية، وجاء إلى حبيس جلدك بالسواد وهو شقيف يشرف على بلاد المسلمين، ففتحه وأسكنه المسلمين، فبقي عينا على الكفار،بعدما كان لهم، ورجع بالأسرى والغنائم مظفرا منصورا، ومعه ألف أسير، وعشرون ألف رأس من الأنعام، ثم وصل السلطان بصرى ودخل دمشق سابع عشر صفر.

قال: وفي العشر الأول من شهر ربيع الأول خرج السلطان وأغار على بلاد طبرية وبيسان، والتحم بينهم القتال تحت حصن كوكب، واستشهد جماعة من المسلمين، ولكن كانت الدائرة على الكافرين، ورجع السلطان بحمد الله ظافرا، وكتب بالمثال الفاضلي إلى الديوان: «وكان الخادم طالع

بخروجه من مصر طالبا للغزاة المفروضة والمسافة بين مصر والشام لمن يرفق في المسير لاتقصر عن ثلاثين يوما، فحشد الفرنج ونزلوا بالكرك على إرجاف بالمصاف، ولم يزل الخادم على مداومة الإعمال إلى أوساط الأعمال , فحل بها وشن الغارة فأبعد، وأذكى النار فأوقد، وطلب الماء المحمي أزرقه بأزرقهم فأورد، وسفك دم الخصب بالنار وأخذ، وفيها عدل السيف الجار بالجار، وعلم أن الفرنج قد تسللوا لواذا وتعللوا بالحصون احتجازا ولياذا، وأنهم لايقاتلون إلا في قرى محصنة، ولايقابلون إلا على نجاة متيقنة، وسرح الخادم إلى تلك الذراري، واستفز لها من كل فرقة منهم طائفة، وساروا في طريق على العدو غير خافية، ومنهم غير خائفة، وركب هو وحمية الاسلام الحامية التي تستنهض أرواح الكفر إلى نار الله الحامية، وسلك البلاد المؤدية أوديتها إلى سيول الشرك الطامية، وسيوف الضلال الدامية، فجثموا جثوم الكسير، وجدعوا أنوف الأنف جدعا قصر فيه رأي قصير[٩] وجاز الخادم المسافة المقابلة لهم التي كانت تجاز في يوم واحد في أيام ،وأورد عليهم طيف الخوف غير لابس ثياب الأحلام، ويسر الله الوصول ورقاب عصبة الكفر تكاد تتوثب عليها رقافها، وعيون الأعيان منهم قد قيدها للذل أطواقها، وتوجه يوم الاثنين سابع شهر ربيع الأول، ونزل أمام طبرية ليلة الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول، فجاءه الخبر بأن الفرنج رحلوا في ليل ركبوه جملا ولبسوه سترا، دون اللقاء مسبلا، وأصبحت الأطلاب الاسلامية طالبة الأردن، وأشرف عليهم المملوك فرخشاه، وكان على ميسرة الاسلام فما خرج منهم من أخرج كفا، ولاتطرف منهم من أجال طرفا، ولا ركض طرفا، ولم يزل الخادم مقيما ينادي للخروج الصم الذين لايسمعون الدعاء إلى أن طوى النهار ملاءته، ومد عليهم كلاءته فإنه رعى مابينه وبين مناسبة وجوههم وصحائفهم بسواده ولأن الليل يدعى كافرا فهداهم وخبأهم في فؤاده، وانبرى لهم من المماليك ذوو سهام كل رمية منها طعنة، وكل أنة من قوسها تجاوبها للحين أنة، فاستخرجوا ضمائر كنائنهم وقصدوا بها ضمائر

ضغائنهـم فمرت كأن التوفيـق يقودها إلى حيـث أمت فأماتـت، وطارت جرادا يرعى زرع الحيـاة، فبتت وما أباتت،ولم يروا مضـاجع ذوات حسك كمضاجع حسكهـا المستهام، ولاليلة لهم ذات أحلام كليلـة حلمها يقظة الحمام، وأصابـت خيولهم صوائبها، وتعلقـت نصالهم بدهمهـا، فكأنهم في ظلماتها كـواكبها، فلما انشـق الصبح غيظـا من شقـاق كفرهـم شوهـدوا نازلين من حصنهم الذي كانوا إليه آوين، وطالبي التباعد عنه إلى حصن الطـور الذي كـانوا إليـه ناويـن، فسـاقت إليهـم أطلاب الميسرة صحبـة المملوك فـرخشاه، وسـاق المملوك عمر مـن الميمنة طـالبا لحومـة القتال، فرأوا الخطة عليهـم متضايقة، وشهادات البلاء إلى فئتهم متنـاسقة، وأنزل الله النصر من سمائه على مطيعـه في أرضه، ومنح نـافلة الموهبة لمن قام في الجهـاد بفرضـه، وتوالـت من الفـرنج حملات ألجأهـم إليها الإضطـرار لا الإختيار، وثبـت من دنا منهـم من المسلمين مـن الأطلاب، ولقوهـم وهم الأعـداء لقاء الأحبـاب، وتعانقـت لغير الوداد، فصـارت أيديها أوشحـة، وطـارت إلى أقرانها فصـارت أرجـل الخيل لها أجنحـة، وصرعـت للفرنـج أبطال وخيالة، وتمت الحملة الاسلامية على مـن كان وراءهم من الرجالة، فأخذ القتل كثيرا وقليلا ترك، وفرت روح الكافر من الجسد وعلمت النار أية سلـك، وألجأهم البـلاء إلى حصن يعـرف بعفربـلا، وسع الخوف منـه مـاهو ضيـق، وتعلق بـالحياة منهـم من هـو متعلق، ولم تتصرف صـدور الخيل دون أن اعتقلتهـم في سجنه، وألـزمتهم به، فصـاروا قرطـا في أذنه، وكان ذلـك اليوم من الأيـام الذي اضطرمـت فيها نيران الجحيم ارتيـاحا لمن قدمهـا من أرواح الكفـار، وكان قـائم الظهيرة في الغور قـد منع مـن استمام عودة المغار، ومورد الماء بعيـد من غريمه والري ولو أنـه من حميم أحـب إلى المرء مـن حميمـه، فمالـت الجنود إلى المنـاهـل متفـرقـة عليهـا، ومنصرفة إليها، وحـافة بها من حواليها، وأذعن الكفـار بـالحصر والتفادي من الأصحـار، والإعتماد على المطاولة والإضجار، والاستعصـام بما لايطاق مـن أنفـاس الهجير الجرار، وبات الخادم والمسلمـون على الحصر المذكـور

الذي يـأتونـه نازلين، قد حققـوا من أحـوال اللقاء ماكـانوا بـه جاهلين، وفعـل الله سبحانـه وتعـالى في هذه النـوبـة ماعـواقبـه مسفرة عـن المراد، ودلائله محققة لقـوله تعالى: (لايغرنـك تقلب الذين كفـروا في البلاد)[١٠] وإن الكفر مذ قام قائمـه، والشام مـذ حله ظالمة، لم يعبر أحـد من ولاة الأمر هذا الحد إلا على حين غفلة من أهله، ولم يـواجه الكفر وهو مجتمع في خيله فضلا عـن رجله، ولم يهدد العدو بضرب مصاف إلا واستكـانت العزائم لتهـديده، ولم يجمـع أمره على اللقـاء إلا صرفه عـن الأمر يصرفـه ذهبه لابحديده، فأما الآن فقد أنس المسلمون بحزبه، وتمرنوا بحربه.

فصل

في مسير السلطان إلى بلاد الشرق مرة ثانية

قال العماد: ثم إن السلطان عزم على المسير إلى حلب، وبلغه أن المواصلة كاتبوا الفرنج، ورغبوهم في الخروج إلى الثغور ليشغلوا السلطان عن قصدهم، فتوجه على سمت بعلبك وخيم بالبقاع، وكان قد واعد اسطول مصر أن يتجهز إلى بلاد الساحل، فبلغه الخبر أنه وصل إلى بيروت فبادره السلطان بعسكره جريدة قبل أن يفوت، فلما وصل رأى أن أمر بيروت يطول، وكان قد سبى الأسطول منها وسلب، وظفر من غنيمتها بما طلب، فأغار السلطان على تلك البلاد، ورجع وأعاد فرخشاه إلى دمشق، ورحل إلى بعلبك ومنها إلى حمص، فخرج الفقيه المهذب عبيد الله بن أسعد بن الدهان، وله في السلطان مدائح منها قصيدة أولها:

أعلمت بعدك وقفتي بالأجرع
ورضى طلولك عن دموعي الهمع

مطرت غضا في منزليك فذاويا
في أربع ومؤججا في أضلع

هل يعلم المتحملون لنجعة
إن المنازل أخصبت من أدمعي

دعني وما شاء التلذذ والأسى
واقصد بلومك من يطيعك أو يعي

لا قلب لي فأعي الملام فإنني
أودعته بالأمس عند مودعي

قل للبخيلة بالسلام تورعا
كيف استبحت دمي ولم تتورعي

وبديعة الحسن التي في وجهها
دون الوجود عناية للمبدع

وما بال معتمر بربعك ذائبا
يقضي زيارته بغير تمتع

ومنها:

ووعدتني إن عدت عود وصالنا
هيهات ما أبقى إلى أن ترجعي
هل تسمحين ببذل أيسر نائل
إن اشتكى وجدي إليك وتسمعي
فتيقني أني بحبك مغرم
ثم اصنعي ما شئت بي أن تصنعي

ومنها

عفى الربيع الجون ربعا طالما
أبصرت فيه البدر ليلة أربع
ولو استطعت سقيته سيل الغنى
من كف يوسف بالادر الأنفع
بيدي فتى لو أن جود يمينه
للغيث لم يك ممسكا عن موضع
فإذا تبسم قال يا جودا اندفق
فيضا ويا سحب الندى لا تقلعي
وإذا تنمر قال يا أرض ارجفي
بالصاهلات ويا جبال تزعزعي
وإذا علا في المجد أعلى غاية
قالت له الهمم الجسام ترفع
كم وقفة لك في الوغى محمودة
أبدا وكم جود حميد الموقع
والناس بعدك في المكارم والندى
رجلان إما سارق أو مدعي

قال: ثم رحل السلطان إلى حماة واستصحب معه ابن أخيه تقي الدين، فلما قرب من حلب أقبل مظفر الدين كوكبري بن علي كوجك صاحب حران حينئذ فاجتمع بالسلطان، وسار في خدمته من جملة الأعوان، وأشار عليه أن يعبر الفرات ويحوز ماوراءها، ويترك حلب إلى مابعد ذلك لئلا تشغله عن غيرها، فاستصوب السلطان رأيه وعبر الفرات.

وقال القاضي ابن شداد: نزل السلطان على حلب في ثامن عشر جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين، فأقام ثلاثة أيام ورحل في الحادي والعشرين منه يطلب الفرات، واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين بن زين الدين، وكان صاحب حران، وكان قد استوحش من جانب الموصل، وخاف من مجاهد الدين فالتجأ إلى السلطان وعبر إليه قاطع الفرات وقوى عزمه على البلاد، وسهل أمرها عنده، فعبر الفرات وأخذ الرها والرقة ونصيبين وسروج، ثم شحن على الخابور وأقطعه.

وقال ابن أبي طي: في أول السنة أراد مظفر الدين بن زين الدين، وكان إليه شحنكية حلب الاستيلاء على قلعة حلب بأن يهجمها، فلم يتمكن وظهر أمره، وبعد هذه الوقعة اجتمع الأخوان عز الدين وعماد الدين على الرقة وتحالفا على بساط واحد، وسلم عماد الدين ماكان بيده من سنجار وغيرها إلى عز الدين، وسلم عز الدين إليه حلب، فسار إليها ودخلها فخرج مظفر الدين عنها وصار إلى الفرات، فلما اتصل به قصد السلطان حلب سار إلى خدمته واجتمع به على جباب التركمان، وأشار على السلطان بعبور الفرات والاستيلاء على بلاد الشرق، وتأخير أمر حلب، ففعل ورحل عن حلب بعد أن أقام عليها ستة أيام، وأقام على تل خالد ثلاثة أيام، ثم رحل إلى البيرة وفيها شهاب الدين محمد بن الياس الأرتقي فنزل إليه وقبل الأرض بين يديه، وسأله الصعود إلى قلعة البيرة، فأجابه وقدم له مفاتيح القلعة، فردها إليه ووعده باستخلاص

ماكان صاحب ماردين رده عليه، ورحل السلطان إلى سروج فنزل إليه صاحبها ابن مالك مستأمنا، فأعاده إلى بلده، وراسل صاحب ماردين في رد ماكان تغلب عليه من أعمال البيرة ففعل، ثم أخذ الرها ثم الرقة ثم سلم الرها إلى ابن زين الدين، والرقة إلى صاحب الرها لأنه سأل أن يكون في خدمة السلطان.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه يعلمه بالحال وفي آخره: «ولتعجل بحمل ماهناك من الأموال فكلما فتحت البلاد أبوابها، قد فتحت المطامع أفواهها، واستوعبت الخزائن إخراجا وإنفاقا، واستنفدت الحواصل إعطاء وإطلاقا، وقدمنا على بحر لايسده إلا بحر، وعلى أيد إن كان بها الغنى ففي أنفسها الفقر».

ومن كتاب آخر إلى العادل: «يعلم مقدار الحاجة إلى الإنفاق، وكثرة الخرج الذي اشترك فيه أهل الآفاق، وإنه متى نضبت المواد وقفت الأمور التي قد شارفت نهايتها، وتفرقت الجموع التي تناذرت الأعداء نكايتها، ومادون تملك البلاد إلا الوصول إليها والنزول عليها».

قال العماد: وقال مظفر الدين للسلطان: مازلت شوقا إليك في حران حران، وإلى الري من ورد خدمتك ظمآن، وهي لك مبذولة وبأوليائك من أهل الدين والدنيا مأهولة، والرها لايعسر أمرها، والرقة لرقك وبعض حقك، والخابور في انتظار خبرك، ودارا دارك، ونصيبين نصيبك، وملك الموصل موصلك إلى الملك، وماهذا أوان الونا فادن إلينا، وكل بعيد قد دنا.

قال: ووصل البحر إلى الفرات وخيم عليها من غربي البيرة، ومد الجسر، وكانت البيرة قد طمع فيها صاحب ماردين واستولى على مواضع من أعمالها، فلما سمع بالسلطان تخلى عنها، فأعاد إليها صاحبها شهاب

الـدين محمـد بن اليـاس الأرتقي، وكتـب السلطان بـالمثال الفـاضلي إلى الديـوان عند عبـور الفرات كتـابا فائقـا طويـلا يقول فيـه:«خدم الخادم متوالية إلى الأبـواب الشريفة خلد الله سلطانها شارحا أحـواله، ومعتدا بها من صـالح أعمـاله، ومتوقعـا من الأجوبة عنهـا مايهيء له من أمـره رشدا، ويفـرق الأعداء إذ كـادوا يكونـون عليـه لبدا، فـإن الآراء الشريفة لـو لم تفصـح عنها الإنشـاءات، وتتضمنها الإجـابـات والإبتداءات لأفصحـت عنها مـوالاة الخادم التي استفتحت الدولـة بعقائل الفتوح قبـل خطبتها، وردت الأسماء الشريفة إلى أوطـانها من المنـابر، بعد طـول غربتهـا، فتلك الأعمال كالهجرة، ولكل مهـاجر ما هاجر إليه، ونية المرء ثـوبه، فلا يلبس إلا مـاخلعتـه النيـة عليـه، وكتـاب الخادم الآن مـن البيرة بعـدمـا قطـع الفرات، وكان من لاتقرب عليه العزائم مـاهو بعيد، ولايلقى السمع وهو شهيد، يظن أن سـاكن النيل يحول الفرات بينه وبين قصـده، وإنه ينسى عزيمـة رأيه إذ ذكر طول مـدته، وهول مـده، وكيـف ماكان هـذا المخرج المخرج فقد أحسنـت إلى الخادم إساءته إليه، وقربـه من محل دار السلام، بل الاسـلام، فما أكثر ماقـال: السلام عليه، واستشرف جنـانه من جنـابه أمنا وذعرا أوجبتهما الموالاة والمهابة، وطالعت عينه أنواء وأنوارا تنسب إلى بركتها كل سحـابة، وكاد ينزل عن السروج والأكوار، ويقبـل الثرى لأجل شرف الجوار، ويستنفد غلتـه ماء الفـرات، لأنه يمر بتلـك الديـار، ويقرأ من صفـائه صفاء تلك الخواطـر العظيمة الأخطار، ومـن عذوبته عـذوبة ذلك الإنعام الذي هو أعم وأغمر لـلأقطار من القطار، وتنور دار السلام من منزلته فأدناه النظر العالي، وأسلفته آمـاله حوز الفوز بها قربه نجيا من قربه، والآمال أمالي، والله تعالى يشرف أرضا هو واطئها ويرعى سروحا هو كالئها، ويسعـد به أمة هو بارهـا بطاعة من هو بـارئها، ولما تحقق الخادم أن المواصلـة قـد واصلـوا الفـرنـج مـواصلـة أخلصـوا فيهـا الضمائر، ولم يستطيعـوا فيهـا كتمان السرائر، وخصمتهـم خطـوط الأيـدي المتمسكـة بعصم الكوافر، وعقـدوا معهم عقدا شهده من هوحـاضره، ونقله إلى من

سمعه من هو ناظره، وكان عقدهم إحدى عشرة سنة، والمستقر لهم في كل سنة عشرة آلاف دينار، على أن تسلم ثغور المسلمين إلى الكفار، ومنها بانياس، وشقيف تيرون، وحبيس جلدك، وأسارى الفرنج في كل بلدة بأيديهم وفي كل بلد يسترجعونه من الخادم بمساعدة الفرنج، ولما تم لهم هذا العقد، وحملوا إلى الفرنج ذلك النقد، ظنوا أن الحق يجادله الباطل فيدحضه، وأن يد الكفر تنبسط إلى الاسلام فتقبضه، وأن الخادم لايمكنه أن يتوجه إليهم إلا أن يكون للفرنج سلما، ولايستطيع أن يقسم العساكر فيجعل بإزاء الفرنج قسما وبإزائهم قسما، وعملوا على هذا الوهم، وبنوا على هذا الحكم، استنهضوا الفرنج على تثاقل الخطوة، واستخرجوهم على مابهم من كلوم الغزوة بعد الغزوة، فتحاملت أرجل الكفار على ظلعها، وخرجت على طمعها إلى فزعها، وانفقت في رجالها مالا حملوه إليهم جما، وجرت إلى الاسلام جيشا جهزه من يدعي الاسلام لفظا، ويفارقه حكما، وتواعد المواصلة مع الفرنج ليطلبوا ولاية الخادم من جانب، ويطلبها الفرنج من جانب، ونظروا فيما يوصل المساءة إلى الخادم، ولم ينظروا للاسلام في العواقب، فوصل المواصلة إلى نصيبين مجدين محفلين، وحركوا الفرنج للخروج إلى الشام متطرفين ومتوغلين، فلا جرم أن أمراء جانبهم، وخواص صاحبهم لم يسعهم المروق من الدين، ولا الخروج عن إمرة الموحدين، فأرضوا الله بإسخاطهم، واشفقوا على دينهم اشفاقا دل على تحرزهم له واحتياطهم، فاتبعوا الحق وسلكوا سبيله، ورفع لهم الهدى مناره فاقتفوا دليله(لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله)[١١] فاستعان الخادم عليهم بالله الذي استعانوا على دينه بأعدائه، ولما رأى أنهم قد أملوا النصر من أرضهم أمله من سمائه، فرتب الخادم في رأس الماء بدمشق بإزاء الفرنج المملوك فرخشاه ابن أخيه، وأبقى عسكر الشام وحاميه فيه، واستنهض أخاه من مصر إلى مايليه من بلاد الكفر فنهض، وقام الخادم بما أقامه له ولله عز وجل بها فرض، وسار الخادم بالعسكر المصري إلى هذا الجانب الذي هو

الأن فيه، وكان أيسره يكفيه، وتثاقل في الطريق انتظارا لأن يأتوا البيوت من أبوابها، ويفرجوا عن الولاية أيدي اغتصابها، ويعتذروا إلى السيف بألسنة يشفق على رقابها، فأبوا إلا الإباء، ورأوا الملك إرثا ما ادعوا فيه تقليد الخلفاء بل الأباء، ولما قرب الخادم من الفرات وصل إليه صاحب حران ابن زين الدين علي كوجك، ومقدم عسكرهم، وابن أمير معشرهم، وكذلك صاحب سروج، وصاحب البيرة، وكل بيده مفاتيح بلده، وأمامه أمان الخادم له قد استبدله من مقلده، ووراءه عسكره على كمال عدده وعدده، وتوالت كتب أمرائهم الذين يأخذون اقطاعاتهم خدما ومصانعات، ورعاياهم الذين يأخذون أموالهم جنايات ومقاطعات ومكوسا وعشورا واحتكارات، يرغبون إلى الخادم في الإنفاذ، ويحثونه في المسير على الأغذاذ، ويشكون أنهم مع جوار دار الخلافة المعظمة لايسلك فيهم سننها، ولايقتفى فيهم شرائعها وسننها، ونمى إلى الخادم من تفاصيل المغارم التي تلزم الفريقين، ويعدل بها عن أقصد الطريقين مايروع السامع، ويسمع الرائع، ويسجل عليهم بالخلاف، ويشهد لهم بالانحراف، لأنهم ان ادعوا تقليدا فقد نقضه كونهم ابتدعوا وماتبعوا ونقضوا، ومافترضوا ومثلوا بالحق ومامتثلوا، وأمروا بكف الأيدي وقد بسطوها، وبأخذ الأموال من حلها وقد خلطوها، وبرعاية أمة النبي صلى الله عليه وسلم وقد اسخطوه فيها واسخطوها، وابن الدعوة العباسية من رعاها لا من ادعاها، والعهود وصايا وما الأولى بها من سمعها بل من وعاها، وأي عهد لمن لاعهد له بالطاعة، وأي ولاية للمأمور بأن يجمع أهل الفرقة ففرق أهل الجماعة، فالجندي توكل الأرض باسمه ولاشيء بيده، والعامي يرفع إلى السماء استغاثة مالا يمهل الله عليه، ولقد تعجب الخادم من إشغاف الأنفس الغنية إلا أنها فقيرة، والارتفاق بتلك الطعم الجليلة، وهي على الحقيقة الحقيرة(يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم)[١٢] الآية هذا إلى طامة أخرى لاتقر عليها الجنوب، ولاتدر عليها الحلوب، ولاينام على

سهر بارقها وإن كان الخلوب، وهو أن الخادم بلغه أنهم كاتبوا جهة من الجهات التي الدولة منحرفة عنها، وبذلوا الطاعة لها، وقد أمروا بالامتناع منها، وهذا نص في الخلاف لايدخله التأويل وقول قد أحاط به العلم فلا يختلجه التقويل، وكل صغيرة من هذه الكبائر، وكل واحد من هذا الجمع المتكاثر ينقض الولاية، ويجرح العدالة، ويسلب الرشد، ويثبت الضلالة، ويمضي نية الولي فيما هو له ماض، ويبعث عزمه فيقضي ماهو قاض، ويسخطه وكيف لايسخط والمولى غير راض، ويغيظه بما لاعذر له المغتاظ متغاض، وماأنهى الخادم مما اتصل به إلا الأوائل والأطراف، وماعول إلا على ماصححته النفس دون ماخيله الإرجاف، وإذ قد ساق الله إلى هذه الولاية حظها من معدلة كان الزمان بها طويلا مطله، وأنشأها سحاب احسان كان بعيدا عليها هطله، فقد كفيت الخواطر الشريفة ماكانت به على اهتمامها، كما يجب للأمة على إمامها، وإليه بتفويض الله يرجع أمرها، وبيده يجلب نفعها، ويجلى ضرها، وقد تجددت للدولة الشريفة قوة واستظهار، وبسطة واقتدار، وسيف به يناضل من يسيء الجوار، ولسان يجادل به من يريد الدار، وكان الخادم طالع بوصول الأسطول المصري إلى الشام الفرنجي، وما فعله في موانيه وسواحله، وماغنمه من مراكبه وقوافله، وورد كتاب من مصر بأنه كسب بطسة فرنجية، وخرج من فيها هاربا من القسطنطينية لفتنة وقعت فيها بين رومها وفرنجها، فقتل منهم خمسون ألف فرنجي، وأفلتت منهم بطس منها هذه البطسة، وفيها رجال أكابر، ومقدمون لهم ذكر سائر، وغنم المجاهدون منهم ماملأ أيديهم من سبي وذخائر، (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل)[١٣] وحازت القبضة من الأسارى مايزيد على أربعمائة بعد من درج بالقتل.

فصل

قال العماد: ثم كاتب السلطان الملوك بالوفود للاتفاق، فمن جاء مستسلما سلمت بلاده على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه في جهاد الكفار، فجاء رسول صاحب حصن كيفا بالإذعان، وهو نور الدين محمد بن قرا أرسلان، ثم رحل السلطان من البيرة ونزل على الرها وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزعفراني، فأذعن وانقاد وتسلمها مظفر الدين مضافة له إلى حران، ثم وصل السلطان إلى حران فرتبها وانفصل منها إلى الرقة وفيها الأمير قطب الدين ينال بن حسان فأذعن أيضا وسلم ولم يوافق مراعاة لصاحبه، فأصلحها السلطان، ورحل منها إلى مشهد الرمان، ثم إلى عرابان فتسلمها وأصلح من شأنها، وتواصلت أخبار وصول السلطان بالخابور وما نشر من العدل في البلاد التي فتحها، فافتتحت رأس عين ودورين وماكسين والشمسانية والغدين، والمجدل والحصين.

قال: وقطعنا نهر الخابور على قنطرة التنينير إلى نصيبين فاستعصت قلعتها أياما ثم فتحت استسلاما، وولاها السلطان حسام الدين أبا الهيجاء السمين، وولى الخابور جمال الدين خوشترين، ثم سرنا إلى الموصل، وقطعنا الأعمال بين النهرين، ثم أعمال البقعة، ثم سرنا إلى بلد، وأشرفنا على دجلة، وكنا أوردنا خيلنا في أشهر من تلك السنة نيل مصر والفرات ودجلة، ثم صممنا على قصد الموصل، فلما قربنا من الوصول كبرنا تكبير من ظفر بالسؤل، وتقدم السلطان في الأمراء ذوي الآراء، ودار حول السور وعين لكل مقدم مقاما، فنزل هو وراء البلد وتقي الدين من شرقيه، وأخوه تاج الملوك بوري عند باب العمادية، فحصلت المحاصرة والمضايقة، وتولى مجاهد الدين قايماز حفظ البلاد بأحسن تدبير، وكاتب الديوان العزيز في أن يشفع لهم إلى السلطان، فقدم في ذلك صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير في الشفاعة، فرحل

السلطان عنها في شعبان وقصد سنجار، وقدم أمامه تقي الدين.

وقال القاضي ابن شداد: كان نزول السلطان على الموصل في هذه الدفعة يوم الخميس حادي عشر رجب سنة ثمان وسبعين، وكنت إذ ذاك بالموصل، فسيرت رسولا إلى بغداد قبيل نزوله بأيام قلائل، مسرعا في دجلة وأتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم، فلم يحصل منهم سوى الإنفاذ إلى شيخ الشيوخ، وكان في صحبته رسولا من جانبهم يأمرونه بالحديث معه وتلطيف الحال معه، وسير إلى بهلوان رسول من الموصل يستنجده، فلم يحصل من جانبه سوى تشرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان، ثم أقام السلطان على الموصل أياما، وعلم أنه بلدعظيم لايتحصل منه شيء بالمحاصرة على هذا الوجه، ورأى أن طريق أخذه أخذ قلاعه وماحوله من البلاد وإضعافه بطول الزمان، فرحل عنه ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان، فأقام يحاصرها، وفيها شرف الدين بن قطب الدين، وجماعة واشتد عليه الأمر حتى كان ثاني شهر رمضان، فأخذها عنوة، وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين إلى الموصل، وأعطاها السلطان ابن أخيه تقي الدين ورحل عنها إلى نصيبين.

وقال العماد: لما قصد السلطان سنجار نزل بأزنجان فوجد عسكرا من الموصل سائر إليها فأحاط به، وأخذ خيلهم، وعددهم وردهم إلى الموصل رجالة ووصل إلى سنجار، ومعه رسل دار الخلافة ونور الدين صاحب حصن كيفا، وكان في سنجار شرف الدين أخو صاحب الموصل، فامتنع من تسليمها فحوصر ورميت القلعة بالمنجنيق فانهدم منها ثلمة من السور، فوكل بها من يحفظها، ودخل شهر رمضان فكف السلطان عن القتال، ثم جاءة الخبر ليلة أن الموكلين بحفظ تلك الثلمة نيام، فأرسل إليهم من أوثقهم وحملهم إليه، وكان فيهم جماعة من المقدمين والأعيان فلما أصبح صاحب سنجار أذعن، وسلم ورحل بأهله

وماله، ودخل السلطان القلعة، ورتبها وأمر بعمارتها، وولاها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر، وكان السلطان يعتمد عليه، وأخته ابنة معين الدين كانت في حبالة السلطان، وكان رؤساء سنجار بني يعقوب، فترك الرياسة فيهم، وولى القضاء منهم نظام الدين نصر بن المظفر بن محمد ابن يعقوب، ثم رحل السلطان إلى نصيبين، فأقام بها لأن الأيام كانت باردة، ومنها ودع رسل دار الخلافة، وشكا أهل نصيبين من أميرها أبي الهيجاء السمين فاستصحبه السلطان معه، وسار إلى دارا وأميرها صمصام الدين بهرام الأرتقي، فتلقى السلطان بأحسن ملقى، فأكرمه وسار إلى حران، وأقام بها للاستراحة، وعاد كل إلى بلده، وسار تقي الدين إلى حماة، هذا والمواصلة في جد من جمع الجموع وابتغاء الغوائل للسلطان.

- ٨٣٦٨ -

فصل

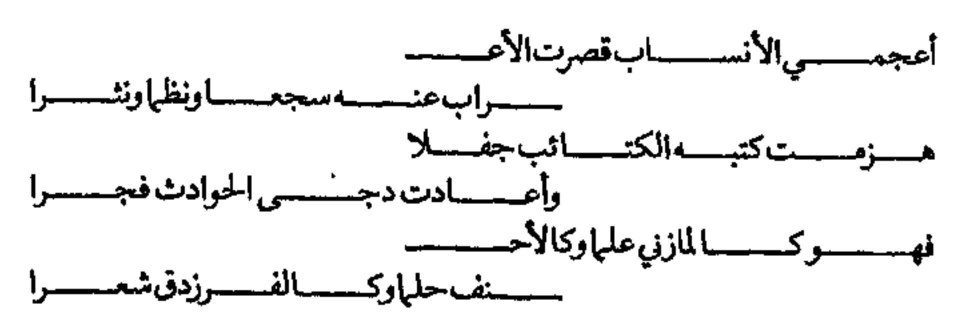
في وفاة فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب

قال العماد: وفي هذه السنة في جمادي الأولى توفي بدمشق الملك المنصور عز الدين فرخشاه، ووصل خبره إلى السلطان عند عبوره الفرات، فأقر السلطان ولده الملك الأمجد بهرامشاه على بعلبك وأعمالها مكان أبيه، وأنفذ شمس الدين بن المقدم واليا مكانه على دمشق وأعمالها.

قال ابن أبي طي: كان فرخشاه من أكرم الناس يدا وأطهرهم أخلاقا، وأسدهم رأيا، وأشجعهم قلبا، ومما يحكى من كرمه أنه دخل الحمام يوما فرأى رجلا قد قعد به الزمان، وكان يعرفه من أهل اليسار، وشاهد عليه ثيابا رثة يبين منها بعض جسده فاستدعى بجميع مايحتاج الرجل إلى لبسه، وأمر له بغلام وبغلة مسرجة، وبألف دينار، وقال لبعض غلمانه اجعل هذا كله في موضع ثياب الرجل وخذ ثيابه، واجعل هذا الغلام والبغلة له، ففعل فلما تغسل الرجل وخرج رأى موضع ثيابه تلك الثياب، وسأل الحمامي عن ثيابه فقال: انبدلت بهذه الثياب، فتقدم اليه الغلام وأخبره بجميع ماصنعه عز الدين، وأخبره بأنه قد أجرى عليه معيشة عشرين دينارا في كل شهر، فلبس الثياب، وخرج من الحمام وهو من أغنى الناس.

قال: وكان فرخشاه ممدحا مدحه ابن سعدان بعدة قصائد من جملتها التي يقول فيها:

تخذ السابري لبدا وعود الـ ـزان نابا والهندواني ظفرا



أعجمي الأنساب قصرت الأعـ
ـراب عنه سجعا ونظما ونثرا
هزمت كتبه الكتائب جفلا
وأعادت دجى الحوادث فجرا
فهو كالمازني علما وكالأحـ
ـنف حلما وكالفرزدق شعرا

قال: وكان فرخشاه مضافا إلى شجاعته كونه عالما متفننا، كثير الأدب، مطبوع النظم والنثر فمن شعره قوله:

أنا في أسر السقام
من هوى هذا الغلام
رشأ ترشق عينا
ه فؤادي بسهام
كلما أرشفني فا
ه على حر الأوام
ذقت منه الشهد في الثلـ
ـج المصفى في المدام

قلت: ونبغ ابنه الأمجد أيضا شاعرا، وكان السلطان كثير الإعتماد على فرخشاه، وفي بعض الكتب الفاضلية عن السلطان إليه:« وصل كتابه يتضمن خروج الفرنج ومادبره من الأحوال وأعده من مكائد القتال، ، ولسنا نستبعد أن يدني الله به كل بعيد من المراد، وأن يقلل بتدبيره تقلب الذين كفروا في البلاد، وأن يجري على يده أول النحل الذي توعد به آخر صاد ، وأن يصب به على المشركين (سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد)(١٤).

وقال العماد: كان عز الدين فرخشاه من أهل الفضل والتفضيل على أهله، يغنى الكرام عن الابتذال بكرم بذله، ومن أخص خواصه، وذوي

اصطفائه واستخلاصه الصدر الكبير العالم تاج الدين أبو اليمن الكندي، أوحد عصره، وشعاع شمسه، وحبيب نفسه (١٥) ، ولي في هذا الملك قصائد منها قصيدة هائية موسومة مدحته بها في أول سنة صحبت فيها السلطان إلى مصر، وهي سنة اثنتين وسبعين، وعارضها تاج الدين أبو اليمن بكلمة بديعة في وزنها ورويها، وحسن ريها، فأما كلمتي فهي:

بين أمـــر حـــلاوة العيـــش الشهـــي
وهـــوى أحـــال غضـــارة الـــزمـــن البهـــي

وصبـــابـــة لا استقـــل بشرحهـــا
عـــن حصرهـــا حصر البليـــغ المدره

أأحبتـــي إن غبـــت عنكـــم فـــالهوى
دان لقلـــب بـــالغـــرام مـــولـــه

أنهي إليكـــم إن صبري منتـــهـــاء
بـــل منتـــه والشـــوق ليـــس بمنتـــه

أمـــا عقـــود مـــدامعـــي فقـــد وهـــت
وأبـــت عقـــود الـــود منـــي أن تهي

ولقـــد ذهبـــت بينكـــم فـــاشتقتكـــم
يـــا مـــن لمشتـــاق بينكـــم دهـــي

في شـــوقكـــم أبـــدى الـــزمـــان تفكـــري
وبـــذكـــركـــم عنـــد الكـــرام تفكهـــي

لـــو قيـــل لي مـــا تشتهـــي مـــن هـــذه الـــ
ـــدنيا لقلـــت ســـواكـــم لا أشتهـــي

مـــا كـــان أرفـــه عيشتـــي وألـــذهـــا
مـــن ذا الـــذي يبقـــى بعيـــش أرفـــه

ومـــن السفـــاهـــة أننـــي فـــارقتكـــم
مـــن أيـــن ذو الحلـــم الـــذي لم يسفـــه

ومنها:

وعقـــاب إيلـــة مـــا يفـــارق جلقـــا
أحـــد إليهـــا غير غـــرابلـــه

مـــــالي ومصر والمطــــامــــع إنما
ملكـــت قيـــادي حيـــث لم أتنـــزه

لا تنهنـــي يـــاعـــاذلي فـــأنـــا الـــذي
تبـــع الهوى وأتـــى بها عنـــــه نهي
قـــد قلـــت للحـــادي وقـــد نـــاديتـــه
في مهمـــه اقصر وصلـــت مـــه مـــه
حتـــام جـــذبـــك للـــزمـــام فـــأرخـــه
فلقـــد أنخـــت إلى ذرى فـــرخشـــه
متكـــرم بـــالطبـــع لا متكـــره
شتـــان بين تكـــرم وتكـــره
إحســـان ذي مجد وهمة مـــاجـــد
مجد وتقـــوى عـــابـــد متـــألـــه

وهي ثلاثة وثمانون بيتا والقصيدة التاجية تسعة وأربعون بيتا أولها:

هـــل أنـــت راحـــم عبرة وتـــولـــه
ومجير صـــب عنـــد مـــأمنـــه دهـــي
هيهـــات يـــرحـــم قـــاتـــل مقتـــولـــه
وسنـــانـــه في القلـــب غير منهنـــه
مـــن بـــل مـــن داء الغـــرام فـــإننـــي
مـــذ حـــل بي مـــرض الهوى لم أنقـــه
إني بليـــت بحـــب أغيـــد ســـاحـــر
بلحـــاظـــه رخـــص البنـــان بـــدهـــره
أبغـــي شفـــاء تـــدلهي مـــن دلـــه
ومتـــى يـــرق مـــدلـــل لمدلـــه
يـــا مفـــردا بـــالحســـن إنـــك منتـــه
فيـــه كما أنـــا في الصبـــابـــة منتهـــي
قـــد لام فيـــك معـــاشر فـــانتهـــى
بـــاللـــوم عـــن حـــب الحيـــاة وأنـــت هـــي

أبكـــي لـــديـــه فـــإن أحســـن بلـــوعـــة
وتشهـــــق أو مـــــا يطــــرف مقهقــــه

أنــــا مـــن محاسنـــه وحـــالي عنـــده
حيران بين تفكـــــــه وتفكـــــــه

ضـــدان قـــد جمعـــا بلفـــظ واحـــد
لي في هـــــواه بمعنيين مـــــوجــــه

قلت: يقال تفكهت بالشيء أي تمتعت به، وتفكهت تعجبت، ويقال: أيضا تفكهت تندمت، ومنه قوله تعالى (فظلتم تفكهون) [١٦] فهو في تفكه اي تمتع بالمحاسن، وفي تعجب من حاله وتندم عليها ثم قال:

أنـــا عبـــد مـــن شهـــد الـــزمـــان بعجـــزه
عـــن أن يجيء لـــــه بنـــــد مشبــــه

عبـــد لعـــز الـــديـــن ذي الشرف الـــذي
ذل الملـــوك لعـــز عبـــد فـــرخشـــه

طـــابـــت مـــوارده فغـــص فنـــاؤه
وشـــدا الحداة بـــذكـــره في المهمـــه

يفـــديـــك كـــل مملـــك متتـــايـــه
أبـــدا بـــألسنـــة الـــرعـــاع ممـــده

لا يفقـــه النحـــوي إذا حـــدثتـــه
وإذا أتـــى بحـــديثـــه لم يفقـــه

قلت: وذكر العماد في ديوانه أبياتا حسنة في مدح الشيخ تاج الدين أبي اليمن رحمها الله قال:

تـــذاكـــر مـــن وراد مصر عصـــابـــة
حـــديـــث فتـــى طـــاب النـــدى بـــذكـــره

وقـــالـــوا رأينـــا فـــاضـــلا ذا نبـــاهـــة
أديبـــا يفـــوق الفـــاضلين بفخـــره

يـــديـــن حبيـــب والـــوليـــد لنظمـــه
ويحمـــده عبـــد الحميـــد لنثـــره

ولـو عـاش قـس في زمـان بيـانـه
لكـان مشيـدا في البيـان بشكـره

فضـائلـه كـالشمـس نـورا ولم تـزل
منـاقبـه في الـدهـر أعـداد زهـره

بيـان هـو السحـر الحلال وإننـا
نـرى معجـزا مـن فضلـه حـل سحـره

ذوو الفضـل هـم عنـد الحقيقـة أبحـر
ولكنهـم اضحـوا جـداول بحـره

يضـوع مهـب الجمـد مـن عـرف عـرفـه
وتـأرج أرجـا الـرجـا بنشره

فقلـت لهم هـذا الـذي تصفـونـه
أبـو اليمـن تـاج الـديـن أوحـد عصره

قلت: وبلغني أن أول معرفة فرخشاه أنه كان في مجلس القاضي الفاضل بالقاهرة، فجاء فرخشاه إلى الفاضل فجرى ذكر بيت من شعر أبي الطيب المتنبي، فتكلم فيه تاج الدين بما يليق به، فأعجب فرخشاه، وسأل القاضي عنه، فقال: هذا فلان وعرفه بفضله، فلما قام فرخشاه من مجلس الفاضل أخذ بيد الشيخ تاج وخرج به ولزمه إلى أن توفي رحمهم الله اجمعين.

- ٨٣٧٤ -

فصل

في أخذ السالكين البحر لقصد الحجاز

قال العماد: وفي شوال سنة ثمان وسبعين كانت نصرة الاسطول المتوجه إلى بحر القلزم، والمقدم فيه الحاجب حسام الدين لؤلؤ، لطلب الفرنج السالكين بحر الحجاز،وذلك أن الابرنس صاحب الكرك لما صعب عليه ماتوالى عليه من نكاية اصحابنا المقيمين بقلعة ايلة، وهي في وسط البحر لاسبيل عليها لأهل الكفر، أفكر في أسباب احتياله، وفتح أبواب اغتياله، فبنى سفنا ونقل اخشابها على الجمال إلى الساحل، ثم ركب المراكب وشحنها بالرجال، وآلات القتال، ووقف منها مركبين على جزيرة القلعة لمنع أهلها من استقاء الماء، ومضى الباقون في مراكب نحو عيذاب، فقطعوا طريق التجار، وشرعوا في القتل والنهب والأسار، ثم توجهوا إلى أرض الحجاز وتعذر على الناس وجه الاحتراز، فعظم البلاء، وأعضل الداء، وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر، ووصل الخبر إلى مصر، وبها العادل أخو السلطان، فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ فعمر في بحر القلزم مراكب بالرجال البحرية، ذوي التجربة من أهل النخوة للدين والحمية، وسار إلى إيلة فظفر بالمركب الفرنجي عندها فحرق السفينة وأخذ جندها، ثم عدى الى عيذاب، وشاهد بأهلها العذاب، ودل على مراكب العدو فتبعها، فوقع بها بعد أيام فأوقع بها وواقعها، وأطلق المأسورين من التجار، ورد عليهم ماأخذ لهم، ثم صعد الى البر فوجد أعرابا قد نزلوا منه شعابا، فركب خيلهم وراء الهاربين، وكانوا في أرض تلك الطرق ضاربين، فحصرهم في شعب لا ماء فيه، فأسرهم بأسرهم، وكان ذلك في أشهر الحج، فساق منهم أسيرين إلى منى، كما يساق الهدي، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارى، فكتب السلطان إليه بضرب رقابهم، وقطع أسبابهم، بحيث لايبقى منهم عين تطرف،ولاأحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف.

قلت: و لأبي الحسن ابن الذروي في الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الوقعة أشعار منها:

مر يوم من الزمان عجيب
كاد يبدي فيه السرور الجماد
إذ أتى الحاجب الأجل بأسرى
قرنتهم من طيها الأصفاد
بجمال كأنهن جبال
وعلوج كأنهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدى
هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعادي
وسواه من اللآلي يصاد

ومنها:

قلت وقد سافرت يا من غدا
جهاده يعضده من حجه
إذ قيل سار الحاجب المرتجى
في البحر يا رب السماء نجه
البحر لا يعدو على لؤلؤ
لأنه كبون من لجه

ومنها:

يا حاجب المجد الذي ماله
ليس عليه في الندى حجبه
ومن دعوه لؤلؤا عندما
صحت من البحر له نسبه
لله تعمل من صالح
فيه وما تظهر من حسبه

كفيت أهل الحرمين العدا
وذدت عن أحمد والكعبة

وله:

لئن كنت من ذا البحر يا لؤلؤ العلى
نتجت فإن الجود فيك وفيه
وإن لم تكن منه لأجل مذاقه
فإنك من بحر السماح أخيه

وله:

إنما أنت لؤلؤ للمعالي
جاء من أبحر السماح العذاب

وكتب السلطان إلى العادل من كلام الفاضل: « وصل كتابه المؤرخ بخامس ذي القعدة المسفر عن المسفر من الأخبار المتبسم عن المتبسم من الآثار، وهي نعمة تضمنت نعما، ونصرة جعلت الحرم حرما، وكفاية ماكان الله ليؤخر معجزة نبيه صلى الله عليه وسلم بتأخيرها، وعجيبة من عجائب البحر التي يحدث عن تسييرها وتسخيرها، وماكان الحاجب لؤلؤ فيها إلا سهما أصاب، وحمد مسدده، وسيفا قطع وشكر مجردة، ورسولا عليه البلاغ وإن لم يجهل ماأثرته يده، وقد غبطناه بأجر جهاده، ونجح اجتهاده، وركب السبيلين برا وبحرا، وامتطى السابقين مركبا وظهرا، وخطا فأوسع الخطوة، وغزا بأجر الغزو، وحبذا العنان الذي في هذه الغزوة أطلق ، والمال الذي في هذه الكرة أنفق، وهؤلاء الأسارى فقد ظهروا على عورة الاسلام وكشفوها، وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها، ولو جرى في ذلك سبب والعياذ بالله لضاقت الاعذار إلى الله، والخلق، وانطلقت الألسن بالمذمة في الغرب والشرق، ولابد من تطهير الأرض من أرجاسهم والهواء من أنفاسهم بحيث لايعود منهم مخبر يدل الكفار على عورات المسلمين، وإن هذا العدد القليل قد نال ذلك المنال الجليل،

وهذا مقام إن روعي فيه حراسة الظاهر والوفاء للكافر، حدث الفتق الذي لايمكن في كل الاوقات سده ورتقه، ولدغ المؤمن مرتين والأولى تكفي لمن له في النظر تفقه.

وفي كتاب آخر الى العادل أيضا:« ونحن نهني المجلس السامي بظفره ولم لايكمله وينصره، ولم لايعجله ويشكره، وليس في قتل هؤلاء الكفار مراجعة، ولا للشرع في إبقائهم فسحة، ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة، ولافي التغاضي عنهم عند الله عذر مقبول، ولاحكم الله في أمثالهم عند أهل العلم بمشكل ولامجهول، فليمض العزم في قتلهم، ليتناهى امثالهم عن فعلهم، وقد كانت عظيمة ماطرق الاسلام بمثلها، وقد أتى الله بعدها بلطيفة أجراها على يد من رآه من أهلها».

وفي كتاب آخر أيضا الى العادل:« قد تكرر القول في معنى أسارى بحر الحجاز، فلا تذر على الأرض من الكافرين ديارا، ولاتوردهم بعد ماء البحر الانارا، فاقلهم اذا بقي جنى الأمر الأصعب، ومتى لم تعجل الراحة منهم، وعدت العاقبة بالأشق الأتعب».

ومن كتاب آخر إلى بغداد: وسارت المراكب الاسلامية طالبة شوكة المراكب الحربية، المتعرضة للمراكب الحجازية واليمنية، وكانت مراكب العدو قد أوغلت في البحر، ودلها على عورات الساحلين من العرب من أشبه ركابها في الكفر، فوصلت إلى عيذاب، فلم ينل منها مراد، غير أن ماوجدته في طريقها أو في فرضة عيذاب نالت منه وشعثت، وأفسدت فيه وعتت، وتمادت في الساحل الحجازي إلى رابغ إلى سواحل الحوراء، وهناك وقع عليها أصحابنا، وأوقعوا بها اشد ايقاع، وأخذوا المراكب الفرنجية على حكم البدار والإسراع، ففر فرنجها إلى الساحل، فركب أصحابنا وراءهم خيول العربان التي وجدوها، وأخذوا الكفار من شعاب وجبال اعتصموا بها وقصدوها، وكفي المسلمون اشد فساد في

أرضهم، وأقطع قاطع لفرضهم، وانبسطت آمالهم بقبضهم، وعميت على الكفار هذه الطريق التي لو كشف لهم غطاؤها قدما، ولو أحاطوا بها علما، لاشتطت نكايتهم، واشتدت جنيتهم وعز على قدماء ملوك مصر ان يصرعوا هذه الاقران، ويطفئوا هذه النيران، ويركبوا غوارب اللجج ويرخصوا غوالي المهج، ويقتنصوا هذا الطائر من جوه الذي لايدرك لوجه، ويدركوا هذا العدو الذي لايدرك الا ان تستنجد عليه ملائكة الله وروحه».

وفي كتاب آخر إلى بغداد:« كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرا، وافتضوا من البحر بكرا، وعمروا مراكب حربية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز، وأثخنوا وأغلقوا في البلاد واشتدت مخافة أهل تلك الجوانب، بل أهل القبلة لما أومض إليهم من خلل العواقب، وماظن المسلمون إلا أنها الساعة، وقد نشر مطوي أشراطها، والدنيا وقد طوي منشور بساطها، وانتظر غضب الله لفناء بيته المحرم، ومقام خليله الاكرم، وتراث أنبيائه الأقدم، وضريح نبيه الأعظم صلى الله عليه وسلم، ورجوا أن تشحذ البصائر آية كآية هذا البيت اذ قصده اصحاب الفيل، ووكلوا إلى الله الأمر ، وكان حسبهم ونعم الوكيل، وكان للفرنج مقصدان: أحدهما قلعة إيلة التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله، والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله، وانقسموا فريقين وسلكوا طريقين،فأما الفريق الذي قصد قلعة إيلة فإنه قدر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذي به قوام الحياه، ويقاتلهم بنار العطش المشبوب الشباه، وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدر ان يمنع طريق الحاج عن حجه، ويحول بينه وبين فجه، ويأخذ تجار اليمن، وكارم عدن، ويلم بسواحل الحجاز فيستبيح والعياذ بالله المحارم، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم، وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكب وفرقها على الفرقتين، وأمرها بأن تطوي وراءهم الشقتين، فأما السائرة إلى قلعة إيلة

فإنها انقضت على مرابطي الماء انقضاض الجوارح على بنات الماء، وقذفتها قذف شهب السماء مسترقي سمع الظلماء، فأخذت مراكب العدو برمتها، وقتلت اكثر مقاتلتها، إلا من تعلق بهضبة وماكاد، وأدخل في شعب وماعاد، فإن العربان اقتصوا آثارهم، والتزموا احضارهم، فلم ينج منهم إلا من ينهي عن المعاودة، ومن قد علم ان أمر الساعة واحدة، وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتمادت في الساحل الحجازي إلى رابغ سواحل الحوراء، فأخذت تجارا، وأخافت رفاقا، ودلها على غوارب البلاد من الاعراب من هو أشد كفرا ونفاقا، وهناك وقع عليها أصحابنا، وأخذت المراكب بأسرها وفر فرنجها بعد اسلام المراكب، وسلكوا في الجبال مهاوي المهالك، ومعاطن المعاطب، وركب اصحابنا وراءهم خيل العرب، يشلونهم شلا ويقتنصونهم اسرا وقتلا، ومازالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلا ورجلا، نهارا وليلا، حتى لم يتركوا عنهم خبرا، ولم يبقوا لهم اثرا(وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا)[١٧]وقيد منهم مائة وسبعون اسيرا».

ومن كتاب آخر:« ومن جملة البشائر الواصلة من مصر عود الاسطول مرة ثانية كاسرا كاسبا، غانما غالبا، بعد نكايته في أهل الجزائر، وإخراب ماوجده فيها من الأعمال والعمائر، ومن جملة ماظفر به في طريقه بطسة من مراكب الفرنج تحمل اخشابا منجورة إلى عكا، ومعها نجارون ليبنوا منها شواني فأسر النجارون، ومن معهم وهم نيف وسبعون، وأما الاخشاب فقد انتفع بها المجاهدون، وكفي شرها المؤمنون، وللخادم في المغرب عسكر قد بلغت اقصى إفريقية فتوحه وعاود به شخص الدين في تلك البلاد روحه».

-٨٣٨٠-

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: وفي هذه السنة وهي سنة ثمان وسبعين أنعم السلطان على نور الدين محمد بن قرا أرسلان بأعمال الهيثم، وكانت جارية في عمل الموصل، فلما تسلمها جعلها من نصيبه، وقد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله حين توجه إلى الموصل في أوائل سنة ست وستين، عند وفاة أخيه مودود وعد ابن قرا أرسلان بقلعة الهيثم، ثم سلمها إليه دون أعمالها ، تحلة ليمينه ووفاء بوعده الكريم ودينه، ولما جاء لمساعدتنا في هذا العام خصه السلطان عاجلا بهذا الانعام، ثم وهب له قلعة الجديدة، وهي قريبة من نصيبين، ووعده بفتح آمد له فوفى بوعده كما سيأتي.

قال: وكان شاه أرمن صاحب خلاط ظهير الدين سكمان، وهو خال صاحب ماردين بن ايلغازي بن ألبي بن تمرتاش، وصاحب ماردين هذا هو ابن خال صاحب الموصل عز الدين بن مسعود بن مودود بن زنكي، فأنفذ شاه ارمن يشفع الى السلطان في الموصل وسنجار، وأرسل اليه سيف الدين وهو من أعز أصحابه عليه فلم يسمع السلطان شفاعته فاجتمع هو وصاحب ماردين، وصاحب الموصل وصاحب ارزن وبدليس وغيرهم من عسكر حلب، وجمعوا جموعا وعزموا على لقاء السلطان، ونزلوا ضيعة من أعمال ماردين يقال لها حرزم، فجمع السلطان عساكره، وجاءه تقي الدين من حماة إلى حران في خمس ليال، فسار اليهم بعد العيد الأكبر، فلما وصل السلطان رأس عين وسمعوا بمجيئه فرقوا وافترقوا، وعاد الخلاطي إلى خلاطه باختلاطه، ورجع الموصلي الى موصله لمواصله احتياطه، وأعتصم الماردي بحصنة المارد، وهتكوا حرز حرزم للصادر والوارد، وهاب عسكر حلب العود إليها ونحن على طريقه،

فأذن جمعه بتفريقه، ومضى معظمهم الى الموصل، فعبر الفرات عند عانة، ولم يجدوا إعانة، ونسفتهم ريحنا وهم جبال، وذهبوا بقلوب النساء، وقد جاؤوا وهم رجال، ثم نزل السلطان منزلة القوم بحرزم، وفيها قصر لصاحب ماردين كان يتنزه فيه، فأقام فيه تاج الملوك أخو السلطان

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة، نزل قراقوش، على بلد زالوت[١٨] وقاتله الى ان انهزم منها أهله، ودخل المدينة ليقضي بها أيام الشتاء فأصبح يوما فإذا حول المدينة عسكر مقداره خمسة آلاف رجل، فقام وافتقد اصحابه فلم يجد الا جماعة من البوابين والركابدارية، وباقي الناس سكارى، ورأى احد البوقية فأمره ان يضرب بالبوق، وفتح الباب وخرج فظن العسكر أن قراقوش وعسكره قد شعروا بهم فانهزموا.

قال: ثم انه قصد طرابلس فحاصرها وضيق عليها، وكان شيخها عبد المجيد بن مطروح قد راسل قراقوش، وطلب منه الأمان وسأله ان ينفذ اليه قوما يقرر معهم أمر التسليم، فأنفذ اليه وزيره وثلاثة من وجوه أصحابه، فأخذهم عبد المجيد وأنزلهم في دار أخلاها وأمر لهم بجميع مايحتاجون اليه، فلما خلا لهم الليل أخذوا المخاد وتصافعوا بها حتى قطعوها وقام بعضهم الى صهريج مملوء ماء للشرب فأحدث فيه، فخبرت الرقباء عبد المجيد بما كان منهم، فأحضر وجوه البلد وقص عليهم ماكان منهم وقال: اذا كان هؤلاء خيارهم فما ظنكم بشرارهم، وكان أهل البلد قد أشاروا على عبد المجيد بتسليم البلد، فامتنعوا حينئذ وحضر ابن مطروح من الغد اليهم الى الدار ومعه وجوه البلد فقال لصاحب ضيافته: لم أحضرت لهؤلاء السادة مخاد مقطعة؟ فقال: ماأحضرت لهم إلا مخاد جددا، ولكن القوم أكلوا طعام الصوفية الذي لانعرفه في بلادنا، فاستحى القوم وعلموا انهم قد فطنوا بحالهم، ونزل رجل الى الصهريج فرأى العذرة على وجه الماء، فقال من فعل؟ فلم يرد واحد منهم جوابا، فقال ابن مطروح:ياقوم ماأدخلناكم إلينا الا عازمين على تسليم البلد

إليكم وأن نكون لكـم رعايا، وقد شـاهدنا منكم افعـالا مانرضاهـا، فإن قلتم ان هذه الفعلة مـن غلمانتا وعبيـدنا، فما اقبـح هذه الأحـدوثة عـن خيار اصحاب هذا الرجل، وإن كان عنده من هو خير منكم فلم بعثكم إلينا، هذا طعـن في عقله، ثم أمر بـاخراجهم من المدينـة، فلما صاروا إلى قراقـوش وعلم القصة عظم عليـه الأمر وأراد الفتك بهم، وعلـم انهم قد فتقوا عليه فتقـا لايمكنه رقعه أبدا، وتيقـن انه لايملك البلد أبـدا، وانفذ عبد المجيـد إلى قراقـوش: إنك لسـت بقادر على أخـذ هذا البلـد لأجل مانفر به اصحابك قلوب أهله، فـإن رأيت ان نجعل لك جعالة نحملها إليك في كل سنـة وترحل عنا قطعنـا، فأجاب إلى ذلك ورحـل عنهم بعد أن احتوى عليهـم، قال: وتـوافت إليـه الفرسـان من مصر حتـى سار في ثمانمائة فارس من الأتراك، وسار من جبل نفـوسة إلى قابس في يومين، ثم إلى قصر الـروم وغيره من المواضـع والقلاع فهجـم ونهب، وغنم وغلـب، وخافه أهل تلك النواحي .

- ٨٣٨٣ -

فصل

في فتح آمد

قال العماد: ثم سار السلطان الى آمد، ونـزل عليها يوم الأربعاء سابع عشر ذي الحجـة بعـد ان استـأذن الخليفـة في ذلـك، فـأذن لـه فنصـب السلطان عليها المجانيق وضايقهم، وطال حصارهم، ثم أخذها في السنة الآتية كما سيأتي.

ثم دخلت

سنة تسع وسبعين

قال ابن ابي طي: والسلطان منازل لآمد، واشتد قتال العامة بها، فأمر السلطان بكتب رقاع فيها ابراق وارعاد، ووعد وايعاد ، وان داموا على القتال ليستأصلن شأفتهم، وإن اعتزلوا وسلموا البلد ليحسنن إليهم وليضعن ماعليهم من الكلف والضرائب، وأمر ان تعلق تلك الرقاع على السهام وترمى الى آمد، فرمى من ذلك شيء كثير، فكفوا عن القتال، وأشاروا على ابن نيسان بطلب الأمان، فأومن على أن يخرج بجميع أمواله دون الذخائر والسلاح، وأمهل ثلاثة أيام، فلما عول على نقل أمواله قعد به أصحابه، فأرسل إلى السلطان فأنفذ اليه غلمانا ودواب، وضربت له خيمة بظاهر آمد، وجعل ينقل مايقدر على نقله من المال والقماش، وآلات الذهب والفضة مدة ثلاثة ايام بعالم عظيم كانوا يزيدون على ثلاثمائة انسان، ولم ينقل عشر ماكان له، وسرق من أمواله أكثر مما حصل له، لأنه ماأخرج أحد شيئا إلا وأخذ نصفه أو أكثر، وكان ابن نيسان قد حصل في آمد أشياء كثيرة لايمكن وصفها من الأسلحة والأموال والغلال والكتب، ولما انقضى الأجل أخذ ماحصل وسار قاصدا بلاد الروم وتسلم السلطان مدينة آمد بأموالها وذخائرها، ونصبت أعلامه على أسوارها، وذلك في رابع عشر المحرم، ووجد فيها من الغلال والسلاح وآلات الحصار من المجانيق واللعب والعرادات أشياء كثيرة لايمكن أن يوجد في بلد مثلها، ووجد فيها برج من أبراجها فيه مائة ألف شمعة، وبرج مملوء بنصول النشاب وأشياء يطول شرحها، وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب، فوهب السلطان الكتب للقاضي الفاضل، فانتخب منها حمل سبعين جمازة، ويقال ان ابن قرا ارسلان باع من ذخائر آمد وخزائنها مما لاحاجة له به مدة سبع سنين حتى امتلأت الأرض من ذخائرها، وكان السلطان لما

تسلم آمد وهبهـا لنور الدين محمـد بن قرا ارسلان بما فيهـا، وكتب له بها وبأعمالها تـوقيعا، ووفى له بما وعـده به، وقيل للسلطان:إنـك وعدته بـآمد وماوعـدته بما فيهـا من الأموال والـذخائر، وفيها مـن الأموال والـذخائر، مايساوي ثلاثة آلاف ألف دينار، فقـال: لاأضن عليه بما فيها من الأموال فإنه قد صار من أتباعنا وأصحابنا.

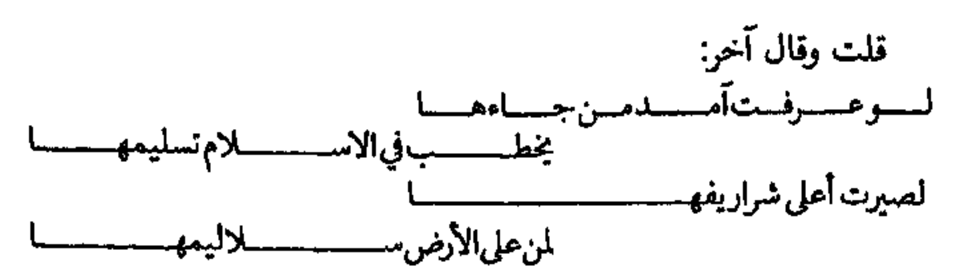
قال: وفي فتح آمد يقول سعيد الحلبي من قصيدة في السلطان:

رمـى آمـد بـالصـافنـات فـأذعنـت
لـه طـاعـة آكـامهـا ووعـورهـا
فما عـز نـاديها ولااعتـاص ثغـرهـا
ولاجـاش طـاميهـا ولارد سـورهـا
وأنـزلـت بـالكـره ابـن نيسـان مخرجـا
كما أنـزل الـزبـاء كـرهـا قصيرهـا
نهضـت لها حتـى إذا انقـاد صعبهـا
وقـر على طـول الشماس نفـورهـا
سمحـت بها جـودا لمن ظـل بـرهـة
يغـاورهـا طـورا وطـورا يغيرهـا
وملكـت مـا ملكـت منهـا تخولا
لأجـدر أن يـرجـو نـداك فقيرهـا

وقال ابن سعدان الحلبي يذكر فتح آمد:

فيـا سـاكنـي الـرعنـاء مـن سفـح آمـد
أرى عـارضـا ينهـل بـالموت هـاطلـه
لئـن غضبـت يـومـا عليكـم عـروشهـا
فهـذا ابـن أيـوب وهـذي معـاقلـه
ولـو رامهـا يـومـا سـواه لقطعـت
أبـاهـره مـن دونها وأبـاجلـة

قلت وقال آخر:



قال العماد: وأما آمد فحصل فتحها يوم الأحد في العشر الأول من المحرم، وكان مدبر آمد ابن نيسان،، فهو رئيسها والقائم بأمرها، وكان لآمد أمير قديم يقال له، ايكلدي من أيام السلاطين القدماء ، وولده محمود شيخ كبير عنده يطعمه ويسقيه ويدعي أنه من غلمانه ومصطنعيه، وأنه يحفظ البلد له، وأنه لايغدر به ولا يؤثر بدله، وإذا جاء رسول يحضره عند أميره ويسند مايدبره إلى تدبيره، ويقول انه غلام، ومامعه كلام، وحافظ على سر هذه السريرة، وآمن باحتياطه من جور الجيرة، بل مامنهم إلا من يخاف مكره، ويحفظ منه وكره، وينكر عرفه، ويعرف نكره، ولم يزل الحصار عليهم إلى أن أذعنوا للانقياد،وخرجت نساؤهم سحراً الى المخيم الفاضلي يطلبن الأمان، فأمنهم السلطان، على أنهم يخرجون بعد ثلاث، ويحملون ماقدروا عليه من المال والاثاث، وأعانهم السلطان على نقل الأموال بالدواب والرجال، فلما انقضت مدة الأمان، تسلمها السلطان، وسلمها إلى نور الدين بن قرا أرسلان، بأعمالها ومافيها، وكان السلطان وعده بها قبل ذلك، فأنجز له الوعد، وقد كان أبوه عاناها مدة وتمناها فما قدر عليها، ثم وصف العماد ماكان في قلعة آمد من الذخائر والأموال، والحواصل والأمتعة وأن أصحابها لم يقدروا في تلك الأيام الثلاثة إلا على تحويل ماخف منها واستغنى المساعدون لهم في تحويليها اليهم.

وكتب الفاضل عن السلطان إلى الديوان ببغداد:« ورد إلى الخادم التقليد الشريف بولاية آمد، فلما رآه مستقرا عنده قال: هذا مفتاحها،

وسمع الوصايا فاستضاء بها في ظلمات القصد، وقال: هذا مصباحها، وتناوله فما ظن الا كتابا انزل عليه من السماء في قرطاس، وماتيقنه الا نورا يمشي به في الناس، فسار به، ولولا العادة ماالستصحب جنديا وعول عليه، ولولا الرتبة لما تقلد هنديا ، وطرق بابه باقليده، ولولاه ماالستطاع للأولياء ان يظهروه، ومااستطاعوا نقبا، وناشد المقيم بتقليده ثلاثة أيام بثلاث رسائل، فلو كان ذا سمع اصغى ، ولو كان ذا لب لبى، فلما انقضت ضيافة أيام النذارة، واحتقر من بآمد نار الحرب جاهلا ان «وقودها الناس الحجارة»، عمد لها في اليوم الرابع فزلزل عمدها، وقاتلها فأنزل جلدها، وزيل جلمدها، ثم رأى أن الشوكة ربما اصابت غير ذات الشوكة من جندها، وان المسلم قد أمن عذاب الحريق ولايأمن أن تحرقه القسي من السهام بشرار زندها، فعدل الى منجنيقه أمل صاحبها منه منجانيقه، ورأى ان سوط سطوته يضرب الحجر، ويضرب عن أن يباشر البشر، وتلك الأبرجة قد شمخت بأنفها، ونأت بعطفها، وتاهت على وامقها، وغضت عين رامقها، فهي في عقاب لوح الجو كالطائر الا ان المنجنيق أغرى بها عقابيه، وضغمها بمخلبيه، وخصم أمامها يخاصمها، وقام إلى الغير يحاكمها، ويضرب بعصاه الحجر فتنبجس من النقوب اعين لاترسل الماء، ولكن تروي العطاش إلى منهل المدينة، وتنهل الظمأى كذلك أياما حتى محي من الشرفات شنب ثغرها، وتناوبها كأس فتك تبين بهز أبراجها آثار شكرها، وعلت الأيدي الرامية لها، وغلت الأيدي المحامية عنها، فلم يبق على سورها من يفتح جفنا، وشن المنجنيق عليها غارته الى ان صارت شنا، وفضت صناديق الحجارة المقفلة، وفصلت منها اعضاء السور المتصلة، ووجب القتال لئلا يظن بالخادم ان لاجند به الا جندله، فأوعزنا التقدم اليها ودخول النقابين فيها، فأثخنت جراحا بالنقوب، وهتك الحجاب من أضالع البلد، فكاد يتصل الى ماوراءها من القلوب، وخشيت معرة الجيش في وقت هجمه، ورosل صاحبها بأنه كشف له الخذلان حتى نصر على شكه بعلمه،

فأعاد الرسول مستنكفا تحجب النجاة بارسال ذوات الحجاب وابرازهن، ومستكفا ليد القتل بمن لم يكن جوابه غير احرازه واحرازهن، ولم يعارض في نفسة ولافي قومه ولافي أمواله، وهي ماهي ذخائر موفرة، ومكاسب من أرباح مخسره، كانت الحقوق عنها مذودة والآمال دونها مطرودة، وغض الخادم كل عين عن عينه وورقه، وصانه في مخيمه من الفقر صيانته في ذات سوره وخندقه، واستوفى شرط الوفاء بما أعطاه من موثقه، وهذه آمد فهي مدينة ذكرها بين العالم متعالم، وطالما صادم جانبها من تقادم فرجع مجذوعا أنفه وإن كان فحلا، وقرعها فريد الهمة، واستصحب جفلا، ورأى حجرها فقدر انه لايفك له حجر، وسوادها فحسب انه لاينسخه فجر، وحمية أنف أنفها فاعتقد أنه لايستجيب لزجر من ملوك كلهم طوى صدره على الغليل الى موردها،ووقف بها وقوف المحب المسائل فلم يفز بها أمل من جواب معهدها».

ثم ذكر تسليمها إلى ابن قرا أ رسلان ثم قال:« ولما رأى صاحب ميافارقين أن اخت صاحبته قد ابتني بها خاف ان نجمع له بين الأختين، فراسل ببذل الخدمة التي يكون فيها لنور الدين ثاني اثنين».

ثم ذكر اجتماع المواصلة وشاه أرمن، وصاحب ماردين، وصاحب أرزن وبدليس وغيرهم، على قصد الخادم، ونزلوا تحت الجبل، فلما صح عندهم قصده ظنوا أنه واقع بهم، فأخذوا عنه الفرار بقوة، وذكروا مافي لقائه من عوائد كانت عندهم مخوفة وعنده مرجوة، وسار كل فريق على طريق بنية عدو وفعل صديق، والخادم يقول مهما ارادت فيه الآراء الشريفة أتاه، ومهما نوت فيه من إحسان قرب عليه مانواه، فهذه آمد لما أرسل اليه مفتاحها، وهوالتقليد فتحها، وهذه الموصل لما تأخر عنه المفتاح منعها وما منحها، ولو أعين به لعظمت على الاسلام عائدته، وظهرت في رفع مناره فائدته لأن اليد كانت تكون به على عدو الحق واحدة، والهمة لآلات النصر واجدة، فإن رأى أمير المؤمنين ان يميز بين أوليائه، وينظر

أيهم أبر بـأوليائه، واشـد على اعدائه وأقوم بحقـه وحق آبـائه وأيهم أترك للفراش الممهـد، وأهتك للطـريق الممـدد، وأهجر في سبيـل الله لـراحة، وأصبر في جهاد عـدو الله على مضض جـراحة، وأسلى عن ريحانـة فؤاد، وأكثر ممارسة لحية واد، فيختار لهذه الأمة التـي جعله الله لها إماما وأما ما أسعد مـن أجرى في طـاعته ضامـرا، وملأ بولايتـه ضميرا فمن عـدله أن يولي عليها العدل الذي يقر عينهـا، ومن فضله أن لاينسى الفضل بينها، وقد ورد ذلـك المنشور بـآمد فـأورد الميسور، فـإن ورد المنشور المشـار اليه بالجزيـرة وماوسعت فـإنه نور على نـور، ومايحسب الخادم ان كيـدا للعدو الكافر أكيـد، ولاجهدا لأهل الضلال أجهد، ولاعائدة بغيـظ رؤساء أهل الالحاد أعود من تفخيم أمـر الخادم بمزيـد الاستخدام، والا فلينظـر هل يشق على الكفار مزيد احد سـواه من ولاة الاسلام، فكل ذي سلطان هو الطاعـم الكاسي المحمـي بالمناضـل لا الحامي، المكفـي لا الكافي يقضي عمره وهو لايشهـد الطعن الا في الميدان، ولايتمثل الهام طـائرا لولا الكرة في الصولجان، ولايشقى بسهمـه الا قرطاسه، ولايحظى برفـده الا اكياسه، فـأعاد اللـه بأمير المؤمنين هـذا الديـن الى معالم حقـه الأولى، وأطال يـد سلطانه الطولى، الى أن تأخذ الأمور مـأخذها عدلا واعتدالا وسلما وقتالا، فيعود إلى الاسلام عوايد ارتياحه، وأيام منصوره وسفاحه».

ومن كتـاب آخر فـاضلي عن السلطان الى وزيـر بغداد:« اصـدر هذه الـوسيلة الى المجلـس السامـي معولا على كـرمـه فيها حملته مـن اللبانـة، مستغنيا بشهرةالحال المتجـددة عن الإبانة، فإن آمـد قصر الأمد في الظفر بها، وأنقاذها من المظالم التي كانـت تلبس نهارها بقبة غيهبها، وسار اليها ببقية العسـاكر بعد الـذين ساروا إلى الشـام، وأقامـوا قبالة الكفـار، بعدة اقتصر عليها أكثرها مـن عساكر الـديار المصرية على بعـد تلك الـديار، ليظهر لمن نوى المناواة، ويتبين لمن كان على منـافاة الملاقاة، أن رجالا من مصـر فتحوا آمـد بعد سنـة من البيكـار، وبعد غـزوتين قد طـولع بها في تواريخهـا إلى الكفار، ففي ذلك مايغص الحاسد، ويغض الحاقد، ويعلم

أن في أولياء الـدولة مـارد كل مـارد، فلما حل بعقـوتها أراد أن يجري الأمر على صوابه، ويلج الأمر من بابه، وأن ينذر المغتر ويوقظه، ويعظه بالقول الذي رأى مـن الرفـق ان لايغلظه، فبعـث اليه ان يهب مـن كراه، ويعـد لضيف التقليـد قراه، وينجو بنفسه منجـأ الذئاب، ولايتعرض بـأن يكون منتجـأ للذئاب فـإذا عريكتـه لاتلين إلا بالعـراك، وطريـدته لاتصـاد الا بالاشراك، فهنـاك رأى عاجلا مـاهناك، وقوتـل حق القتال في يـوم واحد عرف مابعـده من الأيام، ووقع الاشفاق من روعـة الحريم وسفك الحرام، ونصب المنجنيقات فأرسل عارضها مطـره وفطر السور بقدرة الذي فطره، وخطب امـامها خطيب خطبـه، وأغمد الصارم اكتفـا بضربه، وترفـه أهل الحرب لحسن المناب منه عن حزبـه، فصار في أقرب الاوقات جبلها كثيبا مهيلا، وعفـرت الأبرجة وجهـا تربا، ونظـرت القلعة نظرا كليـلا حتى إذا أمكنت النقـوب ان تؤخذ، وكبـدالسور ان تفلـذ، رأى الذي لايصبر على بعضه، واعتذر اليه البناء الذي بناه إن لم يقضه، فلا بد من نقضه، وسأل فأجيـب إلى الأمان على نفسـه، وخرج منهـا وإنما أخرجـه الظلم، وسلـم وهو يرى السلامة إما من الحلم وإما من الحكم».

ثـم قال:« ولـولا تقليـد أمير المؤمنين لما فتح لـه البـاب الـذي قرعـه، ولاأنزل عليه النصر الذي أنـزل معه، ولاساعد سيفا ساعـد، ولانالت يد مدت مـن مصر فأخـذت آمد، ومـن بآمـد، ولو قبلـت مسألتـه في تقليد الموصل لكـان قد ولجهـا، ولو بدلجة أدلجها، ولـو بحصاة نبـذها، وهـو يتـوقع في جـواب هـذاالفتـح ان يمد بجيـش هـو الكـلام، ورماح هـي الاقـلام، ونصر هو وافـد الأمـر، وتـرشيد هـو فـك الحجـر، وليس ذلـك لـوسائل مـن دولـة اقـامها بعـد ميـل عروشهـا، ولاالـدعـوة قام فيهـا بها تصاغـرت دونه جيـوشها، ولكـن لأن هذه الجزيـرة الصغيرة منها تنبعـث الجزيرة الكبيرة، وهي دار الفـرقة، ومدار الشقة، ولـو انتظمت في السلك، لانتظم جميـع عسكر الاسـلام في دار الشرك، ولكان الكفـر يلقي بيـديه، وينقلب على عقبيـه، ويغشاه الاسـلام من خلفه ومـن بين يديـه، ويغزى

من مصر بـرا وبحرا، ومـن الشام سرا وجهـرا، ومن الجزيـرة مدا وجـزرا، ويكون خـادمه قـد وجب أن يتمثـل بقولـه تعالى(ولقـد مننا عليـك مرة أخرى)(١٩).

ومـن كتاب آخـر:« كتابنـا هذا والمدينـة قـد فتحت أبـوابها، وعذقـت بدولتنا اسبابها، وتكلم لسان عملنـا في فم قلعتها، وبعد ان لبستها دولتنا وفينا بموعد خلعتها، فالحمد للـه الذي تتم النعم بحمده، وينجح الأمل بقصـده، مايفتـح الله للنـاس من رحمه فـلا ممسك لها، ومـايمسك فـلا مرسل له من بعده».

قـال العماد: ثم دخـل السلطـان مدينـة آمـد وجلس في دار الإمـارة، وحلف نور الدين بن قرا أرسلان على أنه يظهر بها العدل، ويقمع الجور، ويكون سامعـا مطيعا للسلطان من معاداة الأعـداء، ومصافاة الخلان، في كل وقـت وزمان، وأنه متـى استمد من آمـد لقتال الفـرنج وجده لـذلك يقظان وإليه عطشان.

قال: وكـان هذا نور الـدين في خدمـة السلطان بنفسه وعسكـره منذ عبر الفـرات، ثم ان رسـل ملوك الاطـراف اجتمعت عنـد السلطان كـل يطلـب لصاحبـه الأمان، وان يتخـذه من جملـة الأعوان منهـم: صاحـب ماردين، وصاحب ميافارقين، وهما قريبـا ابن قرا أرسلان فرد السلطان كل رسول بسـوله، وأجـاب إقبالـه بقبولـه، ثم رحـل السلطان مـن آمد وعبر الفرات لقصـد حلب، وولايتها فتسلـم في طريقه تل خـالد بالـرعب، ولم تكـن منهم بـالقـرب، فـأقر أهلهـا فيهـا ثـم نزل على عين تـاب، فبـادر صاحبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين إلى خدمة السلطان، فأعاده إلى مكانه بالاحسان.

وقال ابـن أبي طي: تسلـم السلطان تـل خالـد في رابع عشر المحـرم،

وسلمها الى بدر الدين دلدرم، ومن كتاب فاضلي: « نزلنا تل خالد يوم الثلاثاء ثاني عشر المحرم، وكان قد تقدمنا الأجل تاج الملوك إليها، وأناخ عليها، وقابلها وقاتلها وعالجها، ولو شاء لعاجلها، ولما أطلت عليها راياتنا القى من فيها بيده، وانجز النصر صادق موعده، وأرسلتها حلب مقدمة لفتحها، وقد أنعم الله علينا بنعم لانحصيها تعدادا ولانستقصيها اعتدادا، ولانستوعبها، ولو كان النهار طرسا والبحر مدادا، ورايتنا المنصورة قد صارت مغناطيس البلاد تجذبها بطبعها، وسيوفنا قد صارت مفاتيح الامصار تفتحها بنصر الله، لابحدها ولابقطعها .

قلت: وما أحسن ماقال التلعفري من قصيدة له في السلطان:

قل للملوك تنحوا عن ممالككم
فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

-٨٣٩٣-

فصل

في فتح حلب

قال القاضي ابن شداد: لما عاد السلطان بدأ بتل خالد، فنزل عليها، وقاتلها وأخذها في ثاني عشر المحرم سنة تسع وسبعين، ثم سار الى حلب فنزل عليها في سادس عشري المحرم، وكان اول نزوله بالميدان الأخضر، وسير المقاتلة يقاتلون ويباسطون عسكر حلب ببانقوسا وباب الجنان غدوة وعشية، وفي يوم نزوله جرح أخوه تاج الملوك، وكان عماد الدين زنكي قبل ذلك قد خرج وخرب قلعة عزاز في تاسع جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين، وخرب حصن كفر لاثا وأخذها من بكمش فإنه كان قد صار مع السلطان وقاتل تل باشر فلم يقدر عليها، وجرت غارات من الفرنج في البلاد بحكم اختلاف العساكر.

قال: ولما نزل السلطان على حلب استدعى العساكر من الجوانب، فاجتمع خلق كثير، وقاتلها قتالا شديدا، وتحقق عماد الدين زنكي انه ليس له به قبل، وكان قد ضرس من اقتراح الامراء عليه وجبههم اياه، فأشار الى حسام الدين طمان أن يسفر له مع السلطان في إعادة بلاده، وتسليم حلب إليه، واستقرت القاعدة، ولم يشعر احد من الرعية ولامن العسكر حتى تم الامر، ثم اعلمهم وأذن لهم في تدبير أنفسهم، فأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك وزين الدين بلك، فبقوا عنده الى الليل واستحلفوه على العسكر، وعلى أهل البلد، وذلك في سابع عشر صفر، وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان الأخضر، ومقدموا حلب، وخلع عليهم، وطيب قلوبهم وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي اشغاله، وينقل اقمشته وخزائنه إلى يوم الخميس ثالث عشري صفر، وفيه توفي تاج الملوك أخو السلطان من الجرح الذي كان أصابه وشق عليه أمر موته، وجلس للعزاء.

قلت: وكان أصغر أولاد أيوب، ذكر ابن القادسي أن مولده سنة ست وخمسين في ذي الحجة، فيكون عمره اثنتين وعشرين سنة وشيئا، وانشد له شعرا، وقال العماد الكاتب في كتاب الخريدة انه لم يبلغ العشرين سنة[٢٠] وله نظم لطيف، وفهم شريف، ثم قال القاضي أبو المحاسن، وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين إلى خدمته وعزاه وسار معه بالميدان الأخضر، وتقررت بينهما قواعد، وأنزله عنده بالخيمة، وقدم له تقدمه سنية وخيلا جميلة، وخلع على جماعة من أصحابه، وسار عماد الدين من يومه الى قراحصار سائرا الى سنجار، وأقام السلطان بالمخيم بعد مسير عماد الدين غير مكترث بأمر حلب ولامستعظم لشأنها إلى يوم الاثنين سابع عشري صفر، ثم صعد في ذلك اليوم قلعة حلب مسرورا منصورا، وعمل له حسام الدين طمان دعوه سنية، وكان قد تخلف لأخذ ما تخلف لعماد الدين من قماش وغيره.

وقال العماد: وصل السلطان إلى حلب ، وفيها عماد الدين زنكي بن مودود الذي كان صاحب سنجار، وقد تحصن بكثرة الأجناد والعدد، وأراد مقابلة السلطان ومقاتلته، وأراد السلطان أن يظفر بها بدون ذلك من القتال، وعداوة الرجال، ولكن الشباب، وجهال الاصحاب راموا القتال، واحبوا النزال وتقدموا واقدموا والسلطان ينهاهم فلا ينتهون، وكان فيهم تاج الملوك بوري أخو السلطان فطعن في فخذه، ثم مات بعد ذلك بأيام بعد فتح البلد، وكان السلطان ذلك اليوم قد صنع وليمة لعماد الدين زنكي، وكان السلطان أول مانزل على حلب نزل في صدر الميدان الأخضر، وذلك في زمن الربيع، ثم رحل ونزل على جبل جوشن، ونهى عن القتال وقال: نحن هاهنا نستغل البلاد،

وماعلينا من الحصن الذي بلغ هذا العناد، وأنفذ رسل الترهيب ففكر عماد الدين زنكي في أمره، ورأى أن الصواب مصالحة السلطان، فأنفذ سرا إليه حسام الدين طمان، وصالحه وحلفه على أن يسلم إليه حلب

ويرد عليه بلده سنجار، ففعل وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج، واشترط عليه ارسال العسكر في الخدمة للغزاة ومن كتب فاضلية: «تسلمنا مدينة حلب وقلعتها بسلم وضعت بها الحرب أوزارها، وبلغت بها الهمم أوطارها، وعوض صاحبها بما لم يخرج عن اليد لأنه مشترط عليه به الخدمة بنفسه وعسكره، ومختلط بالجملة، فهو واحد الأولياء في مغيبه ومحضره، وعوض عمادالدين عنها من بلاد الجزيرة سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، فهو صرف بالحقيقة أخذنا فيه الدينار، واعطينا الدراهم، ونزلنا عن المبيحات وأحرزنا العواصم، وسرنا أنها انجلت والكافر المحارب، والمسلم هو المسالم، واشترطنا على عماد الدين الخدمة والمظاهرة، والحضور في مواقف الغزو والمصابرة، فانتظم الشمل الذي كان نثيرا، واصبح المؤمن بأخيه كثيرا، وزال الشغب، وأخمد اللهب، واتصل السبب، واخذت للغزاة الأهب ووصلت إلى غاية همة الطلب، والألفة واقعة، والمصلحة جامعة، واشعة أنوار الاتفاق شائعة».

ومنها: «فتحنا مدينة حلب بسلم ماكشفت بحرمتها قناعا، وتسلمنا قلعتها التي ضمنت ان تسلم بعدها بمشيئة الله قلاعا، وعوض صاحبها من بلاد الجزيرة مااشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالعدة الموفورة، فهي بيدنا بالحقيقة لأن مرادنا من البلاد رجالها، لاأموالها ، وشوكتها لازهرتها ومناظرتها للعدو لانضرتها، وان يعظم في العدو الكافر نكايتها، لاأن تعذق بالولي المسلم ولايتها، والأوامر بحلب نافذة، والرايات بأطراف قلعتها آخذة، وجاء أهل المدينة يستبشرون وقد بلغوا ماكانوا يؤملون، وأمنوا ما كانوا يحذرون، وعوض صاحبها ببلاد من الجزيرة على ان تكون العساكر مجتمعة، على الاعداء مرصدة للاستدعاء، فالبلاد بأيدينا لنا مغنمها، ولغيرنا مغرمها، وفي خدمتنا مالا نسمح به وهو عسكرنا، وفي يده مالا نضن به وهو درهمنا، شرطنا على عماد الدين النجدة في أوقاتها، والمظاهرة على العداة عند ملاقاتها، فلم يخرج منا بلدا الا الينا عاد عسكره، وانما استنبنا فيه من يحمل عنا مؤنته ويدبره، وتكون عساكره إلى

عساكرنا مضـافة، ونتمثل قوله سبحانه وتعالى:(وقـاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)[٢١].

ومنها :« نشعـر الامير بما منَّ الله بـه من فتح مـدينة حلب التـي هي مفتـاح البلاد، وتسلـم قلعتهـا التـي هي أحـد مـارسـت به الارض مـن الأوتاد، فللـه الحمد وأين يقـع الحمد من هذه المنـة، ونسأل الله الغـاية المطلوبـة بعد هذه الغـاية وهـي الجنة، وصدرت هـذه البشرى والموارد قد أمضـت الى مصـادرهـا، والأحكـام في مـدينـة حلـب نـافـذة في بـاديها وحاضرهـا، وقلعتها قد اناف لـواؤنا على انفها، وقبضت على عقبـه بكفها واعتذرت من لقائه امـس برشفها، ورأينا ان نتشاغل بها بـورك لنا فيه من الجهاد، وان نوسع المجال فيها نضيق به تقلب الذين كفروا في البلاد».

قلـت: ولأبي الحسن بـن الساعـاتي في مدح السلطـان عند ارادة فتـح حلب قصيدة منها:

مـــابعــــد لقيـــاك للعـــافين مــــن أمـــل
ملـــك الملـــوك وهـــذي دولـــة الـــدول

فــــانهض إلى حلـــب في كـــل ســـابقـــة
سروجهـــا قلـــل تغنـــي عـــن القلـــل

مـــا فتحهـــا غير إقليـــد المهالـــك والـــ
ـــداعي إليـــه جميـــع الخلـــق والملـــل

ومـــا عصـــت منعـــة لكنـــه غضـــب
عـــلام أهملتهـــا إهمال مبتـــذل

غـــارت وحقـــك مـن جـــاراتهـــا فشكـــت
مـــا بــــالــــه بـــافتضـــاضي غير محتفـــل

وللقاضي السعيد بن سناء الملك من قصيدة:

بـــدولـــة الترك عـــزت دولـــة العـــرب
وبـــابـــن أيـــوب ذلـــت بيعـــة الصلـــب

إن العـــواصـــم كـــانـــت أي عـــاصمـــة
لنفسهـــا بتعـــاليهـــا عـــن الـــرتـــب
جليســـة النجـــم في أعلى مـــراتبـــه
وطـــا الما غـــاب عنهـــا وهـــي لم تغـــب
ومـــا نعتـــه كمعشـــوق تمنعـــه
أحلى مـــن الشهـــد وأشهـــى مـــن الضرب
فمـــر عنهـــا بـــلا غيـــظ ولا حنـــق
وســـار عنهـــا بـــلا حقـــد ولا غضـــب
تطـــوي البـــلاد وأهليهـــا كتـــائبـــة
طيـــا كما طـــوت الكتـــاب للكتـــب
أرض الجزيـــرة لم تظفـــر ممـــالكهـــا
بما لـــك فطـــن أو ســـائس درب
ممـــالـــك لم يـــدبـــرهـــا مـــدبـــرهـــا
الا بـــرأي خصي أو بعقـــل صبـــي
حتـــى أتـــاهـــا صلاح الـــديـــن فانصلحـــت
مـــن الفســـاد كما صحـــت مـــن الـــوصـــب
وقـــد حـــواهـــا وأعطـــى بعضهـــا هبـــة
فهـــو الـــذي يهب الـــدنيـــا ولم يهب
ومـــذ رأت صـــده عـــن زيعهـــا حلـــب
ووصلـــه لبـــلاد الغير بـــالحلـــب
غـــارت عليـــه ومـــدت كـــف مفتقـــر
منهـــا إليـــه وأبـــدت وجـــه مكتئـــب
واستعطفتـــه فـــوافتهـــا عـــواطفـــه
وأكثـــب الصلـــح إذ نـــادتـــه عـــن كثـــب
وحـــل منهـــا بـــأفـــق غير منخفـــض
للصـــاعـــديـــن وبـــرج غير منقلـــب
فتـــح الفتـــوح بـــلا مين وصـــاحبـــه
ملـــك الملـــوك ومـــولاهـــا بـــلا كـــذب

قال ابن أبي طي: وكان كثير من الشعراء يحرضون السلطان على فتح حلب منهم أبو الفضل بن حميد الحلبي له من قصيدة:

يا ابن أيوب لا برحت مدى الـ ... ـدهر رفيع المكان والسلطان

حلب الشام نحو مرآك ولهى ... وله الصب ريع بالهجران

وقال ابن سعدان الحلبي من قصيدة:

دونك والحسناء أم القرى ... ونارها الأشهب والطود الأشم

واركب إلى العلياء كل صعب ... أبيت لعنا وخلاك كل ذم

وارم فكل الصيد في جوف القرى ... لا صارم السهم ولا نابي الحكم

مد إلى أخت السها[٢٢] زورة ... لا فرق يعقبها ولا ندم

فيا لها شماء مشمخرة ... تطارح البرق وساحات الديم

إيه صلاح الدين شدّ أزرها ... واعزم عليها فالزمان قد عزم

ودونك المنعة من قبابها ... وبابها المغلق في وجه الأمم

قال: وفي آخر يوم السبت ثامن عشر صفر نشر سنجق السلطان الأصفر على سور قلعة حلب، وضربت له البشائر، وفي ذلك الوقت تخفى عماد الدين وخرج من القلعة ليلا الى المخيم، وأخذ في إخراج ماكان له بالقلعة من مال وسلاح وأثاث، وكان استناب الامير حسام الدين طمان في القلعة حتى توافى رسله بتسليم سنجار ونصيبين والخابور إلى نوابه، وأعطى السلطان طمان الرقة لوساطته في أمر عماد الدين، وكان

السلطان شرط انه مايريد من حلب الا الحجر فقط وأذن لعماد الدين في أخذ جميع مافي القلعة، ومايمكنه حمله، فلم يترك عماد الدين فيها شيئا، وباع في السوق كل مالم يتمكن من حمله، وأطلق له السلطان بغالا وجمالا وخيلا برسم حمل مايحتاج إلى حمله، وعمل له يوم الأحد تاسع عشر صفر دعوة عظيمة في الميدان الأخضر، وأحضرها جميع الأمراء ومقدمي حلب.

قال: وبينما السلطان على لذته بالدعوة والأخذ والإعطاء والانعام والحبا إذ حضر إليه من عرفه وفاة أخيه تاج الملوك بسبب الضربة التي أصابته على حلب، فلم يتغير لذلك، ولا اضطرب ولاانقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح، وبذل الاحسان، وأمر بستر ذلك وتوعد عليه، إن ظهر، وكظم حزنه وأخفى رزيته، وصبر على مصيبته، ولم يزل على طلاقته وبشاشته إلى وقت العصر، وفي ذلك الوقت انفضت الدعوة، وتفرق الناس، فحينئذ قام رحمه الله واسترجع وبكى على أخيه، ثم أمر به فغسل وكفن وصلى عليه وأمر به فدفن بمقام ابراهيم صلى الله عليه وسلم بظاهر حلب، ثم حمله بعد ذلك الى دمشق ودفنه بها.

قال: وكان تاج الملوك شابا حسن الشباب مليح الأعطاف، عذب العبارة، حلو الفكاهة، مليح الرمي بالقوس والطعن بالرمح، وكان شجاعا باسلا مقداما على الأهوال وكان قد جمع إلى ذلك الكرم والتفنن في الأدب وله ديوان شعر حسن متوسط فمنه:

يا هذه وأماني النفس قربكم
يا ليتها بلغت منكم أمانيها
إن كانت العين مذ فارقتكم نظرت
إلى سواكم فخانتها أماقيها

قال: ولما انقضت تعزية السلطان بأخيه خلع على الناس في اليوم الرابع، وفرق في وجوه الحلبيين الأموال.

وفي سادس عشري صفر ورد أصحاب عماد الدين، وأحضروا اليه العلائم بتسليم سنجار، ونصيبين والخابور، ففي ذلك اليوم تسلم قلعة حلب وأنزل منها الأمير طمان وأصحابه، ولما سلمها إلى نواب السلطان ركب عماد الدين في وجوه أصحابه وأمرائه، وخرج إلى خدمة السلطان ظاهرا، وركب السلطان إلى لقائه فاجتمعا عند مشهد الدعاء الذي بظاهر حلب من جهة الشمال فتسالما، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم جاء بعد عماد الدين ولده قطب الدين، فترجل للسلطان وترجل السلطان له واعتنقه، وعادا فركبا، وسار هو وابوه في خدمة السلطان إلى المخيم بالميدان الأخضر، فأجلس السلطان عماد الدين معه على طراحته، وقدم له تقدمة حسنة عشرين بقجة صفر فيها مائة ثوب من العتابي والأطلس والمعتق والممرس، وغير ذلك وعشرة جلود قندس، وخمس خلع خاص برسمه ورسم ولده، ومائة قباء ومائة كمة وحجرتين عربيتين بأداتها وبغلتين مسروجتين، وعشرة أكاديش، وخمس قطر بغال، وثلاث قطر جمال عربيات وقطار بخت، ولما فرغ السلطان من عرض الهدية قدم الطعام فلما أصاب منه عماد الدين نهض للركوب، وخرج السلطان معه، وركب لوداعه، وسار معه إلى قريب من بابلى، وودعه وعاد وسار عماد الدين إلى بلاده.

قال: في يوم الاثنين سابع عشري صفر ركب السلطان وصعد الى قلعة حلب، وكان صعوده إليها من باب الجبل، وسمع وهو صاعد إلى قلعة حلب يقرأ:(قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء)[٢٣]الآية، وقال: والله ماسررت بفتح مدينة كسروري بفتح هذه المدينة، والآن قد تبينت أنني أملك البلاد، وعلمت أن ملكي قد استقر وثبت، وقال: صعدت يوما مع نور الدين رحمه الله تعالى إلى هذه القلعة، فسمعته يقرأ:(قل اللهم مالك الملك) الآية.

قال: ولما بلغ السلطان إلى باب عماد الدين قرأ(وأورثكم أرضهم

وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها)(٢٤) ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين، ثم سجد فأطال السجود، ثم خرج ودار في جميع القلعة، ثم عاد إلى المخيم وأطلق المكوس والضرائب، وسامح بأموال عظيمة، وجلس للهناء بفتح حلب، وأنشده جماعة من الشعراء، منهم يوسف البزاعي له من قصيدة:

شرفت بسامي مجدك الشهباء
وتجللتها بهجة وضياء
ألقت إليك قيادتها وبها على
كل الملوك ترفع وإباء

ومنهم سعيد بن محمد الحريري له من قصيدة تقدم بعضها:

وصبحت شهباء العواصم مصلتا
قواضب عزم لا يفل شهيرها
فأمطتك منها غاربا فيك راغبا
وعاد يسيرا في يديك عسيرها
وأوطأت منها أخمصيك تنوفة
يعز على الشعرى العبور عبورها
ورد إليها روح عدلك روحها
وكانت رميا لا يرجى نشورها

قال: وقال والدي أبو طي النجار من قصيدة:

حلب شامة الشام وقد زيد
ت جلالا بيوسف وجمالا
وهي أس الفخار من نال أعلا
ها تعالى فخامة وتغالى
ومحل العلاء من حل فيها
تاه كبرا وعزة وجلالا
من حواها ملكا ملك الأر
ض اقتسارا سهولة وجبالا

فـــــافترعهـــــــامهنــــــأبمحـــــل
سمـــق الأنجــم الــوضــاء وطــالا (٢٥)

قال: وحدثني جماعـة من الحلبيين منهم الركن بن جهبـل العدل،قال: كان الفقيـه مجد الديـن بن جهبل، الشـافعي الحلبـي قد وقـع اليه تفسير القـرآن لأبي الحكـم المغـربي، فـوجـد فيه عنـد قـولـه تعـالى:(الم غلبـت الـروم)(٢٦) الآيـة إن أبا الحكـم قـال: إن الـروم يغلبون في رجـب سنـة ثلاث وثمانين وخمسمائة، ويفتح البيت المقـدس ويصير داراً للاسلام إلى آخر الأبد، واستدل على ذلـك بأشياء ذكرها في كتابـه، فلما فتح السلطان حلب كتـب إليه المجـد بن جهبل ورقـة يبشره بفتح البيـت المقدس على يديه، ويعين فيـه الزمان الذي يفتحـه فيه، وأعطى الورقـة للفقيه عيسى، فلما وقـف الفقيه عيسـى عليهـا لم يتجـاسر على عرضهـا على السلطـان، وحدث بما في الـورقة لمحيـي الدين بـن زكي الديـن القاضي الـدمشقي، وكان ابـن زكي الـدين واثقـا بعقل ابـن جهبل، وأنـه لايقدم على القـول حتى يحققه ويثق به، فعمل قصيدة مدح السلطان بها حين فتح حلب في صفر وقال فيها:

وفتحكـــم حلبـــا بـــالسيـــف في صفـــر
قضـــى لكـــم بـــافتتـــاح القـــدس في رجـــب

ولما سمـع السلطان ذلـك تعجـب من مقـالتـه،ثـم حين فتح البيـت المقـدس خرج اليـه المجد بـن جهبل مهنئـا له بفتحـه، وحدثـه حديـث الورقة، فتعجب السلطـان من قوله، وقال: قد سبق إلى ذلـك محيي الدين ابن ز كي الدين، غير اني أجعل لك حظـا لايزاحمك فيه أحد، ثم جمع له من في العسكـر من الفقهاء وأهـل الدين، ثـم أدخله إلى القدس بعـدما خرج الفـرنج منه وأمـره ان يذكر درسا مـن الفقه على الصخرة، فـدخل وذكر درسا هناك وحظي بمالم يحظ به غيره.

قلت: وسيأتي في فتح بيت المقدس في فصل المنبر ذكر ماقاله أبو الحكم في تفسيره، وغيره مما يناسبه، وبالله التوفيق.

وقال العماد: ثم فتح حلب في صفر من هذه السنة ، ومدح القاضي محيي الدين بن الزكي السلطان بأبيات منها:

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس كما ذكره فكأنه من الغيب ابتكره ، قال: ويشبه هذا أنني في سنة اثنتين وسبعين طلبت من السلطان جارية من سبي الاسطول المنصور في أبيات وهي:

يؤمل المملوك مملوكة
تبدل الوحشة بالأنس
تخرجه من لين وسواسه
بطلعة تشرق كالشمس
فوحدة العزبة قد حركت
سواكن البلبال والمس
فلا تدع يهدم شيطانه
ما أحكم التقوى من الأس
فوقع اليوم بمطلوبه
مما سبى الاسطول بالأمس
لازلت وهابا لما حازه
سيفك من حور ومن لعس
وإنني آمل من بعدها
كرائم السبي من القدس

قال: فجاء الأمر على وفق الأمل، فوهب ما أملت عام القدس

- ٨٤٠٤ -

فصل

فيما جرى بعد فتح حلب

قال ابن أبي طي: كاتب الوالي بحارم الفرنج واستدعاهم إليه مطمعا لهم في الاستيلاء على حارم، بشرط ان يعصموه من الملك الناصر، وعلم الأجناد بقلعة حارم بما عزم عليه فتآمروا بينهم في القبض عليه، وكان هذا الوالي ينزل من القلعة ويصعد إليها في أموره ولذاته، فاتفق أنه نزل منها لبعض شأنه فوثب أهل القلعة لما خرج وأغلقوا بابها، ونادوا بشعار السلطان، وكان السلطان راسل والي حارم وبذل له في تسليم حارم إليه أشياء كثيرة منها ولاية بصرى وضيعة في دمشق يملكه إياها ودار العقيقي التي كان نجم الدين أيوب والد السلطان يسكنها، وحمام العقيقي بدمشق، وثلاثون ألف دينار عينا، ولأخيه عشرة آلاف دينار، فاشتط في السوم وتغالى في العوض، فأنفذ إليه السلطان وتوعده وتهدده، فكاتب الفرنج يطلب نجدتهم، وقيل إن نقيب القلعة أراد أن تنفق سوقه عند السلطان ويتحصل منه شيئا، فكاتب السلطان بالعمل على الوالي، فكتب إليه السلطان بتتميم ذلك ووعده بأشياء سكن إليها، وجرى الأمر على ماذكرناه من إغلاق الباب في وجه الوالي، وقيل إن النقيب وأهل القلعة لما أغلقوا الباب في وجهه شنعوا عليه بمكاتبة الفرنج، ولم يكن فعل ذلك إقامة لعذرهم، وقذفوه بالحجارة، ونادوا بشعار السلطان، ولما اتصل بالسلطان هذه الأحوال أنفذ تقي الدين إلى حارم ليتسلمها، فامتنع النقيب وأهل القلعة من تسليمها إليه، فرحل السلطان إليها بنفسه جريدة، فلما أشرف عليها نزل إليه النقيب ووجوه القلعيين وسلموها إليه في تاسع عشر صفر، ولما حضروا عند السلطان حدثوه بكيفية الحال، وكان بدر الدين حسن ابن الداية حاضرا، فقال للسلطان ياмولانا لاتلتفت إلى هؤلاء فإنهم آذوا هذا الوالي وكذبوا عليه حتى فوتوه ماكان السلطان وعده به، وماقلت هذه إلا عن تجربة، فإنني لما كنت

متوليا لهذه القلعة جرى علي من كذبهم في حقي وتحزصهم علي أمور كدت بها أهلك مع نور الدين، وهم كانوا سبب خروجي من هذه القلعة، وأنا أرى أن السلطان يقرهم في القلعة على هذه التجربة، فضحك السلطان وأمر لهم بما كان وعدهم به وأفضل عليهم، وولى في القلعة غيرهم، وقال لابن الداية:إن بين أيدينا أمكنة نريد أخذها، ومتى لم نفي بها نعد، ونجزل العطاء لم يثق بنا أحد، وبات السلطان بقلعة حارم ليلتين، وعاد إلى حلب في ثالث ربيع الأول، فرتبها وقرر ولده الظاهر سلطانا بها، وقرر له في كل شهر أربعة آلاف درهم وعشرين كمه وقباء ومايحتاج إليه من الطعام وغيره، وجعل معه واليا سيف الدين ازكش الأسدي، وولى حسام الدين تميرك الخليفتي شحنة حلب، وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد الدمشقي، ودار الضرب فضرب الدرهم الناصري الذي سكته خاتم سليمان، ونقل الخطابة من بني العديم إلى أبي البركات بن الخطيب هاشم بسفارة القاضي الفاضل، وولى القضاء لمحيي الدين بن زكي الدين الدمشقي، فاستناب فيه ابن عمته أبا البيان نبأ بن البانياسي، وولى الجامع والوقوف أبي علي بن العجمي.

وقال العماد: كان في قلعة حارم مملوك من مماليك نور الدين، فعصى وتأبى عن تسليمها فأخرجه منها أهلها لما أتهموه بمكاتبة الفرنج، وأرسلوا إلى السلطان فتسلمها، ودبر أمرها وأحكمها.

وقال ابن شداد:أنفذ إلى حارم من يتسلمها، ودافعهم الوالي، فأنفذ الأحناد الذين بها يستحلفونه، فوصل خبرهم اليه يوم الثلاثاء ثامن عشري صفر فحلف لهم، وسار من وقته إلى حارم فوصلها تاسع عشري صفر فتسلمها، وبات بها ليلتين وقرر قواعدها وولى فيها ابراهيم بن شروه، وعاد إلى حلب، فدخلها ثالث ربيع الأول، ثم أعطى العساكر دستورا، فسار كل منهم إلى بلده وأقام يقرر قواعد حلب ويدبر أمورها.

قال العماد: ورجفت أنطاكية بعد ذلك رعبا فأرسل صاحبها جماعة من أسارى المسلمين، وانقاد وسارع إلى أمان السلطان، وولى السلطان القضاء بحلب محيي الدين بن الزكي فاستناب فيها زين الدين نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسي، وكشف السلطان عن حلب المظالم، وأزال المكوس، وولى قلعتها سيف الدين يازكوج، وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد، وجعل حلب باسم ولده الملك الظاهر غازي، وكان استصحبه من مصر عند وصوله الى الشام، وأقر عين تاب على صاحبها وأعطى تل خالد وتل باشر بدر الدين دلدرم بن بهاء الدولة بن ياروق، وأعطى قلعة عزاز علم الدين سليمان بن جندر.

قلت: وفي توقيع اسقاط المكوس بحلب من كلام الفاضل عن السلطان:« وانتهى إلينا أن بمدينة حلب رسوما استمرت الأيدي على تناولها، والألسنة على تداولها، وفيها بالرعاة إرفاق، وبالرعايا إضرار، ولها مقدار إلا عند من كل شيء عنده بمقدار، منها ماهو على الأثواب المجلوبة، ومنها ماهو على الدواب المركوبة، ومنها ماهو في المعايش المطلوبة، وقد رأينا بنعمة الله أن نبطلها، ونضعها ونعطلها، وندعها ونضرب عنها في أيامنا، ونضرب عليها بأقلامنا، ونسلك ماهو أهدى سبيلا، ونقول ماهو أقوم قيلا، ونكره ماكره الله، ونحظر ماحظره الله، ونتأجره سبحانه فإنه من ترك شيئا لله عوضه الله أمثاله، وأربح متجره في الرعية اليوم بما يوضع عنهم من أصرها، ولنا غدا بمشيئة الله مايرفع من أجرها، فعلى كافة أوليائنا وولاتنا وأمرائنا والمتصرفين من قبلنا أن لايهووا إليها يدا، ولايردوا ولو بلغ الظمأ منهم موردا، ولايثقلوا بها ميزان المال، فيخف ميزان الأعمال ولايرغبوا في كثير الحرام فإن الله يغني عنه بقليل الحلال، وليعلم أن ذلك من الأمر المحكم، والقضاء المبرم، والعزم المتمم».

وفي منشور أهل الرقة بمثل ذلك:« إن أشقى الأمراء من سمن كيسه،

وأهـزل الخلق، وأبعـدهـم من الحق مـن أخذ البـاطـل من النـاس وسماه الحق، ومـن ترك لله شيئـا عـوضه، ومـن أقـرض الله قـرضـا حسنا وفـاه ماأقـرضه، ولما انتهى أمرنـا الى فتح الرقـة أشرفنا منها على سحت يـؤكل، وظلم مما أمر اللـه به أن يقطع، وأمـر الظالمون أن يـوصل، فـأوجبنا على أنفسنا وعلى كافـة الولاة من قبلنا أن يضعـوا هذه الرسوم بـأسرها، ويلقوا الرعايـا من بشائر أيام ملكنـا بأسرها، ونعتق بلـد الرقة من رقهـا، ونثبت احكام المعدلـة فيها بمحو هذه الرسـوم ومحقها، وقد أمرنا بـأن تسد هذه الأبـواب وتعطـل، وتنسـخ هـذه الأسبـاب وتبطـل، وتستمطـر سحـائب الخصـب بالعـدل وتستنزل، ويعفـى خبر هذه الضرائب مـن الدواويـن، ويسامـح بها جميعها جميـع الأغنياء والمساكين، مسـامحة ماضيـة الأحكام، مستمرة الأيـام، دائمة الخلـود خالـدة الدوام، تـامة البـلاغ بالغـة التمام، موصـولة على الأحقـاب، مسنونـة في الأعقـاب، ملعـونا مـن يطمـح إليهـا ناظره، وتتناولها يده، أو يمسك عنها اليوم على طمع لايوصله إليه غده».

قال العماد: وورد على السلطان وهو نازل على حلـب بشارتان احداهما أن الاسطول المصري غزا في خـامس عشر المحرم، ورجع بعـد تسعة أيام وقد ظفر ببطسة مقلعة من الشام فيهـا ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجا من خيـالة وتجار، والثـانيـة أن فرنـج الـداروم نهضـوا فنذر بهم والي الشرقيـة، فخرج إليهم فـالتقوا على ماء يعرف بـالعسيلة، فاستولى عليهـم المسلمون بعد ان كـادوا يهلكون عطشا، لأن الفـرنج كانـوا قد ملكوا الماء فـأرواهم الله بماءالسماء.

قلت: وكتب الفاضل عـن السلطان الى بغداد بهاتين البشارتين وبفتح حلب وحـارم كتابا شافيـا أوله:« أدام الله أيـام الديوان العزيـز ولازالت منازل مملكتـه منازل التقـديس والتطهير، والـوقوف بـأقصى المطـارح من أبوابـه موجبـا للتقديـم والتصديـر، والأمة مجمـوعة الشمـل بإمـامته جمع السـلامـة لاجمع التكسير، الخادم ينهـي أن الـذي يفتتحـه مـن البـلاد

ويتسلمه إما بسكـون التغمد أو بحركة مافي الأغماد، إنما يعـده طريقا إلى الاستنفار إلى بلاد الكفار، ويحسبـه جناحا يمكنه به المطار إلى مـا يلابسه الكفـار من الأقطـار، وعلى هـذه المقـدمة فهـو يستفتـح بـذكر ظفـريـن للاسلام: بـري وبحري، شامي ومصري، احدهما وهو البحـري عود احد الاسطولين اللذيـن اغزاهما اخو الخادم ابو بكر بمصر، وكانـت مدة غيبته مـن حين خروجـه إلى وقت عـوده إلى دميـاط تسعة أيـام، فظفر ببطسـة مقلعـة من الشـام فيها ثـلاثمائة وخمسة وسبعـون علجا منهـم خيالة ذوو شكـة وازعة، وتجار اولـو ثـروة واسعة، والثـاني وهـو البري نهوض فرنـج الـداروم إلى أطراف بعيدة فنـذر بهم والي الشرقيـة، فـركب اليهـم الليـل فرسا، كما ركبوه جملا، وسروا ثقيلا، وسروا رملا فوافى الفريقان إلى مايعرف بالعسيلـة، سبق الفـرنج إلى مـوردته والسـابق إلى الماء محاصر للمسبـوق، ووردوا أزرقـه فتعصـب أرزقهم فظـن المؤمـن أن الكـافر مـرزوق، واشتـد بالمسلمين العطش، ثم ثـابوا إلى الفرنج بقوة انجاد السماء بـالماء فلم ينج من الفـرنج الا رجـلان احدهما الدليـل، والثاني الـذليل، وعـاد المسلمون برؤوس عـدوهـم في رؤوس القنا وقـد اجتنوا ثمراتها، بـأرواحهم في رؤوس الظبا وقد أطفأوا بمائها جمراتها».

ثم قـال: « ويثني الخادم بـذكر مـاامتثله مـن الأوامر العليـة في إغماد سيف مجرده مـن استدعى تجرده، ومـورده من عـرض له وريده» ثـم ذكر تسلمه حلب« وأنه لايؤثر إلا أن تكـون كلمة الله هي العليا لاغير، وثغور المسلمين لها الـرعـايـة ولاضير، لانختـار إلا أن تغـدو جيـوش المسلمين متحاشدة على عـدوها، لامتحاشدة بعتوها ولـو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عـز عليه أن يكون كثير المشـاركين، ولاأساءه أن تكون الـدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمـور الحرب لاتحتمل في التـدبير إلا الـوحدة، فـإذا صح التـدبير لم يحتمل في اللقاء إلا العدة، فعـوض عماد الدين مـن بلاد الجزيرة سنجار وخابورها ونصيبين والرقة وسروج، على أن المظالم تموت فلا ينشر مقبورها، والعسـاكر تنشر راية غزوهـا فلا يطوى منشورهـا، وأجاب

الخادم عماد الدين إلى ماسأل فيه من ان يصالح المواصلة مهما استقاموا لعماد الدين لأنه لم يثق بهم وإن كان لهم أخا، ولم يطمئن إلى مجاورتهم إلى أن يضرب بينه وبينهم من عنايته برزخا، فليلح الآن عذرا لأجنبي إذا لم يثق، ولتكن هذه نصيحة من عوتب في شكره بحسن الظن فلم يفق، ومن شرطه على المواصلة المعونة بعسكرهم في غزواته، والخروج من المظالم فما زاد على ان قال: سالموا مسلما، وحاربوا كافرا، واسكنوا لتكون الرعية ساكنة، وأظهروا ليكون حزب الله ظاهرا، وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل الله والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله هي مراد الخادم من البلاد اذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا منحها، والله العالم أنه لايقاتل لعيش ألين من عيش، ولالغضب يملأ العيان من نزق ولاطيش، ولايريد إلا هذه الأمور التي قد توسم أنها تلزم، ولاينوي إلا هذه النية التي هي خير مايسطر في الصحيفة ويرقم ، وكتب الخادم هذه الخدمة بعد أن بات بحلب ليلة، وخرج منها الى حارم، وكانت استحفظت مملوكا لايملكه دين ولاعقل غرّاً ما هذبته نفس ولاأهل، فاعتقد ان يسلمها إلى صاحب أنطاكية، يسر الله فتحها،اعتقادا صرح بفعله، وشهره بكتبه ورسله، وواطأ على ذلك نفرا من رجال يعرفون بالشمسية، لايعرفون خالقا إلا من عرفوه رازقا، ولايسجدون إلا لمن يرونه في نهر النهار سابحا، وفي بحر الظلام غارقا، فشعر به من فيها من الأجناد المسلمين فشردوه ومن تابعه على فعله، وظفر به المملوك عمر بن أخيه في ضواحي البلد فأخذه وأرسله إلى قلعة حلب، وسار الخادم إليها فتسلمها ورتب بها حامية ورابطة، ولم يعمل على أنها للعمل طرف، بل إنها للعقد واسطة، والخادم كما طالع بماضيه الذي حازه الأمس المذكور، يطالع بمستقبله الذي ينجزه بمشيئة الله الغد المشكور، فهو متأهب للخروج نحو الكفار لاتسأم رايته النصب، ولاجهة سيره الرفع ولاجيشه الجر، ولايصغي إلى قول خاطر الراحة المفند: لاتنفروا في الحر، ولايجيب دعوة الفراش الممهد، ولايعرج على الظل الممدد، ولادمية القصر المشيد،

ولايعطف على ريحانـه فؤاد يفارقـه حولا ويلقـاه يوما، ولايقيـم على زهرة ولـد استهـل فمتـى ذكـره الفطـر على راحتـه قـال:(إني نـذرت للـرحمن صوما)(٢٧).

ومـن كتـاب آخـر انفذه مـن نصيبين سنـة ثمان وسبعين إلى بغـداد:« سبيل الخادم أن يبني ولايهدم، ويـوفر جانبه ولايثلـم، وان يفرق بينه وبين من يمسكـون أعنة الجياد المسومـة ولايطلقونها،ويكنزون الذهـب والفضة ولاينفقونها،فقد علـم ان الخادم بيوت أمواله في بيوت رجالـه، وأن مواطن نزولـه في مواقف نـزاله، ومضارب خيامـه أكنة ظلالـه، وأنه لايدخـر من الدنيـا الا شكته، ولاينال مـن العيش الا مسكتـه، وعدو الاسلام شـديد على الاسلام كلبه، مضطرم على أهله لهبـه، زجل اذا أصغت اسماع التأمل لجبه، ولو أن أحـد من يدعي الملك ميراثـا، ويعد البلاد له تـراثا دفع إلى مدافعـه هذا العدو الكـافر، وإلى منافرة هـذا الفريق النـافر لعرفتـه الأيام ماهـو جاهله، ولقلدتـه الحرب ماهوقـاتله، ولحملته الأحوال مـاتجوز تحته محابله».

وفي كتـــاب آخـر :« واذا أولاه أمير المؤمنين ثغـرا لم يبت في وسطـه وأصبح في طـرفه، واذا سـوغه بلـدا هجر في ظـل خيمه، ولم يقـم في ظل غـرفه، واذا بـات بـات بسيف لـه ضجيعـا، وإذا أصبح أصبـح ومعترك القتـال له ربيعـا، لاكـالـذين يغبـون أبـواب الخلافـة أغباب الاستبـداد، ولايـؤامـرونها في تصرفـاتهم مـؤامرة الاستعبـاد، وكـأن الـدنيـا لهم اقطـاع لاايـداع وكأن الامـارة لهم تخليـد لاتقليد، وكـأن السـلاح عنـدهم زينـة لحامله ولابســه، وكأن مال الخلـق عندهم وديعة فـلا عذر عندهــم لمانعه ولالحابســه، وكـــأنهم في البيـوت دمـى مصـــورة في لـزوم جـــدرهـا، لافي مستحسنات صورها، راضين من الديـن بالعروة اللقبية، ومن أعلى كلمته بما يسمعـونه على الـدرجات الخشبيـة، ومن جهـاد الخارجين على الدولـة باستحسان الأخبـار المهلبية، ومن قتال الكفار بـأنه فرض كفايـة تقوم به

طائفة فيسقط عن الأخرى في أخراها، ومن طاعةالخلافة بذكر اسمها والخروج عن سيماها، فلا يقنعون بأنهم لايجاهدون، إلى أن يمنعوا من يجاهد عنهم ويثاغر، وبأنهم لايساعدون المسلمين إلى ان يساعدوا عليهم عدوهم الكافر، فقد توالوا الشيطان تليدا وطريفا، ووطئوا الاسلام وأهله وطئا عنيفا، فإذا جاء وعد الآخرة جاء الله بهم في زمرة الشيطان لفيفا».

وقال في الكتاب:« إن المواصلة مافزعوا إلى دار الخلافة إلا بعد أن فرعوا والا فطالما طمع أولهم كما طمعوا، وقديما دعوا إلى طاعتها فما سمعوا، وسمعوا فما اتبعوا، حتى أن الأولين منهم علموا أولياء الدولة من الأتراك ضد ماجبلت أخلاقهم عليه من عقوقها، وسنوا لهم اضاعة حقوق الله باضاعة حقوقها، فأين كان التعلق بالدار العزيزة وهم يحاصرون دار الاسلام بأحزابهم، ويرامون التاج الشريف بنشابهم ويمدون محاصرتها بالأسلحة والمنجنيقات،والازواد والإقامات، ويصافون الخلفاء مصافة المواقف، ويكاشفونهم مكاشفة المخالف، ويعززون دزدار تكريت وهي من أهون بلاد الله بجور الجوار، ويجعلونها سجنا لمماليك الخلافة ذوي الاقدار، ولو تحرك اليوم متحرك لكانوا له كنانة، ولكانت بلادهم له خزانة، ويرجو الخادم بالموصل ان يكون الموصل الى القدس وسواحله، ومستقر الكفر من القسطنطينية على بعد مراحله، وبلاد الكرج، فلو أن لهم من الاسلام جارا لاستباح الدار، وبلاد أولاد عبد المؤمن، فلو أن لها ماء سيف لاطفاء مافيها من النار إلى أن تعلو كلمة الله العليا، وتملأ الولاية العباسية الدنيا، وتعود الكنائس مساجد، والمذابح المتعبدة معابد، والصليب المرفوع حطبا في المواقد، والناقوس الصاهل اخرس اللهجة في المشاهد، ويضيف الى الديوان بمشيئة الله تعالى مايجاور اكنافه، ويمد أطرافه مثل: تكريت ودقوقا والبوازيج وخوزستان وكيش وعمان، والذي وقع اعظم من الذي يتوقع، والذي طلع اكثر من الذي يتطلع، والذي رؤي أمس أكثر من الذي يسمع».

قلت: يعني أن مافتحه من البلاد أعظم مـن هذه التي يرجوها، وأشار بفعل المواصلـة إلى ماسبق مـن فعل زنكي في حصـار بغداد، ومساعـدته للسلجوقية على العداة في ذلك الزمان، والله أعلم.

وفي آخر كتاب فاضلي إلى حطان بن منقذ باليمن عن السلطان: «فتح الله علينـا ممالـك وأضافهـا، وبلاد آمنها بنـا مما أخـافها، وبلغنـا غرائب صنـع لايبلغ أحـد أوصـافها، منهـا بـلاد الشام بـأسرهـا، ومملكة حلـب بجملتها، والمدينة بقلعتها، وبلاد الجزيرة بدجلتها، فمنها ماأعيد على من اشترط عليه استخدام عسكـره في بيكارنا، ومنها ما استمـر في اليد وولاته من أوليـائنا وأنصـارنا، ولما لم يبق في البـلاد الاسلامية إلا مـاهو في يـدنا أويـد مطيع لنا، كـان مـن شكـر هـذه النعمة أن نصرف القـوة، ونثنـي العـزمـة، ونحـد الشـوكـة، ونلبـس الشكـة للفـرنـج الملاعين، فننـازلهم ونقارعهـم، ونخاصمهـم إلى الله وننـازعهم، فنطهـر الارض المقدسـة من رجسهم بـدمائهـم إلى أن ترق السيـوف للصخرة الشريفـة لما مر بها مـن قسوة كفـرهـم واعتـدائهم، فنحن نـرجو أن نكون عين الطـائفة مـن الأمة التي أخبر نبينا صلـوات الله عليه أنها لاتزال على الحق ظـاهرة، وبثواب الله وعـدوه ظافـره، والله تعالى يعيننـا على مايعنينـا، ويلهمنا الاستجـابة لدعوته إلى مايحيينا.»

-٨٤١٣-

فصل

في رجوع السلطان إلى دمشق وخروجه منها للغزاة بمخاضة الأردن

رحل السلطان من حلب فمر على حماة، ثم حمص، ثم بعلبك، ثم دمشق.

قال القاضي ابن شداد: لم يقم السلطان في حلب إلا إلى يوم السبت الثاني والعشرين من ربيع الآخر، وأنشأ عزما على الغزاة، فخرج في ذلك اليوم إلى الوضيحي مبرزا نحو دمشق، واستنهض العساكر فخرجوا يتبعونه، ثم رحل في الرابع والعشرين منه إلى حماة، فوصلها، ثم رحل في بقية يومه، ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادى الأولى فأقام بها متأهبا إلى السابع والعشرين منه، ثم برز في ذلك اليوم ونزل على جسر الخشب وتبعته العساكر مبرزة وأقام به تسعة أيام، ثم رحل في ثامن جمادى الآخرة حتى أتى الفوار وتعبى فيه للحرب، وسار حتى نزل القصير، فبات به وأصبح على المخاض، وعبر وسار حتى أتى بيسان فوجد أهلها قد نزحوا عنها وتركوا ماكان من ثقيل الاقمشة والغلال والامتعة بها، فنهبها العسكر، وغنموا واحرقوا مالم يمكن اخذه، وسار حتى أتى الجالوت وهي قرية عامرة وعندها عين جارية،فخيم بها وكان قد قدَّم عز الدين جرديك، وجماعة من المماليك النورية، وجاولي مملوك أسد الدين حتى تكشفوا خبر الفرنج، فاتفق أنهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للفرنج، فوقع أصحابنا عليهم، وقتلوا

منهـم مقتلة عظيمـة، وأسروا منهم زهـاء مـائة نفر، وعـادوا ولم يفقد مـن المسلمين سوى شخص واحد يدعى بهرام الشـاووش، فوصل إليه في بقية يوم الكسرة الـواقعة، وهـو العاشر مـن جمادى الآخرة، وفي جـادي عشره وصل الخبر إلى السلطان أن الفـرنج قد اجتمعوا في صفـورية، ورحلوا الى الفولـة وهي قرية معـروفة، وكان غـرضه المصاف، فلما سمع ذلـك تعبى للقتال، وسـار للقاء العـدو فالتقوا وجـرى قتال عظيـم وقتل مـن العدو جماعـة، وجـرح جماعـة وهـم ينضم بعضهـم الى بعـض يحمـي راجلهـم فارسهم، ولم يخرجوا للمصـاف، ولم يزالوا سائرين حتى أتـوا العين فنزلوا عليهـا، ونزل السلطـان حولهم والقتـال والجرح يعمل فيهـم ليخرجـوا الى المصـاف، وهـم لايخرجـون لخوفهـم من المسلمين فـإنهم كـانـوا في كثـرة عظيمـة، فرأى السلطـان الانتزاح عنهـم لعلهم يـرحلون فيضرب معهـم مصاف، فـرحل نحو الطور سـابع عشر جمادى الآخرة، فنـزل تحت الجبل مترقبا رحيلهم ليأخـذ منهم فرصة فأصبح الفـرنج راجعين، وعلى أعقابهم ناكصين، فرحل رحمه اللـه نحوهم وجرى من رمي النشـاب واستنهاضهم للمصاف أمـور عظيمة، فلم يخرجـوا ولم يزل السلطـان حولهم حتى نـزلوا الفولـة راجعين الى بلادهـم، وعـاد السلطان منصـورا وقد نال منهـم قتلا وأسرا، وخرب عفر بلا وبيسان وزرعين وقرى عـديدة فنزل الفوار وأعطى الناس دستورا، فسار مـن آثر المسير، وأتى هو دمشق يوم الخميـس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة.

قال: فانظـر إلى هذه الهمة التي لم يشغلها عن الغـزاة أخذ حلب، ولا الظفر بها بـل كان غرضـه رحمه الله عليه الاستعـانة بالبـلاد على الجهاد، والله يحسن جزاءه في الآخرة، كما وفقه للأعمال المرضية في الدنيا.

وقـال العماد: خرج السلطـان إلى الغزو، ورابـط العدو بعين الجالـوت، وعبر المخـاضة الحسينيـة تـاسع جمادى الآخـرة، فـوصـل إلى بيسان وقـد أخلاهـا أهلها، فـأطلق الناس فيهـا النيران ونهبوا مافيهـا، وكذلـك فعلوا

بأبـراج وقلاع غيرهـا، وصادفـت مقدمـة العساكـر خيلا ورجـلا للفرنـج عابرين من نابلس ومقدمه ابن هنفري فقتل منهم وأسر، وتوقل الباقون في الجبال، ووصـل الخبر بأن الفرنج قـد أقبلوا في ألف وخمسائة رمـح، ومثله تـركبلي وخمسـة عشر ألـف راجـل، فأتـاهـم المسلمـون وذلـك على عين الجالوت، فـأخذهم الرعـب وخاموا عـن الإقدام عليهم فخندقـوا حولهم وأسنـدوا ظهـورهـم إلى الجبـل، وأقـامـوا كـذلـك خمسـة أيـام، فلما رأى المسلمـون منهـم ذلـك رجعـوا عنهـم، فتنفـس خنـاقهـم، ونكصـوا على أعقابهم إلى الناصرة، وعـاد المسلمون بالغنائم والأسـارى لم يخلص العدو منها شيئا وذلك يوم الخميس سـادس عشر جمادى الآخرة، وقد كانوا مدة مقامهم يتخطفهم المسلمـون من كل جانب، ويرمـونهم بالنبل، وينتظرون أن يحملوا أولا كما هو عادتهم فما فعلوا.

ومن كتـاب فاضلي عن السلطـان إلى بغداد :« لما كـان بتاريخ الثامن من جمادى الأولى سار الخادم مـن أدنى المنازل من بـلاد الاسلام إلى بلاد الكفـر وقد تكـاملت جنـود الاسلام، وتعبـت ميامنـه ومياسره، وأخـذت أهبه، وشحذت قضبـه وباعوا الله مـااشتراه، ومثل لأعينهم ثوابـه فكأنها تـراه، وسـاروا تحت ليـل عجاج ستر السـائر تحتـه سراه، وأصبح الخادم وايـاهـم بعين الله في سبيلـه على مـاء الأردن، وهـو النهر الفـاصـل بين الإسلام والكفر، والمخاضة المضروب منهـا بسور على ذلك القطر، فخاض ذلك البحـر، وذلك النهر، وأمـدته نطف الحديـد فإذا الماء يرمـي بالشرر، ويقذف بـالجمر، وذلك يـوم الخميس ثاني يـوم المسير، وهو تاسـع الشهر، ولما جـاز المخاضـة أخـذ البلاد ضرب المخـاض، وزلـزلـت أرضها فهـي بالقوم تـرض وللغنيمة تراض، وأخذت رجال الاسـلام تنقص الأرض من أطرافهـا، وتقلع قلاع الجبـال وتطير رؤوسها من أكنـافها، فإذا البـلاد قد انهزم أهلهـا فألحقهـا المسلمـون مساكنهـا في الهزيمـة، وعـولوا فيهـا على سيوف المحـاول فإذا هـي راحلة وكأنها مقيمـة، وهذه البـلاد مدن مـاكان عزم قبل منهـا مدنيا، وعمارات ماكان أمـل اليها مفضيا، بل طـال ماكان

عنها مغضبا مثل بيسان وعفر بلا وزرعين وجينين، فكلها بلاد مشاهير لها قرى مغلة، وبساتين مظلة، وأنهار مقله، وقلاع مطلة، وأسوار قد ضربت على جهاتها، وأحاطت بجنباتها، واتخذتها المدن سياجا على قصباتها فغنم المسلمون مافيها من أقوات مختزنة، وشفوا منها حزازات القلوب المضطغنة، وأحرقوا أوعية كفرها بالنار، وعذبوها عذاب أهلها من الكفار، وقتلوها وكأن الضرام كان لها دما، وكتبوا عليها الخراب، وكأن السيف كان فيها قلما، فأجلوا عن حماها حمما، وتساقطت جدرها فكأنما أسارت فيها النوى لمما، ولما كان يوم السبت الحادي عشر ورد الخبر بأن عسكر الكافرين قد ركبَ من مكان مجتمعه، وزحف بلابسه ومدرعه، فركب الخادم وسوى المؤمنين في مواقف القتال، ومنازل النزال، فمن متسرع يطوف عليهم بصفاح ليطاف عليه بصحاف، ومن متثبت يمشي إلى الموت مشي العروس ساعة الزفاف، وهنالك منظر ود المؤمنون لو أن أميرهم له ناظر كما هو به آمر، ولاغرو أن يصفه الخادم ليسر المخدوم، لاليوصف الخادم، ومن وصف ضربة السيف فإنما وصف الضارب، ولم يصف الصارم، ونزل العدو إلى الأرض منحطا عن سرجه، ومنحازا عن فجه وسالكا نهجا غير نهجه، وأحدق به راجله وهوزهاء عشرين ألف راجل، وركز صليب صلبوته فاستوى في العجز المحمول والحامل، ونزل محصورا، وخندق فكأنما أصبح الكافر في حفر ذلك الخندق مقبورا، وأقام بإزائه خمسة أيام تماسيه الوقائع وتصابحه، وتماشيه الروائع وتصافحه، ويفزع فيه إلى الحفير ويتكرر إليه في اليوم الواحد النفير، ويبعث اليه السهم وهو في الحرب السفير، فيقبل تحية الضرب مترددة ولايردها، وتتبسم إليه صفحة النصل متوددة فلا يودها، ويجتهد في استخراجه وقد رأى العزائم، ولم يخرج لدعوتها، والمكارم ولم يرحل لبغيتها».

ومن كتاب آخر إلى وزير بغداد: « أثاروا على يوم الكفر ليلة عجاج وجعلت ليل من وراءهم من الاسلام سكنا، وصبروا وصابروا فكأنما

كان السيف لهم أليفا، وكان المعترك لهم وطنا، وأخذت في البلاد النار مأخذها، ونفذت فيها الغير منافذها، وثلت عروشها، وتلت غروسها، وجليت في مصبغات النيران عروسها، وأصبحت تناجي العيون ثواكلها، وتصف النوازل منازلها دمنا على الأطلال مطلولةوصرعى بسيوف البلاء مقتولة، وجاء العدو فأحدقت به الأبطال، واستمدوا مغاني الشكوى لتبوح ألسنتهم إذا خلوا إلى شياطينهم، فأخلدوا إلى الأرض نازلين، وقعدوا عن الحملة ناكلين، واتقى فارسهم براجله، وراجهم بنابله، ولاذ سيفهم بجفنه، ولاخير في حامله، ولاذ جفنه بأطرافه خوفا من كحله بسهم قاتله، وأقاموا محصورين لايستطيعون وردا ولاصدرا، ولايجدون متقدما ولامتأخرا، فما كان للكفر فئة ينصرونه من دون الله، وماكان منتصرا وعرف النصل في لحن السيف، أن الشجاعة والنكول أمران يقذفهما الله في القلوب، فلايقل الناس كيف.

-٨٤١٨-

فصل

في ولاية الملك العادل حلب وولاية تقي الدين مصر وغير ذلك

قال العماد: وقد كان العادل نائبا بمصر، فلما فتح السلطان حلب كتب العادل اليه يطلبها منه مع أعمالها، ويدع الديار المصرية، فكتب السلطان إليه أن يوافيه الى الكرك، فإنه سائر إلى فتحه، فأشار القاضي الفاضل على السلطان أن يستنيب في الديار المصرية موضع أخيه العادل ابن أخيه تقي الدين فاستصحبه السلطان معه في رجب، إلى الكرك هذه السنة، وحاز في طريقه قبل وصوله اليها غنائم وخيم على الربة، ثم حصر الكرك ورماه بالمجانيق صباحا ومساء، وتناوب عليه الأمراء، حتى خرج شهر رجب وماحصل منه الطلب، لكن عظمت النكاية في الكفار بأخذ أموالهم وتخريب الديار، ووصل الخبر أن الفرنج قد استجمعوا وتجمعوا بالموضع المعروف بالواله على قصد المسلمين وخلاص الكرك من أيديهم ورأى السلطان أن أمر حصره يطول فعول على الرحيل إلى دمشق، ووصل العادل إلى السلطان وهو بعد على الكرك، فجهز تقي الدين إلى الديار المصرية والياً عليها، وقوى عضده بصحبة القاضي الفاضل له، وتولى العادل حلب وأعمالها، ومنبج وجميع قلاعها، فسار إليها في رمضان، ورجع منها إلى دمشق الملك الظاهر ونواب السلطان.

قلت: وكتب العادل إلى الفاضل يستشيره في التعوض عن مصر بحلب، فكتب اليه الفاضل كتابا فيه:

إنما أنـــــت كغيـــث مــــاطــــر
حيثما صرفـــــــــه الله انصرف

والمولى أعلم، وبسياسة الدنيا أقـوم،وقد تكرر الكتاب الناصري إليه بما نص عليـه، وكشف لـه الغطاء وسنـى له العطـاء، وقالـت له المخطـوبة «هيت لك»، وأدى إليه مـالك الأمر ماقد ملك، فلا زالـت سعادته أنور مـن شمس، وأدور مـن فلك، ولا زال رابحـا على الـدهر إن امـرء خسر، وباقيا إن امرء هلك».

ومـن كتابآخر إليـه:« أدام اللـه دولة حـامـي الحمى، وثبت الدولـة الناصريـة التي يقـوم بها ملكان همامان هما: صـلاح يمنع فسـادا، وهذا سيف يحقن دما».

قال ابن ابي طي: كان السلطان يعظـم الملك العادل، ويعمل برأيه في جميع أمـوره، ويتيمن بمشـورته، ولايعلـم بأنـه أشار على السلطـان بأمـر فخالفـه، حدثنـي قاضي اليمـن جمال الديـن قال: كـان السلطان يجمـع الأمـراء للمشورة فـإن كان العـادل حـاضرا سمع مـن رأيه وإن لم يكـن حاضرا لم يقطـع أمرا في المهمات حتـى يكاتبـه بجلية الأحـوال ثم يسمـع رأيـه فيها، وقـال: وحـدثني أبي قـال: حدثنـي جماعـة قـالوا : كـان السلطـان ليس لـه غناء عـن العـادل ولا عن رأيـه، فلما حصل العـادل بمصر وبعـد عـن السلطان هنـاك صـار السلطـان يتكلف في مكـاتبتـه بالأخبـار، ويؤخر الأمـور، إلى أن يرد عليه جـوابه فيفـوته بذلـك كثير من المنافـع الحاصلة للدولة وللجهـاد، فلما حصر الكرك في هذه السنة كـاتبه بالحضور إليه بعيـاله وأمواله وجميع أصحابـه، وولى مصر تقي الدين، ولما حصل العادل عند السلطان وقع في نفسـه أن يعوضه عن ولاية مصر، ثم حار في ولاية يوليه إياها.

قال: وحـدثني علم الديـن قيصر الصلاحي قال: إنما أقـدم السلطان

العادل من مصر لأجل ولاية حلب، وبذلك كاتبه، ولهذا خرج العادل بأمواله وعياله وأثقاله، قال: وحدثني غيره قال: لما حصل العادل عند السلطان بأمواله وأثقاله كانت الأموال قد قلت على السلطان، وقد حصلت عنده عساكر عظيمة، فأحضر العادل ليلا وقال أريد أن تقرضني مائة وخمسين ألف دينار إلى الميسور، فقال السمع والطاعة، ثم قام وخرج من عنده وكتب اليه يقول أموالي جميعها بين يديك، وأنا مملوكك وأشتهي أن أحمل هذا المال الى خدمة السلطان ويكون عوضا عنه مدينة حلب وقلعتها، فأجابه السلطان: إنني والله ما أقدمتك إلا لأوليك حلب، وإذ قد اقترحت ذلك فقد وافق ماعندي، فلما أصبح العادل أنفذ وسأل السلطان أن يكتب له بمدينة حلب كتابا ويجعله ككتاب البيع والشراء، فامتنع السلطان وقال: انما تكون حلب إقطاعا، والمال علي له، فاعتذر العادل إلى السلطان، ولما اجتمعا قال له السلطان: أظننت أن البلاد تباع أو ماعلمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحراس لأموالهم،أو ماعلمت أن السلطان ملك شاه السلجوقي لما وقف طبرية على جامع خراسان لم يحكم به أحد من القضاة ولا من الفقهاء، ثم قرر السلطان ولاية العادل لحلب وأعمالها إلى رعبان إلى الفرات إلى حماة، واستدعى ولده الظاهر من حلب، فلما حضر أمره بالعود إلى حلب وتسليمها إلى عمه العادل، ففعل وعاد الى دمشق، وسار العادل إلى حلب فالتقيا بالرستن وباتافيه، فكانت ولاية الظاهر بحلب في هذه النوبة نحو ستة أشهر، ولما وصل الظاهر إلى دمشق أقبل على خدمة والده، والتقرب إليه إلا أن الانكسار لخروج حلب عنه ظاهر عليه، وهو مع ذلك لايظهر شيئا إلا الطاعة لوالده، والانقياد إلى مرضاته.

حدثني أبي عن مجد الدين بن الخشاب قال: حدثني الملك الظاهر قال: لما بلغني أن السلطان أعطى حلب للملك العادل جرى علي ماقدم وماحدث وأصابني من الهم مالم أقدر على النهوض به، ووددت أني لم

أكن رأيتهـا، ولادخلت إليهـا لأن قلبي أحبها وقبلهـا وطاب لي هـواؤها، ولما فارقتها كنت أحن اليها واشتاقها.

قال: ودخـل العادل حلـب في رمضان وخلـع على المقدمين والأعيان، وكان قـد قدم بين يديـه كاتبه المعروف بـالصنيعة لتسلم حلـب وقلعتها، مـن الملك الظـاهـر، وولى القلعة صـارم الـدين بـزغـش، وولى الديـوان والاقطـاعات شجـاع الـدين بـن البيضـاوي صبـاغ ذقنه، وولى الانشـاء ومايتعلـق بأمور السر للصنيعة ابـن النحال، وكان نصرانيا ثـم أسلم على يد العـادل، فولى ابن النحـال الوظـائف لجماعة من النصـارى، وفي ذلك يقول الشاعر:

فـــاق ديـــن المسيـــح في دولـــة العـــا
دل حتـــى عـــلا على الأديـــان
ذا أمير وذا وزيـــــــــــــر وذا وا
ل وذا مشرف على الـــــديـــــوان

قال: ولم يـزل الملك العادل يهذب أمور حلـب إلى سادس عشري ذي القعدة، ثم خـرج متوجها إلى دمشق بسبب أن السلطـان اجتمع عنده في ذي القعدة عـدة رسل، منهـم رسل الخليفـة، ورسل طغـرل بن البهلـوان ورسل قـزل أخي البهلـوان، ورسل شـاه أرمن صـاحب خـلاط، ورسل المواصلـة، ورسـل عماد الديـن صـاحـب سنجـار، ورسل قليـج ارسـلان صاحب الشمال، فأراد السلطان احضار العادل لسماع الرسائل، ولحضور الأجوبة عنها، ولتقرير أمور الفرنج، ويوم وصل العادل الى دمشق احضره السلطان لسماع الـرسائل وسمـع ماعنـده في الأجوبـة، ولما قضى أجـوبة الرسل ودع السلطان وعاد الى حلب.

قـال: ولما بلغ سيـف الاسلام أن السلطـان كتـب لتقي الـدين عهـدا بـولاية مصر عتـب لأجل ذلـك، فكتب السلطـان له عهـدا ببلاد اليمـن

جميعها ،قال :وأقطع السلطان تقي الدين الاسكندرية ودمياط، وجعل لخاصته البحيرة والفيوم وبوش، ثم عوضه عن بوش سمنود وحوف دمسيس وذكر غير ذلك.

قال العماد: أنعم السلطان على تقي الدين بالأعمال الفيومية، وسائر نواحيها بجميع جهاتها وحواليها، وزاده القبيبات وبوش، وأبقى عليه بالبلاد الشامية مدينة حماة وقلعتها وجميع أعمالها، ولما وصل تقي الدين إلى مصر اقتدى بالتدبير الفاضلي، وكان السلطان لايؤثر مفارقته فلما لم يجد من توجيه تقي الدين إلى مصر بداً، وكانت فيه حدة لم تكن في العادل احتاج في تقويمه إلى ندبة الأجل الفاضل.

قال القاضي ابن شداد: وقتل على الكرك في هذه الكرة شرف الدين بزغش النوري شهيدا رحمه الله، ثم رحل السلطان عنها مستصحبا أخاه العادل إلى دمشق، فدخل دمشق في رابع عشري شعبان، وأعطى العادل حلب في ثاني شهر رمضان، فسار في ذلك اليوم نحوها فوصلها وصعد القلعة في يوم الجمعة الثاني والعشرين من رمضان، وكان بها ولد السلطان الملك الظاهر ومعه سيف الدين يازكوج يدبر أمره، وابن العميد في البلد، وكان الظاهر أحب أولاده إلى قلبه لما قد خصه الله به من الشهامة والفطنة والعقل وحسن السمت والشغف بالملك وظهور ذلك عليه، وكان من أبر الناس بوالده وأطوعهم له، ولكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها، فخرج من حلب لما دخلها عمه العادل ويازكوج سائرين إلى خدمة السلطان، فدخل دمشق يوم الاثنين ثامن عشري شوال، فأقام في خدمة والده لايظهر له الا الطاعة والانقياد مع انكسار في باطنه لايخفى عن نظر والده.قال وفي ذلك الشهر وردنا على السلطان رسلا من جانب الموصل،وكنا قد ترسلنا إلى الخليفة الناصر لدين الله في انفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين رسولا وشفيعا إلى السلطان، فسيره معنا من بغداد، وكان عزيز المروءة عظيم الحرمة في دولة الخليفة وفي سائر

البلاد، وكانت مكانته عند السلطان بحيث يتردد إليه إذا كان عنده في معظم الأيام قال: وكان الشيخ قد وصل إلى الموصل وسار منها بعد أن سار في صحبته القاضي محيي الدين بن كمال الدين، وكان بينهما صحبة من الصبا، وكنت مع القوم، وسرنا حتى أتينا دمشق، وخرج السلطان إلى لقاء الشيخ، ونحن في خدمته وأقمنا أياما نراجع في فصل حال فلم يتفق صلح في تلك الدفعة، وخرجنا راجعين إلى الموصل، وخرج السلطان إلى وداع الشيخ إلى القصير، واجتهدوا في ذلك اليوم أن ينقضي شغل، فلم يتفق وكان الوقوف من جانب محيي الدين فإن السلطان اشترط أن يكون صاحب إربل والجزيرة على خيرتها في الانتماء إليه أو إلى صاحب الموصل، فقال محيي الدين: لابد من ذكرهما في النسخة، فوقف الحال، وكان مسيرنا يوم الخميس سابع ذي الحجة.

قال: وفي تلك الدفعة عرض علي السلطان مواضع البهاء بمصر على لسان الشيخ فاعتذرت ولم أفعل خوفا من أن يحال توقف الحال علي ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريفة مني أمر لم أعرفه إلا بعد خدمتي له، وأقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب، فوصله رسول سنجرشاه صاحب الجزيرة فاستحلفه لنفسه، وانتمى إليه، ورسل إربل وحلف لهم وساروا، ووصل اليه أخوه العادل يوم الاثنين رابع ذي الحجة فأقام عنده وعيد، وعاد إلى حلب.

قال العماد: وصلت رسل صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، ورسل صاحب إربل زين الدين يوسف بن علي كوجك بن بكتكين، ورسل صاحب الحديثة وتكريت يشكون من صاحب الموصل، ويطلبون أن يكونوا من أولياء السلطان المنتمين إليه، ففعل السلطان ذلك، وكان أبو سنجرشاه سيف الدين غازي هو صاحب الموصل بعد والده مودود كما تقدم ذكره، فعهد إلى ابنه سنجر شاه بها فغلبه عليها عمه عز الدين مسعود بن مودود،

فبقيت الجزيرة بيد سنجر شاه وهو من تحت يد عمه، وفي قلبه منه مافيه، وكانت إربل وأعمالها ومايليها كلها، مضافة إلى الموصل، وصاحب الموصل هو الحاكم على جميعها، فمن ثم طلب هو الانحياز إلى خدمة السلطان فأجابه، وسمع بذلك صاحب الموصل،فاستشفع بدار الخلافة إلى أن أرسل منها شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير إلى السلطان أن يجدد لصاحب الموصل الأيمان، ويكون له من جملة الأعوان، حربا لمن حاربه، سلما لمن سالمه، وجاء رسول صاحب الموصل قاضي القضاة محيي الدين أبو حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري وترفع في أداء الرسالة وأغلظ في الكلام، فألان له السلطان، وقال أنا أقضي حاجته عليّ ماأورد ولكن قد سبق مني يمين لأولئك السلاطين فأنا استثنيهم وأردهم إلى اختيارهم لي أو له فأبى ذلك، وأراد أن تكون الصداقة له دون سائر ذوي الممالك، وأشار إلى أن لهم من ينصرهم من جهة البهلوان ملك العجم، فعظم ذلك على السلطان، وكان ذلك محركا له إلى أن يعود إلى الموصل، ورجعت الرسل على ذلك غير ظافرين بطائل، وكان منزل شيخ الشيوخ بالرباط على المنيبع، ومنزل القاضي محيي الدين في جوسق بستان الخلخال، وشهاب الدين بشير بجوسق الميدان، وتوفي ولد شيخ الشيوخ بدمشق، وكان في صحبته فدفنه في المقبرة المحاذية للرباط، وحضر عنده السلطان وجماعة الأمراء للعزاء.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: وكانت شتوة هذه السنة كثيرة الأمطار، وكثرت مكاتبات العماد للفاضل، وأورد في بعضها أبياتا منها:

عذر الزمان بأي وجه يقبل
ومحبكم بالصد فيه يقتل
مالي سوى انسان عيني مسعدا
بالدمع انسان عليه أعول
الدهر ليل كله في ناظري
لاصبح إلا وجهك المتهلل
خيرتم بين المنية والمنى
لاتهجروا فالموت عندي أسهل
ياغائبين وهم بفكري حضر
ياراحلين وهم بقلبي نزل
ماللسلو إلى فؤادي منهج
ماللصبابة غير قلبي منهل
لاتعدلوا عني فمالي معدل
عنكم وليس سواكم لي موئل
كل الخطوب دفعتها بتجلدي
إلا التفرق فهو خطب معضل
ان لم يجدني طيفكم في زورة
فلأنني منه أدق وأنحل
لاصبر لي لاقلب لي لاغمض لي
لاعلم لي بالبين ماذا أفعل

قال ابن الأثير: وفي جمادى الأولى من سنة تسع وسبعين قبض عز الدين أتابك على مجاهد الدين قايماز، وهو حينئذ نائبه في بلاده، واتبع في

ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه، ولم ينظر في مضرة صاحبه، وكان الذي أشار به عز الدين محمود زلفندار، وشرف الدين أحمد بن أبي الخير الذي كان أبوه صاحب بلد الغراف وهما من أكابر الأمراء، فلما قبضه كان بيده إربل، وشهرزور ودقوقا، وجزيرة ابن عمر، وكان بها معز الدين سنجرشاه بن سيف الدين صغيرا، والحكم فيها إلى مجاهد الدين، ولهم أيضا قلعة العقر، فحين قبض امتنع زين الدين يوسف بن زين الدين علي بإربل، وكان فيها لاحكم له مع مجاهد الدين، وامتنع معز الدين بالجزيرة، وأرسل الخليفة الناصر لدين الله عسكراً حصر دقوقا فملكها، ولم يحصل لعز الدين إلا شهرزور، وصارت هذه البلاد التي كانت بيده أضر شيء على الموصل، وبقي مقبوضا، فأخرجه وأعاده إلى ولاية قلعة الموصل إلا أن الذي أخذ من البلاد لم يعد إلى طاعته، وقبض عز الدين على من كان أشار عليه بقبض مجاهد الدين.

قال ابن الأثير: وعلى الحقيقة ليس على الدول شيء أضر من إزالة مدبر لها وإقامة غيره، فإن الأول يكون كالطبيب الحاذق العارف بمزاج الانسان ومرضه وعلاجه ومايوافقه ويؤذيه، فإلى ان يعرف حاله ينفسد أكثر مما ينصلح.

قال ابن القادسي: وفي هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الأبله الشاعر وهو من أسماء الأضداد، واسمه أبو عبد الله محمد بن بختيار بن عبد الله، وكان فصيحا هجاء وله أشعار رقيقة منها:

زار من أحباب زورته
والدجى في لون طرته
يا لها من زورة قصرت
فأماتت طول جفوته

- ٨٤٢٧ -

ثم دخلت

سنة ثمانين

قال العماد: وقد تقرص البرد، فلما طاب الزمان تجهز السلطان بالعساكر المنصورة إلى الكرك مرة أخرى وأرسل إلى تقي الدين فجاء بالعساكر المصرية، والأجلّ الفاضل، وتتابعت العساكر المشرقية والملك العادل وجاء نور الدين بن قرا أرسلان صاحب الحصن وآمد وصاحب دارا وأخو صاحب سنجار وعسكر ماردين، فاجتمعت العساكر برأس الماء وأشفق السلطان على ابن قرا أرسلان من اقتحام المشاق، فأقامه برأس الماء بحوران إلى حين العود، وأمر العادل بالاقامة معه.

وقال القاضي ابن شداد: سير السلطان إلى العساكر يطلبها فوصل ابن قرا أرسلان نور الدين إلى حلب ثامن عشر صفر، فأكرمه الملك العادل إكراما عظيما، وأصعده القلعة وباسطه، ورحل معه طالبا دمشق، وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله تعالى، ولما بلغه وصول ابن قرا أرسلان خرج إلى لقائه وكان رحمه الله يكارم الناس مكارمة عظيمة، فالتقاه على عين الجر بالبقاع في تاسع ربيع الأول، ثم عاد إلى دمشق وخلف نور الدين واصلا مع العادل، فتأهب للغزاة وخرج مبرزا إلى جسر الخشب، ووصل العادل وابن قرا أرسلان دمشق فأقاما بها أياما، ثم رحلوا يلتحقون بالسلطان، ورحل السلطان من رأس الماء ثاني ربيع الآخر طالبا للكرك، فأقام قريبا منها أياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر إلى تاسع عشر الشهر، فوصل تقي الدين، واجتمع به ومعه بيت العادل وخزائنه فسيرهم إليه، وتقدم إليه وإلى بقية العساكر بالوصول إليه إلى الكرك فتتابعت العساكر إلى خدمته حتى أحدقوا بالكرك في رابع عشر جمادى الأولى، وركب المجانيق عليه، وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية، ولما بلغ الفرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى

الذب عن الكرك، وكان على المسلمين فيه ضرر عظيم، فإنه كان يقطع عن قصد مصر، بحيث كانت القوافل لايمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة، فاهتم السلطان بأمره لتكون الطريق سابلة، ويسر الله ذلك وله الحمد والمنة، ولكن كان فتحه بعد ذلك، ولما بلغ السلطان خبر خروج الفرنج تعبأ للقتال، وأمر العساكر ان تخرج إلى ظهر الكرك، وسير الثقل نحو البلاد وبقي العسكر جريدة، ثم سار السلطان يقصد العدو، وكان الفرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله، وسار حتى نزل بالبلقاء على قرية يقال لها حسبان قبالة الفرنج في طريقهم، ورحل منها إلى موضع يقال له ماء عين والفرنج مقيمون بالواله إلى السادس والعشرين من جمادى الآخرة، ثم رحلوا قاصدين الكرك، فسار بعض العسكر وراءهم فقاتلوهم إلى آخر النهار، ولما رأى رحمه الله تصميم الفرنج على الكرك أمر العسكر أن يدخل الساحل لخلوه عن العساكر، فهجموا على نابلس ونهبوها وغنموا مافيها، ولم يبق فيها إلا حصاها، وأخذوا جينين، والتحقوا بالسلطان برأس الماء.

قلت: وقد وصف القاضي الفاضل حصن الكرك في بعض كتبه فقال: « هو شجا في الحناجر وقذا في المحاجر، قد أخذ من الآمال بمخنقها، وقعد بارصاد العزائم وطرقها، وصار ذئبا للدهر في ذلك الفج، وعذرا لتارك فريضة الله من الحج، وهو وحصن الشوبك يسر الله الآخر كبيت الواصف للأسدين:

ما مر يوم إلا وعندهما ... لحم رجال أو يولغان دما

وفي كتاب آخر: « وأما الكرك فكفات المنجنيقات عليه متظافرة، وحجارتها على من فيه حاجره، وقد جدعت أنوف الأبرجة، وأسبلت قناع الستائر وجوهها المتبرجة، وكل جوانبها وعرة المرتقى، صعبة المختطاه،

والسلطان يستعذب المشقات التي تتفادى منها الهمم، ويباشر جمرات الشتاء الكالح بوجهه المبتسم».

ومن كتاب آخر:« وقد جمعت الحجارة في الإسقاط بين رؤوس الأعلاج، فرمت الشراريف والواقفين عليها لحمايتها، وأرت الفرنج باهتدائها إلى أردائها غاية غوايتها، فما أخرج أحد منهم رأسا إلا دخل في عينه نصل، وماهجر قراب الاسلام سيف إلا وله مع رقاب الكفر غمد قطعها وصل، وماعلى الحجر في الاسراف والتبذير حجر، ولكل ليلة من نقع الحوافر ومن سنا الأسنة فجر، ولقد أخذنا من العدو بالمخنق، وشرعنا في طم الخندق، والحائط واقع، والواقعة بهم محيطة، والدروع بالسيوف مفصلة وبالجروح مخيطة».

ومن كتاب آخر:« عذاب الله بالحصن وأهله واقع، ماله من دافع، وإن دليل النصر قد ظهر، ومادونه من مانع، وأما المنجنيقات فقد نكأت في الأبراج بالهدم، وفي الأعلاج بالهتك، فلم تبق لها الحجارة الطائرة إليها حجارة قائمة، وإن لها من إمطارها عليها ليلا ونهار ديمة دائمة، وأطفنا عليها بالزرجون حتى وقعت الأسوار من سكرها، وضربنا دونها الستائر حتى ترنمت لصخرها، وعاطتها كفة المنجنيق عقار عقرها، فالسوار المقابل للمنجنيقات قد انهدمت أبراجه وأبدانه، وانهدت قواعده وأركانه، ولولا الخندق الذي هو واد من الأودية واسع عميق لما تعذر إلى الزحف إليهم والهجم عليهم طريق».

ومن كتاب آخر:« الحصن الذي نحن حاضروه وحاصروه في حصانة الحصانة،قد هدت الحجارة منه ماأحكموه بالحجارة، وعدا عليه بالتخريب ماأعدوه للعمارة، بقسي المنجنيقات ترمى ولا تريم سهامها، وتستديم من أعداء الله ومعقلهم بالقتل والهدم انتقامها،فما قابل المنجنيقات من الأبراج والأبدان قد أتى التخريب على مافيه من

العمران،فلم يبق إلا طـم الخندق، والأخذ بعد ذلك من العـدو بالمخنق، والقلوب واثقة بحصول الفتـح، وقد علم كل واحد منا ان متجـره قد فاز بالـربح، فما يسمع منـا بحمد الله من أحـد ملل ولاضجر ولاتسفـر هذه النوبة إن شاء الله تعالى إلا عن نصر وظفر».

وقال العماد: رحل السلطـان من رأس الماء على طريق الظليـل والزرقا وعمان والبلقا، ثم الرقيم وزيزا والنقوب واللجـون، ثم أدر ثم الربة وذلك في بلد مآب؛ فلما تلاحقت العساكـر نزل على وادي الكرك، ونصب عليها تسعة مجانيق صفا قـدام الباب، فهدمت السور المقابـل لها، ولم يبق مانع إلا الخندق الـواسع العميـق، وهو مـن الأودية الهائلـة، والمهاوي الحائلـة والمهالـك الغائرة الغائلـة، ولم يكن في الـرأي إلا طمه، وملؤه بكـل ممكن وردمه،،فعـد ذلك مـن الأمور الصعـاب وتعذر لحزونـة الأرض وتحجرهـا حفـر الأسراب، فـأمـر السلطـــان بضرب اللبـن وجمع الاخشـاب وبنـاء الحيطـان المقـابلة مـن الـربـض إلى الخنـدق وتسقيفهـا وتلفيق ستـائرهـا وتأليفهـا، فتمت دروبـا واسعة لايزحـم فيها الجائي الـذاهب، وتـوافدت رجال العسكـر واتباعـه وغلمانه وأشياعـه على نقل مـايرمـى في الخندق، وهـان طـم الخنـدق بـالـدبـابـات التي قـدمـت والأسراب التـي بنيـت وأحكمت، فوجد الناس إلى الخندق طـريقا مهيعا فهم يزدحمون آمنين من الجراح عــاملين بــالشراح والنـــاس تحت القلعـــة على شفير الخنـــدق لايستشعرون حذرا ولايخشـون سهما ولاحجرا، وقد امتلأ الخنـدق حتى أن أسيرا مقيـدا رمى بنفسـه إليه، ونجـا بعدمـا توالى مـن رمي الفـرنج رمـي الحجارة عليه».

وفي بعض الكتب العمادية:« لولا الخنـدق المانع من الارادة، وانه ليس من الخنادق المعتـادة، بل هو واد من الأودية، واسـع الأفنية لسهل المشرع وهجم الموضـع، فلم يبـق إلا تدبير طـم الخندق، والأخـذ بعد ذلـك من العـدو بـالمخنـق، فعملنـا دبـابـات قـدمنـاهـا، وبنينـا إلى شفير الخنـدق

ثلاثةأسراب باللبن سقفناها وأحكمناها، فصارت منها إلى طرف الخندق طرق آمنه، وشرع الناس في طم الخندق منها ونفوسهم مطمئنة وقلوبهم ساكنة، وكان الشروع فيه يوم الخميس سابع جمادى الأولى، وقد تسنى طمه وتهيأ ردمه، وتسارع الناس إليه، وازدحموا عليه ولم يبق صغير ولاكبير إلا وهو مستبشر بالعمل، منتظر لبشرى نجح الأمل، وقد تجاسروا حتى ازدحموا تحت القلعة نهارا كازدحامهم في المصلى يوم العيد، وليلا كحضورهم في جامع دمشق ليلة النصف السعيد، وهم بحمد الله من الجراح سالمون، وبالنصر موقنون عالمون، وإن أبطأ العدو عن النجدة فالنصر سريع، والحصن ومن فيه صريع، قد خرقت الحجارة حجابه، وقطعت بهم اسبابه، وناولته من الأجل كتابه وحسرت لثام سوره وحلت نقابه، فأناف الأبرجة مجدوعة، وثنايا الشرفات مقلوعة، ورؤوس الأبدان محزوزة ، وحروف العوامل مهموزة، وبطون السقوف مقبورة، وأعضاء الاساقف معقورة، ووجوه الجدر مسلوخة، وجلود البواشير مبشورة، والنصر أشهر من نار على علم، والحرب أقوم من ساق على قدم.

قال: وأشرف السلطان على أخذها ، فوصل الخبر أن الفرنج قد تجمعوا وجاؤوا منجدين لأهل الكرك ليزحزحوه عن حصارها، فثنى السلطان عنان العزم إليهم، وكانوا في منزلة الواله وتلك المواضع ضيقة صعبة المسلك، فانتظر السلطان أن يخرجوا إلى البلقاء، وتقدم عنهم بأميال فرجعوا وتفرقوا ولم يقدموا، وعلى قصد الكرك عزموا، ولما رأى السلطان أن الفرصة من الفئتين فاتت، مر على نابلس فأغار وغنم وفي طريق عوده نزل على سبسطية، وفيها مشهد زكريا عليه السلام وقد اتخذه الفرنج كنيسة، وأودعوها أمتعة نفيسة، وبها من الفرنج أسقف وقسس ورهبان ففدوها بأسارى مسلمين، ولاذوا بالأمان معتصمين، ثم أناخ على جينين فأهبط اوجها، وهدم برجها، وآب بالنهاب والسبايا والمرباع والصفايا، واجتمع بأصحابه على الفوار، وتحدث بالايجاد لحوادث الغور في الغوار.

-٨٤٣٢-

فصل

ثم رحل السلطان إلى دمشق للاجتماع برسل الخلافة شيخ الشيوخ وبشير، وكانوا وصلوا والسلطان محاصر الكرك، فاجتمع بهم وأكرمهم، وكانوا قد مرضوا ومات جماعة من أصحابهم، وعاد السلطان شيخ الشيوخ كل يوم وليلة في الرباط بالمنيبع، واستأذنوا في العود قبل الشفاء فضاقت الصدور بصدر ذلك الصدر على تلك الحالة، وعجزت تلك العشرة كما شاء الله عن الإقالة، ثم استقل مودعا وداع الأبد، وكان حسام الدين طمان مقدم عسكر سنجار مع السلطان حاضرا في الجهاد، فأذن له في العود وأمره بمرافقة صدر الدين والرسل معه والرفق بهم في مسيرهم، فساروا على سمت الرحبة، فاغتنم الأمير طمان بركة تلك الصحبة، فأدركت المنية شهاب الدين بشير بالسخنة، ووصلوا بشيخ الشيوخ إلى الرحبة، وهناك لقي ربه.

قال: ولقد توفاه الله على الوفاء بعهده، والوفاق لعقده، مشيم الكرم، كريم الشيم، صالح العمل، ناجح الأمل، مفارقا للدنيا في حياته، مقبلا على الآخرة قبل وفاته، فهو ممن رفعت سريره الملائك ووضعت له في عليين الأرائك، وكانت وفاته في شعبان بوأه الله الجنان.

قلت: كان صدر الدين هذا أحد السادة، وأبوه وجده من أكابر الأعيان، وشيوخ مشايخ الزمان، وهو عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبي سعد أحمد بن محمد النيسابوري، وقد ذكرت ترجمة والده في تاريخ دمشق وألحقتها من أخبار جده بما ذكره أبو سعد السمعاني في تاريخه.

وقال ابن القادسي: توفي صدر الدين في رجب برحبة مالك بن طوق، ودفن في قبة الى جنب قبر الشيخ موفق الدين محمد بن المتقنة الرحبي، وكان

مـولده في ذي الحجـة سنـة ثمان وخمسمائة، وكـان شيخا طـائلافي العلـم والـدين والسـداد ثـابت الجنـان في الحوادث المزعجة، والـوقـائع الباغتـة الملجلجة، سديد البديهة صافي الفكـرة جمع بين نظم الشعر ونثر الترسل، وكان يـرسل إلى الأطـراف، ورتب في مشيخة الشيـوخ منذ تـوفي والده في جمادى الأولى سنـة إحـدى وأربعين وخمسمائة، ولم يـزل على ذلـك إلى أن توفي، وتولى بعده مشيخة الرباط صفـي الدين اسماعيل، ومن شعره يعني صدر الدين:

ولم أخضـــب مشيبــي وهـــو زيـــن
لايثـــاري جهـــالات التصـــابي
ولكـــن كـــي يـــراني مـــن أعـــادي
فـــأرهبـــه بـــوثبـــات الشبـــاب

قلـت: ووقفـت على كتـاب فـاضلي إليـه جـوابـا عـن كتـاب عتـب فيه:«وقف على التحية الطيبة والكـرامة الصيبة، والالفاظ العذاب إلا انها الغضـــاب، والنعيـــم إلا أنـه العـــذاب، والمســامحة إلا أنها الحســـاب، والمتشـابهات اللـواتي أولها أحسـن تـأويلهـا، والمحكمات الـلاتي هـن أم الكتـاب، ويكفي أنـه مـزج الصاب بعسلـه، وأرعـف قلمـه بما لايرعفـه الشجـاع من أنـوف أسلـه، وهذا بـاب قد آن سـده، وسبيـل قد وجـب صـده، وعين دهر أصـابت هـذه المودة، وقد آن لها أن تنطـرف وتنصرف، وبادرة هـم قد حان أن تنكشـف وتنكسف، فـلا نظر بعدهـا للعين التي أصابت ولاخطرت في أثـرها للخطرة التي آبت، ولا كان لـلايام في فضل سيدنا على عبده نصيب، ولاعد أبـدا على شباب الرضى عنه مشيب، ولا تمكـن مـن حبيـب وده إلى القلـب رقيب، ولاملـك رقـه غير تلـك اليـد الكريمة، ولاسمعت حديث الحوادث تلك المودة القديمة».

قال العماد: وخرجنـا من دمشق في شعبان، وخيمنـا على سعسع، ودعا تقي الديـن فأمره أن يرجـع بالعسكر إلى مصر، فسار في منتصـف الشهر،

ثم رجعنا من فرض الجهاد إلى فرض الصيام بدمشق، ورجع كل عسكر إلى مركزه، ومدح العماد تقي الدين في هذه الكرة بقصيدة ثائية نحو خمسة وثمانين بيتا أولها:

إذا شئتما عن غير قلبي تحدثا
فما حل فيه الهم إلا ليلبثا

خذا شاهدي صدقي على صحة الهوى
ضنا ساكتا مني ووجدا محدثا

مريضكما أشفى على الناس سقمه
فلا تعجلا في أمره وتريثا

رثى لي عدوي من جفاء أحبتي
تناهيك من حال عدوي لها رثى

عهودكم بعد النوى ما تشعثت
وحاشى لذاك العهد أن يتشعثا

ومنها:

وأملك بالملك المظفر ظافرا
من الجد والجدوى قديما ومحدثا

مخوف السطا صعب الإبا حسن الثنا
مرجى الندى سهل الرضى طيب النثا

صفا آخر العمرين من عمر الذي
به العمران اليوم بالعدل ثلثا

هم أحدثوا قمع الضلالة بالهدى
فمذ ملكوا لم تلق في الدين محدثا

غشائي وغشي أنت حامل نقصه
بفضلك إن البحر يحتمل الغثا

ومنها في وصف القصيدة:

وقد سهلت والثاء أوعر مرتقى
فلا فرق عندي بين تاء وبين ثا

فصل

يحتوي على ذكر المفاضلة بين مصر والشام والتعريف بحال زين الدين الواعظ

الذي كـان صلاح الـدين يكـاتبه بـوقائعـه، وهو الـذي نم على عمارة وأصحابـه بما كانـوا عزمـوا من قلب الـدولة النـاصرية مصريـة كما سبق، وسبـب ذكره هنـا انـه هو الـذي شرع في تفضيـل مصر بكتاب كتبـه الى السلطان في هذا العام،و قد تقدم للقاضي الفاضل كلام في تفضيل مصر، وذم الشام في أوائل أخبار سنـة أربع وسبعين، وله من كتاب آخـر:«دعونا من بعلبـك البلد الأعسر، ومن رأس عينهـا الضيقة المحجر، ومـن ثلجها الـذي تنفش الجبـال بعهنه، ومـن بردهـا الذي لايشفـع الجمر عنـده إلا باذنه، وعودوا الى ماالترفتم فيه ومسـاكنكم فإنها قد علتها وحشة لقطينها، فسألت مطالـع دسوتها عن أقمار سلاطينها واذكروا النيـل الذي وفى لكم في هـذه السنة بنقصـه، وأبـى أن يكون مـاؤه ذخيرة لغير جـودكم الـذي أحصـاه الله ولم نحصـه، واذكـروا فيضها ومـاء طوبتهـا فقـد كان يقيـم الحجـة على ثلج الشـام ووخمه، ويتغلغـل بـرده فيسري الى قلب العليـل، وكان جاريا على غير طريق فمه، واذكـروا صحة هوائها وتعصبه لأيامكم حتى أنعم الله عليكم قبل صحة أجسامنا بصحة أجسامكم».

ومن كتاب آخر:« وأمـا أحوالي فإنني لم أزل ملتاثا منـذ دخلت دمشق لتغير مائهـا وهوائها وأبنيتهـا وأبنائها وأوديتها وأدواتها، وقـراها وقرنـائها، ومـن لي بمصر فـإني أقنـع بما تنبتـه أرضهـا مـن بقلهـا وقثـائهـا واتبـع بـردى(٢٨) وماعسـاه بشربة مـن مائهـا، وامتطي متـن السيف في هجـر سوادهـا وسودائهـا، فالطلـل هائل ولاطائل، ومـاكنا نسمـع به مـن تلك

الفضـائل متضـائل، حتـى إذا جاءه لم يجده شيئـا فهـي بـلاد تستجـدي ولاتجدي، وفعل المال بها لازم التعدي».

وقال العماد:« هذا زيـن الدين علي بن نجـا الواعظ، من أهـل دمشق ومـن ساكنـي مصر، وهو ذو لهجـة في الـوعظ فصيحـة، وبهجة للفضـل صبيحة، وقبـول من القلوب، وفصـول في فصل الخطاب للخطـوب، وقد تـأثـث وتـأثـل، وقبـل وأقبـل، وأحسـن السلطـان إليـه بـالأعطيـات، والاقطاعات وأجمل وأعطاه وأجزل، وأتم لـه مراده وأكمل، وكان السلطان يستشيره، ويروقه تدبيره، ويميل إليه لقديـم معرفته وكريم سجيته، ووصل في هذه السنـة منه كتـاب إلى السلطان يشـوقه إلى مصر ونيلهـا ونعيمها، وسلسبيلها ودار ملكها ودارة فلكهـا، وبحرها وخليجها، ونشرهـا وأريجها ومقسمهـا ومقياسهـا وإينـاس ناسهـا، وقصـور معزهـا، ومنـازل عزهـا، وجيزتها وجزيـرتها، وخيرتها وجيرتها، وبركتها وبركتها، وعـدوتها وعدويتها وتعلق القلـوب بقليوبها، واستلاب النفوس بـأسلوبها، وملتقى البحـرين، ومرتقـى الهرمين، وروضة جنانها، وجنـة رضوانها، ومسـاجدها وجـوامعها ومشـاهدهـا، ومرابعهـا ونـواظر بسـاتينها، ومنـاظـر ميادينهـا وساحـات سواحلها، وآيات فضائلها، ورحـاب شوارعها، وحلاب مشارعها، وشروق عربيتها، وغـروب شرقيتها، وطيب طويتها، ومسـار مسراها، ومجرى فلكها ومرسـاها وعجائب بنـاها، وغرائب مناهـا، وبيان عيانها بلسـان بلسانها، وكيـاسة أخـلاقهـا ونفاسـة أعـلاقها، وشتـاؤهـا في الفضل ربيـع نضير، وغبارها عبير، وماؤها كوثري وترابها عنبري».

ثـم وصف العماد غير ذلـك، ثم قـال: وذكر زيـن الديـن الواعـظ في كتـابه مـادل به على فضيلـة تلك الـديار مـن الآيات والأخبـار، والآداب والآثـار، ولو ظفـرت به لأوردتـه بلفظـه وجلوتـه بـوعظه، لكننـي فقدتـه فعربت معانيه وأحكمت مبانيه.

قال: فكتبت الى زيـن الدين الواعـظ في جوابه عن السلطـان:« عرفنا

طيب الديار المصرية، ورقة هوائها، ونحن نسلم له المسألة في طيبها وتوفير نصيبها، ورقة نسيمها، ورائق نسيبها، لكن لاريب أن الشام أفضل وإن أجر ساكنه أجزل، وإن القلوب إلى قلبه أميل، وإن الزلال البارد به أعل وأنهل، وإن الهواء في صيفه وشتائه أعدل وإن الزهر به أشب، والنبت به أكهل، وإن الجمال فيه أكمل، والكمال فيه أجمل، وأن القلوب به أروح، والروح به أقبل ودمشق عقيلته المشوطة، وعقلته المنشوطة، وحديقته الناضرة، وحديقته الناظرة، وهي عين انسانه، بل انسان عينه، وصير في نقوده في عين نضاره ولجينه، فمستامها مستهام، وماعلى محبها ملام، ومافي ربوتها ريبة، وفي كل حبوة حبيبة، ولكل شائب من نورها شبيبة، وعلى كل ورقة ورقا، وعلى كل معانقة من قدود البانات عنقا، وشادياتها على الأعواد تطري وتطرب، وساجعاتها بالأوراد تعجم وتعرب، وجميع مافي سورة الرحمن، ونحن نتلو عليه آلاءها إلى أن يرجع إلينا فنتلو على منكرها(فبأي آلاء ربكما تكذبان)[٢٩] وقد تمسكنا بالآية والسنة والإجماع، وغنينا بهذه الأدلة عن الإختراع والإبتداع، أما أقسم الله تعالى بدمشق في قوله:(والتين والزيتون)[٣٠] والقسم من الله لها أدل دليل على فضلها المصون، أما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«الشام خيرة الله من أرضه يسوق إليها خيرته من عباده»[٣١] هذا أوضح برهان قاطع على أنه خير بلاده، أما الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على اختيار السكنى بالشام، أما فتح دمشق بكر الاسلام، ومانكر أن الله تعالى ذكر مصر وسماها أرضا فما الذكر والتسمية في جنب فضيلة القسم، ولا الإخبار عنها دليلا على الكرم، وإنما اكتسبت الفضيلة من الشام بنقل يوسف الصديق إليها عليه الصلاة والسلام، ثم المقام بالشام أقرب للرباط وأوجب للنشاط، وأجمع للعساكر السائرة من سائر الجهات للجهاد، وأين قطوب المقطب من سناء سنير، وأين ذرى منف المشرف من ذروة الشرف المنيف المنير، وأين الهرم الهرم من الحرم المحترم، وبينهما فرق مابين الفرق والقدم، وهل للنيل مع طول نيله،

وطـول ذيله، واستطـالـة سيله، بـرد بردى في نقـع الغليـل ونفع العليـل، ومالـذاك الكثير طلاوة هذا القليـل، وسيل هـذا السلسبيل، واذا فاخـرنا بالجامـع وقبة النسر ظهر عنـد ذلك قصر القصر، على أن باب الفـراديس في الحقيقة بـاب النصر، ومارأس الطابيـة كباب الجابيـة، ولو كان لنـاسها بانـاس لم يحتاجـوا إلى قياس المقيـاس، ونحن لانجفـو الوطـن كما جفاه، ولانأبى فضلـه كما أباه، وحب الوطـن من الإيمان، ومع هذا فـلا ننكر أن مصر إقليم عظيم الشان، وإن مغلها كثير، وماءهـا غزير، وأن عدها نمير، وإن ساكنهـا ملك أو أمير، ولكن نقـول كما قال المجلس السـامي الاجلي الفاضلي اسماه الله: إن دمشـق تصلح أن تكون بستانـا لمصر، ولاشك أن أحسن مافي البلاد البستان،، وزين الديـن وفقه الله قد تعرض للشام فلم يـرض أن يكون المسـاوي، حتى شرع في عـد المساوي، ولعلـه يرجـع إلى الحق ويعيد سعة اسعاده ووفاقه إلى الأوفق إن شاء الله».

قلت: وقد قيـل في وصف دمشق ومدحها شيء كثير، مـن النظم والنثر واشتمل ماجمعته في أول تاريخ دمشـق على قطعة كبيرة حسنة، من ذلك ماوصـف شيخنا أبو الحسن علي بـن محمد السخاوي رحمه الله في مقـامة تشتمل على المفاخرة بين دمشق ومصر، ووصف كـلا من البلدين بما يليق به، وكـان أول ماقدم دمشـق يذمها في مكـاتباته إلى مصر نظما ونثـرا حبا للوطـن، ثم لما استقـر فيها قرت عينـه وفضلها في بعض مكـاتباتـه، وقد ذكرت كل ذلك في جـزء مستقل به، وأما القاضي الفاضـل رحمه الله فقد قال في بعض مكاتبـاته إلى مصر:« ومما أسر به قلبه الكريـم أنني وصلت إلى دمشق المحروسة حين شرد بردهـا، وورد وردها، واخضر نبتها، وحسن نعتها، وصفـا ماؤهـا وصفا دواؤها، وتغنـت أطيارهـا، وتبسمت أزهـارها، وافتر زهر اقحـوانها، فحكى ثغور غـزلانها، ومالـت قضب بانها، فـانثنت تثني ولـدانها، فلما قربت مـن بساتينها ولاح لي فيـح ميادينها، وتـوسطت جنة واديها، ورأيـت ماأبـدعه الله فيهـا، سمعت عنـد ذلك حمامـا يغرد، وهزارا يشـدو ويردد، وقمريـا ينوح وبلبلا بـأشجانـه يبوح، فوقفـت أثني

على باريها، وأكاد بالدمع أباريها، أسفا على أيام خلت بعدما حلت منها وفيها، فعند ذلك عاينت روحي وزال أنيني ونوحي:

وكانت النفس قد ماتت بغصتها

فعند ذلك عادت روحها فيها

قلت: ووصف أيضا دمشق من أهل مصر من يرجع إلى قوله ويرضى بحكمه، لفضله وفصله، وهو الوزير العادلي صفي الدين أبو محمد عبد الله بن علي المعروف بابن شكر في كتاب البصائر له فقال:« دمشق نزهة الأبصار، وعروس الأمصار، ومجرى الأنهار، ومغرس الأشجار، ومعرس السفار، ومعبد الأبرار المستغفرين بالأسحار، ظلها الممدود، ومقامها المحمود، وماؤها المسكوب وعيبها المسلوب، ومحاسنها المجموعة، وفضائلها المروية المسموعة، ودرجتها المرفوعة، وفاكهتها الكثيرة لامقطوعة ولاممنوعة، ونسيمها العليل، وهجيرها الأصيل، وماؤها السلسبيل، وقد شرفها الله تعالى بالذكر في كتابه، وآوى إليها من اختار من أنبيائه وأحبائه، فقال تعالى في كتابه المبين:(وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين)[٣٢]ولم تزل مقر البركات ومعدن النبوات، ومنزل الرسالات، ومسكن أرباب الكرامات، وورد في تفضيل بقعتها من الأخبار مالايشك في صحة اسناده، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« الشام صفوة الله من بلاده، فيها خيرة الله من عباده»، ونبه في خبر آخر على عظم فضله، فقال:« ان الله تكفل لي بالشام وأهله»[٣٢] وبارك في سكناها ورغب في سكناها أهل الاسلام بقوله عليه السلام:« البركة في الشام» وذهب بعض المفسرين من أهل الاجتهاد إلى أنها(ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد)[٣٣].

قال العماد: ولما أنعم الله تعالى علي بإسكاني في فنائها، وتخيري لبنائها ونزهتي في أفنائها، وأنسي بانسانها، مضيت إلى جامعها الجامع، وشفعت

بادراك البصر منه ادراك المسامع فلما وصلت، وحللت الحبى لديه، رأيت مرأى صغر الرواية، ورونقا حصل من الحسن على النهاية، ونورا يجلو الأبصار، وجمعا يفضل على جموع الأمصار، وعبادة موصولة على الاستمرار، وقرآنا في آناء الليل وأطراف النهار، ومنقطعين إليه قد انفقوا في الاعتكاف به نفائس الاعمار، والبركات تحف بجوانبه، والعلوم تنشر في زواياه ومحاربه، والأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسند وتروى، والمصاحف بين أيدي التالين تنشر فلا تطوى، واعلام البر فيه ظاهرة فلا تخفى ولاتزوى، والخلق منقسمون إلى حلق، قد نبذ أهلها ماوراءهم من العلق، والاسلام فيه فاش، والجهل به متلاش، وهو مما بناه الاولون لعبادتهم، وجعلوه ذخرا لآخرتهم، ومابرح معبدا لكل ملة، اتخذته المجوس واليهود والنصارى قبل الاسلام هيكلا وقبلة، وهو بيت المتقين، وسوق المتصدقين، ليله للمتهجدين، ونهاره للعلماء المجتهدين».

قال:« وعاشرت أهلها وباشرتهم، ثم كاثرتهم وكاشفتهم، فرأيت سادة أدباء، وعلما نجباء، ورأيتهم يتناظرون في الفقه مناظرة الوالد مع ولده، ويقفون عند كتاب الله، فلا يعدلون عن واضح جدده، ويفسرونه عن علم واستبصار، ويحتاطون في علمهم بصحيح الأخبار، ويتبعون ماوردت به ثقاة الآثار، وعامتهم مشغولون بالمعاش، آخذون من زينتهم عند كل مسجد أفضل الرياش، لايخوضون في لغط ولا إكثار، ولايجتمعون على فساد نية في مقيم ولابعيد الدار».

قال:« فأقمت منها في أشرف البلدان، التي هي انموذج الجنان، وعنوان الدار التي خازنها رضوان، والقلوب فيها عند ذكر الله حاضرة، والنفوس بالخير دون الشر آمرة».

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: كانت إربل ومايجري معها من البلاد والقلاع من ولايات الموصل غير معدودة في ولاية السلطان، فأرادصاحب إربل أن ينفرد عنه ويستبد بالبلاد فاعتزى الى السلطان وكاتبه وطلب منه منشورا ببلاده فكتبه له وفيه:« إن الله لما مكن لنا في الأرض، ووفقنا في اعزاز الحق، واظهاره لاداء الفرض، رأينا أن نقدم فرض الجهاد في سبيل الله فنوضح سبيله، ونقبل على إعلاء كلمة الدين وننصر قبيله وندعو أولياء الله من بلاد الاسلام إلى غزو أعدائه، ونجمع كلمتهم في رفع كلمته العليا في أرضه على استنزال نصر من سمائه، فمن ساعدنا على أداء هذه الفريضة، واقتناء هذه الفضيلة، يحظى من عوارفنا الجزيلة بحسن الصنيعة ونجح الوسيلة، ومن أخلد إلى الارض واتبع هواه، وأعرض عن حق دينه بالاقبال على باطل دنياه، فإن أناب قبلناه وإن أصر على غوايته أزلنا يده وعزلناه» وتفصيل ماكتب في منشوره: إربل وقلعتها وأعمالها جميع ماقطعه الزابي الكبير: شهرزور وأعمالها معايش بيت قفجاق، معايش بيت القرابلي، الدشت والزرزارية.

قال: وفي هذه السنة مستهل جمادى الآخرة توفي صاحب ماردين، وهو قطب الدين ايلغازي بن البى بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق، والأمراء الأرتقية هم الذين رتقوا فتوق الاسلام أولا، وكانوا يتولون بيت المقدس وحموه من الافرنج قبل المصريين، وإنما أخذه الفرنج سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من المصريين، فبقي الساحل كله مع أهل الشرك فحمت الأرتقية ديار بكر وما والاها، وحلب وأعمالها، وتوارثوا ديار بكر كابرا عن كابر إلى أن انتهى إلى هذا قطب الدين أعمال ميافارقين وماردين، فلما مات بقيت على ولده وله عشر سنين، وانتهى إلى ابن عمه

نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سليمان بن أرتق حصن كيفا وخرتبرت، والبلاد التي تناسبها، وأضاف السلطان إليه آمد، وقد كان قطب الدين أولا على مصافاة صاحب الموصل لما بينهما من القرابة، ثم أذعن للسلطان ودخل تحت طاعته.

قلت: وفي هذه السنة أيضا توفي خليفة المغرب يوسف بن عبد المؤمن ابن علي، وولي ابنه يعقوب.

قال القاضي ابن شداد: وبعد عود السلطان من حصار الكرك وصل رسل الخليفة ومعهم الخلع فلبسها السلطان وألبس أخاه العادل وابن أسد الدين خلعا جاءت لهما، ثم خلع السلطان خلعة على نور الدين بن قرا أرسلان، وأعطاه دستورا فسار إلى بلاده ووصلت رسل زين الدين مستصرخا إلى السلطان يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إربل مع مجاهد الدين قايماز، وانهم نهبوا وحرقوا، وانه نصر عليهم وكسرهم، فلما سمع ذلك سار من دمشق يطلب البلاد، وتقدم إلى العساكر فتبعته وسار على طريق المغار ويبوس البقاع إلى بعلبك، ومرض العماد فانقطع بها، وسار السلطان إلى حمص، ثم حماة فأقام بها إلى أن شفي العماد، ولحقه بها، وكان الأجل الفاضل بدمشق، فأرسل الحكيم ابن المطران واسمه أسعد بن الياس إلى العماد ببعلبك لما سمع بمرضه، فسار من دمشق إلى بعلبك في يوم وليلة، وعمل معه عمل من طب لمن حب، فبرىء بعون الله تعالى، فرجع إلى دمشق، فلما استقام مزاجه، رحل إلى السلطان فوافقه بحماة.

ودخلت

سنة احدى وثمانين

قال العماد: والسلطان مخيم بظاهر حماة ،فسار إلى حلب وتلقاه أخوه العادل واجتمعت له بها العساكر فخرج منها في صفر لقصد الموصل، فسار وقطع الفرات، وأقام العسكر ثلاثة أيام للعبور بها، وكان السلطان قد سير إلى معاقل الفرات وقلاعه، ونواحيه وضياعه، وأمر أهلها بعمارة كل سفينة في الفرات وزورق ومركب، وجمعها من كل مشرق ومغرب، ثم وصل إلى حران، وفيها مظفر الدين بن زين الدين، وهو أخو زين الدين يوسف صاحب إربل، وقد كان أول من دخل في خدمة السلطان، أول ماقصد تلك البلاد في المرة الأولى، واقتدى به أخوه وغيره من أصحاب الأطراف في الانتهاء إلى السلطان، وحضر معه حصار عدة بلاد كالموصل وسنجار وآمد وحلب، وأظهر من المودة فوق ماكان في الحساب، وكان كثير الحث للسلطان على المسير إلى الموصل، هذه المرة برسوله وكتابه وقال رسوله للسلطان إن مظفر الدين إذا عبرتم الفرات يستدرك كل مافات، ويقوم بكل مايحتاج إليه في تلك البلاد من النفقات والغرامات والأزواد، وتقدم يوم الوصول إلى حران خمسين ألف دينار، وكتب خطه بذلك، فلما وصل السلطان إلى حران لم ير منه ما التزمه الرسول، فارتاب به وظن أنه مال مع المواصلة، ووشت الأعداء فيه بذلك وأن نيته قد تغيرت، فحلف للسلطان أنه لم يتغير وأن ماالتزمه الرسول لم يكن بأمره وهو ابن ماهان، فانعزل عنده عن مرتبته وهان، فقبض السلطان على مظفر الدين ليتبين امره، وشاور فيه أصحابه فأشار بعضهم باتلافه، وبعضهم باستبقائه واستئلافه فعفا السلطان عنه على أن يسلم إليه قلعتي الرها وحران، ففعل ذلك وهو مسرور ببقاء نفسه، ثم أعيدت إليه القلعتان في آخر السنة لما رأى السلطان من حركاته المستحسنة.

قال القاضي ابن شداد: وسار السلطان حتى أتى حران على طريق البيرة والتقاه مظفر الدين بالبيرة في ثاني عشر المحرم، وكان قد وصل إليه عز الدين بن عبد السلام، يعني، الموصلي رسولا واسمه ابراهيم بن علي ابن عبد السلام، ويكنى بأبي الخليل، فلقيه بحماه يعتذر مما جرى، فأعطاه دستورا بعد أن أكرمه، وسار من غير غرض.

قلت: وصحب ابن عبد السلام في هذه السفرة من الموصل عمر بن محمد المعروف بابن الشحنة، فمدح السلطان بقصيدة أولها:

على الحي من وادي الغضا إذ تفرقوا

سلام مشوق قد براه التشوق

فلما بلغ مديحها إلى قوله:

وقالت لي الآمال إن كنت لاحقا

بأبناء أيوب فأنت الموفق

قال له السلطان: لقد وفقت وأجازه جائزة سنية.

ثم قال القاضي: وتقدم السلطان إلى سيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العسكر إلى رأس عين، ووصل السلطان حران في الثاني والعشرين من صفر، وفي السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين لشيء كان جرى منه، وحديث كان بلغه عنه رسوله، ولم يقف عليه وأنكره وأخذ منه حران والرها، ثم أقام في الاعتقال تأديبا له إلى مستهل ربيع الأول، ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد عليه قلعة حران وبلاده التي كانت بيده، وأعاده إلى قانونه في الاحترام والاكرام، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعده بها، ثم رحل السلطان ثاني ربيع الأول من حران إلى رأس عين، ووصله في ذلك اليوم رسول قليج أرسلان يخبره ان ملوك

الشرق بـأسرهم قـد اتفقت كلمتهـم على قصد السلطـان إن لم يعد عـن الموصـل، ومـاردين، وأنهم على عـزم ضرب المصـاف معـه إن أصر على ذلك، فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصلـه ثامن ربيع الأول عماد الدين ابن قرا أرسلان ومعـه عسكر نور الدين، فالتقاهـم السلطان واحترمهم ثم رحل مـن دنيسر نحو الموصل، حتى نـزل بموضع يعرف بـالاسماعيليات، فرتـب الموصل بحيث يصل مـن العسكر كـل يوم نـوبة جـريدة تحاصر الموصل، فبلغ عماد الدين بن قرا أرسلان موت أخيه نـور الدين، فطلب من السلطان دستورا طمعا في ملك أخيه، فأعطاه دستورا.

وقال العماد: خـرج السلطان مـن حران في ربيـع الأول فمر على رأس عين ودارا، فخرج اميرها بـأصحابه في الخدمة، وقدم عماد الديـن أبو بكر ابن قرا أرسلان بعساكر ديار بكر وآمد نيابـه عن أخيه نور الدين فإنه كان مريضا، ثم رحـل إلى نصيبين، وتنكب طريق الدولعية فنـزل على بلد آخر ربيع الأول، ثـم توجـه إلى الموصل وخيـم على الاسماعيليات، وقـدم على السلطان زيـن الدين صـاحب إربل، وأول مـابدأ بـه السلطان يوم نـزوله على بلد قبل الاسماعيليـات ارسال ضياء الدين أبي الفضائل القـاسم بن يحيى بـن عبـد الله الشهرزوري إلى الخليفـة بما عـزم عليـه مـن حصر الموصـل، فإن أهلهـا مواصلـون الأعاجـم، وخاطبـون لسلطانهم القـائم، وناقشوا اسمــه في الدنانير والدراهم، وانهم يتعززون بـالبهلوان، ويعجزون إلا عن الطاعـة والإذعان، وانهم يرسلون الى الفرنج ويقـوون نفوسهم على قصد الثغـور، وتفريـق الجمهور، وأنـه ماجـاء طمعا في استضـافة ملـك، ولااستزادة سلك، ولاقلع بيت قديم، ولاقطع اصل كريم، وإنما مقصوده الاصلي ومطلوبـه الكلي ردهم إلى طاعـة الإمام، ونصرة الاسـلام، وكشف مااعتادو ه واعتـودوه من الظلم والظلام، وكظمهـم عن استحلال الحرام، وقطعهـم عن مـواصلـة الاعجام، وإلـزامهـم بما يجب عليهـم من حفـظ الجار، وصلـة الأرحام ،فهـذا صاحـب الجزيرة، وهـو ابن أخـي صاحـب الموصل ولي عهد أبيـه، لم يرع فيه ذمة أخيه، وأبعـده عما استحقه بالارث

والتولية، وحرمه مايستوجبه من التربية والتلبية، وأخاف حرمه وقطع رحمه، ولو تمكن منه لأطاح دمه، ولولا خوفه من جانبه وتوقيه من دبيب عقاربه لما التجأ إلى هذا الجانب، ولما اختار الأجانب على الأقارب، وهذا صاحب إربل جار الموصل أبوه زين الدين علي هو الذي حفظ بيتهم، وخلف في إحيائهم ميتهم، وهذا ولده في جوارهم مسكوه بجورهم، وحديث صاحب الحديثة في حادثه لاتخفى، وعين من بتكريت من مخافتهم وآفتهم لاتكرى.

قلت: وفي بعض الكتب الفاضلية عن السلطان إلى الديوان: « وكان قد تحيز إلى الخادم في وقت حركته صاحب تكريت والحديثة وهو يستأذن في استتباعهما بحكم التقليد الذي تناول هذا وغيره، ولم يستأذن في ذلك استئذانا مخصصا إلا لمحلهم من جوار دار الخلافة، ولأنهما مما يرى الخادم إضافته الى مايجري في خاص الديوان العزيز مع غيرهما مما يجري مجراهما في القرب من الجوار، والدخول في زمام شرف تلك الدار، فإن أذن له استثناهما في صلح إن تم معهم أوحماهما مع مباينيه إن اختار المشار اليهم البقاء عليها، وهذا برد شرف قد أعوزه علمه، وتاج إذا أسلمه الحظ الشريف نظم الفخار ومنتظمه».

وفي كتاب آخر: « وماكنا بشهادة الله في قتال المذكورين إلا كقاطع كفه ليسلم سائر جسمه، وكراكب حد السنان مضطرا في حكمه».

وأصحب العماد الرسول قصيدة مدح بها الصاحب مجد الدين أبا الفضل أولها:

قضى الوجد لي أن لاأفيق من الوجد

فيا ضلة اللاحي إذا ظن أن يهدي

محبكم جلد على كل حادث
ولكن على هجرانكم ليس بالجلد
ببغداد حط وار حلكم ليخصكم
أبو الفضل مجد الدين بالفضل والمجد
رآه الإمام الناصر الدين ناصرا
فحاول تعويلا على نجده المجدي

ومنها:
إليك صلاح الدين ألجأ أمره
فحط ركنه والعقد بالشد والشد
مليك على حرب العدو مصمم
وما زال فيه غالب الجد والجند
تساور أفواه الجراح رماحه
مساورة الأميال للأعين الرمد
يحل المنايا الحمر بالكفر مجريا
دم الأصفر الرومي بالأبيض الهندي
ومن لأمير المؤمنين كيوسف
فتى في مراضيه بمهجته يفدي

قال: وشرع السلطان في إقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد، وسير الأمير سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب الهكاري، ومعه الأمراء من قبيلته والأكراد من شيعته إلى بلد الهكارية، وجماعة من الأمراء الحميدية إلى العقر وأعمالها لاستفتاح قلاعها، واستغلال ضياعها، ونصب الجسر، وملك الأمر وعبره مظفر الدين صاحب حران وغيره من الأمراء، وخيموا بالجانب الغربي وكان الحر إذ ذاك شديدا، فأمر السلطان بالصبر عن القتال إلى أن يطيب الزمان، وأهل الموصل في الحصار، وأشير عليه بتحويل دجلة وكان ماؤها قد قل بطريق ذكره خبير بها زعيم أنه يمكن سد دجلة وسكرها وبثق فرضة اخرى وكسرها،

-٨٤٤٨-

ونقلها وتحويلها إلى دجلة نينوي، وتعطش الموصل إذا الماء عنها انزوى، وعرض ذلك على رأي الفقيه العالم فخر الدين أبي شجاع ابن الدهان البغدادي، وكان مهندس زمانه، وإنسان عين الفضل وعين انسانه، وكان منذ عهد قديم سكن الموصل في ظل كبير من أصحاب زين الدين علي، ولما سمع بكرم السلطان تفيأ بظله، وتعرف إلى فضله، فصدق المشير بذلك وقال: هذا ممكن ولايتعذر، ويتيسر ولايتعسر، ومن كتاب عمادي إلى بغداد:« وذكر المهندسون أهل الخبرة انه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها بحيث يبعد مستقى الماء منها، وحينئذ يضطر أهلها إلى تسليمها بغير قتال، ولاحصول ضرر في تضييق ولانزال».

فصل

فيما فعل السلطان في أمر خلاط وميافارقين وغيرهما من البلاد

قال العماد: ثم وصل خبر وفاة شاه أرمن صاحب خلاط، فتحول اليها العزم، وترجح بها الحزم، وكان ورود خبر موته في العشرين من ربيع الآخر، وكان موته في التاسع منه، ولم يخلف ولدا ولا ذا قرابة يكون خلفا له فيها، ووردت كتب الأولياء من أهل بدليس وغيرها إلى السلطان يخطبونه لها، وهم خائفون من العجم أن يتولوها، فاختلف الناس على السلطان فمن مشير بالإقامة إلى انفصال أمر الموصل، ومن مشير بالمسير إلى بلاد الأرمن فإن الموصل غير فائتة، من قائل بانقسام العسكر في الجهتين فترجح رأي السلطان على المسير إليها، فكتب إلى الخليفة يطلب منه كتاب تقليد ببلاد الأرمن وديار بكر والموصل، فجاءه بعد فتح ميافارقين مثال شريف بتقليده النظر في أمر ديار بكر والنظر في مصالح أيتام ملوكها، ثم رحل السلطان عن الموصل في أواخر شهر ربيع الآخر، وقدم في مقدمته ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه، ومظفر الدين صاحب حران وأمرهما أن يسيرا إلى خلاط من أقرب الطرق، فلما وصلا وجدا سيف الدين بكتمر أحد مماليك شاه أرمن قد دخلها وحماها، وتغلب عليها، وجاء بهلوان في عساكر الشرق وهو شمس الدين أبو جعفر محمد بن ايلدكز متولي تلك البلاد، فنزل من الجانب الآخر، وكان وزير خلاط مجد الدين بن الموفق بن رشيق يظهر للسلطان المودة والمناصحة، وهو على خلاف ذلك، وكتب إلى ناصر الدين أن يقيم على القرب، فهو اشد للارهاب والرعب، ففعل ولو خلاه لسبق إليها، وقيل إن هذا الوزير ايضا أنفذ الى بهلوان، وأمره بالاتيان، وأظهر له المودة والاحسان، ولما تمادى الزمان، وقرب منها البهلوان راسله بكتمر وحمل

إليه مع ابنته زوجة شاه أرمن الأموال التي أودعت المخزن، وندب السلطان إليها الفقية ضياء الدين عيسى، فدخلها وتخللها وتأملها وتكلم مع الوزير وشاوره فأحال الحال على البهلوان، وأنه جاء ليتملك المكان، ولو استعجلتم لسهل ماصعب الآن وهان، ثم جرت مراسلة بين السلطان والبهلوان، وانفصل الأمر كأنه ماكان.

وقال القاضي ابن شداد: وفي ربيع الآخر توفي صاحب خلاط، وولي بعده غلام يدعى بكتمر، وهو الذي كان وصل رسولا إلى خدمة السلطان بسنجار، فعدل وأحسن إلى أهل خلاط، وكان متصونا في طريقته، فأطاعه الناس ومالوا إليه، ولما ملك خلاط امتدت نحوه الأطماع، فسار نحوه البهلوان بن ايلدكز، فلما بلغه ذلك سير إلى خدمة السلطان من يقرر معه تسليم خلاط إليه، واندراجه في جملته، فطمع السلطان بخلاط، وارتحل عن الموصل متوجها نحوها وسير إليه الفقيه عيسى وغرس الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها، فوصلت الرسل، وبهلوان قد قارب البلاد جدا، فخوف بهلوان من السلطان وأشعره أنه إن قصده سلم البلاد إلى السلطان، فطلب بهلوان اصلاحه وزوجه بنت لهم وولاه، وأعاد البلاد إليه واعتذر إلى رسل السلطان وعادوا من غير زبدة، وكان السلطان قد نزل على ميافارقين فحاصرها، وقاتلها قتالا عظيما، ونصب عليها مجانيق وملكها في آخر جمادى الأولى.

قال العماد: واستشعر ملوك ديار بكر من حركة السلطان، وكان قد مات صاحب ماردين كما تقدم، وبقيت الولاية لولده الكبير وله عشر سنين، وكان القائم بتدبير ملكه نظام الدين بن البقش، ومات أيضا صاحب آمد نور الدين محمد بن قر ا أرسلان رابع عشر ربيع الأول من هذه السنة، وتولى ابنه قطب الدين سكمان، فاحترزوا من السلطان، وخافوا أن يسترد بلاد آمد منهم، فنفذ السلطان إليهم شمس الدين بن الفراش ليختبر حالهم في المحاربة والمسالمة، فوجدهم على الطاعة

مقيمين، وإليـه راغبين، ومنه راهبين، ووصـل السلطـان في جمادى الأولى إلى ميـافارقين، وكـان دخلهـا من أمـراء صـاحـب ماردين أسـد الديـن يـرنقـش، واستعصى فيهـا على السلطـان، فحـاصره وقاتلـه، ثـم رأى أن القتـال يطـول، فـراسـل أميرهــا الأسـد، ورغبـه في الموادعـة، ونهاه عـن المقاطعـة، وكان في المدينـة خاتـون ابنة قـرا أرسلان، وهـي زوجة قطـب الديـن صاحـب ماردين الذي تـوفي، فأحـال الأسد الأمـر على الخاتون، فـراسلها السلطـان، ورغبهـا وضمن لها كـل ماتطلبـه منـه، ووعدهـا أن يصاهر إليها، فما زال بهاوبا لأسدحتى لانـا، فقرر السلطان لها كل ماكان باسمهـا واسم خدامهـا، وطلبت حصن الهتـاخ ليكون لها عشا لـلافراخ، وزوج السلطان ابنـه معز الديـن اسحاق بإحـدى كرائمها، وأبـرم العهد، وأحكـم العقـد، وسـارع السلطـان إلى نـداء كـل مـا اقترحـوه وفتحـت ميافـارقين، وأقبل صاحـب آمد قطب الديـن سكمان بن نور الـدين على صغر سنه إلى خدمـة السلطان فأكرمه وأعاده إلى منصبـه وكان معه وزيره قوام الدين أبـو عبد الله محمد بن سماقة، وقتل غيلـة في رمضان من هذه السنة كما سيـأتي، ثم سـار السلطان لقصـد الموصل، وولى تلـك الديـار مملوكه حسام الدين سنقر الخلاطـي، فنزل السلطان على دجلة بكفر زمار بقرب الموصل في شعبـان، وعزم على أنه يشتى في ذلك المكـان، فخرجت مـن الموصل نسـاء باكيـات متعـرضات للشفـاعـة فأكـرمهن السلطـان، ووعدهن بالاحسـان، وقال: قد قبلت شفاعتكن، لكـن لابد من مصلحة تتم ومصـالحة نفعها يعم، واستقر الأمـر على ان يكون عماد الديـن زنكي صـاحب سنجـار أخو صـاحب الموصـل وسيطا في اصـلاح ذات البين، وحكما فيما يعود لمصلحة الجانبين، فـإنه كانت شفاعتـه سابقة ورأى بهذا الرأي قضـاء الحقين، وتعطف وتلطف أجلهن واجـلالهن، وأتى بالكـرامة بما يليـق بأمثـالهن، وكـن ظنـن أنه لايقيـم لحرمـة قصـدهن، ولايصـدق ظنونهن، وأنه لايعرف حقوقهن، ويقضي بمكـارمه ديونهن، ولايشتغل بأمر لايـؤذن بمرادهـن، فـدخلـن البلد متلـومـات متـذممات، وبلطـف اللـه لاائذات معتصمات.

-٨٤٥٢-

فصل

في انتظام الصلح مع أهل الموصل ومرض السلطان المرضة المشهورة بحران

قال العماد: وكان السلطان لما دخل شهر رمضان داوم قراءة القرآن، وحفظه واشتغل بالصيام، والتقليل من الطعام، فظهر انزعاجه، وتغير مزاجه وتعذر علاجه، وطال مرضه، وندم على رد السفراء، وسير إلى عماد الدين صاحب سنجار في انفاذ رسله ليوعز بكل مايعود بسؤله، فوصل رسوله شمس الدين بن الكافي، وكان من قبل قد سبق القول في تسليم بلاد شهرزور وقلاعها وحصونها وضياعها، وكذلك ماوراء الزابين من البوازيج والرستاق وبلد القرابلية وبني قفجاق، فدخل شمس الدين بن الكافي وشمس الدين قاضي العسكر من جانبنا إلى الموصل لأخذ العهد على هذا الملتزم، ورحل السلطان قبل عيد الفطر بيوم وهومن بحر بحرانه في عوم، وخيمنا على نصيبين في شوال، ولم نترقب عود الرسول بنجاز الأشغال بل كان الارتحال على الارتحال، ثم استمر الصلح وصلح الأمر، وخطب في جميع بلاد الموصل للسلطان بعد قطع خطبة السلجوقية، وفي ديار بكر أيضا والولايات الأرتقية، وضرب باسمه الدينار والدرهم، وانحل الاشكال وكشف المبهم.

وكتب العماد عن السلطان كتابا الى أخيه سيف الاسلام باليمن بشرح الحال وفيه:« ونزل صاحب الموصل عن جميع ماوراء الزاب من البلاد والقلاع والحصون والضياع وشهرزور ومعاقلها وأعمالها، وولاية بني قفجاق وولاية القرابلي والبوازيج وعانة، وقررنا عليه الموصل وأعمالها على أنه يكون بحكمنا، وينفذ عسكره إلى خدمتنا وتكون الخطبة والسكة باسمنا، وان يطلق المظالم، ولايرتكب المآثم، وقد حصل لنا من صاحب

الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة، وعمت الهيبة والرهبة والعزائم إلى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع».

قال: ونفذ السلطان إلى شهرزور مملوكه مجاهد الدين أياز سربك فتملأ بها وتملك، ونال المقاصد وأدرك، وكان التركمان الايوانية مستولية بها فشتت شملها وندب للنظر في تلك الأعمال القاضي شمس الدين بن الفراش، وأقطع البوازيج لبعض خواصه المماليك وسير إلى البلاد نوابه، ورتب فيها لإقامة سنن العدل والاحسان أصحابه، ووقف ضيعة في البوازيج تعرف بنا فيلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد.

وقال القاضي ابن شداد: لما أيس السلطان من أمر خلاط عاد إلى الموصل، فنزل بعيدا عنها وهي الدفعة الثالثة بموضع يقال له كفر زمار، وكان الحر شديدا فأقام مدة، وفي هذه المنزلة أتاه سنجرشاه من الجزيرة واجتمع به وأعاده إلى بلده، ومرض السلطان بكفر زمار مرضا شديدا خاف من غائلته فرحل طالب حران وهو مريض، وكان يتجلد ولم يركب في محفه، ووصل حران شديد المرض، وبلغ إلى غاية الضعف وأيس منه، وأرجف بموته، ووصل اليه أخوه العادل من حلب، ومعه الأطباء.

قال: وكان سبب صلحه مع المواصلة أن عز الدين صاحب الموصل سيرني إلى الخليفة يستنجد به، فلم يحصل منه زبدة، وسير إلى العجم فلم يحصل منهم زبده، فلما وصلت من بغداد وأديت جواب الرسالة أيس من نجده، فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة وعلموا رقة قلبه وسرعة انقياده في ذلك الوقت، فندبوني لذلك الأمر وبهاء الدين الربيب وفوض الي أمر النسخة، وقالوا: أمض مايعمل جهدكم وطاقتكم إليه، فسرنا حتى أتينا العسكر، والناس كلهم أيسون من السلطان، وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة، فاحترمنا احتراما عظيما، وجلس لنا، وكان

أول جلوسه من مرضه وحلف في يوم عرفة، وأخذنا منه بين النهرين أخذها من سنجرشاه وأعطاها المواصلة، وحلفته يمينا تامة، وحلفت أخاه العادل، ومات قدس الله روحه وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه، وسرنا عنه، وهو بحران وقد تماثل، ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص، وكانت وفاته يوم عرفة، ونحن في العسكر، وجلس العادل في العزاء، وفي تلك الأيام كانت وقعة التركمان والأكراد، وقتل بينهم خلق عظيم، وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن ايلدكز وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة.

قال العماد: وأقام السلطان على نصيبين أياما قلائل، ثم رحل إلى حران فألقينا بها عصا النوى، والقلوب بمرض السلطان متخاذلة القوى، متواصلة الجوى، والفضل خائف من كساده، آسف على عتاده، مشفق من انخفاض قدره، وانقراض عصره، والسماح يقول هذا أوان كسوف سمائي، ونضوب مائي، والدين يندب، والملك يصخب، والايدي إلى الله تعالى مرفوعة، والنيات بالاخلاص مشفوعة، والكفر في أراجيف، والقدر في تصاريف والسلطان كلما زاد ألمه زاد في لطف الله أمله، وكلما بان ضعفه، قوي على الله توكله، وأنا ملازمه ليلا ونهارا سرا وجهارا، وهو يملي علي في كل وقت وصاياه، ويفرق بقلمي على عفاته عطاياه، ومن جملة ذلك أنه اشتدت به الحال ليلة أيس بها منه الأطباء، وغلب القنوط وعدم الرجاء، فلما أصبح اجتمع المعتفون والوافدون إلى بابه والقاصدون المرتجون جني جنابه وضجوا ضجة ارتجت منها الدهماء، ولانت لسماعها الصخرة الصماء، فسأل عن ذلك، فقيل هؤلاء وفدك قد اجتمعوا على بابك، متأسفين على ماانابك، فدعاني وأمرني بكتب أسمائهم، وتفريق مااجتمع في خزانته من المال عليهم، وأمسينا وما على الباب سائل، وكنا نظن أن مابه من الألم شغل شاغل، فوجد بتلك السماحة راحه، واستمر مدة استمرار مرضه على بذل جوهر ماله وعرضه، وكان خلقه أحسن ماكان في حال الصحة، يخاطبنا بسجاياه

السهلة السمحة، ولايخلو مجلسه من ذوي فضل، وأولي نباهة ونبل يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد، ويهزون لمكارمه أعطاف المحامد، فتارة في أحكام شرعية ومسائل فقيهة، وآونة في صناعات شعرية، وألفاظ عربية، ومعان أدبية، ومرة في أحاديث الأجواد وشيم الأمجاد، ودفعة في ذكر فضائل الجهاد، وفرائض التأهب والاستعداد، وينذر أنه إن خلصه الله من نبوة هذه النبوة، وأعفاه من كدر هذه المرضة ومرارتها بالعافية الصافية الحلوة، اشتغل بفتح البيت المقدس، ولو ببذل نفائس الأموال والأنفس، وأنه لايترك شيمة الجود والسماحة بالموجود، والوفاء بالعقود، والمحافظة على العهود، وانجاز الموعود، قال: وربما استروح في بعض ساعات الليل أو النهار إلى السماع لاشارة الأطباء لأجل التفريج والامتاع، ولقد كان ذلك المرض محيصا من الله للذنوب وتنزيها، وتذكرة موقظة من سنة الغفلة وتنبيها.

قال: ولما سمع العادل في حلب بمرض أخيه السلطان،ووصوله إلى حران، بادر بالوصول، وصادف وقت القبول، وقام بضبط الأمور وسياسة الجمهور، والجلوس في كل يوم في النوبتية السلطانية لتولي مصالح الرعية، وإقامة وظيفة السماط، والعمل في كل يوم بالاحتياط، والتصدي لكشف المظالم، وبث المكارم، وتنفيذ مايخرج من المراسم، ورقع كل خرق، ورتق كل فتق، وحفظ المهابة، والقيام عن السلطان في كل مهم يحسن النيابة، ولقد نفعنا حضوره ورفعنا تدبيره فقد كنا على خوف من إرجاف يقوى، وانتشار خبر سوء لايطوى، لاسيما إذا خرج الاطباء وقالوا: مافيه أمل، ولكل عمر أجل، فهناك ترى الناس يستشعرون، وبإبعاد ما يعز عليهم من أعلاقهم ودوابهم يستظهرون، فزال بحضور العادل كل مخافة، وسلم الله برأفته من كل آفة، وكان الملك العزيز عثمان ولد السلطان مع أبيه مقتديا بمعاليه، مقتفيا لمراضيه، وكان من جملة وصاياه عند إشفائه، وإرجاء ترجي شفائه، إن أدركني الأجل المحتوم، ودنا اليوم المعلوم، فقد خلفت أبا بكر وعمر وعثمان وعليا،

وكلهم أراه بمرادي في إقامة الجهاد مليا، فعنى بأبي بكر سيف الدين أخاه، وبعمر تقي الدين ابن أخيه، وبعثمان وعلي ولديه الملكين العزيز والأفضل، ورأى عليهما بكفالة سيف الدين وتقي الدين في الشام ومصر المعول، وأقام العادل إلى أن وضح المزاج، وصح المنهاج، وطابت القلوب، وغابت الكروب، ثم وصل مع أخيه الى حلب وتم معه الى حمص ودمشق، وهب له نسيم مصر فاستجد إلى نشره النشق، وسيأتي ذكر مضيه الى مصر مع الملك العزيز في سنة اثنتين وثمانين، ووصل الملك الأفضل من مصر بعده الملك المظفر تقي الدين.

قال العماد: وكانت صدقاته الراتبه دارة، وبالأبرار بارة، على أن جوده مستوعب للموجود، ولايترك فضلا للوفود ، ولما مرض وعرض له من الالم ماعرض قال لي: أكتب إلى الولاة والنواب بالديار المصرية والشامية ان يتصدقوا على الفقراء والمساكين من المال المعد للحمل بما نص على قدره في التعيين، فلم يبق في الممالك إلا من وصل إليه نصيب، ودعا بالصالحات من الله لدعائه مجيب، فدفع بالصدقة البلاء، ورفع بأصدق الولاء، ونظر الله إلى النيات، وأسنى سنا منته السنيات، ومن جملة تلك الصدقات أنه أمرني أن أكتب إلى نائبه بدمشق الصفي بن القابض أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت ماعنده غير دنانير مصرية، فقال يتصدق بها مصرية، خمسة آلاف لنفوز من الثواب بأضعاف.

قال: ولما امتد زمان مرضه أمر ببناء دار عند سرادقه وحمام، فبنيت في أربعة أو خمسة أيام، وكان قد استحضر من دمشق ولديه الصغيرين تورانشاه وملكشاه وأمهما، فأسكنهم فيها مدة مقامه، وسماها دار العافية للبرء فيها من سقامه، ثم أخلاها لمن ينزل بها ضيفا، وجعلها للآوين إليها وقفا، وبعدها اتصلت المواصلة بين السلطان والمواصلة، وأهدى السلطان لهم هدايا عظيمة لصاحب الموصل ولوالدته ولصاحبته ولابنه نور الدين رحمه الله، وقوم ماسيره إليهم مايربي على عشرة آلاف دينار

سوى الخيل والطيب والشيء البديع والغريب، وجرى أمر المواصلة على السداد وتجهزوا في النصرة الناصرية على ماسيأتي شرحه إلى الجهاد، وأول بركات الاتفاق فتح البيت المقدس وسائر البلاد، وتجددت الفتوح، وانجدت الملائكة والروح وامتحت باليسر العسرة، وصحت بحطين الكسرة ، وخص الله السلطان، بفضيلة فتح القدس، وقضى حاجاته التي كانت في النفس، وسيأتي إن شاء الله شرح كل فتح في موضعه وكيف أشرق سناء النصر من مطلعه.

وكتب الفاضل من دمشق إلى تقي الدين بمصر:« ان العافية الناصرية قد استفاضت أخبارها، وفاضت أنوارها وآثارها، وولت العلة والحمد لله واطفئت نارها، وانجلى غبارها، وخمد شرارها، وماكانت إلا فلتة وقى الله شرها، وعظيمة كفى الاسلام أمرها، ونوبة امتحن الله بها نفوسنا فرأى أقل ماعندها صبرها، وماكان الله ليضيع الدعاء، وقد أخلصته القلوب، ولاليوقف الإجابة وإن سدت طريقها الذنوب، ولاليخلف وعد فرج وقد أيس الصاحب والمصحوب.

نعمي زادفيه الدهر ميا
فأصبح بعد بؤساه نعيما
وماصدق الذي ربه لأني
رأيت الشمس تطلع والنجوما

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضة جديدة، والعزمة ماضية حديدة،والنشاط إلى الجهاد والجنة مبسوط البساط، وقد انقضى الحساب وجزنا الصراط، وعرضنا نحن على الأهوال التي من خوفها كاد الجمل يلج في سم الخياط».

ومن كتاب آخر:« الأحوال بالحضرة مستقيمة، والنعمة بالعافية عظيمة، والبقية الموهوبة من العمر الناصري كريمة القيمة، عرف وعرف

الناس شكرها، ولزم ولـزمـوا قدرهـا، فسيـوف الجهاد قـد كادت تهتـز في أغمادهـا، وخيـل الله قـد كـادت تنـادي أهلهـا اركبـي لميعاد طـرادهـا، والمسجد الاقصـى مبشر تأنيسه بما استوحـش منه من القـرآن وتطهيره مما استولى عليه من رجس الصلبان».

فصل

في باقي حوادث هذه السنة ومن توفي بها من الأعيان

قال العماد: في هـذه السنة تـوفيت الخاتـون العصمية بـدمشق في ذي القعدة، وهي عصمة الدين ابنة معين الدين أنر، وكانت في عصمة الملك العادل نـور الدين محمود بـن زنكي رحمه الله، فلما توفي وخلفـه السلطان بالشـام في حفظ البلاد، ونصرة الاسلام، تـزوج بها في سنة اثنتين وسبعين، وهـي مـن أعفـ النسـاء وأعصمهـن وأجلهـن في الصيـانة، وأحـرمهـن، متمسكة مـن الدين بالعـروة الوثقى، ولها أمـر نافذ، ومعروف وصـدقات، ورواتـب للفقـراء وادرارات، بنت للفقهـاء والصـوفيـة بـدمشق مـدرسـة ورباطا.

قلـت: وكلاهما ينسـب إليها، فـالمدرسـة داخل دمشـق بمحلة حجـر الذهـب قرب الحمام السركسي، والـرباط خـارج باب النصر راكـب على نهر بـانـاس في أول الشرف القبلي، وأمـا مسجد خـاتـون في آخـر الشرف القبلي من الغـرب، فهو منسـوب إلى خاتون أخـرى قديمـة تقدم ذكـرها، وهي زمرد بنـت جاولي أخـت الملك دقـاق لأمه، وزوج زنكـي والد نـور الدين رحمهم الله.

قال العماد: وذلك سـوى وقوفها على معتقيها وعوارفهـا وأياديها، وكان السلطان حينئـذ بحران في بحـر المرض وبحرانـه، وعنفـ الألم وعنفـوانه، فما أخبرناه بـوفاتها خوفا على تـزايد علته، وتـوقد غلته، وهو يستـدعي في كل يـوم درجا ويكتب إليهـا كتابا طويـلا، ويلقى على ضعفه مـن تعب الكتابة والفكرحملا ثقيـلا، حتى سمع نعي ناصر الديـن محمد بن شيركوه ابن عمه فنعيت اليـه الخاتون، وقد تعدت عنه اليهما المنون، وكـانـت وفاة ناصر الـدين بحمص في تاسـع ذي الحجة فجأة من غير مـرض، وأجرى

السلطان أسد الدين شيركوه ولده على ماكان لوالده، ومقابلته بأحسن عوائده.

قلت: وقبر الخاتون المذكور في التربة المنسوبة إليها بسفح جبل قاسيون قبلي المقبرة السركسية، وأما ناصر الدين فنقلته زوجته ابنة عمه ست الشام بنت أيوب فدفنته في مقبرتها بمدرستها بالعوينة، فهو القبر الاوسط بين قبرها وقبر أخيها رحمهم الله، وكانت ست الشام كثيرة المعروف والبر والصدقات.

وكتب الفاضل إلى تقي الدين: « ورد الخبر عشية يوم الأربعاء الحادي عشر من ذي الحجة من حمص بأنه لما كان عشية يوم الأحد وقت الوقفة، انتقل الى رحمة الله ورضوانه المولى الأجل ناصر الدين محمد بن المولى أسد الدين رحمها الله، بمرض حاد أعجل من لمح البصر، ومرد النظر، فإنا لله وإنا اليه راجعون، وشاهد المملوك كتابا من ولده أسد الدين شيركوه أحياه الله إلى كاتب أبيه رحمه الله يقول فيه: وكتبته وقد صار في حفرته، واستقر في قبره، فنسأل الله حسن المرجع والخلاص من هول المطلع، والمعونة على ساعة هذا المصرع، ونشكر الله ثم نشكره ونذكره بأحسن مايذكره به من يذكره، إذ وقى النفس الكريمة العالية الشريفة الناصرية، وقدم قبلها من لايسره التقدم بين يديه، وجعل الله انفسنا فداها فإن تلك نعمة علينا، كما هي نعمة عليه، ولافرق الله لهذا البيت شملا، ولاقضب له حبلا، وأعظم الله أجر الملك المظفر في ابن عمه، وامتعه ببقاء عمه، وأعانه من مقابلة مقدور الله بهمه ودهمه، فليس إلا التسليم لما لايستطيع الخلق له دفعا، وتفويض أمر هذه الأنفس إليه تعالى، فإنا لانملك لها ضرا ولانفعا، ولخوف المملوك ان يلتبس الخبر في مطالعه، ويحرف الكلم عن مواضعه عجل بالإنهاء والإشعار، وسبق بما لايسره السبق به من هذه الأخبار».

قال العماد: وفيها في جمادى الآخرة توفي أخو الخاتون المذكور سعد الدين مسعود بن أنر، ونحن قد فتحنا ميافارقين بها، ولقد كان من الأكارم الأكابر ومن ذوي المآثر والمفاخر، ومارأيت أحسن منه خلقا، وأزكى عرقا، ولم يزل في الدولتين النورية والصلاحية أميرا مقدما وعظيما مكرما، ولسفور فضائله ووفور فواضله، وجد شهامته، وحد صرامته، رغب السلطان وهو زوج أخته ان يكون هو أيضا زوج اخته فزوجه بالتي تزوجها مظفر الدين كوكبري بعده.

قلت: وهي ربيعة خاتون بنت أيوب عمرت إلى أن توفيت بدمشق بدار أبيها، وهي دار العقيقي في شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وهي آخر أولاد أيوب لصلبه موتا، وكان يحترمها الملوك من أولاد أخوتها وأولادهم ويزورونها، في دارها.

قال: وفيها توفي الأمير عز الدين جاولي، وهو من أكابر الأمراء، وله مواقف حميدة في الميجاء يحسن بلاؤه ويصدق غناؤه، ولما عدنا بعد فتح ميافارقين إلى الموصل طرقه البلاء في طريقه، فقفز بحصانه على بعض السواقي فعثر به وانكسرت رجله، ثم عملت عليه قدمه، واشتد ألمه، وطال به سقمه، وانتقل إلى دمشق وتوفي بها في آخر هذه السنة، أو في سنة اثنتين وثمانين، ولقد فجع الاسلام منه بذمر مشيح لدمار الكفر متيح.

قال: وفيها يوم الأربعاء ثامن رمضان قتل بآمد وزير ابن قرا أرسلان، وهو قوام الدين أبو محمد عبد الله بن سماقة، قتلته مماليك مخدومه غيلة، وتمحلوا له في مباغتته بالقتل حيلة، وذلك أنه كان جالسا في ديوانه وايوانه متصدرا بمكانته في مكانه، وعنده الأكابر والأماثل، فدخل عليه واحد منهم، وقال له: الملك يدعوك وحدك فقام فدخل الدهليز وقد أغلق الباب الذي يصل منه إلى الأمير، وأغلق وراءه الباب الآخر وقتلوه

ثم أخرجوا الصلاح من حبسه، وهو أحد الأمراء الأكابر، فقتل أولئك القاتلين، وكانوا به واثقين.

قال: وفيها توفي الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد الموصلي، وكان المدرس بها، وكان علامة زمانه في علمه، ونسيج وحده في نظمه، وقد أوردت من شعره في صدر الكتاب مايستدل به على فضله، وإنه ممن عقم الدهر بمثله، واشتريت كتبه بأغلى الأثمان، ولكم أخرج بحره قلائد اللؤلؤ والمرجان.

قال،وفي هذه السنة رد السلطان قلعتي: الرها وحران إلى مظفر الدين كوكبري بن زين الدين لتوفره في الخدمة على حفظ القوانين، وظهر منه كل ماحقق به الاستظهار، وأوجب لأمره الإمرار، ورغب في مصاهرة السلطان، وقلده طوق الامتنان.

قال: وكان السلطان قد سكنت نفسه للمقام وأراد ان تكون حركته بعد استكمال السكون، وعنده أولاده الأصاغر، والملك العزيز، والملك الظاهر بدمشق، والأفضل بمصر، فلما ورد نعي الخاتون وناصر الدين وخلا شبله أسد الدين بعده في العرين، وخيف على بلاده لصغر أولاده، واحتيج أيضا إلى الاحتياط على مافي خزائنه واستخراج دفائنه، وكذلك الخاتون خلفت أملاكا وتراثا، وأوقافا وأمتعة وأثاثا، لم يكن من الحركة بد، وقدم الكتب إلى البلاد بما صمم عليه عزمه، وأجرى به حكمه، وأمر بالاستعداد لترقب الاستدعاء ووصاهم في سائر المقاصد والأنحاء وكتب إلى ولد ناصر الدين:« قد عرفنا المصاب بوالده رحمه الله وعظم أجرنا وأجره فيه، وإن مضى لسبيله فولدنا أسد الدين أحياه الله نعم الخلف الصالح، وإن انتقل والده إلى دار البقاء فهو في مكانه المستقر من المجد والعلاء، والولايات والبلاد والمعاقل باقية عليه، مسلمة إليه، مقررة في يديه، ومامضى من والده رحمه الله إلا عينه وولدنا قرة العيون، وبه

استقرار السكـون، والحمد لله الـذي جبر به كسر المصاب وألبسنـا وإياه أثـواب الثواب، فليشرح ولـدنا صـدره، ولايشغل سره، ويعـرف خواصـة وأصحـابـه، وولاتـه ونـوابه بحمـص والـرحبـة وغيرهما أنهم بـاقـون على عادتهم»، وكان المندوب اليه القاضي نجم الـدين أبو البركات بن الشيخ شرف الـديـن ابـن أبي عصرون، ولم يفـارق الخدمـة السلطـانيـة في هـذه السنـة.قـال: وفي هذه السنـة لما كنـا على ميـافـارقين، وقد فتحنـاهـا ورد للسلطان مثال شريـف إمامي ناصري بتفـويض ولاية ماردين والحصن، وهـو حصن كيفـا والعـلامـة الشريفة النـاصريـة في ثـاني سطره بـالقلـم الشريف« الناصر لدين الله».

قلت: وفيهـا في جمادى الأولى توفي الحافـظ أبو موسـى محمد بـن عمر ابن أحمد المدينـي الأصبهاني محدث مشهـور له تصـانيف كثيرة، وفي هـذه السنة توفي بمصر في شعبـان الشيخ جمال الدين أبو الفتح أبـو الثناء أبو محمد، محمـود بن أحمد بن علي بـن أحمد بن علي بن أحمد بـن المحمودي، المعروف بـابن الصابـوني، ودفن بساريـة من القرافـة ومولده ببغـداد سنة خمسمائة، وجد أبيه لأمه شيخ الاسلام أبـو عثمان اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، فبه عـرف بابن الصابوني، وكان جـده صحب السلطان محمود ابن محمد بن ملكشـاه، ونسبته بالمحمودي اليه، ودخل ابـن الصابوني هذا دمشق زمن الملك العـادل نور الدين محمود بن زنكـي رحمه الله، واجتمع به ونزل الى زيارته وسأله الاقامة بـدمشق، فذكر له ان قصده زيارة الإمام الشافعـي رضي الله عنـه بمصر، فجهزه وسيره صحبـة الأمير نجم الـدين أيـوب والد صـلاح الـدين سنـة سار إلى ولـده بمصر، وصـار بينه وبينـه صحبة أكيدة، ومحبة عظيمـة، بحيث أنه ماكان يصبر عنه سـاعة واحدة، وأقبل عليه، ولما ملك ولده الملك النـاصر صلاح الدين رحمه الله مصر لم يمكنه من العود إلى الشام، ووقف عليه وقفـا بالديار المصرية، وعلى عقبه وهو باق بأيديهم إلى الآن.

وقرأت بخط صلاح الدين رحمه الله ماكتبه في حقه إلى الملك العادل لما كان نائبه بمصر: « الأخ الأجل الملك العادل أدام الله دولته، غير خاف

عنه قضية الوقف الذي أوقفه الوالد نجم الدين تغمده الله برحمته ورضوانه على الشيخ الفقيه ابن الصابوني، وأنه لما جرى له من المخاصمة مع الشيخ الفقيه نجم الدين ـ يعني الخبوشاني ـ

ماجرى اقتضت المصلحة لتسكين الفتنة وقطع الكلام انتقاله إلى موضع غيره، لتنقطع الفتنة والخصومة بينهم بأمرنا إليه مع بقاء الوقف في تصرفه وتصرف من عنده من الفقهاء، والأخ الأجل الملك العادل يتقدم بمراعاته وحفظ جانبه وتمكينه من التصرف في الوقف المشار إليه، ومنع من يعترضه فيه بوجه من وجوه التأويلات، وحسم مادة الشكوى منه ممن يتعدى عليه إن شاء الله تعالى».

وقرأت بخط الشيخ عمر الملاء الموصلي رحمه الله كتابا كتبه إلى ابن الصابوني هذا بشيراز يطلب منه فيه الدعاء، ويصف حاله أوله أخوه عمر بن محمد الملاء يقول فيه: « وبعد فالذي يتطلع إليه من معرفة أحوالي فجملتها خير وسلامة، غارق في بحار النعماء، ومغمور في هواطل الآلاء غير أن أيدي البلوى بالنقم ترفعني تارة إلى مقام الصديقين، وتضعني تارة أخرى إلى مقامات المتخلفين ومع هذا فطلب النجاة لايفتر، والحركة في طلب الفوز لاتسكن، والعمر ينقضي بالعنا والمنى، وما أشبه حالي بحال القائل:

آمل في يومي إدراك المنى ... حتى إذا ولى تمنيت غدا

لاوطرا أقضي من الدنيا ولا ... أفعل للأخرى فعال السعدا

والعمر يمضي بين هاتين فلا ... ضلالة خالصة ولاهدى

-٨٤٦٥-

يا أخي ما أخبرتك بأحوالي هذه إلآ رجاء أن تتحرك همتك لي بالشفقة والرأفة، فتدعو الله لي بقلب حاضر منور بنور الشفقة والرحمة، ويؤمن على دعائك من حضر من السادة الأخوان، وتقول اللهم عبدك الضعيف عمر بن محمد الملا يدعوك ويقول:

لا تهني بعد إكرامك لي
فشديد عادة منقطعة

وقد توسل بنا إليك نسألك أن تبلغه آماله، وإن تميته موت الشهدا، وتحشره في زمرة السعدا، وأن تجعل خير عمره آخره ، وخير أعماله خواتمها، وخير أيامه يوما يلقاك فيه».

-٥٨٢-

ثم دخلت

سنة اثنتين وثمانين

قال العماد: فرحل السلطان إلى الشام، وودع مظفر الدين صاحب حران من الفرات، ورحل صوب حلب والعادل صاحبها على المقدمة، وقد هيأ أسباب التكرمة، فوصل حلب في العشر الأوسط من المحرم، ثم رتب العادل في حلب نوابه، وصحب السلطان فوصلوا حماة، وفيها نائب تقي الدين ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خمارتكين، وهو صاحب بوقبيس، وقد جمع النهضة والأمانة، وصل السلطان إلى حمص وقرر أمر المجاهد أسد الدين أبا الحارث شيركوه بن ناصر الدين، وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة سماه أبوه باسم جده ولقبه بلقبه، وكتب له منشورا بما قرر عليه من البلاد، وذلك بحمص وسلمية وتدمر ووادي بني حصين والرحبة وزلبيا، وكتب منشورا آخر بإسقاط المكوس بالرحبة وفيه:« وهذا دأب السلطان في جميع البلاد اقتصر منها على الرسوم التي يبيحها الشرع، وهي الخراج والأجور والزرع» واعتمد على الأمير الحاجب بدر الدين ابراهيم بن شروة الهكاري في ولاية قلعة حمص، ثم نقله إلى قلعة حلب واليا بها ست سنين ورتبه العزيز في آخر عهد السلطان بقوص.

قال: ورتب السلطان مع أسد الدين بحمص أميرا من الأسدية يعرف بأرسلان بوغا، فقدم على أصحابه بتولي مصالح بابه، حتى تفرد الأسد بالأمر لسداده، وبلغ مدى رشاده، ونعت بالملك المجاهد، ونهض بمحامل المجاهد.

قال: وأقمنا بحمص أياما حتى استعرضنا خزائن ناصر الدين ، وقسمنا ميراثه، وكانت أخت السلطان الحسامية زوجة ناصر الدين وهي

مستحقة للثمن، والباقي بين البنت والابن، وخلف عينا وورقا مجتمعا ومفترقا، وبلغ التراث في الملك والعين والأثاث ماعظم عن أن يقدر بمقدار، وأناف عن ألف ألف دينار، فما اعاره السلطان طرفه، بل تركه على أهل التركة.

قال: ولما شاع بدمشق خبر دنونا احتفل أهلها، واجتمع بالمسار شملها، وطلعت أعيانها، ونبعت عيونها، ووافت أبكارها وعونها، وظهر مكنونها ومخزونها، وترامت إلينا بثمراتها ومكرماتها سهولها وحزونها، ودخلنا المدينة وزينة الدنيا خارجة، وسكينة النعمى فارجه، ودمشق كالهدي مزفوفة، وبالهدى محفوفة، وبالحسن موصوفة، وكان الناس قد ساءهم خبر المرض، فسرهم عيان السلامة، وأسهرهم الهم للاشفاق فراجعوا للشفاء كرى الكرامة، وماألذ الرجاء بعد الابلاس، والثرى غب الافلاس، والأمل عقيب الياس، وإنهم ظفروا في حالة الايحاش بالايناس، وأمنوا بمشاهدة الأنوار السلطانية حنادس الوسواس، واجتمع السلطان في القلعة بأهله، وأقلع المرجف عن جهله، وحسنت الأحوال، وأمنت الأهوال، وشاهدنا الفضل والكرم بالمشاهدة الفاضلية الكريمة، وعدنا إلى عادة السعادة القديمة، واجتمع السلطان به فبثه أسراره، واستزال بصفو رأيه أكداره، ودخل جنته وجنى ثماره، وزاره مرة واستنزاره، وراجعه في مصالح دولته واستشاره، وجلس السلطان في دار العدل لكشف المظالم، وبث المكارم،وإحياء المعالم، وإقامة مواسم المراسم.

وقال القاضي ابن شداد: ولما وجد السلطان نشاطا من مرضه رحل يطلب جهة حلب، وكان وصوله إليها يوم الأحد رابع عشر المحرم، وكان يوما مشهودا لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام بها أربعة أيام، ثم رحل في ثامن عشرة نحو دمشق، فلقيه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بتل السلطان، ومعه أخته وقد صحبه خدمة عظيمة، وقرب

-٨٤٦٨-

زائدة، ومن عليه بحمص، وأقام أياما يعتبر تركة أبيه، ثم سار يطلب جهة دمشق، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الأول، وكان يوما لم ير مثله فرحا وسرورا.

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٦)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء التاسع عشر

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

لأبي شامة

الجزء الثالث

دمشق ١٤١٦/ ١٩٩٥

فصل

في ذكر ما استأنفه السلطان بمصر والشام من نقل الولايات بين أولاده

قال العماد: وكان السلطان لملازمة أخيه العادل له قد مال إلى رأيه، وكان الملك الأفضل نور الدين علي بمصر، وهو ولده الأكبر، وقد بدأ يظهر، وعلى تجويد الخط والأدب وسماع الأحاديث النبوية يتوفر، وقد مالت إليه بمصر جماعة، وله منهم طاعة، وربما نقم تقي الدين النائب هناك من أحد أمراً فوقعت منه فيه شفاعة، فكتب يشكو من اختلال أمره، واشتغال سره، وكان في نفس السلطان أن ينقل ولده الملك العزيز عثمان إلى مصر ليكون عزيزها، وليحرز مملكتها ويحوزها، وهو مفكر في طريق تدبيره ووجه تقريره، حتى بدا له نقل الأفضل إلى الشام، فكتب إليه يتشوقه ويستدعيه بجميع أهله وجماعته ووالدته وحشمه وأصحابه، فخرج ووصل دمشق يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى، وخرج السلطان لاستقباله وأنزله بالقلعة في دار رضوانه، وكتب إلى تقي الدين أنه استقل أمره، وزال عذره، فابتهج بتفرده وخفي عنه أنه كان في ذمة ولد السلطان وعصمته، وان تمام حرمته بحرمته.

قال: ولما وصلنا إلى دمشق كان بها من أولاد السلطان الملك الظاهر غازي غياث الدين، فزار عمه العادل، وهو صهره، وقد اشتد بمصاهرته، ظهره، فقال له: قد نزلت عن حلب لك، وأنا أقنع من أخي باقطاع أين كان، وألزم الخدمة ولاأفارق السلطان، فأطلبها من أبيك إن كانت ترضيك، وجاء الى السلطان وقال هذه حلب مع رغبتي لتوليها أرى أن أحد أولادك بها أحق، وهذا ولدنا الملك الظاهر أحب أن أوثره بها، فقال السلطان: المهم الآن تدبير ولدي الملك العزيز فإن مصر لابد

أن يكون لي بها ولـد أعتمد عليـه، وأسند ملكهـا إليه، ورحـل إلى الزرقـا، ومعه ولداه العزيز والظاهر وأخـوه العادل، فالتمس العادل عوض حلب بلادا عينهـا، ونواحي بمصر بينهـا وكان قد مـال الملك العزيـز إليه لاشفـــــــــاقـــــــه عليـــــــــه، فسأل أباه أن يسير معه العادل فإنه نعم الكافي الكافل، فأعطاه السلطان بمصر البلاد المعـروفة بالشرقيـة، واعتمد عليـه في نيابته في سـائر المالك المصرية، ولما سمـع تقي الـدين هـذا الخبر نبا ونفـر، وذم الغير، واستبدل من الصفو الكدر، وغار من تغير الرأي فيـه، وإذا تولى أبو بكر فلا عمر، فعبر إلى الجيزة، مظهرا أنه يمضي إلى بلاد المغـرب ليتملكها، وكتب يسأل السلطان أن لايمنعه من سلوك مسلكها، وسمـت همته إلى مملكة جديدة، وأقاليم ذات ظلال مـديدة، وبلاد واسعة، ومدن شاسعـة، وقد كان أحد مماليكه المعـروف بقراقوش، قد جمع مـن قبل الجيوش وسار إلى بـلاد برقة فملكها، وهـزته الأمنيـة للنفائس مـن بلاد نفـوسة فـأدركها، وتجاوز إلى إفريقيـة وهو يكتب أبـدا إلى مالكه الملك المظفـر يرغبه في تلـك المملكة ويقـول إن البـلاد سائبـة، فلما تجدد لتقـي الـديـن ماتجدد، وتمهـد لعمـه العادل مـاتمهد، عاد لـه ذكر المغرب فعبر بعسكره، ومـالت إليه عسـاكر مصر لبذلـه، وقدم مملوكه بـوزبا في المقدمة، فلما انتهـى الى السلطان خبر عزمه قال: لعمري إن فتح المغرب مهـم، ولكن فتح البيت المقدس أهم، والفائدة بـه أتم، والمصلحـة منه أخـص وأعم، وإذا تـوجه تقـي الديـن، واستصحب معـه رجالنـا المعروفـة، ذهب العمـر في اقتناء الـرجال، وإذا فتحنا القدس والساحل طوينا إلى تلك المالك المراحل، وعلم لجاج تقي الدين في ركوب تلك اللجة، فكتب إليه يـأمره بالقدوم عليه، وجهز ولده العزيز إلى مصر، وقرر له قوص، وأعمالها، وسـار معه عمه العادل، فدخلا القاهـرة في خامس شهر رمضـان، وأما الملك الظاهـر فسيره السلطان إلى حلب وأنعـم عليه بها، وبسائر قـلاعها وأقـاليمها، وندب معـه الحاجب شجاع الدين عيسى بن بلاشـو، وعاد السلطان ومعه الأفضل، وقدم تقي الديـن في آخر شعبان، وتلقـاه السلطان وخيـم على المصري فوق قصر أم

حكيم، فلما قـرب ركب إلى مـوكبه، ورحـب به ودخـل دمشق، وعـاد إلى ماكان له من البلاد ومنح المعـرة وسائر أعمالها، ثم أضاف إليه ميافارقين، وجميع مافي ذلك الاقليـم من المعاقل، وكتب إلى مصر باستـدعاء رجاله، وإعلامهم بتأخير عزم المغرب بل ابطالـه، فامتثلوا الأمر، وفارقوا إلى الشام مصر، سوى مملـوكه زيـن الديـن بوزبا فـإنه رتـب له عسكـر إلى المغرب فمضى واستصحبه وغلـب على بلاد إفريقية، ثم قصده صـاحب المغرب فأخـذه مأسـورا، ثم أغـزاه مع الغز في ثغـر من الثغـور فألفـاه مشهورا مشكورا، فقدمه عليهم.

قلت: وكتـب الفاضل إلى تقـي الدين:« سبـب هذه الخدمة مـااتصل بالمملـوك من تردد رسائل مولانـا في التماس السفر إلى الغرب، والـدستور إليه— يكفي الزمان فما لنا نستعجل— يامـولانا ماهذا الواقع الذي وقع، وماهذا الغريم من الهم الذي ماانديفع، بالأمس ماكان لكم من الدنيا إلا البلغة، واليوم قد وهـب الله هذه النعمة، وقد كان الشمـل مجموعا، والهم مقطوعا ممنوعا، أفتصبح الآن الدنيـا ضيقة علينا، وقد وسعت، والأسباب بنا مقطوعة، ولا واللـه ماانقطعت، يامولانا إلى أين ومالغـاية وهل نحن في ضـائقة مـن عيش، أو في قلـة مـن عدد، أو في عـدم من بـلاد، أوفي شكوى مـن عدم، كيـف نختار على اللـه، وقد اختـار لنا، وكيـف ندبـر لأنفسنا وهو قـد دبر لنا، وكيف ننتجـع الجدب، ونحن في دار الخصب، وكيف نعـدل إلى حرب الاسلام المنهي عنهـا، ونحن في المدعو إليهـا من حرب أهل الحرب، معاشر الخدام والجيـش، وأرباب العقول والآراء أليس فيكم رجل رشيد:

تعقـــب الـــرأي وانظـــر في أواخـــره
فطـــالما اتهمـــت قـــدمـــا أوائلـــه

لازال مولانـا يمضي الآراء صائبـة، ويلحظها باديـة وعاقبـة، ولاخلت

منـه دار إن خلـت فهيهات أن تعمـر، ولاعـدمتـه أيام إن لم تطلـع فيهـا شمس وجهه دخلت في عداد الليالي فلم تذكر».

وقـال القاضي ابـن شـداد: وفي سـابع عشر جمادى الأولى سنـة اثنتين وثمانين وصل الملك الأفضـل إلى دمشق، ولم يكن رأى الشام قبـل ذلك، وكان السلطان رأى رواح الملك العادل إلى مصر، فإنـه كان آنس بأحوالها مـن الملك المظفـر، فما زال يفـاوضه في ذلـك وهـو على حـران مريـض، وحصل ذلـك في نفس العادل فـإنه كـان يحب الديار المصريـة، فلما عاد السلطـان إلى دمشق ومـن اللـه بعافيتـه سير يطلـب العادل إلى دمشـق، فتجهز من حلـب جريدة، وأقام بدمشق في خـدمة السلطان يجري بينهما أحـاديث ومـراجعـات في قواعـد تقرر إلى جمادى الآخـرة، فـاستقر عـود العـادل إلى مصر ويسلم بـلاد حلب إلى الظـاهر، وسلـم السلطان إليـه ولده الملك العزيز، وجعله أتابكه.

قال: ولقـد قال لي الملك العادل لما استقـرت هذه القاعـدة: اجتمعت بخدمـة الملك العـزيز، والملـك الظاهـر، وجلست بينهما، وقلـت للعزيـز: إعلم يامـولاي أن السلطان قد أمرنى أن أسير في خـدمتك إلى مصر، وأ نا أعلم أن المفسدين كثير وغدا فما نخلوا ممـن يقول مالايجوز عني، ويخوفك مني، فـإن كان لـك عزم تسمـع فقل لي حتـى لاأجيء، فقـال: لاأسمع وكيف يكون ذلك، ثم التفت وقلت للملـك الظاهر: وأنا أعرف أن أخاك ربما سمع في أقوال المفسدين، وأنا فمالي إلا أنت وقد قنعت منك بمنبج، متـى ضاق صـدري مـن جانبـه، فقال: مبـارك، وذكـر كل خير، ثـم إن السلطان سير ولده الظاهر إلى حلب، وأعـادها اليه، وكان رحمه الله يعلم أن حلب هي أصل الملـك وجرثومته وقاعدتـه، ولهذا دأب في طلبها ذلك الدأب، ولما حصلـت له أعـرض عما عداها مـن بلاد الشرق، وقنـع منهم بالطـاعة والمعـونة على الجهـاد، فسلمها إليـه علما منه بحـذاقته وحـزمه، وحفظه، فسـار حتى أتـى العين المباركة، وسير في خـدمته شحنـة حسام الديـن بشارة، ووإليا شجـاع الدين عيسـى بن بـلاشو، ونزل يـوم الجمعة

بالعين المباركة، وخرج الناس إلى لقائه في بكرة السبت تاسع جمادى الآخرة، وصعد القلعة ضاحي نهاره، وفرح الناس به فرحا شديدا، ومد على الناس جناح عدله، وأفاض عليهم وابل فضله.

وأما الملك العزيز والعادل فإن السلطان قرر حالهما، وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسيرهما إلى مصر، ويأمره بالوصول الى الشام، فشق ذلك عليه حتى ظهر للناس، وعزم على المسير إلى ديار الغرب إلى برقة، فقبح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة، وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يده في الحال، والله يعلم مايكون منه بعد ذلك، فرأى الحق بعين البصيرة، وأجاب بالسمع والطاعة، وسلم البلاد، ورحل واصلا إلى خدمة السلطان، فسار السلطان الى لقائه، فلقيه بمرج الصفر، وفرح بوصوله فرحا شديدا، وذلك في الثالث والعشرين من شعبان، وأعطاه حماة وسار اليها، وكان عقد بين الظاهر وبعض بنات العادل عقد نكاح، فتمم ذلك، ودخل بها يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان، ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين محمد بن شيركوه في شوال من هذه السنة.

ومن كتاب فاضلي إلى السلطان: « الملك العادل والملك المظفر المذكوران ماهما أخ وابن أخ بل هما ولدان لايعرفان إلا المولى والدا ومنعما، وكل واحد منهما له عش كثير الفراخ، وبيت كرقعة الشطرنج فيه صغار وكبار كالبيادق والرخاخ، فلا يقنع كل واحد منهما إلا طرف يملكه، وأقليم يتفرد به، فيدبر مولانا في ذلك بما يقتضيه صدره الواسع، وجوده الذي مانظر مثله الناظر، ولاسمع السامع، ولاينس قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: « مروا القرابة أن يتزاوروا ولايتجاوروا»، وماعلى مولانا عجلة في تدبير يدبره، ولافي أمر يبته « وستبدي لك الأيام ماكنت عارفا»، وفي غد ماليس في اليوم، ولله اقدار، ولها أمد، وقد رزق الله مولانا ذرية تود لو قدمت أنفسها بين يديه، ولو اكتحلت اجفانها بغبار

قدميه، مافيهـا من يشكي منه الا التزايد في الطلب، وهـو من باب الثقة بكـرم المنعـم، ولهم أولاد، والمولى مـد الآمال لهم، كما قـال مـولى الأمـة: «تناكحـوا تناسلـوا فإني مكـاثر بكـم الأمم»(٣٤) طالما قـال لهم المولى لدوا وعلي تجهيز الإناث وغنى الذكور، وسـواء على أفق البيت طلوع الشموس والبدور».

قال العماد: ومـدحت تقي الـدين بقصيدة سينيـة سنية، قطوفهـا دانية جنية، تشتمل على مائة وأربعين بيتا، أنشدته إيـاها في ثالث شهر رمضان من هذه السنة بدمشق، وأوردت بعضها ومطلعها:

عفـا الله عنكـم عـن ذوي الشـوق نفسـوا
فقـد تلفـت منـا قلـوب وأنفـس

ألم تعلموا أني من الشوق موسر
ألم تعلمـوا أني مـن الصبر مفلـس

ظننتـم بعينـي أنهاتـألـف الكـرى
فهـلا بعثتـم طيفكـم يتجسـس

وليـس لقلبـي في السرور تصرف
فقلبـي على الأحـزان وقـف محبـس

ومنها:

لفتـك محبيـه تيقـظ طـرفـه
وتحسبـه مـن سقـم عينيـه ينعـس

لـه نـاظـر عنـد الخلاف منـاظـر
يقـول دليـل الـدل عنـدي أقيـس

إذا درسـت ألحاظـه السحـر أصبحـت
رسـوم اصطبـاري درسـا حين تـدرس

ولم أنـس أنسـي بـالحمـى رعـى الحمـى
عشيـة لي مجنـى ومجلى ومجلـس

لحى الله أبنـاء الـزمـان فكلهـم
صحيفتـه أودى بها المتلمـس

ولـولا ابتسـامـات المظفـر بـالنـدى
لما راق نفسي صبحـه المتنفـس
جلـت شمـس لقيـاه الحنـادس بعـدمـا
عـرتنـا وهـل يبقى مـع الشمس حنـدس
وصـار بـه هـذا الـزمـان جميعـه
نهاراً فما للنـاس ليـل معسعـس
إذا صـال فـا المفلـول ألـف مـدرع
وإن جـاد فـا المبـذول ألـف مكيـس
وليـس بمغبـون على فضـل رأيـه
ويغبـن في الأمـوال منـه ويبخـس
إذا أطلـق الملـك المظفـر في الـوغـى
اعنتـه فـالشمـس بـالنقـع تحبـس
فـداك ملـوك لايلبسـون داعيـا
وكلهـم عـن دعـوة الحق يخنـس
تشكـى إليـك الغـرب جـور ملـوكـه
فـاشكيتـه والجور بـالعـدل يعكـس
سيهـدى إلى المهـديـة النصر والهدى
بهديكـم فيهـا وتـونـس تـؤنـس
رددت كـراديـس الفـرنـج وكلهـم
لـدى الأسر في غـل الصغـار مكـردس
وبيضـت وجـه الـديـن يـوم لقيتهـم
وأبيضكـم مـن أسـود القصر أشـوس
أفـاد دم الأنجـاس طهـر سيـوفكـم
ومـا يستفـاد الطهـر لـولا التنجـس
شمـوس ظبـى تغـدو لها الهام سجـدا
فللـه نصرانيـة تتمجـس
وكـم كفـى الاسـلام سـوءا بملككـم
كفيتـم على رغـم المعاديـن كـل سـو

ولا يفتـــح البيـــت المقـــدس غيركـــم
وبيتكـــم مـــن كـــل عـــاب مقـــدس
لهم كـــل يـــوم في جهـــاد مثلـــث
إذا نصروا التـــوحيـــد فيء مخمـــس
إذا مـــا تقـــي الـــدين صـــال تساقطـــت
لأقـــدامـــه مـــن عصبـــة الشرك أرؤس
ومـــاعمـــر الا شبيـــه سميـــه
شـــديـــد على الأعـــداء ثبـــت عمـــرس

-٨٤٨٠-

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: كـان المنجمون في جميـع البلاد يحكمـون بخراب العـالم في هـذه السنة في شعبـان عند اجتماع الكـواكـب الستة في الميـزان بطوفـان الريح في سـائر البلدان، وخوفوا بـذلك من لاوثوق لـه باليقين ولاإحكام له في الدين، مـن ملوك الأعاجم والروم، وأشعروهـم من تأثيرات النجوم، فشرعـوا في حفـر مغـارات في التخـوم، وتعميـق بيـوت في الأسراب، وتـوثيقها، وسـد منـافسها على الـريـح وقطع طـريقهـا ونقلوا إليهـا الماء والأزواد، وانتقلوا إليها وانتظروا الميعاد، وكلما سمعنا بأخبارهم استغربنا في الضحك مـن عقولهم، وسلطاننـا متنمر مـن أباطيل المنجمين، مـوقن أن قـولهم مبنـي على الكـذب والتخمين، فلما كـانـت الليلـة التـي عينهـا المنجمون لمثل ريح عاد، وقد شارفنـا الميعاد، ونحن جلوس عند السلطان في فضـاء واسع، ونـاد للشمـوع المزهـرات جامـع، ومـايتحـرك لنا نسيـم ولالسرح الهواء في رعـي منـابـت الأنوار مسيـم، فما رأينـا ليلـة مثلهـا في ركودها وركونها، وهدوها وهدونها.

قال ابـن القادسي: وحكـم أصحاب النجـوم أن في الثامـن والعشرين مـن جمادى الآخـرة من هـذه السنـة تقترن الكـواكب السيـارة الخمسـة، والشمس والقمـر في برج الميزان، ويؤثـر ذلك هواء عظيما وغيما سمـوميا، وفي يوم الـثلاثاء التـاسع والعشرين تهلـك البلاد، وتحمـل الرمـل ونسبوا ذلك إلى الخوارزمي، وقـالوا:يكون أشد ذلـك من ليلة الثلاثـاء إلى نصف ليلـة الأربعاء، فـاستعد لـذلك أقـوام في البلاد، وجمعـوا الكعك وحفـروا السراديب، فـأهل رجـب وماجـرى مما قـالوا شيء فخزي أهل التنجيـم لذلك، ولم يهب في ذلـك اليوم هواء البتة، وكان الزمـان حارا واشتد الحر في ذلك اليـوم وبعده، ولم يظهـر مما قالـوا شيء، وعمل الشعـراء في ذلك

شعرا يزرون عليهم في حكمهم، منهم نجم الدين أبو الغنائم محمد بن علي بن المعلم الهرثي، وفخر الدين عيسى بن مودود دزدار قلعة تكريت، وأبو الفتح سبط ابن التعاويذي. قال أبو الغنائم بن المعلم:

قل لأبي الفضل قول معترف
مضى جمادى وجاءنا رجب
وما جرت زعزعا كما حكموا
ولا بدا كوكب له ذنب
كلا ولا أظلمت ذكاء ولا
أبدت أذى في قرانها الشهب
يقضي عليها من ليس يعلم ما
يقضي عليه هذا هو العجب
فارم بتقويمك الفرات والاصـ
ـطرلاب خير من صفرة الخشب
قد بان كذب المنجمين وفي
أي مقال قالوا فما كذبوا
مدبر الأمر واحد ليس
للسبعة في كل حادث سبب
لا المشتري سالم ولا زحل
باق ولا زهرة ولا قطب
تبارك الله حصحص الحق وانجا
ب التمادي وزالت الريب
فليبطل المدعون ما وضعوا
في كتبهم ولتخزق الكتب

قال عيسى بن مودود:

مزق التقويم والزيج
فقد بان الخفاء
إنما التقويم والز
يج هواء وهباء

قلـــــت للسبحـــــــة ابـــــرا
م ومنـــــــــع وعطـــــــــــاء
ومتـــــى ينـــــزلـــــن في المـــــ
ـــــــيزان يستـــــــولي الهواء
وتثير الـــــرمــــــل حتـــــى
يمتلي منـــــــه الفضـــــــاء
ويعـــــــم الأرض خســـــف
وخـــــــراب وبـــــــلاء
ويصير القـــــــاع كالقـــــــ
ـــــف وكـــــالطـــــود العـــــراء
وحكمتـــــــم فـــــأبــــى الحا
كـــــم إلا مـــــا يشـــــاء
مـــــــا أتـــــــى الشرع ولا
جـــــاءت بهذا الأنبيـــــاء
فبقيتـــــم ضحكـــــــة تضـــــ
ـــــحك منهـــــا العلماء
حسبكـــــم خـــــزيـــــا وعـــــارا
مـــــا تقـــــول الشعـــــراء
ثـــم مـــــا أطمعكـــم إلـــى الـــــ
ـــــحكم إلا الأمـــــــراء
ليـــــت إذ لم يحسنـــــوا في الـــــ
ـــــدين ظنـــــا ومـــــا أســـــاءوا
فعلى اصطـــــــرلاب بطـــــ
ـــــليموس والـــــزيـــــج العفـــــاء
وعليـــــــه الخزي مـــــــا
جـــــــادت على الأرض السماء

ولم يذكر شعر سبط ابن التعاويذي

قال: وفي السابع والعشرين من شوال تـوفي محمد أبو عبد الله بن بري ابن عبـد الجبار النحوي، وكـان آية في النحـو ثقة عالما صـالحا، مبلدا في أمر دنياه حدث عن ابن الخطاب، ومرشد بن صادق وغيرهما.

قال العماد: وفي هذه السنـة جاء نعي أتابـك محمد بن أتابـك إيلدكز المعـروف بالبهلـوان، وهـو الذي كـان نـزل على خلاط في العـام الماضي، وكانت حيـاته متصلة الجد والجدى، واضطربت من بعـده تلك الممالك، واخترت أصفهـان وإلى اليوم مـن سنة أربـع وتسعين ماوضعـت الحرب أوزارها، وتـولى بعده أخوه قـزل أرسلان، فأزال مهـابة الملك السلجـوقي، وسلك نهج السعيد الشقي، إلى أن ذهب،فاتضع الملك، وانقطع السلك، واتسع الهلك، وطمعت خراسان في العراق، وعـدمت الإفاقة من الآفاق، وأظلمت مطالع الإشراق.

قـال:واشتغل السلطـان في بقيـة سنة اثنتين وثمانين بـدمشق بالصيـد والقنص والانتهـاز فيه لبوادر الفرص، وكـان يركب إلى تل راهـط للصيد بالبـزاة والشواهين مع ممـاليكه الخواص الميـامين، وله شاهين يجري كـأنه بحر، إذ حلق فشرار، وإن أحرق فجمر، فكم صـاد ليوسف يعقوبا، وعقر بإنجـاز وعد صيـده عرقـوبا، فطلبتـه من السلطـان، فقال: أنـت للقلم والـدواويـن، فمالك والبـزاة والشـواهين؟ فقلـت: يكون في ملكـي وكـل مايقنصـه يأمر لي به المولى، وهـذا أربح لي وأنفع وأولى، فقـال: نعم، فلما أصبـح سير لي سبـع عشرة قطعـة مـن طير وحجـل، وقـال: هـذا صيـد شاهينـك في طلق واحد على عجـل، فملكت ذلك الشـاهين خمس ست سنين والسلطان يصطـاد به ولي قنصـه، وله مطلعـه، فما زال لي على هذا الحق محافظا، ولهذه النكتـة ملاحظـا إلى أن أودى الجارح وانقطعت تلـك المنائح، فيالله دره من سلطـان لم ينس ذكر هذه القضية التي أعـاد مزحها جدا، واعتـده لي حقامعدا، فـدون حقه على مثلـه أن يؤسف، ومـن حقنا بعده أن نتلوا(يا أسفي على يوسف)(٣٥) .

قـال: ولما دخل شهـر رمضـان نوع أقسـام الإنعـام، واتفق أن بعـض التجار كانت بضاعته بقلبر رفيعه، وماهلا نفاق، وهي أكثر من مائة قطعة فحملهـا إلى الخزانة السلطـانية في بضـاعـات، وقال: خـذوها واكتبـوا لي بأثمانها في مصر على بعـض الجهات، فـاشتريت منـه بها كان يـرجوه مـن الربـح، وكان مـن كرم شيم السلطـان إذا عرف في خزائنـه موجـودا، أنه لايستطيب تلك الليلة حتى يفرقـه جودا، فقال لي: قد اجتمعت لنا بقلبر وعمائم، وقد تقـاضتني نفسي بخلعهـا على أهل الفضـل والمكارم، فنبـدأ بـأهـل الديـن والتقـوى، ونجعـل لهم أوفـر حظ مـن الجدوى، وكـان في الوافدين ومن أهل البلد وعاظ وعلماء وحفـاظ، فيكون كل يوم بكرة نوبة لمن يتكلم على المنبر، ويذكـرنا بالحلال والحرام والبعث والمحشر، ثـم يخلع عليهـم وعلى القـراء فاشتغـل مـدة اسبـوعين بالمواعـظ، ووضـع المنبر في إيوان القلعـة، فقلت: بقـي إحضار الفقهـاء في المدة الباقيـة من الشهـر، فقـال: إنهم يمضي بهم الخلاف إلى التشـاجـر والتضـاغـن، فقلـت: أنـا أضمنهم، ولايحضر إلا أوقـرهم وأرزنهم، فـاستدل أول يوم بـرهان الـدين مسعود مدرس الحنفية في المدرسة المعمورة النوريـة، واعترض عليه العماد الكاتب، وفي اليوم الثـاني استدل أكبر مشايخ الحنفية بدر الـدين عسكر واعترض عليـه قاضي القضـاة محيـي الديـن بن الـزكـي، فكان السلطـان يجلـس في كل يـوم لطـائفـة، فلما دنا العيـد أمـر بـابتياع العمائم وغيرهـا وصرفها إليهم.

قال القـاضي ابن شداد: وفي شهـر ربيع الأول مـن سنة اثنتين وثمانين وقعـت وقعات كثيرة بين التركمان والأكـراد بـأرض نصيبين وغيرها، وقتـل مـن الفئتين خلـق عظيـم، وبلـغ السلطان أن معين الـديـن قـد عصـى بالـراوندان، فكتـب إلى عسكر حلب أن حـاصروه، وكان نـزولهم عليه في العشر الأول مـن سنة اثنتين وثمانين، وأعطـى بـرج الرصـاص لتميرك في بقيـة ذلـك الشهـر، وفي ثـاني جمادى الأولى وصـل معين الـديـن مـن

الـراوندان، وقـد سلمهـا إلى علـم الديـن سليمان، ثـم مضـى إلى خدمـة السلطان.

قـال ابن القـادسي: وقـدم الحاج في عـاشر صفر، فـأخبروا أن سيـف الاسلام أخـا صلاح الديـن ملك مكة وضرب الدنـانير فيها باسـم أخيه، ومنـع مـن قـولهم حـي على خير العمـل، وشرط على العبيـد أن لايـؤذوا الحاج، وأخبر الحاج أن قفل باب الكعبة تعسر حتـى فتح، ولما فتح مات في الدوسة أربعة وثلاثون شخصا من بين رجل وامرأة.

قال: ووصل الخبر أن ريحا هبت بـالبصرة فكسرت نخيلا كثيرا، وماتت بهائم كثيرة، ووصـل الخبر إلى بغـداد بقتـل البهلـوان، وأن القتـال وقـع هناك، واحرقت المحال، ونهبت الأمـوال، واقتتل أهل المذاهب، واحترقت مدارس وبقـي الأمر على ذلك مـن سابـع محرم إلى ربيع الآخر، فـاحصوا من القتلى أربعـة آلاف رجل وسبـع عشرة امرأة بعـد أن احترق أطفال في المهود بالليل،وقـام قزل أخو البهلوان، فكف الناس.وكـان قزل قد رتب شحنة في إصفهان بعـد الفتنة التي وقعت بها، ومعـه ألف فارس، فما زال يهذب البلد والـرساتيق بالقتـل والصلب، وصادرهم وأشير على قـزل بأن يلزم أهـل البلد سبعين ألف دينـار، فقال لـه الشحنة: أهل البلـد فقراء، فقال بعـض المصالحة لقزل: مـانأخذ إلا من الأغنيـاء، فوثب عيـار فقتل المصلحي، وكان العيـار متعلقا على قـاضي البلـد، فوكـل الشحنة بـدار القاضي، فجاء ابـن الخجندي إلى دار القاضي فحسن لـه إخراج الموكلين بـه وتحالفا على إخـراج الشحنة مـن البلد، وأن يقطعـوا خطبة السلطـان الذي نصـب قزل، ففعـل ذلك في سابـع شوال، ثـم كثر القتـل في البلد فكل من في قلبـه على أحد شر وثب عليه فقتله من رجـل أو امرأة، وكان القتل الكثير في أصحـاب ابن الخجندي، وكـان الحريق والنهـب واحراق الدور في أصحـاب القاضي، وجـرى القتال يوم عـرفة، ويـوم العيد ودام، وبطل الناس من المعـايش، وخربت الأسواق ووقع الغـلاء، ومات الناس

من الجوع، وبقي أهل أصفهان على قـدم الخوف، وأخذت ثيـاب الناس فلا يتجاسر أحد ان يلبـس ثوبا جديدا، والعيارون يـأخذون أموال الناس مقاواة، وهرب الناس من أصفهان.

فصل

قال العماد: مما قدره الله تعالى مـن أسباب نصرة الاسلام، ووهن الكفر أن قمص طـرابلس رغب في مصافـاة السلطان والالتجاء إليه والمسـاعدة له على أهـل ملته بسبب أنـه كان تزوج بالقمصيـة صاحبة طبريـة، وكان أخوها الملك المجذوم لما هلك أوصى بـالملك لابن أخته هذه وهو صغير فتزوج القمـص أمه وربـاه، فمات الصغير وانتقل الملـك إلى أمه، ثـم أنها مدت عينها إلى بعـض المقدمين من الغرب فتـزوجته وفوضت الملـك إليه فشرع يطلـب حساب البـلاد من القمـص،(٣٦) فـوقع الاختـلاف بينهـم لذلك فالتجأ القمص إلى ظل السلطـان، فصار له من جملة الأتباع فقبله السلطان وقـواه، وشد عضـده بإطـلاق من كـان في الأسر من أصحـابه، فقـويت منـاصحته للمسلمين، حتـى كاد لـولا خوف أهـل ملته يسلـم، وصـار بدولـة السلطـان وملكـه يقسم، ومـال إليـه مـن الفرنـج جماعـة، وظهرت له منهم للطاعـة طاعة، ودخلت إلى بلادهم مـن جانبه السرايا، وخـرجت بـالغنـائم والسبايـا، وأعطـى الـدنية في دينـه بما استـدناه مـن العطايا، فصار الفـرنج يدفعون شره، ويحذرون مكره، فتارة يـدارونه، وآونة يمارونه، وللقمـص قوم صدق يسـاعدونه في كـل حق وباطـل، فبلي منهم أهل السـاحل بشغـل شاغل، وهذا الملك المجذوم وهـو ابن الملك أماري ابن فلـك، وهو مـري الذي تقدم ذكـره، وتوفي أمـاري في آخر سنـة تسع وستين.سنة مـات نور الـدين رحمه الله تعـالى، وخلف الملعـون هذا الـولد المجـذوم، فبقي بينهـم زهاء عشر سنين ملكـا مطاعـا، فلما حضره الموت أوصى لابن أخته بالملك.

قال: وكـان ابرنـس الكرك أرنـاط أغدر الفـرنجية وأخبثهـا، وأفحصها عن الردى والـرداء، وأبحثها وأنقضها للمواثيـق المحكمة والأيمان المبرمة، وأنكثها وأحنثها، ومعـه شرذمة لها شر ذمة، وهي من شر أمـة، على طريق الحجاز، ومـن نهج الحج على المجاز، وكنـا في كل سنـة نغزوه، وبـالبوائق

نحروه، ويصيبه منا المكروه، فأظهر أنه على الهدنة، وجنح للسلم، وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه، وبقي الأمن له شاملا، والقفل من مصر في طريق بلده متواصلا، وهو يمكن الجائي والذاهب، حتى لاحت له فرصة في الغدر، فقطع الطريق وأخاف السبيل، ووقع في قافلة ثقيلة، معها نعم جليلة، فأخذها بأسرها، وكان معها جماعة من الأجناد، فأوقعهم في الشرك، وحملهم إلى الكرك، وأخذ خيلهم والعدة، وسامهم الشد والشدة، فأرسلنا إليه وذممنا فعاله، وقبحنا احتياله واغتياله، فأبى إلا الإصرار والإضرار، فنذر السلطان دمه ووفى في إراقة دمه بما التزمه، وذلك في السنة الآتية، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وأقام السلطان بدمشق بقية هذه السنة، وهو في الإستعداد للجهاد، وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد المشرقية والمصرية، فانتظمت أموره على أحسن قضية.

ومن كتاب فاضلي إلى بعض أخوانه: « كتبت هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق، وقد ورد السلطان أعز الله أنصاره للغزاة إلى بلاد الكفر في عسكر فيه عساكر، وفي جمع البادي فيه كأنه حاضر، وفي حشد يتجاوز أن يحصله الناظر إلى أن لايحصله الخاطر، وقد نهضت به همة لايرجى غير الله لإنهاضها ونجحت به عزمة الله المسؤول في حسم عوارض اعتراضها، وباع الله نفسا يستمتع أهل الاسلام بصفقتها، ويذهب الله الشرك بهيبتها، وأرجو أن يتمحص عن زبدة، وتستريح الأيدي بعدها عن المخض، وأن يكون الله قد بعث سفتجة نصرة الاسلام، وسلطانه قد نهض للقبض».

- ٨٤٨٩ -

ثم دخلت

سنة ثلاث وثمانين

وهي سنة كسرة حطين، وفتح الساحل والأرض المقدسة للمسلمين

قال العماد في كتاب البرق: وهي السنة الحسنة المحسنة، والزمان الذي تقضت على إنتظار إحسانه الأزمنة، وطهر فيه المكان المقدس الذي سلمت لسلامته الأمكنة، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة، وكفى الله شر الشرك، وحكم على دماء الكفرة بالسفك، ونصرت الدولة الناصرية، وخذلت الملة النصرانية، وانتقم التوحيد من التثليث، وشاع في الدنيا بمحاسن الأيام الصلاحية حسن الأحاديث.

ثم ذكر في كتابي الفتح والبرق ماجملته أن قال: فبرز السلطان من دمشق يوم السبت أول المحرم في العسكر العرمرم، ومضى بأهل الجنة لجهاد أهل جهنم، فلما وصل إلى رأس الماء أمر ولده الملك الأفضل بالإقامة هناك يستدني إليه الأمراء الواصلين والأملاك، ويجمع الأعارب والأعاجم والأتراك، وسار السلطان إلى بصرى، وخيم على قصر السلامة، وأقام على إرتقاب إقتراب الحجاج، وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، ووالدته أخت السلطان مع جماعة من الخواص، وقد تقدم ذكر غدر ابرنس الكرك وهو على الكرك وأخاف أهله وأخذ ماكان حوله، ورعى زرعهم، وقطع أشجارهم وكرومهم، ثم سار إلى الشوبك وفعل به مثل ذلك، ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين، وفرقه على أعمال القلعتين، وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين، والملك

الأفضل ولده مقيم بـرأس الماء في جمع عظيم من العظماء، وعنده الجحافل الحافلة والحواصل الحاصلة، والعساكر الكاسرة، والقساور القاسرة، وهو ينتظر أمرا من أبيه، ويكتب إليه ويقتضيه، وانقضى من السنة شهران، وطال بهم انتظار السلطان، فأنهض منهم سرية سرية، وأمرها بالغارة على أعمال طبرية، ورتب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبري صاحب حران، وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن ياروق، وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايماز النجمي، فساروا مدججين، وسروا مدلجين، وصبحوا صفورية، وساء صباح المنذرين، فخرج إليهم الفرنج في حشدهم فآتاهم الله النصر الهني، والظفر السني، وشفوا منهم حنين الحنايا، وأدركوا فيهم منى المنايا، وفازوا وظفروا، وقتلوا وأسروا، وهلك مقدم الإسبتار، وحصل جماعة من فرسانهم في قبضة الأسار، وأفلت مقدم الداوية وله حصاص، ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك خلاص، وعادوا سالمين سالبين غانمين غالبين، فكانت هذه باكورة البركات، ومقدمة مابعدها من ميامن الحركات، وجاءتنا البشرى، ونحن في نواحي الكرك والشوبك، فسار السلطان ووصل السير بالسرى، وخيم بعشترا، والقدر يقول له تعيش وترى، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى، وامتد العسكر فراسخ عرضا وطولا، وملأ بالملأ حزونا وسهولا، ومارأيت عسكرا أبرك منه ولاأكبر، ولاأكرث للكفر ولا أكثر، وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض، وما شاهده إلا من تلا:(ولله جنود السموات والأرض)[٣٧].

وعرض العسكر في اثني عشر ألف مدجج في ليل العجاج مدلج، ولما تم العرض، حسم الفرض، وسالت بأفلاك السماء والأرض، وتعين الجهاد، وتبين الاجتهاد، ثم رتب السلطان للعسكر أطلابا، وحزبه أحزابا، وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر عازما على دخول الساحل، فأناخ ليلة السبت على خسفين، ثم سار في الأردن إلى ثغر

الأقحوانـة، وأقام هناك خمسـة أيام، وقد عين مـواقف الأمراء وشعـارهـم، وأحاط ببحيرة طبرية بحـره المحيط، وضاق ببسائط خيامـه ذلك البسيط، ولما سمـع الفـرنـج بـاجتماع كلمة الاسـلام عليهـم، وسير ذلـك الجيـش إليهم، علمـوا أنه جاءهـم مالا عهـد لهم بمثله، وإن الإيمان كله قـد برز إلى الشرك كله، فـاجتمعوا واصطلحوا وحشـدوا وجمعوا، وانتخـوا و دخل القمـص معهم بعـد أن دخل عليـه الملـك، ورمى بنفسـه عليه، وصفـوا راياتهم بصفـورية، ولـووا الأ لويـة، وحشدوا الفـارس والراجـل والرامـح والنابل، ورفعوا صليب الصلبوت، فاجتمـع إليه عباد الطاغوت، وضلال الناسوت واللاهـوت، ونادوا في نوادي أهل أقاليم أهـل الأقانيم، وصلبوا للصليب الأعظم بالتعظيم، وماعصاهم مـن له عصا، وخرجوا عن العدد والإحصا، وكانوا عـدد الحصى، وصـاروا في زهاء خمسين ألفـا أويزيـدون، ويكيدون مـايكيدون، قـد توافـوا على صعيد، ووافـوا من قـريب وبعيـد، وهـم هنـاك مقيمـون لايـريمون، والسلطـان في كـل صبـاح يسير إليهـم ويشرف عليهـم ويـراميهم، وينكـي فيهـم، ويتعـرض لهم ليتعرضـوا لـه ويـردوا عن رقـابهم سيوفـه، وعـن شعابهم سيـولـه، فربضـوا ومانبضـوا، وقعدوا ومانهضـوا، فلو برزوا للمصاف لطالت عليهـم يد الانتصاف، فلما رأى السلطان أنهم لايبرحون، ومن قرب صفوريـة لاينزحون أمر أمراءه أن يقيموا في مقـابلتهم، ويديمـوا على عزم مقاتلتهـم، ونزل هو في خـواصه العسسيـة على مدينـة طبرية، وعلـم أنهم إذا علمـوا بنزولـه عليها بـادروا للـوصول إليهـا، فحينئذ يتمكـن مـن قتالهم، ويجهـد في استئصالهم، ثـم أحضر الجـاندارية والنقـابين والخراسانيـة والحجـارين، وأطـاف بسورهـا، وشرع في تخريـب معمـورهـا، وأخـذ النقابـون في النقـب في بـرج فهـدوه وهدموه، وتسلقوا فيه وتسلموه، ودخـل الليل، وصباح الفتح مسفر، وليل الويل على العدو معتكر، وامتنعت القلعـة بمن فيها من القمصية وبنيها، ولما سمع القمص بفتح طبرية وأخذ بلـده سقط في يده، وخرج عن جلد جلده، وسمح للفرنج بسبده ولبده، وقال لهم: لاقعود بعد اليوم ولابد لنا

من لقاء القوم، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد، وذهبت الطراف والتلاد، ومابقي لي صبر، ومابعد هذا الكسر لي جبر.

وكان الملك قد خلفه، ووافقه فما نافقه، ورحل بجمعه وأتباعه وشياطينه وأشياعه فمادت الأرض بحركته ، وغامت السماء من غبرته، ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ووثبوا ففرح السلطان وقال: جاءنا مانريد، ونحن أولو بأس شديد، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع، ولاعن فتحه وازع، واستخار الله تعالى وسار، وعدم القرار، وذلك يوم الخميس ثالث عشري ربيع الآخر، والفرنج سائرون إلى طبرية بقضهم وقضيضهم، وهم كالجبال السائرة، والبحار الزاخرة، أمواجها ملتطمة وأفواجها مزدحمة، فرتب السلطان في مقابلتهم أطلابه، وحصل بعسكره قدامهم، وحجز بينهم وبين الماء، واليوم قيظ وللقوم غيظ، وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت الخيل على الطريقين، وهيئت دركات النيران، وهنئت درجات الجنان وانتظر مالك واستبشر رضوان، فهي (ليلة القدر .خير من ألف شهر. تنزل الملائكة والروح فيها)[٣٨] وفي سحرها نشر الظفر يفوح، وفي صباحها الفتوح، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم (فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة)[٣٩] وبتنا والجنة معروضة،والسنة مفروضة، والكوثر واقفة سقاته والخلد قاطفة جناته، والسلسبيل واضح سبيله، والإقبال ظاهر قبيله، والظهور قائم دليله، والله ناصر الاسلام ومديله، وسهر السلطان تلك الليلة حتى عين الجاليشية من كل طلب، وملأ جعابها وكنائنها بالنبال، وكان مافرقه من النشاب أربعمائة حمل، ووقف سبعين جمازة في حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه، وفرغ نشابه، حتى إذا أسفر الصباح خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار، ورنت القسي وغنت الأوتار، إذ ذاك، واليوم ذاك، والجيش شاك، وللقيظ عليهم فيض، وماللغيظ منهم غيض، وقد وقد الحر، واستشرى الشر، ووقع الكر والفر، والسراب طافح، والظماء لافح، والجو محرق، والجوى مقلق،

ولاؤلئك الكلاب من اللهب لهث، وبالعيث عبث، في ظنهم انهم يريدون الماء فاستقبلتهم جهنم بشرارها، واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها، وذلك في يوم الجمعة بجموع أهلها المجتمعة ووراء عسكرنا بحيرة طبرية، والورد عد، ومامنه بعد، وقد قطعت على الفرنج طريق الورود، وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود، فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضابرين، فكلبوا على ضراوتهم، وشربوا مافي أداوتهم، وشفهوا ماحولهم من موارد المصانع، واستنزفوا حتى ماء المدامع، وأشرفوا على المصير إلى المصارع، ودخل الليل وسكن السيل، وباتوا حيارى، ومن العطش سكارى، وهم على شغف البحيرة بحيرة، وقووا أنفسهم على الشدة، واستعدوا بالعزائم المحتدة، وقالوا: غدا نصب عليهم ماء المواضي، ونقاضيهم إلى القواضي، فأجدوا عزم البلاء، وطلبوا البقاء بالتورط في الفناء، وأما عساكرنا فإنها اجترأت، ومن كل مايعوقها برئت، فهذا لسنانه شاحذ، وهذا لعنانه آخذ، وهذا سهم مفوق، وهذا شهم موفق، وهذا مكثر للتكبير، ومنتظر للتبكير، وهذا ناج للسعادة، وهذا راج للشهادة فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكة، ومن سحر أنفاسها ألطاف الله المتداركة، والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله فهو يمضي نفسه على الصفوف، ويحضهم ويعدهم من الله بنصره المألوف، ويغري المئين بالألوف، وهم بمشاهدته إياهم يجيدون ويجدون، ويصدون العدو ويردون.

وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس حمل في أول الناس، وكان حصانه قوي الراس، فأبعد عن أخوانه، ولم يتابعه أحد من أقرانه، فانفرد به الفرنج فاثبث في مستنقع الموت رجله، وقاتل إلى أن بلغوا قتله، فلما أخذوا رأسه ظنوا أنه أحد أولاد السلطان، وانتقل الشهيد إلى جوار الرحمن، ولما شاهد المسلمون استشهاده وجلده وجلاده، حميت حميتهم، وخلصت لله نيتهم، وأصبح الجيش على تعبيته، والنصر على تلبيته، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر، وهو يوم النصرة،

ووقوع الكسرة، وبرح بالفرنج العطش وأ بت عثرتها أن تنتعش، وكان النسيم من أمامها والحشيش تحت أقدامها، فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش، فتأجج عليهم استعارها، وتوهج أوارها فبلوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بثلاثة أقسام: في الاصطلاء، والاصطلام نار الضرام، ونار الأوام، ونار السهام، فرجا الفرنج فرجا، وطلب طلبهم المخرج مخرجا، فكلما خرجوا جرحوا وبرح بهم حر الحرب لما برحوا، وهم ظماءى ومالهم ماء سوى ما بأيديهم من ماء الفرند، فشوتهم نار السهام وأشوتهم، وصممت عليهم قلوب القسي القاسية، وأصممتهم وأعجز وا وأزعجوا، وأحرجوا وأخرجوا، وكلما حملوا ردوا وأردوا، وكلما ساروا او شدوا أسروا وشدوا، وما دبت منهم نملة، ولاذبت عنهم حملة، واضطرموا واضطربوا، والتهفوا والتهبوا، وناشبهم النشاب، فعادت أسودهم قنافذ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ، فأووا إلى جبل حطين ليعصمهم من طوفان الدمار، فأحاطت بحطين بوارق البوار، ورشقتهم الظبى، وفرشتهم على الربى، ووسقتهم الحنايا، وقسرتهم المنايا، وقرشتهم البلايا، ورقشتهم الرزايا، ولما أحس القمص بالكسرة حسر عن ذراع الحسرة، وأقتال من العزيمة، واحتال في الهزيمة، وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر، فخرج بطلبه يطلب الخروج، وأعوج إلى الوادي وماود أن يعوج، ومضى كومض البرق، ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخرق، وأفلت في عدة معدودة، ولم يلتفت إلى ردة مردودة، وكان قال لأصحابه: أنا أسبقكم بالحملة، وأفضلكم في الجملة، فاجتمع هو ومؤازروه، وجماعة من المقدمين مظافروه، وصحبه صاحب صيدا وباليان بن بارزان، وتوامروا على أنهم يحملون، ويبلغون الطعان، فحمل القمص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكين، ففتح لهم طريقا، ورمى من أتباعهم فريقا، فمضوا على رؤوسهم ونجوا بنفوسهم، ولما عرف الفرنج أن القمص أخذ بالعزيمة، ونفذ في الهزيمة، وهنوا وهانوا، ثم اشتدوا

ومـالانوا، وثبتـوا على مـاكانـوا واستقبلـوا واستقتلـوا واستحلموا وحملـوا، ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفاء، وصببنـا ماء الحديد للإطفاء، فزاد في الإذكـاء، فحطـوا خيـامهـم على غـارب حطين، حين رأونـا بهم محيطين، فأعجلنـاهم عـن ضرب الخيام بضرب الهام، ثـم استحر الحرب، واستمـر الطعن والضرب، وأحيـط بالفرنج مـن حواليهم، ودارت الـدوائر عليهم، وترجـوا خيرا فترجلوا عـن الخيل وجـرفهم السيـف جرف السيـل، وملك عليهم الصليـب الأعظم، وذاك مصابهم الأعظـم، ولما شاهـدوا الصليب سليبا، ورقيب الـردى قريبا، أيقنوا بالهلاك، وأثخنـوا بالضرب الدراك، فما برحـوا يؤسرون ويقتلون، ويخمدون ويخملـون، وللوثوب يخفـون، وبالجراح يثقلـون، ومــن مصـارع القتـل إلى معـاصر الأسر ينقلــون، ووصلنـا إلى مقدمهم وملكهم وإبرنسهم، فتم أسر الملك وإبرنس الكرك وأخي الملك جفـري، وأوك صـاحب جبيـل، وهنفـري، وابـن صـاحب اسكنـدرونـة، وصاحـب مرقية، وأسر مـن نجا من القتـل من الـداوية ومقدمهـا، ومن الإسبتارية معظمها ومن البارونية من أخطـأه البوار، فأصابه وساءه الأسار، وأسر الشيطـان وجنوده، وملـك الملك وكنـوده، وجبر الاسلام بكسرهـم، وقتلوا وأسروا بأسرهـم، فمن شاهد القتلى قـال: ماهناك أسير، ومن عـاين الأسرى قـال: مـاهناك قتيـل، ومـذ استـولى الفـرنـج على سـاحـل الشـام مـاشفي للمسلمين كيـوم حطين غليـل، فالله عـز وجـل سلط السلطـان وأقدره على مـاأعجز عنـه الملوك وهـداه من التـوفيق لامتثـال أمره، ومـن إقامة فرضـه للنهج المسلوك، ونظم له في حتوف أعـدائه والفتوح لأوليائه السلـوك، وخصه بهذا اليـوم الأغر، والنصر الأبـر، واليمن الأسر، والنجـح الأدر، ولـو لم يكـن لـه إلا فضيلـة هـذا اليـوم لكـان متفـردا على الملـوك السـالفة، فكيـف ملـوك العصر في السمو والسـوم، غير أن هـذه النوبـة المبـاركة كـانت للفتـح القدسي مقـدمه، ولمعـاقد النصر وقـواعده مبرمـة محكمة.

ومن عجـائب هذه الوقعـة، وغرائب هذه الـدفعة، أن فارسهـم مادام

فرسه سالما لم يذل للصرعـة، فإنه من لبسه الزردي من قرنـه إلى قدمه كان كأنـه قطعة حديد، ودارك الضرب إليـه غير مفيد، لكن فرسـه إذا هلك، فرس وملـك، فلم يغنم مـن خيلهم ودوابهم، وكانت ألـوفا، ماهـو سالم، وماترجـل فارس إلا والطعن والرمـي لمركوبه كالم، وغنمنـا مالا يحصر من بيض مكنون، وزغـف موضون، وبلاد وحصون، وسهول وحـزون، وابتذلنا منهـم لهذا الفتح كـل إقليـم مصون، وذلـك سوى مـااستبيـح من مـال مخزون، واستخـرج من كنـز مـدفـون، وصحت هـذه الكسرة، وتمت هـذه النصرة يوم السبـت، وضربت ذلـة أهل السبت على أهـل الأحد، وكـانوا أسودا فعادوا من النقد، فما أفلت مـن تلك الآلاف إلا آحاد، ومانجا من أولئـك الأعـداء إلا أعداد، وامتـلأ الملأ بـالأسرى والقتلى، وانجلى الغبـار عنهم بـالنصر الذي تجلى، وقيـدت الأسارى في الحبـال، واجبة القلـوب، وفـرشت القتلى في الـوهاد والجبـال واجبة الجنـوب، وحطت حطين تلـك الجيـف عـن متنهـا، وطاب نشر النصر بنتنهـا، وعبرت بها فـألفيتهـا محل الإعتبار، وشـاهدت مافعـل أهل الإقبال بأهـل الإدبار، وعاينـت أعيانهم خبرا من الأخبار، ورأيـت الرؤوس طائرة، والنفوس بـائرة، والعيون غائرة، والجسوم رسمتها السـوافي، والرسوم درستها العـوافي، وأشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة بالعـراء عراة ممزقة بالمازق، مفصلة المفاصـل، مفرقة المرافق، مفلقة المفارق، محذوفـة الرقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطعـة الهام، موزعة الأقـدام مجدوعـة الآنـاف، منـزعة الأطـراف، مفقـوءة العيـون، مبعـوجـة البطـون، منصفة الأجسـاد، مقصفـة الأعضـاد، مقلصة الشفـاه، مخلصـة الجباه، سائلة الأحداق، مائلـة الأعناق، عديمة الأرواح، هشيمة الأشباح، كـالأحجـار بين الأحجـار عبرة لأولي الأبصـار، ولما أبصرت خـدودهـم ملصقة بـالتراب، وقد قطعوا آرابـا تلوت قـول الله تعالى:(ويقول الكـافر ياليتني كنت ترابا)(٤٠).

فما أطيب نفحات الظفـر من ذلك الخبث، وماألهب عـذبات العذاب في تلك الجثث، وماأحسن عمارات القلوب بقبيح ذلك الشعث، وما أجزأ

صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث، هذا حساب من قتل، فقد حصرت ألسنة الأمم عن حصره وعده، وأما من أسر فلم تكف أطناب الخيم لقيده وشده، ولقد رأيت في الحبل الواحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس، وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس، وهناك العتاة عناة، والعداة عراة، وذوو الأسرة أسرى، وأولوا الأثرة عثرى، والقوامص قنائص، والفوارس فرائس، وغوالي الأرواح رخائص، ووجوه الداوية عوابس، والرؤوس تحت الأخامص، فكم أصيد صيد، وقائد قيد وقيد، وملك مملوك، وهاتك مهتوك،وحر في الرق ومبطل في يد المحق.

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت، وأهلك دونه الطاغوت، وهو الذي إذا انصب وأقيم ورفع سجد له كل نصراني وركع، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم، وقد غلفوه بالذهب الأحمر، وكللوه بالدر والجوهر، وأعدوه ليوم الروع المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجته القسوس، وحملته الرؤوس تبادروا إليه، وانثالوا عليه، ولايسع أحدهم عنه التخلف، وللمتخلف عن أتباعه في نفسه التصرف، وأخذه عندهم أعظم من أسر الملك، وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك، فإن الصليب السليب ماله عوض، ولالهم في سواه غرض، والتأله له عليهم مفترض، فهو إلههم، تعفر له جباههم، وتسبح له أفواههم، يتغاشون عند إحضاره، ويتعاشون لإبصاره، ويتلاشون لإظهاره، ويتغاضون إذا شاهدوه، ويتواجدون إذا وجدوه، ويبذلون دونه المهج، ويطلبون به الفرج، بل صاغوا على مثله صلبانا يعبدونها، ويخشعون لها في بيوتهم، ويشهدونها، فلما أخذ هذا الصليب عظم مصابهم، ووهت أصلابهم، وكان الجمع المكسور عظيما، والموقف المنصور كريما، فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد عن يومهم العصيب، فهلكوا قتلا وأسرا، وملكوا قهرا وقسرا.

ولما صح الكسر، وقضي الأمر، وتمكن النصر، وسكن البحر، ضرب

السلطان في تلك الحومة دهليز السرادق، وتوافت إليه حماة الحقائق، ونزل السلطان وصلى للشكر وسجد، وجدد الإستبشار بما وجد، وأحضر عنده من الأسارى الملك والبرنس وأجلس الملك بجنبه.

وقال في كتاب الفتح: وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى، وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى، فقدم بداية مقدم الداوية، وعدة كثيرة منهم ومن الإسبتارية، وأحضر الملك كي وأخوه جفري، وأوك صاحب جبيل وهنفري والإبرنس أرناط صاحب الكرك، وهو أول من وقع في الشرك، وكان السلطان نذر دمه، وقال لأعجلن عند وجدانه عدمه، فلما حضر بين يديه أجلسه إلى جنب الملك والملك بجنبه، وقرعه على غدره، وذكره بذنبه، وقال له: كم تحلف وتحنث، وتعهد وتنكث، وتبرم الميثاق وتنقض، وتقبل على الوفاق ثم تعرض؟! فقال الترجمان عنه: إنه يقول : قد جرت بذلك عادة الملوك، وماسلكت غير السنن المسلوك، وكان الملك يلهث ظمأ، ويميل من سكرة الرعب منتشيا، فآنسه السلطان وحاوره، وفثأ سورة الوجل الذي ساوره، وسكن رعبه وأمن قلبه، وأمر له بماء مثلوج فشربه، وأطفأ به لهبه، ثم ناول الملك الإبرنس القدح فاستشفه وبرد به لهفه، فقال السلطان للملك: لم تأخذ في سقيه مني إذنا، فلا يوجب ذلك له مني أمنا، ثم ركب وخلاهما وبنار الوهل أصلاهما، ولم ينزل إلى أن ضرب سرادقه، وركزت أعلامه وبيارقه، وعادت إلى الحمى عن الحومة فيالقه، فلما دخل سرادقه استحضر الإبرنس فقام إليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه، وحين صرع أمر برأسه فقطع، وجر برجله قدام الملك حتى أخرج، فارتاع الملك وانزعج، فعرف السلطان أنه خامره الفزع، وساوره الهلع، وسامره الجزع، فاستدعاه واستدناه، وأمنه وطمنه، ومكنه من قربه وسكنه، وقال له: ذاك رداءته أردته، وغدرته كما تراه غادرته، وقد هلك بغيه وبغيه، ثم جمع الأسارى

المعروفين، وسلمهم إلى والي قلعة دمشق الناصح الغيدي، فقال لهم: انتم تحت قيدي، وسلمهم الى أصحابه فتسلمتهم الأيدي ، وأمرهم أن يأخذوا خط الصفي بن القابض في دمشق بوصولهم، ويحتاط عليهم في أغلالهم وكبولهم، فتفرق العسكر بمن ضمته أيدي السبي أيدي سبأ، وهادتهم الوهاد والربى.

قال: ولما أصبح السلطان يوم الأحد استقام على الجدد وخيم على طبرية، وراسل القمصية وأخرجها من حصنها بالأمان، ووفى لها وللفرسان بنيها بشروط الأيمان، فخرجت بمالها ورحالها ونسائها ورجالها، وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القمص بمالها وحالها، وولى طبرية قايماز النجمي، وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم على نصف مغل البلاد من الصلت والبلقاء وجبل عوف والحيانية والسواد، وتناصف الجولان، ومايقربها إلى بلد حوران، فخلصت المناصفات، وصفت الصفات وأمنت الآفات، هذا والسلطان نازل ظاهر طبرية، وقد طب البرية، وعسكره قد طبق البرية، فلما أصبح يوم الإثنين بعد الفتح بيومين طلب الأسارى من الداوية والإسبتارية، وقال: أنا أطهر الأرض من هذين الجنسين النجسين، فما جرت عادتها بالمفاداة، ولايقلعان عن المعاداة، ولايخدمان في الأسر، وهما أخبث أهل الكفر، فتقدم بإحضار كل أسير داوي واسبتاري ليمضي فيه حكم السيف، ورأى البقيا عليه عين الحيف، ثم علم أن كل من عنده أسير لايسمح به، وأنه يضن بعطبه، فجعل لكل من يأتيه بأسير منهما من الدنانير الحمر خمسين، فأتوه في الحال بمئين، فأمر بإعطابهم، وضرب رقابهم، ومحو حسابهم، وكان بحضرته جماعة من المتطوعة المتورعة، والمتصونة المتصوفة، والمتعممة المتصرفة، ومن تمت له المعرفة بالزهد والمعرفة، فسأل كل واحد في قتل واحد، وسل سيفه وحسر عن ساعد، والسلطان جالس، ووجهه باشر والكفر عابس، والعساكر صفوف، والأمراء في السماطين وقوف، فمنهم من فرى وبرى، فشكر ومنهم من أبى ونبا وعذر، ومنهم من يضحك

منه، وينوب سواه عنه، وشاهدت هناك الضحوك القتال، ورأيت منه القوال الفعال، فكم وعداً أنجزه، وحمداً أحرزه، وأجراً استدامه بدم أجراه، وبرا عنق إليه بعنق براه وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفري وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعهم السجون، وتستبدل حركاتهم بالسكون، وتفرقت العساكر بما حوت أيديهم من السبي وسبق بهم إلى البلاد الناس ولم يقع على عددهم القياس، فكتب إلى الصفي بن القابض نائبه بدمشق أن يضرب عنق من يجده من الداوية والإسبتارية، فامتثل الأمر في إرهاقهم، وضرب أعناقهم، فما قتل إلا من عرض عليه الاسلام فأبى أن يسلم، وما أسلم إلا آحاد حسن إسلامهم، وتأكد بالدين عزامهم.

قال العماد: ومازلت أبحث عن سبب نذر السلطان إراقة دم الإبرنس، حتى حدثني الأمير العزيز عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس، وهو ذو البيت الكبير، والحسب الجليل، وكان جده صاحب إفريقية والقيروان، وكانوا يتوارثون ملكه إلى قريب من هذا الزمان، ذكر أن الأجل الفاضل حدثه أن السلطان لما عاد إلى دمشق من حران بعد المرضة التي صار بها كل قلب عليه حران، وذلك في سنة اثنتين وثمانين، وهو من عقابيل سقمه لايفارق الأنين، فقلت له: مامعناه قد أيقظك الله ومايعيذك من هذا السوء سواه، فأنذر أنك إذا أبللت من هذا المرض، تقوم بكل ماالله من المفترض، وأنك لاتقاتل من المسلمين أحدا أبدا، وتكون في جهاد أعداء الله مجتهدا، وأنك إذا نصرك الله في المعترك وظفرت بالقومص وإبرنس الكرك تتقرب إلى الله بإراقة دمهما، فما يتم وجود النصر إلا بعدمهما، فأعطاه يده على هذا النذر، ونجاه الله ببركة هذا العذر من الذعر، وخلصه إخلاصه في مرضاة الله، فأبل من مرضته، واستقل بنهضته، واستقبل السنة القابلة بسنة الغزو وفريضته، ثم جرى من مقدمات الجهاد ونتائجها ماجرى، وخيم السلطان في جمع الاسلام بعشترا، وركب يوما في عسكره وعزم على نشر القساطل، وطي

المراحل، ودخول الساحل والقذف بـالحق على الباطل، فبدأ بلقاء الطلعة المباركـة من الأجـل الفاضـل، فقال لـه ليكن نـذرك على ذكرك. واستـزد نعمة الله عنـده بمزيـد شكرك. ولاتحط غير قمـع أهل الكفـر بفكرك، فما أنقذك الله من تلك الورطة، وأنعشك مـن تلك السقطة، إلا ليوفر حظك مـن هذه الغبطـة، فتوكـل على الله عازمـا، وجاز الأردن جـازما، وأرعـب جأش الكفـر وكسر جيوشه، وثل عـروشه، ووقع في الشرك أبرنـس الكرك فـوفى بضرب عنقه نـذره، وأما القـومص فـإنـه أخذ في الملتقـى بالهزيمـة حذره، ولما وصـل إلى طرابلـس أخافـه في منامـه القدر، وفجـأة في صفوه الكدر، وتسلمه مالك إلى سقر.

فصل

هذا الذي تقدم من وصف كسرة حطين، هو عين ماذكره عماد الدين رحمه الله في كتابيه الفتح والبرق، اختصرته منهما، وهو مطول فيهما، وقد وقفت على كلام لغيره في ذلك فأحببت إيراده على وجهه لما فيه من شرح ماتقدم وتقويته، وربما اشتمل على زيادات من فوائد تتعلق بذلك لم يتعرض العماد لها، أو مخالفة لبعض ماذكره.

قال القاضي أبو المحاسن بن شداد: لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين عزم السلطان على قصد الكرك، فسير إلى حلب من يستحضر العسكر، وبرز من دمشق في منتصف المحرم، فسار حتى نزل بأرض الكرك منتظرا لإجتماع العساكر المصرية والشامية، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشن الغارة على مافي طريقهم من البلاد الساحلية، ففعلوا ذلك، وأقام رحمه الله بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام، وأمنوا غائلة العدو، ووصل قفل مصر، ومعه بنت الملك المظفر، وماكان له بالديار المصرية، وتأخرت عنه العساكر الحلبية، بسبب اشتغالها بالفرنج بأرض انطاكية وبلاد ابن لاون، وذلك أنه كان قد مات ووصى لابن أخيه لاون بالملك، وكان الملك المظفر بحماة، وبلغ الخبر السلطان فأمره بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد نائرته، فوصل تقي الدين حلب، ونزل في دار العفيف بن زريق، وانتقل إلى دار طمان، وفي تاسع صفر خرج بعسكر حلب إلى حارم ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل، وعاد السلطان فوصل إلى السواد ونزل بعشترا سابع عشر ربيع الأول، ولقيه ولده الأفضل، ومظفر الدين، وجميع العساكر، وكان تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي من الفرنج ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد، فصالحهم وتوجه إلى حماة يطلب خدمة السلطان للغزاة، فسارت العساكر الشرقية في خدمته، وهم عسكر الموصل يقدمه مسعود ابن الزعفراني، وعسكر ماردين إلى أن أتوا عشترا، فلقيهم السلطان

وأكـرمهم، ثـم عرض السلطـان العساكـر منتصف ربيـع الآخر على تـل يعـرف بتل تسيـل، ورتبهـم وانـدفع قـاصـدا بـلاد العدو في وسـط نهار الجمعة، وكـان أبداً يقصـد بوقعـاته الجمـع لاسيما أوقات صـلاة الجمعة، تبركا بدعاء الخطبـاء على المنابر، فربما كانت أقـرب إلى الإجابة، وبلغه أن الفرنـج اجتمعوا في مرج صفـورية بأرض عكـا فقصد نحوهـم للمصاف معهم، فسار ونزل على بحيرة طبرية عند قـرية تسمى الصنبرة، ورحل من هناك ونزل غـربي طبرية على سطح الجبل لتعبية الحرب منتظـرا أن الفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا مـن منزلهم، فنزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب على حـالها قبالة وجه العدو، ونازل طبريـة وزحف عليها، فهجمهـا وأخذهـا في سـاعـة من نهار، وامتـدت الأيـدي إليهـا بالنهـب والأسر والحريـق والقتـل، وامتنعـت القلعـة وحـدهـا، فـرحـل الفـرنـج وقصدوا طبريـة للدفع عنهـا، فأخبرت الطلائع الاسـلامية الأمراء بحـركة الفرنـج، فسيروا إلى السلطان من عرفـه ذلك، فترك على طبرية مـن يحفظ قلعتها، ولقي العسكر هو و من معـه، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وحال الليـل بين الفئتين، فباتتا على مصاف شاكيتين في السلاح إلى صبيحة الجمعة، فركب العسكـران وتصادما، وذلك بأرض قرية تسمـى اللوبيا، ولم تزل الحرب إلى أن حال بينهـم الظلام، وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة والأمـور الجسيمة مالم يحك عن من تقدم، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمـه في كل ساعة،وقد أقعده التعب عن النهوض، حتى كـان صباح السبت الذي بورك فيه، فطلـب كل من الفئتين مقامـه، وعلمت كـل طائفة أن المكسـورة منها مدحـورة الجنس، معدومة النفس، وتحقق المسلمـون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بـلاد القـوم ولاينجيهم إلا الله، وكـان الله قـد قـدر نصر المسلمين فيسره، وأجـراه على وفق مـاقدره، فحملـت الأطـلاب الاسلاميـة من الجوانـب، وحمل القلب وصاحوا صيحـة الرجل الواحد، فألقـى الله الرعب في قلوب الكافرين(وكـان حقا علينا نصر المؤمنين)[٤١]، وكان القمص ذكي القوم

وألمعهـم،فرأى أمـارات الخذلان قـد نـزلت بـأهـل دينـه، ولم يشغله ظـن مخاشنـة جنسـه عن يقينـه، فهـرب في أوائل الأمـر قبل اشتـداده، وأخـذ طريقه نحـو صور، وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحـده، وأمن الاسلام كيـده، واحتاط أهـل الاسـلام بأهـل الكفـر والطغيان مـن كـل جانـب، فـانهزمت منهـم طـائفـة فتبعها أبطـال المسلمين فلـم ينـج منها واحـد، واعتصمت الطـائفة الأخرى بتـل حطين، وهي قـرية عنده، وعنـدها قبر النبي شعيـب عليه السـلام، فضـايقهـم المسلمون على التـل، وأشعلـوا حولهم النيران، وقتلهم العطـش، وضاق بهم الأمر حتى كـانوا يستسلمون للأسر خـوفا مـن القتـل، فـأسر مقدومهـم، وقتـل البـاقون وأسروا، وكـان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفا على نفسه.

ولقد حكى لي من أثـق به أنه لقي بحوران شخصا واحـدا ومعه طنب خيمـة فيه نيـف وثلاثـون أسيرا يجرهـم وحـده بخذلان وقـع عليهم، وأمـا القمـص الذي هـرب فـإنـه وصل إلى طـرابلـس، وأصـابه ذات الجنب فأهلكـه الله بها، وأما مقـدمو الاسبتـارية والـداوية فـإن السلطان اختـار قتلهم، فقتلـوا عن بكـرة أبيهم، وأمـا البرنس أرنـاط، فكان السلطـان قد نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك أنه كان عبر بـه بالشوبك قفل من الديار المصريـة في حـالـة الصلـح فنـزلوا عنـده بـالأمـان، فغـدر بهم وقتلهـم، فنـاشـدوه الله والصلـح الـذي بينـه وبين المسلمين، فقـال : مـايتضمـن الاستخفـاف بـالنبـي صلى الله عليـه وسلم، وقـال: قـولـوا لمحمـدكـم يخلصكم، وبلـغ ذلك السلطـان فحمله الديـن والحمية على أنـه نذر إن ظفر بـه قتله، فلما فتـح الله عليه بالنصر والظفـر جلس في دهليـز الخيمة فإنها لم تكن نصبـت، والناس يتقربون إليـه بالأسارى، وبمن وجـدوه من المقـدمين، ونصبت الخيمـة وجلس فـرحـا مسرورا شاكـرا لما أنعم الله بـه عليه، ثم استحضر الملك كي وأخاه جفـري والبرنس أرناط، وناول الملك شربة مـن جلاب بثلـج فشرب منها، وكان على أشـد حال مـن العطش، ثم ناول بعضها البرنس أرناط، فقـال السلطان للترجمان: قل للملك أنت

الـذي تسقيه، وإلا أنا مـاسقيته، وكـان على جميـل عادة العـرب وكريـم أخـلاقهـم أن الأسير إذا أكـل أو شرب من مـاء مـن أسره أمـن، فقصـد بـذلك الجري على مكـارم الأخـلاق، ثم أمـر بمسيرهـم إلى موضـع عين لنزولهم، فمضوا وأكلوا شيئا ثم عـاد استحضرهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم، فأقعـد الملك في الدهليز واستحضر البرنـس أرناط، وأوقفه على ماقـال، وقال: ها أنا انتصر لمحمـد صلى الله عليه وسلم، ثـم عرض عليه الاسـلام فلم يفعـل، ثم سل النمجـاة وضربه بها فحـل كتفه، وتمم عليه من حضر وعجل الله بروحه إلى النـار، فأخذ ورمى على باب الخيمة، فلما رآه الملـك قـد أخـرج على تلـك الصورة لم يشـك في أنـه يثنـي بـه، فاستحضره وطيـب قلبه، وقال: لم تجر عـادة الملوك أن يقتلوا الملـوك، وأما هذا فـإنه جاوز حـده فجرى ماجـرى، وبات الناس في تلـك الليلة على أتم سرور، وأكمـل حبور، ترتفع أصـواتهم بالحمد لله والشكـر له والتكبير والتهليـل، حتى طلـع الصبح في يـوم الأحـد، فنزل رحمه الله على طبريـة، وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

قلت: وذكـر محمد بن القادسي في تـاريخه أنه ورد في هذه السنـة كتب إلى بغـداد في وصـف هـذه الـوقعة، منهـا كتـاب مـن عبـد الله بـن أحمد المقدسي يقول فيـه:« كتبت هذا الكتاب مـن عسقلان يوم الثلاثـاء ثالث عشر جمادى الأخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة»وفيـه :«ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا ماوفينا بعشر نعمته التـي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم، فإنا خرجنا إلى عسكر صلاح الـدين، وتلاحق الأجناد حتى جاء الناس من الموصل وديار بكر وإربل، فجمـع صلاح الدين الأمراء وقال: هذا اليـوم الذي كنـت أنتظره، وقـد جمع الله لنا العسـاكر، وأنـا رجل قـد كبرت، وماأدري متـى أجلي، فاغتنمـوا هذا اليـوم وقاتلـوا لله تعالى لامـن أجلي فاختلفوا في الجواب، وكـان رأي أكثرهم لقاء الكفـار، فعرض جنده ورتبهم وجعـل تقي الدين في الميمنـة ومظفر الدين في الميسرة، وكـان هو في القلـب، وجعل بقيـة العسكـر في الجناحين، ثـم سـاروا على مراتبهـم

حتى نزلـوا الأقحوانة، فتركوا بها أثقـالهم، وساروا حتى نزلـوا بكفر سبت فـأقـاموا يـومين ينتظـرون أن يبرز لهم الكفـار، وكان عسكـر الكفـار على صفـورية، فلـم يبرزوا فعاد صـلاح الديـن حتى نـزل على طبرية، فتقـدم فرسانـه وحماته ورماته والنقـابون فدخلوا تحت الحصـن، فلما تمكن النقب منـه انهال من غير وقـود نـار، ودخل المسلمـون فـانتهبـوا يوم الخميـس، وأصبحوا يـوم الجمعة فشرعوا في نقب القلعـة فلما كان وقت الصـلاةجاء الخبر أن الكفـار قد تـوجهـوا إلينا، فـارتحل صلاح الـديـن على صفوفـه فلقيهم، ثـم لم يزالـوا يتقدمون حتـى صار المسلمـون محيطين بهم، وصار قلب المسلمين خلفهم، فتراموا ساعة، وبات كل فريق على مصافهم، ثم أصبحوا فسـار الكفار يقصدون طبريـة والمسلمون حولهم يلحـون عليهم بالـرمي، فـاقتلع المسلمـون منه فـوارس، وقتلوا خيـالة ورجـالة، فـانحاز المشركون إلى تـل حطين فنزلـوا عنده ونصبوا الخيـام، وأقام النـاس حولهم إلى أن انتصف النهـار، وهبت الـرياح فهجم المسلمـون عليهم، فـانهزموا لايلوون على شيء، ولم يفلـت منهم إلا نحو مـن مائتين، وكانـوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفـا، وقيل ثـلاثة وعشريـن ألفا، لم يتركـوا في بلادهـم من يقدر على القتـال إلا قليلا، وكان الـذي أسر الملك هو دربـاس الكردي وغلام الأمير إبراهيم المهراني أسر الإبرنـس، وقتل صلاح الدين الإبرنس بيده لأنـه كان قـد غدر، وأخـذ قافلـة من طـريق مصر، ثـم عاد صـلاح الدين إلى طبرية فـأخذ قلعتها بالأمان، ثم ضرب أعنـاق الأسارى الذين كانوا في العسكر، وأرسل إلى دمشق فضربت أعناق الذين بها منهم».

قال: وورد كتاب آخر فيه هذه الفتوح التـي ماسمع بها قط،وهذه ذكر بعضها مختصرا مع أنه لايقدر أحد يصـف ذلك لأن الأمر أكبر من ذلك الـذي يبشر به المسلمـون:« إن مدينـة طبريـة فتحت بـالسيف وأخـذت قلعتها بـالأمان، واجتمع عسكر الأفـرنج جميعهم والتقوا بـالمسلمين عند

قبر شعيب النبي صلى الله عليه وسلم، وقتل من الأفرنج ثلاثون ألفا، وكان عدد الأفرنج ثلاثة وستين ألفا بين فارس وراجل، وأسر منهم ثلاثون ألفا، وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير، واستغنى عسكر الاسلام من الأسرى والأموال والغنائم، بحيث لايقدر أحد يصف ذلك، وماسلم من عسكر الفرنج سوى قمص اطرابلس مع أربعة نفر، وهو مجروح ثلاث جراحات، وأخذ جميع أمراء الفرنج، وكم قد سبي من النساء والأطفال يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة بيعة واحدة، ولقد بيع بحضوري رجل وامرأته وخمسة أولاد ثلاث بنين وابنتان بثمانين دينارا، وأخذ صليب الصلبوت فعلق على قنطارية منكسا، ودخل به القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق، وكل يوم يرى من رؤوس الفرنج مثل البطيخ، وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال مالم يجيء من يشتريها من كثرة السبي والغنائم.

قال: وفي كتاب آخر:« وكان الفرنج خمسة وأربعين ألفا فلم يسلم منهم سوى ألف، وقتل الباقون واستأسروهم، وكذلك الملوك».

قلت: وبلغني أن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير، وكان محتاجا إلى نعل فباعه بها، فقيل له في ذلك فقال: أردت أن يذكر ذلك، ويقال بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع منهم واحد بنعل ولله الحمد، وماأحسن ماقال أبو الحسن ابن الذروي من قصيدة:

شرحت صلاح الدين بالسمر والظبى
من المجد معنى كان من قبل يغمض
وماكاد جيش الروم يبرم كيده
إلى أن سرت منك المهابة تنقض
حميت ثغور المسلمين فأصبحت
ثغورا بأمواه الحديد تمضمض

أسرت ملـــوك الكفـــر حتـــى تـــركتـــه
ومـــا فيـــه عـــرق عـــن قـــوى النفـــس ينبـــض

وكان القاضي الفاضل غائبا عن هذه الكسرة بدمشق، فلما بلغته كتب إلى السلطان: « ليهـن المولى إن الله قد أقام به الـدين القيم، وإنـه كما قيل أصبحت مولاي ومـولى كل مسلم، وإنه قد أسبغ عليـه النعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه الملكين: ملك الدنيـا وملك الآخرة، كتب المملوك هذه الخدمة والـرؤوس إلى الآن لم ترفع مـن سجودهـا، والدموع، لم تمسـح من خدودها، وكلما فكـر الخادم أن البيع تعود وهي مساجـد، والمكان الذي كان يقـال فيه إن الله ثالـث ثلاثة يقـال اليوم فيـه: إنه الواحـد، جدد لله شكرا تارة يفيـض من لسانه، وتـارة يفيض من جفنه، وجـزا يوسف خيرا عن إخـراجه من سجنه، والمماليـك ينتظرون أمر المولى، فكـل من أراد أن يدخـل الحمام بدمشـق قد عـول على دخول حمام طبريـة: « تلك المكـارم لاقعبان مـن لبن» وذلـك الفتح لاعمان واليمـن، وذلك السيـف لاسيف ابن ذي يزن، وللألسنة بعد في هذا الفتح شرح طويل وقول جليل».

وللعماد رحمه الله قصائد يذكر فيها وقعة حطين، لم يـذكر منها شيئا هنا بل ذكر بعضها عند ذكر فتح نـابلس، وبعضها عند فتح القدس، فنقلت إلى هذا المكان منها مايتعلق به والباقي يذكر في مكانه قال:

يـــا يـــوم حطين والأبطـــال عـــابســـة
وبـــالعجـــاجـــة وجـــه الشمـــس قـــد عبســـا
رأيـــت فيـــه عظيـــم الكفـــر محتقـــرا
معفـــرا خـــده والأنـــف قـــد تعـــس
يـــا ظهـــر سيـــف بـــرى رأس البرنـــس فقـــد
أصـــاب أعظـــم مـــن بـــالشرك قـــد نجســـا
وغـــاص إذ طـــار ذاك الـــرأس في دمـــه
كـــأنـــه ضفـــدع في الماء قـــد غطســـا

مــــازال يعطــــس مــــزكــومــــا بغــــدرتـــه
والقتــل تشميــت مــــن بــالغــدر قــد عطســا
عــــرى ظبـــــاه مــــــن الأغماد مهـــــرقـــــة
دمــــــا مـــــن الشرك ردإهـــــابـــــه وكســـــا
مـــــن سيفـــه في دمــــــاء القـــوم منغمـــــس
مـن كـل مـن لـم يـزل فـي الكفـر منغمســا
أفنـــــاهـــــم قتلهـــــم والأسر فـــــانتكســـــوا
وبيــت كفـــــرهـــم مـــن خبثهـــم كنســـــا

وقال أيضا يخاطب صلاح الدين رحمه الله:

سحبـــــت على الأردن ردنـــــا مــــــن القنـــــا
رد ينيــــــة ملـــــــدا وخطيـــــة ملســـــــا
حططـــــت على حطين قـــــدر ملـــــوكهـــــم
ولم تبــق مــــن أجنــاس كفــرهـــم جنســــا
ونعــــــم مجال الخيـــــــل حطين لم تكــــــن
معـــــاركهـــا للجـــرد ضرســــا ولادهســــا
غـــــداة أســـــود الحرب تعتقـــــل القنــــــا
أســـــاود تبغـــي مــــن نحــور العـــدا نهســـا
أتـــوا شكـــس الأخــلاق خشنــا فلينــت حـــ
ـــدود الـرقــاق الخشــن أخــلاقهـا الشكسـا
طـــــــردتهم في الملتقــــــى وعكستهـــــــم
مجيـــدا بحكـــم العـــزم طــردك والعكســـا
فكيـــــف مكســـــت المشركين رؤوسهـــــم
ودأبـــك في الإحســـــان أن تطلـــق المكســـا
كسرتهم إذ صـــــح عـــــزمـــــك فيهـــــم
ونكستهـــــم إذ صـــــار سهمهــــم نكســــا
بـــــواقعـــــة رجـــــت بها الأرض جيشهـــــم
دمــــــــاراكما بســـــت جبــــالهم بســــــا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم
ولم ترض أرض ان تكون لهم رمسا

وطارت على نار المواضي فراشهم
صلالا فزادت من خمودهم قبسا

وقد خشعت أصوات أبطالها فما
يعي السمع إلا من صليل الظبي همسا

تقاد بدأماء الدماء ملوكهم
أسارى كسفن اليم نطت بها القلسا

سبايا بلاد الله مملوءة بها
وقد شريت بخسا وقد عرضت نخسا

يطاف بها الأسواق لا راغب لها
لكثرتها كم كثرة توجب الوكسا

شكا يبسا رأس البرنس الذي به
تندى حسام حاسم ذلك اليبسا

حسا دمه ماض الغرار لغدره
وما كان لولا غدره دمه يحسى

فلله مما أهدى يدا فتكت به
وأطهر سيفا معدما رجسه النجسا

نسفت به رأس البرنس بضربة
فأشبه رأسي رأسه العهن والبرسا

تبوغ في أوداجه دم بغيه
فصال عليه السيف يلحسه لحسا

بعثت أمام أمة النار نحوها
أمامهم أرناطها ذلك الجبسا

ولله نص النصر جاء لنصله
فلا قونسا أبقى لرأس ولا قنسا

حكى عنق الداوي صل بضربة
طرير الشبا عودا بمضرابه حسا

أيوم وغى تدعوه أم يوم نائل
وأنت وهبت الغانمين به الخمسا

وقد طاب ريانا على طبرية
فيا طيبها ريا ويا حسنها مرسى

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة سيأتي بعضها في مدح صلاح الدين رحمه الله:

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم
يتداعون على متون الضمر
أوردت أطراف الرماح صدورهم
فولغن في علق النجيع الأحمر
فهناك لم يسر غير نجم مقبل
في أثر عفريت رجيم مدبر
فمن الذي من جيشهم لم يخترم
ومن الذي من جمعهم لم يؤسر
حتى لقد بيعت عقائل أرهقت
بالسبي بالثمن الأخس الأحقر
سقت المماليك الكرام ملوكهم
كأسا به سقت اللئيم الهنفري
وعجمت عود صليبهم فكسرته
وسواك ألفاه صليب المكسر
أغلى الأداهم من أسرت وأرخصت
بيض الصوارم من نهاب العسكر
وجعلت شرق الأرض يحسد غربها
بك فهو داع دعوة المستنصر
لا يعد منك المسلمون فكم يدا
أوليتهم معروفها لم تنكر
آمنت سربهم وصنت حريمهم
ودرأت عنهم قاصمات الأظهر
ما أن رآك الله إلا آمرا
فيهم بمعروف ومنكر منكر

متـــواضعـــا لله جـــل جـــلالـــه
وبـــك اضمحلـــت سطـــوة المتكبر
لم يخل سمـــع مـــن هنـــاء مهنـــيء
للمسلمين ومـــن سماع مبشر
واستعظـــم الأخبـــار عنـــك معـــاشر
فـــاستصغـــروا مـــا استعظمـــوا بـــالمخبر
مضـــت الملـــوك ولم تنـــل عشر الـــذي
أوتيتـــه مـــن منجـــح أو مفخـــر

وقال أبو الحسن علي بن الساعاتي في فتح طبرية:

جلـــت عـــزمـــاتـــك الفتـــح المبينـــا
فقـــد قـــرت عيـــون المؤمنينـــا
رددت أخيـــذة الاســـلام لما
غـــدا صرف القضـــاء بها ضمينـــا
وهـــان بـــك الصليـــب وكـــان قـــدمـــا
يعـــز على العـــوالي أن يهونـــا
يقـــاتـــل كـــل ذي ملـــك ريـــاء
وأنـــت تقـــاتـــل الأعـــداء دينـــا
غـــدت في وجنـــة الأيـــام خـــالا
وفي جيـــد العـــلا عقـــدا ثمينـــا
فيـــا للـــه كـــم سـرت قلـــوبـــا
ويـــا لله كـــم أبكـــت عيـــونـــا
ومـــا طبريـــة إلا هـــدي
تـــرفـــع عـــن أكـــف اللامسينـــا
حصـــان الـــذيـــل لم تقـــذف بســـوء
وســـل عنهـــا الليـــالي والسنينـــا
فضضـــت ختـــامهـــا قسرا ومـــن ذا
يصـــد الليـــث أن يلـــج العـــرينـــا

لقـــد أنكحتهـــا صـــم العـــوالي
فكـــان نتـــاجهـــا الحرب الـــزبـــونـــا
هنـــاك نـــدى أهـــل الأرض طـــرا
ســـواك ومعقـــل أعيـــا القـــرونـــا
قســـت حتـــى رأت كفـــؤا فـــلانـــت
وغـــايـــة كـــل قـــاس ان يلينـــا
قضيـــت فـــريضـــة الاســـلام منهـــا
وصـــدقـــت الأمـــاني والظنـــونـــا
تهز معـــاطـــف القـــدس ابنهـــا جـــا
وترضـــى عنـــك مكـــة والحجـــونـــا
فلـــو أن الجماد يطيـــق نطقـــا
لنـــادتـــك أدخلـــوهـــا آمنينـــا
جعلـــت صبـــاح آهلهـــا ظـــلامـــا
وأبـــدلتـــك الـــزئير بها أنينـــا
تخال حماة حـــوزتها نســـاء
لموضـــون الحديـــد مقنعينـــا
لبيضـــك في جماجمهـــم غنـــاء
لـــذيـــذ علـــم الطير الحنينـــا

تميـــل إلى المثقفـــة العـــوالي
فهـــل أمســـت رمـــاحـــا أم غصـــونـــا
يكـــاد النقـــع يـــذهلهـــا فلـــولا
بـــروق القـــاضبـــات لما هدينـــا
فكـــم حـــازت قـــدود قنـــاك منهـــا
قـــدودا كـــالقنـــا لـــونـــا ولينـــا
وغيـــد كـــالجآذر آنســـات
كغيـــد نـــداك ابكـــارا وعـــونـــا
ولما بـــاكـــرتها منـــك نعمـــى
بنـــان تفضـــح الغيـــث الهتـــونـــا

أعـــدت بها الليـــالي وهـــي بيـــض
وقـــد كـــانـــت بها الأيـــام جـــونـــا
فليـــس بعـــادم مـــرعـــى خصيبـــا
أخـــو سغـــب ولا مـــاء معينـــا
فـــلا عـــدم الشـــآم وســـاكنـــوه
ظبـــى تشفـــي بها الـــداء الـــدفينـــا
سهـــاد جفـــونها في كـــل فتـــح
سهـــاد يمنـــح الغمـــض الجفـــونـــا
فـــالمم بـــالســـواحـــل فهـــي صـــور
إليـــك وألحق الهام المتـــونـــا
فقلـــب القـــدس مسرور ولـــولا
سطـــاك لكـــان مكتئبـــا حـــزينـــا
أدرت على الفـــرنـــج وقـــد تـــلاقـــت
جموعهـــم عليـــك رحـــى طحـــونـــا
ففـــي بيســـان ذاقـــوا منـــك بـــؤســـا
وفي صفـــد أتـــوك مصفـــدينـــا
لقـــد جـــاءتهم الأحـــداث جمعـــا
كـــأن صروفهـــا كـــانـــت كمينـــا
وخـــانهم الـــزمـــان ولا مـــلام
فلســـت بمبغـــض زمنـــا خـــؤونـــا
لقـــد جـــردت عـــزمـــا نـــاصريـــا
يحدث عـــن سنـــاه طـــور سنيـــا
فكنـــت كيـــوســـف الصـــديـــق حقـــا
لـــه هـــوت الكـــواكـــب ســـاجـــدينـــا
لقـــد أتعبـــت مـــن طلـــب المعـــالي
وحـــاول أن يســـوس المسلمينـــا
وأن تـــك آخـــرا أو خـــلاك ذم
فـــإن محمـــدا في الآخـــرينـــا

- ٨٥١٥ -

قال ابن أبي طي: حدثني والدي عن أحد التجار قال: كنت بالموصل في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فزرت الشيخ عمر الملا. فدخل إليه رجل فقال: أيها الشيخ رأيت البارحة في النوم كأني بأرض غريبة لاأعرفها، وكأنها مملوءة بالخنازير، وكأن رجلا في يده سيف، وهو يقتل الخنازير، والناس ينظرون إليه، فقلت لرجل: هذا عيسى بن مريم، هذا المهدي، قال: لا، فقلت: من هذا؟ قال: هذا يوسف مازادني على ذلك، قال: فتعجب الجماعة من هذه الرؤيا، وقالوا: إنه سيقتل النصارى رجل يقال له يوسف، وحدست الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب، وكان المستنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة فحدس بعض الجماعة عليه، قال: وأنسيت أنا هذه الوقعة، فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها، فكان يوسف الملك الناصر رحمه الله.

قال: وحدثني ظئر لي من نساء الحلبيين، كانت تداخل أخت السلطان الملك الناصر، قالت: كانت والدة السلطان تخبر أنها أتيت في نومها وفي حامل بالسلطان، فقيل لها: إن في بطنك سيفا من سيوف الله تعالى.

- ٥١٦هـ٨ -

فصل

في فتح عكا وغيرها

وهـي بالـلألف الممـدودة،ويدل على ذلـك أنه يقـال في النسبة إليهـا عكاوي، وقد وجـدت ذلك في شعر قديـم، ومنهم من يقول عكـة بالهاء ومثـل ذلـك حصن عـرقـة، وبعضهـم يقـول عـرقا بـالألـف ونهر تـوراء وبعضهم يقول: نهر توره بالهاء.

قال القـاضي ابن شـداد: ثم رحل السلطـان طالبا عكـا، وكان نـزوله عليهـا يوم الأربعـاء سلـخ ربيـع الآخر وقـاتلهـا بكـرة الخميس مستهـل جمادى الأولى، فأخذها واستنقـذ من كان فيها من الأسارى، وكـانوا زهاء أربعة آلاف نفـر، واستولى على مـافيها مـن الأموال والـذخائر، والبضـائع والتجائر، فإنها كانت مظنة التجار.

وتفرقت العساكر في بلاد الساحـل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابلس وحيفا، وقيسـارية وصفورية، والناصرة، وكان ذلك لخلو الرجال بالقتل والأسر.

قال العماد: ورحـل السلطان ظهر يـوم الثلاثـاء، والتوحيد ظـاهر على التثليـث، والطيـب قد امتـاز مـن الخبيـث، ونـزل بـأرض لوبيـة عشيـة، وأعادها بأزهار بنوده، وأنوار جنـوده، روضة موشية، ثم أصبح سائرا إلى عكا، فاشيا سره، بـارا بأهل الدين بره، وكان أمير المدينـة النبويةصلوات الله على ساكنها في مـوكبه، فكأن رسول الله صلى الله عليـه وسلم سير إلى نصرته من يثري به من يثربه، وهذا الأمير عز الدين أبو فليته القاسم بن المهنا الحسني، قد وفد في تلك السنـة أوان عود الحاج، وهو ذو شيبة تقد كالسراج، ومـابرح مـع السلطان مـأثور المآثر ميمون الصحبـة، مأمـون

المحبة، مبارك الطلعة، مشاركا في الوقعة، فما تم فتح في تلك السنين إلا بحضوره، ولاأشرق مطلع من النصر إلا بنوره، فرأيته في ذلك اليوم للسلطان مسايرا، ورأيت السلطان له مشاورا محاورا، وأنا أسير معهما، وقد دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما، ولاحت أعلام عكا، وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى، وكأن عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها، وقد توافرت عساكر الاسلام إليها من وعرها وسهلها، ولما أشرفنا عليها مستظهرين أيقنا بفتحها مستبشرين، فما كان فيها من يحميها، فما صدقنا كيف نملكها ونحويها، وظهر على السور أهلها لأجل الممانعة، والثبات على المدافعة، وخفقان ألويتها يشعر بقلوبها الخافقة، وأرواح جلدهم الزاهقة، ووقفنا نتأمل طلولها، ونؤمل حصولها، وخيم السلطان بقربها وراء التل، وانبثت عساكره في الوعر والسهل، وبتنا تلك الليلة وقد هزتنا الإطراب، نقول متى يجتمع الأصباح والأصحاب، فما هجدنا ولاغرارا، ولاوجدنا من الفرح قرارا، والسلطان جالس ونحن عنده، وهو يحض جنده، ويقدح معهم في اقتباس الآراء زنده، ومنا من يستنجز وعده، ومنا من يستميح رفده، ومنا من يواصله بالدعاء، ومنا من يشافهه بالهناء، وأصبح يوم الخميس فركب في خميسه، ووقف كالأسد في عريسه، ووقفنا بإزاء البلد صفوفا، وأطللنا على أطلاله وقوفا، فخرج أهل البلد يطلبون الأمان، ويبذلون الإذعان، فأمنهم وخيرهم بين المقام والانتقال، ووهب لهم عصمة الأنفس والأموال، وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم، ويسبي ذريتهم ونساءهم، وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة، فاغتنموا تلك المهلة، وفتح الباب للخاصة، واستغنى بالدخول إلى البلد جماعة من ذوي الخصاصة، فإن القوم ماصدقوا من الخوف المزعج، والفرق المحرج، كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون، وعندهم أنهم إذا نجو بأنفسهم أنهم يغنمون، فلما دخل الجند ركز كل واحد منهم على دار رمحه، وأسام فيها سرحه، فحصلوا على دور أخلاها أربابها، وأموال خلاها أصحابها، وكنا لأجل

الأمـان نهابها، فطـاب لأولئـك نهابها، وجعــل السلطـان للفقيـه عيسـى الهكاري كل مـاكان للداوية من منـازل وضياع ومواضع ورباع، فـأخذها بما فيها مـن غلال ومتـاع، واستخرجـوا الدفـائن، وولجوا المخازن، وداروا الأماكن، وكـذلك مماليك الملك الأفضـل وأصحابه، وولاته ونـوابه نبشوا المحـارز، وفتشـوا المراكز، واستبـاحـوا الإهـراء واجتـاحوا الأشيـاء، وكـان السلطـان قد فـوض عكـا وضياعهـا ومعاقلهـا وقـلاعها إلى ولـده الأكبر الملك الأفضل نور الدين علي.

ثم ذكر العماد أنـواع مااستولوا عليـه من الأموال، ثم قـال: ومن جملة ذلـك أنهم احتاطـوا بغير علمـي على دار بـاسمي، فبـاعـوا منهـا متاعـا بسبعمائة دينـار، وأخلـوها ممـا كـان فيهـاآلات وأذخار، وقلـدوني المنـة في تحصيل تلـك الدار، فـإنها كانت مـن أنفس العقـار، وسلموهـا إلى غلام صديق لي يصونها، ويقوم بحفظها والـذب عنها، والدفاع دونها، فذكر أن الغلام انتفـع من آلاتها بعـد خلوهـا بما قيمته سبعـون دينارا، وأن الأولين نقلوا منها من الذخر أوقارا.

قال: وإنما وصفت هذا ليعلم ماغنمـوه، والتهبوا على حيازته والتهموه، وتصرف الملك المظفر تقي الدين في دار السكر فـأفنى قنودها، واستوعب موجودها، ونقل قدورها وأنقاضها، وحوى جواهرها وأعراضها.

وقال في كتاب الفتح.وخلى سكان البلـد دورهم، ومخزونهم ومدخولهم، وتركـوها لمن أخـذها، ونبـذوا ماحـووه لمن حواهـا ومانبـذها، وافتقـر من الفرنج أغنيـاء، واستغنى من أجنادنـا فقراء، ولو ذخرت تلـك الحواصل، وحصلـت تلك الـذخائر، وجمع لبيـت المال ذلك المال المجمـوع الوافـر، لكان عـدة ليوم الشدائد، وعمدة لنجـح المقاصد، فرتعـت في خضرائها، بل في صفـرائها وبيضـائها سروح الأطماع، وطـال لمستحلبها ومستحيلهـا الأمتاع بذلك المتاع.

وقال في البرق: وقرىء على السلطان ليلة من كتاب الفتح ونحن بالقدس، يعني هذا المكان، وذلك سنة ثمان وثمانين، فقال السلطان: هذه رفيعة على ثلاثة، اثنان منهم في جوار الرحمة، والآخر باق في مقر العصمة،يعني بالاثنين، الفقيه عيسى، وتقي الدين، وبالآخر الباقي ولده نور الدين.

قال: ولعمري هو كما ذكره، لكن الأفضل ماحصل له ولخواصه بل لذوي اختصاصه واستخلاصه، وفتحوا البلد يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى، فجئنا إلى كنيستها العظمى، فأزحنا عنها البؤسى بالنعمى، وحضر الأجل الفاضل فرتب بها المنبر، والقبلة وهي أول جمعة أقيمت بالساحل بعد يوم الفتح، وكان الخطيب والإمام فيها الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي، وولاه السلطان مناصب الشريعة بعكا، تولى الخطابة والقضاء والحسبة والوقف.

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد بعد فتح عكا يصف كسرة حطين:« صبح الخادم طبرية فافتض عذرتها السيف، وهجم عليها هجوم الطيف، وتفرق أهلها بين الأسر والقتل وعاجلهم الأمر، فلم يقدوا على الخداع والختل، وجاء الملك ومن كان معه من كفاره، ولم يشعر أن ليل الكفر قد آن وقت إسفاره، فأضرم الخادم عليها نارا ذات شرار، أذكرت بما أعد الله لهم في دار القرار، فترجل هو ومن معه عن صهوات الجياد، وتسنموا هضبة رجاء أن تنجيهم من حر السيوف الحداد، ونصبوا للملك خيمة حمراء، وضعوا على الشرك عمادها، وتولت الرجال حفظ أطنابها، فكانوا أوتادها، فأخذ الملك أسيرا(وكان يوما على الكافرين عسيرا)[٤٢] وأسر الإبرنس لعنه الله فحصد بذره، وقتله الخادم بيده ووفى بذلك نذره، وأسر جماعة من مقدمي دولته وكبراء ضلالته، وكانت القتلى تزيد على أربعين ألفا، ولم يبق أحد من الديوية، فلله هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر، وتداول فيه القتل والأسر، أصدر الخادم هذه الخدمة من

ثغر عكـا والاسلام قد اتسـع مجاله، وتصرف أنصـاره ورجاله والكفـر قد ثبتت أوجاله، ودنت آجاله».

قال العماد: ومـن جملة البشائر بكسرة حطين:« ولما أحيط بـالقوم أوى ملكهم إلى جبل يعصمـه من العوم، فأسمعه السيف(لاعـاصم اليوم)(٤٣) واستـولى الخذلان عليهـم بـأسرهـم،وبـردت أيـدي المؤمنين بحـر قتلهـم وأسرهم، ولم يبق لهم بـاقية، وغصت بقتلاهـم في الـدنيا والآخرة أرض الله الـواسعة، ونـار الله الحامية، فما يطـأ من يصـل إلى مخيمنا إلا على رممهـم البالية وأسر الملك وأخوه وبارونيته ومقـدموه ولم يفلت منهم إلا القومص وهو مسلـوب، ولابد أن ندركـه فهو مطلوب، وقـد كنا نذرنـا ضرب رقبة الإبرنـس صاحب الكـرك الغدار، كافـر الكفار، ونشيدة النـار، فلما رأيناه ضربنا عنقه سريعا، وسرنا إلى عكا وهـي بيضة ملكهم، وواسطة سلكهم، ومركـز دائرة كفرهـم، ومجمع جمع بـرهم وبحـرهم، فتسلمنـاها بـالأمان، والصخـرة المقدسـة الآن بنا تصرخ وتستغيـث، وعبـاد الله الصالحون قـد وصلـت إليهـم بـوعـد الله الصادق المواريـث، والبشـارة بفتـح القـدس لاتتأخر، والهمم بعد هذا الفتح السنـي على ذلك تتوفر، والحمد لله الذي تتـم الصـالحات بحمـده(مـايفتح الله للنـاس مـن رحمة فـلا ممسـك لها ومايمسك فلا مرسل له من بعده)(٤٤)».

فصل

في فتح نابلس وجملة من البلاد الساحلية بعد فتح عكا وطبرية وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة لذلك

قال العماد: وأقام السلطان أياما بعد فتح عكا على التل مخيما، وعلى سائر بلاد الساحل مصمما، وكان قد كتب إلى أخيه العادل بمصر بما فتحه الله عليه، فوصل بعسكره وفتح في طريقه حصن مجدل يابا، ومدينة يافا عنوة، فقصده من عسكرنا القصاد، ووفد إليه الوفاد، وأمره السلطان بأن يقيم في ذلك الجانب، جامعا للكتائب ليجتمع به الواصلون من مصر الآملون معه بالنصر.

قال: وتوجه عدة من الأمراء والعسكرية إلى الناصرة وقيسارية، والبلاد المجاورة لعكا وطبرية، ومضى كل فريق في صوب، وآبوا بالغنيمة والسبى خير أوب.

قال: فأما الفولة فهي قلعة للداوية حصينة، وفيها ذخائرهم وأموالهم، فلما خرج الداوية منها وقتلوا لم يبق فيها إلا اتباع وغلمان فسلموها وجميع مايجاورها، كدبورية وجينين وزرعين والطور وزاد في كتاب الفتح: واللجون وبيسان والقيمون، وجميع مالعكا وطبرية من الولايات، والزيب ومعليا والبعنة واسكندورنة ومنوات.

قال: وتوجه مظفر الدين كوكبري إلى الناصرة فاستباحها، وصفرت صفورية من سكانها، وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة من الأمراء إلى قيسارية فافتتحوها بالسيف، وتسلمت بعدها حيفا وأرسوف، واستولى على تلك الشموس والأقمار الكسوف والخسوف، وحيفا بين عكا وقيسارية على البحر.

قال: وأما نابلس فإن أهل ضياعها ومعظم أهلها، كانوا مسلمين، وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمين، وهم يجبون كل عام منهم قرارا، ولايغيرون لهم شرعا ولاشعارا، فلما عرفوا كسرهم، وأنهم لايرجون جبرهم، خافوا من مساكنة المسلمين فتفرقوا، وكبسهم أهل الضياع في الدور والرباع، وغنموا ماوجدوه من الذخائر والمتاع، وأوقعوا بضعفائهم، وضايقوا الحصون على أقويائهم، وطلبها من السلطان ابن أخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين، وهو عزيز عند خاله، مليء بفضله وأفضاله، فأقطعه السلطان نابلس وأعمالها وضياعها، ونواحيها وقلاعها، فتوجه إليها بعسكره، فأول ما أناخ على سبسطية وفيها مشهد زكريا عليه السلام، وقد اتخذه الأقساء كنيسة منذ فارقه الاسلام، وهو متعبدهم المعظم، والمشهد المكرم، وقد حجبوه بالأستار، وحلوه بالفضة والنضار، وعينوا له مواسم الزوار، وقومته من الرهابين فيه مقيمة، ولايؤذن في الزيارة إلا لمن معه هدية لها قيمة، فدخله وحوى مافيه، وأبقى مالايحسن أن يخلو من مثله المسجد، وفتح للمسلمين أبوابه، وأظهر للمصلين محرابه، ثم سار إلى نابلس ففتحها بالأمان، واستمال من سكانها من ضرب عليه الجزية بعد زمان، وأجراهم على مالهم من العمارة والبنيان وبقيت بيده الى آخر عهده، وعمرت بعدله ورفده.

قال العماد: وأنشدته يوم فتح القدس قصيدة أولها:

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا
وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا
ماطبت نفسا ولااستحسنت بعدكم
شيئا نفيسا ولااستعذبت لي نفسا
قلبي وصبري وغمضي والشباب وما
الفتم من نشاطي كله خلسا

وكيـــف يصبـــح أو يمسي محبكـــم
وشـــوقكـــم يتـــولاه صبـــاح مســـا
عـــادت معـــاهـــدكـــم بـــالجزع دارســـة
وإن معهـــدكـــم في القلـــب مـــادرســـا
وكنـــت أحـــدس منكـــم كـــل داهيـــة
ومـــادهـــانـــا مـــن الهجـــران مـــاحـــدسا
لماهـــدت نـــار شـــوقـــي ضيـــف طيفكـــم
قـــريتـــه بـــالكـــرى زار مقتبســـا
ورمـــت تـــأنيســـه حتـــى وهبـــت لـــه
إنســـان عينـــي أفـــديـــه فما أنســـا
أنـــا الخيـــال نحـــولا فـــالخيـــال إذا
مـــازارني كيـــف يلقـــى مـــن بـــه التبسـا
لهفـــي على زمـــن قضيتـــه طـــربـــا
إذ لم أكـــن مـــن صروف الـــدهـــر محترســـا
عســـى يعـــود شبـــابي نـــاضرا ومتـــى
أرجـــو نضـــارة عـــود للشبـــاب عســـا
وســـادن يفـــرس الأســـاد نـــاظـــره
فـــديتـــه شـــادنـــا لـــلأســـد مفترســـا
في العطـــف لين وفي أخـــلاقـــه شـــوس
يـــا لين عطفيـــه جنـــب خلقـــه الشـــوسـا

ومنها في المديح:

إن بـــان لبـــس مضينـــا لاجئين إلى الـــ
ـــفتى الحســـام بـــن لاجين بنـــابلســـا
يميـــت أعـــداءه بـــأســـا ونـــائلـــه
يحيـــي رجـــاء الـــذي مـــن نجحـــه أيســـا
ممـــــزق المازق المنســـــوج عثيره
وقـــد محا اليـــوم ليـــل النقـــع فـــانطمســـا

لازلـــت مستـــــويــــا فـــــوق الحصــــان وفي
حصــــن الحفـــاظ ومـــن عـــاداك منتكســــا

وهي طويلـة وقد تقدمت منها أبيـات في وصف كسرة حطين، وسيأتي منها أيضا أبيـات عند فتح القدس في مدح السلطان صـلاح الدين رحمه الله.

ومـن كتاب عـن السلطـان إلى سيـف الاسلام أخيـه:« كـاتبنـا أخانـا العادل أن يـدخل بـالعساكر المصريـة من ذلـك الجانب، فلما بشر بكسر الفرنج وفتح عكا وطبرية،كان قـد وصل إلى السواد، فحاز العريش، وزار الداروم، وأجفلت قـدامه البلاد، ووصل إلى يافا ففتحهـا عنوة، ثم حصر مجدل يابا، فطلبـت منه الأمان، وقد اشتمل الفتح على البـلاد المعينة بعد وهي:

طبريـة. عكا. الـزيـب. معليا. اسكنـدرونـة. تبنين. هونين. النـاصرة. الطـور. صفـوريـة. الفـولة. جينين. زرعين. دبـوريـة. عفـربـلا. بيسـان. سبسطية. نابلس. اللجون. أريحا. سنجل. البيرة. يـافا. أرسوف. قيسارية. حيفا. صرفند. صيـدا. بيروت. قلعة أبي الحسن. جبيل. مجدل يـابا. جبل الجليل. مجدل حباب. الـداروم. غزة. عسقلان. تل الصـافية. التل الأحمر. الأطـرون. بيت جبريـل. جبـل الخليـل. بيت لحم. لـد. الـرملـة. قرتيـا. القدس. صوبا. هرمز. سلع. عفرا. الشقيف.

قال: ولم يذكـر ماتخللها من القرى والضياع والأبـراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع ولكـل واحدة من هذه البلاد التي ذكـرناها أعمال وقرى ومزارع وأماكن ومواضع قد جاسوا خلالها واستوعبوا ثمارها وغلالها.

قـال العماد: ومما أنشأتـه مـن شرح الفتـوح وكتبـت به إلى الـديـوان

وبدأت بقـوله تعـالى:«(ولقـدكتبنـا في الزبـور من بعـد الذكـر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)[٤٥] الحمد لله على ماأنجز مـن هذا الوعد، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد، وجعل بعد عسر يسرا، وقد أحـدث الله بعد ذلـك أمرا، وهـون الأمر الـذي ماكـان الاسلام يستطيـع عليه صبرا، وخـوطب الـدين بقولـه:(ولقد مننـا عليك مـرة أخرى)[٤٦] فالأولى في عصر النبـي صلى الله عليه وسلـم والصحابـة، والأخرى هـذه التي عتـق فيها مـن رق الكآبة، فهـو قد أصبـح حرا، ريـان الكبد الحرا، والزمـان كهيئته استـدار، والحق ببهجته قـد استنار، والكفـر قد رد مـاكان عنده من المتاع المستعار، فالحمد لله الذي أعـاد الاسلام جديدا ثوبه، بعد أن كان جـذيذا حبلـه، مبيضا نصره، مخضرا نصلـه، متسعا فضلـه، مجتمعا شملـه، والخادم يشرح مـن نبـأ هـذا الفتـح العظيـم، والنصر الكـريـم، مايشرح صـدور المؤمنين، ويمنح الحبـور لكافـة المسلمين، ويورد البشرى بما أنعم الله به مـن يوم الخميس الثالـث والعشرين من شهر ربيـع الآخر إلى يوم الخميس منسلخه ، وتلك سبع ليال وثمانيـة أيام حسوما، سخرها الله على الكفار فترى القوم فيهـا صرعى كأنهم أعجاز نخـل خاوية، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خـالية، ورأيتها إلى الاسلام ضاحكة، كما كـانت مـن الكفر بـاكية، فيـوم الخميس الأول فتحـت طبرية، ويـوم الجمعة والسبـت نوزل الفرنـج فكسروا الكسرة التي مـالهم بعدها قـائمة، وأخذ الله أعداءه بـأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظـالمة، وفي يوم الخميس منسلخ الشهـر فتحت عكـا بالأمـان، ورفعت بها أعـلام الإيمان، وهي أم البـلاد، وأخـت إرم ذات العماد، وقـد أصـدر هـذه المطـالعـة وصليـب الصلبـوت مأسـور، وقلب ملـك الكفر الأسير بجيشـه المكسور مكسـور، والحديد الكـافر الذي كـان في يد الكفـر يضرب وجه الاسلام، قـد صار حـديـدا مسلما يعـوق خطـوات الكفر عـن الإقـدام، وأنصـار الصليـب وكباره، وكل من المعمودية عمدته والـدير داره قد أحاطت به يد القبضة، وغلق رهنه فـلا تقبل فيه القناطير المقنطـرة من الذهـب والفضـة، وطبرية

قد رفعت أعلام الاسلام عليها، ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها، وعمرت إلى أن شهدت يوم الاسلام وهو خير يوميها، وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر، وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها، وطالما ارتجت لموقف الكافر، فأما القتلى والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفا، وأما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أمضى حكم الله فيهم وقطع بهم سوق نار الجحيم، ورحل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم، وقتل الإبرنس كافر الكفار، ونشيدة النار، من يده في الاسلام كما كانت يد الكليم، والبلاد والمعاقل التي فتحت هي: طبرية. عكا. الناصرة. صفورية. قيساريه. نابلس. حيفا. معليا. الفولة. الطور. الشقيف. وقلاع بين هذه كبيرة، والملك المظفر تقي الدين ظفره الله مضايق لصور، وحصن تبنين، والأخ العادل سيف الدين نصره الله قد كوتب بالوصول بمن عنده من العساكر لينزل في طريقه على غزة وعسقلان ويجهز مراكب الاسطول المنصورة إلى عكا، ومايتأخر النهوض إلى القدس، فهذا هو أوان فتحه، ولقد دام عليه ليل الضلال، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه».

فصل

في فتح تبنين وصيدا وبيروت وجبيل وغيرها ومجيء المركيس إلى صور

قال العماد: أرسل السلطان إلى تبنين ابن أخيه تقي الدين فضايقها، وكتب إلى السلطان أن يأتيه بنفسه فوصل إليها في ثلاث مراحل، ونزل عليها يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى، فراسلوا السلطان، وسألوا الأمان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا، وبذلوا رهائن من مقدميهم، ووفوا بما بذلوا، وتقربوا بإطلاق الأسارى المسلمين، فخرج الأسارى مسرورين، فسر بهم السلطان وسر بهم، وأقرهم وقربهم، وكساهم وحباهم، وأتاهم بعد ردهم إلى مغانيهم غناهم، وهذا دأبه في كل بلد يفتحه، وملك يربحه، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها، ويعيد بعد عدمها وجودها، فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسره من الكفار مائة ألف، ولما خلوا القلعة، وأخلوا البقعة سيرهم، ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور، وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر من جمادي الأولى، وكان شرط عليهم تسليم العدد والدواب والخزائن.

وقال القاضي ابن شداد: فتحها السلطان عنوة، وكان بها رجال أبطال، شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة، ونصر الله عليهم، وأسر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا، فنزل عليها، ومن الغد تسلمها وهو يوم الأربعاء الحادي و العشرون.

قال العماد: سنحت له صيدا فتصدى لصيدها، وكانت همته في

قيدهـا، وبادرهـا اشفاقا مـن مكر العداة وكيـدها، ووصلنـا في يومين إلى صيـدا إلى منهـل فتحها صـاديـن، وعـن حمى الحق دونها لأهل البـاطـل صاديـن، ولما نزلنا مـن الوعر إلى السهـل سهل ماتـوعر، وصفا مـن الأمر مـاظن أنـه تكـدر، فصرفنـا الأعنة إلى صرفنـد، وهـي مـدينة لطيفـة على السـاحـل، مـورودة المنـاهل، ذات بسـاتين وأشجـار وريـاحين وأزهـار، فأخـذناهـا، وخيمنا على صيـدا وقد جـاءت رسل صـاحبها بمفـاتيحها، وطلعـت الـرايـة الصفـراء على سـورهـا وأقيمـت بها الجمعـة والجماعـة، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة.

ثـم سـار في يـومـه على سمـــت بيروت، فنـزل عليهـا يـوم الخميـس، وضايقهـا وحاصرهـا ثمانية أيـام، ثم طلبـوا الأمان فـأمنهم وتسلمهـا يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى.

ومرض العماد فـأملى كتاب صلـح بيروت، ورجع إلى دمشـق للمداواة، ثم وجد الشفاء، وعاد إلى السلطان يوم فتح القدس كما سيأتي.

قـال: وسلمـت بيروت بحضـوري، فكـان مـن سبـب ابـلالي سروري بفتحها وحبـوري، وخرج منهـا ومن قلعتها الفـرنج وامتـلأ بهم إلى صور النهج، وعاد الاسـلام الغريب فيها إلى وطنـه، وتوطن الديـن بها في مأمنه وسكن في مسكنه، وأما جبيل فإن صـاحبها أوك كان في جملة من نقل إلى دمشق مع الملـك الأسير، فضاق ذرعا بسجنه الذي تعجل لـه فيه عذاب السعير، فتحدث مع الصفي بن القابـض في أمره، وباح إليه بسره، وقال: مالكم في أسري فائدة ولاغنيمة على فتـح جبيل زائدة، وأنا أسلمها بشرط سلامتي، فخذوهـا ولاتفقدوني، فقد قامت قيامتي، فـأنهى الصفي حاله، واستصوب ماقالـه، فأمر باحضاره في قيده والإحتراز من كيـده، فوصل به ونحن على بيروت فسلـم جبيل وسلـم وربح نجاتـه وغنم، ومضـى إليها من تـولاها، وانسـل منها صاحبهـا وسلاها، وتبعهـا فتح بيروت وتـلاها،

فانتظمت هذه البلاد المتناسقة بالساحل في سلك من الفتوح متسق، وأمر من الاستقامة متفق، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين، مساكين لمساكنة الفرنج مستسلمين، فذاقوا العزة بعد الذلة، وفاقوا الكثرة بعد القلة، وصدقت البشائر، وصدحت المنابر، وظهر عيب البيع، وشهر جمع الجمع، وقرىء القرآن، واستشاط الشيطان، وخرست النواقيس، وبطلت النواميس، ورفع المسلمون رؤوسهم، وعرفوا نفوسهم، وكان كل من استأمن من الكفار يمضي إلى صور محمي الذمار، فصارت صور عش غشهم، ووكر مكرهم، وملجأ طريدهم، ومنجا شريدهم، وهي التي فر القومص إليها يوم كسرتهم بل يوم حسرتهم، ولما عرف القومص قرب السلطان منها أخلاها وخلاها، وآوى إلى طرابلس وثواها فما متع بها ملك وكان كما قيل:« راح يبغي نجوة من هلاك فهلك»، وتعوضت صور عن القومص بالمركيس كما يتعوض عن الشيطان بإبليس، فأدرك ذماء الكفر بعدما أشفى، وأيقظ روع الروع بعدما أغفى، وضبط صور بمن فيها، من مهزومي الفرنج ومنفيها، وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغول شياطينه، وأضرى سراحينه، وأخبث ذئابه، وانجس كلابه، وهو الطاغية الداهية، الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية، ولم يكن وصل إلى الساحل قبل هذا العام، واتفق وصوله إلى مينا عكا وهو بفتحها جاهل، وعمن فيها من المسلمين ذاهل، فعزم على إرساء الشيني بالمينا،ثم تعجب وقال: مانرى أحدا من أهليها يلتقينا، ورأى زي الناس غير الزي الذي يعرفه، فارتاب وارتاع، وحدث عن الدخول توقفه، وبان تندمه، وتأخر تقدمه، وسأل عن الحال فأخبر بها ففكر في النجاة والهواء راكد، والقضاء عنه راقد، فإنه لو خرج إليه مركب لأخذه، ولو وقف له قاصد لوقذه، فاحتال كيف يخرج بسفينته، ولا يدخل مع فقد سكينته، فسأله عن متولي البلد، وقال:خذوا لي منه أما نا حتى أدخل وأرفع ما معي من المتاع، وأنقل ما عندي من الثقل، فجيء إليه من الأفضل بالأمان، فقال: ما أثق إلا بخط يده، ولاأنزل

إلا بعهده إلى بلده، وهو ينتظر هبوب الريح الموافقة، فما زال يردد الرسل، ويدبر الحيل، حتى وافقته الريح فأقلع وأفلت من الشرك بعدما وقع، وصار في صور فرم الأمور وجرأ الكفر بعد خوره، وبصر الشيطان بعد عماه وعوره، وأرسل رسله إلى الجزائر وذوي الجرائر يستعدي ويستدعي، ويستودع ملة الصليب عباده ويسترعي، ويستشير ويستزير، ويستنفر ويستنصر، وثبت في صور ونبت، وجمع إليه من الفرنج من تشتت، ومافتح بلد بالأمان إلا سار أهله في حفظ السلطان حتى يصيروا بصور ويأمنوا المحذور، فاجتمع إليها أهل البلاد المفتوحة بالقلوب المقفلة المغلوبة المقروحة، فامتلأت وكانت خالية، وانتاشت وكانت بالية، وتعللت وكانت معتلة، وتعقدت وكانت منحلة، ولم يحتفل بها فأخر فتحها فاستجدت رمقا بالمهلة، وتصعبت بعد مقادتها السهلة، وألهى عن طلبها طلب ماهو أشرف وهو البيت المقدس، فإن فتحه من كل فتح أنفس والمركيس في أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه ويعقد الموثق ويبرمه، ويجمع المتفرق وينظمه.

- ٨٥٣١ -

فصل

فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها

قال العماد: لما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل ثنى عنانه عائدا على صيدا وصرفند، وجاء إلى صور ناظرا إليها، وعابرا عليها غير مكترث بأمرها، ولامتحدث في حصرها، ودلته الفراسة على أن محاولتها تصعب، ومزاولتها تتعب، وليس بالساحل بلد منها أحصن، فعطف الأعنة إلى ماهو منها أهون، وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية في قيودهما، وشرط معهما واستوثق منهما أنه يطلقهما من الأسر والبلية، متى تمكن بإعانتهما من البلاد البقية، وعبر والعيون صور إلى صور، وماشك المركيس أنه محصور محسور، فلما أرخي من وثاقه، واتسع ضيق خناقه، حلق في مطار أوطاره، وحرك لغواته أوتار أوتاره، واجتمع السلطان بأخيه العادل واتفقا على طي المراحل، ونشر القساطل، فنزل على عسقلان يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة، وشديدها قد لان، فتجلد من بها على الحصار وتربصوا وتصبروا، فنصب السلطان عليها مجانيق ورماهم بها، وجسر النقاب فحسر النقاب، وباشر الباشورة، فرفع الحجاب، واشتد القتال واحتد المصال، وراسلهم عند ذلك الملك المأسور وقال: قد بان عذركم حين نقب السور، وجرت حالات، وتكررت حوالات، وترددت رسالات، وقال لهم الملك الأسير: لاتخالفوا مابه أشير، واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم، ولاتخطروا غيري ببالكم فإني إذا تخلصت خلصت، وإذا استنقذت استنقذت، وخرج مقدمون وشاوروا الملك، ونهجوا في التسليم نهجه الذي سلك، وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، واستوفوا بذلك الميثاق واليمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة، وخرجوا بنسائهم وأموالهم، وممن استشهد على عسقلان من الأمراء الأكابر حسام الدين ابراهيم بن حسين المهراني، وهو أول أمير

افتتح بالشهادة واختتم بالسعادة، وكـان السلطان قد أخذ في طريقه إليها الـرملـة، وتبنين، وبيـت لحم، والخليـل، وأقـام بها حتـى تسلـم حصـون الداويـة: غزة والنطرون، وبيـت جبريل، وكـان قد استصحب معـه مقدم الداوية، وشرط معـه أنه متى سلم معـاقلهم أطلقه، فسلم هـذه المواضع الوثيقة، كما أخذ مواثيقه.

كـذا قـال العماد في كتـاب الفتـح، وقـال في كتـاب البرق: ومابـرح السلطان مقيما بظـاهر عسقلان حتى تسلـم المعاقل المجـاورة لها، والبلاد المتخللـة فيما بينهـا، فـذكـر الداروم، وغـزة والـرملـة وتبنين، وبيـت لحم ومشهد الخليل عليه السلام، ولد، وبيت جبريل، والنطرون.

قال ابـن شداد: لما فـرغ بال السلطـان من هـذا الجانب يعنـي ناحيـة بيروت رأى قصـد عسقلان، ولم يـر الإشتغال بصـور بعـد أن نزل عليهـا ومـارسها، لأن العسكـر كان قـد تفرق في السـاحل، وذهـب كل انسـان يأخـذ لنفسه شيئـا، وكانـوا قد ضرسـوا من القتـال، ومن مـلازمة الحرب والنـزال، وكان قـد اجتمع في صـور — يسر الله فتحها— كـل فرنجـي بقي في السـاحل فـرأى قصد عسقـلان لأن أمرهـا كان أيسر، وتسلـم في طريقه مواضـع كثيرة: كالرملة، وتبنين، والداروم. فأقـام عليها المنجنيقات وقاتلهـا قتالا شديدا، وتسلمهـا سلخ جمادى الآخرة، وأقـام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة، وبيت جبريل، والنطرون بغير قتال.

قـال: وكان بين فتـح عسقلان وأخـذ الفـرنج لها مـن المسلمين خمس وثلاثـون سنة، فإن العدو ملكهـا في السابع والعشرين مـن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وذكر ابن القادسي نسخة كتاب كتبـه السلطان إلى بعض أهله وفيه:« انتقلنـا إلى الجانب الـذي فيـه القدس، وعسقـلان ففتحنـا قـلاعه كلهـا

وحصونه جميعها ومعاقله بجملتها ومدنه بأسرها وهي: حيفا، وقيسارية، وأرسوف، ويافا، والرملة، ولد، وتل الصافية، وبيت جبريل، والدير، والخليل، ونازلنا عسقلان، وهي المعقل المنيع، والحصن الحصين، والتل الرفيع، وفيهم من القوة والعدة والعدد ماتتقاصر الآمال عن نيل مثله، فافتتحناها سلما لتمام أربعة عشر يوما من يوم نزولنا عليها، ونصبت أعلام التوحيد على أبراجها وأسوارها، وعمرت بالمسلمين، وخلت من مشركيها وكفارها، وكبر المؤذنون في أقطارها، ولم يبق في الساحل من جبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس، وصور، والعزم مصمم على قصد القدس، فالله يسهله ويعجله، فإذا يسر الله تعالى فتح القدس ملنا إلى صور، والسلام».

وفي كتاب آخر تقدم ذكر بعضه قال:« وقد تفرق العسكر، وتوجه قوم إلى القدس وابن زين الدين وتقي الدين نازلان على صور، وفتحت هونين بالسيف وتبنين، بالسيف واسكندرونه بالسيف».

وفي كتاب آخر:« ونزلوا على صور وكاتبهم ملك بيت المقدس يطلب الأمان، فقال له صلاح الدين: أنا أجيء إليكم، فقال له المنجمون: على نجمك أن تدخل بيت المقدس وتذهب عين واحدة منك، فقال: قد رضيت بأن أعمى وآخذ البلد».

قال:« ولم يمنعه من ذلك إلا فتح صور، وماهي شيء يقف عليه، وقد خطب لأمير المؤمنين الناصر لدين الله على ثلاثين منبرا من بلاد الفرنج».

قال العماد: وفوض السلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع الأمور الدينية بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدين أبي محمد عبد الله بن عمر الدمشقي، المعروف بقاضي اليمن.

قال: ووصل إلى السلطان من مصر ولده الملك العزيز عثمان، واجتمع

به على عسقلان، فقرت عينه بولده، واعتضد بعضده، ووضع يده بتأييد الله في يده، وكان قد استدعى بالأساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر بالفلك المواخر، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجا، وأفواج تزاحم أفواجا، تدب على البحر عقاربها، وتخب كقطع الليل سحائبها، لؤلؤ مقدمها ومقدامها، وضرغام غابها وهمامها، فطفق يكسر ويكسب، ويسل ويسلب، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

- ٨٥٣٥ -

فصل

فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى

قال القاضي ابن شداد: لما تسلم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس، شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد قضاء لبانتها من النهب والغارة، فسار نحوه معتمداً على الله، مفوضا أمره إلى الله، منتهزا فرصة فتح باب الخير الذي حث على انتهازه إذا فتح بقوله عليه السلام: « من فتح له باب خير لينتهزه، فإنه لايعلم متى يغلق دونه» وكان نزوله عليه قدس الله روحه يوم الأحد الخامس عشر من رجب، فنزل بالجانب الغربي، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة، ولقد تجاوز أهل الخبرة عدة من كان فيه المقاتلة بما يزيد على ستين ألفا ماعدا النساء والصبيان، ثم انتقل رحمه الله تعالى لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي.

وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب عليه المنجنيقات وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية، ولما رأى أعداء الله مانزل بهم من الأمر الذي لايندفع، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل، وكان قد ألقى الله في قلوبهم مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر وماجرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ماصاروا إليه صائرون، وبالسيف الذي قتل به أخوانهم يقتلون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين، وكان تسلمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب، كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل

زمان الأسراء بنبيهم صلى الله عليـه وعلى آله وصحبه وسلم، وهـذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى.

قلـت: هـذا أحـد الأقوال في ليلـة المعـراج، وفي ذلـك اختـلاف كثير ذكرناه في موضع غير هذا والله أعلم.

ثـم قال القـاضي: وكـان فتـوحا عظيما شهـده مـن أهـل العلم خلـق عظيم، ومن أرباب الخرق والحرف، وذلك أن الناس لما بلغهم مامن الله به على يده مـن فتوح السـاحل، شـاع قصده للقـدس، فقصده العلماء مـن مصر والشام بحيث لم يتخلـف معروف عن الحضور، وارتفعـت الأصوات بالضجيـج والدعـاء والتهليل والتكبير، وخطب فيـه وصليت فيـه الجمعة يـوم فتحه، وحـط الصليب الـذي كـان على قبة الصخـرة، وكان شكـلا عظيما، ونصر الله الاسلام نصر عزيـز مقتدر، وكانت قـاعدة الصلح أنهم قطعـوا على أنفسهم عـن كـل رجل عشرة دنـانير،وعـن كـل امرأة خمسـة دنانير، وعن كل صغير ذكر أو أنثى دينارا واحدا.

قلت: كـذا قال، وسيـأتي في كلام العماد أن على كـل صغير ديناريـن، وكذا قـال: ان الجمعة صليت ببيت المقـدس يوم فتحه، وسيـأتي في كلام العماد التصريح بـأن يوم الفتح ضاق عـن ذلك، فصليت في يـوم الجمعة الآتي.

ثم قـال القاضي: فمن أحضر القطيعـة سلم بنفســه، وإلا أخذ أسيرا، وفـرج الله عمن كـان فيه مـن أسرى المسلمين، وكانـوا خلقا عظيما زهـاء ثلاثة آلاف نفـس، وأقام عليه رحمه الله يجمع الأموال ويفـرقها على الأمراء والعلماء ويوصل من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو صور.

قال: ولقـد بلغني أنـه رحمه الله رحل عنه ولم يبـق معه مـن ذلك المال

-٨٥٣٧-

شيء، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألفا، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي.

فصل

هذا الذي ذكره القاضي في أمر فتح بيت المقدس مختصرا مجموعاً، وقد بسطه العماد فقال: رحل السلطان من عسقلان للقدس طالبا، وبالعزم غالبا، وللنصر مصاحبا ولذيل العز ساحبا، والاسلام يخطب من القدس عروساً، ويبذل لها في المهر نفوساً، ويحمل إليها نعمى ليحمل عنها بوسى، ويهدي بشرى ليذهب عبوساً، ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لإعدائها على أعدائها، وإجابة دعائها، وتلبية ندائها، واطلاع زهر المصابيح في سمائها، وإعادة الايمان الغريب منها إلى وطنه، وردّه إلى سكونه وسكنه،وإقصاء أعداء الدين أقصاهم الله تعالى بلعنته من الأقصى، وجذب قياد فتحه الذي استعصى، واسكات الناقوس منه بانطاق الأذان، وكف كف الكفرعنه بأيمان الإيمان، وتطهيره من أنجاس تلك الاجناس، وأدناس أدنى الناس، وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رعبا واطاشت، وخفقت أفئدتهم خوفاً من جيش الاسلام وجاشت، وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ماعاشت، وكان به من مقدّمي الفرنج باليان بن بارزان، وهو وملكهم في التسلط شيئان بارزان، والبطرك الأعظم وهو الثاني العظيم الشان، والذين أعظمتهم حياطة حطين به من الفرسان الداوية والاسبتاربة و البارونية من ذوي الكفر والشنآن، وقد حشروا وحشدوا، ونشروا ونشدوا، وحميت حميتهم وأبت الضيم أبيتهم، وحارت غيرتهم، وغارت حيرتهم، وتبلدوا وتلدّدوا، وقاموا وقعدوا، وصوّبوا وصعدوا، فاشتغل بال باليان، واشتعل بالنيران، وخمدت نار بطر البطرك، وضاقت بالقوم منازلهم، فكانت كل دار منها شركا للمشرك، وقاموا للتدبير في مقام الإدبار، وتقسمت أفكار الكفار، وايس الفرنج من الفرج، وأجمعوا على بذل المهج، وقالوا: هاهنا نطرح الرؤوس، ونسلو النفوس، ونسفك الدماء، ونهلك الدهماء، ونصبر على اقتراح القروح، واجتراح الجروح، ونسمح بالأرواح شحا بمحل الروح، فهذه

الأماكن فيها قيامتنا، ومنها تقوم قيامتنا، وتصيح هامتنا، وتصح ندامتنا، وتسيح علامتنا، وتسح غمامتنا وبها غرامنا، وعليها غرامتنا، وباكرامها كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها استقامتنا، وفي استدامتها استدامتنا، وإذا تخلينا عنها لزمت لامتنا، ووجبت ملامتنا، ففيها المصلب والمطلب، والمذبح والمقرب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعد، والمرقى والمرقب، والمشرب والملعب، والمحق والمذهب والمطلع والمقطع والمربى والمربع، والمرخم والمخرّم، والمحلل والمحرّم، والصور والاشكال، والانظار والأمثال،والأشباه والأشباح، والأعمدة والألواح، والأجساد والأرواح، وفيها صور الحواريين في حوارهم، والأحبار في أخبارهم والراهبين في صوامعهم، والاقساء في مجامعهم، والسحرة وحبالها، والكهنة وخيالها، ومثال السيدة والسيد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوت، والمنعوت والمنحوت والتلميذ والمعلم، والمهد والصبي المتكلم،وصورة الكبش والحمار، والجنة والنار والنواقيس والنواميس، قالوا: وفيها صلب المسيح، وقرب الذبيح، وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت، واستقام التركيب، وقام الصليب، ونزل النور، وزال الديجور، وازدوجت الطبيعة بالاقنوم، وامتزج الموجود بالمعدوم، وعمدت معمودية المعبود ومخضت البتول بالمولود، وأضافوا إلى متعبدهم من هذه الضلالات ماضلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات، وقالوا: دون مقبرة ربنا نموت، وعلى خوف فوتها منا نفوت،وعنها ندافع، وعليها نقارع، ومالنا لانقاتل، وكيف لاننازع ولاننازل،ولأي معنى نتركهم حتى يأخذوا وندعهم حتى يستخلصوا مااستخلصنا منهم ويستنقذوا، وتأهبوا وتناهوا، وماانتهوا بل تناهوا، ونصبوا المجانيق على الأسوار، وستروا بظلمات الستائر وجوه الأنوار، واستشاطت شياطينهم، وسرحت سراحينهم، وطغت طواغيتهم، وأصلتت مصاليتهم، وهاج هائجهم، وماج مائجهم، وحضهم قسوسهم، وحرضتهم رؤوسهم، وحركتهم نفوسهم، وجاءتهم بنجوى السوء جواسيسهم، ونصبوا على كل نيق منجنيقا، وحفروا في الخندق

حفراً عميقا، وشادوا في كل جانب ركنا وثيقـا، وفرقوا على كل برج فريقا، وجعلوا إلى كـل طارق بـالردى للـرّد طريقـا، وأعادوا كـل نهج واسع بها وعروه وعوروّه بـه مضيقا، وتحمل كل منهـم مالم يكن له مـن قبل مطيقا، وخـرج جماعة منهـم على سبيل اليـزك فـأدلجوا ليلا، واعترضـوا عدّة مـن أصحـابنا غـارة، على طريـق السلامـة مـاره، وكان قـد شذ مـن المقدمـة المنصورة أمير تقـدم، وماتحرز، ولاتحزم، ومـاظن أن قـدامه مـن له جـراءة الإقـدام، ومن يعتقـد أن ربـح كفـره خسارة الاسـلام، وهـوالأمير جمال الدين شروين حسـن الزرزاري، فوقعوا عليه في موضـع يعرف بالقبيبات، فاستشهـد رحمه الله، ولما بلغ السلطـان خبره ساءه وغمه ثـم أقبل بـاقبال سلطـانه وأبطـال شجعـانـه، واقيال أولاده، وأخـوانـه، وأشبـال مماليكـه وغلمانه، وكرام أمـرائه وعظام أوليائه، وأصبح يسأل عن الأقصـى وطريقة الأدنـى، وفريقـه الأسنـى، ويذكـر مـايفتح الله عليـه بحسـن فتحه مـن الحسنـى، وقال إن أسعـدنا الله على إخـراج أعدائه مـن بيته المقـدس فما أسعدنا، وأي يـد له عندنا إذا أيـدنا، وإنه مكث في أيـدي الكفر احدى وتسعين سنة، ولم يتقبل الله فيه من عابـد حسنه، ودامت همم الملوك دونه متوسنة، وخلت القـرون عنه متخليه، وخلت الفرنج بـه متوليه، فما ادخر الله فضيلة فتحـه إلا لآل إيوب ليجمع الله لهم بـالقبول القلـوب، كيف لايهتـم بفتح البيـت الأقوى، والمسجـد الأقصـى المؤسس على ا لتقـوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأوليـاء، ومعبد الأتقياء، ومزار أبدال الأرض، وملائكة السماء، ومنـه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه مـن أولياء الله المعشر بعد المعشر، وفيه الصخرة التي صينـت جدة ابهاجها من الانهاج، ومنهاج المعراج، لها القبة الشماء التي هي على رأسها كـالتاج، وفيه ومض البارق، ومضـى البراق، وأضـاءت ليلـة الاسراء بحلـول السراج المنير في الآفـاق، ومن أبـوابه بـاب الرحمة، الذي يستـوجب داخله إلى الجنـة بالـدخول إلى الخلـود، وفيـه كـرسي سليمان ومحراب دواد، وفيه عين سلـوان التـي تمثـل لـواردهـا مـن الكـوثـر الحوض المورود، وهـو أوّل القبلتين،وثـاني البيتين،

وثالث الحرمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي أنها تشد إليها الرحال وتعقد الرجاء بها الرجال، ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن صوره، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سوره، فقال عز من قائل:(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)(٤٧) وله فضائل ومناقب لاتحصى، ومنه كان الاسراء، ولأرضه فتحت السماء، وعنه تؤثر أنباء الانبياء، وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكرماء، وعلامات العلماء، وفيه مبارك المبار، ومسارح المسار، وصخرته الطولى، والقبلة الأولى، ومنها تعالت القدم النبوية، وتوالت البركة العلوية، وعندها صلى نبينا بالنبيين، وصحب الروح الأمين، وصعد منها إلى أعلى عليين، وفيه محراب مريم عليها السلام، الذي قال فيه: (كلما دخل عليها زكريا المحراب)(٤٨) ولنهاره التعبد، ولليله المحيا، وهو الذي أسسه داود وأوصى ببنائه سليمان، ولأجل إجلاله أنزل الله سبحانه « سبحان»، وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان، فما أجله وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأسناه وأكرمه، وأيمن بركاته، وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته، وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه، وأبهج مزاينه، وقد أظهر الله طوله وطوله بقوله:(الذي باركنا حوله) وكم فيه من الآيات التي أراها الله نبيه، وجعل مسموعاتنا من فضائله مرويه، ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه ماوثق على استعادة آلائه مواثيقه وألاياه، وأقسم لايبرح حتى يبر قسمه، ويرفع بأعلاه علمه، وتخطر إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه، وتصغي إلى صرخة الصخرة أذنه، وسار واثقا بكمال النصره.

فصل

في نزول السلطان على البيت المقدس وحصره وما كان من أمره

قال العماد: نـزل السلطان على غربي القـدس يوم الأحد خـامس عشر رجب، وكان في القدس حينئذ من الفرنـج ستون ألف مقاتل من فارس وراجل، وسـائف ونابـل، فاستهدفـوا للسهام، واستـوقفوا للحمام، وقـالوا كل واحـد منا بعشريـن، وكل عشرة بمئتين، ودون القيامـة تقوم القيـامة، وبحب سـلامتها تقلى السـلامة، وأقـام السلطان خمسـة أيام يـدور حول البلـد، ويقسم على حصـاره أهل الجلـد، وأبصر في شماليـه أرضاً رضيهـا للحصار، متسعة المجـال للاسماع والابصار، وممكنة للدنـو منه للنقب إن صار مـن حيز الانصـار، فانتقل إلى المنـزل الشمالي يوم الجمعـة العشرين من شهر رجب، فما أصبح يوم السبـت إلاّ على منجنيقات قد نصبت بلا نصب، فدام القتال والنزال، وفرسـانهم في كل يوم يباشرون دون الباشورة، أمـام جموعهـم المحسـورة المحشـورة، ويبرزون ويبـارزون،ويطـاعنـون ويحاجزون ، والمطيعـون لله عليهم يحملون، ومـن دمائهم ينهلـون ويُنهلون كما قال الله تعالى فيهم(يقاتلـون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون)[٤٩] وممن استشهد مبارزا ولم يشهـد بينه وبين الجنة حاجزا الامير عز الـدين عيسى ابن مـالك كان أبـوه صاحب قلعة جعبر، فـانه حاز لشهـادته في المحشر المفخـر وأكثر ورود الموت إلى أن ورد الكـوثـر، وكـان في كل يـوم يفـرس فوارس، ويلقى ببشر وجهـه وجوه المنون العوابس ، فاغتـم المسلمون من صرعته، وهـان عليهم اتـلاف المهج بعـد اتلاف مهجتـه، فركبـوا أكتاف الرهج، حتى وصلـوا إلى الخندق فخرقوه وبددوا جمعهم وفـرقوه، والتصقوا بـالسور فنقبـوه وعلقـوه وحشـوه وأحرقـوه، وصـدقـوا وعد الله في القتـال لأعـدائه وصـدقـوه ، ولما عضتهـم الحرب، وقـع السـور واتسـع النقـب، فصعب عليهم الهين وهـان لنا الصعب، وعقدوا مابينهـم مشورة، وقعدوا

مابينهم ضرورة، وقالوا: مالنا إلاّ الإستئمان ، فقد أخذ لنا بخطة الخذلان والحرمان، وأخرجوا كبراءهم ليؤخذ لهم الأمان، فأبى السلطان إلا قتالهم، وتدميرهم واستئصالهم ،وقال: لاآخذ القدس إلاّ كما أخذوه من المسلمين منذ احدى وتسعين سنة، فإنهم استباحوا القتل ولم يتركوا طرفا يستزير سنة، فأنا أفني رجالهم قتلا، وأحوي نساءهم سبيا، فبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه ، وطلب الأمان لقومه، وتمنع السلطان وتسامى في سومه، وقال: لاأمن لكم ولاأمان، وماهوانا إلاّ أن نديم لكم الهوان، وغدا نملككم قسرا، ونوسعكم قتلاً وأسرا، ونسفك من الرجال الدماء، ونسلط على الذرية والنساء السباء، وأبى في تأمينهم إلاّ الإباء ، فتعرضوا للتضرع وخوّفوه عاقبة التسرع، وقالوا: إذا أيسنا من أمانكم وخفنا من سلطانكم، وخبنا من احسانكم، وأيقنا أنه لانجاة ولانجاح، ولاصلح ولا صلاح، ولاسلم ولاسلامه، ولا نعمة ولاكرامة، فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم والندم، ونقابل الوجود بالعدم، ونلقي أنفسنا على النار، ولانلقي بأيدينا إلى التهلكة والعار، ولايجرح منا واحد حتى يجرح عشره، وإنا نحرق الدور، ونخرب القبه، ونترك عليكم في سبينا السبه، ونقلع الصخرة، ونوجدكم عليها الحسره، وقبة الصخرة نرميها، وعين سلوان نعميها، والمصانع نخسفها ، والمطالع نكسفها، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير مابين غني وفقير وكبير وصغير، فنبدأ بقتلهم، وشت شملهم، وأما الأموال فإنا نعطبها ولانعطيها، وإما الذراري فإنا نسارع إلى اعدامها ولانستبطيها، فلا يحصل لكم سبي، ولايقبل لكم سعي، ولايسلم عمر ولاعماره، ولانضار ولانضاره، ولانساء ولاصبيان، ولاجماد ولاحيوان، فأي فائدة لكم في هذا الشح، وكل خسر لكم في هذا الربح، ورب خيبة جاءت من بعد رجاء النجح، ولايصلح السوء سوى الصلح، فشاور السلطان أصحابه فقيل له الصواب إن نحسبهم أسارانا فنبيعهم نفوسهم، ونعمم لصغار الجزية رؤوسهم، ويدخل في القطيعة مرؤوسهم ورئيسهم، واستقرّ الحال بعد مروادات ومعاودات ومفاوضات

وتفـويضـات وضراعـات مـن القوم وشفـاعـات، على قطيعـة تكمـل بها الغبطة، ويحصل منهـا الحوطة، اشتروا بها منا أنفسهم وأمـوالهم، وخلصوا بها رجالهم ونسـاءهم وأطفـالهم، على أنه من عجـز بعد أربعين يـوما عما لزمه أو امتنـع منه وماسلمه، ضرب عليه الرق، وثبـت في تملكه لنا الحق، وهـو: عن كـل رجـل عشرة دنانير، وعـن كـل امـرأة خمسة، وكـل صغيرة أوصغير ديناران، الـذكر والأنثى فيهما سيـان، ودخل ابن بـارزان والبطرك ومقدّمو الداوية والاسبتار في هـذا الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقـام بالاداء ولم ينكل عن الوفاء، فمـن سلم خرج عن بيته آمنا، ولم يعد إليه ساكنا، وسلمـوا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردّوه بالرغـم والغصب لاالوديعة، وكان فيه أكثـر من مـائة ألف انسـان من رجـال ونساء وصبيـان، فأغلقـت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهـم واستخراج مايلزمهم النواب، ووكـل بكل باب أمير ، ومقدّم كبير، يحصر الخارجين، ويحسر الوالجين، فمـن استخرج منه خرج، ومن لم يقـم بها عليه قعد في الحبس وعدم الفرج، ولـو حفظ ذلك المال حق حفظه لفاز منـه بيت المال بأوفر حـظه، لكن تـم التفريط وعم التخليط، فكل من رشـا مشى، وتنكب مناهج الرشد بالـرشا، فمنهم من أدلي مـن السور بـالحبال، ومنهـم من حمل مخفيـا في الرحـال، ومنهم مـن غيرت لبستـه، فخرج مخفيـا بـزي الجند، ومنهـم من وقعـت فيـه شفاعـة مطاعـة لم تقابـل بالـرد، والنقاب الأكـابر استنـابوا أصـاغر، فـأقامـوا في تقصيرهم المعاذر، وقنـوا لأنفسهـم الذخائر، وادّعى مظفر الـدين كوكبري أن منهم جماعة مـن أرمن الرها، وعددهـا ألف نسمة، فجعل إليـه أمرها، وكذلـك صاحب البيرة ادّعى بها لعـدته الكثيرة زهاء خمسمائة أرمني ذكر أنهم من بلده، وأن الواصل منهم إلى القـدس لأجل متعبده، وكذلك كل من استوهـب عدة استطلقها، وحصل لـه مرفقها، ثم تـولى الملك العادل استخـراجهـم، وقـوّم على الأداء منهـاجهـم، وسهل على السلطـان لفـرط جوده الاستخراج والإخراج، وتـوفر لعامة الناس وخاصتهـم بهجة سماحة

الابتهاج، وما فينا من فاز بأوفى نصيب، ورعى منه في مرعى خصيب، وكان السلطان قد رتب عدّة دواوين في كل ديوان منها عـدّة من النواب المصريين،وفيهم من الشاميين، فمن أخذ من أحد الدواوين خطاً بالأداء انطلق مع الطلقاء، بعد عرض خطه على من بالباب من الأمناء والوكلاء، فذكر لي من لاأشك في مقاله أنه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله، فربما كتبوا خطا لمن نقده في كيسهم، وتلبس أمر تلبيسهم ، فكانوا شركاء بيت المال لاأمناءه، وخانوه على ماحصل لكل من الغنى والنفع وماأضر غناءه، ومع ذلك حصل لبيت المال مايقارب مائة ألف دينار، وبقي من بقي تحت رق إسار ينتظر انقضاء المدّة المضروبه، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة، وكانت بالقدس ملكة رومية متعبدة مترهبة في عبادة الصليب متصلبه، وعلى مصابها متلهبة، وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبة، أنفاسها متصاعدة للحزن وعبراتها منحدرة تحدّر القطرات من المزن، ولها حال ومال ومتاع، وأشياء وأشياع وأتباع، فاستعاذت بالسلطان فأعاذها، ومنّ عليها وعلى كل من معها بالافراج، وأذن في اخراج كل مالها في الأكياس والأخراج، وأبقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها، ونسائها ورجالها، واسفاطها وأعدالها، والصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها، فراحت فرحى، وإن كانت من سجنها قرحى، وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كى، وهي ابنة الملك امارى، وكانت مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخول والخدم والجواري، فاستأذنت في الالمام بزوجها، وكان بقيده مقيما في برج نابلس، موكلاً به ليوم وعد تسريحه، فأذن لها ، فخلصت هي ومن تبعها، وأقامت عند زوجها، وكذلك خرجت الابرنسة أم هنفري وهي ابنة فليب وزوجة الابرنس الذي سفك دمه يوم حطين، وهي صاحبة الكرك والشوبك، وهي بنوّابها محوطة وبرأيها منوطه، فجاءت سائلة في ولدها العاني، فوعدت أنها إن سمحت بحصنها سمح لها بابنها، ثم

أعفيت وأطلقت وعصمت، واستحضر ابنها هنفري بن هنفري من دمشق إليها وأقر برؤيته عينها، وسار معها من الأمراء الأمناء من يتسلم منهم تلك المعاقل، فخرجت فمضت إلى حصونها لتسلمها فمانعها أهلها ودافعوها وردّوها ذليلة خائبة، فسكنت صور، واستودعت السلطان ابنها المأسور، ووعدها باطلاقه إذا تسلم تلك الحصون.

فصل

في ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر إلى البلاد

قال العماد: تسلم المسلمون المدينة يوم الجمعة أوان وجوب صلاتها، وطلعت الرايات الناصرية على شرفاتها، وأغلقت أبوابها، لحفظ ناسها في طلب القطيعة والتماسها، وضاق وقت الفريضة وتعذر أداؤها، وللجمعة مقدّمات وشروط لم يمكن استيفاؤها، وكان الأقصى لاسيما محرابه مشغولا بالخنازير والخناء، مملوءا بما أحدثوا من البناء، مسكونا بمن كفر وغوى، وضل وظلم وجنى، مغمورا بالنجاسات التي حرم علينا في تطهيره منا الونا، فوقع الاشتغال بالأهم الأنفع، والأتم الأنجح الأنجع، وهو حفظهم وضبطهم، إلى أن يوجد شرطهم،ويؤخذ قسطهم، واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج، وتم بها وضح من منهاج النصر الابتهاج، وجلس السلطان بالمخيم ظاهر القدس للهناء، وللقاء الأكابر والأمراء،والمتصوفة والعلماء ، وهو جالس على هيئة التواضع، وهيبة الوقار بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الابرار، ووجهه بنور البشر سافر، وأهله بعز النجح ظافر، وبابه مفتوح، ورفده ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، ونشاطه مقبل، وبساطه مقبل، ومحياه يلوح، ورياه يفوح، قد حلت له حالة الظفر، وكأن دسته به هالة القمر، والقراء جلوس يقرأون ويرشدون، والشعراء وقوف ينشدون، وينشدون، والاعلام تبرز لتنشر، والأقلام تزبر لتبشر، والعيون من فرط المسرة تدمع، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع، وبشر المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى، وتلي:(شرع لكم من الدين ماوصى)[٥٠]وهنئي الحجر الأسود بالصخرة البيضاء، ومنزل الوحي بمحل الاسراء، ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء، ومقام ابراهيم، بموضع قدم المصطفى ﷺ وعليهم أجمعين، وأدام أهل

الاسلام بشرف بنيته مستمتعين، وتسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، فوفدوا للزيارة من كل فج عميق، وسلكوا إليه في كل طريق، وأحرموا من البيت المقدّس إلى البيت العتيق، وتنزهوا من زهر كراماته في الروض الأنيق.

وقد سبق أن العماد كان توجه إلى دمشق، والسلطان على بيروت للألم الذي ألم به، فلما سمع بنزول السلطان على القدس أبل من مرضه، وتوجه إليه، فوصل يوم السبت ثاني يوم الفتح، قال: وطلعت عليه صبحا عند طلوع الصبح، فاستبشر بقدومي، وخلع على البشير قبل رؤيتي، وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغرّبوا بها.ويشرّقوا، وهو يقول لهم: لهذه القوس بار ولهذه المأدبة قار، قال فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشاره، كل كتاب بمعنى بديع وعباره، فمنها الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد افتتحته بهذه الآية(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن‌لهم دينهم‌الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا)(٥١).

الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ومكن دينه المرتضى، وبدّل الأمن من المخافة، وذخر هذا الفتح الأسنى، والنصر الأهنى للعصرالامامي النبوي الناصري على يد الخادم أخلص أوليائه، والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتمائه، وهذا الفتح العظيم، والنجح الكريم، قد انقرضت الملوك الماضية، والقرون الخالية، على حسرة تمنيه، وحيرة ترجيه ووحشة اليأس من تسنيه، وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الامم، فالحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس، وأعاذه من الرجس، وحقق من فتحه ماكان في النفس، وبدّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس،

وجعل عـز يومه مـاحياً ذل أمـس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعـد الجهال والضلال مـن البطرك والقس، وعبـدة الصليب، ومستقبلي الشمـس، وقد أظهـر الله على المشركين الضـالين جنـوده المؤمنين العـالمين، وقطـع دابـر القوم الظـالمين والحمد لله رب العالمين، فكـأن الله شرف هذه الامـة وقال لهم: اعزمـوا على اقتناء هذه الفضيلـة التي بها فضلكم وحقـق في حقهم امتثـال أمره في قـولـه الكريـم:(ادخلوا الارض المقـدّسـة التي كتـب الله لكم)[٥٢]وهذا الفتـح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان، وجعل ملائكتـه المسوّمـة له مـن أعز الانصـار وأظهر الاعـوان، واخرج مـن بيته المقدس يوم الجمعة أهـل الأحد، وقمع من كان يقول إن الله ثـالث ثلاثة بمن يقـول: هو الله أحـد، وأعان الله بـانزال الملائكـة والروح، وأتـى بهذا النصر الممنوح، الـذي هو فتـح الفتوح، وقـد تعالى أن يحيـط به وصـف البليغ نظماً ونثـراً، وعبد الله في البيـت المقدّس سراً وجهـراً، وملكت بـلاد الأردن وفلسطين غوراً ونجـداً وبراً وبحـراً، وملئت اسلامـا وكانـت قد ملئت كفراً، وتقاضى الخادم دين الدين الذي غلق رهنه دهرا، والحمد لله شكرا، حمدا يجددّ للاسلام كل يوم نصرا، ويزيد وجوه أهله بشرى، فتوجه بشرا، وأبى الخادم إلا استبـاحة أموالهم وأرواحهم، وحسـم داء اجتراحهم باجتياحهـم، وانه لابد من تطهير الأرض المقـدّسة برجس دمـائهم، وقتل رجـالهم وسبي ذراريهم ونسـائهم، ولما أيسـوا من النجـاة، وفتحوا أبـوابها المرتجة من أسبـابها المرتجاه، خوّفـوا بقتل الأسـاري المسلمين، وهم أكثـر من ثـلاثة آلاف، وأنهم يفسـدون جميع مـا في البلد مـن مال وبنـاء بهدم واحراق واتـلاف، وعرف ان جهلهم يحملهـم على كل مكـر شنيع، وأنهم تدعـوهم فظـاظتهم إلى كل أمـر فظيع، وبـذلوا اطـلاق الاسرى، وشرطوا حمل مال الفـداء ومازالـوا يبتهلون ويضرعون، ويـذلون ويخشعـون، حتى استقرّ الأمـر أنهم يفادون، وأجيبت الصخـرة المقدّسة عنـد استصراخها، وبركت البركة النـاهضة اليها في مناخها، وغسلت مـن أوضارها وأوزارها بعبرات العيـون، ورجع اضطـرابها إلى السكـون، وفديـت بنـواظر أهـل

الايمان، وصوفحت للوفاء بعهدها المجدد بالايمان، وذكرت في يوم خلاصها من رجب بليلة المعراج، وتجلى اظلامها بإنارة سناء السراج، واعيدت الكنائس مدارس، وأضحت باحياء رميم التوحيد رسوم الكفر عافية دوارس، وزال ضجرة الصخرة، ونعشها الله من العثرة، وبدّل بالأنس فيها ماكان من الوحشة والحسرة، والحمد لله على هذه النصرة، والمنة له على هذه المبرة، وقد تسلمنا مع بيت المقدس جميع المعاقل من حد الداروم إلى حد طرابلس، وكل ماكان جاريا في مملكة ملك القدس ونابلس، ولم يبق إلاّ صور فإنها قد تأخر انتزاعها، وتقدّم امتناعها، والفرنج فيها قد ضربت بآمالها وأطماعها، وهي بتأييد الله مستفتحة، والقلوب بتذليل جامحها منشرحة».

ومن كتاب آخر:« فتح بيت الله المقدس الذي عجز الملوك عن تمنيه، فكيف تسنيه، وماتت الأطماع دونه فلم تطمع فيه، فمنّ الله علينا بتذليل صعبه، وإعذاب شربه، وتسهيل وعره، وتحصيل فخره، وقضى الملوك في ليله، وجئنا نحن عليه بأسفار فجره، وقد كانت الصخرة مستصرخة، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوخة، فأجيبت دعوتها، وأصيبت خطوتها، وتناثرت على صخرتها يواقيت الشفاء، وقوبلت قبلتها بقبل الافواه، ودنا المسجد الأقصى للقاصي والداني، وزال رين العائن وقرّت عين الراني.

هذا فتح عظيم قدره، جسيم فخره، فاضل عصره، كامل نصره، غير منسي إلى يوم الحشر ذكره، وقد افتض بنا بكره، واقتضى بسيفنا وتره، وزهر زهره، وظهر قهره، وهلك الكافر وكفره، وجاء من الله مالزم على الأبد شكره، أبينا إلا إحراقهم بنيران الصوارم، واغراقهم في أمواه الطلى والجماجم، وتسلمنا القدس في يوم كانت في مثل ليلته ليلة المعراج، وحنت الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى في ظلمة ليلها إلى ذلك

السراج الوهاج، والحمد لله على سلوك ماوضح من المنهاج، ونضوب ماكان نبع من الاجاج، وخلا بيت الله لقصد الحاج، وصدق الحاج.

مبشرة بها فضل الله به عصرنا، وعجل به نصرنا، ونظم به سلكنا، وطرز به ملكنا، وهو فتح بيت الله المقدس الذي غلق رهنه دهراً، واغتصب من الاسلام قهراً، وارتد كفراً، وامتدت به الأيام عمراً فعمرا، وتقاصرت الهمم عن استفتاحه، وأصلد زند الملوك فيه فعجزوا عن اقتداحه، ونزلوا بالرغم على التماس الكفر واقتراحه، واحتملوا لحفظ مواضعهم نكاية اجتراحه، فلا جرم أعده الله لأيامنا وذخره لمواسم اعتزامنا، وفتحه بنا اظهاراً لفضل هذه الأيام، وايثاراً لما نحن نؤثره من إعلاء كلمة الاسلام، فأصرخنا الصخرة، وأهدينا إليها النصرة، ومكنا من قلبها — وإن كان من الحجر— المسرة.

تسلمنا القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وقضينا من حق هذا البيت ماوجب، وجاء القدس إلى القدس، وزال الرجس وذهب، وتولى فيه الاسلام، وتولى عنه الكفر، وعظم الأجر وفخم الفخر، وطاب النشر، وزاد البشر، ومحي الرجس، وثبت الطهر، وهلك المشرك وذل البطرك، وأقصي من المسجد الاقصى الساجد إلى الشمس، وتجلى الحق بنوره الكاشف للبس.

عاد بيت الله المقدس إلى طهارته، ونطق منه لسان التقديس بعبادته، وتهلل وجه السعد بنضارته، وخصنا القدر في اتمام أمره بخطابه واشارته، وزادت الوجوه بشراً ببشارته، وقد أعاد الله إلى الاسلام المسجد الأقصى، وملكنا أدناه وأقصاه، وأسنى دولتنا بها سناه، من فتحه وهناه، وعلموا أنهم هالكون، وأنا لهم بالقهر مالكون، وفي سبيل القتل والاسر والسبي سالكون، فخرجوا يطلبون الأمان ، ويبذلون الاذعان،حتى يسلموا المكان، فقيل لهم: الآن وقد عصيتم ورضيتم بما فيه هلاككم

وأبيتم، فروّعوا بقتل أسـارى المسلمين، وهـم ألوف، وعرفنا انهم لايقصرون في الشرّ فإن جهلهـم معروف، فتضرعـوا وتشفعوا وتعفـروا في تراب الـذل وتـوقعوا، وتقـرر عليهـم مال اشتروا بـه أنفسهم، فنـزعـوا به مـن الخوف ملبسهم، وسلمـوا القدس، فأعـدناه إلى القدس، وطهـرناه من ا لـرجس، وأجبنا دعوة الصخرة، وغسلنا عنها وضر الكفر بعبرات العبرة.

فتـح بيـت الله المقدّس الـذي غلـق رهنـه، وطال في يـد الكفـر أسره وسجنه، واستهـل بغرّ أيـامنا مـزنه، وأنار يمنـه، وعاد بـاحسانـنـا حسنه، وزال بنا خـوفه وزاد أمنه، وبقـي قريب مائة سنـة في يد الكفر مسجـونا وبرجـس الشرك مشحونا، حتى أعـاد الله بنا رونقه، وأذهـب قلقـه، وأعدم فرقه.

وهذا فتـح لم يكن منـذ عصر الصحابـة رضي الله عنهم لـه نظير، وأفق الدين بـه منيف منير، وشرف أيامنا بـه كثير، وهو إمام فتوحنـا المدّخرة لنا ومالها بتأييد الله تأخير.

فتـح البيت المقـدس الذي لم يخطـر تمنيه بخـاطر الملـوك، وتوعـر على عزائمهم نهج طريقه المسلوك، وحالت دونـه قنطاريات الفرنج وطوارقها، وجنت على الاسلام فيـه حوادث الليالي وطوارقها، حتى دعـانا الله لفتحه فـأجبناه، ووعـدنا بـالفوز فـأصبناه، وأوردنـا مشرع صفائه فـاستعذبنـاه، وعرفنا طيب عرفه فاستطبناه، وذخر لعصرنا هذا الفخر فاستقبلناه.

رأوا أحجار المنجنيقات قـد أنزلت الأسواء بالاسـوار، وغارت الصخور للصخرة المبـاركة فجدّت في انقـاذها من الاسـار، وهتمت ثنايـا الأبراج، وأعضل بهافي العلاج داء الاعلاج، فعاينوا الحمام، وشاهدوا الموت الزؤام.

أقامـت المنجنيقات على عصـابته حـد الرجـم، وواقعت ثنـايا شرفـاته

بالهتم، وتطايرت الصخور في نصرة الصخرة المباركة، وحجرت على حكم السور بشفة الأحجار المتداركة، وحسرت النقوب عن عروس البلد بنقب الاسوار، وانكشفت للعيون انكشاف الأسرار.

نهضت لاصراخ الصخرة المقدّسة الصخور، وطارت من أوكار المجانيق كأنها الصقور، فما أسرّ البيت الحرام، بفكاك أخيه من الأسر، واجراء الاسلام فيه لغسل أوضار الكفر، وانقاذ الصخرة المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشدّ قسوه، والحافها من البهاء والرونق والعز الاسلامي بكسوه، ولقد غسلت من أدران الكفر وأدناسه، وطهرت من أرجاس نجاسه، بمياه العيون التي بها قذيت، وصقلت بشفاه المؤمنين وطالما بأيدي الشرك صديت، وأعيد إليها ذكر الله تعالى بعد طول الغربة، وتذكرت بصحبة الأولياء ماسلف لها في عهد الصحابة رضي الله عنهم من حسن الصحبة، ودنا المسجد الأقصى فأقصي منه الساجد للشمس، وسكن العلماء والفقهاء في مواطن البطرك والقس، وأبدل الناقوس بالأذان، بل الكفر بالايمان، وصلى محراب الاسلام في المحراب الذي أسلم، وقدسنى الله تعالى هذا الفتح الأعظم، والنجح الأفخم، وقد ندب فلان في الرسالة القدسية والبشارة العرسية، التي تم به مأتم الكفر وعرس الاسلام، وعادبها المسجد الأقصى إلى مداناة المسجد الحرام.

وتجلت عروس الصخرة لعيون الناظرين، وفاضت عليها مياه أحداق الأولياء، فرحضت عنها أوضار الكافرين، وكان الاسلام منه غريبا، فرجع إلى وطنه، وسكن منه إلى التوطن في مسكنه، وزالت مخاوفه وعاد إلى مأمنه ، وفاض العرف من منبعه، وأنار التوحيد من مطلعه، وعلا سنا السنه، وحلا جنا الجنه، وخلصت مواضع المخلصين من أولياء الأمة، وخرج البطاركة والقسيسون من مساجد الائمة، وعادت الكنائس مدارس، وآيات التثليث بها دوارس، ووجوه الايمان باشرة، ووجوه أهل

- ٨٥٥٤ -

الصليب عوابس، ومحت من هذه الأيام تلك الليالي الدوامس، وقد أقيمت الجمع والجماعات ونظفت بل طهرت تلك الساحات، وصلى في محرابه المحرب، ودرس فيه الخلاف والمذهب، والحمد لله الذي تسنى بفضله هذا المطلب، وتيسر بتأييده الأمر الاصعب».

- ٨٥٥٥ -

فصل

قال العماد: وكان المولى الأجل الفاضل متأخرا بدمشق لعارض مرض منّ الله بشفائه فمن جملة ماكتب السلطان إليه: «أما الفتح فمن جملة بركات همته، وآثار جذبات عزمته، فإن الله تعالى سهل ماسجل أهل الدهر بانه صعب، وإهب نسيم النصر إبان يقال ليس له مهب، وخصنا بهذا الشرف، وألحقنا بهذه الفضيلة بصالحي السلف، وقد بدّل الكفر بالايمان، والناقوس بالأذان، وجلس العلماء والفقهاء في مجالس الرهبان، وفتحت بهذا الفتح من بيت الله المقدس أبواب الجنان، وتزاحم الخارجون من البلد من الفرنج والنصارى في دخول أبواب النيران، وصلى محارب الدين في المحراب، ورفع الملائكة ماكان تكاثف بأنفاس الكفر من الحجاب، وغسلت الصخرة المباركة من أوضارها بماء العيون الفائض الفائق غزارة الأمواه، وقبلت بالشفاه وبوشرت بالأفواه، وطهرت بأهل العلم والحلم من أدناس أهل الجهل والسفاه، والحمد لله، ثم الحمدلله، وماكان يعوزنا ويعوزه إلاّ حضور المجلس السامي أسماه الله، فما لهذا الأمر رواء إلا بروائه، ولا للانس لقاء إلاّ بأنس لقائه، وكاد يتصحف الفتح لولا صالح دعائه، وحسن آلائه، والحمد لله الذي خصنا بهذه الخاصية، وفضلنا بالنصرة القدسية، وذخر لنا هذا البر الذي عجز بل قصر عنه ملوك البرية، والحمد لله على هذه النعمة السنية، فما أشوقنا وأشوق القدس إلى قدومه، وماأظمأنا وأظمأه إلى خصوص الري به وعمومه، وماحظ هذا البيت الذي هو أخو البيت الحرام من زيارته، وماآنق روضه وأوفق رضاه إذا فاز بنظره ونضارته، ونحن نعرف أن همته العالية تحدوه، وأن دينه إلى إجابة دعوته تدعوه، ونسأل الله أن يكمل صحته، وينعش قوّته، ويقوّي نهضته، وما أقمنا بهذا البلد إلاّ لتطهيره، وترتيب أمره وتدبيره».

ومن كتاب آخر: «نصرنا الله بملائكته المسّومين، وأوليائه المؤمنين،

واستخلصنا بتأييده البلاد وانتزعناها ، وافتضضنا بالبيض الذكور من الحرب العوان أبكار الفتوح وافترعناها، وهذه موهبة مذهبة ومنقبة لايبلغ الى وصفها بلاغة موجزة ولا مسهبة، ونوبة مابعدها للاسلام نبوه، وحظوة في مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوه، وبشرى تجلو الوجوه ببشرها وتضوع مهاب المحاب بنشرها، ويعرف أهل الشرق والغرب سجال غربها، وتقر عين المؤمنين في البعد والقرب بأنوار قربها.

عاد التقديس إلى الأرض التي به وصفت، وأحاطت البركة بالبقعة التي بقوله تعالى(باركنا حوله) عرفت ، وظهرت الصخرة المقدسة وطهرت، وزهيت أيامن هذه الأيام وزهرت، وقمعت الطائفة الطاغية من أهل التثليث بجهل التوحيد وقهرت، واستبشر المنبر والمحراب بخطيبه وإمامه، وافتخر الزمان بعصر مولانا أمير المؤمنين وأيامه، وقد تملكنا البلاد الساحلية وتسلمناها حصنا حصنا، ونقضنا من الكفر ركناً ركنا، واجلينا الكفار منها فاجتلينا بها من الحسنى حسنى.

فتح شرف الله به هذه الأمة، وجلا به الغمه، وكشف الملمة بل شرفنا بفخره، وأعدّنا لذخره، وخصنا بفضيلته في عصره، وأجرى لنا ماكان قد أبطأ من عادة نصره، وقمع بأهل دينه من عساكرنا أهل كفره، وقامت بواترنا بوتره، وغرق البلاد الساحلية من دم الكفار ببحره، واصرخت الصخرة، وحفت بها النصره، وزالت عنها المضره، وعادت إليها المبره، ونعشت منها العثرة، وفاضت لها من عين المؤمنين العبره، وزفت عروسها البكر محصنة لم تفتض منها العذره، وحالت العره ولاحت الغره، وظهرت من صدف قبتها الدره، وصوفحت آثار القدم النبوية بالايمان، وجددت بعهدها صفقة الايمان، وبطل الناقوس بحق الأذان، وفتحت أبواب الجنان لأهلها وأخرج منها أهل النيران، والحمدلله على هذا الاحسان، حمدا مستمرا على مر الزمان».

ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن:«فتح بيت الله المقدس الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه، وطال في أسره سجنه، واستحكم وهنه، وقوي سكره وضعف ركنه، وزاد حزنه، وزال حسنه، وأجدبت من الهدى أرضه وأخلف مزنه، وواصله خوفه وفارقه أمنه، واشتغل خاطر الاسلام بسببه وساء ظنه، وذكر فيه الواحد الأحد الذي تعالى عن الولد أن المسيح ابنه، وربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه، وافرد عنه التوحيد فكاد يهي متنه، ودرج الملوك المتقدمين على تمني استنقاذه، فأبى الشيطان غير استيلائه واستحواذه، وكان في الغيب الالهي أن معاده في الآخرة إلى معاذه، وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس، وجليت الصخرة المقدسة جلوة العروس، وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح، وليل فطرها بالتراويح».

ومن كتاب آخر:«البيت المقدّس صار مقدساً ، وأصبح للاسلام معرّسا، ورجع الاذى بالأذان، وصوفحت الصخرة المقدسة بأيمان أهل الإيمان، وماصلت في محراب البيت المقدس الثقاة حتى صلت في محاريب رقاب الكفر المشرفيات، وماتم الرضى بفتح المسجد الأقصى حتى أقصي منه من أقصاه الله عن رضاه، وماتبوأ المسلم المصلى فيه مثواه من الجنة حتى تبوأ الكافر المصلى بالنار مثواه، صوفح موضع القدم المباركة ليلة المعراج بالأيدي ، وقال لأولياء الله أهل الاخلاص أهلا بكم فما أحسن الخلاص من ولاية أهل التعدي، وعاد المسجد الأقصى للمصلين المقربين جنة ومنارا، بعد أن كان للمقصين المصلين ناراً دارا، وتسلم محرب الاسلام محرابه، وأصحب لآلافه لما ألفى أصحابه، وترنح المنبر لترنم الخطيب، وانجبر الدين بانكسار صلب عابد الصليب السليب.

خلا باله من أمر القدس بإعادته إلى قدسه، وإخلائه من رجز الشرك

ورجسه، وإجلاء داويه واسبتاره وبطركه وقسه، وتعويضه من وحشة الضلال من الهدى بأنسه، ورد الاسلام الغريب إلى بيته المقدس، ونفي الكافر منه كاسف البال راغم المعطس، ونصب المنبر للمسجد الاقصى لاقامة الخطبة الإمامية، ورفع مارفع قدره من الأعلام العباسية، والافراج عن محرابه بهدم مابني دونه من مباني الشرك، وكشف استار الكفرة التي حجبت بالهتك والفتك، وإقامة الجمع فيه والجماعات، وإدامة أوراد العبادات به ووظائف الطاعات، وغسل الصخرة المقدسة بدم الكافر ودمع المؤمن، ونزع لباس بأس المسيء عنها بافاضة ثوب المحسن، وتنزيه تلك الجنة من دنس أهل النار، واعلاء ماكان درس من معالم الأبرار، ومطالع الأنوار، وقد رجع الاسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قمر الهدى به من سراره، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره، وعادت الأرض المقدسة إلى ماكانت موصوفة به من التقديس، وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السري، ومناخ التعريس، وقد أقصي عن المسجد الأقصون من الله الأبعدون، وتوافد إليه المصطفون الأقربون، والملائكة المقربون، وخرس الناقوس بزجل المسبحين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين، وقال المحراب لأهله مرحبا وأهلاً، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ماجمع الاسلام فيه شملاً، ورفعت الاعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب، وتلت بألسنة عذبها(نصر من الله وفتح قريب)، وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين، وبعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين، فذكر بها ماكاد ينسى من عهد المعراج النبوي، وأقامت بدلائلها براهين الاعجاز المحمدي.

عاد الاسلام باسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بنيانه من التقوى إلى تأسيسه، وزال ناموس ناقوسه، وبطل بنص النصر قياس قسيسه، وفتح باب الرحمة لأهلها، ودخلت فيه الصخرة لفضلها، وباشرت الجباه بها مواضع سجودها، وصافحت أيدي الأولياء آثار القدم

النبويـة بتجديد عهودهـا، وشهد مقام المعـراج وموطىء براقـه، ورأى نور الاسراء ومطلع إشراقـه، ودنا المسجـد الأقصى للراكـع والساجـد، وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد:«تقلص ظـل الكافر المبسوط، وصدق الله أهـل دينـه، فلما وقـع الشرط وقع المشروط، وجـاء أمـر الله وأنـوف أهـل الشرك راغمه، وادلجت السيـوف والآجال نـائمة، واسترد المسلمـون تراثـا كـان عنهم آبقـا، وظفروا يقظـة بما لم يصـدقوا انهم يظفـرون به طيفـا على النائم طارقا».

ومنه في وصف نقـب السور:« فأخلي السور مـن السيارة، والحرب من النظاره، وأمكـن النقاب أن يسفـر للحرب النقـاب، وأن يعيد الحجـر إلى سيرته من التراب، فتقـدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معـوله، وحل عقده بضربـه الأخرق الدّال على لطافـة أنمله، واسمع الصخـرة الشريفة حنينـه فـاستغاثتـه إلى أن كـادت تـرق لمقتلـه، وتبرأ بعض الحجـارة مـن بعض، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض.

ثـم قـال: واستقـرّت على الأعلى أقـدامهـم، وخفقـت على الأقصـى أعلامهم ، وتـلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كـانت صخرة كما يشفى بالماء غللهم، وملك الاسلام خطـة كان عهده بها دمنة سكان، فخدمهـا الكفر إلى أن صارت روضة جنـان، لاجرم أن الله أخرجهـم منها وأهبطهم، وأرضـى أهل الحق وأسخطهـم، وأوعز الخادم بـرد الأقصى إلى عهده المعهود وأقـام له من الائمة من توفيـه ورده المورود، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابـع شعبان، فكادت السموات للنجوم ينفطـرن، والكواكب منهـا للطرب ينتثـرن، ورفعـت إلى الله كلمـة التوحيـد، وكـانـت طريقهـا مسدودة، وظهـرت قبور الأنبياء وكـانت بـالنجاسات مكـدودة، وأقيمت الخمس، وكـان التثليث يقعدها، وجهـرت الالسنة بالله أكبر وكـان سحر

الكفر يقعدها، وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر فرحب به ترحيب من بر، وخفق علماء في حفافيه، فلو طار سروراً لطار بجناحيه، وكان الخادم لايسعى سعيه إلا لهذه المنقبة العظمى، ولايقاسي تلك البؤسى إلاّ رجاء هذه النعمى، ولايحارب من يستظلمه إلا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا، وكانت الألسنة ربما سلقته فانضج قلوبها بالاكتفاء والاقتصار، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار، ومن طلب خطيراً خاطر، ومن رام صفقة رائجة جاسر، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر».

ووصف فيه يوم حطين فقال: «وكان اليوم مشهوداً، وكانت الملائكة شهودا، وكان الضلال صارخا وكان الاسلام مولوداً، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه، وأكد وصله بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت، مادهموا قط بأمر إلاّ وقام بين دهمائهم يحرضهم، يبسط لهم باعه، وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه، لاجرم أنه يتهافت على ناره فراشهم، ويجتمع في ظل ظلامه خشاشهم، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عقد وأوثقه، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه، ولم يفلت منهم معروف إلاّ القمص، وكان لعنه الله مليا يوم الظفر بالقتال، ومليئا يوم الخذلان بالاحتيال فنجا ولكن كيف، وطار خوفا من أن يلحقه منسر الرمح وجناح السيف، ثم أخذه الله بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده، وكان لعدتهم فذلك وانتقل من ملك الموت إلى مالك، وبعد الكسرة مرّ الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية السوداء صبغاً للبيضاء صنعاً الخافقة هي وقلوب أعدائها، العالية هي وعزائم أوليائها».

- ٨٥٦١ -

فصلٌ

قال العماد ومن قصائدي التي هنأت بها السلطان بفتح القدس وهو مخيم عليه:

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا
وتعتاض من ذكراكم وحشتي أنسا

وأسأل عنكم عافيات دوارس
غدت بلسان الحال ناطقة خرسا

معاهدكم ما بالها كعهودكم
وقد كررت من درس آثارها درسا

وقد كان في حدسي لكم كل طارق
وما جئتم من هجركم خالف الحدسا

أرى حدثان الدهر ينسي حديثه
وأما حديث الغدر منكم فلا ينسى

تزول الجبال الراسيات وثابت
رسيس غرام في فؤادي لكم أرسى

حسبت حبيبي قاسي القلب وحده
وقلب الذي يهوى بحمل الهوى أقسى

أما لكم يا مالكي الرق رقة
يطيب بها مملوككم منكم نفسا

وإن سروري كنت أسمع حسه
فمذ سرت عنكم ما سمعت له حسا

وإن نهاري صار ليلاً لبعدكم
فما أبصرت عيني صباحا ولا شمسا

بكيت على مستودعات قلوبكم
كما قد بكت قدما على صخرها الخنسا

فلا تحبسوا عني الجميل فإنني
جعلت على حبي لكم مهجتي حبسا

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى

وقيل لنا في الأرض سبعة أبحر
ولسنا نرى إلاّ أنامله الخمسا

سجيته الحسنى وشيمته الرضى
وبطشته الكبرى وعزمته القعسى

فلا عدمت أيامنا منه مشرقا
ينير بها يولي ليالينا الدمسا

جنودك أملاك السماء وظنهم
عداتك جن الأرض في الفتك لا الانسا

فلا يستحق القدس غيرك في الورى
فأنت الذي من دونهم فتح القدسا

ومن قبل فتح القدس كنت مقدّسا
فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا

وطهرته من رجسهم بدمائهم
فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا

نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها
وألبستها الدين الذي كشف اللبسا

وعادت ببيت الله أحكام دينه
فلا بطركاً أبقيت فيها ولا قسا

وقد شاع في الآفاق عنك بشارة
بأن أذان القدس قد بطل النقسا

جرى بالذي تهوى القضاء وظاهرت
ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا

وكم لبني أيوب عبد كعنتر
فإن ذكروا بالباس لا يذكر عبسا

وقد طاب ريانا على طبرية
فيا طيبها مغنى ويا حسنها مرسى

وعكـــا ومـــا عكـــا فقـــد كـــان فتحهـــا
لاجـلائهـم عــن مـدن ســاحلهـم كنسـا
وصيـــــــدا و بيروت وتبنين كلهـــــــا
بسيفــك ألفــى أنفــه الــرغــم والتعســا
و يـــافـــا وأرســـوف و يبنـــى وغـــزة
تخذت بها بين الطلى والظبــى عــرسـا
وفي عسقـــلان الكفـــر ذل بملككـــم
فمنظـــره بـــل أمـــره أر بـــدّ وأرجســا
وصـــار بصـــور عصبــة يــرقبـــونكـــم
فــلا تبطئـــوا عنهــا وحســوهــم حســا
تـــوكــل على الله الـــذي لـــك أصبحـــت
كـــلاءتـــه درعـــا وعصمتـــه تـــرسـا
ودمـــر على البـــاقين واجتـــث أصلهـــم
فـــإنـــك قـــد صيرت دينـــارهـــم فلسـا
ولا تنـــس شرك الشرق غـــر بـــك مـــرويـا
خـــراســـان والنهـــريـــن والترك والفـــرسـا
و بعــد الفـــرنــج الكـرج فـــاقصـد بـــلادهـــم
بعـــزمـك وامـــلا مـــن دمـــائهـم الـــرمسـا
أقـــامـــت بغـــاب الســـاحلين جنـــودكـــم
وقـــد طـــردت عنـــه ذئابها الطلســـا

وهي طويلـة وقد تقدّم بعضها في ذكـر كسرة حطين، وللعماد أيضا من جملة القصيدة التي مدح بها حسام الدين بن لاجين وقد تقدّم بعضها:

قـل للمليـك صـلاح الـديـن أكـرم مـن
يمشي على الأرض أو مـن يـركـب الفـرسـا
مـن بعـد فتحـك بيـت القـدس ليـس سـوى
صـور فـإن فتحـت فـاقصـد طـرابلسـا
أثـــر على يـــوم انطـــرســـوس ذا لجب
وابعـث إلى ليـل انطـاكيـة العسسـا

وأخــل ســاحــل هـــذا الشـام أجمعــه
مـــن العـــداة ومـــن في دينـــه وكســـا
ولا تـــدع منـــه نفســـا ولا نفســـا
فـــإنهم يـــأخـــذون النفـــس والنفســـا
نـــزلـــت بـــالقـــدس فـــاستفتحتـــه ومتـــى
تقصـــد طـــرابلســـا فـــانـــزل على قـــدســـا

ومن قصيدة أخرى له أنفذها الى الخليفة الناصر:
أبشـــر بفتـــح أميـــر المـــؤمنيـــن أتـــى
وصيتـــه في جميـــع الأرض جـــواب
مـــا كـــان يخطـــر في بـــال تصّـــوره
واستصعـــب الفتـــح لما أغلـــق البـــاب
وخـــام عنـــه الملـــوك الأقـــدمـــون وقـــد
مضـــت على النـــاس مـــن بلـــواه أحقـــاب
وجـــاء عصرك والأيـــام مقبلـــة
فكـــان فيـــه لفيـــض الكفـــر انضـــاب
نصر أعـــاد صـــلاح الـــديـــن رونقـــه
إيجازه ببليـــغ القـــول اسهـــاب
قـــرع الظبـــى بـــالظبـــى في الحرب يطـــربـــه
لا قينـــة صنـــع بـــاللحـــن مطـــراب
أحيـــا الهدى وأمـــات الشرك صـــارمـــه
لقـــد تجلى الهدى والشرك منجـــاب
بفتحـــه القـــدس لـــلاســـلام قـــد فتحـــت
في قمـــع طـــاغيـــة الاشراك أبـــواب
ففـــي مـــوافقـــه البيـــت المقـــدس للـــ
ـــبيت الحرام لنـــاتيـــه وإعجـــاب
والصخـــر والحجـــر الملثـــوم جـــانبـــه
كـــلاهما لاعتـــار الخلـــق محراب

نفى من القدس صلباناً كما نفيت
من بيت مكة أزلام وأنصاب

وكثر مدح الفضلاء للسلطان عند فتح القدس، وقد ذكر العماد من ذلك جملة في أواخر كتاب البرق، فرأيت تقديم مااخترته منها هنا، وزدت عليه مالم يذكره، فمن ذلك قصيدة الحكيم أبي الفضل عبد المنعم ابن عمر بن حسان الاندلسي الجلياني منها

أبا المظفر أنت المجتبى لهدى
أخرى الزمان على خبر بخبرته

فلو رآك وقد حزت العلى عمر
في قلة التل قضى كنه عبرته

ولو رآك وأهل القدس في وله
أبو عبيدة فدى من مسرته

غداة جزوا النواصي في قمامته
وأعولوا بالتباكي حول صخرته

دارت بك الملة الحسنى فنحن على
عهد الصحابة في استمرار مرته

وأنت كاسمك صديق وصاحبه
الملك المظفر سام في مبرته

وفي السلالة عثمان يؤيده
علا عليّ على ايثار نصرته

وكم لديك ذوو قربى رقوا شرفا
وكم بعيد رأى الزلفى بهجرته

يشبه الفتح[٥٣] مابين البزاة لقى
ملك الفرنج أخيذا بين عترته

أما رأيت معالي يوسف بسقت
حتى رمت كل ذي ملك بحسرته

أضحى لنشر الهدى في فتح منهجه
وبات يطوي العدى في سدّ ثغرته
واستقبح الرجس ممنوّا بمشهده
فاستفتح القدس محشوّا بزمرته
لكن بأس صلاح الدين أذهلهم
بوقعة التلّ واستشراء سورته
يعمي الجوارح والفرسان وهو على
بدء النشاط عشيا مثل بكرته
يا فاتح المسجد الأقصى عليّ بهم
وقانص الجيش لا يحصى بقفزته
أبشر بملك كظهر الشمس مطلع
على البسيطة فتاح بنشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمة
تحكي النبوّة في أيام فترته

قال: وأنفذ من مصر نجم الدين يوسف بن الحسن بن المجاور، الوزير العزيزي، قصيدة ، وعرضتها على السلطان بالقدس، وفيها ذكر الانكلتيز، وفتح يافا، وذكر الهدنة التي يأتي ذكرها في آخر الكتاب، فمنها وسيأتي الباقي المختار أيضا:

الوقت أضيق من سماع قصيدة
موسومة لصفات أغيد أهيف
الجدّ في هذا الزمان مبين
والهزل فيه مع الغواية مختف
بالناصر المهدي والهادي إلى
سبل الجهاد أبي المظفر يوسف
المستعين بربه والواثق الـ
ـمنصور والمستظهر البر الوفي
شدّت قوى أركان ملة أحمد
وتجملت بجهاده في الموقف

ملك إذا أم الملوك جنابه
لاذوا بأكرم من يؤم وأشرف
وإذا أتوا أسرى إلى أبوابه
وقفوا بأعظم من يصول وأرأف
مولى غدا للذين أكرم والد
حدب على أبنائه مترفرف
عزل الفرنجة ثم ولى جيشه
أعظم به من صارف ومصرف
قد أنصف التوحيد من تثليثهم
وأقام في الانجيل حد المصحف
مغرى بتجريح الرجال لأنه
يروي أحاديث العوالي الرعف
ملك له في الحرب بحر تفقه
وله غداة السلم زهد تصوّف
وعليه أنزل في الجهاد مفصل
فلذاك يقرأوه بسبعة أحرف
عزم وحلم انسيا ما كان من
عزم ابن مرداس وحلم الأحنف
يا أيها الملك الذي لطباعه
وسيوفه خلقا رضى وتعسف
لله يوم عروبة إذ اعربت
ساعاته عن نصرك المتعرف
سنت سيوفك في الرؤوس ختانة
ذهبت بمهجة كل علج أقلف
آفاتهم وافت بأخذك منهم
يافا فكم من حسرة وتأسف
أو ما رأى الأعلاج حين دعوتها
بلسان سيف في الكريهة ملحف

لم تستطع عصيان أمرك بل أتت
منقادة طوعا ولم تتخلف
فاستدع جارتها وثن بأختها
وكذاك حتى الأربعين ونيف
ما للسواحل غير بحرك حافظ
بشبا سنان أو بصفحة مرهف
هذا الطراز الأخضر استفتحته
فزهي بثوب من علاك مسجف
أحييت دين محمد وأقمته
وسترته من بعد طول تكشف
وضبطت ديوان الجهاد بعامل
من عامل وبمشرف من مشرف
وبجهبذ العزم الذي لا ينثني
وبناظر الرأي الذي لم يطرف
فخذ الخراج من البسيطة كلها
واستأد فرضي جزية وموظف
واقبض على الدنيا بكف زهادة
وابسط لرحمتها جناح تعطف
جاءت جنود الله تطلب ثارها
وصدورها بل عن قليل تشتفي
فانهض بها وتقاض حقك موقنا
أن الإله بها تؤمله حفي
هم فتية الاتراك كل مجفجف
يغشى الكريهة فوق كل مجفجف
قوم يخوضون الحمام شجاعة
لا ينظرون إليه من طرف خفي
إن صبحوا الأعداء في أوطانهم
تركوا ديارهم كقاع صفصف

أنـــــت اصطفيتهـــــم لنصرة ديننـــــا
الله در المصطفـــــى والمصطفـــــي

قلت: وذكرت بقوله «هذا الطراز الأخضر استفتحته» حكاية حسنة لائقة بالحال، حدثني به شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي قال: قرأت بخط شيخنا أبي افضائل بن رشيق بمصر عقيب موته في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، قال: رأى انسان كأن شخصا ذا جهامة واقفاً على حائط بجامع دمشق يسمى النسر، وهو يقول:

ملـــك الصيـــاصي والصـــواصي نـــاصر
للـــديـــن بعـــد إيـــاســـه أن ينصرا
وسيفتـــح البيـــت المقـــدّس بعـــد مـــا
يطـــوى الطـــراز لـــه ويقتـــل قيصرا

قلت: وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين

وقرأت بخط بعض أصحابنا قال: وجدت على حاشية كتاب يروى عن خطيب كان بالرقة، أنه رأى من ينشده هذا الشعر في النوم سنة احدى وثلاثين وخمسمائة، فذكر لبيتين وهذا قبل الفتح باثنتين وخمسين سنة، وقبل مولد صلاح الدين بسنة، والمعني بالطراز الأخضر بلاد الساحل المصطفة على بلاد البحر من الداروم، وغزة، وعسقلان، وعكا وصيدا، وبيروت، وجبيل، وغير ذلك، ولم يبق من الطراز في أثناء ذلك سوى صور بين صيدا و عكا، وهكذا كان الأمر على ماسبق بيانه فتح هذا الطراز أولاً ثم فتح البيت المقدّس، وكنى بقيصر عن الأبرنس الذي قتله بيده لأنه كان من رؤس الكفر وملوكهم وغلاتهم في معاداة الإسلام والله أعلم.

قال العماد: وكان فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي الجويني المقيم بمصر من أهل بغداد ينفذ إلي قصائده لأعرضها، فرأيت أن أثبت له

هذه القصيدة في الفتح و هي مشتملة على ذكر ملوك الاسلام واهمالهم له تسعين عاماً، حتى تجرد له سلطاننا فذكرها منها:

جند السماء لهذا الملك أعوان
من شك فيهم فهذا الفتح برهان

متى رأى الناس ما نحكيه في زمن
وقد مضت قبل أزمان وأزمان

هذا الفتوح فتوح الأنبياء وما
له سوى الشكر بالأفعال أثمان

أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده
صيداً وما ضعفوا يوماً وما هانوا

كم من فحول ملوك غودروا وهم
خوف الفرنجة ولدان ونسوان

استصرخت بملكشاه طرابلس
فخام منها وصمت منه آذان

هذا وكم ملك من بعده نظر الاس
سلام يطوى ويحوى وهو سكران

تسعون عاماً بلاد الله تصرّخ وال
إسلام أنصاره صم وعميان

فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم
بأمر من هو للمعوان معوان

للناصر ادّخرت هذي الفتوح وما
سمت لها هم الاملاك مذ كانوا

حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا
ل الناس داود هذا أم سليمان

في نصف شهر غدا للشرك مصطلما
فطهرت منه أقطار وبلدان

فأين مسلمة عنها وأخوته
بل أين والدهم بل أين مروان

وعـــدّ عما ســـواه فـــالفـــرنجـــة لم
يبــدهــم مــن ملــوك الارض انســـان

لـــو أن ذا الفتـــح في عصر النبـــي لقـــد
تنـــزلـــت فيـــه آيـــات وقـــرآن

يـــاقبـــح أوجـــه عبـــاد الصليب وقـــد
غدا يبرقعها شؤم وخذلان

خـــزنـــت عنـــد إلـــه العـــرش ســـائر مـــا
ملكتـــــه وملـــــوك الأرض خـــزان

فـــالله يبقيـــك لـــلاســـلام تحرســـه
مـــن أن يضـــام ويلفـــى وهـــو حيران

وهـــذه سنـــة أكـــرم بها سنـــة
فـــالكفـــر في سنـــة والنصر يقظـــان

يـــاجـــامعـــاكلمـــة الايمان قـــامـــع مـــن
معبـــوده دون رب العـــرش صلبـــان

إذا طـــوى الله ديـــوان العبـــاد فما
يطـــوى لأجـــر صـــلاح الـــديـــن ديـــوان

وللشريف النسابة المصري محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحلبي المعروف بالجواني نقيب الأشراف بالديار المصرية، من قصيدة:

أتـــرى منـــامـــا مـــا بعينـــي أبصر
القـــدس يفتـــح والفـــرنجـــة تكسر

وقمامـــة قمـــت مـــن الـــرجـــس الـــذي
بـــزوالـــه وزوالها يتطهـــر

ومليكهـــم في القيـــد مصفـــود ولم
يـــر قبـــل ذاك لهم مليـــك يـــؤسر

قـــد جـــاء نصر الله والفتـــح الـــذي
وعـــد الـــرســـول فسبحـــوا واستغفـــروا

فتح الشآم وطهر القدس الذي
هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد
ماذا يقال له وماذا يذكر
يا يوسف الصدّيق أنت لفتحها
فاروقها عمر الإمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده
ولأنت في نصر النبوّة حيدر
ملك غدا الاسلام من عجب به
يختال والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرابه
فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع حيث العيون
خواشع حيث الجباه تعفر
غاراته جمع فان خطبت له
فيها السيوف فكل هام منبر
إذ لا ترى إلا طلى بسنابك
تحذى نعالا أو دماء تهدر
وصوافنا تختار إن تطأ الثرى
فيصدها عنه طلى وسنور
تمشي على جثث العدا عرجا ولا
عرج بها لكنها تتعثر

وقال أبو الحسن بن جبير الاندلسي:
أطلت على أفقك الزاهر
سعود من الفلك الدائر
فابشر فان رقاب العدا
تمدّ الى سيفك الباتر

وكــــم لـــك مـــن فتكــــة فيهـــم
حكــــت فتكـــــة الأســـد الخادر
وكسرت صليبهـــــــــم عنـــــوة
فــــــلله درك مـــــن كـــــاسر
وغيرت آثــــــارهـــــم كلهـــــا
فليـس لها الـــدهــر مــن جــابــر
وأمضيـــت جـــدك في غـــزوهـــم
فتعســـا لجدّهـــم لعـــاثـــر
وأدبـــر ملكهـــم بـــالشـــآم
وولى كـــأمسهـــم الـــدابـــر

جنـــودك بـــالـــرعـــب منصـــورة
فنــاجــز متـــى شئــت أو صـــابــر
فكلهـــم غـــرق هـــالـــك
بتيـــار عسكـــرك الـــزاخـــر
ثـــأرت لـــديـــن الهدى في العـــدا
فـــاثـــر لله مـــن ثـــائر
وقمــــت بنصر إلــــه الــــورى
فسماك بـــالملـــك النـــاصر
وجـــاهـــدت مجتهـــداً صـــابـــراً
فـــلله أجـــرك مـــن صـــابـــر

تبيـــت الملـــوك على فـــرشهـــم
وتـــرفـــل في الـــزرد الســـابـــر
وتـــؤثـــر جـــاهـــد عيـــش الجهـــاد
على طيـــب عيشهـــم النـــاضر
وتسهـــر ليلـــك في حـــق مـــن
سيرضيـــك في جفنـــك الســـاهـــر
فتحــــت المقـــدّس مـــن أرضـــه
فعـــادت إلى وصفهـــا الطـــاهـــر

وجئت الى قدسه المرتضى
فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى
وأحييت من رسمه الداثر
لكم ذخر الله هذا الفتو
ح من الزمن الاول الغابر
وخصك من بعد فاروقه
بها لاصطناعك في الآخر
محبتكم ألقيت في النفوس
بذكر لكم في الورى طائر
فكم لهم عند ذكر الملوك
لمثلك من مثل سائر

وباقي القصيدة تقدم في أخبار سنة أربع وسبعين، وقال أبو الحسن علي بن محمد الساعاتي:

أعيّا وقد عاينت الآية العظمى
لأية حال تدّخر والنثر والنظما
وقد شاع فتح القدس في كل منطق
وشاع إلى أن أسمع الأسل الصما
حبا مكة الحسنى وثنى بيثرب
وأطرب ذياك الضريح وما ضما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها
فيشهد أن السيف من يوسف أصمى
وما كان إلا الداء أعيا دواؤه
بغير الحسام العضب لا يحسن الحسما
وأصبح ثغر الدين جذلان باسما
وأسنة الاغماد توسعه لثما

سلوا الساحل المخشي عن سطواته
فما كان إلا ساحلا صادف اليما

وله من قصيدة أخرى في السلطان:

عصفت به ريح الخطوب زعازعا
فلقين طودا لا تخاف أناته

هو منقذ البيت المقدّس بعدما
طالت فما وجد الشفاء شكاته

بيت تأسس بالسكون وإنما
عند الزحاف تحركت سكناته

أمشتت الأعداء هي جحافل
عن شمل دين جمعت اشتاته

أوتيت عزماً في الحروب مسددا
لا زيغه يخشى ولا هفواته

أحسنت بالبيت العتيق ويثرب
ولك الفعال كثيرة حسناته

هذه سيوفك برمات دونه
لبكائهن تبسمت حجراته

له فيه من قصيدة أخرى:

هو الفاتح البيت المقدّس بعدما
تحامته سادات الدنا ومسودها

فضيلة فتح كان ثاني خليفة
من القوم مبديها وأنت معيدها

وله من قصيدة في بعض أارب السلطان:

السبت من القوم الأولى بسيوفهم
نوا صخرة البيت المقدّس مسجدا

وللعماد الكاتب من قصيدة يمدح بها الملك الأفضل:

والقـــدس أعضــــل داؤه مــــن قبلكـــم
فـــوفيتـــم بشفـــاء ذاك المعضـــل
درج الملـــــوك على تمنـــي فتحـــه
زمنـــا وغلتهـــم بـــه لم تبلـــل
وأتـــى زمـــانكـــم فـــامكـــن آخـــرا
مـــا قـــد تعـــذر في الـــزمـــان الأوّل
مـــاكـــان قـــط ولا يكـــون كفتحكـــم
للقـــدس في الماضي ولا المستقبـــل
أوجـــدتـــم منـــه الـــذي عـــدم الـــورى
وفعلتـــم في الفتـــح مـــا لم يفعـــل
أيـــدي الملـــوك تقـــاصرت عـــن مفخـــر
طلتـــم بـــه فبلـــو البعـــض الأنمـــل
أحييتـــم شرع الكـــرام ولم يـــزل
نصر المحـــق بكـــم وقهـــر المبطـــل

وله قصيدة في مدح الملك المؤيد:
وكـــم لبنـــي صـــلاح الـــديـــن فينـــا
على الاســـلام مـــن حـــق تـــأكـــد
وإن لهم على الأمـــــلاك طـــــرا
بفتـــح القـــدس فضـــلا ليـــس يجحـــد

وله من أخرى في مدح الملك الظاهر غازي:
هـــم الملـــوك ذوو بـــأس ومكـــرمـــة
إن ســـالموا أمنـــوا أو حـــاربـــوا خيفـــوا
أغنـــاهـــم القـــدس عـــن قـــول الـــورى فتحـــت
عكـــا وصيـــدا وبيروت وأرســـوف

جيش الفرنج إذا لاقى سوابقهم
كأنه جبل بالريح منسوف

وقرأت على شيخنا أبي الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله من جملة قصيدة مدح بها بعض ولد السلطان أظنه الملك المحسن ظهير الدين أحمد بن صلاح الدين رحمها الله

ملك به وأبيه يفتخر العلا
ويفوق فخرهما السها والفرقدا

ما يوسف ممن يقاس بحاتم
أنى وقد وهب الحصون وأصفدا

او ان يقال كأنه يوم الوغى
والروع كالاسد الهصور إذا عدا

أو من يشبه جوده بغمامة
أو من يقال لمثله عمر الردى

بل مالك الدنيا ومالىء رحبها
خيلا ورجلا ناصر دين الهدى

ومخلص البيت المقدس بعدما
رفع الصليب على ذراه ومجدا

ومن الملوك الصيد يلقاهم إذا
رفع السرادق راكعين وسجدا

وبه أتى البيت الحرام وفوده
من كل فج آمنين المردا

من بعد ما درست معالم سبله
دهراً وحرمها أن يقصدا

فصل

في صفة إقامة الجمعة بالأقصى شرفه الله تعالى في رابع شعبان ثامن يوم الفتح

وقد وهم محمد بن القادسي في تاريخه فيما قرأته بخطه، فإنه قال: فتح صلاح الدين بيت المقدس وخطب على المنبر فيه بنفسه وصلى فيه، ولبس خلعة سوداء ، ولم يكن السلطان هو الذي باشر الخطبة على ماسنذكره، وقد تقدم أن يوم الفتح وإن كان يوم الجمعة ، إلا أن الوقت ضاق عن إقامة فرض صلاة الجمعة فيه

قال العماد : لما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب، وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا، وتركوه للغلة هرياً، وقيل كانوا اتخذوه مستراحاً عدواناً وبغيا،وكانوا قد بنوا من غربي القبلة داراً وسيعة وكنيسة رفيعة، فأوعز بكشف ذلك الحجاب، وكشف النقاب عن عروس المحراب، وهدم ماقدّامه من الأبنية وتنظيف ماحوله من الأفنية، بحيث يجتمع الناس للجمعة في العرصة المتسعة، ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر، ونقض ماأحدثوه بين السواري، وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري، وعلقت القناديل، وتلي التنزيل،و حق الحق، وبطلت الأباطيل، وتولى الفرقان وعزل الإنجيل، وصفت السجادات، وصفت العبادات، وأقيمت الصلوات، وأديمت الدعوات، وتجلت البركات، وانجلت الكربات، وانجابت الغيابات، وانثابت الهدايات، وتليت الآيات، وأعليت الرايات، ونطق الأذان ، وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القسوس، وزال العبوس والبؤس، وطابت الانفاس والنفوس،وأقبلت السعادات، وأدبرت النحوس ،وعاد الإيمان الغريب منه إلى موطنه وطلب الفضل من معدنه، وورد القرّاء وقرأوا الأوراد، واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد، وعبد الواحد،

ووحـد العابـد، وتوافـد الراكـع والسـاجد والخاشـع والواجـد، والزاهـي والزاهد،والحاكم والشاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتجهد والساهـد، والزائر والوافـد، وصدح المنبر، وصدع المذكـر، وانبعث المعشر، وذكر البعث والمحشر ، وأملى الحفـاظ، وأبكي الوعاظ، وتـذاكر العلماء، وتناظـر الفقهاء، وتحدّثت الـرواة، وروى المحدّثون وتحنـف الهداة، وهدى المتحنفـون، وأخلـص الـداعـون، ودعـا المخلصـون، وأخـذ بـالعـزيمـة المترخصـون، ولخص المفسرون، وفسر الملخصـون، وانتـدى الفضـلاء، وانتـدب الخطباء، وكثر المترشحـون للخطـابة، المتـوشحـون بـالاصابـة، المعـروفون بـالفصاحـة، الموصوفـون بالحصـافة، فما فيهـم إلا من خطـب الرتبـة، ورتـب الخطبـة، وانشأ معنـى شائقـاً، ووشى لفظـا رائقاً ،وسـوى كلاماً بـالموضع لائقاً،و روى مبتكراً من البـلاغة فائقاً، وفيهـم من عرض عليّ خطبتـه، وطلـب مني نصبتـه، وتمنـى أن تـرجـح فضيلتـه، وتنجـح وسيلتـه، وتسبق بمنيتـه فيهـا أمنيته، وكلهـم طـال إلى الإنتهاء بها عنقـه، وسـال من الإلتهـاب عليهـا عرقـه، ومـامنهم إلا مـن يتـأهب ويترقـب، ويتوسل ويتقرب، وفيهم مـن يتعرض ويتضرع ، ويتشوف ويتشفع، وكل قـد لبـس وقاره ووقـر لبـاسـه، وضرب في أخماسـه أسداسـه، ورفـع لهذه الرياسة رأسه، والسلطـان لا يعين ولايبين، ولايخص ولاينص، ومنهم من يقـول ليتني خطبـت في الجمعة الأولى وفـزت باليـد الطولى،وإذا ظفـرت

بطالـع سعدي، فما أبالي بمن خطـب بعدي، فلما دخل يوم الجمعـة رابع شعبان أصبح الناس يسألـون في تعيين الخطيب السلطان، وامتلأ الجامع، واحتفلت المجامـع، وتوجست الأبصار والمسـامع، وفاضت لـرقة القلوب المدامع، وراعـت لجليه تلك الحالـة وبهاء تلك البهجة الـروائع، وغصت بـالسابقين إليهـا المواضـع، وتوسمـت العيـون،وتقسمـت الظنون، وقـال الناس: هذا يوم كريم، وفضل عميـم، وموسم عظيم، هذا يوم تجاب فيه الدعـوات، وتصب البركـات، وتسال العبرات، وتقـال العثرات، ويتيقـظ الغـافلون، ويتعـظ العاملـون، وطوبـى لمن عاش حتـى حضر هذا اليـوم

الذي فيه انتعش الإسلام وانتاش، وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة، والعصبة الطاهرة، والامة الظاهرة، وما أكرم هذه النصرة الناصرية، والاسرة الإمامية، والدولة العباسية، والمملكة الأيوبية، والدولة الصلاحية، وهل في بلد الإسلام أشرف من هذه الجماعة التي شرفها الله بالتوفيق لهذه الطاعة، وتكلموا فيمن يخطب، ولمن يكون المنصب، وتفاوضوا في التفويض، وتحدّثوا بالتصريح والتعريض، والأعلام تعلى، والمنبر يكسى ويجلى، والأصوات ترتفع، والجماعات تجتمع، والأفواج تزدحم، والأمواج تلتطم، وللعارفين من الضجيج مافي عرفات للحجيج، حتى حان الزوال، وزال الإعتدال، وحيعل الداعي، وأعجل الساعي، فنصب السلطان الخطيب بنصه، وأبان عن اختياره بعد فحصه، وأوعز إلى القاضي محيي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي القرشي بأن يرقى ذلك المرقى، وترك جباه الباقين بتقديمه عرقى، فأعرته من عندي أهبة سوداء من تشريف الخلافة حتى يكمل له شرف الإفاضة والإضافة، فرقى العود، ولقي السعود، واهتزت أعطاف المنبر، واعتزت أطراف المعشر، وخطب وانصتوا، ونطق وسكتوا وأفصح وأعرب، وأبدع وأغرب، وأعجز وأعجب، وأوجز وأسهب، ووعظ في خطبتيه وخطب بموعظتيه وأبان عن فضل البيت المقدّس وتقديسه، والمسجد الأقصى من أول تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه،و إخراس ناقوسه، وإخراج قسيسه، ودعا للخليفة والسلطان، وختم بقوله تعالى:(إن الله يأمر بالعدل والإحسان)[٥٤]ونزل وصلى في المحراب وافتتح ببسم الله الرحمن الرحيم من أم الكتاب، فأم بتلك الأمة، وتم نزول الرحمة، وكمل وصول النعمة، ولما قضيت الصلاة انتشر الناس، واشتهر الإيناس، وانعقد الإجماع، واطرد القياس، وكان قد نصب للوعظ تجاه القبلة سرير ليفرعه كبير، فجلس عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا، فذكر من خاف ومن رجا ومن سعد ومن شقي، ومن هلك ومن نجا، وخوّف بذي الحجة ذوي الحجا، وجلا بنور عظاته من ظلم الشبهات مادجا، وأتى بكل عظة للراقدين

موقظـة، وللظالمين محفظـة، ولأولياء الله مرققـة ولأعداء الله مغلظـة، وضج المتباكون وعـج المتشاكون، ورقت القلوب، وخفت الكـروب، وتصاعدت النعـرات، وتحدرت العبرات، وتاب المذنبـون وأنـاب المتحـوبون، وصـاح التـوابـون، ونـاح الأوابـون، وجـرت حـالات جلـت، وجلـوات حلـت، ودعـوات علت، وضراعـات قبلت، وفـرص مـن الولايـة الالهية انتهـزت، وحصص مـن العناية الربـانية أحرزت، وصلى السلطان في قبـة الصخرة، والأيدي إلى الله مـرفوعـة، والدعوات لـه مسموعـة، ثم رتـب في المسجد الاقصى خطيباً استمرت خطبته، واستقرت نصبته.

قلت: هـذه الفاظ العماد في هـذا الفصل مـن كتاب الفتـح، وذكره في كتاب البرق بعبـارة أخرى، تشتمل على فـوائد زائدة، وفي تكرار مـاتقدم أيضـاً بغير تلك العبـارة فـائدة، فإنها معـان جليلـة، كلما ذكرت جلـت، وكلما تكررت حلت.

فصل

قال العماد في كتاب البرق: لما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح، تقدم السلطان في المسجد الاقصى ببسط العراص، واخلائها لأهل الاخلاص، وتنظيفها من الأدناس ، وكنس مافي أرجائها من الأنجاس ، وقد كان سبق أمره من مبدأ الامر بهدم ما هناك من أبنية الكفر، وإبراز المحراب القديم، وإعادة موضعه إلى الوضع الكريم، فقد كان الداويه بنوا غربيه داراً وأدخلوه فيها وخلطوه بمبانيها، واتخذوا منه جانباً مستراحاً للاعلال؛ وجانباً هريا للغلال، فأمر في ا لعاجل بكشف قناعه، ورفع الوضيع من أوضاعه، ونقل ماوقع من انقاضه، ونقض مااعتور ذلك الجوهر النفيس من اعراضه، حتى ظهر موضع المنبر والمحراب، واستظهر بإزالة ماقدّامه من الحجاب، واجتمع الخلق في ذلك الاسبوع على تفريق ذلك الهدم المجموع، وتعاونوا وتعانوا حتى كشفوه، ونظفوه ورشوه وفرشوه، وكان قد أمر باتخاذ منبر في تلك الأيام فنجروه وركبوه، ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العلل مزاحه، والهمم مراحه، والخواطر إلى وردها ملتاحة مرتاحة، وهناك فضلاء بلغاء، وعلماء أتقياء، وكل منهم قد سبق بخطبة الخطبة، وأمل الفوز بفضيلة تلك الرتبة، وأعد لذلك المقام مقالاً، ونشط بشقشقة فصاحته من قرم حصافته عقالاً، حتى إذا حيعل الداعي، وتعين الفرض على الساعي، حضر السلطان للصلاة من قبة الصخرة ، بادية على أساريره أسرار سروره بالأسرة، وامتلأت تلك العراض والصحون، واستعبرت للفرح بما يسره الله العيون، وآن لدين الله أن تقضى له الديون وتفك الرهون، ووجلت القلوب وخشعت الأصوات ، وحسنت الظنون ،و عين السلطان القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن علي القرشي، الزكي بن الزكي، للصلاة والخطبة، وفرع تلك الرتبة، فصعد وسعد، وحمد و أحمد، وأدت المعاني الشريفة ألفاظه، ونبه الأقاصي والأداني إيقاظه، وجلا المسامع ، وجلب المدامع، وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوجه المشروع

والنهج المتبوع، والشرط الموضوع، وذكر في الفتح البكر ماافتض به ابكار الاستعارات بأبدع البراعات ، وأبرع العبارات ، وصدح بالصدق، ونطق بالحق ، وفاز بالسبق، وحاز على فضلاء الغرب والشرق، فهو لنشر المعاني أضم خطيب، له بنشر المعالي أضمخ طيب، فأين قس في عكاظه، من قياس ألفاظه، وأين سحبان من سجعاته، وأين ابن نباتة من نباته، ولو عاشا لافتقرا إلى فقره واحتقرا أعراضهما عند جوهره، ودعا لأمير المؤمنين، ثم لسلطان المسلمين، ونـزل وقام إماماً أكمل بصلاته الفرض، وأرضى بسمت دعواته والطمأنينة في ركعاته وسجداته أهل السماء والأرض، وسر السلطان بنصبه ورفعه ، وامتلأ صدره حبوراً منه بجلاء بصره وسمعه، فقد أخذت بالأبصار أشعة أنوار الخطبة، في سواد الأهبة ، وعظمت أخطار المهابة في خواطر المحبة، وكرمت سرائر الزلفى إلى الله والقربة، ثم رتب السلطان بعده خطيباً يستمر إقامته للجمع والجماعات، وتستقر ملازمته لأداء الصلوات، ولما قضيت الصلاة تلك الجمعة، نصب سرير للوعظ أبقى تلك الأمة المجتمعة، وتقدم السلطان إلى زين الدين الواعظ ليفرع السرير، وينفع بعظاته الصغير والكبير، وحضر المجلس بمرأى منه ومسمع، فكان أنور مجلس ومجلى وأشرف جمع ومجمع، فحقق ورقق وأشهد وأشهق، وخلب بعباراته الحلوة العبرات، وشار العسل بمعسول الإشارات، وبشر البشر بشارة البشارات، وذكر الفتح وبكارته، والقدس وطهارته، والدين وجسارته، والكفر وخسارته، والقدر وإعانته، والظفر وإبانته، والصخرة وإصراخها، والروعة وإفراخها، والنار وصراطها، والقيامة وأشراطها، والرحمة وبابها من باب الرحمة، والجنة وجناها لهذه الأمة، وماأعده الله لهذه الطائفة، وماأنزله من الأمن على القلوب الخائفة، ووصف ببلاغته مالايبلغ إليه نطق الالسنة الواصفة، ووصف الجهاد وفرائضه وفضائله والخير ودلائله، والنجح ووسائله، والشرع ومسائله، والذنب وغوائله، وإحسان السلطان وفواضله، والبحر وساحله، والدين وحقه، والكفر وباطله، وكان يوماً راجحاً وسوماً رابحاً.

- ٨٥٨٤ -

فصل

في إيراد ماخطب به القاضي محيي الدين رحمه الله

قال العماد وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدين أربع خطب في أربع جمع كلها من إنشائه، وأودعها سر بلاغة عنيت بافشائه، وذكرت الخطبة الأولى ويد الفصاحة فيها طولى، افتتحها بهذه الآيات:

(فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)(٥٥)(الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين)(٥٦) (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور)(٥٧) (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً)(٨٥) الآية (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب)(٥٩) (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى)(٦٠)(الحمد لله الذي له مافي السموات وما في الأرض)(٦١) و(الحمد لله فاطر السموات والأرض)(٦٢)

والخطبة هي:

«الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الامور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على اظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لاشريك له الأحد (الصمد) الذي (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) شهادة من طهر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله رافع الشك وداحض الشرك. وراحض الأفك.

الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى. وعرج به منه إلى السموات العلى إلى (سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة مايغشى. مازاغ البصر وما طغى) (٦٣) صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك، ومكسر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان.

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدرجة العليا، ولما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة، وردّها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه(٦٤) وإماطة الشرك عن طرقه، بعد أن امتد عليها رواقه، واستقر فيها رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد، فإنه بني عليه وبالتقوى فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم ابراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه السلام، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ومقر الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل تنزل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر، وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال تعالى: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله) (٦٥) وقال :(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) (٦٦) وهو أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين، لاتشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولاتعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده واصطفاه من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيلة التي

لايجاريكم فيها مجار، ولايباريكم في شرفها مبار، فطوبى لكـم من جيش ظهرت على أيـديكم المعجزات النبوية. والـوقعات البـدرية، والعـزمات الصديقيـة. و الفتوح العمرية، والجيـوش العثمانية. والفتكات العلـوية. جددتم للإسلام أيام القادسيـة . والوقعات اليرموكية. والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالـدية. فجـازاكـم الله عن نبيـه محمـد صلى الله عليه وسلـم أفضل الجزاء، وشكـر لكم مابـذلتموه مـن مهجكم في مقارعـة الأعداء . وتقبل منكم ماتقـربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثـابكم الجنة فهي دار السعداء فـأقدروا رحمكـم الله هذه النعمة حـق قدرهـا. وقومـوا لله تعالى بواجب شكرها. فله النعمـة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمـة. فهذا هـو الفتـح الذي فتحـت لـه أبواب السماء وتبلجـت بأنـواره وجوه الظلماء، وابتهـج به الملائكة المقـربون وقـرّ به عينـا الأنبياء والمرسلـون، فماذا عليكم مـن النعمة بـأن جعلكم الجيـش الذي يفتـح عليه البيت المقدس في آخر الزمان. والجنـد الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبـوة أعلام الإيمان، فيـوشك أن تكـون التهاني بـه بين أهل الخضراء أكثر مـن التهاني به بين أهل الغبراء. أليـس هو البيت الـذي ذكره الله في كتابـه. ونص عليه في خطـابه. فقـال تعالى: (سبحان الـذي أسرى بعبده ليلاً مـن المسجد الحرام إلى المسجد الأقصـى الذي بـاركنا حولـه) الآية. أليس هو البيت الـذي عظمته الملوك و أثنت عليه الرسـل ، وتليت فيه الكتـب الأربعة المنزلة مـن الهكم عـز وجـل ، أليس هـو البيت الـذي أمسـك الله عز وجـل الشمس على يـوشـع لأجله أن تغـرب، وباعـد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقـرب، أليس هو البيت الذي أمـر الله موسى أن يأمر قومـه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان وغضب عليهم لأجلـه فألقاهم في التيه عقوبـة العصيان، فأحمدوا الله الذي أمضى عزائمكـم لما قعد عنه بنوا اسرائيـل، وقد فضلهـم على العالمين ووفقكم لما خـذل فيه مـن كان قبلكم مـن الأمم الماضين. وجمع لأجله كلمتكم وكـانت شتى. وأغنـاكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى، فليهنكـم إن الله قد ذكركم به فيمن

عنده. وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لاهـويتكم جنده. وشكركم الملائكة المنزلون على مـا أهديتم إلى هذا البيـت من طيب التوحيـد ونشر التقديس والتحميد، وماأمطتم عن طرقهـم فيه من أذى الشرك والتثليث. والاعتقاد الفـاجر الخبيـث، فالآن يستغفـر لكم أمـلاك السموات. وتصلي عليكـم الصلوات المبـاركات. فاحفظـوا رحمكم الله هـذه الموهبة فيكم. وأحـرسوا هذه النعمـة عندكـم بتقوى الله التـي من تمسـك بها سلم، ومـن اعتصم بعروتها نجـا وعصم. واحـذروا من اتباع الهوى. ومـوافقة الـردى. ورجوع القهقرى. والنكـول عن العدا، وخـذوا في انتهاز الفـرصة وإزالة مـابقي من الغصـة. وجاهـدوا في الله حق جهـاده. وبيعوا عبـاد الله أنفسكم في رضـاه إذ جعلكم مـن خير عبـاده. وإياكـم أن يستـزلكم الشيطـان. وأن يتـداخلكـم الطغيـان، فيخيـل لكـم إن هـذا النصر بسيـوفكـم الحداد. وبخيولكـم الجياد. وبجـلادكم في مـواطن الجلاد. لا والله (مـا النصر إلا من عند الله إن الله عـزيز حكيم)[٦٧]. واحذروا عباد الله بعـد أن شرفكم بهذا الفتح الجليـل. والمنح الجزيـل. وخصكم بهذا الفتـح المبين. وأعلق أيديكـم بحبله المتين. أن تقترفـوا كبيراً من منـاهيه. وأن تـأتوا عظيماً مـن معاصيه، فتكونـوا (كالتي نقضت غزلها من بعـد قوة انكاثاً)[٦٨] (والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فـاتبعه الشيطان فكان من الغاوين)[٦٩] والجهاد الجهاد، فهو من أفضل عبـاداتكم. وأشرف عاداتكم انصروا الله ينصركم. اذكروا أيـام الله يذكركـم، اشكروا الله يزدكـم ويشكركم. جـدوا في حسم الـداء. وقطـع شـافـة الأعـداء. وتطهير بقيـة الأرض التـي أغضبـت الله ورسـولـه. وأقطعوا فـروع الكفـر واجتثـوا أصـولـه. فقد نـادت الأيـام: بالثارات الإسلامية والملـة المحمدية. الله أكبر فتح الله ونصر . وغلب الله وقهر، أذل الله مـن كفر. واعلمـوا رحمكم الله أن هـذه فرصـة فانتهـزوها. وفريسـة فناجـزوها، ومهمـة فأخـرجوا لها هممكـم وأبرزوهـا. وسيروا إليها عزماتكم وجهزوها. فالأمور بأواخرهـا. والمكاسب بذخائرها. فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول. وهـم مثلكم أو يزيدون. فكيـف وقد أضحى في

قبالـة الواحـد منهم منكـم عشرون. وقد قـال الله تعالى:(إن يكـن منكم عشرون صابرون يغلبـوا مائتين)[٧٠] أعاننـا الله وإياكم على اتبـا ع أوامره والازدجار بزواجـره، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنـده (لأن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده)[٧١].

وتمام الخطبـة الثانيـة قريـب مما جـرت به العـادة، وقال بعـد الدعـاء للخليفة:

اللهم وأدم سلطاننـا عبدك الخاضع لهيبتك، الشـاكر لنعمتك المعترف بمـوهبتك، وسيفـك القاطـع، وشهـابك الـلامـع، والمحامـي عن دينـك المدافـع، والذابّ عـن حرمـك المانـع، السيد الأجـل الملك النـاصر ، جـامع كلمـة الإيمان، وقـامع عبـدة الصلبـان، صلاح الـدنيـا والديـن، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر البيت المقدس، أبـا المظفر يوسف بن أيـوب، محيـي دولة أمير المؤمنين، اللهـم عـم بـدولته البسيطـة، واجعـل ملائكتك برايـاته محيطة، وأحسن عن الدين الحنيفـي جزاءه، واشكر عن الملة المحمدية عـزمه ومضاءه، اللهم أبق للإسـلام مهجته ، ووق للايمان حوزته ، وانشر في المغـارب والمشارق دعوته. اللهـم فكما فتحت على يده البيـت المقدّس بعـد أن ظنـت الظنون، وابتلي المؤمنـون. فـافتح على يـده أداني الأرض وأقاصيها، وملكـه صياصي الكفرة ونواصيها، فـلاتلقاه منهم كتيبة إلا مزقهـا ولاجماعة إلا فرقها، ولاطـائفة بعد طائفـة إلا ألحقها بمن سبقهـا، اللهـم اشكر عـن محمـد صلى الله عليـه وسلم سعيـه وأنفـذ في المشـارق والمغارب أمـره ونهيه، اللهـم أصلح بـه أوساط البـلاد وأطرافهـا وأرجاء الممالك وأكنـافها، اللهم ذلل بـه معاطس الكفار، وأرغـم به أنوف الفجار، وانشر ذوائب ملكـه على الأمصار، وأثـب سرايا جنـوده في سبل الأقطار، اللهـم ثبـت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الديـن واحفظه في بنيه. وبني أيوب الملوك الميامين، واشدد عضده ببقـائهم، واقض باعزاز أوليائه وأوليائهـم . اللهم كما أجـريت على يـده في الإسلام هـذه الحسنة التي

تبقى على الأيام وتتخلد على مر الشهور والأعـوام، فارزقه الملك الأبدي الـذي لاينفـد في دار المتقين، وأجـب دعاءه في قـولـه: (رب أوزعنـي أن أشكـر نعمتـك التـي أنعمـت علي وعلى والـديّ وأن أعمـل صـالحاً ترضاه)(٧٢)(وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين)(٧٣) ثم ماجرت العادة به

فصل

في المنبر

قال العماد: لما فتحنـا القدس أمر بتعمير المحراب وترخيمـه، وتكميل حسنه وتتميمه، ووضع منبر رسمي في أول يـوم قضي به الفرض، واحتيج بعـد ذلك إلى منبر حسـن رائق بحسنـه لائق، وبجمالـه شائق، وبكمالـه فائق، فذكر السلطان المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله لبيت المقـدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنـة، وأودعه له من ذخـائره عند الله حسنـه، فأمـر أن يكتب إلى حلـب ويطلب فحمـل وعمـل على ماأمره بـه وامتثل، فجـاء كـالروض النضير، والـوشي الحبير، عديـم النظير، وكان من حـديث احداثـه ما ألهم الله نور الـدين رحمه الله لارتياح خـاطره إليه وانبعـاثه، وقد أوقع في روعـه من النور الفـائض من ينبـوع ضلوعـه، أن البيـت المقـدس بعده سيفتـح، وأن صـدور المسلمين الحرجـة لأجله ستنشرح، وهـو من أوليـاء الله الملهمين، وعباده المحـدثين المكـرمين، وكـان بحلـب نجـار يعرف بـالاختريني، مـن ضيعـة تعـرف باخترين، لم يلف له في براعته وصنعته قـرين، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيـت الله المقـدس، وقـال لـه: اجتهد أن تـأتي بـه على النعـت المهنـدم والنحـت المهنـدس ، فجمـع الصنـاع، وأحسـن الإبـداع وأتمه في سنين، واستحـق بحق إحسـانـه التحسين، والناس يقـولـون هـذا أمر مستحيـل وحكـم مالـه دليـل ،و ذكر جميـل وأجـر جـزيل، لـو كـان إليه سبيـل، وهيهـات أن يعـود القـدس إلى الإسـلام، ويقضي الإصبـاح فيـه على الإظلام، فـإن الفرنج عليه مستـولون مستعلون، وهـم يكثـرون على الأيام ولايقلون، أمـا ناصفونا على أكثـر أعمال حوران، وقابلوا بـالكفر الإيمان؟ وقـد أعجـزوا ملوك الإسـلام إلى اليـوم، فما أصعـب واتعب وقـم القـوم، ويقول من لـه قوة اليقين وعرف أن الله كافـل بنصرة الدين: اصبروا فلسر هذه الامـة نبأ، وهـو كما قال الله تعالى: (ويصنـع الفلك وكلما مـر عليه

ملأ) (٧٤) ولم يزل لنور الـدين في قلبه من الدين نـور، وأثر تقواه للمتقين مـأثور، أزهـد العباد، وأعبـد الزهـاد، وهـو من الأوليـاء الأبرار والاتقيـاء الأخيار، وقد نظر بنور الفراسة أن الفتـح قريب، وأن الله لدعائه ولو بعد فتحه مجيـب، ويزيده قوة عـزمه جداً، ويمدّه بحيـاء الحياة الربانيـة مداً، وقد طهـره الله من العيب، وأطلعـه على سر الغيب، ونـزهه من الـريب، لنقاء الجيب، وشملت الإسلام بعده بركتـه، وختمت بافتتاح ملك صلاح الدين مملكته، وهو الذي رباه ولبـاه وأحبه وحباه ،و هو الذي سن الفتح وسنى النجـح، واتفق أن جامـع حلب في الأيـام النورية احترق فـاحتيج إلى منبر ينصب فنصـب ذلك المنبر، وحسـن المنظر وتـولى حينئذ النجـار عمـل المحراب على الـرقم، وشـابـه المحراب المنبر في الـرسم، ومـن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القدسي الاحسان

ولما فتح السلطان القـدس تقدم بحمله، وصح بـه في محراب الأقصى تفريـق شمله، وظهـر سر الكرامة في فـوز الإسلام بـالسلامـة، وتناصرت الألسن بالدعاء لنور الدين بالرحمة، ولصلاح الدين بالنصرة والنعمة

وقال العماد في موضع آخر من كتـاب البرق : وكان الملك العادل نور الديـن محمود بن زنكـي رحمه الله في عهده عرف بنـور فراسته فتـح البيت المقدس مـن بعده، فأمر في حلـب باتخاذ منبر للقدس، وتعـب النجارون والصناع والمهنـدسون فيـه سنين، وابدعـوا في تركيبـه الأحكام والتـزيين، وأنفق في إبداع محاسنـه وإبداء مزاينه ألـوفاً ، وكان لترديد النظـر فيه على الأيام ألـوفاً، وبقي ذلـك المنبر بجامع حلـب منصوباً ، سيفـاً في صوان الحفظ مقروباً، حتـى أمر السلطان في هذا الوقت بالوفـاء بالنذر النوري، ونقل المنبر إلى موضعـه القدسي، فعرفت بذلـك كرامات نور الـدين التي أشرق نورها بعده بسنين، وكان من المحسنين الـذين قال الله تعالى فيهم : (والله يحب المحسنين).(٧٥)

قلت : وهـذا الذي نسبـه إلى نور الـدين رحمه الله مـن أنه كـرامة مـن كراماته لائق بمحلـه ومنزلته من الدين، وليس بالبعيـد من مثل ذلك ،و كان رحمه الله قد بدت لـه مخايل ذلك بما تسنى له من فتـح البلاد الشامية والمصرية، وقهر العدوّ بين يديه مـراراً، وكان فتح القدس في همته من أول ملكه، فإن لم يكن حصل له مباشرة فقـد حصل له تسبباً، فإن الفاتحين له رحمهم الله بنوا على مـاأسسه لهم من الملك والتدبير، وهـم أمـراؤه وأتباعه وأجنـاده وأشياعـه، ثـم يحتمـل أن يكـون رحمه الله وقف على مـاذكره أبـو الحكـم بن بـرجان الأنـدلسي في تفسيره فـإنه أخبر عـن فتح القـدس في السنة التـي فتح فيها ،و عمر نـور الدين إذ ذاك إحدى عشرة سنـة، وقد رأيت أنا ذلك في كتابه ذكر في تفسير أول سورة الروم أن البيت المقدس استولت عليـه الروم عام سبع وثمانين وأربعمائة، وأشار أنه يبقـى بأيديهم إلى تمام خمسمائة وثلاث وثمانين سنة، قال : ونحن في عام اثنتين وعشرين وخمسمائة، فلم يستبعد نـور الدين رحمه الله لما وقف عليـه أن يمتد عمره إليه فهيأ أسبابـه حتى منبر الخطابة فيه تقرباً إلى الله تعـالى بما يبديه من طـاعته ويخفيـه ، وهذا الـذي ذكـره أبو الحكـم الأندلسي في تفسيره مـن عجائب ماالتفـق لهذه الأمة المرحومة، وقـد تكلم عليه شيخنا أبـو الحسن علي بن محمـد في تفسيره الأول فقال: وقع في تفسير أبي الحكـم الأندلسي في أول سورة الـروم إخبار عن فتح البيـت المقدس وأنه ينزع مـن أيدي النصارى سنة ثـلاث وثمانين وخمسمائة. قال: وقال لي بعض الفقهـاء: إنه استخرج ذلـك من فـاتحة السورة. قـال: فأخـذت السورة وكشفـت عن ذلـك، فلم أره أخـذ ذلك مـن الحروف وإنما أخـذه فيما زعم مـن قولـه تعـالى (غلبت الـروم في أدنـى الأرض وهـم مـن بعـد غلبهم سيغلبـون في بضع سنين) فبنـى الأمر على التـاريخ كما يفعـل المنجمون، ثـم ذكر أنهم يغلبون في سنـة كذا، ويغلبون في سنة كـذا على مااقتضيه دوائر التقـدير، قال،وهذه نجامـة وافقت إصابة إن صح أنه قال ذلك قبـل وقوعه، وكان في كتابـه قبل حدوثـه وليس ذلك بمأخـوذ من الحروف ولاهو مـن قبيل

- ٨٥٩٣ -

الكرامـات، أيضاً فإن الكرامـة لاتكتسب بحساب، ولاتفتقر إلى تـاريخ، ولـذلك لم يـوافق الصـواب لما أدار الحساب على القـراءة الأخرى الشـاذة التي هي بفتح الغين مـن (غلبت الروم) ويوضح ذلك أنـه قال في سورة القدر : لو علم الوقت الذي أنزل فيه القرآن لعلـم الوقت الذي يرفع فيه.

فصل

قال العماد: وأما الصخرة المقدسة فإن الفرنج كانوا بنوا عليها كنيسة ، وأعادوا رسومها القديمة دريسه، وستروها بالأبنية، وعوّجوا أوضاعها بزعم التسوية، وكسوها صوراً هي أشنع من التعريه، وملؤوها بتصاريف التصاوير، ونبتوا في ترخيمها اشباه الخنازير، وجعلوا المذبح لها مذبحاً، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة، ولا للعيون المدركة ملمساً ، ولامطمحاً، وقد زينوها بالصور والتماثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل ، وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبه بأعمدة الرخام منصبه، وقالوا محل قدم المسيح، وهو مقام التقديس والتسبيح، وكان فيها صور الأنعام منبتة في الرخام، والصخرة المقصودة المزورة بما عليها من الأبنية مستوره، وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة، فأمر السلطان بكشف نقابها، ورفع حجابها ،و حسر لثامها ، وقشر رخامها ورحض وضرها، ونقض أبنيتها، ونقل حجرها، وإبرازها للزائرين، وإظهارها للناظرين، فبانت من الشين، وبانت للعين،وحبيت بالقبل،و فديت بالمقل، فعادت كما كانت في الزمن القديم، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم، وما كان يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة من تحتها، قد أساء الكفر في نحتها، فظهرت الآن أحسن ظهور، وسفرت أيمن سفور، وأشرقت القناديل من فوقها نوراً على نور، وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد، والاعتناء بها إلى كل يوم في مزيد

قال: وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعاً وحملوا منها إلى قسطنطينية، ونقلوا منها إلى صقليه، وقيل باعوها بوزنها ذهباً ، واتخذوا ذلك مكتسباً، ولما طهرت ظهرت مواضعها، وقطعت القلوب لما بانت مقاطعها، فهي الآن مبرزة للعيون بحزها، باقية على الأيام بعزها، مصونة للإسلام في خدرها وحرزها.

وقال في البرق: ولما ظهرت الصخرة وجدناها وقد أبقت لها النوائب حزوزاء، وأودعت ضميرها من شر أهل الكفر شراً مرموزاً، فإن الفرنج نقلوا منها إلى بلادهم قطعاً، وأبدعوا فيها بدعاً حتى قيل إنها بيعت بوزنها ذهباً، وأفضى الأمر بها أن يكون حجرها منتهباً، فغطاها بعض ملوكهم إشفاقاً عليها لئلا تمتد يد ضيم إليها ، فأبقت حزوزها في القلوب حزازات، وسار حديث حادثها في الآفاق بروايات وإجازات، وتولاها بعد ذلك الفقيه ضياء الدين عيسى فصانها بشبابيك من حديد، وثبت أركانها بكل تسديد.

وقال في الفتح: ورتب السلطان في قبة الصخرة إماماً حسناً، ووقف عليها داراً وأرضاً وبستاناً، وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات، وربعات معظمات، لاتزال بين أيدي الزائرين على كرسيها مرفوعة، وعلى أسرتها موضوعة، ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس عامة قومة من العارفين العاكفين القائمين بالعبادة الواقفين ، فما أبهج ليلها وقد حضرت الجموع، وزهرت الشموع، وبان الخشوع ، ودان الخضوع، ودرت من المتقين الدموع، واقشعرت من العارفين الضلوع، فهناك كل ولي يعبد ربه، ويأمل بره، وكل أشعث أغبر لايؤبه له، لوأقسم على الله لأبره، وهناك كمل من يحيي الليل ويقومه، ويسمو بالحق ويسومه، وهناك كل من يختم القرآن ويرتله، ويطرد الشيطان ويبطله ومن عرفته لمعرفته الأسحار، ومن ألفته لتهجده الأوراد والأفكار، وماأسعد نهارها حين يستقبل الملائكة زوارها، وتلحق الشمس أنوارها، وتحمل القلوب إليها سرارها.

قال : وتنافس ملوك بني أيوب فيما يؤثرونه بها من الآثار الحسنة، وفيها يجمع لهم وذ القلوب وشكر الألسنة، فما منهم إلا من أجمل وأحسن وفعل ماأمكن،وجلى وبين، وحلى وزين، وأتى العادل أبو بكر بكل صنع بكر، وتقي الدين عمر بكل ماعم وعمر، ومن جملة أفعاله المشكورة،

ومكرماته المشهورة أنه حضر يوماً في قبة الصخرة ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصدقة والرفد مال، فانتهز فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها ، وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص، وغسل جدرانها، ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت وتضوعت، ثم فرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق، وافتخر أن فاق الكرام بالإنفاق، وجاء الملك الأفضل نور الدين علي، بكل نور جلي، وكرم ملي، وبسط بها الصنيعة، وفرش فيها البسط الرفيعة، وسيأتي ذكر ما اعتمده من بناء أسوار القدس وحفر خنادقه، وأعجز بما أعجب من سوابق معروفه ولواحقه، وأما الملك العزيز عثمان فإنه لما عاد إلى مصر ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها، ولم ير بعد حصولها به نقلها، وكانت أحمالاً بأموال ،وأثقالاً كجبال، وذخائر وافية، وعدداً واقيه ، وكان من جملة ماشرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعدتهم، فتوفرت بذلك عدد البلد، واستغنى به عما يصل من المدد.

قال وأما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الأقصى، فإنه في حصن عند باب المدينة منيع، وموضع عال رفيع، وهو الحصن الذي يقيم به الوالي، فرتب السلطان له إماماً، ومؤذنين وقواماً،و هو مثابة الصالحين، ومزار الغادين والرائحين، فأحياه وجدّده، ونهج لقاصديه جدده، وأمر بعمارة جميع المساجد، وصون المشاهد ، وانجاح المقاصد، واصفاء الموارد للقاصد والوارد، وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام، وكان ينتابها فيهما الأنام، وكان الملك العادل نازلاً في كنيسة صهيون وأجناده على بابها مخيمون، وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء والأكابر الأبرار والأتقياء الأخيار في أن يبنى مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباطاً للصلحاء الصوفية فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنه عند باب أسباط، وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط، ووقف عليهما وقوفاً، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفاً، وارتاد أيضاً مدارس للطوائف ليضيفها إلى ماأولاه من العوارف.

فصل

قال البرق: وشرع الفرنج في إخلاء البيوت، وبيع ما أدخروه من الأثاث والقوت، وأمهلوا حتى باعوا بأرخص الاثمان، وكان خروجهم شبيها بالمجان، لاسيما ماتعذر لثقله نقله، وصعب حمله، وكانوا كما قال الله تعالى: (كم تركوا من جنات وعيون*وزرع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين* كذلك وأورثناها قوما آخرين)(٧٦) ،فباعوا ماتهيأ لهم على البيع إخراجه رخيصاً، وأبقوا مالم يجدوا من تركه محيصاً ، وغلبوا على مافي الدور من الماعون والمذخور، أما الصناديق والأخشاب والرخام ومايجري مجراها مما توفرت منه الأنواع والأقسام، فإنها بقيت بحالها متروكه، ولمن يسكن تلك الأماكن مملوكه، وكانت قمامة وهي كنيستهم العظمى ومتعبدهم الذي يجمعون به الدين والدنيا، مفروشة بالبسط الرفاع مكسوة بالستور النسيج والحرير الممزوج من سائر الأنواع، والذي يذكرون أنه قبر عيسى عليه السلام محلى بصفائح الفضة والعين، ومصوغات الذهب واللجين، مصفح بالنضار، مثقل من نفائس الحلي بالأوقار، فأعاده البطرك منه عاطلاً، وتركه طللاً ماثلاً، فقلت للسلطان : هؤلاء إنما أخذوا الأمان على أموالهم فما بال هذا المال وهو بألوف يحملونه في أثقالهم ؟ فقال : هم مايعرفون هذا التأويل وينسبون إلينا لما حرمناه التحليل، ويقولون إنهم لم يحفظوا العهد، ولم يلحظوا العقد، ونحن نجريهم على ظاهر الأمان، ونغريهم بذكر محاسن الإيمان، وكانت المهلة أنه من عجز بعد أربعين يوماً عن أداء ماعليه من القطيعة ضرب عليه الرق بحكم الشريطة، ووفق الشريعة، فتولاهم النواب، بعد خروجنا من القدس، وبقي منهم ممن ضرب عليه الرق خمسة عشر ألفاً في الحبس، ففرقهم السلطان، وتناهبتهم البلدان، وحصل لي منهم سبايا نسوان وصبيان، وذلك بعد أن وفى ابن بارزان بالضمان وأدى ثلاثين ألف دينار، وأخرج من ذكر أنه فقير بحسب الإمكان، وكانوا تقدير

ثمانية عشر ألفا واعتقد أنه لم يبق غير فقير، وبقـي بعد أدائه على ماذكرناه كثير، وأما النصـارى الساكنون بـالقدس فإنهم بـذلوا مع القطيعـة الجزية ليسكنوا ولايزعجوا، ويؤمنوا ولايخرجوا، فأقروا بوساطة الفقيه عيسى وأقر من قسـوس النصارى أربعة قـوام لقمامة، فأعفـاهم ولم يكلفهـم الغـرامة، وأقـام بمـدينـة القـدس وأعمالها منهـم ألـوف فشمـروا وعمـروا وعـرّشـوا وغـرّسوا، فلهـم منها مجان وقطـوف، وكانـت لأمـراء الفرنـج ومقدّميهـم مجاورة للصخرة، وعند باب الرحمة، مقبرة وقباب معمرة، فعفينا آثارها، و رحضنا أوضارها.

وقـال في الفتـح: وأمـر السلطـان بإغـلاق كنيسـة قمامـة، وحـرّم على النصارى زيارتها ولا إلمامه، وتفاوض الناس عنـده فيها، فمنهـم من أشار بهدم مبـانيها وتعفيـة آثـارها، وتعميـة نهج مـزارها، وقـالـوا:إذا هدمـت، ونبشت المقبرة وعفيـت وخربـت أرضها، ودمر طـولها وعرضهـا انقطعت عنها امـداد الزوار، وانحسمت عن قصـدها مواد اطماع أهـل النار، ومهما استمرت العمارة، استمـرت الزيارة، وقال أكثـر الناس لافائدة في هـدمها وهدهـا ، فإن متعبـدهم موضـع الصليب والقبر لامايشـاهد مـن البناء، ولاينقطع عنها قصـد أجناس النصرانية ولو نسفـت أرضها في السماء، ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صـدر الإسلام أقرّهم على هذا المكان، ولم يأمر بهدم البنيان.

قال : وأقام السلطـان على القدس حتى تسلم مابقـربها من حصون، واستبـاح كل مـالكفـر بها مـن مصون، ثـم عمـد إلى مـاجمعه ففـرقـه، وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه، فأكثـروا عذله على بذله، واستكثروا ماأفاضه بفضله، فقال: كيف أمنع الحق مستحقيه، وهذا الذي أنفقه هو الذي أتقيه، وإذا قبله منـي المستحق فالمنة له علي فيه، فـإنه يخلصني من الأمانـة ويطلقني من وثـاقها فإن الـذي في يدي وديعة أحفظهـا لذوي استحقاقها، وقيـل له: لو أدخرت هذا المال للمآل، فقـال: أملي قوي من

الله الكافل بنجح الآمال، وجمع الأسراء المطلقين، وكانوا الوفا من المسلمين فكساهم ، وأساهم وواساهم، وأذهب أساهم، فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره، ناجياً من ضره وضرره.

وقال في البرق: سمعت الملك العادل يوماً في أثناء حديثه في ناديه، وهو يجري ذكر إفراط السلطان في أياديه، يقول : إني توليت استيفاء قطيعة القدس، فأنفذت له ليلة سبعين ألف دينار، فجاءني خازنه بكرة وقال: نريد اليوم مانخرجه في الإنفاق، فما عندنا مما كان بالأمس شيء باق، فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال، ففرقتها على رجال الرجاء يد النوال.

فصل

قال العماد : وللحكيم أبي الفضل قصائد قدسيات طوال كثيرة الفوائد

قلت: قد وقفت على بعضها وتقدم قبل ذلك أن قال: لم أزل من أول ماولي الملك الناصر الأمر في مصر أعلم أنه مؤيد بعناية من الله سبحانه، فامتدحته في سنة خمس وستين بقصيدة تنيف على مائة بيت منها في التباشير:

لتظفرنّ بما لم يحوه ملك
أبا المظفر حظا خطه الأزل

دليل ذلك آراء لك اقترنت
بالحزم والعزم لم يخصص بها الأول

وفيها

قد ساد اسكندر أهل الزمان معا
في سن عشرين وامتدت له الحيل

وافى الثلاثين والاقطار أجمعها
طوع له وملوك الأرض والملل

قال: ومدحته سنة سبع وستين عند قفوله من غزاة غزة بقصيدة منها:

أبا المظفر فاهنأ حظ منتخب
أخرى الزمان لدين كاد يتبتر

زهدت فيما سبى الأملاك منكدرا
علما بملك نعيم ما به كدر

وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفها
وجئت تقدم حيث الهول والخطر

قال،ومدحته سنة ثمان وستين بقصيدة تنيف أيضاً على مائة بيت منها في التباشير:

أرى الراية الصفراء يرمى اصطفاقها
بني أصفر بالسراعفات اللهاذم
فتسبي فلسطينا وتجبي جزائرا
وتملك من يونان أرض الأساحم
وتعنوا لها الأملاك شرقا ومغربا
بذا حكمت حذاق أهل الملاحم

قال: وبعثت إليه في غزة سنة اثنتين وثمانين وهو على حمص بقصيدة هنأته فيها بالعافية منها:

فيا ملكا لم يبق للدين غيره
وهت عمد الاسلام فاشدد لها دعما
فشؤم فريق الشرك في الشام طائر
فقص جناحيه بأقصى القوى قصما
خصصت بتمكين فعم العدا ردى
فإنهم يأجوج أفرغ بها ردما
إذا صفرت من آل الأصفر ساحة الـ
ـمقدّس ضاهت فتح أم القرى قدما
فذا المسجد الأقصى وهمتك العلى
وعزمتك القصوى ورميتك الصمى
فما هو إلاّ أن تهم وقد أتت
فتوح كما فاض الخضم الذي طما
وإن أنت لم ترد الفرنج بوقعة
فمن ذا الذي يقوى لبنيانها هدما
وما كل حين تمكن المرء فرصة
ولا كل حال أمكنت تقتضي غنما
وليس كفتح القدس منية قادر
وما أن تلقاها سوى يوسف جزما

قال: وأنشأت قصيدة أخرى في سنة اثنتين وثمانين، وحضرت بها بين يديه منها:

الله أكبر أرض القـدس قـد صفـرت
مـن آل الاصفـر ذاحين بـه حـانـوا

أسبـاط يـوسـف مـن مصر أتـوا ولهم
مـن غيرتيـه بها سلـوى وامنـان

لهم فلسطين إن يخرج عـداتهم
عنهـا وإلا عـدت بيـض وخـرصـان

حتـى بنيـت رتـاج القـدس منفـرجـا
ويصعـد الصخـرة الغـراء عثمان

واستقبـل النـاصر المحـراب يعبـد مـن
قـد تـم مـن وعـده فتـح وامكـان

وجـاز بعـض بنيـه البحـر تجفـل مـن
غـاراتـه الـروم والصقـلاب والـلان

حتـى يـوحـد أهـل الشرك قـاطبـة
ويـرهـب القـول بـالثـالـوث رهبـان

ولابـن أيـوب في الافـرنـج ملحمـة
دلـت عليهـا أسـاطير وحسبـان

ومـن أحـق بملـك الارض مـن ملـك
كـأنـه ملـك في الخلـق حنـان

ثم قال : وأما القصيدة الفتحية الناصرية فأولها:

في بـاطـن الغيـب مـالا تـدرك الفكـر
فـذو البصيرة في الاحـداث يعتبر

مـالي أرى ملـك الأفـرنـج في قفـص
أيـن القـواضـب والعسـالـة السمـر

والاسبتار إلى الداوية التأموا
كأنهم سد يأجوج اذا اشتجروا
والنفس مولعة عجباً بسيرتها
وفي المقادير ما تسلى به السير
يا وقعة التل ما أبقيت من عجب
جحافل لم يفت من جمعها بشر
ويا ضحى السبت ماللقوم قد سبتوا
تهوّدوا أم بكأس الطعن قد سكروا
ويا ضريح شعيب مالهم جثموا
كمدين أم لقو ارجفا بها كفروا
حطوا بحطين ملكا كافيا عجبا
في ساعة زال ذاك الملك والقدر
أهوى اليهم صلاح الدين مفترسا
وهو الغضنفر أعدى ظفره الظفر
أملى عليهم فصاروا وسط كفته
كسرب طير حواها القانص الذكر
وأنجز الله للسلطان موعده
ونذره في كفور دينه البطر
وعاين الملك الابرنس في دمه
فمات حيا وحيى وهو يعتذر
رأى مليكا ملوك الارض تتبعه
والنجم يخدمه والشمس والقمر
إذا بدا تبهر الأعيان هيبته
يختفي وهو في الأذهان مشتهر

تقدّم الجيل في أخرى الزمان به
على صدور علا من قبلنا صدروا

أمــا رأيتهــم فتـــوح القـــادسيـــة في
أكنـــاف لـــوبيـــة تجلى وذا عمـــر
والحق يعـــرس والطغيـــان منتحـــب
والكفـــر يطمـــس والايمان مـــزدهـــر
هـــذا المليـــك الـــذي بشرى النبـــي بـــه
في فتنـــة البغـــي لـــلاســـلام ينتصر
أنســـى مـــلاحـــم ذي القـــرنين واعترفـــت
لـــــه الـــــرواة بما لم ينمـــــه اثـــــر
أعين اسكنـــدر بـــالخضر وهـــولـــه
عـــون مـــن الله يستغنـــي بـــه الخضر
وصنـــع ذي العـــرش ابـــداع بـــلا سبـــب
فـــلا تقـــل كيـــف هـــذا الحادث الخطـــر
بينـــا سبـــايـــاه تجلى في دمشـــق إذا
ملـــك الفـــرنـــج مـــع الاتـــراك محتجـــر
ازاءه زعماء الســـــاحلين معـــــا
مصفـــديـــن بحبـــل القهـــر قـــد أسروا
يتلـــوهـــم صلبـــوت سيـــق منتكســـا
وحـــولـــه كـــل قسيـــس لـــه زبـــر
ونحـــن في بـــــذا وذا طير صحيفتـــه
بفتـــح عكـــا التـــي سدت بها الثغـــر
تغـــزو أســـاطيلنـــا منهـــا صقليـــة
فتـــذعـــر الـــروم والصقـــلاب والخزر
مـــن ذا يقـــول لعـــل القـــدس منفتـــح
إليـــك بـــل سفـــر يعقـــوب لـــه السفـــر
أبـــو المظفـــر ينـــويها فخـــذ سفنـــا
مـــن بـــاب عكـــا الى طـــرطـــوس تنتشر

يسبـي فـرنجـة مـن أقطـار هـا ولـه
مـع المجـوس حـروب قـد حهـا سعـر
وبعـض أبنـائه بـالقـدس منتـدب
وبعضهـم رومـة الكبرى لـه وطـر
بـرايـة تخرق الأرض الكبيرة في
جمع تقـول لـه الاجسـام لاوزر
قـالـوا أطلـت مـديحا فيـه قلـت كما
بـدأت فـالصب للمحبـوب مـذّكـر

وأمـا القصائد التي لـه فمنها التـائيـة لـه، وقد تقـدم ذكـرها، ومنهـا القدسية الكبرى عددها مائة واثنان وخمسون بيتا أولها

تصـاريـف دهـر أعـربت لمن اهتـدى
ويسطـه أمـر أغـربـت مـن تمردا
لسرعـة فتـح القـدس سر مغيـب
وفي صرعـة الافـرنـج معتبر بـدا
أتـوا كجبـال أبـرمـت لأسـارنـا
فسقنـاهـم فيهـا قطينـا مجددا
وسـامـوا تجارا تشترينـا غـواليـا
فبعنـاهـم بـالـرخص جهـرا على الندا
وجـروا جيـوشـا كـالسيـول على الصـوا
فـاضـت غثـاء في البطـاح ممـددا
وقـالـوا ملـوك الأرض طـوع قيـادنـا
إذا الكـل منهـم في القيـود معبـدا
وقـد أقطـع الكنـد العـراق مـوقعـا
فـأودع سجنـا وسـط جلـق مـؤصـدا
وأقسـم أن يسقـي بـدجلـة خيلـه
فما ورد الاردنّ إلا مصفـدا

فكـــم واثــق خجــلان قهقــه خصمـــه
وكـــم ســـائق عجــلان قهقـــر مقعـــدا
أتـــى الكنـــد مـــن اسبـــان يحمـــي قمامـــة
فكـــان تقضـــى ملكـــه قبـــل يبتـــدى
فماعقـــد الـــرايـــات إلا محلـــلا
ولا حلـــل الـــرايـــات إلا معقـــدا
ووقعـــة يـــوم التـــل إذ قبضـــت بـــه
جبـــابـــرة الافـــرنـــج حيرى وشردا
عليهـــم مـــن البلـــوى سرادق ذلـــة
ومـــن ذل مـــاتـــت نفســـه فتقيـــدا
تـــرى المنسر الـــديوى يلقـــي سلاحـــه
وينســـاق مـــابين السبـــايـــا ملهـــدا
يبـــاعـــون أسرابـــا شرائح أحبـــل
كشكـــة عصفـــور مـــن الـــريـــش جـــردا
فتلقـــى نصـــارى جلـــق في مـــأتـــم
يسرونها إلا شجـــــى وتنهـــــدا
ألم تـــر للسلطـــان صـــدق نـــذره
دم الغـــادر الابـــرنـــس فـــاقتيـــد اربـــدا
وبـــاشر بـــالقتـــل وســـط خبـــائه
وعـــاينـــه الكنـــد المليـــك فـــارعـــدا
وضاقـــت بنفس القمص الأرض مهـــربا
فـــأدركـــه الموت المفـــاجـــىء مكمـــدا
ومـــاطـــرق الاسماع مـــن عهـــد آدم
كملحمـــة التـــل التـــي ثلـــت العـــدا
آتـــوا واديـــا مـــازال ينفـــي خبـــائثـــا
ويصفـــي بعقبـــى الـــدار طـــائفـــة الهدى

به جثمت أصحاب ليكة وهي في
ذراه ذا فيه شعيب تأيدا
أرى الله فيه معجز النصر مخلصا
لأمر صلاح الدين في الناس مخلدا
واعدى جنود الرعب تردي عداته
وسلم جميع المسلمين مجندا
ومن عجب خمسون ألف مقاتل
سبتهم جيوش ليس فيها من ارتدى

وللرشيد بدر النابلسي:
هذا الذي كانت الآمال تنتظر
فليوف لله أقوام بها نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت
في سالف الدهر أخبار ولا سير
حين به حان هلك المشركين فيا
لله طيب العشايا منه والبكر
الآن قرت جنوب في مضاجعها
ونام من لم يزل حافاله السهر
يا بهجة القدس إذ أضحى به علم الـ
ـلاسلام من بعد طيّ وهو منتشر
يا نور مسجده الأقصى وقد وقعت
بعد الصليب به الآيات والسور
شتان ما بين ناقوس يدان به
وبين ذي منطق يصغي له الحجر
الله أكبر صوت تقشعر له
شم الذرى وتكاد الأرض تنفطر

يـــامـــالـــك الأرض مهـــدهـــا فما أحـــد
ســـــواك مـــــن قـــــائم للمهـــــد ينتظـــــر
مـــا اخضر هـــذا الطـــراز الســـاحلي ثمـــرا
الا لتعلـــو بـــه أعـــلامـــك الصفـــر
أضحـى بنـو الأصفـر الانكـاس مـوعظـة
فيهـــا لأعـــدائك الآيـــات والنـــذر
صـاروا حـديثـا وكـانـوا قبـل حـادثـة
على الـــورى يتقيهـــا البـــدو والحضر
سلبتهـــم دولـــة الـــدنيـــا وعيشتهـــا
حتى لقـــد ضجـــرت مـــن وفـــدهـــم سقـــر
هـــذا الـــذي سلـــب الأفـــرنـــج دولتهـــم
وملكهـــم يـــاملـــوك الارض فـــاعتبروا
مـــراكـــز مـــا اختطـــاهـــا الخوف مـــد مـــائة
عـــامـــا ولا ريـــع أهلـــوهـــا ولا ذعـــروا
ولا أصرح بـــأسماء البـــلاد فقـــد
أسهبـــت والقـــائل المنطيـــق يختصر
يغنيـــك مجمـــل قـــولي عـــن مفصلـــة
في لفظـــة البحـــر معنـــى تحتـــه الـــدرر

وهي طويلة وله من قصيدة أخرى:
الـمم بـــدار النـــاصر الملـــك الـــذي
في كفـــه للجـــود سبعـــة أبحـــر
فـــإذا مـــررت بملكـــه وفتـــوحـــه
فـــاسخـــر بما يـــروى عـــن الاسكنـــدر
وإذا بصرت بجـــاشـــه وجيـــوشـــه
فـــاحـــث التراب على ذؤابـــة سنجـــر

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة:

كسرت على كسرى لعـــدلـــك دولـــة
قصرت مهـــابتهـــا تطـــاول قيصر

أهـدى صـلاح الـديـن لـلاسـلام اذ
أردى قبيـــل الكفـــر مـــالم يكفـــر

رب الملاحـــم لم يـــؤرخ مثلهـــا
العلماء قـــدمـــا في قـــديـــم الاعصر

خلعـــت عليـه خلعـــة الملـك التـــي
زيـــدت بهاءا بـــالطـــراز الاخضر

رايـــاتـــه صفـــر يـــردن وتنثنـــي
حمرا تمج نجيـــع آل الأصفـــر

لم لم تـــدن شـــوس الملـــوك لـــه وقـــد
ملـــك السـواحـل في ثـــلاثـــة أشهـــر

واستنقـــذ البيـــت المقـــدّس عنـــوة
مـــن كـــان ذي نجـــس بكـــل مطهـــر

وأريتهـــم لما التقـــى الجمعـــان بالـــ
ـــبيت المقـــدس هـــول يـــوم المحشر

ورددت ديـــن الله بعـــد قطـــوبـــه
بـــالمسجـــد الأقصـــى بـــوجـــه مسفـــر

واعـــدت مـــا أبـــداه قبلـــك فـــاتحا
عمـــر فـــأنـــت شريكـــه في المتجـــر

حتـــى جمعـــت لمعشر الاســـلام بيـــ
ـــن الصخـرة العظمـى وبين المشعـر

فلصخرة البيت المقـدس كفـؤهـا الـــ
ـــحجر المفضـــل عنـــد أفضـــل معشر

فكـــأنـــه انســـان عين صـــورة
يلقـــاك اســـوده بمعنـــى أنـــور

- ٨٦١٠ -

فصل

في حصار صور وفتح هونين وغير ذلك

قال العماد: ثم إن السلطان مازال مقيما بظاهر القدس يحقق الآمال، ويفرق الأموال، حتى وردت كتب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وكان نائب السلطان بصيدا وبيروت. وهما مجاورتان لصور، فكتب يحرض السلطان على حصار صور، فرحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان، وأخذ صوب عكا وسبقه إليها الأفضل وتقي الدين، وودع السلطان ولده العزيز ورده إلى مصر، فكان آخر عهده به، واستصحب السلطان أخاه العادل، فوصلا إلى عكا مستهل رمضان فأصلح من شأنها، ثم رحل فنزل على صور يوم الجمعة تاسع رمضان وخيم بإزاء السور بعيداً منه على النهر، ومعظم البلد في البحر وهي مدينة حصينة متوسطة في البحر كأنها سفينة، وكان المركيس الذي في صور قد حفر لها خندقاً من البحر إلى البحر، وبنى بسواشيره وأحكم في التعمير تدبيره، واستظهر بتكثير العدد والعدد، واغتنم اشتغال السلطان بفتح القدس، فأقام السلطان بتلك المنزلة على صور ثلاثة عشر يوماً حتى تلاحقت الأمداد، وكثرت العدد وآلات الجهاد، ورتبت المنجنيقات، ثم حول السلطان مضاربه إلى تل قريب من السور يشرف منه، ثم حاصرهم وقابل كلا من الملوك بجانب يكفيه منهم الافضل والعادل وتقي الدين فحاصروهم وضايقوهم، ووصل في تلك الأيام من حلب الملك الظاهر غازي ولد السلطان بعسكره الحلبي، فاستظهر السلطان به واستدعى الاسطول المصري، وكان بعكا فجاء منه عشرة شواني، وكان للفرنج في البحر مراكب وحراريق، وفيها رماة الجروخ والزنبوركات يرمون من دنا من البحر، فلما جاء اسطول السلطان استطال عليها وأبعدها، فأحاط بهم المسلمون وقاتلوهم براً وبحراً، فبينما هم في أحلى ظفر واهنأ ورد وصدر، إذ ملك الفرنج خمسة من شواني

المسلمين وأسروا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربي ومتوليه بدران الفاسي، وألقى جماعة أنفسهم في البحر من ناج وهالك، وذلك أنهم سهروا تلك الليلة بازاء مينا صور إلى السحر، ثم غلبهم النوم فما انتبهوا إلا والفرنج قد ركبتهم ونكبتهم، فأصبح المسلمون وقد انثلموا، وأتاهم من الأمر مالم يعلموا، ونفذ السلطان إلى المراكب الباقية أن يسيروا إلى بيروت، وخاف عليها لقلتها أن يستولي عليها عبدة الطاغوت، فنجا منها شيني رئيس جبيل والباقون نظروا إلى الفرنج وراءهم، فألقوا أنفسهم في الماء وخرجوا إلى البر على وجوههم، ثم إن الفرنج بعد هذا طمعت فخرجت يوماً وقت العصر مستعدة للقتال، فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على ا لكافرين ، وأسر مقدم كبير لهم، وظن أنه المركيس فسلمه السلطان إلى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه، وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم أن المركيس بعد في الحياة، فطال حصاره حتى ضجر كثير من أمراء المسلمين لأنهم رأوا مالم يألفوه من تعسر الفتح عليهم، فاشاروا على السطان بالرحيل لئلا تفنى الرجال، وتقل الأموال، وكان البرد قد اشتد عليهم، وكان رأي السلطان والاتقياء من الأمراء كالفقيه عيسى،و حسام الدين طمان، وعز الدين جرديك النوري الثابت الجنان الثبات إلى الفتح لئلا يضيع ماتقدم من الأعمال وإنفاق الأموال، وقال السلطان قد هدمنا السور، وقاربنا الأمور فاصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا، ولاتعجلوا فاظهروا الموافقة وفي أنفسهم مافيها، فلم يصدقوا القتال، وتعللوا بأن الرجال جرحى والعلوفات قد قلت، فلم يسع السلطان بعد ذلك إلا الرحيل. فأمر بنقل الأثقال فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لئلا يناله العدو، ورحل في آخر شوّال وهو أوّل يوم من كانون الأول. وسار تقي الدين إلى دمشق على طريق هونين. واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين، ورحل السلطان إلى عكا فوصلها في ثلاث مراحل لأنه سلك طريق الناقورة وهي طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب

المثل، لا يعبر بها إلا جمل جمل، فعبرت بها الاثقال والاجمال في اسبوع، وكان عين يوم رحيله من صور أمراء يقيمون عليها إلى أن يعرفوا عبور الثقل، وخيم السلطان عند التل، وسار العادل إلى مصر، والظاهر إلى حلب وبدر الدين دلدرم الياروقي إلى بلاده.

قال: وفي مدّة رحيل السلطان عن صور جاءه خبر سيف الدين محمود أخي عز الدين جاولي أنه استشهد في عفر بلا تحت حصن كوكب، كبسه الفرنج فيها ليلاً، وذلك أنه كان قد بقي على السلطان بعدما فتح من بلاد العدو من جملة أعمال طبرية والغور حصنا صفد وكوكب، وكان في صفد جمهرة الداوية، وفي كوكب جمهرة الاسبتارية، فاحتاج السلطان في فتحها إلى المطاولة، فوكل بصفد جماعة يعرفون بالناصرية مقدمهم مسعود الصلتي، ووكل بكوكب هذا الامير سيف الدين محموداً، فأقام في حصن عفربلا، وهو قريب من حصن كوكب، ونغص على المقيمن فيها المطعم والمشرب، وضيق عليهم المذهب، إلى أن دخل الشتاء فاختلت الحراسة، واعتلت السياسة، فلما كانت ليلة آخر شوال، وكانت ليلة باردة ماطرة حرس أصحاب سيف الدين حتى ضجروا، فغلبهم النعاس فما استيقظوا إلا وفرنج كوكب عليهم باركة، فدافعوا عن أنفسهم حتى استشهدوا، وأخذ الفرنج غنيمة المسلمين، ودخلوا بها كوكب، وكان هذا الأمير محمود ذا دين متين ومكان من النسك مكين، وهو يسهر أكثر ليله متهجداً، وقد جعل منزله مسجداً، فجمع بين التهجد والجهاد، وكان كثير الاجتهاد، فاغتم السلطان بمصابه، وزاد تألماً إلى مابه.

وتقدّم إلى صارم الدين قايماز النجمي أن يرابط كوكب في خسمائة فارس، ففعل ولم يزل بها إلى أن فتحت كما سيأتي.

قال: وفتحت هونين والسلطان محاصر صور، وكان لما فتح تبنين قد

امتنعت عليه هـونين، فوكل بها من رابطهـا وضايقها حتى طلبـوا الأمان، وجاء خبرها إلى السلطان وهو على صور، فنفـذ الأمير بدر الدين دلدرم، ففتحتها وخـرج الفرنـج منها سـالمين آمنين، وكان بقـي أيضاً مـن عمل صيدا قلعة أبي الحسن وشقيـف أرنون، وأقام السلطان بظاهر عكـا ناظراً في أمـور رعيتـه، ثـم دخلهـا وسكـن بـالقلعـة وسكـن الأفضـل بـرج الداوية،وولى عكـا عز الدين جرديك، ووقـف دار الاسبتار نصفين نصفاً على الفقهـاء، ونصفـاً على الصـوفية، ووقـف دار الاسقـف ببيمارستـانـا، ووقف على كل من ذلـك كفايته، وأظهر به عنايتـه، وسلم جميع ذلك إلى قاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب وهو في ذلك مصيب.

- ٨٦١٤ -

فصل

في ورود رسل التهاني من الآفاق وقدوم الرسول العاتب من العراق

قال العماد: ووردت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق وكلهم يهنىء السلطان بما أفرده الله به من الفضيلة، وأقدره عليه من نجح الوسيلة، وهو فتح القدس الذي درجت على حسرته القرون الأولى، وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى، فما منهم إلّا من يعترف بيمنه ويغترف من يمه، ويقر بحكم التنزيل له وينزل على حكمه، ويخطب بصداقته، ويتقرب بالوفاء والوفاق، ويتباعد عن الشقاء والشقاق، فمن جملتهم رسول صاحب الري، ورسول المستولي على ممالك همذان، وأذربيجان، وارّان، فما من يوم يمضي وشهر ينقضي إلا ويصل منهم رسول، ويتصل به رسول.

وذكر العماد في البرق أنه وصل إلى السلطان وهو بعكا رسول أتابك مظفر الدين قزل أرسلان وهو عثمان بن أتابك ايلدكز المستولي على بلاد العجم بعد أخيه البهلوان، ثم ذكر من خرقه في كرمه شيئاً كثيراً، ثم قال: وهذا كله لايكون في بحر سلطاننا جدولاً ، وكان السلطان مذهب المذهب، ظاهر المحفل والموكب، قد خصه الله بالصدر الأرحب والنصر الأغلب، عزمه إلى الجهاد مصروف، وخلقه بالمعروف معروف، وهمه بالسماح مشغوف، مايفتح بالسيف في البلاد يهبه لمن يضرب معه بالسيف في الجهاد، وللخالق تقواه، وللمخلوقين جدواه، وإنما يريد للاخرة دنياه، فلاجرم ختم الله بالحسنى عقباه.

قال: ولم يكن في الملوك السالفة أمضى منه عزماً، وأجدى فضلاً، وأعم جدوى، وأدمل جهدا في الجهاد، واملك جلدا على الجلاد، فإنه

باشر بنفسه الحرب، ومارس الصعب، وقذف بالحق حين حققه على الباطل فأزهقه، ولاحد ولاعد لما في سبيل الله من نفائس والأموال أنفقه، ومن أول هذا العام إلى منتهاه لم يجف لورده لبد، ولم ينضب من ورده عد ولم يقر له جنب بل لقي في فصلي القيظ والقر مض الحر وعض البرد، بحر وجهه الكريم، وقضى حق الدين موفيا بصدق غرامه حق الغريم، وكل ماتم من النصر يوم حطين وفتح القدس وتسلم بلاد الساحل، إنما تسنى بشهر سيفه في فصل الصيف وشهوره واستظهاره بظهور الإسلام وشد ظهوره، وأنشد العماد للقاضي الفاضل في وصف أسيافه:

ماضيات على الدوام دوامي ... هي في النصر نجدة الاسلام

في يمين السلطان ان جردتها ... أشبهها صواعق في غمام

تنثر الهام كالحروف فما أشـ ... ـبه هذي السيوف بالاقلام

في محاريب حربه البيض صلت ... وركوع الظبى سجود الهام

وذكر من كلامه في التوسط بين الأصدقاء: «ما ادخل بينكم إلا كدخول المرود في الاجفان، يرد إليها ماذهب منها من النور والغمض، أو كالنسيم بين الأغصان يعطف بعضها على بعض».

قال العماد: ووصل أخي تاج الدين أبو بكر حامد من دار الخلافة برسالة في العتب على أحداث ثقلت، وأحاديث نقلت، ووشايات أثرت، وسعايات في السلطان شعثت، وذلك في شوّال ونحن على حصار صور، وسبب ذلك أنه لما تم الفتح الأكبر، وخص وعم النجح الأظهر، وقطع دابر المشركين، وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين أمرني السلطان بإفشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البشرى به إلى العراق، فقلت هذا فتح كريم، ومنح من الله عظيم، فلا ينبغي أن يكون

مبشر دار الخلافة بما أنزله الله علينا من الرحمة والرأفة إلا من هو عندنا أجل وأجلى، وأعلم وأعلى، وأجمع لفنون الفضائل، وأعرف بأداء الرسائل فلا يرفع العظيم الا بالعظيم الرفيع، فإن الشريف يتضع شرفه بمقارنة الوضيع، فقال هذه نصرة مبتكرة، وموهبة مبشرة، بدرت وندرت فنحن نعجل بها بشيراً، ونؤخر للاجلال كما ذكر ت سفيراً وكان في الخدمة شاب بغدادي من الأجناد، وقد هاجر للاسترفاد، وتوجه بعد وصوله، وتنبه بعد خموله، فسأل في البشارة إلى بغداذ، وزعم أنه يداوم إليها الاغذاذ، وشفع له جماعة من الأكابر، حتى حظي بأشرف البشائر، فقلت: هذا لايحصل له وقع، ولايصل إليه نفع، والواجب أن يسير في مثل هذا الخطير خطير، ويسفر في هذه النصرة الكبرى كبير، ثم سار المندوب وشغلت عن ارسال سواه الفتوح والحروب، ولما فتح البيت المقدس أرسل ببشارته نجاب ونفذ بها كتاب، ووصل البشير الجندي فحقروه وماوقروه، فإنه كان عندهم منظوراً بعين الاحتقار، فنظروه بتلك العين ، وحبوه بما يليق به من الرقة والعين، ونقم على السلطان إرسال مثله، وتسمح المندوب بكلام أخذ عليه، وبدرت منه أحاديث نسبت إليه، وقال في سكره وحالة نكره مانعرض عن ذكره، فخيل وموّه، وتنكر وتكره وظن أن لكلامه أصلاً وللفظه منا وصل، وانهيت إلى العرض الأشرف مقالاته، وعلمت جهالاته، وتجني على السلطان بإرساله، وطرق إلى هداه ماانكروه من مقال المذكور وضلاله، ووجد الاعداء حينئذ إلى السعاية طريقاً ، وطلبوا الشمل استسعادة بالخدمة تفريقاً، واختلقوا أضاليل، ولفقوا أباطيل، وقالوا هذا يزعم أنه يقلب الدولة، ويغلب الصولة، وأنه ينعت بالملك الناصر، نعت الإمام الناصر، ويدل بماله من القوة والعساكر، فاشفق الديوان العزيز على السلطان من هذه، وبرز الامر المطاع بارسال أخي وانفاذه، وقالوا: هذا تاج الدين أخو العماد تكفل لنا في كشف سر الأمر بالمراد، فإن أخاه هناك مطلع على الاسرار، وهو منتظم في سلك الاولياء الأبرار، وعوّل عليه الديوان في السفارة ، ورد

معه جواب البشارة، وكتب له يذكره بموجبات مقاصد العتب، ومكدرات موارد القرب، والمخاطبة فيها وإن كانت حسنة خشنة، والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينة، فسار الأخ إلى دمشق، وكان قد عاد المندوب نادباً عادياً، جاحداً للنعمة شاكياً ، وقال: أخو العماد قد وصل بكل عتب وغضب، ولفظ فظ ومعه الملامات المؤلمات، فقلت له: اسكت واصمت، وقلت للسلطان: سمعاً وطاعة لأمر الديوان، فإن اظهار سر العتب لك من غاية الإحسان، فقال: نعم ماقلت، ولما قرب أخي أصبحت لقدومه انتخي فأمر السلطان الامراء على مراتبهم باستقباله، وتقدم لجلالة قدومه بإجلاله، وتلقاه الملوك الحاضرون: العادل.والمظفر.والأفضل.والظاهر،ثم ركب وتلقاه بنفسه، وخصه من تقريبه بأنسه، ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار، ومصارع الكفار، ثم نزل وأنزله بالقرب، ثم أحضره وقد أخلى مجلسه لي وله وحده، فأدى الأمانة في مشافهته، ووجه مقاصده في مواجهته، وأحضر التذكرة، وقد جمعت المعرفة والنكرة، فقرأتها عليه وكانت في الكتب غلظة عدت من الكاتب غلطة، وخيلت سقطه، وجلبت سخطه، وقال: إن الإمام أجل من أن يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ والاسجاع الغلاظ، فقد أمكن إيداع هذه المعاني في أرق منها لفظاً وأرفق، وأوفى منها فضلاً وأوفق، معاذ الله أن يحبط عملي، ويهبط أملي، وامتعض وارتمض، ثم أعرض عما عرض، ورجع إلى الاستعطاف وانتجع بارق الاستسعاف،و قال : أماما تمحله الأعداء، وعدا به المتمحلون، فما عرف مني إلا الاعتراف بالعارفة، وذكر السلطان أياديه السالفة في الفتوحات، وإقامة الدعوة العباسية بمصر واليمن، وإزالة الادعية وإبادة الأعداء، وفتح البيت المقدس، قال: وأما النعت الذي أفكر ونبه على موضع الخطأ فيه وذكر، فهذا من عهد الإمام المستضيء، والآن كل مايشرّفني به أمير المؤمنين من السمة فإنه اسمى لي من الذي هو اسمي وأشرف، وأرفع وأعرف، وماعزمي إلا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين، وقطع دابر المنافقين والمشركين، ثم ندب مع أخي

من سار في خدمته لزيارة القدس، ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل مافي النفس، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضى، ومضى مامضى، وكان جماعة من الملوك والأمراء كالعادل ومظفر الدين قد وبخوه لما قيل في حقه وأرادوا أن يغضبوه فما غضب بل غاض غيظه ونضب، وتلقى ذلك بصدر رحيب، ولفظ مصيب.

قلت: ووقفت على كتاب كتبه الصاحب قوام الدين بن زيادة من الديوان العزيز ببغداد إلى السلطان صلاح الدين، وكان قوام الدين يومئذ استاذ الدار العزيزة، يقول فيه: «لولا مكان صلاح الدين من الخدمة والشح به، والمنافسة فيه، لما جوهر بالعتاب، ولارفع دونه الحجاب، بل كان يترك معه الأمر على اختلاله، ويدمل الجرح على اعتلاله، وقد ذكرت الأسباب التي أخذها الديوان العزيز عليه واستغرب وقوعها من كماله ليرعيها سمعه الكريم، ويستوري فيها رأيه الأصيل، وينصف في استماعها، والاجابة عنها غير عارج على الجدل ولامؤتم بالمراء المذمومين عقلا وشرعا بل يحمل قولي هذا على سبيل المماحضة والانتصاح وصدق النية في رأب التنائي والاصلاح، فان إيجار الدواء المقر لايتهم فيه الطبيب المجتلب للعافية»

ثم ذكر من تلك الأمور: «أن من انتفى من العراق بسبب من الأسباب، لجأ إلى صلاح الدين فوجد عنده الاقبال عليه، وكان الأدب يوجب إبعاد من أبعد عنه، وتقريب من قرّبه إليه» ثم قال: «وإن مما أضحك بثغر الاستعبار ماانتهى عن العوام وأشباه الانعام وطغام الشام، من الخوض في المذاهب، والانتهاء في التشنيع إلى اختلاف كل كاذب.

ومنها: ماجرى من سيف الاسلام بالحجاز من ازعاج الحجاج، وارهاج تلك الفجاج، والاقدام على مناسك الله وشعائره، وإيقاد سعير الفتنة فيها ونوائره، واحتذاء السيرة القاسطة، واحياء بدع القرامطة،

ومانفر منه كل طبع ، ومجه كل سمع، فكيف جاز لصلاح الدين أن يرخي عنان أخيه فيما يقرّض سوابقه وأواخيه.

ومنها: ماقضى الناس منه العجب وفورق فيه الحزم والأدب، وهو ماأوجب التلقب الذي استأثر به أمير المؤمنين»

ثم قال: «وقد ساوق زمان الدولة العباسية ثبتها الله خوارج دوخوا البلاد، وأسرفوا في العناد، وجاسوا خلال الديار، وأخافوا المسالك واستضاموا الممالك، واقتحموا من الشقاق أشق المهالك، فما انتهى أحدهم فيما احتقب وارتكب إلى المشاركة في اللقب، ومن الحكم الذائعة في وجيز الكلام، الذي يصلح للمولى على العبد حرام ومنها مكاتبة كل طرف يتاخم أعمال الديوان من مواطن التركمان والأكراد ومراسلتهم ، ومهاداتهم، وقرع أسماعهم بما يعود باستزلال أقدامهم، وفل عزائمهم، وهم لايعرفون إلا أنهم رعية للعراق، وخول للديوان يرثون الطاعة خالفاً عن سالف»

ثما قال في آخر الكتاب: «وهذا كله لاأقوله انكاراً لجلائل مقامات صلاح الدين، ومشاهير مواقف جهاده في سبيل المؤمنين، فإنه أدام الله علوه رجل وقته ونسيج وحده، والمربى على من سلف من صنائع الدولة، وعلى من يأتي من بعده، وهو الولي المخلص الذي عهد فوفى، واستكفي فكفى، وطب فشفى، فكيف يجوز له بسعادته أن يهجن مساعيه الغرّ المحجله، ويخرج من مكانته المكرمة المبجلة ويبطل حقوقه الثابتة المسجلة»

ثم قال: «فقد علم كل من نظر في التواريخ والآثار، ونصحته بصيرته في التبصر والاعتبار، أن هذا البيت العظيم مازال يرفع الأقدار الخاملة، فينزون عليه بطراً فيغار الله له منتصراً، ويعقبه عليهم اظفاراً، وظفرا،

كدأب آل طولون، وآل سامان، وآل بويه، وآل سجلوق، (وقروناً بين ذلك كثيراً)(٧٧) ،فمن الـذي زلزلوه فثبـت، ومن الذي حصـدوه فنبت، وأي نار أوقدوها فما خبت » .

ثم قال في آخره: «اللهم قد بلغت، وللـرأي الصلاحي مايزيد علوّه إن شاء الله تعالى».

وذكر ابـن القادسي أن الجنـدي الذي أرسلـه صلاح الـدين بـالبشارة يعرف بـالرشيد بـن البوشنجي، قـال: وكان صبياً كثير الادبـار، مشمراً في دروب بغداد، ثم تـوجه إلى الشام هارباً من الفقـر، فحين وصل إلى بغداد رسولاً قامت القيـامة بمراسلته، وكتب إلى صلاح الديـن بالانكار عليه، وقيل له: أما كـان في أصحابك أميز من هذا ترسله إلى الـديوان، فاعتذر صلاح الديـن، ووصلت كتبه بالاعتـذار، وقبل عذره، وأما ابـن البوشنجي فإنه حين وصولـه إلى الشام أكثر الكلام عند صلاح الديـن، فأنكر عليه، فلما مضى الاسبوع جاءته نشابة فذبحته.

فصل

في باقي حوادث سنة ثلاث وثمانين

فيها قتل الأمير شمس الدين بن المقدّم، وهو محمد بن عبد الملك يوم عرفة بها، قال العماد: وكـان السلطان لما فرغ من فتح القدس ودنـا موسم الحج قال الموفقون: نحرم من المسجـد الأقصى إلى المسجد الحرام، ونفوز بالحج مع إدراك فضيلـة فتح بيت المقدس في هذا العـام، فالحج والجهاد ركنـا الاسلام، فـاجتمع جمع جـم من أهـل ديار بكـر والجزيرة والشـام، وسـار بهم الأمير شمس الـدين بـن المقـدم شيخ أمـراء الاسلام الكـرام، فوّدعه السلطان على كره من مفـارقته، واستمهله ليحج في السنة الأخرى على مرافقته، فقال مـامعناه: إن العمر قد فرغ والأمر قـد بلغ والشيب قد أنذر، والفـرض قد أعـذر فاغتنم فـرصة الإمكـان قبل أن يتعـذر، فمضى والسعـادة تقـوده، والشهادة تـروده، حتـى وصـل إلى عـرفات، ومـا عـرف الآفـات، وشاع وصـوله، وذاع قفـوله، وضربـت طبولـه وسالـت سيولـه، وجالـت خيوله، وضربـت خيامه، وخفقـت أعلامه، فلما أصبحـوا نقرت كالعادة نقـاراته، ونعرت بوقاتـه، فغاظ ذلك أمير الحاج العراقـي، فركب إليه في أحزابه فأوقـع به وبأصحابه وأبلاهـم بجراحـه ونهابه، وجرى حكم الله الذي كان الطبل أوكـد اسبابه، وقتل جماعة من حـاج الشام وجرحوا، وهتكت أستـارهم وافتضحوا، ونقـل أمير الحاج طاشتكين شمس الـدين ابن المقدم إلى خيمتـه، وهو مجروح وفيه روح، وحمله معـه إلى منى فقضى ودفن بالمعلى، وتم ذلك بقضاء الله وقـدره في تقلب حوادث الدهر وغيره، وارتاع أمير الحاج بما اجترمـه، وكيف لم يـراقب الله وأحـل حرمـه، وكيف عـدا على الحاج العائذ بـالله وسفـك دمـه، فكتب محضراً على مـااقترحـه بعذره فيما اجترحـه، وألزم اعيان الحاج من سـائر البلاد بوضع خطـوطهم على ماعينه من المراد، فكتبوا مكـرهين غير مشتهين، وكان عذره أنه أنكر عليـه ضرب الطبل فـأبى، فلما انتهـت الحالـة إلى الخليفة أنكـرها انكـاراً

شـديداً، ونسبهـا إلى طيش طـاشتكين، ولم يجد له رأيـاً سديـداً فلا جـرم اتضع عنده قدره، واتضح له وزره، ووهى أمره، وادخرهاله حتى نكبه بها بعـد سنين، وحبسه بها وأطـال سجنه ، ثـم عفا عنـه بعد مـدّة مديـدة، وشدّة شـديدة، وولاه حـرب بلاد خوزستـان وخراجهـا، وولى امارة الحاج غيره، ولما وصل إلى السلطان خبر استشهاد ابنُ المقدم وجماعته، لامه على ترك الحزم واضـاعته، فـاحتسبه عند الله غـازياً شهيـداً، ساعيـاً إلى الجنة بقدمه سعيـداً، وأقام ابنه عز الديـن ابراهيم في بلاده، مقامـه، وأقر عليه انعامه.

وقال محمـد بن القادسي في تـاريخه، ونقلته مـن خطه: أراد أمير الحاج بـالشام وهـو ابـن المقدم أن يـرفع علماً على الجبـل بـالموقف فمنعـه أمير الحاج طاشتكين، وجرت بينهما مراجعات أفضت إلى الخصومة، بين حاج العراق وحـاج الشام، ونهب البعـض البعض، وجـرت جراحـات، فجرح ابـن المقدم ولم يغير العـادة في ذلـك، ومات ابـن المقـدم بمنى في اليـوم الثـاني، ووصلت النجـابة مـن مكة فـأخبروا بما جرى مـن أصحاب ابـن المقدم، وقد شهد الشهود بذلك من الحجاج، فقرىء ذلك بجامع القصر الشريف.

قال: وفي ثاني شوّال من هذه السنة تـوفي أبو الفتح محمد بن عبيد الله ابن عبد الله سبط ابن التعاويذي الشاعـر، وكان كاتبا بديوان المقاطعات، وخدم بيت ابن رئيـس الرؤساء وأضر في آخر عمره، ومولـده عاشر رجب سنة تسع عشرة وخمسمائه.

قال: وفي :خامس رمضان توفي الفقيه الحنبلي أبو الفتح نصر بن فتيان ابن مطر المعروف بـابن المنى، وكان فقيها زاهداً صالحاً عـالماً، مولده سنة احـدى وخمسمائة، وتفقه عليـه جماعة مـن أئمة الحنـابلة، كـالحافظ عبـد الغني بن عبد الـواحد بن سرور وأخيه ابراهيـم، والشيـخ الموفق عبد الله

- ٨٦٢٣ -

ابن أحمد بن قدامة، ومحمد بن خلف بن راجح، والناصح عبد الرحمن ابن نجم بن عبد الوهاب، وعبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلي وغيرهم.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين

قال العماد: خرج السلطان من عكا فنزل على كوكب في العشر الأوسط من المحرم، فحاصرها وصابرها أياماً فلم يتمكن منها لمنعتها وحصانتها، ورآها تحتاج إلى طول مصابرة ومرابطة، ولم يكن معه جميع أمرائه وأوليائه، وإنما كان في خواصه، فوكل بها قايماز النجمي، ووكل بصفد طغرل الجاندار، كل واحد منهما في خمسمائة، وسير إلى الكرك والشوبك سعد الدين كمشبه الأسدي، وكانت هذه الحصون الأربعة ضيقة المسلك صعبة المدرك

قال: ثم إن السلطان اشتغل بلقاء الرسل الواصلين، من جملتهم رسول صاحب آمد قطب الدين سكمان بن نور الدين محمد بن قزل أرسلان، وكانوا خائفين على آمد أن يسترجعها منهم السلطان، لأنها كانت لهم من مواهبه كما سبق، فاستوثقوا بالوصلة باحدى بنات العادل، وكان العادل قد وكل أخاه السلطان في ذلك لما سار إلى مصر، وقدم رسولهم في ذلك، فتمت الوصلة بينهما.

قال: وأوّل من وصل والسلطان بكوكب اختيار الدين حسن بن غفراس مدبر دولة قليج أرسلان بالروم، وكان هذا الرسول مغرى بلبس الحلي والديباج والوشي، في يديه زنود، وخواتم مرصعة بزينة ثقيلة بجواهر ويواقيت ثمينة، وفي عقودها درة يتيمة، وفي يده عمود من العسجد، وكل عدّته تبرها مجوهر، وكان إذا شاهده السلطان تبسم وعامله بخلعه، وقال: هذا سافر بنضاره لينظر، وبديناره ليبصر.

وقال القاضي ابن شدّاد:لما دخلت سنة أربع وثمانين، رأى السلطان الاشتغال بأخذ هذه الحصون الباقية التي لهم مما يضعف قلوب من في صور ويهيىء أمرها ، فاشتغل بذلك، ونزل رحمه الله على كوكب في أوائل

المحرم، وكان سبب بداءته بكوكب أنه كان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن يدخل إليهم قوة أو حماة، فخرج الفرنج ليلاً وأخذوا غرّتهم وكبسوهم بعفربلا، وقتلوا مقدّمهم، وكان من الأمراء يعرف بسيف الدين أخي جاولي، وأخذوا أسلحتهم، فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن كان معه من خواصه بعكا، فإنه كان قد أعطى العساكر دستورا، ولقي في طريقه شدّة من الثلج والبرد، فحملت السلطان مع ذلك الحمية على النزول عليها، وأقام يقاتلها مدّة.

قال: وفي تلك المنزلة وصلت إلى خدمته، فإني كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين، وكانت وقعة ابن المقدم، وجرح يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج طاشكتين على ضرب الطبول والدبدبة، فان أمير الحاج نهاه عن ذلك فلم ينته ابن المقدّم ، وكان من أكابر أمراء الشام، وكان كثير الغزاة فقدّر الله أنه جرح بعرفة يوم عرفة، ثم حمل إلى منى مجروحا فمات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الأكبر، وصلى عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم، ودفن بالمعلى، وهذا من أتم السعادات، وبلغ ذلك السلطان قدّس الله روحه فشق عليه.

قال: ثم اتفق لي العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته، والجمع بين زيارة النبي ﷺ وزيارة ابراهيم عليهما الصلاة السلام، فوصلت إلى دمشق، ثم خرجت إلى القدس، فبلغه خبر وصولي فظن أني وصلت من جانب الموصل في حديث فاستحضرني عنده، وبالغ في الاكرام والاحترام، ولما ودعته ذاهبا إلى القدس خرج إليّ بعض خواصه وأبلغني تقدّمه إليّ بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس، فظننت أنه يوصيني بمهم إلى الموصل، وانصرفت إلى القدس الشريف يوم رحيله عن كوكب، ورحل رحمه الله لأنه علم أن هذا الحصن لايؤخذ إلا بجمع العساكر عليه، وكان حصنا قوياً، وفيه رجال شداد من بقايا السيف، وميزة عظيمة، فرحل إلى دمشق، وكان دخوله إليها في سادس

ربيع الأوّل ، وفي ذلـك اليوم اتفق دخـولي إلى دمشق عائداً مـن القدس، فـأقام رحمه الله في دمشـق خمسة أيـام، وكان لـه غائبـا عنها أربعـة عشر شهرا.

قال: وفي ذلـك اليوم الخامـس بلغه خبر الفـرنج أنهم قصـدوا جبيل، واغتالـوها فخـرج منزعجا سـاعة بلوغ الخبر، وكـان قد سير إلى العسـاكر ليستدعيهـا من سـائر الجوانب، وسـار يطلب جبيـل، فلما عرف الفـرنج بخروجه كفـوا عن ذلك، وكان بلغـه وصول عماد الدين وعسكـر الموصل ومظفـر الديـن إلى حلب قـاصديـن الخدمـة للغزاة، فسـار نحو حصـن الأكراد في طلـب السـاحـل الفوقـاني ، ولما كان مستهـل ربيع الآخـر نزل على تل قبـالة حصـن الأكراد ، ثـم سير إلى الملك الظـاهر ولـده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالـة انطاكية لحفظ ذلك الجانب، ففعلا وسارت عسـاكر الشرق حتى اجتمعت بخـدمة السلطان في هذه المنـزلة، ووصلت إليـه رحمه الله في هذه المنـزلة فـإنه كـان قد سير إليّ إلى دمشـق يقول تلحقنـا نحو حمص، فخرجـت على عزم المسير الى الموصـل متجهزاً لذلك، فـوصلت إليه امتثالاً لأمره، فلما حضرت عنده فـرح بي وأكرمني ، وكنت قد جمعت لـه كتاباً في الجهاد بدمشق مدّة مقامـي فيها بجميع آدابه وأحكامه ، فقدّمته بين يديه فأعجبه وكان يلازم مطالعته، ومازلت أطلب دستوراً في كـل وقت وهو يـدافعني عـن ذلك ويستدعيني للحضور في خـدمته في كـل وقـت، ويبلغني على ألسنـة الحاضريـن ثناؤه عليّ وذكـره إياي بالجميـل ، فأقام في منزلتـه تلك شهر ربيع الآخـر أجمع، وصعد في أثنائه الى حصـن الأكراد وحاصره يـوماً يجسـه به، فما رأى الوقـت يحتمل حصاره ، واجتمعت العسـاكر من الجوانب ، وأغار على بلـد طرابلس في هـذا الشهـر دفعتين ، ودخـل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها مـن العسـاكـر، وتقوية للعساكر بالغنائم، ثم نادى في الناس في أواخر الشهر إنّا داخلون إلى السـاحـل ، وهـو قليـل الأزواد، وهو محيـط بنـا في بـلاده مـن سـائر الجوانب فاحملـوا زاد شهر ، ثم سير إليّ مع الفقيه عيسـى، وكشف لي أنه

- ٨٦٢٧ -

ليس في عـزمه أن يمكنني من العـود إلى بلادي، وكان الله تعالى قـد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحب الجهاد فأجبته إلى ذلك وخدمته من تاريـخ مستهل جمادى الأولى، وهـو يوم دخولـه الساحـل الأعلى، وجميع ماحكيتـه من قبل إنما هو روايتـي عمن أثق بـه ممن شاهدوه ، ومـن هذا التاريـخ ماأسطـر إلاّ ماشـاهدتـه ، أوأخبرني به مـن أثق بـه خبراً يقارب العيان، والله الموفق.

فصل

قال العماد: كان جماعة من أهل الحزم وأولي العزم قد أشاروا على السلطان لما فتح عكا بتخريبها وتعفيه آثارها، وأن يبقى المرابطون المحامون مكانها فلا نأمن عود الفرنج إليها، وتملكها وأن تبنى قلعة القيمون، فكاد يجيب فقيل له هذه مدينة كبيرة، وعمارة كثيرة، وأشير عليه بتبقيتها وأن تعمر وتحصن، فولى أمر عمارتها وتدبيرها الأمير بهاء الدين قراقوش،و هو الذي أدار السور على مصر والقاهرة، فاستدعاه من مصر وأمره أن يستنيب في تلك العمارة، فقدم عليه وهو بكوكب ففوض إليه عمارة عكا، فشرع في تجديد سورها وتعلية أبراجها، وكان قدم من مصر ومعه أساتيذ العمل وأنفاره ودوابه وأبقاره.

قال: ولما رتب السلطان على كوكب رحل مستهل ربيع الأول، ودخل دمشق في سادسه، وكان العسكر الغائب على مواعدة المعاودة في الربيع، وأنه يجتمع على حمص بالجميع، وكان طريق السلطان على بحيرة طبرية من شرقيها، وتجنب عقبه فيق لاستصعاب رقيها، ولما قارب السلطان دمشق تلقاه الناس أحسن لقاء، فقد كانوا متعطشين إلى رؤيته ومتشوقين إلى طلعته، لأنه غاب عنهم سنة وشهرين وخمسة أيام، فكسر فيها الكفر ونصر الإسلام وفتح فيها الأرض المقدسة وأشباهها من البلاد التي كانت بأوضار الكفر منجسه، فأصبحت بالإيمان مؤسسه، فلما استقر قر اره أمر بانشاء الكتب لاستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد من سائر البلاد، وابتدأ بالجلوس في دار العدل، وبحضرته القضاة والعلماء من أهل الفضل.

قال: وكان السلطان قد ولى دمشق بدر الدين مودود المعروف بالشحنة ، وهو أخو عز الدين فرخشاه لأمه، وفوض إليه في هذه الأيام ولاية الديوان، وكان مع الصفي بن القابض، فبقيت معه الخزانة

وحدهـا، وكان الصفي قدبنى للسلطان داراً مطلة على الشرفين بـالقلعة، وأنفق عليهـا أموالاً كثيرة، وبالغ في تحبيرهـا وتحسينها، وظن أنها تقـع من السلطان بمكان، فما أعارها طرفاً ولا استحسنهـا، وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التـي أوجبت عزله عن الـديوان، وقال مايصنع بـالدار من يتوقـع الموت، وماخلقنـا إلا للعبادة والسعـي للسعادة، ومـاجئنا دمشـق لنقيم، ومانروم أن لانريم.

قال:ثم هم بـالغزاة فبدأ بزيارة القاضي الفاضـل، وكان مقيماً بجوسق ابن الفـراش بالشرف الأعلى في بستانـه، فاستضاء بـرأيه فيما يريـد فعله، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه، فأقام عنده إلى الظهر، ثم ودعه ورحل.

قلت: ومـا أحسن ماقـال ابن الـذروي في الآراء الفاضلية مـن قصيدة مدحه بها:

لـرأيـك هـذا النصر للـديـن ينتمـي
فـلا ينتحلـه كـل عضـب ولهذم

وإن كـان فيـه لـلأسنـة والظبـى
مسـاعـدة فـالفضـل للمتقـدّم

تشير على الاسـلام منـك فـراسـة
لها حـزم طـب واحتراز منجـم

وتحميـه ألفـاظ لـديـك كـأنها
قـواطـع بترأونـوافـذ أسهـم

ألا حبـذا فتـح نشرت لـواءه
وقلـت لخيـل الله يـاخيـل أقـدمـي

وقمـت وقـد نـام الأنـام منـاجيـا
بمـولاي نـجّ المسلمين وسلـم

فصل

في دخول السلطان رحمه الله الساحل الآخر وفتح مايسره الله تعالى من بلاده

قال العماد: ثـم رحل السلطان فسلك في جبـل يبوس إلى عين الجر إلى الدلهميـة على البقاع واتـى بعلبك، وخيـم بمرج عـدّوسة، ثـم رحل على سمت اللبوة ثم أتـى الزراعة، ووصل الخبر بوصول عماد الـدين صاحب سنجـار في جموعه وجنـوده ونـزولـه على قدس مـن عمـل حمص على نهر العاصي، ولما ترآى موكبه لموكب السلطـان تقابل القمران وتقارن النيران، واجتمع السعدان وسعـد الجمعان، فخيم السلطان عنـد مخيمه، وسأل أن يزوره السلطان بموكبـه، فأجاب دعوته، ثم رتب السلطـان يوماً لحضوره عنده وتهاديا وتصافيا، وكان أيام المشمـش، وقد وصل من دمشق فأفرح قـدومه، وطلعـت في ابـراج الاطبـاق نجومـه، كـأنها مـن التبر مصوغـه، وبالورس مصبوغـه، صفركأنها ثمر الرايات الناصريـة، حلا منظرا وذوقاً، ولو نظم جوهـره لكان طوقاً كأنما هو خرط من الصنـدل، وخلط با لمندل، وجمد من الثلج والعسـل، وتصاحب هو والسلطان في الـركوب والجلوس والتنـاجـي بما في النفـوس، وتكـرررت المشـاورة في الموضـع الـذي يبتـدأ بقصـده، واتفقـوا على عرقـا وعقـرهـا والنـزول بعقرهـا، وانها إذا ملكـت ملكت طرابلـس فأقاموا بقـدس إلى آخر الشهر حتى اجتمعـت الجموع، ووصلت قبائل العـربان، ثم سار السلطان أوّل ربيع الآخـر، وخيم بقرب حصن الأكراد على البقيعـة، ثم شن الاغارة على نواحي الحصـن وصافيتا والعريمـة وتلك الحصـون، فاستخرج مـافيها مـن المخزون، وفتـح حصن يحمور وسامه الـدمور، ولم تزل الاغارات والغنائم وهم في تلـك المنزلة إلى آخر الشهر، فوصـل قاضي جبلة منصور بن نبيل وجماعـة معه فأشار على السلطـان بقصـدها، وتكفـل بفتحهـا، وفتـح الـلاذقية، وتلـك الحصـون والمعاقـل الشمالية، وكـانت تلـك البلاد قد سلمهـا إليه ابـرنس أنطـاكية

- ٨٦٣١ -

وعـوّل عليه فيهـا، وقال: إن الاشتغـال بطرابلـس مع احتراسهـا يذهـب الزمان، ويفوّت الامكان، والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم، مؤملون أن يتبدل شقاؤهم منـك بالنعيم، فأصغى السلطان إلى قـوله، وأصفى له ورد طـوله، وكـان قـد وصل إليـه مقـدمو جبـل بهراء، فـوفر لهم رواتبـه وأجرى، فندبوا إلى أتباعهم وكتبوا إلى أشياعهم.

فصل

في فتح انطرطوس

قال العماد: وأجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل، فرحل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى، فسرنا في أجام مؤتشبه، وآكام معشبه، وحزون وسهول وشعاب وتلول، حتى خرجنا إلى ساحة الساحل، ونزلنا بها وسرنا الساحل الساحل في ثلاث مراحل، حتى وصلنا إلى انطرطوس سادس الشهر فأحدقنا بها من البحر إلى البحر، فأخلى الفرنج البلد وما خرجوا إلى الحصر، واجتمعوا في برجين عظيمين هما لأنطرطوس كالقلعتين، ونقلوا إليهما من الأموال ماقدروا عليه، فحصر مظفر الدين كوكبري أحد البرجين حتى أنزلهم بالأمان، ثم نقبه من أساسه، وألقاه على أم راسه وعجل دماره، ورمى في البحر أحجاره، وملك جميع مافيه، وامتنع البرج الآخر وفيه الداوية وشوكتهم ومقدّمهم الذي أسر يوم حطين، وأطلق لما سلم مااشترط عليه من البلاد، ثم اجتمع بأصحابه في هذا البرج وقوّاه بآلات الحصر، فامتنع فتحه فاشتغل المسلمون بتعفية البلد وإخفائه.

وقال القاضي ابن شدّاد: دخل السلطان الساحل على تعبية لقاء العدوّ، ورتب الأطلاب، وسارت الميمنة أوّلاً ومقدّمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط، والميسرة في الآخر، ومقدّمها مظفر الدين بن زين الدين، وسار على الثقل في وسط العسكر حتى أتى المنزل فبتنا تلك الليلة في بلد العدوّ، ثم رحل في صبيحة السبت. ونزل على العريمة، فلم يقابلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يومه، ورحل يوم الأحد ووصل إلى انطرطوس فوقف قبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاجتياز إلى جبلة، فاستهان بأمرها، فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر، وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر، فما استتم

نصب الخيم حتى صعد الناس السور، وغنم العسكر جميع من بها ومابها، وخرج الناس والأسرى بأيديهم وأموالهم، وترك الغلمان نصب الخيم، واشتغلوا بالكسب والنهب، ووفى بقوله رحمه الله فإنه كان قد عرض عليه الغداء فقال: نتغدى بأنطرطوس إن شاء الله تعالى. وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً وحضرنا عنده للهنا بها جرى ومد الطعام وحضر الناس وأكلوا على عادتهم ورتب على البرجين الباقيين الحصار فسلم أحدهما إلى مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أخربه، وأخذ من كان فيه، وأمر السلطان باخراب سور البلد، وقسمه على الامراء وكان البرج الآخر حصيناً منيعاً مبنياً بالحجر النحيت، وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والمقاتلة فيه، وخندقه فيه الماء، وفيه جروخ كثيرة تجرح الناس عن بعد، فرأى السلطان تأخير حصره والاشتغال بها هو أهم منه، فاشتد في خراب السور حتى أتى عليه، وخرّب البيعة وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج إليها من أقطار بلادهم وأمر بوضع النار في البلد فانحرق جميعه، والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير، وأقام عليها يخربها إلى رابع عشر الشهر، وسار يريد جبلة، وعرض له ولده الظاهر في اثناء طريق جبلة ومعه العساكر التي كانت بتيزين.

فصل

في فتح جبلة وغيره.

قال القاضي ابن شدّاد: وكان وصول السلطان إلى جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر، ومااستتم نزول العسكر حتى أخذ البلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيه وقاض يحكم بينهم، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع، وبقيت القلعة ممتنعة ونزل العسكر محدقاً بالبلد وقد دخله المسلمون واشتغل بقتال القلعة، فقوتلت قتالاً يقيم عذراً لمن كان فيها، وسلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين وسار عنها يطلب اللاذقية.

وقال العماد: بعد فتح انطرطوس وصل إلينا رجال حماة، فرحل السلطان يوم الاثنين رابع عشر الشهر ونزل على مرقيه، وقد أخلاها سكانها فخيم فيها أهل الاسلام وطاب لهم فيها المقام، وكانت الطريق إلى جبلة على الساحل ضيقة المسالك صعبة المراحل، وهناك للفرنج الاسبتار حصن يقال له المرقب، مأهول معمور ولاطريق له إلا تحت تله، واتفق أن طاغية صقلية لما أشجاه ماتم على الفرنج في الساحل جهز أسطولاً يشتمل من الشواني على ستين قطعة يحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعه، وقدّم عليها طاغية يقال له المرعريط، فوصل وماضر ولا نفع، فإن فرنج الساحل مارفعوا به رأساً وتضجروا منه وكان في عشرة آلاف رجل يحتاجون إلى ميرة وكلف كبيرة، فسار إلى صور، ثم رجع إلى طرابلس، وتردد في البحر وتلدّد وأبلس، واضطرب أشهراً لايظهر له رأي ولايرى له مظهراً، فلما سمع بعبور عساكر المسلمين على الساحل إلى جبلة جاء بالشواني وصفها على موازاة الطريق، ومباراة المضيق، وفيها الرماة، فأمر السلطان بنقل الجفاني إلى هناك وتصفيفها وتكثير ستائرها، وأجلس الرماة من ورائها فمازال الأمر على ذلك والرماة ترمي وتصمي،

وعامة المسلمين في سلوك ذلك المضيق حتى خفت الأثقال، وعبرت الأحمال، وخلص المسلمون من ذلك الشق بغير مشقة، وجازوا على مدينة يقال لها بانياس، وقد انجلى عنها الناس، فخيم المسلمون فيها، ثم أصبحوا على الرحيل فاعترضهم نهر عريض عميق مافيه طريق، وهو مطرد من الجبل إلى البحر وفيه قنطرة واحدة فتنكبها السلطان بالجحفل، ومضى يميناً إلى الجبل وأبعد حتى عبر فوق رأس العين، واختلطت العساكر بالنهر من الجانبين، وتزاحمت الاثقال على القنطرة فما خلصوا تلك الليلة إلى آخرها، ونزل السلطان قبل وصول الأثقال على بلدة وهي بلدة كاسمها بلدة وهي بليدة من غربي النهر على شاطىء البحر، وجانباها الآخران بخندق فيه البحران، وقد أخلاها أيضاً أهلها، وتفرق شملها، وأصبح السلطان يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى على جبلة فتسلمها المسلمون في الوقت وذلك أن قاضيها كان قد سبق ودخلها، وقرن بالنجح للمسلمين أملها، فلما وصلوها أعلى الأعلام الناصرية على سورها، وخلص المسلمون بها من مساكنة الكفرة، وتحصن الفرنج بحصنيها، واحتموا بقلعتيها، فما زال قاضي جبلة يخوفهم ويرعبهم حتى استنزلهم بشرط أن يسترهنهم إلى أن يردوا من انطاكية رهائن جبلة من المسلمين، فضبط عنده جماعة من رؤوس الفرنج والمقدمين، حتى أعاد صاحب انطاكية الرهائن التي عنده ففك بها رهائنه، وتولى قاضي جبلة الأمر فاستخرج ذخائر الكفر ودفائنه، واستنظفهم من كل سلاح وعدة وخيل وقوة، وجاء مقدمو الجبل سامعين مطيعين، وفي الجبل على سمت طريق حماة حصن يعرف ببكسرائيل، وكان أهل الجبل استعادوه من الفرنج منذ سنين، فتسلمه السلطان أيضاً منهم، ثم سلم جبلة إلى سابق الدين عثمان صاحب شيزر، وبجل قاضي جبلة وشرفه، وحبس عليه ملكاً نفيساً ووقفه، وصرفه في املاك آبائه وحكمه في ولاية حكمه وقضائه.

فصل

في فتح اللاذقية

قال القاضي ابن شدّاد :وهي بلد مليح خفيف على القلب غير مسوّر، وله مينا مشهور، وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد، فنزل السلطان رحمه الله يوم الخميس رابع عشر جمادى الأولى محدقاً بالبلد، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد، واشتد القتال وعظم الزحف والنزال وارتفعت الأصوات وقوي الضجيج إلى آخر النهار، وأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة فإنه كان بلد التجار، وفرق بين الناس الليل وهجومه، وأصبح يوم الجمعة مقاتلا مجتهداً في أخذ النقوب من شمالي القلاع، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ماحكي لي من ذرعه عشرين ذراعاً عرضه أربعة أذرع، فاشتد الزحف عليه حتى صعد الناس الجبل وقاربوا السور، وتواصل القتال حتى صاروا بتحاذفون بحجارة اليد، فلما رأى عدو الله ماحل به من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الأمان، وطلبوا قاضي جبلة يدخل إليهم ليقرّر لهم قاعدة الأمان، فأجيبوا إلى ذلك وكان السلطان رحمه الله متى طلب منه الأمان لايبخل به، فعاد الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب، فباتوا إلى صبيحة السبت، ودخل قاضي جبلة إليهم واستقر الحال معهم على أنهم يطلقون بأنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم، خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمنهم، ورقى عليهم العلم الإسلامي المنصور في بقية يوم السبت، وأقمنا عليها يوم الأحد سابع عشر جمادى الأولى.

وقال العماد:رحل السلطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء الثالث والعشرين من جمادى الأولى، فبات بالقرب منها، وصبحناها يوم الخميس وقد لاذ

أهلها بقلاعها، وهي ثلاث قلاع متلاصقات، على طول التل متناسقات، كأنهن على رأس جبل راسخ وذروة أشم شامخ، فسهل لنا فرعها، وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها، فطلبوا السنجق الناصري ونصبوه على السور عشية يوم الجمعة، فلما أصبحوا صعد إليهم قاضي جبلة وأنزلهم بالامان، وتسلمت تلك القلاع بما فيها من عدّة وذخيره وأسلحة وميره، وخيل ودواب كثيرة، وامنوا على أنفسهم وأموالهم، وانصرفوا بنسائهم ورجالهم وذريتهم وأطفالهم، وخفوا من أثقالهم، ودخل جماعة منهم في عقد الذمة، وتمسكوا بحبل العصمة، وانتقل الباقون إلى أنطاكية، ثم ولى السلطان بها مملوكه سنقر الخلاطي، وركب السلطان إلى البلد وطافه، وهز إلى إحسانه أعطافه وأمنه بعد ماأخافه.

قال: ورأيته بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية متناسقة المغاني ومتناسبة المعاني في كل دار بستان، وفي كل قطر بنيان، أمكنتها مخرّمة، وأروقتها مرخمة، وعقودها محكمة، ومساكنها مهندسة مهندمة وصفوفها عالية وقطوفها دانية، وأسواقها قصية، وآفاقها مضية، وارجاؤها فسيحة، وأهواؤها صحيحة، لكن العسكر شعث عمارتها، واذهب نضارتها، ووقع من عدّة من الأمراء الزحام على الرخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام، فشوهوا وجوه الأماكن، ومحوا سنا المحاسن.

قال: وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة، باجزاء الأجزاع مرصعة، وبألوان الرخام مجزعه، وأجناس تصاويرها متنوعة، وأصول تماثيلها متفرعة، وهي متوازية الزوايا متوازنة البنايا، قد تحيرت بها أشباح الأشباه، وصوّرت فيها أمواج الأمواه، وزينت لأخوان الشيطان، وعينت لعبدة الأوثان والصلبان،و لما دخلها الناس أخرجوا رخامها، وشوّهوا أعلامها، وجروا لثامها وكسروا أجرامها، وأهدوا الأسى لهد أساسها، وأفاضوا عليها لباس إبلاسها، وحكموا بعد الغنى بإفلاسها، فافتقرت وأقفرت، وخربت وتربت، ثم لما طابت النفوس، وتجلى عن البلد بفتحه

البؤس، عـاد إلى هذه الكنيسة بالأمـان القسوس،، وهي متشوهـة متشعثه متمسكة بأركانها وبقواعدها متشبثة.

قـال: ولقد كثر أسفـي على تلـك العمارات كيف زالـت، وعلى تلـك الحالات الحاليات كيف حـالت، ولكنها زاد سروري بأنها عادت لـلاسلام مرابـع، ولشموسـه مطالـع، فلو بقيـت بحليتها وحبالتها بعـدما تبـدلت رشدهـا من ضـلالتها لشاقـت وراقت، وكما أفاقـت فاقـت، ورغب في أعطاء الجزيـة سكان البلـد من النصـارى والأرمن حبـاً للوطـن، ولما أراد السلطـان الرحيـل دخـل المدينـة ورد إلى سكانها السكينـة، ودار خـلال ديارهـا، وخرق أسـواقها في سـائر أقطارهـا، ووقف على البحـر للنظر إلى موانيهـا وشوانيها، وأقـاصيها وأدانيهـا، وشكر الله على تمكينه مـن ملكها وتخصيصه بملكها.

وفي كتاب عمادي إلى سيف الاسلام باليمن عن السلطان قال: «وهذه الـلاذقيـة مدينـة واسعـة، وخطـة جامعـة، معـاقلهـا لاترام، واعـلاقهـا لاتستام، وهـي أحسن بلاد السـاحل وأحصنهـا، وأزيدها أعمالاً وضيـاعاً وأزينها، ومـافي البحر مثـل ميناهـا، ولا للمراكـب الواردة مثـل مرسـاها، وهي جنـة كان يسكنها أهل الجحيـم، وطالما مكثت بالكفـر دار بؤس، فعادت بالاسلام دار نعيم»

قال: وكـانت شـواني صقلية قد قـابلت في البحـر اللاذقيـة، طمعاً في امتناعها، فلما خابت خبت نارهـا، وقصدت لجهلها أخذ مركب من يخرج من أهلهـا حنقاً عليهم كيف سلمـوا البلدة وسمحوا ببذلها، فكـان ذلك مقتضياً لبقـاء ساكنيها بالجزيـة تؤديها، ولما وقف السلطان على شـاطىء البحر بعساكره، طلب مقدم تلك الشواني أمانه ليصعد ويشاهد سلطانه، فـأمنه فصعـد وعفر وكفـر، وتـروى ساعـة وتفكـر، وقال مـامعناه :أنـت سلطـان عظيـم، وملك رحيـم، وقـد شـاع عـدلك وذاع فضلـك، وقهـر

- ٨٦٣٩ -

سلطـانك، وظهـر احسـانك، فلـو مننـت على هذه الطـائفـة الساحليـة الخائفـة، لملكت قيـادهـا إذا أعـدت إليها بـلادهـا، وصـاروا لك عبيـداً وأطاعـوك قريبـاً وبعيداً ، وإلا جـاءك من وراء البحـار في عدد الأمـواج أفواج بعـد أفواج، وسار إليـك ملوك ذوي الاقاليـم من سائر الاقـانيم، وهؤلاء أهون منهـم فاتركهم واصفح عنهـم، فقال له السلطان: قـد أمرنا الله بتمهيد الأرض، ونحن قـائمون في طاعته بالفـرض، وعلينا الاجتهاد في الجهاد، وهو الذي يقدرنا على فتـح البلاد، ولو اجتمع علينا أهل الأرض ذات الطول والعرض، لتوكلنا على الله في اللقـاء، ولم نبال باعداد الأعداء، فصلب على وجهه وركب بكربه، ولم يغن خطابه عن خطبه.

- ٨٦٤٠ -

فصل

في فتح صهيون وغيرها

قال القاضي ابن شداد: رحل السلطان عن اللاذقية ظهيرة الأحد السابع والعشرين من جمادى الأولى طالباً صهيون، فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع ، فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الأربعاء، ونصب عليها ستة مجانيق، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعاً ولايبلغ. وهو نقر في حجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون ربضها وسور دون القلعة، وسور القلعة وكان على قلعتها علم طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الإسلامي شاهدته وقد وقع فاستبشر بذلك المسلمون، وعلموا أنه النصر والفتح المبين، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب، فضر بها منجنيق ولده الملك الظاهر، وكان نصبه قبالة جهة قريبة من سورها قاطع الوادي، وكان صائب الحجر، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة جيدة عظيمة تمكن الصاعدَ في السور من الترقي إليه منها.

ولما كان يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، عزم السلطان على الزحف، وركب وتقدّم وتواترت المنجنيقات بالضرب، وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل، وماكان إلا ساعة حتى رقى المسلمون على أسوار الربض، واشتدّ الزحف وعظم الأمر وهجم المسلمون الربض، ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدر وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها، وهم يقاتلون القلعة، وانضم من كان في الربض إلى القلعة بما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم، ونهب الباقي، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة، فلما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان، فأمنهم

السلطان على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم، ويأخذ عن الرجل منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصغير ديناران، فسلمت القلعة و أقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالعيد وبلاطنس وغيرهما من القلاع والحصون، تسلمها النواب فإنها كانت تتعلق بصهيون.

وقال العماد: كان الطر يق إلى صهيون في أودية وشعاب، ومنافذ صعاب، وأوعاث وأوعار، وانجاد وأغوار، فقطعنا تلك الطريق في يومين ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين، وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء وهي قلعة على ذروة جبل بين واديين عميقين يلتقيان عليها، ويدوران حواليها، والجانب الجبلي مقطوع منه بخندق عظيم عميق وسور وثيق ماإليه لسوى القضاء والقدر من طريق، والقلعة ذات أسوار خمسة، كأنها خمس هضاب ممتلئة بذئاب سغاب وأسد غضاب، وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع وهي ممتنعة علينا بالركن الأمنع، والسمّو الأمتع، ونقل السلطان خيمته إلى جانب الجبل وأقام الظاهر غازي صاحب حلب منجنيقين، ونهج بهما من جانب الوادي إلى ردّ الاعادي طريقين، وكان له بفتح هذه القلعة الجد العالي، والجد المتوالي فإنه اتصل بنا قبل الوصول إلى جبلة من طريق حماة، وقد استصحب الكماة الحماة، ومعه الرجال الحلبية، والمنجنيقية والجرخيه والجانداريه والخراسانية، واستصحب الحجارين والحدّادين والنجارين، فأظهر على صهيون اليد البيضاء، وأنار في الفضائل واضاء، وكان نازلاً على جانب الوادي مقابل الحصن، وشرع الجدار في الانقضاض، وأصبحنا يوم الخميس و للجلاميد وقوع، وللسور سجود وركوع، ومازالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمي والحنايا سهام المنايا تصمي حتى قتل وجرح أكثر مقاتلة الحصن، وهان بهادب فيه من الوهن، وأصبحنا يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، وبحر الحرب في أمواجه الزاخرة، وتطرق أصحابنا من قرنة خفيت عليهم من الخندق لم تحكم عمارتها، كأن الله أعماهم عنها حتى

يسلك الحتف إليهم منها، فتعلقوا في الصخور، وتسلقوا السور، وملكوا عليهم ثلاثة أسوار، واحتووا على كل مافيها من ذخائر وغلال، ودواب وأبقار، وازدحم الفرنج في القلة، وتفادوا من الخوف لا من القلة، وصاحوا الأمان، وبذلوا الإذعان، ونادوا: مكنونا من السلامة، وتسلموا المكان، فما امنوا على المال والنفس، حتى قرّرنا عليهم مثل قطيعة القدس، وأغلقت دونهم الأبواب، وسيرت إليهم النوّاب، وما استقرّ خروجهم حتى استخرج القرار وجبي الدرهم والدينار، وعم الصغار الكبار والصغار، وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندرا، ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ماحواه من ذخائره وأمواله إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب بوقبيس، فأحكمه وحصنه، وحفظه وحسنه وتسلم يوم السبت قلعة العيد، ويوم الأحد قلعة الجماهيريين، ويوم الاثنين، حصن بلاطنس، وندب إلى كل حصن من تسلمه وسلكه في سلك الفتوح ونظمه.

قال: وبفتح صهيون حصل الأمن على اللاذقية، وقوى الأمل في فتح انطاكية، فإنه قفل محكم على بابها، وسبب قوي من أسبابها، ففتح الرتاج، ووضح المنهاج.

فصل

في فتح بكاس والشغر والسرمانية

قال القاضي ابن شدّاد: ثم رحل السلطان وسرنا حتى أتينا بكاس، وهي قلعة حصينة على جانب العاصي، ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول بذلك المنزل على شاطىء العاصي يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة، وصعد السلطان جريدة إلى القلعة وهي على جبل مطل على العاصي فأحدق بها من كل جانب، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزحف المضايق إلى يوم الجمعة أيضاً تاسع جمادى الآخرة، ويسر الله فتحها عنوة، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ما كان فيها، وكان لها قليعة تسمى الشغر قريبة منها يعبر إليها منها بجسر، وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق، فسلطت عليها المنجنيقات من سائر الجوانب، ورأوا أنهم لاناصر لهم، فطلبوا الأمان، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشره، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأنطاكية، يسر الله فتحها، فأذن في ذلك ، وكان تمام فتحها، وصعود العلم السلطاني على قلعتها يوم الجمعة سادس عشرة، ثم عاد السلطان إلى الثقل، وسير ولده الظاهر إلى قلعة تسمى سرمانية يوم السبت سابع عشرة فقاتلها قتالاً شديداً وضايقها مضايقة عظيمة وتسلمها أيضاً يوم الجمعة ثالث عشرة الشهر المذكور.

قال: فاتفق فتوحات الساحل من جبلة إلى سرمانية في أيام الجمع، وهو علامة قبول دعاء خطباء المسلمين، وسعادة السلطان، حيث يسر الله له الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات. قال: وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية لم يتفق مثلها في تاريخ.

وقال العماد: سار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية

ونزل على العاصي في طاعة الله على تل كشفهان، فتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر، وحوّل خيمة خفيفة إلى الجبل لحصار قلعة الشغر، وهي تلة شامخة من أعلى التلل مطلة على واد عميق، وكان الكفار قد أخلوا بكاس من الرعب واجتمعوا بقلعة الشغر، وهي عالية حصينة منيعة لاتصل المجانيق إليها، فاستصعب السلطان أخذها وخاف من طول أمرها، فبينما هو مفكر في ذلك والفرنج قد داخلهم الرعب، فارسلوا في طلب الأمان واستمهلوا ثلاثة أيام، فكبر المسلمون وفرحوا وأصبحوا يوم الجمعة والشغر شاغر، والكفر صاغر ، فتسلمها المسلمون وتصرفوا فيها وفيما تحويه من ذخائر وعدد ودواب وانعام، وأنعم السلطان بها وبقلعة بكاس، وتلك الاعمال على غرس الدين قليج، وكان هذا قليج قد تسلم كفر دبين، وهو معقل حصين يسكنه الأرمن في ذلك الصقع، وبذل في استخلاصه غاية الوسع، فولاه السلطان تلك الحصون، وحاط بإيالته أمرها المصون، وعاد إلى مخيمه يوم السبت، وهو حسن السمت، كريم النعت.

قال: وكان الملك الظاهر عند اشتغالنا بفتح قلعة الشغر، قد نزل على سرمانية مضايقا لها بالحصر فتسلمها يوم الجمعة ثالث عشري الشهر، وذلك بعد قطيعة قررها وقبضها، ولما أخرجهم منها دخلها فأبطل عمارتها وعطلها وهدم بنيانها، وهدّ أركانها، ومابرح حتى سواها بالأرض، وخلط طولها بالعرض.

قال: وهذه ست مدن وقلاع فتحت في ست جمع تباع: جبلة واللاذقية وصهيون وبكاس والشغر وسرمانية. وأطلق بها الأنفس والنفائس العانية، فقد كان في هذه المعاقل من أسارى المسلمين عدّة، لولا فتحها لما زالت عنهم تلك الشدّة، وهذا اقليم جبلة واللاذقية، هو عين انطاكية التي فقئت، ونحرها الذي عنه حلئت، ولم يبق لأنطاكية

- ٨٦٤٥ -

مـن الحصون سـوى ثلاثـة: القصير، وبغراس، ودربسـاك، وقد أصبحـت معدومة الأطراف،قد قطعت أيديها وأرجلها من خلاف.

فصل

في فتح حصن برزيه

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار السلطان جريدة إلى قلعة برزيه، وهي قلعة حصينة في غاية القوّة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الفرنج والمسلمين، يحيط بها أودية من سائر جوانبها، وذرع علو قلتها،فكان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً ثم حرر عزمه على حصارها بعد رؤيتها، واستدعى الثقل فنزل تحت جبلها، وفي بكرة الأحد الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل فأحدق بالقلعة من سائر نواحيها، وركب القتال عليها، من كل جانب وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلاً ونهاراً وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين فقسم العسكر ثلاثة أقسام، رتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار، ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر، بحيث لايفتر القتال عنها أصلاً وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار، فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفى نوبته وضرس الناس من القتال وتراجعوا عنه، وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه، وركب وتحرك عدّة خطوات وصاح في الناس فحملوا حملة الرجل الواحد، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقى الناس على الأسوار، وهجموا القلعة وأخذت عنوة، واستغاثوا الأمان وقد ملئت الأيدي منهم (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا)[٧٨] ونهب جميع ماكان فيها، وأسر جميع من كان بها، وكان قد أوى إليها خلق عظيم، وكانت من قلاعهم المذكورة، وحصونهم المشهورة، وكان يوماً عظيماً ، وعاد الناس إلى خيامهم غانمين، وعاد السلطان إلى الثقل وأحضر بين يديه صاحب القلعة، وكان رجلاً كبيراً

منهم فكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً، فمن عليهم السلطان ورق لهم، وأنفذهم إلى صاحب انطاكية استمالة له، فإنهم كانوا يتعلقون به رمن أهله.

وقال العماد: وصف للسلطان قلعة برزيه، وأنها لحصن أفامية متاخمة، وله مناصفة مقاسمه، وأن المسلمين من جوارها في جور وفي حور بعد كور ، ووصفوا علوها، فركب السلطان إليها وأشرف عليها فألفاها كما وصفوها، وبالغوا فيها وماانصفوها، فنصب عليها المجانيق فوقعت أحجارها دونها، ولم يتحرك سكونها، وكيف تهدّد الخنساء بصخر، والعنقاء بصقر، وحجر الجبل بحجر ، ومدار الفلك بمدر. فلما رأى السلطان ذلك قوي رأيه على أن يفرق العسكر ثلاث فرق، ويتناوبون على قتالهم زحفاً ليتعبوهم ويضجروهم فإنهم عدد محصور عما قليل تفنى عدّتهم، وتفل عدّتهم، ففعل ذلك وكانت النوبة الأولى لصاحب سنجار، والثانية للسلطان وخواصه،ثم امتزجت الثالثة بالثانية، وعادت رجال النوبة الأولى وتناصرت أنصار الله على النزال لاستنزال النصر، واحمدوا عاقبة الصبر في الحصر، فطلب العدوّ الأمان، وأرسلوا إلى السلطان، وكان أصحابنا خالطوهم وباسطوهم وأحاطوا بهم، وهناك جماعة من دهاة العسكر أشاعوا للناس أن السلطان يؤمنهم، فرجع العالم عنهم ولم ينالوا منهم، فلما ردّ السلطان رسولهم ولم يؤمنهم ساقوا أولئك السبايا قدامهم كما يسوقون أغنامهم، وخانوا اخوانهم، وراموا حرمانهم، وتفرقوا بالسبى أيدي سبأ، وسافروا بها من العسكر إلى البلاد وباعوها في سوق الكساد، وتسلم السلطان حصن برزيه ظهر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وولاه الأمير عز الدين ابراهيم بن الامير شمس الدين محمد بن المقدّم، وهو صاحب حصن أفامية مناظر برزيه، وهو على الثغر وما بين الاثنين بحيرة تحجز الجانبين، وصيادوها المسلمون بأفامية، فخلص للاسلام الثغر وسكن الدهر.

قال: وكانت صاحبة حصن برزيه زوجة الابرنس صاحب أنطاكية، وقد سبيت وخبيت، فما زال يطلبها حتى أظهروها وأحضروها، وزوجها وابنة لها، وجماعة من أصحابها، وصهرها، وكانت امرأة ابرنس انطاكية، تعرف بدام سبيل في موالاة السلطان عيناله على العدو، تهاديه وتناصحه وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرمها لذلك ويهدي إليها أنفس الهدايا، فلما فتح حصن برزيه وحصل في أسره هذه الجماعة، وافترقت بهم أيدي المسلمين تتبعهم السلطان وخلصهم من الأسر، وأنعم عليهم وجهزهم وسيرهم إلى انطاكية لأجل امرأة الابرنس، فشكرته على ذلك ودامت مودّتها ونفعها للمسلمين.

وفي بعض كتب البشائر العمادية: «آخر مافتحناه حصن برزيه الذي تضرب بحصانته الأمثال، ولاترقى إلى ذروة تمنيه الأمال، وقد أخذناه بالسيف عنوة، وفتحناه ضحوه، فيالها من ضحوة ليوم الثلاثاء أظلمت على أهل التثليث، والهى الله المؤمنين عن ذكر الفتوح القديمة بحديث هذا الفتح الحديث، ولو وكلنا الله إلى اجتهادنا في الفتح لتعذر، ولكنه سبحانه سهل ويسر»

ومن كتاب فاضلي إلى السلطان: «وصلت كتب البشارة بفتح حصن برزيه وهو الذي تضرب به الأمثال، وتضرب عنه الآمال، ويكاد يحزن إذا قادت أيدي السلاسل أزمة الجبال، ويكاد يذم ساكنيه من خطرات الأوجال، بل من خطوات الآجال، وكان للكفر درعاً حصينة طالما كانت تهزأ بالنصال فعظمت المنة السلطانية عند أهل الإسلام، ودعوا بأن يفلج الله حجة سيفه الد الخصام، وقد كان الناس يعدّون مواهبه ممالاتحصى، فقد تحققت بها فتوحاته فهي أيضاً لاتحصر، فمرحباً بفتوح يقول غائبها: الحمد لله،وحاضرها: الله أكبر، ومابقي المملوك يستبطىء خبر أنطاكية، فقد ألقت الأرض افلاذها، وقد ولدت لكرمه ذهبها، ولنصره فولاذها، ولم نر في نعم الله مثلها نعمة كريمة وجيهه، ولانعرف

بعدها للزمن سيئة ولاكريهة، إلا أنا نرجع في معرفة قدرها واخلاص شكرها إلى مارضيه الله شكراً ممن نجاه من أهوال يوم القيامة، وأدخله دار المقامة، بأنهم قالوا: (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن)(٧٦) (الحمد لله الذي صدقنا وعده)(٨٠) (الحمد لله الذي هدانا لهذا)(٨١) (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)(٨٢) فرضي بالحمد منهم، ورضي عنهم، وأثنى عليهم بأنهم اختتموا به، وافتتحوا، وقدّسوا به وسبحوا، وثقلت به موازين أعمالهم،فرجحوا ونجحوا، ونحن نقول: الحمد لله على بهجة الدنيا بمولانا ونضرتها، وعلى عزة الملة به ونصرتها، وعلى بهجة القلوب به ومسرتها، وعلى غنى الأيدي به وميرتها، وعلى روعة قلوب الأعداء به وحسرتها (وإن تُعدوا نعمة الله لاتحصوها)(٨٣) وفتوح مولانا من تلك النعم، وإن قصرنا في شكرها فما نقصر في ذكرها، وإن عجزنا عن حصرها، فما نعجز عن المعرفة بفضل قدرها، وتلك النعم بحمد الله منتظمة العقود، مطردة السعود، متوافية الرسل، عامرة السبل خارقة العوائد قارنة المساعي بالمساعد، كادت العيون قبل وقوعها تلحظها، وكادت المنابر لما يدرس عليها من كتبها تحفظها، فما يشرح صدر من خبرها، فيسمعه ذو صدر إلا إنشرح، ومايسأل الناس هل فتح الملك الناصر، وإنما يقال ماسم البلد الذي فتح؟ فمن عند مولانا الجنان، ومن عندنا اللسان، وعليه الجهد، وعلينا الحمد، فهي فتوح كثمرات الجنة، لامقطوعة ولاممنوعة، وأعمالها المبرورة إلى الله مرفوعة.

ومن قصيدة للشهاب فتيان الشاغوري وقد تقدم بعضها:

لما ملكت حصون انطاكية ... يئس الصليب وحزبه من مظهر

أرديت كل مثلث متكبر ... بموحد متواضع ومكبر

برزت إلى برزيه عزمتك التي ... مدّت يداً عن مطلب لم يقصر

- ٨٦٥٠ -

فتنــاولتــه بــأيـدهــا مــن بــاذخ

في الافـــق ذي مثـــل يـــروع مسير

فــانهض لصــور فهــي أحســن صــورة

في هيكــل الــدنيــا بــدت لمصــوّر

مــاســور صــور عــاصــم منــه وهــل

ســور المعــاصــم عــاصــم لمســوّر

-٨٦٥١-

فصل

في فتح حصن دربساك

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً وسار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن شهر رجب، وهي قلعة منيعة قريبة من أنطاكية، يسر الله فتحها، فنزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات، وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها، وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة، ووقف في الثغرة رجال يحمونها عمن يصعد فيها. قال: ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين، واشتد الأمر حتى طلبوا الأمان واشترطوا مراجعة أنطاكية، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لاغير، ورقي عليهم العلم الإسلامي يوم الجمعة أيضاً ثاني عشر رجب، وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر، وسار عنها من الغد بكرة السبت.

وقال العماد: ثم عبر نهر العاصي إلى شرقيه عند شقيف دركوش، وهو ثغر على الغزاة للإسلام منيع، فجزناه وخيمنا على جسر الحديد أياما، حتى استكمل العسكر راحاته وتكامل ونحن بقرب انطاكية، وقد صوّبنا إليها عزائمنا الناكية، ثم قلنا قدامها حصون وحماها بحمايتها مصون، فإذا ذهبت معاقلها، جاءتها غوائلها، فنزلنا على دربساك، وهو حصن للداوية وقد اعتصموا بعصمته، وامتنعوا بمنعته، فنصبنا عليه المنجنيقات، فما زالوا يجالدون ويتجلدون إلى أن ضاق بهم الخناق، وتسلق النقابون إلى الباشورة وهدوا بالنقب برجاً، ووسعوا للزحف نهجاً فطلبوا الأمان وفدوا أنفسهم بألوف فأومنوا على أنهم يخرجون بهوانهم، وثياب أبدانهم، ويدعون كل مافي الحصن من خيل وعدّة وذخيرة وغله

واثات وقماش وذهب وفضة، وأمهلوا ثلاثة أيـام، ثم أخرجوا من ديارهم، وتسلم الحصن يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب.

في بعض الكتب العمادية: «هذه المكاتبة مبشرة بالفتح الأهنى والنصر الأسنى، وهو فتح دربساك الذي لم يكـن لأنطاكية إلا به الامتساك، وقد قص الآن جناحها، وقل سلاحها، وحـق قرحها وبطل اقتراحها، وخرجت بـاخراج حصـونها مـن ولايتهـا أرواحها، وقـد بقيـت غـرضاً للعسكـر، وعرضا بلا جوهر، وشبحاً بغير روح، وصدراً غير مشروح، والكفر مفجوع بـالنفس والبلـد، والأمل والـولد، ونحـن لاراحة لنـا إلا في هذا التعـب، ولاأرب لنا في غير هـذا الأرب، ولااجتهاد لنا إلا في الجهاد، ولامغـزى لنا غير الغزاة، ومانـرجو من الله إلا انجاز العدات في جميـع العداة، أصبحنا يوم الثلاثاء وقد ساء صباح المثلثين، وبـان صباح الموحدين وأبينا أمانهم إلا أن يفـدوا نفوسهـم، وينـزعـوا من الحرب لبـوسهـم، ويخلعـوا بأسهـم ويلبسوا بوسهـم، وينجوا بثياب أبدانهم، وقد أدّوا خمسـة آلاف دينار من أثمانهم.

فصل

في فتح بغراس

قال القاضي ابن شدّاد: وهي أيضاً قلعة منيعة أقرب إلى انطاكية من دربساك، وكانت كثيرة العدة والرجال، فنزل العسكر في مرج لها، وأحدق العسكر بها جريدة، مع أنا احتجنا في تلك المنزلة إلى يزك يحفظ من جانب أنطاكية، لئلا يخرج منها من يهجم على العسكر، فضرب يزك الإسلام على باب أنطاكية، بحيث لايشذ عنه من يخرج منها.

قال: وأنا ممن كان في اليزك في بعض الأيام، لرؤية البلد وزيارة حبيب النجار المدفون فيه عليه السلام. ولم نزل نقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان. على استئذان أنطاكية، ورقي العلم السلطاني عليها في ثاني شعبان.

وقال العماد: ولما فتحت دربساك لم يبق لنا همة إلا بغراس، وقد شارف رجاء أكثر الناس في فتحه الياس، وهو حصن حصين، ومكان مكين، هو للداوية وجار ضباعها، وغاب سباعها، وهو بقرب أنطاكية حصارها وحصاره سواء، ومالـدواء داويته دواء فنزل العسكر بين أنطاكية وبينه، يتقاضون منها للدين دينه، ويشنون الغارات، ويسنون النكايات، ولايبرحون بازاء أنطاكية صفا يرمون، لأهلها فتحا وحتفاً يتناوبون على سبيل اليزك، ويدعون العدا إلى المعترك، وليس بينهما إلا النهر، فصعد السلطان جريدة إلى الجبل، وأمر بنصب المجانيق حولها على تلك التلل، ونقل إليها أحواض الماء ورواياه، وبث في النواحي سراياه، وفرق على الجميع عطاياه، وأقمنا عليه اسبوعاً نجري إليه من كل منجنيق من فيض الحجارة ينبوعاً، ونحن نفكر فيما يكون، ومتى تتم الحركة وفيم السكون، وهذا بيكار يطول، وتعب لايزول، إذ رأينا باب الحصن وقد

فتح وخرج من الحصن من أخذ الامان لأهله، وسلم الحصن بما فيه من الأموال، وقدّر مافيه من الغلة تخمينا باثني عشر ألف غرارة، وسلمها السلطان مع دربساك إلى صاحب عزاز علم الدين سليما ن بن جندر، وكتبت عليه جميع مافي القلعتين من الموجود من المكيل والموزون والمعدود، وكانت الغلة بانطاكية غالية السعر، فقلت: كأني بمن تولى القلعة وقد باع الغلة وشفى من فقره بها الغلة، ثم أشار بتخريبها وهدمها، ولم يلترم بحكمها، وقال: ابقاؤها غرر، وحفظها على المسلمين ضرر وخطر، فجاء الأمر على ماحسبته بعد سنين، وعاد اخلاها بمضرة المؤمنين، فإنه أظهر ذلك الوقت أنه أخلاها، وأنه للتخريب خلاها، فجاء إليها مقدّم الأرمن ابن لاون فدخلها، وأتم غاراته وكملها، وذلك سنة سبع أو ثمان وثمانين، وهذان الحصنان دربساك وبغراس كانا لأنطاكية جناحين، ولطاغية الكفر سلاحين، فتم للسلطان فتح هذه الحصون المذكورة مع أبراج ومغارات وشقفان كثيرة، حتى خلص ذلك الإقليم، وتم الفتح العظيم، وعادت الكنائس مساجد والبيع معابد، والصوامع جوامع، والمذابح لعبدة الشيطان مصارع.

فصل

في عهد الهدنة مع صاحب أنطاكية وعود السلطان

قال العماد: كان السلطان قد عزم على قصد أنطاكية، فرأى همم الأجناد، لاسيما الغرباء قد ضعفت، ونياتهم في الجهاد قد فترت. وتشوّقوا إلى البلاد والراحة من جهادهم، وكان صاحب أنطاكية قد أشرف على الهلاك، وعلم أنه إن قصد غلب، فنفذ أخا زوجته رسولاً إلى السلطان متذللاً يطلب الهدنة على أنه يطلق من عنده من أسارى المسلمين، وهم جمع كبير، فعقدها معهم مدة يسيرة ثمانية أشهر من تشرين الأول إلى انقضاء أيار، فيكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة وأوان حصادها، فيستريح فيها الأجناد، ويعودون بعدها إلى فرض الجهاد، فتم كتاب الهدنة وتوجه شمس الدولة ابن منقذ لتخليص الاسرى وانقاذهم منه.

وقال القاضي ابن شدّاد: وفي بقية ذلك اليوم يعني يوم فتح بغراس، وهو ثاني شعبان عاد السلطان إلى المخيم الأكبر، وراسله أهل انطاكية في طلب الصلح، فصالحهم لشدة ضجر العسكر، وقوة قلق عماد الدين صاحب سنجار في طلب الدستور وعقد الصلح بيننا وبين أهل أنطاكية لاغير، على أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم، وكان إلى سبعة أشهر، فإن جاءهم من ينصرهم، وإلا سلموا البلد إلى السلطان، ثم رحل عنه يطلب دمشق، وسأله ولده الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به، فأجابه فدخلها حادي عشر شعبان، فأقام بقلعتها ثلاثة أيام، ثم سار إلى دمشق فاعترضه ابن أخيه تقي الدين وأصعده إلى قلعة حماة، وبات بها ليلة واحدة فأعطاه جبلة واللاذقية، وسار إلى بعلبك وأقام ببرجها يوماً ودخل حمامها، ثم أتى دمشق فأقام بها حتى دخل شهر رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكنه، وكان قد بقي له من

القلاع القريبة مـن حوران التي يخاف عليها من جانبهـا صفد، وكوكب، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصيوم.

وقال العماد: وودع السلطـان عماد الدين صـاحب سنجار والعسـاكر الغريبة، وأتحفهم بالتحف العجيبـة، وارتاح إلى العبور على أرتاح. ووصل إلى جـانب حلـب وقـد خرج كـل من بها للتلقـي مستبشريـن بالاقبـال المتضاعف المترقي، وشاهدنا من النظارة عيـوناً للمحاسن ناظرة، ووجوها ناضرة، وقلوبا حـاضرة، وألسنا شاكرة، وأيديا في بسطهـا إلى الله للابتهال بالدعاء متظاهـرة، فأقام بقلعتها أياماً يسيرة، وألفى ولده الظـاهر قد سار فيها أحسـن سيرة. ثم سـار منها على طـريق المعـرّة وقصد زيـارة الشيخ الزاهد أبي زكريـا المغربي عند مشهد عمر بن عبـد العزيز رحمه الله، فتبرك

بزيـارة الميت والحي، ثـم وصل إلى حماة فنـزل بقلعتها، ومعـه أمير المدينة النبويـة على ساكنهـا أفضل الصلاة والسـلام، وهو عز الـدين أبـو فليتة القـاسـم بن المهنـا، وكـان للسلطـان في جميـع الغزوات مصـاحبـا، وعلى معـاضدتـه مواظبـا، وماحضر معنـا على بلد أوحصـن إلا فتحناه، وكـان السلطـان يستـوحش لغيبتـه، ويـأنـس بشيبتـه، وكان بجنـب السلطـان جالسـاً، ولنظره عليـه حابسـاً ، وكانـت قلعة حماه ذات تـل منبطح، فلما تولاهـا تقي الـدين رفـع تلها وعمـق خندقهـا وحصنها، فطلـع السلطان تلك الليلـة إلى القلعة، وسر بها رأى من الحصانـة والرفعة، ووقـف الملك المظفر لعمـه وجرى في الخدمة على رسمـه، وأصبح السلطـان راحلاً، ولم يقـم بحمص وجـاء إلى بعلبـك على طريـق الـزراعـة واللبوة ووصـل إلى دمشق قبل رمضان، وأشير على السلطان بـأن يريح عسكره، فقد أحمد في عامـه مورده ومصدره، وأربـح في سبيل الله متجره، فقـال: إن القدر غير مأمون، والعمـر غير مضمون، وللفرض أوقات وللدهر آفـات، وبقيت مع الكفر هـذه الحصون، وإن لم نبـادرها اختـل أمرنـا المصون، لاسيما صفـد وكوكب فإنهما للداوية والاسبتاريـة في وسط البلاد، والثغور الإسلامية بهما

-٨٦٥٧-

واهية السداد، فنخرج ونشتو عندهما، ونقصد قصدهما، فإذا فتحناهما خلصت هذه البلاد، وصفت الأوراد.

قال: فما لبث السلطان ولامكث، ولانقض عهد عزمه على الغزاة ولانكث، وقال: لانبطل الغزوه ولانعطل هذه الشتوه.

فصل

في فتح الكرك وحصونه

قال العماد: ووردت البشرى بنحج الدرك، في تسليم حصن الكرك، وذلك أنها في مدّة غيبتنا في بلاد انطاكية، لم تعدم من محاصرتها المضايقة الناكية، وكان الملك العادل أخو السلطان مقيما بتبنين في العساكر، محترزاً على البلاد من غائلة العدو الكافر، أقامه السلطان هنالك عند توجهه إلى البلاد الشمالية، لقصد جبلة واللاذقية، فأقام بتبنين مقوياً للأمراء المرتبين على الحصون، حافظاً على الدهماء بحركته في الأمور عادة السكون، وكان صهره سعد الدين كمشبه بالكرك موكلاً، وبأهله منكلاً، قد غلق رهنه وبقي حصاره معضلاً، وأمره مشكلاً، حتى فنيت أزوادهم، ونفدت موادهم، ويئسوا من نجدة تأتيهم، وأمحلت عليهم مصايفهم ومشاتيهم، فتوسلوا بالملك العادل، وأبدوا له ضراعة السائل، فما زالت الرسالات تتردد، والاقتراحات تتجدد، والقوم يلينون والعادل يتشدد، حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم، وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامة، وخلصوا بإقامة عذرهم عند قومهم من الملامة، وتسلم سعد الدين بعدها الحصون التي بقربها كالشوبك، وهرمز، والوعر، وسلع.

وقال القاضي ابن شدّاد: وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها، وخلصوه بها من الأسر، وكان أسر في وقعة حطين المباركة.

وكتب العماد في بعض البشائر: «سلم حصن الكرك وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز، وقد نصب اشراك شركه منه على طرف الاجتياز، فأذقناه عام أوّل كأس الحمام، وتملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العام، واضطر الكفر في إسلامه إلى الاسلام، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام».

وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان شفـاعة: «أدام الله سلطان مولانا الملك النـاصر وثبته، وتقبل عمله بقبـول حسن وأنبته، وأخذ عـدوّه قائلاً أو بيته، وأرغم أنفه بسيفه وكبته، خـدمة المملوك هذه واردة على يد فلان، خطيـب عيذاب، ولما نبـابه المنـزل منها، وقـل عليه المرفـق فيها ، وسمـع بهذه الفتـوحات التـي طبق الأرض ذكـرهـا، ووجب على أهلهـا شكرهـا، وحصل لمن جـرت على يده أجـرها، هاجـر من هجير عيـذاب وملحها، ساريـا في ليلة أمـل كلها صبـاح فلا يسـأل عن صبحهـا، وقد رغـب في خطابـة الكرك، وهـو خطيب، وتـوسل بـالمملوك في هـذا الملتمس وهـو قريـب، ونزع من مصر إلى الشام، ومـن عيذاب إلى الكرك وهـو عجيب، والفقر سـائق عنيف، والمذكـور عائل ضعيـف ولطف الله تعـالى بـالخلـق بوجود مولانا لطيف، ورأيه أعلى إن شاء الله تعالى»

فصل

في فتح صفد

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد، ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والوطن والولد، في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أين كان ليجتمع فيه بأهله، فأتاها وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها، فأحدق العسكر بها، ونصبت عليها المجانيق، وكانت الأمطار شديدة، والوحول عظيمة، ولم يمنعه ذلك عن جدّه، ولقد كنت ليلة في خدمته وقد عين مواضع خمسة مجانيق حتى تنصب، فقال في تلك الليلة: مانانم حتى ننصب الخمسة، وسلم كل منجنيق إلى قوم ورسله تتواتر إليهم يخبرونه ويعرفونهم كيف يصنعون حتى أطلنا الصباح وقد فرغت المنجنيقات، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها فيها، فرويت له الحديث المشهور في الصحاح، وبشرته بمقتضاه وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «عينان لاتمسها النار عين باتت تحرس في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله»

قال المؤلف: أخرج الترمذي هذا الحديث، وقال: وهو حديث حسن غريب.

قال: ولم يزل القتال متواصلاً بالنوب مع الصوم حتى سلمت بالأمان في رابع عشر شوّال.

وقال العماد: لما خرج السلطان من دمشق صحبه الفاضل، وجعل طريقه على مرج برغوث، وعبر مخاضة الأحزان، وجاء إلى صفد، وقد لان من فيها من الفرنج وزادهم نفد، فنزل عليه في العشر الأوسط من رمضان، فضايقها ونصب المجانيق عليها إلى أن سلمها مقدمها في ثامن شوّال بالأمان وراح إلى صور وقد كانوا عدموا القوت، ووجدوا الموت

الموقـوت، وعلموا أنهم إن لم تخرج صفـد من أيـديهم دخلت أرجلهـم في الأصفاد، فتبرؤوا من الجذاذ والجلاد، وإنما كانـت في عين الاسلام قذى، لايتـوقـع منهـا على الأيام إلا مضرة وأذى، فسهـل الله صعبهـا، وأوطـأ هضبها، وكشف عن البلاد كربها، وقـذف في قلوب أهلها رعبها، فخرجوا مـذعنين، واستسلمـوا مسلمين، وتبرؤوا مـن حصنهـم، ونـزلـوا بهوانهم ووهنهم، وأحضروا رهـائنهم للإستمهال في نقـل متاعهم، وندمـوا على ما كان من امتناعهم.

قال: واجتمع الفرنـج بصور ونحن نضايق حصن صفـد، وقالوا: متى فتحت صفـد فإن كوكب لاتمتنـع، وأملنا عن حفظها ينقطـع، والرأي أن نجـرد لها نجدة لعلهـا تثبـت إلى أن توافينـا مـن البحـر ملوكنـا، فسيروا مـائتي رجـل فتفرقـوا في تلـك الأودية يكمنـون في الشعاب والهضـاب، واتفـق أن أميراً من أصحـابنـا خـرج متقنصاً فـوقـع أحـدهم في قنصـه، وحصل طـائر منهم في قفصـه، فاستغرب وجـوده في ذلك المكـان فهدّده وتوعده وأقامه للعذاب وأقعـده حتى دل على مكمن ذئابه، فما أحسوا إلا بصارم الديـن قايماز النجمي وأجناده إلا وقـد نزلوا عليهم في آكـام ذلك الشعب ووهاده، فتلقطوهـم من كل غار ووجار، ولم يهتد أحـد من أولئك الضلال إلى نهج فـرار، فما شعرنـا ونحن على صفـد للحصار،حتـى وصل صاحـب قايماز بالأسارى مقـرنين في الاصفاد، مقودين في الاقيـاد، وكان فيهما مقدمان مـن الاسبتار، وقد أشفيا على البتـار، فإن السلطان رحمه الله ماكـان يبقى على أحـد من الاسبتاريـة والداويـة، فأحضرا عنـد السلطان للمنيـة، فأنطقهما الله بما فيـه حياتهما، ونـاجيـا بما به نجـاتهما، وقالا عنـد دخولهما: مـانظن أننـا بعدمـا شافهنـاك يلحقنا سـوء فعرفـت أن بقاءهما مرجـو، فمال إلى مقالهما، وأمـر باعتقـالهما فإن تلـك الكلمة حـركت منـه الكـرم، وحقنت منهما الـدم، وفتـح الله علينا صفـد ثـامن شـوال. حين فرغنا مـن صوم ست منه بعـد صوم رمضان، وجمعنا بين فضيلتـي الصوم

-٨٦٦٢-

والجهاد، وسلمت قلعة صفد إلى شجاع الـدين طغرل الجاندار، واستبشرنا بانعكاس ماأحكمه الكفار.

فصل

في فتح حصن كوكب

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار رحمة الله عليه يريد كوكب، فنزل على سطح الجبل، وجرد العسكر، وأحدق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعاً يتجاوزه نشاب العدوّ، وبنى له حائطاً من حجر وطين يستتر وراءه، والنشاب يتجاوزه، ولايقدر أن يقف أحد على باب خيمته إلا أن يكون ملبساً، وكانت الأمطار متواترة، والوحول بحيث تمنع الماشي والراكب إلا بمشقة عظيمة، وعانى شدائد وأهوالاً من شدة الرياح وتراكم الأمطار، وكون العدو متسلطاً عليهم بعلوّ مكانه، وجرح وقتل جماعة، ولم يزل راكباً مركب الجد رحمه الله حتى تمكن النقب من سورها، ولما أحس العدوّ المخذول بالنقب، وقد تمكن من السور علم أنه مخذول مأخوذ، فطلب الأمان فأمنهم وتسلمها في منتصف ذي العقدة، ونزل إلى الغور إلى الثقل، وكان قد أنزل الثقل من شدة الوحل والريح في سطح الجبل.

وقال العماد: وجئنا إلى كوكب، فوجدناها في مناط الكوكب، كأنها وكر العنقاء، ومنزل العوّاء، قد نزلتها كلاب عاوية ونزغت بها ذئاب غاوية، وقالوا : لو بقي منا واحد لحفظ بيت الاسبتار، وخلصه إلى الأبد من العار، ولابد من عود الفرنج إلى هذه الديار فنتشدد للانتظار.

ثم وصف القتال بالرمي والمنجنيق، والنقب والتعليق والحفر والتعميق، والحصر والتضييق، ثم قال: وكان الوقت صعباً والغيث سكباً وتكاثرت السيول، وتكاثفت الوحول، ودامت الديم لدموعها مريقة، وبقيت الخيم في الطين غريقة، وكنا في شغل شاغل من تقلع الأوتاد وتوتد الاقدام، ووهي الاطناب ووقوع الخيام وقد عادت الخيام

مناخل الانـداء، والانوار معدومة لـوجود الأنواء، وماء الشرب مفقـود مع سيـول الماء، والرواحـل في الطين باركـة وهي للعلـف تاركـة، والطريـق زلقة، وهـي مع سعتهـا ضيقة، فنقـل السلطان خيمتـه إلى قرب المكـان لتقريب وجوه الامكان، وبني له من الحجـارة ماصار له كالستاره، ونزلت الاثقال والخيم إلى أسفل التل بالغور، وأقام السلطان على محاصرة الحصن ومصابرتـه، ونحن نـركب إليـه من الخيـام بكرة وعشيـة للسلام، وتنفيـذ المهام، حتـى بلغ الـرجال أماكـن النقوب، وتمكـن لهم المطلوب، فشرع الكفرة في التذلل، وسلموا الحصن بالأمـان، وعرضه على جماعة فلم يقبل ولايته أحـد سوى قـايباز النجمي على كـره منه، وذلـك في منتصف ذي القعدة، ونزل السلطان إلى المخيم بالغور.

ومن كتاب فـاضلي إلى سيف الاسلام باليمن عـن السلطان: «مما تجدد بحضرتنـا فتح كـوكـب، وهي كـرسي الاسبتاريـة ودار كفـرهم، ومستقـر صـاحب أمـرهم، ومـوضع سـلاحهم وذخـرهم، وكـان بمجمع الطـرق قاعـداً، وللملتقى السبل راصداً ، فتغلقـت بفتحه بلاد الفتح واستـوطنت، وسلكت طرقها وأمنت، وعمرت بـلادها وسكنت، ولم يبق في هذا الجانب الاصور، ولولا أن البحر ينجـدها والمراكـب تردها لكان قيـادها قد أمكن وجماحها قـد أذعن، وماهـم بحمد الله في حصن يحميهـم، بل في سجين يحويهم، بل هم أسارى، وإن كانوا طلقاء، وأمـواتاً وإن كانوا أحياء، قال الله تعالى: (فـلا تعجل عليهـم إنما نعدّ لهم عـدا)[٨٤] ،وكان نـزولنا على كوكب بعد أن فتحنا صفد بلد الداويـة المصونة، وفتحنا الكرك وحصونه، والمجلس السـامي أعلـم بما كان على الإسـلام من مـؤنته المثقلـة وقضيته المشكلـة، وعلتـه المعضلة، والله تعـالى المشكـور على مـاطوى مـن كلمـة الكفر، ونشر من كلمة الإسلام، فإن بـلاد الشام اليوم (لايسمع فيها لغو ولاتأثيراً إلا قيلا سلامـاً سلاماً)[٨٥] فـ(ادخلوها بسلام)[٨٦] وكان نزولنا على كوكـب والشتاء في كـوكبه، وقد طلـع من الأنـواء في موكبـه والثلوج تنشر على الجبال طـي ملائهـا، والأودية قـد عجت بمائهـا وفاضـت عند

امتلائها، فشمخت أنوفها سيولاً، وخرقت الأرض وبلغت الجبال طولاً والأوحال اعتقلت الطرقات، ومشى المطلق فيها مشية الأسير في الحلقات فتجشمنا العناء نحن ورجال العساكر، وكابرنا العدوّ والزمان وقد تحرّز الحظ المكابر، وعلم الله النية فأنجدها بفعلها، وضمير الأمانة فأعان على حملها، ونزلنا من رؤوس الجبال منازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها» ثم قال: «والآن فالمجلس السامي يعلم أن الفرنج لايسلون عما فتحنا، ولايصبرون على ماجرحنا، وأنهم لعنهم الله أمم لاتحصى، وجيوش لاتستقصى، ويد الله فوق أيديهم، و(سيجعل الله بعد عسر يسرا)[٨٧] وماهم إلا كلاب قد تعاوت، وشياطين قد تغاوت وإن لم يقذفوا من كل جانب استأسدوا واستكلبوا، وكانوا لباطلهم الداحض أنصر منا لحقنا الناهض، وقد كتب المستخدمون بالاسكندرية، وصاحب قسطنطينية، والثغور المغربية ينذرون بأن العدوّ قد أجمع أمراً، وحاول نكراً، وغضبوا زادهم الله غضباً، وأوقدوا ناراً للحرب جعلها الله عليهم حطباً، وسلوا سيوفاً للبغي لايبعد أن يكونوا أغمادها، وتواعدت جموع ضلالتهم أخلف الله ميعادها، وأما نحن فبالله ندفع مانطيق، ومالانطيق، وإليه نرغب في أن يثبت قلوبنا إذا كادت تزيغ قلوب فريق، ونحن الآن نستنجد أخانا وندعوه إلى ماله دعينا، ونؤمل من الله أن ينصرنا دنيا ودينا، ونرجو أن يمدنا بنفسه سريعاً وبعسكره جميعاً، وبذخره الذي كان لمثله مجموعاً، وأن يلبيها دعوة إما أن يطيع بها ربه لأنها دعوته، وإما أن ينصر بها نبيه صلى الله عليه وسلم فإنها شريعته، وإما أن يعين بها أخاه فإنها شدّة الاسلام لاشدّته، هذا وإن كان المجلس قد قعد عنا ولم يعدنا في مرض الاجسام، فلا يقعد عنا في مرض الإسلام، فالبدار البدار، فإن لم يكن الشام له بدار فما اليمن له بدار،والجنة الجنة فإنها لاتنال إلا بإيقاد الحرب على أهل النار، والهمة الهمة، فإن البحار لاتلقى إلا بالبحار، والملوك الكبار لايقف في وجوهها إلا الملوك الكبار، وفي هذه السنة ننزل على أنطاكية، وينزل ولدنا المظفر تقي الدين على

اطرابلس، ويستقرّ الركاب الملكي العادلي بمصر لأنها مذكورة عند العدوّ أنها تطرق، وأن الطلب على مصر والشام منه يفرق، ولاغنى عن أن يكون المجلس السيفي بحرا في بلاد الساحل يزخر سلاحاً، ويجرد سيفاً يكون على مافتحنا قفلاً، ولما لم يفتح بعد مفتاحا، ومايدعى للعظيم إلا العظيم، ولايرجى لموقف الصبر الكريم إلا الكريم، هذا والأقدار جارية، ومشيئة الله ماضية، فإن يشأ ينصرنا على العدد المضعف، بالعدد الأضعف، فإنا لانرتاب بأن الله تعالى مافتح علينا هذه الفتوح ليغلقها، ولاجمع علينا هذه الأمة ليفرقها، وإنما يؤثر أن يتساهم آل أيوب في ميراثهم منه مواقف الصبر، ومطالع النصر، ولايسرنا أن ينقضي عمره في قتال غير الكافر، ونزال غير الكفر المناظر، فإنما هي سفرة قاصدة. وزجرة واحدة ، فإذا هو قد بيض الصحيفة والوجه والذكر، فليحضر وليشاهد أولاد أخيه يستشعرون لفراقه غماً، قد عاشوا ماعاشوا ولايعرفون إن لهم مع عمهم عماً».

وله إليه من كتاب آخر وكأنه بعد اعتذاره عن الحضور: «المولى على حسب اختياره إن سار فمثله من سار وسر، وقاد الجيش وجرّ، ونفع الولي وضر العدوّ الذي أضر، وإن أقام فالعذر الذي أقعده، واشفاق السلطان عن نصره الذي ردّه عن وجهه، والرأي الذي ردّده، فلا يكن في صدره من الأمرين حرج، ولايخف استقصار عزمه إن ركد أو خرج، فمكانه مكانه من القلب، ووده ودّه، وله من اللسان حمده، وهو سيف الاسلام إن ضرب فبحدّه، أو صين ففي غمده لازال المولى منوها باسمه، ومرفها في جسمه، ومجرداً سيف عزمه، وسعيداً بحكم التوفيق، فلا خرج التوفيق عن حكمه».

ومن كتاب عمادي إلى الديوان بفتح الكرك والشوبك وصفد وكوكب يقول فيه: « والآن فقد خلص لنا جميع مملكة القدس وحدها في سمت مصر من العريش، وعلى صوب الحجاز من الكرك والشوبك، وتشتمل

على البلاد الساحلية إلى منتهى أعمال بيروت، ولم يبق من هذه المملكة إلا صور. وفتح أيضاً جميع اقليم انطاكية ومعاقلها التي للفرنج والأرمن، وحدّه من أقصى بلاد جبلة واللاذقية إلى بلاد ابن لاون، وبقيت أنطاكية بمفردها والقصير من حصونها، ولم يبق من البلاد التي لم تفتح أعمالها، ولم تخل عما كانت عليه حالها سوى طرابلس، فإنها لم يفتح منها إلا مدينة جبيل، وقد سحبت عليها المهلة الذيل، ومعاقلها باقية، وليس لها من عذاب الله الواقع واقية، والخادم الآن على التوجه إليها وعزم النزول عليها ،و أنه قدرتب الجانب القبلي، والبلد القدسي، وشحن الثغور من حد جبيل إلى عسقلان بالرجال والأموال ، وآلات العدد، والعدد المتواصل الممدد، ورتب فيها ولده الأفضل عليا لحمايتها وحفظ ولايتها، وقلد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها لتهذيب أحوالها وتقويمها.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: ولما فرغ السلطان من شغل القلاع ونزل إلى الوهاد من التلاع، تجدد للأجل الفاضل عزم مصر، فركب السلطان معه للوداع، ثم تحول إلى صحراء بيسان وأقام بها إلى مستهل ذي الحجة، ثم رحل يوم الجمعة مستهل الشهر ومعه أخوه العادل، وسلكا طريق الغور إلى القدس ووصله يوم الجمعة ثامن الشهر، وهويوم التروية، وصلى الجمعة في قبة الصخرة، وعيد بها يوم الأحد عيد الأضحى، وسار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر في مهامها، ونظم أسباب أحكامها، ثم أذن للعادل في العود إلى مصر لمساعدة ولده العزيز، وودّعه وأعطاه الكرك، وأخذ منه عسقلان.

قال ابن شداد: ورحل على سمت عكا بعسكره موفقا في مورده ومصدره، فما عبر ببلد إلا قوى عدده وكثر عدده، وانفصل العماد عن خدمته إلى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبه الامكان، ومازال منفصلاً عنه إلى أن وصل السلطان دمشق بعد شهرين مستهل صفر من السنة الجديدة.

وفي هذه السنة في الثالث والعشرين من رمضان توفي الأمير مجد الدين مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ، وكان مولده بشيزر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة فبلغ عمره ستاوتسعين سنة.

وفيها في الثامن والعشرين من جمادى الأول توفي الحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الحازمي الهمذاني ببغداد، صاحب المصنفات على صغر سنه، منها: العجالة، والناسخ وغيرهما، ومولده سنة ثمان أو تسع وأربعين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

قال العماد : ووصل كتاب من مصر ونحن على حصار صفد أن إثني عشر رجلاً أعلنوا بشعار أهل القصر ودخلوا من باب زويلة إلى قرب الصياقلة مجذوبي السيوف لادالة الدولة الزاهقة، ونصرة الدعوة الباطلة، وهم ينادون يال علي، وفي زعمهم أنهم يقبلون بالصولة، ويقلبون بالباس لباس الدولة، ويخالون أنهم إذا ثاروا أثاروا، وإذا داروا أداروا، فما اكترث بهم مكترث، ولاانبعث إليهم منبعث، فلما تحققوا أنهم لامجيب لهم ولاداع تفرّقوا في الدروب واضمحلوا، وكانوا عقدوا على الوفاءفانحلوا، ثم أخذوا ووقذوا، واعتقلوا ولم يستنقذوا، ولما علم السلطان بهذا الأمر عراه الهم، وتضجر بمن على بابه من وفود مصر وقال: إلى متى نتحمل منهم هذا الوهم، فطردهم وردعهم وردهم، وكان قد وفد إلى باب السلطان جماعة من أولاد الوزراء المصريين، والأمراء بها المقدمين، ومن أهل المعروف بالمعروفين، ووافق ذلك دخول الفاضل إليه فأخبره بالخبر، فقال له: يجب أن تشكر الله على هذه النعمة، فقد عرفت بهذا طاعة رعيتك، وموافقة نياتهم لنيتك، أليس لم يلب دعوتهم أحد، ولم يكن من ورائهم مدد، فطب نفساً ، وزد عند الله أنساً، فقال السلطان: كان الملوك قبلي تخافهم وتهرب منهم الرعية، وتتوقع منهم البلية، والآن فقد تكاثروا علينا، وتوافدوا إلينا حتى اضجرونا وأملونا ونفرونا، فاذا ركبنا أو نزلنا تعاورونا بالقصص، وساورونا بالغصص، فقال له: أنت أولى بشكر الله على هذه العارفة: كان بمصر من صاحب القصر وأشياعه، وخدمه وأتباعه، وأمرائه وخواصه، وذوي استخلاصه وجهاته والزامه،كل من كان يرتع الخلق في رياض انعامه، وكان بالشام في كل بلد وال وصاحب له على أهله نعم ومواهب، وملوك يلوذ بهم الاقارب والأجانب، واليوم أنت سلطان الجميع، وقد ردّ الله الآمال في تلك الصنائع كلها إلى مالك من حسن الصنيع، وقد اجتمع أولئك المتفرقون على بابك، ووفدوا إلى جنابك، فلا يجدون بعد الله إلاّ جودك، فأكرم وفودك، فأغرورقت بالدموع عيناه، وبالسماح يداه، وأقسم أنه ما عاش

لايرد قاصداً ولايصدّ وافداً ،وتقدم في الحال بقضاء حقوق الوافدين، وانجاح آمال القاصدين.

قلت: وكتب إلى السلطان في هذا المعنى أبو الفتح سبط التعاويذي من بغداد:

فلا يضجرنك ازدحام الوفود عليك وكثرة ما تبذل

فإنك في زمن ليس فيه جواد سواك مفضل

وقد قل أهله المنعمون وقد كثر البائس المرمل

وما فيه غيرك من يستماح وما فيه إلاك من يسأل(٨٨)

وقرأت رقعة بخط الفاضل: «المملوك ينهي وصول فخر الكتاب الجويني، وقد كاد يهلك من لهب الحر والمشقة في السير، وكيف يكون حال ابن السبعين مع المرض اللازم والقولنج الدائم، ونحافة الأعضاء وضعف القوة واستشعار انقطاع الرزق الذي هو نظير انقطاع العمر، وما أظن أن الله أجرى على يد المولى ولافرح عدوّا له بأن ينقطع رزق مثل هذا البقية الحسنة والضيف الراحل، والأديب الفاضل في أيام مولانا التي هي تاريخ الكرم، ومواسم النعم». وفي آخرها: «ومما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمائم في دولته اقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي ألف دينار بشهادة الله، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار» وفوق الرقعة بالخط الصلاحي:«وقفت على رقعة القاضي الفاضل، ومايقطع لأحد رزق إن شاء الله تعالى، بل هي علالات نحن مثل الغريم المنكسر نرضى لذا بمال ذا، و على الجملة ماتقدمت بقطع رزق أحد والورقة قد علمت أكتب فيها الذي لها ولغيرهما إن شاء الله تعالى». وكان في آخر

- ٨٦٧١ -

الرقعة ذكـر الجمال الخيفي، وكأنه كـان له مثل حاجـة الجويني، رحم الله الكل أجمعين.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين

قال العماد: والسلطان في عكا نافذ الأمر، نابه القدر، فأحكم أمرها، وكشف ضرها واستحضر جماعة من مصر يحمي بهم الثغر، فما انفصل حتى وصلوا واتبعوا أمره وامتثلوا، وتقدم إلى بهاء الدين قراقوش باتمام العمارات وولى حسام الدين بشارة، وعوّل عليه في الولاية، والحفظ والحماية.

وقال القاضي ابن شداد: أقام بعكا معظم المحرم يصلح أحوالها، ورتب فيها بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة السور والاطناب فيه، ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق فدخلها مستهل صفر.

قال العماد: وولى مملوكه فارس الدين كشتغدي شهرزور وأعمالها، وكان قد تزوج بأخت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق، فولاه ذلك لقرب الولاية القفجاقية من الشهر زوريه، وقصد حصول المناصرة بحكم المصاهرة.

قال: وحكم السلطان بدر الدين مودوداً في ولاية دمشق، وجدّد له منشوراً بانشائي وفيه: «وقد قلدناه أمر دمشق وجهاتها، وأعمالها، والعشري والزكوات وكل مايجري في الديوان ومايبتاع للخزانة، وولاية المرج والغوطة ومايضاف إليها من الاعمال،وولاية الجبل ووادي بردا ويبوس وتولي الشحنكيات وحفظ الطرقات».

ثم رحل السلطان إلى طبرية فألحقها بمعدلته العمرية، ثم وصل وأقام بدمشق شهر صفر، ووجه الدين به قد سفر، وعز من آمن وذل من كفر، وبدأ بحضور دار العدل، وحكم بالشرع المطهر.

ووصل في ثاني عشر صفر رسول الديوان ضياء الدين عبد الوهاب

ابن سكينة، والـوزير يومئذ معـز الدين بن حـديدة، يأمر بـالخطبة لولي العهـد عدة الـدين أبي الفضـل نصر محمد بـن الامام النـاصر، فاستقبلـه السلطان وأولاده وأمـراؤه وأجناده، وخطـب له بـذلك يـوم الجمعة ثـالث عشر صفر خطيـب دمشق ضياء الـدين أبو القاسـم عبد الملك بـن زيد الدولعـي، فلما انقضت الخطبـة وعاد الـرسول سير السلطـان معه رسـوله ضياء الديـن القاسم بن يحيى الشهرزوري، وسيرت معـه الهدايا والتحف السنـايا، وأسـارى الفـرنـج الفوارس، وعـددهـا النفـائس، وتاج ملكهـم السليـب والملبـوس والطيـب والصليـب. وهـو الـذي كـان فـوق القبـة بالصخرة المقـدسة، ليدل على تطهير ما كان هناك مـن الأسباب المدنسة، وسار الضياء ان رسـولهم ورسول السلطان، ودخلا بغداد وأسـارى الفرنج على هيئتها يـوم فراغها راكبـة حصنها في طوارقهـا وبيارقها وأدراعهـا، قد نكست بنودها، واتعست أنوفها، وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفها.

قلت: وقال ابن القادسي: قدم ابـن الشهرزوي ومعه صليب الصلبوت الذي تعظمه النصـارى فدفن تحت عتبة باب النـوبي الشريف يتبين منه شيء قليل، وكان من نحـاس وقد طلي بالذهـب، فجعل يـداس بالأرجل ويبصـق النـاس عليـه، وذلـك في سادس عشر ربيـع الآخـر، كـذا قـال صليب الصلبوت، وقد نص العماد في البرق على أنه الصليب الذي كان فوق الصخرة وهذا غير ذلك، والله أعلم.

ثـم إن الخليفـة النـاصر اعتقـل ابنه هـذا بعـد مـدّة في سنـة احـدى وستمائة، وأراده على خلع نفسه مـن ولاية العهد ففعل وأشهـد على نفسه بذلك، ثم قضـى الله سبحانه أن عادت إليه ولاية العهـد في أواخر عمره، فخطب له بذلك، ونقش اسمه على الـدينار والدرهم، إلى أن توفي الناصر سنـة اثنتين وعشريـن، وتـولى بعـده فأقـام نحـو تسعـة أشهـر ، وتلقـب بالظـاهر، ثم تـوفي وولي ابنه المستنصر المنسـوب إليه المدرسة ببغـداد، ثم تـوفي سنـة أربعين، وولي ابنـه المستعصـم بـالله وهـوالخليفـة الآن، والله المستعان.

فصل

في فتح شقيف ارنون

قال القاضي ابن شداد: وهو موضع حصين، قريب من بانياس، خرج السلطان من دمشق بعد صلاة الجمعة في الثالث من ربيع الأول، فسار حتى نزل في مرج فلوس، ونزل من الغد يوم السبت في مرج برغوث، فأقام به والعساكر تتابع إلى حادي عشر، ورحل إلى بانياس ومنها إلى مرج عيون، فخيم به وهو قريب من شقيف أرنون بحيث يركب كل يوم يشارفه، ويعود والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب، فأقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف، والعساكر الاسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعدد، وصاحب الشقيف يرى مايتيقن معه عدم السلامة، فرأى أن اصلاح حاله معه قد تعين طريقاً إلى سلامته، فنزل بنفسه ومأحسسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه، وكان من كبار الفرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه، وكان عنده أناة، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته، وأنه يسلم إليه من غير تعب واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق فإنه لايقدر بعد ذلك على مساكنة الفرنج، واقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله، وأنه يمكن من الاقامة بموضعه، وهو يتردد إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور، ويأخذ مغل هذه السنة، فأجيب إلى ذلك كله، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت ويناظرنا في صحة دينه ونناظره في بطلانه، وكان حسن المحاورة متأدباً في كلامه، ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل مافعله من المهلة غيلة

لأنه صادق في ذلك وإنما قصد به تدفيع الزمان، وظهرت لذلك مخايل كثيرة من الخوض في تحصيل الميره، وإتقان الأبواب، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع من دخول نجدة وميرة إليه، وأظهر أن سبب ذلك شدة حمو الزمان، والفرار من وخم المرج، فنزل صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فماطله السلطان، وماآنسه وقال: نفكر في ذلك ونجمع الجماعة، ونأخذ رأيهم، ثم وكل به من حيث لايشعر إلى أن كان من أمره ماسيذكر.

قال: وفي أثناء ربيع الأول وصل الخبر بتسليم الشوبك، وكان قد أقام السلطان عليه جمعاً عظيماً يحاصرونه مدّة سنة حتى فرغت أزوادهم وسلموه بالامان.

وقال العماد: كان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط، وقد أكمل في حفظه الاحتياط، فنزل إلى خدمة السلطان وسأل أن يمهل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من أهله وأظهر أنه محترز من علم المركيس لعنه الله بحاله ، فلا يسلم من جهله وحينئذ يسلم الموضع بما فيه ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه، ويخدمه على اقطاع يغنيه، وعن حب أهل دينه يسليه، فأكرمه وقربه، وقضى أربه، وأجابه إلى ما سأله، وقبل منه عزيزاً مابذله بذله، واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينة ووجد إليه سكوناً وسكينة، فشرع أرناط في إزالة وهنه ، وترميم مستهدمة وتوفير غلاله، وتدبير أحواله ونحن في غرة من تحفظه، وفي سنة من تيقظه، وكان يبتاع من عسكرنا الميرة، ويكثر فيه الذخيرة، وقد أضمر الغدر، وظن أن له النصر، والسلطان حسن الظن به، يحمل صدق الواشي به على كذبه، وكان انتهاء المدة يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة، وأقام السلطان بالمرج ينتظر انسلاخ الهدنة وتسليم الحصن، وخاف إن فارقه أن تجيء امداد الفرنج اليه، وكان مشفقا أيضا من جانب أنطاكية لانتهاء أشهر هدنتها، فكتب إلى تقي الدين بالمقام في تلك الخطة، وسير بذلك

الفقيه عيسى الهكاري، ولم يستدع إلا صاحب آمد قطب الدين سكمان ابن قرا أرسلان، فجاء في أمداده وأعداده، ولازم السلطان فلما قرب انتهاء مدّة صاحب الشقيف أحضره السلطان فتضرّع، وقال: إن قومي إلى الآن لم يخلصوا من صور، وقد أنعمت فأتمم وسأل أن تكون المهلة سنة، فعرف السلطان من فحوى حاله أمارات الارتياب، فكلمه بإيناس وما ردّه بياس، فأرخى طوله، وأرجى أمله، وأمر السلطان بتحويل الخيم إلى ظهر الجبل ليقرب من الحصن وقد بقي من المدنة يومان، فتضور صاحب الحصن فقيل له تقيم عندنا في كنف الأمان، فبكى وتألم من ضبطه وانكشفت سريرته الغادرة، فأمربحمله إلى الشقيف حتى يسلمه ووكل به وحفظ من حيث لايعلم، وقيل لعله يحسن ولايحوج إلى المقابحة ويسلم، وقيل له قد بقي يومان من المدة تقيم حتى تنتهي وتسلم، فأبدى ضرورة وضراعة وقال: سمعاً وطاعة، وكان له ملقى وملق، وفي لسانه ذلق، وماعنده من كل ماتفرق فرق، وقال: أنا أنفذ إلى نوابي في التسليم، وهو قد تقدّم إليهم بالوصية والتعليم، فأظهروا عصيانه، وقالوا يبقى مكانه، فقيد وحمل إلى قلعة بانياس، وبطل الرجاء فيه وبان الياس، ثم استحضر في سادس رجب وهدده وتوعده، فلما لم يفد خطابه، ولم يجد عذابه، سيره إلى دمشق وسجنه ورتب عدة من الأمراء بملازمة حصر الحصن في الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم.

فصل

وفي مـدة مقـام السلطـان على مرج عيـون لمحـاصرة شقيـف أرنـون ، اجتمعت الفرنج وجرت لهم مع المسلمين وقائع.

قال القاضي ابن شداد: كان السلطان قد اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان أنـه إن أمر الملـك من بها بتسليمهـا أطلقه، فـأمرهـم بتسليمها وسلموها، فطالبـه الملك باطلاقه فأطلقه وفـاء بالشرط ونحن على حصن الاكراد، أطلقـه من انطـرسوس واشترط عليـه أن لايشهر في وجهـه سيفاً أبداً، وأن يكون مملـوكه وطليقه، فنكث لعنه الله وجمع الجمـوع وأتى صور يطلب الـدخول إليها فخيـم على بابها يـراجع المركيس الـذي كان بها في ذلـك الوقـت، وكان المركيـس اللعين رجلاً عظيماً ذا رأي وبـأس شديـد وصرامة عظيمة، فقـال له: إنني نائب الملـوك الذين وراء البحر ومـاأذنوا لي في تسليمها إليـك، وطالت المراجعـة واستقرت القـاعدة بينهما على أن يتفقـوا جميعـاً على المسلمين وتجتمع العسـاكـر التـي بصور وغيرهـا مـن الفـرنجية على المسلمين، وعسكـروا على باب صـور، ولما كان يـوم الاثنين سابـع عشر جمادى الأولى بلغ السلطان من جـانب اليزك أن الفرنـج قد قطعـوا الجسر الفاصـل بين أرض صور وأرض صيـدا وهي الأرض التـي نحن عليهـا، فركـب السلطـان نحو اليزك فوصـل وقد انفصلت الـوقعة، وذلـك أن الفـرنج عبر منهـم جماعـة الجسر فنهـض إليهم يـزك الاسـلام وكانوا في عدة وقـوة فقاتلوهم فقتلوا منهم خلقـاً كثيراً، وجرحوا أضعاف ماقتلـوا ، ورموا في النهر جماعة فغـرقوا، ولم يقتل مـن المسلمين إلا مملوك للسلطان يعـرف بأيبك الاخـرش، وكان شجاعـاً باسلاً مجر بـاً للحرب ممارساً فتقطر بـه فرسه، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشـاب حتى فني، ثم بالسيـف حتى قتـل جماعة، ثـم تكاثـروا عليه فقتلـوه، وفي يوم الأربعـاء تاسـع عشر جمادى الأولى ركب السلطـان يشرف على القوم على عـادته ،

فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وحرص رحمه الله في ردهم فلم يفعلوا، وخاف عليهم فإن المكان كان حرجاً ليس للراجل فيه ملجأ، ثم هجم الرجالة إلى الجسر ، وناوشوا العدو، وعبر منهم جماعة إليهم وجرى بينهم قتال شديد، واجتمع لهم من الفرنج خلق عظيم وهم لايشعرون، وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين، فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان، فإنه كان بعيداً منهم ولم يكن معه عسكر فإنه لم يخرج للقتال، وإنما ركب مستشرقاً عليهم على العادة في كل يوم، ولما بان له الوقعة، وظهر له غبارها، بعث إليهم من كان معه ليردوهم، فوجدوا الأ مر قد فرط، والفرنج قد تكاثروا، حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان وظفروا بالرجالة ظفراً عظيماً، وأسروا جماعة وعدّ من قتل من الرجالة في ذلك اليوم فكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفراً، وقتل من الفرنج أيضاً عدة عظيمة وغرق أيضاً منهم عدة، وكان ممن قتل منهم مقدّم الألمانية، وكان عندهم عظيماً محترماً، واستشهد في ذلك اليوم من المعروفين من المسلمين الأمير غازي سعد الدين مسعود بن البصار، وكان شاباً حسناً شجاعاً، واحتسبه والده في سبيل الله، ولم تقطر من عينه عليه دمعة، على ماذكره جماعة لازموه.

قال: وهذه الوقعة لم يتفق للفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدتها، ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه الوقعة في هذه المدة، ولما رأى السلطان ماحل بالمسلمين من هذه الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقرّر معهم أنه يهجم على الفرنج، ويعبر على الجسر، ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم، وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ، فلما صمم العزم على ذلك، رحل الفرنج عائدين إلى صور ملتجئين إلى سورها، فرأى رحمه الله أن يسير إلى عكا ليلحظ مابني من سورها ويحث على الباقي، فراح على تبنين ولم يرجع على مرج عيون، فمضى إلى عكا فرتب

أحوالها، وعـاد إلى العسكر بمـرج عيون منتظراً مهلـة صاحـب الشقيف، ولما كـان يوم السبـت سادس جمادى الآخـرة بلغـه أن جماعة مـن رجالـة العدوّ يتبسطـون، ويصلون إلى جبـل تبنين يحتطبون، وفي قلبـه من رجـالة المسلمين وماجرى عليهـم أمر عظيم ، فرأى أن يقرر قاعـدة كمين يرتبه لهم وبلغه أنهم يخرج وراءهـم أيضا خيل تحفظهـم، فعمل كمينـاً يصلح للقاء الجميع، ثـم أنفذ إلى عسكر تبنين أن يخرجوا في نفر يسير عـابرين على تلك الـرجالة، وأن خيل العـدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهـة عينها لهم، وأن يكـون ذلـك صبيحـة الاثنين ثامـن جمادى الآخـرة، وأرسـل إلى عسكر عكـا أن يسير حتى يكـون وراء عسكر العـدو حتى إن تحركـوا في نصرة أصحـابهم قصدوا خيمهـم، وركب هـو وجحفلـه إلى الجهة التـي عينهـا لهزيمـة عسكـر تبنين حتـى قطـع تبنين، ورتـب العسكـر ثمانيـة أطلاب، واستخرج من كل طلب عشريـن فارساً وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهـروا إليهم ويناوشـوهم، وينهـزموا بين أيديهم حتـى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلـك وظهر لهم مـن الفرنـج معظم عسكـرهم يقـدّمهم الملـك لعنه الله، وجـرى بينهـم وبين هذه السريـة اليسيرة قتـال شديـد، والتزمـت السرية القتال وأنفـوا من الانهزام بين أيديهم، وحملتهـم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الخبر بالسلطـان في أواخر الأمر، وقد هجم الليل فبعـث بعوثـاً كثيرة فعاد الفـرنج نـاكصين على أعقابهم، وقتـل من الفـرنج عشرة أنفـس، ومن المسلمين ستـة: اثنان مـن الترك، وأربعة مـن العرب منهـم الأمير زامل، وكـان شابـاً حسن الشبـاب يتقدم عشيرتـه، وكان سبب قتله أنـه تقنطرت به فرسه ففداه ابن عمه بفـرسه فتقنطرت به أيضاً وأسر هو وثلاثـة من أهله، فلما بصر الفرنج بمدد العسكـر قتلوهم خشية الاستنقاذ. وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة.

قال: ومن نـوادر هذه الوقعة أن مملوكـاً من مماليك السلطـان يقال له أيبك أثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجـراحاته تشخب دماً، وبات ليله أجمع على تلـك الحال إلى صبيحة يوم الثلاثـاء فتفقده أصحابـه فلم

يجدوه فعرّفوا السلطان فقده، وأنفذ من يكشف عن حاله فوجدوه بين القتلى فحملوه إلى المخيم، وعافاه الله، وعاد السلطان إلى المخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر فرحاً مسروراً.

وقال العماد: اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص من الأسر، وقالوا: نحن في جمع جم خارج عن الحصر، وقد تواصلت إلينا أمداد البحر فثربنا للثار، وأعرنا من هذا العار، وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور، واتفقوا أنهم يقصدون بلداً إسلامياً من الساحل، ويقيمون عليه والمركيس يمدّهم من صور بالمدد والعدد، ثم جاء الخبر أنهم على قصد صيدا للحصر، وقد جسروا على عبور الجسر، ووقعت عليهم اليزكية فردوهم، ووقع في الأسر من سباعهم سبعة، فحملوا إلى سجن دمشق، ثم ذكر قتلهم للغزاة المطوعة على الجسر، وقال: لم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكره، وأذاقونا بعد أن حلالنا جنا الفتوحات مرارة هذه المرة، فأيقظنا الله من رقدة المغره، وأخذ الناس حذرهم، وقالوا: بهذا وعد الله حيث قال: (فيقتلون ويقتلون)(٨٩) وعباده هم الذين يتبعون أمره ويمتثلون، ثم ذكر وقعة الكمين. قال: وكان مع المسلمين أربعة من أمراء العرب، فحملوا كما وصاهم السلطان على عزم الطراد ليقصدوا الكمين، وسلكوا أسفل الوادي، وإنما الطريق أعلاه، ولاخبرة لهم بتلك الأرض، فعرف الفرنج أنهم ضائعون فطاردوهم وردّوهم إلى المضيق، وأنفت العرب من الهزيمة فاستشهدوا، قال: وكان معهم مملوك للسلطان يقال له أيبك الساقي فاعتزل إلى صخرة واحتمى بها، ونكب كنانته ورماهم بنشابها، وهم لايقدرون على الاقتحام إليه بالخيل، فرموه بالزنبورك، حتى كثرت فيه الجراحات، وظنوا أنه قد مات، ووصل الخبر إلى المسلمين فأدركوهم، ووقفوا على الشهداء وقبروهم، وجاؤوا إلى أيبك فوجدوا فيه الروح فنقلوه إلى الخيام ، وهم يظنون إنه لاخلاص له من الحمام، وكان في أجله باقية. فمن الله عليه بالعافية.

فصل

في نزول الفرنج خذلهم الله على عكا

قال القاضي ابن شداد: ثم بلغنا بعد ذلك أن الفرنج بصور ومن كان مع الملك قد ساروا نحو النواقير يريدون جهة عكا، وأن بعضهم نزل باسكندرونه، وجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة وقتل منهم المسلمون نفراً يسيراً وأقاموا هناك، ولما بلغ السلطان حركتهم إلى تلك الجهة عظم عليه، ولم ير المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيلهم عن الشقيف لاقصد المكان، فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأحد ثاني عشر رجب فوصل قاصد أخبر أن الفرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصه، ووصل أوائلهم إلى الزيب، فعظم عنده ذلك، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف بالمسير إليه، وتقدم إلى الثقل أن سار بالليل، وأصبح هو يوم الاثنين ثالث عشر رجب سائراً إلى عكا على طريق طبرية إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر إلا هو، وسير جماعة على طريق تبنين يستشرفون العدوّ ويواصلون بأخباره، وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار، فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له مينة صبيحة الثلاثاء وفيه بلغنا نزول الفرنج على عكا، وسير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سوء صنيعه، واشتد حنقه عليه بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئاً، وسار السلطان جريدة من المينة حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية فإنه كان واعدهم إليه، وتقدم إلى الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة، وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها، ولم يزل يبعث إليها بعثاً بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير،وسار من الخروبة إلى تل كيسان في أوائل مرج عكا،

فنزل عليه وأمر الناس أن ينزلوا على التعبية، فكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو، وآخر الميمنة مقارب تل العياضية، واحتاط العسكر الاسلامي بالعدو، وأخذوا عليهم الطرق من سائر الجوانب، وتلاحقت العساكر الاسلامية، واجتمعت ورتب اليزك الدائم وحصر العدو في خيامه بحيث لايخرج منها أحد إلا يجرح أو يقتل، وكان عسكر العدو على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد، وكان عدد راكبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً، قال: ومارأيت من نقصهم عن ذلك، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك، ومددهم من البحر لاينقطع. وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة، والمسلمون يتهافتون على قتالهم، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته، والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل والملوك والأمراء من الأقطار تتابع، ووصل تقي الدين من حماه ومظفر الدين بن زين الدين، وفي اثناء هذه الحال توفي الحسام سنقر الخلاطي وفاة بأسها شديد، وكان شجاعاً ديناً، فأسف المسلمون عليه.

ولما استفحل أمر الفرنج استداروا بعكا، بحيث منعوا من الدخول والخروج منها، وذلك سلخ رجب، فعظم على السلطان وضاق صدره وثارت همته العالية في فتح الطريق إلى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة، فباكرهم مستهل شعبان وضايقهم مضايقة شديدة، فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة، وانتشر عسكر العدو إلى أن ملكوا التلول، وكانت ميسرة عسكرهم إلى البحر الحلو آخذة إلى البحر الملح وميمنتهم قبالة القلعة الوسطى التي لعكا، واتصلت الحرب إلى أن حال بين الفئتين هجوم الليل، وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين في السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الأخرى، وأصبحوا ثاني شعبان يوم السبت على القتال، وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر فحمل شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف شمالي عكا، فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كبيراً، والتفت

السالمون منهم إلى خيامهم و هجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم، ووقف اليزك الاسلامي مانعاً من أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل وانفتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قراقوش الذي جدّده، وصار الطريق مهيعا يمر فيه السوقي ومعه الحوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة، واليزك بين الطريق وبين العدو، ودخل السلطان في ذلك اليوم إلى عكا، ورقي على السور، ونظر إلى عسكر العدو وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقي الدواب وأخذ الراحة، ولم يعودوا إلى القتال، وأصبحوا يوم الاحد فرأى بعض الأمراء تأخير القتال إلى أن يدخل الراجل كله إلى عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو من ورائه، وتركب العساكر من خارج من سائر الجوانب، ويحملوا حملة الرجل الواحد والسلطان رحمه الله تعالى يعاني هذه الأمور كلها بنفسه، ويصافحها بذاته لايتخلف عن مقام من هذه المقامات، وهو من شدّة حرصه، ووفور همته كالوالدة الثكلى، ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الاحد لم يتناول من الغداء إلّاشيئاً يسيراً لفرط اهتمامه، وفعلوا ماكان عزموا عليه واشتدت منعة العدو وحمى نفسه في خيامه، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترائس، حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان، عزم العدو على الخروج بجموعهم، فخرج راجلهم وفارسهم، وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين في نفوسهم ولاخارجين من راجلهم، والرجالة حولهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضاً حتى قاربوا خيام اليزك، فصاح السلطان بالعساكر الاسلامية فركبوا بأجمعهم وحملوا حملة الرجل الواحد، فعاد العدو ناكصاً على عقبيه والسيف يعمل فيهم فالسالم منهم جريح، والعاطب طريح، يشتدون هزيمة يعثر جريحهم بقتيلهم، ولايلوي الجماعة منهم على قبيلهم، حتى لحق بخيامهم من سلم منهم وانكفوا عن القتال أياماً، وكان قصاراهم أن يحفظوا

نفوسهم، ويحرسوا رؤوسهم ، واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون إليها.

قال: وكنت ممن دخل ورقى على السور، ودام القتال بين الفئتين متصلاً الليل مع النهار حتى كان الحادي عشر من شعبان، ورأى السلطان رحمه الله توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون إلى مصارعهم، فنقل الثقل إلى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصلبين مشرف على عكا وخيام العدو، وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين طمان، وكان من شجعان المسلمين ودفن في سطح هذا التل وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان، وبلغ السلطان أن جمعاً من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فكمن لهم جماعة من العرب وقصد العرب لخفتهم على خيلهم، فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا جماعة وأحضروا رؤوساً عدة بين يديه، وذلك يوم السبت تاسع عشر شعبان، وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيمة قتل فيها جمع عظيم من الطائفيتن، وطال الأمر بين الفئتين وما يخلو يوم عن قتل وجرح وسبي ونهب، وأنس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة، وسئموا يوماً فقالوا: إلى كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ، نريد أن يصطرع صبيان: صبي منا، وصبي منكم، فأخرج صبيان من البلد إ لى صبيين من الفرنج، فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الأرض، وأخذه أسيراً فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين، وقالوا: هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه.

قال: ووصل مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع في البحر، ومازال يسبح وهم حوله يردّونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون.

قلت: وذكر العماد كل هذه الوقائع والنوادر في كتابه بألفاظه المسجوعة، وقال: كان من رأي السلطان أن يسايرهم في الطريق ويواقعهم عند المضيق، ويقطعهم عن الوصول، ويدفعهم عن النزول، فإنهم إذا نزلواصعب نزالهم، وأتعب قتالهم، وقالوا: —يعني أمراءه— بل نمضي على أسهل الطرق، فسار الثقل من الليل على طريق الملاحة، وسرنا على جب يوسف إلى المينه، وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا، ونزل يوم الأربعاء على جبل الخروبة، ونزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر محيطين بها للحصر، وضرب الملك العتيق خيمه على تل المصلبة، وربطب مراكبهم بشاطىء البحر فكانت كالأجام المؤتشبه، ثم عبر السلطان بجيشه ونزل بمرج عكا على تل كيسان، وصرنا محاصرين المحاصرين، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط، واستشطنا منه وهو مستشيط، واحدقنا بأولئك الكفرة إحاطة النار بأهلها، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها، ورتبنا بالزيب والنواقير رجالاً يصدونهم عن سبلها ،ودمنا نصدّهم ونصدمهم، ونوجدهم في البحر ونعدمهم، واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز، وزادوا من جانبنا في التحرّز وذلك في آخر رجب لانسلاخه، و الاسلام ينادينا باستصراخه، وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد اتفقت الآراء على أن يكون اللقاء وقت الصلاة عند ارتفاع الدعوات على المنابر الإسلامية، فأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم فكدر عليهم صفو مشاربهم وقلل مضاء مضاربهم وهم في مواضعهم واقفون، وعلى مصارعهم عاكفون وفي مواطنهم ثابتون، كالبنيان المرصوص مافيه خلل، وكالحلقة المفرغة ماإليها مدخل، وكالسور المحيط ماعليه متسلق وكالجبل الأشم مافيه متعلق، فزحفنا إليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا، وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه حتى دخل الليل وحجز، وحملوا من الغد من جانب البحر شمالي عكا فانهزم الفرنج إلى تل المصلبين نحو القبة، وثبتوا عند الوثبة،

وانفتح لنا طريق عكا فدخلها الرجال، وحملت إليها الغلال، والفرنج قد رهبوا ولو قدروا لهربوا، وأصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلد غنيمة، فتوقفوا عن تمام العزيمة، ولو أنهم استمروا لباد العدو بصرعه، فإن للصدمة الأولى في الروع روعه، فبلع العدو ريقه، ووجد إلى الجلد طريقه، ووقفوا كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات، وضربوا الجروخ وفوقوها وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها وكانوا في عدد الرمل ومدد النمل، وهم في كل يوم في ازدياد، والبحر يمدهم بالامداد، وشرعوا في حفر الخنادق، وسد المضائق ونصب الطوارق والسلطان ساهر للمسلمين في ليلهم قائم بأمرهم في نهارهم، ومن كتاب فاضلي في بعض الوقعات: «فاستدارت بهم رجال الجاليشية تقذف شياطينهم بشهابها، وتهوي إلى أوكار أفئدتهم طيور نشابها، وتجنيهم من القنا والنشاب ثمر الردّا متشابها، وقد ارتفع الاسلام إلى درجات سيذكر أمرها، وانخفض الكفر إلى دركات سيمر ذكرها، فالنصر خافق علمه، وكتاب البشارة قد استمد قلمه، وقد وثقنا بلطف الله تعالى فيما يأتي، فتأهبت الخواطر لمعاني المسار، واعدت ألفاظه البشرى المهداة إلى كافة البشر من الاستبشار، فإن الفرنج محصورون، والنازل المحصور كالمركب المكسور، والنصر قد أعرب لعسكر الاسلام والكفر جار ومجرور .

فصل

في المصاف الاعظم على عكا وهي الوقعة الكبرى التي بدأت بالسوء وختمت بالحسنى

قال القاضي ابن شداد: لما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شعبان تحركت عساكر الفرنج حركة لم يكن لهم مثلها عادة، فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم، واصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك وبين يديه الانجيل محمول مستور بثوب أطلس مغطى يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه وهم يسيرون بين يدي الملك، وامتدت الميمنة في مقابل ميسرة المسلمين من أولها إلى آخرها، وامتدت ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها، وملكوا رؤوس التلال، فكان طرف ميمنتهم إلى النهر، وطرف ميسرتهم إلى البحر، وأمر السلطان الجاووش أن ينادى في الناس: يالـلاسلام وعساكر الموحدين، فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة، وامتدت الميمنة إلى البحر كل قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم والميسرة إلى النهر كذلك أيضاً، وكان السلطان قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا على تعبية الحرب، حتى إذا وقعت صيحة لايحتاجون إلى تجديد ترتيب ، وكان هو في القلب، وفي ميمنة القلب ولده الأفضل ثم ولده الظافر ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البكنكري، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين صاحب الحصن، ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابلس، ثم قايماز النجمي ،و جموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر، وأما أوائل الميسرة فكان سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد ومقدّميهم ، والامير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية، ومجاهد الدين يرنقش مقدّم عسكر سنجار وجماعة

من المماليك، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره، وأواخر الميسرة كبار المماليك الأسدية كسيف الدين يازكوج ورسلان بغا، وجماعة الأسدية الذي يضرب بهم المثل وفي مقدمة القلب الفقيه عيسى وجمعه، هذا والسلطان رحمه الله تعالى يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم على القتال، ويدعوهم إلى النزال، ويرغبهم في نصرة دين الله، ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار، ومضى فيه أربع ساعات، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين وأخرج لهم تقي الدين الجاليش وجرى بينهم قلبات كثيرة، وتكاثروا على تقي الدين، وكان في طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم لعلهم يتعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً، فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً فأمده بأطلاب عدّة من القلب حتى قوي جانبه، وتراجعت ميسرة العدو، واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب، ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب، وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم، قال: ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة ولايسبقونها وهم يسيرون خبباً وجاءت الحملة على الديار بكرية كما شاء الله تعالى، وكان بهم غرة عن الحرب، فتحركوا بين يدي العدو وانكسروا كسرة عظيمة، وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية، فإنهم استداروا حول التل وصعدت طائفة من العدو إلى خيم السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك، وفي ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس، وابن رواحة رحمهما الله تعالى، وأما الميسرة فإنها ثبتت فإن الحملة لم تصادفها وأما السلطان رحمه الله فإنه أخذ يطوف على الأطلاب ينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد، وينادي فيهم: ياللاسلام، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف، ويتخرق الصفوف، وآوى إلى تحت التل الذي كان عليه الخيام، وأما المنهزمون من العسكر فإنهم بلغت هزيمتهم إلى الأقحوانة قاطع جسر

طبرية، وتم منهـم قوم إلى دمشق، وأما المتبعون لهم فـإنهم أتبعوهم إلى العياضيـة فلما رأوهم قد صعدوا الجبـل رجعوا عنهم وجاؤوا عـائدين إلى عسكرهـم،فلقيهم جماعـة من الغلمان والخربنديـة والساسـة منهزمين على فعـال الخمـل فقتلوا منهـم جماعـة، ثـم جاؤوا على رأس السـوق فقتلـوا جماعة، وقتل منهـم جماعة، فإن السوق كان فيه خلـق عظيم، ولهم سلاح وأما الـذين صعدوا الخيـم السلطانية فـإنهم لم يلتمسوا شيئاً أصـلاً سوى أنهم قتلوا من ذكرنـاه وهـم ثلاثة نفر، ثم رأوا ميسرة الإسـلام ثابتة فعلموا أن الكسرة لم تتـم، فعادوا منحـدرين مـن التـل يطلبون عسكـرهم، وأمـا السلطـان فإنـه كان واقفاً تحت التل ومعـه نفر يسير وهـو يجمع النـاس ليعودوا إلى الحملـة على العدو ،فلما رأى الفـرنج نـازلين على التل أرادوا لقاءهم فأمرهم بالصبر إلى أن ولـوا ظهورهـم واشتدوا يطلبون أصحابهم، فصاح في الناس وحملـوا عليهم وطرحوا منهم جماعة واشتـد الطمع فيهـم وتكاثـر الناس وراءهم حتى لحقـوا أصحابهم والطرد وراءهـم، فلما رآهم منهزمين والمسلمين وراءهم في عدد كثير ظنوا أن مـن حمل منهم قد قتل، وأنـه إنما نجـا منهم هـذا النفر فقـط، وأن الهزيمـة قد عـادت عليهـم فاشتـدوا في الهرب والهزيمة، وتحركـت الميسرة عليهم وعـاد الملك المظفـر بجمعـه من الميمنـة، وتحايا الـرجال وتـداعت، وتـراجع النـاس من كـل جـانب وكـذب الله الشيطان ونصر الايمان، وظـل النـاس في قتل وطـرح وضرب وجرح إلى أن اتصل المنهـزمون السـالمون إلى عسكر العـدو، فهجم المسلمون عليهـم في الخيام ، فخرج منهـم أطلاب كـانوا أعدوهـا خشية من هذا الأمر مستريحة، فردوا المسلمين، وكان التعـب قد أخذ من الناس والخوف والعـرق قد ألجمهـم، فتراجـع النـاس عنهم بعـد صـلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهـم فرحين مسرورين، وعاد السلطـان وجلسوا في خدمته يتـذاكرون من فقد منهـم، فكان مقدار من فقـد منهم من الغلمان والمجهولين مـائة وخمسين نفراً، ومـن المعروفين استشهـد في ذلك اليـوم ظهير الدين أخو الفقيه عيسى رحمه الله، ولقـد رأيته وهو جالس يضحك

والناس يعـزونه وهـو ينكر عليهـم ويقول: هـذا يوم الهنـاء لايوم العـزاء، وكان قد وقع هو من فرسه رحمه الله وأركبـه، وقتل عليه جماعة من أقاربه، وقتل في ذلـك اليوم الأمير مجلي يعنـي ابن مـراون، وزاد العماد: والحاجب خليل الهكاري.

ثم قـال القاضي: هـذا الذي قتل مـن المسلمين وأما العـدو المخذول فحـزر قتلاهـم بسبعة آلاف نفـر، ورأيتهم وقـد حملوا إلى شـاطىء النهـر ليلقوا فيه فحـزرتهم بدون سبعة آلاف، ولما تم على المسلمين مـن الهزيمة ماتـم رأى الغلمان خلوا الخيام عمـن يعترض عليهم فإن العسكـر انقسم إلى منهزمين، ومقـاتلين فلم يبـق في الخيم أحـد، ورأوا الكسرة قد وقعـت فظنـوا أنها تتم وأن العـدو ينهب جميـع مـافي الخيم، فـوضعوا أيـديهم في الخيم ونهبـوا جميع ماكـان فيها وذهب مـن الناس أموال عظيمـة، وكان ذلك أعظم مـن الكسرة وقعا، فلما عاد السلطان إلى الخيم ورأى مـاقد تم على النـاس من نهب الامـوال والهزيمـة سـارع في الكتب والـرسـل في رد المنهزمين، وتتبـع من شـذ من العسكـر والرسـل تتتابـع في هذا المعنـى حتى بلغت عقبـه فيق فردوهـم وأخبروهم بالكـرة للمسلمين، فعادوا وأمر بجمـع الأقمشـــة مـن أكـف الغلمان، وجمع الأقمشـة في خيمتــه حتـى جـلالات الخيل والمخـالي، وهو جـالس ونحـن حولـه وهو يتقـدم إلى أن كل مـن عرف شيئـاً وحلف عليه يسلـم إليه، وهـو يتلقى هـذه الأحوال بقلب صلب، وصدر رحب، ووجـه منبسط ورأي مستقيم، واحتساب لله تعالى، وقوة عزم في نصر دينه.

وأما العدو المخذول فإنه عـاد إلى خيمه وقد قتلت شجعانهم، وقعدت ملوكهـم، وطرحـت مقدموهـم، وأمر السلطان أن خـرج من عكـا عجل يسحبون القتلى إلى طرف النهر ليلقوا فيه.

قال: ولقد حكـى لي بعض من ولي أمر العجل أنه أخـذ خيطاً، وكان

كل ماأخذ قتيل عقد عقدة فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسراً، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدّهم فإنهم ولي أمرهم غيره، وبقي من العدو بعد ذلك من حمى نفسه، وأقاموا في خيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم، وتشذب من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة، فإنه مارجع منها إلا رجل معروف خاف على نفسه والباقون ذهبوا في حال سبيلهم، وأخذ السلطان في جمع الأموال المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها، وأقام المنادية في العساكر وقرن النداء بالوعيد والتهديد، وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه، واجتمع من الأقمشة عدد كثير في خيمته حتى أن الجالس في أحد الطرفين لايرى الجالس في الطرف الآخر، وأقام من ينادي على من ضاع منه شيء فحضر الخلق وصار من عرف شيئا وأعطى علامته حلف عليه وأخذه من الحبل والمخلاة إلى الهميان والجوهرة، ولقى من ذلك مشقة عظيمة، ولايرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ويسابق بيد القبول إليها، ولقد حضرت يوم تفرقه الأقمشة على أربابها فرأيت سوقاً للعدل قائمة لم ير في الدنيا أعظم منها، وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان.

قال: وعند انقضاء هذه الوقعة وسكون نائرتها، أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال له الخرّوبة خشية على العسكر من أراييح القتلى وآثار الوقعة من الوخم، وهو موضع قريب من مكان الوقعة إلا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل، وضربت له خيمة عند الثقل، وأمر اليزك أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه، واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر، ثم أمرهم بالاصغاء إلى كلامه، وكنت من جملة الحاضرين، ثم قال: بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا، وقد وطىء أرض الاسلام، وقد لاحت لوائح النصرة عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا الجمع اليسير، ولابد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب.علينا

ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم ،و الرأي كل الرأي عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك، وكان ذلك في ثالث عشر تشرين، —يعني— الثاني من الشهور الشمسية، فانفصلت أراؤهم على أن المصلحة تأخر العسكر إلى الخروبة وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح وترجع نفوسهم إليهم، فقد أخذ منهم التعب، واستولى على نفوسهم الضجر، وتكليفهم أمراً على خلاف ماتحمله القوى لاتؤمن غائلته، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل ونستعيد من شذ من العساكر ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة الرجالة، وكان بالسلطان رحمه الله التياث مزاجي قد عراه من كثرة ماحمل على قلبه وعاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام، فوقع له ماقالوه ورآه مصلحة فأقام يصلح مزاجه، ويجمع العساكر إلى عاشر رمضان.

قال: وكان لما بلغه خبر العدو وقصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون، وشاورهم فيما يصنع، وكان رأيه رحمه الله أن قال: المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد، وإلا إن نزلوا جعلوا الرجالة سوراً لهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول إليهم وخيف على البلد منهم، وكانت إشارة الجماعة أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد، وكان الأمر كما قال والله لقد سمعت منه هذا القول ، وشاهدت الفعل كما قال.

وقال العماد: عبأ السلطان ميمنته وميسرته، وطلب من الله نصرته، وهو يمر بالصفوف، ويأمر بالوقوف، ويحض على حظ الأبد، ويحث على الجلاد والجلد، قال: وكنت في جماعة من أهل الفضل، قد ركبنا في ذلك

اليوم ووقفنا على التل نشاهد الوقعة، ونحن على بغال بغير أهبة قتال، فرأينا العسكر مولياً، والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخلياً فوصلنا إلى طبرية فيمن وصل، ووجدنا ساكنها قد أجفل، فسقنا إلى جسر الصنبرة ونزلنا على شرقيه، وكل منا ذاهل عن شبعه وريه، ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق، وهو غير مفيق، ومنهم من وصل إلى دمشق وهو غير معرج على طريق، ووصل جماعة من الفرنج إلى خيمة السلطان وجالوا جولة، ثم رأوا انقطاع أشياعهم عنهم فانحدروا عن التل واستقبلهم أصحابنا، فركبوا أكتافهم، وحكموا في رقابهم أسيافهم، وكان ميسرتنا عسكر سنجار والأسدية فما زالوا ولازالوا بل وصلوا وصالوا، وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت الرياح بالجبال، وعاد من كان من الميمنة مثل تقي الدين وقايماز النجمي والحسام بن لاجين، ومن ثبت من أبطال المجاهدين، فلم يفلت من الأعداء إلا أعداد، ولم ينج من آلافها إلا آحاد، وفرس منهم زهاء خمسة آلاف فارس منهم مقدم الداوية الذي كنا أطلقناه، وذكر أنهم في مائة ألف وعشرين ألفاً حين سألناه، ثم ضربنا عنقه —وقال في الفتح: وعشرة آلاف ــ قال العماد: ومن العجب أن الذين ثبتوا منا لهم لم يبلغوا ألفاً، فردوا مائة ألف وآتاهم الله قوة من بعد ضعف، وكان الواحد يقول: قتلت من المثلثين ثلاثين وأربعين، وتركتهم مصروعين، وكان السلطان من الثابتين في تلك الجولة، والكابتين لأهل الصولة، وقد بقي وحده عند تولي المسلمين، ولاشك أن الله أنزل ملائكته المسوّمين.

حكى بعضهم قال: كنت منهزماً من فارس مدجج قد لز بقربي حصانه، وهز لصلبي سنانه فأيست من البقاء، ثم أبطأت عليّ طعنته فالتفت فإذا هو وحصانه كلاهما ملقى ومابالقرب أحد، فعرفت أنه نصر إلهي وصنع رباني.

قال: وعاد السلطان إلى مضاربه. وأمر بمواراة الشهداء ومن جملتهم

الفقيه أبو علي بن رواحه، وكان ،غزير الفضل قد أكمل الشجاعة والرجاحة، وهو شاعر مفلق وفقيه محقق، من ولد عبد الله بن رواحه الصحابي الأنصاري، في الشهادة والشعر معرق، فطرفه الأعلى يوم مؤته مع جعفر الطيار، وطرفة الأقرب يوم عكا في لقاء الكفار.

قال في البرق: وكان السلطان قد أنعم عليه في حلب بمزرعة، وكتبت توقيعه، وأراد الله تعويقه إذ قرب إلى الآخرة طريقه، وحملت توقيعه إلى السلطان تلك الليلة ليعلم فيه فما علم وراجعته في معناه فسكت وماتكلم، وكان ساعة الوقعة راكباً معنا ثم قال: وقوفنا يطول فمضى إلى خيمته يتودع فلما علم باندفاعنا ساق وراءنا فقطع عمره قبل أن يقطع الوادي، وكان قال لنا لما أصبح: رأيت رجلاً يحلق رأسي في المنام، فقلنا له: هذا من أضغاث الاحلام، فنقله الله بعد ساعة إلى دار السلام.

قلت: وليس هو من أولاد ابن رواحة الصحابي، ذاك لم يعقب، وإنما في أجداده من اسمه رواحة، وقد بيناه في التاريخ، والله أعلم.

قال: ومنهم اسماعيل الصوفي الأرموي المكبس، وشيخ من الحاشية في بيت الطشت، وغلام في الخزانة أمين على البيت، وآخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعادة، وفجأتهم الشهادة وهؤلاء سوى من وقع في الوقعة، وذهب قبل الرجعة، وأجمع السلطان وذووا الآراء على أنه يصبح القوم، فتفقدوا العسكر فإذا هو قد غاب لما بان من الأمر وراب، وذلك أن غلمان العسكرية والأوباش ظنوا أن تلك الفورة هزيمة، فنهبوا الاثقال وعدّوها غنيمة، فمن عاد إلى رحله وجده منهوباً مسلوباً، وكان في ظنه أنه فرغ من لقاء خطب فلقي خطوباً، وأصبحنا وإذا العسكر مفترق والثابت قلق والآمن فرق، والغني معدم، والجريء متندم، فهذا خلف ماذهب من ماله ذاهب، وهذا لمن طلب الطريق بأثقاله طالب، فتفتر ذلك العزم، وتأخر ذلك الحكم، وانتعش الفرنج في تلك المدة

وانتشلوا من تلـك الشدة، وجاءتهم في البحر مراكب أخلفـت من عدم، وبنت ماهدم، وشكونا نتـن رائحة تلك الجيف فحملت على العجل إلى النهر ليشرب من صديـدها أهل الكفر، فحمل أكثر مـن خمسة آلاف جثه حملت إلى النار قبل يوم البعثـة، وأشير على السلطان بالانتقال إلى الخروبة عنـد خيم الأثقـال المضروبة، فسـار إليها رابـع رمضان، وأمـر أهل عكـا باغـلاق أبوابها، وإحكام أسبـابها، فوجد الفرنـج بذلك الفـرج، وشرعوا في حفـر خنـدق على معسكـرهـم حـوالي عكـا مـن البحـر إلى البحـر، وأخرجـوا ماكان في مـراكبهم من آلات الحصر، وفي كل يـوم يأتينا اليـزكية بخبرهـم، وبها ظهر مـن أثرهم، والجد في تعميق الخندق وتتميـم حفرهم، فكان من قضاء الله أنـا أغفلناهم، وأمهلنا هم بل أهملنـاهم حتى عمقوا الحفور، ووثقوا مـن ترابها السور، فكانـوا يخندقون ويعمقون ويعملـون من تراب الحفـر حولهم سـوراً ، فعاد مخيمهـم بلداً مستـوراً معموراً، فملـؤوه بالستائر، ومنعـوه من الطير الطائر، وبنوه وأسسوه وستروه وتـرسوه، ورتبوا عليه رجالاً، ولم يتركـوا إليه لواغل مجالاً، وتركـوا فيه أبواباً وفـروجاً ليظهروا منهـا إذا أرادوا خـروجـا، ولما فـرغـوا مـن هـذا الأمـر اشتغلـوا بـالحصر، وانقطعت الطريق على المسلمين إلى عكا، وبان ضعف رأي الانتقال فإنه بعدما أضحك أبكى.

وجاء كتاب من الفـاضل إلى العماد جواباً عن كتابـه المخبر فيه بوقعة مرج عكا يقول فيه: «وعرفت مـاجرى على قضيته، فسبحت الله تعالى فإن من عجائب قدرته سلامة سيدنـا على ضعف حركته، والأمر كان عـظيماً، والمدفـوع أعظم، والسـلامة كـانت غـريبة إلا أن نقـول ولكن الله سلـم، والسلطان أعزه الله إذا سلـم فكل الناس قد سلموا، وإذا وجـد وقد عدم الناس كلهـم فقد وجدوا وماعـدموا، وكل جوهـر بالإضافة إليـه عرض ، وهـو جوهـر بـالحقيقة مـاعنـه من كـل جـوهر عـوض» ومـن كتاب لـه إلىالسلطان أ وّله:(ثم أنزل الله سكينته على رسولـه وعلى المؤمنين)(٩٠)

الآيـة (ومـارميت اذ رميـت ولكن الله رمـى) (٩١) ورد الكتاب بخط
مـــــــــــولانـــــــــــا مـــــــــــن
معترك حربه وجـلاده وتوفيق جهاده،قبل أن تضـع الحرب أوزارها، وهرع
الناس إلى المجلس العادلي والعزيزي يسقعـون الأخبار، ويستوضحون من
وجوهها الأنوار، ويسألون كيف كانت عـاقبة أهل الجنة وعاقبة أهل النار،
ويشكرون الله على سلامـة أديانهم، وقلوبهم وأبدانهم، وسـلامة سلطانهم،
وماأدراك ماسلامـة سلطانهم، ونصرة كلمة ايمانهم، ودلائل الخير لاتخفى،
وقد يقـرأ الكتاب ومـايلمح قارئه منـه حرفا، وتصـوّر الناس الأمـر الذي
وقاهم الله شره وكفاهم أمره.

فصل

في باقي حوادث السنة بمرج عكا وغيره

قال العماد: وفي يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج إلى صورمقلعا محتويا على ثلاثين رجلاً وامرأة واحدة ورزمةمن الحرير، وجاءت حظوة حلوة، وغنيمة صفوة، وقد كان انكسر نشاطهم، وانقبض انبساطهم، فلما عثروا بالمركب انتعشوا وصاروا يخرجون ويقتلون ويجرحون، ويمسون على القتال ويصبحون، وندم الفرنج على تلك الحركة، فإنها أفضت بهم إلى الهلكة، فانهم ماداموا رابضين، وعلى يد الصبر قابضين ، يتعذر الوصول إليهم، والدخول عليهم.

وفي بعض الكتب إلى بعض الأطراف:«والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك همم المؤمنين في تسكين ثأرهم، وتخريب عامرهم، ومادام البحر يمدّهم والبر لايصدهم، فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم، فأين حمية المسلمين، ونخوة أهل الدين، وغيرة أهل اليقين، وماينقضي عجبنا من تظافر المشركين، وقعود المسلمين،فلا ملبي منهم لمناد، ولا مثقف لمنآد، فانظروا إلى الفرنج أي مورد وردوا،وأي حشد حشدوا، وأي ضالة نشدوا، وأية نجدة أنجدوا، وأية أموال غرموها وأنفقوها، وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها، ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم، ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم إلا جارى جاره في مضمار الانجاد، وبارى نظيره في الجدّ والاجتهاد، واستقلوا في صون ملتهم بذل المهج والأرواح، وأمدّوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح، ومافعلوا مافعلوا ولا بذلوا مابذلوا إلا لمجرد الحمية لمتعبدهم، والنخوة لمعتقدهم، وليس أحد من الفرنجية يستشعر أن الساحل إذا سلك ورفع فيه حجاب عزهم وهتك،يخرج بلد عن يده، وتمتدّ يد إلى بلده ،والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنواوفشلوا وغفلوا

وكسلـوا ولزمـوا الحيرة، وعدمـوا الغيرة، ولو انثنـى والعياذ بـالله للاسـلام عنان، أو خبا سنا ونبا سنان لما وجـد في شرق البلاد وغربها، وبعد الآفاق وقربها، من لدين الله يغار، ومـن لنصرة الحق على الباطل يختار، وهذا أوان رفض التواني، واستدناء أولي الحميـة من الأقاصي والأداني، على أنا بحمد الله لنصره راجون، ولـه باخلاص السرّ وسرّ الخلاص مناجـون، والمشركون بإذن الله هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون».

قال العماد: وكان السلطـان قد كتب إلى مصر يستدعي بـأخيه العادل في رجـال، فقدم علـه منتصف شـوّال،وكتب أيضـا في طلب الاسطـول المصري، فقـدمت خمسـون قطعـة مع حسـام الديـن لـؤلؤ منتصـف ذي القعـدة، فجاءت فجـأة على مراكـب الفـرنج وبغتتهـا وسحقتها وبـددتها وكسبتهاو سلبتهـا، وظفر ببطستين كبيرتين بما فيهما مـن أموالهم ورجـالهم وغلالهم، قال: وهذا لؤلؤ قد اشتهـرت بالكفر فتكاته، وشكرت في العدوّ نكاياته، وقد تفرد بغزواته لم يشاركـه فيهاأحد، وهو الذي ردّ الفرنج عن بحر الحجاز، ووقف لهم على طرق المجـاز، ولم يترك منهم عينا تطرف، ولم يبق لهم دليـلا يعرف، وغزواته مشهـوره وفتكاته مـذكوره، وأمواله مبـذولة وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلولة.

قال: ونقل السلطان الى البلد في المراكب جماعة من الأمراء بأجنادهم، وعددهم وأزوادهم، واستظهر البلد أيضـا بـرجال الأسطول، وكانوا زهاء عشرة آلاف، هذا ورجـاله المسلمين يتطـرقون إليهم ليـلا، ويذيقـونهم من القتل والأسر والسرقة والإسار.

قال: ولما عرف صاحب الموصل ماشرع فيه السلطان من تكثير العدّة، وتقوية النجـدة بكل مايمكنه من أسباب البـاس والشدة، سير من أحمال النفط الأبيـض—مع عزة وجوده— مـاوجده ، ومن التراس والرمـاح من كل جنـس أحكمه وأقومه وأجـوده، وكتبنا في شكره:«وصل السـلاح وتم

للاسلام من فروح الكفر الاقتراح ، فان الحروب المتطاولة المدد أتت على جميع العدد، ومن العجب أن تفنى العدة وما يفنى العداة، وتنمو على الحصاد كأنها النبات، فالبحر يمدهم والكفر إلى الردى يردهم»

ومن كتاب إلى الديوان:« قد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه، وبسط الكفر جناحيه وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روّعت الروعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل ورامح ونابل، فما أثر ذلك في نقصهم، ولا أرث إلاّ نار حرصهم، وليس هذا العدّو بواحد فيفجع فيه التدبير ويأتي عليه التدمير، وإنما هو كل من وراء البحر، وجميع من في ديار الكفر، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلد ولا جزيرة ولا خطة صغيرة ولا كبيرة ، إلاّ جهزت مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرز ساكنها وبرز كامنها، وثار ثائرها، وسار سائرها، وطار طائرها، ونقضت خزائنها، وانفضت معادنها، وحملت ذخائرها، وبذلت أخائرها، ونثلت كنائن كنائسها، واستخرجت دفائن نفائسها، وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها، وتصلبت للصليب السليب، وتعصبت للمصاب المصيب، ونادوا في نواديهم بأن البلاد هي بلادهم، وأن اخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم، وإنه من خرج من بيته مهاجراً لحرب الاسلام وهبت له ذنوبه، وذهبت عنه عيوبه، ومن عجز عن السفر سفر بعدّته وثروته من قدر، فجاؤوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحداد،وتواصلت منهم الامداد»

قال:« ووصلت في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر، وانتدبن للجرائر، واغتربن لاسعاف الغرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للاشقياء، وانهن لايمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لايتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قربة مافوقها قربة، لاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة».

قال:«وأبـق من عسكـرنا مـن المماليك الأغبيـاء، والمدابير الجهلاء جماعـة جذبهم الهوى، واتبعـوا من غوى، فمنهـم من رضي للـذة بالذلـة، ومنهم مـن ندم على الـزلة، فتحيـل في النقلة، فـإن يد مـن لايرتـدلاتمتدّ، وأمـر الهارب إليهم لاتهامه يشتدّ، وباب الهوى عليه يستـدّ، وماعند الفرنج على الغرباء إذا أمكنت منها العزب حرج، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعزبـان المضيفين من فرجها فـرج». قال:ووصلت أيضاً في البحـر امرأة كبيرة القدر، وافـرة الوفر، وفي جماعتهـا خمسمائة فارس بخيولهم وأتبـاعهم، وغلمانهم وأشياعهم، وهي كافلة لكل مـايحتاجون إليه من المؤنة، زائدة بما تنفقـه فيهم على المعـونـة، وهـم يركبـون بـركبـاتها ، ويحملون بحمـلاتها، ويثبون لـوثباتها، وفي الفـرنج نساء فـوارس، لهن دروع وقوانـس، وهن في زي الرجـال يبرزون في حومـة القتال ويعملـن على أرباب الحجـى، وهنّ ربات الحجال، وكل هذا يعتقدن أنه عبادة، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة ويجعنله لهنّ عادة، فسبحان الذي أضلهنّ، وعن نهج الهدى أزلهنّ».

وفي يوم الـوقعة طلعـت منهنّ نسـوة لهنّ بالفـرسان أسـوة، وفيهنّ مـع لينهـنّ قسوة، وليس لهنّ سـوى السوابـغ كسوة، فما عـرفـن حتى سلبـن وعـرّين، ومنهـنّ عـدّة سبين واشترين، وأمـا العجـائز فقد امتـلأت بهنّ المراكـز وهن يشـدّدن تـارة وتـارة يرخين، ويحرضـن وينخين، ويقلـن إن الصليب لايرضـى إلا بالإباء، وإنه لابقاء إلا بالفنـاء، وإن قبر معبودهم تحت استيـلاء الأعـداء، فـانظـر الى الاتفـاق في الضـلال بين الـرجـال والنساء».

قال: وفي آخرهـذه السنة ندب السلطان الرسـل إلى الاقطار والأمصار للاستنفـار والاستنصـار، وبـث الكتـب وكتب بـالبـث، وحـث الرسـل وراسل بالحث، وسرّح عـدنان النجاب إلى سيف الاسلام باليمن، وشرح في الكتـاب إليه مـاجرى مـن حوادث الـزمن، ووصـف له جليـة الحال، وطلـب منه الإعـانة بـالمال، وكوتـب مظفر الـدين قـزل أرسلان بهمـذان

ببعث مادنا منه عزمه ودان، وحكم على كل ملك بحجة الايمان، وهدى الى محجة الاحسان، ووصل الى السلطان رسول ابن أخيه لأمه ركن الدين طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه، وهو آخر السلاطين السلجوقية يتظلم من عمه قزل أرسلان، ويطلب من السلطان إعانته، فاعتذر السلطان بما هو عليه من شغل الجهاد مع الكفار، وأرسل رسولاً في السفارة بينه وبين عمه جمال الدين أبا الفتح اسماعيل بن محمد ابن عبد، لكونه نسيب العماد، وكتب إلى صاحب إربل والى حسن بن قفجاق ونائبه بشهرزور بالتوفر على خدمته، والارتياد لمصلحته، واشياعه ومعونته.

قال: وفي هذه السنة توفي الأمير حسام الدين سنقر الخلاطي أخص مماليك السلطان وأخلصهم، وقد قدّمه على مماليكه، وكانت وفاته ليلة الاثنين والعشرين من رجب.

قال: وفي ثالث عشر شعبان توفي الأمير حسام الدين طمان صاحب الرقة، وهو من المجاهدين المجتهدين، والأتقياء المتجهدين، ولما حضرته الوفاة تأسف من موته على فراشه،وطلب حصانه ليركبه وينتقل سعيدا شهيداً إلى معاده من معاشه.

قال: وفي تاسع عشر شعبان توفي الأمير عز الدين موسك بن جكر، وهو ابن خال السلطان، وهومن أكابر أقاربه، ومقدّمي كتائبه، وكان للقرآن حافظا، وعلى الإحسان محافظا، ولقضاء حقوق الناس ملاحظاً، ولم يزل للسلطان في هذه الغزوات ملازما، وعلى قمع جمع الكفر عازما، ولما اشتدّمرضه استأذن في الدخول إلى دمشق ودفن بجبل قاسيون.

قال: وفي حادي عشر رمضان توفي بدمشق القاضي شرف الدين بن أبي عصرون،ومولده في أوائل سنةاثنتين وتسعين وأربعمائة، فبلغ عمره

ثلاثا وتسعين سنة ونصفا، وأضر قبل وفاته مدّة عشر سنين، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بدمشق قبالة داره بينهما عرض الطريق، وكان شيخ المذهب، وقد ختمت به الفتيا، وأوحشت غيبته الدين والدنيا.

قال: وفي تاسع ذي الحجة توفي الأمير الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري في العسكر بمنزلة الخروبة، وكان صاحب أسد الدين شيركوه، ومضى معه إلى مصر حين ملكها، ثم اختص بالسلطان بعده،وتولى حله وعقده، ودرّت بوساطته وشفاعته للناس أرزاق، ونقل إلى القدس فدفن بظاهره، ولقد كان من الأعيان،ومن أهل الجدّ في نصرة الايمان ، فنقله الله إلى الجنان.

قال: وفي هذه السنة أقطع السلطان مملوكه مجاهد الدين إياز ولاية شهرزور وأعمالها، وولى جمال الدين بن المحسن نقابة الاشراف بدمشق.

قال: وفي عاشر جمادى الأولى منها، كان مولد ناصر الدين محمد بن الملك العزيز بمصر، الذي اجتمع عليه أصحابه بعد وفاة أبيه في محرّم سنة خمس وتسعين، وورد بذلك إلى السلطان جدّه كتاب كريم فاضلي من مصر نسخته:« المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، دام رشاده وارشاده، وزاد سعده واسعاده، وكثرت أولياؤه وعبيده واعداده، واشتدّ باعضاده فيهم اعتضاده، وأنمى الله عدده، حتى يقال هذا آدم الملوك وهذه أولاده، وينهي ان الله وله الحمد رزق الملك العزيز عز نصره ولداً مباركا عليا، ذكراً سوياً، براً ذكيا، تقيا نقيا، من ذرية كريمة(بعضها من بعض) (٩٢) ، ومن نبت شريف كادت ولاته تكون ولاة في السماء، ومماليكه تكون ملوكاً في الأرض، وكان مقدمه الميمون في ليلة الأحد أولى العدد، وبه وبآله يعز الله أهل الجمعة ويذل أهل الأحد »ثم ذكر باقي الكتاب

فصل

في ورود خبر ملك الألمان

قال القاضي ابن شداد:ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وثمانين وصل من حلب كتب من ولده الظاهر، يخبر فيها أنه قد صح إن ملك الألمان خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة قيل مائتا الف، وقيل مائتان وستون ألفا، يريد البلاد الاسلامية، فاشتدّ ذلك على السلطان وعظم عليه، ورأى استنفار الناس للجهاد واعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة، فاستندبني لذلك، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار،وصاحب الموصل، وصاحب إربل واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم، وأمرني بالمسير إلى بغداد، فسرت حادي رمضان، ويسر الله تعالى الوصول في الجماعة، وابلاغ الرسالة إليهم فأجابوا إلى ذلك بنفوسهم، وسير صاحب الموصل علاء الدين ابنه بمعظم عسكره، ووعد الديوان بكل جميل، وعدت إليه خامس ربيع الأول سنة ست وثمانين، وسبقت العساكر وأخبرته بإجابتهم وتأهبهم للمسير،فسر بذلك.

وقال العماد في كتاب الفتح: ونمى الخبر بوصول ملك الألمان إلى قسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل على قصد العبور إلى بلاد الإسلام، وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام، وفيهم ستون ألف فارس مدّرع، ومعهم ملوك وكنود، وكل شيطان لربه كنود، وكتب صاحب قلعة الروم مقدّم الأرمن وهو في قلعته على الفرات، وبين أهل الذمة في المأمن يبدي تنصحا واشفاقا وتخوفا على البلاد واحتراقا، ويقطع أن الواصلين في كثرة، وأن الناهضين إلى طريقهم في عثرة، وأبرق في كتابه وأرعد، وأبدع في خطابه وأبعد، ولاشك أنه إلى جنسه النجس مائل، وبملاءة أهل ملته قائل، ولما وصل هذا النبأ، قيل إنه عظيم، وورد هذا الخبر، وخيل إنه أليم، كاد الناس يضطربون على أنهم يصدّقون ويكذبون ، ومن طرف

كـل حبل مـن الـرأي يجذبون، وقلنـا: إن وضح هـذا الخطـر، وصح هـذا الخبر، فالمسلمـون يقومون لنـا ولايقعدون ، ويغضبون لله ولا يـرضون أنهم لايعضدون، على أن الله ناصرنا، ومؤازرنا ومظاهرنا، وحققنا باظهار القوّة لمن استوحش التأنيس ، وبثثنا بالارسـال إلى بلاد الروم عيونا وجواسيس، ونـدبنـا رسـل الاستنصـار، وبعثنـا كتـب الاستنفـار الى جميـع الأمصـار والأقطار، وقلنا مـاهذه المـرّة الى مرّه، لايسيغها إلاّ كل مـرّ أبيّ، وماهذه الكرة مثل كل كرة، ولايحضرنا إلا كل كميش كمي.

قال: وعوّل السلطان على ارسال القاضي بهاء الـدين بن شداد يوسف ابن رافع بن تميم، ليكون كتابه إلى الديـوان العزيز مع رسول كريم، وقال له: ماأحتاج أوصي، وأنت توفي القول وتستقصي، وجعل له إلى كل طرف في طريقـه رسالـة، وأودعه إليه مقـالة، فسار ووصل إلى حلب والقاضي ضياءالدين بـن الشهرزوري رسول السلطان ببغداد قد عـاد، وذكر أنه قد بلغ المراد، فما هذا الرسول الـرائح، ووصل وهو مغتاظ وتغير عليّ، ونسب انفاذ القاضي بهاء الـدين إليّ، ثم اجتمع بـالسلطان وندّمه على مـاقدّمه، وأعلمه بما عمله وعلمه، وقال له: الشغل قـد فرغ، والقصد قد بلغ، وقرّر مـع السلطان أمـراً ، وعاد على النجـب إلى بغـداد، وصادف بها القـاضي بهاء الديـن بن شداد، فلـم يسفر أمر سفارتـه عن سداد، وقيـل: جواب ماأتيت فيه مع ضياء الدين نسيره، ونندبه فيما نتخيره.

وقـال في كتاب البرق: وصـل الخبر بخروج ملـك الألمان من بـلاده في مائتـي ألف دارع، وفي راجل في دبيـب رجل الـدبا، في عدد رمـل اللوا، وأقام بمحشرهـم القيامة، واستثارهـم لثـار كنيستهم بالقدس قمامة، وساروا في شهـور حتـى وصلـوا قسطنطينيـة، وكـان ملـك الـروم يكتـب إلينـا بأخبارهم ونبأ خروجهم من ديـارهم، ويقول: أنا لا أمكنهم من العبور، فلما جاؤوا لم يقـدر على منعهم، فصـدّعنهم الأزواد، وحـرمهم الإسعـاد، وعبروا الخليـج وقـد كثـرت أمـدادهـم، وقلـت أزوادهـم، ولما وصلـوا إلى

حدود بلاد الاسلام، وسلكوا في الأودية والأجام والوهود والآكام، تسلمهم تركمان الأوج، وتراكم الثلوج وشتا الكلاب في كلب الشتا، واحتاجوا إلى أكل الدواب، واحراق عددهم لإعواز الأحطاب، وعدموا العلف، وماوجدوا الخلف، ومناهل الزلال جامدة، وهم بالبلاد جاهلون، ومن البلاء ناهلون، لايقطعون في يومين فرسخا، وقد أذهب الله عنهم البركة، وصعب عليهم الحركة، وخرج الامر عن حسابهم، وهم كل يوم في نقص أنفسهم ودوابهم، وكانوا يدفنون من اعلاقهم النفيسة، وعددهم الكريمة الرئيسة، مايعجزون عن نقله، ولايخفون بثقله، فاتخذوا لأسرارها من اضلاع تلك الشعاب، وصدور تلك الوهاد والهضاب ضمائر لاتبوح بها أبداً، ولاتطلع على مكنونها ومدفونها أحدا، هذا وبحرهم عباب الموج، وهباب الفوج، فلما خلصوا بعد أشهر كأنهم زخروا بموج سبعة أبحر، هذا وقدنقص شطرهم، وانقطع ظهرهم، لكنهم عرضوا في الستين ألف مدّرع مدجج مقنع، ذلك وقد باد أكثر راجلهم، وترجل معظم أبطال باطلهم، وسيأتي باقي أخبارهم.

قلت: ومن قصيدة للحكيم أبي الفضل الجلياني:

يامنقذ القدس من أيدي جبابرة
قد أقسموا بذراع الرب تدخله

فاكذبوا كذبهم في وصف ربهم
وصدّق الوعد ما أمونا تحوّله

أما رأيت ابن أيوب استقل بها
يعيي الزمان وأهليه تحمله

هاج الفرنج وقد خار والفتكته
فاستنفروا كل مرهوب تغلغله

لما سبي القدس قالوا: كيف نتركها
والرب في حفر منها تمثله

فكم مليك لهم شق البحار سرى
لينصروا القبر والأقدار تخذله

وكـــم تـــرحـــل منهـــم فيلـــق بفـــلا
إلى الخوامـــع ألقـــاه تـــرحلـــبـــه
استصرخـــوا الأهـــل والعـــدوى تمزقهـــم
واستكثـــروا المال والهيجـــا تنفلـــه
هـــم الفـــراش لهيـــب الحرب تصرعـــه
كلما الـــج صـــدمـــاجـــل مقتلـــه
سيـــف امـــام فلسطين يـــرى انمـــا
خلـــف البحـــار لقـــد أمهـــاه صيقلـــه
كـــم أعـــدّوا وكـــم قـــد فـــل جمعهـــم
مـــن غير ضرب ولا طعـــن يـــزيلـــه
وإنما اسـم صـــلاح الـــديـــن يـــذكـــر في
جيـــش العـــدّو فيسبيهـــم تخيلـــه

ثم دخلت سنة ست وثمانين

قال العماد رحمه الله: والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة في خيامه المضروبة على الحالة المحبوبه، وعنده العادل والأفضل والمظفر، وعكا محصورة، وانقضت هذه السنة، وهو على مرابطة المحاصرين لعكا، واتفق في أوائل هذه السنة وقبلها انصراف العساكر الغريبة إلى بلادها البعيدة والقريبة لهجوم الشتاء وتوالي الأنداء والأنواء، وحالت الوحول عن الركوب والنزول، وكانت نوب اليزك مترتبة، والأحوال متهذبة، وربما ركب السلطان يوماً للقنص بالبزاة، ثم يعود لانتهاز فرصة الغزاة، ثم وقعت وقعة الرمل، وذلك أنه ركب يوما في صفر فتصيد، وطاب له قرب القنص فأبعد، واليزكية على الرمل وساحل البحر، فخرج الفرنج في وقت العصر في عدد لايدخل في الحصر، وتسامع أصحابنا بهم، فزحفوا اليهم، وحكموا عليهم، وطردوا عليهم إلى خيامهم، وأخذوا من خلفهم وأمامهم ، ولهم في كل دفعة من العدّو قلائع ، وللفرنج في كل كرة على الرمل مصارع، حتى فني النشاب وبقي الانتشاب، وشاع نداء الاصحاب باستدعاء النشاب، والفرنج لايعجزهم إلا الرما ولايهتكهم إلا الاصما، فلما أنسوا بخلوا الجعاب، تجاسروا على الدنو من تلك الشعاب، وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا إلى النهر، وكادت تعبث بهم يد القهر، فتبث من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان، واستشهد جماعة من الشجعان، وذلك أنهم لما ردّوا والفرنج قلعوا فرسانا، وصرعوا أقرانا، فنزلوا بعد فرسهم بسلب لبسهم، فمرّت بهم الحملة في الأوبه، وأعجلتهم عن الركبة والوثبة، وأظلم الليل وافترق الجمعان، وكثر التأسف على من فقد، ومنهم الحاجب أيد غمش المجدي.

قال: ومن عجائب هذه الوقعة أن مملوكا للسلطان يقال له سرا سنقر عثر به جواده، فقبض من أسره على شعره ليجذبه وسل آخر سيفه

ليضربه، فضرب يـد قابـض شعره فسيبه، واشتـدّ سرا سنقر يعـدو ، وهم خلفه فلم يدركوه، وعاد السلطان من الصيد وقد انفصل الأمر.

قـال: وفي يوم الأحـد خامـس عشر ربيع الاوّل تسلـم شقيف أرنـون بالأمان، وكان الحصار قد استمر عليـه حتى فني زاده، وصاحبه أرناط في الأسر، فسلمه بخلاصه وصار إلى صور.

قال:واغتنـم السلطان هيجـان البحر، وحضور مـراكب الاسطـول من مصر، فما زال يقـوّي عكـا بتسيير الغـلات والقـوّات إليهـا في المراكـب، ومـلأها بـالذخـائر والأسلحة والكماة، فلما سكـن البحر عـادت مراكـب الفرنج إلى مراسيهـا، ودبت عقاربها وأفاعيها، وشدّت مـراكبنا في موانيها، وانقطع خبر البلد، وامتنع عليه دخول المدد، فانتـدبت العوّام بالسباحة، وحملهـم على ذلك مـن السلطان السماحـة، حتى صـاروا يحملون نفقـات الأجناد على أوساطهم، ويخاطرون بأنفسهـم مع احتياطهم، ويحملون كتبا وطيورا ويعودون بكتـب وطيور، ونكتب إليهـم، ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلـح عليها،وكـان في العسكر مـن اتخذ حماما يطـوف على خيمته، وينـزل في منزلته، وعمـل لها برجـا من خشب، وهـوادي من قصب، ويـدرّجها على الطيران مـن البعد، وكنا نقـول: مالهذا الـولع، بما لاينفع حتـى جاءت نـوبة عكـا فنفعت، وشفـت الغليل ونقعـت، وأتت بالكتـب سارحـة شارحـة، وكنا نطلبها منـه مع الليـل والنهار، حتـى قل وجودها لكثـرة الارسال، ولقد عطب عـوّامون، فما ارتدع الباقـون، ومنهم من سلم مراراً من القوم فاجترأ وأنس بالعوم.

فصل

في قدوم الملوك وحريق الأبراج

قال العماد: ولما انقضى الشتاء،وانفتح البحر، وحان زمان القتال، جاءت العساكر الاسلامية من البلاد، فكان أوّل من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين ابراهيم بن المقدّم، ووفد معهم جموع من الأجناد والأعيان، وحشود من العرب والتركمان،فرحل السلطان وتقدّم وعزم على طلب العدّو وصمم، ونزل على تل كيسان يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأوّل، ورتب عسكره فكان تقي الدين في آخر الميمنة، والعادل في آخر الميسرة، والأفضل في أوّل ميمنة القلب، وأخوه الظافر في أوّل الميسرة على الجنب، ثم وصل الظاهر في عساكرحلب، وعماد الدين محمود بن بهرام الأرتقي صاحب دارا وغيرهم من الملوك والمقاتلين، ووصل رسول الخليفة يوم الاثنين سادس عشر ربيع الاوّل، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد، ووصل معه حملان من النفط الطيار ، وحملان من القنا الخطار وتوقيع بعشرين ألف دينار، يقترض على الديوان العزيز من التجار، وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الاحراق بالنار، فاعتد السلطان بكل ماأحضره ، وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره، غير أنه أبدى ردّ التوقيع وقال كل مامعي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد إلى الجهاد لكانت محمولة إلى الديوان ، وأركب الرسول معه مراراً وأراه مبارك النزال، ومعارك القتال، حتى يشهد بها يشاهد، ويبين له المجتهد المجاهد، وأقام طويلا ثم استأذن في العود فرجع.

وقال القاضي ابن شداد: قبل السلطان جميع ماوصل مع الرسول، واستعفى من الرقعة والتثقيل بها. قال: وفي ذلك اليوم بلغ السلطان أن

الفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب إليهم ليشغلهم بالقتال عن البلد، فقاتلهم قتالا شديدا إلى الليل، وخاف أن يهجم العدّو البلد، فانتقل إلى تل الحجل في خامس عشر ربيع الاوّل للقرب، قال: وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوّام معه كتب تتضمن أنه قد طم العدّوبعض الخندق، وقد قوي عزم العدّو على منازلة البلد ومضايقته، فجدّد السلطان الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول، وفي سحر ليلة سابع عشري ربيع الاوّل وصل ولده الظاهر، وفي آخر ذلك اليوم وصل مظفر الدين، وكان السلطان رحمه الله مايقدم عليه عسكر إلاّ ويعرضهم ويسير بهم إلى العدّو، وينزل بهم في خيمته ويمدّ لهم الطعام وينعم عليهم بما تطيب به قلوبهم إذا كانوا أجانب، ثم تضرب خيامهم حيث يأمر، وينزلون بها مكرمين، قال: وكان العدّو قد اصطنع ثلاثة أبراج من خشب وحديد، وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ماذكر بحيث لاتنفذ فيها النيران، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على الأسوار، وهي مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة مايزيد على خمسمائة نفر على ماقيل ويتسع سطحه لأن ينصب عليه منجنيق، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد مالايمكن شرحه، وأيس الناس من البلد بالكلية، وتقطعت قلوب المقاتلة فيه، وكان قد فرغ عملها، ولم يبق إلاّ جرّها قريب السور، وكان السلطان رحمه الله قد أعمل فكره في إحراقها واهلاكها، وجمع الصناع من ا لزراقين والنفاطين، وباحثهم في الاجتهاد في احراقها، ووعدهم عليه بالاموال الطائلة، والعطايا الجزيلة، وضاقت حيلهم عن ذلك، وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي فذكر أن له صناعة في احراقها، وأنه إن أمكن من الدخول إلى عكا وحصل له الأدوية التي يعرفها أحرقها فحصل له جميع ماطلبه ودخل الى عكا وطبخ تلك الأدوية مع النفط في قدور من النحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار، ثم ضرب البرج الواحد يوم وصول الملك الظاهر بقدر فاشتعل

من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء، فاستغاث المسلمون بالتهليل والتكبير، وغلبهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب، فبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثاني بالقدر الثاني، والثالث بالثالث فاحترقا كالأول، وركب السلطان والعساكر وسار إليهم وانتظر ان يخرجوا فيناجزهم عملا بقوله ﷺ: « من فتح له باب خير فلينتهزه»، فلم يظهر العدّو من خيامهم ، وحال بين الطائفتين الليل، واستمر ركوب السلطان إليهم في كل يوم وطلب نزالهم وقتالهم وهم لايخرجون من خيامهم لعلمهم بتباشير النصر والظفر بهم، والعساكر الاسلامية تتواتر وتتواصل، فوصل في الثاني والعشرين من ربيع الآخر عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار، وهو ابن أخي نور الدين رحمه الله وصهره وزوج ابنته، فلقيه السلطان بالإحترام والتعظيم، ورتب له العسكر في لقائه،وسار به حتى أوقفه على العدّو، وعاد معه إلى خيمته وأنزله عنده، وكان صنع له طعاما لائقا بذلك اليوم، فحضر هو وجميع أصحابه، وقدّم له من التحف والللطائف مالا يقدر عليه غيره، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة إلى جانبه، وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله، وضربت خيمته على طرف الميسرة على جانب النهر، وفي سابع جمادى الأولى وصل ابن أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، فلقيه السلطان وأنزله إلى جانب عمه عماد الدين. وفي تاسع جمادى الأولى وصل ابن صاحب الموصل، وهو علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، نائبا عن أبيه، ففرح السلطان به فرحا شديدا وتلقاه من بعيد هو وأهله، واستحسن أدبه وأنزله عنده في الخيمة، وكارمه مكارمة عظيمة، وقدّم له تحفا حسنة، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الأفضل والظاهر، وفي أواخر الشهر وصل صاحب إربل زين الدين يوسف بن زين الدين علي، فأكرمه السلطان وأنزله عند أخيه مظفر الدين يعنى في الميسرة.

وذكر العماد قدوم هـؤلاء الملوك بمعنى ماتقـدّم قال: وكان الفرنـج مذ نـزلـوا على عكـا صممـوا على الاقامـة والحصر، فشرعـوا في بنـاء الأبـراج العظام العاليـة، ونقلوا في البحر آلاتها وأخشابها الجافيـة،' واقطاع الحديد، وبنوا ثلاثة أبراج عالية في ثلاثة مـواضع من أقطار البلد، وكل برج لابد له في أركـانه من أربـع اسطوانات عـاليات غـلاظ جافيات، طـول كل واحدة خمسون ذراعا ليشرف على ارتفاع سـور البلد، وبسطوها على دوائر العجل، ثم كسوهـا بعد الحديد والوثوق الشديـد بجلود البقر والسلوخ، وكل يـوم يقربـونها، ولو ذراعا على حسـب التيسير في تسييرها، وسقـوها بالخل والخمـر، وكشفوا مـن جوانبهـا الثلاثـة سور البلـد وشرعوا في طـم الخندق، وجـاء عوّام من عكـا فأخبر السلطان فـركب بالعسكـر ولازمهم من الجمعـة إلى الجمعة يقاتلهم صبـاح مساء ليشغلهم، فـافترقوا قسمين فـريق للقتـال وفريـق آخر مـع الأبـرا ج، فأشفـى البلد وبقـي له رمـق ضعيـف، ورميـت الأبـراج بكـل قارورة نفـط فما أثـرت، ولم نشعـر يـوم السبـت الثامـن والعشرين مـن ربيـع الأوّل بالأبـراج إلاّ وقد اشتعلـت، والتهبت ووقعت، وكانـت آية من قدرة الله ظهرت، وذلك أنـه كان بعكا شاب من أهل دمشق يعرف بعلي ابن عـريف النحاسن، وكان أبدا يجمع آلات الزراقين مـولعا، ولتحصيـل عقاقيرها متتبعـا، وكل من عـرفه عـذله وانكر عمله، وكـان قد ألف منها مقاديـر وقدورا، وملأ بالغيـظ من أهل تلـك الصناعـة صـدورا، ولم يكن النفـط من صنـاعتـه، ولكن الله وفقـه لسعـادته، فلما كـان يـوم حـريقها جـاء إلى الأمير قـراقـوش وهو مغتـاظ واخـلاقه فظـاظ غلاظ، وقـال: أتـأذن لي في تصويـب المنجنيق لأحـرق البرج واللهولي التوفيق، فـزجره وزبره ونهاه ونهره، وقال صنـاع: هذا الشغل قد خـاروا وحاروا، وبعـد ما انجـدوا أغاروا، فقـال الناس: دعـه وشأنـه، ومايدريك أن الله وفقـه وأعانه، فرمى ابن العـريف إلى البرج الأوّل قدور نفـط خاليـة من نـار حتى عـرف انه سقـاه وروّاه، ثم رمـاه بقدر محرقـه، وأردفهـا بأخـرى مزهقة، فتسلطـت النـارعلى طبقـاتها، فأضرم على أهـل

السعير سعيرا(وكان يوما على الكافرين عسيرا) (٩٣) ثم أحرق الثاني والثالث، فاجتمع عليه الأصحاب يفدّونه ومن الأولياء يعدّونه، وحملوه بعد ذلك إلى السلطان فلم يقبل عطاء، وقال: عملته لله فما أريد به من سواه جزاء، وقيل احترق في البرج الأوّل سبعون فارسا بعدّتها فحبطت أعمالهم وخابت آمالهم، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق، وسدوا الثغر وأظهروا القدر بظهور القدر وجاؤوا إلى مواضع الأبراج وأماكنها واستخرجوا الحديد من مكامنها، ونبشوا الرماد عن الزرديات التي انسبكت، وكشفوا عن الستائر التي تهتكت، فأخذوا ماوجدوا، وحصلوا مانشدوا.

قال: وكان السلطان قد كتب بالاستظهار من شوانى الاسطول والاسراع به في الوصول، فوصل الخبر بوصوله يوم الخميس ثامن الشهر، فاستظهر به الأسطول الأوّل الذي بالثغر ، فركب السلطان بجميع كتائبه، وأحاط بالكفر من جميع جوانبه واشتغل الفرنج عنا بمادهمهم في البحر، فجدّوا في الامر، وجهزوا اسطولا بعدد الرجال وعدد القتال ، وخرجوا لتلقي الأسطول الواصل، وقابلوا الحق بالباطل، وجاءت شواني المسلمين فنطحت وطحنت، وأخذت مركبا للعدّو برجاله، وأخذوا لنا قطعة، ومازالت الحرب قرعة وقرعة، وصرعة وصرعه، حتى دخل الليل فتحاجز الفريقان، وتفرّق الاسطولان، وكانت المقتلة في الكفر شديدة والسطوة مبيدة.

وقال القاضي ابن شداد: لما كان ظهيرة يوم وصول علاء الدين ابن صاحب الموصل ظهرت في البحر قلوع كثيرة، وكان رحمه الله في نظرة الاسطول من مصر فإنه كان قد أمر بتعميره ووصوله، فعلم أنه هو ، فركب والناس في خدمته وتعبأ تعبية القتال ، وقصده مضايقة العدّو ليشغله عن قصد الأسطول، ولما علم العدّوبالاسطول استعدّ له وعمر اسطوله لقتاله ومنعه من دخول عكا، ولما خرج اسطول العدّو واشتدّ

السلطان في قتالهم من خارج، وسار الناس على جانب البحر تقوية للأسطول وإيناسا له ولرجاله التقى الاسطولان في البحر، والعسكران في البر واضطرمت نار الحرب واستعرت، وباع كل فريق روحه براحته الأخروية، وجرى قتال شديد أقشع عن نصرة الاسطول الاسلامي، وأخذ منه شيني وقتل من به،ونهب جميع مافيه، وظفر من العدّو بمركب أيضا، كان واصلا من قسطنطينية، ودخل الاسطول المنصور إلى عكا، وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها مير وذخائر، وطابت قلوب أهل البلد بذلك، وانشرحت صدورهم، فان الضائقة كانت قد أخذت منهم، واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى أن فصل بينهما الليل، وعاد كل فريق إلى خيمه، وقد قتل من عدّو الله وجرح في ذلك اليوم خلق عظيم، فإنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع، فإن أهل البلد اشتدّوا في قتالهم ليشغلوهم عن الأسطول أيضا، والاسطولان مقابلان، والعسكر من البر يقاتلهم، وكان النصر بحمد الله للمسلمين.

قال العماد: وقتلنا منهم مدّة مقامنا على عكا سنتين أكثر من ستين ألف، ورزأناهم بكل حتف، وكلما أبادوا في البر، زادوا من البحر، وكم جسروا وخسروا، وقتلوا وأسروا، وهزموا وكسروا، وخلفهم خلف، ويقوم مقام مائتهم ألف، وقد أفنينا أنفسهم وأموالهم، وقطعنا أرزاقهم ووصلنا آجالهم.

فصل

فيما كان من أمر ملك الألمان

قال القـاضي ابن شـداد: تواصلـت الأخبار بـوصول ملـك الألمان إلى بلاد قليج أرسلان، وأنه انتهـض للقائه جمع عظيم من التركمان، وقصدوا منعه من عبـور النهر، وأنه أعجزهـم لكثرة خلقه، وعدم مقـدّم لهم يجمع كلمتهم، وكـان قليج أرسـلان يظهر اشفاقـه، وهو في البـاطن قـد أضمر وفـاقه، ثـم لما عبر إلى البـلاد أظهر مـن الفساد مـاكـان أضمره ووافقـه وأعطـاه رهائن معـه على أنـه ينفذ معـه من يـوصلـه إلى بلاد ابـن لاون، وأنفذمعـه أدلة يدلون بـه وعراهم في الطريـق جوع عظيم وأعوزهـم الزاد وقل بهم الظهـر حتى أنهم ألقـوا بعض أقمشتهـم، ولقد بلغنـا والله أعلم أنهم جمعـوا عـدداً كثيرة مـن زرديات وخـوذ وآلات وسـلاح عجـزوا عـن حملهـا، وجعلوهـا بيدرا واحـدا وأضرمـوا فيها النـار لتتلف ولاينتفـع بها أحد، وأنها بقيت بعد ذلك رابية مـن حديد، وساروا على هذه الحال حتى وصلوا إلى طرسـوس، فأقاموا على نهر ليعبروه وأن ملكهم الملعـون عنّ له أن يسبـح فيه، وكـان ماء شـديـد البرد، وكان ذلـك عقيـب مانـاله مـن التعب، وأنه عرض له بسبب ذلـك مرض عظيم اشتدّ به إلى أن قتله، ولما رأى مـاحل بـه أوصى إلى ابنـه الـذي كان في صحبتـه، ولما مات أجمعـوا رأيهم على أنهم سلقوه في خـل، وجمعوا عظامـه في كيس حتـى يحملوه إلى القـدس الشريـف ويدفنـوه فيـه، وتـرتـب ابنـه مكانـه على خلـف مـن أصحابه، فإن ولـده الأكبر كان خلفه في بلاده، وكان جماعة مـن أصحابه يميلون إليـه، واستقر قدم ولـده الحاضر في تقدّمه في العسكـر، ولما أحس لافون بما جرى عليهم من الخلـل وماحل بهم من الجوع والموت والضعف بسبـب موت ملكهـم، مارأى أن يلقـي نفسه بينهـم فإنـه لايعلم كيـف يكـون الأمر، وهـم فرنـج وهـو أرمني،فـاعتصـم عنهم في بعـض قلاعـه المنيعـة، ولقد وصـل إلى السلطان كتـاب مـن الكاغيكـوس، وهو مقـدّم

الأرمن، وهـو صاحـب قلعة الـروم التي على طـرف الفرات، ومعنـى هذا الاسم الخليفـة، ونسخة الكتاب:«كتاب الـداعي المخلص الكاغيـوس مما أطـالع بـه علوم مـولانا ومـالكنـا السلطان الملـك الناصر، جـامع كلمـة الايمان، رافـع علم العـدل والاحسـان، صلاح الـدنيـا والـدين، سلطـان الاسلام والمسلمين، من أمـر ملك الألمان وماجرى له عنـد ظهوره، وذلك أنه أوّل ما خرج من دياره دخل بـلاد الهنكر غصبا، ثم دخل أرض مقدّم الروم وفتح البـلاد ونهبها، وأحوج ملك الـروم إلى أن أطاعه وأخذ رهـائنه ولـده وأخاه وأربعين نفـراً مـن خلصائه، وأخـذ منـه خمسين قنطارا ذهبـاً وخمسين قنطـارا فضة، وثيـاب أطلـس مبلغـا عظيما، واغتصب المراكـب، وعـدى بها إلى هذا الجانـب، وصحبته الـرهائن إلى أن دخـل حدود بـلاد الملك قليـج أرسلان، وردّ الرهائن وبقـي ثلاثة أيام سـائراً وتركمان الأوج يلقونـه بالأغنام والابقـار الخيل والبضائع، فتداخلهم الطمع وجمعـوا من جميع البـلاد، ووقع القتـال بين التركمان وبينهم، وضايقـوه ثلاثـة وثلاثين يومـا وهو سائر، ولما قرب مـن قونية جمع قطـب الدين ولد قليـج أرسلان العساكر، وقصده وضرب معه مصـافاً عظيماً فظفر به ملك الألمان وكسره كسرة عظيمة، وسار حتـى أشرف على قونية، فخرج إليـه جموع عظيمة من المسلمين فردّهم مكسورين، وهجم قونيـة بالسيف وقتل منها عالماً عظيما من المسلمين والفـرس، وأقام بها خمسـة أيام، فطلـب قليج أرسـلان منه الأمان، فأمنه الملـك واستقر بينهم قاعدة أكيدة، وأخـذ منه الملك رهائن عشرين من أكابر دولته، وأشـار على الملـك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل، وقبـل وصوله إلى هذه البـلاد أنفذ كتابه ورسـوله يشرح حاله وأين قصـده ومالقيه في طريقه، وأنه لابدّ يجتـاز بهذه الديار اختياراً أوكرها، فـاقتضى الحال إنفاذ المملوك خـاتمه وصحبته ماسأل، ومعـه من الخواص جماعة للقـاء الملك في جواب كتـابه، وكـانت الوصيـة معهم أن يحرّفـوه على بلاد قليـج أرسـلان إن أمكـن، فلما اجتمعوا بـا لملـك الكبير وأعـادوا عليـه الجواب وعرّفـوه الاحـوال أبـى الانحـراف، ثم كثـر عليـه

العساكر والجموع ونزل على شط بعض الأنهر وأكل خبزاً ونام ساعة وانتبه فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد، ففعل ذلك، وخرج وكان أمر الله أنه تحرّك عليه مرض عظيم من الماء البارد، فمكث أياما قلائل ومات، وأما لافون فكان سائراً يتلقى الملك، فلماجرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدّموا اليه وأخبروه بالحال، فدخل في بعض حصونه واحتمى هناك، وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه لقصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه، وتأكدت قواعده، وبلغه هرب رسل لافون فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال: إن أبي كان شيخا كبيراً وانما قصد هذه الديار لأ جل حج بيت المقدس، وأنا الذي دبرت الملك وعاينت المشاق في هذه الطريق مع من أطاعني، والا كنت بدأت بقصد دياره واستعطف لافون، واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة، وفي الجملة هم في عدد كثير، ولقدعرض عسكره فكان في اثنين وأربعين ألف مجفجفاً وأما الرجالة فلا يحصى عددهم، هم أجناس متفاوتة، وخلق غريبة، وهم على قصد عظيم، وجدّ في أمرهم وسياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة، ولقد بلغنا عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه، فاجتمعت القسوس للحكم عليه، فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه وشفع الى الملك منهم خلق عظيم، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه، وقد حرّموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه، وكل ذلك كان حزنا على بيت المقدس، ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدّة طويلة وحرّموها على أنفسهم ولم يلبسوا إلا الحديد حتى أنكر عليهم الاكابر ذلك، وهم على الذل والشقاء، والتعب على حال عظيم".

وقال العماد: لما قاربوا بلاد عز الدين قليج أرسلان نهض إليهم ابنه قطب الدين ملك شاه،فوقع بينهم الحرب، ثم اندفع عنهم إلى مدينة قونية، فساقوا وراءه ودخلوها وحرقوا أسواقها ونزلوها، فنفذوا إلى

السلطان قليج أرسلان: إنـا لم نصل لأخـذ بلادك، وإنما ثـرنا لثـأر بيت المقدس، ونفذوا اليه هدايا وطلبوا الهدنـة فهادنهم، فتقوّوا من تلك البلاد بما أرادوا من العدد والأزواد، وأنفذ قليج الـدين أرسلان وابنه يعتذران الى السلطـان مـن تمكينهـم ثـم العبـور، وانهم غلبـوا على ذلـك، ثـم ان الالمانيةطلبـوا من قليج أرسـلان إنفاذ جماعـة من الأمراء معهـم يمنعونهم مـن لصوص التركمان حتـى يصلوا إلى بـلاد الأرمن، فنفـذ معهم خمسـة وعشرين، ووافـق ذلك غرض قطب الـدين، فإنـه كان كارها لجماعـة من المقدّمين فتقـدّم إليهم بـأن يكونـوا في صحبة ملـك الألمان فحملهم على الخطر وأوقعهم في الغرر، وورّطهم في الضرر، فإنهم ماقدروا في الطريق على دفـع كـل سارق، وقـد تبعهـم اللصـوص حتـى وصلوا إلى بـلاد الأرمـن ومقدّمهم لافون بـن أصطفان بن لاون، فأخذوا أولئك الـرهائن وقيدوهـم وجعلوهم في الاسر وجـرّدوهـم، فمنهم من خلص بعـد حين بمال جزيل، ومنهـم مـن بقي مـأسـورا حتـى أتـاه اليقين، ووصل مقـدّم الأرمـن إلى خـدمته، ودخـل في طـاعتـه، وهداهـم لمقصـده، وقـام لهم بالضيـافـات والعلوفات، وذلـك في طرسوس، فتمكنوا بها ليريحوا النفـوس، فعن لملك الالمان أن يسبح في النهر لإماطـة مابه من الوضر، فعرض لـه مرض سلك بـه في سقـر، وقيـل: لما عبرت جموعـه النهـر ازدحموا والتطـم الموج بهم واقتحموا، وطلب هو موضعا يعبر فيه وحده، ويتبعه من بعده، فنزل على مخاضـة ذات مخافة، لايخلـو مـن هجمها مـن آفـة، فجرى إليهـا، واجترأ عليهـا، فجـذبتـه سـورة الماء إلى شجرة شجـت رأسـه ومجت أنفـاسـه، وأخرجـوه ونفسه على الخروج، وعمـره على الدروج، فتسلـم مالـك ملك الألمان بآله وأحمالـه إلى جهنم، وجلس ابنه مكـانـه، واتبع شانـه، واستتبع رجاله وفرسانه، وقيل عـرض عسكره في نيف وأربعين ألف كمي، وانقطع عنه ابـن لاون واختلف عليه أصحاب أبيـه ميلا منهم إلى أخيـه، وساروا على سمـت انطـاكيـة في فـرق ثلاث كـأنهم مـن المرض قـد نبشـوا مـن أجداث، وأكثرهم حملـة عصيّ وركاب حمير، وكـل بالأرض التـي يسلكها

غير خبير، فتبرم بهم صاحب أنطاكية، وثقلت وطأتهم المفاجئة، وحسن لهم طريق بلاد حلب فلم يروا ذلك الصوب من أرب، وطلب منه الملك قلعة انطاكية لينقل إليها ماله وخزائنه وأثقاله، فأخلاها له وسلمها اليه طمعا في ماله، وأموال رجاله، وكان على ماحدسه فإنه لم يعد إليها، واستولى الابرنس بأنطاكية عليها، وجاءت فرقة منهم ليلا إلى حصن بغراس، وظنوا أنه في أيدي أجناسهم الأنجاس، ففتح والي القلعة الباب، وأخرج الاصحاب، وتسلم تلك الأموال بأحمالها والصناديق بأقفالها، وأسر منهم وقتل كثير، وخرج بعد ذلك أهل حلب وجندها إلى طرقهم، وفرقوا بين فرقهم والتقطوهم من الخمر والغياض، وكان الواحد يستأسر منهم ثلاثة، ولايرى من رفقائهم إغاثة، فهانت الألمانيةبعد تلك المهابة في الأنفس، وباعوهم في الاسواق بالثمن الأبخس، ولما تكامل وصول السالمين إلى أنطاكية، سلكوا إلى طريق طرابلس جبلة واللاذقية، فخرج عليهم رجالها فقتلوا منهم وأسروا، فما وصلوا إلى طرابلس إلاّ في خف ولم يسف ممن جاء مع الملك غير ألف، وجاؤوا إلى النازلين على عكا فغرقوافي لجهم، وخمدوا في وهجهم، ثم هلك على عكا بعد انقضاء مدّة، واقتضاء شدّة، بتاريخ ثاني عشر ذي الحجة سنة ست وثمانين.

وقال في الفتح: وجبن الملك عن السير على الطريق لما لقيت جموعه في طرقاتهم من التفريق، فركب البحر في عدد يسير لايزيد على الألف، برعب قلب وقصور يد ورغم، أنف، واختلط مع الفرنج على عكا فسقط وسخط حكمه، وهلك بعد قليل، ولم يحظ بنقع غليل،

وقال القاضي ابن شدّاد: مرض ولد ملك الألمان الذي قام مقامه مرضاًعظيماً، وأقام بموضع يسمى التينات من بلاد لافون، وأقام معه خمسة وعشرون فارساً وأربعون داوياً، وجهز عسكره نحو أنطاكية حتى يقطعوا الطريق ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس ومقدّمها كند عظيم عندهم، وإن عسكر بغراس مع

قلته أخذ منهم مائتي رجل نهبا وقهراً، وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد، وقلة الخيل والظهر ، والعدد والالآت، ولما اتصل هذا الخبر بالنوّاب في البلاد الاسلامية أنفذوا إليهم عسكرا يكشفون أخبارهم، فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة، فأغاروا عليهم، وقتلوا وأسروا زهاء خمسمائة نفس، ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ويقول: هم عدد كثير لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة، قال: ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ماوجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحا إلا النادر، فسألتهم عن ذلك، فقالوا: أقمنا بمرج وخم أياما وقلت أزوادنا وأحطابنا، فأوقدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها،ومات الكند الذي وصل إلى أنطاكية، وطمع لافون فيهم حتى عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تأخر معه،ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض.

قال،ولما تحقق السلطان وصول ملك الالمان إلى بلاد لافون وقربه من البلاد الاسلامية، جمع عسكر العدو الواصل، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدّو المقابل بباقي العسكر المنصور، فكان أوّل من سار صاحب منبج ناصر الدين بن تقي الدين، ثم عز الدين ابن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرهما،ثم مجد الدين صاحب شيزر، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب، وسار إلى دمشق ولده الأفضل لمرض عرض له، وكذا بدر الدين شحنة دمشق، ثم سار الملك الظاهر إلى حلب لايالة الطريق، وكشف الأخبار، وحفظ مايليه من البلاد، وسار بعده الملك المظفر لحفظ مايليه من البلاد وتدبير أمر العدّو المجتاز، ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فان معظم من سار منها، فأمر رحمة الله عليه الملك العادل فانتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة، ووقع في العسكر مرض عظيم، فمرض مظفر الدين بن

زين الدين صاحب حران وشفي ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان وشفي، ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم إلاّ أن المرض كان سليما بحمد الله تعالى، وكان المرض عند العدّو أكثر وأعظم، وكان مقترنا بموتان عظيم، وأقام السلطان مصابرا على ذلك مرابطاً للعدو.

قال العماد: وتقدّم السلطان بهدم سور طبرية وهدم يافا وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل، ونقل أهلها إلى بيروت وفي بعض الكتب السلطانية:« قد عرفنا خبر العدّوالمشؤوم الواصل من جانب الروم، وهذا أوان تحّرك ذوي الحميه، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية، وانهم في كثرة مستنون في طريق العثرة، والسيل اذا وصل إلى الجبل الراسي وقف، والليل إذا بلغ إلى الصبح المسفر انكشف، فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين، وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين، وأين المسلمون وحاشى أن تكونوا للاسلام مسلمين، وأين المقدّمون في الدين، ومعاذ الله أن لايكونوا في نصرته على الموت مقدمين، ولولا التقيد بهذا العدّو الرابض لأطلقت أعنة النهضة إلى العدّو الناهض، ولابد من لقائه قبل تلفق الجمعين واراءة الملاعين وجوه حتفهم ملء العين».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد:« ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا يمدّهم البحر بمراكب أكثر عدّة من أمواجه، ويخرج منه للمسلمين ماهو أمر من أجاجه، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا اليهم من كل فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكه، فاذا قتل المسلمون واحداً في البر بعثوا ألفا عوضه في البحر، فالزرع أكثر من الحصاد، والثمرة أنمى من الجذاذ، وهذا العدّو المقابل قاتله الله قد زرّ عليه من الخنادق دروعا متينة، وأستجن من الجنانات بحصون حصينة، فصار محصوراً ومتمنعا حاسرا ومتدّرعا، مواصلا ومنقطعا، وعددهم الجم قد كاثر القتل، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل، لشدة ماقطعها النصل، وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة والكلف الثقيلة في

استطاعتهم لا في طاعتهم، وفي أحوالهم لافي شجاعتهم، وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبوية في الصحبة البدرية، «اللهم إن تهلك هذه العصابة» ويخلص الدعاء ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة، وقد حرّم باباهم لعنة الله عليه وعليهم كل مباح، واستخرج منهم كل مذخور، وأغلق دونهم الكنائس، ولبس وألبسهم الحداد وحكم عليهم أن لايزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة،فياعصبة محمد عليه السلام أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعه، ووفه الحق فينا فإنا والمسلمون عندك وداثعه، ومامثل الخادم نفسه في هذا القول إلاّ بحالة عبد لو أمكنه لو وقف بالعتبات ضارعا، وقبل ترابها خاشعا، وناجاها بالقول صادعا، ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طبيب الاسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر، ولو أمن من عدّو الاسلام أن يقول قولا آخر لسافر، ولولا أن في التصريح مايعود على العدالة بالتجريح لقال مايبكي العيون، وينكي القلوب، ولكنه صابر محتسب، منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب: ربّ إني لاأملك إلا نفسي، وهاهي في سبيلك مبذولة، وأخي وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة، وولدي وقد بذلت لعدوك صفحات وجوههم، وهان عليّ محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم، ونقف عند هذا الحد ولله الأمر من قبل ومن بعد».

فصل

في الوقعة العادلية على عكا ظهر يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة

قال القاضي ابن شداد:علم عدّو الله أن العساكر قد تفرقت في أطراف البلاد، وأن الميمنة قد خفت لأن معظم من سار كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق العدّو فأجمعوا رأيهم، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة، فخرجوا واستخفوا طرف الميمنة وفيها مخيم العادل، فلما بصر بهم صاح صائحهم، وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها، وركب السلطان ونادى مناديه: ياللاسلام، وكان رحمه الله أول راكب، ولقد ركب من خيمته، وحوله نفر يسير ثم خواصه، والناس لم يستتم ركوبهم، وهو كالفاقدة لولدها والثاكلة لواحدها، ثم ضرب الكوس فأجابته كاسات الأمراء من أماكنها، وركب الناس وسارع الفرنج في قصد الميمنة حتى وصلوا إلى المخيم العادلي قبل استتمام ركوب العساكر، ودخلوا في وجاقه وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا إلى خيمة الخاص وأخذوا من شرا بخاناته شيئا، وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قايماز النجمي، وعز الدين جورديك النوري ومن يجرى مجراه، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في المخيم ويشتغلوا بالنهب، وكان كما ظن فانه عاثت أيديهم في الخيام ، والاقمشة والفواكه والطعام، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة، واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح إلى خيامهم هاربين، وعلى أعقابهم ناكصين، وسيف الله يقتل فيهم، وصاح صائح السلطان في الناس: ياأبطال الموحدين هذا عدّو الله قد أمكن الله منه، وقد داخله الطمع حتى غشي خيامكم بنفسه، فبادر إلى اجابة دعوته أهل حلقته

وخاصته، ثم عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين، ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي، وتتابعت العساكر وتجاوبت الأبطال، وقامت سوق الحرب فلم يكن إلاّ ساعة حتى رأينا(القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) (٩٤) وامتدوا مطروحين من خيام العادل الى خيامهم، أولهم في الخيم الاسلامية وآخرهم في خيم العدّو صرعى على التلول والوهاد، وكان مقدار ماامتد فيه القتلى بين المخيمين فرسخاً، وربما زاد على ذلك، ولم ينج من القوم إلاّ النادر.

قال: ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي، واجتهدت أن أعدهم،فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم، وشاهدت منهم امرأتين مقتولتين، وحكى لي من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن وأسر منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير فإن السلطان كان قد أمر الناس أن لايستبقوا أحداً ، هذا كله في الميمنة وبعض القلب، وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم إلاّ وقد نجز الأمر، وقضي القضاء على العدو لبعد المسافتين ، وكانت هذه الوقعة فيما بين الظهر والعصر، فإن العدو ظهر في قائم الظهيرة، وانفصلت الحرب بعد العصر، وانكسر القوم حتى دخلت طائفة من المسلمين وراءهم الى مخيمهم على ماقيل، ثم إن السلطان أمر الناس بالتراجع، ولم يفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين، ولما أحس جند الله بعكا بما جرى بين المسلمين وبين العدو من الوقعة فإنهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالي السور خرجوا إلى مخيم العدّو من البلد، وجرى بينهم مقتلة عظيمة، وكانت النصرة والحمد لله للمسلمين، بحيث هجموا خيام العدّو ونهبوا منها جمعاً من النسوان والأقمشة حتى القدور فيها الطعام، ووصل كتاب من عكا يخبر بذلك واختلف الناس في عدد القتلى منهم، فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف، وقال آخرون: سبعة آلاف ولم ينقصهم حازر عن خمسة آلاف، ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أوّلها في خيم العادل وآخرها في خيم العدّو، ولقد لقيت انسانا عاقلا جندياً يسعى بين

صفوف القتلى، ويعدهم فقلت له: كم عددت؟ فقال: إلى هنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلا، وكان قد عدّ صفين، وهو في الصف الثالث لكن مامضى من الصفوف أكثر عدداً من الباقي.

قال: وجاء من الغد نجاب له عن حلب خمسة أيام بكتاب يتضمن أن جماعة عظيمة من العدّو الشمالي خرجوا للنهب بأطراف البلاد الإسلامية، ونهض العسكر الحلبي إليهم وأخذ عليهم الطرق، فلم ينج منهم أحد إلاّ من شاء الله.

قال: وجاء في ليلة ذلك اليوم من اليزك من ذكر أن العدّو قد سأل من جانب السلطان من يصل إليهم ليسمع منهم حديثا في سؤال الصلح لضعف حل بهم، ولم يزل العدّو من حينئذ مكسور الجناح منهاض الجانب حتى وصلهم كند يقال له كندهري، وسيأتي ذكره.

وقال العماد: لما شاع عند الفرنج خبر وصول الألمانية قالوا: إذا وصل ملكهم، ونكى في المسلمين انكسر ناموسنا وتطأطأت عنده رؤوسنا، فذكر الوقعة بمعنى ماتقدم إلى أن قال: ووصل السلطان وشاهد من مساءة الفرنج ماسره، وعرف لطف الله وبره ونصره، وعاين هناك مصارع الأعداء، ومشارع البلاء، وكانوا مفروشين في مدى فرسخ على الأرض، وهم في تسعة صفوف من تلال الرمل إلى البحر بالعرض، وكل صف يزيد على ألف قتيل، وشاع القتل في الفرنج في كل قبيل، وكانت هذه النوبة بلا نائبة، وتلك الغزوة بلا شائبة، وقتل منهم زهاء عشرة آلاف، ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة نفر، واغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسرة.

قال: ولما عرفت بالواقعة، والنصرة الجامعة، صدرت ثلاثين أو أربعين كتابا بالبشارات بأبلغ المعاني وأبرع العبارات، وقلت: إذا نزل السلطان

وجد الكتب حاضرة، ورأى البشارة شائرة، وركبت أنا والقاضي بهاء الدين ابن شداد لمشاهدة ماهناك من أشلاء صرعى وأجساد، فما أعجل ماسلبوا وعرّوا، وفروا وفروّا، وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم، ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة، وسمعناها وهي خامدة بالعبرة قائلة، ومازلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى ارتدى العشاء بالظلام، فعدنا إلى الخيام، واطلنا الوقوف على تلك الطلول الدارسة، واستبشرت الوجوه بتلك الأوجه العابسه، وحزرناهم بعشرة آلاف قتيل، لاحزر تكثير بل حزر تقليل، وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا أقل من ألف، فقتلوا أضعافا مضاعفة وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعفة، وحكي من نوادر هذه الوقعة أن فرنجيا عقر فجثا للصرعة فعثر به راكب برذون فعرقب الفرنجي فرسه بسيف في يده، فنزل بحده مستنا في جدده وقتل ذلك الفرنجي، وروى من دمه الهندي، وحل من وسطه ثمانين دينارا فانقلب ربحاً ماعده خساراً، وامتلأت الأيدي بالأسلاب والأكساب، وحصل من العدد مالم يكن في الحساب، وبيعت الزرديات ذوات الأثمان بالرخص.

قال: وشرع الفرنج في الخداع والمراسلة، وسألوا في الصلح وأذن لهم السلطان في الخروج للنظر إلى اولئك الصرعى بتلك المروج،وهي قد تورمت، وانتنت، وجافت وحميت الشمس على جيفها وحافت، وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطافت، فساءهم ماسرنا، ونفرهم ماأقرّنا.

فصل

قال العماد: وكان الرأي بعد هذه ا لنصرة أن نرد عليهم الكرة مرة بعد مرة إلى أن يهلكوا حسرة، ويبيدوا فلا يبقى لهم جمرة، فاشتغل السلطان بما جاء من المكاتبات بظفر التركمان وغيرهم بعسكر الألمان، فجاءت للفرنج نجدة من البحر، ومدد أضعاف مانقص منهم من العدد والعدد، فأضحوا كأن لم ينكبوا، وثبتوا مكانهم ولم يثبوا، ووصل اليهم المعروف بالكندهري، ففرّق الأموال واستخدم الرجال، وأنفق في عشرة آلاف رجل ،وأظهر أنه يخرج إلى لقاء عسكر الاسلام، فتحوّل السلطان الى منزلة الخروبة ليوسع عليهم الدائرة، ونصب الكند على عكا منجنيقات كثيرة، فأحرقها المسلمون، وقتل منهم من الفوارس سبعون، وأسر عدّة معروفون، ثم نصب منجنيقين فأحرقا أوّل شعبان، وكان الكند قد أنفق على أحدهما ألفا وخمسمائة دينار، ومن جملة من وقع في الأسر فارس كبير فما أمهلوه حين أخذوه، حتى قتلوه ونبذوه، فطلبه منهم الفرنج بالأموال ولم يعرفوا بالحال فأخرجوه إليهم قتيلا فأكثر الفرنج عليه بعد العويل عويلا، وباتوا يندبونه نوحاً، ويذيعون سر تقدّمه فيهم بوحاً، وحين وقعت أعينهم عليه قتيلا ضربوا بنفوسهم الأرض، وحثوا على رؤوسهم التراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة، وكتموا أمره ولم يظهر أحداً على سره، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون، هذا والكتب متواصلة من عكا الينا ومنا إليها على أجنحة الطيور، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سارقة من العدو.

قال العماد: ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا، ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية، والخطبة فيه، وأنه مستمر على المودّه ، راغب في المحبة، ويعتذر عن عبور الملك الألماني، وأنه قد فجع في طريقه بالأماني، ونال

من الشدة، ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه، وأنه لايصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع، ويكون مصرعه هناك ولايرجع، ويموت بما به كاده، وأنه قد بلغ في أذاه اجتهاده، ويطلب رسولاً يدرك به من السلطان سولاً، فأجيب في ذلك إلى مراده، ووقع الاعتداد بما ذكره من اعتداده.

وقال القاضي ابن شدّاد: كان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسله ومكاتبه، وكان وصل منه رسول الى الباب الكريم السلطاني بمرج عيون سنة خمس وثمانين في رجب في جواب رسول كان أنفذه السلطان بعد تقرير القواعد، واقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية، فمضى الرسول وأقام الخطبة ولقي باحترام عظيم وإكرام زائد، وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعاً من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام، وشاهده جمع كبير من التجار، ورقي الخطيب المنبر واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار، وأقام الدعوة الاسلامية العباسية، ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبر بانتظام الحال في ذلك فأقام مدّة ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه وهو شيخ من أحسن مايفرض أن يكون من صور المشايخ، وعليه زيهم الذي يختص بهم، ومعه كتاب وتذكرة والكتاب مختوم بذهب، ولما مات وصل خبر وفاته إلى ملك قسطنطينية، فأنفذ هذا الرسول في تتمة ذلك، ثم وصف القاضي الكتاب، وعبر عنه بألفاظه.

وقد عبر العماد عن معانيه فأغنى عن ذلك، ثم قال: وكان من حديث ملك الالمان أنه بعد أن استقرت قدمه في أنطاكية أخذهامن صاحبها وتحكم فيه، وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره، وكان له أموال برفقته، فأخذها منه غيلة وخديعة وأودعها في خزانته، وسار عنها خامس عشري رجب، نحو عكا في جيوشه، وجموعه على طريق اللاذقية حتى

أتى طرابلس، وكان قد سار إليه من معسكر الفرنج يلتقيه المركيس صاحب صور، وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأسا وهو الأصل في تهييج الجموع، وذلك أنه صوّر القدس في ورقة عظيمة، وصوّر فيه صورة القمامة التي يحجون إليها، ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصوّر القبر، وصوّر عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب وقد وطيء قبر المسيح، وقد بال الفرس على القبر، وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والمجامع والقسوس يحملونها، ورؤوسهم مكشفة وعليهم المسوح، وينادون بالويل والثبور، وللصور عمل في قلوبهم فإنها أصل دينهم،فهاج بذلك خلائق لايحصي عددهم إلا الله تعالى، كان من جملتهم ملك الألمان، وجنوده فلقيهم المركيس لكونه أصلا في استدعائهم إلى هذه الواقعة، فلما اتصل به قوّى قلبه وبصره بالطرق، وسلك به الساحل خوفا من أنه إذا أتى على بلاد حلب وحماه نازلهم المسلمون من كل جانب، ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم، واختلف حزر الناس لهم، ولقد وقفت على بعض كتب الخبيرين بالحرب قد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ماذكر بمائتي ألف، فانظر إلى صنيع الله مع أعدائه، ولما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجد في اعقابهم نيفا وستين فرساً قد عطبت وانتزع لحمها ولم يبق فيها إلا العظام من شدّة الجوع وضعف الخيل، ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تتخطفهم من حولهم نهباً وأسراً وقتلاً حتى أتوا طرابلس،

فأقام بها حتى استجم عسكره، وأرسل إلى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه فوجموا من ذلك، لأن المركيس صاحب مشورته، وكان الملك كي وهو ملك الساحل بالمعسكر، هو الذي يرجع إليه في الأمور، فعلم أنه مع قدوم الملك الألماني لايبقى له حكم، وفي أواخر شعبان نزل الملك الألماني في المراكب هو وعسكره فثارت عليهم ريح اهلكت منهم ثلاثة

مـراكـب، وسار البـاقـون إلى صـور، ثـم وصل إلى عكـا في نفـر يسير في سادس رمضـان، وكان لقدومه وقـع عظيم عندهم، ووصـل خبر وصولهم إلى طرابلس ثامن شعبان، والسلطان ثـابت الجأش راسخ القدم لايزعزعه ذلك عـن حراسة عكا والحمايـة لها، ومراصدة العسكر النـازل بها، وشن الغارات والهجوم عليهـم في كل وقت، مفوّضا أمـره إلى الله تعالى، معتمداً عليه منبسط الوجـه لقضاء حوائج الناس، مواصلاً ببره مـن نفذ إليه من الفقـراء والفقهـاء والمشايـخ والأدبـاء، ولقـد كنت إذا بلغنـي هـذا الخبر تأثـرت حتى إذا دخلت عليـه أجد عنده مـن قوّة النفس وشـدّة البأس مايشرح صدري، وأتيقن معه نصر الاسلام وأهله.

فصل

في إدخال البطس إلى عكا

قال ابن شـدّاد: كان رحمه الله قد أعدّ ببيروت بطسه، وعمـرها وأودعها أربعمائة غرارة مـن القمح، ووضـع فيها مـن الجبن والبصـل والغنم وغير ذلك من الميرة، وكان الفرنج قد أداروا مـراكبهم حول عكا حراسة لها عن ان يـدخلها مـركـب للمسلمين، وكان قـد اشتدت حـاجـة من فيهـا إلى الطعام والميرة، فـركب في بطسه بيروت جماعـة من المسلمين، وتزيـوا بزي الفرنـج، حتى حلقوا لحاهم ووضعـوا الخنازير على سطح البطسـة بحيث ترى مـن بعد، وعلقـوا الصلبان وجـاؤوا قاصـدي البلد مـن البعد حتـى خالطوا مراكب العدّو، فخرجـوا إليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم: نراكم قاصدين البلـد، واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا: أولم تكونوا أخذتـم البلد؟ فقـالوا:لم نـأخذ البلد بعـد، فقالـوا: نحن نـرّد القلوع إلى العسكر ووراءنا بطسة أخـرى في هوائها فأنذروهم حتـى لايدخلوا البلد، وكان وراءهـم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر، فنظروا فرأوهـا فقصدوها لينذروهـا، فاشتدّت البطسة الاسـلامية في السير واستقامـت لها الريح حتى دخلـت مينا البلد وسلمت ولله الحمـد، وكان فرجا عظيما فـإن الحاجة كانت قـد أخذت من أهل البلـد، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب.

قال: وفي العشر الأوسـط من شعبان كتب بهاء الـدين قراقـوش، وهو والي البلدوالمقدّم على الأسطول، وهو الحاجب لـؤلؤ يذكران للسلطان أنه لم يبـق بـالبلـد إلا قـدر يكفـي البلـد إلي ليلـة النصـف مـن شعبـان لاغير(فـأسرها يـوسـف في نفسـه ولم يبدهـا)[(٩٥)] لخاص ولاعام خشيـة الشيوع والبلوغ إلى العدّو فتضعف بـه قلوب المسلمين، وكان قد كتب إلى مصر بتجهيـز ثـلاث بطـس مشحـونـة بـالأقـوات والأدام والمير وجميـع

مـايحتاج إليـه في الحصار، بحيـث يكفيهم ذلـك طول الشتـاء، فأقلعـت البطس الثلاث من الـديار المصرية، ولججت في البحر تتوخـى النوتية بها الريح التي تحملهـا إلى عكا، فطابت لهم الريح حتـى ساروا ووصلوا إلى عكـا ليلـة النصـف مـن شعبان، وقـد فنيـت الأزواد، ولم يبـق عنـدهـم مايطعمـون الناس في ذلـك اليوم، وخـرج عليها أسطـول العدّو يقـاتلها والعساكر الاسـلامية تشاهد ذلـك من الساحل والنـاس في تهليل وتكبير، وقد كشف المسلمـون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضـاء بسلامتها إلى البلد، والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال، ويدعو إلى ربه بنصره، وقـد علم مـن شدّة القوم مـالم يعلمه غيره، وفي قلبـه مافي قلبه والله يثبتـه، ولم يزل القتال يعمل حـول البطس من كل جـانب، والله يدفع عنها والـريح تشتدّ والأصوات قد ارتفعت مـن الطائفتين، والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا بحمد الله سالمين إلى مينـا البلد، وتلقاهم أهل عكا تلقي الامطار عن جدب، وامتاروا بها فيهـا، وكانت ليلة بليال، وكان دخولها في وقت العصر رابع عشر شعبان.

وقال العماد: كـان السلطان قـد أمر نوّاب الاسكنـدرية بتجهيـز بطس كبار وتعميرها من كل ميرة وغلة وتسييرهـا إلى عكا، فأبطأت عن الميقات وأضر بالمقيمين بـالبلد إعـواز الأقوات، فـافكر فيما يتعجـل به الغـرض، فكتب إلى متـولي بيروت عز الدين سـامة فجهز بطسة كبيرة،مـلأها ميرة، وغلة كثيرة، وأركبهـا جماعة على زي الفـرنج ممسـوحي اللحـى، ممسوخـي الحلى، وأصحبهـم صلبانـا وخيل بهم رهبـانا، وكـانت هـذه البطسة مـن الفرنـج مأخـوذة، وهي بسـاحل بيروت منبـوذة، فأمـر السلطان بترميمهـا وتتميمها، فملئـت بالشحـوم واللحوم، وأربعمائة غـرارة غلة، وأحمال مـن النشاب والنفط، ورتـب فيها ر جـال مسلمون ونصارى من أهل بيروت، وأرادوا أن تشتبـه ببطـس العـدّو في البحـر، فشـدّوا زنـانير واستصحبـوا خنـازير، وسـاروا بها في البحر بمـراكب الفـرنج مختلطين، والى محادثتهـم

ومجاذبتهم منبسطين، ولما حاذوا بها عكا صوّبوا بها نحوها والريح تسوقها، والفرنج من مراكبها تقول: ماهذه طريقها، وهي كالسهم النافذ قد سدّد فوقها، فدخلت الثغر واجتزأ البلد بها نصف شهر، وظهرت رابع عشر رمضان من ثبج البحر ثلاث مراكب، كأنها ثلاث هواضب، فجاءت فجأة أعلامها كالأعلام، طائرة كالسهام، ولم تبال بمراكب العدّو فخرقتها، وقربت من سفينة فغرقتها، وعبرت وعين الكفر عبرى، وامتلأ الثغر بها وأثرى.

فصل

قال العماد: ووصل ملك الألمان، ورام أن يظهر بمجيئة وقعا، ويبدي به نفعا، فدبوا في راجل كرجل الدبا، وخيل أغصت النوهاد والربى، وقربوا من تل العياضيه، وعليه خيم اليزكية، والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصرية، والعصبة الموصلية، فثارت إليهم، ودارت عليهم، وركب السلطان، وتقدّم إلى تل كيسان، ولم يزل الحرب إلى أن جن الظلام، وكف الكفر، وسلم الاسلام، وكانت الدائرة على الكفرة.

قال القاضي: وقتل منهم وجرح خلق عظيم، والسيف يعمل في بقيتهم وهم هاربون حتى وصل المخيم غروب الشمس من ذلك اليوم وهو لايعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه، وقتل من المسلمين في ذلك اليوم اثنان، وجرح جماعة كثيرة.

ومن كتاب إلى بغداد: «قد بلي الاسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبوبين الأوطان والأوطار، وهجروا المألوفين الأهل والديار، وركبوا اللجج ووهبوا المهج كل ذلك طاعة لقسيسهم وامتثالاً لأمر مركيسهم وغيرة لمتعبدهم وحمية لمعتقدهم وتهالكا على مقبرتهم، وتحرقاً على قمامتهم، ولايطلبون مع شدّة الاملاق مالاً، ولايجدون مع كثرة المشاق ملالا، بل يتساقطون على نيران الظبى تساقط الفراش، ويقتحمون الردى متدرّعين الصبر متثبتي الجأش، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات، وسرن إلى الشام في البحر والبر متجهزات، وكانت منهن ملكة استتبعت خمسمائة مقاتل، والتزمت بمؤنتهم فصودف مركبهابقرب الاسكندرية فأخذت برجالها، وأراح الله شر احتفالها، ومنهن ملكة وصلت مع ملك الالمان، وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات، يحملن إلى الطعان الطوارق والقنطاريات، وقد وجد في الوقعات التي جرت عدّة منهن بين القتلى، وماعرفن حتى

سلبن، وإن البـابا الـذي بروميـة قد حـرم عليهم مطـاعمهم ومشـاربهم، وقال: مـن لايتوجه إلى القدس مستخلصـا فهو عندي محرم، لامنكـح له ولامطعـم، فلأجـل هـذا يتهافتـون على الورود، ويتهـالكـون على يومهـم الموعـود، وقـال لهم:إني واصل في الـربيـع، جـامع على الاستنفـار شمـل الجميع، وإذا نهض هـذا الملعون فلا يقعد عنـه أحد، ويصل معه بـأهله وولـده كل مـن يقول إن لله أهـلا وولد، فهـذا شرح هؤلاء وتعصبهـم في ضلالتهم ولجاجتهم في غوايتهم، بخـلاف أهل الاسلام، فإنهم يتضجرون ولايصبرون، بـل يتفللـون ولايجتمعـون، ويتسللـون ولايـرجعـون وإنما يقيمون ببذل نفقـة، واذا حضروا حضروا بقلوب غيـر متفقة، ليعلم أن الاسـلام من عند الله منصـور، وان الكفـر بارادة الله محسـور ومدحـور.

قال القـاضي: ولما عرف ملك الألمان ماجـرى على أصحابه مـن اليزك الذي هـو شرذمة مـن العسكر، رأى أن يـرجع إلى قتـال البلد، ويشتغـل بمضايقته، فاتخذ مـن الآلات العجيبة، والصنايع الغريبة، مـاهال الناظر إليه وخيـف على البلدمنـه، فمما أحدثه آلـة عظيمة تسمى دبـابة يـدخل تحتها من المقـاتلة خلق عظيم، ملبسة بصفائح الحديـد، ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل، وفيها المقـاتلة حتى ينطح بها السور، ولها رأس عظيم برقبة شـديدة من حديد، وهي تسمى كبشـا ينطح بها السور بشدة عظيمة فتهـدمه بتكرار نطحهـا، وآلة أخرى وهـي قبو فيه رجـال تسحب ذلك إلا أن رأسها محدّد على مثال السكـة التي يحرث بها، ورأس الكبش مدّور هـذا يهدم بثقله، وتلـك تهدم بحدتها وثقلهـا وهي تسمـى سفودا، ومـن الستائر والسـلالم الكبـار الهائلة، واعـدّوا في البحـر بطسـة غائلـة، وصنعوا فيهـا برجا بخرطـوم إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بـالحركات، ويبقى طريقـا إلى المكان الذي ينقلب عليـه يمشى عليه المقاتلـة، وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه به.

قال: ونصـب العدّو على البلد منجنيقات هـائلة، حاكمـة على السور،

وتواتـرت حجارتها حتـى أثرت فيـه أثرا بينا، وخيـف من غـائلته فـأخذ سهمان من الجرخ العظيم، وأحـرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلـة من النار، ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيـه، واجتهد العدّو في إطفاء النار، فلم يقدر على ذلـك، وهبت ريح شديـدة فاشتعل اشتعـالا عظيما، واتصلت لهبته بالآخر فـأحرقته، واشتدت ناراهما بحيث لم يقـدر أحد أن يقرب من مكانهما ليحتـال في إطفائهما، وكـان يومـاً عظيماً اشتد فيـه فرح المسلمين، وغم الكافرين».

قال:«ومن نوادر هـذه الوقعة ومحاسنها، يعني نوادر مـاجرى في القتال على عكا، أن عواما مسلما كان يقال له عيسى، كان يدخل البلد بالكتب والنفقات على وسطـه ليلاً على غـرة من العـدّو، وكان يغـوص ويخرج من الجانب الآخر مـن مراكب العدّو، وكـان ذات ليلة شد على وسطه ثـلاثة أكياس فيهـا ألف دينار، وكتبا للعسكـر، وعام في البحر فجرى عليـه أمر أهلكه، وأبطـأ خبره عنا، وكانـت عادته إذا دخل البلـد طار طائر عـرفنا بوصوله، فابطأ الطائر فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحـر في البلد وإذا البحـر قد قـذف إليهم ميتـا غريقـا فافتقـدوه فوجـدوه عيسى العـوام، ووجدوا على وسطـه الذهـب، ومشمع الكتـب، وكان الذهب نفقة للمجاهديـن، فماروئي من أدّى الأمانة في حال حياته، وقـدر الله له أداءهـا بعـد وفـاته إلا هـذا الـرجـل، وكان ذلـك في العشر الأواخر من رجب أيضا».

وقال العماد: فقد —يعني عيسى—ولم يسمـع له خبر ولم يظهر له أثر، فظنت به الظنون، وماتيقنت المنون، وكانـت له لاشك عند الله منزلة، فلم يرد أن تبقى حـاله وهي مجهلة محتملة، فـوجد في عكا ميتا قـد رماه البحر إلى ساحلها، وبرأه الله مماقالوا، فذهب اليقين من الظنون بباطلها.

فصل

في احراق ماحوصر به برج الذبان وتحريق الكبش

قال القاضي:وفي الثاني والعشرين من شعبان، جهز العدّو لعنه الله بطساً متعددة لمحاصرة برج الذبان، وهو برج وسط مبني على الصخرعلى باب مينا عكا، تحرس منه المينا، ومتى عبره المركب أمن من غائلة العدّو، فأراد العدّو أخذه ليبقى المينا بحكمه ويمنع من دخول شيء من البطس إليه، فتنقطع الميرة عن البلد، فجعلوا على صواري البطس برجاً وملؤوه حطباً ونفطا على أنهم يسيرون البطس فإذا قاربت برج الذبان ولاصقته أحرقوا البرج الذي على الصاري، وألصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه، وجعلوا في البطسة وقوداً على أ نهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الاسلامية، ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية، ويهلك مافيها من المير، وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لايصل إليهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح، حتى إذا أحرقوا ماأرادوا إحراقه دخلوا تحت القبو فأمنوا وأحرقوا ماأرادوا إحراقه، وقدموا البطسة نحو البرج المذكور، وكان طمعهم مشتدا حيث كان الهوا مسعدا لهم، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذي أرادوا يحرقون به من على البرج فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط فانعكس الهواء عليهم، كما شاء الله تعالى وأراد، واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج بأسرها واجتهدوا في اطفائها فما قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة إلاّ من شاء الله تعالى، ثم احترقت البطسة التي كانت معدّة لإحراق بطسنا، ووثب أصحابنا عليها فأخذوها إليهم وأما البطسة التي فيها القبو فإنهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيماً فانقلبت، وهلك جميع من بها لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها، وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى، وأندر العجائب في نصرة دين الله ولله الحمد، وكان يوما مشهودا.

وقال العماد: وعنـد مينا عكا في البحر بـرج يعرف ببرج الذبـان، وهو في حراسـة المينا عظيـم الشان، وهـو منفرد عـن البلد محمـي بالـرجال و العدد، وقصد الأفرنج حصـاره قبل مجيء ملك الألمان في الثاني والعشرين من شعبان ببطـس كبار جهزوها، ومـراكب عظام الآلات أبرزوهـا، ومكر مكـروه، ودبردبـروه، وأحـد تلك المراكـب قـد ركب بـرج فـوق صاريـه، لايطاوله طود ولا يبـاريه وقد حشي حشاه بالنفط والحطـب، وضيق عطنه بسعة العطب حتى إذا قرب من برج الـذبان والتصق بشرافاته أعدى إليه بآفـاته، ورميـت فيه النار فاحترق واحترق مـن الأخشاب والستـائر مابـه التصق، واستـولت النار على مـواقف المقاتلة فتبـاعدوا عنها، ولم يقـربوا منهـا، وأوقـدت بطسة الحطـب التـي مـن ورائهـا، وعادت على الفـرنـج فـالتهبـوا، وحمى عليهـم الحديـد فاضطـرمـوا واضطـربـوا، وانقلبـت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا، والناجون منهـم فارقوا وفرقوا ولم يغرقوا، واحتمى برج الذبان فلـم يطر عليه من بعدها ذباب، ولم يفتـح للعدّو في الكيد له باب.

ومن كتـاب الى سيف الاسلام باليمـن:« ومن حديث هـذا البرج أنه يحيط به البحـر من جوانبه، وهو قفـل مينا الثغر على مراكبـه، وقد رفعناه وأعليناه، وبـالعدد والـرجال قـويناه فعمـدوا إلى أكبر بطسة واتخذوا فيهـا مصقالا كـأنه سلم، وهو في مقـدمها مركـب مقدم، وقد جعلوهـا بحيث إذا قرب إلى البرج ركـب رأس السلم على شراريفه، وصعـد الرجـال إليه في تجاويفـه، وتعبوا في ذلـك أيامـا، وأشبعوه تـوثيقا واحكـاما، حتـى إذا التصق بـالبرج التصقت بـه قواريـر النفط، وتـوالت امطـار البلايـا من الجروخ والمنجنيقات على أولئـك الرهط، ثـم عمل الفرنـج برجاً عـاليا في أكبر مركب وحشـوه بالحطب، وعملوا على رأس صـاريه مكاناً يقعـد فيه الزراق، وقـدموه إلى برج الذبـان، وسلطوا على جوانبه النيران، فـأهب الله

من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس، وكبت الفرنج على الوجوه والرؤوس.

قال القاضي: وفي ثالث رمضان زحف العدّو على البلد في خلق لايحصى فأهملهم أهل البلد حتى نشبت مخالب اطماعهم فيه، وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا ان يلصقوها بالسور، وتحصل منهم في الخندق جماعة عظيمة، فأطلقوا عليهم الجروخ والمجانيق والسهام والنيران، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفتحوا الأبواب وهجموا على العدّو من كل جانب، وكبسوهم في الخنادق فهربوا ووقع السيف فيمن بقي في الخندق منهم، ثم هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط، وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه فأحرق حريقاً شنيعاً، وظهرت له لهبة نحو السماء، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل والشكر، وسرت نار الكبش بقوتها إلى السفود فاحترق، وعلق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديد المصنوعة في الاسل[٩٦] فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم في البلد، وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة، وألقي الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام، وبلغنا من البلد أنه وزن ماكان عليه من الحديد، فكان مائة قنطار بالشامي، والقنطار مائة رطل، ولقد أنفذ رأسه إلى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته وشكله على مثال السفود الذي يكون بحجر المدار، قيل إنه ينطح به السور فيهدم ما يلاقيه، وكان ذلك من أ حسن أيام الاسلام، ووقع على العدّو خذلان عظيم، ورفعوا ماسلم وآلاتهم، وسكنت حركاتهم التي ضيقوا فيها نفقاتهم، وقال العماد: واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة، وآلة للغوائل غائلة، في رأسها شكل عظيم، يقال له الكبش، وله قرنان في طول رمحين كالعمودين الغليظين، وهذه الدبابة في هيئة الخربشت[٩٧] الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس، فلم يبق للنار إليها سبيل، ولا للعطب عليها دليل، وملؤوها

بالكماة والرماة وسحبوها وقربوهـا فجاءت صورة مزعجة، وبلي البلد منها بالبـلاء الأفظع، وقالوا: مـافي دفعها حيلة ولا مطمع ونصبـوا على صوبها مجانيق، ورموا بـالحجارة الثقيلة ذلك النيـق، فأبعدت رجالها مـن حواليها ثم رموها بحزم الحطـب حتى أحرقوا مابين القرنين، وقذفوهـا بالنار فباتوا يطفئـونها بالخل والخمـر وقـد تمكنـت النار مـن أضـلاعهـا، ثم خسفهـا المنجنيـق وخرج مـن بالثغـر فقطعـوا رأس الكبش، واستخـرجوا مـاتحت الرمـاد من العـدد بالنبش، وقـدر مانهب مـن الحديد بمائة قنطـار، وعلم الفرنـج أن أعمالهم حبطت، وآمـالهم هبطت، وكـان ذلك في ثـالث عشر رمضـان، وفيه قـدم الظـاهر صـاحب حلـب والأمجد صـاحب بعلبـك، وسابـق الدين عثمان صـاحب شيزر، وعزالـدين بن المقـدم والامير حسام الدين حسين بن باريك، وجماعة من الأمراء والخواص والمماليك.

فصل

في حوادث أخر متفرقات

قال العماد: ووصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب أنطاكية أغار على غرة بشر وشره، فرتب أصحابنا له كمينا، ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا، فقتلوا أكثر رجاله وأفلت وباله في وباله.

قال القاضي: خرج عليه نواب الملك الظاهر، فقتل من عسكره خمسون نفراً وأسر منهم خلق عظيم واستعصم بنفسه في موضع يسمى شيح حتى اندفعوا وسار إلى بلده.

قال: وفي أثناء العشر الأوسط ألقت الريح بطستين، فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة قاصدين نحو العدّو، فغنمها المسلمون، وكان العدّو قد ظفر لنا ببركوس فيه رجال أراد الدخول إلى البلد فأخذه، فوقع الظفر بهاتين البطستين ماحياً لذلك وجابراً له.

قال العماد: وفي هذا التاريخ ألقت الريح إلى ساحل زيب بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء، وفيهما امرأة محتشمة غنية محترمة، فأخذتا وأخذوا وأخذت، وجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت.

قال: وفي تاسع عشر الشهر رحلنا إلى منزلة تعرف بشفرعم، وسببه أنه كثر المستأمنون من الفرنج وأخبروا أنهم في عزم الخروج الى المرج هائجين إلى الثأر، ثائرين إلى الهيجاء فاستشار السلطان أمراءه فقالوا: الصواب أن نفسح لهم عن هذه المروج، حتى يكون دخولهم إليها يوم الخروج، فنصبحهم في اليوم الآخر ولا يتعذر بهم احداق العساكر، فخيمنا هناك ورحبت المنازل وعذبت المناهل،وعادت معالم تلك المجاهل، وحللنا

التلال والآكام، وركزنا بتلك الأعلام الأعلام، ونزلنا لمقام الشتا مستعدين، ولأسباب التوقي من الأمطار مستنجدين.

قال: ومرض زين الدين صاحب إربل في شهر رمضان، وتوفي في الثامن والعشرين منه.

قال القاضي: وكان استأذن في الرواح فلم يؤذن له، فأستأذن في الانتقال إلى الناصرة فاذن له، فأقام بها أياما يمرض نفسه، ثم توفي وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده، وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته.

قال العماد: وكان كريماً أريحياً، جواداً سخيا، وبكرنا إلى مظفر الدين نعزيه في أخيه، وظننا به الحزن فقلنا نعظه ونسليه، فإذا هو في شغل شاغل عن العزاء، مهتم بالاحتياط على ماخلفه أخوه وتركه من الأشياع والأشياء، وهو جالس في مخيم أخيه المتوفى، وقد أشرف على حفظه وأوفى، وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم، وعجل عليهم وماأغفلهم، منهم: صارم الدين بن بلداجي متولي خفيتان[٩٨]، كان ليتسلم منه المكان، وكذلك كل حاضر له حصن ليحصل له من طاعته أمن، وخاطب في اسباب ولاية إربل وأعمالها، وأن يستقل ببلادها وأموالها ، ورغب في شهرزور واستضافتها لاستنارة وجاهته بها واستفاضتها، وأنه ينزل على حران والرها وسميساط والموزر، ويجعل كل مافي يده من الأعمال في الموفر، ويخدم بخمسين ألف دينار، يحضرها نقدا، ويلتزم بها على الميثاق عقداً، فاجيبت رغبته، وأصيبت طلبته، وعقد لواؤه، ونجح رجاؤه، وأراد سرعة الرحيل، فاستمهل إلى حين وصول الملك المظفر تقي الدين لينزل في منزلته بجنده وصحبه الميامين، فوصل يوم الأحد ثالث شوال وأضيف إليه مااستعيد من مظفر الدين من الأعمال، وكتب منشور إربل، وكتاب إلى صاحب الموصل فيه:« لاشك في إحاطة العلم

بانتقال زين الدين إلى جوار الله ومقر رحمته، مجاهداً في سبيله، شاكراً لنعمته، وهو من السعداء الذين أنزل الله تعالى فيهم: (ومن يخرج من بيته مهاجراإلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) (٩٩) فما أفجع القلوب بمصابه، وماأنكى في النفوس أفول شبابه، ولقد كانت الهمة متوفرة على تربيته وإعلاء درجته، ولكن الله تعالى استأثر به قبل ظهور حسن الآثار في ايثاره، وبلي ببدره التم بسراره، وأصبح في ضمير البلى من أسراره، وهذه إربل من انعام البيت الكريم الأتابكي على البيت الزيني مذ سبعين عاما، لم يخلوا لعقد انعامهم بها نظاماً، ولم يزيدوا أحكامه إلا احكاما وإبراما، ومارأى أن يخرج هذا الموضع منهم، وأن يصدف به عنهم، والأمير الأجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه، والمقدم في الولايةبمقتضى وصية أبيه، وقد أنهض ليسد مسد أخيه».

قال: وكان الملك المظفر تقي الدين متوليا منذ سنين أعمال ميافارقين، فطلب من عمه تفويض كل ماوراء ا لفرات إليه والاعتماد فيه عليه، فأنعم عليه بذلك فأقام عندنا بالمنزلة المظفرية إلى أن يؤذن له في المضي إلى تلك الولاية، وسير نوابه إليها لابقاء رعاياها على شيمة الرعاية.

قال : ولما أحس العسكر الشرقي بالشتاء أبدوا خلق السآمة، وضجروا من الاقامة، وأماعماد الدين صاحب سنجار فإنه عرف كراهية السلطان لفراقه، فلم يجر إلا على وفاقه، وأما صاحب الجزيرة سنجر شاه، فإنه استطال المقام وأباه، ودخل يوم عيد الفطر على السلطان فقبل يده وودعه من غير سابقة الاستئذان، فأغضبه انفصاله، وساءه ارتحاله، وكان تقي الدين واصلاً فلقي صاحب الجزيرة عنا فاصلا، فردّه عن طريقه، وجد في تعويقه، ورجع به إلى الرضى، وعفا الله عما مضى.

قال القاضي: ترددت رسله ورقاعه إلى السلطان في طلب الدستور، والسلطان يعتذر بأن رسل العدّو متكررة في معنى الصلح ولا يجوز أن

تنفض العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب، فلما كان يوم عيد الفطر دخل على السلطان وهو ملتاث الجسم وقبل يده وخرج وسار من ساعته، وتبعه أصحابه، فلما بلغ السلطان صنيعه كتب إليه:« إنك أنت قصدت الإنتماء إلي في الابتداء فبسطت يدك وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك من أهلك، فقبلتك وآويتك ونصرتك، فبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، فنفذت إليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تنته، فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام، فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس، وأقمت هذه المديدة وقلقت هذا القلق، وتحركت بهذه الحركة، وانصرفت عن غير طيب نفس وعن غير فصل حال مع العدّو، فانظر لنفسك وأبصر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات»،وسلم الكتاب إلى نجاب فلحقه قريبا من طبرية فقرأ الكتاب، ولم يلتفت وسار، فلقيه تقي الدين عند عقبة فيق فأخبره بأمره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه، ولم يأذن له في الرواح، ففهم تقي الدين انفصاله عن غير دستور من السلطان فأمره بالرجوع وقال: أنت صبي ولاتعلم غائلة هذا الأمر، فقال: مايمكنني الرجوع، فقال: ترجع من كل بد من غير اختيارك، وكان تقي الدين شديد البأس مقداماً على الأمور ليس في عينه من أ حد شيء، فلما علم أنه قابضه إن لم يرجع رجع معه، وسأل السلطان الصفح عنه ففعل، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدين خشية على نفسه فأذن له فأقام في جواره إلى حين ذهابه.

وقال العماد في الفتح: وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام، وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام، وتقرر ملاله، وتكرر سؤاله، فكتب إليه السلطان:

مـــن ضـــاع مثلي مـــن يـــديـــه
فليـــت شعـــري مـــا استفـــادا

فلما قرأ هذا البيت ما راوح في الخطاب ولا غادى

وقال في البرق: وفي مستهل ذي القعدة أذن لعلاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل، ونعت بالملك السعيد لما تفرس فيه من أمارات السعد، وأقام بعده عمه عماد الدين وابن عمه معز الدين سنجرشاه وهما صاحبا سنجار والجزيرة، وحبوا بالحباء الوافر والعطايا الغزيرة، ومافارقا إلاّ في السنة الأخرى في ثالث صفر.

قال: وغلت الأسعار عند الفرنج حتى بلغت الغرارة أكثر من مائة دينار، والسعر من الزيادة لديهم في استعار، وبلوا بأمور صعبة، وهرب إلينا منهم عصبة بعد عصبة، فاستأمنوا إلينا لفرط جوعهم جميعهم، ولما شبعوا عندنا لم يرغبوا في رجوعهم، فمنهم من أسلم فحسن إسلامه، ومنهم من خدم فوافق استخدامه، ومنهم من حن إلى إلفه، فرجع القهقرى إلى خلفه.

فصل

كان القاضي الفاضل رحمه الله تعالى في هذه الأوقات بالديار المصرية يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الاسطول، وحمل المال، ونقل المير إلى عكا، والسلطان يكاتبه في مهماته، وترجع اجوبته بأحسن عباراته، مشيرا وناصحا ومسليا، وباحثا عن مصالح الاسلام متقصيا، فمن بعض كتبه: « المملوك ينهى أن الله تعالى لاينال ماعنده إلاّ بطاعته، ولاتفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته، والمعاصي في كل مكان باديه، والمظالم في كل موضع فاشيه، وقد طلع إلى الله تعالى منها مالا يتوقع بعدها إلاّ مايستعاذ منه، وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس مايكون بمشيئة الله له حجة في رضاه، ونعوذ بالله أن يكون حجة عليه في غضبه، بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبه ومخاطبة بأنه على صفة تقشعر منها الاجساد، وتتصدع بذكرها الأكباد، والمملوك لايتعرض لتفصيل مابلغه من ظهور المنكرات في أتباعه، وشيوع المظالم في ضياعه وخراب البلد وعدم القدرة على المرمة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى، وبالغفلة عن مرمتهما وتفقدهما في أشتيه القدس العظيمة الجليلة المثلجة لايؤمن سقوطها، وافتضاح القدرة في العجز عن اعادتها، والمرمة أقرب تناولاً من الانشاء والتجديد، ولا شبهه أن مولانا عز نصره في اشغال شاغلة وأمور متشددة، وقضايا غير واحدة ولا متعددة، ولكن قد ابتلي الناس فصبروا، وأضجرتهم الايام فما ضجروا، وأي عبادة أعظم من عبادته التي قام بها والناس عنها قعود، وصبر في طلب جنتها على ناري الحرب والوقت ذواتي الوقود، غير أن مولانا إذا ذكر نصيبه من الإقدام، فلا ينسى نصيبه من الحزم ولا يعجل في الامور الخطيرة، ولايقدم بالعدد القليل على العدة الكثيرة، فالمولى إذا أقبل كان واحدا، وإذا أدبر كان مقوما بجميع الخلق، ولايطمع بأن يقوم به الألف، وليذكر المولى نوبة الرملة التي كان وقوعها من الله سبحانه

أدباً لاغضباً وتوفيقا لا اتفاقا، ولايكره المولى أن تطول مدة الإبتلاء بهذا العدّو، فثوابه يطول وحسناته تزيد، وأثره في الاسلام يبقى، وفتوحاته بمشئية الله يعظم موقعها، (والعاقبة للتقوى) [١٠٠] (ولينصرن الله من ينصره) [١٠١] والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده، وبرأيه وبولده، وبخاصته، وبعامة جنده، وبالأعداء في أعدائه كجهاده بصاحب صيدا في الفرنج، فهو جهاد قد أربى فيه رأي المولى فرجح والحديد يفلح، وأكيد ماقوبل به العدّو سلاحه، وأسرع جناح طار لقنصه جناحه، ودولة مولانا كالبحر كرما وظهور عجائب، وكالسماء مطرا وأسنة كواكب».

ومن كتاب آخر:« المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، لطف الله بقلبه، وحمل عنه، وروّح سره، ووصل الراحة به، ونسأل أن يرحمه لنا الذي رحمنا به، فقد بلغت منا الحناجر القلوب، وقد وقفت في طرقنا الذنوب، وبينما نحن ننتظر من كتب المولى مايستدل به على أن قلب المولى قد طاب، وقصد العدّو قد خاب، إذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعا للاكباد مفتتا للقلوب ولو أنها جماد»، ثم ذكر البطس الذي تقدم ذكرها الواصلة إلى عكا ليلة نصف شعبان فقال:« وبينا نحن نعتقد أن البطس في عكا، وصل الخبر بأنها في دمياط، ويوم وصل الخبر بأنها في دمياط نحن على انتظار خروجها منه، وكتب البطائق بالاستحثاث والاستعجال، وتحذيرهم من تمادي المقام وماتيقنا أخرجت أم هي باقية، كأن الريح في بيت ماخرجت منه من هاتين الجمعتين، ولها من تاريخ خروجها من الاسكندرية وإلى تاريخ تسطير هذه الخدمة خمسة عشر يوما والعيون ممدودة، والأيدي مرفوعة بأن يفرج الله عنا وعنكم بوصولها، فمن شبع في هذه الأيام فما واسى المسلمين، ومن نام ملء عينه، فما هو من أخوة المؤمنين، والمملوك شفيق على البطس في وقت الدخول حذر أن يعترض العدّو طريقها، فيحول بينها وبين الوصول، فينكس المراد بها، ويحدث من المضرة بحرمانها أضعاف

مايحدث من النعمة بالفرج المسير فيها، وآكد هذه الحال في نفس المملوك وقوفه على كتب أصحابنا من عكا، وقد وقع لهم هذا الواقع الذي وقع للمملوك من خوفهم عليها، واستبعادهم دخولها ،فالمملوك وكل من يعرف الأمر إلا كأهل الصراط، رب سلم رب سلم، فنسأل الله سبحانه أن لايكلنا إلى أنفسنا فنعجز، ولا إلى الناس فنضيع، ومجهود أهل الأرض قد انتهى وبقي مايفعله الله، والخير منتظر منه، والفرج بالقوت قد سير في البحر من خمسة عشر يوما، والفرج بالنفقة قد سير في البر من عشرة أيام، والله يامولانا ما تنجز شيء من هذه الأمور إلاّ بأن تضرب الوجوه بالشوك، وتستحلب الحجارة وينبه النوام، وتبح الأصوات من التذكار، وتحفى الأقلام من الكتابة، ويخضع لمن يلزمه الشغل كالخضوع لمن لايلزمه، والله المستعان، فليخلص المولى نيته في الاستعانة، والأعوان قليل.

وقد كانوا اذا عدوا قليلا
فقد صاروا أقل من القليل »

ومن كتاب آخر:« وماتجدد للعدّو من الشروع في آلات الحصار لعكا، وماأرجف به من النجدتين الفرنجيتين الواصلة والبعيدة وافتراق العساكر في هذا الوقت للضرورة، والتماس العسكر الشرقي الدستور للضجر، وحاجة المولى من الانفاق إلى مالايسعه التدبير، ويضيق عنه الامكان، ومطالبة الغني بالزيادة مع الغنى والضعيف بأكثر مما يحتاج إليه وضياع فرصة، واختلاف رأي بين المتشاور من الجماعة، وجود الألسنة بالآراء، وبخل الأيدي بالمعونة، وانفراد المولى بالتعب، واشتراك الناس في الراحة، ومابتلي به المسلمون من مرض أظهروه ليكون لهم عذراً في القعود، وكتمه على نفسه لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس، فهذه الأمور وإن كانت شدائد، وزائدات على العوائد، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر، وحسن الصبر، ليشعره أن صبره يعقبه النصر، وحسبته يعقبها الأجر، ولو لم يعرف المملوك غير الله ينصرها، وغير مولانا

يباشر النصرة ويحضرها، فليس إلا التجرد للدعاء، والتجلد للقضاء، فلا بد من قدر مفعول، ودعاء مقبول، ومن الامثال المنظومة:

نحن الذين إذا علوا لم يبطروا
يوم الهياج وإن علوا لم يضجروا

ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها، وأن يسلم على يدينا القدس ثم ينصره، ثم معاذ الله أن نغلب على النصر، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر، وإذا كان ماتقدم الله اليه المماليك قبل المولى لابدمنه وهو لقاء الله سبحانه فلأن نلقاه والحجة لنا، خير من أن نلقاه والحجة علينا، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر بصره، وتملأ صدره (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الاعلون والله معكم) [١٠٢] وهذا على دين ماغلب بكثره، ولانصر بثروه، إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف، (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) [١٠٣]، واشتدّي أزمة تنفرجي، والغمرات تذهب ثم لاتجيء، والله تعالى يسمع الأذن مايسر القلب، ويصرف عن الاسلام وأهله غاشية هذا الكرب، ونستغفر الله العظيم، فإنه مابتلى إلاّ بذنب».

ومن كتاب آخر:«يامولانا اعلم أن الله تعالى قد فعل لك مافعله لنفسه، ودل على لطفه بك كما دل على قدرته، فإنه تعالى خلق من غير مادّة، وأقام السماء بغير عمد وكذلك فعل الله بك خلقك بغير شبيه في الملوك: كرماً ، وديناً، وسهل لك من مصر مالاً من غير جهة، وحمى منها بلاداً بغير جند، وسكن رعية بغير ولاة فاشكر الله، ولاتحتقر خدمة من يبيع الأنفاس، والنوم والراحة اجتهاداً فيما يريحك، ويخفف عنك ثم لايريد العوض منك إنما يريده من الله عنك، لأن خدمتك طاعة والوجوه التي وقعت الاشارة إليهاخضنا فيها وفي غيرها فما وجدنا أكثر مما بلغنا إليه، يامولانا ليس لك في مصر إلا الثغور، وماعملت في هذه السنة

إلا بقدر ثمن حمال ماسير اليك من الأسـاطيل إن الله آخذ بيد الكريم، والمعـونـة بحسب المؤونـة فليهـن المولى العـافيـة من الحسـاب، فشتـان: مـابين حسـاب من كنـز الذهـب والفضة ولم ينفقها فـي سبيل الله، وحساب من قال بيده هكذا وهكـذا في سبيل الله» ومن كتاب آخر« وما في نفس الملوك شـائبة إلا بقية هذا الضعف الذي بجسم مـولانا ، فإنه بقلوبنا، ونفديه بأسماعنا وأبصارنا.

بنـــا معشر الخدام مـــا بـــك مــــن أذى
وإن أشفقـــوا ممـــا أقـــول فبـــي وحـــدي»

ومن كتـاب آخر:« إنما أتينـا من قبل أنفسنـا، ولو صـدقناه لعجـل لنا عواقب صـدقنا، ولوأطعناه لما عاقبنا بعـدّونا، ولو فعلنا مانقـدر عليه من أمره، لفعـل لنا مالانقـدر عليه إلا به فلا يستخصم أحد إلاّ عملـه ولا يلم إلاّ نفسه، ولايـرج إلاّ ربـه، ولا ينتظر العسـاكر أن تكثـر، ولا الأصول أن تحصر، ولا فلان الذي يعتقـد عليه أن يقاتل، ولا فلان الـذي ينتظر أنه يسير، فكل هـذه مشاغـل عن الله ليـس النصر بها، ولانأمـن أن يكلنا الله إليها والنصربه، واللطف منـه، والعادة الجميلة لـه، ونستغفر الله سبحـانه من ذنـوبنا فلـولا أنها مسد طريـق دعائنـا لكان جواب دعـائنا قـد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطـريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق».

وفي كتـاب آخـر وصف فيـه الملـك العـزيـز عثمان بن السلطـان ثـم قال:«ولـو شاهد مولانـا اليوم شخصه الكـريم، وصورته الجميلـة، ونفسه الطاهـرة، ونظرتـه المطرقـة، وصفحته الحييـه، وسكون حـركاتـه الموزونة، لخلع عليـه فؤاده، ووهبـه عينه ورقاده، ولقـد يرد المولى عـرصات القيـامة وثواب فراقه له لوجه الله أعظم من ثواب جهاده في سبيل الله، وإن إيمانا صبّره عن ذلـك الولد الكـريـم لكريـم، وإن إيمانا أسلى عن ذلـك الملك لعظيم».

ومن كتاب آخر: «وعسكرنا لايشكو والحمد لله منه خوراً، وإنما يشكو منه ضجراً، والقوى البشرية لابد أن يكون لها حد، والاقدار الالهية لها قصد، وكل ذي قصد خادم قصدها، وواقف عند حدها، وإنما يذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقت المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع من أبطاله قال الله تعالى: (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) (١٠٤) يامولانا أليس الله تعالى اطلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل، ولم يستصلح، ولم يختر ولم يسهل، ولم يستعمل ولم يستخدم في إقامة دينه وإعلاء كلمتة وتمهيد سلطانه، وحماية شعاره وحفظ قبلة موحديه إلاّ أنت، هذا وفي الأرض من هو للنبوة قرابه، ومن له المملكة وراثة، ومن له في المال كثرة، ومن له في العدد كثرة، فأقعدهم وأقامك، وكسلهم ونشطك، وقبضهم وبسطك، وحبب الدنيا إليهم، وبغضها إليك، وصعبها عليهم وهونها عليك، وأمسك أيديهم، وأطلق يدك، وأغمد سيوفهم وجرد سيفك، وأشقاهم وأنعم عليك، وثبطهم وسيرك، ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدة (ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين) (١٠٥) نعم و أخرى أهم من الأولى انه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض،وأطراف الدنيا، ومغرب الشمس ومزخر البحر ماتأخر منهم متأخر، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة لاأموال تنفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولاعصا تسوقهم، ولاسيف يزعجهم (مهطعين إلى الداع) (١٠٦) ساعين في أثر الساعي (وهم من كل حدب ينسلون)(١٠٧)ومن كل بر وبحر يقبلون، كنت يامولانا كما قال أبقاك الله:

ولست بملك هازم لنظيره
ولكنك الاسلام للشرك هازم

هذا: وليس لك من المسلمين كافة مساعدة،إلا بدعوة، ولامجاهد معك إلا بلسانه، ولا خارج معك إلاّ بهمّ، ولا خارج بين يديك إلا بالاجرة، ولا قانع منك إلا بزيادة تشترى منهم الخطوات شبرا بذراع،

وذراعا بباع، تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم الفريضة وكأنك تكلفهم النافلة، وتعرض عليهم الجنة، وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم، والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك، فقائل: لم لانتباعد عن المنزلة، وآخر لم لانميل إلى المصالحة، ومتندم على فائت ماكان فيه حظ، ومشير لمستقبل مايلوح فيه رشد، ومشير بالتخلي عن عكا حتى كأن تركها تغليق المعاملة، وماكأنها طليعة الجيش، ولا قفل الدار، ولاخرزة السلك، إن وهت تداعى السلك وأنبت في يد الملك، فألهمك الله قتل الكافر، وخلاف المخذل، والتجلد وتحت قدمك الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر.

ولكن مولانا صفيحة وجهه
كضوء شهاب القابس المتنور

قليل التشكي للمهم نصيبه
كثير الهوى شتى النوى والمسالك

ولا شبهة أن المملوك قد أطال، ولكن قد اتسع المجال، ومامراده إلا أن يشكر الله على ما اختاره له ويسر عليه، وحببه إليه فرب ممتحن بنعمة، ورب منعم عليه بمشقة، وكم مغبوط بنعمة هى داؤه، ومرحوم من بلوى هي دواؤه، ويريد المملوك بهذا أن لايتغير لمولانا أبقاه الله وجه عن بشاشه، ولاصدر عن سعة، ولالسان عن حسنه، ولا ترى منه ضجره، ولا تسمع منه نهره، فالشدّة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها، وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا عز نصره بطرا، فلا حدث له ساعات الامتحان ضجرا، والمملوك يستحسن بيتي حاتم، ومولانا أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه يحفظهما:

شربنا بكأس الفقر يوما وبالغنى
وما منهما الا سقانا به الدهر

فما زادنا بغيا على ذي قرابة
غنانا ولا أزرى باحسابنا الفقر (١٠٨)

والمملوك يسمع بأن مولانا عز نصره على مايعهده من سعة صدره، أسر منه بما يسمعه من بشائر نصره وياليتني كنت معهم، وماذا كانت تصنع الأيام إما شيبا من مشاهدة الحروب، فقد شبنا والله من سماع الأخبار، أوغرمايمكن خلفه من الوفر، فقد غرمنا في بعد مولانا مالاخلف له من العمر، أومرض جسم فخيره ماكان الطبيب حاضره، ولقد مرضنا أشدّ المرض لفراقه، إلا إن التجلد ساتره».

ومن كتاب آخر:« المملوك يوصي المولى بالإسلام، والإسلام هو قلب المولى فيروّحه ولايحمله ويشغله بما يثقله، ويوصي المولى بقلوب المسلمين، وقلوب المسلمين جسم مولانا أبقاه الله من علم أنه لاتوفيه رواتب الحياة اشتغل قلبه، واستطار لبه، وضعفت نفسه، فيحسب المولى من جهاده تفقد جسمه، وآلات مطعمه، وترويح خطراته،فقد بلغ من حمله على نفسه مايخشى على مولانا الإثم فيه، وانما نتجشم كل مشقة لتسلم منه، ونحن في ضرّ قد مسنا، ولانرجو لكشفه إلا من ابتلى به، وفي طوفان فتنه، (ولاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) [١٠٩] ولنا ذنوب قد سدّت طريق دعائنا، فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا، ولله قدر لاسلاح لنا في دفعه إلا أن نقول: لاحول ولا قوة إلا بالله، وقد أشرفنا على أهوال (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) [١١٠] وقد جمع العدّو لنا، وقيل لنا اخشوه فقلنا (حسبنا الله ونعم الوكيل) [١١١] متنجزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم، وليس لنا إلا الاستعانة بالله فما دلنا الله في الشدائد إلاّ على الدعاء له،وعلى طروق باب كرمه، وعلى التضرع إليه (فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم) [١١٢] ونعوذ بالله من القسوة، ومن القنوط من الرحمة، ومن اليأس من الفرج، فانه لاييأس منه إلا مسلوب الرشد، مطرود عن الله مقطوع الحظ منه، ولاحيلة إلا بترك الحيلة، بل قصد من تمضي أقداره بلا حيلة، سبحانه وتعالى إن علم الله من جند مولانا أنهم

قد بذلوا المجهود، فقد عذرهم فيعذرهم المولى، وإن علم أنهم قد ذخروا قوة وقصروا في نصرة كلمة الله، فيكفيهم مقت الله، والمملوك يذكر المولى بصبره، وبرحب صدره، وبفضل خلقه وبتقواه لربه، وبمداراة مزاجه وببر القلوب الإسلامية وببر جسمه، (وإن كان كبر عليك اعراضهم) الآية إلى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) [١١٣] والمولى أولى بهذا البيت

لابطـر إن تتابعـت نعـم
وصابـر في البـلاء محتسـب

قيل للملهب: أيسرك ظفر ليس فيه تعب؟ فقال: أكره العجز، ولابدّ أن تنفذ مشيئة الله في خلقه، لاراد لحكمه، فلا يتسخط مولانا بشيء من قدره، فلأن يجري القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجري وهو ساخط موزور، فيصطلي نار الشدّة أعاذه الله منها، ولايجد راحة الثواب، وفر الله حظه منه، ومن شكا بثه وحزنه إلى الله شكا إلى مشتكى، واستغاث بقادر، ومن دعا ربه دعاء خفيا استجاب له استجابة ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا، ولايقطع الظهور التي لاتشتدّ إلاّ به، ولايضيق صدور الا تنفرج إلاّ منه، وماشرد الكرى، وأطال على الأفكار ليل السرى إلاضائقة القوت بعكا، ولم يبق إلا ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس واعفاؤها من الفكرة، فقد علم مولانا المباشرة أنه لايدبر الدهر إلاّ رب الدهر، ولاينفذ الأمر إلاّ بصاحب الأمر، وأنه لايقلّ الهم إن كثر الفكر.

قـد قلـت للـرجـل المقسـم أمـره
فـوض إليـه تنـم قـريـر العين

وكل مقترح يجاب اليه إلا ثغراً يصير نصرانيا بعد أن أسلم، أوبلدا يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم، يامولانا هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون، وسهرت فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام التي ينادى

فيهـا: يـاخيــل الله اركبـي، وهـذه السـاعـات التــي تـزرع الشيـب في الرؤوس،وهذه الغمرات التي تنقبض فيها الصـدور بهائها بل بنارها هي نعمـة الله عليك، وغـراسـك في الجنـة، ومحملات محضرك (يـوم تجد كـل نفس ماعملـت من خير محضرا) (١١٤) وهي مجوّزاتك على الصراط، وهي مثقلات الميـزان، وهي درجـات الرضـوان، فاشكـر الله عليها كما تشكـره على الفتوحـات الجليلة، واعلم أن مثوبـة الصبر فوق مثوبة الشكـر، ومن ربط جـأش أمير المؤمنين عمر بـن الخطاب رضي الله عنه قـوله: لـو كان الصبر والشكـر بعيريـن مـابـاليت أيهما ركبـت، وبهذه العـزائم سبقـونـا وتركـونا لانطمـع في اللحاق بـالغبار، وامتـدت خطاهـم ونعوذ بـالله من العثار، مااستعمـل الله في القيام بالحق إلاّ خير الخلق، وقد عـرف ماجرى في سير الأوّلين وفي أنبـاء النبيين، وإن الله تعـالى حـرض نبيـه ﷺعلى أن يهتدي بهداهـم، ويسلك سبيلهـم، ويقتدي بأولي العـزم منهم، ومـاتغلو الجنة بثمن، وما ابتلى الله سبحانه مـن عباده إلاّ من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا، وكان ماقد كان لم يكن ويذهب التعب ويبقى الأجر،وإنما يقظـات العين كالحلـم، وأهـم الـوصايـا أن لايحمل المولى هما يضعـف بـه جسمه، ويضر مـزاجـه، والأمـة بنيـان وهو أبقـاه الله تعـالى قاعـدته، والله يثبت تلك القـاعدة القائمة في نصرة الحق، ومما يستحسن مـن وصايـا الفرس: إن نـزل بك مـافيه حيلـة فلا تعجـز، وإن نزل بـك ماليس لك فيـه حيلة والعياذ بالله فلا تجزع، ورب واقع في أمـر لو اشتغل عـن حمل الهم بـه بـالتـدبير فيـه مـع مقــدور الله لانصرف همه، وكفـى خطبة(وماتشاؤون إلا أن يشاء الله) (١١٥) هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه، قاتلت الملوك بطمعهـا، وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نظر الله إلى قلـب مـولانا لم يجد فيـه ثقـة بغيره، ولا تعـويـلا على قوة إلا على قـوتـه، فهنالـك الفرج ميعاده، واللطف ميقـاته، فلا يقنط مـن روح الله، ولايقل متى نصر الله، وليصبر فـإنما خلق للصبر، بل ليشكـر فالشكر في مـوضع الصبر أعلى درجـات الشكر، وليقـل لمن ابتلي: أنـت المعافى، وليرض عـن

الله سبحانه فإن الراضي عن الله هو المسلم الراضي، فأما أخبار فتنة بلاد العجم، فسبحان من ألحق قلوبهم بألسنتهم،(قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) (١١٦)».

وكتب السلطان الى القاضي الفاضل كتابا من بلاد الفرنج يخبره عما لاح له من امارات النصر ، ويقول « ما اخاف الا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها» فكتب اليه الفاضل : « فأما قول المولى إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عفي عنها بهذه الساعات وعفيت، فيكفي مستغفر لسان السيف الاحمر في الجهاد، ويكفي قارعا لابواب الجنة صوت مقارعة الأضداد، ولعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك،وطوبى لقدم سعت في منهاجك، وطوبى لوجه تلثم بمثار عجاجك، وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقتلت، وإن الخواطر تشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شغلت» .

-٨٧٥٧-

فصل

كان بلغني أن السلطان رحمه الله لما اشتدأمر الفرنج على عكا ، أرسل إلى ملك المغرب يستنجده عليهم ليقطع عنه مادتهم من جهة البحر، وكنت أتطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح الحال فيه فإن العماد والقاضي لم يتعرض له في كتبهما، غير ان العماد ذكر كتابا كتبه القاضي الفاضل إلى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ماكان أرسله لأجله، وسيأتي ، وغرضي كان الاطلاع على نفس كتاب الرسالة ومضمونها، ثم أراني بعض الشيوخ الصلحاء الثقاة بخطه، ماكنت أرومه فنقلته على وجهه.

قال : نسخة كتاب كتبه القاضي الفاضل، ونقلته من خطه لابن منقذ يأمره فيه بالسفر الى المغرب بأمر الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله ، يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما حصر الفرنج خذلهم الله عكا بعد كسرة حطين، وفتح بيت المقدس ، والكتاب الذي سير الى المغرب، والهدية التي حملت يأتي ذكر ذلك إن شاء الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمير الاجل الاسفهسلار الاصيل ، العالم المحترم شمس الدين ، عدة الاسلام ، جمال الانام ، تاج الدولة ، أمير الملة، صفوة الملوك والسلاطين ، شرف الأمراء، مقدم الخواص أدام الله توفيقه، ويسر طريقه وانجح مقصده ، وأعذب مورده، وحرس مغيبه ومشهده، وأسعد يومه وغده، يستخير الله سبحانه، ويتوجه كيفما يسر الله إلى الجهة الاسلامية المغربية ، حرس الله جانبها ، ونصر كتائبها ومراكبها ، ويستقرىء في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم ، وأشغالهم وأفعالهم ، ومايحبونه من القول نزره أو جمه،ومن اللقاء منبسطه

أومنقبضـه، ومـن القعود ، مجالسهـم مخففـة أومطـولة ، ومـن التحيـات المتهاداة بينهم ماصيغتـه وماموقعه، وهل هي السنـن الدينية ، أو العوائد الملوكيـة ، ولايلقه الا بها يحبه، ولا يخاطبـه الا بما يسره ، والكتاب قـد نفذ اليه ولم يختم لتعلم ماخوطب به، والمقصود أن تقص القصـص عليه من أول وصولنـا إلى مصر ، وماأزلنا مـن البدع بها، وعطلنا مـن الإلحاد فيها، ووضعنا مـن المظالم عنها ، وإقـامة الجمعة، وعقـد الجماعةفيها، وغـزواتنا التي تـواصلت إلى بـلاد الكفار مـن مصر، فكانـت مقدمـة لملك الشـام الاسلامـي باجتماع الكلمة علينـا، ومقدّمة لملك الشـام الفرنجي بـانقياد المسلمين لنا، واتفاق الملوك المجاورين على طـاعتنا، وتفصيل ماجرى لنا مع الفرنج مع الغزوات المتقدمة التي جسنا فيها خلال ديارهم ، وجعلها الله تعـالى مقدّمات لما سبـق في علمه من أسبـاب دمارهـم ، ومـا أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى وفتح البيت المقدس ،و تلك على الاسلام منة اللـه العظمى إلى غير ذلـك من أخـذ الثغور وافتتـاح البلاد واثخـان القتل فيهم والأسر لهم، واستنجاد بقيتهم لفـرنج المغرب وخروج نجداتهم وكثـرتها وقـوتها،ومنعتها وغنـاهـا وثـروتها، ومسـارعتها ومبـادرتها ، وإنـه لايمضي يـوم إلاّعــن قـوة تتجـدّد ومبرة تصـل، وأمــوال واسعـة تخرج ، ومعـونـات كثيرة تحمــل وإن ثغرنـــا حصره العـــدوّ، وحصرنـا نحـــن العدّو،فما تمكـن من قتال الثغر ، ولاتمكـن من قتالنا ، وخنـدق على نفسه عدة خنـادق، فما تمكنا مـن قتالـه ، وقدّم الى الثغـر أبرجـة أحرقهـا أهله، وخرج مـرّتين الى عسكرنا فكسر العـدو الكثير أقله، فـانه اغتنم أوقـاتا لم تكن العساكر فيها مجموعة، وارتاد سـاعات لم تكن الأهب فيها مأخوذة ، وأقـدم على غرّة استيقظـت فيها نصرة اللـه لنـا وخذلانـه لهم، فقتل اللـه العدو القتل الذريع ، وأوقع به الفتك الشنيع ، وانجلت احدى الحركتين عـن عشرين ألـف قتيـل من الكفـار ، خرجـت أنفسهـا إلى مصارعهـا، وهمدت أجسامها في مضاجعها ، والعـدو وإن حصر الثغر فإنه محصور ، ولو ابـرز صفحته لكـان باذن اللـه هو المثبـور المكسور، وتـذكر مـادخل

الثغر من اساطيلنا ثلاث مرات ، واحراقها لمراكبهم ، وهي الاكثر، ودخولها بالميرة بحكم السيف الاطهر.

وإن أمر العدو مع ذلك قد تطاول، وخطبه قد تمادى ، ونجدته تتواصل، ومنها ملك الالمان في جموع جماهيرها مجمهرة ، وأموال قناطيرها مقنطرة ، وإن عساكرنا لو أدركته لما استدرك ، ولولا سبقه لها بالدخول إلى انطاكية لتلف وهلك ، وتذكر أن الله قصم طاغية الالمان، وأخذه أخذة فرعونية بالاغراق في نهر الدنيا الذي هو طريقه إلى الاحراق في نار الآخرة ، وإن هذا العدّو لو أرسل الله عليه أسطولا قويا مستعدا يقطع بحره ويمنع ملكه ، لأخذنا العدو إما بالجوع أو الحصر، أ و برز فأخذنا بيد الله تعالى التي بها النصر، فإن كانت الاساطيل بالجانب المغربي ميسرة ، والعدة منها متوفرة ، والرجال في اللقاء فارهة ، وللمسير غير كارهة، فالبدار البدار ، وأنت أيها الامير فيها أوّل من استخار الله وسار، وإن كانت دون الاسطول موانع إما من قلة عده، أومن شغل هناك بمهمة أو بمباشرة عدّو إما تحصن منه العوره، أو قد لاحت منه الفرصة، فالمعونة ما طريقها واحدة ، ولا سبيلها مسدودة، ولا انواعها محصورة ، تكون تارة بالرجال ، وتارة بالمال ، وما رأينا أهلا لخطابنا ، ولا كفؤ ا لانجادنا ، ومحقوقا بدعوتنا ، ولا ملبيا بنصرتنا إلا ذلك الجناب ، فلم ندعه إلا لواجب عليه ، والى ما هو مستقل به ومطيق له ، فقد كانت تتوقع منه همة تقد في الغرب نارها ، ويستطير في الشرق سناها ، وتغرس في العدوة القصوى شجرتها فينال من في العدوة الدنيا جناها، فلا ترضى همته أن يعين الكفر الكفر، ولا يعين الاسلام الاسلام ، وما اختص بالاستعانة إلا لأن العدّو جاره، والجار أقدر على الجار ، وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار، ولانه بحر ، والنجدة بحرية، ولا غرو ان يجيش البحار البحار، وإن سئل عن المملوكين بوز با وقراقوش وذكر مافعلا في اطراف المغرب بمن معهما من نفايات الرجال الذين نفتهم مقامات القتال ، فيعلمهم ان المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه

المماليك والأمراء ، ولا مـن المعدودين في الطواشيـةوالأولياء وانما كسدت سوقهما وتبعتهما ألفـاف أمثالهما ، والعـادة جارية أن العسـاكر إذا طـالت ذيولها ، وكثرت جموعها ، خرج منهاوانضاف اليهـا، فلا يظهر مزيدها ولا نقصها ، ولا كان هـذان المملوكان ممن إذا غـاب أحضر، ولا ممن إذ ا فقد افتقد، ولا يقـدّر في مثلهماأنه ممـن يستطيع نكـاية ، ولا يـأتي بما يوجـب شكوى من جناية ، ومعاذ اللـه أن نأمر مفسدا بأن يفسد في الارض ، ان أريد الا الاصـلاح ما استطعت ، وان سئل عـن النوبة المصرية ومـا فعل بجندها ، فليعلمهـم الأمير أن القوم راسلـوا الكفار وأطمعوهم في تسليم الديار ، فأشفى الاسلام على أمر شـديد، وكاد يقرب على الكفار كل أمر بعيد، فلم يعـاقب الجيش بل أعيـان المفسدين ، فقوبلـوا بمايجب، وكانوا دعاة كفـر وضلال ومحاربين للّه بما سعوا في الارض مـن فساد، فأمـا بقية الجيش وإن كان منهم من هو تبع للمذكورين في الرضا فإنهم اقتصر بهم على أن لايكونوا جندا، ومنهم من أجريت عليه أرزاق تبلغه وشملته آمنة تسكنـه، وأما الهديـة المسيرة على يد الامير فتفصيلهـا يرد في كتـاب الامير الاجل الاسفهسلار العالم الكبير مجد الدين سيـف الدولة، أدام اللّه علوه، مقـرونـا بالهديـة المذكـورة ، ومـع قـرب الشتـاء فلم يبـق الا الاستخـارة والتسمية ، ومبـادرة الوقـت قبل أن يغلـق البحر انفتـاح الأشتية ، واللّـه سبحـانه يـوفق الأمير ، ويسهـل سبيله ، ويهدي دليلـه، ويكلأه بعينـه ، ويمده بعونه ، ويجمل رحله ، ويبلغـه أهله، ويشرح له صدره، وييسر له امره إن شاء اللّه تعالى .

وكتب ثامن وعشرين شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة

- ٨٧٦١ -

فصل

في نسخة الكتاب الى ملك المغرب والهدية

العنوان :

بلاغ الى محل التقوى الطاهر، ومستقرّ حزب اللّه الظاهر من المغرب أعلى به الله كلمة الايمان ، ورفع به منار البر والاحسان .

بسم الله الرحمن الرحيم

من الفقير إلى رحمة ربه يوسف ين أيوب

أما بعد : فالحمد لله الماضي المشية، الممضي القضية ، البر بالبرية ، الحفى بالحنفية ، الذي استعمل عليها من استعمر به الارض ، وأغنى من أهلها من سأله القرض، وأجزل أجر من أجرى على يده النافلة والفرض، وزان سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض، وصلى اللّه على سيدنا محمد الذي أنزل عليه كتابا فيه الشفاء والتبيان ، وبنى الاسلام بأمته التي شبهها صاحبها بالبنيان ، وعلى آله وصحبه الذين اصطفاهم وطهرهم ، فنصروه وظاهروا رسوله صلى الله عليه وسلم فنصرهم وأظهرهم ، ويسر بهم السبيل ، ثم السبيل يسرهم ، وان الله بهم (لذو فضل على الناس ولكن اكثرهم)[١١٧] (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولاتجعل في قلوبنا غلا للذين امنوا ربنا انك رؤوف رحيم)[١١٨] وهذه التحية الطيبة الكريمة الصيبة، الواجبة الرد، الموجبة للقصد، العذبة الورد، المتنفسة عن العنبر والورد، وقاده على دار الملك ومدار النسك ، وجل الجلالة ، وأصل الاصالة ورأس الرياسة، ونفس النفاسة ، وحكم الحكم ، وعلم العلم ، وقائم الدين وقيمه، ومقدّم الاسلام ومقدّمه، ومقتضى دين الدين ومثبت المتقين على

اليقين ، ومعلي الموحدين على الملحدين ، أدام الله له النصرة، وجهز به تيسير العسرة ، وردّ له الكرةوبسط له باع القدرة ، وأوثق به حبل الالفة، ومهد له درجات الغرفة ، وعرفه في كل مايعتزمه صنعا جزيلا جميلا ولطفا حفيا جليلا ، ويسر عليه في سبيله كل ما هو (اشد وطئا وأقوم قيلا) (١١٩) ،تحية استنير منها الكتاب ، واستنيب عنها الجواب وقد حفز لها حافزان أحدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكنا إلى ان تتيسر الاسباب ، والآخر مرام عظيم ماكره اذا استفتحت به الابواب ، وكان وقت المواصلة ، وموسم المكاتبة هناءة بفتح البيت المقدس ، وسكون الاسلام منه الى المقيل والمعرّس ، ومافتح الله للاسلام من الثغور ، وماشرح لأهله من الصدور ، وماأنزله عليهم من النور ، ولم يخل المسلمون فيه من دعوات أسرار ذلك الصدر، وملاحظات أنوار ذلك البدر، ومطالعات تلك الجهة التي هي وان كانت غربية فإن الغرب مستودع الأنوار ،وكنز دينار الشمس ، ومصب أنهار النهار، ومن جانبه يأتي سكون الليل ومستروح الأسرار ، وعنه يقلب الله الليل والنهار (ان في ذلك لعبرة لاولي الأبصار)(١٢٠) ولم تتأخر المكاتبة الا ليتم الله ما بدأ من فضله ، وليفتح بقية مالم ينقطع بتقطع يد الشرك من حبله ، والمفتتح بيد الله من الشام مدن وأمصار وبلاد كبار وصغار ، وثغور وقلاع كانت للشرك معاقل وللاسلام معاقر، ولبني الكفر مصانع، ولبني الاسلام مصارع والباقي بيد الكفر منها ثغر طرابلس ، وصور ، ومدينة انطاكية يسر الله أمرها ، وفك من يد الكفر أسرها ، وإذا أمن المؤمن على هذه الدعوة رجي ايجابها ، وما يتأخر من الله سبحانه جوابها ، فالدعاء أحد السلاحين ، ومع النية يطير إلى وكره من السماء بجناحين ، بعد أن كسر العدّو الكسرة التي لم يجبر بعدها، وألجىء الى حصونه التي للحصر أعدها، وكان يومها كريما ، ولطف الله فيها عظيما ، قبضت كل حاجة في النفس ، وأغنت المسلمين ، فأما العدّو بعد يومها ، فكأن لم يغن بالامس ، وكانت على أثر غزوات قبلها ، فما الظن بالمجهزة بعدالنكس ،

ولم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فرع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب، فأجابوا رجالا وفرسانا، وشيبا وشبانا ، وزرافات ووحدانا ، وبرا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وركبوا اليهم سهلا ووعرا ، وبذلوا ماعونا وذخرا ، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا أرسانا تقتادهم، بل خرج كل يلبي دعوة بطركه، ولا يحتاج الى عزمة ملكه ، وخرجت لهم عدة ملوك أقفلت العجمة على اسمائها ، واتت العزيمة بحمد الله على اشخاصها عند لقائها، ومنهم ملك الالمان خرج في جموع برية من الله تعالى برية، ملأت الفجاج وازدحمت فأنفذها العجاج ، ومنهم من ركب ثبج البحر فركب الاجاج العجاج ، وامتطى من البحر مشية الرجاج ، لينصر دينا مشبه الزجاج ، يقبل للكسر ولا يسرع اليه الجبر، وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامة والى قاع كفر، وجلب الكفار الى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملؤوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب مابين أقوات وأطعمة، وآلات وأسلحة وشكة وجنة، وحديد مضروب وزبرة ، ونقدي ذهب وفضة إلى أن شحنوا بلادهم رجالا مقاتلة وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة لاتشرق شارقة إلا طلعت على العدّو من البحر طالعة تعوض من الرجال من قتل ، وتخلف من الزاد ماأكل ، فهم كل يوم في حصول زيادة ووفور مادّة، وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعطاهم البحر مامنعهم البر، وبطروا لما كثروا، ونظروا فإنهم لايستطيعون أن يلقوا ويصحروا ويستطيعون أن يحصروا على ان ينحصروا ، ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بامداده ، ويصل إلى المقاتل مايحتاجه من أسلحته وازواده ، وبمن يكثر به من مقاتلته واجناده، فانقطعت مادّة عكا من البحر ، وحصرنا منازلهم من العدو من جهة جانب البر، فخندقوا على نفوسهم ، وحثوا التراب على رؤوسهم، وعقدت عدتهم مائة ألف أويزيدون ، كلما أفناهم القتل أخلفتهم النجدة ، فكأنهم قبل الممات يعودون، فاتممنا بعمارة بحرية لقينا عمارتهم بها.فنفذت عمارتنا إلى الثغر، وأوصلت إليه الأقوات التي حمل منها البحر

مالايحمله الظهر، والأسلحة التي أمضاها الله عز وجل بيد الاسلام في صدور الكفر . ومالقينا عمارة العدو بأوفر منها عدة ، فعدد مراكبهم كبيرا ، ولكن لقيناهم بأصدق منها عزمه، والقليل مع العزم الصادق كثير، واستمر مقام العدّو محاصراً للثغرمحصوراً منا أشد الحصر ، لايستطيع قتال الثغر، لانأمن خلفه ولا يستطيع الخروج الينا خوفا من حتفه ، ولا نستطيع نحن الدخول اليه لأنه قد سوّر وخندق وحاجز من وراء الحجرات وأغلق ، ولما خرج ملك الالمان بحشده وسمعته التي هي منه أحشد، وعاد جيشه الملعون على رسم قديم إلى الشام ، فكان العود لأمة أحمد صلى الله عليه وسلم أحمد، قويت به نفوسهم وجمحت به رؤوسهم ، وظنوا انه يزعجنا من مخيمنا ،ويخرجنا من خيمنا ، فبعثنا إليه من يلقاه بعساكرنا الشمالية ، فسلك ذات الشمال ،متوعرا فيها محتجزاً عن لقائها مظهرا أنه صريع داء ومابه غير دائها ،وكان أبوه الطاغية ملك الالمان شيبة اللعن اللعين ، قائد جيشه إلى سجن سجين ، قد هلك في طريقه غرقا، وخاض الماء فخاضه الماءشرقا ، وبقي له ولد هو الآن المقدّم المؤخر وقائد الجمع المكسر، وربما وصل بهم إلى عكا في البحرتهيبا ان يسلك البر، ولوسبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى انطاكية لأخذوه أخذا سريعا ، وسبق بحر سيوفهم إلى أن يكون الطاغية فيه لافي النهر صريعا ، ولكن لله المشيئة في البرية، والطاغية إنما يمشي إلى البلية، فإنه لولا احتجار مقيمهم بالخنادق، واحتياز واصلهم بالمضائق لكان لنا ولهم شأن ، وكان ليومنا في النصرة الكبرى بحول الله ثان لا يثنيه من العدو ثان ، ولما كانت حضرة سلطان الاسلام ، وقائد المجاهدين إلى دار السلام أولى من توجه اليه الاسلام بشكواه وبثه، واستعان به على حماية نسله وحرثه، وكانت مساعيه ومساعي سلفه في الجهاد الغرّ المحجلة له المؤمرة المؤملة الكاسفة لكل معضلة ، الكاشفة لكل مشكلة، والأخبار بذلك سائرة ، والآثار ظاهرة ، والصحف عنه باسمه ، والسير به معملة وعاملة ، وكل بجهاده قد سكن إلا السيوف في

اغمادها ، وقد أمن إلا كلمة الكفر في بلادهـا، لايزال في سبيل الله غاديا ورائحا ، ومـواجهـا ومكـافحا ، ومما سيـا ومصـابحـا، يجوز لجة البحـر بالمجـاهديـن ملوكا على الأسرة ، وغـزاة تصافح وجـوهها السيـوف ، فلا يخمد نور الاسرة بذود الفرق الكافـرة ، ولو ترك سبيلها لملأ قراره كل واد، (كلما اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله) (١٢١) ولولاه لأخمد شرارة كل زناد، كان المتوقع من تلـك الدولة العالية ، والعزمة الغاديـة مع القدرة الوافية، والهمة المهـدية الهادية، أن يمـد غرب الاسلام المسلمين بـأكثر مما امـد به غرب الكفـار الكافـرين ، فيملأهـا عليهم جواري كـالاعلام ، ومـدنا في اللجج سوائر كأنها الليالي مقلعة بـالأيام تطلع علينا معشر الاسلام امالا، وتطلع على الكفـار آجالا ، وتردنـا إما جملة وإمـا أرسالا ، مسوّمـة تمدها ملائكـة مسوّمة ومعلمـة، تقدم حيازيمهـا إقدام حيزوم تحت أصحـابه، وإنما هي منه عزمه، كانـت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشأمة، وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمـة ، ولما استبطئت ظن أنها توقفت على الاستدعاء فصرخنا به في هذه التحيـة ، فقد تحفل السحاب ، ولاتمطر إلى أن تحركها أيـدي الرياح ، وقـد ينزل النصرة فلا تظهـر الى أن تضرع اليها ألسنة الصفاح،وسير لحضـور مجلسه الأطهر ومحله الأنـور ، الأمير الاجل المجـاهد الأمين الأصيـل، شمس الـديـن نور الاسـلام والمسلمين، سفير الملـوك والسـلاطين ، أبـو الحزم عبـد الـرحمن بـن منقـذ ، كتـب اللّـه سلامته،وأحسـن صحابته ، وما اختير للوفادة إلا مـن هو اهلها، ولا حمل الوديعـة إلا منّ هـوحملها،ولا بعـث لنهج الصلـة إلا من هـو مفتاحهـا ، ولأداء الامانة إلا مـن هو أ هلها ، ومهما استوضـح منه، وسئل عنه، فـإنه على نفسه بصيرة ، ومـن البيان ذو ذخيرة، وفي العـربية ذو بيـت وعشيرة، والمشاهدة له أوصف، على أ ن تلك الجلالـة ربما ذعرت البيان فأخلف، وماأجـدره بأن يصادف بسطـة على بساطـة، ونظرا يأذن لـه في القول على اختصاره، وتوسطه وافـراطه، فكل هو به واف، وكل هـو للفهم الكريم كاف، واللّـه تعالى يجعل هـذه العزمةمنـا في استنهاض العـزمة منه بـالغة

مبلغا يسر أ هل دينه ، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه ، من الذين اتخذوا إلها من دونه ، والسلام الصادر عن القلب السليم ، والودّ الصميم ، والعهد الكريم، على حضرة الكرم العلية ، وسدّة السيادة الجلية، سلام مودّة ماوفد الغرب قبلها مثلها ، ورسالة ماخظرت إلى أن انفذت وراءها المحبة رسلها، وليصل السلام رحمة اللّه وبركاته، ورضوانه وتحياته إن شاء اللّه تعالى.

وكتب في شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة ،والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد نبيه واله وسلامه .

الهدية ختمة كريمة في ربعة مخيشة ، مسك ثلاثمائة مثقال ، عنبر عشر قلائد عددها ستمائة حبة. عود في عشرة أمناء. دهان بلسان مائة درهم واحدة . قسي بأوتارها مائة وقوسان . سروج عشرون . نصول سيوف هندية عشرون. نشاب ناسج خاص مريش كبير ومتوسط ضمن صندوقي خشب مجلدة سبعمائة سهم.

وكان اقلاعه من الاسكندرية في شيني عمارته مائة وعشرون . في ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة ،ووصل إلى طرابلس أوّل البلاد في الخامس والعشرين من شوال ،وأقام بها إلى ذي القعدة ،وتوجه الى البلاد وكان الاجتماع بالوزير أبي يحيى بن أبي بكر بن محمد بن الشيخ أبي حفص ، ودفع كتاب السلطان اليه يوم الخميس سابع ذي الحجة، وكان الدخول على يعقوب والسلام عليه في العشرين من ذي الحجة ، وفي هذا النهار حملت هدية السلطان إلى خزانته،وكان انفصاله من مراكش عاشر المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ووصل الى الاسكندرية في الثامن من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين .

فصل

لم يحصل من جهة سلطان الغرب ما التمس منه من النجدة ، وبلغني أنه عز عليهم كونه لم يخاطب بأمير المؤمنين على بجاري عادتهم ، وقد كان سلطانا عادلا مظهرا للشريعة غازيا توفي في سنة خمس وتسعين، وفيه يقول شاعره:

أهل لأن يسعى إليه ويرتجى
ويزار من أقصى البلاد على الوجا
ملك غدا بالمكرمات مقلدا
وموشحا ومختما ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره
وتعطرت منه الرياح تأرجا
وجد الوجود وقد دجى فأضاءه
ورأءه في الكرب العظام ففرجا

وفيه يقول ابن عمه سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أبو الربيع من قصيدة أولها :

هبت بنصركم الرياح الأربع
وجرت بسعدكم النجوم الطلع
ان قيل من خير الخلائف كلها
فإليك يا يعقوب تومي الاصبع
ان كنت تتلو السابقين فانما
أنت المقدّم والخلائف تبع

وقدمدحه أيضا شمس الدين بن منقذ هذا المرسل اليه من جهة السلطان بقصيدة منها:

سأشكر بحراً ذاعباب قطعته
إلى بحر جود ما النعماه ساحل

إلى معـــدن التقـــوى إلى كعبـــة الهدى
إلى مــن سمــت بــالــذكــر منــه الأوائل
إليـــــك أمير المسلمين ولم تـــــزل
إلى بــابــك المأمــول تــزجــى الــرواحــل
قطعــت اليــك البر والبحــر مــوقنــا
بــأني بــذاك القطــع بــالنجــح كــافــل
فما راعنــــي مــــن وجبــــة البر رائع
ولا هــالنــي مــن زاخــر البحــر هــائل
ومــن كــان غــايــات المعــالي طــلابــه
يهون عليــــه كــــل أمـــر يحاول
رجـــوت بقصـــديــك العلى فبلغتهــا
وأدنــى عطــايــاك العلى والفضــائل
فــلا زلــت للعليــاء والجود ثــانيــا
تبلغــك الأيــام مــا أنــت آمــل

وابن منقذ هذا من أهل بيت أدب وشعر، وله على ماوجدت بخط بعض الثقاة :

تصرّم عمـــري في التغـــرّب والنـــوى
وأفنــى ارتحالي طــارفي وتــلادي
وأخلقـــت الايـــام بـــرد شبيبتـــي
وأصلــد مــن وقــع الخطــوب زنــادي
وأشغلنـــي الحرص الموكــل في الــورى
عــن العمــل المنجــي ليــوم معــادي
فــلا راحــة الأخــرى تيقنــت نيلهــا
ولا أنــا في الــدنيــا بلغــت مــرادي

وله على لسان بعض غلمانه:

ورب قميــص دعــاني إلى احـــــــــ
ـــــتمال الــرثــاثــة منــه العــدم

أقطب وجهي له كلما
تهلل لي ضاحكاً وابتسم

ومن كتاب فاضلي الى بعض اخوانه :« وأما الاخبار المغربية وإخلال جانبها ، وضعف مطلوبها وطالبها فإذا نجزت الظلماء الى المغرب فبحق، كما ان الانوار الناصرية قد تناصرت في الشرق ، فالله يسعد بلاد الدنيا بالانخراط في سلك ملكه ، ويمكن من مؤمنها حكم عدالته ومن كافرها سيف فتكته ، والله يجزيها الخير عن نيتها في الخير، ويكتب سلامة عزمها في طرق النفع أينما يممت السير».

ثم اني وقفت على كتاب فاضلي للسلطان يشعر بأن الرسالة المغربية لم تكن برأي الفاضل ، ولاهو مختار لها.صورته:«المملوك يقبل الارض بالمقام العالي المولوي الملكي الناصري ، جعل له الله في الدنيا والآخرة المقام العالي، وأبقى دولته التي هي الايام بالحقيقة والايام قبلها هي الليالي ، وينهي ان الظاهر ان المملوك عند المولى ليس من أ هل الاتهام،وان له ولله الحمد اثارا في دولته تشهد بها الايام، واثار السيوف طاحت وبقيت اثار الاقلام،والرسالة المغربية ليس المملوك مشيرا بتركها،ولا كارها لسفر رسولها، ولا مستبعداً مصلحة قريبة منها، لكن على وجهها ، وقد نجزت الهدية المغربية على ما أمر به، وكتب الكتاب على مامثل ، وفخم الخطاب والوصف فوق العادة ، وبما لايمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه،وعند وصول الامير نجم الدين من المخيم المنصور فاوضه المملوك في أنه لايمكن الا التعريض لا التصريح بما وقع له أنه لاتنجح الحاجة إلا به من لفظة أمير المؤمنين ، وأن الذين أفاضوا في هذا الحديث وأشاروا به ماقالوه نقلا ، ولا احاطوا به قياسا ، ولا عرفوا مكاتبة المصريين قديما، وآخر ماكتب في أيام الصالح بن رزيك فخوطب فيه أكبرأولاد عبد المؤمن وولي عهده بالامير الأصيل النجار، الجسيم الفخار ، وعادت الاجوبة الى ابن رزيك وهو وزير سلطان مصر الذي

اتباع مولانا اليوم مائة مثله، مترجمة بمعظم أمره ، وملتزم شكره ، هذا والصالح يتوقع ان يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يديه، وماهو الا ان يهرب مملوكان طريدان منا فيستوليان على أطراف بلاده، ويصل المشار اليه بالامر من مراكش الى القيروان في ستة اشهر فيلقاهم فيكسرا مرة، ويتماسكا أخرى، واعلم الامير نجم الدين بذلك فأمسك مقدار عشرة أيام، ثم أنفذ الامير المذكور اليه على يد ابن الجليس بأن الهدية أشير عليه بأن لايستصحبها ، وان استصحبها تكون هدية برسم من حواليه، وان الكتاب لايأخذه الا بتصريح أمير المؤمنين ، وان السلطان عزنصره رسم له ذلك ، والملك العادل دامت قدرته بأن لايشير الا به ، وانه اذا لقي القوم خاطبهم بهذه التحية عن السلطان ابقاه الله من لسانه فأجابه المملوك بأن الخطاب يكفي ، وطريق جحدنا له ممكن والكتابة حجة تقيد اللسان عن الانكار ، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الاجماع ، مبايعين من لاينصره اللّه ولا شوكة فيه، ولايحل اتباعه، مرخصين الغالي ، منحطين عن العالي ،شاقين عصا المسلمين ، مفرقين كلمة المؤمنين، مطيعين لمن لاتحل طاعته، متقلدين لمن لاتصح ولايته، فتفسد عقود الاسلام وينفتح باب يعجز وارده عن اصدار ، بل تمضي وتستشف الامور وتكشف الاحوال، فان رأيت للقوم شوكة ولنا زبده،فعدهم بهذه المخاطبة ، واجعل كل مانأخذه ثمنا للوعد بها خاصة ، فامتنع وقال: أنا أقضي اشغالي وأتوجه إلى الاسكندرية وانتظر جواب السلطان عز نصره ، ومايفوت وقت وإلى أن أنجز أمر المركب ، وارتاد الركاب فسير المملوك النسخة وان وافقت فينعم المولى على المملوك بترجمة يلصقها على ماكتبه،ويأمر نجم الدين بتسلم الكتاب، على ان ابن الجليس حدثه عنه انه ممتنع من السفر إلا بالمكاتبة بها، فأما الذي يترجم به المولى عز نصره فيكون مثل الذي يدعى به على المنبر لمولانا وهو: الفقير الى الله تعالى يوسف بن أيوب، أدام الله غنى مولانا بالفقر الى ربه، واذا كتب الصالح ابن رزيك اليهم من السيد

الأجل الملك الصالـح قبح ان يكتب اليه مولانا أبقـاه الله «الخادم» وهذا مبلغ رأي المملـوك ، والمؤمن لايـذل نفسه، وقـاسم الارزاق يـوصلها وان رغم مـن جرت على يـده ، وان كان مـولانا أعـز الله نصره يقـول: أنت غافل وغائب، ومـاتعرف ما الاسلام فيه ، فلو حضرت وعـرفت ماشققت الحديث ، فجواب ماتكتب؛بعد سنتين فما يتخلى الله عنا ولا تستمر هذه الشدة ولا نسيء الظن بـالله ، واذا كانت لنـا إن شاء الله أخذت خـالية ممن نطلـب الآن مواسـاته، واذا كـان المملوك مستجهـلا وغير مستنصح وللضرورة حكمها . والأحـوال المملوك غائب عنهـا ، فالمفهوم مـن الأمر أن يتولى من الكتابة ترتيـب المقاصد ، وتحرير الالفاظ ، وتنضيد الخبر عما اجراه الله تعالى على يد مولانا عـز نصره ، والثاني المطلوب فقد فعل هذا كله في النسخة ، وبقيت اللفظة التي ليست كتابة المملوك لها شرطا فيها، والمملـوك وعقبـه مستجيرون بـاللـه تعـالى ثـم بـالسلطـان عـزنصره مـن تعريضهـم لكدر الحيـاة وتوقع الخوف ومعـاداة من لايخفـى عنه خبر ولا تقال به عثـرة، ويكفي ان المولى انعم بخطه في كتابـه الى المملوك ، وفيها ماهـو بخط حضرة سيدنـا الاجل عماد الدين الكـاتب الاصفهاني حـرسه الله تعالى لماوصى بأن لايناظر في الخطاب ماصرح باللفظة، فهي اما تقية فالمملوك اولى بها، واماستهانة فنفس الملك لاتقاس بنفس المملوك ، فان كـان ولابد فـالنسخة بين يـديه، والمقصـود فيهـا من زيـادة هذه اللفظـة مايحتاج الى تعليـم ، والكتاب الذين يستقلـون بكتابة النسخة معـدومون، وقد ناب المملـوك عنهم، والكتاب الذيـن يستقلون بالتبييض مـوجودون فينوبـون عن المملـوك في التبييض ، والافكيـف يسير رسول بكتـاب من مصر بـلا خط سلطـان ، وبغير حضرته كتـب ولا بهديه سـار، وبمحضر من البغاددة والمغـاربة يعلمون أن الكتاب كتـب بمصر ، ويشهدون بما لم يـروه ومالم يقـرؤوه مـن الخطاب ، ولـو وصل مـن المولى أدام اللـه أيامـه كتا . مختوم وسير ولم يعلـم مافيه لانقطع فضـول كثير وحمدت أراجيف شنيعة، ولا يعتقـد المولى أن المملوك يعظـم القصص فما لـلألسنة والاعين

شغل إلاّالسـلاطين وأفعالهم واقـوالهم ، ولا للخلـق خـوض إلا في أوامرهـم وأحوالهم، ولـو علم المملـوك أن هذا الـذي استعفى منه يضره بحيث ينفـع المولى أبقاه اللّه لهان عليـه، ولكنـه مضرّة بغير منفعة ، وتعـرّض لماتذم عـاقبته، أويبقـى على ا لخوف منه ، وذلـك مما لايقتضيه حسن عهد المولى، وفضل رأفته فمقصـود المولى ابقاه اللّه تحصيل تبييضها بين يديـه ، وربما حصل استنـارة، وامنت المكـاره فيه، وغمضـت العيون عنه وشحت الأيام عليه، طالع المملوك بذلك».

فصل

وللقاضي الفاضل رحمه الله من كتب أُخر مايشرح لنا بعض ماتقدم ، ومالم يذكره أحد من أرباب السير منها قوله: «كتاب بغداد كتاب بارد، غث جامد، مافيه مقصود لقاصد ، ولا صلة ولا عائد، ونحن نطلب الذهب الحار فيضرب في حديد بارد» ومنها فيما خرّب من البلاد الفرنجية المغنومة :«خراب البلاد في هذا الوقت الضيق لاشبهة في تقويته لنفس العدّو واضعافه لأنفس المسلمين ، وكان من يسمعه يفجأه من بديهة اليأس مايقطع وجأه. المولى يعلم أن العدو أخذها من المصريين في تمام ستين سنة وخفضوها بالانحصار مرة وبالهدنة مرةأخرى وبالقتال مرات، وبولاة سوء لوكان فيهم خيرا لما عجزوا عنها ، ونحن قد حملنا عن العدو المؤنة بتخريب البلاد التي كان العدّو يريد أن يحاصرها وينازلها، وينصب المنجنيق والبرج عليها، ويخاف النجدة أن تصلها، وقوّة الاسلام أن تثوب اليها، ويتوقع أن يبدهه المصاف قبل النزول عليها ، فعرّفناه أنه قادم على من لاسلاح له إلا أن يلقي السلاح، ولاحفظ للبلاد إلا أن يخربها ، فقد نكلنا عن اللقاء ، وفررنا قبل المواجهة،وزدنا زيادة عجيبة وهو أن المنهزم ينهزم بالرجال ونحن نهزم بالبلاد» ثم قال:

«وثبوت مولانا على عكا هو حراستها وحفظها وقوّة نفس من بها، وأهون الاعداء ملك الألمان لايشك مولانا أن جمعه لايفي بعشر قراقر من ستين قرقورة وصلت الى الفرنج نجدة من بلاد المجوس في السنة الماضية ، وانها الزائد سمعة ملك وقد هلك ، ورأس قد قطع، وقائد جيش وقد كبا كالجهال

ومنها عند ورود كتاب السلطان إليه يبشر بعافيته من مرض عرض له في شهر رمضان:« أسفرت بشارته عن أن المولى أتاه الفرج وغذاؤه الفروج، واستقل بحمد الله، وصح وقالت العافية: للمرض تنح، وكان مافي كتابيه الأولين من تعريق النون من الحمد لله رب العالمين فيه أثر

ضعف ينتقده صيارفة الخطوط ، فأما هذا الكتاب المبارك فقد صحت فيه التعريقة ، وقويت اليد وطلعت النون أهم الينا من مطلع الهلال الفطري الذي يشبهه الشعراء بالنون ومنهم من قال:

ولاح هلال مثل نون أجادها
يذوب النضار الكاتب ابن هلال

وهذا من أنواع الفراغ الذي ماأوجبه المملوك الا لمسرته بعافية المولى أدامها الله، وأدام المسرة بها له وللخلق فمايشبهها المملوك إلا بنور الشمس الذي له في كل مكان أثر، ولكل عين به نظر، فلا أخلى الله الدنيا من اثاره والعيون من أنواره ، وبعد عافية المولى قد انتظر الاسلام عافيته به من المرض الذي هو العدّو ، فيجمع الله تعالى للمولى وللخلق بين العافيتين ، ويستخدم شكرهم للنعمتين ، فقد جلا الله بهذا المرض سيف الله الذي هو المولى وماصقله إلا لتصدأ به قلوب أعدائه ، ومن فوائد هذا المرض أن المولى يستأنف العمر جديدا و العزم حديدا، ويستقبل التدبير بنشاط قد حضر، واعضاء قد فارقها ما كان سبب الضجر»

ومنها:«وأما تبرم مولانا بكثرة الطلبات منه فلا أخلى الله مولانا من القدرة عليها ، وهنيئا له أن الله سبحانه يطالبه بحفظ دينه، والنبي صلى الله عليه وسلم يطالبه بحسن الخلافة في أمته، والسلف الصالح من هذه الامة يطالبونه بمباشرة ما لو حضروه لما زادوا على مايفعله المولى، وأهل الحرب يطالبونه بإزاحة علتهم من الذهب والفضة والحديد، وبقية الأمة تطالبه بالأمن في سربهم، والاستقامة في كسبهم والخفارة في سبلهم، ونفسه الكريمة تطالبه بالجنة بلغه الله اليها ، ولمعالي الأمور أعانه الله عليها، وإذا عدّد مايراد منه فلا بد أن يعدّد مايسر عليه فهل عدم من الله تعالى قط نصره، وهل استمرت به قط عسرة ، وهل تمت

لعدو قط عليه كره، وهل بات قط إلا راجيا ،وهل أصبح إلا راضيا ، ألا يعلم أن اللّه تعالى ذخر له من الصالحات مالم ير كفؤا له غيره،ألا يحصي من سبقه من الملوك إلى الدنيا فعجزوا عما سبق إليه المولى من الآخرة ، وهل تعرف راية قاتل تحتها في سبيل اللّه إلا رايته، وهل يعرف مال ينفق في سبيل اللّه إلا ماله ، وهل يسمع في مجلسه إلا كتاب اللّه يتلى، وسنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تقرأ ، أويرى به إلاّ الخيل تعرض، والسلاح يقلب،لاأقداح الشاربين ، ولا أصوات المغنين ، ولا وقائع الكذابين ، ولاسعايات النمامين ، ويحق إذا توافر حظ مولانا أبقاه اللّه على تشبيه الملوك ، فإذا كان مجلس ابن عبد المؤمن بالمسجد فإن مجلسه أولى بأن يكون مسجداً من كل مسجد، ولا غرو أن تعترف المدائح كما تعترف الضوال ، وان تتبع كما تتبع الطرائد،(ولينصرن اللّه من ينصره)(١٢٢)

لعل المولى عز نصره قد نفذ إلى جانب الشمال جماعة فإن صاحب أنطاكية خذلة اللّه عاث وشعث، وخلا الجبان بأرض فطلب الطعن وحده، لو قرن أهل عكا—وكذلك يفعلون— بمشيئة اللّه ما هم فيه من جهاد بنية احتساب لما سبقهم إلى الجنة سابق ولا لحقهم بعدهم لاحق، فليهن مولانا توفر ثوابه على كل حال، فله ثواب نفسه وثواب من جاهد بسببه ، فلا أعدم اللّه الخلق واحدا به استقام جميعهم، ومالكا قام برعاياهم فأقعد مايروعهم ، وشفيقا يقيهم بنفسه وبولده وبأخوته، ويتقدم إلى الأهوال امام مماليكه وأمرائه وعسكره وجملته كأنه منهم مكان بسم اللّه من الكتاب، ومكان الامام من المحراب، ومكان النواصي من وجوه الصاهل، ومكان الأسنة من وجوه الذوابل، وخير ماكان اذا لم تظن نفس بنفس خيرا ، وأغير ماكان على محارم اللّه إذا كانت أنفس الملوك غير غيرى، وقد اطمأنت القلوب إلى أن اللّه سبحانه قد كشف الغمة وفرجها ، وأطفأ نار الحرب التي كان العدو قد أججها ، فيما يتوقع من كتب مولانا أبقاه اللّه إلا ان الاسلام قد رضي بما يسخط

الكفر، ولا يسمع من قصصه الذي هو أحسن القصص إلا أن يقول ما قاله سميه على نبينا وعلية السلام(قضي الأمر)[١٢٣] فأما ملك الألمان فقد سلبه اللّه ماأضيف اليه كما كان المملوك رأى في منامه على كوكب.، واعلم به مولانا في ضمن رسالة فقال ابقاه اللّه قد قبلت البشرى، وصورة الرؤياأن رسولا جاء من السلطان عز نصره إلى المملوك فقال:أكتب كتابا ببشارة ملك الألمان ، فقلت حتى أفكر، فقال الرسول اكتب بأن اللّه قد سلب ملك الالمان ماأضيف اليه، والمشهور ان ملك الالمان خرج في مائتي ألف، وأنه الآن في دون خمسة الاف».

ومنها: «ورد كتاب من المهدية إلى الاسكندرية ثاني رجب بعد ستة عشر يوما من المهدية ، وذكر من فيه أخبارا ، وقد طولع بها ، ولما تكررت علمت صحتها، وهو أن عساكر الغرب الاسلامية نازلة على طليطلة ، وقد افتتحت عدّة حصون كافرة، وأن بوزبا شوهد بالمهدية موثقا بالحديد وقد نفذه قراقوش الى صاحب تونس ليسيره إلى بلاد الاندلس ، موضع نزول ابن عبد المؤمن بالعساكر ،وأن أهل صقلية من المسلمين إلى الآن في حرب قائمة بينهم وبين فرنجها ومعتصمون بالجبال في أعمالها، وأن عسكر الفرنج قد خرج لانجاد أصحابهم بصقلية ، والمسلمون بها على توقع ورقبة وحذار وخيفة ، نصر اللّه كلمة التوحيد، وأهلك كل جبار عنيد، وان مراكب فيها أزواد للجنويين دخلت المهدية بأمان من صاحبها، فباعت بها وتزودت منها ، وانها قاصدة الشام خيب اللّه قصدها»

ومنها «وقد سير الحمل الآن من المجلس العزيزي بحضور فلان وفلان وكلهم مجتهد في الخدمة، ولما عرف المملوك انهم لايطرقون المعنى الذي يطرقه المملوك من تنبيه مولانا على أن يقتصد في الانفاق ، ويقدّر الاخراج للعلم أن هذا الحجر قد رمينا بعدمه، وسمع بخبر المولى فإنهزم فرارا من سطوة كرمه، والبلاد ليست الآن كعهدها في انقطاع اسفارها ،

ووقوف معـائشها،وكساد أسـواقها ،وانكسـار تجارتها،ولولم تكن الـدراهم سلعةلاتخرج من مصركما يخرج الدينار، لما وجـدت كما يوجد الدينار، وإن تصريـف الـدراهـم بعـد أن يصير مستخـرجـا بـذهـب شغـل شـاغـل، واستخراج ثـان غير الاول، وعسى اللّـه ان يأتي بالفتـح أو أمر مـن عنده يحدث للاسلام نصرا عزيزا، وللكفر خذلانا سريعاً وجيزا.

مولانا خلد اللّه ملكه مـن وراء ضرورة لاتخفى عن المملوك، والمماليك من وراء ضرورة لاتخفى عـن المولى وصدر المولى بحمد اللّه واسـع وفرج الله منه قريب، وهـذه الضائقة لما يريده اللّه تعالى من حسـن موقع الفرج بعدهـا، فقد انفـق المولى مال مصر في فتح الشـام، وأنفق مـال الشام في فتح الجزيـرة، وأنفق مال الجميـع في فتح السـاحل، وينفق ان شـاء اللّه تعالى مال القسنطنطينية في فتح روميـة، والملوك كلهم وكلاؤه وأمناؤه على خزائنهـم إلى أن يسلموها إليـه فيشكره اللّه على مـاأخرجه في سبيـل اللّه منها ، ويمقتهم على ماكنزوه من ذهبهـا وفضتها، فلا يكن في صدر المولى حرج ولا في خلقـه،فإن اللّـه سبحانـه لايضيق رزقـا على يده الكـريمة، لاسيما وقد أجرى عليها ارزاق خلقه»

ومنهـا« ينهي المملـوك وصـول رسول ملـك الـروم بما في صحبته مـن هديـة، وبما على لسانـه من رسالـة ،وبما على يده مـن كتاب، وحضر بين يدي الملك العـادل وجرى من المفاوضة مـا زبدته امتنان الملـك بكونه لم يجب رسول ملك الالمان وصاحب صقلية، وغيرهم من جيوش الفرنج إلى الموافقـة على حـرب السلطـان، وإطـلاق طـريقهـم ، وامتنـع وسـدّ الدربندات ، وحفظ عليهم الطرق، ووصـى أرباب الحصون بالتيقظ لهم والمنـع دونهم، وجعـل موافقتـه أن البـلاد في هـذه السنـة غاليـةالسعـر، والمصلحة تقتضي أن لاتكون الحركة إلا بقـوة وعلى تمكن من الميرة وتأخير الحركة الى السنة الاخـرى» ثم قال:«وهذاملـك الروم خائف من الفـرنج على بلده،مـدافع عن نفسـه إن تم له الدفـع ادعى انه بسببنـا،وان لم يتم

ادعى انه غائب عن مقصده ومقصدنا، وقد جعل ماأورده من أن يقال ان البطاركة في قمامة من قبله، وان ينقل من ولاية الفرنج الى ان يوليها الطاغية من أهل عمله سببا يبسط به عذره بزعمه عند أهل جنسه ، ويدفع به عن نفسه لاسيما مع إقامة الخطبة الاسلامية ، ونقله المنبر وفسحته في الصلاة واعزاز الكلمة الاسلامية ، أرغم اللّه بها أنفه، وعجل بسيفها حتفه، ومولانا ابقاه اللّه يتثبت في الاجوبة ، ولايجيب الى ماعلى الاسلام فيه غضاضة ، ولا الى ما للكفر فيه قوة(ان ينصركم اللّه فلا غالب لكم)»(١٢٤).

ومن كتاب آخر: « وصل إلى المملوك كتاب يذكر وصول رسل الملك العتيق من قبرس اليه يخبره بعصيانه على ملك انكلتيز ومكاشفته بالعداوة والحرب وانه قدكاتب السلطان أعز اللّه نصره يبذل له من نفسه العبودية والطاعة والمظاهرة على ملك انكلتيز ، والاخبار متواترة بأن الملك العتيق أحرق مواني قبرس ووعرها وقطع الميرة عن الساحل ، ولا شبهة ان مولانايتقبل من المذكور ويقوي نفسه على هذه المباينةفان في تخاذلهم نصرة الاسلام وشغل بعضهم ببعض وافتراق كلمتهم المجتمعة ، وقطعا للميرة عن الشام وامنا لجانب كثير من جوانب البحر ، وهذا الملك العتيق قد صار لمولانا صديق،وماسمي العتيق إلا لانه صار لمولانا عتيقا، ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينية في انا ننجده على قبرس، فانا انما وعدنا بالنجدة عليها لما كانت بيد عدونا ، واللّه ما أفلح ملك الروم قط، ولا نفع ان يكون صديقا ، ولا ضر ان يكون عدوا ، وكذلك صاحب الغرب ، واللّه يعصمك من الناس.

وقف المملوك على كتاب بغداد والمقصود الذي ندب لأجله الرسول ما ألم بذكره في الكتاب وهي المعونة على ا لجهاد ، وعرف استدعاء المساعدة على تكريت، ولو كان لنا فراغ لما كان النظر الصحيح يقتضيها لانها مهما بقيت في يد من هو الآن بها لكانت في يد المولى أبقاه اللّه

تعالى، ومهما خرجت عنه خرجت عنها ، وما نقول انه ليس لنا تطلع الى مثلها لاسيما وهي طريق الى غيرها ، وقد فتح اللّه للمولى ببلاد هي مع سعتها ضيقة عن ربوتها، فللمولى أولاد كثر الله منهم، مامنهم الا من هو متطلع الى طرف ، وله اهل مامنهم الا من هو متطلع الى مملكة، وأمراء مامنهم الا من هو متوقع زيادة ، ومماليك مامنهم الا من يريد ان يوفى الحق عليه في الخدمة، ومن سيرّه المولى لهذا الأمر عدم من أصحابه منفعة فيما هو أهم مما سار فيه ،ومايليق ان يسير الا من يريهم مايعجزون عنه، ويكون عنوانا لما لعلهم في شك منه من قوة المولى على مايريد، وامساكه مع القدرة، ويرى المملوك ان مطلبهم نقد، ومطلبنا منهم وعد، وان كان ولابد من تسيير فلا يسير الا من يقضي الشغل ، ويستزيد الجعل.

ماتضمنه الكتاب البغدادي من عزم الخليفة على الحج في هذه السنة المملوك يستبعده ،بالاضافة الى الوقت والى عادة أهله آخرهم حجا الرشيدرحمه اللّه، ويستقربه بالاضافة الى خلته، وان سار صلح ان يهتم بما اشار اليه ابن الشهرزوري، ولاشك انه قد أنسي الرسالة التي توجه فيها ، فإنا بعثاه يلتمس لنا نفقة فالتمسها منا».

وكتب الفاضل الى السلطان: « ينهي المملوك انه عرف تسحب رجل وصبي من القصر الغربي، وان المؤيد ، يعني ابن السلطان ، وكان ينوب عن اخيه العزيزبمصر ، حضر نائبه الطواشي بهاء الدين واستعلم أمرهما فذكر أن هربهما صحيح وأن أحدهما وهوالصبي من جملة ثلاثة وثلاثين ولدا كانوا اطفالا وقت الحوطة عليهم بالقصر الغربي، وقد بلغ هذا وكبر وزاحم عشرين سنة، والآخر كان معتقلا في الايوان فحدثت له خنازير في حلقه ، وأشفى على الهلاك فأمر الطواشي بنقله الى القصر الغربي من الايوان وفك حديدة، وحمل ليتداوى في اوائل سنة ثلاث وثمانين، واستمر مرضه واشتد ضعفه وبقي في القصر الغربي الى ان علم انه

تسحب فسأله المملوك عن المستحفظ للقصر الغربي، فذكر أستاذين كان الطواشي اقامهما ورضي امانتهما وانهما يذكران ان هذا القصر الغربي قدخرب ودثر، واكثرت التسليقات عليه ، ويجاوره اصطبلات فيها جماعة من الخربندية والمفسدين، والتطرق مستمر من هذه الاصطبلات الى من في القصر من النساء، وأنهما كانا أنهيا مرة بعد اخرى أن المكان غير حريز، والاعتقال فيه غير وثيق ، قال: وجمعت اصحاب الارباع وجيرة القصر ، ورجوت بترك الشناعة الظفرة بها، والبحث واقع عنهما».

وكتب الفاضل عن السلطان الى العادل وهو بمصر: « انتهى الينا بالديار المصرية ، وبالحضرة العلية، أن جماعة من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف ، وبسطوا ألسنتهم بالمنكر من القول غير المعروف وأنشأوا من العصبية ماأطاعوا فيه القوى الغضبية ، وأحيوا بها ما أماته الله من أهل حمية الجاهلية ، والله سبحانه يقول وكفى بقوله حجة على من كان سميعا مطيعا:(واعتصموا بحبل الله جميعا)[١٢٥] ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف بأهل الوفاق إلا أن يقال أحسنها ، وماعلمنا أن في ذلك نية تنجد، ولا مصلحة توجد، ولا هداية تعتقد، بدراسة تعقد ، ونار عداوة توقد، وقلما اثمرت المشاجرة الا خلافا، فالمجلس أعزه الله يوعز بكف الألسنة الخائضه، وعقل الأعنة الراكضة، فإن أقنع بلطفه المرضي والا كانت همته الرائضة ، ومن عاد بعد الزاجر أبعد عن مستقره ، وأزعج ، وليسع الخلف ماوسع السلف من الادب ، وليعلم العبد أنه يكتب كتابا الى ربه فليفكر فيما كتب والى من كتب».

فصل

في ذكر خروج الفرنج خذلهم الله بعزم اللقاء ووصولهم الى رأس الماء

قال العماد: وذلك يوم الاثنين حادي عشر شوال بعد ان رتبوا على البلد من لازم القتال مع ملك الالمان وخرج معهم المركيس ، والكندهري ، واخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها ، واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادها، وكان مخيم اليزك على تل العياضية فركبوا واشغلوا القوم بنيران النصال، وألهبوا فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا قد حفرناها عند نزولنا هناك ، وباتوا ترميهم وتشويهم وتصميهم الاتراك، وأصبحوا يوم الثلاثاء سائرين الى اللقاء ورفع السلطان تلك الليلة الثقل الى ناحية القيمون ، وقد امتدت ميمنته الى الجبل صفا ، وميسرته الى البحر زحفا، وعنده في يمين قلبه أولاده: الافضل، والظاهر، وأخوه العادل في أول الميمنة ، ويليه حسام الدين بن لاجين، ثم صارم الدين قايماز النجمي ،ثم حسام الدين بشاره ومعه بدر الدين دلدرم الياروقي، فهولاء عظماء دولته وكبراء مملكته ، ومعهم امراء ومقدمون جريئون مقدمون وكان في الميمنة ايضا ابن صاحب الموصل وعز الدين جرديك النوري وعلى ميسرته صاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة وتقي الدين، وابن المشطوب سيف الدين، وخشترين والامراء الهكارية والحميدية والزرزارية والمهرانية، وأمراء القبائل من الاكراد، ورجال الحلقةالخاصة واقفون في القلب ،وضرب للسلطان خيمة لطيفة بقرب الخروبة على تل مشرف، وفي مرج عكا عين غزيرة الماءيجري منها نهر كبير الى البحر، فانحرفوا الى غربي النهر ، ونزلوا واعتزوا بالاحتراز واعتزلوا ، فأنهض السلطان اليهمالجاليشية وانتظر من الله في كسرهم المشيه فاستداروا بمركزهم واثخنوا فيهم اللتوت رضا ، وبالدبابيس قضا ، وبالنصال قرضا، وبالاسنة وخزا ووحضا، وقضوا فيهم من حق الجهاد

سنة وفرضـا، وكان المراد ان يحتموا فيثوروا حتى يلقاهـم ويبوروا ، فبارامو
مكانهم واصبحوا يوم الاربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقاء ناكبين ، ووقفوا
على صهـوات الخيل الى ضحـوة النهار ، والـراجـل محدق بهم كالأسـوار
وأصحابنـا قد قربـوا منهم حتـى كادوا يخالطونهم ، وارادوا يبـاسطونهم ،
والسلطـان يمد الـرماة بـالرمـاة ، والكماة بالكماة ، وهـم ثابتـون نابتـون،
سـاكنـون سـاكتـون، ونحن نقـول لعلهـم يحملـون ويغضبـون فيجهلـون
فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم ، وتفـريق جماعتهم ، وأحس العدو
بـالضعف وانـه متـورط في الحتف ، فـالجئوا لعجزهـم عـن الدفـاع الى
الانـدفاع ، وسـاروا عـائدين على هيئـة الاجتماع ، والنهـر عن يمينهـم ،
والبحر عـن يسارهـم ، وقد أيقنوا إن صـح منهم الثبـات بانكسـارهم ،
واصحابنا حـواليهـم ومن ورائهـم ، يغرقـونهم في دمـائهم ، ويشلـونهم
ويقلونهم وينهلونهم مـن ماء الحديد ويعلونهم ، ،هم يتحـركون في سكون
ويتظـاهـرون في كمون ، ويتـذوبـون في جمود ويتلهبـون في خمود، وكلما
صرع منهم قتيل حملـوه وستروه، وطموا مدفنه وطمروه حتى يخفـى أمرهم
ولايصح لـدينا كسرهم ، ونزلـوا ليلة الخميس على جسر دعـوق ، وقطعوا
الجسر حتى يمنع عبورنا اليهـم ويعوق، وأبلى المسلمون في ذلك اليوم في
الجهاد بـلاء حسنا، وأتـوا كل ما كـان فيه مستطاعـا ممكنا ، وبـذل إياز
الطويل هذا اليوم جهده،وفل في هذا اليـوم حدهم حده ، وكذلك سيف
الديـن يازكوج عام في بحـرهم وقام بـأمرهم ، واصبحوا يـوم الخميس الى
نار الـوطيس ، ووصلـوا الى مربضهم ولم يحصلـوا على غرضهـم ، ونقص
منهم خلق ، وعـدنا الى الخيام ظافـرين ظفر الكرام ، فـرحين بذل الكفر
وعز الاسلام ، وعرف الفرنج مسـاق خزيهم ، واخفاق سعيهم ، فاحترزوا
من الهلكة وماعاد وا الى مثل هذه الحركة.

قـال القـاضي وكـانـوا قد جعلـوا راجلهـم سـورا لهم يضرب النـاس
بالـزنبورك والنشاب حتـى لايترك احدا يصل اليهـم الا بالنشاب ، فـإنه
كان يطير عليهم كـالجراد ، وخيالتهم يسيرون في وسطهم بحيـث لم يظهر

منهـم أحد في ذلـك اليـوم أصلا، وعلـم العدو مـرتفـع على عجلة وهـو مغروس فيهـا وهي تسحـب بالبغال، وهـم يدنون مـن العلم وهـو عال جدا كالمنارة، خـرقته بياض ملمع بحمرة على شكل الصلبـان ، ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتـى وصلوا وقت الظهيرة الى قبالة جسر دعوق، وقد ألجمهم العطش من شـدة الحر ، وأخذ منهم وأثخنتهم الجراح، وكان الفعـل معظمـه للحلقة المنصـورة في ذلـك اليـوم فـإنهم أذاقوهـم طعـم الموت، و جرح منهم جماعة كاياز الطويـل، فإنه قام في ذلك اليوم أعظم مقـام يحكي عـن الاوائل، وجـرح جراحـات متعـددة.وهو مستمـر على القتال ، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة ، وهو من فرسان الاسلام وشجعـانه ، ولـه مقامـات متعددة، وجـرح خلق كثير في ذلـك اليوم ، وعـزم السلطان في تلـك الليلة على كبـس بقيتهم في الخيـم وكتب الى البلد يعرّفهم ذلـك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانـب ونحن من هذا الجانب، فلـم يصـل من أهل البلد كتـاب، فرجع عن ذلـك العزم بسبب تأخـر الكتاب، فلما أصبحوا كف السلطـان الناس عن القتـال خشية ان يغتالـوا فإن العدو كـان قد قرب مـن خيمه ووقف الأطـلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العـدو حتى وصل الى مخيمه، وكان لهم فيها اطلاب مستريحة فخرجـت على اليزك الاسلامي وحملت عليهم، وانتشب القتـال بينهم ، فقتـل من العـدو وجرح خلـق كثير منهم شخـص كبير فيهم مقـدم عندهم ، وكـان على حصان عظيم ملبـس بالزرد الى حـافره، وكان عليـه لبس لم يـر مثله، وطلبـوه من السلطـان بعد انفصـال الحرب فدفـع اليهم جثتـه وطلبَ رأسه فلـم يوجـد ، وعاد السلطـان الى مخيمه، وأعيد الثقـل إلى مكانـه، وعاد كل قـوم الى منزلتهـم، وكان عماد الـدين زنكـي غائبـا بنفسه مـع الثقل لمرض كـان بـه، وبقي عسكـره فعاد وقـد اقلعت حماه وبقـي التياث مـزاج السلطان وهـو كان سبـب سلامـة هذه الطـائفة الخارجـة، لكونـه لم يقدر على مبـاشرة الأمر بنفسـه، ولقد رأيتـه رحمه الله وهو يبكـي في حال الحرب ، كيـف لم يقدر على مبـاشرة القوم،

ورأيته وهو يأمر أولاد ه واحداً بعد واحد بمصافحة الأمر ، ومخالطة الحرب، ولقد سمعت منه، وقائلا يقول: إن الوخم قد عظم في مرج عكا بحيث أن الموت قد كثر في الطائفتين فأنشد تمثلا :

أقتلاني ومالكا

واقتلا مالكا معي[١٢٦]

يريد بذلك انني قد رضيت بأن أتلف أنا إذا تلف أعداء الله، وحدث بذلك قوة عظيمة في نفوس العساكر الاسلامية ، وكان مرض السلطان هو أحد الاسباب الحاملة للفرنج على هذه الحركة ، منضما الى كثرتهم ، وشدة الغلاء والجدب عليهم .

فصل

في وقعة الكمين وغيرها ودخول البدل الى عكا

قال العماد: لما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شوال انتخب السلطان من أجناده عدّه، وكثّر لهم العدّة ، وأمرهم أن يكمنوا في سفح تل هو شمالي عكا بعيد من عسكر العدّو بقرب المنزلة العادلية القديمة عند الساحل ، فكمنوا تلك الليلة ، فلما اصبح الصباح ركب منهم عدة يسيرة وساروا نحوالفرنج وصالوا عليهم وأغاروا ، فاستقبلهم الفرنج فخرج اليهم اربعمائة فارس ، هكذا قال العماد في البرق— وقال في الفتح مائتا قنطاري، وكذا قال ابن شداد مائتا فارس— وطمعوا في المسلمين فتأخروا قدامهم قليلا حتى أوصلوهم إلى الكمين ، فخرج عليهم أسد العرين ، وقتلوا وأسروا واستولوا عليهم بأسرهم ، فلم ينج منهم ناج ، ووقع في الاسر مقدمون أكابر منهم خازن الملك وجماعة من الافرنسيسية ، وركب السلطان فرحا بهذه البشارة ووقف على تل كيسان وقد توافت إليه الاسرى والأسلاب فترك الأسلاب والخيول لآخذيها، وكانت مقومة بأموال عظيمة ، فما أعارها طرفا ولا تردد أمره فيها، وجلس وأحضر الأسرى وباسطهم وأطعمهم وكساهم واذن لهم في أن يسيروا غلمانهم لاحضار مايريدون احضاره ، ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال، وحفظهم بالقيود الثقال.

قال القاضي ابن شداد : ولما هجم الشتاء وهاج البحر ، وأمن العدو من أن يضرب مصاف وان يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها أذن السلطان للعساكر في العودة الى بلادها ليأخذوا نصيبا من الراحة، فسار عماد الدين صاحب سنجار خامس عشري شوال وعقيبة ابن اخيه صاحب الجزيرة بعد ان افيض عليهما من التشريف والانعام والتحف ما لم ينعم به على غيرهما ، وسار علاء الدين

ابن صاحب الموصل في أول ذي القعدة مشرفا مكرما ، وسار الظاهر في المحرم سنة سبع ، وتقي الدين في صفر منها، ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاصة.

قال العماد: واشتغل السلطان بادخال البدل الى عكا وحمل المير والذخائر ، وأخرج من كان بها من الأمراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهارا ، وكان مقدم البدل الداخل من الأمراء سيف الدين المشطوب دخل في سادس عشر المحرم سنة سبع، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبوالهيجاء وأصحابه،ومن كان بها من الأمراء، ودخل مع المشطوب خلق من الامراء وأعيان من الخلق ، وتقدم الى كل واحد ان يصحب معه ميرة سنةكاملة ، وانتقل العادل بعسكره الى حيفا على شاطىء النهر ، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب وتدخل الى البلد واذا خرجت تخرج إليه، فأقام ثم يحث الناس على الدخول ويحرس المير والذخائر لئلا يتطرق اليها من العدو من يتعرضها،وكان مما دخل اليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر، وكان دخولها يوم الاثنين ثاني ذي الحجة ، فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب المينا فانقلب كل من في البلد من المقاتلة الى جانب البحر لتلقي البطس وأخذ ما فيها، ولما علم العدو انقلاب المقاتلة الى جانب البحر اجتمعوا في خلق عظيم ، وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم السلم ، كما شاء الله تعالى ، وأدركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما وعادوا خائبين خاسرين ، وأما البطس فإن البحر هاج هيجانا عظيما وضرب بعضها ببعض على الصخر فهلكت وهلك جميع ما كان فيها ، وهلك فيها خلق عظيم قيل كان عددهم ستين نفرا ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة ، ودخل على المسلمين من

ذلك وهن عظيم ، وحرج السلطان لذلك حرجا شديدا ،وكان ذلك أول علائم أخذ البلد.

وقال العماد: لما دخل الشتاء وعصفت الاهواء ووقع في سفن الفرنج الكسر انفذوها الى الجزائر للاحتياط ، وخافوا عليها من اختباط البحر.

وقال في الفتح: نقل الفرنج سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها، فخلا وجه البحر من مراكبهم ، وحصل الامن فيه من جانبهم ، وكان اصحابنا في البلد قد ملوا فشكوا ضررهم وضجرهم وكانوا زهاء عشرين ألف رجل من أمير ومقدم وجندي واسطولي وبحري ومتعيش وتاجر وبطال وغلمان ونواب وعمال ، وقد تعذر عليهم الخروج، فرأى السلطان ان يفسح لهم فيه رفقا بهم ورأفة ، وماأفكر ان في ذلك مخافة وآفة ، وأشير على السلطان بترتيب البدل وتكفل العادل بذلك وانتقل بمخيمه الى سفح جبل حيفا قاطع النهر ، وتقدم بجمع السفن للنقل واجتمع المتنقلون بالساحل على الرمل، فمن نجز أمره انتقل ، وكان الرأي ازاحة علة المقيمين فإنهم قد جربوا وصبروا وخبروا وهم كنفس واحدة وكانوا في ثروة وكرم ونخوة ، وفيهم أبوالهيجاء السمين ، وله أتباع وأشياع ، وله في شرع السماحة اقتداء بالسلطان وأوضاع ، ولعله انفق من ماله في تلك السنة خمسين ألف دينار ، فلما فسح لهم في الانتقال لأجل الاستبدال انتشر ذلك الضم ، وانتشر ذلك النظم ، ودخل الى عكا من لم يجرب حصارها ، ولم يخبر منافعها ومضارها، وماثبت ممن كان مقيما بها إلا الأمير بهاء الدين قراقوش ، ودخل عشرون مقدما وأميراً شبه المكرهين ، عوض ستين ، واستخدمت الرجال وانفقت الأموال ، وتفاوت الداخلون والخارجون ، فلا جرم وقع الوهن ، وقضي الامر، وتكفل بالداخلين المشطوب، وضاع الزمان وتعذر الامكان بعود مراكب العدو ، فلم يستتم البلد ماكان يحتاج اليه من الرجال والاموال ، فان كل من عين للدخول

كرهه وصار يتوسل في ان يعفى ويبذل في نفسه الفداء ، ثم اا حقت
كلمة الدخول على من تعين له استمهلوا زمانا يتهيأون فيه للدحول
ولإنفاذ قضاء الله تعالى أسباب لابد من وقوعها.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد:وفي ليلة سابع ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا، فانثلم الثغر، وبادر الفرنجة اليها فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم وقاتلوا عنها الى ان بنوها ، وعادت أقوى مما كانت.

وفي ثاني ذي الحجة هلك ابن ملك الالمان ، وكندكبير ، يقال له كند بنياط، ومرض الكندهري وصار يموت من الفرنج كل يوم المائة والمائتان،وحزن الفرنج على ابن ملك الألمان حزنا عظيما ، وأشعلوا نيرانا هائلة بحيث لم تبق خيمة الا اشتعل فيها الناران والثلاثة بحيث بقي عسكرهم كله نارا تقد، وحصل للمسلمين غنائم أخر كثيرة في سرايا سرية ، وأساطيل بحرية ، ومن جملة ذلك ملوطة ، مكللة باللؤلؤ منوطة، وبأزرار الجوهر مربوطة ، قيل إنها من ثياب ملك الالمان ، وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع الينا وقالوا للسلطان: نحن نخوض البحر في براكس ونكسب من العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوسا ، وهو المركب الصغير ، فركبوا فيه وظفروا بمراكب لتجار العدو وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة، فأسرهوهم وكبسوهم وأحضروهم بين يدي السلطان ، فأعطاهم السلطان جميع ماغنموه.

قال العماد: فلما أكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المنعمة، وأسلم منهم شطرهم واحضروا مائدة فضة عظيمة ، عليها مكبة عالية، ومعها طبق يماثلها في الوزن، ولو وزنت تلك الفضيات لقاربت قنطارا، فما أعارها السلطان طرفه احتقارا.

قال: واستشهد في عكا سبعة من الأمراء منهم الأمير سوار الدين، والتقى في هذه السنة شواني المسلمين بشواني الفرنج في البحر ، فأحرقت للكفر شواني برجالها، وكان عند العود تأخر لنا شينى مقدمه الامير جمال الدين محمد بن ارككز ، فأحاطت به مراكب العدو فتواقع ملاحوه الى الماء ، وسلموه الى البلاء ، فقاتل وصبر فعرضوا عليه الأمان فقال: ما أضع يدي إلّافي يد مقدمكم الكبير ، فلا يخاطر الخطير إلاّ مع الخطير، فجاء اليه المقدم الكبير ، وظن أنه قد حصل له الأسير، فعاقره وعانقه وقوي عليه وما فارقه ووقعا في البحر وغرقا ، وترافقا في الحمام واتفقا ، وعلى طريقي الجنة والنار افترقا ، واستشهد أيضا الأمير نصير الحميدي.

قال: وفي تاسع جمادى الأول قتل القاضي المرتضى بن قريش الكاتب في خيمته، قتله شريك له في دار بنابلس أراده على بيعها، وخرج من خيمته فوجد قاضي نابلس فقتله، وضربه وما أمهله، ومر لينجو فأدرك، وضرب بعمود خيمة فأهلك ، واستكتب السلطان اخا المستشهد مكانه، فلم يبلغ في الاحسان ميدانه.

قال :وفي هذه السنة ورد كتاب سيف الاسلام اخي السلطان من اليمن يذكر استيلاءه على صنعاء واستنابة ولده شمس الملوك فيها.

قال: ووصل القاضي الفاضل من مصر الى المعسكر المنصور في ذي الحجة ، وكان السلطان متشوقا لقدومه وطالت مدة البين لغيبته عنه سنتين ، على ان امور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبة ، وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبة ومحبة، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه ، دائم الاعتماد والاستناد على احسانه ، والى اركانه فان استقدمه خاف على ماوراءه من المهام ، وان تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والاحكام ، وكان يكاتبه بشرح الاحوال يستشيره والنجابون مترددون بالمكاتبات والمخاطبات ، والاستشارة في المهمات ، فوصل الى القدس واعتاق بتوالي

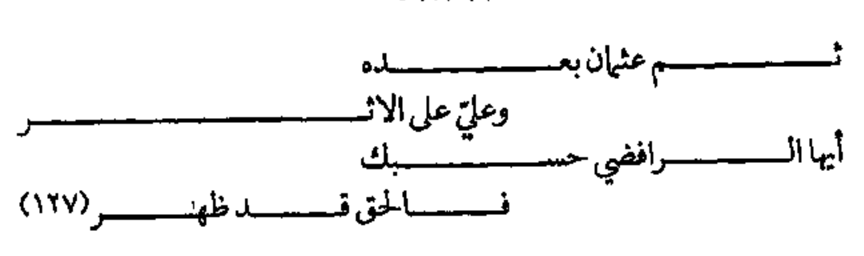
الامطار ، ثم وصل في ذي الحجة ،ورجع الفضل ، واجتمع الشمل، واستأنس الملك بصاحب تدبيره، وتأسس ركنه برأي مشيره.

قلت: وفي جمادى الاولى من هذه السنة توفي بالموصل قاضي القضاة محيي الدين ابو محمد بن قاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري، وقد اثنى العماد الكاتب عليه في الخريدة ثناءً كثيرا وانشد له اشعارا حسنة منها في التوحيد:

قامت باثبات الصفات أدلة
قصمت ظهور أئمة التعطيل
وطلائع التنزيه لما أقبلت
هزمت ذوي التشبيه والتمثيل
فالحق ما صرنا إليه جميعنا
بأدلة الاخبار والتنزيل
من لم يكن بالشرع مقتديا فقد
ألقاه فرط الجهل في التضليل

وله في مدح الصحابة رضي الله عنهم :
لائمي في هوى الصحا
بة ارجع إلى سقر
لابلغت المنى ولا
نلت من رفضك الوطر
كيف تنهى عن حب اقوا
م هم السمع والبصر
وهم سادة الورى
وهم صفوة البشر
فأبو بكر المقـ
ـدم من بعده عمر

-٨٧٩٢-



ثم عثمان بعده
وعليّ على الاثر
أيها الرافضي حسبك
فالحق قد ظهر (١٢٧)

ثم دخلت في سنة سبع وثمانين

ففيها وصل إلى الفرنج ملك افرنسيس وملك انكلتيز وغيرهما ، واخذت عكا يسر الله فتحها .

قال العماد:والغيم في هطلانه ، والبحر في هيجانه ، والسلطان مقيم بمخيمه على شفر عم، ولطف الله به قد خص وعم ، والعادل مخيم قاطع نهر حيفا على الرمل ، وسفن البدل الى عكا في البحر متصلة السبل، والفرنج مستمرون على الحصار ، متحرزون من الاصحار، ونوب اليزك راتبه، ووظائف الجهاد مواظبة ، ووصل من الديوان العزيز مثال ومعه مكاتبة للمُلك الافضل وفيها اكرام واجلال وفضل وافضال.

وفي ثالث صفر رحل تقي الدين لتسلم البلاد التي اضيفت اليه شرقي الفرات ، وكان له بالشام المعرة وحماه وسلمية ، وجبلة ، واللاذقية، وبالجزيرة ديار بكر وحران والرها والموزر ، وسميساط وضياعها ، وميافارقين وحصونها واعمالها وقلاعها ، وسار على أنه يرجع عن قريب ، فأبطأ وتشوف الى افتتاح مايجاوره من البلاد ، وسار الى ميافارقين فكان السلطان ينسب ماجرى من استيلاء الكفارعلى عكا بعد قضاء الله تعالى الى غيبته ، فإنه تأخرت عساكر تلك البلاد الشرقية لخوف مضرته ، وجور مجاورته ، وسياتي ذكر وفاته في آخر السنة.

ووصل كتاب المجاهد أسد الدين شيركوه أنه اغار على جشير للفرنج بطرابلس فاستاقه ، ولم يطق الكفار لحاقه ، واقتطع لخاصته منه أربعمائة رأس تلف في الطريق منها أربعون، وغنم أبقارًا وغنما ، وانفذ للعماد منها بغلة، وذلك رابع صفر.

وفي ليلة هذا اليوم القت الريح مركبا للعدو على الزيب فكسرته، وكان فيه خلق عظيم منهم، فغرق بعضهم وأسر بعض، وفيهم امرأتان

سبيتا. وفي ليلة أول ربيع الاول خرج أصحابنا من البلد وهجموا على العدو وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، واخذوا منهم من خيمهم جمعاً عظيما منهم اثنتا عشرة امرأة ، وفي ثالث ربيع الأول كان اليزك للحلقة السلطانية ، وخرج اليهم من العدو خلق ، وجرى بينهم وقعة شنيعة ، وقتل فيها من العدو جماعة منهم مقدم كبير، ولم يفقد من المسلمين الا خادم رومي صغير عثر به في الحملة فرسه يسمى قراقوش ، وكان شجاعا له وقعات، وفي تاسع ربيع الاول بلغ السلطان ان العدو يخرج منه طائفة للاحتشاش، فأمر العادل ان يكمن بالعسكر خلف التل الذي كانت فيه الوقعة المعروفة به، وسار هو فكمن وراء تل العياضة ومعه من أولاده الصغار ، والقاضي الفاضل وانذر الفرنج ، ولم يخرج منهم أحد ، ووصل في أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون أسيراً من الفرنج اخذوا في بيروت، فيهم شيخ كبير هرم لم يبق في فمه ضرس ، ولم يبق فيه قوة إلا مقدار مايتحرك، فسأله عن مجيئه فقال للحج إلى قمامة ، وبيني وبين بلادي مسيرة اشهر، فرق له واطلقه وأعاده إلى العدو راكبا على فرس، وطلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير فلم يأذن ، وسئل عن ذلك فقال:لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدم ويهون عليهم وهم الآن لايفرقون بين المسلم والكافر. ثم لما أقبل الربيع توافت العساكر وفاء بموعدها، فوصلت في شهر ربيع الأول فأول من قدم الأمير علم الدين سليمان بن جندر صاحب قلعتي عزاز وبغراس ، وهو شيخ له رأي وتجربة ومنزلة كبيرة ومرتبة ، والملك الأمجد صاحب بعلبك وبدر الدين مودود والي دمشق في رجالهم وابطالهم ، وفي كل يوم يقدم أمير بعد أمير ، والله يتولى التدبير، وكان قد شاع الخبر بأن ملوك الفرنج واصلون ،وهم حاشدون حافلون فوصل ملك افرنسيس فليب في عدة من عبدة الصليب ،ثاني عشر ربيع الأول في ست بطس عظام ، مملوءة بفوارس ذوي اقدام ، فقلنا ماحمل الماء إلا أهل النار ، وماأجلسب للدوابر الا الدبار ، وكان عظيما عندهم من كبار ملوكهم ينقادون له بحيث اذا

حضرحكم على الجميع، ومازالوا يتواعدونا به حتى قدم وصحبه من بلاده باز عظيم عنده، هائل الخلق ابيض اللون نادر الجنس ، وكان يعزه ويحبه حبا عظيما ، فطار من يده حتى سقط على سور عكا، فاصطاده أصحابنا وانفذوه الى السلطان، وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا.

قال القاضي ابن شداد:ولقد رأيته وهو يضرب إلى البياض مشرق اللون، مارأيت بازيا أحسن منه.

قال العماد: وكان مع هذا الملك باز أشهب ، كأنه عند إرساله نار تتلهب، ففارقه يوم وصوله بحيث عجز عن حصوله ، وكان في ظن الفرنج انه يقدم في جمع جم ، فلما رأوا جمعه قليلا سقط في أيديهم، فوعدهم با لمدد خلفه.

قال القاضي: وقدم بعده كند فرير وكان مقدما عظيما عندهم مذكور، كان حاصر حماه وحارم عام الرملة ، وفي ثاني عشر ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية أن جماعة من المستأمنين نزلوا ناحية من جزيرة قبرس في عيد لهم، وقد اجتمع جمع كبير في بيعة قريبة من البحر ، وانهم صلوا معهم صلاة العيد، فلما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من كان في البيعة من الرجال والنساء عن آخرهم حتى القسيس وحملوهم الى مراكبهم وساروا بهم الى اللاذقية، وكان فيهم سبع وعشرون امرأة، وكانوا قد اغلقوا باب الكنيسة عليهم ليامنوا افلاتهم وأسروهم بأسرهم ، وكنسوا جميع مافي الكنيسة من الامتعة والاعلاق النفيسة ، واقتسموها فوصل الى كل واحد على ما قيل أربعة آلاف درهم من الفضة النقرة، كذافي كتاب القاضي.

وقال العماد في الفتح: وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم

أربعمائة درهم ، وهجم جماعة من العسكرية على غنم العدو فأخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأسا، وركبوا في طلبها بأسرهم بخيلهم ورجلهم في اثرهم ، فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل.

قال العماد: كان عز الدين سامة متولي بيروت ، ولم يكن لمراكب العدوبد من الجواز بها أو بقربها ، واذا عبرت أخذت ، وإن كانت مستعدة لحربها، فغنم هو ورجاله مغانم خلدت له ادخار الغنى ، وكثرت في البحر غزواته، ووصل ملك الانكلتيز إلى قبرس في السادس والعشرين من ربيع الآخر ، واشتغل بها عن الوصول الى عكا حتى أخذها عنوة من صاحبها ، وكانت مقدمات سفنه قد وصلت فاستولى سامة على خمس منها مملوءة رجالا ونساء وأموالا وخيلا، وكان في الزيب وهو شمالي عكا طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة الى عكا، ويقطعون الطريق على الفرنج.

قال القاضي: وكان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، فأخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر ، فلما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة ، حتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا لها: إن السلطان رحيم القلب، وقد أذنا لك في الخروج اليه،فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك ، فخرجت تستغيث الى اليزك الاسلامي، وأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها الى السلطان فأتته وهو راكب على تل الخروبة ، وانا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاء شديدا وأمرغت وجهها في التراب فسأل عن قصتها فأخبروه، فرق لها ودمعت عينه، وأمر باحضار الرضيع فمضوا ووجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه الى المشتري وأخذه منه ،ولم يزل واقفا رحمة الله عليه حتى أحضر الطفل وسلم اليها ، فأخذته وبكت بكاء شديداً، وضمته إلى صدرها والناس

ينظرون اليها ويبكـون وأنا واقف في جملتهم فـأرضعته ساعة ، ثـم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بمعسكرهم مع طفلها.

قال: فانظر الى هـذه الرحمة الشاملة لجنس الانس، اللهـم إنك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة آمين.

قال: وفي ذلـك اليوم وصل ظهير الـدين ابـن البلنكري، وكان مقـدما من أمراء الموصل، مفارقا لهم طالبا خدمة السلطان.

فصل

في مضايقة العدو خذله الله لعكا يسر الله فتحها واستيلائهم عليها

قال العماد: لما كان يوم الخميس رابع جمادى الأولى، زحف الفرنج الى عكا، ونصبوا عليها سبعة مجانيق ، ووصلت كتب من عكا الى السلطان بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو عنهم ،فركب السلطان بعسكره وكان هذا دأبه معهم كلما نابوا البلد نابهم ، فاذا زحف اليهم رجعوا عن الحصر ، واذا رجع عنهم عاودوه ، وكان علامة بين السلطان وأهل البلد أنه متى زحف الفرنج عليهم دقوا كؤوسهم فتدق كؤوس السلطان إجابة لهم، واستبعد السلطان منزلته فتحول الى تل العياضية تاسع جمادى الاولى ،ووصل ملك الانكلتيز ثالث عشر جمادى الاولى من قبرس ومعه خمس وعشرون قطعة ، وهو في جمع شاك وجمر ذاك فبلي الثغر منه بغير البلاء الاول، هذا ومجانيق الكفر على الوغى مقيمة، وللرمي مديمة، وتمكن الفرنج بها من الخندق، فدنوا منه دنو المحنق، وشرعوا في هجمه واسرعوا الى طمه، وداموا يرمون فيه جثث الاموات ، وجيف الخنازير والدواب النافقات، حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ، ويحملون اليه موتاهم ،وأصحابنا في مقابلتهم ومقاتلتهم ، قد انقسموا فرقتين ، وانقسموا قسمين ، ففريق ينقي الخندق وما ألقي فيه ، وفريق يقارع العدو ويلاقيه.

قال القاضي: ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه انهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم، وكانوا اذا جرح منهم واحد جراحة مثخنة موئسة ألقوه فيه، وانقسم أهل البلد أقساما قسم ينزلون الى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعا ليسهل نقلها

وقسم ينقلـون مايقطعـه ذلك القسـم ويلقونـه في البحر ، وقسـم يذبـون عنهم ويدافعـون حتى يتمكنوا من ذلك ، وقسم في المنجنيقـات وحراسة الاسوار ، وأخذ منهم التعب والنصب ، وتواترت شكايتهم من ذلك.

قـال: وهذا ابتـلاء لم يبتل بـه احد ولا يصبر عليـه جلد ، والسلطـان رحمه الله لايقطـع الـزحـف عنهـم والمضايقـة لهم على خنـادقهـم بنفسـه وخـواصـه وأولاد ه ليـلاً ونهاراً حتـى يشغلهـم عـن البلـد، وصـوبـوا منجنيقاتهم الى بـرج عين البقر ، وتواتـرت عليه أحجار المنجنيقـات ليلاً ونهاراً حتـى أثـرت فيـه الاثـر البين، وكلما ازدادوا في قتـال البلـد ازداد السلطـان في قتالهم، وكبـس خنادقهـم والهجوم عليـه ، ودام ذلك حتـى وصل ملك الانكلتيز .

قال: وفي سادس عشر جمادى وصلت بطسة مـن بيروت عظيمة هائلة مشحونـة بالآلات والمير والرجال والابطـال المقاتلة ، وكان السلطـان قد امر بتعبيتهـا في بيروت وتسييرها ، ووضـع فيها مـن المقاتلـة خلقا عظيما، حتى تـدخل الى البلد مـراغمة للعدو، وكـان عدة رجالها المقـاتلة ستمائة وخمسين رجلاً ، فاعترضها ملك الانكلتيـز الملعون في عدة شواني قيل إنها كانت اربعين قطعـة، فاحتاطوا بها مـن جميع جوانبها واشتـدوا في قتالها ، وجرى القضـاء بأن وقـف الهواء فقاتلوهـا قتالا شديـدا وقتل مـن العدو عليهـا خلـق عظيم ، وأحـرقـوا على العـدو شـانيا كبيرا فيـه خلـق كثير فهلكوا عـن آخرهـم وتكاثـروا على أهل البطسـة، وكان مقـدمهم رجـلا جيدا شجـاعا مجربـا في الحرب اسمه يعقـوب من أهـل حلب، فلما رأى أمارات الغلبة عليهـم، قال: والله لانقتل الا عن عز ولا نسلـم اليهم من هذه البطسة شيئا ، فوقعوا في البطسة مـن جوانبها بالمعاول يهدمونها حتى فتحوها من جانب أبوابا فامتـلات ماء، وغرق جميع من فيها ومافيها من الآلات والمير ولم يظفر العدومنهـا بشيء أصلا، وتلقف العـدو بعض من كان فيهـا وأخذوه إلى الشواني مـن البحر ،وخلصـوه من الغرق ومثلـوا به

وأنفذوه إلى البلـد ليخبرهم بالواقعـة ، وحزن الناس لـذلك حزناً شـديداً والسلطـان يتلقى ذلـك بيـد الاحتسـاب في سبيل الله تعـالى والصبر على بلائه.

قال : وكان العدو المخذول قد صنع دبـابة عظيمة هائلة اربع طبقات الاولى من الخشب، والثانيـة من الرصاص، والثالثة مـن الحديد، والرابعة من النحـاس ، وكانت تعلـو على السور ويركـب فيها المقاتلـة ، وخاف أهل البلد منها خوفا عظيما ، وحدثتهـم نفوسهم بطلب الأمان من العدو وكانـوا قد قربـوها من السور بحيـث لم يبق بينها وبين السـور الا مقدار خمسة اذرع على مانشاهـد ، وأخذ أهل البلد في تواتر ضربها بـالنفط ليلا ونهارا حتى قـدر الله تعالى حـريقها ، واشتعال النـار فيها وظهـر لها ذؤابة نـار نحـو السماء واشتـدت، الأصوات بـالتكبير والتهليـل، ورأى النـاس ذلك جبرا لذلك الـوهن ، ومحواً لذلك الاثر ، ونعمة وايـنـاسا بعد يأس، وكان ذلك في يوم غرق البطسة

قال العماد: فكـان ذلك تشميتـا لتلك العطسه ، ثـم جرى بعـد ذلك عدة وقعـات في هذا الشهر ، وهـو جمادى الأولى، وهجم المسلمـون خيم العـدو ونهبوهـا ، ووصـل رجل كبير مـن أهـل مازنـدان يـريد الغـزاة، فوصـل والحرب قائمـة فحمل حملـة استشهد فيهـا في تلك السـاعة ، ولم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلـد باستفحال أمر العدو والشكوى من ملازمتهم قتالهم ليلاً ونهاراً، وذكر ما ينـالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفـة عليهم مـن حين قـدوم الانكلتيـز الملعون ، ثـم مـرض مرضـا شديـدا اشفى فيه على الهلاك ، وجـرح الافرنسيـس، ولايزيـدهم ذلك إلا إصراراً وعتـواً ، وهرب الى السلطـان خادمـان ذكرا أنهما لاخـت ملـك الانكلتيز وأنهما كـانـا يكتمان إيمانهما ، فقبلهما السلطان وأكـرمهما ، وهرب أيضا المركيـس منهم إلى صور، وكان قد استشعـر منهم أن يخرجوا ملكها عن يده.

قال العماد في البرق: ولما اعوزت الفرنج الحيل ، وأعجزتهم تفاصيل تدابيرهم والجمل ، وذلك أن أبرجتهم الخشبية أحرقت ، وستائرهم ودباباتهم وكباشهم وزعت ومزعت ومزقت ، اقاموا قدام خيامهم صوب عكا تلا من التراب مستطيلاً ، ورفعوه كثيبا مهيلا ، ثم نقلوه وحولوه وكانوا يقفون وراءه، ويحولون الى قدامه ترابه، ويقربون الى قرب البلد رقابه، فهم من خلفه من النكايات محجوبون ، يشبون ويدبون، ويدبرون الحرب الزبون ، والتل المتحول الى البلد قد أعيا على أهل ا لجلد، لاتعمل فيه النار، ولايصل الى دفعه الاقتدار ، حتى صار من المدينة على نصف غلوة سهم، ورمي بكل جمرة ورجم، فمايزيد في كل يوم إلا قربا ، ومايجر في كل وقت الا خطبا أو حربا، وكان الاصحاب يخرجون من البلد اليه ويقاتلون عليه، ويطيفون بحول الله حواليه ، ومن كتاب فاضلي إلى الديوان: « ماقطع الخادم الخدم الا لانه قد اضجر واسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذي قد استفحل أ مره واستشر شره ، فإن الناس ما سمعوا ولا رأوا عدوا حاصرا محصورا ،غامراً مغمورا قد تحصن بخنادق يمنع الجائز من الجواز ،ويعوق الغرض عن الانتهاز ، ولا تقصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة الف راجل ، وقد أفناهم القتل والأسر ، وأكلتهم الحرب ، ولقمهم النصر ، وقد أمدهم البحر بالبحار ، وأعان أهل النار، واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والألسنة الاعجمية من لايحصر معدوده ، ولايصور في الدنيا وجوده، فما احقهم بقول أبي الطيب:

تجمع فيه كل لسن وأمة
فمايفهم الحداث إلا التراجم

حتى انه اذا اسر الاسير واستامن المستامن احتيج في فهم لغته الى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثان مايقوله اول، وثالث مايقوله ثان، والاصحاب كلوا وملوا ، وصبروا الى ان ضجروا ، وتجلدوا الى ا ن تبلدوا ، والعساكر التي تصل من المكان البعيد لاتصل الا وقد

كل ظهرها وقل وفرها وضاق بالبيكار صدرها، ولا تستفتح الا بطلب الدستور، ويصير ضجرها مضرا بالسمعة عند العدو المخذول ، ولهم قاتلهم الله تنوع في المكائد فإنهم قاتلوا مرة بالابرجة، وأخرى بالمنجنيقات ،ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش وآونة باللوالب، ويوما بالنقب وليلا بالسرابات، وطورا بطم الخنادق وآنا بنصب السلالم، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ، ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطا مستطيلا يشبه السور من التراب ، وتلالا تشبه الأبرجة مدورة ، ورفعوها بالاخشاب وعالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها وهم يتقدمون أول أول ، وترتفع حالا بعد حال ، حتى صارت منه كنصف غلوة سهم، وقد كان الحجر والنار تؤثران في أبرجة الخشب ، وهذه أبراج وستائر للرجال والمنجنيقات من العطب ، لاتؤثر فيها الحجارة الرامية،ولاتعمل فيها النار الحامية».

قال ووصل في آخر جمادى الأولى من العساكر الاسلامية مجاهد الدين يرنقش ، ومعه عسكر سنجار ، وفي ثاني جمادى الآخرة ابن صاحب الموصل، وجماعة من أمراء مصر والقاهرة ،كعلم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدووي وغيرهمامن الأسدية والناصرية ، وأما عساكر ديار بكر فانهم تأخروا واعتذروا بالخوف من جوار تقي الدين ، وكان قد تعرض للسويدا وغيرها،وصعب ذلك على السلطان ، وقال : هذا من عمل الشيطان ، وفي مثل هذا الوقت نعرض لهذا المقت، وإني أخاف عليه في هذه السنة ، حيث أساء عند إمكان الحسنه ، واشتد مرض الانكلتيز بحيث شغل الافرنج بمرضه عن الزحف ، وكان ذلك خيرة من الله عظيمة، فإن البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيما ،وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ،فكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق ، وزوال فرق ، وانتعاش عثرة، وانجبار كسرة.

قال القاضي: واللصوص يدخلون عليهم إلى خيامهم ،ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم،ويأخذون الرجال في عافية بأن يجيئوا الى الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقه السكين ،ويوقظونه ويقولون له بالاشارة : إن تكلمت ذبحناك ويحملونه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين ،وجرى ذلك مراراً كثيرة، ثم تكررت الرسائل من الفرنج إلى السلطان شغلا للوقت بما لاطائل تحته، منها ان ملك الانكلتيز طلب الاجتماع به، ثم فتر بعد أياما، ثم جاء رسول يطلب الاستئذان في اهداء جوارح جاءت من البحر ويذكر انها قد ضعفت وتغيرت ،وطلب ان يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقوى ثم تهدى ، ففهم انه يحتاج الى ذلك لنفسه لأنه حديث عهد بمرض ، ثم نفذ أسيرا مغربيا عنده فأطلقه السلطان ،ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج فأرسل اليه ذلك، وكان غرضهم من ذلك تفتير العزمات وتضييع الاوقات على المسلمين، وهم مشتغلون بالحصر وموالاة الرمي والجد في الزحف حتى تبدلت قوة البلد بالضعف ، وتخلخل السور وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الاعمال عليهم حتى ان جماعة منهم بقوا ليالي عدة لاينامون أصلا ليلا ولا نهارا، والعدو عددكثير يتناوبون على قتالهم، واشتد ذلك عليهم سابع جمادى الآخرة ، فركب السلطان بالعسكر الاسلامي ورغبهم ونخاهم وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر، وجرى قتال عظيم ،وهو كالوالدة الثكلى يحرك فرسه من طلب الى طلب، ويحث الناس على الجهاد وينادي بنفسه: ياللاسلام وعيناه قد فارت بالدمع، وكلما نظر الى عكا وماحل بها من البلاء ومايجري على من بها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البتة، وانما شرب شيئا أشار به الطبيب، ولماهجم الليل عاد الى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن، ثم ركب سحرا وصبحوا على ما أمسوا عليه، وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها : إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الغد ان لم

تعملوا معنا شيئا نطلب الامان، ونسلم ونشتري مجرد رقابنا ،وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضا ، فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعده العسكر، فإن الرجالة من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم ،وهجم عليهم بعض الناس من بعض الأطراف فثبتوا وذبواغاية الذب، وحكى بعض من دخل عليهم اسوارهم انه كان هناك واحد من الفرنج صعد سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهويرميها على المسلمين، ووقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا وهويتلقاها ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب حتى ضربه زراق بنفط فأحرقه ، ورؤيت امراة عليها ملوطةخضراء فما زالت ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ، ثم قتلت وحملت الى السلطان فعجب من ذلك ،ولم يزل الحرب الى آخر الليل ،وضعفت نفوس أهل البلد ،وتمكن العدو من الخنادق فملؤوها ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه ، فوقعت بدنه من الباشورة ودخل العدو اليها وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفسا وكان منهم ستة أنفس من كبارهم، فقال لهم واحد منهم: لاتقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية ، فبادر رجل من الأكراد وقتله وقتل الخمسة الباقية ، وفي الغد ناداهم الفرنج احفظوا الستة فانا نطلقكم كلكم بهم، فقالوا: إنا قد قتلناهم فحزن الفرنج وبطلوا عن الزحف ثلاثة ايام، وخرج سيف الدين المشطوب بنفسه بأمان الى ملك الافرنسيس، وهو كان مقدم الجماعة في الرتبة، وقال له: إنا قد اخذنا منكم بلاداً عدة وكنا نهدم البلد وندخل فيه ومع هذا اذا سألونا الأمان أعطيناهم، وحملناهم الى مأمنهم وأكرمناهم، ونحن نسلم البلد وتعطينا الامان على أنفسنا، فقال:أرى فيكم رأيي، فأغلظ له المشطوب القول وانصرف عنه، ولما دخل المشطوب بهذا الخبر خاف جماعة ممن كان في البلد فأخذوا لهم بركوسا،وهو مركب صغير وركبوا فيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامي

منهم عز الدين ارسك، وحسام الدين تمرتاش بن الجاولي، وسنقر الوشاقي ، وهو من الاسدية الاكابر، وذلك في ليلة الخميس تاسع جمادى الاخرة ، فأما ارسك وسنقر فتغيبا خوفا من السلطان، واما ابن الجاولي فظفر به ورمي في الزردخانات،وكان شابا اول ماتوفي والده فأقطع السلطان اقطاعاتهم وقطعها وحبس عنهم الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهها، ومنعها، وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية الناصرية فشفع فيه على انه يضمن على نفسه العودة فعاد من ليلته ووقع بعد ذلك في الاسار واستفكه السلطان بعد سنة بثماني مائة دينار، ومن كتاب الى صاحب إربل مظفر الدين:«لما عاين أصحابنا بالبلد ماهم عليه من الخطر، وانهم قد اشفوا على الغرر فر جماعة من الامراء ممن قل بالله وثوقه، وأعمى قلبه فجوره وفسوقه، ولقد خانوا المسلمين في ثغرهم، وباؤوا بوبال غدرهم ،وماقوى طمع العدو في البلد الا هربهم ، ومأأرهب قلوب الباقين من مقاتلتهم الا رهبهم، والمقيمين من اصحابنا الكرام ، قد استحلوا مر الحمام،وأجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من الاعداء اضعاف اعدادهم، وانهم يبذلون في صون ثغرهم غاية اجتهادهم ، وكانوا تحدثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا واشترطوا، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا أيديهم في القوم وبسطوا، فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب، والله تعالى يسهل تنفيس ماهم فيه من الكروب».

قال القاضي:وفي سحرة تلك الليلة ركب السلطان مشعرًا أنه يريد كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، فما ساعده العسكر على ذلك ، وتخاذلوا وقالوا: نخاطر بالاسلام كله، وفي ذلك اليوم خرج من عند ملك الانكلتيز رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجا وذكروا ان مقدم الاسبتارية يخرج في الغد، يعني يوم الجمعة، يتحدث ويتحدثون معه في معنى الصلح فأكرمهم السلطان ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه،

وعادوا تلك الليلة الى عسكرهم، وفي ذلـك اليوم تقدم الى قايماز النجمي حتى دخـل هو وأصحـابه إلى أسوارهـم عليهم،وترجـل جماعة مـن أمراء الأكـراد كالجنـاح وأصحابـه وهو أخـوالمشطوب ولفيفهـم، وزحفوا حتـى بلغوا أسوار الفرنـج، ونصب قايماز علمه بنفسه على أسوارهـم وقاتل عن العلـم قطعة مـن النهـار ، وفي ذلك اليـوم وصـل عز الـديـن جرديـك النوري وسـوق الزحف قـائمة فترجل هـو وجماعته،وقـاتل قتالا شـديدا، واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهادا عظيما.

قال العماد: وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد، منتظرا لنجح الامـل البعيد، ولما عرف السلطان أنـه لاسلامه، وأن عكا عـدمت الاستقامة، نفذ إلى جماعة عكا وقال لهم :خذوا من العدو حذرا، واتفقوا واخرجوا ليلا من البلد يدا واحـدة ، وسيروا الى جانب البحر ، وصادموا العـدو بالقهـر، وخلوا البلـد بما فيه واتـركوه بما يحويـه، فشرعوا في ذلـك واشتغل كل منهـم باستصحاب مايملكه، ولم يعلم ان التهـاءه به يهلكه، فما تمكنوا من المراد حتـى أسفر الصباح ، ولم يصح ذلك في الليلـة الثانية لمصير السر إلى العـلانية . قـال :ولـو صح ذلـك لنجـح المقصد ولكـن الفرنـج اطلعوا على هـذا السر، فحرسـوا الجوانب والأبـواب وكان سبـب علمهـم اثنين مـن غلمان الهاربين خـرجـا إلى الملاعين وأخبراهـم بجليـة الحال،وعزيمة الرجال.

قال: وخرج يوم الجمعة من الشهر جماعـة من رسل الفرنج ونحن على الحرب ومحاولـة الطعن والضرب، وفيهـم صاحـب صيـدا فطلب نجيـب الدين العدل، وكان السلطان يعـذق به في رسالات الفرنج العقد والحل، وعول السلطان في سماع الرسائل على ولـده الأفضل وأخيه العادل، وتردد العـدل مـرارا في الخطـاب والجواب، فلم ينفصـل الأمـر على الصـواب، وبـذلنا لهم عكـا على مافيهـا دون مـن فيها، وأنـا نطلق لهم أسرى بعـدد

العدة التي تحويها، فأبوا غير الاشتطاط، فزدناهم صليب الصلبوت فلم يحصل لهم به كمال الاغتباط ، هكذا قال في البرق.

وقال في الفتح :ان ذلك كان يوم السبت، وقال اشترطوا إعادة جميع البلاد ، وإطلاق اساراهم من الاقياد .

وضعف البلد وعجز من فيه ضعفا لايمكن تلافيه ووقف كرام أصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم وشرعوا في بناء سور يقتطع جانبا حتى ينتقلوا إليه إذا شاهدوا العدو غالبا، وكذا قال ابن شداد أن ذلك اليوم كان يوم السبت الحادي عشر، وقال:لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب وتحركوا حركةعظيمة بحيث اعتقد ان ربما كان مصاف ، واصطفوا وخرج من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفسا واستدعوا جماعة من المماليك وطلبوا منهم العدل الزيداني وذكر وا أنه— يعني الخارج صاحب صيدا —طليق السلطان ،فذكر نحو ماتقدم، وقال: وتصرم نهار السبت ولم ينفصل أمر .

قال : ولما كان يوم الاحد ثاني عشر الشهر وصل من البلد كتب يقولون فيها : إنا قد تبايعنا على الموت فإياكم ان تخضعوا لهذا العدو وتلينوا له، أمانحن فقد فات أمرنا،وذكر العوّام الواصل بهذه الكتب أنه وقع في الليل صوت انزعج منه الطائفتان ، وظن الفرنج أن عسكرا عظيما قد عبر الى عكا وسلم وصار فيها واندفع كيد العدو في تلك الأيام بعد أن كان قد أشفى البلد على الأخذ ، ووصل من عساكر الاسلام صاحب شيزر سابق الدين، وبدر الدين دلدرم ومعه تركمان كثير كان السلطان أنفذ اليهم ذهبا أنفقه فيهم وصاحب حمص،و اشتد ضعف البلد وكثرت ثغور سوره فبنوا عوض الثلمة سورا من داخلها حتى إذا تم انهدامها قاتلوا عليه، وثبت الفرنج على أنهم لايصالحون ولا يعطون الذين في البلد أمانا حتى تطلق جميع الاسرى الذين في أيدي

المسلمين، وتعاد البلاد الساحلية إليهم، وفي يوم السابع عشر خرج العوّام وفي كتبه أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم، وأخذ جميع مافيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك،فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع مافيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي الف دينار، وألفا وخمسائة أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم، وصليب الصلبوت، على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين ومامعهم من الأموال والاقمشة المختصة بهم وذراريهم ونساؤهم ،وضمنوا للمركيس الملعون. فانه كان قد استرضي وعاد عشرة آلاف دينار ، لأنه كان واسطة، ولأصحابه أربعة آلاف دينار ، واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج، ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه ، وعزم على أن يكتب إليهم في ذلك انكارا عليهم ، فهو في مثل هذه الحال وقد اجتمع أمراءه وأصحاب مشورته ، فما احس المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره على أسوار البلد وذلك ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ،وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتد حزن الموحدين، وانحصر كلام العقلاء من الناس في إنالله وإنا إليه راجعون ،وغشي الناس بهتة عظيمة ، وحيرة شديدة ، ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب ،وكان لكل قلب حظ في ذلك على قدر إيمانه، ولكل إنسان نصيب من هذاالحظ على مقدار ديانته ونخوته ، واقشعت الحال على أن المركيس لعنة الله دخل البلد، ومعه أربعة أعلام للملوك عوضا عن علم الاسلام ، وحيز المسلمون إلى بعض اطراف البلد ، وجرى عل أهل الاسلام المشاهدين لتلك الحال ماكثر التعجب من الحياة معه.

قال :ومثلت بخدمة السلطان رحمه الله عشية ذلك اليوم ،وهو أشد حالة من الوالدة الثكلى والواهلة الحيرى ، فسليته بما تيسر من التسلية واذكرته الفكر فيما قد استقبله من الأمر في معنى البلاد الساحلية

والقـدس الشريف ، وكيفيـة الحال في ذلـك وإعمال الفكر في خـلا ص المسلمين المأسـورين في البلـد ، وانفصل الحال على أن رأى التـأخر عـن تلك المنزلة مصلحـة فإنه لم يبق غرض في المضايقـة، فتقدم بنقل الاثقال ليلا الى المنـزلة التي كان عليهـا أولاً بشفر عم، وأقـام هو جريدة مكـانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد ، فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح، واشتغـل العدو بالاستيلاء على البلـد ، وأقام السلطان إلى التاسع عشر ، ثـم انتقل إلى الثقل ، ووصل ثلاثة نفـر ومعهم أقوش حـاجب بهاء الـديـن قـراقوش، وكـان لسـانـه فإنـه كـان رجـلا عاقـلا مستنجزيـن ماوقـع عليه عقد الصلـح من المال والأسرى، فـأقامـوا ليلة مكرّمين وساروا إلى دمشق يبصرون الاسارى.

قـال العماد :وخرج سيـف الديـن المشطوب ، وحسـام الديـن حسين باريك، وأخذا امان الفرنج يعنى على القطيعة المقدّم ذكرها.

قـال،ولم نشعر إلاّ بـالـرايـات الفرنجيـة على عكـا مـركوزه،وأعطـاف أعلامها مهـزوزة ، وعمّ البلاء ، وتم العنـاء ، وعز العزاء وقنط الـرجاء ، وحضرنا عنـد السلطان وهـومغتم ، وبـالتدبير للمستقبـل مهتم، فعـزيناه وسليناه، وقلنا هذه بلدة مما فتحه الله قـد استعادها أعداءه، وقلت له: إن ذهبت مدينة فماذهب الدين، ولا ضعف في نصر الله اليقين .

قال: ودخلوا عكا وتسلموها ، ولم يقفوا على الشرائط التي أحكموها ، فإنهم منعوا أصحابنا من الخروج واحتـاطوا عليهم وعلى الأموال بحبسهم واعتقالهم ، ثم طلبـوا المال فجمعه السلطان وكمله، وأودعه خـزانته بعد مـاحصلـه ، وأحضر صليبهـم المطلـوب المسلـوب ، وأتـم شرطهـم المخطوب، فظهرت أمارات غدرهم ، وبدت دلائل مكرهم .

وفي كتـاب كتبه الفـاضل عـن السلطان الى شمـس الدولـة بن منقـذ

وهوبالمغرب في الرسالة :«لقـد تجاوزت عدة من قتل على عكا، يعنى من الفرنج، الخمسين الفـا، قولا لايطرقه التسمح ، بـل يحرزه التصفح فانبروا في هذه السنة ملكـا افرنسيس وانكلتيز وملـوك آخرون في مراكب بحـرية وحمالة حملـوا فيها الخيول والخيـالة والمقاتلـة والآلة ،ووصلت كـل سفينة تحمل كل مدينة،واحـدقت بالثغر فمنعت الناقل بالسـلاح اليه، والداخل بالميرة عليـه»ثم قال: «وأخذ البلـد على سلم كالحرب ،ودخله العـدو ولو لم يدخـل من البـاب دخل مـن النقب، ومـاوهنا لما أصـابه في سبيـل الله وماضعفنـا، ولا رجعنا ورا ءنـا ولا انصرفنا، بـل نحن بمكـاننا ننتظـر أن يبرزوا فنبارزهم ، ويخرجوا فنناجـزهم، وينشروا فنطويهم ، وينبثوا فنزويهم، واقمنا على طـرقهم ، وخيمنـا على مخنقهم، وأخـذنا بـأطراف خنـدقهم ، وأحوج مـاكنا الى النجدة البحـرية، والأساطيـل المغربيـة، فإن عاريتنـا به تـرد، وعـاديتنـا بها تشتـد، والامير يبلـغ مـابلغـه مـن خطـب الاسـلام وخطوبـه، ويقوم في البـلاغ يوم الجمعـة مقام خطيبـه ، ويعجل العـودة وقبلها الاجـابه، ويستصحب السهـم ويسبق ببشرى الاصابـه، ويشعر أن الرايـة قد رفعـت لنصر تقدّم بـه عرابـه، فإن لـلاسلام نظـرات الى الافق الغربي يقبلهـا ، وخطرات من اللطف الخفـي يقرّبها، ويكفي مـن حسن الظن أنها نظرة ردّت الهواء الشرقـي غربا، وخطرة أوهمت ان تلـك الهمة لو لم تلم بالسفائن لأخذت «كل سفينة غصبا».

قال العماد: وعـزم ملك الافـرنسيس على المسير الى بـلاده لأمر إختـل عليـه، فأخـذ قسما من الأسـارى وسلمهم إلى ا لمركيس ووكله في قبـض نصيبه، ورضي بتدبيره وترتيبه، وخرج الفـرنج يوم الخميس انسلاخ الشهر مـن جـانـب البحـر ، وانتشروا بالمرج ووصلـوا الى الآبـار التـي حفـرهـا اليـزك،وتواقعـوا مع اليـزك وأمدهـم السلطان ففلـوا العدو وصرع منهـم خمسون فارسا.

قال القـاضي :وخرج خلـق عظيم ولم يزل السيـف فيهم حتـى دخلوا

خنادقهم ، قال :ولم تزل الرسل تتردّد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب، فخرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني، ومعه اثنان من أصحاب الانكلتيز فأخبر أن ملك الافرنسيس صار إلى صور، وذكروا أشياء من تحرير أمر الأسارى، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت وشاهدوه وعظموه ورموا أنفسهم إلى الارض ، ومرّغوا وجوههم على التراب ، وخضعوا خضوعا عظيما لم ير مثله ، وذكروا أن الملوك قد أجابوا إلى أن يكون ماوقع عليه القرار يدفع في تروم ثلاثة، أي نجوم ، كل ترم شهر ، ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ماالتمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك الترم وهو الصليب ، ومائة ألف دينار وستمائة أسير، وأنفذوا نقباءهم وشاهدوا الجميع ماعدا الأسارى المعينين من جانبهم فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم، ولم يكملوهم حتى يحصلوا ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزمان حتى انقضى الترم الأول في ثامن عشر رجب ،ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك، فقال لهم السلطان :إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا وتتسلموا الذي عين لكم في هذا الترم، ونعطيكم رهائن على الباقي يصل اليكم في ترومكم الباقية، واما ان تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا، فقالوا :لانفعل شيئا من ذلك بل تسلمون مانقبضه بهذا الترم وتقنعون بأمانتنا حتى نسلم إليكم أصحابكم، فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى وأصحابنا عندهم لايؤمن غدرهم، فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مبرّزين في الحادي والعشرين الانكلتيز وجماعة من الخيالة والرجالة والتركبلي وركبوا في وقت العصر السابع والعشرين من رجب، وساروا حتى أتوا الى الآبار التي تحت تل العياضة ، ثم احضروا من الاسارى المسلمين من كتب الله شهادته، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الحبال ووقفوهم وحملوا عليهم حملة الرّجل الواحد، فقتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف رحمة الله عليهم ، واليزك الاسلامي

يشاهدهـم، ولايعلم ماذا يصنعون لبعـده عنهم، وكان اليزك قـد انفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب القوم ووقوفهـم ، فأنفذ إلى اليزك من قواه، وبعد أن فرغـوا منهم حمل المسلمون عليهم وجـرت بينهم حرب عظيمـة جرى فيهـا قتـل وجـرح مـن الجانبين ، ودام القتـال الى ان فصـل الليـل بين الطائفتين وأصبح المسلمون يكشفـون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم ، وعرفوا من عرفـوا منهم، وغشي المسلمين بذلك حزن عظيم، ولم يبقوا مـن المسلمين إلّا رجلا معـروفا مقـدما أو قـويا أعـدّ للعمل في عمائرهـم.

قـال العماد: وطلب السلطـان منهـم أن يضمنهـم الداويـة في قبـض المال،فقال الداوية : ماندخل في الضمان ، فـاقنعوا منهم بالقول والأمان، فظهـر مـن فحـوى كـلامهـم الخلـف، ثـم ذكـر قتـل الاسـارى ، قـال: فشاهدناهـم مستشهدين بالعرا عرايا مجردين، ولاشـك أن الله كساهم من سندس النعيم ، ونقلهم إلى دار المقامـة في العز المقيم، وتصرف السلطان حينئـذ في المال، وفـرّق مجمـوعـه في رجاء الـرجـال، وأعـاد الاسـارى إلى أربابها،واحتوت عليها بدمشق أيـدي أصحابها، وحفظ الصليب السليب وردّه الى مكـانه وأعـاده الى صـوانـه لا لعزه بـل لهوانـه، فـإنه لامصـاب عندهم أعظـم مـن استيلائنا عليه،وامتداد ايدينا اليه، وقـد بذل فيه الروم ثم الكـرج بذولا، وانفذوا بعد رسـول رسولا، فما وجدوا قبولا، ولا صـادفوا سولا.

ومـن كتاب عمادي عـن السلطان في ذلـك:« وللكرام آجـال، والحرب سجـال، ولله مـن المؤمنين رجـال، والآن فقـد ثـارت الحميـات، وهبـت النخـوات، ووجب على كـل مسلم ان ينهـض لنصرة الاسلام، ويتـدارك ماحـدث من الكسر والوهـن، بالجبر والاحكام ويعيـد ما وهى مـن عقد الفتـوح الى النظام، فـأين ذوو الأنفـة والحمية، والهمـم العليه، والنفـوس الأبيـة، أما يغتنمـون لمصرع مـن استشهد مـن أخـوانهم، أمـا يثورون لثـأر

-٨٨١٣-

ايمانهم،أما تبكي العيون لمن قتل من أماثلهم وأعيانهم، فإن مصابهم عظيم، ومقامهم عند ربهم الكريم كريم، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الرّاقدة واثارة العزائم الراكدة».

فصل

فيما جرى بعد انفصال أمر عكا

قال العماد: ثم ان الفرنج رحلت صوب عسقلان مستهل شعبان، وسار السلطان في عراضهم، والمسلمون يخطفونهم ويقتلون منهم ويأسرون ويجرحون ويسلبون ويسرقون ، وكل أسير أتي به السلطان أمر بقتله، ووصلوا الى حيفا فأقاموا بها ونزل المسلمون بالقيمون وقدّم السلطان ثقله الى مجدل يابا وأضحى نازلاً على النهر الجاري الى قيسارية، وودع الفاضل السلطان وسار الى دمشق لأنها مدرج الوافدين من الأكابر ،والنواب بها ربما جبنوا عن إقامة الوظائف ، وكان الامر الفاضلي عندهم كالأمر السلطاني، فاذا استشاروه خلصوا من كل تبعة ودرك ،وفي تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألبوا وهم يسيرون في الساحل بالفارس والرّاجل، وعن يمينهم البحر ، وعن يسارهم الرّمل، وكانت الرّجالة حولهم كالسور وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة ،بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون،وهم يرمون بالزنبورك فتجرح خيول المسلمين وغيرهم.

قال القاضي: ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة وهويسير على هيئته من غير انزعاج ، وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فإذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثختهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح، واستراح القسم العمال، هذا والخيالة في وسطهم لايخرجون عن الرّجالة إلا في وقت الحملة لاغير، وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام الاوّل الملك العتيق كي وجماعة الساحلية معه في المقدمة والانكلتيز والفرنسيسية معه في الوسط، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة اخرى في الساقة، وفي وسط القوم برج على عجلة،وعلمهم على ماوصفته من قبل يسير أيضا في وسطهم

على عجلة كالمنارة العظيمة، وساروا على هذا المثال ، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب ، ويحرّكون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ويقطعون الطريق على هذا الوضع، ويسيرون سيرا رفيقا ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل فنزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة، فإن المستريحين كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم.

قال: فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان ولانفع ،وطاف الجيش حولهم من كل جانب ولزوهم بالنشاب، وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه، وهم يحفظ بعضهم بعضا، والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب، ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين الجاليشية ونشاب القوم يتجاوزه ، وليس معه الا صبيان بجنبيتين لاغير، وهو يسير من طلب الى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم، والصياح بالتهليل والتكبير يرتفع ، والعدو على أتم ثبات ترتيبهم لايتغيرون ولا ينزعجون ، وجرت حملات كثيرة ، ورجالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك والنشاب إلى أن أتوا إلى نهر القصب، فنزلوا عليه، وقد قام قائم الظهيرة ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم فانهم كانوا إذا نزلوا أيس الناس من أمر يتم معهم ، وفي ذلك اليوم قتل من فرسان المسلمين وشجعانهم إياز الطويل وهو من مماليك السلطان وكان قد فتك بهم ، وقتل خلقا من خيالتهم وشجعانهم ، وكان قد استفاضت شجاعته بين العسكرين بحيث أنه جرت له وقعات كثيرة صدّقت أخبار الاوائل ، وصار بحيث أنه إذا عرفه الفرنج في موضع يخافون منه، فاتفق أن تقنطر به فرسه فاستشهد في ذلك اليوم ، ودفن على تل مشرف على البركة وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما، وقتل عليه مملوك له، ونزل السلطان بالثقل على البركة وهو موضع يجتمع فيه مياه كثيرة، ثم رحل بعد العصر وأتى نهر القصب، فنزل عليه أيضا، فكنا

نشرب من أعلاه والعدو يشرب من أسفله، ليس بيننا إلامسافة يسيرة ، وبات الفريقان هناك.

قال العماد :وكانت نوبة اليزك لعز الدين ابراهيم بن المقدّم في الساقه، وكانت الفرنج قد انست بانقضاء الحرب فخرج منها جماعة مسترسلين ، وتقدّمواعلى البركة مشرفين، فبصرهم ابن المقدم، فعبر اليهم من ورائهم هو ومن معه النهر ولم يأخذوا من خلفهم الحذر، ففجأهم وفجعهم ، وفرغ من شغلهم قبل ان يدركهم الصريخ وسلبهم وغنمهم ، ثم نهض الفرنج اليه، وحملوا عليه وجرت وقعة شديدة لحزب الضلال مبيدة ، جلبت لنا غنيمة ، وعليهم هزيمة، وأحضر الأسارى عند السلطان بحزام الذل والهوان، فأخبروا أنهم جرح منهم بالأمس ألف، وسرى فيهم وهن وضعف.

ثم رحل السلطان وعبر شعراء أرسوف، ونزل على قرية تعرف بدير الراهب، وطلب ملك الانكلتيز الاجتماع بالملك العادل خلوة فاجتمعا، فاشار بالصلح وكان حاصل كلامه أنه طال بيننا القتال ونحن جئنا في نصرة افرنج الساحل، فاصطلحوا انتم وهم وكل منا يرجع إلى مكانه، فقال: على ماذا يكون الصلح؟ قال: على أن يسلم إلى أهل الساحل ماأخذ منهم من البلاد، فأبى الملك العادل، وأخبره أن دون ذلك قتل كل فارس وراجل، فرجع مغضبا.

وفي يوم السبت رابع عشر رمضان كانت وقعة أرسوف تأهب المسلمون للقائهم ، فأزعجوهم وأبلوهم ببلائهم ، فلما رأى العدو ما هو فيه من الضيقة احتموا وحملوا حملة واحدة فانكشف من كان قدامهم، واندفعوا وثبت ذلك اليوم العادل وأصحابه وقايماز النجمي، وعسكر الموصل ، ثم كرت العساكر كرا إليهم، وجرت النوائب عليهم ، فجرت بين الفئتين مقتلة عظيمة ، فلجأوا إلى جدران أرسوف ،ولولا ذلك

لاستوعبت فيهم الحتوف، فنزل السلطان على نهر العوجا ورحل العدو الى يافا فنزلوها ، والمسلمون على العادة في عراضهم، مقيمة على تبديد جموعهم واعتراضهم ، وقتل يوم أرسوف لهم كند كبير تحت حكمه من الفرنج عدد كثير، وكان من عظم شأنه وفخامة مكانه انه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين، فما قتل حتى قتلوا، ولا بذل حتى بذلوا روحهم .

قال القاضي ابن شدّاد: رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة وأخذوا رماحهم،وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفرج لهم رجالتهم، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فاندفع الناس بين أيديهم ولم يبق في طلب السلطان إلاّ سبعة عشر مقاتلا ، والأعلام باقية والكؤوس تدق لاتفتر، فلما رأى السلطان مانزل بالمسلمين سار حتى أتى طلبه فوقف فيه، والناس يفرون من الجوانب وكلما رأى فاراً يأمر من يحضره عنده فاجتمع في الطلب خلق عظيم، ووقف العدو قبالتهم على رؤوس التلول والروابي، وخاف العدو أن يكون في الشعراء كمين ،وثابت العساكر كلها، فتراجع العدو إلى منزلته ، وجلس السلطان ينتظر الناس من العود من السقي والجرحى يحضرون بين يديه،وهو يتقدم بمداواتهم وحملهم وقتل رجالة كثيرة وجرح جماعةمن الطائفتين ، وصدم الملك الأفضل وانفتح دمل كان في وجهه، وسال منه دم كثير على وجهه، وهو صابر محتسب في ذلك كله، وقتل من العدو جماعة وأسر واحد وأحضر فأمر بضرب عنقه.

وفي بعض الكتب السلطانية:«سار العدو من عكا على قصد عسقلان، وسقنا لمعارضتهم في كل طريق ، ومضايقتهم في كل مضيق، ومنازلتهم في كل منزل ، ومدافعتهم في كل منهل، وهم يسيرون البحر البحر لايفارقون ساحله، ولا يتجاوزون مراحله، والمواضع مضائق ، وشعراء ورمال ،وما للقتال فيها مجال، وماوجدنا فسحة إلا وضايقناهم

فيها، وأخذنـا عليهم في نواحيها، ومـن جملة أيامنا المشهـودة، ومواسمنا المعروفـة المحمودة يوم الاثنين تـاسع شعبان عنـد رحيلهم من قيسـارية» فذكر الـواقعة السابقة وفيها « أنـه نفق ألف رأس»، ثم ذكـر يوم أرسوف وحسـن عاقبتـه للمؤمنين بعـد اليأس، ثـم رحل السلطـان تاسـع عشر شعبان ونزل بالـرملة ، واجتمعت الاثقال بها في تلك الرحلـة، ورحل ليلا واصبح على يبنا وجـاوزها إلى نهر أمر أن الخيام عليه تبنـى، قال :وزرنا بيبنا قبر أبي هريرة رضوان الله عليه ،وتبادر الناس بالتيمن به إليه.

قلت: اعتمـد العماد في هذا على مـا اشتهر بين العامـة من ذلـك ،وأما اهـل العلم المصنفـون في أخبار الصحـابـة رضي الله عنهم، كـابن سعـد وغيره، فذكروا أن أبا هريرة توفي بـالمدينة، ولم يذكروا غيره على ماذكرناه في ترجمته في التاريخ والله اعلم.

قال العماد: ورحل السلطان ، ونزل بظـاهر عسقلان بعد العصر، وشرع فيما عزم عليـه من الأمر، وكـان لما نزل بالـرملة أحضر عنده أخـاه العادل وأكابر الأمـراء ، وشاور في أمر عسقلان ذوي الآراء ، فأشار علـم الدين سليمان بن جندر بخـرابها، للعجز عن حفظها على مـابها، ووافقه الجماعة وقـالوا: قـد ضاق عـن صـونها الاستطاعـة، فإن هـذه يـافا قـد نزلـوا بها وسكنوا فيهـا، وهي مدينة بين القـدس وعسقلان متوسطـة ، ولاسبيل الى حفظ المدينتين، فـاعمد إلى أشرف الموضعين فحصنـه وحكمه، فـاقتضت الآراء اقـامة العـادل بقـرب يافـا مـع عشرة مـن الأمراء ، حتـى إذا تحرك العدو كانوا منه على علم.

قال القـاضي: أشار عليـه بتخريب عسقـلان خشية أن يستـولى عليها الفرنج، وهـي عامرة فيتلقفوا من بها من المسلمين ، ويـأخذوا بها القدس الشريـف، ويقطعوا طريق مصر، وخشي السلطـان من ذلك ، وعلم عجز المسلمين عـن حفظها لقـرب عهدهـم من عكـا وماجـرى على من كـان

مقيما بها، فسار حتى أتى عسقلان ، وقد ضربت خيمته شماليها ، فبات هناك مهموما بسبب خراب عسقلان ومانام تلك الليلة إلّا قليلا ، ولقد دعاني إلى خدمته سحرا وكنت فارقته بعد مضي نصف الليل ، فحضرت وبدأ بالحديث في معنى خرابها، وأحضر ولده الأفضل وشاوره في ذلك وطال الحديث ، ولقد قال رحمه الله:والله لأن افقد أولادي بأسرهم أحب الي من أن أهدم منها حجرا واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك ، وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقا، فكيف أصنع؟ قال : ثم استخار الله تعالى فأوقع في نفسه ان المصلحة في خرابها فاستحضر الوالي، وأمره بذلك في تاسع عشر شعبان، ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب ، وقسم السور على الناس، وجعل لكل أمير طائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجاً معلوما يخربونه ، ودخل الناس الى البلد ،ووقع فيه الضجيج والبكاء ، وكان بلد نضرا خفيفا على القلب، محكم الأسوار عظيم البناء مرغوبا في سكناه ، فلحق الناس عليه حزن عظيم ، وكان هو بنفسه وولده الأفضل يستعملان الناس في الخراب خشية أن يسمع العدو فيحضر، ولايمكن من خرابها وأباح الناس الهري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله، وضيق الوقت والخوف من هجوم الفرنج ، وامر بحريق البلد ، فأضرمت النار فيه والاخبار تتواتر من جانب العدوبعمارة يافا ،وخرب من سور عسقلان معظمه، وكان عظيم البناء بحيث أنه كان في موضع تسعة أذرع وفي موضع عشرا ، وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر أن عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح،فلم يزل الخراب والحريق يعملان في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان ، وعند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه أن القوم قد تفسحوا ،وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها،فلو تحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضا في غرتهم،فعزم على الرحيل وعلى أن يخلف في عسقلان حجارين، ومعهم خيل تحميهم يستقصون في الخراب، ثم رأى ان يتأخر بحيث يحرق

البرج المعروف بـالاسبتار ، وكـان برجـاعظيما مشرفا على البحـر كالقلعـة المنيعة، ولقد دخلته وطفتـه ، فرأيت بناءه أحكم بناء لاتعمـل فيه المعاول وإنما أحرق ليبقى بالحريق قابلا للخـراب، وبقيت النار تشعل فيه يومين بليلتيهما .

قال العماد: ونقـض منها الابـراج التي على سـاحل البحـر ، ودخلتها فرأيتها أحسن مـدينة ، منيعة حصينة ، فطال بكائي على رسـومها، وفض ختومهـا، وقبض ارواحهـا من جسومهـا، وحلول الـدوائر بدورهـا، ونزول السـوء بسـورهـا، فما بـرح السلطـان منهـا حتـى رأينـا طلـولها دوارس، ورسـومها طـوامس، والـرؤوس حياء مـن معـاهدهـا نواكـس، قال: ولـو حفظت لكـان حفظها متعينا وصـونها ممكنا، لكـن وجد كلا لـه متجنبا، متجببا، وقد راعتهـم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين ، وعـادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال مـن تعلل واعتذر عـن دخولها: تدخلهـا أنت أو أحـد أولادك فنـدخلهـا إتبـاعا لمرادك ، فحينئـذ لم يجد بـدا مـن نقـض أسوارهـا، وفض سوارهـا، وسكانها كانوا في رفـاهية ، فانتقلـوا عنها على كـراهية، وبـاعـوا أنفـس الأعلاق بـأبخـس الاثمان ، وفجعـوا بالأوطـار والأوطان.

فصل

فيما جرى بعد خراب عسقلان

قال العماد: فارقها السلطان يوم الثلاثاء ثاني رمضان ، ونزل على يبنا، ونزل بالرملة يوم الاربعاء وأمر بتخريب حصنها، وتخريب كنيسة لدّ، وركب جريدة إلى القدس فأتاه يوم الخميس، وأعاد إليه رسوم التأنيس ، وخرج منه يوم الاثنين ثامن رمضان ، وبات في بيت نوبة وعاد إلى المخيم يوم الثلاثاء، ووصل معز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن قليج أرسلان وافدا عليه منتصرا به على أبيه وأخوته ، فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده من يده، فأقام في الخدمة السلطانية مدة ،وتزوّج بابنة العادل على صداق مائة ألف دينار ، وسار مستهل ذي القعدة ، وفي ثامن الشهر أيضا خرج الكمين على ملك الانكلتيز وكان خرج في فوارسه مخفراً للحطابة والحشاشه، وكاد يؤخذ الملك ، لكن أحد خواصه فداه بنفسه، بأن أظهر حسن لباسه ، فظن انه الملك فأسر .

وقال ابن شدّاد: حال بينه وبينهم فرنجي فقتل الفرنجي وجرح هو ، وفي ثاني عشره جرت أيضا وقعة كان النصر فيها للمسلمين ، وقتل مقدّم كبير من المشركين ، ومازال يقع بينهم وبين اليزك وقعات ،وتسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم.

ومن كتاب الى صاحب سنجار:"قد تقدم الإعلام بما جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان ، وما تم عليه منا في طريقه من النكاية والخذلان، وانه قطع في سبعة عشر يوما مسافة يومين لما لابسه وغامره من الحين ، وماصدّق كيف وصل إلى يافا فأظهر بها الاستيطان، وأقام بها يعمر المكان، وهذه مدينة يافا متوسطة بين القدس وعسقلان ، ومنها الى كل واحدة منهما مسافة نصف نهار، وكلتاهما من العدو على خوف

وحذار ، وكل واحد من الموضعين يحتاج في تحصينه إلى ثلاثين ألف مقاتل، وتعذر الجمع بين حفظ الثغرين ، وتحصين البلدين، وتعينت في تخريب عسقلان عمارة القدس وتحصينه، وعصمته من العدّو وتأمينه».

ثم رحل السلطان إلى النطرون، وخيم على تل عال، والنطرون حصن حصين كان للداوية،لكن لما فتح تشعثت أسواره،وانقض جداره، فأمر بهدمه فهدم، ثم بعث ملك الانكلتيز راغبا في المصالحة والمسالمة إلى العادل ، وزعم أن له أختا عزيزة عليه، كبيرة القدر، وأنها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم، وهو صاحب صقلية ، توفي عنها ورغب أن يتزوجها العادل، ويجعل له الحكم على بلاد الساحل ينفذ أمره فيها،وهو يقطع الداوية والاسبتار من البلاد والقرى دون الحصون ، وتكون اخته مقيمة بالقدس ومعها فيه قسيسون ورهبان، حافظة لها من آفة الزمان، فرأى العادل في ذلك عين الصواب ، وشاور السلطان فوافقه فيما أجاب، فنفذ الرسول إلى الانكلتيز بالاجابة ، فدخل الفرنج على المرأة وخوّفوها، واتهموها في دينها وعنفوها،وقالوا لها مامعناه: هذه فضيحة فظيعة، وسبة شنيعة، وقطع على النصرانية وقطيعة ، وأنت عاصية للمسيح لامطيعة، فرجعت عن ذلك وما أجابت، فاعتذر الانكلتيز بعدم موافقتها إلا ان يدخل العادل في دينها، فعرف أنها خديعة كانت من الانكلتيز .

قال القاضي: ووصل رسول من المركيس يذكر أنه يصالح الاسلام بشرط أن يعطى صيداوبيروت على أن يجاهر الفرنج بالعداوة ، ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم، فأجيب إلى ذلك على أن يطلق من بها وبصور من الاسارى ، ولما سمع الانكلتيز بذلك رجع إلى عكا لفسخ هذه المصالحة، واسترجاع المركيس إليه، وجاء الخبر أن ملك الافرنسيس مات بأنطاكية.

ووصل كتـاب من تقي الـدين يخبر فيه أن قـزل صاحب ديـار العجم ابن ألدكز قتل ، وجرى بسبب قتله في بلاد العجم خطب عظيم.

قـال العماد : وكـان محتقـراً للعظـائم ، مقترفـا للمآثـم واضعـا للشرب والقصـف والمواسـم، وقتـــل بـاصفهـان عشرة مـن رؤســاء الشـافعيـة المعروفين، وكبرائهم الموصوفين .

ووصل من الديوان كتاب يذكر فيـه قصد تقي الدين خلاط ، ويظهر فيه العناية التامة ببكتمر، ويشفع في حسن بن قفجاق ، ويتقدم باطلاقه، وكان قد قبض عليه مظفر الديـن بإربل، ويتقدّم بمسير القاضي الفاضل الى الديـوان لبت حال، وفصل أمـر ، فأجاب السلطـان بأنا لم نأمـر تقي الديـن بشيء من ذلك ، وإنما عبر ليجمـع العساكر ، ويعـود الى الجهاد، وأمـا ابن قفجـاق فقد تقـدم إلى مظفـر الديـن حتى نحضره إلى الشـام، فيقطعه فيه، ويكون مـلازما للجهاد ، وأما الفاضل فاعتـذر عنه بأنه كثير الامراض، قوته تضعف عن الحركة إلى العراق.

قلـت: وبلغني أن الفـاضل رحمة الله كتـب في الاعتـذار بالحضـور الى الديوان ، وتمثل في كتابه بهذين البيتين:

مـــــاكنـــــت أوّل ســـــار غـــــره قمـــــر
ورائد خـــــدعتـــــه خضرة الـــــدمـــــن

مثـــــل لنفســـــك شخصي انـنـــــي رجـــــل
مثـــــل المعيـــــدي فـــــاسمـــــع بي ولا تـــــرني

قال القاضي: وأرسـل الانكلتيز إلى السلطان إن المسلمين والفرنـج قد هلكـوا، وخربـت البلاد وتلفـت الأمـوال والأرواح، وقد أخـذ هذا الأمـر حقه، وليـس هناك حـديث سوى القـدس والصليب والبـلاد، والقدس متعبدنـا مانتزل عنـه ولو لم يبق منـا واحد، وأما البـلاد فيعاد إلينا مـا هو قاطـع الأردن، وأما الصليب فهـو خشبة عندكم لامقـدار له، وهو عنـدنا

عظيـم ، فيمن بـه السلطان علينـا ، ونستريـح من هـذا العناء الـدائم، فارسل السلطان في جـوابه: القدس لنا كما هو لكم ، وهـو عندنا أعظم مما هـو عندكم ، فـانه مسرى نبينا ومجتمـع الملائكة، فلا يتصـور أن ننزل عنه ولانقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين،وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل واستيـلاؤكم كان طارئا عليهـا لضعف من كان بها مـن المسلمن في ذلك الـوقت ، وأمـا الصليب فهـلاكه عنـدنا قـربة عظيمـة لايجوز أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام هي أوفى منها.

وهرب شيركـوه بن بـاخل الكـردي من عكـا ، وكان أسيرا بها ،وكـان ادّخر حبـلا في مخدته فتدلى مـن طاقة في بيـت الطهارة ، واشتد هـربا في قيوده إلى تل العيـاضية ، فكمن في الجبل وقد طلع عليـه النهار، ثم كسر قيوده وسـار إلى المسلمين ، ثم تواتـر الخبر أن الفرنج على عـزم النهوض، فسـار السلطـان من المخيـم بـالنطـرون إلى الـرملـة سابـع شـوّال،وأقـام بهاعشرين يوما، فجرت وقعات ،تمت دفعـات ،منها وقعة في نـاحية يازور، وكـان النصر فيها للمسلمين ، وفقـد مـن المسلمين ثلاثـة ،وذلـك ثامـن شـوّال ، وفي ســادس عشر شـوّال وقعـت وقعــة أخـرى عظيمــة قتـل فيهاجماعـة من الامراء، وأسر فـارسان من الكفرة معـروفان بالبـأس سوى غيرهما، وقتل منهم زهاء ستين نفر.

وفي خـامــس شـوّال وصـل الخبر أن الاسطــول المصري استـولى على مراكـب الفرنـج ، ومنها مركـب يعرف بـاسم المسطح قيـل انه كـان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك ،وانـه قتل منهم خلق عظيـم واستبقى منهم أربعة نفر مذكورون .

وفي ثـامن عشر شـوّال اجتمـع الملـك العادل والانكلتيـز على طعـام ومحادثة وانفصلا عن توادد ومطايبـة ،وطلب منه الاجتماع بخدمةالسلطان فـامتنع رحمه الله وقـال: الملوك إذا اجتمعـوا يقبـح بينهم المخـاصمة بعـد

ذلك ، وإذا انتظم امر حسن الاجتماع ، ورحل الفرنج ثالث ذي القعدة إلى الرملة، وأظهروا قصد القدس بتلك الرّحلة ، ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم ، ورحل السلطان إلى القدس بنيةالمقام في الثالث والعشرين من ذي القعدة ،وكان الشتاء قد دخل ، والغيث قد اتصل، فوصل إلى القدس وقت العصر ونزل بدار الاقساء مجاورة كنيسة قمامة، وفي ثالث ذي الحجة وصل عسكر من مصر بأموال ورجال مع أبي الهيجاء السمين ، وتحول الفرنج إلى النطرون فقوى السلطان اليزك فوقعوا على سرية فغنموها ، وسيق منهم الى القدس نيف وخمسون أسير سوى من قتل منهم ، وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شيرز يوم عيد الأضحى، فنحر منهم وضحى، واحتوى على عشرة من مقدميهم أسرا وقتلا ، وتسلق باقي الفرنج في الجبال وتركواخيلهم ، فغنمها المسلمون، ولم يزل المسلمون عليهم مستظهرين مدّة مقامهم بالنطرون وجعل المسلمون يقطعون الطريق على تجارهم حتى أنهم أخذوا قافلة ثقيلة بمن فيها ولم يقدروا على تخليصها فرحلوا عائدين الى الرّملة في الثاني والعشرين من ذي الحجة ، وفي ذلك اليوم وصل من الموصل خمسون رجلا برسم قطع الصخور من الخندق ، فان السلطان شرع في تحصين القدس وعمارة أسواره ، وتقبل الامراء فيه العمل، وعمل فيه السلطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده ،ومعهم القضاة والعلماء، والولاة .

قلت: في قصد الفرنج للسلطان بالقدس يقول الرشيد بن النابلسي من جملة قصيدة له:

ويح الفرنجة بل ويل أمهم
أوما فيهم لبيب على العلات يعتبر
كم نثرتهم ضربا اذ انتظموا
وكم نظمتهم طعنا اذ انتثروا

كــــم قـــــد سقيتهـــــم ذلا فـــــلا عجــــب
أن عـــربـــدوا سفهـــاً فـــالقـــوم قـــد سكـــروا
إن يممــــوك فـــــلا بــــدع لجهلهـــــم
تسعـــى إلى الاســـد في غـــابـــاتها الحمـــر
زاروا نمــــوراً ولا تغنـــي وقـــاحتهـــم
إذا أســـــودك في أبطـــــالهم زأروا
فحـــام عـــن حـــوطـــة البيـــت المقـــدس لا
خـــوف وحـــاشـــاك مـــن خـــوف ولا ضرر
هـــو الشريـــف وقـــد نـــاداك معتصماً
فما على مجده مـــن بعـــدهـــا حـــذر
وســــوف تستغفـــر الايـــام هفـــوتها
وتحصـــد الفئـــة الاوغـــاد مـــا بـــذروا

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: في ربيع الأول منها تولى القاضي محيي الدين محمد بن الزكي قضاء دمشق،وفيها يوم الجمعة تاسع عشر رمضان كانت وفاة تقي الدين عمر ابن أخي السلطان وراء الفرات ، وكان قد امتدت عينه الى بلاد غيره، فاستولى على السويدا، وعلى مدينة حاني، وعزم على قصد خلاط وكسر صاحبها سيف الدين بكتمر، وتملك معظم تلك البلاد، ثم اناخ على مناز كرد يحاصرها ومعه عساكر كثيرة ، فأناخت بجسده المنية بسبب مرض اعتراه وزاد إلى أن بلغ منه المراد، وأخفى ولده الملك المنصور وفاته، ورحل عن البلد المحصور وفاته، وعاد به إلى البلاد التي في يده ، وعجب الناس من حزمه وعزمه وثباته وجلده، وجاءت رسله إلى السلطان تخبره بأنه قام مقام والده فيما كان له من البلدان وطلب منه شروطا نسبه بسببها الى العصيان ، وكاد أمره يضطرب، وقلبه يكتئب ، وشأنه ينعكس وينقلب ، حتى احتمى بالملك العادل فنصره وأظهره الى الوجود وأظهره.

وقال القاضي ابن شداد: كانت وفاته في طريق خلاط عائدا إلى ميافارقين، فحمل ميتا حتى وصل به إلى ميارفين، ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماه، وحمل إليها فدفن بها.

قال العماد: وفيها توفي ابن اخت السلطان حسام الدين محمد بن عمر ابن لاجين بدمشق، ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان ،ففجع السلطان بابن اخيه وابن اخته في تاريخ واحد،وكانا من أعظم الأعوان على مايكابده من الشدائد..

قلت ودفن بالتربة الحسامية المنسوبة اليه من بناء والدته ست الشام بنت أيوب، وهي المدرسة الشامية ظاهر دمشق بالعوينة.

قال: وفيها في أواخر ذي الحجة توفي الامير علم الدين سليمان بن جندر من أكابر أمراء حلب ، وكان في خدمة السلطان بالقدس وهو شيخ الدولة وكبيرها وظهيرها ومشيرها، وهو الذي أشار بتخريب عسقلان لتتوفر الحناية والأهتمام بالقدس، ثم مرض بالقدس و طلب المسير الى الوطن فأدركته المنية بقرية غباغب على مرحلة دمشق ، وفيها في الثالث من رجب كانت وفاة الصفي بن القابض نائب السلطان بدمشق ، وكان قد خدم السلطان أيام عدمه، وهو في كفالة أبيه وعمه، فلما ملك مصر أمرحه في أموالها، وحكمه في أعمالها، حتى نال المنى، ووجه ونجح وحصل على الغنى وكتب لماليكه دوره وأملاكه وجميع أمواله، وفيها توفي نسيب العماد وهو جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبيد بن كوبه سابع عشر ذي الحجة بدمشق.

قال العماد: وكنت استنبته في كتابة الإنشاء وخرّجته ، وقلبته في مراتب المعالي ودرّجته، واعتمد السلطان عليه في الترسل الى السلاطين العجم،وخواص الأمراء منهم والخدم ،وكان نبيلا نبيها كريما وجيها. وفيها توفي الحكيم الموفق اسعد بن المطران في شهر ربيع الاول، وكان من أهل النظافة والظرافة، ومن ذوي الفصاحة والحصافة ، وفقه الله في بدايته لهداية الاسلام ، ونال أسباب الاحترام، وتقدم عند السلطان ، وما شانه كبر وهو كبير الشان، وفي أواخر هذه السنةتوفي الشيخ الفقيه نجم الدين الخبوشاني بمصر، وهو الذي عمر تربة الامام الشافعي رضوان الله عليه، وبنى المدرسة في جوارها ،واحيا شعار التوحيد، وبنى أمره على التسديد والتشديد، وحفظ شمل الشافعية من التبديد، وكان السلطان مجيبا له الى كل مايستدعيه، ويقضي له من الحوائج مايقتضيه، ووقف على المدرسة التي بناها وقوفا، وأعطاه في بنائها ألوفا، فلما توفي

الخبوشاني طلب المدرسة جماعة مـن العلماءفردوا ، وشفع العادل في صدر الديـن أبي الحسن محمد بـن حمويه شيـخ الشيوخ، فكتب بها لـه، ورتب بوقفهـا وتدريسها استقلالـه، وذلك في أواخر سنـة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة، وتبدّلت بالوحشة الأنسه.

قلت :ثم استقرت عليها يد أولاده واحداً بعد واحد إلى الآن.

قال :وفيهـا توفي الوجيـه بن النفيـس مستوفي ديوان دمشـق بها، وكان نبيها مهيبا نزهـا عارفا مصيبا ، وفيها توفي القاضي أمين الديـن أبوالقاسم بحماه في حادي عشر رمضان، وكان كريما سخيا نابها سريا.

وفيها: نقلـت تربة القاضي محيـي الدين أبي حـامد محمد بن محمـد بن عبد الله بـن القاسم الشهـرزوري إلى المدينة النبـوية على ساكنهـا أفضل الصلاة والسـلام،وكان قاضي الموصـل ، وقد بنى ربـاطا هناك ، وكـانت وفاته بـالموصل في الثامن والعشرين مـن جمادى الاولى سنةست وثمانين ، وقد تقدم ذلك وسأل ابن اخيه القـاضي بعده كتابا إلى أمير المدينة فكتب له كتاب منه:«سبب اصدارهـا الى الامير مسير نائب القاضي كمال الدين بصريـح اذن عمه محيـي الـدين مـن الموصـل الى المدينـة المقدّسـة ، على ساكنهـا أفضل السـلام ليدفـن في الربـاط الذي أنشـأه حيث يبعث مع شفيع الامة يـوم البعث والنشور، ويأمن ظلام اللحـد المحفور ، في جوار الضياء والنـور ،ويحشر بما يناله مـن البركة والحبـور ، منشرح الصدر(اذا بعثر مـافي القبور * وحصل مـافي الصدور)(١٢٨) ، ولقد وفـق في اختياره ايام حياته نقله إلى ذلك البيت المعمور ، فليعن الأمير على هذه المكرمة ، وليعتز بمواراته في التربة المجاورة للبقعـة المعظمة ». قا ل: وكان القاضي حزقا جواداً لبذل اللهى معتـادا ، واسع المروة جامع اسباب الفتوة ، يحب معالي الامور، فضائله متجاوزة حد الوفور.

قال ابـن القادسي: ووصل الحاج في صفـر بعدمـا اعتاقت اخبـارهم ، وأخبروا أن داود أمير مكة أخذ مـا في الكعبة من أموال، وأخذ طـوقا كان يلزم الحجر الاسود فـأوجب ذلك لشعثه ، وكان قد دخـل بعض الباطنية بعد سنـة أربعمائة فضربه بـدبوس ، وقـال: إلى كم حجـر، وفي يد ذلـك الرجل سيف، فما تجاسر أحد يقرب منه، فتطوّع رجل وبذل نفسه للقتل ، وتقدم اليه فقتله، فـأخذ الحجر وجمعت شظاياه، وألفت وجعل له طوق، فأخـذ أمير مكةذلك الطـوق، فلما وصل أمير الحاج عـزل داود وولى أخاه مكثرا، ونقض قلعة كان بناهـا على جبل أبي قبيس ، وهو داود بن عيسى ابن فليته بن قـاسم بن محمد بن أبيٰ هاشـم الحسني، ولما صرف عن مكة أقام بنخلة وتـوفي بها في رجب سنة تسع وثمانين ، وهـو أمير بن أمير إلى آخر من ذكرنا من آبائه وهم به ستة نفر.

قـال ابـن الاثير: وفي ربيع الأوّل سنـةسبـع وثمانين سـار عز الـديـن —يعنى صاحـب الموصل— إلى جزيرة ابن عمر فحصرهـا وبها ابن اخيه معز الـدين سنجـر شاه، لأنه كـان سيء السيرة معه خارجـا عن طـاعته مسـاعدا لـلأعـداء عليه، فعـزم على أخـذها منـه فخضـع وطلب العفـو والصفح ، فأجابه وصالحة على قـاعدة استقرت بينهما ، وعاد إلى الموصل، فعاد سنجر شاه إلى حالته الأولى ،فتجاوز عنه واطرحه.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

قال العماد: والسلطان مقيم بالقدس ، وقسم سور البلد على أولاده وأخيه و أجناده ، فشرعوا في إنشاء سور جديد محدق مديد، وكان يركب كل يوم وينقل الصخر على قربوس سرجه، فيستن الأكابر والأمراء في نقل الحجارة بنهجه ،ولو رأيته وهو يحمل حجراً في حجره ،لعلمت أن له قلبا قد حمل جبلا في فكره، ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور، وانشرح صدره حتى باشر صدور مماليكه بها الصدور، وماتغلو دار يبنيها في الجنة بنقل حجارتها، ليكون ملكا في دارها وقمرا في دارتها ، وداوم البكور في الركوب ، وعرض وجهه الكريم للشحوب.

قال :وفي ثالث محرم رحل الفرنج على سمت عسقلان ، وأشاعوا أنهم يعيدون بها العمران، وهم نازلون بظاهرها ،جائلون في مواردها ومصادرها، فرأى الانكلتيز دخاناعلى بعد فقصد ه ، وكان ثم جماعة من الاسدية وسيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر ، وهم غارون عما دهمهم،فوصل اللعين إليهم وقت المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقين نازلين في موضعين ، فلما وقع على أحدهما ركب الفريق الثاني ودافعه حتى ركب الفريق الآخر فدافعوهم وواقعوهم ، وساقوا قدامهم أثقالهم وخلصوا ناجين ، وسلم الله أنفسهم من أيدي الملاعين، ولم يفقد المسلمين إلا أربعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها ،وهون ضررها.

وفي حادي عشر المحرّم كبس عز الدين جرديك يبنا إلى أن عبرت قوافل الفرنج ، فساقها بأحمالها وأثقالها ونسائها ورجالها.

وفي مستهل ربيع الاخر ، وصل سيف الدين المشطوب ، وقد خلص من الأسر ، وقطعت عليه الفرنج خمسين ألف دينار، عجل منها عشرين ألفا، وأعطاهم بالباقي رهائن ،فأحسن السلطان لقاءه وأقطعه نابلس بأعمالها ، فتوفي بها في آخر شوال .

وفي ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس لعنه الله بصور، وذلك أن رجلين دخلا صور وتنصرا ، وأظهرا الترهب والتعبد، ولزما الكنيسة وشكرهما الاقساء والرهبان ، واحبهما المركيس ،ولم يكن يصبر عنهما، ففي بعض الايام وثبا عليه وقتلاه، فأخذا وقتلا وعرف انهما كانا من الحشيشية، فجلس مكانه الكندهري بأمر الانكلتيز وسر الانكلتيز بمصاب المركيس، فإنه كان يضاده ويراسل السلطان في الاعانة عليه، فلما قتل سكن روعه وذهب عنه ضره، وتزوّج الكندهري بالملكة زوجة المركيس في ليلته، ودخل بها وهي حامل ، وما الحمل في ملة الفرنج عن النكاح حائل، ويكون الولد منسوبا الى الملكة ، هذه قاعدة الطائفة المشركة، وهذا الكندهري ابن اخت ملك افرنسيس من أبيه، وملك الانكلتيز من أمه، ودخل الفرنج في حكمه وعاش إلى آخر سنة أربع وتسعين ،وتولاهم دون سبع سنين .

وقال العماد في الفتح :أضافه الأسقف بصور فاستوفى رزقه، وتعدّى ومادرى أنه يتردّى ،وأكل وشرب وشبع وطرب، وخرج وركب ، فوثب عليه رجلان وسكنا حركته، بالسكاكين،ودكاه عند تلك الدكاكين، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة ، وقد أخرج تلك النفس الخسيسة، فقال المركيس وهو مجروح ،وفيه روح : احملوني الى الكنيسة فحملوه ، فلما أبصره أحد الجارحين وثب إليه وزاده جرحا على جرح، وقرحا على قرح، فأخذ الفرنج الرفيقين فألفوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين، فسألوهما من وضعهما على تدبير هذا التدمير ، فقالا: ملك الانكلتيز فقتلا شر قتلة فيا لله من كافرين سفكا دم كافر، وفاجرين فتكا بفاجر، قال: ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة وان كان من طواغيت الضلالة،لانه كان عدو ملك الانكلتيز ومنازعه على الملك والسرير ومنافسه على القليل والكثير.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج على قلعة الداروم، ثم خربوها،ورحلوا عنها واسروا من فيها،وكان الانكلتيز الملعون قد استفسد من نوبة عكا نقابين حلبيين ، فتمكنوا من نقب المتّان واحرقوا النقب ، وطلب أهل الحصن مهلة يشاورون فيها السلطان فلم يمهلهم ، وفي رابع عشرة خرجت اليزكية على الفرنج على قلعة تعرف بمجدل جناب —كذا قال في الفتح . وقال في البرق: بمجدل يابا وكذا قال ابن شدّاد — وقتل كند كبير ، ثم نزلوا تل الصافية ، ثم الى النطرون ، ثم الى بيت نوبة وهي وطأة بين جبال بينها وبين القدس مرحلة، وقد ألهبهم المسلمون بنهبهم وأضعفوهم بسلبهم ، يتسلطون عليهم من كل ناحية ، ويكمنون لهم تحت كل رابية ، وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان بالقدس ، وفي انسلاخ الشهر التقى الجمعان وقد وصل العدو الى قلونية، وهي من القدس على فرسخين ، فلما رأى العدو مالا يدان له به رجع ناكصا على عقبيه، والمسلمون في اثرهم يكمنون لهم وينالون منهم، وكان بدر الدين دلدرم في اليزك ، فبعث من كمن لهم عند طريق يافا، فمرّت بهم فوارس ، فاستولى عليهم الكمين وماسلم منهم أحد.

وفي ثالث جمادى الآخرة كبست الكمناء قافلة ، فكسبت وسلبت واسرت.

وفي تاسعه وصل الخبر بأن الفرنج رحلوا بأسرهم ليلا وادلجوا ، ولم نعلم قصدهم ، فعرف السلطان أنه إلى طريق العسكر المصري ، فندب الامير فخر الدين الطنبا العادلي وشمس الدين أسلم الناصري ، حتى يعلما العسكر فالتقيا بهم بالحسي واخبراهم الخبر فنزلوا وعرّسوا وهم يظنون أن لاحس للعدو بأرض الحسي ، فجاءهم وفجأهم فاستولى على بعض الأموال وخلص أكثرها مع الرجال، ومن جملة من كان في العسكر فلك الدين أخو العادل لأمه، فنجا بما قدر عليه من القوافل.

قال العماد :وجرى هذاكله والملكان العـادل والافضل غائبان وعساكر الموصل وسنجـار وديار بكـر متباطئة في الاتيـان، وسببه مـاكان مـن تقي الـدين ومـوته، وتشرط ولـده في بقاء بـلاد أبيه عليـه، وان الافضل كـان طلب من والده البـلاد قاطع الفرات، ونزل عن جميع مالـه من الولايات، وأنه إذا عبر إلى الرها وحران ، ملك تلـك البلدان ،ورحل من القدس في ثالـث صفر، وأطلـق له السلطـان عشرين ألـف دينار سـوى مااصحبـه بـرسـم الخلع والتشريفـات، ووصـل الى حلـب فـاحتفـل اخوه الظـاهـر لقدومه، وأقام له بسنن المكارم ورسومه، ووقف بخدمته ماثلا ، وبعطف الابتهاج اليـه مائلا، وأحضر له مفـاتيح بلده، وقـدّم له كل مـافي يده ، وسمـع ناصر الـدين بـن تقي الـدين بما اقلقـه، ودفع منـه الى ماازهجـه وأزهقه، ووصـل رسولـه الى العادل وهـو بالقـدس لاجئا إلى ظلـه، راجياً لفضله ، لائذا بجنابه، عائذا ببابه، فـاحتمى له واحتمله،وقوّى في تقويته أملـه، وخـاطـب السلطـان في حقه واستعطفـه، وقـال: أنـا امضي إليـه وأحضره، وأومنه مما يحذره، وتبقى هذه السنة عليـه حران والرها ونعطيه في السنة الاخـرى حماه والمعره، ثم قـرر السلطان مـع أخيه العادل أن يـأخذ هـو تلك البـلاد وينـزل عن اقطـاعـاته بمصر، ونصـف خـاصه ،ففعـل واستزاد قلعـة جعبر، فامتنع الملـك الظاهـر من تسليمها حتـى استظهر ، فسـار العــادل في العشر الأول مـن جمادى الأولى وكتــب السلطـان إلى الأفضل بـالعود، فجـاء هذا راجعـا، وذهب ذلـك مسارعـا ، ووصل إلى حران والرها وعاد في آخر جمادى الآخرة ومعه ابن تقي الدين.

قال القـاضي ابن شدّاد :عاد الأفضـل منكسرا متعتبا ، فوصـل دمشق ولم يحضر إلى خدمة السلطـان، فلما اشتد خبر الفرنج سير إليـه وطلبه فما وسعه التـأخر ، فســار إليه مـع العساكـر الواصلـة اليه مـن الشرق فلقيه السلطان وترجل له جبرا لقلبه، وتعظيما لأمره.

قـال ولما بلغ ابـن تقـي الـدين مـوجـدة السلطـان ، أنفذ إلى العـادل

يستشفع به ليطيب قلب السلطان عليه، ويقترح احد قسمين : إما حران والرهـا وسميساط ، وإمـا حماه ومنبج وسلميه والمعـرة مع كفـالة أخـوته، فـراجع العـادل السلطـان مرارا فلـم يفعـل ذلك ولم يجب الى شيء منـه، فكثرت الشفاعة اليه، فحلف لـه على حران والرها وسميساط على أنه إذا عبر الفـرات أعطي المواضـع التي اقترحهـا، ويكفل اخـوته، وتخلى عـن تلك المواضع التـي في يده، ثم التمس العـادل خط السلطان فأبـى وألح عليه فخرّق نسخة اليمين ، وانقطع الحديـث ، وأخذ من السلطان الغيظ كيف يخاطـب بمثل ذلـك من بعض أولاد اولاد أخيـه، ثم أعطـاه خطه بما استقر مـن القاعده، ثـم إن العادل التمـس من السلطان البـلاد التي كـانت بيـد ابـن تقي الـديـن بعـد انتقالـه ،وجـرت مراجعـات كثيرة في العوض عنها، فكان آخر ما استقر أنه ينـزل عن كل ماهو شامي الفرات ماخلا الكرك والشوبك والصلت والبلقـاء وخاصه بمصر بعد النزول عن خبـزه ،وعليـه في كل سنـة ستـة الاف غـرارة غلـة تحمل للسلطـان مـن الصلت والبلقاء إلى القدس.

فصل

في عزم الفرنج على قصد القدس وسببه

قال القاضي ابن شدّاد :وكان تقدّم الى عسكر مصر بالمسير وأوصاهم بالاحتراز عند مقاربة العدو ، فأقاموا ببلبيس أياما حتى اجتمعت القوافل إليهم، واتصل خبرهم بالعدو ، ثم ساروا طالبي البلاد ، والعدو يترقب اخبارهم ويتوصل إليهم بالعرب المفسدين ، ولماتحقق العدو أمر القفل، أمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل وركب في ألف راكب مردفين ألف راجل، فأتى تل الصافية فبات ،ثم سار حتى اتى ماء يقال له الحسي، فأنفذ السلطان الى القافلة ينذرهم بنهوض العدو ويأمرهم ان يبعدوا في البرية، وركب الانكلتيز الملعون مع العرب بجمع يسير ،وسار حتى أتى القفل وطاف حوله في صورة عربي ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس ، فعاد واستركب عسكره، وكانت الكبسة قريبة الصباح ، فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله ،فكان الشجاع الايد القوي الذي ركب فرسه ونجا بنفسه، وانقسم القفل ثلاثة أقسام :قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب،وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب، وقسم استولى العدو عليهم فساقهم بجمالهم وأحمالها وجميع مامعهم ، وكانت وقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثلها من مدة مديدة ، وتبدّد الناس في البرية ورموا أموالهم ، وكان السعيد منهم من نجا بنفسه، وجمع العدو ماأمكنه جمعه من الخيل والبغال والاقمشة وسائر أنواع الأموال،وكلف الجمالين خدمة الجمال، والخربندية خدمة البغال، والساسة خدمة الخيل، وسار في جحفل من غنيمة يطلب عسكره ، ولقد حكى من كان أسيراً معهم أنه في تلك الليلة وقع فيهم الصوت أن العسكر السلطاني قد لحقهم فتركوا الغنيمة وانهزموا ،وبعدوا عنها زمانا، ثم انكشف الأمر فعادوا ، وقد هرب جمع من الاسرى ، وكان الحاكي منهم، وأخبر أن الاسارى خمسمائة، والجمال تناهز ثلاثة آلاف جمل،

ووصل العدو إلى مخيمه سادس عشر جمادى الآخرة، وكان يوما عظيما عندهم.

وصح عزمهم على القدس، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التي تنقل الميرة والازواد، ورتبوا جماعة على لد يحفظون الطريق على من ينقل الميرة، وأنفذوا الكندهري إلى صور وطرابلس، وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس حرسه الله تعالى.

ولما عرف السلطان ذلك منهم عمد إلى الأسوار فقسمها على الأمراءوتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار، وأخذ في افساد المياه ظاهر القدس، فخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا، وأرض القدس لايطمع في حفر بئر فيها ماء معين في جميعها لأنها جبل عظيم ، وحجر صلب، وسير إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد.

قال: ولما كان ليلة الخميس تاسع عشرجمادى الآخرة أحضر السلطان الأمراء عنده ، فحضر الأمير أبوالهيجاء السمين بمشقة عظيمة، وجلس على كرسي في خدمة السلطان ، وحضر المشطوب والأسدية بأسرهم وجماعة الأمراء ، ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد، فذكرت مايسر الله من ذلك ، وكان مما قلته أن النبي ﷺ لما اشتدّ به الأمر بايعه الصحابة رضوان الله عليهم على الموت في لقاء العدّو، ونحن أولى من تأسى به ﷺ والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت، فلعل ببركة هذه النية يندفع هذاالعدو، فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه، ثم شرع السلطان بعد ان سكت زمانا في صورة فكر، والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير، ثم شرع وقال: الحمد لله والصلاة على رسول الله ، إعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن

دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكـم ،وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإن لويتم أعنتكم ، والعياذ بالله طوى البلاد (كطي السجـل للكتاب)(١٢٩) وكان ذلـك في ذمتكم فإنكـم انتم الذين تصـدّيتم لهذا كله، وأكلتم مال بيت مـال المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام.

فانتدب لجوابـه سيف الدين المشطوب وقـال: يامولانا نحـن مماليكك وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينـا وكبرتنا ، وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا ، وليس لنا الا رقـابنا وهي بين يديك ، والله مـايرجع احد منـا عن نصرتك الى ان يموت ، فقال الجماعة مثل ماقال، وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس وطـاب قلبه واطعمهـم ،ثم انصرفوا ، ثـم انقضى يـوم الخميس على اشدّحال في التـأهب والاهتمام حتى اذا كان العشـاء الآخرة اجتمعنا في خـدمته على العـادة وسمرنـا حتى مضـى هـزيع مـن الليل وهـو غير منبسط على عـادته، ثـم صلينا العشـاء ، وكانـت الصلاة هـي الدستـور العام فصلينـا وأخذنا في الانصراف ، فـدعاني رحمه الله وقال: أعلمـت ما الذي تجدد ؟قلـت:لا، قال : إن أبا الهيجـاء السمين أنفذ إليّ اليـوم وقال إنه اجتمـع عندي جماعة المماليك الأمـراء وأنكروا علينا موافقتنـا لك على الحصار والتأهـب له، وقالوا: لا مصلحة في ذلك فـإنا نخاف ان نحصر، ويجري علينا مثل ماجرى على أهل عكا ، وعنـد ذلك تؤخذ بلاد الاسلام جمعـا، والـرأي أن نلقـى مصـاف فـإن قـدّر الله أن نهزمهـم ملكنـا بقيـة بـلادهـم، وإن تكـن الأخـرى سلـم العسكـر ومضـى القـدس ، وقـد انحفظت بلاد الاسـلام بعساكرها مدّة بغير القـدس ،وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيـم لاتحمله الجبال ،فشق عليه هذه الـرسالة ،وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح وهي من الليالي التي أحياها في سبيل الله رحمه الله، وكان مما قالـوا في الرسالة: إنك إن أردتنا نقيـم فتكون معنا أو بعض أهلـك حتى نجتمـع عنده، وإلا فـالأكراد لايـدينون لـلأتراك، والأتراك لايـدينون لـلأكراد ، وانفصـل الحال على ان يقيم مـن أهله مجد

الـديـن بن فـرخشـاه صـاحـب بعلبك ، وكـان رحمه الله : يحدّث نفسـه بـالمقام، ثـم منعـه رأيـه عنه لما فيـه مـن خطـر على الإسلام، فلما قـارب الصبح أشفقـت عليه وخاطبتـه في أن يستريح سـاعة لعل العين تـأخذ حظهـا من النـوم ، وانصرفـت عنـه إلى داري ، فما وصلت إلا والمؤذن قـد أذن ، فأخـذت في أسباب الـوضوء ، فما فـرغت إلا والصبـح قد طلـع ، وكنت أصلي الصبـح معه في غالب الأحـوال ، فعدت إلى خدمتـه ، وهو يجدد الوضـوء فصلينا ، ثـم قلت له: قـد وقع لي واقـع أعرضـه، فأذن لي فيه، فقلـت: المولى في اهتمامه وماقد حمل نفسـه من هذا الأمـر مجتهد فيما هو فيه، وقد عجـزت أسبابه الأرضية فينبغي أن يرجـع إلى الله تعالى، وهذا يـوم الجمعة وهـو أبرك أيـام الاسبوع، وفيـه دعوة مستجـابة في صحيـح الاحاديـث، ونحن في أبـرك موضـع يقدر أن يكـون فيه في يـومنا هـذا ، فـالسلطان يغتسـل للجمعـة ويتصدق بشيء خفيـة بحيـث لايشعر أنـه منـك، وتصلي بين الأذان والإقامـة ركعتين تنـاجـي فيهما ربك ،وتفـوض مقاليـد أمورك إليـه وتعترف بعجزك عما تصديـت له ، فلعـل الله يرحمك ويستجيب دعاءك .

قال :وكان رحمه الله حسـن العقيدة تام الإيمان، يتلقى الأمـور الشرعية بأكمـل انقياد وقبـول ، ثم انفصلنـا ، فلما كان وقـت الجمعة صليـت إلى جـانبـه في الأقصى وصلى ركعتين ورأيتـه سـاجـدا، وهو يـذكـر كلمات ودموعـه تتقاطر على مصـلاه رحمه الله، ثم انقضت الجمعـةبخير، فلما كان عشيتهـا ونحن في خـدمته على العـادة وصلـت رقعة جـرديك ،وكـان في اليزك يقـول فيها إ ن القـوم ركبوا بـأسرهم ووقفـوا في البر على ظهر، ثـم عـادوا إلى خيامهـم، وقـد سيرنا جـواسيس تكشـف أخبـارهم ،ولما كـان صبيحـة السبـت وصلـت رقعة أخـرى يخبر فيهـا أن الجواسيـس رجعـوا وأخبروا أن القوم اختلفـوا في الصعود إلى القـدس والرحيـل إلى بلادهـم، فذهـب الفرنسيسية إلى الصعود إلى القـدس، وقالوا: نحن إنما جئنـا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونـه ،وقال الانكلتيز إن هذا الموضع قد

أفسدت مياهه ، ولم يبق حوله ماء أصلا فمن أين نشرب؟ قالوا: نشرب من نهر نقوع وبينه وبين القدس مقدار فرسخ ، فقال: كيف نذهب إلى السقي ، فقالوا: نقسم قسمين قسم يذهب إلى السقي مع الدواب، وقسم يبقى على البلد في اليزك ويكون الشرب في اليوم الواحد مرة، فقال الانكلتيز :إذا يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ، ويخرج عسكر البلد على الباقين ، ويذهب دين النصرانية، فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكم الثلاثمائة اثني عشر من أعيانهم، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم وقد باتوا على حكم الثلاثة فيما يأمرونهم به يفعل، فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل فلم تمكن المخالفة ، وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين إلى نحو الرملة ناكصين على أعقابهم والحمدلله ، ووقف عسكرهم إلى أن لم يبق في المنزلة إلا الآثار ، ثم نزلوا بالرملة وتواتر الخبر بذلك، فركب السلطان قدس الله روحه ، وركب الناس ،وكان سرور وفرح ، ولكن السلطان خاف على مصر لما حصلوا عليه من الجمال والظهر، وكان قد ذكر الانكلتيز مثل هذا مرارا.

فصل

في تردد الانكلتيز في معنى الصلح وماجرى اثناء ذلك الى ان تم ذلك ولله الحمد

وقد ساق ذلك القاضي ابن شداد أحسن سياق، واستقصى الأمر فيه بخلاف العماد فقال: إن الانكلتيز جاء منه رسول يقول قد هلكنا نحن وأنتم والأصلح حقن الدماء، ولاينبغي أن يعتقد أن ذلك عن ضعف مني بل للمصلحة ، ولا تغتر بتأخري عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح، ثم جاء رسوله يقول لايجوز لك ان تهلك الفرنج كلهم، وهذا ابن اختي الكندهري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم الى الشرق سمعوا واطاعوا، وإن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا اطلب منك كنيسة وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك لما كانت تجري المراسلة مع الملك العادل قد قبلت بتركها وأعرضت عنها ،ولو أعطيتني مقرعة أو قرية قبلتها وقبلتها ، فاستشار السلطان الامراء في جوابه فأشاروا بالمحاسنة وعقد الصلح ، لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب، وعلاهم من الديون، واستقر الحال على هذا الجواب: إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول فما (جزاء الاحسان إلا الاحسان)(١٣٠) ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي وسيبلغك ماأفعل في حقه من الخير وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة وبقية البلاد نقسمها ،والساحلية التي بيدك تكون بيدك ، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا وما بين العملين يكون مناصفة ، وعسقلان وما وراء ها تكون خرابا لا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قراها كانت لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان ، فانفصل الرسول طيب القلب ، واتصل الخبر أنهم بعد وصول الرسول إليهم راحلون إلى جهة عسقلان طالبون جهة مصر .

ووصل الرسول من جانب قطب الدين بن قليج أرسلان يقول ان البابا قدوصل الى قسطنطينية في خلق لايعلم عددهم الا الله تعالى، وقال الرسول : إني قتلت في الطريق اثني عشر فارساً، ويقول تقدم إلى من يتسلم بلادي مني فإني عجزت عن حفظها ،فلم يصدّق السلطان هذا الخبر ولا أكترث به.

ثم جاء رسول الانكلتيز يطلب أن يكون في قلعة القدس عشرون نفراً وان من سكن من النصارى والفرنج في البلد لايتعرض لهم ، وأما بقية البلاد .فلنا منها الساحليات والوطأة ، والبلاد الجبلية لكم ،وأخبر الرسول من عند نفسه مناصحة أنهم قد نزلوا عن حديث القدس ماعدا الزيارة وإنها يقولون هذا تصنعا وأنهم راغبون في الصلح ، وأن الانكلتيز لابد له من الرواح إلى بلده.فأجيب بأن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة، فقال الرسول وليس على الزوّار شيء يؤخذ منهم ، فعلم من هذا القول الموافقة ، وأما البلاد فعسقلان وماوراءها وقراها لابّد من خرابه، فقال الرسول : قدخسر الملك على سورها مالا جزيلا ، فسأل المشطوب أن يجعل مزارعها وقراها له في مقابلة خسارته ، فأجاب السلطان : وإن الداروم وغيره يخرب ويكون بلدها مناصفة ، وأما باقي البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفا في قرية كانت مناصفة ، ثم جاء الرسول يقول: الملك يسألك ويخضع لك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأي قدر لها عند ملكك و عظمتك ، وماسبب اصراره عليها إلا أن الفرنج لم يسمحوا بها ، وهو قد ترك القدس بالكلية لايطلب أن يكون فيه لارهبان ولاقسوس إلا في القمامة وحدها، فتترك له انت هذه البلاد ويكون الصلح عاما فيكون لهم كل مافي أيديهم من الداروم إلى أنطاكية، ولكم مافي أيديكم ، وينتظم الحال ويروح، وإن لم ينتظم الصلح فالفرنج ما يمكنونه من الرواح ولايمكنه مخالفتهم.

قال القاضي: فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين

تارة، وبالخشونة أخرى، وكان لعنه الله مضطراً إلى الرواح ، وهذا عمله مع اضطراره والله المسؤول في أن يكفي المسلمين مكره، فما بلوا بأعظم حيلة ولا أشد اقداماً منه، فأجابه السلطان بأن أنطاكية لنا معهم حديث فيها ورسلنا عندهم فإن عادوا بها نريد أدخلناهم في الصلح وإلا فلا ، وأما التي سألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه، وإلا فلا قدر لها، وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابله ماخسر عليه لد في الوطأة ، ثم عاد الرسول وقال: إن الملك قال: لايمكننا أن نخرب من عسقلان حجرًا واحداً ولايسمع عنا في البلاد مثل ذلك، أما البلاد فخذوها معروفة لامناكرة فيها ،وعند ذلك تأهب السلطان للخروج إلى جهة العدو ، وإظهار القوة وشدة العزم على اللقاء ، وبلغه في العاشر من رجب أن الفرنج خذلهم الله قد رحلوا طالبين نحو بيروت،فبرز من القدس الى منزلة يقال لها الجيب ، وجاء العادل من الشرق والظاهر من حلب ورحل من الجيب الى بيت نوبة،ثم رحل إلى الرملة فنزل بها على تلال بين الرملة ولدّ وركب جريدة حتى أتى يازور وبيت جن وأشرف على يافا ، ثم نزل عليها من الغد ورتب عسكره في الميمنة ولده الظاهر، وفي الميسرة أخوه العادل ،وركب المنجنيقات،وزحف عليها، فأرسل العدو رسولين نصرانيا وفرنجيا يطلبان الصلح، فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعته، فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا أن ينظروا إلى يوم السبت تاسع عشر رجب، فإن جاءتهم نجدة ، وإلا تمت القاعدة على ما استقر، فأبى السلطان الإنظار، وأمربالنقب فحشي وأحرق ،فوقع بعض البدنة فوضع العدو أخشابا عظيمة خلف النقب فالتهب فمنع من الدخول في الثلمة، وقاتلت خارج الأبواب إلى الليل ، فلما أصبحوا وقعت البدنة فعلا غبار مع الدخان، فأظلم الأفق ،وما تجاسر أحد على الولوج خوفا من اقتحام النار، فلما انكشفت الغبرة ظهرت أسنة قد نابت مناب الأسوار،ورماح قد سدت الثلمة حتى عن نفوذ الأبصار، ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم ، ولقد رأيت رجلين على ممشى السور، يمنعان المتسلق فيه

من جهة الثلمة ، وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل فقام رفيقه متصديا لمثل ما لحقه أسرع من لمح البصر، بحيث لم يفرق بينهما إلا نافذ بصير، ولما رأى العدو ما قد آل الامر إليه سيروا يطلبون الأمان ، فقال رحمه الله : الفارس بفارس، والتركبلي بمثله، والراجل بالراجل، والعاجز فعلى قطيعة القدس، فنظر الرسول ورأى القتال على الثلمة اشدّ من اضرام النار، فسأل السلطان أن يبطل القتال إلى أن يعود فقال ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ولكن ادخل إلى أصحابك فقل لهم ينحازون إلى القلعة، ويتركون الناس يشتغلون بالبلد فما بقي دونه مانع، ففعلوا وانحازوا إلى قلعة يافا بعد أن قتل منهم جماعة،ودخل الناس البلد عنوة ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالاً كثيرة وأثاثاً، وبقايا قماش مانهب من القافلة المصرية ، واستقرّت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان ، وكان قايماز النجمي في طرف الغور لحمايته من عسكر العدو الذي بعكا فوصل منه كتاب يخبر فيه أن الانكلتيز الملعون لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت، وعاد على قصد يافا ، فاشتدّ عزم السلطان على تتمة الأمر وتسلم القلعة ،وكنت ممن لم ير الأمان لأنه قد لاح اخذهم ، وكان الناس لهم مدّة لم يظفروا من العدو بمغنم يوثبهم عليه، فكان أخذهم عنوة مما يبعث همم العسكر، غير أن الأمان وقع واتفق الصلح فكنت بعد ذلك ممن يحث على اخراج العدّو من القلعة وتسلمها خوفاً من لحوق النجدة، وكان السلطان يشتد حرصه على ذلك، غير أن الناس قد أقعدهم التعب عن امتثال الأمر وأخذ منهم الحديد، وشدّة الحر ودخان النار بحيث لم يبق لهم استطاعة على الحركة، وسمعنا بوق الفرنج في السحر ، فعلمنا بوصول النجدة فسيّر السلطان معي عز الدين بن جرديك وعلم الدين قيصر ودرباس المهراني وعدل الخزانةشمس الدين وقال: امض إلى الملك الظاهر وقل له يقف ظاهر الباب القبلي ، وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة وتخرجون القوم وتستولي على ما فيها من الأموال والأسلحة وتكتبها بخطك إلى الظاهر،

وهو ظاهر البلد وهويسيرها إلينا ففعلنا ،ودخلنا القلعة وأمرنا الفرنج بالخروج فأجابوا وتهيئوا ، فقال جرديك : لاينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفوهم ،وكان الناس قد داخلهم الطمع في البلد وأخذ يشتد في ضرب الناس وإخراجهم وهم غير مضبوطين بعدّة ولامحصورين في مكان فكيف يمكن إخراجهم ، وطال الأمر إلى أن علا النهار، وأنا ألومه وهو لايرجع عن ذلك ، والزمان يمضي ، فلما رأيت الوقت يفوت قلت له: إن النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة في إخراجهم فأجاب وأخرجنا خمسة وأربعين نفراً بخيولهم ونسائهم، وسيرناهم ، ثم اشتدّت أنفس الباقين وحدثتهم نفوسهم بالعصيان،وكانوا استقلوا المراكب التي جاءتهم وظنوا أن لانجدة لهم فيها، ولم يعلموا أن الانكلتيز مع القوم وراءهم قد تأخروا عن النزول إلى علو النهار، فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج ، ثم بعد ذاك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركباً فقويت نفوس الباقين في الحصن ، فظهرت منهم أمارات العصيان ودلائله فقلت لاصحابنا :خذوا حذركم ، فقد تغيرت عزائم القوم فما كان إلا ساعة بحيث صرت خارج البلد، وقد حمل القوم من القلعةوأخرجوا من كان في البلد من الأجناد، ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة ، وبقي في بعض الكنائس جماعة من رعاع العسكر مشتغلين بما لايجوز فهجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا،ولما عرف السلطان أمر الناس زحف، وعاد للحصار كما كان وحشروا العدو في القلعة ، واستبطئوا نزول النجدة إليهم وخافوا خوفاً عظيماً ، فأرسلوا بطركهم والقسطلان إلى السلطان يعتذران مما جرى ويسألانه القاعدة الأولى ، وكان سبب امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ورجالهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير، فلما رأى من في القلعة شدّة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فانها

بلغت نيفـا وخمسين مـركبـا منها خمسـة عشر مـن الشـواني ، علمـوا أن النجدة قد ظنوا أن البلـد أخذ، فوهب رجل منهم نفسـه للمسيح ، وقفز من القلعة إلى المينـا ، وكان رملاً فلم يصبه شيء وعـدا إلى البحر فحدث الانكلتيز بـالحديث فما كان إلا سـاعة حتـى نزل كل مـن في الشواني إلى المينا، هـذا كله وأنا أشـاهد ذلك فحملـوا على المسلمين وأخرجوهـم من المينا فقبض السلطـان على الرسل وأمر بتأخير الثقـل والأسواق إلى يازور، فرحـل الناس وتخلـف لهم ثقل عظيـم مما كـانوا نهبـوا من يـافا، وخـرج الانكلتيز إلى موضع السلطـان الذي كان فيه لمضايقة البلـد، وأمر من في القلعة أن يخرجـوا إليه لتعظيم سواده، ثـم اجتمع به جماعة مـن المماليك طلبهـم وحضر الحاجب أبـو بكر العـادلي، وكـان قد صـادق جماعة مـن خواص المماليك ، ودخل معهم دخولا عظيماً بحيث كانوايجتمعون به في أوقات متعددة ، وكان قد صادق من الأمـراء جماعة كبدر الدين دلد رم وغيره، فلما حضروا عنـده جـدّ وهزل ومـن جملـة مـاقال :هـذا السلطـان عظيم، وما في الارض لـلاسلام ملك أكبر ولا أعظم منه كيـف رحل عن المكان بمجرد وصـولي، ووالله مالبست لأمة حربي ولا تأهبـت لأمر وليس في رجلي إلا زربول البحر، فكيف تأخرتـم، ثم قال: والله انه لعظيم، والله ماظننت أنه يأخذ يافا في شهـرين، فكيف أخذها في يومين، ثم قال لأبي بكر الحاجب: تسلـم على السلطان وتقول له:بالله عليـك أجب سؤالي في الصلح فهـذا أمر لابـد له من آخـر، وقد هلكـت بلادي وراء البحـر وما دوام هـذا مصلحة لا لنـا ولا لكـم ، فـأرسل السلطـان إليـه في الجواب: إنـك كنـت طلبـت الصلـح أولاً على قـاعــدة وكـان الحديـث في يـافـا وعسقلان، والآن فقـد خربـت هذه يـافا فيكـون من قيسـارية إلى صـور، فأرسل الانكلتيز يقول إن قاعدة الافرنـج إنه إذا أعطى واحد الواحد بلداً صار تبعه وغلامه، وأنا أطلب منك هـذين البلدين يافا وعسقلان وتكون عسـاكرهما في خـدمتك دائماً ، وإذا احتجـت إليّ وصلت إليـك في أسرع وقت وخـدمتك كما تعلـم خدمتـي، فقال السلطـان: حيث دخلـت هذا

المدخل فأنا أجيبك على أن تجعل البلدين قسمين: أحدهمالك وهو يافا وما وراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها، ثم رتب السلطان اليزك بيازور، وأمر بخرابها وخراب بيت جن ورتب النقابين لذلك ، وسار إلى الرملة ، فغادر رسول الانكلتيز يشكر على إعطائه يافا، ويجدد السؤال في عسقلان ، ويقول له إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده، وإلا احتاج أن يشتي ههنا، فأجابه السلطان في الحال وقال: أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وأماتشتيته ههنا.فلا بد منها لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة، وإذاأقام أيضا إن شاء الله تعالى، وإذا سهل عليه ان يشتي ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين ، وهو شاب في عنفوان شبابه، ووقت اقتناص لذاته، مايسهل عليّ أن أشتي وأصيف في وسط بلادي وعندي أهلي وأولادي، ويأتي إليّ ما أريده وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا، وشبعت منها ورفضتها عني، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير الذي يكون في الصيف، وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء،ثم جاء رسول يقول:كم أطرح نفسي على السلطان وهو لايقبلني، وأنا كنت أحرص حتى أعود إلى بلادي والآن فقد هجم الشتاء، وتغيرت الأنواء، وعزمت على الاقامة وما بقي بيننا حديث، ثم بلغ السلطان أن عسكر العدّو قد رحل من عكا قاصدا يافا، فسار رحمه الله فنزل على العوجا،ووصل من أخبره أن العدو دخل قيسارية ولم يبق فيه طمع، وبلغه أن ملك الانكلتيز نازل خارج يافا في نفر يسير، فوقع له أن يكبسه فأتاه فوجد خيمه نحو عشر خيم، فحملوا عليهم فثبتوا ولم يتحركوامن أماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب، وكانوا على الموت أصبر، فارتاع المسلمون منهم ووجموا من ثباتهم، وداروا حولهم حلقة،وكانت عدة الخيل سبعة عشر، وقيل تسعة والرجالة ثلاثمائة أو أكثر ، فوجد السلطان من ذلك موجدة عظيمة، ودار على الأطلاب بنفسه يحثهم على الحملة، ويعدهم بالحسنى على ذلك، فلم يجب دعاءه أحد سوى ولده الظاهر.

قال : وبلغني أنه قال له الجناح أخو المشطوب: قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمةيحملون ، وكان في قلوب العسكر من صلح السلطان على يافا شيءحيث فوتهم الغنيمة،فلما رأى السلطان ذلك أعرض عن القتال وغضب وسار إلى طرف يازور .

قال: ولقد بلغني أن الانكلتيز أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة ، فلم يتعرض له احد.

قلت: ووصل من الفاضل كتاب من دمشق يقول فيه:«الا تنصروه فقد نصره الله» (١٣١) وجواب السلطان لهم عن ملك الانكلتيز الا تقتلوه فقد قتله الله،ولم يزل لطيفا، ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقيلاً وخفيفاً ، ومن كان الله عليه لم يكن قوياً، ومن كان الله معه لم يكن ضعيفاً.»

قال القاضي: ثم سار السلطان الى النطرون، ثم إلى القدس فنظر إلى العمائر ورتبها ، ثم عاد إلى النطرون وتوافت إليه فيه العساكر، ووصل علاء الدين ابن صاحب الموصل، ثم قدم عسكر مصر وفيهم سيف الدين يازكوج وجماعة الأسدية في خدمة ولده الملك المؤيد مسعود، ووصل المنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين فلقيه الظاهر إلى بيت نوبة، ودخل به على السلطان، فنهض واعتنقه وضمه إلى صدره وغشيه البكاء فصبر نفسه حتى غلبه الأمر فبكى الناس لبكائه ساعة،ثم باسطه وسأله عن الطريق، وكان معه عسكر جميل فقرّت عين السلطان به ، ثم سار ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة،ولما رأى السلطان العساكر قد اجتمعت جمع أرباب الرأي وقال: ان ملك الانكلتيز قد مرض مرضا شديدا والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك، ونفقاتهم قد قلت، و أرى ان نسير الى يافا فإن وجدنا فيها طمعا وإلا عدنا الى عسقلان فما تلحقها النجدة الا وقد بلغنا منها غرضا، فوافقوه على ذلك، فأرسل عز الدين جرديك وجمال الدين فرج سادس شعبان

حتى يكونا قريبا من يافا، هذا ورسل الانكلتيز لاتنقطع في طلب الفاكهة والثلج، وأوقع الله عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ، وكان السلطان يمدّه بذلك ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل، والذي انكشف له أن فيها ثلاثمائة فارس على قول المكثر ومائتي فارس على قول المقلل، وان الكندهري تردد بينه وبين الفرنسيسيةفي مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قولا واحداً،فسار السلطان إلى جهة الرملة وجاء رسول الانكلتيز مع الحاجب أبي بكر يشكر السلطان على اسعافه بالفاكهة والثلج، وذكر أبو بكر أنه انفرد به وقال له: قل لأخي —يعني —الملك العادل: يتبصر كيف نتوصل الى السلطان في معنى الصلح، ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي ويبقى هو ههنا مع هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم، فليس غرضي الإقامة جاهي بين الفرنجية، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ لي منه عوضا عن خسارتي على عمارة سورها، فأرسل السلطان الى العادل :إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم فإن العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار والنفقات قدنفدت، ثم ان الانكلتيز نزل عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك ، فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان، وذكر يافا وعملها ، وأخرج الرملة منها ولدّ ومجدل يابا، ثم ذكر قيسارية وأعمالها،وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكا وعملها، وأخرج منه الناصرة وصفورية، وأثبت الجميع في ورقةوقال للرسول : هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم فإن صالحتم على ذلك فمبارك وقد اعطيتكم يدي، فينفذ الملك من يحلف في بكرة غد، وإلا فتعلم أن هذا تدفيع ومماطلة، وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خرابا وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها، واشترط دخول بلاد الاسماعيلية، واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس في الصلح، وشرط أن تكون الرملة ولد بين المسلمين وبينهم مناصفة، واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ورضي الاسبتارية والداوية وسائر

مقدمي الافرنجية بذلك، ولم يحلف الانكلتيز ، بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذر بأن الملوك لايحلفون ، وقنع من السلطان بمثل ذلك، ثم حلف الجماعة، فحلف الكندهري ابن اخته المتخلف عنه في الساحل، وباليان ابن بارزان وابن صاحبة طبرية، ووصل ابن الهنفرى وابن بازران وجماعة من مقدميهم إلى السلطان فأخذوا يده على الصلح واقترحوا حلف جماعة: العادل، والأفضل ، والظاهر، والمنصور، وسيف الدين المشطوب، ودلدرم ، وابن المقدم، صاحب شيزر، وكل مجاور لبلادهم، وحلف صاحب انطاكية وطرابلس، وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين.

قال: ووصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبدي الطاعة والموافقة، وتسيير العسكر، وحضررسول الكرج وذكر فصلا في معنى الديارات التي لهم في القدس، وعمارتهاوشكوا من أنها أخذت من أيديهم، ويسأل ردها إلى أيدي نوابهم، وورد رسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبودية.قال العماد: وعقدت هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر، وجعل لهم من يافا الى قيسارية إلى عكا الى صور، وادخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية، ووقعت المصالحة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر، اولها مبتدأ أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان.

قال: وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرجال والاسلحة والأقوات ليتقووا بها على فتح القدس، لتكون لهم ظهرا وعونا لقربها من البيت المقدس.

قلت : ومن الألفاظ الفاضلية:«وقد فعلت الاقدار في رياضة عرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة، وكيف تشنع ملك انكلتيز بالغدر وهو لعنه الله قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه في أهل عكا نهارا

جهارا، وشهد بخزيه وفضيحته المسلمون والنصارى ، وغدر الفرنج معلوم:

إذا غدرت حسناء أوفت بعهدها
ومن عهدها أن لا يدوم لها عهد

القوم هادنوا لما ضعفوا، ويفسخون اذا قووا، ونحن ننتظر في ملك الانكلتيز ماتفصح عنه المقادير في أمره إما الهلاك ، ولا بأس بها، فيلقى الأحبة المركيس، والدوك،وملك الالمان ، ويؤنس في النار غربتهم، ويكثر عدتهم، وإما أن يعافى ،فهو بين أمرين إما أن يرجع إلى لعنة الله وإلى مروءة البحر في تغريقه وإما أن يقيم، فهناك قد أبدى الشر ناجذيه، ونكص الملعون من الوفاء على عقبيه، وانتظر الفرصة لينتهز، والعورة ليثب».

ومماقيل في هذه الهدنة أبيات من قصيدة نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور، والتي تقدّمت في فتح البيت المقدس وهي:

ياصاح قل للانكلتيز الكلب دع
عنك الجنون وخذ مقالة منصف

القدس مافيه لسرجك مطمع
كلا ولا نور الاله بمنطفي

والمسجد الأقصى فعنه تقص من
وقع الدبابيس الأليمة تعرف

واستفت نفسك فهي أخبث ناصح
واترك متابعة اللجاج المتلف

واعجب لرمح بالرؤوس معمم
واطرب لسيف بالدماء مغلف

قد قلت لما قيل صلح قد جرى
هذا حديث مخرّف ومحرّف

سلف تولى السيف عقد شروطه
أحبب به من مسلم ومسلف
ظنوه سلما وهو في أرواحهم
سلم إلى أجل لهم متخلف

وذكر أبو الحسن الساعاتي الانكلتيز هذا في قصيدة مدح بها السلطان رحمه الله يقول فيها:

منعت ظباء المنحنى بأسوده
وأشد ما أشكوه فتك ظبائه
فعلت بنا وهي الصديق لحاظها
كظبى صلاح الدين في أعدائه
سل عنه قلب الانكتاز فإن في
خفقاته ما اشتت من أنبائه
لولاك أم البيت غير مدافع
ولسال سيل نداه في بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دما
لترنم الناقوس في أفنائه

فصل

فيما جرى بعد الهدنة

قال القاضي : أمر السلطان أن ينـادى في الوطاقات والأسواق : ألا إن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهـم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يـدخل في بلادهم فليفعل، وأشاع رحمه الله ان طـريق الحج قد فتح من الشام، ووقع له عـزم الحج في ذلك المجلس، وكنت حاضر ذلك جميعـه، وأمر أن يسير مـائة نقـاب لتخريـب سـور عسقلان معهـم أمير كبير، ولإخراج الفـرنج منهـا ، ويكون معهـم جماعة مـن الفرنـج الى حين وقـوع الخراب في السـور خشيــة مـن استبقـائه عـامـراً، ففعـل ذلـك ، وخربـت،وكان يوم الصلـح يوما مشهـودا غشي الناس من الطـائفتين من الفرح والسرور ما لايعلمـه الاّالله تعالى، والله العالم ان الصلح لم يكـن من ايثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراتـه في الصلح: «أخاف أن أصالح وما أدري ايـش يكـون مني، فيقـوى هـذا العـدو وقـد بقي لهم هـذه البـلاد فيخرجون لاستعادة بقيـة بلادهم ، وترى كل واحد مـن هؤلاء الجماعة قد قعـد في رأس قله—يعنـي حصنـه—وقـال: لا أنزل ويهلـك المسلمـون» فهذا كـلامه،وكان كماقـال رحمه الله، لكنه رأى المصلحة في الصلـح لسأم العسكر ومجاهرتهم بالمخـالفة، وكان ذلك مصلحة علمها الله تعـالى، فإنه اتفقت وفـاته بعيد الصلـح،ولو كان اتفق ذلـك في اثناء الوقعـات لكان الاسـلام على خطر، فما كـان الصلـح إلاّتـوفيقا وسعـادة مـن الله رحمة الله عليه.

ورحـل السلطان الى النطـرون واختلط العسكـران، وذهـب جماعة مـن المسلمين الى يافـا في طلب التجـارة، ووصل خلـق عظيم مـن العدو الى القدس للحـج، وفتح لهم السلطان البـاب في ذلك، ونفذ معهـم الخفراء يحفظونهم حتى يـردوهم الى يافا، وكـان غرض السلطان بذلـك ان يقضوا

وطرهم من الـزيارة ويرجعوا الى بلادهم،فيأمـن المسلمون شرهم، ولما علم الملك كثرة من يزور منهـم صعب عليـه ذلك وسير الى السلطان يسـأله منع الزوار، واقترح ان لايـأذن لأحد إلا بعد حضور علامة مـن جانبه او بكتابه، وعلمـت الفرنجية ذلك فعظم عليها واهتمـوا في الحج، فكان يرد في كـل يوم منهـم جموع كثيرة مقـدّمـون وأوساط وملـوك متنكـرون، وشرع السلطـان في إكـرام مـن يـرد ومدّ الطعـام لهم ومباسـتطهـم ومحادثتهـم، وعـرفهم انكـار الملك ذلـك، وأذن لهم السلطان في الحج وعـرفهم انـه لم يلتفت الى منع الملك مـن ذلك ، واعتذر الى الملك بأن قومـا وصلوا من ذلك البعـد ويُسر لهم زيارة هـذا المكان الشريـف لااستحل منعهـم، ثم اشتدّ المرض بالملـك فرحل ليلة الاربعـاء التاسع والعشرين مـن شعبان، وقيل انه مات ، وسـار هو والكندهري وسائر المقدّمين الى جـانب عكا، ولم يبـق في يافـا إلاّ مريـض أو عاجـز و نفر يسير، ثـم أعطى السلطـان للناس دستـوراً، فسار عسكـر إربل والموصـل وسنجار والحصـن ،وأشاع رحمه الله أمر الحج، وقوي عزمه على براءة الذمة منه.

قال القـاضي: وكان هـذا مما وقع لي وبـدأت بالاشـارة به في يـوم تتمة الصلح ، ووقع منه رحمة الله عليه ، وقعا عظيما ، وأمـر الديوان أن كل من عزم على الحج من العسكر يثبت اسمه حتـى يحصي عدة من يدخل معنا الطريق ، وكتـب جرائد بما يحتاج إليه في الطريـق من الخلع والأزواد وغير ذلك وسيرهـا إلى البلاد ليعدوها ، ورحـل من النطرون رابع شهـر رمضان وسار حتى أتى مـار صمويل يفتقد أخاه العادل وكان مـريضا بها فوجده قد سار إلى القدس ، وكان قد انقطـع عن أخيه مدة بسبب المرض، وكان قد تماثـل فعرف بمجيء السلطان إلى مـار صمويل لعيادتـه فحمل على نفسه وسـار حتى لقّيـه بذلك المكـان ، وهو أول وصـوله ولم ينـزل بعد ، ونزل وقبـل الأرض وعاد ركب فاستـدناه وسألـه عن مزاجه، وسـارا جميعا حتى أتيا القدس بقية ذلك اليوم .

وقال العماد: عاد السلطان بعد السلم إلى القدس لتفقد أحواله، وعرض رجاله واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها، وتخليد آثاره وتحسينها، وتعميق خنادقه ، وتوثيق طرائقه، وزاد في وقف المدرسة (١٣٢) سوقا بدكاكينها وأرضا ببساتينها ، وكذلك رتب أحوال الصوفية في رعايتها ، والوقف الكافل بكفايتها ، وعين الكنيسة التي في شارع قمامة للبيمارستان، ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع والألوان ، وأدار سور القدس على قبة صهيون وأضافها إلى المدينة، وأمر بادارة الخنادق على الجميع، وصمم العزم على الحج فلم يوافقه القدر، وتأسف على فواته بعد أن قدم مقدماته وأقام شهر رمضان ، وأفاض الإحسان ، وفوض ولاية القدس كعمل الخليل ، وغزة والداروم، وعسقلان.

قلت: ولما بلغ القاضي الفاضل من قبل السلطان أنه عازم على الحج كتب إليه مشيرا بتبطيله:« إن الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ، ولاسلوا عن القدس، ولاوثق بعهدهم في الصلح، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا، وسفر سلاطيننا سفراً مقدرا معلوما مدة الغيبة فيه أن يسروا ليلة فيصبحوا القدس على غفلة ، فيدخلوا إليه ، والعياذ بالله ويفرط من يد الإسلام ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لاتغفر ومن العثرات التي لاتقال» ثم قال: « وحاج العراق وخراسان أليس هم مائتي ألف وثلاثمائة ألف وأكثر ، هل يؤمن أن يقال قد سار السلطان لطلب ثار وسفك دم وتشويش موسم ، فاقعدوا والا فيكون تاريخ سوء، أعوذ بالله منه، ما هذه الشناعة ممتنعة الوقوع ، ولامستبعدة من العقول السخيفة ، فينعم المولى بتأمل ما أنهاه المملوك مستورا فإنه يسأل مولانا أن لايشارك أحدا فيما يكتبه لا من مهم ، ولا من غير مهم، يا مولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقرب به إلى الله وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر، ومن تسلط المقطعين على المتقطعين ما لاينادي وليده، وفي وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة والسيف الذي يقطر دما ما لا زاجر له،

وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ، ومن المهمات إقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها ، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل، وفرع من غير أصل ،وهذا أمر قد تقدم فيه حديث كثير ، وعرضت للمولى شواغل دونه ، ومشت الأحوال مشيا على ظلع ، فلما خلت النوب أعاذ الله من عودها ، كان خلو بيت المال أشد ما في الشدة ، وليس المملوك مطالبا بذخيرة تحصل إنما يطلب تمشية من حيث يستقر».

قلت: ولم يزل البيت المقدس شرفه الله تعالى ملحوظا بالعمارة والتحصين من عهد السلطان رحمه الله إلى سنة ست عشرة وستمائة، فإنه خرب في المحرم منها بسبب خروج الفرنج لعنهم الله وانتشارهم في البلاد، فخيف من استيلائهم عليه، وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبوبكر بن أيوب أخو السلطان وتشتت الناس بعد خرابه ورغبوا عن السكني به، ورثاه الرئيس الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب ابن محمد المجاور بقصيدة منها :

أعينيّ لا ترقي من العبرات
صلي في البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفىء فيضها
توقد ما في القلب من جمرات
ويا قلب اسعر نار وجدك كلما
خبت بادّكار يبعث الحسرات
ويا فم بح بالشجو منك لعله
يروّح ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذي جل قدره
على موطن الاخبات والصلوات
على منزل الاملاك والوحي والهدى
على مشهد الابدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التي
أنافت بها في الارض من صخرات

على القبلة الأولى التي اتجهت لها
صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معمور وأكرم عامر
وأشرف مبنى لخير بناة
ومازال فيه للنبيين معبد
يوالون في أرجائه السجدات
عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الـ
ـرفيع العماد العالي الشرفات
عفا بعد ما قد كان للخير موسما
وللبر والاحسان والقربات
يوافي اليه كل أشعث قانت
لمولاه بر دائم الخلوات
خلا من صلاة لا يمل مقيمها
توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التائبين وحزنهم
فمن بين نوّاح وبين بكاة
لتبك عليها مكة فهي أختها
وتشكو الذي لاقت إلى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة
وتشرحه في أكرم الحجرات
لقد أشمتوا عكا وصور بهدمها
وياطالما غادتها بشمات
لقد شتتوا عنها جماعة أهلها
وكل اجتماع مؤذن بشتات
وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها
وقد كان مجدا باذخ الغرفات
وقد أخمدوا صوتا وصيتا أثاره
لهم عظم ما والوا من الغزوات

أمـــا علمــــت أبنـــاء أيـــوب أنهم
بمسعـــاتـــه عـــدوا مـــن السروات
وإن افتتـــاح القـــدس زهـــرة ملكهـــم
وهـــل ثمـــر إلا مـــن الـــزهـــرات
فمـــن لي بنـــوّاح ينحـــن على الـــذي
شجـــاني بـــأصـــوات لهن شجـــاة
يـــرددن بيتـــا للخـــزاعـــي قـــالـــه
يـــؤبـــن فيـــه خيرة الخيرات
مـــدارس آيـــات خلـــت مـــن تـــلاوة
ومنـــزل وحـــي مقفـــر العـــرصـــات(١٣٣)

قلت: هذا البيت الأخير لدعبل بن علي الخزاعي في أول قصيدة يرثي بها أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه السنة التي توفي فيها العادل قبل التي خرب فيها القدس، هي السنة التي نزل فيها الفرنج خذلهم الله على ثغر دمياط حرسه الله تعالى، وهي المرة الأولى في زماننا وأقاموا عليه إلى أن استولوا بعد أن جرى لهم نحو مما جرى لهم على عكا، ثم أخذه المسلمون منهم، وقتلوا وأسروا ثم إن الفرنج استولوا عليه صلحا في سنة خمس وعشرين وستمائة وشرعوا في بناء طائفة منه، ثم أخرجوا منه عنوة مرتين أخرجهم في إحدى المرتين الملك الناصر صلاح الدين داود بن المعظم شرف الدين عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقال فيه حينئذ بعض شعراء العصر، هذا الشاعر هو الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح رحمه الله تعالى:

المسجـــد الأقصـــى لـــه عـــادة
ســـارت فصـــارت مثـــلا ســـائرا
إذا غـــدا للكفـــر مستـــوطنـــا
أن يبعـــث الله لـــه نـــاصرا
فنـــاصر طهـــره أوّلا
ونـــاصر طهـــره آخـــرا

- ٨٨٥٩ -

ثم استولى الفرنج أيضا على طبرية وعسقلان، ثم أخذتا منهم عنوة في شهور سنة خمس وأربعين وستمائة في دولة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقد استولوا أيضا على الشقيف وصفد، والله يسهل عودهما إلى أهل الاسلام ، ويؤيد الدين الحنيفي على ممر الايام .

- ٨٨٦٠ -

فصل

في مسير السلطان رحمه الله من القدس إلى دمشق

قال العماد: ولما استتم السلطان النظر في أحوال القدس وعمارته، وفوض القضاء والنظر في الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع ابن تميم، وعول منه على أمين كريم، آثر أن يعود إلى دمشق على الثغور عابرا، وفي أحوالها ناظرا، وكان عزم على الحج، وصمم، وكتب إلى مصر واليمن بما عليه عزم، وأمر أن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات، والثياب والكسوات، فقيل له: لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته بحجك، وعرفته بنهجك حتى لا يظن بك أمر أنت منه بري، ويعلم أن قصدك في المضي مضى والوقت قد ضاق، ويبلغ الخبر الآفاق، ثم هذه البلاد إذا سافرت تركتها على مابها من الشعث، وهذه المعاقل التي في الثغور حفظها من أهم الأمور، ولا تغتر بعقد الهدنة، فإن القوم على ترقب المكنة والغدر دأبهم ، فمازال به الجماعة حتى حلوا عقد عزمه على الحج فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارته .

ثم خرج من القدس يوم الخميس خامس شوّال وجاوز ناحية البيرة، وبات على بركة الداوية، ونزل يوم الجمعة ظاهر نابلس، وأقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالم ووظف مكارم ، وكان بها سيف الدين المشطوب، وشكا أهلها نوائب من جهته تنوب، فأزال الشكوى، وأزاح البلوى، ورحل بعد ظهر السبت وبات عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفريديسه، ورتعنا في مروجها الأنيسة، وأصبحنا راحلين ونزلنا ضحوة على جينين، وهناك ودعنا المشطوب ، وداع الأبد فإنه انتقل بعد أيام إلى رحمة الواحد الصمد ، وجئنا ضحوة الإثنين إلى بيسان وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية فأبصر قللها العالية ، وقال: الصواب

بناء هذه وتخريب كوكب، وصعد نظر رأيه فيها وصوّب، ورحل ضحوة الثلاثاء ونزل بطبرية وقت العشاء، وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الأسر وتلقيناه بالبشر والبر ، ووصل مع السلطان إلى دمشق وأقام إلى أن خلص أصحابه من الأسر ، وتوجه إلى مصر وقد ضاق نفسه ببذل ماله ، وخرج من ثروته ودخل في اقلاله .

قال: وتوالت تلك الليلة الأمطار وواصلها النهار، فأقمنا يوم الأربعاء ، وسرنا بكرة الخميس ونزلنا بسفح الجبل الذي عليه قلعة صفد، وصعد إليها وكمل فيها الرجال والعدد، ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة إلى قلعة تبنين، وجاز يوم الأحد على هونين، وخيمنا على عين الذهب عند نزولنا من الجبل، واجتمعنا تلك الليلة بالثقل، ثم سرنا إلى مرج عيون مرحلة، وإلى جسر كامد منزلة، وطريقنا بين عمل صيدا ووادي التيم ، وطلعنا من تلك الأودية والشعاب طلوع الأنوار من الغيم.

وقال في الفتح: على صيدا يسرة ، وعمل وادي التيم يمنة، وعرسنا على مرج تلفياثا مقابل مرج القُنعبه، ودفعنا إلى سلوك المسالك الصعبة، ورحلنا يوم الثلاثاء إلى البقاع فخيمنا على جسر كامد ويوم الأربعاء بناحية قب الياس، ودخل يوم الخميس بيروت وبها واليها عز الدين سامه فاهتم له بالكرامه، ولما أراد عن بيروت الانفصال في الحادي والعشرين من شوّال قيل له : إن الابرنس الأنطاكي بيمند ، مع عصابة من الوفد قد وصل إلى الخدمة مستمسكا بحبل العصمة ، فثنى عنانه ونزل وأقام وما ارتحل ، وإذن للابرنس في الدخول وشرفه في حضرته بالمثول ، وقرّبه وآنسه، ورفع مجلسه وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونيا ، فوهب كلا منهم تشريفا سريا ، وأجزل له ولهم العطاء، وأبدى بهم الاعتناء، وكتب له من مناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار ، وخص أصحابه بمبار ، وأعجبه استرساله إليه ودخوله بغير أمان عليه ، فلا جرم تلقاه بالاحسان ووافقه ، وودعه يوم

الأحـد وفارقـه، وكـانت الأثقـال قـد انتقلت مـن قـب الياس إلى مـرج قلميطيه من البقاع فبـات في المخيم ، وعبر يوم الإثنين عين الجرّ إلى مرج يبوس ، وقد زال البـوس ، وهناك توافد أعيـان دمشق وأماثلها وأفـاضلها وفواضلها ،ونزلنا يوم الثلاثاء بـالعرّاده ، وجرى الملتقون بالطرف والتحف على العاده، وأصبحنـا يوم الاربعاء إلى جنة دمُشـق داخلين بسلام آمنين، لو لا أننا غير خالـدين ، وكانت غيبة السلطان عنهـا طالت أربع سنين، فأخرجت دمشـق أثقالها ، وأبرزت نساء ها ورجالها، فكانـت يوم الزينه، وخرج كل من في المدينة، وحشر الناس ضحى وأشاعوا استبشاراً وفرحا ، وكانت غيبة السلطان في الجهاد طالت، فـاهتزت بقدومه واختالت،وقرت بفضائله الأعين وأقرت بفواضله الألسـن ، وأبدوا وجوه الاستبشار وألسن الاستغفار وأعين الاستعبـار ، ورفعوا أيـدي الابتهال بصالـح الدعـاء عن خالص الـولاء، وجاء ربيع الفضل في فصل الخريـف، واتصل تليد الجد بـالطريـف، واتسـع فضاء الفضـائل ، وارتـدع جـاه الجاهل ، وحـل في القلعة حلـول الشمس في بـرجها ، وأخـذت بحار سماحـه في موجهـا ، وجلـس في دار العدل فـأجـاب وأجار، وأنـال وأنـار ، وخـرجت السنـة والسلطان في أسنى سنائه، وأبهى جـلاله ، وأجلى بهائه والناس راتعون في ريـاض نعمائه ، ورسـل الممالك الغـربيـة الشرقيـة يخطبـونه ويطلبـونـه ، وينتظـرون عزمـه ويرقبـونه ، وهـو يعدهـم بانحسـار الشتاء وانكسـاره ، وابتسـام ثغـر الـرّبيـع وافتراره، وأقمنـا على هـذا العـزم إلى آخـر السنـة، والسلطان مشتغـل بالصيد والقنص ، منتهـز من العمر للفـرص ، وقرب العلماء وأكـرم الفضـلاء ، وفضـل الكرمـاء ، ومـا كـان أحسـن إلى الحق أصغاه ، وأشرع للباطل ألغاء.

وقـال القاضي أبـو المحاسـن: أقام السلطـان بالقـدس يقطع النـاس ويعطيهم دستـوراً، ويتأهب للمسير إلى الديـار المصرية ، وانقطع تشـوفه إلى الحج، ولم يزل كـذلك حتى صح عنـده اقلاع مركب ملـك الانكلتيز المخذول متـوجها إلى بلاده في مستهل شـوال، فعند ذلك حـرّر السلطان

عزمه على أن يدخل الساحل جريدة، ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس ويدخل دمشق يقيم بها أياما قلائل ويعود إلى القدس الشريف سائراً إلى الديار المصرية لتفقد أحوالها ، وتقرير قواعدها والنظر في مصالحها .

قال: وأمرني بالمقام بالقدس إلى حين عوده لعمارة بيمارستان انشأه فيه، وادارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عوده، وخرج من القدس، وودعته إلى البيرة، ونزل بها ، ثم ذكر ازالته للمظالم عن بلد نابلس. ثم رحل ونزل بسبسطيه فتفقد أحوالها، ثم أتى في طريقه إلى كوكب في عاشر شوال، وانفك بهاء الدين قراقوش من الأسر حادي عشر شوال ومثل بالخدمة السلطانية، ففرح به فرحا شديداً، وكان له حقوق كثيرة على السلطان والاسلام ، واستأذن السلطان رحمه الله في المسير إلى دمشق لتحصيل القطيعة، فأذن في ذلك وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين ألفا.

قال: ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب أنطاكية مسترفدا، فبالغ في إكرامه واحترامه ومباسطته، وأنعم عليه بالعمق وارزغان ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار ، ثم سار السلطان إلى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها ، والتقدم بسد خللها واصلاح اجنادها ، وإشحانها بالرّجال فدخل دمشق بكرة الأربعاء سادس عشري شوّال، وفيها أولاده: الأفضل، والظاهر، والظافر ، وأولاده الصغار ، وكان يحب البلد ويؤثر فيه الاقامة على سائر البلاد ، وجلس للناس في بكرة الخميس، وحضر عنده الناس وبلوا شوقهم من رؤيته وأنشده الشعراء ، وعم ذلك المجلس الخاص والعام ، وأقام ينشر جناح عدله ويهطل سحاب انعامه وفضله ، وكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة، واتخذ الأفضل يوم الإثنين مستهل ذي القعدة دعوة لأخيه الظاهر ، وكان الظاهر لما وصل دمشق بلغه حركة السلطان إليها فأقام بها حتى يتملى بالنظر إليه ثانيا

وكأن نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنّو أجل السلطان ، فودّعه في تلك الدفعة مراراً متعددة وهو يعود إليه، ولما اتخذ الأفضل له الدعوة أظهر فيها من بديع التجمل وغريبه ما يليق بهمته، وكأنه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصل إلى حلب المحروسة، وحضرها أرباب الدنيا وابناء الآخرة ، وسأل السلطان رحمه الله الحضور فحضر جبراً لقلبه.

قال: وكان العادل قد استأذن السلطان في أواخر رمضان في القدس بالمضي إلى الكرك لتفقدها ، فمضى وأمر باصلاح ما قصد اصلاحه، وعاد طالبا المضي إلى البلاد الفراتيه التي أعطاه السلطان إياها، فوصل دمشق سابع عشري ذي القعدة، وخرج السلطان إلى لقائه وأقام يتصيد حول غباغب إلى الكسوة حتى لقيه، وسارا جميعا يتصيدان، وكان دخولهما إلى دمشق في الحادي والعشرين منه ، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصبى ، وكأنه وجد به راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب ، وسهر الليل ونصب النهار ،و ما كان ذلك إلّا كالوداع لأولاده ومرابع نزهه وهو لا يشعر رحمة الله عليه، ونسي عزمه المصري، وعرض له أمور أخر وعزمات غير تلك، ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني إلى خدمته ، وكان شتاء شديداً ووحلاًعظيما .

قلت: وفي عيد الأضحى من هذه السنة أنشده الرشيد النابلسي قصيدة حسنة على وزن قصيدة التهامي التي مطلعها:« حازك البين حين أصبحت بدرا» يقول فيها يعني قصيدته:

وأبيها لولا تغزل عينيها ... لما قلت في التغزل شعرا

ولكانت مدائح الملك النا ... صر أولى ما فيه أعمل فكرا

ملك طبق الممالك عدلا ... مثل ما أوسع البرية برا

- ٨٨٦٥ -

ثم قال في آخرها :

نلـــت مـــن الــــديـــن والدنـــــ

ـــــيافتيهـــاعلى الملـــوك وفخــــرا

فتمـــل الأعيـــاد صـــومـــا وفطـــرا

وتلـــق الهنـــاء فطــــراونحـــرا

يـــامسر الطـــاعـــات لله ان أضـــ

ـــــحى مليـــــك على الهنـــاة مصرا

قـــد جمعـــت المجـــديـــن أصـــلاوفـــرعـــا

وملكـــت الـــداريـــن دنيـــا وأخـــرى

فصل

في ذكر أمور أخر جرت في هذه السنة من وفيات وغيرها

قال العماد : في شهر ربيع الآخر توفي القاضي شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، من أهل دمشق، قاضي العسكر ، وكانت وفاته بملطية وهو عائد من الرسالة إلى أولاد قليج أرسلان بالروم، وكان هذا القاضي لي من أصدق الاصدقاء، وأكرم الكرماء، وما فارقني من أيام الملك العادل نور الدين رحمه الله في السراء والضراء ، وكنت بأحواله شديد الاعتناء ، وتوصلت له عند السلطان في تخصيصه بالمواصلة الموصلية ، والمراسلة في المهام الخفية والجلية، ثم تولى نيابة عن السلطان في الولاية الشهرزورية ، والحكم على المقطعين بها وإنصاف الرعية ، فلما فوضت إلى مظفر الدين صاحب إربل رجع شمس الدين ودامت غيبته عن الحضرة مدة سبع سنين ، وكان تولى قضاء العسكر موضعه بهاء الدين بن شدّاد ، وكان خطب أولاد السلطان قليج أرسلان مهما عند السلطان، فاعتمد على القاضي شمس الدين في الوصول إليهم ، والحكم بتأليف ذات بينهم عليه، فمضى وعاد وأدركته المنيه بمدينة ملطيه.

قال: وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوّال توفي الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، المعروف بالمشطوب بنابلس، وقد سبق ذكر هذا الأمير وبأسه وبسالته واصابته وأصالته ، وإقدامه في الحروب ، وتقدمه في الخطوب ، وقد حضر مع أسد الدين شيركوه النوب الثلاث التي فتح في آخرها مصر ، ولازم صلاح الدين إلى منتهى العمر ، ولما احتيج إلى البدل في عكا إذ ضجر من أقام به وتشكى أجاب إلى دخوله وقابل الأمر بقبوله ، وحصل بقضاء الله في الأسر، واحتوت عليه قبضة الكفر ، وفدى نفسه بخمسين ألف دينار ونجا، وآتاه الله من نعمة خلاصه ما رجا، وأنعم السلطان عليه بنابلس وأعمالها، وخص بأموالها ،

وحين جزنـا ودّعنا عنـد جينين ، وداع الأبد إلى جنـة عليين ، وإنما سمي مشطوبا لشطبة في وجهـه من أثر طعنة في غزاة حضرها ، ولـه مواقف في الجهـاد كثيرة معهوده ، ومقـامـات مشهـورة مشهوده ، ووقـف السلطـان بعده ثلث نابلس وأعمالها على مصالح القدس، وأقطع ولده وأميرين معه الثلثين محافظة على حقه الذي التزمه التزام الدين.

وقال القـاضي ابن شـداد : وكان السلطان خلـف المشطوب بـالقدس مـن جملة العسكـر المقيمين بـه ولم يكن واليـه إنما كان واليـه عـز الديـن جرديك، وتـوفي المشطوب رحمة الله بالقدس يوم الأحد الثـالث والعشرين من شوال، و دفن في داره بعد أن صلي عليه في المسجد الأقصى .

قال العماد: وفي منتصـف شعبان تـوفي سلطان بلاد الـروم عز الـدين قليج أرسـلان بن مسعـود بن قليج أرسـلان بقونيـه، وكان أولاده لما كبروا تجبروا وتفـرد كـل منهـم بـاقليـم ،فضعـف بقـوّتهم، وعجـز بقـدرتهم ، وانخفض بـرفعتهم، فإنه فـرق بلاده على جماعتهم ، طمعا في طـاعتهم ، واختار لتدبير ملكـه اختيار الدين حسـن بن غفراس ، فخالفـه عليه من أولاده قطب الدين ملك شاه صـاحب سيواس ، فجاء وغلب على والده وأخذ عليه الأنفـاس ، وقال له: أنا بين يديك عـوض الاختيار ، ثم أخلى منه الـديار ، ثم أبعـد عن خدمـة والده خواصـه وأوليـاءه، وأفنى بـالقتل والاغتيال أمراءه وكبراءه ،واستخلصه لنفسـه ، وأجلسه على ملكه وهو في حبسه ، ثـم جاء به إلى قيصر يـة ليأخذهـا من أخيـه ، وأظهر أنه بـأمر أبيه، فوجـد قليج أرسلان فرصـة في خلاصه ، فساق وحـده ودخل البلد ونجا مـن الولد إلى الـولد، فعاد ملكشـاه إلى قونيه واقصرا دار ملـك أبيه فتملكهم ولم يزل قليج أرسلان يتحول مـن ولد إلى ولد ، ومن بلد إلى بلد يتردد في بلاده في ضيافة أولاده ، وكلهم يضجـر منه ، ويعرض عنه، حتى حصـل عند ولـده غيـاث الديـن كيخسرو صـاحـب برغلـو، فلما حضره

وأبصره آواه ونصره ،وجاء بـه إلى قونيـه فدخلهـا ، وحلى عطلها ، ومـات بها، فجلس مكان والده، وقوي على أخيه.

قال : وجـاء الربيع في شهر ربيع الأول، فكتب إلي نشو الـدولة أحمد ابن نفـاذه أبياتا يدعـوني إلى دمشق في خامس جمادى الأولى، وقـد دخل أوان المشمش المعهود ، وهو موسم دمشق المشهود ، أولها :

دعـــا النـــاس للـــذات مشمـــش جلـــق
فقـــد أسرعـــوا مـــن كـــل غـــرب ومشرق

فقـــم يـــا عماد الـــدين تحظ بـــأكلـــه
ولا تثـــن عنـــه عـــزمـــة السير تسبـــق

وقـــل حين يبـــدو أصفـــر اللـــون مشرقـــا
ويـــا حسنـــه مـــن أصفـــر اللـــون مشرق

لا كلـــك مـــا يلقـــى الفـــؤاد ومـــا القـــي
وللنـــوب مـــا لم يبـــق منـــي ومـــا بقـــي

فليـــس ســـوى الحلـــواء في القـــدس مـــأكـــل
ومـــا جلبـــوه مـــن زبيـــب وفستـــق

قال: فعرضت أبياته على السلطان فقال: ماقلت في جوابه ،فأنشدته:

هلمـــوا نســـابـــق نحـــو مشمـــش جلـــق
وثـــم كما نهوى على الأكـــــل نلتقـــــي

تصفـــر شـــوقـــا لانتظـــار قـــدومنـــا
ومـــن يتعشـــق ذا الفضـــائل يشتـــق

إذا حضرت اطبـــاقـــه غـــاب رشـــدنـــا
لما يتـــلاقـــى مـــن مشـــوق وشيـــق

حكـــى جمرات بـــالفضـــا قـــد تعلقـــت
فيـــا عجبـــي مـــن جمرها المتـــألـــق

كـــأنّ نجـــوم الأرض فـــوق غصـــونـــه
فيـــا حيرتي مـــن نجمـــه المتـــألـــق

وجنـــاتها محمـــرة وجنـــاتها
فمـــن يـــرهـــا مثلي يحب ويعشـــق
بـــدت بين أوراق الغصـــون كـــأنها
كـــرات نضـــار في لجين مطـــرق

قال: فلما أنشدت السلطان هذا البيت، قال: تشبيه الورق باللجين غير موافق فإن الورق اخضر فقلت:

....

كـــرات نضـــار بـــالـــزمـــرد محدق
تســـاقطهـــا أشجـــارهـــا فكـــأنها
دنـــانير في أيـــدي الصيـــارف تـــرتقـــي
ومشمـــش بستـــان الـــزكـــي بشهـــده
شهـــادتـــه تقضي فـــزكّ وصـــدّق
يقـــول رفيقـــي في دمشـــق تعجبـــا
أمـــالـــك بستـــان مقـــالـــة مشفـــق
فقلـــت إلى بـــاب البريـــد وســـوقـــه
لأمثـــالنـــا تجنـــى بســـاتين جلـــق
ولـــو كـــان لي بـــالسهـــم سهـــم وجـــدت لي
منـــالي بـــأيـــام الثمار ومـــرفقـــي
إذا كنـــت مبتـــاعـــا مـــن الســـوق مشمشي
فمالي إلا الـــلـــذة المتســـوق
ومـــالي بـــأربـــاب البســـاتين خلطـــة
فيصبـــح في حيطـــانها متسلقـــي
كـــرام وثـــوقـــي في الشتـــاء بـــودّهـــم
ولكنهـــم في الصيـــف ينســـون مـــوثقـــي
ومـــا ثـــم مـــن يجدى ويقـــري ويقتنـــي
ثنـــائي ســـوى المحيـــي الكـــريـــم الموفـــق
وذلـــك يـــوم ليـــس غيره
أمـــن أجـــل يـــوم واحـــد قلـــت لي اسبـــق

على أنني لو قيل بالصين دعوة
أثرت اليها لوعة المتحرق
فإن جئت قبلي جلقا فارم منعما
حديثي بنادي المنعمين وحلق
لعل كريما ينتخي لضيافتي
بمشمشة عند القدوم ويتقي
فلا تنس نشو الدين نشوة خاطري
وقل عن صبوحي كيف شثت ورقق
وهات وساعدني وخذ من قريحتي
لطيمة داري من الحمد واعبق

قال: فقال لي السلطان عن صبوح ترقق، كأنك تريد تمضي إلى دمشق وتسبق فقلت: الأهل والولد، وقد عيل عنهم الجلد، ولكن مغيبي عن الخدمة لايدور به الخلد، وظلك وهو السكن والبلد.

قال: وكتبت أيضا في جوابه، وصفة المشمش، وذكر تشبيهاته، وقد اذن لي السلطان لمهم له ايضا اتفق:

قد صح عزمي على المسير فلا
أبغي مقامي والقلب قد رحلا
امضي إلى دمية مقبلها
أرشف منه المدام والعسلا
مصوّر بل مدّور عجب
ترى به وهو جامد شعلا
ففي قلوب الأشجار منه جذي
وفي ظهور الغصون منه كلا
طلوا بها النضار ظاهره
لباطن في حشاه نار طلا
يخفي إذا ما بدالعينك في
فيك وفيه النوى اذا وصلا

حلى تبر على عـــــرائس أغصـــا
نٍ تشكـــت مـــن قبلهـــا عطـــلا
حمر حســان الـــوجـــوه قـــد لبســت
مـــن خضر أوراقهـــا لها حلـــلا
عـــرائس مـــن خـــدورهـــا بـــرزت
تحســـب أشجـــارهـــا لها كلـــلا
حـــلاوة لا يمـــل أكلهـــا
إذا الحلاوات أحـــدثـــت ملـــلا
زهـــر كشهـــب السماء راجحة
جـــن جنـــاة بقطفهـــا كفـــلا
عيـــونها الـــرمـــد في تـــرقبنـــا
جـــا حظـــة أبـــرزت لنـــا مقـــلا
مـــاذا التـــواني وذا التـــأخـــر والا
بطـــاء قـــدّم مسيرنـــا عجـــلا
نغـــدو خفـــافـــا إلى مـــواسمهـــا
مـــن قبـــل نبلى بصحبـــة الثقـــلا
قـــد انتظـــرنـــا مـــن الخزانـــة مـــا
نعطـــى فـــأكـــدى نـــوّابها البخـــلا
فـــإن عـــدمنـــا مـــن عنـــدهـــم ذهبـــا
فما عـــدمنـــا عنـــه بـــه بـــدلا
وكلنـــا في عـــوارف الملـــك النـــا
صر نـــرعـــى ونسلـــك السبـــلا

قال: وقلت فيه رباعية:

الشمـــس لانتظـــارنـــا مصفـــر
والـــروض إلى لقـــائنـــا مفتر
قـــم نغتنـــم الـــوقـــت فهـــذا العمـــر
لا لبـــث لـــه فمـــن بـــه يغتر

قال: وفي هذه السنة نصرت الاساطيل في البحر مرارا، ونفذ السلطان في استدعائها ، استظهارا.

قال محمد بن القادسي: وفي مستهل رجب وكل بأمير الحاج طاشتكين، يعني الذي قتل أمير حاج الشام شمس الدين بن المقدّم بعرفات سنة ثلاث وثمانين ،ثم قبض عليه، وسببه أنه اتهم بمكاتبة السلطان صلاح الدين رحمه الله فيما يتعلق بقلب الدولة، وأظهر عليه استاذ الدار أبو المظفربن يونس كتابا قيل انه خطه وفيه :«المصلحة مهادنة الفرنج والمجيء إلى البلاد، فما يقف بين أيديكم أحد، والبلاد لكم إذا ملكتم العراق ، وهذا وقتكم إن كان لكم نيه، وأنا مشدود الوسط في الخدمة» .ثم ذكر ابن القادسي أن ذلك مستبعد في حق طاشتكين وزور وبهتان ، ونسب ذلك إلى افتعال ابن يونس عليه ، وكان طاشتكين أمير الحاج عشرين سنة يخطب له بمكة بعد الخطبة لأمير المؤمنين ،وله اقطاع بمائة ألف دينار.

قال : وفيها في ربيع الآخر توفي أبو المرهف نصر بن منصور النميري الشاعر الأديب الزاهد، سمع قاضي البيمارستان ، وروى عن ابن نبهان وكان قد ولي بالشام وخالط أهل الأدب واضر بالجدري ،وله أربع عشرة سنة ،وكان يبصر الأشياء القريبة منه ، ولايحتاج الى قائد إذا مشى ،ثم قدم العراق لمداواة عينه فأيأسه الاطباء من ذلك ، فاشتغل بالقرآن وحفظه، وصاحب المتدينين والزهاد من أهل الفقه والحديث واللغة ،وله ديوان شعر كبير وسئل عن مذهبه فأملى:

أحب عليا والبتول وولدها
ولا أجحد الشيخين فضل التقدّم
وابرأ ممن نال عثمان بالاذى
كما أتبرأ من ولاء ابن ملجم
ويعجبني أهل الحديث لصدقهم
فلست إلى قوم سواهم بمنتم

- ٨٨٧٣ -

وله أيضا في غير ذلك:

وزهـــــدني في جميـــــع الأنـــــا
م قلـــة انصـــاف مـــن تصحـــب.

هـــــم النـــــاس مـــــالم تجربهم
وطلـــس الـــذئاب إذا جـــربـــوا

وليتـــك تسلـــم عنـــد البعـــا
د منهـــم فكيـــف اذا تقـــربـــوا

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

قال العماد: والسلطان مقيم بدمشق في داره، وممالك الآفاق في انتظاره، والأنام مشرقة بمطالع أنواره، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه، منتظرون لجوابه ، والضيوف في فيوض انعامة عائمون، والفقراء في رياض صدقته راتعون، ويجلس في كل يوم وليلة لاسداء الجود، وابداء السعود، وبث المكارم وكشف المظالم ، وبرّز إلى الصيد شرقي دمشق بزاد خمسة عشر يوما، واستصحب معه أخاه وأبعد في البرية وظهر عن ضمير ضمير إلى الجهة الشرقية ، وطابت له الفرص ، ووافق مراده القنص، ثم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر ووافق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتلقي، وسعاداته في الترقي ، ولما لقي الحجاج استعبرت عيناه، كيف فاته من الحج ماتمناه، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها، وخصبها ومحلها ، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها، والفقراء والمجاورين ورواتبها وادراراتها، وسر بسلامة الحاج، ووضوح ذلك المنهاج، ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام فتلقاه بالاكرام.

قال القاضي ابن شدّاد: وخرجت من القدس الشريف يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم ،وكان الوصول إلى دمشق ثاني عشر صفر، وكان الأفضل حاضراً في الايوان الشمالي ،وفي خدمته خلق من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان، فلما شعر بحضوري استحضرني وهو وحده قبل أن يدخل إليه أحد ، فدخلت عليه رحمه الله، فقام ولقيني ملقى مارأيت أشد من بشره فيه، ولقد ضمني إليه ودمعت عينه، وفي ثالث عشر صفر طلبني فحضرت ، فسألني عمن في الايوان فأخبرته أن الملك الأفضل جالس في الخدمة والأمراء والناس في خدمته، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة اقبال، ثم استحضرني بكرة الخميس رابع صفر، وهو في صفة البستان ،وعنده أولاده الصغار ، فسأل عن الحاضرين،فقيل رسل الفرنج، وجماعة الأمراء والأكابر ، فاستحضر رسل

الفرنج إلى ذلك المكان فحضروا، وكان له ولد صغير، وكان كثير الميل إليه يسمى الأمير أبابكر، وكان حاضرا وكان رحمة الله عليه يداعبه، فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكالهم خاف منهم وبكى فاعتذر اليهم وصرفهم بعد أن حضروا، ولم يسمع كلامهم وقال لي: أكلت اليوم شيئاً، وكانت عادته رحمه الله هذه المباسطة، ثم قال:أحضروا لنا أرزا بلبن ومايشبه ذلك من الاطعمة الخفيفة، فأكل رحمه الله، وكنت أظن أن ماعنده شهوة ، وكان في هذه الأيام يعتذر إلى الناس لثقل الحركة عليه، وكان بدنه ممتلئا وعنده تكسل، فلما فرغنا من الطعام ، قال: ماالذي عندك من خبر الحاج، فقلت قد اجتمعت بجماعة منهم في الطريق، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم، ولكنهم في غد يدخلون فقال: نخرج إن شاء الله إلى لقائهم، وتقدّم بتنظيف طرقاتهم من المياه فإنها كانت سنة كثيرة الأنداء والأمطار، وقد سالت المياه في الطرق كالأنهار، وانفصلت عن خدمته، ولم أجد عنده من النشاط ما أعهده منه، ثم بكر في يوم الجمعة فركب ثم لحقته وقد لقي الحاج ولم أجد عليه كزاغنده، وماكان له عادة يركب بدونه، وكان يوما عظيما قد اجتمع فيه للقاء الحاج والتفرج على السلطان معظم من في البلد ، فاذكرته ذلك، فكأنه استيقظ، فطلب الكزاغند فلم يوجد، وأوقع الله في قلبي تطيراً بذلك ، ثم سار رحمه الله بين البساتين يطلب جهة المنيبع حتى أتى القلعة، فعبر على الجسر اليها وهو طريقه المعتاد ،وكانت آخر ركباته رحمه الله.

- ٨٨٧٦ -

فصل

في مرض السلطان ووفاته احله الله بحبوحة جناته

قال القاضي: لما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما ، فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية، وكانت في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت سادس عشر صفر عليه أثر الحمى، ولم يظهر للناس ذلك ،لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، ودخل ولده الافضل، وطال جلوسنا عنده، وأخذ يشكو من قلقه بالليل،وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده، فتقدّم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الافضل، ولم يكن للقاضي عادة بذلك ،فانصرف ودخلت إلى الايوان القبلي وقد مدّ الطعام، وولده الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفت وماكان لي قوّة للجلوس استيحاشاً، وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده موضعه ، ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ، ونحن نلازم التردد في طرفي النهار، وأدخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً ويعطى الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبةطبيبه الذي كان قد ألف مزاجه سفراً وحضرا، ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع ، فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلبه النفس غلبة عظيمة،ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ، ولقد أجلسناه في السادس من مرضه، وأسندنا ظهره إلى مخدّة، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شراب يلين الطبع ، فشربه فوجده شديد الحرارة، فشكا من شدّة حرّه ،فغير وعرض عليه ثانيا، فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب رحمه الله، ولم يقل سوى هذه الكلمات :سبحان الله ألا يمكن أحد تعديل الماء، فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتدّ منا البكاء، والقاضي الفاضل يقول لي: انظر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ،والله لو أن هذا بعض الناس كان قد

ضرب بـالقـدح رأس مـن أحضره،واشتـدّ مرضـه في الســادس والسـابع والثامن ولم يزل متـزايدا ،وتغيب ذهنه ،ولما كان التاسع حـدثت به رعشة وامتنع من تنـاول المشروب واشتدّ الارجاف في البلد وخـاف الناس ونقلوا الأقمشة من الأسواق وغشي الناس من الكآبـة مالايمكن حكايته ، ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعـد كل ليلة الى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريـب منه، ثم يحضر في باب الـدار فإن وجدنا طـريقا دخلنا وشاهـدنا وانصرفنا، وإلا تعرفنا احواله وانصرفنا ، وكنـا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنـا، حتى يقـرؤوا أحواله مـن صفحات وجـوهنا، ولما كـان العاشر من يـوم مرضه حقن دفعتين ، وحصـل من الحقنة راحة، وحصـل بعض الخفة، وتنـاول من مـاء الشعيرمقدارا صـالحاً، وفرح النـاس فرحـاشديـدا فأقمنا على العـادة إلى أن مضى من الليل هزيـع، ثم أتينا الدار فـوجدنا جمال الدولة اقبالا ، فالتمسنا منه تعـريف الحال المتجدّد،فدخل، ثم أنفذ الينـا مع الملـك المعظـم تورانشـاه يقـول: إن العرق قـد أخـذ في ساقيـه فشكـرنا الله على ذلـك، وانصرفنـا طيبة قلـوبنا، ثـم أصبحنـا فأخبرنـا أن العـرق أفرط حتـى نفذ في الفـرش، وتـأثرت بـه الارض، وأن اليبس قـد تزايـد به تـزايدا عظيما، وخارت القـوّة واستشعر الأطبـاء، ولما رأى الملك الأفضل ماحل بوالده، وتحقـق منه شرع في تحليف الناس، وجلس في دار رضـوان المعـروفـة بسكنـه، واستحضر القضـاة، وعمـل لـه نسخـة يمين مختصرة محصلة للمقـاصد تتضمن الحلف للسلطـان مدّة حياته، ولـه من بعد وفـاته، واعتـذر إلى الناس بـأن المرض قد اشتـدّ، ومانعلـم مايكـون ومانفعل هذا إلاّ احتياطيا على جاري عـادة الملوك، ثم سمى القاضي ممن حلـف له جماعـة منهـم: سعد الـديـن مسعـود أخو بـدر الـدين مـودود الشحنـه، ونـاصر الديـن صـاحـب صهيون ،وسـابـق الـدين صـاحـب شيزر،وخشترين الهكاري ،ونوشروان الـزرزاري، وعلكان ومنكلان ، ثم مدّ الخوان وأكلـوا، ولما كـان العصر أعيد مجلـس التحليـف، وأحضر ميمـون القصري وشمـس الـديـن سنقـر المشطـوب والبكـي الفـارس ، وأيبك

الأفطس، وأخو سياروخ ، وحسام الدين بشارة، وبعضهم اشترط في يمينه، وبعضهم لم يشترط، ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم.

ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر، وهي ليلة الثاني عشر من مرضه، اشتدّ مرضه، وضعفت قوتّه، ووقع في أوائل الأمر من أوائل الليل،وحال بيننا وبينه النساء، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة ، وابن الزكي، ولم تكن عادته الحضور في ذلك الوقت، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده، فلم ير الفاضل ذلك.رأيا، فان الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة، فخاف أن لاننزل فيقع الصوت في البلد، وربما نهب الناس بعضهم بعضا، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة،وهو رجل صالح يبيت بالقلعةحتى إن احتضر بالليل، حضر عنده ،وحال بينه وبين النساء، وذكره بالشهادة، وذكر الله تعالى، ففعل ذلك، فنزلنا وكل منا يوّد لو فداه بنفسه،وبات في تلك الله على حال المتنقلين الى الله تعالى، والشيخ أبوجعفر يقرأ عنده القرآن، ويذكره بالله تعالى، وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لايكاد يفيق إلا في بعض الأحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: (هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة)(١٣٤) سمعه وهو يقول: صحيح وهذه يقظة في وقت الحاجة، وعناية من الله تعالى به، فلله الحمد على ذلك، وكانت وفاته رحمة الله عليه بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته، ووصلت أنا وقد مات، وانتقل إلى رضوان الله،ومحل كرامته، ولقد حكي لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: (لااله الا هو عليه توكلت)(١٣٥)تبسم و تهلل وجهه وسلمها إلى ربه، وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالايعلمه إلا الله تعالى، وتالله لقد كنت أسمع

من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوّز والترخيص إلى ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري، أنه لوقبل الفداء لمدي بالنفس.

ثم جلس ولده الافضل للعزاء في الايوان الشمالي، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين ، وكان يوما عظيما قد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره، وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه قصاص أو وعاظ ،فكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس، فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على ذلك إلى بعد صلاة الظهر، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فما مكنا أن ندخل في تجهيزه ماقيمته حبة واحدةالا بالقرض حتى في ثمن التبن الذي يلت به الطين، وغسله الدولعي الفقيه، وندبت إلى الوقوف على غسله، فلم يكن لي قوّة تحمل ذلك المنظر، واخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط، وكان ذلك وجميع مااحتاج إليه من الثياب في تكفينه، قد أحضره الفاضل من وجه حل عرفه.

وارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج حتى أن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتاً واحداً، وغشي الناس من البكاء والعويل ماشغلهم عن الصلاة، وصلى عليه الناس أرسالا، وكان أوّل من أم بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي، ثم أعيد رحمة الله عليه إلى الدارالتي في البستان الذي كان متمرضا بها، ودفن في الصفة الغربية منها،وكان نزوله في حفرته قريبا من صلاة العصر، ثم نزل في أثناء النهار ولده الظافر، وعزى الناس فيه، وسكن قلوب الناس، وكان الناس قد شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد، فما يوجد قلب إلا حزينا، ولاعين إلا باكية إلا من شاء الله، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع، ولم يعد منا أحد في تلك الليلة إلا أنا حضرنا وقرأنا، وجدّدنا

حـالا من الحزن، واشتغـل ذلك اليـوم الملك الأفضـل بكتب الكتـب إلى أخوتـه وعمه يخبرهم بهذا الحادث، وفي اليوم الثـاني جلس للعزاء جلـوسا عـاما وأطلـق باب القلعـة للفقهاء والعلماء،وتكلـم المتكلمون، ولم ينشـد شاعر، ثـم انفض المجلـس في ظهيرة ذلك اليوم واستمرّ الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه.

وقال العماد: جلـس السلطان ليلة السبـت سادس عشر صفـر ونحن عنده حتـى مضى من الليـل ثلثه، وهويحدثنا ونحـن نحدثه، ثـم صلى به وبنا امامه، وحان قيامه، وانفصلنا بـاحسانه مغتبطين، وبامتنانه مرتبطين، واصبحنـا يوم السبـت وجلسنـا في ايوانـه ننتظر خـروجـه لوضـع الخوان ووجدنـاه قد اغلق بـاغلاق بابه رهنـه، ولم نشعر بما قضاه القـدر وأجنه، وخـرج من خـدمه مـن أخبر بسقمه، وكـان من شرط الأدب أن يخلى لـه موضعا، فتطيرنا من تلك الحالة، وتكرهنـا منها سوء الدلالة، فتلاعبت فيه العيـون، وتراجمت الظنـون ، ودخلنا إليـه ليلـة الأحد للعيـادة ومرضـه في الزيـادة، وفي كل يوم تضعـف القلوب وتتضـاعف الكروب، وانتقـل من دار الفنـاء إلى دار البقـاء في سحـرة يـوم الأربعـاء، ونـابـت الظلماء عـن الضياء، ودخـل قمره ليلـة السابـع والعشرين في السرار، ودجـت مطالـع الأنـوار، ومـات بمـوتـه رجـاء الـرجـال، وأظلـم بغـروب شمسـه فضـاء الأفضال، وغـاضت الأيـادي، وفاضت الأعـادي، ودفن بقلعـة دمشق في مسكنه، ودفن جماع ا لكرم والفضل والدين بمدفنه.

ثم بنى الملـك الأفضل قبة شمالي الجامع في جـواره، بشباك إلى الجامع لـزوّاره، ونقله إليهـا يـوم عاشـوراء سنـة اثنتين وتسعين، واسترجعنا وقلنـا مالنا إلا أن نستعيذ بالله ونستعين به، قال :ومما قلت رباعية في المرثية:

قـــال الملـــك النـــاصر مـــن كلفنـــي
في الجرد بغير شيمتـــــي فما أنصفنـــــي

مـــا يعلـــم أن ذلـــك الملـــك فنـــي
لم يبـــق مـــن الجود إلا كفنـــي

وقال العماد أيضا في رسالته الموسومة بعتبى الزمان: وكان السلطان رحمه الله لما توفي بالقلعة في منزله ، ومازال الأفضل يتروّى في موضع ينقله إليه، واستشار في ذلك فأشير عليه، في سنة تسعين بأن يبنى تربته عند مسجد القدم، ويبني عندها مدرسة للشافعية، وقالوا إذا وصل الملك العزيز استغنى بزيارتها عن الدخول إلى دمشق لأجلها، وقالوا إن السلطان رحمه الله لما مرض سنة احدى وثمانين بحرّان كان قد أوصى أن يدفن بدمشق قبلي ميدان الحصا، ويكون قبره على النهج السائل، وطريق القوافل ، ليدعو له الوارد والصادر، والبادي والحاضر ، وتجوز عليه في الغزوات العساكر. قالوا: وإن تنأت هذه الأرض عن مكان الوصية فهي منه قريبة، فأمر الأفضل ببناء التربة عند مسجد القدم، وتولى عمارتها بدر الدين مودود والي دمشق، فاتفق وصول العزيز تلك السنة للحصار، وهم قد شرعوا في عمارتها، فخرّب ما كان قد ارتفع من البناء، ثم استقرأ الأفضل حدود الجامع ليجعل التربة فيها، فوفق لدار كانت لبعض الصالحين وهي في حدّ المكان الذي زاده الأجل الفاضل في المسجد ، فاشتراها منه وأمر بعمارتها قبة فعمرت، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وتسعين بكرة الخميس ومشى الأفضل بين يدي تابوته، وأراد العلماء والفقهاء حمله على أعناقهم التي فيها منته، فقال الافضل: كفته أدعيتكم الصالحة التي هي في المعاد جنته، وحمله مماليكه وخدمه، وأولياؤه وحشمه، وأخرج من باب القلعة في البلد على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل منه إلى الجامع، ووضع قدّام باب النصر، وصلى عليه القاضي محيي الدين بن محمد القرشي باذن الأفضل، ثم حمل منه على الرؤوس إلى بطن ملحده، ثم جاء الأفضل وحده، ودخل لحده، وأودعه وخرج وسدّ الباب على أبيه، وجلس هناك في الجامع ثلاثة أيام للعزاء ، وانفقت ست الشام أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً كثيرة.

قال محمد بن القادسي: وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الأوّل شاعت الأخبار —يعني ببغداد— بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذكر أنه دفن معه سيفه الذي كان معه في الجهاد، وكان ذلك برأي الفاضل وقيل عنه هذا يتوكأ عليه إلى الجنة، وأن الفاضل كفنه من ماله وتولى غسله الفاضل، وخطيب دمشق.

قلت: وحكي لي أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في جماعة من الصحابة رضي الله عنهم زاروا قبر صلاح الدين رحمه الله، وأنهم لما صاروا عند الشباك سجدوا.

ووجدت في بعض الكتب الفاضلية:«أن رجلا رأى ليلة وفاة السلطان كأن قائلا يقول له : قد خرج الليلة يوسف من السجن، وهو من الاثر النبوي :«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(١٣٦)قال: وما كان يوسفنا رحمة الله عليه في الدنيا بالاضافة إلى ماصار إليه في الآخرة إلا في سجن، رضي الله عن تلك الروح، وفتح له باب الجنة فهو آخر ماكان يرجوه من الفتوح».

ومن كلام غيره في وفاة السلطان رحمه الله تعالى :« أفلت الشمس عند الصباح ، وذهبت روح الدنيا الذي ذهب بذهابها كثير من الأرواح ، وتلك ساعة ظلت لها الألباب حائرة، وتمثلت فيها السماء مائرة، والجبال سائرة، وأغمد سيف الله الذي كان على أعدائه دائم التجريد، وخفت الأرض من جبلها الذي كان يمنعها أن تميد، وأصبح الاسلام وقد فقدنا ناصره ثاكلا لوحيد، فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد، وليس أحد من الناس إلا وقد صم عن الخبر وأصيب في سواد القلب والبصر».وقال:« وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول عمر» (١٣٧)

وختم كتابه البرق الشامي بقصيدة رثى بها السلطان رحمه الله عددها

في ديوانه مائتان وثلاثون بيتا أوّلها:

شمل الهدى والملك عم شتاته
والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذي مذ لم يزل مخشية
مرجوّة رهباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاتنا
مبذولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذي
لله خالصة صفت نياته
أين الذي ما زال سلطانا لنا
يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذي شرف الزمان بفضله
وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذي عنت الفرنج لبأسه
ذلاً ومنها أدركت ثاراته
اغلال أعناق العدا أسيافه
أطواق أجياد الورى مناته
لم يجد تدبير الطبيب وكم وكم
أجدت لطب الدهر تدبيراته
من في الجهاد صفاحه ما أغمدت
بالنصر حتى أغمدت صفحاته
من في صدور الكفر صدر قناته
حتى توارت بالصباح قناته
لذا المتاعب في الجهاد ولم تكن
مذ عاش قط لذاته لذاته
مسعودة غدواته محمودة
روحاته ميمونة ضحواته

في نصرة الاسلام يسهر دائماً
ليطول في روض الجنان سناته
لا تحسبوه مات شخص واحد
فمات كل العالمين مماته
ملك عن الاسلام كان محامياً
أبداً إذا ما أسلمته حماته
قد أظلمت مذ غاب عنها دوره
لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس ينبش بعدما
أودى إلى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف
أقوت قواه وأقفرت ساحاته
جبل تضعضع من تضعضع ركنه
أركاننا وتهدّنا هدّاته
ما كنت أعلم أن طوداً شامخاً
يهوي ولا تهوي بنا مهواته
ما كنت أعلم أن بحراً طامياً
فينا يطم وتنتهي زخراته
بحر خلا من وارديه ولم تزل
محفوظة بوفوده حفاته
من لليتامى والأرامل راحم
متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت
في ذكره من ذكره آياته
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً
رضوان رب العرش بل صلواته
لضريحه سقيا السحاب فإن يغب
تحضر لرحمة ربه سقياته

وكعادة البيت المقدّس يحزن الـ
ـبيت الحرام عليه بل عرفاته
من للثغور وقد عداها حفظه
من للجهاد ولم تعد عاداته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت
من سلها وركوبها غزواته
وبسيفه صداء لحزن مصابه
إذ ليس يشفي بعده صدياته
يا وحشتا للبيض في اغمادها
لا تنتضيها للوغى عزماته
يا وحشة الإسلام يوم تمكنت
في كل قلب مؤمن روعاته
يا حسرتا من بأس راحته الذي
يقضي الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فإنه
أسد وإن بلاده غاباته
ما كان أسرع عصره لما انقضى
فكأنما سنواته ساعاته
لم أنس يوم السبت وهو لما به
يبدى السبات وقد بدت غشياته
والبشر منه تبلجت أنواره
والوجه منه تلألأت سبحاته
ويقول لله المهيمن حكمة
في مرضة حصلت بها مرضاته
وقف الملوك على انتظار ركوبه
لهم ففيم تأخرت ركباته
كانوا وقوفا أمس تحت ركابه
واليوم هم حول السرير مشاته

ومـمـالـك الآفـاق سـاعيـة لـه
فمتـى تجيء بفتحهـن سعـاتـه
هـذه منـاشير الممالـك تقتضي
تـوقيعـه فيهـا فـأيـن دواتـه
قـد كـان وعـدك في الـربيـع بجمعهـا
هـذا الـربيـع وقـد دنـا ميقـاتـه
والجنـد في الـديـوان جـدّد عـرضـه
وإذا أمـرت تجددت نفقـاتـه
والقـدس طـامحة إليـك عيـونـه
عجـل فقـد طمحـت إليـه عـداتـه
والغـرب منتظـر طلـوعـك نحـوه
حتـى تفـيء إلى هـداك بغـاتـه
والشرق يـرجـو غـرب عـزمـك مـاضيـا
في ملكـه حتـى تطيـع عصـاتـه
مغـرى بـإسـداء الجميـل كـأنها
فـرضـت عليـه كـالصـلاة صـلاتـه
هـل للملـوك مضـاؤه في مـوقـف
شـدّت على أعـدائه شـدّاتـه
وإذا الملـوك سعـوا وقصر سعيهـم
رجحـت وقـد نجحـت بـه مسعـاتـه
كـم جـاءه التـوفيـق في وقعـاتـه
مـن كـان بـالتـوفيـق تـوقيعـاتـه

قال: ووجد بخط العماد في حاشية ديوانه كانت علامته «الحمد لله وبه توفيقي»

يـا راعيـا للـذيـن حين تمكنـت
منـه الـذئاب وأسلمتـه رعـاتـه
مـا كـان ضرك لـو أقمـت مـراعيـا
دينـا تـولى مـذ رحلـت ولاتـه

أضجـرت منـا أم أنفـت فلـم نكـن
نصـاب لشـدّة ضجـراتـه
أرضيت تحت الأرض يامن لم يزل
فـوق السماء عليـة درجـاتـه
فـارقـت ملكـا غير بـاق متعبـا
ووصلـت ملكـاً بـاقيـا راحـاتـه
اعـزز على عينـي بـرؤيـة بهجـة الـ
ـدنيا يـأبـى مـا الكـرام أبـاتـه
لاتقتـدوا إلاّ بسنـة فضلـه
لتطيـب في مهـد النعيـم سنـاتـه
وردوا مـوارد عـدلـه وسماحـه
لتردعـن نهج الشمات شماتـه
ولئـن هـوى جبـل لقـد بنيـت لنـا
ببنيـه مـن هضبـاتـه ذرواتـه
وبفضـل أفضلـه وعـزعـزيـزه
وظهـور ظـاهـره لنـا سرواتـه
الأفضـل الملـك الـذي ظهـرت على الـ
ـدنيا بـزهـر جـلالـه جلـواتـه
والـديـن بـالملـك العـزيـز عماده
عثمان حـاليـة لنـا حـالاتـه
والملـك غـازي الظـاهـر العـالـي الـذي
صحـت لاظهـار العلى مغـزاتـه
ولنـا بسيـف الـديـن أظهـر نصرة
بـالعـادل الملـك المطهـر ذاتـه

وللعماد فيه قصيدة أخرى:

مـن للعـلا مـن للـذرى مـن للهـدى
يحميـه مـن للبـأس مـن للنـائل

- ٨٨٨٨ -

طلب البقاء الملك في آجل
إذ لم يثق ببقاء ملك العاجل

بحر أعاد البر بحراً بره
وبسيفه فتحت بلاد الساحل

من كان أهل الحق في أيامه
وبعزه يردون أهل الباطل

وفتوحه والقدس من ابكارها
أبقت له فضلاً بغير مساجل

ما كنت أستسقي بغيرك وابلا
ورأيت جودك مخجلا للوابل

فسقاك رضوان الإله لأنني
لا أرتضي سقيا الغمام الهاطل

فصل

في تركة السلطان ووصف أخلاقه رحمه الله

ذكر القاضي ابن شداد أنه لما مات لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية، ودينارا واحدًا ذهبا صوريا، ولم يخلف ملكا لا دارا ولاعقارا، ولا بستانا ولا مزرعة يعني في البلد، ولا مسقفا ولا ظاهرا مستغلا من أنواع الاملاك.

وقا ل العمادفي كتاب الفتح: خلف السلطان رحمه الله سبعة عشر ولدا ذكرا، وابنة صغيرة، وأبقى له مآثر أثيره، ومحاسن كثيرة، ولم يخلف في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما، فإنه كان باخراج مايدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرما،وكان يجود بالمال قبل الحصول، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول، وإذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه، وخص الآحاد من ذوي الغنا في الجهاد بآلافه، ولاجبه أحدا بالرد إذا سأله، بل تلطف له كأنه استمهله، فإنه يقول ما عندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطى، وإن كان يبطى ، وأنه يصيبه بالنوال ولا يخطى، وكان مشغوفا في سبيل الله بالانفاق موقوفا عزمه في الأعداء بإدناء الآجال ، وفي الأولياء بإجراء الأرزاق، وماعقر في سبيل الله فرس أوجرح إلا وعوض مالكه مثله، وزاده من فضله فضله، وحسب ماوهبه من الخيل العراب والأكاديش الجياد للحاضرين معه في صف الجهاد، مدة ثلاث سنين وشهر مذ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان وثمانين، فكان تقديره إثني عشر ألف رأس من حصان وحجرة واكديش ، وذلك غير ما أطلقه من المال في اثمان الخيل المصابة في القتال، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أوموعود به، وصاحبه ملازم في طلبه، وماحضر اللقاء إلا استعار فرسا فركبه، وهجر جياده، فاذا نزل جاء

صاحبه واستعاده، فكلهم يركب خيله، ويطلب خيره، وهو يستعيرجوادا، ويستعر في الجهاد اجتهاداً.

قال في البرق: وحضرت بعده عند بعض الملوك وقد قيدت إليه عراب، فقيل له: كان السلطان يضيع هذه،وماعنده لهاحساب، ونسبوا جوده بها إلى السرف وعدوّه من معايبه، وأعرضوا عن ذكر مفاخره ومناقبه، وبمثل ذلك استتبت له الفتوح وخلصت له طاعة كتائبه.

قا ل في الفتح: وكان لايلبس إلا مايحل لبسه، وتطيب به نفسه، كالكتان والقطن والصوف، وكسوته يخرجها في اسداء المعروف ، وكانت محاضره مصونة من الخطر وخلواته مقدّسة بالطهر، ومجالسه منزهة عن الهزء والهزل، ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل ، وماسمعت له قط كلمةتسقط، ولا لفظة فظة تسخط، ويغلظ على الكافرين الفاجرين، ويلين للمؤمنين المتقين ويؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد، ويكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية، وكان من جالسه لايعلم أنه مجالس السلطان بل يعتقد أنه مجالس أخ من الأخوان، وكان حليماً مقيلاً للعثرات، متجاوزا عن الهفوات، تقيا نقيا، وفيا صفيا، يغضي ولا يغضب، ويبشر ولا يتقطب، ماردّ سائلاً ولا صدّ نائلا، ولا أخجل قائلاً، ولا خيب آملاً .

قال: ومن جملة مناقبه أنه تأخر عنه في بعض سفراته الأمير أيوب بن كنان، فلما وصل سأله عن سبب تخلفه، فذكر دينا فأحضر غرماءه، وتقبل بالدين ، وكان اثني عشر ألف دينار مصرية وكسرا.

قال: ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب إليه سيف الدولة بن منقذ نائبه بمصر، أن واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفي

دينار، وتسحب، وربما وصل إلى الباب، فتحيل وتمحل وكذب، فجاء من أخبر السلطان أن الرجل بالباب،فقال: قل له: إن ابن منقذ يطلبك فاجهد أن لا تقع في عينه، فعجبنا من حلمه وكرمه بعد أن قلنا قدم الرجل إلى حينه بقدمه.

قال: ومما أذكره له في أول سفرتي معه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين، أنه حوسب صاحب ديوانه عما تولاه في زمانه ، فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه، فماطلبها ولا ذكرها ، وأراه أنه ماعرفها، على أن صاحب الديوان ماأنكرها، وكان يرضى من الأعمال بما تحمل صفوا عفوا، وتحصل حلوا ، وكله يخرج في الجود والجهاد، ثم لم يرض له بالعطلة، فولاه ديوان جيشه.

قال: ولما كنا بظاهر حران عم بصدقاته الفقراء والمساكين، وكتب إلى نوّابه في الولايات بإخراج الصدقات وقال لي: اكتب إلى الصفي بن القابض بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت :إنما الذهب الذي عنده مصري، فقال :فيتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية ، واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما، ويرتكب في كسب الأجر آثاما، فسمح ومنح، وتاجر الله وربح،ولما عزم على الرحيل من حران أفاض بها الفضل وبث الاحسان، وقال لي يوم الرحيل: انظر كم بقي بالباب من الوافدين أبناء السبيل وهذه ثلاثمائة دينار أقسمها عليهم بالقلم على أقدارهم، وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة، فعينت لكل اسم قسما فبلغ أربعمائة دينار، فأعلمته وقلت أنقص من كل اسم ربعا، فقال اجر ما جرى القلم به.

قال: وكان رحمه الله إذا أطلق لعاف عارفة، وقلت له: هذه ماتكفيه ردّها مضاعفة.

قال: وكان يغضب للكبائر، ولا يغضي عن الصغائر، ويرشد إلى الهدى، ويهدي إلى الرشاد، ويسدد الأمر، ويأمر بالسداد، فكل مماليكه وخواصه بل أمراؤه وأجناده أعف من الزهاد والعباد.

قال: ورأى لي يوماً دواة محلاة بالفضة،فأنكرها، فقلت له: إن الشيخ أبا محمد والد أبي المعالي قد ذكر وجها في جوازها، ثم لم أكتب بها عنده بعدها.

وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها، مواظبا على أداء مفروضاتها ومسنوناتها، فما رأيته صلى إلا في جماعة ، ولم يؤخر له صلاة من ساعة إلى ساعة، وكان له امام راتب ملازم مواظب، فان غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم، إذاعرفه متقيا متجنبا للاثم، وكان يأخذ بالشرع ويعطي به، ولم يكن إلى المنجم مصغيا، ولم يزل لقوله ملغيا،ولا يتعيف ولا يتطير، ولا يتعين ولا يتحير، بل إذا عزم توكل على الله، فلا يفضل يوما على يوم، ولازمانا على زمان إلا بتفضيل الشرع، ومازال ناصراً للتوحيد، وقامعا جميع اهل البدع بالتبديد، شافعي المذهب أصولا وفروعا، معتقلا له معقولا ومسموعا، يدني أهل التنزيه، ويقصي أهل التشبيه، ويديم استفادة فقه الفقيه،واستزادة نباهة النبيه، ووجاهة الوجيه، فالعالمون في عدله،والعاملون في فضله والبلاد في أمنه، والعباد في منه.

فصل

قال القاضي ابن شداد: كان مولد السلطان رحمه الله في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت، وكان والده أيوب بن شادي واليا بها، وكان كريما، أريحيا حليما، حسن الأخلاق مولده بدوين، ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل، وانتقل ولده المذكور معه، وأقام بها إلى أن ترعرع، وكان والده محترما مقدّما، هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكي، واتفق لوالده الانتقال إلى الشام وأعطي بعلبك وأقام بها مدّة ومعه ولده المذكور، فأقام في خدمة والده يتربى تحت حجره، ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه حتى بدت منه أمارات السعادة، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة، وقدّمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، وعوّل عليه، ونظر إليه وقربه وخصصه، ولم يزل كلما تقدم قدما يبد منه أسباب تقتضي تقديمه إلى ماهو أعلى منه، حتى اتفق لعمه أسد الدين شيركوه الحركة إلى مصر، والنهوض إليها وقد مضى ذلك.

ثم قال:

ذكر ماشاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية

مما ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:«بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله الا الله، وإقام الصلاة،وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام» فكان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، ويتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا

حسنا، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه والتعطيل، جاريةعلى نمط الاستقامة، وكان قد جمع له الشيخ الامام قطب الدين النيسابوري رحمه الله عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدّة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده، حتى ترسخ في أذهانهم من الصغر، ورأيته وهو يأخذها عليهم، وهم يقرؤونها من حفظهم عليه.

وأما الصلاة فإنه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، وكان يواظب على السنن والرواتب، ولقد رأيته يصليها إن استيقظ بوقت الليل وإلا اتى بها قبل صلاة الصبح، وما كان يترك الصلاة مادام عقله عليه، ولقد رأيته يصلي في مرضه الذي مات فيه قائما، وماترك الصلاة إلا في الايام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه، وكان إذا أدركته الصلاة وهوسائر نزل وصلى.

وأما الزكاة فانه مات رضي الله عنه ولم يحفظ ماوجبت عليه به الزكاة، وأما صدقة النفل فانها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال.

وأما صوم رمضان فإنه كان عليه فيه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة،وكان القاضي الفاضل قدتولى ثبت تلك الأيام، وشرع رحمه الله في قضاء فوائت ذلك في القدس الشريف في السنة التي توفي فيها، وواظب على الصوم مقدارا زائدا على شهر فإنه كان عليه فوائت رمضانين، شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها، وكان الصوم لايوافق مزاجه فألهمه الله الصوم لقضاء الفوائت، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها ، فان القاضي كان غائبا، والطبيب يلومه وهو لايسمع ويقول: ماأعلم مايكون ، فكأنه كان ملهما براءة ذمته، ولم يزل حتى قضى ما عليه رحمه الله.

وأما الحج فإنه لم يزل عازما عليه وناويا لـه لاسيما في العام الذي توفي فيه، فـإنه صمـم العزم عليه وأمـر بالتأهـب، وعملت الـزوادة ولم يبق إلا المسير، فـاعتاق عـن ذلـك بسبب ضيـق الوقـت ، وفـراغ اليد عما يليـق بأمثاله، فأخره إلى العام المستقبل، فقضى الله ماقضى.

قـال: وهـذا شيء اشترك في العلم بـه الخاص والعـام، وكـان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم حتى أنه كـان يستخير إمامه، ويشترط عليه أن يكون عالما بعلـوم القرآن العظيم متقنا لحفظه، وكـان يستقرىء من يحضره في الليـل، وهو في بـرجـه الحزبين والثلاثـة والأربعـة وهـو يسمع، وكـان يستقرىء في مجلسه العام مـن جرت عادته بذلك الآيـةوالعشرين والزائد على ذلـك، ولقـد اجتـاز على صغير بين يـدي أبيـه وهـو يقـرأ القـرآن، فاستحسن قراءتـه فقرّبه وجعل له حظا من خاص طعـامه، ووقف عليه، وعلى أبيه جزءا من مـزرعة،وكان رحمه الله خاشع القلب رقيـق الدمعة إذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمـع عينه في معظم أوقاته، وكان شديد الرغبـة في سماع الحديث،ومتـى سمع عـن شيخ ذي روايـة عاليـة وسماع كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمـع عليه، واسمع من يحضره في ذلـك المكان مـن أولاده ومماليكـه والمختصين بـه، وكان يـأمر النـاس بالجلـوس عند سماع الحديـث اجلالاً له، وإن كـان الشيخ ممـن لايطرق أبواب السـلاطين ويتحامـى عن الحضور في مجالسهـم سعى إليـه وسمع عليه، تـردد إلى الحافظ السلفي بالاسكنـدرية وروى عنه أحـاديث كثيرة، وكان يحب أن يقـرأ الحديث بنفسـه، فكان يستحضرني في خلـوته ويحضر شيئامـن كتب الحديـث، ويقرأ هـو فإذا مـر بحديـث فيه عبرة رق قلبـه ودمعت عينـه، وكان كثير التعظيـم لشعائر الديـن قائلا ببعـث الأجسام ونشورها ، وبمجازاة المحسن بالجنة والمسيء بـالنار، مصدقا بجميع ماوردت بـه الشرائع منشرحا بـذلـك صـدره، مبغضـا للفـلاسفـةوالمعطلـة والدهريـة،ومن يعاند الشريعة المطهـرة ، ولقد أمر ولده الظاهـر صاحب حلب بقتل شاب كان نشأ يقال له السهـروردي، قيل عنه أنه كان معانداً

للشرائع مبطلا، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره، وعرّف السلطان به فأمر بقتله وصلبه أياما فقتله، وكان حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الانابة إليه، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه، فحكى التجاءه إلى الله تعالى عند خوفه من قصد الفرنج بيت المقدس،وامتناع أصحابه من دخوله للحصر، فصلى ودعا فكفي ذلك، وقد تقدّم ذكره.

ثم قال: وكان رحمه الله عادلا رؤوفا رحيما ناصرا للضعيف على القوي، وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير، وعجوز هرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً، على أنه كان في جميع زمانه قابلا لمايعرض عليه من القصص، كاشفا لما ينهى إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ثم يجلس مع الكاتب ساعة في الليل أو في النهار، ويوقع على كل قصة بما يطلق اللهعلى قلبه، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع ظلامته،وأخذ قصته، وكشف قضيته، ولقد ر أيته وقد استغاث إليه انسان من أهل دمشق، يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه، وأنفذ إليه ليحضره في مجلس الحكم، فما خلصه إلا أن أشهد عليه شاهدين أنه وكل القاضي أمين الدين أبا القاسم قاضي حماه في المخاصمة، فأقاما الشهادة عندي في مجلسه، فأمرت أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه،وكان من خواص جلساء السلطان، ثم جرت المحاكمة بينهماواتجهت اليمين على تقي الدين، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه،وأعظمهم عنده ، ولم يحابه في الحق.

قال: وكنت يوما في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل عليّ شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي، ومعه كتاب حكمي سأل فتحه، وقال: خصمي السلطان، وهذا بساط الشرع، وقد سمعنا

انك لاتحابي، فقلت : وفي أي قضية هو خصمك، فقال: إن سنقر الخلاطي كان مملوكي، ولم يزل على ملكي إلى أن مات، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي، ومات عنها، واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه، فقلت: ياشيخ وما الذي أقعدك إلى هذه الغاية فقال: الحقوق لاتبطل بالتأخير، وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش في اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا، وماعرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه وتمم الشرط إلى آخره، فتعجبت من هذه القصة،وأعلمت السلطان بذلك، فأحضره واستدناه حتى جلس بين يدي، وكنت إلى جانبه ثم انفرك من طرّاحته حتى ساواه رحمه الله تعالى، ثم ادّعى الرجل وفتح كتابه وقرىء تاريخه، فقال السلطان :إن لي من يشهد أن سنقر هذا كان في ملكي وفي يدي بمصر، وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وأنه لم يزل في يدي وملكي إلى أن اعتقته، ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء المجاهدين فشهدوا بذلك وحكوا القضية كماذكرها، وذكروا التاريخ كما ادّعاه، فأبلس الرجل فقلت له: يامولانا هذا الرجل ما فعل ذلك الا طلبا لمراحم السلطان، وقد حضر بين يدي المولى ومايحسن أن يرجع خائب القصد، فقال: هذا باب آخر، وتقدّم له بخلعة ونفقة بالغة.

قال: فانظر إلى ما في طي هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة من التواضع والانقياد إلى الحق وإرغام النفس، والكرم في موضع المؤاخذة مع القدرة التامة رحمة الله عليه.

قال: وكرمه كان أظهر من أن يسطر، كان رحمه الله يهب الأقاليم وفتح آمد فطلبها منه ابن قرا أرسلان فأعطاه إياها، ورأيته وقد اجتمع عنده وفود بالقدس ولم يكن في الخزانة مانعطيهم، فباع قرية من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد، وكان يعطي في وقت

الضائقة كما يعطي في حال السعة، وكان نواب خزانته يخفون عنه شيئا من المال حذر أن يفجأهم لعلمهم أنه متى علم به أخرجه، وسمعته يوما يقول: يمكن في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب، فكأنه أراد بذلك نفسه، وكان يعطي فوق مايؤمل الطالب،وماسمعته يقول: أعطينا لفلان، وكان يعطي الكثير، ويبسط وجهه للمعطى بسط من لم يعط شيئا، وكان الناس يستزيدونه في كل وقت، وماسمعته قط يقول: قد زدت مرارا فكم أزيد؟ وأكثر الرسائل في ذلك كان يكون على لساني ويدي وكنت أخجل من كثرة مايطلبون، ولا أخجل منه لعلمي بعدم مؤاخذته بذلك، وماخدمه قط أحد الاّ وأغناه عن سؤال غيره.

وأما تعدد عطاياه فقال: حصرنا عدد ماوهب من الخيل بمرج عكا لاغير فكان عشرة آلاف رأس، ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر، اللهم إنك ألهمته الكرم، وأنت أكرم الأكرمين فتكرّم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين.

قال: وكان رحمه اللهمن عظماء الشجعان،قوي النفس شديد البأس،عظيم الثبات لايهوله أمر، ولقد رأيته مرابطا في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج، ونجدهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لايزداد إلا قوة نفس، وصبرا، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبا على عكا، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لايزداد إلا قوة نفس، ولقد كان يعطي دستورا في أوائل الشتاء، ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدّتهم الكثيرة، ولقد سألت باليان بن بارزان،وهو من كبار ملوك الساحل، وهو جالس بين يديه يوم انعقاد الصلح عن عدتهم الكثيرة، فقال الترجمان عنه أنه يقول كنت أنا وصاحب صيدا وكان أيضا من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تحاورنا فحزره هو بخمسمائة ألف، وحزرته أنا بستمائة ألف، أوقال عكس ذلك، فقلت: كم هلك منهم؟ فقال: أما بالقتل فقريب

مائة ألـف، وأما بـالموت والغرق فـلا يعلم، ومـارجع مـن هذا العـالم إلا الأقل.

قال: وكـان لابدّ له مـن أن يطوف حول العـدو كل يوم مـرة أو مرتين إذا كنا قريبا منهم، وكان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحـد، وعلى يده جنيـب، ويخرق العساكـر من الميمنـة إلى الميسرة يرتـب الأطلاب ويأمرهم بالتقدّم والوقـوف في مواضع يراها،وكان يشارف العدو ويجاوره، ولقد قرىء عليه جزء مـن الحديث بين الصفين، وذلك أني قلت لـه قدسمـع الحديث في جميع المواطن الشريفـة، ومانقـل أنه سمـع بين الصفين، فـإن رأى المولى أن يؤثـر عنه ذلـك كان حسنـا، فأذن في ذلـك فـأحضر جـزءا هناك مـن لـه بـه سماع، فقـرىء عليه ونحـن على ظهـور الدواب بين الصفين يمشي تـارة ويقف أخرى، ومـا رأيته استكثـر العدو أصـلا، ولا استعظـم أمـرهـم قـط، وكـان مـع ذلـك في حـال الفكـر والتدبيريذكر بين يـديه الأقسام كلها، ويرتب على كـل قسم مقتضاه من غير حدّة ولا غضب يعتريه، ولقـد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله، ووقـع الكوس والعلم وهوثابت القدم في نفـر يسير، وقد انحـاز إلى الجبل يجمـع النـاس ويردّهـم ويخجلهم حتـى يرجعوا، ولم يـزل كذلك حتى عكس المسلمون على العـدو في ذلك اليوم، وقتل منهـم زهاء سبعـة آلاف مابين راجـل وفارس، ولم يـزل مصابـرا لهم وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر لـه ضعف المسلمين فصالح وهومسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهـم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة، ونحن لانتوقعها، وكانت المصلحة في الصلح.

وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريـه أحوال مهولة وهوصابـر مرابط وتتراءى النـاران ونسمع منهـم صـوت الناقـوس، ويسمعـون منا صـوت الأذان إلى أن قضي الأمر.

قال: وكـان رحمه الله شديد المواظبـة على الجهاد عظيم الاهتمام بـه ولو حلف حـالف أنه ماأنفـق بعد خروجه إلى الجهـاد دينارا ولا درهما إلا في الجهـاد، وفي الارفـاد، لصـدق وبـر في يمينـه، ولقـد كـان الجهـاد وحبـه والشغف بـه قد استولى على قلبه وسـائر جوانحه استيـلاء عظيما، بحيث ماكـان له حديـث إلا فيه ولا نظـرإلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجـاله، ولا ميل إلا إلى مـن يذكره ويحث عليه، ولقـد هجر في محبة الجهـاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه، وقنـع من الدنيا بالسكون في ظل خيمـة تهب بها الرياح يمنةويسرة، ولقـد وقعت عليه الخيمـة في ليلة ريحة على مرج عكا، فلـو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيـده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماما.

قلت: وشـواهد ماذكـر القاضي من ذلـك كثيرة، وقد سبقت مفـرقةفي وقعاته رحمه الله، منها ماقاساه على حصـار كوكب من الأمطار والأوحال، وقال الرشيد بن النابلسي من قصيدة له:

مـا أبهج الـديـن والـدنيـا بمالكهـا الصـ
ـديق يـوسـف لا لاذت بـه الغير
ملـك تسـاوى جمادى في الجهـادوتمـ
ـموز لـديـه وضـاهـى نـاجـراً صفـر
فليـس يثنيـه حـران تـوقـد عـن
رضـى الالـه ولا إن اغـدق المطـر
ولا ينهنهـه عمايكـابـده
ضـج أعيـذ معـاليـه ولا ضجـر
ولا يـرى الـروح الا ظهـر سلهبـة
في بطـن معـركـة مـركـوبها وعـر
صبر جميـل كطعـم الشهـد في فمـه
وعنـد كـل مليـك طعمـه الصبر

قـال القـاضي: وكـان الـرجـل إذا أراد أن يتقـرب إليـه يحثـه على

الجهاد،أويذكر شيئا من أخبار الجهاد،ولقد ألف له كتب عدّة في الجهاد،وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت به آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي فيه، وشرحت غريبها، وكان رحمه الله كثيراً مايطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل.

قال: ولأحكين عنه ماسمعت منه في ذلك، وذلك أنه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين، وأعطى العساكر دستورا وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر، وكان مقدمه أخاه العادل، فسار معه ليودعه، ويحظى بصلاة العيد في القدس ففعل ووقع له أنه يمضي معهم إلى عسقلان ويودعهم، ثم يعود على طريق الساحل ويتفقد البلاد الساحلية إلى عكا، ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن لايفعل فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدة يسيرة ، والفرنج كلهم بصور، وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت وودع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا على الساحل طالبي عكا، وكان الزمان شتاء عظيما، والبحر هائجا هيجاناعظيما، وموجه كالجبال ، كماقال الله تعالى، وكنت حديث عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أنني لو قال لي قادر: لو جزت في البحر ميلا واحدا ملكتك الدينا، لما كنت أفعل، واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم واستخففت رأي من لايقبل شهادة راكب البحر، هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه، فبينا أنا في ذلك اذ التفت اليّ وقال: في نفسي انه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لاأبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت، فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ماكان يخطر لي، وقلت له ليس في الأرض أشجع نفسا من المولى، ولا أقوى نية منه في نصرة دين الله، وحكيت له ماخطر لي، ثم قلت ما هذه الآنية جميلة، ولكن المولى يسير في البحر العساكر، وهو سور الاسلام ولاينبغي أن يخاطر بنفسه، فقال:

أنا أستفتيك ماأشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله، فقال:غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات، قال: انظر الى هـذه الطوية ماأطهرها، وإلى هذه النفس مـاأشجعها وأجسرها، اللهم إنك تعلم أنـه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه.

قال: وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكـا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثـرة دماميـل، كانـت ظهرت عليـه من وسطـه إلى ركبته بحيـث لايستطيـع الجلوس، وإنما يكـون متكئـا على جـانبه إذا كـان في الخيمـة، وامتنع من مد الطعـام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكـان يأمر أن يفرق على الناس، وكان مـع ذلك كله يركـب من بكرة النهار إلى صـلاة الظهر يطوف على الأطـلاب، ومن صلاة العصر إلى صـلاة المغرب وهو صـابر على شدّة الألم وقوّة ضربـان الدمامل، وكان يعجب مـن ذلك فيقول رحمه الله: إذا ركبـت يزول عنـي ألمها حتـى أنزل، وهـذه عنـاية ربـانية، ولقـد مرض ونحن على الخروبـة،وكان قد تأخـر عن تل الحجل بسبـب مرضه، فبلغ الفرنـج ذلك فخرجوا طمعـا في أن ينالوا من المسلمين شيئـا بسبب مرضه، وهي نوبة النهر فخرجـوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التل، ثم رحـل العدو في اليـوم التالي يطلبنـا، فركـب رحمه الله على مضض ورتـب العسـاكر للحـرب وجعل أولاده في القلـب، ونزل هـو وراء القوم بطلبـه، وكلما سـار إلى العدو يطلـب رأس النهـر سار هـو يستـدير إلى ورائهـم، حتـى يقطع بينهـم وبين خيـامهم، وهـو رحمه الله يسير سـاعـة ثم ينـزل يستريح ويظلل بمنديل على رأسه مـن شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لايـرى العدو ضعفا، ولم يزل كـذلك حتى نزل العـدو برأس النهر ونزل هـو على تل قبالتهم مطـل عليهم إلى أن دخل الليل، ثـم أمر العساكر أن تعود إلى محل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح، وتأخر هو إلى قمة الجبل، وضربت له خيمة لطيفة، وبات تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغلـه، وهوينام تارة ويستيقظ تارة أخـرى حتى لاح الصباح، ثـم ضرب البوق وركـب رحمه الله، وركبت العسـاكـر، وأحدقـت بالعـدو

ورحل العدو عائدا إلى خيمه من الجانب الغربي للنهر، وضايقه المسلمون مضايقة شديدة، وفي ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتسابا: الأفضل والظاهر، والظافر، وجميع من حضره منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا وطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لاغير فيظن الرائي لها عن بعد أن تحتها خلقا كثيرا، وليس تحتها إلا واحد يعد بخلق عظيم رحمه الله، وبقي في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ماباتوا عليه بارحتهم، وبتنا على مابتنا عليه إلى الصباح، وعاد العسكر إلى ماكان عليه بالأمس من مضايقة العدو.

قال: ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها، وقال :لاننام الليلة حتى ينصب لنا خمسة مجانيق، ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه وكنا طول الليل في خدمته في ألذ فكاهة وأرغد عيشة والرسل تتواصل مخبرة بأنه نصب من المنجنيق الفلاني كذا، ومن الآخر كذا حتى أتى الصباح وقد فرغ منها، وكانت من أطول الليالي وأشدّها برداً ومطراً.

قال :ولقد رأيته وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق يسمى اسماعيل، فوقف على الكتاب، ولم يعرف أحد ولم نعرف حتى سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه رحمه الله.

قال: ولقد رأيته وقد وصله خبر وفاة تقي الدين، ونحن في مقابلة الفرنج جريدة على الرملة، وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام،ويقف الناس على ظهر إلى الصباح والعدو بيازور بيننا وبينه شوط فرس لاغيرها، فأحضر العادل وابن جندر وابن المقدم وابن الداية سابق الدين، وأمر بالناس فأبعدوا عن الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد عن غلوة سهم، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاء شديدا حتى أبكانا

مـن غير أن نعلـم السبـب، ثـم قـال رحمه الله والعبرة تخنقـه: تـوفي تقـي الدين، فـاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة، ثم عـدت إلى نفسي فقلت: أستغفر الله من هذه الحالـة وانظروا أين أنتم، وأعرضـوا عما سواه، فقال رحمه الله: نعم أستغفر الله، وأخذ يكررها ثم قال: لايعلم هذا أحد.

قـال: وكان رحمه الله شـديـد الشوق والشغـف بـأولاده الصغار، وهـو صابـر على مفارقتهـم راض ببعدهـم عنه، وكـان صابـرا على مر العيش وخشونتـه مع القدرة التـامة على غير ذلك احتسـابا لله تعالى، اللهـم إنه ترك ذلك كله ابتغاء لمرضاتك فارض عنه.

قـال: ولقد كـان رحمه الله حليما متجاوزا قليـل الغضـب، ولقد كنـت بخدمتـه بمرج عيون قبـل خروج الفـرنج إلى عكا، يسر الله فتحهـا، وكان من عادته أنه يركب في وقت الركـوب، ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس، ثـم ينهض إلى خيمة خاصـة له ينام فيهـا ثم يستيقظ من منـامه ويصلي ويجلس خلـوة، وأنا في خدمته يقـرأ شيئا من الحديث أوشيئـا من الفقه ولقد قرأ عليّ كتابا مختصرا لسلـم الرازي يشتمل على الأرباع الأربعة مـن الفقه، فنـزل يومـا على عـادته ومـدّ الطعـام بين يديـه ثم عـزم على النهوض فقيـل له: إن وقـت الصلاة قـد قرب، فعـاد إلى الجلوس وقـال: نصلي ونـنام، ثم جلـس يتحدث حـديث متضجـر وقد أخلي المكـان إلا عمن لـزم، فتقدم إليـه مملوك كبير محترم عنده وعـرض عليه قصـة لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجر أخـرها ساعة، فلم يفعل وقدّمها إلى قريب مـن وجهه الكريم بيده وفتحهـا بحيث يقرؤها، فـوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه وقال :رجل مستحـق، فقال يوقع له المولى فقال: ليست الدواة حـاضرة الآن، وكان رحمه الله جالسا في بـاب الخركاة بحيث لايستطيع أحـد الدخـول إليها والـدواة في صدز الخركـاه والخركاة كبيرة، فقال لـه المخاطب هـاهي الدواة في صـدر الخركاه، قال القـاضي :فليس لهذا معنـى إلاأمـره إيـاه بـإحضار الـدواة لاغير، فـالتفـت رحمه الله فـرأى

الدواة، فقال: والله صدق، ثم استند على يده اليسرى، ومد يده اليمنى، واحضرها، ووقع له، فقلت: قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم:(وانك لعلى خلق عظيم)(١٣٨) وماأرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق، فقال: ماضرنا شيء قضينا حاجته، وحصل الثواب، قال القاضي: ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس لقام وقعد، ومن الذي يقدر أن يخاطب أحدا هو تحت حكمه بمثل ذلك، وهذا غاية الاحسان والحلم، (والله لايضيع أجر المحسنين)(١٣٩).

قال: ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لايتأثر لذلك، ولقد نفرت يوما بغلتي من الجمال وأنا راكب في خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يتبسم، ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس،كثير الوحل، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ماكان عليه، وهو يتبسم،وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني ، ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر و القبول.

ثم قال القاضي: وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها، فذكر ماتقدم من امتناع عسكره من الهجوم على ملك الانكلتيز، وهو في جمع يسير من اصحابه بعد أن أطافوا بهم، وواجه الجناح السلطان بذلك الكلام الخشن، فرجع السلطان مغضبا وظن أنه ربما صلب وقتل في ذلك اليوم، فنزل بيازور، وقد وصله من دمشق فاكهة كثيرة فطلب الأمراء ليأكلوا،فحضروا فرأوا من بشره وانبساطه ماأحدث لهم الطمانينة والأمن والسرور.

قال: وكان رحمه الله كثير المروءة، ندي الوجه كثير الحياء منبسطا لمن يرد عليه من الضيوف، يكرم الوافد عليه،وإن كان كافرا، ولقد وفد عليه البرنس صاحب أنطاكية فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته،

بعد وقوع الصلح في شوّال عند منصرفه من القدس الى دمشق، وقد تقدم ذلك وعرض له في الطريق، وطلب منه شيئا، فأعطاه العمق وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل سنة أربع وثمانين، ولقد رأيته وقد دخل إليه صاحب صيدا فاحترمه واكرمه وأكل معه، وعرض عليه الاسلام وذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه، وكان يكرم من يرد عليه

من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا لئلا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين ، حتى نحضرهم عنده ويناهم من احسانه، ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين رجل جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوي الأقدار، وكان أبوه صاحب توريز، فأعرض هوعن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل، وحج ووصل زائرا لبيت الله المقدس، ولما قضى لبانته منه ورأى اثار السلطان فيه، وقع له زيارته فوصل إلينا إلى العسكر، فلقيته ورحبت به، وعرفت السلطان وصوله فاستحضره وشكره عن الاسلام وحثه على الخير، وانصرف وبات عندي في الخيمة ،فلما صلينا الصبح أخذ يودّعني، فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك وقال: قضيت حاجتي منه ولاغرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته، ثم انصرف من ساعته ومضى على ذلك ليال، فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله،فظهر عليه اثار العتب كيف لم اخبره برواحه، وقال: كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان يمسه منا، وشدّد النكير عليّ في ذلك، فماوجدت بدا من أن أكتب كتابا إلى محيي الدين قاضي دمشق، كلفته فيه السؤال عن حال الرجل، وايصال رقعة كتبتها اليه طي كتابي أخبرته فيها بانكار السلطان رواحه من غير اجتماع به، وحسنت له فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك فعاد واجتمع بالسلطان، فرحب به وانبسط معه واستوحش له، وأمسكه أياما ثم خلع عليه خلعة حسنة،و أعطاه مركوبا لائقا وثيابا كثيرة ليحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه، ونفقة يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر الناس له وأخلصهم دعاء لأيامه.

قال: ولقد ر أيته رحمه الله وقد مثل بين يديه أسير فرنجي ، وقد هابه بحيث ظهر عليه أمارات الخوف والجزع ، فقال له الترجمان : من أي شيء تخاف فأجرى الله على لسانه أن قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أني ماأرى إلا خيرا فمنّ عليه وأطلقه، ورق له.

قال: وكنت راكبا في خدمته في بعض الأيام قبالة الفرنج ووصل بعض اليزكيةومعه امرأة شديدة التحرق، كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها، فذكر قصة أم الرضيع الذي سرق وقد مضت.

قال: وكان رحمه الله لايرى الاساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الجناية، ولقد بدل في خزانته كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنواب شيئا سوى أنه صرفهم من عملهم لاغير، وكان رحمه الله حسن العشرة لطيف الأخلاق طيب الفكاهة، حافظا لأنساب العرب ووقائعهم، عارفا بسيرهم وأحوالهم ، حافظا لأنساب خيلهم، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد محاضره منه مالايسمعه من غيره، وكان يسأل الواحد مناعن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه، وتقلبات أحواله ، وكان طاهر المجلس لايذكر بين يديه أحد إلا بالخير، وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا بالخير، وطاهر اللسان فما رأيته أولع بشتم قط، وطاهر القلم فما كتب بقلمه أذى لمسلم قط، وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفه، وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلفه، إن كان له من أهله كبير يعتمد عليه وسلمه إليه، وإلا أبقى له من الخبز مايكفي حاجته، وسلمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته، وكان مايرى شيخا إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله عز وجل إلى مقر رحمته، ومحل رضوانه.

قلت: ولجعفر بن شمس الخلافة من قصيدة رثاه بها:

ألست ترى كيف انبرى الخطب ثائرا
ومدّ يداً آمنه إلى دافع الخطب

إلى الناصر الملك الذي ملئت به
قلوب البرايا من رجاء ومن رعب

كريم أتاه الموت ضيفا فلم يكن
لينزله إلا على السهل والرحب

ولو خاب منه قبل ذلك سائل
لخاب وليس البخل من شيم السحب

قضى فقضى المعروف وانقرض الندى
وحطت رحال الوفد في الشرق والغرب

أفاض على الدنيا سجال نواله
فغاضت عليه أعين العجم والعرب

ولو أنه يبكى على قدر حقه
أسال دموع المزن من أعين الشهب

جزاه عن الاسلام خيرا إلهه
فما مل عنه من دفاع ومن ذب

تداركه بعد ابتذال فقد غدا
وكان شديد الخوف من مقارنة الصلب

أذل الله العدا مذ أطاعه
وسهل منهم كل ممتنع صعب

سقى الخلد عند الله دار مقره
يمتع منه بالجوار وبالقرب

فصل

في انقسام ممالكه بين أولاده وأخوته وبعض ماجرى بعد وفاته

قال العماد في كتاب البرق: خلف السلطان سبعة عشر ولداً.

أكبرهم الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس وستين وخمسمائة، وتولى بعده دمشق إلى أن خرج منها إلى صرخد، وتولاها عمه العادل في شعبان سنة اثنتين وتسعين مضافة إلى ممالكه بالبلاد الشرقية والجزيرة وديار بكر.

ثم الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان، ومولده بمصر ثامن من جمادى الاولى سنة سبع وستين، وتوفي بها في ملكه ليلة الاحد العشرين من محرم سنة خمس وتسعين، وتولى بعده احد اولاده الصغار.

ثم الملك الظاهر غياث الدين غازي، ومولده بمصر منتصف شهر رمضان سنة ثمان وستين، وتولى حلب واعمالها.

قال :ولقد أنشأت الرسالة الموسومة بالعتبى والعقبى فيما طرأ بعد السلطان إلى آخر سنة اثنتين وتسعين.

وقال في كتاب الفتح :تولى الملك الأفضل دمشق والساحل ومايجري مع ذلك من البلاد، وهو الذي حضر وفاة والده، وقام بسنة العزاء، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الآلاء وإدناء الاولياء، وخلع على الاماثل والامراء والافاضل والعلماء وآوى اليه اخوته، وضم جماعته، وجهز اخاه الظافر خضرا مظفر الدين وانهضه لانجاد عمه العادل، كما سنذكره، وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك ومايجري معها في المملكة

الافضلية داخله، وقدم عليه سلطاناهما الملكان المجاهد والامجد الى دمشق، فتأكدت بينهم القرابة والالفة، ولما استقر الافضل بدمشق في مقام والده قدّم الى الديوان العزيز نجابين بانهاء الحال، ثم ندب ضياء الدين بن الشهرزوري في الرسالة، واصحبه عُدة والده في الغزاة وسيفه، ودرعه وحصانه، واضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ما استنفد وسعه وامكانه، فما تهيأ مسير الرسول إلا في اواخر جمادى الآخرة، حتى حصل كل ما أراد من الهدايا الفاخرة، وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله، حتى لايظن انه انفرد بسوله، وقصد مداراة اخوته، وفضل بفضل نخوته، وذلك بعد ان جدّد نقش الدينار والدرهم بسمتي امير المؤمنين وولي العهد عدّة الدين.

وقال ابن القادسي: وفي يوم الثلاثاء مستهل رمضان حمل ابن الشهرزوري ماكان أصحبه الافضل من حمل الشام الى الديوان العزيز، وهو صليب الصلبوت الذي كان قد أخذه والده، وذكر أنه ذهب يزيد على العشرين رطلا مرصعا بالجواهر، ومعه خادم مختص بخدمته، وحمل فرس أبيه وزرديته وخوذته وكانت صفراء مذهبة، ودبوس حديد وسيف وأربع زرديات، وقالوا هذه تركته وبها كان يقاتل، وتحفا جمة من الثياب، وحمل في جملة التحف أربع جوار من بنات ملوك الروم فيهن ابنة بارزان، وبنت صاحب جبلة.

قال العماد: وأمرني بانشاء الكتب وتحريرها، وتقريب المقاصد وتقريرها، منها :«اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء، ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء، ولسانه ناطق بشكر النعماء، وجنانه ثابت من المهابة والمحبة على الخوف والرجاء، وطرفه مغض من الحياء، وهو للارض مقبل، وللفرض متقبل، وهو يمت بما قدمه واسلفه من الخدمات وذخره ذخر الأقوات لهذه الأوقات، وقد أحاطت العلوم الشريفة بأن الوالد السعيد الشهيد الشديد السديد المبير

للشرك المبيد، لم يزل أيام حياته، وإلى ساعة وفاته مستقيها على جدد الجدّ، مستقيها في صون فريضة الجهاد إلى بذل الجهد، ومصر بل الامصار باجتهاده في ا لجهاد شاهده، والأنجاد والأغوار في نظره واحدة، والبيت المقدس من فتوحاته، والملك العقيم من نتائج عزماته، وهو الذي ملك ملوك الشرق وغل اعناقها، وأسر طواغيت الكفر وشدّ خناقها، وقمع عبدة الصلبان وقطع اصلابها، وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها، ونظم أسبابها، وسدّ الثغور وسدد الأمور، وقبض وعدله مبسوط وامره محوط، ووزره محطوط، وعمله بالصلاح منوط، وماخرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الإمامية داخل، وبمتجرها الرابح الى دار المقامة راحل، ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها والاستكثار من مادتها، وان مضى الوالد على طاعة إمامه، فالمماليك أولاده وأخواه في مقامه».

قال: وتولى ولده الملك العزيز أبو الفتح عثمان مصر وجميع اعمالها، وأبقاها على اعتدالها، ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها، واحيى سنتي الجود والباس، وثبت القواعد من حسن السياسة على الاساس، واطلق كل ماكان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة، وضاعف ماكان يطلق برسم العفاة، وقدّم أمر بيت الله المقدس وعجل له عشرة آلاف دينار مصرية لتصرف في وجوه ضرورية، ثم أمده بالحمل، وأفاض عليه من الفضل، وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته، وأقوى يده برعايته، ووالى حمل الغلات من مصر إلى القدس، وابدل وحشته بوفاة السلطان من وفائه بالانس، ثم أشفق من غدر الفرنج في فسخ الهدنة، فأتى من تجهيز العساكر الى البيت المقدس بكل ما في المكنة، ثم سمع بحركة المواصلة ومن تابعهم، وبايعهم وشايعهم، وقد خرجوا في ايمانهم حانثين، فخيم ببركة الجب واستشار امراءه أهل الرأي واللب، وجهز جيشا فوصلوا إلى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم،وهز منهم أعطاف الاستكانة له بعد هزمهم، فرأى ان الحمد اعود.

قال :وتـولى حلب وأعمالها وحصونهاومعاقلهـا وكرائم البلاد وعقـائلها الملـك الظـاهر غـازي، وهـو بـرجـاحته وسماحتـه الطـود والجود الموازن الموازي، وملـك مملكـة أقطـارهـا واسعة، وأمصـارهـا شـاسعـة، فحماهـا وحواها، وبماء العدل رواها وقـوّاها، وأقر البيرة وأعمالهاومايجري معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود، ودخل في امره صاحب حماه ابن تقي الدين فأعزه وحماه.

قلت :وهو مأوى ذرّية والده، وبقـي الملك منهم في عقبه، وانحاز كل من أخـوته وأولادهم إليـه، وعوّلوا في تمشية أمـورهم عليه، والأمـر مستمر على ذلك في عقبه إلى الآن، والله تعالى ولي الاحسان.

ثـم زال ملك هـذا البيت في صفـر سنة ثمان وخمسين وستمائة بسبـب غلبة التتار الكفرة على ا لبلاد، والله بصير بالعباد.

ومـن كـلام القـاضي الفـاضل في جـواب ورد عليـه منـه بعـد مـوت السلطان:«متـى رأى المملوك خـط مولانا طـالعا في كتـاب، وطليعة على خطاب،تمثـل ذلك الشخـص الكريـم، وذلك السلطـان العظيم، وذلـك الخلق الكريم، وذلـك العهد القديم، فحيي بعد موتـه، وسبح من(يحيي العظـام وهي رميـم)[١٤٠] ،ورفـع يـده بها الله رافعه، ودعـا بصـالـح الله سامعه».

قال العماد: وكـان الملك العـادل مع السلطـان في الصيد قبـل وفاتـه، وكان مـوافقه ومرافقـه في مقتضياتـه، فلما عاد السلطان إلى دمشـق ودّعه ومضى إلى حصنـه بالكرك، فنـابه النائب، ولم يحضر وقـت احتضاره الاخ الغـائب، فلما عرف وصـل الى دمشـق بعد أيـام، ولم يطـل المقام ورحـل طالبا لبلاده بالجزيرة، حذراعليهـا من أهل الجريرة، وكان السلطان جعل له كل ماهو شرقي الفرات مـن البلاد والولايات، فلما وصل إلى الفرات

وجد مماخافه دلائل الفترات، فأقام بقلعة جعبر، وسير إلى الولايات الولاة، ووصى برعاياه الرعاة، واستناب في ميافارقين وحاني وسميساط وحرّان والرّها، وشحنها بالشحن وعلم العدا انه في خف، فخفوا وعرضوا وصفوا، وكان سيف الدين بكتمر صاحب خلاط قد استبشر بموت السلطان، وتلقب بالملك الناصر، وحدّث أمله بجر العساكر، وراسل صاحبي الموصل وسنجار، وطير إليهم كتب الاستنفار، وضم إليه من ماردين ماردين، وطار وطاش، وارتاش وانتاش، فبينا هو في أثناء ذلك قتلته الاسماعيلية بخلاط رابع عشر جمادى الأولى سنة تسع وثمانين، وأوّل من بدا أمره بالخروج على بلاد السلطان متولى ماردين، ونزل على حصن الموزر، وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن أعمال ماردين حين صالح أهلها، وأضافه إلى نائبه بالرها، ثم تحرك عز الدين أتابك صاحب الموصل وأخوه عماد الدين زنكي صاحب نصيبين، وأرسلوا إلى العادل: تخرج من بلادنا أو تدخل في مرادنا، فكتب إلى بني أخيه يستنجدهم ويستنفرهم فأنجدوه، وكان إنجاد حلب أقرب، وتقدّم ذكر نجدة الأفضل مع أخيه الظاهر، ونجدة العزيز الواصلة إلى دمشق بعد نجاز الأمر،ووصلت المواصلة الى رأس عين ، والعادل بحران، وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه، فمرض صاحب الموصل ولم يطق الاقامة، فغادر ورجع عماد الدين أخوه، وتضرع صاحب ماردين، وتشفع الأمراء الأكابر فرضي العادل عنه وبلغه قدوم ابن أخيه الظافر إلى الفرات، فكتب إليه بمنازلة سروج وهي من أعمال ماردين، وأمدّه بابن تقي الدين، وابن المقدّم، فنزلوا عليها ثامن رجب وفتحوها تاسعه، ورحل العادل منتصف رجب إلى الرّقة وتسلمها، ثم تملك بلد الخابور جميعه، وجاء الى نصيبين فنزل بظاهرها، وشرع في ضم ذخائرها، فجاءت الرّسل العمادية في طلب الصلح، فرحل ونزل دارا، وأتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده إلى ولده نور الدين أرسلان شاه، وجرى بينهم وبينه صلح، ثم كاتبه أهل خلاط،فرحل إليها فرأى أن

-٨٩١٤-

البرد يشتد وأمد الحصار يمتد، فعاد إلى حران والرها، وأعرض عن مخالطة خلاط، وتأخر إلى الربيع أمرها.

قال: واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين ابن أيوب أخي السلطان، وهو هناك سلطان عظيم الشان، مستول على جميع البلدان، وكان قدوصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بأيام، فلما استقر الملك الأفضل على سرير أبيه كاتب عمه سيف الاسلام.

فصل

في وفاة صاحب الموصل وتتمة أخبار هذه الفتنة ببلاد الشرق

قال عـز الديـن أبو الحسن علي بـن الأثير: لما وصل خبر وفـاة صلاح الدين إلى صاحب الموصل عز الدين استشار في الذي يفعله، فأشار عليه أخي مجد الديـن أبو السعادات بالاسراع في الحركة، وقصـد البلاد الجزرية فإنها لامانـع لهامنه. وقال مجاهد الديـن قايماز: ليس هذا بـرأي فإنا نترك وراءنا مثـل المولى عماد الديـن صاحـب سنجار، ومعـز الديـن صاحـب الجزيـرة، ومظفر الـدين صـاحب إربـل ونسير، وانما الرأي أنـا نراسلهـم ونستميلهم ونـأخذ برأيهم وننظـرمايقولـون. فقال أخي: إن كنتـم تفعلون مـايشيرون بـه ويرونـه فـاقعدوا فـانهم لايـرون إلا هذا لأنهم لايـؤثـرون حـركتكـم ولا قــوتكـم، انما الـرأي ان يبرز هـذا السلطــان ويكـاتبهـم ويراسلهم، ويستميلهـم ويبذل لهم اليمين على مابأيـديهم، ويعلمهم انه على الحركـة، فليس فيهـم من يمكنـه أن يخالف خـوفا مـن قصد ولايتـه لاسيما اذا رأوا جده وخلو البـلاد الجزرية من مانع وحـام، فهم لايشكون انه يملكهـا سريعا فيحملهـم ذلك على مـوافقته، ومتـى أراد الانسان أن يفعـل فعـلا لا تتطـرق إليـه الاحتمالات بطلت أفعـالـه، انما اذا كـانـت المصلحـة أكثـر مـن المضرة أقدم، وان كـان العكـس أحجـم، فظهـرت أمـارات الغيظ على مجاهـد الـدين، فسكـت أخـي لأنـه هو كـان مخدوم الجميـع على الحقيقـة، والحاكم فيهـم، واتبـع المرحـوم—يعني صـاحـب الموصـل— قـول مجاهـد الـديـن، وأقام بـالموصـل عـدّة شهـور يـراسـل المذكوريـن فلم ينتظم بينه وبين أحـد منهم حال، غير أخيه عماد الـدين فإنهما اتفقا على قواعد استقرت بينهما، فإلى أن انفصل الحال وصل الملك العـادل أبوبكـر بـن أيـوب من الشـام إلى حـران وأقـام هناك، وجـاءتـه العساكر مـن دمشق وحمص وحماه وحلب، وامتنعت البلاد بـه، وسار عز

الدين عن الموصل إلى نصيبين وقد ابتدأ به اسهال بنزيف، واجتمع فيها بأخيه عماد الدين، وسارا في عساكرهما إلى تل موزن من شبختان لقصد الرها، فأرسل العادل حينئذ يطلب الصلح، وأن تكون البلاد الجزرية: الرها،وحران، والرّقة وما معها بيده على سبيل الاقطاع من عز الدين، فلم يجبه إلى ذلك وقوي المرض به واشتد إلى أن عجز عن الحركة، فعاد إلى الموصل في طائفة يسيرة من العسكر، فلما وصل دنيسر رأى ضعفا شديداً فأحضر أخي، وكتب وصية، ثم سار إلى الموصل فوصلها مريضا بالاسهال، وبقي كذلك إلى أن توفي في السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

قال: ولم أسمع عن أحد من الناس بمثل حاله في مرضه، فإنه كان لايزال ذاكراً الله تعالى حتى أنه كان إذا تحدث مع إنسان يقطع حديثه مراراً، ويقول أشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حي لايموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله، وأشهد أن الموت حق، وعذاب القبر حق، وسؤال منكر ونكير حق، والصراط حق، والميزان حق، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، ويقول لمن عنده يخاطبه: إشهد لي بهذا عند الله تعالى، ثم يعود إلى حديثه، وأحضر عنده من يقرأ القرآن، فلم يزل كذلك إلى أن توفي رحمه الله ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل، مقابل دار المملكة، وهي للفريقين الشافعية والحنفية، وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة اشهر، وكان أسمر مليح الوجه حسن اللحية،خفيف العارضين، وحكى لي والدي قال: هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه، قال: وكان رحمه الله ديِّناً خيراً قد ابتنى في داره مسجدا يخرج إليه في الليل، ويصلي فيه أوراداً كانت له، ويلبس فرجية كان قد اخذها من الشيخ عمر النسائي الصوفي، ويصلي فيها، وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف من الشيخ عمر النسائي المذكور، وكان من

الصالحين، وأوصى بالملك لابنه نور الدين أرسلان شاه، وأراد اخوه شرف الدين بن مودود بن زنكي أن يوليه فلم يفعل، وبقي نور الدين إلى سنة سبع وستمائة، فتوفي في شهر رجب منها، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل حذاء دار السلطنة، وكان عهد بالملك لابنه القاهر عز الدين مسعود، وجعل الامير بدر الدين لؤلؤا القائم بأمر دولته، وولاه إمارة الجيوش والعساكر، وسياسة القبائل والعشائر، ثم توفي الملك القاهر في ربيع الاول من سنة خمس عشرة وستمائة فجأة وخلف ثلاثة بنين صغارا.

قال: وأما عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، صهر نور الدين رحمه الله، وهو صاحب سنجار، فإنه توفي في المحرم سنة أربع وتسعين، وكانت ولايته ثلاثين سنة، وكان عدله قد عم البلاد، وغمر العباد، وأريقت الخمور وحدّ شاربها، وكانت صدقاته تصل إلى أقاصي البلاد، وتولى بعده ولده الأكبر قطب الدين محمد بن زنكي، وكان متولي أمره مجاهد الدين يرنقش العمادي.

قال: وحاصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ماردين في سنة خمس وتسعين، فبقي محاصراً لها أحد عشر شهراً، ولم يبق إلا الاستيلاء عليها، فبينما العادل يحاصرها إذ توفي ابن أخيه الملك العزيز صاحب مصر، وكان عسكره مع عمه العادل على ماردين، فلما توفي ملك أخوه الأفضل مصر، وكان بينه وبين عمه العادل نفرة، فلما ملك مصر أرسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمفارقته، ففارقوه، وعادوا إلى مصر فقل جمعه وعسكره، ثم خرج الأفضل عن مصر عازما على حصر دمشق واستعادتها من عمه، فسار العادل عن ماردين جريدة إلى دمشق ليحفظها بعدما كان قد طلع سنجقه إلى قلعة ماردين، وترك ولده الملك الكامل محمداً محاصراً لها إلى أن اجتمع صاحب سنجار، وصاحب الموصل على ترحيله عنها، فرحل.

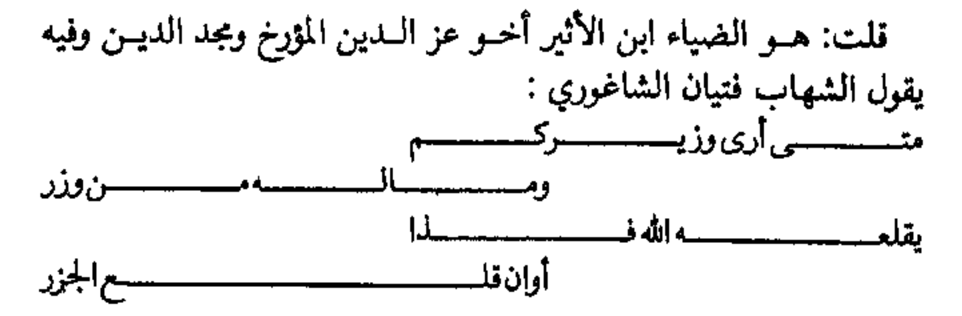
-٨٩١٨-

قال: وفي سنة ست وستمائة سار الملك العادل بن أيوب من الشام إلى سنجار في العساكر الشامية والمصرية، والجزرية والدياربكرية، فحصرها ونزل عليها من كل جانب، ونصب أحد عشر منجنيقا ثلاثة أشهر، وانتخى صاحب الموصل وصاحب إربل لصاحب سنجار، وأنفذ الخليفة رسله فأصلح الأمر، وانتظم الصلح ولله الحمد.

فصل

وأما رسالة العماد: الكاتب المعروفةبالعتبى والعقبى التي أشار إليها في آخر كتاب البرق، فيما جرى بعد وفاة السلطان إلى سنة اثنتين وتسعين، فقد وقفت عليها، وحاصل مافيها أن قال: لما توفي السلطان رحمه الله، وملكت أولاده كان العزيز بمصر يقرّب أصحاب أبيه، ويكرمهم، والأفضل بدمشق يفعل ضد ذلك يقرّب الأجانب ويبعد الاقارب، وأشار عليه بذلك جماعة داروا حوله كالوزيرالجزري الذي استوزره.

قلت: هو الضياء ابن الأثير أخو عز الدين المؤرخ ومجد الدين وفيه يقول الشهاب فتيان الشاغوري :



متى أرى وزيركم ... وما له من وزر

يقلعه الله فذا ... أوان قلع الجزر

قال العماد:لما طلب من الأمراء أن يحلفوا له ، أظهروا له أيماناً وهم قد أضمروا الحنث فيها ، ولم يخف ذلك عليه ، ولما رأى الفاضل أمور الأفضل مختلة، تركه وسار إلى مصر ، وشرع الوزير الجزري في تفريق العصبة الناصرية، وما منهم إلا من فارق إلى الديار المصرية ، وكان قد أشير على الأفضل بإخلاء البيت المقدس لنواب العزيز بأعماله، حذراً من تكاليفه وأثقاله، فأجاب إلى ذلك، وقد كانت نابلس وأعمالها قد وقف السلطان ثلثها على مصالح القدس، وباقيها على ابن الأمير علي ابن أحمد المشطوب فشاركه أحد الأمراء الأكراد فيه، فمدوا أيديهم إلى الوقف، وساءت سيرتهم وتخوفوا من إنكار الملك العزيز عليهم، فلجأوا إلى الأفضل، فأفضل عليهم وسكن إليهم، فتأثر الملك العزيز بذلك، وأقوى الأسباب فيما حدث من النفار، نفار الأمراء الناصرية الكبار، ومفارقتهم دمشق إلى مصر على سبيل الإضطراب والإضطرار، فأعزهم

العزيـز، ورفعهم فـاتفقوا على أن تكون كلمـة الإسلام مجتمعـة على الملك العزيـز لإحياء سنـة والده في الجود والبأس والكـرم، ومن جملـة الأسباب الباعثة تسلم الفـرنج ثغر جبيل من بعض مستحفظيـه، وضعف الأفضل عن استخـلاصه، فقيل للعـزيز: إن توانيت استـولت الفرنـج على البلاد، فخرج العـزيز بعساكـره، وبلغ الأفضـل فضاق صدره، واجتمـع بمن في خدمتـه من الأمراء بـرأس الماء، وأراد أن يستعطف قايماز النجمـي وكان في اقطاعـه بالسواد، وكـان بينه وبين الأفضل شقـاق وعناد، فأرسـل إليه فلـم يقبل ورحـل إلى عسكر العـزيز، ورأى الأفضـل أن يكتب إلى أخيـه بكـل مـا يجب من إعـلاء كلمتـه والإجتماع عليـه، ويكون الأفضـل مـن بعض القـائمين بين يديه، طلبـاً لتسكين الفتن، ورغبة في ذهـاب الاحن، فـأشير عليـه بغير الصـواب ، وقيل أنـت الكبير وإليـك التـدبير، فجـدّ واجتهـد ولايعلـم أصحـابك بهذا الخور الـذي داخلـك، والجبـن الـذي نازلك، ونحن بين يـديك، وكلنا عاقدون بالخنـاصر عليك، ووصل رسول الملك الظـاهر والكتب مـن الملوك الأكابـر بالانجـاد المتظاهر لـلأفضل، وسير الأفضل إلى عمـه العادل وهـو بحران والـرها كتبـاً ورسلاً، لما أبطـأ عليـه مسير عز الـدين عثمان الـزنجيلي على نجيب ليسرع ويـأتي به عـن قـريـب، وكتبـه واصلـة بعزمـه على نصره ونجـدتـه، وذلـك أوائل جمادى الآخرة من شهور سنة تسعين، ولم يشعر الأفضـل إلا والعزيز بعساكره قد وصلوا إلى الفوّار، فعجل الرحيل وقد خالطت عساكر العزيز ساقه جيش الأفضل، فـأسرع ودخل دمشق يوم الجمعـة خامس جمادى، ونزل العـزيز يوم السبت بالكسوة، ونزل على دمشق يـوم الأحد، فلم يزل الأفضل يمانع ويـدافع حتـى وصـل عمـه العادل، فكتـب إلى العـزيـز يسألـه الإجتماع فتواعدا واجتمعا راكبين بصحراء المزة، فعذلـه في أخيه، واستنزله عما كان فيه، فقال: على رضاك واتباع هواك، وقـال: نفس عن البلد الخناق، وكان قـد بلي البلد منهـم بمالا يطـاق، من قطـع الأنهار، وقطـف الثمار، فتأخـر العـزيز إلى صـوب داريا، والأعـوج، وكان قـد اجتمع عنـد الأفضل مـن

الملوك: عمه العادل، والمجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد ابن شيركوه صاحب حمص، والأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، والمنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه، ثم وصل الملك الظاهر غياث الدين ابن السلطان، فاتفقوا على عقد يؤكد، وعهد يمهد، ورحل العزيز إلى مرج الصفر لكون المقام به أرفق، فمرض حتى أيس منه، ثم أفاق وأرسل من جانبه الأمير فخر الدين جركس، واعتمد عليه في هذه النوبة، فوصل إلى العادل في تعديل الأمور، فتقرر بينهم الصلح، وتزوج العزيز ابنة عمه العادل، وخرج الملوك لتوديع الملك العزيز في أول شعبان واحداً بعد واحد، فخرج الظاهر أولاً، والتقيا ونزلا بمرج الصفر، وبات عنده ليلة، ثم رجع وخرج العادل، ثم الأفضل، فلما اجتمع بأخيه فارقه وما ثوى، ورجع كل إلى بلده، ولما استقر الأفضل بدمشق قضى حقوق الجماعة وشكرهم، ورحل الظاهر صوب حلب رابع عشر شعبان، وأقام العادل إلى تاسع شهر رمضان، ورحل إلى بلده الرها وحران، ثم إن الأفضل نظم أبياتاً يكتبها إلى أخيه العزيز في استعطافه واستمالته، وقال: كنت فارقت أخي مذ تسع سنين، وما التقينا إلا في هذه السنة فقلت:

نظرتك نظرة من بعد تسع
تقضت بالتفرّق من سنين

وغض الدهر عنها طرف غدر
مسافة قرب عين من جبين

وعاد إلى سجيته فأجرى
بفرقتنا العيون من العيون

فريح الدهر لم يسمح بوصل
يعود به الهجوع إلى الجفون

فراقاً ثم يعقبه ببين
يعيد إلى الحشا عدم السكون

ولا يبـــدي جيـــوش القـــرب حتـــى
يـــرتـــب جيـــش بعـــد في الكمين
ولا يـــــدني محلي منـــــك الا
إذا دارت رحـــى الحرب الـــزبـــون
فليـــت الـــدهـــر يسمـــح لي بـــأخـــرى
ولـــو أمضـــى بها حكـــم المنـــون

قـال: ثم كثـر الشر ممـن حول الأفضـل في حـق الأمراء الكبـار ذوي الأقـدار، فـأنفوا مـن ذلـك، وازمعـوا على الإنفصال لسـوء تلـك الحال، فممن سـار إلى مصر عز الدين سـامة، وحرض العزيـز على القيام لنصرة الدولة الناصرية، وعرفه أن أخاه الأفضـل مسلوب الإختيار، مع من حوله مـن الأشرار، وممـن سار إلى مصر القـاضي محيـي الـديـن محمـد بـن أبي عصرون، وتـولى بعـد أشهـر قضـاء القضـاة بمصر وأعمالها، وذلـك سنـة إحـدى وتسعين فاستمـرت ولايته إلى أن عـاد العـزيز مـن الشام، وتبعـه العادل فصرفه وأعاد القضـاء إلى زين الدين علي بن شرف الديـن يوسف الدمشقي، وكان نائباً لصدر الديـن عبد الملك بن عيسى بن درباس، ثم استقل ثم عزل بـابن أبي عصرون ثم أعيد إليه، وكان الأفضـل قد اشتغل بعد انصراف أخيـه باللذات، وتشاغـل عن أمور الناس بـإدمان الشراب، مع مـن حوله من الأصحـاب، ثم أقلع عـن ذلك وتاب وجدّ في الـذكر والـزهـد وأنـاب، وشرع في كتـب مصحف بخطـه، وحسنـت طـريقتـه، وظهرت حقيقته، وذلك في أوائل سنة إحدى وتسعين.

وفي هـذه السنة في ربيـع الآخـر وصل الخبر بـأن العـزيز قـادم يحصر دمشق مـرة ثانية، فـاشتدّ غم الأفضـل، فأشير عليـه بأن يرحـل إلى عمـه العادل، ويـأتي بـه لدفـع هذا القضـاء النازل، فـرحل رابـع عشر جمادى الأولى والتقى بعمـه بصفين، وطلب منه الـرجوع معه إلى دمشـق ففعل، ووصل العـادل إليها تـاسع جمادى الآخرة، وتخلـف عنه الأفضـل، وقصد

حلب للاستظهار بـأخيه الظاهر، فوثق معه الإيمان على مـا كان عليه من الصفا، وكذلك فعل بابن تقـي الدين بحماه، ووصل إلى دمشق واجتمع مع عمه العادل، وكان العادل أبـداً يشير بصرف الوزير الجزري، وكان قد استولى على الأفضـل، فلم يقبل، فكـان العادل أبـداً مغتماً لذلك، فبـالغ الأفضل في إكرام عمه، وإزالة غمه حتى تـرك له سنجقه وصار يركب في خدمـة عمه، وضاق أخوه الظـافر من هـذه الحال، وكان الظاهر قـد نفر عليه جماعـة من الملوك والأمـراء ممن هم في طاعتـه من جملتهم صـاحب حماه، وعز الدين بـن المقدّم صاحب بارين، فـراسلا العادل في الاعتصام بـه، وكان مـن جماعتهـم بدر الـديـن دلـدرم بن بهاء الـدولـة بن يـاروق صاحب تل باشر فاعتقله الظاهـر وبني عمه، وطلب منه تسليم حصنه، فشفع العادل فيهم، وكفل أنه يكفهم ويكفيهـم، واستصحبهم إلى دمشق فطلب منـه الظاهـر الوفاء بضمانـه فتعذر عليـه ردّهم، وتيسر لـه ودّهم، فغضب الظاهر لـذلك وراسل العزيز يحثه على الإسراع في القـدوم فأقبل العزيز وخيم بالفوّار .

وشرع العادل في تـدبير أمور الأفضـل، فكاتـب الأمراء الأسـدية مـن أصحاب العزيـز يحثهم على تركه، والانقطاع إلى حـزب الأفضل وسلكه، وكانت الأسـدية أبداً في عناء مـن تقدّم الناصرية عليهـا، وراسل العادل أيضاً العزيـز يخوفه من قبل الأسديـة، ويعرفه ماانطوت عليـه قلوبهم من الغل، فكانوا إذا لقيهـم عرفوا في وجهه التغير عليهم فرغبـوا عنه وحسنوا للأكراد مرافقتهم في الإنصراف عنه، ففعلـوا، وكان أمير أمراء الأكراد أبو الهيجـاء السمين، فـدارت الأكـراد حـولـه وقالـوا: لانـأمـن عليـك مـن الناصريـة فأبرمـواأمرهم، وعجلـوا رحيلهم، فرحـل أبو الهيجاء والمهـرانية والأسديـة عشية الإثنين رابع شـوّال، وكانوا أكثـر العسكر، واعلم العـزيز بهم فما بالى بـانصرافهم، وقـال: صفونـا من أكـدارهم ولم يـأمر أصحـابه باتباعهم وردّهـم ،وبقي في خواصه مقيماً تلك الليلة، ثـم رحل عائداً إلى مصر فجاء رسـول أبي الهيجاء السمين إلى العـادل يعلمه بـرحيل العـزيز

خائفاً، ويأمره بالقدوم ليلحقوه ويـأخذوه ويتسلموا ملك الديار المصرية، فتحـالـف العـادل والأفضـل على ملـك مصر أن يكـون للعـادل الثلـث وللأفضل الثلثان.

وخـرجـا يوم الأربعـاء في الجيـوش واستنـاب الأفضـل بدمشـق أخـاه الأصغر قطب الـدين موسى، وأما العزيـز فإنه سار وأخذ طـريق اللجون والرملة وفرق من الأسدية الذين بالقاهرة أن يفعلوا فعل إخوانهم فيمنعوه مـن دخول البلـد، وكان مقـدّمهم الأمير بهاء الـدين قـراقوش وهـو أكبر الأمراء الأسدية قد استنابه العزيز بالديار المصرية فهو مقيم على الصفاء، والمودّة والاخـاء، فلما وصل العـزيز تلقـوه، وإلى ذروة سلطنتـه رقوه، وأمـا العادل والأفضل فـاجتمعا بالمتخلفين عن العـزيز وحرصت الأسـدية أن يسبقوا العزيز فلـم يقدروا، واجتهدوا أن يدركـوه ويتقدّموا فتأخروا فأمرهم العادل بـالثبات، وتسلـم القدس وأعماله ومـا يجاوره من أعمال السـاحل أبو الهيجـاء السمين بأمـر الأفضل والعادل فـرتب فيهـا نوابـه، وأسكنها أصحـابـه، وصحبهـم إلى الـديـار المصريـة لمحـالفـة الأسـديـة ومخالفـة الناصريـة، فنزل بهم العادل على بلبيـس، وكان أوان أخذ زيـادة النيل في الإنتهـاء والسعر غـال، وظهـرت نـدامة الأسـديـة، وضعفـت معونتهـم، وضوعفت مؤونتهم، فخاف من مكـرهم والعدول إلى مستقرهم،فأرسل إلى القـاضي الفاضـل يستوفـده للإستـزاره، ويسترشده بـالإستشارة، فـألزمـه العزيز بإجـابة سؤاله فخرج إليه واستبشر الناس بخـروجه رجاء الصلح، وركب العـادل وتلقاه على فراسـخ واجتمعا وأصلحا الأمـور على ما يجب الفـريقان، وعفـا العزيـز عن الأسـديـة، وأقام العـادل عند العـزيز وأمـا الأفضل فإن العزيز خرج إليـه وودّعه فانصرف، ومعه أبو الهيجاء السمين وتولى القدس، ووصل الأفضل إلى دمشق غرة المحرم سنة إثنتين وتسعين.

ثـم إن الأفضل لازم صيـامـه وقيامـه، وقلل شرابـه وطعـامه، وحسـن شعـاره، واستوى ليلـه ونهاره، ووزيـره الجزري قد بلي النـاس منـه ببلايـا،

وهو في غفلة عن تلك القضايا، وكان يدخل إليه ويوهمه من قبل أقوام أنهم عليه، وأنهم يميلون إلى أخيه فيصدّقه الأفضل فيما يدعيه، فصار يبلغ العادل عنه أحوال ما تعجبه بل تغضبه، وصار يتصل به كل من هاجر من الشام إلى مصر، وما منهم إلا من يشكو من الوزير الجزري، وكان قايماز النجمي قد لصق بالعادل، وكذلك عز الدين سامة، وصاهر العادل وظاهره، وكان العادل بمصر، مستوطنا للقصر، فوعد الجماعة بإزالة يد الوزير الجزري وردّه إلى بلاده، وقرّر مع العزيز تسيير عسكره معه إلى الشام ليمهد له قاعدة الملك في سائر بلاد الإسلام، فاخرج العساكر إلى بركة الجب، وخرج العزيز لتشييعه وذلك مستهل ربيع الأوّل، ووصل الملك الزاهر مجير الدين داود من حلب إلى أخيه العزيز من جانب الظاهر لتسكين هذا الرهج الثائر، ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر، والقاضي بهاء الدين بن شدّاد، ثم إن العادل أشار على العزيز بأن يوافقه على المسير ويرافقه فيه، فرآه عين التدبير، فسارا بالعساكر نحو الشام، ولما انصرفت رسل الظاهر من مصر بها طلبوا مروا بدمشق، فأعلموا الملك الأفضل بما أبرم من الأمر، فضاق صدره، وطال فكره، واستشار أصحابه فأشار عليه شيوخ الدولة بأن يستقبل أخاه وعمه، ويسلم لهما حكمه وأشار الجزري وأصحابه بالتصميم على المخالفة، وترك المجاملة والملاطفة، ثم دخل عليه أخوه الملك الظافر خضر فشجعه وصبره، وتولى أسباب التحصين، وحلفوا الأمراء والمقدّمين، وقطعوا ما فوق المصلى عند مسجد فلوس بفصيل، ورتبوا رجالا حوالي البلد يتناوبون لحفظه في البكرة والأصيل، وتفرّق الأمراء على الأسوار والأبراج، وجاءت الرسل الظاهرية لإظهار المظاهرة، وندب الأفضل فلك الدين أخا العادل إليه منه رسولا، فوصل إلى العسكر العزيزي بالداروم وغزة، ولقي عند العزيز من قوله العزة، فبقي فلك الدين هناك أياماً في إصلاح ذات البين، ولاشك أنهم اشترطوا على الأفضل شروطاً وردّ وه بها وأقاموا ينتظرون الجواب، فنفذ من ذكر أن الأفضل أبى ذلك،

فلما رأى الأكابر وشيوخ الدولة أن الأفضل لايسمع من رأيهم، وأنه عازم على المحاربة، ولا يعدل عن رأي وزيره، مع ما قد عرفه من شؤم تدبيره، شرعوا في إصلاح أمورهم في الباطن، فراسلوا العزيز والعادل واستظهر كل لنفسه، وأقام العسكر مذ عاشر رجب على البلد مستظهراً بالعدد والعدد، لايحدث حدثاً، ولا يعبث بالبلد إلا عبثاً، فكتب الأولياء من البلد إلى العزيز والعادل بانتهاز الفرصة، فركبوا وتأهبوا يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب، فما صدهم عن قصد البلد أحد، وما كان في طريقهم إلا الملك الظافر ومعه عسكر حلب، فقاتل على ظن قتال الجماعة، وما عنده علم بما دبروه من المخامرة، فحادوا ولم يكترثوا، ووصل العزيز إلى الميدان الأخضر، ووصل العادل إلى باب توما وكان الأمير الأمين به قداستنهضه إليه بكتبه، ففتحه له فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي، وبات العادل في الدار الأسدية، ودخل العزيز من باب الفرج، وبات في دار عمته الحسامية، وخرج إليه الأفضل ولقيه، وتجرع من هم زوال ملكه ما سقيه، فلما ملك العزيز دمشق أقام أياماً بالميدان الأخضر الكبير إلى أن انتقل الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره الجزري مخفياً في صناديقه، إشفاقاً عليه من قتله وتحريقه، وتحوّل الأفضل تلك الأيام إلى مسجد خاتون وما يجاوره ومعه وزيره فهرب ليلا إلى بلاده وقد ادّخر فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين.

قال وكان العزيز قرّر مع العادل أن يقيم العزيز بدمشق ويستنيب العادل بمصر، فلما ملك دمشق ندم على ماقرّره، ورجع عما دبره، ونفذ إلى أخيه الأفضل في السر يعتذر إليه، ويشير بما كان اشترط عليه، فأظهر الأفضل هذا السر لصحبه، والمخصوصين بقربه، فقالوا لا تنخدع بهذا القول فربما كانت خديعة، وأطلع عمك العادل على هذا السر فإنه يرى ذلك عين البر، فأرسل إلى العادل من أعلمه بذلك فعزت عليه مراسلة العزيز الأفضل واجتمع بالعزيز وعتبه ، وقرعه بماأنبىء به وأنبه، وقال

له: أبني وتهدم، وأوجد مصالحك وتعدم، فأنكر الحال وأحالها وانتقض الأمر قبل إبرامه، ووجه إلى الأفضل من أزعجه، وإلى صرخد أخرجه، وسد طريق الاستنصار على أخيه الظافر حتى أسلم في تسليم بصرى للظفر بسلامته، وبذلها ولم يتبعها بندامته، ورحل إلى حلب وأظهر الظاهر الاحتفال به، وأما الأفضل فإنه سار إلى قلعة صرخد وسكنها، وحوّل أهله وأخاه قطب الدين إليها وتوطنها،وعند خروج الأفضل من قلعة دمشق دخل العزيز إليها يوم الأربعاء رابع شعبان، وجلس يوم الجمعة في دار العدل، واعتقد الناس أنه يطول مقامه عندهم، فلم يشعروا به إلا وقد برّز للرحيل، وتقدم إلى العادل بأن يتولى البلاد وفارق دمشق عشية الإثنين تاسع الشهر، ونزل بالمخيم فوق مسجد القدم، ثم تحوّل إلى الكسوة وودّعه بها يوم السبت رابع عشر الشهر، فلما عاد العادل من وداع العزيز قرىء بالجامع منشوره العزيزي بالبلاد والأعمال والنظر في جميع الأحوال، وشاع أنه نائب العزيز، وهو سلطانه،وأبقى الخطبة باسم العزيز خالية من اسمه ، حالية برسمه، وضرب الدينار والدرهم على سكته وأظهر أنه قوي بشوكته وشكته، وجلس يومي الإثنين والخميس للعدل، وبسط يده لجمع الأموال وخزنها، لوقت عموم الحاجة إلى صرفها.

فصل

هذا آخر ما انطوت عليه «رسالة العتبي من أخبار ما جرى بعد موت السلطان رحمه الله»، وللعماد أيضاً كتاب آخر سماه« بنحلة الرحلة » ذكر فيه أيضاً نحواً من ذلك وهو أن الأحوال اختلت وتغيرت بعد موت السلطان، وأراد العماد الرحلة إلى مصر، فأصحبه الأفضل رسالة إلى أخيه العزيز فمضى إليه وعنده عمه العادل، فلم يتمكن من الرجوع إلا معهما لما خرجا بالعساكر فذكر الحديث في أخذ البلد، قال: وخرج الملك الأفضل واجتمع بالعزيز في الميدان، ودخلا من باب الفرج متصاحبين إلى الضريح الناصري، وصعد العزيز القلعة يوم الأربعاء وصلى هذه الجمعة عند ضريح والده في هيئة المودع، وأظهر بالبكاء والنحيب عنده سر القلب الموجع، ودخل دار الأمير سامة في جوار تلك القبة، وأمر القاضي محيي الدين بن الزكي بأن يبنيها مدرسة للتربة، قلت هي المدرسة المعروفة بالعزيزية، ووقفها قرية عظيمة تعرف بمحجه، فهذا قدر ما في كتاب النحلة مما يتعلق بما نحن فيه، ولم يكن ذكر مثل هذا من شرط كتابنا هذا، لأنه موضوع للدولتين النيرتين إلا أنه لا بدّ من ذكر ما يتعلق بهما مما وقع فيهما وعقيبيهما، وتبعنا العماد فيما ذكر في العتبى لكونه أشار إليها في كتاب البرق، واستوفينا ما في كتاب البرق، والفتح القدسي، والتاريخ الأتابكي، وكتاب القاضي أبي المحاسن وأتينا على ما فيها من المحاسن، وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنفات، ودواوين ومراسلات، والله تعالى يوفق ملوكنا للاقتداء بسيرة سلفنا، في إقامة فرض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة، والنظر في مصالح العباد، ومن كتاب فاضلي:« أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم فما الحيلة في تشريقه وإذا بدا تخريق ثوب فمايليه إلا تمزيقه،وهيهات أن يسدّ على قدر طريقه، وإذا كان الله مع خصم على خصم فمن كان الله معه فمن يطيقه».

فصل

بعد انتهـاء هذا الكتـاب واسماعه مرة، وقفـت على ماحسن لي الحاقه بهذا الكتاب، من ذلـك أن القاضي الفاضل كتـب في سنة ثلاث وتسعين إلى القاضي محيـي الديـن بن الـزكي كتابـا قال فيـه: « ومما جـرى في هذه المدود من المثلاث الجاريـة، والمعضلات العادية بأس من الله طـرق بياتا، ونحن نيـام وظن الناس أن اليـوم الموعود قـد طرق في الليل الممـدود فإذا هم قيام إن الله تعـالى أتى بساعة كالسـاعة، كادت تكون للدنيـا كساعة،

في الثلث الأول من ليلة الجمعة ثامـن عشر جمادى الآخرة، وذلك أنه أتى عارض فيه ظلمات متكـاثفة، وبروق خاطفة، ورياح عـاصفة، قوي لهوبها واشتـدّ هبـوبها، وارتفعـت لها صعقات، وتـدافعـت لها أعنـة مطلقـات، فرجفت لها الجدران واصطفقت، وتلاقت على بعـدها واعتنقت، وثار من السماء والأرض عجـاج،فقيل لعـل هذه على هـذه قد انطبقـت، وتوالـت البروق من جهـة المقطم على نظام، وتبع الـواحدة الأخرى وتقفى الثـانية على أثر الأولى، وترى البروق واقفة وهي تتعـاقب، وقائمة وهي تتجاذب، ولاتحسب إلا أن جهنـم قد سال منهـا واد، وعدا منها عـاد، وزاد عصف الريح إلى أن انطفأت سرج النجوم ومزقت أدم السماء، ومحت ماكان فوقه من الـرقوم، ولاتـزال هذه الـريح تسكـن سكونـا خفيفا ثـم تعاود عـودا عنيفـا، فكنـا كما قـال الله تعـالى(يجعلـون أصـابعهـم في آذانهم مـن الصـواعـق)(١٤١) وكما قلنـا: ويـردون أيديهم على أعينهـم مـن البـوارق، لاعـاصـم مـن الخطـف لـلأبصـار، ولا ملجـأ مـن الخطـب إلاّ معـاقـل الاستغفار، وفـرّ الناس رجالا ونسـاء وأطفالا، ونهضـوا من دورهم خفـافا وثقالا، لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيـلا، اذ يستغيثون ربهم ويذكرون ذنبهم، لايستغربـون العذاب لأنهم على موجباتـه مصرون، وفي وقت وقوع واقعاتـه باستحقاقه مقـرون، معتصمين بالمساجد الجامعـة، ومتلقين الآية النازلة مـن السماء بالاعناق الخاضعة، بـوجوه عانية، ونفـوس عن الأموال

والأهل سالية، ينظرون من طرف خفي، ويتوقعون أي خطب جلي، قد انقطعت من الحياة علقهم، وعميت عن النجاة طرقهم، ووقعت الفكرة فيما عليه قادمون وندموا ونحمد الله أن نفعهم بأنهم نادمون، وقاموا إلى صلواتهم وودوا أن لو كانوا من الذين عليها دائمون، ولم يزل ذلك دأبهم كلما سكنت الرياح تحركت، وكلما قيل استقلت بركت، وكلما أخذت قيل ما تركت، حتى الثلث الأخير من الليلة المذكورة، والقلوب إلى الحناجر بالغة، والأبصار عن سننها زائغة، إلى أن أذن الله في الركود، وأسعف الماجدين بالأمر لها بالهجود، وأصبح كل يسلم على رفيقه ويهنيه بسلامة طريقه، ويرى أنه قد بعث بعد النفخة، وأفاق بعد الصيحة والصرخة، وأن الله قدرد له الكرّة، وأدبه بعد أن كاد يأخذ على الغرة، وورد من الخبر أن المراكب كسرها ماكان معترضا في التحرز للعارض، والأصول العادية من الشجر عدت عليها الريح بحماها النافض، وأن في الطرق من المسافرين من كان نائما فدفنته الرياح حيا، وركب عما أغنى الفرار مما هو أمامه شيئاً، ولايحسب المجلس أني أرسلت القلم محرفا، والقول مجزفا، فالأمر أعظم ولكن اللهسلم، والخطب أشق، ومابلغت ولا قضيت بهذا التكثير بعض الحق، ونرجو أن الله سبحانه قد أيقظنا، بماوعظنا، ونبهنا بما ولهنا، فما من عباده من رأى القيامة عيانا، ولم يلتمس عليها من بعده برهانا إلا أهل بلادنا فما اقتص الأوّلون مثلها في المثلات، ولا سبقت لها سابقة في المعضلات، والحمدلله الذي من فضله أن جعلنا نخبر عنها ولانخبر عنها ولا تخبر عنا، ونسأل الله أن يصرف عنا عارض الحرص والغرور إذا عنّا، وشغلت خدمته بهذا المهم، وجعلته على علم من هذا العلم، فالسعيد من وعظ بغيره، وقدكانت لنا وفينا الموعظة، وللذكرى حدود ونعوذ بالله من اقامة حدوده المغلظة».

ومن كتاب له آخر الى العادل في سنة ثلاث وتسعين أيضا:« وقد تجدد من وصول العدو اللعين وحركته إلى جانب بيروت، وخطر البلاد ماأذهل كل مرضعة، وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعه،

ولـلاسلام اليـوم قـدم إن زلت زل، وهمة إن ملـت فـإن النصر منه مـل، وتلك القدم العـادلية، وتلك الهمة الهمـة المسايفة السيفية، فـالله الله ثبتوا ذلـك الفـؤاد، ودمثوا ذلـك المهـاد، واسهـروا في الله فليست بليلـة رقـاد، ولاتنظروا في حديث زيد ولا عمـرو، ولا أن فلانا نفع ولا ضر، ولا أن من الجماعة من جاء ولا ان فيهم من مر، انظـروا إلى انكم الاسلام كله قد برز إلى الشرك كلـه، وأنكـم ظـل الله فـان صححتـم تلـك النسبـة فـإن الله لاناسخ لظله واصبروا إن الله مع الصابـرين، ولا تهنوا وإن ذهب الناصر فإن الله خير النـاصرين، فما هي إلا غمرة وتنجلي، وهيعـة وتنقضي، وليلة وتصبح، وتجارة وتربح» .

ومن كتـاب له آخـر إلى الملك العـادل :« أدام الله ذلك الاسـم تاجـا على مفـارق المنـابـر والطـروس ، وحيـاة للـدنيـا ومـافيهـا مـن الاجسـاد والنفـوس، وعرف المملـوك ماعـرفه مـن الأمـر الذي اقتضتـه المشاهـدة، وحرست به العاقبة في بيروت، ولامزيد على تشبيه الحال بقوله:

ألم تــــــر ان المرء تــــــــذوي يمينـــــــه
فيقطعهـــا عمـــــد اليسلـــــم ســـــائره

ولوكـان فيها تدبير لكان مـولانا قد سبـق إليه، ومن قلم مـن الاصبع ظفرا، فقد جلب إلى الجسد بفعله نفعا، ودفع عنه ضرا:

وتجســــم المكــــروه ليــــس بضــــائر
مــــا خلتـــــه سببــــا إلى المحمـــــود

وآخر كـل شقوه أوّل كـل غزوه، فلا يسـأم مولانا نيـة الربـاط وفعلها، وتجشـم الكلف فهـو إذا صرف وجهه إلى واحـد، وهو وجـه الله صرف الله إليـه الوجـوه كلهـا(والذيـن جـاهدوا فينـا لنهـدينهم سبلنـا وإن الله لمع المحسنين)(١٤٢)

ومـن كتــاب آخـر لـه:« هـذه الأوقـات التـي أنتـم فيهــا عـرائس

- ٨٩٣٢ -

الأعمار،وهذه النفقـات التي تجري على أيديكم مهـور الحور في دار القرار، وماأسعد من أودع يـد الله مافي يديه، فتلك نعم الله عليـه، وتوفيقه الذي مـاكل مـن طلبـه وصـل إليه، وسـواد العجـاج في هـذه المواقف بيـاض ماسـودّته الـذنوب مـن الصحائف، فما أسعـد تلك الـوقعات، ومـا أعود بالطمأنينة تلك الرجفات».

فصل

وللعماد الكاتب رحمه الله كتاب آخر سماه «خطفة البارق وعطفة الشارق» ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاث وتسعين إلى أن توفي هو رحمه الله في سنة سبع وتسعين وخمسمائة، واشتمل ذلك على فوائد تتعلق بما تقدّم، فأحببت إلحاقها به، من ذلك وفاة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب باليمن في شوال سنة ثلاث وتسعين، وتولي ابنه شمس الملوك اسماعيل، هذا والملك العادل بدمشق وقد انتقل الملك الظافر إلى حلب بعد أن أخذ عمه منه بصرى، وعزم على قصد بغداد فصرفه أخوه الظاهر عن ذلك، وذهب الأمير أبوالهيجاء السمين إلى بغداد بأصحابه فأكرم، ثم سير في جيش الى همذان، ثم بعد رجوعه مات بدقوقا.

وانقضت مدّة هدنة الفرنج التي عقدوها مع ا لملك الناصر رحمه الله، فخرجوا والتقوا مع الملك العادل برأس الماء بمرج عكا، فكسرهم وفتح يافا عنوة، وكانوا كاتبوا ملك الألمان، وكان قد ملك صقلية، فأنهوا إليه تلك البلية، وقالوا إن عظام أبيه إلى الآن في صور في تابوت مكلل بالديباج، وكأنه في الأسر، منتظر الافراج، فإنه لايقبر إلا بالبيت المقدس اذا استخلص، والآن ماكان غلا منه استرخص، فان المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض، ولهوا عن كل سنةو فرض، فتدافعت إلى عكا سفنهم، وتدفقت مزنهم، وامتلأت بهم في الساحل مدنهم، وقصدوا بيروت وبها الامير عز الدين سامة، فلما سمع بوصولهم إلى صيدا خرج بجماعته منها وسار بأهله ومال عن وعر الأمر إلى سهله، ودخلها الفرنج بعد يوم من غير مطاولة سوم، ولا مماطلةروم، وكثر فيه الحديث، وذكر الطيب والخبيث، فمن قائل تجبن ومن قبل أن ينكب تنكب، ومن قائل رجاله هابوا فغابوا، ولو أنه دعاهم ماأجابوا، واتسع القول، ووقع الهول، حتى نظم بعضهم والفرنج على تبنين:

- ٨٩٣٤ -

سلـــم الحصـــن مـــا عليـــك مـــلامـــه
مـــا يـــلام الـــذي يـــروم الســـلامـــه
فعطـــاء الحصـــون مـــن غير حـــرب
ســـنـــة سنهـــا ببيروت ســـامـــه

وتصرفت الفرنج في بيروت وأعمالها الساحلية، وبقي لسامة الولاية الجبلية، ثم توجه إلى مصر.

ودخلت سنة أربع وتسعين

فنزل الفرنج سادس عشر المحرم على تبنين، وأرسل العادل القاضي محيي الدين محمد بن علي القرشي إلى الملك العزيز بمصر فخرج بجيوشه، ووصل في الثالث والعشرين من ربيع الأوّل، فجفلت الفرنج بعد ان كانوا ضايقوا الحصن، ورحلوا وجاءهم الخبر بهلاك ملك الألمان، ثم انتقل عسكر المسلمين إلى جانب الطور، ومع العزيز أخوته: الظافر والمعز، والمؤيد، وكان الافضل قد جاء إلى عمه قبلهم، وكان معهم على تبنين المجاهد صاحب حمص، والأمجد صاحب بعلبك، وعز الدين بن المقدم، وبدر الدين دلدرم وغيرهم من الأعيان،ثم رجعوا إلى بلادهم بعد عقد الهدنة، ورجع العزيز إلى مصر بعد أن خلع على ابن عمه الملك المعظم عيسى بن العادل، وخصه بالسنجق واللواء المنشور لطي اللأواء، وعاد المعظم إلى دمشق وقد قرت به العيون، وحسنت فيه الظنون، فكان أعز أولاد العادل عنده، وأعلقهم بقلبه، وأخصهم بحبه، قد ولاه سلطنة دمشق، وأطاب فيها بنشر كرمه النشق، وأقام العادل حتى استقرت الهدنة، وظهرت في عمارة تبنين المكنه، ثم عاد إلى دمشق وأقام قليلا ثم شرق، ورقع بها من الأمر ماتخرق، ورتق ماتفتق، ورد بلاد أولاد عماد الدين زنكي إليهم لأنه توفي في هذه السنة، واستولى عليها ابن عمّهم صاحب الموصل، فأنجدهم عليه السلطان الملك العادل.

وتوفي جماعة من أمراء الموصل منهم الأمير عز الدين جرديك، وكان فارس الاسلام ومقدامه، وشجاعه وهمامه، ومابرح من أيام نور الدين إلى أيام صلاح الدين رحمهم الله ليث العرين، أشم العرنين، وهو الذي أعان صلاح الدين على القبض على شاور، وولاه صلاح الدين القدس في آخر عهده، فقام بمصالحه من بعده، ثم تسلم منه الملك الأفضل، وسلمه إلى أبي الهيجاء السمين، فلما خرج الأفضل من دمشق وصل إلى الموصل، وانتقل من حوض الكوثر إلى أعذب منهل.

قال: ونزل السلطان العادل على قلعة ماردين في شهر رمضان، وملك ربضها ومدنها وولاياتها وصاف عليها وشتا، وصبر وصابر ولم يقل كيف ومتى، وماشك أحد أن ماردين في ملكه مضافة إلى ملكه، وقد هنأه بها الشعراء منهم ابراهيم بن مروان من أهل رأس عين له من قصيدة:

فإن تك مصر أم ملك فماردإذا نسب البلدان فحل الممالك
تقاعس عنها سنجر وابن عمهوقصر عنها عزم زنكي الاتابكي
فان تك قد شوركت في فتح غيرهافما لك في أمثالها من مشارك

ودخلت سنة خمس وتسعين

والملك العادل نازل على ماردين، وقد وصل إليه أصحاب الأطراف مساعدين، وقد أصلح بين صاحب الموصل وبني عمه عماد الدين،وردهم إلى سنجار، والخابور ونصيبين، وقد أذعن له الجماعه بالطاعة، ونائبه في تلك البلاد وديار بكر ولده الملك الكامل محمد.

قال: وفيها ليلة الأحد العشرين من المحرم توفي الملك العزيز بداره بالقاهرة، وكان عزم على الصيد في أعمال الفيوم فخيم تلك الليلة عند الاهرام،فقيل انه أصبح وركض خلف صيد فكبا به الفرس مرة بعد أخرى فتمت له سقطه، عمت بها على الزمان سخطه، فتفاقم ألمه وأقام يومين أوثلاثة لايستطيع له مخلوق إعانة ولا إغاثة، ثم حم حمامه ، وأظلمت بفجيعته أيامه، وقبر في داره، لينقل منها إلى دار قراره،ثم حوّل منها في الأيام الأفضلية إلى التربة المقدسة الشافعية، وورد كتاب القاضي الفاضل تعزية به للملك العادل:« أدام الله سلطان مولانا الملك العادل، وبارك في عمره، وأعلى أمره بأمره، وأعز نصر الاسلام بنصره، وفدته الأنفس الكريمة، وأصغر الله العظائم بنعمته فيه العظيمة، وأحياه الله حياة طيبة يقف هو فيها والاسلام في مواقف الفتوح الجسيمة، وينقلب عنها بالأمور المسلمة والعواقب السليمه، ولا نقص له رجالا ولا عددا، ولا أعدمه الله ماقدر في الملك العزيز رحمه الله له ذيلا ولا يدا، ولا أسخن له قلبا ولا كبدا، ولا كدر له خاطرا ولا موردا، ولما قدّر الله في الملك العزيز رحمة الله عليه، وتحياته مكررة إليه من انقضاء مهله، وحضور أجله، كانت بديهة المصاب عظيمة، وطالعة المكروه أليمة، فرحم الله ذلك الوجه ونضره، ثم السبيل إلى الجنة يسره

وإذا محاسن أوجه بليت
فعفا الثرى عن وجهه الحسن

فـاعزز على المملـوك وعلى الأولياء، بـل على قلب مـولانا، لاسلبـه الله ثوب العز بسرعـة مصرعه، وانقلابه إلى مضجعـه، ولباسه ثوب البـلا قبل أن يبلى ثـوب الشبـاب، وزفـه إلى التراب وسريـره محفـوف بـاللـذات والأتراب، وكانـت مدّة المرض بعد العود من الفيوم أسبـوعين، وكانت في الساعـة السابعة مـن ليلة الأحد العشريـن من المحرم، والمملـوك في حال تسطيرها مجموع لـه بين مرض القلب وجسد، ووجع أطـراف وغليل كبد، وقد فجـع بهذا المولى والعهد بـوالده رحمه الله غير بعيـد، والأسى في كـل يوم عليه جديد».

ووصل قبل هـذا إلى العماد كتاب من الفاضل فيه:« وأنـا على مايعلمه المولى من العزلـة إلا أنها بلا سكون، ونحن على انتظـار البرق الشامي أن يمطر، وحـاشى ذمة الـوعد به أن تخفر، واشتغال سيـدنا في هذا الـوقت بالدرس والتـدريس، والتصوير والتكييف، والتصانيـف التي تصرف فيها بالبـلاغة أحسـن التصاريف، نعمـة يتعين شكرهـا على العلماء، ويختص باللذة بها سادتهم من الفقهاء».

قـال العماد: ولما توفي الملـك العـزيز خلـف بنين صغـار يزيـدون على العشرة، وولده الأكبر ناصر الدين محمد قد أنافت سنوه على عشر، وكان إلى أبيه أحـب أولاده، يشيم من شيمـه مخيلة سـداده، وقد اختص لـديه، ونص عليـه، فاجتمع الامـراء الصلاحية وكبيرهم ومقـدمهم فخر الـدين إياز سركـس ومنهم أسـد الدين سراسنقـر وزين الديـن قراجـه، وعقدوا الأمـر لولـده نـاصر الـدين، ونعتـوه بـا لملـك المنصور، وأخـذوا لـه أيمان الجمهور، قـال: وكانت الأسديـة في الايام العزيـزية الناصرية مغمـورين، وبالاستيلاء عليهـم مقهورين، وكبيرهـم سيـف الدين يازكـوج، وكان عند وفاة العزيز غائبا بأسـوان، فلما بلغه ذلك حضر وجمع الأسدية، واجتمعوا هـم والصلاحيـة ظاهـر القاهـرة، فقال لهم: نعـم مارأيتمـوه من حفـظ العزيـز في ولده، لكنه صغير السـن لايحتمل ثقـل هذا الفن، ولا بـدّ من

كبير من أهل البيت يربيه ويدبر الدواوين، ويرتب القوانين، وماهاهنا إلا الملك العادل، وهو الآن ببلاد الشرق مشغول، وهاهنا من هو أقرب منه، وهو الملك الأفضل، فقال الأسدية: هذا هو الرأي الراجح، ولم يسع الصلاحية مخالفته، فاتفقوا على استدعاء الأفضل من صرخد، فخرج منها ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر، وسلك البرية، فوصل إلى القدس يوم الخميس، وخرج إليه عسكره، وساروا معه إلى بيت جبريل، ثم أغذ السير فلما قرب منهم في تاسع ربيع الاوّل تلقوه، وإلى أعلى مراقي العلا رقوه، وسروا بقدومه، وجروا لمرسومه.

قال: وكان الناصرية كتبواإلى رفقائهم بالشام إنا أحوجنا إلى الوفاق، وتأكيد الميثاق، وقد كتب إلى نور الدين بالحضور، وضبط الأمور، وهو عندكم في صرخد، وإن توصل الينا انتظم أمره، وتمهد، فاجتهدوا في حصره وهو في حصنه، ولاتسمحوا بفك رهنه، ووصل إلى دمشق بعض الكتب يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر فخرج عسكرها إلى صرخد فوصلوا إلى بصرى يوم الأربعاء، فقيل لهم: إن الأفضل أدلج ليلا، واستصحب نجبا وخيلا فرجعوا إلى دمشق، وقيل لما عبر الأفضل بالبيت المقدّس وجد في طريقه نجابا مسرعا فأستحضره، واستكشف ورده وصدره، فقال أنا نجاب فخرالدين اياز سركس، ومعي كتبه إلى من يأنس به ويحبه، فتسلم منه الكتب،وعاد النجاب في خدمته، فلما وصل إلى القاهرة احتفل سركس له وأضاف وقدّم وغرم أموالا ثم أبصر نجابه، واقفاً ببابه، فأخبره الخبر فاستشعر من ذلك وتضور، فمضى وتبعه عسكره وزين الدين قراجه فوصلا إلى القدس وسكنا به وعرف الناصرية جلية الحال، فأخذوا في الانتقال، وتوهم الأفضل من الباقين فقبضهم وحوى جوهرهم وعرضهم، فتفرقت الكلمة المجتمعة، وتوقفت الهمم المسرعه، وأمر الأفضل بالخطبة لابن العزيز على جميع المنابر،ثم الدعاء له في الآخر، ونقشت السكة أيضاباسم الولد في البلد وغير البلد.

قـال: ولما استقر الأفضـل بمصر حملوه على قصـد دمشق، وحصرهـا، وقالـوا له: اطلـب بلدك الذي منـه أخرجت، وعـن المقام فيـه أزعجت، ومالك في مصر مايكفيك، ودمشق لك بـوصية أبيك، وجاءته رسل أخيه الظاهـر من حلب وهـداياه، وقال لـه: انتهز الفـرصة فعمنا عنـا مشغول وإلى إن يتم مـن ماردين مـراده، وينضم إلى بيـاضه سواده نخـرج دمشق عن يـده، ونعجله اليـوم فيها عـن غده، وأنـا أصل إليـك وأقدم عليـك بـالبنود والجنـود والأسـاور والأسود، فما زالـوا به حتـى خـرج بالعسكـر واستناب سيف الدين يازكوج مكانه .

قال : ووصل إلى الملـك العادل الأمير سراسنقر أحد الأمـراء الناصرية المفارقين، فـاستحثه على مفـارقة ماردين، وتواصل مـن الناصريـة جماعة بعـده، وعنـدهم مـن الإستحثـاث مـا عنـده، فحـركه القـول وتجرد عـن العسكر واستصحـب معه الأميريـن: عز الديـن بن المقـدّم وبدر الـدين دلـدرم، وسرى ليلا لخمـس بقين مـن رجب، وأوصـى ولـده الكامـل أن يسير في مضـايقة حصـن ماردين بسيرتـه، ويقتدي بعـزمته، ووصـل إلى دمشق يوم الإثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحصين البلد.

ووصلت العسـاكر المصريـة يوم الخميـس وأحاطـت بدمشـق،ودخلها جماعـة منهم مـن باب السـلامـة بلغوا إلى السـوق الكبير، وأعلنوا الفتـح بالتكبير، ولم يتبعهـم أحد على هذا التـدبير، فخرجـوا من باب الفـراديس وكرّوا على أعقابهم لمن وقـف لهم من الكراديس، وأما الأفضل فـإنه وصل إلى الميدان الأخضر، وضرب فيـه دهليز سرادقـه، وأقدم بـرواعده وبـوارقه، فأشار عليه أمراؤه بـالتأخر عن تلك المنزلة، وكانت منهـم زله،فنزلوا عند ميدان الحصا ثـم تأخروا إلى مسجد القدم، وامتلأ ذلـك الفضا بمضارب الخيـم، ففترّت الصـدمـة الأولى، وقصرت الصـدعـة الطـولى،وخمد الجمر فصـار رمادا، واستحـالت تلـك الأمواج المتـلاطمة ثمادا، ولـزموا منـازلهم أكثـر من ستـة أشهر هنـاك، وتمت فـوارط عدمـت الاستدراك، وامتـدت

خيامهم من أقصى داريا إلى الغوطة، وظنوا أنهم آخذون بمخنق دمشق المضغوطة، وكاتب الملك العادل جماعة من أمراء العسكر المصري ففارقوه ودخلوا دمشق، فأكرمهم واحترمهم منهم طغرل المهراني، وإياز البانياسي، وابن كهدان، ومثقال الخادم، وابن أخت السلطان ابن سعد الدين كمشبه، وكثر الواصلون القاطعون لمن وراءهم، وأحسن العادل جزاءهم، فتكاثرت الأطماع وتتابعت الرؤوس والاتباع، ووصل الملك الظاهر،ومعه أخواه الظافر، والمعز، وجاءهم الملك المجاهد صاحب حمص، وعسكر حماه دون سلطانها، وحسام الدين بشارة صاحب بانياس، وهو شيخ الدولة وكبيرها، وأمينها وأميرها، وفي حمايته حصنا تبنين وهونين ومايزال أسرى من كفراء الفرنج بدين الله عنده مرهونين، فرغبهم في السلامة والسلم، والاحتمال والحلم، وأشار على كل من الجانبين بتجنب المجانبة، والتقرب بالمقاربة والمراقبة، وجاءهم أيضا سعد الدين مسعود صاحب صفد، وأخوه نور الدين مودود.

قال: ولما جبنوا عن مضايقة الحصار واصلوا قطع الاشجار، وكسر الأنهار، ومنع كل مايدخل البلد من نعمة ونعم، وغنيمة وغنم، حتى ردوا القوافل، وصدوا الفروض والنوافل.

قال: وكان الناصرية المقيمون بالقدس قد استولوا عليه، ونظفوا ممن ارتابوا به حواليه، وأخرجوا منه المغاربة، ورجاله وأجناده الراتبه، ومعهم الأمير فارس الدين ميمون صاحب نابلس، وعز الدين سامة صاحب كوكب وبيسان، ثم وصل الخبر أن سركس ومن معه واصلون إلى دمشق،فتجرد من المحاصرين عسكر إلى طريقهم، وكانوا قد وصلوا إلى طبرية، وعبروا منها الى البقاع وتمكنوا خلال تلك الضياع، وسيروا إلى بعلبك ماصحبهم من الأثقال والأحمال، وكان صاحبها الامجد في جانب الملك العادل، وتجردوا خيلا، وقطعوها ليلا، وتوقلوا الجبال حتى أشرفوا على دمشق من عقبة دمر، وقد فاتوا العسكر، فتقوى عسكر البلد فصاروا

يكـرون ويـركبـون، ويقـربـون مـن العسكـر المصري ولايـرقبـون، وحفـر المحاصرون حولهم خندقا عميقا فصار لهم به عن الحصار شغل شاغل.

قـال: وعلى الجملة فما ظهـر منهم صنـع إلا في قطع الماء ومنـع الميره، والمضـايقـة الكثيرة، واحـراق البســاتين، وتخريـب الطـواحين، حتـى إذا انحسمت المواد، وفنيت في البلد الأزواد واضطروا إلى التسليم، واضطربوا على التـأخير والتقـديم، فتسلـط الـرعيـة على الملك العـادل وحملـوه على التسليم والاستسـلام، فتباينـت أراء الملوك المحـاصرين، بما دبـره العادل سيـف الـديـن، ولابـد للكبـار مـن الاحتيـال، إذا صمـم الصغـار على الاغتيال، وليس في ذلـك بدعة، فإن الحرب خدعة، فنفـذ الى الظاهر في الباطـن، وقال له: أنت السلطـان وحكمك على جميع الأماكـن والمواطن، وأنا أسلم إليك دمشق على أنها تكون لـك لا لغيرك، فقال الظاهر لأخيه الافضل: قلدني في الانعام بدمشق منة المتفضل، فقال له هذه لاتخلو من أقسام جـالبات لأسقـام، أجلك أن تتـولاها تـولية النـائب، وإن أخذتها دوني فمن النوائب، وإن أعطيتني عنها عوضاً مما أعرف لك فيه غرضا، فما لك مايصلـح أن تقايض به دمشق، وأنت لاتـدعي لها العشق، فتغير بهذا رأي الظـاهر، والله المطلـع على الضمائر، وقيـل أرسـل العادل وقـال: أسلـم اليكم دمشـق بعد سبعـة أشهـر، وتربـص وتصبر، فخذوا يمينـي، وكلوني إلى ديني، وظـن أنهم لايوافقون وفي الحصر يضايقـون، فلما أجابوه إلى هذا الملتمس، وقعقعـوا في الاستضاءة بهذاالقبس، عرف انهم نـادمون فيما عليـه من الحصر قـادمـون، فعاد عـن هـذا البـذل، وردّهم إلى سنـن العدل، وقيل: كان يكتب إلى الأفضل إن الأمـر انفصل مع الظاهر، وإنه يعامـلـك معاملـة المبسر لا المجاهـر، فخذ لنفسـك وأبدل معـى وحشتك بأنسك، ويكتب أيضا إلى الظاهر إن الأفضـل قد صالحني، وعلى الرضى صـافحنـي، وإنـك تحصـل على المضـاغنـة، وستفضي بـك المبـاينـة إلى المغابنـه،وقيل إنـه كان يكتـب في كل يـوم أجوبـة كتب قـوم لم يكاتبـوه، ويجيبهـم عما فيه لم يخاطبـوه، وخبزت تلـك الملطفات في عجين، لـتفـرّق

-٨٩٤٣-

على من يقصد العسكر من المساكين، فإذا فتشوا عثر على تلك الملطفات، فنعت من كتب إليه ، ولاعلم له، بالآفات، وعدّوا من المخامرين، فصار أكثر العسكر من المتهمين.

- ٨٩٤٤ -

ثم دخلت سنة ست وتسعين

وهم على ذلك والشتاء قدهجم، وكـل بأمره مهتم، ودهمهم أيضا خبر وصول الملك الكـامل من الشرق، وخرج من دمشـق جماعة يظهرون أنهم من النـاصحين، وتردّدوا إليهـم ومنهم غاديـن ورائحين، وأبرقـوا وأرعدوا وقالوا: غدا يكون قدوم الملك الكامل في الجحفل الحافل، ومعه من المال الصامت إلى أبيه العـادل، فيستظهر بولده والمال والرجال، فـلا يقعد عن النهوض إلى القتـال، والصواب أن نتـأخر قليلا، فـرحلوا إلى سفـح جبل العقبه، وبقيـت أسواقهـم مملوءة، وباتـوا تلك الليلة وهـم لكل مـايحتاج إليـه عادمـون، وعلى مـافرط منهـم نـادمـون، وفقدوا حتـى الماء للشرب، وكانت تلـك الحالة كسرة قبل الحرب فاضطربوا المحـل المحيل، واضطروا إلى راحة الرحيل.

ووصل الكامل تاسـع عشر صفر، وقد جمع التركمان، واستصحب جند الرها وحران، ونزل في جوسق أبيه، فاستبشرالسلطان برحيلهم وقدوم ابنه، وقضت خشية الله بـأمنه، وأقام الكامـل حتى توجه أبـوه إلى مصر، فخرج معه أيـاما ثـم عاد ولم يؤثـر مقامـا، وانتقل إلى حران والـرها واستقـام به أمرها، وذلـك حادي عشر ربيع الأوّل، وأما المحاصرون فـإنهم انتقلوا من الكسوة إلى مـرج الصفر، وسير الملكـان الظاهر والمجـاهد بعـض الأثقال إلى بـانيـاس، وأصحبـا بقيـة الأحمال الملـك الأفضـل إلى مصر، وودّعـاه وكلاهما سـار جريـدة إلى مقره، واستمـر بعد ذلـك على أمرار أمـره، كلما رحل القـوم عن منـزل أحرقوا مـالم يظفروا له بمحمـل، وانتقلوا مـن مرج الصفر ولم يلووا على أحد، ولم يعـرجوا إلى بلد، وأخذوا في السير والسرى، وذهبت آسادهم تروم معاودة الشرى، وتبعهـم الصلاحية ينزلون بعدهـم في منـازلهم، ويخلفونهم في منـاهلهـم، وكان القـوم ظنـوا انهم يقدرون بمـرج الصفر على الاقامة، فلقوا من البرد ماحضهم على النجاة والسلامة، وهذا المرج بقرب جبل الثلج في تموزلايقيم به إلا لابـس فروة فكيف في كانون،

وقد عـرفوا أنهم الجانون حيـث لم يلزموا القـانون، وأرسلت الصـلاحية إلى الملك العادل يستعجلونه، ويحثونه ولا يهملـونه، فخرج يوم الخميس تاسع ربيع الأوّل، وودّع أعيـان البلد وسـار وتلا مـن تقدّمـه إلى تل العجـ.يل، وأقام حتى اجتمع اتباعه.

وأرسل إلى الافضل العدل النجيب أبا محمـد ،وكان صلاح الدين رحمه الله يعتقد في صلاح دينه، ويمكنه من خواص حـاجاته، ويرسله في مهام الـرسائل، وكـان مـدلول الـرسـالـة: أرفق في السير، ووافـق على الخير، فما عندك اليوم من يصدّقك، وأنا لك كـالوالد وأبلغك مقصودك، وأحالفك ولا أخالفـك، وأوافقك ولا أفارقك، فـأشار على الافضل جماعته بـأن يرد جواب الرسالة: إن مقـاربتي لك بمباعدتك للصلاحية منـوطة، وموافقتي بمخـالفتهـم مشروطه، فلما سمـع ذلـك الصـلاحيـة استشاطـوا ونفـروا، واستـدلوا بـه على أنهم ظفـروا، وجدّ جـدّهم، واحتـدّ حـدّهم، فطـووا المراحـل إلى السـائح، وكـان الأفضـل على بلبيـس، وقـد تفـرّق معظـم أصحابه إلى أخبازهـم، وجماعة منهم مع العادل في الباطـن كاتبوه، وعلى الابطـاء عـاتبوه، فسـار الجمعـان بعضهـم إلى بعض، والتقـوا فـانكسر أصحاب الأفضل وانهزمـوا، فدخلوا القاهرة، وأغلقـوا الأبواب للمحاصرة وانتهـى إلى الأفضـل أن جماعـة منهـم أرسلـوا إلى العـادل في إصـلاح أحوالهم،وانجاح آمالهم ،فقـال سيف الدين يازكوج لـلأفضل: لكل زمان عمل،ولكـل أوان أمل، فاصلـح الأمر كيـف تهيأ، فلا مـلام على اللبيب بأي زي تـزيا، فشرع الافضل في اصـلاح الامر مع عمـه، وراسله على أن يكون بحكمه، ثـم سلم الأمر ومر سالما، وحصـل له من التجربـة ماعاد به بالعواقب عالماً.

قال: وخيم العادل بالبركه، واستبـدّ بملك مصر آمنا من الشركة، ونفذ المقطعين إلى اقطاعهم، ونظـر للصلاحية في صلاح ضيـاعهم، وأرسل إلى الأفضل إن وافقتني على مـا أعطيك وقبلت سعدت، فهؤلاء الـذين عندك

مامنهم إلا من كتب إليّ وتقرّب، وانتظر يـومي هذا وترقب وهذه إضبارة كتبهـم فتأملهـا، وإن لم تصدقنـي فتسلمها واعلـم أنهم غـرّوك وضرّوك، وساؤوك بما سرّوك ، وقيل: لم يبـق من الأمراء من لم يكتـب إليه، ولم يخامر إلا أربعة أخلصهم سيـف الدين يازكوج، فلما عرف الأفضـل صدق عمه سلـم المسألـة،وسأل المعدلـه، فقـرر لـلأفضل في ديـار بكـر،ميافـارقين وأعمالها، وجبـل جور وحـاني وجملين، والمعاقـل والحصون المحسـوبة مـن ميافارقين، فرضي بها مكـرها، وخرج إلى الشام متوجها ليلـة السبت سابع عشر ربيع الآخـر في الليلة التي دخـل العادل في بكـرتها القاهرة فـاستقر بـدار السلطنة، وقـدم سيـف الـدين يـازكـوج وحكمـه، واستبقى رضـى الناصرية بابقاء الخطبة لابن العزيـز، ولم ينافسهم مع حصول المعنى له في التفضيل والتمييـز، وأقام وهـو كل يـوم في ارتفاع وسيـاده، وقوتـه في نموّ وزيادة.

قـال: ورد القضاء الى القـاضي صدر الـديـن عبد الملـك بن دربـاس الكردي، ولم يـزل قاضي القضـاة بالديـار المصرية، مـن الأيام النـاصرية وكـان نائبـة القاضي زيـن الديـن على بن يـوسف الـدمشقي، وتعصـب الامراء المتغلبون على الملك العـزيز في مراتبه بصرف صدر الديـن وتولية نائبـه، ولم يزل صدر الـدين مصروفا تـارة بمحيي الديـن بن أبي عصرون، وتارة بـزين الديـن حتى تعصب العـادل له وبعث العـزيز على ردّه، فلما انقضت أيام العزيـز وجاء الأفضل كان أوّل ماحمل عليه أن صـدر الدين يعزل، وتولى زيـن الدين القضاء، فلما جـاءت نوبة العادل في هـذه السنة ردّ صدر الـدين إلى منصبه، وردّ التـدريس بـالمدرسة الشافعيـة في التربة المقدسة، وبالمشهد الشريـف الحسيني الذي أجرى عليه حكم المدرسة إلى شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، وكتـب إليه وهو بدمشق فاستدعاه، وقد كان قبل ذلك ولاه في ممالكه الجزرية أمور المناصب الشرعية، والامور الدينيـة، ومدارس الشافعيـة، وربط الصـوفية، وهو قـاضي قضاتها، ووالي هداتها، وهادي ولاتها، وله في مناصبه نوّاب، وفي مراتبه أصحاب.

قال: ولما دخل العادل القاهرة، استشعر أصحاب الدواوين مهابةالوزير صفي الدين ابن شكرالظاهرة، ونزل في الدار السلطانيةفي الحجرة الفاضلية، وتصدّر في مكان مكانته وشهر من قلمه عضب شهامته، وسيف صرامته، وقمع المتجبرين، ووضع المتكبرين، وأخذ قوس الوزارة باريها، وأجرى الله الأمورأحسن مجاريها.

قال: وندب العادل من الأسدية والصلاحية أميرين كبيرين إلى الشام لإصلاح ذات البين بحمص، وحماه وحلب وغيرها، وهماسرا سنقر، وكرجي.

قال: ولما ودّع الافضل عمه بالبركة سار إلى صرخد، وأقام بها وندب إلى البلاد التي بديار بكر من يتسلمها،ولما انفصل عن مصر وجد المواصلين له لصحبته مفارقين، وكذا الدنيا ماتقبل على أحد ولاتمدّه بمدد، إلا تواردت على حياضه الجموع، وتزاحم في رياضه الركوع، فاذا صرفت عنه وجوهها صرف أهلها عنه الوجوه، وأحلوا به مكروه المكروه.

قال.وأما الظافر فإن عمه أحسن إليه، ووعده بعطاء جزيل، وودّعه بثناءجميل، وأقطعه بأعمال دمشق حزرما وضياع السواد، وشق عليه انه لايجد مايجود به وهو من الاجواد، ووصل إلى دمشق رابع جمادى الآخرة وسكن في جوسق بستانه بالنيرب، وسلك طريقة الاحتراز والاحتراس، واختار البعد عن مقاربة الناس، ولزم السكينة، ولم يدخل المدينة، وطلب من القاضي بجامع النيرب خطيبا شافعياً ليكون بالصلاة فيه عن حضور الجامع بالبلد غنيا، واحتاط غاية الاحتياط، وطوى بساط النشاط.

- ٨٩٤٨ -

فصل

قال العماد: واستدعى العادل ابنه الكامل إلى مصر ليستنيبه فيها وكان بحران، وهوفي تلك البلاد نائب السلطان، فسلم تلك الولاية إلى أخيه الفائز، ووصل إلى دمشق سادس عشر شعبان، ونزل بجوسق أبيه في بستانه، ومعه شمس الدين المعروف بقاضي دارا، وهو وزيره، ومستحثه على المكارم ومشيره.

قال: وخدمته بكلمة أوّلها:

أنتم تحبون بالاعراض تعذيبي
وتقصدون بخلق الصدّ تهذيبي

ساروا فيا صحتي من مهجتي ارتحلي
غابوا فيا سنتي عن مقلتي غيبي

قد كان يهضمني دهري فأدركني
محمد بن أبي بكر بن أيوب

الكامل المالك الأملاك حيث له
رق الأعاجم منهم والأعاريب

معطر عرفه عرفا ومكرمة
مخمر طينه بالطهر والطيب

لا يدعي جوده البحر عرفا ومكرمة
يلفى تأبيه في الشم الشناخيب(١٤٣)

دعتك مصر إلى سلطانها فأجب
دعاءها فهو حق غير مكذوب

قال: وعزمت على صحبته في هذه السفرة إلى مصر، فخرج في الثالث والعشرين من شعبان إلى الكسوة، وخرج سلطان دمشق الملك المعظم ليودّع سلطان مصر أخاه الكامل، وصحبه إلى رأس الماء مع عدّة من الأمراء، ثم ودعه وانصرف وتشوّش مزاج الكامل بعده وانحرف، ووصل

إلى العباسة في الحادي والعشرين من رمضان، والتقاه والده العادل وأنزله بالقصر، ثم ركب إليه بعد يومين وأستصحبه إلى الدار ورتب أحواله على الإيثار، وكان قد عقد له على ابنة عمه الملك الناصر رحمه الله، فأدخله إليها ليبني عليها.

قال: وأصبح العادل يوم الإثنين سابع عشر شوّال، وركب بالسنجق السلطاني والمركب الخسرواني، والسيوف المسلولة، والعقود المحلولة، وأمر الخطيبين بجامعي مصر والقاهرة بالخطبة له ولولده الكامل من بعده ليس بعد دعاء الخليفة إلا الدعاء لهما، وانقطعت الخطبة لابن العزيز، وكان أحضر جماعة من الفقهاء والقضاة والكبراء والولاة، وقال لهم قول المستفتي المستشير: هل تصح ولاية الصغير؟ فقالوا: هذا مولى عليه فلا يلي، وغيابات الحوادث بنظره لاتنجاب ولا تنجلي، فقال: فهل يجوز للمولى الكبير أن ينوب عنه إلى أن يكبر، ويرتب الأمور بحكم النيابة ويدبر؟ فقالوا: إذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تصح النيابة، ومن رآه صواباً أخطأ به الإصابة، لاسيما في السلطنة التي هي خلافة الخليفة، فلا حق فيه إلا للكبير الذي يعين على الحقيقة، وجرى منهم في هذا المعنى الإمعان، فلما عرف الشرع أحضر الأمراء والتمس منهم الطاعة والسمع، وخاطبهم في اليمين له والميثاق، وألزمهم بالوفاء، والوفاق، فأبوا وخاطبهم بماراعهم، وملأ بالتقريع اسماعهم، ثم قال: قد علمتم ما هو الواجب من التظافر على حفظ ثغور الإسلام، وتدبير الممالك بمصر والشام، وما هذا أمر يناط بالصبيان، أو يحاط بغير ذي القدرة والسلطان، فأذعنوا وأطاعوا وحصل الإئتلاف، ورفع الخلاف.

قال: ولما أصبحنا يوم السبت شاهدنا الملك الكامل قد ركب مثل والده، معقوداً سنجقه بمعاقده، والمناصل مجذوبة، والصواهل مجنوبة، والأعين ناظرة، والألسن ذاكرة، ومشى في ركابه من إليه تحبب، وإلى السلطان تقرب.

قال: وركب يوم الخميس السابع والعشرين من شوّال إلى برج المقسم، والمقسم موضع على شاطىء النيل يزار، وهناك مسجد يتبرك به الأبرار، وهو المكان الذي قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصحابة رضي الله عنهم على مصر، ولما أمر صلاح الدين رحمه الله بإدارة السور على مصر والقاهرة، وتولاها الأمير قراقوش جعل نهايته التي تلي القاهرة عند المقسم، وبنى فيه برجاً هو مشرف على النيل ذو شرفات ومعقل ذو طبقات، وثيق البناء، رفيع الفناء، وبنى مسجداً جامعاً، واتصلت العمارة منه إلى البلد، متتابعة المدد، وهو متنزه عن الأكدار والأقذار منزه، وبالجنات مشبه، وإلى البحر والبر بمناظرة الشبابيك موجه، فاختار الكامل أن يجلس فيه يوماً للتفرج، فجلس في الطبقة العليا، واجتمع الأمراء والأعيان في الطبقة الدنيا، ثم مدّ السماط في الجامع، ثم ذكر العماد أنه مدحه ثم بكلمة أوّلها:

مغرم القلب مدنف ... وجده ليس يوصف

وعدونا واخلفوا ... ووفينا ولم يفوا

قال: وفي الحادي والعشرين من شوّال قدم فلك الدين أخو العادل من دمشق.

قلت: هو أخوه لأمه واسمه أبو منصور سليمان بن شروه بن جلدك، وإليه تنسب المدرسة الفلكية بنواحي باب الفراديس بدمشق وبها قبره.

قال العماد: وفي هذا اليوم خطب للعادل وابنه الكامل، والعادل في مهامه يستشيره ويستدعيه، والمرء كثير بأخيه، ثم عاد إلى دمشق بعد شهور.

قال: وفي العشرين من الشهر خرج حاج مصر إلى البركة، وأمر

عليهم نصير الدين الخضر بن بهرام، وكان والي المحلة، وهو مستمر الولاية من الأيام الصلاحية، وحج معه من معروفي الأجناد وأمرائها عدّة، وكذلك حج في هذه السنة حاج دمشق وصحبهم الأمير عز الدين سامة، وكانت السنة مباركة، والنعم متداركة، والخيرعام، والخصب تام.

قال: وانتظرنا زيادة بحر النيل في أوقاتها، فبلغ إلى احدى وعشرين أصبعا من ثلاث عشرة ذراعا، فعاد بذلك كل قلب مرتاعا، ثم أخذ في النقص وهو مرجو الزيادة مأمول الوفاء على العاده، فقنط الناس، ووقع اليأس، واشتدّ المحل، وغلا السعر، ويئس الفلاحون من الفلاح، وأجفلوا من البلاد للانتزاح، وطاروا بأجنحة النجاة في طلب النجاح، وقيل إن هذا النقص لم يعهد من عهد الصحابة، وشرعنا في الاستغفار والانابة، وصام الناس ثلاثة أيام قبل يوم التروية، وكأنما أصابهم مصيبة فهم في التعزية، ثم استسقوا ثلاثة أيام إلى العيد، وأفاض الخطيب في ذكر الوعيد، وغصت بالخلائق الأمكنة، وضجت بالأدعية والضراعات الألسنة.

قال: وفي السنة الّتي قبلها، وهي سنة خمس وتسعين، استدعي القاضي ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري إلى بغداد، وولي قضاء القضاة، وكان متولي القضاء بالموصل، فخرج في أواخر شعبان، فلما وصل بغداد بجل وعظم، وكان قد تردّد إلى بغداد دفعات في الأيام الصلاحية بسبب الرسالة، فهو كان المعين لها، كما تقدّم ذكره.

فصل

في وفاة جماعة من الأعيان في هذه السنةأعني سنة ست وتسعين

قال العماد: وفيها ثالث عشر جمادى الأولى توفي في داره بدمشق الأمير صارم الدين قايماز النجمي، وكان متولي أسباب صلاح الدين رحمه الله في مخيمه وبيوته، يعمل عمل أستاذ الدار، واذا فتح بلد أسلمه إليه، واستأمنه عليه، فيكون أوّل من افتض عذرته، وشام ديمته، وحصل له من بلد آمد عند فتحه، ومن ديار مصر عند موت عاضدها أموال عظيمة، وتصدّق في يوم واحد بسبعة آلاف دينار مصرية عينا، وأظهر أنه قضى من حقوق الله في ذمته دينا، وهو بالعرف معروف، وبالخير موصوف، يحب اقتناء المفاخر ببناء الربط والقناطر، ومن جملتها رباط خسفين ورباط نوى، وله مدرسة مجاورة داره، ولماكفى الله دمشق الحصر نهض وراء العادل إلى مصر، فردّه إلى دمشق ليلازم خدمة الملك المعظم ولده، ويكون من أقوى عدده وأولى عدده، وكان في خلقه زعاره، وكانت حصافته مستعارة.

قال: ولما دفن نبشت أمواله، وفتشت رحاله، وحضر أمناء القاضي، وضمناء الوالي، وأخرجوا خبايا الزوايا، وسموط النقود، وخطوط النسايا، وغيروا رسوم المنزل ومعالمه، واستنبطوا دنانيره ودراهمه، وحفروا أماكن في الدار وبركة الحمام في الجوار، فحملوا أوقارا من النضار، وظهروا على الكنوز المخفية، والدفائن الألفية، فقيل زادت على مائة ألف دينار، وهو قليل في جنب مايحرزه من كذا وكذا قنطار.واستقل ماطواه الخزن، وأخفاه الدفن، وقيل كان يكنز في صحارى ضياعه، ومغارات اقطاعه.

قلت: واتهم بعده جماعة بأن له عندهم ودائع، وتأذى بذلك المتأبي

منهم والطائع، وداره بدمشق هي التي بناها الملك الاشرف أبو الفتح موسى بن العادل داراً للحديث في سنة ثلاثين وستمائة، وأخرب الحمام الذي كان مجاورا لها، وأدخله في ربعها، وذلك في جوار قلعة دمشق بينهما الخندق والطريق، وثم مدرسته المعروفة بالقيمازية.

قال العماد: وفي جمادى الآخرة من هذه السنة توفي —يعني بمصر— الحاجب لؤلؤ وكان في الأيام الصلاحية أشجع الشجعان، وأفرس الفرسان وله مقامات في الغزاة، ومواقف مع العداة، وهو الذي نهض وراء مراكب الفرنج الناهضة في بحر إيلة إلى الحجاز، وأتى في كسرهم وأسرهم بالإعجال والإعجاز، وكانوا قطعوا الطريق في بحر عيذاب على التجار، وحصلت أموالهم تحت الاستيلاء بعد حصولهم تحت الاسار، فأنقذ واستنقذ، ومانزل حتى أخذ، وساق إلى القاهرة أولئك الكفار مقهورين واعتقلهم مأسورين.

قلت: وفيه يقول الرضى بن أبي حصينة المصري يخاطب الفرنج:

عدوكم لؤلؤ والبحر مسكنه
والدر في البحر لايخشى من الغير

فأمر حسامك أن يحظى بنحرهم
فالدر مذ كان منسوب إلى النحر

وقد قيل فيه أشعار كثيرة، تقدّم بعضها في أخبار سنة ثمان وسبعين.

قال العماد: ومن دلائل سماحه ماشاهدته بالقاهرة في سنة إحدى وتسعين من مبراته الظاهرة أنه لما حط القحط رحله، ووصل المحل محله، وتم الغلا، وعم البلا، ابتكر هذا الحاجب الكبير مكرمة لم يسبق إليها، وذلك أنه كان يخبز كل ليلة اثني عشر ألف رغيفا فإذا أصبح جلس على باب الموضع الذي فيه حشر الفقراء، ثم يفتح الباب مقدار مايخرج منه واحد بعد واحد، ويعلم أنه غير عائد فيتناول كل منه قرصه، ويرى

ذلك من خيراته فرصه، فما يزال قاعداً حتى يفرق الألوف على الألوف، وكان هذا دأبه في هذا الغلاء، حتى هب رخاء الرخاء، فحينئذ تنوعت صدقاته، واستغرقت بالصلاة أوقاته، وكان بهي الشيب نقي الجيب، قد جعل الله البركة في عمره، وخصه مدة حياته بإمرار أمره، فأنجده في أوان ضعفه بتضعيف بره، ولا شك أنه من الأولياء الأبدال، والصالحين الصالحي الأعمال.

قال: وفي يوم السبت الحادي والعشرين من ذي القعدة، وأنا بالديار المصرية، توفي الفقيه الكبير شهاب الدين الطوسي، وهو أكبر الأئمة الشافعية ورئيسها، وإليه فتياها وتدريسها، وهو من أصحاب محمد بن يحيى، وكم واجه الملوك بالحق المر، وأنكر عليهم ماينكرونه من العرف ويعرفونه من النكر، ولما وصل إلى مصر كان تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب متوليها، فأعجبه سمت المذكور، فولاه مدرسته بمصر، وهي المعروفة بمنازل العز فوليها، وأقام فيها مفيدا حتى فاز في جنة النعيم بفوزه، وخلت منازل العز من منازل عزه، وأصبح الناس حول سريره مزدحمين، وعليه متوجعين، فوصلوا به إلى القرافة، معان الرحمة والرأفة، وهناك الأصاغر والأكابر من الملوك والأمراء مشاة، وجنازته بما فيه من لباس التقوى مغشاة، ولما نفضوا أيديهم من ترابه انفضوا من أيادي بركته متربين، وبنار اللهب والتلهب عليه مضطرمين، ونمى الخبر إلى حماه وعرف ابن تقي الدين، فولى قاضي دمشق محيي الدين بن الزكي بمصر وقوف أبيه، وسير نائبه لتسلم ذلك وتوليه، وكان اتفق حضوره عنده في الرسالة فاهتدى برشده إلى الضلالة.

قال: وفي العشرين من جمادى الآخرة توفي الفقيه العالم بدر الدين بن عسكر رئيس الحنفية بدمشق.

قلت: وقيل كانت وفاته في تاسع عشر جمادى الأولى، ويعرف بابن العقاده.

قال:وفي سابع عشر شعبان توفي بحلب الفقيه الكبير ظهير الدين عبد السلام الفارسي، وكان أبرع فقيه وأفقه بارع، ورد إلى اصفهان سنة تسع وأربعين، ولقى بها العلماء المبرزين، وخالط صدورها بني الخجندي، وكان تفقه بكرمان، وقرأ على فخر الدين الرازي، من أكبر تلامذة محمد ابن يحيى، وتنقل في بلاد خراسان والعراق، ولقيته بمصر سنة اثنين وسبعين في العهد الصلاحي، وسامه السلطان المقام بها ليفوّض إليه التدريس بقبر الشافعي رضي الله عنه، فعبر وماصبر، وعاد إلى البلاد، ثم وفد إلى دمشق في جمادى الأولى سنة خمس وتسعين ثم سار إلى حلب في ثاني شعبان، فكان من وفاته بها ماكان.

قال:وفي هذه السنة توفي بنيسابور الفقيه الكبير محيي الدين بن محيي الدين محمد بن يحيى.

وفيها توفي صاحب آمد قطب الدين سكمان بن نور الدين قرا أرسلان.

وفيها مات بدمشق في العشر الأوسط من شعبان الهمام العبدي، الشاعر البغدادي، وهو أبو الحسن علي بن نصر بن عقيل بن أحمد بن علي بن عبد القيس من ربيعة وقدم دمشق سنة خمس وتسعين، وهو أشعر من رأيته في هذا الزمان، وسمعته ينشد الملك العادل ودمشق محصورة كلمة شاعره، وصادفته ذا سمت حسن، وفصاحة ولسن، ومعه ديوان شعره يحوي قلائد دره وفرائد سحره، وتوفر على مدح الأمجد صاحب بعلبك ومن شعره:

وما الناس الا كامل الحظ ناقص
وآخر منهم ناقص الحظ كامل

وإني لمشـــــر مــــــن حيـــــاء وعفـــــة
وإن لم يكـــن عنـــدي مـــن المال طـــائل

قال: وتـوفي في هذه السنـة قبل الفاضـل بثلاثـة أيام الأثير بـن بنان، وكان مشمولا في الدولتين بكل قبـول واحترام واحسان، وكان السلطان لما تصرف في القصر ولاه بيـع موجـوده، وبذل في نصرتـه غـاية مجهـوده، ولما فرغ مـن شغله أبقاه على رسـم انعامه كلـه، واستمر إمراره واستقـر قراره، وجلس في بيته يـــبح عليه رواياته العـالية، حتى أدرك أيام الملك العزيز، ولم يدرك في العـز أملا، ولم يملك عمـلا، حتى تغير خلقه، وتقلـل رزقه، وتبطل حقـه، وآل أمره إلى اعتقالـه بالديون، واحتبـاسه في الرهـون، وممن غاظـه وزير العزيز، وكـان مؤدبه في الصغر، واستـوزره في الكبر فتجهمه، واسمعه مـاكرهـه، وقال له: مـاأحسن ماأدبـت مخدومك وخـرجته، وعلى مـراتب أخـلاقك درجتـه، وقال للفـاضـل: أنا خلصتـك في أيام شـاور مـرتين، ودافعت عنـك دفعتين، وهذه قصـائدك في مدحـي، ومقاصـدك لمنحـي، وكان يعـرف لتقـادم عهده وانتقـالـه في الحالات، مبادي أربـاب المنـاصـب إلى الغايـات، فكـرهـه النـواب ودحضوه ولمعـارض النـوائب عرّضوه، وكـان بالقاهرة جـاري، وباب داره مقابل بـاب داري، وأنا أعينه في الأيام الصلاحية بأصلح إعانة، وأصونه بأرجح صيانه.

فصل

في وفاة القاضي الفاضل رحمه الله

قال العماد : وفي هذه السنة تمت الرزية الكبرى، والبلية العظمى وفجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفنا إلى دار البقاء، في داره بالقاهرة سادس ربيع الآخر، يوم الثلاثاء وكان يعني ذلك اليوم بمصاف الأفضل يوم الكسره، وبمصاب الفاضل يوم الحسرة، وذكر أنه ليلة الثلاثاء في مدرسته صلى العشاء، وجلس مع الفقيه ابن سلامة مدرسها، وتحدّث معه ماشاء وشوهد من كل ليلة أبش، وأبسم وأهش، وقد طابت المحاضره وطالت المسامرة، وانفصل إلى منزله صحيح البدن فصيح اللسن، وقال لغلامه: رتب حوائج الحمام، وعرفني حين أقضي مُنى المنام، فوافاه سحراً للاعلام، فما اكترث بصوت الغلام، ولم يدر أن كلم الحمام حمى من الكلام، وأن وثوقه بطهارته من الكوثر أغناه عن الحمام، فبادر إليه ولده فألفاه وهو ساكت باهت، فعرف أن القدر له باغت، فلبث يومه لايسمع له إلاّ أنين خفي، علم منه أنه بعهد الله وفي، ثم قضى سعيداً، ومضى شهيدا حميدا، فوقاه الله تعالى الوصية فكانت له بسيد الأولين والآخرين أسوه، وإن تردى عن رداء العمر فله من حلل البقاء في عليين كسوه، ولأنه لم يبق في مدّة حياته عملاً صالحاً إلاّ وقدّمه، ولا عهداً في الجنة إلاّ أحكمه، ولا عقداً في البر إلاّ أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه على سبل الخيرات متجاوزة عن الخراب، لاسيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين إلى يوم الحساب، وأعان طلبة الشافعية والمالكية عند داره بالمدرسة والأيتام بالكتاب، والخيرات الدارة على الأيام، فكانت حياة ثانية إلى يوم البعث وإعادة حياة الأنام، وكان رحمه الله للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، سلطانه مطاع، والسلطان مطيع، وفضله جامع، وشمل الفضل به جميع، وهو واحد الزمان، وصاحب القرآن، قد خصه الله بالمكانة والإمكان،

والسلطان رحمه الله مـن مفتتحات فتوحـه ومختتماتها، ومبادىء أمـور دولته وغاياتها، ما افتتـح الأقاليم إلا بأقاليد آرابه وآرائه، ومقـاليد غناه وعنائه، وكنت مـن حسناته محسـوبا، وإلى مناسب آلائه منسـوبا، أعرف صنـاعته ويعرف صنـاعتي، وأعـارض بضاعته الثمينـة بمزجـاة بضاعتـي، ولم يزل يجذب بضبعـي، ويجلب نفعـي، وما أوسـع درعه للخطـاب في شغلي إذا ضاق بـالخطب الشاغـل ذرعي، وكانت كتـابته كتائب النصر ، ويـراعته رائعة الدهر، وبراعته بارية للبرية، وعبارته نافثة في عقـد السحر، وكانت بلاغتـه للدولـة مجملة، وللمملكة مكملـة، وللعصر الصلاحـي على سائر الأعصار مفضلة، ومفتتحـاته في الفتوحات البـديعة بديعة، ومخترعـاته في الصنـائع المخترعـة صنيعـة، وإنما نسجـت على منـوالـه، ومـزجـت مـن جرياله، ورويت بـزلاله، وهو الذي نسخ أساليب القدمـاء بما أقدمه من الأساليب، وأغربـه من الابداع وأبدعه من الغريب، ومـا ألفيته كرر دعاء ذكره في مكاتبته، ولا ردّد لفظا في مخاطبته بل تـأتي فصوله مبتكرة، مبتدعة مبتدهة لا مفتكره، بالعـرف والعرفان معرفة لانكره، وكانت الـدولة بادالته تدال، والزلـة بازالته تزال، والكـرام في ظله يقيلون، ومن عثـرات النوائب بفضله يستقيلـون، وبعز حمى حمايته يعـزون، ولهز عطف عطفـه يهتزون ، فـإلى مـن الوفـادة بعـده، وممـن الافـادة، وفيمن السيـادة ولمن السعـادة؟ والحمد لله الـذي له الغيب والشهاده، وإنـا لله وإنا إليه راجعـون، ولأمره منقادون .

وقـد وصفـه العماد أيضافي كتـاب الخريـدة في القسـم الرابـع في ذكـر محاسـن فضلاء مصر وأعمالها، فقـال: وقبل شروعـي في ذكر أعيـان مصر وأحاسنها ومـزايا فضلائها ومـزائنها، أقدّم ذكر مـن جميع أفاضل الـدهر وأماثـل العصر ، كالقطرة في تيـار بحره بل كـالذرة في أنوار فجـره، وهو المولى القاضي الأجـل الفاضل الأسعـد أبو علي عبـد الرحيم بـن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسـن بن البيساني، صاحب القـرآن، العديم الأقـران، وواحـد الـزمـان العظيـم الشـان، رب القلـم والبيـان واللسـن

واللسان ، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقـادة، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة والفضـل الذي مـا سمع لـه بمماثل في الأوائل ممـن لو عـاش في زمانه لتعلـق بغباره، أو جرى في مضماره ، فهو كالشريعة المحمـدية التي نسخـت الشرائع، ورسخت بها الصنـائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكـار ويقلع الانوار ، ويبـدع الأزهار، وهو ضابط الملك بـآرائه، ورابط السلك بآلائه، إن شـاء أنشأ في يـوم واحد بل في سـاعة مـا لو دوّن لكـان لأهل الضناعة خير بضاعـة، أين قس في مقام حصافته، ومـن حاتم وعمرو في سماحتـه وحماسته، فضلـه بالافضـال حال، ونجـم قبولـه في أفق الاقبـال عـال، لامنّ في فعلـه ولا مين في قـولـه، ولا خلف في وعـده ولا بـطء في رفده الصادق الشيـم، السابق بالكرم، ذو الوفـاء والمروّه، والصفاء والفتوّه والتقـى والصلاح، والنـدى والسماح، منشر رفات العلـم ونـاشر راياتـه ، وجـالي غيابـات الفضل وتـالي آياتـه، وهو مـن أولياء الله الـذين خصـوا بكرامتـه، وأخلصوا لـولايته قد وفقـه الله للخير كله، وفضـل هذا العصر على الاعصار السالفة بفضله ونبله، فهو مـع ما يتولاه من أشغال المملكة الشاغلـة ، ومهماته المستغـرقة في العـاجلة لايغفـل عن الآجلـة، ولا يفتر عن المواظبـة على نوافل صـلاته ونوافل صـلاته، وحفظ أوراده ووظـائفه، وبث أصفاده وعـوارفه، ويختم كل يـوم من القرآن المجيد، ويضيـف إليه ما شـاء اللهمن المزيد ، وأنا أؤثـر أن أفرد لنظمه ونثـره كتابا، فإننـي أغار من ذكـره مع الذين هـم كالسها في فلـك شمسه وذكائه، وكالثـرى عند ثـريـا علمه وذكـائه فـإنما تبـدو النجـوم إذا لم تبرز الشمس حـاجبهـا، وتحجـب نور الغـزالة عنـد إشراقها كـواكبها، وإنـه لايؤثـر أيضا إثبـات ذلك، فأنـا ممتثل لأمره المطاع ملتـزم له قانون الاتبـاع، وأضع أذني لأذنه، قابض يميني على يمنـه راكن بأملي إلى ركنه، قاطن بـرجائي في ظل أمنه، افترض رضـاه ولا أعترض على مـا يحكـم بـه ويـراه، ولا أقـوم إلا حيـث يقيمني ، ولا أسـوم إلا ما يسـومني ولا أعـرف يد المكتنـى غير يده ، ولا أتصـدّى إلا لما جعلنـي بصـدده، وأسأل الله التـوفيـق للثبـات على هـذا

السنن وابتهاج جدده وهو أحق ممدوح بمدحي واقضاهم بحقه، وأسماهم في أفقه، وأولاهم بصدقه، وأهداهم إلى طرقه، ولي فيه مدائح منظومة ومنثوره، ومقاصد معاهدها معموره، وقصائد قلائدها على مجده موفوره.

ثم ذكر منها بعض ماتقدّم ذكره في مواضع من هذا الكتاب وله فيه من قصيدة أوّلها:

بحياتكم ماعندكم بعدي
فسوى الأسى مابعدكم عندي
مال الاجنة لاعدمتهم
رغبوا عن الاسعاد في الزهد
إن لم يفسوا فلقدوفي كرما
عبد الرحيم بذمة المجد
ذو الرتبة الشماء والشرف ال
عالي السنا والسؤدد العد
الناس كلهم له تبع
وفي فضله والدهر كالعبد
كم غاص بحر بنانه فغدا
درّ البيان يساق في العقد
ان سوّد البيضاء بيض من
ثوب الليالي كل مسودّ
قلم أقاليم البلاد به
وثغورها للضبط والسدّ
ملك كتيبته كتابته
فرد بجيش النصر في جند
الأسمر الخطي تابعه
في حكمه والأبيض الهندي
والنائبات بحدّه أبدا
مثلومة مغلولة الحد

وهي طويلة.

ثم قال: ولوأوردت من كلامه طرفاً لظهر عجز الأفاضل، واعترفت بالقصور ذوو الفضائل، فلايحسن ذكر البحر في الجداول، ولا العرش في المنازل، فأنا أؤثر أن أفرده بقسم لايمتزج بسواه، ولايتبهرج به من في جملته أوردناه، ولعله يأذن لي في ذلك ، فلا سبيل إليه إلاّ بإذنه، ولا نفاذ للتصرف إلا بعد الفكاك (١٤٤) من رهنه.

قلت: وقد قالت الشعراء فيه فأكثروا، وقد تقدم لأبي الحسن بن الذروي فيه أبيات حسنة عامي حجه، وللتاج أبي الفتح البلطي فيه:

لله عبـــــدرحيـــــم
يــدعـــى بعبـــد الـــرحيـــم
على صراط ســـــــوي
مـــن الهدى مستقيـــم
ينمـــــي إلى شرف في
ذرى المعـــالي صميـــم
مهـــذب حـــاز ماشئـــ
ـــت مـــن تقـــى وعلـــوم
نســـك ابـــن مـــريـــم عيســـى
وهـــدى مـــوســـى الكليـــم
يـــرى التهجـــدانســـا
في جنـــح ليـــل بهيـــم
مسهـــد الطـــرف يتلـــو
آي القـــرآن العظيـــم

وللقاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك فيه من قصيدة:

عبـــد الـــرحيـــم على البريـــة رحمة
أمنـــت بصحبتهـــا حلـــول عقـــابها

يا سائلا عنه وعن أسبابه
نال السماء فسله عن أسبابها
والدهر يعلم أن فيصل خطبه
بخطى براعته وفصل خطابها
ولقد علت رتب الأجل على الورى
بسمو منصبها وطيب نصابها
وأتته خاطبة إليه وزارة
ولطالما أعيت على خطابها
ما القبوه بها لأن بعلمها
أسماءه أغنته عن ألقابها
قال الزمان لغيره إذ رامها
تربت يمينك لست من أترابها
اذهب طريقك لست من آرائها
وارجع وراءك لست من أربابها
وبعز سيدنا وسيد غيرنا
ذلت من الأيام شمس صعابها
وأتت سعادته إلى أبوابه
لا كالذي يسعى إلى أبوابها
تعنو الملوك لوجهه بوجوهها
لا بل تساق لبابه برقابها
شغل الملوك بما يقول ونفسه
مشغولة بالذكر في محرابها
في الصوم والصلوات أتعب نفسه
وضمان راحته على اتعابها
وتعجل الاقلاع عن لذاته
ثقة بحسن مآلها ومآبها
فلتفخر الدنيا بسائس ملكها
منه ودارس علمها وكتابها

صوّامها قوّامها علامها ... عمالها بذالها وهابها

وله أيضا من أخرى:

وسألت من أي المعادن ثغرها ... فوجدت من عبد الرحيم المعدنا
أبصرت جوهر ثغرها وكلامه ... فعلمت حقا ان هذا من هنا
ذاك الكلام من الكمال بمنزل ... لا يدرك الساعي إليه سوى العنا
يدنو من الافهام إلا أنه ... تلقاه أبعد ما يكون إذا دنا

قلت: كان والده تولى القضاء بعسقلان، وأنفذ ولده الفاضل إلى مصر، فاتصل بكتاب الدولة المصرية أبي الفتح بن قادوس وغيره، وفتح الله عليه في هذه الصناعة ففاق فيها أهل عصره، مضافاً إلى ما منحه الله تعالى من علو قدره، وقد سبق من ترسلاته ما يشهد لعظيم أمره، وقرأت من نظمه:

وسيف عتيق للعلاء فإن تقل ... رأيت أبا بكر فقل وعتيق
فزر بابه فهو الطريق إلى الندى ... ودع كل باب ما إليه طريق

وله أيضاً:

سبقتم باسداء الجميل تكرماً ... وما مثلكم فيمن تحدّث أو حكى
وقد كان ظني أن أسابقكم به ... ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا

ودفن رحمه الله بمقبرته بالقرافة.

وقرأت في تاريخ أبي علي حسن بن محمـد بن اسماعيل القليوبي الذي ذيله على تاريخ أبي القاسم السمناني قال: حدثني الملك المحسن أحمد بن السلطان صلاح الدين أن يوم موت الفاضل اتفق دخول الملك العادل إلى مصر، وأخذها من ابن أخيه الأفضل.

قال: دخل العادل من باب، وخرجنا نسرع بالجنازة من باب آخر، قال: وأكثر أهل مصر يذكرون أن كتبه التي جمعها مقدار مائة ألف مجلد، وكان يجمعها من سائر البلاد. قال: وسمعت قاضي القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري ببغداد أيام ولايته يحدث أن القاضي الفاضل لما سمع أن العادل أخذ الديار المصرية دعا على نفسه بالموت، خشية أن يستدعيه وزيره صفي الدين بن شكر إليه أو يجري في حقه إهانة، وكان بينهما مقارصة فأصبح ميتاً، وكانت له معاملة حسنة مع الله تعالى، وصلاة بالليل كما ذكروا عنه رحمه الله.

قلت: وأخبرني القاضي الشهيد ضياء الدين بن أبي الحجاج صاحب ديوان الجيش رحمه الله أن القاضي الفاضل بعد صلاح الدين لم يخدم أحداً من أولاده، وكانت الدولة بأسرها تأتي إلى خدمته إلى أن توفي، قال: ولما قدم العادل مصر وملكها بات وأصبح فزار قبر الشافعي رضى الله عنه، وجاء إلى قبر الفاضل فزاره، قال ابن أبي الحجاج: وأنا حاضر ذلك.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين

قال العماد: ففيها توفي الأمير عز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن محمد بن المقدم في حصن أفاميه، وفيها أو في سنة ست قبلها توفي السلطان خوارزم شاه بن تكش بن ايل أرسلان بن أتسز بن محمد، وهو الذي زالت دولة السلجوقية بملكه، واجتمع له مع خوارزم، خراسان، والعراق، ولما مات قام ولده علاء الدين مقامه.

قال: وفيها كتب السلطان العادل للأمير فخر الدين إياز شركس بأعمال تبنين، وهونين، وبانياس، والحوله، وما يجري معها، وكانت مع الأمير حسام الدين بشاره، فحاصره وأنجده الملك المعظم عيسى ابن السلطان من دمشق، فسلم البلاد وخرج.

قال: وفيها توفي الأمير بهاء الدين قراقوش، وهو من القدماء الكرماء، وشيوخ الدولة الكبراء، أمير الأسدية ومقدمها، وكريمها ومكرمها، ولم أر غيره خصياً لم تقاومه الفحول، ولم يؤثر في محال مأثراته المحول، وله في الغزوات والفتوحات مواقف معروفة، ومقامات موصوفة، وهو الذي احتاط على القصر، حين استتبت على متوليه أسباب النصر، وذلك قبل موت العاضد بمدة، ولما خطب لبني العباس بالديار المصرية تسلم القصر بما فيه، واستظهر على أقارب العاضد وبنيه، وتولى عمارة الأسوار المحيطة بمصر والقاهره، وأتى فيها بالعجائب الظاهرة، وكان معاذ الإلتجاء، وملاذ الإرتجاء، غير أنه نسب إلى اللجاج لشدة ثباته وفرط جموده، ولا يكاد يعجم لصلابة عوده، ولما توفي تسلم العادل داره بما حوته من الذخائر، وصارت اقطاعاته للملك الكامل.

قال: وفيها نقل إلى العادل عن غلام الأمير أيبك الفطيس أن جماعة قد عزموا على الفتك بالعادل حال ركوبه، وأسند أصل ذلك إلى الملكين

المعز اسحق والمؤيد مسعود ولدي صلاح الدين رحمه الله، فأحضر الغلام وعصره فمات ولم يقر، واعتقل المعز والمؤيد ونزع من اتهمه في ذلك من الأمراء الصلاحيه، وتكلم الناس بأحاديث في هذه القضية.

قال: وفي هذه السنة اشتد الغلاء، وامتد البلاء وتحققت المجاعة وهلك القوي، فكيف الضعيف، ونهك السمين فكيف العجيف، وخرج الناس حذر الموت من الديار، وتفرّق فرق بمصر في الأمصار، ورأيت الآرامل على تلك الرمال، والجمال باركة تحت الأحمال، ومراكب الفرنج على ساحل البحر على اللقم، تسترق الجياع باللقم، فقل من إلى الشام خلص إلاّ بعد أن قل عدد أهله ونقص.

قلت: ثم زالت تلك الشدة بعد مدة، وتوفي العماد الكاتب رحمه الله مصنف هذه الكتب: الفتح، والبرق، وهذه الرسائل الثلاث العتبى، والنحلة، والخطفة بدمشق في أوّل شهر رمضان من هذه السنة، وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة، ودفن بمقابر الصوفية بالشرف القبلي.

وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الواعظ وغيره رحمهم الله.

وتوفي الملك الأفضل بسميساط في سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وحمل إلى حلب فدفن بها

وتوفي الملك الظاهر بحلب في سنة ثلاث عشرة وستمائة.

وفيها توفي بدمشق الشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي، ودفن بالجبل وغيره رحمهم الله.

وتوفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب بدمشق في سنة خمس عشرة

وستمائة، وابنه المعظم في أواخر سنة أربع وعشرين وستمائة، وأخواه الأشرف والكامل في سنة خمس وثلاثين وستمائة رحمهم الله ووفق من بقي من أهل بيتهم وأصلح ذات بينهم آمين.

***

آخر الجزء الثاني من الأصل المنقول منه، الذي هو بخط المؤلف.

والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده. على يد العبد الضعيف المفتقر إلى رحمة ربه اللطيف ، محمد بن أحمد البودري المغربي الأزهري.

آخر الجزء الثاني من الروضتين بأخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة رحمه الله.

حواشي الجزء الأول حسب تقسيم المؤلف

١ــ سورة الرعد ــ الآية :٩.
٢ــ سورة ابراهيم ــ الآية ٣١٠.
٣ــ سورة الطارق ــ الآية :٩.
٤ ــ سورة هود ــ الآية: ١٢٠.
٥ ــ سورة القمر ــ الآيات :٤ـ٥.
٦ــ رواه الإمام الترمزي في كتاب الشمائل
٧ــ انظره عن أبي داود في جامع الأصول لابن الأثير ج ٨ ص ١٩.
٨ــ صحيح مسلم ـ ط. دار الفكر بيروت ج٢ ص ١٣٢ ـ باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح.
٩ــ انظره في جامع الاصول ج١١ ص ٧٩٢.
١٠ــ سورة الحاقة ــ الآية :٨.
١١ــ في حاشية الاصل: «قف، كان المؤلف اختصر تاريخ ابن عساكر».
١٢ــ سورة الذاريات ــ الآية :٥٥.
١٣ــ في حاشية الأصل: ولد نور الدين سنة ٥١١ وتوفي سنة ٥٦٩، وولد صلاح الدين سنة ٥٣٢ وتوفي سنة ٥٨٩.
١٤ــ ديوان ابي تمام ـ ط. دار المعارف القاهرة ج٣ ص ١٥٢.
١٥ ــ في حاشية الأصل: قف على أن نور الدين كان حنفي المذهب.
١٦ــ في حاشية الأصل: قف على أن الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لاخلو اليد عنها.
١٧ــ أي لايذكرن بقبيح ، كان يصان مجلسه عن رفث القول. النهاية لابن الأثير.
١٨ـ أي أوضحهم وعداً. القاموس.
١٩ــ سنا البرق الشامي للبنداري ـ .القاهرة ١٩٧٩ ص ١٦.
٢٠ــ في حاشية الاصل: حاشية، قال المؤلف: هو عبد المؤمن بن هبة الله بن حمزة الأصفهاني الحنفي، ولقبه شوروه ـ بشين معجمة مفتوحة ، وراء ساكنة بين واوين مفتوحتين ، وآخره هاء ، والله أعلم. كذا في الأصل المنقول من خط مؤلفه.
٢١ــ ليست هذه الابيات في المطبوع من تاريخ إربل.
٢٢ــ في الحاشية: قف على هذه المنقبة العظيمة.
٢٣ــ انظر تاريخ حلب لابن الشحنة ـ ط. طوكيو ١٩٩٠ ص ١٠٥.
٢٤ــ سورة الفرقان ــ الآية: ٦٣.
٢٥ــ سورة النور ــ الآية: ٥١.
٢٦ــ سورة الزمر ــ الآية ١٠٠.
٢٧ــ سورة الأنعام ــ الآية : ١٦٠.
٢٨ــ سورة البقرة ــ الآية: ٢٦١.
٢٩ــ سورة ص ــ الآية: ٢٩.
٣٠ــ سورة الانفطار ــ الآية: ١٩.
٣١ــ سورة آل عمران ــ الآية ١٩٥.

٣٢— لم تصلنا ترجمة نور الدين في الاجزاء الموجودة من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم.
٣٣— انظر الخريدة— قسم بلاد الشام - ج١ ص ١٢٣.
٣٤— تخمط : تكبر وغضب، القاموس.

٣٥— دأيت للشيء: ختلته وراوغته. القاموس.
٣٦— الشلق: الضرب بالسوط وغيره.
٣٧— الجث— القطع ، أو انتزاع الشجر من اصله، وبالضم: ما أشرف من الأرض حتى كاكمة صغيرة.
٣٨— أجن الماء إذا تغير لونه وطعمه.
٣٩— في هامش الأصل: حاشية - الجناجن - بجيمين ونونين - عظام الصدر.
٤٠— في هامش الأصل: الشرر أحكام الفتل وابرامه، والسحل دونه، أي أمضى منه في الأمور الكبار وفي الصغار، والذماء: بقية الروح في المذبوح، والله أعلم.
٤١— ليلة الهرير هي إحدى ليالي القادسية، وكذلك هي إحدى ليالي صفين.
٤٢— من أمثال العرب يعني إبطان غير المظهر.
٤٣— الابرنز: الأمير.
٤٤— وقم: قهر وأذل. القاموس.
٤٥— الكرينة: المغنية، ولا أدري إذا كان الكرين: المغني.
٤٦— تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الاصبهاني بتهذيب البنداري، - ط. القاهرة ١٩٠٠ ص ١٨٧— ١٨٨.
٤٧— القلة: أعلى مكان بالقلعة أو بالحصن.
٤٨— قبر زنكي قرب مشهد الإمام علي رضي الله عنه، ومكان هذا المشهد حيث باب بغداد في الرقة، وعلى مقربة من هذا الباب جرت حفريات رجحت مكان القبر وحددته.
٤٩— تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٩— ١٩٠.
٥٠— خبز مصنع من طحين معجون بالسمن والسكر.او خبز بلا أدم (بقسماط)
٥١— صحيح مسلم— كتاب الحدود- ٥ ص ١١٧.
٥٢— بزرك: عظيم.
٥٣— سورة التوبة— الآية : ١١١.
٥٤— سورة الصافات— الآية: ٤٤.
٥٥— مرت هذه الكلمة من قبل في تاريخ ابن القلانسي، ووقتها خيل لي أنها تصحيف «حظائر» ولكن التكرار بالرسم نفسه نفى هذا الاجتهاد، ولدى السؤال تبين لي أن فطائر جمع فطيرة، والفطيرة قطعة الأرض واضحة المعالم لافرق إن كانت مزروعة أو بدون زراعة.
٥٦— حبيب النجار، ومثواه كما هو رائج في انطاكية.
٥٧— ديوان أسامة ص ١٧٠.
٥٨— سورة فاطر— الآية : ٤٣.
٥٩— جفخ : فخر وتكبر.
٦٠— سورة الأنعام— الآية: ٩٦.
٦١— سرطته: بلعته.
٦٢— الزبرج: الزينة

٦٣— يفيل: يخطىء.
٦٤— آخر صفوف الحرب.
٦٥— سدك به لزمه وتولع به.
٦٦— السرق الحرير، والشليل الثوب يلبس تحت الدرع.

٦٧— الأرين: النشيط، وسرير الميت أو تابوته، والسيف. القاموس.
٦٨— الأنب— ثمر الباذنجان، والغاصي: القليل المتفرق.
٦٩— الكسم: الحشيش الكثير، والصوار: القطيع من البقر.
٧٠— العرار: الصياح والصراخ.
٧١— الخبار: مالان من الأرض.
٧٢— العلاب— جمع علبة- وهي النخلة الطويلة والقدح الضخم يحلب فيها.
٧٣— الشجن: الحزن والهم، وشجنته الحاجة: حبسته.
٧٤— الضجم: عوج في الفم والشدق، وضغمه: عضه.
٧٥— ديوان أسامة ص ١٦٢.
٧٦— ديوان أسامة ص ٧٦.
٧٧— ديوان أسامة ص ٢٩٠.
٧٨— ديوان أسامة ص ٢٨٧.
٧٩— ليست في ديوانه المطبوع.
٨٠— ديوان أسامة ص ٣٠٦— ٣٠٩.
٨١— القنس: الأصل، أعلى الرأس.
٨٢— ديوان أسامة ص ٤٠— ٤١ (عدة أبيات).
٨٣— كتاب العصا لأسامة- ط. القاهرة ١٩٧٢ ضمن نوادر المخطوطات ج١ ص ٢٠٧.
٨٤— جاءت قصيدة ابن رزيك في ديوان أسامة مع رد آخر غير هذا لأسامة ص ١٣٦— ١٣٧.
٨٥— ديوان أسامة ص ٢١٣— ٢١٧.
٨٦— ديوان أسامة ص ١٤٠ —١٤١ مع فوارق.
٨٧— بط الجرح شقه.
٨٨— ديوان أسامة ص ١٧٥ — ١٧٧.
٨٩— الخريدة- قسم مصر- ط. القاهرة ١٩٥١ ج ١ ص ١٧٣ — ١٨٣.
٩٠— ليست في ديوانه المطبوع.
٩١— الخريدة- قسم مصر- ج١ ص ١٧٤.
٩٢— الخريدة- قسم مصر- ج ١ ص ١٨٠.
٩٣— الخريدة- قسم مصر- ج١ ص ١٨٠.
٩٤— ديوان أسامة— ص ٢٨١- ٢٨٣.
٩٥— سنا البرق الشامي ص ١٩.
٩٦— ليسا في ديوانه المطبوع.
٩٧— سورة الأعراف- الآية: ٩٥.
٩٨— الخريدة — قسم مصر- ج ١ ص ١٨٩- ٢٠٠.
٩٩— الخريدة — قسم الشام- ج٢ ص ٣٥.

١٠٠ــ سنا البرق الشامي ص ٢٢ــ ٢٤.
١٠١ــ انظر سورة آل عمران ـ الآية: ٢٦.
١٠٢ــ سورة آل عمران ــ الآية : ٢١٦.
١٠٣ــ سورة البقرة ــ الآية: ٢١٦.
١٠٤ــ سورة النساء ــ الآية: ٥٤.
١٠٥ــ سورة النحل ــ الآية: ٩١.
١٠٦ــ الخريدة ـ قسم الشام ــ ج ١ ص ٢٧٧.
١٠٧ــ سورة الأنفال ــ الآية : ٤٢.
١٠٨ــ سورة القصص ــ الآية: ٨٣.
١٠٩ــ سورة الرعد ــ الآية: ٤٣.
١١٠ــ ديوان عرقلة الكلبي ـ ط. بيروت: ١٩٩٢ ص ٥٧.
١١١ــ ديوان عرقلة الكلبي ص ١١٠.
١١٢ــ ديوان عرقلة ص ٤٩.
١١٣ــ ديوان عرقلة ص ٦٤.
١١٤ــ ديوان عرقلة ص ٥٢. الخريدة ـ قسم الشام ــ ج١ ص ١٨٠.
١١٥ــ سورة النحل ــ الآية : ٥٢.
١١٦ــ سورة النحل ــ الآية: ٢٦.
١١٧ سورة الأنفال ــ الآية : ٤٢.
١١٨ــ الخريدة ـ قسم مصر ـ ج١ ص ٢٣٥ــ ٢٣٧.
١١٩ــ سورة آل عمران ــ الآية: ١٧٤.
١٢٠ــ كذا وهو وهم فقد عاشت الخلافة الفاطمية / ٢٧٠/ سنة هجرية من ٢٩٧ حتى ٥٦٧ (٩٠٩ـ ١١٧١) ، وكان القائد جوهر الصقلبي قد استولى على مصر سنة ٣٥٨ / ٦٦٩م، وبعد ذلك بوقت قصير انتقل الخليفة المعز إلى القاهرة المؤسسة حديثا.
١٢١ــ ديوان العرقلة ص ٣٧ــ ٣٨.
١٢٢ـ سورة الصف ـ الآية: ٨ . وحديث المصنف عن تاريخ الدولة الفاطمية ونسب أئمتها صادر عن التعصب ، ذلك أن مسألة النسب مبتوتة من حيث الصحة، أضف الى هذا أن اسم المهدي عبد الله وليس عبيد الله وكنت قد عالجت هذه المسألة بالتفصيل بكتابي الجامع بأخبار القرامطة ، ج ١ ص ٧٧ــ ١٠٧.
١٢٣ــ سورة الكهف ــ الآية: ١٠٤. وكنت قد نشرت مادونه القاضي عبد الجبار في تثبيت دلائل النبوة في كتابي الجامع بأخبار القرامطة ج١ ص ٢٩٥ـ ٣٣٠.
١٢٤ــ سورة الأسراء ـ الآية ٥٨.
١٢٥ــ زرا هي أزرع الحالية وسمسكين هي الشيخ مسكين الحالية وهما على مقربة من بعضهما.
١٢٦ــ متح الماء: نزعه، والمقصود هنا رفع زنكي إلى القلعة.
١٢٧ــ الخريدة ـ قسم الشام ج ٣ ص ٦٤ـ ٦٥.
١٢٨ــ طمام موضع على مقربة من صنعاء، وكان سوقاً مشهوراً. معجم المدن والقبائل اليمنية لابراهيم المقحفي ـ ط. صنعاء ١٩٨٥.

١٢٩— الخريدة— قسم الشام— ج٣ ص ١٠٣ — ١٠٤.
١٣٠— سورة البروج— الآية: ٢٠.
١٣١— الخريدة — قسم مصر — ج ١ ص ١٨٦— ١٨٧.
١٣٢— سورة الشورى— الآية : ٤١.
١٣٣— سورة البقرة— الآية:١٩٤.
١٣٤— ديوان عرقلة ص ٧٠.

١٣٥— منامات الوهراني ومقاماته ورسائله — ط. القاهرة ١٩٦٨ ص ١٤.
١٣٦— ديوان أسامة ص ١٥٨.
١٣٧— المعرفة والتاريخ للفسوي ـ ط. بيروت ١٩٨١ ج٢ ص ٣٦٧.
١٣٨— ليست في ديوان أسامة المطبوع.
١٣٩— سورة التوبة— الآية: ٥٨.
١٤٠— سورة الليل— الآيتان: ١٤ — ١٥.
١٤١ ليست في ديوانه المطبوع.
١٤٢— سورة النبأ— الآية : ٢٠.
١٤٣— الأعلاق الخطيرة— قسم الشام ج٢ ص ٢٨٤ — ٢٨٨.
١٤٤— سورة الرعد — الآية : ٣٨.
١٤٥— كذا وهو وهم قائم على تجاهل زمن كل من ابن أبي حصينة والمعري المتقدم على أسامة ، ولا وجود لطائية أسامة في ترجمته في الخريدة.
١٤٦— أي أقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالامام علي كرم الله وجهه.
١٤٧— الخريدة ـ قسم الشام—ج١ ص ٤٠٦— ٤١٩.
١٤٨— الخريدة— قسم الشام— ج١ ص ٤٠٢— ٤٠٣.
١٤٩— سورة الأنعام— الآية : ١٦٤.
١٥٠— الخريدة — قسم الشام— ج٢ ص ٣٣٦— ٣٣٩.
١٥١— الخريدة— قسم الشام— ج١ ص ٤٩١— ٤٩٥.
١٥٢— الخريدة— قسم مصر — ج١ ص ١٠٦.
١٥٣— لاترجمة للعثماني في قسم مصر المطبوع من الخريدة.
١٥٤— الخريدة— قسم الشام— ج٢ ص ٣٦٤. وللشاتاني ترجمة جيدة في بغية الطلب لابن العديم على أساسها يقوّم نص الخريدة المنشور.
١٥٥— ديوان العرقلة ص ٦٥.
١٥٦— محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد. معجم البلدان.
١٥٧— سورة فصلت— الآية : ٤٦.
١٥٨— هذا بعض بيت ورد في الحماسة لابي تمام بشرح التبريزي ـ ط. بيروت ـ دار القلم ج١ ص ٣٤١ والبيت هو:

أبى القتل إلاّ آل صمة إنهم　　　أبو غيره والقدر يجري إلى القدر.

١٥٩— سورة النساء— الآية : ١٠٠.

حواشي الجزء الثاني من الروضتين

١— الأمج: حر وعطش، والشديد الحر، القاموس.
٢— سورة آل عمران— الآية: ٣٤ .
٣— سورة الأنفال— الآية: ٦١ .
٤— سورة الأعراف— الآية: ٨٧ .
٥— ديوان سبط ابن التعاويذي— ط دار صادر بيروت ص ٤٢٠ —٤٢٤
٦— سورة البقرة— الآية: ٢٤ .
٧— هذه القبور في المدرسة الشامية البرانية، التي باتت الآن في موقع متوسط داخل دمشق، وقد جرى ترميمها مؤخراً.
٨— انظر موسوعة أطراف الحديث ج ٧ص ٤٤٤،٤٤٧ .
٩— في هذا اشارة إلى قصة الزباء والانتقام منها حين جدع قصير أنفه، فقيل في الأمثال لأمر ماجدع قصير أنفه.
١٠— سورة آل عمران— الآية: ١٩٦ .
١١— سورة المجادلة— الآية: ٢٢ .
١٢— سورة آل عمران— الآية: ١٧٤ .
١٣— سورة الفجر— الآيتان: ١٣—١٤ .
١٥— هو زيد بن الحسن زيد بن زيد، من شيوخ ابن العديم، ترجم له في كتاب بغية الطلب ج ٩ ص ٤٠٠٢—٤٠١٣ .
١٦— سورة الواقعة— الآية: ٦٥ .
١٧— سورة الزمر— الآية: ٧١ .
١٨— لعلها زالة التي ذكرها الحميري في الروض المعطار وقال عنها: مدينة صغيرة عامرة بينها وبين أوجلة التي بأرض برقة عشرة مراحل.
١٩— سورة طه — الآية: ٣٧ .
٢٠— الخريدة— بداية قسم شعراء الشام ص ١٣٦ .
٢١— سورة التوبة— الآية: ٣٦ .
٢٢— السها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى. القاموس.
٢٣— سورة آل عمران— الآية: ٢٦
٢٤— سورة الأحزاب— الآية: ٢٧ .
٢٥— سمق سموقاً: علا وطال. القاموس.
٢٦— سورة الروم— الآيتان: ١—٢ .
٢٧— سورة مريم— الآية: ٢٦ .
٢٨— التيوع: كل بقلة إذا قطعت سال منها لبن أبيض حار يقرح البدن. القاموس.
٢٩— سورة الرحمن— الآية: ١٣ .
٣٠— سورة التين— الآية: ١ .
٣١— انظر موسوعة أطراف الحديث ج ٣ ص ٣٠٦ .
٣٢— انظر موسوعة أطراف الحديث ج ٣ ص ١٤٦ .
٣٣— سورة الفجر — الآيتان: ٧—٨ .
٣٤— موسوعة أطراف الحديث ج ٤ ص ٤٢٢ .
٣٥— سورة يوسف— الآية: ٨٤ .
٣٦— تدقق رواية العماد هذه على ماجاء لدى وليم الصوري وصاحب ذيل تاريخه.

٣٧— سورة الفتح— الآية: ٤ .
٣٨— سورة القدر— الآيتان: ٣—٤ .
٣٩— سورة آل عمران— الآية: ١٤٨ .
٤٠— سورة النبأ— الآية: ٤٠ .
٤١— سورة الروم— الآية: ٤٧ .
٤٢— سورة الفرقان— الآية: ٢٦ .
٤٣— سورة هود— الآية: ٤٣ .
٤٤— سورة فاطر— الآية: ٢ .
٤٥— سورة الأنبياء— الآية: ١٠٥ .
٤٦— سورة طه— الآية: ٣٧ .
٤٧— سورة الاسراء— الآية: ١ .
٤٨— سورة آل عمران— الآية: ٣٧ .
٤٩— سورة التوبة—الآية: ١١١ .
٥٠— سورة الشورى— الآية: ١٣ .
٥١— سورة النور— الآية: ٥٥ .
٥٢— سورة المائدة— الآية: ٢١ .
٥٣— الفتخ من العقبان اللينة الجناح. القاموس.
٥٤— سورة النحل— الآية: ٩٠ .
٥٥— سورة الأنعام— الآية: ٤٥ .
٥٦— سورة الفاتحة— الآيتان: ١—٢ .
٥٧— سورة الأنعام— الآية:١ .
٥٨— سورة الاسراء- الآية: ١١١ .
٥٩— سورة الكهف— الآية: ١ .
٦٠— سورة النمل— الآية: ٦٠ .
٦١—سورة سبأ—الآية: ١ .
٦٢— سورة فاطر— الآية: ١ .
٦٣— سورة النجم— الآيات: ١٤—١٧ .
٦٤— انظر الآية ٣٦ من سورة النور.
٦٥— سورة النساء— الآية: ١٧٢ .
٦٦— سورة المائدة— الآية: ١٧ .
٦٧— سورة الأنفال— الآية: ١٠ .
٦٨— سورة النحل— الآية: ٩٢ .
٦٩— سورة الأعراف— الآية: ١٧٥ .
٧٠— سورة الأنفال— الآية: ٦٥ .
٧١— سورة آل عمران— الآية: ١٦٠ .
٧٢— سورة الأحقاف— الآية: ١٥ .
٧٣— سورة النمل— الآية: ١٩ .
٧٤— سورة هود— الآية: ٣٨ .
٧٥— سورة آل عمران— الآية: ١٧٥ .
٧٦— سورة الدخان— الآيات: ٢٥—٢٨ .
٧٧— سورة الفرقان— الآية: ٣٨ .
٧٨— سورة غافر— الآية: ٨٥ .
٧٩— سورة فاطر— الآية: ٣٤ .
٨٠— سورة الزمر— الآية: ٧٤ .
٨١— سورة الأعراف— الآية: ٤٣ .

٨٢— سورة يونس— الآية: ١٠ .
٨٣— سورة ابراهيم— الآية: ٣٤ .
٨٤— سورة مريم— الآية: ٨٤ .
٨٥— سورة الواقعة— الآيتان: ٢٥—٢٦
٨٦— سورة الحجر— الآية: ٤٦ .
٨٧— سورة الطلاق— الآية: ٧ .
٨٨— ليست في ديوانه المطبوع.
٨٩— سورة التوبة— الآية: ١١١ .
٩٠— سورة التوبة— الآية: ٢٦ .
٩١— سورة الأنفال— الآية: ١٧ .
٩٢— سورة آل عمران— الآية: ٣٤ .
٩٣— سورة الفرقان— الآية: ٢٦ .
٩٤— سورة الحاقة— الآية: ٧ .
٩٥— سورة يوسف— الآية: ٧٧ .
٩٦— الأسل نبات، والرماح والنبل وشوك النخل، وعيدان تنبت بلا ورق يعمل منها الحصر. القاموس.
٩٧— الخريشت بالفارسية: الخيمة— الايوان. نوع من أنواع الدروع.
٩٨— قلعتان عظيمتان من أعمال إربل. معجم البلدان.
٩٩— سورة النساء— الآية: ١٠٠ .
١٠٠— سورة طه— الآية: ١٣٢ .
١٠١— سورة الحج— الآية: ٤٠ .
١٠٢— سورة محمد— الآية: ٣٥ .
١٠٣— سورة الأحزاب— الآية: ٢١ .
١٠٤— سورة آل عمران— الآية: ١٥٩ .
١٠٥— سورة التوبة— الآية: ٤٦ .
١٠٦— سورة القمر— الآية: ٨ .
١٠٧— سورة الأنبياء— الآية: ٩٦ .
١٠٨— ديوان حاتم الطائي— ط دار صادر بيروت ص ٥١ مع فوارق.
١٠٩— سورة هود— الآية: ٤٣ .
١١٠— سورة الأنعام— الآية: ٦٤ .
١١١— سورة آل عمران— الآية: ١١٣ .
١١٢— سورة الأنعام— الآية: ٤٣ .
١١٣— سورة الأنعام— الآية: ٣٥ .
١١٤— سورة آل عمران— الآية: ٣٠ .
١١٥— سورة الانسان— الآية: ٣٠ .
١١٦— سورة الأنعام— الآية: ٩١ .
١١٧— سورة النمل— الآية: ٧٣ .
١١٨— سورة الحشر— الآية: ١٠ .
١١٩— سورة المزمل— الآية: ٦ .
١٢٠— سورة آل عمران— الآية: ١٣ .
١٢١— سورة المائدة— الآية: ٦٤ .
١٢٢— سورة الحج— الآية: ٤٠ .
١٢٣— سورة يوسف— الآية: ٤١ .
١٢٤— سورة آل عمران— الآية: ١٦ .
١٢٥— سورة آل عمران— الآية: ١٠٣ .
١٢٦— يروى أن هذا قاله عبد الله بن الزبير أثناء معركة الجمل، فقد اصطرع هو والاشتر النخعي — مالك بن

الحارث، فنادى بهذا النداء.
١٢٧ — الخريدة— قسم الشام، ج ٢ ص ٣٣٤—٣٣٥ .
١٢٨ — سورة العاديات— الآيتان: ٩—١٠ .
١٢٩ — سورة الأنبياء— الآية: ١٠٤ .
١٣٠ — سورة الرحمن— الآية: ٦٠ .
١٣١ — سورة التوبة— الآية: ٤٠ .
١٣٢ — المدرسة التي أسسها وحملت اسمه، حيث باتت من أهم مراكز التعليم في بلاد الشام.
١٣٣ — شعر دعبل بن علي الخزاعي— ط دمشق ١٩٦٤ ص ٧١ .
١٣٤ — سورة الحشر— الآية: ٢٢ .
١٣٥ — سورة التوبة— الآية: ١٢٩ .
١٣٦ — موسوعة أطراف الحديث ج ٥ ص ٤٠ .
١٣٧ — لعل في هذا اشارة إلى عدم تصديق عمر بن الخطاب رضي الله عنه خبر وفاة النبي ﷺ عندما سمعه للمرة الأولى فقال: «إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكن ربه أرسل إليه ..... ».
انظر مغازي الزهري— تحقيقي —ط . دمشق ١٩٨١ ص ١٣٢ .
١٣٨ — سورة القلم— الآية: ٤ .
١٣٩ — سورة التوبة— الآية: ١٢٠ .
١٤٠ — سورة يس— الآية: ٧٨ .
١٤١ — سورة البقرة— الآية: ١٩ .
١٤٢ — سورة العنكبوت— الآية: ٦٩ .
١٤٣ — الشنخوب: أعلى الجبل. القاموس.
١٤٤ — الخريدة— قسم مصر — ج ١ ص ٣٥—٥٤ .

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٧)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء العشرون

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

الذيل

على الروضتين

لأبي شامة المقدسي

شهاب الدين أبي محمدعبد الرحمن بن اسماعيل

(ت٦٦٥ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت

وإليه أنيب

الحمد لله الذي انفرد بالبقاء وكتب على غيره الزوال، وجعل الدنيا متنقلة لاتدوم على حال، وقضى على أهلها بالإدبار والإقبال، فكم ممن يؤمل الآمال فتحرمه دونها الآجال، وكم ممن يفجأه النوال ولم يكن يخطر له ببال، وصلى الله على خير خلقه من الملائكة والنبيين، وآلهم الطاهرين، وكرم نبينا خاتم الأنبياء وصحبه وآله سادة الأولياء، نعم الصحب وحبذا الآل.

أما بعد فإن في مطالعة كتب التواريخ معتبرا، وفي ذكرها عن الغرور مزدجرا، لاسيما إذا ذكر بعض من مات في كل عام من المعارف والإخوان، والأقارب والجيران، وذوي الثروة والسلطان، فإن ذلك مما يزهد ذوي البصائر في الدنيا، ويرغبهم في العمل للحياة العليا، والاستعداد لما هم ملاقوه، والإقلاع عما هم عن قليل مفارقوه.

وكان قد سهل الله تعالى علي، وحبب إلي إلى أن جمعت في كتاب الروضتين، كثيرا من الحوادث الواقعة في زمن الدولتين النورية والصلاحية سقى الله عهدهما وأصلح مابعدهما، وانتهى ذلك إلى السنة التي توفي فيها صلاح الدين رحمه الله تعالى وهي سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وذكرت تبعا لذلك اشياء مفرقة فيما يتعلق بأحوال أولاده ومن يتعلق بهم.

ثم خطر لي أن أجمع كتابا يتضمن كثيرا من الحوادث بعد ذلك إلى آخر ماتدركه حياتي ختمها الله بالعمل الصالح والفعل الرابح، وكان فيما

حملني على ذلك كثرة موت المعارف فـأردت اثباتهم لعلي بمطالعتهم أجد قلبا على الآخرة يساعف.

ولقد بلغنـي أن بعض الوعـاظ ببلاد العرب وعـظ فقال كلامـا معناه: أيها الناس كيـف حالكـم لو أن السلطـان نادى فيكـم أنه عـازم على أن يقتل كل يوم منكم جماعة أما كـانت الأرض عليكم تضيق؟ وحسب كل أحد أنـه في غد من ذلـك الفريق، فكيـف لاتعقلون، وهذا الموت يـأخذ منكم كل يوم ماتشاهدونه وأنتم في غفلة أفلا تعقلون.

قال: فأكثر الناس من البكاء، ثم مـا أغنى ذلك شيئا، فيالها موعظة لو صادفت قلبا حيا، فاستخرت الله وابتـدأت من سنة تسعين التي تتلو سنة وفاة صـلاح الديـن، فذكـرت فيها وفيها بعـدها مـافاتنـي ذكره في كتـاب الروضتين سنة بعد سنة.

ونسـأل الله الكـريـم بفضله محو السيئـة وتضعيـف الحسنـة وسميتـه (الذيل على الروضتين) من أول سنة تسعين على ترتيب السنين.

- ٨٩٨١ -

سنة تسعين وخمسمائة:

ففيها استعادت الفرنج خذلهم الله حصن جبيل بمعاملة من كردي فقيه كان فيه، في مستهل صفر.

وفيها وصل العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب مصر في صفر لأخذ الشام، وأقام يحاصرها عشرة أشهر وقطع الماء عنها.

ووصل العادل من الشرق فاجتاز بحلب وصعد إلى قلعتها، وبات بها واستخلص ولديه وبني عمه وكبراء الياروقية من اعتقال الظاهر صاحبها، ثم سار إلى دمشق معينا لابن أخيه الأفضل فأصلح بينهما على أن للعزيز من بيسان إلى أسوان، وقدم الظاهر من حلب أيضا ثم عاد كل إلى بلاده، وتزوج العزيز بابنة عمه العادل.

وأخذ الملك الأفضل من الفرنج في هذه السنة جبلة واللاذقية.

وفيها كانت محنة أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الواعظ، وشي به إلى الخليفة الناصر أحمد بن المستضيء بأمر الله، اختلفوا فيه، وكان الزمان صيفا، فبينما هو جالس في السرداب يكتب جاءه من أسمعه غليظ الكلام، وختم على كتبه وداره وشتت عياله، فلما كان أول الليل حملوه في سفينة وحدروه إلى واسط خمسة أيام ما أكل طعاما إلى واسط، وكان قد قارب ثمانين سنة، فأقام في دار درب الديوان وعلى بابه بواب، فكان يخدم نفسه ويغسل ثوبه، ويطبخ ويستقي الماء من البئر، ولم يدخل الحمام مدة خمس سنين مقامه بواسط، ولما عاد إلى بغداد كان يقول: قرأت بواسط مدة مقامي كل يوم ختمة ماقرأت فيها سورة يوسف من حزني على ولدي يوسف، وكان يكتب إلى بغداد أشعارا كثيرة.

وفيها: توفي القزويني واسمه أحمد بن اسماعيل بن يوسف، وكنيته أبو

الخير الشافعي، تفقة بنيسابور على محمد بن يحيى صاحب الغزالي، وسمع بها وبغيرها الحديث من أبي عبد الله الفراوي، وأبي القاسم الشحامي، وأبي محمد البيهقي وغيرهم، وكان عالما بالتفسير والفقه متعبدا، وكان يختم القرآن كل يوم مرة.

ولد بقزوين سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، وقدم بغداد حاجا سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فوعظ بالنظامية ومال إلى مذهب الأشعري رحمه الله، وجلس يوم عاشوراء فقيل له العن يزيد بن معاوية، فقال ذاك إمام مجتهد ففجأه أحدهم فكاد يقتل،فسقط عن المنبر فأدخل بيتا من النظامية، ثم أخرجوه إلى قزوين فمات بها في المحرم.

وفيها: قتل السلطان طغريل شاه بن أرسلان شاه بن طغريل شاه بن محمد بن ملكشاه، وهو آخر الملوك السلجوقية، سوى صاحب الروم، وهو الذي كان كسر عسكر الخليفة على همذان، وكان طغريل قد بعث إلى الخليفة يطلب السلطنة فأرسل إليه جيشا مقدمه وزيره ابن يونس فكسرهم طغريل ومزقهم كل ممزق، وأخذ ابن يونس وكان محلوق الرأس فأحضروه بين يدي السلطان وألبسوه طرطورا أحمر في جلاجل، وجعل يضحك عليه وذلك سنة أربع وثمانين وخمسمائة، فهابه الملوك، ثم أن خوارزم شاه سار إليه في عساكره والتقيا على الري، فقتل وقطع رأسه وبعث إلى بغداد، فدخلوا به في جمادى الأولى على خشبة وكوساته مشققة وسنجقه وراءه مكسور منكس، وكان من أحسن الناس صورة، ثم رد إلى خزانة الرؤوس فجاءت فأرة فأكلت أنفه وأذنيه، وبقي الرأس إلى سنة إحدى وستمائة فوقع حريق في خزانة الرؤوس فاحترق الجميع، وكان عدة الملوك السلجوقية نيفا وعشرين ملكا أولهم طغريل الذي أعاد القائم[1] إلى بغداد وآخرهم هذا، ومدة ملكهم مائة وستون سنة.

وفيها في جمادى الآخرة توفي بالقاهرة الشيخ الشاطبي، العالم الزاهد

ناظـم القصيدة في القـراءات السبع رحمه الله ودفن بـالقرافـة بالقـرب من التربة الفاضلية بسارية، وقد زرت قبره، وشـاطبه المنسوب هو إليها مدينة بالمغرب شرق الأندلس.

أخبرني شيخنا أبـو الحسن علي بـن محمد[٢] رحمه الله أن سبب انتقـاله من بلاده إلى الـديار المصرية أنه أريـد على أن يتولى الخطابة بها فـاحتج بأنه قد وجب عليه الحج وأنه عازم عليـه فتركها، ولم يرجع إليها تورعا مما كان يلـزمون به الخطبـاء من ذكـرهم على المنابـر بأوصاف لم يـرها سـائغة شرعا، وصبر على فقـر شديد وسمع بـالاسكندرية على الحافظ أبي طـاهر السلفـي، ثم قـدم القاهـرة فطلبـه القاضي الفـاضـل للإقـراء بمدرستـه، فأجـاب بعد شروط اشترطها عليـه على ماكان فيـه من الفقر، وقـدم بيت المقدس زائرا قبل موته بثلاث سنين فصام به شهر رمضان واعتكف.

قال لي الشيـخ أبو الحسـن: سمعته وقد جـاءه رجل يـودعه، والـرجل عازم على المسير إلى القدس، فقال: ذكر الله عنـا ذلك الموضع بخير، وقال لاأعلـم موضعـا أقرب إلى السماء منـه، بعـد مكة والمدينـة، قال الشيـخ: فعلمت أنه رزق ثـم قبـولا، وقال: أقطع بأنه كان مكـاشفا، وأنه سأل الله تعالى كتمان حاله ماكان أحد يعلم أي شيء هو.

قلـت: وقد ذكـرت طرفـا صالحا مـن أخباره وأوصـافه في أول شرحـي الكبير لقصيـدته الكبرى، وأخبرني عنـه جماعـة مـن أصحابـه رحمهـم الله تعالى.

ثم دخلت

سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

وفيها قدم العزيز بن صلاح الدين إلى الشام مرة ثانية، فنزل على الفوار في شهر رمضان، ثم رحل إلى مصر لما سمع بقدوم العساكر مع عمه العادل، وأخيه الأفضل فرحل عائدا إلى مصر، وتبعاه إلى القاهرة، وخرج الفاضل فأصلح الحال، فدخل العادل مصر مع العزيز، ورجع الأفضل إلى الشام.

وفيها حج بالناس من بغداد سنجر الناصري، ومن الشام سراسنقر، وأيبك فطيس الصلاحيان، ومن مصر الشريف اسماعيل بن تغلب الجعفري، من ولد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفيها: كانت بالمغرب وقعة الزلاقة[٣] وكانت عظيمة بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبين الفنش ملك طليطلة، وكان الفنش قد استولى على جزيرة الأندلس وقهر ولاتها، وكان يعقوب ببر العدوة مشغولا عن نصرتهم بالخوارج الخارجين عليه، وبينه وبين الأندلس زقاق سبتة وعرضه ثلاثة فراسخ، ويحتاج في عبوره إلى مشقة عظيمة، وطمع الفنش في المسلمين بهذا السبب، وكتب إلى يعقوب ينخيه عن العبور إليه فسار إلى زقاق سبتة فنزل عليه، وجمع الشواني، والمراكب وعرض جيشه فكانوا مائتي ألف مقاتل، مائة ألف يأكلون من الديوان، ومائة ألف مطوعة، وعبر الزقاق إلى مكان يقال له الزلاقة، وجاءه الفنش في مائتي ألف وأربعين ألفا من أعيان الفرنج والمقاتلة والتقوا، فنصر الله المسلمين، وهرب الفنش في نفر يسير إلى طليطلة، وغنم المسلمون ماكان في عسكره، فكان عدة من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعون ألفا، وعدة الأسارى ثلاثين ألفا، ومن الخيام مائة ألف خيمة وخمسون ألفا،

ومـن البغال مـائة ألف، ومـن الحمير أربعمائة ألـف حمار تحمل أثقـالهم لأنهم لاجمال عندهم، ومن الأموال والجواهـر والثياب مالا يحد ولايحصى، وبيع الأسير بـدرهم والسيـف بنصف درهـم، والحصان بخمسـة دراهم، والحمار بــدرهـم، وقســم يعقــوب الغنـائم بين المسلمين على مقتضـــى الشريعة فـاستغنوا إلى الأبـد، ووصل الفنش إلى طليطلة على أقبـح حال وحلق رأسه حتـى يأخذ بالثـار وأقام يجمع من الجزائر والبـلاد ويستعد، وقيل أنها كانت هذه الواقعة في سنة تسعين وخمسمائة والله أعلم(٤).

ثم دخلت

سنة اثنتين وتسعين وخمسائة

وفيهـا: نقـل تـابـوت صلاح الـديـن رحمه الله مـن القلعـة إلى التربـة المستجدة له شمالي الجامع.

وفيهـا قدم العـزيـز إلى الشام مـرة ثالثـة مـع العادل ونـزلا على جسر الخشب، وانفصل الحال على أن خرج الأفضـل منها إلى صرخد، وتسلمها العزيز، وسلمها إلى عمه العادل، وأسقط مكـوسها والخطبة والسكة باسم العزيز، وأخـذت قلعة بصرى من الظافـر خضر بن صلاح الديـن، ورجع العزيز إلى مصر.

وفيهـا: حـج من مصر الشريـف ابـن تغلـب في جماعة مـن الأعيـان، وأنفق أموالا كثيرة.

وفيهـا: بعد خـروج الحاج من مكـة هبت ريـح سوداء عمـت الدنيـا، ووقـع على الناس رمـل أحمر، ووقع مـن الركـن اليماني قطعة وتجرد البيـت الحرام مرارا.

وفيها: في غرة شعبان كسر عسكر الخوارزم شاه الأحول والد علاء الدين بن محمد، وكان مقدمـه مملوكا له، عسكر الخليفة في عشرين ألفـا مقدمه ابن القصـاب وزير الخليفـة، فكسروا أشنع مـن كسرة ابن يـونس، عـادوا إلى بغـداد عرايـا جياعـا، وقطـع رأس الوزيـر، وبعـث به وبـأعلام الخليفـة والخزائن، وكانـت الكسرة على باب همذان، وكـان خوارزم شـاه قد قطـع جيحـون في خمسين ألفـا، ثـم وصل همذان وشحـن على البـلاد إلى بـاب بغـداد، وبعـث إلى الخليفـة يطلـب السلطنـة، وإعادة دار السلطنـة إلى

الحسين بن الحسن أبو الفتح الناسخ الحنبلي، يعرف بابن الحداد حفظ القرآن، وتفقه وأفتى، وناظر لكنه قرأ الشفا لابن سينا، وكتب الفلاسفة فغير اعتقاده، وكان يبدر من فلتات لسانه مايدل على سوء عقيدته، وتارة يشفق من حبس ابن الراوندي، وتارة يشير إلى عدم بعث الأجساد، وتارة يعترض على القضاء والقدر، وله أشعار تتضمن شيئا من ذلك، توفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة.

وفيها: توفي يحيى بن أسعد بن يحيى بن بوش، أبو القاسم الخباز البغدادي، سمع الكثير، وكان قد افتقر في آخر عمره فكان يأخذ على التسميع أجره، جلس ليلة الأربعاء ثالث ذي القعدة يأكل خبزا فغص به بلقمة، فمات فجأة، سمع قاضي المارستان، وأبا العز بن كادش، وابن الطيوري، وأبا طالب بن يوسف، وهو آخر من روى عن أبي طالب، وكان ثقة.

ثم دخلت

سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

ففيها: فتح الملك العادل يافا في شوال بالسيف، واستولى على من فيها قتلا ونهبا وسلبا، ثم أمر بهدمها فرميت حجارتها في البحر في ميناها، ومن عجيب مابلغني أنه كان في قلعتها من الخيالة أربعون فارسا من الفرنج العزب والبحرية، فلما تحققوا نقب القلعة وأخذها دخلوا إلى كنيستها وأغلقوا عليهم بابها، وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض إلى أن هلكوا جميعا، وكسر المسلمون الباب وهم يرون الفرنج ممتنعين، فألفوهم قتلى عن آخرهم فتعجبوا من حالهم.

وفيها: عاد الأسطول المصري إلى القاهرة غانما سبعين فارسا بذل أحدهم في فدائه ثمانين ألف دينار.

وفيها: استعادت الفرنج —خذلهم الله— قلعة بيروت من نواب سامة.

وفيها: قدم حسام الدين أبو الهيجاء السمين بغداد، وخرج الموكب للقائه في زي عظيم، فرتب الأطلاب على ترتيب الشام، وكان في خدمته عدة من الأمراء، وكان معه ولد أخيه عز الدين كور الفرس، وكان رأسه صغيرا، وبطنه كبيرا جدا بحيث كان على رقبة البغلة، وكان قد رآه عند الخريبة رجل كواز فعمل في صنعته كوزا على شكله، وسبقه فعلقه في السوق، فلما اجتاز به ضحك، وعمل بعد ذاك أهل بغداد كيزانا وسموها أبا الهيجاء السمين على صورته، وأنزله الخليفة بدار العميد غربي بغداد بعد أن عبر إلى الجانب الشرقي. وقبل عتبه باب النوبي وأكرمه الخليفة، وقام له بالضيافات، ثم أمره أن يجرد جماعة من أصحابه من عسكر الخليفة إلى همذان فجرد جماعة، فلما بعدوا عن بغداد نهبوا خزانة الخليفة

وقتلوا جماعة من عسكره ومضوا إلى الموصل والجزيرة، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد وقد خرجوا، فنقله الخليفة إلى الجانب الشرقي إلى دار عند النظامية كانت لسلطان دمشق قبل نور الدين بن زنكي، وهو: مجير الدين أبق، ووكل به، ثم خلع عليه بعد ذلك الجبة والفرجية والعمامة السوداء والقباء الأسود، وبين يديه الخيل بمراكب الذهب، وسار إلى همذان.

وفي عاشر محرم: توفيت الست عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب، أخت عز الدين فرخشاه، وهي التي تنسب إليها المدرسة العذراوية بدمشق بحضرة باب النصر، وفيها دفنت.

وفي تاسع عشر شوال، توفي عمها سيف الاسلام طغتكين بن أيوب بموضع يعرف بالحمراء باليمن، وولي اليمن بعده ابنه اسماعيل، فسفك الدماء ثم ادعى الخلافة، وانتسب إلى بني أميه فقتل.

وفي ثاني عشر ذي الحجة: توفيت والدة الملك العادل بدارها من دمشق، المجاورة لدار أسد الدين شيركوه.

وفيها: حج عز الدين سامة من الشام، وله آثار بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم من القناة وعمارة القبة على قبر أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه.

وفيها: توفي أحمد بن عيسى الهاشمي من ولد الواثق بالله، ويعرف بابن الغريق من أهل الحريم الطاهري، وكان شاعرا فاضلا فمن شعره ما اعتذر به عن الإكتحال يوم عاشوراء:

لم أكتحل في صباح يوم
أريق فيه دم الحسين

إلا الحــــــــــــــــزني وذاك أني
ســــودت حتــــى بيـــاض عينــــي

وكانت وفاته في ذي القعدة عن ثمانين سنة، ودفن بباب حرب.

وفيها: توفي الحسن بن علي بن حمزة أبو محمد بن الأقساسي النقيب الطاهر، نقيب العلويين ببغداد، كان فاضلا أديبا، وقال: نمت ليلة عن صلاتي فرأيت أمير المؤمنين عليا عليه السلام في جامع الكوفة وحوله جماعة فسلمت عليه، فلم يرد علي ودفعني بيده فخطر لي أنه بسبب نومي عن الصلاة.

وفيها: توفي صندل بن عبد الله الخادم المقتفوى، ويلقب عماد الدين، كان أكبر الخدم وأعقلهم أرسله الخليفة الناصر إلى صلاح الدين مرارا، وكان كثير الصدقات والخير، وولي ناظرا بواسط، ومدحه ابن المعلم الشاعر بقصائد، ودفن بالتربة التي أنشأها عند الجامع غربي بغداد.

وفيها: توفي ابن الباقلاني، واسمه عبد الله بن منصور بن عمر بن أبي بكر، ولد سنة خمسمائة، وقرأ بواسط على أبي العز محمد بن الحسين بن بندار القلانسي وغيره، وانفرد بالرواية في القراءات العشر عن القلانسي، وقدم بغداد فقرأ على أبي محمد عبد الله بن علي سبط أبي منصور الخياط وغيره، وكان حسن التلاوة، وكان قدومه إلى بغداد في سنة عشرين وخمسمائة وبعدها، وآخر ماقدمها سنة ست وسبعين ورآه بعض الأعيان في المنام فقال له: مافعل الله بك؟ فقال: قد صلى علي سبعون ألفا من الأبدال، سمع أبا القاسم بن الحصين، وابن السمرقندي، وقاضي المارستان وغيرهم .

وفيها: توفي عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيلي، ولد سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وتفقه، ووعظ، وكان ذكيا، ولاه الخليفة المظالم وتربة

الخلاطية، وكانت مجالس وعظه تمضي في الهزل والمجون، قيل له يوما: ماتقول في أهل البيت؟ فقال: أعموني، وكان أعمش والسائل إنما سائل عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجاب عن أهل بيت نفسه، وقيل له: بأي شيء تفرق بين المحق والمبطل؟ قال: بليمونه، أراد من تخضب يزول خضابه بليمونة، وكانت وفاته في شوال ودفن في الحلة، سمع أباه، وأبا القاسم بن الحسين، وابن السمرقندي، وأبا الوقت وغيرهم.

وفيها: توفي الوزير أبو المظفر عبد الله بن يونس بن أحمد الجيلي، ولقبه جلال الدين، كان في بدء أمره أحد العدول ببغداد، ثم خدم في ديوان الأبنية، ولما مات أبوه يونس توكل لأم الخليفة، ثم ولي صاحب ديوان ثم استوزره الخليفة وبعثه إلى طغريل، فكسر على ماذكر، وعاد إلى بغداد فولاه الخليفة الديوان والمخزن، ثم ولاه أستاذ دار، ثم عزله، وكان قد قرأ القرآن على صدقة بن الحداد وغيره، وتفقه على أبي حكيم النهرواني، وسمع أبا الوقت وغيره، ولما سافر إلى همذان سمع من أبي العلاء الحافظ الهمذاني، وكان فاضلا في الأصولين، والحساب، والهندسة، وله تصنيف في الأصول غير أنه شان فضله بمقاصدة السيئة، ورأيه الفاسد، وحقده وحسده، ولجاجه، وكسر عسكر الخليفة بلجاجه ومخالفته للأمراء، وكونه استعجل على لقاء طغريل، وأخرب بيت الشيخ عبد القادر وشتت أولاده، ويقال إنه بعث في الليل من نبش الشيخ عبد القادر، ورمى عظامه في اللجة، وقال هذا وقف مايحل أن يدفن فيه أحد، ولما اعتقله الخليفة كتب فتوى بأنه كان سبب هزيمة عسكر الخليفة، وذكروا أشياء اخرى فأفتوا بإباحة دمه، فسلم إلى أحمد بن الوزير ابن القصاب فبقي في داره، فلما مات ابن القصاب اعتقل في التاج وأخرج في سابع عشر صفر ميتا ودفن بالسرداب.

وأما صدقه بن الحداد الذي قرأ عليه ابن يونس القرآن فهو صدقة بن

قــــواف تعير الأعين النجـــــل حسنهـــا
فــأي مكـــان فيــه خيمـــت بـــابـــل

وأخرج إلى الجانب الغربي من بغداد، فمات ودفن في مقابر قـريش في صفـر.

وفيها : توفي بمصر الفقيه شهاب الدين محمد الطوسي مدرس منازل العز، وقد ذكرته في آخر كتاب الروضتين.

قيل لما كان قدم بغداد ركب بالسنجق والسيوف المسللة والغاشية المرفوعة والطوق في عنق البغلة فمنع من ذلك فسافر إلى مصر ووعظ وأظهر مذهب الأشعري وثارت الحنابلة فكان يجري بينه وبين الزين ابن نجية العجائب من السباب والتكفير، وبلغني أنه سئل، أيما أفضل دم الحسين، أم دم الحلاج؟ فاستعظم ذلك وقال: كيف يجوز أن يقال هذا؟ قطرة من دم الحسين أفضل من مائة ألف دم الحلاج، فقال السائل: فدم الحلاج كتب على الأرض «الله» ولاكذلك دم الحسين، فقال الطوسي: المتهم يحتاج إلى تزكية.

قلت: وهذا جواب في غاية الحسن في هذا الموضع، على أنه لم يصح ماذكر عن دم الحلاج والله أعلم، وكانت وفاته في الحادي والعشرين من ذي القعدة، وكان يومه مشهودا، ركب فيه الملك العادل وكبراء الدولة وخرج أهل مصر والقاهرة جميعا مشيعين نعشه إلى حيث دفن من القرافة.

وفيها: توفي الهمام العبدي الشاعر واسمه الحسن بن علي العبدي البغدادي، وذكر القوصي في معجمه أنه وفد على قاضي القضاة محيي الدين محمد بن علي القرشي، وهو على رسالته المحتوية على التعزية فأنشد.

ألا قــل لنـاعـي الفضــل أقصر فـإنني
تيقنـــت حقـــا أن نعيـــك بـــاطــل

إذا كان محيي الدين في الدست جالسا
فما مات في الدنيا من الناس فاضل

وفيها: توفي محمد بن عبد المنعم بن أبي الفضائل الصوفي الميهي شيخ رباط البسطامي، ويلقب بالركن، كان جوادا سمحا لم يكن في أبناء جنسه من يضاهيه في الكرم، وماطلب منه أحد شيئا فمنعه حتى كان يخرج وفي رجليه مداس فيرجع حافيا، ويخرج وعليه ثوبان فيرجع عريانا، وكانت له خلوات ومحاضرات، سمع من شهدة وغيرها، وتوفي في ذي الحجة ودفن في الشونيزية عند والده أبي الفضائل.

وفي هذه السنة كان الأفضل والظاهر ومن تابعهما على حصر دمشق والعسكر جائمة بمنزلتهم، وقد حفروا عليها خندقا من أرض قنوات إلى أرض يلدا مشرقا احترازا من مهاجمة من بدمشق لهم فيها، ثم رحل الأفضل والظاهر إلى رأس الماء وافترقا، فسار الأفضل إلى مصر، والظاهر إلى حلب تاسع ربيع الأول، وخرج العادل تابعا للأفضل فكسر عسكره بموضع يعرف بالقصرين بين الغرابي والسانح، ودخل العادل القاهرة ورجع الأفضل إلى صرخد.

-٥٩٤هـ-

ثم دخلت

سنة أربع وتسعين وخمسمائة

ففيها: نزل الفرنج على تبنين، وأنفذ العادل محيي الدين بن الزكي إلى العزيز بمصر مستصرخا، فأرسل العساكر، وقدم بنفسه، فرحل الفرنج خائبين لما تحققوا من قوة العسكر الاسلامي بعد أن أقاموا عليها شهرين وسبعة أيام، وأطمعتهم أنفسهم بأخذها، ورجع العزيز إلى مصر، والعادل إلى دمشق بعد أن تقررت الهدنة مع الفرنج لمدة خمس سنين وثمانية أشهر، أولها رابع عشر شعبان سنة أربع وتسعين وخمسمائة.

وفيها: عاد الأسطول المصري من الغزو بعد أن اجتاز ببلاد لاون، ووصل معه إلى مصر من السبي أربعمائة وخمسون أسيرا.

وفيها: حج بالناس من الشام تقي الدين قراجا مملوك صلاح الدين.

وفيها: توفي جرديك النوري، وكان من أكابر أمراء نور الدين، وخدم صلاح الدين في جميع غزواته، وهو الذي قتل شاور بمصر، وابن الخشاب بحلب، وكان شجاعا جوادا، وولاه صلاح الدين القدس.

وفيها توفي الشيخ أبو الحسن بن مسلم الزاهد القادسي، من قرية بنهر عيسى، يقال لها القادسية، كان من الأبدال لازما لطريق السلف، أقام أربعين سنة لم يكلم أحدا من الناس، وكان صائم الدهر، قائم الليل يقرأ كل يوم وليلة ختمة، ذكره أبو الفرج ابن الجوزي في صفوة الصفوة[٦]، وكان زاهد زمانه.

وكانت السباع تأوي إلى زاويته، وكان الخليفة وأرباب الدولة يمشون إلى زيارته، وكانت وفاته يوم عاشوراء ودفن في رباطه بالقادسية.

وحكى عنه جماعة من مشايخ القرية أن السباع كانت تنام طول الليل حول زاويته، إذا خرج أحد من القرية في الليل إلى نهر عيسى لم يتعرض له، وأن فقيرا نام في الزاوية في ليلة باردة فاحتلم فنزل ليغتسل فجاء السبع فنام على جبته، فكاد الفقير يموت من البرد والخوف، فخرج الشيخ حسن وجاء إلى السبع وضربه بكمه وقال يامبارك قد قلنا لك لاتتعرض لأضيافنا فقام السبع يهرول، سمع قاضي المارستان، وابن الحصين، وابن الطيوري وغيرهم.

وفيها: توفي في المحرم بسنجار صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود ابن زنكي ابن أخي نور الدين وختنه على ابنته، وكان عاقلا جوادا، ولم يزل مع صلاح الدين في غزواته مجاهدا وكان ميمونا، وكان صلاح الدين يحترمه مثل ماكان يحترم نور الدين، ويعطيه الأموال والهدايا والتحف الكثيرة، ولما توفي صلاح الدين خرج مع أخيه عز الدين إلى لقاء العادل، فلما عاد عز الدين إلى الموصل صالح عماد الدين العادل، ولما احتضر أوصى إلى أكبر أولاده وهو قطب الدين محمد، ويلقب بالمنصور.

وفيها: توفي أبو الحسن علي بن زهير قاضي البطائح ولد سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وقدم بغداد فسمع بها الحديث من أبي الوقت وابن ناصر، وابن الجواليقي، وغيرهم وخرج إلى رحبة مالك بن طوق، فقرأ الفقه والأدب على أبي عبد الله بن المتقنة وعاد إلى البطائح فولي القضاء بالعراق ثم عاد إلى بغداد فأقام بها ثم انحدر إلى البطائح فتوفي بطريق واسط وكان ثقة صالحا، وقال: أنشدني القاسم بن علي صاحب المقامات لنفسه:

لاتخطـــــون إلى خـــــط ولاخطـــــأ
من بعدما الشيب في فوديك قد وخطا
فـــأي عـــذر لمن شـــابـــت ذوائبـــه
إذا سعـــى في ميـــاديـــن الصبـــا وخطـــا

وفيها: توفي أبو المجد علي بن علي بن ناصر السيد العلوي، مدرس الحنفية ببغداد، ولد سنة خمس عشرة وخمسائة وتفقه وأفتى وناظر، وكان المستنجد الخليفة قد حبسه وطالبه بمال، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال له: يايوسف استوص بولدي خيرا فهو وديعتي عندك، فانتبه الخليفة مرعوبا وأحضره وخاطبه، وقال: اجعلني في حل فقد شفع فيك من لايمكنني رده، وأحسن إليه، وكانت وفاته في ربيع الأول ودفن عند مشهد عبيد الله شرقي بغداد، وكان صالحا شريفا على الحقيقة، سمع ابن الحصين وقاضي المارستان وابن السمرقندي وغيرهم.

وفيها: توفي مجاهد الدين قايماز الخادم الرومي الحاكم على الموصل الذي بنى الجامع المجاهدي، والمدرسة والرباط والمارستان بظاهر الموصل على دجلة، ووقف عليها الأوقاف، وكانت رواتب كثيرة بحيث لم يدع في الموصل بيتا فقيرا إلا وأغنى أهله، وكان دينا صالحا عادلا كريما يتصدق كل يوم خارجا عن الرواتب بمائة دينار، وله حكايات مشهورة.

ولما مات عز الدين مسعود وولي ابنه أرسلان شاه حبسه وضيق عليه وآذاه، فتوفي في الحبس، فأخرج ملفوفا في كساء، فلما وصل إلى باب البلد قال البوابون: قفوا حتى نستأذن له، فألقى على قارعة الطريق حتى أذن له، وكان لعزالدين مسعود جارية يقال لها أقصرا أولدها الجهة الأتابكية التي تزوجها الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وبنت في جبل قاسيون التربة، والمدرسة والمأذنة المنسوبات إليها، وكان عز الدين قد زوج مجاهد الدين هذا أم الأتابكية أقصرا المذكورة.

وفيها: توفي أبو طالب يحيى بن سعيد بن هبة الله بن زيادة الواسطي، ولد سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، وقدم بغداد واشتغل بالأدب فبرع في الإنشاء، والكتابة، وانتهت إليه الرئاسة فيها مع تخصصه بفنون كالفقه، وعلم الكلام، والأصول، والحساب، والشعر، جالس أبا منصور الجواليقي وقرأ عليه، وسمع أبا القاسم الصباغ وغيره، وولي للخليفة عدة خدم: حجبة الباب ثم استاذية الدار، ثم كتابة الإنشاء في آخر أمره، وكانت وفاته في ذي الحجة، ودفن في مقابر قريش، ومن شعره:

قد سلوت الدنيا ولم يسلها من ... علقت في آماله والأراجي

وإذا ما صرفت وجهي عنها ... قذفوني في بحرها العجاج

يستضيئون بي وأهلك وحدي ... فكأني ذبالة في سراج

وفيها: توفي أبو الهيجاء السمين الكردي، ولقبه حسام الدين، وقد تقدم أنه قدم بغداد، وبعثه الخليفة إلى همذان فلم يتم له أمر، واختلف الأمر عليه، وتفرق عنه أصحابه، فخاف من الخوارزمي واستحيى أن يعود إلى بغداد فسار يطلب الشام على دقوقا، فلما وصل إليها مرض وأقام بها أياما فتوفي، وبلغني أنه كان نازلا على تل فقال: ادفنوني فيه فحفروا له قبرا على رأس التل، فظهرت بلاطة عليها اسم أبيه فدفنوه عليه، وقيل كانت وفاته في آخر السنة الثالثة والتسعين.

-٨٩٩٨-

ثم دخلت

سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ففيها استدعى الخليفة ضياء الدين ابن الشهرزوري إلى بغداد وولاه القضاء بها، وحج بالناس مظفر الدين وجه السبع.

وفيها: أفرج عن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي فقدم بغداد في شعبان، وخلع عليه، وجلس عند تربة أم الخليفة وكانت تتعصب له، وساعدت في خلاصه، وانشد بيت الرضى الموسوي:

إن كان لي ذنب ولم آته
فاستأنف العفو وهب مامضى[1]

وأنشد أيضا:

شقينا بالنوى زمنا فلما
تلاقينا كأنا ماشقينا
سخطنا بعد ما جنت الليالي
فما زالت بنا حتى رضينا
سعدنا بالوصل وكم سقينا
بكاسات الصدود وكم ضنينا
فمن لم يحيى بعد الموت يوما
فإنا بعد ماامتنا حيينا

وفيها: توفي القاضي العباسي وهو:أبو جعفر محمد بن جعفر بن أحمد، وقيل أبو الحسين، ويلقب فخر الدين وعماد الدين، ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة، تفقه علي أبي الحسن ابن الخل، وسمع الحديث الكثير، وولي قضاء بغداد سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وولي قضاء مكة والخطابة، ثم عزل في جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين بحضرة الوزير عبد الله بن يونس بسبب أنه حكم بكتاب مزور، وكانت وفاته في جمادى

الآخرة، ودفن بمقبرة العطافية عند جـده النقيب أبي جعفر العباسي،سمع أبا الـوقت وغيره .وابنه جعفـر بن محمـد العباسي، قدم دمشـق وسمع بها كثيرا وببغداد من مشـايخها، ومولده سنـة سبعين وخمسمائة وتوفي بحماة في ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة.

وفيها: في ذي الحجة توفي تقي الدين طرخـان بن ماضي بن جوشن بن علي بن معافى الضريـر الشاغوري الشافعـي، وكان إماما للملـك العادل نور الـدين محمـود بن زنكـي رحمهما الله مدة طـويلة، ودفـن خارج بـاب الصغير، ومولده بدمشق سنة ثماني عشرة وخمسمائة.

وفيها: تـوفي ابن فضلان مـدرس النظامية، وهو: أبـو القاسم يحيـى بن علي بـن الفضـل، ولـد سنة خمس عشرة وخمسمائة، وتفقـه على محمـد بـن يحيى صـاحب الغـزالي بنيسابور، وقـدم بغداد فنـاظر وافتـى ودرس وكان مقطوع اليد وقع من الجمل فاعتلـت يده فخيف عليه فقطعت، وانتفع به خلق كثير ببغداد وغيرهـا، وكانت وفاته في شعبان، وحمل الفقهـاء جنازته إلى الورديـة، سمع بنيسـابور من محمـد بن يحيى، وببغـداد من محمـد بن ناصر، وأبا الوقت وغيرهما وسمع منه ينشد:

وإذا أردت منـــازل الأشراف ... فعليـــك بـــالإسعـــاف والإنصـــاف

وإذا بغـــى بـــاغ عليـــك فخلـــه ... للـــدهـــر فهـــو لـــه مكـــاف كـــاف

وفيهـا توفي خليفـة المغرب أبـو يوسـف يعقوب بـن يوسـف بن عبـد المؤمن الذي كسر الفنش عـام الزلاقة،وكان قام بالملـك بعد أبيه أحسن قيام، نشر كلمـة التوحيـد، ورفع رايـة الجهاد، وأمـر بالمعـروف ونهى عن المنكر، وأقـام الحدود على عشيرته وغيرهـم، وكان جـوادا، سمحا، عـادلا، يكرم العلماء، متمسكا بالشرع، يصلي بالنـاس الصلوات الخمس، ويلبس الصوف، ويقـف للمرأة والضعيـف ويأخـذ لهم بالحق، حـافظا للسـانه،

وأوصى في مرض موته إلى ولده أبي عبيد الله محمد، وأن يدفن على قارعة الطريق ليترحم عليه من يمر به، وتوفي في ربيع الأول، فكانت مدة أيامه خمس عشرة سنة، وهو الذي كتب إليه سلطان بلادنا الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة سبع وثمانين يستنجده على الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدسة، ولم يخاطبه بأمير المؤمنين، فلم يجبه إلى ماطلب وقد ذكرنا من أخباره في كتاب الروضتين في سنة سبع وثمانين، وبايع الناس بعده ولده محمد واستمر على سيرة أبيه، ثم اختلفت الأهواء وحصل النقض على البيت بموت يعقوب رحمه الله.

وفيها كانت فتنة عبد الغني الحافظ الحنبلي، وذلك يوم الإثنين الرابع والعشرين، من ذي القعدة، ذكر العز تاج الأمناء أنه اجتمع الشافعية، والحنفية، والمالكية عند المعظم عيسى، والصارم بزعش والي القلعة، وكانا يجلسان بدار العدل للنظر في المظالم فكان ماشتهر من إحضار اعتقاد الحنابلة، وموافقة أولاد الفقيه النجم بن الحنبلي الجماعة، وإصرار عبد الغني المقدسي على لزوم ماظهر من اعتقاده وهو: الجهة والإستواء، والحرف، واجماع العلماء، على الفتيا بكفره، وأنه مبتدع لايجوز أن يترك بين المسلمين، ولايحل لولي الأمر أن يمكنه من المقام معهم، فسأل أن يمهل ثلاثة أيام لينفصل عن البلد فأجيب، ورفعت جميع الخزائن والصناديق من الجامع، وبطلت صلاة الحنابلة من الجامع الظهر ومنعوا منها، ثم أذن لهم فصلوا العصر من ذلك اليوم، قلت: وسيأتي ذكر هذه الفتنة أيضا في أخبار سنة ستمائة إن شاء الله تعالى.

-٩٠٠١-

ثم دخلت

سنة ست وتسعين وخمسمائة

وفيها: توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، صاحب الديار المصرية، وعمره سبع وعشرون سنة وثمانية شهر وأيام، وتوجه أخوه الأفضل من صرخد إلى مصر فدخل القاهرة، ثم استصحب ولد العزيز على أنه أتابكه، وخرجا إلى الشام بالعساكر، فحصر دمشق، وأحرق جميع ماهو خارج باب الجابية من الفنادق، والحوانيت، وأحرق النيرب، وأبواب الطواحين وقطعت الأنهار، وانحرقت غلة «حرستا» في بيادرها.

وفيها: ظهر العجمي الداعي بدمشق المدعي أنه عيسى بن مريم، وأفسد جمعا من العوام، فقبض عليه صارم الدين بزغش العادلي، وصلب بعد استفتاء الفقهاء في أمره ظاهر باب الفرج على الصفصاف المجاور لحمام العماد الكاتب، وقد خرب الحمام ومايجاوره من العمران في هذا الزمان، وكان غربي جسر الصفي مقابل الطاحونة المستجدة خارج باب الفرج من البابين.

وفيها: كان قيام العامة على الشيعة وخروجهم إلى باب الصغير ونبشهم وثابا المرحل من قبره، وتعليقهم رأسه مع كلبين ميتين ثالث عشر ربيع الآخر، بعدصلبالعجمي بيومين.

وفيها: توفي الأمير أبو الحسين أحمد بن حيوس الشاعر ثامن عشر ذي القعدة.

وفيها: توفي خوارزم شاه واسمه تكش بن أرسلان شاه بن أتسز من ولد طاهر بن الحسين، كان شجاعا جوادا ملك الدنيا من الصين والهند، وماوراء النهر إلى خراسان إلى باب بغداد، وكان نوابه في حلوان، وكان في

ديوانه مائة ألف مقاتل، وهو الذي كسر مملوكه عسكر الخليفة وأزال دولة بني سلجوق، وكان حاذقا بعلم الموسيقى، يقال لم يكن في زمانه ألعب منه بالعود، وحكي أن الباطنية جهزوا رجلا ليقتله، وكان يحترس كثيرا، فجلس ليلة يلعب بالعود، وشرع الخيمة فاتفق أنه غنى بيتا بالعجمية وفيه مامعناه قد ابصرتك، وفهم الباطني فخاف منه وارتعد فهرب، فأخذ وحمل إليه فقرره فأقر فقتله.

وكان يباشر الحروب بنفسه حتى ذهبت إحدى عينيه في الحروب، وكان يقول: الملك إذا لم يباشر الحرب بنفسه لايصلح للملك، لأنه يكون مثل المرأة، وكان قد عزم على قصد بغداد وجمع وحشد فوصل إلى دهستان فتوفي بها في رمضان، فحمل في تابوت إلى خوارزم فدفن عند أهله، وقام ولده محمد مقامه، وهو الذي خرج عليه التاتار، وعلى ولده جلال الدين، وماتا في محاربتهم كما سيأتي ذكره.

وفيها: توفي عبد اللطيف بن اسماعيل بن شيخ الشيوخ أبي سعد، وكنيته أبو الحسن، ولقبه ضياء الدين وهو أخو شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل، الذي قدم رسولا على صلاح الدين من بغداد مرارا، وتوفي بالرحبة سنة ثمانين، وأما عبد اللطيف فولد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وسمع الحديث من والده أبي البركات اسماعيل، ومن قاضي المارستان، وابن السمرقندي وغيرهم وكان صالحا ثقة، وكان شيخ الرباط الذي بالمشرعة شرقي بغداد، وحج ثم ركب البحر إلى مصر وزار الشافعي والقدس، والخليل، وقدم دمشق فتوفي بها في ذي القعدة ودفن بمقابر الصوفية عند المنيبع رحمه الله.

وفيها: توفي أبو جعفر أحمد بن علي بن أبي بكر بن اسماعيل القرطبي، إمام الكلاسة الزاهد العابد يوم الاثنين تاسع عشر شهر رمضان، قرأ بالموصل القرآن بالروايات على يحيى بن سعدون القرطبي.

وفيها: توفي القاضي الفاضل: وقايماز النجمي، والشهاب الطوسي، وابن العفارة بدر الدين عسكر[٨].

وفيها : توفي الرئيس مؤيد الدين بن أبي العساكر بن الصوفي رابع عشر ذي الحجة

وفيها: في رجب توفي بالقدس الفقيه مجد الدين أبو محمد طاهر بن نصر الله بن جهبل الكلابي الحلبي الشافعي، وكان فاضلا في علم الوصايا والفرائض، ودرس بالقدس الشريف ومولده بحلب في نيف وثلاثين وخمسمائة، وهو والد الفقهاء بني جهبل الذين كانوا عندنا بدمشق بالمدرسة الجاروخية: بهاء الدين نصر الله، وتاج الدين اسماعيل، وقطب الدين.

وفيها: توفي أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن صدقة بن كليب الحراني، راوي جزء ابن عرفة عن أبي علي بن نبهان، وهو آخر من حدث عنه، وعن أبي القاسم بن بيان، وأحمد بن علي الحلواني، وكانت وفاته في ربيع الأول، ودفن بباب حرب وله خمس وتسعون سنة، وكان ثقة صحيح السماع، وكان يأخذ على سماعه جزء ابن عرفة دينارا.

وفيها: توفي كامل بن الفتح، أبو تمام ابن سابور الضرير، ويلقب بالظهير النحوي،بغدادي اشتغل بالأدب والشعر فبرع فيهما. ومن شعره:

وفي الأوانس من نعمان آنسة
لها من القلب ما تهوى وتختار

سألتها نفثة من ريقها بدمي
وليس إلا خفي الطرف سمسار

عند العزول اعتراضات ولائمة
وعند قلبي جوابات وأعذار

وكانت وفاته في جمادى الآخرة ودفن بباب حرب.

وفيها: توفي البلخي الواعظ واسمه محمد بن عبد الله ويلقب بالنظام وبابن الظريف، ولد ببلخ سنة ست وعشرين وخمسمائة، وقدم بغداد فوعظ بها في النظامية ، وباب بدر، وجامع القصر، ومدرسة ابن النجيب، ودار ابن حديدة الوزير، وكان فصيحا مليح الصوت، وكان متشيعا. وأنشد يوما في النظامية:

سقاهم الليل كاسات السرى فغدوا
منه سكارى كأن الليل خمار
وصير الشوق أطواقا عمائمهم
لا يعقلون أقام الحي أم ساروا
ونسمة الفجر إذ مرت بهم سحرا
تمايلوا وبدا للسكر آثار

فلم يبق في المجلس إلا من قام وصاح وتواجد، وأنشد أيضا:

مددت يدي في الحب نحوك سائلا
وقلت لجفني أذر دمعك سائلا
تفقهت في علم الصبابة والهوى
فمن شاء فليلق علي المسائلا

وحكي أنه نقل إلى الخليفة عنه أنه يعاشر النساء، ويرتكب المحرمات، فأرسل إليه الوزير وهو على المنبر فقال: قد رسم أن تخرج من البلد فأنشد:

أبابل لا واديك بالجود منعم
لدي ولا واديك بالرفد آهل
لئن ضقت عني فالبلاد فسيحة
وحسبك عارا أنني عنك راحل
وإن كنت بالسحر الحرام مدله
فعندي من السحر الحلال دلائل

ماكانت، ويجيء إلى بغدادويكون الخليفة من تحت يده كما كانت السلجوقية، فانزعج الخليفة وأهله، وغلب الأمصار وقيل إن خوارزم شاه توفي في هذه السنة، ست وتسعين كما سيأتي.

وفيها: كانت وقعة أخرى ليعقوب بن يوسف مع الفنش، وكان الفنش قد جند وجمع جمعا أكثر من الأول والتقوا، فهزمه يعقوب وساق خلفه إلى طليطلة، وضربها بالمجانيق، وضيق عليها ولم يبق إلا فتحها فخرجت إليه والدة الفنش وبناته ونساؤه وأهله، وبكين بين يديه، وسألنه إبقاء البلد عليهن، فرق لهن ومن عليهن به، ووهب لهن المال والجواهر، وردهن مكرمات بعد القدرة، ولو فتح طليطلة لفتح إلى مدينة النحاس[٥] وعاد إلى قرطبة فأقام شهرا يقسم الغنائم، وجاءته رسل الفنش تسأله الصلح فصالحه مدة، وأمن أهل الأندلس، وقيل إن هذه الوقعة كانت سنة إحدى وتسعين.

وفيها: توفي عبيد الله بن المظفر بن هبة الله ابن رئيس الرؤساء ويلقب بالأثير، هبة الله هو: الوزير الذي قتلته الباطنية وهو خارج إلى الحج في أيام المستضيء، وكان عبيد الله فاضلا عاقلا ومن شعره:

إن حاول الدهر اخفائي فإن له
في حبسي الآن سرا سوف يبديه

أعدني للعلا ذخرا ومن ذخرت
يداه في الدهر شيئا فهو يخفيه

وفيها: توفي محمد بن أحمد بن يحيى أبو منصور ويعرف بابن باقة، ولد بالكوفة سنة ثلاثين وخمسمائة، واشتغل بالأدب، ومات ببغداد وحمل إلى الكوفة، وكان أبوه فاضلا أيضا فمن شعره:

وكم شامت بي إن هلكت بزعمه
وجاذب سيف عند ذكر وفاتي

ولــــو علـــم المسكين مــــــاذا يصيبيـــــه
مــن الـــذل بعــدي مـــات قبــل ممـــاتي

وفيها: قتل الوزير ابن القصاب المقدم ذكره، وهو: أبو الفضل محمد ابن علي بن أحمد، ولقبه مؤيد الدين، أصله من شيراز، وقدم بغداد سنة أربع وثمانين، واستخدم في ديوان الانشاء، ترقى إلى الوزارة وقرأ الأدب على أبي السعادات ابن الشجري، وكان داهية له خبرة بأمور الحرب، وفتح البلاد، وكان الناصر الخليفة يثني عليه ويقول: لو قبلوا من رأيه ماجرى ماجرى، ولقد أتعب الوزراء بعده، وكان الخليفة قد سلم إليه ابن يونس استاذ الدار لما قبض عليه، فسلمه ابن القصاب إلى ولده أحمد، ولما خرج عن بغداد كتب الوزير إلى ابنه أحمد وهي له:

يـــاخـــــازن النـــار خـــذ إليـــــك أبـــا
الســـائب حلــــف الفضـــول والحمـــق
ولا تكلــــــه إلى زبـــــــانيـــــــة
يـــــأخـــــذهـــــم بـــاالخداع والملـــق
فلســــت تـــدري أي ابـــــن زانيـــــة
عنـــدك ملقـــــى في القــــد والحلـــق

وقيل إن رأس المؤيد ابن القصاب دفن بالري بعد أن طافوا به البلاد، ومن العجائب أنه وصل خبره مع الركابية يوم الجمعة رابع عشر شعبان، وقد اجتمع على باب ولده شمس الدين أحمد أرباب الدولة ليعبروا في خدمته إلى تربة الخلاطية نيابة عن أبيه، فجاء خادم من عند الخليفة فرد بابه وصرف أرباب الدولة عن بابه، ونقل ابنه من دار الوزارة التي تقابل باب المتولي وأسكنها ناصر بن مهدي.

وفيها: توفي أبو شجاع محمد بن علي بن شعيب بن الدهان الفرضي الحاسب البغدادي، وكان فاضلا وصنف تاريخا من سنة عشر وخمسمائة إلى هذه السنة، وكانت وفاته بالحلة السيفية، وكان قدم الشام ومدح

الشيخ تاج الدين الكندي، واسمه زيد بن الحسن، رحمهما الله تعالى بأبيات حسنة فقال:

لا بدل الله حالا قد حباك بها
ما دار بين النحاة الحال والبدل

النحو أنت أحق العالمين به
أليس باسمك فيه يضرب المثل

وفيها: في رجب توفي ابن المعلم الشاعر، واسمه أبو الغنائم محمد بن علي بن فارس الهرثي —والهرث بضم الهاء وسكون الراء وآخره ثاء مثلثة، قرية تحت واسط في نهر جعفر، بينها وبين واسط عشرة فراسخ— توفي ابن المعلم بها وأصله منها، وكان رقيق الشعر، مليح المعاني أكثر في الغزل، ووصف المحبة والشوق والصبابة فمالت القلوب إليه، ومولده سنة إحدى وخمسمائة، ومدح الأمراء والرؤساء والأعيان، وديوانه مشهور ومن شعره:

يا نازلين الحمى رفقا بقلب فتى
إن صاح للبين داع باح مضمره

لا تحسبوا الصد عن عهدي يغيرني
غيري ملازمة البلوى تغيره

وما ذكرتكم إلا وهمت جوى
وآفة المبتلى فيكم تذكره

يزداد في مسمعي تكرار ذكركم
طيبا ويحسن في عين تفكره

وقال ابن المعلم: اجتزت ببغداد بباب بدر تحت منظرة الخليفة وقد ازدحم الناس، فقلت: ماهذا؟ قالوا: الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي جالس، فزاحمت الناس حتى شاهدته وهو يعظ فاستشهد بهذا البيت:

يـــزداد في مسمعـــي تكـــرار ذكـــركـــم
طيبـــا ويحســـن في عينـــي تفكـــره

ثـم قال: لقـد أحسن ابـن المعلم حيـث يقول هـذا البيت، فتعجبـت حيث اتفق حضـوري وانشاد الشيخ هذا الشعر، ولم يعرفنـي هو، ولاأحد من الحاضرين.

وفيها: في ثالث صفـر توفي الفخر النوقاني الشافعـي، واسمه محمد بن أبي علي، ولـد سنـة عشر وخمسمائة، وتفقـه على محمد بـن يحيى صاحـب الغـزالي، وقدم بغـداد فـاستوطنهـا، وولي التدريـس بمـدرسة أم الخليفـة المجاورة لتربتهـا عند قبر معـروف، وكان فـاضلا منـاظرا، ولـه تصانيـف وجـدل، خرج حـاجـا وعاد إلى الكـوفـة وهو مـريـض، فتوفي بها ودفـن بمشهد أمير المؤمنين.

وفيها: تـوفي الصدر ابن الخجنـدي واسمه محمـد بن عبد اللطيـف بن محمد، أبـو بكر رئيـس أصبهان وابـن رئيسها، وبيتـه مشهور بـالرئاسـة، والتقـدم والجاه العظيم، قـدم بغـداد في سنـة ثمان وثمانين، فأنعـم عليـه الخليفة إنعـاما كثيرا، وقربـه وخلع عليه واحترمـه وولاه تدريس النظـامية وأوقـافها، فلما خـرج الوزيـر ابـن القصاب إلى همذان خـرج معه ودخـل معهم إلى أصبهان، وولى ابن القصاب سنقر الطـويل أصبهان، وكان ابن الخجندي ليـس على يده يد، فحسده سنقـر الطويل على مكانتـه فجرت بينهما منافرة، وقيل اتهموه بمكاتبة خوارزم شاه فذبحوه.

وفيها: توفي المجير مـدرس النظامية، واسمه محمود بـن المبارك بن علي ابـن المبـارك أبـو القـاسـم، ولـد في رمضـان سنـة سبـع عشرة وخمسمائة واشتغل بالأصولين، المذهـب، وعلم النظر، والحساب وبرع فيها، وقرأ على أبي الفتـوح الاسفـرائينـي وغيره، وسمـع الحديـث، وكـان تفقـه أولا على مذهب أحمد بن حنبـل، ثم انتقل إلى مذهب الشافعـي، وأعطي تدريس

النظامية وخرج إلى همذان فتوفي بها في ذي القعدة سمع قاضي المارستان وأبا القاسم ابن السمرقندي، والأنماطي وغيرهم وكان صالحا دينا ثقة.

وفيها: توفي زعيم الدين ابن الناقد، واسمه نصر بن علي بن محمد أبو طالب، ولي حجبة الباب ثم ولي صاحب ديوان،ثم ولي المخزن وهو الملقب بقنبر، وإنما لقب قنبر لأنه صاد ولده قنبرا وخبأه إلى جانب مسنده، فخرج القنبر فصاح قنبر قنبر، فلقب به، وكان إذا بلغه أن أحدا لقب قنبر يسعى في هلاكه، وقيل إنه كان يميل إلى التشيع، وكانت عمامته طويلة فلقبه أهل باب الأزج قنبر —وهو ذكر العصافير— وكان إذا ركب صاحوا: قنبر قنبر، وقرب العيد فأمره الخليفة بالركوب في صدر الموكب، فجمع العوام قنابر كثيرة وعزموا على أن يرسلوها حوله في الموكب، وقيل للخليفة إن وقع هذا بقي الموكب هتكة فعزله وولى أبا سعيد بن المعوج.

وفيها: جاء في جمادى الآخرة من نقل الخبر بوفاة سابق الدين عثمان صاحب شيزر بها إلى دمشق، وعمل عزاه بالكلاسة، وهو أحد أولاد الداية الأربعة، وأمهم داية نور الدين بن زنكي رحمه الله تعالى.

-٥٩٧-

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

ففيها: توفي بهاء الدين قراقوش الأسدي، وقيل أنه لم يكن مملوكا لأسد الدين وإنما كان لابن الطقطقى فصحب أسد الدين، وتقدم عنده بعد وفاة سيده.

وفيها: كانت حوادث كثيرة عظيمة منها هبوط نيل مصر، فهرب الناس إلى المغرب، والحجاز، واليمن، والشام وتفرقوا أيدي سبأ، ومزقوا كل ممزق أعظم من سنة اثنين وستين وأربعمائة في أيام الملقب بالمستنصر ابن الظاهر بن الحاكم أحد الخلفاء المصريين، فإن الناس في هذه السنة كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه وشيه، وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا، وكان الرجل يدعو صديقه وأحب الناس إليه إلى منزله ليضيفه فيذبحه ويأكله، وفعلوا كذلك بالأطباء كانوا يدعونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم، وفقدت الميتات والجيف من كثرة ما أكلوها، وكانوا يخطفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم، وكفن السلطان في مدة يسيرة مائتي ألف وعشرين ألفا، وامتلأت طرقات المغرب والحجاز والشام برمم الناس، وصلى إمام جامع الاسكندرية في يوم على سبعمائة جنازة.

قال العز بن تاج الأمناء: وجاءت في شعبان زلزلة هائلة من الصعيد فعمت الدنيا، في ساعة واحدة هدمت بنيان مصر، فمات تحت الهدم خلق كثير، ثم امتدت إلى الشام والساحل فهدمت مدينة نابلس فلم يبق فيها جدار قائم إلا حارة السامرة، وكان اشتداد الغلاء والوباء بالديار المصرية من شهر رمضان بحيث بلغ ثمن الأردب ستة دنانير مصرية، وخلا أهل الأعمال، وصار إلى بلاد الفرنج منهم جمع حملوا إلى الجزائر البحرية، وأقر كثير ممن تفرق في البلاد الاسلامية بالعبودية لمن يؤويه

ويطعمه، وأشرفت الأعمال المصرية على الخراب الكلي لولا تـدارك لطف الله تعالى بإجـراء نيلها، والاسعاد بما كان للملك العادل فيهـا من الغلال التي صرفها في تقـاوي البلاد ومؤن وإعانـة، وبيعا، وصدقة فتماسـك من كان مقيما بها، وتراجع إليها من قدر على الرجوع من أهلها.

قال أبـو المظفر: ومات تحت الهدم ثـلاثون ألفـا وهدمت عكـا، وصور وجميع قـلاع الساحـل، وامتدت إلى دمشـق فرمـت بعض المنـارة الشرقية بجامـع دمشق، وأكثر الكلاسـة، والبيمارستان النوري وعامـة دور دمشق إلا القليل، وهرب الناس إلى الميادين وسقـط من الجامع ست عشرة شرفة وتشققـت قبـة النسر، وتهدمـت بـالناس وهـو بين بين، وخـرج قـوم مـن بعلبك يجنون [٩] الريباس مـن جبل لبنان فالتقى عليهـم الجبلان فماتوا بـأسرهـم، وتهدمـت قلعـة بعلبـك مـع عظـم حجـارتها ووثيـق عمارتها وامتدت إلى حمص، وحماة، وحلـب، والعواصم وقطعـت البحر إلى قبرص وانفرق البحر فصـار أطوادا، وقذف بالمراكب إلى السـاحل فتكسرت، ثم امتدت إلى أخلاط، وأرمينية، وأذربيجـان، والجزيرة، وأحصي من هلك في هذه السنة على سبيل التقريب فكان ألف ألف انسان ومائة ألف انسان، وكانت قـوة الزلزلة في مبدأ الأمـر بمقدار مايقرأ الانسـان سورة الكهف، ثم دامت بعـد ذلك أياما، نقلت جميـع ذلك من تاريـخ أبي المظفر سبط ابن الجوزي رحمه الله.

قـال: وفي مستهـل ذي القعـدة حـوصرت دمشـق، جـاء الأفضـل، والظاهر وكان العادل بمصر، وجاء حسام الـدين بشارة من بانياس نجدة لها فقاتلوا دمشق أياما، وكان بها المعظم عيسى بن العادل، وبلغ العادل فجاء ونـزل نابلـس وبعث فـأصلح الأمـراء، وزحف الأفضـل، والظاهـر فوصلوا إلى بـاب الفراديس، وأحرقوا فنـدق تقي الدين، فقـاتلهم المعظم وحفـظ البلد فـأقامـوا نحو شهـرين، وبعـث العادل فـأوقع الخلـف بين

الأخوين، فرحلوا سلخ ذي الحجة، وجاء العادل فدخل دمشق ومضى المعظم،وشركس، وقراجا فحاصروا بانياس وبها حسام الدين بشارة فقاتلهم فقتل ولده وأخرجوه من البلاد وتسلمها شركس، وتسلم قراجا صرخد وحج بالناس طاشتكين، وكان الخليفة قد أفرج عنه ورد إليه أقطاعه وماله.

وفيها،توفي عز الدين إبراهيم بن المقدم، وكان شجاعا عاقلا وله قلعة بارين، وفامية، ومنبج، والراوندان، ودفن بدمشق بمقبرة باب الفراديس، وكان له بنات وابن وهو المقتول بعرفات.

وفيها توفي ناظر نهر الملك ببغداد، واسمه ابراهيم، بن محمد بن إبراهيم، وكان متزهدا يلبس القطن الفوط ويعدل في الرعية ويحسن اليهم، أمر الخليفة الناصر بصلبه فصلب على كرسي جسر بغداد، وعليه القميص الفوط على جانب نهر عيسى، فمر به الخليفة وهو مصلوب في وسط الجذع ، فقال: يتنمس علينا ارفعوه إلى رأس الجذع، وكان شجاعاً مهيبا وحزن الناس عليه.

وقبل ذلك في سنة ست وثمانين واقعة أبشع من هذه، وكان ببغداد عبد الرشد بن عبد الرزاق الكرجي —بالجيم— الصوفي يتفقه بدار الذهب، وكان ورعا عاقلا عابدا، وكان ببغداد صوفي يقال له النفيس يضحك منه ويسخر به، وكان يدخل على الخليفة فدخل يوما مدرسة دار الذهب فجعل يتمسخر، فقال له الكرجي: اتق الله نحن نبحث العلم وأنت تهزل ماهذا موضعه، فدخل على الخليفة وبكى بين يديه وقال: ضربني الكرجي وعيرني، فغضب الخليفة وأمر بصلبه، فأخرج وعليه ثوب ازرق من ثياب الصوفية إلى الرحبة ونصبوا له خشبة ليصلبوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين فصلى وصلبوه، فجاء خادم من عند الخليفة فقال: لاتصلبوه وقد فات فلعن الناس النفيس الصوفي

وبقي أياما لايتجاسر يظهر ببغداد، ورأى الكرجي بعض الصالحين في المنام فقال: مافعل الله بك؟ فقال: وقفني الحق بين يديه، فقلت: ياإلهي رضيت ماجرى علي؟ فقال: أو ماسمعت ماقلت في كتابي:(ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا)(١٠) الآية، أي أني أردت أن تصل إلى مرتبة الشهداء.

وفيها: توفي الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي الواعظ، واسمه عبد الرحمن ابن علي بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أبو الفرج ابن أبي الحسن القرشي التيمي، وجعفر الجوزي منسوب إلى فرضة من فرض البصرة، يقال لها جوزة، وفرضة النهر ثلمته التي يستقى منها، قال سبطة أبو المظفر: ولد جدي ببغداد بدرب حبيب في سنة عشر وخمسمائةتقريبا، وتوفي أبوه وله ثلاث سنين، وكانت له عمة صالحة، وكان أهله تجارا في النحاس، ولهذا رأيت في بعض سماعاته: وكتب عبد الرحمن الصفار، فلما ترعرع حملته عمته إلى مسجد أبي الفضل بن ناصر فاعتنى به وأسمعه الحديث، وقرأ القرآن وتفقه، وقد ذكر من مشايخه في المشيخة نيفا وثمانين شيخا، وعني بأمره شيخه ابن الزاغوني وعلمه الوعظ واشتغل بفنون العلم، وأخذ اللغة عن أبي منصور الجواليقي، وصنف الكتب في فنون قيل بلغت مصنفاته نحو ثلاثمائة مصنف، وحضر مجالسه الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء، والأعيان وأقل ماكان يحضر مجالسه عشرة آلاف، وربما حضر عنده مائة ألف، وأوقع الله له في القلوب القبول والهيبة، وكان زاهدا في الدنيا متقللا عنها، وسمعته يقول على المنبر في آخر عمره: كتبت بإصبعي هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرة آلاف يهودي ونصراني، وكان يجلس بجامع القصر بالرصافة، وجامع المنصور وباب بدر، وتربة أم الخليفة وغيرها وكان يختم القرآن في كل سبعة أيام ولايخرج من بيته إلا إلى الجامع للجمعة، وللمجلس وممازح

أحد قـط، ولالعب مع صبي، ولا أكل مـن جهة لايتيقن حلهـا، ومازال على ذلك الأسلوب حتى توفاه الله تعالى.

وقد ذكرنـا محنته التي زاحم بها الأنبيـاء، والعلماء، والفضلاء، والأولياء وتلقى ذلـك بالصبر والحمـد والشكر، وقـد أثنى عليـه العلماء فذكـره أبو عبد الله محمـد بن الـدبيثي في الـذيل الـذي ذيله على تـاريخ السمعـاني فقال:

شيخنا الإمـام جمال الديـن ابن الجوزي صاحـب التصانيـف في فنون العلم من التفاسير، والفقه، والحديث والتـواريخ وغير ذلك، وإليه انتهت معـرفة الحديـث وعلومـه، والوقـوف على صحيحـه من سقيمـه، وله فيـه المصنفات مـن المسانيـد والأبواب والرجـال، ومعرفة الأحـاديث الـواهية، والموضوعة، والإنقطـاع والإنفصال، وكان من أحسن الناس كـلاما وأتمهم نظاما، وأعذبهم لسانا، وأجودهـم بنانا.

تفقه على أبي بكـر الدينـوري، وقرأ الـوعظ على الشريـف أبي القاسـم العلـوي وأبي الحسن بـن الزاغـوني ، وبـورك له في عمـره وعمله، فـروى الكثير، وسمع الناس منه أكثر من أربعين سنة، وحدث بمصنفاته مرارا.

قال:وأنشدني بواسط لنفسه:

يـــاســـاكــن الـــدنيـــا تـــأهـــب
وانتظـــــــر يـــــــوم الفـــــــراق

وأعـــــــد زادا للرحيـــــــ
ـــل فســـوف تحدي بـــالـــرفـــاق

وابـــك الـــذنـــوب بـــأدمـــع
تنهـــــل مـــــن سحـــــب المآق

يـــا مـــن أضـــاع زمـــانـــه
أرضيـــت مـــا يفنـــى ببـــاق

- ٩٠١٥ -

فصل

في نتف من كلامه:

قال لـه قائل: مـانمت البارحـة من شوقـي إلى المجلس، فقـال: نعم، لأنك تريد أن تتفرج، وإنما ينبغي أن لاتنام الليلة لأجل ماسمعت.

وقيل له: إن فلانا أوصى عند الموت، فقال: طين سطوحه في كانون .

وقال له قـائل: أيما أفضل أسبح، أم أستغفر؟ فقـال: الثياب أحوج إلى الصابون من البخور.

وقال في قوله عليه السلام:« أعمار أمتي مابين الستين إلى السبعين»(١١) إنما طالت أعمار القدماء. لطول الباديـة، فلما شارف الركب بلد الإقامة قيل حثوا المطي.

ووعظ الخليفـة يومـا فقال: يـاأمير المؤمنين إن تكلمت خفـت منك، وإن سكت خفت عليك، فأنا أقـدم خوفي عليك على خوفي منك لمحبتي لدوام أيـامك، إن قـول القائل اتـق الله خير من قـول القائل إنكـم أهل بيت مغفور لكم، وقد قال الحسن البصري: لئـن تصحب أقواما يخوفونك حتـى تبلغ المأمـن خير مـن أن تصحـب أقوامـا يـؤمنـونك حتـى تبلـغ المخاوف، وكـان عمر بن الخطـاب يقول: إذا بلغني عـن عامل أنـه ظلم الرعية، ولم أغيره فأنا الظالم.

ياأمير المؤمنين: كان يوسف عليه السـلام لايشبع في زمان القحط لئلا ينسـى الجياع، وكـان عمـر يضرب بطنه عـام الرمـادة ويقـول: قرقـر إن شئـت أو لاتقـرقـر فـوالله لاشبعت والمسلمـون جياع ، فتصـدق الخليفـة المستضيء بصدقات كثيرة وأشبع الجياع، وأطلق المحبوس.

وقال في قول فرعـون :(أليس لي ملك مصر)[١٢] ، أيفتخر فرعـون بنهر ماء أجراه مـاأجرأه، وقال في قصة الـذين عبدوا العجل: لـو أن الله خار لهم ماخار لهم.

وذكر قصة معاذ بـن جبل في القـراءة، فقال: طـاب له ارتضـاع ثدي التلاوة فمر على وجهه، فقيل له : أفتـان أنت؟ ليس الكل على طريقتك، الولد لاتعد عليه الرضعات إنما تعد على الأجانب لاثبات نسب الرضاع.

وقال يوما وقد طرب أهل المجلس: فهمتم، فهمتم.

وسئـل عن قـوله عليـه السـلام:« لأعطين الرايـة غدا رجـلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسـوله». فأعطاها عليا، فأين كـان أبو بكر؟ فقال: لما كـان يوم بـدر قام أبـو بكر ليقـاتـل، فقال لـه رسول الله صلى الله عليـه وسلم:«متعنا بنفسـك»، ولما كان يوم خيبر سلم الرايـة إلى علي فقال له:« أخرج» فقعـود من قعد بـالأمر كخروج مـن خرج بـالأمر. ولكن في قـوله متنعا بنفسك، فضيلة.

وسئل ، لم لم ينـص النبي صلى الله عليـه وسلم على خـلافة أبي بكـر؟ فأجاب: إنه قد جرت أشياء تجري مجرى النـص منها قوله:«مروا أبا بكر فليصل بالناس»، و«اقتـدوا باللذين من بعدي» و«هلمـوا أكتب لأبي بكر كتـابا لئـلا يختلف عليـه المسلمـون» فهذه أحـاديث تجري مجرى النـص، فهمها الخصوص غير أن الرافضة في إخفائها كاللصوص.

قـال السـائل: لما قـال: أقيلـوني، مـاسمعنـا مثـل جـواب علي: والله لاأقلناك، فقال: لما غـاب علي عن البيعة في الأول أخلف مـافات بالمدح في المستقبل ليعلم السامع والرائي أن بيعـة أبي بكر وإن كانت من ورائي فهي رأيـي، ومثل ذلك الصدر لايـرائي، وماأحسن استدلالـه حين قال: رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاك لدنيانا.

وسأل سائل: ماالذي وقر في صدر أبي بكـر؟ فقال: قوله ليلة المعراج: إن كان قال فقد صدق فله السبق.

وسأل آخر: سيف علي نزل من السماء فسعفة أبي بكر من أين؟ فقال: إن سعفة أبي بكر هزت يـوم الردة فأثمرت سبيا جاء منـه مثل ابن الحنفية لأمضى من سيوف الهند.

ثم قال: ياعجبـا الرافضة إذا مات لهم ميت تركوا معـه سعفة من أين ذا الصلح؟! ٠

سأل سائل: مامعنى قولـه صلى الله عليه وسلم:« من أراد أن ينظر إلى ميـت يمشي على وجه الأرض فلينظـر إلى أبي بكر»؟ فقـال: الميت يقسـم ماله، ويلبس الكفن، وأبو بكر أخرج المال كله وتجلل بالعباء.

وقال في قولـه تعالى:(ونزعنا مافي قلـوبهم من غل)(١٣) قال علي: والله إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، وطلحة، والزبير منهم.

ثم قال أبو الفرج: إذا أصطلح الخصوم فما بال النـظارة؟!

وقال: قال جبريل للرسول عليه السلام: سلم على عائشة ولم يواجهها بالخطاب احتراما لزوجها، وواجهه لمريـم لأنه ماكان لها زوج فمن يحترمها جبريل كيف يجوز في حقها الأباطيل.

وسئل عن لعنة يزيد بن معاويـة، فقال: قد أجاز أحمد بن حنبل لعنته ونحن نقول: مانحبه لما فعل بـابن بنت نبينا، وحمله آل رسول الله صلى الله عليــه وسلـــم سبـــايـــا إلى الشـــام على أقتـــاب الجمال. وتجرئه على الله

ورسوله رضيتم بهذه المصالحة في قولنا: مانحبه وإلا رجعنا إلى أصل الدعوى يعني جواز لعنته، ثم قال: أما أبوه ففي خفارة« الصبحة» فدعوه من أيديكم وأنتم في حل من الابن، قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» وما رآها يزيد قط ودخلها.

ثم قال: لاتدنسوا وقتنا بذكر من ضرب بالقضيب ثنايا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها، وجعلها يزيد غرضا لبلوغ غرضه.

قلت: كان أبو الفرج رحمه الله مبتلى بالكلام في مثل هذه الأشياء، لكثرة الرافضة ببغداد وتعنتهم له في السؤالات فيها، وكان بصيرا بالخروج منها بحسن إشارته، وذكر يوما حديث داود وهبة آدم له من عمره ستين سنة، وأن الله تعالى أتم لداود مائة ولآدم ألفا، ثم قال: المتوسط بين اثنين إذا كان كريما غرم.

ولأبي الفرج أشعار كثيرة، قيل إنها نحو عشر مجلدات، وقد ذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه فمن الأشعار المنسوبة إليه:

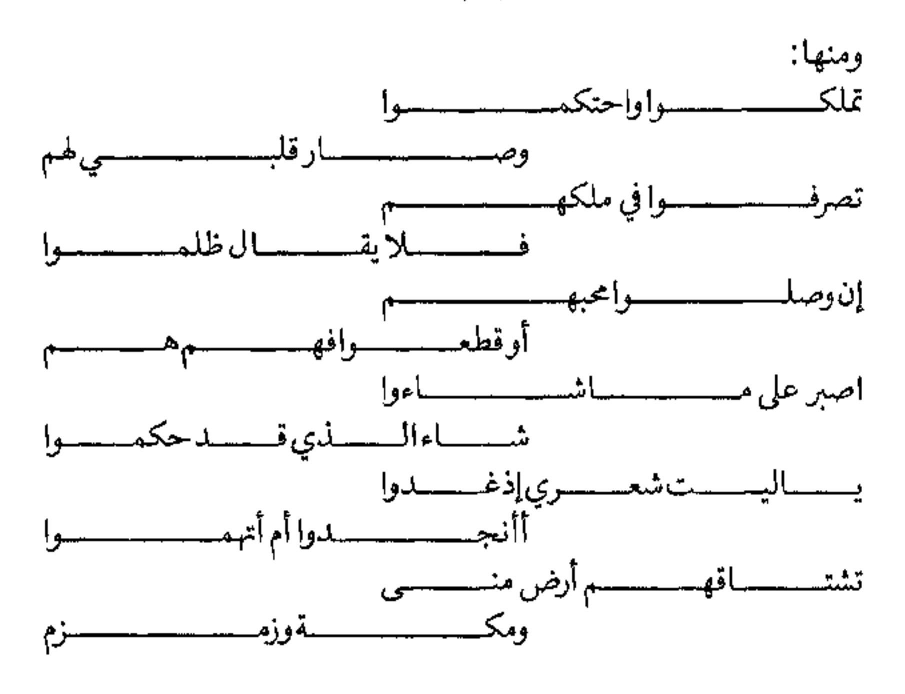
ياصاحبي إن كنت لي أو معي
فعج على وادي الحمى نرتع
وسل عن الوادي وسكانه
وانشد فؤادي في ربا المجمع
حي كثب الرمل رمل الحمى
وقف وسلم لي على لعلع

واسمع حديثا قد روته الصبا
تسنده عن بانة الأجرع
وابك فما في العين من فضله
ونب فدتك النفس عن مدمعي

وانـــــزل على الشيـــــح بـــــواديهم
وقـــل ديـــــار الظـــاعنين اسمعـــــي
رفقـــا بنضـــو قـــد بـــراه الأســـى
يـــا عـــاذلي لـــو كـــان قلبـــي معـــي
لهفـــي على طيـــب ليـــال خلـــت
عـــودي تعـــودي مـــدنفـــا قـــدنعـــي
إذا تـــــذكـــرت زمـــانـــا مضـــى
فـــويـــح أجفـــاني مـــن مـــدمعـــي
يـــانفـــس كـــم أتلـــو حـــديـــث المنـــى
ضـــاع زمـــاني بـــا لمنـــى فـــاقطعـــي

ومنها:

في شغـــل مـــن الـــرقـــادشـــاغـــل
مـــن هـــاجـــه البرق بسفـــح عـــاقـــل
يـــاصـــاحبـــي هـــذي ديـــار ربعهـــم
قـــــــــــد أخبرت شمائل الشمائل
واطـــــربي إذا رأيـــــت أرضهـــــم
هـــــذا وفيهـــــا رميـــــت مقـــــاتلي
مـــا للصبـــا مـــولعـــة بـــذي الصبـــا
أصبـــا فـــــوق الغـــرام القـــاتـــل
مـــا اللهـــوى العـــذري في بـــلادنـــا
أيـــن العـــذيـــب من قصـــور بـــابـــل
يـــابـــانـــة الشيـــح سقيـــت أدمعـــي
ولا ابتليـــــــــت بـــــــالهوى تمايلي
ميلـــــك عـــــن زهـــــو وميلي أســـــى
مـــاطـــرب المخمـــور مثـــل الثـــاكـــل
لله در العيـــــــش في ظـــــــلالهم
ولي وكـــم أســـار في المفـــاصـــل



ومنها:

تملكوا واحتكموا ... وصار قلبي لهم

تصرفوا في ملكهم ... فلا يقال ظلموا

إن وصلوا محبهم ... أو قطعوا فهم هم

اصبر على ما شاءوا ... شاء الذي قد حكموا

يا ليت شعري إذ غدوا ... أأنجدوا أم أتهموا

تشتاقهم أرض منى ... ومكة وزمزم

-٩٠٢١-

فصل

في وفاة أبي الفرج رحمه الله

جلس يوم السبت سابع رمضان تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي، قال سبطه أبو المظفر: وكنت حاضرا، فأنشد أبياتا قطع عليها المجلس وهي:

الله أسأل أن تطول مدتي
وأنال بالإنعام ما في نيتي

لي همة في العلم ما من مثلها
وهي التي جنت النحول هي التي

خلقت من العلق العظيم إلى المنى
دعيت إلى نيل الكمال فلبت

كم كان لي من مجلس لو شبهت
حالاته لتشبهت بالجنة

أشتاقه لما مضت أيامه
عطلا وتعذر ناقة إن حنت

يا هل لليلات تقضت عودة
أم هل إلى وادي منى من نظرة

قد كان أحلى من تصاريف الصبا
ومن الحمام مغنيا في الأيكة

فيه البديهات التي ما نالها
خلق بغير تصبر ومبيت

برجاحة وفصاحة وملاحة
يقضي لها عدنان بالعربية

وبلاغة وبراعة ويراعة
ظن النباتي أنها لم تنبت

وإشارة تبلي الأديب وصحبة
في رقة ما قالها ذو الرمة

قلت: أظن هذه الأبيات نظمها في أيام محنته إذ كان محبوسا بواسط، فمعانيها دالة على ذلك، والله أعلم.

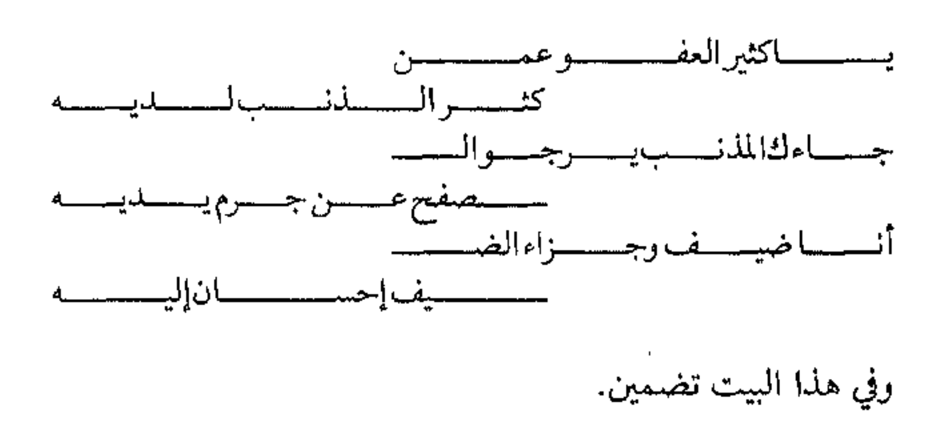
ثم قال أبو المظفر: ونزل من المنبر فمرض خمسة أيام، وتوفي ليلة الجمعة بين العشائين في داره ببغداد.

قال: وحكت لي والدتي رحمها الله أنها سمعته يقول قبيل موته: إيش أعمل بطواويس —يرددها— قد جبتم لي هذه الطواويس.

وحضر غسله شيخنا ضياء الدين ابن الجبير وقت السحر، واجتمع أهل بغداد وغلقت الأسواق، وجاء أهل المحال، وشددنا التابوت بالحبال وسلمناه إليهم، فذهبوا به إلى تحت التربة مكان جلوسه فصلى عليه ابنه أبو القاسم علي اتفاقا، لأن الأعيان لم يقدروا على الوصول إليه، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور فصلوا عليه وضاق بالناس، وكان يوما مشهودا لم نصل إلى حفرته عند قبر أحمد بن حنبل إلى وقت صلاة الجمعة، وكان في تموز وأفطر خلق كثير ممن صحبه ورموا نفوسهم في خندق الظاهرية في الماء وماوصل إلى حفرته من الكفن إلا قليل، وأنزل في الحفرة والمؤذن يقول: الله أكبر، وحزن الناس عليه حزنا شديدا، وبكوا بكاء كثيرا، وباتوا عند قبره طول شهر رمضان يختمون الختمات بالقناديل والشموع والجماعات، ورآه تلك الليلة رجل صالح في منامه وهو على منبر من ياقوت مرصع بالجواهر وهو جالس في مقعد صدق والملائكة جلوس بين يديه، والحق سبحانه حاضر، يسمع كلامه. قال: وأصبحنا يوم السبت عملنا عزاءه، وتكلمت فيه وحضر خلق عظيم.

قال: ومن العجائب إنا كنا جلوسا عند قبره عند انفضاض العزاء، وإذا بخالي محيي الدين يوسف قد صعد من الشط وخلفه تابوت فعجبنا وقلنا: ترى من مات في الدار؟ و إذا بها خاتون أم ولد جدي، والدة محيي

الدين وعهدي بها في ليلة الجمعة التي مات فيها جدي في عافية قائمة ليس بها مرض، فكان بين موتها وموته يوم وليلة، وعد الناس ذلك من كراماته لأنه كان مغرى بها في حال حياته، وأوصى جدي أن يكتب على قبره:



يا كثير العفو عمن ... كثر الذنب لديه

جاءك المذنب يرجو ال ... صفح عن جرم يديه

أنا ضيف وجزاء الضـ ... ـيف إحسان إليه

وفي هذا البيت تضمين.

فصل

في ذكر أولاده

قال أبـو المظفر:وكان له مـن الأولاد الذكور ثـلاثة: عبد العزيـز، وهو أول أولاده، وأبو القاسم علي، وأبـو محمد يوسف، فأما عبـد العزيز وكنيته أبو بكر: تفقه على مـذهب أحمد وسمع أبا الوقت، وابـن ناصر، والأرموي، وجماعة مـن مشايخ والـده، وسافر إلى الموصـل ووعظ وحصل لـه القبول التـام، فيقال إن بنـي السهروردي حسـدوه فدسـوا إليه مـن سقاه السـم فمات بالموصل سنة أربع وخمسين في حياة والده.

وأما أبو القاسم: فكتب الكثير، وسمـع الحديث من ابن البطي وغيره، وهـو الذي أظهـر مصنفـات والده وبـاعها مـع العسر فيمـن يزيـد، ولما مضى والـده إلى واسط كـانت كتبه في داره بـدرب دينار، فتحيـل عليها بالليل والنهـار حتى أخذ منها مـا أراد وباعها ولابثمن المداد، وكـان أبوه قد هجـره منذ سنين، فلما امتحـن أبوه صـار إلبا عليـه للمعاديـن، وتوفي سنة ثلاثين وستمائة وله ثمانون سنة.

وأمـا أبـو محمـد يـوسـف ولقبه محيـي الـديـن، فـولـد في سنـة ثمانين وخمسمائة، وسمع الحديـث الكثير وتفقه ووعـظ بعد وفـاة أبيه تحت تـربة والدة الخليفة، وقامـت بأمره أحسن قيام، ثم ولي الحسبـة في جانبي بغداد في سنـة أربع وستمائة إلى تسـع وستمائة، ثـم وليهـا من سنـة خمس عشرة وستمائة إلى .... وسلك طـريق العقل، والسـداد وترسل عـن الخلفاء إلى الملـوك، وأول ترسلـه عـن الإمام الظـاهر ابـن النـاصر في سنة ثـلاث وعشريـن وستمائة إلى أولاده العـادل،الأشرف،والمعظـم،والكـامـل، وآخـر ماانفصل عـن الشام في سنة خمس وثلاثين وستمائة إلى بغـداد، وفي تلك السنة تـوفي صاحب الـروم والأشرف والكامـل، ثم ولي أستاذيـة الدار في سنة أربعين للإمام المستعصم بن المستنصر بن الظاهر.

قلت: وبقي على ذلك إلى أن قتله التاتار لعنهم الله سنة استولوا على بغداد وهي سنة خمس وخمسين وستمائة مع من قتلوه من الأكابر الذين خرجوا مع الخليفة إليهم على ماسنذكره إن شاء الله.

قال أبو المظفر: كان لجدي عدة بنات منهن والدتي رابعة، وشرف النساء، وزينب وجوهرة وست العلماء الكبرى، وست العلماء الصغرى، وكلهن سمعن الحديث من جدي وغيره:

وقال الشيخ أبو الفرج في كتابه المنتظم في أخبار سنة إحدى وسبعين خمسمائة وفي هذه السنة عقد عقد ابنتي رابعة بباب حجرة الخليفة، وحضر قاضي القضاة والعدول والخدم والأكابر على أبي الفتح بن رشيد الطبري، قال: وزوجت ابني أبا القاسم بابنة الوزير يحيى بن هبيرة في ذلك اليوم، وكان الخاطب ابن المهتدي(١٤).

قال أبو المظفر: هذه رابعة والدتي هي تزوجها ابن رشيد الطبري، وهو أو ل أزواجها ولم يطل عمره معها، ثم زوجها جدي بوالدي بعد موت ابن رشيد، وقد سمعت الحديث على ابن البطي، وثابت بن بندار، ومعظم مشايخ جدي، قال أبو الفرج: وزفت إلى ابن رشيد في المحرم سنة اثنتين وسبعين في دار الجهة بنفشا جهة الخليفة، وجهزتها بمال عظيم.

قال أبو المظفر: ماقصد جدي بهذا الكلام إلا الإعلام بمكانته وعلو منزلته عند الخليفة، وإن أحدا من أبناء جنسه لم يصل إلى مرتبته.

فصل

وفي هذه السنة أيضا وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة توفي في مستهل شهر رمضان العماد الكاتب الأصفهاني، وكان كاتب الإنشاء في الدولتين النورية، والصلاحية، وكان مبرزا في النظم والنثر، عارفا بالأدب، حافظا لدواوين العرب، وقد ذكرت له ترجمة حسنة في تاريخ دمشق في حرف الميم، وأخباره مفرقة في كتابي الذي سميته بالروضتين، وقد ذكر هو نفسه أيضا في كتابه الذي سماه بالخريدة ومن شعره:

بالله يا ريح الشمال تحملي
منى التحية نحو ذاك المنزل
خفي على حمل السلام وخففي
عن قلب صب الصبابة مثقل
قولي لمن شغل الفؤاد بحبه
ويخال أن فؤاده منه خلي
حلت عقود دموعه وعقوده
وعهوده معقودة لم تحلل
سقيا لأحباب تبدل ودهم
بعدي ولم أنقض ولم أتبدل
الظاعنين وودهم مستوطن
والراحلين وذكرهم لم يرحل
في بعدهم حال المعنى المبتلى
حزنا وعين الساهر المتململ
يا راكبا يطوي الفلا مستعجلا
هيجت أحزاني فلا تستعجل
أقفلت باب مسرتي وفتحت من
دمعي وحزني كل باب مقفل
عرج وعج نحو الحمى سقي الحمى
أعدل فليس عن الحمى من معدل

ومنه

أيـــاسـاكنــامصرعفـاالله عنكـم
وعفـاكـم ممـا ألاقيـه منكـم
أبيـت على هجـرانكـم متنـدمـا
ومـن ينـأ عنكـم كيـف لا يتنـدم
فـإن كنتـم لم تعلمـوا مـا لقيتـه
مـن الـوجـد والأشـواق فـالله يعلـم
بقيتـم وعشتـم سـالمين مـن الأذى
ومنيـة قلبـي أن تعيشـوا وتسلمـوا.

وفيها: تـوفي مكلبة بـن عبد الله المستنجدي، وكـان صالحا يقـوم الليل سمع المؤذن يقول وقت السحر في المئذنة:

يـارجـال الليـل جـدوا
رب صـوت لا يـرد
مـا يقـوم الليـل إلا
مـن لـه عـزم وجـد

فبكى مكلبة بكاء شديدا، وصاح: يامؤذن زدني، فقال المؤذن:
قـد مضـى الليـل وولى
وحبيبـي قـد تجلى

فصاح مكلبة ومات. فأصبح جمع مـن أهل بغداد على باب داره، وكان يوما عظيما لم ير ببغداد مثله، فالسعيـد من وصل إلى كفنه ، وقطع الكفن ودفن بالوردية.

وفيها: توفي أبو منصور بن نقطة المزكلش كان يقول:

كان وكـان. ولايعرف الخط، وهو: أخـو عبد الغنـي بن نقطة الـزاهد، وهو: عبد الغني بـن أبي بكر بن شجاع، كان له زاويـة ببغداد يأوي إليها الفقراء، وكـان دينا جـوادا سمحا لم يكن ببغـداد في عصره من يقـارنه في التجـريد. كـان يفتح عليـه قبل غـروب الشمس بـألف دينـار فيفرقهـا، والفقـراء صيام لايـدخـر لهم منهـا شيئا ويقـول: نحـن لانعمـل بأجـرة —يعني لانصـوم ونذكر مـانفطر عليه— وكـانت والدة الخليفـة الناصر تحسن الظن به، زوجته بجارية مـن خواصها، ونقلت معها جهازا يساوي عشرة آلاف دينـار، فما حـال الحول وعنـده منه سـوى هـاون، فجـاء فقير فوقف على البـاب وقال: لي ثلاثة أيـام ماأكلت شيئا، فأخـرج الهاون وقال: لاتشنـع على الله كـل بهذا ثلاثين يـومـا، وتـوفي عبد الغنـي رابـع جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ودفن بزاويته.

وأخـوه أبـو منصـور ابـن نقطة المزكلـش كـان ينشـد كـان، وكـان في الأسواق، ويسحـر الناس في رمضـان، فقيل له: مـاتستحي أخـوك زاهد العراق، وأنت تزكلش في الأسواق فقال مواليا:

قـد خـاب مـن شبـه الجزعـة إلى الـدرة
وشـابـه قحبـة إلى مستجنـة حـرة
أنـا مغنـي وأخـي زاهـد إلى مـرة
في الـدار بئـريـن ذي حلـوة وذي مـرة

وأجـرى حـديـث قتـل عثمان وأن عليـا كـان بـالمدينـة ولم يقـدر على الوصول إليه، فقال ابن نقطة:

«ومن قتل في جواره مثل ابن عفان واعتذر»

«يجب عليه أن يقبل في الشام عذر يزيد»

فـأراد الشيعة قتلـه،فـوثـب عليه ليلـة، وكـان يسحـر الناس في شهـر رمضان، وكـان الإمام النـاصر تلك الليلـة في المنظرة وهـو واقف يسحـر ويقول: أي نيامـا: قوما. قوما السحـور، قوما. فعطس الخليفـة. فقال ابن نقطة: يامـن عطس في الروزنة، يـرحمك الله قوما. فبعث الخليفـة إليه مائة دينار وحماه من الشيعة فمات بعد قليل.

وفيها: تـوفي مسند الشـام في وقته أبـو طاهـر بركـات بن ابـراهيم بـن طـاهـر الخشـوعـي، شـارك الحافـظ أبـا القـاسـم في كثير مـن شيـوخـه الدمشقيين سماعـا، والغربـاء إجازة، وعمر حتـى ألحق الصغار بـالكبار، أخبرنا عنه جماعة رحمه الله.

-٩٠٣٠-

ثم دخلت

سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

والغلاء بمصر مستمر، ثم تناقص لاستقبال جمادى الآخرة لما ظهر من زيادة نيلها، وأقلع في أواخرها ولله الحمد.

قال أبو المظفر: كان الملك الأفضل بحمص عند شيركوه، وهو أخو زوجته سعدى ابنة ناصر من محمد بن شيركوه الكبير، فجاء إلى عمه العادل فالتقاه عند ثنية العقاب فأكرمه وعوضه عن ميافارقين سميساط وسروج، وقلعة نجم، وقرايا في المرج ومصر وتسلم الظاهر فامية من ابن المقدم، ونزل العادل على حماة فصالحه الظاهر ورجع العادل إلى حمص.

وجاءت في شعبان زلزلة عظيمة فشققت قلعة حمص، ورمت المنظرة التي على القلعة، وأخربت حصن الأكراد وتعدت إلى جزيرة قبرس، وامتدت إلى نابلس فأخربت مابقي.

وقال العز بن تاج الأمناء: هذه الزلزلة العظمى التي هدمت بلاد الساحل: صور، وطرابلس، وعرقة، وشعثت كثيرا من البلاد الاسلامية الشمالية، ورمت بدمشق رؤوس منائر الجامع، وبعض شراريفه من شماله فقتلت رجلا مغربيا بالكلاسة، ومملوكا تركيا لرجل صيرفي ساكن في درب السمسياطي عند تنفس الصبح من يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان، الموافق العشرين من آب وأعقبها زلزلة خفيفة في ضحوة الغد.

قال أبو المظفر: وفيها شرع الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد إبن قدامة شيخ المقادسة رحمه الله تعالى في بناء الجامع بالجبل، وكان بقاسيون رجل فامي يقال له أبو داود محاسن، فوضع أساسه وبلغ قامه، وأنفق عليه ماكان يملكه، وبلغ ابن زين الدين مظفر الدين صاحب

إربل فبعث إلى الشيخ أبي عمر مالا فتممه ووقف عليه وقفا، وبعد ذلك أراد ابن زين الدين ان يسوق الماء إليه من برزة، وبعث ألف دينار لذلك، فقال الملك المعظم عيسى بن العادل: طريق الماء كلها قبوروكيف يجوز أن تنبش عظام المسلمين، اشتروا بغلا واعملوا مدارا وبالباقي مكانا أوقفوه عليه، ولاتؤذوا أحدا، ففعلوا.

وحج بالناس من العراق وجه السبع. ومن الشام خشتر بن الهكاري.

وفيها: توفيت بنفشا ابنة عبد الله جارية المستضيء، وكانت كريمة صالحة كثيرة الصلاة والصدقات، عمرت الربط والمساجد والجسر ببغداد، وتصدقت بأموال كثيرة على العلماء والفقراء والمساكين، وهي التي اشترت دار الوزير ابن جهير بباب الأزج ووقفتها على الحنابلة، وفوضت نظرها إلى الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، وهي التي أشارت على المستضيء بولاية الإمام الناصر، وكان في عزمه أن يولي الخلافة ولده الأمير أبا منصور فرأى الناصر لها ذلك، فلما ولي الخلافة أنزلها في الدار التي كانت بها والدته وأحسن إليها، ولما توفيت تولى أمرها والدة الخليفة وجهزتها أحسن جهاز، ودفنتها في تربتها المجاورة لمعروف الكرخي وذلك في ربيع الأول.

وفيها: توفي أبو الثناء حماد بن هبة الله بن حماد الباخرزي، ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وهي السنة التي ولد فيها نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى، وسمع الحديث ببغداد، ومصر، والاسكندرية، سمع بمصر أبا محمد بن رفاعة السعدي، وبالاسكندرية الحافظ أبا طاهر السلفي، وببغداد ابن السمرقندي وغيرهم، وحدثنا عنه جماعة، ومات بحران في ذي الحجة وأنشد لنفسه:

تنقل المرء في الآفاق يكسبه

محاسنا لم يكن فيها ببلدته

أمـــاتـرى بيـــدق الشطـــرنـــج أكسبـــه
مـــــن التنقـــــل فيهـــــا فـــوق رتبتــــه

وفيها: توفي هبة الله بن الحسن بن المظفر أبو القاسم الهمذاني، ويقال له ابن السبط، والسبط هو جده المظفر، كان سبطا لأحمد بن علي بن لال الفقيه الهمذاني، ولد هبة الله في سنة عشر وخمسمائة وهو محدث، ابن محدث، وكانت وفاته في باب المراتب ببغداد في المحرم، ودفن بالريان سمع أبا القاسم بن الحصين وقاضي المارستان، وابن السمرقندي وأنشد لغيره:

إذا الفتـــــى ذم عيشــــا في شبيبتـــــه
فما يقـــول إذا عصر الشبـــاب مضـــى
وقـــد تعـــوضـــت عـــن كـــل بمشبهــــه
فما وجـــدت لأيـــام الصبـــا عـــوضــــا

وفيها: توفي الشيخ علي بن محمد بن غليس اليمني الزاهد. كان مقيما بكلاسة جامع دمشق في شرقيها، وتوفي يوم الاثنين سابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ودفن بمقبرة باب الصغير قبلي الحظيرة التي فيها قبر معاوية وغيره بغرب، وحكي عنه كرامات جليلة، حكى عنه جماعات من المشايخ السادة مثل شيخنا أبي الحسن السخاوي، وأبي القاسم الصقلي، وأبي البركات ميمون الضرير، وأبي الحسن ابن أبي جعفر وغيرهم.

أخبرني أبو علي حسن بن عبد الله بن صدقة الصقلي، الشيخ الصالح، وفقه الله قال: سمعت شيخنا السخاوي يقول: سمعت ابن غليس يقول: كنت مسافرا مع قافلة، فرأيت في المنام كأن سبعا اعترضهم، فقطع الطريق عليهم فوقفوا حائرين، فتقدمت إليه وقلت: ياكلب الله أنت كلب، وأنا عبد الله فاخضع وارجع لمن سكن له مافي السموات

والأرض وهـو السميع العليـم، فذهـب وانفتحت الطـريق للقـافلة، ثـم انبهت فسرنـا قليلا وإذا بـالقافلـة قد وقفـت، فسألـت: ماالخبر؟ فقيـل: السبع على الطريق فتقدمت إليه وهـو مقع على ذنبه فقلت ذلك الكلام، وتقدمـت إليه فـادخلت يدي في فمـه، وقلبت أسنانـه وشممت مـن فيه رائحة كريهة.

قال الشيخ السخاوي: فقلـت له: إنه يأكل اللحم ومـايتخلل، قال: وأدخلت يدي فقلبت خصيتيه وإذا هما مثل خصيتي القط.قال: وأخبرني الشيـخ ميمونُ الضريـر عـن صاحـب لابـن غليس قـال: أمـرني بإيقـاد السراج، ولم يكن بـه زيت فـأوقدت الفتيلـة فوقـدت، ثم أمـرني في الليلة الثانية فأوقدتها فـوقدت، ثم أمرني في الليلة الثالثة بايقـادها، فقلت: أفلا زيت في السراج، قـال: وإيش فضـولك في هـذا لو سكـت لكانـت تقد أبدا، أو كما أخبرني الشيـخ أبو القـاسم الفضـل. قال: مـات مهر لابـن غليس، فحزن عليـه كثيرا فقيل له: لم تحزن عليه؟ غيره يقوم مقـامه، فقال إنه فرس صـالح كان معي في سفـري بالعراق فآواني الليـل مع جماعة إلى قرية، وكـانت ليلة باردة ذات ريح ومطـر، فلم يقدر لنا مكـان نأوي إليه إلا موضـع صغير، فقلت لأصحابي: إن تركنـا الفرس خارج البيـت هلك بـالبرد وخفنا عليـه، وإن أدخلناه معنـا خفنا مـن بـوله وتلـويثه الجماعـة لصغـر المكان، فتقـدمـت إليه وقلـت له: نحـن نـدخلك معنـا بشرط أن لاتفعل مـايتأذى بـه الجماعة مـن بول وغيره، ثـم أدخلناه فبـات ليلته لم يتحرك بحركة يتأذى منها، ولم يبـل، فلما أصبحنا أخرجناه معنا، فلما صار خارج الباب بـال نحو قربة مـاء، أو كما قال، قال: وحدثنـي محمد بن أبي جعفر قال: ابن غليس مايسوى فليس، رحمه الله.

وفيها: تـوفي بدمشق خطيبهـا الدولعـي الكبير، الملقب بضياء الـدين، واسمه: أبـو القاسـم عبد الملك بـن زيد بن يـاسين التغلبي، والـدولعية قريـة من قـرى الموصل، ولد سنـة ثماني عشرة وخمسمائة قبل جمال الـدين

ابـن الحرستـاني بسنتين، وقدم بغـداد فتفقـه بها على مـذهب الشـافعـي، وسمع الحديث، ثم قدم دمشق فاستـوطنها وصار خطيبها ودرس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المنسوبة إلى الشيخ نصر المقدسي رحمه الله تعالى، وكان متـزهدا، حسـن الأثر، حميـد الطريقـة، مهيبا صـارما في قـول الحق سمع جـامع الترمذي مـن أبي الفتح الكـروخي، وكتاب السنـن للنسائي من أبي الحسـن علي بن أحمد اليزدي، وسمع مـن الحافظ أبي القاسـم ابن عسـاكـر، والقـاضي أبي سعـد بـن أبي عصرون، وقـرأ عليـه الفقـه وغيره، وكانـت وفاته يوم الثـلاثاء ثاني عشر ربيع الأول، ودفـن بباب الصغير في قبور الصحـابة، وقبره ثم مشهـور يزار، وكانـت جنازته مشهـودة امتلأ بها جامـع دمشق مثـل صلاة يـوم الجمعة، المسقـف، والصحن، والـرواقات وخـارج الأبواب، حـدثنا عنـه والـدي رحمه الله، وابن أخيـه جمال الديـن محمـد الذي تـولى الخطابـة وغيرهما، وطلبه شرف الـدين ابـن عصرون أن ينوب عنه في القضاء فأبى، فـاستناب جمال الدين بن الحرستاني، وأخبرني القاضي الخطيب عماد الدين ابن الحرستـاني أن قاضي القضاة محيي الدين ابن الخطيـب حضر إلى الجامع، وقدم ولده الـزكي الطاهر، فصلى بـالناس صلاة واحدة، وأراد أن يـأخذ المنصب له، فمضى جمال الديـن الدولعي، إلى علم الدين أخـي السلطان فأخذ أخيه توقيعا بمنصـب الخطابة مكان عمه فبقي فيه سبعا وثلاثين سنة على ماسنـذكره في سنة وفاته، وهي سنة خمس وثلاثين وستمائة.

فيها تـوفي المؤيد أسعد بـن القلانسي بـدمشق فجأة، رابـع عشر ربيع الآخر.

وفيها: تـوفي حسام الـدين بشـارة، الذي كـان صاحـب بانيـاس قبل شربس في السادس والعشرين من ربيع الآخر.

وفيها تـوفي قاضي دمشق محيي الـدين أبو المعالي محمـد بن علي بـن محمـد بـن

يحيي القرشي، وجميع من ذكرنا من أجداده ولوا القضاء بدمشق، وجده الأعلى يحيى بن علي بن عبد العزيز، وهو جد الحافظ أبي القاسم بن عساكر لأمه، ويعرف بابن الصائغ، ذكره الحافظ في ترجمته وترجمة والده في تاريخ دمشق، وذكر أيضا ترجمة ولديه محمد بن يحيى، وسلطان بن يحيى وهما خالا الحافظ أبي القاسم، ولم يرفع نسب أحد منهم بما يتصل بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه كما تدعيه ذريته في زماننا، ولو كان ذلك الاتصال صحيحا لما خفي على الحافظ أبي القاسم، ولو كان يعرفه لما أغفل ذكر هذه المنقبة لأجداده وأمه وأخواله.

تولى أبو المعالي قضاء دمشق أولا نيابة عن الشيخ شرف الدين أبي سعد الله بن محمد بن عصرون، ثم تولى قاضي القضاة في أيام السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله وبأمره في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وبقي على ذلك إلى أن توفي في هذه السنة في سابع شعبان ودفن بتربته في الجبل، ولما فتح صلاح الدين مدينة حلب أضاف إليه أيضا قضاءها وكان عالما صارما كاتبا حسن الخط واللفظ، وهو أول من خطب بالبيت المقدس شرفه الله تعالى لما فتحه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بخطبة فائقة من إنشائه قد ذكرتها في كتاب الروضتين، وكان بيده الأوقاف التي للجامع وغيره، ثم عزل عنها في جمادى الأولى سنة وفاته، وتولاها شمس الدين ابن التيتي ضمانا، ثم في صفر من سنة أربع وستمائة عزل الشمس ابن التيتي عنها وتولاها الرشيد ابن أخته ضمانا بزيادة ثلاثة آلاف دينار، ثم في تاسع شعبان من هذه السنة سنة أربع وستمائة أبطل ضمانها وتولاها المعتمد والي دمشق، وكان محيي الدين قد اختل في آخر عمره، وجرت له قصة مع الإسماعيلية بسبب قتل شخص منهم يعرف بالفافا، ولذلك فتح له بابا سرا إلى الجامع لصلاة الجمعة، ودرس عنه عماد الدين ابن الحرستاني وأثنى عليه في فصاحته وحفظه لما يلقيه في درسه، قال: وتوفي وله ثمان وأربعون سنة، وكذا ولده الزكي

- ٩٠٣٦ -

الطاهر، وكـان رحمه الله يحرص على كتابة عقيدة الغزالي الملقبـة بالمصباح، ويـأمر بتحفيظ الصغـار لها، وكـذا أخيـه مـن بعـده، وكان ينهـى عـن الاشتغال بكتـب المنطق والجدل، ولقد استدعـى بكتب من كانـت عنده من سكان مدرستـه التقوية فقطعها بحضور الجمع في مدرستـه بالكلاسة قبالـة الشباك الصلاحـي، وثم كان يـذكر الدرس العـام للتفسير فقطعها ومالكها حاضر.

قال: وكـان قد تنـزل ذكر نيـابته عـن ابن عصرون، فـأرسل السلطـان صلاح الـدين مجد الدين ابـن النحاس والد العماد إليـه، وأمره أن يضرب على علامتـه في مجلسه ففعل بـه ذلك، فلزم بيتـه حياء من النـاس فطلب ابن عصرون مـن يستنيبه فـأشير عليه بالخطيب ضياء الـدين الـدولعي، فأرسل إليه فنـاب عنه وعن ابنه إلى أن عزل، قال: وكـان قد اختلط عقله في آخر عمره، فبينما هو في داره يوما وعنده جماعـة من أكابر دمشق ثار به الخلط، فخرج من ساعته على الهيئة التـي كان عليها في داره، فوجد بغلة، لبعض من كان عنـده فركبها فخيف عليه فارتدفه غـلام صاحب البغلة، فخـرج على وجهـه إلى الميـدان فلحقه الجماعـة، وأمـر لـه بضرب خيمـة، وبات والناس عنده تلك الليلة، ثم أدخل من الغد فبقي أياما ومات.

- ٩٠٣٧ -

ثم دخلت

سنة تسع وتسعين وخمسمائة

وهي سنة مولدي، ففي سلخ المحرم ليلة السبت ماجت النجوم في السماء شرقا وغربا، وتطايرت كالجراد المنتشر يمينا وشمالا، ولم ير هذا إلا في مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين، وكانت هذه السنة أعظم، قاله أبو المظفر سبط ابن الجوزي.

وقال العز بن تاج الأمناء: في سلخ المحرم رئي في السماء نجوم متكاثفة متطايرة شديدة الاضطراب إلى غاية، قال: وشرع في عمارة سور قلعة دمشق في الشهور الأواخر من هذه السنة، وابتدىء ببرج الزاوية الغربي القبلي منها المجاور لباب النصر.

قال أبو المظفر: وتمت عمارة رباط المرزبانية الذي بناه الخليفة على نهر عيسى، ورتب فيه الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي وعنده جماعة من الصوفية.

وفيها: بعث الخليفة الخلع وسراويلات الفتوة إلى العادل وأولاده، فلبسوها في شهر رمضان، وأخذ الظاهر قلعة نجم من أخيه الأفضل بأمر العادل، وابتدىء بعمارة قلعة دمشق.

وحج بالناس من العراق طاشتكين.

قال وفيها: توفيت والدة الإمام الناصر واسمها زمرد خاتون أم ولده المستضيء، كانت صالحة كثيرة المعروف والصدقات، دائمة البر

والصلات، متفقدة لأرباب البيوت، وحجت فأنفقت مالا عظيما نحو ثلاثمائة ألف دينار، وكان معها نحو ألفي جمل، وتصدقت على أهل الحرمين وأصلحت البرك والمصانع، وعمرت التربة عند قبر معروف والمدرسة إلى جانبها، ووقفت عليها الأوقاف، وتوفيت في جمادى الأولى وحزن الخليفة عليها حزنا لم يحزنه ولد على والدة، وفعل في حقها مالم يفعله أحد من أمثاله، وصلى عليها في صحن السلام ومضى بين يدي تابوتها إلى دجلة من ناحية التاج، ثم حملت في الشبارة نهارا والوزير ناصر بن مهدي قائم مشدود الوسط، وأرباب الدولة في السفن، وصعدوا بتابوتها إلى التربة، وأمر الخليفة أن يمشي الناس من دجلة إلى تربتها المجاورة لمعروف والمسافة بعيدة، وكان الوزير سمينا فكاد يهلك وقعد في الطريق نحو من ثلاثين مرة، وعمل لها العزاء شهرا كاملا، وأنشدت المراثي ، وختمت الختمات طول الشهر، وفرق الخليفة بعد الشهر أموالا كثيرة في الزوايا، والربط، والمدارس، وخلع على الأعيان، ومن لم يخلع عليه أعطاه مالا، وأمر بأن يفرق جميع ماخلفته من ذهب، وفضة، وحلي، وجواهر، وثياب في جواريها ومماليكها فقسم بينهم، وحمل ماكان في خزانتها من الأشربة، والمعاجين، والعقاقير إلى المارستان العضدي، وكان يساوي ألوفا، وحزن عليها أهل بغداد حزنا عظيما لأنها كانت محسنة إلى الناس.

قال وفيها: توفي القاضي أبو الفضل أحمد ابن قاضي القضاة أبي طالب علي بن هبة الله بن محمد بن البخاري، استنابه أبوه في القضاء بحريم دار الخلافة فلم يزل على ذلك حتى توفي والده فانعزل، ثم ولي سنة أربع وتسعين فأقام حتى ولي ضياء الدين بن الشهزوري في رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة، فأقره على حاله، ثم عزله في ذي الحجة من السنة المذكورة فلزم بيته إلى أن توفي في ذي الحجة من هذه السنة، وصلي عليه بالنظامية ودفن عند أبيه بمشهد موسى بن جعفر، وكان نزها عفيفا.

وفيها: توفي عبد الله بن الحسن بن زيد أبو محمد الكندي، أخو الشيخ تاج الدين زيد بن الحسن الكندي العلامة، وكان عبد الله أصغر من الشيخ وكان جوادا، سمع ببغداد أبا الفضل بن ناصر وغيره، واستوطن دمشق إلى أن توفي بها في ذي القعدة، وصلى عليه أخوه تاج الدين بجامع دمشق، ودفن بجبل قاسيون.

قلت: وهو والد أمين الدين أبي العباس أحمد، الذي ورث عمه تاج الدين، وكان آدم اللون(١٦) رحمهم الله.

وفيها: توفي علم الدين سليمان بن شيرويه بن جندر، أخو العادل لأمه في التاسع والعشرين من المحرم ودفن بداره بدمشق، وهي التي وقفها مدرسة للشافعية المعروفة بالفلكية، بحارة باب الفراديس، وقف عليها قرية الخان.

وفيها: توفي الأمير سيف الدين إيازكوج الأسدي بمصر سابع عشر ربيع الآخر.

وفيها: توفي الفقيه برهان الدين مسعود بن شجاع الحنفي مدرس المدرسة النورية بدمشق في خامس عشر جمادى الآخرة، ودفن بالمقبرة التي بجبل قاسيون غربي دار ابن سمندار، وكان هو وابن العقادية ممن يشتغل على الشيخ على البلخي رحمه الله.

قال أبو المظفر وفيها: توفي عبيد الله بن على بن نصر أبو بكر البغدادي، يعرف بابن المارستانية أحد الفضلاء المعروفين بجمع الحديث، والطب، والنجوم، وعلوم الأوائل وأيام الناس، وصنف كتابا سماه ديوان الإسلام في تاريخ دار السلام، قسمه ثلاثمائة وستين كتابا إلا أنه لم يشتهر، وهو الذي صنف سيرة ابن هبيرة، وهو الذي قرأ كتب عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر يوم أحرقت كان يقرأ

الكتاب ويقول: ياعامة هذا عبد السلام يقول في هذا الكتاب: من بخر زحل بكذا وكذا، وقال: ياإلهي ياعلة العلل نال ماأراد، وكان ابن المارستانية محمولا على ابن عبد القادر، وكان الخليفة قد أمر الوزير أن يخلع عليه ويبعثه رسولا إلى الكرج بتفليس فخلع عليه خلعة سوداء سنية وخرج من دار الوزير بين يديه الحجاب وأرباب الدولة، فوقف له عبد السلام بن عبد الوهاب الذي أحرق كتبه وتقدم إليه وقال له سرا بينهما: الساعة من بخر زحل أنا أم أنت؟ فقال: أنا، ولما قضى الرسالة وعاد من تفليس توفي بمكان يقال له جرخ بند، في ذي الحجة وقد تكلموا فيه فذكره ابن الدبيثي في الذيل، فقال عبيد الله بن نصر بن حمزة —بحاء مهملة وراء مهملة— أبو بكر ابن أبي الفرج ويعرف بابن المارستانية جمع الكتب، وادعى الحفظ وسعة الرواية عمن لم يلقه ولم يأخذ عنه، وكان ينتسب إلى أبي بكر لصديق، وكان أبوه ينكر ذلك، وكان أبوه وأمه يخدمان المارستان، ولهذا نسبت أمه إليه، وأطلق الناس القول في جرحه بهذه الأسباب، حتى قال أبو جعفر الواثقي:

دع الأنساب لاتعرض لتيم ... فأين الهجن من ولد الصميم

لقد أصبحت من تيم دعيا ... كدعوى حيص بيص إلى تميم

فطعن فيه ابن الدبيثي طعنا كثيرا، وقال في كتابه أخبرنا: والدي، أنبأنا: قاضي المارستان، وهذه قحة عظيمة وأبوه عامي لايعرف الحديث ولاسمعه، وكان قصده أن يقال عنه محدث ابن محدث.

قلت: هذا غلو من قائله لايلزم من كونه عاميا أن لايكون له سماع في صغره يوما، فلا يسمع قوله ولاسمعه فإنها شهادة على نفي.

قال: وماتم كتابه المسمى بديوان الإسلام، ولو تم لظهرت فضائحه، سمع الكاتبة شهدة، وشيوخ ذلك العصر.

وفيها: توفي زين الدين ابن نجية الواعظ، واسمه أبو الحسن علي بن ابراهيم بن نجية الحنبلي، ولد بدمشق سنة ثمان وخمسمائة ونشأ بها، وهو سبط الشيخ أبي الفرج الحنبلي جد بني الحنبلي الدمشقيين، فهو ابن عمة نجم بن عبد الوهاب بن أبي الفرج، ونجم هذا والد الناصح ابن الحنبلي وأخوته، اشتغل ابن نجية المذكور بالتفسير، والوعظ، وبعثه نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله رسولاً إلى بغداد في سنة أربع وستين وخمسمائة، فسمع بهدا عبد الخالق بن أحمد بن يوسف وغيره، وصاهر سعد الخير الأنصاري على ابنته، ثم سكن مصر قبل دولة صلاح الدين، وفي أيامه، وكان له منه منزلة جليلة، وهو الذي نم على عمارة اليمني الشاعر، وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة، فشنقهم صلاح الدين على ماذكرناه في كتاب الروضتين، وقد ذكرنا من أحوال زين الدين هذا في كتاب الروضتين أشياء منها: ماكاتب به صلاح الدين في تفضيل مصر على الشام وغير ذلك، وكان صلاح الدين يكاتبه ويحضر مجلسه هو وأولاده العزيز وغيره، وكان له جاه عظيم وحرمة زائدة وكان يجري بينه وبين الطوسي العجائب، لأن الطوسي أشعري، وابن نجية حنبلي وكلاهما واعظ، جلس يوما ابن نجية في القرافة بالجامع فوقع عليه وعلى جماعة ممن عنده السقف، فعمل الطوسي خطبة، وذكر فيها قوله تعالى:(فخر عليهم السقف من فوقهم)[١٧] وعاينوا كلبا يشق الصفوف،فقال ابن نجية: هذا من هناك، وأشار إلى مكان الطوسي، وكان ابن نجية ينشد على المنبر شعر الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير خليفة مصر فمنه:

مشيبك قد نضا صبغ الشباب
وحل البازفي وكر الغراب
تنام ومقلة الحدثان تعطي
ومانابالنوائب عنك ناب

وكيف بقاء عمري وهو كنز
وقد أنفقت منه بلا حساب

قال أبو المظفر: وكان ابن نجية قد اقتنى أموالا عظيمة، وتنعم تنعما زائدا بحيث أنه كان في داره عشرون جارية للفراش نساوي كل جارية ألف دينار، وأما الأطعمة فقد كان يعمل في داره مالايعمل في دور الملوك، وتعطيه الخلفاء والملوك أموالا عظيمة كثيرة، ومع هذا مات فقيرا كفنه بعض أصحابه وتمزقت الأموال، وحالت الأحوال، وكانت وفاته بمصر ودفن بالقرافة.

وفيها: توفي أبو الحسن علي بن الحسن بن اسماعيل العبدي، من عبد القيس ، ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة بالبصرة، وبرع في علم الأدب والترسل، وسمع الحديث ببغداد من ابن ناصر وطبقته، ثم عاد إلى البصرة فتوفي بها في شعبان.

وأنشد لنفسه:

لاتسلك الطرق إذا أخطرت
لو أنها تفضي إلى المملكة
قد أنزل الله تعالى (ولا
تلقوا بأيدكم إلى التهلكة)[١٨]

وفيها: توفي أبو القاسم علي بن نجي بن أحمد الصوفي البغدادي،ويعرف ببسط حامد البناء، سمع قاضي المارستان وطبقته، وتوفي ببغداد، ودفن بباب الأزج وكان أنشد لنفسه:

أي شيء يكون أعجب من ذا
ان تفكرت في صروف الزمان

حـــــادثـــــات السرور تـــــوزن وزنــــــا
والبـــــلايـــــا تكـــــال بـــــالقفـــــزان

وفيهـا: توفي القـاضي ضيـاء الديـن الشهـرزوري وهـو: أبو الفضـائل القاسـم بن يحيى بن عبد الله بـن القاسم وهـو ابن أخـي القاضي كمال الـدين محمـد بـن عبد الله بـن القـاسم، قـاضي قضـاة الشام في الأيـام النـورية، وبعـض الصـلاحيـة إلى أن توفي سنـة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وأوصى بالقضـاء لابن أخيـه ضياء الدين المذكـور، فأقام قليـلا، استقال من القضاء لما فهم مـن غرض صلاح الدين توليـة أبي سعد ابن عصرون، فأقالـه ورتبه للرسالة بينـه وبين الخليفة، فترسل عنه إلى بغـداد مرارا، ولد ضيـاء الديـن في سنـة أربع وثلاثيـن وخمسمائة وتفقـه ببغـداد على يـوسـف الـدمشقـي بـالنظـاميـة، وسمـع الحـديـث، وعـاد إلى الشام، وبيته مشهور بالرئاسة والتقـدم والقضاء والفضل، وآخر قدومه رسـولا عن صـلاح الديـن في سنة ثمان وثمانين، ثـم قدمهـا رسولا عـن الأفضل عقيب موت صلاح الدين، ولما أخـذ العادل دمشق أخرجه منها بسبب الأفضل، فاستدعـي إلى بغداد في سنة خمس وسبعين، فولاه الخليفة قضـاء القضـاء، ورد إليـه أمـور المدارس والأوقـاف الشـافعيـة و الحنفيـة وغيرهـا، وكـانت مطـالعـات الخليفـة تصـدر إليه دائما، وحظـي عنـده، وحصلت لـه منه منزلـة لم تحصل لغيره من الغربـاء، وكانت زوجتـه ست الملـوك تدخـل على أم الخليفة النـاصر، وتحسـن إليها، وأقـام ببغداد فلـم تطب له، واشتاق إلى الشام فطلب الانفصال فلم يجبه الخليفة، فدخلت ست الملوك على أم الخليفـة وسألتهـا في مخاطبة الخليفـة في الإذن لـه في العود إلى الشام، فسألته فأذن له.

قال أبـو المظفر: وسمعت بعـض عوام بغداد يقولـون كان سبب عـزله أن مسح يـوما القلم في شرابـة الدواة، ولم يمسحـه في الخرقة الزرقـاء التي

عند الدواة، وبلغ الخليفة فعزله، قال: وهذا ليس بشيء، ولم يعزله الخليفة إنما هو اشتاق إلى الشام ولم يعتد قواعد العراق، وخاف على نفسه أن يبدو منه مالايليق فطلب الخروج إلى الشام، وكان قد حسده أرباب الدولة على قربه ومنزلته من الخليفة، وميله إليه فخاف من التحريف عليه، فكانت مدة ولايته بها سنتين وأربعة أشهر، ولما سافر عن العراق جاء إلى حماة فأقام بها وولي القضاء فعتب عليه ذلك بعد قضاء بغداد، فقال: ماعزلت من قضاء بغداد، وحماة، والشام، والشرق، والغرب، في ولايتي فإذا نظرت في بعض ولاياتي فليس ذلك بعيب، وكانت وفاته بحماة منتصف رجب ودفن بها، ولقد حكي لي أنه لما احتضر جعل يسبح ويذكر الله وتتفرقع أصابعه حتى قضى، وكان فاضلا جوادا، سخيا، لم يكن في أبناء جنسه أكرم منه، وذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه ومن شعره:

في كل يوم ترى للبين آثار
وماله في التئام الشمل إيثار

يسطو علينا بتفريق فواعجبا
هل كان للبين فيما بيننا ثار

يهزني أبدا من بعد بعدهم
إلى لقائهم وجد وتذكار

ما ضرهم في الهوى لو واصلوا دنفا
وما عليهم من الأوزار لو زاروا

يا نازلين حمى قلبي وإن بعدوا
ومتصفين وإن صدوا وإن جاروا

ما في فؤادي سواكم فأعطفوا وصلوا
وما لكم فيه إلا حبكم جار

وفيها: توفي أبو البركات محمد بن أحمد بن سعيد البكري، ويعرف بالمؤيد وكان أديبا، فاضلا، شاعرا ومن شعره أبيات حسنة شائعة قالها

في الوجيه النحوي، وكان الوجيه قديما على مذهب أحمد فآذاه الحنابلة فتحنف، فآذاه الحنفية فانتقل إلى مذهب الشافعي، فجعلوه يدرس النحو في النظامية فقال المؤيد:

ألا مبلغ عني الوجيه رسالة
وإن كان لا تجدي لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل
وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت رأي الشافعي تدينا
ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر
إلى مالك فافطن لما أنا قائل

وفيها: توفي أبو زكريا يحيى بن طاهر بن محمد الواعظ، ويعرف بابن النجار البغدادي، ولد يوم عرفة سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، وسمع الحديث الكثير من أبي الفضل الأرموي وطبقته، وتوفي في ذي الحجة، ودفن بالمختارة شرقي بغداد وأنشد في مجلسه:

عاشر من الناس من تبقى مودته
فأكثر الناس جمع غير مؤتلف
منهم صديق بلا قاف ومعرفة
بغير فاء وأخوان بلا ألف

وفيها: ولد مصنف هذا الكتاب الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن ابراهيم بن محمد المقدسي الشافعي، ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر عفا الله عنه، عرف بأبي شامة، لأنه كان به شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر، يكنى أبا القاسم محمد، وكانت ولادته من هذه السنة برأس درب الفواخير

بدمشق داخل الباب الشرقي، وأصل جده ابي بكر من بيت المقدس، كان أبوه أحد الأعيان بها، ولعل محمدا الذي انتهى إليه النسب هو أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي القاسم علي الطوسي المقرىء الصوفي إمام صخرة بيت المقدس، ذكره الحافظ أبو القاسم في تاريخ دمشق.

قال ابن الأكفاني: قتلته الفرنج خذلهم الله عند دخولهم بيت المقدس في شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وهو أحد الشهداء الذين رؤوسهم بالمغارة المقصودة بالزيارة في مقبرة ساملة بالقدس الشريف، فانتقل ولده أبو بكر إلى دمشق، فأقام بها فولد له ولدان: عثمان بن أبي بكر، وعبد الرحمن بن أبي بكر الذي كان معلما بباب الجامع الشامي، وسيأتي ذكره، وكثر الله نسلهم بدمشق ومسكنهم بنواحي الباب الشرقي، فأولد عثمان بن ابراهيم بن عثمان جد مصنف الكتاب، توفي في شعبان سنة خمس وسبعين وخمسمائة، ودفن بمقبرة باب الفراديس، فأولد ابراهيم ابن عثمان ولدين: أبا القاسم بن ابراهيم ، توفي يوم الجمعة تاسع شهر رمضان سنة أربع وستمائة، ودفن بمقبرة بين الباب الشرقي وباب توما، واسماعيل بن ابراهيم توفي في ثالث عشر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وستمائة، فأولداسماعيل ولدين: ابراهيم بن اسماعيل، ومولده ليلة الاثنين الخامس والعشرين من محرم سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، ومصنف الكتاب عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم، وحبب الله تعالى إليه من صغره حفظ الكتاب العزيز، وطلب العلم، فجعل ذلك همته فلم يشعر والده به إلا وهو يقول: لقد ختمت القرآن حفظا.ثم أخذ في معرفة القراءات السبع والفقه، والعربية، والحديث، وأيام الناس ومعرفة الرجال وغيرها من العلوم، وصنف في ذلك مصنفات كثيرة سيأتي ذكرها، وحج مع والده سنة إحدى وعشرين وستمائة، ثم حج في التي بعدها أيضا، ثم سافر إلى البيت المقدس زائرا سنة أربع وعشرين، وسافر إلى الديار المصرية سنة ثمان وعشرين، واجتمع بشيوخ هذه البلاد في ذلك الوقت

بمصر، والقاهرة، ودمياط، والاسكندرية، ثم لزم الإقامة بدمشق عاكفا على ماهو بصدده من الاشتغال بالعلم وجمعه في مؤلفاته، والقيام بفتاوى الأحكام وغيرها، وكان في صغره يقرأ القرآن في جامع دمشق، ينظر إلى مشايخ العلم كالشيخ فخر الدين أبي منصور ابن عساكر، ويروى طريقه في فتاوى المسلمين، وحاجة الناس إليه وسماع الحديث النبوي عليه، وهو يمر من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم إلى تحت قبة النسر لسماع الحديث إلى المدرسة التقوية، لإلقاء دروس الفقه، ويرى إقبال الناس عليه وترددهم إليه مع حسن سمته واقتصاده في لباسه فيستحسن طريقته ويتمنى رتبته في العلم، ونشره له، وانتفاع الناس بفتاويه، فبلغه الله من ذلك فوق ماتمناه، وظهر الشيب في لحيته ورأسه، وله خمس وعشرون سنة، فجعل الله تعالى له الشيخوخة صورة ومعنى، فنظم في ذلك بعض الفضلاء:

إن يشب إذا بلغ خمسا وعشرين ... فما كان المشيب فيه بعاب

جهل الناس قدر شيخوخة العلم ... فجلت أنواره في الشباب

نور الله الوجه والقلب منه ... إن فيه هداية المرتاب

هو شيخ معنى فعاجله الشيب ... وقار له على الأتراب

فحوى الفضل يافعا ومسنا ... إن زلفى له وحسن مآب

ورويت له منامات حسنة كانت مبشرات له بما وصل إليه من العلم، وما يرجوه من الخير، منها: أن والدته رحمها الله أخبرته وهو إذ ذاك صغير يتردد إلى المكتب، وأبوه رحمه الله يعجب من حبه المكتب وحرصه على القراءة على خلاف المعروف من عادة الصبيان، فقالت الوالدة: لاتعجب فإني لما كنت حاملا به رأيت في المنام كأني في أعلى مكان من المئذنة عند

هلالها، وأنـا أؤذن فقصصتها على عابر فقـال: تلدين ذكـرا ينتشر ذكره في الأرض بالعلم والخير.

ورأى هو في صفر سنـة أربع وعشرين وستمائة كأن عمـر بن الخطاب رضي الله عنه قد أقبـل إلى الشام، منجدا لأهله على الفـرنج، خذلهم الله: وكـان له بـه خصـوصية مـن إفضـاء أمره إليـه، والتحـدث معه في أمـور المسلمين، وهو يمشي إلى جانبه ملاصقا منكبه حتـى كان الناس يسألونه عنه وعما يريد أن يفعل وهو يخبرهم، وكأنه واسطة بينه وبين الناس.

وفي هذه السنـة رأى أيضا كـأنه والفقيه عبـد العزيـز بن عبـد السلام —سلمه الله— داخل باب الرحمة بالبيـت المقدس، وقد أرادوا فتحه، وثم من يمنع مـن فتحه ويدفعونـه لينغلق، فما زالا يعالجان الأمر حتـى فتحا مصراعيه فتحا تاما بحيث اسند كل مصراع إلى الحائط الذي خلفه.

ورأى أيضا في جمادى الآخـرة من هـذه السنة كـأن المسلمين في صلاة الجمعة في حر شـديد وهو خائف عليهـم من العطش ولاماء ثـم يعرف، فنظر إلى قليـب ماء قـريبا منـه وحوض، فخطـر له ان يسقـي من ذلـك القليـب ويسكـب في الحوض حتـى يشرب منه النـاس إذا انصرفـوا مـن الصـلاة، فاستقـى شخص قبلـه لايعرفـه دلوا أو دلـوين، ثـم أخذ منـه فاستقى دلاء كثيرة لم يعرف عددها وسكب في الحوض.

ورآه المهتار هـلال بن مازن الحراني متقلـدا هيكلا، وهو يقـول: انظروا فلانا كيف تقلد كلام الله، ورأت امـرأة كبيرة كأن جماعة صالحين اجتمعوا بمسجد قرية بيـت سوا، وهي قرية من قرى غوطـة دمشق، وكأنهم سئلوا مـاشأنهم قـالـوا: ننتظـر النبي صلى الله عليـه وسلـم يصلي بنـا، قالـت: فحضر، يعني مصنف هذا الكتاب، فصلى بهم، وجـاءه رجل يستفتيه وهو بالمجلـس الكبير الذي للكتب في صدر الإيـوان بالمدرسة العادليـة، وهو

الموضع الذي يجلس فيه غالبا للفتوى وغيرها، ومنه يخرج إلى الصلاة بالمدرسة، فتعجب فقيل له مم تتعجب؟ قال: هذا مكان مارأيته قط.

قال: ورأيت في المنام كأني كنت بهذه المدرسة العادلية ، وفيها خلق كثير وكأن قائل يقول للناس: تنحوا فالنبي صلى الله عليه وسلم يمر، قال: فنظرت فخرج علينا من المجلس الذي للكتب ومر كما هو إلى المحراب.

ورأى الصلاح الصوفي أول ليلة من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسين وستمائة كأن مصنف الكتاب متوجه إلى الحج، ومعه من الزاد جميع مايحتاج إليه تزوداً تاماً يعجب منه الرائي.

ورأى حسن الحجازي في شهر رمضان سنة سبع وخمسين وستمائة كأن قائلا في عالم الغيب، لايراه بل يسمع صوته، يقول: الشيخ أبو شامة نبي هذا الوقت، أو كما قال. ورآه مرة أخرى فوق قنطرة عالية، وتحت القنطرة حنطة كثيرة.

ومن ذلك منامات حسنة رآها له أخوه الشيخ برهان الدين أبو اسحاق ابراهيم بن اسماعيل وهو أسن منه بنحو تسع سنين وكان من الصالحين، رأى والدهما رحمه الله يقول له: عليك بالعلم انظر إلى منزلة أخيك، فنظر فإذا هو في رأس جبل والوالد والرائي يمشيان في أسفله.

ورأى في صفر سنة سبع وخمسين وستمائة كأن مصنف الكتاب متمسك بحبل قد دلي من السماء، وهو مرتفع فيه، فسأل إنسانا عن ذلك في المنام، فانكشف لها البيت المقدس، والمسجد الأقصى، فقال: ذلك الإنسان: من بنى هذا المسجد؟ فقال: سليمان بن داود، فقال: أعطي أخوك مثل ماأعطي سليمان، فقال له: كيف ذلك؟ فقال: أليس سليمان أوتي(ملكا لاينبغي لأحد من)[١٩] بعده، أليس أعطى كذا وكذا،

وعدد أنواع مـاأوتي؟ فقال: بلى، قال: وكذا أخوك أوتي أنواعـا من العلم كثيرة أو كما قال.

قال: رآه الشرف الصرخـدي فوق سطـح بيت منعـزل، وهو يـؤذن، ثم بعد الآذان قـرأ(واستمع يوم ينادي المنـادي من مكان قـريب)[٢٠] ورأى أيضا كـأن القيامـة قد قـامت، ومصنـف الكتاب راكـب على حمار، وهو مسرع، فقيل لـه في ذلك، فقـال: أطلب النبـي صلى الله عليه وسلـم على الحوض، ورأى الشرف ابـن الرئيـس ايضا القيـامة ووصـف من أهـوالها، قال: ورأيت فلانا يعني صاحب هذا الكتاب فسألته عن حاله فقلت له: ماذا مالقيت؟ قال: لقيت خيرا.

وإنما سطـرت هـذه المنـامـات وغيرها تحدثـا بنعـم الله تعـالى كما أمـر سبحانـه في قولـه تعالى:(وأمـا بنعمة ربـك فحدث)[٢١] وقد قـال النبي صلى الله عليـه وسلـم:« لم يبق مـن المبشرات إلا الـرؤيـا الصالحة يـراهـا المؤمن أو ترى له»[٢٢] اللهم اوزعنا شكر هـذه النعم واختم بخير واسترنا في الدنيا والآخرة وآمنا مكرك ولاتنسنا ذكرك.

سمع المذكـور جماعة مـن المشايخ والعلماء مـن أصحاب أبي الـوقت، والحافظ أبي طـاهر السلفي، وأبي الفـرج الثقفي، وأبي طـاهر بركـات بن ابراهيم الخشـوعي، وغيرهـم، وجمع وألـف، وهذب وصنـف في فنون العلوم النافعة كتبـا كثيرة، ومصنفات جليلة مختصرة، ومطولة تم أكثـرها وسمعها ووقفها، وكثـرت النسخ بها، فـأول ماأظهـر من مصنفـاته شرح القصـائد النبويـة مجلد، ومنها: شرح قصيـدة الشيخ الشاطبـي رحمه الله الذي سماه ابراز المعـاني من حرز الأماني، وهما شرحـان أصغر وأكبر، والأكبر إلى الآن لم يتم والأصغر مجلدان.

ومنها: اختصـاره لتاريخ دمشـق وهما أيضا أكبر وأصغر وكـلاهما تام، فالأكبر بخطـه في خمسة عشر مجلدا، والأصغـر في خمسة مجلـدات، ومنها:

كتاب الـروضتين في أخبار الدولتين في مجلديـن، ومختصره في مجلدة صغيرة ومنهـا: الكتـاب المرقـوم في جملـة من العلـوم، يجمـع عـدة مصنفـات في مجلدين الأول فيـه خطبة العلم الكبرى التي سماها خطبـة الكتاب المؤمل للـرد إلى الأمـر الأول، وكتاب نـور المسرى في تفسير آيـة الإسراء ، وشرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى وضـوء الساري إلى رؤية معرفة الباري، والمحقـق من علم الأصـول فيما يتعلق بـأفعال الرسـول، وكتاب البسملة، والباعـث على إنكار البدع والحوادث وكتاب السـواك، وماأشبه ذلك، ومختصر كتاب البسملـة وغير ذلك، ومنها: كشف حـال بني عبيد والواضح الجلي في الرد على الحنبلي، وإقامة الـدليل الناسخ لجزء الفاسخ، والأصـول مـن الأصـول، ومفـردات القـراءة، وشيـوخ الحافـظ البيهقـي، ومقدمـة في النحو، والألفـاظ المعربـة، والقصيدة الـدامغة وقصيـدتان في منازل طريق الحج ونظم مفصل الـزمخشري، ونظم العروض والقوافي ونظم شيء من متشابة القرآن، وشرح عروس السمر، وابتدأ كتبا كثيرة لم يتفق إلى الآن إتمامها، ونجـز في سنة تسع وخمسين وستمائة التي تعقبهـا سنة ستين فيها كتـاب جامع أخبـار مكة والمدينـة وبيت المقدس شرفهـن الله تعالى، ومختصر تـاريـخ بغـداد وتقييـد الأسماء المشكلة، ورفـع النـزاع بـالـرد إلى الإتبـاع والمذهب في علـم المذهـب، ونيـة الصيـام ومافي يـوم الشك مـن الكـلام، وشرح نظم المفصـل، والإعـلام بمعنـى الكلمة والكـلام، وشرح لباب التهـذيب، والأجـوزة في الفقه، وذكـر من ركـب الحمار، ومشكلات الآيات، ومشكـلات الأخبار ، وكتاب القيامـة، وشرح أحاديث الـوسيط، وتعاليق كثيرة في فنون مختلفة من غير ترتيب على طريقة التذكرة لأبي علي الفـارسي، وأمـالي ثعلـب، وأمـالي الـزجـاجـي، ونحـو كتـاب المجـالسـة واختصار جملة من الدواوين.

وقد نظم أحد الفضلا بعض هذه المصنفات في أبيات كتبها له فقال:

هـذا الشهـاب الثـاقـب الفهـم الـذي
قـد فـاق في بحـر العلـوم وشطـه
أكـرم بتحقيـق وإتقـان وتصـ
ـنيف لـه وبـراعـة في ضبطـه
وعنـايـة مـن ربـه فيما يحاو
لـه بـه فـأحلـه في وسطـه
فكـلامـه في الفقـه يشبـه مـاتقـد
م مـن كـلام الشـافعـي وسبطـه
يبنـي على نـص الكتـاب وسنـة
للمصطفـى في رفعـه أو حطـه
ومـذاهـب العلماء يلحظهـا فيفتـي
بـالمرجـح عنـده مـن قسطـه
ويفسر القـرآن والأخبـار عـن
حـذق بمفهـوم الكـلام وربطـه
وينـص أسماء الـورى وحـديثهـم
ووفـاتهم فكـأنهم مـن رهطـه
شرح الصـدور بشرحـه لقصـائد
نبـويـة في قبضـه أو بسطـه
والشـاطبيـة جـولـوا أفكـاركـم
في شرحهـا إن كنتـم مـن شرطـه
ولـه كتـاب الـروضتين وهـذب التـ
ـاريخ مختصر الـه مـن شحطـه
وكتـابـه المرقـوم فيـه مصنفـا
ت في علـوم حـازهـا في مـرطـه
منهـا المحقـق والسـواك وبـاعـث
مـع مبعـث أحسـن بـه وبقمطـه
والضـوء والإسرا وبسملـة ومـن
شـدهـا الـذي أحيـا بحسـن محطـه

ولنظمه في النحو والأوزان والأ
حكام لم يك ما مضى من سمطه
وقد ابتدا اكتبا فإن أبقاه من
قواه أكملها بجودة سفطه
رفع النزاع ومشكل الآ
يات والأخبار مما شده في قمطه
أرجو له عفو الإله فإنه
ما زال يطلب عفوه في خطه

كان المذكور لايكاد يكتب في فتوى، أو شهادة، أو طبقة سماع، أو نسخ كتاب إلا أردف اسمه بكتابة عفا الله عنه، وكان حريصا على الإجتهاد في الأحكام المختلف فيها، فيفتي بما يراه أقرب إلى الحق، وإن كان خلاف مذهبه تبعا للأدلة.

ونظم بعض الأدباء فيه:

أيها الحاسدون فضل شهاب الد
ين عبد الرحمن رب المعالي
لاتطيقون ما أطاق دعو التهـ
ني فلن تدركوه غير خيال
متعب نفسه صبيا وكهلا
ثم شيخا مواظب الاشتغال
ومحب مجالس العلم والديـ
ـن جميعا مجانب الأنذال
جد حرصا على الفوائد منها
وسؤالا عن مشكل الأقوال
لا يرى غير قارىء لكتاب
أو مجيبا بالحق للسؤال

كـــم كتـــاب أنهاه حفظـــا وشرحـــا
واطــــلاعـــا عــــلا رؤوس الــــرجـــال
لا يهاري ولا يبـــــاري ولا ينفـــــ
ـــــك عـــن نشره علمـــه للمـــوالي
ولهذا يحب دينـــــا فمـــــن
أبغضـــه نـــال لعنـــة المتعـــالي
إن عبـــد الـــرحمن فيـــه فنـــون
مـــن علـــوم معهـــا كـــريـــم خـــلال
حـــاز مبـــذ كـــان بـــالقنـــاعـــة عـــزا
مـــع بهاء وهيبــــة وجــــلال
واعتـــلاء على الأمـــائـــل في بتــــ
ـــبت جـــواب لـــه وحســـن ســـؤال
نـــاشر العلـــم قـــائل الحق كـــم
نصر الشرع عـــن صحيـــح الجدال
صـــائن نفســـه ومـــا فيـــه مـــن
علـــم وديـــن عـــن مهنـــة وابتـــذالي
وســـواه في الـــبذل إن خـــاب أو
أنجـــح يسعـــى أيـــامـــه والليـــالي
فـــارســـارا جـــلا يمـــر ويـــأتي
نحـــو قـــاض وتـــارة نحـــو والي
ذو التصـــانيـــف المغنيـــات بعـــون الـــ
ـــله عـــن مصنفـــات قيـــل وقـــال
مـــن يـــرد قـــدر فضلـــه فليطـــالـــع
كتبـــه فهـــي عين عين الكمال
ليرى مـــا آتـــاه خـــالقـــه جـــل
مـــن العلـــم مـــن جليـــل الفعـــال
فمـــواليـــه في الهدى ومعاديـــ
ـــه وحســـادة معـــا في ضـــلال

وهو من نفسه الأبية في عز
زومن علمه رخي البال
وهو من قنعه غني وراض
لا يدانيه في الغنى ذو المال

وكتب إليه بعض الأدباء وأنشده إياها بجامع دمشق بحلقته عند رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام،في زمن كان يسمع فيه تاريخ دمشق الذي اختصره وغيره وذلك ثامن ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وستمائة قصيدة منها:

هو الشيخ شيخ العلم والحلم والهدى
وناهيك من علم القراءة من فحل
هناء له منا بصحة جسمه
فصحته في جسمه صحة العقل
ولما اعتراه ما اعتراه تألموا
جميع الورى كالنفس والصحب الأهل
وعوفي بحمد الله والحمد لم يزل
دواء له هذا شعار ذوي الفضل

ووالده كالسيد السلمي خذ
بكنيته والشيخ في ورع الشبلي
وفي العلم بحر قد تدفق موجه
ويملا منه بالجواهر ما يملي
فهذب تاريخ الشآم دراية
وتهذيبه قد صح عند ذوي العقل
كما أنه علامة الوقت بمفرد
بعلم حديث المصطفى سيد الرسل
فحاشا حياة العلم من فقد مثله
وحاشا أحاديث النبي من الجهل

ومسألة في شرح بسملة لها
سمو وشرح الشاطبية يستعلي
بنظم عروض والمفصل قبله
رويته تروي الورى ديمة المطل
فحاشا يدي التصنيف أن لا تنتج من
عزيز وحاشا الروضتين من المحل
وحاشا الفتاوى أن تعطل بعده
وحاشا جمال البحث يخلو من الحفل
كثير المعالي والمعاني مفنن
تقي زكي طيب الفرع والأصل
يقول لنا ما لا سمعناه قبله
وقال لنا ما سدت إلا بمن قبلي

وكتب إليه أيضا قصيدة منها:
يقصد المجلس الأجل جنابا
عالم الأرض كيف قال أصابا
وسماه فيها شموس علوم
وبدور تهدي وتدعى الشهابا

ملك الفضل بل خليفة علم الدين
ن وازداد من الفنون عجابا
وفتى وهو في المعالم مفت
فهو يهمي صبا ويهمي صوابا
سله والله تلق جوابا وجو
ادا فهو شيخ في الفضل ينمي شبابا
وهو بحر قد ساغ عذب فرات
وسواه لم يلق إلا سرابا

وكتب إليه قصيدة منها:

سرعـــــت امتـــــداحــــا
لامـــــاه مستقيـــــم
ركــــن ديــــن الله في الـــــد
نيـــابـــأنـــواع العلـــوم
كهــــــف تصنيــــــف تحلى
حلـــة الطـــرز الـــرقيـــم
و إذا ألـــــف في تـــــأ
ليفـــه ألـــف الحميـــم
هـــذب التـــاريـــخ حتـــى
راق في حســـن وسيـــم
ولـــه في الشرح شرح النـــــ
ـــفس والصـــدر الكظيـــم
فتعجـــب منـــه إذا
انقـــص أنمـــى في الجسيـــم
ولـــه الشـــامـــة في تـــر
جمة في حـــرف ميـــم
تلـــك أسماء ابـــن اد
ريـــس يـــا شهـــاب عميـــم
رم شمـــل الـــدهـــر حتـــى
خلـــف الميـــت الـــرميـــم
فهـــو بـــالكـــل اعتيـــاض
مـــن حـــديـــث وقـــديـــم
بـــر بـــر فيـــه بحـــر
بحـــر عـــرفـــان عظيـــم
زاخـــر كـــل غـــريـــب
وعجيـــب ويتيـــم
فهـــو ينـــدي وهـــو يبـــدي
أنفـــس الـــدر النظيـــم
ملـــك الفضـــل انفـــرادا
فيـــه مـــن غير قسيـــم

ولمفــــــت وفتـــــــى فضـــــــ
ــــل عليـــــم كـــــريــــم

وكـان يحضر عنـده بـالجامـع والتربـة الأشرفيـة جماعـة مـن الأكـابـر والفضلاء لسماع التـاريخ والروضتين وغيرهما من تصـانيفه،فنظم الـرئيس الأصيل الفـاضل محيـي الدين يحيـى بن علي بن محمـد التميمي مـن بني القلانسي:

أنـــــا والله والجماعــــــة طـــــرا
مـــن سماع التـــاريـــخ في بستـــان
وريــــاض أنيقـــــة أطلقتهـــــا
بــــأزاهيرهـــا النـــا الـــروضتـــان
أيــــد الله شيخنـــا فلقــــد ابـــــ
ـــدع في الاختصـــار والتبيـــان
فهـــو قطـــب الحجـــى وبـــدر المعـــالي
وشهـــاب الفتيـــا وشمـــس البيـــان
دام في نعمــــة ورفعـــــة قـــــدر
ســـالما مـــن نـــوائب الحدثـــان
مـــا تغنـــى ورق على غصـــن بـــان
وتسنـــــى بـــــــرق على نعمان

وكان المصنـف عفا الله عنه محبا للعـزلة والانفراد، غير مـؤثر للتردد إلى أبـواب أهل الـدنيـا، متجنبا المزاحمة على المنـاصب لا يـؤثـر على العافيـة والكفاية شيئا، ومن شعره:

الثـــوب واللقمــــة والعـــافيـــة
لقـــانـــع مـــن عيشـــة كـــافيـــة
ومـــا يـــزد فـــالنفـــس ليســـت بـــه
وإن تكــــن مملكــــة راضيــــة

وله أيضا:

أنـــــافي عـــــز القنـــــاعـــــة
رافـــــل في كـــــل ســـــاعـــــة
رب أتممهـــــــــــــابخير
في معـــــافـــــاة وطـــــاعـــــة

وله أيضا:

أردت راحـــــــــــة سري
ممـــــا يضيـــــق صـــــدري
لما ألاقـــــي مـــــن الخلـــــ
ـــــلق مـــــن جفـــــاء وغـــــدر
وحســـــد واغتيـــــاب
فيـــــا ضيـــــاع العمـــــري
فـــــاخترت أن اتنحـــــى
وأستقـــــل بـــــأمـــــري
فلســـــت أمشي إلى مـــــن
يـــــرى خطيرا لقـــــدري
لأجـــــل دنيـــــا فمشيـــــي اليـــــ
ـــــه بـــــالعلـــــم يـــــزري
لكـــــن إلى عـــــالم أو
شيـــــخ نبيـــــه الـــــذكـــــر
في الـــــديـــــن يقصـــــد للـــــ
ـــــعلم والتقـــــى لا الفخـــــر
أمـــــا إذا أحـــــوجتنـــــي
ضرورة مـــــن فقـــــر
فـــــلا يكـــــون فـــــربي
يمـــــن فيهـــــا بصبر

يـــــــارب فــــــاشرح صــــــدري
للخير وأشـــــــــــــــد أزري
ولا تكلنـــــــــي إلى الخلـــــــ
ـــــلق أنـــــت حسبـــــي وذخـــــري
هـــــب لي مـــــدى الدهر ستـــــ
ـــــرا حتـــــى أوســـــد قبري
واختـــــم بخير واعظـــــم
مـــــن جنـــــة الخلـــــد أجـــــري

وله أيضا:

نـــــزهـــــت نفسي وعـــــرضي
وصنـــــت هـــــذي البقيـــــة
لما انعـــــزلـــــت ببيتـــــي
قـــــولا وفعـــــلا ونيـــــة
وبقيـــــت علقتـــــي بالـــــ
ـــــمدارس الفقهيـــــة
وســـــوف أخلـــــص منهـــــا
حقـــــا ورب البريـــــة

إني عبـــــد ضعيـــــف
أخـــــاف نعـــــت المنيـــــة
ولســـــت أرضـــــى لنفسي
دوام هـــــذي البليـــــة
إلى المهات فـــــربي
لـــــه هبـــــات عليـــــه
وكـــــان معـــــرفـــــة الله
النعمـــــة الأخـــــرويـــــة

أنـــــــا لهابـــــــــانشراح
راضيـــــــة مـــــــرضيـــــــة

وقال فيما ينبغي أن يكون عليه المصلي:
الـــق سمعـــا واحضر بقلـــب وعقـــل
بـــا لمصلى ورتـــــل القـــــرآنـــــا
وتـــدبـــر آيـــاتـــه وتفكـــر
واجمع الهم مقبــــلا يقظـــــانــــا

أي مقبلا عليه متيقظا.

وكتب إلى من كان عنده أصل المصنف بكتاب الوسيلة إلى كشف العقيلة بخط مصنفه شيخنا السخاوي رحمه الله يستعيرة منه:

يـــا مـــن نـــراه وسيلـــة
يحوز كـــــل فضيلـــــــــة
ومـــن مـــدى الـــدهـــر يسعـــى
فيما يسر خليلــــــــــــــــة
مـــازال يتعـــب صـــب
يهوى وصـــال العقيلـــــة
وطـــالـــب العلـــم يهو
ى كثيره وقليلـــــــــــــه
فـــابعـــث إليـــه معينـــا
لـــه كتـــاب الـــوسيلـــة

وقال أيضا:
بـــدمشـــق سقـــى الإلـــه ربـــاهـــا
وحماهـــا ذكـــرى أولي الألبـــاب

وعجيـــب أشجـــارهـــا حين تبـــدو
مـــزهـــرات تشيـــب قبـــل الشبـــاب

وله أيضا أبيات في حصر السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظلـه، على ماصـح في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة قـال: قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظله: إمـام عادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجـلان تحابا في الله فـاجتمعا على ذلـك وتفرقـا، ورجل ذكـر الله خاليا ففاضت عينـاه، ورجل دعته امرأة ذات حسـب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماأنفق يمينه»(٢٣)
فقال في حصرهم:

إمـــام محب نـــاشـــىء متصـــدق
وبـــاك مصـــل خـــائف سطـــوة البـــاس
يظلهـــم الله الجليـــل بظلـــه
إذا كـــان يـــوم العـــرض لاظـــل للنـــاس
أشرت بـــألفـــاظ تـــدل عليهـــم
فيـــذكـــرهـــم بـــالنظـــم مـــن بعضهـــم نـــاس

أي من هو ناس بعضهم.

وله في هذا المعنى:

وقـــال النبـــي المصطفـــى إن سبعـــة
يظلهـــم الله العظيـــم بظلـــه
محب عفيـــف نـــاشـــىء متصـــدق
وبـــاك مصـــل والإمـــام بعـــدلـــه

وله أيضا:

لاتقـــم في مـــدينـــة ليــس فيهـــا
خمســــــة إن أردت دار قـــــــرار
قهــــر ملـــك وعـــــدل قـــاض
وطـــب حـــاذق مـــع ســـوق ونهر جـــار

وله أيضا:
قـــول ابـــن أدهـــم قـــول النـــاصحين لنـــا
العجـــب والحرص ثـــم السخـــط فـاجتنبـــوا
ثـــلاثـــة حجبـــت عـــن اليقين قلـــو
بنـــا فـــلابـــد مـــن أن تـــرفـــع الحجـــب
نسر بـــا المدح والموجـــود يفـــرحنـــا
والقلـــب سخطـــا مـــن المفقـــود يضطـــرب

وله في حصر السبع الموبقات الوارد في الحديث الصحيح:
أكـــل مـــال اليتيـــم والشرك والسحـــ
ـــر وأكـــل الـــربـــا وقـــذف المبرا
والتـــولي يـــوم زحـــف وقتـــل نفـــس
سبـــع قـــد أوبقـــت مـــن تجرا

وله أيضا:
فـــلا تحفـــل بمـــن يغتـــاب شخصـــا
ويحســـده فيـــذكـــر مـــن هنـــاتـــه
فمـــن حسنـــاتـــه تهدى إليـــه
فـــإن نفـــدت تحمـــل سيـــآتـــه

-٩٠٦٤-

ثم دخلت

سنة ستمائة

قال أبو المظفر:سار نور الدين بن عز الدين صاحب الموصل إلى تل عفر فأخذها، وكانت لابن عمه قطب الدين بن عماد الدين صاحب سنجار، فاستنجد القطب بالملك الأشرف ابن العادل، فجمع جمعا كثيرا والتقى مع نور الدين فكسره وأسر جماعة من أمرائه منهم المبارز سنقر الحلبي، وولده الظهير غازي، وذلك في شوال، ثم اصطلحا في ذي الحجة، وتزوج الأشرف أخت نور الدين، وهي الأتابكية بنت عز الدين مسعود صاحب التربة بجبل قاسيون.

وفيها: تمكن ناصر الدين ابن أرتق بقلعة ماردين، وقتل زوج أمه نظام الدين الذي كان قد قهره واستولى عليه.

وفيها: حج بالناس من العراق طاشتكين.

وفيها توفي الحافظ أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعيلي، ولد بجماعيل قرية من أعمال نابلس في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة في ربيع الآخر، وكان أكبر من الموفق عبد الله ابن أحمد بأربعة أشهر لأن مولد الموفق في شعبان من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، والموفق ابن عمه الحافظ.

قرأ عبد الغني القرآن وسمع الحديث الكثير، وسافر إلى الأمصار، وكتب كثيرا، وصنف، وقدم بغداد هو والموفق في سنة ستين أو إحدى وستين في السنة التي توفي فيها الشيخ عبد القادر، فنزلا في مدرسته، وماكان يمكن أحدا من النزول بها، ولكنه لما رآهما تفرس فيهما الخير

والصلاح فأكرمهما وسمعا عليه، ثم توفي الشيخ عبد القادر بعد قدومهما بخمسين ليلة، وكان ميل عبد الغني إلى الحديث والموفق إلى الفقه، فاشتغلا في الفقه على أبي الفتح ابن المنى، ثم قدما دمشق بعد أربع سنين، وسافر عبد الغني إلى مصر والاسكندرية ثم عاد إلى دمشق ونزل إلى الجزيرة وسمع بها وعاد إلى بغداد ثم رحل إلى أصبهان فسمع بها ثم عاد إلى دمشق، وكان لما دخل أصبهان وقف على كتاب أبي نعيم الحافظ في معرفة الصحابة، فأخذ عليه في مائة وتسعين موضعا فطلبه بنو الخجندي ليقتلوه، فاختفى وخرج من أصبهان في إزار، ولما دخل الموصل قرأ كتاب الجرح والتعديل للعقيلي، وفيه جرح أبي حنيفة، فثار عليه الحنفية وحبسوه ولولاالبرهان البرلي الواعظ خلصه لقتلوه، فإنه قطع الكراسة التي فيها ذكر أبي حنيفة ففتشوا على اسم أبي حنيفة فلم يجدوه فأطلقوه (فخرج منها خائفا يترقب)(٢٤) فلما قدم دمشق كان يقرأ الحديث بعد صلاة الجمعة بحلقة الحنابلة، ويجتمع الناس إليه فحصل له قبول، وكان رقيق القلب سريع الدمعة فحسدة الدماشقة ودخلوا عليه بطريق الناصح ابن الحنبلي فحسنوا له أن يعظ بعد الصلاة تحت قبة النسر، ففعل فشوش على عبد الغني الدولعي، وجماعة من الدماشقة، وصعدوا إلى القلعة وواليها صارم الدين بزغش فقالوا: هذا قد أضل الناس ويقول بالتشبيه فعقدوا له مجلسا وأحضروه، فناظرهم فأخذوا عليه مواضع، منها:« ولاأنزهه تنزيها ينفي حقيقة النزول».

ومنها قوله:« كان الله ولامكان وليس هو اليوم على ماكان» ومنها: مسألة« الصوت والحرف» فقالوا له:إذا لم يكن على ماكان فقد أثبت له المكان، وإذا لم تنزهه تنزيها ينفي حقيقة النزول فقد أجزت عليه الانتقال، وأما الحرف والصوت فإنه لم يصح عن إمامك الذي تنتمي إليه فيه شيء، وإنما المنقول عنه أنه كلام الله لاغير، وارتفعت الأصوات، فقال له صارم الدين: كل هؤلاء على ضلالة وأنت على الحق؟ قال: نعم، فأمر

الأمراء فنزلوا إلى جامع دمشق فكسروا منبر عبد الغني وماكان في حلقة الحنابلة من الدرابزينات ومنعوهم من الصلاة، ففاتهم صلاة الظهر، فجمع الناصح ابن الحنبلي السوقة وقال لئن لم نرجع إلى مكاننا فعلنا وصنعنا ،فأذن لهم القاضي في ذلك وخرج عبد الغني إلى بعلبك، ثم سافر إلى مصر، فنزل عند الطحانين وصار يقرأ الحديث، فأفتى فقهاء مصر بإباحة دمه، وكتب أهل مصر إلى الصفي ابن شكر وزير العادل يقولون: قد أفسد عقائد الناس ويذكر التجسيم على رؤوس الأشهاد، فكتب إلى والي مصر بنفيه إلى المغرب، فمات قبل وصول الكتاب، وكانت وفاته بمسجد المصنع يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الأول، ودفن بالقرافة عند الشيخ أبي عمر بن مرزوق، وكان إذا اجتاز بذلك المكان يقول: روحي ترتاح إلى ههنا فدفن فيه.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: وكان زاهدا عابدا ورعا يصلي كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة —ورد أحمد بن جنبل— ويقوم الليل وعامة دهره صائم، ومادخر شيئا قط، وكان جوادا سمحا إذا فتح بشيء من الدنيا حمله بالليل إلى أبواب الأرامل واليتامى، فألقاه إليهم ومضى لئلا يعرفوه، وكان يرقع ثوبه بيمينه وكان قد ضعف بصره من كثرة المطالعة والبكاء، وكان أوحد زمانه في علم الحديث، سمع بأصبهان الحافظ أبا موسى محمد بن عمر المديني وغيره، وببغداد عبد الله بن النقور، ويحيى ابن ثابت بن بندار وغيرهما، وبدمشق أبا المكارم عبد الواحد بن المسلم ابن هلال وغيره، وبمصر عبد الله بن بري النحوي وغيره وبالاسكندرية أبا طاهر السلفي الحافظ وغيره، وسأله السلفي يوما: من هو محمد بن عبد الرحمن الذهبي؟ فقال له:المخلص. وكان له ثلاثة أولاد محمد، وعبد الله، وعبد الرحمن، سيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى.وله مصنفات كثيرة منها الكمال، في معرفة رجال الصحيحين وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة في نحو عشر مجلدات.

قلت وفيها: توفي الحافظ بهاء الدين أبو محمد القاسم بن الحافظ الأكبر أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر، ودفن على أبيه بمقبرة باب الصغير خارج الحظيرة التي فيها قبر معاوية وغيره من الصحابة رضي الله عنهم من جهة الشرق، وكان قد شارك أباه في أكثر شيوخه سماعا فأجازه.

صنف عدة مصنفات، وخلف أباه في القيام بهذا الشأن وإظهار كتب أبيه وإسماعها بالجامع ودار الحديث النورية، وبيض تاريخ دمشق بخطه في ثمانين مجلدا، ورحل إلى مصر وأسمع بها، وكانت وفاته يوم الخميس ثامن صفر، ودفن بعد العصر ولي منه إجازة رحمه الله تعالى.

وفيها: يوم الجمعة العشرين من ربيع الآخر توفي، إمام الملك الناصر ضياء الدين أبو بكر محمد بن يوسف بن أبي بكر الآملي الطبري المقري، المعروف بخواجا إمام، سمع الحافظ أبا العلاء الهمذاني وغيره واعتنى بكتب القراءات سماعا ونسخا، وفي خطه كثير من تصحيف وتحريف، ودفن بعد الصلاة في الجبل رحمه الله.

وفيها: قدم بغداد أبو الفتوح بن أبي نصر الغزنوي رسولا من صاحب غزنة، وجلس بباب بدر وقال: ياأهل بغداد هنيئا لكم أنتم تحظون بأمير المؤمنين، ونحن محرومون، وتشاهدون سدة سيادته، ونحن محجوبون وأنشد متمثلا:

الأقل لسكان وادي العقيق ... هنيئا لكم في الجنان الخلود
افيضوا علينا من الماء فيضا ... فنحن عطاش وأنتم ورود

وكان يمكنه أن يصرح بمراده فيقول:

الآقـــــل لسكـــــان دار الســـــلام

ولكنه أتى به على لفظه ليعلم إنه تمثل به.

وأول هذه السنة سافر الشيخ شمس الدين أبو المظفر يوسف سبط ابن الجوزي الواعظ رحمه الله من بغداد إلى الشام، وقد ذكر صفة تنقله في البلاد في تاريخه الذي سماه «مرآة الزمان» فقال: في أول هذه السنة سافرت عن بغداد إلى الشام، وهي أول رحلتي فاجتزت بدقوقا، فجلست بها يعني عقد مجلس الوعظ، قال: وبها خطيبها الحجة وكان يعظ بها، ثم قدمت إربل، فاجتمعت بشيخ فاضل كيس ظريف يقال له محيي الدين الشاتاني فأنشدني مقطعات لغيره وهذه الأبيات منها:

رحمت أســـود هـــذا الخال حين بـــدا
في حمرة الخد مـــرميـــا بـــإبصـــار
كـــأنـــه بعـــض عبـــاد المجـــوس وقـــد
ألقـــــى بمهجتـــــه في لجة النـــــار

وجلست بإربل، ثم قدمت الموصل، وجلست بها، وحصل لي القبول التام، بحيث أن الناس كانوا ينامون ليلة المجلس في الجامع من كثرة الزحام، وأدركت بها جماعة من العلماء، فسمعت النقورية على أبي طاهر أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد الطوسي الخطيب وغيره، ثم قدمت حران فجلست بها وسمعت الخطيب فخر الدين ابن تيمية وابن الطباخ وعبد القادر الرهاوي وغيرهم، ثم قدمت منها إلى حلب وجلست بها وسمعت شمائل النبي صلى الله عليه وسلم من الافتخار، وأسباب النزول من عبد الرحمن ابن الأستاذ وغيرهما، ثم قدمت دمشق فنزلت بقاسيون عند المقادسة وجلست به، وبجامع دمشق فكانت مجالسي ولله الحمد والله مثل غدوات الجنة، ثم زرت بيت المقدس وجلست به وقبر الخليل عليه السلام وعدت إلى قاسيون فأقمت به إلى سنة ثلاث وستمائة، ورجعت إلى حلب.

قال: وصحبت الشيخ أبا عمر شيخ المقادسة، وشاهدت منه الزهد في الدنيا والورع والفضل والتواضع، ومن أخيه الموفق ونسيبه العماد وهو أخو الحافظ عبد الغني مايرويه عن الصحابة والأولياء الأفراد فأنساني حالهم أهلي وأوطاني، ثم عدت إليهم بعد ذلك على نية الإقامة عسى أن أكون معهم في دار المقامة.

قال: وحضر مجلسي بجامع دمشق في سنة عشر وستمائة القضاة والأشراف والأعيان، والملك المعظم عيسى بن العادل رحمه الله وشيوخنا جمال الدين الحصيري، وتاج الدين الكندي، والقاضي شمس الدين بن الشيرازي، والقاضي شمس الدين بن سني الدولة، وكان مجلسا عظيما احتوى على عشرة آلاف وزيادة على باب مشهد علي، وكان بدمشق قارئان أحدهما يقال له النجيب البغدادي، والآخر يقال له الشرف بن مي صوته مزعج، وكان النجيب إذا قرأ أطربنا وابن مي إذا قرأ ينغصنا، فحكيت للجماعة أن جدي رحمه الله قرأ بين يديه قارئان فأطربا الجمع فأنشد:

ألا يا حمامي بطن نعمان هجتما
على الهوى لما تغنيتما ليا
ألا أيها القمريتان تجاوبا
بلحنيكما ثم اسجعا لي علانيا

قال: وقرأ بين يديه قارىء حسن الصوت فأطرب الجماعة، ثم قرأ بعده آخر مزعج الصوت فنغص الجماعة، فقال جدي: كان لبعضهم جاريتان مغنيتان إحداهما تغني طيبا، والأخرى مزعجا، فكان إذا غنت الطيبة الصوت يمزق ثيابه، وإذا غنت القبيحة الصوت يقعد يخيط مامزق، فحكيت للجماعة حكاية الجاريتين المغنيتين، وكان الشيخ الكندي قاعدا في القبة التي في وسط المجلس، فقال: يابني كلنا اليوم نخيط.

قلت: كانت مجالس الوعظ التي للمذكور من محاسن الدنيا ولذاتها، فكأن الله قد جمع له حسن الصورة وطيب الصوت، وظرافة الشمائل في الإيراد والجوابات واللباس وسائر الحركات، فكان يزدحم في مجلسه مالايحصى من الخلق رجالا ونساء، والنساء بمعزل عن الرجال في جامع دمشق، وجامع الجبل حضرت مجالسه في صغري وكبري في الموضعين مرارا، وكان لايفارق أحد مجلسه إذا انفض إلا وشوقه مستمر إلى عودته في الأسبوع الآخر، فإنه كان يجلس كل سبت، وتبسط السجادات والحصر، والبسط في كل المواضع القريبة من المنبر مابينه وبين القبة في يوم الجمعة، ويبيت الناس ليلة كل سبت حلقا يقرؤون القرآن بالشموع كل ذلك فرحا بالمجلس مسابقة إلى الأماكن، وعادة الدمشقيين التفرج في أيام السبت، ويبطلون عن أشغالهم بالمدينة وينقطعون في بساتينهم، وكانوا لايفوتون حضور المجلس، ثم ينصرفون منه إلى فرجهم فلا ينقضي يومهم إلا بالتذاكر لما وقع فيه من المحاسن وانشاد الأشعار والتحدث بمن أسلم فيه أو تاب، وإيراد ماكان فيه من سؤال وجواب، ولم يزل على ذلك مدة سنين، ثم اقتصر على المجلس في الأشهر الثلاثة: رجب وشعبان ورمضان كل سبت، فانقطع بمنزله عند ترتبه بالجبل إلى أن توفي سنة أربع وخمسين وستمائة، وسنعود لذكره في سنة وفاته إن شاء الله تعالى.

قال أبو المظفر: ولما أردت فراق دمشق في سنة ثلاث وستمائة قاصدا حلب، جلست بقاسيون وودعت الناس فلم يتخلف بدمشق إلا القليل، وامتلأ جامع الجبل بالناس فصاحوا علينا من الشبابيك والأبواب: لا، لا، لا، يعنون قوموا فاخرجوا، فخرجنا إلى المصلى وكان شيخنا تاج الدين الكندي حاضرا، فلما خرج من الباب زحموه فانكشف رأسه ووقعت عمامته فعز علي وسألته أن يمضي إلى دمشق ولايحضر في المصلى، فامتنع وقال: لاوالله حتى يتم المجلس وتاب في ذلك اليوم زيادة على خمسمائة شاب، وقطعوا شعورهم، وكان سيف الدين بن تميرك حاضرا، وجرى

الكـلام في المغناطيـس، وأنـه يعشـق الحديد قلـت والخبـازي(٢٦) تعشق الشمس، ولهذا كلما مـالت الشمـس إلى جهة مـال الخبازي إليهـا فصاح سيف الدين بن تميرك: يامولاي شمس كلنا اليوم خبازي.

قال العز ابن(٢٧) تاج الأمناء:

وفيهـا: احترقت خـزانة السـلاح لحاميـة دمشق التـي تعمل النشـاب، وذهب جميع مافيها ليلة الاثنين خامس جمادى الآخرة.

وفي سـابـع عشري رمضان تـوجـه أسطـول الفـرنج مـن عكـا عشرون قطعة، ودخـل يوم العيـد من فـم رشيد إلى قـرية فـوة من عمـل الديـار المصرية ونهبهـا، وأقام بنـواحيها يومين، ثـم خرج مـن حيث دخـل غانما سالما، ولم يسمع أن أحدا أقدم على هذا الفعل منذ فتوح الديار المصرية، ثم في سنة تسع وستمائة دخلـوا من فم دمياط إلى قرية بـورة ففعلوا نحو ذلك، وسيأتي ذكره.

وفي هذه السنـة أخذت العملة المشهورة مـن مخزن أيتام سيف الـدولة ابن السلار بـن بختيار من قيساريـة الفرش بدمشق، ومبلغهـا ستة عشر ألف دينار مصرية، ومصاغ، وبقيـت سنين إلى أن ظهرت، واعتقل بسببها خلق كثير، ومات منهم جماعة ثم ظهرت على المعروف بابن الدخينة.

وفيها: قتل الفقيـه القزويني الزاهد ببـاب الكلاسة من جـامع دمشق، حالة خـروجه إلى زيارة القدس بيـد اسماعيلي واجهه يظهر أنه يصـافحه، وضربـه بسكين في خاصرتـه، وانحـرف عنه منهـزما فـوقـع القزوينـي إلى الأرض وحمله أصحـابه إلى داخـل الكلاسة فمات في وقتـة، ودفن بمقـابر الصوفيـة على الشرف القبلي، وأما القـاتل فإن بعـض أصحاب القـزويني لحقـه إلى الزيـادة فتناول عصـا أعمى وأدخلهـا بين رجلية فـوقع، وركبـه

-٩٠٧٢-

وأخـذ السكين مـن يـده، واجتمـع النـاس يضربـون العجمـي ظنـا أنـه الاسماعيلي، وكادوا يفلتون الاسماعيلي منه ثم عرفـوا القصة، فأوثقوا أكتاف القتال، وحملـوه إلى المعتمد فحمل إلى السجن فـأقام به إلى أن عـرض له مرض، وحمل إلى البيمارستان فهلك.

- ٩٠٧٣ -

ثم دخلت

سنة إحدى وستمائة

ففي جمادى الآخرة، وقيل الأولى عزلُ الخليفة الناصر ولده أبا نصر محمدا، عدة الدنيا والدين عن ولاية العهد، بعد أن دعي له بذلك على المنابر سبعة عشر عاما، ومال إلى ولده علي ورشحه للخلافة فاخترم في إبان شبابه، فألجأت الضرورة إلى أن رجع الحق إلى نصابه، فعهد إلى أبي نصر فتولى بعهده ولقب بالظاهر، كما سيأتي، وأما صورة العزل فإنه ألجيء إلى أن كتب خطه مما سنذكره.

قال أبو المظفر: اجتمع أرباب الدولة في دار الوزير ابن مهدي، والقضاة والعلماء والفقهاء والأمراء، وأخرج الوزير رقعة خط ولي العهد إلى والده مضمونها أنه حين ولاه العهد، لم يكن يعلم مايجب عليه فيه، ولاقدر ذلك، وأنه يسأل أباه إقالته وعزله، وأنه لايصلح لذلك، وشهد عليه أبو منصور بن سعيد ابن الرزاز، وأبو أحمد بن زهير العدلان بذلك، وأن الخليفة أقاله، وأنشأ محمد بن محمد القمي الذي ناب في الوزارة وعزل في أيام المستنصر، وكتب المكين كتابا يقول فيه:

« أما بعد: فإن أمير المؤمنين كان قد قلد ولده أبا نصر محمدا ولاية العهد في المسلمين، ورشحه بعده لإمرة المؤمنين، وألقى عليه هذا القول الثقيل، ونهج له من مراشد الدنيا والدين أوضح سبيل، مؤملا فيه الاستقلال بأعبائه، والإتيان بما يبين عن اضطلاعه وغنائه، والتخلق بأخلاقه التي هي من أخلاق الباري مكتسبة، وعلى التقوى مؤسسة، فلما آن أوان تكامل رشده، وبلغ المبلغ الذي أمل فيه سداد رأيه وقصده، رأى من نفسه القصور عن التزام شروط الخلافة، ومايجب عليه من الرحمة

للأمة والرأفة، فأقر بالعجز عن تأدية حق الأمة في أمره، وأشهد عليه أنه لايصلح لها فيما مضى ولافيما بقي من عمره، وخلع نفسه مما كان أمير المؤمنين فوضه إليه، واعتمد فيه عليه، ولم يسع الخليفة إلا استخارة الله تعالى في إقالته، وطلب رضاه في حل عقدة ولايته، فأسقط اسمه من السكك والمنابر والأقلام والمحابر، ولما خلعه لم ير أن يعين أحدا ليلقى الله بذمته يوما من الأيام غير متعلقة بوزر يخص الخاص ويعم العام، وقد وافق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث جعلها شورى في الستة المذكورين من أعيان المهاجرين، ولما قال له عبد الله ابنه: مايمنعك أن تعين من تراه أهلا؟ فقال: لاوالله لاأتحملها حيا وميتا» وذكر القمي كلاما طويلا، وكتب نسخا إلى الأطراف، وحج خالي أبو محمد يوسف في هذا العام وقرأ الكتاب بمكة عند البيت المحرم وبالمدينة عند قبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

قال: وفي جمادى الآخرة عقيب هذه الوقعة وقع حريق بدار الخلافة لم يجر في الدنيا مثله، فتحت أبواب الدار بالليل، وركب الوزير ابن مهدي وأرباب الدولة إلى خزانة السلاح فرأوا النار قد لعبت فيها، واجتمع جميع من ببغداد من السقائين، والفراشين، بالقرب، والروايا، والصناع والفعلة وأقاموا يوما وليلة يقلبون الماء على النار وهي تزداد فاحترق جميع ماكان في الخزانة من السلاح، والأمتعة، والقسي، والنشاب، والرماح، والجروخ، والسيوف، والجواشن، والزرديات، وقدور النفط، والخوذ المرصعة بالجواهر، واليواقيت، وعملت النار وساعدها الهواء ودبت إلى الدور والتاج، والدار البيضاء، فخرج الخليفة منها إلى دجلة، واحترقت خزانة فيها رأس البساسيري، وطغريل وغيرهما، ويقال إن قيمة ماذهب ثلاثة آلاف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار، وكان في ذلك عبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن افتكر.

قال وفيها: جاءت الفرنج إلى حماة بغتة، وأخذوا النساء الغسالات من

باب البلد على العاصي، وخرج اليهم الملك المنصور بن تقي الدين وثبت وأبلى بلاء حسنا، وكسر الفرنج عسكره، ووقف في الساقة من الرقيطا إلى باب حماة، وامتلأت أيديهم بالمكاسب وأسروا من حماة شهاب الدين أحمد بن شداد البلاعي، من قرية بلاعة وكان فقيها شجاعا تولى حماة مرة، وسلمية أخرى، وحمل إلى طرابلس، فهرب وتعلق بجبال بعلبك. ووصل الى حماه سالما، ولولا وقوفه ما ابقوا من المسلمين احدا ، وحج بالناس من العراق وجه السبع، ومن الشام صارم الدين بزغش العادلي والي قلعة دمشق، وزين الدين قراجا صاحب صرخد وغيرهم.

قال وفيها: توفي عبد المنعم بن علي بن الصقلي أبو محمد الحراني، ولقبه: نجم الدين، قدم بغداد أول مرة في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وتفقه على أبي الفتح ابن المنى، وسمع الحديث الكثير من أبي الفتح ابن شاتيل، وأبي السعادات بن رزيق، وجدي رحمه الله وغيرهم، وعاد إلى حران ووعظ بها وحصل له القبول التام، فاستشعر منه الفخر محمد بن تيمية خطيب حران، وخاف أن يتقدم، فلما رأى النجم ذلك عاد إلى بغداد ووعظ بها ، وحضرت مجالسه بمسجد باب المشرعة، وكان يقصد التجانس في كلامه وسمعته ينشد:

وأشتاقكم يا أهل ودي وبيننا
كما حكم البين المشت فراسخ
فأما الكرى عن ناظري فمشرد
وأما هواكم في فؤادي فراسخ

وكان صالحا دينا نزها عفيفا كيسا لطيفا متواضعا كثير الحياء، وكان يزور جدي بالنظامية،ويسمع معنا الحديث، وكانت وفاته يوم الخميس سادس عشر ربيع الأول، وصلي عليه بالنظامية ودفن بباب حرب، وخلف ولدين: النجيب عبد الله، والعز عبد العزيز صارا تاجرين لديوان الخلافة.

وفيها: توفي محمد بن سعد الله بن نصر أبو نصر بن الدجاجي الواعظ الحنبلي في ربيع الأول، ودفن بباب حرب ومولده سنة أربع وخمسائة سمع أبا منصور القزاز وغيره، وأنشد لنفسه:

نفس الفتى إن أصلحت أحوالها ... كانت إلى نيل التقى أحوى لها
وإن تراها سددت أقوالها ... كان على حمل العلى أقوى لها
فلو تبدت حال من لها لها ... في قبره عند البلى لها لها

قال العز بن تاج الأمناء: وفي شهور هذه السنة الأواخر تغلبت طائفة من الفرنج البحرية، يعرفون بالبنادقة على قسطنطينية، وأخرجوا الروم منها بعد حصر وقتال، وحازوا مملكتها، وانتهبوا ذخائرها، وما حوته كنائسها من آلات ورخام، وحملوه إلى الديار المصرية، والشامية فبيع، ووصل منه إلى دمشق رخام كثير؛ وكان سامة يعمر داره فحصل له منه شيء لم يكن قبله مثله، وزخرفها.

قلت: هي الدار التي جعلها البازارائي رسول الخليفة مدرسة للشافعية.

قال وفيها: توفي العدل أبو محمد المعروف بعدل الزبداني سابع عشر المحرم بدمشق(٢٨).

وفيها: توفي القاضي محيي الدين بن عصرون في أول ربيع الأول بدمشق.

وفيها: توفي الأمير علم الدين كرجي الأسدي بدمشق، ثالث عشر

-٩٠٧٧-

ربيع الآخر وصلى العادل عليه بمرج باب الحديد ودفن بالجبل، ووصل الخبر بموت بوزبا التقوي غريقا ببلاد المغرب في خدمة ابن عبد المؤمن.

وفيها: قتل قاضي دارا ظاهر حلب بالمنزلة المعروفة في السعدي في أواخر ذي القعدة.

وفيها: في ربيع الآخر توفي الشاعر الحلي علي بن الحسن الملقب بشميم، وكان قليل الدين ذا حماقة ورقاعة، وله حماسة ورسائل، وقال أقمت مدة آكل في يوم شيئا من الطين وضعته أشتمه فلا أجد له رائحة فسميت لذلك شميا ذكره ابن المستوفي في تاريخ إربل.

ثم دخلت
سنة اثنتين وستمائة

فيها: استوزر الخليفة نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي الحسني، وخلع عليه خلعة الوزارة القميص والدراعة، والعمامة، والسيف، وخرج من باب الحجرة، فقدم له فرس من خيل الخليفة وبين يديه دواة عليها ألف مثقال، ووراءه المهد الأصغر، وألوية الحمد، وطبول النوبة والكوسات تخفق، والعهد منشور بين يديه، وجميع أرباب الدولة مشاة بين يديه، وضرب الطبول والبوقات له بالرحبة في أوقات الصلاة الثلاث: المغرب، والعشاء الآخرة، والفجر.

وفيها: هرب أبو جعفر محمد بن حديدة الوزير الأنصاري من دار الوزير ابن مهدي، وكان محبوسا بدرب المطبخ عند ابن مهدي ليعذبه، فحلق ابن حديدة رأسه ولحيته، وخرج فلم يظهر خبره إلا من مراغة بعد مدة وعاد إلى بغداد.

وفيها: توجه ناصر الدين صاحب ماردين إلى خلاط، بمكاتبة أهلها، فجاء الملك الأشرف فنزل على دنيسر، وأقطع بلد ماردين فعاد ناصر الدين إلى بلده، بعد أن غرم مائة ألف دينار، ولم يسلموا إليه خلاط.

وفيها: أغار ابن لاون على بلد حلب، وأخذ الجشار من نواحي حارم، فبعث الملك الظاهر بن صلاح الدين ميمون القصري، وأيبك فطيس، وحسام الدين بن أمير تركمان فنزلوا على حارم فقالوا لميمون: نحن على حذر فتهاون، فكبسهم ابن لاون فقتل جماعة من المسلمين وثبت أيبك فطيس، وابن أمير تركمان فقاتلا شديدا ولولاهما لأخذ ميمون، وبلغ الظاهر فخرج من حلب فنزل مرج دابق، وجاء إلى حارم فهرب ابن لاون إلى بلاده، وكان قد بنى قلعة فوق دربساك، فأخربها الظاهر وعاد إلى حلب.

وفيها: حج بـالناس من العراق وجه السبع، ومـن الشام الشجاع علي ابن السلار.

قلت: كـذا قال أبو المظفر سبـط ابن الجوزي فيما نقلته مـن خطه[٢٩] وقد نقلت من خط محمد بن تـاج الأمناء قال: وفي التاسع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وستمائة نادوا الحج على إيلة صحبة ابن الخزاعي.

وفيهـا: توفي طـاشتكين بن عبـد الله المقتفـوي أمير الحاج، ولقبه فخـر الدين، حج بالناس ستا وعشرين سنة، وكان في طريق الحج مثل الملوك، فقصده ابن يونـس الوزير وقال للخليفة: إنه يكاتـب صلاح الدين وزور عليه كتـابا فحبسه مدة، ثـم تبين له أنه بـريء من ذلك فأطلقـه وأعطاه خوزستان، ثم أعـاده إلى إمرة الحج، وكانت الحلة السيفية اقطـاعة، وكان سمحا، جـوادا، شجاعـا، قليل الكـلام، يمضي عليه الإسبـوع ولايتكلم، استغاث إليه رجل يـوما فلم يكلمه، فقال الرجل: الله كلـم موسى.فقال: وأنت. فقال الـرجل: وأنت الله. فقضى حاجته، وكـان حليما التقاه رجل فاستغـاث إليه من نـوابه فلم يجبـه، فقال لـه الرجل: أحمار أنـت؟ فقال طاشتكين: لا، وفي قلة كلامه يقول سبط ابن التعاويذي:

وأمير على البـــــلاد مـــــولى لايجيـــب الشـــاكـــي بغير السكـــوت
كلما زاد رفعـــــة حطنـــــا الله بتغفيلـــــه إلى البهمـــــوت[٣٠]

وقام يـوما إلى الـوضوء فحل حيـاصته وتـركها موضعـه ودخل ليتـوضأ وكانت الحياصة تساوي خمسمائة دينـار فسرقها الفراش وهو يشاهده. فلما خـرج طلبها فلـم يجدهـا، فقـال استاذ داره: اجمعـوا الفـراشين واحضروا

المعاصير، فقال له طاشتكين: لاتضرب أحدا فإن الذي أخذها مايردها، والذي رآه ما يغمز عليه، فلما كان بعد مدة رأى على الفراش الذي سرق الحياصة ثيابا جميلة، وبزة ظاهرة فاستدعاه سرا وقال له بحياتي هذه من ذيك؟ فخجل، فقال: لابأس عليك فاعترف فلم يعارضه، وكان طاشتكين قد جاوز تسعين سنة فاستأجر أرضا وقفا ثلاثمائة سنة على جانب دجلة ليعمرها دارا، وكان ببغداد رجل يحدث في الخلق يقال له فتيحة المحدث، فقال: ياأصحابنا نهنيكم مات ملك الموت، قالوا: وكيف؟ قال طاشتكين عمره مقدار تسعين سنة وقد استأجر أرضا ثلاثمائة سنة فلو لم يعلم إن ملك الموت قد مات مافعل هذا فتضاحك الناس، وكانت وفاته بتستر(٣١) وأوصى بأن يحمل إلى مشهد أمير المؤمنين علي، فحمل في تابوت فدفن فيه.

وفيها: توفي الاخوان مسعود وممدود أبناء الحاجب مبارك بن عبد الله، فمسعود لقبه سعد الدين، وكان صاحب صفد، وممدود لقبه بدر الدين وكان شحنة دمشق، وأمهما أم فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب دار السعادة، وأصل أمهم من المنيطرة، ففرخشاه أخوهما لأمهما وأختهما لأمهما ست عذراء صاحبة المدرسة المجاورة لدار السعادة وبها تربتها وكانت دارها، وأما أخوها مسعود فداره هي المجاورة لرباط زهرة خاتون قريب حمام جاروخ هي الآن لجمال الدين موسى بن يغمور، وأما ممدود فداره بحارة البلاطة هي الآن لنجم الدين بن الجوعي، وكان مسعود وممدود أميرين كبيرين لهما مواقف كثيرة مع صلاح الدين، وتقدمت وفاة ممدود على وفاة أخيه بشهر واحد، فإنه مات بداره بدمشق يوم الأحد خامس شهر رمضان، وتوفي مسعود بصفد يوم الإثنين خامس شوال.

وفيها: توفي أبو يعلى حمزة بن علي بن حمزة الحراني المقرىء، ويعرف بابن القبيطي، ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة ببغداد، وقرأ القرآن بالروايات على الشيخ أبي منصور الخياط وغيره، وسمع الحديث وكان

حسن الصوت بالقراءة يصلي إماما بالمسجد الذي بجانب البدرية، وكان الناس في ليالي شهر رمضان يأتون إليه من أقطار بغداد يستمعون قراءته، وكانت وفاته في ذي الحجة وصلي عليه بالنظامية، ودفن بباب حرب، سمع أبا الكرم ابن الشهرزوري، وابراهيم بن نبهان الرقي، وسعد الخير الأنصاري، وأبا الفضل الأرموي وغيرهم، وكان صالحا، عفيفا، زاهدا ثقة.

ونقلت من خط العز بن محمد تاج الأمناء: أبو الفضل أحمد بن محمد ابن الحسن قال: يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول توفيت أم المعظم ودفنت بالجبل، قلت: يعني بالقبة التي في المدرسة المعروفة بالمعظمية، وفي تلك القبة معها أبناء المعظم عيسى، والعزيز عثمان أبناء الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأخوهما المتوفى قبلهما الملك المغيث عمر بن العادل.

قال: وفي رابع عشر جمادى الآخرة توفي الفقيه شرف الدين أبو الحسن علي بن محمد بن علي جمال الاسلام بن الشهرزوري بمدينة حمص، كان قد سكنها منذ أخرج من دمشق.

قلت: وكان مدرس المدرسة الأمينية والزاوية المقابلة لباب البرادة بالجامع، وكان عالما بالمذهب والخلاف، ماهرا في ذلك.

قال: وفي شعبان هدموا قنطرة الباب الشرقي الرومية لينشر حجارتها بلاطا لصحن الجامع، وفرغ منه في رمضان سنة أربع وستمائة، وفي أول شوال غيروا من قبة الجامع عدة أضلاع من شمالها.

وفي خامس عشر توفي مسعود الحبشي الزاهد، ودفن بالجبل، وفي يوم الخميس سابع ذي القعدة وجد التقي الأعمى مشنوقا بالمئذنة الغربية.

قلت: هذا التقي اسمه عيسى بن يوسف بن أحمد الغرافي، ولد

بـالغراف مـن أرض العـراق، وكـان ضريرا عفيفـا. فقيهـا مفتيـا شافعيـا مدرسا بـالمدرسة الأمينية خارج باب الجامع القبلي، وكـان يسكن في أحد بيوت منـارة الجامع الغـربية، وكان ابتلي بـأخذ مال لـه من بيتـه واتهم به شخصا كان يقـرأ عليه ويطلع معه إلى البيت يقضي حاجتـه، ويقوده من المدرسة إلى البيت، ومن البيت إلى المدرسة فـأنكر الشخص المتهم ذلك، وتعصبت له أقـوام عند والي البلد، فوقـع الناس في عرضه مـن اتهامه من ليـس من أهـل التهم، ومـن كونـه جمع ذلـك المال وهو وحيـد غريـب، ونسبـوه إلى أنه غير صـادق فيها أدعـاه فزاد عليـه الهم مـن ضيـاع مالـه والوقوع في عرضـه، ففعل بنفسه مافعل، وقد وقع مثـل هذا لجماعة وفعلوا فعلـه، وجـرى لي أخـت هـذه القضية وعصمنـي الله سبحـانـة بفضلـه، وبلغنـي أن جماعة مـن المتفقهة امتنعـوا من الصـلاة عليه، وقـالوا: قتـل نفسه، فتقدم شيخنا فخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن عساكر فصلى عليه، فاقتـدى الناس به رحمهم الله، ودرس بالمدرسـة الأمينية بعده الجمال المصري وكيل بيت المال، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وفي ثـامن عشر ذي القعـدة توفي الفقيـه جـامع المغـربي، والد العـلاء محمد بن جامع ودفن من الغد بـالجبل، وتربته مشهورة على الطريق وكان يتولى عقـود الأنكحة، وسمـع من الحافـظ الكبير أبي القاسـم وغيره رحمه الله.

ثم دخلت

سنة ثلاث وستمائة

ففيها: فارق وجه السبع(٣٢) حاج العراق وقصد الشام، وكان في الحاج العراقي جماعة من الأعيان فبكوا وضجوا وسألوه فقال: مولاي أمير المؤمنين محسن إلي وما أشكو إلا من الوزير ابن مهدي فإنه يقصدني لقربي من مولاي، وما عن الروح عوض، وسار إلى الشام ودخل الحاج بغداد وعليهم وحشة وكآبة، وأمر الخليفة أن لايخرج الموكب إلى لقائهم، ولايخرج إليهم أحد، وأدخل الكوس والعلم والمهد في الليل، فأقام الخليفة حزينا أياما، وأما وجه السبع فوصل إلى دمشق فالتقاه العادل وأولاده، وخدموه، وأحسنوا إليه.

وفيها: ولى الخليفة عماد الدين أبا القاسم عبد الله بن الدامغاني قضاء القضاء ببغداد، فاستناب أبا الفتح محمد بن المندائي الواسطي في القضاء بواسط.

وفيها: قبض الخليفة على الركن عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الذي أحرقت كتبه في الرحبة، فاستأصله وأصبح يطلب من الناس، وكان قد بلغه فسقه وفجوره، وكان عبد السلام المذكور هو الذي وشى بالشيخ أبي الفرج ابن الجوزي حتى نكب بما ذكرناه في سنة تسعين وخمسمائة.

قال أبو المظفر: لما قبض ابن يونس الوزير تتبع ابن القصاب أصحابه، فقال الركن عبد السلام بن عبد الوهاب: أين أنت من ابن الجوزي؟ هو من أكابر أصحاب ابن يونس وأعطي مدرسة جدي وأحرق كتبي بمشورته، وهو ناصبي من أولاد أبي بكر، وكان ابن

القصاب متشيعا، فكتب إلى الخليفة وساعده جماعة من أهل مذهبه ولبسوا على الخليفة، فأمر بتسليمه إلى عبد السلام.

قال سبط ابن الجوزي: وكان جدي يسكن بباب الأزج في دار بنفشا، وكان الزمان صيفا، وجدي رحمه الله جالس في السرداب يكتب، وأنا صبي صغير، وإذا عبد السلام قد هجم على جدي في السرداب فأسمعه غليظ الكلام، وختم على كتبه وداره، وشتت عياله وجرى عليهم مالم يجر على أقل الناس، فلما كان أول الليل حملوا جدي إلى السفينة فأنزلوه فيها ونزل معه عبد السلام لاغير، وعلى جدي غلالة بغير سروال وعلى رأسه تخفيفة، وحدروه إلى واسط فاستوفى من جدي بالكلام وجدي لايجيبه، فسبق عبد السلام إلى واسط وكان ناظرها العميد ابن امسينا، وكان متشيعا فقال له عبد السلام: حرس الله أيامك مكني من عدوي لأرميه في المطمورة، فعز عليه وزجره وقال: يازنديق أرمي ابن الجوزي في المطمورة بقولك، هات خط الخليفة، والله لو كان من أهل مذهبي لبذلت روحي ومالي في خدمته، فعاد عبد السلام إلى بغداد وكان إحراق كتبه في سنة ثمان وثمانين، وسببه أنه كان بين ابن يونس وبين أولاد الشيخ عبد القادر عداوة قديمة لأنه كان جارهم بباب الأزج في حال خموله وفقره، وكانوا يؤذونه بحيث أنهم ربوا كلبا ولقبوه جليل، يعنون جلال الدين، وهو لقب ابن يونس، وكان لابن يونس أخ صالح يقال له العماد فسموا بغلا للطحن العماد، وكان من ولد الشيخ عبد القادر لصلبه طحان اسمه سليمان، وكان أشر خلق الله هو الذي فعل هذه الأفاعيل، فلما ولي ابن يونس الوزارة، ثم استاذية الدار، أظهر ماكان في قلبه منهم فبدد شملهم، وبعث بعضهم إلى المطامير إلى واسط فماتوا بها، وكان عبد السلام هذا مداخلا للدولة، وكان عنده كتب كثيرة فبعث ابن يونس فكبس داره وأخرج منها كتب في فنون منها: الشفاء لابن سينا، والنجاة، ورسائل أخوان الصفا، وكتب الفلاسفة، والمنطق، وتبخير الكواكب، والنارنجيات، والسحر، فاستدعى ابن يونس، وهو يومئذ

أستاذ دار الخليفة، العلماء، والفقهاء، والقضاة، والأعيان، وكان جدي فيهم وقرىء في بعضها:« أيها الكوكب الفرد أنت تدبر الأفلاك وتحيي وتميت وأنت إلهنا» وفي حق المريخ من هذا الجنس، وكان عبد السلام حاضرا فقال له ابن يونس: هذا خطك؟ قال: نعم، قال: لم كتبته؟ قال: لأرد على قائله ومن يعتقده، فسألوه فيه فقال: لابد من تحريق الكتب، فلما كان يوم الجمعة ثاني عشر صفر جلس قاضي القضاة، والعلماء، وجدي معهم على سطح المسجد المجاور لجامع الخليفة وأضرموا تحت المسجد نارا عظيمة، وخرج الناس من الجامع فوقفوا على طبقاتهم والكتب على سطح المسجد بين أيديهم، فقام رجل يقال له ابن المارستانية فجعل يقرأ كتابا كتابا ويقول: العنوا من كتبه ومن يعتقده، فيصيح العوام باللعن، وعبد السلام حاضر وتعدى اللعن إلى الشيخ عبد القادر، وأحمد بن حنبل، وظهرت الأحقاد البدرية، وقال الخصوم أشعارا منها قول المهذب الرومي ساكن النظامية:

لي شعر أرق من دين ركن الد ... ين عبد السلام لفظا ومعنى
زحليا يشنا عليا ويهوى ... آل حرب حقدا عليه وضغنا
منحته النجوم إذ رام سعدا ... وسرورا نحسا وهما وحزنا
سار إحراق كتبه سير شعري ... في جميع الأقطار سهلا وحزنا
أيها الجاهل الذي جهل الحـ ... ـق ضلالا وضيع العمر غبنا
رمت جهلا من الكواكب بالتبخـ ... ـير غرا فنلت ذلا وسجنا
ما زحيل وما عطارد والمر ... يخ والمشتري ترى ما معنى

كـــل شيء يـــورى ويفنـــى ســـوى الـــ
ـــله فـــإنـــه ليـــس يفنـــى

ثم حكـم القاضي بتفسيـق عبد السلام، ورمـى طيلسانـه وولى جدي مدرسة الشيخ عبد القادر فذكر الدرس بها في ربيع الأول.

وفيها: قـدم البرهان محمـد بن مـازة البخاري، ويلقـب بصدر جهـان حاجا إلى بغداد، وتلقاه جميع من ببغـداد ماعدا الخليفة والوزير، وأنزل في دار زبيدة على نهر عيسى، وحملـت إليه الإقامات والضيافـات، وكان معه ثـلاثمائة من الفقهـاء والمتفقهـة، وجرى لـه في حجـه مـاسنذكـره في أول السنة الآتية.

وفيهـا: نزلـت الفـرنـج على حمص، وكان الظـاهـر بعـث إليها المبـارز يوسـف بن خلطخ الحلبـي نجدة لأسد الـدين الأصغر شيركـوه الأصغر، وأسر في هذه المرة الصمصام بن العلائي، وخادم صاحب حمص.

قال ابو المظفر وفيها: فـارقت دمشق قـاصدا حلب فـوصلتها في ذي الحجـة، واجتمعـت بالنقـاش الحلبـي الشـاعـر، واسمه مسعـود بـن أبي الفضل أبو الفتـح، ولقبه تاج الدين، مولـده سنة أربعين وخمسمائة، وقدم دمشق سنة تسع وستمائة وأنشد الجماعة قطعا من قصائده منها:

مـــالي ســـوى حبكـــم مـــذهـــب
ولا لي إلى غيركـــم مـــذهـــب
نـــاشـــدتـــك الله نسيـــم الصبـــا
مـــن أيـــن هـــذا النفـــس الطيـــب
أودعـــت بـــرداك وقـــت الضحـــى
مكـــان القـــت عقـــدهـــا زينـــب
أم بـــاسمـــت ريـــاك روض الحمـــى
وذيلهـــا مـــن فـــوقـــه يسحـــب

فهات اتحفني بأخبارها
فعهدك الآن بها أقرب

ومنها:

أي يد عندي وأي منه
للركب إن بشرني بهنه
صاحوا الرحيل فظللت والها
أنشد قلبي بين عيشهنه
كأنني بالحي قد شدوا العرى
ليلهم وأرخوا الأعنه
وما سمعت قبل أن يرحلوا
بمطلع الشهب من الأسنه
يا حادي الأظعان رب فرح
أحدثه طيب حديثهنه
فاسلم وقل للراحلين أن يكن
بين فرفقا بقتيلكن

ومنها قصيدة في صاحب بعلبك الأمجد بن فرخشاه:

زار وطرف النجم لم يرقد
متزر من حسنه مرتد
أحور يحكي الخال في خده
نقطة ند فوق وردند
يا حسنه من زائر ما بدا
إلا وأنسى قمر الأسعد
ويا ضلالي فيه من بعد ما
يمر أو جهه اهتدي
فيا لها من ليلة لم يفز
بمثلها الهادي ولا المهتدي

إذا اجتلى في ليل أصداغه
من وجهه شمس صباح الغد

وعاذل عنف فيه ومن
ينام البدن ولم يحسد

ظن خلاصي في يدي فاعتدى
وقال يهوى قاتلا لا يدي

فقلت لا تسرج سلوى فقد
خلعت سلواني على عودي

أأهجر العيس لهجري له
وأخرج الفوز به عن يدي

وانثني منه إلى هجره
لا وحياة الملك الأمجد(٣٣)

وفيها: توفي اسماعيل بن علي أبو محمد الحظيري، من حظيرة الدجيل، كان أديبا فاضلا شاعرا أنشد لنفسه:

لا عالم يبقى ولا جاهل
ولا نبيه لا ولا خامل

على سبيل مهيع لاحب
يسوري أخو اليقظة والغافل

وفيها: توفي عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلي، كان زاهدا عابدا ورعا لم يكن في أولاد الشيخ مثله، ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وسمع الحديث الكثير، وكان مقتنعا من الدنيا باليسير، وكانت وفاته في شوال، ودفن بباب حرب، سمع أبا الكرم بن الشهرزوري وطبقته، وكان صالحا ثقة لم يدخل فيما دخل فيه غيره من أخوته.

وفيها: في ربيع الأول توفي أبو منصور عبد الرحمن بن الحسين بن عبد الله النعماني النيلي المعروف بالقاضي شريح، لقب بذلك لذكائه وفطنته،

وكان يتوقد ذكاء وفضلا، كأنهم شبهوه بالقاضي شريح الأكبر الذي كان في زمن الصحابة رضي الله عنهم، ولي شريح هذا قضاء النيل مدة، ثم قدم بغداد، فندب إلى المراتب الكبار، فلم يدخل في شيء منها فرمى طاشتكين أمير الحاج نفسه عليه وسأله أن يكتب له فاستحيا منه وكتب له، فأقام عنده مدة عشرين سنة، فقصده الوزير ابن مهدي حسدا لفضله، وكان فاضلا، مترسلا بليغا، جوادا، سمحا حسن الصورة فصيح اللسان متواضعا لطيفا، يصلح للوزارة فلبس على الخليفة في أمره فحبسه في دار طاشتكين بدار الخليفة، ولم يقدر طاشتكين على الكلام فيه ومات طاشتكين وهو محبوس، ثم مات شريح بدار طاشتكين، فأخرج منها ميتا فدفن بداره في القبيبات، ومن العجائب ان ابن مهدي نكب بعد وفاة شريح وحبس بدار طاشتكين أيضا، وبها مات كما سنذكر في أخبار السنة الآتية، ورسائل شريح مدونة في مجلدين رحمه الله.

وفيها. توفي بالموصل في شوال أبو الحرم مكي بن ربان بن شبة الماكسيني الموصلي النحوي، قدم بغداد وقرأ على ابن الخشاب، وابن العصار، والكمال الأنباري، وبرع في علم النحو، وقدم الشام فأقام بحلب مدة، وانتفع به خلق عظيم، وقدم دمشق وقرأ عليه شيخنا أبو الحسن السخاوي، رحمه الله كتاب أسرار العربية للأنباري، وربما يقع تصحيف في اسم أبيه وجده فاعلم: أن اسم أبيه أوله راء بعدها باء معجمة بواحدة من تحت وشبة على وزن حبة، وبدأ بذكره في تاريخ إربل شرف الدين ابن المستوفي لأنه شيخة ووصفه وأثنى عليه، وقال ولد بماكسين من ولاية سنجار، ونزل بالموصل بعد أن رحل في طلب العلم إلى بغداد، وكان سبب عماه جدريا لحقه وهو ابن ثمان أو تسع ، وكان يتعصب لأبي العلاء أحمد بن سليمان المعري للجامع بينهما من العمى والأدب، وكان قد نصب نفسه للانتفاع عليه بالقرآن العزيز، وجميع ضروب الأدب، فكان لايتفرغ إلا للصلاة المكتوبة أو إلى لما مالابد منه،

وتخرج عليه جماعة من أصحابه، وكان أخذ عن أبي بكر يحيى بن سعدون القرطبي الأصل الموصلي الوفاة ومن شعره:

إذا احتــــاج النــــوال إلى شفيـــــع
فـــلا تقبلـــه تضـــح قـــريـــر عين

إذا عيـــف النـــوال لفـــرد مـــن
فـــأولى أن يعـــــاف لمنتين

وله ألغاز في اسم دعد:

اســـم الـــذي أنـــا عبـــدهـــا
يـــا أيها الـــرجـــل الحكيـــم

تلقيـــه معكـــوســـا كما
تلقيـــه إذ هـــو مستقيـــم

قلت: وكفى من ذلك أن يقول اسمها إن عكسته مثله إن تركته.

وفيها: تـوفي جمال الدولة إقبـال الخادم بالبيت المقـدس رابع عشر ذي القعدة بعـد أن وقف داريـه بدمشـق مدرستين إحـداهما للشافعيـة وهي الكبرى، والأخرى للحنيفية وهـي الصغرى، ووقف عليهما مواضـع ثلثاها لمدرسة الشافعية، والثلـث الباقي لمدرسة الحنيفية، وكان مـن خدام صلاح الدين رحمه الله.

-٩٠٩١-

ثم دخلت

سنة أربع وستمائة

ففيها: قدم حاج العراق بغداد في صفر، وحكوا مالقوا من صدر جهان وشدة العطش، وأن غلمانه كانوا يسبقون الناس إلى المناهل فيأخذون الماء فيرشون به حول خيمته، ويسقون أحواض البقل على الجمال، ومات أكثر الناس عطشا، وسموا هذه السنة صدر جهنم ولما وصل إلى بغداد لم يخرج أحد للقائه ولعنوه في وجهه، وسبوه في الأسواق، وكتبوا لعنته على المساجد والجوامع، وكان النساء يخرجن متبرجات منشرات الشعور يلطمن على موتاهن ويقلن العنوا صدر جهنم، فسأل الوزير أن يأذن له في الرجوع إلى بلده، فخلع عليه جبة وعمامة وطيلسان، وخرج من بغداد والناس خلفه يسبونه ولم يقدر أحد على منعهم.

قال أبو المظفر وحججت أنا في هذه السنة وهي الرابعة، فرأيت من الموتى ماأذهلني وخصوصا في النقرة والعسيلة فإني رأيت فيها مايزيد على خمسة آلاف ميت، ومشينا ثلاثة أيام في الأموات.

وفيها: في جمادى الآخرة قبض الخليفة على الوزير ابن مهدي ليلا، بعث إليه من أغلق بابه، فأقام أياما، ثم نقله في رجب إلى دار طاشتكين في دار الخليفة الذي مات فيها القاضي شريح، ونقل أهله وأولاده وأمواله وذخائره ووجد له من الأموال والذخائر مالم يوجد في خزائن الخلفاء، ولم يتعرض له الخليفة وفوض الأمر إلى المكين محمد القمي كاتب الإنشاء بين يدي ابن مهدي، وناب القمي بعد ذلك في الوزارة إلى أيام المستنصر فقبض عليه، واختلفوا في سبب عزل الوزير ابن مهدي، فقال قوم: كان ظالما جبارا قاسيا، متكبرا قليل الرحمة، قل أن حبس أحدا فتخلص منه.

حكي لي خالي أبو محمد يوسف قال: شفعت إليه يوما في محبوس،

فقال: وكم له في الحبس؟ فقلت: خمس سنين، قال: ليس هذا بمحبوس المحبوس عندنا في العجم من يمضي عليه خمسون سنة(٣٤) .

وقال آخرون إن المكين القمي سعى به إلى الخليفة وقال: إنه طمع في الخلافة ويقول إنه علوي ونحن أحق، وأنه ينفذ الأموال إلى العجم في قواصر التمر إلى أهله بخراسان ليجندوا العساكر ويقيموا ملكا يقصد بغداد، وقال آخرون أنه اتفق مع ابن ساوا النصراني على قتل علاء الدين ايتامش مملوك الخليفة في هذه السنة، وسنذكره، ولما ظهر خبره واستقلاله بالأمور، هجاه أهل بغداد وكتبوا الأشعار وأوصلوها إلى الخليفة منها ماكتب به يعقوب بن صابر المنجنيقي:

خليلي قولا للخليفة أحمد
توق وقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هذا بين أمرين فيهما
صنيعك ياخير البرية ضائع
فإن كان حقا من سلالة حيدر
فهذا وزير في الخلافة طامع
وإن كان فيما يدعي غير صادق
فأضيع ماكانت لديه الصنائع

وجلس يوما في الديوان فوقعت بين يديه ورقة مختومة فلم يتجاسر على فتحها، فبعث بها إلى الخليفة وكان فيها:

إن صح فيما تزعم يامدعي
إلى نبي لست من نسله
لاقاتل الله يزيداولا
مدت يد السوء إلى نعله
لأنه قد كان ذا قدرة
على اجتثاث العود من أصله

وإنما أبقـــــاك أحـــــدوثـــــة
للنـــاس كـــي يعـــزر في فعلـــه

فكـان سبب حتفـه، لأن الخليفـة قال: مـاكتبـوا هـذه إلا وقد أهلـك الحرث والنسل.

وفيها: رتب الخليفـة في شهر رمضان دور الضيافـة ببغداد من الجانبين عشرين دارا في كل دار في كل ليلة خمسمائة قـدح وألف رطل من الطبيخ الخاص، والخبز النقي، والحلواء وغير ذلك مستمر في رمضان.

وفيها: وصـل إلى بغداد مـن دمشق قـاضي عسكر الشـام نجم الـدين خليل الحنفـي رسولا مـن العادل أبي بكـر بن أيـوب، وأخرج في مقـابلته الشيخ شهاب الدين السهـروردي وسنقر السلحدار، ومعهما الخلع للعادل وأولاده وكان في خلعة العادل الطوق والسواران.

وفيها ملـك الأوحد بن العـادل مدينة خلاط، كـاتب أهلها بعـد قتل ابـن بكتمر صـاحبها والهزار دينـاري، وكان دينـاري هو الـذي قتل ابـن بكتمر، وكـان شابا لم يبلـغ عشرين سنة ولم يكـن فيها احسن منـه، وقيل إنه أغرقـه في بحر خلاط، وكانت أختـه مع صاحب أرزن الـروم فقالت: لاأرضى حتى تقتـل الهزار ديناري وتـأخذ بثـأر أخي، فسـار إلى خلاط وخرج الهزار دينـاري للقائه فـأبان رأسـه، وعاد إلى الـروم وبقيت خـلاط بغير ملك، وكـان الأوحد هـو صاحـب ميافـارقين فكاتبـوه فجاء إليهـم واستـولى عليها، وكـانـوا جبابـرة وتشرط عليـه المقـدمون بها فشرع فيهـم فأبادهم في بحر خلاط وبدد شملهم.

ذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أن ابن بلبان مملوك شاه أرمن، لما أخذ خلاط مـن ابن بكتمـر قصد الأوحد مـوشى من أعمال خـلاط فأخـذها وغيرهـا، ثم طمـع في خلاط فقصـدها فهـزمـه بلبان فـرجع الأوحـد إلى

ميافارقين وحشد وعاد إليه، فاستنجد بلبان بصاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغرلشاه بن قلج أرسلان فأنجده بنفسه، وهزما الأوحد، ثم غدر مغيث الدين ببلبان فقتله طمعا في البلاد، وسار إلى خلاط فمنعه أهلها فعاد عنها، فأرسلوا إلى الأوحد فحضر إليهم فسلموها إليه(٣٥).

وفيها: حج بالناس من الشام بدر الدين مودود فرحل من دمشق ثامن عشر شوال وصحبه الملك المحسن بن صلاح الدين، جاور في تلك السنة، وودعهم السلطان العادل إلى الكسوة وحج معه تلك السنة شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية وأولاده، وشبل الدولة الحسامي، وخلق كثير منهم: أبو المظفر سبط ابن الجوزي وهي أول حجاته، وكانت الوقفة يوم الأربعاء وعاد إلى العراق، وحج بالناس من العراق في هذه السنة والتي قبلها مجاهد الدين ياقوت.

وفيها: توفي علاء الدين إيتامش بن عبد الله مملوك الخليفة الناصر، وكان شجاعا عاقلا صالحا متصدقا رحوما رقيق القلب، ولايعرف المسكر، ولا الفواحش، وكان يطعم المسكين ويكسو العاري، وكان الخليفة يحبه ويقربه، والوزير ابن مهدي يشنأه لقربه من الخليفة، وكان ابن مهدي قد ولى الدجيل ودقوقا رجلا نصرانيا يقال له ابن ساوا، فتسلط على المسلمين وفتك وظلم وأهان المسلمين وأذلهم، وكان يركب مثل صاحب الديوان وجميع الناس مشاة بين يديه، قالوا: وكان ابن ساوا يحمل مغل البلاد إلى ابن مهدي فيأخذ منها مايريد ويعطي الخليفة مايريد، فأقطع الخليفة إيتامش دقوقا والدجيل، فخرج إليهما واطلع على الاحوال فخاف ابن مهدي، قالوا: فاتفق مع ابن ساوا على أن يسم إيتامش فمضى النصراني إلى دقوقا وتوصل إلى إيتامش ودس عليه من سقاه السم فمرض إيتامش وعاد إلى بغداد مريضاً، فمات بعد أيام، فتقدم الخليفة، بأن يفتح له جامع القصر ولا يتخلف عن جنازته أحد

من أرباب الدولة إلا الخليفة والوزير، وحمل إلى مشهد موسى بن جعفر فدفن هناك، وعلم الخليفة بباطن الحال فأمر بأن يسلم ابن ساو ا إلى غلمان إيتامش، فكتب إلى المهدي إلى الخليفة يقول: إن النصارى قد بذلوا في ابن ساوا خمسين ألف دينار ولا يقتل، فكتب الخليفة على رأس الورقة:

إن الأسود أسود الغاب همتها
يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

فسلم ابن ساوا إلى مماليك علاء الدين فأخرج من دار الوزير وفي رقبته حبل وهو مكتوف فقتلوه وأحرقوه، وكان لابن مهدي مملوك عاقل يقال له آق سنقر الدوادار، كان يطالع الخليفة بأخبار ابن مهدي، وأنه يكاتب الأعاجم ويسعى في فساد الدولة، وعلم الوزير فسقاه السم فمات في ربيع الآخر هو وعلاء الدين إيتامش في أيام قريبة وقبض الخليفة على ابن مهدي في جمادى.

وفيها: في شهر رمضان توفي شرف الدين الناقد بن قنبر، واسمه الحسن بن أبي طالب. ولاه الخليفة حجبة الباب وناب في الوزارة، ثم ولاه صاحب المخزن فتجبر وطغى، وبنى بدرب المطبخ دارا تناهى في بنائها فلم يكن ببغداد مثلها، وشرع في الظلم والفسق وتجاهر به، ومد عينيه إلى أولاد الناس، وكان قبيح السيرة، فرفع أمره إلى الخليفة فأخذه أخذ عزيز مقتدر، وقبض عليه واستأصله، ونقض داره إلى الأساس، وحبسه فأخرج في رمضان ميتا فدفن بمشهد باب البر.

وفيها: توفي أبو علي حنبل بن عبد الله بن الفرج بن سعادة المكبر بجامع الرصافة وكان فقيرا جدا، وكان قد سمع المسند من ابن الحصين، فقيل له: لو سافرت إلى الشام، فخرج من بغداد فأسمع المسند بإربل فسمعه ابن زين الدين، وبالموصل، وبدمشق فسمع عليه الملك المعظم

عيسى بالكلاسة في جمع كثير، وهو آخر من رواه عن ابن الحصين، فألحق الصغار بالكبار، وكان كثير الأمراض بالتخم، وكان الملك المعظم يطعمه ألوان الطعام وأشياء مارآها ولا في المنام وكان معودا ببغداد أكل الهرطمان[٣٦] وتلك الألوان، وبلغني أن الشيخ تاج الدين الكندي حضر عندهم يوما في السماع، ولم يحضر حنبل فقال تاج الدين: وأين حنبل؟ فقال المعظم: هو متخوم، فقال تاج الدين: أطعمه عدس، فضحك المعظم والجماعة، وكان عمر بن طبرزد قد رافقه من بغداد إلى الشام وحصلا مالا طائلا، وعاد إلى بغداد، فاشترى حنبل العتابي والكاغد، وعزم على العود إلى الشام في تجارة فأدركته المنية رابع عشر محرم سنة أربع وستمائة وله تسعون سنة، وحمل المال إلى بيت المال ولم يكن له وارث ودفن بباب حرب، ومات ابن طبرزد في سنة سبع وستمائة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وفيها: في صفر توفي عبد الرحمن بن عيسى بن أبي الحسن البزوري الواعظ من أهل باب البصرة ولد سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وقرأ على الشيخ أبي الفرج بن الجوزي الوعظ، والفقه، والحديث، ثم حدثته نفسه بمضاهاته حتى كنى نفسه أبا الفرج واجتمع إليه سفاف أهل باب البصرة، وانقطع عن جدي ولما جاء من واسط ماجاء إليه ولازاره، وكان في عشر السبعين تزوج صبية واغتسل في يوم بارد فانتفخ ذكره، ومات، وسمع أبا الوقت وغيره.

وفيها: توفي عبد المجيد بن أبي القاسم عبد الله بن زهير أبو محمد الحربي ابن أخي عبد المغيث الحربي، ولد سنةسبع وعشرين وخمسمائة وسمع الحديث الكثير، وكان تردد من عند الخليفة إلى العادل في أمور خاصة فخرج في السنة الماضية وعاد في هذه السنة، فتوفي بحماة وكان صالحا ثقة.

وفيها: توفي الأمير زين الدين قراجا الصلاحي، صاحب صرخد، وداره في دمشق بالذلاقة بنواحي باب الصغير، وكان شجاعا جوادا توفي بدمشق ودفن بجبل قاسيون وقبره عند تربة ابن تميرك في قبة على الجادة على يمين السالك شرقا، كذا قال أبو المظفر.

وقال العز بن تاج الأمناء: توفي بالعسكر على بحيرة قدس مرابطا يوم السبت أول جمادى الأولى، وحمل إلى دمشق في محفة فدفن في المقبرة العادلية من جبل قاسيون حالة وصوله بكرة يوم الاثنين ثالث جمادى الأولى المذكور، ووصل ابنه ناصر الدين يعقوب من قلعة صرخد إلى خدمة السلطان العادل وهو على القدس، فأكرمه وأنعم عليه بما كان بيد أبيه، ثم توفي في سنة أربع عشرة وستمائة وعمره، إحدى وعشرين سنة وثلاثة أشهر.

وفيها: توفي أبو الثناء محمود بن هبة الله بن أبي القاسم الحلي البزار، قرأ القرآن على علي بن عساكر البطائحي، والأدب على أبي محمد بن الخشاب، وسمع الحديث على أبي الوقت، وحكي عن اسماعيل بن موهوب الجواليقي قال: كنت في حلقة والدي أبي منصور موهوب يوم جمعة بعد الصلاة بجامع القصر والناس يقرأون عليه، فوقف عليه شاب فقال: ياسيدي مامعنى قول القائل؟:

وصل الحبيب جنان الخلد أسكنها
وهجره النار تصليني بها النهارا
فالشمس بالقوس أضحت وهي نازلة
إن لم يزرني وبالجوزاء إن زارا

فقال له والدي: يابني هذا شيء يتعلق بسير الشمس بالبروج، ومايتعلق بعلم الأدب، ثم قام والدي وآلى على نفسه ألا يعود إلى مكانه ذلك حتى ينظر في علم النجوم ويعرف سير الشمس والقمر، فنظر فيه

وعلمه بحيث إذا سئل عن شيء أجاب، ومعنى الشعر: إن الشمس إذا نزلت في القوس يكون الليل في غاية الطول، فإذا كانت في الجوزاء كان الليل في غاية القصر.

وفيها: في ربيع الأول توفيت ست الكتبة واسمها نعمة بنت علي بن محمد بن يحيى بن محمد بن الطراح، وكانت صالحة زاهدة عابدة راوية للحديث، روت كتاب الشمائل للترمزي عن أبي شجاع عمر بن أبي الحسن البسطامي، وعن جدها أبي محمد بن يحيى بن محمد الطراح وغيرهما، ودفنت بباب الفراديس:

وفيها: في تاسع شهر رمضان توفي عمي الشيخ أبو القاسم بن ابراهيم ابن عثمان بن الخشاب ودفن بالمقبرة التي بين الباب الشرقي وباب توما رحمه الله.

وفيها: في ذي القعدة توفي عبد العزيز الطبيب فجأة،وهو والد سعد الدين الطبيب الأشرفي وهو الذي عناه القائل أظنه ابن عنين بقوله:

فرادى ولاخلف الخطيب جماعة
ومـوت ولاعبد العزيز طبيب[٣٧]

وفي شعبان سار أولاد صلاح الدين إلى حلب، وفي ثاني رمضان تجدد هواء قوي عقيبه مطر وثلج بحيث رمى بعض رصاص المسجد على رجلين في صلاة الجمعة فقتلهما.

وفي سابع عشر رمضان وصلت رسل الخلافة والشيخ شهاب الدين السهروردي، ونور الدين التركي الخليفتي، ولبس السلطان العادل أبو بكر، وولداه المعظم، والأشرف، والوزير صفي الدين بن شكر، وأستاذ الدار شمس الدين الدكز العادلي الخلع من القصر إلى القلعة، وكان

دلدرم حامل التقليد على رأسه بين يدي السلطان، ودخل جميعهم من باب الحديد عند آذان الظهر، وأنزل الرسل بدار عز الدين فرخشاه، ورباط خاتون، وقرأ الوزير التقليد قياما الى أن فرغ من قراءته، واتفق حضور شهاب الدين بن شداد قاضي حلب رسولا من الظاهر صاحبها، وعلى يده ألف دينار للنثار فلم يأذن له العادل بنثارها، وأمره بعد ذلك بحملها للرسل ثم عادت رسل الخليفة إلى بغداد وصحبتها قاضي العسكر خليل الحنفي، وشمس الدين الدكز أستاذ الدار بهدايا سنية وودعهم العادل إلى القصير.

وفي رجب ركبوا الساعة بالمئذنة الشمالية بالجامع، وشرعوا في عمارة البرج الذي في قبالة المدرسة القيمازية، وفي ثالث شوال ذكر القاضي شرف الدين عبد الله بن زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان الدرس في مدرسة ابن رواحة، وفي رابع وعشرين شوال سار الشيخ فخر الدين بن عساكر إلى القدس للإقامة بالمدرسة الناصرية، وفي الخامس والعشرين منه اعتقل السلار بهرام وأولاده على العملة بالقيسارية، وهي العملة المعروفة بابن الدخينة، واشتهرت في البلاد.

وفيها: وصل الخبر إلى دمشق بحدوث زلازل بنواحي بلد خلاط، وريح بحيث وقع خسف بموضع قد كان الأوحد بن العادل نازلا به، ورحل عنه قبل ذلك بليلة.

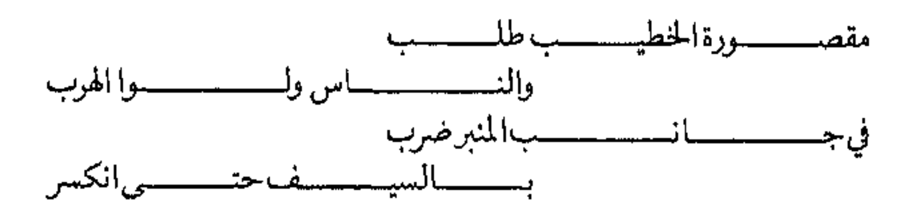
وفيها: توفي العفيف ابن الدوجي إمام مقصورة الحنفية الغربية بجامع دمشق.

- ٩١٠٠ -

ثم دخلت

سنة خمس وستمائة

ففيها: تكاملت دار الضيافة ببغداد بالجانب الغربي للحجاج الواردين من البلاد، ورتب لهم الخليفة فنون الأطعمة والزاد، وإذا عادوا من الحج فرقت فيهم الدنانير والثياب، ووصل حاج الشام دمشق في التاسع والعشرين من المحرم، وجاور الملك المحسن وتوفي أخوه الأشرف بحلب، وفي تاسع المحرم يوم الجمعة دخل عند الأذان في السحر مملوك افرنجي كان لفلك الدين سليمان وكان سكران إلى مقصورة الخطابة وفي يده سيف مشهور ضرب به جماعة مات منهم اثنان أو ثلاثة، ووقعت بعض الضربات في جانب المنبر فأثرت فيه، والناس مجتمعون لصلاة الصبح، وعملت في ذلك أشعار كان يغنى بها في الأسواق وسمعتها وأنا صغير أحفظ منها:



مقصـــورة الخطيـــب طلـــب
والنـــاس ولـــوا الهرب
في جـــانـــب المنبر ضرب
بـــالسيـــف حتـــى انكسر

ثم قبض عليه وترك بالمارستان وشنق بجسر اللبادين آخر النهار، ولم يكن على الجسر ذلك الزمان هذه العمارة بل كان على حافته الشرقية درابزين يدلى المشنوق فيه إلى الطريق المسلوكة، بجيرون، فيراه الناس من الطريق كما يرون المارة بالجسر المذكور.

وفيها: دخل الشيخ شهاب الدين السهروردي إلى بغداد من الرسالة بالشام، ومعه شمس الدين ألدكز أستاذ دار العادل، فتلقى الموكب الدكز، وكان معه الهدايا والتحف، وأعرض عن الشيخ الشهاب ونقم

عليه حيثمدّ يده إلى الأموال بالشام وحضر دعوات الأمراء سامة وغيره، وقد كان قبل الرسالة زاهدا فقيرا، وأخذ منه الربط التي كانت بيده: رباط الزوزني، والمرزبانية، ومنع من الوعظ، فقال: ماقبلت هذه الأموال إلا لأفرقها على الفقراء ببغداد وشرع يفرق الأموال والثياب في الزوايا والربط.

قال أبو المظفر: كان من عادة خالي أبي محمد يوسف يجلس يوم السبت تحت تربة أم الخليفة، والشهاب يجلس يوم الثلاثاء بباب بدر، فمنع الشهاب من الجلوس، وأمر خالي فجلس مكان الشهاب بباب بدر فاتفق أن حكى خالي حكاية الذي نظر في الرحبة إلى شخص مستحسن فاسود بعض وجهه، فرأى في المنام قائلا يقول: اذهب إلى بغداد إلى شيخك الجنيد فسله أن يستغفر لك: فنزل إلى بغداد وطرق زاوية الجنيد فقال له الجنيد: تذنب بالرحبة واستغفر لك ببغداد، فقال الناس: ماقصد إلا الشهاب، ومعناه لو تركت هذه الأموال بالشام كان أصلح من أخذها وتفريقها ببغداد، والظاهر أن خالي ماقصد نكت الشهاب، وإنما وقع ذلك على سبيل الاتفاق، وقد أغنى خلقا كثيرا من فقراء المسلمين بالشام والعراق والأموال كلها للمسلمين فقد صرفت إلى أرباب الاستحقاق.

قال: وكان الفخر بن تيمية قد حج في السنة الماضية وكتب مظفر الدين بن زين الدين معه كتابا إلى الخليفة بالوصية عليه فلما عاد من مكة سأل الجلوس بباب بدر فأجيب إلى ذلك، وتقدم إلى خالي بالحضور فحضر وقعد على دكة المحتسب بباب بدر، ووعظ ابن تيمية ومدح الخليفة وأنشد في أثناء ذلك:

وابن اللبون إذا مالذ في قرن
لم يستطع صولة البزل القناعس

-٩١٠٢-

فقال العوام: ماقصد إلا خالي يعني أن ابن تيمية كان شيخا وخالي شاب، قال: وكان الخليفة خلع على الشمس ألدكز أستاذ دار العادل، وعاد إلى الشام بالهدايا.

وزلزلت نيسابور زلزلة عظيمة ودامت عشرة أيام، فمات تحت الهدم خلق عظيم.

وحج بالناس من العراق المجاهد ياقوت، ومن الشام حسام الدين قايماز والي القدس الشريف.

قال العز بن تاج الأمناء: في عشية ثالث عشر رجب جرى بين التاج الكندي وابن دحية كلام ومشاتمة عند الوزير.

قلت: حكى لي من حضر ذلك المجلس أن الشيخ الحافظ أبا الخطاب عمر بن دحية لما عاد من رحلته الخراسانية قصد مجلس الوزير صفي الدين عبدالله بن علي المعروف بابن شكر وزير العادل، وكان الشيخ العلامة تاج الدين الكندي جالسا إلى جنبه فأجلس ابن دحية إلى الجانب الآخر،فشرع ابن دحية يورد حديث الشفاعة، فلما وصل إلى قول ابراهيم الخليل صلوات الله عليه وقوله: « إنما كنت خليلا من وراء، وراء» لفظ باللفظتين بفتح الهمزة فيهما فقال الكندي:« وراء. وراء» بالضم فعز ذلك على ابن دحية وكان جريئا ذا أنفة من الرد عليه، فقال للوزير: من ذا الشيخ؟ فقال له: هذا تاج الدين الكندي، فسمج ابن دحية في حقه بكلمات فلم يسمع من الكندي إلا قوله: هو من كلب فنبح، وهذه تورية حسنة من لفظ حلو، وذلك أن ابن دحية كان ينسب إلى كلب من العرب، وهي قبيلة دحية الصحابي رضي الله عنه، وفي الانتساب إليه كلام ونظر، فإن جماعة من المتقدمين قالوا لم يعقب على ماذكرناه في ترجمته في تاريخ دمشق، ووقع الناس في أبي الخطاب بسبب ذلك حتى

قال بعضهم:

دحيـــــة لم يعقـــــب فـــــلا تنتســــب
إليــــــه بـــــالبهتــــــان والإفــــــك
مـــــاصــــح عنـــــد النـــــاس شيء ســـوى
إنـــــك مـــــن كلـــــب بـــــلا شـــــك

فأخذ الشاعر المعنى الذي أشار إليه الكندي بذلك اللفظ الوجيز، أما اللفظتان المتنازع فيهما، فرأيت في أمالي أحمد بن يحيى ثعلب جواز الأمرين فيهما، والجر أيضا وقد نظمت ذلك في كتاب مفصل الزمخشري وغيره من المسائل النحوية وبالله التوفيق.

وفيها: في ثالث شهر رمضان توفي عم جدي عبد الرحمن بن أبي بكر ابن ابراهيم محمد المقدسي ويعرف بعبدان المعلم، كان معلما في المكتب الذي بباب الجامع الشامي قبالة خانقاه السميساطي، وعمر طويلا نحو تسعين سنة، ودفن بباب الفراديس، ومات جدي الذي هو ابن أخيه قبله بزمان، قرأت بخط عمي أبي القاسم بن ابراهيم بن عثمان الخشاب رحمه الله قال: توفي الشيخ الإمام أبو اسحاق ابراهيم بن الفقيه الإمام عثمان ابن أبي بكر المقدسي إلى رحمة الله في السابع والعشرين من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة قال: وتوفيت والدة أبي القاسم المذكور في ثاني شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة وهي جدتي أم أبي اسماعيل، فبينها وبين وفاة جدي شهر واحد، ودفنت بباب شرقي، ودفن جدي بباب الفراديس قبالة تربة الصفي بن القابض بينهما الطريق وعلى قبر عم جدي بلاطة فيها اسمه وتاريخ وفاته.

وفيها: توفي أبو العباس الخضر بن علي الجزري، ولد بجزيرة ابن عمر في سنة خمس وعشرين وخمسمائة، وقدم بغدام وله يد في تعبير الرؤيا وانشد لنفسه:

أنست بوحدتي حتى لو أني
رأيت الأنس لاستوحشت منه
وما ظفرت يدي بصديق صدق
أخاف عليه إلا خفت منه
وما ترك التجارب لي حبيبا
أميل إليه إلا ملت عنه

وفيها : توفي محمد بن بختيار بن عبد الله أخو أستاذ دار الخليفة، كان فاضلا أديبا أنشد يوما:

قسما بمن سكن الفؤاد وإنه
قسم به لو تعلمون عظيم
إني به صب كئيب مدنف
قلق الفؤاد موله مهموم
لا يستطيع مع التنائي سلوة
حتى الممات وإنني لسليم
فتعطفوا بالوصل بعد تهاجر
فالصبر ينفد والرجاء مقيم

وفيها: توفي الأمير سنقر الصلاحي بحلب رابع عشر المحرم، وهو أحد الأمراء المذكورين المجاهدين.

وفيها: في ربيع الأول توفي الشيخ أبو الخير مصدق بن شبيب بن الحسن النحوي الصلحي، من أهل فم الصلح، ولد سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، وصحب الشيخ صدقة الزاهد، وقرأ عليه القرآن والنحو، وأقام برباط صدقة، وقرأ على ابن الخشاب، وابن القصار، والكمال الأنباري، وسمع الحديث من أبي الفتح ابن البطي ودفن مع الشيخ صدقة في ضريحه، وكان على طريقه في الزهد والعبادة ومنقطعا عن الناس.

-٩١٠٥-

وفي ليلة الخميس ثاني شوال توفي الفصيح الواعظ بدمشق وهو: أرسلان بن علي بن غرلو الواعظ الحنفي، ودفن بباب الصغير على الطريق بالقرب من قبة ابن زين العابدين، واسمه على قبره.

وفي الرابع والعشرين من شوال وصل الخبر بأن الشرف الفلكي وجد مذبوحا في فراشه، ذبحه غلام له ليلة عيد الفطر بخلاط، وكان قد وزر للملك الأوحد وهو أخو الصفي الأسود، واسمه عبد المحسن بن اسماعيل بن محمود المحلي، وكان قد ناب بديوان دمشق عن الصاحب صفي الدين بن شكر في الدولة العادلية، ثم وزر لأخي العادل لأبيه فلك الدين فنسب إليه، ثم استقل وزيرا بخلاط للأوحد بن العادل إلى أن قتله مملوكه بها ليلة عيد الفطر سنة أربع أو خمس وستمائة، وحمله من خلاط إلى دمشق صديقه الرشيد عبد الله بن المظفر الصفوي ودفنه بجبل قاسيون، وصلب قاتله على قبره، وعند صلبه بدره الرشيد فطعنه بمدية في نحره .

وفي السابع والعشرين من ذي القعدة توفي الأمير المعروف بالجناح الكردي ابراهيم بن أحمد ودفن بالجبل، وخرج السلطان في جنازته، وفي الغد عمل عزاؤه في الجامع، وحضر جميع الأمراء الأكراد بالجوخ ومناديل على رؤوسهم، وهو أخو المشطوب وكبير أمراء الأكراد، وفي الخامس والعشرين من ذي الحجة شنق فضيل الخلاطي لكونه قتل تاجرا قزوينيا كان استشفع بالحشيشية ثم أنزل وحملت جنازته على الأصابع.

وفيها: وصل الخبر من حلب، بموت الأشرف عز الدين محمد بن صلاح الدين، ومن القدس بوفاة الأمجد حسن بن العادل وهو: شقيق المعظم والعزيز، ومن مصر بوفاة قاضيها صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي، ومن الجزيرة بقتل صاحبها سنجرشاه بن غازي بن مودود بن زنكي بن آق سنقر قتله ولده الأكبر غازي، وكان سنجرشاه

-٩١٠٦-

قد اطلع على سعي ولده هذا في دمه، فسجنه مدة وتسبب إلى أن خلص من السجن واختفى بالقلعة عند بعض النساء وأظهر أنه قد هرب، وندب واحدا من جهته يطوف البلاد متنكرا ويظهر أنه هو ففعل، ووفد على الأشرف فأكرمه ثم وصل إلى دمشق وشاع خبره فسكن سنجرشاه إلى ذلك وكان متحرزا فلما أمكنت الولد الفرصة هجم عليه ليلا فقتله بسيفه، وحلف الأمراء فملك الجزيرة يوما وليلة فأوثقه مماليك والده وأقاموا ولده الصغير محمود الملقب بالمعظم معزالدين، ثم قتل غازي.

وفيها: غارت الفرنج ووصلوا إلى باب تدمر من حمص بعد أن مدوا على نهر العاصي جسرا من خشب كانوا صنعوا آلته ببلادهم، وحملوها معهم وعبروا العاصي عليه، ثم رفعوه على جمالهم وقصدوا حمص فقصدتهم العساكر الاسلامية فهربوا على طريق قدس وحاز المسلمون أخشابهم وأثقالهم ومن انقطع منهم.

- ٩١٠٧ -

ثم دخلت

سنة ست وستمائة

ففيها: نزلت الكرج على مدينة خلاط في خلق عظيم مع ملكهم إيواي فضايقها وبها الأوحد بن العادل، فأشرف على أخذها وقال له منجمه يوما: ماتبيت الليلة إلا في قلعة خلاط فشرب الخمر حتى ثمل، وركب في جيوشه وقصد باب أرجيش فخرج إليه المسلمون فقاتلوه ورأوا مالا قبل لهم به، فبيناهم كذلك عثر به حصانه فقتل عليه جماعة من خواصه، وأخذ أسيرا فحمل إلى القلعة فما بات إلا بها، ورحل الكرج عن البلد، وفرج الله عن أهله، ثم اتفق مع الأوحد على أنه يرد مافتح من بلاد المسلمين ويطلق الأسارى ومائة ألف دينار، ويزوج ابنته للأوحد وقيل إنها كانت وقعة إيواي بعد حصار سنجار في سنة سبع وستمائة.

وفي ربيع الأول نزل العادل على سنجار بعساكر مصر والشام وحلب وديار بكر، ومعه أولاده الأوحد وغيره، وأقام يضربها بالمجانيق إلى رمضان، ولم يبق إلا تسليمها فأرسل الملك الظاهر من حلب أخاه المؤيد يشفع في السناجرة، وصاحبها يومئذ قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود رحمه الله فلم يشفعه، ومات المؤيد في هذه السفرة، وكره المشارقة مجاورة العادل فاتفقوا عليه مع صاحب إربل، وأرسل الخليفة ابن الضحاك أستاذ داره أقباش الناصري يشفع إلى العادل فيهم، فرحل بعد أن أخذ نصيبين والخابور، ونزل بحران، وفرق العساكر، وصالح المشارقة صاحب إربل والموصل والجزيرة وماردين وحلب، وحج بالناس من العراق ياقوت، ومن الشام فخر الدين إياس الشحامي.

وفيها: تـوفي الملك المؤيد مسعود بـن صلاح الدين بمـدينة رأس عين عند منصرفـة من رسالـة أخيه الظاهـر إلى عمه العادل في أمـر سنجار في النصف من شعبان وكان قد نام في بيت مـع ثلاثة وعندهم منقل فيه نار ولامنفذ في البيت فـانعكس البخار فأخـذ بأنفاسهم فماتـوا جميعا فحمل المؤيد في محفة إلى حلب ودفن بها.

وفيها: توفي الملك المغيـث فتح الدين عمر بن الملـك العادل بدمشق، ودفن بسفح قاسيون بالتربة التي فيها أخوه الملك المعظم.

وفيها: توفي الفخـر الرازي ابن خطيب الري صاحـب الكلام، والمنطق واسمه: محمـد بن عمـر بن الحسين، وكنيتـه أبو المعـالي مصنف التفسير، والمحصـول والمحصل، ونهايـة العقول، والأربعين وغيرهـا واعتنى بكتـب ابن سينا في المنطق وشرحها، وكان يعظ وينـال من الكرامية، وينالون منه سبا وتكفيرا، وقيل إنهم وضعوا عليه من سقـاه السم فمات ففرحوا بموته، وكانـوا يرمـونه بـالكبائر وكانـت وفاتـه في ذي الحجة ولاكـلام في فضله، وإنما الشنـاعات عليـه قائمـة بـأشياء منهـا: أنـه كان يقـول: قال محمـد التازي[٣٩] يعنـي العربي يـريد النبـي صلى الله عليه وسلـم، وقال محمـد الـرازي: يعنـي نفسـه، ومنهـا أنه كـان يقـرر في مسـائل كثيرة مـذاهـب الخصوم وشبههـم بأتم عبـارة فإذا جاء إلى الأجوبـة اقتنع بالإشـارة، وقد رأيت من أصحـابه جماعة قدمـوا علينا دمشق وكلهم كـان يعظمه تعظيما كثيرا، ولاينبغي أن يسمـع فيمن ثبتـت فضيلته كلام شنـع لعله صـاحب غرض من حسد أو مخالفة في مذهب أو عقيدة رحمه الله تعالى.

وبلغني أنه خلف من الذهب العين ثمانين ألف دينار خارجا عما كان يملكه مـن الدواب، والثياب والعقار والآلات، وخلـف ولدين أخـذ كل واحد منهما أربعين ألف دينار، وكان ابنه الأكبر قـد تجند في حياته وخدم السلطان محمـد بن تكش، وكان في زمـانه القاضي الوحيـد كبير القدر في

الوعظ يحضر مجلسه الأكابر من الملوك، والأمراء، والرؤساء وكان فخر الدين يتكلم فيه، فبلغه فأتاه مسلما فوقف على رأسه فرفع فخر الدين رأسه إليه ولم ينهض له وأنكر عليه مشافهته، بما كان ينكر عليه في غيبته فتبسم الوحيد، وقال: اطبخ لك أرزا بلبن تأكله ينفع رأسك ومزاجك، ثم دعا بالقدر والنار وجعل ينفخ النار بنفسه ليطبخ ذلك بحضرة فخر الدين ويتولى ذلك بنفسه على جلالة قدره، فقام فخر الدين فوقع على رجليه وبكى وسمع سلطان البلد فحضر وأحضر الأطعمة وآلات السماع وجرى لهم يوم طيب، وكان فخر الدين بعد ذلك يحضر مجلس الوحيد ويجلس قبالة وجهه بين ذلك الجمع العظيم.

وفيها: في سلخ ذي الحجة توفي المجد بن الأثير الجزري الأصل، الموصلي الدار، واسمه: أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم، كاتب، مصنف، صدر كبير، ولد سنة أربعين وخمسمائة بجزيرة ابن عمر، وانتقل إلى الموصل ونشأ بها، وقرأ الأدب والحديث وفنون العلم، وقدم بغداد حاجا، وسمع بها الحديث، وعاد إلى الموصل وكتب لأمرائها، وكان أمراء الموصل يحترمونه، ويعظمونه، ويستشيرونه، وكان بمنزلة الوزير الناصح إلا أنه كان منقطعا إلى العلم وجمعه، وصنف كتبا حسانا منها: جامع الأصول، والنهاية في غريب الحديث، وشرح مسند الشافعي رحمه الله تعالى، وكان به نقرس، وكان يحمل في محفة وكان يسكن بدرب دراج بالموصل وبه دفن، قرأ النحو على أبي محمد بن الدهان، ثم على أبي الحرم الضرير مكي بن ريان، وسمع الحديث من أبي بكر بن سعدون القرطبي، وأبي الفضل عبد الله بن الطوسي، وسمع ببغداد أبا الفرج ابن كليب وغيره، روى الحديث وانتفع به الناس وكان عاقلا بهيا ذا بر وإحسان وكان له أخوان فاضلان: ضياء الدين ابن الأثير الكاتب، كان وزير الأفضل بن صلاح الدين صاحب كتاب المثل السائر وغيره، وعز الدين علي بن الأثير صاحب التاريخ وغيره، قدم علينا دمشق، وأسمع بها بالجامع ودار الحديث النورية رحمهم الله.

وفيها: في ذي الحجة أيضا توفي ببغداد أبو علي يحيى بن الربيع بن سليمان الواسطي، مدرس النظامية، ولقبه مجد الدين، ولد بواسط سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وقرأ القرآن على جده سليمان، وتفقه على أبيه ورحل إلى نيسابور صحبة أبو القاسم بن فضلان، وعاد إلى بغداد وتولى تدريس النظامية، وكان عارفا بالتفسير، والمذهب، والأصولين، والخلاف، وصنف تفسيرا في أربع مجلدات، وبعثه الخليفة في رسالة إلى خراسان، سمع أبا الوقت وطبقته، وكان ثقة دينا صدوقا فدفن إلى جانب ابن فضلان رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الحسن بن أحمد بن جكينا من أهل الحريم الطاهري، كان فاضلا ومن شعره:

قد بان لي عذر الكرام فصدهم
عن أكثر الشعراء ليس بعار
لم يسأموا بذل النوال وإنما
جمد الندى لبرودة الأشعار

وفيها: توفي شمس الدين بن البعلبكي، والد المجد، وكان قاضي الفتيان بدمشق في العشرين من صفر، وهو الذي بعث إلى مصر ليشد الكامل فتوة للخليفة، جاء من بغداد الأمر بذلك.

وفيها: توفي شمس الدين سلام بن سلام والد اسماعيل، واسحاق الشاهد بدمشق حادي عشر ربيع الآخر.

- ٩١١١ -

ثم دخلت

سنة سبع وستمائة

ففيها وصل الحاج إلى دمشق صحبة ابن محارب ثاني صفر.

وفيها: أظهر الخليفة الاجازة التي أخذت له من الشيوخ وذكرهم في كتاب روح العارفين، ودفع إلى كل مذهب إجازة عليها مكتوبا بخطه: أجزنا لهم ماسألوه على شرط الإجازة الصحيحة، وكتب العبد الفقير إلى الله تعالى أبو العباس أحمد أمير المؤمنين،وسلمت إجازة أصحاب الشافعي إلى ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينة وإجازة أصحاب أبي حنيفة إلى الضياء أحمد بن مسعود التركستاني، وإجازة أصحاب أحمد إلى أبي صالح نصر بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر، وإجازة أصحاب مالك إلى التقي علي بن جابر التاجر المغربي.

قال أبو المظفر سبط بن الجوزي: وفيها: خرجت من دمشق إلى نابلس بنية الغزاة، وكان الملك المعظم عيسى رحمه الله بها، وجلست بجامع دمشق يوم السبت خامس ربيع الأول، وكان الناس من باب المشهد الذي لزين العابدين إلى باب الناطفانيين، وإلى باب الساعات، وكان القيام في الصحن أكثر بحيث امتلأ جامع دمشق وحزروا ثلاثين ألفا، وكان يوما لم ير بدمشق مثله ولابغيرها، وكان قد اجتمع عندي شعور كثيرة، يعني التي كان يقطعها من رؤوس التائبين.

قال: وقد وقفت على حكاية أبي قدامة الشامي مع تلك المرأة التي قطعت شعرها وبعثت به إليه وقالت: اجعله قيدا لفرسك في سبيل الله قال: فعملت من الشعور التي اجتمعت عندي شكالا لخيل المجاهدين وكرفسارات ولما صعدت المنبر أمرت بإحضارها فحملت على أعناق الرجال، وكانت ثلاثمائة شكال، فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة

وقطعوا مثلهـا وقامت القيـامة، وكان المبـارز المعتمد ابراهيـم والي دمشق حـاضرا فقـام وجمع الأعيان، فلما نـزلـت مـن المنبر قام المبـارز يطـرق لي ويمشي بين يدي إلى بـاب الناطفـانيين، فقدم لي فرس، فـأمسك بـركابي وأركبني، وخرجنا من باب الفـرج إلى المصلى، وجميع من كان بالجامع بين يدي، وسرنـا من الغـد إلى الكسوة، ومعنـا خلق كثير مثـل التراب، وكان معنـا من قـرية واحـدة يقال لها زملكـا نحوا مـن ثلاثمائة رجـل بالعـدد والسلاح، وأمـا من غيرهم فخلـق كثير والكل خـرجوا احتسابـا وجئنا إلى عقبة أفيق، والطير لاتقـدر تطير من خوف الفرنـج، فسرنا على الجادة إلى نـابلس، ووصلـت أخبـارنا إلى عكـا، وخـرج المعظم فـالتقـانا وسر بنـا، وجلست بجـامع نابلس وحضر وأحضرنـا الشعور فأخذهـا وجعلها على وجهه وجعـل يبكي، وكان يـوما عظيما، ولم أكـن اجتمعت به قبـل ذلك اليوم، وخدمنا وأكرمنـا وخرجنا نحو بلاد الافرنج فأخـربنا وهدمنا وقطعنا أشجارهم وأسرنا جماعـة ولم يتجاسروا أن يخرجوا من عكا فأقمنـا أياما ثم عـدنـا سـالمين غـانمين إلى الطـور المطـل على النـاصرة، والمعظـم معنـا فقـال:أريد أن أبني عليه قلعـة، وطلـب أخاه الملـك الأشرف، وعساكـر الشرق، وحلب وشرع في عمارة الطـور وأقام العسكر تحته مـن ذي الحجة مـن هذه السنـة إلى اخـر سنـة ثمان وستمائة فكمل سـوره ودار واستـوى فخاف الفـرنج فـأرسلوا إلى العادل فصـالحهم وأعطـى العساكـر دستورا فتفـرقوا، وأقـام المعظـم يعمر الطـور إلى قبيل وفـاة العـادل، فلا يحصـى ماغـرم عليه، وحج بالنـاس من الشام سيف الـدين علي بن علـم الـدين سليمان بن جندر، وكان قدم من حلب لذلك واحتفل الناس له.

وفيها: توفي صاحـب الموصل نور الدين أرسلان بن عـز الدين مسعود ابن قطب الدين مودود بن زنكي في رجب وقيل في صفر.

قال أبـو المظفر: وكان متكبرا، جبـارا، بخيلا، فاتكـا، سفاكا للـدماء،

حبس أخاه علاء الدين فمات في حبسه، وولى الموصل رجلا ظالما يقال له السراج، فأهلك الحرث والنسل.

وفيها: توفي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن علي الصوفي المعروف بابن سكينة، ولقبه ضياء الدين ولد سنة تسع عشرة وخمسمائة، وقرأ القرآن على الشيخ أبي محمد المقرىء شيخ تاج الدين الكندي، وسمع الحديث الكثير، وكان صديق أبي الفرج بن الجوزي، ملازما لمجالسه ويزوره، وسأله أبو الفرج لما عاد من واسط أن يلبس ابنه يوسف خرقة التصوف فألبسه إياها بقطفتا، وكانت وفاته في ربيع الآخر وقد قارب سبعين سنة وصلى عليه بجامع القصر، وكان يوما مشهودا حضره أرباب الدولة ودفن عند باب جامع القصر إلى جانب رباط الزوزني.

وذكره محمد بن الدبيثي في ذيله وقال: هو سبط شيخ الشيوخ أبي البركات اسماعيل بن أحمد النيسابوري، ورافق أبا سعد ابن السمعاني ببغداد، وسمع من قاضي المارستان، وابن الحصين وأبي غالب محمد بن الحسن الماوردي، وأبي البركات الأنماطي، وجده لأمه شيخ الشيوخ اسماعيل، وزاهر بن طاهر الشحامي، وأبا الفتح الكروخي، وأبا الوقت وغيرهم، وحدث ببغداد والشام ومكة ومصر والمدينة وغيرها وكان من الأبدال.

وفيها: توفي ببغداد أبو حفص عمر بن محمد بن يحيى المعروف بابن طبرزد الدارقزي.

قال أبو المظفر: ولد في ذي الحجة سنة عشر وخمسمائة، سمع حديثا كثيرا من أبي غالب بن البناء، وأبي الحسن بن الزاغوني، وأبي القاسم بن الحصين، وابن السمرقندي وقاضي المارستان، وأبي الوقت وغيرهم، وكان معلما للصبيان بدار القز ببغداد، وكان خليعا ماجنا، وسافر مع حنبل إلى الشام، وحصل له مال بسبب الحديث، وعاد مع حنبل إلى بغداد فأقام

حنبل يعمل لـه تجارة، فتوفي سنة ثلاث وستمائة، فسلك طريق حنبل في استعمال الكـاغد والعتابي فمـرض مدة ثـم توفي ودفن ببـاب حرب، ولم يكـن له وارث، فـرجـع المال إلي بيت المال. وجـدت بخـط الحافظ عبـد العظيم المنذري: إن الشيخ أبـا عمر المذكور، توفي في يوم الثلاثـاء التاسع والعشريـن مـن ربيـع الأول مـن السنـة رحمهما الله تعـالى ودفـن بجبـل قاسيون(٤٠).

وفيها : توفي الشيـخ أبو عمر شيخ الصالحيـة والمقادسة الزاهـد العابد واسمه: محمد بن أحمد بن محمد بن قـدامة، أخو الشيخ الموفق، ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة بقرية الساويا من أعمال نابلس، وقيل بجماعيل.

قـال أبو المظفـر: حدثنـي أبو عمـر قال: هـاجـرنا مـن بلادنـا فنزلنـا بمسجـد أبي صـالح ببـاب شرقي، فأقمنـا به مـدة ، ثم انتقلنـا إلى الجبل فقال النـاس: الصالحية، الصـالحية، نسبونـا إلى مسجد أبي صالـح لأننا صالحون.

قال: ولم يكن بالجبل عمارة إلا دير الحوراني وأماكن يسيرة.

قال أبو المظفر: وكان معتدل القامـة، حسن الوجه، عليه أنوار العبادة لايزال مبتسما، نحيـل الجسم من كثرة الصيـام والقيام، قرأ القـرآن بحرف أبي عمـرو، وحفـظ مختصر الخرقـي في الفقه، وقـرأ النحـو على ابـن بـري بمصر، وسمـع الحديث بـدمشق ومصر، واشتغـل بـالعبادة عـن الروايـة، وكتب الحليـة لأبي نعيم، وتفسير البغوي، والمغنـي لأخيه الموفق، والإبـانة لابن بطة، ومصاحف كثيرة للنـاس ولأهله، وكتبا كثيرة والكل بغير أجرة، وكان يصـوم الدهر ألا من عـذر، ويقوم الليل من صغـره، ويحافظ على الصلـوات في الجماعـات، ويخرج من ثلـث الليـل الأخير إلى المسجـد في الظلمة فيصلي إلى الفجـر، ويقرأ في كـل يوم سبعـا من القـرآن بين الظهر

والعصر، ويقرأ بعد العشاء الآخرة يس، وتبارك، والواقعة، والمعوذتين، وقل هو الله أحد، وإذا ارتفعت الشمس لقن الناس القرآن إلى وقت الضحى، ثم يقوم فيصلي الضحى ثماني ركعات، ويقرأ قل هو الله أحد ألف مرة، ويزور المقابر بعد العصر في كل يوم جمعة، ويصعد يوم الاثنين والخميس إلى مغارة الدم ماشيا بالقبقاب فيصلي فيها مابين الظهر والعصر، وإذا نزل جمع الشيح من الجبل وربطه بحبل وحمله إلى بيوت الأرامل واليتامى، ويحمل في الليل إليهم الدراهم والدقيق ولايعرفونه، ولاينام إلا على طهارة ومتى فتح له بشيء من الدنيا آثر به أقاربه وغيرهم، وتصدق بثيابه، وربما خرج الشتاء وعلى جسده جبة بغير ثوب، ويبقى مدة طويلة بغير سراويل، وعمامته قطعة من بطانة فإن إحتاج أحد إلى خرقة أو مات صغير يحتاج إلى كفن قطع له منها قطعة، وكان ينام على الحصير ويأكل خبز الشعير، وثوبه خام إلى أنصاف ساقيه، ومانهر أحدا، ولاأوجع قلب أحد، وكان يقول: أنا زاهد ولكن في الحرام، ولما نزل صلاح الدين على القدس كان هو وأخوه والجماعة في خيمة فجاء العادل إلى زيارته وهو في الصلاة فما قطعها ولاالتفت ولاترك ورده، وكان يصعد المنبر في الجبل وعليه ثوب خام مهدول الجيب،وفي يده عصا والمنبر يومئذ ثلاث مراقي، وكان يجاهد في سبيل الله يحضر الغزوات مع صلاح الدين، وكان أخوه الموفق يقول عنه: هو شيخنا ربانا وأحسن إلينا وعلمنا، وحرص علينا، وكان للجماعة كالوالد يقوم بمصالحهم ومن غاب منهم خلفه في أهله، قال: وكان أبو عمر قد تخلى عن أمر الدنيا وهمومها وكان المرجع في مصالح الأهل إليه، وهو الذي هاجر بنا، وسفرنا إلى بغداد، وبنى لنا الدير، ولما رجعنا من بغداد زوجنا وبني لنا دورا خارجة عن الدير، وكفانا هموم الدنيا، يؤثرنا ويدع أهله محتاجين ، وبني المدرسة والمصنع بعلو همته، وكان مجاب الدعوة، وماكتب لأحد ورقة للحمى إلا وشفاه الله تعالى، وكراماته كثيرة وفضائله غزيرة.

فمنها: أنني صليت يوم جمعة بجامع الجبل في أول سنة ست وستمائة والشيخ عبد اللهاليونيني إلى جانبي، فلما كان في آخر الخطبة، وأبو عمر يخطب نهض الشيخ عبد الله مسرعا وصعد إلى مغارة التوبة، وكان نازلا بها فظننت أنه قد احتاج إلى الوضوء، وآلمه شيء، فلما صلينا الجمعة صعدت وراءه وقلت له: خير ماالذي أصابك؟ قال: هذا أبو عمر ماتحل خلفه صلاة، قلت: ولم؟ قال: لأنه يقول على المنبر مالا يصلح، قلت: وماالذي قال: قال: الملك العادل، وهو ظالم فما يصدق، وكان أبو عمر يقول في آخر الخطبة: اللهم وأصلح عبدك الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب، فقلت له: إذا كانت الصلاة خلف أبي عمر ماتصح فياليت شعري خلف من تصح؟! وخطر لي قول عبد الرحمن بن عوف لما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يمشي في أزقة المدينة فتبعه فأتى إلى بيت عجوز فدخله، قال: فقلت لأنظرن مايصنع فتواريت وإذا به قد خرج من عندها فدخلت بعده وقلت للعجوز: ماكان هذا يصنع عندك؟ فقالت: يحمل إلي ماآكل ويخرج الأذى عني، قال عبد الرحمن فقلت في نفسي: ويحك ياعبد الرحمن اعثرات عمر تتبع.

قال أبو المظفر: وبينما نحن في الحديث وإذا بالشيخ أبي عمر قد صعد إلى مغارة التوبة فدخل ومعه مئزر فسلم وحل المئزر وفيه رغيف وخيارتان، فكسر الجميع وقال: بسم الله الصلاة ثم قال: ابتداءا قد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:« ولدت في زمن الملك العادل كسرى»[٤١] فنظر إليّ الشيخ عبد الله وتبسم ومدّ يده فأكل، وقام أبو عمر فنزل فقال لي عبد الله ياسيدي ماذا إلا رجل صالح.

قلت: الشيخ عبد الله اليونيني كان أيضا من الصالحين، وقد رأيته وسيأتي ذكره في أخبار سنة سبع عشرة بعد عشر سنين من وفاة الشيخ أبي عمر، وهو لفرط صلاحه وورعه مارأى مسامحة مثل الشيخ أبي عمر في إطلاق لفظ العادل على من هو في ظنه غير مستحقه، وعذر الشيخ أبي

عمر في ذلك أنه اسم من الأسماء الأعلام لاتلحظ فيه الصفة فهو كالتسمية بسالم، وغانم، ومحمود، ومسعود، بغير قصد المعنى المسمى بذلك في حالة يكون فيها متصفا بضد مايقتضيه اشتقاق هذه الأسماء، فيكون عاطبا، ولايدعى إلا بسالم، أو مذموما ولايدعى إلا بمحمود، تعريفا لامدحا، فكذا اطلاق لفظ العادل في حق من أطلقه فيه الشيخ أبو عمر على أنه قد اعتذر بعذر آخر وهو إطلاق هذا اللفظ على كافر، ولاظلم أعظم من الشرك بالله تعالى. قال الله تعالى:(إن الشرك لظلم عظيم)(٤٢) قال:(ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)(٤٣) أي بشرك، فإذا لم يمنع الشرك المحقق من إطلاق لفظ العادل من اتصف به لايمنع ظلم مافي شيء من الأشياء التي دون الشرك أولى، بقي في قضية الشيخ عبد الله إشكالا من كونه ترك صلاة الجمعة، ولعله كان مسافرا فلم تكن الجمعة واجبة عليه، والله أعلم.

قال أبو المظفر: وأصابني قولنج عانيت فيه شدة فدخل علي أبو عمر وبيده خروب شامي، فقال: استف هذا وكان عندي جماعة فقالوا: هذا يزيد في القولنج ويضره، فما التفت إلى قولهم وأخذته من يده فأكلته فبرئت في الحال.

قال: وحكى لي الجمال البصراوي الواعظ قال: أصابني قولنج في رمضان فاجتهدوا أني أفطر، فلم أفعل، فصعدت إلى قاسيون فقعدت موضع الجامع اليوم وإذا أنا بالشيخ أبي عمر قد أقبل من الجبل وبيده حشيشة فقال شم هذه تنفعك فأخذتها وشممتها فبرئت.

قال: وجاء رجل مغربي فقرأ عليه القرآن، ثم غاب عنه مدة، وعاد فلازمه، فسئل عن ذلك فقال: دخلت ديار بكر فأقمت عند شيخ له زاوية وتلامذة، فبينما هو ذات يوم جالس بكى بكاء شديدا وأغمي عليه ثم أفاق وقال: مات القطب الساعة ، وقد أقيم أبو عمر شيخ الصالحية مقامه.

قال: فقلت له: ذلك شيخي، قال:فإيش قعودك ههنا قم فاذهب إليه وسلم عليه عني، وقل له لو أمكنني السعي إليه لسعيت، ثم زودني وسافرت.

قال أبو المظفر: وقلت له يوما أول ماقدمت الشام، وماكان يرد أحدا شفاعته كائنا من كان، وقد كتب ورقة إلى الملك المعظم عيسى بن العادل، وقال فيها: إلى الولد المعظم، فقلت: كيف تكتب هذا والملك المعظم في الحقيقة هو الله، فتبسم ورمى إلي الورقة وقال لي: تأملها وإذا به لما كتب المعظم كسر الظاء فصارت المعظم، وقال: لابد أن يكون يوما قد عظم الله تعالى، فتعجبت من ورعه وتحفظه في منطقه عن مثل هذا.

قلت: وساعده على تمشية تلك الكسرة أن كل من رآها يعتقد أنها للميم المستحقة للجر فلا ينكرها وحصل له مانواه، نظير هذا القصد مايروى عن سفيان الثوري أنه أنكر على ابن أبي ذئب رحمهما الله قوله للمنصور أبي جعفر في مخاطبته له أنا أنصح لك من ابنك المهدي، وقال له: لم قلت المهدي؟ فقال: ياأبا عبد الله كلنا كان في المهد.

قال أبو المظفر: وقال أبو عمر يوما للمبارز المعتمد قد أكثرت عليك من الرقاع والشفاعات؟ فقال له: ربما تكتب إلي في حق أناس لايستحقون الشفاعة وأكره رد شفاعتك، فقال له: أنا أقضي حق من قصدني، وأنت إن شئت تقبل، وإن شئت فلا تقبل، فقال: ماأرد ورقتك أبدا.

قال: وكان على مذهب السلف الصالح حسن العقيدة، متمسكا بالكتاب والسنة والآثار المروية وغيرها كما جاءت، من غير طعن على أئمة الدين وعلماء المسلمين، وينهى عن صحبة المبتدعين، ويأمر بصحبة الصالحين.

وكان سبب موتـه أنه حضر مجلسا بقاسيون في الجامع مـع أخيه الموفق والعباد والجماعة، وكان قاعدا في البـاب الكبير وجرى الكلام في رؤية الله تعالى ومشاهدته فاستغرقت في ذلك وكان وقتا عجيبا وأبوعمر جالس إلى جانـب أخيه الموفـق، فقام وطلـب باب الجامـع ولم أره فالتفـت فإذا بين يديـه شخص يريـد الخروج من الجامع فصحـت على الرجل أقعـد، فظن أبو عمر أنني أخاطبه، فجلـس على عتبة باب الجامع الجوانية إلى أن فرغ المجلس، ثم حمل إلى الديـر فكان آخر العهد به، وأقام أيـاما مريضا، ولم يترك شيئا مـن أوراده، فلما كان عشية الاثنين ثامـن عشر ربيع الأول جمع أهله واستقبـل القبلة ووصـاهم بتقوى الله ومـراقبته، وأمـرهم بقـراءة يس وكـان آخر كـلامـه:(إن الله اصطفـى لكم الـديـن فـلا تموتن إلا وأنتـم مسلمون)(٤٤) وتوفي رحمه الله وغسـل في وقت السحر،ومـن وصل إلى الماء الذي غسل به نشـف به النساء مقانعهن والرجـال عمائمهم، ولم يتخلف عن جنـازته أحد من القضـاة، والأمراء، والعلماء، والأعيان وعامـة الخلق، وكان يومـا مشهودا، ولما خرجوا بجنـازته من الديـر كان يوما شـديد الحر فأقبلـت غمامة فـأظلت النـاس إلى قبره وكان يسمـع منها دوي كـدوي النحـل، ولـولا المبـارز المعتمـد، والشجـاع بـن محارب، وشبـل الـدولـة الحسـامي مـاوصـل من كفنـه إلى قبره شيء، وإنما أحاطـوا بـه بالسيـوف والدبـابيس، وكان قبـل وفاته بليلـة رأى إنسان كـأن قاسيون قـد وقع أو زال من مكـانه فـأولوه بمـوته، ولما دفـن رأى بعض الصـالحين في منامـه تلك الليلة النبي صلى الله عليه وسلم وهـو يقول: « من زار أبا عمر ليلة الجمعة فكـأنما رأى الكعبة، فأخلعوا نعـالكم قبل أن تصلوا إليـه» ومات عن ثمانين سنة ولم يخلف دينـارا ولادرهما ولاقليلا ولاكثيرا، قال: وعلمني دعاء السنةفقـال: مازال مشايخنا يـواظبون على هذا الدعـاء أول كل سنة وآخرها وما فاتني طول عمري.

فأما أول السنة فإنك تقول: اللهم إنك الأبدي القديم، وهذه سنة جديدة أسألك فيها العصمة من الشيطان وأوليائه، والعون على هذه النفس الأمارة بالسوء، والإشتغال بما يقربني إليك ياذا الجلال والإكرام، فإن الشيطان يقول قد آيسنا من نفسه فيما بقي، ويوكل الله به ملكين يحرسانه.

وأما دعاء آخر السنة فإنك تقول في آخر يوم من أيام السنة: اللهم ماعملت في هذه السنة مما نهيتني عنه ولم ترضه ولم تنسه وحملت عني بعد قدرتك على عقوبتي ودعوتني إلى التوبة من بعد جرأتي على معصيتك فإني استغفرك منه فاغفر لي، وماعملت فيها مما ترضاه ووعدتني عليه الثواب فأسألك أن تتقبله مني ولاتقطع رجائي منك ياكريم.

قال: فإن الشيطان يقول: تعبنا معه طول السنة فأفسد فعلنا في ساعة، قال: وأنشدني أبو عمر:

ألم يك ملهاة عن اللهو أنني
بدا لي شيب الرأس والضعف والألم
ألم بي الخطب الذي لو بكيته
حياتي حتى ينفد الدمع لم ألم

قال: وأنشدني أبو عمر لنفسه:
أوصيكم بالقول في القرآن
بقول أهل الحق والإتقان
وليس بمخلوق ولا بفان
لكن كلام الملك الديان
آياته مشرقة المعاني
نتلوه لله باللسان

محفـــوظـــة في الصـــدر والجنـــان
مكتـــوبـــة في الصحـــف بـــالبنـــان
والقـــول في الصفـــات يـــا أخـــواني
كـــالـــذات والعلـــم مـــع البيـــان
أسرارهـــا مـــن غير مـــا كفـــران
مـــن غير تشبيـــه ولا عطـــلان

وكان لـه من الأولاد مـن الذكور: عمـر والد أحمد بـن عمر، وبـه كان يكنى أبـو عمر، والشرف عبد الله والد العـز، وأحمد، وعبد الرحمن، البـاقي منهم في هـذا الزمـان، وهو سنـة خمس وخمسين وستمائة أصغرهـم شمس الدين عبد الـرحمن خطيب جامع الجبل بعد أخيـه الشرف عبد الله. قال: وكـان لأبي عمـر بنات كما قـال الله تعـالى:(مسلمات مـؤمنات قـانتـات تائبات عابدات سائحات)[٤٥] الآية ومما رثي به أبـو عمر قول محمد بن سعد المقدسي:

أبعـــد أن فقـــدت عينـــي أبـــا عمـــر
يضمنـــي في بقـــايـــا العمـــر عمـــران
مـــا للمســـاجـــد منـــه اليـــوم مقفـــرة
كـــأنها بعـــد ذاك الجمـــع قيعـــان
مـــا للمحـــارب بعـــد الأنـــس مـــوحشـــة
كـــأن لم يتـــل فيهـــا الـــدهـــر قـــرآن
تبكـــي عليـــه عيـــون النـــاس قـــاطبـــة
إذ كـــان في كـــل عين منـــه إنســـان
وكـــان في كـــل قلـــب منـــه نـــور هـــدى
فصـــار في كـــل قلـــب منـــه نيران
وكـــل حـــي رأينـــا فهـــو ذو أســـف
وكـــل ميـــت رآه فهـــو فـــرحـــان
لا زال يسقـــي ضريحا أنـــت ســـاكنـــه
سحـــائب غيثهـــا عفـــو وغفـــران

كـــم ميـــت ذكـــره حـــي ومتصـــف
بـــالحي ميـــت لـــه الأثـــواب أكفـــان

قلت: وقبره في طريق مغارة الجوع في الزقاق المقابل لدير الحوراني على يمين المار إلى المغارة وإلى جانبه قبر أبيه الشيخ أحمد رحمه الله، وأول ماوقفت على قبره وزرته وجدت بتوفيق الله تعالى رقة عظيمة وبكاء صالحا، وكان معي رفيق لي وهو الذي عرفني قبره وجد أيضا مثل ذلك، وأخبرني أصحابنا الثقات أنه رأى الإمام الشافعي رحمه الله في المنام فسأله إلى أين يمضي؟ فقال: أزور أحمد بن حنبل، قال: فاتبعته أنظر ماذا يصنع، فدخل دارا فسألت لمن هي؟ فقيل للشيخ أبي عمر رحم الله الجميع.

وفيها: اتفقت الملوك على العادل منهم سلطان الروم، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، وصاحب حلب، وصاحب الجزيرة، وصاحب سنجار، ومن تابعهم اتفقوا على مشاققة العادل وأن تكون الخطبة بالسلطنة لصاحب الروم خسرو شاه بن قليج أرسلان، وأرسلوا إلى الكرج بالخروج إلى جهة خلاط، وخرج كل منهم بعساكره إلى حدود بلاده مجمعا على الإجتماع بصاحبه على قصد الملك العادل وايجافهم عليه بخيلهم ورجلهم وكتبهم ورسلهم، وهو مقيم ثابت بظاهر حران، وعنده صهره صاحب آمد ابن قرا أرسلان، ونزل الكرج على خلاط سابع عشر ربيع الآخر مع مقدمهم إبواي، وصاحبها يومئذ الأوحد أيوب بن العادل، فزحفوا على البلد بين الصلاتين من يوم الاثنين تاسع عشرة، وهجموا الربض وقدر الله تعالى وقوع مقدمهم إبواي بفرسه في حفرة بالربض، وهو سكران فأخذ أسيرا، وعرفه ياقوت الخادم المالطي فحمله إلى الأوحد فأكرمه وخلع عليه والتمس منه صد الكرج عن البلد، فاستدعى إليه منهم من يثق به ليشاهد أنه سالم، وأمرهم بالرحيل عن خلاط فرحلوا من ساعتهم نحو بلادهم، ثم لم يجسروا على مخالفته

ولاتعرضوا لقرية من عملها بأذية، وقد كان من بخلاط أيقن بذهاب الأنفس والأموال، فدفع الله عنهم، وبادر الأوحد باطلاع والده العادل على مامنحه الله من الظفر، فكاد يذهل فرحا واستطارت الأخبار بذلك شرقا وغربا، وعلم من كان مجمعا على قصد العادل من الملوك بالحالة فتقهقرت آراؤهم وبادر كل منهم بالرسل إليه ويحيل على غيره ويبذل الطاعة، فقبل أعذارهم، وعقد معهم صلحا، في جمادى الأولى، ورغب إبواي إلى الأوحد في أن يفدي نفسه، وبذل ثمانين ألف دينار وإطلاق ألفي أسير من المسلمين، وتسليم إحدى وعشرين قلعة متاخمة لأعمال خلاط كان تغلب عليها وتزويج بنت الملكة بالأوحد، وتزويج ابنته لأخي الأوحد من أمه، وأن تكون الكرج معه أبدا سلما لايؤذون شيئا من أعماله، وإن قصد بلاده عدو سارعوا في دفعه عنها، فاستأذن الأوحد والده العادل في ذلك فأمضاه وأمر بإطلاقه بعد الإستيثاق منه بالإيمان والرهان ففعل، وأطلقه في ثاني عشر جمادى الآخرة.

قال العز بن تاج الأمناء: ومن أعجب ماسمعته في هذه القضية أن إبواي لما نزل بخلاط قال له منجمه في بكرة يومه: إنك ستدخل إلى قلعة خلاط قريب العصر من يومك في زي غير زيك هذا، فتخيل قوله في نفسه وشرب، فلما سكر ذكر قول المنجم، وكان قسيسه فركب لوقته وزحف فكان من أمره ماقدر الله تعالى، وأدخل إلى القلعة وقت العصر أسيرا لابسا خلعة الأوحد فاعجب لهذا الإتفاق.

ولما وصل إلى بلاده عاد إلى ماكان عليه من التقدمة على عساكر الكرج، وحمل بعض ماكان بذل للأوحد وسومح بالباقي، ثم لما أن صارت خلاط للأشرف تزوج بابنته.

وفي ثاني شعبان كان إملاك نور الدين رسلان شاه صاحب الموصل على ابنة العادل، وعقد العقد في آخر رجب، وقام ولده عز الدين مسعود بالأمر، وكان العقد مع وكيله بعد موته ولم يعلم بذلك.

وفي الخامس والعشرين من شعبان ظهرت عملة ابن السلار على المعروف بابن الدخينة بعد طول مكثه في السجن، وموت زوجته تحت الضرب وعصره دفوعا، وعصر بناته وابنه فلم يقروا بشيء، وكان أكثر الذهب مدفونا تحته بسجن القلعة وانكشف أمرها بأيسر حال من جهة منصور بن السلار، فإنه كان الباحث عنها بسبب أنه كان حبس عليها واتهم بها، وجمع من الليل إلى آخر النهار عشرة آلاف دينار، ثمّ تحصل فيها بعد بقية مبلغها ثم مات ابن الدخينة في الحبس وصلب ميتا على قيسارية الفرش يوم السبت الثامن والعشرين من رجب، وأنا رأيته مصلوبا وعمري يومئذ ثماني سنين، ودخلت في التاسعة، اللهم استر في الدنيا والآخرة.

وفيها: في سابع شوال شرع في عمارة المصلى بظاهر دمشق المجاور لمسجد النارنج برسم صلاة العيدين، وهدم حائطه القبلي ومنبره ليجدد، فبني بغير سقف بل انتهت حيطانه من الجوانب الأربع، وفتحت له الأبواب وشرفت أعالي حوائطه، وبني له منبر كبير عالي بجوانب المحراب، وفوقه قبة مبيضة، وتحت أرض القبة خلو إلى الأرض يتصل به الصف الأول خلف الإمام، وكان يركز العلمان الأسودان في أعلى الدرج ويقف الخطيب بينهما فيراه جميع من في المصلى من كل جانب، وكان بناء حيطانه وإغلاق أبوابه صيانة له مما كان يوضع في أرضه من الدواب الميتة، والعظام، والأرواث ولاسيما مؤخر المصلى من شاميه، ثم إنه بعد ذلك في سنة ثلاث عشرة وستمائة ترتب الخطيب لإقامة الجمعة فيه سابع عشر رمضان بعد أن جدد في قبلته رواقان سقف أحدهما، ولم يتمم الآخر لوفاة الملك العادل الآمر بذلك، ولزم من ذلك خراب ذلك المنبر، فجعل له منبر خشب كالذي في سائر الجوامع، وترتب فيه إمام راتب يصلي الجمعة وغيرها.

وفيها: في حادي عشر شوال جددت أبواب جامع دمشق الغربية من جهة باب البريد بالنحاس الأصفر وركبت، وفي سادس عشر شوال شرع في إصلاح الفوارة، بجيرون، وعمل الشاذروان والبركة بساحتها، واتخذ فيها مسجدا بإمام راتب، وأول من ترتب فيه بأمر الصاحب الوزير ابن شكر النفيس المصري، كان يلقب بوق الجامع لقوة صوته، وكان قرأ على الشيخ أبي منصور الضرير المتصدر بالجامع، وكان حسن الصوت، وكنت أقرأ عليه في صباي، وكان يجتمع الناس إذا قرأ النفيس عليه كثيرا.

قال العز بن تاج الأمناء: وفي العشر الأوسط من ذي الحجة كان الابتداء بعمارة حصن الطور بتولي الملك المعظم واقتراحه ومساعدة والده له برجال العسكر ودوابه نوبا.

وفي العشر الأخير من ذي الحجة توجه اليان القبرسي لعنه الله في مراكب من عكا إلى الديار المصرية، فوصل إلى ساحل دمياط فأرسى غربيها، وسلك في البر بخيله ورجله إلى القرية المعروفة ببورة، وهي على ساحل النيل فكبسها سحرا وسبى أهلها وحاز ذخائرها وعاد على أثره في بقية يومه إلى مراكبه، وبلغ إلى دمياط خبره فبادر الرجال إليه فألفوه قد حصل بظهر البحر في مراكبه، وامتنع عن طالبه، ووصل الأسرى والغنائم إلى عكا، وقد نال بفعلته هذه والتي قبلها نوبة فوة من الديار المصرية في سنة ستمائة مالم ينله أحد من الفرنج قبله ولاأقدم اقدامه (٤٦).

قال: وفي عاشر المحرم وصل حسن الحمار من مكة سابقا للحاج، وأخبر بأن قتادة صاحب مكة قتل المعروف بعبدالأسير ثم وصل كتاب مرزوق الطشتدار الأسدي في الخامس والعشرين من المحرم، وكان حاجا يخبر فيه بأن قتادة قتل إمام الحنفية وإمام الشافعية بمكة، ونهب الحاج اليمني، ثم وصل الحجاج إلى دمشق صحبة ابن محارب يوم الاثنين ثاني صفر، وفي عاشر صفر توفي المخلص بلدق الزاهد المعظم بدمشق.

-٩١٢٦-

وفيهـا: توفي مظفـر بن شـاشير الواعـظ الصوفي البغـدادي، ولد سنـة ثـلاث وعشريـن وخمسمائة، وكـان يعـظ في الأعزيـة، وتـرب الـرصـافـة، والمساجد، والقرى، وكـان مطبوعا كيسا ظريفا، وكـان يسكن دار العميد عند الصوفية، فتوفي في المحرم، ودفن عنـد قبر معروف الكرخي، سمع أبا الوقت وطبقتـه، جلس يوما في مسجد بـالقرية فقام إليه انسـان فقال له: أنا مـريض وجائع، فقـال له: إحمد ربك فقد عـوفيت، واجتاز يوما على قصاب يبيـع لحما هزيـلا والقصاب ينادي: أيـن من حلـف أن لايغبن؟ فقال له ابن شـاشير حتـى تحنثه. وقال: خرجت يومـا إلى بعقوبا فتكلمت بها في الليل في جـامعها، فقام واحد فقـال: عندي للشيخ نصفيـة، وقال آخر: عندي نصفية فعدوا نحـو خمسين نصفية، فقلت في نفسي: استغنيت الليلـة، فلما أصبحت وإذا في زاويـة المسجد مقـدار كارة شعير، فقلـت: ماهذا؟ فقـالوا النصافي كل كيل شعير نصفية، قـال: وجلست بباجسرى فجمعوا شيئـا ماأعلم مـاهو، فلما أصبحنـا إذا في جانب المسجـد صوف الجامـوس وقرونـه، فقـام واحد ينـادي عليـه: مـن يشتري صوف الشيـخ وقرونه، فقلت: ردوا صوفكم وقرونكم إليكم(٥٧) .

-٩١٢٧-

ثم دخلت

سنة ثمان وستمائة

والسلطان العادل مخيم بالعساكر على الطور، وابنه المعظم مباشر لعمارة حصنه مجتهدا في إدارته حوشا، ووصل الخبر من جهة طرابلس بأن الأخبار تتابعت إليها من الغرب في البحر بأن ابن عبد المؤمن كسر الفرنج بأرض طليطلة كسرة عظيمة أباد فيها خلقا منهم ونازل طليطلة وربما فتحها(٤٨).

وفي ليلة السابع والعشرين من ذي القعدة حدثت زلزلة عظيمة هدمت مواضع كثيرة بمصر والقاهرة وأبراجا، ودورا بالكرك، والشوبك، وهلك جماعة من الصبيان والنسوان تحت الهدم وكان قوتها من جهة إيلة مما يلي البحر، وقيل أنه تقدمها يوم ريح أسود، وتساقطت نجوم كثيرة.

وفي خامس عشري رمضان رئي دخان نازل من السماء إلى الأرض فيما بين الغرب والقبلة بنواحي أرض عاتكة ظاهر دمشق وقت العصر.

وفيها: ابتاع الأشرف جوسق الريس بالنيرب من الظاهر خضر ابن عمه.

وفيها: قدم رسول جلال الدين حسن صاحب ألموت(٤٩) يخبرهم بأنهم قد تبرؤوا من الباطنية وبنوا الجوامع والمساجد، وأقيمت الجمعة والجماعات عندهم وصاموا رمضان، فسر الناس والخليفة بذلك، وقدمت خاتون أم جلال الدين فاحتفل بها الخليفة.

وفيها: أمر الخليفة أن يقرأ مسند أحمد بن حنبل بمشهد موسى بن جعفر بحضرة صفي الدين محمد بن جعفر الموسوي بالإجازة عن

الخليفة، وأول ماقرىء فيه مسند أبي بكر الصديق، وحديث فدك وماجرى فيها.

وفيها: نهب الحاج العراقي، وكان حج بالناس في هذه السنة من العراق علاء الدين محمد بن ياقوت نيابة عن أبيه ومعه ابن أبي فراس ينفعه ويدبره، وحج من الشام الصمصام اسماعيل أخو سياروخ النجمي عل حاج دمشق، وعلى حاج القدس الشجاع علي بن السلار، وكانت ربيعة خاتون أخت العادل في الحج، فلما كان يوم النحر بمنى بعد مارمى الناس الجمرة وثب الاسماعيلية على رجل شريف من بني عم قتادة لشبه به وظنوه إياه فقتلوه عند الجمرة، ويقال إن الذي قتله كان مع أم جلال الدين، وثار عبيد مكة والأشراف وصعدوا على الجبلين بمنى، وهللوا، وكبروا، وضربوا الناس بالحجارة والمقاليع والنشاب ونهبوا الناس يوم العيد والليلة واليوم الثاني وقتل من الفريقين جماعة، فقال ابن أبي فراس محمد بن ياقوت: ادخلوا بنا إلى الزاهر إلى منزلة الشاميين، فلما حصلت الأثقال على الجمال حمل قتادة أمير مكة والعبيد فأخذوا الجميع إلا القليل، وقال قتادة: ماكان المقصود إلا أنا والله ماأبقيت من حاج العراق أحدا، وكانت ربيعة خاتون بالزاهر ومعها ابن السلار، وأخو سياروخ وحاج الشام، فجاء محمد بن ياقوت أمير الحاج العراقي فدخل خيمة ربيعة خاتون مستجيرا بها ومعه خاتون أم جلال الدين، فبعثت ربيعة خاتون مع ابن السلار إلى قتادة تقول له: ماذنب الناس قد قتلت القاتل، وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين واستحللت الدماء في الشهر الحرام في الحرم والمال وقد عرفت من نحن، والله لئن لم تنته لأفعلن، وأفعلن. فجاء إليه ابن السلار فخوفه وهدده وقال: ارجع عن هذا وإلا قصدك الخليفة من العراق، ونحن من الشام فكف عنهم وطلب مائة ألف دينار فجمعوا له ثلاثين ألفا من أمير الحاج العراقي ومن خاتون أم جلال الدين، وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون بين قتيل وجريح، ومسلوب، وجائع وعريان، وقال قتادة: مافعل

هذا إلا الخليفة ولئن عاد أحد من بغداد إلى هنا لأقتلن الجميع ويقال إنه أخذ من المال والمتاع وغيره ماقيمته ألف ألف دينار، وأذن للناس في الدخول إلى مكة، فدخل الأصحاء الأقوياء فطافوا وأي طواف، ومعظم الناس مادخلوا ورحلوا إلى المدينة ودخلوا بغداد على غاية من الفقر، والهوان ولم ينتطح فيها عنزان.'

وفيها: توفي أبو سعد الحسن بن محمد بن الحسن، ويلقب بتاج الدين ابن حمدون مصنف كتاب التذكرة، قرأ اللغة على أبي الحسن ابن العصار، وسمع أبا الفتح البطي وغيره، وولاه الخليفة المارستان العضدي، وأغري بجمع الكتب والخطوط المنسوبة، فجمع منها شيئا كثيرا وتوفي بمدائن كسرى وحمل إلى مقابر قريش فدفن بها وكان فاضلا بارعا.

وفيها: توفي الأمير فخر الدين سركس بن عبد الله الصلاحي، ويقال أياز جركس ويقال:جهاركس يعني أنه اشتري بأربعمائة دينار(٥٠) وكان من أمراء صلاح الدين، شهد معه الغزوات، وأعطاه العادل بانياس، وتبنين، والشقيف، وهونين، وقلعة أبي الحسن، وتلك البلاد فأقام بها وكان يتردد إلى دمشق فمرض وتوفي في رجب ودفن بقاسيون، وخلف ولدا فأقره العادل على ماكان لأبيه وقام بأمره الأمير صارم الدين خطلبا المعروف بالتبنيني أحسن قيام وسد تلك الثغور، وقوم الأمور، واشترى ضيعة بوادي بردى تسمى الكفر وقفها على تربة فخر الدين بالصالحية، وعمر له قبة عظيمة على الجادة قبالة قبة خاتون، ثم توفي ولد سركس بعد قليل، وأقام صارم الدين بالحصون إلى سنة خمس عشرة فانتزعت منه وسيأتي ذكره (٥١).

وفيها: توفي المعين عبد الواحد بن الشيخ عبد الوهاب بن علي بن سكينة، ومولده سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، وسافر إلى الشام في أيام الملك الأفضل علي بن صلاح الدين، وبسط لسانه في الدولة، فأرسل

إليه من بغداد ابـن التكريتي ليقتله، فوثب عليه مرارا بـدمشق فلم يقدر عليه، فكتب إلى الخليفة كتابا يتنصل فيه مما قيل عنه ويعتذر ويسأله العفو فعفا عنه وكتب له كتاب أمان، فقدم بغداد فولي مشيخة الشيوخ وأعطي رباط المشرعة، ثم بعثه في رسالة إلى جزيرة كيش(٥٢) ومعه جماعة من الصوفية فغرق في البحر ومن معه، سمع جده لأمه أبا القاسم عبد الرحيم شيخ الشيوخ، وأبا الفتح بن البطي، وأبا زرعة وغيرهم.

وفيها: أخذ حاجب الباب كمال الدين محمد بن الناعم، وكان حسن الصورة، قبيح الفعال، صادر جماعة وماتوا تحت الضرب، فلما قبض عليه ضرب ضربا مبرحا فلم يقر بشيء، فمات تحت الضرب ورمي به في دجلة كما كان يفعل بالناس، وظهر له بعد ذلك أموال عظيمة ودفائن كثيرة.

وفيها: توفي الشيخ العماد محمد بن يونس الفقيه الموصلي، ولد سنة خمس وثلاثين وخمسمائة وتفقه وانتهت إليه رئاسة مذهب الشافعي بالموصل، وبعث رسولا إلى بغداد لما توفي صاحبها نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود، وكان به وسواس في الطهارة يبعث كل يوم غلامه إلى الجسر فيقف في وسط الشاطىء ويملأ الأباريق فيتوضأ بها، وكان على ماقيل يعامل الناس بالغيبة، فالتقاه قضيب البان الموله يوما فقال له العماد: سلام عليك ياأخي كيف أنت؟ فقال: أما أنا فبخير، بلى قد بلغني عنك تغسل أعضاءك بأباريق ماء كل يوم، فلم لاتنظف اللقمة التي تأكلها؟! ففهم العماد قوله فرجع عن ذلك وكانت وفاته في رجب بالموصل.

وفيها: توفي بنيسابور في شعبان منصور بن عبد المنعم بن عبد الله الفراوي، من أهل بيت الحديث رواية ودراية، ولد سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة في رمضان، وقدم بغداد حاجا في سنة تسع وتسعين وخمسمائة،

وحدث بها عن أبيه وجد أبيه فقيه الحرم أبي عبد الله محمد بن الفضل الفراوي، وزاهر بن طاهر الشحامي وغيرهم، وحدثنا عنه شيخنا أبو عمرو بن الصلاح، ومحمد، بن أبي الفضل المرسي وغيرهما. وكان له ثلاث كنى: أبو القاسم، أبو بكر، أبو الفتح.

وفيها: توفي صارم الدين بزغش العادلي بدمشق في الثالث والعشرين من صفر، ودفن بتربته في الجبل غربي الجامع المظفري.

ووصل الخبر بقتل الأمير المعروف بأيبك فطيس بظاهر حلب في حمام، قتله فيه مملوك له تركي خامس عشر رجب.

وتوفي قاسم التركماني بالعقيبة ظاهر دمشق في التاسع والعشرين من شوال، وهو والد ابن قاسم الدين والي دمشق.

وفيها: توفي صاحب الروم خسرو شاه بن قليج أرسلان، وخلف ولدين: كيكاوس توفي سنة خمس عشرة وستمائة كما سيأتي ذكره، وهو الذي تسلطن بعده، وكيقباذ وتولى بعده أخوه.

-٩١٣٢-

ثم دخلت

سنة تسع وستمائة

ففيها: كانت نكبة سامة الجبلي، صاحب دار سامة داخل باب السلامة التي هي الآن مدرسة للشافعية، وكان أحد الأمراء الكبار، وهو الذي ذكر عنه أنه سلم بيروت إلى الفرنج كما تقدم.

قال أبو المظفر: اجتمع العادل وأولاده: الكامل، والفايز، والمعظم بدمياط، وكان سامة بالقاهرة قد استوحش منهم واتهموه بمكاتبه الظاهر صاحب حلب، وحكى لي المعظم أنه وجد له كتبا إليه وأجوبة فخرج سامة من القاهرة كأنه يتصيد، فاغتنم اجتماع الملوك بدمياط، وساق إلى الشام في مماليكه يطلب قلاعه وهما: كوكب، وعجلون، وذلك يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة، فأرسل صاحب بلبيس الحمام إلى دمياط يخبرهم بذلك، فقال العادل: من ساق خلفة فله أمواله وقلاعه، فقال المعظم: أنا، وركب من دمياط يوم الثلاثاء غرة رجب، وكنت معه، فقال لي: أنا أريد أن أسوق، فسق أنت مع قماشي ودفع لي بغلة، وساق معه نفر يسير وعلى يده حصان، وكان صباح يوم الجمعة في غزة، ساق مسيرة ثمانية أيام في ثلاثة أيام فسبق سامة، وأما سامة فإنه انقطع عنه مماليكه ومن كان معه، وبقي وحده وبه نقرس فجاء إلى بلد الداروم، وكان المعظم قد أمسك عليه من البحر إلى الزرقاء، فرآه بعض الصيادين في برية الداروم فعرفه فقال له: إنزل، فقال: هذه ألف دينار وأوصلني إلى الشام، فأخذها الصياد، وجاء رفاقه فعرفوه أيضا فأخذوه على طريق الخليل عليه السلام ليحملوه إلى عجلون، فدخلوا به القدس، يوم الأحد سادس رجب، جاء بعد المعظم بثلاثة أيام، فقال لي المعظم رحمه الله: ماكنت خائفا إلا أن يصادفني في الطريق غلمانه فيقتلوني، لو رماني ايدكين

بسهم قتلني فأهلك الله ايدكين والجميع، فأنزل سامة في صهيون وبعث إليه بثياب وطعام ولاطفه وراسله وقال: أنت شيخ كبير وبك نقرس ومايصلح لك قلعة سلم إلي كوكب وعجلون، وأنا أحلف لك على مالك وملكك وجميع أسبابك وتعيش بيننا مثل الوالد، فامتنع وشتم المعظم، فلما يئس المعظم منه بعث به إلى الكرك فاعتقله واستولى على قلاعه وأمواله، وذخائره، وخيله، فكان قيمة ماأخذ منه ألف ألف دينار (٥٣) .

وحج بالناس من العراق حسام الدين بن أبي فراس نيابة عن محمد ابن ياقوت وكان معه مال وخلع لقتادة حتى سكت عنهم، ومن الشام شجاع الدين محارب على إيلة.

وفيها: استولى اليان القبرسي على أنطاكية فرميت تلك الأعمال منه بداهية، وتابع الغارات على تركمانها فشردهم فتجمعوا وأخذوا عليه المضايق، وحصر في واد فقتلوه وجميع رجاله وطافوا برأسه في أعمالهم، ثم حملوه في البحر إلى الملك العادل بمصر، وهذا الملعون هو الذي كان هجم على فوة وبورة كما تقدم.

وفيها: كان عزل الوزير صفي الدين بن شكر عن وزارة العادل، والقبض على أملاكه، ثم نفي إلى الشرق.

وفيها: تظاهرت اسماعيلية ألَمُوت ولمسر وما والاهما من بلاد العجم بالاسلام وإقامة شعائره والرجوع عما كانوا عليه من الفساد، وأرسل زعيمهم جلال الدين حسن إلى الخليفة الناصر يبذل الطاعة ويستدعي قضاة وفقهاء يفقهونهم ويقضون بينهم فأجيب، وبعث إلى الحصون الشامية مصياف، والخوابي، والقليعة ومايضاف إليها مما ينسب إلى

الاسماعيلية من أظهر فيها شعائر الاسـلام، وتجديد المساجد، وإقامة الحد على من ارتكب محرما.

وفيها: خرب حصن كوكب ونقل ذخائرها إلى الطور.

وفيها: تـوفي مادخ الـرحمن، وفخر الـدين اسرائيـل، وعز الـدين عبيـد الفلكي، صاحب الدار والحمام المنسوبين بعده إلى ابن موسك مقابلة دار الحديث النورية.

وفيهـا: في ثامـن ربيـع الأول، توفي الملـك الأوحـد صـاحب خـلاط، واسمه أيوب بـن أبي بكر بن أيوب، ولقبـه نجم الدين، وكـان قد سفك دماء المقـدمين من أهل خـلاط، فلم يطل عمـره، ملك خلاط أقـل من خمس سنين وابتلى بـأمـراض مزمنـة كـان يتمنـى الموت معها، وكـان قـد استزار أخـاه الأشرف من حران فأقـام عنده أيامـا، فاشتد مرضـه فطلب الأشرف الرجـوع إلى حران لئلا يتخيـل منه الأوحـد، فقال له الأوحـد: يا أخي: كم تلح والله إني ميـت وأنت تأخذ البلاد، وكان الأوحـد قد صاغ لـلأشرف طلعة ذهـب مـن خمسمائة دينـار للسنجق وبقيـت في الخزانـة، واشتغلـوا بمرض الأوحـد فتوفي وملـك البـلاد الأشرف، وأول ركوبـه في خلاط بالسنجق كـان بتلك الطلعة، وكانت وفاة الأوحد بمـلازكرد فدفن بها وجاء الأشرف فدخـل خلاط فأحسن إلى أهلها وخلـع عليهم وعدل فيهم فأحبوه وأطاعوه.

وفيها: توفي أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن أبي بكر القفصي المحدث المقرىء، سمع الكثير بدمشق وغيرها، وكتـب كتبا كثيرة، وكانت وفاته في ربيع الأول، ودفن عند المنيبع بمقابر الصوفية.

وفيها: تـوفي بمرو أبو الفتح محمـد بن سعد بـن محمد الديباجـي، من أهل مرو، ولد في المحرم سنـة سبع عشرة وخمسمائة، وسمع الحديث، وقدم

بغداد حاجا سنة ستمائة ومعه كتاب سماه« المحصل في شرح المفصل» للزمخشري في النحو، وعاد إلى مرو، وسمع أبا سعد بن السمعاني وغيره وكان فاضلا ثقة.

وفيها: توفي الشيخ أبو الثناء محمود بن عثمان بن مكارم النعال الحنبلي الزاهد، ولد في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ببغداد بالبدرية، وقرأ القرآن، وسمع الحديث، وكان آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، وكان له رياضات ومجاهدات، وساح في بلاد الشام وغيرها، وبنى رباطا بباب الأزج يأوي إليه أهل العلم من المقادسة وغيرهم، وكان يؤثرهم، وانتفع به خلق كثير، وكان شيخا مهيبا لطيفا كيسا باشا متبسما، يصوم الدهر ويختم القرآن كل يوم وليلة، ولا يأكل إلا من غزل عمته.

وحكي أنه كان ببغداد رجل عواني يقال له شروين، وكان فاتكا ذا شر إذا رأى امرأة أو صبيا مستحسنا في طريق تبعه، فإذا صادف رجلا من أولاد الناس لزمه، وقال: كانت هذه أو هذا عندك ومقصوده يأخذ منه شيئا ويقول له امش إلى المحيس فيأخذ مامعه، قال: فسألني جماعة من الأخيار أن نمضي إلى زيارة قبر معروف الكرخي، واشترى مأكولا وعبرنا دجلة وقد تبعنا شروين ولم نعلم، فدخلنا بستانا وقعدنا نأكل وإذا به قد هجم علينا وقعد بيننا فخاف الجماعة منه، ومدّ يده فأخذ لقمة فصحت عليه صيحة عظيمة، وقلت له: ويلك قم فنحن لايأكل معنا إلا من هو ولي لله تعالى، قال: فتغير لونه ورمى باللقمة من يده وولى منصرفا وما عاد إلى مثلها، وكانت وفاة محمود في صفر ودفن برباطه رحمه الله تعالى.

- ٩١٣٦ -

ثم دخلت

سنة عشر وستمائة

ففيها: أمر العادل بإحداث تركيب سلاسل، على أفواه السكك المجاورة للجامع، ومدها في أيام الجمع ليمنع الخيل من قرب أبواب الجامع، وذلك لما كان ينال الناس من المشقة من زحمة الخيل التي يركبها بعض المصلين إلى الجامع، فحصل للناس بذلك رفق عظيم، ثم ترك ذلك بعد زمان، وعاد الأمر إلى ماكان عليه إلى الآن، وعمل بعض المتفرغين في ذلك نظما كان يغني به في الأسواق أوله:

إن ذا عـــــام جـــــديـــــد
إن ذا يـــــوم سعيـــــد
والمدينـــــة هـــــاربـــــة
قيـــــدوهـــــا بـــــالحديـــــد
كـــــل جمعـــــة يسجنـــــوهـــــا
كـــــأنهم مـــــا يعـــــرفـــــوهـــــا
والنبـــــي لـــــو أطلقـــــوهـــــا
مـــــا بـــــرح بـــــاب البريـــــد

وفيها: وصل الفيل من الديار المصرية ليحمل هدية إلى الكرج،وازدحم الناس للتفرج عليه وذلك في ثاني صفر.

وفيها: ولد الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب.

وفيها: قدم إلى بغداد شمس الدين التبني رسولا من الملك العادل وكان قد أحسن إلى العادل لما حوصر بدمشق، وأقرض له أموال التجار

وضمنها، فرأى له العادل ذلك فأحبه وقربه وحسده الصفي بن شكر فأبعده بالرسالة.

وحج بالناس ابن أبي فراس من العراق، ومن الشام الغرز صديق بن تمرتاش التركماني على إيلة بحاج الكرك والقدس.

وفيها: قدم الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين رحمه الله من حلب بعزم التوجة إلى الحج، فنزل بالقابون يوم الأحد رابع شوال، ثم انتقل إلى مسجد القدم خامسه ووصل ابن عمه المعظم من حيث كان بنواحي شام حوران واجتمع به على جسر الخشب سادسه، وعمل له دعوة بداره تاسعه، ودعتهما جميعا عمتهما ست الشام إلى دارها ثامن عشره، ورحل من دمشق متوجها إلى الحج في جمع من الحجاج تاسع عشر شوال، وخرج معه المعظم فودعه وتوجه نحو الجابية، فاجتمع الحاج ببصرى، فرحل بهم الظافر منها ضحوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال الموافق لثاني عشر آذار فسلكوا طريق تيماء إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فحصل على الزيارة ثم أحرم بالحج فلما وصل إلى بدر رد من الطريق.

قال أبو المظفر: وكان حج معه يعقوب الخياط المغاري، كان مقيما بمغارة الجوع بقاسيون، وكان صديق الظافر، فلما وصل الظافر إلى بدر وجد عسكر الكامل ابن عمه العادل صاحب مصر قد سبقه خوفا منه على اليمن، فقالوا: ترجع، فقال: قد بقي بيني وبين مكة مسافة يسيرة ووالله ماقصدي اليمن، وإنما أريد الحج فقيدوني واحتاطوا بي حتى أقضي المناسك، وأعود إلى الشام، فلم يلتفتوا فرجع إلى الشام، وعاد يعقوب الخياط معه ولم يحج.

وحكى لي والدي رحمه الله وكان ممن حج معه في تلك السنة: أنه شق

على الناس ماجرى عليه، وأراد كثير منهم أن يقاتلوا الذين صدوه عن المضي في حجته، فنهاهم عن ذلك واختار الرجوع على الفتنة، وفعل مافعله النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية حين صده الكفار عن البيت فقصر من شعره وذبح ماتيسر وكان محرما من ذي الحليفة، ولبس ثيابه وودع الناس، ورجع وعيون الناس باكية وهم ضجيج وعويل، ولحقهم عليه حزن طويل من جهة صده عن مشاعر الدين وهو ابن مثل صلاح الدين، رحم الله الجميع.

وفيها: وصل كتاب من جهة بلاد خراسان من بعض فقهاء الحنفية إلى الشيخ تاج الدين الكندي بدمشق يخبر فيه بخلاص خوارزم شاه محمد من أسر التتر وعوده إلى مملكته، وهو أنه كان منازلا لطوائف التتر بعساكره فخطر له أن يكشف أمورهم بنفسه فتنكر ودخل عسكرهم ومعه ثلاثة نفر في زي القوم، فأنكروهم وقبضوهم وضربوا اثنين فماتا تحت الضرب ولم يقروا، ووكلوا بخوارزم شاه ورفيقه فهربا بالليل ووصل إلى معسكره سالما، وعاد إلى ماكان من التصدي لمنازلتهم.

وفيها: ظهرت بلاطة وهم يحفرون في خندق حلب فقلعت فوجد تحتها تسع عشرة قطعة من ذهب وفضة على هيئة اللبن، فاعتبرت فكان منها ذهبا مصريا ثلاثة وستون رطلا بالحلبي وعشرة أرطال ونصف صوري، وأربعة وعشرون رطلا فضة، ثم وجدوا حلقة من ذهب وزنها رطلان ونصف فكمل الجميع قنطارا.

وفيها: قتل أحمد بن محمد بن عمر الآزجي، ويعرف بالموفق نشأ بباب الأزج وسمع الحديث من ابن كليب، وابن يونس، وابن طبرزد وغيرهم، وكان فقيرا خرج إلى الشام واجتمع بالملك الظاهر صاحب حلب، وقال له: قد بعث لك الخليفة معي إجازة، وتقول على الخليفة فخلع عليه وأعطاه خمسين دينارا ودار على ملوك البلاد فحصل له منهم ثلاثمائة دينار.

قال أبـو المظفر: واجتمعت به في دمشـق وقد رجع من زيـارة القدس فقلـت له: إلى أيـن انتهـت زيـارتك؟ فقـال: إلى لـوط، وكـان مطبوعـا، وبلغني حـديثه فقلت لـه: قد فعلت مافعلـت فلا تقرب بغـداد فقال: « أتتك بحـائن رجلاه» فقلت: مـاأخوفنـي أن يصح المثل فيـك، فكان كما قلت، نـزل إلى بغداد في سفينة مـن الموصل، وصعد بـاب الأزج إلى بيت أخته وقت المغرب، فلما كان بعد العشـاء الآخرة طرق الباب طارق فقال: من هـذا؟ فقال كلـم من يطلبك فخـرج وإذا برجـل فسحبه عـن الباب وضربـه بسكين حتى قتلـه، ثم صـاح على البـاب أخرجـي خذي أخـاك ومامعه، فخرجت أخته وإذا به مقتول فأخذت المال ودفنته في الليل.

وفيها: توفي أبـو الفضل أحمد بن مسعود بـن علي التركستاني، الحنفي، قدم بغـداد وكان قـد تفقه وبرع في علـم النظر، وانتهـت إليه الـرئاسة في مذهب أبي حنيفة، ولاه الوزير ابـن مهدي المظالم، والتدريس بمشهد أبي حنيفة.

وفيها: تـوفي أبو محمـد اسماعيل بـن علي بن الحسين الملقـب بالفخـر غلام ابن المنى، ويعرف بابن الرفـاء وبابن الماشطة الحنبلي، ولد سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وقـرأ المذهـب والخلاف على أبي الفتح، وقـرأ طـريقـة الشريف، وصنف له تعليقة وجدلا مـن كلام الشريف، وزاد عليه ونقص منه حتى سماه أهل بغداد النظيف من تعليق الشريف، وكان فصيحا وله عبـارة جيدة وصـوت رفيع، وكـان له حلقـة بجـامع الخليفـة يجتمع إليـه الفقهاء فيها ويـناظرهم، وولاه الخليفة ضياع الخاص فظلم الـرعية وجبى الأموال مـن غير حلها، فشكوه إلى الخليفة فسخـط عليه وعزله فـأقام في بيته خامـلا فقيرا يعيش من صدقات النـاس إلى أن مات في ربيع الأول، ودفن بداره بدرب الجب، ثم نقل بعد مدة إلى باب حرب وبيعت الدار.

قال أبو المظفر: وولده محمد بن اسماعيل الملقب بالشمس قدم الشام بعد سنة عشرين وستمائة وتعاطى الوعظ، وكان فاسقا مجاهرا خبيث اللسان، وكان معه جماعة من المردان من أبناء الناس يقول إنهم مماليكه، وسمى نفسه ابن المنى، وإنما هو ابن غلام ابن المنى، وبدت منه بدمشق ومصر والشام هنات قبيحة، وكان يضرب الزغل مع هذه الهنات، وورد خالي أبو محمد يوسف رسولا إلى الكامل فكتب في حقه إلى بغداد شيئا وشنع عليه، وكان الخليفة هو المستنصر فلم يسمع منه، ونفاه الكامل من مصر، فجاء إلى دمشق وأنا بها فهجا قاضيها شمس الدين بن الخوئي، ومحتسبها وشيخ شيوخها الصدر البكري، وأعيان الدماشقة هجاهم بقصيدة يقول فيها:

شيخ شيوخ الشام مسخرة
هذا وقاضي قضاتهم بردى

وكان نازلا في مدرسة الحنابلة عند الناصح بن الحنبلي فهجا الناصح والمقادسة، واتفق أنه أخذ غلاما في السوق ومعه دراهم زغل ووصل الخبر إلى المعظم فأراد قطع يده، ثم نفاه ومات المعظم وهو بدمشق، وأقام بالشام مدة ثم خطر له النزول إلى بغداد فقدمها في أيام المستنصر بالله، وتوصل حتى جلس بباب بدر، ثم شرع في السعايات بالناس، واتفق أن غلاما له تعرض لبعض حرم الناس من السطح فجاء زوجها وشنع عليه، فمضى إلى أستاذ الدار ولبس عليه وقال: أمرك الوزير أن تضرب زوجها مائة خشبة وتحلق لحيته، ففعل بالرجل ذلك، وبلغ الخبر المستنصر فقامت عليه القيامة وبعث إلى الوزير فأنكر عليه، فأحضر أستاذ الدار وسأله عن القضية فأحال على غلام ابن المنى، فأمر الخليفة بأن يخرج إلى باب النوبي ويضرب مائة خشبة ويقطع لسانه ففعلوا به ذلك، وأعطوه لسانه في مداسه بيده ونادوا عليه جزاء من يكثر كلامه، وحمل إلى البيمارستان العضدي فتكلم، وكان قطع لسانه من أصله وبرأ وأخرج من البيمارستان فعاد إلى السعاية بالناس فقال المستنصر: لايجيء

من هذا خير أبدا يحمل إلى واسط ويرمى في مطمورة، فنفي إلى واسط وألقي في مطمورة، فمات بها في أيام المستنصر، وكان مافعل به المستنصر من أكبر حسناته(٥٥).

وفيها: توفي ابن حديدة الوزير، واسمه سعيد بن علي بن أحمد، أبو المعالي، ولقبه معز الدين، وهو من ولد قطبة بن عامر بن حديدة الأنصاري الصحابي رضي الله عنه، ولد بسامراء سنة ست وثلاثين وخمسمائة، ونشأ ببغداد وكان أحد الموسرين له مال كثير، وجاه عريض، واستوزره الإمام الناصر في سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وخلع عليه خلعة الوزارة الكاملة القميص الأطلس، والفرجية الممرج والعمامة القصب والمكحلية بأعلام الذهب، وقلده سيفا محلى وقدم له فرسا من خيل الخليفة فركبه وخرج أرباب الدولة يمشون بين يديه من باب حجرة الخليفة إلى دار الوزارة، وهو الذي كان الشيخ أبو الفرج بن الجوزي يجلس في داره ويمدحه، ولم يزل على الوزارة حتى ولي ابن مهدي نقابة العلويين فشرع فيه، ومازال بالخليفة حتى عزله واعتقله وطالبه بمال، فالتجأ إلى التربة الأخلاطية فلم ينفعه وأدى المال وأقام في بيته إلى أن ولي ابن مهدي الوزارة، فسلم إليه فاعتقله في داره بدرب المطبخ، وعزم على تعذيبه فواطأ الموكلين به وحلق رأس نفسه ولحيته وخرج في زي النساء إلى مراغة، وأقام بها حتى عزل ابن مهدي وعاد إلى بغداد فنزل داره بالصويين وأقام بها حتى توفي في جمادى الأولى،ونقل إلى الكوفة فدفن في مشهد أمير المؤمنين، وكان جوادا، سمحا كثير الصدقات، والمعروف، متواضعا.

وفيها: في شوال توفي سنجر بن عبد الله الناصري الذي كان عصى على الخليفة ثم عفا عنه. وكان ذليلا بخيلا ساقط النفس مع كثرة البلاد والأموال، وتولى إمارة الحاج في سنة تسع وثمانين وخمسمائة وعاد في صفر سنة تسعين، فاعترض الحاج رجل بدوي من الأعراب يقال له دهمش في

نفر يسير ومع سنجر خمسمائة فارس فلم يلقه وذله، فطلب دهمش منه خمسين ألف دينار فجمعها سنجر من الحاج وضيق عليهم، ولما ورد بغداد وكل عليه الخليفة بذلك المال، وأخذه منه، ورده على أصحابه وعزله عن إمارة الحاج وولاها طاشتكين.

وفيها: توفي تاج الأمناء أبو الفضل أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله من بني عساكر، أخو الفخر وزين الأمناء، وهو أكبر منهما، سمع عميه الضياء بن أبي الحسن: والثقة الحافظ أبا القاسم وغيرهما، ودفن عند مسجد القدم، وخلف أولادا كثيرين، وكان من أصدقاء الشيخ تاج الدين الكندي، وكان له سمت حسن، وكانت وفاته يوم الأحد ثاني رجب، ودفن في الغد بمقبرة مسجد القدم على جده لأمه قبلي المحراب.

وفيها: توفي الصفي ابراهيم بن التبنيني ودفن بالجبل وهو والد البدر.

وفيها: توفي بحلب تاج العلاء النسابة الشريف الحسني الرملي الذي كان بآمد، وكان اجتمع هو وأبو الخطاب بن دحية فقال له تاج العلاء: إن دحية لم يعقب، فرماه ابن دحية بالكفر في مسائله الموصلية.

وفيها: توفي عبد الجليل والد الشمس وصديقنا الشيرجاني، راوي كتاب البخاري عن أبي الوقت، سمعه عليه خلق كثير بدمشق، وكان نازلا بدويرة حمد في سابع عشر جمادى الأولى ودفن بالجبل.

-٩١٤٣-

ثم دخلت

سنة إحدى عشرة وستمائة

ففيها شرع في تبليط رواقات الجامع الداخلية، وابتدأ بالحجر الشرقية مكان السبع الكبير في ثالث عشر المحرم، وكانت أرض الجامع كلها قد تكسر رخامها فبقي حفرا وجورا.

وفيها فوض تدريس المدرسة النورية الحنفية إلى الشيخ جمال الدين محمود الحصيري العجمي، وحضر المعظم مع الفقهاء، ودرس في ثالث ربيع الأول.

وفيها: توفي ابن سيف الاسلام صاحب اليمن، واستولى عليها سليمان ابن شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب باتفاق من أجنادها وتزوج بأم ابن سيف الاسلام المتوفى فأذن العادل للكامل في تنفيذ ابنه إلى اليمن ليملكها ففعل، فملك أتسيس بن الكامل بن العادل اليمن وتلقب بالملك المسعود، وكان جبارا فاتكا قتل باليمن ثمانمائة شريف، وخلقا من الأكابر والعظماء.

وفيها: أخذ المعظم قلعة صرخد من ابن قراجا، وعوضه عنها مالا وإقطاعا.

وحج بالناس من العراق أبو فراس بن ورام نائبا عن محمد بن ياقوت، ومن الشام علم الدين الفقيه نصر الله الجعبري. إمام الملك المعظم عيسى.

وفيها: حدثت المعاملة بالقراطيس السود العادلية، فبقيت زمانا، ثم بطل ضربها وتناقصت من أيدي الناس إلى أن فنيت.

وفيها: أعطى المعظم صرخد وأعمالها مملوكه استاذ داره عز الدين أيبك المعظمي، فبقيت في يده إلى أن أخرجه منها الصالح أيوب بن الكامل سنة أربع وأربعين وستمائة.

وفيها: حج بالناس المعظم بن العادل، فسار من الكرك على الهجن حادي عشر ذي القعدة، وعماد الدين بن موسك، والظهير بن سنقر الحلبي وغيرهم، وسلكوا طريق العلا وتبوك، وجدد المعظم البرك والمصانع، وأحسن إلى الناس، وتلقاه سالم أمير المدينة وخدمه، وقدم له الخيل والهدايا وسلم إليه مفاتيح المدينة، وفتح الأهراء وأنزله في داره وخدمه خدمة عظيمة، ثم سار إلى مكة فوصلها يوم الثلاثاء سادس ذي الحجة وكانت وقفة تلك السنة يوم الجمعة، وانفصل عن مكة بعد أداء الفرض يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر، وقدم المدينة فأقام بها، ثم انفصل عنها عائدا إلى الشام صحبة الأمير سالم صاحبها في الخامس والعشرين منه.

قال أبو المظفر: وحكى لي رحمه الله قال: قلت له: أين ننزل؟ فأشار إلى الأبطح بسوطه فقال: هناك، فنزلنا بالأبطح، وبعث لنا هدايا يسيرة، وحج السلطان على مذهب أبي حنيفة، وأتى بجميع المناسك وإحياء السنة، أحرم قارنا، وبات بمنى ليلة عرفة، وصلى بها الصلوات الخمس، وسار إلى عرفة وقضى نسكه كما أمره الله تعالى.

ولقد رأيت كتفه بعد ماعاد وقد أكلته الشمس وانكشط، وقيح، فقلت: ماهذا؟ قال: ماغطيت رأسي ولاكتفي منذ ثلاثة عشر يوما، قلت: لم تكن له حاجة إلى كشف كتفه فإنه لايستحب إلا حالة الاضطباع في طواف القدوم والله أعلم.

قال أبو المظفر: وتصدق على فقراء الحرمين بمال عظيم، وحمل

المنقطعين وزودهم وأحسن إليهم. ولما عاد إلى المدينة شكا إليه سالم من جور قتادة فوعده أن ينجده عليه.

قال: ولما رجع كنت مقيما بالكرك فخرجت للقائه مع جماعة من الأعيان، والأمراء، والفقراء، والفقهاء فما التفت إلى أحد منهم، ولما رآني ترجل عن ناقته وعانقني وسقنا إلى برزا وكان لقاؤنا له على غدير الطرفاء في البرية وشرع يحكي لي صفة حجه ومافعل، وكان والده العادل نازلا على خربة اللصوص فقال: أريد أن أبغته حتى لايلتقيني أحد، وسار إليه واجتمع به وحكى له خدمة سالم وتقصير قتادة، فجهز جيشا مع الناهض بن الجرجي إلى المدينة والتقاهم سالم فأكرمهم، وقصدوا مكة فانهزم قتادة منهم إلى البرية ولم يقف بين أيديهم[٥٦] .

وفيها: هدمت الدور والحوانيت المجاورة للقلعة لتوسيع الخندق ومن جملة ماهدم حمام قايماز النجمي، ووقف دار الحديث النورية وكان قريبا وحوانيت تقابل المار من جهة دار الحديث إلى القلعة .

وفيها: في الثامن والعشرين من ذي القعدة الموافق لآخر آذار على إحدى عشرة ساعة منه أظلم الجو ووقع شبيه بالرمل إلى بعد المغرب ثم ارتفع ذلك.

وفيها: أنشأ المعظم الفندق الكبير المنسوب إليه بأرض عاتكة قبلي القنوات.

وفيها: توفي الأمير بدر الدين دلدرم الياروقي صاحب تل باشر في آخر السنة.

وفيها: توفي ابراهيم بن علي بن محمد بن بكروس الفقيه الحنبلي، ولد سنة تسع وخمسين وخمسمائة وقرأ القرآن وتفقه على مذهب أحمد، وسمع

الحديث على أبيه وغيره وشهد عند القاضي ضياء الدين الشهرزوري، وناظر، وأفتى، ثم إن الله تعالى مكر به فصار صاحب خبر بباب النوبي، ورمى الثوب الواسع ولبس المزنر، وتقلد السيف وظلم وفتك في المال والحريم، وضرب جماعة بالخشب ورماهم في دجلة، وماكانت تأخذه في أذى مسلم لومة لائم، وولي نيابة الباب، وكان مآله أن ضرب بالخشب حتى مات تحت الضرب، وكان يقول وهو يضرب:(ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون)(٥٧) فكان ذلك آخر كلامه، ورمي به في دجلة ليلا، وسر الناس بموته لأنه فتك في المال والحريم، وكان أبوه من الصالحين زوجه أبو الفرج بن الجوزي إحدى بناته، وليست أم المذكور.

وفيها: توفي ركن الدين عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الذي أحرقت كتبه بالرحبة، وحكم القاضي بتفسيقه على ماذكرناه في أخبار سنة ثلاث وستمائة، وكان الخليفة قد استأصله حتى طلب من الناس، ثم توصل حتى ولي وكالة الأمير الصغير على الخليفة.

قال أبو المظفر: وكان خالي أبو القاسم صديقه، وكذا كانت عادته أن يوالي من يعادي أباه، قال لي خالي أبو القاسم يوما بعد ماامات جدي: تيسر لي صديق يشتهي أن يراك ولم يعرفني من هو فأدخلني إلى دار شممت من دهليزها رائحة الخمر، ودخلنا وإذا الركن عبد السلام جالس وعنده صبيان مردان وهو في حالة قبيحة فلم أقعد، فصاح خالي والركن، فخرجت ولم التفت، فتبعني خالي وقال: خجلتني من الرجل، فقلت له: لاجزاك الله خيرا وأسمعته غليظ الكلام ومرض عبد السلام بعلة البطن فرمى كبده قطعا، ومات في هذه السنة(٥٨) .

وفيها: توفي أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن المبارك البزار المعروف بابن الأخضر، ولد سنة ست وعشرين وخمسمائة، وقيل هو جنابذي الأصل بغدادي الدار والمولد، سمع الحديث الكثير، وصنف الكتب

الحسان من الأبواب والشيوخ والفضائل، وأول سماعه سنة ثلاثين وخمسمائة، وكانت له حلقة بجامع القصر يقرأ فيها الحديث، ويقرأ عليه، وتصانيفه تدل على فهمه وضبطه وحسن معرفته، وكانت له دكان بزقاق الريحانيين بخان الحسبة، وكانت وفاته في شوال، وصلي عليه بجامع القصر وحضر جنازته العلماء والأعيان، ودفن بباب حرب إلى جانب أبي بكر المرزوقي، سمع قاضي المارستان، وابن السمرقندي: وأبا الوقت: وابن ناصر، والأنماطي وسعد الخير، وغيرهم وكان فاضلا صالحا دينا عفيفا لطيفا.

وفيها: في شعبان توفي محمد بن علي بن نصر الحنبلي الواعظ الدوري أصله من الدور قرية بدجيل، سمع أبا نصر، وأبا الوقت وغيرهما، وتعاطى الوعظ ولم يكن من صنعته، وكان يضاهي أبا الفرج بن الجوزي حتى قيل له أيما أعلم أنت أم أبو الفرج؟ فقال: ماأرضاه يقرأ علي الفاتحة، وبلغ ذلك أبا الفرج: فقال: ماأقرأ عليه الفاتحة بل أقرأ عليه قل هو الله أحد، وكان يتعصب له حاكة قطفتا ودفن في رباطه بقطفتا، وكان ينتحل أشعار الناس ادعى يوما بيتين لنفسه وأنشدهما على المنبر مشيرا إلى الخليفة، وهما لأبي الفتح البستي:

علم في دجى وشهاب
كلنا في ضيائه واقباسه
متلف الأموال في وقت بؤس
وجواد بالعفو في وقت بأسه(٥٩)

-٩١٤٨-

ثم دخلت

سنة اثنتي عشرة وستمائة

وفيها: شرع في عمارة المدرسة العادلية[٦٠]

وفيها: وصل الملك المعظم من الحجاز بعد إداءه فريضة الحج والعمرة إلى والده الملك العادل وهو بخربة اللصوص بعد المغرب من ليلة الاثنين سابع عشر المحرم، وفي بكرته وصل الأمير سالم صاحب المدينة النبوية على ساكنها السلام والتحية، فركب العادل وتلقاه وبالغ في إكرامه ودخل الجميع دمشق في الثالث والعشرين من المحرم، وقدم الأمير سالم هديته من تحف الحجاز وعشرين رأسا من الخيل العراب.

وفيها: وصل الخبر بغارة الفرنج على بلاد الاسماعيلية وأخذهم منها نحو ثلاثمائة أسير، وبغارة الكرج على أذربيجان فحازوا ذخائرها ومايزيد على مائة ألف أسير.

وفيها: وصل الصلاح بن شعبان الإربلي من مصر مبشرا بفتوح اليمن، واستيلاء ولد الكامل عليه وطاعة من به من العسكر له بغير حرب، وانضمام سليمان شاه المستولي عليه إلى قلعة تعز بعياله وأمواله، ثم وصل الخبر بتملك ولد الكامل قلعة تعز ،حصرها وقبض سليمان شاه بن تقي الدين منها، وأحضر إلى مصر تحت الحوطة هو وزوجته بنت سيف الاسلام.

ووصل الخبر من جهة الحجاز بنزول قتادة صاحب مكة على المدينة حرسها الله تاسع صفر وحصرها أياما وقطع ثمرها جميعه، وكثيرا من نخيلها فقاتله من فيها، وقتل جماعة من أصحابه ورحل عنها خاسرا.

وفي سابع ربيع الآخر عزل القاضي الزكي بن محيي الدين عن الحكم بدمشق وأعمالها، وولي من الغد جمال الدين ابن الحرستاني وهو ابن اثنتين وتسعين سنة، فقضى بالحق وحكم بالعدل رحمه الله تعالى.

وفي رابع جمادى الآخرة شرع في عمارة العادلية المقابلة لدار العقيقي من الغرب، وحضر السلطان لترتيب وضعها بين الصلاتين يوم السبت، ثم أحرقت بالنار في رمضان سنة أربع وعشرين.

وفيها: أبطل السلطان ضمان الخمر والقيان في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، وبقي الأمر على ذلك إلى أن توفي العادل في سنة خمس عشرة— نحو ثلاث سنين— فكان الذين يريدون شرب الخمر يتكلفون الخروج إلى ضياع جبل سنير، وفي صيدنايا ومعربا ونحوهما.

وفيها: وصل رسول الخليفة من بغداد إلى دمشق وهو الشيخ شهاب الدين السهروردي، ونزل بجوسق العادل في رمضان، وسار إلى لحاق السلطان بالقدس وعاد راحلا إلى بغداد في خامس عشر شوال.

وفي ثالث شعبان سار الأمير سالم صاحب المدينة بمن استخدمه من التركمان والراجل إليها من المخيم السلطاني بالكسوة، ثم توفي بالطريق قبل وصوله إلى المدينة، وقام ولد أخيه جماز بالأمر بعده واجتمع أهله على طاعته فمضى بمن كان مع عمه لقصد قتادة صاحب مكة، فجمع قتادة عسكره وأصحابه والتقوا بوادي الصفراء، وكانت الغلبة لعسكر المدينة فاستولوا على عسكر قتادة قتلا ونهبا، ومضى قتادة منهزما إلى ينبع فتبعوه وحصروه بقلعته، وحصل لحميد بن راجب من الغنيمة ما يزيد على مائة فرس، وهو واحد من جماعة كثيرة من العرب الطائيين وعاد الأجناد الذين كانوا مضوا مع الأمير سالم من الشام من التركمان وغيرهم صحبه الناهض بن الجرجي خادم المعتمد، وفي صحبتهم كثير مما غنموا

من أعمال قتادة ومـن وقعة وادي الصفراء من نساء وصبيـان، وظهر فيهـم أشراف حسنيون وحسينيـون فاستعيـدوا منهم، وسلمـوا إلى المعروفين مـن أشراف دمشق ليكفلوهـم ويشاركوهم في قسمهم من وقفهم.

وفيها: كسر كيكاوس ملك الروم الفرنـج المتغلبين على أنطالية وأخذها منهم، وأخذ خوارزم شـاه محمد بن تكش غزنه مـن غير قتال، وأخذ ابن لاون أنطاكية من الفرنج ثم عاد أبرنس طرابلس وأخذها من ابن لاون.

وفيها: في العشرين مـن المحرم توفي بدمشق الشيخ الفقيـه كمال الدين مودود بن الشاغوري الشافعي وكان فقيها، صالحا، دينا، خيرا، متواضعا، زاهدا، وكان يقرىء الناس الفقه بالجامع قبالة مقصورة الخطابة احتسابا، ويشرح التنبيه للطلبـة، ويطول روحـه على تعليمهم وتفهيمهـم لله تعالى، ودفن بمقبرة بـاب الصغير شمالي الحظيرة التي فيها قبر معاويـة وغيره من الصحابة رضي الله عنهـم، وكتب على قبره في نصيبة حجر أبيـات حسنة من نظم الشهاب فتيان الشـاغوري رحمهما الله، أفادني قراءة ذلك على قبره شيخنا أبـو الحسن السخاوي رحمه الله، وقـد خرجـت معه لزيـارة القبور فـوقف عليـه مترحما، وقال لي: اقـرأ ماعلى القبر فـإنه مـن نظم الشهـاب فتيان فقرأت الأبيات وهو يستحسنها:

كم ضم قبرك يا مودود من دين
ومن عفاف ومن بر ومن لين

ما كنت تقرب سلطانا لتخدمه
لكن غنيت بسلطان السلاطين

نبكي عليك وعنا أنت في شغل
ببرد تسليم حور فرد عين

سقى الإله ضريحا أنت ساكنه
حتى يرى منبتا خضر الرياحين

وفيها: توفي بحران يوم السبت ثاني جمادى الآخرة الحافظ عبد القادر ابن عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الرهاوي، ولد بالرها سنة ست وثلاثين وخمسمائة، ونشأ بالموصل، وكان مولى لبعض المواصلة فأعتقه فطلب العلم وسمع الحديث الكثير، ويقال إنه مولى لبني فهم الحرانيين، سافر إلى بغداد، وأصفهان، ونيسابور، والشام، ومصر وغيرها وأقام بالموصل بدار الحديث المظفرية يحدث بها مدة ثم خرج إلى حران فأقام بها إلى أن مات، ودفن بها، سمع بمصر الحافظ السلفي، وببغداد ابن الخشاب، وشهدة، وبأصفهان أبا عبد الله الرستمي وغيرهم ، وكان صالحا مهيبا زاهدا ناسكا، خشن العيش صدوقا ورعا رحمه الله.

وفيها: توفي ببغداد في شعبان الوجيه النحوي، واسمه المبارك بن المبارك أبو بكر الواسطي، ولد سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وكان حنبليا فآذاه الحنابلة فانتقل إلى مذهب أبي حنيفه ثم انتقل إلى مذهب الشافعي لأسباب عرضت له، وكان يقول: مانقلت عن مذهبي، وهجي بأبيات تقدم ذكرها في أخبار سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وقرأ الأدب على ابن الخشاب وغيره، وبرع فيه وكان يقرئه بالمدرسة النظامية، وله مقدمة في النحو، وصلي عليه بالنظامية، ودفن بالوزيرية عند ابن فضلان رحمه الله.

وفيها: توفي بدمشق يوم السبت الثالث والعشرين من شوال الوجيه ابن البسوني، واسمه ابراهيم بن يوسف بن محمد بن أبي الفرج المغربي، أحد مشايخ القراء المعتبرين بجامع دمشق، وكان يؤم بمقصورة الحنفية الغربية داخل الجامع، وكان يعقد حلقة الإقراء بحلقة ابن طاووس شرقي البرادة، وقبالة حلقة جمال الاسلام ابن الشهرزوري، وكان فاضلا، خيرا، متواضعا، ساعيا في حوائج الناس ، قرأت عليه الجزء الأول من القرآن ودفن بالجبل وكان يوما مشهودا، وفي شوال توفي السديد ابراهيم ابن عمر بن سماقة الأسعردي الفقيه الشافعي بخلاط.

وفيها: توفي يـوم الجمعة العشرين من ذي القعدة ولـد الخليفة الناصر، وهو الولد الصغير الذي جعل ولي العهـد بدل الكبير، واسمه أبو الحسن علي.

قال أبـو المظفر: ويلقب بـالملك المعظـم وكان جوادا كثير الصـدقات وافر المعـروف كريم الأخلاق حسـن العشرة، مرض أياما، ثـم توفي وصلي عليه بتـاج الخليفة، وأخرج التـابوت وبين يديـه أرباب الدولـة لم يتخلف سوى الخليفة، وحمل إلى تربة أم الخليفة فدفن معها في القبة.

قال: ومن العجائب أنه دخـل يوم الجمعة رأس منكلي مملوك السلطان أزبـك الذي كـان قـد عصى على مـولاه وعلى الخليفـة، وقطـع الطريـق، وسفـك الدمـاء، وأخذ المال، ثـم تعدت إليـه العسـاكر فقتـل أصحابـه ونهبـت أثقالـه وذلـك بـالقرب مـن همذان، فهـرب في الليـل فضل عـن أصحابه فجاء إلى بيـت صديق له في بعض القرى فقيده الـرجل، ثم قتله وحمل رأسه إلى أزبك فبعـث به إلى ابن زين الدين، فبعـث به إلى الخليفة وأدخل رأسه بغـداد على خشبة، وقد زين له البلـد وظهر السرور والفرح، ولما وصل الـرأس إلى باب درب حبيـب وافق في تلـك الساعـة وفاة علي ابـن الخليفة، فـوقـع صراخ عظيم مـن دار الخليفـة فـرد الرأس إلى عقـد اللكـافين، ورمـي في بيـت في الخان،وكوسات منكلي مشققـة، وأعـلامـه منكسة، وانقلب ذلك السرور حزنا، وأمر الخليفـة بالنياحة عليه في أقطار بغـداد ففرشـوا البواري والـرماد، وخـرج العـواتق مـن خدورهـن ونشرن شعـورهن ولطمـن، وقـام النـوائح في كل نـاحيـة ، وعظـم حزن الخليفـة بحيث امتنع مـن الطعام والشراب، وغلقت الأبواب وعطلـت الحمامات، وبطل البيع والشراء، وجـرى في بغداد مالم يجر في بلد آخـر، وكان الخليفة قد رشحـه للخلافـة ففعل في ملكـه ماأراد، ورد الخلافـة إلى أخيه الأكبر أبي نصر بعد مـاكان صرف عن ولاية العهـد لأجله، وخلف علي ولـدين: أبا عبد الله الحسين ولقبه المؤيد، ويحيى ولقبه الموفق(٦٢) .

-٩١٥٣-

وفيها: توفي بدمشق الصمصام أبـو ساروخ النجمي، والشريف مؤمن، وفي رابـع ذي الحجة تـوفي الشريف مجد الـدولـة ابراهيـم بن أبي الحسـن الحسيني بدمشق.

- ٩١٥٤ -

ثم دخلت

سنة ثلاث عشرة وستمائة

ففيها: أحضرت الأوتـاد الخشب لأجل قبـة النسر في الجامع، بـدمشق وعدتها أربعة طـول كل واحد منها اثنـان وثلاثون ذراعا بـذراع النجارين حيـث كانـت قطعـت مـن الغوطـة، والـدخـول بها من بـاب الفـرج إلى المدرسة العـادلية إلى باب الناطفـانيين، وأقيم هناك لها الصـاري، ورفعت ثم وضعت.

وفيها: في المحـرم أيضا شرع في تحريـر خندق بـاب السر، وهو المقـابل لدار المعظم العتيقة المجاورة لنهر بانياس، وكان المعظم ومماليكه وعسكره ينقلـون التراب كل واحـد يـأخـذ معه قفـة يجعلهـا على قـربوس سرجـه ويمضـون جميعـا مـع المعظـم نحــو الميـدان الأخضر يفـرغـون القفـاف ويـرجعـون يفعلـون ذلـك كـل يوم، ثـم انقسموا فـرقتين وكـان المعظـم وعسكره ينقلـون يوما، وكـان أخوه الصالح اسماعيـل مع من انضـم إليه مـن العسكـر ينقلـون يـوما، والنـاس في الخنـدق يعملـون، وكثير منهـم يتفرجون، وكـان كل يوم عمل الخنـدق على طائفة من أهـل البلد، وعمل فيه الفقهاء، والصوفية، ولم يبق أحـد، ونظم في ذلك أشعار كان يغني بها في الأسواق وتحت القلعة.

وفيهـا: كانـت الحادثة بـدمشق بين أهـل الشاغـور والعقيبة وحملهـم السلاح وقتـالهم بالـرحبة والصيـارف، وبركـوب العسكر للفصـل بينهم، وحضور المعظم مـن جوسق الريس لتسكين الفتنة، وكـان مقيما به وقبض جماعـة من مقـدمي الحارات منهـم ريس الشاغـور، وأودعوا السجـن في السادس والعشريـن من ربيع الأول، ووصـل الخبر بتسلم نواب الكـامل ينبع مـن نواب قتـادة حماية له مـن قاسم بـن جماز صاحـب المدينة على

ساكنها السلام، وكان قاسم بن جماز أخذ وادي القرى ونخلة من قتادة وهو مقيم به ينتظر الحجاج حتى يقضوا مناسكهم، وينازل هو مكة بعد انفصالهم عنها.

وفيها: سار المعظم من قرية العبادية بالمرج إلى أخيه الأشرف على الهجن في البرية على حصن مسلمة بظاهر حران بعد أن كان وصل في سيره، ففاوضه في أمر حلب، وذلك حين كان بلغه موت صاحبها ابن عمه الظاهر غازي صلاح الدين ، وكان قد سبق من الأشرف الاتفاق مع القائم بأمرها، فرجع إلى العبادية بعد سبعة عشر يوما، ولم يظهر للناس إلا أنه كان منصورا.

وفيها: ترتب الخطيب بالمصلى لإقامة الجمعة به تاسع عشر رمضان، وأول من خطب به الصدر وكان شيخا صالحا، معيدا بالمدرسة الفلكية، ثم خطب بعده بهاء الدين بن أبي اليسر، ثم بنو حسان إلى الآن.

وفيها: امتنع تجار الفرنج من الوصول إلى الاسكندرية، وصار وصولهم إلى عكا بالبضائع وبيعهم بها فحصل لملك عكا جملة وافرة، وبلغ ضمان قصبتها مائة وعشرين ألف دينار، وكانت سنة قليلة الأمطار غالية الأسعار.

وفيها: سافر أبو المظفر سبط ابن الجوزي إلى خلاط قال: وبعث الخليفة كتاب روح العارفين إلى الأشرف وعرضه على العلماء الذين هم في خدمته وأمرهم أن يشرحوه فلم يقدروا على شرح حديث واحد فأشار إلى شرحه وتبيين مافيه من الفوائد فشرحته، والنسخة موقوفة بدار الحديث الأشرفية بدمشق. قال: وجلست بقلعة خلاط وحضر الأشرف وبكى وانتفع.

ووصل شهاب الدين عبد السلام بن أبي عصرون من حلب رسولا

من الملك العزيز محمد بن الظاهر إلى الخليفة يسأله تقريره على ماكان عليه أبوه، ونزل الأشرف من خلاط إلى حران في شعبان، وسألني الجلوس بجامع حران فضربت له خركاة في الجامع وحضر وكان يوما مشهورا وجلس في الخركاة، وجاء الفخر بن تيمية الخطيب فقعد عنده وكتبوا إلي رقاعا كثيرة فجمعتها وقلت أتركوها إلى يوم يجلس شيخكم يجيب عنها فهو يطول روحه عليكم، أما هذا اليوم فالوقت مايحتمل، فأعجب الأشرف وانقضى المجلس، فقلت للأشرف: لابد لي في هذه السنة من شيئين أحدهما الحج على بغداد، والثاني الإعتكاف بالرقة، فقال: مبارك.

وخرجت من حران في آخر شعبان أريد الرقة فبينما أنا بين حصن (٦٣) والرقة وإذا بنجابين بينهم رجل عليه بغلطاق(٦٤) احمر فقلت لأصحابي: هذه شمائل الملك المعظم،فقالوا: الملك المعظم في دمشق ايش جاء به إلى هنا، فلما قربوا منا وإذا به المعظم، وقد أعيت ناقته فنزل وتحدثنا وأكلنا شيئا كان، وأعطانا ناقته وأخذ فرسي، وقال: اين أخي؟ فقلت في الزراعة، فساق واجتمعا، وفاوضه في أمر حلب، وكان الأشرف قد حلف لشهاب الدين طغريل الخادم، وأنه أتابك العزيز محمد بن الظاهر، فشق ذلك على المعظم، ولم يقل شيئا وجاءا معا إلى الرقة وأنا معتكف بالخانكاه، وحضرا عندي وسار المعظم إلى دمشق وجهزني الأشرف إلى الحج وعمل لي سبيلا مثل سبيله، وتوجهت إلى بغداد.

وحج بالناس من العراق ابن أبي فراس، ومن الشام علم الدين الجعبري، وعدت من الحج على طريق العلا، وتبوك، وجمعت بين زيارة النبي صلى الله عليه وسلم وبين زيارة الخليل عليه السلام في المحرم(٦٥).

وفيها: في ثاني صفر توفي بالقاهرة العضد مرهف بن مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، وله من العمر اثنتان وتسعون سنة ونصف، وشيع

السلطان جنازته، وكان جليلا عند الملوك وأبوه من قبله، وقد ذكرنا من أخباره في التاريخ وفي كتاب الروضتين مادل على جلالة بيته وأدبه، وشجاعته، وفضائله مع طول عمره رحمه الله.

وفي جمادى الأولى قتل المعروف بابن الطيب الكتبي بباب الجامع بيد الاسماعيلية وكان ينسب إلى خدمتهم متهما بمذهبهم بقرب باب السلامة عند غروب الشمس به من يوم الأحد السادس والعشرين منه.

وفيها: في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة توفي الشيخ حسان بن قوام الرصافي بدمشق، وفي أول رجب توفي الشريف اسماعيل بن تغلب بالقاهرة، وفي ثامن ذي القعدة توفي الشريف المدعي الخلافة المستولي على صنعاء وما والاها من أرض اليمن، وقام ولده مقامه فلم يغن شيئا، واستعيد منه كثير مما تغلب عليه أبوه، وفي ثالث المحرم توفيت بدمشق خاتون الشيزرية وبلغت من العمر حدود مائة سنة.

وفيها: توفي صاحب حلب الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب، وعمره أربع وأربعون سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام، ومدة ولايته حلب ثلاثون سنة وتسعة أشهر وأيام، ولما اشتد مرضه أوصى بالملك لولده الأصغر محمد لأنه من بنت عمه العادل، وطلب بذلك أن يستمر الأمر له لأجل جده العادل، وأخواله، وأولاده لأنهم ملوك البلاد يومئذ، وأوصى بالملك من بعده لولده الأكبر أحمد، ثم من بعده للمنصور محمد ابن أ خيه العزيز عثمان بن صلاح الدين الذي كان أبوه أوصى له بملك مصر فلم يتم العادل له ذلك، وكان العادل قد زوجه ابنته، وفوض ولاية القلعة إلى خادم أبيض يعرف بالشهاب طغريل كان وصل إلى خدمته من بلاد الروم، وكان مشتهرا بالزهد فصار له عنده مكانة.

قال أبو المظفر: وكان الظاهر مهيبا له سياسة وفطنة وكانت دولته

معمـورة بالعلماء، والفضـلاء، مـزينة بـالملـوك والأمـراء، وكان محسنـا إلى الـرعية وإلى الـوافديـن عليه، وحضر معظـم غزوات والـده، وانضـم إليـه أخـوته وأقـاربـه، وكان ملجـأ للغـرباء، وكهفـا للفقـراء يزور الصـالحين ويعتقدهم، ويغيث الملهـوفين ويرفدهم، قال: وكان يتـوقد ذكاء، وفطنة، سريع الإدراك جلسـت عنده في سنـة اثنتي عشرة وستمائة وكـان الأشرف قد أرسلنـي إليه في قضـايا لايطلـع عليها كـاتب، وكتـب كتابـا بيده إلى الظـاهر، وكـان بحلب فقير ممـن يحضر مجالسي قبل ذلـك في سنة ثـلاث وأربع وخمس وستمائة، وكان ذلك الفقير يقـوم في المجلس ويصيح: واه ، واه، فيزعج الحاضرين وكان صالحا، والظـاهر أنه تغير حاله، فلما جلست سنة اثنتي عشرة عند الظاهر بقـي ذلك الفقير يحترق ويقول: كيف أعمل ويرددها، فقال الظاهر: قدموه إلى عنـدي فقدموه له، فقال له: هذا الذي يقـول الشيخ مـاهو بمليـح؟ قال: بلى، قـال: إن أردت أن تصيح صيـح فعجب الحاضرون.

وحضره في ذلـك المجلس رجـل عجمي يقـال له أبـو بكر النصيبـي، وكان صـالحا وكان يحمـل عصا أبنـوس فطابـت قلوب الجماعـة في ذلك اليوم وبكوا، فقـام النصيبي ودار وجاء إلى الظاهـر وقال له: أنت فـرعون ماتتحرك، وثار في وجه النصيبي مثـل التفاحتين وخرج من المجلس فمات بعد ثلاث.

وحضرنا عنده يـوم الخميس في دار العـدل فجيء بـامرأة قـد تحدثت على شخـص واعترفت بـالكذب، فقـال للقاضي ابـن شداد: مـاذا يجب عليهـا؟ قال: التأديب فقال تضرب بالـدرة شريعة، ويقطع لسانها سياسة فقلت له: الشريعـة هي السياسة الكاملـة وما عداها يكون تعـديا عليها، فأطرق فأدبت المرأة وسلمت من قطـع اللسان، وله من هذا الجنس نوادر في « الموارد والمصادر».

وتـوفي ليلة الثـلاثاء العشريـن مـن جمادى الآخرة بعلـة الذرب ودفـن بقلعة حلب، ثم بعد ذلك نقل إلى مدرستـه التي أنشأها، وقام بعده ولده الملك العـزيز محمـد وأتابكـه شهاب الـدين طغـريل الخادم فقـام بأمـره أحسنَ قيام، واستمال الملـك الأشرف يدنيه متى شاء، ويقصيـه متى شاء فحفظ مملكـة حلب على ولـد الظاهـر بحسن تـدبيره إلى أن كبر واستقل به(٦٦) .

وفيها: تـوفي الشيخ العلامة تـاج الدين أبـو اليمن زيد بن الحسـن بن زيد الكنـدي، أوحد العصر، وفـريد الـدهر روايـة ودراية ، بـأنواع علـم الأدب، وجمع أصـول الكتب ومتعـة الله بطـول العمر، وعلـو المنـزلة عنـد الملـوك والأمراء، والقضـاة، والأعيـان، وجلالـة مـن كـان يتردد إلى منزلـه وحيث كان للسماع عليـه والاقتباس من فوائده، وفرائده، وكـان مولده في الخامـس والعشريـن مـن شعبـان سنـة عشريـن وخمسمائة، وقـرأ القـرآن بالـروايات، وله عشر سنين على شيخـه الشيخ أبي محمد عبـد الله بن علي سبـط الشيخ أبي منصـور الحافظ، وهـو الـذي رباه، وكـان خصيصا بـه فـأسمعـه عليـه وعلى غيره كتبـا كثيرة مثل كتـاب سيبـويـة، والمقتضـب للمبرد، والحجة لأبي علي الفـارسي، وقرأ العربية أيضـا على أبي السعادات ابن الشجـري، واللغة على أبي منصـور الجواليقي، وسمـع الحديث الكثير من ابن نـاصر، وابن السمرقندي، والأنماطي، وسعد الخير، ومحمـد بن عبد الباقي الأنصـاري، وأبي منصور القزاز، وروى عنه تاريـخ بغداد للخطيب وغيرهم، وكـان مسكنه بدمشـق بجيرون بدرب العجمي فكـم ازدحـم في ذلك الدرب من شيوخ العلم وطلبته أولاد الملـوك وخدمته، ومتى ما أريد اعتبـار ذلك فلينظـر في الكتب التـي عليها طبقـات السماع عليه ليعلـم جـلالـة مـن كـان يتردد إليه، وكـان فـارق بغـداد في سنـة ثـلاث وستين وخمسمائة، وورد الديـار المصرية فسمـع بفضله فتقـرب إليه مـن هو مـن أهله، فاشتمل عليه عـز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بـن أيوب وهو: ابن أخي صلاح الديـن، ثم ولده الملك الأمجد صاحب بعلبـك من بعده، ثم

بالشـام تردد إليـه الملك الأفضل علي في سلطنتـه، وأخوه الملـك المحسن ابنا صلاح الدين، والملك المعظم عيسى بن العادل وغيرهم.

وأخبرني القاضي ضياء الدين بن أبي الحجـاج، صاحب ديوان الجيوش المصرية رحمه الله، وكان من أعلم من رأيت بأخبار الناس، وعمل للشيخ أبي اليمـن مشيخة حسنـة، قال: سـألته كيـف كان اتصـاله بعـز الديـن فـرخشـاه؟ فقـال: كنـت بمجلـس القـاضي الفـاضـل رحمه الله في داره بالقاهرة، فـدخل عليه فرخشاه فلما استقر بمجلسـه جرى ذكر شرح بيت من الشعر لأبي الطيب المتنبي فذكرت منـه شيئا فأعجب فرخشاه. فسأل القاضي الفـاضل عنـي فقال: مـن هذا؟ قال: هـذا العلامـة تاج الـدين الكندي، أو كما قال، فنهض فرخشاه وقبـض علي يدي وأخرجني معه إلى منـزله ودام اتصـالي به، وكـان يحضر مجلسـه للقراءة في داره والسماع منـه جميع المتصـدرين بجـامع دمشـق من المشايخ المعتبريـن. كأبي الحسـن السخاوي، ويحيى بن معطي، والوجيـه البوني، والفخر التركـي، وغيرهم، وقـال لي شيخنا أبـو الحسـن رحمه الله: أنا حـرضـت الملك المحسـن على التردد إليه فحمل ذلك ابن عمه الملك المعظم على ملازمته والقراءة عليه.

وقال في كتـابه شرح المفصـل: لقيت جماعـة من أهـل العربيـة منهم: الشيخ الفاضـل أبو اليمن زيد بن الحسن الكنـدي رحمه الله تعالى، وكان عنده في هـذا الشأن مـالم يكن عنـد غيره، وأخذت عنـه كتاب سيبـوية، وقـرأت عليه كتـاب الإيضـاح لأبي علي مستشرحـا، وأخذت عنـه كتـاب اللمع لأبي الفتـح، وكان واسـع الروايـة، وافر الـدراية، ومـن العجب أن سيبوية اسمه عمرو و الكندي اسمه زيد، فقلت في ذلك:

لم يكـن في عصر عمـرو مثلـه
وكـذا الكنـدي في آخـر عصر
وهما زيـد وعمـرو وإنما
بنـي النحـو على زيـد وعمـرو

وهذا معنى حسن، وهو نظير قول أبي شجاع بن الدهان من أبيات تقدم ذكرها في أخبار سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وهي:

النحو أنت أحق العالمين به
أليس باسمك فيه يضرب المثل

وقرأ علي: شيخنا أبي الحسن من نظمه قصيدة فائقة جامعة لفضائل أبي اليمن الكندي رحمه الله وهي:

أيها الدائب المعنَّى المعاني
مقتضى الكد في معاني المعاني
لذ بباب الكندي زيد أبي اليمـ
ـن إمام الأنام فرد الزمان
فعقول الورى في الفهم عنه
ذات فقر للفضل والعرفان
هو بحر فيه نفيس لآل
وسواه كالآل عند العيان
غير بدع إن قر في البحر در
وهو تاج والدر للتيجان
صورة صورة من السؤدد المحـ
ـض وطيب الأنفاس والاحسان
علم سيبويه منفرد فيـ
ـه بإسناده وبالاتقان
وكذا شرح سيبويه وماحـ
ـل بأقطارها له فيه بان
وكتاب الإيضاح قد فاق فيه
بحلى الإيضاح والتبيان
وكذا كامل المبرد مع مقتضـ
ـب النحو ذي الفصول الحسان

وأصـــول السراج واللمـــع الفـــر
د وشرحـــاه حبـــذا الشرحـــان
والـــذي حـــرر ابـــن بـــرهـــان في النحـــ
ـــو ومـــا قـــال قبلـــه الـــرمـــاني
وكـــذا الحجـــة الـــذي فـــاق فيـــه
علماء الأعصـــار والأزمـــان
والتفـــاسير والقـــراءات والتجـــ
ـــويد فيهـــا ومشكـــل القـــرآن
وحـــديـــث النبـــي والقـــول فيـــه
قـــولـــه في غـــريبـــه والبيـــان
والتـــواريـــخ والقـــوافي مـــن الشعـــ
ـــر وعلـــم العـــروض والأوزان
ولـــه في العـــروض مـــا لم تجده
لمجيـــد القـــريـــض في ديـــوان
بين جـــزل غـــدا حبيـــب حبيـــب
وحســـان كـــانـــت هـــوى حســـان
يقـــظ واســـع المجـــال رحـــب البـــ
ـــاع فيما ينـــأى عـــن الأذهـــان
يـــرشـــد العـــاقـــل الـــذكـــي مـــن السهـــ
ـــو بقلـــب ذي فطنـــة يقظـــان
وجنـــان لـــه وقـــد جـــاوز التســـ
ـــعين حـــولا نضـــارة العنفـــوان
ويـــد يـــرقـــم الطـــروس كما فصـــ
ـــل عقيـــان نـــاظـــم بجمان
فـــانظـــر الخط واسمـــع اللفـــظ تنعـــم
ثـــم في روضتـــي يـــد ولســـان
وقـــر الله بعـــد طـــول بقـــاء
في نعيـــم نعيمـــه في الجنـــان

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: شيخنا تاج الدين الكندي انتهت إليه القراءات، والروايات وعلم النحو واللغات، قرأت عليه من كتاب الصحاح، والمتنبي والحماسة، والإيضاح، والمعرب لابن الجواليقي، وكان يحضر مجالسي بجامع دمشق، وقاسيون ويقول: أنا قد صرت من زبون المجلس، وكان حسن العقيدة، طيب الخلق، لايسأم الإنسان من مجالسته وله النوادر العجيبة، ولما خرجت في سنة سبع وستمائة إلى الغزاة كتب لي إلى نابلس كتابا بخطه وكان يكتب مثل الدر:

جزى الله بالحسنى ليالي أحسنت
إلينا بإيناس الحبيب المسافر
ليالي كانت بالسرور قصيرة
ولم تك لولا طيبها بالقصاير
فيالك وصلا كان وشك انقضائه
كزورة طيف أو كنغمة طائر

قال وكتب أيضا:

أيا ساكنا قلبي على بعد دارهم
لقد عيل صبري منذ شطت نواكم
سرى معكم نومي فأصبحت بعدكم
ألوم السرى منه وأبكي سراكم
رضيتم بعادي عنكم فرضيته
لأني أهواكم وأهوى هواكم
شجاني غرام لو وفيتم ببعضه
لقلب المعنى فيكم لشجاكم
أعيدوا لنا عيد الوصال على اللوى
سقى الله أيام النوى وسقاكم
دعاني اشتياق لم تصبكم سهامه
فياليته لما دهاني دهاكم

وإني لأخشى أن أموت بغصتي
عليكم ولا أبقى إلى أن أراكم
ولو كان قلبي كالقلوب لغيركم
لقد كان لما أن سلوتم سلاكم

وله ديوان شعر. قال: وحكى لي قال: كتبت إلى الملك الأمجد إلى بعلبك:

لا يضجرنكم كتبي إذا كثرت
فإن شوقي أضعاف الذي فيها
والله لو ملكت كفي مهادنة
من الليالي التي أحيا بناديها
لما تصرم لي في غير داركم
ليل ولا مت إلا في نواحيها
عدوا احتمالكم لي حين أضجركم
من الصلات التي منكم أرجيها

قال وكتب إلي بخطه وهي له:

إنا لتتحفنا بالشوق كتبكم
وإن بعدتم فإن الشوق يدنيها
فكيف نضجر منها وهي مذهبة
من وحشة الشوق لوعات نعانيها
وإن ذكرتم لنا فيها اشتياقكموا
فعندنا منكم أضعاف ما فيها
سلوا نسيم الصبا يهدي تحيتنا
إليكم فهي تدري كيف تهديها

قال: وكان المعظم عيسى رحمه الله يقرأ عليه دائما، قرأ عليه كتاب

سيبويه نصا وشرحا، والإيضاح والحماسة، وشيئا كثيرا، وكان يمشي من القلعة راجلا إلى دار تاج الدين والكتاب تحت أبطه، توفي رحمه الله يوم الاثنين سادس شوال وأنا يومئذ متوجه إلى الحج على بغداد، وصلي عليه بجامع دمشق وحمل إلى قاسيون فدفن به، ولم يتخلف عن جنازته أحد من الأعيان وعمره ثلاث وتسعون سنة وشهر وستة عشر يوما، وكان صدوقا ثقة.

قلت: وقرأت في ديوانه بخطه:

لبست من الأعمار تسعين حجة
وعندي رجاء بالزياده مولع
وقد أقبلت إحدى وتسعين بعدها
ونفسي إلى خمس وست تطلع
ولاغرو أن آتي هنيدة سالما
فقد يدرك الإنسان ما يتوقع
وقد كان في عصري رجال عرفتهم
حيوها وبالآمال فيها تمتعوا
وماعاف قبلي عاقل طول عمره
ولاذمهم من فيه للعقل موضع

هنيدة اسم علم على المائة.

وقرأت بخطه فهرس كتبه التي وقفها على فتاه ياقوت، ثم على ولده ثم على العلماء فوجدتها سبعمائة وإحدى وستين مجلدا: في علوم القرآن، مائة وأربعون، الحديث تسعة عشر، الفقه تسعة وثلاثون، اللغة مائة وثلاثة وأربعون، الشعر مائة واثنان وعشرون، النحو والتصريف مائة وخمسة وسبعون، علوم الأوائل من طب وغيره مائة وثلاثة وعشرون، وكان

معتقه نجيب الدين ياقوت قد هيأ له خزانة كبيرة بمقصورة ابن سنان الحنفية المجاورة لمشهد زين العابدين بجامع دمشق، ونقل إليها جملة من هذه الكتب، ثم إنها تفرقت وخرجت عن الخزانة وعدمت وبيع جملة منها سرا وجهرا، نسأل الله عفوا وغفرا وصيانة وسترا.

وكان الشيخ تاج الدين رحمه الله قد عمل شرحا لديوان أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، فلما انتهى سماعه عليه كتب شيخنا أبو الحسن الثبت فيه بيتان يريد بهما مصنفه أبا اليمن الكندي وهما:

فلو أن أحمد يدري بما
ينال من السعد ما قاله
لرام من التيه وطء السهى
وجر على النجم أذياله

وأخبرني صاحبنا جمال الدين أحمد بن عبد الله بن شعيب،وكان أحد من قرأ على الشيخ تاج الدين أنه كان مع علو منزلته وجلالته متواضعا مع طلبته، يخاطب كلا منهم بقوله: ياسيدنا.

قال: وكنا نقرأ يوما عنده أنا ورفقائي فدخل الملك المعظم فجلس فسكتنا فقال الشيخ للمعظم: إنما سكتوا لأجل السلطان ولم يفرغوا من حزبهم، فقال: لاوالله إنما القراءة بالنوبة فليتمموا، فأمرنا الشيخ فأتممنا حزبنا، قال: وكان منصفا لمن يدخل عليه ولقد سمعته وهو يعتذر لهم عن ترك القيام لكبره وأنشد:

تركت قيامي للصديق يزورني
ولاذنب لي إلا الإطالة في عمري
فإن بلغوا من عشر تسعين نصفها
تبين في ترك القيام لهم عذري

ومن شعره وقد شرب دواء:

تداويت لا من علة خوف علة
فأصبح دائي في حشاي دوائي
فيا عجب الأقدار من متحذلق
يحاول بالتدبير رد قضاء

وفيها: توفي أبو الغنائم سعيد بن حمزة بن أحمد، ويقال له ابن ساروخ الكاتب النيلي العراقي، ولد بالنيل سنة ثمان عشرة وخمسمائة، وسمع شيوخ ذلك العصر، وسافر إلى الشام والروم، ومدح الملوك والأمراء، وذكره العماد في الخريدة وقال: قدم دمشق ومدح أمراءها وعاد إلى بغداد فكبر وأسن وانقطع في بيته إلى آخر عمره وكان بارعا وله رسائل، ومكاتبات، وأشعار رائقة، وألفاظ فائقة شائقة فمن شعره:

يا شائم البرق من نجد كاظمة
يبدو مرارا وتخفيه الدياجير
إذا سقيت الحيا من كل معصرة
وعاد مغناك خصبا وهو ممطور
سلم على الدوحة الغناء من سلم
وعفر الخد إن لاح التعافير
أحن شوقا إلى تلك الرياض وقد
ضاها بنفسجها ورد ومنثور
ومالت السرو في خضر الثياب كما
تمايلت في الحرير الأخضر الحور
والغصن سكران من ظل الندا فإذا
دعا ابن ورقاء أضحى وهو مخمور
وهاتفات على الأغصان قد رقدت
عنهن في غسق الدجى النواطير
فظل يسجعن حتى كدت من ولهي
أقضي ولكنما في العمر تأخير

لكــــن وجـــدي بترجيــــع الهديــــل ومــــا
غــــردن بـــاق إلى أن ينفــــخ الصــــور

وكانت وفاته ببغداد في رمضان.

وفيها: توفي محمد بن الحافظ عبد الغني المقدسي، ولقبه عز الدين ولد سنة ست وسبعين وخمسمائة، وسمع الحديث، رحل إلى أصبهان، ثم عاد إلى بغداد وقرأ مسند أحمد ببغداد، وسمع أبا الفرج ابن الجوزي وغيره، وعاد إلى دمشق، وحدث عن أصحاب الحداد وغيرهم، وكانت له حلقة بجامع دمشق، وصحب الملك المعظم عيسى، وسمع بقراءته الكثير، وكان حافظ دينا زاهدا ورعا، وتوفي بقاسيون رحمه الله.

وفيها: توفي أبو الفتوح محمد بن علي بن المبارك بن الجلاجلي البغدادي التاجر، ويلقب بالكمال، ولد سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وقرأ القرآن وسافر إلى الأقطار، وسمع الشيوخ وكان يتردد من الخليفة إلى الأشرف في رسائل خفية، سمع ببغداد أبا السعادات المبارك بن علي الوكيل، وأبا بكر عبد الله بن النقور، وابن البطي، وبالاسكندرية الحافظ أبا الطاهر السلفي وغيرهم، وكان عاقلا دينا صالحا ثقة صدوقا بساما متواضعا ومات بالقدس.

وفيها: توفي محمد بن يحيى بن عبد الله بن نصر بن النحاس الواسطي الأديب، كتب من واسط إلى أبي المظفر سبط ابن الجوزي رحمهما الله:

وقــــائلــــة لما عمــــرت وصــــار لي
ثمانــــون عــــش كــــذا وابــــق واسلــــم
ودم وانتشــــق روح الحيــــاة فــــإنــــه
لأطيــــب مــــن بيــــت بصعــــده مظلــــم
فقلــــت لها عــــذري لــــديــــك ممهــــد
ببيــــت زهير فــــاعلمــــي وتعلمــــي

-٩١٦٩-

سئمت تكاليف الحياة
ومن يعش ثمانين حولا لا محالة يسأم

وفيها: توفي أبو جعفر يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد -أربع مرات- العلوي الحسيني البصري يعرف بابن أبي زيد، ولي نقابة الطالبيين بالبصرة بعد أبيه مدة، وسمع الحديث من أبيه وغيره، وقرأ الأدب على أبي علي بن الأحمر الحماني بالبصرة، ومولده سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وقدم بغداد ومدح الإمام الناصر بقصائد وكان رقيق الشعر، توفي ببغداد في رمضان، ودفن بمقابر قريش ومن شعره:

هذا العذيب وهذا الجزع والبان
فاحبس فلي فيه أوطار وأوطان
آليت والحر لا يلوي أليته
أن لا يلذ بطيب النوم أجفان
حتى تعود لياليناالتي سلفت
بالأجرعين وجيراني كما كانوا

ثم دخلت

سنة أربع عشرة وستمائة

قال أبو المظفر:ففيها قدم شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية إلى بغداد رسولا من العادل، وقدم بعده ولده فخر الدين رسولا من الكامل ابن العادل إلى أخيه المعظم في خطبة ابنته لابنه، وحضر المعتمد لطرح البلاطة الخاتمة بيده بحضرة مقصورة الخضر في ثالث المحرم.

وفيها: قدم بأسرى فرنج وعلى صدر كل واحد منهم رأس فرنجي مقتول معلق، وأحضرت خيمة فرنجية سرقها العرب من مخيم الفرنج بظاهر عكا قيل إنها كنيسة لهم، فنصبت في الميدان الأخضر الصغير، وعمل فيها طعام للفقراء.

وفيها: ذكر محيي الدين محمد بن يحيى بن فضلان الدرس في النظامية.

وفيها: زادت دجلة زيادة عظيمة، وركب الخليفة في شعبان وخاطب الناس وجعل يقول لهم: لو كان هذا الماء يرد بمال أو حرب دفعته عنكم، ولكن أمر مالأحد فيه حيلة، وانهدمت بغداد بأسرها والحال، ووصل الماء إلى رأس السور وبقي مقدار أصبعين حتى يطفح على السور، فأيقن الناس بالهلاك، ودام سبع ليال وثمانية أيام ثم نقص الماء، وبقيت بغداد من الجانبين تلولا لاأثر لها.

وفيها: قدم محمد خوارزم شاه إلى همذان بقصد بغداد في أربع مائة ألف على ماقيل، وقيل ستمائة ألف، واستعد له الخليفة، وفرق الأموال والسلاح، وأرسل إليه الشيخ شهاب الدين السهروردي في رسالة فأهانه واستدعاه وأوقفه إلى جانب تخته ولم يأذن له في القعود، فحكى الشيخ شهاب الدين قال: استدعاني فأتيت إلى خيمة عظيمة لها دهليز لم أر في

الدنيا مثله، والدهليز والشقة أطلس والأطناب حرير، وفي الدهليز ملوك العجم على اختلاف طبقاتهم، منهم صاحب همذان، وأصبهان، والري وغيرها، ثم دخلت إلى خيمة أخرى ابريسم وفي دهليزها ملوك خراسان: مرو، ونيسابور، وبلخ وغيرها، ثم دخلت خيمة أخرى وملوك ماوراء النهر، في دهليزها كذلك ثلاث خيام فدخلنا عليه وهو في خركاة عظيمة من ذهب وعليها سجاف مرصع بالجواهر وهو صبي له شعرات قاعد على تخت ساذج، وعليه قباء بخاري يساوي خمسة دراهم، وعلى رأسه قطعة من جلد تساوي درهما، فسلمت عليه فلم يرد ولاأمرني بالجلوس فشرعت فخطبت خطبة بليغة ذكرت فيها فضل بني العباس، ووصفت الخليفة بالزهد، والورع والتقى، والدين: والترجمان يعيد عليه قولي، فلما فرغت قال للترجمان: قل له: هذا الذي يصفه ماهو في بغداد بل أنا أجيء وأقيم خليفة يكون بهذه الأوصاف، ثم ردنا بغير جواب، ونزل الثلج عليهم فهلكت دوابهم، وركب خوارزم شاه يوما فعثر به جواده فتطير، ووقع الفساد في عسكره وقلت الميرة، وكان معه سبعون ألفا من الخطا فرده الله تعالى:«ونكب تلك النكبة العظيمة وسنذكرها».

وذكر المنشىء محمد بن أحمد النسوي في كتابه الذي ذكر فيه وقائع التاتار مع علاء الدين محمد خوارزم شاه المذكور، ومع ولده جلال الدين وقد اختصرته [٦٩]قال: حكى القاضي مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمي أنه أرسل إلى بغداد مرارا آخرها لأجل مطالبة الديوان بما كان لبني سلجوق من الحكم والملك ببغداد، فأبوا ذلك وصحبت في عودة بالشيخ شهاب الدين السهروردي رسولا مدافعا، قال: وكان عند السلطان من حسن الاعتقاد برفيع منزلته ماأوجب تخصيصه بمزيد الإكرام ومزية الإحترام تمييزا له عن سائر الرسل الواردة عليه من الديوان، فوقف قائما في صحن الدار ثم أذن للشيخ في الدخول، فلما استقر المجلس بالشيخ قال رحمه الله: إن من سنة الداعي للدولة القاهرة أن يقدم على أداء رسالته حديثا من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم

تيمنا وتبركـا، فأذن له السلطـان في ذلك، وجلـس على ركبتيه تأدبـا عند سماع الحديث، فذكـر الشيخ حديثا معنـاه التحذير من أذيـه آل العباس رضي الله عنهم، فلما فـرغ الشيخ مـن رواية الحديـث، قال السلطـان: أنا مـاآذيت أحـدا مـن ولد العبـاس ولاقصـدتهم بسـوء، وقد بلغنـي أن في مجالس أمير المؤمنين منهـم خلقا مخلدين يتنـاسلون بها، فلو أعـاد الشيخ الحديث بعينه على مسامع أمير المؤمنين كان أولى وأنفع(٧٠).

فعاد الشيخ والـوحشة قائمة بحـالها، ثم عزم على قصد بغـداد، وقسم نواحيها أقطاعـا وعملا، وسار إلى أن علا عقبة أسد أبـاد فنزل عليه ثلوج حملـت الأبـاطح والاعـلام، وغطـت الخراكـي والخيـام، ودام ثلاثـة أيـام بلياليهـا، فعظم إذ ذاك البـلاء، وأعضل الـداء، وشمل الهلاك خلقـا من الرجـال ولم ينج شيء مـن الجمال، وتلفت أيـدي رجال وأرجـل آخريـن. فرجع السلطان عن وجهه ذلك حينئذ مما هم به ويئس من مطلبه.

وفيها: كانـت جفلة السلطان العادل مـن الفرنج لما اجتمعوا وخـرجوا عليـه ووصلوا إلى عين جـالوت، وهـو ببيسان، فـأحرقهـا وظهر إلى جهـة عجلون، ووصـل الغور وقطع الفرنـج خلفه الأردن وأوقعوا باليـزك وغاروا على البـلاد وكتب العـادل إلى المعتمد وإلى دمشـق بالإهتمام والإستعـداد واستخـدام الرجـال، وتـدريب دروب قصر حجـاج، والشـاغور، وطـرف البساتين ونقل غلـة داريا إلى القلعة، وتغريـق أراضيها بالماء فإن الفـرنج مظهرون قصدها، واختبط البلد لأجـل هذه الشائعة، وأرسـل السلطان إلى ملوك الشرق مستحثـا لعساكرهـم، ووصل إلى مـرج الصفر، ونزل بـه بنية المقام لإجتماع العسـاكر إليه، ورد خـزانته إليـه بعد أن كانـت وصلت إلى مسجد القـدم في السحر للـدخول إلى دمشق، وجفلـت أهل القـرى من عقربـا، وحرستـا، وغيرهما، وغلت الأسعار وعـزم الناس على النـزوح عن البلد متى تحققـوا طلوع الفرنج مـن الغور، وكان للناس ضجيـج بالجامع في أوقات الصلاة وبكـاء ودعاء، ثم رجع الفرنج متـوجهين إلى عكا بمن

حصل في أيديهم من الأسارى بعد أن تمت غارتهم وصلوا إلى خربة اللصوص ،وماقرب منها، وإلى أفيق وإلى كثير من أعمال الشعرا والناس بين أيديهم جافلين.

ووصل الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص مع من اجتمع معه من العساكر لنجدة الاسلام، ولم يبق بالبلد أحد لتلقيه، وكان يوما مشهودا طلعت له الشمس عند حرستا، فما وصل إلى البلد إلا وقت الظهر من كثرة الناس في طريقه، ودخل من باب الفرج ومضى على قدمه إلى دار الست فرج الشام أخت العادل الكبرى، أقام عندها ساعة، ثم عاد إلى داره وبات بها وأصبح متوجها إلى السلطان فسكنت قلوب الناس بدمشق بقدومه وزال خوفهم.

وقال أبو المظفر: وفيها: انفسخت الهدنة بين المسلمين والفرنج، وجاء العادل من مصر بالعساكر فنزل على بيسان والمعظم عنده في العساكر الشامية، وخرج الفرنج من عكا ومقدمتهم ملك الهنكر، فنزل عين جالوت في خمسة عشر ألفا، وكان شجاعا مقداما ومعه جميع ملوك الساحل فلما أصبحوا ركب الهنكر في أوائلهم وقصد العادل، وكان العادل على تل بيسان فنظر فرأى أنه لاقبل له بهم فتأخر، فقال له المعظم: إلى أين؟ فشتمه بالعجمية وقال له بمن أقاتل أقطعت الشام مماليكك، وتركت أولاد الناس الذين يرجعون إلى الأصول وذكر كلاما في هذا المعنى،وساق فعبر الشريعة «عند يرقا»وجاء الهنكر إلى بيسان وبها الأسواق والغلال والمواشي وشيء لايعلمه إلا الله تعالى فأخذ الجميع، وارتفع العادل إلى عجلون، ومضى المعظم فنزل بين نابلس والقدس على عقبة اللبن خوفا على القدس، وأقام الفرنج على بيسان ثلاثة أيام، ورحلوا طالبين قصر ابن معين الدين، وسار العادل فنزل رأس الماء وصعد الفرنج عقبة الكرسي إلى خربة اللصوص والجولان وأقاموا ثلاثة أيام ينهبون ويقتلون ويأسرون ،ثم عادوا فنزلوا الغور، وبعث العادل

أثقالـه إلى بصرى ونساءه، وأقـام على رأس الماء جريـدة، ولما نزل الفـرنج الغور جاء العادل فنـزل عالقين، ثم نزل الفرنج تحت الطـور يوم الأربعاء ثامـن عشر شعبان، وأقامـوا إلى يوم الأحد ثـاني رمضان، وكان يـوما كثير الضبـاب، فما أحـس بهم أهل الطـور إلا وهـم عنـد الباب قـد ألصقـوا رماحهـم بالطور، ففتـح المسلمون الباب وخـرج اليهم الفارس والـراجل، وقاتلـوهم حتى رموهـم أسفل الطور، فلما كـان يوم الثلاثاء رابـع رمضان طلعوا بأسرهم ومعهم سلم عظيم فزحفـوا من ناحية باب دمشق وألصقوا السلم بـالسور فقاتلهم المسلمـون قتالا لم يجر في الاسلام مثلـه، ودخلت رماح الفـرنج مـن المرامي من كـل ناحيـة فضرب بعض الـزراقين السلم بالنفط فـأحرقه، وقتل عنده جماعـة من أعيان الفرنـج منهم كند كبير فلما رأوه مقتـولا صاحـوا، وبكوا، وكسروا عليـه رمـاحهم، واستشهـد في ذاك اليوم من أبطال المسلمين الأمير بدر الديـن محمد بن أبي القاسم، وسيف الديـن بن المرزبان، وكـان من الصـالحين الأجواد، وأغلق المسلمـون باب الطور، وباتـوا يداوون الجرحى، وضربوا مشورة، واتفقـوا على أنهم يقاتلون قتال الموت ولايسلمون أنفسهم لئلا يجري عليهم ماجرى على أهل عكا، وكـان في الطور أبطـال المسلمين، وخيـار عسكر الشـام، وأوقـد الفرنـج حول الطور النيران، فلما كـان وقت السحر يوم الخميس سادس رمضان رحلـوا طالبين عكـا، وجـاء المعظم فصعـد وأطلـق المال، والخلع وطيـب قلـوب الناس، ثـم اتفـق العادل والمعظـم على خـراب الطور كما سيـأتي ذكره، وقيـل أن المعظم أنفـذ كتابا إلى الخليفـة وفي أوله بيتـان وهما للأمير عبد المحسن الكاتب الحلبي:

قـل للخليفـة لازالـت عسـاكـره
لها إلى النصر إصـدار وإيـراد

إن الفـرنـج بحصـن الطـور قـد نـزلـوا
لا يغفلـن فحصـن الطـور بغـداد

ولما انفصل الفرنج عن الطور قصد ابن أخت الهنكر جبل صيدا وقال: لابد لي من أهل هذا الجبل، فنهاه صاحب صيدا: وقال: هؤلاء رماة وبلدهم وعر فلم يقبل، وصعد في «خمسمائة» من أبطال الفرنج إلى جزين ضيعة الميارنة قريبا من مشغرا، فأخلاها أهلها، وجاء الفرنج فنزلوا بها وترجلوا عن خيولهم ليستريحوا فتحدرت عليهم الميارنة من الجبال فأخذوا خيولهم، وقتلوا عامتهم وأسروا ابن أخت الهنكر، فهرب من بقي منهم نحو صيدا، وكان معهم رجل يقال له الجاموس من المسلمين قد أسروه، فقال لهم: أنا أعرف إلى صيدا طريقا سهلا أوصلكم إليه، فقالوا: إن فعلت أغنيناك فسلك بهم أودية وعرة والمسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون، ففهموا أن الجاموس غرهم فقتلوه، ولم يفلت إلى صيدا سوى ثلاثة أنفس بعد أن كانوا خمسمائة،وجاءوا إلى دمشق بالأسارى [٧١] وكان يوما عظيما.

وحج بالناس من العراق ابن أبي فراس .

وفيها: توفي بهاء الدين أحمد بن أبي الفضائل الميهني شيخ رباط الخلاطية، من بيت التصوف، وكان أبوه أبو الفضائل واسمه عبد المنعم شيخ المشايخ وسيد الصوفية، وكان الخليفة قد سلم إلى بهاء الدين رباط الخلاطية وأوقافها ثقة فيه من غير مشرف ولاعمل حساب، فأقام مدة يقصده الناس من البلاد وأطراف بغداد، وأرباب البيوت، والفقهاء، والفقراء، والأعيان فما رد قاصدا ولامنع سائلا، وكان له الجاه العظيم والذكر الجميل، وكان له مملوك عبد أسود اسمه ريحان، فرأى الذل والهوان بعد العز والإمكان، ومرض بهاء الدين في تلك الحال فولى الخليفة القاضي الريحاني أمر الرباط وحمل بهاء الدين إلى بيت أخته على نهر عيسى، فتوفي ثامن رجب ودفن في الشونيزية في صفة الجنيد عند أبيه، سمع شهدة الكاتبة، وابن البطي وغيرهما، وصحب أباه وأخذ عنه طريق التصوف.

وفيها: توفي الشيخ العماد الحنبلي، وهو الحافظ عبد الغني الزاهد العابد الورع واسمه: أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، ولد بجماعيل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ثم سافر إلى بغداد، وقرأ القرآن على أبي الحسن علي بن عساكر بن المرحب البطائحي وغيره، وسمع الحديث الكثير ببغداد، ودمشق، وكان معتدل القامة شعره إلى أذنيه، مليح الوجه بساما عابدا مجتهدا لايدخر من الدنيا شيئا، حسن الصلاة كثير السجود والدعاء، يقرأ القرآن والفقه دائما في الحلقة بجامع دمشق، ويجتمع إليه الطلبة كل ليلة بعد العشاء الآخرة فيحملهم إلى بيته، ويحضر لهم من الطعام ماتيسر، وما تعرف لأحد من أبناء الدنيا قط لا إلى سلطان ولا إلى غيره.

قال أبو المظفر: ولاتحرك بحركة، ولامشى خطوة، ولاتكلم كلمة إلا لله تعالى، وكان يتعبد بالإخلاص، ولقد رأيته مرارا بالحلقة في جامع دمشق، والخطيب يوم الجمعة على المنبر، فيقوم عماد الدين ويأخذ الأبريق ويضع بلبله في فيه على رؤوس الأشهاد، ويوهم الناس كأنه يشرب وإنه لصائم، وكان الشيخ الموفق يثني عليه ويقول: أعرف العماد من صغره، وماعرفت أنه عصى الله تعالى قط، وكان من خيار أصحابنا وأعظمهم نفعا وأشدهم عبادة وورعا وأكثرهم صبرا على تعليم القرآن والفقه، داعية إلى السنة، وأقام بدمشق يعلم الفقراء، ويطعمهم ويبذل لهم ماله ونفسه وطعامه، وكان من أشد الناس تواضعا واحتقارا لنفسه، ومارأيت أشد خوفا لله تعالى منه، وكان كثير الدعاء والسؤال طويل الركوع والسجود، يصوم يوما، ويفطر يوما، وكان إذا سمع عليه جزء وكتبوا على ظهره سمع على العالم الورع ينهاهم عن ذلك، وسافر إلى بغداد مرتين، الأولى في سنة تسع وستين وخمسمائة صحبة الموفق بعد أن حفظ القرآن، وغريب الحديث، ومختصر الخرقي، وتفقه في بغداد على أبي الفتح بن المنى وأفتى وناظر، والسفرة الثانية سنة إحدى وثمانين صحبة عز الدين

ابن أخيه عبد الغني الحافظ، وصنف كتاب الفروق بين المسائل الفقهية وكتاب الأحكام ، ولم يتمه.

قال: وكان يحضر مجالسي دائما بجامع دمشق وقاسيون لاينقطع إلا من عذر، ويقول صلاح الدين يوسف فتح الساحل، وأظهر الاسلام، وأنت يوسف أحييت السنة بالشام.

قلت: السنة التي يشير إليها كون أبي المظفر رحمنا الله وإياه كان كثيرا مايورد على المنبر من كلام جده أبي الفرج وخطبه مايتضمن إمراء آيات صفات الباري عز وجل وماجاء في الأحاديث الصحاح من ذلك على ماورد من غير ميل إلى تأويل ولاتشبيه ولاتعطيل ومشايخ الحنابلة العلماء هذا مختارهم، وهو جيد، لكن الإكثار منه على أسماع العوام ربما يحمل أكثرهم على شيء من التشبيه، فإذا قرن به مايشرحه وينفي توهم التشبيه كان أولى والله أعلم.

قال أبو المظفر: ولما كان عشية الأربعاء سادس عشر ذي القعدة صلى العماد المغرب بجامع دمشق وكان صائما وأفطر في داره على شيء يسير، فجاءه الموت في الليل فجعل يقول: ياحي ياقيوم، ياذا الجلال والاكرام، وتوفي، فغسل وقت السحر، وأخرجت جنازته إلى جامع دمشق فما وسع الناس الجامع، وصلى عليه الموفق بحلقة الحنابلة بعد جهد جهيد، وكان يوما لم ير في الاسلام مثله، وكان أول الناس عند مغارة الدم ورأس الجبل إلى الكهف وآخرهم بباب الفراديس ولولا المبارز والمعتمد رحمه الله وأصحابه لقطعوا أكفانه ، وماوصل إلى الجبل إلى آخر النهار.

وقال: وتأملت الناس من أعلى قاسيون إلى الكهف إلى قريب الميطور لو رمى الإنسان عليهم إبرة لما ضاعت، فلما كان في الليل نمت وأنا مفتكر في جنازته، وذكرت أبيات سفيان الثوري التي أنشدها في المنام:

نظرت إلى ربي كفاحا وقال لي
هنيئا رضاي عنك يا ابن سعيد

فقد كنت قواما إذا أقبل الدجى
بعبرة مشتاق وقلب عميد

فدونك فاختر أي قصر أردته
وزرني فإني منك غير بعيد

وقلت: أرجو أن العماد يرى ربه كما رآه سفيان عند نزول حفرته، ونمت فرأيت العماد في النوم عليه حلة خضراء وهو في مكان متسع كأنه روضة وهو يرقى في درج مرتفعة فقلت: ياعماد الدين كيف بت فإني والله مفكر فيك؟ فنظر إلي وتبسم على عادته وقال:

رأيت إلهي حين أنزلت حفرتي
وفارقت أصحابي وأهلي وجيرتي

فقال جزيت الخير عني فإنني
رضيت فها عفوي لديك ورحمتي

دأبت زمانا تأمل الفوز والرضى
فوقيت نيراني ولقيت جنتي

فانتبهت مرعوبا وكتبت الأبيات، سمع ببغداد أبا محمد الخشاب النحوي، وشهدة الكاتبة وغيرهما، وبالشام أبا المكارم عبد الواحد بن محمد بن المسلم وعبد الله بن صابر وغيرهما، ورثاه الصلاح موسى بن الشهاب بأبيات منها:

يا شيخنا يا عماد الدين قد قرحت
عيني وقلبي منك اليوم متبول

أوحشت والله ربعا كنت تسكنه
لكنه اليوم بالأحزان مأهول

كم ليلة بت تحييها وتسهرها
والدمع من خشية الله مسسول

وسجدت طال ما طال القنوت بها
قد زانها منسك تكبير وتهليل (٧٢)

قلت: كان رحمه الله كثير الصلاة مطيلا لأركانها قياما، وركوعا، وسجودا، شاهدته مصليا بالجماعة في حلقة الحنابلة مرارا، ولم يكن لهم في حياته هذا المحراب الآن، وإنما كان يصلي بالجماعة هو تارة والموفق تارة إلى خزانتين مجتمعتين في موضع المحراب الآن سنة سبع عشرة أو نحوها، فجدد لهم هذا المحراب، وسببه أن قاضي دمشق جمال الدين يونس بن بدران حسن للسلطان المعظم عيسى بن العادل أن يجمع خزائن الكتب التي في الجامع إلى مشهد ابن عروة فنقلت الخزائن من الزاوية الغربية، ومن الكلاسة، ومن أروقة الجامع فكان من جملة المنقول الخزانتان اللتان بحلقة الحنابلة فبقي مكان صلاة إمامهم مكشوفا، فتعصب لهم الركن الأمير المعظمي في عمل هذا المحراب فركب في ليلة ذلك اليوم وصلى فيه الشيخ الموفق، ومن بعده ردت الخزانتان إلى الحلقة فجعلتا عن يمين المحراب ويساره، والشيخ العماد هو الذي سن الجماعة في الصلوات المقضية، وكان يصلي بالجماعة بحلقتهم بين المغرب والعشاء وماقدره الله تعالى، وبقي ذلك بعده مدة، حضرت جنازته والصلاة عليه رحمه الله.

وفيها: توفي القاضي جمال الدين أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل الأنصاري، شيخ القضاة العالم العادل المعمر الزاهد، ولد بدمشق سنة عشرين وخمسمائة، وأصل أبيه من قرية بقرب دمشق تسمى حرستا، قدم دمشق ونزل منزله بباب توما وأم بمسجد الزينبي، ثم أم فيه ابنه جمال الدين بعده إلى أن انتقل إلى مسكنة بالحويرة قبلي الجامع، شارك الحافظ أبا القاسم علي بن الحسن رحمه الله في كثير من مشايخه

الدمشقيين سماعا، وفي الغرباء إجازة، سمع بدمشق جمال الاسلام أبا الحسن علي بن المسلم، وعبد الكريم بن حمزة بن الخضر، وأبا الحسن علي ابن أحمد بن قعيس المالكي وغيرهم، ورحل إلى حلب وسمع بها أبا الحسن علي بن سليمان المرادي الحافظ وأكثر كتب الحافظ البيهقي وغيرهما، ثم رجع إلى دمشق فأقام بها وكان آخر من حدث عن عبد الكريم الحداد، وجمال الاسلام سماعا، وممن أجاز له من أهل نيسابور أبو عبد الله الفراوي، وهبة الله بن سهل السيدي، وزاهر بن طاهر الشحامي، وأبو المعالي الفارسي، وعبد المنعم بن أبي القاسم القشيري، ومن أهل بغداد قاضي المارستان، وابن السمرقندي، والأنماطي وغيرهم، وكان مواظبا للصلوات في الجماعات، يصلي في الصف الأول بمقصورة الخضر بالجامع قبالة محرابها دائما، وهنالك كان يقرأ عليه الكتب المسموعة ويجتمع خلق عظيم مع حسن سمته وسكونه وهيبته، وكان بارعا في فقهه، حكى لي الفقيه عز الدين أبو محمد العز بن عبد السلام أيده الله وهو الآن حي بالديار المصرية أنه لم ير أفقه منه، وعليه كان ابتداء اشتغاله، ثم صحب الشيخ فخر الدين بن عساكر رحمه الله فسألته عنهما فرجح ابن الحرستاني وقال: إنه كان يحفظ الوسيط للغزالي، ولي القضاء قديما نيابة بدمشق في أيام شرف الدين بن أبي عصرون، وكان يكتب له في الأسجال في القضايا، ولما أضر شرف الدين بقي هو على نيابته مع ابنه محيي الدين ابن أبي عصرون، فلما عزل وولى محيي الدين بن الزكي استقلالا وهو شاب لم ير النيابة عنه وبقي منقطعا في بيته إلى أن ولاه العادل المدرسة المجاهدية التي في الرصيف، فبقي مواظبا على التدريس بها وإسماع الحديث بمقصورة الخضر التي يصلي بها إلى أن عزل الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب رحمه الله عن قضاء دمشق في سابع ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وستمائة قاضي القضاة زكي الدين أبا العباس الطاهر ابن قاضي القضاء محيي الدين أبي المعالي محمد بن علي القرشي، وأخذ منه مدرسة العزيزية والتقوية، وأعطى التقوية للشيخ فخر الدين بن عساكر،

وأعطى العزيزية مع القضاء لجمال الدين بن الحرستاني، واعتنى به العادل اعتناء كثيرا، وأقبل عليه وأكرمه بحيث أرسل إليه مايفرشه تحته في مجلس الحكم لكبره وضعفه ومايسند إليه، وكان يجلس للحكم بمدرسة المجاهدية، وناب بها عنه عماد الدين عبد الكريم، وكان يجلس بين يديه وإذا قام الشيخ يستند مكانه، ثم أنه منعه من أي شيء سمعه عنه، وناب عنه أيضا أكابر شيوخ القضاة يومئذ شمس الدين بن الشيرازي، وكان يجلس قبالته في الإيوان بالمجاهدية، وشمس الدين بن سني الدولة، وبنيت له دكة في الزاوية القبلية بغرب المدرسة، وشرف الدين بن الموصلي الحنفي بمجلس المحراب بها، وبقي بالقضاء نحوا من سنتين وسبعة أشهر، ثم توفي يوم السبت رابع ذي الحجة، وكانت له جنازة عظيمة حفلة ودفن بجبل قاسيون، حضرت الصلاة عليه بالجامع، ومقابر باب الفراديس، وكان له يوم توفي خمس وتسعون سنة، ولغرابة ولاية القضاء لمن هو في هذا السن، قال شاعر الشام في وقته شهاب الدين فتيان الشاغوري هذين البيتين:

يامن تدرع في حمل الحمول ويا
معانق الهم في سر وإعلان

لاتيأسن روح من بادى لدى مائة
قاضي القضاة الجمال بن الحرستاني

على أنه رحمه الله امتنع عن الولاية لما طلب لها حتى ألح عليه فيها، وكان في مدة ولايته صارما، عادلا، حاكما بالشريعة المطهرة، جاريا على طريقة السلف في لباسه واقتصاده في أمره، وعفته، وصيانته، وعدم الإلتفات إلى الأكابر في الشفاعات في الأحكام، ولقد بلغني أنه ثبت لديه حق لامرأة على بيت المال فأحضر الوكيل جمال الدين المصري، وأمره أن يسلم إليها ماثبت لها، فاعتذر بضيق الوقت وكان في آخر النهار، وقال: في غد أسلم إليها، فقال: ربما أموت أنا الليلة ويعوق

حقها، فقيل إنها كانت تدعي بستانا قد وضع النواب أيديهم عليه وقد ثبت حقها لديه، فأمر الوكيل أن يسلمه إليها، ويشهد عليه بأنه ثبت حقها، ولادافع له من جهة بيت المال فاستمهله إلى الغد لدخول المساء، وكان قد أشعلت القناديل وهم بالمدرسة، فقال القاضي: ربما أموت أنا الليلة وترجع أنت أيها الوكيل ربما تعنتهم وتطلب إعادة البينة عند الحاكم الذي يقوم بعدي فوكل به من لايفارقه حتى يسلم إليها البستان، وشهد عليه بذلك، وقام القاضي وأخذ سجادته على كتفه ومشى ليصلي بالجامع على عادته بمقصورة الخضر، فوافق وصوله إلى الجامع أذان المغرب فصلى ومضى إلى بيته وكان أوصى إذا أشهد عليه الوكيل أن يحملوا الكتاب إليه ليقف عليه فجاءه الكتاب إلى داره فوقف عليه فلما علم أنه قد استقصى حق المرأة سلم كتابها إليها، وقيل إنه كان مالا بالمخزن فما زال به حتى أنفذ إلى أمناء الحشرية فجمعهم وفتحوا مخزنهم بقيسارية الفرش، ودفعوا إلى المرأة حقها.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: كان القاضي جمال الدين بن الحرستاني، زاهدا، عفيفا، عابدا، ورعا، نزها، لاتأخذه في الله لومة لائم، واتفق أهل دمشق على أنه مافاتته صلاة بجامع دمشق في جماعة مقتصدا في ثيابه وعيشه، وماكان يمكن أحدا من غلمان القضاة يمشي معه بل كأنه بعض الناس.

قال: وحكى لي ولده قال: كان أحد بني قوام يعامل الملك المعظم عيسى في السكر ويتجر له فمات ابن قوام، فطرح ديوان المعظم يده على تركة ابن قوام، وبعث المعظم إلى القاضي يقول: هذا الرجل كان يتاجر لي بمالي والتركة لي،و أريد تسليمها، فأرسل إليه القاضي يقول: لاأسلم إليك تركته حتى تحلف أنك تستحقها، فقال المعظم: والله ماأحقق مالي عنده، فقال القاضي وأنا والله ماأسلم إليك حتى تحلف، فما حلف المعظم ولا أثبت القاضي له شيئا.

وحكى لي جماعة من الدماشقة: أن الملك العادل سيف الدين كتب لبعض خواصه كتابا يوصيه به في خصومة بينه وبين رجل، فجاء إليه ودفع إليه الكتاب، فقال: إيش فيه؟ قال: وصية لي، قال: أحضر خصمك، فأحضره والكتاب بيده ولم يفتحه وادعى على الرجل فظهر الرجل على حامل الكتاب فقضى عليه، ثم فتح الكتاب وقرأه ورمى به إلى حماله وقال: كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب، فمضى الرجل إلى العادل وبكى بين يديه وأخبره بما قال، فقال العادل: صدق، كتاب الله أولى من كتابي، وكان يقول للعادل ماأحكم إلا بالكتاب والسنة، وأنا ماسألتك القضاء فإن شئت وإلا فأبصر غيري.

قال: وحكى لي الشمس بن خلدي رحمه‌الله قال: أحضر ولده القاضي علاء الدين بين يديه صحن حلواء أسخنه وقال: ياسيدي كل منه، فغضب وقال: من أين هذا؟ أتريد أن تدخلني النار؟ ولم يأكل.

قلت: غلب على ظنه أنه هدية ممن له حكومة.

وبلغني أن ولده هو الذي ألح عليه في تولية القضاء على كره منه، وحكى لي ولده المذكور قال: جاء إليه الشرف بن عنين فجلس إلى جانبي قبالته وقال: السلطان يسلم عليك ويوصي بفلان فإن له محاكمة في كذا، وكذا، فغضب وقال: الشرع مايكون فيه وصية لافرق بين السلطان وغيره في الحق، فقال: صحيح، فقال: إذا كان صحيحا فايش حاجة إلى قولك: قال السلطان؟ قال: وكان إذا غضب من رسائل أرباب الحاجات يأخذ سجادته على كتفه وينهض من المجلس، وتولى القضاء بعده من كان القاضي قبله زكي الدين الطاهر بن محيى الدين، ثم إن ولده تولى نيابة الحكم بدمشق عن القاضي شمس الدين بن الخليل الخوئي عام حج، ثم تولاه استقلالا، ثم تولى خطابة جامع دمشق، وهو الآن خطيبه، والله الموفق.

وفيهـا: استشهد الأمير بـدر الـدين محمـد بن أبي القـاسـم بن محمـد الهكـاري بالطـور على مـاتقدم شرحـه، بعـد أن أبلى في ذلـك اليوم بـلاء حسنا، وكان مـن المجاهدين لـه المواقف المشهورة في قتال الفـرنج، وكان من أكابـر أمراء المعظـم يستشيره ويصدر عـن رأيـه ويثق بـه لصلاحـه ودينه، وكان سمحا دينا لطيفا ورعا بـارا بأهله وبالفقراء، والمساكين، كثير الصدقـات دائم الصلاة، بنـى بالقـدس مدرسـة للشافعيـة وقف عليهـا الأوقاف، وبنـى مسجدا قـريبا من الخليـل عليه السـلام عند قبر يـونس عليـه السـلام على قـارعـة الطريـق، وكـان يتمنـى الشهـادة دائما يقـول: ماأحسـن وقع سيـوف الكفار على وجهـي وأنفي، فـاستجاب الله دعـاءه ورزقه الشهادة، ونقـل من الطور إلى القدس فـدفن بتربته في مامـلا وهي المقبرة التي تزار بالقدس الشريف(٧٤) .

وفيها: تـوفيت بـدمشق العـالمة المعروفة بـدهن اللـوز، وكانـت شيخة العالمات بدمشق، في ربيع الآخرة.

وفيها: توفيت بنت بوري بدمشق وهـي آخر بناته وفاة وانتقل ماخلفته من الأملاك إلى الوقف المشهور عن أختها الكبرى بنت صيفة.

وفيهـا: تـوفي الشجاع محمـود المعـروف بـالـدباغ في ذي القعدة، وكان من أصدقاء العادل في زمن الشبيبة، وبقـي معه في زمن السلطنة مضحكا له، وحصل له ثروة عظيمة، وداره بدمشق جعلتها زوجته مدرسة للفريقين.

-٩١٨٥-

ثم دخلت

سنة خمس عشرة وستمائة

ففيها: نزل الفرنج على دمياط في ربيع الأول، وكان العادل بمرج الصفر، فبعث العساكر التي كانت عنده إلى مصر إلى ابنه في مقابلة الفرنج، وأقام المعظم بالساحل بعسكر الشام في مقابلة الفرنج.

وفيها: استدعى العادل ولده المعظم وقال له: قد بنيت هذا الطور، وهو يكون سببا لخراب الشام، وقد سلم الله من كان فيه من أبطال المسلمين والسلاح والذخائر وأرى من المصلحة خرابه ليتوفر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دمياط، وأنا أعوضك، فتوقف المعظم وبقي أياما لايدخل إلى العادل، فبعث إليه فأرضاه بمال ووعده في مصر ببلاد، فأجابه فبعث فنقل ماكان فيه من العدد والذخائر إلى القدس وعجلون، والكرك، ودمشق.

وفيها: في يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر كسر الملك الأشرف ملك الروم كيكاوس، وسببه أن الأشرف جمع عساكر الشرق و عسكر حلب ودخل بلد الفرنج ليشغلهم عن دمياط ونزل على صافيتا، وحصن الأكراد، وكان العادل بمرج الصفر وتقدم إلى عالقين، فخرج ملك الروم، ووصل إلى رعبان يريد أن يلم بحلب، ونزل إليه الأفضل من سمسياط وأخذوا رعبان وتل باشر، وبلغ الأشرف فعاد من صافيتا إلى حلب، وقد سبقه ملك الروم إلى منبج، وتقدم بعض عسكرهم إلى بزاعة فرحل الأشرف، فنزل باب بزاعة وقدم العرب بين يديه فكسروا الروم، ورجع صاحب الروم إلى بلاده، وأكثر مانكل فيهم العرب، ورجع الأفضل إلى سمسياط فاسترد الأشرف رعبان، وتل باشر، وأعطاهما لصاحب حلب، وبعث الأشرف سيف الدين بن كهدان، والمبارز، وابن

خطلخ نجدة إلى دمياط، وخطب صاحب آمد للصالح محمود بن أرتق الرومي وقطع خطبة العادل.

وفيها: أخذ الفرنج النازلين على دمياط برج السلسلة في آخر جمادى الأول، فأرسل الكامل إلى ابيه العادل شيخ الشيوخ صدر الدين يخبره ويستصرخ به، فلما اجتمع بالعادل فأخبره فدق بيده على صدره ومرض مرض الموت.

قلت: واذكر وأنا بدمشق حين بلغ الناس أخذ برج السلسلة وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة، منهم شيخنا أبو الحسن السخاوي رحمه الله ورأيته يضرب يدا على يد ويعظم أمر ذاك، وسمعت الفقيه عزالدين بن عبد السلام يسأله عنه، فقال: هو قفل الديار المصرية، وصدق رحمه الله تعالى فإني لما رأيته في سنةثمان وعشرين كما سيأتي ذكره بان لي صحة ماأشار الشيخ إليه، وذاك أنه برج عال مبني في وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه، وفي ناحيته سلسلتان تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط ، والأخرى على النيل إلى الجيزة فتمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو، فهو قفل البلاد بالديار المصرية إذا اوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور إليها، ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة، ومصر، وإلى قوص، وأسوان والله المستعان.

وفيها: في جمادى الآخرة التقى المعظم بالفرنج على القيمون، ونصر عليهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر من الداوية مائة فارس، وأدخلهم القدس منكسة أعلامهم.

وفيها: وصل رسول خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش إلى العادل وهو بمرج الصفر، فبعث بالجواب مع الخطيب جمال الدين محمد

الدولعي الشافعي خطيب جامع دمشق بعد عمه، ونجم الدين خليل ابن علي الحنفي قاضي العسكر، فوصلا إلى همذان فوجدا الخوارزمي قد اندفع بين يدي الخطا والتاتار، قد خامر عليه عسكره فسار إلى حد بخارى، فاجتمعا بولده جلال الدين فأخبرهما بوفاة العادل، فرجعا إلى دمشق وكان الخطيب الدولعي قد استناب مكانه في الخطابة بجامع دمشق ابنه الشمس يونس، ولم يكن له أهلية فسعى القاضي زكي الدين وأكابر البلد في عزله وتولية الشيخ الموفق عمر بن يوسف خطيب بيت الأبار إلى أن يقدم الدولعي، وكان يسكن بالمدرسة العزيزية في البيت الأوسط القبلي من البيوت السفلى ويكرر الخطب في بيته ذلك وفي إيوان المدرسة، ويخرج أوقات الصلوات إلى الجامع يصلي بالناس، ثم يرجع، ويوم الجمعة يكون في بيت الخطابة يخرج منه بالأهبة السوداء إلى المنبر فيخطب ويصلي، ثم يرجع فينزع السواد ثم يمضي إلى بيته بالمدرسة إلى أن قدم الخطيب الدولعي، فرجع إلى مكانه ومنصبه.

وفيها: توفي داود ابن أبي الغنائم أبو سليمان الملهمي من بني ملهم الضرير، كان يسكن رباط المأمونية ببغداد، وكان على رأي الأوائل، وإنما كان يتستر بمذهب الظاهرية، وكان موته بالمحرم ودفن بالشونيزيه وقد جاوز السبعين ومن شعره:

إلى الرحمن أشكو ما ألاقي
غداة غدو على هوج النياق

نشدتكم بمن زم المطايا
أمر بكم أمر من الفراق

هل داء أضر من التنائي
وهل عيش ألذ من التلاقي

وفيها: توفي القاضي شرف الدين أبو طالب عبد الله بن زين القضاة

عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى بن علي القرشي الدمشقي، ولي القضاء بدمشق نيابة عن محيي الدين بن الزكي، ثم عن ابنه زكي الدين الطاهر، وهو ابن عمهما، يلتقي نسب الجميع إلى يحيى بن علي المذكور، وهو أول من درس بالمدرسة الرواحية ثم بالمدرسة الشامية الحسامية، وكانت وفاته في شعبان يوم الأحد ثالث عشر شعبان، وصلي عليه بجامع دمشق ودفن عند مسجد القدم، وهو الذي يوجد علامته على الكتب المسجلة، « الحمد لله وهو المستعان ».

قال أبو المظفر: وكان فقيها فاضلا نزها، لطيفا، عفيفا[٧٥].

وفيها: توفي أبو الحسن علي بن أحمد بن روح، القاضي المعروف بابن العنبري، وكان نائبا عن القضاة ببغداد صحب أبا النجيب السهروردي، وتفقه عليه وقرأ العربية على العصار، وكان شيخا كيسا فاضلا، متواضعا، وكانت وفاته في رمضان، ومن شعره:

وقد كنت أشكو من حوادث برهة
واستمرض الأيام وهي صحائح

إلى أن تغشتني وقيت حوادث
تحقق أن السالفات منائح

وفيها: توفي القاضي عماد الدين بن الدامغاني الحنفي، قاضي القضاة ببغداد، واسمه أبو القاسم عبد الله بن الحسين ولد في رجب سنة أربع وستين وخمسمائة، وتفقه على مذهب أبي حنيفة، وعرف الفرائض والحساب، وقسمة التركات مع السمت، والوقار، والدين، والعفة، وأول ولايته القضاء في سنة سبت وثمانين وخمسمائة، وعزل في رجب سنة أربع وتسعين وخمسمائة، فأقام ثماني سنين قاضيا، ثم أعاده ابن مهدي في سنة ثلاث وستمائة، ثم عزل في سنة إحدى عشر وستمائة، فكانت ولايته الأخيرة تسع سنين إلا شهور وتوفي في ذي القعدة وصلي عليه بالنظامية،

ودفن بالشونيزية، سمع الحديث من أبيه أبي المظفر الحسين بن أبي الحسن أحمد قاضي القضاة، ومن عمه أبي الحسن علي قاضي القضاة، ومن أبي الفرج كليب وغيرهم.

وفيها: توفي السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب، وكنيته أشهر من اسمه، سئل عن مولده فقال: فتوح، يعني لما فتح الرها وماوالاها الأتابك زنكي والد نور الدين سنةتسع وثلاثين وخمسمائة، فيكون عمره ستا وسبعين سنة، قيل كانت ولادته ببعلبك لما كان والده واليها من قبل زنكي، ونشأ في خدمة نور الدين بن زنكي مع أبيه وأخوته، وحضر مع أخيه صلاح الدين في فتوحاته وغزواته، وقام أحسن قيام في الهدنة مع الانكلتيز ملك الفرنج بعد أخذهم لعنهم الله عكا، وكان صلاح الدين يعول عليه كثيرا، واستنابه بالديار المصرية مدة، ثم أعطاه حلب، ثم الكرك وأعماله، ثم حران ومايتعلق بها، ثم جرى بعد وفاة أخيه بينه وبين أولاده أمور سبق ذكرها، إلى أن استقر له الملك.

قال أبو المظفر: امتد ملكه من بلاد الكرج إلى همذان والجزيرة والشام، ومصر، والحجاز واليمن، وكان نبها خليقا بالملك، حسن التدبير حليما صفوحا عادلا، مجاهدا، عفيفا، دينا متصدقا، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، طهر جميع ولايته من الخمور، والخواطيء، والقمار، والمخانيث، والمكوس، والمظالم، وكان الحاصل من هذه الجهات بدمشق على الخصوص مائة ألف دينار، فأبطل الجميع لله تعالى، وكان واليه المبارز المعتمد رحمه الله قد أعانه على ذلك، أقام رجالا على عقاب قاسيون، وجبل الثلج، وحوالي دمشق بالجامكية والجراية، يحرمون أحدا يدخل دمشق بمنكر، فكان أهل الفساد يتحيلون ويجعلون زقاق الخمر في الطبول ويدخلون بها إلى دمشق، فمنع من ذلك.

قال: وبلغني أن بعض المغنيات دخلت على العادل في عرس، فقال لها: أين كنت؟ قالت: ماقدرت آجيء حتى وفيت ماعلي للضامن، فقال: وأي ضامن؟ قالت: ضامن القيان، فقامت عليه القيامة وطلب المعتمد وأنكر عليه وقال: والله لئن عاد وبلغني مثل هذا لأفعلن ولأصنعن، ولقد فعل العادل في غلاء مصر عقيب موت العزيز مالم يفعله غيره، كان يخرج بالليل بنفسه معه الأموال يفرقها في أرباب البيوت والمساكين، ولولاه لمات الناس كلهم، وكفن في تلك الأيام من ماله ثلاثمائة ألف من الغرباء، وكان إذا مرض أو تشوش مزاجه خلع جميع ماعليه وباعه حتى فرسه وتصدق به.

قلت: وكان لما عزل القاضي زكي الدين الطاهر عن قضاء دمشق وولاه القاضي جمال الدين بن الحرستاني، تعصب وكيل بيت المال يومئذ وأثبت على زكي الدين محضرا يتضمن عشرين ألف دينار أودعها قيماز النجمي عند والده محيي الدين برسم فكاك أسرى، وذلك بعد عزله بنحو شهر، وبلغني أن القاضي جمال الدين بن الحرستاني تأنى في إثباته، واستقصى في تزكية الشهود جهده وطاقته، ولما علم عليه بالثبوت قام الوكيل الجمال المصري فقال: القاضي إلى النار وأنا وراك، وذلك لعلمه بأن القضية بطريق التعصب والاغراض، وكان ذلك بثلاثة، وقيل بشهادة اثنين ، أحدهما: ابن عوضة، والآخر: أبو محمد الخشاب الأقط وقد رأيتهما ، وكان كل واحد منهما في قلبه على القاضي حقداً بسبب حكومة حكم بها عليه، أما ابن الخشاب فكان أقر ببستان له لأولاد أخيه وأظنه وقفه عليهم ثم أراد إبطال ذلك والرجوع فيه فلم يمكنه القاضي، وهذا البستان تحت نهر يزيد قبالة الجنينة المختصة لي من فوقه، وأخذ خط الزكي بالمبلغ في ذمته في السابع والعشرين من جمادى الأولى، وشرع القاضي في بيع ما يملكه من كتب وغيرها، واستدان من الناس ما حمله في وفاء ذلك، فذكرت بعض حظايا العادل أنها رأت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يوصيه بالقاضي، فأسقطها عنه، ورد المال عليه

- ٩١٩١ -

على رؤوس الأشهاد، أنزل بـه من القلعة جهاراً في طبق، وأنـا رأيته محمولا إلى دار القاضي صحبـة القاضي الأشرف ابـن الفاضـل، والجمال الوكيـل، وقـاضي العسكـر، وابـن التيتـى، بين الصرتين مـن يـوم الأحـد الحادي والعشرين من رجـب سنة اثنتي عشرة، ثم رده إلى القضاء بعـد موت ابن الحرستاني، وبلغنـي أن القاضي طلب جـرح الشهـود فلـم يجسر أحد على ذلـك إلا الثقة عنتر، كـان يتولى عقـود الأنكحة بـالمدرسة التقـوية، فبلـغ ذلك العادل، فتبسم فقال: من عادة عنتر الجرح.

قال أبو المظفر: وسبب موته انزعـاجه من الخبر الذي جاءه من دمياط أن الفـرنـج استولـوا على بـرج السلسلـة، فـدق بيده على صـدره، وأقـام مريضا إلى يـوم الجمعة سابع جمادى الآخرة، فتوفي بعـالقين، وكان المعظم قد كسر الفـرنج على القيمون خـامس جمادى الآخرة، ولما تـوفي العادل لم يعلم بمـوته غير كريـم الدين الخلاطي فـأرسل الطير إلى المعظم بنـابلس فجاء المعظم يـوم السبت إلى عالقين، فاحتـاط على الخزائن وصبر العادل وجعله في محفة، وعنده خـادم يروح عليه وقد رفع طرف سجـافها وأظهروا أنه مريض، ودخلوا به إلى القلعة وكتموا موته.

قـال: ومن العجـائب أنهم طلبوا لـه كفنا فلـم يقدروا عليـه، فأخـذوا عمامـة الفقيه النجيـب ابن فـارس وكفنـوه بها، وأخرجـوا قطنا مـن مخدة فلفـوه به، ولم يقـدروا على فأس فسرق كـريم الـديـن فأسـا من الخنـدق فحفروا له به في القلعة، وصلى عليه وزيره ابن فارس ودفنوه في القلعة.

قال: وكنت قاعدا إلى جانب المعظم عند باب الدار التي فيها الأيوان، وهو واجم ولم أعلم بحـاله، فلما دفن أبوه قام قائما وشـق ثيابه ولطم على رأسـه ووجهه،وكـان يومـا عظيما، وعمـل له العـزاء ثـلاثة أيـام بالإيـوان الشمالي.

قال: ولما رأيت المعظم قد بلغ به الحال مابلغ تكلمت في أول يوم، فلما انقضى العزاء عتبني المعظم و قال: ياسبحان الله أنت صاحب العزاء إيش كان حاجة إلى كلامك مع ابن الحنبلي؟ وكان الناصح قد تكلم في ذلك اليوم فقلت: لابد من الكلام، فقال: إذا كان ولابد فليكن في اليوم الثالث، ولايتكلم معك أحد، فامتثلت ما أمر.

وعمل له العزاء في جميع البلاد، ونودي ببغداد من أراد الصلاة على الملك العادل الغازي المجاهد في سبيل الله فليحضر إلى جامع القصر، فحضر الناس، ولم يتخلف سوى الخليفة وصلوا عليه صلاة الغائب وترحموا عليه وتقدم إلى خطباء الجوامع بأسرهم ففعلوا ذلك بعد صلاة الجمعة، قال: وفوض إلى الملك المعظم تربة بدر الدين حسن في اليوم الثالث.

قلت: هو بدر الدين حسن أحد أولاد الداية هو وأخوته من أكابر أمراء نور الدين بن زنكي رحمه الله، وتربته هي التي على نهر ثورا عند جسر كحيل في طريق الجبل قريب من المدرسة الشبلية، وكان أبو المظفر يسكنها ويدرس بالمدرسة الشبلية، ومنها يصعد إلى الجبل، وينزل إلى دمشق كل يوم بسبب مجلس الوعظ وماأكثر ماكنت أراه جالسا في شباك التربة أو في الصفة الخارجة في النهر ومعه كتاب يطالع فيه أو ينسخ، فما أطيب ماكانت تلك الأيام وماأرغد عيش تلك الأعوام.

قال أبو المظفر: وكان للعادل عدة أولاد منهم، شمس الدين مودود والد الجواد يونس، والكامل محمد، والأشرف موسى، والمعظم عيسى، والأوحد أيوب، والفائز ابراهيم، والمظفر شهاب الدين غازي، والعزيز عثمان، والأمجد حسن وهما شقيقا المعظم، والمغيث محمود، والحافظ رسلان، والصالح اسماعيل، والقاهر اسحاق، ومجير الدين يعقوب، وقطب الدين أحمد، وخليل أصغرهم وتقي الدين عباس.

قلت: وهو آخر من بقي منهم، وهو الآن في سنةتسع وخمسين وستمائة حي بدمشق.

قال: وكان الصالح اسماعيل، وقطب الدين أحمد بدمشق لما مات العادل، فأمر المعظم الصالح فتوجه إلى بصرى، وأحمد فتوجه إلى مصر، وكان للعادل عدة بنات أفضلهن ضيفة صاحبة حلب أم الملك العزيز ابن الظاهر.

قال: ولما دخل رجب رد المعظم المكوس والخمور وماكان أبوه أبطله، فقلت له: قد أخلفت سيف الدين غازي ابن أخي نور الدين، فإنه كذا فعل لما مات نور الدين، فاعتذر بقلة المال ودفع الفرنج.

قال: وسار المعظم إلى بانياس، وأرسل الصارم التبنيني وهو بتبنين في تسليم الحصون فأجابه فأخرب بانياس، وسار إلى تبنين فأخربها وهدمها، وكانت قفلا للبلاد وملجأ للعباد، وأعطى جميع بلاد شركس، لأخيه العزيز عثمان، وزوجه ابنة شركس، ونزل الصارم وولده وأصحابه من الحصون فأكرمهم وأحسن إليهم وأظهر أنه ماأخرب بانياس وتبنين إلا خوفا من استيلاء الفرنج عليهما.

قال: وبعث الكامل إلى المعظم بالخلع، وقال: ادركني، وجاءت الفرنج فنزلوا على شارمساح [٧٧]فأخلى لهم المسلمون الخيام فطمعوا، ثم رجع عليهم الكامل فكسرهم وقتل منهم خلقا كثيرا فعادوا إلى دمياط.

وفيها: توفي ملك الروم كيكاوس ولقبه عز الدين وكان جبارا، ظالما، سفاكا للدماء، ولما عاد إلى بلده من كسرة الأشرف له بحلب إتهم قوما من أمراء دولته أنهم قصروا في قتال الحلبيين، فسلق بعضهم في القدور، وجعل آخرين في بيت فأحرقهم فأخذه الله بغتة فمات فجأة سكران، وقيل ابتلي في بدنه، فتقطع، وكان أخوه علاء الدين كيقباذ محبوسا في

قلعته، وقد أمر بقتله، فبادر الأمراء فأخرجوه، وأقاموه في الملك وكانت وفاة كيكاوس في شوال، وهو الذي أطمع الفرنج في دمياط.

وفيها: توفي نجم الدولة نجاح بن عبد الله، شرابي الخليفة، مملوك الإمام الناصر، وكان جوادا سمحا عاقلا دينا كثير الصدقات حسن المحضر، محسنا إلى الناس يحب المساكين، ويعظم أهل الدين ويأخذ للضعيف من القوي،وكان يسمى سلطان دار الخلافة، وكان ملازما للخليفة لايغيب عنه ساعة واحدة، وكان أسمر اللون جميل الصورة فحلا، ولما توفي في هذه السنة أمر الخليفة أن لايتخلف عن جنازته أحد لاوزير ولاغيره، وصلى الخليفة عليه تحت التاج، وحزن عليه حزنا كثيرا، وأخرج تابوته من البدرية، ومشى العالم بين يديه إلى جامع القصر، وكان بين يدي جنازته مائة بقرة، وألف شاه، ومائة قوصرة تمر ومائة حمال على رؤوسهم الخبز، وعشرون حمالا على رؤوسهم ماء الورد، ومماليكه قد جزوا شعورهم ولبسوا المسوح، والضجيج والبكاء قد ملأ بغداد، ولم ير في الاسلام مثل ذلك اليوم، وعبروا به إلى الجانب الغربي إلى تربة أم الخليفة، ودفن بين يدي القبة التي فيها أم الخليفة، وتصدق عنه الخليفة من مال نجاح بعشرة آلاف دينار على المشاهد، مشهد علي، والحسين، وموسى بن جعفر رضي الله عنهم، وبعث بمثلها إلى مكة، والمدينة، واعتق الخليفة مماليكه، وكانت له خمسمائة مجلد فوقفها في تربة أم الخليفة وكتب عليها اسم الشرابي.

ذكر الشيخ عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير في حوادث سنة سبع وستين وخمسمائة أن الأمير العباسي أحمد بن الخليفة يعني المستضيء، وأحمد هو الإمام الناصر لدين الله، قال ابن الأثير: وهو الذي صار خليفة بعده سقط من قبة عالية إلى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح فألقى نفسه بعده وسلم ابن الخليفة ونجاح، فقيل لنجاح: لم ألقيت؟ فقال: ماكنت أريد البقاء بعد مولاي فرعى له الأمير أبو العباس ذلك،

فلما صار خليفة جعله شرابيا، وصارت الدولة جميعها بحكمه، ولقبه الملك الرحيم عز الدين، وبالغ في الإحسان إليه والتقديم له وخدمه جميع أمراء العراق والوزراء وغيرهم(٧٨).

وفيها: توفي القاهر صاحب الموصل وترك ولدا صغيرا اسمه محمود، وكان طفلا فأخرج بدر الدين لؤلؤ زنكيا أخا القاهر من الموصل واستولى عليها، واسم القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، ثم ثبت ملك بلاد الموصل لبدر الدين لؤلؤ وتسمى بالملك الرحيم، ثم أولاده من بعده إلى الآن، وبلغني أن لؤلؤ سقى القاهر سما فمات، ثم أدخل ابنه محمود بعد ذلك حماما حاميا وأغلق عليه الباب فاستكربه وعطشه فاستغاث أخرجوني واسقوني ماء ثم اقتلوني، فأخرج وقد تغيرت خلقته، وكان من أحسن الناس صورة فأسقى ماء ثم خنق بوتر.

قلت: كان اسم ولده الذي ولي بعده نور الدين أرسلان شاه وكان قد سماه أبوه عليا فلما مات جده نور الدين أرسلان شاه في سنة سبع وستمائة سموه باسم جده أرسلان شاه، وأقام قليلا ومات في سنة خمس عشرة ايضا، وتولى أخوه محمود، وكان تقدير عمره يوم مات عشر سنين، واستمر محمود والأمير بدر الدين لؤلؤ أتابكه إلى أن مات جده لأمه السلطان مظفر الدين صاحب إربل في شهر رمضان سنة ثلاثين وستمائة، فانقطع خبر محمود واستبد بدر الدين بالأمر.

قال أبو المظفر: قدم الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي المعروف بابن شكر وزير العادل، كان العادل قد نقم عليه فنفاه إلى الشرق فمضى إلى آمد، فأقام بها فلما مات العادل كتب ابنه الكامل من مصر إليه يطلبه، فقدم دمشق في هذه السنة ونزل بظاهرها ببيت رانس(٧٩) في

دار المؤيد العقرباني، فخدمه المؤيد، وكان قد قل نظره فأقام أياما ثم توجه إلى مصر.

قلت: وقيل إن قدومه من المشرق كان بعد هذه السنة، وقرأ بهاء الدين بن أبي اليسر بين يديه مقامة ببيت رانس، في مدحه من إنشاء الشيخ أبي الحسن البخاري رحمه الله سماها« محاورة الفقهاء ومحاضرة العلماء في أوحد الكبراء وسيد الوزراء» وهي مقامة جليلة حسنة لفظا ومعنى، وكان خليقا بالوزارة لم يأت بعده فيها مثله، وكان متواضعا يسلم على الناس الذين يمر بهم وهو راكب، ويكرم الفقهاء ويحترمهم، ويعمر أوقافهم ويثمرها، ويوسع لهم في الجامكيات، وفي أيامه بنيت العمارة بفوارة جيرون، والمسجد، والبركة والشاذروان وغير ذلك رحمه الله، وتوفي سنة ثلاثين وستمائة كذا ذكر سبط ابن الجوزي(٨٠) وهو وهم، وإنما توفي سنة اثنتين وعشرين كما سنذكره.

وذكر العز بن تاج الأمناء: أنه في سنة تسع وستمائة عزل الوزير الصفي بن شكر وزير السلطان بمصر في غضون غضب أظهره ادلالا على السلطان، وسعى العادل فيه، وتحرر أمره والزامه بيته، ثم ورد كتاب الكامل من مصر إلى أخيه المعظم بالحوطة على أملاك الوزير ابن شكر بها سابع جمادى الأولى من السنة.

قال: وفي سابع عشرين رمضان من السنة عزل ابن الوزير ابن شكر من ديوان دمشق وقد كان مستمرا به في نيابة والده، وتولاه الشمس بن النفيس مستقلا بأموره، بكتاب عادلي وصل من مصر.

قال: وفي رابع شعبان ورد الخبر من مصر بإخراج الصفي بن شكر من القاهرة موكلا به واعتقاله بظاهر بلبيس في دار الجاولي، ثم إرساله إلى دمشق.

قال: ووصل عاشر ربيع الآخر من سنة أربع عشرة منفيا من الديار المصرية إلى الكسوة، فأقام بها بقدر ماقضيت له أشغاله بدمشق، وتولى المعتمد القيام بها، وكان تقدم من العادل كتاب إلى المعتمد بأن لايمكنه من المقام بدمشق أكثر مما يقضي أشغاله، فلما تحقق ذلك لم يدخل البلد ورحل من الكسوة نهار الأحد سادس عشر الشهر فبات بيلدا من الغوطة ورحل منها إلى القصير في الغد، ومن القصير إلى جهة الفرات على طريق البرية، وخرج إليه جماعة من أعيان البلد سرا وجهرا إلى الكسوة وإلى القصير، ولما قطع الفرات لم يمكنه الأشرف من المقام ببلاده، فرجع إلى سلمية والتجأ إلى صاحب حماة فآواه وأحسن إليه فأنكر السلطان ذلك عليه، وأمره بابعاده عنه فلم يمكنه مخالفته، وتولى قاضي العسكر خليل الرسالة في إخراجه من حماة، فأخرج موكلا به إلى أن عاد قطع الفرات قاصدا صاحب آمد، فتلقاه بنفسه وبالغ في إكرامه.

ثم دخلت

سنة ست عشرة وستمائة

ففي أول المحرم وقيل في سابع المحرم أخرب المعظم أبراج القدس وسوره خوفا من استيلاء الفرنج عليه، فاضطرب الناس، وخرجوا منه متفرقين في البلاد، وهان عليهم مفارقة ديارهم وضياع أموالهم، وقد كان القدس يومئذ على أتم الأحوال من العمارة، وكثرة السكان.

قال أبوالمظفر: كان المعظم قد توجه إلى أخيه الكامل إلى دمياط، وبلغه أن طائفة من الفرنج على عزم القدس فاتفق الأمراء على خرابه وقالوا: قد خلا الشام من العساكر فلو أخذه الفرنج حكموا على الشام، وكان بالقدس أخوه العزيز عثمان، وعز الدين أيبك استاذ الدار، فكتب المعظم اليهما بخرابه، فتوقفا وقالا: نحن نحفظه، فكتب إليهما المعظم لو أخذوه لقتلوا كل من فيه، وحكموا على دمشق وبلاد الشام، فألجأت الضرورة إلى إخرابه فشرعوا في السور أول يوم من المحرم، ووقع في البلد ضجة مثل يوم القيامة، وخرج النساء المخدرات، والبنات، والشيوخ، والعجائز، والشبان، والصبيان إلى الصخرة والأقصى، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الأقصى من الشعور، وخرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأثقالهم وماشكوا أن الفرنج تصبحهم وامتلأت بهم الطرقات فبعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى الكرك،وبعضهم إلى دمشق، وكانت البنات المخدرات يمزقن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن من الحفا، ومات خلق كثير من الجوع والعطش، وكانت نوبة لم يكن في الاسلام مثلها، ونهبت الأموال التي كانت لهم في القدس، وبلغ قنطار الزيت عشرة دراهم، ورطل النحاس نصف درهم، وأكثر الشعراء في ذمهما ودعوا عليهما فقال بعضهم:

في رجب حل الحميا
وأخرب القدس في المحرم

قال: وأنشدني قاضي الطور مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفي لنفسه:

مررت على القدس الشريف مسلما
على ما تبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين مني صبابة
على ما مضى من عصرنا المتقدم
وقد رام علج أن يعفي رسومه
وشمر عن كفي لئيم مذمم
فقلت له شلت يمينك خلها
لمعتبر أو سائل أو مسلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته
بنفسي وهذا الظن في كل مسلم

وفيها: نفى الملك المعظم الأمير عماد الدين بن المشطوب من مصر إلى الشرق، وكان قد اتفق مع الملك الفائز بن العادل على أخيه الملك الكامل، واستحلف للفائز العساكر، وعرف الكامل فرحل إلى أشمون وعزم على التوجه إلى اليمن من البلاد، وعلم أخوهما المعظم فقال للكامل: لابأس، وركب آخر النهار وجاء إلى خيمة ابن المشطوب وقال: قولوا لعماد الدين يركب حتى نسير، فأخبروه فخرج من الخيمة بغير أخفاف صباغات، ولحق المعظم فأبعد به عن العسكر، وقال له: أخي الملك الأشرف قد طلبك وهو محتاج إليك فتسير إليه الساعة، فقال: مافي رجلي صباغات ولامعي أحد من غلماني ولاقماشي، فوكل به جماعة وأعطاه خمسمائة دينار وقال: كل مالك يلحقك، والله مايضيع لك خيط

واحد، وسار به الموكلون ورجع المعظم إلى خيمته، وجاء إليه الكامل فقبل الأرض بين يديه وخاف الفائز خوفا عظيما.

أما ابن المشطوب فاجتاز دمشق ومضى إلى حماة فأقام بها، فبعث إليه الأشرف منشوزا بأرجيش من بلاد خلاط مع الخلع، فسار إلى الأشرف فأكرمه وأحسن اليه، وصار يركب بالشبابة، ويعمل له سلطنة أعظم من الأشرف، وتجبر وطغى وبغا، وخامر على الأشرف وكاتب صاحب الروم، فبعث له مائة ألف وأربعة آلاف درهم، وطلع إلى ماردين، ثم قصد ناحية سنجار، ثم جرى عليه مما سنذكره إلى أن مات في حبس الأشرف بحران هو وابن خشترين الأزكجي.

وفيها: في شعبان سحر يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان استولى الفرنج على دمياط، وكان المعظم قد جهز إليها ابن الجرخي الناهض في خمسمائة راجل، فهجموا على الخنادق فقتل ابن الجرخي ومن كان معه، وصفوا رؤوس القتلى على الخنادق، وكانوا قد حموا الخنادق وضعف أهل دمياط ووقع فيهم الوباء والفناء، وعجز الكامل عن نصرتهم، فراسلوا الفرنج على أن يسلموا إليهم البلد، ويخرجوا منه بأهاليهم وأموالهم، فاجتمع الأقساء، وأحلفوهم على ذلك، فركبوا في المراكب وزحفوا في البر والبحر وفتح لهم أهل دمياط الأبواب فدخلوا ورفعوا أعلامهم على السور، وغدروا بأهلها ووضعوا فيهم السيف قتلا وأسرا، وباتوا تلك الليلة يفجرون بالنساء وأخذوا المنبر وكان من أبنوس، والمصاحف ورؤوس القتلى وبعثوا بها إلى الجزائر، وجعلوا الجامع كنيسة، وكان الشيخ أبو الحسن بن قفل بدمياط فسلمه الله تعالى منهم، فسألوا عنه فقيل هذا رجل صالح من مشايخ المسلمين يأوي إليه الفقراء فما تعرضوا له بعد، وقد رأيته أنا بعد ذلك بثغر دمياط في سنة ثمان وعشرين وستمائة، وهو يحكي للناس صورة ماجرى على البلد من الفرنج خذلهم الله تعالى، ووقع على المسلمين كآبة عظيمة وبكى الكامل،

والمعظم، بكاء شديدا، ثم تأخرت العساكر عن تلك المنزلة، ثم قال الكامل للمعظم لما رأى أعلام الفرنج على دمياط وقد سقط في يده، قد فات ماذبح، وجرى القدر بما هو كائن، ومافي مقامك هنا فائدة والمصلحة أن تنزل إلى الشام تشغل خواطر الفرنج، وتستجلب العساكر من المشرق.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: فكتب إلي المعظم، وأنا بدمشق: قد جرى على دمياط ماجرى وأريد ان تحرض الناس على الجهاد فإني كشفت ضياع الشام، فوجدتها ألفي قرية منها ألف وستمائة أملاك لأهلها، وأربع مائة سلطانية، وكم مقدار ماتقوم به هذه الأربعمائة من العساكر، وأريد أن يخرج الدماشقة ليذبوا عن أملاكهم.

فجلست بجامع دمشق، وقرأت كتابه عليهم فتقاعدوا فكان تقاعدهم(٨٢) سببا لأخذه الثمن والخمس من أموالهم، وكتب إلي إذا لم يخرجوا فسر أنت إلينا، فخرجت إلى الساحل وهو نازل على قيسارية فأقمنا حتى فتحها عنوة، ثم سرنا إلى الثغر ففتحه وهدمه وعاد إلى دمشق.

وفيها: في يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول ألبس الملك المعظم قاضي القضاء زكي الدين أبا العباس الطاهر بن محيي الدين القباء والكلوتة بمجلس الحكم من داره بباب البريد.

قال أبو المظفر: كان في قلبه منه حزازات يمنعه من إظهارها حياؤه من والده العادل، وخوفه من الشناعات وكان يشكو إلي من القاضي مرارا ويقول: إنه لاينفذ الأحكام، ولايقيم معالم الاسلام، واتفق موت العادل ومرض أخته ست الشام عمة المعظم وكانت قد أوصت بدارها مدرسة، وأحضرت القاضي الزكي والشهود وأشهدتهم عليها، وأوصت إلى

القاضي، وبلغ المعظم فعز عليه قال: يحضر إلى دار عمتي من غير إذني ويسمع كلامها هو والشهود، ثم اتفق أن القاضي أحضر جابي المدرسة العزيزية وطلب منه حسابها فأغلظ له في القول، فأمر بضربه فضرب بين يديه كما يفعل الولاة، فوجد المعظم سبيلا إلى إظهار ماكان في نفسه، وكان الجمال المصري وكيل بيت المال عدو القاضي فجاء فجلس عند القاضي في مجلس الحكم والشهود حاضرون والناس، فبعث المعظم ببقجة فيها قباء وكلوتة، وأمره أن يحكم بين الناس وهما عليه، فقام من خوفه فلبسهما وحكم بين اثنين.

قلت: جابي المدرسة المضروب هو السديد خطيب عقربا واسمه: سالم ابن عبد الرزاق بن يحيى بن عمر بن كامل أخو الجمال والمؤيد العقرباني، وكانت الخلعة إشارة إلى أنك تفعل فعل والي الشرطة، فألبس لبس من يفعل ذلك.

وسمعت الذي ألبسه الخلعة وهو بعض أجناد الأمير عماد الدين بن موسك يعرف بالشمس صادف عقيب إياها في ذلك اليوم فإنه دخل الجامع وجاء يسلم على شيخنا علم الدين السخاوي رحمه الله وحدثه بالقضية، فتأوه الشيخ وضرب بإحدى يديه على الأخرى، وكان مما حكى أن قال: أمرني السلطان أن أقول له: السلطان يسلم عليك ويقول لك: الخليفة سلام الله عليه إذا أراد أن يشرف أحدا من أصحابه خلع عليه من ملابسه، ونحن نسلك طريقه وقد أرسل إليك من ملابسه وأمر أن تلبسها في مجلسك وأنت تحكم بين الناس، وكان المعظم أكثر مايلبس قباء أبيض وكلوتة صفراء.

وفتح البقجة فلما نظر إليها وجم، فأعدت الكلام بأن يلبسها وأمرته أن يترك التوقف في ذلك، وكنت قد أمرت بأن ألبسه إياها بيدي إن

امتنع أو توقف فمد يده فوضع القباء على كتفيه ونزع عمامته ووضع الكلوتة على رأسه، ثم قام ودخل بيته.

قلت: ومن لطف الله تعالى أن كان مجلس الحكم في داره وإلا والعياذ بالله لو كان في مكان آخر لتكلف المرور في الطرقات بذلك الزي الشنيع في حق مثله إلى بيته، اللهم عفوك وعافيتك.

ثم إن القاضي لزم بيته بعدها ولم تطل مدة حياتة فمرض مرضة رمى كبده فيها قطعاً ومات في الثالث والعشرين من صفر سنة سبع عشرة وستمائة، ودفن بمقبرة أبيه بالجبل وتأسف الناس لما جرى عليه، وكان رحمه الله يحب أهل الخير ويزور الصالحين في أماكنهم والمرء مع من أحب، وقد ذكره القوصي في معجمه وقال: كان متورعا، متثبتا، ناظرا في مصالح اليتامى:

وإذا رأيت أسى أمره أو صبره
يوما فقد عاينت صورة عقله

ولم يخرج عن الرضى والتسليم في حالتي ولايته وعزله رحمه الله، وبقي نوابه يحكمون بين الناس منهم: شمس الدين بن الشيرازي، وكان يجلس بالجامع في حافة الرواق الملاصق لخزانة الشريف موضع المقصورة الغربية، وتارة يجلس في شباك مشهد علي، ومنهم: شمس الدين بن سني الدولة، وكان يجلس بشباك الكلاسة المحاذي للتربة الصلاحية، ومنهم: شرف الدين الموصلي وكان يجلس بالشباك الكمالي وهو الذي يصلي فيه القضاة الجمع في هذه الأزمان.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: وكانت حركة شنيعة وواقعة قبيحة لم يجر في الاسلام أقبح منها، وكانت من غلطات المعظم، ولقد قلت له: ما فعلت إلا بصاحب الشرع، ولقد وجبت عليك دية القاضي، فقال: هو

الذي أحوجني إلى هذا، ولقد ندمت، واتفق ان المعظم بعث إلى الشرف ابن عنين الشاعر حين تزهد خمرا ونردا وقال سبح بهذا إشارة إلى أن هذا ليس له صحة فكتب إليه ابن عنين:

يا أيها الملك المعظم سنة ... أحدثتها تبقى على الآباد

تجري الملوك على طريقك بعدها ... خلع القضاة وتحفة الزهاد(٨٣)

قال: وأخبرني الشرف بن كلاب قال: كنت حاضرا ذلك المجلس وكان القباء والكلوتة لونا واحدا أحمر ملطي، ومن أعجب الأمور أن الذي أتاه بالخلعة طلب من غلمان القاضي ماجرت به العادة من إعطاء من يأتي بخلعة سلطانية إلى حاكم أو غيره، فأخرجوا له من وراء القاضي خمسين درهما، وما زال قاعدا على باب القاضي بعد دخوله بالخلعة حتى أخرجوا له الدراهم فقبضها.

وحج بالناس في هذه السنة من العراق آقباش الناصري، ومن الشام مملوك المعظم يقال له شقيفات، وفي هذه السنة حج والدي رحمه الله، وأبو المظفر سبط ابن الجوزي، وعز الدين بن القيسراني، والصفي بن مرزوق.

وفيها: توفي الشيخ أبو البركات داود بن أحمد بن محمد بن ملاعب البغدادي الملقب بالزبيب، سمع الكثير من بغداد من أبي الوقت، وأبي الفضل الأرموي، وأبي الكرم الشهرزوري وغيرهم، وسكن في دمشق وأسمع بها الكثير، وتوفي بها في جمادى الآخرة، ودفن بجبل قاسيون، وكان أحد الوكلاء بمجلس الحكم، سمعت عليه صحيح البخاري وغيره، وكان ثقة متحرزا.

وفيهـا: في ذي القعدة تـوفيـت بدمشـق ست الشـام بنـت أيوب بـن شاذي، أخت الملوك صلاح الدين والعـادل، ذكر الحافظ زكي الدين أنها

تـوفيـت في سـادس عشر ذي القعـدة مـن السنـة، وزاد غيره: آخـر نهار الجمعـة، وهـي التـي تنسـب إليهـا المدرستـان بـدمشـق إحـداهما: قبـل البيمارستان النوري، والأخرى: ظاهر دمشـق بمحلة العوينة، وتعرف أيضا بـالحساميـة نسبـة إلى ابنها حسـام الـدين بـن لاجين، وكـانت دفنتـه بها ودفنت هـي بالقبر الـذي هو فيه، وهـو الذي يلي بـاب القبو مـن القبور الثلاثـة، والقبلي هو قبر أخيها تورانشـاه المذكور، والأوسط قبر ابـن عمها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي، وكان تزوجها بعد لاجين.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: كـانت سيدة الخواتين، عاقلة، كثيرة البر والصلات والإحسان والصـدقات، وكان يعمل في دارهـا من الأشربة والمعاجين والعقاقير في كل سنـة بألوف من الدنانير وتفـرقها على الناس، وكان بـابها ملجأ للقاصديـن ومفزعا للمكـروبين، ووقفت على المدرستين أوقافا كثيرة، وكانت لها جنازة عظيمة(٨٤).

قلت: والملـوك بنو أيـوب إلى آخر من ولي منهـم السلطنة في بلـد من البلاد المشهورة كلهم محارمها، لأنهم إما أخـوتها وإما بنو إخوتها وهـم إلى الآن خمسـة وثـلاثون ملكـا، إخـوتها الأربعـة المعظـم، وصلاح الـديـن، والعادل، وسيـف الاسلام، وأولاد صلاح الديـن العزيز، ثم ابنـه المنصور، والأفضـل، والظاهـر، وابنـه العـزيز، وابـن ابنـه النـاصر يوسـف، وأولاد العادل: الكـامل، وأولاده الثـلاثة: المسعود، والصـالح، والعـادل، وأبناء الصالح: المعظم المقتول بمصر، والموحد صـاحب حمص، وابن العادل بن الكامـل المغيث صـاحب الكرك الآن، والمعظـم بن العـادل الأكبر، وابنه النـاصر داود، والأشرف بن العـادل، والصـالـح بن العـادل، والأوحـد، والحافظ، والعـزيز، وابنـه السعيد، وشهاب الـدين غـازي، وابنه الكـامل محمـد، وابـن سيـف الاسـلام اسماعيـل الـذي ادعـى الخلافـة بـاليمـن،

وفرخشـاه بن شـاهنشاه بـن أيوب، وابنـه الأمجد صاحـب بعلبك، وتقـي الدين وابنه المنصور، ثم ذريته ملوك حماة إلى اليوم.

وفيها: في ربيع الآخـر توفي ببغداد الشيخ أبـو البقاء العكبري النحوي الحنبلي، واسمه: عبـد الله بن الحسين بن عبـد الله، ولد سنـة ثمان وثلاثين وخمسمائة وقـرأ القرآن على أبي الحسـن البطائحـي، والنحو على أبي محمـد الخشـاب. واللغة على ابـن العصار، وسمـع الحديث منهـم ومن غيرهـم، وقرأ الفقه والأصول وصنف عدة مصنفـات منها: إعراب القرآن، واللباب في النحـو، وحواشي على المقـامات، وديـوان المتنبـي.ومفصل الـزمخشري، ومقدمات في النحـو، والحساب وغير ذلك ، ودفن ببـاب حرب رحمه الله، وكان صالحا دينا.

وفيهـا: توفي بحلـب الشريف مختـار الديـن عبد المطلـب بن الفضـل العلـوي البلخـي المدرس بمدرسـة الحلاويـة، كـان عـارفا بمـذهـب أبي حنيفة، وشرح الجامـع الكبير وغيره، وكان يروي كتـاب الشمائل للترمذي وغيره، وكان سيدا، فاضلا، ورعا، دينا.

وفيها: تـوفي ببغداد عماد الديـن علي بن الحافـظ أبي محمد القاسـم بن الحافظ الكبير أبي القاسـم علي بن الحسن العساكري، قـدم بغداد وسمع بها، ثـم تـوجـه إلى خـراسـان وسمـع بها، واستجـاز لطـائفـة كثيرة مـن الدمشقيين وغيرهم لعموم مـن أدرك ذلك الوقت من جميع مـن اجتمع به من مشـايخ تلك البـلاد، شكر الله سعيه، ثـم عـاد إلى بغداد فوقـع عليه قطاع الطريق فأخـذوا ماكان معه وجرحوه فأقام ببغـداد يعالج الجراحات فمات بها يـوم السبت ثـالـث جمادى الأخرة ودفـن بالشـونيـزية، وخلـف ولدين مات بعده أحدهما المسمى باسم جده بهاء الدين القاسم، كان في صحبته فـرجع إلى دمشق بعـد موت أبيـه، والآخر أبو حـامد الحسين ولم يبق من نسله إلا ولد صغير من ابنه الأصغر أبي حامد.

وفيها: توفي ببغداد محمد بن جميل صاحب مخزن الخليفة ومولده بهيت، وكان فاضلا بارعا، وقدم علينا دمشق ابن ابنته وهو شاب فاضل يلقب فخر الدين، وله خط حسن وصورة جميلة، ونزل عندنا بالمدرسة العزيزية، ثم توجه إلى الحجاز مع جماعة فضلاء: شرف الدين المرسي، ومحب الدين بن هلال، وشرف الدين بن الزيات، وفخر الدين بن المالكي وغيرهم فجاوروا.

وفيها: توفي صاحب سنجار المنصور محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، وأبوه كان ختن نور الدين محمود بن زنكي على ابنته، وكان هذا المنصور ملكا عادلا، وهذا الذي حصره العادل أبو بكر بن أيوب، ثم رحل عنه بشفاعة الخليفة الإمام الناصر، وخلف المنصور عدة أولاد: سلطان شاه، وزنكي، ومظفر الدين وغيرهم، وحج بعضهم معنا في سنة إحدى وعشرين وستمائة.

ذكر الحافظ زكي الدين في الوفيات ما مثاله: وفي الثامن من صفر سنة ست عشرة وستمائة توفي قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود صاحب سنجار، وملك ولده عماد الدين شاهنشاه.

وفيها: توفي محمد بن محمد بن محمود الكشميهني، وكان صالحا صاحب رياضات ومجاهدات، وأوصى ان يكتب على كفنه طلبا لاصلاح حاله:

يكون أجاجا دونكم فإذا انتهى
إليكم يلقى نشركم فيطيب

وفيها: توفي ببغداد في رمضان أبو بكر زكريا بن يحيى بن القاسم بن المفرج التكريتي، ولي القضاء بتكريت، ثم ولي تدريس النظامية ببغداد،

-٩٢٠٨-

ودفن بالشونيزية وكان فاضلا وأنشد أبو المظفر من شعره:

كـــم يـــأمـــل المرء آمـــالا وتخلفـــه
وكـــم يـــرى آمنـــا والموت يـــردفـــه

وطـــالما سالـــك الإنســـان شـــاكلـــة
يظـــن فيهـــا النجـــاة وهـــي تقتلـــه

-٩٢٠٩-

ثم دخلت

سنة سبع عشرة وستمائة

وفي هذه السنة كان ظهور التاتار خذلهم الله.

وفيها: يوم الأحد ثاني شعبان توفي إمام المالكية بدمشق برهان الدين علي علوش بن عبد الله المغربي، ودفن بجبل قاسيون، وكان عالما بالأصول، والفروع، والعربية، ونشأ له ابن فاضل في علم الطب يلقب بناصر الدين منصور بن علي، توفي أيضا وهو شاب رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي في رجب تقي الدين عبد الرحمن بن أبي منصور بن نسيم ابن الحسين بن علي المقدسي، أبو الحسن، سمع الكثير من الشيخ الحافظ أبي القاسم بن عساكر، وأكثر طباق السماع عليه في الأجزاء وغيرها موجودة بخطه.

وفيها: في جمادى الآخرة توفي زين الدين أبو البركات داود بن أحمد بن محمد بن ملاعب البغدادي، المدبر لمجالس الحكام بدمشق، وكان شيخا معمرا مولده ببغداد منتصف المحرم سنة اثنين وأربعين وخمسمائة يروي عن أبي الوقت وغيره، سمعت عليه صحيح البخاري سنة أربع عشرة وستمائة، ويروي أيضا هو وأخته حفصة عن أبي الفضل محمد بن عمر ابن يوسف الأرموي رحمهما الله.

وفيها: توفي الشيخ عتيق بن سلامة الأندلسي، ومولده سنة ست عشرة وخمسمائة، عاش مائة سنة ودفن بمقابر الصوفية على حافة الطريق، وكان شيخا صالحا مشهورا، زرته في مرضه مع شيخنا أبي الحسن السخاوي رحمه الله، وطلب لي منه الدعاء فدعا لي، ووجدت بركة دعائه، وكانت له عبادة جميلة.

-٩٢١٠-

وفيها: يوم السبت ثالث عشر جمادى الأولى توفي الحافظ عماد الدين أبو القاسم علي بن الحافظ بهاء الدين أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن الدمشقي، خرج عليه قوم فجرحوه بالقرب من خانقين في توجهه للسماع بتلك البلاد، ثم حمل إلى بغداد فتوفي فيها، ودفن بالجانب الغربي منها بمقبرة الشونيزية رحمه الله، ومولده في ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، قال: انشدنا الخشوعي، أنشدنا ابن الأكفاني في المروحة:

ومروحة تروح كل هم ... ثلاثة أشهر لابد منها

حزيران وتموز وآب ... وفي أيلول يغني الله عنها

وفيها: نافق الأمير عماد الدين بن المشطوب على الملك الأشرف، وأغار في أرض سنجار وساعده صاحب ماردين، فسار إليه الأشرف، فدخل ابن المشطوب إلى تل أعفر، فأنزله بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بالأمان، وحمله معه إلى الموصل، ثم قيده وبعث به إلى الأشرف، فألقاه الحاجب على الجب فمات بالقمل والجوع، وكان نور الدين بن عماد الدين صاحب قرقيسيا مع الأشرف فكاتب عليه، واتفق مع ابن المشطوب فاعتقله الأشرف وبعث به مع العلم قيصر المعروف بتعاسيف إلى قرقيسيا وعانه، فعلق نور الدين رجليه تحت القلعتين وعذبه فسلمت إلى تعاسيف جميع بلاده، وأراد الأشرف أن يرميه في الجب فتشفع إلى أخيه الملك المعظم، فشفع فيه فأطلقه الأشرف، وسار نور الدين إلى دمشق وأحسن المعظم إليه فاشترى بستان ابن حيوس بنواحي العقيبة وبنى فيه وأقام به.

وفيها: قتل صاحب سنجار أخاه فسار الأشرف إليها فأخذها، وعوض صاحبها الرقة.

وفيها: في رجب كانت وقعة البرلس بين الكامل والفرنج،وكانت وقعة عظيمة قتل الكامل منهم عشرة آلاف، وغنم خيولهم وسلاحهم، ورجعوا إلى دمياط مهزومين.

وفيها: عزل المعظم المبارز المعتمد عن ولاية دمشق وولى الغرز خليلا.

وحج المعتمد بالناس من الشام في هذه السنة. ولم يحج أحد من العجم بسبب خروج التاتار في البلاد، وحج من بغداد أقباش الناصري وقتل بمكة، وعاد حاج العراق على طريق الشام.

واستفحل أمر التاتار في هذه السنة، ومات فيها خوارزم شاه محمد بن تكش، وقد ذكرنا صفة موته وماتم له مع التاتار في هذه السنة وقبلها في الكتاب الذي اختصرت في سيرة الدولتين العلائية والجلالية.

وذكر أبو المظفر سبط ابن الجوزي: أنه توفي في سنة خمس عشرة، ووهم في ذلك وقال: قصد العراق في أربع مائة ألف، ووصل إلى همذان يريد بغداد، وقيل كان معه ستمائة جتر تحت كل جتر ألف، وكان قد أفنى ملوك خراسان، وماوراء النهر، وقتل صاحب سمرقند، وكان حسن الصورة،، وأخلى البلاد من الملوك واستقل بها، وكان ذلك سببا لهلاكه.

قال: ولما نزل همذان كان في عسكره سبعون ألفا من الخطا فكاتب العلقمي، يعني وزير بغداد عساكره ووعدهم بالبلاد، فاتفقوا مع الخطا على قتله، وبعث العلقمي إليهم بالأموال والخيول والخلع سرا فكان ذلك سببا لوهنه، ولما علم خوارزم شاه بذلك سار من همذان طالبا خراسان ونزل مرو، والتقى في طريقه الخيل والخلع والكتب المنفذة إلى الخطا، فلم يمكنه الرجوع لفساد عسكره، وكان خاله من الخطا وقد حلفوه أن لايطلعه على مادبروا عليه، فجاء إليه في الليل وكتب في يده

صورة الحال ووقف بإزائه فنظر إلى السطور وفهمها وهو يقول: خذ لنفسك فالساعة تقتل، فقام فخرج من تحت ذيل الخيمة ومعه ولداه جلال الدين وآخر فركب وسار بهما، ولما خرج من الخيمة دخل الخطا والعساكر من بابها ظنا منهم أنه فيها فلم يجدوه فنهبوا الخزائن، والخيول، والجواري، فيقال إنه كان في خزانته عشرة آلاف ألف دينار، وألف حمل قماش أطلس وغيره وعشرون ألف فرس وبغل، وكان له عشرة آلاف مملوك مثل الملوك، فتمزق الجميع ونهب، وأما خوارزم شاه فهرب إلى البحر، وركب في مركب صغير إلى جزيرة بها قلعة ليتحصن بها فأدركه الموت دون صعود القلعة فدفنوه على ساحل البحر، وهرب ولده جلال الدين وأخوه إلى الهند، وجاء فدلوا عليه فنبشوه، وقطعوا رأسه وأخذوه، وعادوا وتفرقت الممالك بعده وأخذت البلاد(٨٧).

وفيها: توفي الملك الفائز سابق الدين ابراهيم بن العادل بن أبي بكر بن أيوب، وكان قد حالف ابن المشطوب والأمراء بمصر على الكامل لما ملك الفرنج دمياط، ولولا أخوهما المعظم يمسك ابن المشطوب وينفيه إلى الشرق على ماسبق ذكره لتم لهم ماأرادوا، ولما كانت وقعة البرلس.

قال الكامل للفائز : هؤلاء الفرنج قد استولوا على البلاد وقد أبطأ علينا الملك المعظم، وما الملوك الشرق غيرك، وتوجه إلى الأشرف وعرفه مانحن فيه من الضائقة، فسار إلى الشرق، وكان الأشرف على الموصل فمرض الفائز بين سنجار والموصل، وقيل إنه سم فمات، فردوه إلى سنجار، فدفن عند تربة عماد الدين زنكي رحمه الله، قيل إنه مات في شعبان من السنة.

وفيها: توفي أبو عزيز قتادة بن إدريس أمير مكة الشريف العلوي الزيدي الحسني، كان عادلا منصفا، نقمة على عبيد مكة والمفسدين، والحاج في أيامه مطمئنون آمنون على أنفسهم وأموالهم، وكان شيخا مهيبا

طوالا، وماكان يلتفت إلى أحد من خلق الله، ولاوطىء بساط الخليفة ولاغيره، وكان يحمل إليه في كل سنة من بغداد الخلع والذهب وهو في داره، وكان يقول: أنا أحق بالخلافة، ولم يرتكب كبيرة على ماقيل وكان في زمانه يؤذن في الحرم« بحي على خير العمل» على مذهب الزيدية، وكتب إليه الخليفة يستدعيه ويقول: أنت ابن العم والصاحب وقد بلغني شهامتك، وحفظك للحاج، وعدلك وشرف نفسك، وعفتك، ونزاهتك، وقد أحببت أن أراك، وأشاهدك، وأحسن إليك فكتب إليه:

ولي كف ضرغام أذل ببطشها
فأشري بها بين الورى وأبيع
وكل ملوك الأرض تلثم ظهرها
وفي وسطها للمجد بين ربيع
أأجعلها تحت الرحى ثم ابتغي
خلاصا لها إني إذا لرقيع
وما أنا إلا المسك في كل بقعة
يضوع وأما عندكم فيضيع

وفيها: توفي آقباش بن عبد الله الناصري، كان مملوكا للخليفة الناصر ابن المستضيء، اشتراه وهو ابن خمس عشرة سنة بخمسة آلاف دينار، ولم يكن بالعراق أجمل صورة منه، ثم قربه الخليفة ولم يكن يفارقه، فلما كبر ولاه إمرة الحاج، وكان عاقلا متواضعا محبوبا إلى القلوب، حج في هذه السنة ومعه خلع وتقليد من الخليفة لحسن بن قتادة، وكان قتادة قد مات كما ذكرنا، فلما وصل آقباش إلى عرفات جاءه راجح بن قتادة أخو حسن، وسأله أن يوليه إمارة مكة، وقال: أنا أكبر ولد قتادة فلم يجبه وظن حسن أن آقباش قد ولاه فأغلق أبواب مكة، وجاء آقباش فنزل بعد أيام منى بالشبيكة ووقعت الفتنة بين حسن وأخيه، ومنع حسن الناس من الدخول إلى مكة، فركب آقباش ليسكن الفتنة ويصلح بين الأخوين،

فخرج عبيد مكة وأصحاب حسن من باب المعلى يقاتلونه فقال: ماقصدي القتال فلم يلتفتوا إليه وانهزم أصحابه وبقي وحده، وجاء عبد فعرقب فرسه فوقع إلى الأرض فقتلوه، وحملوا رأسه إلى حسن بن قتادة على رمح فنصبه بالمسعى عند دار العباس، ثم رد إلى جسده ودفن بالمعلى، وأراد حسن نهب الحاج العراقي، فمنعه أمير حاج الشام المبارز وخوفه من الأخوين الكامل والمعظم ملكي مصر والشام، فأجابه وكف عن ذلك، ووصل الخبر إلى بغداد فحزن الخليفة حزنا عظيما، ولم يخرج الموكب للقاء الحجاج ، وأدخل الكوس والعلم في الليل، وكان سادس عشر ذي الحجة.

قلت: وكان في حج الشام في هذه السنة شيخنا فخر الدين أبو منصور بن عساكر، فأخبرني بعض الحاج في ذلك العام أن الحسن بن قتادة أمير مكة جاء إليه، وهو نازل داخل مكة، فقال له: قد أخبرت أنك خير أهل الشام فأريد أن تصير معي إلى داري، فلعل ببركتك تزول هذه الشدة عنا، فسار معه إلى داره مع جماعة من الدمشقيين، فأكلوا شيئا فما استتم خروجهم حتى قتل آقباش، وزال ذلك الإستيحاش.

وفيها: مات الوزير ناصر الدين بن مهدي الذي كان وزير الخليفة ببغداد، وقبض عليه كما ذكرنا في سنة أربع وستمائة، واعتقل بدار طاشتكين وبها مات في جمادى الأولى وفتح له جامع القصر، ومشى بين يديه أرباب الدولة ودفن بمقبرة موسى بن جعفر، وكان جبارا قاسيا، وكان يدعي أنه شريف علوي، وقد طعن في نسبه.

وفيها: توفي الملك المنصور صاحب حماة، واسمه محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وكان شجاعا محبا للعلماء، والفضلاء، وكان عنده جماعة لهم عليه الرواتب، وصنف كتابا سماه« المضمار»[٨٩] جمع فيه جملة من التواريخ وأسماء من ورد عليه، وأقام عنده في عشرة

مجلدات، وكان حفظ المسلمين لما هاجم الفرنج حماة في سنة إحدى وستمائة، وثبت ووقف، وكانت وفاته بحماة في شوال، ودفن عند أبيه وقام بعده ولده الأكبر الملك الناصر قليج أرسلان، ثم أخذ الكامل منه حماة وأعطاها أخيه المظفر بن المنصور، واعتقل قليج أرسلان في الجب بمصر، فمات به على أقبح حال.

وفيها: توفي صاحب آمد الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد ابن قره أرسلان بن أرتق، وكان شجاعا، عاقلا، جوادا، محبا للعلماء، وكان الأشرف بن العادل يحبه، وجاء غير مرة إلى خدمة الأشرف إلى دنيسر وغيرها، ومات بآمد وفي صفر، وقام بعده ولده المسعود، وكان بخيلا فاسقا، وهو الذي أخذ منه الكامل آمد حمله إلى مصر فحبسه في الجب مدة، ثم أطلقه فمضى إلى التاتار ومعه أموال فأخذت.

قلت: ذكر الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري رحمه الله تعالى في كتاب الوفيات: أن صاحب آمد المذكور توفي سنة تسع عشرة وستمائة، وهو الصحيح، وقد تصحف على صاحب هذا التاريخ سبع عشرة من تسع عشرة(٩٠) والله أعلم.

ولقد رأيت بخط الشيخ زكي الدين أيضا في كتاب « الفوائد السفرية» أن الملك المسعود سليمان بن محمد، وهو أخو الصالح المذكور، كان متولي آمد وسقط من سطح فمات سنة ست وتسعين وخمسمائة، وتولى مكانه أخوه الصالح محمود إلى أن مات.

وفيها: توفي أبو عبد الله بن الخبازي، واسمه: الحسين بن أحمد بن الحسين من أهل باب البصرة، ولد سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، وسمع الحديث، وكان حفظه للحكايات والأشعار والملح.

قال أبو المظفر: وكان يتردد إلى جدي ويعجبه كلامه، وسمعه يوما

يحكي لـه أن ابن عقيل سئـل فقيل لـه أن الحمار يزد له في السنـة في ليلة واحدة فأيها هي هذه الليلة؟ فقال ابن عقيل: مايعرف هذه الليلة إلا من قد كان حمارا.

قال: ودخـل رجل إلى الكرخ فلقيتـه امرأة فقالـت له: أبو بكـر، كيف أنت؟ فقـال: أهلا ياعيشـة. قالت: فـأنا اسمي عيشه؟ قال: فأقتـل أنا وحدي، وكانت وفاته برمضان سمع شهدة وطبقتها وكان ثقة.

وفيها: تـوفي شيخ الشيـوخ صدر الـدين أبـو الحسن محمـد بن شيـخ الشيـوخ عماد الديـن محمـد بن حمويـة، والد أولاد شيـخ الشيـوخ الذيـن اشتهروا بـالأمر والـوزارة بمصر في أيام العادل أبي بكـر بن أيـوب، وابنه الكامل محمـد وذريته، وكان أبوه عمـر قد ولاه نور الديـن بن زنكي رحمه الله خوانك الشـام، وكان يحترمه ويحبه ومـات سنة سبع وسبعين وخمسمائة وصدر الديـن بدمشق عند أبيه فـولاه صلاح الدين المشيخـة مكان أبيه، وزوجه الشيخ قطب الدين مسعود النيسابـوري ابنته، فأولدها ابنه شمس الدين، تـوفي قديما، ثم تزوج ابنة ابن أبي عصرون، وأولـدها أولاده الأربعة المشهورين: عماد الـدين عمر، وفخر الـدين يوسف، وكمال الـدين أحمد، ومعين الدين حسن، وسيـأتى ذكر كل منهم، وكان صدر الـدين قد ناب عن قطب الدين النيسابوري في التدريس بـالزاوية الغربية بجامع دمشق وبمدرسـة جاروخ، وانتفع بصحبتـه، وكان قـد نفعه في بلاد العجـم، ثم ولاه العـادل بمصر التـدريـس بالشـافعـي، ومشهـد الحسين، والنظـر في الخانقاه الكبرى بـدار سعيد السعـداء بين القصرين، ودار الـوزارة، وكان فاضلا فقيهـا لايتكلم فيما لايعنيه، وكانـت له الحرمة الوافـرة عند العادل ابـن أيـوب وأولاده؛ ولما استـولى الفـرنج على دميـاط بعثـه الكـامـل، إلى الخليفـة النـاصر يستنجـده على الفـرنـج، فمـرض بين حـران والموصـل، ووصل إلى الموصـل في منتصف جمادى الآخـرة، فتوفي بها بعلـة الذرب في

الـرابع والعشريـن منـه، ودفـن إلى جانـب قضيـب البـان، وعمره ثـلاث وسبعون سنة.

وفيها: في العشر الأول مـن ذي الحجة توفي الشيـخ عبد الله اليـونيني، أسـد الشام، أصلـه مـن قـرية مـن قـرى بعلبـك يقال لها يـونين، وكـان صاحـب رياضـات ومجاهدات، وكرامـات، وإشارات وقـد رأيته بجـامع دمشق.

قال سبط ابـن الجوزي: كان لايقوم لأحد مـن الناس تعظيما لله تعالى، ويقول: لاينبغـي القيام إلا لله تعالى، صحبتـه مدة، ومـاكان يدخـر شيئا ولايمس بيـده دينارا ولادرهما، كـان زاهدا، ورعـا، عفيفا ومـالبس طـول عمره سوى الثـوب الخام، وقلنسوة من جلد الماعز تسـاوي نصف درهم، وفي الشتاء يبعـث له بعض أصحـابه فـروة يلبسها، ثم يـؤثر بها في البرد، وكـان إذا لبس الثـوب يقـول هـذا لفلان، وهـذا لفـلان، وقـال لي يوما ياسيدي: أنا أبقى أياما في هذه الـزاوية، وكنا ببعلبك ماآكل شيئا فقلت لـه: أنت صـاحب القبـول فكيـف تجوع؟ فقال: لأن أهـل بعلبك يتكـل بعضهم على بعض فأجوع أنا.

قال: وحدثني عبـد الصمد خادمه قال: كان يأخـذ ورق اللوز فيفركه ويسفه، وكـان الملك الأمجد صـاحب بعلبـك يزوره ويحبـه، وكان الشيـخ يهينـه فما قام لـه يـوما قـط، وكان يقـول لـه: يامجيـد أنـت تظلم وتفعـل وتصنع، وهو يعتذر إليـه، وكان العادل قد أظهر بدمشـق ضرب قراطيس سـود فقال الشيـخ عبـد الله: يامسلمين انظـروا إلى هـذا الشيـخ الفاعـل الصانع يفسد على النـاس معاملاتهم، وبلغ العادل فأبطلهـا، وكان يقول لصـاحبـه الفقيـه محمـد الحنبلي: في وفيـك نـزل:(إن كثيرا مـن الأحبـار والرهبـان ليأكلون أموال الناس بالبـاطل)[٩٢]أنا مـن الرهبان وأنـت من الأحبار.

وكـان يستوحـش مـن النـاس فتارة يكـون بجبـل لبنـان، وتارة يكـون بالغوطة، وتارة بثنية العقـاب، وتارة بضمير، وكان يأتي في الشتاء إلى عيون الفاسريـا، وهي ظاهـر دمشق بسفح الجبل المطـل على قرية دومـة لأجل سخـونة الماء بها، وبنـي لـه على رأس العين مسجـدا صغيرا يأوي إليـه، وكان الدماشقة يخرجون من دمشق إلى زيارته.

قال: فحكـت لي امرأة صالحة قالـت: خرجت من دمشـق بعد العصر فوصلت العيون بعـد العشاء الآخرة، فتوضأت وطلعت إلى زيـارة الزاوية، وكـانت ليلـة مقمـرة، وإذا بالسبـع قائما على بـاب الـزاوية، ورأيتـه على عتبتها فيبست ولم أقدر أتحرك، فسحبت ركبتـي إلى نحو القرية، فلما كان وقـت السحر هـرول السبـع ومضى وخـرج الشيـخ فـرآني فقال: ويلـك وإيش كان عليك منه؟.

قال: وكان شجـاعا لايبالي بالـرجال قلوا أو كثروا، وكـان قوسه ثمانين رطلا، ومـافاتـه غزاة بالشـام قط، وكان يتمنـى الشهادة ويلقـي نفسه في المهالك، حكى لي عنه خادمه عبـد الصمد قال: لما دخل العادل إلى بلاد الفرنج ووصل إلى صـافيتا والعريمة، كان الشيخ في الـزاوية ببعلبك فقال لي: ياصميد انـزل إلى الفقيه عبد الله إطلب لي منه بغلـة، قال: فأحضرت البغلة فركبها وخـرجت معه فبتنا في تومين، وقمنا نصـف الليل فجئنا إلى المحدثة قبيل الصبح فقلت له: لاتتكلم هاهنا، فهذا مكمن الفرنج، قال: فرفع صـوته وقال: الله أكبر فجاوبته الجبـال، فمت أنا من الفـزع، ونزلت فصلى الفجـر وركـب وطلعت الشمـس والطير لايطير في تلـك الأرض، وإذا قـد لاح من نـاحية حصـن الأكـراد طلب أبيـض فظنهم الاسبتـار، فقال: الله أكبر مـاأبركك من يـوم، اليوم أمضي إلى صاحبي وسـاق إليهم وقد شهر سيفه، فقلت في نفسي: شيخ وتحتـه بغلة وبيده سيف يسوق إلى طلب الفرنج، فلما كان بعد ساعـة وإذا بهم قد قربوا منا، وهم مائة حمير

وحش، قال: فانكسر قلبي وفترت همتي فقلت له: إحمد ربك فإن الله قد نظر إليك أنت واحد تريد تلاقي مائة حمار وحش على بغلة.

قال: وجئنا إلى حمص فجاءنا صاحبها أسد الدين وقدم له حصانا من خيله فركبه، ودخل معهم فعمل العجائب.

قال أبو المظفر: وحدثني القاضي جمال الدين بن يعقوب قاضي كرك البقاع، قال: كنت يوما عند الجسر الأبيض في مسجد هناك وقت الحر، وإذا بالشيخ عبد الله قد جاء فنزل نهر ثورا يتوضأ، وإذا بنصراني عابر على الجسر ومعه بغل عليه حمل خمر، فعثر البغل عند الجسر ووقع حمل الخمر وليس في الطريق أحد، فصعد الشيخ من النهر وصاح لي يافقيه تعال، فجئت، فقال: عاوني فعاونته حتى رفعنا الحمل على البغل، وراح النصراني، فقلت في نفسي: مثل هذا الشيخ يفعل كذا، ثم مشيت خلف البغل إلى العقيبة، فجاء إلى دكان الخمار فحط الحمل، وفتح الزقاق وقلب ليكيله وإذا به قد صار خلا، فقال له الخمار: ويحك هذا خل، فبكى وقال: والله ماكان إلا خمرا من ساعة، وإنما أنا أعرف العلة، ثم ربط البغل في الخان وعاد إلى الجبل، وكان الشيخ قد صلى الظهر في المسجد عند الجسر، وقعد يسبح، فدخل عليه النصراني وقال ياسيدي، أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأسلم، وصار فقيرا.

قال أبو المظفر: وحكى لي جماعة من أهل بعلبك أنه كان جالسا يوما في زاويته، وإذا بامرأة طالعة وبين يديها دابة تسوقها عليها نحاس وثياب فربطتها وجاءت إليه فسلمت عليه، فقال لها: من أنت؟ قالت: نصرانية من جبة المنيطرة، قال: وماالذي جاء بك إلى عندي؟ قالت: رأيت السيدة مريم في المنام فقالت لي: اذهبي فاخدمي الشيخ عبد الله اليونيني إلى أن تموتي، قال: فقلت لها ياستي فذاك مسلم، فقالت: مالك صحيح إنه مسلم ولكن قلبه نصراني، فقال لها الشيخ: أجادت مريم، ماعرفني

غيرها. فأعطاها بيتا في الزاوية فأقامت تخدمه ثمانية أشهر، فمرضت، فقال لها الشيخ: إيش تشتهين، فقالت: أموت على دين السيدة مريم، فقال: صيحوا بالقسيس، فجاء، فقال: خذ هذه إليك، وخذ قماشها وكان يساوي خمسمائة درهم فماتت عند القسيس.

قال: وحكى بعض أهل بعلبك أنها ماماتت إلا مسلمة عند الشيخ، وتصدق الشيخ بما خلفت.

قال أبو المظفر: كنت اجتمعت به في الشام من ستمائة إلى سنة ثلاث وستمائة، وكان له تلميذ اسمه توبة، وكان من الصالحين الأجواد، وسافرت إلى العراق في سنة أربع وستمائة وحججت، فلما كان يوم عرفة صعدت جبل عرفات وإذا بالشيخ عبد الله قاعد مستقبل الكعبة وعليه الثوب الخام، وعلى رأسه القلنسوة السوداء فسلمت عليه فرحب بي وسألني عن طريقي، وقعدت عنده إلى قريب الغروب، ثم قلت له: ماتقوم نروح إلى المزدلفة، قال: اسبقني أنت فلي رفاق، ونزلت من الجبل، وأتيت المزدلفة ووقفت بها وجئت إلى منى فدخلت مسجد الخيف، وإذا بالشيخ توبة خارجا من المسجد فسلم علي فقلت: أين نزل الشيخ؟ ظنا مني أنه قد حج معه، فقال: أيما شيخ: قلت: عبد الله قال: خلفته ببعلبك ففطنت، فقلت: مبارك فلزم بيدي وبكى، وقال بالله حدثني إيش معنى هذا؟ فقلت: رأيته البارحة على عرفات وحدثته الحديث، ورجعت أنا على بغداد وجاء توبة إلى دمشق، وحدث الشيخ عبد الله الحديث، فحدثني توبة قال: قال لي الشيخ: ماهو صحيح منك فلان فتى، والفتى مايكون غمازا، فلما عدت إلى الشام عتبني الشيخ فقلت: توبة تلميذك، فقال: لاتعد إلى مثلها كأنه كره أن يتحدث له بكرامة في حال حياته.

قال: حكى لي عبد الصمد خادمه، قال: لما كان يوم الجمعة في العشر

الأول من ذي الحجة نزل فصلى الجمعة بجامع بعلبك وهو صحيح ليس به شيء، ودخل الحمام قبل الصلاة واغتسل وكان عليه ثوبان قد سماهما لامرأتين وجاءه داود المؤذن وكان يغسل الموتى فقال له ويحك ياداود انظر كيف غدا، فما فهم داود وقال: ياسيدي كلنا غدا في خفارتك، ثم صعد الشيخ إلى المغارة وكان قد أمر الفقراء أن يقطعوا صخرة عند اللوزة التى كان ينام تحتها ويقعد عندها وعندها قبره، وكان في نهار الجمعة قد نخرت الصخرة وبقى منها مقدار نصف ذراع، فقال لهم: لاتطلع الشمس إلا وقد فرغتم منها، قال: وبات طول الليل يذكر أصحابه ومعارفه ويدعو لهم، ويقول: ياسيدي فلانة اجتزت بها في الموضع الفلاني اعطتني مشربه من الماء فشربتها وقليل ماء فتوضأت به رب اغفر لها وفلان أحسن إلي فأحسن إليه، وطلع الصبح فصلى وخرج إلى صخرة كان يجلس عليها فجلس عليها وفي يده مسبحته وقام الفقراء يتممون الصخرة، وطلعت الشمس وقد فرغوا منها والشيخ قاعد نائم والمسبحة بيده، وجاء خادم من القلعة إليه في شغل فرآه نائما قاعدا بحاله، فما تجاسر أن يوقظه فقعد ساعة وطال عليه، فقال: ياعبد الصمد ماأقدر أقعد أكثر من هذا، قال: فتقدمت إليه وقلت: سيدي سيدي ، فلم يتكلم فحركته فإذا به ميتا، وقد فرغوا من الصخرة وعملوا فيها ساعة وهو ميت فارتفع الصياح، وكان صاحب بعلبك في الصيد فأرسلوا وراءه، فرآه في تلك الحال لاوقع ولاوقعت السبحة من يده، وهو كأنه نائم، فقال: دعونا نبني عليه بنيانا وهو على حاله ليكون أعجوبة للدنيا أن الانسان يموت وهو قاعد ولايتغير، فقالوا: اتباع السنة أولى، وطلع داود فغسله ودفع الثوبين إلى المرأتين، ولما ألحدوه قال له الحفار ياشيخ عبد الله اذكر ماعاهدتنا عليه، قال: ففتح عينيه ونظر إلي شذرا ودفن عند اللوزة يوم السبت وقد جاوز ثمانين سنة رحمه الله(٩٣).

-٩٢٢٢-

ثم دخلت

سنة ثماني عشرة وستمائة

ففيها: توجه المعظم عيسى إلى أخيه الأشرف موسى، واجتمعا على حران، وكتب صاحب ماردين ناصر الدين إلى الأشرف يسأله أن يصعد المعظم إليه، فسأله فسار إلى ماردين فنزل صاحب ماردين والتقاه في دنيسر وأصعده إلى القلعة وخدمه خدمة عظيمة، وقدم له التحف والجواهر وتحالفا واتفقا على ما أراد، وزوج المعظم إحدى بناته ناصر الدين صاحب ماردين، وزوج ناصر الدين ابنته الأخرى وخلع على جميع أصحابه وأعطاهم الأموال ورجع المعظم إلى حران.

وفيها: وصلت الأخبار بوصول التاتار إلى كرمان شاه قريبا من بغداد، فانزعج الخليفة وأمر الناس بالقنوت في الصلاة، وحصن بغداد واستخدم العساكر.

وفيها: في جمادى الآخرة استرد المسلمون دمياط من الفرنج، وكان المعظم عيسى من أحرص الناس على خلاص دمياط وعلى الغزاة، وكان مصافيا لأخيه الكامل، وكان أخوهما الأشرف مقصرا في حق الكامل، وكان مباينا له في الباطن، فلما اجتمعت العساكر على حران قطع لهم المعظم الفرات وسار الأشرف في آثاره، وجاء المعظم فنزل حمص، ونزل الأشرف سلمية.

قال أبو المظفر: وكنت قد خرجت من دمشق إلى حمص لطلب الغزاة فإنهم كانوا على عزم الدخول إلى طرابلس، فاجتمعت بالمعظم على حمص في ربيع الآخر، فقال لي: قد سحبت الأشرف إلى هنا بأسناني وهو كاره، وكل يوم أعتبه في تأخيره وهو يكاشر، وأخاف من الفرنج أن يستولوا على مصر، وهو صديقك فاشتهي تروح إليه فقد سألني عنك

مرارا، ثم كتب إلى أخيه كتابا بخطه نحو ثمانين سطرا، فأخذته ومضيت إلى سلمية، وبلغ الأشرف وصولي فخرج من الخيمة والتقاني وعاتبني على انقطاعي عنه.

وجرى بيني وبينه فصول، وقلت له: المسلمون في ضائقة فإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حضرموت، وعفوا آثار مكة، والمدينة، والشام، وأنت تلعب، قم الساعه وارحل فقال: ارموا الخيام والدهليز، فسبقته إلى حمص والمعظم عينه إلى الطريق، فلما قيل له وصل فلان ركب والتقاني وقال:مانمت البارحة ولا أكلت اليوم شيئا، فقلت: غدا بكرة يصبح أخوك على حمص فدعا لي، ولما كان من الغد أقبلت الأطلاب وجاء طلب الأشرف، والله مارأيت أجمل ولاأحسن رجالا ولا أكمل عدة، فسر المعظم سرورا عظيما وجلسوا تلك الليلة يتشاورون، فاتفقوا على الدخول في السحر إلى طرابلس يشوشون على الفرنج وكانوا على حال فأنطق الله الأشرف من غير قصد وقال للمعظم: ياخوند: عوض ماندخل الساحل وتضعف خيلنا وعساكرنا ونضيع الزمان مانروح إلى دمياط، ونستريح؟ فقال له المعظم: قول رماة البندق؟ قال: نعم، فقبل المعظم قدمه، وقام الأشرف فخرج المعظم من الخيمة كالأسد الضاري يصيح الرحيل الرحيل إلى دمياط، وكان يظن أن الأشرف مايسمح بذلك، وساق المعظم إلى دمشق وتبعته العساكر، ونام الأشرف في خيمته إلى قريب الظهر، وانتبه فدخل الحمام فلم ير حول خيمته أحدا، فقال: وأين العساكر؟ فأخبروه الخبر فسكت وساق إلى دمشق، فنزل القصر يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى فأقام إلى سلخ جمادى، وعرض العساكر تحت قلعة دمشق، وكان هو وأخوه المعظم في الطيارة في القلعة، وساروا إلى مصر غرة جمادى الآخرة.

قلت: كنت حاضرا تحت القلعة وتلك العساكر تمر أميرا بعد أمير، والناس يتضرعون ويدعون لهما بالنصر، فاشتدت قوى المسلمين وأيقنوا

بالظفر، ولأجل ما كان للملك المعظم من الآثار الجميلة في سفره إلى الشرق تجمع هذه العساكر وتيسر الوصول بها إلى مصر قال شيخنا أبو الحسن السخاوي رحمه الله من جملة قصيدة له عند فتح دمياط:

سرى الملك المولى المعظم في الدجى
فأطلع نجم النصر بعد مغيبه
ورد على الاسلام بعد كآبة
سرورا وآوى الدين بعد شحوبه
تجلى بعيسى غمها واغتدى بها
فريدا وأضحى بحرها من نصيبه

وسمعت ممن يوثق به في مجلس شيخنا أبي الحسن السخاوي رحمه الله يقول: أنه رأى في منامه في بعض تلك الليالي كأن هاتفا يقول له:

لا تيأسن لعسرة فوراءها
يسران وعدا ليس فيه خلاف
كم كربة قلق الفتى لنزولها
لله في أعطافها ألطاف(٩٤)

قلت: والبيتان لأبي الفتح البستي.

قال أبو المظفر: وأما الفرنج الذين كانوا بدمياط فإنهم خرجوا بالفارس والراجل، وكان البحر زائدا جدا فجاؤوا إلى ترعة فأرسوا إليها، وفتح المسلمون عليهم الترع من كل مكان، وأحدقت بهم عساكر الكامل، فلم يبق لهم وصول إلى دمياط، وجاء اسطول المسلمين فأخذوا مراكبهم ومنعوهم أن يصل إليهم ميرة من دمياط، وكانوا خلقا عظيما، وانقطعت أخبارهم عن دمياط، وكان فيهم مائة كند، وثمانمائة من الخيالة المعروفين، وملك عكا والدوك، والدوكات، ونائب البابا، ومن الرجالة

مـالايحصـى، فلما عـاينـوا الهلاك أرسلــوا إلى الكـامـل يطلبـون الصلـح والـرهائن ويسلمـون دمياط، فمـن حـرص الكامـل على خلاص دميـاط أجابهم، ولـو أقامـوا يومين أخـذهم برقـابهم، فبعث إليهـم الكامـل ابنه الصالـح أيوب، وابن أخيـه شمس الملوك، وجـاءت ملوكهم إلى الكـامل فالتقـاهم وأنعم عليهـم، وضرب لهم الخيام، ووصـل المعظم والأشرف في تلك الحال إلى المنصورة في ثالث رجـب، فجلس الكامل مجلسا عظيما في خيمـة كبيرة عـالية، ومـد سماطـا عظيما وأحضر ملـوك الفـرنج والخيـالـة ووقـف في خـدمتـه أخـواه المعظـم والأشرف وغيرهما، وقـام راجـح الحلي الشاعر فأنشده:

هنيئـا فـإن السعـد راح مخلـدا
وقـد أنجـز الـرحمن بـالنصر مـوعـدا
حبـانـا إلـه الخلـق فتحـا بـدا لنـا
مبينـا وإنعـامـا وعـزا مـؤبـدا
تهلـل وجـه الـدهـر بعـد قطـوبـه
وأصبـح وجـه الشرك بـالظلـم أسـودا
ولما طغـى البحـر الخضـم بـأهلـه الـ
ـطغاة وأضحـى بـالمراكـب مـزبـدا
أقـام لهذا الـديـن مـن سـل عـزمـه
صقيـلا كما سـل الحسـام مجردا
فلـم تـر إلا كـل شلـو مجدل
ثـوى منهـم أو مـن تـراه مقيـدا
ونـادى لسـان الكـون في الأرض رافعـا
عقيرتـه في الخافقين ومنشـدا
أعبـاد عيسـى إن عيسـى وحـزبـه
ومـوسـى جميعـا ينصران محمـدا

قلت: وبلغنـي أنه وقت الإنشـاد أشار عنـد قوله عيسى إلى المعظم،

وعند قـوله موسـى إلى الأشرف، وعند قوله محمـدا إلى الكامل، وهـذا من أحسن شيء اتفق .

قال أبو المظفر: ووقـع الصلح بين الكامل والفرنج يـوم الأربعاء تاسع عشر رجب، وسـار بعض الفـرنج في البر، وبعضهـم في البحر إلى عكـا، وتسلم الكـامل دميـاط ووصلت العسـاكر الشرقيـة والشاميـة، وقد أخـذ الكـامـل دميـاط، وعـاد المعظـم إلى الشـام، وأقـام الأشرف بمصر عنـد الكـامـل فغير الله سبحـانـه القلـوب، فصـارا متصـادقين، واتفقـا على المعظم(٩٥) .

وفيهـا: حـج بالنـاس مـن الشـام أمير يقـال له شقيفـات، وحـج أبي اسماعيل معه تلك السنـة، وحج بالناس من العراق ابـن أبي فراس ومعه كتـاب الخليفـة إلى مكـة والمدينة بـإعـادة ولي العهـد أبي نصر محمـد إلى العهد، وكتب إلى الآفاق بذلك.

وفيها: ولى المعظـم جمال الديـن المصري الوكيـل، قضاء الشـام، وكان يكتب في السجلات قاضي قضاة الشام وذلك في رجب.

وفيها: توفي الشيخ الشهاب محمد بن خلف بن راجح المقدسي الحنبلي أحد الشيوخ الصالحين السـاكنين بالدير بسفح جبل قـاسيون، وكنت أراه يـوم الجمعـة قبـل الزوال يجلس على درج المنبر السفلي بجـامـع الجبـل، وبيده كتـاب من كتـب الحديث، وأخبـار الصـالحين يقـرأه على الناس إلى أن يؤذن المؤذن للجمعة.

قال أبـو المظفر: وكـان زاهدا عـابدا، ورعـا، فاضـلا في فنون العلـوم، وسافـر إلى بغداد، وسمع الكثير من شهـدة وابن البطي، ومشايـخ الشام وغيرهم، وحفظ مقـامات الحريري في خمسين ليلة فتشوش خـاطره، وكان مما يغسل بـاطن عينيه قد قل نظره، وكـانت وفاته يوم الأحـد سلخ صفر،

ودفن بقاسيون عند أهله، وكان سليم الصدر من الأبدال ماخالف أحدا قط، رأيته يوما وقد خرج من جامع الجبل فقال له انسان: ماتروح إلى بعلبك، فقال: بلى ، فمشى من ساعته إلى بعلبك بالقبقاب، قلت: وسيأتي ذكر ولديه القاضي نجم الدين أحمد، والصلاح موسى.

وفيها: توفي صاحبنا ضياء الدين علي بن عبد السيد بن ظافر القوصي ابن أخت الشهاب القوصي، وكان من أصحاب شيخنا السخاوي، وشيخنا فخر الدين بن عساكر، وله شعر حسن، ومولده بقوص سنة سبعين وخمسمائة، واجازني من الشيخ علم الدين في القرآن عندي بخطه.

وفيها: في ليلة الحادية والعشرين من رجب توفي خطيب بيت الأبار الشيخ موفق الدين أبو عبد الله عمر بن يوسف بن يحيى بن كامل المقدسي، وكان شيخا صالحا، وخطب على منبر دمشق مدة غيبة الخطيب جمال الدين الدولعي في الرسالة العادلية إلى بلاد الشرق، رحمهما الله.

وفيها: أو في السنة التي بعدها في ثالث عشر رجب توفي الحافظ المحدث تقي الدين أبو طاهر اسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن المصري المعروف بابن الأنماطي، كان في زمانه أحذق الناس بقراءة الحديث وكتابته، وإفادة الشيوخ، وحسن كتابة طبقات السماع، وحصل كتبا كثيرة، وكتب بخطه أجزاء عديدة، وكان سريع الكتابة والقراءة جدا مع معرفة بعلم الحديث واطلاع على دقائق فيه، وكانت كتبه تكون في البيت بالكلاسة الذي كان بيد الملك المحسن أحمد بن صلاح الدين قبله، ثم انتقل منه لما أريد اسكان الشيخ عبد الصمد الدكالي الزاهد به، ثم بقي بيد أصحاب عبد الصمد إلى الآن.

- ٩٢٢٨ -

وسمعت الشيخ التقي عمر بن الصلاح رحمه الله يثني عليه بعد موته في معرفة الحديث، ويتأسف لفقده على فوائد كانت تحصل من عنده.

قال أبو المظفر: سمع الكثير ولقي الشيوخ، وكانت وفاته بدمشق ودفن بمقابر الصوفية في طريق المنيبع، وصلى عليه الموفق الحنبلي بجامع دمشق، والفخر بن عساكر بباب النصر، والجمال المصري قاضي القضاة عند قبره.

وكان سمع بمصر من البوصيري، وابن المقدسي وبدمشق من بركات ابن ابراهيم الخشوعي، ورحل إلى العراق فسمع أبا الفتح بن الميداني، وابن عبد السميع الهاشمي وابن طبرزد ، وابن سكينة، وابن الأخضر، وحنبلا.

وقرأ على الشيخ تاج الدين الكندي بدمشق تاريخ الخطيب وطبقات ابن سعد، وشيئا كثيرا، وكان ثقة.

قلت: وقرأ على القاضي أبي القاسم بن الحرستاني من كتب البيهقي كثيرا، مثل: السنن الكبرى ومعرفة السنن والآثار، والدلائل النبوية، والآداب والدعوات.

ثم دخلت

سنة تسع عشرة وستمائة

ففيها: ظهر بالشام جراد كثير لم يعهد مثله، فأكل الزرع والشجر والثمر، فأظهر المعظم أن ببلاد العجم طيرا يقال له السمرمر، يأكل الجراد فأرسل الصدر البكري محتسب دمشق ورتب معه صوفية، وقال: يمضي إلى العجم فهناك عين تجتمع فيها السمرمر فتأخذ من مائها في قوارير وتعلقه على رؤوس الرماح، فكلما رآه السمرمر تبعك، وماكان مقصوده إلا أن يبعث البكري إلى جلال الدين خوارزم شاه، واتفق معه لما بلغه اتفاق أخويه الكامل والأشرف عليه، فاجتمع البكري بالخوارزمي وقرر معه الأمور وجعله سندا له، وكان الجراد قد قل، فلما عاد البكري كثر الجراد،فقال الناس في ذلك أشعارا، و ظهر فعل المعظم للناس، وعلم الكامل والأشرف، وشاع الحديث فقيل للمعظم لو كنت بعثت رسالة مع بعض التجار الذين يسافرون إلى خراسان كان أولى، ولما عاد البكري من الرسالة ولاه المعظم مشيخة الشيوخ مضافة إلى الحسبة.

وفيها: حج من العراق ابن أبي فراس مستقلا، ومن الشام كريم الدين الخلاطي ومعه الركن الفلكي، وخلق كثير، وكانت الوقفة الجمعة، وازدحم الناس في المسعى فمات جماعة.

قال أبو المظفر: وكنت على عزم الحج، فخرجت على هجين إلى مسجد القدم، فجاء حوراني عليه فروة ليصافحني فنفر منه الهجين فأرماني، فأقمت شهرين أداوي ظهري.

وحج بالناس من اليمن أطسيس بن الكامل، ولقبه الملك المسعود في عسكر عظيم، فجاء إلى الجبل، وقد لبس هو وأصحابه السلاح ومنع علم الخليفة أن يصعد به إلى الجبل، وأصعد علم أبيه الكامل وعلمه

وقال لأصحابه: إن أطلع البغاددة علم الخليفة فأكسروه وانهبوهم، ووقفوا تحت الجبل من الظهر إلى غروب الشمس يضربون الكوسات ويتعرضون للحاج العراقي وينادون ياتارات ابن المقدم، فأرسل ابن أبي فراس أباه، وكان شيخا كبيرا إلى اطسيس وأخبره بما يجب من طاعة الخليفة، ومايلزمه في ذلك من الشناعات، فيقال إنه أذن في صعود العلم قبيل المغرب، وقيل لم يأذن، قال: وبدا من أطسيس في تلك السنة جبروت عظيم.

حكى لي شيخنا جمال الدين الحصيري رحمه الله قال: رأيت اطسيس قد صعد على قبة زمزم وهو يرمي حمام مكة بالبندق.

قال: ورأيت غلمانه في المسعى يضربون الناس بالسيوف في أرجلهم ويقولون: اسعوا قليلا، قليلا، فإن السلطان نائم سكران في دار السلطنة التي في المسعى، والدم يجري من ساقات الناس(٩٧).

قلت: واستولى أطسيس على مكة وأعمالها، وأذل المفسدين فيها وشتت شملهم، وهو الذي بنى القبة على مقام ابراهيم عليه السلام، وكثر الجلب إلى مكة من مصر واليمن في أيامه، فرخصت الأسعار، ولعظم هيبته قلت الأشرار، وأمنت الطرق والديار.

وفيها: نقل تابوت العادل بن أيوب من قلعة دمشق إلى تربته المقابلة لدار العقيقي، أخرجوا جنازته من القلعة والتابوت مغشى بمرقعة، وأرباب الدولة حوله، ومروا به على دار الحديث إلى باب البريد إلى الجامع ووضع في صحن الجامع قبالة حائط النسر، وصلي عليه هناك، وأمهم في الصلاة عليه خطيب الجامع جمال الدين الدولعي، ثم حملوا الجنازة وخرجوا بها من باب الناطفانيين شمالي الجامع خوفا من زحمة الناس في الطريق، ولم يصل إلى تربته إلا بعد جهد لضيق السكك، وبقي

القراء، والفقهاء يترددون إلى التربة غدوة وعشية كل يوم يقرأون القرآن إلى أن رتب لهم الوقف عليها، وعين لها قراء مخصوصون، ولم تكن المدرسة كملت عمارتها، وألقى فيها الدرس في هذه السنة القاضي جمال الدين المصري وحضر درسه أعيان الشيوخ، والقضاة والفقهاء، وحضر السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل وتكلم في الدرس مع الجماعة، وكان الإجتماع بايوان المدرسة، وجلس عن يمين السلطان إلى جانبه شيخ الحنفية جمال الدين الحصيري، ويليه شيخ الشافعية شيخنا فخر الدين ابن عساكر، ثم القاضي محيي الدين ابن الشيرازي، ثم القاضي محيي الدين بن يحيى الزكي، وجلس عن يسار السلطان إلى جانبه مدرس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين المصري، وإلى جانبه شيخنا سيف الدين الآمدي، ثم القاضي شمس الدين بن سني الدولة، ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر، ودارت حلقة صغيرة والناس وراءهم متصلون ملء الإيوان، وكان في دور تلك الحلقة أعيان المدرسين، والفقهاء، وقباله السلطان فيها شيخنا تقي الدين بن الصلاح وغيره، وكان مجلسا جليلا لم يقع مثله إلا في سنة ثلاث وعشرين وستمائة، كما سيأتي ولكن كان قد فقد من الشيوخ الشافعية أجلهم وأكبرهم فخر الدين بن عساكر رحمه الله.

وفيها: توفي قطب الدين بن العادل بالفيوم ونقل إلى القاهرة، قرأت على عمود قبره في تربة شمس الدولة توران شاه بن أيوب ظاهر القاهرة خارج باب النصر: إنه الملك المفضل قطب الدين أبو العباس أحمد بن الملك العادل بن أيوب، توفي يوم الثلاثاء رابع عشر رجب من السنة المذكورة.

وفيها: توفي إمام الحنابلة بمكة نصر بن أبي الفرج، المعروف بابن الحصري، أقام بمكة مجاورا مدة، ثم خرج إلى اليمن فمات بالمهجم ودفن به، سمع أبا الوقت وابن البطي، وابن المقرب وغيرهم.

قال أبـو المظفر: سمعت منه الحديـث بمكة سنة أربـع وستمائة، وكان متعبدا لايفتر من الطواف، صالحا ثقة[٩٨].

وفيهـا: في ربيع الأول تـوفي بدمشـق الشهاب عبـد الكريـم بن نجـم الديـن الحنبلي أخو البهـاء والناصـح، وهو أصغـرهم، والبهـاء هو الأكبر بين كل واحـد والذي قبله في الولادة تسـع سنين، وكان الشهاب أبـرعهم في الفقه والمناظرة، والمحاكمات، بصيرا بما يجري عنـد القضاة في الدعاوى والبينات، لكنـه كان تعصـب على شيخنا أبي الحسـن في إخراج مسجـد الوزيـر المزدقاني من يـده، وجرت أمور ربما نذكـر بعضها في ترجمتـه رحم الله الجميع وإيانا، فهو ذو رحمة واسعة.

قلـت: وفي يوم الثـلاثـاء ثـامن عشر رجـب مـن هـذه السنة استقـل القاضي جمال الديـن أبو الفضائل يونـس بن بدران بن فيروز الشـافعي، المعروف بالمصري بالقضاء في دمشق، وما معهـا من البلاد الشامية، وصار يدعى قاضي القضاة، وقد تقدم ذكره في سنة ست عشرة وستمائة.

وفيها: توفي المحدث أبـو طاهر اسماعيل بن عبد الله بـن عبد المحسن الأنماطي ليلة الاثنين ثـالث عشر رجب بدمشـق، ودفن من الغد بمقـابر الصوفية خارج باب النصر.

- ٩٢٣٣ -

ثم دخلت

سنة عشرين وستمائة

ففيها: عاد الأشرف بن العادل من مصر إلى الشام قاصدا بلاده بالشرق، فتلقاه أخوه المعظم ملك الشام وعرض عليه النزول بالقلعة فامتنع ونزل بجوسق أبيه، وبدت الوحشة بين الأخوة الثلاثة: الكامل، والأشرف، والمعظم، وأصبح الأشرف في وقت السحر فساق ونزل ضمير، ولم يعلم المعظم برحيله، وصار يطوي البلاد إلى حران، وكان الأشرف قد استناب أخاه شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين على خلاط لما سافر إلى مصر، وجعله ولي عهده بعد ان عينه ومكنه في جميع بلاده، فسولت له نفسه العصيان، وأعانه عليه قوم آخرون: أخوه المعظم وابن زين الدين صاحب إربل، والمشارقة وقالوا: نحن وراءك.

ولما وصل الأشرف إلى حران سار إلى سنجار وكتب إلى أخيه شهاب الدين غازي يطلبه، فامتنع من المجيء إليه، فكتب إليه: ياأخي لاتفعل أنت ولي عهدي والبلاد والخزائن بحكمك فلا تخرب بيتك بيدك وتسمع كلام الأعداء فوالله ماينفعونك. فأظهر العصيان.

فجمع الأشرف عساكر الشرق وحلب وتجهز للمسير إلى خلاط، وكان صاحب حمص قد مال إلى الأشرف، فسار المعظم إلى حمص، ووصل إلى حماة ونزل على جبرين قرية على بابها باتفاق كان بينه وبين صاحبها، فلم ينزل اليه ولافتح له الباب، فأقطع بلاد حماة وعاد إلى حمص، وخرج إليه العسكر فظهروا عليه ونهبوا أصحابه، فعاد إلى دمشق ولم يظفر بطائل.

وفيها: حج بالناس من العراق ابن أبي فراس، ومن الشام شرف الدين يعقوب صاحب شركس.

وفيها: توفيت والـدتي رحمها الله ودفنتها بالجبل في طريـق قريب الإماج والمغر إلى جـانب الـوادي، وأرجو أن أدفـن عندهـا، وكانـت وفاتها يـوم السبت سادس رجب، وكانت دينة صالحة رضي الله عنها.

وفيها: توفي الأمير مبـارز الدين سنقر الحلبي الصـلاحي، والد الظهير ابن سنقر.

قـال أبـو المظفر: كـان مقيما بحلـب، ثـم اتصـل إلى مارديـن فخـاف الأشرف منه فبعث إلى أخيه المعظم وقـال: مادام المبارز في الشرق ما آمن على نفسي، فأرسل المعظـم ابنه الظهير غازي بن سنقر إلى أبيـه وقال: أنا أعطيه نابلس وأي شيء أراد، فجاء الظهير إلى مـاردين وعرف المبارز رغبة المعظم، وأنـه يقطعه من الشـام أي شيء أراد فقال لـه صاحب مـاردين: لاتفعل فهـذه خديعة، فأبـى وسار إلى الشام في سنـة ثماني عشرة، ووصل إلى دمشـق، وخرج المعظـم للقـائة ولم ينصفـه، وجاء فنـزل في دار شبـل الدولـة الحسامي التـي انتقلت إلى الصوفيـة عند مدرستـه بجسر كحيل، فـأقام بها والمعظـم يعرض عنـه ويماطلـه باليـوم وغـد حتى تفـرقت عنـه أصحابـه ، وكان معه جملة مـن المال، والخيل العربية المنسـوبة، والجمال، والبغال، والسلاح والمماليك شيء كثير ففرق الجميع في الأمراء الأكابر.

قال: وكـان جاري لأني كنت مقيما بتربة بـدر الدين حسـن على ثورا، وكان يـزورني وأزوره، ويشكو إلي اعـراض المعظم عنه، ومـافعل بـه ولده الظهير وكيف خدعه وأنا أسليه وأهون عليـه، ووقع إلي كتاب فيه حديث ملوك اليمـن فبينما أنا قاعـد أقرأه دخل فقـال: إيش تقرأ؟ قلـت: أخبار ملوك اليمن، فقـال: إقرأ علي، فقرأت فلان الملك عاش ألـف سنة ومات بالغم، وفلان عـاش سبعمائة سنة ومات بالغم، وذكرت مـن هذا الجنس، فقال: وأنا أموت بـالغم وكان طول النهار يجلس مغمومـا مهموما ونها فيه العذل حتـى انقطع أكلـه فأقـام عشرين يـوما لايـدخل في فيـه إلا الماء،

ومـات كمدا في شعبـان في دار شبل الـدولـة كافـور، فقـام كافـور بأمـره أحسن قيام، وجهـزه أحسن جهاز، وكان صـديقه من أيام شمـس الدولة أخـي ست الشـام لأبيها، ويقـال إن المبارز كـان مملوك شمـس الدولـة، واشترى له كـافور تربـة على رأس زقاق شبل الدولـة عند المصنع بـألف درهم، وحضر جنـازته خلـق كثير عظيم لأنـه كان محسنـا إلى النـاس، ولم يكـن في زمانـه مـن الصلاحيـة وغيرهـم: أكرم منه ولاأشجـع، وكان لـه مواقـف مشهورة مـع صلاح الـدين وغيره، ولما مـات وجدوا في صنـدوقه دستـورا فيـه ماأنفـق في نعـال الخيـل، وذلـك ثمانية عشر ألـف درهـم، فسـألت كـاتبه عـن ذلك فقـال: مايتعلـق هذا بنعـال دوابه، وإنما كـان يستعـرض الفـرس السمين بخمسمائة دينـار وأكثـر فينعلـه أولا قبـل أن يـركبه، ثـم يركبـه فـإن صلح أعطـى صـاحبه ثمنـه وخلع عليـه، وإن لم يصلح أعطى صاحبه مائتي درهم واعتذر إليه.

قال أبو المظفر: وجرت عقيب ذلـك واقعة اعترض بعض الأمراء فرسا وانعله ثـم ركبه فلم يصلـح، وجاء صاحبـه يطلبه، فقال الأمير لغـلامه: إقلع نعاله وأعطه صاحبه.

قال: وماكانت الدنيا تسـاوي عند المبارز قليلا ولاكثير، ولقد حكى لي ابنه الظهير قـال: وصل مع أبي إلى الشـام ذهب، وجمال، وخيـل، وغيرها ماقيمته مائة ألف دينار، ومات وليس له كفن، وماكفنه إلا شبل الدولة.

وفيها: تـوفي عز الـدين المظفـر بن أسعـد بن حمزة التميمـي، المعروف بابن القلانسي، من رؤساء الشام، وجـده أبو يعلى حمزة، هو صاحب ذيل التاريخ لملوك الشام إلى آخر زمنه، سمع عـز الدين الحافظ أبا القاسم بن عسـاكر وغيره، وكـان يصحب الشيـخ تاج الـديـن الكندي، مـلازما لـه وانتفع به، وكان كيسا متواضعا وتوفي شهر رمضان ودفن بجبل قاسيون.

وفيها: توفي محمد بن سليمان بن قتلمش بن تركمانشاه أبو منصور السمرقندي، ولد سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وبرع في علم الأدب وولي حجبة الباب للخليفة ومن شعره:

سئمت تكاليف هذه الحياة
وكر الصباح بها والمساء
وقد صرت كالطفل في عقله
قليل الصواب كثير الهراء
أنام إذا كنت في مجلس
وأسهر عند دخول الفناء
وقصر خطوي قيد المشيب
وطال ما عناني عناء
وغودرت كالطفل في عيشه
وخلفت حلمي ورائي وراء
وما جر ذلك غير البقاء
فكيف ترى فعل سوء البقاء

وكانت وفاته في ربيع الآخر ودفن بالشونيزية.

وفيها: توفي الضياء بن الزراد الدمشقي، كان قارئا طيب النغمة صيتا عالما بالقراءات، وكان فقيرا سافر من دمشق إلى ميافارقين ، واتصل بصاحبها شهاب الدين بن العادل وأقام عنده، ثم اتصل بالأشرف بن العادل.

قال أبو المظفر: واجتمعنا بخلاط سنة ثلاث عشرة وستمائة، وكان يتردد إلينا ويقرأ طيبا صحيحا، ثم خلط ودخل معهم في ما هم فيه، وجاءني يوما وهو نادم حزين يبكي فسألته عن حاله فقال: البارحة حضرت عند الأشرف وناولني قدحا من الخمر فامتنعت من شربه،

والأشرف ساكت ينظر إلي، ومازالوا بي حتى شربته فلما حصل في جوفي عض الأشرف على يده بحيث كاد يقطع أصابعه وقال: والك فعلتها حطيت الخمر على مائة وأربع عشرة سورة ،والله لو خيرت أن أحفظ القرآن كما تحفظ، وأدع ملكي لاخترت حفظ القرآن، ثم نزلت حرمته بعد ذلك، فكان يدور البلاد على أصحاب القلاع بعد ذلك لرسوم كانت له عليهم، فخرج من حران في هذه السنة قاصدا السويداء ومعه غلمان مردان ثلاثة، فنام في واد وقت الظهيرة فقتلوه وأخذوا خيله وقماشه وماله فبلغ الحاجب عليا فأرسل خلفهم فجيء بهم فقتلهم(١٠٠) .

وفيها: توفي الشرف محمد بن عروة الموصلي المنسوب إليه المشهد بغربي الجامع بدمشق، وإنما نسب إليه لأنه كان مخزنا فيه آلات تتعلق بالجامع فعزله وبيضه، وجدد في قبلته المحراب والخزانتين عن يمينه وشماله ووقف فيهما كتبا، وجعله دار حديث، ووقف على الشيخ المسمع به وعلى السامعين وقفا، وذلك قبل سنة عشرين وستمائة، ثم بعد ذلك أمر المعظم بجمع الخزائن المفرقة في الجامع، فنقل مافيها من الكتب الموقوفة إلى المشهد المذكور، وبنى لها خزائن في شرقه وغربه، وجدد ابن عروة المذكور في المشهد المذكور بركة علي يمين الداخل إليه.

قال أبو المظفر: كان ابن عروة مقيما في القدس، ويداخل المعظم وأصحابه ويعاملهم ويؤذي الفقراء والمشايخ وخصوصا الشيخ عبد الله الأرمني فإنه انتقل عن القدس بسببه، ولما خرب القدس نزل ابن عروة إلى دمشق فأقام بها يسيرا، ومات ودفن عند قباب الأتابك طغتكين(١٠١) .

وفيها: توفي في المحرم الشيخ عبد الرحمن اليمني الذي كان مقيما بالمنارة الشرقية بجامع دمشق، وكان أحد المشايخ القوالين للحق عند الملوك وغيرهم، على وجهه أنوار الخير، ولقد بلغني أنه سنة خرجت

الفرنج على بلاد المسلمين حضر عند السلطان العادل بن أيوب جماعة للإنكار عليه في عدم حفظ ثغور المسلمين، وكان هذا اليمني أبلغ الجماعة كلاما في ذلك.

قال أبو المظفر: كان زاهدا، ورعا، فاضلا منقطعا عن الناس، وكان العادل يبعث إليه بالمال فلا يقبله، ودفن بمقابر الصوفية.

وفيها: في ربيع الآخر توفي الشيخ أبو الحسن الروزبهاري المدفون خارج باب الفراديس الأول، في البرج المستجد رحمه الله.

وفيها: فجع الناس بوفاة إمامين كبيرين شيخي مذهبي الشافعية والحنابلة علما وعملا، أما شيخ الشافعية فهو فخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي المعروف بابن عساكر، وليس في أجداده من اسمه عساكر، وإنما هي تسمية اشتهرت عليهم في بيتهم ولعله من قبل أمهات بعضهم، وهذا البيت جليل كبير من الدمشقيين كثير الفضلاء والحفاظ والأمناء، جمع هذا البيت رئاسة الدين والدنيا، وأجلهم في زماننا دينا وعلما هذا فخر الدين بن عساكر، وفي القرن الذي قبله عماه الصائن هبة الله، والحافظ أبو القاسم، ثم ابن عمه الحافظ أبو محمد بن أبي القاسم، وابنه العماد بن القاسم، وأخوه الفخر تاج الأمناء أحمد، وزين الأمناء حسن، وأم الفخر أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية المعروف والدها بأبي البركات بن الراني، وهو الذي جدد عمارة مسجد القدم في سنة سبع عشرة وخمسمائة وبه قبر، وقبر الواعظ أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الراني وبهذا السبب كان الشيخ الفخر كثيرا مايكون زائرا لمسجد القدم لأن به قبر جده لأمه ومن سلف من بيته ودفن به أيضا أخوه تاج الأمناء، وأسماء المذكورة هي أخت آمنة أم القاضي محيي الدين محمد بن علي ابن الزكي، فهو ابن خالتهم، اهتم الشيخ فخر الدين رحمه

الله من صغره بالعلم فاشتغل بالفقه على شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري، حتى برع في ذلك وانفرد بعلم الفتوى حتى كانت الفتاوى ترسل إليه من الأقطار، وكان عند شيخه كالولد وزوجه ابنته فأولدها ابنا ،سماه باسم جده قطب الدين مسعود، ولو عاش خلف جده ووالده لأنه كان مهتماً بالعلم وتحصيله وبرز فيه لكنه توفي قبل والده بزمان ، ودرس فخر الدين مكان قطب الدين بالمدرسة الجاروخية، وهي قاعتان احداهما التي كان هو ساكنها وبها توفي، وهي التي لها باب في الحائط الغربي من ايوان المدرسة ، و الأخرى لزيقها بابها من الزقاق لزيق باب المدرسة، كان يسكنها ولده المتوفى ووقفها بعد موته على المدرسة ، ثم تولى التدريس بمدرسة القدس الناصرية ، وكان يقيم بدمشق أشهرا و بالقدس أشهرا ، ويطوف تلك الزيارات بالأرض المقدسة إلى عسقلان ونحوها.

ثم ولاه العادل بن أيوب التدريس بالمدرسة التقوية ، وكان عنده بها فضلاء الوقت من الفقهاء لجلالته حتى كانت تسمى نظامية الشام؛ وكان اذا فرغ من التدريس يظل بجامع دمشق في البيت الصغير بمقصورة الصحابة يخلو فيه للعبادة ومطالعة الكتب والفتاوى ، ومتى احتاج إلى طهارة خرج منه إلى المئذنة الشرقية فقضى حاجته بمكان الطهارة المجدد فيها خارج حائطها الكبير، وبها الماء الجاري، ثم يرجع الى مكانه والناس معتكفون عليه منتفعون به ، ولا يملون من النظر إليه لحسن سيرته واقتصاده في لباسه و لطفه و نور وجهه وكان لا يخلو لسانه من ذكر الله تعالى في قيامه وقعوده ومشيه وكان يحضر تحت قبة النسر بالجامع بعد العصر في كل يوم اثنين ويوم خميس لسماع الحديث، وهو المكان الذي كان يجلس فيه عمه الحافظ أبو القاسم إلى أن توفي، ثم أبيه الحافظ أبو محمد إلى أن توفي، ثم ابنه العماد علي إلى أن سافر إلى العراق و خراسان فكان الشيخ الفخر يجلس فيه بعده ، ثم سمعت عليه معظم كتاب « دلائل النبوة» للحافظ أبي بكر البهيقي وغيره، وكان

رحمه الله رقيق القلب سريع الدمعة فكنت أشاهده في أثناء قراءة تلك الأحاديث عليه يبكي عند سماع ما يبكي منها، ويردد مواضع المواعظ منها نحو الشعر المنسوب إلى قس بن ساعدة :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي بعدها تمضي الأصاغر والأكابر
أيقنت أني لا محا لة حيث صار القوم صائر

فكان رحمه الله يرددها ويبكي، سألته مسائل من الفقه وكتبت إليه أبياتا أطلب فيها اجازة برواية ما يجوز له عنه روايته وذلك في سنة ست عشرة وستمائة، فأجابني نظما بثلاثة أبيات وجدت بركة دعائه لي فيها، وما أعلمه فعل ذلك مع غيري، وكتبها بخطه وهي:

أجزت له قولي وفق الله قصده وأسعده بالعلم يوم معاده
رواية ما أرويه عن كل عالم بصير بها فيه طريق سداده
فهناه ربي بالعلوم وجمعها وبلغه فيها اسنى مراده

وكان أيضا يسمع الحديث بدار الحديث النورية، وبمشهد ابن عروة أول ما فتح ، وكان السلطان العادل أبو بكر بن أيوب لما عزل القاضي زكي الدين الطاهر بن محيي الدين عن قضاء الشام، أرسل إليه أن يتولاه فأبى ، فطلب عنده ليلا، فجاء فالتقاه و أقعده إلى جانبه ، فجلس محتبيا مستوفزا(١٠٢) فأحضر الطعام فلم يمد يده إليه ، و لم يأكل منه

شيئا، فسأله أن يتولى القضاء ، و كثر عليه القول في ذلك . فقال : حتى استخير الله تعالى ، فأخبرني من كان معه ملازما له. قال: فلما رجع إلى بيته جدد الوضوء ،ووقف يصلي ويتضرع و يبكي الى الفجر فلما أصبح خرج إلى الجامع فصلى الصبح بالكلاسة ثم مضى إلى مقصورة الصحابة فصلى بها على عادته ، ثم دخل بيته الصغير الذي في الحائط ، و هو الباب الذي كان يخرج منه خلفاء بني أمية وامراؤها إلى الصلاة من لدن معاوية بن أبي سفيان إلي زمن الوليد بن عبد الملك بن مروان، فلما أخذ الوليد من النصارى جهتهم الغربية و بنى القبة و النسر جعل المحراب في وسط ذلك ، فهو الذي مقصورة الخطابة اليوم ، و الباب الأصغر فيها الذي بين المحراب و خزانة مصحف عثمان رضي الله عنه هو الباب الذي كان يخرج منه الوليد و من بعده من الخلفاء و الأمراء إلى الصلاة بالناس ، و أما الباب الكبير الخارج من المقصورة الذي يخرج منه الخطباء فهو كان لعموم الداخلين إلى دار الخلافة يؤذن لهم في ذلك من جهة الجامع ، و قد بينا ذلك أيضا في مختصرنا لتاريخ دمشق ، فلما استقر الشيخ بذلك البيت جلس يذكر الله تعالى فلما طلعت الشمس إذا رسل السلطان قد جاءو ا في كشف ما فارقهم الشيخ عليه : الجمال المصري،والنجم خليل وغيرهما ، فردهم وأصر على الامتناع و أشار بتولية الشيخ جمال الدين بن الحرستاني، فولي وكان قد خاف أن يتأذى من جهة السلطنة ، فجهز أهله للسفر ، و خرجت المحائر إلى ناحية حلب فردها العادل و عز عليه ما جرى ، فقيل له: احمد الله تعالى أن في بلادك و في زمانك من امتنع من ولاية القضاء و اختار الخروج من بلده على التولية دينا و زهدا ، و كان رحمه الله كثيرا إذا قام من الليل يؤذن للفجر بنفسه كان في مدرسته أو خارج البلد من بستان و غيره .

و بلغني أنه كان لا يأكل وحده و إذا قدم له غذاؤه استدعى من أهل مدرسته ممن حضر من يأكل معه، و كان يتورع عن المرور في رواق الجامع الذي فيه حلقة الحنابلة ، خوفا من أن يأثموا بالوقيعة فيه، وذلك

أن الجهـال منهم و العـوام كانـوا يبغضـون شيوخ بنـي عساكـر ، لأنهم كانـوا أعيان الشافعيـة الأشعرية ، و كان إذا جـاء إلى الجامع من نـاحية باب البريد يمر في صحن الجامـع أو في الرواق الأوسط إلى المقصورة ، و إذا قـام من اسماع الحديـث تحت قبـة النسر ينعطـف و يخرج من بـاب البرادة، ويقول لمن يسأله عن ذلك يـا ولدي: أخاف أن يأثموا بشيء ، و بلغني عنه أنـه كان يقول: من طلـب من غيره مالا يعطيه مـن نفسه فهو داخل في (المطففين الذين إذا اكتاولوا على النـاس يستوفون. واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون) (١٠٣) و هـذا كلام في غاية الجودة ، وكـان العادل لما أمر ببنـاء مدرستـه المشهورة قـد عزم على أنها تكـون للشيخ الفخـر، و اتفـق أن العـادل تـوفي قبـل كمال عمارتها ، و كـان ابنـه المعظـم حنفـي المذهب، كـان في نفسه من الشيخ الفخـر لما انكر عليه اظهـار الخمور و تضمينهـا فتركه حتـى حـج في ولايتـه ، فأخـذ منـه المدرسـة التقويـة، و أخذت منه قبيل ذلك الناصرية التي بالقدس ، و لم يبق بيده إلا المدرسة الجاروخية على قلـة جاريها مـع كثرة مصروفها ، ثـم لما تكاملـت المدرسة العادلية فوضها إلى قاضيه الجمال المصري، و تـركه فسبحان من جعل فيه اسوة وعمدة لمن ظلم من المشايخ و الفقهاء بعده.

قـال أبو المظفـر سبـط ابن الجوزي: ولـد فخـر الـدين في سنـة خمس وخمسمائة ، وكان زاهدا، عـابدا ،ورعامنقطعا إلى العلـم والعبادة ، شيخا حسن الأخلاق قليـل الرغبة في الدنيا ، وكـانت وفاته يـوم الأربعاء عاشر رجـب ودفن على الشرف القبلي عنـد مقابـر الصوفيـة (١٠٤) وكان لـه جنازة عظيمـة ،وقبره ظاهر يـزار ، وصلى عليه الملـك العزيز بـن العادل، ولم يتخلف عـن جنازتـه إلا القليل ، سمـع عميه أبـا القاسـم الحافظ،و الصائن هبة الله، و القطب النيسابوري (١٠٥) و غيرهم.

قلت : أخبرني مـن حضر وفاته، قال: صلى الظهـر يوم توفي ثـم جعل يسـأل عن العصر فقيـل له لم يقـرب وقتها ، فـدعا بماء ثـم تشهد و هـو

جالس ، وقال: رضيت بالله ربا . و بالاسلام دينا و بمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا، لقنني الله حجتي ، وأقال عثرتي ، ورحم غربتي ، وآنس وحدتي ، ثم قال : وعليكم السلام ،فعلمنا أنه حضرته الملائكة حينئذ و سلموا عليه ، ثم انقلب على قفاه عقيب قوله و عليكم السلام ميتا رحمه الله تعالى ، وغسله فخر الدين بن المالكي ومعه ابن أخيه عبد الوهاب بن زين الأمناءو غيره ، و كان قد اجتهد في مرضه في تملك المكان الذي دفن فيه من مستحقيه ، حفر له القبر و هو حي وكان مرضه بالاسهال ،و كانت وفاته آخر يوم الأربعاء عاشر شهر رجب و احتشد الناس من الغد لجنازته و خرجوا به من المدرسة الجاروخية على باب البريد إلى الجامع فإذا الناس في الجامع كهيئتهم يوم الجمعة ، فوضعت الجنازة ملاصقة الحائط القبلي قريب اللازوردة ، و تقدم للصلاة عليه أخوه لأبويه أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله المعروف بزين الأمناء ، ثم خرجوا بالجنازة إلى ناحية الميدان الأخضر بالشرف القبلي، وقد امتلأت الطرق بالناس و من الذي قدر على الوصول إلى حمل سريره، ولولا كان الأمير عز الدين أيبك صاحب صرخد استاذ دار المعظم مع أصحابه، و أجناد الملك العزيز ابن العادل دائرين حول سريره بالدبابيس و العصي يمنعون الناس من قربه لتعذر وصوله إلى حفرته في يومه ، و قبره على يسار المار مغربا في طريق الشرف القبلي مقابل لرأس الميدان الأخضر قبل الوصول إلى قبر شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري بقليل ، و جعل على قبره بلاطة فيها اسمه و تاريخ وفاته يقرأها من كان خارج الشباك رحمه الله تعالى.

وأما شيخ الحنابلة فهو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الملقب بموفق الدين أخو الشيخ أبي عمر. كان إماما من أئمة المسلمين ، و علما من أعلام الدين في العلم و العمل ، صنف كتبا كثيرة حسانا في الفقه وغيره ، و لكن كلامه فيما يتعلق بالعقائد في مسائل الصفات و الكلام هو على الطريقة المشهورة عن أهل مذهبه ، فسبحان

من لم يوضح الأمر له فيها على جـلالته في العلم و معرفته بمعاني الأخبار و الآثار ، وسمعت عليـه مسند الإمام الشافعي رحمه الله ، و فـاتني منه نحو ورقتين ، عند باب استقبال القبلـة بسماعه من أبي زرعة، و سمعت عليه كتاب النصيحة لابن شاهين و غير ذلك ، و مولده في شعبان سنة احـدى وأربعين و خمسمائة بأرض نـابلس ، ووهـم ابن الـدبيثي في ذكـر مولـده ، وقال : سمع ببغـداد سعد بن نصر بـن الدجاجـي ، و الفضل أحمد بن صـالح بـن شافـع ، و أبا الحسـن علي بن عبـد الرحمن بـن تاج القـراء ، و الكاتبـة شهـدة و غيرهـم . وحصل طـرفـا صـالحا من الفقـه والأصول ، و عـاد الى دمشق و تـوفر على الاشتغـال بالفقـه وتدريسـه، وحدث بشيء من مسموعاته.

قـال أبـو المظفـر : ولد في شعبـان سنـة احـدى وأربعين و خمسمائة و سـافر الى بغـداد مـرتين : احداهما مـع الحافظ عبـد الغنـي سنة احـدى وستين، والأخرى سنـة سبع وستين ، و حـج سنة ثـلاث وسبعين ، وسمع خلقا كثيرا ، و تفقـه على مذهـب الامام أحمد ، و عـاد إلى دمشق وكـان إماما في فنـون ، ولم يكن في زمانه بعد أخيـه أبي عمر و العباد أزهد ولا أورع منه ، و كـان كثير الحياء عزوفـا عن الدنيـا وأهلها ، لينا متـواضعا ، محبا للمساكين، حسـن الأخلاق جوادا سخيا ، من رآه كـأنه رأى بعض الصحابة ، و كان النور يخرج من وجهـه، كثير العبادة يقرأ كل يوم وليلة سبعا من القرآن ، و لا يصلي ركعتي السنة في الغـالب إلا في بيته اتباعا للسنة ، و كـان يحضر مجالسي دائما في جامـع دمشق وقـاسيون، و حكـى أبو عبـد الله بـن فضل الأنطاكـي قال: قلـت في نفسي لو كـان لي قدرة لبنيت للموفـق مدرسة ، و أعطيته كـل يوم ألف درهم ، قـال: ثم جئت بعد أيـام فسلمت عليه فنظر إلي و تبسـم و قال: إذا نوى الشخـص نية كتب له أجرها.

و حكـى أبـو الحسـن علي بن حمدان الجراحـي قـال : كنـت أبغـض

الحنابلة لما شاع عنهم من سوء الاعتقاد ، فمرضت مرضا شنج أعضائي و أقمت سبعة عشر يوما لا أتحرك وتمنيت الموت، فلما كان وقت العشاء جاءني الموفق وقرأ على آيات و رقاني و قال:(و ننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) (١٠٦) و مسح على ظهري فأحسست بالعافية وقام ، فقلت يا جارية افتحي له الباب ، فقال : أنا أروح من حيث جئت و غاب عن عيني فقمت من ساعتي إلى بيت الوضوء، فلما أصبحت دخلت الجامع فصليت الفجر خلف الموفق و صافحته فعصر يدي وقال: احذر أن تقول شيئا ، فقلت : أقول ،و أقول.

و قال قوام جامع دمشق :كان ليلة يبيت بالجامع تفتح له الأبواب فيخرج ويعود فتغلق على حالها (١٠٧) .

قلت كان الموفق بعد موت أخيه أبي عمر هو الذي يؤم بالجامع المظفري (١٠٨) و يخطب يوم الجمعة اذا حضر فإن لم يحضر فابنه عبد الله بن أبي عمر هو الخطيب و الامام ، و إمام محراب الحنابلة بجامع دمشق فيصلي فيه الموفق إذا كان في البلد ، و إذا مضى إلى الجبل صلى العماد أخو عبد الغني ، و بعد موت العماد كان يصلي فيه أبو سليمان عبد الرحمن بن الحافظ عبد الغني مالم يحضر الموفق، و كان بين العشائين يتنفل حذاء المحراب ، و جاءه مرة الملك العزيز بن العادل يزوره فصادفه يصلي فجلس بالقرب منه إلى أن فرغ من صلاته، ثم اجتمع به و لم يتجوز في صلاته ، و كان إذا فرغ من صلاة العشاء الآخرة يمضي إلى منزله بدرب الدولعي بالرصيف، و يمضي معه من فقراء الحلقة من قدره الله تعالى فيقدم لهم ما تيسر ليأكلوه معه، و من أظرف ما حكي لي عنه أنه كان يجعل في عمامته ورقة مصرور فيها رمل يرمل به ما يكتبه للناس من الفتاوى والاجازات و غيرها، فاتفق ليلا أن خطفت عمامته فقال لخاطفها : يا أخي خذ من العمامة الورقة المصرورة بما فيها، ورد العمامة أغطي بها رأسي، و أنت في أوسع الحل مما في

الورقـة، فظن الخاطف أنها فضـة ، ورآها ثقيلـة فأخذهـا ورد العمامة ، و كـانت صغيرة عتيقـة فرأى أخـذ الورقـة خيرا منها بـدرجات ، فخلـص الشيخ عمامته بهذا الوجه اللطيف ، و كانـت وفاته يوم السبت يو م عيد الفطـر أول شـوال ، ودفـن بجبـل قاسيـون خلـف الجامـع المظفـري في مقبرتهم المشهورة ؛ و كـانت أيضـا جنازة عظيمـة ذات جمع وافر ؛ امتـد الناس في طرف الجبل فملؤوها .

قال أبـو المظفر : حكـى اسماعيل بـن حماد الكاتـب البغدادي قـال: رأيت ليلة عيد الفطـر كأن مصحف عثمان قد رفع من جـامع دمشق إلى السماء ، فلحقني غم شديد ، فتوفي الموفق يوم العيد .

قال: و رأى أحمد بـن سعد أخـو محمد بـن سعد الكـاتب المقـدسي - قال: و كان أحمد من الصـالحين - قال: رأيت ليلة العيد ملائكـة ينزلون من السماء جملـة و قائل يقـول : انزلـوا بالنـوبة، فقلـت: ما هـذا؟ قال: ينقلون روح الموفق الطيبة في الجسد الطيب

قال: وقال عبـد الرحمن بن محمد العلوي : رأيت كـأن النبي صلى الله عليه وسلم مات وقبر بقاسيو ن يوم عيد الفطر.

قال:وكنا بجبل بنـي هلال فرأينا على قاسيون ليلـة العيد ضوءا عظيما، فظننا أن دمشـق قد احترقت، و خـرج أهل القريـة ينظرون إليه، فـوصل الخبر بوفاة الموفق يوم العيد، و دفن بقاسيون.

وقـال :و كانـت وفـاته بـدمشق و حمل إلى قـاسيـون، و كان لـه جمع عظيم، سمع الشيـخ عبد القادر ، و أبا الفتـح محمد بن عبد البـاقي بن أحمد بن سلمان، و أبا زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي ، و أبا بكر عبد الله بن محمـد بن أحمد بن النقور ، وأبا محمد بـن الخشاب، و جدي يعني أبـا الفرج بـن الجوزي و غيرهم ببغـداد ، و سمع بمكـة أبا محمـد

المبارك بن الطباخ، و بالموصل أبا الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي الخطيب، وبدمشق والده أحمد ، و أبا المكارم عبد الواحد بن مسلم بن هلال، و أبا المعالي عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن صابر السلمي، و خلقاً كثيراً.

قال: وأنشدني لنفسه:

أبعد بياض الشعر أعمر مسكنا ... سوى القبر إني إن فعلت لأحمق

يخبرني شيبي بأني ميت ... وشيكا وينعاني إلي فيصدق

تخرق عمري كل يوم و ليلة ... فهل مستطيع رتق ما يتخرق

كأني بجسمي فوق نعش ممدد ... فمن ساكت أو معول يتحرق

وإذا سألوا عني أجابوا وأعولوا ... وأدمعهم تنهل هذا الموفق

وغيبت في صدع من الأرض ضيق ... و أودعت لحدا فوقه الصخر مطبق

ويحثو علي التراب اوثق صاحب ... ويسلمني للقبر من هو مشفق

فيارب كن لي مؤنسا يوم وحشتي ... فإني بما أنزلته مصدق

وما ضرني أني إلى الله صائر ... ومن هو من أهلي أبر وأوثق

قال : و كان له أولاد:أبو الفضل محمد، و أبو العزيحيى، و أبو المجد عيسى، ماتوا كلهم في حياته و لم أدرك منهم غير عيسى، و كان من الصالحين، و أم الجميع مريم بنت أبي بكر بن عبد الله بن سعد المقدسي؛ و كان له منها بنات صفية ، و فاطمة و لم يعقب من ولد

- ٩٢٤٨ -

الموفق سوى عيسى، خلف ولدين صالحين و ماتا وانقطع عقبه (١٠٩)
ونقلت من خطه:

لا تجلسن بباب من
يأبى عليك دخول داره

وتقول حاجاتي إليه
يعوقها إن لم أداره

واتركه واقصد ربها
يقضي ورب الدار كاره

-٩٢٤٩-

ثم دخلت

سنة احدى و عشرين و ستمائة

ففيها : استرد الملك الأشرف خلاط من أخيه شهاب الدين غازي، وسلمها إلى مملوكه أيبك و إلى الحاجب علي، و نزل غازي إلى ميا فارقين.

و فيها: ظهر جلال الدين خوارزم شاه في أذربيجان ، و استولى عليها ، فبعث إليه الملك المعظم عيسى رجلا صوفيا من خانقاه السميساطي يقال له الملق في رسالة و اتفق المعظم و مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل مع الخوارزمي على الأشرف ؛ وبعث المعظم ولده الناصر داوود إلى زين الدين رهينة، و عبر الفرات عند الحديثة و مضى إلى إربل.

و فيا استولى بدر الدين لؤلؤ على الموصل و أظهر أن محمود بن القاهر قد مات ، و قد أمر بخنقه كما سبق ذكره.

و فيها : بنى الملك الكامل دار الحديث التي بين القصرين بالقاهرة ، و جعلها بيد الشيخ الحافظ أبي الخطاب بن دحية ، و قد اجتمعت به فيها في سنة ثمان و عشرين كما سنذكره.

و فيها : قدم الملك المسعود أطسيس من اليمن على أبيه الكامل بالقاهرة طامعا في أخذ الشام من عمه المعظم ، و كان معه من الهدايا شيء عظيم، من جملة ذلك ثلاثة من الفيلة أحدهما كبير و يدعى بالملك وعليه محفة بدرابزين يقعد فيها عشرة أنفس ، و قباله راكب على رقبته و بيده كلاب حديد يضربه به كيفما أراد، و خرج الكامل للقاء ولده فلما قربت الفيلة من الكامل أمرها سواسها فوضعت رؤوسها بين

يدي الكامـل خدمة له ، و كـان في الهدية مائتا خـادم و أحمال عود وند ومسك و عنبر وتحف اليمن.

وفيها: جرت بالعـراق واقعة عجيبة : ببغداد قرية يقـال لها بعقوبا فيها نخـل كثير ، و لها نـاظر متشيـع، و كـان بها رجـل مـن أهلها لـه نخـل فصادره الناظر و أخذ منه ألفي نخلة فجعـل يسب الناظر و يدعو عليه؛ و بلغ النـاظر فـأحضره و أمر بضربـه فقال لـه : باللـه عليك انصفنـي. فقال: قـل . قال: أنتم تسبـون أبا بكر و تقـولون أخـذ فدك من فـاطمة وانما في فـدك نخيلات يسيرة، تـأخذ أنـت مني ألفـي نخلة و أسكـت؟ فضحك الناظر و رد عليه نخله.

وفيها : حـج بالنـاس من بغـداد ابن أبي فـراس، و من الشام شجاع الدين علي بن السلار.

وفيهـا: حججت مـن الشـام مع والـدي رحمه الله على طـريق تبـوك والعلاء ، و هـي أول السنين الأربع المتصلـة التي وجـد الحج فيها هنيئـا مريئا مـن رخص الأسعار والأمن في الطـريق الشامية و بـالحرمين، أما في المدينـة فبسبب أن أميرهـا كان مـن أتباع صـاحب الشـام الملك المعظـم عيسى ، فكان يـدير الحرس على الحاج الشامي ليلا ، و أمـا مكة فبسبب أنها صارت في المملكة الكاملية المسعوديـة ، فانقمع بها المفسدون وسهل على الحاج أمـر دخول الكعبـة، فلم يـزل بـابها مفتوحـا ليلا و نهارا مـدة مقام الحاج فيها ، و كان الكـامل قد أرضى بني شيبة سـدنة الكعبة بمال أطلقه لهم عـوضا عما كانـوا يأخذونـه باغلاق البـاب، و فتحه لمن أرادوا وكان الناس ينالـون من ذلك شدة، و يزدحمون عند فتـح الباب و يتسلق بعضهـم على رقاب بعـض و ينكسر بعض و يشـج بعـض ، فزال ذلـك عن الناس بتلك السنـة و ما بعدها مدة بقاء مكـة في المملكة الكاملية، وكان قـد بلغني صعوبـة ذلك وكنت حـاملا همه، فلما دخلت مـن باب

بنـي شيبة ، ووقـع نظـري على البيت شرفـه اللـه تعـالى إذ الباب مفتـوح والسلم منصـوب و الناس طـالعون إليـه ونازلـون من غير إزدحـام فمن فـرحي بـذلك و خـوفي من أنـه لا يدوم عجلـت في طواف القـدوم ؛ و دخلـت البيت عظمـه الله تعـالى ؛ و قضيت منـه وطري الـلائق بذلـك الوقـت ، و عندي مـن الشوق المبرح ما كفـى ، ثم كـررت الدخـول إليه ليلا و نهارا فكنـت أصادف فيه نحـو العشرة و ما دونها . و مـن أعجب ما سمعت من بعض الحجاج أنه قـال : دخلته ليلة فوجدت فيه إمرأتين قاعـدتين تتحدثان كـأنهما في بيت لهما قد أمنـا ممن يزعجهما عـن ذلك لا من سادن و لا من زحمة .

و اجتمعت في هذه السنـة بالشيخ الحجة أبي طالب بـن عبد المحسن ابن أبي العميد خالد بن عبد الغفار الحنفي، الأبهري ، و سمعت عليه و على غيره بـالمسجد الحرام، و كـان يقدم كـل عام مـن بغداد على بعـض سبلانات الخليفة ، ثـم بلغني أنه تولى إمامة المقـام بمكة و توفي بها رحمه اللـه، و اجتمعت بها أيضـا بـالشيخ المقـرىء، عثمان بـن أحمد بن يـدال الإربلي الحنبلي و أنشدني بالمسجد الحرام:

أيـــا نـــائما في ظـــلام الـــدجـــى
تيقـــظ فصبـــح الـــدجـــى قـــد أضـــا

أتـــاك المشيـــب ولـــوعـــاتـــه
وولى شبـــابـــك ثـــم انقضـــى

فلـــو كنـــت تـــذكـــر مـــا قـــد جنيـــت
لضـــاق عليـــك اتســـاع الفضـــا

وبظمت في طـريقي في تلك السفرة قصيـدة ميمية ذكرت فيهـا المنازل من دمشق إلى عرفات، ووصفت بها ما أمكن من أماكن الزيارات أولها:

مـــازلـــت أشتـــاق حـــج البيـــت والحرم
وأن أزور رســـول اللـــه ذا الكـــرم

وهي طويلة أقول فيها تعبيرا عن فتح باب الكعبة للحجيج مطاعا

وشرعوانحوذاك البيت حاسرة
رؤوسهم بين مطواف و مستلم
و الباب اطلقوه للحجيج فلم
يروا به مانعا طولى مقامهم

وفيها: توفي ببغداد أحمد بن محمد بن علي القادسي الضرير الحنبلي والد صاحب الذيل على تاريخ أبي الفرج بن الجوزي .

قال أبو المظفر : كان حنبليا خشنا طلب الخليفة المستضيء من يصلي به التراويح في رمضان فأحضروا القادسي و قالوا: إيش مذهبك ؟ قال: حنبلي، قالوا: ما يمكن أن يصلي بدار الخلافة حنبلي، فقال القادسي: أنا حنبلي و ما أريد أن أصلي بكم . و سمعه الخليفة فصاح صلي على مذهبك. قال: و كان ملازما لمجالس جدي و تراه هزه كثيرا، ويستحسن الكلام، و كلما ذكر جدي شيئا يصيح: والله إن ذا مليح، فبعث إليه جدي يستقرض منه عشرة دنانير فاعتذر، و قال ما هي عندي، و صار يحضر المجالس و لا يرى هزه فسمعت جدي يقول في داره: هذا القادسي ما يقرضنا شيئا و لا يقول والله إن ذا مليح ، وكانت وفاته في شوال و دفن بباب حرب. (١١٠)

وفيها : توفي بدمشق الشيخ عبد الرحمن اليمني في المحرم، و دفن بمقابر الصوفية و قد سبق ذكرنا له في سنة عشرين متابعة لأبي المظفر سبط ابن الجوزي ، و انها كانت وفاته سنة احدى وعشرين

ثم دخلت

سنة اثنتين و عشرين و ستمائة

ففيها: في ربيع الأول وصل خوارزم شاه جلال الدين إلى دقو قا ففتحها عنوة وأوقع السيف في أهلها، و نهب أموالهم ، و سبى حريمهم وهتك نساءهم و أحرق البلد و هدم سوره و كانوا قد عصوا عليه وسبوه من الأسوار ، و بالغوا في شتمه ، و عزم على قصد بغداد فانزعج الخليفة و أخرج المال وفرق في العساكر ألف ألف دينار ، و نصب المجانيق على الأسوار ، و فرق السلاح، و فتح الاهراء

قال أبو المظفر : حكى لي المعظم عيسى رحمه الله قال: كتب إليّ يقول: تحضر أنت و من عاهدني و اتفق معي حتى نقصد الخليفة ، فإنه كان السبب في هلاك أبي و مجيء الكفار إلى البلاد، وجدنا كتبه إلى الخطا و تواقيعه لهم بالبلاد و الخيل و الخلع، قال المعظم : فكتبت إليه أنا معك على كل أحد إلا الخليفة فإنه إمام المسلمين ،

قال:و بينا هو على قصد بغداد ، و كان قد جهز جيشا إلى الكرج إلى تفليس ، فكتبوا إليه أدركنا فما لنا بالكرج طاقة ، و بغداد ما تفوت فسار إلى تفليس فخرج إليه الكرج فضرب معهم مصاف فقتل منهم سبعين ألفا و فتح تفليس عنوة، و قتل منهم سبعين ألفا فصار مائة ألف، وذلك في سلخ ذي الحجة.

وفيها: صلب المعظم في سوق الغنم العتيق في طريق الميدان الأخضر شمس الدين بن الكعكي، رأس حزب ، و خلفه جماعة و رفيقا له منكسين على رؤوسهما ، و كانوا ينزلون على الناس في البساتين و يقتلون وينهبون و المعظم في الكرك ، و بلغه أن ابن الكعكي قال لأخي المعظم الصالح اسماعيل و كان صاحب بصرى : أنا آخذ لك دمشق ، فكتب

إلى والي دمشـق بـأن يصلب ابـن الكعكـي و رفيقـه منكسين فصلبهما في العشر الأواخر مـن رمضان ، فأقـاما أياما في حـر الشمس يسفي الـريح والتراب على وجـوههما ورؤوسهما و لا يقـدران على طعـام ولا شراب إلى أن ماتا ، مـات ابن الكعكي أولا و كان يستغيـث كثيرا و يقلق ، و كان رفيقه أجلد منـه و أصبر ، و كان رجلا خياطا ادم اللون، و قيـل أنه كان بـريئا ممـا رمـي به فمات بعـد ابـن الكعكي بيـوم أو نحـوه ، و كان ابـن الكعكي من المترفين ذوي الثروة له أمـلاك كثيرة ظاهر باب الجابية وغير ذلك .

قال أبـو المظفر : و قـدم المعظم دمشـق بعد مـا ماتـا فمرض مـرضا عظيما اشفى منه، ثم أبل و لم يزل ينتقض عليه حتى مات

و فيها حـج بالناس مـن العراق ابـن أبي فراس و من الشـام الشجاع علي بن السلار (١١١)

و فيها: حججت أيضـا راكبا في المحمل السلطاني المعظمـي ، و كـ ـ أيضـا حجـا مبـاركا كثير الخير و الأمـن في الطـريـق و الحرمين و بـاب الكعبة مفتوح للحـاج مدة مقامهم ليلا و نهارا، و خرجـت يوم التروية و بت أنـا ورفيقي الشهـاب غازي الناسـخ الفقيه رحمه الله ليلـة يوم عـرفة بمسجـد الخيف بمنـى؛ ثم أصبحنـا وتوجهنـا حين طلعت الشمـس إلى نحو عـرفات فمررنا على تلـك الآبار بمنى و المزدلفـة ، و حدود الحرم و حدود عرفة والمسجد الذي بعضه مـن أرض عرفة وبعضه ليس من ارض عرفـة، ثم توجهنـا إلى الموقف شرفه اللـه تعالى فنحن بعـرفاتو قد جاءنا الخبر مـع حـاج العـراق ، بوفاة الخليفة الناصر أحمد بن المستضى ، في أواخر شهر رمضان ، و أقام في الخلافة ما لم يقـم أحد من أهل بيته سبعا وأربعين سنة إلا قليـلا ، و تولى بعـده ولده ولي عهـده أبو نصر محمـد و لقب بالظاهر بأمر الله ، فـأظهر العدل، وأحسن السيرة، ثم لم تطل مدته

فمات بعد تسعة أشهر كما سيأتي ذكره ، و لما دخلنا مكة لطواف الافاضة و قد ألبست الكعبة الكسوة السوداء التي يرسلها الخليفة الذي نسجت في أيامه فتأملت الطراز ، فوجدت فيه اسم الناصر في جانبين من جوانب الكعبة الأربعة ، و في الجانبين الآخرين اسم الظاهر فعلمت أنهم كانوا قد فرغوا من نسج الجانبيين عند وفاة الناصر ، ثم استأنفوا ما بقي باسم الظاهر و نظمت في هذه السنة أيضا قصيدة على قافية الهمزة وصفت فيها أمير الحج و منازل الطريق التبوكية أيضا أولها :

يا حبذا وطن الحبيب النائي

قال أبو المظفر : مولد الناصر عاشر رجب سنة ثلاث و خمسين وخمسمائة،و بويع بالخلافة غرة ذي القعدة سنة خمس وسبعين و خمسمائة، وكان له خادم اسمه رشيق قد استولى على الخلافة و أقام مدة يوقع عن الخليفة ، و كان قد قل بصره وقيل ذهب جملة ، و كانت به أمراض مختلفة منها عسر البول . و الحصاة و لقي منه شدة ، و شق ذكره مرارا، وما زال يعتريه حتى قتله . و غسله خالي أبو محمد يوسف وكان قد عمل له ضريحا عند موسى بن جعفر ، فأمر الظاهر بحمله إلى الرصافة فحمل في تابوت و دفنَ عند أهله، و كان قد خطب للظاهر بولاية العهد في سنة خمس و ثمانين و خمسمائة ، و عمره إذ ذاك أربع عشرة سنة لأن مولده في المحرم سنة سبعين و خمسمائة، ثم عزل عن العهد في سنة احدى و ستمائة ، ثم اعيد إلى العهد في سنة ثماني عشرة وستمائة ، ولما مات أبوه استدعى الأعيان إلى البدرية ، فشاهدوا الناصر ميتا مسجى فبايعوا أبا نصر وَلقبوه بالظاهر ، و كان جميل الصورة أبيض مشربا بحمرة ، حلو الشمائل شديد القوة، أفضت الخلافةإليه وله اثنتان وخمسون سنة إلا شهورا ، فقيل لهألا تستفتح ؟ فقال: قد فات الزرع، فقيل له يبارك الله في عمرك . فقال: من فتح دكانا بعد العصر ايش يكسب ، و لما بويع أحسن إلى الناس و لم يؤاخذ أحدا ممن سعى في

خلعه، فقابل الاساءة بالاحسان و صلى على أبيه بالتاج و فرق الأموال وأبطل المكوس و أزال المظالم (١١٢).

وفيها: توفي الملك الأفضل علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان ولي عهد أبيه و مملكته دمشق و أعمالها ، و الأرض المقدسة وأعمالها . و مولده بمصر سنة خمس وستين و خمسمائة . و كان فاضلا شاعرا حسن الخط تقلبت به الأحوال إلى أن ألقاه الدهر في سمسياط، وبها توفي في ربيع الأول ، و نقل إلى حلب فدفن بظاهرها.

و فيها : توفي بحلب في أواخر جمادى الأولى الأمير سيف الدين علي ابن علم الدين سليمان بن جندر، و كان من أكابر أمراء حلب ؛ كثير الخير و الصدقات الدارة، و البر الوافر ، و بنى بحلب مدرستين احداهما:لأصحاب أبي حنيفة بظاهر حلب . و الأخرى للشافعية داخل حلب. ووقف عليها الأوقاف ، و بنى الخانات في الطرقات ، وله الغزوات المشهورة ، و المواقف المذكورة، رحمه الله

و فيها توفي علي الكردي المولـه، الذي كان مقيما ظاهر باب الجابية بدمشق ، و اختلفوا فيه فبعض الدماشقة يزعم أنه كان صاحب كرامات، وانكر ذلك آخرون وقالوا : ما رآه أحد يصلي، ولا يصوم، ولايلبس مداسا ، بل كان يدوس النجاسات ، و يدخل المسجد على حاله ، وقال آخرون : كان له تابع من الجن يتحدث على لسانه

قال أبو المظفر : و حكت لي امرأة صادقة قالت: ماتت أمي باللاذقية، و لم أصدق و جاء قوم فقالوا : ماتت، و جاء آخرون فقالوا : ما ماتت، قالت : فخرجت إلى باب الجابية و هو قاعد عند المقابر فوقفت عنده فرفع رأسه و قال : ماتت، ماتت : إيش تعملين، و كان كما قال.

و حكى لي عبد الله صاحبي قال: جعت يوما و ما كان معي شيئا فاجتمعت به فدفع لي نصف درهم و قال: يكفي هذا للسعتر بس

قال: و دخل يوما على جمال الدين الدولعي خطيب دمشق المقصورة، و كان يغشاه، فقال له: يا شيخ علي قد أكلت اليوم كسيرات يابسة وشربت عليها الماء فكفتني . فقال له و ما تطلب نفسك شيئا آخر ؟ قال: لا، ، قال: يا مسكين من يقنع بكسرة يابسة يحبس نفسه في هذه المقصورة و لا يقضي ما فرضه الله عليه من الحج.(١١٣)

وفيها توفي خطيب حران الفخر بن تيمية و هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن محمد الحراني فقيه حران بها ولد ، و قدم بغداد و تفقه بها على أبي الفتح بن المنى . و وعظ في رباط محمود النعال، و سمع الحديث الكثير ببغداد على شيوخ ذلك العصر ، و صنف الخطب والتفسير و غير ذلك ، و كان فاضلا فصيحا سمع شهدة ، و ابن المقرب، وابن البطي وغيرهم.

قال أبو المظفر: و كان خطيبا بحران حتى إذا نبغ فيها أحد لا يزال وراءه حتى يخرجه منها و يبعده عنها ، و مات في خامس صفر ، وسمعته ينشد في جامع حران يوم الجمعة بعد الصلاة على المنبر:

أأحبابنا قد ندرت مقلتي ما نلتقي باليوم أو نلتقي
رفقا بقلب مغرم واعطفوا على سقام الجسد المعرق
كم تمطلوني بليالي اللقا قد ذهب العمر وما نلتقي(١١٤)

وفيها : توفي عبد المنعم بن علي بن عبد الغني القرشي الصقلي، كان رجلا صالحا خيرا، و كان مقرئا حسنا قد قرأ على تاج الدين الكندي ،

وعلم الدين السخاوي و غيرهما ، و كان الشيخ فخر الدين بن عساكر كثيرا ما يطلبه ليصلي به من عقيدته في صلاحه، و كان قد حج معي في سنة إحدى و عشرين، فلما رجع إلى دمشق توفي عقيب قدومه من الحج ، و دفن بجبل قاسيون، وهو : أخو الزين الضرير، كان أخوه على غير طريقته مشتغلا بعلوم الأوائل

و فيها : في شعبان توفي بمصر الوزير صفي الدين عبد الله بن عبد الخالق بن شكر، أبو محمد ، و مولده بالدميرة بين مصر والاسكندرية في سنة أربعين و خمسمائة ، و دفن بتربته التي أنشأها جوار مدرسته بالقاهرة، حكى عنه القوصي في معجمه ، و قد سبق من أخباره في حوادث سنة خمس عشرة و ستمائة ، و هي سنة نكبته بعد وزارته ، و له بدمشق آثار حسنة منها : بناء مصلى العيدين ، و تبليط الجامع، و عمارة مسجد الفوارة. و تجديد مسجد حرستا، و جامع المزة و غير ذلك، وبلغني أنه قال : أنشدنا الحافظ السلفي لنفسه:

مهما تهاود في أمري امرؤ و غدا
مصارما لا أرى إلا مبجله
و إن أساء مسيء فوق طاقته
أحسنت مجتهدا حتى أخجله

و قال: أنشدنا الحافظ السلفي لابن رشيق و قد قيل له: لم لا تركب البحر للحج؟ فقال معتذرا:

البحر صعب المرام هولا
لا جعلت حاجتي اليه
أليس ماء ونحن طين
فهل ترى صبرنا عليه

و لعبد الجبار الكاتب:

لا أركب البحر خوفا عليه من المعاطب
طين أنا وهو ماء والطين في الماء ذائب

و لأبي الفتح البستي :

ان ابن آدم طين والبحر ماء يذيبه
لولا الذي فيه يتلى ما جاز عندي ركوبه

و له أيضا :

وأخضر لولا آية ماركبته ولله تصريف القضاء بما شاء
أقول حذار من ركوب عبابه أيارب إن الطين قد ركب الماء(١١٥)

-٩٢٦٠-

ثم دخلت

سنة ثلاث و عشرين و ستمائة

ففيها : قدم من بغداد محيي الدين يوسف بن الجوزي رسولا إلى المعظم ، و معه الخلع لأولاد العادل من عند الخليفة الظاهر، ومضمون رسالته طلب رجوع المعظم عن موالاة الخوارزمي.

قال أبو المظفر: وحكى لي المعظم صورة الرسالة، قال: قال لي خالك: المصلحة رجوعك عن هذا الخارجي إلى أخوتك ، و نصلح بينك وبين أخوتك – و المعظم قد بعث مملوكه الركين إلى الخوارزمي فرحله من تفليس فأنزله على خلاط و الأشرف بحران– قال: فقلت لخالك : إذا رجعت عن الخوارزمي و قصدني أخوتي تنجدوني؟ قال : نعم، قلت : ما لكم عادة تنجدون أحدا، هذه كتب الخليفة الناصر عندنا، و نحن على دمياط ، و نحن نكتب نستصرخ به و نقول : أنجدنا ، فيجيء الجواب بأن قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة ولم يفعلوا ، و قد اتفق أخوتي علي و قد أنزلت الخوارزمي على خلاط إن قصدني الأشرف منعه الخوارزمي ، و إن قصدني الكامل كان في له .(١١٦) .

و فيها: قدم الأشرف دمشق و أطاع المعظم ، و سأله أن يسأل الخوارزمي أن يرحل عن خلاط ، وقال: نحن مماليكك و ما أنبت الشعر على رؤوسنا إلا أنت ، فبعث المعظم فرحل الخوارزمي عن خلاط، وكان قد أقام عليها أربعين يوما ، و نزل الثلج و أقام الأشرف عند المعظم بدمشق. و كان المعظم يلبس خلعة الخوارزمي و يركب فرسه وإذا جلسوا على تلك الحال يحلف المعظم برأس خوارزم شاه، و عند الأشرف من هذا المقعد المقيم و هو ساكت .

قال : و تـوجه خالي إلى مصر إلى الكـامل، و هـذه أول سفرة سافـرها خالي إلى الشام و مصر

قال: و فيهـا: حج بالناس مـن العراق ابن أبي فراس ، و مـن الشام علي بن السلار.

وفيها: فوض المعظم تدريس مدرسة شبل الدولة بقاسيون إليَّ، وقلت . و في يوم جلـوسي للتدريـس بها توفي شمـس الديـن محمد ابـن شيخنا علم الدين السخاوي رحمه الله بدمشق و دفن بالجبل.

و فيها: في آخر ربيع الأول توفي قاضي قضـاتها جمال الدين يونس بن بـدران بن فيروز المصري ، و دفـن بداره بـدرب الـريحان، و كان فقيهـا كثير الاشتغال، و اختصر كتـاب « الأم» للشافعي رحمه اللـه ، و صنف فرائض كثيرة تحتوي على مسـائل كثيرة و كان قد اعتنى به الـوزير صفي الدين بن شكر فجعله وكيل بيت المال ، و فوض إليه التدريس بالمدرسة الأمينية بعد تقي الدين الضرير ، ثـم صار يترسل عن العادل إلى الخليفة و إلى الملوك بـالروم ، و بـلاد الشرق و حلب و غيرهـا ، ثم ولاه المعظـم بعد الزكي الطـاهر قضاء قضاة الشام ، و فوض إليه التـدريس بالمدرسة العادليـة، فهو أول مـن ذكر قبـل الدرس ، و كـان يذكـر بها، قبل درس الفقه درسـا من تفسير القرآن طـويلا و يجري فيه مبـاحث حسنة، فـإنه كان يحضره معنـا جماعة من الفضلاء ، فـاتفق أن فرغ مـن ذكر التفسير من أول القـرآن إلى آخره ، فلما تـم له ذلـك توفي بعـد ذلك بقليـل رحمه الله ، وكان في ولايته عفيفا في نفسه نزها مـلازما لمجالس الحكم بالشباك الكمالي بالجامع و غيره ، و كان إذا جلـس فيه بعد العصر لا يزال إلى أن يصلي المغرب ، و في بعض الليالي يصلي العشاء الآخـرة فكان إذا فرغ من الحكم بين الخصـوم تجري بحضرته المذاكرة في العلم إلى حين انفصـاله، ويجلس بكرة كل يـوم جمعة و يوم ثلاثاء بإيوان المدرسـة العادلية لاثبات

الكتب. و يصطف شهود البلد في جوانب الإيوان. وكان مجلسا عليه جلاله ، و لم يكن يضيع فيه الزمان في غير ما هو بصدده بل هو ملازم لما ذكرنا من الأيام كلها السبت و غيره، و لم ينقم عليه شيء في ولايته سوى أنه إذا ثبت عنده وراثة شخص لما وضع نواب بيت المال أيديهم عليه يأمره بمصالحة بيت المال فيقتطع منه قطعة لبيت المال، وأما لنفسه فلم يشتهر عنه شيء من ذلك ، و نقم عليه أيضا استنابته لولده التاج محمد، و لم تكن طريقته مستقيمة ، وكان يذكر أنه قرشي فتكلم الناس في ذلك، و تولى القضاء بعده شمس الدين أحمد بن الخليل الخوئي والمدرسة العادلية و الله أعلم.

قلت: و شمس الدين الخوئي هو أبو العباس أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى ، باشر الحكم بدمشق يوم الأحد سادس شهر ربيع الأول سنة ثلاث و عشرين و ستمائة

نقلت من خط بعض من له عناية بجمع التاريخ أن جمال الدين المصري المذكور باشر الحكم مع بقية النواب لما انفصل الزكي المذكور، ثم استقل بالحكم في يوم الثلاثاء ثامن عشري رجب سنة تسع عشرة وستمائة.

و فيها : في شهر رجب أو شعبان توفي الشيخ تقي الدين خزعل ابن عسكر بن خليل الشنائي المصري النحوي، و دفن بباب الصغير وكان رحمه الله شيخا حسنا فاضلا مفتيا متواضعا، قاضي الحاجة لكل من يقصده ، أقام بالقدس الشريف زمانا، يقرىء الناس به حتى كان يعرف بنحوي القدس ، ثم قدم دمشق سنة خرب القدس المعظم و هي سنة خمس عشرة فأعطي إمامة مشهد علي بن الحسين رضي الله عنهما بالجامع، و أنزل في المدرسة العزيزية ، فكان يقرىء بها و يتولى عقود الأنكحة ، و كنت إذ ذاك ساكنا بالمدرسة، و أتردد إليه فقرأت عليه

عروض الناصح بن الدهان الموصلي ، أخبرني عن مصنفه، و قرأت أيضا عليه جدل الكمال الأنباري . و أخبرني به أيضا عن مصنفه . و أنشدني لنفسه ميمية في حصر أقسام الواو و غير ذلك ، و كان يحثني على حفظ الحديث و التفقه فيه خصوصا صحيح مسلم ، و يقول: إنه أسهل من حفظ كتب الفقه و أنفع وأصدق، رحمه الله ، و حث على مسح جميع الرأس في الوضوء احتياطا ، و بحث في دليله فأعجبني ، و استقر في نفسي فما أعلم أني تركته من ذلك الزمان إلى الآن و الله المستعان فيما بقي لنا من الزمان ، و كنت أرى منه مروءة تامة في توليه عقود الأنكحة و في فسخها و في فعله فيما يحصل منها، فكان إذا غلب على ظنه فقر أهل الواقعة لا يأخذ منهم شيئا ، و أما عند الطلاق و الفراق فلا يأخذ شيئا أصلا سواء كانوا فقراء أو أغنياء، و كان مما يتحصل له من ذلك يتصدق بجملة منه فلا يرد سائلا ، و ربما جاءه من يطلب منه شيئا فيقول اقعد فما يأتي فهو لك ، فأول شغل يأتيه يعطي ذلك القاصد ما يحصل منه كائنا ما كان، ومن مروءته أنه فوض إليه المسجد الذي قبلي قيسارية الفرش و كان لصاحبنا شمس الدين محمد بن عبد الجليل واتفق انه فارقه و سافر عنه متزهدا إلى العراق، ثم اتفق رجوعه ، فنزل له عن المسجد ورده إليه فاستحسن ذلك منه

و فيها: توفي في رجب زكي الدين أبو القاسم هبة الله ، المعروف بابن رواحة من أكابر العدول و التجار أولي الثروة ، و بنى بحلب مدرسة للشافعية ، و بدمشق مثلها داخل باب الفراديس، وقف عليهما أوقافا حسنة و قنع بعد ذلك باليسير ، و كان يدرس في بيت المدرسة الدمشقية و هو الذي في ايوانها من الشرق ، و يقابله من الغرب خزانة الكتب التي وقفها ، و هي كتب جليلة ، و كان رحمه الله تام الخلقة طويلا وعريضا، إلا أنه كان لا لحية له أصلا، و كان مبجلا عند القضاة ، وكان قد أسند النظر الذي في مدرسته التي بدمشق إلى الشيخ تقي الدين بن الصلاح، ثم أنه بعد موته شهد عليه بالعزل له الشيخان تقي الدين

خزعل المقدم ذكره ومحيي الدين محمد العربي ، و كانا ساكنين قريبا من المدرسة ، فزعما أنه استدعى بهما ليلا و أشهدهما عليه بعزل ابن الصلاح عن نظر المدرسة ، و جرت في ذلك فصول لا حاجة إلى ذكرها، و كأنه كان قد ألهمه الله تعالى المصلحة في ذلك فان ابن الصلاح أسند النظر إلى شخص أسنده ذلك الشخص إلى ولد له ، فغلب على وقف المدرسة و تدريسها بغير أهلية و لا استحقاق، و لا أمانة، و لا عدل، ولا إشفاق، و الأمر على ذلك إلى الآن والله المستعان، و دفن الزكي بن رواحة بمقابر الصوفية.

و فيها توفي في رجب أيضا الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر أحمد ، ولي تسعة أشهر و أيام ، قام فيها بالعدل حسب طاقته، وغسله محمد الخياط الشاعر

قال أبو المظفر: و حكي لي أنه دخل يوما إلى الخزائن فقال له خادم: في أيامك تمتلىء ، فقال له : ما جعلت الخزائن لتمتلىء بل لتفرغ و تنفق في سبيل الله فإن الجمع شغل التجار ، وولي بعده ابنه ابو جعفر منصور بن محمد و لقبه المستنصر بالله فبنى المدرسة المستنصرية ببغداد للمذاهب الأربعة ، و توفي سنة أربعين، و سيأتي ذكره(١١٧) .

و فيها : في رجب أيضا توفي شبل الدولة كافور الحسامي ، نسب إلى حسام الدين محمد بن لاجين ، ولد ست الشام بنت أيوب ، كان خادما، عاقلا ، دينا ، صالحا، مهيباً له حرمة وافرة في الدولة و منزلة عالية عند الملوك ، اعتمدت عليه سيدته ست الشام في بناء تربتها، ومدرستها الشافعية بمحلة العوينة، و كان حنفي المذهب فبنى مدرسة لأصحاب أبي حنيفة عند جسر كحيل في طريق الجبل ، ولصقها تربته والخانقاة ، ووقف عليها أوقافا جليلة ، و بنى المصنع قبالة ذلك والقناة و الساباط المظلل للطريق ، و المصنع الآخر الذي برأس الزقاق الطويل

و فتح للناس طريقا للجبل من عنـد المقبرة التي غرب المدرسة الشامية تفضى إلى عين الكـرش، و لم يكن إليهـا طريق قبـل ذلك إلاّ مـن جهة مسجـد الصفـي المجـاور لمقبرة بـاب الفراديـس، و لـه صـدقـات دارة، وإحسان كثير ، و دفـن بتربته إلى جـانـب مدرستـه المذكورة. و كـان قد سمع الحديث على الشيخ تاج الدين الكندي و غيره رحمه الله.

و فيها: توفي المبارك ابـراهيم بن موسى المعروف بـالمعتمد والي دمشق، ولـد بالموصـل ، و قدم الشـام فخـدم فرخشـاه بـن شاهنشـاه بن أيـوب وتقلبـت به الأحـوال و استنابـه أخـو فرخشـاه لأمـه بدر الـدين مـودود الشحنة بدمشـق ، ثم ولاه العادل الشحنكية استقلالا فأحسـن السياسة، و لطف بـالرعية ، و كـان بين يديه نقيـب له يعـرف بسويد مـن أحذق الناس وأعرفهم بتدبير وقائع الولايـة ، و كان المعتمد دينا، ورعا ، عفيفا، نزهـا، اصطنع عـالما عظيما من النسـاء و الرجـال ، و ستر عليهم كبـائر الأحوال ؛ و كـانت دمشق و أعمالها في أيام ولايتـه لها حرمة ظاهـرة وهي حسنة.

قال أبو المظفـر : و مما جرى له أنـه كان في دمشق رجل فـاتك و إلى جانب بيته قـوم لهم ولد صغير في آذانه حلق من ذهب ، فاغتـاله الرجل يومـا فخنقه و أخـذ الحلق مـن أذنه ، و أخـرجه في قفـة و دفنه في بـاب الصغير . و فقدته أمـه فاتهمت الرجل بـه فعذبه المبارز عـذابا أليما فلم يقر و أطلق ، و في قلـب المرأة النار من ولدها، فطلقت زوجهـا وتزوجت الرجـل القاتل و أقامـت معه مدة ، فقـالت له يـوما و هي تداعبـه: قد مضى الابن و أبوه و كان منهما ما كان ، – و كان الزوج قد مات– أنت قتلت الصغير ؟ فقال: نعم و أخذته و دفنته في الباب الصغير ، فقالت: قم فأرني قبره ، فأخـذها و خرج بها إلى المقابر و حفر القبر فـرأت ولدها فلم تتمالـك و ضربت القـاتل بسكين أعـدتها له فشقـت بطنه و دفعتـه فألقتـه في القبر و جاءت إلى المبـارز فحكت له الحكـاية ، فقـام و خرج

معهـا إلى القبر فكشفته لـه . فقـال: أحسنت واللـه ينبغـي لنا كلنـا أن نشرب لك فتوة .

قال: وحكى لما حـرم العادل الخمور ركبت يـوما وخرجت مـن باب الفـرج ، و إذا برجـل في رقبته طبـل و هـو يتمايل تحتـه، فقلت امسكـوه وشقوا الطبـل فشقوه، و إذا فيـه ركوة خمر فبـددتها و ضربته الحد، قـال: فقلت له من أين علمت ؟ قال: رأيت رجليه و هيّ تلعب ، فعلمت أنه قد حمل شيئا ثقيلا .

قال: و كان لداره بابان : الباب الكبير عليه الغلمان و البواب ؛ وباب السر في زقـاق آخر ، فكـان النواب إذا مسكـوا في الليل امـرأة من بيـت معروف و حملوها إليـه على حالها يقول لهم: انزلوا حتى أقـررها ، ثم يقول لها: يا بنتي انـت من بيت كبير و أهلك رجال معروفـون فما الذي حملك على هـذا ؟ فتقول : يـا سيدي قضـاء الله فيقـول لها :ستر الله عليـك . ويبعث معهـا الخادم من بـاب السر إلى بيتها ، فأقـام على هذا نحـواً من أربعين سنة.

قال: وكان في قلـب المعظم له شحناء لأنه كان يشفـق عليه و يحفظه في أماكـن يدخـل إليها بـدمشق في الليـل و هو شـاب فيأمـر غلمانه أن يتبعوه من بعيـد ، و كان العادل من مصر يكتب إليه بـذلك ، فلما مات العادل أظهـر ما كان في قلبـه منه ، فاعتقلـه مدة في القلعة ، فلـم يظهر عليه و على أحـد من أولاده و حـاشيته أنـه أخذ مـن الرعيـة ما مقـداره مثقال حبـة من خـردل ، و لا غير ما كـان عليه مـن العفة ، و الأمـانة، والصلاح ، والـديانـة. ثم أنـزله مـن القلعة إلى داره و حجـر عليه فيهـا، وبالـغ في التشديد عليـه ، وكانت وفـاته يوم السبـت الحادي و العشرين مـن ذي القعدة ، و عمـره نحو ثمانين سنـة ، و دفن بجبـل قاسيـون في التربة التي أنشأها في الجبل.

قال: و حكي لي أنه ولي دمشق نيابة عن بدر الدين الشحنة أول ولاية صلاح الدين، ثم اشتغل بالولاية إلى أن عزل في سنة سبع عشرة وستمائة ، و كانت ولايته نيابة و استقلالا قريبا من خمسين سنة.

قالوا: و لم يؤخذ على المبارز شيء إلا أنه كان يحبس و ينسى، فعوقب بمثل ذلك ، و أقام محبوسا خمس سنين إلا أياما.

قال:و جرت لي معه واقعة عجيبة كنت في كل ليلة جمعة أزوره وانقطعت عنه مدة بسبب إغلاق باب داره في بعض الأوقات، فرأيت في المنام كأن قبره في روضة خضراء و القبر معمول بالفص الأخضر، وليس هو من جنس فصوص الدنيا فطربت لحسنه ورونق المكان ، فهتف بي هاتف: لو رأيت ما في باطن القبر، قلت: و ما في باطنه؟ قال: الدر، والياقوت، والمرجان، و ما يستغنى عن قراءة كتاب الله .

فانتبهت وفهمت الإشارة ، فأنا في كل ليلة أقرأ ما تيسر من القرآن وأهديه إليه و إلى أهلي و أصحابي و معارفي رحمهم الله (١١٨) .

و فيها: توفي البدر الجعبري، والي قلعة دمشق و أقام واليها مدة في أيام المعظم ، و خدم الظاهر بحلب و غيره، و حمل إلى نابلس فدفن عند أهله

ثم دخلت

سنة أربع و عشرين و ستمائة

ففيها :قدم رسول الانبروز ملك الفرنج البحرية على المعظم بعد اجتماعه بالكامل ، يطلب منه البلاد التي كان فتحها عمه صلاح الدين رحمه الله ، فأغلظ له و قال: قل لصاحبك ما أنا مثل العزيز ما له عندي إلاّ السيف

و فيها: في آخر شعبان سافرت أنا إلى بيت المقدس صحبة الفقيه عز الدين بن عبد السلام و غيره على سبيل الزيارة للأقصى و الخليل و ما بتلك الديار من الآثار ، و رجعنا إلى دمشق بعد أربعة عشر يوما .

و فيها : حج بالناس من الشام الشجاع بن السلار و هي آخر إمرته على الحاج، و آخر السنين التي كان الحج فيها رضيا طيبا ، و انقطع ركب الحج بعدها مدة بسبب ما وقع بالشام من الاختلاف و الفتن.

و فيها: حج من ميافارقين سلطانها شهاب الدين غازي بن العادل.

قال أبو المظفر : و كان ثقله على ستمائة جمل، و معه خمسون هجينا على كل هجين مملوك ، و جهزه الأشرف جهازا عظيما ، و سار غربي الفرات ، على قرقيسيا، و الرحبة ، و عانة ، و الكبيسات، و المعمر، والعين ، و شفاثا ، و كلها قرى فيها عيون جارية و نخل كثير ، و منها يجلب التمر إلى الشام ، و عبر كربلاء فزار المشهد، ثم الكوفة و زار مشهدأمير المؤمنين . و حج بالناس من العراق شمس قيران مملوك الخليفة وبعث الخليفة لشهاب الدين فرسين و بغلة و ألفى دينار ، وقال: هذه من ملكي أنفقها في طريق الحج ، و أوصى أمير الحاج بخدمته، وتصدق في مكة و المدينة ، و عاد إلى العراق ، و لم يصل الكوفة بل

سار غربي الطريق التي سلكها ، و كاد يهلك هو و من معه عطشا حتى وصل إلى حران.(١١٩).

و فيها: توفي بدمشق سلطانها الملك المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب ، ملك الشام بعد أبيه من العريش إلى حمص ، و ما بين الأرض المقدسة و مدينة النبي صلى الله عليه و سلم من الكرك، و الشوبك، والعلا، و كان قد سير في سنة اثنتين و عشرين و ستمائة ، و هي السنة التي حججت فيها ثانيا من مسح الأرض من باب الجابية إلى جبل عرفات، و كتبها له منزلة منزلة، و سهل في طريق الحاج مواضع كانت وعرة كثيبة الصوان ، و كثر المير لهم في أراضي الكرك ، و الشوبك وتبوك ،و العلا، و المدينة على ساكنها السلام ، و كان الحجاج يجدون بذلك رفقا عظيما، و بالجملة تفرد من بين الملوك بالجمع بين مواظبة الغزو والاشتغال بأنواع العلوم، و الحج إلى الحرمين بنفسه ، و إعانة غيره عليه و كان عديم الالتفاف إلى ما يرغب فيه الملوك من الأبهة والتعظيم والمدح و غير ذلك ، فكان ينهى نوابه على إمرة الحاج الشامي من مزاحمة الملوك في إطلاع الأعلام إلى رأس جبل عرفات ، فكنت ترى علمه مركوزا إلى جانب محمله تحت الجبل، و كان يركب وحده مرارا كثيرة ، ثم يتبعه من شاء من غلمانه طاردين خلفه ، و كان إذا كان بدمشق يأتي كل جمعة في الساعة الرابعة أو نحوها إلى تربة والده قبالة دار العقيقي يجلس فيها هو ومن معه من إمرائه و خواصه إلى أن يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة فيخرج حينئذ ماشيا إلى تربة عمه صلاح الدين رحمه الله المجارة للكلاسة فيصلي الجمعة بها مع الناس ، أقام على ذلك زمانا ، و كان جميل الصحبة مكرما لأصحابه ، منصفا لهم ، كأنه واحد منهم ، أنشدني المحب بن أبي السعود البغدادي الحجازي، وكان من الملازمين خدمته قال: نظمت فيه لما توفي رحمه الله تعالى:

لئن غودرت تلك المحاسن في الثرى
بوال فما وجدي عليك ببال

- ٩٢٧٠ -

ومـذ غبـت عنـي مـا ظفـرت بصـاحـب
أخـــي ثقـــة إلاّ خطـــرت ببـــالي

- ٩٢٧١ -

ثم دخلت

سنة خمس و عشرين و ستمائة

في دولة المستنصر بالله

ففي ثامن عشر صفر جاء منشور الولايـة لداود من عمه الكامل محمد ابن أبي بكـر ، و كانت الفـرنج لعنهم اللـه و خذلهم قد تحركـوا و انبثوا ببـلاد الساحـل ، لأن الهدنة كـانـت قد تمت، وبقـي المسلمون منهـم في خوف ، فرأيـت في المنام ليلة الثلاثاء تـاسع صفر كأن عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه قد جاء للنصرة و عليه بـرد يمان وفرجية مفتوحـة، و قال: سنأمر مـن ينادي بالرحيـل إلى الساحل، ووعد بـأن يستخلف على الشام إذا عاد رجـلا شريفا شجـاعا، فـاستبشر الناس لهذه الـرؤويا ، فلما كـان أوآخر ربيـع، وذلك في أيام عيـدهـم الذي بعـد صيامهم أغـار المسلمون على بلاد صـور، فغنموا غنيمـة كبيرة من إبل، و بقـر، وغنم مقـدار ستة آلاف رأس وغير ذلك ، و خـرج إليهم من الفرنـج نحو مائتين ، فكـانوا بين قتيـل و أسير و غريـق في البحر، و مـا نجا إلاّ القليـل، و من جملـة الأسرى ابـن والي صور، و قيـل الوالي، و قيـل خلصه المركـب ، و خبرت أن بعد الوقعة خرج جماعة من الكفار لأخذ قتلاهم فأخذوا .

و في هذه السنـة نزل العزيز عثمان بـن أبي بكر بن أيـوب على بعلبك ليأخذها ، و فيهـا ابن عمه الأمجد بهرامشاه بن فرخشاه بـن شاهنشاه بن أيوب ، فأعـان الناصر داوود الأمجد على العزيز ، و أمره بالـرحيل عنها ، فرحل واشتد حنقه على الناصر .

قـالوا: و كـاتب العـزيز الكـامـل و حثه على الإتيـان إلى بلد دمشـق

ليتسلمـه ، و أوهمه أنه في يده ، فجاء الكـامـل و انضاف إليـه العزيـز، وجـاءهم صـاحب حمص المجـاهـد أسد الـديـن شيركوه بـن محمد بـن شيركوه بـن شادي ، و قد كانـت له بمحاصرة والده ضغينـة على عيسى ابن أبي بكر ، لأنـه كان نازل بلده حمص و خرب ما حـولها و نهبه، فأراد استيفـاء مـا جـرى على بلـده بمحـاصرة ولـده ، فحسـن ذلـك في رأي الكامـل، واستنجد الناصر بعمه الأشرف أبي الفتـح موسى بـن أبي بكر ، فجـاءه و أكرمـه غـاية الأكـرام ، و ذلك في أواخـر رمضـان ، ثم دخـل الأشرف إلى الكـامل و اجتمـع به بـالقدس فـاتفقا على أخـذ البلاد مـن داوود بن عيسى، و أن دمشـق تكون للأشرف وانضاف إليهما مـن عسكر الناصر عمـه الصالح اسماعيـل بن أبي بكر ، و ابـن عمه شهاب الـدين محمود بـن المغيث عمر بـن أبي بكر بن أيـوب، و جماعة من الأمـراء مثل عز الـدين أيـدمر ، و الكريـم الخلاطي و غيرهما ، و جـاء أخو الأشرف إلى المظفـر شهاب الـديـن غازي بـن أبي بكـر و اجتمـع الجميع بـأرض فلسطين ، و قد كـان الناصر خرج لأجـل عمه الكـامل و خدمتـه، وظن أن الأشرف عنـده قد أصلـح أمره، فـوصل إلى الغـور ، و سمع بـاجتماع أعمامه عليه وأنهم عـازمون على القبض عليه، فرجـع إلى دمشق وأخذ في الاستعـداد خوف الحصـار، و سنذكـر ما جـرى من ذلـك في سنة سـت وعشرين.

و في هذه السنـة في المحرم توفي جمال الـدين عبـد الرحيم بـن علي بن شيث بن اسحق الكاتب بدمشق ، ولـد بأسنا من أعمال قوص سنة سبع و خمسين و خمسمائة ، و نشأ بقـوص ، و تأدب فيها بفنون العلـوم ، كان دينا حسن النثر و النظـم، وتولى الديوان ببلاد قوص ، ثـم بالاسكندرية، ثم ببيت المقدس ، ثم بكتابة الانشـاء للملك المعظم عيسى ، حكى عنه القوصي في معجمه.

و في هذه السنـة توفي الشيـخ الصوفي هنـدولا في السابـع و العشرين

من أحد شهري ربيع ، و دفن بمقابر الصوفية ، و في أواخر جمادى الأولى توفي الشمس أحمد بن القواص ، و الشريف البهاء كاتب الحكم ودفنا بالجبل، و في أوائل رجب توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو الحسن علي المراكشي المقيم بمدرسة المالكية ، و دفن بالمقبرة التي وقفها الرئيس خليل بن زويزان قبلي مقابر الصوفية، و كان أول من دفن بها، وفي سادس عشر رجب توفي المحب الللبلي المعروف بالمغربي، و دفن بمقبرة ابن زويزان أيضا، و في سادس عشر رمضان توفي الفقيه ضياء الدين ابن عبد الكافي ، و دفن بالجبل ، و في يوم عيد الفطر توفي التقي أبو عبد الله المغربي الجابري و دفن في مقبرة ابن زويزان، و قد كان معنا في المدرسة . و في مستهل ذي القعدة توفي القابسي عبد الرحيم ، الذي كان يحفظ الوجيز و دفن بالجبل. وفي سادس عشر ذي الحجة توفي الجمال ابن القفصي المعروف ، و دفن بالجبل.

وفي هذه السنة توفي الفقيه عبد المحسن الحنبلي ، و موسى الموصلي بمصر ، و معرفتنا شهوان السواق في الدقيق بدمشق، وخلق كثير غيرهم رحمهم الله.

و فيها: في صفر عزل الصدر بن البكري عن مشيخة الشيوخ بدمشق، ووليها العماد بن صدر الدين شيخ الشيوخ ، و في سادس رمضان عزل ابن البكري عن الحسبة أيضا ، ووليها الرشيد بن عبد الهادي ،

و فيها: في شعبان توفي الأمين نفيس الدين أبو محمد الحسن بن علي ابن الحسن بن الحسن بن محمد الأسدي المعروف بابن اللين، حكى عن جده الحسن و غيره .

ولم يدخل ركب الحجاز في هذه السنة من طريق الشام .

- ٩٢٧٤ -

و فيها : قدم قاضي البلقاء عبد الحق المالكي في أول رمضان واجتمعت به.

ثم دخلت

سنة ست و عشرين و ستمائة

في دولة المستنصر بن الظاهر بن الناصر ، و سلطان دمشق داوود بن عيسى.

ففي أواخر المحرم منها مات الشيخ شمس الدين الحسين بن هبة الله ابن محفوظ بن الحسن بن محمد بن صصرى التغلبي، و كان له روايات كثيرة و عمر وأجاز لي جميع ما يرويه و لم أسمع منه شيئا .

و فيها: في أواخر صفر عزل القاضي نجم الدين أحمد بن محمد بن خلف المقدسي ، و كان نائبا و تولى استقلالا مشاركا لشمس الدين الخوئي ، و تولى القاضي محيي الدين أبو الفضائل يحيى بن محمد بن يحيى القرشي، و جلس بالكلاسة في الشباك الذي يلي المحراب الشرقي منها اماماً .

قلت: كان ذلك يوم الثلاثاء الخامس و العشرين من صفر المذكور، ثم جلس في داره و كل من ذكرت من آبائه تولوا قضاء القضاة بدمشق، و كذا من قبله أخوه زكي الدين الطاهر بن محمد بن علي.

وفيها: في أول ربيع الآخر جاء الخبر بأن الكامل أخلى البيت المقدس من المسلمين و سلمه إلى الفرنج و صالحهم على ذلك ، و على تسليم جملة من القرى فتسلموه ودخلوه مع ملكهم الأنبروز ، و كانت هذه من الوصمات التي دخلت على المسلمين ، و كانت سببا في أن توغرت قلوب أهل دمشق على الكامل ومن معه. ووجد بها الناصر طريقاً في الشناعة عليهم .

وفي هذا الشهـر تقدمت جيوش الكـامل مع اخوتـه: الاشرف والمظفر والعـزيـز ، و الصالـح ، و ابنـي أخيـه : الجواد بن محمـد . و داوود بـن المغيـث ، و معهم صـاحب حمص و عسكـر حلب و حماة فنـزلوا عنـد الجسـور و راء مسجد القـدم ، و قطعـوا عن دمشـق أنهارهـا : بانيـاس والقنـوات ، ثم يـزيد، و ثـورا، و نهبـت البساتين، و أحـرقت الجواسـق، وخربـت رباع وبـادت الأشجار بانقطـاع الماء ، و جرت وقعـات ، فقتل قوم و جـرح آخرون ، وهدم كثير من الربـاع و الخانات حول البلـد من خارج لا سيما على كل باب.

و لما كان يوم السبت الرابـع و العشرون من جمادى الأولى وقعت بينهم وقعـة عظيمـة قتـل فيها خلـق كثير ، و جـرح جـم غفير ، و نهب قصر حجاج و الشـاغور ، و أطلق فيهما النيران ، ووصلـت خيل المحـاصرين إلى دور البلـد من جـوانبه ، و دخلـوا الميدان الأخضر ،ثـم رجعو ا آخـر النهـار إلى خيامهـم و قـد كثـرت القتلى و الجرحى في الفـريقين، و كثـر الحريق و النهـب ، ثم تسلمـوا حصن عزتـا (١٢٠) بما فيه مـن سلاح و غيره صلحـا مع متـوليه ، و في يـوم الأحـد تاسـع جمادى الأخرة وصـل الملك الكـامل محمـد بن أبي بكر بـن أيوب إلى دمشـق ، و نزل بـالقرب من مسجد القدم ، وأمر بإجراء نهري يزيد، و ثورا لأجل سقي الأراضي ، و خرج إليه الفـاضل أحمد بن عبد الـرحيم بأمان منهما ، و أنفـذ الناصر مـن جهته في أواخـرالنهار جماعـة مـن كبار البلـد من العلماء و خطيـب الجامع جمال الـدين الدولعي، وقـاضي القضاة شـمس الـدين الخوئي ، و القاضي شمـس الدين الجوينـي ابن الشيرازي، و جمال الـدين الحصيري شيخ الحنفية، إلى الكـامل نيابة عنـه في الخدمة و السلام ، ثم عـادوا من الغد ، و خـرج يوم الثـلاثاء حادي عشر الشهـر عز الـدين أيبـك استاذ الدار إلى الكامل بإستدعائه ، وجرى الحديث في الصلح ، و عاد ليلا، و مضى و عاد مرات ، و كان يأتي إليه عماد الدين شيخ الشيوخ فلم ينظم صلح في الظاهر.

و لما كان خامس عشر جمادى يوم السبت ، وقعت بينهم وقعة قبالة باب الحديد و في الميدان و ما بين ذلك ، و كان النصر فيه لأهل البلد وفي الغد يوم الأحد وقع الحريق و النهب من ناحية باب توما ، و أحرقت الطاحونة الأحد عشرية و الخرشنية، و التي في مرج الشيخ ، و طاحونة الأشنان أحرق بعضها ثم أطفىء ، و نهبت الدور حول ذلك ، ووقع الجرح و القتل ، و في يوم الجمعة الحادي و العشرين من الشهر خربوا قريات من قرى الغوطة، و أخرجوا أهلها منها : جوبر ، و جديا، وزملكا، ثم خربت سقبا و غيرها ، و الأسعار كلما مرت تغلو ، و الخوف حول البلد ، و قد انقطع عنه الجلب ، و بلغت أوقية الأشنان تسعة أفلس.

و حكى لي والدي أن شخصا اشترى أوقية بأربعة عشر فلسا ، و بلغت أوقية الخبز نصف درهم ، و رطل اللحم ستة دراهم . و أما الخبز فكان بحمد الله موجودا كثيرا ، و كان أطيب شيء فيه ، و هو المثلث يباع رطله بثلاثة عشر قرطاسا ، و سمعت والدي و جماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصارات المتقدمة في دولة أولاد صلاح الدين يحكون أنهم ما رأوا أشد من هذا الحصار .

ووصل الخبر بأن نائب الناصر بحصن الكرك ، و هو الأمير سعد الدين بن صارم الدين أخرج الأجناد الذين معه مع من إنضاف إليهم من العرب، و كبس العسكر الذي نازلهم من جهة الكامل ، فأخذوهم برقابهم ، و فازوا بأسلابهم ، ثم أنهم زحفوا من ناحية الميادين مرارا و الكرة عليهم ، واتخذوا مسجد خاتون و مسجد الشيخ اسماعيل و خانقاه الطاحون، و الجوسق ، الذي في الميدان الأخضر حصونا و ظهورا لهم ، و أحرق الناصر لأجل ذلك مدرسة أسد الدين و خانقاه خاتون و ما يليها من الخانات و الدور ، و بستان ابن يمن و الحمام ، و خربت خانقاه الطواويس، و ذلك في أوائل رجب و زحفوا يوم الأحد تاسع

رجب آخر النهار إلى أن وصلوا محاذاة الباب الحديد. و رأى شيخنا أبو الحسن على بن محمد السخاوي ليلة السبت خامس عشر رجب كأن قائلا يقول له : بعد شهر تكون دمشق كأنها الخلد جنة ، و كان تمام الشهر ليلة نصف شعبان ، و كان الناس فيها في أطيب عيش لأن الصلح انتظم أول شعبان و ما زال البلد و الناس في ترف من زوال الشعث ، و كثرت الخيرات ، و لهم في ليلة النصف من شعبان موسم معلوم يحتفلون فيه ويكثرون الوقيد في المساجد ، لكن عادتهم كل سنة تكثر الزحمة والضراب و النهب و العياط، و لم يكن في هذا النصف مثل ما كنا نعرف في غيره، بل كان الناس في سكون مع قلة زحمة ، و هم في سرور و الصلح و الرخص ، فقلت : هذه الجنة التي أشار إليها المنام.

و كان سبب الصلح أن الناصرخرج ليلة الأربعاء رابع عشر رجب إلى الكامل و اجتمع به ، ثم اجتمعا مرات حتى تقرر الصلح بينهما على أن يبقى له مما كان في يده بلاد الكرك ، و بلد نابلس، و قرايا من الغور والبلقاء ، و دخل عسكر الكامل دمشق يوم الاثنين مستهل شهر شعبان، و رحل الناصر يوم الجمعة ثاني عشر شعبان من دمشق إلى بلاده التي بقيت عليه، و دخل الكامل و أخويه يوم الثلاثاء سادس عشر الشهر فزار قبر والده ، ثم خرج إلى مقامه بجوسق العادل ، ثم دخل هو و الأشر ف القلعة يوم الخميس ثامن عشر شعبان ، ثم توجهت عساكر الكامل صوب حماه، فنزلوا عليها يحاصرونها ، و معهم صاحب حمص شيركوه والمظفر بن المنصور بن تقي الدين وهو أخو سلطانها حينئذ ، و تسلم الأشرف دمشق في أواخر شعبان ، و أعطى الكامل عوضها جملة من بلاد الشرق منها : حران ، و الرها ، و رأس عين ، و الرقة، و الموزر

ثم رحل الكامل في تاسع رمضان صوب الشرق فنزل إلى خدمته صاحب حماة المحاصر بها حينئذ و هو الناصر صلاح الدين قليج

أرسلان بـن المنصور محمد بن المظفـر تقي الديـن عمر بن شاهنشـاه بن أيوب ، وتسلـم نواب الكامل حماة في آخـر رمضان ، و سار الكـامل إلى بلاده التـي جعلت لـه في الشرق ، و انتقل عسكـره فنزل على بعلبـك و رحل الأشرف من دمشق إليها و حاصروها.

و فيها : قـدم الأمجد بن فرخشـاه ، و هو ابـن عم الكامـل ، فتسلموا البلد، بقي الحصار على القلعة ، ثـم رجع الأشرف إلى دمشق . و في هذه السنة أهين جماعـة من المتجبرين ، ففـي يوم الاثنين ثالـث جمادى الآخرة علـق هبة اللـه النصراني الذي كـان متولي خـزانة السلطـان ، علق بيـده اليمنى على بـاب كنيسة مريـم و في رجليه لبنة مـن حديد ، و كـان قد عـزل عن الخزانـة و حبس، ثـم أركـب على بغل و أتي بـه من الحبـس مهانا و الحديد في رجليه و الناس حوله ليشهدوا عذابه ، فعلق على باب الكنيسة و طلـب منه أمـوال عظيمة ، و هـرب أهله و قـد كان الملعـون تمكـن من المسلمين و آذاهـم و رفع منـار النصارى ، و تسلطـوا بجاهـه على المسلمين ، و جـدد لهم بناء كنيسـة مريـم ، و شيـد بنيانها . و رفـع بابها ، وحسن عمارتها ثـم هدم ما زاده و أعيدت الكنيسة إلى مـا كانت عليه في شعبان بأمر السلطان الكامل ، و حضر ذلك جماعة من العلماء ، والعـدول، و الشيوخ و خلـق كثير مـن العامـة ، و تـولى النصارى هـدم ذلك بـأنفسهم و كتب لهم بـذلك مكتوب و قـد كان اشتهر بـالاشتغال بعلوم الأوائل بدمشق في أواخر دولة المعظم بن أبي بكر ، و في دولة ابنه داوود و كثر ذلك حتى أخمده الله بالدولة الأشرفية .

وفيهـا: يوم الثـلاثـاء تاسـع شعبـان قدم علينـا دمشـق الشيخ الامـام الزاهـد الورع رشيد الـدين عبد العـزيز بن محمـد بن الطاهـر ، المعروف بابـن عوف من ذرية عبد الرحمن بن عـوف ، صاحب رسـول الله صلى الله عليه و سلم ، مـن فقهاء الاسكندرية و مفتيها في مذهـب مالك بن أنـس رحمه اللـه ، لشغـل عـرض له ، و اجتمعـت بـه الغـد مـن مجيئـه

بـالمدرسة العـادلية مـع شيخنـا أبي عمر ، و حكـى لنا أن عمـره إذ ذاك ستون سنـة ؛ وكان يصوم يـوما و يفطر يـوما كصيام داوود عليـه السلام، وأتى معـه بدقيـق من الاسكنـدرية فلم يـزل يأكـل منه حتـى رجع و لا يتناول من غيره.

و فيها: مات جماعـة من أصحابنا و معارفنا و غيرهـم فمنهم : سبعة كانـوا من سكان مـدرستنا ، و جماعة مـن الفقهاء المالكية ، و مـن جملة من تـوفي من أصحابنا إثنـان كانا مـن أعزهم علي، و أكثرهـم لي اجتماعا أحدهما : زيـن الدين بـن أحمد بن يوسـف الفرغـاني ، أصابته نشـابة في كتفـه يوم الجمعـة الثـالث و العشريـن مـن جمادى الأولى، و مات يـوم الاثنين السادس و العشريـن منه، و دفن في مقـابر الصوفيـة المشرفة على نهر بـانياس. و كـان رحمه اللـه فاضـلا دينـا خيرا حسـن الأخلاق مـن أحسن مـا رأينا مـن الاصحاب، وكان قـد زار كثيرا من البـلاد و هو في زي الفقراء لا يرجع إلى معلوم مع عـرضه عليه، و قدم علينا دمشق في سنة خمس وعشرين، و كـان قد حج من العراق ، فلما قضـى حجه أتى مصر، ثـم جاء إلى الشـام، و كان رحمه اللـه قد عـزم معي على المجـاورة بالحجـاز ، وكنا على هذا العـزم في هذه السنـة ، فاخترمته المنيـة ، و كان مولعا بإنشاد الأشعار الرقيقة ، أنشـدني في عشية يوم أصابه السهم، قال سمعت الشيخ شهاب الدين السهروردي ينشده :

شربـــت الهوى والخمـــر صرفـــا كليهما
فكـــان الهوى عنـــدي أشـــدهما سكـــرا
أمــــا والهوى لــــو ذقـــت طعمهما مـــن الهوى
لما كنـــت بعــــد الهوى تشرب الخمـــرا

و الثاني: ظهير الدين عبد الغني بن حسان بن عطية بن يخلف الكناني المصري النحوي ، تـوفي عاشر شوال و دفن الغـد في مقابر ابـن زويزان، وكـان مـن خيـار مـن صحبـت مـن الأصحـاب ، لـه أخـلاق حسنـة،

وتعصب و قيام في حق من يعرفه ولديه فضل ، وعبادة ، وأما كرمه وسخاؤه و جوده و أفضاله فشائع عنه مشتهر عرفه الخاص و العام رحمه الله و رضي عنه ، أردت في طريق الحجاز في رجوعي منه سنة اثنتين وعشرين و ستمائة أن أسير إليه كتابا في أوله:

أنـــت الظهير على المكـــارم كلهـــا
مـــن رد ذلـــك فهـــو عين معـــانـــد
عبـــد الغنـــي و لســـت عبـــدا للغنـــى
بحـــر الفـــرائد حبر كـــل فـــوائد

و لم يكن لي صاحب أخص منه، كنت آنس به و بحديثه، و في أضيق ما أكون من الهم أجتمع به فيزول عني برحمة الله ، و كان اشتغل بالعربية على شيخنا أبي عمرو، صحبه في الديار المصرية و في سفره إلى الشام و لم يزل يعلق عنه و يشتغل عليه بالعربية و الأصول إلى أن توفي، وكان كثير الأعتناء بكلامه علق عنه أشياء كثيرة لم يعلقها أحد ، و قد حصلت و الحمد لله بخطه في ملكي

و من جملة من توفي من أصحابنا مؤذن مدرستنا الشيخ الصالح أبو الحسن على المغربي المالقي، و كان لديه علم و عمل رحمه الله، توفي في الثالث و العشرين من شهر رمضان، و دفن بمقبرة ابن زويزان، و كان عازما على الرجوع إلى المغرب إلى أهله، ثم على الأقامة بمدينة رسول الله صلى الله عليه و سلم و الآذان في منارته .

و في التاسع و العشرين من شعبان توفي فخر الدين علي بن بكمش التركي النحوي، تلميذ الشيخ العلامة تاج الدين أبي اليمن الكندي، وقال غيره توفي الشيخ فخر الدين أبو الحسن علي بن بكمش بن عبد الله التركي النحوي البغدادي يوم الاثنين سلخ شعبان من السنة بدمشق والله أعلم ، و في رابع عشر رمضان مات أبو الحسن علي بن أبي بكر الشاطبي التجيبي المقرىء ،و دفن بباب الفراديس، وكان كثير

التعبد، وكان قد اشتغل بالقراءات و النحو بالمغرب ، ثم صحب بمصر الشيخ الامام الحافظ أبا القاسم بن فيرة الشاطبي ، صاحب القصيدة ، و كان يكرمه لأجل أنه من بلده . و في يوم الأربعاء السادس و العشرين من جمادى الآخرة مات الرجل الصالح محمد السبتي النجار، و دفن بالجبل ، و كان الجمع في تشييعه متوفرا ، و كان رحمه الله كثير الاحسان لا سيما في حق الغرباء و الواردين ساعيا في مصالحهم ، و كان محبا لأهل الخير ، متقربا إليهم ، و جدد المسجد في أول الشارع الذي هو غربي دار الركوة على يسار الداخل إلى الشارع من ماله ، و أخبرني صاحبنا أبو حفص عمر بن أبي محمد الموصلي. قال حدثني الشيخ أبو الحسن علي المصمودي الضرير ، أنه سمع الشيخ عبد الصمد الدكالي، كان مجاورا بالكلاسة ، و كان معدودا من الصالحين ، يقو ل كلاما ما معناه: ها هنا رجلا من الأبدال . يعني محمد السبتي ، و لم يبينه المصمودي لعمر الموصلي إلا بعد موت السبتي، قال: و كان الشيخ عبد الصمد أوصاه أن لا يعلم به أحدا.

و في هذه السنة جاءنا الخبر بوفاة المسعود أطسيس بن الكامل صاحب مكة و اليمن ، و دفن بالمعلى، و كان عسوفا ، لكنه قمع الخوارج ، و نفى الزيدية من مكة و أمن الحاج بها ، و كان الناس بمكة في أيام دولتهم في أمن وخصب ، و كان ملكها سنة تسع عشرة وستمائة ، و بنى القبة التي على المقام

و جاءنا الخبر من المدينة شرفها الله في آخر رمضان بموت الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد الغماري ، و كان مجاورا بالحرمين من صغره ؛ و كان كثير الاحسان إلى الفقراء .

و جاءنا الخبر من مصر بوفاة أبي الحسن علي بن صالح القليني ، من قرية بمصر يقال لها قلين ، و كان من أصحاب الشيخ الشاطبي ، و حج

-٩٢٨٣-

مع شيخنا أبي الحسن السخاوي ، و هو الذي أنشد النبي صلى الله عليه و سلم قصيدة شيخنا الميمية، و إياه عنى شيخنا بقوله:

و اغفر لمنشدنا على ذنبه

و انقطع الحاج هذه السنة أيضا من الشام و مصر

و فيها: توفي البهاء بن الحنبلي أخو الناصح، و الشهاب و هو الأكبر، والناصح بعده بتسع سنين، و الشهاب بعد الناصح بتسع سنين، ومات الشهاب سنة تسع عشرة و ستمائة في شهر ربيع الأول.

-٩٢٨٤-

ثم دخلت

سنة سبع و عشرين و ستمائة

في خلافة المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر، وسلطان دمشق الأشرف أبو الفتح موسى بن العادل بن أيوب.

ففي ليلة الجمعة سادس عشر صفر توفي الشيخ أبو البركات الحسن ابن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن الشافعي المعروف بزين الأمناء بن عساكر، رحمه الله. و كان شيخا صالحا كثير الصلاة و الذكر، و عمره نحو ثلاث و ثمانين سنة إلا شهرا، و أربعة عشر يوما، لأني رأيت بخطه أن مولده سلخ ربيع الأول سنة أربع و أربعين وخمسمائة و كانت له روايات كثيرة لكتب الحديث، و غيرها عن غير الحافظ أبي القاسم علي، و الصائن أبي الحسن هبة الله بن الحسن و أمه أسماء بنت أبي البركات محمد بن الحسن بن الدان خالة محيي الدين القاضي، و لم يزل الناس ينتفعون عليه بالسماعات حتى توفي، و كان قد أقعد في آخر عمره و كان يحمل في محفة إلى الجامع، و إلى دار الحديث التي أنشأها نور الدين بن زنكي رحمه الله ليسمع عليه.

أجاز لي جميع ما يرويه، و سمعت عليه طائفة من كتب الحديث، ودفن رحمه الله عند قبر أخيه الفقيه المفتي أبي منصور عبد الرحمن بن محمد، المعروف بالفخر بن عساكر بالشرف القبلي ظاهر دمشق، واجتمع في جنازته خلق كثير، حضرت دفنه، و الصلاة عليه رحمه الله

و فيها: في ربيع الآخرة تسلم الأشرف بن العادل بن أيوب قلعة بعلبك من ابن عمه بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، و قد كان حصارها قد طال، ثم رحل الأشرف إلى بلاد الشرق و استخلف على دمشق أخاه الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب.

و فيها : في حادي عشر شهر جمادى الأولى توفي الشيخ بيرم المارديني صليت عليه بجامع دمشق و خرجت في جنازته إلى الجبل، فدفن في شرقي مقبرة ابن شيث على تل هناك ، و كان شيخا صالحا، محبا للعزلة والانفراد، صابرا على الفقر و الجوع ، كثير الصوم و المجاهدة ، و كان مقيما بالزاوية الغربية بجامع دمشق المعروفة بزاوية الدولعي ؛ و تعرف قبله بزاوية القطب النيسابوري ، و قبله بزاوية نصر المقدسي، و اسمه: بيرم – أوله باء معجمة بواحدة من تحتها، و هي مفتوحة، و بعدها ياء ساكنة معجمة باثنتين من تحتها ، و بعدها راء مفتوحة– و في جمادى الآخرة جاء الخبر بأن خوارزم شاه ملك بلاد خلاط و استولى عليها، وقتل كثيرا من أهلها .

و جاء الخبر بأن الفرنج خذلهم الله استولوا على جزيرة ميورقة و قتلوا خلقا كثيرا ، و أسروا كذلك ، و قدموا ببعض الأسرى إلى ساحل الشام، فاستفك منهم طائفة فقدموا علينا دمشق و أخبروا بما جرى عليهم .

و في آخر شعبان المعظم حوط أحمد بن عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن أحمد البيساني ، المعروف بابن القاضي الفاضل درابزينا شمالي بركة الكلاسة شمالي جامع دمشق ، و جعل داخله مكانا يقرأ فيه القرآن والسنة ، ووقف خزانة كتب في المقصورة التي تليها التي أنشأها والده، ثم خرب ذلك جميعه و أضيف إلى المسجد لما بنيت التربة الأشرفية، وبقي ذلك يقرأ فيه الحديث ، و فيه خزائن الكتب .

و في سابع عشر شهر شوال المكرم جاء كتاب الأشرف بن العادل بن أيوب ، بأنه التقى الخوارزمي و كسره ، و ذلك في أواخر رمضان ، وقد كان الخوارمي قد استولى على بلاط خلاط فسار الأشرف من دمشق، واتفق هو و ملك الروم على لقائه ، فجمعوا العساكر و التقوا معه والتقى الجمعان للقتال يوم السبت ثامن عشر رمضان.

و ذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه : أن ذلك كان في الثامن والعشرين ، و انكسرت الخوارزمية ووقع منهم في واد خلق كثير فهلكوا، هبت عليهم رياح، و نهبوا و أخذوا و تتبعوا إلى يوم عيد الفطر، وانبثت البشائر في البلاد، لأن هذا الخوارزمي كان لا يأخذ بلد إلا قتل أهله و سبى وسلب الأموال ، و فسقوا بنسائهم و أولاد هم، و قد كان الأشرف قد رأى قبل الكسرة النبي صلى الله عليه و سلم في المنام فوعده بالنصر عليهم ، فقال : يا موسى أنت منصور عليهم ، و مظفر بهم. او كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ، ثم سار الأشرف ، فاسترد بلاد خلاط و أوغل في طلب الخوارزمي في بلاده ثم رجع (١١٢).

و انقطع الحاج هذه السنة أيضا من الشام فصارت ثلاث سنين متوالية ، لانقطاع الحاج من الشام .

-٩٢٨٧-

ثم دخلت

سنة ثمان و عشرين و ستمائة

في خلافة المستنصر بالله أبي جعفر بن الظاهر ، و سلطان دمشق الأشرف بن العادل بن أيوب، و نائبه فيها أخوه الصالح بن العادل

ففي أولها: أحدثت الإمامة للصلوات الخمس بمشهد أبي بكر شرقي جامع دمشق ، جعل له إمام راتب.

و فيها : ظهر الغلاء بالديار المصرية، فإن نيلها نقص في شوال سنة سبع و عشرين ، و هو الموافق لشهر مسرى من شهور القبط.

و فيها : في صفر توفي الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار ، شيخ الأطباء بدمشق في زمانه ، و هو الذي وقف داره مدرسة للأطباء ، و هي بنواحي الصاغة العتيقة ، ومولده بدمشق سنة خمس و ستين وخمسمائة . قال القوصي أنشدني الحكيم الفاضل أبو الحسن بن التلميذ في الاسرائيلي صاحب المعتبر:

لنا صديق يهودي حماقته ... إذا تكلم تبدو فيه من فيه
يتيه والكلب خير منه منزلة ... كأنه بعد لم يخرج من التيه

و في صفر هذه السنة توفي أيضا مجد الدين البهنسي ، و اسمه : الحارث بن مهلب بن حسن المهلبي حكى عن والده مقطعات من شعره و غير ذلك ، و كان والده نحويا أديبا فقيها ، و كان قد وزر للأشرف بالشرق ، ثم نكب بحران و اعتقل مدة ، و كشف عليه في حلب

نعمته، ثـم أفرج عنـه ، و أقام بـدمشق إلى أن تـوفي بها و دفن في التربـة التي وقفها عليه أخوه بجبل قاسيون.

و فيها : في آخـر ربيع الآخـر سافـرت إلى الديـار المصرية ، فـدخلت دميـــاط في جمادى الأولى ، و القـــاهـــرة و مصر في جمادى الآخـــرة، والاسكندرية في ذي الحجة

وفيهـا: ولد أخـي أبو محـمـد بن اسماعيـل ، و فيها : في مستهـل ذي الحجة تـوفي الزين النحـوي يحيى بن معطي الـزواوي رحمه الله بالقـاهرة وأنـا بها ، و صلي عليـه بجنـب القلعـــة عنـد سـوق الـدواب ، و حضر الصلاة عليه السلطان الكـامل بن العادل ، و دفن بالقرافـة في طريق قبة الشافعـي رحمه الله ، على يسار المار إليها على حـافة الطريـق محاذيا لقبر أبي إبراهيـم المزني رحمه الله ، حضرت دفنه ، و الصـلاة عليه ، وكـان آية في حفظ كلام النحويين .

و فيها تـوفي الزيـن الكـردي أبو عبـد الله محمـد المقري ، و كـان من أصحاب الشيخ أبي القـاسم الشاطبي رحمه الله ، توفي بـدمشق ، و أخذ مكانه في الجامع شيخنا أبو عمرو بـن الحاجب ، و حج بالناس في هذه السنة مـن الشام ، و مصر، و فيهـا حج شيخنـا ابن الصـلاح ثم انقطـع الحاج بعد السنة وفيها توفي الملك القاهـر تاج الملوك اسحق بن العادل ، والله أعلم .

- ٩٢٨٩ -

ثم دخلت

سنة تسع و عشرين و ستمائة

و أنا بالاسكندرية في خلافة المستنصر بن الظاهر بن الناصر،وسلطان دمشق الأشرف بن العادل ، و في الديار المصرية أخوه الكامل بن العادل .

ففيها: رجعت إلى دمشق في سابع ربيع الآخر ، فوجدت العماد المحلي مريضا ، و مات في تلك الأيام ليلة الأربعاء عاشر شهر ربيع الآخر ، و اسمه: حسام بن غزي بن يونس ، و كان ظريفا شاعرا حسن المحاضرة ، و دفن في مقابر الصوفية ، حضرت دفنه ، و له ترجمة حسنة في معجم القوصي .

و في مستهل جمادى الأولى مات صاحبنا أبو القاسم بن ابراهيم ، المعروف بالعلم ابن النحاس، و دفن بالجبل حضرت الصلاة عليه ، و كان شابا حسنا دينا حسن الخلق ، و السمت رحمه الله.

و فيها: في تاسع جمادى الأولى توفي القاضي شرف الدين اسماعيل بن ابراهيم بن أحمد الشيباني الحنفي ، المعروف بابن الموصلي ، و دفن بالجبل حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ،و مولده في رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع و خمسمائة ، و أجاز لي جميع ما يرويه ، و كان شيخا دينا لطيفا.

و فيها : في إحدى الجمادين عزل القاضيان الشمسان الخوئي و ابن سني الدولة، وولي مكانهما قاضي القضاة العماد عبد الكريم بن الحرستاني، و عزل في سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة، و تولى ابن السني.

و فيها : وصل إلينا الخبر بوفاة الشيخ ابن عيسى بالاسكندرية، وكانت له مسموعات كثيرة على الحافظ السلفي ، و غيره و أجاز لي جميع.ما يرويه .

و فيها : توفي الجمال بن الحافظ عبد الغني الحنبلي ، و دفن بالجبل، وفيها : توفي ضياء الدين عيسى بن الفقيه أبي الحسن بن سيدهم المصري و يعرف أبوه بصمد يعقوب ، بدمشق عند يوسف بن أبي الحسن ، و كان كما أخبرني أديبا فاضلا و من شعره:

أرسلت من كبد لما رميت به
ما سار من كبد إلا إلى كبد

و أجازني المستنصر بن الظاهر بن الناصر و أنا بدمشق . ففيها أنشئت دار تعرف أولا بدار قايماز النجمي وولي الاشتغال فيها مستهل رمضان قدومه من الحج ، و لبث إذ ذاك بمصر ، و كان قد أنشدني لأخيه :

القوس ابنها افغدت تهن
والأم قد تحنو على الولد

من الأبيات الفائقة .

-٩٢٩١-

ثم دخلت

سنة ثلاثين و ستمائة

في خلافة المستنصر

و فيها : تم بناء دار الحديث الجديدة التـي أنشأها الأشرف موسى بن أبي بكر بن أيوب.

و في هذه السنة تـوفي جماعة من السلاطين منهم : المغيـث بن المغيث ابن العادل ، و العـزيز عثمان بن العادل ،و ابنه . توفي العـزيز عثمان ليلة الحادي عشر مـن رمضـان، و تـوفي المغيث في حصـار حصـن كيفـا في المحرم ، و مظفر الديـن صاحب إربل و غيرهـم ، مولـد العزيز عثمان في ربيع الآخر سنة ست و تسعين و خمسمائة ، و مات بالنعيمة .(١٢٢)

-٩٢٩٢-

ثم دخلت

سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة

ففيها : تو في بهاء الدين بن أبي اليسر في خامس عشر المحرم، ومولده سنة خمس و ستين و خمسمائة

و فيها مات الشيخ أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي المعروف بالسيف الآمدي، و دفن بجبل قاسيون رابع صفر وكان حسن الأخلاق ، كبير القدر في معرفة الأصولين ، و الجدل، والخلاف، و المنطق، و علوم الأوائل ، و صنف فيها كتبا كثيرة .

و فيها : في شعبان توفي القاضي عبد الرحيم بن محمد بن عساكر ، روى عن محمد و غيره، و مولده سنة تسع و خمسين و خمسمائة بدمشق في رمضان المبارك .

و فيها : في شعبان أيضا توفي بالموصل العز علي بن محمد بن عبد الرحيم الجزري المعروف بابن الأثير المؤرخ ، صاحب المصنفات ولد سنة خمسين و خمسمائة . و فيها : ولدت أم الحسن فاطمة بنت عبد الرحمن ابن اسماعيل في الثالث و العشرين من شوال جعلها الله ذرية مباركة .

و فيها : جاءنا الخبر إلى دمشق بوفاة الشيخ العالم الزاهد أبي عبد الله محمد بن عمر بن يوسف القرطبي بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر صفر من هذه السنة ، و صلى عليه الشرف محمد بن أبي الفضل المرسي، و أخبرني بدمشق أن وفاته كانت مستهل شهر صفر سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة ، و دفن بالبقيع قريبا من قبر عثمان رضي الله عنه ، و كنت اجتمعت به بالمدينة و بمصر ، و أجاز لي رواية ما يصح عنه روايته ، و كان إماما قدوة له قبول عند أهل الآخرة ، و أهل الدنيا .

و فيها : تـو في عندنـا بدمشـق النجم التفليسي ، و اسمـه ثابـت بن نـاوان ، و كـان كبير المحـل ، حسن الأخـلاق مشتغـلا بعلـم الشريعـة والطريقـة ، ودفن في مقابـر الصوفية ، و فيهـا: توفي الـزين بن قفـرجل ، والشمس ابـن قوام، و كـانا مـن خيار عـدول البلد ، و في ليلـة الجمعة خامـس شوال توفي البرهـان أبو الحسـن اسماعيل بن أبي جعفـر بن علي القرطبي إمام الكـلاسة ، و دفن من الغد بجبل قـاسيون عند قبر والده ، وكانـت له جنازة عظيمة . سمـع على الحافظ أبي القاسـم بن علي و على غيره ، و حضرت دفنه والصـلاة عليه ، و كان في حيـاته منقطعا بـالمنارة الشرقية مشتغلا بـالطهارة و الصلاة . ثم مات الشيخ عبـد الله الأرمني ، و كان شيخـا صالحا منقطعـا بالجبل بعـد البرهان بخمـس عشرة ليلة او نحوهـا ، و كانـت له جنـازة حفلة رحمه اللـه . ثم جـاءنا الخبر في هـذه السنة من حلب بوفاة الفقيه العالم نجم الدين بن الخباز ، و كان مشهورا بالعلم ، و اللطف ، والتواضع رحمه الله .

و في هذه السنة أحـدثت القيسارية التي وراء سـوق النحاسين ، بفتح بابها إلى الـزيادة ، و نقل إليهـا سوق الصاغة ، و كـذلك ما أحـدث من الدكاكين في وسط الزيادة ، كان في هذه السنة .

و فيها : وقعت وقعة بين سلطان الروم و بين ابن أيوب .

و لم يحج في هذه السنة إلا من اليمن أو من ركب البحر من مصر .

-٩٢٩٤-

ثم دخلت

سنة اثنتين و ثلاثين و ستمائة

ففيها : توفي الشهاب ابن عصرون في ليلة الثامن و العشرين من المحرم و هو : أبو العباس عبد الله بن المطهر بن شرف الدين أبي سعد ، و في المحرم توفي البدر الوكيل بمجلس الحكم ، و اسمه : عبد المولى بن عبد السيد بن ابراهيم ، و دفن بالجبل ، روى عنه القوصي في معجمه.

و فيها : توفي القاضي بهاء الدين بن شداد بحلب ، و اسمه يوسف ابن رافع بن تميم ، و كان من رؤسائها و كان للناس به نفع ، و كنت قد اجتمعت بابن شداد بدمشق و أجاز لي جميع ما يرويه ، ثم سمعت عليه بمصر ، و عند قبة الشافعي رحمه الله تعالى سنة ثمان وعشرين وستمائة، وفي هذه السنة جاءنا الخبر بموت صاحبنا صفي الدين حسن ابن أبي طالب البغدادي المقيم بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان شابا فاضلا، أديبا . كتب لصاحب المدينة ثم وزر له . و اشتد على قمع المفسدين بها فوثب عليه ليلة العشر من ذي الحجة سنة إحدى و ثلاثين جماعة من سفهاء على باب مسجد المدينة ، على ساكنها السلام، قبيل العشاء الآخرة فضربوه بأسيافهم حتى قتلوه ، و هو داخل من باب المسجد ، أخبرني بذلك الشيخ أبو الفضل المرسي، قدم علينا في هذه السنة ، و كنت قد اجتمعت بهذا الشهيد رحمه الله بدمشق مرارا، وبالمدينة في حجتي سنة احدى و عشرين و اثنتين و عشرين و ستمائة.

و في مستهل سنة اثنتين و ثلاثين توفي الشهاب السهروردي ببغداد، وكان كبير القدر و الشأن، و له تصانيف في علم التصوف، و قدم دمشق مرارا و أنا بها صغير ، و عقد بها مجلس الوعظ و لم أره رحمه الله ،

ومولده سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة ، و اسمه : عمر بن محمد بن عبد الله البكري .

و فيها : في ثالث جمادى الأولى ولد أخي عبد الحليم بن اسماعيل جعله الله مباركا.

و فيها : في سادس عشر شهر رجب المرجب، توفي الشيخ العدل أبو علي الحسن بن يحيى بن صباح المصري و دفن بالجبل، ، حضرت الصلاة عليه بظاهر دمشق خارج باب الفراديس ، سمعت عليه أكثر الخلعيات ، و لي منه إجازة ، و مولده بمصر في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وكانت له ديانة ؛ وأصالة ، وأمانة ، وعدالة رحمه الله.

و في هذا الشهر خربت خان بالعقيبة ، كان كثير الفسق و الفساد ليجعل مسجدا تصلى فيه الجمعة ، فتم جامعا كبيرا حسنا سمي بجامع التوبة ، و ذلك في أيام الأشرف أبي الفتح موسى بن أبي بكر بن أيوب . و هو المجدد أيضا لمسجد جراح خارج باب الصغير .

و في ليلة ا لأحد تاسع شعبان توفي التقي بن ماسوية ، و اسمه : أبو الحسن علي بن أبي الفتح المبارك بن الحسن بن أحمد بن ماسوية ، بدمشق ، و دفن بباب الصغير ، و كنت مريضا تلك الأيام فلم يقدر لي شهود جنازته ، و كان شيخا خيرا حسن الأخلاق متواضعا لطيفا مشهورا بالقراءات ، سمع من الحازمي و غيره و أجاز لي رواية جميع ما يرويه ، وذكر لي أنه ولد سنة ست و خمسين و خمسمائة رحمه الله .

-٩٢٩٦-

ثم دخلت

سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة

ففيها: توفي أبو الخطاب عمر بن دحية المحدث في ليلة الثلاثاء رابع ربيع الأول بالديار المصرية ، و لي منه إجازة

و فيها : توفي البهاء الأراني ، و اسمه عبد الخالق بن الشافعي ، وكان شيخا متدينا عالما مشهورا ببلاده ، ثم انتقل إلى دمشق في آخر عمره ، ومات بها في خامس عشر شوال من هذه السنة و دفن بالجبل، حضرت الصلاة عليه وشيعته إلى المصلى بباب الفراديس.

و فيها : في ذي القعدة وصل إلينا خبر موت خطيب جامع مصر الشيخ الفقيه الدين ، أبو الطاهر محمد بن عبد الرحمن الجابري ، من ولد جابر بن عبد الله الأنصاري ، رضي الله عنه، و اشتهرت نسبته بالمحلي،

و كان من أصحاب الشيخين الشاطبي ، و القرشي، و كنت اجتمعت به في مصر غير مرة رحمة الله عليه، ولد سنة أربع و خمسين و خمسمائة .

و فيها : مات أبو علي الحسن بن اسماعيل المعروف بالقيلوي البغدادي ، ذكره القوصي في معجمه.

-٩٢٩٧-

ثم دخلت

سنة أربع و ثلاثين و ستمائة

ففي ثالث منها توفي الناصح بن الحنبلي الواعظ ، و اسمه: عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب من ولد سعد بن عبادة الأنصاري، وكان واعظا متفننا، و له مصنفات . و له بنيت المدرسة التي بالجبل ، للحنابلة رحمه الله و مولده سنة أربع و خمسين و خمسمائة ، و مات أخوه شهاب الدين عبد الكريم بن نجم ثامن ربيع الأول سنة تسع و عشرين و ستمائة ، و مولده سنة سبع و خمسين و خمسمائة .

و فيها: جاءنا الخبر بموت أبي عمرو عثمان بن دحية بالقاهرة ، وهو أخو أبي الخطاب المقدم ذكره، رحمه الله.

و فيها : قدم دمشق الشيخ الفاضل الأصيل القاضي أبو مروان محمد ابن أحمد بن عبد الله بن عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن سريعة بن رفاعة بن صخر بن سماعة اللخمي الأندلسي الإشبيلي ، من بيت كبير من الأندلس ، يعرف ببيت الباجي مشهور به، كثير العلماء و الفضلاء . أصلهم من ناحية القيروان ، و ليس منهم أبو الوليد الباجي الفقيه ، ذاك بيت آخر من ناحية الأندلس ، قدم أبو مروان حاجا من بلاده في البحر إلى عكا من ساحل دمشق ، ثم دخل دمشق سادس شهر رمضان من هذه السنة ونزل عندنا بالمدرسة العادلية ، و جده الأعلى أحمد بن عبد الله بن محمد ابن علي قدم الديار المصرية و حج منها و معه ولده محمد بن أحمد، ويعرف بصاحب الوثائق ، و سمعوا بها جماعة من العلماء ، و ذكر أبو عبد الله الحميدي أحمد بن عبد الله هذا في تاريخه « جذوة المقتبس» وكناه أبو عمر ، و ذكر أنه سكن اشبيلية و أثنى عليه كثيرا و قال: مات

في حدود الأربعمائة ، روى عنه أبـو عمر بن عبد البر وغيره، و أبـوه عبد الله بن محمد بن علي يعرف بالراوية، و ذكره الحميـدي أيضا، وذكر ابن بشكوال في كتـاب الصلة : عبد الملـك بن عبد العـزيز جد هـذا الشيخ القـادم ، و أثنى عليـه، و قال: تـوفي في سنة اثنتين و ثـلاثين وخمسمائة، (١٢٣) و كـان هذا أبـو مـروان سلمه اللـه حسـن الأخـلاق ، فاضـلا، متواضعـا ، محسنا، و سمعتـه يقول و قد سئـل في إعارة شيء فبـادر إليه بنفسه، ثم قـال : أنا عندي في قوله تعـالى : (و يمنعون الماعون) (١٢٤) هو كل شيء و استفدنا من هذا الباجـي فائدة جليلة ، و هو معاينة قدر مد النبـي صلى الله عليه وسلم فإنـه عندهـم متوارث، و قـد أخبر عن ذلك أبو محمد بن حزم في كتابه « المحلى» وعـايرته الحمد لله أنا بدمشق حينئذ و هو الكيل الكبير فوجدت مـدنا يسع صاعين إلايسيرا، ووجدته ممسوحـا يسع صاعا و نصفـا أو شيئا فيكون مـدان ممسوحان ثلاثـة أصع زائدة ، عندي طاسة بيضاء صغيرة عايرتها بـه فوجدتها تسع مدين و هما نصـف صاع. قـرأت في كتاب «المحلى» لابـن حـزم: و خرط لي مـد على تحقيق المد المتوارث عند آل عبد الله بن علي الباجي ، و هو عند أكبرهـم لا يفـارق داره ، أخرجـه إلي – يعني– الـذي كلفتـه ذلك عبـد الله بـن أحمد بن عبد عبـد الله بن علي المذكور، و ذكر أنه مـد أبيه ؛ و أن جده أخذه و خرطه على مد أحمد بن خالـد ، و أخبر أحمد بن خالد أنه خرطه على مد يحيى الـذي أعطاه إياه ابنه عبيـد الله بن يحيى ، و خـرطه يحيى على مد مـالك ، قال أبـو محمد : و لا شـك أن أحمد بن خالـد صححه أيضا على محمد بن وضـاح ، الذي صححه ابن وضاح بالمدينـة. قال أبو محمد : ثم كلتـه بالقمح الطيب ثم وزنتـه فوجدته رطـلا واحدا و نصف رطل بـالفلفلي، لا يزيد حبة، و كلتـه بالشعير إلا أنه لم يكن بـالطيب، فوجدتـه رطلا واحدا ونصف أوقيـة ،وسألت عن الـرطل الفلفلي فقيل لي هو سـت عشرة أوقية ، كـل أوقية عشرة دراهـم ، و في تقديـر ابن حـزم نظر، والله أعلم .

توفي هـذا الشيخ رحمه اللـه بمدينـة القاهـرة سنة خمس و ثـلاثين بعد رجوعه مـن الحج ، أتانا خبره بدمشـق. و في هذه السنة جاءنـا الخبر بأن الكفار من الترك ، و هـم التاتار خذلهم اللـه ملكوا مدينة إربـل و فعلوا فيها ما هـي عادتهم في البلاد التي أخـذوها قبل ، و كان دخـولهم أيضا في التاسـع و العشرين مـن شوال سنة أربـع و ثلاثين ، ثـم هزمهـم الله وشردهـم على يدي عسكـر الخليفة المستنصر بالله أبي جعفـر المنصور بن الظاهر بن الناصر .

و فيهـا : في الساعـة الأولى من يـوم الاثنين الخامـس و العشرين مـن ذي القعـدة سنة أربـع و ثـلاثين و ستمائة ولد لي مـولـود سميته محمـد، وكنيته أبا الحزم، جعله الله مباركـا ذرية طيبة ، ثم مات في أواخر جمادى الأولى سنـة ثـلاث و أربعين و ستمائة ، و لـه ثماني سنين و نصـف رحمه الله .

و في هذه السنـة : توفي جماعة مـن الملوك منهم: ملـك حلب وأعمالها الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، و منهم صاحب بلاد الروم علاء الدين في خامس شوال.

وانقطـع الحاج هـذه السنة مـن نـاحيـة العراق ، و خـرج الحاج مـن الشام، و جـرت عليه نكبة شـديدة من جهـة العطش بأرض بسيـط قبل وصولهم سجر (١٢٥) بنحو ثلاث مراحل

-٩٣٠٠-

ثم دخلت

سنة خمس و ثلاثين و ستمائة

ففي رابع المحرم منها توفي بقلعة دمشق السلطان الملك الأشرف أبو الفتح موسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، و دفن بالقلعة إلى أن بنيت تربته جوار كلاسة الجامع فنقل إليها ، و تولى دمشق بعده بعهد منه أخوه الملك الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب .

و فيها: توفي الشمس محمد بن عبد الكريم بن رزمين البعلبكي النحوي فجأة ، رحمه الله و رضي عنه.

و في أواخر ربيع الأول حوصرت دمشق، و فيها الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ، حاصره الكامل أخوه و ابن أخيه الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر ، فجرى نحو الحصار المتقدم سنة ست و عشرين ، إلا أن هذا الحصار كان أكثر خرابا في ظاهر البلد و حريقا و مصادرة ، و أقل غلاء ، و لم تطل مدته فإن الصلح جرى في أوائل جمادى الأولى من السنة يوم الأربعاء، ووافق اليوم الذي كسرت فيه الفرنج على دمياط ، واليوم الذي فتحت فيه آمد . كل ذلك يوم الأربعاء

و في يوم الأحد الآتي بعد يوم الصلح توفي خطيب دمشق جمال الدين محمد بن أبي الفضل بن ياسين الدولعي ، قلت: و توفي الدولعي يوم الأحد رابع عشر جمادى الأولى من السنة ، و دفن بجيرون في مدرسته التي أنشأها ، و تولى مكانه في التدريس بالزاوية الغربية الشيخ الفقيه عبد العزيز بن عبد السلام ، وولي الخطابة بعده الكمال بن طلحة في أواخر شعبان.

و فيها : في ليلة الخميس ثاني عشر جمادى الآخرة توفي القاضي

شمس الدين محمد بن هبة الله بن الشيرازي ، و دفن من الغد في الجبل، و قد بلغ من العمر ستا و ثمانين سنة أو نحوها ، و كان آخر المشهورين بالرواية عن الحافظ أبي القاسم بن عساكر، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ، و شيعته إلى مصلى باب الفراديس عند مسجد فيروز رحمه الله و رضي عنه ، و لقد كان حسن الأخلاق ، طلق المحيا ، عالما بمذهب الشافعي مفتيا فيه ، تولى القضاء ببيت المقدس ، ثم بدمشق مرارا.

و في ليلة الاثنين سادس جمادى الآخرة أمر السلطان الملك الكامل أن لا تصلى في المسجد الجامع صلاة المغرب إلا خلف إمام واحد ، و هو خطيب الجامع، و أبطل ما عداه من أئمة الحنفية ، و الحنابلة والمشهدين و ذلك لما كان في إمامتهم من التشويش على المصلين في صلاة المغرب ، لأنهم يسرعون في الصلاة جملة بخلاف غيرها من الصلوات ، لأنهم يكونون فيها مترويين .

وفيها : جاءنا الخبر بوفاة العز بن الماسح توفي ليلة التاسع من جمادى الأولى وهو : أبو الحسن علي بن نصر الله بن علي بن الحسن بن الحسن ابن أحمد الكلالي الدمشقي بمصر ، و كان فقيها ، فاضلا من أهل بيت علم دمشقي الأصل ، و كان قد ولي التدريس بجامع السراجين بالقاهرة .

و فيها : يوم الجمعة سادس رجب توفي أمين الدين بن قوام ، و كان من خيار عدول البلد ، و أصله من الرصافة ، و فيها: ليلة الخميس الثاني و العشرين من رجب توفي بقلعة دمشق السلطان الملك الكامل بن العادل محمد بن أبي بكر بن أيوب ، و كانت مدة ملكه بدمشق شهرين ونصف تقريبا ، و كان بينه و بين موت أخيه الملك الأشرف ستة أشهر وسبعة عشر يوما ، فسبحان من لا يزول ملكه ، و دفن بقلعة دمشق إلى

أن بنيت تـربته جـوار الجامع شمـاليـه بين دويرتي السميسـاطي (١٢٦) ، ونقـل إليها ليلـة الجمعة الحادي و العشريـن من شهـر ربيع الأول سنـة سبـع و ثلاثين و ستمائة ، و تـولى دمشـق و الديـار المصريـة بعده ولـده العادل . وكان نـائبه بدمشق الملك الجواد مظفـر الدين يونـس بن مودود ابن العـادل بن أبي بكر بـن أيوب ، و تـولى بلاد الجزيرة ، و ديـار بكر ، وربيعة ولد الكامل الملك الصالح نجم الدين أيوب بن محمد.

وفيها : في سادس شعبـان توفي القاضي زين الـدين عبد الله بـن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسـدي ، عرف بابن الأستاذ بحلب، وهو قاضيها يـومئذ بعد القاضي بهاء الديـن يوسف بن رافع بـن تميم المعروف بـابـن شداد الموصلي رحمه اللـه ، و كـان فـاضلا ، علما ، رئيسـا حسـن السمت و الخلق عفيفا قدم دمشق مرات و كان أبوه من الصالحين.

و فيها : في خـامس ذي القعدة توفي القـاضي شمس الدين يحيى بن هبة الله المعروف بابن سني الدولـة ، قاضي قضاة دمشق يومئذ ، و دفن بـالجبل ، و كـان كبير السن و لـه جنازة حفلـة ، حضرت الصلاة عليـه بالجامع و شيعتـه إلى باب مصلى باب الفراديس رحمه اللـه ، و كان تولى القضاء بـالقدس الشريف قـديما ، ثم تولى نيابـة القضاء بدمشـق مرات مـن قبل الـزكي الطـاهر بـن علي ، و مـن قبل الجمال عبـد الصمد بـن الحرستـاني ، ثـم وليه شركـة مـع الشمـس الخوئي مدة ، ثـم عـزلا وولي العماد عبد الكريم بـن عبد الصمد بن الحرستاني، ثم عـزل ابن الحرستاني وولى ابن سنـي الدولة استقـلالا ، فلم يزل قاضيـا حتى توفي في التـاريخ المذكـور، و تولى بعـده استقلالا شمـس الديـن أحمد بن الخليـل الخوئي، فعـدل جماعـة من أهـل البلـد منهـم كـاتب هـذه الأحـرف أي منشيء، الكتاب، تـولى الخوئي يوم الاثنين سـابع ذي القعـدة المذكورة . و فيهـا : توفي الشيـخ أبو العبـاس بن القسطـلاني بمكة شرفهـا الله تعـالى و دفن بالمعلاة رحمه الله .

و فيها : تولى كمال الدين بن طلحة الخطابة بجامع دمشق و خطب يوم الجمعة الحادي و العشرين من شعبان. و في آخر سنة خمس قبض على الصفي ابراهيم بن مرزوق ، و استصفي جميع ماله ، و أودع السجن، ثم نقل إلى سجن حمص ، و انقطع خبره إلى جمادى الأولى سنة تسع و ثلاثين و ستمائة ، ثم إنه أخرج من سجن حمص و قدم إلى دمشق .

وفيها: قدم دمشق أبو الفضل جعفر الهمذاني ، من أهل الاسكندرية من أصحاب السلفي و سمع عليه بها.

- ٩٣٠٤ -

ثم دخلت

سنة ست و ثلاثين و ستمائة

وسلطان دمشق الجواد يونس بن مودود بن أبي بكر بن أيوب ، وبالأراضي المقدسة و أعمالها الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب ، و بالديار المصرية العادل أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن أيوب.

و فيها : توفي شيخ أصحاب أبي حنيفة بدمشق جمال الدين محمود ابن أحمد بن عبد السيد البخاري ، المعروف بالحصيري،و كان رحمه الله مسنا فقيها دينا متواضعا، مولده ببخارى في جمادى سنة ست و أربعين وخمسمائة ، و قدم دمشق فتولى تدريس النورية في سنة إحدى عشرة، وكان بها الشريف داوود بعد برهان الدين مسعود ، و توفي ثامن صفر من هذه السنة و دفن بمقابر الصوفية على حافة الطريق ، و بني قبره بحجارة، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق تحت النسر بصحن الجامع المعمور، و كانت له جنازة حفلة رحمه الله .

و فيها : في السادس و العشرين من صفر توفي بدمشق الشيخ أبو الفضل جعفر بن علي بن أبي البركات بن جعفر بن يحيى الهمذاني المقرىءالمحدث من أصحاب الشيخ الحافظ أبي الطاهر السلفي ، و كان قدم دمشق في صحبة الناصر داوود بن المعظم عيسى بن العادل أبي بكر ابن أيوب ، و بلغ رحمه الله من السن نحو تسعين سنة، و دفن بمقابر الصوفية قريبا من قبر النجم ثابت بن تاوان التفليسي رحمهما الله، حضرت الصلاة عليه خارج باب النصر ، و شيعته إلى المقبرة المذكورة المطلة على وادي بردى ، و كنت قد رأيته بجامع الاسكندرية عمرها الله سنة كنت بها، و هي سنة ثمان و عشرين و ستمائة في آخرها ، ثم رأيته بدمشق و أجاز لي و لولدي محمد و فاطمة رواية جميع مروياته.

وفيها: في السادس و العشرين من جمادى الأولى توفي الشيخ عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ صدر الدين علي بن حموية ، ففز عليه ثلاثة نفر داخل قلعة دمشق، فقتله أحدهم ، و دفن في الغد بجبل قاسيون، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق و شيعته إلى مسرح سوق الخيل والغنم، و كانت له جنازة حفلة ، و كان من بيت علم و تصوف و إمرة رحمه الله ، و كان من أعيان المتعصبين لمذهب الأشعري ، ومولده يوم الاثنين سادس عشر شعبان سنة إحدى و ثمانين و خمسمائة بدمشق .

وفيها : في مستهل جمادى الآخرة قدم دمشق مالكا لها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب، و استوزر الصاحب جمال الدين علي بن حريز ، و حاصر حمص و قصد الديار المصرية.

و فيها : توفي السديد أبو الفتيان بن عبد الرزاق الموصي إليّ في حق ولده عبد الله، يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الآخرة ، و دفن على أبيه بباب الصغير، و كان حج سنة عشر و ستمائة صحبة والدي رحمه الله. وهي حجة والدي الأولى من أربع حجات، و مولده على ما رأيته بخط عمي أبي القاسم رحمه الله، قال: ولد أبو الفتيان بن الشيخ الأمين السديد أبي القاسم بن عبد الرزاق في العشر الأول من رجب سنة ثلاث و تسعين وخمسمائة . وفي الليلة المذكورة حج والده إلى مكة حرسها الله.

وفيها : يوم الجمعة سابع و عشرين جمادى الآخرة توفي الصاحب جمال الدين علي بن سلامة بن البطين بن جرير الرقي ، و كان وزيرا للأشرف ، ثم وزر للصالح بن الكامل ، و دفن بمقابر الصوفية .

و فيها ظهر بدمشق غلاء شديد لم يعهد بمثله قبلها على ما ذكره

المشـايخ ، بلغـت غـرارة الحنطة خمسـة و عشريـن دينـارا بالمصريـة ، و ذلك ماتئـا درهـم و خمسة و عشرون درهما ، و زاد رطل الخبـز الخرجي على درهم ، و جميع أنـواع المطعومات غلت ، ثـم إن الأسعار أخذت في الارتخاء في أواخر هذه السنة و الحمد لله تعالى.

وفيها توفي الحافظ زكـي الدين أبو عبد الله محمد بن يـوسف بن محمد البرزالي الاشبيلي بحماة رابع عشر رمضان ، جاءنـا خبره إلى دمشق، وكان رحمه الله معتنيا بعلم الحديـث ، مفيدا لأصحابه ، متواضعا أقـام بدمشق سنين كثيرة بمسجـد فلوس و غيره ، و كـان شيخ الـزاوية بمشهد ابن عروة في الحديث ، ثـم سافر في هذه السنـة إلى حلب ، فلما رجع إلى حماة توفي رحمه الله.

-٦٣٧-

ثم دخلت

سنة سبع و ثلاثين و ستمائة

وسلطان دمشق الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، وبمصر أخوه لأبيه العادل أبو بكر سيف الدين.

ففيها : في أولها مات الشيخ شمس الدين أبو طالب محمد بن عبد الله بن صابر السلمي . عرف بابن سيده، من أهل بيت كبير من دمشق من أهل العلم و الحديث و التصوف ، و صحب الشيخ عتيقا و غيره رحمه الله ، كان يخضب ، و ليلة عاشوراء مات التقي محمد بن طرخان ابن أبي الحسن الصالحي الحنبلي، و كان من المشهورين برواية الحديث

وفيها: توفي الضياء بن الأثير بالموصل من بغداد و هو مرسل إليها، وهو صاحب «المثل السائر» و «الوشي المرقوم»، و كان قد وزر للأفضل.

وفيها : نقل الملك الكامل من مدفنه بقلعة دمشق إلى تربته شمالي الجامع ، في ليلة الجمعة الحادي و العشرين من ربيع الأول .

وفيها: يوم الثلاثاء التاسع و العشرين من صفر قدم دمشق صاحب بعلبك و حمص الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي، والمجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي ، فدخلا بعسكر و جند عنوة من غير حصار ، و في الغد ملكا القلعة ، و خربت بذلك دار الحديث الأشرفية وغيرها من الدور و الحوانيت تحت القلعة، و كان بقلعة دمشق المغيث بن الصالح بن الكامل بن العادل بن أيوب، وكان أبوه الصالح ببلاد فلسطين نازلا بنابلس في عسكر له، تقدم أوله إلى غزة على عزم أخذ الديار المصرية من أخيه العادل بن الكامل ، فانفض عنه جمعه لما بلغهم أخذ دمشق من ولده، و رجعوا إلى دمشق و بقي في جمع

قليل ، فأخذه ابن عمه الناصر بن داوود بن عيسى بن أبي بكر فسجنه بقلعة الكرك إلى أواخر رمضان من هذه السنة ، فأخرجه الناصر و اتفقا وقصدا الديار المصرية فأخذاها و قبضا على العادل بن الكامل ، وكان دخولها مصر في ذي القعدة من هذه السنة ، ثم رجعوا إلى دمشق في ذي القعدة سنة اثنتين و أربعين و ستمائة .

وفيها : توفي في المدرسة العادلية الفصيح محمد بن أبي النجم بن البطريق الشاعر الجزري الأديب ، و له شعر حسن فائق رحمه الله .

و فيها : في شهر رجب المرجب توفي صاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي بحمص، و جاء الخبر إلى دمشق ، و عمل له العزاء بها بجامع دمشق في الحادي والعشرين من رجب رحمه الله

وفيها : توفي بعد صلاة الظهر من يوم السبت سابع شعبان قاضي القضاة بالشام يومئذ شمس الدين أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر الخوئي الشافعي بالمدرسة العادلية، و دفن من الغد بجبل قاسيون، حضرت دفنه و الصلاة عليه ، و كان مولده سنة اثنتين و ثمانين وخمسمائة فيما قرأته بخط ولده محمد ، و كان رحمه الله حسن الأخلاق لطيفا ، كثير الانصاف ، عالما فاضلا في علوم متعددة جمة ، محققا عفيفا متواضعا كثير المداراة محببا إلى الناس ، و كانت له جنازة حفلة، وصنف تصانيف من جملتها عروض هو عندي بخطه فقلت فيه:

أحمد بن الخليل أرشده الله
لما أرشد الخليل بن أحمد
ذاك مستخرج العروض وهذا
مظهر السر منه والعود أحمد

و من لطفه ما قاله بالمئذنة الشرقية من اجتماع الفقر و القناعة أنه

قـال : ما أقـدر على إمسـاك المناصـب ، و تولى القضـاء بعـده بدمشـق والتدريس بالمدرسة العـادلية رفيع الدين عبد العزيز بـن عبد الواحد بن اسماعيل بـن عبد الهادي بـن عبد اللـه الجيلي الشافعـي ، و كان قـاضي بعلبـك قبـل ذلـك لكـن ظهر منـه سـوء سيرة و عسـف وفسـق وجـور ومصادرة في الأموال لا سامحه الله .

و فيها : في العشر الآخـر من ربيع الآخرة تـولى الخطابة بدمشـق أحق الناس بالأمـانة يومئذ الشيـخ الفقيه عز الديـن أبو محمد عبد العـزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي ، مفتـي الشام يومئذ ، ناصر السنة ، قامـع البدعـة . قلت ذكـر العز بـن عساكـر في المياومـات أنه تـولى ابن خلكان خطابة دمشـق في يوم الأربعاء ثالث شهر ربيـع الاخر سنة سبع وثلاثين وستمائة والله اعلم. وفي ربيع الآخر يوم الأحد رابع عشره كانت وقعة الهيجاوي مع الفرنج على غزة و قتل ابن علكان .

و فيها : توفي العلـم العطار الإشبيلي المحدث ، و كان فـاضلا دينا في شـوال من هـذه السنة ، و الصفـي بـن المركب في يـوم واحد ، و دفنـا بمقبرة الصوفية ، حضرت دفنهما و الصلاة عليهما .

و في سادس عشر ذي القعدة في شهر حزيران في أيام المشمش ، جاء مطـر عظيـم نهارا جـرت منـه سيول عظيمـة هـدمـت كثيرا من الحيطـان والبيوت ، و كنت يومئذ بأرض المزة.

و فيها : تـوفي بمكة الفقيـه علي الطبري خطيب مكـة ، و إمام المقـام رحمه الله تعالى .

-٩٣١٠-

ثم دخلت

سنة ثمان و ثلاثين وستمائة

في خلافة المستنصر بالله ، و سلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ، و بمصر ابن أخيه الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب.

ففيها : سلم حصن شقيف أرنون إلى الفرنج خذلهم الله تعالى سلطان دمشق ، و أنكر ذلك عليه شيخا الشافعية و المالكية بدمشق ابن عبد السلام ، و أبو عمرو ، فعزل ابن عبد السلام عن خطابة دمشق بذلك السبب ، و سجنا بقلعة دمشق ، و تولى الخطابة بجامع دمشق، والتدريس بالزاوية الغربية خطيب بيت الأبار عماد الدين داوود ابن يوسف المقدسي الشافعي .

و فيها في ثاني عشر ربيع الأول توفي الملك المظفر أبو الخطاب تقي الدين عمر بن الملك الأمجد صاحب بعلبك بأرض نوى، و حمل إلى دمشق ، و دفن بتربة والده و جده بالشرف الشمالي ، و كان له نظم حسن كأبيه، ذكره القوصي في معجمه .

وفيها : في ثالث عشر ربيع الأول توفي والدي رحمه الله و دفن على أبيه بباب الفراديس ، و فيها : في الثاني و العشرين من ربيع الآخر توفي بدمشق المحيي بن العربي و اسمه : محمد بن علي بن محمد بن العربي، أبو عبد الله الطائي الحاتمي ، قرأته من خطه و ذكره الزيني في تاريخه، ودفن بمقبرة القاضي محيي الدين بجبل قاسيون ، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق يوم الجمعة ، و شيعته إلى الميدان بسوق الغنم ، و كانت له جنازة حسنة ، و له تصانيف كثيرة ، و كانت عليه سهلة ، و له شعر

حسن ، و كلام طويل على طريق التصوف و غيره ، و هو من بلاد الأندلس ، طاف البلاد شرقا و غربا ، و أقام بمكة مدة

و في ثالث شعبان كسرت الخوارزمية بنواحي حلب .

و فيها : أسمعت ولدي محمدا الحديث في مستهل ذي الحجة من هذه السنة .

وفيها : توفي القاضي نجم الدين أبو العباس أحمد بن خلف بن راجح المقدسي الشافعي ، المعروف بابن الحنبلي بدمشق في يوم الجمعة سادس شوال سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة ، و دفن بجبل قاسيون ، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ، و كان شيخا فاضلا ، دينا عارفا في علم الخلاف وفقه الطريقة ، حافظا للجميع بين الصحيحين للحميدي، وكانت له رحلة طويلة في طلب العلم إلى بلاد خراسان و العراق، وكان متواضعا حسن الخلق رحمه الله ، و كانت ولايته لقضاء دمشق نيابة عن يونس بن بدران المصري ، و أحمد بن الخليل الخوئي ، و عبد الكريم بن أبي الفضل الحرستاني ، و يحيى بن هبة الله بن سني الدولة ، و عبد العزيز الجيلي إلى أن مات ، و درس بالمدرسة العذراوية ، والصارمية والحسامية ، و الصالحية .

و فيها : توفي الشيخ سالم المغربي الهكوري الهيلاني ، هيلان نجد من قبيلة هكورة ، المقيم ببيت الأبار ، و دفن بها في الرابع و العشرين من ذي الحجة ، و كان من الصالحين .

و في آخر هذه السنة و أول التي بعدها ظهر نقصان المياه من السماء والأرض، نقصت الأنهار، ونقصت الآبار و هلك الزرع و الثمار.

-٩٣١٢-

ثم دخلت

سنة تسع و ثلاثين و ستمائة

في دولة المستنصر بالله ، و سلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ، و بمصر الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، وعلى الأرض المقدسة الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب

ففيها : توفي العفيف بن يسار بن خلف بن سراج الشاغوري ، و كان شيخا مسنا ، عدلا ، مرضيا ، فقيها رحمه الله، و ذلك في عاشر شهر صفر المظفر . و في ذلك اليوم أيضا توفي العفيف عرب بن عمر بن علي الشافعي ، و دفنا في مقبرة باب الصغير بعد صلاة الظهر ، حضرت دفنها والصلاة عليهما .

و فيها : في نصف ربيع الآخر توفي المعلم الذي كان بمكتب جاروخ جوار المدرسة العادلية ، و كان يروي الثمانين للآجري عن الحافظ أبي الطاهر السلفي سماعا ، و قرأها لابني فسمعها عليه بقراءتي ، و كان شيخا ، أديبا ، شاعرا ، له شعر لابأس به ، رحمه الله .

و فيها : في الثالث و العشرين من شهر جمادى الأولى توفي المجد سليمان بن سالم بن مفلح العدل الفقيه الشافعي ، و دفن بمقبرة الصوفية رحمه الله تعالى .

و فيها : وصل إلى الديار المصرية شيخنا عز الدين بن عبد السلام، وحصل له من سلطانها الصالح بن الكامل قبول عظيم على ما بلغنا، وتولى الخطابة و القضاء بمصر .

و فيها : توفي الشيخ أبو طاهر إسماعيل بن ظفر بن أحمد النابلسي

بجبل قاسيون في رابع شوال ، و كان رحمه الله عنده سند عن اللبان عن أبي علي الحداد ؛ و عنده عن أبي سعيد الصفار ، عن الفراوي ، أسمعت ولدي عليه من الطريقين من ثاني شوال، ثم توفي بعد الغد منه رحمه الله.

و فيها : توفي بالموصل الشمس بن الخباز النحوي الضرير في سابع رجب المرجب ، و الكمال بن يونس الفقيه في النصف من شعبان رحمهما الله ، و كانا فاضلي بلدهما في فنهما.

و فيها: توفي بدمشق عبد الواحد الصوفي الذي كان قسا راهبا بكنيسة مريم نحو سبعين سنة ، أسلم قبل موته بأيام ، ثم توفي شيخا كبيرا بعد أن أقام بخانقاة السميساطي أياما ، و دفن بمقابر الصوفية،وكانت له جنازة حفلة حضرت دفنه و الصلاة عليه رحمه الله.

و فيها : في يوم عرفة تولى قاضي القضاة بمصر الشيخ عز الدين بن عبد السلام ؛ و جمع له بين الخطابة و القضاء ،و ذلك بعد وفاة القاضي شرف الدين الموقع ، ثم عزل نفسه مرتين و انقطع في بيته .

-٩٣١٤-

ثم دخلت

سنة أربعين و ستمائة

في خلافة المستنصر أبي جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر.

و سلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ،و بمصر أخيه الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر .

ففيها : في سابع عشر ربيع الأول توفيت الأتابكية زوجة الأشرف، وإسمها : بركات خاتون ابنة عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي،و في ليلة وفاتها كان وقف تربتها و المدرسة بالجبل .

وفيها : توفي الشيخ الصالح عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن الحسن، يعرف بابن الدجاجية ،و يعرف جده بابن أبيه، توفي ليلة الأحد الخامس و العشرين من المحرم، أحد الرواة عن الحافظ أبي القاسم ابن عساكر محدث الشام،سمع منه و هو ابن خمس و نحوها، سمعت منه أنا وولدي محمد أشياء من تصانيف الحافظ أبي القاسم ومروياته بسماعه لها منه و لله الحمد . و في ثالث عشر صفر توفي كمال الدين بن أحمد بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية بأرض غزة،و كان مقدم العساكر الصالحية يومئذ ، جاءنا خبره إلى دمشق

و في يوم الجمعة سادس عشر رجب سنة أربعين و ستمائة خطب بدمشق للإمام المستعصم بالله أحمد بن المستنصر بالله أبي جعفر المنصور، لوفاة أبيه ، و عقد له مجلس العزاء يومئذ رحمه الله .

و فيها توفي زين الدين أبو زكريا المالقي بمدينة غزة رحمه الله، و كان أديبا فاضلا ،و أسمعت عليه ولدي محمد صحيح مسلم .

-٩٣١٥-

و فيها : توفي يوم الجمعة سلخ رجب الشيخ الزكي أبو اسحاق إبراهيم بن الشيخ المسند أبي طاهر بركات بن ابراهيم الخشوعي القرشي، و دفن بعد صلاة الجمعة بمقبرة باب الفراديس على أبيه و جده، حضرت الصلاة عليه و شيعته إلى قبره رحمه الله ، و كان شيخا، مسندا صالحا ، و لم يخلف بعده من يروي عن الصائن بن أبي الحسن هبة الله ابن الحسن بالإجازة،ولا من يروي عن أخيه الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن مثله في الكثرة . سمعت عليه أنا وولدي أبو الحزم محمد ، و أم الحسن فاطمة أشياء من آمالي الحافظ و غيرها ، و لله الحمد .

-٩٣١٦-

ثم دخلت

سنة إحدى و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم بالله

ففيها استولت التاتار لعنهم الله على بلاد الروم ، سهل الله عودها إلى المسلمين .

و فيها خطب بدمشق يوم الجمعة الرابع و العشرين من ربيع الأول للسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب ، ثم قطع ذلك من السنة المذكورة .

وفيها : في سابع عشر ربيع الآخر توفي الشمس بن المنجي و اسمه: أبو الفتوح عمر بن أسعد بن المنجي الحنبلي قاضي حران قديما ، و كان فقيها يدرس بالمدرسة السمسارية ، و تولى خدما ديوانية في الأيام المعظمية ، و كان يروي عن أبي المعالي بن صابر . و القاضي الشهرزوري، وابن أبي عصرون ، اسمعت عليه ولدي محمدا عنهم .

و فيها : في ثامن عشر ربيع الآخر توفي الشيخ أبو البركات ميمون الزموري المغربي الضرير ، و كان من عباد الله الصالحين ؛ فاضلا عالما بعلم الطريقة ، حسن المحاضرة ، و صلي عليه بجامع دمشق و دفن بجبل قاسيون شمالي مقبرة الشيخ عبد الصمد الدكالي في مغارة الدم، وتعرف تلك المقبرة بفقراء المغاربة ، حضرت الصلاة عليه رحمه الله .

وفيها: توفي العز بن المنجي أخو الشمس في ذي القعدة من السنة، ودفن بمدرسته بالجبل ، ففيها : في خامس عشر جمادى الأولى توفي الشيخ الحافظ تقي الدين أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن الأزهر

الصريفيني رحمه الله و دفن بجبل قاسيون ، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق و شيعته إلى باب الفراديس ، و كان عالما بالحديث دينا ، متواضعا رحمه الله ، سمع عليه ابني محمد .

و فيها : توفيت الشيخة أم الفضل كريمة بنت عبد الوهاب في خامس عشر جمادى الآخرة . سمع عليها ابني محمد صحيح البخاري وغيره ، بقراءتي و قراءة غيري .

و فيها : في الحادي و العشرين من رجب توفي المخلص عبد الواحد ابن عبد الرحمن بن عبد الواحد بن هلال العدل الدمشقي بها ، و كان أحد أصحاب الحافظ أبي القاسم ، و توفي بجبل قاسيون سمع عليه ابني محمد أجزاء بقراءتي عليه و قراءة غيري .

و فيها : يوم الجمعة بعد الصلاة صبيحة عيد الأضحى قبض على أعوان القاضي الرفيع الجيلي الظلمة الأرجاس، و كبيرهم الموفق حسين ابن عمرو بن عبد الجبار الواسطي ، المعروف بابن الرواس لا رحمهم الله و سجنوا ثم عذبوا بالضرب ، و العصر ، و المصادرات، و لم يزل ابن الرواس في الحبس و العذاب إلى أن فقد في أواخر جمادى الأولى من سنة إثنتين و أربعين و ستمائة ، و بلغني أنه أخرج ليلا و خنق عند تل اليهود و النصارى و رمي ثم ، وفي يوم الجمعة ثامن عشر ذي الحجة تحقق صرف هذا القاضي الظالم و عزله ، ثم أخرج من داره و سجن بالمدرسة المقدمية بباب الفراديس ، ثم أخرج ليلا و ذهب به فسجن في مغارة افقه من نواحي البقاع ثم انقطع خبره، و ذكروا أنه توفي لا رحمه الله ، فمنهم من قال : ألقي من شاهق، و منهم من قال : خنق ، و في يوم الجمعة الآتي الخامس و العشرين من ذي القعدة قرىء منشور ولاية القضاء لمحيي الدين محمد بن علي بن يحيى القرشي بالجامع في الشباك الكمالي .

- ٩٣١٨ -

ثم دخلت

سنة اثنتين و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم بالله

ففيها : توفي شيخ الشيوخ أبو محمد عبد الله بن حمويه رحمه الله في سادس صفر ،و دفن على أبيه في مقبرة الصوفية، حضرت دفنه و الصلاة عليه بجامع دمشق و كانت له جنازة حفلة ، و كان رحمه الله سخيا ، متواضعا ، عالما ، فاضلا ، دينا صحيح الاعتقاد . سمع الحافظ أبا القاسم بن عساكر ، و الفقيه مسعود النيسابوري و أبا الفرج الثقفي، وأبا طاهر الخشوعي و غيرهم ، سمعت عليه أنا وابني محمد كثيراوأجاز لنا جميع ما يرويه رحمه الله .

و فيها تحقق موت القاضي الظالم الوضيع الملقب بالرفيع ، و أعوانه على ما سبق ذكره .

و فيها : مات جماعة من أصحابنا و معارفنا منهم : الكمال مسعود بن أحمد الحوراني الفقيه الشافعي ، توفي في خامس جمادى الأولى ، و دفن في مقبرة الصوفية ، و بعده بيومين توفي الشمس محمد بن الجابي، و دفن بمقبرة الصوفية أيضا ،حضرت دفنهما و الصلاة عليهما رحمهما الله تعالى .

و في هذا الشهر من السنة المذكورة كسرت الأفرنج لعنهم الله و من انضم اليهم من منافقي المسلمين كسرة عظيمة من عسقلان و غزة، ووغنم منهم أموالا عظيمة، واسر من الفرنج خلق من ملوكهم وكبرائهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، و ذهب برؤوس المقتلين والمأسورين إلى مصر، ووقع الرعب في صاحب دمشق فتهيأ للحصار وخرب رباعا كثيرة حول البلد ، و غرقت المساكن التي على حافة بردى

بين جسري بابي توما و السلامة بسبب خراب جسر باب توما و سده فرجع الماء وارتفع وصار بحرا، فوقع ماكاد، على حافته، والله المستعان .

قلت : كانت هذه الوقعة بين عسكر مصر و مقدمه ركن الدين بيبرس الصالحي ، و بين عسكر الشام و مقدمه المنصور صاحب حمص و معهم افرنج الساحل يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الأولى .

وفيها : في نحو النصف من شعبان توفي الجمال سليمان بن عبد الكريم ابن اخت عبد العزيز الشيباني ، و الشمس أحمد بن محمد بن عمارة البرجي ، رحمهما الله .

و فيها : في خامس شهر رمضان توفي تاج الدين أبو العباس أحمد بن شيخنا القاضي شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة الله بن الشيرازي رحمه الله ، و دفن بالجبل ، و كان خيرا متواضعا ، فاضلا ، أمينا ثقة ، سمع جده هبة الله بن محمد بن جميل ، و أبا عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن صدقة الحراني و غيرهما ،و أجاز له الحافظ أبو طاهر السلفي، قرأت لولدي محمد عليه أشياء من ذلك ، فسمعها عليه ، و حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ، صلى الإمام عليه ؛ و على المؤذن المعروف بديك العرش ، مؤذن بيت المقدس في ساعة واحدة . و كان هذا المؤذن مسنا ، و ابتلي بمرض طويل رحمه الله ، و قبره بمقابر الصوفية . ومما سمعه ابني محمد على الشيرازي المذكور صحيح مسلم ، بسماعه من الحراني ، عن أبي عبد الله الفراوي ، عن الفارسي ، عن الجلودي ، عن ابراهيم ، عن مسلم .

ثم دخلت

سنة ثلاث و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر ، و مدينة دمشق يومئذ محاصرة ، ففي الثامن من المحرم ضويقت مضايقة شديدة، وقد اجتمع و استولى عليها عساكر عظيمة من المصريين والخوارزمية وغيرهم ، ففي تلك الليلة أحرق قصر حجاج ، و الشاغور ، واستولى الحريق على مساجد وخانات، و دور عظيمة ومن ذلك مسجد جراح خارج باب الصغير ، و كان جامعا تقام فيه الجمعات ، ثم نصبت على دمشق المجانيق و رميت به بين باب الجابية و الصغير ، ونصبت أيضا مجانيق داخل البلد ، و ترامى الفريقان ، و أمر بتخريب حارة العقيبة خارج باب الفراديس ، و باب السلامة ، و باب الفرج، وأحرق حكر السماق خارج باب النصر ، واشتد الغلاء ، و عظم البلاء وزادت أوقية الخبز على نصف درهم ، و بلغ التبن أن بيع كل أوقية بقرطاس ، ثم أحرقت العقيبة في أول ربيع الأول .

وفيها : في يوم الجمعة الرابع و العشرين من صفر توفي صاحبنا المحدث شرف الدين أحمد بن الجوهري رحمه الله ؛ و كان فاضلا، خيرا، متواضعا مفضلا ،مفيدا،حريصا على تحصيل المسموعات، رحل في طلب الحديث ، و سمع و حصل الأصول ، ثم توفي رحمه الله ، و دفن بالجبل صلينا عليه بجامع دمشق و شيعناه إلى داخل باب الفرج، ولم يمكن الخروج لوجوود الحصار المذكور ، ثم توفي بعده في سادس شهر ربيع الأول القوام الأصبهاني ، و كان كاتبا ، فاضلا ،شاعرا، والمعين الأرموي، و كان شيخا ظريفا ، معمرا في ثامن ربيع الأول ، ثم توفي في ثالث عشر ربيع الأول المنتجب الهمذاني المقريء بالمدرسة الزنجبيلية رحمه الله وكان مقرئا مجودا، قرأ على الشيخ أبو الجود بمصر ، و انتفع بشيخنا أبي

الحسن في معرفة قصيدة الشاطبي ، ثم تعاطى شرح القصيدة فخاض بحرا عجز عن سباحته ، و جحد حق تعليم شيخنا له وإفادته، فالله يعفو عنا و عنه ، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق و شيعته إلى داخل باب الفرج، ولم يمكن الخروج معه لأجل حصار البلد ، ثم توفي في الثالث و العشرين منه التاج الأبهري الصوفي ،وكان من أهل الحديث ذو سماعات كثيرة و بخطه طباقات جمة ، و نسخ كثيرة من كتب الحديث والفقه أسمعت عليه ابني محمدا وله إجازة .

وفي ذلك اليوم مات الصفي القارىء إمام الجنائز ، و قبلهما بيوم توفي الناصح سالم قيم دار الحديث النورية رحمهم الله ، ثم توفي الشيخ حسن الصقلي القزاز ، و كان من المشهورين بالصلاح كل ذلك في ربيع الأول،

و توفي في ربيع الآخر سابع عشره الشيخ الفقيه كمال الدين أبو العباس أحمد بن كاتب الزماري رحمه الله ، و كان شيخا ، صالحا، فقيها، مشهورا ، من أصحابنا الشافعيين ، متضلعا في نقل وجوه المذهب و فهم معانيه . وهو أحد من قرأت المذهب عليه في صباي، وكان كثير الحج و الخير ، وقف جميع كتبه و فيها مصنفات جليلة تقبل الله منه ، و هو الذي ذكره شيخنا أبو الحسن في خطبة تفسيره و أثنى عليه و كان ملازم حلقة شيخنا وقت سماع التفسير ، و في أيام ختمات الطلبة رحمه الله .

و في يوم الاربعاء السادس والعشرين من ربيع الآخر توفي الشيخ الفقيه الامام مفتي الشام تقي الدين أبو عمرو عثمان بن الصلاح رحمه الله بدار الحديث الأشرفية ، و حمل على الأصابع إلى الجامع فصلي عليه بعد صلاة الظهر ، و كانت على جنازته هيبة ووقار ، و جمع متوفر، رقة شديدة و إخبات و خشوع ، ثم خرج به إلى باب الفرج ، و رجع الناس بسبب الحصار ، و خرج معه نفر دون العشرة إلى مقابر الصوفية فدفن

بها رحمه الله ، و انضاف إليهم بعد ذلك جماعة حضرت الصلاة عليه بالجامع و شيعته إلى باب الفرج . و منه استفدت علمي الحديث والفقه صغيرا و كبيرا ، و سمع عليه ابني محمد جملة من تصانيفه ومعظم السنن الكبير للبيهقي ، و غير ذلك .

و بعده بيومين توفي التقي أحمد بن العز محمد بن الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي ، بجبل قاسيون . و توفي قبله بنحو من شهرين ابن عمه أبو سليمان عبد الرحمن بن عبد الغني ، و كانا من أئمة الحنابلة بدمشق وبالجبل ، و كان أبو سليمان من الصالحين ، و في جمادى الأولى توفي شرف الدين بن قريش بدمشق ، و القاضي الأشرف بن الفاضل بمصر بينهما سبعة أيام ، وفي ثالث جمادى الأولى لما فتحت دمشق توفي العز محمد بن تاج بن الخيشي شاب من المشتغلين بالعلم المحصلين له المجتهدين فيه من أصحاب شيخنا أبي الحسن وأعزهم عليه رحمه الله ، شهدت الصلاة عليهما و شيعتهما إلى داخل باب الفرج ، و ذهب به إلى الجبل ، و بابن عساكر إلى مقبرة جده بباب الصغير .

وفي خامسه يوم الجمعة توفي الشيخ المسند تاج الدين أبو الحسن محمد بن أبي جعفر إمام الكلاسة ، كان مسند وقته ذو سماعات جمة صحيحة ، و أصول جليلة . و كان متواضعا خيرا دينا رحمه الله .

سمعت عليه أنا وابني محمد كثيرا ، سمع من عبد المنعم الفراوي، وأبي البركات الخشوعي ، و أبي الفرج الثقفي . و الحافظ أبي محمد، وعبد الوهاب بن سكينة ، و ابن طبرزد ، و حنبل ، و القاضي أبي القاسم . وأبي اليمن الكندي و غيرهم ، حضرت الصلاة عليه بالجامع بعد صلاة الجمعة ، و شيعته إلى باب الفرج ، و كانت له جنازة حفلة، وحمل على الأيدي ، و دفن بجبل قاسيون عند أبيه و أخيه .وفي ثامنة تحقق الصلح وزال الحصر عن البلد ورحل ليلتئذ عن دمشق سلطانها

الصالح إسماعيل بن العادل بن أبي بكر بن أيوب، وصاحبه المنصور إبراهيم بن أسد الدين إلى بعلبك و حمص ، و دخل البلد من الغد في تاسع الشهر نائب صاحب مصر و هو الصاحب معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ صدر الدين ، و نزل في دار سامة و هي الدار المعظمية الناصرية . و زال الخوف و الظلم عن البلد و المصادرات و الوجل، جعله الله فتحا مباركا برحمته .

و في يوم الجمعة آخر جمعة في الشهر توفي ولدي أبو الحزم محمد جمعني الله و إياه في الجنة ، و دفنته عند امه بمقبرة ابن زويزان المجاورة لمقبرة الصوفية على حافة الطريق إليها رحمهما الله و إيانا ، وأنا كنت قابله وغاسله وبلغ من العمر ثماني سنين و نصفا ، و سمع من كتب الحديث وأجزائه و من سائر العلوم شيئا كثيرا على جملة من المشايخ نحو مائة وأربعين شيخا ، ثم توفيت أخته زينب بعده بأربعة أيام، وفي ثالث جمادى الآخرة توفي الشهاب محمد بن علي بن منصور اليمني المعروف بابن الحجازي رحمه الله ، و كان من فضلاء الشبان . هو وأبوه من أصحاب شيخنا أبي الحسن المختصين به ، و دفن بجبل قاسيون، ولم أشهده لأني كنت مريضا

و فيها : ليلة الأحد ثاني عشر جمادى الآخرة توفي شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله علامة زمانه ، و شيخ عصره و أوانه بمنزله بالتربة الصالحية، و صلي عليه بعد الظهر بجامع دمشق ، ثم خرج بجنازته بجمع متوفر إلى جبل قاسيون ، فدفن بتربته التي هي في ناحية تربة بني صصرى خلف دار ابن الهادي ، حضرت الصلاة عليه مرتين بالجامع ، و خارج باب الفرج ، و شيعته إلى سوق الغنم ، ثم رجعت لضعف كان من أثر مرض قريب العهد ، و كان يوما مطيرا، وفي الأرض وحل كثير ، و كان على جنازته هيبة ، و جلالة ، و رقة، وإخبات ، و ختم بموته موت مشايخ الشام يومئذ ، و فقد الناس بموته

علما كثيرا، و منه استفدت علوما جمة ، كالقراءات و التفسير ، وعلوم فنون العربية ، و صحبته من شعبان سنة أربع عشرة ، و مات وهو عني راض، و الحمد لله على ذلك رحمه الله و جمع بيننا و بينه في جنته آمين .

و في يوم الأربعاء خامس جمادى الآخرة توفي الفقيه زين الدين يوسف بن ابراهيم بن يوسف الكردي ،و الشيخ أيوب المعروف بالمراوحي، والعماد علي بن الحجة الحنفي ، و الصدر ابراهيم بن الليث وغيرهم،وصليناعلى الجميع جملة بعد الظهر بالجامع، وشيعت جنازة الزين الكردي إلى نحو باب الصغير رحمهم الله، ثم توفي خطيب الجبل شرف الدين عبد الله بن الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة، و الضياء محمد بن عبد الواحد ، و الضياء محاسن ، والسيف أحمد بن عيسى بن شيخنا الموفق عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، وغيرهم من مشايخ الجبل . توفي الضياء محمد يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة من السنة ، و هو : محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي، وفي ليلة ثامن عشر شعبان توفي الفخر محمد بن عمرو بن عبد الكريم الحميري ،عرف بابن المالكي الساكن بالمنارة الشرقية في بيت أبي جعفر ، و دفن من الغد في مقبرة الصوفية رحمه الله .

و فيها: توفي النجم بن سلام ، و كان متولي ديوان دمشق بالقلعة بعد الشمس بن النفيس في سنة اثنتي عشرة و ستمائة ، و دام عليه و له احسان و خير ، و صدقة و تعصب ، و ضيافة ، و في شهر شعبان أيضا من سنة ثلاث و أربعين و ستمائة توفيت الصاحبة ربيعة خاتون ابنة نجم الدين أيوب ، أخت صلاح الدين و العادل و غيرهما من الملوك، وعمه الكامل ، و الأشرف ؛ و المعظم و غيرهم من الملوك . زوج مظفر الدين صاحب إربل رحمهم الله ، و دفنت بتربتها بالجبل . و توفي فيه أيضا الأمير سيف الدين قليج و دفن بمدرسته التي وقفها بمسكنه بدار الفلوس.

و في السابع و العشريـن من شهر شعبان توفي الفقيه الشيـخ الصالح علاء الـدين بـن الكردي عمـر بن أبي بكـر بن جعفـر ، و كان جـاري بالمدرسـة العادلية ، و دفـن بمقابـر ابن زويزان حضرت دفنـه و الصلاة عليه رحمه الله، و في ليلـة الأحد الثاني و العشرين من شهـر رمضان توفي بدمشق الصاحب معين الدين ابن شيـخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، و كان نائب السلطنـة بها ، و هو الذي فتحها للملك الصالـح أيوب بن الملـك الكامـل ، و أخـذها مـن عمـه اسماعيل بـن أبي بكـر بن أيـوب صاحب بعلبك ، و صلى عليه بجامع دمشق جمال الدين بن محيي الدين ابـن الجوزي ، و دفـن بالجبـل عنـد أخيـه عماد الـديـن عمر بـن شيـخ الشيوخ، رحمه الله ، و مولـد معين الدين في سنة ثمان و ثمانين وخمسمائة، وفي يوم الجمعة العشرين من رمضان تـوفي شرف الدين محمد بن القاضي شرف الديـن أبي طالـب عبد الله بـن زين القضـاة ، ودفن بـالجبل، وفي ثاني شهر شـوال توفي الأمير نجم الديـن القيمري عمر بن نـاصر الدين، ودفن بالجبل .

و فيها : اشتـد الغلاء بسبـب قطع الخوارزميـة الطرقـات ، ففي ثـامن عشر شوال بلغـت غرارة القمـح ستمائة درهم نـاصرية نصفهـا بثلاثمائة درهم ، و بيع الخبز كـل رطل بثلاثة دراهم أو بأربعـة دراهم على تفاوت الأخبار ، واللـه يكشف هـذا الضر برحمتـه ، و كان ذلـك في تاسـع شهر آذار و بقيت الصعاليك مرميين في الطرقـات ، و كانوا يطلبون لقمة ، ثم صـاروا يطلبـون فلسـا يشترون بـه نخالـة يبلـونها و يـأكلـونها كما تطعـم الدجـاج ؛ و شاهدت ذلـك بعيني ، ثـم اشتد الغلاء زيـادة على ذلك فبلغ في آخـر شهر شوال المذكـور كل غـرارة حنطة بمائة دينار صـورية، ثم نـاصرية ، ثـم سمعت أنه بيـع عشرة غرائر بعشرة آلاف درهـم وكتب بها وثيقة على المشتري إلى أجل شهـرين ، و اشتريت أنا الخبـز كل رطل بأربعة دراهـم غير مرة ، ثم تفاقم الأمر في حـادي عشر ذي القعدة فبيع الخبـز الأسود كـل أوقيتين بدرهـم ، و خبـز الشعير كل أوقتين و نصـف

بدرهم، و بلغت الغرارة في ثاني عشر ذي القعدة ألفا و مائتي درهم وخمسين درهما فضة ناصرية ، و بيع الدقيق كل أوقية بدرهم، كل رطل بنحو عشرة دراهم، وبيع الشعير كل كيل خمسين درهما الغرارة بستمائة درهم ، و الزبيب كل أوقيتين بدرهم ، ثم بيع أوقية و نصف بدرهم، وكذا الدبس بلغت الحلاوة الجوزية من الدبس كل أوقية بدرهم، وسمعت من ينادي عليها و قد نزل السعر بباب الجامع الغربي من باب البريد يقول أرخص الله أسعار المسلمين كل أوقية بستة عشر قرطاسا، فقال بعض السامعين : كنا نأخذها بعشرة فلوس الوقية ، و اليوم نفرح كيف وصلت إلى ستة عشر قرطاسا ،و بيع الباقلا الأخضر كل رطل بدرهم و ربع ، و الرز باللبن ثلاث أواق و نصف درهم ، و الأرز اليابس كل أوقيتين ، و الفحم الردي كل رطل بستة دراهم ، ولم تزل الأسعار في اشتداد و ارتفاع إلى أن بيع مد الحنطة بعشرين درهما ونحوها، و بلغت الغرارة ألفا و خمسمائة درهم، و بيع الخبز كل أوقيتين إلا ربع بدرهم، والرطل بسبعة دراهم يوم عيد النحر و قبله ؛ ثم إن الله تعالى نفس عن الناس بنزول السعر من بعد عيد الأضحى، و لم يزل يأخذ في النزول إلى أن بيع الخبز آخر السنة كل رطل بدرهمين ، واللحم كذلك، وفي سلخ المحرم بيع كل رطل و ثلث بدرهم ، و في جمادى الآخرة رطل ونصف بدرهم.

ثم دخلت

سنة أربع و أربعين و ستمائة

أولها يوم الجمعة كسرت الخوارزمية أشد كسرة و قتلت ملوكهم ، وسبيت نساؤهم ، وغنمت أموالهم بين أرض بعلبك وحمص، و كسرهم الملك المنصور ابراهيم بن المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، و معه جيوش حلب و حماة و غيرها من البلاد ، و جاءنا الخبر بذلك يوم السبت ثاني الشهر إلى دمشق ، فبيع الخبز كل رطل بدرهم و نصف ، والحمد لله على هذه النعمة ، و نسأله المزيد بفضله، ثم تسلمت قلعة بعلبك من نواب الصالح اسماعيل ، ثم تسلمت قلعة بصرى منهم . وممن قتل في تلك المعركة بركة خان مقدم الخوارزمية ، وسلطانهم وحمل رأسه إلى حلب .

و في حادي عشر صفر توفي الملك المنصور ابراهيم بن المجاهد صاحب حمص بالبستان الأشرفي بالنيرب ظاهر دمشق و نقل إلى حمص . و قبله بأيام توفي الضياء محمد بن حسان بن رافع العامري بقصر حجاج، وكانت له سماعات كثيرة بالحديث ، سمع الخشوعي ، والحافظ أبا محمد، و أبا اليمن الكندي، و القاضي أبا القاسم، وأبا حفص بن طبرزد، وحنبلا و غيرهم ، و سمع شيء من حديثه رحمه الله تعالى ثم توفي الركن بن سلطان الحنفي ، والقاضي شرف الدين الحنفي الحوراني ، و الكمال ابراهيم بن البانياسي، وغيرهم في العشر الأسط من صفر

و في ثامن عشر ربيع الأول توفي العز الإربلي عبد العزيز بن عثمان بن أبي طاهر إمام دار الحديث النورية بدمشق بقرية جوبر ، و حمل إلى مقابر الصوفية ، و كان شيخا حسنا مسنا مكثرا عن أبي طاهر الخشوعي، و أبي محمد ، و أبي اليمن الكندي ، و أبي حفص بن طبرزد،

و أبي القاسم القاضي، و فاطمة بنت سعد الخير و غيرهم، اسمعت عليه ابني محمداً كثيرا من الكتب و الأجزاء .

و في ربيع الآخر توفي الفقيه الحنفي المعروف بالعز عرفة، مدرس الصادرية ، و المجد بن البعلبكي ، و الجمال بن البلان، و في أول جمادى الآخرة توفي الحكيم سعد الدين الطبيب ، و بعده بثلاثة أيام توفي البدر العلائي الأشرفي الخادم ، و في الخامس و العشرين من جمادى الآخرة توفي الفقيه الإمام تقي الدين محمد بن محمود بن عبد المنعم المراتبي الحنبلي رحمه الله و دفن بالجبل ، حضرت الصلاة عليه ، و شيعته إلى خارج باب الفرج ؛ و كان عالما ؛ فاضلا ، ذا فنون و لي به صحبة قديمة ، و بعده لم يبق في مذهب أحمد مثله بدمشق .

وفي رجب ولد بمنزلي عبد العزيز بن أحمد بن عبد الجبار الزيني أخو ابنتي من أمها جعله الله موفقا سعيدا ، و في أول شعبان توفي الضياء عبد الرحمن المالكي العمادي الذي جلس مكان الشيخ أبي عمر ، و في حلقته بالجامع ، و في زاوية المالكية و مدرستهم رحمه الله ، و كان كريما شاعرا ، و قبله الأمير عماد الدين داوود بن موسك بن جكر ، و جاءنا الخبر بوفاة الفقيه تاج الدين اسماعيل بن جهبل رحمه الله بحلب ، وكان فقيها دينا كريما سليم الصدر ، و توفي في ثامن عشر شعبان الشيخ اسماعيل الكوراني المقيم بمقصورة ابن سنان الحنفية ، و جمال الدين محمد القلعي ، و المخلص أبو بكر بن حماد الحنبلي ، و في ذي القعدة توفي الناسخ أحمد الصيداوي المشتغل بعلوم الفقه و الحديث و الرقائق .

و في تاسع عشر ذي القعدة يوم الخميس سابع ساعة فيه دخل دمشق صاحبها الصالح نجم الدين أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب،و كان يوما عظيما بكثرة الخلق و الزينة ، و نزل عندنا بالمدرسة العادلية الشيخ الفاضل الأمير ضياء الدين أبو الحسين محمد بن اسماعيل

ابن عبد الجبار ، يعرف بابـن أبي الحجاج المقدسي ؛ و صهره الأمير العالم الفاضـل شمس الدين بـن الجناب فأقـام بها خمسة عشر يوما ، ثـم رحل إلى بعلبـك فكشفهـا ، ثـم رجـع و مضى نحـو صرخـد و تسلمهـا مـن صاحبهـا عز الـدين أيبك المعظمـي،و رحل إلى بـلاد بانيـاس و تسلم حصن الصبيبة مـن الملك السعيد بن العـزيز بن العادل و هـو ابن عم السلطان وفي خدمتـه، ثم تسلم حصن الصلت من ابـن عمه داوود بن عيسى بـن أبي بكر بن أيـوب ، و فرق بـدمشق نحو تسعين ألـف درهم على الفقراء ، فخـان فيها المفرقـون ، فنظمت فيهم قصيـدة نحو اربعمائة بيت في شرح حالهم فيها .

- ٩٣٣٠ -

ثم دخلت

سنة خمس و أربعين و ستمائة

أولها يوم الاربعاء ، فرجع السلطان الصالح أيوب إلى مصر ، و أبقى العسكر بالساحل محاصرين لبلاد الفرنج خذلهم الله تعالى بعسقلان وطبرية ، فجاء الخبر بفتح طبرية في عاشر صفر من هذه السنة ، و جاء الخبر بفتح عسقلان في أواخر جمادى الآخرة .

وفيها : توفى النظام عبد الله بن زين الأمناء بن عساكر ، و في العام قبله توفى أخوه الركن عبد اللطيف و كان متزهدا ذا وسواس.

و فيها : عزل الخطيب عماد الدين داوود بن خطيب بيت الأبار من خطابة جامع دمشق و إمامته و من التدريس بزاويته الغربية، وولي ذلك القاضي عماد الدين عبد الكريم بن الحرستاني ، و ذلك في أواخر رجب، وفي سلخه توفي المجد بن نظيف ، و في شعبان توفي الشمس ابن هلال، وفي رمضان توفي الكمال علي بن يعقوب الدولبي القاضي الشافعي، وكان فقيها أديبا ، تولى القضاء ببعلبك ، ثم بصرخد ثم برزة و بها توفي.
قلت : وجدت بخط الدولبي المذكور أنه علي بن يعقوب بن اسحاق ابن عبد الله بن أبي الحسن - هو كردي - الجوزقاني، رحمه الله تعالى ، وكان شيخا في الفقه .

و في رمضان توفي الشيخ علي المعروف بالحريري ، المقيم بقرية بصر في زاويته ،و كان يتردد إلى دمشق ، و تبعه طائفة من الفقراء و هم المعروفون بالحريرية ، أصحاب الزي المنافي للشريعة ، و باطنهم شر من ظاهرهم إلا من رجع إلى الله منهم، و كان عند هذا الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة و التهاون بها من إظهار شعار أهل الفسق والعصيان شيء كثير ، و انفسد بسببه جماعة كثيرة من أولاد كبراء

- ٩٣٣١ -

دمشق، و صاروا على زي أصحابه ، و تبعوه بسبب أنه كان خليع العذار ويجمع مجلسه الغناء الدائم ، و الرقص و المردان، وترك الاحتجار على أحد فيما يفعله ، وترك الصلوات ، وكثرة النفقات فأضل خلقا كثيرا وأفسد جمعا غفيرا ، وقد أفتى في قتله جماعة من علماء المسلمين ، ثم أراح الله منه.

- ٩٣٣٢ -

ثم دخلت

سنة ست و أربعين و ستمائة

ففيها : استولى صاحب حلب على حمص .

و في يوم الجمعة سادس عشر ربيع الآخر صلب مملوك تركي صبي بالغ ، كان لبعض الأمراء الصالحية النجمية يدعي السقسقيني زعموا أنه قتل سيده لأمر ما ، فصلب على حافة نهر بردى تحت القلعة في آخر سوق الدواب ، و جعل وجهه مقابل الشرق ، و سمرت يداه، وعضداه، و رجلاه ،و بقي من ظهر يوم الجمعة إلى ظهر يوم الأحد ، ثم مات، وكان يوصف بشجاعة ، و شهامة ، و دين و أنه غزا بعسقلان و قتل جماعة من الفرنج ، و قتل أسدا على صغر سنه و كان منه في صلبه عجائب ، فمن ذلك أنه جاد بنفسه للصلب غير ممتنع ولا جازع، بل مد يديه فسمرتا ؛ ثم سمرت رجلاه و هو ينظر لم يتأوه و لم يتغير وجهه، ولا حرك شيئا من أعضائه ، أخبرني من شاهد ذلك منه جماعة، وبقي إلى أن مات صابرا ساكنا لم يئن ؛ و لم يزد على نظره إلى رجليه وجانبيه ، تارة يمينا و تارة شمالا ، و تارة ينظر إلى الناس . قيل أنه استسقى ماء فلم يسقى؛ وتألمت قلوب من عندهم رحمة و شفقة على خلق الله تعالى من أنه صبي صغير ، و قد ابتلي بمثل هذا البلاء، و المياه تتدفق بجوانبه ، و هو ينظر إليها ، و يتحسر على قطرة منها ، و هو صابر على ذلك فسبحان من له الأمر والحكم ، و أخبرت أنه رؤيت له منامات صالحة و نور غشاه قبل موته ، و أن شكواه للعطش كان في أول يوم ثم سكن ذلك ، فقواه الله تعالى وثبته و صبره ، وأخبرني من سمعه يقول في اليوم الثاني : سقيت البارحة ما أذهب عني العطش، ثم لم يطلب الماء حتى مات ، و صار يبصق بصقة رجل ريان الكبد، حذف بها بعيدا ، و بقي بعد موته معلقا تمام يوم الأحد و أنزل ضحوة يوم

الاثنين من الغد ، رأيته اتفاقا و أنا مار إلى المدرسة الحسامية حالة انزاله، فشاهدته و قد اسودت أعضاؤه ، وغيرت محاسنه و كثر الترحم والدعاء له . و لعله كان شهيدا رحمه الله ، فإني أخبرت أنه دافع عن نفسه أمرا لم يرض وقوعه به و الله يغفر لنا أجمعين، و منها : أنه أسرع إليه الموت تخفيفا من الله تعالى عليه ، فانه بقي يومين و ليلتين. وأخبرت أن جماعة من الرجال جرى لهم مثل هذا الصلب والتسمير وأن المنية تأخرت عنهم أياما زيادة في عذابهم ، و كان قد أصابه في اليوم الثاني اختلال فلم يبق يحس بالألم و العطش ، و لم ينتظم كلامه بل صدرت منه ألفاظ دالة عل اختلاله ، خفف الله تعالى بذلك عنه ، قد كان يغفى أحيانا، ثم ينتبه مرعوبا لشدة الألم فتنقطع لذلك قلوب الناظرين إليه ، غير أنه يذكر الله تعالى .

و أخبرت أن بعض الموكلين به سأله عن حاله في غداة يوم الأحد أو السبت، و كان جوابه أن قال :طيب مع الله ، و بلغني لما سمر لم يسمع منه سوى كلمة واحدة ، و ذلك أن الذي سمره لما وضع المسمار في العضد صادف العظم ، فقال له : يا فتى تجنب العظم، وبلغني ان الذي سمره توفي في ذلك اليوم أو الذي بعده ، و هذا من عجائب ما اتفق ، فأخبر الصبي بذلك إرادة اعلامه ان الله تعالى جازاه بفعله. فقال الصبي و هو في تلك الشدة : هو في حل لا ذنب له ، لكن الذنب لمن أمره بذلك، و كان رحمة الله من أجمل الصبيان و أحسنهم وجها وأطولهم شعرا، قد كان ثمنه ألوفا من الدراهم ، و كان في قتله مكشوف الرأس و الذؤابة من شعره مسترسلة خلفه ، و لعبت به الرياح فأدارتها إلى صدره فبقي يتناولها يولع بها و يتشاغل بالعبث بها ، و بلغني أنه قال: لي يومان ما صليت كالمتأسف على ما فاته من الصلاة ، و بعضهم قال يوم علقوه كان صائما، و أخبرني من أثق به أنه سمعه يلتمس من الناظرين إليه أن يبعدوا عنه ليريق الماء ففعلوا فأراقه ، و كانت له نفس

أبية ، و قوة شديدة، أخبرني جماعة أنه كان يحرك رجليه و هما مسمرتان، فلم يزل يولع بتحريكهما إلى ان اتسع نخش المسمارين عليهما و صار يديرهما بمساميرهما لولا شدة تعلق المسامير بالخشب لقلعهما البتة ومما قيل فيه :

ومتفـــردمـــن فـــوق أعـــواد حتفـــه
يجود بنفـــس صـــانها خـــوف ربـــه

تسمـــرت الأعضـــاء منـــه فلـــم يطـــق
سجـــودا فـــأومـــأ للسجـــود بقلبـــه

تمكنـــت الآلام منـــه مسمـــرا
كئيبـــا وكـــان الموت أيسر خطبـــه

يـــرى واحـــدا والنـــاس مـــن حـــولـــه جـــذعـــة
وعطشـــان والأمـــواه تجري بتحتـــه

فيـــا حسرة منـــه على شرب قطـــرا
لقـــد طـــار ذيـــاك الشراب بلبـــه

وعـــريـــان إلا في غـــلالـــة حسنـــه
ومكشـــوف رأس ســـائبـــات بـــرحبـــه

تجول ريـــاح الجو فيـــه وتعصـــف الســـ
وافي عليـــه كـــل تـــرب بقـــربـــه

وتشرق شمـــس الصيـــف مـــن حـــر وجهـــه
لقـــد زال ذاك الحســـن مـــذ أشرقـــت بـــه

مغيرة تلـــك المحـــاســـن اذ غـــدا
أحـــق بها منهـــا فنـــادت بحـــربـــه

فيـــالـــك ممنـــوعـــا مـــن الماء ضلـــة
تفتـــت الأكبـــاد مـــن عظـــم كـــربـــه

ويـــالـــك مصلـــوبـــا بظلـــم وقســـوة
تقطعـــت الأحشـــاء مـــن ســـوء صلبـــه

ويبرد في الليـــل البهيـــم فيشتكـــي
نهارا فـــلا يسلى المقـــربـــذنبـــه

فيـــا عجبـــا ممـــن أشـــار بصلبـــه
ألا اعجـــب و أخبر عـــن قســـاوة قلبـــه

صبـــي صغير فـــائق الحســـن نـــاســـك
شجـــاع لـــه الاقـــدام في يـــوم حـــربـــه
صبـــور على هـــذي الشـــدائد كلهـــا
إلى أن أتـــاه الموت قـــاض لنحبـــه

و في سنـة سـت و أربعين و ستمائة سقطـت قنطـرة عظيمـة روميـة، كانـت على علو سـوق الرقيـق بالسـوق الكبير، فانهدم بسببهـا حوانيـت ودور كثيرة كـانـت عليهـا و متصلة بها وقعـت نهارا، و في ليلـة الأحـد الخامـس والعشرين مـن رجـب وقع الحريـق في المئذنـة الشرقيـة بجامـع دمشق فأحـرق أعلاها و جميع ما فيهـا من البيوت و المطلع جميعـه ، فإنه كـان سقالات مـن خشب، و سلـم الجامـع بفضـل اللـه تعالى و رحمتـه، وبعده بأيام يسيرة قدم السلطان الصالح أيـوب بن الكامل مدينة دمشق فأقام بها و جهز العساكر إلى حمص .

و في شعبـان تـوفي القاضي عـز الـديـن محمـد بن أبي الكـرم الحنفـي السخاوي ، و كان نائبا في الحكـم زمن الجمال المصري قاضي القضاة إلى أن مات . و في الخامس مـن شهر رمضان توفي بمصر الأفضـل الخونجي قاضي قضـاة مصر ، و كان حكيما منطقيا ، و كـان الحديث عنـه في مدة ولايته القضاء حسنـا ، سمعت الشيخ ابن أبي الفضـل و غيره يثني عليه في ذلك ، رحمه اللـه . و جاءنا الخبر في ذي القعـدة أن الشيخ أبـا عمرو عثمان بن الحاجـب رحمه الله تـوفي بالاسكندريـة في شعبان ، فسـاء ذلك من سمعه مـن البرية فإنه رحمه الله كـان ركنا من أركان الـدين في العلم والعمل ، بارعا في العلـوم الأصولية و تحقيق علم العربيـة ، متقنا لمذهب مالـك بن أنـس رحمه الله ، و كـان من أذكـى الأمة قـريحة ، و كان ثقـة حجة متـواضعا ، عفيفـا ، كثير الحياء منصفا ، محبـا للعلم و أهلـه ناشرا

له، محتمـلا للأذى ، صبورا على البلـوى . قدم دمشـق مرارا آخرهـا سنة سبع عشرة ، فـأقام بها مـدرسا للمالكية ، و شيخـا للمستفيديـن عليه في علمي القراءات والعربية ، ثم خرج هـو و الشيخ ابن عبد السلام بسبب تغير الوقت عليهما فسكنا مصر ، و كان خـروجهما من دمشق سنة ثمان و عشريـن و ستمائة ، و أخبرني صهـره الكمال أحمد بـن سليمان أنـه دفـن خارج الاسكنـدرية في المقبرة التـي بين المنارة ، قـرب قبر الشيخ ابـن أبي شامة رحمه الله .

ثم دخلت

سنة سبع و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم ، و سلطان دمشق الصالح أيوب بن الكامل مقيم بها ، قدم إليها في أول شعبان من سنة ست فأقام بها خمسة أشهر ورحل منها يوم الاثنين رابع المحرم طالبا الديار المصرية، و أمر ببناء المنارة الشرقية بالجامع ، و هي التي احترقت فعمرت على ما هي عليه الآن، وفي ذلك العام وصلت الفرنج خذلهم الله تعالى إليها في البحر ونزلوا على ساحلها من جهة بر دمياط ، و استشهد من المسلمين جماعة منهم النجم ابن شيخ الاسلام ، و دخل الأمير جمال الدين موسى بن يغمور دمشق نائبا للسلطنة في عاشر ربيع الأول منها، و نزل بدرب الشعارين ووصل الخبر بإخلاء دمياط من المسلمين و دخول الفرنج خذلهم الله إليها في البحر واستيلائهم على ما كان فيها من المؤونة والاقامة . و جرت وقعة عظيمة هلك فيها داوية الفرنج ؛ ثم ورد كتاب من مصر إلى بعض أصحابنا تاريخه حادي عشر ربيع الأول قرأت فيه : وصل الفرنج في العشرين من صفر، نزلوا في الحادي و العشرين إلى البر، وفي الثاني و العشرين أخليت دمياط، و دخلها الفرنج و هم فيها إلى الآن.

و في ربيع الآخر توفي العدل صفي الدين عمر بن محمد بن عبد الوهاب يعرف بابن البرادعي ، و كان أحد من يروي عن الحافظ أبي القاسم بن عساكر رحمه الله ، و توفي فيه أيضا الشيخ اسماعيل مقدم الخدام النبوية ، و جاءنا الخبر بوفاة ابن أمية العبدري بالقاهرة رحمه الله، وفي خامس جمادى الأولى توفي بدمشق الشريف عبد الصمد الحجازي الزاهد المقيم بالمسجد الذي بين القصاعين و الفسقار (١٢٧) رحمه الله وشهد جنازته خلق كثير ، و حمل على أيدي الرجال و أصابعهم، وكان

على طوية حسنة . حضرت الصلاة عليه بعد الظهر بالجامع و شيعته إلى المقبرة بين باب الجابية و باب الصغير رحمه الله، وعبر بسببه الأمير جمال الدين بباب البريد ، و شاهد ما أحدث من الحوانيت بطريق المسلمين في رحبة الجامع ، فأمر بإزالته و الاقتصار على الصفين المجاورين للحائطين من الجانبيين ، و كان قد أزيل ذلك مرة أخرى في زمن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، ثم رد بعد ، ثم أزيل هذا الوقت المذكور و الله تعالى يجري الخير على يد من يشاء من عباده .

و فيها : شرع في بناء المسجد خارج دمشق على نهر يزيد عند جسر ابن البعلبكي المسامت للجسر الأبيض ، و في ليلة النصف من شعبان من هذه السنة توفي بمصر السلطان الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب و أخفي بها ، و أرسل إلى ولده المقيم بحصن كيفا و هو الملك المعظم توران شاه بن أيوب فتنكر وقدم مع النجابين على زيهم وعبر على البلاد ، و لم يزل ملوك الأطراف حوله حتى وصل عانة وعدا الفرات ، و دخل البرية ، و دخل دمشق يوم الثلاثاء التاسع و العشرين من رمضان ، فنزل بالقلعة و أقام بها و أحسن إلى أهلها، ثم سافر إلى مصر يوم الاثنين في السادس و العشرين من شوال فوصل المنصورة ثامن عشر ذي القعدة ، و بها عساكر المسلمين سحرا في قبالة الفرنج الذين استولوا على دمياط ، و قبل وصول السلطان بأيام ركب الفرنج وحملوا على المسلمين سحرا على غرة فدهموهم في بيوتهم و خيامهم وتفرقوا في أزقة المنصورة و بين بيوتها ، و أيقظ الله تعالى المسلمين فاجتمعوا عليهم فقتل منهم مقتلة عظيمة منها ألف و خمسمائة فارس، ولم يفقد من المسلمين المعروفين سوى ثلاثين نفسا.

و فيها : قتل فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ و هو آخر أخوته موتا، وقتل أيضا صاحبنا الشيخ الفاضل ضياء الدين محمد بن أبي الحجاج صاحب ديوان الجيش رحمه الله ختم الله له بالحسنى، وهي

٩٣٣٩ -

الشهادة على ما كان فيه من فضل و تواضع، و لم ألق أحدا يعرف علم التاريخ مثله ، و حصل كتبا عظيمة و كانت له همة عظيمة في تحصيل الكتب ، و الفوائد و الفضائل إلى آخر عمره رحمه الله ، و قدم دمشق مرات في زمان شبيبته و حياة والده ، و في زمان شيخوخته ، و كان قدم بغداد و سمع العلامة تاج الدين الكندي ، و أبا حفص عمر بن طبرزد، والقاضي أبا القا سم الحرستاني و غيرهم و أنشدني لنفسه و لغيره .

ثم دخلت

سنة ثمان و أربعين و ستمائة

ففي ثاني المحرم،و هو يوم الأربعاء كسر السلطان المعظم توران شاه ابن الصالح بن الكامل الفرنج الذين كانوا استولوا على دمياط ، وحاصروه با لمنصورة كسرة عظيمة قتل فيها و أسر قريب من ثلاثين ألفا و أسر ملك الفرنسيس ، و أخوه و جماعة من خواصه كانوا اختفوا في منية عبد الله من ناحية شار مساح فأخذوا برقابهم ، و في سادس عشر المحرم وصل إلى دمشق غفارة الملك فرنسيس المأسور أرسلها السلطان المعظم إلى نائبه بدمشق الأمير جمال الدين موسى بن يغمور ، فلبسها و رأيتها عليه و هي أشكر لاط أحمر ، تحته فرو سنجاب ، و فيها بكلة ذهب ، فنظم صاحبنا الفاضل الزاهد نجم الدين محمد بن اسرائيل مقطعات ثلاثا ارتجالا ، كل مقطعة بيتين في مدح السلطان و الأمير أحدهما :

إن غفارة الفرنسيس التي
جاءت حباء لسيد الأمراء
بياض القرطاس في اللون لكن
صبغتها سيوفنا بدماء

و الثانية مخاطبة للأمير :

يا واحد العصر الذي لم يزل
يحوز في نيل المعالي المدى
لازلت في عز و في رفعة
تلبس أسلاب ملوك العدى

و الثالثة كتبها الأمير مقدمة كتاب إلى السطان:

أسيد أملاك الزمان بأسرهم
تنجزت من نصر الإله وعوده

فلا زال مولانا يبيح حمى العدى
ويلبس أسلاب الملوك عبيده

و في العشرين من المحرم دخل الناس كنيسة مريم بفرحة و سرور، ومعهم مغاني و مطربون فرحا بما جرى و هموا بهدم الكنيسة ، و بلغني أن النصارى ببعلبك سودوا و سخموا وجوه الصور في كنيستهم حزنا على ما جرى على الفرنج ، فعلم الوالي فجناهم جناية شديدة، وأمر اليهود بصفعهم و ضربهم و إهانتهم .

وفي صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة وصل الخبر بقتل المعظم توران شاه بن الصالح أيوب بن الكامل بن العادل في دهليز الخيمة، بعد مده السماط ضرب بسيف فانهزم ودخل برج الخشب فأحرق، فرمى نفسه الى ناحية النيل فأدرك وقطع ثم بقرية فارسكور، وكان ذلك من غلمان ابيه البحرية واستبدوا بالامر بعده، وامروا عليهم أم ولد لأبيه الصالح، وأخبرني من شاهد قتله انه ضرب اولاً فتلقى الضربة بالسيف فجرحت يده، واختبط الناس، وذلك بعد فراغهم من الاكل على السماط، فأظهر ان ذلك من بعض الحشيشية فأشار بعضهم على الباقين باتمام الامر فيه، وقالوا: بعد جرح الحية لاينبغي إلا قتلها، فركبوا ولبسوا السلاح واحاطوا بخيمته وبرجه الخشب لانه كان في الصحراء بإزاء الفرنج، خذلهم الله، فدخل البرج خوفاً منهم، فأمروا زراقاً باحراق البرج، فامتنع فضربت عنقه، ثم امروا زراقاً اخر فرمى البرج بنفط فأحرقه، فخرج من بابه وناشدهم الله في الكف عنه والاقلاع عما نقموا عليه، وطلب تخلية سبيله، فلم يجب الى شيء من ذلك، فدخل في البحر الى ان وصل الماء الى حلقه فرجع فضربه البندقداري بالسيف فوقع في الماء ثم ضربه بالسيف ضربة اخرى على عاتقه فنزل السيف من تحت ابط اليد الاخرى فوقع قطعتين، وكان قتله في أواخر المحرم يوم الاثنين، فبقي مكانه ذلك

اليـوم والغد الى ليلـة الاربعـاء ونقل الى الجانـب الاخـر من النيـل مجروراً بطـرف ثوبـه في الماء، فحفر لـه في الرمـل ودفن وتغيـب قبره، فانظـر الى هاتين الوقعتين العظيمتين الغريبتين، كيف اتفقتـا في شهر واحد احداهما في اوله: وهي الكسرة العظمى الذي استأصلتهـم ، والثانية: قتل السلطان على هذا الوجه الشنيع .

واخبرنا السيف بن الشهاب جلدك والي القـاهرة، كان أبوه: أنه لما قتل رمي في جـرف على حافـة البحر، واردم عليـه التراب، فبقي هنـاك ثلاثـة أيام، ثم كشفه الماء، فنقل الى الجانب الاخر من البحر، فدفن هناك .

وحكى قصة قتله عجباً وهو: انـه جر في الماء بصنارة، والجار له راكب في مـركـب، والصنارة بيـده تجره في الماء كـأنـه حوت الى ان عـدا بـه الى الجانب الآخر فدفنه هناك، فكان قتلـه والناس في غفلة وبهتة من أمرهـم، وعوجـل فلم يجد نـاصراً، ولقد حكـى لي المذكور انـه بقي يستغيـث من أعلى البرج برسول الخليفة يا أبا عز الـدين ادركني، وتكرر ذلك فركب في أمره و كلمهم فيه ، فتركوه وخوفوه من القتـل وخرق حرمة الخلافة فرجع، فلما فرغ من قتله نادوا: لابأس، الناس على مـا هم عليه انما كانت حاجة فقضينـاها، واستبـدوا بـالامـر، وامروا عليهـم عـز الـدين أيبـك التركماني الملقب بالملـك المعز صاحب الـديار المصرية وهو واحـد منهم ، ورجعوا الى القاهرة وكاتب امراء الشام بـاتباعهم فجرت في ذلك فصول استقرت آخراً على ان قدمت العساكر الحلبية بمن معهم من الملوك من بني أيوب مع سلطـانهم الملك الناصر صـلاح الدين يـوسف بـن العزيز محمـد بن الظـاهر بـن صلاح الـدين يـوسف بـن أيوب، رحمه اللـه، لأخذ البـلاد، والانتقام ممن افسد هذا الامر، وقتل السلطان، فنزلوا على الغوطة والبلد في أوائل ربيع الآخر، وفي يوم الأحد سابـع ربيع الآخر دخل العسكر الحلبي مـدينـة دمشـق ضحـوة النهار، وفي يـوم الاربعـاء عـاشر الشهـر، دخـل السلطان، وأمـن الناس، وأزال عنهم البـأس، وهو الملك النـاصر صلاح

الديـن يوسـف بن العـزيز محمد بـن الظاهـر غازي بـن السلطان الكبير المجاهد صلاح الدين يوسف بـن أيوب فاتح بيت المقدس، ثم ارسل الى القـلاع المجـاورة لها فسلمت كبعلبـك، وبصرى، وصرخـد، واعمالها، ثـم سلمـت عجلون والسلـط، وتقـدمت العسـاكـر الى صـوب غزة، وامتنـع حصنا الكرك والشوبـك بالمغيث بن العادل بن الكامـل، وكان قبل ذلك في حبس الصالح أيوب بن الكامـل بحصن الشوبك وأطلق في أيام هذه الفتنة وتسلم الحصنين، وبلغني انه طلب فـأبى وخاف مما جرى على ابن عمه المعظـم بن الصـالح، ثـم سار الملك النـاصر يوسـف لأخذ الـديار المصريـة، ووصـل سلخ شـوال الى العـريـش، وخرج اليـه عسكـر الترك الذيـن بمصر، فوقعت بينهـم وقعة بسمـوط بين الخشبي والعباسـة فانهزم منها العسكـر المصري ونهب، ثم انقطعـت منهم طـائفة، وانهزم الشـامي وذلـك في ذي القعـدة وسلـم السلطـان، وفقد جماعـة كثيرة مـن اقـاربـه وأمرائه بين قتـل وأسر وهرب، ووصلـوا الينا في أواخـر الشهر، وممـن قتل ضياء الـدين القيمـري، وشمس الـدين لـؤلؤ، وحسـام الديـن القيمري، وتـاج الملوك، وأسر المعظـم، والنصرة ابنا صـلاح الـدين، والصـالح بـن العادل، والاشرف بن المنصور بن أسد الـدين، ثم خلص المأسورون وفقد الصـالـح اسماعيـل ليلة الاحـد عشريـن ذي القعـدة سنـة ثمان واربعين وستمائة، ومولده سنة ثمان وتسعين وخمسمائة.

وفي تـاسع عشر مـن ذي القعدة تـوفي المجد الاسفـرائيني قـارىء دار الحديث الأشرفيـة من أول ما فتحت والى الآن، وهـو: أبو عبد اللـه محمد ابن محمـد بن عمـر بن الصفـار من أهـل بيت كبير بـاسفرائين، وكـان المجد رحمه الله من اهل العلم والديـن مقيماً بخانقاه السيمساطي، سمع المؤيد الطـوسي وغيره، حضرت جنازته والصـلاة عليه ظاهـر باب النصر، ومضوا بـه الى مقابـر الصوفيـة رحمه الله، ورجعـت لأني كنت نـاقهاً مـن مرض، والحمد لله على العافية، وعلى كل حال.

وفي الثالـث والعشرين من ذي القعـدة توفي عندنـا بالمدرسة العـادلية بدمشـق الشيخ الصـالح العالم أبـو الحسن علي بـن عبد اللـه بن الهادي الضرير الاندلسي الاشبيلي رحمه اللـه، وكان ساكناً بالبيـت الملاصق لباب السقاية وكـان رجلاً صالحاً تقياً، فـاضلاً في علوم شتى، مقبـلاً على شأنه مشتغلاً بـأوراده رحمه الله ودفن بمقبرة الصـوفية، حضرت دفنـه والصلاة عليه، وكان ذلك بعد العصر من يـوم الخميس، ورد من الاندلس في سنة إحدى وعشريـن وستمائة في البحر، فأسرته الفـرنج، ثم نجاه اللـه منهم، ووصل الى الـديار المصرية وحـج وجاور وسـافر الى بلاد اليمـن، ثم ورد مكة، ومنهـا الى الشام، وسكن دمشـق واقرأ بها القرآن، وحفـظ التنبيه في مذهب الشافعي، وفهمه وعمل بعلمه رحمه الله.

-٩٣٤٥-

ثم دخلت
سنة تسع و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم ، و سلطان دمشق الملك الناصر يوسف بن محمد ابن غازي بن يوسف بن أيوب

ففيها : توفي سعيد بن عبد الله بن جهير القرشي ، صاحبنا في ربيع الأول ، و نجم الدين عثمان بن عمر المراغي ، الشيخ الصالح ، في ربيع الآخر و دفنا بمقابر الصوفية رحمهما الله.

و فيها مات الموفق الخوئي في خامس شعبان و دفن بالجبل ، و فيها: في الثاني و العشرين من ذي القعدة توفي الحسام أبو بكر الحموي الواعظ، بلغ الحسام نيفا و تسعين سنة ، و في ذي الحجة مات الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الكافي الربعي ، و كان قد درس بالكلاسة و الأمينية ، و ناب في القضاء مدة بدمشق و حمص ، و دفن بالجبل .

و فيها : ولدت ابنتي رقية في جمادى الأول بالنصف منه ، و فيها : فرغ اسماعي التاريخ و الروضتين .

و فيها : مات بالديار المصرية خطيب القاهرة الشيخ بهاء الدين علي ابن هبة الله ، و كان أولا معيدا لشهاب الدين الطوسي بمنازل ، ودرس بزاوية الإمام الشافعي بجامع مصر ، و هو ابن بنت الفقيه أبي الفوارس ابن الجميزي رحمه الله ، و كان سمع من الحافظين ابن عساكر والسلفي بالشام و مصر. و من شهدة ببغداد.

و فيها مات صاحبنا العفيف يعقوب المهيوني بمنية ابن خصيب، وكان قاضيها و مدرسها ، و فيها : مات الرشيد عبد الظاهر المقيم بمسجد باب الزهومة رحمه الله.

-٩٣٤٦-

ثم دخلت

سنة خمسين و ستمائة

ففيها: توفي الرشيد بن مسلمة في ثامن عشر ذي القعدة و دفن بالجبل.

و فيها : توفي بمصر ابن مطروح ، و في الثالث و العشرين من ذي القعدة توفي الشريف عدنان ، و الفقيه كمال الدين اسحاق بن أحمد المقرىء المقيم ، كان بالمدرسة الرواحية ، و كان رحمه الله جامعا بين العلم و العمل ، زاهدا ، مؤثرا ، متواضعا حسن الأخلاق ، و دفن عند قبر شيخه تقي الدين بن الصلاح رحمه الله بالصوفية بالشرف القبلي بدمشق.

-٩٣٤٧-

ثم دخلت

سنة احدى و خمسين و ستمائة

ففي سادس المحرم توفي الفقيه كمال الدين أبو المكارم عبد الواحد خطيب زملكا رحمه الله ، و كان فاضلا، عالما، خيرا، متميزا في علوم متعددة ، و تولى قضاء صرخد ، و درس ببعلبك ثم توفي بدمشق ، ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله.

و فيها : في شوال توفيت ابنتي رقية رحمها الله و عمرها سنتان وخمسة أشهر و دفنت بمقابر الصوفية عند قبر أبي الزهر خال أمها ، و كان أبوه الخطيب يعني أبوه كمال الدين يسمى عبد الكريم ، هو ابن خلف بن نبهان بن سلطان بن أحمد بن خليل بن حسن بن سعيد الأنصاري السماكي ، توفي الخطيب المذكور في ذي الحجة سنة ثلاث و ثلاثين وستمائة ، و هكذا وجدت في تاريخ وفاته ، وقيل في سنة خمس وثلاثين وستمائة.

ثم دخلت

سنة اثنتين و خمسين و ستمائة

ففيها : توفي السديد بن علان ، و هو آخر من روى عن الحافظ أبي القاسم سماعا بدمشق.

و فيها : توفى بحلب النصرة بن صلاح الدين ، و الشيخ كمال الدين ابن طلحة و كان فاضلا ، عالما ، تولى القضاء ببلاد بصرى ، و الخطابة بدمشق ، ثم طلب لمنصب الوزارة فأيقظه الله تعالى ، و زهد في رئاسات الدنيا ، و تزهد و انقطع و حج في هذه السنة ، و لما رجع من الحج أقام بدمشق قليلا ، و سمع عليه فيها رسالة القشيري ، ثم سافر إلى حلب فتوفي بها في السابع و العشرين من رجب من السنة المذكورة رحمه الله ، و فيها : توفى فارس الدين يوسف بن السلار بدمشق.

و قتل بمصر فارس الدين أقطاي الذي تغلب على البلاد و قهر أهلها،و تقدم على البحرية الذين أهلكوا الناس ، و استقر ملك الديار المصرية لأيبك التركماني ، و يلقب بالملك المعز .

و فيها : توفي العفيف أحمد الصيداوي ، و كان شيخا مشتغلا بالبحث في أخبار النبي صلى الله عليه و سلم ، و الفقه ، و كتب الرقائق إلى أن مات رحمه الله في شعبان . و فيها : توفي الكمال بن تميم، و فيها : في رابع شوال توفي الناصح فرج بن عبد الله الحسيني المعروف بفتى الشيخ أبي جعفر ، رحمه الله ، و كان يسند ، كثير السماع ، خيرا، صالحا ، مواظبا على سماع الحديث و إسماعه إلى أن مات بدار الحديث النورية .

-٩٣٤٩-

و فيها : في الخامس و العشرين من شوال توفي بدمشق الشيخ شمس الدين عبد الحميد بن عيسى بـن أبي بكر بن أيوب، و كان شيخا نبيها، فاضلا، متواضعا حسن الظاهر .

- ٩٣٥٠ -

ثم دخلت

سنة ثلاث و خمسون و ستمائة

ففيها : ليلة الاثنين ثامن عشر صفر توفي بحلب الشهاب الفقيه ضياء الدين سنقر بن يحيى رحمه الله، و كان فاضلا، دينا ، ورعا و من شعره

مـــن ادعـــى أن لـــه حـــاجـــة
تخرجـــه عـــن منهـــج الشرع
فـــلا تكـــونـــن لـــه صـــاحبـــا
فـــإنـــه ضر بـــلا نفـــع

و له معجم حكي فيه عن شيوخه و عمل فيه بعض الفضلاء :

كـــم معجـــم طـــالعتـــه مقلتـــي فبـــدا
للحظهـــا منـــه فضـــل غير منقـــوص
فـــلا سمعـــت ولا عـــاينـــت في زمنـــي
أتـــم في فضلـــه مـــن معجـــم القـــوصي

قلت : طالعته فرأيت فيه أغاليظ كثيرة، وتصحيف أسماء وتبديلها، وأول ذلك في نسب نفسه بأنه انتسب الى سعد بن عبادة الانصاري، وظن أن عبادة هذا هو عبادة بن الصامت، وإنما هو عبادة بن دليم، وعبادة بن الصامت صاحب كبير غير هذا، وصحف في سند خرقة التصوف حبيباً أبا محمد حسيناً كل ذلك بخطه.

وفيها: يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول توفي الشهاب القوصي بدمشق أبو العرب اسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن الأنصاري، ودفن بداره بالقرب من الرحبة، وكان قد وقفها دار حديث رحمه الله. وكان ظريفاً حسن المحاضرة.

- ٩٣٥١ -

وفيها : في الثالث والعشرين من شوال توفي الشمس محمد بن عبد العزيز بن خلدون الشاعر الكاتب ، ولجده ذكر في تاريخ دمشق رحمه الله.

وفيها: بعد صلاة الصبح من يوم السبت الخامس والعشرين من شوال ولد لي ولد ذكر وأمه قريشية من بني عبد الدار بن قصي فأسميته أحمد، وكنيته أبا الهدى جعله الله بفضله هادياً مهدياً، وجاءني بعد خمس مرضات فدعوت الله أن يرزقني ولداً ذكراً.

وجاءنا الخبر من حلب بوفاة الشريف المرتضى نقيب الأشراف بها رحمه الله، ومن مصر بموت العباس بن ثابت المقرىء.

-٩٣٥٢-

ثم دخلت
سنة أربع وخمسين وستمائة

ففيها: توفي الشيخ عماد الدين عبد الله بن الحسن بن الحسين المعروف بابن النحاس بمسكنه بالجبل رحمه الله، وكان زاهداً، خيراً من كبار الناس ونبلائهم، وكان في أذنيه صمم فانتفع بذلك وخلص من استماع أحاديث الناس، فانتفع بالعبادة معتكفاً بمسجده، تالياً في مصحفه، وكانت وفاته يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من صفر رحمه الله تعالى.

وفيها: في ربيع الآخر توفي الزكي بن الفويرة أحد المعدلين بدمشق يوم الجمعة، وفي غد يوم السبت توفي الشمس عبد الرحمن بن نوح بن محمد ابن ابراهيم المقدسي الشافعي مدرس الرواحية بعد شيخه التقي بن الصلاح، ودفن في أول مقابر الصوفية في ثامن الشهر المذكور، وبلغني أنه كان له جنازة حفلة وكنت غائباً عنها رحمه الله. وكثر موت الفجأة في تلك الأيام فمات بها جماعة منهم: مؤذن مدرستنا العادلية الشمس الخوارزمي وغيره.

وفيها: توفي صاحبنا الأمير مظفر الدين ابراهيم بن الأمير عز الدين أيبك المعظمي، أستاذ الدار لصاحب صرخد رحمه الله، وتوفى أبوه قبله بالديار المصرية، ثم نقل الى تربته في القبة التي بناها بمدرسته التي على طريق الميدان الأخضر الكبير الشمالي، وله مدرسة أخرى داخل دمشق بالكشك تعرف قديماً بدار ابن منقذ.

وفيها: ليلة السادس عشر من جمادى الآخرة خسف القمر أول الليل، وكان شديد الحمرة، ثم انجلى، وكسفت الشمس في غده احمرت وقت

طلوعهـا وقريب غـروبها وبقيت كذلك أيـاماً متغيرة اللون ضعيفـة النور والله تعالى على كل شيء قـدير، واتضح بذلك ماصـوره الشافعي رحمه الله من اجتماع الكسوف والعيد واستبعده أهل النجامة.

وجـاء الى دمشق كتـب من المدينـة على سـاكنها السـلام بخروج نـار عندهم في خامس جمادى الآخرة، وكتبـت الكتب في خامس رجب والنار بحالها، ووصلت الكتب الينا في عاشر شعبان.

وفي أول يـوم رمضـان شنـق ألعـز الخلاطي نفسـه . في بيتـه بـالمدرسـة العادلية، أعاذنا الله تعالى من البلاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

ورد الى مدينة دمشـق حرسها الله تعالى في أوائل شعبان مـن سنة أربع وخمسين وستمائة كتـب من مـدينـة رسـول الله صلى الله عليه وسلـم فيهـا شرح عظيم حـدث بها، فيه تصـديق لما في الصحيحين مـن حديـث أبي هريـرة قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «لاتقـوم الساعـة حتى تخرج نار مـن أرض الحجاز تضيء أعنـاق الابل ببصرى»، فـأخبرني بعض مـن أثق به ممن شاهدها بالمدينة بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب، قال وكنا في بيوتنـا تلك الليالي، وكان في دار كل واحد منـا سراجا ولم يكن لها ضوء بقـدر عظمها، وإنما كـانت آيـة من آيـات الله تعالى، وهـذه صورة مـاوقفت عليـه من الكتـب الواردة فيهـا: لما كانـت ليلة الأربعـاء ثالـث جمادى الآخرة سنـة أربع وخمسين وستمائة ظهر بـالمدينة دوى عظيـم، ثم زلـزلة عظيمـة رجفـت منها المدينـة، والحيطـان، والسقوف، والأخشـاب، والأبواب ساعة بعد ساعة الى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور، ثم ظهرت نـار عظيمة في الحرة قـريباً من قـريظة نبصرها مـن دورنا بـداخل المدينـة كأنها عنـدنـا، وهي نـار عظيمـة اشعالها أكثـر مـن ثلاث منـائر،

وقدسالت أودية منها بـالنار الى وادي شظاةسيل(١٢٨) الماء. وقد سدت سبيل شظـاة وما عاد بسبيـل، والله لقد طلعنـا جماعة نبصرها فـإذا الجبال تسير نيرانـا، وقـد سـدت الحرة طـريـق الحاج العـراقـي فسـارت الى أن وصلـت الحرة فـوقفـت بعد أن أشفقنـا أن تجيء إلينـا ورجعـت تسير في الشرق ويخرج مـن وسطهـا سهـول وجبـال نيران تـأكـل الحجـارة، فيهـا أنموذج عما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز فقال عز من قائل: (انها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالات صفر)(١٢٩).

وقد أكلـت الأرض، وقد كتبت هـذا الكتاب يـوم خامس رجـب سنة أربـع وخمسين وستمائة، والنار في زيـادة مـاتغيرت، وقد عـادت الى الحرار في قريظـة طريق عير الحاج العـراقي الى الحرة كلها نيران تشتعـل نبصرها في الليـل من المدينـة كـأنها مشاعيـل الحاج، وأمـا أم النار الكبيرة فهـي جبال نيران حمر، والأم الكبيرة التـي سالـت النيران منها مـن قريظـة، وقد زادت، وماعاد الناس يرون أي شيء بعـدذلك والله يجعل العاقبة الى خير، وما أقدر أن أصف هذه النار.

وفي كتـاب آخـر: ظهـر في أول جمعـة مـن جمادى الآخـرة سنـة أربـع وخمسين وستمائة في شرقـي المدينة نـار عظيمة، بينهـا وبين المدينة نصـف يوم انفجرت من الأرض، وسال منها واد مـن نار حتى حاذى جبل أحد، ثـم وقفت وعـادت وإلى الساعـة لاندري مـاذا نفعل، ووقـت ماظهـرت دخل أهـل المدينة الى نبيهم عليه الصـلاة والسلام مستغفريـن تائبين الى ربهم، وهذه دلائل القيامة.

وفي كتاب آخـر: لما كان يـوم الاثنين مستهل جمادى الآخـرة سنة أربـع وخمسين وستمائة وقع صوت يشبـه الرعد البعيد تارة وتـارة، أقام على هذه الحال يومين، فلما كان ليلـة الأربعاء ثالث الشهر المذكـور تعقب الصوت الذي كنـا نسمعه زلازل فتقيـم على هذه الحالـة ثلاثـة أيام يقـع في اليوم

والليلة أربع عشرة زلـزلة، فلما كان في يوم الجمعة خامس الشهر المذكور انبجست الحرة بنار عظيمـة يكون قدرها مثـل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلـم، وهي بـرأي العين من المدينة نشـاهدهـا، وهي (تـرمي بشرر كالقصر) كما قـال الله تعالى، وهـي بموضـع يقال لـه أحيلين(١٣٠)، وقد سال من هذه النـار واد يكون مقداره أربع فراسخ، وعـرضه أربعة أميال، وعمقـه قامـة ونصف، وهـي تجري على وجـه الأرض، ويخرج منها أمهـاد وجبـال صغـار يسير على الأرض وهـو صخـر يـذوب حتـى يبقـى مثـل الآنك(١٣١)، فاذا خمد صـار أسود، وقبل الخمود لونـه أحمر، وقد حصل بطريق هـذه النار اقلاع عن المعـاصي والتقرب الى الله تعالى بالطـاعات، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة الى أهلها.

ومن كتـاب شمس الـدين سنان بـن عبد الوهـاب بن تميلـة الحسيني قاضي المدينة الى بعض أصحابه: لما كـان ليلة الأربعاء ثالث شهر جمادى الآخرة، حـدث بالمدينة في الثلـث الأخير من الليـل زلزلة عظيمـة أشفقنا منها وباتت بـاقي تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلـة قدر عشر نوبات، والله لقـد زلـزلت مـرة ونحـن حـول حجـرة رسول الله صلى الله عليـه وسلـم اضطـرب لها المنبر الى أن أوجسنـا منـه صـوتـاً للحـديـد الـذي فيـه واضطربت قناديـل الحرم الشريف النبوي، ودامت الزلزلـة الى يوم الجمعة ضحى، ولها دوي مثـل دوي الرعـد القاصـف، ثم طلـع يوم الجمعـة في طريـق الحرة في رأس أحيلين نار مثل المدينة العظيمـة، وما بانـت لنا إلا ليلة السبت وأشفقنا منها وخفنـا خوفاً عظيما، وطلعت الى الأمير وكلمته، وقلت لـه: قد أحـاط بنا العذاب أرجـع إلى الله فاعتـق كل ممـاليكه، ورد على جماعة أمـوالهم، فلما فعل هذا قلت لـه: أهبط الساعة معنـا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فهبـط وبتنا ليلة السبت والنـاس جميعهم، والنسوان وأولادهـم ولابقـي أحد لافي النخيـل ولافي المدينة إلا عنـد النبي صلى الله عليه وسلـم، وأشفقنا منهـا وظهر ضـوءها إلى أن أبصرت مـن مكة ومـن الفـلاة جميعها، ثـم سـال منها نهر مـن نـار وأخذ في وادي أحيلين وسـد

الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة، ومن قبلها بيومين عاد الناس يسمعون صوتاً مثل الرعد ساعة بعد ساعة، ومافي السماء غيم حتى نقول إنه منه، يومين إلى ليلة الأربعاء، ثم ظهر الصوت حتى سمعه الناس، وتزلزلت الأرض ورجفت بنا رجفة لها صوت كدوي الرعد فانزعج لها الناس كلهم، وانتبهوا من مراقدهم، وضج الناس بالاستغفار إلى الله تعالى وفزعوا إلى المسجد وصلوا فيه ودامت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها، ويوم الخميس وليلة الجمعة، وصبح يوم الجمعة الخامس من الشهر ارتجت الأرض رجة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم، وأشفق الناس من ذنوبهم، وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر، ثم ظهرت عندنا بالحرة وراء قريظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصبح الى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض، فارتاع الناس لها روعة عظيمة. ثم ظهر لها دخان عظيم في السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض إلى قبل مغيب الشمس من يوم الجمعة، ثم ظهرت لها ألسن تصعد في الهواء إلى السماء حمراء كأنها العلقة، وعظمت وفزع الناس إلى المسجد النبوي، وأقروا بذنوبهم، وابتهلوا إلى الله سبحانه، واستجاروا بنبيه عليه السلام، وأتى الناس إلى المسجد من كل فج ومن النخل، وخرج النساء من البيوت، والصبيان، واجتمعوا كلهم فأخلصوا لله وغطى حمرة النار السماء كلها حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر، وبقيت السماء كالعلقة، وأيقن الناس بالهلاك منها أو العذاب، وبات الناس تلك الليلة بين مصل، وتال للقرآن، وراكع، وساجد، وداع إلى الله، ومتنصل من ذنبه، ومستغفر وتائب، ولزمت النار مكانها، وتناقص تضاعفها ذلك ولهيبها، وصعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظونه، فطرح المكس، وأعتق مماليكه كلهم وعبيده، ورد علينا كل مالنا تحت يده وعلى غيرنا، وبقيت تلك النار على حالتها تلتهب التهاباً، وهي كالجبل العظيم، وكالمدينة العظيمة ارتفاعاً

الطريق ثم طلع الى بحرة الحجاج وهو بحر نار بحري وفوقه جمر يسير إلى أن قطعت النار الوادي وادي الشظاة، وماعاد يجيء في الوادي سيل قط لأنها حرة تجيء قامتين وثلث علوها، وبالله ياأخي إن عيشتنا اليوم مكدرة، والمدينة قد تاب جميع أهلها ولابقي تسمع فيها رباب، ولادف، ولاشرب، وتمت النار تسير إلى أن سدت بعض طريق الحاج وبعض بحرة الحاج، وجاء في الوادي منها الينا قتير، وخفنا أنها تجيئنا، واجتمع الناس ودخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم وباتوا عنده جميعهم ليلة الجمعة، وأما قتيرها الذي مما يلينا فقد طفيء بقدرة الله سبحانه وتعالى، وإنها إلى الساعة مانقصت إلا ترمي مثل الجمال حجارة من نار، ولها دوي مايدعنا نرقد، ولانأكل، ولانشرب، وماأقدر أصف لك عظمها ، ولامافيها من الأهوال، وأبصرها أهل ينبع وندبوا قاضيهم ابن أسعد وجاء وعدا إليها وما أصبح يقدر أن يصفها من عظمها، وكتب الكتاب يوم الخميس من رجب وهي على حالها، والناس منها خائفون، والشمس والقمر من يوم طلعت ماتطلعان إلاّ كاسفين فنسأل الله العافية.

قلت: بان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورها على الحيطان، وكنا حيارى من ذلك إلى أن جاءنا الخبر عن هذه النار.

ومن كتاب آخر من بعض بني القاشاني بالمدينة يقول فيه: وصل الينا في جمادى الآخرة نجابة من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرق عظيم حتى دخل الماء من أسوار بغداد إلى البلد، وغرق كثيرمن البلد، ودخل الماء دار الخليفة وسط البلد، وانهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثمانون داراً، وانهدم مخزن الخليفة، وهلك من خزانة السلاح شيء كثير، بل تلف كله، وأشرف الناس على الهلاك، وعادت السفن تدخل إلى وسط البلد وتخترق أزقة بغداد.

قال: وأما نحن فإنه جرى عندنا أمر عظيم لما كان بتاريخ ليلة

وعـرضاً، تخرج منهـا حصـى يصعـد في السماء ويهوي فيها، ويخرج منهـا كالجبل العظيم نار تـرمي كالرعد وبقيت كذلك أياماً، ثـم سالت سيلاناً في وادي أحيلين تنحدر مع الـوادي إلى الشظاة حتى كادت تقـارب حرة العريض، ثم سكنت ووقفت أيامـاً، ثم عادت النار تخرج وترمي بحجارة خلفها وأمـامها حتى بنت لها جبلين خلفهـا وأمامها، ومابقـي يخرج منها مـن بين الجبلين لسان لها أيـاماً، ثـم أنها عظمـت الآن وسناهـا إلى الآن وهي تتقد كأعظـم مايكون، ولها كل يوم صوت عظيـم من آخر الليل إلى ضحـوة، ولها عجـائب مـا أقدر أن أشرحهـا لـك على الكمال، وإنما هـذا طـرف منهـا كبير يكفـي، والشمـس والقمـر كـأنهما منكسفـان إلى الآن، وكتبت هـذا الكتاب ولها شهـر وهي في مكـانها ماتتقـدم ولاتتأخـر حتى قال فيها بعضهم أبياتاً:

يـا كـاشـف الضر صفحـاً عـن جـرائمنـا
لقـد أحـاطـت بنـا يـارب بـأسـاء

نشكـو اليـك خطـوبـاً لانطيـق لها
حملاً ونحـن بها حقـاً أحقـاء

زلازلا تخشـع الصـم الصـلاب لها
وكيـف يقـوى على الـزلـزال شماء

أقـام سبعـاً تـرج الأرض فـانصـدعـت
عـن منظـر منـه عين الشمـس عشـواء

بحـر مـن النـار تجري فـوقـه سفـن
مـن الهضـاب لها في الأرض ارسـاء

يـرى لها شرر كـالقصر طـائشـة
كـأنها ديمـة تنصـب هطـلاء

تنشـق منهـا قلـوب الصخـر إن زفـرت
رعبـاً وتـرعـد مثـل السيـف أضـواء

منهـا تكـاثـف في الجو الـدخـان إلى
أن عـادت الشمـس منـه وهـي دهماء

قـــد أثـــرت سفعـــة في النـــار لفحتهـــا
قليلـــة التـــم بعـــد النـــور ليـــلاء
تحدث النيرات السبـــــع ألسنهـــــا
بما يـــلاقـــي بها تحت الثـــرى الماء
وقـــد أحـــاط لظـــاهـــا بـــالبروج إلى
أن كـــاد يلحقهـــا بـــالأرض إهـــواء
فيـــالها آيـــة مـــن معجـــزات رســـول اللـــ
ـــه يعقلهـــا القـــوم الألبـــاء
فبـــإسمـــك الأعظـــم المكنـــون إن عظمـــت
منـــا الـــذنـــوب وســـاء القلـــب أســـواء
فـــاسمـــح وهـــب وتفضـــل وأمـــح واعـــف
وجـــد واصفـــح فكـــل لفـــرط الجهـــل خطـــاء
فقـــوم يـــونـــس لما آمنـــوا اكشـــف الـــ
ـــعذاب عنهـــم وعـــم القـــوم نعماء
ونحـــن أمـــة هـــذا المصطفـــى ولنـــا
منـــه إلى عفـــوك المرجـــو دعـــاء
هـــذا الـــرســـول الـــذي لـــولاه مـــا سلكـــت
محجـــة في سبيـــل الله بيضـــاء
فـــارحـــم وصـــل على المختـــار مـــا خطبـــت
على عـــلا منبر الأوراق ورقـــاء.

ونظم بعضهم في هذه النار وغرق بغداد بيتين:

سبحـــان مـــن أصبحـــت مشيئتـــه
جـــاريـــة في الـــوادي بمقـــدار
أغـــرق بغـــداد بـــالميـــاه كما
أحـــرق أرض الحجـــاز بـــالنـــار

قلـــت : كـــان ينبغـــي أن ينبه على أن الأمرين في سنة واحدة، وإلا فـالاغراق والاحراق يقعان

كثيراً، فالصواب أن يقال:

في سنـــــة أغـــرق العـــــراق وقـــــد
أحــــرق أرض الحجـــاز بـــــالنــــار

وفيها: في ليلة الجمعة أول ليلة من شهر رمضان هذه السنة، وهي سنة أربع وخمسين وستمائة احترق مسجد المدينة على ساكنها السلام، ابتدأ الحريق من زاويته الغربية من الشمال، وكان دخل أحد القومة إلى خزانة ثم ومعه نار فعلقت في الآت ثم واتصلت بالسقف بسرعة، ثم دبت في السقوف آخذة قبلة فأعجلت الناس عن قطعها، فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد جميعها، ووقعت أساطينه وذاب رصاصها وكل ذلك قبل أن ينام الناس، «احترق سقف الحجرة النبوية على ساكنها السلام، ووقع ماوقع منه في الحجرة، وبقي على حاله لما شرع في عمارة سقفه وسقف المسجد، وكان ذلك ليلة الجمعة وأصبح الناس فعزلوا مواضع للصلاة وعدوا ماوقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من جملة الآيات وكأنها منذرة بما يعقبها في السنة الآتية من الكائنات على ماسنذكره إنشاء الله تعالى، ونظمت في حريق مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لم يحترق حـــــرم النبـــــي لحادث
يخشـــى عليـــه ولادهـــاه العـــار
لكنكما أيـــدي الـــروافـــض لامســـت
ذاك الجنـــاب فطهـــرتـــه النـــار

وقلت أيضاً لسبب السنة:

بعـــد ســـت مـــن المئين وخمسين
لـــدى أربـــع جـــرى في العـــالم
نـــار أرض الحجـــاز مـــع حـــرق
المسجـــد مـــع غـــريـــق دار الســـلام

ثـــم أخـــذ التـــاتـــار بغـــداد في
أول عـــام مـــن بعـــد ذاك العـــام
لم يفـــن أهلهـــا وللكفـــر أعـــوان
عليهـــم يـــا ضيعـــة الاســـلام
وانقضـــت دولـــة الخلافـــة منهـــا
صـــار مستعصـــم بغير إعتصـــام
رب سلـــم وصـــن وعـــاف بقـــايـــا
المدن يـــا ذا الجلال والاكـــرام
فحنـــانـــا على الحجـــاز ومصر
وســـلام على بـــلاد الشـــام

وفي ذي القعدة توفي مجير الدين يعقوب بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في يوم الأربعاء سادس عشر الشهر المذكور، ودفن بمقبرة والده بالمدرسة العادلية.

وفي الخامس والعشرين من ذي القعدة توفي معين الدين محمد بن عبد الله بن عصرون، وكان أيضاً شاباً حسناً فاضلاً متميزاً، أحد من اشتغل عليّ رحمه الله، ومات قبله بأيام ابن عمه مجير الدين بن محيي الدين ابن عصرون. وكان أيضاً شاباً حسناً من أولاد الأكابر بدمشق.

وفي يوم الجمعة ثالث ذي الحجة توفي العز بن أبي طالب بن عبد الغفار التغلبي، يعرف بابن الحنوي وجده لأمه هو القاضي جمال الدين أبو القاسم الحرستاني الأنصاري، رحمه الله تعالى.

وفي يوم الخميس تاسع ذي الحجة وهو يوم عرفة توفي شمس الدين محمد بن المبارك السنجاري، وكان سخياً فاضلاً، سمع معي كثيراً من كتب الحديث وغيرها، لما أسمعت ولدي محمداً رحمه الله. واسمه معه في

طباق كثيرة، ثم سافر إلى مصر، وحج وجاور سنين كثيرة بالحرمين، ثم قدم دمشق، فأقام بها نحو عامين، وتوفي رحمه الله تعالى.

وفيها: ليلة الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي الحجة توفي الشيخ شمس الدين يوسف سبط الإمام أبي الفرج بن الجوزي الواعظ رحمه الله، بمنزله بالجبل، ودفن هناك وحضر جنازته خلق عظيم، سلطان البلد فمن دونه، وكنت مريضاً حينئذ فلم يقدر لي حضورها، ورأيت موته مناماً تلك الليلة قبل أن أسمع به يقظة إلا أني رأيته في حالة منكرة، ورأى غيري كذلك نسأل الله العافية. ودرس بالمدرسة الشبلية مدة كان سكنه يومئذ بالتربة البدرية الحسنية قبالتها على ثورا، وكان فاضلاً، عالماً، ظريفاً منكراً على أرباب الدولة ماهم عليه من المنكرات لزم آخر عمره سنين كثيرة ركوب الحمار طالعاً عليه إلى منزله بالجبل ونازلاً عليه إلى مدرسة العزبة بالشرف الشمالي وإلى غير ذلك، مقتصداً في لباسه، مواظباً على المطالعة والاشتغال والجمع والتصنيف ،منصفاً لأهل العلم والفضل مباينا لأولى الجبرية والجهل، يأتي الملوك وأرباب الدول إليه زائرين وقاصدين، وربي طول زمانه في جاه عريض عند الملوك، والعوالم نحو خمسين سنة، وكان مجلس وعظه مطربا، وصوته فيما يورده فيه حسناً طيباً، رحمه الله ورضي عنه.

وفيها: يوم الأربعاء الثاني والعشرين من ذي الحجة توفي الشيخ بدر الدين المراغي شيخ خانقاه الطاحون، وقع به سلم من أعلاه إلى الوادي، وكان شخصاً حسناً صالحاً فقيهاً، تولى العقود مدة، والقضاء بوادي بردى، ثم انقطع في هذه الخانقاه في آخر عمره إلى أن توفي بها رحمه الله ورضي عنه.

ثم دخلت

سنة خمس وخمسين وستمائة

ففي أول ربيع الأول توفي الأمير بدر الدين بن الحسن المغربي الميروقي، وكانت له بنت عندنا بالمدرسة العادلية، ودفن بالجبل بمقبرة ابن يغمور رحمه الله وهو من أقارب الميروقي الملك المشهور ببلاد الغرب.

وفيها: في ثامن ربيع الأول توفي الشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني، بقرية يلدا(١٣٢) ودفن بها، وكان شيخاً صالحاً مشتغلاً بالحديث سماعا إلى أن توفي، وله نحو من مائة سنة، أخبرني أنه كان مراهقاً في سنة سبع وستين رحمه الله حين طهر نور الدين بن زنكي ولده، وأنه حضر الطهور، ولعب الأمراء بالميدان في فرشة مع الصبيان، وأخبرني أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يارسول الله بالله ماأنا رجل جيد؟ فقال: بلى أنت رجل جيد، أسمعت عليه ولدي أبا الحزم محمداً رحمه الله كثيراً بقراءتي عليه وقراءة غيري، وأجاز لابني أبي الهدى أحمد أنشأه الله صالحاً رواية جميع مايجوز له عنه روايته رحمه الله.

وفيها: في منتصف ربيع الأول توفي الشيخ شرف الدين محمد بن أبي الفضل المرسي رحمه الله، في طريقه من مصر إلى الشام، ودفن بمنزله بين العريش والداروم، وكان شيخاً فاضلاً متقياً كثير الحج محقق البحث مقتصداً في أموره، كثير الكتب معتنياً بالنفيس منها محصلاً لها، وقد كان أعطي قبولاً بالبلاد الاسلامية، لايحل في بلد إلاّ ويكرمه رؤساؤها وأهلها، وأكثر مقامه بالحجاز ومصر والشام، وفي أوائل شهر ربيع الآخر جاءنا الخبر من ديار مصر بموت ملكها حينئذ عز الدين أيبك التركماني أحد مماليك نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل بن أيوب، وهو الذي غلب عليها بعد قتل ابنه المعظم بن الصالح بن الكامل، وتلقب بالملك

المعز، وكثر الظلم والقتل بتلك الديار من المماليك المعروفين بالبحرية في أموال المسلمين ونسائهم، وأولادهم إلى أن قتل رفيقه فارس الدين أقطاي، ثم مات هذا التركماني بداره بغتة ولايعلم سبب موته، وتعصب أصحابه لإقامة ابنه مقامه، ولقبوه بالملك المنصور نور الدين علي، وضرب الدراهم باسمه واتهموا زوجة التركماني أنها قتلته، فأعدموها وكانت جارية لسيدهم الملك الصالح أيوب بن الكامل، تكنى أم خليل بابن له منها درج، وتلقب شجر الدر، الله يصلح أمور المسلمين، وكانت أيضاً قد خنقت وزيرها القاضي الأسعد شرف الدين الفائزي

وفي هذه السنة نظمت قصيدتين في أم ولدي أحمد ست العرب ابنة شرف الدين محمد بن علي بن دنو القرشي العبدري الأندلسي المرسي، وكان من أهل الفضل والرئاسة في الدنيا ومن وجوه بلده:

تزوجت من أولاد دنو عقيلة
بها من خصال الخير ما حير العقلا
مكملة الأوصاف خلقاً وخلقه
فأهلاً بها أهلاً وسهلاً بها سهلا
ولود ودود حرة قرشية
مخدرة مع حسنها تكرم البعلا
وباذلة نظيفة ولطيفة
من أظرف انسان وأحسنهم شكلا
صبور شكور حلوة وفصيحة
ومتقنة أي تتقن القول والفعلا
تغار من أسباب النقائص كلها
وتحفظ مال الزوج والنفس والأهلا
حصان رزان ليس فيها تكبر
قنوع فلا شرب يدوم ولا أكلا
مطاوعة للبعل يقظى أديبة
موافقة قولاً وفعلاً فما أعلا

صغيرة سن في الكلام كبيرة
نهاها يري بالها الحلم والجهلا
يشرن عليها بالتفرج مرة
فتأبى وقعر البيت في عينها أحلى
مدارية للأهل إن عتبت وإن
أحبت فلا عقد لديها ولا غلا
رقيقة قلب مع سلامة دينها
فلست ترى شبهاً لها في النسا أصلا
خدوم بقلب في جميع أمورها
مباشرة للكل مادق أو جلا
ملازمة للشغل في البيت دائما
على صغر من سنها لا تني فعلا
مطرزة خياطة ذهبية
مفصلة خطاطة تحكم الغزلا
تنقل في الأشغال من ذا وذا وذا
وتفعل حتى الكنس والطبخ والغسلا
وماذاك من عدم فلم يخل بيتها
من امرأة تكفي إذا شاءت الفعلا
ولكنها اعتادت نظافة شغلها
فعافت فعال الكل واحتملت فعلا
خفيفة روح مع وقار ذكية
فتفهم ما يلقى لديها وما يتلى
وان نظرت ما لم تعرفه صممت
عليه إلى أن تحتويه وما اختلا
لها همة عليا تطول روحها
على صعب الأشغال تتركه سهلا
مربية حنانة ذات رحمة
فكل يتيم واحد عندها فضلا

نفـــور إذا ارتـــابـــت ألـــوف أهلهـــا
فمهـــلاً إذا قيـــس النســـاء بها مهـــلا
كـــذلـــك كـــان الحظ لما تعـــرضـــت
لـــه حـــاصـــلاً فيهـــا صحيحـــاً ومـــا اعتـــلا
سريعـــة دمـــع العين مـــن رقـــة بها
فيـــا بعـــد أن تلقـــى لها في النســـا مثـــلا
عـــديمـــة لفـــظ والتفـــات إذا مشـــت
صمـــوت فـــلا قطعـــا تـــرد ولا وصـــلا
ولم ينكشـــف منهـــا بنـــان بجار مـــن
مشـــى معهـــا في حفظهـــا يسدهـــا قبـــلا
يعـــز على مـــن يطـــرق البـــاب لفظهـــا
جـــوابـــا فـــلا عقـــد تـــراه ولا حـــلا
يطيـــل وقـــوفـــاً لا يجاب محرم
عليهـــا كـــلام الأجنبـــي وإن قـــلا
تميـــز حتـــى في الكـــلام فـــلا تـــرى
لها لفظـــة إلا وقـــد وقعـــت فصـــلا
ولســـت تـــرى مـــن لثغـــة في كـــلامهـــا
فـــألفـــاظهـــا درينضـــد أو أغلى
إذا أبصرت مـــا فيـــه عيـــب لها أبـــت
وتفعـــل مـــا تهوى طـــريقتهـــا المثلى
وحـــافظـــة للغيـــب صـــالحة أتـــت
لحق إذا كـــانـــت منـــاقبهـــا تتلى
وقـــانتـــة صـــوامـــة ومـــدلـــة
بعقـــل وتـــدبير تـــراه العـــدا بخـــلا
يقـــر لها بـــالفضـــل في العقـــل كـــل مـــن
يـــراهـــا مـــن النســـوان مـــا تعـــرف الهزلا
مـــن المحصنـــات الغـــافـــلات فمـــن رمـــى
حصـــانتهـــا يلعـــن وذاك بـــه أولى

تجمع فيها عفة ونزاهة
وعزة نفس فهي تكلا ولا تقلا
وأحسن من ذا كله ان هذه
الخصائل طبع لم تكلف لها حملا
تقل نظير في نساء زماننا
فلا تعذلوني في محبتها عذلا
بنيت بها بنتا الأربع عشرة
وهذه الخصال الغر في ذاتها تحلا
وأوصافها في كل عام تزايدت
ولم تتغير قط سيرتها الأولى
وحسبك عشر من سنين لها انقضت
معي لم أقل أف لديها ولا كلا
ولقد جملت لا غير الله ما بها
عشيرتها والأمر من بعد ذا أعلى
فلله حمد دائم ونسائله
مزيد الذي أسدى وتتميم ما أولى
ولكن فيها نفرة وتغيض
وسرعة غيظ عند لفظ لها يعلا
فوالله ما أدري أذلك مسقط
مناقبها عند الجحود لها أم لا

و خامس عشر جمادى الآخرة توفي بدمشق الشيخ أبو العباس أحمد ابن يوسف التلمساني المقيم بالمنارة الشرقية بالجامع من سنين كثيرة، وكان شيخاً معمراً منقطعاً عن الناس محباً للعزلة، ودفن بالجبل، وكان يروي كتاب الأحكام الصغرى لعبد الحق الاشبيلي عن البرهان بن غلوش، مدرس المالكية بدمشق عن المصنف رحمه الله.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر ذي الحجة عمل صلاة الغائب عن الشيخ نجم الدين البادرائي هو:

أبو محمد عبد الله بن أبي الوفاء محمد بن الحسن بن عبد الله بن عثمان ابن أبي الحسن حسون، مولده يوم الجمعة بعد العصر سلخ المحرم سنة أربع وتسعين وخمسمائة، وتوفي يوم السبت مستهل ذي الحجة سنة خمس وخمسين وستمائة ببغداد، ودفن قريباً من الجنيد رضي الله عنه، درس بالنظامية وبمدرسته التي أنشأها بدمشق في موضع دار سامة، وكان شيخاً فاضلاً صالحاً، فقيهاً، كريماً، متواضعاً وكان يقدم الشام والديار المصرية رسولا من قبل آخر خلفاء بغداد وهو: المستعصم بن الظاهر بن الناصر بن المستضيء، وبنى بدمشق المدرسة المذكورة وهي مدرسة حسنة للفقهاء الشافعية، ووقف عليها وقوفاً حسنة، وجعل بها خزانة كتب جيدة، ثم رجع إلى بغداد في هذه السنة فولي قضاة القضاء بها على كره منه لذلك، وأخبرني من حضر موته ببغداد أن وفاته كانت أول يوم من ذي الحجة، ودفن بمقبرة الشونيزي وبقي في القضاء سبعة عشر يوماً، وبعد موت البادرائي بأيام قلائل نزلت التاتار خذلهم الله على بغداد، والخليفة بها يومئذ هو المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن المستضيء ابن المستنجد، واستولوا عليها في السنة الآتية كما سيأتي ذكره.

وفي ذي الحجة من هذه السنة توفي الشيخ يوسف الواسطي الأعرج المقرىء، كان بجامع دمشق تحت قبة النسر، وكان أحد القراء بالتربة الأشرفية، وكان أحد الشيوخ الصلحاء الصابرين على البلاء، كان مصاباً بيديه ورجله، ومع ذلك هو مرابط على الطهارة، والصلاة، وقراءة القرآن وإيثار الفقراء، وهو من أصحاب الطائفة الرفاعية الواسطية، ومن مشايخهم بدمشق، وكانت وفاته بالمدرسة الصادرية بحضرة باب الجامع من جهة باب البريد رحمه الله، ومات سيف الدين المشد علي بن عمر بن قزل الشاعر صاحب الديوان في تاسع المحرم.

ثم دخلت

سنة ست وخمسين وستمائة

ففي أولها في المحرم استولى التاتـار خذلهم الله على بغداد، فقتلوا ونهبوا وفعلوا ما جرت عـادتهم عند استيلائهم على بلاد العجم، على مـا ذكرناه في كتـاب السيرة العـلائيـة والجلاليـة والأخبـار في تفصيـل ذلـك كثيرة، استولي على الخليفـة وأهله بمكيـدة دبرت مـع وزير بغـداد فمن أحسـن ماأنشد في ذلك بيت لابن التعاويذي:

بـــــادت وأهلـــــوهـــــا معـــــاً فبيـــــوتهم
ببقـــاء مـــولانـــا الـــوزيـــر خـــراب(١٣٣)

وجاء كتاب من بعـض من سلم منهم ببغداد يقول: والأمـر أعظم مما بلغكم من الأخبار، اللهم عافنا وبلادنا من كل سوء.

وفي صفر تـوفي صاحبنا الشيـخ شمس الـدين محمود النـابلسي، وكان شيخاً صالحاً مـرتاضاً حسن الصحبـة والأخلاق، فقيراً فاضلاً نـاب عني في الصلاة بـالمدرسة العادليـة مدة في مرضي، وفي غيبتـي زمن الخروج إلى البساتين، ثم قرأ القـرآن بجامع التوبة بالعقيبـة إلى أن توفي، ودفن بمقبرة ابن زويزان حضرت دفنه والصلاة عليه رحمه الله.

وفي صفر أيضـاً توفي الشيـخ الصالح خليـل، يعرف بـالشيخ يـوسف الكردي، كـان مقامه بمسجـد الربوة ويـدخل إلى الجامع بـدمشق ويخرج إلى الربوة عشية منفرداً، دائم الذكر والصلاة والانقطاع عن الناس، وكان الله قدألبسه الهيبـة والوقار وذلك من علامـات الأبرار رحمه الله ورضي عنا به وبأمثاله.

وفي أوائل ربيع الأول توفي علاء الديـن حمزة بن الحجاج، أحد الشهود

المعدلين بدمشق من أهل البيوتات، وكان فقيهاً ديناً بقي عندنا بالمدرسة العادلية مدة بعد مقامه بحلب، ثم صار من الشهود المرتبين بباب الجامع رحمه الله، وفي هذا الشهر توفي الموفق محمد ابن بنت البكري شاب شريف حسني صالح فقيه بار بوالديه رحمه الله.

وفيها: توفي عون الدين بن العجمي ناظر ديوان الجيش، والنور الأسعردي الشاعر، والمجير الكتبي وعبد الله البعلبكي، أحد رجال الحكم، وكان يبذل نفسه لقضاء حاجة من يندبه بالمدرسة رحمه الله، وفي أول ربيع الأول توفي الشمس علي بن النشبي نائب الحسبة، كان في زمن ولاية الصدر البكري لها، وكان من أهل سماع الحديث واسماعه، وقرأ منه كثيراً على شيوخ ابن عساكر العماد بن الحافظ، وشيخينا الآخران:

الفخر، وزين الأمناء وغيرهم، ومات أيضاً القاضي أحمد من باب شرقي، والبرهان السويدي، بمدرسة العادلية ووقف كتبه بمدرسة ابن رواحة، ومات النجم أخو البدر؛ وكان يسمع برواية ابن الفاضل بالكلاسة باجازته من السلفي، وفي يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر توفي الخطيب بدر الدين يحيى بن الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام خطيب جامع التوبة بالعقيبة، ودفن بباب الصغير على قبر جده وكان الجمع في جنازته كثيراً، وفي ذلك اليوم مات الفخر بن عوضة.

وجاءنا الخبر من حلب بموت الشيخ أبي عبد الله الفاسي، وكان صالحاً، عالماً، فاضلاً، وشرح قصيدة الشيخ الشاطبي شرحاً حسناً، وفي شهر جمادى الأول توفي الشمس أبو القاسم بن اللهيب متولي الحشرية بدمشق ودفن بجبل قاسيون حادي عشره، وقال فيه صاحبنا الكمال علي ابن الظهير لما كان ينال منه:

اليوم زار ابن اللهيب أباه
ورأى الذي قد قدمته يداه

لم ينتفـــع بـــالظلـــم لكـــن ضره
إذ كـــان حســـب الظـــالمين الله

وفي ثـاني عشره تـوفي الكمال بـن الأريسي، أحـد متولى الـدواويـن السلطانية بقلعـة دمشق، كان مشكوراً فيها، وفي ثالـث عشر توفي الفخر الياس عتيق الشيـخ تاج الدين الكنـدي، وكان مشرفاً بالجامـع على فرشه وزيته، وكـان لنا رفيقاً عـام حجنا سنـة اثنتين وعشرين وستمائة رحمه الله، ووقع وبـاء كثير في زمن الـربيع وهـو من أعجـب مايـؤرخ، فعم النـاس المرض وكثـر الموت. فممـن مـات فيه الفقيـه البغدادي المعـروف بالنكـرة الشافعـي، والزين بن عبـد الملك المقدسي الحنبلي وكيل المجير بـن صارم الديـن، والمنتجب عبـاس الحنفي السـاكن بـالمدرسة الصـادرية، ومكـي خطيب زملكا، وسيف الدين بـن صبرة والي شرطة دمشق، وذكروا أن حية عظيمة خـرجت عليـه عند مـوته فضربتـه بين أفخاذه، وقيـل غير ذلك. وقيل انها انـدرجت معه في أكفـانه. وسألـت عنه فقيل لي كـان نصيرياً، رافضياً، خبيثاً، مدمن خمر نسأل الله تعالى العافية.

ومات أيضاً أبو كامل محمد الحوراني جـارنا بحارة الخاطب، ومحمد بن الـزين خـالـد، والشيـخ ابـراهيم الأسـود خـادم قبـر الشيـخ رسـلان

والملك الصالـح ابن أخي صاحـب الجزيرة المعظم سنجر شـاه، وكان أبوه يلقب النـاصر سنجر شاه بن مودود بن زنكـي. والملك الناصر داود ابن المعظـم عيسى بن العـادل أبي بكر بـن أيوب، وكان سلطـان دمشق بعد أبيه نحواً مـن سنة ثم اقتصر له على الكرك وأعماله، ثـم سلب ذلك كله، وصـار منتقلاً في البـلاد موكـلاً عليه، وتـارة في البراري إلى أن مات موكلاً عليه بالبويضا قرية قبلي دمشـق، كانت تكون لعمه مجير الدين بن العادل، وحمل منها فصلي عليه عند باب النصر، ودفن بجبل قاسيون عند أبيه بالمقبرة المعظمية بدير مران، وخلف أولاداً كثيرة وأتباعاً من أهله.

ومات أيضاً النجم بن أخي نقيب الأشراف يومئذ، بهاء الدين علي وكان متجاهراً بالرفض.

وفي مستهل جمادى الآخرة توفي محتسب دمشق فتح الدين بن العدل بمنزله بالجبل، وكان خيراً وقوراً متواضعاً رحمه الله، وتولى مكانه الحسبة أخوه ناصر الدين، وفي ذلك اليوم أيضاً توفي سعد الدين محمد بن الشيخ محيي الدين محمد بن العربي رحمه الله، وكان من الفضلاء العقلاء، كتب إليّ من نظمه يستعير مني الروضتين الذي صنفته:

بك ملة الاسلام عاد شبابها ... يا من بفتياه استبان صوابها

هذي ثمار الروضتين زكاتها ... وجبت عليك غداة تم نصابها

فامنن علي بها العلي اجتلي ... ثمرات علم راحتاك سحابها

وأنا الكفيل بحفظها وبحفظها ... ويكون أسرع من نداك إيابها

وأجل قدرك أن أرى متحيراً ... طلباً لها وتكون أنت شهابها

وفي ثالث جمادى الآخرة توفي نظام الدين المولى الحلبي، وكان كاتب الانشاء لدمشق وحلب للناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن السلطان الكبير صلاح الدين يوسف بن أيوب، كان كاتبه وصاحب سره، وكان عاقلاً، ثابتاً متواضعاً مشكوراً فيما كان فيه ودفن بالجبل.

ومات في الشهر الماضي جمادى الأول شخص زنديق يعرف بالشهاب النقاش، وكان يتعانى الكلام على طريقة الحكماء، وانكار النبوات والازراء بها أهل الاسلام عليه، وكان يسكن بالمدرسة النورية، ويجلس

كثيراً على بـاب مشهد علي في قبـة يزيـد بالجامـع ويجتمع اليـه عدد مـن جنسه الزنادقة لارحمه الله.

وفي سـادس جمادى الآخرة تـوفي النجيـب بـن الشقيشقة، أبـو الفتـح نصر الله بن أبي العز بن أبي طالب الشيبـاني المعروف بابن الصفار أيضاً، كـان قد سمـع كثيراً، لكنه لم يكـن بحال أن يـؤخذ عنـه،. كان مشهـوراً بالكذب ورقـة الدين وغير ذلك، نعـوذ بالله من شرور أنفسنا، وهـو أحد الشهود المقدوح فيهـم:فممن استشهده أحمد بن يحيى بـن هبة الله الملقب بالصـدر بن سنـي الدولـة في حال ولايتـه قضاء القضـاة بدمشـق، وكان مراعيـاً لأرباب الجاهـات كثيراً، فإنما استشهده لأجـل جاه كـان النجيب متصلاً به، وميزه بـأن جعله عاقداً للأنكحة بباب جـامع دمشق، فعجب الناس منـه وأنكروا مافعلـه وأنشدني البهاء الحافـظ لنفسه في ذلك أبيـاتاً منها:

جلـــس الشقيشقـــة الشقـــي ليشهـــدا
بـــــأبيكما مـــــاذا عـــــدا مما بـــــدا
هـــل زلـــزل الـــزلـزال أم قـــد اخــرج الـــ
دجـــال أم عـــدم الـــرجـــال ذوو الهدى
عجبـــاً لمحلـــول العقيـــدة جـــاهـــل
بـــالشرع قـــد اذنـــوا لـــه أن يعقـــدا

وفي سادس عشر جمادى الآخـرة توفي النجـم محمد بـن خضر المعروف بابـن طاووس، كان نقيب القـاضي صدر الدين بـن سني الدولة فـأثرى بعد فقـر كحال مخدومه. ومات الشيـخ يوسف النوزري الـذي كان مقيماً بشرقي الكلاسة، ويقرأ عليه القرآن، وكان منسوباً إلى الصلاح رحمه الله.

وفي أواخـر شهر رمضـان توفي جمال الـديـن ابراهيـم المعروف بصهـر المكرم، وكـان يومئذ خطيـب دومة تـوفي بها وحمل إلى جامع التـوبة فصلي عليه به، وذهب به الى الجبل، وكـان شيخاً بهياً متودداً رحمه الله، وفي آخر

رمضان توفي العز بن القيسراني متولي ديوان المظالم بالقلعة بدمشق، ومات أيضاً الرشيد النهاوندي الصوفي الذي كان مقيماً بالكلاسة قديماً زماناً طويلاً. وفي ثالث ذي القعدة توفي الشرف الإربلي واسمه الحسين ابن ابراهيم، وكان شيخاً مسنداً له سماعات كثيرة عن الخشوعي، والحرستاني، والكندي والحافظ البهاء وغيرهم، وفي رابع ذي القعدة توفي الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري بالقاهرة رحمه الله ورضي عنه. وفي العشرين منه توفي الأمير سيف الدين استاذ الدار الناصري. والتاج الساوي بعده بيومين. وجاءنا الخبر من مصر بموت صدر الدين الحسني ابن محمد البكري توفي في حادي عشر ذي الحجة.وبهاء الدين زهير الكاتب. والمعين بن وردان.

وكثرت الرجفات بقصد التاتار بلاد الشام، ونزولهم على الفرات إلى بلاد آمد وغيرها. وفتك فيهم صاحب ميافارقين الكامل بن شهاب الدين غازي بن العادل أيده الله بنصره لما حاصروها، وصبر على مجاهدتهم أكثر من سنة ونصف، ورحلوا عنها بالخيبة والعجز.

ثم دخلت

سنة سبع وخمسين وستمائة

ففي رابع المحرم توفي البهاء بن الحافظ المعروف بابن الدجاجية، وكان شيخاً فاضلاً، شاعراً رحمه الله، وفي سابع صفر توفي المعين المؤذن العادلي، وكان معمراً ممن أدرك دولة نور الدين زنكي رحمه الله، وخدم صلاح الدين فمن بعده من الملوك إلى أن قعد في بيته زمناً قبل موته بسنين، ثم توفي وقد جاوز المائة.

وفي خامس عشر صفر توفي المجد الإربلي النحوي المعروف بالمحلي، وكان يشهد بباب الجامع ويقرىء في حلقة ابن طاووس جوار البرادة بالجامع، وهو الموضع الذي كان يقرىء فيه قبله الفخر بن المالكي وقبله الجمال الشاطبي، وقبله الوجيه بن البوني رحمه الله وكان موته فجأة، اللهم عافنا من بلائك. وفي سابع عشر صفر توفي الشمس أبو الفتح الذي كان يقرأ بالتربة الصالحية، هو: الشمس أبو الفتح محمد بن علي بن موسى بن معمر الأنصاري الدمشقي، مولده سنة خمس عشرة وستمائة تقريباً، ودفن من الغد رحمه الله، وفي العشرين من صفر توفي العماد يحيى ابن عمر الحموي إمام مسجد حارة الخاطب، وكان قرأ معي القرآن العظيم علي الشرف أبي منصور الضرير في سنة ثلاث عشرة وستمائة ونحوها رحمهما الله، وتولى اشراف السبع مرة.

وتوفي أيضاً شخص زنديق يتعاطى الفلسفة والنظر في علوم الأوائل، ويسكن مدارس فقهاء المسلمين، وقد أفسد عقائد جماعة من الشباب المشتغلين فيما بلغني، وكان يتجاهر باستنقاص الأنبياء عليهم السلام لارحمه الله ولارضي عنه ولاعن أمثاله، وهو يعرف بالفخر بن البديع البندهي، كان أبوه يزعم انه من تلامذة الفخر الرازي ابن خطيب الري، صاحب المصنفات، وفي حياة والده مات.

وفي عاشر جمادى الأولى توفي الزين بن مزهر الساكن بجبل قاسيون قبالة المدرسة البهنسية رحمه الله، وكان قبل ذلك هو وأخوه المجد تاجرين معروفين، وكان له لسان وبيان وقوة جنان وحسن توصل إلى أغراضه، وفي خامس عشره توفي التقي يونس الأسود إمام مسجد درب الحبالين، وكان فقيهاً بالشامية ويتولى القرايا الموقوفة على المدينة النبوية، واشتغل بعلم الفقه والنحو، ودفن بباب الصغير رحمه الله، وفي جمادى الآخرة مات النجم بن القيلوي. وجدت بخط الحافظ اليغموري: سألت النجم أبا القاسم علي بن القيلوي عن مولده فقال: يوم السبت ثاني المحرم سنة تسع وتسعين وخمسمائة بالمأمونية من أعمال بغداد والمجد الواسطي، والنجم الكنجي المولد، وكلاهما من سكان المدرسة العادلية؛ والمخلص الصوفي بخانقاه السميساطي مات فجأة، ونظمت في آخر جمادى الآخرة:

الثوب واللقمة والعافية
لقانع من عيشة راضية
وما يزد فالنفس ليست به
وإن تكن مملكة راضية

وفي شهر رجب تولى القاضي محيي الدين بغزة تدريس المدرسة الناصرية بالقدس الشريف(١٣٤)، وتولى شهاب الدين محمد بن القاضي شمس الدين أحمد بن الخليل الخوئي قضاء القدس الشريف، وسافرا من دمشق إلى ولايتهما.

وفي سادس عشر شعبان توفي بدمشق شخص يعرف بيوسف القميني، كان يأوي دائماً إلى القمامين والمزابل، وغالب مأواه قمين حمام نور الدين الذي بسوق القمح العتيق بدمشق ويلبس ثياباً طوالاً تكنس الأرض وهو حاف حاسر طويل الصمت قليل استعمال الماء، وللناس فيه اعتقاد صلاح ويحكون عنه عجائب، لم يظهر لي أنا منه شيء غير

ملازمته لهذه الطريقة الشاقة على النفس مدة سنين كثيرة، وعقله ثابت، وعوام الناس يتقربون إليه بالمأكول والمشروب فيتناول بعد جهد مقدار حاجته ويترنح في مشيته مسبلاً أكمامه مع طولها، وفي الجملة كان أمره عجيباً، اللهم انفعنا بعبادك الصالحين، وتوفنا مسلمين، ودفن رحمه الله بالجبل بمقبرة المولهين.

وفي أول شهر رمضان جاء الخبر بموت صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ مملوك بيت أتابك زنكي، وفي تاسع عشر رمضان توفي سيف الدين ابن الغرس خليل، وكان أحد حجاب السلطان، مشكوراً في ذلك، وكان أبوه والي شرطة دمشق في زمن المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب، وفي ذلك اليوم أيضاً توفي صدر الدين أسعد بن المنجا الحنبلي أحد عدول دمشق المتمولين بها، وبنى مدرسة للحنابلة بدمشق مقابلة لتربة سيف الدين قليج مجاورة لتربة القاضي جمال الدين المصري، وفي عاشر شوال توفي الجمال عثمان بن يوسف، والقاضي عز الدين محمد ابن القاضي الأشرف أحمد ابن القاضي عبد الرحيم البيساني رحمهما الله، وفي رابع عشره توفي الفخر بن هلال رحمه الله تعالى، وفي رابع ذي الحجة توفي الرضا بن النجار أحد أعوان القضاة المذكور في قصيدة الصدقات منهم ابن النجار الأعرج سمسار القضايا في دار قاضي القضاة، وفي سابع عشر ذي الحجة توفي الشيخ صالح الأمشاطي أبو سعيد صهر الشيخ عثمان الرومي، الساكن بالجبل رحمه الله، وفي سلخ ذي الحجة توفي نجم الدين المظفر بن محمد بن الياس الشيرجي أحد العدول الكبار من الدمشقيين، وتولى الحسبة بها، ونظر الجامع رحمه الله.

وفيها: ورد الخبر من مصر بالقبض على ملكها الصبي نور الدين علي الملقب بالمعز بن التركماني، واستيلاء مملوك أبيه قطز على الملك، وفي هذه السنة كثرت الأراجيف بدمشق بسبب التاتار أهلكهم الله، ووردت الأخبار بأنهم قطعوا الفرات، وأغاروا على بلاد حلب، فهرب كثير من

- ٩٣٧٨ -

الدمشقيين، وباعوا حواصلهم وخـرجوا على وجوههم متفرقين في البراري والجبـال والحصـون، وصـادف ذلـك أيـام الشتـاء وقـوة البرد، فمات كثير منهـم، ونهب آخرون، وثبـت في البلـد من قـوى الله قلبـه وإيمانه، وبـالله التوفيق.

ثم دخلت

سنة ثمان وخمسين وستمائة

يوم الخميس. ففي يوم الأحد بعد العصر ثامن عشر المحرم ولد لي مولود ذكر سميته باسم والدي اسماعيل، وكنيته أبا العرب، جعله الله مباركاً، ووافق يوم مولده كانون الثاني في قوة البرد، وكانت تلك الأيام كثيرة الأراجيف والتخويف من جهة التاتار خذلهم الله.

وفي منتصف صفر ورد الخبر إلى دمشق باستيلاء التاتار على حلب بالسيف، وهرب صاحبها من دمشق بأمرائه الموافقين له على سوء تدبيره، وزال ملكه عن تلك البلاد، وكان نزول التاتار على حلب في ثاني صفر واستولوا عليها بعد سبعة أيام في تاسع صفر وأمنوهم، ثم غدروا بهم، فقتلوهم وكان رسل التاتار عندنا بقرية حرستا، فأدخلوا دمشق ليلة الاثنين سابع عشر صفر وقرىء في غدها يوم الاثنين بعد صلاة الظهر بالجامع فرمان جاء من عند ملكهم معهم، فيه أمان أهل دمشق وماحولها، وشرع أكابر أهل دمشق في تدبير أمرهم معهم، وفي يوم قرىء الفرمان صلي بالجامع على جنازة الشريف ابن عصرون، وفي سابع عشر ربيع الأول وصل إلى دمشق نواب التاتار، ولقيهم كبراء البلد بأحسن ملقى، وقرىء مامعهم من الفرمان المتضمن للأمان بالميدان الأخضر، ووصلت عساكرهم من جهة الغوطة مارين من وراء الغوطة إلى جهة الكسوة وأهلكوا في مرهم جماعة كانوا تجمعوا وتحزبوا، وأعدم بسبب ذلك غيرهم، منهم: جماعة من أهل قرية حزرما(١٣٥)، وشجاع أبو هرماس المؤذن، وصالح، وقاسم وغيرهم.

وفي السادس والعشرين جاء منشور من هولاكو ملك التاتار للقاضي

كمال الدين عمر بن بندار التفليسي بتفويض قضاء القضاة إليه بمدائن الشام، والموصل، وماردين، وميافارقين، والأكراد وغيره، كتب له بحلب في خامس عشر الشهر، وقرىء المنشور المذكور بالميدان الأخضر، وفيه تفويض جميع الوقف إلى نظره، وخاصة وقف الجامع المعمور بدمشق المحروسة، وكان قاضي قضاة دمشق وأعمالها قبله أحمد بن السني وليه من جمادى سنة ثلاث وأربعين إلى الآن، وذلك خمس عشرة سنة إلا شهرين أو نحوها.

وكان كمال الدين هذا نائبه، ويفعل الله في خلقه مايشاء.

وفي الثالث والعشرين من ربيع الأول توفي بالجبل الشيخ عماد الدين عبد المجيد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامه المقدسي، رحمه الله، وكان شيخاً حسناً لطيفاً، علّم جماعة كثيرة كتاب الله العزيز، وابتلي بمرض مزمن في آخر عمره، وكان له رواية للحديث عن الثقفي وغيره، وقد أجاز أولادي رواية مايجوز له عنه روايته، وهم محمد رحمه الله، وأحمد، واسماعيل، وفاطمة جبرهم الله.

وفي الخامس والعشرين توفي الجمال بن الحظيري الذي كان مصاهراً المحيي القاضي، وجاءنا الخبر بوفاة جمال الدين بن قوام، قتلته التاتار بأرض الغور رحمه الله، وفي أوائل ربيع الآخر في العشرين من آذار توفي الأوحد الدوني بحلب الذي كان قبل مدرساً بمنبج، وقاضياً، وكان مشهوراً.

وفي ربيع الآخر رجعت عساكر التاتار التي كانت عبرت على دمشق بعدما عاثت في بلاد حوران، وأرض نابلس وماحولها وقيل بلغت غاراتهم أرض غزة وبيت جبريل، والخليل، والصلت، وبركة زيزياء، وموجب الكرك ونحو ذلك فقتلوا على عادتهم الرجال، وسبوا الصبيان

والنساء، واستاقوا من الأسارى والغنـائم من البقر والغنم والأسلاب شيئاً كثيراً، ووصلوا بـذلك إلى دمشق، فاشتري مـن الأسرى شيء كثير، وهرب بعضهـم واستحيـوا خلقـاً كثيراً، والله تعـالى يـديـم علينـا ستره وعـافيتـه بمحمد وآله، الحمد لله الذي عافانا مما ابتلي به غيرنا.

وممن قتل في هذه الكرة بنابلس الأمير مجير الـدين بن سيف الدين بن أبي زكرى، وكان شجـاعاً بلغني أنه قتـل من التاتار قبـل أن يقتل جماعة بسيفـه ومازال يضرب بـه حتى خطـف النصل مـن يده فصـار يقـاتلهم بنفسه يضرب بالدبـوس، ويتقي به الضرب ويرفس برجلـه من يصل إليه من الفرسان حتى قتل سبعـة عشر أو تسعة عشر، ثم قتل رحمه الله، وكان التاتار يتعجبون منـه وأتوا بنصل سيفه إلى دمشق، ووقف عليـه أمراؤهم، وقد كانت قلعة دمشق امتنـع بها الوالي والنقيب في جمع كثير بها، فاحتيج إلى حصارها، فجاءهـا من التاتار خلق كثير، وصلوا يـوم الأحد ثاني عشر جمادى الأولى، فباتـوا تلك الليلة حتـى قطعوا مـن الأخشاب مااحتـاجوا إليه وكـانوا استصحبوا معهـم المجانيق تجرهـا الخيل وهم ركـاب عليها، وقدمـوا قبل ذلك أسلحة تجرهـا البقر على العجل، وأصبحـوا يوم الاثنين يجمعون الحجارة لرمـي المجانيق، فأخربوا حيطـاناً كثيرة، وأخذوا الحجارة من أساسها، وأخـربوا طرقاً من القنوات بسبب الحجارة وهيـأوها للرمي، ونصبت المجـانيق في ليلـة الثلاثاء، وكـانت أكثـر من عشريـن منجنيقاً، وأصبحوا يـرمون بها رميـاً متتابعـاً كالمطـر، فأخـرب كثيراً من القلعـة من غربها فما أمسوا حتى طلبـوا الأمان فأومنوا وخرجوا مـن الغد، ونهب مافي القلعة، وأحرق فيها مواضع كثيرة وهدم من أبراجها أعاليها، ثم ساروا إلى بعلبك فتسلموهـا وحاصروا القلعة وأخذوها، وساروا إلى نـابلس وغيرها، ووكلوا بخراب كل مدينة بين برجين مـن قلعة دمشق ففعل ذلك. الحكم لله العلي الكبير.

وأما السلطان الملـك الناصر يوسف كان بعساكـره بغزة، فلما بلغه خبر

نابلس توجه إلى مصر فنزل العريش ثم قطيا، ثم تفرق عسكره، فتوجه الترك إلى مصر مع الأثقال، وتوجه هو مع خواصه إلى وادي موسى، ثم نزل بركة زيزياء وكبسه نائب التاتار كتبغا بها، فهرب ثم استأمن له بعض أصحابه هو حسين الطبردار، وصار إليهم، وكان معهم في ذل وهوان، ثم قتلوه ببلادهم.

وجاءنا الخبر عن الهاربين من دمشق إلى مصر بموت الجمال يوسف الدبابيسي، أحد المعدلين؛ وشرف الدين بن العز المؤذن، وقبض على خواص السلطان، وفي يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الأولى طيف بدمشق برأس مقطوع مرفوع على رمح قصير معلق بشعره فوق قطعة شبكة زعموا أنه رأس الكامل محمد بن شهاب الدين غازي بن العادل صاحب ميافارقين، الذي دام التاتار على حصاره أكثر من سنة ونصف، ولم يزل ظاهراً عليهم إلى أن فني أهل البلد لفناء زادهم، وبلغني أنه دخل عليه البلد فوجد مع من بقي من أصحابه موتى أو مرضى، فقطع رأسه وحمل إلى البلاد، فطيف به بدمشق، ثم علق على باب الفراديس الخارج رحمه الله ،وقلت في ذلك:

ابن غازغزا وجاهد في ا
لله قوماً أثخنوا في المشرقين
والعراقين ظاهراً غالباً وبهاما
ت شهيداً بعد صبر عليهم عامين
لم يشنه أن طيف بالرأس منه
فله أسوة برأس الحسين
وافق السبط في الشهادة والحمـ
ـل لقد حاز أجره مرتين
جمع الله حسن دين الشـ
ـهيدين على قبح ذينك الفعلين
ثم واروا في مشهد الرأس ذاك الـ
ـرأس فاستعجبوا من الحالتين

وارتجو أنـــــه يحيـــــى لـــــدى البعـــــــث رفيـــــــق الحسين في الحسنيين

رضي الله عنه، ثم وقـع من الاتفاق العجب أن دفـن في مسجد الرأس داخل بـاب الفراديس شرقي المحـراب في أصل الجدار، وغـربي المحراب طـاقـة يقـال إن رأس الحسين رحمه الله دفن بها، وفي غـده يـوم الأربعـاء قرىء فـرمان القـاضي محيي الـدين بـالجامع تحت قبـة النسر، وفيه تـوليته القضـاء من قنسريـن إلى العـريـش، ونائبـه أخـوه لأمـه شهاب الـديـن اسماعيل بـن أسعد بن حبش، وحضر قراءة الفرمـان نائب ملك التـاتار من المغـل «ايل سبـان» وزوجته قعدت معـه على طراحـة نصبت لها بين زوجها والقـاضي إلى جانـب العامود الشرقـي الكبير الأوسط مـن أبواب النسر بـالجامـع، وشرع القـاضي في جـر الأشيـاء إلى نفسـه وأولاده ومـن يتعلق بـه عدم الأهلية، وأضاف إلى نفسـه، وأولاده وأخيه ونحوهـم عدة من المدارس، كـالعذراوية، والسلطـانية، والفلكيـة، والركنية، والقيمـرية، والكـلاسة انتـزعها مـن الشمس الكـردي، وانتـزع منه أيضـاً الصالحيـة، وسلمها إلى العماد بن العربي، ونزع الأمينية مـن العلم القاسم وسلمها إلى ولده عيسـى، ونزع الشـومانية مـن الفخر النقجـواني، وسلمها إلى الكمال ابن النجـار، ونزع الـربوة مـن الجمال محمد اليمنـي وسلمها إلى الشهـاب محمود بن القـاضي شرف الدين عبد الله بـن زين القضاة عبد الـرحمن بن سلطان، وهـو ابن عمـه كل هـذا مع مـاعرف منـه من التقصير في حـق الفقهاء في المدرستين اللتين كانتا بيده من قديم الزمان:العزيزية والتقوية، وعدم انصـافه فيهما، وولى ابنه عيسى مشيخـة الشيوخ بخوانق الصـوفية، واستناب أخـاه لأمه في القضـاء، ومعه من المدارس: الـرواحية، والشـامية البرانية، مـع أن شرط واقفها أن لايجمع المدرس بينها وبين غيرهـا، وبقي كذلـك إلى.أن ملك المسلمون في أواخـر رمضان، فبـذل أموالاً كثيرة على أن يقر القضاء والمدارس المذكـورة في يده ويد أخيه وولديـه، ففعل ذلك فبقـي نحو شهـر، ثم سـافر مـع السلطان إلى مصر، وتـولى القضاء نجـم

الدين أبو بكر بن صدر الدين رحمه الله ابن سني الدولة، وقرىء منشوره بشباك الحكم بالجامع يوم الجمعة الحادي و العشرين من ذي القعدة، سنة ثمان وخمسين وستمائة.

وفي عاشر جمادى الآخرة توفي الفقيه شرف الدين عبد الواحد بن الحسام الواعظ المعروف بابن الحموي، ودفن من الغد بالجبل رحمه الله، وفي يوم الاثنين صبيحة الأحد جاءنا الخبر من بعلبك بوفاة القاضي صدر الدين أحمد بن يحيى بن هبة الله المعروف بابن سني الدولة، وكان قد سافر مع القاضي محيي الدين المذكور إلى ملك التاتار، ثم رجعا على طريق بعلبك، فمرض صدر الدين فأقام بها وتوفي بعد صلاة الجمعة ثامن جمادى الآخرة رحمنا الله وإياه، وأخبرني العلاء علي بن الشيرازي أنه رآه في المنام، فسأله عن حاله فقال: لما وصلت قيل هاتوا الدرة، اللهم عفوك، وعمل عزاؤه بالجامع يوم الثالث عشر من جمادى الآخرة، ووصل الخبر باستيلاء التاتار على قلاع الصلت، وعجلون، وصرخد، وبصرى والصبيبة، وهدم الجميع، ووقعوا على العرب عند زيزياء وحسبان، فهزموهم وغنموا أولادهم، ونساءهم، وأنعامهم شيئاً كثيراً، واستاقوا الجميع وهرب سلطان البلاد الناصر يوسف بن محمد إلى البراري، فساقوا خلفه فأخذوه وقد بلغ شربة الماء نحو مائة دينار، وأتوا به إلى نائب التاتار كتبغا فوقفه وأهانه وقرعه، ثم أتوا به دمشق مع من قدم من الكرك من الدمشقيين الذين كانوا هربوا إليها، قدم بهم القاضي كمال الدين التفليسي بعد مشقة شديدة وجدوها في الطريق من ترددهم مع التاتار كيفما داروا، فبقوا في الطريق من الكرك إلى دمشق نحواً من خمسة وثلاثين يوماً، ثم وصلوا في سادس رجب، وسار جماعة من التاتار بالملك الناصر صاحب الشام إلى هولاكو، وذلك في رابع عشر رجب، ومعه ابنه العزيز، فأقام عندهم إلى أن قتلوه في سنة تسع وخمسين الآتي ذكرها، لما بلغ هولاكو كسرة التاتار الذين كانوا بالشام مع ملكهم

كتبغـا، فضربوا رقبتـه، ورقبـة أخيه، والصـالـح بـن شيركوه وغيرهـم على مابلغنا.

وفي أواخـر جمادى الآخرة تـوفي النجيب بـن النحـاس نائب القـاضي نجم الديـن بن الصدر سني الدولـة، ثم توفي سيف الديـن غلام النظام ابن المولى.

وفي نصف شعبان أغـارت العرب على خيل الجشار التي للتـاتار، ومن يتعلق بهم فـاستاقوهـا وكانت ترعـى بالمرج بتل راهـط وماحولـه، وخرج التاتـار من دمشق ومـاحولها خلفها، وكـان قد وصل دمشـق الأشرف بن المنصور بـن المجاهد شيركـوه بن محمد بن شيركـوه بن شادي، صـاحب حمص، كان نزل في داره وقـرىء فرمانه بتسليم نظره في البـلاد، فخرج مع التاتار خلف خيل الجشار، ثم رجعوا ولم يقعوا عليها.

وفي شعبان ضربت رقبـة والي قلعة دمشق بدر الـدين بن قراجا، ورقبة النقيب جمال الدين بن الصير في الحلبي بالمعسكر وغيرهما.

وجاءنـا الخبر من مصر في شهر رمضان بـوفاة الحكيم جمال الديـن بن الرحبـي الطبيب ابن الطبيـب، وكان دينـاً خيراً فاضلاً في المعـالجة الطبية مصلياً جيد العقيدة رحمه الله.

وفي خامـس رمضان توفي الشيـخ محمد المعـروف بالأكال، قلـت: هو محمد بـن خليل بن عبـد الوهاب بـن بدر البيطـار من جبل بنـي هلال، مولده بقصر حجـاج، خارج دمشق سنة ستمائة كما ذكر، وهـو الذي كان يأكل من أطعمـة الناس بالأجرة، وكان يتـم لـه في ذلك نوادر وعجائب، قد ذكرت طرفـاً منها في موضع غير هذا، وكان حسـن الأخلاق محسناً إلى الفقراء صـالحاً رحمه الله. وتوفي أيضاً النجـم بن الـوجيه بن البـوني، وكان رجـلاً حسنـاً، صـالحاً، وأبـوه شيـخ مشهـور بـالقراءات، قـرأت عليـه في

صغـري الجزء الأول من سـورة البقرة، وكـان إمام مقصـورة الحنفية التـي خلـف مقصورة الخضر رحمهما الله، ومـات أيضاً في رابـع رمضان الشيـخ سليمان المعري المقيـم بالكـلاسة في زاويـة الشيخ عبـد الصمد الـدكالي، شيخ المغاربة، وكانا من أهل الخير رحمهما الله.

ووصـل الخبر في ثامـن رمضان بـاستيلاء التـاتار على صيـدا من بـلاد الفرنج ونهبهـا وثلاثمائة أسير منها، وفي أواخر شهر رمضان مـات الرشيد من بنـي الحنبلي، وجاءنـا الخبر من بعلبـك بوفـاة الشيخ محمـد اليونينـي شيخ الحنـابلة ببعلبـك، وكان شيخاً ضخماً، واسـع الوجـه، كبير اللحية، يلبس على رأسـه قبع فـرو أسود صوفـه إلى الخارج بلا عمامـة، ونفق على جماعة من الملوك والأمراء وحصل منهم دنيـا واسعة، ورفاهية عيش، وهو الـذي صنف أوراقـاً فيما يتعلـق باسراء النبـي صلى الله عليـه وسلم ليلـة المعراج، وأخطأ فيـه أنواع من الخطأ الفـاحش، فصنفت أنا في الـرد عليه كتـاباً سميتـه «الـواضـح الجلي في الـرد على الحنبلي» وكـان مـوتـه على مـاأخبرني به ولـده يوم السبـت تاسـع عشر رمضان رحمه الله، والله تعـالى يرحمنا واياه وسائر المسلمين.

-٩٣٨٧-

تمام ماجرى في سنة ثمان وخمسين وستمائة

من ذلك كسرة التاتار، خرج عساكر أهل مصر مع من انضوى إليهم من العرب وغيرهم لقصد التاتار الذين بالشام، وملكهم يومئذ المظفر قطز بن عبد الله التركي مملوك التركماني الذي كان قبله ملك مصر، فاجتمع معه خلق عظيم، ولما كان ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان جاءنا بدمشق الخبر بأن عسكر المسلمين وقع على عسكر التاتار يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان عند عين جالوت وماقاربها من البلاد، فهزموهم وقتلوهم وأخذوهم ومعهم ملكهم كتبغا فقتل، وأخذ رأسه وأسر ابنه فانهزم تلك الليلة من كان بدمشق من التاتار ايل سبان نائب الملك، وأتباعه، وتبعهم الناس وأهل الضياع ينهبونهم ويقتلون من ظفروا به منهم ولله الحمد والشكر.

وممن قتل بعد المعركة الملك السعيد بن العزيز بن العادل صاحب الصبيبة وبانياس بقي محبوساً بقلاع الشام بعد موت الصالح أيوب وابنه تورانشاه، وكسر الفرنج بالديار المصرية سنين كثيرة، وآخرها بقلعة البيرة على الفرات، فلما وصلت التاتار إليها أخرجوه وصار معهم ثم قدم مع مقدمهم كتبغا دمشق، وحضر فتح قلعتها، وتسلم بلاده، فلما قدم العسكر المصري في هذه الكرة قاتل مع التاتار، فلما وقعت الكسرة عليهم جاء إلى الملك المظفر قطز، وفي ظهر تاريخ الأحد سابع عشري رمضان ورد كتاب، وهو أول كتاب ورد منه، إلى أهل دمشق يخبرهم بهذه الكسرة الميمونة، وبمواصلة الزحف إليهم بعدها.

وفي التاسع والعشرين من رمضان قتل بالجامع الفخر محمد بن يوسف الكنجي، وكان من أهل العلم بالفقه والحديث، لكنه كان فيه كثرة كلام وميل إلى مذهب الرافضة، جمع لهم كتباً توافق أغراضهم، وتقرب بها إلى الرؤساء منهم في الدولتين الإسلامية والتاتارية، ثم وافق

الشمس القمي فيما فوضه اليه من تخليص أموال الغائبين وغيرهم، فانتدب له من تأذى منه وألب عليه بعد صلاة الصبح فقتل وبقر بطنه، كما قتل أشباهه من أعوان الظلمة مثل: الشمس بن الماكسيني وابن البغيل الذي كان يسخر الدواب، ومن العجائب أن التاتار كسروا وأهلكوا بأبناء جنسهم من الترك وقلت في ذلك:

غلب التتار على البلاد فجاءهم ... من مصر تركي يجود بنفسه

بالشام أهلكهم وبدد شملهم ... ولكل شيء آفة من جنسه

وجاءنا الخبر بوفاة الأمير حسام الدين بن أبي علي بالديار المصرية في أواخر شعبان من هذه السنة، وقد كان النصارى بدمشق قد شمخوا بسبب دولة التاتار، وتردد ايل سبان وغيره من كبارهم إلى كنائسهم، وذهب بعضهم إلى الملك هولاكو، وجاء من عنده بفرمان لهم اعتناء بهم وتوصية في حقهم، ودخلوا به البلد من باب توما وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم واتضاع دين الإسلام، ويرشون الخمر على الناس وبأبواب المساجد، فركب المسلمين من ذلك همّ عظيم، فلما هرب التاتار من دمشق ليلة الأحد السابع والعشرين من رمضان أصبح الناس إلى دور النصارى ينهبونها ويخربون ما استطاعوا منها، وكانت النصارى قد عبروا من باب توما قاصدين درب الحجر، ووقفوا عند رباط الشيخ أبي البنان ونادوا بشعارهم ورشوا الخمر بباب الرباط، وفعلوا مثل ذلك على باب مسجد الحجر الصغير والمسجد الكبير، وألزموا الناس من دكاكينهم بالقيام للصليب، ومن لم يفعل ذلك اخرقوا به وأقاموه غصباً، وشقوا به السوق إلى عند القنطرة آخر سويقة كنيسة مريم، فقام بعضهم على الدكان الوسطى من الصف الغربي بين القناطر وخطب وبجّل دين النصارى ووضع من دين الإسلام ،ثم عطفوا من خلف السوق إلى الكنيسة التي أخرج بها الله بعد ذلك، وكان ذلك في ثاني عشري رمضان،

وفي الغد صعد المسلمون مع قضاتهم وشهودهم إلى ايل سبان بالقلعة فأهانوهم ورفعوا قسيس النصارى عليهم وأخرجوهم من القلعة بالضرب والإهانة، وفي غد حضر ايل سبان في الكنيسة، وفي الغد كانت الكسرة وأخرب المسلمون من كنيسة اليعاقبة وأحرقوا كنيسة مريم حتى بقت كوماً والحيطان حولها تعمل النار في أخشابها، وقتل منهم جماعة، واختفى الباقون، وجرى عليهم أمر عظيم اشتفي به بعض الأشتفاء صدور المسلمين، وهموا بنهب اليهود فنهب قليل منهم، ثم كفوا عنهم لأنهم لم يصدر منهم ماصدر من النصارى.

وفي يوم الجمعة ثاني شوال خطب بجامع دمشق الأصيل المسعودي، الذي كان خطيباً به أول دولة نجم الدين أيوب، ثم عزل بالشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم خطب عماد الدين بن خطيب بيت الأبار، ثم خطب القاضي عماد الدين بن الحرستاني نحو ثلاث عشرة سنة، ثم عزل بهذا الأصيل، وكان له صوت حسن في الخطابة والقراءة فبقي متولياً للخطابة والإمامة بجامع دمشق إلى سلخ شوال مدة شهر واحد، ثم سافر مع السلطان الملك المظفر إلى مصر، وأعيد منصب الخطابة والإمامة إلى القاضي عماد الدين بن الحرستاني الذي كان به من قبل، وجاءنا الخبر بأن المنهزمين من رجال التاتار ونسائهم لحقهم الطلب من المسلمين بأرض حمص ونحوها، فسيبوا ماكان معهم من أسرى المسلمين وتبعجت خيولهم فتخففوا مما معهم حتى أنهم رموا أولادهم وضربوا رقاب من عجزوا عن حمله من نسائهم، وعرجوا نحو طريق الساحل وخطف منهم خلق وقتل ناس، وأسر جمع، والطلب خلفهم ليستأصلوا إن شاء الله(١٣٦).

وجاءنا الخبر في سادس شوال بموت العماد أبي حامد الحسن بن عماد الدين علي بن الحافظ بهاء الدين القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن المعروف بالحافظ بن عساكر، وكان قد خرج من دمشق

إلى مصر أيام الجفلة من التاتار، ولما بلغه استقامة الشام وأمنه خرج مع غيره من مصر على طريق الشوبك والكرك، فمرض وتوصل إلى نحو زرع(١٣٧) فمات رحمه الله.

وفي رابع عشر رمضان جرت علي حكاية من نائب التاتار المذكور واسمه ايل سبان لعنه الله وإياهم، اهانة وتهديداً بضرب الرقبة على أن وضعت خطي لهم بمبلغ كبير من المال ظلماً وقهراً، فلم تمض بعد ذلك اليوم إلا عشرة أيام حتى كسر التاتار بأرض كنعان بعين جالوت وماوالاها كسرة عظيمة مشهورة، كسرهم الملك المظفر المذكور، كما تقدم وهرب ايل سبان، ومن كان بدمشق معهم ليلة جاءهم الخبر، وعجب الناس من سرعة هذا الفرج وقيل في ذلك:

تفرق جمع الكفر لما تعرضوا ... أبا شامة ظلماً وكدر ورده
أرادوا به كيداً وما هيب علمه ... فغار له الرحمن إذ هو عبده
فما كان بين الجور منهم وكسرهم ... لدى رمضان غير عشر نعده
فحاشى لمفتي الشام يهمل أمره ... ويخفض ذو علم ويرفع ضده
له أسوة بالأنبياء وصالحي الـ ... ـبرية فيه ليس يخلف وعده
يعز علينا ما جرى غير أننا ... نسر به حيناً فلا كان فقده

والحمد لله على النصرة عليهم والله المستعان.

وفي شهر رمضان توفي الحاج سليم الفقيه، كان بالمدرسة الشامية رحمه الله، واسمه: سليم ـ بفتح السين وكسر اللام ـ.وفي ثاني ذي القعدة توفي

إمام المدرسة الحسامية جمال الدين النابلسي أخو الزين خالد المحدث، ودفن بالجبل رحمه الله، وفي ثاني عشر ذي القعدة توفي علي ابن حديد ابن عبيد السبنسي المصري الفقيه المقرىء، وكان من سكان المدرسة الأمينية، وهو من أصحاب الشيخ أبي عمرو بن الحاجب رحمه الله، وممن خدمه كثيراً من حين جاء معه من مصر سنة سبع عشرة وستمائة إلى أن توفي، وكان رجلاً حسناً مشتغلاً بنفسه صالحاً ديناً، ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله.

وفي الحادي والعشرين منه قرىء منشور نجم الدين بن سني الدولة بولاية القضاء بدمشق، وفي الثامن والعشرين من ذي القعدة توفي الجمال أبو الحرم مكي بن محمد بن المسلم بن أبي الخوف رحمه الله، وقبله توفي من أهل حارة الخاطب أيضاً القطب ابن الليواني، وكان من مشايخ الفقراء، منقطعاً بمسجد الحارة، ظريفاً لطيفاً كريماً رحمه الله، وجاءنا الخبر بوفاة الزكي اللبني ببعلبك، وكان قاضياً بها، وكان قبلها تولى القضاء ببانياس، ثم ببصرى رحمه الله.

ووصل الخبر بأن الملك المظفر قطز الذي ملك مصر والشام وكسر التاتار قتل في رجوعه من الشام إلى مصر قبل دخوله مصر بين الغرابي والصالحية وكانت مدة ملكه منذ قبض على ابن استاذه التركماني إلى أن قتل نحو من سنة واحدة ،والله تعالى يولي على المسلمين من يهتم بنصرة الإسلام وإقامة شريعة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان قطز هذا موصوفاً بمواظبة الصلاة والشجاعة، وتجنب شرب الخمر رحمه الله، واتفق بين كسره لجيش التاتار، وبين قتله قريب مما كان بين قتل المعظم بن الصالح بن الكامل وكسره الفرنج الذين كانوا بدمياط على ماسبق ذكره في أخبار سنة ثمان وأربعين، هاتين الأعجوبتين المتشابهتين نحو من عشر سنين، إلا أن السابقة كانت في أوائل سنة ثمان وأربعين، وهذه المتأخرة كانت في أواخر سنة ثمان وخمسين، والله تعالى يحسن العاقبة.

وتولى السلطنة بدمشق عقيب ذلك الأمير علم الدين سنجر المعروف بالحلبي التركي، وكان قطز قد استنابه فيها، فلما بلغه قتل قطز استحلف الناس وتسلطن وسكن القلعه.

وفي رابع ذي الحجة توفي الشيخ ابراهيم الفارقي أبو صالح، وكان شيخاً كبيراً صالحاً ملازماً أكثر أوقاته المجاورة بالزاوية التي فيها الشباك الكمالي بجامع دمشق، وهو الشباك الذي اعتاد القضاة الصلاة فيه يوم الجمعة، وأصله كان من أسعرد، وكان يرعى جانبه من جهة السلطان الأشرف بن العادل وأخوته وبيتهم، ودفن بالجبل رحمه الله.

وفي سادس ذي الحجة يوم الجمعة خطب بدمشق لمن تولى السلطنة بالديار المصرية بعد قطز، وهو: بيبرس البندقداري التركي الموصوف بالشجاعة والاقدام، ولقب بالملك الظاهر ركن الدين، وذكر بعده الذي تولى دمشق علم الدين سنجر الحلبي، ولقب بالملك المجاهد، وضربت الدراهم باسمهما.

وفي سابع عشر ذي الحجة توفي العفيف بن رحمه شيخ صالح مجاور بالجامع يخيط فيه، وهو والد الشرف بن رحمه المشتغل بسماع الحديث، ودفن بمقابر الصوفية العليا، صليت عليه إماماً خارج باب النصر، وحضرت دفنه، ولما رجعت مررت بدار الحديث الأشرفية فرأيت ماهي عليه من الشعث والخراب صورة ومعنى، بسبب قلة الاشتغال بها وخراب وقفها، فتذكرت ماكانت عليه زمان كنا بها في سني نيف وثلاثين وستمائة، وشيخها يومئذ شيخنا الفقيه الحافظ تقي الدين عثمان بن الصلاح، فقلت بديها مشيراً إليها:

من بعد ما مات رنطار والتقي بن الصلاح
هذاك للوقف والشيخ للعلوم الصحاح

رنطار هذا كان يعرف بالحاج رنطار، كان الملك الأشرف واقف دار

الحديث قد اعتمد عليه في عمارتها ووقفها، والنظر في ذلك في خدمة الأثر الشريف النبوي بها، وكان رزقها في أيامه متوفراً، واختل ذلك بموته، كما اختل الاشتغال في الدار المذكورة بعد موت الشيخ ابن الصلاح رحمهم الله، ونظير ذلك لأن نجم الدين بن سلام كان ناظر التربة الصلاحية، وكان الجماعة في أيامه دارة أرزاقهم، فلما توفي قال فيها شيخنا علم الدين السخاوي رحمه الله، وكان يتولى الاقراء بها يومئذ مخاطباً للجماعة المشتغلين بها:

والله والله لا أفلحتم أبداً
من بعد ما قد هوى النجم بن سلام

وكان الأمر على ماذكر اختل الوقف بعده والله المستعان.

وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة توفي المجاهد قايماز الإقبالي، أحد معتقي جمال الدولة اقبال صاحب المدرستين بدمشق، وكان هذا المجاهد رجلاً ديناً خيراً رحمه الله، ودفن بالجبل، صليت عليه إماماً بجامع بني أمية بدمشق وشيعته إلى مقبرة باب الفراديس، ثم مضي به إلى الجبل، وفي هذا الشهر توفي الحاج علي المعروف بدويخ، وكان أحد المقدمين في طريق الحج.

وفي هذه السنة كثر تغير الدول، ومتولي الحكم بالشام، فكان الشام أول السنة إلى نصف صفر في مملكة الناصر يوسف بن محمد بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، ثم صار في مملكة التاتار إلى الخامس والعشرين من رمضان، ثم صار في مملكة المظفر قطز صاحب الديار المصرية إلى أن قتل في ذي القعدة، ثم صار في سلطنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، ويفعل الله مايشاء.

وكان القضاء في أول السنة تولاه الصدر أحمد بن سني الدولة مستقلاً به من خمس عشرة سنة إلى أن ولى التاتار كمال الدين محمود بن بندار

التفليسي، ثم ولوا محيي الدين بن الزكي، ثم ولى قطز نجم الدين بن الصدر ابن السني، وابتلي الناس في هذه السنة بغلاء شديد عام في جميع الأشياء من المأكول والملبوس وغيرهما، بلغ رطل الخبز درهمين، ورطل اللحم خمسة دراهم، وأوقية القنبريس درهما، والجبن درهما ونصف، والثوم أوقية بدرهم، والعنب رطل بدرهمين، ومن أكثر أسبابه ماأحدثه الفرنج من ضرب الدراهم المعروفة باليافية، وكانت كثيرة الغش بلغني أنه كان في المائة منها خمسة عشر درهماً فضة والباقي نحاس، وكثرت في البلد كثرة عظيمة، وتحدث في ابطالها مراراً، فبقي كل من عنده شي حريصاً على إخراجه خوفاً من بطلانها، فتراه يدأب في شراء أي شيء كان فيتزايد في السلع بسبب ذلك إلى أن بطلت في أواخر السنة، فعادت كل أربعة منها بدرهم ناصري مغشوش أيضاً بنحو النصف.

-٩٣٩٥-

ثم دخلت

سنة تسع وخمسين وستمائة

أولها يوم الاثنين لأيام خلون من كانون الأول.

ففي أول المحرم جاءنا الخبر بجفلة أهل حلب وماوالاها إلى دمشق بسبب تجمع التاتار الذين كانوا بحران وغيرها من بلاد الجزيرة، وانضم اليهم من انهزم من وقعة كسرتهم، وضعفوا بها كان عندهم من شدة الغلاء بحران، وكانت البلاد قد خربت، فاضطروا إلى الاغارة على بلاد حلب، فانجفل الناس منهم، ثم جاءنا الخبر في سابع المحرم بأنهم كسروا بأرض حمص كسرة عظيمة، فضربت البشائر بذلك، وكانت الكسرة عند قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى قريب الرستن، وذلك يوم الجمعة خامس المحرم، وقتل منهم نحو ألف رجل، ولم يقتل من المسلمين سوى واحد، وفي ثالث عشر المحرم طيف برؤوس طائفة منهم في أسواق دمشق من القتلى مرفوعة على عصي بأيدي الصبيان يجبى عليها الفلوس.

وفي يوم تاسوعاء توفي الشرف حسن بن الجمال عبد الله بن الحافظ عبد الغني المقدسي رحمه الله، وكان رجلاً خيراً.

ثم جاءنا الخبر في نصف المحرم برجوع التاتار ونزولهم على حماه، فجفل الناس إلى دمشق، وقدم صاحب حمص وصاحب حماه في طلب النجدة، واجتماع المسلمين على القتال، ونزل المجاهد الحلبي الذي كان قد تسلطن بدمشق عن السلطنة، وانقاد الجميع لسلطنة صاحب مصر لقوته بالمال والرجال، ثم ورد الخبر برجوع التاتار، وتخطف صاحب صهيون منهم جماعة، وقتل الحشيشية لصاحب سيس لعنه الله، ووقع السيف بين التاتار وابن صاحب سيس، الله يصدق ذلك ويتمم نصر المسلمين.

وفي خامس صفر توفي جمال الدين يوسف بن الناصح علي بن مرتفع ابن أفتكين، وكان هو وأبوه وأخوه من عدول البلد، ويتولون المدرسة السرورية، رحمه الله، ودفن على أبيه بالجبل، وفي ليلة الأحد ثاني عشر صفر هرب سنجر الحلبي الذي كان تسلطن بدمشق، ونزل في قلعة بعلبك، وقبض على أعوان الظلمة الذين كانوا منصوبين لمصادرة الناس.

فمنهم: المجاهد سليمان، وغلامه سيف الدين، والأسعد المسلماني، ثم قبض عليه من بعلبك وأرسل تحت الحوطة إلى مصر.

وفي العشرين من صفر توفي الكمال القزويني أحد القراء بالتربة الأشرفية، وكان شيخاً صالحاً ومقرئاً حسناً رحمه الله تعالى.

وفي الحادي والعشرين درس القاضي نجم الدين بن الصدر بن سني الدولة بالمدرسة العادلية، وعزل الكمال التفليسي عنها، واعتقل بسبب الحياصة الناصرية التي تسلمها التاتار، وكانت رهناً بمخزن الأيتام على الدين الذي اقترضه الناصر صاحب دمشق من ورثة عرفة الدنيسري، فبقي الكمال في الاعتقال خمسة عشر يوماً، ثم ألجيء في السنة الآتية إلى التحول من دمشق إلى مصر، ففارق ماكان فيه وسكن مصر.

وفي يوم الجمعة ثاني شهر ربيع الأول توفي الخطيب زين الدين خطيب حماة رحمه الله، وكان له معروف كثير، ووقف أوقافاً حسنة، وكان حسن الخطابة كثير الخير والصدقة، وفي هذا الشهر تجمع الفرنج وخرجوا على المسلمين وهم تسعمائة فارس قنطارية، وألف وخمسمائة تركبلي، ونحو ثلاثة آلاف راجل وأخذ الجميع قتلاً وأسراً، ولم يفلت منهم سوى واحد، وبعض من كان معهم، وانضاف إليهم من رجالة تلك الضياع من ضعاف المسلمين في الدين، وأسر جماعة من ملوكهم.

وفي يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر توفي ابني الصغير اسماعيل جعله

الله فرطاً صالحاً لأبويه، ورحمه وإيانا، وصليت عليه خارج باب النصر، ودفنته تحت أخوته بمقبرة ابن زويزان المجاورة للصوفية، وعمره يوم مات سنة واحدة وشهران ونصف شهر، وفي ذلك اليوم توفي الخادم سابق الدين الأشرفي المجاور بالتربة الأشرفية، وكان خادماً خيراً رحمه الله، وفي عاشر ربيع الآخر توفي التاج الساسي المغربي، وكان شيخاً فيه خير وسكون وحياء، مقرباً عند الحاكم بدمشق الصدر بن سني الدولة رحمه الله. وفي الخامس والعشرين من ربيع الآخر توفي الشريف المخلص من بني أبي الحسن الحسيني، التاجر بقيسارية الفرس، وكان شيخاً كبيراً، وأحد عدول القاضي بدمشق رحمه الله، وفي تاسع جمادى الأولى عقد مجلس العزاء بالجامع المعمور بدمشق للسلطان الملك الناصر يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب، الذي كان سلطان حلب، ثم ملك دمشق وأعمالها، وهرب من التاتار ، وسلم اليهم بلاده، ثم سلم نفسه إليهم فأهانوه، ومضى إلى ملكهم هولاكو، فجاءنا خبره أنه ضربت رقبته مع جماعة لما بلغهم أن العسكر المصري كسر عسكر التاتار بعين جالوت، وقتل ملكهم كتبغا فكأنهم اقتصوا منه رحمه الله.

ومات قبل ذاك بيومين الشجاع بن سنقر شاه الذي كان يتناول وقف بيس بقرية داعية(١٣٨) رحمه الله.

وفي هذه الشهور توفي شهاب الدين الرفيع الشاهد تحت الساعات، وذبح زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان بالجبل، ثم ورد إلى دمشق أولاد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وهما صاحب الجزيرة يومئذ، وصاحب الموصل بعيالهم، وأموالهم، ومعهم من أهل البلاد من كان له قدرة على السفر لخوف عرض لهم، وساروا إلى مصر، ثم رجعوا مع سلطانها في آخر السنة، ومضوا إلى بلادهم ظاهرين على العدو إن شاء الله.

وفي تاسع عشر رجب، قرىء بدمشق بـالمدرسة العادلية كتاب ورد من مصر من السلطـان الملك الظاهـر بيبرس، يتضمن أنه قـدم عليهم مصر أبو القاسـم أحمد بن الظاهر محمد بن الناصر لدين الله أحمد أمير المؤمنين، وهو أخو المستنصر بالله الذي بنى المستنصرية ببغداد، وأنه جمع له الناس من مدينتـي مصر والقاهرة من العلماء والأمراء والتجار، وأثبـت نسبه عند قاضي القضـاة بذلـك المجلس، فلما ثبت بشهـادة جماعة مـن الحاضرين عـرفوه أنـه ولـد الظاهـر بـن النـاصر، اسجل الحاكـم عليـه ثبوت ذلـك المجلس، ثم بايع له الناس بعدما بدأ السلطان له بمبايعته، ورضوا جميعاً بخـلافته، وأمـر بنقش اسمـه على الدينـار والدرهـم، وأن يخطب لـه على المنابر، وكـان ذلك الاثبات والمبايعة في رابـع ساعة من يـوم الاثنين ثالث عشر رجـب، وسر النـاس بـذلـك سروراً عظيماً، وشكـروا الله على عـود الخلافـة العبـاسيـة بعدمـا كـان الكفـرة التـاتـار قطعوهـا بقتـل الخليفـة المستعصم بـن الظاهـر، وهو ابن أخـي هذا الـذي بويـع بمصر، وبسبب تخريب بغـداد وقتل أهلهـا وذلك سنـة خمس وخمسين، فبقي النـاس بغير خليفة نحو أربع سنين ونصف، وصورة الكتاب الوارد إلى قاضي دمشق:

«هذه المكـاتبة إلى القاضي نجـم الديـن يعلمه بما تجدد من أمـر يبهج الأمة، ويستدعي الـرحمة، ويأخذ الثأر ممن هتك للاسلام حـرمه، وهو أنه ورد علينا الإمـام أبو القـاسـم أحمد بـن الإمام الظـاهر بـن الإمام النـاصر سـلام الله عليـه في أمـر نسبـه، وأخذ البيعـة لـه، فحضر جماعـة شهـدوا بالاستفاضـة أنه ولد الإمام الظاهـر، وثبت ذلك عند قاضي القضـاة لدينا ثبوتـاً شرعياً، واسجـل عليه بحضـور العالم، وعنـد ذلك بسطنـا لمبايعتـه راحتنا، واقتفـى أثرنـا الأمراء والحلقة والنـاس كافة في مبـايعته، والـرضى بخـلافته، وذلـك في رابعة يـوم الاثنين ثالـث عشر رجب، وتقـدمنا بـأن يخطب له ويتـوج مفرق الدينار والـدرهم باسمه الشريـف، ونحن بصدد اهتمام نصرة الإسـلام على يديـه، وإهداء كـرائم الأموال والـذخائر إليـه، فليستند مـن منصبه الشريف إلى إمـام صحيح النسب شريـف الحسب،

ويجعل استناد أحكامه إلى ولايته الصحيحة، ومبايعته الصريحة، وليعلن هذا الخبر السار في البادين والحضار».

وفي سابع عشر شعبان توفي بحماة الشيخ شرف الدين محمد أبي بكر الجوبراني، كان مشهوراً بالعلم وفي خامس رمضان توفي الشهاب بن خواجا أخو الضياء المعروف بالجوبراني أحد فقهاء المدرسة الحسامية، وكان رجلاً صالحاً سليم الصدر به نوع اختلال يسكن في تربة مثقال الجمدار، قبالة تربة سركس بجبل قاسيون، في قبالة تربة خاتون رحمهم الله تعالى. وفي شوال قتل قطب العالم أخو العز الخلاطي الذي شنق نفسه بالمدرسة العادلية.

وفي يوم الاثنين سادس ذي القعدة وصل إلى دمشق العساكر المصرية مع السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي المعروف بالبندقداري، ومعهم الخليفة المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن الظاهر بن الناصر، واحتفل الناس للقائهما، وكان يوماً مشهوداً ونزل الظاهر بالقلعة، ونزل الخليفة بالتربة الناصرية بجبل قاسيون، ثم يوم الجمعة عاشر ذي القعدة دخل الخليفة إلى جامع دمشق من باب البريد، وجاء السلطان من باب الزيارة، ودخلا مقصورة الخطيب سبق الخليفة، وبعده جاء السلطان وحضرا الخطبة والصلاة ثم خرجا بعد الصلاة والناس يدعون لهما بالنصر والإعانة على قمع الكفرة أعداء الدين.

وفي ثاني عشر ذي القعدة توفي الزين عمر بن عقيل التنوخي وكان قليل الدين مخلطاً، اللهم استرنا واغفر لنا، وجاءنا الخبر في ذي القعدة من الديار المصرية بوفاة الصفي ابراهيم بن مرزوق التاجر، المحظوظ في التجارة، وكان في زمن الملك الأشرف موسى يدعى بالصاحب، وبقي بالشام مدة يتصدق عنه كل يوم بجملة من الخبز.

وفي يوم الخميس الثالث والعشرين من ذي القعدة سافر الخليفة بمن صحبه من العساكر إلى نحو العراق في طريق البرية، وسافرت قطعة من العساكر إلى أرض حلب وحران وطائفة ساروا إلى بلاد الفرنج نصر الله المسلمين ،فأغاروا، ثم عادوا ووقع الصلح بينهم.

وفي يوم الخميس ثامن ذي الحجة عزل عن قضاء دمشق النجم بن الصدر بن سني الدولة، ونولى القاضي شمس الدين أحمد بن بهاء الدين محمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان الذي كان نائباً في الحكم بالقاهرة سنين كثيرة، وجلس مكان النجم وأبيه بالمدرسة العادلية، ثم وكّل على النجم وأمره بالسفر إلى الديار المصرية، وكان حاكماً جائراً، فاجراً ظالماً متعدياً فاستراح منه العباد والبلاد، وهو الذي شاع عنه أنه أودع كيساً فيه ألف دينار فرد بدله كيساً فيه فلوس، وذكر ذلك في القصيدة التي هجي بها لما تولى الحكم، ورفعت إلى الملك المظفر، والمولى الأمير المجير، وابن وداعة، وفي الجملة تولى الحكم في زماننا ثلاثة مشهورون بالفسق،هذا الظالم، والرفيع الجيلي، وابن المصري، كان نائباً لأبيه وقلت في حصر القضاة ونوابهم:

دمشق في عصرنا مع فضلها بليت
من القضاة بجهال وأوقاح
بأعجمين ومصري وصائغهم
والإربلي وخياط وفلاح
هم ضعف ستة والنواب كلهم
ضعفان أحزانهم أضعاف أفراح

أي هم اثنا عشر: الزكي؛ وأخوه؛ وابن الحرستاني؛ وابنه؛ والجمال المصري؛ والخوئي؛ والرفيع؛ والتفليسي، وبنو سني الدولة ثلاثة؛ وابن خلكان؛ والبواب شرف الدين بن زين القضاة؛ وابن الشيرازي؛ والسراج مدرس القيمازية؛ وابن الموصلي؛ والشرف الحوراني؛ والنجم الحنبلي؛ وابن المصري؛ والسنجاري؛ وملكشاه؛ وعبد الله؛ والبكري؛ وقاضي العسكر؛

وابن عبد الكافي؛ وابن العجمي؛ واسحاق؛ والبدر بن خلكان؛ وأخوه المحيي؛ وابنه؛ وقلت في نظم الاثني عشر:

هم الزكي والحرستاني معا
وجمال مصر ثم الخوئي ثم ذو الراح
رفيعهم وبنو السنسي ومحييهم
وخلكان مع التفليسي يا صاح

ثم سافر الحاكم المعزول إلى مصر تحت الحوطة يوم الخميس خامس عشر ذي الحجة، والدعاء عليه كثير، والتظلم منه شائع والدعاوي عليه كثيرة.

وفي الغد يوم الجمعة قرىء بالشباك الكمالي بجامع دمشق، وأنا حاضر فيه، تقليد القضاء للقاضي شمس الدين بن خلكان الإربلي ويتضمن أنه فوض إليه الحكم في جميع بلاد الشام من العريش إلى سلمية يستنيب فيها من يريده، وفوض إليه النظر في أوقاف الجامع والمصالح، والبيمارستان، والمدارس وغيرهما مما كان تحت يد الحاكم المعزول، وفوض إليه تدريس سبع مدارس كانت تحت يد المعزول وهي:

العزراوية، والعادلية، والناصرية، والفلكية، والركنية، والإقبالية، والبهنسية، وأنشدني العماد داود بن الحموي لنفسه في ذلك القاضي المعزول:

نجم أتاه ضياء الشمس فاحترقا
وراح في لجج الادبار قد غرقا
ناحت عليه الليالي وهي شامتة
وعرفته صروف الدهر ما اختلقا
وحدثته الأماني وهي كاذبة
بأنه لا يرى بعد النعيم شقا

وجاد بالمال كي تبقى رياسته
وفتق الشرع والتقوى ومارتقا
فجاءه سهم غرب جل مرسله
فهات معنى وما أخطاه من رشقا
وألقيت في قلوب الناس بغضته
لكنهم قد غذوا في ذمه فرقا
ففرقة بقبيح الظلم تذكره
وفرقة حلفت بالله قد فسقا
وفرقة سلبته ثوب عصمته
بأنه رباط الدين قد مرقا
وراح قسراً إلى مصر على عجل
موافقاً للذي من قبله سبقا
مفارقاً لنعيم كان منغمساً
فيه ولذة يوم بدلت أرقا

وزدت أنا:
وفرقة وصفته بالخلاعة مع
خبث وكبر وكل منهم صدقا

وفي يوم السبت سارت العساكر مع سلطانها الظاهر راجعة إلى مصر، وجاءنا الخبر من عانة بوصول الخليفة إليها، وأنه اتفق مع الخليفة الآخر الذي كان أقامه برلو بمدينة حلب، ويلقب بالحاكم ونقش اسمه على الدراهم، وخطب له على المنابر، فلما قدم صاحب مصر والشام بالعساكر، وتوجه الخليفة إلى العراق تزلزل أمره، ووفق بينهما، فانصاع الحاكم للمستنصر بسبب أنه الأصغر وذاك الأكبر، ووقع الاتفاق وزال الشقاق ولله الحمد.

ثم جاءنا الخبر في آخر السنة: خرج عليهم طائفة من التاتار وأصحابهم قبل وصولهم بغداد فقتلوا الخليفة وأكثر من كان معه، وجاء الخليفة

-٩٤٠٣-

الأصغر هارباً إلى العراق، وقدم جماعة منهم دمشق هاربين وأخبروا بماجرى عليهم، وممن كان معهم وفقد :الكمال بن السنجاري، وابن العمري، وعبد العزيز بن عبد الملك بن عساكر وغيرهم.

ثم دخلت

سنة ستين وستمائة

ففي يوم الأربعاء ثاني عشر المحرم ذكرت الدرس بالمدرسة الركنية الملاصقة للمدرسة الفلكية، وابتدأت بها درساً من مختصر المزني رحمه الله بحضرة قاضي القضاة وغيره.

وفيها: في أوائل صفر توفي البرهان ابراهيم الصرخدي.

وفيها: في ثاني عشر صفر قتل الزين مظفر بن اسماعيل التاجر المعروف بالزين الصانع، صاحب الأملاك بقريتي داعية وحمورية وغيرهما، وقتل بعد صلاة الجمعة، وهو داخل من جبل قاسيون قبل أن يصل إلى مقبرة ابن صاحب قرقيسيا على حافة الساقية المقابلة للمزرعة المعروفة بالسميرية. قتله شخص من أهل قرية تل منين تبعه من الجبل، وقد عاينه باع شيئاً واستوفى ثمنه، ولم تمكنه الفرصة إلا هناك، ثم مسك القاتل فأقر فشنق بعد يومين بين الميدانين يوم الاثنين، ودفن الزين من الغد بجبل قاسيون رحمه الله يوم السبت ثالث عشر صفر.

وفيها: يوم الأحد الثاني والعشرين من صفر، دخل الخليفة الحاكم الذي كان بايعه برلو بحلب، وأنزل في قلعة دمشق مكرماً، وذلك بعد الوقعة التي قتل فيها الخليفة المستنصر، وكان معه، فهرب وسلم، ثم سافر إلى مصر يوم الخميس السادس والعشرين من صفر.

وفي ذلك اليوم توفي عثمان الكيال الأحول الساكن بحضرة حمام الحين ودفن بباب الصغير.

وفيها: وفي أواخر ربيع الآخر توفي العز الضرير الإربلي الذي كان

يقرىء علوم الأوائل في بيته، لمن يتردد إليه من أهل الملل مسلمها، وكافرها، ومبتدعها، من الرافضة، واليهود، والنصارى، والسامرة، وكان قليل الدين، لكنه كان فصيحاً حسن المحاضرة، والله تعالى يختم لنا بخير آمين.

وفي أول جمادى الأولى توفي بمكة التاج أبو الحسن بن زين الأمناء، وصلى عليه بجامع دمشق يوم الجمعة رابع عشر ربيع الخطيب عماد الدين بن الحرستاني عندما صح خبر موته رحمه الله.

وفيها: جاءنا الخبر من مصر بوفاة الشيخ عز الدين أبي محمد عبد العزيز بن عبد السلام رحمه الله، وعمل عزاؤه بجامع العقيبة يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ستين وستمائة؛ ثم جاء من حضر جنازته وأخبر أن وفاته كانت يوم الأحد عاشر جمادى الأولى أو حادي عشره، وكان يوماً مشهوداً حضر جنازته الخاص والعام، ونزل السلطان الظاهر بيبرس وصلى عليه مع الناس بالقرافة، ودفن في آخر القرافة مما يلي الجبل من ناحية البركة، وصلى عليه في جامع دمشق وغيره من الجوامع بالشام يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى رحمه الله، ونادى النصير المؤذن بعد الفراغ من صلاة الجمعة: الصلاة على الفقيه الإمام شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام.

وفيها: في حادي عشر جمادى الأولى توفي الجمال عبد الوهاب بن المصري الأعور ،وكان قديماً بالمدرسة الجاروخية في حياة شيخنا فخر الدين بن عساكر، ثم صحب بني سني الدولة وانتفع بهم وكف بصره في آخر عمره ودفن.

وفيها: في رجب من هذه السنة جرى علي الشمس محمد بن مؤمن الحنبلي أمر بتعصب أهل الجبل عليه، بأن حمل والي دمشق على صفعه وتجريصه على حمار بدمشق وبالجبل.

وجاءنا الخبر من مصر بوفاة الصاحب كمال الدين عمر بن أبي جرادة الحنفي، المعروف بابن العديم في العشرين من جمادى الأولى، وصلي عليه بجامع دمشق صلاة الغائب رحمه الله، وكان فاضلاً متواضعاً، حسن المحاضرة، كثير الإفادة، وسود تاريخاً لحلب، وبيض بعضه، وفي تاسع عشر جمادى الأولى توفي الجمال عبد الله بن عبد الملك الحنبلي المعروف بعفلق. وفي السادس والعشرين من جمادى الأولى توفي التاج عبد الرحمن ابن عبد الباقي بن الخضر الحنفي المعروف بابن النجار، وكان أحد شهود باب الجامع، ومدرساً في بعض مناصب الحنفية رحمه الله، وهو الذي كان عقد نكاحاً على مذهبه باذن الصدر بن سني الدولة الحاكم الشافعي، ثم أذن الصدر لنائبه الكمال التفليسي في نقضه، وجرى في ذلك انكار عظيم على الناقض والآذن، وصنف في ذلك تصنيفاً فانتصر التفليسي لما حكم به بجمع جزء فنقضه عليه بتصنيف آخر، صليت عليه إماماً ظاهر باب الفراديس، واتفق حينئذ عبور نائب السلطنة بدمشق وأعمالها الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري، فترجل وصلى معنا عليه، ثم مضى به إلى جبل قاسيون.

وفيها: في ثاني عشر جمادى الآخرة توفي البدر المراغي الخلافي المعروف بالطويل، وكان قليل الدين، تاركاً للصلاة مغتبطاً بما كان فيه من معرفة الجدل والخلاف على اصطلاح المتأخرين، رحمنا الله وجميع المسلمين.

وفيها: في السادس والعشرين من جمادى الآخرة توفي صاحبنا ناصر الدين محمد بن داود بن ياقوت الصارحي، ودفن بمقبرة الباب الصغير، حضرت دفنه والصلاة عليه، وكان رجلاً صالحاً، عالماً مفيداً لطلبة الحديث باذلاً كتبه وخطه في ذلك، اشتغل بسماع الحديث كثيراً، وكتب مجلدات وأجزاء كثيرة، وطباق السماعات المكتوبة بخطه من أحسن الطباق وأنورها وأصحها رحمه الله. وفي ذلك اليوم توفي جمال الدين محمد

ابن عبد الحق بن خلف الحنبلي بجبل قاسيون، فلم أحضر جنازته لاشتغالي بجنازة ناصر الدين المذكور رحمهما الله، وكان حسن الأخلاق ظريفاً، يتولى التوريق بالجبل، وأرخ الوقائع في أيامه.

وفي ليلة الأحد سلخ جمادى الآخرة ولد ابن ابنتي حسن بن عبد الرحمن بن محمد البكري، جعله الله مباركاً.

وجاءنا الخبر من مصر في رجب بأنه شنق قاضي المقيس بها، وكان ذلك في عشية الثلاثاء ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة وهو: الكمال خضر بن أبي بكر بن أحمد الكردي أحد أقارب قاضي سنجار وذلك لأنه تعرض لإقامة دولة باجتماعه مع جماعة من الأكراد والشهرزورية، فقبض عليه وعلق وفي رقبته تواقيع كان كتبها، وبنود من شعار الدولة التي قد رام اقامتها، وكان قبل ذلك قد صنع خاتماً وذكر أنه وجده وجعل تحت فصه ورقة أسماء جماعة من أولي الثروة بها عندهم مودع، ورام استئصال أموالهم والتقرب بها إلى ولاة الأمر فاطلع على حاله فأهين وصفع فقيل فيه:

ما وفق الكمال في أفعاله ... كلا ولا صدق في أقواله

يقول من أبصره يصر ... نادماً على ما كان من محاله

قد كان مكتوباً على جبينه ... فقلت لا بل كان في قذاله

وسألت الحاكم شمس الدين أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر عن هذه القضية، فأخبرني أن هذا الكمال خضراً كان قد علق به حب التقدم عند الملوك بسبب أنه كان قد تقدم عند عز الدين أيبك التركماني، وهو الملك المعز، ثم أبعد، واتفق أنه لما صنع الخاتم المذكور وحبس كان

في الحبس شخص آخر يدعي أنه من بني العباس، وكانت الشهرزورية أرادت مبايعته بالخلافة وهيأوا الأمر لها بعده، فلما تبدد شملهم أخذ هذا وحبس، واتفق خضر معه في الحبس على أنه يسعى له في ذلك الأمر، ويكون هو وزيره فاتفق موت العباسي، فلما خرج خضر سعى في اتمام الأمر لابنه فتم ماتم.

قال: وكان من زمن الإمام الناصر أحمد قد ورد إلى إربل شخص يسمى الأمير الغريب، كان يدعي أنه ولد الناصر، ثم توفي سنة أربع عشرة وستمائة فادعى هذا الشخص أنه ابنه عند الشهرزورية، فقدموه فحبس ومات وخلف ولداً صغيراً، فسعى الكمال في المبايعة له، فجرى ماجرى، وقد خاب من افترى.

وفي ثامن رجب توفي الشرف عبد الرحمن بن صدقه، وكان من أترابي ورفقائي في تلقن القرآن العظيم عند العفيف الضرير محمود شيخ القاضي الخوئي، وفي المدرسة الأمينية أيام الجمال المصري رحمه الله، وفي ثالث عشر رجب توفي البرهان الخلخالي، وكان فقيهاً مناظراً مقبول الشهادة رحمه الله، وفي رابع عشر رجب توفي الشمس الكردي الأعرج الذي كان يصحب الأمير حسام الدين بن علي، وكان مدرساً بالكلاسة وغيرها، ودفنه حموه تقي الدين بن أبي اليسر بالجبل عند قرابته وجده رحمهم الله.

وجاء الخبر إلى دمشق بالتقاء التاتار لعنهم الله المقيمين على بلاد الموصل، بعسكر الأمير برلو من المسلمين، وجرت بينهم مقتلة عظيمة، قتل فيها من أعيان فرسان المسلمين سنجرجكم الأشرفي وابنه، وبكتوت الحراني وغيرهم.

وفيها: يوم الاثنين الثاني والعشرين من رجب توفي نقيب الأشراف

الطالبيين بـدمشق وهـو: بهاء الديـن علي من بنـي أبي الجن، وتولى بعـده النقابة الفخر بـن النظام البعلبكي، وفيها: يوم الخميس خـامس وعشرين رجب توفي الشيخ عبد الرحمن بن خطيب إربل الذي كـان ساكناً بمنارة جـامع دمشـق الشرقية رحمه الله، وجـاءنـا الخبر من مصر بـوفاة القـاضي المسكين بن كامـل في نصف رجب، ومن تـل السلطان بحلب بوفـاة عز الدين أيبك المحيـوي، عتيق محيي الدين بن المدرس وزيـر الجزيرة، وكان شاباً ذكيـاً فاضلاً حسن الخط، وكان يقرأ علي في صغـره، بمصر شيئاً من العربية رحمه الله، وفي هذه السنة نظر في أمر أئمة المساجد بدمشق فمنعوا مـن الاستنابـة، ورجع على بعضهـم بما كان تنـاوله إذ لم يقم بـالوظيفـة، منهـم: التاج الشحـرور، والجمال الموقـاني، وابن بنـت غـانـم، وابن عبـد السلام وغيرهم، ونقـص كثيراً من جامكياتهم المقررة، وكان المتـولي لذلك والي الشرطة بدمشـق وهو الإفتخار اياز، وكـان شيخاً كبيراً ولي دمشق في أول هذه السنة، ومكن مـن النظر في المساجد فجرى ماجـرى، وأمر أهل الأسواق بـالصلاة، وعـاقب من تخلـف عنها، وكـان يخدمه شخـص من أبناء الحنـابلة يعرف بـالفخر بن الصيرفي، وله مسجـد بقبة اللحم لـه فيه كل شهـر ستون درهماً، وتـركه بحـاله لم ينقصـه من جـامكيته مـع نقص غيره، فقال فيه بعض أئمة المساجد:

يـــــاواليـــــاً متـــــزهـــــداً
متحنبـــــــــلاً بتصلـــــــــف
لم لاتســـــاوي بـــــا لمســـــاجـــــد
مسجـــــــــد ابـــــــــن الصيرفي

فأجابه آخر على لسان الوالي لما كان متهماً بمراعاة الحنابلة فقال:

قـــــــــــال الأمير الحنبلي
جـــــواب مـــــن لم ينصـــــف
أنـــــا مبغـــــض للشـــــافعـــــي
والمالكـــــــي والحنفـــــــي

فلـــــــــذاك أقصــــــدهــــــم
وأرعــــى جــــانــــب ابـــــن الصيرفي

وفي شعبان تـوفي الحاج أبو بكر بـن بطيخ التـاجر برحبـة دمشق، وفي هذه السنة سار عسكر الشام مع مـن قدم عليهم من عسكر مصر، ونزلوا على مدينة أنطاكيـة فشعثوا منها، ثم جاءهم أمر من مصر بـالرحيل عنها فرحلوا ودخلوا دمشق في سلخ شعبان، وفي التاسع والعشرين من شعبان توفي النجم ابراهيـم بن الضياء يوسف بن خطيب بيـت الأبار، وكان من الشهود المتصرفين بديوان السبع رحمه الله.

وفي أول هذه السنة نزل التاتار لعنهم الله الذيـن كانوا هربوا من الشام مع مـن انضوى إليهـم من المفسـدين على مـدينة الموصـل فحصروها إلى شعبان؛ ثـم جاءنا الخبر بـأنهم دخلوا وفتكـوا فيها على عادتهم وملكـوها وقتلوا وأسروا صاحبها ابن لؤلؤ، وجـاءنا الخبر بأن الخلف وقع بين التاتار ببلاد العجم وموت ملكهم الأكبر، وانتصار بركة على هولاكو لعنه الله.

وفي النصف من رمضان وقع بدمشق ارجـاف عظيم من جهة التاتار، وتجهز النـاس منها للهرب الى الـديار المصريـة، وباع الأمراء حـواصلهم حتى حـواصـل القلعـة وتهيئوا للهـرب، وألـزم ولاة الأمـر كبراء دمشـق بالرحيل بأهاليهم إلى مصر، ورسمـوا عليهم بذلك، وضيقوا عليهم بسببه، وألزموا أرباب الدواوين المتصرفين لهم بـارسال نسائهم إلى مصر وبقائهم في خدمتهـم في دمشق سواء في ذلك القـادر والعاجز، وألزمـوا جمعاً كبيراً بـذلك مـن أهل الأسـواق بالقيسـارية الفخـرية والخواصين وغيرهما مـن جماعة من صناع القواسين وغيرهم، وأطلقـوا أصحاب الفراسين وكل من كان بينـه وبين التاتار تعلـق وأخرجوهـم إلى مصر كرهاً. منهـم: القاضي التفليسي، وابـن عنتر، وقيـدوا جماعـة منهـم مثـل: ابـن اللبـودي، وابـن المسلم، وابـن الأردني، وجفل الناس مـن حمص وحماه وغيرهما إلى دمشق،

ورحل من دمشق في نصف شوال فما بعده قفل كبير إلى مصر بعد قفل وأخذ بعضهم في الطريق وجرح بعض، وكان الماء عليهم في الطريق قليلاً والحر شديداً، وبلغنا أن مثل هذا الإرجاف وقع أيضاً في بلاد العدو من التاتار، وفي بلاد الفرنج أيضاً، وفي الديار المصرية.

وفيها: توفي جمال الدين الواسطي الساكن بالعزيزية، وكان يصلي بها التراويح رحمه الله، وفي أوائل شوال قتل الشيخ اسكندر الواسطي بقرية زملكا من حرامية نزلوا عليه رحمه الله. وفي شوال أيضاً توفي حميد الأخرس ابن أبي الفتح، وتوفي فيه خميس الخفير الذي كان بمقبرة باب الفراديس. وفي سلخ شوال توفي عز الدين عبد العزيز بن الشيخ شمس الدين يوسف سبط ابن الجوزي الواعظ الحنفي، وكان قد درس مكان أبيه بعده بالمدرسة العزيزية التي فوق الميدان الكبير رحمه الله، ودفن في مقبرة أبويه بجبل قاسيون، وفي أوائل ذي القعدة توفي العفيف بن الوزار.

وفيها: في ثالث ذي القعدة وصل من مصر إلى دمشق عسكر مقدمه الأمير عز الدين الدمياطي، وبكر للدخول إلى دمشق، فخرج الناس يتلقونه وفيهم الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري نائب السلطنة بدمشق، فلما وصل اليه وأهوى أن يكارشه(١٣٩) على ماجرت به عادة الملتقين قبض الدمياطي بيده الواحدة عضد طيبرس وبيده الأخرى سيفه وأنزله عن فرسه وأركبه بغلاً وشده عليه وقيده، ثم تركه بمصلى العيد، فلما دخل الليل وكل به وسيره إلى مصر، وكان القبض عليه عند ذيل عقبة شحورا، وهرب من خرج معه من أصحابه، ثم استخرجت أمواله التي تبقت بعد ماسير، منها ماكان سير مع العرب، وقبضت حواصله.

وكان طيبرس المذكور قد أهلك أهل دمشق باخراجهم من بلدهم والترسيم على الأكابر باخراج عيالهم وبأنفسهم واهانتهم، وضيق على الناس بتمكين العرب من شراء الغلال من دمشق وتخويف الناس من

التاتار، وكان البدوي يجلب الجمل ويبيعه بأضعاف قيمته ويشتري به الغلة رخيصة لأن الناس بين خائف يبيع حاصله ليتجهز به ومحتاج إلى الجمال لسفره، وبين من هو موكل عليه ليسافر ولابد فهو مضطر الى كل ذلك، وبلغ كراء الجمل بالمحارة من دمشق الى مصر نحو مائتي درهم، والحمد لله على كشف تلك الشدة.

وفي الخامس من ذي القعدة مات الأمير المعروف بالأصبهاني مخموراً، وفيها يوم السبت السابع والعشرين من ذي القعدة وصل إلى دمشق من عسكر التاتار لعنهم الله نحو مائتين مابين فارس وراجل بنسائهم وصغارهم هاربين الى المسلمين، وذكر أن سببه أن عسكر هولاكو كسره عسكر ابن عمه بركة فهرب جماعة هولاكو وتشتتوا في البلاد، فقصد كل طائفة جهة، وتوجهت هذه الطائفة إلى بلاد الشام ففرح المسلمون لهذا الخبر وزال عنهم ماكانوا فيه من الغم بسبب الأخبار السابقة التي أوجبت أن جفلوا الى مصر، وأخبر بعض هؤلاء المنهزمين أن ملك التاتار الأعظم منكوخان توفي وقام بالملك بعده أخوه الأصغر عري بكو، وكان الأخ الأكبر قبلاي غائباً بالهند، فأنف وقصد أخاه بعسكره فتقابلا ونصر الله بركة لعري بكو، فكسروا عسكر قبلاي، فلما سمع هولاكو عز عليه وكره تملك عري بكو، وجمع العساكر وقصد بركة، وسار بركة إليه ونزل في أرض الكرج، ونزل هولاكو بصحراء سلباس وخوي.

وأخبرني من أثق به عن من يثق به أنه اجتمع ببعض غلمان من كان في أسر التاتار من الأمراء، أنه أخبر بحضرة الأشرف صاحب حمص أنه حضر كسرة بركة لهولاكو، وقال: كان جيش بركة قد كسر عسكر هولاكو الذي سيره مع ابنه وقتل ابنه، فجمع هولاكو بقية من قدر عليه من عساكر، وسار إلى بركة فلقيه بناحية شروان فقتل من الفريقين خلق عظيم، ووقعت الكسرة على عسكر هولاكو، فبقي السيف يعمل فيهم

أياماً وهرب هولاكو إلى قلعة بلا(١٤٠) وهي في وسط بحيرة بأذربيجان، فدخلها وقطع الطريق إليها فبقي كالمحبوس فيها.

وفيها: في ثامن ذي الحجة توفي الأمير سيف الدين بلبان، المعروف بالزردكاش الذي كان استنابه طيبرس موضعه بدار العدل، وعلى دمشق لما سافر إلى حصار أنطاكية وكان ديناً خيراً يحب العدل والصلاح رحمه الله.

وفيها: جاء يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة جماعة من المسلمين أعرف بعضهم، معهم شيخ زعموا أنه نصراني معروف ببيع اللحم بدمشق، وأنه رأى رؤيا، وقد جاء مسلماً فأخبرني أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجمعة جاءه وكان مضطجعاً من أثر مرض، فقال له: قم وأخرج من الضلالة إلى الهدى ومر إلى أبي شامة وأسلم على يده، وأخبره أن الملك الأشرف ـ يعني صاحب حمص ـ يملك بلاد سيس، ويهلك العدو بها، وأن صاحب مصر في السنة الآتية يهدم عكا ويملكها، وتكون أنت تخدم مسجد صالح بها، ثم ارتفع صلى الله عليه وسلم إلى نحو السماء، وهو في صورة لاأقدر أصفها ولا أشبهها بالقمر ولا الشمس هي أكمل من ذلك وأتم، فقلت إلى أين يارسول الله؟ قال: أسأل ربي في الناس نصرهم على الكفرة، أوكما قال.

قال: فانتبهت وبقيت في حيرة من أمري، فلما كان ليلة السبت رأيت مثل ذلك المنام، ثم ليلة الأحد كذلك ثلاث ليال متوالية، ثم صممت على الدخول في الاسلام، فسألت عن من يقال له أبو شامة من المشايخ فدلوني عليك، فأمرته بالاسلام فأسلم، والحمد لله رب العالمين.

وفيها: توفي البدر أحمد بن شرف الدين عمر بن السابق بأرض نابلس رحمه الله، وفي أواخر ذي الحجة توفي العز التاجر المعروف بابن مشرف، ويلقب بابن الجرذان، ووجد النظام قيس بن العربيني مقتولاً بالصالحية، وكان هذا المذكور ذكر عنه أنه قتل زوجة له وغيرها، وهو: أبو سعيد

قيس بـن عثمان بن عمرو بـن كامل بـن هبة بن علي الانصـاري ،وعربين قرية بغوطة دمشق.

وقدم إلى دمشق واليـاً عليها من جهة مصر الأمير جمال الـدين أقوش، المعروف بالنجيبي، ورحل علاء الديـن التركي إلى مصر، وتولى عز الـدين ابـن وداعة الـوزارة على الـدواوين ومـايتعلق بها، وتـولى نظـر الدواويـن شمس الدين بن علان، وانعزل عنه شرف الدين بن الوزان.

وتحرك سعـر الغلة في أواخـر هذه السنـة، وطـابت الأخبـار من جهـة التاتار، والحمد لله.

ثم دخلت

سنة احدى وستين وستمائة

وسلطان الديار المصرية والشامية الملك الظاهر بيبرس الصالحي، المعروف بالبندقداري، ولاخليفة للناس يذكر بل السكة تضرب باسم المستنصر بالله على ماكان الأمر عليه، والنائب بدمشق عن السلطنة جمال الدين أقوش النجيبي، وقاضيها شمس الدين ابن خلكان.

وفي خامس المحرم توفي الزين بن أبي طالب الفراش صهر المجد بن سني الدولة، وكان يتولى الدواوين مع الأمراء وغيرهم.

وفيها: يوم الجمعة سادس عشر المحرم خطب بجامع دمشق وسائر الجوامع للخليفة الحاكم أبي العباس أحمد بن الحسين بن الحسن من أولاد المسترشد، بتوقيع القاهرة ومصر في ثامن المحرم من السنة التي كان سافر الى مصر.

وفيها: جاءنا الخبر بأن صاحب مصر بايع له، وأمر بالخطبة له في البلاد.

وفي ليلة الأحد ثالث صفر سمر شاب، ذكر أنه كان يرسل زوجته وتدخل في بيوت النساء، فتحسن للمرأة الخروج معها لابسة أفخر ثيابها وحليها وتشوقها بأن تقول لها هاهنا عرس أو وليمة، وقد اجتمع فيه جماعة من النساء الأكابر فلا تتركن من الزينة شيئاً ليحصل لك التجمل بينهن، فتفعل تلك المغرورة، أقصى ماتقدر عليه، وتخرج معها فتجيء بها إلى بيت زوجها، فيأخذ جميع ماعليها، ثم يخنقها ويرميها في بئر في داره فعل ذلك بجماعة من النساء، وهو نظير مافعله شخص يعرف بالمكحلة في سنة ثمان وعشرين وستمائة، وسمر وبقي أياماً ومات، ثم

-٩٤١٦-

هتكه الله تعالى فأخذ هو وامرأته فضربا فاعترفا، فأما المرأة فخنقت وجعلت في جوالق وعلق الجوالق تحت الخشب الذي سمر عليها، فأصبح الناس يوم الأحد فوجدوا الجوالق المعلق والرجل المسمر خارج باب الفرج على يسار الخارج من الباب، وكان الزمان في سابع عشر كانون الأول، وسمر وهو في ثوب واحد خلق مكشوف الرأس فبقي ليلتين ويوماً، وفي اليوم الثاني خنق بطرف الحبل وربط في الخشبة التي سمر عليها، وكان أبوه حياً وهو رجل حسن يعرف بعلي الصانع، له ثروة وقدر بين الناس وجده أيضاً حي، وتوفي ذلك اليوم نصر الفراش بالتربة العادلية سقط من سطح فمات، رحمه الله. وفي العشرين من صفر توفي أبو الحزم العطار بباب البريد، وهو ابن البدر بن مسلم العطار باللبادين.

تمام حوادث سنة احدى وستين وستمائة

فيها نظمت قصيدة في شرح الحال، وكنت قد اشتغلت بزراعة ملك لي وعمارته، فانقطعت عن المدرسة فعوتبت فقلت:

أيها العاذل الذي إن تحرى
قال خيراً ونال بالنصح أجرا
لا تلمني على الفلاحة واعلم
انها من أحل كسب وأثرى
كيف لا ألزم الفلاحة باقي
عمري لا أزال حصداً وبذرا
وبها صنت ماء وجهي عن الناس
جميعاً وعشت في القوم حرا
اذ بها صار منزلي ذا غلال
مع عيال من بعد ما كان قفرا
مشبع الأهل والأقارب والأل
زام منها فليس يشكون فقرا
ولكم واقف ببابي يعطى
صدقات من الغل وبرا
كم فقير وكم يتيم وكم
أرملة نال من نصيبي وفرا
وكذا الطير والبهائم ترعى
من زروع ومن ثمار تترى
كل ذا فيه الأجر جاء
أحاديث بهذا الذي الأئمة تقرا
اتخذ حرفة تعيش بها
يا طالب العلم ان العلم ذكرا
لا تهنه بالاتكال على الوقف
فيمضي الزمان ذلاً وعسرا

انما تحصل الوقوف لشريـ
ـر ونذل من العلوم مبرا
أولمن يلزم الأكابر لايبـ
ـرح في خدمة لهم ومدح وإطرا
طالباً جاههم مجيباً الى كـ
ـل أمور لهم عكوفاً مصرا
فترى قاضي القضاة ومن يذ
كر درساً يرعاه سراً وجهرا
قاصداً قربه فيصغي إليه
فاعلاً مايريد نفعاً وضرا
والضعيف المشغول بالعلم يلقى
من ولاة الوقف هجراً وهجرا

وهو المستحق لو أبصروا الحـ
ـق ولكن عموا فيارب غفرا
إنما كانت المدارس عوناً
لأولي العلم حسب في الناس طرا

درست في زماننا إذ تولا
ها أولوا الجهل والحماقة قهرا
قربوا شبههم وأقصوا وآذوا
حامل العلم أسكنوه قبرا
وتراهم لايحزنون لهذا
إنهم في الضلال والغي سكرا
ياله منصباً تداوله من
ليس أهلاً له دهاء ومكرا
جعلوا موضع المفقه والمر
شد من لايدري وفي الشر يدرى
وأولوا الأمر المالكون يظنو
ن صواباً فيهم وخيراً وطهرا

فــــاذا مــــــار أوهــــــم هكـــــــذا كـــــــا
ن لهم فعلهــــــم على الظــــــالم إغـــــــرا
ويظنــــــون كــــل صـــــاحـــب علــــم
هكــــــــذا فعلـــــــه فيجعــــــل جسرا
فعليـــك المعـــاش يـــاطـــالــب العلــم
ولا تترك المعيشـــــــــــــــــــــة كبرا
واقتنـــع بـــالـــــذي تسهـــل واشكــــر
تجد الـــــــرزق فـــــاض فيضـــــاً ودرا
واتـــرك الـــوقـــف اذ جـــرت صـــورة الامـــــ
ر كـــــــذا بينهــــــم فبئـــــس المجـــــرا
اجتنـــــب فعلهــــم تـــوكـــل على الحـ
ـــــي الـــذي لا يمــــوت واســـألـــه سترا

كـــــن أبيـــــاً لما يشين أمـــــا تـــــأ
نـــف مـــن أن يكـــون عيشـــك يـــزرى
اذ يقـــال الأوقـــاف أوســـاخ الأمـــوا
ل كـــوقـــف الـــزمنـــى ووقـــف الاضرا
والمســـاكين واليتـــامـــى فكــــل
صـــدقـــات منهـــا اللبيـــب تبرا
لا يـــرى أنـــه يشـــارك ذي الأصـــــ
ـــناف فيهـــا يعيـــش عيشـــاً مـــرا
فجفـــاهـــا مـــع أنـــه مستحـــق الـــ
ـــوقف مـــا يستغـــل منـــه ويكـــرى
فـــدع العجـــزيـــا أبي اذا أنـــ
ـــصفت في الفكـــر لم تجد لـــك عـــذرا
لا تـــزاحـــم ولا تكـــاثـــر بها تـــأخـــذ
منـــه فقـــد عـــرفـــت الأمـــرا
وان احتجـــت خـــذ كفـــافـــاً يكـــره
وبعـــزم أن لا يـــدوم العمـــرا

كـــان مـــن قبلنـــا أئمـــة هـــذا الـــد
يـــن والـــوقـــف بعـــد ذاك استقـــرا
لم يكـــن ذاك مـــانعـــاً طـــالـــب العلـــم
مـــن العلـــم فـــاقـــف ذاك الاثـــرا
معطيـــاً كـــن ودع مـــن الـــوقـــف آخـــذا
إن يـــد الإعطـــاء أعلى وأرفـــع قـــدرا
صـــدقـــات الـــوقـــوف ينفـــر منهـــا
كـــل حـــر تـــأتيـــه صفـــواً ويسرا
كيـــف حـــال الـــذي يـــذل لها
بـــالقـــول والفعـــل كـــي يحصـــل نـــزرا
دائبـــاً في الترددات صفيـــق الـــ
ـــوجه عنـــد اللقـــاء شيئـــاً أمـــرا
ذاهـــب العمـــر في النفـــاق وفي الـــ
ـــخدمة لا يـــألى ذهـــابـــاً ومـــرا
بـــائعـــاً دينـــه بـــدنيـــا غيره
لقـــد خـــاب بـــائع الـــديـــن خسرا

لا حيـــاء لـــه يطلـــب مـــا ليـــس
حـــق لـــه لقـــد جـــاء نكـــرا
فلهـــذا اعتـــزلـــت يـــا رب تمم
مـــا بـــه قـــد مننـــت إنـــك أدرى
ثـــم لـــو لم يكـــن تصـــدق بـــالـــوقـــ
ـــف لقـــد كـــان البعـــد عنـــه أحـــرى
حين قـــد صـــار الأخـــذ منـــه يسمـــى
منصبـــاً فيهـــم يبـــاع ويشرى
فتعـــاطـــاه صـــاحـــب المال والجاه
فـــزال المقصـــود منـــه وضرا
وأقـــامـــوه في المواريـــث حتـــى
أخـــذوه إرثـــاً صغـــاراً وكبرا

وغـــدا المستحـــق حيران نـــدمـــا
ن مـــن الغبـــن ينظـــر العيـــش شـــزرا
ثبـــت الله بعضهـــم بغنـــى النفـــ
س فلـــم يكترث وقـــد عـــاش دهـــرا
حـــب هـــذه الـــدنيـــا أصـــم وأعمـــى
أخـــذ الـــوقـــف أغنيـــاء وأغـــرى
وأولـــوا اللـــب والعقـــول يـــرون الـــ
أخـــذ منـــه مـــع الغنـــى عين إزرا
والفقير الحريـــص منهـــم مكـــد
وكـــذا مـــن يســـالها مـــع الإثـــرا
غير أن الفقير يعـــذر فيهـــا
والغنـــي الغبـــي يـــرمـــى ويـــذرى
عجبـــاً مـــن مـــدرسين قضـــاة
يتبـــارون في اللبـــاس بطـــرا
وهـــم في نفـــوسهـــم في عظيـــم
يـــركبـــون البغـــال عـــزاً وزهـــرا
حـــق كـــل منهـــم يكـــون حـــزينـــاً
إن أجـــاد المعنـــى وأحســـن فكـــرا
أبـــداً ذا يعيـــش بصـــدقـــات الـــ
ـــناس بـــاســـم الـــوقـــف لا يتبرا
وعليـــه مـــن الشروط تكـــاليـــف
فـــإن لم يقـــم بها فهـــو أدرى
كـــم رأينـــا مـــدرســـاً ومـــولى
حقـــه أن يكـــون منـــه معـــرا
ضحكـــة للـــورى المدرس والحا
كـــم تلقـــى وليـــس يحســـن يقـــرا
يـــالها وصمـــة على أهـــل ذا الـــ
ـــعصر يكفيـــك مـــا رأينـــاه خبرا

إن منهم من كان يلثغ بالقاف
ومنهم من كان يلثغ بالرا
وهما من أماثل القوم فاعجب
واعتبر وانشر الغرائب نشرا
والذي ألبس القباء ذا الكر
بة والظالم المردي المهرا
والذي كاتب التتار ومن
سار اليهم قصداً فأثنى وأطرا
والذي قد أتى الفواحش واستكبر
فاسأل ماذا جرى إذا تجرى
والذي ميله إلى نظم دو
بيت وتقريب من يذاكر شعرا
وله في أكل الحشيشة رأي
وافق الفرع فيه ليلا وفجرا

ولديه أبو الفوارس مهتز
بها رمى الشباب عجبا وسكرا
فتولى المناصب والأشياخ قد
عطلوا فيشكون صغرا
ورعاة العدل المرضي حاضراً
مجلس الاثبات شاهداً مستمرا
قائلاً ذا أثنى عليه بنو علـ
ان والأقربون أولاد صصرا
قيل لا تعتمد عليهم لهم أغـ
راض سوء زوراً وبهتا ووزرا
عد واسأل سواهم تعرف الحـ
ـق فاذا أعذرتني نلت إصرا
أنت في حق غيره واقف إن
كنت بالشام أو تفارق مصرا

عجباً ما نراك بـه تـوقف
لقد بـث أمـره منـك سرا
كلما قلـت دولـة الحاكـم الجابـر
زالـت قـامـت علينـا أخـرى
وتصدوا لأكـل الأوقـاف حتـى
ذمهم عـارفـوه نظماً ونثـرا
فلـذا صـارت المعيشـة أولى
بـأولي العلـم والصـلاح وأحـرى
ولقد كنـت قبلهـا مـن غنـى النفـس
مليـاً فـالحمـد لله شكـرا
بيـد أني أنفـت مـن صـدقـات
الفقـه شبهتهـا بـوقـف الأسرى
وتـأنفـت مـن مـزاحمة النـذ
ل عليهـا يـرى الـوقـاحـة فخـرا

فتمنيـت مـذ زمـان أرى
رزقـي عنهـا بمعـزل فـاستـدرا
بـارك الله في المعـاش كما
شـاء لـه الحمـد إذ بـدا واستمـرا
فـأنـا اليـوم أنـزه القـوم نفسـاً
بخـلاصي منهـم وأروح سرا
حسـدتنـي جماعـة قـال منهـم
قـائل ذا ومـن أيـن أثـرى
ويحهـم ربنـا هـو الـرزاق
يعطـي قـلاً ويعطـي كثـرا
عنـده المتقـى فيـا خجلـة الـ
ـمغتاب والمفتري الـذي هـو أجـرى
مـا يبـالـي مـاذا يقـول سيجـزى
في غـد حين يحشر النـاس حشرا

ولئـــن قلـــت الأصـــل كـــان مـــن الـــو
قـــــــــــف فهاضر ذا ولا بي أزرى
سبيــــــا أكـــــان إنها اتجه اللـــــوم
على مـــــن على الـــــوقـــــوف أصرى
كســــلا غير عـــاجـــز عـــن معـــاش
فهـــو كـــل على الـــورى ليـــس يبرى
صـــانـنـــي الله عـــن مـــزاحمة
القـــوم على منصـــب فيـــارب صبرا
يـــارب سلـــم فيها تبقـــى ولا تحوج
إلى مـــن يستعبـــد النـــاس قسرا
فتراهـــم لأجـــل حـــاجتهـــم بين
يـــديـــه في قضيـــة الـــذل اسرا
أقـــرب النـــاس عنـــده ذو نفـــاق
حين يسقيـــه مـــن محال الاطـــرا
مـــن يخالـــف يقصـــى ومـــن وافـــق
القـــوم يكـــن مثلهـــم فحسبـــك شرا
جملـــة الأمـــر ذا فكـــم قـــد سررنـــا
وشرحنـــا بها ذكـــرنـــاه صـــدرا
كـــل مـــن كـــان منصفـــاً عـــرف الحـ
ـــق فقـــد شـــاع الأمـــر بـــراً وبحـــرا
عـــد أبيـــاتها هنيـــدة عمـــرة
بـــاعـــداداهـــا وطـــولـــت عمـــرا
وأرى أنها ستـــــــــــزاد عشرا
في أمـــــور جـــــرت وعشرا وعشرا

وفي أول صفر من سنة احدى وستين وستمائة توفي بديار مصر شرف الدين محمد بن أحمد بن عنتر الدمشقي الذي كان محتسباً بدمشق في أيام التاتار، وهو وأبوه من أولي الثروة بدمشق، ومن المعدلين فيها، رحمه الله. وفي ثاني ربيع الآخر توفي البرهان الطويل المتصرف في الدواوين، كان

عاملاً بديوان الجامع تارة، وبالحشرية أخرى، وبديوان المدارس المحدث في الأيام المعظمية، وبعدها رحمه الله. وفي الرابع والعشرين منه توفي النجم الكحال بن الصفي العبادي فجأة. كان أبوه مقرئاً حسناً ضريراً، وتعلم هو وأخوه قبله صناعة الكحالة فبرعا فيها، وتوفي أخوه قديماً فبقي هو كحالاً باللبادين، ثم بالبيمارستان، وفي رابع جماذى الأولى توفي عبد العزيز المغربي إمام مسجد الجورة بالعقيبة رحمه الله. وفي الرابع والعشرين منه توفي العدل جمال الدين بن القلانسي بن أخي المؤيد رحمه الله، وقبله توفي الجمال الأنباري ـ الساكن بالجامع بالمنارة الغربية ـ الحنبلي له سماعات كثيرة من عبد القادر الرهاوي وغيره، وهو الذي كان يصلي بالمتأخرين صلاة الصبح بالجامع فيطيل بهم اطالة مفرطة خارجة عن المعتاد بكثير إلى أن تكاد تطلع الشمس، وهو في تطويله لايتركه كل يوم، رحمه الله. وفي سابع رجب توفي العالم المغربي النحوي، وكان معمراً، مشتغلاً بأنواع العلوم على خلل في ذهنه، واسمه: أبو محمد القاسم بن أحمد بن السداد اللورقي، هكذا رأيت نسبه بخط مشايخه الذين قرأ عليهم بالمغرب ابن الحصار وغيره، وكان هو لايكتب ابن أبي السداد، ويجعل مكانه الموفق، وكأن أبا السداد كنيته الموفق، ولورقة بليدة من أعمال مرسية، ودفن من الغد في مقابر باب توما قريباً من قبر الشيخ رسلان رحمه الله.

وفي سادس عشر رجب توفي العماد مظفر بن البهاء علي بن الحسن من بني سني الدولة، وهو ابن عم الصدر أحمد بن يحيى القاضي، وكان من عدوله رحمه الله، وفي السابع والعشرين من رجب توفي الشهاب ابن الضياء الكاتب للشروط بباب الجامع الشرقي، ويعرف بأجير البهاء، لأنه كان تخرج في كتابة الشروط بالشريف بهاء الدين عبد القادر بن عقيل العباسي كاتب الحكم للزكي الطاهر، وبعده إلى أن مات، وكان فريد وقته في ذلك، فبرع هذا الأجير حتى كان الفقيه عز الدين بن عبد

السلام يفضله على كتّاب عصره فنفقت سوقه رحمه الله. وفي ثالث عشر شعبان توفي الشيخ الياس الإربلي الذي كان يكون مقيماً بالجامع في رواق الحنابلة، ثم سكن جبل قاسيون وبه توفي ودفن رحمه الله. وفي تاسع عشرين شعبان توفي الأمير مجير الدين خوشترين الكردي، وكان من أمراء مصر، وحضر كسرة التاتار لعنهم الله بعين جالوت مع المظفر قطز رحمه الله، وغزا يومئذ حتى فتح الله على المسلمين، ودفن بالجبل، وأبوه مات محبوساً مع عماد الدين بن المشطوب في بلاد الأشرف بالشرقية، وفي خامس عشر رمضان توفي العفيف الحنفي زوج الذهبية بنت الدميري جارتنا، رحمه الله، وتزوجت بعده علاء الدين أحمد بن القاضي محيي الدين بن الزكي.

وفي السابع والعشرين من شهر رمضان ولد لي مولود ذكر سميته محمود، وكنيته أبا القاسم بكنية نور الدين بن زنكي الملك العادل رحمه الله وباسمه ولقبه، جعله الله مباركاً صالحاً عفيفاً تقياً، كما كان سميه رحمه الله، وكانت ولادته في الساعة السادسة من يوم السبت السابع والعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وستين وستمائة بدار العطافية غربي المدرسة العادلية، وذلك اليوم كان في شهر آب نحو أربعة أيام، وهو زمان البطيخ الأصفر.

وكسفت الشمس في غد ذلك اليوم بعد العصر من يوم الأحد الثامن والعشرين من رمضان.

وفي خامس شوال توفي الفخر أحمد بن ابراهيم الحنفي أحد مدرسي الحنفية من الشيوخ، وكان أحد الشهود تحت الساعات، ودفن من الغد رحمه الله، وفي سابع شوال توفي الشرف يحيى بن المغربي الحاج الدقاق في الحنطة خال أخي محمد رحمه الله، مات فجأة، وكان قد عزم على وقف أملاكه على زاوية المغاربة ففاجأه الموت بغتة، ومن العجائب أن بعض

معارفه مات قبله فجأة فجاءني وقال: أريد تعجيل وقفي للملكي خوفاً من أن أموت كما مات فلان، ثم أخر، فمات فجأة كما ظنه، وبالله التوفيق، وفي سادس عشر شوال نظمت هذه الأبيات:

أيا لائمي مالي سوى البيت موضع
أرى فيه عزاً أنه لي أنفع

فراشي ونطعي فروتي فرجيتي
لحافي وأكلي ما يسد ويشبع

ومركوبي الآن الأتان ونجلها
لأخلاق أهل الدين والعلم اتبع

وقد يسر الله الكريم بفضله
غنى النفس مع شيء به أتقنع

أوفره للأهل خوفاً يراهم
عدو بعيش ضيق فيشنع

واصبر في نفسي على ما ينوبني
وأطلب عفو الله فالعفو أوسع

ومادمت أرضى باليسير فانني
غني لغير الله ماكنت أخضع

وربي قد آتاني الصبر والغنى
عن الناس في هذا إلى العز أجمع

وقد مر من عمري ثلاث أعدها
وستون في روض من اللطف أرتع

ووجهي من ذل التبذل مقتر
مقل ومن عز القناعة موسع

ومن حسن حظي أن ذا يستمر لي
إلى الموت إن الله يعطي ويمنع

وإني لا ألجأ إلى غير بابه
فأبقى كما قد قيل والقول يسمع

«نرقع دنيانا بتمزيق ديننا
فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع»

فطـوبـى لعبـد آثـر الله ربـه
وجـاد بـدنيـاه لما يتـوقـع

وفي ذي القعدة توفي الشيخ الصالح صلاح الـدين أبو زيد الدينوري، صاحب الشيخ عز الدين الدينوري، وهـو الذي بنى له زاوية بسفح جبل قـاسيون غـربي الجامع المظفـري، وصار لجماعـة يذكـرون الله عقيب صلاة الصبح بأصوات حسنة، ثم مـات عز الدين وبقي الشيخ الصلاح يقوم بهذه الوظيفة، بت عنده ليلـة في الزاوية المذكورة رحمه الله، وكنت قد نظمت قبل ذلك أبياتاً في هذا المعنى وهي:

صـان ربي عـن التبـذل علمـي
فلـه الحمـد بكـرة وأصيـلا

لم يشـن بـالسـؤال وجهـي بـل
بـارك فيما أعطـى فكـان جـزيـلا

وغنـى النفـس والقنـاعـة كنـ
ـزان فكـانـا لما ذكـرت دليـلا

كـم رأينـا مـن عـالم عـز بـالعلـم
وأضحـى بـالحرص منـه ذليـلا

احفـظ الله وابـذل الفضـل
تغنـم مـن غنـى النفـس عـزة وقبـولا

وتعـرف إليـه يعـرفـك في الشـدة
فـاتبـع فيما يقـول الـرسـولا

يفعـل الله مـا يشـاء فـلا تسخـط
وكـن راضيـاً زمنـاً قليـلا

كـل مـا قضـاه خير لمن
آمـن فـاصبر عليـه صبراً جميـلا

وعـد الصـابـريـن خيراً فـأيقـن
أنـه كـان وعـده مفعـولا

وفيها: في ثـاني عشرين ذي الحجة توفي العـز بن النشو، الشـاهد تحت

- ٩٤٢٩ -

الساعـات، وفي الغد الثـالث والعشريـن توفي الشهـاب تمام بن الحبـوبي التاجـر بالخواصين رحمهما الله، وجاءنا الخبر مـن ديار مصر بأنـه مات في هذه السنة بهاء الـدين الضرير صهر الشيـخ الشاطبي رحمهما الله، وشرف الديـن بن السيبـي يحيى بـن فضل الله إمـام المدرسة الصـالحية رحمه الله، وكان من أصحـاب شيخنا أبي الحسن السخاوي رحمه الله بـدمشق، وهو أول من أم بـدار الحديث الأشرفية في زمـاننا، ثم انتقـل إلى القاهرة فـأقام بالمدرسة الصالحية النجمية، وكان عنده تعصب وكرم وله قراءة حسنة.

- ٩٤٣٠ -

ثم دخلت

سنة اثنتين وستين وستمائة

ففي سابع المحرم توفي التقي أبو بكر البغدادي المقريء الساكن بالمدرسة العادلية رحمه الله.

وفي تاسع عشر توفي الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزي، من غلمان العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين، وكان له أثر مذكور في كسرة التاتار خذلهم الله تعالى على أرض حمص المقدم ذكرها. وفي عاشر صفر توفي بحمص الملك الأشرف بن المنصور بن المجاهد شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي، وهم ملوك حمص وأعمالها كابراً عن كابر رحمه الله، وكان شاباً عفيفاً عما يقع فيه غيره من الشراب، وله في كسرة التاتار الثانية على حمص أثر جليل.

وقبله بقليل توفي الزين خضر المعروف بالمسخرة ، كان من ندماء الأشرف موسى بن العادل، وجاءنا الخبر بوفاة الكمال عريف الصاغة، والضياء النابلسي بمصر.

وكان مولد النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاثنين ثاني عشر ربيع الأول على قول الأكثرين، فاتفق في هذه السنة أن كانت ليلة الثاني عشر من ربيع الأول هي ليلة الاثنين.

وفي ذلك اليوم توفي النجم أحمد القرائين بزي الجنائز، وكان يؤذن بالمئذنة الغربية من جامع دمشق، وهو شيخ كبير رحمه الله. وفي يوم الجمعة سابع ربيع الآخر صلي بالجامع عقيب صلاة الجمعة صلاة الميت الغائب بالنية على ضياء الدين علي بن حمد المعروف بابن الباسلي أحد كتاب الحكم المعدلين تحت الساعات، وكان له أشغال باستماع الحديث

وكتابته، ثم سافر إلى مصر متحملاً لشهادة فتوفي بها، رحمه الله تعالى ليلة السبت رابع صفر، ودفن خارج باب النصر شرقي القاهرة.

وفي هذه الأشهر توفي بصرخد سيف الدين التروسي، الذي ملكه بقريبة بقربه رحمه الله. وكان شاباً حسناً شجاعاً، وفي حادي عشر ربيع الآخر توفي الشريف ابن الطيوري، الملقب بالجمال الذي كان نقيب القاضي الخوئي، وفي ثاني جمادى الأولى توفي بمصر الرشيد العطار المحدث رحمه الله، وفي عاشر جمادى الأولى توفي الحاج نصر بن بردس التاجر بقيسارية الفرش، وكان رجلاً موسراً ملازماً للصلاة بالجامع من أهل الخير رحمه الله ودفن بالجبل، وفي ثالث عشر جمادى الأولى توفيت الشيخة الصالحة عابدة المقيمة برباط زهرا خاتون، وكانت امرأة عذراء مقعدة عمياء مشهورة بالخير والصلاح، رحمها الله. وفي خامس عشر توفي الحاج محمد بن الحاج مسعود الذهبي رحمه الله.

وفيها: بعد صلاة الصبح من يوم الأحد التاسع والعشرين من جمادى الأولى توفي القاضي الخطيب عماد الدين عبد الكريم بن القاضي جمال الدين عبد الصمد بن محمد المعروف بابن الحرستاني، رحمه الله، وكان من أهل بيت قضاء، وعلم، وصلاح، تولى قاضي القضاة في الأيام الأشرفية، وناب في القضاء عن أبيه في الأيام العادلية، وعن شمس الدين أحمد بن الخليل الخوئي عام حجه، ثم تولى الخطابة بجامع دمشق، وتدريس الزاوية الغربية، ومشيخة دار الحديث الأشرفية، واستمر ذلك له من الأيام الصالحية النجمية وقبلها إلى أن توفي بدار الخطابة، ودفن في مقابر الجبل قريباً من أبيه وأهله، وصلى عليه بجامع دمشق قاضي القضاة بدمشق ابن خلكان، وصليت أنا عليه إماماً ظاهر البلد تحت القلعة خارج باب الفرج، وكان يوماً مشهوداً حضر جنازته خلق كثير، وانتشروا في تلك الصحراء الواسعة رحمه الله.

وتوليت مكانه بدار الحديث الأشرفية، وحضر عندي فيها أول يوم ذكرت الدرس فيها قاضي القضاة وأعيان البلد من المدرسين والمحدثين وغيرهم. وذكرت من أول تصنيفي في كتاب «المبعث» الخطبة والحديث، والكلام على سنده وفنه مع زيادات على ذلك من مكان آخر، وكان بحمد الله تعالى وحوله وقوته مجلساً جليلاً، عليه سكون وإخبات وجلالة وإنصات من الحاضرين، ووقار من المستمعين، وعمل في ذلك بعض الأدباء أبياتاً منها:

العلم والمعلوم قد أدركته
وسماعك البحر المحيط فحدث

وبعثت في دار الحديث بمعجز
وأبان له عنك افتتاح المبعث

مكثت به الألباب طائعة الندا
والحسن من طرب به لم يمكث

وفي رجب توفي نور الدولة بن دحيرجان المنادي على الأشياء الضائعة، وكان قصيراً ظريفاً هو وأبوه من قبله، ودارهم بالمطرزين خارج حصن جيرون معروفة بهم رحمه الله، وفي ثاني عشر رجب توفي العفيف بن أبي الفوارس، وكان شاباً حسناً تولى عمالة الجامع، وعمالة مخزن الإمام جمعا له لحذقه بهذه الصناعة كما قيل رحمه الله، ودفن بالتربة التي أنشأها والده جوار الخانقاه الشبلية بسفح جبل قاسيون، وكان أبوه قد أعد القبر لنفسه فدفنه فيه وهو المذكور في قصيدة الفلاحة الرائية. وقبله بيوم في حادي عشر رجب توفي الأثير عبد الكريم بن ضياء الدين الحسين بن القاضي الأشرف أحمد بن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي رحمه الله بقرية البلاط(١٤١)، ملك جده وأهله، وحمل منها فدفن بجبل قاسيون وصلي عليه بعد صلاة الجمعة بجامع العقيبة المعروف بجامع التوبة، وهو أصغر أولاد الضياء، وهم أربعة عريون عن الفضل خلاف ما كان عليه سلفهم، ثم توفي أخوه صدر الدين عبد الله في سلخ ذي القعدة من سنة اثنتين وستين وستمائة.

وفي الخامس والعشرين من رجب توفي الحكيم شمس الدين المعروف بطراز الشام الطبيب رحمه الله، وفي حادي عشر شعبان توفي الزين يحيى ابن بكران الجزري أحد المعدلين بدمشق، وكان قبل ذلك تاجراً وتولى ديوان الحشر وغيره، وكان طلق المحيا، ظريف الحركات ودوداً رحمه الله، ودفن بباب الصغير وعمه هو المعلم الجزري، وكان شيخاً يسكن برأس درب التمارين في الصف الشامي من سوق العطارين الذي يلي قنطرة الحبالين، وكان يعلق الرماح وغيرها من آلات الحرب بغرفه فوق رأس الدرب المذكور ،وكان إذا قدمت العساكر مع السلطان في زمن العادل أبي بكر بن أيوب ومن بعده، أو قدمت الرسل من بغداد يتلقاهم مع الناس فوق رأسه مصحف كريم في كيسه يحمله وهو راكب ،ومات سنة (١٤٢) وفي العشرين من شعبان توفي المحيي بن سراقة، مغربي؛ عالم، دين، متواضع، كريم، حسن المحاضرة، كان نزل بحلب ثم عبر علينا بدمشق إلى مصر فتولى دار الحديث الكاملية بالقاهرة مع الزكي عبد العظيم، وماتا رحمهما الله بعد ابن دحية.

وفيها: في التاسع والعشرين من شعبان توفي تاج الدين أيوب بن فخر الدين محمود بن عبد اللطيف ابن سيما، وكان أحد الشيوخ المعدلين بدمشق من أهل البيوتات بها، وأبوه كان محتسب دمشق مدة، ودفن على والده بالجبل، وكان موته ببستانة عند طاحونة مقرى رحمه الله. وفي ثاني شهر رمضان توفي بقرية كفر بطنا الشرف النميري المقيم بتربة قاضي كفر بطنا، وكان يلقب نفسه زعيم غير، كان يكون عندنا بالمدرسة الأمينية ثم بالمدرسة الحسامية، وكان ينظم الشعر على طريقة المغرب رحمه الله، وفي يوم الجمعة ثامن شهر رمضان صلى خطيب جامع دمشق بالناس عقيب صلاة الجمعة الجنازة على الشيخ محمد المعروف بالقباري شيخ مشهور بالزهد والورع بالاسكندرية، كان يكون في غيط له وهو البستان، وهو فلاحه يخدمه بنفسه ويأكل من ثماره وزرعه ويتورع في تحصيل بذره حتى

بلغني أنه كان إذا رأى ثمرة ساقطة فيه تحت أشجاره ولايشاهد سقوطها من شجره يتورع من أكلها خوفاً من أن تكون من شجر غيره قد حملها طائر فسقطت منه في غيطه رحمه الله، كنت اجتمعت به في آخر سنة ثمان وعشرين وستمائة مع جماعة صادفناه وهو يسقي في جرار ماء من الخليج على حمار له يسقي به غيطه، وكان الماء في الخليج حينئذ قليلاً فأجلسنا إلى أن تم عمله، ثم قدم لنا من ثمر غيطه وكذا كانت عادته مع كل من يزوره من الملوك وغيرهم. وأخبرني القاضي عبد المجيد بن الخليل أن موته كان في سادس شعبان، وأن الأثاث المخلف عنه لو كان لغيره قيمته نحو خمسين درهماً فبيع بنحو عشرين ألف درهم، تزايد الناس فيه رجاء البركة حتى في الابريق الذي كان يتوضؤ فيه.

وفي يوم الجمعة خامس عشر شهر رمضان صلى خطيب جامع دمشق عقيب صلاة الجمعة صلاة الجنازة على الشيخ شرف الدين عبد العزيز ابن شيخ الشيوخ بحماة، مات بها رحمه الله، وكان شيخاً فاضلاً حسن الصورة والمحاضرة، وله نظم حسن في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وغيره. وقرأ على الشيخ أبي اليمن الكندي، وسمع عليه وعلى ابن كليب، سمع عليه جزء ابن عرفة مراراً، وكانت وفاته ليلة الجمعة ثامن شهر رمضان من سنة اثنتين وستين وستمائة رحمه الله، وفي الثامن والعشرين من شهر رمضان توفي محيي الدين عبد الله بن صفي الدين ابراهيم بن مرزوق بداره بدمشق المجاورة للمدرسة النورية، رحمه الله، وفي ثالث شوال توفي النظام النصيبي، وكان من أهل القرآن والفقه ومن المعدلين بدمشق، وهو ابن أخت الشيخ كمال الدين محمد بن طلحة رحمه الله.

وفي أواخر رمضان ظهر في الشرق كوكب ذو ذنب في الأفق نحو الغرب في منزلة الهنعة، وكان الفجر يومئذ يطلع في الذراع والنثرة، وبقي يطلع كل يوم قبل الفجر خلف النجم المعروف بكوكب الصبح، ثم

صار يتقدم كل يوم قليلاً إلى أن صار يبدو مرتفعاً عن كوكب الصبح، وبقي ضوء ذنبه ظاهراً ولم يتغير موضعه من منزلة الهنعة بعده منها إلى جهة المشرق نحو رمح طويل، ويبقى ظاهراً، ثم يرتفع بارتفاعها، ويسري لسيرها، ثم يقرب من منزلة الهنعة، ثم بقي في أوائل ذي القعدة إلى أن يغلب عليه ضوء الصباح فيغيب. وكان يظهر له قبل بروزه شعاع كثير في جو السماء، وظهر أيضاً من قبل المغرب بشمال بعد العشاء الآخرة من ليال عدة في أواخر رمضان وأوائل شوال خطوط مضيئة كهيئة الأصابع مرتفعة في جو السماء، وأحمرت الشمس في آخر الرابع من شوال قريب مغيبها، وذهب ضوءها بحيث توهم كثير من الناس أنها كسفت، وغربت وهي كذلك، ولما كان عند العشاء الآخرة أصاب القمر مثل ذلك ليلة الخامس من شوال بحيث توهم أنه كسف.

وجاءنا الخبر من مصر بموت العز السركسي رحمه الله، والفخر المصري في يوم واحد، وتوفي في الحادي والعشرين من شوال الشمس النابلسي جابي المدرسة الحسامية والشامية، وجاءنا الخبر من حلب بموت قاضيها كمال الدين أحمد بن القاضي زين الدين بن الأستاذ، وكان تولى قضاءها بعد أبيه فبقي على ذلك إلى أن أخذ التاتار حلب، فنكب مع من نكب، وجاء بأهله إلى دمشق، وخرج إلى مصر فبقي فيها إلى هذه السنة، فرجع إلى حلب فتوفي بها رحمه الله في خامس عشر شوال، وكان فاضلاً وابن فاضل، وجده من الصالحين، وجمع كتاباً في شرح الوسيط كان تعب فيه أبوه من قبل.

وجاءنا الخبر أنه وصل إلى ديار مصر رسل الملك بركة يوم الأحد سادس ذي القعدة، ومعهم الأشرف بن الملك المظفر شهاب الدين غازي بن العادل صاحب ميافارقين بما يسر الإسلام وأهله.

وفي رابع عشر ذي القعدة توفي بدمشق الشيخ أبو الخير صاحب

الشيخ طي رحمه الله. والشيخ شعيب الساكن بالجبل معرفة بني سني الدولة رحمه الله. وجاءنا الخبر من مصر بوفاة الفخر المصري عثمان المعروف بعين عين، رحمنا الله واياه، ثم توفي بدمشق الجمال بن بدر بن نحلة. وفي السابع والعشرين من ذي القعدة توفي الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي البكري المراكشي، وا لد علي وعبد الرحمن جد حسن رحمه الله، ودفن بالصوفية، وجاءنا الخبر بوفاة جمال الدين هلال بن حجاج وكان ينوب في الحكم مدة سنين بالأعمال الحلبية وغيرها رحمه الله. وفي يوم السبت ثالث ذي الحجة توفي من أهل دار الحديث الأشرفية شيخان أحدهما: جمال الدين يوسف بن يعقوب الإربلي الذهبي ابن أخي العز الإربلي وكان له سماعات كثيرة من حنبل، وابن طبرزد، والكندي، والقاضي الحرستاني وغيرهم: والأخير جمال الدين الغماري المالكي رحمهما الله. وفي ثامن عشر ذي الحجة توفي الشمس الوتار الموصلي، وكان قد حصل شيئاً من علم الأدب، وخطب بجامع المزة مدة رحمه الله، وأنشدني لنفسه في الشيب وخضابه:

وكنت وإياها مذ اختط عارضي
كزوجين في جسم وما انقضت عهدا

فلما أتاني الشيب يقطع بيننا
توهمته سيفاً فألبسته غمدا

- ٩٤٣٧ -

ثم دخلت

سنة ثلاث وستين وستمائة

ففي العشرين من المحرم توفي علاء الدين قراجة صاحب حماة والعفيف بن السعردي صهر التاج الاسكندري. وفي سادس عشرين منه توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن العراقي، وكان صالحاً ديناً منقطعاً بجامع دمشق يقرىء القرآن ويجتمع به أهل العلم قبالة اللازوردة على يمين باب دار الخطابة، مستنداً إلى سارية الرواق الأوسط، صليت عليه إماماً خارج باب الفرج، ومضي به إلى جبل قاسيون، فدفن هناك، رحمة الله عليه. وفي ثامن صفر توفي النظام عبد الله بن البانياسي ببستانه بكفر سوسة، وحمل إلى الجبل رحمه الله، وكان قد طال مرضه بالفالج وسمع ببغداد من جماعة، وفي ثامن شهر ربيع الأول توفي فجأة معين الدين إبراهيم بن مجد الدين القرشي ابن بنت القاضي محيي الدين محمد بن علي ابن يحيى القرشي رحمه الله، وكان له سماعات كثيرة وبخطه توجد أكثر الطباق في زمانه، وكان يكتبها كتابة حسنة صحيحة، وهو أحد المعدلين بدمشق من أكبر البيوت الدمشقيين، ودفن بالجبل صليت عليه إماماً خارج باب الفراديس بمصلى ابن مرزوق وذهب به إلى الجبل. وفي تاسع ربيع الأول توفي الشهاب محمد بن أحمد المعروف بالقليجي بخدمة سيف الدين بن قليج، وفي الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول توفي الشيخ محمد المعروف بابن امرأة الشيخ علي القزويني الزاهد الساكن بجبل قاسيون، رحمه الله.

وفيها: خرجت العساكر من مصر وتوجه بعضها الى الفرات فانهزم من كان ثم من جموع التاتار لعنهم الله الذين كانوا قد حاصروا قلعة البيرة وأفسدوا في تلك الديار، وتعطلت السكنى بتلك البلاد لسببهم فخربت، ثم خرج السلطان بيبرس من مصر بعساكره، فنزل ببلاد الساحل ونازل

قلاع الفرنج لعنهم الله، واستدعى بالرجال والآلات من دمشق وغيرها.

وجاءنا الخبر لدمشق بأنه دخل مدينة قيسارية ثالث ساعة من يوم الخميس ثامن جمادى الأولى وهو يوم نزوله عليها، ثم تسلم القلعة يوم الخميس خامس عشر وهدمها وانتقل إلى غيرها.

وبلغنا أن في رابع جمادى الأولى توفي النجم المغربي القصري الأكتع، وكان متفنناً في علوم شتى، وهو الذي كان نظم المفصل، مات بأسيوط من أعمال مصر رحمه الله. وفي الثامن والعشرين من جمادى الأولى توفي الشيخ سعيد المغربي التلمساني الذي كان مقيماً بمسجد في محلة طواحين الأشنان خارج باب توما، وكان رجلاً صالحاً خيراً منقطعاً زاهداً رحمه الله صلينا عليه بجامع التوبة الذي في العقيبة وحمل إلى الجبل فدفن به.

وفيها: يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى توفي الشيخ زين الدين خالد ابن يوسف بن سعد النابلسي المحدث، وكان حافظاً لأسماء الرواة، ولكثير من الألفاظ اللغوية رحمه الله، صليت عليه إماماً خارج باب الصغير قبالة مسجد جراح وكانت له جنازة حفلة، ودفن في مقابر الباب الصغير، وفي أول جمادى الآخرة توفي العز أيبك عتيق القاضي جمال الدين المصري، وكيلاً بمجالس الحكام من بعد وفاة معتقه إلى الآن رحمه الله، وفي تاسع جمادى الآخرة، ونحن بدار الحديث الأشرفية، والجماعة يجتمعون لسماع سنن النسائي على تقي الدين اسماعيل بن أبي اليسر أيده الله، فأخذ بعض الجماعة النعاس ولج به فدافعه فلم يندفع فأشير عليه بأن يضع على جبهته ماء ففعل فمال رأسه إلى ورائه فأنشد ابن أبي اليسر متمثلاً بقول سحيم وقد تمثل به الحجاج في خطبته:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا
متى أضع العمامة تعرفوني

فعاد ذاك الخجل منه تهللاً، واستحسنته أنا والحاضرون، وذكرت لهم

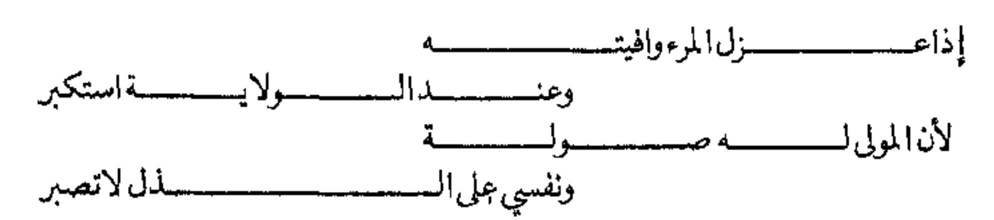
الحكاية المذكورة في تاريخ دمشق في ترجمة ابراهيم بن هشام المخزومي، حين خطب على منبر المدينة، وكان أميرها ومعه عصا فوقعت منه فاشتد ذلك عليه، فأخذها بعض حرسه فناوله إياها وأنشد:

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالأياب المسافر

فسري عن ابراهيم ماكان فيه، وفي سادس عشر جمادى الآخرة توفي العز أبو العز بن صالح بن وهيب الحنفي المدرس بالمدرسة الشبلية بسفح قاسيون، وهو ابن أخي الصدر سليمان بن وهيب نائب الحكم بمصر يومئذ، وكان فقيهاً، ديناً، مشكوراً رحمه الله.

وفي سحر يوم الاثنين ثاني رجب ولد سبطي الحسين بن عبد الرحمن ابن محمد بن علي البكري، جعله الله مولوداً مباركاً.

وفي ذلك اليوم توفي النجم البغدادي المتصرف، وكان قد صار في آخره مستوفياً على جباة الأوقاف التي تحت يد القاضي، كالترب وديوان السبع؛ والمدارس ونحوها، وفي ثالث عشر رجب توفي التقي أخو التاج عبد الرحمن ببستانه بجوبر فجأة رحمه الله. وفيه جاءنا الخبر باستيلاء المسلمين على مدينة أرسوف عنوة، وقتل من كان بها من الفرنج وأسرهم واغتنام أموالهم، وضرب البشائر بذلك. وفي رابع عشر رجب توفي بالقاهرة قاضي سنجار بدر الدين الكردي الذي تولى قضاة القضاة بالديار المصرية مراراً، وكانت له سيرة معروفة من أخذ الرشا من قضاة الأطراف والشهود، والمتحاكمين إلاّ أنه كان كريماً جواداً، وحصل له ولأتباعه بأخرة تشتت ومصادرات. وفي رجب أيضاً توفي بالقاهرة الشرف محاسن بن الصوري عريف سوق الكتب بها، وعمره مائة واثنتا عشرة سنة، وأنشدني عنه سعد الدين بن مسعود بن شيخ الشيوخ بن حموية قال: أنشدني الحافظ السلفي:



إذا عــــــزل المرء وافيتـــــــــه ... وعنـــــد الــــــولايــــــة استكبر

لأن المولى لــــــه صـــــــولـــــة ... ونفسي على الـــــــــــذل لاتصبر

ومولـده سنة أحدى وخمسين وخمسمائة. حكي عنـه القاضي أحمد بـن خلكان قال: اجتمعت به في الإيوان الكبير بدار الـوزارة عند البادرائي، رسول الـديوان فقال لي: دخلـت هذه الدار في أيـام شاور ورأيته جـالساً في صدر هذا الإيوان. قال: قلت: ماكـان عمرك يومئذ؟ قال: اثنتي عشرة سنة.

وفي يوم الاثنين أول يوم في شعبـان توفي الأمير جمال الدين مـوسى بن يغمـور. وفي ثالـث شهـر شعبـان توفي بـدمشـق شرف الـدين عثمان بـن السابـق الكاتب ببـاب الجامع، وكان أحد كتـاب الحكم، وله خـط حلو وصدقـات ومعروف ملازم للصلوات في الجماعـات بالجامع، مـن العدول المبرزين رحمه الله تعـالى، صليت عليـه إمامـاً بمصلى ابن مـرزوق، خارج بـاب الفراديـس، وحمل إلى الجبـل ودفـن فيه، وكـانـت لـه جنازة حسنـة حفلـة. وفي ثـامـن عشر شعبـان توفي جمال الـديـن المصري الـذي كـان مشارف بـالبيمارستان النـوري، وهو صهر تقـي الديـن بن أبي اليسر على ابنته فاطمة بعد كمال الديـن الزملكاني رحمه الله، وكان رجلاً خيراً منقطعاً مقتنعاً صليـت عليه إماماً خارج بـاب النصر ثم شيعته مـع الجماعة إلى مقابر الصوفية فدفن بها وكان أبوه وزير الأمير الجناح.

وفيهـا: ورد إلى دمشق كتـاب يتضمـن أنـه ورد إلى القاهـرة في جمادى الآخـرة من هـذه السنـة كتـاب من المغـرب يتضمـن نصر المسلمين على النصـارى في بر الأنـدلـس، ومقدم المسلمين سلطـانهم أبـو عبد الله بـن الأحمر أيده الله، وكان الفنـش ملك النصارى قد طلب منه السـاحل من

طريف إلى الجزيرة ومارقة إلى المرية، فاجتمع المسلمون ولقوهم فكسروهم مراراً وأخذ أخو الفنش أسيراً، ثم اجتمع العدو في جمع كثير ونزل على غرناطة فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة فجمع من رؤوسهم نحو خمسة وأربعين ألف رأس، فعملوها كوماً وطلع المسلمون عليها وأذنوا وأخذوا منهم عشرة آلاف أسير، وكان ذلك يوم الخميس رابع عشر رمضان من سنة اثنتين وستين وستمائة، وراح الفنش الى اشبيلية منهزماً. وكان قد دفن أباه بجامع اشبيلية فأخرجه من قبره خوفاً من استيلاء المسلمين عليها، وحمله إلى طليطلة، ورجع إلى المسلمين اثنان وثلاثون بلداً من جملتها اشبيلية، وقرطبة، ومرسية، ولورقة، وشريش، وجمع عساكر المسلمين على شاطبة وبلنسية والله ينصرهم برحمته.

وفي يوم الخميس الخامس والعشرين من شعبان توفي الحاج أحمد المعروف بالسلامي الزملكاني الخشاب، ونجيب الدين فراس العسقلاني. وكان أحد العدول ذوي الثروة، وله سماع حديث من الخشوعي وغيره، ودفنا بباب الصغير رحمهما الله، وفي يوم الثلاثاء سلخ شعبان توفي النجم مظفر بن عبد الصمد رحمه الله. وفي يوم الجمعة ثالث رمضان صلي بالجامع صلاة الغائب على الأمير جمال الدين موسى بن يغمور رحمه الله، وكانت وفاته مستهل شعبان، عند توجهه إلى ديار مصر من الساحل لما كان مع السلطان الظاهر بيبرس في محاصرة الفرنج وفتح قيسارية وأرسوف، ثم عمل له العزاء بجامع دمشق يوم الجمعة عاشر شهر رمضان، وفي سادس رمضان نيطت حسبة الجبل لبدر الدين علي بن عمر بن أحمد بن عمر بن الشيخ أبي عمر بن محمد بن قدامه. وفي سابع عشر رمضان توفي الأمير عز الدين عثمان بن تميرك، وكان ثقيل السمع، كثير الوسواس في أمر الطهارة رحمه الله. وفي السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر توفي الفخر بن أبي الفوارس، والد العفيف، ودفن بمكانه بالجبل رحمه الله، وفي أول جمادى الأولى توفي الناهض معالي بن أبي الزهر المعروف بابن الحبشي، ودفن بالجبل رحمه الله، وفي ثالث جمادى

الأولى توفي الحاج علي المغسل المعروف بالقباقبي، ودفن بباب الصغير رحمه الله، وكان حج في سنة اثنتين وعشرين وستمائة معنا، وكان مواظباً على الصلوات في الجماعات، كثير الصدقات والاحسان إلى الفقراء واليتامى، إذا صلى الصبح مع الإمام بالجامع يخرج فيقف بالباب الأوسط من أبوابه بباب البريد فيكبر ويهلل بصوت عالي ويدعو بصلاح المسلمين، ونحو ذلك، لايكاد يقطع هذه العادة، صليت عليه إماماً عند مسجد جراح خارج باب الصغير. ودفن في مقابره حذاء تربة ابن الشيرجي، وكانت له جنازة حفلة جامعة لأصناف الخلق من الخاصة والعامة، وكنت ترى اليتامى وغيرهم يقرؤون ويترحمون ويبكون رحمه الله، وذلك يوم الخميس ثالث جمادى الأولى، وفي عشية ذلك اليوم توفي الجمال أحمد بن عبد الله بن شعيب الذهبي الكتبي رفيقنا في القراءة على شيخنا علم الدين السخاوي رحمه الله، وكان تزوج ابنته فولدت له وماتت هي وولدها قديماً، ثم بقي عندنا مدة عمره وخلف كتباً كثيرة، وثروة، ووقف داره على فقهاء المالكية، وأوصى لهم بثلث ماله، وحرضته أن يقف شيئاً من أصول كتبه فلم يفعل، صليت عليه إماماً بمصلى ابن مرزوق، ودفن بالجبل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى.

وفي سادس جمادى الأولى جاء من مصر من السلطان الملك الظاهر بيبرس الصالحي ثلاثة تقاليد للقضاة شمس الدين محمد بن عطاء الحنفي، والزين عبد السلام بن الزواوي المالكي، وشمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر الحنبلي، وجعل كل واحد منهم قاضي القضاة من المذاهب الأربعة، ولكل منهم نائب، وهذا شيء ماأظنه جرى في زمان سابق، فلما وصلت العهود الثلاثة لم يقبل المالكي، فوافق الحنبلي واعتذر بالعجز، وقبل الحنفي فانه كان نائباً للشافعية فاستمر على الحكم والله يسدد الجميع بفضله ورحمته. ثم ورد كتاب من مصر بالزامهما بذلك، وأخذ مابأيديهما من الأوقاف إن لم يفعلا فأجابا، ثم أصبح المالكي فأشهد على نفسه بأنه عزل نفسه عن القضاء، وعن الأوقاف،

فترك واستمر الحنبلي، ثم ورد الأمر بالزامه فقبل واستمر الجميع، لكن امتنع المالكي والحنبلي من أخذ الجامكية على القضاء وقالا: نحن في كفاية، فأعفيا منها، ومن العجب اجتماع ثلاثة على ولاية قضاء القضاء في زمن واحد، وكل منهم لقبه شمس الدين، واتفق أن الشافعي منهم استناب من لقبه شمس الدين، فقال بعض الظرفاء:

أهل دمشق استرابوا
من كثرة الحكام
وهم جميعاً شموس
وحالهم في ظلام

وقيل أيضاً:

بدمشق آية قد
ظهرت للناس عاما
كلما ولي شمس
قاضياً زاد ظلاما

وقيل أيضاً:

قضاتنا كلهم شموس
ونحن في أكثف الظلام

وقيل أيضاً:

أظلم الشام وقد
ولي الحكم شموس
ليس فيهم من يبيت
الحكم علماً أو يسوس

وفي سابع شعبان يوم الجمعة صلي بالجامع صلاة الغائب على الرضي ابن الدهان الواسطي التاجر.

وفي حادي عشر شعبان تـوفي شرف الدين عبد الرحمن بـن بهاء الدين سالم بـن الحسن بـن صصرى، وكان من أكـابر أهل دمشـق جاهـاً وثروة وبيتاً، صليت عليه إماماً خارج باب الفـرج ودفن بالجبل بعد موت أخيه البهاء بستـة أشهر وسبعـة أيام. وفي ثالـث عشر شعبان تـوفي الكمال بن الكمال إمام المدرسة الشـامية ابن أخي الـزين خالد رحمنـا الله واياه بمنه وكرمه ورحمته، وعفا عنا وعنه وعن جميع المسلمين والمسلمات.

وفي شهر رمضـان من سنة ثلاث وستين وستمائة شرع في تبليـط مابين بـاب الجامع الغـربي الذي عنـد القناة المعـروفة ببـاب البريد، وجـدد في الصف القبلي من ذلك بركة وشـادروان، وكان موضعهما قناة جددت قبل ذلـك يجري اليها الماء مـن نهر القنـوات، وكان النـاس ينتفعـون به زمـان انقطاع نهر بانياس، الذي منه ماء الجامـع بدمشق. وفي ذي القعدة سافر الأمير جمال الـديـن أقـوش النجيبـي نـائب السلطنـة بـدمشـق إلى مصر لاستدعاء السلطان له، ثم قدم دمشق.

وفيها: تـوفي المجد بن حـرب الحلبي، كـان شاهداً ببـاب الجامع، وفي ثامـن ذي الحجة تـوفي تاج الـدين بن الحمـوي أخو الـزين والعـز، وكان شيخاً متودداً، وتولى ديـوان الجامع والمواريث الحشرية، ودار الضرب وغير ذلك، ودفن بباب الصغير رحمنا الله وإياه. وتـوفي قبله النجيب بن الوزان الذي كان ساكناً بالمدرسة العزيزية في البيت الكبير الأسفل.

وفيها: في رابـع عشر ذي الحجة تـوفي الشمس بـن السني الخركـاوي، رحمه الله تعالى، وجاءنـا من زوار بيت المقدس في وقفـة هذا العام، وأخبر أنه صلى يوم عيد النحر ببيت المقـدس على الشيخ أبي القاسم الذي كان بقرية حـوارى، وهو شيخ مشهور لـه أتباع وثروة، ثم صلى عليـه بدمشق يوم الجمعة تـاسع عشر ذي الحجة. وصلى يوم العيد أيضـاً ببيت المقدس على ضياء الدين على بـن خطيب نابلس، وكان شيخاً، بهياً، فقيهاً، ديناً،

ـ ٩٤٤٥ ـ

وتولى قضـاء الكرك مدة رحمه الله. وفي سـابع عشر ذي الحجة تـوفي التاج الاسكندري المعروف بالشحرور، ودفن بـالجبل، صليت عليه إماماً بمصلى ابن مرزوق رحمه الله وإيانا. وفي هذه السنة تـوفي شمس الدين بن الحباب رحمه الله.

-٩٤٤٦-

ثم دخلت

سنة أربع وستين وستمائة

ففي أوائلها يوم الثلاثاء جدد الحوض الذي هو في شرقي القناة الشامية بباب البريد، يجري إليه الماء من القناة المذكورة في أنابيب وشادروان في حائط القناة.

وفي سابع المحرم توفيت تاج خاتون ابنة الأمير فخر الدين ايازسركس، صاحب قرية بيت سوا رحمها الله. وفي ثامن عشر المحرم توفي عبد الله بن أيبك بن عبد الله عتيق ناصر بن القواص ويعرف بالقاضي رحمه الله. وفي العشرين من المحرم توفي العلاء علي بن البدر عبد المولى الوكيل بمجلس الحكم رحمه الله. وفي الحادي والعشرين منه توفي الشرف بن الصيرفي الساكن بدرب الأسديين، رحمه الله.

وفي الخامس منه توفي عبد الله بن عثمان الوكيل بمجلس الحكم ويعرف بالمؤذن، كان أبوه مؤذناً بالكلاسة رحمهما الله. وفي رابع صفر توفي بهاء الدين الحسن بن سالم بن الحسن بن صصرى أحد المعدلين بدمشق من بيت مشهور بالثروة، وجده الحسن كان من أهل الحديث من أصحاب الحافظ أبي القاسم وله رحلة الى العراق رحمه الله ودفن بالجبل. وفي ذلك اليوم توفي الشمس محمد بن أحمد الحنفي الأشقر خال ولد الصدر سليمان رحمه الله، وفي السادس والعشرين من شهر ربيع الأول توفي الصفي اسماعيل بن ابراهيم بن الزرعي الحنفي رحمه الله، ودفن بباب الفراديس، وعمره اثنتان وتسعون سنة، ومولده سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة. سمع علي الخرقي وغيره. وفي خامس ربيع الآخر توفي الشرف يعيش المقرىء، وكان شيخاً مسناً وعهدي به شيخاً، ونحن صبيان نقرأ عليه بالسبع الكبير، ثم بقي إلى هذه الغاية، وقل مابيده، فكان كل ليلة

-٩٤٤٧-

بعد العشاء يخرج ويدور في الدروب والحارات، وهو يتلو القرآن العزيز، فمن وضع في يده شيئاً أخذه، وكنت آنس بقراءته إذا عبر على باب مسكننا رحمه الله.

-٩٤٤٨-

ثم دخلت

سنة خمس وستين وستمائة

يوم الأحد.

ففي ثاني محرم الحرام خرج السلطان الظاهر من دمشق إلى مصر رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي بمصر الشرف محمد بن البكري أخو الصدر بن البكري، رحمه الله في رابع المحرم، وفي سادس صفر توفي شمس الدين ملكشاه الحنفي، مدرس المدرسة المعينية بعد الرشيد النيسابوري، وكان يعرف بقاضي بيسان. وتولى نيابة الحكم بدمشق في أول ولاية الصدر أحمد بن سني الدولة، ودفن في مقابر باب الصغير رحمهما الله. وفي الثاني والعشرين من صفر توفي الشرف أحمد بن رضوان، مولده سنة ستمائة وكان صحب شيخنا تقي الدين بن الصلاح في صغره بالمدرسة الرواحية، ثم صار يشهد بمسجد سوق القمح رحمه الله، وصليت عليه إماماً خارج باب النصر، ودفن بمقابر الصوفية قريباً من قبر ابن الصلاح رحمهما الله. وفي ذلك اليوم توفي الحاج عسكر بن طاهر، شيخ كبير من فلاحي قرية بيت سوا، وداعية. وخلف أولاداً كثيرة، وملكاً بداعية رحمه الله.

وفي سادس ربيع الأول توفي الضياء بن خواجا إمام والد الشريف، وكان إماماً بمسجد مثقال الجمدار على حافة نهر يزيد بجبل قاسيون، وكان رجلاً صالحاً منقطعاً رحمه الله. وفي ليلة السابع توفيت جدة ابني أحمد ومحمود، أم أمهما خالة ابراهيم رحمهما الله تعالى. وفي سابع ربيع الأول توفي الشيخ علي الواسطي إمام المدرسة الفلكية، وكان مقرئاً عندنا بالتربة الأشرفية، وكان كثير الذكر والصلاة، رجلاً صالحاً خيراً رحمه الله،

صليت عليه إماماً قبالة مسجد جراح، ودفن في أول مقابر الباب الصغير خلف مسجد جراح. وفي حادي عشر ربيع الأول توفي الشمس يوسف بن مكتوم وكان شيخاً كبيراً له سماعات كثيرة على الخشوعي، والدولعي وغيرهما رحمه الله.

وجاءنا الخبر بموت الأمير ناصر الدين القيمري بالساحل رحمه الله، وعمل عزاؤه بالجامع يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الأول، وهو الذي بنى مدرسة الشافعية بناحية مئذنة فيروز في سوق الحرميين بدمشق، وكان موته يوم الأحد ثالث ربيع الأول.

وفي العشرين منه توفي الشيخ مؤمن الضرير الخلاطي المقرىء، وكان أحد السبعة عندنا بدار الحديث الأشرفية رحمه الله. وأخبرني الضياء عبد الرحمن بن الجمال عبد الكافي في رابع عشر ربيع الآخر أنه رأى ليلة هذا اليوم كأن شخصاً معروفاً يقرأ في إيوان شيئاً من التصريف، وحوله جماعة، ثم جاء آخر فقعد يقرىء جماعة بحذائه، وانصرف من عند الأول بعض جماعته إلى الثاني، فبينا هم كذلك إذ أشرفت عليهم من طاقة في أعلى حائط الإيوان، وعلي ثياب بيض من صوف والعمامة كذلك وفوقها شيء مسبل عليها وقاية لها كصورة مايفعله من يجعل على عمامته منديلاً أو نحوه لأجل مطر وحر، فلما أشرفت عليهم بهيئة من حيث لم يكونوا يتوقعون ذلك قلت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت حديثاً في السنة والرأي، قال فبكى القوم وبكيت أنا ـ أعني الذي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فقال قائل من الجماعة: في فضائل رجب ـ أي أسمعنا في فضائل رجب ـ ثم انتبهت. قلت له: هو شيء يحدث من الخير إن شاء الله تعالى في رجب هذه السنة بقرينة فضل رجب وذكر النبي صلى الله عليه وسلم، واتعاظ الجماعة والبكاء بورك بالفرح والسرور من ذلك الأمر بتوفيق الله تعالى.

ورأت امرأة كأن لنا داراً واسعة كبيرة مبيضة، وزواياها ملأى من الخبز المثلث الأبيض بعضه فوق بعض.

ثم رأى أخي كأن لي بستاناً كبيراً وبها عيناً فيه وفي وسطه بركة مد البصر، وقال ليوسف: افتح الماء، ففتح فجرى فيها أنابيب.

وفي الحادي والعشرين توفي الجمال علي بن عثمان الرسعني، أحد الشهود بمسجد سوق القمح رحمه الله، وكان بيني وبينه معرفة واجتماع بالمدرسة العزيزية في مجلس عز الدين بن عبد السلام، أيام كان المدرس بها شيخنا السيف الآمدي رحمهم الله، أنشدني شرف الدين المغربل قال: أنشدنا قاضي حماة ابن البارزي لنفسه:

دمشق لها منظر رائق وكل إلى حسنها شائق
وأني يقاس بها بلدة أبى الله والجامع الفارق

وفيها: في الحادي والعشرين من شعبان توفي الفخر يحيى بن الجمال علي بن التاج عبد الواحد بن الفخر بن أبي الخوف رحمه الله، ودفن بالجبل عند أبيه وجده وجد أبيه الفخر رحمهم الله، وفيها: آخر يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان توفي الفقيه شرف الدين القزويني الشافعي، وكان رجلاً صالحاً فقيهاً متواضعاً خيراً، وكان أبداً معيداً بحلب، ثم بدمشق في المدرسة العادلية والشامية المجاورة للبيمارستان، وكان ساكناً بأهله بالمدرسة، وبها توفي ودفن يوم الأربعاء بكرة بمقابر الصوفية بالشرف القبلي رحمه الله، ولم أشهد جنازته كنت غائباً ببيت لهيا، وخلف ولدين صغيرين: عبد الرحيم، وعبد المجير، جبرهم الله تعالى.
وفي ثامن رمضان توفي ابن عمتي العز عبد الغفار بن علي الكناني، ودفن بمقابر الصحابة بباب الصغير رحمه الله.

وفي هـذا الشهر وصـل السلطان الظـاهـر بيبرس من الـديار المصريـة بعساكـره، ونازل حصـون الفرنج وبـلادها، وشن الغـارة عليها مـن جميع نواحيهـا، واستدعـى بالمجـانيق مـن دمشق، وجـاءنا كتـاب بعض أولاد الملوك تاريخه يوم الجمعة خامس شهر رمضان، من جهة المنازلين لهم من ساحـل حمص وأعمالها من ناحية حصـن الأكراد وأعمال طرابلـس، بأنهم قد استـولوا على ستمائة أسير من الـرجال، ومـايقارب الألف مـن النساء والصبيـان من ثـلاثـة حصـون وستة عشر بـرجـاً، والله تعـالى يديـم نصر الاسلام بمنه وفضله.

وفي ثـامـن عشري شهـر رمضان وصـل الى دمشـق علي ولـد الخليفـة المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن النـاصر، ينزل بالمنازل، وهو شاب كان التـاتار استـولوا عليه لما قتلـوا أباه المستعصـم وملكوا البـلاد، وبقي عندهـم إلى أن كسر بركـة هولاكـو، فاتصـل ولحق بعرب خفـاجة فبقـي عندهم إلى أن جاء جماعة معه منهم إلى دمشق في التاريخ المذكور، فتلقي وأنزل على الدار الأسدية مقابل المدرسة العزيزية.

وفي سابع جمادى الآخـرة جرت لي محنة بداري بطـواحين الاشنان فألهم الله الصبر، وفعل الله تعـالى فيها مـن اللطف مـالا نقدر على التعبير عنـه بوصف، وكـان قيل لي قم واجتمع بـولاة الأمر، فقلت: قد فـوضت أمري إلى الله فما أغير ما عقـدته مع الله، وهو يكفينـا سبحانه، ومن يتـوكل على الله فهو حسبه، ونظمت في ذلك ثلاث أبيات:

قلـت لمن قـال أمـا تشتكـي ... مـا قـد جـرى فهـو عظيـم جليـل

يقيـض الله تعـالى لنـا ... مـن يـأخـذ الحق ويشفـي الغليـل

اذا تـوكلنـا عليـه كفـى ... فحسبنـا الله ونعـم الـوكيـل

- ٩٤٥٢ -

وجاءنا الخبر بأنه توفي بالقاهرة الضياء صالح بن الشيخ ابراهيم الفارقي، والقاضي صدر الدين موهوب الجزري، وكان رفيقنا في الاجتماع عند الشيخ علم الدين السخاوي، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم ناب عنه بالقاهرة في الحكم بها، رحمه الله، ومات في تاسع رجب في هذه السنة. وفي العشرين من رجب توفي الكمال اسحاق بن خليل السقطي المعروف بقاضي زرا (١٤٤) رحمه الله، صليت عليه إماماً بمصلى ابن مرزوق، ودفن بالجبل وكان ممن اشتغل على شيخنا فخر الدين بن عساكر. وفي شهر رجب حفر السلطان الظاهر بيبرس خندقاً لقلعة صفد، وعمل فيه بنفسه وعسكره، وفي بعض تلك الأيام بلغه أن جماعة من الفرنج بعكا تخرج منها غدوة، وتبقى ظاهرها إلى ضحوة، فسرى ليلة ببعض عسكره، وكمن لهم في تلك الأودية، فلما أبعدوا عن عكا خرج عليهم من ورائهم فقتل وأسر، وضربت البشائر بدمشق بذلك.

وجاء الخبر من مصر بموت قاضيها تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الأعز في السابع والعشرين من رجب، ومولده في سنة أربع وستمائة، مستهل رجب، وهو: تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن خلف بن محمود بن بدر العلامي، مولده بالقاهرة، ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى. وفي يوم الأحد ثامن عشر شعبان توفي الجمال محمد بن نعمة النابلسي، وكان رجلاً صالحاً رحمه الله، توفي ببستانه ودفن بمقابر باب كيسان عند أبيه.

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الحواشي والهوامش

- الأدق القول طغرلبك ، و تقدم معنا في الجزء الأول من موسوعتنا خبر فتنة البساسيري و ما حدث للخليفة القائم

٢- علم الدين السخاوي (٥٥٨- ٦٤٣هـ / ١١٦٣-١٢٤٥م) مصري الأصل ، سكن دمشق و فيها توفي ، له عدة مصنفات بالقراءات و الفقه و الحديث ، و له نظم أيضا . الأعلام للزركلي .

٣- كذا و هو وهم ، فقد مر معنا خبر الزلاقة في الجزء الثاني من موسوعتنا ، و اسم المعركة موضوع البحث « الأرك» و هي عند بعضهم تشبه الزلاقة من حيث الأهمية . الحلل الموشية ص١٥٩

٤- في هذا العرض مبالغة كبيرة مع تداخل و مزج لأخبار الزلاقة .

٥- أي استعاد الأندلس ووصل إلى طرفها الأقصى ، و كان راج بين بعض المسلمين وجود مدينة من نحاس أو مدينة فيها صنم من نحاس يشير بيده أن لا مجاز بعدي

٦- لا ترجمة له في كتاب صفوة الصفوة المطبوع

٧- ديوان الشريف الرضي ط. دار صاد بيروت ، ج ١ ص ٥٧٥

٨- في هامش الأصل : و في بعض التواريخ أنه لم يزد نيل مصر ، و اشتد عليهم الغلاء و الوباء حتى مات أكثر الناس بها جوعا ، و أكل بعضهم بعضا ، و ذلك في سنة ست و تسعين ، و فيها ولي ضياء الدين الشهرزوري قضاء القضاة ببغداد ، و فيها ورد القاضي زين الدين أبو الفضل بن القاضي مجد الدين بن هندي الحاكم بمدينة حماه مفارقا حمص و قضاءها ، فتلقاه الملك المنصور صاحب حماه بالاعتزاز و الاكرام ، و المصنف ذكر ذلك في سنة سبع و تسعين و الله أعلم .

٩- الريباس : نبت له عساليج غضة إلى الخضرة ، عراض الورق طعمها حامض مع قبض ، ينبت في الجبال ذات الثلوج . معجم أسماء النباتات في تاج العروس - ط. القاهرة - ١٩٦٥

انظر أيضا مرآة الزمان -ط حيدر أباد الدكن ١٩٥٢ ج ٢ ص ٤٧٧-٤٧٨.

١٠- سورة آل عمران - الآية ١٦٩نظر مرآة الزمان ج٢ص٤٧٩-٤٨١

١١-كنز العمال - الحديث ٤٢٦٩٧

١٢- سورة الزخرف - الآية : ٥١

١٣- سورة الأعراف الآية :٤٣

١٤- المنتظم ط. بيروت ١٩٩٥- تحقيقي ج١٠ ص ٤٦٧.

و تعد ترجمة سبط ابن الجوزي لجده أفضل تراجمه انظرها في مرآة الزمان ج ٢ ص٤٨١-٥٠٣

١٥- مرآة الزمان ج٢ص٥١٠

١٦- أي داكن لون البشرة .مرآة الزمان ص٥١٣-٥١٦

١٧- سورة النحل - الآية :٢٦

١٨- سورة البقرة -الآية :١٩٥

١٩- سورة ص - الآية :٣٥.

٢٠- سورة ق - الآية :٤١.

٢١- سورة الضحى - الآية :١١.

٢٢- كنز العمال - الحديث ٤١٤٢٤

٢٣- كنز العمال - الحديث ٤٣٥٦١.

٢٤- سورة القصص - الآية :٢١

٢٥- مرآة الزمان ج٢ ص ٥٢٢-٥٢٤.

٢٦- الخبازي نبت معروف ، و هي بقلة عريضة الورق لها ثمرة مستديرة (عباد الشمس) مرآة الزمان ج٢ ص ٥١٦-٥٢٤.

٢٧- هو محمد بن أحمد (ت ٦٤٣هـ) من أعيان آل عساكر ، اشتهر بالنسب

٢٨- مرآة الز مان ج٢ ص ٥٢٢-٥٢٤.

٢٩- مرآة الزمان ج٢ص٥٢٦.

٣٠- ليس في ديوانه المطبوع

٣١- مرآة الزمان ج٢ ص٥٢٧-٥٢٨.

٣٢- مظفر الدين سنقر

٣٣- مرآة الزمان ج٢ ص٥٢٩ - ٥٣١ ، لكن باختصار شديد

٣٤- مرآة الزمان ج٢ ص٥٣٣

٣٥- الكامل لابن الأثير - ط. القاهرة ، مطبعة الاستقامة ج٩ص٢٩٧.

٣٦- حب متوسط بين الشعير و الحنطة ، و قيل هو العصفر ، و قيل الجلبان . معجم أسماء النباتات

٣٧- ديوان ابن عنين -ط. دار صادر ، بيروت ص٢٤٣.

٣٨- لم يرد هذا الخبر في المطبوع من مرآة الزمان

٣٩- تصحيف : التائي أي الطائي ، و هي التسمية التي أريد بها العرب في الشرق قبل الاسلام ، و نقل هذه التسمية النساطرة من أعالي الجزيرة ، لأن من جاورهم من البداة العرب كان جلهم من طيء

٤٠- ليس لابن طبرزد ترجمة في المطبوع من مرآة الزمان

٤١- موسوعة أطراف الحديث ج١٠ ص٤٤٥

٤٢- سورة لقمان -الآية ١٣

٤٣- سورة الأنعام -الآية :٨٢

٤٤- سورة البقرة -الآية :١٣٢

٤٥- سورة التحريم - الآية :٥. مرآة الزمان ج٢ص٥٤٦-٥٥٣

٤٦- انظر السلوك للمقريزي ج١ ص١٦٣، ١٧٣. وفوة بليدة على شاطىء النيل من نواحي مصر قرب رشيد ، بينها و بين البحر ... خمسة فراسخ او ستة ، و هي ذات أسواق و نخل كثير . معجم البلدان ، و فيه أيضا ذكر لبلدة بورد

٤٧- مرآة الزمان ج٢ ص٥٥٣-٥٥٤

٤٨- الاشارة هنا إلى إلى معركة شلبترة سنة سبع و ستمائة أيام محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور . الحلل الموشية ص١٦١

٤٩- ألموت هو الحصن الرئيسي للاسماعيلية في ايران ، و حول هذا الموضوع انظر الدعوة الاسماعيلية الجديدة - ترجمتي . بيروت ١٩٧١ ص٩٣-٩٤

٥٠- كذا و هو اجتهاد لا يوافق عليه .

٥١- انظر تاريخ الصالحية لابن طولون ، ط. دمشق ١٩٤٩ ص٥٥

٥٢- تعجيم قيس ، جزيرة في وسط البحر ، تعد من أعمال فارس . معجم البلدان

٥٣- مرآة الزمان ج٢ص٥٦٠-٥٦١.

٥٤- مرآة الزمان ج٢ ص٥٦٤-٥٦٥

٥٥- مرآة الزمان ج٢ ص٥٦٥-٥٦٧.

٥٦- مرآة الزمان ج٢ ص٥٦٩-٥٧٠

٥٧- سورة يس - الآية :٤٩.

٥٨- مرآة الزمان ج٢ص٥٧١

٥٩- ديوان أبي الفتح البستي ط . دمشق ١٩٨٩ ص١١٠-١١١ مع فوارق

٦٠- في دمشق حيث كان مقر مجمع اللغة العربية ، و فيها قبر العادل .

٦١- دار العقيقي هي حيث المكتبة الظاهرية

٦٢- مرآة الزمان ج٢ ص٥٧٢- ٥٧٣

٦٣- حصن مسلمة بن عبد الملك على الفرات

٦٤- من أنواع الأقبية .

٦٥- مرآة الزمان ج٢ ص٥٧٤-٥٧٥، باختصار شديد

٦٦- مرآة الزمان ج٢ ص ٥٧٩-٥٨٠

٦٧- مرآة الزمان ج٢ص٥٧٥-٥٧٧.

٦٨- مرآة الزمان ج٢ ص٥٨١.

٦٩- لدي نسخة مصورة من هذا المختصر

٧٠- سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ط. القاهرة ١٩٥٣ ص٥٠-٥٢

٧١- مرآة الزمان ج٢ ص ٥٨٣-٥٨٥

٧٢- مرآة الزمان ج٢ ص ٥٨٦- ٥٨٩

٧٣- مرآة الزمان ج٢ ص٥٨٩- ٥٩٢

٧٤- مرآة الزمان ج٢ ص٥٩٢

٧٥- مرآة الزمان ج٢ ص ٥٩٤

٧٦- مرآة الزمان ج٢ ص ٥٩٤-٥٩٧

٧٧- شار مساح قرية كبيرة كالمدينة بمصر ، بينها و بين دمياط خمسة فراسخ ، من كورة الدقهلية . معجم البلدان

٧٨- لم يرد هذا الخبر في الكامل لابن الأثير المطبوع .

٧٩- بيت رانس أو أرانس من قرى الغوطة . معجم البلدان

٨٠- مرآة الزمان ج٢ ص٥٩٨

٨١- في مرآة الزمان ج٢ ص ٦٠١ -٦٠٢ «فأجابوا بالسمع و الطاعة ، و قالوا لمتثل أمره بقدر الاستطاعة ، و تجهزوا فلما حل ركابه بالساحل وقع التقاعد من الأماثل ، لأن لكل مقام مقال ، و للحروب رجال ، و كان تقاعدهم سببا ...»

٨٣- مرآة الزمان ج٢ ص٦٠٤-٦٠٦. ديوان ابن عنين -ط دار بيروت ص٩٣.

٨٤- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٠٦ -٦٠٧

٨٥- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٠٨

٨٦- مرآة الزمان ج٢ ص٦٠٨ -٦٠٩

٨٧- مرآة الزمان ج٢ ص ٥٩٨- ٦٠٠- ٦١٠

٨٨- في مرآة الزمان ج٢ ص٦١٨ «ببسطها»

١٩- هو كتاب «مضمار الحقائق و سرّ الخلائق» عثر على قطعة منه و نشرت في القاهرة عام ١٩٦٨

٩٠- لم يصلنا ما بعد وفيات سنة ٦١٦ من كتاب التكملة لوفيات النقلة

٩١- مرآة الزمان ج٢ ص٦١١-٦١٢

٩٢- سورة التوبة -الآية :٣٤

٩٣- مرآة الزمان ج٢ ص ٦١٢-٦١٧.

٩٤ - ديوان أبي الفتح البستي - ط دمشق ١٩٨٩ ص ١٢٢ مع فوارق

٩٥- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٢٢ - ٦٢١

٩٦- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٢٤.

٩٧- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٢٤.

٩٨- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٢٥

٩٩- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٢٦-٦٢٧

١٠٠- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٣١- ٦٣٢

١٠١- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٣٢

١٠٢- استوفز في قعدته : انتصب فيها غير مطمئن. القاموس

١٠٣- سورة المطففين - الآيات : ١-٣

١٠٤- أي في موقع بناء مركز جامعة دمشق الآن

١٠٥- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٣٠- ٦٣١ .

١٠٦- سورة الاسراء الآية : ٨٢

١٠٧- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٢٧- ٦٣١.

١٠٨- جامع الحنابلة بصالحية دمشق ، حيث على المنبر اسم مظفر الدين كوكبري .

١٠٩- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٢٩ - ٦٣١

١١٠- سقطت ترجمة القادي من المطبوع من مرآة الزمان

١١١- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٣٤ - ٦٣٥

١١٣- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٣٨- ٦٣٩، و زاد :«و خلفه مائة ألف دينار ، و كل هذا لأجل المحراب ، لا يزاحمك عليه أحد ، و الله لا كلمتك أبدا»

١١٤- لا ترجمة له في المطبوع من مرآة الزمان

١١٥- لم ترد هذه الأبيات في ديوان البستي المطبوع .

١١٦- أشار سبط ابن الجوزي في المطبوع من مرآته إلى سفر خاله إلى مصر إلى الكامل ج٢ ص٦٣٩.

١١٧- مرآة الزمان ج ٢ ص٦٤٢ -٦٤٣٢.

١١٨- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٣٩- ٦٤٢ .

١١٩- مرآة الزمان ج٢ص٦٤٤.

١٢٠- في نواحي وادي بردى ، كانت قرب الفيجة . غوطة دمشق لكرد علي - ط. دمشق ١٩٨٤ص ٣٨١

١٢١- انظر الكامل لابن الأثير ج٩ ص ٣٨١

١٢٢- في مرآة الزمان ج٢ ص ٦٧٨: « و كانت وفاة العزيز يوم الاثنين عاشر رمضان ببستانه في الناعمة ببيت لهيا ، و حمل تابوته فدفن بقاسيون في تربة المعظم عند والدته و أهله »

١٢٣- جذوة المقتبس للحميدي - ط . القاهرة ١٣٧١ هـ ص ١٢٠- ١٢١ . كتاب الصلة لابن بشكوال - ط . القاهرة ١٩٥٥ ج ١ ص ٣٤٧ - ٣٤٨

١٢٤- سورة الماعون - الآية :٧

١٢٥- سجر موضع بالحجاز . معجم البلدان .

١٢٦- عثر على شاهد قبره مع بقايا قبرين فيما يعرف الآن بورشة الفسيفساء إلى الشمال من المسجد الجامع الأموي بدمشق .

١٢٧- من المرجح أن موقع الفسقار في سوق مدحت باشا اليوم عند جامع ابن هشام . انظر دمشق الشام لجان سوفاجية - ط. دمشق ١٩٨٩ ص ٤٨.

١٢٨ـ اسم لوادي قناه قرب أحد. المغانم المطابة للفيروز أبادي

١٢٩ـ سورة المرسلات ـ الآيات : ٣٢ـ٣٣

١٣٠ـ إلى الشرق من المدينة . المغانم المطابة

١٣١ـ الأنك ـ الرصاص ، فارس معرب

١٣٢ـ من قرى غوطة دمشق . غوطة دمشق لكرد علي ص ١٨٣.

١٣٣ـ هذا البيت من قصيدة قالها سبط ابن التعاويذي في هجاء الوز يرابن البلدي أيام الخليفة الناصر ، و لم يعش سبط ابن التعاويذي حتى سقوط بغداد فهو قد توفي سنة ٥٨٤.

انظر ديوانه ط . دار صاد بيروت ص ٤٧ـ ٤٨ . ووزير بغداد أيام سقوطها هو ابن العلقمي . انظر ذيل مرآة الزمان لليونيني ـ ط حيدر أباد ١٩٥٤ ج١ ص ٨٧ـ ٩٠

١٣٤ـ هو ابو حفص عمر بن موسى بن عمر الغزي الشافعي . انظر المدارس في بيت المقدس للدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي ـ . عمان ١٩٨١ ج١ ص٢١٤ـ ٢١٦

١٣٥ـ حرزما من قرى مرج غوطة دمشق شمال المجرى الرئيسي لنهر بردى ، على بعد٢ كم شمال بلدة النشابية ـ منطقة دوما ، محافظة ريف دمشق ، و إلى جانبها تل أثري يحمل الاسم نفسه . المعجم الجغرافي في القطر العربي السوري ج٣ ط . دمشق ١٩٩٢.

١٣٦ـ تبعا للمصادر الأرمنية شارك نحو خمسمائة أرمني إلى جانب المغول في معركة عين جالوت ، ثم قادوا فلول المغول شمالا عبر الطريق الساحلي نحو دولة أرمينية الصغرى في كليكية ، و هكذا لم يهرب المغول عبر البادية الشامية أو حلب و الجزيرة ، خشية الابادة .

١٣٧ـ أي إلى نحو درعا حاليا .

١٣٨ـ من قرى الغوطة الدائرة . غوطة دمشق لكرد علي ص١٦٩ـ ١٧٠ .

١٣٩ـ جرت العادة بين جند المماليك أن يسلم بعضهم على بعض بالمكارشة، أي بمس كرش واحد بالآخر ، و ليس بالمعانقة أو المصافحة .

١٤٠ـ كان قوبلاي في الصين ، أما عري بكو فهو أريق بوكا ، و هزم بركة خان جيوش هولاكو عند نهر ترك ، أما وفاة هولاكو فكانت عند شاطيء نهر جغاتو إلى الجنوب من بحيرة أرمية ، ووصف ياقوت هذه البحيرة بقوله : هي بحيرة مرة منتنة الرائحة لا يعيش فيها حيوان ولا سمك و لا غيره ، و في وسطها جبل يقال له كبوذان ، و جزيرة فيها أربع قرى أو نحو ذلك يسكنها ملاحو سفن هذا البحر ، و ربما زرعوا في الجزيرة زرعا ضعيفا ، و في جبلها قلعة حصينة مشهورة » . انظر المغول في التاريخ للدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد ط . القاهرة ١٩٦٠ ص ٢١٢ـ ٢١٤

١٤١ . البلاط قرية في الغوطة الشرقية ، تتبع ناحية المليحة ، منطقة و محافظة ريف دمشق . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .

١٤٢ـ فراغ بالأصل ، و لم أقف على ترجمة أخرى له في المصادر المعاصرة ، و أرجح أن المؤلف نفسه ترك هذا الفراغ ليستدركه و لم يستطع فيما بعد .

١٤٣ـ سورة القصص ـ الآية : ٣٥

١٤٤ـ هي بلدة أزرع في حوران سورية ، و تتبع اداريا محافظة درعا

-٩٤٦٠-

المحتوى